سلسلة نصوص تراثية للباحثين

(١٥٧٤)

الحكمة من
والحكمة في
مسائل وتعليل
من مصنفات التفسير

أكثر من ٢٤٠٠ مادة

د/ يوسف بن حمود الحوشان

١٤٤٦هـ

نسخة أولية من غير ترتيب او مراجعة

ومتاح لكل أحد الاستفادة منها

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله اما بعد

فهذه نصوص جمعت باستخدام برنامج شاملة وورد من برمجيات الدكتور سعود العقيل بواسطة المكتبة الشاملة

معتمدة على توظيف الكلمة المفتاحية وتوفير النصوص للباحثين لتحريرها والاستفادة منها وهي مشاعة لمن يستفيد منها

وسيتبعها نصوص أخرى يسر الله نشرها والله الموفق

يوسف بن حمود الحوشان

yhoshan@gmail.com

تليجرام https://t.me/dralhoshan

"(فادارئتم)

تدافعتم، أى دفع كل قبيل عن نفسه، وكان أصله تدارأتم فأدغمت التاء فى الدال، وجلبت لسكونها ألف الوصل، وأصل هذه الكلمة من الدرء وهو الاعوجاج. قال الهذلي:

٧٥ - تهال العقاب [أن] تمر بريده ... وترمى درره دونه بالأجادل

(فقلنا اضربوه ببعضها)

فيه حذف، وهو ليحيى فضرب فحيى، **والحكمة فيه** أن يكون الأمر فى." (١)

"قول[ه]: (ليس كمثله شيء).

والحكمة في المتشابه: البعث على النظر والبحث في علم القرآن؛ لئلا تهمل الأدلة العقلية.

(يرونهم مثليهم)

في قصة [بدر]، وكان المسلمون ثلاث مائة وبضعة عشر، والمشركون زهاء ألف، فأراهم الله في أعين المسلمين مثليهم، وقللهم لتثبيت قلوبهم.

والقنطار: من الدينا [ر] ألف ومائتا مثاقيل.." (٢)

"أي: زاد.

والحكمة في تكرير هذه القصص: أن المواعظ يجب تكريرها على الأسماع، لتقريرها في الطباع.

والثاني: أن فيه التحدي إلى الإتيان بمثله، ولو بترديد بعض هذه القصص.

والثالث: تسلية النبي، وتحسير الكافرين حالا بعد حال.

والرابع: أن العرب من شأنها أن تورد المعنى الواحد بالألفاظ المختلفة، وتجلو الأعراض المتفقة في المعارض المختلفة.

وبها فضلت على سائر الألسنة.

ألا ترى أن الشعراء كيف تداولوا نواظر الغزلان، وعيون [الجآذر]." (٣)

---

(١) باهر البرهان فى معانى مشكلات القرآن، النيسابوري، بيان الحق ٩٥/١

(٢) باهر البرهان فى معانى مشكلات القرآن، النيسابوري، بيان الحق ٢٧٨/١

(٣) باهر البرهان فى معانى مشكلات القرآن، النيسابوري، بيان الحق ١٠٧٩/٢

"وقال آخر:

نادوهم ألا الجموا ألا تا ... قالوا جميعا كلهم ألا فا

أراد: ألا تركبون، قالوا: ألا فاركبوا. وفي الحديث: (من أعان على قتل مسلم بشطر كلمة) قال شقيق: هو أن يقول في اقتل: اق، كما قال عليه السلام (كفى بالسيف شا) معناه: شافيا. وقال زيد بن أسلم: هي أسماء للسور. وقال الكلبي: هي أقسام أقسم الله تعالى بها لشرفها وفضلها، وهي من أسمائه، عن ابن عباس أيضا ورد بعض العلماء هذا القول فقال: لا يصح أن يكون قسما لأن القسم معقود على حروف مثل: إن وقد ولقد وما، ولم يوجد ها هنا حرف من هذه الحروف، فلا يجوز أن يكون يمينا. والجواب أن يقال: موضع القسم قوله تعالى:" لا ريب فيه" فلو أن إنسانا حلف فقال: والله هذا الكتاب لا ريب فيه، لكان الكلام سديدا، وتكون" لا" جواب القسم. فثبت أن قول الكلبي وما روي عن ابن عباس سديد صحيح. فإن قيل: ما **الحكمة في** القسم من الله تعالى، وكان القوم في ذلك الزمان على صنفين: مصدق، ومكذب، فالمصدق يصدق بغير قسم، والمكذب لا يصدق مع القسم؟. قيل له: القرآن نزل بلغة العرب، والعرب إذا أراد بعضهم أن يؤكد كلامه أقسم على كلامه، والله تعالى أراد أن يؤكد عليهم الحجة فأقسم أن القرآن من عنده. وقال بعضهم:" الم" أي أنزلت عليك هذا الكتاب من اللوح المحفوظ. وقال قتادة في قوله:" الم" قال اسم من أسماء القرآن. وروي عن محمد بن علي الترمذي أنه قال: إن الله تعالى أودع جميع ما في تلك السورة من الأحكام والقصص في الحروف التي ذكرها في أول السورة، ولا يعرف ذلك إلا نبي أو ولي، ثم بين ذلك في جميع السورة ليفقه الناس. وقيل غير هذا من الأقوال، فالله أعلم. والوقف على هذه الحروف على السكون لنقصانها إلا إذا أخبرت عنها أو عطفتها فإنك تعربها. واختلف: هل لها محل من الإعراب؟ فقيل: لا، لأنها ليست أسماء متمكنة، ولا أفعالا مضارعة، وإنما هي بمنزلة حروف التهجي فهي محكية. هذا مذهب الخليل وسيبويه.." (١)

"الأنباري. وقال قوم: (الحكيم) المانع من الفساد، ومنه سميت حكمة اللجام، لأنها تمنع الفرس من الجري والذهاب في غير قصد. قال جرير:

أبني حنيفة أحكموا سفهاءكم ... إني أخاف عليكم أن أغضبا

أي امنعوهم من الفساد. وقال زهير:

---

(١) تفسير القرطبي، شمس الدين القرطبي ١/١٥٦

القائد الخيل منكوبا دوابرها «١» ... قد أحكمت حكمات القد والأبقا

القد: الجلد. والأبق: القنب «٢». والعرب تقول: أحكم اليتيم عن كذا وكذا، يريدون منعه. والسورة المحكمة: الممنوعة من التغيير وكل التبديل، وأن يلحق بها ما يخرج عنها، ويزاد عليها ما ليس منها، والحكمة من هذا، لأنها تمنع صاحبها من الجهل. ويقال: أحكم الشيء إذا أتقنه ومنعه من الخروج عما يريد. فهو محكم وحكيم على التكثير.

[سورة البقرة (٢): آية ٣٣]

قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون (٣٣)

قوله تعالى: (قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم) فيه خمس مسائل: الأولى- قوله تعالى:" أنبئهم بأسمائهم" أمره الله أن يعلمهم بأسمائهم بعد أن عرضهم على الملائكة ليعلموا أنه أعلم بما سألهم عنه تنبيها على فضله وعلو شأنه، فكان أفضل منهم بأن قدمه عليهم وأسجدهم له وجعلهم تلامذته وأمرهم بأن يتعلموا منه. فحصلت له رتبة الجلال والعظمة بأن جعله مسجودا له، مختصا بالعلم. الثانية- في هذه الآية دليل على فضل العلم وأهله، وفي الحديث: (وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم) أي تخضع وتتواضع وإنما تفعل ذلك «٣» لأهل العلم خاصة

---

(١). النكب: أن ينكب الحجر ظفرا أو حافرا. والدوابر. أواخر الحوافر. يقول: يقود الخيل في الغزو ويبعد بها حتى تنكب دوابرها، أي تأكلها الأرض وتؤثر فيها.

(٢). القنب (بكسر القاف وضمها): ضرب من الكتان.

(٣). في نسخة من الأصل: (لأجل).." (١)

"الثالثة- استدل من فضل آدم وبنيه بقوله تعالى للملائكة:" اسجدوا لآدم". قالوا: وذلك يدل على أنه كان أفضل منهم. والجواب أن معنى" اسجدوا لآدم" اسجدوا لي مستقبلين وجه آدم. وهو كقوله تعالى:" أقم الصلاة لدلوك الشمس" [الاسراء: ٧٨] أي عند دلوك الشمس وكقوله:" ونفخت فيه من روحي فقعوا

---

(١) تفسير القرطبي، شمس الدين القرطبي ١/٢٨٨

له ساجدين" [ص: ٧٢] أي فقعوا لي عند إتمام خلقه ومواجهتكم إياه ساجدين. وقد بينا أن المسجود له لا يكون أفضل من الساجد بدليل القبلة. فإن قيل: فإذا لم يكن أفضل منهم فما الحكمة في الأمر بالسجود له؟ قيل له: إن الملائكة لما استعظموا بتسبيحهم وتقديسهم أمرهم بالسجود لغيره ليريهم استغناءه عنهم وعن عبادتهم. وقال بعضهم: عيروا آدم واستصغروه ولم يعرفوا خصائص الصنع به فأمروا بالسجود له تكريما. ويحتمل أن يكون الله تعالى أمرهم بالسجود له معاقبة لهم على قولهم:" أتجعل فيها من يفسد فيها" لما قال لهم:" إني جاعل في الأرض خليفة" [البقرة: ٣٠] وكان علم منهم أنه إن خاطبهم أنهم قائلون هذا، فقال لهم:" إني خالق بشرا من طين" [ص: ٧١] وجاعله خليفة، فإذا نفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين. والمعنى: ليكون ذلك عقوبة لكم في ذلك الوقت على ما أنتم قائلون لي الآن. فإن قيل: فقد استدل ابن عباس على فضل البشر بأن الله تعالى أقسم بحياة رسوله صلى الله عليه وسلم فقال:" لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون «١» " [الحجر: ٧٢]. وأمنه من العذاب بقوله:" ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر «٢» " [الفتح: ٢]. وقال للملائكة:" ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم «٣» " [الأنبياء: ٢٩]. قيل له: إنما لم يقسم بحياة الملائكة كما لم يقسم بحياة نفسه سبحانه، فلم يقل: لعمري. وأقسم بالسماء والأرض، ولم يدل على أنهما أرفع قدرا من العرش والجنان السبع. وأقسم بالتين والزيتون. وأما قول سبحانه:" ومن يقل منهم إني إله من دونه" [الأنبياء: ٢٩] فهو نظير قوله لنبيه عليه السلام:" لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين" [الزمر: ٦٥] فليس فيه إذا دلالة، والله أعلم.

---

(١). راجع ج ١٠ ص ٣٩.

(٢). راجع ج ١٦ ص ٦٢.

(٣). راجع ج ١١ ص ٢٨٢." (١)

"نفسه على كثير من الحيوان فلم يدخله إلا الحية، فلما دخلت به الجنة خرج من جوفها إبليس فأخذ من الشجرة التي نهى الله آدم وزوجه عنها فجاء بها إلى حواء فقال: انظري إلى هذه الشجرة، ما أطيب ريحها وأطيب طعمها وأحسن لونها! فلم يزل يغويها حتى أخذتها حواء فأكلتها. ثم أغوى آدم، وقالت له حواء: كل فإني قد أكلت فلم يضرني، فأكل منها فبدت لهما سوآتهما وحصلا في حكم الذنب،

---

(١) تفسير القرطبي، شمس الدين القرطبي ١/٢٩٢

فدخل آدم في جوف الشجرة، فناداه ربه: أين أنت؟ فقال: أنا هذا يا رب، قال: ألا تخرج؟ قال أستحي منك يا رب، قال: اهبط إلى الأرض التي خلقت منها. ولعنت الحية وردت قوائمها في جوفها وجعلت العداوة بينها وبين بني آدم، ولذلك أمرنا بقتلها، على ما يأتي بيانه. وقيل لحواء: كما أدميت الشجرة فكذلك يصيبك الدم كل شهر وتحملين وتضعين كرها تشرفين به على الموت مرارا. زاد الطبري والنقاش: وتكوني سفيهة وقد كنت حليمة. وقالت طائفة: إن إبليس لم يدخل الجنة إلى آدم بعد ما أخرج منها وإنما أغوى بشيطانه وسلطانه ووسواسه التي أعطاه الله تعالى، كما قال صلى الله عليه وسلم: (إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم). والله أعلم. وسيأتي في الأعراف «١» أنه لما أكل بقي عريانا وطلب ما يستتر به فتباعدت عنه الأشجار وبكتوه بالمعصية، فرحمته شجرة التين، فأخذ من ورقه فاستتر به، فبلي بالعري دون الشجر. والله أعلم. وقيل: إن **الحكمة في** إخراج آدم من الجنة عمارة الدنيا. الثالثة: يذكر أن الحية كانت خادم آدم عليه السلام في الجنة فخانته بأن مكنت عدو الله من نفسها وأظهرت العداوة له هناك، فلما أهبطوا تأكدت العداوة وجعل رزقها التراب، وقيل لها: أنت عدو بني آدم وهم أعداؤك وحيث لقيك منهم أحد شدخ رأسك. روى ابن عمر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (خمس يقتلهن المحرم) فذكر الحية فيهن. وروي أن إبليس قال لها: أدخليني الجنة وأنت في ذمتي، فكان ابن عباس يقول: أخفروا «٢» ذمة إبليس. وروت ساكنة بنت الجعد عن سراء «٣» بنت نبهان الغنوية قالت: سمعت

(١). راجع ج ٧ ص ١٨١.

(٢). أي انقضوا عهده وذمامه.

(٣). في التقريب: (بفتح أولها وتشديد الراء المهملة مع المد). وفي أسد الغابة: (بفتح السين وإمالة الراء المشددة، وآخره ياء ساكنة).." (١)

"عبد الرحمن بن عثمان بن عبيد الله التيمي فقال مثل ذلك. فلما بلغ ذلك الوليد أنصفه. قال العلماء: فهذا الحلف الذي كان في الجاهلية هو الذي شده الإسلام وخصه النبي عليه الصلاة والسلام من عموم قوله:" لا حلف في الإسلام". **والحكمة في** ذلك أن الشرع جاء بالانتصار من الظالم وأخذ الحق منه وإيصاله إلى المظلوم، وأوجب ذلك بأصل الشريعة إيجابا عاما على من قدر من المكلفين، وجعل لهم

(١) تفسير القرطبي، شمس الدين القرطبي ٣١٣/١

السبيل على الظالمين فقال تعالى:" إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم «١» ". وفى الصحيح (من قوله «٢»:" انصر أخاك ظالما أو مظلوما" قالوا: يا رسول الله، هذا ننصره مظلوما فكيف ننصره ظالما؟ قال:" تأخذ على يديه- في رواية: تمنعه من الظلم- فإن ذلك نصره". وقد تقدم قوله عليه السلام:" إن الناس إذا رأوا الظالم ولم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده". الثانية- قوله تعالى: (ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها) يقول بعد تشديدها وتغليظها، يقال: توكيد وتأكيد، ووكد وأكد، وهما لغتان. الثالثة- قوله تعالى: (وقد جعلتم الله عليكم كفيلا) يعني شهيدا. ويقال: حافظا، ويقال: ضامنا. وإنما قال" بعد توكيدها" فرقا بين اليمين المؤكدة بالعزم وبين لغو اليمين. وقال ابن وهب وابن القاسم عن مالك التوكيد هو حلف الإنسان في الشيء الواحد مرارا، يردد فيه الأيمان ثلاثا أو أكثر من ذلك، كقوله: والله لا أنقصه من كذا، والله لا أنقصه من كذا، والله لا أنقصه من كذا. قال: فكفارة ذلك واحدة مثل كفارة اليمين. وقال يحيى بن سعيد: هي العهود، والعهد يمين، ولكن الفرق بينهما أن العهد لا يكفر. قال النبي صلى الله عليه وسلم:" ينصب لكل غادر لواء يوم القيامة عند استه بقدر غدرته يقال هذه غدرة فلان". وأما اليمين بالله فقد شرع الله سبحانه فيها الكفارة بخصلة واحدة، وحل ما انعقدت عليه اليمين. وقال ابن عمر: التوكيد هو أن يحلف مرتين، فإن حلف واحدة فلا كفارة فيه. وقد تقدم في المائدة «٣».

---

(١). راجع ج ١٦ ص ٤٤.

(٢). من و.

(٣). راجع ج ٦ ص ٣٦٤.." (١)

"كما أخبر عن نفسه بلا كيف. وليس إقعاده محمدا على العرش موجبا له صفة الربوبية أو مخرجا له عن صفة العبودية، بل هو رفع لمحله وتشريف له على خلقه. وأما قوله في الإخبار:" معه" فهو بمنزلة قوله:" إن الذين عند ربك «١» "، و" رب ابن لي عندك بيتا في الجنة «٢» "." وإن الله لمع المحسنين «٣» " ونحو ذلك. كل ذلك عائد إلى الرتبة والمنزلة والحظوة والدرجة الرفيعة، لا إلى المكان. الرابع- إخراجه من النار بشفاعته من يخرج، قاله جابر بن عبد الله. ذكره مسلم. وقد ذكرناه في (كتاب التذكرة)

---

(١) تفسير القرطبي، شمس الدين القرطبي ١٠/١٧٠

واالله الموفق. السادسة- اختلف العلماء في كون القيام بالليل سببا للمقام المحمود على قولين: أحدهما: أن البارئ تعالى يجعل ما شاء من فعله سببا لفضله من غير معرفة بوجه **الحكمة فيه**، أو بمعرفة وجه الحكمة. الثاني: أن قيام الليل فيه الخلوة مع البارئ والمناجاة دون الناس، فأعطي الخلوة به ومناجاته في قيامه وهو المقام المحمود. ويتفاضل فيه الخلق بحسب درجاتهم، فأجلهم فيه درجة محمد صلى الله عليه وسلم، فإنه يعطى ما لا يعطى أحد ويشفع ما لا يشفع أحد. و" عسى " من الله عز وجل واجبة. و" مقاما" نصب على الظرف. أي في مقام أو إلى مقام. وذكر الطبري عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:" المقام المحمود هو المقام الذي أشفع فيه لأمتي". فالمقام الموضع الذي يقوم فيه الإنسان للأمور الجليلة كالمقامات بين يدي الملوك.

[سورة الإسراء (١٧): آية ٨٠]

وقل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطانا نصيرا (٨٠)

قيل: المعنى أمتني إماتة صدق، وابعثني يوم القيامة مبعث صدق، ليتصل بقوله:" عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا". كأنه لما وعده ذلك أمره أن يدعو لينجز له

---

(١). راجع ج ٧ ص ٣٥٦.

(٢). راجع ج ٨ ص ٢٠٢.

(٣). راجع ج ١٣ ص." (١)

"قوله تعالى: (قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا) [فيه مسألتان]: الاولى قوله تعالى:" قال له موسى هل أتبعك" هذا سؤال الملاطف، والمخاطب المستنزل «١» المبالغ في حسن الأدب، المعنى: هل يتفق لك ويخف عليك؟ وهذا كما في الحديث: هل تستطيع أن تريني كيف كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتوضأ؟ وعلى بعض التأويلات يجئ كذلك قوله تعالى:" هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء" [المائدة: ١١٢] حسب ما تقدم بيانه في" المائدة" «٢». الثانية- في هذه الآية دليل على أن المتعلم تبع للعالم وإن تفاوتت المراتب، ولا يظن أن في تعلم موسى من الخضر

---

(١) تفسير القرطبي، شمس الدين القرطبي ٣١٢/١٠

ما يدل على أن الخضر كان أفضل منه، فقد يشذ عن الفاضل ما يعلمه المفضول، والفضل لمن فضله الله، فالخضر إن كان وليا فموسى أفضل منه، لأنه نبي والنبي أفضل من الولي، وإن كان نبيا فموسى فضله بالرسالة. والله أعلم. و" رشدا" مفعول ثان ب"- تعلمن". (قال) الخضر: (إنك لن تستطيع معي صبرا) أي إنك يا موسى لا تطيق أن تصبر على ما تراه من علمي، لأن الظواهر التي هي علمك لا تعطيه، وكيف تصبر على ما تراه خطأ ولم تخبر بوجه الحكمة فيه، ولا طريق الصواب. وهي معنى قوله: (وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا) والأنبياء لا يقرون على منكر، لا يجوز لهم التقرير. أي لا يسعك السكوت جريا على عادتك وحكمك. وانتصب" خبرا" على التمييز المنقول عن الفاعل. وقيل: على المصدر الملاقى في المعنى، لأن قوله:" لم تحط". معناه لم تخبره، فكأنه قال: لم تخبره خبرا، وإليه أشار مجاهد. والخبير بالأمور هو العالم بخفاياها وبما يختبر منها. قوله تعالى: (قال ستجدني إن شاء الله صابرا) أي سأصبر بمشيئة الله. (ولا أعصي لك أمرا) أي قد ألزمت نفسي طاعتك وقد اختلف في الاستثناء، هل هو يشمل قوله:" ولا أعصي لك أمرا" أم لا؟ فقيل: يشمله كقوله:" والذاكرين الله كثيرا والذاكرات" «٣» [الأحزاب: ٣٥]. وقيل: استثنى في الصبر فصبر، وما استثنى في قوله:" ولا أعصي لك أمرا" فاعترض

---

(١). في ك: المشترك.

(٢). راجع ج ٦ ص ٣٦٥.

(٣). راجع ج ١٤ ص ١٨٥.." (١)

"شيئا، إلا أنه أفسد إسناده. ورواه عبد الرزاق عن معمر عن الزهري عن حرام بن محيصة عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم، ولم يتابع «١» عبد الرزاق على ذلك وأنكروا عليه قوله عن أبيه. ورواه ابن جريج عن ابن شهاب قال: حدثني أبو أمامة بن سهل بن حنيف أن ناقة دخلت في حائط قوم فأفسدت، فجعل الحديث لابن شهاب عن أبي أمامة، ولم يذكر أن الناقة كانت للبراء. وجائز أن يكون الحديث عن ابن شهاب عن ابن محيصة، وعن سعيد ابن المسيب، وعن أبي أمامة- والله أعلم- فحدث به عمن شاء منهم على ما حضره وكلهم ثقات. قال أبو عمر: وهذا الحديث وإن كان مرسلا فهو حديث مشهور أرسله الأئمة، وحدث به الثقات، واستعمله فقهاء الحجاز وتلقوه بالقبول، وجرى في المدينة العمل به، وحسبك

---

(١) تفسير القرطبي، شمس الدين القرطبي ١١/١٧

باستعمال أهل المدينة وسائر أهل الحجاز لهذا الحديث. الرابعة عشرة- ذهب مالك وجمهور الأئمة إلى القول بحديث البراء، وذهب أبو حنيفة وأصحابه وجماعة من الكوفيين إلى أن هذا الحكم منسوخ، وأن البهائم إذا أفسدت زرعا في ليل أو نهار أنه لا يلزم صاحبها شي وأدخل فسادها في عموم قوله صلى الله عليه وسلم: (جرح العجماء جبار) فقاس جميع أعمالها على جرحها. ويقال: إنه ما تقدم أبا حنيفة أحد بهذا القول، ولا حجة له ولا لمن اتبعه في حديث العجماء، وكونه ناسخا لحديث البراء ومعارضا له، فإن النسخ شروطه معدومة، والتعاوض إنما يصح إذا لم يمكن استعماله أحدهما إلا بنفي الآخر، وحديث (العجماء جرحها جبار) عموم متفق عليه، ثم خص منه الزرع والحوائط بحديث البراء، لأن النبي صلى الله عليه وسلم لو جاء عنه في حديث واحد: العجماء جرحها جبار نهارا لا ليلا وفي الزرع والحوائط والحرث، لم يكن هذا مستحيلا من القول، فكيف يجوز أن يقال في هذا متعارض؟! وإنما هذا من باب العموم والخصوص على ما هو مذكور في الأصول. الخامسة عشرة- إن قيل: ما الحكمة في تفريق الشارع بين الليل والنهار، وقد قال الليث بن سعد: يضمن أرباب المواشي بالليل والنهار كل ما أفسدت، ولا يضمن أكثر من قيمة الماشية؟ قلنا: الفرق بينهما واضح وذلك أن أهل المواشي لهم ضرورة إلى إرسال

---

(١). في ز: لم ينازع.." (١)

"قد أضاف إليه الخلقة الحقيقية، وقطع عنها نسب جميع الخليقة فقال:" ولقد خلقناكم ثم صورناكم" «١» [الأعراف: ١١]. وقال:" ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين. ثم جعلناه نطفة في قرار «٢» مكين" [المؤمنون: ١٣ - ١٢]. وقال:" يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة". وقال تعالى:" هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن" «٣» [التغابن: ٢]. ثم قال:" وصوركم فأحسن صوركم" «٤». [غافر: ٦٤]. وقال:" لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم" «٥» [التين: ٤]. وقال:" خلق الإنسان من علق". [العلق: ٢]. إلى غير ذلك من الآيات، مع ما دلت عليه قاطعات البراهين أن لا خالق لشيء من المخلوقات إلا رب العالمين. وهكذا القول في قول:" ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح" أي أن النفخ سبب خلق الله فيها الروح والحياة. وكذلك القول في سائر الأسباب المعتادة، فإنه بإحداث الله تعالى لا بغيره. فتأمل هذا الأصل وتمسك به، ففيه النجاة من مذاهب أهل الضلال الطبيعيين

---

(١) تفسير القرطبي، شمس الدين القرطبي ١١/٣١٥

«٦» وغيرهم. الرابعة- لم يختلف العلماء أن نفخ الروح فيه يكون بعد مائة وعشرين يوما، وذلك تمام أربعة أشهر ودخوله في الخامس، كما بيناه بالأحاديث. وعليه يعول فيما يحتاج إليه مِن الأحكام في الاستلحاق عند التنازع، وفي وجوب النفقات على حمل المطلقات، وذلك لتيقنه بحركة الجنين في الجوف. وقد قيل: إنه الحكمة في عدة المرأة من الوفاة بأربعة أشهر وعشر، وهذا الدخول في الخامس يحقق براءة الرحم ببلوغ هذه المدة إذا لم يظهر حمل. الخامسة- النطفة ليست بشيء يقينا، ولا يتعلق بها حكم إذا ألقتها المرأة إذا لم تجتمع في الرحم، فهي كما لو كانت في صلب الرجل، فإذا طرحته علقة فقد تحققنا أن النطفة قد استقرت واجتمعت واستحالت إلى أول أحوال يتحقق به أنه ولدٌ. وعلى هذا فيكون وضع العلقة فما فوقها من المضغة وضع حمل، تبرأ به الرحم، وتنقضي به العدة، ويثبت به لها حكم أم الولد. وهذا مذهب مالك رضي الله عنه وأصحابه. وقال الشافعي رضي الله عنه:

---

(١). راجع ج ٧ ص ١٦٨. [.....]

(٢). راجع ص ١٠٨ فما بعد من هذا الجزء.

(٣). راجع ج ١٨ ص ١٣٢.

(٤). راجع ج ١٥ ص ٣٢٦.

(٥). راجع ج ٢٠ ص ١١٣ فما بعد. وص ١١٩.

(٦). في الأصول: الطبائع.." [١]

"طاعة الله تعالى، إما في هذيان وإما في أذائه. وكان الأعمش يقول: إذا رأيت الشيخ ولم يكتب الحديث فاصفعه فإنه من شيوخ القمر، يعني يجتمعون في ليالي القمر فيتحدثون بأيام الخلفاء والأمراء ولا يحسن أحدهم يتوضأ للصلاة. الثالثة- روى مسلم عن أبي برزة قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم يؤخر العشاء إلى ثلث الليل ويكره النوم قبلها والحديث بعدها. قال العلماء: أما الكراهية للنوم قبلها فلئلا يعرضها للفوات عن كل وقتها أو أفضل وقتها، ولهذا قال عمر: فمن نام فلا نامت عينه، ثلاثا. وممن كره النوم قبلها عمر وابنه عبد الله وابن عباس وغيرهم، وهو مذهب مالك. ورخص فيه بعضهم، منه علي وأبو موسى وغيرهم، وهو مذهب الكوفيين. وشرط بعضهم أن يجعل معه من يوقظه للصلاة. وروي عن ابن عمر

---

(١) تفسير القرطبي، شمس الدين القرطبي ١٢/٨

مثله وإليه ذهب الطحاوي. وأما كراهية الحديث بعدها فلأن الصلاة قد كفرت خطاياه فينام على سلامة، وقد ختم الكتاب صحيفته بالعبادة، فإن هو سمر وتحدث فيملؤها بالهوس ويجعل خاتمتها اللغو والباطل، وليس هذا من فعل المؤمنين. وأيضا فإن السمر في الحديث مظنة غلبة النوم آخر الليل فيؚنام عن قيام آخر الليل، وربما ينام عن صلاة الصبح. وقد قيل: إنما يكره السمر بعدها لما روى جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إياكم والسمر بعد هدأة الرجل فإن أحدكم لا يدري ما يبث الله تعالى من خلقه أغلقوا الأبواب وأوكوا السقاء وخمروا الإناء وأطفئوا المصابيح (. وروي عن عمر أنه كان يضرب الناس على الحديث بعد العشاء، ويقول: أسمرا أول الليل ونوما آخره! أريحوا كتابكم. حتى أنه روي عن ابن عمر أنه قال: من قرض بيت شعر بعد العشاء لم تقبل له صلاة حتى يصبحؚ. وأسنده شداد بن أوس إلى النبي صلى الله عليه وسلم. وقد قيل: إن **الحكمة في** كراهية الحديث بعدها إنما هو لما أن الله تعالى جعل الليل سكنا، أي يسكن فيه، فإذا تحدث الإنسان فيه فقد جعله في النهار الذي هو متصرف المعاش، فكأنه قصد إلى مخالفة حكمة الله تعالى التي أجرى عليها وجوده فقال:" وهو الذي جعل لكم الليل لباسا والنوم سباتا وجعل النهار نشورا" «١» [الفرقان: ٤٧].

---

(١). راجع ج ١٣ ص ٣٨.." (١)

"وقال عليه السلام: (لولا الأيمان لكان لي ولها شأن). وأما ما احتج به الثوري وأبو حنيفة فهي حجج لا تقوم على ساق، منها حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عبد الله بن عمرو قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أربعة ليس بينهم لعان ليس بين الحر والأمة لعان وليس بين الحرة والعبد لعان وليس بين المسلم واليهودية لعان وليس بين المسلم والنصرانية لعان (. أخرجه الدارقطني من طرق ضعفها كلها. وروي عن الأوزاعي وابن جريج وهما إمامان عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قوله، ولؚم يرفعه «١» إلى النبي صلى الله عليه وسلم. واحتجوا من جهة النظر أن الأزواج لما استثنوا من جملة الشهداء بقوله:" ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم" وجب ألا يلاعن إلا من تجوز شهادته. وأيضا فلو كانت يمينا ما رددت، **والحكمة في** ترديدها قيامها في الاعداد مقام الشهود في الزنى. قلنا: هذا يبطل بيمين القسامة فإنها تكرر وليست بشهادة إجماعا، **والحكمة في** تكرارها التغليظ في الفروج والدماء. قال ابن

---

(١) تفسير القرطبي، شمس الدين القرطبي ١٣٨/١٢

العربي: والفيصل في أنها يمين لا شهادة أن الزوج يحلف لنفسه في إثبات دعواه وتخليصه من العذاب، وكيف يجوز لأحد أن يدعي في الشريعة أن شاهدا يشهد لنفسه بما يوجب حكما على غيره هذا بعيد في الأصل معدوم في النظر. السادسة- واختلف العلماء في ملاعنة الأخرس، فقال مالك والشافعي: يلاعن، لأنه ممن يصح طلاقه وظهاره وإيلاؤه، إذا فهم ذلك عنه. وقال أبو حنيفة: لا يلاعن، لأنه ليس من أهل الشهادة، ولأنه قد ينطق بلسانه فينكر اللعان، فلا يمكننا إقامة الحد عليه. وقد تقدم هذا المعنى في سورة" مريم" «٢» والدليل عليه، والحمد لله. السابعة- قال ابن العربي: رأى أبو حنيفة عموم الآية فقال: إن الرجل إذا قذف زوجته بالزنى قبل أن يتزوجها فإنه يلاعن، ونسي أن ذلك قد تضمنه قوله تعالى:" والذين يرمون المحصنات" وهذا رماها محصنة غير زوجة، وإنما يكون اللعان في قذف يلحق فيه النسب، وهذا قذف لا يلحق فيه نسب فلا يوجب لعانا، كما لو قذف أجنبية.

---

(١). في سنن الدارقطني:" يرفعاه".

(٢). راجع ج ١١ ص ١٠١.." [(١)]

"يوم القيامة متعلقا به يقول يا رب العالمين إن عبدك هذا اتخذني مهجورا فاقض بيني وبينه". ذكره الثعلبي. (وكفى بربك هاديا ونصيرا) نصب على الحال أو التمييز، أي يهديك وينصرك فلا تبال بمن عاداك. وقال ابن عباس: عدو النبي صلى الله عليه وسلم أبو جهل لعنه الله.

[سورة الفرقان (٢٥): الآيات ٣٢ الى ٣٣]

وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا (٣٢) ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا (٣٣)

قوله تعالى: (وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة) اختلف في قائل ذلك على قولين: أحدهما- أنهم كفار قريش، قاله ابن عباس. والثاني- أنهم اليهود حين رأوا نزول القرآن مفرقا قالوا: هلا أنزل عليه جملة واحدة كما أنزلت التوراة على موسى والإنجيل على عيسى والزبور" على داود" «١». فقال الله تعالى:" كذلك" أي فعلنا" لنثبت به فؤادك" نقوي به قلبك فتعيه وتحمله، لأن الكتب المتقدمة أنزلت

---

(١) تفسير القرطبي، شمس الدين القرطبي ١٢/١٨٧

على أنبياء يكتبون ويقرءون، والقرآن أنزل على نبي أمي، ولأن من القرآن الناسخ والمنسوخ، ومنه ما هو جواب لمن سأل عن أمور، ففرقناه ليكون أوعى للنبي صلى الله عليه وسلم، وأيسر على العامل به، فكان كلما نزل وحي جديد زاده قوة قلب. قلت: فإن قيل هلا أنزل القرآن دفعة واحدة وحفظه إذا كان ذلك في قدرته؟. قيل: في قدرة الله أن يعلمه الكتاب والقرآن في لحظة واحدة، ولكنه لم يفعل ولا معترض عليه في حكمه، وقد بينا وجه **الحكمة في** ذلك. وقد قيل: إن قوله"كذلك" من كلام المشركين، أي لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك، أي كالتوراة والإنجيل، فيتم الوقف على"كذلك" ثم يبتدئ" لنثبت به فؤادك". ويجوز أن يكون الوقف على قوله:" جملة واحدةٍ" ثم يبتدئ"كذلك لنثبت به فؤادك" على معنى أنزلناه عليك كذلك متفرقا لنثبت به فؤادك. قال

---

(١). زيادة يقتضيها المقام.." (١)

"قلت: فهذه أربع مسائل تضمنتها المسألة الحادية عشرة. الاولى من الأربع مسائل، قال علماؤنا: أما التعيين فيشبه أنه كان في ثاني حال المراوضة، وإنما عرض الأمر مجملا، وعين بعد ذلك وقد قيل: إنه زوجه صفوريا وهي الصغرى. يروى عن أبي ذر قال قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن سئلت أي الأجلين قضى موسى فقل خيرهما وأوفاهما وإن سئلت أي المرأتين تزوج فقل الصغرى وهي التي جاءت خلفه وهي التي قالت:" يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين". قيل: إن **الحكمة في** تزويجه الصغرى منهٌ قبل الكبرى وإن كانت الكبرى أحوج إلى الرجال أنه توقع أن يميل إليها، لأنه رءاها في رسالته، وماشاها في إقباله إلى أبيها معها، فلو عرض عليه الكبرى ربما أظهر له الاختيار وهو يضمر غيره وقيل غير هذا، والله أعلم. وفي بعض الأخبار أنه تزوج بالكبرى حكاه القشيري. الثانية- وأما ذكر أول المدة فليس في الآية ما يقتضي إسقاطه بل هو مسكوت عنه، فإما رسماه، وإلا فهو من أول وقت العقد. الثالثة- وأما النكاح بالإجارة فظاهر من الآية، وهو أمر قد قرره شرعنا، وجرى في حديث الذي لم يكن عنده إلا شي من القرآن، رواه الأئمة، وفي بعض طرقه: فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم:" ما تحفظ من القرآن" فقال: سورة البقرة والتي تليها، قال:" فعلمها عشرين آية وهي امرأتك". واختلف العلماء في هذه المسألة على ثلاثة أقوال: فكرهه مالك، ومنعه ابن القاسم، وأجازه ابن حبيب، وهو قول الشافعي

---

(١) تفسير القرطبي، شمس الدين القرطبي ٢٨/١٣

وأصحابه، قالوا: يجوز أن تكون منفعة الحر صداقا كالخياطة والبناء وتعليم القرآن وقال أبو حنيفة: لا يصح، وجوز أن يتزوجها بأن يخدمها عبده سنة، أو يسكنها داره سنة، لأن العبد والدار مال، وليس خدمتها بن◌فسه مالا وقال أبو الحسن الكرخي: إن عقد النكاح بلفظ الإجارة جائز، لقوله تعالى:" فآتوهن أجورهن". وقال أبو بكر الرازي: لا يصح لأن الإجارة عقد مؤقت، وعقد النكاح مؤبد، فهما متنافيان وقال ابن القاسم: ينفسخ قبل البناء ويثبت بعده.." (١)

"قوله تعالى: (وربك يخلق ما يشاء ويختار) هذا متصل بذكر الشركاء اعبدوهم واختاروهم للشفاعة، أي الاختيار إلى الله تعالى في الشفعاء لا إلى المشركين. وقيل هو جواب الوليد بن المغيرة حين قال:" لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم" يعني نفسه زعم، وعروة بن مسعود الثقفي من الطائف. وقيل: هو جواب اليهود إذ قالوا لو كان الرسول إلى محمد غير جبريل لآمنا به. قال ابن عباس: والمعنى، وربك يخلق ما يشاء من خلقه ويختار منهم من يشاء لطاعته. وقال يحيى بن سلام: والمعنى، وربك يخلق ما يشاء من خلقه ويختار من يشاء لنبوته. وحكى النقاش: أن المعنى وربك يخلق ما يشاء من خلقه يعني محمدا صلى الله عليه وسلم، ويختار الأنصار لدينه. قلت: وفي كتاب البزار مرفوعا صحيحا عن جابر" إن الله تعالى اختار أصحابي على العالمين سوى النبيين والمرسلين واختار لي من أصحابي أربعة- يعني أبا بكر وعمر وعثمان وعليا- فجعلهم أصحابي وفي أصحابي كلهم خير واختار أمتي على سائر الأمم واختار لي من أمتي أربعة قرون". وذكر سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار عن وهب بن منبه عن أبيه في قوله عز وجل:" وربك يخلق ما يشاء ويختار" قال◌ من النعم الضأن، ومن الطير الحمام. والوقف التام" ويختار". وقال علي بن سليمان: هذا وقف التمام ولا يجوز أن تكون" ما" في موضع نصب ب" يختار" لأنها لو كانت في موضع نصب لم يعد عليها شي. قال وفي هذا رد على القدرية. قال النحاس: التمام" ويختار" أي ويختار الرسل. (ما كان لهم الخيرة) أي ليس يرسل من اختاروه هم. قال أبو إسحاق:" ويختار" هذا الوقف التام المختار، ويجوز أن تكون" ما" في موضع نصب ب" يختار" ويكون المعنى ويختار الذي كان لهم فيه الخيرة. قال القشيري: الصحيح الأول لإطباقهم [على] الوقف على قوله" ويختار". قال المهدوي: وهو أشبه بمذهب أهل السنة و" ما" من قوله:" ما كان لهم الخيرة" نفي عام لجميع الأشياء أن يكون للعبد فيها شي سوى اكتسابه بقدرة الله عز وجل. الزمخشري:" ما كان لهم الخيرة" بيان لقوله:" ويختار"

---

(١) تفسير القرطبي، شمس الدين القرطبي ٢٧٣/١٣

لأن معناه يختار ما يشاء، ولهذا لم يدخل العاطف، والمعنى، وإن الخيرة الله تعالى في أفعاله وهو أعلم بوجوده **الحكمة فيها** أي ليس لأحد." (١)

"قتال الكفار فقط بل هو نصر الدين، والرد على المبطلين، وقمع الظالمين، وعظمه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومنه مجاهدة النفوس في طاعة الله وهو الجهاد الأكبر. وقال سفيان بن عيينة لابن المبارك: إذا رأيت الناس قد اختلفوا فعليك بالمجاهدين وأهل الثغور فإن الله تعالى يقول:" لنهدينهم" وقال الضحاك: معنى الآية، والذين جاهدوا في الهجرة لنهدينهم سبل الثبات على الإيمان. ثم قال: مثل السنة في الدنيا كمثل الجنة في العقبى، من دخل الجنة في العقبى سلم، كذلك من لزم السنة في الدنيا سلم. وقال عبد الله بن عباس: والذين جاهدوا في طاعتنا لنهدينهم سبل ثوابنا. وهذا يتناول بعموم الطاعة جميع الأقوال. ونحوه قول عبد الله بن الزبير قال: تقول **الحكمة من** طلبني فلم يجدني فليطلبني في موضعين: أن يعمل بأحسن ما يعلمه، ويجتنب أسوأ ما يعلمه. وقال الحسن بن الفضل: فيه تقديم وتأخير أي الذين هديناهم هم الذين جاهدوا فينا" لنهدينهم سبلنا" أي طريق الجنة، قاله السدي. النقاش: يوفقهم لدين الحق. وقال يوسف بن أسباط: المعنى لنخلصن نياتهم وصدقاتهم وصلواتهم وصيامهم. (وإن الله لمع المحسنين) لام تأكيد ودخلت في" مع" على أحد وجهين: أن يكون اسما ولام التوكيد إنما تدخل على الأسماء، أو حرفا فتدخل عليها، لأن فيها معنى الاستقرار، كما تقول إن زيدا لفي الدار. و" مع" إذا سكنت فهي حرف لا غير. وإذا فتحت جاز أن تكون اسما وأن تكون حرفا. والأكثر أن تكون حرفا جاء لمعنى. وتقدم معنى الإحسان والمحسنين في" البقرة" وغيرها. وهو سبحانه معهم بالنصرة والمعونة، والحفظ والهداية، ومع الجميع بالإحاطة والقدرة. فبين المعينين بون. تمت سورة العنكبوت، والحمد لله وحده تم بعون الله تعالى الجزء الثالث عشر من تفسير القرطبي يتلوه إن شاء الله تعالى الجزء الرابع عشر وأوله سورة الروم"." (٢)

"" والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا" «١» ومن لم يهاجر لم يكمل، ومن لم يكمل لم يصلح للنبي صلى الله عليه وسلم الذي كمل وشرف وعظم، صلى الله عليه وسلم. السادسة- قوله تعالى:" معك" المعية هنا الاشتراك في الهجرة لا في الصحبة فيها، فمن هاجر حل له،

---

(١) تفسير القرطبي، شمس الدين القرطبي ٣٠٥/١٣

(٢) تفسير القرطبي، شمس الدين القرطبي ٣٦٥/١٣

كان في صحبته إذ هاجر أو لم يكن. يقال: دخل فلان معي وخرج معي، أي كان عمله كعملي وإن لم يقترن فيه عملكما. ولو قلت: خرجنا معا لاقتضى ذلك المعنيين جميعا: الاشتراك في الفعل، والاقتران [فيه]. السابعة- ذكر الله تبارك وتعالى العم فردا والعمات جمعا. وكذلك قال: (خالك)، و (خالاتك) والحكمة في ذلك: أن العم والخال في الإطلاق اسم جنس كالشاعر والراجز وليس كذلك العمة والخالة. وهذا عرف لغوي فجاء الكلام عليه بغاية البيان لرفع الإشكال وهذا دقيق فتأملوه قاله ابن العربي. الثامنة- قوله تعالى: (وامرأة مؤمنة) عطف على" أحللنا". المعنى وأحللنا لك امرأة تهب نفسها من غير صداق. وقد اختلف في هذا المعنى، فروي عن ابن عباس أنه قال: لم تكن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم امرأة إلا بعقد نكاح أو ملك يمين. فأما الهبة فلم يكن عنده منهن أحد. وقال قوم: كانت عنده موهوبة. قلت: والذي في الصحيحين يقوي هذا القول ويعضده، روى مسلم عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: كنت أغار على اللاتي وهبن أنفسهن لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأقول: أما تستحي امرأة تهب نفسها لرجل! حتى أنزل الله تعالى" ترجي من تشاء منهن وتؤوي إليك من تشاء" [الأحزاب: ٥١] فقلت: والله ما أرى ربك إلا يسارع في هواك. وروى البخاري عن عائشة أنها قالت: كانت خولة بنت حكيم من اللائي وهبن أنفسهن لرسول الله صلى الله عليه وسلم. فدل هذا على أنهن كن غير واحدة. والله تعالى أعلم. الزمخشري: وقيل الموهبات أربع: ميمونة بنت الحارث، وزينب بنت خزيمة أم المساكين الأنصارية، وأم شريك بنت جابر، وخولة بنت حكيم.

---

(١). راجع ج ٨ ص ٥٥.." (١)

"الثانية- قوله تعالى: (وتماثيل) جمع تمثال. وهو كل ما صور على مثل صورة من حيوان أو غير حيوان. وقيل: كانت من زجاج ونحاس ورخام تماثيل أشياء ليست بحيوان. وذكر أنها صور الأنبياء والعلماء، وكانت تصور في المساجد ليراها الناس فيزدادوا عبادة واجتهادا، قال صلى الله عليه وسلم: (إن أولئك كان إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجدا وصوروا فيه تلك الصور). أي ليتذكروا عبادتهم فيجتهدوا في العبادة. وهذا يدل على أن التصوير كان مباحا في ذلك الزمان، ونسخ ذلك بشرع محمد صلى الله عليه وسلم. وسيأتي لهذا مزيد بيان في سورة" نوح" «١» عليه السلام. وقيل: التماثيل طلسمات كان

---

(١) تفسير القرطبي، شمس الدين القرطبي ١٤/٢٠٨

يعملها، ويحرم على كل مصور أن يتجاوزها فلا يتجاوزها، فيعمل تمثالا للذباب أو للبعوض أو للتماسيح في مكان، ويأمرهم ألا يتجاوزوه فلا يتجاوزه واحد أبدا ما دام ذلك التماثل قائما. وواحد التماثيل تمثال بكسر التاء. قال:

ويا رب يوم قد لهوت وليلة ... بآنسة كأنها خط تمثال «٢»

وقيل: إن هذه التماثيل رجال اتخذهم من نحاس وسأل ربه أن ينفخ فيها الروح ليقاتلوا في سبيل الله ولا يحيك «٣» فيهم السلاح. ويقال: إن إسفنديار كان منهم، والله أعلم. وروي أنهم عملوا له أسدين في أسفل كرسيه ونسرين فوقه، فإذا أراد أن يصعد بسط الأسدان له ذراعيهما، وإذا قعد أطلق النسران أجنحتهما. الثالثة- حكى مكي في الهداية له: أن فرقة تجوز التصوير، وتحتج بهذه الآية. قال ابن عطية: وذلك خطأ، وما أحفظ عن أحد من أئمة العلم من يجوزه. قلت: ما حكاه مكي ذكره النحاس قبله، قال النحاس: قال قوم عمل الصور جائز لهذه الآية، ولما أخبر الله عز وجل عن المسيح. وقال قوم: قد صح النهي عن النبي صلى الله عليه وسلم عنها والتوعد لمن عملها أو اتخذها، فنسخ الله عز وجل بهذا ما كان مباحا قبله، وكانت الحكمة في ذلك لأنه بعث عليه السلام والصور تعبد، فكان الأصلح إزالتها.

---

(١). راجع ج ١٨ ص ٣٠٧ فما بعد.

(٢). البيت لامرئ القيس.

(٣). حاك السيف حيكا: أثر وعمل.." (١)

"على السلطان إذا سيقوا إلى حبس أو قتل، وسوق أهل الجنان سوق مراكبهم إلى دار الكرامة والرضوان، لأنه لا يذهب بهم إلا راكبين كما يفعل بمن يشرف ويكرم من الوافدين على بعض الملوك، فشتان ما بين السوقين." حتى إذا جاؤها وفتحت أبوابها" قيل: الواو هنا للعطف عطف على جملة والجواب محذوف. قال المبرد: أي سعدوا وفتحت، وحذف الجواب بليغ في كلام العرب. وأنشد «١»:

فلو أنها نفس تموت جميعة ... - ولكنها نفس تساقط أنفسا

فحذف جواب لو والتقدير لكان أروح. وقال الزجاج:" حتى إذا جاؤها" دخلوها وهو قريب من الأول. وقيل: الواو زائدة. قال الكوفيون وهو خطأ عند البصريين. وقد قيل: إن زيادة الواو دليل على أن الأبواب

---

(١) تفسير القرطبي، شمس الدين القرطبي ٢٧٢/١٤

فتحت لهم قبل أن يأتوا لكرامتهم على الله تعالى، والتقدير حتى إذا جاءوها وأبوابها مفتحة، بدليل قوله:" جنات عدن مفتحة لهم الأبواب" [ص: ٥٠] وحذف الواو في قصة أهل النار، لأنهم وقفوا على النار وفتحت بعد وقوفهم إذلالا وترويعا لهم. ذكره المهدوي وحكى معناه النحاس قبله. قال النحاس: فأما الحكمة في إثبات الواو في الثاني وحذفها من الأول، فقد تكلم فيه بعض أهل العلم بقول لا أعلم أنه سبقه إليه أحد، وهو أنه لما قال الله عز وجل في أهل النار:" حتى إذا جاؤها وفتحت أبوابها" دل بهذا على أنها كانت مغلقة ولما قال في أهل الجنة:" حتى إذا جاؤها وفتحت أبوابها" دل بهذا على أنها كانت مفتحة قبل أن يجيئوها، والله أعلم. وقيل: إنها واو الثمانية. وذلك من عادة قريش أنهم يعدون من الواحد فيقولون خمسة ستة سبعة وثمانية، فإذا بلغوا السبعة قالوا وثمانية. قاله أبو بكر بن عياش. قال الله تعالى:" سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام" [الحاقة: ٧] وقال:" التائبون العابدون" [التوبة: ١١٢] ثم قال في الثامن:" والناهون عن المنكر" [التوبة: ١١٢] وقال:" ويقولون سبعة وثامنهم" [الكهف: ٢٢] وقال" ثيبات وأبكارا" [التحريم: ٥] وقد مضى القول في هذا في" براءة" «٢» مستوفى وفي" الكهف" «٣» أيضا.

---

(١). البين لامرى القيس." وتموت جميعه" بمعنى أنه مريض فنفسه لا تخرج بمرة ولكنها تموت شيئا بعد شي وهو معنى تساط أنفسا.

(٢). راجع ج ٨ ص ٢٧١ طبعه أولى أو ثانيه.

(٣). راجع ج ١٠ ص ٣٨٢ وما بعدها طبعه أولى أو ثانيه. [.....]." (١)

"بالنهار وإذا غربت، وقاله علي رضي الله عنه، قال: هي النجوم تخنس بالنهار، وتظهر بالليل، وتكنس في وقت غروبها أي تتأخر عن البصر لخفائها، فلا ترى. وفي الصحاح: وبالخنس: الكواكب كلها. لأنها تخنس في المغيب، أو لأنها تخنس نهارا. ويقال: الكواكب السيارة منها دون الثابتة. وقال الفراء في قوله تعالى: فلا أقسم بالخنس. الجوار الكنس: إنها النجوم الخمسة، زحل والمشتري والمريخ والزهرة وعطارد، لأنها تخنس في مجراها، وتكنس، أي تستتر كما تكنس الظباء في المغار، وهو الكناس. ويقال: سميت خنسا لتأخرها، لأنها الكواكب المتحيرة التي ترجع وتستقيم، يقال: خنس عنه يخنس بالضم خنوسا: تأخر، وأخنسه غيره: إذا خلفه ومضى عنه. والخنس تأخر الأنف عن الوجه مع ارتفاع قليل في

---

(١) تفسير القرطبي، شمس الدين القرطبي ٢٨٥/١٥

الأرنبة، والرجل أخنس، والمرأة خنساء، والبقر كلها خنس. وقد روي عن عبد الله بن مسعود في قوله تعالى: فلا أقسم بالخنس هي بقر الوحش. روى هشيم عن زكريا عن أبي إسحاق عن أبي ميسرة عمرو بن شرحبيل قال: قال لي عبد الله ابن مسعود: إنكم قوم عرب فما الخنس؟ قلت: هي بقر الوحش، قال: وأنا أرى ذلك. وقاله إبراهيم وجابر بن عبد الله. وروي عن ابن عباس: إنما أقسم الله ببقر الوحش. وروى عنه عكرمة قال: بالخنس: البقر والكنس: هي الظباء، فهي خنس إذا رأين الإنسان خنسن وانقبضن وتأخرن ودخلن كناسهن. القشيري: وقيل على هذا بالخنس من الخنس في الأنف، وهو تأخر الأرنبة وقصر القصبة، وأنوف البقر والظباء خنس. والأصح الحمل على النجوم، لذكر الليل والصبح بعد هذا، فذكر النجوم أليق بذلك. قلت: لله أن يقسم بما شاء من مخلوقاته من حيوان وجماد، وإن لم يعلم وجه الحكمة في ذلك. وقد جاء عن ابن مسعود وجابر بن عبد الله وهما صحابيان والن ِ ِ ِخعي أنها بقر الوحش. وعن ابن عباس وسعيد بن جبير أنها الظباء. وعن الحجاج بن منذر قال: سألت جابر بن زيد عن الجواري الكنس، فقال: الظباء والبقر، فلا يبعد أن يكون المراد." (١)

"السماء، وذلك ليلة سبع. قال أبو العباس: وإنما قيل له هلال لأن الناس يرفعون أصواتهم بالإخبار عنه. ومنه استهل الصبي إذا ظهرت حياته بصراخه. واستهل وجهه فرحا وتهلل إذا ظهر فيه السرور. قال أبو كبير:

وإذا نظرت إلى أسرة وجهه ... برقت كبرق العارض المتهلل

ويقال: أهللنا الهلال إذا دخلنا فيه. قال الجوهري:" وأهل الهلال واستهل على ما لم يسم فاعله. ويقال أيضا: استهل بمعنى تبين، ولا يقال: أهل ويقال: أهللنا عن ليلة كذا، ولا يقال: أهللناه فهل، كما يقال: أدخلناه فدخل، وهو قي|سه": قال أبو نصر عبد الرحيم القشيري في تفسيره: ويقال: أهل الهلال واستهل وأهللنا الهلال واستهللنا. الثالثة- قال علماؤنا: من حلف ليقضين غريمه أو ليفعلن كذا في الهلال أو رأس الهلال أو عند الهلال، ففعل ذلك بعد رؤية الهلال بيوم أو يومين لم يحنث. وجميع الشهور تصلح لجميع العبادات والمعاملات على ما يأتي. قوله تعالى:" قل هي مواقيت للناس والحج" تبيين لوجه الحكمة في زيادة القمر ونقصانه، وهو زوال الإشكال في الآجال والمعاملات والإيمان والحج والعدد والصوم والفطر ومدة الحمل و◌الإجارات والأكرية، إلى غير ذلك من مصالح العباد. ونظيره قوله الحق:" وجعلنا الليل

---

(١) تفسير القرطبي، شمس الدين القرطبي ٢٣٧/١٩

والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب" [الاسراء: ١٢] على ما يأتي «١». وقوله:" هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب «٢» " [يونس: ٥]. وإحصاء الأهلة أيسر من إحصاء الأيام. الرابعة- وبهذا الذي قررناه يرد على أهل الظاهر ومن قال بقولهم: إن المساقاة تجوز إلى الأجل المجهول سنين غير معلومة، واحتجوا بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم عامل اليهود على شطر الزرع والنخل ما بدا لرسول الله صلى الله عليه وسلم من غير توقيت. وهذا

---

(١). راجع ج ١٠ ص ٢٢٧.

(٢). راجع ج ٨ ص ٣٠٩.." (١)

"إن نزل من الدماغ، فإنما يمر بين الصلب والترائب. وقال قتادة: المعنى ويخرج من صلب الرجل وترائب المرأة. وحكى الفراء أن مثل هذا يأتي عن العرب، وعليه فيكون معنى من بين الصلب: من الصلب. وقال الحسن: المعنى: يخرج من صلب الرجل وترائب الرجل، ومن صلب المرأة وترائب المرأة. ثم إنا نعلم أن النطفة من جميع أجزاء البدن، ولذلك يشبه الرجل والديه كثيرا «١». وهذه **الحكمة في** غسل جميع الجسد من خروج المني. وأيضا المكثر من الجماع يجد وجعا في ظهره وصلبه، وليس ذلك إلا لخلو صلبه عما كان محتبسا من الماء. وروى إسماعيل عن أهل مكة يخرج من بين الصلب بضم اللام. ورويت عن عيسى الثقفي. حكاه المهدوي وقال: من جعل المني يخرج من بين صلب الرجل وترائبه، فالضمير في يخرج للماء. ومن جعله من بين صلب الرجل وترائب المرأة، فالضمير للإنسان. وقرى (الصلب)، بفتح الصاد واللام. وفيه أربع لغات «٢»: صلب وصلب وصلب وصالب. قال العجاج:

في صلب مثل العنان المؤدم

وفي مدح النبي صلى الله عليه وسلم:

تنقل من صالب إلى رحم

---

(١) تفسير القرطبي، شمس الدين القرطبي ٢/٣٤٢

«٣» الأبيات مشهورة معروفة. إنه أي إن الله جل ثناؤه على رجعه أي على رد الماء في الإحليل، لقادر كذا قال مجاهد والضحاك. وعنهما أيضا أن المعنى: إنه على رد الماء في الصلب، وقال عكرمة. وعن الضحاك أيضا أن المعنى: إنه على رد الإنسان ماء كما كان لقادر. وعنه أيضا أن المعنى: إنه على رد الإنسان من الكبر إلى الشباب، ومن الشباب إلى الكبر، لقادر. وكذا في المهدوي. وفي الماوردي والثعلبي: إلى الصبا، ومن الصبا إلى النطفة. وقال ابن زيد: إنه على حبس ذلك الماء حتى لا يخرج، لقادر. وقال ابن عباس وقتادة والحسن وعكرمة أيضا: إنه على رد الإنسان بعد الموت لقادر. وهو اختيار الطبري. الثعلبي: وهو الأقوى، لقوله تعالى: يوم تبلى السرائر [الطارق: ٩] قال الماوردي: ويحتمل أنه على أن يعيده إلى الدنيا بعد بعثه في الآخرة، لأن الكفار يسألون الله تعالى فيها الرجعة.

---

(١). وقال الأستاذ الامام في تفسير جزء (عم): كنى بالصلب عن الرجل، وبالترائب عن المرأة.

(٢). أنظر ما سبق في ص ٥.

(٣). تمام البيت

إذا بدا عالم بدا طبق

وهو من قول للعباس بن عبد المطلب في مدح النبي صلى الله عليه وسلم.." (١)

"العالمين. وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم

«١» ". وقال: فتقديره تتركون مثل ذلك من أزواجكم، ولو لم يبح مثل ذلك من الأزواج لما صح ذلك، وليس المباح من الموضع الآخر مثلا له، حتى يقال: تفعلون ذلك وتتركون مثله من المباح. قال الكيا: وهذا فيه نظر، إذ معناه: وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم مما فيه تسكين شهوتكم، ولذة الوقاع حاصلة بهما جميعا، فيجوز التوبيخ على هذا المعنى. وفي قوله تعالى:" فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله" مع قوله:" فأتوا حرثكم" ما يدل على أن في المأتى اختصاصا، وأنه مقصور على موضع الولد. قلت: هذا هو الحق في المسألة. وقد ذكر أبو عمر بن عبد البر أن العلماء لم يختلفوا في الرتقاء التي لا يوصل إلى وطئها أنه عيب ترد به، إلا شيئا جاء عن عمر بن عبد العزيز من وجه ليس بالقوي أنه لا ترد الرتقاء ولا

---

(١) تفسير القرطبي، شمس الدين القرطبي ٧/٢٠

غيرها، والفقهاء كلهم على خلاف ذلك، لأن المسيس هو المبتغى بالنكاح، وفي إجماعهم على هذا دليل على أن الدبر ليس بموضع وطئ، ولو كان موضعا للوطي ما ردت من لا يوصل إلى وطئها في الفرج. وفي إجماعهم أيضا على أن العقيم التي لا تلد لا ترد. والصحيح في هذه المسألة ما بيناه. وما نسب إلى مالك وأصحابه من هذا باطل وهم مبرءون من ذلك، لأن إباحة الإتيان مختصة بموضع الحرث، لقوله تعالى:" فأتوا حرثكم"، ولأن **الحكمة في** خلق الأزواج بث النسل، فغير موضع النسل لا يناله مالك النكاح، وهذا هو الحق. وقد قال أصحاب أبي حنيفة: إنه عندنا ولائط الذكر سواء في الحكم، ولأن القذر والأذى في موضع النجو «٢» أكثر من دم الحيض، فكان أشنع. وأما صمام البول فغير صمام الرحم. وقال ابن العربي في قبسه: قال لنا الشيخ الإمام فخر الإسلام أبو بكر محمد بن أحمد بن الحسين فقيه الوقت وإمامه: الفرج أشبه شي بخمسة وثلاثين، وأخرج يده عاقدا بها. وقال: مسلك البول ما تحت الثلاثين، ومسلك الذكر والفرج ما اشتملت عليه الخمسة، وقد حرم الله تعالى الفرج حال الحيض لأجل النجاسة العارضة. فأولى أن يحرم الدبر لأجل النجاسة اللازمة. وقال مالك لابن وهب وعلي بن زياد لما أخبراه أن ناسا بمصر

(١). آية ١٦٥ سورة الشعراء.

(٢). النجو: ما يخرج من البطن من ريح وغائط.." (١)

"الشفاعة". ومن ذلك القرآن وانشقاق القمر وتكليمه الشجر وإطعامه الطعام خلقا عظيما من تميرات ودرور شاة أم معبد بعد جفاف. وقال ابن عطية معناه، وزاد: وهو أعظم الناس أمة وختم به النبيون إلى غير ذلك من الخلق العظيم الذي أعطاه الله. ويحتمل اللفظ أن يراد به محمد صلى الله عليه وسلم وغيره ممن عظمت آياته، ويكون الكلام تأكيدا. ويحتمل أن يريد به رفع إدريس المكان العلي، ومراتب الأنبياء في السماء كما في حديث الإسراء، وسيأتي. وبينات عيسى هي إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص وخلق الطير من الطين كما نص عليه في التنزيل. (وأيدناه) قويناه. (بروح القدس) جبريل عليه السلام، وقد تقدم «١». قوله تعالى: (ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم) أي من بعد الرسل. وقيل: الضمير لموسى وعيسى، والاثنان جمع. وقيل: من بعد جميع الرسل، وهو ظاهر اللفظ. وقيل: إن القتال إنما وقع من الذين

(١) تفسير القرطبي، شمس الدين القرطبي ٣/٩٤

جاءوا بعدهم وليس كذلك المعنى، بل المراد ما اقتتل الناس بعد كل نبي، وهذا كما تقول: اشتريت خيلا ثم بعتها، فجائز لك هذه العبارة وأنت إنما اشتريت فرسا وبعته ثم آخر وبعته ثم آخر وبعتہ، وكذلك هذه النوازل إنما اختلف الناس بعد كل نبي فمنهم من آمن ومنهم من كفر بغيا وحسدا وعلى حطام الدنيا، وذلك كله بقضاء وقدر وإرادة من الله تعالى، ولو شاء خلاف ذلك لكان ولكنه المستأثر بسر **الحكمة في** ذلك الفعل لما يريد. وكسرت النون من" ولكن اختلفوا" لالتقاء الساكنين، ويجوز حذفها في غير القرآن، وأنشد سيبويه:

فلست بآتيه ولا أستطيعه ... ولاك اسقني إن كان ماؤك ذا فضل

«٢» (فمنهم من آمن ومنهم من كفر) " من" في موضع رفع بالابتداء والصفة.

[سورة البقرة (٢): آية ٢٥٤]

يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة والكافرون هم الظالمون (٢٥٤)

---

(١). ج ٢ ص ٢٤.

(٢). البيت للنجاشي، وصف أنه اصطحب ذئبا في فلاة مضلة لا ماء فيها، وزعم أن الذئب رد عليه فقال: لست بآت ما دعوتني إليه من الصحبة ولا أستطيعه لأنني وحشي وأنت إنسى ولكن اسقني إن كأن ماؤك فاضلا عن ربك (عن شرح الشواهد للشنتمري).." (١)

"عليه وسلم:" إن للشيطان لمة «١» بابن آدم وللملك لمة فأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق وأما لمة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله، ومن وجد الأخرى فليتعوذ بالله من الشيطان- ثم قرأ- الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء". قال: هذا حديث حسن صحيح «٢». ويجوز في غير القرآن" ويأمركم الفحشاء" بحذف الباء، وأنشد سيبويه:

أمرتك الخير فافعل ما أمرت به ... فقد تركتك ذا مال وذا نشب

والمغفرة هي الستر على عباده في الدنيا والآخرة. والفضل هو الرزق في الدنيا والتوسعة والنعيم في الآخرة،

---

(١) تفسير القرطبي، شمس الدين القرطبي ٣/٢٦٥

وبكل قد وعد الله تعالى. الثالثة- ذكر النقاش أن بعض الناس تأنس بهذه الآية في أن الفقر أفضل من الغنى، لأن الشيطان إنما يبعد العبد من الخير، وهو بتخويفه الفقر يبعد منه. قال ابن عطية: وليس في الآية حجة قاطعة بل المعارضة بها قوية. وروي أن في التوراة" عبدي أنفق من رزقي أبسط عليك فضلي فإن يدي مبسوطة على كل يد مبسوطة". وفي القرآن مصداقه وهو قوله:" وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين «٣» ". ذكره ابن عباس. (والله واسع عليم) تقدم معناه «٤». والمراد هنا أنه سبحانه وتعالى يعطي من سعة ويعلم حيث يضع ذلك، ويعلم الغيب والشهادة. وهما اسمان من أسمائه ذكرناهما في جملة الأسماء في" الكتاب الأسنى" والحمد لله.

[سورة البقرة (٢): آية ٢٦٩]

يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر إلا أولوا الألباب (٢٦٩)

---

(١). اللمة (بفتح اللام): الهمة والخطرة تقع في القلب. أراد إلمام الملك أو الشيطان به والقرب منه، فما كان من خطوات الخير فهو من الملك، وما كان من خطرات الشر فهو من الشيطان. (عن نهاية ابن الأثير). [.....]

(٢). كذا في الأصول. والذي في سنن الترمذي:" ... حسن غريب".

(٣). راجع ج ١٤ ص ٣٠٧.

(٤). راجع المسألة الخامسة ج ٢ ص ٨٤." (١)

"قوله تعالى: (يؤتي الحكمة من يشاء) أي يعطيها لمن يشاء من عباده. واختلف العلماء في الحكمة هنا، فقال السدي: هي النبوة. ابن عباس: هي المعرفة بالقرآن فقهه ونسخه ومحكمه ومتشابهه وغريبه ومقدمه ومؤخره. وقال قتادة ومجاهد: الحكمة هي الفقه في القرآن. وقال مجاهد: الإصابة في القول والفعل. وقال ابن زيد: الحكمة العقل في الدين. وقال مالك بن أنس: الحكمة المعرفة بدين الله والفقه فيه والاتباع له. وروى عنه ابن القاسم أنه قال: الحكمة التفكر في أمر الله والاتباع له. وقال أيضا: الحكمة طاعة الله والفقه في الدين والعمل به. وقال الربيع بن أنس: الحكمة الخشية. وقال إبراهيم النخعي: الحكمة

---

(١) تفسير القرطبي، شمس الدين القرطبي ٣/٣٢٩

الفهم في القرآن، وقاله زيد بن أسلم. وقال الحسن: الحكمة الورع. قلت: وهذه الأقوال كلها ما عدا قول السدي والربيع والحسن قريب بعضها من بعض، لأن الحكمة مصدر من الإحكام وهو الإتقان في قول أو فعل، فكل ما ذكر فهو نوع من الحكمة التي هي الجنس، فكتاب الله حكمة، وسنة نبيه حكمة، وكل ما ذكر من التفضيل فهو حكمة. وأصل الحكمة ما يمتنع به من السفه، فقيل للعلم حكمة، لأنه يمتنع به، وبه يعلم الامتناع من السفه وهو كل فعل قبيح، وكذا القرآن والعقل والفهم. وفي البخاري:" من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين" وقال هنا:" ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا" وكرر ذكر الحكمة ولم يضمرها اعتناء بها، وتنبيها على شرفها وفضلها حسب ما تقدم بيانه عند قوله تعالى:" فبدل الذين ظلموا قولا «١» ". وذكر الدارمي أبو محمد في مسنده: حدثنا مروان بن محمد حدثنا رفدة الغساني قال أخبرنا ثابت بن عجلان الأنصاري قال: كان يقال: إن الله ليريد العذاب بأهل الأرض فإذا سمع تعليم المعلم الصبيان الحكمة صرف ذلك عنهم. قال مروان: يعني بالحكمة القرآن. قوله تعالى: (ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر إلا أولوا الألباب) يقال: إن من أعطي الحكمة والقرآن فقد أعطي أفضل ما أعطي من جمع علم كتب الأولين

(١). راجع المسألة الثالثة ج ١ ص ٤١٦." (١)

"والرسوخ: الثبوت في الشيء، وكل ثابت راسخ. وأصله في الأجرام أن يرسخ الجبل والشجر في الأرض، قال الشاعر:

لقد رسخت في الصدر مني مودة ... لليلى أبت آياتها أن تغيرا

ورسخ الإيمان في قلب فلان يرسخ رسوخا. وحكى بعضهم: رسخ الغدير: نضب ماؤه، حكاه ابن فارس فهو من الأضداد. ورسخ ورضخ ورصن ورسب كله ثبت فيه. وسيل النبي صلى الله عليه وسلم عن الراسخين في العلم فقال:" هو من برت يمينه وصدق لسانه واستقام قلبه". فإن قيل: كيف كان في القرآن متشابه والله يقول:" وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم" «١» فكيف لم يجعله كله واضحا؟ قيل له: الحكمة في ذلك- والله أعلم- أن يظهر فضل العلماء، لأنه لو كان كله واضحا لم يظهر فضل بعضهم على بعض. وهكذا يفعل من يصنف تصنيفا يجعل بعضه واضحا وبعضه مشكلا، ويترك للجثوة «٢»

(١) تفسير القرطبي، شمس الدين القرطبي ٣/٣٣٠

موضعا، لأن ما هان وجوده قل بهاؤه. والله أعلم. التاسعة- قوله تعالى: (كل من عند ربنا) فيه ضمير عائد على كتاب الله تعالى محكمه ومتشابهه، والتقدير: كله من عند ربنا. وحذف الضمير لدلالة" كل" عليه، إذ هي لفظة تقتضي الإضافة. ثم قال: (وما يذكر إلا أولوا الألباب) أي ما يقول هذا ويؤمن ويقف حيث وقف ويدع اتباع المتشابه إلا ذو لب، وهو العقل. ولب كل شي خالصه، فلذلك قيل للعقل لب. و" أولوا" جمع ذو.

[سورة آل عمران (٣): آية ٨]
ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب (٨)
فيه مسألتان: الأولى- قوله تعالى: (ربنا لا تزغ قلوبنا) في الكلام حذف تقديره يقولون. وهذا حكاية عن الراسخين. ويجوز أن يكون المعنى قل يا محمد، ويقال: إزاغة القلب فساد

---

(١). راجع ج ١٠ ص ١٠٨.
(٢). كذا وردت هذه الكلمة في أكثر الأصول، وفى بعضها وردت بهذا الرسم من غير إعجام، ومعناها: الجماعة. [.....]." (١)

"المسلمين. وإذا كن مرادات بالآية مع الإخوة كن مرادات على الانفراد. واستدل الجميع بأن أقل الجمع اثنان، لان التثنية جمع شي إلى مثله، فالمعنى يقتضي أنها جمع. وقال عليه السلام: (الاثنان فما فوقهما جماعة). وحكي عن سيبويه أنه قال: سألت الحليل عن قوله (ما أحسن وجوههما)؟ فقال: الاثنان جماعة. وقد صح قول الشاعر:
ومهمهين قذفين مرتين ... ظهراهما مثل ظهور الترسين «١»
وأنشد الأخفش:
لما أتتنا المرأتان بالخبر ... فقلن إن الأمر فينا قد شهر
وقال آخر:
يحيى بالسلام غني قوم ... ويبخل بالسلام على الفقير

---

(١) تفسير القرطبي، شمس الدين القرطبي ١٩/٤

أليس الموتِ بينهما سواء ... إذا ماتوا وصاروا في القبور
ولما وقع الكلام في ذلك بين عثمان وابن عباس قال له عثمان: إن قومك حجبوها- يعني قريشا- وهم أهل الفصاحة والبلاغة. وممن قال: إن أقل الجمع ثلاثة- وإن لم يقل به هنا- ابن مسعود والشافعي وأبو حنيفة وغيرهم. والله أعلم. الموفية عشرين- قوله تعالى: (من بعد وصية يوصي بها أو دين قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وعاصم «٢») يوصى بفتح الصاد. الباقون بالكسر، وكذلك الآخر. واختلفت الرواية فيهما عن عاصم. والكسر اختيار أبي عبيد وأبي حاتم، لأنه جرى ذكر الميت قبل هذا. قال الأخفش: وتصديق ذلك قوله تعالى (يوصين) و (توصون). الحادية والعشرون- إن قيل: ما **الحكمة في** تقديم ذكر الوصية على ذكر الدين، والدين مقدم عليها بإجماع. وقد روى الترمذي عن الحارث عن علي أن النبي صلى الله عليه وسلم قضى بالدين قبل الوصية، وأنتم تقرون «٣» الوصية قبل الدين. قال: والعمل على هذا عند عامة

---

(١). هذا البيت من رجزا لخطام المجاشعي، وهو شاعر إسلامي. والمهمه.: القفر المخوف. والقذف (بفتحتين وبضمتين): البعيد من الأرض. وفى ج: (فدفدين) وهى رواية. والفدفد: الأرض المستوية. والمرت (بفتح الميم وسكون الراء بعدها مثناة فوقية): الأرض التي لا ماء فيها ولا نبات. والظهر: ما ارتفع من الأرض.
(٢). في رواية أبى بكر. [.....]
(٣). كذا في الترمذي وفى ب وى وز وط، وفي غيرها: تقرءون. ولا يصح.." (١)

"لمجتنب الكبائر وممتثل الفرائض تكفير صغائره قطعا لكانت له في حكم المباح الذي يقطع بألا تباعة فيه، وذلك نقض لعرى الشريعة. ولا صغيرة عندنا. قال القشيري عبد الرحيم: والصحيح أنها كبائر ولكن بعضهما أعظم وقعا من بعض، **والحكمة في** عدم التمييز أن يجتنب العبد جميع المعاصي. قلت: وأيضا فإن من نظر إلى نفس المخالفة كما قال بعضهم:- لا تنظر إلى صغر الذنب ولكن انظر من عصيت- كانت الذنوب بهذه النسبة كلها كبائر، وعلى هذا النحو يخرج كلام القاضي أبي بكر بن الطيب والأستاذ أبي إسحاق الإسفراييني وأبي المعالي وأبي نصر عبد الرحيم القشيري وغيرهم، قالوا: وإنما يقال لبعضها صغيرة بالإضافة إلى ما هو أكبر منها، كما يقال الزنى صغيرة بإضافته إلى الكفر، والقبلة المحرمة صغيرة

---

(١) تفسير القرطبي، شمس الدين القرطبي ٥/٧٣

بالنسبة إلى الزنى، ولا ذنب عندنا يغفر باجتناب ذنب آخر، بل كل ذلك كبيرة ومرتكبه في المشيئة غير الكفر، لقوله تعالى: (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) واحتجوا بقراءة من قرأ (إن تجتنبوا كبير ما تنهون عنه) على التوحيد، وكبير الإثم الشرك. قالوا: وعلى الجمع فالمراد أجناس الكفر. والآية التي قيدت الحكم فترد إليها هذه المطلقات كلها قوله تعالى: (ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء). واحتجوا بما رواه مسلم وغيره عن أبي أمامة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (من اقتطع حق امرئ مسلم بيمينه فقد أوجب الله له النار وحرم عليه الجنة) فقال له رجل: يا رسول الله، وإن كان شيئا يسيرا؟ قال: (وإن كان قضيبا من أراك). فقد جاء الوعيد الشديد على اليسير كما جاء على الكثير. وقال ابن عباس: الكبيرة كل ذنب ختمه الله بنار أو غضب «١» أو لعنة أو عذاب. وقال ابن مسعود: الكبائر ما نهى الله عنه في هذه السورة إلى ثلاث وثلاثين آية، وتصديقه قوله تعالى: (إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه). وقال طاوس: قيل لابن عباس الكبائر سبع؟ قال: هي إلى السبعين أقرب. وقال سعيد بن جبير: قال رجل لابن عباس الكبائر سبع؟ قال: هي إلى السبعمائة أقرب منها إلى السبع، غير أنه لا كبيرة مع استغفار ولا صغيرة مع إصرار وروي عن ابن مسعود أنه قال:

---

(١). في ط: أو غضبه أو لعنته.." (١)

"رجال. وأدغم الكوفيون التاء في الطاء، لأنهما من مخرج واحد، واستقبح ذلك الكسائي في الفعل وهو عند البصريين غير قبيح. ومعنى (بيت) زور ومره. وقيل: غير وبدل وحرف، أي بدلوا قول النبي صلى الله عليه وسلم فيما عهده إليهم وأمرهم به. والتبييت التبديل، ومنه قول الشاعر «١»:

أتوني فلم أرض ما بيتو ... وكانوا أتوني بأمر نكر

لأنكح أيمهم منذرا ... وهل ينكح العبد حر لحر

آخر «٢»:

بيت قولي عبد الملي ... ك قاتله الله عبدا كفورا

وبيت الرجل الامر إذا دبره ليلا، قال الله تعالى: (إذ يبيتون ما لا يرضى من القول «٣». والعرب تقول: أمر بـِيت بليل إذا أحكم. وإنما خص الليل بذلك لأنه وقت يتفرغ فيه. قال الشاعر:

---

(١) تفسير القرطبي، شمس الدين القرطبي ١٥٩/٥

أجمعوا أمرهم بليل فلما ... أصبحوا أصبحت لهم ضوضاء

ومن هذا بيت الصيام. والبيوت: الماء يبيت ليلا. والبيوت: الأمر يبيت عليه صاحبه مهتما به، قال الهذلي «٤»:

وأجعل فقرتها عدة ... إذا خفت بيوت أمر عضال

والتبييت والبيات أن يأتي العدو ليلا. وبات يفعل كذا إذا فعله ليلا، كما يقال: ظل بالنهار. وبيت الشيء قدر. فإن قيل: فما وجه الحكمة في ابتدائه بذكر جملتهم ثم قال: (بيت طائفة منهم)؟ قيل: إنما عبر عن حال من علم أنه بقي على كفره ونفاقه، وصفح عمن علم أنه سيرجع عن ذلك. وقيل: إنما عبر عن حال من شهد وحار في أمره، وأما من سمع وسكت فلم يذكره. والله أعلم. (والله يكتب ما يبيتون) أي يثبته في صحائف أعمالهم ليجازيهم عليه. وقال الزجاج: المعنى ينزله عليك في الكتاب. وفي هذه الآية دليل على أن

---

(١). هو الأسود بن يعفر، كما في اللسان مادة (نكر).

(٢). هو الأسود بن عامر الطائي، يعاتب رجلا كما في الطبري ج ٥ ص ١٧٤ طبع بولاق، في البحر: وتبييت قولي. قاتلك إلخ.

(٣). راجع ص ٣٧٩ من هذا الجزء.

(٤). راجع ديوان الهذليين ج ٢ ص ١٩٠ طبع دار الكتب. [.....]." (١)

"التاسعة- قوله تعالى: (فإذا سجدوا) الضمير في (سجدوا) للطائفة المصلية فلينصرفوا، هذا على بعض الهيئات المروية. وقيل: المعنى فإذا سجدوا ركعة القضاء، وهذا على هيئة سهل بن أبي حثمة. ودلت هذه الآية على أن السجود قد يعبر به عن جميع الصلاة، وهو كقوله عليه السلام: (إذا دخل أحدكم المسجد فليسجد سجدتين). أي فليل ركعتين وهو في السنة. والضمير في قوله: (فليكونوا) يحتمل أن يكون للذين سجدوا، ويحتمل أن يكون للطائفة القائمة أولا بإزاء العدو. العاشرة- قوله تعالى: (ود الذين كفروا) أي تمنى وأحب الكافرون غفلتكم عن أخذ السلاح ليصلوا إلى مقصودهم، فبين الله تعالى بهذا وجه الحكمة في الأمر بأخذ السلاح، وذكر الحذر في الطائفة الثانية دون الأولى، لأنها أولى بأخذ الحذر،

---

(١) تفسير القرطبي، شمس الدين القرطبي 5/٢٨٩

لأن العدو لا يؤخر قصده عن هذا الوقت لأنه آخر الصلاة، وأيضا يقول العدو قد أثقلهم السلاح وكلوا. وفي هذه الآية أدل دليل على تعاطي الأسباب، واتخاذ كل ما ينجي ذوي الألباب، ويوصل إلى السلامة، ويبلغ دار الكرامة. ومعنى (ميلة واحدة) مبالغة، أي مستأصلة لا يحتاج معها إلى ثانية. الحادية عشرة- قوله تعالى: (ولا جناح عليكم إن كان بكم أذى من مطر) الآية. للعلماء في وجوب حمل السلاح في الصلاة كلام قد أشرنا إليه، فإن لم يجب فيستحب للاحتياط. ثم رخص في المطر وضعه، لأنه تبتل المبطنات وتثقل ويصدأ الحديد. وقيل: نزلت في النبي صلى الله عليه وسلم يوم بطن نخلة «١» لما انهزم المشركون وغنم المسلمون، وذلك أنه كان يوما مطيرا وخرج النبي صلى الله عليه وسلم لقضاء حاجته واضعا سلاحه، فرآه الكفار منقطعا عن أصحابه فقصده غورث بن الحارث فانحدر عليه من الجبل بسيفه، فقال: من يمنعك مني اليوم؟ فقال: (الله) ثم قال: (اللهم اكفني الغورث بما شئت). فأهوى بالسيف إلى النبي صلى الله عليه وسلم ليضربه، فانكب لوجهه «٢» لزلقة زلقها. وذكر الواقدي أن جبريل عليه

---

(١). قرية قريبة من المدينة.

(٢). في ز: على وجهه.." (١)

"فحبست عليه حتى فتح الله عليه- قال: فجمعوا ما غنموا فأقبلت النار لتأكله فأبت أن تطعمه فقال: فيكم غلول فليبايعني من كل قبيلة رجل فبايعوه- قال- فلصقت] يده [بيد رجلين أو ثلاثة فقال فيكم الغلول) وذكر نحو ما تقدم. قال علماؤنا: والحكمة في حبس الشمس على يوشع عند قتاله أهل أريحاء وإشرافه على فتحها عشي يوم الجمعة، وإشفاقه من أن تغرب الشمس قبل الفتح أنه لو لم تحبس عليه حرم عليه القتال لأجل السبت، ويعلم به عدوهم فيعمل فيهم السيف ويجتاحهم، فكان ذلك آية له خص بها بعد أن كانت نبوته ثابتة بخبر موسى عليه الصلاة والسلام، على ما يقال. والله أعلم. وفي هذا الحديث يقول عليه السلام: (فلم تحل الغنائم لأحد من قبلنا) ذلك بأن الله عز وجل رأى ضعفنا وعجزنا فطيبها لنا. وهذا يرد قول من قال في تأويل قوله تعالى:" وآتاكم ما لم يؤت أحدا من العالمين" إنه تحليل الغنائم والانتفاع بها. وممن قال إن موسى عليه [الصلاة] «١» والسلام مات بالتيه عمرو بن ميمون الأودي، وزاد: وهرون، وكانا خرجا في التيه إلى بعض الكهوف فمات هرون فدفنه موسى وانصرف إلى بني إسرائيل،

---

(١) تفسير القرطبي، شمس الدين القرطبي ٥/٣٧٢

فقالوا: ما فعل هرون؟ فقال: مات، قالوا: كذبت ولكنك قتلته لحبنا له، وكان محبا في بني إسرائيل، فأوحى الله تعالى إليه أن انطلق بهم إلى قبره فإني باعثه حتى يخبرهم أنه مات موتا ولم تقتله، فانطلق بهم إلى قبره فنادى يا هرون فخرج من قبره ينفض رأسه فقال: أنا قاتلك؟ قال: لا، ولكني مت، قال: فعد إلى مضجعك، وانصرف. وقال الحسن: إن موسى لم يمت بالتيه. وقال غيره: إن موسى فتح أريحاء، وكان يوشع على مقدمته فقاتل الجبابرة الذين كانوا بها، ثم دخلها موسى ببني إسرائيل فأقام فيها ما شاء الله أن يقيم، ثم قبضه الله تعالى إليه لا يعلم بقبره أحد من الخلائق. قال الثعلبي: وهو أصح الأقاويل. قلت: قد روى مسلم عن أبي هريرة قال: أرسل ملك الموت إلى موسى عليه [الصلاة و] «٢» السلام فلما جاءه صكه ففقأ عينه فرجع إلى ربه فقال:" أرسلتني إلى عبد لا يريد الموت" قال: فرد الله إليه عينه وقال:" ارجع إليه فقل له يضع يده على متن ثور فله بما غطت يده بكل شعرة سنة" قال: أي رب ثم مه"، قال:" ثم الموت" قال:" فالآن"، فسأل الله أن

---

(١). من ج.

(٢). من ج.." (١)

"الشافعية سبحان الله! أين الدقائق الفقهية «١»، والحكم الشرعية، التي تستنبطونها من غوامض المسائل؟! ألم تروا إلى المحارب المستبد بنفسه، المعتدى بسلاحه، الذي يفتقر الإمام معه إلى الإيجاف بالخيل والركاب كيف أسقط جزاءه بالتوبة استنزالا عن تلك الحالة، كما فعل بالكافر في مغفرة جميع ما سلف استئلافا على الإسلام، فأما السارق والزاني وهما في قبضة المسلمين وتحت حكم الإمام، فما الذي يسقط عنهم حكم ما وجب عليهم؟! أو كيف يجوز أن يقال: يقاس على المحارب وقد فرقت بينهما الحكمة والحالة! هذا ما لا يليق بمثلكم يا معشر المحققين. وإذا ثبت أن الحد لا يسقط بالتوبة، فالتوبة مقبولة والقطع كفارة له." وأصلح" أي كما تاب عن السرقة تاب عن كل ذنب. وقيل:" وأصلح" أي ترك المعصية بالكلية، فأما من ترك السرقة بالزنى أو التهود بالتنصر فهذا ليس بتوبة، وتوبة الله على العبد أن يوفقه للتوبة. وقيل: أن تقبل منه التوبة. السابعة والعشرون- يقال: بدأ الله بالسارق في هذه الآية قبل السارقة، وفي الزنى بالزانية قبل الزاني ما الحكمة في ذلك؟ فالجواب أن يقال: لما كان حب المال على

---

(١) تفسير القرطبي، شمس الدين القرطبي ٦/١٣١

الرجال أغلب، وشهوة الاستمتاع على النساء أغلب بدأ بهما في الموضعين، هذا أحد الوجوه في المرأة على ما يأتي بيانه في سورة" النور" «٢» من البداية بها على الزاني إن شاء الله. ثم جعل الله حد السرقة قطع اليد لتناول المال، ولم يجعل حد الزنى قطع الذكر مع مواقعة الفاحشة به لثلاثة معان: أحدها: أن للسارق مثل يده التي قطعت فإن انزجر بها اعتاض بالثانية «٣»، وليس للزاني مثل ذكره إذا قطع فلم يعتض بغيره لو انزجر بقطعه. الثاني: أن الحد زجر للمحدود وغيره، وقطع اليد في السرقة ظاهر: وقطع الذكر في الزنى باطن. الثالث- أن قطع الذكر فيه إبطال للنسل وليس في قطع اليد إبطاله. والله أعلم.

[سورة المائدة (٥): آية ٤٠]

ألم تعلم أن الله له ملك السماوات والأرض يعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء والله على كل شيء قدير (٤٠)

---

(١). في ك: الفهمية.

(٢). راجع ج ١٢ ص ١٥٩.

(٣). في ك وج: الباقية.." (١)

"وبروزها، فكل ناتئ بارز كعب، مستديرا كان أو غير مستدير. ومنه كعب القدم وكعوب القناة. وكعب ثدي المرأة إذا ظهر في صدرها. والبيت سمي بذلك لأنها ذات سقف وجدار، وهي حقيقة البيتية وإن لم يكن بها ساكن. وسماه سبحانه حراما بتحريمه إياه، قال النبي صلى الله عليه وسلم:] إن مكة حرمها الله ولم يحرمها الناس [وقد تقدم أكثر هذا مستوفى والحمد لله. الثانية- قوله تعالى: (قياما للناس) أي صلاحا ومعاشا، لأمن الناس بها، وعلى هذا يكون" قياما" بمعنى يقومون بها. وقيل:" قياما" أي يقومون بشرائعها. وقرأ ابن عامر وعاصم" قيما" وهما من ذوات الواو فقلبت الواو ياء لكسرة ما قبلها. وقد قيل:" قوام". قال العلماء: والحكمة في جعل الله تعالى هذه الأشياء قياما للناس، أن الله سبحانه خلق الخلق على سليقة الآدمية من التحاسد والتنافس والتقاطع والتدابر، والسلب والغارة والقتل والثأر، فلم يكن بد في الحكمة الإلهية، والمشيئة الأولية من كاف يدوم معه «١» الحال ووازع يحمد معه المآل. قال الله تعالى:" إني

---

(١) تفسير القرطبي، شمس الدين القرطبي ١٧٥/٦

جاعل في الأرض خليفة" «٢»] البقرة: ٣٠] فأمرهم الله سبحانه بالخلافة، وجعل أمورهم إلى واحد يزعهم «٣» عن التنازع، ويحملهم على التآلف من التقاطع، ويرد الظالم عن المظلوم، ويقرر كل يد على ما تستولي عليه. روى ابن القاسم قال حدثنا مالك أن عثمان بن عفان رضي الله عنه كان يقول: ما يزع الإمام أكثر مما يزع القرآن، ذكره أبو عمر رحمه الله. وجور السلطان عاما واحدا أقل أذائه من كون الناس فوضى لحظة واحدة، فأنشأ الله سبحانه الخليفة لهذه الفائدة، لتجري على رأيه الأمور، ويكف الله به عادية الجمهور «٤»، فعظم الله سبحانه في قلوبهم البيت الحرام، وأوقع في نفوسهم هيبته، وعظم بينهم حرمته، فكان من لجأ إليه معصوما به، وكان من اضطهد محميا بالكون فيه. قال الله تعالى:" أولم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم" «٥»] العنكبوت: ٦٧]. قال العلماء: فلما كان موضعا مخصوصا لا يدركه كل مظلوم، ولا يناله كل خائف جعله الله الشهر الحرام ملجأ آخر وهي:

---

(١). في ج، ك، ب وع: مع.

(٢). راجع ج ١ ص ٢٧١.

(٣). في ك: يزجرهم.

(٤). في الأصول: الأمور. والتصويب من ابن العربي.

(٥). راجع ج ١٣ ص ٣٦٣.." (١)

"[سورة الأنعام (٦): آية ١١٩]

وما لكم ألا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه وقد فصل لكم ما حرم عليكم إلا ما اضطررتم إليه وإن كثيرا ليضلون بأهوائهم بغير علم إن ربك هو أعلم بالمعتدين (١١٩)

قوله تعالى: (وما لكم ألا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه): المعنى ما المانع لمن أكل ما سميتم عليه ربكم وإن قتلتموه بأيديكم. (وقد فصل) أي بين لكم الحلال من الحرام، وأزيل عنكم اللبس والشك. ف" ما" استفهام يتضمن التقرير. وتقدير الكلام: وأى شي لكم في ألا تأكلوا." فأن" في موضع خفض بتقدير حرف الجر. ويصح أن تكون في موضع نصب على ألا يقدر حرف جر، ويكون الناصب معنى الفعل الذي في قوله" ما لكم" تقديره أي ما يمنعكم. ثم استثنى فقال (إلا ما اضطررتم إليه) يريد من جميع ما حرم كالميتة

---

(١) تفسير القرطبي، شمس الدين القرطبي ٣٢٥/٦

وغيرها كما تقدم في «١» البقرة. وهو استثناء منقطع. وقرأ نافع ويعقوب" وقد فصل لكم ما حرم" بفتح الفعلين. وقرأ أبو عمرو وابن عامر وابن كثير بالضم فيهما، والكوفيون" فصل" بالفتح" حرم" بالضم. وقرأ عطية العوفي" فصل" بالتخفيف. ومعناه أبان وظهر، كما قرئ" الر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت «٢» " أي استبانت. واختار أبو عبيدة قراءة أهل المدينة. وقيل:" فصل" أي بين، وهو ما ذكره في سورة" المائدة" من قوله:" حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير «٣» " الآية. قلت: هذا فيه نظر، فإن" الأنعام" مكية والمائدة مدنية فكيف يحيل بالبيان على ما لم ينزل بعد، إلا أن يكون فصل بمعنى يفصل. والله أعلم. قوله تعالى: (وإن كثيرا ليضلون «٤») وقرا الكوفيون" يضلون" من أضل (بأهوائهم بغير) علم يعني المشركين حيث قالوا: ما ذبح الله بسكينه خير مما ذبحتم بسكاكينكم" بغير علم" أي بغير علم يعلمونه في أمر الذبح، إذ **الحكمة فيه** إخراج ما حرمه الله علينا من الدم بخلاف ما مات حتف أنفه، ولذلك شرع الذكاة في محل مخصوص ليكون الذبح فيه سببا لجذب كل دم في الحيوان بخلاف غيره من الأعضاء والله أعلم.

---

(١). راجع ج ٢ ص ٢٢٤.

(٢). راجع ج ٩ ص ٢.

(٣). راجع ج ٦ ص ٤٧.

(٤). قراءة نافع.." (١)

"الله مستغن عنه وشركاؤنا فقراء. وكان هذا من جهالاتهم وبزعمهم. والزعم الكذب. قال شريح القاضي: إن لكل شي كنية وكنية الكذب زعموا. وكانوا يكذبون في هذه الأشياء لأنه لم ينزل بذلك شرع. وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال: من أراد أن يعلم جهل العرب فليقرأ ما فوق الثلاثين والمائة من سورة الأنعام إلى قوله: قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم". قال ابن العربي: وهذا الذي قاله كلام صحيح، فإنها تصرفت بعقولها العاجزة في تنويع الحلال والحرام سفاهة بغير معرفة ولا عدل، والذي تصرفت بالجهل فيه من اتخاذ الآلهة أعظم جهلا وأكبر جرما، فإن الاعتداء على الله تعالى أعظم من الاعتداء على المخلوقات. والدليل في أن الله واحد في ذاته واحد في صفاته واحد في مخلوقاته أبين

---

(١) تفسير القرطبي، شمس الدين القرطبي ٧٣/٧

وأوضح من الدليل على أن هذا حلال وهذا حرام. وقد روي أن رجلا قال لعمرو بن العاص: إنكم على كمال عقولكم ووفور أحلامكم عبدتم الحجر! فقال عمرو: تلك عقول كادها باريها. فهذا الذي أخبر الله سبحانه من سخافة العرب وجهلها أمر أذهبه الإسلام، وأبطله الله ببعثه الرسول عليه السلام. فكان من الظاهر لنا أن نميته حتى لا يظهر، وننساه حتى لا يذكر، إلا أن ربنا تبارك وتعالى ذكره بنصه وأورده بشرحه، كما ذكر كفر الكافرين به. وكانت الحكمة في ذلك- والله أعلم- أن قضاءه قد سبق، وحكمه قد نفذ بأن الكفر والتخليط لا ينقطعان إلى يوم القيامة. وقرأ يحيى بن وثاب والسلمي والأعمش والكسائي" بزعمهم" بضمه الزاي. والباقون بفتحها، وهما لغتان. (فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله) أي إلى المساكين. (ساء ما يحكمون) أي ساء الحكم حكمهم. قال ابن زيد: كانوا إذا ذبحوا ما لله ذكروا عليه اسم الأوثان، وإذا ذبحوا ما لأوثانهم لم يذكروا عليه اسم الله، فهذا معنى" فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله". فكان تركهم لذكر الله مذموما منهم وكان داخلا في ترك أكل ما لم يذكر اسم الله عليه.

[سورة الأنعام (٦): آية ١٣٧]

وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم ولو شاء الله ما فعلوه فذرهم وما يفترون (١٣٧)." (١)

"الثالثة عشرة- لما بين الله عز وجل حكم الخمس وسكت عن الأربعة الأخماس، دل ذلك على أنها ملك للغانمين. وبين النبي صلى الله عليه وسلم ذلك بقوله: (وأيما قرية عصت الله ورسوله فإن خمسها لله ورسوله ثم هي لكم). وهذا ما لا خلاف فيه بين الأمة ولا بين الأئمة، على ما حكاه ابن العربي في (أحكامه) وغيره. بيد أن الإمام إن رأى أن يمن على الأسارى بالإطلاق فعل، وبطلت حقوق الغانمين فيهم، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم بثمامة بن أثال وغيره، وقال: (لو كان المطعم بن عدي حيا ثم كلمني في هؤلاء النتنى «١» - يعني أسارى بدر- لتركته له) أخرجه البخاري. مكافأة له لقيامه في شأن [نقض] الصحيفة «٢». وله أن يقتل جميعهم، وقد قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم عقبة ابن أبي معيط من بين الأسرى صبرا «٣»، وكذلك النضر بن الحارث قتله بالصفراء «٤» صبرا، وهذا ما لا خلاف فيه. وكان لرسول الله صلى الله عليه وسلم سهم كسهم الغانمين، حضر أو غاب. وسهم الصفي، يصطفي

---

(١) تفسير القرطبي، شمس الدين القرطبي ٧/ ٩٠

سيفا أو سهما أو خادما أو دابة. وكانت صفية بنت حيي من الصفي من غنائم خيبر. وكذلك ذو الفقار «٥» كان من الصفي. وقد انقطع بمؤته، إلا عند أبي ثور فإنه رآه باقيا للإمام يجعله مجعل سهم النبي صلى الله عليه وسلم. وكانت الحكمة في ذلك أن أهل الجاهلية كانوا يرون للرئيس ربع الغنيمة. قال شاعرهم:

لك المرباع منها والصفايا ... وحكمك والنشيطة والفضول «٦»

وقال آخر:

منا الذي ربع الجيوش، لصلبه ... عشرون وهو يعد في الأحياء

---

(١). النتنى: جمع نتن، كزمنى وزمن.

(٢). أي الصحيفة التي كتبتها قريش في ألا يبايعوا الهاشمية ولا المطلبية ولا يناكحوهم. وهو مطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف، مات كافرا في صفر قبل وقعة بدر بنحو سبعة أشهر. (عن شرح القسطلاني).

(٣). صبر الإنسان وغيره على القتل: حبسه ورماه حتى يموت.

(٤(. موضع قرب بدر.

(٥). ذو الفقار: اسم سيف النبي عليه السلام وسمي به لأنه كانت فيه حفر صغار حسان ويقال للحفرة فقرة.

(٦). البيت لعبد الله بن عنمة الضبي يخاطب بسطام بن قيس. والنشيطة: ما أصاب الرئيس في الطريق قبل أن يصير إلى مجتمع الحي. والفضول: ما فضل من القسمة مما لا تصح قسمته على عدد الغزاة كالبعير والفرس ونحوهما (عن اللسان).." (١)

"وفي يوم عرفة وفي يوم النحر عند انقضاء خطبة أبي بكر في الثلاثة الأيام. فلما كان يوم النفر الأول قام أبو بكر فخطب الناس، فحدثهم كيف ينفرون وكيف يرمون، يعلمهم مناسكهم. فلما فرغ قام علي فقرأ على الناس" براءة" حتى ختمها. وقال سليمان بن موسى: لما خطب أبو بكر بعرفة قال: قم يا علي فأد رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقام علي ففعل. قال: ثم وقع في نفسي أن جميع الناس لم يشاهدوا خطبة أبي بكر، فجعلت أتتبع الفساطيط يوم النحر. وروى الترمذي عن زيد بن يثيع قال: سألت عليا بأي

---

(١) تفسير القرطبي، شمس الدين القرطبي ١٣/٨

شي بعثت في الحج؟ قال: بعثت بأربع: ألا يطوف بالبيت عريان، ومن كان بينه وبين النبي صلى الله عليه وسلم عهد فهو إلى مدته، ومن لم يكن له عهد فأجله أربعة أشهر، ولا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة، ولا يجتمع المسلمون والمشركون بعد عامهم هذا. قال: هذا حديث حسن صحيح. وأخرجه النسائي وقال: فكنت أنادي حتى صحل «١» صوتي. قال أبو عمر: بعث علي لينبذ إلى كل ذي عهد عهده، ويعهد إليهم ألا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان. وأقام الحج في ذلك العام سنة تسع أبو بكر. ثم حج رسول الله صلى الله عليه وسلم من قابل حجته التي لم يحج غير ها من المدينة، فوقعت حجته في ذي الحجة. فقال: (إن الزمان قد استدار ...) الحديث، على ما يأتي في آية النسي بيانه «٢». وثبت الحج في ذي الحجة إلى يوم القيامة. وذكر مجاهد: أن أبا بكر حج في ذي القعدة من سنة تسع. ابن العربي: وكانت **الحكمة في** إعطاء" براءة" لعلي أن براءة تضمنت نقض العهد الذي كان عقده النبي صلى الله عليه وسلم، وكانت سيرة العرب ألا يحل العقد إلا الذي عقده أو رجل من أهل بيته، فأراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يقطع ألسنة العرب بالحجة، ويرسل ابن عمه الهاشمي من بيته ينقض العهد، حتى لا يبقى لهم متكلم. قال معناه الزجاج. الثالثة- قال العلماء: وتضمنت الآية جواز قطع العهد بيننا وبين المشركين. ولذلك حالتان: حالة تنقضي المدة بيننا وبينهم فنؤذنهم بالحرب. والإيذان اختيار.

---

(١). الصحل: حدة الصوت مع بحح.

(٢). راجع ج ١٣٦ ص؟؟؟." (١)

"قلت: وهذا كان سبب ثناء الله تعالى على ذي الكفل حسب، ما يأتي بيانه في" ص" «١» إن شاء الله تعالى. وجواب" ذلولا" على هذا محذوف، اي لولا أن برهان ربه لأمضى ما هم به، ومثله" كلا لو تعلمون علم اليقين" «٢» [التكاثر: ٥] وجوابه لم تتنافسوا، قال ابن عطية: روي هذا القول عن ابن عباس وجماعة من السلف، وقالوا: **الحكمة في** ذلك أن يكون مثلا للمذنبين ليروا أن توبتهم ترجع إلى عفو الله تعالى كما رجعت ممن هو خير منهم، ولم يوبقه القرب من الذنب، وهذا كله على أن هم يوسف بلغ فيما روت هذه الفرقة إلى أن جلس بين رجلي زليخاء وأخذ في حل ثيابه وتكته ونحو ذلك، وهي قد استلقت له، حكاه الطبري. وقال أبو عبيد القاسم بن سلام: وابن عباس ومن دونه لا يختلفون في أنه هم

---

(١) تفسير القرطبي، شمس الدين القرطبي ٨/٦٨

بها، وهم أعلم بالله وبتأويل كتابه، وأشد تعظيما للأنبياء من أن يتكلموا فيهم بغير علم. وقال الحسن: إن الله عز وجل لم يذكر معاصي الأنبياء ليعيرهم بها، ولكنه ذكرها لكيلا تيأسوا من التوبة. قال الغزنوي: مع أن لزلة الأنبياء حكما: زيادة الوجل، وشدة الحياء بالخجل، والتخلي عن عجب العمل، والتلذذ بنعمة العفو بعد الأمل، وكونهم أئمة رجاء أهل الزلل. قال القشيري أبو نصر: وقال قوم جرى من يوسف هم، وكان ذلك [الهم «٣»] حركة طبع من غير تصميم للعقد على الفعل، وما كان من هذا القبيل لا يؤخذ به العبد، وقد يخطر بقلب المرء وهو صائم شرب الماء البارد، وتناول الطعام اللذيذ، فإذا لم يأكل ولم يشرب، ولم يصمم عزمه على الأكل والشرب لا يؤاخذ بما هجس في النفس، والبرهان صرفه عن هذا الهم حتى لم يصر عزما مصمما. قلت: هذا قول حسن، وممن قال به الحسن. قال ابن عطية: الذي أقول به في هذه الآية إن كون يوسف نبيا في وقت هذه النازلة لم يصح، ولا تظاهرت به رواية، وإذا كان كذلك فهو مؤمن قد أوتي حكما وعلما، ويجوز عليه الهم الذي هو إرادة الشيء دون مواقعته وأن يستصحب الخاطر الرديء على ما في ذلك من الخطيئة، وإن فرضناه نبيا في ذلك الوقت فلا يجوز عليه عندي إلا الهم الذي هو خاطر، ولا يصح عليه شي مما ذكر من حل تكته

---

(١). راجع ج ١٥ ص ٢١٨ وج ١١ ص ٣٢٧.

(٢). راجع ج ٢٠ ص ١٧٣.

(٣). من ع وك وو.." (١)

"قال ابن عرفة: ونقضوا هذا بقوله تعالى: {وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرءان جملة واحدة} وتقدم الجواب عنه.

قال التلمساني: من أن اللفظ (قد) يدل على المعنى بظاهره ولا (يظهر) (بخلافه) في بعض الصور.

فإن قلت: ما الحكمة في تنزيله منجما؟

(قلنا): علله بعضهم بما في الآية وهي: {كذلك لنثبت به فؤادك}

قال ابن عرفة: يرد عليه أنه من الجائز أن يثبت الله تعالى به فؤادك صلى الله عليه وسلم مع نزوله جملة واحدة.

---

(١) تفسير القرطبي، شمس الدين القرطبي ١٦٧/٩

قال: ويمكن تعليله بأن ذلك الأظهر فيه كمال الدلالة على صدقه لأن العادة أن رسول الملك إذا كذب عليه إنما يكذب مرة واحدة وبعيد أن (يكرر) الكذب خشية التفطن منه والعلم به فلو أنزل عليه في مرة واحدة لقويت التهمة في حقه فلما تكرر إنزاله مرارا كان ذلك ادعى لجواب تصديقه.

قوله تعالى: {على عبدنا ... }

ولم يقل على رسولنا تنبيها على ما يقوله أهل السنة من أن الرسول من جنس البشر وعلى طبعهم (وأن وصف الرسالة أمر اختص) الله به من شاء من عباده وليست في ذواتهم زيادة (موجبة) بوجه.

وقال القرطبي: إنما قال ذلك لأن العبودية تقتضي التذلل والخضوع ولا شك أن التذلل للبارئ جل وعلا هو أشرف الأشياء.

قال ابن عرفة: نمنع ذلك بل (وصف الرسالة أفضل منه) فهلا قيل: مما نزلنا على رسولنا؟

وقال بعضهم: إنما ذلك تنبيها على أنهم إذا ذموا على مخالفته مع استحضار كونه عبدا فأحرى أن يذموا على ذلك مع استحضار كونه رسولا من عند الله.

و (قرئ) {مما نزلنا على عبدنا}. فإن قلت: إنما هم في ريب مما نزل على عبدنا هذا فقط،

قلنا: الشك في المنزل على هذا شك في المنزل على من قبله لأن الكل رسل من عند الله يصدق بعضهم بعضا فالشك في أحدهم شك في الجميع.

قوله تعالى: {فأتوا بسورة من مثله ... }

قال ابن عرفة:)قال ابن عطية): قال الأكثرون: مثل نظمه ووصفه وفصاحة معانيه ولا يعجزهم إلا (التأليف) الذي خص الله به القرآن، وبه وقع الإعجاز عند الحذاق.." (١)

"قوله تعالى: {لعلكم تشكرون}.

قال ابن عطية: الترجي مصروف للمخاطب أي (عفونا) (عنكم) لتكونوا بحيث (يترجى) المخاطب (بها) شكركم عليه.

وفسره الزمخشري على مذهبه بالإرادة.

قوله تعالى: {وإذ قال موسى لقومه ياقوم إنكم ظلمتم أنفسكم ... }

الظلم هنا المراد به الكفر لتقيده (باتخاذ) العجل. قال الله تعالى: {إن الشرك لظلم عظيم} وقال جل ذكره:

---

(١) تفسير ابن عرفة النسخة الكاملة، ابن عرفة ٧١/١

{الذينءامنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم} هو مطلق فلذلك أشكل على الصحابة رضي الله عنهم، وقالوا: أينا لم يلبس إيمانه بظلم؟

قال ابن عرفة: وقدم المجرور هنا على المفعول، والأصل تأخيره عنه، ولا (يقدم) إلا لنكتة (تتوخى) والحكمة في ذلك أن النداء إقبال على المنادى، وتخصيص له فلو قيل: (وإذ) قال موسى: يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم لقومه. لما كان

لقومه فائدة بخلاف قوله تعالى: {وإذ قال موسى لفتاه لا أبرح} فإن تقديم المجرور هناك (بمعنى) آخر وهو الاعتناء بالمقول له وتشريفه، والاهتمام به وتخصيصه بتلك المقالة دون غيره، وبين (بقوله): {ظلمتم أنفسكم} أن الله تعالى منزه عن أن يناله شيء من ظلمهم، وإنما ضرر ذلك راجع (إليهم).

قال ابن عرفة: وهذا (يشبه المحدود)، فإنه لا تنفع فيه الشفاعة، ولا (تسقطه) التوبة كما قال الإمام مالك رضي الله عنه في المحارب: إذا قتل (أحدا) فعفا عنه وليه، أن الحد لا يرتفع لأن الحق لله تعالى، فلذلك قال: {فاقتلوا أنفسكم} وهذا بيان للتوبة، (و) الفاء (للتسبيب أو للتعقيب).

قوله تعالى: {ذلكم خير لكم ... }

الإشارة

إلى التوبة بشرطها، وهو القتل، و (خير) هذا إما (فعل)، لأن (ضده) وهو عدم التوبة لا خير فيه، أو أفعل من، لأن ضده المشارك له في مطلق الخيرية هو التوبة مع علم قتل الأنفس.

قوله تعالى: {فتاب عليكم ... }

إما علم أنكم تتوبون، وإما على المعنى ألهمكم (للتوبة) أو يسرها لكم.

قوله تعالى: {إنه هو التواب الرحيم}

قال ابن عرفة: الوصف بالرحيم دليل لنا على المعتزلة في إبطال قاعدة التحسين والتقبيح، وأن الله تعالى لا." (١)

"قال ابن عرفة: فيه دليل على أن من قال: أنا مؤمن، لا يحتاج إلى زيادة: إن شاء الله، وهو قول سحنون.

قلت: قال ابن بطال في أوائل شرح البخاري هو قول ابن عبد الرحمان السلمي، وعطاء، وسعيد بن جبير،

---

(١) تفسير ابن عرفة النسخة الكاملة، ابن عرفة ١/١١٤

وإبراهيم التميمي وعون ابن عبد الله، (ورأى) زيادة الاستثناء ابن عبد الحكم وحمديس وابن عبدوس وأحمد بن صالح الكوفي.

قلت: ونقل لي بعض الطلبة عن الركراكي بالقيروان وكان صالحا أنه قال: لا أماته الله على الإسلام إن كان يعتقد أنه مسلم.

(قال: فسألت الفقيه أبا عبد الله محمد بن محمد بن سلامة. فقال: مراده إن كان يعتقد أنه كامل الإسلام.

وقال لي شيخنا الفقيه أبو العباس أحمد بن إدريس: إنما أراد ما في حديث: «المسلم من سلم الناس من لسانه ويده»

قال ابن عرفة: والصواب أنه إن أراد: أنا مؤمن في الحال، لم يحتج إلى زيادة: إن شاء الله تعالى، وإن أراد المستقبل فلا بد من زيادة إن شاء الله، وهذه الآية إما خبر أو إنشاء فإن كانت خبرا فهو ماض لا يحتاج فيه إلا الاستثناء لأنه محقق عنده، وإن كان إنشاء فمدلولها حق صح الإخبار عنه على ما هو عليه من غير استثناء لأنه حق.

(ابن عرفة). والمسألة المتقدمة مذكورة في الفقه وفي المعالم الفقهية.

وقال أبو حيان: هنا في إبراهيم وإسماعيل (يجوز) أن يجمعا جمع سلامة فيقال: (ابراهيمون) وإسماعيلون.

قال ابن عرفة: كان بعضهم يمنع ذلك (فيه) لأنه عجمي. والله أعلم.

قال الزمخشري: والأسباط حفدة يعقوب عليه السلام (ذرارى) أبنائه الاثني عشر.

وقال ابن عطية: (هم أولاد) يعقوب وهم روبيل وشمعون ويهودا وداني ولاوى وكرد.

قلت: وتقدم لنا في الختمة التي قبل هذه قال بعض الطلبة لابن عرفة: ما **الحكمة في** تخصيص أول الآية بلفظ الإنزال و (ثانيها) بالإيتاء؟

فقال: لفظ الإنزال صريح فيما أنزل من أعلى إلى أسفل، ولفظ الإيتاء محتمل لأن يكون من اليمين والشمال والأمام والعلو، والنصارى (مؤمنون) بما أنزل على عيسى، واليهود (مؤمنون) بما أنزل على موسى لأنهم لا احتمال عندهم فيه ولا شك، ولما كانوا شاكين في المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آل إبراهيم وما بعده وبعضهم يدعي أنهم (تلقوه) من الكهان، أتى فيه باللفظ الصريح الدال على نزوله من أعلى

إلى أسفل ولهذا قال: {ومآ أوتي النبيون من ربهم} لينفي هذا الاحتمال، فعورض بوجهين: ـ." (١)

"قوله تعالى: {وله ذرية ضعفآء ... }.

بيان لتمام الحاجة (إلى) ثمر الجنة أو هو احتراس لأن من بلغ الكبر يكفيه ذرية ينفقون عليه ولا يحتاج إلى أحد.

قوله تعالى: {من طيبات ما كسبتم ... }.

يحتمل المستلذات فيعم الحلال و (غيره) إلا أن يريد المستلذ بقيد كونه (حلالا) أو يقال بالعموم لأن الغاصب إذا زكى ماغصب (يجزى) عن ربه ولكن ذلك بعد الوقوع، وأما ابتداء (فيؤمر) برده إلى ربه، وقيل: الطيب الحلال هنا.

(وقوله): {وممآ أخرجنا لكم من الأرض}.

إشارة إلى الحقيقة وأن الكسب إنما هو سبب (لا مؤثر)، لأن ما أخرج من الأرض يدخل في الكسب فهو عطف خاص على عام أو مقيد على مطلق.

قوله تعالى: {ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ... }.

إما الحرام أو ما تكرهون على التأويلين في الطيب.

قال ابن عرفة: وعندي أن الإنسان إذا كانت عنده كسرة باردة وأخرى سخنة وهو يكره الباردة فتصدق بها يدخل في هذا.

قوله تعالى: {واعلموا أن الله غني حميد}.

احتراس أن تتوهموا أن الصدقة بهذا يحصل بها نفع للآمر بل النفع لمخرجها فقط.

قوله تعالى: {يؤتي الحكمة من يشآء}.

قال ابن عرفة: الظاهر أن المراد به الفقه والعمل به.

قوله تعالى: {إن تبدوا الصدقات فنعما هي ... }.

ابن عطية: هي تفسير / الفاعل المضمر قبل الذكر. والتقدير: نعم شيء إبداؤها.

قال ابن عرفة: وكان بعضهم يقول: غير هذا. وهو أن المازري ذكر في قوله صلى الله عليه وسلم «هذا

---

(١) تفسير ابن عرفة النسخة الكاملة، ابن عرفة ١/١٧٤

وضوء لا يقبل الله الصلاة إلا به».

الخلاف هل هو إشارة للفعل فقط أو للفعل بصفته (فكذلك)

يجيء هنا إن عاد الضمير على الصدقات بصفتها لم يحتج إلى هذا الإضمار والقرينة هنا تعين أن المراد الصفة، وهي قرينة التقسيم بين الإخفاء والإظهار

قيل لابن عرفة: لعل القرينة هي المفسرة للمضمر؟

فقال: ثبت أن المراد هنا (الصدقة) بصفتها وإنما ثبت استعمال اللفظ في معنى ودار (الأمر) بين صرفه ذلك المعنى إلى القرينة أو إلى نفس اللفظ فصرفه إلى نفس اللفظ أولى.." (١)

"قوله تعالى: {وإن تخفوها وتؤتوها الفقرآء ... }.

قال ابن عرفة: لم يقل أو تبدوها وتؤتوها الفقراء.

وعادتهم يجيبون: بأنك إظهارها مظنة الكشف عن حال آخذها، وكثرة السؤال عنه وإخفاؤها مظنة لعدم الكشف عن ذلك فإعطاؤها في العلانية متوقف على علم المعطي وغيره بفقر آخذها فلا تقع إلا في يد فقير لأنه إما أن يسأل عن حاله أو يراه من يعلم أنه غني فينهاه عن الصدقة عليه وإعطاؤها (سرا) يتوقف على مجرد علم المعطي فقط بذلك، فقد تقع في يد غني يظنه المعطي فقيرا لأنه لا يسأل عن حاله ولا يطلع عليه من يعرف حاله فيخبره بحاله فلذلك قال في الثاني: {وتؤتوها الفقرآء}.

قوله تعالى: {ليس عليك هداهم ... }.

قال ابن عرفة: الخطاب خاص بالنبي صلى الله عليه وسلم أو عام له ولسائر المؤمنين كقوله تعالى: {ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رءوسهم عند ربهم} {ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم} وهو راجع إلى الخلاف الذي (حكاه) ابن عطية لأن ما نقله عن سعيد بن جبير وعن النقاش يقتضي الخصوص وما نقله عن ابن عباس يقتضي العموم.

قال ابن عرفة: وعلى تقدير الخصوص يستلزم العموم فهو خصوص لأنه إذا رفع التكليف عن النبي صلى الله عليه وسلم الذي هو رسول مأمور بالتبليغ والدعاء إلى الإيمان فأحرى أن يرفع عن من سواه.

قال ابن عطية: ذكر النقاش أن النبي صلى الله عليه وسلم أتى بصدقة فجاءه يهودي فقال: أعطني. فقال له عليه الصلاة والسلام : «ليس لك من صدقة المسلمين شيء» فذهب اليهودي غير بعيد فنزلت الآية،

---

(١) تفسير ابن عرفة النسخة الكاملة، ابن عرفة ٣٢٢/١

فدعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم أعطاه، ثم نسخ الله ذلك بقوله: {إنما الصدقات للفقرآء والمساكين} قال ابن عرفة: هذا ليس بنسخ ولكن المتقدمين يطلقون عليه نسخا والمتأخرين يقولون: العام إن عمل به ثم ورد بعد ذلك خاص فهو نسخ له وإن ورد الخاص بعده وقبل العمل به فهو تخصيص لا نسخ.

قال ابن عطية: والهدى المنفي هو خلق الإيمان في قلوبهم، وأما الهدى الذي هو الدعاء إلى الإيمان فهو عليه.

قال ابن عرفة: أما خلق الهدى (فمنفي) معلوم بالضرورة لا يحتاج إلى نفيه، وأما الدعاء إلى الإيمان فغير منفي، ويبقى قسم ثالث وهو الدعاء المحصل للإيمان الكسبي لا الجبري فيقال هديث فلانا إلى الإيمان، أي دعوته إليه فاهتدى بخلاف ما إذا دعوته إليه فلم يهتد فإنك لا تقول: هديته إلى الإيمان، فهذا هو المنفي في الآية، أي ليس مطلوبا بتحصيل الهداية الكسبية لهم إنما عليك أن تدعوهم فقط، والإضافة على ما قلناه للمفعول. أي ليس عليك أن تهديهم.

قيل لابن عرفة: لعل المراد لا يجب عليك أن تهديهم إلى الإيمان؟ فرده بقول الله تعالى: {ولكن الله يهدي من يشآء} فإنه ليس المراد به الجبر على الإيمان بل خلق الهداية.

قال ابن عرفة: وهذا تسكين لروعته لأنه مضى قبل الآية مقدار ربع حزب في الحض على الصدقة، وعلى (خلوص) النية، وكرر ذلك وأكد فخشي أن يتهالك عليه النبي صلى الله عليه وسلم لأجل عدم امتثالهم فأتت هذه الآية تسكينا لروعته وتطمينا لجنانه.

قوله تعالى: {ولكن الله يهدي من يشآء ... }.

فالتشديد كما في قوله تعالى: {ولكن الله رمى} وفي بعضها ولكن بالتخفيف. وسبب ذلك أنه إذا كان المخاطب منكرا وظهرت عليه مخائل الإنكار فيؤتي بها مشددة.

ابن عرفة: وهذا أعم من قول الله تعالى: {إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشآء} (فإن عليك أن تهدي من أحببت) أخص من قولك أنت تهدي من أحببت، ونفي الأخص أعم من نفي الأعم.

فان قلت: الأصل في نسبة المتكلم إلى نفسه فعلا أن يأتي باسمه مضمرا فيقول: ليس عليك إكرام محمد ولكنه علي، ولا تقول: ولكنه على زيد، يعني نفسه.

قال: وتقدم لنا الجواب بأنه لما كان المعنى خاصا بالله تعالى أتى فيه باسم الجلالة الخاص به ولو قال:

ولكنا نهدي من نشاء لكان عاما لأن الضمائر كلية.

قلت: ولأن النون والالف تكون للمتكلم وحده إذا عظم نفسه وللمتكلم ومعه غيره بخلاف / اسم الجلالة فإنه خاص بلا شك.

قوله تعالى: {وما تنفقون إلا ابتغآء وجه الله ... }.

يحتمل أن تكون الواو واو الحال (أى) وما تنفقوا من (خير) فلأنفسكم حالة كونهم يقصدون به وجه الله وهذا خبر في معنى الطلب (أو) الأمر أو النهي. انتهى.

قوله تعالى: {وما تنفقوا من خير يوف إليكم وأنتم لا تظلمون}.

تأسيس، والمراد بالتوفية في المقدار وعدم الظلم في الصفة لأن من لك عليه طعام موصوف تارة يعطيك مثل الصفة وأقل في المقدار، وتارة يعطيك مثل القدر (وأدون) في الصفة.

قوله تعالى: {للفقرآء الذين أحصروا في سبيل الله ... }.

قال الزمخشري: أي اعمدوا للفقراء او جعلوا ما تنفقون للفقراء. ويجوز أن يكون خبر متبدإ (محذوف) أي صدقاتكم للفقراء.

قال ابن عرفة: المقدرات باعتبار المعنى متفقة وباعتبار كيفية الدليل مختلفة «وسبيل الله» قال مالك في كتاب الحبس: هو وجوه الخير. بالإطلاق كيف ما كانت.

وقال ابن عبد البر: المشهور عن مالك أنه الجهاد.

قوله تعالى: {أغنيآء من التعفف ... }.

ولم يقل: من تعففهم إشارة إلى اتصافهم بأبلغ وجوه التعفف لأن تعفف المحتاج (المضطر) إلى المسألة ليس كتعفف من لم تبلغ

به الحاجة إلى السؤال فأفاد أن هؤلاء لم يتصفوا بتعففهم اللائق بهم بل اتصفوا بالتعفف الإجمالي.

قوله تعالى: {تعرفهم بسيماهم}.

الخطاب له ولغيره.

قوله تعالى: {لا يسئلون الناس إلحافا ... }.

ونقل هنا ابن عرفة كلام المفسرين ثم قال: ويحتمل أن يكون مثل {وما ربك بظلام للعبيد} أي لو قدر صدور السؤال منهم لما قدر وقوعه إلا بالإلحاف لأجل ما نالهم من الجهد والحاجة، ويحتمل أن يكون

مثل قول الله تعالى {لا يحزنهم الفزع الأكبر} فيكون من باب (نفي) استلزام الأخص أمرا وإذا لم يستلزم الأخص أمرا لم يستلزمه الأعم. والمعنى: لا يسألون الناس لأجل الإلحاف (في السؤال) أي لأجل سبب الإلحاف وهو شدة الحاجة وإذا لم يسألوهم لأجل شدة الحاجة فأحرى أن لا يسألوهم لأجل سبب عدم الإلحاف وهو مطلق الحاجة فقط.

قال الفخر بن الخطيب يحتمل أن يراد بالإلحاف (تأكيد) صبرهم.

قال ابن عرفة: ينبغي أن يوقف على قوله: {لا يسئلون الناس إلحافا} مصدر، أي يلحفون إلحافا، أي يبلغون في شدة صبرهم وتجلدهم على الفقر. انتهى.

قوله تعالى: {وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم}.

قال ابن عرفة: قالوا: إن العبد يفرق بين حالة طاعته لسيده وهو حاضر ينظر إليه وبين حالة طاعته له في غيبته فمع الحضور يجتهد أكثر.

قيل لابن عرفة: إذا بنينا على مذهب أهل السنة في التفريق بين (عليم وبصير) فيرد السؤال على ما قلت، فيقال: هلا قيل: فإن الله به بصير فهو أخص من (عليم) خلافا للمعتزلة؟ فقال: الآية خطاب للعوام لا للخواص وصفة العلم عندهم (أجلى) اذ لا خلاف فيها، بخلاف بصير فإن منهم من رده لعليم ومنهم من أبقاه على ظاهره.

قوله تعالى: {الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار ... }.

قال ابن عطية: عن ابن عباس رضي الله عنهما نزلت في علي ابن أبي طالب كرم الله وجهه كانت له أربعة دراهم تصدق بدرهم ليلا وبدرهم نهارا وبدرهم سرا وبدرهم علانية.

قيل لابن عرفة: التصدق بالليل والنهار لايخرج عن كونه سرا (أو) علانية؟

(فقال: لا يصح الاعتراض على السبب وإنما النظر في ذلك عند تطبيق السبب على لفظ الآية، ويفهم هذا بأنه قسمة رباعية فتصدق (بدرهم) بالليل سرا وبدرهم علانية وفي النهار بدرهم سرا وبدرهم علانية).

قال: هو في الآية عندي تفسير «سرا» راجع لليل، «وعلانية» للنهار، بدليل إتيان السر غير معطوف.

قال: وعادتهم يقولون لأي شيء قدم السر على العلانية مع أن نفقة السر أفضل من نفقة العلانية. فهلا بدأ بالعلانية ليكون العطف ترقيا لا تدليا لأن عطف الترقي فيه تأسيس وعطف التدلي فيه ضرب من التأكيد؟

قال: فكانوا يجيبون بقاعدة استصحاب الحال، وذلك لأن نفقة السر أفضل من نفقة العلانية لخلوص النية

فيها فإذا أنفق أولا سرا بنية خالصة واستصحب تلك النية بعينها في نفقة الجهر (فإنفاق) الجهر بتلك النية الخالصة الغير المشوبة بشيء من الرياء كان في أعلى درجات الطاعة فروعي فيه هذا المعنى فكان ترقيا.

قوله تعالى: {فلهم أجرهم عند ربهم ... }.

ولم يقل: فلهم أجر، لأن المراد أجرهم اللائق بهم ولو قيل: فلهم أجر لكان مفهومه أن من فعل دون ذلك لا أجر له مع أنه يؤجر.

قال ابن عطية: ودخلت الفاء لأن الموصول وصل بالفعل ولم يدخل عليه بغير معناه.

قال أبو حيان: وكذلك أيضا إذا كانت الصلة ظرفا أو مجرورا.

وكذا ذكر ابن عصفور في المقرب وشرح الإيضاح.

فإن قلت: إن الظرف المجرور محل والتعليل عند الأصوليين (إنما يكون) بالصفة لا بالمحل.

فالجواب: إن المحل هنا ناب مناب متعلقة وهو كائن أو مستقر الذي هو صفة وتقوى هنا حتى صار كأنه هو ولذلك لا يجوز الجمع بينهما.

قال أبو حيان: ومن شروط دخول الفاء أن يكون الخبر مستحقا بالصلة كهذه الآية.

ورده ابن عرفة: بأنه ما علم كونه سببا إلا بعد دخول الفاء لا قبلها فكونه مستحقا بالصلة فرع عن دخول الفاء فلا يصح أن يكون شرطا فيها وموجبا لها.

وأجيب بأن هذا بالنسبة إلى السامع وكلامنا في دخول الفاء بالنسبة إلى قصد المتكلم ونيته.

وعادتهم يردون على كلام أبي حيان بقوله {الذي خلقني فهو يهدين} فإن نفس الخلق غير موجب للهداية وإلا لزم منه مذهب المعتزلة القائلين بمراعاة (الأصلح)، وعادتهم يجيبون بأن المراد: الذي خلقني هذا الخلق الخاص على هذه الصفة وهي النبوءة فهو يهدين، وتقدم نظيره في قول الله تعالى {أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى} وفي سورة قد أفلح {فمن ثقلت موازينه} قال ابن عرفة: فإن قلت: ما الحكمة في دخول الفاء مع أنه (يجوز) الذي يأتيني له درهم. والمعنى فيه وغير ما فيه الفاء واحد، وكذلك (إن قلت) النفقة هنا (مستلزمة) لثبوت." (١)

(١) تفسير ابن عرفة النسخة الكاملة، ابن عرفة ٣٢٣/١

"قال ابن عرفة: من قرأ بتاء الخطاب فمعناه قل للكفار جميعا ستغلبون.

ابن عرفة: واللام للتعدية ومن قرأها بالياء، فمعناه قل لهؤلاء اليهود سنغلب نحن قريتنا، أو قل لهم كلاما هذا معناه.

ابن عرفة: واللام على هذا إما للتعدية أو للتعليل، أي قل لليهود لأجل الذين كفروا ستغلبون.

ابن عرفة: وقال بعضهم من قرأها بياء الغيبة راعى حال المرسل فهم غائبون عنه في الظاهر، ومن قرأها بتاء الخطاب راعى حال الرسول فهم بين يديه.

ابن عرفة: أو يقال هل أمر بتغليب المعنى أو اللفظ، قلت: وقريبا منه الزمخشري: قيل لابن عرفة: لا خلاف في إنا متعبدون بألفاظ القرآن، ولا يجوز تبديلها بغيرها، فقال: هذا بالنسبة إلينا، وأما بالنسبة إلى النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم مع الكفار فلا.

قال ابن عرفة: وعادتهم يوردون فيها سؤالا وهو ما **الحكمة في** إتيان الفعل مبنيا للمفعول مع أن الأولى هنا ذكر الفاعل لاسيما مع ما ذكر ابن عطية، وغيره: من أن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم لما غلب قريشا ببدر، قالت: اليهود هذا هو النبي الذي في كتابنا الذي لا يهزم له راية فلما كانت وقعة أحد كفروا جميعهم، وقالوا ليس بالنبي المنصور، فكان الأولى أن يذكر فاعل الغلبة؛ لأنهم نعم يقولون: غلبنا غيرك، فهو النبي الحقيقي لا أنت.

قال ابن عرفة: وعادة بعضهم يجيب بأن هذا تشبيه على ذم الدعوى، وتنفير منها على جهة التعليم للقياس، وإنه لا ينبغي لأحد أن يدعي شيئا، وتلا قوله تعالى: في سورة النمل، (قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإني عليه لقوي أمين (٣٩) قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك). قال ابن الخطيب: وفي الآية حجة لجواز تكليف ما لا يطاق؛ لأنهم خوطبوا بأنهم مغرۏبون معذبون ومع هذا مكلفون بالإيمان، فقال ابن عرفة: قد تقدم نظيره في قضية أبي لهب، وتقدم الجواب عنه.

قيل لابن عرفة: ما ذاك يغني ومأمور بأن يؤمن بالنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، إيمانا جمليا من غير تفصيل فهذا أشد لكونه أمر بأن يقول لهم هذه المقالة ويدعوهم إلى الإيمان إلا أن يجاب بأن المراد ستغلون إن دمتم على دينكم أن وصف." (١)

---

(١) تفسير ابن عرفة النسخة الكاملة، ابن عرفة ١/٣٥٢

"بالباطل على ما فسروه، لأن الكافر قد يلبس بخلط التوراة بغيرها، وقد لا يفعل ذلك، وإلباس الحق بالباطل أخص؛ لأنه كفر بلا شك.

قال ابن عرفة: وتقدم لنا الجواب: بأن مقام الذم يقصد فيه الإطناب والمبالغة، لأنه يقتضي تكرار الذم بعد أخرى، فذموا على إلباس الحق بالباطل، بالمطابقة وباللزوم وهذا أبلغ في الذم قصدا للتغيير على الكفر، والإبعاد.

قوله تعالى: {وقالت طائفة من أهل الكتاب ... (٧٢)}

لما تضمن الكلام السابق ذمهم على الكفر وإلباس الحق بالباطل، عقبه بيان بعض الجزئيات الذي لبسوا فيها الحق بالباطل، وهذه الآية إن كانت نزلت بعد الآية المتقدمة بمهملة وتراخ، فذكر أهل الكتاب فيها بلفظ الظاهر دون [المضمر*]، وإن كانت نزلت عقبيها فكان الأصل أن يعبر فيها عن أهل الكتاب، بالمضمر لتقدم ذكرهم، لكن قالوا **الحكمة في** تكرار الاسم بلفظ الظاهر دون المضمر وجهان: إما التعظيم والتفخيم، كقوله: لا أرى الموت ذا الغناء والفقير، وإما للتخفيف مبالغة في الذم؛ لأن الضمير كلي والظاهر جزئي فأعيد بلفظه تحقيقا لوقوع هذه المقالة الذميمة الخبيثة منهم والقول، إما من الرؤساء للعوام، أو من بعضهم لبعض.

قوله تعالى: {ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم قل إن الهدى هدى الله (٧٣)}

قال ابن عطية: إن (قل إن الهدى هدى الله) جملة اعتراض، وهذا صعب وأكثر ما يكون ذلك حيث يكون المتكلم بذلك كله شخصا واحدا، وهذان الجملتان من كلام شخص، والجملة المعترضة بينهما من كلام غيره فيحتاج إلى دعامة.

ابن عرفة: ومنهم من قال: إن الأخيرة من كلامهم على إضمار، أي فعلنا ذلك أن يؤتي أحد مثل ما أوتيتم استفهاما ما في معنى النفي، بدليل قراءة ابن كثير أن يؤتي بالمدلات أن إرادة الاستفهام كثيرا تحذف، وبدليل لفظه أحد وهي لا يستعمل إلا في النفي فالكلام، تم عند قوله: (قل إن الهدى هدى الله) جملة اعتراض، ثم قال: هل (يؤتى أحد مثل ما أوتيتم) يا أمة محمد بل الهدى الذي أوتيتموه، لم يؤته أحد من الأمم قبلكم، وهيهات أن يكون لهم حجة عليكم عند ربكم بأن يقولوا: أوتينا ما لم يؤتوه، ولا يكون ذلك موجه وفي كلام المعربين إشارة إلى هذا.

قوله تعالى: {يختص برحمته من يشاء ... (٧٤)}." (١)

"وقال قوم آخرون: لو قلت: فإنك أنت الغفور الرحيم دل ذلك على أن [غرضه*] تفويض الأمر بالكلية إلى الله تعالى، وترك التعرض لهذا [...] من جميع الوجوه، انتهى.

قال ابن عطاء الله في لطائف المنى: إن الشيخ أبا العباس قال: إنما عدل عن قوله: فإنك أنت الغفور الرحيم إلى قوله: العزيز الحكيم؛ لأنه لو قال: وإن تغفر لهم فإنك أنت الغفور الرحيم لكان شفاعة من عيسى عليه السلام لهم في المغفرة، ولا شفاعة في كافر؛ ولأنه عبد من دون الله فاستحيا من الشفاعة هذه وقد اعتذر عنه، انتهى.

ابن عرفة: كان الفقيه حازم كاتب المستنصر أمير المؤمنين يرى الوقف على قوله تعالى: (وإن تغفر لهم) [ويبتدئ*] (فإنك أنت العزيز الحكيم) لاعتقاده أن (فإنك أنت العزيز الحكيم) مستأنف لا جوابا لشرط، وقال: إنما يكون جوابا لو كان فإنك أنت الغفور الرحيم.

وكان ابن عبد السلام يستحسنه، قال: وما قالاه ليس بشيء ولا يصح الوقف إلا بعد الحكيم عندي؛ لأن (فإنك أنت العزيز الحكيم) هو الجواب، قال: وعندي في ذلك مسألة النحويين من أن حرف الشرط إذا دخل على المستقبل وجب ذكر جوابه بخلاف دخوله على الماضي فإنه يجوز حينئذ ذكره وحذفه، قلت: على الفقيه حازم أيضا من وجه آخر، وذلك؛ لأن حاصل ما يدعيه أن قوله (وإن تغفر لهم) لا يناسب (فإنك أنت العزيز الحكيم) والحق أنه مناسب مناسبة لطيفة تخفى على الأكثر، ولذلك قال علماء البيان في هذه الآية الكريمة أنها من خفي تشابه الأطراف، فإن قلت: ما حقيقة تشابه الأطراف؟ قلت: هو أن يختم الكلام بما يناسب أوله في المعنى، فإن قلت: كيف ختم الكلام في هذه الآية الكريمة بما يناسب أوله في المعنى؟ قلت: قال القزويني في إيضاحه: إن العزيز هو الغالب من قولهم: من [عز بز*] أي من غلب [استلب*]، والغالب على الحقيقة هو ليس فوقه أحد يرد عليه حكمه، والحكيم هو الذي يضع الأشياء في محلها والله تعالى كذلك إلا أنه قد يخفي وجه **الحكمة في** بعض أفعاله يتوهم بعض الضعفاء أنه خارج

(١) تفسير ابن عرفة النسخة الكاملة، ابن عرفة ٣٧٢/١

عن الحكمة، وإذا فهمت معنى هذين الصفتين علمت أن الواجب ما عليه التلاوة، والمتصف بهذين الوصفين هو الذي." (١)

"قوله تعالى: {ولو شاء الله لجمعهم على الهدى ... (٣٥)}

المراد الهداية بالفعل واعتزل [المهدوي*] هنا، فقال: لاضطرهم إلى الهداية فاهتدوا.

قيل لابن عرفة: قال بعضهم: لو شاء الله لنصب لهم الدلائل المتوسطة ليظهر **الحكمة في** ذلك فيؤمن بعضهم ويكفر بعضهم فيقع الثواب والعقاب بسبب.

قوله تعالى: (فلا تكونن من الجاهلين).

وقال لنوح: (إني أعظك أن تكون من الجاهلين) فأورد المفسرون سؤالا من ناحية أن [الخطاب للنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم*]، والمراد أمته، وإما أن نوحا خوطب بهذا السند وسببه، وإما لأن القريب المحبوب ليشدد عليه النهي أكثر ممن ليس كذلك كراهة أن يقع المحظور، قلت: ونحوه نقل القاضي عياض في مداركه عن بعضهم لمن عرف بالسهروردي المالكي فقيه بغداد، وأنشدوا:

[لا تصيب*] الصديق قارعة التأنيب ... إلا من الصديق الرغيب

وأخبر ابن عطية بأن الأمر الذي نهى عنه نبينا صلى الله عليه وعلى آله وسلم أكبر وأعظم من الذي نهى عنه نوح عليه السلام، فكان النهي في [الأمرين اللذين وقع النهي عنهما والعتاب فيهما*] بحسب تعلقه (١)، ابن عرفة: وعادتهم يجيبون بوجهين:

أحدهما أن نوحا خوطب بهذا حيث لم يكن هنالك كفار بوجه؛ لأنه خوطب به بعد أن غرق الكفار، ولم يبق سوى هو وقومه، والنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم خوطب بذلك في محل الكفار. [ليعتبروا*] بهم، فشدد عليه في النهي لينزجر الكفار ويتعظوا.

الثاني: أن هذا ينتج العكس سواء، فيعجل نهيه مقرونا بالتخويف، لقوله (إني أعظك) هو أكثر من نهي النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، قلت: وكذا قال القاضي عياض في مداركه لما ذكر ما نقلنا عنه، ثم قال: والصحيح أن الآيتين بمعنى وانظر كتاب الشفاء لعياض.

قوله تعالى: {إنما يستجيب الذين يسمعون والموتى ... (٣٦)}

---

(١) تفسير ابن عرفة النسخة الكاملة، ابن عرفة ٢/١٣٩

قال ابن عرفة: هذا يحتمل وجهين:

---

(١) قال القاضي أبو محمد: والوجه القوي عندي في الآية هو أن ذلك لم يجئ بحسب النبيين، وإنما جاء بحسب الأمرين اللذين وقع النهي عنهما والعتاب فيهما، وبين أن الأمر الذي نهى عنه محمد صلى الله عليه وسلم أكبر قدرا وأخطر مواقعة من الأمر الذي واقعه نوح صلى الله عليه وسلم. اهـ (المحرر الوجيز. ٢/ ٢٨٨)..". (١)

"والثاني: أنه أمر بالتسمية بناء على أن الأمر بالشيء أمر بما لا يتم ذلك الشيء إلا به كالأمر بالأكل مما ذكر اسم الله أمر بالتسمية عليه عند الذبح.

قوله تعالى: (إلا ما اضطررتم إليه).

الاستثناء إما متصل أو منفصل، فإن كان متصلا فهو مستثنى من الضمير القائم مقام الفاعل في (حرم عليكم) على قراءة البناء للمفعول، أو في الضمير للمفعول به على قراءة البناء للفاعل ..

قوله تعالى: (بأهوائهم بغير علم).

قال ابن عرفة: الفعل على الميتة أقسام فإن كان لمجرد هوى النفس من غير اتباع علم لم يجز، وإن كان لمجرد العلم من غير اتباع هوى فهو المطلوب المثاب عليه وإن كان لهما معا فإن كان الوارد على فعله هوى النفس فهو مأثوم بما فعل منها كالقاضي يحكم بالحق تشيعا فيه وإذا كان الوارد على فعله العلم فهو جائز.

قوله تعالى: {وذروا ظاهر الإثم وباطنه ... (١٢٠)}

قالوا: ورود النهي عن الشيء بصيغة لا تفعل أبلغ من وروده بصيغة اترك، فقولك: لا تقم أبلغ من قولك: اترك القيام فما الحكمة في العدول عنها في هذه الآية، قال: وأجيب بأن ذلك إنما هو إذا لم يعقب لك الأمر بجزاء يقتضي تأكيده، وهنا عقب الأمر بجزاء، ولا شك أن ترتيب الجزاء على الفعل باعتبار الوجود الخارجي أظهر من أن يغفل ترتيبه على الترك.

---

(١) تفسير ابن عرفة النسخة الكاملة، ابن عرفة ١٥٢/٢

قوله تعالى: {ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق ... (١٢١)}

قال ابن عرفة: الآية دليل على أن الاسم غير المسمى؛ لأنه ما المراد هنا إلا الذكر اللفظي واختلفوا، فقال بعضهم: الآية إنما هي في الميتة وحجته أن المفسرين ذكروا في سبب نزولها أن الكفار قالوا: كيف تأكلون مما قتلتم ولا تأكلون مما قتله الله؟؛ فنزلت الآية ردا عليهم؛ فدل على أن المراد بما مات حتف أنفه لا ما ذبح ولم يسم عليه.

قوله تعالى: (وإنه لفسق).

قال ابن عرفة: القاعدة أن يأتوا به مفصولا لا موصولا بحرف العطف، قال: والجواب أن الأول أتى للتعليل؛ لأن ذكره الوصف المناسب عقيب الحكم يشعر بكونه علة للحكم؛ فلذلك عطف عليه هذا ليفيد أن الحكم معلل بعلتين:." (١)

"وهذا يسأل عن كذا وجوابه كذا، فيأتي بأحسن الجواب، فكتبت له وأنا صغير: ما **الحكمة في** أن الله تعالى قال مخبرا عن إبليس (ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم) ولم يقل: من فوقهم ولا من تحتهم؟، فلما بلغ إليها، قال: يا حبيبي هكذا قد مكنه الله تعالى من أربع جهات تكون تسعمائة وتسعين إلى النار وواحدة إلى الجنة، فكيف لو جاء من الجهات كلها ما رأى أحد الجنة أبدا، ولكن إذا غشي من الجهات الأربعة غشيت الرحمة من فوقنا وثبتتنا السكينة من أقدامنا فنجونا، فعجبت من قوله: يا حبيبي إذ نادى مناداة الصبيان وهذا يسمونه الكلام على الخواطر.

قوله تعالى: {قال اخرج منها مذءوما مدحورا ... (١٨)}

قال ابن عرفة: كان بعضهم يقول: إن كانت الذءامة والدحور أخص من الصغار فهو تأسيس، وإلا فالجواب بأن قوله بـ (إنك من الصاغرين) مطلق يقتضي اتصافه بذلك وقياما.

قوله تعالى: (مذءوما مدحورا).

فإذا اتصافه بذلك في الحال، و (مذءوما) راجع لأمر حسي، (مدحورا) لأمر معنوي.

قوله تعالى: (لأملأن جهنم منكم أجمعين).

معارض بقوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: "إنها تمتلئ حتى يضع الجبار فيها قدمه فتقول: قط قط

---

(١) تفسير ابن عرفة النسخة الكاملة، ابن عرفة ١٨٧/٢

وعزتك، ويزوى بعضها إلى بعض".
أخرجه مسلم، عن همام بن منبه، عن أبي هريرة، عنه صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وعن قتادة، عن أنس بن مالك، عنه صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وأجيب بأن القاضي عياض، قال: حكوا فيها تأويلات:
أحدها: أن القدم عبارة عن السابق المتقدم حتى يضع فيها من قدم من أهل العذاب، قال تعالى (وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم) وقيل: القدم عبارة عن طائفة يخلقهم الله في الآخرة لها يسميهم قدما فلا تملأ إلا بهم، وقيل: المراد بالجبار السلطان أو أحد الجبابرة المتقدمين، وعلى رواية رجله يحتمل أن يريد الجماعة، يقال: رجل من جراد أي مثل جماعة منه، ويحتمل أن يريد بقوله تعالى: (لأملأن) كثرة الداخلين لا ملأها حقيقة.

قوله تعالى: {ليبدي لهما ما ووري عنهما ... (٢٠)}." (١)
"فمن حمله على اعتقاد قلنا: وأصل هذا الاستدلال يتقرر على ما تقرر في علم المنطق من أن المقدمة الشرطية لا تتعدد بتعدد مقدمها، هنا مثله بتأصله، وقد يقال: إن هذا الاستدلال إنما ينتج أنه لا يخلى سبيلهم، وذلك أعم من القتل، وما ذكره معه في أول الآية ولم يذكر في الآية الصوم والحج، فمع كونها من آخر ما أنزل، وكان الحج فذكر هو لأن المذكور أهمها.

قوله تعالى: {وإن أحد ... (٦)}
الزمخشري: (أحد) مرتفع بفعل الشرط مضمرا يفسره الظاهر؛ تقديره: وإن استجارك أحد.
الفخر: (١) فإن قيل: لما كان التقدير ما ذكرتم فما **الحكمة في** ترك هذا الترتيب الحقيقي؟، قلنا: **الحكمة فيه** ما ذكر سيبويه وهو أنهم يقدمون الأهم، ولما كان ظاهر الدليل يقتضي إباحة دم كل واحد من المشركين، فقدم ذكره ليدل على مزيد العناية لصون دمه عن الإهدار، وفي الآية دليل عى أن التقليد [غير كاف في الدين*]، وأنه لا بد من النظر والاستدلال؛ لأنه لو كان التقليد كافيا لوجب أن لا [يمهل*]؛ بل يقال إما أن تؤمن، وإما أن [نقتلك*]، وليس في الآية ما يدل على مقدار هذه المسألة المهملة، ويرجع في ذلك إلى العرف بحسب حال الشخص، والمذكور في الآية كونه طالبا لسماع الدلائل، والجواب عن الشبهات؛

---
(١) تفسير ابن عرفة النسخة الكاملة، ابن عرفة ٢/٢١٦

والدليل عليه أنه تعالى علل وجوب تلك [الإجارة*] بكونه غير عالم، والمعنى [فمتى ظهر على المشرك علامات كونه طالبا*] للعلم مسترشدا للحق، وكل من حصلت فيه هذه العلة وجبت [إجارته*]، وليس في الآية ما يدل، هل المراد سماعه جميع القرآن أو بعضه؟ والظاهر ما يحصل لديه العلم غالبا، والحربي إذا دخل دار الإسلام كان [معصوما*] مع ماله إلا أن يدخل مستجيرا لغرض شرعي أو لتجارة أو رسولا أو ليأخذ ماله بدار الإسلام، وكما له أمان فأمان ماله أمان له، وانظر كلام مكي في الهداية في هذا الوجه حيث تكلم على إضافة كلام الله فهو مشكل؛ لأنه قال: إضافة [تخصيص*] بمعنى القيام به ليست إضافة ملك لملك ولا خلق لخالق، ولا إضافة تشريف؛ بل بمعنى إرادته غير متعدية عنه؛ فافهمه. قوله بمعنى إرادته؛ أي بمعنى إضافة الإرادة إليه في كونها غير متعدية عنه لا كما تقوله المعتزلة أنه تعالى خلق الكلام في السجود، هذا تقدير كلامه وبيانه على مذهب أهل السنة، وانظر ما ذكر أبو حيان من لزوم تقدير الضمير بعد حتى هو غير لازم بل القدر الفعل، ونص كلامه: حتى متعلقه بـ (أجره) ولا يصح تعلقها بـ (استجارك) على أنه من باب الشارع؛ لأنه لو أعمل الأول لا ضمير في الثاني، وحتى لا يجر المضمر وعند من يجر بها يصح كونه من باب الشارع، انتهى.

---

(١) النص في مفاتيح الغيب هكذا:

"اعلم أن هذه الآية تدل على أن التقليد غير كاف في الدين وأنه لا بد من النظر والاستدلال، وذلك لأنه لو كان التقليد كافيا، لوجب أن لا يمهل هذا الكافر، بل يقال له إما أن تؤمن، وإما أن نقتلك فلما لم يقل له ذلك، بل أمهلناه وأزلنا الخوف عنه ووجب علينا أن نبلغه مأمنه علمنا أن ذلك إنما كان لأجل أن التقليد في الدين غير كاف، بل لا بد من الحجة والدليل فأمهلناه وأخرناه ليحصل له مهلة النظر والاستدلال.

إذا ثبت هذا فنقول: ليس في الآية ما يدل على أن مقدار هذه المهلة كم يكون ولعله لا يعرف مقداره إلا بالعرف، فمتى ظهر على المشرك علامات كونه طالبا للحق باحثا عن وجه الاستدلال أمهل وترك ومتى ظهر عليه كونه معرضا عن الحق دافعا للزمان بالأكاذيب لم يلتفت إليه والله أعلم." اهـ (مفاتيح الغيب. ١٥/ ٥٣٠ - ٥٣١).." (١)

---

(١) تفسير ابن عرفة النسخة الكاملة، ابن عرفة ٢٩٧/٢

"قلت لابن عرفة: هلا قال إن مولاي بما تعملون محيط؛ لأنه لفظ يدل على القهر؟ فقال: من نصرك على عدوك فقد رحمك برحمته لشعيب.

قوله تعالى: (هؤلاء بناتي هن أطهر لكم).

قالوا: المراد جميع بنات آدم، وقيل: المراد بنات لوط عليه السلام؛ فأورد على هذا أنه لم يكن له غير ابنتين فقط، وقد قال: (وجاءه قومه يهرعون إليه) فكيف يعطي ابنتيه للجميع؟ فأجاب ابن عرفة بأن كلام لوط مع الأشراف الحاكمين على قومه، [ولم يخاطب بقوله*] (هؤلاء بناتي).

قوله تعالى: [(فأسر).

قرئ [فاسر*] من [سرى*]، و (فأسر) من [أسرى*]، فقيل: ما **الحكمة في** قوله: (بقطع من الليل) دون في والسري لا يكون إلا بالليل؟، فقال: ظاهر لفظ السري أنه في أول أزمنة الليل، فقال: يقطع من الليل ليفيد التوسعة، فإنه لو سرى قبل انقضاء آخر أزمنة الليل لعد متمهلا.

قوله تعالى: (ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك).

قرئ بالرفع بدل من أحد، قال ابن عطية: بل يلزم على القراءتين معا.

قال ابن عرفة: وهذا عندي غير صحيح؛ لأنه على قراءة الجزم يكون نهيا عن الالتفات والنهي عن الشيء يقتضي الإذن في ضده، بخلاف ما لو قرئ بالرفع فإنه يكون خبرا منفيا، ونفي الشيء لا يقتضي ما عداه، قال: إنه مثل قولهم: لا لنهي لوط أي لا تدع أحد منهم يلتفت، وحينئذ يصح الاستثناء ولا سؤال.

قوله تعالى: (واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه).

قال: لم أضاف الرب إليهم أولا ثم إليه ثانيا؟، فالجواب: أن الجملة طلبية فهو طلب منهم الاستغفار فناسب وصف الربوبية المقتضية للحنان والرأفة على طلب ذلك، والطلب لا يقتضي حصول الجملة، والجملة الثانية خبرية تقتضي حصول المخبر به لأنها مثبتة [...] لهم من الله رأفة ولا حنان فناسب إضافة الرب إليه في الخبر، وإضافته إليهم في الطلب [...] لا يقتضي حصول المطلوب؛ لأن الإنسان لا يطلب إلا ما لم يكن له حالا وقد يطلب ولا يحصل له شيء.." (١)

"بهذا العالم كإحاطة الجملة من يقلد بالسيف، وقيل: إنها سنة ممكنة ومن أجل ذلك وضعوا الاسطرلاب الحوتي الجنوبي، قال: والصحيح عندهم إنها كورية وإن السماء كورية.

---

(١) تفسير ابن عرفة النسخة الكاملة، ابن عرفة ٢/٣٦٧

قوله تعالى: {وهو الذي مد الأرض ... (٣)}

أي بسطها، ابن عرفة: استدل بعضهم بهذا على أن الأرض بسيطة ولا دليل له في ذلك لأن إقليدس الهندي قال: إن الكرة الحقيقية لا يكون إقامة الزوايا والخطوط عليها بوجه ونحن نجد الأرض يقام عليها الخطوط وغير ذلك وتراها مستوية وذلك من أول دليل على إنها وإن كانت كورية فإنها ليست كالكورية الحقيقية بل أعلاها مستو كبعض الكور التي تكون مسطحها مستويا.

قوله تعالى: (وجعل فيها رواسي)، (وجعلنا فيها رواسي شامخات) قلت لابن عرفة: ما الحكمة في الرواسي مع أن جعل الأرض وحدها من غير رواسي أبلغ في كمال قدرة الله تعالى لأنه ربما يتوهم المتوهم أن ثباتها لأجل الرواسي ولو كانت دونها لمالت بأهلها ولو ثبتت؟ فقال: أو [...] وهو أن [...] في غاية الثقل والأرض معها وهما في الفضاء يحملها نور على ظهر حوت تحملها معا أبلغ في كمال القدرة.

قوله تعالى: (وأنهارا).

قيل لابن عرفة: لم جمع الأنهار جمع قلة، والرواسي جمع كثرة، مع أن الأنهار فيما نشاهد أكثر من الرواسي؟ فأجيب: إما بأنها لم يسمع فيها إلا جمع القلة وإما إشارة إلى أن أنهار الدنيا على كثرتها بالنسبة إلى قدرة الله تعالى قليلة تافهة لأنه قادر على خلق أضعاف أضعافها.

قوله تعالى: (ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين).

قيل: إنه معطوف على قوله: (رواسي) فيكون متعلقها يجعل الأول، وقيل: إنه متعلق بجعل الثاني، ورده ابن عرفة: بأن فيه الفصل بين المعطوف وحرف العطف، قال ابن عصفور في شرحه الكبير: ما نصه ولا يجوز الفصل بين حرف العطف والمعطوف إلا بالقسم أو بالظرفـية أو الجار والمجرور بشرط أن يكون حرف العطف على أزيد من حرف واحد، و (جعل) هنا معطوف على (جعل) الأول يفصل بين الواو و [(فيها) *] بالمجرور، قلت لابن عرفة: هذا [جائز أن*] يجاب بأنه من عطف الجمل فيكون تأسيسا.." [1]

"يكون قوله (ولا أشرك به) حالا لكن خص الأكثرون على أنه لا يحصل الفعل [للاستقبال]، فقال: يكون هذا حالا مقدرا؛ كقولهم مررت برجل معه [...] يديه هكذا، الجواب الثاني: أن المراد أمرت أن أعبد الله وأدوم على عبادته إني أعبده عبادة لا يتخللها أو لا يعقبها إشراك، الثالث: إنما قدمت العبادة

---

(١) تفسير ابن عرفة النسخة الكاملة، ابن عرفة ٢/٤١٥

لتدل على نفي الإشراك باللزوم ثم بالمطابقة فيدل اللفظ دلالتين وبالله سبحانه وتعالى التوفيق.

قوله تعالى: {وإن ما نرينك بعض الذي نعدهم ... (٤٠)}

اختلفوا هل هذا وعد النبي صلى الله عليه وسلم بتعذيبهم أو وعيد لهم فأطلق الوعد على الوعيد، ابن عرفة: وقال في الزخرف (أو نرينك الذي وعدناهم فإنا عليهم مقتدرون) لكن أبلغ لأنها اقتضت رؤية بعض عذابهم وهو ما ينزل بهم في الدنيا، قبل وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ومعنى الآية إما نرينك بعض ما ينزل بهم أو نتوفاك قبل [رؤيتك*] ذلك، قال ابن عرفة: وفي هذا كمال التسلية للنبي صلى الله عليه وسلم وكان بعضهم يقول إن الوعد بالإحسان أو بالنصرة على الأعداء من السلطان والرجل ذو الهيئة ليس في الوعد كمن دونه لأن الأول يحصل منه كمال الطمأنينة والركون، وفي الآية سؤال وهو ما **الحكمة في** تأكيد الفعلين بالنون من أن أحدهم محقق الوقوع لا شك فيه، وإنما المهم تعيين الواقع منها علم [...] نزل تأكيدهما؟ قال والجواب: إن التأكيد راجع للخبر لا للشرط، قلت له: إنما هو في الشرط يقطع، فقال: الشرط والخبر أمر ببطلان ألا ترى أن القائل إذا قال قام زيد فإنما أكرمه يحسن أن يقال له صدقت أو كذبت، والتصديق والتكذيب إنما هو الخبر لا للشرط.

قوله تعالى: (فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب).

ابن عرفة: وفي هذا عندي اللف والنشر كقوله: (عليك البلاغ) يرجع لقوله: (نرينك بعض الذي نعدهم) لأنه أنزل العذاب بهم في حياتهم قد يظن هو أن عليه في ذلك [...] ما لعدم إيمانهم فقبل له أن رأيتهم نزل بهم عذاب فلا يتوهم إن عليك في ذلك شيئا لأنك إنما عليك البلاغ وقد بلغت وقوله: (وعلينا الحساب) يرجع لقوله: (أو نتوفينك) لأنهم إذا عذبوا بعد وفاته أنفى التوهم المتقدم، وقيل له: علينا حسابهم.

قوله تعالى: {من أطرافها ... (٤١)}

ابن عطية: أي من خيارها وهو عكس ما قال الزمخشري في (وكذلك جعلناكم أمة وسطا) قال أي خيارا.." (١)

(١) تفسير ابن عرفة النسخة الكاملة، ابن عرفة ٢/٤٣٥

"والسحاب سماء العلو وهذا جار على الخلاف في المياه هل هي كلها من السماء، وأنها تنزل منها وتكون سحابا تهبط به الماء وهي من البحار وأنه بخار لطيف يصعد عنه السحاب أو السحاب خلقه الله من غير ماء ولا بخار في ذلك ثلاثة أقوال نقلها ابن رشد في البيان والتحصيل: في كتاب السداد والأنهار واختار القول بالوقف.

قوله تعالى: (فأخرج به من الثمرات رزقا لكم).

ابن عرفة: ما الحكمة في إخراج النبات بهذا الماء مع أن القدرة صالحة لإخراجها بغير شيء، قال: وتقدم لنا الجواب بأنه تكثير لمتعلقات القدرة.

قوله تعالى: (وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره).

هذا مثل (ولا طائر يطير بجناحيه) لا جريها ليس إلا في البحر وجريها في البحر لا يقع إلا بإذن الله تعالى، إن قلت: ما أفاد قوله: (بأمره) فالجواب: إن جريها لما كان له أسباب في محاولة البحرين والخدمة فقد يتوهم أن جريها بسبب ذلك فاحترس منه بقوله (بأمره) وبهذا تعم الحكمة في إدخال اللام في قوله في الواقعة (لو نشاء لجعلناه حطاما فظلتم تفكهون) دون إدخالها في قوله (لو نشاء جعلناه أجاجا) لأن الأول فيه لبني آدم تسبب ومحاولة فقد يتوهم أن ذلك من فعلهم بخلاف الماء فإنهم لا تسبب لهم في كونه حلوا.

قوله تعالى: {وسخر لكم الشمس والقمر دائبين ... (٣٣)}

دليل على أنها شمس واحدة وقمر واحد.

قوله تعالى: {وآتاكم من كل ما سألتموه ... (٣٤)}

(من) للتبعيض و (كل) للعموم ومتعلقهما مختلف فالعموم في الأنواع والتبعيض في الأشخاص تلك الأنواع أي وآتاكم بعض كل نوع سألتموه.

قوله تعالى: (وإن تعدوا نعمت الله لا تحصوها).

أقروا النعمة من باب التنبيه بالأدنى على الأعلى بمعني أن الإنسان أيضا جزئيتان النعمة الواحدة فأحرى ما هو أكثر، قال: و (نعمة) مصدر محدد بالتاء فليس المراد به الجنس بل هو مفرد حقيقة بدليل أن المصدر المحدود بالتاء [مفرد*] يجوز تثنيته وجمعه بخلاف المبهم، قيل له: قد قال القرافي في أول شرح المحصول

إنما لفظة مصدر محدود بالتاء وأنها ليست إلا مفردة فرد عليه الأصبهاني بأنه قد يراد بها الجنس، فقال ابن عرفة: الصحيح ما قال القرافي: ابن عرفة. وفي الآية سؤال وهو إن الشرط لا يكون مناقضا للجزاء فلا يقول قام زيد لم يقدر على القيام والعد هو غير الإحصاء، وأجيب: بأن المعنى وإن أردتم أن تعدوا نعمة الله لا تحصوها مثل (فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم).

قوله تعالى: (إن الإنسان لظلوم كفار).." (١)

"أحد يفهم نقيضها من الأولى خلاف هذه فإن الذين لا يؤمنون بالله قد يهديهم الله فيؤمنون فأفادت الثانية ما لم تفده الأولى، وقال بعض الطلبة: بل ورودها على هذا الشيء، قلت: في الآية حجة للمعتزلة القائلين بأن الله لم يخلق الضلال فإنه ذكر عدم هداية الله لهم بعد أن أسند إليهم الامتناع من الإيمان بلام الملك.

قوله تعالى: (ولهم عذاب أليم).

وليس بداخل في حكم التأكيد بأن بل هل هو معطوف على الجملة كلها كقولك إن زيد قائم وعمر خارج ولا يصح عطفه على الخبر.

قوله تعالى: {إنما يفتري الكذب ... (١٠٥)}

ابن عطية: (إنما) ليست للحصر حقيقة بل للمبالغة لأن كثيرا من المؤمنين يفترون الكذب، وأجاب ابن عرفة: بأن الألف واللام في الكذب المعهود، فالمراد إنما يفترى الكذب على الله، فإنها للحصر حقيقة، قيل لابن عرفة: إذا أفتى رجل نفسه تحليل ما هو عنده حرام فقال: هو مفتر على الله الكذب، ومعنى الأمر أن يقول أو يفعل ما يخالف علمه [**فنقدا لذلك]، قلت له: إذا أفتى بالمشهود في مثله، قال: هذا هو حكم الله فهل هو مفتر، إن قلنا: إن المصيب واحد فقال: لا لأنه مقلد فكان يقول هذا هو حكم الله عند هذا القائل.

قوله تعالى: (وأولئك هم الكاذبون).

ابن عطية: إن قلت لم كرر هذا مع أنه مفهوم، فأجاب: بأن الكاذبين هنا صفة لازمة للموصوف فهو آكد من الأول.

---

(١) تفسير ابن عرفة النسخة الكاملة، ابن عرفة ٤٤٩/٢

ابن عرفة: وهذا لا يصح من جهة النحو، ولا من جهة الأصول فالصفة ليست لازمة للموصوف بوجه ولما النحويون فإنما فرقوا بين قولك زيد هذا القائم وبين زيد قائم، فقالوا: إن الصفة أقوى وآكد من الخبر؛ لأن قائما في قولك زيد قائم خبر محتمل للصدق والكذب والقيام في الأول صفة فما جيء بها إلا بناء على أن المخاطب موافق على معناها لا هو ولا غيره وليس الكاذبون هنا صفة لمقدر أي هم القوم الكاذبون فقال: لم يقل أحد في القائم في قولك زيد القائم صفة لمقدر وإلا فإن يلزم عليه التسلسل فما قاله ابن عطية لا وجه له قال: وإنما **الحكمة في** تكرير هذه الجملة عندي أحد أمرين إما أنه قصد التذييل ومعناه عند البيانيين أن يؤتى بجمل مختلفة الألفاظ متقاربة المعاني وإما أن الأول بلفظ الفعل وهو قوله تعالى: (إنما يفتري الكذب) فكرر بلفظ الاسم تأكيدا له بما هو أبلغ منه.." (١)

"غربت ولا يغرب كل يوم فيه؛ فإن لها مغارب ومشارق، ومع أنها تغرب على قوم وتطلع على آخرين، ومع ما ورد في حديث أبي ذر، قال له: «أتدري أين تذهب؟» [قلت لا، قال «إنها تغرب في عين حامية» *].

قوله تعالى: (إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسنا).

إما للتخيير أو للتفصيل؛ أي للتخيير في أنواع العذاب إما تعذيبهم بالقتل أو بالأسر وهو [الحسن*]، أو للتفصيل للتخيير؛ بمعنى إما أن تعذبهم، وإما أن تحسن إليهم فاختار هو [حسنها*].

قال ابن عرفة: وبدأ بمغرب الشمس قبل مطلعها؛ إشارة إلى ما يقول الحكماء أول الفكر أجر العمل، وهي العلة الغائبة تنبيها للإنسان على النظر في عواقب الأمور، وأنه يكون على حذر من أجرته فيعمل على ما يحصلها، وإذا أراد أن يفعل أمرا تفكر في عواقبه وحينئذ يفعله.

قوله تعالى: {ثم أتبع سببا (٨٩)}

العطف بـ ثم إشارة إلى المهملة التي بين فعله الأول والثاني لا سيما مع كونه ملكا [لا ينتهي أمره*] إلا بعد طول ومهلة.

قيل لابن عرفة: ذكروا أن عمره أربعون سنة، والمعمور من الأرض مسافة ثمانين فكيف مشى هذا المقدار؟ فقال: هذا خرق عادة والرجل نبي أو ولي أو ملك فلا يستغرب في حقه أن يقطع المسافة الطويلة على

---

(١) تفسير ابن عرفة النسخة الكاملة، ابن عرفة ٥١/٣

الزمن القليل.

قوله تعالى: {حتى إذا بلغ مطلع الشمس ... (٩٠)}

ابن عرفة: قالوا: ما الحكمة في إدخال لفظة (إذا) في [المطلع*]؛ مع أنك إنما تقول: إنما سرت حتى أدخل المدينة، فهلا قال: حتى بلغ مغرب الشمس، وحتى بلغ مطلعها؟ فأجيب بأن لفظة (إذا) تفيد القصد أنها بعد [الحامية*]، كقولك: سرت حتى أبلغ مكة فأعتمر، إن العمرة مقصودة لك من [الأول احترازا*] من أن يكون فعلك لها إشاريا اختياريا من غير قصد له، وكذلك هنا إنما كان سيره ليبلغ أول المعمور وآخره، فيدعوا الناس إلى الإيمان بالله، لا أنه كان اتفاقيا، قال: وقرأ الأكثرون بالفتح في سورة (إنا أنزلناه في ليلة القدر) لوضوح إرادة المكان هنا، ووضوح إرادة الزمان هناك أو المصدر.." (١)

"قوله تعالى: {ولكن أكثرهم لا يعلمون (١٣)}

إن كان من تمام المعلوم لأم موسى عليه السلام، فيكون الأكثر بمعنى الجمع؛ لأن جميع بني إسرائيل كانوا حينئذ كفارا، وإن كان من كلام الله تعالى خطابا للنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، فالأكثر على بابه؛ لأن من القبط من آمن به.

قوله تعالى: {ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكما وعلما ... (١٤)}

إن قلت: ما الحكمة في تخصيص هذه الآية، بزيادة لفظة (استوى) دون آية سورة يوسف عليه السلام، فالجواب بوجهين:

الأول: قال صاحب البرهان:؛ لأن يوسف عليه السلام باعه إخوته وهو صغير عمره خمسة عشر عاما أو عشرين عاما، ولم يمكث عند زليخا إلا أعوام يسيرة، ثم جرت قضيته معها، وقالت له: (هيت لك)، فغاية الأمر أن يكون في أول سن البلوغ الأشد، وهو إما عشرون، أو خمسة وعشرون، أو ثلاثون، فلذلك لم يقل فيها: (واستوى) وزادها في آية موسى عليه السلام.

الثاني: قال ابن عرفة: وظهر لي أن الجواب بأن يوسف عليه السلام هم بالفعل، ولم يفعل، [وموسى عليه السلام فعل*]؛ لأنه وكز القبطي وقتله فناسب وصفه بأبلغ درجات القوة، فلذلك قال فيها: (واستوى).

(١) تفسير ابن عرفة النسخة الكاملة، ابن عرفة ١٠٠/٣

قوله تعالى: (آتيناه حكما وعلما).
ابن عرفة: يحتمل أن يريد بالحكم النظر الموصل للعلم، أي آتيناه طريق العلم، والعلم يحتمل أن يريد بذلك العلمية والعملية.

قوله تعالى: {هذا من عمل الشيطان ... (١٥)}
تواضع منه؛ لأن [المقتول حربي*] مباح الدم يعدها هو خطيئة، وليست بخطيئة، وهذه الوكزه هي، [كما*] قال فيها الإمام مالك رحمه الله: [شبه العمد باطل، وليس بخطإ، وإنما [هو*] عمد، قال ابن عطية: أن يعقد يده ثلاثة وسبعين من حساب اللفظ، ثم يضرب بها.

قوله تعالى: {بما أنعمت علي ... (١٧)}
الباء للسبب أو للقسم، وقوله تعالى: (فلن أكون ظهيرا)، أي فلن أكون معينا للمجرمين، قال ابن عطية: احتج العلماء بها على منع خدمة الظلمة ومعونتهم، قلت:." (١)
"قال ابن هشام الباهلي: مذهب أهل السنة للسبب، وعلى مذهب المعتزلة واجب، وكذلك السبب.

قوله تعالى: {فمأواهم النار ... (٢٠)} .. المبتدأ مأواهم؛ لأنه أعرف، ولأنه مقدم ولإحصاره في الخبر لا مأوى لهم إلا النار، بخلاف العكس.
قوله تعالى: (ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون).
قال ابن عرفة: عادة القراء يقولون: السورة المدنية وصف فيها عذاب النار بالمذكور، وهي سورة السجدة، وفي سورة سبأ وصف فيها عذاب النار [بالمؤنث*] [فانتسبت*] هنا للعذاب، وفي سبأ للنار، وأجاب الطيبي [وابن الزبير*]، بأن النار هنا تقدم ذكرها، فالأصل جاء ذكرها مضمرا، فيقال: مأواهم النار كلها.
قوله تعالى: (كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها).
وقيل لهم ذوقوا عذابها، فالظاهر هنا وقع موقع المضمر لا ينعت، فلذلك قال (الذي كنتم به [تكذبون) *]، النعت للعذاب لا للنار، وأما سورة سبأ فقبلها (فاليوم لا يملك بعضكم لبعض نفعا ولا ضرا ونقول للذين

(١) تفسير ابن عرفة النسخة الكاملة، ابن عرفة ٣/٢٦٦

ظلموا ذوقوا عذاب النار التي كنتم بها تكذبون).
قوله تعالى: (كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها).
قال بعضهم: الإعادة تقتضي أن يكون الخروج أن يكون بمعنى كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها، ويجوز في لفظ الإعادة بأن يراد منها المنع من الخروج أو يكون المعنى أرادوا الخروج، وأخذوا في أسبابه، وروي عن الحسن: أنهم يصعدون من الطبقة السفلى إلى العليا، فيردون إليها.

قوله تعالى: {ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر ... (٢١)}
قال الزمخشري: العذاب الأدنى عذاب الدنيا، من القتل والأسر وغيره، وعن مجاهد: هو عذاب الآخرة، زاد ابن عطية بلا خلاف.
قال ابن عرفة: يحتمل أن يكون معا في الدنيا فالأصغر [بسبي ذراريهم [وسلب أموالهم*]، والأكبر [سبيهم*] في أنفسهم.
قال الفخر: [ولنذيقنهم من العذاب الأدنى في مقابلته العذاب الأقصى والعذاب الأكبر في مقابلته العذاب الأصغر، فما **الحكمة في** مقابلة الأدنى بالأكبر؟ فنقول حصل في عذاب الدنيا أمران: أحدهما:
أنه قريب والآخر أنه قليل صغير وحصل في عذاب الآخرة أيضا أمران أحدهما: أنه بعيد والآخر أنه عظيم كثير، لكن القرب في عذاب الدنيا هو الذي يصلح للتخويف به، فإن العذاب العاجل وإن كان قليلا قد يحترز منه بعض الناس أكثر مما يحترز من العذاب الشديد إذا كان آجلا، وكذا الثواب العاجل قد يرغب فيه بعض الناس ويستبعد الثواب العظيم الآجل، وأما في عذاب الآخرة فالذي يصلح للتخويف به هو العظيم والكبير لا البعيد لما بينا فقال في عذاب الدنيا العذاب الأدنى ليحترز العاقل عنه ولو قال: (لنذيقنهم من العذاب الأصغر) ما كان يحترز عنه لصغره وعدم فهم كونه عاجلا وقال في عذاب الآخرة الأكبر لذلك المعنى، ولو قال دون العذاب الأبعد الأقصى لما حصل التخويف به مثل ما يحصل بوصفه بالكبر، وبالجملة فقد اختار الله تعالى في العذابين الوصف الذي هو أصلح للتخويف من الوصفين الآخرين فيهما لحكمة بالغة*]..". (١)

(١) تفسير ابن عرفة النسخة الكاملة، ابن عرفة ٢٨١/٣

"يسمع بالأخرى، ويضع يده الواحدة على النار ويده الأخرى على المسخن، ويجاب: بأن قوله تعالى: (من قلبين في جوفه)، كان بعضهم يقول: الحكمة في إدخال (من) أن صيغ الجموع، والتثنية كلمة [كل*]، فإذا قلت: الرجال قائمون معناه: كل واحد قائم، وكذلك الزيدان قائمان، فلو قال: ما جعل الله لرجل قلبين لأوهم نفي القلب الواحد، ولذلك قال تعالى (وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين)، فأكده بقوله (اثنين)، ليفيد أن المراد نفي مجموع القلبين من حيث هو مجموع لا نفي الواحد لأنها في النفس لاستغراق الجنس.

قوله تعالى: (في جوفه).

قال الزمخشري: فائدته زيادة التصور المدلول عليه، لأنه إذا سمع به صور [لنفسه*] جوفا يشتمل على قلبين، فكان أسرع إلى الإنكار، وأجاب الزمخشري في سورة الأنعام في قوله تعالى: (ولا طائر يطير بجناحيه).

قوله تعالى: (وما جعل أزواجكم اللائي تظاهرون منهن أمهاتكم).

قال الزمخشري: إن قلت: ما معنى قولهم: أنت علي كظهر أمي فكنوا عن البطن بالظهر؛ لأنه عمود البطن، ومنه حديث عمر، قلت: هو حديث ذكره ابن أنس عنه في كتاب التجارة بأرض الحرب، قال عن عمر: [لا حكرة في سوقنا، لا يعمد رجال بأيديهم فضول من أذهاب إلى رزق من رزق الله نزل بساحتنا، فيحتكرونه علينا، ولكن أيما جالب جلب على عموده كبده في الشتاء والصيف، فذلك ضيف عمر، فليبع كيف شاء الله، وليمسك كيف شاء*]، فأباح ذلك عمر للجالب والزراع.

قوله تعالى: (ذلكم قولكم بأفواهكم) أي قول باللسان دون اعتقاد القلب.

قوله تعالى: (والله يقول الحق).

وإنما يقال: قال الله الحق، ورد عليه النواوي رحمه الله بهذه الآية.

قوله تعالى: {النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم ... (٦)}

قالوا سببها ما أخرجه البخاري ومسلم من أنه صلى الله عليه وعلى آله وسلم: " [كان يؤتى بالرجل المتوفى، عليه الدين، فيسأل: «هل ترك لدينه فضلا؟»، فإن حدث أنه ترك لدينه وفاء صلى، وإلا قال للمسلمين: «صلوا على صاحبكم»، فلما فتح الله عليه الفتوح، قال: «أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فمن توفي من

المؤمنين فترك دينا، فعلي قضاؤه، ومن ترك مالا فلورثته*]. وعلق الحكم هنا بالنبي، وهو أعم من الرسول ليدل على تناوله للرسول من باب أحرى.." (١)

"الحالات إلا أن بدل الغلط والبداء والنسيان، قال: وينضاف إليها رابع، وهو أن يقصد الإخبار عن رؤية زيد وعمرو على أن يبتدئ بذكر رؤية زيد ثم تضرب [عنه*]، وتذكر رؤية عمرو من غير بدء يلحقك في ذلك، وهو كالعطف في المعنى، وقد حكي عن العرب: أكلت خبزا لحما تمرا، فحمله بعض النحويين على حذف حرف العطف، والأولى [عطفه على هذا النوع*]، وحذف حرف العطف ضعيف ولو جاز حذفه لجاز، اختصم زيد وعمرو ولا [يقوله أحد*]، وقد حمل عليه ابن خروف، قوله تعالى: (قتل أصحاب الأخدود (٤) النار ذات الوقود)، فقال: (النار) بدل إضراب من الأخدود، وجعله الفارسي بدل اشتمال، انتهى، وهذا نص في صحة تعدد الأبدال.

الزمخشري: ويجوز أن يكون بدلا من موصوف: (أواب حفيظ) ولا يجوز أن يكون في حكم (أواب) و (حفيظ) لأن من لا يوصف به ولا يوصف من بين سائر الموصلات إلا بالذي [وحده*]، انتهى. يريد بقوله في حكم (أواب) أي صفة لأواب، ونقل ابن حيان في شرح تسهيل الفوائد لابن مالك، عن الزجاج: أنه أجاز وقوع (من) صفة.

قوله تعالى: {ولدينا مزيد (٣٥)}

ابن عطية: وفي الحديث الصحيح يقول الله تعالى: "اعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر [بل ما أطلعتهم عليه*]، وروي عن جابر، أن المزيد النظر إلى وجه الله عز وجل، انتهى، (بل) من ألفاظ الاستثناء بمعنى دع.

قال الترمذي: معنى الحديث سوى ما أطلعتم عليه، وقيل: دع ما أطلعتم.

قوله تعالى: {أشد منهم بطشا ... (٣٦)}

لم يقل: أبطش منهم مع أنه ثلاثي يصح [بناء*] أفعل منه، فما **الحكمة في** ذلك؟ وجوابه: أنه قصد التنبيه على اتصاف المفعول بشدة البطش؛ لأن أفعل من تقتضي الشركة في مادة الفعل، وتقدم نحو هذا للزمخشري

---

(١) تفسير ابن عرفة النسخة الكاملة، ابن عرفة ٢٨٥/٣

في سورة البقرة في: (أو أشد قسوة).

قوله تعالى: {وما بينهما في ستة أيام ... (٣٨)}." (١)

"قدمت الشمس على القمر لأنها أعظم جرما، وضوء القمر مستمد من ضوء الشمس باعتبار العادة، والأمر التجريبي من الكسوفات، وغيرها لا بالطبيعة كما يقول أولئك، وعلم الكسوفات ليس من الغيب في شيء، قال ابن عطية: قال ابن زيد: لولا الليل والنهار لم يدرك أحد كيف يحسب شيئا، قال ابن عطية: يريد من مقادير الزمان، قال ابن عرفة: فإن قلت: أهل الجنة لا ليل عندهم ولا نهار، فكيف [صحت النسبة إلينا في الدنيا*]، فقال: الليل عندنا نحن لأنا مكلفون بالأعمال، وأهل الجنة ليسوا مكلفين بشيء، ونجد [الإنسان*] في الدنيا إذا كان منهمكا في شهواته ولذاته، يذهل عن الأوقات ولا يعرف ليلا ولا نهارا، فأهل الجنة مشغولون بلذاتهم وتنعماتهم، لأن الدار ليست دار تكليف بوجه، قيل لابن عرفة: هلا كانت الشمس إذا وصلت حد المغيب ترجع حين ترجع إلى حد المغيب، فيعلم بذلك الأوقات، فقال: هذا ممكن ومعرفة ذلك بالليل والنهار، أمكن وأجل، وقال الغزالي: ما في الإمكان أبدع مما كان، يعني أن خلق هذا العالم لا يمكن أن يكون أحسن من هذه الصفة التي هي مخلوق عليها، وسبقه لذلك عبد العزيز بن مكي في الحياة وألزموه الناس على هذا الكفر، وأنكره ابن العربي عليه وغلطه في ذلك، ذكره في سراج المريدين، وأنكره عليه أيضا أهل الأندلس، وكان ابن حمد نص على حرق الإحياء لأجل ذلك.

قوله تعالى: {والنجم والشجر يسجدان (٦)}

[إن قلت: الآية المتقدمة قدم العلم على الإنسان لما يرجع لذاته*]، ولما هو خارج عنه، وهذه ليس [فيها*] إنعام ولا امتنان، وإنما هي إخبار عن كمال افتقار كل الحوادث إليه، فأجاب ابن عرفة: بأن [فيه*] إيماء وتذكيرا بدلالة أخرى، لأن من جملة النعم التي أنعم بها على الإنسان [العلم*]، وهو مسلوب عن النبات والجمادات، فإذا كانت تسجد وتضع له فأحرى الإنسان.

قوله تعالى: {والسماء رفعها ... (٧)}

---

(١) تفسير ابن عرفة النسخة الكاملة، ابن عرفة ٦٣/٤

قال ابن عرفة: قلت: ما الحكمة في رفعها مع أنه معلوم إذ لا فائدة في قول القائل: السماء فوقنا والأرض تحتنا، فالجواب: من وجهين:

الأول: أن في الآية وعظا وتكليفا، والوعظ رفعه السماء إذ هو دليل على اتصافه بالقدرة وشدة البطش والتكليف، فوضع الميزان وهو العدل في الأرض.

الثاني: أنه دليل على رفعها بغير عمد، كما قال تعالى (رفع السماوات بغير عمد ترونها)، بخلاف ما قيل، والسماء يحتمل أن يكون الرفع لها." (١)

"الذي هو الإطعام وإطعام الطعام مقصد، والحض عليه وسيلة، والذم على ترك المقصد آكد، فإذا [ذموا*] على ترك الوسيلة، فأحرى أن يذموا على ترك المقصد، والوصف بالعظيم، وانظر هل واحد من الأمرين علمه [مستقل*]، فيستفاد منه أن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة أو [**العلة، إنما قد عدم إيمانه]، والآية نزلت في أبي جهل، وليست خاصة به، لأن خصوص السبب لا يمنع من عموم اللفظ.

قوله تعالى: {فلا أقسم ... (٣٨)}

الفاء للتسبيب وتقرير السببية، أنه لما تقدم ذكر من أوتي كتابه بيمينه وفرحه وثوابه، ومن أوتي كتابه بشماله وحسرته وعقابه، وكان ذلك أمرا مغيبا لا يصدق به إلا من آمن، أتى هنا بفاء السببية؛ إشارة إلى أنه بسبب ذلك وقع القسم على أن القرآن المتضمن لما تقدم قول صادق، ومنهم من جعل النفي لما تقدم، ووجهه أن المنكر للحشر والنشر والحساب، لا بد أن يأتي بشبهة على مذهبه، وهؤلاء ليست لهم شبهة على تكذيبهم، وينبغي على هذا أن يوقف على قوله: (فلا)، وإن جعلت النفي متعلقا بالقسم، فيكون غير مراد حقيقة، أي هذا الأمر ظاهر بحيث لا يحتاج إلى القسم عليه، وقرئ [(فلأقسم) *] على أنها لام الابتداء دخلت على فعل القسم.

قوله تعالى: {إنه لقول رسول كريم (٤٠)}

إن قلت: هلا قيل: لكلام رسول، لأن الكلام أخص من القول، لانطلاق القول على [المفيد*] وغيره في الاصطلاح؟ فالجواب: أنه إذا قيل هذا في القول المطلق على [المفيد*] وغيره، فأحرى الكلام، فإن قلت:

---

(١) تفسير ابن عرفة النسخة الكاملة، ابن عرفة ١٢٢/٤

هلا قيل: إنه لقول رسول أمين، [أو*] رسول صادق؟ فالجواب: أنه ليس المراد حقيقة الكلام، بل المعنى لقول رسول موصوف بالخير أو موصوف بالحسن والكمال.

قوله تعالى: {قليلا ما تذكرون (٤٢)}

فيه سؤال يورد في حسن الائتلاف، وهو ما الحكمة في تخصيص [الأول*] بـ (تؤمنون)، والثاني: [(تذكرون) *]، وجوابه: أن الشعر لما كان أمرا ظاهرا يدركه كل أحد بفطنته، ويعرف أنه شعر، عبر عنه بالإيمان الذي هو محمود التصديق، ولما كانت الكهانة أمرا خفيا لا يدرك إلا بفكر وتأمل [قرنها*] بالتذكير.

قوله تعالى: {ولو تقول علينا بعض الأقاويل (٤٤)}

تقرر أن (لو) عند النحاة منع فيها الثاني لامتناع الأول، لأن الأول سبب في الثاني، وعند الأصوليين يمتنع فيها الأول لامتناع الثاني، لأن الثاني لابد أن يكون متساويا." (١)

"ثم يود أن يفتدي من ذلك بالأخ والفصيلة، وهو الأكثر من الأولين فهو أقوى في الحظوة.

الوجه الثاني: أنه ترق باعتبار المحبة وتعلق النفس لقولهم: من أحب شيئا استكثر منه، فالإنسان ما يستحضر في ذهنه إلا من يحب [عند*] نزول البلاء، إنما يود الفداء بمن دونهم في المحبة، ثم بمن دونهم، فإن قلت: إنما جرت عادة العرب، أن يفتدوا آبائهم وأمهاتهم يقولون، كما في الحديث: بأبي أنت وأمي، قلت: [هذا*] بالعرف، وهذا باعتبار الحقيقة.

قوله تعالى: {كلا ... (١٥)}

قال الغزالي: لم تقع في القرآن إلا في النصف الثاني، والحكمة في ذلك أن الأول [أكثره*] مدني، والزجر في المدينة إنما كان بالسيف، قال تعالى (يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ)، (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر)، (وقاتلوا المشركين كافة)، والنصف الثاني: أكثره مكي، والزجر في الحكمة إنما كان بالقول.

قوله تعالى: (إنها لظى).

(١) تفسير ابن عرفة النسخة الكاملة، ابن عرفة ٤/٢٨٣

قال بعضهم: هذا يدل على جواز عود الضمير على ما بعده لموافقة الاسم في الخبر للتأنيث.

قوله تعالى: {من أدبر وتولى (١٧)}
يحتمل أن يكون العطف تأسيسا، ويكون المراد بمن (أدبر) من لم يزل كافرا وبـ (تولى) المرتد، أو المراد بمن (أدبر) الكافر، وبمن (تولى) المنافق، لأن أقبل على الإيمان بظاهره، وتولى عنه بباطنه، وكان القاضي أبو علي عمر بن الربيع يقول: إن (كلا) هنا ليست للزجر، لأن الزجر إنما يصلح، حيث يمكن الانزجار إلا أن لا يكون الزجر على حقيقته، بل على سبيل التبكيت عليهم، قال شيخنا: بل هي للزجر، وتظهر فائدته في الدنيا، لأنهم إذا سمعوا هذه الآية قد ينزجر بعضهم عن كفره ومخالفته، فينجوا من العذاب.

قوله تعالى: {إن الإنسان خلق هلوعا (١٩)} .. الزمخشري: المعنى [إن الإنسان لإيثاره*] الجزع والمنع وتمكنهما منه، [ورسوخهما فيه،*] صار كأنه مجبول عليهما [مطبوع*]، وكأنه أمر خلقي [وضروري*] غير اختياري، [كقوله تعالى (خلق الإنسان من عجل) والدليل عليه أنه حين كان في البطن والمهد لم يكن به هلع، ولأنه ذم والله لا يذم فعله،*] انتهى، هذا من الكلام الموجه، فالمعتزلي يعني به أن الله لا يخلق القبيح الموصوف بالذم،." (١)

"مظنة عدم استقصاء الفقراء فنبه فيه بالاستقصاء معبرا عنه بقوله: (وتؤتوها الفقراء).
السؤال الثاني: أضاف " السيئات " إليهم، ولم يضف " الصدقات " إليهم وهما متقابلان!.
جوابه: أن السيئات عبارة عن الجزاء على الأعمال فلا تقابل؛ لأن الصدقة هي العمل لا الجزاء عليه، وإنما يرد السؤال إذا قلنا إن " السيئات " عبارة عن الأعمال أنفسها.
السؤال الثالث (ونكفر) فيه عشر قراءات. نكفر، نكفر، نكفر، يكفر، يكفر، يكفر، تكفر، تكفر، تكفر، يكفر. فعلى قراءة رفع الراء لا سؤال؛ لأنها جملة استئنافية. وعلى قراءة جزم الراء يكون معطوفا على موضع جواب الشرط وهو قوله: (فهو خير لكم) وإذا كان كذلك **فالحكمة في** أن ذكر تكفير السيئات تحريضا، وتحضيضا عليه، وزيادة في الأفضلية.

(١) تفسير ابن عرفة النسخة الكاملة، ابن عرفة ٤/٢٨٨

- (وإن تخفوها. .). أبو حيان: ضمير النصب عائد على (الصدقات) لفظا، ومعنى بأي تفسير فسرت، " ولا زيادة ".." (١)

"أجيب: بأنه لم يهلك إهلاكا عاما بعد نزول التوراة غيرهم، وحكي هذا السؤال، وجوابه عن القاضي أبي العباس بن حيدره.

وقول الفخر: إضافة (دأب) للفاعل، أو للمفعول،. يرد بأن فعله غير متعد فلا يصح إضافته للمفعول.

١٢ - (قل للذين كفروا ستغلبون) في الآية سؤال وهو ما **الحكمة في** إتيان الفعل مبنيا للمفعول مع أن الأولى ههنا ذكر الفاعل لا سيما مع." (٢)

"الإسراف والتبذير، وتقديم المفعول للاهتمام به والمحافظة على رؤوس الآي، قال أبو بكر الباقلاني: ذهب الأشاعرة كلهم إلى نفي السجع عن القرآن، وذهب كثير ممن خالفهم إلى إثباته انتهى، قال البقاعي الثاني فاسد، وأطال في بيان ذلك بلا طائل، والحق أنه في القرآن من غير التزام له في الأكثر، وكأن من نفاه نفى التزامه أو أكثريته، ومن أثبته أراد وروده فيه في الجملة، فاحفظه ولا تلتفت لما سواه، والذي عليه العلماء أنه تطلق الفواصل عليه دون السجع قاله الخفاجي.

قال: ابن عباس يعني زكاة أموالهم، وعن قتادة يعني الإنفاق في فرائض الله التي افترض عليهم في طاعته وسبيله كالزكاة والنذر وفي الجهاد وعلى النفس وقال ابن مسعود هي نفقة الرجل على أهله، واختار ابن جرير أن الآية عامة في الزكاة والنفقات وهو الحق من غير فرق بين النفقة على الأقارب وغيرهم وصدقة الفرض والنفل، وعدم التصريح بنوع من الأنواع التي يصدق عليها مسمى الإنفاق يشعر أتم إشعار بالتعميم (١).

---

(١) وقد ذكر ابن الجوزي في تفسيره زاد المسير في علم التفسير لهذه الآية أراء عدة منها: " أنها النفقة التي كانت واجبة قبل وجوب الزكاة، ذكره بعض المفسرين، وقالوا: إنه كان فرض على الرجل أن يمسك مما في يده مقدار كفايته يومه وليلته، ويفرق باقيه على الفقراء. فعلى قول هؤلاء الآية منسوخة بآية الزكاة، وغير

---

(١) التقييد الكبير للبسيلي، البسيلي ص/٣٤١

(٢) التقييد الكبير للبسيلي، البسيلي ص/٤٦٢

هذا القول أثبت.

واعلم أن الحكمة في الجمع بين الإيمان بالغيب وهو عقد القلب وبين الصلاة وهي فعل البدن، وبين الصدقة وهو تكليف يتعلق بالمال، إنه ليس في التكليف قسم رابع، إذا ما عدا هذه الأقسام فهو ممتزج بين اثنين منهما كالحج والصوم ونحوهما إ - هـ. (زاد المسير ١/ ٢٦).." (١)

"(وإذ قال موسى لقومه) توبيخ آخر لأخلاف بني إسرائيل بتذكير بعض جنايات صدرت من أسلافهم، أي اذكروا وقت قول موسى لأصولكم وقد قتل لهم قتيل لا يدرى قاتله، وسألوه أن يدعو الله أن يبينه لهم فدعاه، والقتيل اسمه عاميل.

(إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة) قيل إن قصة ذبح البقرة المذكورة هنا مقدم في التلاوة ومؤخر في المعنى على قوله تعالى (وإذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها) ويجوز أن يكون قوله (إذ قتلتم) مقدما في النزول ويكون الأمر بالذبح مؤخرا، قال الكرخي وإنما أخر أول القصة تقديما لذكر مساويهم وتعديدا لها ليكون أبلغ في توبيخهم على القتل، ويجوز أن يكون ترتيب نزولها على حسب تلاوتها، فكأن الله أمرهم بذبح البقرة حتى ذبحوها ثم وقع ما وقع من أمر القتل فأمروا أن يضربوا ببعضها، هذا على فرض أن الواو تقتضي الترتيب، وقد تقرر في علم العربية أنها لمجرد الجمع من دون ترتيب ولا معية.

والبقرة اسم للأنثى ويقال للذكر ثور، وقيل إنها تطلق عليهما وأصله من البقر وهو الشق لأنها تشق الأرض بالحرث، قال الأزهري البقر اسم جنس وجمعه باقر (قالوا اتتخذنا هزوا) أي نحن نسألك أمر القتيل وأنت تأمرنا بذبح بقرة، وإنما قالوا ذلك لبعد ما بين الأمرين في الظاهر ولم يعلموا ما وجه الحكمة فيه، والهزو هنا اللعب والسخرية، وإنما يفعل ذلك أهل الجهل لأنه نوع من العبث الذي لا يفعله العقلاء، ولهذا أجابهم موسى بالاستعاذة بالله." (٢)

"للسؤال، وفي الآية بيان وجه الحكمة في زيادة الهلال ونقصانه وأن ذلك لأجل بيان المواقيت التي يوقت الناس عباداتهم ومعاملاتهم بها كالصوم والفطر والحج ومدة الحمل والعدة والإجارات والأيمان وغير ذلك، ومثله قوله تعالى (ولتعلموا عدد السنين والحساب) وقيل هو جواب بغير ما سأل عنه تنبيها على أن الأولى لهم أن يسألوا عن هذا المجاب لا عن سبب الاختلاف، فهو من قبيل المغيبات التي لا غرض

---

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ٨٢/١

(٢) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ١٩٣/١

للمكلف في معرفتها ولا يليق أن تبين له.
والمواقيت جمع الميقات وهو الوقت والفرق بين الوقت وبين المدة والزمان أن المدة المطلقة امتداد حركة الفلك من مبدئها إلى منتهاها، والزمان مدة منقسمة إلى الماضي والحال والمستقبل، والوقت الزمان المفروض لأمر، وكل ما جاء في القرآن من السؤال أجيب عنه بقل بلا فاء إلا في طه (ويسئلونك عن الجبال فقل) لأن الجواب في الجميع كان بعد وقوع السؤال وفي طه كان قبله إذ تقديره إن سئلت عن الجبال فقل.
(للناس) أي لأغراضهم الدنيوية والدينية كما أشار لذلك بتعداد الأمثلة إذ الأهلة ليست مواقيت لذوات الناس (والحج) عطف على الناس أي يعلم بها وقته، فلو استمرت على حالة لم يعرف ذلك، قال سيبويه: بالفتح كالرد والشد وبالكسر كالذكر مصدران بمعنى وقيل بالفتح مصدر وبالكسر الاسم، وإنما أفرد سبحانه بالحج بالذكر لأنه مما يحتاج فيه إلى معرفة الوقت، ولا يجوز فيه النسء عن وقته ولعظم المشقة على من التبس عليه وقت مناسكه أو أخطأ وقتها أو وقت بعضها.
وقد جعل بعض علماء المعاني هذا الجواب أعني قوله قل هي مواقيت الخ من الأسلوب الحكيم كما تقدم وهو تلقي المخاطب بغير ما يترقب تنبيها على أنه الأولى بالقصد، ووجه ذلك أنهم سألوا عن أجرام الأهلة باعتبار زيادتها ونقصانها فأجيبوا بالحكمة التي كانت الزيادة والنقصان لأجلها لكون ذلك أولى بأن يقصده السائل وأحق بأن يتطلع لعلمه.." (١)

"فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره فإن طلقها فلا جناح عليهما أن يتراجعا إن ظنا أن يقيما حدود الله وتلك حدود الله يبينها لقوم يعلمون (٢٣٠) وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف ولا تمسكوهن ضرارا لتعتدوا ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه ولا تتخذوا آيات الله هزوا واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به واتقوا الله واعلموا أن الله بكل شيء عليم (٢٣١)
(فإن طلقها) أي الطلقة الثالثة التي ذكرها سبحانه بقوله (أو تسريح بإحسان) أي فإن وقع منه ذلك فقد حرمت عليه بالتثليث سواء كان قد راجعها أم لا وسواء انقضت عدتها في صورة عدم الرجعة أم لا (فلا تحل له من بعد) **الحكمة في** شرع هذا الحكم الردع عن المسارعة إلى الطلاق وعن العود إلى الطلقة الثالثة

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ٣٨٣/١

والرغبة فيها.

(حتى تنكح زوجا غيره) أي حتى تتزوج بزوج آخر غير المطلق بعد انقضاء عدتها من الأول فيجامعها، والنكاح يتناول العقد والوطء جميعا والمراد هنا الوطء، وقد أخذ بظاهر الآية سعيد بن المسيب ومن وافقه قالوا: كفى مجرد العقد لأنه المراد بقوله حتى تنكح زوجا غيره، وذهب الجمهور من السلف والخلف إلى أنه لا بد مع العقد من الوطء لما ثبت عن النبي - صلى الله عليه وسلم - من اعتبار ذلك وهو زيادة يتعين قبولها، ولعله لم يبلغ سعيد بن المسيب ومن تابعه.

وفي الآية دليل على أنه لابد أن يكون ذلك نكاحا شرعيا مقصودا لذاته لا نكاحا غير مقصود لذاته بل حيلة للتحليل وذريعة إلى ردها إلى الزوج الأول، فإن ذلك حرام للأدلة الواردة في ذمه وذم فاعله، وأنه التيس المستعار الذي لعنه الشارع ولعن من اتخذه لذلك.." (١)

"والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا فإذا بلغن أجلهن فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن بالمعروف والله بما تعملون خبير (٢٣٤)

(والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا).

لما ذكر سبحانه عدة الطلاق، واتصل بذكرها ذكر الإرضاع، عقب ذلك بذكر عدة الوفاة لئلا يتوهم أن عدة الوفاة مثل عدة الطلاق.

قال الزجاج: ومعنى الآية والرجال الذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا أي ولهم زوجات فالزوجات يتربصن، وقال أبو علي الفارسي: تقديره والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بعدهم وهو كقولك السمن منوان بدرهم أي منه.

وحكى عن سيبويه أن المعنى وفيما يتلى عليكم الذين يتوفون، وقيل التقدير: وأزواج الذين يتوفون منكم يتربصن، ذكره صاحب الكشاف.

وفيه أن قوله ويذرون أزواجا لا يلائم ذلك التقدير لأن الظاهر من النكرة المعادة المغايرة، وقال بعض النحاة من الكوفيين: إن الخبر عن الذين متروك والقصد الإخبار عن أزواجهم بأنهن يتربصن.

وأصل التوفي أخذ الشيء وافيا فمن مات فقد استوفى عمره كاملا، يقال توفي فلان يعني قبض وأخذ، والخطاب لكافة الناس بطريق التلوين والمراد بالأزواج هنا النساء لأن العرب تطلق اسم الزوج على الرجل

---

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ٢/٢٥

والمرأة.

والمعنى الذين يموتون ويتركون النساء ينتظرن بأنفسهن قدر هذه المدة.

ووجه **الحكمة في** جعل العدة للوفاة هذا المقدار أن الجنين الذكر يتحرك." (١)

"به، وليس المراد منه إلا جعل طلاقها على النصف من طلاق الحرة وعدتها على النصف من عدتها، ولكنه لما لم يمكن أن يقال طلاقها تطليقة ونصف، وعدتها حيضة ونصف لكون ذلك لا يعقل، كانت عدتها وطلاقها ذلك القدر المذكور في الحديث جبرا للكسر.

ولكن ههنا أمر يمنع من هذا القياس الذي عمل به الجمهور وهو أن **الحكمة في** جعل عدة الوفاة أربعة أشهر وعشرا هو ما قدمناه من معرفة خلوها من الحمل ولا يعرف إلا بتلك المدة ولا فرق بين الحرة والأمة في مثل ذلك بخلاف كون عدتها في غير الوفاة حيضتين فإن ذلك يعرف به خلو الرحم، ويؤيد عدم الفرق ما سيأتي في عدة أم الولد.

واختلف أهل العلم في عدة أم الولد بموت سيدها، فقال سعيد بن المسيب ومجاهد وسعيد بن جبير والحسن وابن سيرين والزهري وعمر بن عبد العزيز والأوزاعي وإسحق بن راهوية وأحمد بن حنبل في رواية عنه إنها تعتد بأربعة أشهر وعشر لحديث عمرو بن العاص قال: لا تلبسوا علينا سنة نبينا – صلى الله عليه وسلم – عدة أم الولد إذا توفي عنها سيدها أربعة أشهر وعشر (١)، أخرجه أحمد وأبو داود وابن ماجه والحاكم وصححه، وضعفه أحمد وأبو عبيد، وقال الدارقطني الصواب أنه موقوف.

وقال طاوس وقتادة عدتها شهران وخمس ليال، وقال أبو حنيفة وأصحابه والثوري والحسن بن صالح تعتد بثلاث حيض، وهو قول علي وابن مسعود وعطاء وإبراهيم النخعي، وقال مالك والشافعي وأحمد في المشهور عنه عدتها حيضة وغير الحائض شهر، وبه يقوله ابن عمر والشعبي ومكحول والليث وأبو عبيد وأبو ثور والجمهور.

وقد أجمع العلماء على أن هذه الآية ناسخة لما بعدها من الاعتداد بالحول وإن كانت هذه الآية متقدمة في التلاوة (٢).

---

(١) المستدرك كتاب الطلاق ٢/ ٢٠٩.

---

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ٢/٣٨

(٢) مسلم ١٤٨٦ – البخاري ٦٨٠

-[٤١]-

أخرجه مالك (٢ (٥٩٦/ ١٠١) وعنه البخاري (٣/ ٤٨٠ – ٤٨١) وكذا مسلم (٤/ ٢٠٢) والسياق له وكذا أبو داود (٢٢٩٩) والنسائي (٢/ ١١٤) والترمذي (١/ ٢٢٥) والطحاوي (٢/ ٤٤) والبيهقي (٧/ ٤٣٧) كلهم عن مالك به. وروى أحمد (٦/ ٣٢٤) عنه الحديث الثاني، و (٦/ ٢٩١ – ٢٩٢ و ٣٢٦) وابن الجارود (٧٦٨) عن شعبة عن حميد ابن نافع به الحديث الثالث.

وأخرج الدارمي (٢/ ١٦٧) وابن الجارود (٧٦٥) من هذا الوجه الأول.." (١)

"جبل من كل واحد منهن جزءا، والجزء النصيب، واختلفوا في عدد الأجزاء والجبال وليس في ذكر ذلك كثير فائدة.

(ثم ادعهن) أي قل لهن تعالين بإذن الله تعالى (يأتينك) إتيانا سريعا (سعيا) أي مشيا سريعا. والمراد بالسعي الإسراع في الطيران أو المشي وقيل السعي هو الحركة الشديدة، وقيل العدو، وقيل الطيران، وفيه أنه لا يقال للطائر إذا طار سعى، **فالحكمة في** السعي دون الطيران أن ذلك أبعد من الشبهة لأنها لو طارت لتوهم متوهم أنها غير تلك الطيور، أو أن أرجلها غير سليمة فنفى الله تعالى هذه الشبهة (واعلم أن الله عزيز حكيم) في صنعه.

أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: وضعهن على سبعة أجبل وأخذ الرؤوس بيده فجعل ينظر إلى القطرة تلقى القطرة والريشة تلقى الريشة حتى صرن أحياء ليس لهن رؤوس فجئن إلى رؤوسهن فدخلن فيها، وناهيك بالقصة دليلا على فضل الخليل وحسن الأدب في السؤال، حيث أراه ما سأل في الحال، وأرى العزير ما أراه بعد إماتته مائة عام (١).

---

(١) قال ابن عباس: فأخذ هذه الطير حسب ما أمر وذكاها ثم قطعها قطعا صغارا، وخلط لحوم البعض إلى لحوم البعض مع الدم والريش حتى يكون أعجب، ثم جعل من ذلك المجموع المختلط جزءا على كل جبل، ووقف هو من حيث يرى تلك الأجزاء وامسك رؤوس الطير في يده، ثم قال: تعالين بإذن الله، فتطايرت تلك الأجزاء وطار الدم إلى الدم والريش إلى الريش حتى التأمت مثل ما كانت أولا وبقيت بلا

---

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ٢/٤٠

رؤوس، ثم كرر النداء فجاءته سعيا، أي عدوا على أرجلهن. وقد ذكر القرطبي القصص عن المفسرين في ماهية الطيور وكيفية جمعها.." (١)

"الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا والله واسع عليم (٢٦٨) يؤتي **الحكمة من** يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر إلا أولو الألباب (٢٦٩)." (٢)

"(يؤتي **الحكمة من** يشاء) الحكمة هي العلم وقيل الفهم، وقيل الإصابة في القول، ولا مانع من الحمل على الجميع شمولا أو بدلا، وقيل إنها النبوة وقيل الخشية وقيل العقل، وقيل الورع، وقيل المعرفة بالقرآن وقيل الفقه في الدين وقيل التفكر في أمر الله وقيل طاعة الله والعمل بها.

وهذه الأقوال كلها قريب بعضها من بعض لأن الحكمة مصدر من الإحكام وهو الإتفاق في عمل أو قول، وكل ما ذكر هو نوع من الحكمة التي هي الجنس، فكتاب الله تعالى حكمة، وسنة نبيه - صلى الله عليه وسلم - حكمة، وأصل الحكمة ما يمنع من السفه وهو كل قبيح.

وعن ابن عباس قال: الحكمة المعرفة بالقرآن ناسخه ومنسوخه ومحكمه ومتشابهه ومقدمه ومؤخره وحلاله وحرامه وأمثاله.

وعنه قال إنها القرآن، يعني تفسيره، وعنه إنها الفقه في القرآن، وعن أبي الدرداء إنها قراءة القرآن والتفكر فيه، وعن أبي العالية هي الكتاب والفهم به، وبه قال النخعي، وعن مجاهد هي الكتاب يؤتي إصابته من يشاء، وعنه قال: هي الإصابة في القول، وعن أبي العالية ومطر الوراق قال هي الخشية.

(ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا) قرىء ومن يؤت الحكمة على البناء للفاعل، وقراءة الجمهور على البناء للمفعول أي من أعطاه الله الحكمة أي العلم النافع المؤدي إلى العمل الصالح فقد أعطاه خيرا عظيما قدره، جليلا خطره، لمصيره إلى السعادة الأبدية، والتنكير للتعظيم.

(وما يذكر إلا أولوا الألباب) أي الذين عقلوا عن الله أمره ونهيه،." (٣)

"بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين (١٢٥)

---

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ١١٣/٢

(٢) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ١٢٩/٢

(٣) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ١٣٠/٢

(بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا) أصل الفور القصد إلى الشيء والأخذ فيه بجد وهو من قولهم فارت القدر تفور فورا إذا غلت، والفور الغليان، وفاز غضبه إذا جاش وفعله من فوره أي قبل أن يسكن، والفوارة ما يفور من القدر استعير للسرعة أي إن يأتوكم من ساعتهم هذه (يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة) في حال إتيانهم لا يتأخر عن ذلك (مسومين) أي معلمين بعلامات أو معلمين أنفسهم بعلامة على المبني المفعول أو الفاعل ورجح ابن جرير الأخير.

والتسويم إظهار سيما الشيء قال كثير من المفسرين مسومين أي مرسلين خيلهم في الغارة، وقيل إن الملائكة اعتمت بعمائم بيض، وقيل حمر، وقيل خضر، وقيل صفر، فهذه هي العلامة التي علموا بها أنفسهم ح كي ذلك عن الزجاج.

وقيل كانوا على خيل بلق، وقيل غير ذلك، وفي بيان التسويم عن السلف اختلاف كثير لا يتعلق به كثير فائدة.

قال ابن عباس لم تقاتل الملائكة في معركة إلا يوم بدر وفيما سوى ذلك يشهدون القتال ولا يقاتلون إنما يكونون عددا ومددا. قال الحسن هؤلاء الخمسة آلاف ردء للمؤمنين إلى يوم القيامة.

وقد سئل السبكي عن **الحكمة في** قتال الملائكة مع أن جبريل قادر على أن يدفع الكفار بريشة من جناحه.

وأجاب: بأن ذلك لإرادة أن يكون الفضل للنبي وأصحابه وتكون الملائكة مددا على عادة مدد الجيوش رعاية لصورة الأسباب التي أجراها الله تعالى في عباده، والله فاعل الجميع انتهى.." (١)

"(قال) أي أجابه الله بقوله (إنك من المنظرين) أي المهملين المؤخرين ثم تعاقب بما قضاه الله عليك وأنزله بك في دركات النار.

وقد بين الله مدة النظر والمهلة في سورة الحجر فقال تعالى (إنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم) وذلك هو النفخة الأولى حين يموت الخلق كلهم، قيل **الحكمة في** إنظاره ابتلاء العباد ليعرف من يطيعه ممن يعصيه.." (٢)

---

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ٣٢٦/٢

(٢) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ٣١٣/٤

"الأمهات وتطور الأطوار الواردة عليها من العلقة والمضغة واللحم والعظم، وهذا كله مما يوجب النسيان.

وكان علي بن أبي طالب يقول إني لأذكر العهد الذي عهد إلي ربي، وكذا كان سهل بن عبد الله التستري يقول اهـ.

قلت: وكذا روي عن الشيخ نظام الدين الدهلوي المعروف بسلطان الأولياء ثم ابتدأهم بالخطاب على ألسنة الرسل وأصحاب الشرائع فقام ذلك مقام الذكر، ولو لم ينسوه لانتفت المحنة والتكليف، ولم يبلغنا في كون تلك الذرات مصورة بصورة الإنسان دليل، والأقرب للعقول عدم الاحتياج إلى كونها بصورة الإنسان إذ السمع والنطق لا يفتقران إلى الصورة بل يقتضيان محلا حيا لا غير، ويحتمل أن يكونوا مصورين بصورة الإنسان لقوله تعالى: (من ظهورهم ذرياتهم) ولم يقل ذراتهم ولفظ الذرية يقع على المصورين.

والحكمة في أخذ الميثاق منهم إقامة الحجة على من لم يوف بذلك العهد، والظاهر أنه لما ردهم إلى ظهره قبض أرواحهم، وأما أن الأرواح أين رجعت بعد رد الذرات إلى ظهره فهذه مسألة غامضة لا يتطرق إليها النظر العقلي بأكثر من أن يقال رجعت لما كانت عليه قبل حلولها في الذرات.

وورد أن كتاب العهد والميثاق مودع في باطن الحجر الأسود، ذكره الشعراني في رسالته [القواعد الكشفية في الصفات الإلهية] وذكر فيها على هذه الآية اثني عشر سؤالا وأجاب عنها، والحق عندي إن كل ما لم يرد فيه نص من كتاب ولا سنة فإطواؤه على غرة أولى وترك الخوض فيه أحرى.

(أن تقولوا) أي كراهة أن أو لئلا تقولوا (يوم القيامة إنا كنا عن هذا) أي عن كون الله ربنا وحده لا شريك له (غافلين).." (١)

"(فيضل الله من يشاء) إضلاله فيه التفات عن التكلم إلى الغيبة (ويهدي من يشاء) هدايته، والجملة مستأنفة.

قال الفراء: إذا ذكر فعل وبعده فعل آخر فإن لم يكن النسق مشاكلا للأول فالرفع على الاستئناف هو الوجه، يعني لا يجوز نصبه عطفا على ما قبله لأن المعطوف كالمعطوف عليه في المعنى، والرسل أرسلت للبيان لا للضلال.

وقال الزجاج: ولو قرئ بنصبه على أن اللام لام العاقبة جاز، والمعنى على الأول وما أرسلنا من رسول إلا

---

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ٧٥/٥

بلسان قومه ليبين لهم تلك الشرائع باللغة التي ألفوها وفهموها، ومع ذلك فإن المضل والهادي هو الله عز وجل، والبيان لا يوجب حصول الهداية إلا إذا جعله الله سبحانه واسطة وسببا، وتقديم الإضلال على الهداية لأنه متقدم عليها إذ هو إبقاء على الأصل، والهداية إنشاء ما لم يكن.

(وهو العزيز) الذي لا يغالبه مغالب في ملكه (الحكيم) الذي تجري أفعاله على مقتضى الحكمة في صنعه.." (١)

"والمراد تؤتى أكلها كل ساعة من الساعات من ليل أو نهار، في جميع الأوقات من غير فرق بين شتاء وصيف، قاله ابن عباس.

وقيل المراد في أوقات مختلفة من غير تعيين، وقيل كل غدوة وعشية، وقيل الحين هنا سنة كاملة لأن النخلة تثمر في كل سنة مرة، وقيل كل شهر، وقيل كل ستة أشهر قاله ابن عباس وسعيد بن جبير وقتادة والحسن يعني من وقت طلعها إلى حين صرامها، وقال علي بن أبي طالب ثمانية أشهر، وقيل أربعة أشهر من حين ظهور حملها إلى إدراكهما، وقال سعيد بن المسيب شهران.

قال النحاس: وهذه الأقوال متقاربة غير متناقضة لأن الحين عند جميع أهل اللغة إلا من شذ منهم بمعنى الوقت يقع لقليل الزمان وكثيره. وقد ورد الحين في بعض المواضع يراد به أكثر كقوله (هل أتى على الإنسان حين من الدهر) وقد تقدم بيان أقوال العلماء في الحين في سورة البقرة. وقال الزجاج: الحين الوقت طال أم قصر.

عن ابن عباس في قوله تعالى (تؤتي أكلها كل حين) قال يكون أخضر ثم يكون أصفر، وعنه قال كل حين جداد النخل، وقد روي عن جماعة من السلف في هذا أقوال كثيرة.

ووجه الحكمة في تمثيل الإيمان بالشجر على الإطلاق أن الشجرة لا تسمى شجرة إلا بثلاثة أشياء عرق راسخ وأصل ثابت وفرع نابت، وكذلك الإيمان لا يتم إلا بثلاثة أشياء تصديق بالقلب وقول باللسان وعمل بالأبدان والأركان وقيل غير ذلك؛ وعن ابن عباس: الكلمة الطيبة شهادة أن لا إله إلا الله والشجرة الطيبة المؤمن، وأصلها الثابت قول لا إله إلا الله ثابت في القلب وفرعها في السماء يقول يرفع بها عمل المؤمن

---

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ٨٣/٧

إلى السماء، وقد روي نحو هذا عن جماعة من التابعين ومن بعدهم.

(ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون) أحوال المبدأ والمعاد." (١)

"سبعة على وفق الأعضاء السبعة من العين والإذن واللسان والبطن والفرج واليد والرجل لأنها مصادر السيئات فكانت مواردها الأبواب السبعة.

ولما كانت هي بعينها مصادر الحسنات بشرط النية والنية من أعمال القلب زادت الأعضاء واحدا فجعلت أبواب الجنان ثمانية، انتهى.

أقول: **الحكمة في** تخصيص هذا العدد لا تنحصر فيما ذكر، بل الأولى تفويضها إلى جاعلها وهو الله سبحانه، إلا أن يرد خبر صحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيجب المصير إليه.

وعن علي رضي الله عنه قال: أطباق جهنم سبعة بعضها فوق بعض، فيملأ الأول ثم الثاني ثم الثالث حتى تملأ كلها.

وأخرج البخاري في تاريخه والترمذي واستغربه عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لجهنم سبعة أبواب؛ باب منها لمن سل السيف على أمتي " (١) وأخرج ابن مردويه والخطيب في تاريخه عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " في الآية جزء أشركوا بالله وجزء شكوا في الله وجزء غفلوا عن الله " وقد وردت في صفة النار وأهوالها أحاديث وآثار كثيرة ليس هذا موضع استقرائها (٢)

---

(١) الترمذي، كتاب التفسير، سورة ١٥/ ٢ - أحمد بن حنبل ٢٩/ ٩٤.

(٢) وللمفسر كتاب جيد في التخويف من النار نشرته مطبعة الإمام.." (٢)

"(وإذا بدلنا آية مكان آية) (١) هذا شروع منه سبحانه في حكاية شبهة كفرية ودفعها ومعنى التبديل رفع الشيء مع وضع غيره مكانه وتبديل الآية رفعها بأخرى غيرها وهو نسخها بآية سواها قال مجاهد: وهو كقوله (ما ننسخ من آية أو ننسها) الخ .. وقد تقدم الكلام على النسخ في البقرة (والله أعلم بما ينزل) اعتراض دخل في الكلام أي أنه أعلم بما ينزل من الناسخ وبما هو أصلح لخلقه وبما يغير وما يبدل من أحكامه، وهذا نوع توبيخ وتقريع للكفار، وقيل الجملة حالية وليس بظاهر.

---

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ٧/١١٠

(٢) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ٧/١٧٣

وجواب إذا قوله (قالوا) أي كفار قريش الجاهلون للحكمة في النسخ (إنما أنت) يا محمد صلى الله عليه وسلم (مفتر) أي كاذب مختلق على الله فتقول عليه بما لم يقل حيث تزعم أنه أمرك بشيء ثم تزعم أنه أمرك بخلافه فرد الله سبحانه عليهم بما يفيد جهلهم فقال:

(بل أكثرهم لا يعلمون) شيئا من العلم أصلا أو لا يعلمون حقيقة القرآن وهو أنه اللفظ المنزل من عند الله على محمد صلى الله عليه وسلم للإعجاز بسورة منه المتعبد بتلاوته أو لا يعلمون **بالحكمة في** النسخ فإنه مبني على المصالح التي لا يعلمها إلا الله سبحانه فقد تكون في شرع هذا الشيء مصلحة مؤقتة بوقت ثم تكون المصلحة بعد ذلك الوقت في شرع غيره.

وفيه التخفيف على العباد ولو انكشف الغطاء لهؤلاء الكفرة لعرفوا أن ذلك وجه الصواب ومنهج العدل والرفق واللطف.

ثم بين سبحانه لهؤلاء المعترضين على حكمة النسخ الزاعمين أن ذلك لم يكن من عند الله وأن رسوله صلى الله عليه وآله وسلم افتراه فقال

---

(١) كانت هذه الآية أوضح دليل لنا على وجود النسخ في القرآن حين نشرنا بحثا وافيا في الموضوع في كتابنا (الإيمان وآثاره والشرك ومظاهره) وذلك عندما أعلن بعض العلماء الذين نحترمهم رأيه في عدم وجود النسخ في القرآن والكتاب عموما، مهم جدا.." (١)

"فحملوا المسجد الحرام على مكة أو الحرم لإحاطة كل واحد منهما بالمسجد الحرام أو لأن الحرم كله مسجد.

وفي حديث مالك بن صعصعة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " بينا أنا في المسجد الحرام في الحجر " وذكر حديث المعراج بكماله ومن ابتدائية ثم ذكر سبحانه الغاية التي أسرى برسول الله صلى الله عليه وسلم إليها فقال (إلى المسجد الأقصى) وهو بيت المقدس، وسمي الأقصى لبعد المسافة بينه وبين المسجد الحرام فهو أبعد بالنسبة إلى من بالحجاز وفي تاريخ القدس أنه سمي به لأنه أبعد المساجد التي تزار من المسجد، وقيل لبعده عن الأقذار والخبائث، وقيل لأنه لم يكن حينئذ وراءه مسجد، وفي ذلك من تربية معنى التنزيه والتعجب ما لا يخفى.

---

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ٣١٦/٧

وأول من بناه آدم بعد أن بنى الكعبة بأربعين سنة كما في المواهب. فهو أول مسجد بني في الأرض بعد الكعبة، وتمام حاله في كتابنا لقطة العجلان فيما تمس إلى معرفته حاجة الإنسان.

وكان الإسراء به ببدنه في اليقظة وكان قبلها في المنام كما أنه رأى فتح مكة سنة ست وتحقق منه سنة ثمان، والحكمة في إسرائه إلى بيت المقدس دون العروج به من مكة لأنه محشر الخلائق فيطؤه بقدمه ليسهل على أمته يوم القيامة وقوفهم ببركة أثر قدمه أو لأنه مجمع أرواح الأنبياء، فأراد أن يشرفهم بزيارته صلى الله عليه وآله وسلم، أو ليخبر الناس بصفاته فيصدقوه في الباقي، قاله الكرخي والوجه الأخير أظهر والله أعلم.

ثم وصف السجد الأقصى بقوله (الذي باركنا حوله) بركة دنيوية وهي ليست إلا حول الأقصى، وأما في الداخل فالبركة في كل من المسجدين بل هي في الحرام أتم، وهي كثرة الثواب بالعبادة فيهما، وعبارة الخازن يعني بالثمار والأنهار والأشجار أو بالأنبياء والصالحين لأنه قبلتهم قبل نبينا صلى الله عليه وسلم وسماه." (١)

"وهذا دليل على أن الناس يدعون بأسمائهم وأسماء آبائهم، ويرد على من قال إنما يدعون بأسماء آبائهم وبأسماء أمهاتهم لأن في ذلك سترا على آبائهم، ولذا قال الزمخشري: ومن بدع التفاسير أن الإمام جمع أم وأنهم يدعون بأمهاتهم دون آبائهم، وأن الحكمة فيه رعاية حق عيسى وإظهار شرف الحسن والحسين وأن لا يفتضح أولاد الزنا.

قال القرطبي: قيل بمذاهبهم فيدعون بما كانوا يأتمون به في الدنيا ويقلدونه، فيقال يا حنفي، يا شافعي، يا معتزلي، يا قدري، ونحو ذلك. وهذا كالأول بل أبعد منه، وقيل كل خلق حسن يظهر من الإنسان كالعلم والكرم والشجاعة أو قبيح كأضدادها، فالداعي إلى تلك الأفعال خلق باطن هو كالإمام، ذكره الرازي في تفسيره. وعن ابن عباس قال: بإمامهم إمام هدى وإمام ضلالة، وعنه أيضا بإمام زمانهم وكتاب ربهم وسنة نبيهم وقيل بمعبودهم. وأخرج الترمذي وحسنه البزار وابن أبي حاتم وابن حبان والحاكم وصححه وابن مردويه عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم في هذه الآية أنه قال " يدعى أحدهم فيعطى كتابه بيمينه ويمد له في جسمه ستين ذراعا ويبيض وجهه ويجعل على رأسه تاج من لؤلؤ يتلألأ فينطلق إلى أصحابه فيرونه من بعيد فيقولون: اللهم ائتنا بهذا وبارك لنا في هذا حتى يأتيهم فيقول أبشروا لكل رجل منكم مثل هذا.

---

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ٣٤٩/٧

وأما الكافر فيسود وجهه ويمد له جسمه ستين ذراعا على صورة آدم ويلبس تاجا من نار فيراه أصحابه فيقولون نعوذ بالله من هذا أو من شر هذا، اللهم لا تأتنا بهذا. قال فيأتيهم فيقولون اللهم أخره، فيقول أبعدكم الله فإن لكلا رجل منكم مثل هذا " (١) قال البزار بعد إخراجه لا يروى إلا من هذا الوجه.

---

(١) المستدرك كتاب التفسير ٢/ ٢٤٣.." (١)

"عشر مائة قول، فانظر إلى هذا الفضول الفارغ والتعب العاطل عن النفع بعد أن علموا أن الله سبحانه قد استأثر بعلمه، ولم يطلع عليه أنبياءه ولا أذن لهم بالسؤال عنه ولا البحث على حقيقته فضلا عن أممهم المقتدين بهم.

فيالله العجب حيث تبلغ أقوال أهل الفضول والقانعين بالمعقول من المنقول إلى هذا الحد الذي لم تبلغه ولا بعضه في غير هذه المسألة مما أذن الله بالكلام فيه ولم يستأثر بعلمه، وقد عجزت الأوائل عن إدراك ماهيته بعد إنفاق الأعمار الطويلة على الخوض فيه.

والحكمة في ذلك تعجيز العقل عن إدراك معرفة مخلوق مجاور له ليدل على أنه عن إدراك خالقه أعجز، ولذا رد ما قيل في حده قديما وحديثا.

ثم ختم سبحانه هذه الآية بقوله (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) الخطاب عام لجميع الخلق ومن جملتهم النبي صلى الله عليه وسلم، وقيل هو خطاب لليهود خاصة، والأول أولى، ويدخل فيه اليهود دخولا أوليا.

والمعنى أن علمكم الذي علمكم الله ليس إلا المقدار القليل بالنسبة إلى علم الخالق سبحانه وأن أوتيتم حظا من العلم وافرا، بل علم الأنبياء عليهم السلام ليس هو بالنسبة إلى علم الله سبحانه إلا كما يأخذ الطائر في منقاره من البحر كما في حديث موسى والخضر عليهما السلام.

وعبارة الخازن أن القلة والكثرة تدوران مع الإضافة، فوصف الشيء بالقلة بالنسبة إلى ما فوقه وبالكثرة إلى ما تحته. أهـ.

أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن مسعود قال: كنت أمشي مع النبي صلى الله عليه وسلم في خرب المدينة وهو متكئ على عسيب فمر بقوم من اليهود." (٢)

---

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ٧/٤٢٨

(٢) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ٧/٤٤٨

"أي لا يهولك ذلك ولا يحزنك فقد أصاب مثل هذا من قبلك من المرسلين والأنبياء وعلى تقدير أن معنى تمنى حدث نفسه كما حكاه الفراء والكسائي فإنهما قالا: يقال تمنى إذا حدث نفسه، فالمعنى أنه إذا حدث نفسه بشيء تكلم به الشيطان وألقاه في مسامع الناس من دون أن يتكلم به رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا جرى على لسانه.

قال ابن عطية: لا خلاف أن القاء الشيطان إنما هو لألفاظ مسموعة وقعت بها الفتنة، قال القاضي عياض: وهذا أحسن الوجوه وهو الذي يظهر ترجيحه، وكذا استحسن ابن العربي هذا التأويل، وقال في أمنيته في تلاوته، وقد قيل في تأويل الآية: إن المراد بالغرانيق الملائكة ويرد بقوله الآتي: (فينسخ الله ما يلقي الشيطان) أي يبطله، وشفاعة الملائكة غير باطلة.

وقيل إن ذلك جرى على لسانه سهوا ونسيانا وهما مجوزان على الأنبياء، ويرد بأن السهو والنسيان فيما طريقه البلاغ غير جائز، كما هو مقرر في مواطنه، قال الضحاك: يعني بالتمني التلاوة، والقراءة فينسخ الله أي جبريل بأمر الله ما ألقى الشيطان على لسان النبي صلى الله عليه وسلم.

وقال مجاهد: إذا تمنى أي تكلم وأمنيته كلامه، فأخبر تعالى في هذه الآية أن سنة الله في رسله إذا قالوا قولا زاد الشيطان فيه من قبل نفسه فهذا نص في أن الشيطان زاد في قول النبي صلى الله عليه وسلم لا أن النبي صلى الله عليه وسلم قاله لأنه معصوم، وقد شبق إلى ذلك الطبري مع جلالة قدره وسعة علمه وشدة ساعده في النظر فصوب هذا المعنى قاله الحافظ في الفتح؛ ثم لما سلاه سبحانه بهذه التسلية وأنها قد وقعت لمن قبله من الرسل والأنبياء بين سبحانه أنه يبطل ذلك ولا يثبته ولا يستحر تغرير الشيطان فقال: (فينسخ الله ما يلقي الشيطان) أي يبطله ويجعله ذاهبا غير ثابت (ثم يحكم الله آياته) أي يثبتها (والله عليم حكيم) أي كثير العلم **والحكمة في** كل أقواله وأفعاله.." (١)

"وسئل الشعبي عن هذه الآية أمنسوخة هي؟ قال: لا والله. قال السائل: إن الناس لا يعلمون بها، قال: والله المستعان. وقال سعيد بن جبير: إن ناسا يقولون أن هذه الآية نسخت والله ما نسخت ولكنها مما تهاون به الناس وقال سعيد بن المسبب: إنها منسوخة والأول أولى.

(ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن) أي ليس على المماليك ولا على الصبيان إثم في الدخول بغير استئذان، لعدم ما يوجبه من مخالفة الأمر، والاطلاع على العورات، بعد كل واحدة من هذه العورات

---

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ٧٠/٩

الثلاث، وهي الأوقات المتخللة بين كل اثنين منها، والجملة مستأنفة مقررة للأمر بالاستئذان في تلك الأحوال خاصة. وقال أبو البقاء (بعدهن) أي بعد استئذانهم فيهن، ورد بأنه لا حاجة إلى هذا التقدير، الذي ذكره، بل المعنى ليس عليكم جناح ولا عليهم أي العبيد والإماء والصبيان في عدم الاستئذان بعد هذه الأوقات المذكورة.

(طوافون) أي هم طوافون (عليكم) والجملة مستأنفة مبينة للعذر رخص في ترك الاستئذان والمعنى يطوفون عليكم، ومنه الحديث في الهرة إنما هي من الطوافين عليكم أو الطوافات. أي هم خدمكم فلا بأس أن يدخلوا عليكم في غير هذه الأوقات بغير إذن (بعضكم) يطوف. أو طائف (على بعض) والجملة تدل مما قبلها، أو مؤكدة لها، والمعنى أن كلا منكم يطوف على صاحبه، العبيد على الموالي والموالي على العبيد، وإنما أباح سبحانه الدخول في غير تلك الأوقات، الثلاثة بغير استئذان لأنها كانت العادة أنهم لا يكشفون عوراتهم في غيرها.

(كذلك) أي مثل ذلك التبيين (يبين الله لكم الآيات) الدالة على ما شرعه لكم من الأحكام (والله عليم) أي كثير العلم بالمعلومات (حكيم) كثير **الحكمة في** أفعاله.." [1]

"(أولم يتفكروا)؟ الهمزة للإنكار عليهم، والواو للعطف على مقدر كما في نظائره (في أنفسهم) ظرف للتفكر وليس معفولا للتفكر، والمعنى أن أسباب التفكر حاصلة لهم، وهي أنفسهم لو تفكروا فيها كما ينبغي لعلموا وحدانيته تعالى وصدق أنبيائه، وقيل إنها مفعول التفكر.

والمعنى أولم يتفكروا في خلق الله إياهم ولم يكونوا شيئا. والأول أولى، لأن المعنى أولم يتفكروا في قلوبهم الفارغة من الفكر التي هي أقرب إليهم من غيرها من المخلوقات وهم أعلم بأحوالها منهم بأحوال ما عداها فيتدبروا ما أودعها الله ظاهرا وباطنا من غرائب الحكمة الدالة على التدبير دون الإهمال، وأنه لا بد لها من الانتهاء إلى وقت يجازى فيه على الإحسان إحسانا وعلى الإساءة مثلها حتى يعلموا عند ذلك أن سائر الخلائق كذلك أمرها، جار على **الحكمة في** التدبير، وأنه لا بد لها من الانتهاء إلى ذلك الوقت.

(ما خلق الله السماوات والأرض وما بينهما) متعلق بالقول المحذوف، معناه: أولم يتفكروا فيقولوا هذا القول. وقيل: معناه فيعلموا لأن في الكلام دليلا عليه، (وما) في (ما خلق) نافية أي لم يخلقها (إلا بالحق) الثابت الذي يحق ثبوته أو هي اسم في محل نصب على إسقاط الخافض، أي: بما خلق الله ويضعف أن

---

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ٢٦٢/٩

تكون استفهامية، بمعنى النفي، والباء للسببية، أو هي ومجرورها في محل النصب على الحال، أي متلبسة بالحق. قال الفراء: معناه إلا للحق، أي للثواب والعقاب، وقيل: بالحق بالعدل، وقيل: بالحكمة، وقيل: إنه هو الحق، وللحق خلقها.

(وأجل مسمى) للسموات والأرض وما بينهما تنتهي إليه، وهو يوم القيامة، وفي هذا تنبيه على الفناء وأن لكل مخلوق أجلا لا يجاوزه، وقيل: معناه أنه خلق ما خلق في وقت سماه لخلق ذلك الشيء (وإن كثيرا من الناس بلقاء ربهم) أي بالبعث بعد الموت (لكافرون) واللام هي المؤكدة والمراد بهؤلاء الكفار على الإطلاق أو كفار مكة.." (١)

"وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم –: " أتدرون ما كان لقمان "؟ قالوا الله ورسوله أعلم، قال: كان حبشيا " أخرجه ابن مردويه.

وعن ابن عباس قال: كان عبدا حبشيا نجارا.

وعنه قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – " اتخذوا السودان، فإن ثلاثة منهم سادات أهل الجنة، لقمان الحكيم، والنجاشي، وبلال المؤذن " أخرجه الطبراني، وابن حيان في الضعفاء، قال الطبراني أراد الحبشة، والحكمة التي آتاه الله هي الفقه، والعقل، والإصابة في القول وفسر **الحكمة من** قال بنبوته بالنبوة، قال ابن عباس: يعني العقل والفهم، والفطنة في غير نبوة.

وعن ابن عمر عن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال: " إن لقمان الحكيم كان يقول: إن الله إذا استودع شيئا حفظه " وقد ذكر جماعة من أهل الحديث روايات عن جماعة من الصحابة والتابعين تتضمن كلمات من مواعظ لقمان وحكمه.

ولم يصح عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – من ذلك شيء، ولا يثبت إسناد صحيح إلى لقمان بشيء منها حتى نقبله، وقد حكى الله سبحانه من مواعظه لابنه ما حكاه في هذا الموضع، وفيه كفاية وما عدا ذلك مما لم يصح فليس في ذكره إلا شغلة للحيز؛ وقطيعة للوقت، ولم يكن نبيا، حتى يكون ما نقل عنه من شرع من قبلنا، ولا صح إسناد ما روي عنه من الكلمات، حتى يكون ذكر ذلك من تدوين كلام الحكمة التي هي ضالة المؤمن.

(أن أشكر لله) أن هي المفسرة، لأن في الإيتاء معنى القول، لأنه تعليم أو وحي، وقيل: التقدير: قلنا له هذا

---

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ٢٢٩/١٠

القول، وقال الزجاج: التقدير لأن أشكر، وقيل: بأن أشكر فشكر، فكان حكيما بشكره، والشكر لله الثناء عليه في مقابلة النعمة، وطاعته فيما أمر به وقيل: الشكر أن لا تعصي الله بنعمه وقيل: إن لا ترى معه شريكا له في نعمه. وقيل: هو الإقرار بالعجز، ورؤية العجز في الكل دليل قبول الكل، ثم بين سبحانه أن الشكر لا ينتفع به إلا الشاكر فقال:

(ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه) لأن نفع ذلك وثوابه راجع إليه." (١)

"(لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة) أي رضي الله عنهم وقت تلك البيعة، وهي بيعة الرضوان وكانت بالحديبية، وهذه الشجرة هي سمرة كانت بها، وقيل: سدرة، وكانت البيعة على أن يقاتلوا قريشا ولا يفروا وروي أنه بايعهم على الموت وأتى بصيغة المضارع لاستحضار صورة المبايعة والسمرة من شجر الطلح، وجمهور المفسرين على أن المراد بالطلح في القرآن الموز، وفي الصحيح عن ابن عمر أن الشجرة أخفيت، **والحكمة في** ذلك أن لا يحصل الافتتان بها لما وقع تحتها من الخير، فلو بقيت لما أمن تعظيم الجهال لها، حتى ربما اعتقدوا أن لها قوة نفع أو ضر، كما نشاهده الآن فيما دونها، ولذلك أشار ابن عمر بقوله: كان خفاؤها رحمة من الله، كذا في الفتح وشرح المواهب.

وعن نافع قال: " بلغ عمر بن الخطاب أن ناسا يأتون الشجرة التي بويع تحتها فأمر بها فقطعت " أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف، وقد تقدم ذكر عدد أهل هذه البيعة قريبا، والقصة مبسوطة في كتب الحديث والسير، وفي الباب أحاديث ذكرها الخازن وغيره (١)، والمعنى فعل بالراسخين في الإيمان فعل الراضي بما جعل لهم من الفتح، وما قدر لهم من الثواب، وأفهم ذلك أنه لم يرض عن الكافرين فخذلهم في الدنيا، مع ما أعد لهم في الآخرة، فالآية تقرير لما ذكر من جزاء الفريقين بأمور شاهدة، ولأجل هذا الرضا سميت بيعة الرضوان.

---

(١) ابن حجر في الفتح ٧/ ٣٤٥.." (٢)

"(وتسير الجبال سيرا) أي تزول عن أماكنها، وتسير عن مواضعها كسير السحاب، وتطير في الهواء، ثم تقع على الأرض مفتتة كالرمل ثم تصير كالعهن أي الصوف المندوف، ثم تطيرها الرياح فتكون هباء

---

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ٢٨٢/١٠

(٢) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ١٠٥/١٣

منبثا، كما دل عليه كلامه في سورة النمل، قيل: ووجه تأكيد الفعلين بالمصدر الدلالة على غرابتهما وخروجهما عن المعهود، والحكمة في مور السماء، وسير الجبال الإعلام والإنذار بأن لا رجوع ولا عود إلى الدنيا لخرابها وعمارة الآخرة، وقد تقدم تفسير مثل هذا في سورة الكهف.." (١)

"فمنعهم ذلك من الإنزجار، وشغلهم عن الإعتبار، وإنما كان الترفة هنا ذما من حيث إنهم جعلوا من جملته القعود عن الطاعات وتركها، فصح ذمهم بهذا الإعتبار مع أنه في الواقع ليس ذما في حد ذاته، والمترف المتنعم، وقال السدي: مشركين، وقيل: متكبرين والأول أولى والجملة تعليل لإستحقاقهم هذه العقوبة.

قال الرازي: والحكمة في ذكره سبب عذابهم ولم يذكر في أصحاب اليمين سبب ثوابهم، فلم يقل: إنهم كانوا قبل ذلك شاكرين مذعنين، وذلك للتنبيه على أن الثواب منه تعالى فضل والعقاب منه عدل والفضل سواء ذكر سببه أو لم يذكر لا يوهم بالمتفضل نقصا ولا ظلما، وأما العدل فإنه إن لم يذكر سبب العقاب يظن أنه ظالم، ويدل على ذلك أنه تعالى لم يقل في حق أصحاب اليمين (جزاء بما كانوا يعملون) كما قال في السابقين، لأن أصحاب اليمين نجوا بالفضل العظيم لا بالعمل بخلاف من كثرت حسناته فإنه يحسن إطلاق الجزاء في حقه.." (٢)

"(واسألوا ما أنفقتم) أي اطلبوا مهور نسائكم اللاحقات بالكفار ممن تزوجها وليسألوا (ما أنفقوا) من مهور نسائهم المهاجرات ممن تزوجها منا، قال المفسرون: كان من ذهب من المسلمات مرتدة إلى الكفار من أهل العهد، يقال للكفار: هاتوا مهرها، ويقال للمسلمين: إذا جاءت امرأة من الكفار إلى المسلمين وأسلمت: ردوا مهرها على زوجها الكافر، قال الخطيب: وكان ذلك نصفا وعدلا بين الحالين وأطال سلمان الجمل في بيان ذلك.

(ذلكم) المذكور من إرجاع المهور من الجهتين (حكم الله) وقوله: (يحكم بينكم) مستأنفة أو حالية (والله عليم حكيم) أي بليغ العلم، لا تخفى عليه خافية، بليغ الحكمة في أقواله وأفعاله، قال القرطبي: وكان هذا

---

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ٢٢٠/١٣

(٢) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ٣٧٢/١٣

مخصوصا بذلك الزمان في تلك النازلة خاصة بإجماع المسلمين، ولما نزلت الآية المتقدمة قال المسلمون: رضينا بحكم الله، وكتبوا إلى المشركين فامتنعوا فنزل قوله." (١)

"(هو الذي أرسل رسوله بالهدى) أي البيان الشافي بالقرآن أو المعجزات (ودين الحق) أي الملة الحقة، وهي ملة الإسلام (ليظهره على الدين كله) أي ليجعله ظاهرا على جميع الأديان المخالفة لها، عاليا عليها، غالبا لها، قال الخطيب: فإن قيل: قال أولا: (ولو كره الكافرون)، وقال ثانيا: (ولو كره المشركون)، فما الحكمة في ذلك؟ أيقول بأنه تعالى أرسل رسوله، وهو من نعم الله تعالى، والكافرون كلهم في كفران النعم سواء، فلهذا قال: (ولو كره الكافرون)، لأن لفظ الكافر أعم من لفظ المشرك، فالمراد من الكافرين هنا اليهود والنصارى والمشركون، فلفظ الكافر." (٢)

"(وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا) يعني لما أيس نوح عليه السلام من إيمانهم وإقلاعهم عن الكفر، دعا عليهم بالهلاك، قال قتادة دعا عليهم بعد أن أوحى إليه أنه (لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن) فأجاب الله دعوته وأغرقهم، وقال محمد بن كعب ومقاتل والربيع بن أنس وابن زيد وعطيه: إنما قال هذا حين أخرج الله كل مؤمن من أصلابهم وأرحام نسائهم، وأعقم أرحام النساء وأصلاب الآباء قبل العذاب بسبعين سنة، وقيل بأربعين، قال قتادة: لم يكن فيهم صبي وقت العذاب وقال الحسن وأبو العالية: لو أهلك الله أطفالهم معهم كان عذابا من الله وعدلا فيهم، ولكن أهلك ذريتهم وأطفالهم بغير عذاب ثم أهلكهم بالعذاب.

ومعنى (ديارا) من يسكن الديار ويدور في الأرض وأصله ديوار على فيعال من دار يدور فقلبت الواو ياء وأدغمت إحداهما في الأخرى مثل القيام أصله قيوام، وقال القتيبي أصله من الدار أي نازل بالدار يقال ما بالدار ديار وديور أي أحد كقيام وقيوم، وهو من الأسماء المستعملة في النفي العام، وقيل الديار صاحب الديار، والمعنى لا تدع أحدا منهم إلا أهلكته، وقيل هو مأخوذ من الدوران وهو التحرك.

قال سليمان الجمل: انظر ما الحكمة في تأخيره عن قوله (مما خطيئاتهم أغرقوا) مع أن مقتضى الظاهر تقديمه عليه لكونه سببا لإغراقهم، تأمل، ثم رأيت، أبا السعود: قال هذا عطف على نظيره السابق وقوله (مما خطيئاتهم) اعتراض وسط بين دعائه عليه السلام للإيذان من أول الأمر بأن ما أصابهم من الإغراق

---

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ١٤/٨٨

(٢) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ١٤/١٢١

والإحراق لم يصبهم إلا لأجل خطاياهم التي عددها نوح، وإشارة إلا أن استحقاقهم للإهلاك لأجلها أهـ كلام الجمل.." (١)

"معطي لما منع، فمشيئة العبد مجردة لا تأتي بخير، ولا تدفع شرا وإن كان يثاب على المشيئة الصالحة ويؤجر على قصد الخير كما في حديث " إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى " (١) قال الزجاج أي لستم تشاؤون إلا بمشيئة الله، والآية حجة على المعتزلة والقدرية (إن الله كان عليما) أي بليغ العلم بما يكون من الأحوال (حكيما) بليغ **الحكمة في** أمره ونهيه، مصيبا في جميع الأقوال والأحوال.

---

(١) سبق ذكره.." (٢)

" ٦ كان منهم وسائط بين الله وبينهم والرد على من كفر بشيء من ذلك وينخرط في سلك هذا ما ورد في القرآن من تأنيس النبي صلى الله عليه وسلم وكرامته والثناء عليه وسائر الانبياء صلى الله عليه وعليهم أجمعين وأما المعاد فإثبات الحشر وإقامة البراهين والرد على من خالف فيه وذكر ما في الدار الآخرة من الجنة والنار والحساب والميزان وصحائف الأعمال وكثرة الأهوال ونحو ذلك وأما الأحكام فهي الأوامر والنواهي وتنقسم خمسة أنواع واجب ومندوب وحرام ومكروه ومباح ومنها ما يتعلق بالأبدان كالصلاة والصيام وما يتعلق بالأموال كالزكاة وما يتعلق بالقلوب كالإخلاص والخوف والرجاء وغير ذلك وأما الوعد فمنه وعد بخير الدنيا من النصر والظهور وغير ذلك ومنه وعد بخير الآخرة وهو الأكثر كأوصاف الجنة ونعيمها وأما الوعيد فمنه تخويف بالعقاب في الدنيا ومنه تخويف بالعقاب في الآخرة وهو الأكثر كأوصاف جهنم وعذابها وأوصاف القيامة وأهوالها وتأمل القرآن تجد الوعد مقرونا بالوعيد قد ذكر أحدهما على أثر ذكر الآخر ليجمع بين الترغيب والترهيب وليتبين أحدهما بالآخر كما قيل فبضدها تتبين الأشياء وأما القصص فهو ذكر أخبار الأنبياء المتقدمين وغيرهم كقصة أصحاب الكهف وذي القرنين فإن قيل ما **الحكمة في** تكرار قصص الأنبياء في القرآن فالجواب من ثلاثة أوجه الأول أنه ربما ذكر في سورة من أخبار الأنبياء ما لم يذكره في سورة أخرى ففي كل واحدة منهما فائدة زائدة على الأخرى الثاني أنه ذكرت أخبار الأنبياء في مواضع على طريقة الإطناب وفي مواضع على طريقة الإيجاز لتظهر فصاحة القرآن في الطريقتين الثالث أن أخبار الأنبياء

---

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ١٤/٣٤٤

(٢) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ١٤/٤٨١

قصد بذكرها مقاصد فتعدد ذكرها بتعدد تلك المقاصد فمن المقاصد بها إثبات نبوة الأنبياء المتقدمين بذكر ما جرى على ايديهم من المعجزات وذكر إهلاك من كذبهم بأنواع من المهالك ومنها إثبات النبوة لمحمد صلى الله عليه وسلم لإخباره بتلك الأخبار من غير تعلم من أحد." (١)

"٧٠ يلهمها الله التسبيح كما يلهمها الأمور الدقيقة التي لا يهتدي إليها العقلاء وقيل تسبيحه ظهور **الحكمة فيه** صافات يصففن أجنحتهن في الهواء كل قد علم الضمير في علم لله أو لكل والضمير في صلاته وتسبيحه لكل يزجي معناه يسوق والإزجاء إنما يستعمل في سوق كل ثقيل كالسحاب ركاما متكاثف بعضه فوق بعض الودق المطر من خلاله أي من بينه وهو جمع خلل كجبل وجبال

وينزل من السماء من جبال فيها من برد قيل إن الجبال هنا حقيقة وأن الله جعل في السماء جبالا من برد وقيل إنه مجاز كقولك عند فلان جبال من مال أو علم أي هي في الكثرة كالجبال ومن في قوله من السماء لابتداء الغاية وفي قوله من جبال كذلك وهي بدل من الأولى وتكون للتبعيض فتكون مفعول ينزل ومن في قوله من برد لبيان الجنس أو للتبعيض فتكون مفعول ينزل وقال الأخفش هي زائدة وذلك ضعيف وقوله فيها صفة للجبال والضمير يعود على السماء سنا برقه السنا بالقصر الضوء وبالمد المجد والشرف يقلب الله الليل والنهار أي يأتي بهذا بعد هذا خلق كل دابة يعني بني آدم والبهائم والطير لأن ذلك كله يدب من ماء يعني المني وقيل الماء الذي في الطين الذي خلق منه آدم وغيره على بطنه كالحيات والحوت ويقولون آمنا الآية نزلت في المنافقين وسببها أن رجلا من المنافقين كانت بينه وبين يهودي خصومة فدعاه اليهودي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعرض عنه ودعاه إلى كعب بن الأشرف مذعنين أي منقادين طائعين لقصد الوصول إلى حقوقهم أفي قلوبهم مرض توقيف يراد به التوبيخ وكذلك ما بعده أن يحيف معناه أن يجور والحيف الميل وأسنده إلى الله لأن الرسول إنما يحكم بأمر الله وشرعه إنما كان قول المؤمنين الآية معناها إنما الواجب أن يقول المؤمنون سمعنا وأطعنا إذا دعوا إلى الله ورسوله وجعل الدعاء إلى الله من حيث هو إلى شرعه ومن يطع الله ورسوله الآية قال." (٢)

"١٨٤ قال الله يا داود وخلافة داود بالنبوة والملك قال ابن عطية لا يقال خليفة الله إلا لنبي وأما الملوك والخلفاء فكل واحد منهم خليفة الذي قبله وقول الناس فيهم خليفة الله تجوز وما خلقنا السماء

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزى، ٩/١

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزى، ٢٦٨/٢

والأرض وما بينهما باطلا أي عبثا بل خلقهما الله بالحق للاعتبار بهما والاستدلال على خالقهما ذلك ظن الذين كفروا المعنى أن الكفار لما أنكروا الحشر والجزاء كانت خلقة السموات والأرض عندهم باطلا بغير الحكمة فإن **الحكمة في** ذلك إنما تظهر في الجزاء الأخروي

أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم هنا استفهامية يراد بها الإنكار أي أن الله لا يجعل المؤمنين والمتقين كالمفسدين والفجار بل يجازي كل واحد بعمله لتظهر حكمة الله في الجزاء ففي ذلك استدلال على الحشر والجزاء وفيه أيضا وعد ووعيد إذ عرض عليه بالعشي الصافنات الجياد الصافنات جمع صافن وهو الفرس الذي يرفع إحدى رجليه أو يديه ويقف على طرف الأخرى وقيل الصافن هو الذي يسوي يديه والصفن علامة على فراهة الفرس والجياد السريعة الجري واختلف الناس في قصص هذه الآية فقال الجمهور إن سليمان عليه السلام عرضت عليه خيل كان ورثها عن أبيه وقيل أخرجتها له الشياطين من البحر وكانت ذوات أجنحة وكانت ألف فرس وقيل أكثر فتشاغل بالنظر إليها حتى غربت الشمس وفاتته صلاة العشى العصر فأسف لذلك وقال ردوا علي الخيل وطفق يضرب أعناقها وعراقيبها بالسيف حتى عقرها لما كانت سبب فوات الصلاة ولم يترك منها إلا اليسير فأبدله الله أسرع منها وهي الريح وأنكر بعض العلماء هذه الرواية وقال تفويت الصلاة ذنب لا يفعله سليمان وعقر الخيل لغير فائدة لا يجوز فكيف يفعله سليمان عليه السلام وأي ذنب للخيل في تفويت الصلاة فقال بعضهم إنما عقرها ليأكلها الناس وكان زمانهم زمان مجاعة فعقرها تقربا إلى الله وقال بعضهم لم تفته الصلاة ولا عقر الخيل بل كان يصلي فعرضت عليه الخيل فأشار." (١)

"عدم تمكن الوسوسة وأنها غير حالة في القلب بل هي محومة في الصدر حول القلب من الجنة والناس هذا بيان لجنس الوسواس وإنه يكون من الجن ومن الناس ثم إن الموسوس من الإنس يحتمل أن يريد من يوسوس بخدعه وأقواله الخبيثة فإنه شيطان كما قال تعالى شياطين الإنس والجن أو يريد به نفس الإنسان إذ تأمره بالسوء فإنها أمارة بالسوء والأول أظهر وقيل من الناس معطوف على الوسواس كأنه قال أعوذ من شر الوسواس من الجنة ومن شر الناس وليس الناس على هذا ممن يوسوس والأول أظهر وأشهر فإن قيل لم ختم القرآن بالمعوذتين وما **الحكمة في** ذلك فالجواب من ثلاثة أوجه الأول قال شيخنا الأستاذ أبو جعفر بن الزبير لم كان القرآن أعظم النعم على عباده والنعم مظنة الحسد فختم بما يطفىء الحسد من

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزى، ٤٤٨/٢

الإستعاذة بالله الثاني يظهر لي أن المعوذتين ختم بهما لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فيهما أنزلت على آيات لم ير مثلهن قط كما قال في فاتحة الكتاب لم ينزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الفرقان مثلها فافتتح القرآن بسورة لم ينزل مثلها واختتم بسورتين لم ير مثلهما ليجمع حسن الإفتتاح والإختتام ألا ترى أن الخطب والرسائل والقصائد وغير ذلك من أنواع الكلام إنما ينظر فيها إلى حسن افتتاحها واختتامها الوجه الثالث يظهر لي أيضا أنه لما أمر القارىء أن يفتتح قراءته بالتعوذ من الشيطان الرجيم ختم القرآن بالمعوذتين ليحصل الاستعاذة بالله عند أول القراءة وعن آخر ما يقرأ من القراءة فتكون الاستعاذة قد اشتملت على طرفي الابتداء والانتهاء وليكون القارىء محفوظا بحفظ الله الذي استعاذ به من أول أمره إلى آخره وبالله التوفيق لا رب غيره ... ٨٢١." (١)

"وفيه ـ أيضا اجتماع الحكمة فيه، فإما كسب خيرا أو اكتسب شرا، لم يبطل اكتسابه كسبه، كما يقوله أهل الإحباط والتخليد، فإنهم يقولون : إن عليه ما اكتسب وليس له ما كسب، فالآية رد على جميع هذه الطوائف، فتأمل كيف أتى فيما لها بالكسب الحاصل ولو لأدنى ملابسة، وفيما عليها بالاكتساب الدال على الاهتمام والحرص والعمل؛ فإن (اكتسب) أبلغ من (كسب) ، ففى ذلك تنبيه على غلبة الفضل للعدل، والرحمة للغضب .

ثم لما كان ما كلفهم به عهودا منه ووصايا، وأوامر تجب مراعاتها والمحافظة عليها، وألا يخل بشيء منها؛ ولكن غلبات الطباع البشرية تأبى إلا النسيان والخطأ والضعف والتقصير أرشدهم الله ـ تعالى ـ إلى أن يسألوه مسامحته إياهم فى ذلك كله، ورفع موجبه عنهم بقولهم : { ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا } [البقرة : ٢٨٦] ، أى : لا تكلفنا من الآصار التى يثقل حملها ما كلفته من قبلنا؛ فإنا أضعف أجسادا وأقل احتمالا .

ثم لما علموا أنهم غير منفكين مما يقضيه ويقدره عليهم، كما أنهم غير منفكين عما يأمرهم به وينهاهم عنه، سألوه التخفيف فى قضائه وقدره، كما سألوه التخفيف فى أمره ونهيه، فقالوا : { ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به } فهذا فى القضاء والقدر والمصائب، وقولهم : { ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزى، ٣٨٠/٣

من قبلنا } في الأمر والنهى والتكليف، فسألوه التخفيف فى النوعين .

". (١)

"وكالذين يقولون يوم القيامة : { لو أن الله هداني لكنت من المتقين } [الزمر : ٥٧] ، وكالذين قالوا : { لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء } [الأنعام : ١٤٨] .

فمن احتج بالقدر على ما فعله من ذنوبه، وأعرض عما أمر الله به، من التوبة والاستغفار، والاستعانة بالله، والاستعاذة به، واستهدائه ـ كان من أخسر الناس فى الدنيا والآخرة . فهذا من فوائد ذكر الفرق بين الجمع

.

فصل

الفرق الثالث : أن الحسنة يضاعفها الله وينميها، ويثيب على الهم بها، والسيئة لا يضاعفها، ولا يؤاخذ على الهم بها . فيعطى صاحب الحسنة من الحسنات فوق ما عمل، وصاحب السيئة لا يجزيه إلا بقدر عمله، قال تعالى : { من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون } [الأنعام : ١٦٠] .

الفرق الرابع : أن الحسنة مضافة إليه؛ لأنه أحسن بها من كل وجه ـ كما تقدم ـ فما من وجه من وجوهها إلا وهو يقتضى الإضافة إليه .

وأما السيئة فهو إنما يخلقها بحكمة، وهى باعتبار تلك **الحكمة من** إحسانه، فإن الرب لا يفعل سيئة قط، بل فعله كله حسن وحسنات، وفعله كله خير .

ولهذا كان النبى صلى الله عليه وسلم يقول فى دعاء الاستفتاح : (والخير بيديك، والشر ليس إليك) ، فإنه لا يخلق شرا محضا، بل كل ما يخلقه ففيه حكمة، هو باعتبارها خير، ولكن قد يكون فيه شر لبعض الناس وهو شر جزئى إضافى، فأما شر كلى، أو شر مطلق، فالرب منزه عنه، وهذا هو الشر الذى ليس إليه

.

". (٢)

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (التفسير)، ٢/٤٦٥

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية (التفسير)، ٣/٦١

"وقوله : { من الذين استحق عليهم } يحتمل أن يكون مضمنا معنى بغى عليهم، وعدى { عليهم } كما يقال في الغصب : غصبت علي مالي؛ ولهذا قيل : { لشهادتنا أحق من شهادتهما وما اعتدينا } أي : كما اعتدوا، ثم قوله : { ذلك أدنى أن يأتوا بالشهادة على وجهها أو يخافوا أن ترد أيمان بعد أيمانهم } [المائدة : ١٠٨] .

وحديث ابن عباس فى البخاري صريح فى أن النبى صلى الله عليه وسلم حكم بمعنى ما فى القرآن، فرد اليمين على المدعيين بعد أن استحلف المدعى عليهم لما عثر على أنهما استحقا إثما، وهو إخبار المشترين أنهم اشتروا (الجام) [هو إناء من فضة . انظر : القاموس، مادة : جوم] منهما بعد قولهما ما رأيناه، فحلف النبى صلى الله عليه وسلم اثنين من المدعيين الأوليان، وأخذ (الجام) من المشتري، وسلم إلى المدعي، وبطل البيع، وهذا لا يكون مع إقرارهما بأنهما باعا الجام؛ فإنه لم يكن يحتاج إلى يمين المدعيين لو اعترفا بأنه جام الموصى، وأنهما غصباه وباعاه، بل بقوا على إنكار قبضه مع بيعه، أو ادعوا مع ذلك أنه أوصى لهما به وهذا بعيد .

فظاهر الآية أن المدعى عليه المتهم بخيانة ونحوها ـ كما اتهم هؤلاء ـ إذا ظهر كذبه وخيانته كان ذلك لوثا يوجب رجحان جانب المدعي، فيحلف ويأخذ، كما قلنا فى الدماء سواء، والحكمة فيهما واحدة، وذلك أنه لما كانت العادة أن القتل لا يفعل علانية بل سرا، فيتعذر إقامة البينة، ولا يمكن أن يؤخذ بقول المدعي مطلقا، أخذ بقول من يترجح جانبه، فمع عدم اللوث جانب المنكر راجح، أما إذا كان قتل ولوث قوي جانب المدعي فيحلف .

". (١)

"فهذا معاذ يذم من اتبع المتشابه لقصد الفتنة، وأما من قصده الفقه فقد أخبر أن الله لابد أن يفقهه بفهمه المتشابه فقها ما فقهه قوم قط : قالوا : والدليل على ذلك أن الصحابة كانوا إذا عرض لأحدهم شبهة في آية أو حديث سأل عن ذلك، كما سأله عمر فقال : ألم تكن تحدثنا أنا نأتى البيت ونطوف به ؟ وسأله ـ أيضا ـ عمر : ما بالنا نقصر الصلاة وقد أمنا ؟ ولما نزل قوله : { ولم يلبسوا إيمانهم بظلم } [الأنعام : ٨٢] ، شق عليهم وقالوا : أينا لم يظلم نفسه حتى بين لهم، ولما نزل قوله : { وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله } [البقرة : ٢٨٤] ، شق عليهم حتى بين لهم الحكمة في ذلك،

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (التفسير)، ٢١٥/٣

ولما قال النبي صلى الله عليه وسلم : (من نوقش الحساب عذب) قالت عائشة : ألم يقل الله : { فسوف يحاسب حسابا يسيرا } [الانشقاق : ٨] قال : (إنما ذلك العرض) .

قالوا : والدليل على ما قلناه إجماع السلف، فإنهم فسروا جميع القرآن . وقال مجاهد : عرضت المصحف على ابن عباس من فاتحته إلى خاتمته أقفه عند كل آية وأسأله عنها، وتلقوا ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم، كما قال أبو عبد الرحمن السلمي : حدثنا الذين كانوا يقرؤوننا القرآن . عثمان بن عفان، وعبد الله بن مسعود وغيرهما . أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي صلى الله عليه وسلم عشر آيات لم يجاوزوها حتى/يتعلموا ما فيها من العلم والعمل، قالوا : فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعا، وكلام أهل التفسير من الصحابة والتابعين شامل لجميع القرآن، إلا ما قد يشكل على بعضهم فيقف فيه، لا لأن أحدا من الناس لا يعلمه، لكن لأنه هو لم يعلمه .

". (١)

"وقال ابن زيد : الغاسق : الثريا إذا سقطت، وكانت الأسقام والطواعين تكثر عند وقوعها، وقد تقع عند طلوعها، ويشبه . والله أعلم . أن يكون من الحكمة في ذلك : أن النور هو جنس الخير، والظلمة جنس الشر، وفي الليل يقع من الشرور النفسانية ما لا يقع في النهار، والقمر له تأثير في الأرض لا سيما حال كسوفه؛ فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (إنهما آيتان يخوف الله بهما عباده) . والتخويف إنما يكون بانعقاد سبب الخوف، ولا يكون ذلك إلا عند سبب العذاب، أو مظنته، فعلم أن الكسوف مظنة حدوث عذاب بأهل الأرض؛/ ولهذا شرع عند الكسوف الصلاة الطويلة، والصدقة، والعتاقة، والدعاء لدفع العذاب، وكذلك عند سائر الآيات التي هي إنشاء العذاب، كالزلزلة، وظهور الكواكب، وغير ذلك . وهو أقرب الكواكب التي لها تأثير في الأرض بالترطيب واليبس وغير ذلك .

ولهذا كان الطالبون للمنفعة والمضرة من الكواكب إنما يأخذون الأحداث بحسب سير القمر، فإذا كان في شرفه . كالسرطان . كان الوقت عندهم سعيدا، وإذا كان في العقرب . وهو هبوطه . كان نحسا، فهذا في علمهم، وكذلك في عملهم من السحر وغيره : القمر أقرب المؤثرات، حتى صنفوا [مصحف القمر] لعبادته وتسبيحه، فوقع ترتيب المستعاذ منه في هذه السورة على كمال الترتيب، انتقالا من الأعم الأعلى الأبعد إلى الأخص الأقرب الأسفل، فجعلت أربعة أقسام :

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (التفسير)، ٥/٣٩٠

الأول : من شر المخلوقات عموما، وقول الحسن : إنه إبليس وذريته، وقول بعضهم : إنه جهنم ذكر للشر الذي هو لنا شر محض من الأرواح والأجسام .

والثانى : شر الغاسق إذا وقب، فدخل فيه ما يؤثر من العلويات في السفليات من الليل وما فيه من الكواكب، كالثريا وسلطانه الذي هو القمر، ودخل في ذلك سحر التمرسحات الذي هو أعلى السحر وأرفعه .

/الثالث : شر النفاثات في العقد، وهن السواحر اللواتى يتصورن بأفعال في أجسام .

". (١)

"إيجاز البيان عن معاني القرآن ، ج ١ ، ص : ٦٦

و قيل «١» : الصلاة من صليت العود ، إذا لينته ، لأن المصلى يلين ويخشع.

وأصل الإنفاق «٢» الإنفاد ، أنفق القوم نفد زادهم «٣».

٥ وأولئك هم المفلحون : يدخل «هم» في مثله فصلا ، وفي لفظ الكوفيين عمادا ولا موضع له من الإعراب «٤» ، وإنما يؤذن أن الخبر معرفة ، أو أن الذي بعده خبر لا صفة.

٦ سواء عليهم في قوم من الكفار ، وسواء بمعنى مستو. وفي حديث علي رضي الله عنه : «حبذا أرض الكوفة ، سواء سهلة» «٥».

والحكمة في الإنذار مع العلم بالإصرار إقامة الحجة ، وليكون الإرسال عاما ، وليثاب الرسول «٦».

وسواء عليهم يجوز أن يكون خبر (إن) ، ويجوز اعتراضا ، والخبر لا يؤمنون «٧» ، ولفظ الإنذار «٨» في أأنذرتهم معناه الخبر

---

(١) هذا القول بنصه في مجمل اللغة لابن فارس : ٢/ ٣٨ (صلى) ، وأورده السمين الحلبي في الدر المصون : ١/ ٩٤ ، وقال : «ذكر ذلك جماعة أجله وهو مشكل ، فإن الصلاة من ذوات الواو ، وهذا من الياء».

(٢) من قوله تعالى : ومما رزقناهم ينفقون.

(٣) تهذيب الألفاظ : ٢١ ، مفردات الراغب : ٥٠٢ ، الكشاف : ١/ ١٣٣ ، البحر المحيط : ١/ ٣٩ ، الدر المصون : ١/ ٩٦.

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (التفسير)، ١٥/٦

(٤) ينظر هذه المسألة في الجمل للزجاجي : ١٤٢ ، والإنصاف لابن الأنباري : ١/ ٧٠٦.

(٥) أخرجه يحيى بن معين في تاريخه : ٤/ ٥١ ، واللفظ عنده : «يا حبذا الكوفة ، أرض سواء معروفة تعرفها جمالنا المعلوفة». أخرجه ابن معين عن علي رضي الله عنه ، وفيه انقطاع لأن ابن عيينة لم يسمع من علي.

واللفظ الذي أورده المؤلف رحمه الله في غريب الحديث للخطابي : ٢/ ١٨٧ ، والفائق للزمخشري : ٢/ ٢٠٩ ، النهاية : ٢/ ٤٢٧. [.....]

(٦) في وضح البرهان : ١/ ١٠٥ : «و قيل لثبات الرسول على محاجة المعاندين».

(٧) إعراب القرآن للنحاس : ١/ ١٨٤ ، عن ابن كيسان. وانظر مشكل إعراب القرآن : ١/ ٧٦ ، التبيان للعكبري : ١/ ٢١.

(٨) في «ك» و«ج» : الاستفهام ، وكذلك في وضح البرهان للمؤلف.." [(١)]

"إيجاز البيان عن معاني القرآن ، ج ١ ، ص : ١٠٦

٧٢ فادارأتم : تدافعتم «١» ، دفع كل قبيلة عن نفسه»

. وهو تدارأتم ، ثم أدغمت التاء في الدال ، وجلبت لسكونها ألف الوصل ، وكتب في المصحف «فادارءتم» بغير ألف اختصارا كما في «الرحمن» لكثرة الاستعمال.

٧٣ [اضربوه]

«٣»بعضها : فيه حذف ، أي : ليحيا فضرب فحيي «٤».

والحكمة فيه ليكون وقت إحيائه إليهم ثم بضربهم إياه بموات.

والسبب «٥» أن شيخا موسرا قتله بنو أخيه وألقوه في محلة أخرى ،

---

(١) ينظر معاني القرآن للزجاج : ١/ ١٥٣ ، وتفسير المشكل لمكي : ٩٦ ، واللسان : ١/ ٧١ (درأ).

(٢) في «ج» : أنفسهم.

(٣) في الأصل : «فاضربوه» ، والمثبت في النص هو الموافق لرسم المصحف ونسخة «ك».

(٤) معاني القرآن للفراء : ١/ ٤٨ ، ونقل الماوردي في تفسيره : ١/ ١٢٥ عن الفراء قال : «و في الكلام

---

(١) إيجازالبيان عن معاني القرآن، ١/٦٦

حذف وتقديره : فقلنا اضربوه ببعضها ليحيا فضربوه فحيي. كذلك يحيي الله الموتى فدل بذلك على البعث والنشور ، وجعل سبب إحيائه الضرب بميت لا حياة فيه لئلا يلتبس على ذي شبهة أن الحياة إنما انتقلت إليه مما ضرب به لتزول الشبهة وتتأكد الحجة». [.....]

(٥) أخرجه الطبري في تفسيره : (٢/ ١٨٣ - ١٨٧) عن عبيدة السلماني ، وأخرج نحو هذه الرواية عن أبي العالية والسدي.

وأخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره : ١/ ٢١٤ (سورة البقرة) عن عبيدة السلماني. وكذا البيهقي في السنن الكبرى : ٦/ ٢٢٠.

وأورده السيوطي في الدر المنثور : ١/ ١٨٦ ، وزاد نسبته إلى عبد بن حميد ، وابن المنذر عن عبيدة أيضا ونقله الطبري عن قتادة ، ومجاهد ، ووهب بن منبه ، ومحمد بن كعب القرظي ، وابن عباس ، وقال : «فذكر جميعهم أن السبب الذي من أجله قال لهم موسى :

إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة نحو السبب الذي ذكره عبيدة وأبو العالية والسدي ، غير أن بعضهم ذكر أن الذي قتل القتيل الذي اختصم في أمره إلى موسى ، كان أخا المقتول ، وذكر بعضهم أنه كان ابن أخيه ، وقال بعضهم : بل كانوا جماعة ورثة استبطئوا حياته ، إلا أنهم جميعا مجمعون على أن موسى إنما أمرهم بذبح البقرة من أجل القتيل إذ احتكموا إليه ...».

وأورد ابن كثير رحمه الله في تفسيره : ١/ ١٥٧ هذه الروايات ، وقال : «و هذه السياقات عن عبيدة وأبي العالية والسدي وغيرهم ، فيها اختلاف ما ، والظاهر أنها مأخوذة من كتب بني إسرائيل ، وهي مما يجوز نقلها ، ولكن لا نصدق ولا نكذب ، فلهذا لا نعتمد عليها إلا ما وافق الحق عندنا ، والله أعلم».." (١)

"إيجاز البيان عن معاني القرآن ، ج ١ ، ص : ١٨١

و أصل المتشابه «١» : أن يشبه اللفظ اللفظ والمعنيان مختلفان ، كقوله «٢» : وأتوا به متشابها ، ومن المتشابه المشكل أي : دخل في شكل غيره فأشبهه وشاكله. وكأن المحكم أم الكتاب لأنه كالأصل في استخراج علم المتشابه منه ، وذلك كالاستواء في المتشابه يكون بمعنى الجلوس ، وبمعنى القدرة والاستيلاء. والأول لا يجوز على الله بدليل المحكم وهو قوله «٣» : ليس كمثله شي ء.

والحكمة في المتشابه البعث على النظر لئلا يهمل العقل «٤».

---

(١) إيجازالبيان عن معاني القرآن، ١٠٦/١

٨ لا تزغ قلوبنا : لا تملها عن القصد والهدى «٥».

---

(١) نص هذا الكلام في تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة : ١٠١.
وانظر تفسير الطبري : ٦/ ١٧٣ ، ومعاني النحاس : ١/ ٣٤٦.
(٢) سورة البقرة : آية : ٢٥.
(٣) سورة الشورى : آية : ١١.
(٤) قال ابن قتيبة في تأويل مشكل القرآن : ٨٦ : «و لو كان القرآن كله ظاهرا مكشوفا حتى يستوي في معرفته العالم والجاهل ، لبطل التفاضل بين الناس وسقطت المحنة وماتت الخواطر ، ومع الحاجة تقع الفكرة والحيلة ، ومع الكفاية يقع العجز والبلادة».
(٥) معاني الزجاج : ١/ ٣٧٩ ، وفيه أيضا : أي لا تضلنا بعد إذ هديتنا ، وقيل أيضا : لا تزغ قلوبنا لا تتعبدنا بما يكون سببا لزيغ قلوبنا وكلاهما جيد»..." (١)

"إيجاز البيان عن معاني القرآن ، ج ٢ ، ص : ٦١٠

و «الصيرفي» لاحتياله في الاستيفاء إذا اتزن والتطفيف إذا وزن «١».
٢٠ إلا إنهم ليأكلون : أي : إلا قيل إنهم ليأكلون «٢».
بعضكم لبعض فتنة : هو افتنان المقل بالمثري والضوي «٣» بالقوي.
أ تصبرون : أي : على هذه الفتنة أم لا تصبرون فيزداد غمكم.
وكان ربك بصيرا : **بالحكمة في** اختلاف المعاش.
ويحكى أن بعض الصالحين تبرم «٤» بضنك عيشه ، فخرج ضجرا فرأى أسود خصيا في موكب عظيم ، فوجم لذلك ، فإذا بإنسان قرأ عليه : وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون فتنبه وازداد تبصرا أو تصبرا.
٢١ لا يرجون لقاءنا : لا يخافون «٥» ، وجاز «يرجو» بمعنى يخاف لأن الراجي قلق فيما يرجوه كالخائف.
٢٢ ويقولون حجرا محجورا : كان الرجل في الجاهلية يقول لمن يخافه في أشهر الحرم : حجرا محجورا : أي : حراما محرما عليك قتلي في هذا الشهر ، فلا يبدأه بشر ، فإذا كان القيامة رأى المشركون ملائكة

---

(١) إيجازالبيان عن معاني القرآن، ١/١٨١

(١) ينظر الصحاح : ٤/ ١٣٦٨ ، واللسان : ٩/ ١٩٠ (صرف).

(٢) ذكره البغوي في تفسيره : ٣/ ٣٦٤ ، وقال : «كما قال في موضع آخر : ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك [سورة فصلت : آية : ٤٣].

وانظر هذا القول في تفسير القرطبي : ١٣/ ١٣ ، وغرائب التفسير للكرماني : ٢/ ٨١٢.

(٣) الضوى : الضعيف.

النهاية : ٣/ ١٠٦ ، واللسان : ١٤/ ٤٨٩ (ضوا).

(٤) أي : سئم ومل.

ينظر النهاية : ١/ ١٢١ ، والصحاح : ٥/ ١٨٦٩ ، واللسان : ١٢/ ٤٣ (برم).

(٥) ذكره الفراء في معانيه : ٢/ ٢٦٥ ، وقال : «و هي لغة تهامية ، يضعون الرجاء في موضع الخوف إذا كان معه جحد. من ذلك قول الله : ما لكم لا ترجون لله وقارا ، أي :

لا تخافون له عظمة ...».." (١)

"إيجاز البيان عن معاني القرآن ، ج ٢ ، ص : ٦٤٣

كما يقال : ليسكن جأشك وليفرخ روعك «١».

والحكمة في تكرر هذه القصص أن المواعظ تكرر على الأسماع ليتقرر في الطباع. أو هو التحدي إلى الإتيان بمثله ، ولو بترديد بعض هذه القصص ، أو تسلية للنبي وتحسيرا للكافرين حالا بعد حال.

٤١ وجعلناهم أئمة : من الجعل بمعنى «الوصف» ، كقوله : جعلته رجل سوء «٢». أو ذلك في الحشر حيث يقدمون أتباعهم إلى النار.

٤٢ من المقبوحين : الممقوتين ، قبحه الله وقبحه «٣».

قال عمار لمن تناول عائشة : اسكت مقبوحا منبوحا «٤».

---

(١) ينظر ما سبق في تفسير البغوي : ٣/ ٤٤٥ ، والكشاف : ٣/ ١٧٥ ، والمحرر الوجيز : ١١/ ٢٩٨ ، وزاد المسير : ٦/ ٢١٩ ، وتفسير القرطبي : ١٣/ ٢٨٤.

(٢) ذكر نحوه الزمخشري في الكشاف : ٣/ ١٨٠ ، فقال : «معناه : ودعوناهم أئمة دعاة إلى النار ،

---

(١) إيجازالبيان عن معاني القرآن، ٢/٦١٠

وقلنا : إنهم أئمة دعاة إلى النار كما يدعى خلفاء الحق أئمة دعاة إلى الجنة ، وهو من قولك : جعله بخيلا وفاسقا إذا دعاه وقال إنه بخيل وفاسق. ويقول أهل اللغة في تفسير فسقه وبخله جعله بخيلا وفاسقا ، ومنه قوله تعالى : وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا اه.

وأورد الفخر الرازي نحو هذا القول في تفسيره : ٢٤/ ٢٥٤ عن الجبائي ، من أئمة المعتزلة.

وقال الفخر الرازي : «تمسك به الأصحاب في كونه – تعالى – خالقا للخير والشر».

وأورد أبو حيان في البحر : ٧/ ١٢٠ نص كلام الزمخشري ، وعقب عليه بقوله : «و إنما فسر «جعلناهم» بمعنى : دعوناهم لا بمعنى صيرناهم جريا على مذهبه من الاعتزال لأن في تصييرهم أئمة خلق ذلك لهم ، وعلى مذهب المعتزلة لا يجوزون ذلك من الله ولا ينسبونه إليه».

(٣) إذا جعله قبيحا.

انظر تفسير البغوي : ٣/ ٤٤٧ ، والمفردات للراغب : ٣٩٠ ، وتفسير القرطبي : ١٣/ ٥٢٩.

(4) أي : مبعدا ، وانظر قول عمار رضي الله عنه في الفائق : ٣/ ٤٠٢ ، وغريب الحديث لابن الجوزي : ٢/ ٢١٥ ، والنهاية : ٤/ ٣.." (١)

"٣] {أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده} [الأنعام: من الآية٩٠] وللتحذير من مساويهم قال {وتبين لكم كيف فعلنا بهم} [ابراهيم: ٤٥] وفي خلالها تعليم، وكنا أشرنا إليها في المقدمة الثانية.

السادس : التعليم بما يناسب حالة عصر المخاطبين، وما يؤهلهم إلى تلقي الشريعة ونشرها وذلك علم الشرائع وعلم الأخبار وكان ذلك مبلغ علم مخالطي العرب من أهل الكتاب. وقد زاد القرآن على ذلك تعليم حكمة ميزان العقول وصحة الاستدلال في أفانين مجادلاته للضالين وفي دعوته إلى النظر، ثم نوه بشأن الحكمة فقال {يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا} [البقرة: ٢٦٩] وهذا أوسع باب انبجست منه عيون المعارف، وانفتحت به عيون الأميين إلى العلم. وقد لحق به التنبيه المتكرر على فائدة العلم، وذلك شيء لم يطرق أسماع العرب من قبل، إنما قصارى علومهم أمور تجريبية، وكان حكماؤهم أفرادا اختصوا بفرط ذكاء تضم إليه تجربة وهم العرفاء فجاء القرآن بقوله {وما يعقلها إلا العالمون} [العنكبوت: ٤٣] و {هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون} [الزمر: من الآية٩] وقال {ن والقلم}

(١) إيجازالبيان عن معاني القرآن، ٦٤٣/٢

[القلم:١] فنبه إلى مزية الكتابة.

السابع : المواعظ والإنذار والتحذير والتبشير، وهذا يجمع جميع آيات الوعد والوعيد، وكذلك المحاجة والمجادلة للمعاندين، وهذا باب الترغيب والترهيب.

الثامن : الإعجاز بالقرآن ليكون آية دالة على صدق الرسول؛ إذ التصديق يتوقف على دلالة المعجزة بعد التحدي، والقرآن جمع كونه معجزة بلفظه ومتحدي لأجله بمعناه والتحدي وقع فيه {قل فأتوا بسورة مثله} [يونس: ٣٨] ولمعرفة أسباب النزول مدخل في ظهور مقتضى الحال ووضوحه. هذا ما بلغ إليه استقرائي. وللغزالي في أحياء علوم الدين بعض من ذلك.

فغرض المفسر بيان ما يصل إليه أو ما يقصده من مراد الله تعالى في كتابه بأتم بيان يحتمله المعنى ولا يأباه اللفظ من كل ما يوضح المراد من مقاصد القرآن، أو ما يتوقف عليه فهمه أكمل فهم، أو يخدم المقصد تفصيلا وتفريعا كما أشرنا إليه في المقدمة الأولى، مع إقامة الحجة على ذلك إن كان به خفاء، أو لتوقع مكابرة من معاند أو جاهل، فلا جرم كان رائد المفسر في ذلك أن يعرف على الإجمال مقاصد القرآن مما جاء لأجله، ويعرف اصطلاحه في إطلاق الألفاظ، وللتنزيل اصطلاح وعادات، وتعرض صاحب الكشاف إلى شيء من عادات القرآن في متناثر كلامه في تفسيره.

فطرائق المفسرين للقرآن ثلاث، إما الاقتصار على الظاهر من المعنى الأصلي." (١)

"بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون} [المائدة: من الآية٤٤] فإذا ظن أحد أن من للشرط أشكل عليه كيف يكون الجور في الحكم كفرا، ثم إذا علم أن سبب النزول هم النصارى علم أن من موصولة وعلم أن الذين تركوا الحكم بالإنجيل لا يتعجب منهم أن يكفروا بمحمد. وكذلك حديث عبد الله بن مسعود قال لما نزل قوله تعالى {الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم} [الأنعام: من الآية٨٢] شق ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا أينا لم يلبس إيمانه بظلم ظنوا أن الظلم هو المعصية. فقال رسول الله: "إنه ليس بذلك ألا تسمع لقول لقمان لابنه {إن الشرك لظلم عظيم} " [لقمان: من الآية١٣]. ومن هذا القسم ما لا يبين مجملا ولا يؤول متشابها ولكنه يبين وجه تناسب الآي بعضها مع بعض كما في قوله تعالى، في سورة النساء:[٣] {وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء} الآية، فقد تخفي الملازمة بين الشرط وجزائه فيبينها ما في الصحيح، عن عائشة أن عروة بن الزبير سألها عنها

---

(١) التحرير والتنوير، ٣٩/١

فقالت: هذه اليتيمة تكون في حجر وليها تشركه في ماله فيريد أن يتزوجها بغير أن يقسط في صداقها فنهوا أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا لهن في الصداق، فأمروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهن.

هذا وإن القرآن كتاب جاء لهدي أمة والتشريع لها، وهذا الهدي قد يكون واردا قبل الحاجة، وقد يكون مخاطبا به قوم على وجه الزجر أو الثناء أو غيرهما، وقد يكون مخاطبا به جميع من يصلح لخطابه، وهو في جميع ذلك قد جاء بكليات تشريعية وتهذيبية، والحكمة في ذلك أن يكون وعى الأمة لدينها سهلا عليها، وليمكن تواتر الدين، وليكون لعلماء الأمة مزية الاستنباط، وإلا فإن الله قادر أن يجعل القرآن أضعاف هذا المنزل وأن يطيل عمر النبي صلى الله عليه وسلم للتشريع أكثر مما أطال عمر إبراهيم وموسى، ولذلك قال تعالى {وأتممت عليكم نعمتي} [المائدة: من الآية٣]، فكما لا يجوز حمل كلماته على خصوصيات جزئية لأن ذلك يبطل مراد الله، كذلك لا يجوز تعميم ما قصد منه الخصوص ولا إطلاق ما قصد منه التقييد؛ لأن ذلك قد يفضي إلى التخليط في المراد أو إلى إبطاله من أصله، وقد اغتر بعض الفرق بذلك. قال ابن سيرين في الخوارج: إنهم عمدوا إلى آيات الوعيد النازلة في المشركين فوضعوها على المسلمين فجاءوا ببدعة القول بالتكفير بالذنب، وقد قال الحرورية لعلي رضي الله عنه يوم التحكيم {إن الحكم إلا لله} [الأنعام: من الآية٥٧] فقال علي كلمة حق أريد بها باطل وفسرها في خطبة له في "نهج البلاغة". وثمة فائدة أخرى عظيمة لأسباب النزول وهي أن في نزول القرآن عند حدوث حوادث." (١)

"هذا ملاك هاته المسألة على وجه يلتئم به متناثرها، ويستأنس متنافرها. وبقي أن نبين لكم وجه تعلق التكليف بمن علم الله عدم امتثاله أو بمن أخبر الله تعالى بأنه لا يمتثل كما في هاته الآية، وهي أخص من مسألة العلم بعدم الوقوع إذ قد انضم الإخبار إلى العلم كما هو وجه استدلال المستدل بها، فالجواب أن من علم الله عدم فعله لم يكلفه بخصوصه ولا وجه له دعوة تخصه إذ لم يثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم خص أفرادا بالدعوة إلا وقد آمنوا كما خص عمر بن الخطاب حين جاءه، بقوله: "أما آن لك يا ابن الخطاب أن تقول لا إله إلا الله" وقوله لأبي سفيان يوم الفتح قريبا من تلكم المقالة، وخص عمه أبا طالب بمثلها، ولم تكن يومئذ قد نزلت هذه الآية، فلما كانت الدعوة عامة وهم شملهم العموم بطل الاستدلال بالآية وبالدليل العقلي، فلم يبق إلا أن يقال لماذا لم يخصص من علم عدم امتثاله من عموم الدعوة، ودفع ذلك أن تخصيص هؤلاء يطيل الشريعة ويجرئ غيرهم ويضعف إقامة الحجة عليهم، ويوهم عدم عموم

---

(١) التحرير والتنوير، ١/٤٨

الرسالة، على أن الله تعالى قد اقتضت حكمته الفصل بين ما في قدره وعلمه، وبين ما يقتضيه التشريع والتكليف، وسر **الحكمة في** ذلك بيناه في مواضع يطول الكلام بجلبها ويخرج من غرض التفسير، وأحسب أن تفطنكم إلى مجمله ليس بعسير.

[٧] {ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم} [البقرة:٧]

{ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة}

هذه الجملة جارية مجرى التعليل للحكم السابق في قوله تعالى: {سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون} [البقرة: ٦] وبيان لسببه في الواقع ليدفع بذلك تعجب المتعجبين من استواء الإنذار وعدمه عندهم ومن عدم نفوذ الإيمان إلى نفوسهم مع وضوح دلائله، فإذا علم أن على قلوبهم ختما وعلى أسماعهم وأن على أبصارهم غشاوة علم سبب ذلك كله وبطل العجب، فالجملة استئناف بياني يفيد جواب سائل يسأل عن سبب كونهم لا يؤمنون، وموقع هذه الجملة في نظم الكلام مقابل موقع جملة {أولئك على هدى من ربهم} [البقرة: ٥] فلهذه الجملة مكانة بين ذم أصحابها بمقدار ما لتلك من المكانة في الثناء على أربابها. والختم حقيقته السد على الإناء والغلق على الكتاب بطين ونحوه مع وضع علامة." (١)

"المضاف إليه على طريقة قوله تعالى {ليس كمثله شيء} [الشورى: ١١] بناء على أن لفظ مثل كناية عن المضاف إليه إذ لا يستقيم المعنى أن يكون التقدير فأتوا بسورة من القرآن، أو من محمد خلافا لمن توهم ذلك من كلام الكشاف وإنما لفظ مثل مستعمل في معناه الصريح إلا أنه أشبه المكنى به عن نفس المضاف هو إليه من حيث إن المثل هنا على تقدير الاسمية غير متحقق الوجود إلا أن سبب انتفاء تحققه هو كونه مفروضا فإن كون الأمر للتعجيز يقتضي تعذر المأمور، فليس شيء من هاته الوجوه بمقتض وجود مثل للقرآن حتى يراد به بعض الوجوه كما توهمه التفتزاني.

وعندي أن الاحتمالات التي احتملها قوله: {من مثله} كلها مرادة لرد دعاوي المكذبين في اختلاف دعاويهم فإن منهم من قال: القرآن كلام بشر، ومنهم من قال: هو مكتتب من أساطير الأولين، ومنهم من قال: إنما يعلمه بشر. وهاته الوجوه في معنى الآية تفند جميع الدعاوي فإن كان كلام بشر فأتوا بمماثلة أو بمثله، وإن كان من أساطير الأولين فأتوا أنتم بجزء من هذه الأساطير، وإن كان يعلمه فأتوا أنتم من عنده بسورة فما هو ببخيل عنكم إن سألتموه. وكل هذا إرخاء لعنان المعارضة وتسجيل للإعجاز عند عدمها.

---

(١) التحرير والتنوير، ١/٢٥٠

فالتحدي على صدق القرآن هو مجموع مماثلة القرآن في ألفاظه وتراكيبه، ومماثلة الرسول المنزل عليه في أنه أمي لم يسبق له تعليم ولا يعلم الكتب السالفة، قال تعالى: {أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب} [العنكبوت: من الآية٥١]. فذلك معنى المماثلة فلو أتوا بشيء من خطب أو شعر بلغائهم غير مشتمل على ما يشتمل عليه القرآن من الخصوصيات لم يكن ذلك إتيانا بما تحداهم به، ولو أتوا بكلام مشتمل على معان تشريعية أو من الحكمة من تأليف رجل عالم حكيم لم يكن ذلك إتيانا بما تحداهم به. فليس في جعل من ابتدائية إيهام إجزاء أن يأتوا بشيء من كلام بلغائهم لأن تلك مماثلة غير تامة.

وقوله تعالى: {وادعوا شهداءكم من دون الله} معطوف على: {فأتوا بسورة} أي ائتوا بها وادعوا شهداءكم. والدعاء يستعمل بمعنى طلب حضور المدعو، وبمعنى استعطافه وسؤاله لفعل ما، قال أبو فراس يخاطب سيف الدولة ليفديه من أسر ملك الروم:

دعوتك للجفن القريح المسهد ... لدي وللنوم الطريد المشرد

والشهداء جمع شهيد فعيل بمعنى فاعل من شهد إذا حضر، وأصله الحاضر قال تعالى: {ولا يأب الشهداء إذا ما دعوا} [البقرة: ٢٨٢] ثم استعمل هذا اللفظ فيما يلازمه." (١)

"وأعلم أن صلاحه يحصل منه المقصد من تعمير الأرض وأن فساده لا يأتي على المقصد بالإبطال وأن في ذلك كله مصالح عظيمة ومظاهر لتفاوت البشر في المراتب واطلاعا على نموذج من غايات علم الله تعالى وإرادته وقدرته بما يظهره البشر من مبالغ نتائج العقول والعلوم والصنائع والفضائل والشرائع وغير ذلك. كيف ومن أبدع ذلك أن تركب الصفتين الذميمتين يأتي بصفات الفضائل كحدوث الشجاعة من بين طرفي التهور والجبن. وهذا إجمال في التذكير بأن علم الله تعالى أوسع مما علموه فهم يوقنون إجمالا أن لذلك حكمة ومن المعلوم أن لا حاجة هنا لتقدير وما تعلمون بعد {ما لا تعلمون} لأنه معروف لكل سامع ولأن الغرض لم يتعلق بذكره وإنما تعلق بذكر علمه تعالى بما شذ عنهم. وقد كان قول الله تعالى هذا تنهية للمحاورة وإجمالا للحجة على الملائكة بأن سعة علم الله تحيط بما لم يحط به علمهم وأنه حين أراد أن يجعل آدم خليفة كانت إرادته عن علم بأنه أهل للخلافة، وتأكيد الجملة بأن لتنزيل الملائكة في مراجعتهم وغفلتهم عن الحكمة منزلة المترددين.

{وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين}

---

(١) التحرير والتنوير، ٣٣٣/١

[البقرة: ٣١]

{وعلم آدم الأسماء كلها}

معطوف على قوله: {قال إني أعلم ما لا تعلمون} [البقرة: من الآية٣٠] عطف حكاية الدليل التفصيلي على حكاية الاستدلال الإجمالي الذي اقتضاه قوله: {إني أعلم ما لا تعلمون} فإن تعليم آدم الأسماء وإظهار فضيلته بقبوله لهذا التعليم دون الملائكة جعله الله حجة على قوله لهم: {إني أعلم ما لا تعلمون} أي ما لا تعلمون من جدارة هذا المخلوق بالخلافة في الأرض وعطف ذكر آدم بعد ذكر مقالة الله للملائكة وذكر محاورتهم يدل على أن هذا الخليفة هو آدم وأن آدم اسم لذلك الخليفة وهذا الأسلوب من بديع الإجمال والتفصيل والإيجاز كما قال النابغة:

فقلت لهم لا أعرفن عقائلا ... رعابيب من جنبي أريك وعاقل

الأبيات ثم قال بعدها:

وقد خفت حتى ما تزيد مخافتي ... على وعل في ذي المطارة عاقل

مخافة عمرو أن تكون جياده ... يقدن إلينا بين حاف وناعل." (١)

"الخلق فإن مساق الآية تمجيد الخالق لا عجائب مخلوقاته حتى يكون بمعنى معقول. ولا إلى تأويل الحكيم بمعنى ذي الحكمة لأن ذلك لا يجدي في دفع بحث مجيئه من غير ثلاثي.

وتعقيب العليم بالحكيم من إتباع الوصف بأخص منه فإن مفهوم الحكمة زائد على مفهوم العلم لأن الحكمة كمال في العلم فهو كقولهم خطيب مصقع وشاعر مفلق.

وفي معارج النور للشيخ لطف الله الأرضرومي وفي الحكيم ذو الحكمة وهي العلم بالشيء وإتقان عمله وهو الإيجاد بالنسبة إليه والتدبير بأكمل ما تستعد له ذات المدبر بفتح الباء والاطلاع على حقائق الأمور اه.

وقال أبو حامد الغزالي في المقصد الأسني: الحكيم ذو الحكمة والحكمة عبارة عن المعرفة بأفضل الأشياء، فأفضل العلوم العلم بالله وأجل الأشياء هو الله وقد سبق أنه لا يعرفه كنه معرفته غيره وجلالة العلم بقدر جلالة المعلوم فهو الحكيم الحق لأنه يعلم أجل الأشياء بأجل العلوم إذ أجل العلوم هو العلم الأزلي القديم الذي لا يتصور زواله المطابق للمعلوم مطابقة لا يتطرق إليها خفاء، ولا شبهة ولا يتصور ذلك إلا في علم الله اه.

---

(١) التحرير والتنوير، ٣٩٣/١

وسيجيء الكلام على الحكمة عند قوله تعالى: {يؤتي الحكمة من يشاء} [البقرة: ٢٦٩].

{وأنت} في أنك أنت العليم الحكيم ضمير فصل، وتوسيطه من صيغ القصر فالمعنى قصر العلم والحكمة على الله قصر قلب لردهم اعتقادهم أنفسهم أنهم على جانب من علم وحكمة حين راجعوا بقولهم أتجعل فيها من يفسد فيها أو تنزيلهم منزلة من يعتقد ذلك على الاحتمالين المتقدمين، أو هو قصر حقيقي ادعائي مراد منه قصر كمال العلم والحكمة عليه تعالى.

[٣٣] {قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون}]البقرة:٣٣[

{قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم}

لما دخل هذا القول في جملة المحاورة جردت الجملة من الفاء أيضا كما تقدم في نظائره لأنه وإن كان إقبالا بالخطاب على غير المخاطبين بالأقوال التي قبله فهو بمثابة." (١)

"ابن عطية وابن رشد في البيان وغير واحد من العلماء بأن هذا قاله النبي صلى الله عليه وسلم عن اجتهاد قبل أن يوقفه الله على أن الممسوخ لا يعيش أكثر من ثلاثة أيام ولا يتناسل كما هو صريح حديث ابن مسعود، قلت يؤيد هذا أنه قاله عن اجتهاد قوله ولا أراها. ولا شك أن هاته الأنواع من الحيوان موجودة قبل المسخ وأن المسخ إليها دليل على وجودها ومعرفة الناس بها.

وهذا الأمر التكويني كان لأجل العقوبة على ما اجترأوا من الاستخفاف بالأمر الإلهي حتى تحيلوا عليه وفي ذلك دليل على أن الله تعالى لا يرضى بالحيل على تجاوز أوامره ونواهيه فإن شرائع الله تعالى مشروعة لمصالح وحكم فالتحيل على خرق تلك الحكم بإجراء الأفعال على صور مشروعة مع تحقق تعطيل الحكمة منها جراءة على الله تعالى، ولا حجة لمن ينتحل جواز الحيل بقوله تعالى في قصة أيوب {وخذ بيدك ضغثا فاضرب به ولا تحنث} [ص: من الآية٤٤] لأن تلك فتوى من الله تعالى لنبي لتجنب الحنث الذي قد يتفادى عنه بالكفارة ولكن الله لم يرض أصل الحنث لنبيه لأنه خلاف الأولى فأفتاه بما قاله، وذلك مما يعين على حكمة اجتناب الحنث لأن فيه محافظة على تعظيم اسم الله تعالى فلا فوات للحكمة في ذلك، ومسألة الحيل الشرعية لعلنا نتعرض لها في سورة ص وفيها تمحيص.

وقوله: {فجعلناها نكالا} عاد فيه الضمير على العقوبة المستفادة من قوله: {فقلنا لهم كونوا قردة} والنكال

---

(١) التحرير والتنوير، ٤٠٢/١

بفتح النون العقاب الشديد الذي يردع المعاقب عن العود للجناية ويردع غيره عن ارتكاب مثلها، وهو مشتق من نكل إذا امتنع ويقال نكل به تنكيلا ونكالا بمعنى عاقبه بما يمنعه من العود. والمراد بما بين يديها وما خلفها ما قارنها من معاصيهم وما سبق يعني أن تلك الفعلة كانت آخر ما فعلوه فنزلت العقوبة عندها ولما بين يديها من الأمم القريبة منها ولما خلفها من الأمم البعيدة. والموعظة ما به الوعظ وهو الترهيب من الشر.

[٦٧] {وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة قالوا أتتخذنا هزوا قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين}

تعرضت هذه الآية لقصة من قصص بني إسرائيل ظهر فيها من قلة التوقير لنبيهم ومن الإعنات في المسألة والإلحاح فيها إما للتفصي من الإمتثال وإما لبعد أفهامهم عن مقصد." (١)

"فالوجه أن قوله: {وما أنزل} عطف على {ملك سليمان} فهو معمول لتتلوا الذي هو بمعنى تكذب فيكون المراد عدم صحة هذا الخبر أي ما تكذبه الشياطين على ما أنزل على الملكين ببابل، أي ينسبون بعض السحر إلى ما أنزل ببابل. قال الفخر وهو اختيار أبي مسلم وأنكر أبو مسلم أن يكون السحر نازلا على الملكين إذ لا يجوز أمر الله به وكيف يتولى الملائكة تعليمه مع أنه كفر أو فسق،

وقيل "ما" نافية معطوفة على "ما كفر سليمان" أي وما كفر سليمان بوضع السحر كما يزعم الذين وضعوه، ولا أنزل السحر على الملكين ببابل. وتعريف الملكين تعريف الجنس أو هو تعريف العهد بأن يكون الملكان معهودين لدى العارفين بقصة ظهور السحر، وقد قيل إن "هاروت وماروت" بدل من "الشياطين" وأن المراد بالشياطين شيطانا وضعا السحر للناس هما هاروت وماروت على أنه من إطلاق الجمع على المثنى كقوله: {قلوبكما} وهذا تأويل خطأ إذ يصير قوله: {على الملكين} كلاما حشوا.

وعلى ظاهر هذه الآية إشكال من أربعة وجوه: أحدها كون السحر منزلا إن حمل الإنزال على المعروف منه وهو الإنزال من الله، الثاني كون المباشر لذلك ملكين من الملائكة على القراءة المتواترة، الثالث كيف يجمع الملكان بين قولهما {نحن فتنة} وقولهما: {فلا تكفر} فكيف يجتمع قصد الفتنة مع التحذير من الوقوع فيها. الرابع كيف حصرا حالهما في الاتصاف بأنهما فتنة فما هي الحكمة في تصديهما لذلك لأنهما إن كانا ملكين فالإشكال ظاهر وإن كانا ملكين بكسر اللام فهما قد علما مضرة الكفر بدليل نهيهما عنه وعلما معنى الفتنة بدليل قولهما: {إنما نحن فتنة} فلماذا تورطا في هذه الحالة.

---

(١) التحرير والتنوير، ٥٢٨/١

ودفع هذا الإشكال برمته أن الإنزال هو الإيصال وهو إذا تعدى بعلى دل على إيصال من علو واشتهر ذلك في إيصال العلم من وحي أو إلهام أو نحوهما، فالإنزال هنا بمعنى الإلهام وبمعنى الإيداع في العقل أو في الخلقة بأن يكون الملكان قد برعا في هذا السحر وابتكرا منه أساليب لم يسبق لهما تلقيها من معلم شأن العلامة المتصرف في علمه المبتكر لوجوه المسائل وعللها وتصاريفها وفروعها،

والظاهر عندي أن ليس المراد بالإنزال إنزال السحر إذ السحر أمر موجود من قبل ولكنه إنزال الأمر للملكين أو إنزال الوحي أو الإلهام للملكين بأن يتصديا لبث خفايا السحر بين المتعلمين ليبطل انفراد شرمذة بعلمه فيندفع الوجهان الأول والثاني.

ثم إن الحكمة من تعميم تعليمه أن السحرة في بابل كانوا اتخذوا السحر وسيلة." (١)

"والحكمة العلم بالله ودقائق شرائعه وهي معاني الكتاب وتفصيل مقاصده، وعن مالك: الحكمة معرفة الفقه والدين والاتباع لذلك، وعن الشافعي الحكمة سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكلاهما ناظر إلى أن عطف الحكمة على الكتاب يقتضي شيئا من المغايرة بزيادة معنى وسيجيء تفصيل معنى الحكمة عند قوله تعالى: {يؤتي الحكمة من يشاء} في هذه السورة [٢٩٦].

والتزكية التطهير من النقائص وأكبر النقائص الشرك بالله، وفي هذا تعريض بالذين أعرضوا عن متابعة القرآن وأبوا إلا البقاء على الشرك.

وقد جاء ترتيب هذه الجمل في الذكر على حسب ترتيب وجودها لأن أول تبليغ الرسالة تلاوة القرآن ثم يكون تعليم معانيه قال تعالى: {فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ثم إن علينا بيانه} [القيامة:١٨ ١٩] ، ثم العلم تحصل به التزكية وهي في العمل بإرشاد القرآن.

وقوله: {إنك أنت العزيز الحكيم} تذييل لتقريب الإجابة أي لأنك لا يغلبك أمر عظيم ولا يعزب عن علمك وحكمتك شيء والحكيم بمعنى المحكم هو فعيل بمعنى مفعل وقد تقدم نظيره في قوله تعالى: {ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون} [البقرة: من الآية١٠] وقوله: {قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم} [البقرة:٣٢]

[١٣١,١٣٠] {ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين}

---

(١) التحرير والتنوير، ٦٢٢/١

موقع هاته الآيات من سوابقها موقع النتيجة بعد الدليل فإنه لما بين فضائل إبراهيم من قوله: {وإذ ابتلى} إلى هنا علم أن صاحب هاته الفضائل لا يعدل عن دينه والاقتداء به إلا سفيه العقل أفن الرأي، فمقتضى الظاهر أن تعطف على سوابقها بالفاء وإنما عدل من الفاء إلى الواو ليكون مدلول هذه الجملة مستقلا بنفسه في تكميل التنويه بشأن إبراهيم وفي أن هذا الحكم حقيق بملة إبراهيم من كل جهة لا من خصوص ما حكى عنه في الآيات السالفة وفي التعريض بالذين حادوا عن الدين الذي جاء متضمنا لملة إبراهيم، والدلالة عن التفريع لا تفوت لأن وقوع الجملة بعد سوابقها متضمنة هذا المعنى دليل على أنها نتيجة لما تقدم كما تقول أحسن فلان تدبير المهم وهو رجل حكيم ولا تحتاج إلى أن تقول فهو رجل حكيم.." (١)

"الشهادة لنا وانتفاء الشهادة علينا، فأما الدنيوية فشهادة الرسول علينا فيها هي شهادته بذاته على معاصريه وشهادة شرعه على الذين أتوا بعده إما بوفائهم ما أوجبه عليهم شرعه وإما بعكس ذلك، وأما الأخروية فهي ما روي في الحديث المتقدم من شهادة الرسول بصدق الأمة فيما شهدت به، وما روي في الحديث الآخر في "الموطأ" و "الصحاح ": "فليذادن أقوام عن حوضي فأقول يا رب أمتي فيقال إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك إنهم بدلوا وغيروا فأقول سحقا سحقا لمن بدل بعدي". وتعدية شهادة الرسول على الأمة بحرف على مشاكلة لقوله قبله: {لتكونوا شهداء على الناس} وإلا فإنها شهادة للأمة وقيل بل لتضمين {شهيدا} معنى رقيبا ومهيمنا في الموضعين كما في "الكشاف".

وقد دلت هذه الآية على التنويه بالشهادة وتشريفها حتى أظهر العليم بكل شيء أنه لا يقضى إلا بعد حصولها ويؤخذ من الآية أن الشاهد شهيد بما حصل له من العلم وإن لم يشهده المشهود عليه وأنه يشهد على العلم بالسماع، والأدلة القاطعة وإن لم ير بعينيه أو يسمع بأذنيه، وأن التزكية أصل عظيم في الشهادة، وأن المزكي يجب أن يكون أفضل وأعدل من المزكى، وأن المزكى لا يحتاج التزكية، وأن الأمة لا تشهد على النبي صلى الله عليه وسلم ولهذا كان يقول في حجة الوداع ألا هل بلغت فيقولون نعم فيقول اللهم اشهد فجعل الله هو الشاهد على تبليغه وهذا من أدق النكت.

وتقديم الجار والمجرور على عامله لا أراه إلا لمجرد الاهتمام بتشريف أمر هذه الأمة حتى أنها تشهد على الأمم والرسل وهي لا يشهد عليها إلا رسولها، وقد يكون تقديمه لتكون الكلمة التي تختم بها الآية في محل الوقف كلمة ذات حرف مد قبل الحرف الأخير لأن المد أمكن للوقوف وهذا من بدائع فصاحة

---

(١) التحرير والتنوير، ٧٠٤/١

القرآن، وقيل تقديم المجرور مفيد لقصر الفاعل على المفعول وهو تكلف ومثله غير معهود في كلامهم.

{وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله}

الواو عاطفة على جملة {سيقول السفهاء من الناس} [البقرة:١٤٢] وما اتصل بها من الجواب بقوله: {قل لله المشرق والمغرب} قصد به بيان الحكمة من شرع استقبال بيت المقدس ثم تحويل ذلك إلى شرع استقبال الكعبة وما بين الجملتين من قوله: {وكذلك جعلناكم أمة وسطا} إلى آخرها اعتراض.." (١)

"وقوله: {ويعلمكم الكتاب والحكمة} أي يعلمكم الشريعة فالكتاب هنا هو القرآن باعتبار كونه كتاب تشريع لا باعتبار كونه معجزا ويعلمكم أصول الفضائل، فالحكمة هي التعاليم المانعة من الوقوع في الخطأ والفساد، وتقدم نظيره في دعوة إبراهيم وسيأتي أيضا عند قوله تعالى: {يؤتي الحكمة من يشاء} [البقرة:٢٦٩] في هذه السورة.

وقدمت جملة: {ويزكيكم} على جملة: {ويعلمكم الكتاب والحكمة} هنا عكس ما في الآية السابقة في حكاية قول إبراهيم: {يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم} [البقرة:١٢٩]، لأن المقام هنا للامتنان على المسلمين فقدم فيها ما يفيد معنى المنفعة الحاصلة من تلاوة الآيات عليهم وهي منفعة تزكية نفوسهم اهتماما بها وبعثا لها بالحرص على تحصيل وسائلها وتعجيلا للبشارة بها. فأما في دعوة إبراهيم فقد رتبت الجمل على حسب ترتيب حصول ما تضمنته في الخارج، مع ما في ذلك التخالف من التفنن.

وقوله: {ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون} تعميم لكل ما كان غير شريعة ولا حكمة من معرفة أحوال الأمم وأحوال سياسة الدول وأحوال الآخرة وغير ذلك.

وإنما أعاد قوله: {ويعلمكم} مع صحة الاستغناء عنه بالعطف تنصيصا على المغايرة لئلا يظن أن: {ما لم تكونوا تعلمون} هو الكتاب والحكمة، وتنصيصا على أن: {ما لم تكونوا} مفعولا لا مبتدأ حتى لا يترقب السامع خبرا له فيضل فهمه في ذلك الترقب، واعلم أن حرف العطف إذا جئ معه بإعادة عامله كان عاطفه عاملا على مثله فصار من عطف الجمل لكن العاطف حينئذ أشبه بالمؤكد لمدلول العامل.

[١٥٢] {فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون}

---

(١) التحرير والتنوير، ٢/٢٢

الفاء للتفريع عاطفة جملة الأمر بذكر الله وشكره على جمل النعم المتقدمة أي إذ قد أنعمت عليكم بهاته النعم فأنا آمركم بذكرى،

وقوله: {فاذكروني أذكركم} فعلان مشتقان من الذكر بكسر الذال ومن الذكر بضمها والكل مأمور به لأننا مأمورون بتذكر الله تعالى عند الإقدام على الأفعال لنذكر أوامره ونواهيه قال تعالى: {والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم} [آل عمران:١٣٥] وعن عمر بن الخطاب أفضل من ذكر الله باللسان ذكر الله عند أمره ونهيه، ومأمورون بذكر اسم الله تعالى بألسنتنا في جمل تدل على حمده وتقديسه." (١)

"فقوله: {أحياء} هو خبر مبتدأ محذوف وهو كلام مستأنف بعد بل الإضرابية.

وإنما قال: {ولكن لا تشعرون} للإشارة إلى أنها حياة غير جسمية ولا مادية بل حياة روحية، لكنها زائدة على مطلق حياة الأرواح، فإن للأرواح كلها حياة وهي عدم الاضمحلال وقبول التجسد في الحشر مع إحساس ما بكونها آيلة إلى نعيم أو جحيم، وأما حياة الذين قتلوا في سبيل الله فهي حياة مشتملة على إدراكات التنعم بلذات الجنة والعوالم العلوية والانكشافات الكاملة، ولذلك ورد في الحديث: "إن أرواح الشهداء تجعل في حواصل طيور خضر ترعى من ثمر الجنة وتشرب من مائها" **والحكمة في** ذلك أن اتصال اللذات بالأرواح متوقف على توسط الحاوس الجسمانية، فلما انفصلت الروح عن الجسد عوضت جسدا مناسبا للجنة ليكون وسيلة لنعيمها.

[١٥٥-١٥٧] {ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون}

{ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات}

عطف: {لنبلونكم} على قوله: {استعينوا بالصبر والصلاة} [البقرة:١٥٣] عطف المقصد على المقدمة كما أشرنا إليه قبل، ولك أن تجعل قوله: {ولنبلونكم} عطفا على قوله: {ولأتم نعمتي عليكم} [البقرة:١٥٠] الآيات ليعلم المسلمين أن تمام النعمة ومنزلة الكرامة عند الله لا يحول بينهم وبين لحاق المصائب الدنيوية المرتبطة بأسبابها، وأن تلك المصائب مظهر لثباتهم على الإيمان ومحبة الله تعالى

(١) التحرير والتنوير، ٤٩/٢

والتسليم لقضائه فينالون بذلك بهجة نفوسهم بما أصابهم في مرضاة الله ويزدادون به رفعة وزكاء، ويزدادون يقينا بأن اتباعهم لهذا الدين لم يكن لنوال حظوظ في الدنيا، وينجر لهم من ذلك ثواب، ولذلك جاء بعده: {وبشر الصابرين} وجعل قوله: {يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة} [البقرة:١٥٣] الآية بين هذين المتعاطفين ليكون نصيحة لعلاج الأمرين تمام النعمة والهدى والابتلاء، ثم أعيد عليه ما يصير الجميع خبرا بقوله: {وبشر الصابرين}.

وجئ بكلمة شيء تهوينا للخبر المفجع، وإشارة إلى الفرق بين هذا الابتلاء وبين الجوع والخوف اللذين سلطهما الله على بعض الأمم عقوبة، كما في قوله: {فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون} [النحل:١١٢] ولذلك جاء هنا بكلمة شئ وجاء." (١)

"وأخراهم، وهو معرفة كون الأهلة ترتبت عليها آجال المعاملات والعبادات كالحج والصيام والعدة، ولذلك صرفهم عن بيان مسؤولهم إلى بيان فائدة أخرى، لا سيما والرسول لم يجيء مبينا لعلل اختلاف أحوال الأجرام السماوية، والسائلون ليس لهم من أصول معرفة الهيئة ما يهيئهم إلى فهم ما أرادوا علمه بمجرد البيان اللفظي بل ذلك يستدعي تعليمهم مقدمات لذلك العلم، على أنه لو تعرض صاحب الشريعة لبيانه لبين أشياء من حقائق العلم لم تكن معروفة عندهم ولا تقبلها عقولهم يومئذ،ولكان ذلك ذريعة إلى طعن المشركين والمنافقين بتكذيبه، فإنهم قد أسرعوا إلى التكذيب فيما لم يطلعوا على ظواهره كقولهم: {وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفي خلق جديد أفترى على الله كذبا أم به جنة} [سبأ:٨-٧] و قولهم: {ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق} [ص:٧] وعليه فيكون هذا الجواب بقوله: {هي مواقيت للناس والحج} تخريجا للكلام على خلاف مقتضى الظاهر كقول الشاعر أنشده في المفتاح ولم ينسبه ولم أقف على قائله ولم أره في غيره:

أتت تشتكي مني مزاولة القرى ... وقد رأت الأضياف ينحون منزلي

فقلت لها لما سمعت كلامها ... هم الضيف جدى في قراهم وعجلي

وإلى هذا صاحب "المفتاح" وكأنه بناه على أنهم لا يظن بهم السؤال عن **الحكمة في** خلق الأهلة: لظهورها، وعلى أن الواو في قصة معاذ وثعلبة يشعر بأنهما سألا عن السبب إذ قالا: ما بال الهلال يبدو دقيقا الخ. والأهلة: جمع هلال وهو القمر في أول استقباله الشمس كل شهر قمري في الليلة الأولى والثانية، قيل

---

(١) التحرير والتنوير، ٥٣/٢

والثالثة، ومن قال إلى السبع فإنما أراد الحجاز، لأنه يشبه الهلال، ويطلق الهلال على القمر ليلة ست وعشرين، وسبع وعشرين، لأنه في قدر الهلال في أول الشهر، وإنما سمي الهلال هلالا لأن الناس إذا رأوه رفعوا أصواتهم بالإخبار عنه ينادي بعضهم بعضا لذلك، وإن هل وأهل بمعنى رفع صوته كما تقدم في قوله تعالى: {وما أهل به لغير الله} [البقرة:١٧٣]

وقوله: {مواقيت للناس} أي مواقيت لما يوقت من أعمالهم فاللام للعلة أي لفائدة الناس وهو على تقدير مضاف أي لأعمال الناس، ولم تذكر الأعمال الموقتة بالأهلة ليشمل الكلام كل عمل محتاج إلى التوقيت، وعطف الحج على الناس مع اعتبار المحذوف من عطف الخاص على العام للاهتمام به. واحتياج الحج للتوقيت ضروري؛ إذ." (١)

"العاقبة والغاية أو جهلهما، فكانت الشرائع وحملتها من العلماء والحكماء تحرض الناس على الأفعال والتروك باعتبار الغايات والعواقب.

فإن قلت: ما الحكمة في جعل أشياء كثيرة نافعة مكروهة، وأشياء كثيرة ضارة محبوبة، وهلا جعل الله تعالى النافع كله محبوبا والضار كله مكروها فتنساق النفوس للنافع باختيارها وتجتنب الضار كذلك فنكفي كلفة مسألة الصلاح والأصلح التي تناظر فيها الأشعري مع شيخه الجبائي وفارق الأشعري من أجلها نحلة الاعتزال؟ قلت: إن حكمة الله تعالى بنت نظام العالم على وجود النافع والضار والطيب والخبيث من الذوات والصفات والأحداث، وأوكل للإنسان سلطة هذا العالم بحكم خلقه الإنسان صالحا للأمرين وأراه طريقي الخير والشر كما قدمناه عند قوله تعالى: {كان الناس أمة واحدة} [البقرة:٢١٣]، وقد اقتضت الحكمة أن يكون النافع أكثر من الضار ولعل وجود الأشياء الضارة كونه اللہ لتكون آلة لحمل ناس على اتباع النافع كما قال تعالى: {فيه بأس شديد ومنافع للناس} [الحديد:٢٥]، وقد أقام نظام هذا العالم على وجود المتضادات، وجعل الكمال الإنساني حاصلا عند حصول جميع الصفات النافعة فيه، بحيث إذا اختلت بعض الصفات النافعة منه انتقصت بقية الصفات النافعة منه أو اضمحلت، وجعل الله الكمال أقل من النقص لتظهر مراتب النفوس في هذا العالم ومبالغ العقول البشرية فيه، فاكتسب الناس وضيعوا وضروا ونفعوا فكثر الضار وقل النافع بما كسب الناس وفعلوا قال تعالى: {قل لا يستوي الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث} [المائدة:١٠٠].

---

(١) التحرير والتنوير، ١٩٢/٢

وكما صارت الذوات الكاملة الفاضلة أقل من ضدها صارت صفات الكمال عزيزة المنال، وأحيطت عزتها ونفاستها بصعوبة منالها على البشر وبما يحف بها من الخطر والمتاعب، لأنها لو كانت مما تنساق لها النفوس بسهولة لاستوى فيها الناس فلم تظهر مراتب الكمال ولم يقع التنافس بين الناس في تحصيل الفضائل واقتحام المصاعب لتحصيلها قال أبو الطيب:

ولا فضل فيها للشجاعة والندى ... وصبر الفتى لولا لقاء شعوب

فهذا سبب صعوبة الكمالات على النفوس.

ثم إن الله تعالى جعل نظام الوجود في هذا العالم بتولد الشيء من بين شيئين وهو." (١)

"جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء} [البقرة:٢٣٥].وأما ما عداه، فالخلاف مفروض في أمرين: في الإحداد، وفي ملازمة البيت.

فأما الإحداد فهو مصدر أحدت المرأة إذا حزنت، ولبست ثياب الحزن، وتركت الزينة، ويقال حداد، والمراد به في الإسلام ترك المعتدة من الوفاة الزينة، والطيب، ومصبوغ الثياب، إلا الأبيض، وترك الحلي، وهو واجب بالسنة ففي الصحيح: "لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحد على ميت فوق ثلاث إلا على زوج أربعة أشهر وعشرا" ولم يخالف في هذا إلا الحسن البصري، فجعل الإحداد ثلاثة أيام لا غير وهو ضعيف.

والحكمة من الإحداد سد ذريعة كل ما يوسوس إلى الرجال: من رؤية محاسن المرأة المعتدة، حتى يبتعدوا عن الرغبة في التعجل بما لا يليق، ولذلك اختلف العلماء في الإحداد على المطلقة، فقال مالك، والشافعي، وربيعة، وعطاء: لا إحداد على مطلقة، أخذا بصريح الحديث، وبأن المطلقة يرقبها مطلقها، ويحول بينها وبين ما عسى أن تتساهل فيه، بخلاف المتوفى عنها كما قدمناه،

وقال أبو حنيفة، والثوري، وسعيد بن المسيب، وسليمان بن يسار، وابن سيرين: تحد المطلقة طلاق الثلاث، كالمتوفى عنها، لأنهما جميعا في عدة يحفظ فيها النسب، والزوجة الكتابية كالمسلمة في ذلك، عند مالك، تجبر عليه وبه قال الشافعي، والليث، وأبو ثور، لاتحاد العلة، وقال أبو حنيفة، وأشهب، وابن نافع، وابن كنانة، من المالكية: لا إحداد عليها، وقوفا عند قوله صلى الله عليه وسلم: "لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر" فوصفها بالإيمان، وهو متمسك ضئيل، لأن مورد الوصف ليس مورد التقييد، بل مورد التحريض على امتثال أمر الشريعة.

---

(١) التحرير والتنوير، ٣٠٥/٢

وقد شدد النبي صلى الله عليه وسلم في أمر الإحداد، ففي "الموطأ": "أن امرأة جاءت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: إن ابنتي توفى عنها زوجها، وقد اشتكت عينيها، أفتكحلهما فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا لا" مرتين أو ثلاثا "إنما هي أربعة أشهر وعشرا وقد كانت إحداكن في الجاهلية ترمي بالبعرة على رأس الحول١" . وقد أباح النبي صلى الله عليه وسلم لأم سلمة في مدة

-

١ فسر هذا في "الموطأ" بأن المرأة كانت في الجاهلية إذا توفي زوجها دخلت حفضا- بكسر الحاء وسكون الفاء وهو بيت رديء ولبست شر ثيابها ولم تمسس طيبا ولا شيئا حتى يمر بها سنة ثم تؤتي بدابة شاة أو طائر أو حمار فتفتض به أي تمسح جلدها به وتخرج وهي في شر منظر فتعطى." (١)

"منها والمتأخر ومع انتقالات في القصص غير متناسبة،وظهر داود بن يسي اليهودي إذا أوحى الله إلى صمويل أن يذهب إلى بيت يسي في بيت لحم ويمسح اصغر ابناء يسي ليكون ملكا على إسرائيل بعد حين، وساق الله داود إلى شاول "طالوت" بتقدير عجيب فخطى عند شاول، وكان داود من قبل راعي غنم أبيه، وكان ذا شجاعة ونشاطوحسن سمت، وله نبوغ في رمي المقلاع، فكان ذات يوم التقى الفلسطينين مع جيش طالوت وخرج زعيم من زعماء فلسطين اسمه جليات كما تقدم، فلم يستطع أحد مبارزته فانبرى له داود ورماه بالمقلاع فأصا بالحجر جبهته وأسقطه إلى الأرض واعتلاه داود واخترط سيفه وقطع رأسه، فذهب به إلى شاول وانهزم الفلسطينيين، وزوج شاول ابنته المسماة ميكال من داود، وصار داود بعد حين ملكا عوض شاول، ثم آتاه الله النبوة فصار ملكا نبيا، وعلمه مما يشاء. ويأتي ذكر داود عند قوله تعالى: {وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه} في سورة الأنعام[٨٣].

{ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين}

ذيلت هذه الآية العظيمة، كل الوقائع العجيبة، أشارت بها الآيات السالفة: لتدفع عن السامع المتبصر ما يخامره من تطلب الحكمة في حدثان هذه الوقائع وأمثالها في هذا العالم ولكون مضمون هذه الآية عبرة من عبر الأكوان، وحكمة من حكم التاريخ، ونظم العمران التي لم يهتد إليها أحد قبل نزول هذه الآية، وقبل إدراك ما في مطاويها، عطفت على العبر الماضية كما عطف قوله: {وقال لهم نبيهم} [البقرة:٢٤٧] وما بعده من رؤوس الآي. وعدل عن التعارف في أمثالها من ترك العطف، وسلوك سبيل الاستئناف. وقرأ نافع،

---

(١) التحرير والتنوير، ٢/٤٢٦

وأبو جعفر، ويعقوب "ولولا دفاع الله الناس" بصيغة المفاعلة، وقرأه الجمهور {دفع} بصيغة المجرد.
والدفاع مصدر دافع الذي هو مبالغة في دفع لا للمفاعلة، كقول موسى جابر الجنفي:
لا أشتهي يا قوم إلا كارها ... باب الأمير ولا دفاع الحاجب
وإضافته إلى الله مجاز عقلي: كما هو في قوله: {إن الله يدافع عن الذين آمنوا} [الحج:٣٨] أي يدفع لأن الذي يدفع حقيقة هو الذي يباشر الدفع في متعارف الناس وإنما." (١)

"ثم إن كان الوعد يطلق على التعهد بالخير والشر كما هو كلام "القاموس" – تبعا لفصيح ثعلب – ففي قوله يعدكم الفقر مجاز واحد، وإن كان خاصا بالخير كما هو قول الزمخشري في الأساس، ففي قوله: {يعدكم الفقر} مجازان.

والفقر شدة الحاجة إلى لوازم الحياة لعلة أو فقد ما يعاوض به، وهو مشتق من فقار الظهر، فأصله مصدر فقره إذا كسر ظهره، جعلوا العاجز بمنزلة من لا يستطيع أدنى حركة لأن الظهر هو مجمع الحركات، ومن هذا تسميتهم المصيبة فاقرة، وقاصمة الظهر، ويقال فقر وفقر وفقر – بفتح فسكون، وبفتحتين، وبضم فسكون، وبضمتين –، ويقال رجل فقير، ويقال رجل فقر وصفا بالمصدر.

والفحشاء اسم لفعل أو قول شديد السوء واستحقاق الذم عرفا أو شرعا. مشتق من الفحش – بضم الفاء وسكون الحاء – تجاوز الحد. وخصه الاستعمال بالتجاوز في القبيح، أي يأمركم بفعل قبيح. وهذا ارتقاء في التحذير من الخواطر الشيطانية التي تدعو إلى الأفعال الذميمة، وليس المراد بالفحشاء البخل لأن لفظ الفحشاء لا يطلق على البخل وإن كان البخيل يسمى فاحشا. وإطلاق الأمر على وسوسة الشيطان وتأثير قوته في النفوس مجاز لأن الأمر في الحقيقة من أقسشام الكلام. والتعريف في الفحشاء تعريف الجنس.

{والله يعدكم مغفرة منه وفضلا والله واسع عليم}

عطف على جملة {الشيطان يعدكم الفقر} لإظهار الفرق بين ما تدعو إليه وساوس الشيطان وما تدعوا إليه أوامر الله تعالى، والوعد فيه حقيقة لا محالة. والقول في تقديم اسم الجلالة على الخبر الفعلي في قوله: {والله يعدكم} على طريقة القول في تقديم اسم الشيطان في قوله: {الشيطان يعدكم الفقر}

ومعنى "واسع" أنه واسع الفضل ، والوصف بالواسع مشتق من وسع المتعدي – إذا عم بالعطاء ونحوه – قال الله تعالى: {ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما} [غافر:٧] وتقول العرب: "لا يسعني أن أفعل كذا"،

---

(١) التحرير والتنوير، ٤٧٧/٢

أي لا أجد فيه سعة، وفي حديث علي في وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم: قد وسع الناس بشره وخلقه فالمعنى هنا أنه وسع الناس والعالمين بعطائه.

[٢٦٩] {يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر إلا أولو الألباب}." (١)

"هذه الجملة اعتراض وتذييل لما تضمنته آيات الإنفاق من المواعظ والآداب وتلقين الأخلاق الكريمة، مما يكسب العاملين به رجاحة العقل واستقامة العمل.

فالمقصود التنبيه إلى نفاسة ما وعظهم الله به، وتنبيههم إلى أنهم قد أصبحوا به حكماء بعد أن كانوا في جاهلية جهلاء. فالمعنى: هذا من الحممة التي آتاكم الله، فهو يؤتي الحكمة من يشاء، وهذا كقوله: {وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به} [البقرة:٢٣١]

قال الفخر: "نبه على أن الأمر الذي لأجله وجب ترجيح وعد الرحمن على وعد الشيطان هو أن وعد الرحمن ترجحه الحكمة والعقل، ووعد الشيطان ترجحه الشهوة والحس من حيث إنهما يأمران بتحصيل اللذة الحاضرة، ولا شك أن حكم الحكمة هو الحكم الصادق المبرأ عن الزيغ، وحكم الحس والشهوة يوقع في البلاء والمحنة. فتعقيب قوله: {والله يعدكم مغفرة} [البقرة:٢٦٨] بقوله: {يؤتي الحكمة} إشارة إلى أن ما وعد به تعالى من المغفرة والفضل من الحكمة، وأن الحكمة كلها من عطاء الله تعالى، وأن الله تعالى يعطيها من يشاء.

والحكمة إتقان العلم وإجراء الفعل على وفق ذلك العلم، فلذلك قيل:نزلت الحكمة على ألسنة العرب، وعقول اليونان، وأيدي الصينيين. وهي مشتقة من الحكم–وهو المنع – لأنها تمنع صاحبها من الوقوع في الغلط والضلال، قال تعالى: {كتاب أحكمت آياته} [هود:١] ومنه سميت الحديدة التي في اللجام وتجعل في فم الفرس، حكمة.

ومن يشاء الله تعالى إيتاءه الحكمة هو الذي يخلقه مستعدا إلى ذلك، من سلامة عقله واعتدال قواه، حتى يكون قابلا لفهم الحقاءق منقادا إلى الحق إذا لاح له، لا يصده عن ذلك هوى ولا عصبية ولا مكابرة ولا أنفة، ثم ييسر له ذلك من حضور الدعاة وسلامة البقعة من العتاة فإذا انضم إلى ذلك توجهه إلى الله بأن يزيد أسبابه تيسيرا ويمنع عنه ما يحجب الفهم فقد كمل له التيسير. وفسرت الحكمة بأنها معرفة حقائق

---

(١) التحرير والتنوير، ٢/٥٣٠

الأشياء على ما هي عليه بما تبلغه الطاقة، أي بحيث لا تلتبس الحقائق المتشابهة بعضها مع بعض ولا يغلط في العلل والأسباب.

والحكمة قسمت أقساما مختلفة الموضوع اختلافا باختلاف العصور والأقاليم. ومبدأ ظهور علم الحكمة في الشرق عند الهنود البراهمة والبوذيين، وعند أهل الصين البوذيين، وفي بلاد فارس في حكمة زرادشت، وعند القبط في حكمة الكهنة. ثم انتقلت حكمة." (١)

"هؤلاء الأمم الشرقية إلى اليونان وهذبت وصححت وفرعت وقسمت عندهم إلى قسمين: حكمة عملية، وحكمة نظرية.

فأما الحكمة العملية فهي المتعلقة بما يصدر من أعمال الناس، وهي تنحصر في تهذيب النفس، وتهذيب العائلة، وتهذيب الأمة.

والأول علم الأخلاق، وهو التخلق بصفات العلو الإلاهي بحسب الطاقة البشرية فيما يصدر عنه كمال في الإنسان.

والثاني علم تدبير المنزل.

والثالث علم السياسة المدنية والشرعية.

وأما الحكمة النظرية في الباحثة عن الأمور التي تعلم وليست من الأعمال، وإنما تعلم لتمام استقامة الأفهام والأعمال، وهي ثلاثة علوم:

علم يلقب بالأسفل وهو الطبيعي، وعلم يلقب بالأوسط وهو الرياضي، وعلم يلقب بالأعلى وهو الإلهي فالطبيعي يبحث عن الأمور العامة للتكوين والخواص والكون والفساد، ويندرج تحته حوادث الجو وطبقات الأرض والنبات والحيوان والإنسان، ويندرج فيه الطب والكيمياء والنجوم.

والرياضي الحساب والهندسة والهيأة والموسيقي، ويندرج تحته الجبر والمساحة والحيل المتحركة "الماكينية" وجر الأثقال.

وأما الإلهي فهو خمسة أقسام: معني الموجودات، وأصول ومبادئ وهي المنطق ومناقضة الآراء الفاسدة، وإثبات واجب الوجود وصفاته، وإثبات الأرواح والمجردات وإثبات الوحي والرسالة، وقد بين ذلك أبو نصر الفارابي وأبو علي ابن سينا.

---

(١) التحرير والتنوير، ٢/٥٣١

فأما المتأخرون – من حكماء الغرب – فقد قصروا **الحكمة في** الفلسفة على ما وراء الطبيعة وهو ما يسمى عند اليونان بالإلهيات.

والمهم من **الحكمة في** نظر الدين أربعة فصول:

أحدها معرفة الله حق معرفته وهو علم الاعتقاد الحق، ويسمى عند اليونان العلم الإلهي أو ما وراء الطبيعة.." (١)

"الثاني ما يصدر عن العلم به كمال نفسية الإنسان، وهو علم الأخلاق،

الثالث تهذيب العائلة، وهو المسمى عند اليونان علم تدبير المنزل.

الرابع تقويم الأمة وإصلاح شؤونها وهو المسمى علم السياسة المدنية، وهو مندرج في أحكام الإمامة والأحكام السلطانية. ودعوة الإسلام في أصوله وفروعه لا تخلو عن شعبة من هذه الحكمة.

وقد ذكر الله **الحكمة في** مواضع كثيرة من كتابه مرادا بها ما فيه صلاح النفوس، من النبوءة والهدى والإرشاد. وقد كانت الحكمة تطلق عند العرب على الأقوال التي فيها إيقاظ للنفس ووصاية بالخير، وإخبار بتجارب السعادة والشقاوة، وكليات جامعة لجماع الآداب. وذكر الله تعالى - في كتابه – حكمة لقمان ووصاياه في قوله تعالى: {ولقد آتينا لقمان الحكمة} [لقمان:١٢] الأيات. وقد كانت لشعراء العرب عناية بإبداء **الحكمة في** شعرهم وهي إرسال الأمثال، كما فعل زهير في الأبيات التي أولها "رأيت المنايا خبط عشواء" والتي افتتحها بمن ومن في معلقته. وقد كانت بيد بعض الأحبار صحائف فيها آداب ومواعظ مثل شيء من جامعة سليمان عليه السلام وأمثاله، فكان العرب ينقلون منها أقوالا. وفي "صحيح البخاري" في باب الحياء من كتاب الأدب أن عمران بن حصين قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الحياء لا يأتي إلا بخير"، فقال بشير بن كعب العدوي: مكتوب في الحكمة إن من الحياء وقارا وإن من الحياء سكينة، فقال له عمران: أحدثك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وتحدثني عن صحيفتك"

والحكيم هو النابغ في هاته العلوم أو بعضها فبحكمته يعتصم من الوقوع في الغلط والضلال بمقدار مبلغ حكمته، وفي الغرض الذي تتعلق به حكمته.

وعلوم الحكمة هي مجموع ما أرشد إليه هدي الهداة من أهل الوحي الإلاهي الذي هو أصل إصلاح عقول البشر، فكان مبدأ ظهور **الحكمة في** الأديان، ثم ألحق بها ما أنتجه ذكاء العقول من أنظارهم المتفرعة على

---

(١) التحرير والتنوير، ٥٣٢/٢

أصول الهدى الأول. وقد مهد قدماء الحكماء طرائق من الحكمة فنبعت ينابيع الحكمة في عصور متقاربة كانت فيها مخلوطة بالأوهام والتخيلات والضلالات. بين الكلدانيين والمصريين والهنود والصين، ثم درسها حكماء اليونان فهذبوا وأبدعوا، وميزوا علم الحكمة عن غيره، وتوخوا الحق ما استطاعوا فأزالوا أوهاما عظيمة وأبقوا كثيرا. وانحصرت هذه العلوم في طريقتي سقراط وهي نفسية، وفيثاغورس وهي رياضية عقلية. والأولى يونانية والثانية لإيطاليا اليونانية. وعنهما أخذ." (١)

"أفلاطون، واشتهر أصحابه بالإشراقيين، ثم أخذ عنه أفضل تلامذته وهو أرسطاليس وهذب طريقته ووسع العلوم، وسميت أتباعه بالمشائين، ولم تزل الحكمة من وقت ظهوره معولة على أصوله إلى يومنا هذا {ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا} وهو الذي شاء الله إيتاءه الحكمة والخير الكثير منجر إليه من سداد الرأي والهدي الإلهي، ومن تفاريع قواعد الحكمة التي تعصم من الوقوع في الغلط والضلال بمقدار التوغل في فهمها واستحضار مهمها، لأننا إذا تتبعنا ما يحل بالناس من المصائب نجد معظمها من جراء الجهالة والضلالة وأفن الرأي. وبعكس ذلك نجد ما يجتنيه الناس من المنافع والملائمات منجرا من المعارف والعلم بالحقائق، ولو أننا علمنا الحقائق كلها لاجتنبنا كل ما نراه موقعا في البؤس والشقاء.

وقرأ الجمهور {ومن يؤت} بفتح المثناة الفوقية بصيغة المبني للنائب، على أن ضمير يؤت نائب فاعل عائد على من الموصولة وهو رابط الصلة بالموصول. وقرأ يعقوب ومن يؤت الحكمة – بكسر المثناة الفوقية – بصيغة البناء للفاعل. فيكون الضمير الذي في فعل يؤت عائدا إلى الله تعالى، وحينئذ فالعائد ضمير نصب محذوف والتقدير: ومن يؤته الله.

وقوله: {وما يذكر إلا أولو الألباب} تذييل للتنبيه على أن من يشاء الله إيتاء الحكمة هو ذو اللب. وأن تذكر الحكمة واستصحاب إرشادها بمقدار استحضار اللب وقوته اللب في الأصل خلاصة الشيء وقلبه، وأطلق هنا على عقل الإنسان لأنه أنفع شيء فيه.

[٢٧٠] {وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فإن الله يعلمه وما للظالمين من أنصار}

{وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فإن الله يعلمه}

تذييل للكلام السابق المسوق للأمر بالإنفاق وصفاته المقبولة والتحذير من المبطلات عنه ابتداء من قوله: {يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم} [البقرة:٢٦٧]

---

(١) التحرير والتنوير، ٥٣٣/٢

والمقصود من هذا التذييل التذكير بأن الله لا يخفى عليه شيء من النفقات وصفاتها، وأدمج النذر مع الإنفاق فكان الكلام جديرا بأن يكون تذييلا.." (١)

"القول في ذلك عند قوله تعالى: {يؤتي الحكمة من يشاء} .

وعطف الحكمة على الكتاب عطف الأخص من وجه على الأعم من وجه، فمن الحكمة ما هو في الكتاب نحو {ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون} [الحشر: ٩] ومنها ما ليس في الكتاب مثل قوله عليه السلام "لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين" وفي الكتاب ما هو علم وليس حكمة مثل فرض الصلاة والحج.

وجملة {وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين} حال، وإن مخففة مهملة، والجملة بعدها خبر عن ضمير الشأن محذوف، والجملة خبره على رأي صاحب الكشاف ، وهو التحقيق إذ لا وجه لزوال عملها مع بقاء معناها، ولا وجهه للتفرقة بينها وبين المفتوحة إذا خففت فقد قدروا لها اسما هو ضمير الشأن، بل نجد المكسورة أولى ببقاء العمل عند التخفيف لأنها أم الباب فلا يزول عملها بسهولة، وقال جمهور النحاة: يبطل عملها وتكون بعدها جملة، وعلى هذا فالمراد بإهمالها أنها لا تنصب مفردين بل تعمل في ضمير شأن وجملة إما اسمية، أو فعلية فعلها من النواسخ غالبا.

ووصف الضلال بالمبين لأنه لا يلتبس على أحد بشائبة هدى، أو شبهة، فكان حاله مبينا كونه ضلالا كقوله: {قالوا هذا سحر مبين} [النمل: ١٣].

والمراد به ضلال الشرك والجهالة والتقاتل وأحكام الجاهلية.

ويجوز أن يشمل قوله: {على المؤمنين} المؤمنين في كل العصور ويراد بكونه من أنفسهم أنه من نوع البشر. ويراد بإسناد تعليم الكتاب والحكمة إليه ما يجمع بين الإسناد الحقيقي والمجازي، لأن تعليم ذلك متلقى منه مباشرة أو بالواسطة.

{أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم إن الله على كل شيء قدير} [١٦٥].

عطف الاستفهام الإنكاري التعجيبي على ما تقدم، فإن قولهم: }أنى هذا} مما ينكر ويتعجب السامع من صدوره منهم بعد ما علموا ما أتوا من أسباب المصيبة، إذ لا ينبغي أن يخفى على ذي فطنة، وقد جاء موقع هذا الاستفهام بعد ما تكرر: من تسجيل تبعة الهزيمة عليهم بما ارتكبوا من عصيان أمر الرسول، ومن العجلة

---

(١) التحرير والتنوير، ٢/٥٣٤

إلى الغنيمة، وبعد أن أمرهم بالرضا بما وقع، وذكرهم النصر الواقع يوم بدر، عطف على ذلك هنا إنكار." (١)

"ومعناه أنه يملي لهم ويؤخرهم وهم على كفرهم فيزدادوا إثما في تلك المدة، فيشتد عقابهم على ذلك، وبذلك لا يكون الإملاء لهم خيرا لهم، بل هو شر لهم.

واللام {ليزدادوا إثما} لام العاقبة كما هي في قوله تعالى: {ليكون لهم عدوا وحزنا} [القصص: ٨] أي: إنما نملي لهم فيزدادون إثما، فلما كان ازدياد الإثم ناشئا عن الإملاء، كان كالعلة له، لا سيما وازدياد الإثم يعلمه الله فهو حين أملى لهم علم أنهم يزدادون به إثما، فكان الازدياد من الإثم شديد الشبه بالعلة، أما علة الإملاء في الحقيقة ونفس الأمر فهي شيء آخر يعلمه الله، وهو داخل في جملة حكمة خلق أسباب الضلالة وأهله والشياطين والأشياء الضارة. وهي مسألة مفروغ منها في علم الكلام، وهي مما أستأثر الله بعلم الحكمة في شأنه.وتعليل النهي على حسبان الإملاء لهم خيرا لأنفسهم حاصل، لأن في شأنه. وتعليل النهي على حسبان الإملاء لهم خيرا لأنفسهم حاصل، لأن مداره على التلازم بين الإملاء لهم وبين ازديادهم من الإثم في مدة الإملاء.

{ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب وما كان الله ليطلعكم على الغيب ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء فآمنوا بالله ورسله وإن تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم} [١٧٩]. استئناف ابتدائي، وهو رجوع إلى بيان ما في مصيبة المسلمين من الهزيمة يوم أحد من الحكم النافعة دنيا وأخرى، فهو عود إلى الغرض المذكور في قوله تعالى: {وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله وليعلم المؤمنين} [آل عمران: ١٦٦] بين هنا أن الله لم يرد دوام اللبس في حال المؤمنين والمنافقين واختلاطهم، فقدر هنا زمانا كانت الحكمة في مثله تقتضي بقاءه وذلك أيام ضعف المؤمنين عقب هجرتهم وشدة حاجتهم إلى الاقتناع من الناس بحسن الظاهر حتى لا يبدأ الانشقاق من أول أيام الهجرة، فلما استقر الإيمان في النفوس، وقر للمؤمنين الخالصين المقام في أمن، أراد الله تعالى تنهية الاختلاط وأن يميز الخبيث من الطيب وكان المنافقون يكتمون نفاقهم لما رأوا أمر المؤمنين في إقبال، ورأوا انتصارهم يوم بدر، فأراد الله أن يفضحهم ويظهر نفاقهم، بأن أصاب المؤمنين بقرح الهزيمة حتى أظهر المنافقون فرحهم بنصرة المشركين، وسجل الله عليهم نفاقهم باديا للعيان كما قال:

---

(١) التحرير والتنوير، ٣/٢٧٨

جزى الله المصائب كل خير ... عرفت عدوي من صديقي

وما صدق {ما أنتم عليه} هو اشتباه المؤمن والمنافق في ظاهر الحال.." (١)

"عليها الفتاة كما أطلق عليها الجارية، وعلى العبد الغلام، وهو مجاز بعلاقة اللزوم، لأن العبد والأمة بعاملان معاملة الصغير في الخدمة، وقلة المبالاة. ووصف المؤمنات عقب الفتيات مقصود للتقييد عند كافة السلف، وجمهور أئمة الفقه، لأن الأصل أن يكون له مفهوم، ولا دليل يدل على تعطيله، فلا يجوز عندهم نكاح أمة كتابية. والحكمة في ذلك أن اجتماع الرق والكفر يباعد المرأة عن الحرمة في اعتبار المسلم، فيقل الوفاق بينهما، بخلاف أحد الوصفين، ويظهر أثر ذلك في الأبناء إذ يكونون أرقاء مع مشاهدة أحوال الدين المخالف فيمتد البون بينهم وبين أبيهم، وقال أبو حنيفة: موقع وصف المؤمنات هنا كموقعه مع قوله {المحصنات المؤمنات} ، فلم يشترط في نكاح الأمة كونها مؤمنة، قال أبو عمر بن عبد البر: ولا أعرف هذا القول لأحد من السلف إلا لعمرو ابن شرحبيل وهو تابعي قديم روى عن عمر بن الخطاب وعلى بن أبي طالب؛ ولأن أبا حنيفة لا يرى إعمال المفهوم.

وتقدم آنفا معنى {ملكت أيمانكم} .

والإضافة في قوله {أيمانكم} وقوله {من فتياتكم} للتقريب وإزالة ما بقي في نفوس العرب من احتقار العبيد والإماء والترفع عن نكاحهم وإنكاحهم، وكذلك وصف المؤمنات، وإن كنا نراه للتقييد فهو لا يخلو مع ذلك من فائدة التقريب، إذ الكفاءة عند مالك تعتمد الدين أولا.

وقوله {والله أعلم بإيمانكم} اعتراض جمع معاني شتى، منها: أنه أمر، وقيد للأمر في قوله تعالى {ومن لم يستطع منكم طولا} الخ؛ وقد تحول الشهوة والعجلة دون تحقيق شروط الله تعالى، فأحالهم على إيمانهم المطلع عليه ربهم. ومن تلك المعاني أنه تعالى أمر بنكاح الإماء عند العجز عن الحرائر، وكانوا في الجاهلية لا يرضون بنكاح الأمة وجعلها حليلة، ولكن يقضون منهن شهواتهم بالبغاء، فأراد الله إكرام الإماء المؤمنات، جزاء على إيمانهن، وإشعار بأن وحدة الإيمان قربت الأحرار من العبيد، فلما شرع ذلك كله ذيله بقوله {والله أعلم بإيمانكم} ، أي بقوته، فلما كان الإيمان، هو الذي رفع المؤمنين عند الله درجات كان إيمان الإماء مقنعا للأحرار بترك الاستنكاف عن تزوجهن، ولأنه رب أمة يكون إيمانها خيرا من إيمان رجل حر، وهذا كقوله {إن أكرمكم عند الله أتقاكم} [الحجرات:١٣]. وقد أشار إلى هذا الأخير صاحب الكشاف،

---

(١) التحرير والتنوير، ٢٩٢/٣

وابن عطية.

وقوله {بعضكم من بعض} تذييل ثان أكد به المعنى الثاني المراد من قوله {والله." (١)

"وذلك الفعل مقدر بالمصدر دون سابك على حد تسمع بالمعيدي خير من أن تراه أي إرادة الله كائنة للبيان، ولعل الكلام عندهم محمول على المبالغة كأن إرادة الله انحصرت في ذلك. وقالت طائفة قليلة: هذه اللام للتقوية على خلاف الأصل، لأن لام التقوية إنما يجاء بها إذا ضعف العامل بالفرعية أو بالتأخر. وأحسن الوجوه قول سيبويه، بدليل دخول اللام على كي في قول قيس بن سعد بن عبادة الخزرجي.

أردت لكيما يعلم الناس أنهها

...

سراويل قيس والوفود شهود

وعن النحاس أن بعض القراء سمى هذه اللام لام أن.

ومعنى {ويهديكم سنن الذين من قبلكم} الهداية إلى أصول ما صلح به حال الأمم التي سبقتنا، من كليات الشرائع، ومقاصدها. قال الفخر: فإن الشرائع والتكاليف وإن كانت مختلفة في نفسها، إلا أنها متفقة في باب المصالح. قلت: فهو كقوله تعالى {شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا} الآية.

وقوله ويتوب عليكم أي يتقبل توبتكم، إذ آمنتم ونبذتم ما كان عليه أهل الشرك من نكاح أزواج الآباء، ونكاح أمهات نسائكم، ونكاح الربائب، والجمع بين الأختين.

ومعنى {ويتوب عليكم} يقبل توبتكم الكاملة باتباع الإسلام، فلا تنقضوا ذلك بارتكاب الحرام. وليس معنى {ويتوب عليكم} يوفقكم للتوبة، فيشكل بأن مراد الله لا يتخلف، إذ ليس التوفيق للتوبة بمطرد في جميع الناس. فالآية تحريض على التوبة بطريق الكناية لأن الوعد بقبولها يستلزم التحريض عليها مثل ما في الحديث: "فيقول هل من مستغفر فأغفر له، هل من داع فأستجيب له" هذا هو الوجه في تفسيرها، وللفخر وغيره هنا تكلفات لا داعي إليها.

وقوله {والله عليم حكيم} مناسب للبيان والهداية والترغيب في التوبة بطريق الوعد بقبولها، فإن كل ذلك أثر العلم والحكمة في إرشاد الأمة وتقريبها إلى الرشد.

[٢٧] {والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما} .

---

(١) التحرير والتنوير، ٩٢/٤

كرر قوله {والله يريد أن يتوب عليكم} ليرتب عليه قوله {ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما} فليس بتأكيد لفظي، وهذا كما يعاد اللفظ في الجزاء." (١)

"بقوله {حتى تغتسلوا} للاهتمام وهو جار على استعمال قليل، كقول موسى بن جابر الحنفي أموي:

لا أشتهي يا قوم إلا كارها

...

باب الأمير ولا دفاع الحاجب

وقوله {حتى تغتسلوا} غاية للنهي عن الصلاة إذا كانوا جنبا، فهو تشريع للغسل من الجنابة وإيجاب له، لأن وجوب الصلاة لا يسقط بحال، فلما نهوا عن اقترابها بدون الغسل علم من ذلك فرض الغسل. **والحكمة في** مشروعية الغسل النظافة، ونيط ذلك بأداء الصلاة ليكون المصلي في حالة كمال الجسد، كما كان حينئذ في حال كمال الباطن بالمناجاة والخضوع. ومن أبدع الحكم الشرعية أنها لم تنط وجوب التنظيف بحال الوسخ لأن مقدار الحال من الوسخ الذي يستدعي الاغتسال والتنظيف مما تختلف فيه مدارك البشر في عوائدهم وأحوالهم، فنيط وجوب الغسل بحالة لا تنفك عن القوة البشرية في مدة متعارف أعمار البشر، وهي حالة دفع فواضل القوة البشرية، وحيث كان بين تلك الحالة وبين شدة القوة تناسب تام، إذ بمقدار القوة تندفع فضلاتها، وكان أيضا بين شدة القوة وبين ظهور الفضلات على ظاهر البدن المعبر عنها بالوسخ تناسب تام، كان نوط الاغتسال بالجناية إناطة بوصف ظاهر منضبط فجعل هو العلة أو السبب، وكان مع ذلك محصلا للمناسبة المقتضية للتشريع، وهي إزالة الأوساخ عند بلوغها مقدار يناسب أن يزال مع جعل ذلك مرتبطا بأعظم عبادة وهي الصلاة، فصارت الطهارة عبادة كذلك، وكذلك القول في مشروعية الوضوء، على أن في الاغتسال من الجنابة حكمة أخرى، وهي تجديد نشاط المجموع العصبي الذي يعتريه فتور باستفراغ القوة المأخوذة من زبد الدم، حسبما تفطن لذلك الأطباء فقضيت بهذا الانضباط حكم عظيمة.

ودل إسناد الاغتسال إلى الذوات في قوله {حتى تغتسلوا} على أن الاغتسال هو إحاطة البدن بالماء، وهذا متفق عليه، واختلف في وجوب الدلك أي إمرار اليد على أجزاء البدن: فشرطه مالك رحمة الله بناء على أنه المعروف من معنى الغسل في لسان العرب، ولأن الوضوء لا يجزئ بدون ذلك باتفاق، فكذلك الغسل.

---

(١) التحرير والتنوير، ٩٧/٤

وقال جمهور العلماء: يجزئ في الغسل إحاطة البدن بالماء بالصب أو الانغماس؛ واحتجوا بحديث ميمونة وعائشة رضي الله عنهما في صفة غسل النبي صلى الله عليه وسلم أنه أفاض الماء على جسده، ولا حجة فيه لأنهما لم تذكرا أنه لم يتدلك، ولكنهما سكتتا عنه، فيجوز أن يكون سكوتهما لعلمهما بأنه المتبادر، وهذا أيضا رواية عن مالك رواها عنه أبو الفرج، ومروان." (١)

"وتلقيب عيسى بالروح طفحت به عبارات الأناجيل. ومن ابتدائية على التقادير.

فإن قلت: ما حكمة وقوع هذين الوصفين هنا على ما فيهما من شبهة ضلت بها النصارى، وهلا وصف المسيح في جملة القصر بمثل ما وصف به محمد صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى {قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي} [الكهف:١١٠] فكان أصرح في بيان العبودية، وأنفى للضلال.

قلت: **الحكمة في** ذلك أن هذين الوصفين وقعا في كلام الإنجيل، أو في كلام الحواريين وصفا لعيسى عليه السلام، وكانا مفهومين في لغة المخاطبين يومئذ، فلما تغيرت أساليب اللغات وساء الفهم في إدراك الحقيقة والمجاز تسرب الضلال إلى النصارى في سوء وضعهما فأريد التنبيه على ذلك الخطأ في التأويل، أي أن قصارى ما وقع لديكم من كلام الأناجيل هو وصف المسيح بكلمة الله وبروح الله، وليس في شيء من ذلك ما يؤدي إلى اعتقاد أنه ابن الله وأنه إله.

وتصدير جملة القصر بأنه { رسول الله} ينادي على وصف العبودية إذ لا يرسل الإله إلها مثله، ففيه كفاية من التنبيه على معنى الكلمة والروح.

{فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيرا لكم إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد له ما في السماوات وما في الأرض وكفى بالله وكيلا} .

الفاء للتفريع عن جملة القصر وما بنيت عليه. أي إذا وضح كل ما بينه الله من وحدانيته، وتنزيهه، وصدق رسله، يتفرع أن آمركم بالإيمان بالله ورسله. وأمروا بالإيمان بالله مع كونهم مؤمنين، أي النصارى، لأنهم لما وصفوا الله بما لا يليق فقد أفسدوا الإيمان، وليكون الأمر بالإيمان بالله تمهيدا للأمر بالإيمان برسله، وهو المقصود، وهذا هو الظاهر عندي. وأريد بالرسل جميعهم، أي لا تكفروا بواحد من رسله. وهذا بمنزلة الاحتراس عن أن يتوهم متوهمون أن يعرضوا عن الإيمان برسالة عيسى عليه السلام مبالغة في نفي الإلهية عنه.

---

(١) التحرير والتنوير، ١٣٧/٤

وقوله {ولا تقولوا ثلاثة} أي لا تنطقوا بهذه الكلمة، ولعلها كانت شعارا للنصارى في دينهم ككلمة الشهادة عند المسلمين، ومن عوائدهم الإشارة إلى التثليث بالأصابع الثلاثة: الإبهام والخنصر والبنصر. والمقصود من الآية النهي عن النطق بالمشتهر." (١)

"أهل الجاهلية، فتكون الآية الموالية لها نسخا لها.ولم يقل بهذا العقاب أحد من فقهاء الإسلام فدل ذلك على أنه أبطل بما في الآية الموالية، وهذا هو الذي يلتئم به معنى الآية مع معنى التي تليها.ويجوز أن يكون الجزاء من قبيل ضمان المتلفات ويبقى إثم الاعتداء فهو موجب العذاب الأليم.فعلى التفسير المشهور لا يسقطه إلا التوبة، وعلى ما نقل عن ابن عباس يبقى الضرب تأديبا، ولكن هذا لم يقل به أحد من فقهاء الإسلام، والظاهر أن سلبه كان يأخذه فقراء مكة مثل جلال البدن ونعالها.

[٩٥] {يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم ومن قتله منكم متعمدا فجزاء مثل ما قتل من النعم يحكم به ذوا عدل منكم هديا بالغ الكعبة أو كفارة طعام مساكين أو عدل ذلك صياما ليذوق وبال أمره عفا الله عما سلف ومن عاد فينتقم الله منه والله عزيز ذو انتقام[٩٥]}

استئناف لبيان آية {ليبلونكم الله بشيء من الصيد} [المائدة:٩٤] أو لنسخ حكمها أن كانت تضمنت حكما لم يبق به عمل.وتقدم القول في معنى {وأنتم حرم} في طالع هذه السورة[المائدة:١].

واعلم أن الله حرم الصيد في حالين:حال كون الصائد محرما، وحال كون الصيد من صيد الحرم، ولو كان الصائد حلالا؛ والحكمة في ذلك أن الله تعالى عظم شأن الكعبة من عهد إبراهيم عليه السلام وأمره بأن يتخذ لها حرما كما كان الملوك يتخذون الحمى، فكانت بيت الله وحماه، وهو حرم البيت محترما بأقصى ما يعد حرمة وتعظيما فلذلك شرع الله حرما للبيت واسعا وجعل الله البيت أمنا للناس ووسع ذلك الأمن حتى شمل الحيوان العائش في حرمه بحيث لا يرى الناس للبيت إلا أمنا للعائذ به وبحرمه.قال النابغة:

والمؤمن العائذات الطير يمسحها ... ركبان مكة بين الغيل فالسند

فالتحريم لصيد حيوان البر، ولم يحرم صيد البحر إذ ليس في شيء من مساحة الحرم بحر ولا نهر.ثم حرم الصيد على المحرم بحج أو عمرة، لأن الصيد إثارة لبعض الموجودات الآمنة.وقد كان الإحرام يمنع المحرمين

---

(١) التحرير والتنوير، ٣٣٢/٤

القتال ومنعوا التقاتل في الأشهر الحرم لأنها زمن الحج والعمرة فألحق مثل الحيوان في الحرمة بقتل الإنسان، أو لأن الغالب أن المحرم لا ينوي الإحرام إلا عند الوصول إلى الحرم، فالغالب أنه لا يصيد إلا." (١)

"{فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا ولا رهقا} [الجن:١٣]فقد أغنت الفاء عن إظهار المبتدإ فحصل التقوي مع إيجاز.هذا قول المحققين مع توجيهه، ومن النحاة من قال:إن دخول الفاء وعدمه في مثل هذا سواء، وإنه جاء على خلاف الغالب.

وقوله: {والله عزيز ذو انتقام} تذييل.والعزيز الذي لا يحتاج إلى ناصر، ولذلك وصف بأنه ذو انتقام، أي لأن من صفاته الحكمة، وهي تقتضي الانتقام من المفسد لتكون نتائج الأعمال على وفقها.

[٩٦] {أحل لكم صيد البحر وطعامه متاعا لكم وللسيارة وحرم عليكم صيد البر ما دمتم حرما واتقوا الله الذي إليه تحشرون[٩٦]}

استئناف بياني نشأ عن قوله: {يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم} [المائدة:٩٥] فإنه اقتضى تحريم قتل الصيد على المحرم وجعل جزاء فعله هدى مثل ما قتل من النعم، فكان السامع بحيث يسأل عن صيد البحر لأن أخذه لا يسمى في العرف قتلا، وليس لما يصاد منه مثل من النعم ولكنه قد يشك لعل الله أراد القتل بمعنى التسبب في الموت، وأراد بالمثل من النعم المقارب في الحجم والمقدار، فبين الله للناس حكم صيد البحر وأبقاه على الإباحة، لأن صيد البحر ليس من حيوان الحرم، إذ ليس في شيء من أرض الحرم بحر.وقد بينا عند قوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم} [المائدة:٩٥]أن أصل **الحكمة في** حرمة الصيد على المحرم هي حفظ حرمة الكعبة وحرمها.

ومعنى {أحل لكم صيد البحر} إبقاء حليته لأنه حلال من قبل الإحرام.والخطاب في {لكم} للذين آمنوا.والصيد هنا بمعنى المصيد ليجري اللفظ على سنن واحد في مواقعه في هذه الآيات، أي أحل لكم قتله، أي إمساكه من البحر.

والبحر يشمل الأنهار والأودية لأن جميعها يسمى بحرا في لسان العرب.وقد قال الله تعالى: {وما يستوي البحران هذا عذب فرات} الآية.وليس العذب إلا الأنهار كدجلة والفرات.وصيد البحر:كل دواب الماء التي تصاد فيهن فيكون إخراجها منه سبب موتها قريبا أو بعيدا.فأما ما يعيش في البر وفي الماء فليس من صيد

---

(١) التحرير والتنوير، ٥/٢١١

البحر كالضفدع والسلحفاة، ولا خلاف في هذا.أما الخلاف فيما يؤكل من صيد البحر وما لا يؤكل منه، عند من يرى أن منه ما لا يؤكل، فليس هذا موضع ذكره، لأن الآتية ليست بمثبتة لتحليل." (١)

"[٣٨] {وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون}

معنى هذه الآية غامض بدءا.ونهايتها أشد غموضا،وموقعها في هذا السياق خفي المناسبة.فاعلم أن معنى قوله: {وما من دابة في الأرض ـإلى قوله ـ إلا أمم أمثالكم} أن لها خصائص لكل جنس ونوع منها كما لأمم البشر خصائصها،أي جعل الله لكل نوع ما به قوامه وألهمه اتباع نظامه وأن لها حياة مؤجلة لا محالة. فمعنى {أمثالكم} المماثلة في الحياة الحيوانية وفي اختصاصها بنظامها.

وأما معنى قوله: {ثم إلى ربهم يحشرون} أنها صائرة إلى الموت.ويعضده ما روي عن ابن عباس: "حشر البهائم موتها"،أي فالحشر مستعمل في مجاز قريب إلى حقيقته اللغوية التي في نحو قوله تعالى: {وحشر لسليمان جنوده} [النمل: ١٧] .فموقع هذه الآية عند بعض المفسرين أنها بمنزلة الدليل على مضمون قوله تعالى: {قل إن الله قادر على أن ينزل آية ولكن أكثرهم لا يعلمون} [الأنعام: ٣٧] ،فيجوز أن تكون معطوفة على جملة {إن الله قادر على أن ينزل آية} [الأنعام: ٣٧] على أنها من جملة ما أمر النبي بأن يقوله لهم؛ويجوز أن تكون معطوفة على جملة {قل إن الله قادر} [الأنعام: ٣٧] على أنها من خطاب الله لهم.أي أن الذي خلق أنواع الأحياء كلها وجعلها كالأمم ذات خصائص جامعة لأفراد كل نوع منها فكان خلقها آية على عظيم قدرته لا يعجزه أن يأتي بآية حسب مقترحكم ولكنكم لا تعلمون الحكمة في عدم إجابتكم لما سألتم.ويكون تعقيبه بقوله تعالى: {والذين كذبوا بآياتنا صم وبكم} [الأنعام: ٣٩] الآية واضح المناسبة،أي لا يهتدون إلى ما في عوالم الدواب والطير من الدلائل على وحدانية الله.

وأما قوله: {ثم إلى ربهم يحشرون} فإن نظرنا إليه مستقبلا بنصه غير ملتفتين إلى ما نيط به من آثار مروية في تفسيره؛فأول ما يبدو للناظر أن ضميري {ربهم} و {يحشرون} عائدان إلى {دابة} و {طائر} باعتبار دلالتهما على جماعات الدواب والطير لوقوعهما في حيز حرف"من"المفيدة للعموم في سياق النفي،فيتساءل الناظر عن ذلك وهما ضميران موضوعان للعقلاء.وقد تأولوا لوقوع الضميرين على غير العقلاء بوجهين:

---

(١) التحرير والتنوير، ٥/٢١٩

أحدهما أنه بناء على التغليب إذ جاء بعده {إلا أمم أمثالكم} .الوجه الثاني أنهما عائدان إلى {أمم أمثالكم} ، أي أن الأمم كلها محشورة إلى الله تعالى.." (١)

"وحقيقة"عند"أنها ظرف المكان القريب.وتستعمل مجازا في استقرار الشيء لشيء وملكه إياه، كقوله: {وعنده مفاتح الغيب} [الأنعام: ٥٩] .وتستعمل مجازا في الاحتفاظ بالشيء، كقوله: {وعنده علم الساعة} [الزخرف: ٨٥] {وعند الله مكرهم} [ابراهيم: ٤٦] ولا يحسن في غير ذلك١.

والمراد بـ {ما تستعجلون به} العذاب المتوعد به.عبر بطريق الموصولية لما تنبئ به الصلة من كونه مؤخرا مدخرا لهم وأنهم يستعجلونه وأنه واقع بهم لا محالة، لأن التعجيل والتأخير حالان للأمر الواقع؛ فكان قوله: {تستعجلون} في نفسه وعيدا.وقد دل على أنه بيد الله وأن الله هو الذي يقدر وقته الذي ينزل بهم فيه، لأن تقديم المسند الظرف أفاد قصر القلب، لأنهم توهموا من توعد النبي صلى الله عليه وسلم إياهم أنه توعدهم بعقاب في مقدرته.فجعلوا تأخره إخلافا لتوعده، فرد عليهم بأن الوعيد بيد الله، كما سيصرح به في قوله: {إن الحكم إلا لله} .فقوله: {إن الحكم إلا لله} تصريح بمفهوم القصر، وتأكيد له.وعلى وجه كون ضمير {به} للقرآن، فالمعنى كذبتهم بالقرآن وهو بينة عظيمة، وسألتم تعجيل العذاب تعجيزا لي وذلك ليس بيدي.

وجملة {يقص الحق} حال من اسم الجلالة أو استئناف، أي هو أعلم بالحكمة في التأخير أو التعجيل. وقرأ نافع، وابن كثير، وعاصم، وأبو جعفر {يقص} بضم القاف وبالصاد المهملة. فهو من الاقتصاص، وهو اتباع الأثر، أي يجري قدره على أثر الحق، أي على وفقه؛ أو هو من القصص، وهو الحكاية أي يحكي بالحق، أي أن وعده واقع لا محالة

ـ

١ أردت بهذا أن استعمال"عند"مجازا في غير ما ذكرنا مشكوك في صحة استعماله في كلام العرب،فقول أبي فراس:

بلى أنا مشتاق وعندي لوعة

ليس بجار على الاستعمال

وأما قول المعري:

---

(١) التحرير والتنوير، ٨٦/٦

أعندي وقد مارست كل خفية يصدق واش أو يخيب آمل

فهو أقرب للاستعمال بأن يكون"عند"حقيقة في المكان،أي المكان القريب مني يريد مجلسه،أي لا يقع تصديق ذلك في مقامي.وأما قول الشاعر:

عندي اصطبار وأما أنني جزع

يوم النوى فلبعد كاد يبريني

فلا يعرف قائله،ويظهر أنه مولد وهو من شواهد المسائل النحوية.." (١)

"[٨٩] {أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين}

استئناف ابتدائي للتنويه بهم، فهي فذلكة ثانية، لأن الفذلكة الأولى راجعة إلى ما في الجمل السابقة من الهدى وهذه راجعة إلى ما فيها من المهديين.

واسم الإشارة لزيادة الاعتناء بتمييزهم وإخطار سيرتهم في الأذهان.والمشار إليهم هم المعينون بأسمائهم والمذكورون إجمالا في قوله: {ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم} [الأنعام: ٨٧].و {الذين آتيناهم الكتاب} خبر عن اسم الإشارة.

والمراد بالكتاب الجنس: أي الكتب.وإيتاء الكتاب يكون بإنزال ما يكتب، كما أنزل على الرسل وبعض الانبياء، وما أنزل عليهم يعتبر كتابا، لأن شأنه أن يكتب سواء كتب أم لم يكتب.وقد نص القرآن على أن إبراهيم كانت له صحف بقوله: {صحف إبراهيم وموسى} [الأعلى: ١٩]وكان لعيسى كلامه الذي كتب في الإنجيل.ولداود الكلام الصادر منه تبليغا عن الله تعالى، وكان نبيا ولم يكن رسولا، ولسليمان الأمثال، والجامعة، والنشيد المنسوب في ثلاثتها أحكام أمر الله بها.ويقال: إن إدريس كتب **الحكمة في** صحف وهو الذي يسميه الإسرائيليون"أخنوخ"ويدعوه القبط"توت"ويدعوه الحكماء"هرمس".ويكون إيتاء الكتاب بإيتاء النبي فهم وتبيين الكتب المنزلة قبله، كما أوتي أنبياء بني إسرائيل من بعد موسى أمثال يحيى فقد قال تعالى له: {يا يحيى خذ الكتاب بقوة} [مريم: ١٢].

والحكم هو الحكمة، أي العلم بطرق الخير ودفع الشر.قال تعالى في شأن يحيى: {وآتيناه الحكم صبيا} [مريم: ١٢] ، ولم يكن يحيى حاكما أي قاضيا، وقد يفسر الحكم بالقضاء بالحق.كما في قوله تعالى في

---

(١) التحرير والتنوير، ١٣٣/٦

شأن داود وسليمان: {وكلا آتينا حكما وعلما} [الانبياء: ٧٩].

وإيتاء هذه الثلاث على التوزيع، فمنهم من أوتي جميعها وهم الرسل منهم والأنبياء الذين حكموا بين الناس مثل داود وسليمان، ومنهم من أوتي بعضها وهم الأنبياء غير الرسل والصالحون منهم غير الأنبياء، وهذا باعتبار شمول اسم الإشارة لآبائهم وذرياتهم وإخوانهم.

والفاء في قوله: { فإن يكفر} عاطفة جملة الشرط على جملة {أولئك الذين آتيناهم." (١)

"والمرجان} [الرحمن:٢٢] وإنما يخرج اللؤلؤ والمرجان من البحر الملح. فأما مؤاخذة الجن بمخالفة الرسل فقد يخلق الله في الجن إلهاما بوجوب الاستماع إلى دعوة الرسل والعمل بها، كما يدل عليه قوله تعالى في سورة الجن: {قل أوحي إلي أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا} [الجن:١] الآية، وقال في سورة الأحقاف [٣١,٣٠]: {قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم يا قومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم} ذلك أن الظواهر تقتضي ن الجن لهم اتصال بهذا العالم. واطلاع على أحوال أهله: {إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم} [لأعراف: ٢٧] لا ترونهم. فضعف قول من قال بوجود رسل من الجن إلى جنسهم، ونسب إلى الضحاك، ولذلك فقوله: {ألم يأتكم} مصروف عن ظاهره من شموله الإنس والجن، ولم يرد عن النبي صلى الله عليه وسلم ما يثبت به أن الله أرسل رسلا من الجن إلى جنسهم، ويجوز أن يكون رسل الجن طوائف منهم يستمعون إلى الأنبياء ويفهمون ما يدعون إليه ويبلغون ذلك إلى أقوامهم، كما تقتضيه الآية في سورة الأحقاف، فمؤاخذة الجن على الإشراك بالله يقتضيها بلوغ توحيد الله إلى علمهم لأن أدلة الوحدانية عقلية لا تحتاج إلا إلى ما يحرك النظر، فلما خلق الله للجن علما بما تجيء به رسل الله من الدعاء إلى النظر في التوحيد فقد توجهت عيهم المؤاخذة بترك الإيمان بوحدانية الله تعالى فاستحقوا العذاب على الإشراك دون توقف على توجيه الرسل دعوتهم إليهم.

ومن حسن عبارات أئمتنا أنهم يقولون: الإيمان واجب على من بلغته الدعوة، دون أن يقولوا: على من وجهت إليه الدعوة. وطرق بلوغ الدعوة عديدة، ولم يثبت في القرآن ولا في صحيح الآثار أن النبي صلى الله عليه وسلم، ولا غيره من الرسل، بعث إلى الجن لانتفاء الحكمة من ذلك، ولعدم المناسبة بين الجنسين، وتعذر تخالطهما، وعن الكلبي أن محمدا صلى الله عليه وسلم بعث إلى الإنس والجن، وقاله ابن حزم،

---

(١) التحرير والتنوير، ٢٠٣/٦

واختاره أبو عمر ابن عبد البر، وحكى الاتفاق عليه: فيكون من خصائص النبي محمد صلى الله عليه وسلم تشريفا لقدره. والخوض في هذا ينبغي للعالم أن يربأ بنفسه عنه لأنه خوض في أحوال عالم لا يدخل تحت مدركاتنا فإن الله أنبأنا بأن العوالم كلها خاضعة لسلطانه. حقيق عليها طاعته، إذا كانت مدركة صالحة للتكليف.

والمقصود من الآية التي نتكلم عليها إعلام المشركين بأنهم مأمورون بالتوحيد." (١)

"والقائلون بهذا قالوا هو هود بن شالخ بن ارفخشد بن سام بن نوح، وذكر البغوي عن علي: أن قبر هود بحضر موت في كثيب أحمر، وعن عبد الرحمان بن سابط: أن قبر هود بين الركن والمفام وزمزم.

وعاد أريد به القبيلة وساغ صرفه لأنه ثلاثي ساكن الوسط، وكانت منازل عاد ببلاد العرب بالشحر بكسر الشين المعجمة وسكون الحاء المهملة من أرض اليمن وحصر موت وعمان والأحقاف، وهي الرمال التي بين حضر موت وعمان.

والأخ هنا مستعمل في مطلق القريب، على وجه المجاز المرسل ومنه قولهم يا أخا العرب، وقد كان هود من بني عاد، وقيل: كان ابن عم إرم، ويطلق الأخ مجازا أيضا على المصاحب الملازم، كقولهم: هو أخو الحرب، ومنه: {إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين} [الاسراء: ٢٧] وقوله: {وإخوانهم يمدونهم في الغي} [لأعراف: ٢٠٢]. فالمراد أن هودا كان من ذوي نسب قومه عاد، وإنما وصف هود وغيره بذلك، ولم يوصف نوح بأنه أخ لقومه: لأن الناس في زمن نوح لو يكونوا قد انقسموا شعوبا وقبائل، والعرب يقولون، للواحد من القبيلة: أخو بني فلان، قصدا لعزوه ونسبته تمييزا للناس إذ قد يشتركون في الأعلام، ويؤخذ من هذه الآية ونظائرها أن نظام القبائل ما حدث إلا بعد الطوفان.

وفصلت جملة {قال يا قوم} ولم تعطف بالفاء كما عطف نظيرها المتقدم في قصة نوح: لأن الحال اقتضى هنا أن تكون مستأنفة استئنافا بيانيا لأن قصة هود لما وردت عقب قصة نوح المذكور فيها دعوته قومه صار السامع مترقبا معرفة ما خاطب به هود قومه حيث بعثه الله إليهم، فكان ذلك مثار سؤال في نفس السامع أن يقول: فماذا دعا هود قومه وبماذا أجابوا فيقع الجواب بأنه قال: يا قوم اعبدوا الله الخ مع ما في هذا الاختلاف من التفنن في أساليبي الكلام، ولأن الفعل المفرع عنه القول بالعطف لما كان محذوفا لم يكن التفريع حسنا في صورة النظم.

---

(١) التحرير والتنوير، ٥٨/٧

والربط بين الجمل حاصل في الحالتين لأن فاء العطف رابط لفظي للمعطوف بالمعطوف عليه وجواب السؤال رابط جملة الجواب مثال السؤال ربطا معنويا.

وجملة {ما لكم من إله غيره} مستأنفة ابتدائية. وقد شابهت دعوة هود قومه دعوة نوح قومه في المهم من كلامها: لأن الرسل مرسلون من الله والحكمة من الإرسال واحدة، فلا جرم أن تتشابه دعواتهم، وفي الحديث: الأنبياء أبناء علات وقال تعالى: {شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى." (١)

"مثل حكيم، أي كأنك ملح في السؤال عنها، أي ملح على الله في سؤال تعيين وقت الساعة كقوله تعالى: {إن يسألكموها فيحفكم تبخلوا} [محمد: ٣٧].

وقوله: {كأنك حفي} حال من ضمير المخاطب في قوله: {يسألونك} معترضة بين {يسألونك} ومتعلقه. ويتعلق قوله: {عنها} على الوجهين بكل من {يسألونك كأنك حفي} و {حفي} على نحو من التنازع في التعليق.

ويجوز أن يكون {حفي} مشتقا من حفي به كرضي بمعنى بالغ في الإكرام فيكون مستعملا في صريح معناه، والتقدير كأنك حفي بهم أي مكرم لهم وملاطف فيكون تهكما بالمشركين، أي يظهرون لك أنك كذلك ليستنزلوك للخوض معهم في تعيين وقت الساعة، روي عن ابن عباس: كأنك صديق لهم، وقال قتادة: قالت قريش لمحمد: أن بيننا قرابة فأسر إلينا متى الساعة فقال الله تعالى: {يسألونك كأنك حفي عنها} وعلى هذا الوجه يتعلق {عنها} بـ {يسألونك} وحذف متعلق {حفي} لظهوره.

وبهذا تعلم أن تأخير {عنها} للإيفاء بهذه الاعتبارات.

وفي الآية إشارة إلى أن الرسول صلى الله عليه وسلم لا تتعلق همته بتعيين وقت الساعة، إذ لا فائدة له في ذلك، ولأنه لو اهتم بذلك لكان في اهتمامه تطلبا لإبطال الحكمة في اخفائها، وفي هذا إشارة إلى أن انتفاء علمه بوقتها لا ينافي كرامته على الله تعالى بأن الله أعطاه كمالا نفسيا يصرفه عن تطلب ذلك، ولو تطلبه لأعلمه الله به، كما صرف موسى عليه السلام عن الاستمرار على كراهية الموت حين حل أجله كيلا ينزع روحه وهو كاره، وهذه سرائر عالية بين الله وبين الصالحين من عباده.

وأكدت جملة الجواب الأولى بقوله: {قل إنما علمها عند الله} تأكيدا لمعناها ليعلم أن ذلك الجواب لا

---

(١) التحرير والتنوير، ٨/١٥٥

يرجى غيره وأن الحصر المشتمل عليه قوله: {إنما علمها عند ربي} حصر حقيقي ثم عطف على جملة الجواب استدراك عن الحصر في قوله: {قل إنما علمها عند الله} تأكيدا لكونه حصرا حقيقيا، وإبطالا لظن الذين يحسبون أن شان الرسل أن يكونوا عالمين بكل مجهول، ومن ذلك وقت الساعة بالنسبة إلى أوقاتهم يستطيعون إعلام الناس فيستدلون بعدم علم الساعة على عدم صدق مدعي الرسالة، وهذا الاعتقاد ضلالة ملازمة للعقول الأفنة، فانها تتوهم الحقائق على غير ما هي عليه، وتوقن بما يخيل إليها." (١)

"أسلم فأصبح من خيرة المسلمين.

وجملة: {ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون} معطوفة على جملة: {ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم} أي لأفهمهم ما يسمعون وهو ارتقاء في الأخبار عنهم بانتفاء قابلية الاهتداء عن نفوسهم في أصل جبلتهم، فانهم لما أخبر عنهم بانتفاء تعلمهم الحكمة والهدى فلذلك انتفى عنهم الاهتداء، ارتقى بالأخبار في هذا المعنى بأنهم لو قبلوا فهم الموعظة **والحكمة فيما** يسمعونه من القرآن وكلام النبوة لغلب ما في نفوسهم من التخلق بالباطل على ما خالطها من إدراك الخير، فحال ذلك التخلق بينهم وبين العمل بما علموا، فتولوا وأعرضوا.

وهذا الحال المستقر في نفوس المشركين متفاوت القوة، وبمقدار تفاوته وبلوغه نهايته تكون مدة دوامهم على الشرك، فإذا انتهى إلى أجله الذي وضعه الله في نفوسهم وكان انتهاؤه قبل انتهاء أجل الحياة استطاع الواحد منهم الانتفاع بما يلقى إليه فاهتدى، وعلى ذلك حال الذين اهتدوا منهم إلى الإسلام بعد التريث على الكفر زمنا متفاوت الطول والقصر.

واعلم أن ليس عطف جملة: {ولو أسمعهم لتولوا} على جملة: {ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم} بمقصود منه تفرع الثانية على الأولى تفرع القضايا بعضها على بعض في تركيب القياس، لان ذلك لا يجيء في القياس الاستثنائي ولا أنه من تفريع النتيجة على المقدمات لأن تفريع الاقيسة بتلك الطريقة التي تشبه التفريع بالفاء ليس أسلوبا عربيا، فالجملتان في هذه الآية كل واحدة منهما مستقلة عن الأخرى، ولا تجمع بينهما إلا مناسبة المعنى والغرض، فليس اقتران هاتين الجملتين هنا بمنزلة اقتران قولهم لو كانت الشمس طالعة لكان النهار موجودا، ولو كان النهار موجودا لدرجت الدواجن، فانه قد ينتج: لو كانت الشمس طالعة لدرجت الدواجن، بواسطة تدرج اللزومات في ذهن المحجوج تقريبا لفهمه، فان ذلك بمنزلة التصريح بنتيجة

---

(١) التحرير والتنوير، ٣٧٩/٨

ثم جعل تلك النتيجة الحاصلة مقدمة قياس ثان فتطوى النتيجة لظهورها اختصارا، وهذا ليس بأسلوب عربي إنما الأسلوب العربي في إقامة الدليل بالشرطية أن يقتصر على مقدم وتال ثم يستدرك عليه بالاستنتاج بذكر نقيض المقدم كقول أبي بن سلمى بن ربيعة يصف فرسه:

ولو طار ذو حافر قبلها ... لطارت ولكنه لم يطر

وقول المعري:." (١)

"أخلاي لو غير الحمام أصابكم ... عتبت ولكن ما على الموت معتب

إلا أن استدراك ضد الشرط في الآية كان بذكر ما يساوي الضد: وهو تثبيط الله إياهم، توفيرا لفائدة الاستدراك ببيان سبب الأمر المستدرك، وجعل هذا السبب مفرعا على علته: وهي أن الله كره انبعاثهم، فصيغ الاستدراك بذكر علته اهتماما بها، وتنبيها على أن عدم إرادتهم الخروج كان حرمانا من الله إياهم، وعناية بالمسلمين فجاء الكلام بنسج بديع وحصل التأكيد مع فوائد زائدة.

وكراهة الله انبعاثهم مفسرة في الآية بعدها بقوله: {لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا} [التوبة:٤٧].

والانبعاث: مطاوع بعثه إذا أرسله.

والتثبيط: إزالة العزم. وتثبيط الله إياهم: أن خلق فيهم الكسل وضعف العزيمة على الغزو.

والقعود: مستعمل في ترك الغزو تشبيها للترك بالجلوس.

والقول الذي في {وقيل اقعدوا} قول أمر التكوين: أي كون فيهم القعود عن الغزو.

وزيادة قوله: {مع القاعدين} مذمة لهم: لأن القاعدين هم الذين شأنهم القعود عن الغزو، وهم الضعفاء من صبيان ونساء كالعمي والزمني.

[٤٧] {لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين} .

استئناف بياني لجملة {كره الله انبعاثهم فثبطهم} [التوبة:٤٦] لبيان الحكمة من كراهية الله انبعاثهم، وهي إرادة الله سلامة المسلمين من إضرار وجود هؤلاء بينهم، لأنهم كانوا يضمرون المكر للملمين فيخرجون مرغمين، ولا فائدة في جيش يغزو بدون اعتقاد أنه على الحق، وتعدية فعل (الخروج) بفي شائعة في الخروج مع الجيش.

---

(١) التحرير والتنوير، ٩/٦٤

والزيادة التوفير.

وحذف مفعول {زادوكم} لدلالة الخروج عليه، أي ما زادوكم قوة أو شيئا مما تفيد زيادته في الغزو نصرا على العدو، ثم استثني من المفعول المحذوف الخبال على طريقة." (١)

"عليه قوله تعالى: {وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون} [العنكبوت: ٤٨].

وعليه فاسم الإشارة مبتدأ و {آيات} خبره. وإضافة {آيات} إلى {الكتاب} إضافة شبيهة بالبيانية وإن كان الكتاب بمنزلة الظرف للآيات باختلاف الاعتبار، وهو معنى الإضافة البيانية عند التحقيق.

ويجوز أن تجعل الإشارة ب {تلك} إلى حروف {ألر} لأن المختار في الحروف المقطعة في فواتح السور أن المقصود من تعدادها التحدي بالاعجاز، فهي بمنزلة التهجي للمتعلم. فيصح أن يجعل (ألر) في محل ابتداء ويكون اسم الإشارة خبرا عنه. والمعنى تلك الحروف آيات الكتاب الحكيم، أي من جنسها حروف الكتاب الحكيم، أي جميع تراكيبه من جنس تلك الحروف.

والمقصود تسجيل عجزهم عن معارضته بأن آيات الكتاب الحكيم كلها من جنس حروف كلامهم فما لكم لا تستطيعون معارضتها بمثلها إن كنتم تكذبون بأن الكتاب منزل من عند الله، فلولا أنه من عند الله لكان اختصاصه بهذا النظم المعجز دون كلامهم محالا إذ هو مركب من حروف كلامهم.

والكتاب: القرآن. فالتعريف فيه للعهد. ويجوز جعل التعريف دالا على معنى الكمال في الجنس، كما تقول: أنت الرجل.

والحكيم: وصف إما بمعنى فاعل، أي الحاكم على الكتب بتمييز صحيحها من محرفها، مثل قوله: {ومهيمنا عليه} [المائدة: ٤٨]، وقوله: {وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه} [البقرة: ٢١٣].

وإما بمعنى مفعل بفتح العين، أي محكم، مثل عتيد، بمعنى معد.

وإما بمعنى ذي الحكمة لاشتماله على الحكمة والحق والحقائق العالية، إذ الحكمة هي إصابة الحق بالقول والعمل فوصف بوصف ذي **الحكمة من** الناس على سبيل التوسع الناشئ عن البليغ كقول الأعشى:

وغريبة تأتي الملوك حكيمة

---

(١) التحرير والتنوير، ١١١/١٠

قد قلتها ليقال من ذا قالها

وإما أن يكون وصف بوصف منزله المتكلم به، كما مشى عليه صاحب "الكشاف" عند قوله تعالى: {يس~ والقرآن الحكيم إنك لمن المرسلين } [يس: ١، ٣].." (١)

"كذبون} [المؤمنون: ٢٦]، وقد أشار إلى هذا قوله تعالى عقبه: {ولكل أمة رسول} [يونس: ٤٧] الآية وقوله: {ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين} [يونس: ٤]. وقد أراه الله تعالى بعض الذي توعدهم بما لقوا من القحط سبع سنين بدعوته عليهم، وبما أصابهم يوم بدر من الإهانة، وقتل صناديدهم، كما أشار إليه قوله تعالى: {فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين يغشى الناس هذا عذاب أليم ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون أنى لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين ثم تولوا عنه وقالوا معلم مجنون إنا كاشفو العذاب قليلا إنكم عائدون يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون} [يونس: ١٠- ١٦].

والدخان هو ما كانوا يرونه في سنين القحط من شبه الدخان في الارض. والبطشة الكبرى: بطشة يوم بدر. وتأمل قوله: {ثم تولوا عنه} وقوله: {إنا منتقمون} .

ثم كف الله عنهم عذاب الدنيا إرضاء له أيضا إذ كان يود استبقاء بقيتهم ويقول: لعل الله أن يخرج من أصلابهم من يعبده.

فأما الكفر بالله فجزاؤه عذاب الآخرة.

فطوي في الكلام جمل دلت عليها الجمل المذكورة إيجازا محكما وصارت قوة الكلام هكذا: وإما نعجل لهم بعض العذاب فنرينك نزوله بهم، أو نتوفينك فنؤخر عنهم العذاب بعد وفاتك، أي لانتفاء **الحكمة في** تعجيله فمرجعهم إلينا، أي مرجعهم ثابت إلينا دوما فنحن أعلم بالحكمة المقتضية نفوذ الوعيد فيهم في الوقت المناسب في الدنيا إن شئنا في حياتك أو بعدك أو في الآخرة.

وكلمة {إما} هي "إن" الشرطية و"ما" المؤكدة للتعليق الشرطي. وكتبت في المصحف بدون نون وبميم مشددة محاكاة لحالة النطق، وقد أكد فعل الشرط بنون التوكيد فإنه إذا أريد توكيد فعل الشرط بالنون وتعينت زيادة "ما" بعد "إن" الشرطية فهما متلازمان عند المبرد والزجاج وصاحب "الكشاف" في تفسير قوله تعالى: {فإما نرينك} في سورة غافر[٧٧]، فلا يقولون إن: تكرمني أكرمك بنون التوكيد ولكن تقولون: إن تكرمني بدون نون التوكيد كما أنه لا يقال: إما تكرمني بدون نون التوكيد ولكن تقول: إن تكرمني. وشذ

---

(١) التحرير والتنوير، ٩/١١

قول الأعشى:

فإما تريني ولي لمة ... فإن الحوادث أودى بها." (١)

"تجعلونها مفتوحة إلى القبلة. قاله ابن عطية عن ابن عباس.

والقبلة: اسم في العربية لجهة الكعبة. وتلك الجهة هي ما بين المشرق والمغرب لأن قبلة بلاد مصر كقبلة المدينة ما بين المشرق والمغرب وهي الجنوب، فيجوز أن يكون التعبير عن تلك الجهة بالقبلة في الآية حكاية لتعبير موسى عنها بما يدل على معنى التوجه إلى الجهة التي يصلون إليها، وهي قبلة إبراهيم، فيكون أمر بني إسرائيل يومئذ جاريا على الملة الحنيفية قبل أن ينسخ بالاستقبال إلى صخرة القدس ويجوز أن يكون موسى قد عبر بما يفيد معنى الجنوب فحكيت عبارته في القرآن باللفظ المرادف له الشائع في التعبير عن الجنوب عند العرب وهو كلمة قبلة.

والحكمة في جعل البيوت إلى القبلة أن الشمس تدخلها من أبوابها في غالب أوقات النهار في جميع الفصول وفي ذلك منافع كثيرة.

والذين فسروا البيوت بأنها بيوت السكنى فسروا قبلة: إما بمعنى متقابلة، وإما بمعنى اجعلوا بيوتكم محل صلاتكم، وكلا التفسيرين بعيد عن الاستعمال.

وأما الذين تأولوا البيوت بالمساجد فقد فسروا القبلة بأنها قبلة الصلاة، أي جهة الكعبة.

وعن ابن عباس: كانت الكعبة قبلة موسى. وعن الحسن: كانت الكعبة قبلة كل الأنبياء. وهذا التفسير يلائم تركيب {اجعلوا بيوتكم قبلة} لأن التركيب اقتضى أن المجعول قبلة هو البيوت أنفسها لا أن تجعل الصلاة فيها إلى جهة القبلة فإذا افتقدنا التأويلات كلها لا نجدها إلا مفككة متعسفة خلا التفسير الذي عولنا عليه، وقد اختلفوا فيه فهدانا الله إليه.

وأسند فعل {اجعلوا} إلى ضمير الجماعة لأن ذلك الجعل من عمل موسى وأخيه وقومهما إذ كل أحد مكلف بأن يجعل بيته قبلة.

وأمرهم بإقامة الصلاة، أي التي فرضها الله عليهم على لسان موسى، والتي كانوا يصلونها من قبل مجيء موسى اتباعا لإبراهيم عليه السلام وأبنائه. والظاهر أن الداعي إلى أمرهم بإقامة الصلاة أن اتخاذ البيوت كان في حالة رحيل فكانت حالتهم مظنة الشغل عن إقامة الصلوات فلذلك أمروا بالمحافظة على إقامة

---

(١) التحرير والتنوير، ٩٦/١١

الصلاة في مدة رحلتهم.

وعطف جملة: {وبشر المؤمنين} على ما قبلها يؤذن بأن ما أمروا به من اتخاذ." (١)

"وإبهام {حين} لأنه مختلف باختلاف آجال آحادهم، والمراد به التمتيع بالحياة لا بكشف العذاب، لأنهم بعد موتهم ناجون من العذاب إذ كانوا قد آمنوا وأخلصوا.

ولعل الحكمة في نجاة قوم يونس تتمثل في أمرين:

أحدهما: أن الله علم أن تكذيبهم يونس - عليه السلام- في ابتداء دعوته لم يكن ناشئا عن تصميم على الكفر واستخفاف بعظمة الله، ولكنه كان شكا في صدق يونس - عليه السلام- . ولعل ذلك أنهم كانوا على بقية من شريعة موسى - عليه السلام - وإنما حرفوا وحادوا عن طريق الإيمان مما يعلمه الله، فإن في نينوى كثيرا من أسرى بني إسرائيل الذين كانوا في أسر الآشوريين كما علمت آنفا، فلما أوعدهم يونس - عليه السلام - بالعذاب بعد أربعين يوما ورأوا أماراته بعد خمسة وثلاثين يوما اهتدوا وآمنوا إيمانا خالصا.

وثانيهما: أن يونس - عليه السلام - لما صدرت منه فلتة المغاضبة كان قد خلط في دعوته شيئا من حظ النفس وإن كان لفائدة الدين، فقدر الله إيمان قومه لعلمه كمال الإيمان والصبر والتسليم لله، وهذا عتاب وتأديب بينه وبين ربه، ولذلك حذر رسول الله صلى الله عليه وسلم الأمة من توهم أن ما جرى ليونس - عليه السلام - من المغاضبة والمعاقبة ينقص من قدره فقال صلى الله عليه وسلم: "لا ينبغي لأحد أن يقول أنا خير من يونس بن متى" يعني في صحة الرسالة لا في التفاضل فيها.

وقد كان حال أهل مكة كحال قوم يونس إذ بادروا إلى الإيمان بمجرد دخول جيش الفتح مكة وقبل أن يقعوا في قبضة الأسر، ولذلك لم ينج منهم عبد الله بن خطل، لأنه لم يأت مؤمنا قبل أن يتمكن منه المسلمون ولم ينفعه التعلق بأستار الكعبة لأن ذلك التعلق ليس بإيمان وإنما هو من شعار العوذ في الجاهلية بما أبطله الإسلام إذ قال النبيء صلى الله عليه وسلم: "إن الحرم لا يعيذ عاصيا" . وقد بينا في آخر سورة غافر[٨٤] عند قوله تعالى: {فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده} إلى آخر السورة فانظره.

[٩٩] {ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين}

عطف على جملة: {إن الذين حقت عليهم كلمت ربك لا يؤمنون} [يونس: ٩٧] لتسلية النبيء صلى الله

(١) التحرير والتنوير، ١٦٢/١١

عليه وسلم على ما لقيه من قومه. وهذا تذييل لما تقدم من مشابهة حال قريش مع النبيء صلى الله عليه وسلم بحال قوم نوح وقوم موسى وقوم يونس. وهذه الجملة كالمقدمة الكلية للجملة التي بعدها." (١)

"ذلك في عادة الناس في ذلك الزمان إذا كان النازل بالبيت يضمر شرا لمضيفه، لأن أكل طعام القرى كالعهد على السلامة من الأذى، لأن الجزاء على الإحسان بالإحسان مركوز في الفطرة، فإذا الكف أحد عن تناول الإحسان فذلك لأنه لا يريد المسالمة ولا يرضى أن يكون كفورا للإحسان.

ولذلك عقب قوله: {نكرهم} ب {أوجس منهم خيفة} ، أي أحس في نفسه خيفة منهم وأضمر ذلك. ومصدره الإيجاس. وذلك أنه خشي أن يكونوا مضمرين شرا له، أي حبسهم قطاعا، وكانوا ثلاثة وكان إبراهيم - عليه السلام - وحده.

وجملة: {قالوا لا تخف} مفصولة عما قبلها، لأنها أشبهت الجواب، لأنه لما أوجس منهم خيفة ظهر أثرها على ملامحه، فكان ظهور أثرها بمنزلة قوله إني خفت منكم، ولذلك أجابوا ما في نفسه بقولهم: {لا تخف} ، فحكي ذلك عنهم بالطريقة التي تحكى بها المحاورات، أو هو جواب كلام مقدر دل عليه قوله: {فأوجس منهم خيفة} ، أي وقال لهم: إني خفت منكم، كما حكي في سورة الحجر {قال إنا منكم وجلون} . ومن شأن الناس إذا امتنع أحد من قبول طعامهم أن يقولوا له: لعلك غادر أو عدو، وقد كانوا يقولون للوافد: أحرب أم سلم.

وقولهم: {إنا أرسلنا إلى قوم لوط} مكاشفة منهم إياه بأنهم ملائكة. والجملة استئناف مبينة لسبب مجيئهم. **والحكمة من** ذلك كرامة إبراهيم عليه السلام وصدورهم عن علم منه.

وحذف متعلق {أرسلنا} أي بأي شيء، إيجازا لظهوره من هذه القصة وغيرها.

وعبر عن الأقوام المراد عذابهم بطريق الإضافة {قوم لوط} إذ لم يكن لأولئك الأقوام اسم يجمعهم ولا يرجعون إلى نسب بل كانوا خليطا من فصائل عرفوا بأسماء قراهم، وأشهرها سدوم كما تقدم في الأعراف.

وجملة: {وامرأته قائمة فضحكت} في موضع الحال من ضمير {أوجس} ، لأن امرأة إبراهيم - عليه السلام - كانت حاضرة تقدم الطعام إليهم، فإن عادتهم كعادة العرب من بعدهم أن ربة المنزل تكون خادمة

---

(١) التحرير والتنوير، ١٨٢/١١

القوم. وفي الحديث "والعروس خادمهم". وقال مرة بن محكان التميمي:

يا ربة البيت قومي غير صاغرة ... ضمي إليك رجال القوم والغربا." (١)

"وقد حصل النهي عن الأعم بعد النهي عن العام، وبه حصلت خمسة مؤكدات: بالأمر بعد النهي عن الفساد الخاص، ثم بالتعميم بعد التخصيص، ثم بزيادة التعميم، ثم بتأكيد التعميم الأعم بتعميم المكان، ثم بتأكيده بالمؤكد اللفظي.

وسلك في نهيهم عن الفساد مسلك التدرج فابتدأه بنهيهم عن نوع من الفساد فاش فيهم وهو التطفيف. ثم ارتقى فنهاهم عن جنس ذلك النوع وهو أكل أموال الناس. ثم ارتقى فنهاهم عن الجنس الأعلى للفساد الشامل لجميع أنواع المفاسد وهو الإفساد في الأرض كله. وهذا من أساليب الحكمة في تهيئة النفوس بقبول الإرشاد والكمال.

وإذ قد كانت غاية المفسد من الإفساد اجتلاب ما فيه نفع عاجل له من نوال ما يحبه أعقب شعيب موعظته بما أدخره الله من الثواب على امتثال أمره وهو النفع الباقي هو خير لهم مما يقترفونه من المتاع العاجل.

ولفظ {بقيت} كلمة جامعة لمعان في كلام العرب، منها: الدوام، ومؤذنة بضده وهو الزوال، فأفادت أن ما يقترفونه متاع زائل، وما يدعوهم إليه حظ باق غير زائل، وبقاؤه دنيوي وأخروي.

فأما كونه دنيويا فلأن الكسب الحلال ناشئ عن استحقاق شرعي فطري، فهو حاصل من تراض بين الأمة فلا يحنق المأخوذ منه على آخذه فيعاديه ويتربص به الدوائر فبتجنب ذلك تبقى الأمة في أمة من توثب بعضها على بعض، ومن أجل ذلك قرن الأموال بالدماء في خطبة حجة الوداع إذ قال النبيء صل الله عليه وسلم: "إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام" فكما أن إهراق الدماء بدون حق يفضي إلى التقاتل والتفاني بين الأمة فكذلك انتزاع الأموال بدون وجهها يفضي إلى التواثب والتثاور فتكون معرضة للابتزاز والزوال. وأيضا فلأن نوالها بدون رضى الله عن وسائل أخذها كفران لله يعرض إلى تسليط عقابه بسلبها من أصحابها. قال ابن عطاء الله: "من لم يشكر النعم فقد تعرض لزوالها ومن شكرها فقد قيدها بعقالها".

وأما كونه أخرويا فلأن نهي الله عنها مقارنا للوعد بالجزاء على تركها، وذلك الجزاء من النعيم الخالد كما

---

(١) التحرير والتنوير، ١١/٢٩٥

في قوله تعالى: {والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير مردا} [مريم: ٧٦].
على أن لفظ "لبقية" يتحمل معنى آخر من الفضل في كلام العرب، وهو معنى الخير." (١)

"وفيها من عبر تاريخ الأمم والحضارة القديمة وقوانينها ونظام حكوماتها وعقوباتها وتجارتها. واسترقاق الصبي اللقيط. واسترقاق السارق، وأحوال المساجين. ومراقبة المكاييل.

وإن في هذه السورة أسلوبا خاصا من أساليب إعجاز القرآن وهو الإعجاز في أسلوب القصص الذي كان خاصة أهل مكة يعجبون مما يتلقونه منه من بين أقاصيص العجم والروم، فقد كان النضر بن الحارث وغيره يفتنون قريشا بأن ما يقوله القرآن في شأن الأمم هو أساطير الأولين اكتتبها محمد صلى الله عليه وسلم.

وكان النضر يتردد على الحيرة فتعلم أحاديث "رستم" و"اسفنديار" من أبطال فارس، فكان يحدث قريشا بذلك ويقول لهم: أنا والله أحسن حديثا من محمد فهلم أحدثكم أحسن من حديثه، ثم يحدثهم بأخبار الفرس، فكان ما بعضها من التطويل على عادة أهل الأخبار من الفرس يموه به عليهم بأنه أشبع للسامع، فجاءت هذه السورة على أسلوب استيعاب القصة تحديا لهم بالمعارضة.

على أنها مع ذلك قد طوت كثيرا من القصة من كل ما ليس له كبير أثر في العبرة. ولذلك ترى في خلال السورة {وكذلك مكنا ليوسف في الأرض} [سورة يوسف:٥٦] مرتين {كذلك كدنا ليوسف} [سورة يوسف:٧٦] فتلك عبر من أجزاء القصة.

وما تخلل ذلك من الحكمة في أقوال الصالحين كقوله: {عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون} [سورة يوسف:٦٧]، وقوله: {إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين} [سورة يوسف:٩٠].

[١] {ألر تلك آيات الكتاب المبين}.

{ألر}.

تقدم الكلام على نظاير {ألر} ونحوها في أول سورة البقرة.

{تلك آيات الكتاب المبين}.

الكلام على {تلك آيات الكتاب} مضى في سورة يونس. ووصف الكتاب هنا ب{المبين} ووصف به في

---

(١) التحرير والتنوير، ٣١١/١١

طالعة سورة يونس ب {الحكيم} لأن ذكر وصف إبانته هنا أنسب، إذ كانت القصة التي تضمنتها هذه السورة مفصلة مبينة لأهم ما جرى في مدة." (١)

"يعينونه لجلبه. ولذلك فرع عليه {فلما جاءه الرسول}. فالتقدير: فأرسلوا رسولا منهم. وضميرا الغائب في قوله: {به} وقوله: {جاءه} عائدان إلى يوسف عليه السلام. وضمير {قال} المستتر كذلك.

وقد أبى يوسف – عليه السلام – الخروج من السجن قبل أن تثبت براءته مما رمي به في بيت العزيز، لأن ذلك قد بلغ الملك لا محالة لئلا يكون تبريزه في التعبير الموجب لإطلاقه من السجن كالشفيع فيه فيبقى حديث قرفه بما قرف به فاشيا في الناس فيتسلق به الحاسدون إلى انتقاص شأنه عند الملك يوما ما، فإن تبرئة العرض من التهم الباطلة مقصد شرعي، وليكون حضوره لدى الملك مرموقا بعين لا تنظر إليه بشائبة نقص.

وجعل طريق تقرير براءته مفتتحة بالسؤال عن الخبر لإعادة ذكره من أوله، فمعنى {فاسأله} بلغ إليه سؤالا من قبلي. وهذه حكمة عظيمة تحق بأن يؤتسى بها. وهي تطلب المسجون باطلا أن يبقى في السجن حتى تتبين براءته من السبب الذي سجن لأجله، وهي راجعة إلى التحلي بالصبر حتى يظهر النصر.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "لو لبثت ما لبث يوسف في السجن لأجبت الداعي"، أي داعي الملك وهو الرسول الذي في قوله تعالى: {فلما جاءه الرسول}، أي لما راجعت الملك. فهذه إحدى الآيات والعبر التي أشار إليها قوله تعالى: {لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين} [سورة يوسف: ٧].

والسؤال: مستعمل في التنبيه دون طلب الفهم، لأن السائل عالم بالأمر المسؤول عنه وإنما يريد السائل حث المسؤول عن علم الخبر. وقريب منه قوله تعالى: {عم يتساءلون} [سورة يوسف: ١].

وجعل السؤال عن النسوة اللاتي قطعن أيديهن دون امرأة العزيز تسهيلا للكشف عن أمرها، لأن ذكرها مع مكانة زوجها من الملك ربما يصرف الملك عن الكشف رعيا للعزيز، ولأن حديث المتكأ شاع بين النساء وأصبحت قضية يوسف – عليه السلام – مشهورة بذلك اليوم، كما تقدم عند قوله تعالى: {ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه} [سورة يوسف: ٣٥]، ولأن النسوة كن شواهد على إقرار امرأة العزيز بأنها

---

(١) التحرير والتنوير، ١٢/٧

راودت يوسف – عليه السلام – عن نفسه. فلا جرم كان طلب الكشف عن أولئك النسوة منتهى الحكمة في البحث وغاية الإيجاز في الخطاب.." (١)

"مصر كان عادلا فلا يؤخذ أحد في بلاده بغير حق. ومثله ما كان في شرع الرومان من استرقاق المدين، فتعين أن المراد بالدين الشريعة لا مطلق السلطان.

ومعنى لام الجحود هنا نفي أن يكون في نفس الأمر سبب يخول يوسف – عليه السلام – أخذ أخيه عنده.

والاستثناء من عموم أسباب أخذ أخيه المنفية. وفي الكلام حرف جر محذوف قبل {أن} المصدرية، وهو باء السببية التي يدل عليها نفي الأخذ، أي أسبابه. فالتقدير: إلا بأن يشاء الله، أي يلهم تصوير حالته ويأذن ليوسف – عليه السلام – في عمله باعتبار ما فيه من المصالح الجمة ليوسف وإخوته في الحال والاستقبال لهم ولذريتهم.

وجملة {نرفع درجات من نشاء} تذييل لقصة أخذ يوسف – عليه السلام – أخاه لأن فيها رفع درجة يوسف – عليه السلام – في الحال بالتدبير الحكيم من وقت مناجاته أخاه إلى وقت استخراج السقاية من رحله. ورفع درجة أخيه في الحال بإلحاقه ليوسف – عليه السلام – في العيش الرفيه والكمال بتلقي الحكمة من فيه. ورفع درجات إخوته وأبيه في الاستقبال بسبب رفع درجة يوسف – عليه السلام – وحنوه عليهم. فالدرجات مستعارة لقوة الشرف من استعارة المحسوس للمعقول. وتقدم في قوله تعالى: {وللرجال عليهن درجة} في سورة البقرة [٢٢٨]، وقوله: {لهم درجات عند ربهم} في سورة الأنفال [٤].

وجملة {وفوق كل ذي علم عليم} تذييل ثان لجملة {كذلك كدنا ليوسف} الآية.

وفيها شاهد لتفاوت الناس في العلم المؤذن بأن علم الذي خلق لهم العلم لا ينحصر مداه، وأنه فوق كل نهاية من علم الناس.

والفوقية مجاز في شرف الحال، لأن الشرف يشبه بالارتفاع.

وعبر عن جنس المتفوق في العلم بوصف {عليم} باعتبار نسبته إلى من هو فوقه إلى أن يبلغ إلى العليم المطلق سبحانه.

وظاهر تنكير {عليم} أن يراد به الجنس فيعم كل موصوف بقوة العلم إلى أن ينتهي إلى علم الله تعالى.

---

(١) التحرير والتنوير، ١٢/٧٥

فعموم هذا الحكم بالنسبة إلى المخلوقات لا إشكال فيه، ويتعين تخصيص هذا العموم بالنسبة إلى الله تعالى بدليل العقل إذ ليس فوق الله عليم.

وقد يحمل التنكير على الوحدة ويكون المراد عليم واحد فيكون التنكير للوحدة." (١)

"على خلاف القياس لأن فعله رباعي. وقد تقدم عند قوله تعالى: {لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون} في سورة الأعراف [٣٤].

وقد تقدم في طالع تفسير هذه السورة الخبر الذي أخرجه الترمذي في جامعه من طريق نوح بن قيس ومن طريق جعفر بن سليمان في سبب نزول هذه الآية. وهو خبر واه لا يلاقي انتظام الآيات ولا يكون إلا من التفاسير الضعيفة.

وجملة {وإن ربك هو يحشرهم} نتيجة هذه الأدلة من قوله: {وإنا لنحن نحيي ونميت} [سورة الحجر:٢٣] فإن الذي يحيي الحياة الأولى قادر على الحياة الثانية بالأولى، والذي قدر الموت ما قدره عبثا بعد أن أوجد الموجودات إلا لتستقبلوا حياة أبدية، ولولا ذلك لقدر الدوام على الحياة الأولى، قال تعالى: {الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن} [سورة الملك:٢].

وللإشارة إلى هذا المعنى من حكمة الإحياء والإماتة أتبعه بقوله: {إنه حكيم عليم} تعليلا لجملة {وإن ربك هو يحشرهم} لأن شأن {إن} إذا جاءت في غير معنى الرد على المنكر أن تفيد معنى التعليل والربط بما قبلها.

والحكيم: الموصوف بالحكمة. وتقدم عند قوله تعالى: {يؤتي الحكمة من يشاء} [سورة البقرة: ٢٦٩ وعند قوله تعالى: {فاعلموا أن الله عزيز حكيم} في سورة البقرة [٢٠٩].

و "العليم" الموصوف بالعلم العام، أي المحيط، وتقدم عند قوله تعالى: {وليعلم الله الذين آمنوا} في سورة آل عمران [١٤٠].

وقد أكدت جملة {وإن ربك هو يحشرهم} بحرف التوكيد وبضمير الفصل لرد إنكارهم الشديد للحشر. وقد أسند الحشر إلى الله بعنوان كونه رب محمد صلى الله عليه وسلم تنويها بشأن النبي صلى الله عليه وسلم لأنهم كذبوه في الخبر عن البعث {وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفي خلق جديد أفترى على الله كذبا أم به جنة} [سورة سبأ:٧-٨]

---

(١) التحرير والتنوير، ١٢/١٠٠

أي فكيف ظنك بجزائه مكذبيك إذا حشرهم.

[٢٦،٢٧] {ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون والجان خلقناه من قبل من نار السموم}." (١)

"الأولى وكسر الطاء الثانية" والعاصي بن وائل، هلكوا بمكة متتابعين، وكان هلاكهم العجيب المحكي في كتب السيرة صارفا أتباعهم عن الاستهزاء لانفراط عقدهم.

وقد يكون من أسباب كفايتهم زيادة الداخلين في الإسلام بحيث صار بأس المسلمين مخشيا؛ وقد أسلم حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه فاعتز به المسلمون، ولم يبق من أذى المشركين إياهم إلا الاستهزاء، ثم أسلم عمر ابن الخطاب رضي الله عنه فخشيه سفهاء المشركين، وكان إسلامه في حدود سنة خمس من البعثة.

و وصفهم ب {الذين يجعلون مع الله إلها آخر} للتشويه بحالهم، ولتسلية الرسول صلى الله عليه وسلم بأنهم ما اقتصروا على الافتراء عليه فقد افتروا على الله.

وصيغة المضارع في قوله تعالى: {يجعلون} للإشارة إلى أنهم مستمرون على ذلك مجددون له.

وفرع على الأمرين الوعيد بقوله تعالى: {فسوف يعلمون}. وحذف مفعول {يعلمون} لدلالة المقام عليه، أي فسوف يعلمون جزاء بهتانهم.

[٩٧-٩٩] {ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين واعبد ربك حتى يأتيك اليقين}

لما كان الوعيد مؤذنا بإمهالهم قليلا كما قال تعالى: {ومهلهم قليلا} [سورة المزمل:١١] كما دل عليه حرف التنفيس في قوله تعالى: {فسوف يعلمون} [سورة الحجر:٩٦] طمأن الله نبيه صلى الله عليه وسلم بأنه مطلع على تحرجه من أذاهم وبهتانهم من أقوال الشرك وأقوال الاستهزاء فأمره بالثبات والتفويض إلى ربه لأن الحكمة في إمهالهم، ولذلك افتتحت الجملة بلام القسم وحرف التحقيق.

وليس المخاطب ممن يداخله الشك في خبر الله تعالى ولكن التحقيق كناية عن الاهتمام بالمخبر وأنه بمحل العناية من الله؛ فالجملة معطوفة على جملة {إنا كفيناك المستهزئين} [سورة الحجر:٩٥] أو حال.

---

(١) التحرير والتنوير، ١٣/٣٣

وضيق الصدر: مجاز عن كدر النفس. وقد تقدم في قوله تعالى: {وضائق به صدرك} في سورة هود [١٢].
وفرع على جملة {ولقد نعلم} أمره بتسبيح الله تعالى وتنزيهه عما يقولونه من نسبة." (١)
"تعالى: {وعمروها أكثر مما عمروها} [الروم:٩].
والمعنى: فالشيطان ولي المشركين اليوم، أي متولي أمرهم كما كان ولي الأمم من قبلهم إذ زين لهم أعمالهم، أي لا ولي لهم اليوم غيره ردا على زعمهم أن لهم الحسنى. ويكون في الكلام شبه الاحتباك. والتقدير: لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فزين لهم الشيطان أعمالهم فكان وليهم حينئذ، وهو ولي المشركين اليوم يزين لهم أعمالهم كما كان ولي من قبلهم.
وقوله {اليوم} مستعمل في زمان معهود بعهد الحضور، أي فهو وليهم الآن. وهو كناية عن استمرار ولايته لهم إلى زمن المتكلم مطلقا بدون قصد، لما يدل عليه لفظه من الوقت الذي من طلوع الفجر إلى غروب الشمس.
وهو منصوب على الظرفية للزمان الحاضر. وأصله: اليوم الحاضر، وهو اليوم الذي أنت فيه. وتقدم عند قوله تعالى: {اليوم يئس الذين كفروا من دينكم} في سورة العقود [٣].
ولا يستعمل في يوم مضى معرفا باللام إلا بعد اسم الإشارة، نحو: ذلك اليوم، أو مثل: يومئذ.
[٦٤] {وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون}
عطف على جملة القسم. والمناسبة أن القرآن أنزل لإتمام الهداية وكشف الشبهات التي عرضت للأمم الماضية والحاضرة فتركت أمثالها في العرب وغيرهم.
فلما ذكرت ضلالاتهم وشبهاتهم عقب ذلك ببيان **الحكمة في** إرسال محمد صلى الله عليه وسلم وإنزال القرآن إليه، فالقرآن جاء مبينا للمشركين ضلالهم بيانا لا يترك للباطل مسلكا إلى النفوس، ومفصحا عن الهدى إفصاحا لا يترك للحيرة مجالا في العقول، ورحمة للمؤمنين بما جازاهم عن إيمانهم من خير الدنيا والآخرة.
وعبر عن الضلال بطريقة الموصولية {الذي اختلفوا فيه} للإيماء إلى أن سبب الضلال هو اختلافهم على أنبيائهم، فالعرب اختلفت ضلالتهم في عبادة الأصنام، عبدت كل قبيلة منهم صنما، وعبد بعضهم الشمس

(١) التحرير والتنوير، ٧٢/١٣

والكواكب، واتخذت كل قبيلة لنفسها أعمالا يزعمونها دينا صحيحا. واختلفوا مع المسلمين في جميع ذلك الدين.." (١)

"والإنصاف لما تدبروا به. وهو تعريض بالمشركين الذين لم يفهموا دلالة ذلك على الوحدانية. ولذلك اختير وصف السمع هنا المراد منه الإنصاف والامتثال لأن دلالة المطر وحياة الأرض به معروفة مشهورة ودلالة ذلك على وحدانية الله تعالى ظاهرة لا يصد عنها إلا المكابرة.

[٦٦] {وإن لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بطونه من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين}

هذه حجة أخرى ومنة من المنن الناشئة عن منافع خلق الأنعام، أدمج في منتها العبرة بما في دلالتها على بديع صنع الله تبعا لقوله تعالى: {والأنعام خلقها لكم فيها دفء} إلى قوله: {لرؤوف رحيم} [النحل: ٥-٧].

ومناسبة ذكر هذه النعمة هنا أن بألبان الأنعام حياة الإنسان كما تحيا الأرض بماء السماء، وأن لآثار ماء السماء أثرا في تكوين ألبان الحيوان بالمرعى.

واختصت هذه العبرة بما تنبه إليه من بديع الصنع **والحكمة في** خلق الألبان بقوله: {مما في بطونه من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا} ، ثم بالتذكير بما في ذلك من النعمة على الناس إدماجا للعبرة بالمنة.

فجملة {وإن لكم في الأنعام لعبرة} معطوفة على جملة {إن في ذلك لآية لقوم يسمعون} [النحل:٦٥]، أي كما كان لقوم يسمعون عبرة في إنزال الماء من السماء لكم في الأنعام عبرة أيضا، إذ قد كان المخاطبون وهم المؤمنون القوم الذين يسمعون.

وضمير الخطاب التفات من الغيبة. وتوكيدها بـ {إن} ولام الابتداء كتأكيد الجملة قبلها.

و {الأنعام}: اسم جمع لكل جماعة من أحد أصناف الإبل والبقر والضأن والمعز.

والعبرة: ما يتعظ به ويعتبر. وقد تقدم في نهاية سورة يوسف.

وجملة {نسقيكم مما في بطونه} واقعة موقع البيان لجملة {وإن لكم في الأنعام لعبرة}.

والبطون: جمع بطن، وهو اسم للجوف الحاوية للجهاز الهضمي كله من معدة وكبد." (٢)

---

(١) التحرير والتنوير، ١٥٧/١٣

(٢) التحرير والتنوير، ١٦٠/١٣

"وأكد هذا الوعد بمؤكدين القسم الذي دلت عليه اللام ونون التوكيد. ثم يظهر ذلك أيضا في ترتب آثاره إذ يكون النعيم إثر الإيمان ويكون العذاب إثر الشرك، وكل ذلك بيان لما كانوا مختلفين فيه في الدنيا.
[٩٣] {ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن يضل من يشاء ويهدي من يشاء ولتسألن عما كنتم تعملون}
لما أحال البيان إلى يوم القيامة زادهم إعلاما بحكمة هذا التأخير فأعلمهم أنه قادر على أن يبين لهم الحق من هذه الدار فيجعلهم أمة واحدة، ولكنه أضل من شاء، أي خلق فيه داعية الضلال، وهدى من شاء، أي خلق فيه داعية الهدى. وأحال الأمر هنا على المشيئة أجمالا، لتعذر نشر مطاوي **الحكمة من** ذلك.
ومرجعها إلى مشيئة الله تعالى أن يخلق الناس على هذا الاختلاف الناشئ عن اختلاف أحوال التفكير ومراتب المدارك والعقول، وذلك يتولد من تطورات عظيمة تعرض للإنسان في تناسله وحضارته وغير ذلك مما أجمله قوله تعال: {لقد خلقنا الأنسان في أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون} [التين:٤-٦]
وهذه المشيئة لا يطلع على كنهها إلا الله تعالى وتظهر آثارها في فرقة المهتدين وفرقة الضالين.
ولما كان قوله: {ولكن يضل من يشاء ويهدي من يشاء} قد يغتر به قصار الأنظار فيحسبون أن الضالين والمهتدين سواء عند الله وأن الضالين معذورون في ضلالهم إذ كان من أثر مشيئة الله فعقب ذلك بقوله: {ولتسألن عما كنتم تعملون} مؤكدا بتأكيدين كما تقدم نظيره آنفا، أي عما تعملون من عمل ضلال أو عمل هدى.
والسؤال: كناية عن المحاسبة، لأنه سؤال حكيم تترتب عليه الإنارة وليس سؤال استطلاع.
[٩٤] {ولا تتخذوا أيمانكم دخلا بينكم فتزل قدم بعد ثبوتها وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله ولكم عذاب عظيم}
لما حذرهم من النقض الذي يؤول إلى اتخاذ أيمانهم دخلا فيهم، وأشار بالإجمال إلى ما في ذلك من الفساد فيهم، أعاد الكرة إلى بيان عاقبة ذلك الصنيع إعادة تفيد." (١)
"والبنين، بتقدير: أعرست، يدل عليه المقام، وهي إما متعلقه ب {ادع} ، أو في موضع الحال من ضمير {ادع}.
وحذف مفعول {ادع} لقصد التعميم. أو لأن الفعل نزل منزلة اللازم، لأن المقصود الدوام على الدعوة لا

---
(١) التحرير والتنوير، ٢١٥/١٣

بيان المدعوين، لأن ذلك أمر معلوم من حال الدعوة.

ومعنى الملابسة يقتضي أن لا تخلو دعوته إلى سبيل الله عن هاتين الخصلتين: الحكمة، والموعظة الحسنة. فالحكمة: هي المعرفة المحكمة، أي الصائبة المجردة عن الخطأ، فلا تطلق الحكمة إلا على المعرفة الخالصة عن شوائب الأخطاء وبقايا الجهل في تعليم الناس وفي تهذيبهم. ولذلك عرفوا الحكمة بأنها معرفة حقائق الأشياء على ما هي عليه بحسب الطاقة البشرية بحيث لا تلتبس على صاحبها الحقائق المتشابهة بعضها ببعض ولا تخطئ في العلل والأسباب. وهي اسم جامع لكل كلام أو علم يراعى فيه إصلاح حال الناس واعتقادهم إصلاحا مستمرا لا يتغير. وقد تقدم الكلام عليها عند قوله تعالى: {يؤتي الحكمة من يشاء} في سورة البقرة [٢٦٩] مفصلا فانظره. وتطلق الحكمة على العلوم الحاصلة للأنبياء، ويرادفها الحكم.

و {الموعظة}: القول الذي يلين نفس المقول له لعمل الخير. وهي أخص من الحكمة لأنها حكمة في أسلوب خاص لإلقائها. وتقدمت عند قوله تعالى: {فأعرض عنهم وعظهم} في سورة النساء [٦٣]. وعند قوله: {موعظة وتفصيلا لكل شيء} في سورة الأعراف [١٤٥].

ووصفها بالحسن تحريض على أن تكون لينة مقبولة عند الناس، أي حسنة في جنسها، وإنما تتفاضل الأجناس بتفاضل الصفات المقصودة منها.

وعطف {الموعظة} على "الحكمة" لأنها تغاير الحكمة بالعموم والخصوص الوجهي، فإنه قد يسلك بالموعظة مسلك الإقناع، فمن الموعظة حكمة، ومنها خطابة، ومنها جدل.

وهي من حيث ماهيتها وبين الحكمة العموم والخصوص من وجه، ولكن المقصود بها ما لا يخرج عن الحكمة والموعظة الحسنة بقرينة تغيير الأسلوب، إذ لم يعطف مصدر المجادلة على الحكمة والموعظة بأن يقال: والمجادلة بالتي هي أحسن، بل." (١)

"والآية جامعة لأقسام الحجة الحق جمعا لمواقع أنواعها في طرق الدعوة ولكن على وجه التداخل لا على وجه التباين والتقسيم كما هو مصطلح المنطقيين، فإن الحجج الاصطلاحية عندهم بعضها قسيم لبعض فالنسبة بينها التباين. أما طرق الدعوة الإسلامية فالنسبة بينها العموم والخصوص المطلق أو الوجهي. وتفصيله يخرج بنا إلى تطويل، وذهنك في تفكيكها غير كليل.

---

(١) التحرير والتنوير، ٢٦٣/١٣

فإلى الحكمة ترجع صناعة البرهان لأنه يتألف من المقدمات اليقينية وهي حقائق ثابتة تقتضي حصول معرفة الأشياء على ما هي عليه.

وإلى الموعظة ترجع صناعة الخطابة لأن الخطابة تتألف من مقدمات ظنية لأنها مراعى فيها ما يغلب عند أهل العقول المعتادة. وكفى بالمقبولات العادية موعظة. ومثالها من القرآن قوله تعالى: {ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف إنه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا} [النساء:22] فقوله: {ومقتا} أشار إلى أنهم كانوا إذا فعلوه في الجاهلية يسمونه نكاح المقت، فأجري عليه هذا الوصف لأنه مقنع بأنه فاحشة، فهو استدلال خطابي.

وأما الجدل فما يورد في المناظرات والحجاج من الأدلة المسلمة بين المتحاجين أو من الأدلة المشهورة، فأطلق اسم الجدل على الاستدلال الذي يروج في خصوص المجادلة ولا يلتحق بمرتبة الحكمة. وقد يكون مما يقبل مثله في الموعظة لو ألقي في غير حال المجادلة. وسماه حكماء الإسلام جدلا تقريبا للمعنى الذي يطلق عليه في اللغة اليونانية.

{إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين}

هذه الجملة تعليل للأمر بالاستمرار على الدعوة بعد الإعلام بان الذين لا يؤمنون بآيات الله لا يهديهم الله، وبعد وصف أحوال تكذيبهم وعنادهم.

فلما كان التحريض بعد ذلك على استدامة الدعوة إلى الدين محتاجا لبيان **الحكمة في** ذلك بينت الحكمة بأن الله هو أعلم بمصير الناس وليس ذلك لغير الله من الناس فما عليك إلا البلاغ، أي فلا تيأس من هدايتهم ولا تتجاوز إلى حد الحزن على عدم اهتدائهم لأن العلم بمن يهتدي ومن يضل موكول إلى الله وإنما عليك التبليغ في كل حال. وهذا قول فصل بين فريق الحق وفريق الباطل.

وقدم العلم بمن ضل لأنه المقصود من التعليل لأن دعوتهم أوكد والإرشاد إلى اللين." (١)

"وذكر أنه معجز.

ورد مطاعن المشركين فيه وفيمن جاء به، وأنهم لم يفقهوه فلذلك أعرضوا عنه .

وإبطال إحالتهم أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم أسري به إلى المسجد الأقصى. فافتتحت بمعجزة الإسراء توطئة للتنظير بين شريعة الإسلام وشريعة موسى عليه السلام على عادة القرآن في ذكر المثل والنظائر

---

(١) التحرير والتنوير، ٢٦٧/١٣

الدينية، ورمزا إلهيا إلى أن الله أعطى محمدا صلى الله عليه وسلم من الفضائل أفضل مما أعطى من قبله.

وأنه أكمل له الفضائل فلم يفته منها فائت. فمن أجل ذلك أحله بالمكان المقدس الذي تداولته الرسل من قبل، فلم يستأثرهم بالحلول بذلك المكان هو مهبط الشريعة الموسوية، ورمز أطوار تاريخ بني إسرائيل وأسلافهم، والذي هو نظير المسجد الحرام في أن أصل تأسيسه في عهد إبراهيم كما سننبه عليه عند تفسير قوله تعالى :{ إلى المسجد الأقصى} [الإسراء:١]، فأحل الله به محمدا عليه الصلاة والسلام بعد أن هجر وخرب إيماء إلى أن أمته تجدد مجده.

وأن الله مكنه من حرمي النبوة والشريعة، فالمسجد الأقصى لم يكن معمورا حين نزول هذه السورة وإنما عمرت كنائس حوله، وأن بني إسرائيل لم يحفظوا حرمة المسجد الأقصى، فكان إفسادهم سببا في تسلط أعدائهم عليهم وخراب المسجد الأقصى. وفي ذلك رمز إلى أن إعادة المسجد الأقصى ستكون على يد أمة هذا الرسول الذي أنكروا رسالته.

ثم إثبات دلائل تفرد الله بالإلهية، والاستدلال بآية الليل والنهار وما فيهما من المنن على إثبات الوحدانية.

والتذكير بالنعم التي سخرها الله للناس، وما فيها من الدلائل على تفرده بتدبير الخلق، وما تقتضيه من شكر المنعم وترك شكر غيره، وتنزيهه عن اتخاذ بنات له.

وإظهار فضائل من شريعة الإسلام وحكمته، وما علمه الله المسلمين من آداب المعاملة نحو ربهم سبحانه، ومعاملة بعضهم مع بعض، **والحكمة في** سيرتهم وأقوالهم، ومراقبة الله في ظاهرهم وباطنهم.

وعن ابن عباس أنه قال:"التوراة كلها في خمس عشرة آية من سورة بني إسرائيل". وفي رواية عنه:"ثمان عشرة آية منها كانت في ألواح موسى" أي من قوله تعالى: {لا." (١)

"بعض المفسرين، واستقربه الطيبي، ولكن جمهرة المفسرين على أنه عائد إلى الله تعالى. ولعل احتماله للمعنيين مقصود.

وقد تجيء الآيات محتملة عدة معان. واحتمالها مقصود تكثيرا لمعاني القرآن، ليأخذ كل منه على مقدار فهمه كما ذكرنا في المقدمة التاسعة. وأياما كان فموقع (إن) التوكيد والتعليل كما يؤذن به فصل الجملة عما قبلها.

وهي إما تعليل لإسناد فعل {نريه} إلى فاعله؛ وإما تعليل لتعليقه بمفعوله، فيفيد أن تلك الإراءة من باب

---

(١) التحرير والتنوير، ٧/١٤

الحكمة، وهي إعطاء ما ينبغي لمن ينبغي، فهي من إيتاء الحكمة من هو أهلها.

والتعليل على اعتبار مرجع الضمير إلى النبي صلى الله عليه وسلم أوقع، إذ لا حاجة إلى تعليل إسناد فعل الله تعالى لأنه محقق معلوم. وإنما المحتاج للتعليل هو إعطاء تلك الإراءة العجيبة لمن شك المشركون في حصولها له زمن يحسبون أنه لا يطيقها مثله.

على أن الجملة مشتملة على صيغة قصر بتعريف المسند باللام وبضمير الفصل قصرا موكدا، وهو قصر موصوف على صفة قصرا إضافيا للقلب، أي هو المدرك لما يمعه وأبصره لا الكاذب ولا المتوهم كما زعم المشركون. وهذا القصر يؤيد عود الضمير إلى النبي صلى الله عليه وسلم لأنه المناسب للرد. ولا ينازع المشركون في أن الله سميع وبصير إلا على تأويل ذلك بأنه المسمع والمبصر لرسوله الذي كذبتموه، فيؤول إلى تنزيه الرسول عن الكذب والتوهم.

ثم إن الصفتين على تقدير كونهما للنبي صلى الله عليه وسلم هما على أصل اشتقاقهما للمبالغة في قوة سمعه وبصره وقبولهما لتلقي تلك المشاهدات المدهشة، على حد قوله تعالى: {ما زاغ البصر وما طغى} [النجم:١٧]

وقوله: {أفتمارونه على ما يرى} [النجم:١٢].

وأما على تقدير كونهما صفتين لله تعالى فالمناسب أن تؤولا بمعنى المسمع المبصر، أي القادر على إسماع عبده وإبصاره. كما في قول عمرو بن معد يكرب:

أمن ريحانة الداعي السميع

أي المسمع.

وقد اختلف السلف في الإسراء أكان بجسد رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة إلى بيت المقدس." (١)

"أدعو بهن لعاقر أو مطفل ... بذلت لجيران الجميع لحامها

وقوله: {دعاءه بالخير} مصدر يفيد تشبيها، أي يستعجل الشر كاستعجاله الخير، يعني يستبطئ حلول الوعيد كما يستبطئ أحد تأخر خبر وعد به.

وقوله: {وكان الأنسان عجولا} تذييل، فالإنسان هنا مراد به الجنس لأنه المناسب للتذييل، أي وما هؤلاء

---

(١) التحرير والتنوير، ١٩/١٤

الكافرون الذين لا يؤمنون بالآخرة إلا من نوع الإنسان، وفي نوع الإنسان الاستعجال فإن (كان) تدل على أن اسمها متصف بخبرها اتصافا متمكنا كقوله تعالى: {وكان الأنسان أكثر شيء جدلا} [الكهف:٥٤].

والمقصود من قوله: {وكان الإنسان عجولا} الكناية عن عدم تبصره وأن الله أعلم بمقتضى **الحكمة في** توقيت الأشياء {ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير لقضي إليهم أجلهم} [يونس:١١]، ولكنه درج لهم وصول الخير والشر لطفا بهم في الحالين.

والباء في قوله: {بالشر وبالخير} لتأكيد لصوق العامل بمعموله كالتي في قوله تعالى: {وامسحوا برؤوسكم} [المائدة:٦]؛ أو لتضمين مادة الدعاء معنى الاستعجال، فيكون كقوله تعالى: {يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها} [الشورى:١٨].

وعجول: صيغة مبالغة في عاجل، يقال: عجل فهو عاجل وعجول.

وكتب في المصحف{ويدع} بدون واو بعد العين إجراء لرسم الكلمة على حالة النطق بها في الوصل كما كتب {سندع الزبانية} [العلق:١٨] ونظائرها. قال الفراء: لو كتبت بالواو لكان صوابا.

[١٢] {وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شيء فصلناه تفصيلا} [الإسراء:١٢] عطف على {ويدع الإنسان بالشر} [الإسراء:١١] إلخ. والمناسبة أن جملة {ويدع الإنسان} تتضمن أن الإبطاء تأخير الوعد لا يرفعه وأن الاستعجال لا يجدي صاحبه لأن لكل شيء أجلا، ولماذا كان الأجل عبارة عن أزمان كان مشتملا على ليل ونهار متقضيين. وهذا شائع عند الناس في أن الزمان منقض وإن طال.

فلما أريد التنبيه على ذلك أدمج فيه ما هو أهم في العبرة بالزمنين وهو كونهما آيتين على وجود الصانع وعظيم القدرة، وكونهما منتين على الناس، وكون الناس ربما كرهوا." (١)

"وأنه لا ينبغي أن يعرض عن ذي القربى والمسكين وابن السبيل إلا في حال رجاء حصول نعمة فإن حصلت أعطاهم.

[٢٩] {ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا}

عود إلى بيان التبذير والشح، فالجملة عطف على جملة {ولا تبذر تبذيرا} [الإسراء:٢٦].ولولا تخلل الفصل بينهما بقوله: {وإما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك} [الإسراء:٢٨] الآية لكانت جملة {ولا

---

(١) التحرير والتنوير، ٣٥/١٤

تجعل يدك مغلولة إلى عنقك} غير مقترنة بواو العطف لأن شأن البيان أن لا يعطف على المبين، وأيضا على أن في عطفها اهتماما بها يجعلها مستقلة بالقصد لأنها مشتملة على زيادة على البيان بما فيها من النهي عن البخل المقابل للتبذير.

وقد أتت هذه الآية تعليما بمعرفة حقيقة من الحقائق الدقيقة فكانت من الحكمة. وجاء نظمها على سبيل التمثيل فصيغت الحكمة في قالب البلاغة .

فأما الحكمة فإذا بينت أن المحمود في العطاء هو الوسط الواقع بين طرفي الإفراط والتفريط، وهذه الأوساط المحامدة بين المذام من كل حقيقة لها طرفان. وقد تقرر في حكمة الأخلاق أن لكل خلق طرفين ووسطا، فالطرفان إفراط وتفريط وكلاهما مقر مفاسد للمصدر وللمورد، وأن الوسط هو العدل، فالإنفاق والبذل حقيقة أحد طرفيها الشح وهو مفسدة للمحاويج ولصاحب المال إذ يجر إليه كراهية الناس إياه وكراهيته إياهم. والطرف الآخر التبذير والإسراف، وفيه مفاسد لذي المال وعشيرته لأنه يصرف ماله عن مستحقه إلى مصارف غير جديرة بالصرف، والوسط هو وضع المال في مواضعه وهو الحد الذي عبر عنه في الآية بنفي حالين بين (لا) و(لا).

وأما البلاغة فبتمثيل الشح والإمساك بغل اليد إلى العنق، وهو تمثيل مبني على تخيل اليد مصدرا للبذل والعطاء، وتخيل بسطها وغلها شحا، وهو تخيل معروف لدى البلغاء والشعراء، قال تعالى: {وقالت اليهود يد الله مغلولة} ثم قال {بل يداه مبسوطتان} [المائدة:٦٤]وقال الأعشى:

يداك يدا صدق فكف مفيدة ... وكف إذا ما ضين بالمال تنفق

ومن ثم قالوا: له يد على فلان، أي نعمة وفضل، فجاء التمثيل في الآية مبنيا على." (١)

"أحدهما إلى الآخر. وهذه نكتة الإضافة البيانية كلما وقعت، أي كان ما نهى عنه من ذلك مكروها عند الله.

وينبغي أن يكون {مكروها} خبرا ثانيا ل(كان)لأنه المناسب للقراءتين.

[٣٩] {ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة ولا تجعل مع الله إلها آخر فتلقى في جهنم ملوما مدحورا}

{ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة}

عدل عن مخاطبة الأمة بضمائر جمع المخاطبين وضمائر المخاطب غير المعين إلى خطاب النبي صلى

---

(١) التحرير والتنوير، ١٤/٦٨

الله عليه وسلم ردا إلى ما سبق في أول هذه الآيات من قوله: {وقضى ربك} الخ[الإسراء:٢٣]. وهو تذييل معترض بين جمل النهي. والإشارة إلى جميع ما ذكر من الأوامر والنواهي صراحة من قوله : {وقضى ربك} [الإسراء:٢٣].

وفي هذا التذييل تنبيه على أن ما اشتملت عليه الآيات السبع عشرة هو من الحكمة، تحريضا على اتباع ما فيها وأنه خير كثير. وفيه امتنان على النبي صلى الله عليه وسلم بأن الله أوحى إليه، فذلك وجه قوله: {مما أوحى إليك} تنبيها على أن مثل ذلك لا يصل إليه الأميون لولا الوحي من الله، وأنه علمه ما لم يكن يعلم وأمره أن يعلمه الناس.

والحكمة: معرفة الحقائق على ما هي عليه دون غلط ولا اشتباه، وتطلق على الكلام الدال عليها، وتقدم في قوله تعالى: {يؤتي الحكمة من يشاء} (البقرة:٢٦٩].

{ولا تجعل مع الله إلها آخر فتلقى في جهنم ملوما مدحورا}

عطف على جمل النهي المتقدمة، وهذا تأكيد لمضمون جملة {ألا تعبدوا إلا إياه} [الإسراء:٢٣]، أعيد لقصد الاهتمام بأمر التوحيد بتكرير مضمونه وبما رتب عليه من الوعيد بان يجازى بالخلود في النار مهانا.

والخطاب لغير معين على طريقة المنهيات قبله، وبقرينة قوله عقبه :{أفأصفاكم ربكم بالبنين} الآية [.الإسراء:٤٠]

والإلقاء: رمي الجسم من أعلى إلى أسفل، وهو يؤذن بالإهانة.

والملوم: الذي ينكر عليه ما فعله.." (١)

"{وما أرسلناك إلا مبشرا ونذيرا} جملة معترضة بين جملة {وبالحق أنزلناه} وجملة {وقرآنا فرقناه} [الإسراء:١٠٦] أي وفي ذلك الحق نفع وضر فأنت به مبشر للمؤمنين ونذير للكافرين.

والقصر للرد على الذين سألوه أشياء من تصرفات الله تعالى والذين ظنوا أن لا يكون الرسول بشرا.

[١٠٦] {وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا}

عطف على جملة {أنزلناه} .

وانتصب {وقرآنا} على الحال من الضمير المنصوب في {فرقناه} مقدمة على صاحبها تنويها الكون قرآنا، أي كونه كتابا مقروءا. فإن اسم القرآن مشتق من القراءة، وهي التلاوة، إشارة إلى أنه من جنس الكلام الذي

---

(١) التحرير والتنوير، ١٤/٨٥

يحفظ ويتلى، كما أشار إليه قوله تعالى: {تلك آيات الكتاب وقرآن مبين} [الحجر:١]، وقد تقدم بيانه. فهذا الكتاب له أسماء باختلاف صفاته فهو كتاب، وقرآن، وفرقان، وذكر، وتنزيل، وتجري عليه الأوصاف أو بعضها باختلاف المقام، ألا ترى إلى قوله تعالى: {وقرآن الفجر} [الإسراء:٧٨] وقوله: {فاقرأوا ما تيسر من القرآن} [المزمل:٢٠]باعتبار أن المقام للأمر بالتلاوة في الصلاة أو مطلقا، وإلى قوله: {تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا} [الفرقان:١]

في مقام كونه فارقا بين الحق والباطل، ولهذا لم يوصف من الكتب السماوية بوصف القرآن غير الكتاب المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم.

ومعنى {فرقناه} جعلناه فرقا، أي أنزلناه منجما مفرقا غير مجتمع صبره واحد. يقال: فرق الأشياء إذا باعد بيتها، وفرق الصبرة إذا جزأها. ويطلق الفرق على البيان لأن البيان يشبه تفريق الأشياء المختلطة، فيكون {فرقناه} محتملا معنى بيناه وفصلناه،وإذ قد كان قوله: {وقرآنا} حالا من ضمير {فرقناه} آل المعنى إلى: أنا فرقناه وأقرأناه.

وقد علل بقوله: {لتقرأه على الناس على مكث} .فهما علتان: أن يقرأ على الناس وتلك علة لجعله قرآنا، وأن يقرأ على مكث، أي مهل وبطء وهي علة لتفريقه.

والحكمة في ذلك أن تكون ألفاظه ومعانيه أثبت في نفوس السامعين.." (١)

"قرة العين على انتفاء الحزن مع أنها أخص فيغني ذكرها عن ذكر انتفاء الحزن؛ روعي فيه مناسبة تعقيب {فرجعناك إلى أمك} . بما فيه من الحكمة، ثم أكمل بذكر **الحكمة في** مشي أخته فتقول {هل أدلكم على من يكفله} في بيتها، وكذلك كان شأن المراضع ذوات الأزواج كما جاء في حديث حليمة، وكذلك ثبت في التوراة في سفر الخروج.

{وقتلت نفسا فنجيناك من الغم وفتناك فتونا فلبثت سنين في أهل مدين ثم جئت على قدر يا موسى * واصطنعتك لنفسي}

جملة {وقتلت} عطف على جملة {ولقد مننا عليك مرة أخرى} لأن المذكور في جملة {وقتلت نفسا} منة أخرى ثالثة.

وقدم ذكر قتله النفس على ذكر الإنجاء من الغم لتعظيم المنة، حيث افتتحت القصة بذكر جناية عظيمة

---

(١) التحرير والتنوير، ١٤/١٨١

التبعة، وهي قتل النفس ليكون لقوله: {فَنجيناك} موقع عظيم من المنة، إذ أنجاه من عقوبة لا ينجو من مثلها مثله.

وهذه النفس هي نفس القبطي من قوم فرعون الذي اختصم مع رجل من بني إسرائيل في المدينة فاستغاث الإسرائيلي بموسى لينصره فوكز موسى القبطي فقضى عليه كما قص ذلك في سورة القصص.

والغم: الحزن. والمعني به ما خامر موسى من خوف الاقتصاص منه، لأن فرعون لما بلغه الخبر أضمر الاقتصاص من موسى للقبطي إذ كان القبط سادة الإسرائيليين، فليس اعتداء إسرائيلي على قبطي بهين بينهم. ويظهر أن فرعون الذي تبنى موسى كان قد هلك قبل ذلك.

والفتون: مصدر فتن، كالخروج، والثبور، والشكور، وهو مفعول مطلق لتأكيد عامله وهو {فتناك} وتنكيره للتعظيم، أي فتونا قويا عظيما.

والفتون كالفتنة: هو اضطراب حال المرء في مدة من حياته. وتقدم عند قوله تعالى: {والفتنة أشد من القتل} في سورة البقرة [١٩١]. ويظهر أن الفتون أصل مصدر فتن بمعنى اختبر، فيكون في الشر وفي الخير. وأما الفتنة فلعلها خاصة باختبار المضر. ويظهر أن التنوين في {فتونا} للتقليل، وتكون جملة {وفتناك فتونا} كالاستدراك على قوله: {فنجيناك من الغم} ، أي نجيناك وحصل لك خوف، كقوله {فأصبح في المدينة خائفا يترقب} [القصص: من الآية١٨] فذلك الفتون.." (١)

"ومناسبة موقع الجملتين أن ذكر استهزاء المشركين بالنبي "عليه الصلاة والسلام" يهيج حنق المسلمين عليهم فيودوا أن ينزل بالمكذبين الوعيد عاجلا فخوطبوا بالتريث وأن لا يستعجلوا ربهم لأنه أعلم بمقتضى **الحكمة في** توقيت حلول الوعيد وما في تأخير نزوله من المصالح للدين.وأهمها مصلحة إمهال القوم حتى يدخل منهم كثير في الإسلام. والوجه أن تكون الجملة الأولى تمهيدا للثانية.

والعجل: السرعة. وخلق الإنسان منه استعارة لنمكن هذا الوصف من جبلة الإنسانية. شبهت شدة ملازمة الوصف بكون مادة لتكوين موصوفه، لأن ضعف صفة الصبر في الإنسان من مقتضى التفكير في المحبة والكراهية. فإذا فكر العقل في شيء محبوب استعجل حصوله بداعي المحبة، وإذا فكر في شيء مكروه استعجل إزالته بداعي الكراهية، ولا تخلو أحوال الإنسان عن هذين، فلا جرم كان الإنسان عجولا بالطبع فكأنه مخلوق من العجلة. ونحوه قوله تعالى: {وكانَ الأنسان عجولا} وقوله تعالى: {إن الأنسان خلق

---

(١) التحرير والتنوير، ١٦/١٢٠

هلوعا}. ثم إن أفراد الناس متفاوتون في هذا الاستعجال على حسب تفاوتهم في غور النظر والكفر ولكنهم مع ذلك لا يخلون عنه. وأما من فسر العجل بالطين وزعم أنها كلمة حميرية فقد أبعد وما أسعد.

وجملة: {سأريكم آياتي} هي المقصود من الاعتراض. وهي مستأنفة.

والمعنى: وعد بأنهم سيرون آيات الله في نصر الدين، وذلك بما حصل يوم بدر من النصر وهلك أئمة الشرك وما حصل بعده من أيام الإسلام التي كان النصر فيها عاقبة المسلمين.

وتفرع على هذا الوعد نهي عن طلب التعجيل، أي عليكم أن تكلوا ذلك إلى ما يوقته الله ويؤجله، ولكل أجل كتاب. فهو نهي عن التوغل في هذه الصفة وعن لوازم ذلك التي تفضي إلى الشك في الوعيد.

وحذفت ياء المتكلم من كلمة {تستعجلون} تخفيفا مع بقاء حركتها فإذا وقفت عليه حذفت الحركة من النون.

[٣٨-٤٠] {ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ولا هم ينصرون بل تأتيهم بغتة فتبهتهم فلا يستطيعون ردها ولا هم ينظرون}." (١)

"ثم أضرب إضرابا ثانيا ب"أم" المنقطعة التي هي أخت "بل" مع دلالتها على الاستفهام لقصد التقريع فقال: {أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا} ، أي بل ألهم آلهة، والاستفهام إنكار وتقريع، أي ما لهم آلهة مانعة لهم من دوننا. وهذا إبطال لمعتقدهم أنهم اتخذوا الأصنام شفعاء.

وجملة: {لا يستطيعون نصر أنفسهم} مستأنفة معترضة. وضمير {يستطيعون} عائد إلى آلهة أجري عليهم ضمير العقلاء مجاراة لما يجريه العرب في كلامهم. والمعنى: كيف ينصرونهم وهم لا يستطيعون نصر أنفسهم، ولا هم مؤيدون من الله بالقبول.

ثم أضرب إضرابا ثالثا انتقل به إلى كشف سبب غرورهم الذي من جهلهم به حسبوا أنفسهم آمنين من أخذ الله إياهم بالعذاب فجرأهم ذلك على الاستهزاء بالوعيد، وهو قوله تعالى: {بل متعنا هؤلاء وآباءهم} ، أي فما هم مستمرون فيه من النعمة إنما هو تمتيع وإمهال كما متعنا آباءهم من قبل، وكما كان لآبائهم آجال انتهوا إليها كذلك يكون لهؤلاء، ولكن الآجال تختلف بحسب ما علم الله من الحكمة في مداها حتى طالت أعمار آباتهم. وهذا تعريض بأن أعمار هؤلاء لا تبلغ أعمار آبائهم، وأن الله يحل بهم الهلاك لتكذيبهم إلى أمد علمه.

---

(١) التحرير والتنوير، ١٧/٥٠

وقد وجه الخطاب إليهم ابتداء بقوله تعالى: {قل من يكلأكم} ، ثم أعرض عنهم من طريق الخطاب إلى طريق الغيبة لأن ما وجه إليهم من إنكار أن يكلأهم أحد من عذاب الله جعلهم أحرياء بالإعراض عنهم كما في قوله تعالى: {هو الذي يسيركم في البر والبحر حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها} الآية في سورة يونس.

و {يصحبون} إما مضارع صحبة إذا خالطه ولازمه، والصحبة تقتضي النصر والتأييد، فيجوز أن يكون الفاعل الذي ناب عنه من أسند إليه الفعل المبني للنائب مرادا به الله تعالى، أي لا يصحبهم الله، أي لا يؤيدهم؛ فيكون قوله تعالى: {منا} متعلقا ب {يصحبون} على معنى "من" الاتصالية، أي صحبة متصلة بنا بمعنى صحبة متينة. وهذا نفي لما اعتقده المشركون بقولهم {ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى} .

ويجوز أن يكون الفاعل المحذوف محذوفا لقصد العموم، أي لا يصحبهم صاحب، أي لا يجيرهم جار فإن الجوار يقتضي حماية الجار فيكون قوله تعالى: {منا} متعلقا ب {يصحبون} على معنى "من" التي بمعنى "على" كقوله تعالى: {فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا} .." (١)

"الخ الإذن للمسلمين بدفاع المشركين عنهم أتبع ذلك ببيان الحكمة في هذا الإذن بالدفاع، مع التنويه بهذا الدفاع، والمتولين له بأنه دفاع عن الحق والدين ينتفع به جميع أهل أديان التوحيد من اليهود والنصارى والمسلمين، وليس هو دفاعا لنفع المسلمين خاصة. والواو في قوله: {ولولا دفع الله الناس} إلى آخره. اعتراضية وتسمى واو الاستئناف. ومفاد هذه الجملة تعليل مضمون جملة: {أذن للذين يقاتلون} الخ.

و {ولولا} حرف امتناع لوجود، أي حرف يدل على امتناع جوابه، أي انتفائه لأجل وجود شرطه، أي عند تحقيق مضمون جملة شرطه فهو حرف يقتضي جملتين. والمعنى: لولا دفاع الناس عن مواضع عبادة المسلمين لصري المشركون ولتجاوزوا فيه المسلمين إلى الاعتداء على ما يجاور بلادهم من أهل الملل الأخرى المناوئة لملة الشرك ولهدموا معابدهم من صوامع، وبيع، وصلوات، ومساجد، للأديان المخالفة للشرك. فذكر الصوامع، والبيع، إدماج لينتبهوا إلى تأييد المسلمين فالتعريف في {الناس} تعريف العهد، أي الناس الذين يتقاتلون وهم المسلمون ومشركو أهل مكة.

ويجوز أن يكون المراد: لولا ما سبق قبل الإسلام من إذن الله لأمم التوحيد بقتال أهل الشرك كما قاتل

---

(١) التحرير والتنوير، ١٧/٥٥

داودد جالوت. وكما تغلب سليمان على ملكة سبا. لمحق المشركون معالم التوحيد كما محق بختنصر هيكل سليمان فتكون هذه الجملة تذييلا لجملة: {أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا}، أي أذن للمسلمين بالقتال كما أذن لأمم قبلهم لكيلا يطغى عليهم المشركون كما طغوا على من قبلهم حين لم يأذن الله لهم بالقتال، فالتعريف في {الناس} تعريف الجنس.

وإضافة الدفاع إلى الله إسناد مجازي عقلي لأنه إذن للناس أن يدفعوا عن معابدهم فكان إذن الله سبب الدفع. وهذا يهيب بأهل الأديان إلى التألب على مقاومة أهل الشرك.

وقرأ نافع، وأبو جعفر، ويعقوب {دفاع} . وقرأ الباقون {دفع} بفتح الدال وبدون ألف. و {بعضهم} بدل من {الناس} بدل بعض. و {ببعض} متعلق بـ {دفاع} والباء للآلة.

والهدم: تقويض البناء وتسقيطه.

وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو جعفر {لهدمت} - بتخفيف الدال -. وقرأه الباقون -." (١)

"النساء. فالمراد بحفظ الفروج حفظها من أن تباشر غير ما أباحه الدين.

واسم الإشارة إلى المذكور، أي ذلك المذكور من غض الأبصار وحفظ الفروج.

واسم التفضيل بقوله: {أزكى} مسلوب المفاضلة. والمراد تقوية تلك التزكية لأن ذلك جنة من ارتكاب ذنوب عظيمة.

وذيل بجملة {إن الله خبير بما يصنعون} لأنه كناية عن جزاء ما يتضمنه الأمر من الغض والحفظ لأن المقصد من الأمر الامتثال.

[٣١] {وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بني إخوانهن أو بني أخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولي الأربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون}

{وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن

---

(١) التحرير والتنوير، ١٧/٢٠٠

أو إخوانهن أو بني إخوانهن أو بني أخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولي الأربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء}

أردف أمر المؤمنين بأمر المؤمنات لأن الحكمة في الأمرين واحدة، وتصريحا بما تقرر في أوامر الشريعة المخاطب بها الرجال من أنها تشمل النساء أيضا. ولكنه لما كان هذا الأمر قد يظن أنه خاص بالرجال لأنهم أكثر ارتكابا لضده وقع النص على هذا الشمول بأمر النساء بذلك أيضا.

وانتقل من ذلك إلى نهي النساء عن أشياء عرف منهن التساهل فيها ونهيهن عن إظهار أشياء تعودن أن يحببن ظهورها وجمعها القرآن في اللفظ الزينة بقوله: {ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها} .

والزينة: ما يحصل به الزين. والزين: الحسن، مصدر زانه. قال عمر ابن أبي ربيعة:

جلل الله ذلك الوجه زينا.." (١)

"نزل فالواسع المطلق هو الله تعالى لأنه إن نظر إلى علمه فلا ساحل لبحر معلوماته وإن نظر إلى إحسانه ونعمه فلا نهاية لمقدوراته اه.

والذي يؤخذ من استقراء القرآن أن وصف الواسع المطلق إنما يراد به سعة الفضل والنعمة، ولذلك يقرن بوصف العلم ونحوه قال تعالى: {وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته وكان الله واسعا حكيما} . أما إذا ذكرت السعة بصيغة الفعل فيراد بها الإحاطة فيما تميز به كقوله تعالى: {وسع ربنا كل شيء علما} .

وذكر عليم بعد واسع إشارة إلى أنه يعطي فضله على مقتضى ما علمه من الحكمة في مقدار الإعطاء.

[٣٣] { وليستعفف الذين لا يجدون نكاحا حتى يغنيهم الله من فضله والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيرا وآتوهم من مال الله الذي آتاكم ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصنا لتبتغوا عرض الحياة الدنيا ومن يكرههن فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم}

{وليستعفف الذين لا يجدون نكاحا حتى يغنيهم الله من فضله} .

أمر كل من تعلق به الأمر بالإنكاح بأن يلازموا العفاف في مدة انتظارهم تيسير النكاح لهم بأنفسهم أو بأذن أوليائهم ومواليهم. والسين والتاء للمبالغة في الفعل، أي وليعف الذين لا يجدون نكاحا. ووجه دلالته على المبالغة أنه في الأصل استعارة. وجعل طلب الفعل بمنزلة طلب السعي فيه ليدل على بذل الوسع.

ومعنى {لا يجدون نكاحا} لا يجدون قدرة على النكاح ففيه حذف مضاف. وقيل النكاح هنا اسم ما هو

---

(١) التحرير والتنوير، ١٦٤/١٨

سبب تحصيل النكاح كاللباس واللحاف. فالمراد المهر الذي يبذل للمرأة.

والإغناء هنا هو إغناؤهم بالزواج. والفضل: زيادة العطاء.

{والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيرا وآتوهم من مال الله الذي آتاكم} .

لما ذكر وعد الله من يزوج من العبيد الفقراء بالغنى وكان من وسائل غناه أن يذهب يكتسب بعمله وكان ذلك لا يستقل به العبد لأنه في خدمة سيده جعل الله للعبيد حقا في الاكتساب لتحرير أنفسهم من الرق ويكون في ذلك غنى للعبد إن كان من ذوي الأزواج.." (١)

"ويستعار الثبات لليقين وللاطمئنان بحصول الخير لصاحبه قال تعالى {لكان خيرا لهم وأشد تثبيتا} ، وهي استعارات شائعة مبنية على تشبيه حصول الاحتمالات في النفس باضطراب الشيء في المكان تشبيه معقول بمحسوس. والفؤاد: هنا العقل. وتثبيته بذلك الإنزال جعله ثابتا في ألفاظه ومعانيه لا يضطرب فيه.

وجاء في بيان حكمة إنزال القرآن منجما بكلمة جامعة وهي {لنثبت به فؤادك} لأن تثبيت الفؤاد يقتضي كل ما به خير للنفس، فمنه ما قاله الزمخشري: **الحكمة في** تفريقه أن نقوي بتفريقه فؤادك حتى تعيه وتحفظه، لأن المتلقن إنما يقوي قلبه على حفظ العلم يلقى إليه إذ ألقي إليه شيئا بعد شيء وجزءا عقب جزء، وما قاله أيضا "أنه كان ينزل على حسب الدواعي والحوادث وجوابات السائلين" اهـ، أي فيكونون أوعى لما ينزل فيه لأنهم بحاجة إلى علمه، فيكثر العمل بما فيه وذلك مما يثبت فؤاد النبي صلى الله عليه وسلم ويشرح صدره.

وما قاله بعد ذلك "إن تنزيله مفرقا وتحديهم بأن يأتوا ببعض تلك التفارق كلما نزل شيء منها، أدخل في الإعجاز وأنور للحجة من أن ينزل كله جملة" اهـ.

ومنه ما قال الجد الوزير رحمه الله: إن القرآن لو لم ينزل منجما على حسب الحوادث لما ظهر في كثير من آياته مطابقتها لمقتضى الحال ومناسبتها للمقام وذلك من تمام إعجازها. وقلت: إن نزوله منجما أعون لحفاظه على فهمه وتدبره.

وقوله {ورتلناه ترتيلا} عطف على قوله {كذلك} ، أنزلناه منجما ورتلناه، والترتيل يوصف به الكلام إذا كان حسن التأليف بين الدلالة. واتفقت أقوال أئمة اللغة على أن هذا الترتيل مأخوذ من قولهم: ثغر مرتل

---

(١) التحرير والتنوير، ١٧٤/١٨

ورتل، وإذا كانت أسنانه مفلجة تشبه نور الأقحوان. ولم يوردوا شاهدا عليه من كلام العرب.

والترتيل يجوز أن يكون حالة لنزول القرآن، أي نزلنا مفرقا منسقا في ألفاظه ومعانيه غير متراكم فهو مفرق في الزمان فإذا كمل إنزال سورة جاءت آياتها مرتبة متناسبة كأنها أنزلت جملة واحدة، ومفرق في التأليف بأنه مفصل واضح. وفي هذا إشارة إلى أن ذلك من دلائل أنه من عند الله لأن شأن كلام الناس إذا فرق تأليفه على أزمنة متباعدة أن يعتوره التفكك وعدم تشابه الجمل.

ويجوز أن يراد بـ {رتلناه} أمرنا بترتيله، أي بقراءته مرتلا، أي بتمهل بأن لا يعجل في قراءته بأن تبين جميع الحروف والحركات بمهل، وهو المذكور في سورة المزمل." (١)

"الحضور عند عملا بقوله {وأتوني مسلمين} .

ثم يحتمل أن يكون سليمان قال ذلك بعد أن حطت رحال الملكة في مدينة أورشليم وقبل أن تتهيأ للدخول على الملك، أو حين جاءه الخبر بأنها شارفت المدينة فأراد أن يحضر لها عرشها قبل أن تدخل عليه ليريها مقدرة أهل دولته.

وقد يكون عرشها محمولا معها في رحالها جاءت به معها لتجلس عليه خشية أن لا يهيئ لها سلميان عرشا، فإن للملوك تقادير وظنونا يحترزون منها خشية الغضاضة.

وقوله {آتيك} يجوز ان يكون فعلا مضارعا من أتى، وأن يكون اسم فاعل منه، والباء على الاحتمالين للتعدية. ولما علم سليمان بأنها ستحضر عنده أراد أن يبهتها بإحضار عرشها الذي تفتخر به وتعده نادرة الدنيا فخاطب ملأه ليظهر منهم منتهى علمهم وقوتهم، فالباء في {بعرشها} كالباء في قوله {فلنأتينهم بجنود} تحتمل الوجهين.

وجملة {قال يا أيها الملأ} مستأنفة ابتداء لجزء من قصة. وجملة {قال عفريت} واقعة موقع جواب المحاورة ففصلت على أسلوب المحاورات كما تقدم غير مرة. وجملة {قال الذي عنده علم من الكتاب} أيضا جواب محاورة.

ومعنى {عفريت} حسبما يستخلص من مختلف كلمات أهل اللغة أنه اسم للشديد الذي لا يصاب ولا ينال، فهو يتقى لشره. وأصله اسم لعتاة الجن، ويوصف به الناس على معنى التشبيه.

و {الذي عنده علم من الكتاب} رجل من أهل **الحكمة من** حاشية سليمان.

---

(١) التحرير والتنوير، ١٩/٤٥

و {من} في قوله {من الكتاب} ابتدائية، أي عنده علم مكتسب من الكتب، أي من الحكمة، وليس المراد بالكتاب التوراة. وقد عد في سفر الملوك الأول في الإصحاح الرابع أحد عشر رجلا أهل خاصة سليمان بأسمائهم وذكر أهل التفسير والقصص أن {الذي عنده علم من الكتاب} هو "آصف بن برخيا" وأنه كان وزير سليمان.

وارتداد الطرف حقيقته: رجوع تحديق العين من جهة منظورة تحول عنها لحظة. وعبر عنه بالارتداد لأنهم يعبرون عن النظر بإرسال الطرف وإرسال النظر فكان الارتداد استعارة مبنية على ذلك.." (١)

"[٤٣] {ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى بصائر للناس وهدى ورحمة لعلهم يتذكرون}

المقصود من الآيات السابقة ابتداء من قوله {فلما أتاها نودي} [القصص: ٣٠] إلى هنا الاعتبار بعاقبة المكذبين القائلين {ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين} [القصص: ٣٦] ليقاس النظير على النظير، فقد كان المشركين يقولون مثل ذلك يريدون إفحام الرسول عليه الصلاة والسلام بأنه لو كان الله أرسله حقا لكان أرسل إلى الأجيال من قبله، ولما كان الله يترك الأجيال التي قبلهم بدون رسالة رسول ثم يرسل إلى الجيل الأخير، فكان قوله {ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى} إتمام لتنظير رسالة محمد صلى الله عليه وسلم برسالة موسى عليه السلام في أنها جاءت بعد فترة طويلة لا رسالة فيها، مع الإشارة إلى أن سبق إرسال الرسل إلى الأمم شيء واقع بشهادة التواتر، وأنه قد ترتب على تكذيب الأمم رسلهم إهلاك القرون الأولى فلم يكن ذلك موجبا لاستمرار إرسال الرسل متعاقبين بل كانوا يجيئون في أزمنة متفرقة؛ فإذا كان المشركون يحاولون بقولهم {ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين} [القصص: ٣٦] إبطال رسالة محمد صلى الله عليه وسلم بعلة تأخر زمانها سفسطة ووهما فإن دليلهم مقدوح فيه بقادح القلب بأن الرسل قد جاءوا إلى الأمم من قبل ثم جاء موسى بعد فترة من الرسل. وقد كان المشركون لما بهرهم أمر الإسلام لاذوا باليهود يسترشدونهم في طرق المجادلة الدينية فكان المشركون يخلطون ما يلقنهم اليهود من المغالطات بما استقر في نفوسهم من تضليل أ

مة الشرك فيأتون بكلام يلعن بعضه بعضا، فمرة يقولون {ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين} [القصص: 63] وهو من مجادلات الأميين، ومرة يقولون {لولا أوتي مثل ما أوتي موسى} [القصص: ٤٨] وهو تلقين

---

(١) التحرير والتنوير، ٢٦٤/١٩

اليهود، ومرة يقولون {ما أنزل الله على بشر من شيء} [الأنعام: ٩١]، فكان القرآن يدمغ باطلهم بحجة الحق بإلزامهم تناقض مقالاتهم. وهذه الآية من ذلك فهي حجة بتنظير رسالة محمد برسالة موسى عليهما الصلاة والسلام والمقصود منها ذكر القرون الأولى.

وأما ذكر إهلاكهم فهو إدماج للنذارة في ضمن الاستدلال. وجملة {ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى} تخلص من قصة بعثة موسى عليه السلام إلى تأييد بعثة محمد صلى الله عليه وسلم. والمقصود قوله (من بعد القرون الأولى).

ثم إن القرآن أعرض عن بيان حكمة الفتر التي تسبق إرسال الرسل، واقتصر على بيان **الحكمة في** الإرسال عقبها لأنه المهم في مقام نقض حجة المبطلين للرسالة أو اكتفاء." (١)

"عند قوله تعالى: {فلا تكن من القانطين} .

وأدمج في خلال الإنكار عليهم قوله: {بما قدمت أيديهم} لتنبيههم إلى أن ما يصيبهم من حالة سيئة في الدنيا إنما سببها أفعالهم التي جعلها الله أسبابا لمسببات مؤثرة لا يحيط بأسرارها ودقائقها إلا الله تعالى، فما على الناس إلا أن يحاسبوا أنفسهم ويجروا أسباب إصابة السيئات، ويتداركوا ما فات، فذلك أنجى لهم من السيئات وأجدر من القنوط. وهذا أدب جليل من آداب التنزيل قال تعالى {ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك} [النساء: ٧٩].

وقرأ الجمهور {يقنطون} بفتح النون على أنه مضارع قنط من باب حسب. وقرأه أبو عمرو والكسائي بكسر النون على أنه مضارع قنط من باب ضرب وهما لغتان فيه.

ثم أنكر عليهم إهمال التأمل في سنة الله الشائعة في الناس: من لحاق الضر وانفراجه، ومن قسمة الحظوظ في الرزق بين بسط وتقتير فإنه كثير الوقوع كل حين فكما أنهم لم يقنطوا من بسط الرزق عليهم في حين تقتيره فكدحوا في طلب الرزق بالأسباب والدعاء فكذلك كان حقهم أن يتلقوا السوء النادر بمثل ما يتلقون به ضيق الرزق، فيسعوا في كشف السيئة بالتوبة والابتهال إلى الله وبتعاطي أسباب زوالها من الأسباب التي نصبها الله تعالى، فجملة {أولم يروا أن الله يبسط الرزق} الخ عطف على جملة {وإذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها} . والاستفهام إنكاري في معنى النفي؛ أنكر عليهم عدم الرؤية تنزيلا لرؤيتهم ذلك منزلة عدم الرؤية لإهمال آثارها من الاعتبار بها. فالتقدير: إذا هم يقنطون كيف لم يروا بسط الله الرزق وتقتيره كأنهم

---

(١) التحرير والتنوير، ٦٣/٢٠

لم يروا ذلك. والرؤية بصرية.

وجملة {إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون} تذييل، أي في جميع ما ذكر آيات كثيرة حاصلة كثرتها من اشتمال كل حالة من تلك الأحوال على أسباب خفية وظاهرة، ومسبباتها كذلك، ومن تعدد أحوال الناس من الاعتبار بها والأخذ منها، كل على حسب استعداده. وخص القوم المؤمنون بذلك لأنهم أعمق بصائر بما ارتاضت عليه أنفسهم من آداب الإيمان ومن نصب أنفسهم لطلب العلم والحكمة من علوم الدين وحكمة النبوءة.

[٣٨] {فآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ذلك خير للذين يريدون وجه الله وأولئك هم المفلحون} [٣٨].

فاء التفريع تفيد أن الكلام بعدها مترتب على الكلام الذي قبلها، وقد اشتمل الكلام." (١)

"وليس هو لقمان بن عاد الذي قال المثل المشهور: إحدى حطيات لقمان والذي ذكره أبو المهوش الأسدي أو يزيد بن عمر يصعق في قوله:

تراه يطوف الآفاق حرصا ... ليأكل رأس لقمان بن عاد

ويعرف ذلك بلقمان صاحب النسور، وهو الذي له ابن اسمه لقيم١ وبعضهم ذكر أن اسم أبيه باعوراء، فسبق إلى أوهام بعض المؤلفين٢ أنه المسمى في كتب اليهود بلعام بن باعوراء المذكور خبره في "الإصحاحين" [٢٢ و٢٣] من "سفر العدد" ، ولعل ذلك وهم لأن بلعام ذلك رجل من أهل مدين كان نبيا في زمن موسى عليه السلام، فلعل التوهم جاء من اتحاد اسم الأب، أو من ظن أن بلعام يرادغ معنى لقمان لأن بلعام من البلع ولقمان من اللقم فيكون العرب سموه بما يرادف اسمه في العبرانية. وقد اختلف السلف في أن لقمان المذكور في القرآن كان حكيما أو نبيا. فالجمهور قالوا: كان حكيما صالحا. واعتمد مالك في "الموطأ" على الثاني، فذكره في "جامع الموطأ" مرتين بوصف لقمان الحكيم، وذلك يقتضي أنه اشتهر بذلك بين علماء المدينة. وذكر ابن عطية: أن ابن عمر قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "لم يكن لقمان نبيا ولكن كان عبدا كثير التفكر حسن اليقين أحب الله تعالى فأحبه فمن عليه بالحكمة" ويظهر من الآيات المذكورة في قصته هذه أنه لم يكن نبيا لأنه لم يمتن عليه بوحي ولا بكلام الملائكة. والاقتصار على أنه أوتي الحكمة يومئ إلى أنه ألهم الحكمة ونطق بها، ولأنه لما ذكر تعليمه

---

(١) التحرير والتنوير، ٥٧/٢١

لابنه قال تعالى {وهو يعظه} [لقمان: ١٣] وذلك مؤذن بأنه تعليم لا تبليغ تشريع.

وذهب عكرمة والشعبي: أن لقمان نبي ولفظ الحكمة يسمح بهذا القول لأن الحكمة أطلقت على النبوءة في كثير من القرآن كقوله في داود { وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب} [ص: ٢٠]. وقد فسرت الحكمة في قوله تعالى: {ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا} [البقرة: ٢٦٩] بما يشمل النبوءة. وإن الحكمة "معرفة حقائق الأشياء على ما هي عليه" وأعلاها النبوءة لأنها علم بالحقائق مأمون من أن يكون مخالفا لما هي عليه في نفس الأمر إذ النبوءة متلقاة من الله الذي لا يعزب عن عمله شيء. وسيأتي أن إيراد قوله تعالى:

ـ

١ وهو المعني في البيت الذي أنشده ابن بري:

لقيم بن لقمان من أخته

فكان ابن أخت له وابنه

٢ هو لاروس صاحب دوائر المعارف الفرنسية.." (١)

"بلفظ قريب من ألفاظ لغتهم على عادتهم كما عربوا شاول باسم طالوت وهو ممنوع من الصرف لزيادة الألف والنون لا للعجمة.

وتقدم تعريف {الحكمة} عند قوله تعالى: {يؤتي الحكمة من يشاء} في سورة البقرة [٢٦٩] وقوله: {ادع إلى سبيل ربك بالحكمة} في سورة النحل [١٢٥].

و {أن} في قوله: {أن اشكر لله} تفسيرية وليست تفسيرا لفعل {آتينا} لأنه نصب مفعوله وهو الحكمة، فتكون {أن} مفسرة للحكمة باعتبار أن الحكمة هنا أقوال أوحيت إليه أو ألهمها فيكون في الحكمة معنى القول دون حروفه فيصلح أن تفسر بـ {أن} التفسيرية، كما فسرت حاجة في قول الشاعر الذي لم يعرف وهو من شواهد العربية:

إن تحملا حاجة لي خف محملها ... تستوجبا منة عندي بها ويدا

أن تقرءان علي أسماء ويحكما ... مني السلام وأن لا تخبرا أحدا

والصوفية وحكماء الإشراق يرون خواطر الأصفياء حجة ويسمونها إلهاما. ومال إليه جم من علمائنا. وقد

---

(١) التحرير والتنوير، ٩٦/٢١

قال قطب الدين الشبرازي في "ديباجة شرحه على المفتاح" أما بعد إني قد ألقي إلي على سبيل الإنذار، من حضرة الملك الجبار، بلسان الإلهام، إلا كوهم من الأوهام، ما أورثني التجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار السرور الخ.

وكان أول ما لقنه لقمان من الحكمة هو **الحكمة في** نفسه بأن أمره الله يشكره على ما هو محفوف به من نعم الله التي منها نعمة الاصطفاء لإعطائه الحكمة وإعداده لذلك بقابليته لها. وهذا رأس الحكمة لتضمنه النظر في دلائل نفسه وحقيقته قبل النظر في حقائق الأشياء وقبل التصدي لإرشاد غيره، وأن أهم النظر في حقيقته هو الشعور بوجوده على حالة كاملة والشعور بموجده ومفيض الكمال عليه، وذلك كله مقتض لشكر موجده على ذلك. وأيضا فإن شكر الله من الحكمة، إذ الحكمة تدعو إلى معرفة حقائق الأشياء على ما هي عليه لقصد العمل بمقتضى العلم، فالحكيم يبث في الناس تلك الحقائق على حسب قابلياتهم بطريقة التشريع تارة والموعظة أخرى، والتعليم لقابليه مع حملهم على العمل بما علموه من ذلك، وذلك العمل من الشكر إذ الشكر قد عرف بأنه صرف العبد جميع ما أنعم الله به عليه من مواهب ونعم فيما خلق لأجله، فكان شكر الله هو الأهم في الأعمال المستقيمة فلذلك كان رأس الحكمة لأن من الحكمة تقديم العلم بالأنفع على العلم بما هو دونه، فالشكر هو مبدأ الكمالات علما، وغايتها عملا.." (١)

"يرجعون إلى أمهات المؤمنين في كثير من أحكام النساء ومن أحكام الرجل مع أهله، كما في قوله تعالى: {اذكرني عند ربك} [يوسف: ٤٢]، أي بلغ خبر سجني وبقائي فيه.

وموقع مادة الذكر هنا موقع شريف لتحملها هذه المحامل ما لا يتحمله غيرها إلا بإطناب. قال ابن العربي: إن الله أمر نبيه عليه الصلاة والسلام بتبليغ ما أنزل إليه فكان إذا قرأ على واحد أو ما اتفق سقط عنه الفرض، وكان على من تبعه أن يبلغه إلى غيره ولا يلزمه أن يذكره لجميع الصحابة.

وقد تكرر ذكر **الحكمة في** القرآن في مواضع كثيرة، وبيناه في سورة البقرة.

وتقدم قريبا اختلاف القراء في كسر باء "بيوت" أو ضمنها.

وجملة {إن الله كان لطيفا خبيرا} تعليل للأمر وتذييل للجمل السابقة. والتعليل صالح لمحامل الأمر كلها لأن اللطف يقتضي إسداء النفع بكيفية لا تشق على المسدى إليه.

---

(١) التحرير والتنوير، ٢١/٩٨

وفيما وجه إلى نساء النبيء صلى الله عليه وسلم من الأمر والنهي ما هو صلاح لهن وإجراء للخير بواسطتهن، وكذلك في تيسيره إياهن لمعاشرة الرسول عليه الصلاة والسلام وجعلهن أهل بيوته، وفي إعدادهن لسماع القرآن وفهمه، ومشاهدة الهدى النبوي، كل ذلك لطف لهن هو الباعث إلى ما وجهه إليهن من الخطاب ليتلقين الخبر ويبلغنه، ولأن الخبير ، أي العليم إذا أراد أن يذهب عنهن الرجس ويطهرهن حصل مراده تاما لا خلل ولا غفلة.

فمعنى الجملة أنه تعالى موصوف باللطف والعلم كما دل عليه فعل {كان} فيشمل عموم لطفه بهن وعلمه بما فيه نفعهن.

[٣٥] {إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما}

ويجوز أن تكون هذه الجملة استئنافا بيانيا لأن قوله: {ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحا نؤتها أجرها مرتين} [الأحزاب: ٣١] بعد قوله: {لستن كأحد من النساء}." (١)

"أجسام كما تتفتق الحبة عن عرق الشجرة، أو بخلق جاذبية خاصة بجذب تلك الذرات بعضها إلى بعض ثم يصور منها جسدها، وإلى هذا المعنى يشير قوله تعالى: {وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه} [الروم: ٢٧] ثم تنمو تلك الأجسام سريعا فتصبح في صور أصولها التي كانت في الحياة الدنيا.

وانظر قوله تعالى: {فتول عنهم يوم يدع الداع إلى شيء نكر خشعا أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر} في سورة القمر [٦، ٧]، وقوله: {يوم يكون الناس كالفراش المبثوث} في سورة القارعة [٤] فإن الفراش وهو فراخ الجراد تنشأ من البيض مثل الدود ثم لا تلبث إلا قليلا حتى تصير جرادا وتطير. ولهذا سمى الله ذلك البعث نشأة لأن فيه إنشاء جديدا وخلقا معادا وهو تصوير تلك الأجزاء بالصورة التي كانت متقمصة بها حين الموت ثم إرجاع روح كل جسد إليه بعد تصويره بما سمي بالنفخ فقال: {وأن عليه النشأة الأخرى} [النجم: ٤٧] وقال: {أفعيينا بالخلق الأول بل هم في لبس من خلق جديد ولقد خلقنا الإنسان} [ق: ١٥، ١٦] الآية. أي فذلك يشبه خلق آدم من تراب الأرض وتسويته ونفخ الروح فيه وذلك بيان مقنع

(١) التحرير والتنوير، ٢١/٢٥٠

للمتأمل لو نصبو أنفسهم للتأمل.

وأشار بقوله: {ولا أصغر من ذلك ولا أكبر} إلى ما لا يعلمه إلا الله من العناصر والقوى الدقيقة أجزاؤها الجليلة آثارها، وتسييرها بما يشمل الأرواح التي تحل في الأجسام والقوى التي تودعها فيها.

[٤، ٥] {ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة ورزق كريم والذين سعوا في آياتنا معاجزين أولئك لهم عذاب من رجز أليم [٥]}.

لام التعليل تتعلق بفعل: {لتأتينكم} [سبأ: ٣] دون تقييد الإتيان بخصوص المخاطبين بل المراد ما شملهم وغيرهم لأن جزاء الذين آمنوا لا علاقة له بالمخاطبين فكأنه قيل: لتأتين الساعة ليجزي الذين آمنوا ويجزي الذين سعوا في لآياتنا معجزين، وهم المخاطبون، وضمير "يجزي" عائد إلى: {عالم الغيب} [سبأ: ٣].

والمعنى: أن الحكمة في إيجاد الساعة للبعث والحشر هي جزاء الصالحين على صلاح اعتقادهم وأعمالهم، أي جزاء صالحا مماثلا، وجزاء المفسدين جزاء سيئا، وعلم نوع الجزاء من وصف الفريقين من أصحابه.

والإتيان باسم الإشارة لكل فريق للتنبيه على أن المشار إلية جدير بما سيرد بعد اسم." (١)

"ووجه الاقتصار على وصف النذير هنا دون الجمع بينه وبين وصف البشير هو مراعاة العموم الذي في قوله: {وإن من أمة إلا خلا فيها نذير} ، فإن من الأمم من لم تحصل لها بشارة لأنها لم يؤمن منها أحد، ففي الحديث عرضت علي الأمم فجعل النبي يمر معه الرهط، والنبيء يمر معه الرجل الواحد، والنبي يمر وحده الحديث، فإن الأنبياء الذين مروا وحدهم هم الأنبياء الذين لم يستجب لهم أحد من قومهم، وقد يكون عدم ذكر وصف البشارة للاكتفاء بذكر قرينة اكتفاء بدلالة ما قبله عليه، وأوثر وصف النذير بالذكر لأنه أشد مناسبة لمقام خطاب المكذبين.

ومعنى الأمة هنا: الجذم العظيم من أهل نسب ينتهي إلى جد واحد جامع لقبائل كثيرة لها مواطن متجاورة مثل أمة الفرس وأمة الروم وأمة الصين وأمة الهند وأمة يونان وأمة إسرائيل وأمة العرب وأمة البربر، فما من أمة من هؤلاء إلا وقد سبق فيها نذير، أي رسول أو نبي ينذرهم بالمهلكات وعذاب الآخرة. فمن المنذرين من علمناهم، ومنهم من أنذروا وانقرضوا ولم يبق خبرهم قال تعالى: {ولقد أرسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك} [غافر: ٧٨].

والحكمة في الإنذار أن لا يبقى الضلال رائجا وأن يتخول الله عباده بالدعوة إلى الحق سواء عملوا بها أم

---

(١) التحرير والتنوير، ١٣/٢٢

لم يعملوا فإنها لا تخلوا من أثر صالح فيهم. وإنما لم يسم القرآن إلا الأنبياء والرسل الذين كانوا في الأمم السامية القاطنة في بلاد العرب وما جاورها لأن القرآن حين نزوله ابتدأ بخطاب العرب ولهم علم بهؤلاء الأقوام فقد علموا أخبارهم وشهدوا آثارهم فكان الاعتبار بهم أوقع، ولو ذكرت لهم رسل أمم لا يعرفونهم لكان إخبارهم عنهم مجرد حكاية ولم يكن فيه استدلال واعتبار.

[٢٥، ٢٦] {وإن يكذبوك فقد كذب الذين من قبلهم جاءتهم رسلهم بالبينات وبالزبر وبالكتاب المنير [٢٥] ثم أخذت الذين كفروا فكيف كان نكير [٢٦]}.

أعقب الثناء على النبي صلى الله عليه وسلم بتسليته على تكذيب قومه وتأنيسه بأن تلك سنة الرسل مع أممهم.

وإذ قد كان سياق الحديث في شأن الأمم جعلت التسلية في هذه الآية بحال الأمم مع رسلهم عكس ما في آية آل عمران [١٨٤] {فإن كذبوك فقد كذب رسل من قبلك جاءوا بالبينات والزبر والكتاب المنير} لأن سياق آية أل عمران كان في رد محاولة أهل." (١)

"وإن شئت فازعم أن من فوق ظهرها ... عبيدك واستشهد إلهك يشهد

والضمير للأرض هنا وهناك في البيت لأنها معلومة من المقام. والظهر: حقيقته متن الدابة الذي يظهر منها، وهو ما يعلو الصلب من الجسد وهو مقابل البطن فأطلق على ظهر الإنسان أيضا وإن كان غير ظاهر لأن الذي يظهر من الإنسان صدره وبطنه. وظهر الأرض مستعار لبسطها الذي يستقر عليه مخلوقات الأرض تشبيها للأرض بالدابة المركوبة على طريقة المكنية. ثم شاع ذلك فصار من الحقيقة.

فأما قوله هنا {فإن الله كان بعباده بصيرا} ، وقد قال هنالك {لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون} [النحل: ٦١] ، فما هنا إيماء هي الحكمة في تأخيرهم إلى أجل مسمى. والتقدير: فإذا جاء أجلهم أخذهم بما كسبوا فإن الله كان بعباده بصيرا، أي عليما في حالي التأخير ومجيء الأجل، ولهذا فقوله: {فإن الله كان بعباده بصيرا} دليل جواب "إذا" وليس هو جوابها، ولذلك كان حقيقا بقرنه بفاء التسبب، وأما ما في سورة النحل فهو الجواب وهو تهديد بأنه إذا جاء أجلهم وقع بهم العذاب دون إمهال.

وقوله: {فإن الله كان بعباده بصيرا} هو أيضا جواب عن سؤال مقدر أن يقال: ماذا جنت الدواب حتى يستأصلها الله بسبب ما كسب الناس، وكيف يهلك كل من على الأرض وفيهم المؤمنون والصالحون، فأفيد

---

(١) التحرير والتنوير، ١٥٢/٢٢

أن الله اعلم بعدله. فأما الدواب فإنها مخلوقة لأجل الإنسان كما قال تعالى: {هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا} [البقرة: ٢٩]، فإهلاكها قد يكون إنذارا للناس لعلهم يقلعون عن إجرامهم، وأما حال المؤمنين في حين إهلاك الكفار فالله أعلم بهم فلعل الله أن يجعل لهم طريقا إلى النجاة كما نجى هودا ومن معه، ولعله إن أهلكهم أن يعوض لهم حسن الدار كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: "ثم يحشرون على نياتهم".." (١)

"وتعدية: {حملنا} إلى الذريات تعدية على المفعولية المجازية وهو مجاز عقلي فإن المجاز العقلي لا يختص بالإسناد بل يكون المجاز في التعليق فإن المحمول أصول الذريات لا الذريات وأصولها ملابسة لها.

ولما كانت ذريات المخاطبين مما أراد الله بقاءه في الأرض حين أمر نوحا بصنع الفلك لإنجاء الأنواع وأمره بحمل أزواج من الناس هم الذين تولد منهم البشر بعد الطوفان نزل البشر كله منزلة محمولين في الفلك المشحون في ومن نوح، وذكر الذريات يقتضي أن أصولهم محمولون بطريق الكناية إيجازا في الكلام، وأن أنفسهم محمولون كذلك كأنه قيل: إنا حملنا أصولهم وحملناهم وحملنا ذرياتهم، إذ لولا نجاة الأصول ما جاءت الذريات، وكانت الحكمة في حمل الأصول بقاء الذريات فكانت النعمة شاملة للكل، وهذا كالامتنان في قوله: {إنا لما طغا الماء حملناكم في الجارية لنجعلها لكم تذكرة} [الحاقة: ١١، ١٢].

وضمير {ذريتهم} عائد إلى ما عاد إليه ضمير {لهم} أي العباد المراد بهم المشركون من أهل مكة لكنهم لوحظوا هنا بعنوان كونهم من جملة البشر، فالمعنى: آية لهم أنا حملنا ذريات البشر في سفينة نوح وذلك حين أمر الله نوحا بأن يحمل فيها أهله والذين آمنوا من قومه لبقاء ذريات البشر فكان ذلك حملا لذرياتهم ما تسلسلت كما تقدم آنفا.

هذا هو تأويل هذه الآية قال القرطبي: وهي من أشكل ما في السورة، وقال ابن عطية: "قد خلط بعض الناس حتى قالوا: الذرية تطلق على الآباء وهذا لا يعرف من اللغة" وتقدم قوله: {وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم} في سورة الأعراف [١٧٢].

وقرأ نافع وابن عامر {ذريتهم} بلفظ الجمع. وقرأه الباقون بدون ألف بصيغة اسم الجمع، والمعنى واحد.

وقد فهم من دلالة قوله: {أنا حملنا ذريتهم} صريحا وكناية أن هذه الآية مستمرة لكل ناظر إذ يشهدون

---

(١) التحرير والتنوير، ٢٢/١٩٠

أسفارهم وأسفار أمثالهم في البحر وخاصة سكان الشطوط والسواحل مثل أهل جدة وأهل ينبع إذ يسافرون إلى بلاد اليمن وبلاد الحبشة فيفهم منه: أنا حملنا ونحمل وسنحمل أسلافهم وأنفسهم وذرياتهم. وقد وصف طرفة السفن في معلقته.

وجملة: {وخلقنا لهم من مثله ما يركبون} معترضة في خلال آية البحر اقتضتها مراعاة النظير تذكيرا بنعمة خلق الإبل صالة للأسفار فحكيت آية الإلهام بصنع الفلك من." (١)

"فالذي بدا لي أن نقول: أن القرآن نزل بأفصح لغات البشر التي تواضعوا واصطلحوا عليها ولو أن كلاما كان أفصح من كلام العرب أو أمة كانت أسلم طباعا من الأمة العربية لاختارها الله لظهور أفضل الشرائع وأشرف الرسل وأعز الكتب الشرعية.

ومعلوم أن القرآن جاء معجزا لبلغاء العرب فكانت تراكيبه ومعانيها بالغين حدا يقصر عنه كل بليغ من بلغائهم على مبلغ ما تتسع له اللغة العربية فصاحة وبلاغة فإذا كانت نهاية مقتضى الحال في مقام من مقامات الكلام تتطلب لإيفاء حق الفصاحة والبلاغة ألفاظا وتركيبا ونظما فاتفق أن كان لمجموع حركاتها وسكوناتها ما كان جاريا على ميزان الشعر العربي في أعاريضه وضروبه لم يكن ذلك الكلام معدودا من الشعر لو وقع مثله في كلام عن غير قصد فوقوعه في كلام البشر قد لا يتفطن إليه قائله ولو تفطن له لم يعسر تغييره لأنه ليس غاية ما يقتضيه الحال، اللهم إلا أن يكون قصد به تفنن في الإتيان بكلام ظاهره نثر وتفكيكه نظم.

فأما وقوعه في كلام الله تعالى فخارج عن ذلك كله من ثلاثة وجوه:

أحدها: أن الله لا يخفى عليه وقوعه في كلام أوحى به إلى رسوله صلى الله عليه وسلم.

الثاني: أنه لا يجوز تبديل ذلك المجموع من الألفاظ بغيره لأن مجموعها هو جميع ما اقتضاه الحال وبلغ حد الإعجاز.

الثالث: أن الله لا يريد أن يشتمل الكلام الموحى به من عنده على محسن الجمع بين النثر والنظم لأنه أراد تنزيه كلامه عن شائبة الشعر

واعلم أن الحكمة في أن لا يكون القرآن من الشعر مع أن المتحدين به بلغاء العرب وجلهم شعراء وبلاغتهم هي الجمع بين الإعجاز وبين سد باب الشبهة التي تعرض لهم أو جاء القرآن على موازين الشعر، وهي شبه

---

(١) التحرير والتنوير، ٢٢/٢٣٧

الغلط أو المغالطة بعدهم النبي صلى الله عليه وسلم في زمن الشعراء فيحسب جمهور الناس الذين لا تغوص مدركاتهم على الحقائق أن ما جاء به الرسول ليس بالعجيب، وأن هذا الجائي به ليس بنبي ولكنه شاعر، فكان القرآن معجزا لبلغاء العرب بكونه من نوع كلامهم لا يستطيعون جحودا لذلك، ولكنه ليس من الصنف المسمى بالشعر بل هو فائق على شعرهم في محاسنه البلاغية وليس هو في أسلوب الشعر بالأوزان التي ألفوها بل هو في أسلوب الكتب السماوية والذكر.

ولقد ظهرت حكمة علام الغيوب في ذلك فإن المشركين لما سمعوا القرآن ابتدروا." (١)

"**الحكمة من** التشريع بخلاف أمر الابتلاء.

والمقصود من هذا الابتلاء إظهار عزمه وإثبات علو مرتبته في طاعة ربه فإن الولد عزيز على نفس الوالد،والولد الوحيد الذي هو أمل الوالد في مستقبله أشد عزة على نفسه لا محالة،وقد علمت أنه سأل ولدا ليرثه نسله ولا يرثه مواليه، فبعد أن أقر الله عينه بإجابة سؤله وترعرع ولده أمره بأن يذبحه فينعدم نسله ويخيب أمله ويزول أنسه ويتولى بيده إعدام أحب النفوس إليه وذلك أعظم الابتلاء.فقابل أمر ربه بالامتثال وحصلت حكمة الله من ابتلائه،وهذا معنى قوله تعالى: {إن هذا لهو البلاء المبين} [الصافات:١٠٦].

وإنما برز هذا الابتلاء في صورة الوحي المنامي إكراما لإبراهيم عن أن يزعج بالأمر بذبح ولده بوحي في اليقظة لأن رؤى المنام يعقبها تعبيرها إذ قد تكون مشتملة على رموز خفية وفي ذلك تأنيس لنفسه لتلقي هذا التكليف الشاق عليه وهو ذبح ابنه الوحيد.

والفاء في قوله: {فانظر ماذا ترى} فاء تفريع،أو هي فاء الفصيحة،أي إذا علمت هذا فانظر ماذا ترى.

والنظر هنا نظر العقل لا نظر البصر فحقه أن يتعدى إلى مفعولين ولكن علقه الاستفهام عن العمل.

والمعنى: تأمل في الذي تقابل به هذا الأمر،وذلك لأن الأمر لما تعلق بذات الغلام كان للغلام حظ في الامتثال وكان عرض إبراهيم هذا على ابنه عرض اختيار لمقدار طواعيته بإجابة أمر الله في ذاته لتحصل له بالرضى والامتثال مرتبة بذل نفسه في إرضاء الله وهو لا يرجو من ابنه إلا القبول لأنه أعلم بصلاح ابنه وليس إبراهيم مأمور بذبح ابنه جبرا،بل الأمر بالذبح تعلق بمأمورين:أحدهما بتلقي الوحي،والآخر بتبليغ الرسول إليه،فلو قدر عصيانه لكان حاله في ذلك حال ابن نوح الذي أبى أن يركب السفينة لما دعاه أبوه فاعتبر كافرا.

---

(١) التحرير والتنوير، ٢٢/٢٦٦

وقرأ الجمهور {ماذا ترى} بفتح التاء والراء.وقرأ حمزة والكسائي وخلف بضم التاء وكسر الراء، أي ماذا تريني من امتثال أو عدمه.وحكي جوابه فقال: {يا أبت افعل ما تؤمر} دون عطف،جريا على حكاية المقاولات كما تقدم عند قوله تعالى: {قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها} في سورة البقرة[٣٠].

وابتداء الجواب بالنداء واستحضار المنادى بوصف الأبوة وإضافة الأب إلى ياء المتكلم المعوض عنها التاء المشعر تعويضها بصيغة ترقيق وتحنن.

والتعبير عن الذبح بالموصول وهو {ما تؤمر} دون أن يقول:اذبحني،يفيد وحده." (١)

"لأسبحها"،وليس هذا المعنى مرادا هنا لأن الجبال لا تصلي والطير كذلك ولأن داود لا يصلي في الجبال إذ الصلاة في شريعتهم لا يقع إلا في المسجد وأما الصلاة في الأرض فهي من خصائص الإسلام.

والعشي:ما بعد العصر.يقال:عشي وعشية.و {الأشراق} :وقت ظهور ضوء الشمس واضحا على الأرض وهو وقت الضحى،يقال:أشرقت الأرض ولا يقال:أشرقت الشمس،وإنما يقال:شرقت الشمس وهو من باب قد،ولذلك كان قياس المكان منه المشرق بفتح الراء ولكنه لم يجيء إلا بكسر الراء.ووقت طلوع الشمس هو المشرق ووقت الإشراق الضحى،يقال:شرقت الشمس ولما تشرق، ويقال:كلما ذر شارق،أي كلما طلعت الشمس.والباء في بـ {بالعشي} للظرفية فتعين أن المراد بالإشراق وقت الإشراق.

والمحشورة:المجتمعة حوله عند قراءته الزبور.وانتصب {محشورة} على كل الحال من {الطير} .ولم يؤت في صفة الطير بالحشر بالمضارع كما جيء به في {يسبحن} إذ الحشر يكون دفعة فلا يقتضي المقام دلالة على تجدد ولا على استحضاره الصورة.

وتنوين {كل له أواب} عوض عن المضاف إليه.والتقدير:كل المحشورة له أواب،أي كثير الرجوع إليه،أي يأتيه من مكان بعيد.وهذه معجزة له لأن شأن الطير النفور من الإنس.وكلمة {كل} على أصل معناها من الشمول.و {أواب} هذا غير {أواب} في قوله: {إنه أواب} فلم تكرر الفاصلة.واللام في {له أواب} لام التقوية،وتقديم المجرور على متعلقه للاهتمام بالضمير المجرور.

والشد:الإمساك وتمكن اليد مما تمسكه،فيكون لقصد النفع كما هنا،ويكون لقصد الضر كقوله: {واشدد على قلوبهم} في سورة يونس[٨٨].

فشد الملك هو تقوية ملكه وسلامته من أضرار ثورة لديه ومن غلبه أعدائه عليه في حروبه.وقد ملك داود

---

(١) التحرير والتنوير، ٦٤/٢٣

أربعين سنة ومات وعمره سبعون سنة في ظل ملك ثابت.

و {الحكمة} :النبوة.والحكمة في الأعم:العلم بالأشياء كما هي والعمل بالأمور على ما ينبغي،وقد اشتمل كتاب "الزبور" على حكم جمة.

و {فصل الخطاب} :بلاغه الكلام وجمعه للمعنى المقصود بحيث لا يحتاج سامعه إلى زيادة تبيان، ووصف القول بـ"الفصل" وصف المصدر،أي فاصل.والفاصل:الفارق بين شيئين،وهو ضد الواصل، ويطلق مجازا على ما يميز شيئا عن الاشتباه بضده.

وعطفه." (١)

"معان مرادة من الآية فيما نرى،على أن في هذين الوصفين إيماء إلى أن القرآن معجز ببلاغة لفظه وإعجازه العلمي،إذا اشتمل على علوم لم يكن للناس علم بها كما بيناه في المقدمة العاشرة.

وفي وصف {الحكيم} إيماء إلى أنه أنزله بالحكمة وهي الشريعة {يؤتي الحكمة من يشاء} [البقرة:٢٦٩].وفي هذا إرشاد إلى وجوب التدبر في معاني هذا الكتاب ليتوصل بذلك التدبر إلى العلم بأنه حق من عند الله،قال تعالى: {سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق} [فصلت:٥٣].

ومعنى {العزيز الحكيم} في صفات الله تقدم في تفسير قوله تعالى: {فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البينات فاعلموا أن الله عزيز حكيم} في سورة البقرة[٢٦٩].

وافتتاح جملة {إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق} بحرف "إن" مراعى فيه ما استعمل فيه الخبر من الامتنان.فيحمل حرف "إن" على الاهتمام بالخبر.وما أريد به من التعريض بالذين أنكروا أن يكون منزلا من الله فيحمل حرف "إن" على التأكيد استعمالا للمشترك في معنييه.ولما في هذه الآية من زيادة الإعلان بصدق النبي المنزل عليه الكتاب جدير بالتأكيد لأن دليل صدقه ليس في ذاته بل هو قائم بالإعجاز الذي في القرآن وبغيره من المعجزات،فكان مقتضى التأكيد موجودا بخلاف مقتضى الحال في قوله: {تنزيل الكتاب من الله} .

فجملة {إنا أنزلنا إليك الكتاب} تتنزل منزلة البيان لجملة {تنزيل الكتاب من الله} . وإعادة لفظ {الكتاب} للتنويه بشأنه جريا على خلاف مقتضى الظاهر بالإظهار في مقام الإضمار.وتعدية {أنزلنا}

---

(١) التحرير والتنوير، ١٢٩/٢٣

بحرف الانتهاء تقدم في قوله: {والذين يؤمنون بما أنزل إليك} في أول البقرة[٤].
والباء في {بالحق} للملابسة،وهي ظرف مستقر حالا من {الكتاب} ،أي أنزلنا إليك القرآن ملابسا للحق في جميع معانيه {لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه} [فصلت:٤٢].
وفرع على المعنى الصريح من قوله: {إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق} أن أمر بأن يعبد الله مخلصا له العبادة.وفي هذا التفريع تعريض بما يناسب المعنى التعريضي في المفرع عليه وهو أن المعرض بهم أن يعبدوا الله مخلصين له الدين عليهم أن يدبروا في المعنى المعرض به.." (١)

"[٤٩,٥٠] {لله ملك السماوات والأرض يخلق ما يشاء يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور أو يزوجهم ذكرانا وإناثا ويجعل من يشاء عقيما إنه عليم قدير}
{لله ملك السماوات والأرض يخلق ما يشاء}
استئناف بياني لأن ما سبقه من عجيب خلق الإنسان الذي لم يهذبه الهدي الإلهي يثير في نفس السامع سؤالا عن فطر الإنسان على هاذين الخلقين اللذين يتلقى بهما نعمة ربه وبلاءه وكيف لم يفطر على الخلق الأكمل ليتلقى النعمة بالشكر، والضر بالصبر والضراعة، وسؤالا أيضا عن سبب إذاقة الإنسان النعمة مرة والبؤس مرة فيبطر ويكفر وكيف لم يجعل حاله كفافا لا لذات له ولا بلايا كحال العجماوات فكان جوابه: أن الله المتصرف في السماوات والأرض يخلق فيهما ما يشاء من الذوات وأحوالها. وهو جواب إجمالي إقناعي يناسب حضرة الترفع عن الدخول في المجادلة عن الشؤون الإلهية.
وفي قوله {يخلق ما يشاء} من الإجمال ما يبعث المتأمل المنصف على تطلب الحكمة في ذلك فإن تطلبها انقادت له كما أومأ إلى ذلك تذييل هذه الجملة بقوله {إنه عليم قدير} فكأنه يقول: عليكم بالنظر في الحكمة في مراتب الكائنات وتصرف مبدعها، فكما خلق الملائكة على أكمل الأخلاق في جميع الأحوال، وفطر الدواب على حد لا يقبل كمال الخلق، كذلك خلق الإنسان على أساس الخير والشر وجعله قابلا للزيادة منهما على اختلاف مراتب عقول أفراده وما يحيط بها من الاقتداء والتقليد، وخلقه كامل التمييز بين النعمة وضدها ليرتفع درجات وينحط دركات مما يختاره لنفسه، ولا يلائم فطر الإنسان على فطرة الملائكة حالة عالمه المادي إذ لا تأهل لهذا العالم لأن يكون سكانه كالملائكة لعدم الملاءمة بين عالم المادة وعالم الروح. ولذلك لما تم خلق الفرد الأول من الإنسان وآن أوان تصرفه مع قرينته بحسب ما بزغ

---

(١) التحرير والتنوير، ٢٤/٨

فيهما من القوى، لم يلبث أن نقل من عالم الملائكة إلى عالم المادة كما أشار إليه قوله تعالى {قال اهبطا منها جميعا} [طه: ١٢٣]

ولكن الله لم يسد على النوع منافذ الكمال فخلقه خلقا وسطا بين الملكية والبهيمية إذ ركبه من المادة وأودع فيه الروح ولم يخله عن الإرشاد بواسطة وسطاء وتعاقبهم في العصور وتناقل إرشادهم بين الأجيال، فإن اتبع إرشادهم التحق بأخلاق الملائكة حتى يبلغ." (١)

"بأنهم لم يعقلوا.

والمعنى: أنا يسرنا فهمه عليكم لعلكم تعقلون فأعرضتم ولم تعقلوا معانيه، لأنه قد نزل مقدار عظيم لو تدبروه لعقلوا، فهذا الخبر مستعمل في التعريض على طريقة الكناية.

{وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم}

عطف على جملة {إنا جعلناه قرآنا عربيا} [الزخرف: ٣] فهو زيادة في الثناء على هذا الكتاب ثناء ثانيا للتنويه بشأنه رفعة وإرشادا.

وأم الكتاب: أصل الكتاب. والمراد ب {أم الكتاب} علم الله تعالى كما في قوله {وعنده أم الكتاب} في سورة الرعد[٣٩] لأن الأم بمعنى الأصل والكتاب هنا بمعنى المكتوب، أي المحقق الموثق وهذا كناية عن الحق الذي لا يقبل التغيير لأنهم كانوا إذا أرادوا أن يحققوا عهدا على طول مدة كتبوه في صحيفة، قال الحارث بن حلزة:

حذر الجور والتطاخي وهل ينقض

ما في المهارق الأهواء

و {علي} أصله المرتفع، وهو هنا مستعار لشرف الصفة وهي استعارة شائعة.

و {حكيم} : أصله الذي الحكمة من صفات رأيه، فهو هنا مجاز لما يحوي الحكمة بما فيه من صلاح أحوال النفوس والقوانين المقيمة لنظام الأمة.

ومعنى كون ذلك في علم الله: أن الله علمه كذلك وما علمه الله لا يقبل الشك. ومعناه: أن ما اشتمل عليه القرآن من المعاني هو من مراد الله وصدر عن علمه.

ويجوز أيضا أن يفيد هذا شهادة بعلو القرآن وحكمته على حد قولهم في اليمين الله يعلم، وعلم الله.

---

(١) التحرير والتنوير، ١٩٢/٢٥

وتأكيد الكلام ب"إن" لرد إنكار المخاطبين إذ كذبوا أن يكون القرآن موحى به من الله.

و {لدينا} ظرف مستقر هو حال من ضمير {إنه} أو من {أم الكتاب} والمقصود: زيادة تحقيق الخبر وتشريف المخبر عنه.

وقرأ الجمهور في {أم الكتاب} بضم همزة {أم}. وقرأه حمزة والكسائي بكسر همزة {أم الكتاب} في الوصل اتباعا لكسرة {في} ، فلو وقف على {في} لم يكسر الهمزة.." (١)

"{وجئنا بك على هؤلاء شهيدا} في سورة النساء [٤١] وفي مواضع أخرى.

والمراد بآبائهم آباؤهم الذين سنوا عبادة الأصنام مثل عمرو بن لحي والذين عبدوها من بعده. وتمتيع آبائهم تمهيد لتمتيع هؤلاء، ولذلك كانت غاية التمتيع مجيء الرسول فإن مجيئه لهؤلاء والتمتيع هنا التمتيع بالإمهال وعدم الاستئصال كما تدل عليه الغاية في قوله {حتى جاءهم الحق ورسول مبين}

والمراد ب {الحق} القرآن كما يدل عليه قوله تعالى {ولما جاءهم الحق قالوا هذا سحر} وقوله {وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم} [الزخرف:٣١] وهذه الآية ثناء راجع على القرآن متصل بالثناء عليه الذي افتتحت به السورة.

فإنه لما جاء القرآن على لسان محمد صلى الله عليه وسلم انتهى التمتيع وأخذوا بالعذاب تدريجا إلى أن كان عذاب يوم بدر ويوم حنين، وهدى الله للإسلام من بقي يوم فتح مكة وأيام الوفود. وهذا في معنى قوله تعالى {وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم} في سورة هود [٤٨].

والحق الذي جاءهم هو: القرآن، والرسول المبين: محمد صلى الله عليه وسلم. ووصفه ب {مبين} لأنه أوضح الهدى ونصب الأدلة وجاء بأفصح كلام. فالإبانة راجعة إلى معاني دينه وألفاظ كتابه.

والحكمة في ذلك أن الله أراد أن يشرف هذا الفريق من عقب إبراهيم بالانتشال من أوحال الشرك والضلال إلى مناهج الإيمان والإسلام واتباع أفضل الرسل وأفضل الشرائع، فيجبر لأمة من عقب إبراهيم ما فرطوا فيه من الاقتداء بأبيهم حتى يكمل لدعوته شرف الاستجابة.

والمقصود من هذا زيادة الإمهال لهم لعلهم يتذكرون كما قال تعالى {وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وإن كنا عن دراستهم لغافلين أو تقولوا لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة أو تقولوا لو أنا أنزل علينا

---

(١) التحرير والتنوير، ٢١٣/٢٥

الكتاب لكنا أهدى منهم فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة فمن أظلم ممن كذب بآيات الله وصدف عنها سنجزي الذين يصدفون عن آياتنا سوء العذاب بما كانوا يصدفون} [الأنعام:١٥٥-١٥٧].
ويستروح من قوله تعالى {وجعلها كلمة باقية في عقبه} إلى قوله {وآباءهم} أن آباء النبي صلى الله عليه وسلم في عمود نسبه لم يكونوا مضمرين الشرك وأنهم بعض من عقب إبراهيم الذين بقيت كلمته فيهم ولم يجهروا بمخالفة قومهم اتقاء الفتنة. ولا." (١)

"يدينون بالشرك إذ هو قد بعث لبني إسرائيل وكلهم موحدون فلما اختلف أتباعه بينهم وكذبت به فرق وصدقه فريق ثم لن يتبعوا ما أمرهم به لم يلبثوا أن حدثت فيهم نحلة الإشراك.

وجملة {قال قد جئتكم بالحكمة} مبينة لجملة {جاء عيسى بالبينات} وليست جوابا لشرط {لما} الذي جعل التفريع في قوله {فاختلف الأحزاب من بينهم} [مريم: ٣٧] دليلا عليه.

وفي إيقاع جملة {قد جئتكم بالحكمة} بيانا لجملة {جاء عيسى بالبينات} إيماء إلى أنه بادأهم بهذا القول، لأن شأن أهل الضلالة أن يسرعوا إلى غاياتها ولو كانت مبادئ الدعوة تنافي عقائدهم، أي لم يدعهم عيسى إلى أكثر من اتباع الحكمة وبيان المختلف فيه ولم يدعهم إلى ما ينافي أصول شريعة التوراة ومع ذلك لم يخل حاله من صدود مريع عنه وتكذيب.

وابتداؤه بإعلامهم أنه جاءهم بالحكمة والبيان وهو إجمال حال رسالته ترغيب لهم في وعي ما سيلقيه إليهم من تفاصيل الدعوة المفرع بعضها على هذه المقدمة بقوله {فاتقوا الله وأطيعون إن الله هو ربي وربكم فاعبدوه}

والحكمة هي معرفة ما يؤدي إلى الحسن ويكف عن القبيح وهي هنا النبوة، وقد تقدم الكلام عليها عند قوله تعالى {يؤتي الحكمة من يشاء} في سورة البقرة.[٢٦٩]

وقد جاء عيسى بتعليمهم حقائق من الأخلاق الفاضلة والمواعظ.

وقوله {ولأبين لكم} عطف على {بالحكمة} لأن كليهما متعلق بفعل {جئتكم} . واللام للتعليل. والتبيين: تجلية المعاني الخفية لغموض أو سوء تأويل، والمراد ما بينه عيسى في الإنجيل وغيره مما اختلفت فيه أفهام اليهود من الأحكام المتعلقة بفهم التوراة أو بتعيين الأحكام للحوادث الطارئة.

ولم يذكر في هذه الآية قوله المحكي في آية سورة النساء {ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم} لأن

---

(١) التحرير والتنوير، ٢٤٢/٢٥

ذلك قد قاله في مقام آخر.

والمقصود حكاية ما قاله لهم مما ليس شأنه أن يثير عليه قومه بالتكذيب فهم كذبوه في وقت لم يذكر لهم فيه أنه جاء بنسخ بعض الأحكام من التوراة، أي كذبوه في حال ظهور آيات صدقه بالمعجزات وفي حال انتفاء ما من شأنه أن يثير عليه شكا.

وإنما قال {بعض الذي تختلفون فيه} إما لأن الله أعلمه بأن المصلحة لم تتعلق ببيان كل ما اختلفوا فيه بل يقتصر على البعض ثم يكمل بيان الباقي على لسان رسول يأتي من بعده." (١)

"{ووقاهم عذاب الجحيم فضلا من ربك ذلك هو الفوز العظيم} عطف على {وزوجناهم بحور عين} وهذا تذكير بنعمة السلامة مما ارتبك فيه غيرهم. وذلك مما يحمد الله عليه كما ورد أن من آداب من يرى غيره في شدة أو بأس أن يقول: الحمد لله الذي عافاني مما هو فيه.

وضمير {وقاهم} عائد إلى ضمير المتكلم في {وزوجناهم} على طريقة الالتفات.

و {فضلا} حال من المذكورات. والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم.

وذكر الرب إظهار في مقام الإضمار ومقتضى الظاهر أن يقال: فضلا منه أو منا. ونكتة هذا الإظهار تشريف مقام النبي صلى الله عليه وسلم والإيماء إلى أن ذلك إكرام له لإيمانهم به.

وجملة {ذلك هو الفوز العظيم} تذييل، والإشارة في {ذلك هو الفوز العظيم} لتعظيم الفضل ببعد المرتبة. وأتي بضمير الفصل لتخصيص الفوز بالفضل المشار إليه وهو قصر لإفادة معنى الكمال كأنه لا فوز غيره.

{فإنما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون فارتقب إنهم مرتقبون}

الفاء للتفريع إشارة إلى أن ما بعدها متفرع عما قبلها حيث كان المذكور بعد الفاء فذلكة للسورة، أي إجمال لأغراضها بعد تفصيلها فيما مضى إحضارا لتلك الأغراض وضبطا لترتب علتها.

وضمير {يسرناه} عائد إلى الكتاب المفهوم من المقام والمذكور في قوله {والكتاب المبين إنا أنزلناه في ليلة مباركة} [الدخان: ٣] إلخ، والذي كان جل غرض السورة في إثبات إنزاله من الله كما أشار إليه افتتاحها بالحروف المقطعة، وقوله {والكتاب المبين} فهذا التفريع مرتبط بذلك الافتتاح وهو من رد العجز على الصدر. فهذا التفريع تفريع لمعنى الحصر الذي في قوله {فإنما يسرناه بلسانك} لبيان **الحكمة في** إنزال القرآن باللسان العربي فيكون تفريعا على ما تقدم في السورة وما تخلله وتبعه من المواعظ.

---

(١) التحرير والتنوير، ٢٥/٢٨٢

ويجوز أن يكون المفرع قوله {لعلهم يتذكرون} وقدم عليه ما هو توطئة له اهتماما بالمقدم وتقدير النظم فلعلهم يتذكرون بهذا لما يسرناه لهم بلسانهم.

والقصر المستفاد من "إنما" قصر قلب وهو رد على المشركين إذ قد سهل لهم طريق." (١)

"في الحديبية: كأنه وأصحابه قد دخلوا مكة آمنين وحلقوا وقصروا. هكذا كانت الرؤيا مجملة ليس فيها وقوع حج ولا عمرة، والحلاق والتقصير مناسب لكليهما.

وقص رسول الله صلى الله عليه وسلم رؤياه على أصحابه فاستبشروا بها وعبروها أنهم داخلون إلى مكة بعمرتهم التي خرجوا لأجلها، فلما جرى الصلح وتأهب الناس إلى القفول أثار بعض المنافقين ذكر الرؤيا فقالوا: فأين الرؤيا فوالله ما دخلنا المسجد الحرام ولا حلقنا وقصرنا فقال لهم أبو بكر رضي الله عنه: إن المنام لم يكن موقتا بوقت وأنه سيدخل وأنزل الله تعالى هذه الآية. والمعنى أن رؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم حق وأن الله أوحى إليه بها وأنها وإن لم تقع في تلك القضية فستحقق بعد ذلك وكأن **الحكمة في** إراءة الله رسوله صلى الله عليه وسلم تلك الرؤيا أيامئذ وفي إخبار الرسول صلى الله عليه وسلم أصحابه بها: أن الله أدخل بذلك على قلوبهم الثقة بق,تهم وتربية الجراءة على المشركين في ديارهم فتسلم قلوبهم من ماء الجبن فإن الأمراض النفسية إذا اعترت النفوس لا تلبث أن تترك فيها بقايا الداء زمانا كما تبقى آثار المرض في العضو المريض بعد النقاهة زمانا حتى ترجع إلى العضو قوته الأولى بعد مدة مناسبة.

وتوكيد الخبر بحرف "قد" لإبطال شبهة المنافقين الذين قالوا: فأين الرؤيا ومعنى {صدق الله رسوله الرؤيا} أنه أراه رؤيا صادقة لأن رؤيا الأنبياء وحي فآلت إلى معنى الخبر فوصفت بالصدق لذلك.

وهذا تطمين لهم بأن ذلك سيكون لا محالة وهو في حين نزول الآية لما يحصل بقرينة قوله {إن شاء الله}
.

وتعدية {صدق} إلى منصوب ثان بعد مفعوله من النصب على نزع الخافض المسمى بالحذف والإيصال، أي حذف الجار وإيصال الفعل إلى المجرور بالعمل فيه النصب. وأصل الكلام: صدق الله رسوله في الرؤيا كقوله تعالى {صدقوا ما عاهدوا الله عليه} [الأحزاب: من الآية٢٣].

والباء في {بالحق} للملابسة وهو ظرف مستقر وقع صفة لمصدر محذوف، أي صدقا ملابسا الحق، أو وقوع حالا صفة لمصدر محذوف، أي صدقا ملابسا وقع حالا من الرؤيا.

---

(١) التحرير والتنوير، ٣٤٣/٢٥

والحق: الغرض الصحيح والحكمة، أي كانت رؤيا صادقة وكانت مجعولة محكمة وهي ما قدمناه آنفا. وجملة {لتدخلن المسجد الحرام} إلى آخرها يجوز أن يكون بيانا لجملة {صدق." (١)

"وهذا يغني عن احتمالات في تأويل التعليل من قوله: {ليعبدون} من جعل عموم الجن والإنس مخصوصا بالمؤمنين منهم، أو تقدير محذوف في الكلام، أي إلا لآمرهم بعبادتي، أو حمل العبادة بمعنى التذلل والتضرع الذي لا يخلوا منه الجميع في أحوال الحاجة إلى التذلل والتضرع كالمرض والقحط وقد ذكرها ابن عطية.

ويرد على جميع تلك الاحتمالات أن كثيرا من الإنس غير عابدين بدليل المشاهدة، وأن الله حكى عن بعض الجن أنهم غير عابدين.

ونقول: أن الله خلق مخلوقات كثيرا وجعل فيها نظاما ونواميس فاندفع كل مخلوق يعمل بما تدفعه إليه نواميس جبلته، فقد تعود بعض المخلوقات على بعض بنقص ما هيء هو له ويعود بعضها على غيره بنقص ما يسعى إليه، فتشابكت أحوال المخلوقات ونواميسها، فربما تعاضدت وتظاهرت وربما تناقصت وتنافرت فحدثت من ذلك أحوال لا تحصى ولا يحاط بها ولا بطرائقها ولا بعواقبها، فكثيرا ما تسفر عن خلاف ما أعد له المخلوق في أصل الفطرة فلذلك حاطها الله بالشرائع، أي فحصل تناقض بين الأمر التكويني والأمر التشريعي.

ومعنى العبادة في اللغة العربية قبل حدوث المصطلحات الشرعية دقيق الدلالة، وكلمات أيمة اللغة فيه خفيه والذي يستخلص منها أنها إظهار الخضوع للمعبود واعتقاد أنه يملك نفع العابد وضر ملكا ذاتيا مستمرا، فالمعبود إله للعابد كما حكى الله قول فرعون: {وقومهما لنا عابدون} [المؤمنون: ٤٧].

فالحصر المستفاد من قوله :{وما خلقت الجن والأنس إلا ليعبدون} قصر علة خلق الله الإنس والجن على إرادته أن يعبدوه، والظاهر أنه قصر إضافي وأنه من قبيل قصر الموصوف على الصفة، وأنه قصر قلب باعتبار مفعول {يعبدون} أي إلا ليعبدوني وحدي، أي لا ليشركوا غيري في العبادة، فهو رد للإشراك، وليس هو قصرا حقيقيا فإنا وإن لم نطلع على مقادير حكم الله تعالى من خلق الخلائق، لكنا نعلم أن الحكمة من خلقهم ليست مجرد أن يعبدوه، لأن حكم الله تعالى من أفعاله كثيرة لا يحيط بها، وذكر بعضها كما هنا مما يقتضي عدم وجود حكمة أخرى، ألا ترى أن الله ذكر حكما للخلق غير هذه كقوله {ولا يزالون

---

(١) التحرير والتنوير، ٢٦/١٦٧

مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم} هود:[١١٨، ٩١١] بله ما ذكره من حكمة خلق بعض الإنس والجن كقوله في خلق عيسى {ولنجعله آية للناس ورحمة منا} [مريم ٢١].." (١)

"بقوله: {فأوحى إلى عبده ما أوحى} ولعل الحكمة في هذا البعد أن هذه الصفة حكاية لصورة الوحي الذي كان في أوائل عهد النبي صلى الله عليه وسلم بالنبوة فكانت قواه البشرية يومئذ غير معتادة لتمل اتصال القوة الملكية بها مباشرة رفقا بالنبي صلى الله عليه وسلم أن لا يتجشم شيئا يشق عليه، ألا ترى أنه لما اتصل به في غار حراء ولا اتصال وهو الذي عبر عنه في حديثه بالغط قال النبي صلى الله عليه وسلم "فغطني حتى بلغ مني الجهد" ثم كانت تعتريه الحالة الموصوفة في حديث نزول أول الوحي المشار إليها في سورة المدثر وسورة المزمل قال تعالى: {إنا سنلقي عليك قولا ثقيلا} [المزمل:٥]، ثم اعتاد اتصال جبريل به مباشرة فقد جاء في حديث عمر بن الخطاب في سؤال جبريل عن الإيمان والإسلام والإحسان والساعة أنه جلس إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأسند ركبتيه إلى ركبتيه إذ كان النبي صلى الله عليه وسلم أيامئذ بالمدينة وقد اعتاد الوحي وفارقته شدته، ولمراعاة هذه الحكمة كان جبريل يتمثل للنبي صلى الله عليه وسلم في صورة إنسان وقد وصفه عمر في حديث بيان الإيمان والإسلام بقوله إذ دخل علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد الحديث، وأن النبي صلى الله عليه وسلم قال لهم بعد مفارقته "يا عمر أتدري من السائل قال عمر: الله ورسوله أعلم، قال: فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم".

وقوله: {أو أدنى} {أو} فيه للتخيير للتقدير، وهو مستعمل في التقريب، أي إن أراد أحد تقريب هذه المسافة فهو مخير بين أن يجعلها قاب قوسين أو أدنى، أي لا أزيد إشارة إلى أن التقرير لا مبالغة فيه.

وتفريع {فأوحى إلى عبده ما أوحى} على قوله: {فتدلى فكان قاب قوسين} المفرع على المفرع على قوله: {علمه شديد القوى} ، وهذا التفريع هو المقصود من البيان وما قبله تمهيد له، وتمثيل لأحوال عجيبة بأقرب ما يفهمه الناس لقصد بيان إمكان تلقي الوحي عن الله تعالى إذ كان المشركون يحيلونه فبين لهم إمكان الوحي بوصف طريق الوحي إجمالا، وهذه كيفية من صور الوحي.

وضمير {أوحى} عائد إلى الله تعالى المعلوم من قوله: {إن هو إلا وحي يوحى} كما تقدم، والمعنى: فأوحى إلى عبده محمد صلى الله عليه وسلم. وهذا كاف في هذا المقام لأن المقصود إثبات الإيحاء

(١) التحرير والتنوير، ٤٥/٢٧

لإبطال إنكارهم إياه.

وإيثار التعبير عن النبي صلى الله عليه وسلم بعنوان {عبده} إظهار في مقام الإضمار في اختصاص الإضافة إلى ضمير الجلالة من التشريف.." (١)

"أهلكنا أشياعكم} . [البقرة:٥١].

فالباء في {بقدر} للملابسة، والمجرور ظرف مستقر، فهو في حكم المفعول الثاني لفعل {خلقناه} لأنه مقصود بذاته، إذ ليس المقصود الإعلام بأن كل شيء مخلوق لله، فإن ذلك لا يحتاج إلى الإعلام به بله تأكيده بل المقصود إظهار معنى العلم **والحكمة في** الجزاء كما في قوله تعالى في سورة الرعد[٨] {وكل شيء عنده بمقدار} .

ومما يستلزمه معنى القدر أن كل شيء مخلوق هو جار على وفق علم الله وإرادته لأنه خالق أصول الأشياء وجاعل القوى فيها لتنبعث عنها آثارها ومتولداتها، فهو عالم بذلك ومريد لوقوعه. وهذا قد سمي بالقدر في اصطلاح الشريعة كما جاء في حديث جبريل الصحيح في ذكر ما يقع به الإيمان "وتؤمن بالقدر خيره وشره" .

وأخرج مسلم والترمذي عن أبي هريرة جاء مشركو قريش يخاصمون رسول الله صلى الله عليه وسلم في القدر فنزلت {يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مس سقر إنا كل شيء خلقناه بقدر} [القمر:٤٨، ٤٩]. ولم يذكر راوي الحديث معنى القدر الذي خاصم فيه كفار قريش فبقي مجملا ويظهر أنهم خاصموا جدلا ليدفعوا عن أنفسهم التعنيف بعبادة الأصنام كما قالوا : {ولو شاء الرحمن ما عبدناهم} [الزخرف: ٢٠]، أي جدلا للنبي صلى الله عليه وسلم بموجب ما يقوله من أن كل كائن بقدر الله جهلا منهم بمعاني القدر.

قال عياض في الإكمال ظاهره أن المراد بالقدر هنا مراد الله ومشيئته وما سيق به قدره من ذلك، وهو دليل مساق القصة التي نزلت بسببها الآية اه. وقال الباجي في المنتقى: يحتمل من جهة اللغة معاني: أحدها: أن يكون القدر ههنا بمعنى مقدر لا يزاد عليه ولا ينقص كما قال تعالى {جعل الله لكل شيء قدرا} [الطلاق: ٣].

والثاني: أن المراد أنه بقدرته، كما قال {بلى قادرين على أن نسوي بنانه} [القيامة:٤].

---

(١) التحرير والتنوير، ١٠٤/٢٧

والثالث: بقدر، أي نخلقه في وقته، أي نقدر له وقتا نخلقه فيه اه.

قلت: وإذا كان لفظ {قدر} جنسا، ووقع معلقا بفعل متعلق بضمير {كل شيء} الدال على العموم كان ذلك اللفظ عاما للمعاني كلها فكل ما خلقه الله فخلقه بقدر، وسبب النزول لا يخصص العموم، ولا يناكد موقع هذا التذييل، على أن السلف كانوا يطلقون." (١)

"بالخير على فعل الصالحات تشبيها لفعل المتفضل بالجزاء بشكر المنعم عليه على نعمة ولا نعمة على الله فيما يفعله عباده من الصالحات. فإنما نفعها لأنفسهم ولكن الله تفضل بذلك حثا على صلاحهم فرتب لهم الثواب بالنعيم على تزكية أنفسهم، وتلطف لهم فسمي ذلك الثواب شكرا وجعل نفسه شاكرا.

وقد أومأ إلى هذا المقصد إتباع صفة {شكور} بصفة {حليم} تنبيها على أن ذلك من حلمه بعبادة دون حق لهم عليه سبحانه.

وأما وصف ب {عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم} فتتميم للتذكير بعظمة الله تعالى مع مناسبتها للترغيب والترهيب الذين اشتملت عليهما الآيات السابقة كلها لأن العالم بالأفعال ظاهرها وخفيها لا يفيت شيئا من الجزاء عليها بما رتب لها، ولأن العزيز لا يعجزه شيء.

و {الحكيم} : الموصوف بالحكمة لا يدع معاملة الناس بما يقتضيه **الحكمة من** وضع الأشياء مواضعها ونوط الأمور بما يناسب حقائقها.

والحكيم فعيل بمعنى: المحكم، أي المتقن في صنعه ومعاملته وهما معا من صفاته تعالى فهو وصف جامع للمعنيين.." (٢)

"تكذيبهم به جهل بحكمة الله تعالى في خلق الله وتكليفهم إذ **الحكمة من** خلق الناس تقتضي تحسين أعمالهم وحفظ نظامهم. فلذلك جاءتهم الشرائع آمرة بالصلاح وناهية عن الفساد. ورتب لهم الجزاء على أعمالهم الصالحة بالثواب والكرامة، وعلى أعمالهم السيئة بالعذاب والإهانة. كل عل حسب عمله: فلو أهمل الخالق تقويم مخلوقاته وأهمل جزاء الصالحين والمفسدين، ولم يكن ذلك من حكمة الخلق قال تعالى: {أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون، فتعالى الله الملك الحق} [المؤمنون:١١٥-١١٦].

---

(١) التحرير والتنوير، ٢٠٦/٢٧

(٢) التحرير والتنوير، ٢٦١/٢٨

وقد ذكر للمكذبين بيوم الدين ثلاثة أوصاف وهي: معتد، أثيم، يقول إن الآيات أساطير الأولين.

والاعتداء: الظلم، والمعتدي: المشرك والكافر بما جاءه من الشرائع لأنهم اعتدوا على الله بالإشراك، وعلى رسله بالتكذيب، واعتدوا على دلائل الحق فلم ينظروا فيها أو لم يعلموا بها.

والأثيم: مبالغة في الآثم، أي كثير الإثم.

وصيغة القصر من النفي والاستثناء تفيد قصر صفة التكذيب بيوم الدين على المعتدين الآثمين الزاعمين القرآن أساطير الأولين.

فهو قصر صفة على موصوف وهو قصر حقيقي لأن يوم الدين لا يكذب به إلا غير المتدينين المشركون والوثنيون وأضرابهم ممن جمع الأوصاف الثلاثة، وأعظمها التكذيب بالقرآن فإن أهل الكتاب والصابئة لا يكذبون بيوم الدين، وكثير من أهل الشرك لا يكذبون بيوم الدين مثل أصحاب ديانة القبط.

فالذين يكذبون بيوم الدين هم مشركو العرب ومن شابههم مثل الدهريين فإنهم تحققت فيهم الصفتان الأولى والثانية وهي الاعتداء والإثم وهو ظاهر، وأما زعم القرآن أساطير الأولين فهو مقالة المشركين من العرب وهم المقصود ابتداء وأما غيرهم ممن لم يؤثر عنهم هذا القول فهم متهيئون لأن يقولوه، أو يقولوا ما يساويه، أو يؤول إليه، لأن من لم يعرض عليه القرآن منهم لو عرض عليه القرآن لكذب به تكذيبا يساوي اعتقاد أنه من وضع البشر، فهؤلاء وإن لم يقولوا القرآن أساطير الأولين فظنهم في القرآن يساوي ظن المشركين فنزلوا منزلة من يقوله.

ولك أن تجعل القصر ادعائيا ولا تلتفت إلى تنزيل من لم يقل ذلك في القرآن.." (١)

"الحكمة من إنزاله بهم وهو استعارة تمثيلية، شبهت هيئة إمهالهم وتركهم مع تقدير إنزال العقاب بهم بهيئة الكائد يخفي إنزال ضره ويظهر أنه لا يريده وحسنها محسن المشاكلة.

[١٧] {فمهل الكافرين أمهلهم رويدا} .

الفاء لتفريع الأمر بالإمهال على مجموع الكلام السابق من قوله: {إنه لقول فصل} [الطارق: ١٣]، بما فيه من صريح وتعريض وتبيين ووعد بالنصر، أي فلا تستعجل لهم بطلب إنزال العقاب فإنه واقع به لا محالة.

والتمهيل: مصدر مهل بمعنى أمهل، وهو الإنظار إلى وقت معين أو غير معين، فالجمع بين "مهل" و

(١) التحرير والتنوير، ١٧٥/٣٠

{أمهلهم} تكرير للتأكيد لقصد زيادة التسكين، وخولف بين الفعلين في التعدية مرة بالتضعيف وأخرى بالهمز لتحسين التكرير.

والمراد ب {الكافرين} ما عاد عليه ضمير {إنهم يكيدون كيدا} [الطارق: ١٥]، فهو إظهار في مقام الإظمار للنداء عليهم بمذمة الكفر، فليس المراد جميع الكافرين بل أريد الكافرون المعهودون.

و {رويدا} تصغير رود بضم الراء بعدها واو، ولعله اسم مصدر، وأما قياس مصدره فهو رود بفتح الراء وسكون الواو، وهو المهل وعدم العجلة وهو مصدر مؤكد لفعل {أمهلهم} فقد أكد قوله: {فمهل الكافرين} مرتين.

والمعنى: انتظر ما سيحل بهم ولا تستعجل لهم انتظار تربص واتياد فيكون {رويدا} كناية عن تحقق ما يحل بهم من العقاب لأن المطمئن لحصول شيء لا يستعجل به.

وتصغيره للدلالة على التقليل، أي مهلة غير طويلة.

ويجوز أن يكون {رويدا} هنا اسم فعل للأمر، كما في قولهم: رويدك، لأن اقترانه بكاف الخطاب إذا أريد به اسم الفعل ليس شرطا، ويكون الوقف على قوله: {الكافرين} و {رويدا} كلاما مستقلا، فليس وجود فعل من معناه قبله بدليل على أنه مراد به المصدر، أي تصبر ولا تستعجل نزول العذاب بهم فيكون كناية عن الوعد بأنه واقع لا محالة.." (١)

"وهذا يفيد تشويه إنكار البعث بما ينشأ عن إنكاره من المذام ومن مخالفة للحق ومنافيا لما تقتضيه الحكمة من التكليف، وفي ذلك كناية عن تحذير المسلمين من الاقتراب من إحدى هاتين الصفتين بأنهما من صفات الذين لا يؤمنون بالجزاء.

وجيء في {يكذب} ، {يدع} ، {ويحض} بصيغة المضارع لإفادة تكرر ذلك منه ودوامه.

وهذا إيذان بأن الإيمان بالبعث والجزاء هو الوازع الحق الذي يغرس في النفس جذور الإقبال على الأعمال الصالحة التي يصير ذلك لها خلقا إذا شبت عليه، فزكت وانساقت إلى الخير بدون كلفة ولا احتاج إلى أمر ولا إلى مخافة ممن يقيم عليه العقوبات حتى إذا اختلى بنفسه وأمن الرقباء جاء بالفحشاء والأعمال النكراء.

والرؤية بصرية يتعدى فعلها إلى مفعول واحد، فإن المكذبين بالدين معروفون وأعمالهم مشهورة، فنزلت شهرتهم بذلك منزلة الأمر المبصر المشاهد.

---

(١) التحرير والتنوير، ٢٣٩/٣٠

وقرأ نافع بتسهيل الهمزة التي بعد الراء من أرأيت ألفا. وروى المصريون عن ورش عن نافع إبدالها ألفا وهو الذي قرأنا به في تونس، وهكذا في فعل "رأى" كلما وقع بعد الهمزة استفهام وذلك فرار من تحقيق الهمزتين، قرأ الجمهور بتحقيقها.

وقرأه الكسائي بإسقاط الهمزة التي بعد الراء في كل فعل من هذا القبيل. واسم الموصول وصلته مراد بهما جنس اتصف بذلك. وأكثر المفسرين درجوا على ذلك.

وقيل: نزلت في العاص بن وائل السهمي، وقيل في الوليد بن المغيرة المخزومي، وقيل في عمر بن عائذ المخزومي، وقيل في أبي سفيان بن حرب قبل إسلامه بسبب أنه كان ينحر كل أسبوع جزورا فجاءه مرة يتيم فسأله من لحمها فقرعه بعصا. وقيل في أبي جهل: كان وصيا على يتيم فأتاه عريانا يسأله من مال نفسه فدفعه دفعا شنيعا.

والذين جعلوا السورة مدنية قالوا: نزلت في منافق لم يسموه، وهذه أقوال معزو بعضها إلى بعض التابعين ولو تعينت لشخص معين لم يكن سبب نزولها مخصصا حكمها بما نزلت بسببه.

ومعنى {يدع} يدفع بعنف وقهر، قال تعالى: {يوم يدعون إلى نار جهنم دعا} [الطور:١٣].." (١)

"حاجة أجاره من الشيطان وإن لم يكن لله فيه حاجة خلى بينه وبين الشيطان.

آية ٢٦٩.

أخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم والنحاس في ناسخه عن ابن عباس في قوله {يؤتي الحكمة من يشاء} قال : المعرفة بالقرآن ناسخه ومنسوخه ومحكمه ومتشابهه ومقدمه ومؤخره وحلاله وحرامه وأمثاله.

وأخرج ابن مردويه من طريق جويبر عن الضحاك عن ابن عباس مرفوعا {يؤت الحكمة} قال : القرآن يعني تفسيره ، قال ابن عباس : فإنه قد قرأه البر والفاجر.

وأخرج ابن الضريس عن ابن عباس {يؤت الحكمة} قال : القرآن.

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس {يؤتي الحكمة من يشاء} قال : النبوة.

وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير عن مجاهد {يؤتي." (٢)

---

(١) التحرير والتنوير، ٣٠/٤٩٦

(٢) الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي، ٣/٢٨٨

"الحكمة من يشاء} قال : ليست بالنبوة ولكنه القرآن والعلم والفقه.
وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر عن ابن عباس {يؤت الحكمة} قال : الفقه في القرآن.
وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي الدرداء {يؤت الحكمة} قال : قراءة القرآن والفكرة فيه.
وأخرج ابن جرير عن أبي العالية {يؤت الحكمة} قال : الكتاب والفهم به.
وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير عن مجاهد {يؤتي الحكمة} قال : الكتاب يؤتي إصابته من يشاء.
وأخرج ابن جرير عن إبراهيم {يؤتي الحكمة} قال : الفهم.
وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد {يؤتي الحكمة} قال : الإصابة في القول.
وأخرج عبد بن حميد عن قتادة {يؤت الحكمة} قال : الفقه في القرآن." (١)
"نثر الدقل.
وأخرج الترمذي عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الكلمة ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو أحق بها.
وأخرج أحمد في الزهد عن مكحول قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من أخلص لله أربعين يوما تفجرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه.
وأخرج أبو نعيم في الحلية موصولا من طريق مكحول عن أبي أيوب الأنصاري مرفوعا.
وأخرج الطبراني عن أبي أمامة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن لقمان قال لإبنه : يا بني عليك بمجالسة العلماء واسمع كلام الحكماء فان الله يحيي القلب الميت بنور الحكمة كما تحيا الأرض الميتة بوابل المطر.
وأخرج البخاري ومسلم والنسائي ، وابن ماجه عن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته في الحق ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها." (٢)
"وأخرج ابن عساكر عن عمرو بن قيس الملائي قال : قال عيسى بن مريم : إن منعت الحكمة أهلها جهلت وان منحتها غير أهلها جهلت ، كن كالطبيب المداوي ان رأى موضعا للدواء والا أمسك.

---

(١) الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي، ٢٨٩/٣
(٢) الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي، ٢٩٦/٣

وأخرج عبد الله بن أحمد في الزهد ، وابن عساكر عن عكرمة قال : قال عيسى ابن مريم للحواريين : يا معشر الحواريين لا تطرحوا اللؤلؤ إلى الخنزير فإن الخنزير لا يصنع باللؤلؤة شيئا ولا تعطوا الحكمة من لا يريدها فإن الحكمة خير من اللؤلؤ ومن لا يريدها شر من الخنزير.

وأخرج ابن عساكر عن وهب بن منبه قال : قال عيسى : يا علماء السوء جلستم على أبواب الجنة ، فلا أنتم تدخلونها ولا تدعون المساكين يدخلونها ، إن شر الناس عند الله عالم يطلب الدنيا بعلمه.

وأخرج ابن أبي شيبة عن سالم بن أبي الجعد قال : قال عيسى بن مريم عليه السلام : إن مثل حديث النفس بالخطيئة كمثل الدخان في البيت لا يحرقه فإنه ينتن ريحه ويغير لونه." (١)

"وأخرج ابن أبي شيبة في زوائد "الزهد" وأبو الشيخ بن حيان عن مكحول قال : بلغني أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ما أخلص عبدالله أربعين صباحا إلا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه ".

وأخرج أحمد والبيهقي عن أبي ذر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : قد أفلح من أخلص قلبه للإيمان وجعل قلبه سليما ولسانه صادقا ونفسه مطمئنة وخليقته مستقيمة وأذنه مستمعة وعينه ناظرة فأما الأذن فقمع والعين مقرة لما يوعى القلب وقد أفلح من جعل قلبه واعيا .

وأخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول عن زيد بن أرقم قال : قال رسول الله وما إخلاصها قال : أن تحجزه عن المحارم ".

وأخرج ابن أبي شيبة أحمد في الزهد " والحكيم الترمذي ، وابن أبي حاتم عن أبي ثمامة قال : قال الحواريون لعيسى عليه السلام : يا روح الله من." (٢)

"وأخرج ابن أبي شيبة والمروزي في زوائد الزهد وأبو الشيخ بن حبان عن مكحول قال : بلغني أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ما أخلص عبد لله أربعين صباحا إلا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه.

وأخرج أحمد والبيهقي عن أبي ذر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : قد أفلح من أخلص قلبه للإيمان وجعل قلبه سليما ولسانه صادقا ونفسه مطمئنة وخليقته مستقيمة وأذنه مستمعة وعينه ناظرة فأما الأذن فقمع والعين مقرة لما يوعى القلب وقد أفلح من جعل قلبه واعيا.

---

(١) الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي، ٥٧٧/٣

(٢) الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي، ٨٩/٥

وأخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول عن زيد بن أرقم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من قال لا إله إلا الله مخلصا دخل الجنة قيل : يا رسول الله وما إخلاصها قال : أن تحجزه عن المحارم.

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد في الزهد والحكيم الترمذي ، وابن أبي حاتم عن أبي ثمامة قال : قال الحواريون لعيس عليه السلام : يا روح الله من." (١)

"وأخرج الديلمي عن أبي هريرة رفعه لما خرج أخي موسى إلى مناجاة ربه كلمه ألف كلمة ومائتي كلمة فأول ما كلمه بالبربرية أن قال : يا موسى ونفسي معبرا : أي أنا الله الأكبر ٠ قال موسى : يا رب أعطيت الدنيا لأعدائك ومنعتها أولياءك فما **الحكمة في** ذلك فأوحى الله إليه : أعطيتها أعدائي ليتمرغوا ومنعتها أوليائي ليتضرعوا.

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عجلان قال : كلم موسى بالألسنة كله وكان فيما كلمه لسان البربر فقال كلمته بالبربرية : أنا الله الكبير.

وأخرج سعيد بن منصور ، وابن المنذر والحاكم ، وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم قال يوم كلم الله موسى كان عليه جبة صوف وكساء صوف وسراويل صوف وكمه صوف ونعلان من جلد حمار غير ذكي.

وأخرج أبو الشيخ عن عبد الرحمن بن معاوية قال : لما كلم موسى ربه عز وجل." (٢)

"قال : أين باب الذرية منك قال : الصلب قال : أين باب العلم والفهم **والحكمة منك** قال : القلب ، إذا صلح القلب صلح ذلك كله وإذا فسد القلب فسد ذلك كله.

وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير عن قتادة رضي الله عنه {ووهبنا لداود سليمان نعم العبد إنه أواب} قال : كان مطيعا لله كثير الصلاة {إذ عرض عليه بالعشي الصافنات الجياد}

قال : يعني الخيل وصفونها قيامها وبسطها قوائمها {فقال إني أحببت حب الخير} أي المال {عن ذكر ربي} عن صلاة العصر {حتى توارت بالحجاب}.

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي هريرة رضي الله عنه {الصافنات الجياد} قال : الخيل خيل خلقت على ما شاء.

---

(١) الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي، ٩٣/٥

(٢) الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي، ٥٤٣/٦

وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر عن مجاهد رضي الله عنه في قوله {الصافنات} قال : صفون الفرس : رفع إحدى يديه حتى يكون على أطراف الحافر ، وفي قوله الجياد قال : السراع.
(١) ".

" صفحة رقم ٣٤٢

أحدها : أنه مثل للمرائي في النفقة ينقطع عنه نفعها أحوج ما يكون إليها ، قاله السدي .

والثاني : هو مثل للمفرط في طاعة الله لملاذ الدنيا يحصل في الآخرة على الحسرة العظمى ، قاله مجاهد .

والثالث : هو مثل للذي يختم عمله بفساد ، وهو قول ابن عباس .

(البقرة : (٢٦٧ - ٢٦٩) يا أيها الذين . . . . .

" يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه واعلموا أن الله غني حميد الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا والله واسع عليم يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر إلا أولوا الألباب " (قوله تعالى :) يأيها الذين ءامنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم (فيه أربعة أقاويل :

أحدها : يعني به الذهب والفضة ، وهو قول علي عليه السلام .

والثاني : يعني التجارة ، قاله مجاهد .

والثالث : الحلال .

والرابع : الجيد .

) ومما أخرجنا لكم من الأرض (من الزرع والثمار .

وفي الكسب وجهان محتملان :

أحدهما : ما حدث من المال المستفاد .

والثاني : ما استقر عليه الملك من قديم وحادث .

(١) الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي، ١٢/٥٦٧

واختلفوا في هذه النفقة على قولين :

أحدهما : هي الزكاة المفروضة قاله عبيدة السلماني .." (١)

" صفحة رقم ٣٤٤

والثاني : مضاعفة العذاب .

) والله واسع عليم (روي أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال : (إن للشيطان لمة من ابن آدم ، وللملك لمة ، فأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق ، وأما لمة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق ، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله وليحمد الله ، ومن وجد الأخر فليتعوذ بالله) . ثم تلا هذه الآية . قوله تعالى :) يؤتي **الحكمة من** يشاء (في الحكمة سبعة تأويلات :

أحدها : الفقه في القرآن ، قاله ابن عباس .

والثاني : العلم بالدين ، قاله ابن زيد .

والثالث : النبوة .

والرابع : الخشية ، قاله الربيع .

والخامس : الإصابة ، قاله ابن أبي نجيح عن مجاهد .

والسادس : الكتابة ، قاله مجاهد .." (٢)

" صفحة رقم ٤٣٤

والثاني : معناه وما كان لنبي أن يغل أصحابه ويخونهم ، وهذا قول الحسن ، وقتادة . وأصل الغلول الغلل وهو دخول الماء في خلال الشجر ، فسميت الخيانة غلولا لأنها تجري في المال على خفاء كجري الماء ، ومنه الغل الحقد لأنه العداوة تجري في النفس مجرى الغلل .

) لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم (وفي وجه المنة بذلك ثلاثة أقاويل :

أحدها : ليكون ذلك شرفا لهم .

والثاني : ليسهل عليهم تعلم **الحكمة منه** لأنه بلسانهم .

والثالث : ليظهر لهم علم أحواله من الصدق والأمانة والعفة والطهارة .

---

(١) النكت والعيون ، ٣٤٢/١

(٢) النكت والعيون ، ٣٤٤/١

) يتلو عليهم ءآياته ويزكيهم (فيه ثلاث تأويلات :
أحدها : أنه يشهد لهم بأنهم أزكياء في الدين .
والثاني : أن يدعوهم إلى ما يكونون به أزكياء .
والثالث : أنه يأخذ منهم الزكاة التي يطهرهم بها ، وهو قول الفراء .
(آل عمران : (١٦٥ - ١٦٨) أو لما أصابتكم . . . . .
" أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم إن الله على كل شيء قدير وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله وليعلم المؤمنين وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا قالوا لو نعلم قتالا لاتبعناكم هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم والله أعلم بما يكتمون الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا قل فادرؤوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين " ( ) أو لمآ أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها (يعني بالمصيبة التي أصابتهم يوم أحد ، وبالتي أصابوها يوم بدر .." (١)
" صفحة رقم ٢١
أحدها : ببلوغ الحلم ، قاله الشعبي وربيعة وزيد بن أسلم .
الثاني : ثماني عشرة سنة ، قاله سعيد بن جبير .
الثالث : عشرون سنة ، قاله ابن عباس والضحاك .
الرابع : خمس وعشرون سنة ، قاله عكرمة .
الخامس : ثلاثون سنة ، قاله السدي .
السادس : ثلاث وثلاثون سنة . قاله الحسن ومجاهد وقتادة .
هذا أول الأشد ، وفي آخر الأشد قولان :
أحدهما : أنه أربعون سنة ، قاله الحسن . الثاني : أنه ستون سنة ، حكاه ابن جرير الطبري ، وقال سحيم بن وثيل الرياحي :
أخو خمسين مجتمع أشدي
وتجذني مداورة الشئون

---

(١) النكت والعيون ، ١/٤٣٤

وفي المراد ببلوغ الأشد في يوسف قولان :

أحدهما : عشرون سنة ، قاله الضحاك .

الثاني : ثلاثون سنة ، وهو قول مجاهد .

) آتيناه حكما وعلما (في هذا الحكم الذي آتاه خمسة أوجه :

أحدها : العقل ، قاله مجاهد .

الثاني : الحكم على الناس .

الثالث : **الحكمة في** أفعاله .

الرابع : القرآن ، قالہ سفيان .

الخامس : النبوة ، قاله السدي . وفي هذا العلم الذي آتاه وجهان :

أحدهما : الفقه ، قاله مجاهد .

الثاني : النبوة ، قاله ابن أبي نجيح .

ويحتمل وجها ثالثا : أنه العلم بتأويل الرؤيا .." (١)

" صفحة رقم ١٣٩

) وكان ربك بصيرا (قال ابن جريج : بصيرا بما يصبر ممن يجزع .

ويحتمل وجها آخر : بصيرا **بالحكمة فيما** جعل بعضكم لبعض فتنة .

(الفرقان : (٢١ - ٢٤) وقال الذين لا . . . . .

" وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ويقولون حجرا محجورا وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا " (قوله تعالى :) وقال الذين لا يرجون لقآءنا (فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : لا يخافون ولا يخشون ، قاله السدي ، ومنه قول الشاعر :

إذا لسعته النحل لم يرج لسعها

وخالفها في بيت نوب عوامل

---

(١) النكت والعيون ، ٣/٢١

أي لم يخش .

الثاني : لا يبالون ، قاله ابن عمير ، وأنشد لخبيب .

لعمرك ما أرجوا إذا كنت مسلما

على أي حال كان في الله مصرعي

أي ما أبالي .

الثالث : لا يأملون ، حكاه ابن شجرة وأنشد قول الشاعر :

أترجو أمة قتلت حسينا

شفاعة جده يوم الحساب

) لولا أنزل علينا الملائكة (فيه قولان :

أحدهما : ليخبرونا أن محمدا نبي قاله يحيى بن سلام .." (١)

" صفحة رقم ١٧٠

وأوحى في كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم " (قوله عز وجل :) قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين (قال ابن عباس خلقها في يومي الأحد والاثنين ، وخلقها في يومين أدل على القدرة والحكمة من خلقها دفعة واحدة في طرفة عين ، لأنه أبعد من أن يظن به الاتفاق والطبع ، وليرشد خلقه إلى الأناة في أمورهم .

) وتجعلون له أندادا (فيه أربعة أوجه

: أحدها : أشباها ، قاله ابن عباس .

الثاني : شركاء ، قاله أبو العالية .

الثالث : كفوا من الرجال تطيعونهم في معاصي الله تعالى قاله السدي .

الرابع : هو قول الرجل لولا كلبة فلان لأتي اللصوص ، ولولا فلان لكان كذا ، رواه عكرمة عن ابن عباس .

قوله عز وجل :) وجعل فيها رواسي من فوقها (اي جبالا ، وفي تسميتها رواسي وجهان :

أحدهما : لعلو رءوسها .

الثاني : لأن الأرض بها راسية أو لأنها على الأرض ثابتة راسية .

---

(١) النكت والعيون ، ١٣٩/٤

) وبارك فيها (فيه وجهان :

أحدهما : أي أنبت شجرها من غير غرس وأخرج زرعها من غيره بذر ، قال السدي .

الثاني : أودعها منافع أهلها وهو معنى قول ابن جريج .

) وقدر فيه أقواتها (فيه أربعة تأويلات :

أحدها : قدر أرزاق أهلها ، قاله الحسن .

الثاني : قدر فيها مصالحها من جبهالها وبحارها وأنهارها وشجرها ودوابها قاله قتادة .." (١)

"إما إتباع الجميع ، أو قطع الجميع ، أو قطع البعض ، وإتباع البعض.

إلا أنك إذا أتبعت البعض ، وقطعت البعض وجب أن تبدأ بالإتباع ، ثم تأتي بالقطع من غير عكس ، نحو : " مررت بزيد الفاضل الكريم " ؛ لئلا يلزم الفصل بين الصفة والموصوف بالجملة المقطوعة.

و " العالمين " خفض بالإضافة ، علامة خفضه الياء ؛ لجريانه مجرى جمع المذكر السالم ، وهم اسم جمع ؛ لأن واحده من غير لفظه ، ولا يجوز أن يكون جمعا لـ " عالم " مرادا به العاقل دون غيره ، فيزول المحذور المذكور ؟ وأجيب عنه : بأنه لو جاز ذلك ، لجاز أن يقال : " شيئون " جمع " شيء " مرادا به العاقل دون غيره ، فدل عدم جوازه على عدم ادعاء ذلك.

وفي الجواب نظر ، إذ لقائل أن يقول : شيئون " منع منه مانع آخر ، وهو كونه ليس صفة ولا علما ، فلا يلزم من منع ذلك منع " عالمين " مرادا به العاقل.

ويؤيد هذا ما نقل الراغب عن ابن عباس - رضى الله تعالى عنهما - أن " عالمين " إنما جمع هذا الجمع ؛ لأن المراد به الملائكة والجن والإنس.

وقال الراغب أيضا : " إن العالم في الأصل اسم لما يعلم به كالطابع اسم لما يطبع " وجعل بناؤه على هذه الصيغة ، لكونه كالآلة ، فالعالم آلة في الدلالة على صانعه.

وقال الراغب أيضا : " إن العالم في الأصل لما يعلم به كالطابع اسم لما يطبع " وجعل بناؤه على هذه الصيغة ، لكونه كالآلة ، فالعالم آلة في الدلالة على صانعه.

وقال الراغب : أيضا : " وأما جمعه جمع السلامة ، فلكون الناس في جملتهم ، والإنسان إذا شارك غيره في اللفظ غلب حكم " ، فظاهر هذا أن " العالمين " يطلق على العقلاء وغيره ، وهو مخالف لما تقدم من

---

(١) النكت والعيون . ، ١٧٠/٥

اختصاصه بالعقلاء ، كما زعم بعضهم ، وكلام الراغب هو الأصح الظاهر.

١١٨

فصل في وجوه تربية الله لعبده قال ابن الخطيب – رحمه الله تعالى – : " وجوه تربية الله للعبد كثيرة غير متناهية ، ونحن نذكر منها أمثله : الأول : لما وقعت النطفة من صلب الأب إلى رحم الأم ، فرباها حتى صارت علقة أولا ، ثم مضغة ثانية ، ثم تولدت منه أعضاء مختلفة ، مثل العظام ، والغضاريف ، والرباطات ، والأوتار ، والأوردة ، والشرايين ، ثم اتصل البعض بالبعض ، ثم حصل في كل واحد منها نوع خاص من أنواع القوى ، فحصلت القوة الباصرة في العين ، والسامعة في الأذن ، والناطقة في اللسان ، فسبحان من بصر بشحم ، وأسمع بعظم ، وأنطق بلحم "!.

والثاني : أن الحبة الواحدة إذا وقعت في الأرض ، فإذا وصلت نداوة الأرض إليها ، انتفخت ولا تنشق من شيء من الجوانب إلا من أعلاها وأسفلها ، مع أن الانتفاخ حاصل من جميع الجوانب.

أما الشق الأعلى ، فيخرج منه الجزء الصاعد ، فبعد صعوده يحصل له ساق ، ثم ينفصل من ذلك الساق أغصان كثيرة ، ثم يظهر على تلك الأغصان الأنوار أولا ، ثم الثمار ثانيا ، ويحصل لتلك الثمار أجزاء مختلفة بالكثافة ، واللطافة ، وهي القشور ، واللبوب ، ثم الأدهان.

وأما الجزء الغائص من الشجرة ، فإن تلك العروق تنتهي إلى أطرافها ، وتلك الأطراف تكون في اللطافة كأنها مياع منعقدة ، ومع غاية لطفها ، فإنها تغوص في الأرض الصلبة اليابسة ، وأودع فيها قوى جاذبة تجذب اللطيفة من الطين إلى نفسها ، والحكمة في كل هذه التدبيرات تحصيل ما يحتاج العبد إليه من الغذاء ، والإدام ، والفواكه ، والأشربة ، والأدوية ؛ كما قال تعالى : {أنا صببنا المآء صبا ثم شققنا الأرض شقا} [عبس : ٢٥ ، ٢٦].

فصل اختلفوا في {العالمين}.

قال ابن عباس رضي الله عنهما : " هم الجن والإنس ؛ لأنهم المكلفون بالخطاب " ؛ قال الله تعالى : {ليكون للعالمين نذيرا} [الفرقان : ١].

١٨٢." (١)

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/٨

"وقيل : هو الميل ؛ ومنه قوله تعالى : {إنا هدنآ إليك} [الأعراف : ١٥٦] والمعنى : بقلوبنا إليك ، وهذا غلط ؛ فإن تيك مادة أخرى من " هاد - يهود ".

وقال الراغب : الهداية : دلالة بلطف ، ومنه الهدية ، وخص ما كان دلالة ب ، " هديت " وما كان إعطاء بـ " أهديت ".

و " الصراط " : الطريق المستسهل ، وبعضهم لا يقيده بالمستسهل ؛ قال [الرجز]

٧١ - فضل عن نهج الطريق الواضح

ومثله : [الوافر] ٧٢ - أمير المؤمنين على صراط

إذا اعوج الموارد مستقيم

وقال آخر : [الوافر] ٧٣ - شحنا أرضهم بالخيل حتى

تركناهم أذل من الصراط

أي : الطريق.

وهو مشتق من " السرط " وهو : الابتلاع ؛ إما لأن سالكه يسترطه ، أو لأنه يسترط سالكه ؛ ألا ترى إلى قولهم : قتل أرضا عالمها ، وقتلت أرض جاهلها ؛ وبهذين الاعتبارين قال أبو تمام : [الطويل] ٧٤ - رعته الفيافي بعد ما كان حقبة

رعاها وماء المزن ينهل ساكبه

وعلى هذا سمي الطرىق لقما وملتقما ؛ لأنه يلتقم سالكه ، أو يلتقمه سالكه.

٢٠٥

وأصله : السين : وقد قرأ به قنبل رحمه الله تعالى حيث ورد ، وإنما أبدلت صادا ؛ لأجل حرف الاستعلاء وإبدالها صادا مطرد عنده ؛ نحو : " صقر " في " سقر " ، و " صلخ " في " سلخ " ، و " أصبغ " في " أسبغ " ، و " مصيطر " في " مسيطر " لما بينهما من التقارب.

وقد تشم الصاد في " الصراط " ونحوه زايا ، وقرأ به خلف ، وحمزة حيث ورد ، وخلاد : الأول فقط ، وقد تقرأ زايا محضة ، ولم ترسم في المصحف إلا بالصاد ، مع اختلاف في قراءتهم فيها كما تقدم.

و " الصراط " يذكر ويؤنث : فالتذكير لغة تميم ، والتأنيث لغة " الحجاز " ، فإن استعمل مذكرا ، جمع على " أفعلة " في القلة ، وعلى " فعل " في الكثرة ، نحو : " حمار " ، و " أحمرة " و " حمر " ، وإن

استعمل مؤنثا ، فقياسه أن يجمع على " افعل " : نحو : " ذراع " و " أذرع ".

و " المستقيم " اسم فاعل من استقام ، بمعنى المجرد ، ومعناه : السوي من غير

٢٠٦

اعوجاج ، واصله : " مستقوم " ثم أعل كإعلال " نستعين " وسيأتي الكلام [مستوفى] على مادته إن شاء الله - تعالى - عند قوله تعالى {ويقيمون الصلاة} [البقرة : ٣].

و " الصراط المستقيم " قال ابن عباس ، وجابر - رضي الله عنهما - : هو الإسلام ، وهو قول مقاتل ، وقال ابن مسعود رضي الله تعالى عنهما : هو القرآن الكريم ، وروي عن علي - رضي الله تعالى عنه - مرفوعا : الصراط المستقيم : كتاب الله تعالى.

وقال سعيد بن جبير رضي الله عنه " طريق الجنة ".

وقال سهل بن عبد الله رحمه الله تعالى : هو طريق السنة والجماعة.

وقال بكر بن عبد الله المزني : هو طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم.

٢٠٧

وقال أبو العالية ، والحسن : رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحباه.

قال ابن الخطيب : الحكمة في قوله : " اهدنا " ولم يقل " اهدني " ؛ إما : لأن الدعاء مهما كان أعم ، كان إلى الإجابة أقرب.

وإما لقول النبي عليه الصلاة والسلام " ادعوا الله تعالى بألسنة ما عصيتموه بها " قالوا : يا رسول الله ، فمن لنا بتلك الألسنة ؟ قال : " يدعو بعضكم لبعض ؛ لأنك ما عصيت بلسانه ، وهو ما عصى بلسانك ".

الثالث : كان العبد يقول : سمعت رسولك يقول : " الجماعة رحمة " ، فلما أردت حمدك ، قلت : الحمد لله ، ولما ذكرت العبادة ، ذكر عبادة الجميع ، ولما ذكرت الاستعانة ، ذكرت استعانة الجميع ، فلا جرم لما طلبت الهداية ، طلبتها للجميع ، ولما طلبت الاقتداء بالصالحين ، طلبت اقتداء الجميع ؛ فقلت : " غير المغضوب عليهم ولا الضالين " ، فلما لم أفارق النبياء والصالحين في الدنيا ، فأرجو ألا أفارقهم في الآخرة ؛ كما قال تعالى : {فأولائك مع الذين أنعم الله عليهم} [النساء : ٦٩] الآية الكريمة.

جزء : ١ رقم الصفحة : ٢٠٣." (١)

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/١٧

"ولأن القول بأن هذه الفواتح غير معلومة مروي عن أكابر الصحابة رضي الله عنهم فوجب أن يكون حقا ، لقوله عليه الصلاة والسلام : " أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم ".

وأما المعقول فهو أن الأفعال التي كلفنا الله تعالى بها قسمان : منها ما يعرف وجه الحكمة فيه على الجملة بعقولنا كأفعال الحج في رمي الجمرات ، والسعي بين الصفا والمروة ، والرمل ، والاضطباع.

ثم اتفق المحققون على أنه كما يحسن من الله – تعالى – أن يأمر عباده بالنوع الأول ، فكذا يحسن الأمر بالنوع الثاني ؛ لأن الطاعة في النوع الأول ، تدل على كمال الانقياد والتسليم ، لاحتمال أن المأمور إنما أتى به لما عرف بعقله من وجه المصلحة فيه.

أما الطاعة في النوع الثاني ، فإنها تدل على كمال الانقياد والتسليم ، فإذا كان الأمر كذلك في الأفعال ، فلم لا يجوز أيضا أن يكون [الأمر] كذلك في الأقوال ؟ وهو أن يأمر الله – تعالى – تارة أن نتكلم بما نقف على معناه ، وتارة بما لا نقف على معناه ، ويكون المقصود من ذلك ظهور الانقياد والتسليم.

القول الثاني : قول من زعم أن هذه الفواتح معلومة ، واختلفوا فيه ، وذكروا وجوها : الأول : أنها أسماء السور ، وهو قول أكثر المتكلمين ، واختيار الخليل وسيبويه رحمهما الله تعالى.

قال القفال – رحمه الله تعالى – وقد سمت العرب هذه الحروف أشياء فسموا بـ " لام " : والد حارثة بن لام الطائي ، وكقولهم للنخاس : " صاد " ، وللنقد : " عين " ، وللسحاب : " غين ".

وقالوا : جبل " قاف " ، وسموا الحوت : " نونا ".

الثاني : أنها أسماء الله تعالى ، روي عن علي – رضي الله تعالى عنه – أنه كان يقول : يا حم عسق.

الثالث : أنها أبعاض أسماء الله تعالى.

٢٥٦

قال سعيد بن جبير رحمه الله : قوله : " الر ، حم ، ونون " مجموعها هو اسم الرحمن ، ولكنا لا نقدر على كيفية تركيبها في البواقي.

الرابع : أنها أسماء القرآن ، وهو قول الكلبي – رحمه الله تعالى – والسدي وقتادة رضي الله تعالى عنهم.

الخامس : أن كل واحد كمنها دال على اسم من أسماء الله – تعالى – وصفة من صفاته.

قال ابن عباس – رضي الله تعالى عنهما – في " الم " : " الألف إشارة إلى أنه [أحد ، أول ، آخر ، أزلي ، " واللام " إشارة إلى أنه لطيف ، " والميم " إشارة إلى أنه] ملك مجيد منان ".

وقال في "كهيعص " : إنه ثناء من الله – تعالى – على نفسه ، " والكاف " يدل على كونه كافيا ، " والهاء " على كونه هاديا ، " والعين " على العالم ، " والصاد " على الصادق.

وذكر ابن ابن جرير عن ابن عباس – رضي الله تعالى عنهما – أنه حمل " الكاف " على الكبير والكريم ، " والياء " على أن الله يجير ، " والعين " على أن الله العزيز والعدل.

والفرق بين هذين الوجهين أنه في الأول خصص على كل واحد من هذه الحروف باسم معين ، وفي الثاني ليس كذلك.

السادس : بعضها يدل على أسماء الذات ، وبعضها على أسماء الصفات.

قال ابن عباس – رضي الله عنهما – في " الم " أنا الله أعلم ، وفي " المص " أنا الله أفصل ، وفي " الر " أنا الله أرى ، وهذه رواية أبي صالح ، وسعيد بن جبير عنه.

قال الزجاج : " وهذا أحسن ، فإن العرب تذكر حرفا من كلمة تريدها كقولهم : [مشور السريع] ٩٨ – قلنا لها : قفي لنا قالت : قاف

....

جزء : ١ رقم الصفحة : ٢٥١

٢٥٧

وأنشد سيبويه لغيلان : [الرجز] ٩٩ – نادوهم أن الجموا ، ألا تا

قالوا جمعا كلهم ألا فا

أي : لا تركبوا ، قالوا : بلى فاركبوا.

وأنشد قطرب : [الرجز] ١٠٠ – جارية قد وعدتني أن تا

تدهن رأسي وتفليني وتا." (١)

"فصل في ماهية الملائكة اختلفوا في ماهية الملائكة ، وحقيقتهم ، والضابط فيه أن يقال : إن الملائكة ذوات قائمة بنفسها ، وهي إما متحيزة ، أو ليست بمتحيزة ، فإن كانت متحيزة فهاهنا أقوال : أحدها : أنها أجسام لطيفة هوائية تقدر على التشكل بأشكال مختلفة مسكنها السموات ، وهذا قول أكثر المسلمين.

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/١٩

الثاني : قول طوائف من عبدة الأوثان : أن الملائكة هي هذه الكواكب الموصوفة بالإسعاد ، والإنحاس فالمسعدات منها ملائكة الرحمة ، والمنحسات منها ملائكة العذاب.

الثالث : قول معظم المجوس ، والثنوية : وهو أن هذا العالم مركب من أصلين أزليين ، وهما النور والظلمة ، وهما في الحقيقة جوهران شفافان مختاران قادران ، متضادا النفس والصورة ، مختلفا الفعل والتدبير ، فجوهر النور فاضل خير ، نفي طيب الريح ، كريم النفس يسر ولا يضر ، وينفع ولا يمنع ، ويحيا ولا يبلى ، وجوهر الظلمة على ضد ذلك.

ثم إن جوهر النور لم يزل يولد الأولياء ، وهم الملائكة لا على سبيل التناكح ، بل على سبيل تولد الحكمة من الحكيم ، والضوء من المضيء ، وجوهر الظلمة لم يزل يولد الأعداء ، وهم الشياطين على سبيل تولد السفه من السفيه لا على سبيل التناكح.

القول الثاني : وهو أنها ذوات قائمة بأنفسها ، وليست بمتحيزة ، ولا بأجسام.

فهاهنا قولان : الأول : قول طوائف من النصارى ، وهو أن الملائكة في الحقيقة هي الأنفس الناطقة المفارقة لأبدانها على نعت الصفاء والخيرية ، وذلك لأن هذه النفوس المفارقة إن كانت صافية خالصة فهي الملائكة ، وإن كانت خبيثة كدرة فهي الشياطين.

والثاني : قول الفلاسفة وهي أنها جواهر قائمة بأنفسها وليست بمتحيزة ألبتة ، وأنها بالماهية مخالفة لأنواع النفوس الناطقة البشرية ، وأنها أكمل قوة منها ، وأكثر علما منها ، وأنها للنفوس البشرية جارية جرى الشمس بالنسبة إلى الأضواء ، ثم إن هذه الجواهر على قسمين : منها ما هي بالنسبة إلى أجرام الأفلاك والكواكب كنفوسنا الناطقة بالنسبة إلى أبداننا ، ومنها ما هي لا هي على شيء من تدبير الأفلاك ، بل هي مستغرقة في معرفة الله ، ومحبته ومشتغلة بطاعته ، وهذا القسم هم الملائكة المقربون ، ونسبتهم إلى الملائكة الذين يدبرون السماوات ، كنسبة أولئك المدبرين إلى نفوسنا الناطقة ، فهذان القسمان قد اتفقت الفلاسفة على إثباتهما ، ومنهم من أثبت انواعا أخر من الملائكة ، وهي الملائكة الأرضية المدبرة لأحوال هذا العالم السفلي ، ثم إن المدبرات لهذا العالم إن كانت خيرة فهم الملائكة ، وإن كانت شريرة فهم الشياطين.

فصل في شرح كثرتهم قال عليه الصلاة والسلام : " أطت السماء وحق لها أن تئط ما فيها موضع قدم إلا وفيه ملك ساجد ، أو راكع ".

[وروي أن بني آدم عشر الجن ، والجن وبنو آدم عشر حيوانات البر ، وهؤلاء كلهم عشر حيونات البر ،

وهؤلاء كلهم عشر حيوانات البحر ، وهؤلاء كلهم عشر ملائكة الأرض الموكلين بها ، وكل هؤلاء ملائكة سماء الدنيا ، وكل هؤلاء عشر ملائكة السماء الثانية وعلى هذا الترتيب إلى ملائكة السرادق الواحد من سرادقات العرش التي عددها ستمائة ألف ، طول كل سرادق وعرضه وسمكه إذا قوبلت به السماوات والأرضون وما فيها وما بينها ، فإنها كلها تكون شيئا يسيرا وقدرا صغيرا ، وما من مقدار موضع قدم إلا وفيه ملك ساجد ، أو راكع] وقائم ، لهم زجل بالتسبيح والتقديس ، ثم كل هؤلاء في مقابلة الملائكة الذين يحومون حول العرش كالقطرة في البحر ، ولا يعلم عددهم إلا الله تعالى ، ثم مع هؤلاء ملائكة اللوح الذين هم أشياع إسرافيل عليه السلام ، والملائكة الذين هم جنود جبريل عليه السلام ، ولا يحصى أجناسهم ولا مدة أعمارهم ولا كيفية عبادتهم إلا الله تعالى ، على ما قال : {وما يعلم جنود ربك إلا هو} [المدثر : ٣١].

وروي في بعض كتب التذكير أنه – عليه الصلاة والسلام – حين عرج به رأى ملائكة في موضع بمنزلة سوق بعضهم يمشي تجاه بعض ، فسأل رسول الله – صلى الله عليه وسلم – " إلى أين يذهبون ؟ " فقال جبريل عليه السلام : لا أدري إلا أني أراهم مذ خلقت ولا أرى واحدا منهم قد رأيته قبل ذلك ، ثم سأل واحدا منهم وقيل له : مذ كم خلقت ؟ فقال : لا أدري غير أن الله – تعالى – يخلق كوكبا في كل أربعمائة ألف سنة ، فخلق مثل ذلك الكوكب منذ خلقني أربعمائة ألف مرة فسبحانه من إله ما أعظم قدرته وما أجل كماله.

فصل فيمن قيل له من الملائكة : " إني جاعل " اختلفوا في الملائكة الذين قال لهم : " إني جاعل لهم "كل الملائكة ، أو بعضهم ؟ فروى الضحاك عن ابن عباس أنه سبحانه إنما قال هذا القول للملائكة الذين [كانوا محاربين] مع " إبليس " ؛ لأن الله – تعالى – لما أسكن الجن الأرض ، فأفسدوا فيها ، وسفكوا الدماء ، وقتل." (١)

"ف " القوانس " منصوب بفعل مقدر أي : بـ " ضرب " لا بـ " أضرب " ، وفي ادعاء مثل ذلك في الآية الكريمة بعد الحذف يتبين المفضل عليه ، والناصب لـ " ما ".

فصل في بيان علام الجواب في الآية اختلف علماء التأويل في هذا الجواب وهو قوله : " إني أعلم ما لا تعلمون " فقيل : إنه جواب لتعجبهم ، كأنه قال : لا تتعجبوا من أن فيهم من يفسد ، ويقتل ، فإني أعلم

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل ، ص/١٢١

مع هذا أن فيهم صالحين ، ومتقين ، وأنتم لا تعلمون.

وقيل : إنه جواب لغمهم كأنه قال : لا تغتموا بسبب وجود المفسدين ، فإني أعلم أيضا أن فيهم جمعا من المتقين ، ومن لو أقسم على لأبره.

وقيل : إنه طلب الحكمة كأنه قال : إن مصلحتكم أن تعر فوا وجه **الحكمة فيه** على الإجمال دون التفصيل.

بل ربما كان ذلك التفصيل مفسدة لكم.

وقال " ابن عباس " : كان " إبليس " - لعنة الله - قد أعجب ودخله الكبر لما جعله خازن السماء ، وشرفه ، فاعتقد أن ذلك لمزية له ، فاستحب الكفر والمعصية في جانب آدم - عليه الصلاة والسلام - وقالت الملائكة : " ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك " ، وهي لا تعلم أن في نفس إبليس خلاف ذلك ، فقال الله لهم : " إني أعلم ما لا تعلمون " ، وقيل : المعنى عام ، أي : أعلم ما لا تعلمون مما كان ، وما يكون ، وما هو كائن.

جزء : ١ رقم الصفحة : ٤٦٣

". (١)

"فصل في بيان خلافهم في الجنة المقصودة اختلفوا في هذه الجنة هل كانت في الأرض أو في السماء ؟ وبتقدير أنها كانت في السماء ، فهل هي دار ثواب او جنة الخلد ؟ فقال أبو القاسم البلخي ، وأبو مسلم الأصفهاني : هذه الجنة كانت في الأرض وحملا الإهباط على الانتقال من بقعة إلى بقعة كما في قوله : {اهبطوا مصرا} [البقرة : ٦١] واحتجا عليه بوجوه : أحدها : أن هذه الجنة لو كانت هي دار الثواب لكانت جنة الخلد ، ولو كان آدم في جنة الخلد لما لحقه الغرور من إبليس ولما صح قوله : {ما نهاكما ربكما عن هاذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين} [الأعراف : ٢٠].

وثانيهما : أن من دخل هذه الجنة لا يخرج منها لقوله تعالى : {وما هم منها بمخرجين} [الحجر : ٤٨].

وثالثهما : أن إبليس لما امتنع عن السجود لعن فما كان يقدر مع غضب الله أن يصل إلى جنة الخلد.

ورابعها : أن جنة الخلد لا يفنى نعيمها لقوله : {وأما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها} [هود : ١٠٨] إلى أن قال : {عطآء غير مجذوذ} [هود : ١٠٨] أي : غير مقطوع.

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/١٢٧

وخامسها : لا نزاع في أن الله – تعالى – خلق آدم في الأرض ، ولم يذكر في هذه القصة أنه نقله إلى السماء ، ولو كان – تعالى – قد نقله إلى السماء لكان أولى بالذكر ؛ لأن نقله من الأرض إلى السماء من أعظم النعم ، فدل على أن ذلك لم يحصل ، وذلك يوجب أن هذه الجنة غير جنة الخلد.

وقال " الجبائي " : أن تلك الجنة كانت في السماء السابعة ، والدليل عليه قوله : " اهبطوا منها " ثم إن الاهباط الأول كان من السماء السابعة إلى السماء الأولى ، والإهباط الثاني كان من السماء غلى الأرض.

وقال أكثر العلماء : إنها دار الثواب ؛ لأن الألف واللام في لفظ الجنة لا يفيدان العموم ؛ لأن سكون جميع الجنان محال ، فلا بد من صرفها إلى المعهود السابق ، وجنة الخلد هي المعهودة بين المسلمين ، فوجب صرف اللفظ إليها.

وقال بعضهم : الكل ممكن ، والأدلة النقلية ضعيفة ومتعارضة ، فوجب التوقف وترك القطع ، والله أعلم.

فصل في إعراب الآية قوله : {وكلا منها رغدا} هذه الجملة عطف على " اسكن " ، فهي في محل نصب بالقول ، وأصل " اؤكل " بهمزتين : الأولى هزة وصل ، والثانية فاء الكلمة ، فلو جاءت هذه الكلمة على الأصل لقيل : أوكل بإبدال الثانية حرفا مجانسا لحركة ما قبلها ، إلا أن العرب حذفت فاءه في الأمر تخفيفا ، فاستغنت حينئذ عن همزة الوصل ، فوزنه إلا أن العرب حذفت فاءه في المر تخفيفا ، فاستغنت حينئذ عن همزة الوصل ، فوزنه " عل " ومثله : " خذ " و " مر " ، ولا يقاس على هذه الأفعال غيرها ، في تقول : من " أجر – جر " ولا ترد العرب هذه الفاء في العطف ، بل تقول : " قم وخذ وكل " إلا " مر " ، فإن الكثير رد فاءه بعد الواو والفاء ، قال تعالى : {وأمر أهلك} [طه : ١٣٢] ، وعدم الرد قليل.

وحكى سيبويه " اؤكل " على الأصل ، وهو شاذ.

وقال " ابن عطية " : حذفت النون من " كلا " للأمر.

وهذه العبارة موهمة لمذهب الكوفيين من أن الأمر عندهم معرب على التدريج ، وهو عند البصريين محمول على المجزوم ، فإن سكن المجزوم سكن المر منه ، وإن حذف منه حرف حذف من الأمر.

و " منها " متعلق به ، و " من " للتبعيض ، ولا بد من حذف مضاف أي : من ثمارها ويجوز أن تكون " من " لابتداء الغاية ، وهو حسن.

فإن قيل : ما الحكمة في عطفه هنا " وكلا " بالوا ، وفي " العراف " بالفاء ؟ والجواب : كل فعل عطف عليه شيء ، وكان الفعل بمنزلة الشرط ، وذلك الشيء بمنزلة الجزاء ، عطف الثاني على الأول بالفاء دون

الواو ، كقوله تعالى : {وإذ قلنا ادخلوا هاذه القرية فكلوا منها} [البقرة : ٥٨] فعطف "كلوا " على " ادخلوا " بالفاء لما كان وجود الأكل منها متعلقا بدخولها فكأنه قال : إن دخلتموه أكلتم منها ، فالدخول موصل إلى الأكل ، والكل متعلق وجوده بوجوده يبين ذلك قوله في سورة " الأعراف " : {وإذ قيل لهم اسكنوا هاذه القرية وكلوا} [الأعراف : ١٦١] فعطف "كلوا " على قوله : " اسكنوا " بالواو دون الفاء ؛ لأن " اسكنوا " من السكنى ، وهو المقام مع طول اللبث والكل لا يختص وجوده بوجوده ؛ لأن من دخل بستانا قد يأكل منه ، وإن كان مجتازا ، فلما لم يتعلق الثاني بالأول تعلق الجزاء بالشرط وجب العطف بالواو دون الفاء.

إذا ثبت هذا فقوله : " اسكن " يقال لمن أراد منه ، الزم المكان الذي دخلته ، فلا تنفك عنه ، ويقال أيضا لمن لم يدخله : اسكن هذا المكان يعني : ادخله واسكن فيه ، فقوله في سورة البقرة : {اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا} إنما ورد بعد أن كان آدم في الجنة ، فكان المراد منه اللبث والاستقرار ، وقد بينا أن." (١)

"يضره ضربة واحدة ، فيظهر فيه اثنتا عشر عينا كل عين مثل ثدي المرأة فيعرق ، وهو الانبجاس ، ثم ينفجر بالأنهار.

قال عطاء : ثم يضربه ضربة واحدة فييبس.

وقال عبد العزيز بن يحيى الكتاني : كان يضربه اثنتا عشرة ضربة لكل عين ضربة.

قال القرطبي : ما أوتي نبينا محمد . عليه الصلاة والسلام . من نبع الماء وانفجاره من بين أصابعه أعظم في المعجزة ، فإنا نشاهد الماء يتفجر من الأحجار ، ومعجزة نبينا محمد . عليه الصلاة والسلام . يخرج الماء من بين لحم ودم! وروى الأئمة الثقات عن عبدالله قال : كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم فلم مجد ماء فأتي بتور فأدخل يده فيه ، فلقد رأيت الماء يتفجر من بين أصابعه ، ويقول : " حي على الطهور ".

قال الأعمش : حدثني سالم بن أبي الجعدن قال : قلت لجابر : كم كنتم يومئذ ؟ قال : ألفا وخمسمائة. لفظ النسائي.

فصل في وجوه الإعجاز في انفجار الحجر **والحكمة في** جعل الماء اثنتي عشرة عينا قطع التنازع والتشاجر بينهم ، وهذا الانفجار يدل على الإعجاز من وجوه.

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/١٤٦

أحدها : أن نفس ظهور الماء معجزة.

وثانيها : خروج الماء العظيم من الحجر الصغير.

وثالثها : خروج الماء بقدر حاجتهم.

ورابعها : خروج الماء عند الضرب بالعصا.

وخامسها : خروج الماء بالضرب بعصا معينة.

وسادسها : انقطاع الماء عند الاستغناء عنه ، فهذه الوجوه لا يمكن تحصيلها إلا بقدرة تامة في كل الممكنات ، وعلم نافذ في جميع المعلومات.

قوله : {كلوا واشربوا} هاتان الجمليتان في محل نصب بقول مضمر تقديره : وقلنا لهم : كلوا واشربوا.

وقد تقدم تصريف " كل " وما حذف منه.

قوله : {من رزق الله} هذه من باب الإعمال ؛ لأن كل واحد من الفعلين يصح تسلطه عليه ، وهو من باب إعمال الثاني للحذف من الأول.

والتقدير : كلوا منه.

و " من " يجوز أن تكون لابتداء الغاية ، وأن تكون للتبعيض ، ويجوز أن يك,ن مفعول الأكل محذوفا ، وكذلك مفعول الشرب ؛ للدلالة [عليهما] ، والتقدير : كلوا المن والسلوى لتقدمهما في قوله : {وأنزلنا عليكم المن والسلوى } [البقرة : ٥٧] ، واشربوا ماء العيون المتفجرة.

وعلى هذا فالجار والمجرور يحتمل تعلقه بالفعل قبله ، ويحتمل أن يكون حالا من ذلك المفعول المحذوف ، فيتعلق بمحذوفة.

وقيل : المراد بالرزق الماء وحدهن ونسب الأكل إليه لما كان سببا في نماء ما يؤكل وحياته ، فهو رزق يؤكل منه ويشرب.

والمراد بالزرق المرزوق ، وهو يحتمل أن يكون من باب " ذبح ورعي " ، وأن يكون من باب " درهم ضرب الأمير " وقد تقدم بيانه.

فإن قيل : قوله : {من رزق الله} يفهم منه أن ثم رزقا ليس لله ، وذلك باطل.

فالجواب : من [وجوه] : [أحدها : أن هذا مفهوم لقب ؛ فلا يدل] ، الثاني : أن هذا رزق لم تعمل فيه أيديهم بحرث ولا غيره ، فهو خالص أرسله الله إليهم.

الثالث : أن إضافته إلى الله ـ تعالى ـ إضافة تشريف لكونه أشرف ما يؤكل ، وما يشرب ؛ لأنه تسبب عن معجز خارق للعادة.

فصل في كلام المعتزلة واحتجت المعتزلة بهذه الآية على أن الرزق هو الحلاق قالوا : لأن أقل درجات قوله : كلوا واشربوا الإباحة ، فهذا يقتضي كون الرزق مباحا ، فلو وجد رزق حرام لكان ذلك الرزق مباحا وحراما وإنه غير جائز.

قوله : {ولا تعثوا في الأرض مفسدين}.

أصل " تعثوا " : " تعثيوا " ، فاستثقلت الضمة على الياء فحذفت ، فالتقى ساكنان فحذف الأول منهما وهو الياء ، أو لما تحركت الياء وانفتح ما قبلها قلبت ألفا فالتقى ساكنان ، فحذفت الألف ، وبقيت الفتحة تدل عليها.

وهذا أولى ، فوزنه " تفعون ".

و " العثي " و " العيث " : أشد الفساد وهما متقاربان.

وقال بعضهمك " إلا أن العيث أكثر ما يقال فيما يدرك حسه ، والعثي فيما يدرك حكما ، يقال : عثي يعثى عثيا ، وهي لغة القرآن ، وعثا يعثو عثوا ، وعاث يعيث عيثا ".

وليس " عاث " مقلوبا من " عثي "ك " جبذ وجذب " لتفاوت معنييهما كما تقدم.

ويحتمل ذلك ، ثم اختص كل واحد بنوع ، ويقال : عثي ـ يعثى ـ عثيا ـ ومعاثا ، وليس " عثي " أصله " عثو " فقلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها ، ك " رضي " من الرضوان ، لثبوت العثي ، وإن توهم بعضهم ذلك.

ويقال : عث يعي مضافا أي : فسد ، قال ابن الرقاع : [الكامل] ٥٢٦. لولا الحياء وأن رأسي قد عثا فيه المشيب لزرت أم القاسم

جزء : ١ رقم الصفحة : ٤٦٣

." (١)

"[فراعى المعنى] وقد تقدم تحقيق ذلك [عند) قوله : {ومن الناس من يقول آمنا} [البقرة : ٨] والأجر في الأصل مصدر يقال : أجره الله يأجره أجرا ، وقد يعبر به عن نفس الشيء المجازى به ، والآية

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل ـ ، ص/٢١٢

الكريمة تحتمل المعنيين.

والمارد بهذه العندية أن أجرهم متيقن جار مجرى الحاصل عندهم.

قوله : {ولا خوف عليهم} فقيل : أراد زوال الخوف [عنهم] في الدنيا.

وقيل : الآخرة وهو أصح ؛ لأنه عام في النفي ، وكذا قوله : " ولا هم يحزنون " ، وهذه لا تحصل في الدنيا ؛ لأن المكلف في الدنيا لا ينفك من خوف وحزن ، إما في أسباب الدنيا ، أو في أمور الآخرة ، فكأنه ـ سبحانه ـ وعدهم في الآخرة بالأجر ، ثم بين صفة ذلك الأجر أن يكون خاليا من الخوف والحزن ، وذلك يوجب أن يكون نعيمهم دائما ؛ لأنهم لو جوزوا كونه منقطعا لاعتراهم الخوف العظيم.

فإن قيل : فما الحكمة في قوله تعالى هاهنا : " الصابئين " منصوبة ، وفي " المائدة " : {والصابئون} [المائدة : ٦٩] مرفوعة.

وقال في الحج : {والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا اا} [الحج : ١٧] فقدم " الصابئين " على " النصارى " في آية ، وأخر " الصائبين " في الأخرى ، فهل في ذلك حكمة ظاهرة.

قال ابن الخطيب : إن أدركنا تلك الحكم فقد فزنا بالكمال ، وإن عجزنا أحلنا القصور على أفهامنا لا على كلام الحكيم.

جزء : ١ رقم الصفحة : ٤٦٣

هذا هو الإنعام العاشر.

والميثاق إنما يكون بفعل الأمور التي توجب الانقياد والطاعة.

واختلفوا في ذلك الميثاق.

قال الأصم : [ما وعده الله القوم] من الدلائل الدالة على صدق أنبيائه ورسله ، وهذا النوع من المواثيق أقوى المواثيق والعهود ، لأنها لا تحتمل الخلف والكذب والتبديل بوجه ألبتة.

وقال أبو مسلم : هو ما روى عبدالرحمن بن زيد بن أسلم أن موسى ـ عليه الصلا والسلام ـ لما رجع إلى قومه بالألواح قال لهم : " إن فيها كتـاب الله تعالى " فقالوا : لن نأخذ بقولك حتى نرى الله جهرة فيقول : هذا كتابي فخذوه فأخذتهم الصاعقة ، فماتوا ثم أحياهم ، ثم قال لهم بعد ذلك : خذوا كتاب الله ، فأبوا فرفع الطور وقيل لهم : خذوا الكتاب وإلا طرحناه عليكم ، [فأخذوه] فرفع الطور هو الميثاق ؛ لأنه آية [باهرة] عجيبة تبهر العقول ، وترد المكذب إلى التصديق ، والشاك إلى اليقين ، وأكدوا ذلك ، وعرفوا أنه

من قبله ـ تعالى ـ وأظهروا التوبة ، وأعطوا العهد والميثاق ألا يعودوا إلى ما كان منهم ، وأن يقوموا بالتوراة ، فكان هذا عهدا موثقا.

وري عن عبدالله بن عباس : أن لله مثاقين.

الأول : حين أخرجهم من صلب آدم ، وأشهدهم على أنفسهم.

والثاني : أنه ألزم الناس متابعة الأنبياء ، وهو المراد من هذا العهد.

قال ابن الخطيب : " وهذا ضعيف ".

فإن قيل : لهم قال : " ميثاقكم " ولم يقل : " مواثيقكم " ؟ قال القفال : لوجهين : أحدهما : أراد به الدلالة على أن كل واحد منهم قد أخذ ذلك كما قال : {يخرجكم طفلا} [غافر : ٦٧] أي : كل واحد منهم أخذ عليه ما أخذ على غيره ، فلا جرم كان كله ميثاقا واحدا.

والثاني : أنه لو قال : مواثيقكم لأبهم أن يكون هناك مواثيق أخذت عليم لا ميقاق واحد.

قوله : {ورفعنا فوقكم الطور} نظيره : {وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا اا أنه واقع بهم} [الأعراف : ١٧١].

و " الواو " في قوله : {ورفعنا فوقكم} واو عطف على تفسير ابن عباس ، والمعنى : أن أخذ الميثاق كان متقدما فلما نقضوه بالامتناع عن قبول الكتاب رفعنا عليهم الجبل.

وعلى تفسير أبي مسلم ليست واو عطف ولكنها واو الحال ، كما يقال : " فعلت ذلك والزمان زمان " فكأنه قال : وإذ أخذنا ميثاقكم عند رفعنا الطور فوقكم.

وفوقكم ظرف مكان ناصبه " رفعنا " ، وحكم " فوق " مثل حكم " تحت " ، وقد تقدم الكلام عليه.

قال أبو البقاء : ويضعف أن يكون حالا من " الطور " ؛ لأن التقدير يصير : ورفعنا الطور عاليا ، وقد استفيد من " رفعنا ".

وفي هذا نظر ؛ لأن المراد به علو خاص ، وهو كونه عاليا عليم لا مطلق العلو حتى يصير : رفعناه عاليا كما قدره.

قال : " لأن الجبل لم يكن فوقهم وقت الرفع ، وإنما صار فوقهم بالرفع ".

ولقائل أن يقول : لم لا تكون حالا مقدرة ، وقد قال هو في قوله : {بقوة} إنها حال مقدرة كما سيأتي.

و " الطور " اسم [لكل] جبل ، وقيل : [لما] أنبت منها خاصة دون ما لم ينبت ، وهل هو عربي أو

سرياني قولان.

وقيل : سمي بطور بن إسماعيل عليه الصلاة والسلام ؛ وقال العجاج : [الرجز] ٥٥٧. دانى جناحيه من الطور فمر

تقضي البازي إذا البازي كسر

جزء : ١ رقم الصفحة : ٤٦٣

." (١)

"أي : قد زالت.

وللقسم وجوابه أحكام تأتي إن شاء الله تعالى [مفصلة].

و " علمتم " بمعنى : عرفتم ، فيتعدى لواحد فقط.

والفرق بين العلم والمعرفة أن العلم يستدعي معرفة الذات ، وماهي عليه من الأحوال نحو : " علمت زيدا قائما أو ضاحكا " ، والمعرفة تستدعي معرفة الذات.

وقيل : لأن المعرفة يسبقها جهل ، والعلم قد لايسبقه جهل ، ولذلك لا يجوز إطلاق المعرفة عليه سبحانه وتعالى.

و " الذين اعتدوا " الموصول وصلته في محصل نصب مفعول به ، ولا حاجة إلى حذف مضاف كما قدره بعضهم ، أي : أحكام الذين اعتدوا ؛ لأن المعنى عرفتم أشخاصهم وأعيانهم.

وأصل " اعتدوا " : " اعتديوا " ، فأعل بالحذف ، ووزنه " افتعوا " ، وقد عرف تصريفه ومعناه.

و " منكم " في محل نصب على الحال من الضمير في " اعتدوا " ، ويجوز أن يكون من " الذين ".

أي من المعتدين كائنين منكم.

و " من " للتبعيض.

و " السبت " متعلق بـ " اعتدوا " ، والمعنى : في حكم السبت.

وقال أبو البقاء : وقد قالوا : " اليوم السبت " ، فجعلوا " اليوم " خبرا عن " السبت " ، كما يقال : " اليوم القتيال " ، فعلى ما ذكرنا يكون في الكلام حذف ، تقديره : في يوم السبت ، فالسبت في الأصل مصدر " سبت " أي : قطع العمل.

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/٢٢٥

وقال ابن عطية : والسبت : إما مأخوذ من " السبوت " الذي هو الراحة والدعة ، وإما من " السبت " وهو القطع ؛ لأن الأشياء فيه سبتت ، وتمت خلقتها.

ومنه قولهم : سبت رأسه أي : حلقه.

وقال الزمخشري : " والسبت مصدر [سبتت] اليهود : إذا عظمت يوم السبت ".

وفيه نظر ، فإن هذا اللفظ موجود ، واشتقاقه مذكور في لسان العرب قبل فعل اليهود ذلك ، اللهم إلا [أن] يريد هذا السبت الخاص المذكور في هذه الآية.

والأصل فيه المصدر كما ذكرت ، ثم سمي به هذا اليوم من الأسبوع ، لاتفاق وقوعه فيه كما تقدم أن خلق الأشياء تم وانقطع ، وقد يقال : يوم السبت فكيون مصدرا.

وإذا ذكر معه " اليوم " ، أو مع ما أشبهه من أسماء الأزمنة مما يتضمن عملا وحدثا جاز نصب " اليوم " ، ورفعه ، نحو : " اليوم الجمعة " ، " اليوم العيد "كما يقال : " اليوم الاجتماع والعود ".

فإن ذكر مع " الأحد " وأخوته وجب الرفع على المشهور ، وتحقيقها مذكور في [كتب] النحو.

فصل في قصة عدوانهم بالصيد روي عن ابن عباس ـ رضي الله تعالى عنه ـ أنه قال : هؤلاء القوم كانوا في زمان داود ـ عليه الصلاة والسلام ـ بـ " أيلة " على ساحل البحر بين " المدينة " و " الشام " وهو مكان يجتمع إليه الحيتان من كل أرض في شهر من السنة حتى لا يرعى الماء لكثرتها ، وفي غير ذلك الشهر في كل سبت يجتمعون هناك حتى يخرجن بخراطيمهن من لماء لأمنها ، فإذا مضى السبت تفرقن ، ولزمن قعر البحر فذلك قوله : {إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا ويوم لا يسبتون لا تأتيهم} [الأعراف : ١٦٣] فعمد رجال فحفروا حياضا عند البحر ، وشرعوا إليها الجداول ، فإذا كانت عشية يوم الجمعة فتحوا تلك الجداول ، فكانت الحيتان تدخل إلى الحياض ، فلا تطيق الخروج منها لبعد عمقها ، وقلة الماء ، فيأخذونها يوم الأحد.

وقيل : كانوا ينصبون الحبائل والشصوص يوم الجمعة ، ويخرجونها يوم الأحد ، وذلك هو اعتداؤهم ، ففعلوا ذلك زمانا واشتغلوا وهم خائفون من العقوبة ، فلما طال العهد ، و لم تنزل عقوبة قست قلوبهم [وتجرءوا] على الذنب فاستن الأبناء بسنة الآباء ، واتخذوا الأموال ، وقالوا : ما نرى السبت إلا وقد أحل لنان فمشى إليهم طوائف من أهل المدينة الذين كرهوا الصيد في السبت ، ونهرهم عن ذلك فلم ينتهوا ، وقالوا : نحن في هذا العمل منذ زمان ، فما زادنا الله به إلا عزا فقيل لهم : لا تفتروا فربما نزل بكم العذاب

، فانقسموا ثلاثة أصناف : صنف أمسك وانتهى ، وصنف ما أمسك ولم ينته ، وصنف انتهكوا الحرمة فلما أبوا قبول النصح قال الناهون : والله لا نساكم فقسموا القرية بجدار ، ومكثوا على ذلك سنين ، فلعنهم داود ـ عليه الصلاة والسلام ـ وغضب الله عز وجل عليهم لإصرارهم على المعصية ، فخرج الناهون ذات يوم من بابهم ، والمجرمون لم يفتحوا بابهم ، ولم يخرج منهم أحد فلما أبطئوا تسوروا عليهم الحائط ، فإذا هم جميعا قدرة خاسئين.

فإن قيل : إذا كانوا قد نهوا عن الاصطياد يوم السبت ، فما الحكمة في أن أكثر الحيتان يوم السبت دون سائر الأيام ؟ فالجواب : أما على مذهب أهل السنة فإرادة الإضلال جائزة من لله تعالى.

وأما على مذهب المعتزلة ، فالتشديد في التكاليف حسن لغرض ازياد الثواب.

و " قردة خاسئين " يجوز فيه أربعة أوجه : أحدها : أن يكونا خبرين ، قال الزمخشري : " أي : كونوا جامعين بين القردية والخسوء ".

وهذا التقدير منه بناء على أن الخبر لا يتعدد ، فلذلك قدرهما بمعنى خبر واحد من باب : " هذا حلو حامض " وقد تقدم القول فيه.

والثاني : إن يكون " خاسئين "." (١)

"و " من " زائدة لتأكيد الاستغراق لا للاستغراق ؛ لأن " أحدا " يفيده بخلاف : " ما جاء من رجل " فإنها زائدة للاستغراق.

و " أحد " هنا الظاهر أنه الملازم للنفي ، وأنه الذي همزته أصل بنفسها.

وأجاز أبو القاء أن يكو بمعنى واحد ، فتكون همزته بدلا من الواو.

فصل فيمن قال بأنهما ليسا من الملائكة القائلون بأنهما ليسا من الملائكة احتجوا بأن الملائكة ـ عليهم السلام ـ لا يليق بهم تعليم السحر ، وقالوا : كيف يجوز إنزال الملكين مع قوله : {ولو أنزلنا ملكا لقضي الأمر} [الأنعام : ٨].

وأيضا لو أنزل الملكين ، فإما أن يجعلهما فى صورة الرجلين ، أو لا يجعلهما كذلك ، فإن جعلهما في صورة الرجلين مع أنهما ليسا برجلين كان ذلك تجهيلا وتلبيسا على الناس وهو لا يجوز ، ولو جاز ذلك فلم لا يجوز أن كل واحد من الناس الذي تشاهدهم أنه لا يكون الحقيقة إنسانا ، بل يكون ملكا ن

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل ـ ، ص/٢٢٩

الملائكةن ؟ وإن لم يجعلهما في صورة الرجلين قدح ذلك في قوله تعالى : {ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا} [الأنعام : ٩].

وأجاب القائلون بأنهما من الملائكة عن الأول بأنا سنبين وجه الحكمة في إنزال [الملكين] لتعليم السحر وعن الثاني : بأن هذه الآية عامة ، [وقراءة الملكين بفتح اللام متواتورة وتلك] خاصة والخاص مقدم على العام.

وعن الثالث : أن الله ـ تعالى ـ أنزلهما في صورة رجلين ، كان الواجب على الملكين في زمان الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أن يقطعوا على من صروته صورة الإنسان بكونه إنسانا ، كما أنه في زمان الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ كانالواجب على من شاهد حية الكلبي ألا يقطع بكونه من البشر ، بل الواجب التوقف فيه.

فصل في فساد رواية الزهرة رووا قصة الزهرة وما جرى لها الملكين.

ولهم في الزهرة قولان : أحدهما : أنها الكوكب المعروف.

والثاني : أنها من بنات آدم ومسخت إلى هذا الكوكب.

وقيل : مسخت بها.

قال ابن الخطيب : وهذه الرواية فاسدة مردودة ؛ لأنه ليس في كتاب الله ـ تعالى ـ مايدل عليها ، بل فيه ما يبطلها من وجوه : الأول : الدلائل الدالة على عصمة الملائكة عليهم السلام من كل المعاصي.

الثاني : أن قولهم : إنهما خيرا بين عذاب الدنيا ، وبين عذاب الآخرة فاسد ، بل كان الأولى أن يخيرا بين التوبة والعذاب ؛ لأن الله ـ تعالى ـ خير بينهما من أشرك به طول عمره ، فكيف يبخل عليهما بذلك ؟

الثالث : أن من أعجب الأمور قوله : أنهما يعلمان السحر في حال كونهما معذبين ، ويدعوان إليه ، وهما يعاقبان [ولما ظهر فساد هذا القول فنقول : السبب] في إنزالهما وجوه : أحدها : أن السحرة كثرت في ذلك الزمان ، واستنبطت أبوابا غريبة من السحر ، وكانوا يدعون النبوة ، ويتحدون الناس بها ، فبعث الله ـ تعالى ـ هذين الملكين لأجل أن يعلما الناس أبواب السحر حتى يتمكنوا من معارضة أولئك الذين كانوا يدعون النبوة كذبا ، ولا شك أن هذا من أحسن الأغراض والمقاصد.

وثانيها : أن العلم بكون المعجزة مخالفة للسحر متوقف على العلم بماهية المعجزة ، وبماهية السحر ، والناس كانوا جاهلين بماهية السحر ، فلا جرم تعذرت عليهم معرفة حقيقة المعجزة ، فبعث الله ـ تعالى ـ

هذين الملكين لتعريف ماهية السحر لأجل هذا الغرض.

وثالثها : لا يمتنع أن يقال : السحر الذي يوقع الفرقة بين أعداء الله ، والألفة بين أولياء الله كان مباحا عندهم ، أو مندوبا ، فالله ـ تعالى ـ بعث ملكين لتعليم السحر لهذا الغرض ، ثم إن القوم تعلموا ذلك منهما ، واستعملوه في الشر ، وإيقاع الفرقة بين أولياء الله ، والألفة بين أعداء الله.

ورابعها : أن تحصيل العلم بكل شيء حسن ، ولما كان السحر منهيا عنه وجب أن يكون متصورا معلوما ؟ لأن الذي لا يكون متصورا يمتنع النهي عنه.

وخامسها : لعل الجن كان عندهم أنواع من السحر لم يقدر البشر على الإتيان بمثلها ، فبعث الله الملائكة ليعلموا البشر أمورا يقدرون بها على معارضة الجن.

وسادسها : يجز أن يكون ذلك تشديدا في التكليف من حيث إنه إذا علمه ما أمكنه أن يتوصل به إلى اللذات العاجلة ، ثم منعه من استعمالها كان ذلك في نهاية المشقة ، فيستوجب به الثواب الزائد ، كما ابتلي قوم طالةوت بالنهر على ما قال : {فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فإنه منى } [البقرة : ٢٤٩] فثبت بهذه الوجوه أنه لا يبعد من الله ـ تعالى ـ إنزال الملكين لتعليم السحر ، والله أعلم.

فصل في زمن وقوع هذه القصة.

قال بعضهم : هذه الواقعة إنما وقعت في زمان إدريس عليه الصلاة والسلام.

قوله : {حتى يقولا إنما نحن فتنة}.

" حتى " : حرف غاية ونصب ، وهي هنا بمعنى " إلى " ، والفعل بعدها منصوب بإضمار " أن " ولا يجوز إظهارها ، وعلامة النصب حذف النوت ، والتقدير : إلى أن يقولا وهي متعلقة بقوله : " وما يعلمان " ، والمعنى أنه ينتفي تعليمهما أو إعلامهما على ما مضى من الخلاف إلى هذه الغاية ، وهي قولهم : ." (١)

"والغاية معنى لا يفارقها في هذه الأحوال الثلاثة ، فلذلك لا يكون ما بعدها إلا غاية لما قبلها : إما في القوة ، أو الضعف ، أو غيرهما ، ولها أحكام أخر ستأتي إن شاء الله تعالى.

و " إنما " مكفوفة بـ " ما " الزائدة ، فلذلك وقع بعدها الجملة ، وقد تقدم أن بعضهم يجيز إعمالها ، والجملة في محل نصب بالقول ، وكذلك : " فلا تكفر ".

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل ـ ، ص/٣٢٦

فصل في المراد بالفتننة المراد هاهنا بالفتنة المحنة التي بها يتيمز المطيع عن العاصي ، كقولهم : فتنت الذهب بالنار أذا عرض على النار ليتميز الخاص عن المشوب ، وقد بينا **الحكمة في** بعثة الملكين لتعليم السحر.

فالمراد أنهما لا يعلمان أحدا السحر ولا يصفانه عن المشوب ، وقد بينا **الحكمة في** بعثة الملكين لتلعيم السحر.

فالمراد أنهما لا يعلمان أحدا السحر ولا يصفانه لأحد ، ولا يكشفان له وجوه الاحتيال حتى يبذلا له النصيحة فيقولا له : " إنما نحن فتنة " أي : هذا الذي نصفه لك ، وإن كان الغرض منه أن يتميز به الفرق بين السحر عن المعجزة ، ولكنه يمكنك أن تتوصل به إلى المفاسد والمعاصي ، فإياك أن تستعمله فيما نهيت عنه ، أو تتوصل به إلى شيء من الأعراض العاجلة.

قوله تعالى : " فيتعلمون " في هذه الجملة سبعة أقوال : أظهرها : أنها معطوفة على قوله تعالى : " وما يعلمان " والضمير في " فيتعلمون " عائد على " أحد " ، وجمع حملا على المعنى ، كقوله تعالى : {فما منكم من أحد عنه حاجزين} [الحاقة : ٤٧].

فإن قيل : المعطوف عليه منفي ، فيلزم أن يكون " فيتعلمون " منفيا أيضا لعطفه علبيه ، وحينئذ ينعكس المعنى.

فالجواب ما قالوه ، وهو أن قوله : {وما يعلمان من أحد حتى يقولا} ، وإن كان منفيا لفظا فهو موجب معنى ؛ لأن المعنى : يعلمان الناس السحر بعد قولهما : إنما نحن فتنة ، وهذا الوجه ذكره الزجاج وغيره.

الثاني : أنه معطوف على " يعلمون الناس السحر " قاله الفراء.

وقد اعترض الزجاج هذا القول بسبب لفظ الجمع في " يعلمون " مع إتيانه بضمير التثنية في " منهما " يعني : فكان حقه أن يقال : " منهم " لأجل " يعلمون " وأجازه [أبو علي] وغيره ، وقالوا : لا يمتنع عطف " فيتعلمون " على " يعلمون " ، وإن كان التعليم من الملكين خاصة ، والضمير في " منهما " راجع إليهما ، فإن قوله : " منهما " إنما جاء بعدم تقدم ذكر الملكين.

وقد اعترض على قول الفراء من وجه آخر : وهو أنه يلزم منه الإضمار قبل الذكر ، وذلك أن الضمير في " منهما " عائد على الملكين ، وقد فرضتم أن " فيتعلمون منهما " عطف على " يعلمون " ، [فيكن التقدير : " يعلمون الناس السحر فيتعلمون منهما "] فيلزم الإضمار في " منهما " قبل ذكر الملكين ، وهو اعتراض

واه فإنهما متقدمان لفظا ، وتقدير تأخرهما لا يضر ؛ إذ المحذور عود الضمير على غير مذكور في اللفظ.
الثالث : وهو أحد قولي سيبويه أه عطف على "كفروا " ، فعل في موضع رفع ، فلذلك عطف عليه فعل مرفوع.
قال سيبويه : [وارتفع] " فيتعلمون " ؛ لأنه لم يخبر عن الملكين أنهما قالا : لا تكفر فيتعلموا ليجعلا كفره سببا لتعلم غيره ، ولكنه على : كفروا فيتعلمون ، وشرح ما قاله هو أنه يريد أن ليس " فيتعلمون " جوابا لقوله : فلا تكفر فيتنصب في جواب النهي ، كما النصب : {فيسحتكم} [طه : ٦١] ، بعد قوله : " لا تفتروا " لأن كفر من نهياه أن يكفر ليس سببا لتعلم من يتعلم.
واعترض على هذا بما تقدم من لزوم الإضمار قبل الذكر ، وتقدم جوابه.
الرابع : وهو القول الثاني لـ " سيبويه " أنه خبر مبتدأ محذوف ، والتقديرك " فهم يتعلمون " ، فعطف جلمة اسمية على فعلية.
الخامس : قال الزجاج أيضا : والأجود أن يكون معطوفا على " يعلمان فيتعلمون " فاستغني عن ذكر " يعلمون " على ما في الكلام من الدليل عليه [واعتراض أبو علي قول الزجاج ؛ فقال : " لا وجه لقوله : اسغني عن ذلكر " يعلمان " ؛ لأنه موجود في النص ".
وهذا الاعتراض من أبي علي ت حامل عليه لسبب وقع بينهما ؛ فإن الزجاج لم يرد أن " فيتعلمون " عطف على " يعلمان " المنفي بـ " ما " في قوله : " وما يعلمان " حتى يكون مذكورا في النص ، و إنما أراد أن ثم فعلا مضمرا يدل عليه قوة الكلام وهو : " يعلمان فيتعلمون "].
السادس : أنه عطف على معنى ما دل عليه أول الكلام ، والتقدير : فيأتون فيتعلمون ، ذكره الفراء والزجاج أيضا.
السابع : قال أبو البقاء : وقيل : هو مستأنف ، وهذا يحتمل أن يريد أنه خبر مبتدأ مضمر كقول سيبويه رحمه الله وأن يكون مستقلا بنفسه غير محمل على شيء قبله ، وهو ظاهر كلامه.
قوله : " منهما " متعلق بـ " يعلمون ".
و " من " لابتداء الغاية ، وفي الضمير ثلاثة أقوال : أظهرها : عوده إلى الملكين ، سواء قرىء بكسر اللام أو فتحها.

والثاني : يعود على السحر وعلى المنزل على الملكين.

والثالث : أنه يعود على الفتنة ، وعلى الكفر المفهوم من قوله : " فلا تكفر " ، ." (١)

"والغرض من هذه الآية التشبيه دون نفس الحقيقة ، ووجه التشبيه في ذلك أن من سلك طريقة الإيمان ، فهو جار على الاستقامة المؤدية إلبى الفوز والظفر بالطلبة من الثواب والنعيم ، فالمبدل لذلك بالكفر عادل عن الاستقامة فقيل فيه : إنه ضل سواء السبيل.

والسبيل يذكر ويؤنث : {قل هاذه سبيلى } [يوسف : ١٠٨].

والجملة من قوله : " فقد ضل " في محل جزم ؛ لأنها جزاء الشرط ، والفاء واجبة هنا لعدم صلاحيته شرطا.

فصل في المخاطب بهذا في المخاطب بهذا ثلاثة أوجه : أحدها : [أنهم المسلمون قاله الأصم ، والجبائي ، وأبو مسلم ، ويدل عليه وجوه : أحدها : أن قوله تعالى] : " أم تريدون " يقتضي معطوفا عليه وهو قوله : " لا تقولوا راعنا " فكأنه قال : وقولوا : انظرنا واسمعوا فهل تفعلون ذلك كما أمرتم أم تريدون أن تسألوا رسولكم ؟ وثانيها : أن المسلمين كان يسألون محمدا . صلى الله عليه وسلم وشرف وكرم وبجل وعظم . عن أمور لا خير لهم في البحث عنها ليعلموها كما سأل اليهود موسى . عليه الصلاة والسلام . مالم يكن لهم فيه خير عن البحث عنه.

وثالثها : سأل قوم من المسلمين أن يجعل لهم ذات أنواط كما كان للمشركين ذات

٣٨٨

أنواط ، وهي شجرة كانوا يعبدونهان ويعلقون عليها المأكول والمشروب ، كما سألوا موسى أن يجعل لهم إلها كما لهم آلهة.

القول الثاني : أنه خطاب لأهل " مكة " ، وهو قول ابن عباس ومجاهد رضي الله تعالى عنهم ؛ لأنه يروى أن عبد الله بن أمية المخزومي أتى رسول الله . صلى الله عليه وسلم . في رهط من قريش فقال : يا محمد والله ما أومن بك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا ، أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء بأن تصعدن ولن نؤمن لرقيك بعد ذلك حتى تنزل علينا كتابا [من عند الله إلى عبدالله بن أمية أن محمدا رسول الله فأتبعه.

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/٣٢٨

وقال له بقية الرهطك فإن لم تستطع ذلك فائتنا بكتاب من] عند الله جملة واحدة فيه الحلال والحرام والحدود والفرائض ، كما جاء موسى إلى قومه بالألواح من عند الله فيها كل ذلك ، فنؤمن لك عند ذلك.
فأنزل الله تعالى : {أم تريدون أن تسألوا رسولكم} محمدا أن يأتيكم بالآيات من عند الله كما سأل السبعون فقالوا : {نرى الله جهرة} [البقرة : ٥٥].
وعن مجاهد رحمه الله تعالى أن قريشا سألت محمدا عليه الصلاة والسلام أن يجعل لهم الصشفا ذهبا وفضة ، فقال : نعم هو لكم كالمائدة لبني إسرائيل فأبوا ورجعوا.
القول الثالث : المراد بهم اليهود ، [وهذا القول أصح ، لأن هذه السورة من أول قوله] : {يابني إسرائيل اذكروا نعمتي} [البقرة : ٤٧] حكاية ومحاجة معهم ؛ ولأن الآية مدنية ، ولأنه جرى ذكر اليهود وما جرى ذكر غيرهم.
فصل في سؤالهم [قال ابن الخطيب رحمه الله تعالى : ليس في الآية أنهم أتوا بالسؤال فضلا عن كيفيته ، وإنما المرجع فيه إلى الروايات المذكورة.
فإن قيل : إن كان ذلك السؤال طلبا للمعجزة فليس بكفر ؛ لأن طلب الدليل على الشيء لا يكون كفرا ، وإن كان طلبا لوجه **الحكمة في** نسخ الأحكام فهذا أيضا لا يكون كفراح لأن الملائكة . عليهم السلام . طلبوا **الحكمة في** خلق البشر ، ولم يكن ذلك كفرا.
والجواب أن يحملاً على أنهم طلبوا أن يجعل لهم إله كما لهم آلهة ، أو طلبوا المعجزة على سبيل التعنت ، أو اللحاج ، فهذا كفر ، والسبب هذا السؤال ، والله أعلم].
جزء : ٢ رقم الصفحة : ٣٨٦." (١)
"وقرأ ابن عباس وأبو الشعثاء وأبو حنيفة بالعكس.
قالوا : وتأويلها دعا ربه ، فسمى دعاءه ابتلاء مجازا ؛ لأن في الدعاء طلب استكشاف لما تجري به المقادير.
والضمير المرفوع في " فأتمهن " فيه قولان : أحدهما : أنه عائد على " ربه " أي : فأكملهن.
والثاني : أنه عائد على " إبراهيم " أي : عمل بهن ، ووفى بهن.
وهو إبراهيم بن تارح بن ناحور مولده بـ " الشوس " من أرض " الأهواز ".

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/٣٤٧

وقيل : " بابل " ، وقيل : "كولى " وقيل "كسكر " وقيل : " حيران ".

ونقله أبوه إلى " بابل " أرض نمرود بن كنعان ، كان له أربع بنين : إسماعيل وإسحاق ومدين ومدائن ، ذكره السهيلي.

فصل فيما دلتش عليه السورة اعلم أنه . سبحانه وتعالى . لما شرح و جوه نعمه على بني إسرائيل شرح قبائحهم في أديانهم وأعمالهم ، وختم هذا الفصل بشرح النعم بقوله : {يابني إسرائيل اذكروا نعمتي التى أنعمت عليكم} [البقرة : ١٢٢] بين نوع آخر من البيان ، وهو أن ذكر قصة إبراهيم . عليه السلام .

والحكمة فيه أن إبراهيم . عليه السلام . معترف بفضله جميع الطوائف ، والمشركون أيضا معترفون بفضله متشرفون بأنهم من أولاده ، ومن ساكني حرمه ، وخادمي بيته ، فذكر فضيلته لهم ؛ لأنها تدل على قبول محمد . صلى الله عليه وسلم . من وجوه : أحدها : أنه تعالى لما أمر ببعض التكاليف ، فلما وف لأى بها وخرج لا جرم نال النبوة والإمامة.

وثانيها : أنه لما طلب الإمامة لذريته فقال تعالى : {لا ينال عهدي الظالمين} فدل ذلك على أن من أراد هذا المنصب وجب عليه ترك اللجاج والتعصب للباطل.

وثالثها : أن الحج من خصائص دين محمد . صلى الله عليه وسلم . فحكى الله . تعالى . ذلك عن

٤٤٦

إبراهيم ليكون ذلك كالحجة على اليهود والنصارى في وجوب الانقياد لذلك.

واربعها : أن القبلة لما حولت إلى الكعبة شق ذلك على اليهود والنصارى ، فبينم الله . تعالى . أن هذا البيت قبلة إبراهيم الذي يعترفون بتعظيمه ، ووجوب الاقتداء به ، فكان ذلك مما يوجب زوال الغضب على قلوبهم.

فصل في معنى الاتبلاء والابتلاء هنا الاختبار والامتحان ، وابتلاء الله ليس ليعلم أقوالهم بالابتلاء ؛ لأنه . تعالى . عالم بجميع المعلومات على سبيل التفصايل من الأزل إلى الأبد ، ولكن ليعلم الناس أحوالهم حتى يعرف بعضهم بعضا ، أو عاملهم معاملة المختبر.

وختلف في " الكلمات " فقال مجاهد : هي المذكورة بعدها في قوله تعالى : {إني جاعلك للناس إماما} إلى آخرها من الآيات ، ورفع البيت ، وتطهير البيت ، ورفع القواعد ، والدعاء ببعث محمد . صلى الله عليه وسلم . فإن هذه أمور شاقة ؛ لأن الإمامة هاهنا هي النبوة وتتضمن مشاقا عظيمة.

وأما بناء البيت وتطهيره ، ورفع قواعده ، فمن وقف على ما روي في كيفية بنائه عرف شدة البلوى فيه ،

ثم إنه يتضمن إقامة المناسك ، وقد امتحن الله ـ تعالى ـ الخليل ـ عليه الصلاة والسلام ـ بالشيطان في الموقف لرمي الجمار وغيرها.

وأما اشتغاله بالدعاء ببعث محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فهو مما يحتاج إلى اخلاص العمل لله تعالى ، وإزالة الحسد عن القلب ، فكل هذه تكاليف شاقة ، ويدل على إرادة ذلك أنه عقبه بذكره من غير فصل بحرف عطف ، فلم يقبل وقال : {إني جاعلك للناس إماما}.

واعترض القاضي على هذا ، فقال : إنما يجوز هذا لو قال تعالى : وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمها إبراهيم ، ثم قال بعد ذلك : إني جاعلك للناس إماما فأتمهن.

وأجيب عنه : بأنه ليس المراد من الكلمات الإمامة فقط ، بل الإمامة وبناء البيت وتطهيره والدعاء ببعث محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فكأنه ـ تعالى ـ ابتلاه بمجموع هذه الأشياء ، فأخبر كأنه ابتلاه بأمور على الإجمال ، ثم أخبر عنه أتمها ، ثم عقب ذلك بالشرح والتفصيل ، وهذا ليس ببعيد.

وقال طاوس عن ابن عباس رضي الله عنهما : عشر خصال كانت فرضا في شرعه ، وهي سنة في شرعنا : خمس في الرأس ، وخمس في الجسد ، أما التي في الرأس : فالمضمضة ، والاستنشاق ، وفرق الرأس ، وقص الشارب ، والسواك ، وأما التي في البدن :

٤٤٧." (١)

"وفيه نظر من وجهين : أحدهما : لا نسلم أن " شهادة " ينحل إلى الموصول وصلته فإن كل مصدر لا ينحل لهما.

والثاني : سلمنا ذلك ، ولكن لا نسلم و الحالة هذه أن الظرف صفة ، بل هو معمول لها ، فيكون بعض الصلة أجنبيا حتى يلزم الفصل به بين الموصول وصلته ، وإنما كان طريق منع هذا بغير ما ذكر ، وهو أن المعنى يأبى ذلك.

و "كتم " يتعدى لا ثنين ، فأولهما في الآية الكريمة محذوف تقديره : كتم الناس شهادة ، والأحسن من هذه الوجوه أن تكون " من الله " صفة لشهادة أو متعلقة بعامل الظرف لا متعلقة بـ "كتم " ، وذلك أن كتمان الشهادة مع كونها مستدعة من الله عنده ابلغ في الأظلمية من كتمان شهادة مطلقة من عبادة الله.

وقال في " ري الظمآن " : في الآية التقديم وتأخير ، والتقديم : ومن أظلم من الله ممن كتم شهادة حصلت

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل ـ ، ص/٣٧٣

له كقولك : " ومن أظلم من زيد من جملة الكلمتين للشهادة " ، والمعنى : لو كان إبراهيم وبنوه يهودا أو نصارى ، ثم إن الله كتم هذه الشهادة لم يكن أحد ممن يكتم الشهادة أظلم منه ، لكن لما استحال ذلك مع عدلهن وتنزيهه عن الكذب علمنا أن الأمر ليس كذلك.

قال ابو حيان : وهذا متكلف جدا من حيث التركيب ، ومن حيث المدلول.

أما التركيب فإن التقديم والتأخير من الضرائر عند الجمهور.

وأيضا فيبقى قوله : " ممن كتم " متعلقا : إما بـ " أظلم " ، فيكون ذلك على طريق البدلية ، ويكون إذ ذلك بدل عام من خاص ، وليس بثابت ، وإن كان بعضهم زعم وروده ، لكن الجمهور تأولوه بوضع العام موضع الخاص ، أو تكون " من " متعلقة بمحذوف ، فتكون في موضع الحال ، أي : كائنا من الكاتمين.

وإما من حيث المدلول ، فإن ثبوت الأظلمية لمن جر بـ " من " يكون على تقدير ، أي : إن كتمها فلا أحد أظلم منه ، وهذا كله معنى لا يليق به ـ تعالى ـ وينزه كتابه عنه.

قوله تعالى : " {وما الله بغافل عما تعملون} وعيد وإعلام بأنه لم يترك أمرهم سدى ، وأنه يجازيهم على أعمالهم.

والغافل الذي لا يفطن إلى الأمور إهمالا منه ؛ مأخوذ من الأرض الغفل ، وهي التي لا علم لها ولا أثر عمارة.

وناقة غفلك لا سمة بها.

ورجل غفلك لم يجرب الأمور.

وقال الكسائي : " أرض غفل لم تمطر " ، غفلت عن الشيء غفلة وغفولة ، وأغفلت الشيءك تركته على ما ذكر منك.

٥٣٤

فإن قيل : ما **الحكمة في** عدوله عن قوله : " والله عليم " إلى " وما الله بغافل ".

فالجواب : أن نفي النقائص وسلبها عن صفاتا لله ـ تعالى ـ أكمل من ذكر الصفات مجردة عن ذكر نفي نقيضها ، فإن النقيض يستلزم إثبات النقيض وزيادة ، والإثبات لا يستلزم نفي النقيض ؛ لأن العليم قد يفضل عن النقيض ، فلما قال الله تعالى : " وما الله بغافل " دل ذلك على أنه عالم ، وعلى أنه غير غافل ، وذلك أبلغ في الزجر المقصود من الآية.

فإن قيل : قد قال تعالى في موضع آخر : {والله عليم بما يعملون} [يوسف : ١٩].

فالجواب : أن ذلك سيق لمجرد الإعلام بالقصة لا للزجر ، بخلاف هذه الآية ، فإن المقصود بها الزجر والتهديد.

جزء : ٢ رقم الصفحة : ٥٣١

اعلم أن الله ـ تعالى ـ لما حاج اليهود في هؤلاء الأنبياء عقبه بهذه الآية ليكون وعظا لهم ، وزجرا حتى لايتكلوا على فضل الآباءن فكل واحد يؤخذ بعمله.

وأيضا أنه تعالى لما ذكر حسن طريقة الأنبياء الذين ذكرهم في هذه الآيات بين أن الدليل لا يتم بذلك ، بل كل إنسان مسؤول عن عمله ، ولا عذر له في ترك الحق بأن يتوهم أنه متمسك بطريقة من تقدم ؛ لأنهم أصابوا أو أخطئوا لا ينفع هؤلاء ولا يضرهم لئلا يتوهم أن طريقة الدين التقليد.

فإن قيل : لم كررت هذه الآية ؟ فالجواب من وجهين : الأول : قال الجبائي : إنه عني بالآية الأولى إبراهيم ، ومن ذكر معه ، والثانية أسلاف اليهود.

قال القاضي : هذا بعيد ؛ لأن أسلاف اليهود والنصارى لم يجر لهم ذلك مصرح ، وموضع الشبهة في هذا القول أن القوم لما قالوا في إبراهيم وبينه : إنهم كانوا هودا ، فكأنهم قالوا : إنهم كانوا على مثل طريقة أسلافنا من اليهود ، فصار سلفهم في حكم المذكورين فجاز أن يقول : {تلك أمة قد خلت} ويعنيهم ولكن ذلك كالتعسف ، بل المذكور السابق هو إبراهيم وبنوه ، فقوله : " تلك أمة " يجب أن يكون عائدا إليهم.

الوجه الثاني : أنه متى اختلفت الأوقات والأحوال والمواطن لم يكن التكرار عبثا ، فكأنه ـ تعالى ـ قال : ما هذا إلا بشر ، فوصف هؤلاء الأنبياء فيما أنتم عليه من الدين لا يسوغ التقليد في هذا [الجنس] ، فعليكم بترك الكلام في تلك الأمة ، فلها ما كسبت ،

٥٣٥

وانظر فيما دعاكم إليه محمد صلى الله عليه وسلم فإن ذلك أنفع لكم ، وأعود عليكم ، ولا تسألون إلا عن عملكم.

قال القرطبي رحمه الله تعالى : كررها ، لأها تضمنت معنى التهديد والتخويف ، أي : إذا كان أولئك الأنبياء على إمامتهم وفضلهم يجازون بكسبهم ، فأنتم أحرى ، فوجب التأكيد فلذلك كررها.

٥٣٦

." (١)

"بمجموعها في كونها حجة على غيرها لزالت الفائدة ، إذ لم يبق بعد انقضائها من تكون الأمة حجة عليه.

فعلمنا أن المراد به أهل كل عصر ، ويجوز تسمية أهل العصر الواحد بالأمة ، فإن الأمة الجماعة التي تؤم جهة واحدة ، ولا شك أن أهل كل عصر كذلك ، ولأنه – تعالى – قال : " أمة وسطا " فعبر عنهم بلفظ النكرة ، ولا شك أن هذا يتناول أهل كل عصر.

[قال النووي – رحمه الله تعالى – في " التهذيب " : الأمة تطلق على معان : منها من صدق النبي صلى الله عليه وسلم وآمن بما جاءه ، واتبعه فيه ، وهذا هو الذي جاء مدحه في الكتاب والسنة كقوله تعالى : {كذلك جعلناكم أمة وسطا} و {كنتم خير أمة أخرجت للناس} [آل عمران : ١١٠].

وقوله صلوات الله وسلام عليه : " شفاعتي لأمتي " و " تأتي أمتي يوم القيامة غرا محجلين " وغير ذلك.

ومنها من بعث إليهم النبي – صلوات الله وسلامه عليه – من مسلم وكافر.

ومنه قوله علىه أفضل الصلاة والسلام : " والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار " رواه مسلم.

ويأتي باقي الكلام عن الأمة في آخر " النحل " إن شاء الله – تعالى – عند قوله تعالى : {إن إبراهيم كان أمة} [النحل : ١٢٠] إلى قوله : {كان الناس أمة واحدة} [البقرة : ٢١٣].

فصل في الكلام على قوله : لتكونوا قوله تعالى : " لتكونوا " يجوز في هذه اللام وجهان : أحدهما : أن تكون لام "كي " فتفيد العلة.

والثاني : أن تكون لام الصيرورة ، وعلى كلا التقديرين فهي حرف جر ، وبعدها " أن " مضمرة ، وهي وما بعدها في محل جر ، وأتى بـ " شهداء " جمع " شهيد " الذي يدل على المبالغة دون شاهدين وشهود جميع " شاهد ".

وفي " على " قولان : أحدها : أنها على بابها ، وهو الظاهر.

والثاني : أنها بمعنى " اللام " ، بمعنى : أنكم تنقلون إليهم ما علمتموه من الوحي

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/٤١٤

والدين ، كما نقله الرسول – عليه السلام – وكذلك القولان في " على " الأخيرة ، بمعنى أن الشهادة لمعنى التزكية منه – عليه السلام – لهم.
وإنما قدم متعلق الشهادة آخرا ، وقدم أولا لوجهين : أحدهما : وهو ما ذكره الزمخشري أن الغرض في الأول إثبات شهادتهم على الأمم ، وفي الآخر اختصاصهم بكون الرسول شهيدا عليهم.
والثاني : أن " شهيدا " أشبه بالفواصل والمقاطع من " عليكم " ، فكان قوله " شهيدا " تمام الجملة ، ومقطعها دون " عليكم " ، وهذا الوجه قاله الشيخ مختارا له رادا على الزمخشري مذهبه من أن تقديم المعفول يشعر بالاختصاص ، وقد تقدم ذلك.
فصل في الكلام على الشهادة.
اختلفوا في هذه الشهادة هل هي في الدنيا أو في الآخرة ؟ فالقائل بأنها في الآخرة وهم الأكثرون لهم وجهان : الأول : أن هذه الأمة تشهد للأنبياء على أممهم الذين يكذبونهم.
روي أن الأمم يجحدون تبليغ الأنبياء – عليهم الصلاة والسلام – فيطالب الله – تعالى – الأنبياء بالبينة على أنهم قد بلغوا وهو أعلم ، فيؤتى بأمة محمد – صلى الله عليه وسلم – فيشهدون فتقول الأمم : من أين عرفتم فيقولون : علمنا ذلك بإخبار الله تعالى في كتابه الناطق على لسان نبيه الصادق ، فيؤتى بمحمد – عليه الصلاة والسلام – فيسأل عن حال أمته ، فيزكيهم ويشهد بعدالتهم ، وذلك قوله : {فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا} [النساء : ٤١] وقد طعن القاضي رحمه الله تعالى في هذ الرواية من وجوه : أحدها : أن مدار هذه الرواية على أن الأمم يكذبون أنبياءهم ، وهذا بناء على أن أهل القيامة يكذبون.
وهذا باطل عند القاضي ، وسيأتي الكلام على هذه المسألة في سورة " الأنعام " عند قوله تعالى : {ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين انظر كيف كذبوا على أنفسهم} [الأنعام : ٢٣ – ٢٤].
وثانيها : أن شهادة الأمة ، وشهادة الرسول – عليه الصلاة والسلام – مستندة في الآخرة إلى شهادة الله – تعالى – على صدق الأنبياء ، وإذا كان كذلك ، فلم لم يشهد الله – تعالى – لهم بذلك ابتداء ؟ والجوا : الحكمة في ذلك تمييز أمة محمد – عليه الصلاة والسلام – في الفضل عن سائر الأمم بالمبادرة إلى تصديق الله – تعالى – وتصديق جميع الأنبياء ، والإيمان بهم جميعا ، فهم بالنسبة إلى سائر الأمم كالعدل

بالنسبة إلى الفاسق.

وثالثها : أن مثل هذه الأخبار لا تسمى شهادة ، وهذا ضعيف لقوله عليه الصلاة ١٧." (١)

"قوله تعالى : {من بعد ما جآءك من العلم}.

إنه – تعالى – لم يرد بذلك أنه نفس العلم ، بل المراد الدلائل والآيات والمعجزات ؛ لأن ذلك من طرق العلم ، فيكون ذلك من باب إطلاق اسم الأثر على المؤثر ، والغرض من هذا الاستعارة هو المبالغة [والتعظيم في] أمر النبوات والمعجزات بأنه سماه باسم العلم ، وذلك ينبهك على أن العلم أعظم المخلوقات شرفا ومرتبة ، ودلت الآية على أن توجه الوعيد على العلماء أشد من توجهه على غيرهم.

[قوله تعالى : {إنك إذا لمن الظالمين} أي إنك لو فعلت ذلك لكنت بمنزلة القوم في كفرهم ، وظلمهم أنفسهم].

و " إذا " حرف جواب وجزاء بنص سيبويه ، وتنصب المضارع بثلاثة شروط : أن تكون صدرا ، وألا يفصل بينها وبين الفعل بغير الظرف والقسم ، وألا يكون الفعل حالا ، ودخلت هنا بين اسم " إن " وخبرها لتقرير النسبة بينهما وكان حدها أن تتقدم أو تتأخر ، فلم تتقدم ، لأنه سبق قسم وشرط والجواب هو للقسم ، فلو تقدمت لتوهم أنها لتقرير النسبة التي بين الشرط والجواب المحذوف ، ولم تتأخر لئلا تفوت مناسبة الفواصل رؤوس الآي.

قال أبو حيان : وتحرير معنى " إذا " صعب اضطرب الناس في معناها ، وفي فهم كلام سيبويه فيها ، وهو أن معناها الجواب والجزاء.

قال : والذي تحصل فيها أنها لا تقع ابتداء كلام ، بل لا بد أن يسبقها كلام لفظا أو تقديرا ، وما بعدها في اللفظ أو التقدير ، وإن كان متسببا عما قبلاه فهي في ذلك على وجهين : أحدهما : أن تدل على إنشاء الارتباط والشرط ، بحيث لا يفهم الارتباط من غيرها ، مثال ذلك : أزورك فتقول : إذا أزورك ، فإنما تريد الآن أن تجعل فعله شرطا لفعلك ، وإنشاء السببية في ثاني حال من ضرورته أن يكون في الجواب ، وبالفعلية في زمان مستقبل ، وفي هذا الوجه تكون عاملة ، ولعملها شروط مذكورة في النحو.

الوجه الثاني : أن تكون مؤكدة لجواب ارتبط بمقدم ، أو مبهة على مسبب حصل في الحال ، وهي في

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/٤٢١

الحالين غير عاملة ؛ لأن المؤكدات لا يعتمد عليها والعامل يعتمد عيله ، وذلك ، نحو : " إن تأتني إذا آتك " ، و " والله إذا لأفعلن " فلو أسقطت " إذا " لفهم الارتباط ، ولما كانت في هذا الوجه غير معتمد عليها جاز دخولها على الجملة الاسمية الصريحة نحو : " أزورك " فتقول : " إذا أنا أكرمك " ، وجاز توسطها نحو : " أنا إذا أكرمك " وتأخرها ، وإذا تقرر هذا فجاءت " إذا " في الآية مؤكدة للجواب المرتبط بما تقدم ، وإنما

٤٩

قررت معناها هنا ؛ لأنها كثيرة الدور في القرآن ، فتحمل في كل موضع على ما يناسب من هذا الذي قررناه انتهى كلامه.

واعلم أ ، ها إذا تقدمها عاطف جاز إعمالها وإهمالها ، وهو الأكثر ، وهي مركبة من " همزة وذال ونون " ، وقد شبهت العرب نونها بتنوين المنصوب قلبوها في الوقف ألفا ، وكتبوها في الكتاب على ذلك ، وهذا نهاية القول فيها.

وجاء في هذا المكان " من بعد ما جاءك " وقال قبل هذا : {بعد الذي جآءك} [البقرة : ١٢٠] وفي " الرعد " : {بعد ما جآءك} [الرعد : ٣٧] فلم يأت بـ " من " الجارة إلا هنا ، واختص موضعا بـ " الذين " ، وموضعين بـ " ما " ، فما الحكمة في ذلك ؟ والجواب : ما ذكره بعضهم وهو أن " الذي " أخص و " ما " أشد إبهاما ، فحيث أتي بـ " الذي " أشير به إلى العلم بصحة الدين الذي هو الإسلام المانع من ملتي اليهود والنصارى ، فكان اللفظ الأخص الأشهر أولى فيه ؛ لأنه علم بكل أصول الدين ، وحيث أتي بلفظ " ما " أشير به إلى العلم [بركنين] من أركان الدين ، أحدهما : القبلة ، والأخر : بعض الكتاب ؛ لأنه أشار إلى قوله : {ومن الأحزاب من ينكر بعضه} [الرعد : ٣٦].

قال : وأما دخول " : من " ففائدته ظاهرة ، وهي بيان أول الوقت الذي وجب عليه – عليه السلام – أن يخالف أهل الكتاب في قبلتهم ، والذي يقال في هذا : إنه من باب التنوع من البلاغة.

جزء : ٣ رقم الصفحة : ٤٣

في " الذين آتيناهم " : ستة أوجه : ظهرها : أنه مرفوع بالابتداء ، والخبر قوله : " يعرفونه ".

الثاني : أنه خبر مبتدأ محذوف أي : هم الذين آتيناهم.

الثالث : النصب بإضمار " أعني ".

الرابع : الجر على البدل من " الظالمين ".

الخامس : على الصفة للظالمين.

السادس : النصب على البدل من " الذين أوتوا الكتاب " في الآية قبلها.

قوله تعالى : " يعرفونه " فيه وجهان : أحدهما : أنه خبر " الذين آتيناهم "كما تقدم في أحد الأوجه المذكورة في " الذين آتيناهم ".

الثاني : أنه نصب على الحال على بقية الأقوال المذكورة.

٥٠

"(١) .

"وثانيها : ما يحكم العقل [بقبحه] في أول الأمر ، إلا أنه لما ورد الشرع به ، وبين **الحكمة فيه** ، [وهي] الابتلاء ، والامتحان ؛ على ما قال تعالى : {ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات} [البقرة : ١٥٥] ، فحينئذ يعتقد المسلم حسنه ، وكونه حكمة وصوابا.

[وثالثها] : ما لا يهتدي العقل إلى حسنه ، ولا إلى [قبحه] ، بل [يراها] كالعبث الخالي عن المنفعة والمضرة ، وهو مثل أفعال الحج من السعي بين الصفا والمروة ، فذكر الله تعالى هذا القسم عقيب القسمين الأولين ؛ ليكون قد نبه على جميع أقسام التكاليف.

قوله [تعالى] : " إن الصفا والمروة " : [الصفا :] اسم " إن " ، و " من شعائر الله " خبرها.

قال أبو البقاء - رحمه الله تعالى - : وفي الكلام حذف مضاف ، تقديره " طواف الصفا ، أو سعي الصفا ".

وألف " الصفا " [منقلبة] عن واو ؛ بدليل قلبها في التثنية واوا ؛ قالوا : صفوان ؛ والاشتقاق يدل عليه أيضا ؛ لأنه من الصفو ، وهو الخلوص ، [والصفا : الحجر الأملس].

وقال القرطبي : " والصفا مقصور " جمع صفاة ، وهي الحجارة الملس.

وقيل : الصفا اسم مفرد ؛ وجمعه " صفي " - بضم الصاد - [وأصفاء] ؛ على [وزن] أرجاء.

قال [الراجز] : [الرجز] ٨٥٠ - كأن متنيه من النفي

مواقع الطير على الصفي

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/٤٣٩

جزء : ٣ رقم الصفحة : ٩٠
وقيل : من شروط الصفا : البياض والصلابة ، واشتقاقه من : " صفا يصفو " ، أي : [أخلص من] التراب والطين ، والصفا : الحجر الأملس.
وفي كتاب الخليل : الصفا : الحجر الضخم الصلب الأملس ، وإذا [نعتوا] الصخرة ، قالوا : صفاة صفواء ، وإذا ذكروا ، قالوا : " صفا صفوان " ، فجعلوا الصفا [والصفاة] كأنهما في معنى واحد.
قال المبرد : " الصفا " : كل حجر أملس لا يخالطه غيره ؛ من طين أو تراب ،
٩١
ويتصل به ، ويفرق بين واحده وجمعه تاء التأنيث ؛ نحو : صفا كثير ، وصفاة واحدة ، وقد يجمع الصفا على : فعول ، وأفعال ؛ قالوا : صفين بكسر الصاد ، وضمها ؛ كعصي ، [وأصفاء] ، والأصل صفوو ، وأضفاو ، وقلبت الواو في " صفوو " ياءين ، والواو في " أصفاء " همزة ؛ ك "كساء " وبابه].
والمروة : الحجارة الصغار ، فقيل : اللينة.
وقال الخليل : البيض الصلبة ، الشديدة [الصلابة].
وقيل : المرهفة الأطراف.
وقيل : البيض.
وقيل : السود.
وهما في الآية علمان لجبلين معروفين ، والألف واللام فيهما للغلبة ؛ كهما في البيت ، والنجم ، وجمعها مرو ؛ كقوله [في ذلك] : [الرمل] ٨٥١ - وترى المرو إذا ما هجرت
عن يديها كالفراش المشفتر
وقال بعضهم : جمعه في القليل : مروات ، وفي الكثير : مرو.
قال أبو ذؤيب : [الكامل] ٨٥٢ - حتى كأني للحوادث مروة
[بصفا المشقر كل يوم تقرع]
فصل في حد الصفا والمروة قال الأزرقي : [ذرع] ما بين الصفا والمروة : [سبعمائة ذراع وستة وستون ذراعا] ونصف ذراع.
قال القرطبي : وذكر الصفا ؛ لأن آدم [المصطفى - [صلوات الله ، وسلامه عليه] - وقف عليه ، فسمي

به ؛ ووقفت حضواء على المروة ، فسميت باسم المرأة ، فأنثت لذلك ، والله أعلم].
قال الشعبي : كان على الصفا صنم يدعى " إسافا " ، وعلى المروة صنم يدعى نائلة ، فاطرد ذلك في [التذكير والتأنيث] ، وقدم المذكر ، وما كان كراهة من كره الطواف بينهما إلا من أجل هذا ، حتى رفع الله الحرج من ذلك ، وزعم أهل الكتاب :
٩٢
." (١)

"أنهما كانا آدميين زنيا في الكعبة ، فمسخهما الله حجرين ، فوضعهما على الصفا ، والمروة ؛ ليعتبر بهما ؛ فلما طالبت المدة ، عبدا من دون الله ، والله – تعالى – أعلم.
فصل في معنى " الشعائر " و " الشعائر " : جمه شعيرة ، وهي العلامة ، فكل شيء جعل علما من أعلام طاعة الله ، فهو من شعائر الله تعالى.
قال تبارك وتعالى : {والبدن جعلناها لكم من شعائر الله} [الحج : ٣٦] ، أي : علامة [للقربة ، ومنه : إشعار السنام [وهو أن تعلم بالمدية] ومنه : الشعار في الحرب ، [وهي العلامة التي يتبين بها إحدى الفئتين من الأخرى] ومنه قولهم : شعرت بكذا ، أي : علمت به ، وقيل : الشعائر جمع [شعيرة] ، والمراد بها في الآية الكريمة مناسك الحج ، ونقل الجوهري أن الشعائر هي العبادات ، والمشاعر أماكن العبادات ، ففرق بين الشعائر والمشاعر.
وقال الهروي : الأجود : لا فرق بينهما ، والأجود شعائر بالهمز ؛ لزيادة حرف المد ، وهو عكس " معايش " و " مصايب ".
فصل في الشعائر هل تحمل على العبادات أو على موضع العبادات الشعائر : إما أن نحملها على العبادات ، أو النسك ، أو نحملها على موضع العبادات والنسك ؟ ! [فإن قلنا بالأول ، حصل في الكلام حذف ؛ لأن نفس الجبلين لا يصح وصفهما بأنهما دين ونسك ؛ فالمراد به أن الطواف بينهما أو السعي من دين الله تعالى.
وإن قلنا بالثاني : استقام ظاهر الكلام ؛ لأن هذين الجبلين يمكن أن يكونا موضعين للعبادة والنسك].
وكيف كان ؛ فالسعي بينهما من شعائر الله ، ومن أعلام دينه ، وقد شرعه الله [تعالى] لأمة محمد – عليه

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/٤٦١

الصلاة والسلام - [لإبراهيم عليه الصلاة والسلام] ، قبل ذلك ، وهو من المناسك التي علمها الله [تعالى] لإبراهيم - عليه الصلاة والسلام - إجابة لدعوته في [قوله تعالى] : {وأرنا مناسكنا} [البقرة : ١٢٨].

واعلم أن [السعي ليس] عبادة تامة في نفسه ، بل إنما يصير عبادة إذا صار بعضها من أبعاض الحج والعمرة ، فلهذا بين الله تبارك وتعالى الموضع الذي يصير فيه السعي عبادة ، فقال [سبحانه] : {فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما}.

والحكمة في شرع هذا السعي : ما حكي أن هاجر حين ضاق بها الأمر في عطشها ، وعطش ابنها إسماعيل ، سعت في هذا المكان إلى أن صعدت الجبل ، ودعت ، فأنبع الله

٩٣

لها زمزم ، وأجاب دعاءها ، وجعل فعلها طاعة لجميع المكلفين إلى يوم القيامة.

قوله [تعالى] : " فمن حج البيت ".

" من " : شرطية في محل رفع بالابتداء و " حج " : في موضع جزم بالشرط و[البيت " نصب على المفعول به ، لا على الظرف ، والجواب قوله : {فلا جناح عليه}.

و " الحج " : قال القفال - رحمه الله - فيه أقوال : أحدها : أن الحج في اللغة كثرة الاختلاف إلى الشيء والتردد إليه ، فإن الحاج يأتيه أولا ؛ ليزوره ، ثم يعود إليه للطواف ، ثم ينصرف إلى منى ، ثم يعود إليه ؛ لطواف الزيارة ، [ثم يعود لطواف الصدر].

وثانيها : قال قطرب [الحج] الحلق ، يقال : احجج شجتك ، وذلك أن يقطع الشعر من نواحي الشجة ؛ ليدخل القدح في الشجة.

وقال الشاعر : [الطويل] ٨٥٣ - وأشهد من عوف حلولا كثيرة

يحجون سب الزبرقان المعصفرا

"

جزء : ٣ رقم الصفحة : ٩٠

السب " : لفظ مشترك ، قال أبو عبيدة : السب ، بالكسر : السباب ، وسبك أيضا : الذي يسابك ؛ قال الشاعر : [الخفيف] ٨٥٤ - لا تسبنني فلست بسبي

[إن سبي] من الرجال الكريم

والسب أيضا : الخمار والعمامة.

قال المخبل السعدي : [الطويل] ٨٥٥ - ....

يحجون سب الزبرقان المعصفرا

والسب أيضا : الحبل في لغة هذيل ؛ قال أبو ذؤيب : [الطويل] ٨٥٦ - تدلى عليها بين سب وخيطة

بجرداء مثل الوكف يكبو غرابها

٩٤

" (١).

"وليس هذا الخلاف مقصور على هذه الكلمة ، بل إذا التقى ساكنان من كلمتين ؛ وضم الثالث ضما لازما نحو : {ولقد استهزئ} [الأنعام : ١٠] {قل ادعوا} [الإسراء : ١١٠] ، {وقالت اخرج} [يوسف : ٣١] ، جرى الخلاف المذكور ، إلا أن أبا عمرو خرج عن أصله في {أو} [المزمل : ٣] و {قل ادعوا} [الإسراء : ١١٠] فضمهما ، وابن ذكوان خرج عن أصله ، فكسر التنوين خاصة ؛ نحو {محظورا انظر} [الإسراء : ٢٠ - ٢١] واختلف عنه في {برحمة ادخلوا} [الأعراف : ٤٩] {خبيثة اجتثت} [إبراهيم : ٢٦] فمن كسر ، فعلى أصل التقاء الساكنين ، ومن ضم ، فلإتباع ، وسيأتي بيان الحكمة في ذلك.

عند• ذكره ، إن شاء الله - تعالى - والله أعلم.

قوله : " غير باغ " : " غير " : نصب على الحال ، واختلف في صاحبها : فالظاهر : أنه الضمير المستتر [في " اضطر "] ، وجعله القاضي ، وأبو بكر الرازي من فاعل فعل محذوف بعد قوله " اضطر " ؛ قالا : تقديره : " فمن اضطر فأكل غير باغ " ؛ كأنهما قصدا بذلك أن يجعلاه قيدا في الأكل لا في الاضطرار.

قال أبو حيان : ولا يتعين ما قالاه ؛ إذ يحتمل أن يكون هذا المقدر بعد قوله {غير باغ ولا عاد} بل هو الظاهر والأولى ؛ لأن في تقديره قبل " غير باغ " فضلا بين ما ظاهره الاتصال فيما بعده ، وليس ذلك في تقديره بعد قوله : " غير باغ ".

و " عاد " : اسم فاعل من : عدا يعدو ، إذا تجاوز حده ، والأصل : " عادو " فقلب الواو ياء ؛ لانكسار ما قبلها ؛ كغاز من الغزو ، وهذا هو الصحيح ؛ وقيل : إنه مقلوب من ، عاد يعود ، فهو عائد ، فقدمت اللام على العين ، فصار اللفظ " عادو " فأعل بما تقدم ، ووزنه " فالع " ؛ كقولهم : " شاك " في " شائك

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/٤٦٢

" من الشوكة ، و " هار " ، والأصل " هائر " ، لأنه من : هار يهور.
قال أبو البقاء - رحمه الله تعالى - : " ولو جاء في غير القرآن الكريم منصوبا ، عطفا على موضع " غير " جاز " ، يعني : فكان يقال : " ولا عاديا ".
قوله : " اضطر " أحوج وألجىء ، فهو : " افتعل " من الضرورة ، وأصله : من الضرر ، وهو الضيق ، وهذه الضرورة لها سببان : أحدهما : الجوع الشديد ، وألا يجد مأكولا حلالا يسد به الرمق ، فيكون عند ذلك مضطرا.
والثاني : إذا أكره على تناوله.
١٧٨
واعلم أن الاضطرار ليس من فعل المكلف ؛ حتى يقال : إنه لا إثم عليه ، فلا بد من إضمار ، والتقدير : " فمن اضطر ، فأكل ، فلا إثم عليه " ونظيره : {فعدة من أيام أخر} [البقرة : ١٨٤] ، فحذف " فأفطر " ، وقوله تعالى {فمن كان منكم مريضا أو به أذى من رأسه ففدية من صيام} [البقرة : ١٩٦] وإنما جاز الحذف ؛ لعلم المخاطب به ، ودلالة الخطاب عليه.
والبغي : أصله في اللغة الفساد.
قال الأصمعي : يقال : بغى الجرح بغيا : إذا بدأ في الفساد ، وبغت السماء ، إذا كثر مطرها ، والبغي : الظلم ، والخروج عن الإنصاف ، ومنه قوله تبارك وتعالى {والذين إذآ أصابهم البغي هم ينتصرون} [الشورى : ٣٩] وأصل العدوان : الظلم ، ومجاوزة الحد.
فصل اختلفوا في معنى قوله " غير باغ ولا عاد} فقال بعضهم : " غير باغ " أي غير خارج على السلطان ، و " لا عاد " متعد بسفره ، أعني : عاص بأن خرج لقطع الطريق ، والفساد في الأرض ، وهو قول ابن عباس ، ومجاهد ، وسعيد بن جبير.
وقالوا : لا يجوز للعاصي بسفره أن يأكل الميتة ، إذا اضطر إليها ، ولا أن يترخص في السفر بشيء من الرخص ؛ حتى يتوب ، وذهب جماعة إلى أن البغي والعدوان راجعان إلى الأكل ، واختلفوا في معناه.
فقال الحسن ، وقتادة ، والربيع ، ومجاهد ، وابن زيد : أي : يأكل من غير ضرورة أي : بغي في أكله " ولا عاد " ن أي : ولا يعدو لشبعه.
وقيل : " غير باغ " أي : غير طالبها ، وهو يجد غيرها ، " ولا عاد " ، أي : غير متعد ما حد له ، فيأكل

حتى يشبع ، ولكن يأكل ما يسد رمقه.

وقال مقاتل : " غير باغ " أي : مستحل لها ، " ولا عاد " أي : يتزود منها ، وقيل : " غير باغ " ، أي : مجاوز للحد الذي أحل له ، " ولا عاد " أي : لا يقصر فيما أبيح له فيدعه.

قال مسروق : من اضطر إلى الميتة ، والدم ، ولحم الخنزيرن فلم يأكل ، ولم يقرب ، حتى مات ، دخل النار.

وقال سهل بن عبد الله : " غير باغ " : مفارق للجماعة ، " ولا عاد " ، أي : ولا مبتدع مخالف السنة ، ولم يرخص للمبتدع تناول المحرم عند الضرورة.

فإن قيل : الأكل في تلك الحالة واجب ، وقوله : {فلا اا إثم عليه} أيضا يفيد الإباحة.

١٧٩

." (١)

"جائز أن يكون تطوعا ؛ لأنه قال في آخر الآية الكريمة : {وأولائك هم المتقون} [البقرة : ١٧٧] ، وقف التقوى عليه ، ولو كانه تطوعا ، لما وقف التقوى عليه ، وإذا ثبت أنه واجب ، وأنه غير الزكاة ، ففيه أقوال : أحدها : أنه عبارة عن دفع الحاجات الضرورية ؛ مثل : إطعام المضطر ؛ ويدل عليه قوله – عليه الصلاة والسلام – : " لا يؤمن بالله واليوم الآخر من بات شبعانا ، وجاره طاو إلى جنبه " وروي عن فاطمة بنت قيس : " إن في المال حقا سوى الزكاة " ثم تلت " وآتى المال على حبه ".

وحكي عن الشعبي أنه سئل عمن له مال ، فأدى زكاته ، فهل عليه سواه ؟ فقال : نعم ، يصل القرابة ، ويعطي السائل ، ثم تلا هذه الآية الكريمة.

وأيضا : فلا خلاف أنه إذا انتهت الحاجة إلى الضرورة ، وجب على الناس أن يعطوه مقدار دفع الضرورة.

فإن قيل : الزكاة نسخت الحقوق المالية.

فالجواب : أنه – عليه السلام – قال : " في المال حقوق سوى الزكاة " ؛ وقول الرسول أولى ، وأجمعت الأمة على أنه يجب أن يدفع إلى المضطر ما يدفع به الضرورة ، وإن سلمنا أن الزكاة نسخت كل حق ، فالمراد أنها نسخت الحقوق المقدرة ، أما الذي لا يكون مقدرا ، فغير منسوخ ؛ بدليل أنه يلزم النفقة على الأقارب ، والمماليك.

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/٥٠٦

فإن قيل : إذا صح هذا التأويل ، فما الحكمة في هذا الترتيب ؟ ! فالجواب من وجوه : أحدها : أنه تبارك وتعالى قدم الأولى فالأولى ؛ لأن الفقير القريب أولى بالصدقة من غيره ، لأن يجمع فيه بين الصلة ، والصدقة ، ولأن القرابة من أوكد الوجوه ف صرف المال إليه ، ولذلك يستحق بها الإرث ، ويحجر على ذي المال بسببه في الوصية ، حتى لا يتمكن من الوصية ، إلا في الثلث ، ولذلك كانت الوصية للأقارب من الواجبات ؛ لقوله تعالى : {كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيرا الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف} [البقرة : ١٨٠].

وإن كانت نسخت عند بعضهم ؛ فلهذه الوجوه ، قدم ذوي القربى ، ثم أتبعه باليتامى ؛ لأن الصغير الفقير الذي لا والد له ، ولا كاسب ، فهو منقطع الحيلة من كل الوجوه ، ثم أتبعهم بالمساكين ؛ لأن الحاجة قد تشتد بهم ، ثم ذكر السائلين ، وفي الرقاب ؛ لأن حاجتهما دون حاجة من تقدم.

وثانيها : أن علم المرء بشدة حاجة قريبه أقوى ، ثم بحاجة الأيتام ، ثم بحاجة المساكين ثم على هذا السق.

وثالثها : أن ذا القربى مسكين ، وله صفة زائدة تخصه ؛ لأن شدة حاجته تغم صاحب المال ، وتؤذيث قلبه ، ودفع الضرر عن النفس مقدم على دفع الضرر عن الغير ؛ فلذلك بدأ الله بذي القربى ، ثم باليتامى ؛ لأن الغم الحاصل بسبب عجز الصغار عن الطعام والشراب أشد من الغم الحاصل بسبب عجز الكبار عن تحصيلهما ، ثم المساكين ؛ لأن الغم الحاصل بسببهم أخف من الغم الحاصل بسبب الصغار.

وأما ابن السبيل ، فقد يكون غنيا ، وقد تشتد ـاجته في الوقت ، والسائل قد يكون غنيا ، ويظهر شدة الحاجة ، وأخر المكاتب ؛ لأن إزالة الرق ليست في محل الحاجة الشديد!.

القول الثاني : أن المراد بإيتاء المال : ما روي أنه – عليه الصلاة والسلام – عند ذكره الإبل ، قال : " إن فيها حقا ؛ وهو إطراق فحلها ، وإعارة دلوها " ، وهذا بعيد ؛ لأن الحاجة إلى إطراق الفحل أمر لا يختص به ابن السبيل ، والسائل والمكاتب.

القول الثالث : أن إيتاء المال إلى هؤلاء كان واجبا ، ثم نسخ بالزكاة ، وهذا أيضا ضعيف ، لأنه تبارك وتعالى جمع في هذه الآية الكريمة بين هذا الإيتاء ، وبين الزكاة.

وقال بعضهم : المراد صدقة التطوع.

فصل في الوجوه الإعرابية لقوله " ذوي " قوله " ذوي " فيه وجهان :

٢٠٧

" (١).

"١٨٥] ناسخا للتخيير مع اتصاله بالمنسوخ وذلك لا يصح.

والجواب : أن الاتصال في التلاوة لا يوجب الاتصال في النزول ؛ وهذا كما قيل في عدة المتوفى عنها زوجها ؛ أن المقدم في التلاوة هو الناسخ والمنسخ متأخر ، وهذا عكس ما يجب أن يكون عليه حال الناسخ والمنسوخ ، فقالوا : إن ذلك في التلاوة ، أما في الإنزال ، فكان الاعتداد بالحول هو المتقدم ، والآية الدالة على أربعة أشهر وعشر هي المتأخرة ، وكذلك في القرآن آيات كثيرة مكية متأخرة في التلاوة عن الآيات المدنية ، والله أعلم.

فصل في أول ما نسخ بعد الهجرة قال ابن عباس – رضي الله عنهما – أول ما نسخ بعد الهجرة أمر القبلة والصوم ، ويقال نزل صوم شهر رمضان قبل بدر بشهر وأيام ، وعن عائشة – رضي الله عنها – قالت : كان يوم عاشوراء تصومه قريش في الجاهلية ، وكان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يصومه في الجاهلية فلما قدم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – المدينة ، صامه ، وأمر بصيامه ، فلما فرض رمضان كان هو الفريضة ، وترك يوم عاشوراء ، فمن شاء صامه ، ومن شاء تركه.

فصل في المراد بقوله " معدودات " في قوله تعالى : " معدودات " وجهان : أحدهما : أنها مقدرات بعدد معلوم.

والثاني : قلائل ؛ كقوله تعالى : {دراهم معدودة} [يوسف : ٢٠].

وقوله : {فمن كان منكم مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر}.

فالمراد أن فرض الصوم في الأيام المعدودات ، إنما يلزم الأصحاء المقيمين ، فأما من كان مسافرا ، أو مريضا ، فله تأخير الصوم عن هذه الأيام إلى أيام أخر.

قال القفال رحمه الله : انظروا إلى عجيب ما نبه الله تعالى من سعة فضله ورحمته في هذا التكليف ، وأنه تعالى بين في أول الآية أن لهذه الأمة في هذا التكليف أسوة بالأمم المتقدمة ، والغرض منه ما ذكرناه من أن الأمر الشاق ، إذ عم خف ، ثم بين ثانيا وجه الحكمة في إيجاب الصوم ، وهو أنه سبب لحصول

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/٥١٨

التقوى ، ثم بين ثالثا : أنه

٢٥٧

مختص بأيام معدودات ، فلو جعله أبدا ، أو في أكثر الأوقات ، لحصلت المشقة العظيمة ، ثم بين رابعا : أنه خصه من الأوقات بالشهر الذي أنزل فيه القرآن ؛ لكونه أشرف الشهور ؛ بسبب هذه الفضيلة ؛ ثم بي خامسا : إزالة المشقة في إلزامه ، فأباح تأخيره لمن به مرض ، أو سفر غلى أن يصير إلى الرفاهية والسكون ، فراعى سبحانه وتعالى في إيجاب هذا الصوم هذه الوجوه من الرحمة ، فله الحمد على نعمه.

قوله : {فمن كان منكم مريضا} : فيه معنى الشرط والجزاء ، أي : من يكن مريضا ، أو مسافرا ، فأفطر ، فليقض ، إذا قدرت فيه الشرط ، كان المراد بقوله : كان الاستقبال لا الماضي ؛ كما تقول : من أتاني ، أتيته.

قوله : {أو على سفر} في محل نصب ؛ عطفا على خبر كان ، و " أو " هنا للتنويع ، وعدل عن اسم الفاعل ، فلم يقل : أو مسافرا ، إشعار بالاستعلاء على السفر ، لما فيه من الاختيار للسفر ؛ بخلاف المرض ، فإنه قهري ، فصل في المرض المبيح للفطر اختلفوا في المرض المبيح للفطر ؛ فقال الحسن ، وابن سيرين : أي مرض كان ، وأي سفر كان ؛ تنزيلا للفظ المطلق على أقل الأحوال ، وروي أنهم دخلوا على ابن سيرين في رمضان ، وهو يأكل فاعتل بوجع أصبعه ، وقال الأصم - رحمه الله - : هذه الرخصة مختصة بالمرض الذي لو صام فيه ، لوقع في مشقة ، ونزل اللفظ المطلق على أكمل أحواله.

وقال أكثر الفقهاء : المرض المبيح للفطر الذي يؤدي إلى ضرر في النفس ، أو زيادة في العلة.

قالوا : وكيف يمكن أن يقال : كل مرض مرخص ، مع علمنا أن في الأمراض ما ينقصه الصوم.

٢٥٨

فصل في أصل السفر واشتقاقه أصل السفر من الكشف ، وذلك أنه يكشف عن أحوال الرجال وأخلاقهم ،

٢٥٩

." (١)

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/٥٤٥

"والثاني : أنه مشتق عنده من قرنت بين الشيئين ، فكون وزنه على هذا " فعالا " وعلى الأول " فعلانا " وذلك أنه قد قرن فيه بين السور ، والآيات ، والحكم ، والمواعظ.

وقال الفراء : أظن أن القرآن سمي من القرائن ، وذلك أن الآيات يصدق بعضها بعضا على ما قال تعالى : {ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا} [النساء : ٨٢].

وأما قول من قال : إنه مشتق من قريت الماء في الحوض ، أي : جمعته ، فغلط ؛ لأنهما مادتان متغايرتان.

وروى الواحد في " البسيط " عن محمد بن عبد الله بن الحكم ، أن الشافعي - رضي الله عنه - كان يقول القرآن اسم ، وليس بمهموز ، ولم يؤخض من " قرأت " ، وإنما هو اسم لكتاب الله ؛ مثل التوراة والإنجيل ، قال : ويهمز قراءة ، ولا يهمزة القرآن ، كما يقول : {وإذا قرأت القرآن} [الإسرء : ٤٥] قال الواحد - رحمه الله - : وقول الشافعي - رضى الله عنه - أنه اسم لكتاب الله تعالى ، يشبه أنه ذهب إلى أنه غير مشتق ، والذي قال بأنه مشتق من القرء ، وهو الجمع ، أي : جمعته ، هو الزجاج وأبو عبيدة ، قالا : إنه مأخوذ من القرء وهو الجمع.

قال عمر بن كلثوم : ٣٤٩أ - ....

هجان اللون لم تقرأ جنينا

أي : لم تجمع في رحمها ولدا ، ومن هذا الأصل : قرء المرأة ، وهو أيام اجتماع الدم في رحمها ، فسمي القرآن قرآنا ، لأنه يجمع السور وينظمها.

وقال قطرب : سمي قرآنا ؛ لأن القارئ يكتبه ، وعند القراءة كأنه يلقيه من فيه أخذا من قول العرب : ما قرأ الناقة سلى قط ، أي : ما رمت بولد ، وما أسقطت ولدا قط ، وما طرحت ، وسمي الحيض قراءا بهذا التأويل ، فالقرآن [يلفظه القارئ] من فيه ، ويلقيه ، فسمي قرآنا.

و " القرآن " مفعول لم يسم فاعله ؛ ثم إن المقروء يسمى قرآنا ؛ لأن المفعول يسمى بالمصدر ؛ كما قالوا للمشروب شراب ، وللمكتوب كتاب.

واشتهر هذا الاسم في العرف ؛ حتى جعلوه اسما لكتاب الله تعالى على ما قاله الشافعي - رض الله عنه.

ومعنى {أنزل فيه القرآن} ، أي : ظرف لإنزاله.

قيل : " نزلت صحف غبراهيم في أول يوم من رمضان ، وأنزلت التوراة لست مضين ،

٢٧٨

والإنجيل لثلاث عشرة ، والقرآن لأربع وعشرين.

فإن قيل : إن القرآن نزل على محمد صلى الله عليه وسلم في مدة ثلاث وعشرين سنة منجما مبعضا ، فما معنى تخصيص إنزاله برمضان ؟ فالجواب من وجهين : الأول : أن القرآن أنزل في ليلة القدر جملة إلى سماء الدنيا ، ثم نزل إلى الأرض نجوما.

روى مقسم عن ابن عباس أنه سئل عن قوله عز وجل : {شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن} وقوله {إنا أنزلناه في ليلة القدر} [القدر : ١] ، وقوله {إنآ أنزلناه في ليلة مباركة} [الدخان : ٣] وقد نزل في سائر الشهور ، وقال عز وجل : {وقرآنا فرقناه} [الإسراء : ١٠٦] فقال : أنزل القرآن جملة واحدة من اللوح المحفوظ في ليلة القدر من شهر رمضان إلى بيت العزة في السماء الدنيا ، ثم نزل به جبريل – عليه السلام – على رسول الله صلى الله عليه وسلم نجوما في ثلاث وعشرين سنة ، فذلك قوله : {فلا أقسم بمواقع النجوم} [الواقعة : ٧٥] وقال داود بن أبي هند : قلت للشعبي : {شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن} أما كان ينزل في سائر السنة ؟ قال : بلى ، ولكن جبريل كان يعارض محمدا صلى الله عليه وسلم في رمضان ما أنزل الله إليه فيحكم الله ما يشاء ، ويثبت ما يشاء ، وينسيه ما يشاء.

وروي عن أبي ذر ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " أنزلت صحف إبراهيم في ثلاث ليال مضين من شهر رمضان " ويروى : " في أول ليلة من رمضان " وأنزلت توراة موسى في ست ليال مضين من شهر رمضان ، وأنزل إنجيل عيسى في ثلاث عشرة ليلة من رمضان ، وأنزل زبور داود في ثمان عشرة ليلة مضت من رمضان ، وأنزل الفرقان على محمد صلى الله عليه وسلم لأربع وعشرين خلت من رمضان ، ولست بقين بعدها ، وسنذكر الحكمة في إنزاله منجما مفرقا في سورة " الفرقان " عند قوله : {لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة} [الفرقان : ٣٢].

٢٧٩." (١)

"وقوله " فريقا " أي : طائفة من أموال الناس ، والمراد " بالإثم " الظلم ، وقال ابن عباس – رضي الله عهنما – " الإثم " هنا هو اليمين الكاذبة فصل في الفسق بأخذ ما يطلق عليه اسم مال قال الرقطبي : اتفق أهل السنة على أن من أخذ ما وقع عليه اسم مال ، قل أو كثر ، فإنه يفسق بذلك ، وأنه يحرم عليه أخذه ؛ خلافا لبشر من المعتمر ، ومن تابعه من المعتزلة ؛ حيث قالوا : إن المكلف لا يفسق إلا بأخذ مائتي

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/٥٥٥

درهم ، ولا يفسق بدون ذلك.
وقال ابن الجبائي : لا يفسق إلا بأخذ عشرة دراهم ، ولا يفسق بما دونهم.
وقال أبو الهذيل : يفسق بأخذ خمسة دراهم ، فما فوقه ، ولا يفسق بما دونها ، وهذا كله مردود بالقرآن ، اولسنة ، وباتفاق علماء الأمة بقوله - عليه الصلاة والسلام - : " إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام " وقوله تعالى : " وأنتم تعلمون " جملة في محل نصب على الحال من فاعل " لتأكلوا " وذلك عى رأي من يجيز تعدد الحال ، وأما من لا يجيز ذلك ، فيجعل " بالإثم " غير حال.
والمعنى : وأنتم تعلمون أنكم مبطلون ، ولا شك أن الإقدام على القبيح ، مع العلم بقبحه أقبح ، وصاحبه بالتوبيخ أحق ، وروي عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أنه قال : اختصم رجلان إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، عالم بالخصومة ، وجاهل بها ، فقضى رسول الله صلى الله عليه وسلم للعالم ، فقال من قضي عليه : يا رسول الله ، والذي لا إله إلا هو ، إني محق بحق فقال : إن شئت أعاوده ، فعاوده ، فقضى للعالم ، فقال المقضي عليه مثل ما قال أولا ، ثم عاوده ثالثا ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " من اقتطع حق امرئ مسلم بخصومته ، فإنما اقتطع قطعة من النار " فقال العالم المقضي له : يا رسول الله ، إن الحق حقه ، فقال - عليه الصلاة والسلام - : " من اقتطع بخصومته وجدله حق غيره ، فليتبوأ مقعده من النار "

٣٢٩

وعن أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم ، وشرف ، وكرم ، وبجل ، ومجد ، وعظم : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إنما أنا بشر مثلكم ، وإنكم تختصمون إلي ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض ، فأقضي له على نحو ما أسمع منه ، فمن قضيت له بشيء من حق أخيه ، فلا يأخذنه ؛ فإنما أقطع له قطعة من النار "
جزء : ٣ رقم الصفحة : ٣٢٢
نقل عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال : ما كان قوم أقل سؤالا من أمة محمد - صلوات الله وسلامه عليه - دائما وأبدا - سألوه عن أربعة عشر حرفا ، فأجيبوا.
قال ابن الخطيب : ثمانية منها في سورة البقرة أولها : {وإذا سألك عبادي عني فإني قريب} [البقرة : ١٨٦].

وثانيها : هذه الآية ، ثم الباقية بعد في سورة البقرة.

فالمجموع ثمانية في هذه السورة ، والتاسع : في المائدة ، قوله تبارك وتعالى : {يسألونك ماذآ أحل لهم} [المائدة : ٤] والعاشر : {يسألونك عن الأنفال} [الأنفال : ١] والحادي عشر : في بني إسرائيل {ويسألونك عن الروح} [الإسراء : ٨٥] والثاني عشر في الكهف {ويسألونك عن ذي القرنين} [الكهف : ٨٣] والثالث عشر في طه {ويسألونك عن الجبال} [طه : ١٠٥] والرابع عشر في النازعات {يسألونك عن الساعة} [النازعات : ٤٢].

ولهذه الأسئلة ترتيب عجيب : آيتان : الأول : منها في شرح المبدأ ، وهو قول تعالى : {وإذا سألك عبادي عني فإني قريب} وهذا سؤال عن الذات.

والثاني : {يسألونك عن الأهلة} وهذا سؤال عن حقيقة الخلاقية ، والحكمة في جعل الهلال على هذا الوجه.

والآيتان الأخيرتان في شرح المعاد ، وهو قوله {ويسألونك عن الجبال} [طه : ١٠٥] و {يسألونك عن الساعة} [النازعات : ٤٢].

٣٣٠

(١) ".

"ونظير هذا أنه ورد في القرآن الكريم سورتان : أولهما " يا أيها الناس " فالأولى : هي السورة الرابعة من النصف الأول ؛ فإن الأولى هي " الفاتحة " ثم " البقرة " ثم " آل عمران " ثم " النساء " وهي مشتملة على شرح المبدأ {أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة} [النساء : ١] والسورة الثانية : هي الرابعة أيضا من النصف الثاني : فإن أوله " مريم " ثم " طه " ثم " الأنبياء " ثم " الحج " وهذه مشتملة على شرح الميعاد { يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم} [الحج : ١] فسبحان من له في هذا القرآن أسرار خفية ، وحكم مطوية [لا يعرفها إلا الخواص من عبيده].

فصل في اختلافهم في السائل عن الأهلة روي عن معاذ بن جبل ، وثعلبة بن غنم الأنصاريين قالا : يا رسول الله ، ما بال الهلال يبدو دقيقا مثل الخيط ، ثم يزيد ؛ حتى يمتلىء ويستوي ، ثم لا يزال ينقص حتى يعود كما بدأ ، لا يكون على حالة واحدة ؛ كالشمس ، فنزلت هذه الآية.

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/٥٨١

وروي أن معاذ بن جبل قال : إن اليهود سألوه عن الأهلة.
واعلم أن قوله تعالى {يسألونك عن الأهلة} ليس فيه بيان أنهم عن أي شيء سألوا ، إلا أن الجواب كالدال على موضع السؤال ؛ لأنه قوله : {قل هي مواقيت للناس والحج} يدل على أن سؤالهم كان على وجه الفائدة والحكمة في تغير حال الأهلة في الزيادة والنقصان.
قوله تعالى : {عن الأهلة} : متعلق بالسؤال قبله ، يقال : " سأل به وعنه " بمعنى ، والضمير في " يسألونك " ضمير جماعة.
فإن كانت القصة كما روي عن معاذ : أن اليهود سألوه ، فلا كلام ، وإن كانت القصة أن السائل اثنان ؛ كما روي أن معاذ بن جبل ، وثعلبة بن غنم ، سألوا ، فيحتمل ذلك وجهين : أحدهما : أن يقال : إن أقل الجمع اثنان.
والثاني : من نسبة الشيء إلى جمع ، وإن لم يصدر إلا من واحد منهم أو اثنين ، وهو كثير في كلامهم.
فصل قال الزجاج - رحمه الله - : " هلال " يجمع في أقل العدد على " أفعلة " نحو : مثال
٣٣١
وأمثلة ، وحمار وأحمرة ، وفي أكثر العدد يجمع على " فعل " نحو حمر ، لأنهم كرهوا في التضعيف " فعل " ، نحو هلل وخلل ، فاتصروا على جمع أدنى العدد.
والجمهور على إظهار نون " عن " قبل لام " الأهلة " وورش على أصله من نقل حركة الهمزة إلى الساكن قبلها ، وقرئ شاذا : " عل هلة " ؛ وتوجيهها : أنه نقل حركة همزة " أهلة " إلى لام التعريف ، وأدغم نون " عن " في لام التعريف ؛ لسقوط همزة الوصل في الدرج ، وفي ذلك اعتداد بحركة الهمزة المنقولة ، وهي لغة من يقول : " لحمر " من غير همزة وصل.
وإنما جمع الهلال ، وإن كان مفردا ؛ اعتبارا باختلاف أزمانه ؛ قالوا من حيث كونه هلالا في شهر غير كونه هلالا في آخر ، والهل : هذا الكوكب المعروف.
واختلف اللغويون : إلى متى يسمى هلالا ؟ فقال الجمهور : يقال له " هلال " لليلتين ، وقيل : لثلاث ، ثم يكون " قمرا " وقال أبو الهيثم : يقال له : " هلال " لليلتين من أول الشهر ، وليلتين من آخره ، وما بينهما " قمر ".
وقال الأصمعي : يقال له " هلال " إلى أن يحجر ، وتحجيره : أن يستدير له ؛ كالخيط الرقيق " ، ويقال

له : " بدر " من الثانية عشرة إلى الرابعة عشرة ، وقيل : يسمى " هلالا " إلى أن يبهر ضوءه سواد الليل ، وذلك إنما يكون في سبع ليال ".

واعلم أن الشهر ينقسم عشرة أقسام ، كل قسم : ثلاث ليال ، ولكل ثلاث ليال اسم ، فالثلاثة الأولى : تسمى غرر ، والثانية نقل ، والثالثة تسع ، والرابعة عشر ، والخامسة بيض والسادسة درع ، والسابعة ظلم ، والثامنة مسادس والتاسعة فرادى والعاشر محاق.

والهلا : يكون اسما لهذا الكوكب ، ويكون مصدرا ؛ يقال : هل الشهر هلالا ، ويقال : أهل الهلال ، واستهل مبنيا للمفعول وأهللناه استهللناه ، وقيل : يقال : أهل واستهل للفاعل ؛ وأنشد : [الوافر] ٩٦٤ -

وشهر مستهل بعد شهر

وحول بعدة حول جديد

جزء : ٣ رقم الصفحة : ٣٣٠

وسمي هذا الكوكب هلالا ؛ لارتفاع الأصوات عن رؤيته ، وقيل : لأنه من البيان ، والظهور ، أي : لظهوره وقت رؤيته بعد خفائه ، ولذلك يقال : تهلل وجهه : ظهر فيه بشر وسرور ، وأن لم يكن رفع صوته ، ومنه قول تأبط شرا : [الكامل]

٣٣٢

٩٦٥ - وإذا نظرت إلى أسرة وجهه

برقت كبرق العارض المتهلل

." (١)

"وقد تقدم أن الإهلال : الصراخ عند قوله {ومآ أهل به لغير الله} [البقرة : ١٧٢].

" وفعال " المضعف يطرد في تكسيره " أفعلة " كأهلة ، وشذ فيه فعل ؛ كقوله : عنن ، وحجج ، في عنان ، وحجاج.

وقدر بعضهم مضافا قبل " الأهلة " أي : عن حكم اختلاف الأهلة ، لأن السؤال عن ذاتها غير مفيد ؛ ولذلك أجيبوا بقوله : {قل هي مواقيت للناس والحج} وقيلك إنهم لما سألوا عن شيء قليل الجدوى ، أجيبوا بما فيه فائدة ، وعدل عن سؤالهم ، إذ لا فائدة فيه ، وعلى هذا ، فلا يحتاج إلى تقدير مضاف.

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/٥٨٢

و " للناس " متعلق بمحذوف ؛ لأنه صفة لـ " مواقيت " أي : مواقيت كائنة للناس.
ولا يجوز تعلقه بنفس المواقيت ؛ لما فيها من معنى النقل ؛ إذ لا معنى لذلك.
والمواقيت : جمع ميقات ؛ رجعت الواو إلى أصلها ؛ إذ الأصل : موقات من الوقت ، وإنما قلبت ياء ؛ لكسر ما قبلها ، فلما زال موجبه في الجمع ، ردت واوا ، ولا ينصرف ؛ لأنه بزنة منتهى الجموع.
فإن قيل : لم صرفت قوارير ؟ قيل لأنها فاصلة وقعت في رأس الآية الكريمة فنون ، ليجري على طريقة الآيات كام تنون القوافي في مثل قوله : [الوافر] ٩٦٦ - أقلي اللوم ، عاذل ، والعتابن
....
و " الميقات " : منتهى الوقت ؛ قال تبارك وتعالى : {فتم ميقات ربه} [الأعراف : ١٤٢] والهلال : ميقات الشهر ؛ أي : منتهاه ، ومواضع الإحرام : مواقيت الحج ؛ لأنها مواضع ينتهى إليها ، وقيل : الميقات : الوقت ؛ كالميعاد بمعنى الوعد.
فصل في تخصيص المواقيت بالهلال دون الشمس فإن قيل : لم خص المواقيت بالأهلة وأشهرها دون الشمس وأشهرها ؟
٣٣٣
فالجواب : أن الأهلة وأشهرها ، إنما جعلت مواقيت للناس ، دون الشمس وأشهرها ؛ لأن الأشهر الهلالية يعرفها كل أحد من الخاص والعام برؤية الهلال ومحاقه ؛ ولذلك علقت الأحكام الشرعية بالشهور العربية ، كصوم رمضان ، وأشهر الحج ، وهي شوال ، وذو القعدة وذو الحجة.
والأشهر المنذورة ، والكفارات ، وحول الزكاة وأشهر الإجارات والمداينات والسل ، وأشهر الإيلاء ، وأشهر العدد ، ومدة الرضاع وما تتحمله العاقلة في ثلاث سنين ، وغير ذلك ؛ بخلاف الشمس ، وأشهرها ؛ فإن الشمس لا يتغير شكلها بزيادة ، ولا نقص ، ولا يعرف أوله وآخره ، ولا تختلف رؤيتها ، وكذلك أشهرها لا يعرف أولها وآخرها ، إلا الخواص من الحساب ، وليس لها مواقيت غير الفصول الأربعة ؛ وهي الصيف ، والشتاء ، والربيع ، والخريف ؛ ولذلك لا يتعلق به حكم شرعي ؛ فلذلك جعلت الأهلة وأشهرها مواقيت للناس ، دون الشمس.
فصل اعلم أن الله سبحانه ذكر وجه **الحكمة في** خلق الأهلة ؛ فقال تعالى : {قل هي مواقيت للناس والحج} وذكر هذا المعنى في آية أخرى ، وهي قوله تعالى : {وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب}

[يونس : ٥] واعلم أن تقدير الزمان بالشهور فيه منافع دينية ، ودنيوية.

فالدينية : كالصوم ، والحج ، وعدة المتوفى عنها زوجها ، والنذور المتعلقة بالأوقات ، وقضاء الصوم في أيام لا تعلم إلا بالأهلة.

والدنيوية : كالمداينات ، والإجارات ، والمواعيد ، ولمدة الحمل والرضاع.

قوله : " والحج " عطف على " الناس " قوالوا : تقديره : ومواقيت الحج ، فحذف الثاني ؛ اكتفاء بالأول.

وقيل : فيه إضمار ، تقديره : وللحج كقوله {وإن أردتم أن تسترضعوا اا أولادكم} [البقرة : ٢٣٣] أي : لأولادكم.

ولما كان الحج من أعظم ما تطلب مواقيته وأشهره بالأهلة ، أفرد بالذكر.

قال تعالى : {الحج أشهر معلومات} [البقرة : ١٩٧].

فإن قيل : الصوم أيضا يطلب هلاله ؛ قال عليه الصلاة والسلام - : " صوموا لرؤيته ، وأفطروا لرؤيته "

٣٣٤

." (١)

"وعظم ، دخل ، وهو محرم ، بيتا لبعض الأنصار ، فاتبعه رجل محرم من الأنصار ، يقال له رفاعة ابن تابوت ، فدخل على أثره من الباب ، فقال - عليه الصلاة والسلام دائما وابدا - : " تنح عني " فقال : ولم ، يا رسول الله ؟ قال : " دخلت الباب ، وأنت محرم " ، فقال : رأيتك دخلت ، فدخلت على أثرك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، شرف ، وكرم ، ومجد ، وبجل ، وعظم : " إني أحمس " فقال الرجل : " إن كنت أحمسيا ، فإني أحمسي ، رضيت بهديك ، وسمتك ، ودينك " ، فأنزل الله تعالى هذه الآية الكريمة.

قال الزهري : كان ناس من الأنصار ، فإذا أهلوا بالعمرة ، لم يحل بينهم وبين السماء شيء ، وكان الرجل يخرج مهلا بالعمرة ، فتبدوا له الحاجة بعد ام يخرج من بيته ؛ فيرجع ، ولا يدخل من باب الحجرة من أجل سقف البيت أن يحول بينه وبين السماء ، فيفتح الجدار من ورائه ، ثم يقوم في حجرته فيأمر بحاجته ؛ حتى بلغنا أن رسول الله صلى الله علنه وسلم ، وشرف ، وكرم ، ومجد ، وبجل ، وعظم ، أهل زمن الحديبية بالعمرة ، فدخل حجرة ، فدخل رجل على أثره من الأنصار من بني سلمة ، فقال النبي صلى الله

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/٥٨٣

عليه وسلم وشرف ، وكرم ، ومجد ، وبجلأ ، وعظم : " لم فعلت ذلك ؟ " قال : " لأني رأيتك دخلت ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وشرف ، وكرم ، ومجد ، وبجل ، وعظم : " إني أحمسي " فقال الأنصاري : وأنا أحمسي ، وأنا على دينك ، فأنزل الله تعالى الآية الكريمة.

فصل في اخلافهم في تفسير الآية ذكروا في تفسير الآية ثلاثة أوجه : أحدها : – وهو قول أكثر المفسرين – وهو حمل الآية الكريمة على ما قدمناه في سبب النزول ، ويصعب نظم الآية الكريمة عليه ؛ فإن القوم سألوا عن **الحكمة في** تغيير لون القمر ، فذكر الله تعالى **الحكمة في** ذلك ، وهي قوله : {مواقيت للناس والحج} فأي تعلق بي بيان **الحكمة في** اختلاف نور القمر ، وبين هذه القصة ، فذكروا وجوها : أحدها : أن الله – تبارك وتعالى – لما ذكر أن **الحكمة في** اختلاف أحوال الأهلة جعلها مواقيت للناس والحج ، وكان هذا الأمر من الأشياء التي اعتبرها في الحج ، لا جرم ذكرها الله تعالى.

وثانيها : أنه تعالى إنما وصل قوله : {وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها} بقوله : {يسألونك عن الأهلة} ؛ لأنه إنما اتفق وقوع القصتين في وقت واحد ، فنزلت الآية الكريمة فيهما معا في وقت واحد ، ووصل أحد الأمرين بالآخر.

وثالثها : كأنهم لما سألوا عن **الحكمة في** اختلاف حال الأهلة ، فقيل لهم : اتركوا السؤال عن هذا الأمر الذي لا يعنيكم ، وارجعوا إلى البحث ، عما هو أهم لكم ، فإنكم تظنون أن إتيان البيوت من ظهورها بر ؛ وليس الأمر كذلك.

الوجه الثاني من تفسير الآية : أن قوله تعالى : {وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها} مثل ضربه الله تعالى ، وليس المراد ظاهره وتفسير أن الطريق المستقيم هو الطريق المعلوم ، وهو أن يستدل بالمعلوم على المظنون ، ولا ينعكس.

وإذا عرف هذا ، فنقول : ثبت بالدلائل أن للعالم صانعا ، مختارا ، حكيما ، وثبت أن الحكيم لا يفعل إلا الصواب البريء عن البعث والسفه.

وإذا عرفنا ذلك ، وعرفنا أن اختلاف أحوال القمر في النور من فعله علمنا أن فيه حكمة ومصلحة ، لأنا علمنا أن الحكيم لا يفعل إلا الحكمة ، واستدللنا بالمعلوم على المجهول ، فأما أن يستدل بعدم علمنا **بالحكمة فيه** على أن فاعله ليس بحكيم ، فهو استدلال باطل ؛ لأنه استدلال بالمجهول على القدح في المعلوم ، وإذا عرف هذا ، فالمراد من قوله تعالى : {ليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها} يعني : أنكم

لما لم تعلموا الحكمة في اختلاف نور القمر ، صرتم شاكين في حكمة الخالق ، وقدأتيتم الشيء من غير طريقه " إنما البر بأن تأتوا البيوت من
٣٣٨
". (١)

"ومنها : أنه تعالى لما أمر بصيام ثلاثة أيام فى الحج وسبعة بعد الرجوع ، فليس فيه بيان أنه طاعة عظيمة كاملة ، فلما قال بعده : {تلك عشرة كاملة} دل ذلك على أن هذه الطاعة فى غاية الكمال ؛ وذلك لأن الصوم مضاف إلى الله تعالى بلام الاختصاص كما قال : " الصوم لي " ، والحج أيضا مضاف إلى الله تعالى بلام الاختصاص كما قال " الصوم لي " ، فكما دل النص على مزيد اختصاص هاتين العبادتين بالله – سبحانه وتعالى – ، فالفعل دل أيضا على ذلك.
أما فى الصوم فلأنه عبادة لا يطلع العقل على وجه الحكمة فيها ألبتة ، وهو مع ذلك شاق على النفس جدا ، فلا جرم لا يؤتى به إلا لمحص مرضاة الله – تعالى – ثم إن صوم هذه تعني الانقياد له.
وكذا الحج عبادة لا يطلع العقل على وجه الحكمة فيا ألبتة ، وهو مع ذلك شاق جدا ؛ لأنه يوجب مفارقة الأهل ، والولد والتباعد عن أكثر اللذات ، فلا جرم لا يؤتى به إلا لمحض مرضاة الله تعالى ، ثم إن صوم هذه الأيام العشرة بعضه واقع في زمن الحج ، فيكون جمعا بين شيئين شاقين جدا ، وبعضه واقع بعد الفراغ من الحج ، وهو انتقال من شاق إلى شاق ، ومعلوم أن ذلك سبب لكثرة الثواب ، وعلو الدرجة ، فلا جرم لما أوجب الله – تعالى – صيام هذه الأيام العشرة ، شهد سبحانه على أنها عبادة كاملة فى غاية الكمال والعلو ، فقال تعالى : {تلك عشرة كاملة} ، أي : وإنها كاملة.
قوله : " ذلك لمن " " ذلك " مبتدأ ، والجار بعده الخبر.
وفي اللام قولان : أحدهما : أنها على بابها ، أي : ذلك لازم لمن.
والثاني : أنها بمعنى على ، كقوله : {أولائك لهم اللعنة} [الرعد : ٢٥] ، وقال عليه السلام : " اشترطي لهم الولاء " ، أي : عليهم ، وقوله : {وإن أسأتم فلها} [الإسراء : ٧] أي : فعلهيا ، وذلك إشارة إلى التمتع ، والقران للغريب [ولا حاجة إلى هذا.
و " من " يجوز أن تكون موصولة ، وموصوفة.

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/٥٨٦

و " حاضري " خبر " يكن " ، وحذفت نونه للإضافة].

فصل قوله : " ذلك " إشارة إلى أمر تقدم ، وأقرب الأمور المذكورة ، ذكر ما يلزم المتمتع من الهدي وبدله.

وقال بعض العلماء : لزوم الهدي وبدله للمتمتع مشروط بألا يكون من حاضري المسجد الحرام ، فإن كان من أهل الحرم ، فلا يلزمه هدي المتمتع ، وإنما لزم الآفاقي ،

٣٨٦

لأنه كان يجب عيله أن يحرم بالحج من الميقات ، فلما أحرم بالعمرة من الميقات ، ثم أحرم بالحج من غير الميقات ، فقد حصل هناك خلل ، فجبر بالدم ، بدليل أنه لو رجع ، فأحرم بالحج أيضا من الميقات ؛ لما يلزمه دم ، والمكي ميقاته موضعه ، فلا يقع فى حجه خلل من جهة الإحرام ، فلا هدي عليه.

وقال أبو حنيفة – رضي الله عنه – : قوله " ذلك " إشارة إلى الأبعد وهو ذكر التمتع ، وعنده لا متعة ولا قران لحاضري المسجد الحرام ، ومن تمتع أو قرن ، كان عليه دم جناية لا يأكل منه.

حجة القول الأول وجوه : أحدها : قوله تعالى {فمن تمتع بالعمرة إلى الحج} عام يدخل فيه الحرمي ، وغيره.

وثانيهما : أن الإشارة يجب عودها إلى أقرب مذكور ، وهو جوب الهدي ، فإذا خص وجوب الهدي بالمتمتع الآفاقي ؛ لزم القطع بأن غير الآفاقي قد يكون أيضا متمتعا.

وثالثها : أن الله تعالى شرع القران والمتعة تبيينا لنسخ ما كان عليه أهل الجاهلية في تحريمهم العمرة في أشهر الحج ، والنسخ ثبت فى حق الناس كافة.

حجة أبي حنيفة : أن قوله : " ذلك " كناية ؛ فوجب عودها إلى كل ما تقدم ، لأنه ليس البعض أولى من البعض.

والجواب أن عوده إلى الأقرب أولى ، لأن القرب سبب للرجحان ، ومذهبكم أن الاستثناء المذكور عقيب الجمل مختص بالجملة الأخيرة ، وإنما تميزت تلك

٣٨٧

الجملة عن سائر الجمل بسبب القرب ، فكذا ها هنا.

فصل اختلفوا فى حاضري المسجد الحرام ، فذهب قوم إلى أنهم أهل مكة ، وهو قول مالك – رحمه الله

- .

وقال ابن جريج : أهل عرفة والرجيع وضجنان.

٣٨٨

" (١).

"الرفث فيه حسا ، وخبر الله تعالى لا يجوز أن يقع بخلاف مخبره ، وإنما يرجع النفي إلى وجوده مشروعا لا إلى وجوده محسوسا ؛ كقوله تعالى : {والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قرواء} [البقرة : ٢٢٨] أي : مشروعا لا حسا ، فإن نجد المطلقات لا يتربصن ؛ فعاد النفي إلى الحكم الشرعي لا إلى الوجود الحسي ؛ وهو كقوله تعالى : {لا يمسه إلا المطهرون} [الواقعة : ٧٩] إذا قلنا : إنه وارد فى الآدميين ؛ وهو الصحيح ، فإن معناه لا يمسه أحد منهم شرعا ، فإن وجد المس ، فعلى خلاف حكم الشرع ، وهذه الدقيقة فاتت العلماء فقالوا : إن الخبر يكون بمعنى النهي ، وما وجد ذلك قط ، ولا يصح أن يوجد ؛ فإنهما مختلفان حقيقة ، ومتضادان وصفا.

فصل قال ابن الخطيب - رحمه الله تعالى - فإن قيل أليس أن مع هذه الأشياء يصير الحج فاسدا ويجب على صاحبه المضي فيه ، وإذا كان الحج باقيا معها ، لم يصدق الخبر لأن هذه الأشياء لا توجد مع الحجة ؟ قلنا المراد من الآية الكريمة حصول المضادة بين هذه الأشياء ، وبين الحجة المأمور بها ابتداء ، وتلك الحجة الصحيحة لا تبقى مع هذه الأشياء ؛ بدليل أنه يجب قضاؤها ، والحجة الفاسدة التي يجب عليه المضي فيها شيء آخر سوى تلك الحجة المأمور بها ابتداء ، وأما الجدال الحاصل بسبب الشك في وجوب الحج ، فظاهره أنه لا يبقى معه عمل الحج ؛ لأن ذلك كفر وعمل الحج مشروط بالإسلام ، فثبت أنا إذا حملنا اللفظ على الخبر ، وجب حمل الرفث والفسوق والجدال على ما ذكرنا ، وأما إذا حملناه على النهي ، وهو في الحقيقة عدول عن الظاهر ، فقد يصح أن يراد بالرفث الجماع ومقدماته ، وقول الفحش ، وأن يراد بالفسق جميع أنواعه ، وبالجدال جميع أنواعه ؛ ، لأن اللفظ مطلق ومتناول لكل هذه الأقسام ، فيكون النهي عنها نهيا عن جميع أقسامها.

فإن قيل : ما **الحكمة في** أن الله تعالى ذكر هذه الألفاظ الثلاثة : وهي الرفث ، والفسوق ، والجدال في الحج ، من غير زيادة ولا نقص ؟ فالجواب : لأنه ثبت في العلوم العقلية أن للإنسان أربع قوى : قوة

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/٦١٢

شهوانية بهيمية ، وقوة غضبية سبعية ، وقوة وهمية شيطانية ، وقوة عقلية ملكية ، والمقصود من جميع العبادات قهر القوى الثلاث ، أعني : الشهوانية والغضبية والوهمية.

فقوله : " فلا رفث " إشارة إلى قهر الشهوانية.

وقوله : " ولا فسوق " إشارة إلى قهر القوة الغضبية التي توجب المعصية والتمرد.

٤٠٤

." (١)

"وأما حديث النبيذ فلعله كان ماءا نبذت فيه تمرات ؛ لتذهب ملوحته فتغير طعم الماء قليلا إلى الحموضة ، وطبعه - عليه الصلاة والسلام - كان في غاية اللطافة ، فلم يحتمل طبعه الكريم ذلك الطعم ؛ فلذلك قطب وجهه ، وإنما صب الماء فيه ؛ إزالة لتلك الحموضة ، أو الرائحة.

وأما آثار الصحابة ، فمتدافعة متعارضة.

فصل في عدد الآيات التي نزلت بمكة في تحريم الخمر قالوا : نزل في الخمر آربع آيات بمكة : قوله : {ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا} [النحل : ٦٧] وكان المسلمون يشربونها ، وهي لهم حلال ، ثم إن عمر ومعاذا ونفرا من الصحابة قالوا : يا رسول الله ، أفتنا في الخمر ، فإنها مذهبة للعقل مسلبة للمال ، فنزل قول تعالى : {فيهمآ إثم كبير ومنافع للناس} [البقرة : ٢١٩] ولما نزلت هذه الآية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله تقدم في الخمر " فتركها قوم لقوله (إثم كبير) وشربها قوم لقوله (ومنافع للناس).

إلى أن صنع عبد الرحمن بن عوف طعامان فدعا ناسا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وأتاهم بخمر ، فشربوا ، وسكروا ، وحضرت صلاة المغرب ؛ فتقدم بعضهم ليصلي بهم فقرأ : " قل يا أيها الكافرون أعبد ما تعبدون " هكذا إلى آخر السورة بحذف " لا " ، فأنزل الله تعالى : {لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى } [النساء : ٤٣] فحرم السكر في أوقات الصلاة ، فلما نزلت هذه الآية ، تركها قوم ، وقالوا : لا خير في شيء يحول بيننا وبين الصلاة وتركها قوم في أوقات الصلاة ، وشربوها في غير وقت الصلاة ، حتى كان الرجل يشرب بعد صلاة العشاء ، فيصبح ، وقد زال عنه السكر ، ويشرب بعد صلاة الصبح ، فيصحو إذا جاء وقت الظهر ، واتخذ عتبان بن مالك صبغا ودعا رجالا من المسلمين ، فيهم سعد بن أبي وقاص وكان

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/٦١٩

قد شوى لهم رأس بعير ، فأكلوا منه ، وشربوا الخمر ، حتى أخذت منهم ، ثم إنهم افتخروا عند ذلك ، وانتسبوا ، وتناشدوا ، فأنشد سعد قصيدة فيها هجاء للأنصار ، وفخر لقومه ، فأخذ رجل من الأنصار لحي بعير ، فضرب به رأس سعد ؛ فشجه موضحة

٣٢

فانطلق سعد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وشكى إليه الأنصاري ، فقال عمر : اللهم بين لنا في الخمر بيانا شافيا ؛ فأنزل الله تعالى : {إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس} [المائدة : ٩٠] إلى قوله : {فهل أنتم منتهون} [المائدة : ٩١] وذلك بعد غزوة الأحزاب بأيام ، فقال عمر : انتهينا يا رب.

قال ابن الخطيب : **والحكمة في** وقوع التحريم على هذا الترتيب أن الله تعالى علم أن القوم كانوا قد ألفوا شرب الخمر ، وكان انتفاعهم بذلك كثيرا ، فعلم أنه لو منعهم دفعة واحدة لشق ذلك عليهم ، فلا جرم درجهم في التحريم رفقا بهم ، ومن الناس من قال : إن الله حرم الخمر والميسر بهذه الآية ، ثم نزل قوله : {لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى } [النساء : 3٤] فاقتضى ذلك تحريم شربها ؛ لأن شارب الخمر لا يمكنه أن يصلي مع السكر ، فكان المنع من ذلك منعا من الشرب ضمنا ، ثم نزلت آية المائدة ، فكانت في غاية القوة في التحريم.

وعن الربيع بن أنس أن هذه الآية نزلت بعد تحريم الخمر.

فصل قال أنس : حرمت عليهم الخمر ، ولم يكن يومئذ للعرب عيش أعجب منها ، وما حرم عليهم شيء أشد من الخمر.

وقال أنس بن مالك : ما كان لنا خمر غير فضيخكم فإني لقائم أسقي أبا طلحة وفلانا ، وفلانا ، إذ جاء رجل فقال : حرمت الخمر.

قالوا : أهرق هذه القلال يا أنس ؛ قال : فما سألوا عنها ، ولا راجعوها بعد خبر الرجل.

واختلف الفقهاء في الخمر على ما تقدم ؛ فقال قوم : هو عصير العنب والرطب الذي اشتد وغلا من غير عمل النار فيه ، واتفقت الأمة على أن هذا الخمر نجس يحد شاربها ، ويفسق ، ويكفر مستحلها ، وذهب سفيان الثوري ، وأبو حنيفة ، وجماعة إلى أن التحريم لا يتعدى هذا ولا يحرم ما يتخذ من غيرها ، كالحنطة ، والشعير ، والذرة ، والعسل ، والفانيذ إلا أن يسكر منه فيحرم ، وقال : إذا طبخ عصير العنب والرطب ،

حتى

٣٣

ذهب نصفه ، فهو حلال ، ولكنه يكره ، وإن طبخ ، حتى يذهب ثلثاه قالوا : هو حلال مباح شربه إلا أن السكر منه حرام.

وقال قوم : إذا طبخ صار العصير أدنى طبخ ، صار حلالا ، وهو قول إسماعيل بن عليه ، وذهب أكثر أهل العلم إلى أن كل شراب أسكر كثيره ، فهو خمر قليله حرام يحد شاربه ، وقد تقدم ما أجابوا به.

والميسر : القمار ، مفعل من اليسر ، يقال : يسر ييسر ؛ قال علقمة : [البسيط] ١٠٦٨ - لو ييسرون بخيل قد يسرت بها

وكل ما يسر الأقوام مغروم

جزء : ٤ رقم الصفحة : ٢٧

." (١)

"والأيمان : جمع يمين : وأصلها العضو ، واستعملت في الحلف مجازا لما جرت عادة المتعاقدين بتصافح أيمانهم ، واشتقاقها من اليمن ، واليمين أيضا : اسم للجهة التي تكون من ناحية هذا العضو ، فينتصب على الظرف ، وكذلك اليسار ، تقول : زيد يمين عمرو ، وبكر يساره ، وتجمع اليمين على " أيمن وأيمان " وهل المراد بالأيمان في الآية القسم نفسه ، أو المقسم عليه ؟ قولان ، الأول أولى.

وقد تقدم تجويز الزمخشري أن يكون المراد به المحلوف عليه واستدلاله بالحديث والجواب عنه.

فصل ذكر المفسرون في هذه الآية أقوالا كثيرة ، وأجودها وجهان : أحدهما : ما ذكره أبو مسلم الأصفهاني ، وهو أن قوله : {ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم} نهي عن الجرأة على الله بكثرة الحلف به ؛ وذلك لأنه من أكثر ذكر شيء في معنى من المعاني ، فقد جعله عرضة له ، فيقول الرجل : قد جعلتني عرضة للومك ؛ قال الشاعر : [الطويل] ١٠٨٩ - ....

ولا تجعلونِي عرضة للوائم

جزء : ٤ رقم الصفحة : ٨٥

وقد ذم الله تعالى من أكثر من الحلف بقوله : {ولا تطع كل حلاف مهين} [القلم : ١٠] ، وقال تعالى

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/٧٠١

: {واحفظوا اا أيمانكم} [المائدة : ٨٩] والعرب كانوا يمدحون الإنسان بالإقلال من الحلف ؛ كما قال كثير : [الطويل] ١٠٩٠ - قليل الألايا حافظ ليمينه

وإن سبقت منه الألية برت

والحكمة في الأمر بتقليل الأيمان ؛ أن من حلف في كل قليل وكثير بالله ، انطلق لسانه بذلك ، ولا يبقى لليمين في قلبه وقع ، فلا يؤمن إقدامه على الأيمان الكاذبة ، فيختل ما هو الغرض من اليمين ، وأيضا كلما كان الإنسان أكثر تعظيما لله - تعالى - ، كان أكمل في العبودية ، ومن كمال التعظيم أن يكون ذكر الله - تعالى - أجل وأعلى عنده ، من أن يستشهد به في غرض من الأغراض الدنيوية.

فإن قيل : كيف يلزم من ترك الحلف حصول البر والتقوى ، والإصلاح بين الناس ؟ فالجواب : أن من ترك الحلف ؛ لاعتقاده أن الله أعظم وأجل من أن يستشهد باسمه المعظم في طلب الدنيا ، وخسائس مطالب الحلف ، ولا شك أن هذا من أعظم أبواب البر.

٨٩

فصل في سبب النزول نزلت هذه الآية في عبد الله بن رواحة ؛ كان بينه وبين ختنه على أخيه بشير بن النعمان شيء ، فحلف عبدالله ألا يدخل عليه ، ولا يكلمه ، ولا يصلح بينه وبين خصمه ، وإذا قيل له فيه ، قال : قد حلفت بالله ألا أفعل ، فلا يحل لي إلا أن تبر يميني فأنزل الله هذه الآية.

وقال ابن جريج : نزلت في أبي بكر الصديق ، حين حلف ألا ينفق على مسطح حين خاض في حديث الإفك ، ومعنى الآية : لا تجعلوا الحلف بالله شيئا مانعا لكم من البر والتقوى ، يدعى أحدكم إلى صلة الرحمن أو بر ، فيقول : حلفت بالله ألا أفعله ، فيعتل بيمينه في ترك البر.

قوله : {والله سميع عليم} ختم بهاتين الصفتين ؛ لتقدم مناسبتهما ؛ فإن الحلف متعلق بالسمع ، وإرادة البر من فعل القلب متعلقة بالعلم ، وقدم السميع ؛ لتقدم متعلقه ، وهو الحلف.

قوله تعالى : {لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم}.

واللغو : مصدر لغا يلغو ، يقال : لغا يلغو لغوا ، مثل غزا يغزو غزوا ، ولغي يلغى لغى مثل لقي يلقى لقى إذا أتى بما لا يحتاج إليه من الكلام ، أو بما لا خير فيه ، أو بما يلغى إثمه ؛ كقوله - عليه الصلاة والسلام - " إذا قلت لصاحبك يوم الجمعة : أنصت فقد لغوت ".

ومن الثاني قوله تعالى : {والغوا فيه} [فصلت : ٢٦].

قال الفراء : اللغا مصدر للغيت.

قال أبو العباس المقري : ورد لفظ " اللغو " في القرآن على ثلاثة أوجه : الأول : بمعنى اليمين بغير عقدية كهذه الآية.

٨٩

". (١)

"فالجواب من وجهين : الأول : أنه – تعالى – لو ذكره بلفظ الأمر ، لكان ذلك يوهم أنه لا يحصل المقصود ، إلا إذا شرعت فيها بالقصد والاختيار ، وعلى هذا التقدير : فلو مات الزوج ، ولم تعلم المرأة حتى انقضت العدة ، وجب ألا يكون ذلك كافيا في المقصود ؛ لأنها إذا أمرت بذلك لم تخرج عن العهدة إلا إذا قصدت أداء التكليف ، فلما ذكره بلفظ الخبر ، زال ذلك الوهم ، وعرف أنه متى انقضت هذه القروء ، حصل المقصود سواء علمت بذلك أو لم تعلم ، وسواء شرعت في العدة بالرضا أو بالغضب.

الثاني : قال الزمخشري : التعبير عن الأمر بصيغة الخبر يفيد تأكيد الأمر ، والإشعار بأنه مما يجب أن يتعل بالمسارعة إلى امتثاله ، فكأنهن امتثلن الأمر بالتربص ، فهو يخبر عنه موجودا ؛ ونظيره قولهم في الدعاء رحمك الله ؛ أخرج في صورة الخبر ثقة بالإجابة ، كأنها وجدت الرحمة فهو يخبر عنها.

فإن قيل : لو قال : " يتربص المطلقات " لكان ذلك جملة من فعل وفاعل ، فما الحكمة من ترك ذلك ، وعدوله عن الجملة الفعلية إلى الجملة الاسمية ، وجعل المطلقات مبتدأ ، ثم قوله : " يتربصن " إسناد للفعل إلى ضمير المطلقات ، ثم جعل هذه الجملة خبرا عن ذلك المبتدأ.

قال الشيخ عبد القاهر الجرجاني في كتاب " دلائل الإعجاز " : إنك إذا قدمت الاسم ، فقلت : زيد فعل ، فهذا يفيد من التأكيد والقوة ما لا يفيد قولك : " فعل زيد " ؛ وذلك لأن قولك : " زيد فعل " قد يستعمل في أمرين : أحدهما : أن يكون لتخصيص ذلك الفعل بذلك الفاعل ؛ كقولك : أنا أكتب في المهم الفلاني إلى السلطان ، والمراد دعوى الإنسان الانفراد.

والثاني : ألا يكون المقصود الحصر ، بل إن تقديم ذكر المحدث عنه بحديث كذا لإثبات ذلك الفعل له ؛ كقولهم : " هو يعطي الجزيل " ولا يريد الحصر ، بل أن يحقق عند السامع أن إعطاء الجزيل دأبه ؛ وذلك مثل قوله تعالى : {والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئا وهم يخلقون} [النحل : ٢٠] ،

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/٧٢٩

وليس المراد تخصيص المخلوقية بهم ، وقوله تعالى : {وإذا جآءوكم قالوا اا آمنا وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به} [المائدة : ٦١] ؛ وقول الشاعر : [الطويل] ١١٠٤ - هما يلبسان المجد أحسن لبسة
شجيعان ما اسطاعا عليه كلاهما
جزء : ٤ رقم الصفحة : ١٠٨
والسبب في حصول هذا المعنى عند تقديم ذكر المبتدأ : أنك إذا قلت : " عبد الله " فقد أشعرت بأنك تريد الإخبار عنه ، فيحصل في النفس شوق إلى معرفة ذلك ، فإذا
١١٢
ذكرت ذلك الخبر ، قبله العقل بتشوق ، فيكون ذلك أبلغ في التحقيق ، ونفي الشبهة.
فإن قيل : هلا قيل : يتربصن ثلاثة قروء ، وما الفائدة في ذكر الأنفس ؟ فالجواب : إن في ذكر الأنفس بعث على التربص وتهييج عليه ؛ لأن فيه ما يستنكفن منه ، فيحملهن على أن يتربصن ، وذلك لأنذ أنفس النساء طوامح إلى الرجال ، فأراد أن يقعن على أنفسهن ، ويغلبنها على الطموح ، ويحرضنها على التربص.
فإن قيل : لم لم يقل : ثلاث قروء ؛ كما يقال : ثلاث حيض ؟ والجواب : أنه أتبع تذكير اللفظ ، ولفظ " قرء " مذكر.
والقرء في اللغة : أصله الوقت المعتاد تردده ، ومنه : قرء النجم لوقت طلوعه وأفوله ، يقال : " أقرأ النجم " ، أي : طلع أو أفل ، ومنه قيل لوقت هبوب الر]ح : قرؤها وقارئها ؛ قال الشاعر : [الوافر] ١١٠٥ -
شنئت العقر عقر بني شليل
إذا هبت لقاريها الرياح
أي : لوقتها ، وقيل : أصله الخروج من طهر إلى حيض ، أو عكسه ، وقيل : هو من قولهم : قريت الماء في الحوض ؛ أي : جمعته ، ومنه : قرأ القرآن.
وقولهم : ما قرأت هذه الناقة في بطنها سلا قط ، أي لم تجمع فيه جنينا ؛ ومنه قول عمرو بن كلثوم : [الوافر] ١١٠٦ - ذراعي عيطل أدماء بكر
هجان اللون لم تقرأ جنينا
." (١)

(١) تفسير اللباب لابن عادل. ، ص/٧٤٠

"معينة ، فكان كالمجمل المفتقر إلى المبين ، أو العام المفتقر إلى المخصص ، فبين في هذه الآية أن ذلك الطلاق الذي ثبت فيه للزوج حق الرجعة ، هو أن يوجد طلقتان ، فأما بعد الطلقتين ، فلا يثبت ألبتة حق الرجعة فالألف واللام في " الطلاق " المعهود السابق ، فهذا تفسير مطابق لنظم الآية ، فيكون أولى لوجوه : الأول : أن قوله : {وبعولتهن أحق بردهن} [البقرة : ٢٢٨] إن كان عاما في كل الأحوال ؛ فهو مفتقر إلى المخصص ، وإن لم يكن عاما فهو مجمل ؛ لأنه ليس فيه بيان الشرط الذي عنده يثبت حق الرجعة ، فافتقر إلى البيان ، فإذا جعلنا الآية متعلقة بما قبلها ، كان المخصص حاصلا مع العام المخصوص ، أو كان البيان حاصلا مع المجمل ، وذلك أولى من ألا يكون كذلك ؛ لأن تأخير البيان عن وقت الخطاب - وإذا كان جائزا - ، إلا أن الأرجح ألا يتأخر.

الثاني : أنا إذا جعلنا هذا الكلام مبتدأ ، كان قوله : {الطلاق مرتان} يقتضي ذكر الطلقة الثانية ، وهي قوله : {أو تسريح بإحسان} فصار تقدير الآية : الطلاق مرتان ومرة ؛ لأنا نقول : إن قوله : {أو تسريح بإحسان} متعلق بقوله : {فإمساك بمعروف} لا بقوله : {الطلاق مرتان} ، ولأن لفظ التسريح بالإحسان لا إشعار فيه بالطلاق ، ولأنا لو جعلنا التسريح هو الطلقة الثالثة ، لكان قوله : " فإن طلقها " طلقة رابعة ، وهو غير جائز.

الثالث : ما روينا في سبب النزول : من شكوى المرأة إلى عائشة كثرة تطليقها ومراجعتها قصدا للمضارة ، وقد أجمعوا على أن سبب النزول لا يجوز أن يكون خارجا عن عموم الآية ، فكان تنزيل الآية على هذا المعنى ، أولى من تنزيلها على حكم أجنبي عنها.

فصل اعلم أن معنى الآية : أن الطلاق التي يثبت فيه الرجعة هو أن يوجد مرتان ، ثم

١٣٢

الواجب بعد ذلك : إما إمساك بمعروف ، وهو أن يراجعها لا على قصد المضارة ، بل على قصد الإصلاح ، وإما تسريح بإحسان ، وفيه وجهان : أحدهما : أن يوقع عليها الطلقة الثالثة ، روي أنه لما نزل قوله تعالى : {الطلاق مرتان} ، قيل له - عليه الصلاة والسلام - : فأين الثالثة ؟ قال عليه الصلاة والسلام - : " هو قوله تسريح بإحسان ".

١٣٣

الثاني : أن التسريح بالإحسان : أن يترك مراجعتها حتى تبين بانقضاء العدة ، وهو مروي عن الضحاك

والسدي.

قال ابن الخطيب : وهو أقرب لوجوه : أحدها : أن " الفاء " في قوله : " فإن طلقها " تقتضي وقوع هذه الطلقة متأخرة عن ذلك التسريح ، فلو كان المراد بالتسريح هو الطلقة الثالثة ، لكان قوله : فإن طلقها طلقة رابعة ؛ وهو لا يجوز.

وثانيها : أنا إذا حملنا التسريح على ترك المراجعة ، كانت الآية متناولة لجميع الأحوال ؛ لأنه بعد الطلقة الثانية إما أن يراجعها وهو المراد بقوله : {فإمساك بمعروف} أو لا يراجعها ، بل يتركها حتى تنقضي عدتها وتبين ، وهو المراد بقوله : {أو تسريح بإحسان} أو يطلقها وهو المراد بقوله " فإن طلقها " ، فكانت الآية مشتملة على بيان كل الأقسام ، وإذا جعلنا التسريح بالإحسان طلاقا آخر لزم ترك أحد الأقسام الثلاثة ، ولزم التكرير في ذكر الطلاق ، وهو غير جائز.

وثالثها : أن ظاهر التسريح هو الإرسال والإهمال ، فحمله على ترك المراجعة أولى من حمله على التطليق.

ورابعها : أنه قال بعد ذلك التسريح : {ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئا} والمراد به الخلع ، ومعلوم أنه لا يصح الخلع بعد التطليقة الثالثة ، فهذه الوجوه ظاهرة ، لو لم يثبت الخبر الذي رويناه ، فإن صح ذلك الخبر ، فلا مزيد عليه.

فصل في الحكمة في الرجعة والحكمة في إثبات حق الرجعة : أن الإنسان إذا كان مع صاحبه ، لا يدري هل تشق عليه مفارقته أم لا ؟ فإذا فارقه بعد ذلك يظهر ، فلو جعل الله الطلقة الواحدة مانعة من الرجوع ، لعظمت المشقة على الإنسان بتقدير أن تظهر المحبة بعد المفارقة مرتين ، وعند ذلك تحصل التجربة ، فإن كان الأصلح الإمساك ، راجعها وأمسكها بالمعروف ، وإن كان الأصلح التسريح ، سرحها بإحسان.

فصل واختلف العلماء إذا كان أحد الزوجين رقيقا :

١٣٤

" (١).

"ابتداء الغاية ، واللام للتبليغ ، وحتى للتعليل ، كذا قال أبو حيان ، قال شهاب الدين : والظاهر أنها للغاية ؛ لأن المعنى على ذلك ، أي : يمتد عدم التحليل له إلى أن تنكح زوجا غيره ، فإذا طلقها وانقضت عدتها منه حلت للأول المطلق ثلاثا ، ويدل على هذا الحذف فحوى الكلام.

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/٧٤٩

و " غيره " صفة لـ " زوجا " ، وإن كان نكرة ، لأن " غير " وأخواتها لا تتعرف بالإضافة ؛ لكونها في قوة اسم الفاعل العامل.

و " زوجا " هل هو للتقييد أو للتوطئة ؟ وينبني على ذلك فائدة ، وهي أنه إن كان للتقييد : فلو كانت المرأة أمة ، وطلقها زوجها ، ووطئها سيدها ، لم تحل للأول ؛ لأنه ليس بزوج ، وإن كانت للتوطئة حلت ؛ لأن ذكر الزوج كالملغى ، كأنه قيل : حتى تنكح غيره ، وإنما أتى بلفظ " زوج " ؛ لأنه الغالب.

فإن قيل : ما الحكمة في إسناد النكاح إلى المرأة دون الرجل فقال {حتى تنكح زوجا} ؟ فالجواب : فيه فائدتان : إحداهما : ليفيد أن المقصود من هذا النكاح الوطء ، لا مجرد العقد ؛ لأن المرأة لا تعقد عقد النكاح ، بخلاف الرجل ؛ فإنه يطلق عند العقد.

الثانية : لأنه أفصح ، لكونه أوجز.

فإن قيل : فقد أسند النكاح إلى المرأة في قوله – عليه الصلاة والسلام – : " أيما امرأة نكحت نفسها بغير إذن وليها فنكاحها باطل " وإنما أراد العقد.

فالجواب : أن هذا يدل لنا ؛ لأن جعل إسناد النكاح إلى المرأة ، والمراد به العقد ، يكون باطلا ، وكلامنا في إسناد النكاح الصحيح.

قال أهل اللغة : النكاح في اللغة : هو الضم والجمع ، يقال : تناكحت الأشجار ، إذا انضم بعضها إلى بعض.

فصل الذين قالوا : بأن التسريح بالإحسان هو الطلقة الثالثة ، قالوا : إن قوله : {فإن طلقها} تفسير للتسريح بالإحسان.

١٤٥

واعلم أن للزوج مع المرأة بعد الطلقة الثانية ثلاثة أحوال : إما أن يراجعها ، وهو المراد بقوله : " فإمساك بمعروف ".

أو يتركها ؛ حتى تنقضي عدتها وتبين ، وهو المراد بقوله : " أو تسريح بإحسان ".

والثالث : أنه إذا راجعها ، وطلقها ثالثة ؛ وهو المراد بقوله : {فإن طلقها}.

فهذه الأقسام الثلاثة ؛ يجب تنزيل الألفاظ الثلاثة عليها ؛ ليطابق كل لفظ معناه ، فأما إن جعلنا التسريح بالإحسان ، عبارة عن الطلقة الثالثة ، كنا قد صرفنا لفظتين إلى معنى واحد ؛ على سبيل التكرار ، وأهملنا

القسم الثالث ، ومعلوم أن الأول أولى ، ووقوع الخلع بين هاتين الآيتين ، كالأجنبي ، ونظم الآية : " الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان ، فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره ".

فإن قيل : إذا كان النظم الصحيح هو هذا ، فما السبب في إيقاع الخلع فيما بين هاتين الآيتين ؟ فالجواب : أن الرجعة والخلع لا يصحان ؛ إلا قبل الطلقة الثالثة ، وأما بعدها ، فلا يصح شيء من ذلك ، فلهذا السبب ذكر الله حكم الرجعة ، ثم أتبعه بذكر الخلع ، ثم ذكر بعد الكل حكم الطلقة الثالثة ؛ لأنها كالخاتمة.

فصل في شروط حل المطلقة ثلاثا لزوجها مذهب الجمهور : أن المطلقة ثلاثا لا تحل لزوجها ؛ إلا بشروط وهي : أن تعتد منه ، وتتزوج بغيره ، ويطأها ثم يطلقها ، وتعتد من الآخر.

وقال سعيد بن جبير ، وسعيد بن المسيب : تحل بمجرد العقد.

واختلف العلماء في ثبوت اشتراط الوطء ؛ هل ثبت بالكتاب ، أو بالسنة ؟ قال أبو مسلم الأصفهاني : الأمران معلومان بالكتاب.

قال ابن جني : سألت أبا علي عن قولهم : نكح المرأة ، فقال : فرقت العرب بالاستعمال ، فإذا قالوا : نكح امرأته ، أو زوجته ، أراد المجامعة ، وعلى هذا فالزوجية مقدمة على النكاح ، الذي هو الوطء ، وإذا كان كذلك فقوله : {تنكح زوجا غيره} ، أي : تتزوج بزوج ، وينكحها ، أي : يجامعها.

وروي في سبب النزول أن الآية نزلت في تميمة ، وقيل : عائشة بنت عبد الرحمن بن عتيك النضري كانت تحت ابن عمها ، رفاعة بن وهب بن عتيك القرظي ، فطلقها ثلاثا ، قالت عائشة : جاءت امرأة رفاعة إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالت : إني كنت عند رفاعة ،

١٤٦

." (١)

"لأجل الرجل وعلى فراشه ، وجب عليه رعاية مصالحه ، [فنبه على أن سبب النسب ، والالتحاق محدود بهذا القدر.

وثالثها : ذكر الوالد بلفظ " المولود [له] " تنبيها على أن نفقته عائدة إليه ، فيلزمه رعاية مصالحه] كما قيل : كله لك ، وكله عليك.

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/٧٥٦

فإن قيل : فما الحكمة في قول موسى - عليه الصلاة والسلام - لأخيه : {قال يبن أم} [طه : ٩٤] ولم يذكر أباه.

فالجواب : أنه أراد بذكر الأم [أن] يذكر الشفقة فإن شفقة الأم أعظم من شفقة الأب.

فصل اعلم أن الله تعالى كما وصى الأم برعاية جانب الطفل ، في قوله : {والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين} - وصى برعاية جانب الأم ، حتى تقوى على رعاية مصلحة الطفل ، فأمره برزقها ، وكسوتها بالمعروف ، وهذا المعروف قد يكون محدودا بشرط وعقد ، وقد يكون غير محدود إلا من جهة العرف لأنه إذا قام بما يكفيها من طعام وكسوتها ، فقد استغنى عن تقدير الأجرة فإنه إن لم يقم بما يكفيها من ذلكن تضررت وضررها يتعدى إلى الود ، ولما وصى الأم برعاية الطفل أولا ثم وصى الأب برعايته ثانيا ، دل على أن احتياج الطفل إلى رعاية الأم أشد من احتياجه إلى رعاية الأب ؛ لأنه ليس بين الطفل وبين رعاية الأم واسطة ألبتة ؛ ورعاية الأب إنما تصل إلى الطفل بواسطة ، فإنه يستأجر المرأة على رضاعته ، وحضانته بالنفقة ، والكسوة ، وذلك يدل على أن حق الأم أكثر من حق الأب ، والأخبار المطابقة لهذا المعنى كثيرة مشهورة.

قوله : {لا تكلف نفس} الجمهور على " تكلف " مبنيا للمفعول ، " نفس " قائم مقام الفاعل ، وهو الله تعالى ، {وسعها} مفعول ثان ، وهو استثناء مفرغ ؛ لأن "كلف " يتعدى لاثنين.

قال أبو البقاء : " ولو رفع الوسع هنا ، لم يجز ؛ لأنه ليس ببدل ".

وقرأ أبو جراء : " لا تكلف نفس " بفتح التاء ، والأصل : " تتكلف " فحذفت إحدى التاءين ؛ تخفيفا : إما الأولى ، أو الثانية على خلاف في ذلك تقدم ، فتكون " نفس " فاعلا ، و " وسعها " مفعول به ، استثناء مفرغا أيضا.

وروى أبو الأشهب عن أبي رجاء أيضا : " لا يكلف نفسا " بإسناد الفعل إلى ضمير الله تعالى ، فتكون " نفسا " و " وسعها " مفعولين.

١٧٥

والتكليف : الإلزام ، وأصله من الكلف ، وهو الأثر من السواد في الوجه ؛ قال : [البسيط] ١١٢٨ -

يهدي بها أكلف الخدين مختبر

من الجمال كثير اللحم عيثوم

جزء : ٤ رقم الصفحة : ١٦٨

فمعنى " تكلف الأمر " ، أي : اجتهد في إظهار أثره.

وفلان كلف بكذا : أي مغرى به.

و " الوسع " هنا ما يسع الإنسان فيطيق أخذه من سعة الملك أي الغرض ، ولو ضاق لعجز عنه ، فالسعة بمنزلة القدرة ، ولهذا قيل : الوسع فوق الطاقة ، والمراد منه : أن أبا الصبي لا يتكلف الإنفاق عليه ، وعلى أمه ، إلا ما تتسع له قدرته ، لأن الوسع ما تتسع له القدرة ، ولا يبلغ استغراق القدرة ؛ وهو نظير قوله تعالى : {لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق ممآ آتاه الله لا يكلف الله نفسا إلا مآ آتاها} [الطلاق : ٧].

فصل في احتجاج المعتزلة بالآية تمسك المعتزلة بهذه الآية في أن الله – تعالى – لا يكلف العبد ما لا يقدر عليه.

وقوله : {لا تضآر} ابن كثير ، وأبو عمرو : " لا تضار " برفع الراء مشددة ، وتوجيهها واضح ، لأنه فعل مضارع لم يدخل عليه ناصب ولا جازم فرفع ، وهذه القراءة مناسبة لما قبلها ، من حيث إنه عطف جملة خبرية على خبرية مثلها من حيث اللفظ وإلا فالأولى خبرية لفظا ومعنى ، وهذه خبرية لفظا نهيية معنى ويدل عليه قراءة الباقين كما سيأتي.

قال الكسائي والفراء : هو نسق على قوله : " لا يكلف ".

قال عليبن عيسى : هذا غلط ؛ لأن النسق بـ " لا " إنما هو إخراج على إخراج الثاني مما دخل فيه الأول نحو : " ضربت زيدا لا عمرا " فأما أن يقال : يقوم زيد لا يقعد عمرو ، فهو غير جائز على النسق ، بل الصواب أنه مرفوع على الاستئناف في النهي كما يقال : لا تضرب زيدا لا تقتل عمرا.

وقرأ باقي السبعة : بفتح الراء مشددة ، وتوجيهها أن " لا " ناهية ، فهي جازمة ،

١٧٦." (١)

"أحدهما : أن هذه الآية متعلقة بما قبلها ، والمراد منها القرض في الجهاد خاصة ، فندب العاجز عن الجهاد أن ينفق على الفقير القادر عليه ، وأمر القادر على الجهاد : أن ينفق على نفسه في طريق الجهاد ، ثم أكد ذلك بقوله تعالى : {والله يقبض ويبسط}.

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل ـ ، ص/٧٧٠

القول الثاني : أن هذا الكلام مبتدأ لا تعلق له بما قبله ، ثم اختلفوا هؤلاء ، فمنهم من قال : المراد من القرض إنفاق المال ، ومنهم من قال : إنه غيره والقائلون بأنه إنفاق المال ، اختلفوا على ثلاثة أقوال : الأول : أنه الصدقة غير الواجبة ، وهو قول الأصم ، واحتج بوجهين : أحدهما : أنه تعالى سماه قرضا والقرض لا يكون إلا تبرعا.

الوجه الثاني : قال ابن عباس : إن هذه الآية " نزلت في أبي الدحداح ، قال : يا رسول الله! إن لي حديقتين ، فإن تصدقت بأحدهما ، فهل لي مثلها في الجنة.

قال : " نعم " ، قال : وأم الدحداح معي ؟ قال : " نعم ".

فتصدق بأفضل حديقته ، وكانت تسمى " الحنيبة " قال : فرجع أبو الدحداح إلى أهله ، وكانوا في الحديقة التي تصدق بها ، فقام على باب الحديقة وذكر ذلك لامرأته فقالت أم الدحداح : بارك الله لك فيما اشتريت ، ثم خرجوا منه وسلموها ؛ فكان عليه الصلاة والسلام يقول : كم من نخلة رداح تدلي عروقها في الجنة لأبي الدحداح .

" القول الثاني : أن المراد من هذا القرض : الإنفاق الواجب في سبيل الله.

قالوا : لأنه تعالى ذكر في آخر الآية قوله : {وإليه ترجعون} ، وذلك كالزجر وهو إنما يليق بالواجب.

القول الثالث : أنه يشتمل قسمين كقوله تعالى : {مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة} [البقرة : ٢٦١] وأما من قال : إن المراد : إنفاق شيء سوء المال.

قالوا : روي عن بعض أصحاب ابن مسعود أنه قول الرجل سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر.

قال ابن الخطيب [قال القاضي] وهذا بعيد ؛ لأن لفظ الإقراض لا يقع في عرف اللغة عليه ، ولا يمكن حمل هذا القول على الصحة إلا أن نقول : إذا كان

٢٥٨

الفقير لا يملك شيئا ، وكان في قلبه أنه لو قدر على الإنفاق لأنفق ، وأعطى ، فحينئذ تكون نيته قائمة مقام الإنفاق ، فقد روي أنه عليه الصلاة والسلام قال : " من لم يكن عنده ما يتصدق به ؛ فليلعن اليهود ، فإنه له صدقة ".

فصل قال القرطبي : وذكر القرض ها هنا إنما هو تأنيس ، وتقريب للناس بما يفهمونه ، والله هو الغني

الحميد ، لكنه تعالى شبه عطاء المؤمنين في الدنيا ، بما يرجون به ثوابه في الآخرة بالقرض كما شبه إعطاء النفوس ، والأموال في أخذ الجنة ، بالبيع والشراء.

قوله تعالى : " حسنا " قال الواقدي : محتسب طيبة به نفسه.

وقال عمرو بن عثمان الصدفي : " لا يتبعه منا ، ولا أذى ".

وقال سهل بن عبدالله : لا يعتقدث في قرضه عوضا.

واعلم : أن هذا الإقراض إذا قلنا : المراد به الإنفاق في سبيل الله ، فهو يخالف القرض من وجوه : الأول : أن القرض إنما يأخذه من يحتاج إليه لفقره ، وذلك في حق الله تعالى محال.

الثاني : أن البدل في القرض المعتاد لا يكون إلا المثل ، وفي هذا الإنفاق هو الضعف.

الثالث : أن المال الذي يأخذه المستقرض ، لا يكون ملكا له ، وها هنا المال المأخوذ ملك له ، ومع هذه الفروق سماه الله تعالى قرضا ، والحكمة فيه التنبيه على أن ذلك لا يضيع عند الله كما أن القرض يجب أداؤه ، ولا يجوز الإخلال به ، فكذا الثواب الواجب على هذا الإنفاق واصل إلى المكلف لا محالة.

فصل قال القرطبي : القرض : قد يكون بالمال ، وقد بينا حكمه ، كما قال عليه الصلاة

٢٥٩

". (١)

"والعام : مدة من الزمان معلومة ، وعينه واو ؛ لقولهم في التصغير : عويم ، وفي التكسير : " أعوام ".

وقال النقاش : " هو في الأصل مصدر وسمي به الزمان ؛ لأنه عومة من الشمس في الفلك ، والعوم : هو السبح ؛ وقال تعالى : {وكل في فلك يسبحون} [يس : ٤٠] فعلى هذا يكون العوم والعام كالقول والقال ".

فإن قيل : ما الحكمة في أن أماته الله مائة عام ، مع أن الاستدلال بالإحياء بعد يوم ، أو بعض يوم حاصل.

فالجواب : أن الإحياء بعد تراخي المدة أبعد في العقول من الإحياء بعد قرب المدة ، وبعد تراخي المدة يشاهد منه ، ويشاهد هو من غيره ، ما هو عجب.

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/٨١٣

قوله : " ثم بعثه " ، أي : أحياه ، ويوم القيامة يسمى يوم البعث ؛ لأنهم يبعثون من قبورهم ، وأصله : من بعثت الناقة ، إذا أقمتها من مكانها.

فإن قيل : ما الحكمة في قوله – تبارك وتعالى – " ثم بعثه " ولم يقل : ثم أحياه ؟ فالجواب : أن قوله : " بعثه " يدل على أنه عاد كما كان أولا : حيا ، عاقلا ، فاهما ، مستعدا للنظر ، والاستدلال ، ولو قال : ثم أحياه ، لم تحصل هذه الفوائد.

قوله : "كم " منصوب على الظرف ، ومميزها محذوف تقديره : كم يوما ، أو وقتا.

والناصب له " لبثت " ، والجملة في محل نصب بالقول ، والظاهر أن " أو " في قوله : " يوما أو بعض يوم " بمعنى " بل " للإضراب ، وهو قول ثابت ، وقيل : هي للشك.

فصل قال ابن الخطيب : من الخوارق ما يمكن في حالة ، ومن الناس من يقول في قصة أهل الكهف ، والعزير : إنه كذب على معنى وجود حقيقة الكذب فيه ، ولكنه لا مؤاخذة به ، وإلا فالكذب : الإخبار عن الشيء على خلاف ما هو عليه ، وذلك لا يختلف بالعمل ، والجهل ؛ فعلى هذا يجوز أن يقال : إن الأنبياء لا يعصمون عن السهو والنسيان ، والقول الأول أصح.

قوله : " قال بل لبثت " عطفت " بل " هذه الجملة على جملة محذوفة ، تقديره : ما لبثت يوما أو بعض يوم ، بل لبثت مئة عام.

وقرأ نافع ، وعاصم ، وابن كثير : بإظهار الثاء في جميع القرآن الكريم ، والباقون : بالإدغام.

٣٥٤

فصل فيمن قال : كم لبثت أجمعوا على أن ذلك القائل هو الله تعالى ؛ لأن ذلك الخطاب كان مقرونا بالمعجز ، ولأنه بعد الإحياء شاهد من أحوال حماره ، وظهور البلى في عظامه ، ما عرف به أن تلك الخوارق لم تصدر إلا من الله تعالى.

وقيل : سمع هاتفا من السماء ، يقول له ذلك.

وقيل : خاطبه جبريل ، وقيل : نبي.

وقيل : مؤمن شاهده من قومه عند موته ، وعمر إلى حين إحيائه.

قال القرطبي : والأظهر أن القائل هو الله – عز وجل – ، لقوله تعالى : {وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحما}.

فإن قيل : إنه تعالى كان عالما بأنه كان ميتا ، والميت لا يمكنه بعد أن صار حيا أن يعلم مدة موته طويلة كانت أم قصيرة ؛ فلأي حكمة سأله عن مقدار المدة ؟ فالجواب : أن المقصود منه الـتنبيه على حدوث ما حدث من الخوارق ، بقوله : {لبثت يوما أو بعض يوم} على حسب ظنه ؛ كما روي في القصة : أنه أماته ضحى ، وأحياه بعد المائة قبل غروب الشمس ؛ فظن أن اليوم لم يكمل ، كما حكي عن أصحاب الكهف : {قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم} [الكهف : ١٩] على ما توهموه ، ووقع في ظنهم.

وقول إخوة يوسف {يا أبانا إن ابنك سرق وما شهدنآ إلا بما علمنا} [يوسف : ٨١] وإنما قالوا ذلك ؛ بناء على إخراج الصواع من رحله.

قوله : {لم يتسنه} هذه الجملة في محل نصب على الحال ، وزعم بعضهم : أن المضارع المنفي بـ " لم " إذا وقع حالا ، فالمختار دخول واو الحال ؛ وأنشد : [الطويل] ١٢٠١ - بأيدي رجال لم يشيموا سيوفهم

ولم تكثر القتلى بها حين سلت

جزء : ٤ رقم الصفحة : ٣٤٦

وزعم آخرون : أن الأولى نفي المضارع الواقع حالا بما ، ولما.

وهذان الزعمان غير صحيحين ؛ لأن الاستعمالين واردان في القرآن ، قال تعالى : {فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سواء} [آل عمران : ١٧٤] ، وقال تعالى : {أو قال أوحي إلي ولم يوح إليه شيء} [الأنعام : ٩٣] فجاء النفي بـ " لم " مع الواو ودونها.

٣٥٥

." (١)

"فصل في معنى قوله : {فلما تبين له} قال الطبري : معنى قوله : " فلما تبين له " أي : لما اتضح له عيانا ما كان مستنكرا في قدرة الله عنده قبل عيانه ، قال : أعلم.

قال ابن عطية : وهذا خطأ ؛ لأنه ألزم ما لا يقتضيه اللفظ ، وفسر على القول الشاذ ، وهذا عندي ليس بإقرار بما كان قبل ينكره ، كما زعم الطبري ، بل هو قول بعثه الاعتبار ؛ كما يقول المؤمن إذا رأى شيئا غريبا من قدرة الله تعالى : لا إله إلا الله ، ونحو هذا.

وقال أبو علي : معناه أعلم هذا الضرب من العلم الذي لم أكن أعلمه.

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل ، ص/٨٦٨

و " أن الله " في محل نصب ، سادة مسد المفعولين ، أو الأول والثاني محذوف على ما تقدم من الخلاف.

جزء : ٤ رقم الصفحة : ٣٤٦

هذه القصة الثالثة الدالة على صحة البعث.

في العامل في " إذ " ثلاثة أوجه : أظهرها : أنه قال : {أولم تؤمن} ، أي : قال له ربه وقت قوله ذلك.

والثاني : أنه " ألم تر " أي : ألم تر إذ قال إبراهيم.

والثالث : أنه مضمر تقديره : واذكر قاله الزجاج فـ " إذ " على هذين القولين مفعول به ، لا ظرف.

و " رب " منادى مضاف لياء المتكلم ، حذفت ؛ استغناء عنها بالكسرة قبلها ، وهي اللغة الفصيحة ، وحذف حرف النداء.

وقوله : " أرني " تقدم ما فيه من القراءات ، والتوجيه في قوله : {وأرنا} [البقرة : ١٢٨] والرؤية - هنا - بصرية تتعدى لواحد ، ولما دخلت همزة النقل ، أكسبته مفعولا ثانيا ، والأول ياء المتكلم ، والثاني الجملة الاستفهامية ، وهي معلقة للرؤية و " رأى " البصرية تعلق ، كما تعلق " نظر " البصرية ، ومن كلامهم : " أما ترى أي برق ههنا ".

و "كيف " في محل نصب : إما على التشبيه بالظرف ، وإما على التشبيه بالحال ، كما تقدم في قوله : {كيف تكفرون} [البقرة : ٢٨].

والعامل فيها " تحيي " وقدره مكي : بأي حال تحيي الموتى ، وهو تفسير معنى ، لا إعراب.

قال القرطبي : الاستفهام بكيف ، إنما هو سؤال عن حالة شيء موجود متقرر

٣٦٤

الوجوه عند السائل ، والمسؤول ؛ نحو قولك : كيف علم زيد ؟ وكيف نسج الثوب ؟ ونحو هذا : ومتى قلت : كيف ثوبك ؟ وكيف زيد ؟ فإنما للسؤال عن حال من أحواله ، وقد تكون "كيف " خبرا عن شيء شأنه أن يستفهم عنه بكيف ، نحو قولك : كيف شئت فكن ، ونحو قول البخاري : "كيف كان بدء الوحي " ، و "كيف " في هذه الآية إنما هي استفهام عن هيئة الإحياء ، والإحياء متقرر ، ولكن لما وجدنا بعض المنكرين لوجود شيء ، قد يعبرون عن إنكاره بالاستفهام عن حالة ذلك الشيء ، يعلم أنها لا تصح ؛ فيلزم من ذلك أن الشيء في نفسه لا يصح ؛ مثاله أن يقول مدع أنا أرفع هذا الجبل ، فيقول المكذب

له : أرني كيف ترفعه فهذه طريقة مجاز في العبارة ، ومعناها تسليم جدلي ، كأنه يقول : افرض أنك ترفعه ، فأرني كيف ترفعه فلما كان في عبارة الخليل - عليه الصلاة والسلام - هذا الاشتراك المجازي ، خلص الله له ذلك ، وحمله على أن بين له الحقيقة ، فقال لله : " أو لم تؤمن ؟ قال : بلى " فكمل الأمر ، وتخلص من كل شك.

فإن قيل : ما الحكمة في أنه تعالى لم يسم عزيرا ، بل قال : {أو كالذي مر على قرية} [البقرة : ٢٥٩] ، وها هنا سمى إبراهيم ، مع أن المقصود في كلتا القصتين شيء واحد ؟ ! فالجواب : قال ابن الخطيب - رحمه الله - : والسبب فيه : أن عزيرا لم يحفظ الأدب ، بل قال {أنى يحيي هاذه الله بعد موتها} [البقرة : ٢٥٩] ولذلك جعل الإحياء ، والإماتة في نفسه ، وإبراهيم - عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام - حفظ الأدب ، وراعاه ؛ فقال أولا " رب " ثم دعا فقال : {أرني كيف تحيي الموتى } ولذلك جعل الإحياء ، والإماتة في الطيور.

قوله : {قال أولم تؤمن} في هذه الواو وجهان : أظهرهما : أنها للعطف قدمت عليها همزة الاستفهام ، لأنها لها صدر الكلام والهمزة هنا للتقرير ؛ لأن الاستفهام إذا دخل على النفي ، قرره ؛ كقول القائل :

[الوافر] ١٢١١ - ألستم خير من ركب المطايا

وأندى العالمين بطون راح

جزء : ٤ رقم الصفحة : ٣٦٤

". (١)

"فعنه جوابان : أحدهما : أن ما سأله موسى لا يصح مع بقاء التكليف ، وما سأله إبراهيم خاص يصح معه بقاء التكليف.

الثاني : أن الأحوال تختلف ، فيكون الأصلح في بعض الأوقات الإجابة ، وفي قوت آخر المنع ، فيما لا يتقدم فيه إذن.

قال ابن عباس - رضي الله عنهما - أمر الله تعالى إبراهيم بهذا ، قبل أن يولد ، وقبل أن ينزل عليه الصحف.

فصل في الطير المأخوذة قال مجاهد ، وعطاء ، وابن جريج : أخذ طاووسا ، وديكا ، وحمامة ، وغرابا.

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/٨٧٤

ونقل عن ابن عباس : ونسرا بدل الحمامة.

وقال عطاء الخراساني : بطة خضراء ، وغرابا أسود ، وحمامة بيضاء ، وديكا أحمر " فصرهن " أي : قطعهن ، ومزقهن ، وقيل أملهن على ما تقدم.

فصل في الحكمة في نوع الطير وعدده وها هنا سؤالات : الأول : ما الحكمة في كونه أمره بأخذ أربعة من الطير ، ولم يأمره بأكثر ، ولا بأقل ؟ ! الثاني : ما الحكمة في كونها من الطير ، دون غيرها من الحيوان ؟ ! الثالث : هل كان من حيوان البحر ، ثم الوحش ، والطير وبهم الأنعام ؟ الرابع : هل كان الأربعة كل واحد مخلوق من غالب عنصر من العناصر الأربعة ، كالطير ، مخلوق من غالب عنصر الهواء ، والسمك مخلوق من غالب عنصر الماء ، وحيوان البر مخلوق من غالب عنصر التراب ، وسراج البحر ، والدراج التي هي تطير بالليل كلها نار ، والسمندل الذي يعيش في النار فإنهم مخلوقون من غالب عنصر النار.

٣٧٢

فإن قيل : ما الفائدة في أمره بضمها إلى نفسه بعد أخذها ؟ فالجواب : فائدته أن يتأمل فيها ، ويعرف أشكالها ، وهيئاتها ؛ لئلا تلتبس عليه بعد الإحياء ، ولا يتوهم أنها غير تلك ، وأجمع المفسرون على أن المراد من الآية الكريمة قطعهن ، وأن إبراهيم – عليه الصلاة والسلام – قطع أعضاءها ، ولحومها ، وريشها ، ودماءها ، وخلط بعضها ببعض ؛ غير أبي مسلم ؛ فإنه أنكر ذلك ، وقال : إن إبراهيم – عليه الصلاة والسلام – لما طلب إحياء الميت من الله تعالى ، أراه مثالا قرب به الأمر عليه.

والمراد بـ {فصرهن إليك} الإمالة والتمرين على الإجابة ، وتعلمها ، أي : فعود الطير الأربعة ، بحيث تصير إذا دعوتها ، أجابتك.

والغرض منه ذكر مثال محسوس في عود الأرواح إلى الأجساد على سبيل السهولة وأنكر القول بأن المراد منه : فقطعهن.

واحتج على ذلك بوجوه : أحدها : أن المشهور في قوله : " فصرهن " أي : أملهن ، وأما التقطيع والذبح ، فليس في الآية ما يدل عليه ، فكان إدراجه في الآية الكريمة زيادة بغير دليل ، وهو لا يجوز.

وثانيها : لو كان المراد قطعهن ، لم يقل إليك ؛ فإن ذلك لا يتعدى بإلى.

فإن قيل : لم لا يجوز أن يقال في الكلام تقديم ، وتأخير ، تقديره : فخذ إليك أربعة من الطير ، فصرهن ؟ قلنا : التزام التقديم والتأخير من غير ضرورة خلاف الظاهر.

وثالثها : أن الضمير في قوله : {ثم ادعهن} عائد إليها لا إلى أجزائها ، وإذا كانت الأجزاء متفرقة ، وكان الموضوع على كل جبل بعض تلك الأجزاء يلزم أن يكون الضمير عائدا إلى تلك الأجزاء لا إليها ، وهو خلاف الظاهر ، وأيضا في قوله : {يأتينك سعيا} عائد إليها ، لا إلى أجزائها ، وعلى قولكم إذا سعى بعض الأجزاء إلى بعض ، كان الضمير في " يأتينك " عائدا إلى أجزائها لا إليها.

٣٧٣

(١) ".

"قال السدي : هي النبوة.

وقال ابن عباس ، وقتادة : علم القرآن : ناسخه ، ومنسوخه ، ومحكمه ، ومتشابهه ، ومقدمه ، ومؤخره ، وحلاله ، وحرامه ، وأمثاله.

قال الضحاك : في القرآن مائة وتسع آيات ، ناسخة ومنسوخة ، وألف آية حلال وحرام ، لا يسع المؤمنين تركهن ، حتى يتعلموهن ، ولا يكونوا كأهل النهروان فإنهم تأولوا آيات من القرآن في أهل القبلة ، وإنما أنزلت في أهل الكتاب ، جهلوا علمها ، فسفكوا بها الدماء ، وانتهبوا الأموال ، وشهدوا علينا بالضلال ، فعليكم تعلم القرآن ؛ فإنه من علم فيما أنزل ؛ لم يختلف في شيء منه.

٤١٧

وقال مجاهد : هي القرآن ، والعلم ، والفقه ، وروى ابن أبي نجيح عنه هي الإصابة في القول ، والفعل.

وقال إبراهيم النخعي : هي معرفة معاني الأشياء ، وفهمها.

وروي عن مقاتل ، قال : تفسير الحكمة في القرآن على أربعة أوجه : أحدها : مواعظ القرآن.

قال : {ومآ أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به} [البقرة : ٢٣١] وفي النساء {وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة} [النساء : ١١٣] يعني المواعظ ومثلها في آل عمران.

وثانيها : الحكمة بمعنى : الفهم ، والعلم قال {وآتيناه الحكم صبيا} [مريم : ١٢] وفي لقمان : {ولقد آتينا لقمان الحكمة} [لقمان : ١٢] يعني الفهم ، والعلم ، وفي الأنعام {أولائك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة} [الأنعام : ٨٩] وفي " ص " {وآتيناه الحكمة} [ص : ٢٠].

وثالثها : النبوة.

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/٨٧٩

ورابعها : القرآن بما فيه من عجائب الأسرار ، قال في النحل : {ادع إلى سبيل ربك بالحكمة} [النحل : ١٢٥] وفي هذه الآية {ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا} وعند التحقيق ترجع هذه الوجوه إلى العلم.

قال أبو مسلم : الحكمة : فعلة من الحكم ، وهي كالنحلة : من النحل ، ورجل حكيم إذا كان ذا حجى ، ولب ، وإصابة رأي وهو في هذا الموضع في معنى الفاعل ، ويقال : أمر حكيم , أي : محكم.

قوله تعالى : {ومن يؤت الحكمة فقد أوتي} : الجمهور على " يؤتي " " ومن يؤت " بالياء فيهما ، وقرأ الربع بن خيثم : بالتاء على الخطاب فيهما.

وهو خطاب للباري ؛ على الالتفات.

وقرأ الجمهور : " ومن يؤت " مبنيا للمفعول ، والقائم مقام الفاعل ضمير " من " الشرطية ، وهو المفعول الأول فتكون في محل رفع ، و " الحكمة " مفعول ثان.

٤١٨

وقرأ يعقوب : " يؤت " مبنيا للفاعل ، والفاعل ضمير الله تعالى ، و " من " مفعول مقدم ، و " الحكمة " مفعول ثان ؛ كقولك : " أيا يعط زيدا درهما أعطه درهما " ويدل لهذه القراءة قراءة الأعمش.

وقال الزمخشري : بمعنى " ومن يؤته الله ".

قال أبو حيان : " إن أراد تفسير المعنى ، فهو صحيح ، وإن أراد الإعراب ، فليس كذلك ؛ إذ ليس ثم ضمير نصب محذوف ، بل مفعول " يؤت " من الشرطية المتقدمة ".

قال شهاب الدين : ويؤيد تقدير الزمخشري قراءة الأعمش.

قوله : {فقد أوتي خيرا كثيرا} جواب الشرط ، والماضي المقترن بقد ، الواقع جوابا للشرط ، تارة يكون ماضي اللفظ مستقبل المعنى ، كهذه الآية الكريمة ، فهو الجواب حقيقة ، وتارة يكون ماضي اللفظ ، والمعنى نحو : {وإن يكذبوك فقد كذبت} [فاطر : ٤] فهذا ليس جوابا ، بل الجواب محذوف ، أي : فتسل ، فقد كذبت رسل ، وسيأتي له مزيد بيان إن شاء الله تعالى.

والتنكير في " خيرا " قال الزمخشري : يفيد التعظيم ، كأنه قال : فقد أوتي [أي] خير كثير ".

قال أبو حيان : وتقديره هكذا ، يؤدي إلى حذف الموصوف بـ " أي " وإقامة الصفة مقامه ، فإن التقدير : فقد أوتي خيرا أي خير كثير ، وحذف " أي " الواقعة صفة ، وإقامة المضاف إليها مقامها ، وكذلك

وصف ما يضاف إليه " أي " الواقعة صفة ، نحو : مررت برجل أي رجل كريم ، وكل هذا يحتاج في إثباته إلى دليل ، والمحفوظ عن العرب : أن " أيا " الواقعة صفة تضاف إلى ما يماثل الموصوف نحو : ١٢٣٢ب

– دعوت امرأ أي امرئ فأجابني

وكنت وإياه ملاذا وموئلا

جزء : ٤ رقم الصفحة : ٤١٧

وقد يحذف المصوف بـ " أي " ؛ كقوله : [الطويل] ١٢٣٣أ – إذا حارب الحجاج أي منافق

علاه بسيف كلما هز يقطع

تقديره : منافقا أي منافق ، وهذا نادر ، وقد تقدم أن تقدير الزمخشري كذلك ، أعني كونه حذف موصوف " أي " كقراءة الأعمش بإثبات " ها " الضمير و " من " في قراءته مبتدأ ، لاشتغال الفعل بمعموله ، وعند من يجوز الاشتغال في أسماء الشرط ، والاستفهام ، يجوز في

٤١٩

". (١)

"فأجابهم الله تعالى بقوله : {وأحل الله البيع وحرم الربا} ، وتوجيه هذا الجواب أن ما ذكرتم معارضة للنص بالقياس ؛ وهو لا يجوز.

فصل في دفع شبهة لنفاة القياس تمسك نفاة القياس بهذه الآية ، فقالوا : لو كان الدين بالقياس ، لكانت هذه الشبهة لازمة ، فلما بطلت ، علمنا أن الدين بالنص لا بالقياس.

وفرق القفال بينهما ، فقال : من باع ثوبا يساوي عشرة بعشرين ، فقد جعل ذات الثوب مقابلة بالعشرين ، فلما حصل التراضي على هذا التقابل ، صار كل واحد منهما مقابلا للآخر في المالية عندهما ، فلم يكن أخذ من صاحبه شيئا بغير عوض.

أما إذا باع العشرة بالعشرة ، فقد أخذ العشرة الزائدة من غير عوض ، ولا يمكن أن يقال : إن غرضه هو الإمهال في الأجل ؛ لأن الإمهال ليس إلا مالا أو شيئا يشار إليه ، حتى يجعله عوضا عن العشرة الزائدة ؛ فافترقا.

فإن قيل : ما الحكمة في قلب هذه القضية ؟ ومن حق القياس أن يشبه محل الخلاف بمحل الوفاق ؛

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل ، ص/٨٩٨

لأن حل البيع متفق عليه ، وهم أرادوا قياس الربا عليه ؛ فكان نظم الكلام أن يقال : إنما الربا مثل البيع ، فقلبه ، وقال : {إنما البيع مثل الربا} ؟ فالجواب أنه لم يكن مقصود القوم أن يتمسكوا بنظم القياس ، بل كان غرضهم أن البيع والربا متماثلان في جميع الوجوه المطلوبة ، فكيف يجوز تخصيص أحد المثلين بالحل ، والآخر بالحرمة ، وعلى هذا التقدير : فأيهما قدم ، أو أخر جاز.

قوله : {وأحل الله البيع} الظاهر أنه من كلام الله تعالى ، أخبر بأنه أحل هذا ، وحرم ذاك ، وعلى هذا ؛ فلا محل لهذه الجملة من الإعراب.

وقال بعضهم : " هذه الجملة من تتمة قول الذين يأكلون الربا ، فتكون في محل نصب بالقول ؛ عطفا على المقول " وهو بعيد جدا ، لأن القائل بأن هذا من كلام الكفار ، لا يتم إلا بإضمار زيادة ، إما بأن يحمل ذلك على الاستفهام ؛ على سبيل الإنكار ، أو يحمل ذلك عرى الرواية من قول المسلمين ، والإضمار خلاف الأصل ، وعلى الأول لا يحتاج إلى الإضمار ، فكان أولى أيضا فإن المسلمين - أبدا - يتمسكون في جميع مسائل البيع بهذه الآية ، ولو كان ذلك من كلام الكفار ، لما جاز لهم الاستدلال به.

وأيضا ، فقوله بعده : {فمن جآءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف...

} إلى قوله : {...

خالدون} يقتضي أنهم لما تمسكوا بقولهم : {إنما البيع مثل الربا} فالله تعالى قد كشف عن فساد تلك الشبهة ، وبين ضعفها ، فلو لم

٤٥٢

يكن قوله {وأحل الله البيع وحرم الربا} من كلام الله تعالى ، لم يكن أجاب عن تلك الشبهة ، فلم يكن قوله {فمن جآءه موعظة من ربه} - لائقا بهذا الموضع.

فصل ذهب بعض العلماء إلى أن قوله تعالى : {وأحل الله البيع وحرم الربا} من المجملات التي لا يجوز التمسك بها.

قال ابن الخطيب : وهو المختار عندي لوجوه : الأول : أنه ثبت في " أصول الفقه " أن الاسم المفرد المحلى بـ " لام " التعريف ، لا يفيد العموم ألبتة ، بل ليس فيه إلا تعريف الماهية ، ومتى كان كذلك ، كفى في العمل ثبوت حكمه في الصورة الواحدة.

الثاني : سلمنا أنه يفيد العموم ، ولكنا لا نشك في أن إفادته أضعف من إفادة ألفاظ الجمع للعموم ، مثلا

قوله : {وأحل الله البيع} وإن أفاد الاستغراق إلا أن قوله : " وأحل الله البيعات " أقوى في إفادة الاستغراق فثبت أن قوله : " وأحل الله البيع " لا يفيد الاستغراق إلا إفادة ضعيفة ، ثم بتقدير العموم لا بد أن يتطرق إليها تخصيصات كثيرة خارجة عن الحصر والضبط ، ومثل هذا العموم لا يليق بكلام الله تعالى ، وكلام رسوله ؛ لأنه كذب ، والكذب على الله محال.

فأما العام الذي يكون موضع التخصيص منه قليلا جدا ، فذلك جائز ؛ لأن إطلاق لفظ الاستغراق على الأغلب عرف مشهور في كلام العرب.

الثالث : روي عن عمر – رضي الله عنه – قال : خرج رسول – صلى الله عليه وسلم – من الدنيا ، وما سألناه عن الربا.

ولو كان هذا اللفظ مفيدا للعموم ، لما قال ذلك ؛ فعلمنا أن هذه الآية من المجملات.

الرابع : أن قوله : {وأحل الله البيع وحرم الربا} يقتضي أن يكون كل بيع حلالا ، وكل ربا حراما ؛ والربا : هو الزيادة ، فأول الآية أباح جميع البيوع ، وآخرها حرم الجميع ؛ فلا يعرف الحلال من الحلال بهذه الآية ؛ فكانت مجملة ، ووجب الرجوع في معرفة الحلال ، والحرام إلى بيان الرسول – صلى الله عليه وسلم – .

قوله : {فمن جآءه} يحتمل أن تكون شرطية وهو الظاهر ، وأن تكون موصولة ، وعلى كلا التقديرين فهي في محل رفع بالابتداء.

وقوله : {فله ما سلف} هو الخبر ، فإن كانت شرطية ، فالفاء واجبة ، وإن كانت موصولة ، فهي جائزة ، وسبب زيادتها ما تقدم من شبه الموصول لاسم الشرط.

ويجوز

٤٥٣

" (١).

"وأيضا فإن الطيور لا تمر فوق الكعبة عند طيرانها في الهواء بل تنحرف عنه إذا وصلت إلى ما فوقه.

وأيضا فالوحوش إذا اجتمعت عنده لا يؤذي بعضهم بعضا –كالكلاب والظباء – ولا يصطاد فيه الظباء الكلاب والوحوش ، وتلك خاصية عظيمة ، ومن سكن مكة أمن من النهب والغارة ، بدعاء إبراهيم وقوله :

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/٩١٥

{رب اجعل هذا البلد آمنا} [إبراهيم : ٣٥] ، وقال : {أولم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم} [العنكبوت : ٦٧] ، وقال : {رب هذا البيت الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف} [قريش : ٣ - ٤].

وأيضا فالأشرم - صاحب الفيل - لما قاد الجيوش والفيل إلى الكعبة ، وعجز قريش عن مقاومته ، وفارقوا مكة وتركوا له الكعبة ، فأرسل الله - تعالى - عليهم طيرا أبابيل ، ترميهم بحجاة ، والأبابيل : هم الجماعة من الطير بعد الجماعة ، وكانت صغارا ، تحمل أحجارا ترميهم بها ، فهلك الملك والعسكر بتلك الأحجار - مع أنها كانت في غاية الصغر - وهذه آية باهرة دالة على شرف الكعبة.

فإن قيل : ما الحكمة في أن الله - تعالى - وضعها بواد غير ذي زرع ؟ فالجواب من وجوه : أحدها : أنه - تعالى - قطع بذلك رجاء أهل حرمه وسدنة بيته عمن سواه ، حتى لا يتكلوا إلا على الله تعالى.

وثانيها : أنه لا يسكنها أحد من الجبابرة والأكاسرة ، فإنهم يحبون طيبات الدنيا ، فإذا لم يجدوها هناك تركوا ذلك الموضع ، والمقصود تنزيه ذلك الموضع عن لوث وجود أهل الدنيا.

وثالثها : أنه فعل ذلك ؛ لئلا يقصدها أحد للتجارة ، بل يكون ذلك لمحض العبادة والزيارة.

ورابعها : أن الله - تعالى - أظهر بذلك شرف الفقر ، حيث وضع أشرف البيوت ، في أقل المواضع نصيبا من الدنيا ، فكأنه قال : جعلت أهل الفقر في الدنيا أهل البلد الأمين ، فكذلك أجعلهم في الآخرة أهل المقام الأمين ، لهم في الدنيا بيت الأمن ، وفي الآخرة دار الأمن.

فسل للكعبة أسماء كثيرة : أحدها : الكعبة ، قال تعالى : {جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس} [المائدة : ٩٧] ، وهذا الاسم يدل على الإشراف والارتفاع ، وسمي الكعب كعبا ؛ لإشرافه على الرسغ ، وسميت المرأة الناهدة الثديين كاعبا لارتفاع ثدييها ، فلما كان هذا البيت أشرف

٤٠٢

بيوت الأرض ، وأقدمها زمانا ، سمي بهذا الاسم.

وثانيها : البيت العتيق ، قال تعالى : {ثم محلهآ إلى البيت العتيق} [الحج : ٣٣] وسمي العتيق ؛ لأنه أقدم بيوت الأرض.

وقيل : لأنه خلق قبل الأرض والسماء ؛ وقيل : لأن الله - تعالى - أعتقه من الغرق.

وقيل : لأن كل من قصد تخريبه أهلكه الله - مأخوذ من قولهم : عتق الطائر - إذا قوي في وكره.

وقيل : لأن كل من زاره أعتقه الله من النار.

وثالثها : المسجد الحرام ، قال تعالى : {سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى} [الإسراء : ١] وسمي بذلك ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال في خطبته – يوم فتح مكة – : " ألا إن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض ، فهي حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة ، لا يعضد شجرها ولا يختلى خلاؤها ، ولا تلتقط لقطتها إلا لمنشدها ".

فإن قيل : كيف الجمع بين قوله : {وطهر بيتي للطآئفين} [الحج : ٢٦] ، وقوله : {إن أول بيت وضع للناس} [آل عمران : ٩٦] فهناك أضافه إلى نفسه ، وهنا أسنده إلى الناس ؟ فالجواب : كأنه قال : البيت لي ، ولكن وضعته ليكون قبلة للناس.

قوله : {مباركا وهدى} حالان ، إما من الضمير في " وضع "كذا أعربه أبو البقاء وغيره ، وفيه نظر ؛ من حيث إنه يلزم الفصل بين الال بأجنبي – وهو خبر " إن " – وذلك غير جائز ؛ لأن الخبر معمول لـ " إن " فإن أضمرت عاملا بعد الخبر أمكن أن يعمل في الحال ، وكان تقديره : أول بيت وضع للناس للذي ببكة وضع مباركا ، والذي حمل على ذلك ما يعطيه تفسير أمير المؤمنين من أنه وضع أولا بقيد هذه الحال.

وإما أن يكون العامل في الحال هو العامل في " ببكة " أي استقر ببكة في حال بركته ، وهو وجه ظاهر الجواز.

والظاهر أن قوله : " وهدى " معطوف على " مباركا " والمعطوف على الحال حال.

وجوز بعضهم أن يكون مرفوعا ، على أنه خبر مبتدأ محذوف – أي : وهو هدى – ولا حاجة إلى تكلف هذا الإضمار.

والبركة : الزيادة ، يقال : بارك الله لك ، أي : زادك خيرا ، وهو متعد ، ويدل عليه قوله تعالى : {أن بورك من في النار ومن حولها} [النمل : ٨] و " تبارك " لا يتصرف ، ولا يستعمل إلا مسندا لله تعالى ، ومعناه – في حقه تعالى – : تزايد خيره وإحسانه.

وقيل : البركة ثبوت الخير ، مأخوذ من مبرك البعير.

٤٠٣." (١)

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل. ، ص/١١٧١

"قال الزمخشري : فإن قلت : كيف موقع قوله : {هم فيها خالدون} بعد قوله : {ففي رحمة الله} ؟ قلت : موقع الاستئناف ، كأنه قيل : كيف يكونون فيها ؟ فقيل : هم فيها خالدون ، لا يظعنون عها ، ولا يموتون.

فإن قيل : الكفار مخلدون في النار ، كما أن المؤمنين مخلدون في الجنة ، فما **الحكمة في** ذكر خلود المؤمنين ولم يذكر خلود الكافرين ؟ فالجواب : أن ذلك يشعر بأن جانب الرحمة أغلب ؛ لأنه ابتدأ بذكر أهل الرحمة ، وختم بهم ، لما ذكر العذاب لم يضفه إلى نفسه ، بل قال : {فذوقوا العذاب} ، وأضاف ذكر الرحمة إلى نفسه ، فقال : {ففي رحمة الله} ، ولما ذكر العذاب ما نص على الخلود ، ونص عليه في جانب الرحمة ، ولما ذكر العذاب علله بفعلهم ، فقال : {فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون} ولما ذكر الثواب علله برحمته ، فقال : {ففي رحمة الله} ثم قال – في آخر الآية – : {وما الله يريد ظلما للعالمين} [آل عمران : ١٠٨] ، وكل ذلك يشعر بأن جانب الرحمة مغلب.

جزء : ٥ رقم الصفحة : ٤٥٣

قوله : " تلك " مبتدأ ، {آيات الله} خبره ، و " نلوها " جملة حالية.

وقيل : {آيات الله} بدل من " تلك " ، و " نتلوها " جملة واقعة خبر المتبدأ ، و " بالحق " حال من فاعل " نتلوها " ، أو مفعولة ، وهي حال مؤكدة ؛ لأنه – تعالى – لا ينزلها إلا على هذه الصفة.

وقال الزجاج : " في الكلام حذف ، تقديره : تلك آيات القرآن حجج الله ودلائله ".

قال أبو حيان : فعلى هذا الذي قدره يكون خبر المبتدأ محذوفا ؛ لأنه عنده بهذا التقدير يتم معنى الآية ، وهذا التقدير لا حاجة إليه ؛ [إذ الكلام مستغن عنه ، تام بنفسه].

والإشارة بـ " تلك " إلى الآيات المتقدمة المتضمنة تعذيب الكفار ، وتنعيم الأبرار ، وإنما جاز إقامة " تلك " مقام هذه ؛ لأن هذه الآيات المذكورة قد انقضت بعد الذكر ، فصارت كأنها بعدت ، فقيل فيها : " تلك ".

وقيل : لأن الله – تعالى – وعده أن ينزل عليه كتابا مشتملا على ما لا بد منه في الدين ، فلما أنزل هذه الآيات قال : تلك الآيات الموعودة هي التي نتلوها عليك.

وقرأ العامة " نتلوها " – بنون العظمة – وفيه التفات من الغيبة إلى التكلم.

٤٦٠

وقرأ أبو نهيك : " يتلوها " بالياء – من تحت – وفيه احتمالان : أحدهما : أن يكون الفاعل ضمير الباري – تعالى – لتقدم ذكره في قوله : {آيات الله} ولا التفات في هذا التقدير ، بخلاف قراءة العامة.

الثاني : أن يكون الفاعل ضمير جبريل.

قوله : {بالحق} فيه وجهان : لأول : ملتبسة بالحق والعدل من جزاء المحسن والمسيء بما يستوجبانه.

الثاني : بالحق ، أي : بالمعنى الحق ؛ لأن معنى المتلو حق.

قوله : {وما الله يريد ظلما للعالمين} اللام – في " للعالمين " – زائدة – لا تعلق لها بشيء ، زيدت في مفعول المصدر وهو ظلم والفاعل محذوف ، وهو – في التقدير – ضمير الباري ، و التقدير : وما الله يريد أن يظلم العالمين ، فزيدت اللام ، تقوية للعامل ؛ لكونه فرعا ، كقوله : {فعال لما يريد} [البروج : ١٦].

فصل وقيل : معنى الكلام : وما الله يريد ظلم العالمين بعضهم لبعض ، ورد هذا بأنه لو كان المراد هذا لكان التركيب بـ " من " أولى منه باللام ، فكان يقال : ظلما من العالمين ، فهذا معنى ينبو عنه اللفظ.

ونكر " ظلما " ؛ لأنه في سياق النفي ، فهو يعم كل أنواع الظلم ، وحسن ذكر الظلم – هنا – ، لأنه تقدم ذكر العقوبة الشديدة ، وهو تعالى أكرم الأكرمين ، فكأنه – تعالى يعتذر عن ذلك ، فقال : إنهم إنما وقعوا في هذا العذاب بسبب أفعالهم.

فصل قال الجبائي : هذه الآية تدل على أنه – تعالى – لا يريد شيئا من القبائح ، لا من أفعاله ، ولا من أفعال عباده ، ولا يفعل شيئا من ذلك ، لأن الظلم إما أن يفرض صدوره من الله – تعالى – أو من العبد ، وصدوره من العبد إما أن يظلم العبد نفسه بعصيانه – أو يظلم غيره ، فهذه الأقسام الثلاثة هي أقسام الظلم ، وقوله : {وما الله يريد ظلما للعالمين} نكرة في سياق النفي ، فوجب ألا يريد شيئا يكون ظلما ، سواء كان منه أو من غيره ، وإذا ثبت ذلك وجب أن لا يفعل الظلم أصلا – ويلزم منه أن يكون فاعلا لأعمال العباد ؛ لأن من جملة أعمالهم ظلمهم لأنفسهم ، وظلم بعضهم لبعض ، فثبت بهذه الآية أنه – تعالى – غير فاعل للظلم ، وغير فاعل لأعمال العباد ، وغير مريد للقبائح من أفعال العباد ، قالوا : ويؤيده قوله – بعد ذلك – : {ولله ما في السماوات وما في الأرض} [آل عمران : ١٠٩] وإنما ذكر هذه الآية – عقيب ما تقدم – لوجهين :

". (١)

"فإن قيل : إنه عطف على حبل الله حبلا من الناس ، وذلك يقتضي المغيرة.

فالجواب : قال بعضهم : حبل الله هو الإسلام ، وحبل الناس هو العهد والذمة ، وهذا بعيد ؛ لأنه لو كان المراد ذلك ، لكان ينبغي أن يقال : أو حبل من الناس.

وقال آخرون : المراد بكلا الحبلين : العهد والذمة والأمان ، وإنما ذكر – تعالى – الحبلين ؛ لأن الأمان المأخوذ من المؤمنين ، هو الأمان المأخوذ بإذن الله تعالى.

قال ابن الخطيب : وهذا عندي – أيضا – شعيف ، والذي عندي فيه أن الأمان للذمي قسمان : أحدهما : الذي نص الله عليه ، وهو أخذ الجزية.

الثاني : الذي فوض إلى رأي الإمام ، فيزيد فيه تارة ، وينقص بحسب الاجتهاد ، فالأول : هو المسمى بحبل الله ، والثاني : هو المسمى بحبل المؤمنين.

قوله : {وبآءوا بغضب من الله} تقدم أن معناه : مكثوا ، ولبثوا ، وداموا في غضب الله ، مأخوذ من البوء – وهو المكان ومنه : تبوأ فلان منزل كذا – ومنه قوله تعالى : {والذين تبوءوا الدار} [الحشر : ٩].

قوله : {وضربت عليهم المسكنة}.

قال الحسن ، وأكثر المفسرين : المسكنة : الجزية ؛ لأنه لم يستثنها ، فدل ذلك على بقائها عليهم ، والباقي عليهم ليس إلا الجزية.

وقال آخرون : المسكنة : هي أن اليهودي يظهر من نفسه الفقر ، وإن كان موسرا.

وقال آخرون : هذا إخبار من الله بأنه جعل أموال اليهود رزقا للمسلمين ، فيصيروا مساكين.

قوله : {ذالك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبيآء بغير حق} بين العلة في إلصاق هذه الأمور المكروهة بهم ، وتقدم الكلام على مثل ذلك في سورة البقرة.

فإن قيل : فما **الحكمة في** قوله : {ذالك بما عصوا} ، ولا يجوز أن يكون هذا التكرير للتأكيد ؛ لأن التأكيد يجب أن يكون بشيء أقوى من المؤكد – والعصيان أقل حالا من الكفر – فلا يؤكد الكفر بالعصيان ؟ فالجواب من وجهين : الأول : أن علة الذلة ، والغضب ، والمسكنة ، هي : الكفر ، وقتل الأنبياء ،

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/١٢٠١

وعلة الكفر وقتل الأنبياء هي : المعصية ؛ لأنهم لما توغلوا في المعاصي والذنوب ، وتزايدت
٤٧٤
ظلمات المعاصي – حالا فحالا ، ضعف نور الإيمان حالا فحالا – إلى أن بطل نور الإيمان ، وحصلت ظلمة الكفر ، وإليه أشار بقوله : {كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون} [المطففين : ١٤] ، فقوله : {ذالك بما عصوا} إشارة إلى العلة.

ولهذا المعنى قال الإمام أحمد – وقد سئل عن تارك السنن ، هل تقبل شهادته ؟ – قال : ذلك رجل سوء ؛ لأنه إذا وقع في ترك السنن أدى ذلك إلى ترك الفرائض ، وإذ وقع في ترك الفرائض ، وقع في استحقار الشريعة ، ومن ابتلي بذلك وقع في الكفر.

الثاني : أن يحمل قوله : {كانوا يكفرون بآيات الله} على أسلافهم ، وقوله : {ذالك بما عصوا} في الحاضرين في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم ، فلا يلزم التكرار ، فكأنه – تعالى – بين عقوبة من تقدم ، ثم بين أن المتأخر – لما تبع من تقدم – صار لأجل معصيته ، وعداوته متسوجبا لمثل عقوبتهم ، حتى يظهر للخلق ما أنزل الله بالفريقين.

جزء : ٥ رقم الصفحة : ٤٧٠

الظاهر في هذه أن الوقف على " سواء " تام ؛ فإن الواو اسم " ليس " و " سواء " خبر ، والواو تعود على أهل الكتاب المتقدم ذكرهم.

ولامعنى : أنهم منقسمون إلى مؤمن وكافر ؛ لقوله : {منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون} [آل عمران : ١١٠] ، فانتفى استواؤهم.

و " سواء " – في الأصل – مصدر ، ولذلك وحد ، وقد تقدم تحقيقه أول البقرة.

قال أبو عبيدة : الواو في " ليسوا " علامة جمع ، وليست ضميرا ، واسم " ليس " – على هذا – " أمة " و " قائمة " صفتها ، وكذا " يتلون " ، وهذا على لغة " أكلوني البراغيث ".

كقول الآخر : [المتقارب] ١٥٧٥ – يلومونني في اشتراء النخيـ

ـل أهلي ، فكلهم بعذل ألوم

قالوا : وهي لغة ضعيفة ، ونازع السهيلي النحويين في كونها ضعيفة ، ونسبها بعضهم

". (١)

"فصل في معنى الآية قولان : الأول : ليس لك من مصالح عبادي شيء إلا ما أوحي إليك.

وثانيها : ليس لك في أن يتوب الله عليهم ، ولا في أن يعذبهم شيء غلا إذا كان على وفق أمري ، وهو كقوله : {ألا له الحكم} [الأنعام : ٦٢] ، واختلفوا في هذا المنع من اللعن ، لأي معنى كان ؟ فقيل : الحكمة فيه أنه – تعالى – ربما علم من حال بعض الكفار أنه يتوب ، وأنه سيولد له ولد ، يكون مسلما ، برا ، تقيا ، فإذا حصل دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم عليهم بالهلاك ، فإن قبلت دعوته فات هذا المقصود ، وإن لم تقبل دعوته كان ذلك كالاستخفاف بالرسول صلى الله عليه وسلم ، فلأجل هذا المعنى منعه الله تعالى – من اللعن ، وأمره بأن يفوض الكل إلى علم الله سبحانه وتعالى.

وقيل المقصود منه إظهار عجز العبودية وألا يخوض العبد في أسرار الله تعالى.

قوله : {أو يتوب} في نصبه أوجه : أحدها : أنه معطوف على الأفعال المنصوبة قبله ، تقديره : ليقطع ، أو يتوب عليهم ، أو يكبتهم ، أو يعذبهم.

وعلى هذا فيكون قوله : {ليس لك من الأمر شيء} جملة معترضة بين المتعاطفين ، والمعنى : إن الله تعالى هو المالك لأمرهم ، فإن شاء قطع طرفا منهم ، أو هزمهم ، أو يتوب عليهم إن أسلموا ورجعوا ، أو يعذبهم إن تمادوا على كفرهم ، وإلى هذا التخريج ذهب جماعة من النحاة كالفراء ، والزجاج.

الثاني : أن " أو " هنا بمعنى " إلا أن "كقولهم : لألزمنك أو تقضين حقي أي : إلا أن تقتضينه.

الثالث : " أو " بمعنى : " حتى " ، أي : ليس لك من الأمر شيء حتى يتوب وعلى هذين القولين فالكلام متصل بقوله : {ليس لك من الأمر شيء} ، والمعنى : ليس لك من الأمر شيء إلا أن يتوب عليهم بالإسلام ، فيحصل لك سرور بهدايتهم إليه ، أو يعذبهم بقتل ، أو نار في الآخرة ، فتشقى بهم ، وممن ذهب إلى ذلك الفراء ، وأبو بكر بن الأنباري ، قال الفراء : ومثل هذا من الكلام : لألزمنك أو تعطيني ، على معنى إلا أن تعطيني وحتى تعطيني وأنشدوا في ذلك قول امرئ القيس : [الطويل] ١٦١٣

– فقلت له : لا تبك عينك إنما

تحاول ملكا ، أو تموت ، فعذرا

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/١٢٠٨

جزء : ٥ رقم الصفحة : ٥٢٨
أراد : حتى تموت ، أو : إلا أن تموت.
٥٣٠
قال شهاب الدين : " وفي تقدير بيت امرئ القيس بـ " حتى " نظر ؛ إذ ليس المعنى عليه ؛ لأنه لم يفعل ذلك لأجل هذه الغاية ، والنحويون لم يقدروه إلا بمعنى : إلا أن ".
الثالث : منصوب بإضمار : " أن " عطفا على قوله : " الأمر " ، كأنه قيل : ليس لك من الأمر أو من توبته عليهم ، أو تعذيبهم شيء ، فلما كان في تأويل الاسم عطف على الاسم قبله ، فهو من باب قوله :
[الطويل] ١٦١٤ - فلولا رجال من رزام أعزة
وآل سبيع ، أو أسوءك علقما
وقوله : [الوافر] ١٦١٥ - للبس عباءة ، وتقر عيني
أحب إلي من لبس الشفوف
الرابع : أنه معطوف - بالتأويل المذكور - على " شيء " ، والتقدير : ليس لك من الأمر شيء ، أو توبة الله عليهم ، أو تعذيبهم ، أي : ليس لك - أيضا - توبتهم ولا تعذيبهم ، إنما ذلك راجع إلى الله عز وجل.
وقرأ أبي : أو يتوب ، أو يعذبهم ، برفعهما على الاستئناف في جملة اسمية ، أضمر مبتدؤها ، أي : هو يتوب ، ويعذبهم.
فصل يحتمل أن يكون المراد من هذا العذاب : هو عذاب الدنيا - بالقتل والأسر - وأن يكون عذاب الآخرة ، وعلى التقديرين فعلم ذلك مفوض إلى الله تعالى.
قوله : {فإنهم ظالمون} جملة مستقلة ، والمقصود من ذكرها : تعليل حسن والتعذيب ، والمعنى : إن يعذبهم فبظلمهم.
واعلم أنه إذا كان الغرض من الآية منعه من الدعاء على الكفار صح ذلك ، وسماهم ظالمين ؛ لأن الشرك ظلم ، بل هو أعظم الظلم ؛ لأن الله تعالى قال : {إن الشرك لظلم عظيم} [لقمان : ١٣].
وإن كان الغرض منها منعه من الدعاء على المسلمين الذين خالفوا أمره ، صح الكلام - أيضا - ؛ لأن من عصى الله ، فقد ظلم نفسه.
جزء : ٥ رقم الصفحة : ٥٢٨

والمقصود منه : تأكيد ما ذكره أولا من قوله : {ليس لك من الأمر شيء} [آل عمران : ١٢٨] ، والمعنى :

٥٣١

" (١).

"بالغيبة – إما على الرجوع على الكفار المتقدمين ، وإما على الالتفات من خطاب المؤمنين.

فإن قيل : ههنا ثلاثة مواضع ، تقدم الموت على القتل في الأول والأخير ، وقدم القتل على الموت في المتوسط فما الحكمة في ذلك ؟ فالجواب : ان الأول لمناسبة ما قبله ، من قوله : {إذا ضربوا في الأرض أو كانوا غزى} فرجع الموت لمن ضرب في الأرض ، والقتل لمن غزا ، وأما الثاني فلأنه محل تحريض على الجهاد ، فقدم الأهم الأشرف ، وأما الأخير فلأن الموت أغلب.

فإن قيل : كيف تكون المغفرة موصوفة بأنها خير مما يجمعون ولا خير فيما يجمعونه أصلا.

فالجواب : أن الذي يجمعونه في الدنيا قد يكون من الحلال الذي يعد خيرا ، وأيضا هذا وارد على حسب قولهم ومعتقدهم أن تلك الأموال خيرات.

فقيل : المغفرة خير من هذه الأشياء التي تظنونها خيرات.

قوله : {ولئن متم أو قتلتم لإلى الله تحشرون} هذا الترتيب في غاية الحسن ؛ فإنه قال في الآية الأولى : {لمغفرة من الله} وهذه إشارة إلى من عبده خوفا من عقابه ، ثم قال : {ورحمة} وهو إشارة إلى من عبده لطلب ثوابه ، ثم ختمها بقوله : {لإلى الله تحشرون} وهو إشارة إلى من عبده لمجرد لمجرد العبودية والربوبية ، وهذا أعلى المقامات ، يروى أن عيسى – عليه السلام – مر باقوام نحفت أبدانهم ، واصفرت وجوههم ، ورأى عليهم آثار العبادة ، فقال : ماذا تطلبون ؟ فقالوا : نخشى عذاب الله ، فقال : هو أكرم من أن يمنعكم رحمته.

ثم مر بقوم ، فرأى آثار العبودية عليهم أكثر ، فسألهم : فقالوا : نعبده لأنه إلهنا ، ونحن عبيده ، لا لرغبة ولا لرهبة ، فقال : أنتم العبيد المخلصون ، والمتعبدون المحقون.

قوله : {لإلى الله} اللام جواب القسم ، فهي داخلة على {تحشرون} و {وإلى الله} متعلق به ، وإنما قدم للاختصاص ، أي : إلى الله – لا إلى غيره – يكون حشركم ، أو للاهتمام به ، وحسنه كونه فاصلة

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/١٢٣٧

، ولولا الفصل لوجب توكيد الفعل بالنون ؛ لأن المضارع المثبت إذا كان مستقبلا وجب توكيده [بالنون] ، مع اللام ، خلافا للكوفيين ؛ حيث يجيزون التعاقب بينهما.

كقول الشاعر : [الكامل]

١٤

١٦٧٦ - وقتيل مرة أثأرن...

....

جزء : ٦ رقم الصفحة : ٥

فجاء بالنون دون اللام.

وقول الآخر : [الطويل] ١٦٧٧ - لئن قد ضاقت عليكم بيوتكم

ليعلم ربي أن بيتي واسع

فجاء باللام دون النون ، والبصريون يجعلونه ضرورة.

فإن فصل بين اللام بالمعمول - كهذه الآية - أو بقد ، نحو : والله لقد أقوم.

وقوله : [الطويل] ١٦٧٨ - كذبت لقد أصبي على المرء عرسه

....

أو بحرف التنفيس ، كقوله تعالى : {ولسوف يعطيك ربك فترضى } [الضحى : ٥] فلا يجوز توكيده - حينئذ - بالنون ، قال الفارسي : " الأصل دخول النون ، فرقا بين لام اليمين ، ولام الابتداء ، ولام الابتداء لا تدخل على الفضلات ، فبدخول لام اليمين على الفضلة حصل الفرق ، فلم يحتج إلى النون وبدخولها على " سوف " حصل الفرق - أيضا - فلا حاجة إلى النون ولام الابتداء لا تدخل على الفعل إلا إذا كان حالا ، أما مستقبلا فلا ".

وأتى بالفعل مبنيا لما لم يسم فاعله - مع أن فاعل الحشر هو الله - وإنما لم يصرح به ، تعظيما.

جزء : ٦ رقم الصفحة : ٥

في " ما " وجهان : أحدهما : أنها زائدة للتوكيد ، والدلالة على أن لينه لهم ما كان إلا

١٥
". (١)

"واعلم أنه – تعالى – أجاب عن هذه الشبهة ، فقال : {قد جآءكم رسل من قبلي بالبينات وبالذي قلتم فلم قتلتموهم إن كنتم صادقين} والمراد أسلافهم ، فبين – بهذا الكلام – أنهم إنما يطلبون ذلك على سبيل التعنت ، لا على وجه الاسترشاد ، إذ لو لم يكن كذلك لما سعوا في قتلهم.

فإن قيل : لم قال : {قد جآءكم رسل} ولم يقل : جاءتكم رسل ؟ فالجواب : أن فعل المؤنث يذكر إذا تقدمه جمع تكسير.

والمراد بقوله : {وبالذي قلتم} هو ما طلبوه منه ، وهو القربان.

فإن قيل : إن القوم إنما طالبوه بالقربان ، فما الحكمة في أنه أجابهم بقوله : {قد جآءكم رسل من قبلي بالبينات} ثم أضاف إلى قوله : {وبالذي قلتم} وهو القربان ؟ فالجواب : أن النبي صلى الله عليه وسلم لو قال لهم : إن الأنبياء المتقدمين أتوا بالقربان لم يلزم من ذلك وجوب الاعتراف بنبوتهم ؛ لاحتمال أن الإتيان بهذا القربان شرط للنبوة ، لا موجب لها , والشرط هو الذي يلزم من عدمه عدم المشروط لكن لا يلزم من وجوده وجود المشروط ، فثبت أنه لو اكتفى بهذا القدر لما كان الإلزام واردا عليهم ، فلما قال : {قد جآءكم رسل من قبلي بالبينات وبالذي قلتم} كان الإلزام واردا عليهم ؛ لأنهم لما أتوا بالبينات فقد أتوا بالموجب للصدق ، ولما أتوا بالقربان فقد أتوا بالشرط ، فعند الإتيان بهما وجب الإقرار بالنبوة.

قال القرطبي : في معنى الآية – : " قل " يا محمد " قد جاءكم " يا معشر اليهود {رسل من قبلي بالبينات وبالذي قلتم} من القربان " فلم قتلتموهم " يعني زكريا ويحيى وشعيبا وسائر من قتلوا من الأنبياء – عليهم السلام – ولم يؤمنوا بهم.

أراد بذلك أسلافهم.

وهذه الآية هي التي تلاها عامر الشعبي ، واحتج بها على الذي حسن قتل عثمان – رضي الله عنه – وأن الله تعالى سمي اليهود – لرضاهم بفعل أسلافهم – وإن كان بينهم نحو من سبعمائة سنة.

جزء : ٦ رقم الصفحة : ٩٢

قوله : {فقد كذب رسل} ليس جوابا ، بل الجواب محذوف ، أي : فقل ، ونحوه ؛ لأن هذا قد مضى

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/١٢٨٩

وتحقق ، والجملة من " جاءوا " في محل رفع ، صفة ل " رسل " و " من قبلك " متعلق بـ "كذب " والباء في " بالبينات " تحتمل الوجهين ، كنظيرتها.

ومعنى الآية : فإن كذبوك في قولك : إن الأنبياء المتقدمين أتوا بالقربان.

ويحتمل أن يكون المعنى : فإن كذبوك في أصل النبوة - وهو أولى - والمراد بالبينات المعجزات.

٩٥

وقرأ الجمهور : " والزبر والكتاب " - من غير باء الجر - وقرأ ابن عامر " وبالزبر " - بإعادتها - وهشام وحده عنه " وبالكتاب " - بإعادتها أيضا - وهي في مصاحف الشاميين كقراءة ابن عامر ، فمن لم يأت بها اكتفى بالعطف ، ومن أتى بها كان ذلك تأكيدا.

والزبر : جمع زبور - بالفتح - ويقال : بالضم أيضا - وهل هما بمعنى واحد أو مختلفان ؟ سيأتي الكلام عليهما - إن شاء الله تعالى - في الںساء في قوله : {وآتينا داوود زبورا} [النساء : ١٦٣].

واشتقاقه من زبرت : أي : كتبت وزبرته : قرأته ، وزبرته : حسنت كتابته ، وزبرته : زجرته.

فزبور - بالفتح - فعول بمعنى مفعول - كالركوب بمعنى : المركوب - والحلوب - بمعنى المحلوب - والمعنى : الكتب المزبورة ، أي : المكتوبة ، والزبر : جمع زبور ، وهو الكتاب.

قال امرؤ القيس : [الطويل] ١٧٠٣ - لمن طلل أبصرته فشجاني

كخط زبور في عسيب يماني

وقيل : اشتقاق من الزبر - بمعنى : الزجر : تقول : زبرت الرجل : أي : نهرته.

وزبرت البئر : أي : طويتها بالحجارة.

فإن قيل : لم عطف " الكتاب المنير " على " الزبر " مع أن الكتاب المنير من الزبر ؟ فالجواب : لأن الكتاب المنير أشرف الكتب ، وأحسن الزبر ، فحسن العطف ، كقوله : {وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم} [الأحزاب : ٧].

وقوله : {وملا ائكته ورسله وجبريل وميكال} [البقرة : ٩٨].

ووجه شرفه : كونه مشتملا على جميع الشريعة ، أو كونه باقيا على وجه الدهر.

وقيل : المراد بـ " الزبر " الصحف ، والمراد بـ " الكتاب المنير " التوراة والإنجيل والزبور.

و " المنير " اسم فاعل من أنار ، أي : أضاء ، وهو الواضح.

والمراد بهذه الآية – تسلية قلب الرسول – صلى الله عليه وسلم بما جرى على الأنبياء قبله.

.

جزء : ٦ رقم الصفحة : ٩٥

" (١).

"فإن قيل : حظ الأنثيين الثلثان فقوله {للذكر مثل حظ الأنثيين} يقتضي أن يكون حظ الذكر مطلقا هو الثلث ، وذلك ينفي أن يأخذ المال كله.

فالجواب : أن المراد منه حال الاجتماع لا حال الانفراد ؛ لأن قوله {يوصيكم الله فى أولادكم} يقتضي حصول الأولاد ، وقوله : {للذكر مثل حظ الأنثيين} يقتضي حصول الذكر والأنثى هناك ، هذا كله إذا كان ابنا واحدا فقط ، فلو كان أكثر من واحد تشاركوا في جهة الاستحقاق ؛ ولا رجحان ، فوجب قسم المال بينهم بالسوية ، والله أعلم.

فإن قيل : إن المرأة أكثر عجزا من الرجل ، وأقل اقتدارا من الرجل لعجزها عن الخروج والبروز ، فإن زوجها وأقاربها يمنعونها من ذلك ، ولنقصان عقلها وكثرة اختداعها واغترارها ، وإذا ثبت أن عجزها أكمل ، وجب أن يكون نصيبها من الميراث أكثر ، فإن لم يكن أكثر فلا أقل من المساواة ، فما الحكمة في أنه تعالى جعل نصيبها نصف نصيب الرجل ؟ .

فالجواب : لأن خرج المرأة أقل ، لأن زوجها ينفق عليها وخرج الرجل أكثر ، لأنه هو المنفق على زوجته ومن كان خرجه أكثر فهو إلى المال أحوج ؛ ولأن الرجل أكمل حالا من المرأة في الخلقة وفي العقل والمناصب الدينية ، مثل صلاحية القضاء والإمامة ، وأيضا شهادة المرأة نصف شهادة الرجل ، ومن كان كذلك ؛ وجب أن يكون الإنعام إليه أكثر ؛ ولأن المرأة قليلة العقل كثيرة الشهوة ، فإذا انضاف إليها المال الكثير عظم الفساد ، ولهذا قال الشاعر : [الرجز] ١٧٦٤ – إن الفراغ والشباب والجده

مفسدة للمرء أي مفسده

جزء : ٦ رقم الصفحة : ٢٠٦

وروي أن جعفر الصادق سئل عن هذه الآية فقال : " إن حواء أخذت حفنة من الحنطة وأكلتها وأخذت حفنة أخرى وخبأتها ثم أخذت حفنة أخرى ودفعتها إلى آدم ، فلما جعلت نصيبها ضعف نصيب الرجل

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/١٣٣٢

أقلب الله الأمر عليها فجعل نصيب المرأة نصف نصيب الرجل ".
فإن قيل : لم لم يقل للأنثيين مثل حظ الذكر ، أو للأنقى مثلا حظ الذكر ؟ فالجواب أنه لما كان الذكر أفضل من الأنثى قدم ذكره على كر الأنثى كما جعل نصيبه ضعف نصيب الأنثى ، ولأن قوله {للذكر مثل حظ الأنثيين} يدل على فضل الذكر بالمطابقة ، وعلى نقص الأنثى بالالتزام ، ولو قال كما ذكرتم لدل على نقص الأنثى بالمطابقة وفضل الذكر بالالتزام ، فرجح الطرف الأول تنبيها على أن السعي ٢١٢." (١)

"وناقشه أبو حيان في جعله {لأبويه} الخبر دون قوله : {لكل واحد} قال : " لأنه ينبغي أن يكون البدل هو الخبر دون المبدل منه " يعني : أن البدل هو المعتمد عليه ، والمبدل منه صار في حكم المطرح ، ونظره بقولك : " إن زيدا عينه حسنة " فكما أن " حسنة " خبر عن " عينه " دون " زيد " في حكم المطرح فكذلك هذا ، ونظره أيضا بقولك : [أبواك لكل واحد منهما يصنع كذا ف " يصنع " خبر عن كل واحد منهما.
ولو قلت : " أبواك كل واحد منهما يصنع كذا " لم يجز.
وفي هذه المناقشة نظر ، لأنه إذا قيل لك : ما محل لأبويه من الإعراب ؟ تضطر إلى أن تقول : في محل رفع خبرا مقدما ، ولكنه نقل نسبة الخيرية إلى {لكل واحد منهما} دون {لأبويه} قال : وقال بعضهم : {السدس} رفع بالابتداء ، و {لكل واحد} الخبر و {لكل} بدل من الأبوين ، و " منهما " نعت لواحد ، وهذا البدل هو بدل بعض من كل ، ولذلك أتى معه بالضمير ، ولا يتوهم أنه بدل شيء من شيء وهما لعين واحدة لجواز أبواك يصنعان كذا وامتناع أبواك كل وتجد منهما يصنعان كذا ، بل تقول : يصنع. انتهى.
والضمير في " لأبويه " عائد على ما عاد عليه الضمير في " ترك " ، وهو الميت المدلول عليه بقوة الكلام ، والتثنية في " أبويه " من التغليب ، والأصل : لأبيه وأمه وإنما غلب المذكر على المؤنث كقولهم : " القمران ، والعمران " وهي تثنية لا تنقاس.
فصل إذا كان مع الأبوين ولد أو أكثر كان لكل واحد منهما السدس وسوى الله بين الأب والأم في هذا الموضع ؛ لأن الأب وإن كان يستوجب التفضيل لما كان ينفقه على الابن ، وبنصرته له والذب عنه صغيرا

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/١٣٨٧

، فالأم أيضا حملته كرها ووضعته كرها ؛ وكان بطنها له وعاء ، وثديها له سقاء ، وحجرها له فناء ، فتكافأت الحجتان ، فلذلك سوى بينهما ، فإن كانت بنتا واحدة وبنت ابن فللبنت النصف وللأم السدس وللأب ما بقي ، وهو الثلث [نصف بـفـرضه ، وهو السدس] وباقيه بالتعصيب فإن قيل : حق الأبوين على الإنسان أعظم من حق ولده عليه ، لأن الله تعالى قرن طاعته بطاعتهما فما **الحكمة في** جعل نصيب الأولاد أكبر ؟.

فالجواب : أن الوالدين ما بقي من عمرهما إلا القليل ، فكان احتياجهما إلى المال قليلا ، وأما الأولاد فهم في زمن الصبا ، فكان احتياجهم إلى المال أكثر [فظهر الفرق].

٢١٥

قوله : {فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث} قرأ الجمهور {فلأمه} وقوله : {فى أم الكتاب} [الزخرف : ٤].

وقوله : {حتى يبعث فى أمها} في القصص [آية : ٥٩].

وقوله : {من بطون أمهاتكم} [النحل : ٧٨].

وقوله : {أو بيوت أمهاتكم} [النور : ٦١] و {في بطون أمهاتكم} [النجم : ٣٢] بضم الهمزة من " أم " وهو الأصل.

وقرأ حمزة والكسائي جميع ذلك بكسر الهمزة.

وانفرد حمزة بزيادة كسر الميم من " إمهات " فإنه لا خلاف في ضمها.

أما وجه قراءة الجمهور فظاهر , لأنه الأصل كما تقدم.

وأما قراءة حمزة والكسائي بكسر الهمزة فقالوا : لمناسبة الكسرة أو الياء التي قبل الهمزة ، فكسرت الهمزة إتباعا لما قبلها ، ولاستثقالهم الخروج من كسر أو شبه إلى ضم.

قال الزجاج : وليس في كلام العرب " فعل " بكسر الفاء وضم العين ، فلا جرم جعلت الضمة كسرة ، ولذلك إذا ابتدآ بالهمزة ضماها لزوال الكسر أو الياء ، وأما كسر حمزة الميم من " إمهات " في المواضع المذكورة فللإتباع ، أتبع حركة الميم لحركة الهمزة ، فكسرة الميم تبع التبع ، ولذلك إذا ابتدأ بها ضم الهمزة وفتح الميم ؛ لما تقدم من زوال موجب ذلك.

وكسر همزة " أم " بعد الكسرة أو الياء حكاه سيبويه لغة عن العرب ، ونسبها الكسائي والفراء إلى " هوازن

" و " هذيل ".

فصل ذكر ها هنا أن الأبوين إذا لم يكن معهما وارث غيرهما ، فإن الأم تأخذ الثلث ، ويأخذ الأب ما بقي وهو الثلثان ، وإذا ثبت أنه يأخذ الباقي بالتعصيب ، وجب أن يأخذ المال كله إذا انفرد ؛ لأن هذا شأن التعصيب ، فإن كان مع الأبوين أحد الزوجين ، فذهب أكثر الصحابة إلى أن الزوج يأخذ فرضه ، ثم تأخذ الأم ثلث ما بقي ، ويأخذ الأب ما بقي.

٢١٦." (١)

"وقال عليه الصلاة والسلام : " أرأيت لو كان على أبيك دين " وقال عليه السلام : " دين الله أحق أن يقضى ".

قوله : {وصية} في نصبها أربعة أوجه : أحدها : أنه مصدر مؤكد ، أي : يوصيكم الله [بذلك] وصية.

الثاني : أنها مصدر في موضع الحال ، والعامل فيها {يوصيكم الله} قاله ابن عطية.

والثالث : أنها منصوبة على الخروج إما من قوله : {فلكل واحد منهما السدس} ، أو من قوله : {لك فهم شركآء في الثلث} ، وهذه عبارة تشبه عبارة الكوفيين.

والرابع : أنها منصوبة باسم الفاعل وهو {مضآر} والمضارة لا تقع بالوصية بل بالورثة ، لكنه لما وصى الله – تعالى – بالورثة جعل المضارة الواقعة بهم كأنها واقعة بنفس الوصية مبالغة في ذلك ، ويؤيد هذا التخريج قراءة الحسن : {غير مضآر وصية من الله والله} بإضافة اسم الفاعل إليها على ما ذكرناه من المجاز ، وصار نظير قولهم : " يا سارق الليلة " ، التقدير : غير مضار في وصية من الله ، فاتسع في هذا إلى أن عدي بنفسه من غير واسطة ، لما ذكرنا من قصد المبالغة ، وهذا أحسن تخريجا من تخريج أبي البقاء فإنه ذكر في تخريج قراءة الحسن وجهين : أحدهما : أنه على حذف " أهل " أو " ذي " أي : غير مضار أهل وصية ، أو ذي وصية.

والثاني : على حذف وقت ، أي : وقت وصية ، قال وهو من إضافة الصفة إلى الزمان ، ويقرب من ذلك قولهم : هو فارس حرب ، أي : فارس في الحرب ، وتقول : هو فارس زمانه ، أي : فارس في زمانه ، كذلك تقدير القراءة : غير مضار في وقت الوصية.

ومفعول {مضآر} محذوف إذا لم تجعل {وصية} مفعولة ، أي : غير مضار ورثته بوصية.

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/١٣٨٩

فإن قيل : ما الحكمة في أنه ختم الآية الأولى بقوله : " فريضة من الله والله عليم حليم " وختم هذه الآية بقوله : " وصية من الله " ؟ فالجواب : أن لفظ الفرض أقوى وأؤكد من لفظ الوصية ، فختم شرح ميراث الأولاد بذكر الفريضة ، وختم شرح ميراث الكلالة بالوصية ليدل بذلك على أن الكل ، وإن كان واجب الرعاية ، إلا أن رعاية حال الأولاد

١٣١

أولى وأقوى ، ثم قال : " والله عليم حليم " عليم بمن جار أو عدل في وصيته " حليم " على الجائر لا يعالجه بالعقوبة وهذا وعيد.

جزء : ٦ رقم الصفحة : ٢٢٢

لما بين سهام المواريث ذكر الوعد والوعيد ، ترغيبا في الطاعة وترهيبا عن المعصية.

وقوله تعالى : {تلك} إشارة إلى ما ذكر من المواريث ؛ لأن الضمير يعود إلى أقرب مذكور.

وقيل : إشارة إلى كل ما ذكر من أول السورة إلى هنا من أحكام أموال اليتامى ، والأنكحة ، وأحكام المواريث ، قاله الأصم ؛ لأن الأقرب إذا لم يمنع من عوده إلى الأبعد وجب عوده إلى الكل ؛ ولأن المراد بحدود الله : الأحكام التي ذكرناها وبينها ، ومنه حدود الدار ؛ لأنها تميزها من غيرها.

قوله : {ومن يطع الله ورسوله} وقوله : {ومن يعص الله ورسوله}.

قيل : مختص بمن أطاع أو عصى في هذه التكاليف المذكورة في هذه السورة.

وقال المحققون : بل هو عام ؛ لأن اللفظ عام فيتناول الكل.

قوله : {يدخله} حمل على لفظ " من " ، فأفرد الضمير في قوله : {ومن يطع الله} و {يدخله} وعلى معناها ، فجمع في قوله : {خالدين} وهذا أحسن الحملين ، أعني : الحمل على اللفظ ، ثم على المعنى ، ويجوز العكس ، وإن كان ابن عطية قد منعه وليس بشيء لثبوته عن العرب ، وقد تقدم ذلك مرارا ، وفيه تفصيل ، وه شروط مذكورة في كتب النحو.

قوله : {خالدين} في نصبه وجهان : أظهرهما : أنه حال من الضمير المنصوب في {يدخله} ولا يضر تغاير الحال وصاحبها من حيث كانت جمعا وصاحبها مفردا ، لما تقدم من اعتبار اللفظ والمعنى وهي مقدرة ؛ لأن الخلود بعد الدخول.

والثاني : أن يكون نعتا لـ {جنات} من باب ما جرى على موصوفه لفظا ، وهو

٢٣٢
." (١)

"وقال قوم : إنما كان الشهود فالزنا أربعة ليترتب شاهدان على كل واحد من الزانيين كسائر الحقوق ؛ إذ هو حق يؤخذ من كل واحد منهما ، وهذا ضعيف ؛ فإن اليمين تدخل من الأموال واللوث في القسامة ولا يدخل لواحد منهما هنا.

فصل قال جمهور المفسرين : المراد من هذه الآية أن المرأة إذا أتت الزنا فإن شهد عليها أربعة رجال أحرار عدول أنها زنت ؟ أمسكت في بيت محبوسة ، إلى أن تموت أو يجعل الله لها سبيلا ، وقال أبو مسلم : المراد من هذه الفاحشة السحاقات وحدهن الحبس إلى الموت ، والمراد من قوله : {واللذان يأتيانها منكم} [النساء : ١٦] أهل اللواط وحدها الأذى بالقول والفعل ، والمراد بالآية المذكورة في سورة النور : الزنا بين الرجل والمرأة وحده في البكر الجلد ، وفي المحصن الرجم ، ويدل على ذلك وجوه : أحدها : أن قوله : {واللاتي يأتين الفاحشة من نسآئكم} مخصوص بالنسوان وقوله : {واللذان يأتيانها منكم} [النساء : ١٦] مخصوص بالرجال ؛ لأن قوله " اللذان " تثنية المذكر.

فإن قيل : لم لا يجوز أن يكون المراد من قوله : {واللذان} الذكر والأنثى إلا أنه غلب لفظ الذكر.

فالجواب : لو كان كذلك لما أفرد ذكر النساء من قبل فلما أفرد ذكرهن ثم ذكر بعده قوله : {واللذان يأتيانها منكم} [النساء : ١٦] سقط هذا الاحتمال.

وثانيها : أن على هذا التقدير لا يحتاج إلى التزام النسخ في شيء من الآيات بل يكون حكم كل واحد مهما باقيا مقررا وعلى ما ذكر ثم يلزم النسخ في هاتين الآيتين والنسخ خلاف الأصل.

ثالثها : أن على التقدير الذي ذكرتم يكون قوله : {واللاتي يأتين الفاحشة} في الزنا ، وقوله : {واللذان يأتيانها منكم} [النساء : ١٦] في الزنا أيضت فيفضي إلى تكرار الشيء الواحد في الموضع الواجد مرتين ، وإنه قبيح ، وعلى قولنا لا يفضي إلى ذلك فكان أولى.

رابعها : أن القائلين بأن هذه الآية نزلت في الزن فسروا قوله : {أو يجعل الله لهن سبيلا} بالجلد والتغريب والرجم ، وهذا لا يصح ؛ لأن هذه الأشياء تكون عليهن لا لهن ، قال تعالى : {لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت} [البقرة : ٢٨٦] وأما نحن فنفسر ذلك بتسهيل الله لها قضاء الشهوة بطريق النكاح.

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/١٣٩٧

٢٤٠
قال أبو مسلم : يدل على صحة ما ذكرنا قوله صلى الله عليه وسلم : " إذا أتى الرجل الرجل فهما زانيان ، وإذا أتت المرأة المرأة فهما زانيتان ".

واحتجوا على إبطال كلام أبي مسلم بوجوه : الأول : أن هذا قول لم يقله أحد من المفسرين المتقدمين.

الثاني : أنه روي في الحديث أنه عليه السلام قال : " قد جعل الله لهن سبيلا الثيب ترجم والبكر تجلد " وهذا يدل على أن هذه الآية نازلة في حق الزناة.

الثالث : أن الصحابة اختلفوا في حكم اللواط ، ولم يتمسك أحد منهم بهذه الآية ، فعدم تمسكهم بها مع شدة احتياجهم إلى نص يدل على هذا الحكم من أقوى الدلائل على أن هذه الآية ليست في اللواطة.

وأجاب أبو مسلم عن الأول بأن هذا الإجماع ممنوع ، فلقد قاتل بهذا القول مجاهدق ، وهو من أكابر المفسرين ، وقد ثبت في أصول الفقه أن استنباط تأويل جديد في الآية لم يذكره المتقدمون جائز.

والجواب عن الثاني أن هذا يفضي إلى نسخ القرآن بخبر الواحد ، وإنه غير جائز.

وعن الثالث أن مطلوب الصحابة أنه هل يقام الحد على اللوطي وليس في هذه الآية دلالة على نفي ولا إثبات فلهذا لم يرجعوا إليها.

فصل المراد من قوله : {من نسآئكم} أي : زوجاتكم لقوله : {والذين يظاهرون من نسآئهم} [المجادلة : ٣] وقوله : {فإن لم تكونوا دخلتم بهن} [النساء : ٢٣] [من نسائكم] وقيل : أي : من الثيب.

وقوله : " فأمسكوهن " أي احبسوهن في بيوتكم ، **والحكمة فيه** أن المرأة إنما تقع في الزنا عند الخروج والبروز ، فإذا حبست في البيت لم تقدر على الزنا ، وتعتاد العفاف عن الزنا.

قل عبادة بن الصامت والحسن ومجاهد : كان هذا في ابتداء الإسلام حتى نسخ بالإذى الذي بعده ، ثم نسخ ذلك بالرجم في الثيب.

٢٤١
". (١)

"والإماء هلاك البيت أو قال فساد " فساد البيت " ذكره القرطبي.

قوله : " فمما " الفاء قد تقدم أنها إما جواب الشرط ، وإما زائدة في الخبر على حسب القولين في " من

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/١٤٠٢

" وفي هذه الآية سبعة أوجه : أحدها : أنها متعلقة بفعل مقدر بعد الفاء تقديره : فينكح مما ملكت أيمانكم و " ما " على هذا موصولة بمعنى الذي أي : نوع الذي ملكته ، ومفعول ذلك الفعل المقدر محذوف تقديره : فينكح امرأة ، أو أمة مما ملكته أيمانكم ؛ ف " مما " في الحقيقة متعلق بمحذوف لأنه صفة لذلك المفعول المحذوف و " من " للتبعيض ، نحو : أكلت من الرغيف ، و {من فتياتكم} في محل نصب على الحال من الضمير المقدر في " ملكت " العائد على [" ما "] الموصولة و {المؤمنات} صفة لفتياتكم.

الثاني : أن تكون " من " زائدة و " ما " هي المفعولة بذلك الفعل المقدر أي : فلينكح ما ملكته أيمانكم.

الثالث : أن " من " في {من فتياتكم} زائدة و {فتياتكم} هو مفعول ذلك الفعل المقدر أي : فلينكح فتياتكم ، و " مما ملكت " متعلق بنفس الفعل و " من " لابتداء الغاية ، أو بمحذوف على أنه حال من " فتياتكم " قدم عليها و " من " للتبعيض.

الرابع : أن مفعول " فلينكح " [هو المؤمنات أي : فلينكح] المؤمنات الفتيات و " مما ملكت " على ما تقدم في الوجه قبله و " من فتياتكم " حال من ذلك العائد المحذوف.

الخامس : أن مما في محل رفع خبرا لمبتدأ محذوف تقديره : فالمنكوحة مما ملكت [أيمانكم].

السادس : أن " ما " في " مما " مصدرية أي : فلينكح من ملك أيمانكم ، ولا بد أن يكون هذا المصدر واقعا موقع المفعول نحو : {هذا خلق الله} [لقمان : ١١] ليصح [وقوع] النكاح [عليه].

السابع : وهو أغبرها ونقل عن جماعة منهم ابن جرير أن في الآية تقديما وتأخيرا

٣٢١

وأن التقدير : ومن لم يستطع منكم [طولا] أن ينكح المحصنات المؤمنات فلينكح بعضكم من بعض الفتيات ، فبعضكم فاعل ذلك [الفعل] المقدر ، فعلى هذا يكون قوله {والله أعلم بإيمانكم} معترضا بين ذلك الفعل المقدر وفاعله ، ومثل هذا لا ينبغي أن يقال.

فصل قال ابن عباس : يريد بقوله {فمن ما ملكت أيمانكم} أي : فليتزوج جارية أخيه ، فإن الإنسان لا يجوز له أن يتزوج بجارية نفسه ، والفتيات المملوكات جمع فتاة تقول العرب للأمة : فتاة ، وللعبد : فتى ، قال عليه السلام : " لا يقولن أحدكم عبدي ، ولا أمتي ، ولكن ليقل فتاي وفتاتي " ويقال للجارية الحديثة : فتاة ، والغلام ، فتى ، والغلام ، فتى ، والأمة تسمى فتاة.

قوله : " والله أعلم بإيمانكم " جملة من مبتدأ وخبر جيء بها بعد قوله {من فتياتكم المؤمنات} لتفيد أن الإيمان الظاهر كاف في نكاح الأمة المؤمنة ظاهرا ولا يشترط في ذلك أن يعلم إيمانها يقينا ، فإن ذلك لا يطلع عليه إلا الله تعالى ، وفيه تأنيس أيضا بنكاح الإماء ، فإنهم كانوا يفرون من ذلك.

قال الزجاج : " المعنى : احملوا فتياتكم على ظاهر الإيمان ، والله أعلم بالسرائر ".

قوله تعالى : {بعضكم من بعض} مبتدأ وخبر أيضا ، جيء بهذه الجملة أيضا تأنيسا بنكاح الأمة [كما تقدم ، والمعنى : أن بعضكم من جنس بعض في النسب والدين ، فلا يدفع الحر عن نكاح الأمة ، عند الحاجة إليه ، وما أحسن قول أمير المؤمنين علي رضي الله عنه] : [البسيط] ١٧٨٦ - والناس من جهة التمثيل أكفاء

أبوهم آدم والأم حواء

جزء : ٦ رقم الصفحة : ٣١٧

والحكمة في ذكر هذه الكلمة أن العرب كانوا يتفاخرون بالأنساب ، فأخبر تعالى أن ذلك لا يلتفت إليه ؛ لأن الإيمان أعظم الفضائل ، وإذا حصل الاشتراك فيه فلا يلتفت إلى ما وراء ذلك.

٣٢٢

". (١)

"[كثيرة] ، فلما لم يكن المراد إن تجتنبوا الكفر بأنواعه ، يغفر لكم ما وراءه ، وهذا احتمال ظاهر مطابق لقوله تعالى : {إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشآء} [النساء : ٤٨] ، سقط استدلالهم بذلك.

فصل قال القرطبي : قال الأصوليون : لا يجب القطع بتكفير الصغائر باجتناب الكبائر ، وإنما محمل ذلك على غلبة الظن ، وقوة الرجاء ، والمشيئة ثابتة ، ودل على ذلك : أنا لو قطعنا لمجتنب الكبائر ، وممتثل الفرائض ، تكفير صغائره قطعا ؛ لكانت له في حكم المباح الذي يقطع بأن أتباعه عليه ، وذلك نقض لعرى الشريعة ، ولا صغيرة عندنا.

قال القشيري : والصحيح أنها كبائر ولكن بعضها أعظم وقعا من بعض ، والحكمة في عدم التمييز أن يجتنب العبد جميع المعاصي.

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/١٤٤٣

قال القرطبي : وأيضا من نظر إلى بعض المخالفة كما قال بعضهم : لا تنظر إلى صغر الذنب ، ولكن انظر من عصيت [فإن كان الأمر كذلك] كانت الذنوب بهذه النسبة كلها كبائر ، وعلى هذا النحو يخرج كلام القشيري ، وأبي إسحاق الإسفراييني والقاضي أبي بكر بن الطيب قالوا : وإنما يقال لبعضها صغيرة بالإضافة إلى ما هو أكبر منها كما يقال : الزنا صغيرة بإضافته إلى الكفر ، والقبلة المحرمة صغيرة بالنسبة إلى الزنا ، ولا ذنب عندنا يغفر باجتناب ذنب آخر ، بل كل ذنب كبيرة ومرتكبه في المشيئة ، غير الكفر لقوله تعالى {إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشآء} [النساء : ٤٨] قالوا : هذه الآية يرد إليها جميع الآيات المطلقة ، يزيد عليها قوله عليه السلام : " من اقتطع حق امرىء مسلم بيمينه فقد أوجب الله له النار وحرم عليه الجنة فقال رجل : يا رسول الله ، وإن كان شيئا يسيرا فقال : وإن كان قضيبا من أراك " ، فقد جاء الوعيد الشديد على اليسير ، كما جاء على الكثير.

وقال عبد الله بن [مسعود : " ما نهى الله عنه في تلك السورة إلى قوله : {إن تجتنبوا كبآئر ما تنهون عنه} فهو كبيرة.

وقال [علي] بن] أبي طلحة : الكبيرة : كل ذنب ختمه الله بنار ، أو غضب ، أو لعنة ، أو

٣٤٧

عذاب [أو آثام ".

وقال الضحاك : " البيرة ما أوعد الله عليه حدا في الدنيا ، وعذابا في الآخرة ".

وقال الحسين [بن الفضل] : ما سماه الله في القرآن كبيرا ، أو عظيما نحو قوله تعالى : {إنه كان حوبا كبيرا} [النساء : ٢] ، {إن قتلهم كان خطئا كبيرا} [الإسراء : ٣١] ، {إن الشرك لظلم عظيم} [لقمان : ١٣] ، {سبحانك هذا بهتان عظيم} [النور : ١٦] ، {إن ذالكم كان عند الله عظيما} [الأحزاب : ٥٣].

وقال سفيان الثوري : " الكبائر هي المظالم بينك وبين العباد ، والصغائر : ما كان بينك وبين الله ، إن الله كريم يعفو [ويصفح] ".

وقال مالك بن مغول : " الكبائر " ذنوب أهل البدع ، والسيئات : ذنوب أهل السنة [الصغائر] ".

وقيل : " الكبائر ذنوب العمد ، والسيئات الخطأ والنسيان ، وما أكره عليه ، وحديث النفس المرفوعة عن هذه الأمة ".

وقال السدي : الكبائر ما نهى الله عنه من [الذنوب] الكبائر والسيئات مقدماتها وتوابعها ، وما يجتمع فيه الصالح والفاسق مثل النظرة ، واللمسة ، والقبلة ، وأشباهها.

قال عليه السلام : " العينان تزنيان ، واليدان تزنيان ، والرجلان تزنيان ، ويصدق ذلك الفرج ، أو يكذبه ".

وقيل : الكبائر الشرك ، وما يؤدي إليه ، وما دون الشرك ، فهو من السيئات.

قال تعالى : {إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشآء} [النساء : ٤٨].

قوله : {نكفر عنكم سيئاتكم}.

قال المفسرون : أي من الصلاة إلى الصلاة ، ومن الجمعة إلى الجمعة ، ومن

٣٤٨

رمضان إلى رمضان ، لقوله عليه السلام : " [الصلوات] الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر ".

{وندخلكم مدخلا كريما} أي حسنا وهو الجنة.

جزء : ٦ رقم الصفحة : ٣٤١

." (١)

"وقال الزمخشري : أيديهما : يديهما ، ونحوه : {فقد صغت قلوبكما} [التحريم : ٤] اكتفى بتثنية المضاف إليه عن تثنية المضاف ، وأريد باليدين اليمنيان بدليل قراءة عبد الله : " والسارقون والسارقات فاقطعوا أيمانهم " ورد عليه أبو حيان بأنهما ليسا بشيئين ، فإن النوع الأول مطرد فيه وضع الجمع موضع التثنية ، بخلاف الثاني فإنه لا ينقاس ، لأن المتبادر إلى الذهن من قولك : " قطعت آذان الزيدين " : " أربعة الآذان " وهذا الرد ليس بشيء ؛ لأن الدليل دل على أن المراد اليمنيان.

فصل من أول من قطع في حد السرقة ؟ قال القرطبي : أول من حكم بقطع [اليد] في الجاهلية ابن المغيرة ، فأمر الله بقطعه في الإسلام ، فكان أول سارق قطعه رسول الله – صلى الله عليه وعلى آله وسلم – في الإسلام ، من الرجال الخيار بنش عدي بن نوفل بن عبد مناف ومن النساء مرة بنت سفيان من بني مخزوم ، وقطع أبو بكر – رضي الله عنه – يد الفتى الذي سرق العقد ، وقطع عمر – رضي الله عنه – يد ابن سمرة أخي عبد الرحمن بن سمرة.

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/١٤٥٦

فصل لماذا بدأ الله بالسارق في الآية ؟ قال القرطبي : بدأ الله بالسارق في هذه الآية قبل السارقة ، وفي الزنا بدأ بالزانية ، والحكمة في ذلك أن يقال : لما كان حب المال على الرجال أغلب ، وشهوة الاستمتاع على النساء أغلب بدأ بهما في الموضعين.

قوله تعالى : " جزاء " فيه أربعة أوجه : أحدها : أنه منصوب على المصدر بفعل مقدر ، أي : جازوهما جزاء.

الثاني : أنه مصدر [أيضا] لكنه منصوب على معنى نوع المصدر ؛ لأن قوله : " فاقطعوا " في قوة : جازوهما بقطع الأيدي جزاء.

٣٢٤

الثالث : أنه منصوب على الحال ، وهذه الحال يحتمل أن تكون من الفاعل ، أي : مجازين لهما بالقطع بسبب كسبهما ، وأن تكون من المضاف إليه في " أيديهما " ، أي : في حال كونهما مجازين ، وجاز مجيء الحال من المضاف إليه ، لأن المضاف جزؤه ، كقوله : {ونزعنا ما في صدورهم من غل} [الحجر : ٤٧].

الرابع : أنه [مفعول] من أجله ، أي : لأجل الجزاء ، وشروط النصب موجودة.

و " نكالا " منصوب كما نصب " جزاء " ولم يذكر الزمخشري فيهما غير المفعول من أجله.

قال أبو حيان : " تبع في ذلك الزجاج " ، ثم قال : " وليس بجيد إلا إذا كان الجزاء هو النكال ، فيكون ذلك على طريق البدل ، وأما إذا كانا متباينين ، فلا يجوز ذلك إلا بوساطة حرف العطف ".

قال شهاب الدين : النكال : نوع من الجزاء فهو بدل منه ، على أن الذي ينبغي أن يقال هنا إن " جزاء " مفعول من أجله ، العامل فيه " فاقطعوا " ، فالجزاء علة للأمر بالقطع ، و " نكالا " مفعول من أجله أيضا العامل فيه " جزاء " ، والنكال علة للجزاء ، فتكون العلة معللة بشيء آخر ، فتكون كالحال المتداخلة ، كما تقول : " ضربته تأديبا له إحسانا إليه " ، فالتأديب علة للضرب ، والإحسان علة للتأديب ، وكلام الزمخشري والزجاج لا ينافي ما ذكرنا فإنه لا منافاة بين هذا وبين قولهما : " جزاء " مفعول من أجله ، وكذلك " نكالا " فتأمله ، فإنه وجه حسن ، فطاح الاعتراض على الزمخشري والزجاج ، والتفصيل المذكور في قوله : " إلا إذا كان الجزاء هو النكال " ، ثم ظفرت بعد ذلك بأنه يجوز في المفعول له {أن يكفروا بمآ أنزل الله بغيا} [البقرة : ٩٠] أن يكون " بغيا " مفعولا له ، ثم ذكروا في قوله : {أن ينزل الله} [البقرة

: ٩٠] أنه مفعول له ناصبه " بغيا " ، فهو علة له ، صرحوا بذلك فظهر ما قلت ولله الحمد.
و " بما " متعلق بـ " جزاء " ، و " ما " يجوز أن تكون مصدرية ، أي : بكسبهما ، وأن تكون بمعنى " الذي " ، والعائد محذوف لاستكمال الشروط أي : بالذي كسباه ، والباء سببية.
فصل قال بعض الأصوليين : هذه الآية مجملة من وجوه : أحدها : أن الحكم معلق على السرقة ، ومطلق السرقة غير موجب القطع ، بل لا بد
٣٢٥
." (١)

"الأول : قال المفسرون – [رحمهم الله] – " ذكر النبي – صلى الله عليه وعلى آله وسلم – الناس يوما في بيت عثمان بن مظعون – رضي الله عنه – فوصف القيامة ، وبالغ في الإنذار والتحذير ، فرق له الناس وبكوا ، فاجتمع عشرة من الصحابة – رضي الله عنهم أجمعين – وهم : أبو بكر ، وعلي بن أبي طالب ، وعبد الله بن مسعود ، وعبد الله بن عمر ، وأبو ذر الغفاري ، وسالم مولى أبي حذيفة والمقداد بن الأسود ، وسلمان الفارسي ، ومعقل بن مقرن – رضي الله عنهم – ، وتشاوروا على أن يترهبوا ، ويلبسوا المسوح ، ويجبوا مذاكيرهم ، ويصوموا الدهر ، ويقوموا الليل ، ولا ينامون على الفرش ، ولا يأكلون اللحم والودك ، ولا يقربون النساء والطيب ، ويسيحوا في الأرض ، وحلفوا على ذلك ، فبلغ النبي – صلى الله عليه وعلى آله وسلم – [ذلك] ، فأتى دار عثمان بن مظعون الجمحي ، فلم يصادفه ، فقال لامرأته أم حكيم بنت أبي أمية - واسمها " الحولاء " ، وكانت عطارة – : أحق ما بلغني عن زوجك وأصحابه ؟ فكرهت أن تكذب ، وكرهت أن تبدي على زوجها ، فقالت : يا رسول الله : إن كان أخبرك عثمان فقد صدق ، فانصرف رسول الله – صلى الله عليه وعلى آله وسلم – فلما دخل عثمان أخبرته بذلك ، فأتى رسول الله – صلى الله عليه وعلى آله وسلم – هو وأصحابه ، فقال لهم رسول الله – صلى الله عليه وعلى آله وسلم – : ألم أنبأ أنكم اتفقتم على كذا وكذا ، قالوا : بلى يا رسول الله ، ما أردنا إلا الخير ، فقال – عليه الصلاة والسلام – : إني لم أؤمر بذلك ، ثم قال : إن لأنفسكم عليكم حقا ، فصوموا وأفطروا ، وقوموا وناموا ، فإني أقوم وأنام ، وأصوم وأفطر ، وآكل اللحم والدسم ، وآتي النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس مني.

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/١٧٦٣

ثم جمع إليه الناس وخطبهم فقال : ما بال أقوام حرموا النساء والطعام ، والطيب والنوم ، وشهوات الدنيا ؟ ! أما إني لست آمركم أن تكونوا قسيسين ورهبانا ، فإنه ليس في ديني ترك اللحم ، ولا اتخاذ الصوامع ، وأن سياحة أمتي الصوم ، ورهبانيتهم الجهاد ، اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، وحجوا واعتمروا وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ، وصوموا رمضان ، واستقيموا يستقم لكم ، فإنما هلك من كان قبلكم بالتشديد ، شددوا على أنفسهم ، فشدد الله عليهم ، فأولئك بقاياهم في الديار والصوامع " ، فأنزل الله هذه الآية.

وعن عثمان بن مظعون – رضي الله تعالى عنه " – أنه أتى النبي – صلى الله عليه وعلى آله وسلم – فقال : ائذن لنا في الاختصاء ، فقال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم : ليس منا من خصى أو اختصا ، إن خصاء أمتي الصيام ، فقال يا رسول الله : ائذن لنا

٤٨٩

في السياحة ، فقال : إن سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله ، قال يا رسول الله : ائذن لنا في الترهب فقال : إن ترهب أمتي الجلوس في المساجد ، وانتظار الصلاة ".

وعلى هذا ظهر وجه النظم بين هذه الآية ، وبين ما قبلها ، وذلك أنه تعالى مدح النصارى ، بأن منهم قسيسين ورهبانا ، وعادتهم الاحتراز عن طيبات الدنيا ولذاتها ، فلما مدحهم أوهم ذلك المدح ترغيب المسلمين في مثل تلك الطريقة ، فذكر تعالى عقيبه هذه الآية ، إزالة لذلك الوهم ؛ ليظهر للمسلمين أنهم ليسوا مأمورين بتلك الطريقة ؛ والله أعلم.

فإن قيل : ما الحكمة في هذا النهي ؟ ومن المعلوم أن حب الدنيا مستول على الطباع والقلوب ، فإذا توسع الإنسان في اللذات والطيبات : اشتد ميله إليها وعظمت رغبته فيها ، وكلما أكثر التنعيم ودام كان ذلك الميل أقوى وأعظم ، وكلما ازداد الميل قوة ورغبة ، ازداد حرصه في طلب الدنيا ، واستغراقه في تحصيلها ، وذلك يمنعه عن الاستغراق في معرفة الله – تعالى – وطاعته ، ويمنعه عن طلب سعادات الآخرة ، وأما إذا أعرض عن

٤٩٠

". (١)

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/١٨٧٢

"لذات الدنيا وطيباتها ، فكلما كان ذلك الإعراض أتم وأدوم ، كان ذلك الميل أضعف ، وحينئذ تتفرغ النفس لطلب معرفة الله تعالى ، والاستغراق في خدمته ، وإذا كان الأمر كذلك فما **الحكمة في** نهي الله تعالى عن الرهبانية ؟ .

فالجواب من وجوه : الأول : أن الرهبانية المفرطة ، والاحتراز التام عن الطيبات واللذات ، مما يوقع الضعف في الأعضاء الرئيسية – التي هي القلب والدماغ – ، وإذا وقع الضعف فيهما اختلت الفكرة وتشوش العقل.

ولا شك أن أكمل السعادات وأعظم القربات ، إنما هو معرفة الله سبحانه وتعالى ، فإذا كانت الرهبانية الشديدة مما يوقع الخلل في ذلك ، لا جرم وقع النهي عنه.

الثاني : سلمنا أن اشتغال النفس باللذات يمنعها عن الاشتغال بالسعادات العقلية ، ولكن في حق النفوس الضعيفة أما النفوس المستعلية الكاملة ، فإنه لا يكون اشتغالها في اللذات الحسية مانعا من الاشتغال بالسعادات العقلية ، فإنا نشاهد بعض النفوس قد تكون ضعيفة ، بحيث متى اشتغلت بمهم امتنع عليها الاشتغال بمهم آخر ، وكلما قويت النفس كانت هذه الحالة أكمل ، وإذا كان كذلك ، فالمراد الكمال في الوفاء بالجهتين.

الثالث : أن من استوفى اللذات الحسية ، وإن غرضه بذلك الاستعانة على استيفاء اللذات العقلية ، فإن مجاهدته أتم من مجاهدة من أعرض عن اللذات الحسية.

الرابع : أن الرهبانية مع المواظبة على المعرفة والمحبة والطاعة ، فإنه عمارة الدنيا والآخرة ، فكانت هذه الحال أكمل القول.

الثاني في تفسير هذه الآية ذكره القفال – [رحمه الله] – وهو أنه تعالى قال في أول السورة : {أوفوا بالعقود} [المائدة : ١] فبين أنه لا يجوز استحلال المحرم ، كذلك لا يجوز تحريم المحلل ، وكانت العرب تحرم من الطيبات ما لم يحرمه الله تعالى ، وهو : البحيرة ، والسائبة ، والوصيلة ، والحام ، وكانوا يحللون الميتة والدم وغيرهما ، فأمر الله تعالى أن لا يحرموا ما أحله الله ، ولا يحللوا ما حرمه الله ، حتى تدخلوا تحت قوله تعالى : {يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود} [المائدة : ١].

فقوله تعالى : {لا تحرموا طيبات مآ أحل الله لكم} يحتمل وجوها : الأول : ألا تعتقدوا تحريم ما أحل الله لكم.

وثانيها : لا تظهروا باللسان تحريم ما أحل الله لكم.

٤٩١

." (١)

"عند الزمخشري ليست بمعنى " خلق " فسرها هنا بمعنى " أحدث " و " أنشأ ".

وكذا الراغب جعلها بمعنى " أوجد ".

ثم إن أبا حيان اعترض عليه هنا لما استطرد ، وذكر أنها تكون بمعنى صير ومثل بقوله : {وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمان إناثا} [الزخرف : ١٩].

فقال وما ذكر من أن جعل بمعنى صير في قوله {وجعلوا الملائكة} [الزخرف : ١٩] لا يصح ؛ لأنهم لم يصيروهم إناثا وإنما بعض النحويين أنها هنا بمعنى " سمى ".

قال شهاب الدين : ليس المراد بالتصيير بالفعل ، بل المراد التصيير بالقول ، وقد نص الزمخشري على ذلك ، على ما سيأتي في موضعه إن شاء الله تعالى ، وقد ظهر الفرق بين تخصيص السموات والأرض بالخلق ، والظلمات والنور بالجعل بما ذكره الزمخشري.

فصل قال أبو العباس المقري : ورد لفظ الجعل في القرآن على خمسة أوجه : الأول : بمعنى " خلق " قال تعالى : {وجعلوا الملائكة} ، وقوله {وجعل فيها رواسي من فوقها} [فصلت : ١٠] ، وقوله : {جعل الليل والنهار} [الفرقان : ٦٢].

والثاني : بمعنى " بعث " قال تعالى : {وجعلنا معه أخاه هارون وزيرا} [الفرقان : ٦٢].

والثالث : بمعنى " قدره " قال تعالى {وجعل لله أندادا} [الزمر : ٨] وقوله تعالى : {وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمان إناثا} [الزخرف : ١٩] وقوله تعالى : {قل أإنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أندادا} [فصلت : ٩] أي تقولون.

الرابع : بمعنى " بين " قال تعالى : {إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم} [الزخرف : ٣] أي : بيناه بحلاله وحرامه.

الخامس : بمعنى " صير " قال تعالى : {وجعلنا على قلوبهم أكنة} [الإسراء : ٤٦] أي : صيرنا ، وقوله {أجعلتم سقاية الحاج} [التوبة : ١٩] ، وقوله {وجعل بين البحرين} [النمل : ٦١] ، وقوله : {إنا جعلنا

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/١٨٧٣

فى أعناقهم} [يس : ٨].

فإن قيل : لم وحد النور ، وجمع الظلمات.

فالجواب من وجوه :

١٠

أحدها : إن قلنا : إن الظلمات هي الكفر ، والنور هو الإيمان فظاهر ؛ لأن الحق واحد ، والباطل كثير.

وإن قلنا : إن الظلمة الكيفية المحسوسة ، فالنور [عبارة] عن تلك الكيفية الكاملة القوية وكذلك الظلمة الكاملة القوية ، ثم إنها التناقض [قليلا] وتلك المراتب كثيرة ، فلهذا عبر عن الظلمات بصيغة الجمع.

وثانيها : أن النور من جنس واحد ، وهو النار ، والظلمات كثيرة ، فإن ما من جرم إلا وله ظل وظلمة.

وثالثها : أن الصلة التي قبلها تقدم فيها جمع ثم مفرد ، فعطفت هذه عليها كذلك ، وقد تقدم في " البقرة " الحكمة في جمع السماوات ، وإفراد الأرض.

فإن قيل : لم قدمت الظلمات [على النور] في الذكر ؟ .

فالجواب : لأنه موافق في الموجود ؛ إذا الظلمة قبل النور عند الجمهور.

فصل في المراد بالظلمات والنور قال الواقدي : كل ما في القرآن من الظلمات والنور هو الكفر والإيمان ، إلا في هذه الآية ، فإنه يريد به الليل والنهار.

وقال الحسن : المراد الكفر والإيمان.

وقيل : المراد بالظلمات الجهلن وبالنور العلم.

وقال قتادة : يعني الجنة والنار.

١١

". (١)

"أما قول أبي حيان : " وإنما قلق عند ابن عطية ؛ لأنه أراد بقاء " أن أقيموا " على معناها من موضوع الأمر " ، فليس القلق عنده لذلك فقط كما حصره الشيخ ، بل لأمر آخر من جهة اللفظ ، وهو أن السياق التركيبي يقتضي لعى ما قاله الزجاج أن يكون " لنسلم وأن نقيم " ، فتأتي في الفعل الثاني بضمير المتكلم ، فلما لم يقل ذلك قلق عنده ، ويدل على [ما ذكرته] قول ابن عطية : " بمعنى : ولنقم ثم خرجت بلفظ

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/١٩٨١

الأمر " إلى آخره.

والخامس : أنه محمول على المعنى ؛ إذا المعنى قيل لنا : أسلموا وأن أقيموا.

وقال الزجاج : فإن قيل : كيف حسن عطف قوله : " وأن أقيموا الصلاة واتقوه " على قوله " وأمرنا لنسلم لرب العالمين " ؟ فالجواب من وجهين : الأول : أن يكون التقدير : وأمرنا لنسلم لرب العالمين ، ولأن نقيم الصلاة.

الثاني : أن يكون التقدير : وأمرنا فقيل لنا أسلموا لرب العالمين ، وأقيموا الصلاة.

فإن قيل : هب أن المراد ما ذكرتم ، لكن ما الحكمة في العدول عن هذا اللفظ الظاهر ، والتركيب الموافق للعقل إلى ذلك اللفظ الذي لا يهتدي العقل إلى معناه ، إلا بالتأويل ؟ !.

فالجواب : لأن الكافر ما دام [يبقى] على كفره كان كالغائب الأجنبي ، فلا جرم خوطب بخطاب الغائبين ، فيقال له : " وأمرنا لنسلم لرب العالمين " فإذا أسلم [وآمن] ودخل في الإيمان صار كالقريب الحاضرن فلا جرم خوطب بخطاب الحاضرين ، ويقال له " وأن أقيموا الصلاة وأتقو " فالمقصود من ذكر هذهين النوعين من الخطاب للتنبيه على الفرق بين حالتي الكفر والإيمان ، وتقريره أن الكافر بعيد غائب ، والمؤمن قريب حاضر.

فصل في أنه لا هدى إلا هدى الله اعلم أن الله - تعالى - لما بين أولا أن الهدى النافع هو هدى اللهن أردف ذلك الكلام الكلي بذكر أشرف أقسامه على الترتيبن وهو الإسلام ، وهو رئيس الطاعات الروحانية ، والصلاة التي هي رئيسة الطاعات الجسمانية ، والتقوى التي هي رئيسة باب التروك والاحتراز عن كل ما لا ينبغي ، ثم بين منافع هذه الأعمالن فقال : " وهو الذي إليه تحشرون " يعني أن منافع هذه الأعمال إنما تظهر في يوم الحشر.

٢٢٢

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٢١٦

لما بين في الآيات المتقدمة فساد طريقة عبادة الأصنام ذكر هاهنا ما يدل على أن لا معبود إلا الله ، وذكرها هاهنا أنواعا من الدلائل : أحدهما : قوله : {وهو الذي خلق السماوات والأرض بالحق} تقدم أول السورة.

وقوله : " بالحق " قيل : الباء بمعنى اللام ، أي إظهار للحق ؛ لأنه جعل صنعه دليلا على وحدانيته ، فهو

نظير قوله : {ربنآ ما خلقت هذا باطلا} [آل عمران : ١٩١] ، وقوله : {وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين} [الدخان : ٣٨].

وثانيها : قوله : {ويوم يقول كن فيكون} في " يوم " ثمانية أوجه : أحدهما : - وهو قول الزجاج - أنه مفعول به لا ظرف ، وهو معطوف عى الهاء في " اتقواه " أي : واتقوا يوما أي : عقاب يوم يقول ، أو هوله أو فزعه ، فهو كقوله تعالى في موضع آخر : {واتقوا يوما لا تجزي} [البقرة : ٤٨] على المشهور في إعرابه.

والثاني : أنه مفعول به أيضا ، ولكنه نسق على السموات والأرض ، أي : وهو الذي خلق يوم يقول.

الثالث : أنه مفعول لـ " اذكر " مقدرا.

الرابع : أنه منصوب بعامل مقدر ، وذلك العامل المقدر مفعول فعل مقدر أيضا ، والتقدير : واذكروا الإعادة يوم يقول : كن ، أي يوم يقول الله للإجساد : كوني معادة.

الخامس : أنه عطف على موضع قوله : " بالحق " فإن موضعه نصب ، ويكون " يقول " بمعنى قال ماضيان كأنه قيل : وهو اذي خلق السموات والأرض بالحق ويوم قال لها : كن.

السادس : أن يكون " يوم يقول : كن فيكون ، وإليه ننحا الزمخشري ، فإنه قال : " قوله الحق " مبتدأ ، و " يوم يقول " خبره مقدما عليه ، وانتصابه بمعنى الاستقرار ، كقوك : " يوم الجمعة القتال " واليوم بمعنى الحين ، والمعنى : أنه خلق السموات والأرض قائما بالحكم ، وحين يقول لشيء من الأشياء : كن فيكون ذلك الشيء قوله الحق والحكمة.

فإن قيل : قول الله حق في كل وقت ، فما الفائدة في تخصيص هذا اليوم بهذين الوصفين ؟ فالجواب : لأن هذا اليوم لا يظهر فيه من أحد نفع ولا ضر ، كما قال تعالى : {يوم لا تملك نفس لنفس شيئا} {والأمر يومئذ لله} [الانفطار : ١٩] فلهذا السبب حسن هذا التخصيص.

٢٢٣

." (١)

"ونص أبو البقاء على ذلك فقال : " وجنات " بالنصب عطفا على " نبات " ومثله " الزيتون والرمان ".

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/٢٠٨٩

وقال ابن عطية : عطفا على " حبا " وقيل على " نبات " وقد تقدم أن في المعطوف الثالث فصاعدا احتمالين : أحدهما : عطفه على ما يليه.

والثاني : عطفه على الأول نحوه مررت بزيد وعمرو وخالد ، فخالد يحتمل عطفه على زيد وعمرو ، وقد تقدم أن فائدة الخلاف تظهر في نحو : " مررت بك وبزيد وبعمرو " ، فإن جعلته عطفا على الأول لزمت الباء ، وإلا جازت.

و " الزيتون " وزنه " فيعول " فالياء مزيدة ، والنون أصلية لسقوط تلك في الاشتقاق ، وثبوت ذي ، قالوا : أرض زتنة ، أي : كثيرة الزيتون ، فهو نظير قيصوم ، لأن فعلولا مفقود ، أو نادر ولا يتوهم أن تاءه أصلية ونوه مزيدة لدلالة الزيت ، فإنهما مادتان متغايرتان ، وإن كان الزيت معتصرا منه ، ويقال : زات طعامه ، أي : جعل في زيتا ، وزات رأسه أي : دهنه به ، وزدات : أي ادهن أبدلت تاء الافتعال دالا بعد الزاي كازدجر وازدان.

و " الرمان " وزنه فعال نونه أصلية ، فهو نظير : عناب وحماض ، لقولهم : أرض رمنه أي : كثيرته.

قال الفراء : قوله تعالى : {والزيتون والرمان} يريد شجر الزيتون ، وشجر الرمان ؛ كقوله تعالى : {واسأل القرية} [يوسف : ٨٢] يريد أهلها.

فصل في معنى تقدم النخل على الفواكه في الآية ذكر تبارك وتعالى هاهنا أربعة أنواع من الأشجار : النخل والعنب والزيتون والرمان ، وقدم الزرع على الشجر ؛ لأن الزرع غذاء ، وثمار الأشجار فواكه ، والغذاء مقدم ، وقدم النخل على الفواكه ؛ لأن الثمر يجري مجرى الغذاء بالنسبة إلى العرب.

قال الحكماء : بينه وبين الحيوان مشابهة في خواص كثيرة لا توجد في النبات ، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام : " أكرموا النخلة فإنها عمتكم فإنها خلقت من طين آدم عليه الصلاة والسلام ".

٣٢٧

وذكر العنب عقيب النخل ؛ لأن العنب أشرف أنواع الفواكه ؛ لأنه أول ما يظهر يصير منتفعا به إلى آخر الحال ، فأول ما يظهر على الشجر خيوط خضر رقيقة حامضة الطعم لذيذة ، وقد يمكن اتخاد الصبائغ منه ، ثم يظهر بعده الحصرم ، وهو طعام شريف للأصحاء والمرضى ، وقد يتخذون من الحصم أشربة لطيفة المذاق نافعة لأصحاب الصفراء ، وقد يتخذ الطبيخ منه ، لأنه ألذ الطبائخ الحامضة ، ثم إذا تم العنب فهو ألذ الفواكه [وأشهاها فيمكن ادخار العنب المعلق سننة أو أكثر وهو ألذ الفواكه] المدخرة ، ثم يخرج منه

أربعة أنواع من المتناولات : وهي الزبيب والدبس والخمر والخل ، ومنافع هذه الأربع لا تنحصر إلا من مجلدات والخمر فإن كان الشرع قد حرمها ، ولكنه تبارك وتعالى قال في صفتها : {ومنافع للناس} [البقرة : ٢١٩] ثم قال : {وإثمهمآ أكبر من نفعهما} [البقرة : ٢١٩] والأطباء يتخذون من عجمه جوارشات عظيمة النفع للمعدة الضعيفة الرطبة ، فتبين أن العنب كأنه سلطان الفواكه ، وأما الزيتون فهو أيضا كثير النفع كثير البركة ؛ لأنه يمكن تناوله كما هو ، ونفصل عنه أيضا دهن كثير عظيم النفع في الأكل ، وسائر وجوه الاستعمال وأما الرمان فحاله عجيب جدا ؛ لأنه جسم مركب من أربعة أقسام : قشرة وشحمه وعجمه وماءه ، فأما الأقسام الثلاثة وهي القشر والشحم والعجم ، فهي باردة يابسة أرضية كثيفة قابضة عفصة قوية في هذه الصفات وأما ماء الرمان فبالضد من هذه الصفات ، فإنه ألد الأشربة وألطفها ، وأقربها إلى الاعتدال ، وأشدها مناسبة للطبائع المعتدلة فيه تقوية للمزاج الضعيفن وهو غذاء من وجه ، ودواء من وجه آخر ، فإذا تأملت في الرمان وجدت الأقسام الثلاثة في غاية الكثافة التامة الأرضية ، ووجدت القسم الرابع وهو ماء الرمان في غاية اللطافة والاعتدال ، فكأنه تبارك وتعالى جمع فيه بين المتضادين المتغايرين ، فكانت دلالة القدرة **والحكمة فيه** أكمل وأتم.

نبه تعالى بذكر هذه الأقسام الأربعة [التي هي أشرف أنواع النبات] على الباقي.

قوله : " مشتبها " حال ؛ إما من " الرمان " لقربه ، وحذفت الحال من الأول ؛ تقديره : والرمان مشتبها ، ومعنى التشابه أي في اللون ، وعدم التشابه أي في الطعم.

وقيل : هي حال من الأول ، وحذفت حال الثاني ، وهذا كما تقدم في الخبر المحذوف ، نحو : {والله ورسوله أحق أن يرضوه} [التوبة : ٦٢] وإلى هذا نحا الزمخشري ، فإنه قال : تقديره : والزيتون مشتبها ، وغير مشتبه ، والرمان كذلك ؛ كقول القائل في ذلك : [الطويل]

٣٢٨

٢٢٧٥ - رماني بأمر كنت منه ووالدي

بريئا.......................

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٣١٧

" (١).

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/٢١٤٦

"إلى معرفة مقدار الشيء ، ومقادير الثواب والعقاب لا يمكن إظهارها بالميزان ؛ لأن أعمال العباد أعراض ، وهي قد فنيت وعدمت ، ووزن المعدوم محال ، وأيضا فبتقدير بقائها كان وزنها محالا.

وأجيب بأن فائدته أن جميع المكلفين يعلمون يوم القيامة أنه تعالى منزه عن الظلم والجور.

وفائدة وضع الميزان أن يظهر ذلك الرجحان لأهل الموقف ، لإإن رجحت الحسنات ازداد فرحه وسروره ، وإن كان بالضد فيزاداد غمه.

وقال القرطبي : " الصحيح أن المراد بالميزان وزن أعمال العباد ".

فإن قيل : الموزون صحائف الأعمال ، أو صور مخلوقة على حسب مقادير الأعمال.

فنقول : إن المكلف يوم القيامة إما أن يكون مقرا بأن الله – تعالى – عادل حكيم ، أو لا يكون مقرا بذلك فإن كان وزنها محالا.

وأجيب بأن فائدته أن جميع المكلفين يعلمون يوم القيامة أنه تعالى منزه عن الظلم والجور.

وفائدة وضع الميزان أن يظهر ذلك الرجحان رأهل الموقف ، فإن رجحت الحسنات ازداد فرحه وسروره ، وإن كان بالضد فيزداد غمه.

وقال القرطبي : " الصحيح أن المراد بالميزان وزن أعمال العباد ".

فإن قيل : الموزون صحائف الأعمال ، أو صور مخلوقة على حسب مقادير الأعمال.

فنقول : أن الملكف يوم القيامة إما أن يكون مقرا بأن الله – تعالى – عادل حكيم ، أو لا يكون مقرا بذلك فإن كان مقرا بذلك فحينئذ كفاه حكم الله تعالى بمقادير الثواب والعقاب في علمه بأنه عدل وصواب ، وإن لم يكن مقرا بذلك لم يعرف من رجحان كفة الحسنات على كفة السيئات أو بالعكس من حصول الرجحان لا على سبيل العدل والإنصاف ، فثبت أن هذا الوزن لا فائدة فيه ألبتة وقال أكثر المفسرين : أراد وزن الأعمال بالميزان ، وذلك أن الله – تعالى – ينصب ميزانا له لسان يوزن بها أعمال العباد خيرها وشرها وكفتان ، كل كفة بقدر ما بين المشرق المغرب.

واختلفوا في كيفية الوزن ، فقال بعضهم : توزن صحائف الأعمال.

وروي أن رجلا ينشر عليه تسعة وتسعون سجلا ، كل سجل منها مد البصر فيها خطاياه وذنوبه فتوضع في كفة الميزان ثم يخرج له بطاقة فيها شهادة أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، فتوضع السجلات في كفه ، والبطاقة في كفة فطاشت السجلات وثقلت البطاقة.

وقيل : توزن الأشخاص.

روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة فلا يزن عند الله جناح بعوضة " وقيل : توزن الأعمال.

روي ذلك ابن عباس – رضي الله عنهما – فيؤتى بالأعمال

٢٣

الحسنة على صورة حسنة ، وبالأعمال السيئة على صورة قبيحة ، فتوضع في الميزان.

والحكمة في وزن الأعمال امتحان الله عباده بالإيمان به في الدنيا ، وإقامة الحجة عليهم في العقبى.

جزء : ٩ رقم الصفحة : ٢١

(١) ".

"أحدها : أن وجه دلالة هذه المحدثات على وجود الصانع هو حدوثها ، أو إمكانها ، أو مجموعها ، فأما وقوع ذلك الحدوث في ستة أيام ، أو في يوم واحد فلا أثر له في ذلك ألبتة.

الثاني : أن العقل يدل على أن الحدوث على جميع الأحوال جائز ، وإذا كان كذلك فحينئذ لا يمكن الجزم بأن هذا الحدوث وقع في ستة أيام إلا بإخبار مخبر صادق ، وذلك موقوف على العلم بوجود الإله الفاعل المختار ، فلو جعلنا هذه المقدمة مقدمة ، في إثبات الصانع لزم الدور.

الثالث : أن حدوث السموات والأرض دفعة واحدة أدل على كمال القدرة والعلم من حدوثها في ستة أيام.

وإذا ثبتت هذه الوجوه الثلاثة فنقول : ما الفائدة في ذكر أنه تعالى إنما خلقها في ستة أيام في إثبات ذكر ما يدل على وجود الصانع ؟ الرابع : ما السبب في أنه اقتصر هاهنا على ذكر السموات والأرض ، ولم يذكر خلق سائر الأشياء ؟ الخامس : اليوم إنما يمتاز عن الليلة بطلوع الشمس وغروبها ، فقبل خلق السموات والقمر كيف يعقل حصول الأيام ؟ السادس : أنه تعالى قال : {ومآ أمرنآ إلا واحدة كلمح بالبصر} [القمر : ٥٠] ، وهو كالمناقض لقوله خلق السموات والأرض.

السابع : أنه تعالى خلق السموات والأرض في مدة متراخية فما الحكمة في تقييدها بالأيام الستة ؟ والجواب على مذهب أهل السنة واضح ؛ لأنه تعالى يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد ، ولا اعتراض عليه في أمر من الأمور ، وكل شيء صنعه ولا علة لصنعه ، ثم نقول : أما الجواب عن الأول أنه تعالى ذكر في

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/٢٢٨٩

أول التوراة أنه خلق السموات والأرض في ستة أيام ، والعرب كانوا يخالطون اليهود والظاهر أنهم سمعوا ذلك منهم ، فكأنه سبحانه يقول : لا تشتغلوا بعبادة الأوثان والأصنام ، فإن ربكم هو الذي سمعتم من عقلاء الناس أنه هو الذي خلق السموات والأرض على غاية عظمتها في ستة أيام.

وعن الثالث : أن المقصود منه أنه تعالى وإن كان قادرا على إيجاد جميع الأشياء دفعة واحدة لكنه جعل لكل شيء حدا محدودا ، ووقتا مقدرا ، فلا يدخله في الوجود إلا على ذلك الوجه ، فهوا ، وإن كان قادرا على إيصال الثواب للمطيعين في الحال ، وعلى

١٤٢

." (١)

"قال الحسن : بين دعوة السر ، ودعوة العلانية سبعون ضعفا ، ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء ، وما يسمع لهم صوت ، إلا همسا بينهم وبين ربهم ، وذلك أن الله يقول : {ادعوا ربكم تضرعا وخفية} ، وإن الله ذكر عبده زكريا ، ورضي فعله فقال : {إذ نادى ربه ندآء خفيا} [مريم : ٣].

وقال عليه الصلاة والسلام : " دعوة السر تعدل سبعين دعوة في العلانية " ، وقال عليه الصلاة والسلام : " خير الذكر الخفي " وروى أبو موسى الأشعري - رضي الله عنه - أنهم كانوا في غزاة فأشرفوا على واد فجعلوا يكبرون ويهللون رافعي أصواتهم ، فقال عليه الصلاة والسلام : " اربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصم ، ولا غائبا ، إنكم تدعون سميعا قريبا وإنه لمعكم " واختلفوا في أن الأفضل الدعاء خفية ، أو علانية ؟ فقيل : الإخفاء أفضل لهذه الآية ولقوله تعالى : {إذ نادى ربه ندآء خفيا} [مريم : ٣] ، ولما تقدم ، ولأنه مصون عن الرياء.

وقال آخرون : العانية أفضل ؛ لترغيب الغير في الاقتداء به.

وقال آخرون : إن خاف على نفسه الرياء ؛ فالإخفاء أفضل وإلا فالعلانية.

فصل في بيان شبهة منكري الدعاء من الناس من أنكر الدعاء ، واحتج على صحة قوله بوجوه : الأول : أن المطلوب بالدعاء إن كان معلوم الوقوع ، كان واجب الوقوع ؛ لامتناع وقوع التغير في علم الله تعالى ، وما كان واجب الوقوع لم يكن في طلبه فائدة ، وإن كان معلوم اللاوقوع ؛ كان ممتنع الوقوع فلا فائدة في طلبه أيضا.

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/٢٣٤٧

الثاني : أنه تعالى : إن كان قد أراد في الأزل إحداث ذلك الشيء فهو حاصل سواء كان هذا الدعاء أو لم يكن ، وإن كان أراد في الأزل ألا يعطيه ، فهو ممتنع الوقوع ، فلا فائدة في الطلب ، وإن قلنا : إنه ما أراد في الأزل ذلك الشيء لا وجوده ولا عدمه ، ثم إنه

١٥٧

عند ذلك الدعاء صار مريدا له لزم وقوع التغير في ذات الله ، وفي صفاته ، وهو محال.

وعلى هذا التقدير يصير إقدام العبد على الدعاء علة لحدوث صفة في ذات الله – تعالى – فيكون العبد متصرفا في صفة الله – تعالى – بالتبديل والتغيير ، وهو محال.

الثالث : أن المطلوب بالدعاء إن اقتضت الحكمة والمصلحة إعطاءه ، فهو تعالى يعطيه من غير هذا الدعاء ؛ لأنه منزه عن أن يكون بخيلا ، وإن اقتضت **الحكمة منعه** فهو لا يطعيه سواء أقدم العبد على الدعاء ، أو لم يقدم عليه.

الرابع : أن الدعاء غير الأمر ، ولا تفاوت بين البابين إلا كون الداعي أقل رتبة ، وكون الآمر أعلى رتبة ، وإقدام العبد على أمر الله سوء أدب وإنه لا يجوز.

الخامس : الدعاء يشبه ما إذا أقدم العبد على إرشاد ربه وإلهه إلى فعل الأصلح والأصوب ، وذلك سوء أدب ، أو أنه ينبه الإله على شيء ما كان منتبها له ، وذلك كفر ، وأن الله عالى قصر في الإحسان والفضل ، وذلك جهل.

السادس : أن الإقدام على الدعاء يدل على كون العبد غير راض بالقضاء ، إذ لو رضي بما قضاه الله عليه لترك تصرف نفسه ، ولما طلب من الله شيئا على التعيين ، وترك الرضا بالقضاء من المنكرات.

السابع : روي أنه عليه الصلاة والسلام قال حاكيا عن الله – تعالى – " من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين " وذلك يدل على أن الأولى ترك الدعاء.

الثامن : أن علم الله – تعالى – محيط بحاجة العبد ، والعبد غذا علم أن مولاه عالم باحتياجه فسكت ولم يذكر تلك الحاجة ، كان ذلك أدخل في الأدب ، وفي تعظيم المولى ، مما إذا أخذ يشرح كيفية تلك الحاجة ، وإذا كان الحال على هذا الوجه في الشاهد ؛ وجب اعتبار مثله في حق الله – تعالى – ، وكذلك نقل أن الخليل – عليه الصلاة والسلام – لما وضع في المنجنيق للرمي إلى النار قال له جبريل – عليه السلام – " ادع ربك " ، فقال الخليل – عليه السلام – : " حسبي من سؤالي علمه بحالي ".

والجواب : أن الدعاء نوع من أنواع العبادة ، والأسئلة المذكورة واردة في جميع أنواع العبادات ، فإنه يقال : إن كان هذا الإنسان سعيدا في علم الله فلا حاجة إلى الطاعات والعبادات ، وإن كان شقيا في علمه ؛ فلا فائدة في تلك العبادات ، ويجب أيضا ألا يقدم

١٥٨

." (١)

"البدن والمال] بعد البأساء والضراء يدعو إلى الانقياد ، والاشتغال بالشكر.

وفي " مكان " وجهان : أظهرهما : أنه مفعول به لا ظرف ، والمعنى : بدلنا مكان الحال السيئة [الحال الحسنة] ، فالحسنة هي المأخوذة الحاصلة ومكان السيئة هو المتروك الذاهب ، وهو الذي تصحبه " الباء " في مثل هذا التركيب لو قيل في نظيره : بدلت زيدا بعمرو ، فزيد هو المأخوذ ، وعمرو المتروك ، وقد تقدم تحقيق هذا في البقرة في موضعين : أولهما : {فبدل الذين ظلموا} [البقرة : ٥٩].

والثاني : {ومن يبدل نعمة الله} [البقرة : ٢١١].

ف " مكان " و " الحسنة " مفعولان إلا أن أحدهما وصل إليه الفعل بنفسه [وهو " الحسنة "] ، والآخر بحذف حرف الجر وهو " مكان ".

والثاني : أنه منصوب على الظرف ، والتقدير : " ثم بدلنا [في] مكان السيئة الحسنة " إلا أن هذا ينبغي أن يرد ؛ لأن " بدل " لا بد له من مفعولين أحدهما على إسقاط الباء.

والمراد بالحسنة والسيئة هاهنا : الشدة والرخاء.

قال أهل اللغة : " السيئة : كل ما يسوء صاحبه ، والحسنة : كل ما استحسنه الطبع والعقل ".

قوله : " حتى عفوا " " حتى " هنا غائية ، وتقدير من قدرها ب " إلى " فإنما يريد تفسير المعنى لا الإعراب ؛ لأن حتى الجارة لا تباشر إلا المضارع المنصوب بإضمار " أن " ؛ لأنها في التقدير داخلة على المصدر المنسبك منها ، ومن الفعل ، [وأما الماضي] فلا يطرد حذف " أن " معه ، فلا يقدر معه أنها حرف جر داخلة على أن المصدرية ، أي : حتى أن عفوا ، وهذا الذي ينبغي أن يحمل عليه قول أبي البقاء : " حتى عفوا أي : إلى أن عفوا ".

ومعنى " عفوا " هنا كثروا من عفا الشعر إذا كثر ، ومنه : " وأعفوا اللحى " يقال : عفاه ، وأعفاه ثلاثيا

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/٢٣٥٨

ورباعيا ؛ قال زهير : [الوافر] ٢٥٣٠ – أذلك أم أقب البطن جأب

عليه من عقيقته عفاء

جزء : ٩ رقم الصفحة : ٢٣٢

وفي الحديث : " إذا عفا الوبر وبرأ الدبر فقد حضلت العمرة لمن اعتمر ؛ وأنشد الزمخشري على ذلك قول الحطيئة : [الطويل]

٢٣٣

٢٥٣١ – بمستأسد القربان عاف نباته

....

وقول لبيد : [الوافر] ٢٥٣٢ – ولكنا نعض السيف منها

بأسوق عافيات الشحم كوم

وتقدم تحقيق هذه المادة في البقرة.

فصل في المراد من الآية ومعنى الآية أن الله – تعالى – أبدلهم مكان الباساء والضراء الحسنة ، وهي النعءمة والسعة والخصب والصحة.

" حتى عفوا "كثروا وكثرت أموالهم وأولادهم ، وقالوا من غرتهم وغفلتهم : {قد مس آباءنا الضرآء والسرآء} ، أي : هكذا كانت عادة الدهر قديما لنا ولآبائنا ، ولم يكن ذلك عقوبة من الله ، فكونوا على ما أنتم عليه كما كان آباؤكم ، فإنهم لم يتركوا دينهم لما أصابهم من الضراء.

قوله : " فأخذناهم ".

قال أبو البقاء : " هو عطف على " عفوا ".

يريد : وما عطف عليه أيضا ، أعني أن الأخذ ليس متسبباا عن الفاء فقط ، بل عليه وعلى قولهم تلك المقالة الجاهلية ؛ لأن المعنى ليس أنه لمجرد كثرتهم ، ونمو أموالهم أخذهم بغتة بل بمجموع الأمرين ، بل الظاهر أنه بقولهم ذلك فقط.

و " بغتة " إما حالا أو مصدرا ، والبغتة الفجاءة ، {وهم لا يشعرون} حال أيضا وهي في قوة المؤكدة ؛ لأن " بغتة " تفيد إفادتها ، سواء أعربنا " بغتة " حالا أم مصدرا.

واعلم أن **الحكمة في** حكاية هذا المعنى ليعتبر من سمع هذه القصة.

جزء : ٩ رقم الصفحة : ٢٣٢

لما بين أن الذين عصوا وتمردوا ؛ أخذهم بغتة بين في هذه الآية انهم لو أطاعوا فتح عليهم أبواب الخيرات ، وقد تقدم أن ابن عامر يقرأ : " لفتحنا " بالتشديد ووافقه هنا عيسى بن عمر الثقفي ، وأبو عبد الرحمن السلمي.

٢٣٤

." (١)

"العام على سبب نزوله ، فيكون المراد بالنفع : تملك الأموال وغيرها ، والمراد بالضر وقت القحط وغيره.

وثانيها : أن المراد بالنفع والضر ما يتصل بعلم الغيب لقوله : {ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير} [الأعراف : ١٨٨].

وثالثها : أن التقدير : لا أملك لنفسي من النفع والضر إلا قدر ما شاء الله أن يقدرني عليه ويمكنني فيه ، وهذه الوجوه كلها عدول عن الظاهر ، فلا يصار إليها مع قيام البرهان القاطع العقلي على أن الحق ليس إلا ما دل عليه ظاهر الآية.

فصل احتج الرسول - عليه الصلاة والسلام - على عدم علمه بالغيب بقوله : {ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير} واختلفوا في المراد بهذا الخير وقوله {وما مسني السواء} قال ابن جريج : قل لا أملك لنفسي نفعا ، ولا ضرا من الهدى والضلالة ، ولو كنت أعلم متى أموت لاستكثرت من الخير ، أي : من العمل الصالح وما مسني السوء ، واجتنبت ما يكون من الشر واتقيته.

وقيل : لو كنت أعلم الغيب أي : متى تقوم الساعة لأخبرتكم حتى تؤمنوا وما مسني السوء بتكذيبكم.

وقيل : ما مسني السوء ابتداء يريد : وما مسني الجنون ؛ لأنهم كانوا ينسبونه إلى الجنون ، وقال ابن زيد : المراد بالسوء : الضر ، والفقر ، والجوع.

قوله {وما مسني السواء} عطف على جواب " لو " وجاء هنا على أحسن الاستعمال من حيث أثبت اللام في جواب " لو " المثبت ، وإن كان يجوز غيره ، كما تقدم ، وحذف اللام من المنفي ، لأنه يمتنع ذلك فيه.

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/٢٣٩٤

وقال أبو حيان : ولم تصحب " ما " النافية – أي : اللام – وإن كان الفصيح إلا تصحبها ، كقوله : {ولو سمعوا ما استجابوا لكم} [فاطر : ١٤].

وفيه نظر ؛ لأنهم نصوا على أن جوابها المنفي لا يجوز دخول اللام عليه.

قوله : {إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون} نذير لمن لا يصدق بما جئت به ، وبشير بالجنة لقوم يصدقون.

وذكر إحدى الطائفتين ؛ لأن ذكر إحداهما يفيد ذكر الأخرى ، كقوله : {سرابيل تقيكم الحر} [النحل : ٨١].

٤١٥

وقد يقال : إنه كان نذيرا وبشيرا للكل إلا أن المنتفع بالنذارة والبشارة هم المؤمنون كما تقدم في قوله : {هدى للمتقين} [البقرة : ٢].

واللام في قوله [القوم] من باب التنازع ، فعند البصريين تتعلق بـ " بشير " لأنه الثاني ، وعند الكوفيين بالأول لسبقه.

ويجوز أن تكون المتعلق بالنذارة محذوفا ، أي : نذير للكافرين ودل عليه ذكر مقابله كما تقدم.

جزء : ٩ رقم الصفحة : ٤٠٨

قوله تعالى : {هو الذي خلقكم من نفس واحدة} الآية.

اعلم أنه تعالى رجع هنا إلى تقرير التوحيد ، وإبطال الشرك.

قال ابن عباس : المراد بالنفس الواحدة آدم – عليه الصلاة والسلام – {وخلق منها زوجها} [النساء : ١] أي حواء خلقها الله من ضلع آدم – عليه الصلاة والسلام – من غير أذى ليسكن إليها أي : ليأنس بها ويأوي إليها قالوا : **والحكمة في** كونها مخلوقة من نفس آدم : أن الجنس أميل إلى جنسه.

قال ابن الخطيب : وهذا مشكل ؛ لأنه تعالى لما كان قادرا على خلق آدم ابتداء فما الذي يحملنا على أن نقول خلق حواء من جزء من أجزاء آدم ؟ ولم لم نقل إنه تعالى خلق حواء أيضا ابتداء ؟ وأيضا فالقادر على خلق الإنسان من عظم واحد لم لا يقدر على خلقه ابتداء ؟ وأيضا فقولهم إن عدد أضلاع الجانب الأيسر من الذكر أنقص من عدد أضلاع الجانب الأيمن بشيء واحد ، على خلاف الحسن والتشريح.

وإذا عرف ذلك فنقول : المراد من كلمة من في قوله : {وجعل منها زوجها} أن الإشارة إلى شيء تكون

تارة بحسب شخصه ، وتارة بحسب نوعه.
قال عليه الصلاة والسلام " هذا وضوء لا يقبل الله الصلاة إلا به " والمراد نوعه لا ذلك الفرد المعين ، وقال - عليه الصلاة والسلام - " في يوم عاشوراء هذا هو اليوم الذي أظهر الله فيه موسى على فرعون " والمراد : نوعه.

٤١٦

." (١)

"الناصب لـ " إذ " يجوز أن يكون مضمرا ، أي : اذكر ، ويجوز أن يكون " عليم " ، وفيه بعد من حيث تقييد هذه الصفة بهذا الوقت ، ويجوز أن تكون " إذ " هذه بدلا من " إذ " قبلها ، والإراءة هنا حلمية.

واختلف فيها النحاة : هل تتعدى في الأصل لواحد كالبصرية ، أو لاثنين ، كالظنية ؟ .

فالجمهور على الأول.

فإذا دخلت همزة النقل أكسبتها ثانيا ، أو ثالثا على حسب القولين فعلى الأول تكون الكاف مفعولا أول ، و " هم " مفعول ثان ، و " قليلا " حال ، وعلى الثاني يكون " قليلا " نصبا على المفعول الثالث ، وهذا يبطل بجواز حذف الثالث في هذا الباب اقتصارا ، أي : من غير دليل تقول : أراني الله زيدا في منامي ، ورأيتك في النوم ، ولو كانت تتعدى لثلاثة ، لما حذف اقتصارا ؛ لأنه خبر في الأصل.

فصل المعنى : إذ يريك الله يا محمد المشركين في منامك ، أي : نومك.

قال مجاهد : أرى الله النبي - عليه الصلاة والسلام - كفار قريش في منامه قليلا ، فأخبر بذلك أصحابه ، فقالوا : رؤيا النبي حق ، القوم قليل ، فصار ذلك سببا لقوة قلوبهم.

فإن قيل : رؤية الكثيرة قليلا غلط ، فكيف يجوز من الله تعالى أن يفعل ذلك ؟ .

فالجواب : أن الله تعالى يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد ، ولعله تعالى أراه البعض دون البعض فحكم الرسول - عليه الصلاة والسلام - على أولئك الذين رآهم بأنهم قليلون.

وقال الحسن : هذه الإراءة اكنت في اليقظة ، قال : والمراد من المنام : العين ؛ لانها موضع النوم.

{ولو أراكهم كثيرا لفشلتم} لجبنتم " ولتنازعتم " اختلفتم " في الأمر " أي : في الإحجام والإقدام {ولـاكن

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/٢٤٨٩

الله سلم} أي : سلمكم من المخالفة والفشل.

وقيل : سلمهم من الهزيمة يوم بدر.

{إنه عليم بذات الصدور}.

قال ابن عباس : عليم بما في صدوركم من الحب لله تعالى وقيل : يعلم ما في صدوركم من الجراءة ، والجبن والصبر والجزع.

قوله تعالى : {إذ يريكهم} الإراءة - هنا - بصرية ، والإتيان هنا بصلة ميم الجمع واجب ، لاتصالها بضمير ، ولا يجوز التسكين ، ولا الضم من غير واو ، وقد جوز

٥٣١

يونس ذلك فيقول : " أنتم ضربتمه " بتسكين الميم وضمها ، وقد يتقوى بما روي عن عثمان - رضي الله عنه - : " أراهمني الباطل شيطانا " وفي هذا الكلام شذوذ من وجه آخر ، وهو تقديم الضمير غير الأخص على الأخص مع الاتصال.

فصل قال مقاتل - رضي الله عنه - " إن النبي صلى الله عليه وسلم ، رأى في المنام أن العدد قليل قبل لقاء العدو ، وأخبر أصحابه بما رأى ، فلم التقوا ببدر قلل الله المشركين في أعين المؤمنين " قال ابن مسعود : " لقد قللوا في أعيننا حتى قلت لرجل إلى جنبي : أتراهم سبعين ؟ قال أراهم مائة ، فأسرنا رجلا منهم فقلنا له : كم كنتم ؟ قال : ألفا ".

" ويقللكم " يا معشر المؤمنين " في أعينهم ".

قال السدي : " قال ناس من المشركين إن العير قد انصرفت ، فارجعوا ، فقال أبو جهل : الآن إذ برز لكم محمد وأصحابه ؟ فلا ترجعوا ، حتى تستأصلوهم ، إنما محمد وأصحابه أكلة جزور ، فلا تقتلوهم واربطوهم بالحبال " ، والحكمة في تقليل عدد المشركين في أعين المؤمنين : تصديق رؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولتقوى قلوبهم ، وتزداد جراءتهم على المشركين ، والحكمة في تقليل عدد المؤمنين في أعين المشركين : لئلا يبالغوا في الاستعداد والتأهب والحذر ، فيصير ذلك سببا لاستيلاء المؤمنين عليهم.

ثم قال : {ليقضي الله أمرا كان مفعولا}.

فإن قيل : ذكرث هذا يفهم من الآية المتقدمة ، فكان ذكره - ههنا - محض التكرار.

فالجواب : أن المقصود من ذكره في الآية المتقدمة ، هو أنه تعالى فعل تلك الأفعال ليحصل استيلاء

المؤمنين على المشركين على وجه يكون معجزة دالة على صدق الرسول وههنا المقصود من ذكره ، أنه إنما فعل ذلك ، لئلا يبالغ الكفار في الاستعداد والحذر فيصير ذلك سببا لانكسارهم.

ثم قال {وإلى الله ترجع الأمور} والغرض منه التنبيه على أن أحوال الدنيا غير مقصودة لذاتها ، بل المراد منها ما يصلح أن يكون زادا ليوم المعاد.

جزء : ٩ رقم الصفحة : ٥١٦

." (١)

"وإيجابه.

قال ابن عباس " إنه اللوح المحفوظ " وقيل : القرآن.

فصل قال القرطبي : قوله تعالى : {إن عدة الشهور} وهي جمع شهر.

فإذا قال الرجل لأخيه : لا أكلمك الشهور ، وحلف على ذلك فلا يكلمه حولا ، قاله بعض العلماء وقيل : لا يكلمه أبدا.

قال ابن العربي : وأرى إن لم يكن له نية أن يقتضي ذلك ثلاثة أشهر ، لأنه أقل الجمع الذي يقتضيه صيغة " فعول " في جمع " فعل ".

قوله {منهآ أربعة حرم} هذه الجملة يجوز فيها ثلاثة أوجه : أحدها : أن تكون صفة لـ " اثنا عشر ".

الثاني : أن تكون حالا من الضمير في الاستقرار.

الثالث : أن تكون مستأنفة.

والضمير في " منها " عائد على اثنا عشر شهرا ، لأنه أقرب مذكور ، على " الشهور " والضمير في " فيهن " عائد على " الاثني عشر " أيضا.

وقال الفراء ، وقتادة : يعود على الأربعة الحرم وهذا أحسن ، لوجهين : أحدهما : أنه أقرب مذكور.

والثاني : أنه قد تقرر أن معاملة جمع القلة غير العاقل معاملة جمع الإناث أحسن من معاملة ضمير الواحدة ، والجمع الكثير بالعكس ، تقول الأجذاع انكسرن ، والجذوع انكسرت ، ويجوز العكس.

فصل أجمعوا على أن هذه الأربعة ثلاثة منها سرد ، وهي : ذو القعدة ، وذو الحجة ، ومحرم ، وواحد فرد ، وهو : رجب ، ومعنى الحرم : أن المعصية فيها أشد عقابا ، والطاعة فيها أشد ثوابا ، والعرب كانوا

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/٢٥٤٦

يعظمونها حتى لو لقي الرجل قاتل أبيه لم يتعرض له.

فإن قيل : أجزاء الزمان متشابهة في الحقيقة ، فما السبب في هذا التمييز ؟ فالجواب : هذا المعنى غير مستبعد في الشرائع ، فإنه ميز البلد الحرام عن سائر البلاد بمزيد الحرمة ، وميز يوم الجمعة عن سائر الأيام بمزيد الحرمة ، وميز يوم عرفة عن سائر الأيام بعبادة مخصوصة ، وميز شهر رمضان عن سائر الشهور بمزيد حرمة ، وميز بعض ساعات اليوم والليلة بوجوب الصلاة فيها ، وميز ليلة القدر عن سائر الليالي ، وميز بعض الأشخاص بإعطاء الرسالة ، فأي استبعاد في تخصيص بعض الشهور بمزيد الحرمة.

وفيه فائدة أخرى وهي : أن الطباع مجبولة على الظلم والفساد ، وامتناعهم من هذه القبائح على الإطلاق شاق عليهم ، فخص تعالى بعض الأوقات وبعض الأماكن بمزيد التعظيم

٨٥

والاحترام ، حتى إن الإنسان ربما امتنع في تلك الأزمنة ، وفي تلك الأمكنة عن فعل القبائح ، وذلك يوجب أنواعا من الفوائد.

أحدها : أن ترك القبائح في تلك الأوقات أمر مطلوب ؛ لأنه يقل القبائح.

وثانيها : أن تركها في تلك الأوقات ربما صار سببا لميل طبعه إلى الإعراض عنها مطلقا.

وثالثها : أنه إذا أتى بالطاعات فيها وأعرض عن المعاصي فيها ، فبعد انقضاء تلك الأوقات لو شرع في المعاصي صار شروعه فيها سببا لبطلان ما تحمله من العناء والمشقة في أداء الطاعات في تلك الأوقات ، والظاهر من حال العاقل أنه لا يرضى بذلك فيصير ذلك سببا لاجتنابه عن المعاصي بالكلية ، فهذا هو الحكمة في تخصيص بعض الأزمنة ، وبعض الأمكنة ، بمزيد التعظيم.

قوله {ذالك الدين القيم} أي : الحساب المستقيم ، يقال : " الكيس من دان نفسه " أي : حاسبها ، وقال الحسن : " ذلك الدين القيم " الذي لا يبدل ولا يغير ، " القيم " - ههنا - بمعنى : القائم الدائم الذي لا يزول ، وهو الدين الذي فطر الناس عليه.

قوله {فلا تظلموا فيهن أنفسكم} بفعل المعصية ، وترك الطاعات ، قال ابن عباس : " المراد ، فلا تظلموا في الشهور الاثني عشر أنفسكم ، والمراد : منع الإنسان من الإقدام على الفساد في جميع العمر ".

وقال الأكثرون الضمير في قوله " فيهن " عائد على الأربعة الحرم ، وقد تقدم.

وقيل : المراد بـ " الظلم " النسيء الذي كانوا يعملونه ، فينقلون الحج من الشهر الذي أمر الله بإقامته فيه

إلى شهر آخر ، وقيل : المراد بـ " الظلم " ترك المقاتلة في هذه الأشهر.

قوله : {وقاتلوا المشركين كآفة} نصب "كافة " على الحال ، إما من الفاعل ، أو من المفعول ، وقد تقدم أن "كافة " لا يتصرف فيها بغير النصب على الحال ، وأنها لا تدخلها " أل " ؛ لأنها بمعنى قولك : قاموا جميعا ، وقاموا معان وأنها لا تثنى ، ولا تجمع ، وكذلك "كافة " الثانية ، ومعنى "كافة " أي : جميعا.

فصل معنى الآية : قاتلوهم بأجمعكم مجتمعين على قتالهم ، كما أنهم يقاتلونكم على هذه الصفة ، أي : تعاونوا وتناصروا على ذلك ؛ ولا تتخاذلوا وكونوا عباد الله مجتمعين متوافقين في مقاتلة الأعداء.

٨٦

." (١)

"ومنه " يعدو الجمزى " وهو أن يجمع رجليه معا ، ويهمز بنفسه ، هذا أصله في اللغة وقوله : " إليه " عاد الضمير على " الملجأ " أو على " المدخل " ، لأن العطف بـ " أو " ، ويجوز أن يعود على " المغارات " لتأويلها بمذكر.

ومعنى الآية : أنهم لو يجدون مخلصا منكم أو مهربا لفارقوكم.

قوله تعالى : {ومنهم من يلمزك في الصدقات} الآية.

قرأ العامة " يلمزك " بكسر الميم ، من : لمزه يلمزه ، أي.

عابه ، وأصله : الإشارة بالعين ونحوها.

قال الأزهري أصله : الدفع ، لمزته دفعته وقال الليث هو الغمز في الوجه ومنه : همزة لمزة.

أي : كثير هذين الفعلين.

وقال أبو بكر الأصم " اللمز : أن يشير إلى صاحبه بعيب جليسه.

والهمز : أن يكسر عينه على جليسه إلى صاحبه ".

وقرأ يعقوب ، وحماد بن سلمة عن ابن كثير ، والحسن ، وأبو رجاء ، ورويت عن أبي عمرو بضمها ، وهما لغتان في المضارع.

وقرأ الأعمش " يلمزك " من " المز " رباعيا.

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/٢٦١٥

وروى حماد بن سلمة " يلامزك " على المفاعلة من واحد ، ك : سافر ، وعاقب.
هذا شرح نوع آخر من طباعهم وأفعالهم ، وهو طعنهم في الرسول بسبب أخذ الصدقات ، ونزلت في ذي الخويصرة التميمي ، واسمه : حرقوص بن زهير ، أصل الخوارج.
قال أبو سعيد الخدري بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم مالا إذ جاءه ذو الخويصرة التميمي ، وقال : يا رسول الله اعدل ، فقال : " ويلك من يعدل إذا لم أعدل ؟ " فنزلت هذه الآية.
وقال الكلبي : قال رجل من المنافقين ويقال له : أبو الجواظ لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أتزعم بأن الله أمرك بأن تضع صدقات في الفقراء والسماكين ، فلم تعضها في رعاة الشاء ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا أبا لك ، فإنما كان موسى راعيا وإنما كان داود راعيا " ، فأنزل الله تعالى هذه الآية ، فلما ذهب قال عليه السلام : " احذروا هذا وأصحابه ، فإنهم منافقون ".
وروى أبو بكر الأصم في تفسيره أنه عليه السلام قال لرجل من أصحابه : " ما علمك بفلان ؟ " قال ما لي به علم إلا أنك تدينه في المجلس وتجزل له العطاء ، فقال عليه السلام : " إنه منافق أداريه عن نفاقه ، وأخاف إفساده.
" قال ابن عباس " يلمزك " : يغتابك ، وقال قتادة : يطعن عليك ، وقال الكلبي : يعيبك في أمر ما ، قال أبو علي الفارسي : هنا محذوف والتقدير : يعيبك في تفريق الصدقات فإن أعطوا كثيرا فرحوا ، وإن أعطوا قليلا فإذا هم يسخطون.
وقد تقدم الكلام
١٢٠
على " إذا " الفجائية ، والعامل فيها.
قال أبو البقاء : " يسخطون " لأنه قال : إنها ظرف مكان ، وفيه نظر تقدم نظيره.
قوله : {ولو أنهم رضوا}.
الظاهر أن جواب " لو " محذوف ، تقديره : لكان خيرا لهم.
وقيل : جوابها " وقالوا " ، والو مزيدة ، وهذا مذهب الكوفيين.
والمعنى {ولو أنهم رضوا مآ آتاهم الله ورسوله} ما نحتاج إليه {إنآ إلى الله راغبون} هاتان الجملتان كالشرح لقولهم : " حسبنا الله " ، فلذلك لم يتعاطفا ، لأنهما كالشيء الواحد ، فشده الاتصال منعت

العطف.

جزء : ١٠ رقم الصفحة : ١١٥

قوله تعالى : {إنما الصدقات للفقرآء والمساكين} الآية.

اعلم أن المنافقين لما لمزوا الرسول عليه الصلاة والسلام في الصدقات ، بين لهم أن مصرف الزكاة هؤلاء ، ولا تعلق لي بها ، ولا آخذ لنفسي نصيبا منها.

وقد ذكر العلماء في الحكمة في وجوب الزكاة أمورا : منها : قالوا : شكر النعمة عبارة عن صرفها إلى طلب مرضاة المنعم ، والزكاة شكر النعمة.

فوجب القول بوجوبها ؛ لأن شكر المنعم واجب.

ومنها : أن إيجاب الزكاة توجب حصول الألفة بالمودة ، وزوال الحقد والحسد بين المسلمين فهذه وجوه معتبرة في الحكمة الناشئة لوجوب الزكاة.

ومنها : أن الفاضل عن الحاجات الأصلية إذا أمسكه الإنسان عطله عن المقصود

١٢١

". (١)

"وقال جماعة من أهل العلم : إن المؤلفة منقطعة ، وسهمهم ساقط ، روي ذلك عن عمر وهو قول الشعبي ، وبه قال مالك ، والثوري ، وأصحاب الرأي وإسحاق بن راهويه وقال قوم : سهمهم ثابت مروي ذلك عن الحسن ، وهو قول الزهري ، وأبي جعفر محمد بن علي ، وأبي ثور ، وقال أحمد : يعطون إن احتاج المسلمون إلى ذلك.

قوله : وفي الرقاب قال الزجاج فيه محذوف ، والتقدير : " وفي فك الرقاب " وقد تقدم الكلام في تفسير " الرقاب " في قوله : {والسآئلين وفي الرقاب} [البقرة : ١٧٧].

ثم في تفسير " الرقاب " أقوال : أحدها : أنهم المكاتبون ليعتقوا من الزكاة ، وقال مالك وغيره : إنه لعتق الرقاب يشترى به عبيد فيعتقون.

وقال أبو حنيفة وأصحابه : لا يعتق من الزكاة رقبة كاملة ولكن يعطى منها في رقبة ويعان بها مكاتب ؛ لأن قوله : {وفي الرقاب} يقتضي أن يكون له فيه مدخل ، وذلك ينافي كونه تاما فيه ، وقال الزهري :

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل ـ ، ص/٢٦٣٤

سهم الرقاب نصفان ، نصف للمكاتبين المسلمين ، ونصف يشترى به رقاب ممن صلوا وصاموا.

قال بعض العلماء : والاحتياط في سهم الرقاب دفعه إلى السيد بإذن المكاتب ؛ لأنه تعالى أثبت الصدقات للأصناف الأربعة المتقدم ذكرهم بلام التمليك بقوله : {إنما الصدقات للفقرآء والمساكين} ولما ذكر " الرقاب " أبدل حرف اللام بحرف " في " فقال : " وفي الرقاب " فلا بد لهذا الفرق من فائدة ، وهي أن الأصناف الأربعة يدفع إليهم نصيبهم.

وأما الباقون فيصرف نصيبهم في المصالح المتعلقة بهم لا إليهم.

قال الزمخشري : " فإن قلت : لم عدل عن اللام إلى " في " في الأربعة الأخيرة ؟ قلت : للإيذان بأنهم أرسخ في استحقاق التصدق عليهم ممن سبق ذكره ؛ لأن " في " للوعاء ، فنبه على أنهم أحقاء بأن توضع فيهم الصدقات وجعله مظنة لها ومصبا ".

ثم قال : " وتكرير " في " في قوله : {وفي سبيل الله وابن السبيل} فيه فضل ترجيح لهذين على الرقاب والغارمين ".

قوله : والغارمين قال الزجاجث : أصل الغرم في اللغة : لزوم ما يشق ، والغرام العذاب اللازم ، وسمي العشق غراما ، لكونه شاقا على الإنسان ولازما له ، ومنه : فلان مغرم بالنساء إذا كان مولعا بهن ، وسمي الدين غراما ، لكونه شاقا ، والمراد بالغارمين المديونون ، فالدين إن حصل بسبب معصية لا يدخل في الآية ؛ لأن المقصود من صرف المال إليه الإعانة ، والمعصية لا تستوجب الإعانة ، وإن حصل لا بسبب معصية فهو قسمان : دين حصل بسبب نفقات ضرورية أو في مصلحة ، ودين بسبب حمالات وإصلاح ذات بين ، والكل داخل في الآية.

روى الأصم في تفسيره " أن النبي صلى الله عليه وسلم لما قضى بالغرة في الجنين قالت العاقلة : لا

١٢٦

نملك الغرة يا رسول الله ، فقال لحمل بن مالك بن النابغة أعنهم بغرة من صدقاتهم " وكان حمل على الصدقة يومئذ.

قوله : {في سبيل الله} قال المفسرون : يعني الغزاة ، قال أكثر العلماء : يجوز له أن يأخذ من الزكاة وإن كان غنيا.

وقال أبو حنيفة وصاحباه : لا يعطى الغازي إلا مع الحاجة.

ونقل القفال في تفسيره عن بعض العلماء أنهم أجازوا صرف الصدقات إلى جميع وجوه الخير من تكفين الموتى ، وبناء الحصون ، وعمارة المساجد ؛ لأن قوله : {وفي سبيل الله} عام في الكل وقال أكثر أهل العلم : لا يعطى منه شيء في الحج.

وقال قوم : يجوز أن يصرف سهم في سبيل الله إلى الحج ، يروى ذلك عن ابن عباس وهو قول الحسن ، وأحمد ، وإسحاق.

قوله : {وابن السبيل} وهو كل من يريد سفرا مباحا ولم يكن له ما يقطع به المسافة يعطى له قدر ما يقطع به تلك المسافة ، وإن كان ذا يسار في بلده.

وقال قتادة : ابن السبيل : هو الضعيف وقال فقهاء العراق : ابن السبيل : الحاج المنقطع.

واعلم أن مال الزكاة لا يخرج عن هذه الثمانية.

واختلفوا هل يجوز وضعه في بعض الأصناف ؟ إذا قلنا يجوز وضعه في بعض الأصناف ، فإنما يجوز في غير العامل ، فأما وضعه بالكلية في العامل فلا يجوز بالاتفاق.

فإن قيل : ما **الحكمة في** أنه تعالى ذكر الأصناف الستة وهم : الفقراء ، والمساكين ، والعاملون والمؤلفة ، والرقاب ، والغارمون ، بصيغة الجمع ، وذكر الصنفين الآخرين ، وهما : في سبيل الله وابن السبيل بصيغة الإفراد ؟ فالجواب : أن المراد بهما الجنس هو جمع حقيقة ، ولا يقال : هلا ذكر الأصناف الستة بصيغة الإفراد ويكون المراد الجنس كهذين ؛ لأنا نقول : لو أفرد في الجميع ، فلا يخلو إما أن يفردهم معرفين بالألف واللام للعهد ؛ فينصرف بين السامع إلى صرف الزكاة إلى معهود سابق معين وليس هو المقصود من الآية بالإجماع ، وإن أفردهم منكرين ، فهم منه أن الزكاة لا يجوز دفعها إلى فقير واحد ، أو مسكين واحد ، وكذلك سائرها ، ولا يجوز دفعها لاثنين فما زاد ، وهو خلاف الإجماع فصل والسبيل : الطريق ، ونسب المسافر إليها لملازمته إياها ، ومروره عليها قال بعض

١٢٧

". (١)

"حال عدم إتيان التأويل ، قال الزمخشري : " فإن قلت : ما معنى التوقع في قوله – تعالى – : {ولما يأتهم تأويله} ؟ قلت : معناه : كذبوا به على البديهة ، قبل التدبر ، ومعرفة التأويل " ، ثم قال أيضا

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/٢٦٣٨

: " ويجوز أن يكون المعنى : ولم يأتهم بعد تأويل ما فيه من الإخبار بالغيوب ، أي : عاقبته حتى يتبين لهم : أكذب هو ، أم صدق ".

انتهى.

وفي وضعه " لم " موضع " لما " نظر لما عرفت ما بينهما من الفرق ، ونفيت جملة الإحاطة بـ " لم " ، وجملة إتيان التأويل بـ " لما " ؛ لأن " لم " للنفي " المطلق على الصحيح ، و " لما " لنفي الفعل المتصل بزمن الحال ، فالمعنى : أن عدم التأويل متصل بزمن الإخبار.

فصل قيل المعنى : بل كذبوا بالقرآن {ولما يأتهم تأويله} أي : عاقبة ما وعد الله في القرآن ؛ أنه يئول إليه أمرهم من العقوبة ، يريد : أنهم لم يعلموا ما يئول إليه عاقبة أمرهم.

وقيل : كلما سمعوا شيئا من القصص ، قالوا : ليس في هذا الكتاب ، إلا أساطير الأولين ، ولم يعرفوا أن المقصود منها ، ليس هو نفس الحكاية ، بل أمور أخرى ، وهي : بيان قدرة الله - تعالى - على التصرف في هذا العالم ، ونقل أهله من العز إلى الذل ، ومن الذل إلى العز ، وذلك دليل على القدرة الكاملة ، وأيضا : تدل على أن الدنيا فانية غير باقية ؛ كما قال - تعالى - : {لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ما كان حديثا يفترى } [يوسف : ١١١] ، وأيضا فهي دلالة على العجز ؛ لكون النبي - عليه الصلاة والسلام - لم يتعلم ، ولم يتتلمذ لأحد ؛ فدل ذلك على أنه وحي من الله - تعالى - ، كما قال في الشعراء بعد ذكر القصص : {وإنه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين} [الشعراء : ١٩٢ - ١٩٤] ، وقيل : إنهم كانوا كلما سمعوا حروف التهجي في أوائل السور ، ولم يفهموها ، ساء ظنهم بالقرآن ؛ فأجاب - تعالى - بقوله : {هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات} [آل عمران : ٧] ، وقيل : إنهم لما سمعوا القرآن ينزل شيئا فشيئا ، ساء ظنهم ، وقالوا : لو أنزل عليه القرآن جملة واحدة ؛ فأجاب - تعالى - : {كذلك لنثبت به فؤادك} [الفرقان : ٣٢] ، وقيل : إن القرآن لما كان مملوءا من إثبات الحشر والنشر ، وكانوا ألفوا الحياة ، فاستبعدوا حصول الحياة بعد الموت ، فكذبوا بالقرآن ، وقيل : إن القرآن لما كان مملوءا بالصلاة ، والزكاة ، والعبادات ، قال القوم : إن إله العالمين غني عنا ، وعن طاعتنا ، وأنه - تعالى - أجل من أن يأمرنا بشيء لا فائدة فيه ، فأجاب الله عنه ، بقوله : {إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها} [الإسراء : ٧] ، وبالجملة : فشبهات الكفارة كثيرة ؛ فهم لما رأوا القرآن مشتملا على أمور عرفوا حقيقتها ، ولم يطلعوا على وجه **الحكمة فيها** ،

لا جرم كذبوا بالقرآن.

قوله : "كذلك " : نعت لمصدر محذوف ، أي : مثل ذلك التكذيب ، كذب الذين من قبلهم ، أي : قبل النظر ، والتدبر.

٣٣٥

." (١)

"كأنزل ونزل ، وجمهور القراء لم ينقلوا الخلاف إلا في هذا دون قوله : {فاليوم ننجيك ببدنك} [يونس : ٩٢] ودون قوله {ثم ننجي رسلنا} [يونس : ١٠٣].

وقد نقل أبو علي الأزهري الخلاف فيهما أيضا ، ورسم في المصاحف بجيم دون ياء.

فصل قال القاضي : قوله " حقا علينا " المرادث به الوجوب ؛ لأن تخليص الرسول - صلوات الله البر الرحيم وسلامه عليه - والمؤمنين من العذاب إلى الثواب واجب ، ولولاه ما حسن من الله تعالى أن يلزمهم الأفعال الشاقة ، وهذا يجري مجرى قضاء الدين.

والجواب ، بأن نقول : إنه حق بحسب الوعد والحكم ، ولا نقول إنه حق بحسب الاستحقاق لما ثبت أن العبد لا يستحق على خالقه شيئا.

جزء : ١٠ رقم الصفحة : ٤١٧

قوله تعالى : {قل يا أيها الناس إن كنتم في شك من ديني} الآية.

لما بالغ في ذكر الدليل أمر رسوله صلى الله عليه وسلم بإظهار دينه ، وإظهار المباينة عن المشركين ، لكي تزول الشكوك والشبهات في أمره.

فإن قيل : كيف قال " في شك " وهم كافرون يعتقدون بطلان ما جاء به ؟ .

قيل : كان فيهم شاكون ، فهم المراد بالآية ، أو أنهم لما رأوا الآيات اضطربوا ، وشكوا في أمرهم وأمر النبي - صلوات الله البر الرحيم وسلامه عليه - .

قوله : " فلا أعبد " جواب الشرط ، والفعل خبر ابتداء مضمر تقديره : فأنا لا أعبد ، ولو وقع المضارع منفيا بـ " لا " دون فاء لجزم ، ولكنه مع الفاء يرفع كما تقدم ذكره ، وكذا لو لم ينف بـ " لا " كقوله تعالى : {ومن عاد فينتقم الله منه} [المائدة : ٩٥] ، أي : فهو ينتقم.

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/٢٧٦٣

ثم قال : {ولاكن أعبد الله الذي يتوفاكم} يميتكم ، ويقبض أرواحكم.
فإن قيل : ما الحكمة في وصف المعبود ههنا بقوله : {الذي يتوفاكم} ؟ .
فالجواب : من وجوه : الأول : أن المعنى أني أعبد الله الذي خلقكم أولا ، ثم يتوفاكم ثانيا ثم يعيدكم ثالثا ، فاكتفى بذكر التوفي لكونه منبها على البواقي.
الثاني : أن الموت أشد الأشياء مهابة ، فخص هذا الوصف بالذكر ههنا ، ليكون أقوى في الزجر والردع.
الثالث : أنهم لما استعجلوا نزول العذاب قال تعالى : {فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم قل فانتظروا اا إني معكم من المنتظرين ثم ننجي رسلنا والذين آمنوا} [يونس : ١٠٢ - ١٠٣] وهذا يدل على أنه تعالى يهلك أولئك الكفار ، ويبقي المؤمنين ويقوي دولتهم ، فلما كان قريب العهد بذكر هذا الكلام لا جرم قال ههنا : {ولاكن أعبد الله الذي يتوفاكم} وهو إشارة إلى ما قرره وبينه في تلك الآية كأنه يقول : أعبد الله الذي وعدني بإهلاككم ، وإبقائي بعدكم.
قوله : {وأمرت أن أكون من المسلمين} [يونس : ٧٢] ، قال الزمخشري : أصله بأن أكون ، فحذف الجار ، وهذا الحذف يحتمل أن يكون من الحذف المطرد الذي هو حذف الحروف الجارة مع أن وأن ، وأن يكون من الحذف غير المطرد ؛ وهو كقوله : [البسيط] ٢٩٣٩ - أمرتك الخير............
....
جزء : ١٠ رقم الصفحة : ٤٢٠
{فاصدع بما تؤمر} [الحجر : ٩٤] يعني : بغير المطرد أن حذف حرف الجر مسموع في أفعال لا يجوز القياس عليها ، وهي : أمر ، واستغفر ، كما تقدم [الأعراف١٥٥] ، وأشار بقوله : " أمرتك " إلى البيت المشهور : [البسيط] ٢٩٤٠ - أمرتك الخير فافعل ما أمرت به
....
وقد قاس ذلك بعض النحويين ، ولكن يشترط أن يتعين ذلك الحرف ، ويتعين موضعه أيضا ، وهو رأي علي بن علي بن سليمان فيجيز " بريت القلم السكين " بخلاف " صككت الحجر بالخشبة ".
قوله : " وأن أقم " يجوز أن يكون على إضمار فعل أي : وأوحي إلي أن أقم ، ثم لك في " أن " وجهان أحدهما : أن تكون تفسيرية لتلك الجملة المقدرة ، كذا قاله أبو حيان ، وفيه نظر ، إذا المفسر لا يجوز

حذفه ، وقد رد هو بذلك في موضع غير هذا ، والثاني : أن تكون المصدرية ، فتكون هي وما في خبرها في محل رفع بذلك الفعل المقدر ، ويحتمل أن تكون " أن " مصدرية فقط ، وهي على هذا معمولة لقوله : أمرت مراعى فيها معنى

٤٢١

". (١)

"يريد بقوله : " اللف " أنه لف المؤمنين ، والكافرين اللذين هما مشبهان بقوله : " الفريقين " ولو فسرهما لقال : مثل الفريق المؤمن كالبصير والسميع ، ومثل الكافر كالأعمى والأصم ، وهي عبارة مشهورة في علم البيان : لفظتان متقابلتان ، اللف والنشر ، أشار لقول امرىء القيس : [الطويل] ٢٩٦٠ - كأن قلوب الطير رطبا ويابسا

لدى وكرها العناب والحشف البالي

أصل الكلام : كأن الرطب من قلوب الطير : العناب ، واليابس منها : الحشف ، فلف ونشر ، وللف والنشر في علم البيان تقسيم كثير ، ليس هذا موضعه.

وأشار بقوله : " الصابح فالغانم " إلى قوله : [السريع] ٢٩٦١ - يا ويح زيابة للحارث الص

صابح فالغانم فالآيب

جزء : ١٠ رقم الصفحة : ٤٦٣

وقد تقدم ذلك في أول البقرة.

فإن قيل : لم قدضم تشبيه الكافر على المؤمن ؟ فالجواب : لأن المتقدم ذكر الكفار ، فلذلك قدم تمثيلهم.

فإن قيل : ما **الحكمة في** العدول عن ہذا التركيب لو قيل : كالأعمى والبصير ، والأصم والسميع ، لتتقابل كل لفظة مع ضدها ، ويظهر بذلك التضاد ؟ .

فالجواب : بأنه تعالى لما ذكر انسداد العين أتبعه بانسداد الأذن ، ولما ذكر انفتاح العين أتبعه بانفتاح الأذن ، وهذا التشبيه أحد الأقسام ، وهو تشبيه أمر معقول بأمر

٤٦٤

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/٢٨١٧

محسوس ، وذلك أنه شبه عمى البصيرة وصممها بعمى البصر وصمم السمع ، ذاك متردد في ظلم الضلالات ، كما أن هذا متحير في الطرقات.

قوله : مثلا " تمييز ، وهو منقول من الفاعلية ، والأصل : هل يستوي مثلهما ، كقوله تعالى {واشتعل الرأس شيبا} [مريم : ٤] وجوز ابن عطية أن يكون حالا ، وفيه بعد صناعة ومعنى ؛ لأنه على معنى " من " لا على معنى " في ".

ثم قال : {أفلا تذكرون} منبها على أنه يمكنه علاج هذا العمى وهذا الصمم ، وإذا كان العلاج ممكنا ، وجب على العاقل أن يسعى في ذلك العلاج بقدر الإمكان.

جزء : ١٠ رقم الصفحة : ٤٦٣

قوله تعالى : {ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه إني لكم نذير مبين} الآية.

اعلم أنه جرت عادته - تعالى - في القرآن بأنه إذا أورد على الكافر الدلائل أتبعها بالقصص ليؤكد تلك الدلائل ، وقد بدأ بذكر هذه القصة ليؤكد تلك الدلائل ، وقد بدأ بذكر هذه القصة في سورة يونس ، وأعادها ههنا لما فيها من زوائد الفوائد.

قوله {إني لكم} قرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي بفتح همزة " إني " ، والباقون بكسرها.

٤٦٥

." (١)

"ثم قال : {إن هذا لشيء عجيب}.

فإن قيل : كيف تعجبت من قدرة الله - تعالى - والتعجب من قدرة الله يدل على الجهل بقدرة الله تعالى ؛ وذلك يوجب الكفر ؟ .

فالجواب : أنها إنما تعجبت بحسب العرف والعادة لا بحسب القدرة ، فإن الرجل المسلم لو أخبره رجل آخر صادق بأن الله - تعالى - يقلب هذا الجبل إبريزا ، فلا شك أنه يتعجب نظرا إلى العادة لا استنكارا للقدرة.

ثم قالت الملائكة : {قالوا اا أتعجبين من أمر الله} أي : لا تعجبي من أمر الله ، فإن الله إذا أراد شيئا كان.

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل ، ص/٢٨٤٠

قوله : {رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت} أي : بيت إبراهيم – صلوات الله وسلامه عليه – والمعنى : رحمة الله عليكم متكاثرة ، وبركاته عندكم متوالية متعاقبة ، وهي النبوة ، والمعجزات القاهرة ، فإذا خرق الله العادة في تخصيصكم بهذه الكرامات العالية الرفيعة ، فلا تعجبي من ذلك.

وقيل : هذا على معنى الدعاء من الملائكة.

وقيل : على معنى الخير والرحمة والنعمة.

و " البركات " جمع البركة وهي ثبوت الخير.

فإن قيل : ما الحكمة في إفراد الرحمة وجمع البركات ، وكذلك إفراد السلام في التشهد وجمع البركات ؟

.

فالجواب : قد تقدم في سورة البقرة عند قوله : {أولائك عليهم صلوات من ربهم ورحمة} [البقرة : ١٥٧].

وقال ابن القيم – هنا – إن السلام إما مصدر محض ، فهو شيء واحد ، فلا معنى لجمعه ، وإما اسم من أسماء الله – تعالى – فيستحيل أيضا جمعه ، وعلى التقديرين لا سبيل لجمعه.

وأما الرحمة فمصدر كما تقدم ، وأما البركة : فإنها لما كانت تتجدد شيئا بعد شيء كان لفظ الجمع أولى بها ؛ لدلالتها على المعنى المقصود بها ، ولهذا جاءت في القرآن كهذه الآية ، وكذلك السلام في التشهد ، وهو قوله : السلام عليكم أيها النبي ورحمة الله وبركاته.

وقوله : " عليكم " حكى سيبويه " عليكم " بكسر الكاف لمجاورتها الياء نقله القرطبي وفيه دليل على أن الأزواج من أهل البيت.

قوله : " أهل البيت " في نصبه وجهان : أحدهما : أنه منادى.

والثاني : أنه منصوب على المدح.

وقيل : على الاختصاص ، وبين النصبين فرق :

٥٢٨

وهو أن المنصوب على المدح لفظ والمنصوب على الاختصاص لا يكون إلا لمدح ، أو ذم ، لكن لفظه لا يتضمن بوضعه المدح ، ولا الذم ؛ كقوله : [الرجز]

٢٩٩٤ – بنا تميما يكشف الضباب

كذا قاله أبو حيان ، واستند إلى أن سيبويه جعلهما في بابين ، وفيه نظر.

ثم قال : إنه حميد مجيد ، فالحميد : المحمود ، والمجيد : فعيل ، مثال مبالغة من مجد يمجد مجدا ومجادة ، ويقال : مجد ك : شرف وأصله : الرفعة.

وقيل : من مجدت الإبل تمجد مجادة ومجدا ، أي : شبعت ؛ وأنشدوا لأبي حية النميري : [الوافر]

٢٩٩٥ - تزيد على صواحبها وليست

بماجدة الطعام ولا الشراب

[

جزء : ١٠ رقم الصفحة : ٥١٩

أي] : ليست بكثيرة الطعام ولا الشراب.

وقيل : مجد الشيء : أي : حسنت أوصافه.

وقال الليث - رحمه الله - : " أمجد فلان عطاءه ومجده أي : كثره ".

والمجيد : الماجد ، وهو ذو الشرف والكرم.

قوله : {فلما ذهب عن إبراهيم الروع} ، أي : الفزع ؛ قال الشاعر : [الطويل] ٢٩٩٦ - إذا أخذتها هزة الروع أمسكت

بمنكب مقدام على الهول أروعا

يقال : راعه يروعه ، أي : أفزعه ؛ قال عنترة : [الكامل] ٢٩٩٧ - ما راعني إلا حمولة أهلها

وسط الديار تسف حب الخمخم

وارتاع : افتعل منه ؛ قال النابغة : [البسيط] ٢٩٩٨ - فارتاع من صوت كلاب فبات له

طوع الشوامت من خوف ومن صرد

وأما الروع - بالضم - فهي النفس لأنها محل الروع.

ففرقوا بين الحال والمحل ؛ وفي الحديث : " إن روح القدس نفث في روعي ".

قوله : {وجآءته البشرى } عطف على " ذهب " ، وجواب " لما " على هذا محذوف

٥٢٩

." (١)

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل ، ص/٢٨٧٨

"المخصوص أقل من الباقي ، وأحسن منه ، كما يقال : هذه الرمانة مع أنه سقطت حبات ما أكلها ، وههنا ذات الله أعلى الموجودات ، وأشرفها ، فكيف يمكن ذكر اللفظ العام الذي يتناوله مع كون الحكم مخصوصا في حقه.

واستدلوا أيضا بقوله تعالى : {ليس كمثله شيء} [الشورى : ١١] والمعنى : ليس مثل مثله شيء ، ومعلوم أن كل حقيقة [فإنها] مثل مثل نفسها ، فالباري ـ تعالى ـ مثل مثل نفسه مع أنه ـ تعالى ـ نص على أن مثل مثله ليس بشيء ، فهذا تنصيص على أنه تعالى غير مسمى باسم الشيء.

واستدلوا أ يضا بقوله تعالى : {ولله الأسمآء الحسنى فادعوه بها} [الأعراف : ١٨٠] قالوا : دلت على أنه لا يجوز أن يدعى الله إلا بالأسماء الحسنى ، ولفظ الشيء يتناول أحد الموجودات ، فلا يكون هذا اللفظ مشعرا بمعنى حسن ؛ فوجب ألا يجو دعاء الله بهذا اللفظ.

وتمسك من جوز إطلاق هذه التسمية عليه بقوله تعالى : {قل أي شيء أكبر شهادة قل الله شهيد بيني وبينكم} [الأنعام : ١٩].

وأجاب الألولون : بأن هذا سؤال متروك الجواب ، وقوله : {قل الله شهيد بيني وبينكم} [الأنعام : ١٩] مبتدأ مستقل بنفسه لا تعلق له بما قبله.

فصل تمسك المعتزلة بهذه الآية في أنه ـ تعالى ـ عالم لذاته لا بالعلم وقادر لذاته لا بالقدرة ، وقالوا : لأنه لو حصل لله ـ تعالى ـ علم ، وقدرة وحياة لكانت هذه الصفات إما أن تحصل يخلق الله ـ تعالى ـ أو لا تحصل بخلق الله والأول باطل ، وإلا لزم التسلسل ، والثاني باطل ؛ لأن قول الله تعالى : {خالق كل شيء} [الزمر : ٦٢] يتناول الذات ، والصفات حكمنا بدخول التخصيص في ذات الله ـ تعالى ـ ؛ فوجب أن يبقى على عمومه في سائر الأشياء ، والقرآن ليس هو الله ؛ فوجب أن يكون مخلوقا لدخوله في هذا العموم.

والجواب أن يقال : أقصى ما في الباب أن الصيغة عامة ؛ لأن تخصيصها في حق صفات الله ـ تعالى ـ بالدلائل العقلية.

قوله تعالى : {أنزل من السمآء مآء} الآية لما شبه المؤمن والكافر ، والإيمان ، والكفر بالأعمى ، والبصير ، والظلمات ، والنور ، ضرب للإيمان ، والكفر مثلا آخر فقال : {أنزل من السمآء مآء} " أنزل " يعني الله : {من السمآء مآء} يعني المطر " فسالت " من ذلك الماء : {أودية بقدرها} أي : في الصغر ،

والكبر {فاحتمل السيل} الذي حدث من ذلك الماء : {زبدا رابيا} الزبد : الخبث الذي يظهر على وجه الماء وكذلك على وجه القدر " رابيا " أي : عاليا مرتفعا فوق الماء ، فالماء الصافي الباقي هو الحق ، والذاهب الزائل الذي يتعلق بالأشجار ، وجوانب الأودية هو الباطل.

٢٨٦

وقيل : هذا مثل القرآن : {أنزل من السمآء مآء} وهو القرآن ، والأودية : قلوب العباد ، يريد : ينزل القرآن ، فيحتمل منه القلوب على قدر اليقين ، والعقل والشك وكما أن الماء يعلوه زيد ، والأجساد يخالطها خبث ، ثم إن ذلك الزبد ، والخبث يذهب ، ويضيع ، ويبقى جوهر الماء ، وجوهر الأجساد السبعة ، كذلك ههنا بيانات القرآن يختلط بها شكوك وشهبات ، ثم إنها تزول بالآخرة وتضيع ويبقى العلم والدين **والحكمة في** العاقبة كذلك ههنا ؟ قوله : " أودية " جمع واد ، وجمع فال على أفعلة ، قال أبو البقاء : " شاذ ، ولم نسمعه في غير هذا الحرف.

ووجهه : أن فاعلا قد جاء بمعنى فعيل ، وكما جاء فعيل وأفعلة كجريب وأجربة كذلك فاعل ".

قال شهاب الدين : " قد سمع فاعلة ، وأفعلة في حرفين آخرين : أحدهما : قولهم جائر وأجورة.

والثاني : نادج وأنجية ".

وقال الفارسي : " أودية : جع واد ولا نعلم فاعلا جمع على أفعلة ، قال : " ويشبه أن يكون ذلك لتعاقب فاعل ، وفعيل على الشيء الواحد ، كعالم وعليم ، وشاهد وشهيد ، وناصر ونصير ، ووزن فاعل يجمع على أفعال كصاحب وأصحاب ، وطائر وأطيار ، [ووزن] فعيل يجمع على أفعلة كجريب ، وأجربة ، ثم لما حصلت المناسبة المذكورة بين فاعل ، وفعيل لا جرم يجمع الفاعل جمع العفيل ، فيقال : واد وأودية ، ويجمع الفعيل على جمع الفاعل فيقال : يتيم وأيتام ، وشريف وأشراف ".

وقال غيره : ن ظير واد ، وأودية : ناد ، وأندية للمجالس وسمي واديا : لخروجه وسيلانه ، والوادي على هذا اسم للماء السائل.

وقال أبو علي : " سالت أودية " فيه توسع ، أي : يسال ماؤها فحذف ، ومعنى " بقدرها " أي : بقدر مياهها ؛ لأن الأودية ما سالت بقدر نفسها ".

قوله : " بقدرها " فيه وجهان : أحدهما : أنه متعلق بـ : سالت ".

والثاني : أنه متعلق بمحذوف ؛ لأنه صفة للأودية.

وقرأ العامة بفتح الدال ، وزيد بن علي ، والأشهب العقيلي ، وأبو عمرو في رواية بسكونها ، وقد تقدم في البقرة.

قال الواحدي رحمه الله : القدر والقدر : مبلغ الشيء ، يقال : كم قدر هذه الدراهم

٢٨٧

." (١)

"أحوال الأشقياء ، وأحوال السعداء ذكر مثالا للقسمين وف " ضرب " أوجه : أحدها : أنه متعد لواحد بمعنى اعتمد مثلا ووضعه ، و "كلمة " على منصوبة بمضمر ، أي : جعل كلمة طيبة كشجرة طيبة ، وهو تفسير لقوله : " ضرب الله مثلا " كقولك : شرف الأمير زيدا كساه حلة ، وحلمه على ضربين ، وبه بدأ الزمخشري.

قال أبو حيان ـ رحمه الله ـ : " وفيهن تكلف إضمار ، ولا ضرورة تدعو إليه ".

قال شهاب الدين : " بل معناه محتاج إليه فيضطر إلى تقديره محافظة على لمح هذا المعنى الخاص ".

الثاني : أن " ضرب " متعدية لاثنين ؛ لأنها بمعنى " صير " لكن مع لفظ المثل خاصة ، وقد تقدم تقرير هذا أول الكتاب ، فيكون "كلمة " مفعولا أولا ، و " مثلا " هوالثاني مقدم.

الثالث : أنه متعد لواحد ، وهو " مثلا " ، و "كلمة " بدل منه ، و "كشجرة " خبر مبتدأ مضمر ، أي : هي كشجرة طيبة وعلى الوجهين قبله يكون "كشجرة " نعتا لـ : "كلمة ".

وقرىء "كلمة " بالرفع ، وفيه وجهان : أحدهما : أنه خبر مبتدأ مضمر ، أي : هو ، أي : المثل كلمة طيبة ، ويكون "كشجرة " على هذا نعتا لـ "كلمة ".

والثاني : أنها مرفوعة بالابتداء ، و "كشجرة " خبر.

وقرأ أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ " ثابت أصلهتا ".

قال الزمخشري : فإن قلت : أي فربق بين القراءتين ؟ قلت : قراءة الجماعة أقوى معنى ؛ لأن قراءة أنس أجرت الصفة على الشجرة ، ولو قلت : مررت برجل أبوه قائم ، فهو أقوى من " رجل قائم أبوه " ؛ لأن المخبر عنه إنما هو الأب ، لا " رجل ".

والجملة من قوله : " أصلها ثابت " في محل جر نعتا لـ " شجرة ".

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل ـ ، ص/٣٠٧٠

وكذلك " تؤتي أكلها " ويجوز فيهما أن يكونا مستأنفين ، وجواز أبو البقاء في " توتي " أن يكون حالا من معنى الجملة التي قبلها ، أي : ترتفع مؤتية أكلها ، وتقدم الخلاف في " أكلها ".

فصل المعنى : ألم تعلم ، والمثل : قول سائر كتشبيه شيء بشيء : "كلمة طيبة " هي قول : لا إله إلا الله "كشجرة طيبة " وهي النخلة يريد : كشجرة طيبة الثمر.

٣٧٩

وقال أبو ظيبان عن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ : هي شجرة في الجنة أصلها ثابت في الأرض ، وفرعها أعلاها في السماء ، كذلك أصل هذه الكلمة راسخ في قلب المؤمن بالمعرفة ، والتصديق ، فإذا تكلم بها عرجت ، فلا تحجب حتى تنتهي إلى الله ـ عز وجل ـ قال تعالى : {إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه} [فاطر : ١٠].

ووصف الشجرة بكونها طيبة وذلك يشمل طيب الصورة والشكل والمنظر ، والطعم ، والرائحة والمنفعة ويكون أصلها ثابت ، اي : راسخ آمن من الانقطاع ، والزوال ويكون فرعها في السماء ؛ لأن ارتفاع الأغصان يدل على ثبات الأصل ، وأنها متى ارتفعت كانت عبدية عن عفونات الأرض ، فكانت ثمارها نقية طاهرة عن جميع الشوائب ، ووصفها أيضا بأنها : " تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها " والحين في اللغة هو الوقت ، والمراد أن ثمار هذه الشجرة تكون أبدا حاضرة دائمة في كل الأوقات ولا تكون مثل الأشجار التي تكون ثمارها حضارة في بعض الأوقات دون بعض.

وقال مجاهد وعكرمة : والحين : سنة كاملة ؛ لأن النخلة تثمر كل سنة.

وقال سعيد بن جبير ، وقتادة والحسن : ستة أشهر من وقت إطلاعها إلى حين صرامها وروي ذلك عن ابن عباس ـ رضي الله عنه.

وقيل : أربعة أشهر من حين ظهورها إلى إدراكها.

وقال سعيد بن المسيب : شهران من حين أن يؤكل منها إلى الصرام.

وقال الربيع بن أنس ـ رضي الله عنه ـ : كل حين ، أي : كل غدوة ، وعشية ، لأن ثمرة النخل تؤكل أبدا ليلا ونهارا صيفا وشتاء إما تمرا رطبا أو بسرا ، كذلك عمل المؤمن يصعد أول النهار وآخره ، وبركة إيمانه لا تنطقع أبدا ، بل تتصل في كل وقت.

والحكمة في تمثيل الإيمان بالشجرة ، وهي أن الشجرة لا تكون إلا ثلاثة أشياء :

عرق راسخ ، وأصل قائم ، وفرع عال ، كذلك الإيمان لا يتم إلا بثلاثة أشياء : تصديق بالقلب وقول باللسان ، وعمل بالأبدان.
ثم قال تعالى . جل ذكره . {ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون} والمعنى : أن في ضرب الأمثال زيادة إفهام ، وتذكير وتصوير للمعاني.
وقوله : {ومثل كلمة خبيثة} قرىء بنصب " مثل " عطفا على : " مثل " الأول.
و " اجتثت " " صفة لـ " شجرة " ، ومعنى : " اجتثت " قلعت جثتها ، أي : شخصها والجثة شخص الإنسان قاعدا أو قائما ويقال : اجتث الشيء أي اقتلعه ، فهو افتعال من لفظ الجثة ، وجثثت الشيء : قلعته.
قال لقيط الإيادي : [البسيط] ٣٢١٧. هذا الجلاء الذي يجتث أصلكم
فمن رأى مثل ذا يوما ومن سمعا
جزء : ١١ رقم الصفحة : ٣٧٨
." (١)

"ولذلك قضى النبي صلى الله عليه وسلم بأن اللبن محرم حين أنكرته عائشة – رضي الله عنها – في حديث : " أفلح أخي أبي القعيس فللمرأة السقي وللرجل اللقاح ".
أحدها : أنه متعلق بالسقي على أنها لابتداء الاية ، فإن جعلنا ما قبلها كذلك ، تعين أن يكون مجرورها بدلا من مجرور " من " الأولى ، لئلا يتعلق عاملان متحدان لفظا ومعنى [بمعمول] واحد ، وهو ممتنع إلا في بدل الاشتمال ؛ لأن المكان مشتمل على ما حل فيه ، وإن جعلتها للتبعيض هان الأمر.
الثاني : أنها في محل نصب على الحال من " لبنا " ، إذ لو تأخرت ، لكانت مع مجرورها نعتا.
قال الزمخشري : " وإنما قدم ؛ لأنه موضع العبرة ، فهو قمن بالتقدم ".
الثالث : أنها مع مجرورها حال من الضمير الموصول قبلها.
والفرث : فضالة ما يبقى من العلف في الكرش ، وكثيف ما يبقى من الأكل في الأمعاء ، ويقال : فرث كبده ، أي : فتتها ، وأفرث فلان فلانا ؛ أوقعه في بلية يجرى مجرى الفرث.

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/٣١١٦

روى الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس – رضي الله عنهما – أنه قال : " إذا استقر العلف في الكرش ، صار أسفله فرثا ، وأعلاه دما ، وأوسطه لبنا ، فيجري الدم في العروق واللبن في الضرع ، ويبقى الفرث كما هو ".

قوله : " لبنا " هو المفعول الثاني للسقي.

وقرئ : " سيغا " بتشديد الياء ، بزنة " سيد " وتصريفه كتصريفه.

وخفف عيسى بن عمر ، نحو " ميت " ، و " هين " ، ولا يجوز أن يكون فعلا ، إذ كان يجب أن يكون سوغا كقول.

ومعنى : " سائغا للشاربين " ، أي هنيئا يجري بسهولة في الحلق ، وقيل : إنه لم [يشرق] أحد باللبن قط.

فصل قال ابن الخطيب : اللبن والدم لا يتولدان ألبتة في الكرش ، والدليل عليه الحس ، فإن هذه الحيوانات تذبح ذبحا متواليا ، وما رأى أحد في كرشها لا دما ، ولا لبنا ، ولو كان تولد الدم ، واللبن في الكرش ؛ لوجب أن يشاهد ذلك في بعض الأحوال ، والشيء الذي دلت المشاهدة على فساده ؛ لم يجز المصير إليه ، بل الحق أن الحيوان إذا

١٠٣

تناول الغذاء ، ووصل ذلك العلف إلى معدته إن ك ان إنسانا ، وإلى كرشه إن كان من الأنعام وغيرها ، فإذا طبخ ، وحصل الهضم الأول فيه ، فما كان منه صافيا انجذب إلى الكبد ، وما كان كثيفا ، نزل إلى الأمعاء ، ثم ذلك الذي يحصل منه في الكبد ينطبخ فيها ، ويصير دما ، وذلك هو الهضم الثاني ، ويكون ذلك الدم مخلوطا بالصفراء ، والسوداء ، وزيادة المادة المائية ، أما الصفراء ، فتذهب إلى المرارة ، والسوداء إلى الطحال ، و الماء إلى الكلية ، ومنها إلى المثانة ، وأما ذلك الدم فإنه يدخل في الأوردة ، وهي العروق النابتة من الكبد ، وهناك يحصل الهضم الثالث ، وبين الكبد ، وبين الضرع عروق كثيرة ، فينصب الدم من تلك العروق إلى الضرع والضرع لحم غددي رخو أبيض ، فيقلب الله – تعالى – الدم عند إصبابه إلى ذلك اللحم الغددي الرخو الأبيض ، من صورة الدم إلى صورة اللبن فهذا هو القول الصحيح في كيفية تولد اللبن.

فإن قيل : هذه المعاني حاصلة في الحيوان الذكر ، فلم لم يحصل منه اللبن ؟ قلنا : الحكمة الإلهية قد اقتضت تدبير كل شيء على الوجه اللائق به الموافق لمصلحته ، فمزاج الذكر من كل حيوان يجب أن يكون حارا يابسا ، ومزاج الأنثى يجب أن يكون باردا رطبا ، **والحكمة فيه** أن الولد إنما يتكون في داخل بدن

الأنثى ؛ فوجب أن يكون بدن الأنثى مختصا بمزيد الرطوبات لوجهين : الأول : أن الولد إنما يتولد من الرطوبات ، فوجب أن يحصل في بدن الأنثى رطوبات كثيرة لتصير مادة لتولد الولد.

والثاني : أن الولد إذا كبر ، وجب أن يكون بدن الأم قابلا للتمدد ؛ حتى يتسع لذلك الولد ، فإذا كانت الرطوبات غالبة على بدن الأم ، كان بدنها قابلا للتمدد ؛ فيتسع للولد ، فثبت بما ذكرنا أنه – تعالى – خص بدن الأنثى من كل حيوان بمزيد الرطجوبات لهذه الحكمة ، ثم إن تلك الرطوبات التي كانت تصير مادة لازدياد بدن الجنين حين كان في رحم الأم ، فعند انفصال الجنين ، تنصب إلى الثدي ، والضرع ، ليصير مادة لغذاء ذلك الطفل الصغير ، فظهر أن السبب الذي لأجله يتولد اللبن من الدم في حق الأنثى غير حاصل في حق الذكر ، فظهر الفرق.

وقد تقدم ما نقل عن ابن عباس – رضي الله عنه – في أن الفرث يكون في أسفل الكرش ، والدم يكون في أعلاه ، و اللبن يكون في الوسط ، وبينا أن هذا القول على خلاف الحس والتجربة.

واعلم أن حدوث اللبن في الثدي ، واتصافه بالصفات الموافقة لتغذية الطفل مشتمل على حكم عجيبة ، يشهد صريح العقل بأنها لا تحصل إلا بتدبير الفاعل الحكيم والمدبر الرحيم ، وبيانه من وجوه : الأول : أنه – تعالى – خلق في أسفل المعدة منفذا يخرج منه ثقل الغذاء فإذا تناول

١٠٤

." (١)

"الإنسان غذاء ، أو شربة رقيقة ؛ انطبق ذلك المنفذ انطباقا كليا ، لا يخرج منه شيء من ذلك المأكول ، والمشروب إلى أن يكمل انهضامه في المعدة ، وينجذب ما صفا منه إلى الكبد ، ويبقى الثقل هناك ، فحينئذ ينفتح ذلك المنفذ ، وينزل منه ذلك الثقل ، وهذا من العجائب التي لا يمكن حصولها إلا بتدبير الفاعل الحكيم ؛ لأنه متى كانت الحاجة إلى خروج ذلك الجسم من المعدة انفتح فحصل الانطباق تارة ، و الانفتاح أخرى ، بحسب الحاجة ، وتقدير المنفعة مما لا يتأتى إلا بتدبير الفاعل الحكيم.

الثاني : أنه – تعالى – أودع في الكبدة قوة ، تجذب الأجزاء اللطيفة الحاصلة في ذلك المأكول ، والمشروب ، ولا تجذب الأجزاء الكثيفة ، وخلق في الأمعاء قوة تجذب تلك الأجزاء الكثيفة التي هي الثقل ، ولا تجذب الأشياء اللطيفة ألبتة ، ولو كان الأمر بالعكس ، لاختلفت مصلحة البدن ، ولفسد نظام هذا

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/٣٢٢٦

التركيب.

الثالث : أنه - سبحانه وتعالى – أودع في الكبد قوة هاضمة طابخة ، حتى إن تلك الأجزاء اللطيفة ؛ تنطبخ في الكبد ، وتنقلب دما ، ثم إنه – تعالى – أودع في المرارة قوة جاذبة للصفراء ، وفي الطحال قوة جاذبة للسوداء ، وفي الكلية قوة جاذبة لزيادة المائية ، حتى يبقى الدم الصافي الموافق لتغذية البدن ، وتخصيص كل واحد من هذه الأعضاء بتلك القوة الحاصلة ، لا يمكن إلا بتدبير الحكيم العليم.

الرابع : أن في الوقت الذي يكون الجنين في رحم الأم ينصب من ذلك الدم نصيب وافر إليه حتى يصير مادة تنمي أعضاء ذلك الولد ، وازدياده ، فإذا انفصل ذلك الجنين عن الرحم ينصب ذلك النصيب إلى جانب الثدي ليتولد منه اللبن الذي يكون غذاء له ، فإذا كبر ذلك الولد لم ينصب ذلك النصيب لا إلى الرحم ، ولا إلى الثدي ، بل ينصب على مجموع بدن المتغذي ، فانصباب ذلك الدم في كل وقت إلى عضو آخر انصبابا موافقا للمصلحة ، والحكمة لا يتأتى إلا بتدبير الفاعل المختار الحكيم.

الخامس : أن عند تولد اللبن في الضرع أحدث – تعالى – في حلمة الثدي ثقوبا صغيرة ومساما ضيقة ، ولما كانت هذه المسام ضيقة جدا ، فحينئذ لا يخرج منها إلا ما كان في غاية الصفاء ، واللطافة ، وأما الأجزاء الكثيفة فإنه لا يمكنها الخروج من تلك المنافذ الضيقة فتبقى في الداخل ، والحكمة في إحداث تلك الثقوب الصغيرة والمنافذ الضيقة في رأس الحلمة ؛ لكي تكون كالمصفاة ، فكل ما كان لطيفا خرج ، وما كان كثيفا ؛ احتبس في الداخل ، فبهذا الطريق يصير ذلك اللبن خالصا موافقا لبدن الصبي " سائغا للشاربين ".

السادس : أنه – تعلى – ألهم ذلك الصبي إلى المص ؛ فإن الأم إذا ألقت حلمة الثدي في فم الصبي ، فذلك الصبي في الحال يأخذ في المص ، ولولا أن الفاعل المختار الرحيم قد ألهم ذلك الطفل الصغير ذلك العمل المخصوص ، وإلا لم يحصل تخليق ذلك اللبن في الثدي.

١٠٥

". (١)

"وقيل : استسلم المشركون يومئذ إلى الله تعالى وإنفاذ الحكمة فيهم ولم تغن عنهم آلهتهم شيئا ، {وضل عنهم ما كانوا يفترون} : زال عنهم ما كانوا يفترون من أنها تشفع لهم عند الله ، وقيل : ذهب ما

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/٣٢٢٧

زين لهم الشيطان من أن لله صاحبة وشريكا.

وقوله : {الذين كفروا} يجوز أن يكون مبتدأ ، والخبر " زدناهم " وهو واضح ، وجوز ابن عطية أن يكون " الذين كفروا " بدلا من فاعل " يفترون " ، ويكون " زدناهم " مستأنفا.

ويجوز أن يكون " الذين كفروا " نصبا على الذم أو رفعا عليه ، فيضمر الناصب والمبتدأ وجوبا.

فصل لما ذكر وعيد الذين كفروا ، أتبعه بـ " وعيد " من ضم إلى كفره صد الغير عن سبيل الله ، وهو منعهم عن طريق الحق.

وقيل : صدهم عن المسجد الحرام ، {زدناهم عذابا فوق العذاب} ؛ لأنهم زادوا على كفرهم صد الغير عن الإيمان.

قال - عليه الصلاة والسلام - : " من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها ".

" قال ابن عباس - رضي الله عنه - [ومقاتل] : " المراد بتلك الزيادة خمسة أنهار من صفر مذاب ؛ تسيل من تحت العرش ، يعذبون بها ثلاثة بالليل واثنان بالنهار ".

وقال سعيد بن جبير : زدناهم عذابا بحيات كالبخت ، وعقارب كالبغال تلسعهم ، وقيل : يخرجون من حر النار إلى زمهرير.

وقيل : يضعف لهم العذاب بما كانوا يفسدون ، أي : بذلك الصد.

جزء : ١٢ رقم الصفحة : ١٣٦

قوله تعالى : {ويوم نبعث في كل أمة شهيدا عليهم من أنفسهم} الآية.

١٣٩

وهذا نوع آخر من التهديد ، والأمة عبارة عن القرن والجماعة ، والمراد أن كل نبي شاهد على أمته ؛ لأن الأنبياء كانت تبعث إلى الأمم من أنفسهم لا من غيرهم.

وقيل : المراد أن كل جمع وقرن يحصل في الدنيا ، فلا بد وأن يحصل فيهم واحدا يكون شهيدا عليهم ، أما الشهيد على الذين كانوا في عصر الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - فهو الرسول ؛ لقوله - تعالى - : {ويكون الرسول عليكم شهيدا} [البقرة : ١٤٣] وقوله : {وجئنا بك شهيدا على هاؤلآء}.

وقال الأصم : المراد بالشهيد هو أنه - تعالى - ينطق عشرة من أعضاء الإنسان تشهد عليه ، وهي : الأذنان ، والعينان ، والرجلان ، واليدان ، والجلد واللسان.

قال : والدليل عليه أنه قال في صفة الشهيد أنه من أنفسهم ، وهذه الأعضاء لا شك أنها من أنفسهم.

وأجاب القاضي عنه : بأنه – تعالى – قال : {شهيدا عليهم} ، أي : على الأمة ، فيجب أن يكون غيرهم ، وأيضا قال : " من كل أمة " فيجب أن يكون ذلك الشهيد من الأمة ، وآحاد الأعضاء لا يصح وصفها أنها من الأمة ، وأما حمل الشهداء على الأنبياء – صلوات الله وسلامه عليهم – فبعيد ؛ لأن كونهم مبعوثين إلى الخلق أمر معلوم بالضرورة ، فلا فائدة في حمل هذه الآية عليه.

قوله : {ونزلنا عليك الكتاب تبيانا} يجوز أن يكون " تبيانا " في موضع الحال ، ويجوز أن يكون مفعولا من أجله ، وهو مصدر ولم يجئ من المصادر على هذه الزنة إلا لفظتان : هذا والتلقاء ، وفي الأسماء كثيرا ، نحو " التمساح والتمثال " وأما المصادر فقياسها فتح الأول ؛ دلالة على التكثير ك " التطواف " و " التجوال ".

وقال ابن عطية : إن " التبيان " اسم وليس بمصدر والنحويون على خلافه.

قال شهاب الدين – رحمه الله – : وقد روى الواحدي بإسناده ، عن الزجاج أنه قال : " التبيان " اسم في ممعنى البيان.

وجه تعلق هذا الكلام بما قبله : أنه – تعالى – قال : {وجئنا بك شهيدا على هاؤلآء} أي : أنه أزاح علتهم فميا كلفوا ، فلا حجة لهم ولا معذرة.

وقال نفاة القياس : دلت هذه الآية على أن القرآن تبيان لكل شيء ، والعلوم إما دينية ، أو غير دينية ، فالتي ليست دينية ، لا تعلق لها بهذه الآية ؛ لأنا نعلم بالضرورة أنه تعالى إنما مدح القرآن بكونه مشتملا على علوم الدين ، وأما غير ذلك ، فلا التفات إليه ، وأما علوم الدين : فإما الأصول ، وإما الفروع.

١٤٠

". (١)

"ذكره – : {والذين إذآ أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما} [الفرقان : ٦٧] وقال – جل ذكره – : {ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط} [الإسراء : ٢٩] ، وقال صلى الله عليه وسلم : " خير الأمور أوسطها ".

ورابعها : أن شريعتنا أمرت بالختان ، **والحكمة فيه** : أن رأس الذكر جسم شديد الإحساس ، فلو بقيت

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/٣٢٤٥

القلفة ، لبقي العضو على كمال قوته ، فيعظم الالتذاذ ، أما إذا قطعت الجلدة ، بقي العضو عاريا ، فيلقى الثياب وسائر الأجسام ، فيتصلب فيضعف حسه ويقل شعوره ، فيقل الالتذاذ بالوقاع ، فتقل الرغبة فيه ، فأمرت الشريعة بالختان ؛ سعيا في تقليل تلك اللذة ، حتى يصير ميل الإنسان إلى الوقاع معتدلا ، وألا تصير الرغبة فيه داعية غالبة على الطبع.

فالذي ذهب إليه المانوية من الإخصاء وقطع الآلات مذموم ؛ لأنه إفراط ، وإبقاء تلك الجلدة مبالغة في تقوية تلك اللذة ، والعدل الوسط هو الختان.

واعلم أن الزيادة على العدل قد تكون إحسانا ، وقد تكون إساءة ؛ فالعدل في الطاعات هو أداء الواجبات ، والزيادة على الواجبات طاعات ، فهي من جملة الإحسان ؛ ولهذا قال – صلوات الله وسلامه عليه – لجبريل – صلوات الله وسلامه عليه – حين سأله عن الإحسان : " أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك ".

وسمي هذا المعنى بالإحسان ؛ لأنه بالمبالغة في الطاعة ، كأنه يحسن إلى نفسه بإيصال الخير والفعل الحسن ، ويدخل في الإحسان التعظيم لأمر الله ، والشفقة على خلق الله ، ويدخل في الشفقة على خلق الله أقسام كثيرة ، وأعظمها : صلة الرحم ؛ فلهذا أفرده – تعالى – بالذكر ، فقال – تعالى – : {وإيتآء ذي القربى } وأما الثلاثة التي نهى الله عنها ؛ وهي : " الفحشاء والمنكر والبغي " فنقول : إنه – تعالى – أودع في النفس البشرية قوى اربعة ؛ وهي : الشهوانية البهيمية ، والغضبية والسبعية ، والوهمية الشيطانية ، والعقلية الملكية.

فالعقلية الملكية لا يحتاج الإنسان إلى تهذيبها ؛ لأنه من جوهر الملائكة.

وأما القوة الشهوانية فرغبتها في تحصيل اللذات الشهوانية ، وهذا النوع مخصوص بالفحشاء ، ألا ترى أنه – تعالى – سمى الزنا فاحشة ؛ فقال – جل ذكره – : {إنه كان فاحشة} [الإسراء : ٣٢] ، وقوله – تعالى – : {وينهى عن الفحشاء} المراد منه : المنع من تحصيل اللذات الشهوانية.

وأما القوة الغضبية السبعية : فهي أبدا تسعى في إيصال الشرور والأذى إلى سائر الناس ، وهذا مما ينكره الناس ، فالمنكر عبارة عن الإفراط الحاصل من آثار القوة الغضبية.

وأما القوة الوهمية الشيطانية : فهي أبدا تسعى في الاستعلاء على الناس ، والترفع

١٤٥

." (١)

"وقال : الدليل على أن الإيمان حصل بخلق الله تعالى : أنا نشكر على الإيمان ، ولو لم يكن الإيمان حاصلا بإيجاده ، لامتنع أن نشكره عليه ؛ لأن مدح الإنسان وشكره على ما ليس من عمله قبيح. قال الله – تعالى – : {ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا} [آل عمران : ١٨٨].

فعجز الحاضرون على الجواب ، فدخل ثمامة بن الأشرس ، وقال : إنا نمدح الله – تعالى – ونشكره على ما أعطانا من القدرة ، والعقل ، وإنزال الكتب ، وإيضاح الدلائل ، والله – تعالى – يشكرنا على فعل الإيمان ، قال الله – تعالى – : {فأولئك كان سعيهم مشكورا} قالوا : فضحك جعفر بن حرب وقال : صعبت المسألة ، فسهلت.

واعلم أن قولنا : مجموع القدرة مع الداعي يوجب الفعل كلام واضح ؛ لنه " تعالى " هو الذي أعطى الموجب التام لحصول الإيمان ، فكان هو المستحق للشكر ، ولما حصل الإيمان للعبد ، وكان الإيمان موجبا للسعادة التامة ، صار العبد أيضا مشكورا ، ولا منافاة بين الأمرين.

فصل اعلم أن كل من أتى بفعل ، فإما أن يقصد به تحصيل خيرات الدنيا ، أو تحصيل الآخرة ، أو يقصد به مجموعهما ، أو لم يقصد به واحد منهما.

فإن قصد به تحصيل خيرات الدنيا فقط ، أو تحصيل الآخرة فقط ، فالله – تعالى – ذكر حكم هذين القسمين في هذه الآية ، وأما القسم الثالث فينقسم ثلاثة أقسام : إما أن يكون طلب الآخرة راجحا أو مرجوحا ، أو يكون الطلبان متعادلين.

فإن كان طلب الآخرة راجحا ، فهل يكون هذا العمل مقبولا عند الله تعالى بحيث يحتمل أن يقال : إنه غير مقبول ؛ لقول النبي صلى الله عليه وسلم حاكيا عن الله – تعالى – أنه قال : " أنا أغنى الأغنياء عن الشرك من عمل عملا أشرك فيه غيري تركته وشريكه .

" وأيضا : طلب رضوان الله – تعالى – إما أن يكون سببا مستقلا بكونه باعثا على ذلك الفعل ، وداعيا إليه ، وإما ألا يكون.

فإن كان الأول امتنع أن يكون لغيره مدخل في ذلك البعث والدعاء ؛ لأن الحكم إذا أسند إلى سبب

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/٣٢٤٨

كامل تام ، امتنع أن يكون لغيره مدخل فيه ، وإن كان الثاني ، فيكون الداعي إلى ذلك الفعل هو المجموع ، وذلك المجموع ليس هو طلب الرضوان من الله – تعالى – ؛ لأن المجموع الحاصل من الشيء ومن غيره يجب أن يكون مغايرا لطلب رضوان الله ؛ فوجب ألا يكون مقبولا ، ويحتمل أن يقال : لما كان

٢٤٤

طلب الآخرة راجحا على طلب الدنيا تعارض المثل بالمثل ، فيبقى القدر الزائد داعية خالصة لطلب الآخرة ؛ فوجب كونه مقبولا.

وأما إذا كان طلب الدنيا وطلب الآخرة متعادلين ، أو كان طلب الدنيا راجحا ، فقد اتفقوا على أنه غير مقبول ، إلا أنه على كل حال خير مما إذا كان طلب الدنيا خاليا بالكلية عن طلب الآخرة.

وأما القسم الرابع ، وهو الإقدام على الفعل من غير داع ، فهو مبني على أن صدور الفعل من القادر ، هل يتوقف على حصول الداعي أم لا ؟ .

فـالذين يقولون : إنه متوقف على حصول الداعي ، قالوا : هذا القسم ممتنع الحصول ، والذين قالوا : إنه لا يتوقف ، قالوا : هذا الفعل لا أثر له في الباطن ، وهو محرم في الظاهر ؛ لأنه عبث.

فصل في معنى الآية معنى الآية أنه تعالى يمد الفريقين بالأموال ، ويوسع عليهما في الرزق ، والعز والزينة في الدنيا ؛ لأن عطاءه ليس بضيق على أحد مؤمنا كان أو كافرا ؛ لأن الكل مخلوق في دار العمل ؛ فوجب إزاحة العذر وإزالة العلة عن الكل.

والتنوين في " كلا " عوض من المضاف إليه ، أي كل واحد من الفريقين.

جزء : ١٢ رقم الصفحة : ٢٤١

" كيف " نصب : إما على التشبيه بالظرف ، وإما على الحال ، وهي معلقة لـ " انظر " بمعنى فكر ، أو بمعنى أبصر.

والمعنى : أنا أوصلنا إلى مؤمن ، وقبضنا عن مؤمن آخر ، وأوصلنا إلى كافر ، وقبضنا عن كافر آخر ، وقد بين – تعالى – وجه الحكمة في هذا التفاوت ، فقال جل ذكره : {نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات} [الزخرف : ٣٢].

وقال تعالى في آخر سورة الأنعام : {ورفع بعضكم فوق بعض درجات} [الأنعام : ١٦٥] الآية.

ثم قال تعالى : {وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا} أي : من درجات الدنيا ، ومن تفضيل الدنيا ، و

المعنى : أن الآخرة أعظم وأشرف من الدنيا.
أي : أن المؤمنين يدخلون الجنة ، والكافرين يدخلون النار ، فتظهر فضيلة المؤمنين على الكافرين ، ونظيره قوله – تعالى – : {أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا} [الفرقان : ٢٤].
جزء : ١٢ رقم الصفحة : ٢٤٤
لما بين تعالى أن الناس فريقان ؛ منهم : من يريد بعمله الدنيا فقط ، وهم أهل
٢٤٥
." (١)

"قيل : هذا على طريق التهديد ؛ كقوله : {اعملوا ما شئتم} [فصلت : ٤٠] وكقول القائل : اعمل ما شئت ؛ فسترى.
ولما قال تعالى له : افعل ما تقدر عليه ، قال سبحانه : {إن عبادي ليس لك عليهم سلطان}.
قال الجبائي – رحمه الله تعالى – : المراد كل عباد الله تعالى من المكلفين ؛ [لأن الله] تعالى استثنى منه في آيات كثيرة من تبعه بقوله : {إلا من اتبعك} [الحجر : ٤٢] ثم استدل بهذا على أنه لا سبيل لإبليس وجنوده على تصريع الناس ، وتخبيط عقولهم ، وأنه لا قدرة له إلا على الوسوسة ، وأكد ذلك بقوله : {وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا اا أنفسكم} [إبراهيم : ٢٢].
وأيضا : لو قدر على هذه الأفعال ، لكان يجب أن يخبط أهل الفضل والعلم ، دون سائر الناس ؛ ليكون ضرره أتم ، ثم قال : وإنما يزول عقله ؛ لأن الشيطان يقدم عليه ، فيغلب الخوف عليه ، فيحدث ذلك المرض.
وقيل : المراد بقوله تعالى : {إن عبادي} أهل الفضل والإيمان ؛ لما تقدم من أن لفظة العباد في القرآن مخصوصة بالمؤمنين ؛ لقوله تعالى : {إنما سلطانه على الذين يتولونه} [النحل : ١٠٠].
ثم قال : {وكفى بربك وكيلا} أي : حافظا ، ومن توكل الأمور إليه ، وذلك أنه تعالى ، لما وكل إبليس بأن يأتي بأقصى ما يقدر عليه من الوسوسة ، وكان ذلك سببا لحصول الخوف الشديد في قلب الإنسان ، قال : {وكفى بربك وكيلا} ، أي أن الشيطان ، وإن كان قادرا ؛ فإن الله تعالى أقدر منه ، وأرحم بعباده

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/٣٣٠٣

، فهو يدفع عنهم كيد الشيطان.
وهذه الآية تدل على أن المعصوم من عصمه الله تعالى ، وأن الإنسان لا يمكنه أن يحترز بنفسه عن مواقع الإضلال لأنه لو كان الإقدام على الحق ، والإحجام عن الباطل ؟ إنما يحصل للإنسان من نفسه ، لوجب أن يقال : وكفى للإنسان بنفسه في الاحتراز عن الشيطان ، فلما لم يقل ذلك ، بل قال : {وكفى بربك} علمنا أن الكل من الله تعالى ، ولهذا قال المحققون : لا حول عن معصية الله إلا بعصمته ، ولا قوة على طاعة الله إلا بتوفيقه.
فصل قال ابن الخطيب : في الآية سؤالان :
٣٣٤
الأول : أن إبليس ، هل كان عالما بأن الذي تكلم معه بقوله : {واستفزز من استطعت منهم} هو إله العالم ، أو لم يعلم ذلك ؟ فإن علم ذلك ، ثم إنه تعالى قال : {فإن جهنم جزآؤكم جزاء موفورا} [الإسراء : ٦٣] فكيف لم يصر هذا الوعيد الشديد مانعا له من المعصية ، مع أنه سمعه من الله تعالى من غير واسطة ؟ وإن لم يعلم أن هذا القائل هو إله العالم ، فكيف قال : " أرأيتك هذا الذي كرمت علي " ؟ !.
والجواب : لعله كان شاكا في الكل أو كان يقول في كل قسم ما يخطر بباله على سبيل الظن.
والسؤال الثاني : ما الحكمة في كونه أنظره إلى يوم القيامة ، ومكنه من الوسوسة ، والحكيم إذا أراد أمرا ، وعلم أن شيئا من الأشياء يمنع من حصوله ، فإنه لا يسعى في تحصيل ذلك المانع ؟ .
والجواب : أما مذهبنا ، فظاهر في هذا الباب ، وأما المعتزلة ، فقال الجبائي : علم الله أن الذين كفروا عند وسوسته يكفرون ، بتقدير ألا يوجد إبليس ، وإذا كان كذلك ، لم يكن في وجوده مزيد مفسدة.
وقال أبو هاشم : لا يبعد أن يحصل من وجوده مزيد مفسدة ، إلا أنه تعالى أبقاه تشديدا للتكليف على الخلق ؛ ليستحقوا بسبب ذلك التشديد مزيد الثواب ، وقد تقدم الكلام على ذلك في الأعراف والحجر.
جزء : ١٢ رقم الصفحة : ٣٢٨
قوله : تعالى : {ربكم الذي يزجي لكم الفلك في البحر} الآية.
اعلم أنه تعالى عاد إلى ذكر الدلائل الدالة على قدرته وحكمته ورحمته ، وقد تقدم أن المقصود في هذا الكتاب الكريم تقرير دلائل التوحيد ، فإذا امتد الكلام في فصل من الفصول عاد الكلام بعده إلى ذكر دلائل التوحيد ، فذكر ها هنا وجوه الإنعامات في أحوال ركوب البحر ، فأول كيفية حركة الفلك على وجه

البحر ، فقال جل ذكره : {ربكم الذي يزجي لكم الفلك في البحر} والإزجاء سوق الشيء حالا بعد حال ، وقد تقدم في تفسير قوله تعالى : {ببضاعة مزجاة} [يوسف : ٨٨] أي : ربكم الذي يسير لكم الفلك على وجه البحر ؛ {لتبتغوا من فضله} في طلب التجارة {إنه كان بكم رحيما} ، و الخطاب في قوله : " ربكم " وفي قوله " بكم " للكل ، والمراد من الرحمة : منافع الدنيا ومصالحها.

والثاني : قوله : {وإذا مسكم الضر في البحر} أي : خوف الغرق " ضل " ، بطل {من

٣٣٥

". (١)

"ورواه أبو هريرة - رضي الله عنه - مرفوعا ، فيقال : يا أمة فلان ، وقال أبو صالح والضحاك : بكتابهم.

وقال الحسن وأبو العالية : بأعمالهم.

وقال قتادة : بكتابهم الذي فيه أعمالهم ؛ بدليل سياق الآية.

وقوله تعالى : {أحصيناه فى إمام مبين} [يس : ١٢].

وعن انب عباس - رضي الله عنه - وسعيد بن جبير : بإمام زمانهم الذي دعاهم في الدنيا إلى ضلال أو هدى.

قال تعالى : {وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا} [الأنبياء : ٧٣] وقال تعالى : {وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار} [القصص : ٤١].

وقيل : بمعبودهم.

وأن تكون للحال ، فيتعلق بمحذوف ، أي : ندعوهم مصاحبين لكتابهم ، والإمام : من يقتدى به ، وقال الزمخشري : " ومن بدع التفاسير : أن الإمام جمع " أم " وأن الناس يدعون يوم القيامة بأمهاتهم دون آبائهم ، وأن الحكمة فيه رعاية حق عيسى - صلوات الله عليه - ، وإظهار شرف الحسن والحسين ، وألا يفضح أولاد الزنى " قال : وليت شعري أيهما أبدع : أصحة لفظه ، أم بهاء حكمته ؟ ".

وهو معذور لأن " أم " لا يجمع على " إمام " هذا قول من لا يعرف الصناعة ، ولا لغة العرب ، وأما ما ذكروه من المعنى ، فإن الله تعالى نادى عيسى - صلوات الله عليه - باسمه مضافا لأمه في عدة مواضع

(١) تفسير اللباب لابن عادل ، ص/٣٣٤٨

من قوله {يا عيسى ابن مريم} [المائدة : ١١٠] ، وأخبر عنه علي رضي الله عنه وكرم وجهه.
قوله تعالى : {فمن أوتي كتابه} يجوز أن تكون شرطية ، وأن تكون موصولة ، والفاء لشبهه بالشرط ، وحمل على اللفظ أولا في قوله {أوتي كتابه بيمينه} فأفرد ، وعلى المعنى ثانيا في قوله : " فأولئك " فجمع.
لأن من أوتي كتابه في معنى الجمع.
٣٤٤
ثم قال : {ولا يظلمون فتيلا}.
الفتيل : القشرة التي في شق النواة ، وسمي بذلك ؛ لأنه إذا رام الإنسان إخراجه انفتل ، وهذا مثل يضرب للشيء الحقير التافه ، ومثله : القطمير والنقير.
والمعنى : لا ينقصون من الثواب بمقدار فتيل ونظيره {ولا يظلمون شيئا} [مريم : ٦٠] وروى مجاهد عن ابن عباس - رضي الله عنه - قال : الفتيل هو الوسخ الذي يفتله الإنسان بين سبابته وإبهامه.
وهو فعيل بمعنى مفعول.
فإن قيل : لم خص أصحاب اليمين بقراءة كتابهم ، مع أن أهل الشمال يقرءونه ؟ ! فالجواب : الفرق بينهما أن أهل الشمال ، إذا طالعوا كتابهم ، وجدوه مشتملا على المهلكات العظيمة ، والقبائح الكاملة ، والمخازي الشديدة ، فيستولي الخوف والدهشة على قلبهم ، ويثقل لسانهم ، فيعجزوا عن القراءة الكاملة ، وأما أصحاب اليمين ، فعلى العكس ، فلا جرم أنهم يقرءون كتابهم على أحسن الوجوه ، ثم لا يكتفون بقراءتهم وحدهم ، بل يقولون لأهل المحشر : {هآؤم اقرؤا كتابيه} [الحاقة : ١٩] فظهر الفرق.
جزء : ١٢ رقم الصفحة : ٣٤٢
قوله تعالى : {ومن كان في هاذه} : يجوز في " من " ما جاز في " من " قبلها ، وأمال الأخوان وأبو بكر " أعمى " في الموضعين من هذه السورة ، وأبو عمرو أمال الأول ، دون الثاني ، والباقون فتحوهما ، فالإمالة ؛ لكونهما من ذوات الياء ، والتفخيم ؛ لأنه الأصل ، وأما أبو عمرو ، فأمال الأول ؛ لأنه ليس أفعل تفضيل ، فألفه متطرفة لفظا وتقديرا ، والأطراف محل التغيير غالبا ، وأما الثاني ، فإنه للتفضيل ، ولذلك عطف عليه " وأضل " فألفه في حكم المتوسطة ؛ لأن " من " الجارة للمفضول ، كالملفوظ بها ، وهي شديدة الاتصال بأفعل التفضيل ، فكأن الألف وقعت حشوا ، فتحصنت عن التغيير.
كذا قرره الفارسي والزمخشري ، وقد رد هذا بأنهم أمالوا {ولا أدنى من ذلك} [المجادلة : ٧] مع التصريح

بـ " من " فلأن يميلوا " أعمى " مقدرا معه " من " أولى وأحرى.

وأما " أعمى " في طه [الآية : ١٢٤] فأماله الأخوان ، وأبو عمرو ، ولم يمله أبو بكر ، وإن كان يميله هنا ، وكأنه جمع بين الأمرين ، وهو مقيد باتباع الأثر ، وقد فرق بعضهم :

٣٤٥." (١)

"الصدق هو المعجز] فقط فهذا المعجو سواء ظهر على الملك ، أو على البشر ، وجب الإقرار برسالته ، فقولهم : " لا بد وأن يكون الرسول من الملائكة " : تحكم فاسد باطل.

والجواب الثاني عن شبهتهم ، وهي أن أهل الأرض لو كانوا ملائكة ، لوجب أن يكون رسولهم من الملائكة ؛ لأن الجنس إلى الجنس أميل ، فلما كان [أهل الأرض] من البشر ، فوجب أن يكون رسولهم من البشر ؛ وهذا هو المراد من قوله تعالى : {لو كان في الأرض ملا ائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السمآء ملكا رسولا} [الإسراء : ٩٥].

الجواب الثالث : قوله تعالى : {قل كفى بالله شهيدا بيني وبينكم}.

وتقريره أن الله تعالى ، لما أظهر المعجزة على وفق دعواى ، كان ذلك شهادة من الله تعالى على كوني صادقا ، ومن شهد الله على صدقه ، فهو صادق ، فقولكم بأن الرسول يجب أن يكون ملكا ، فذلك تحكم فاسد ؛ لا يلتفت إليه.

ولما ذكر الله تعالى هذه الأجوبة الثلاثة ، أردفها بما يجري مجرى التهديد ، والوعيد ؛ فقال : {إنه كان بعباده خبيرا بصيرا} [الإسراء : ٩٦].

أي : يعلم ظواهرهم وبواطنهم ، ويعلم أنهم لا يذكرون هذه الشبهات إلا لمحض الحسد ، وحب الرياسة.

قوله : {أن يؤمنوا اا} : مفعول ثان لـ " منع " ، أي : ما منعهم إيمانهم ؛ و " أن قالوا " هو الفاعل ، و " إذ " ظرف لـ " منع " ، والتقدير : وما منع الناس من الإيمان وقت مجيء الهدى إياهم إلا قولهم : أبعث الله.

وهذه الجملة المنفية يحتمل أن تكون من كلام الله ، فتكون مستأنفة ، وأن تكون من كلام الرسول ، فتكون منصوبة المحل ؛ لاندراجها تحت القول في كلتا القراءتينز قوله : {بشرا رسولا} تقدم في نظيره وجهان ، وكذلك قوله {لنزلنا عليهم من السمآء ملكا رسولا}.

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/٣٣٥٣

قوله تعالى : {قل لو كان في الأرض} : يجوز في "كان " هذه التمام ، أي : لو وجد ، وحصل ، و " يمشون " صفة لـ " ملائكة " و " في الأرض " متعلق به ، " مطمئنين " حال من فاعل " يمشون " ، ويجوز أن تكون الناقصة ، وفي خبرها أوجه ، أظهرها : أنه الجار ، و " يمشون " و " مطمئنين " على ما تقدم.

وقيل : الخبر " يمشون " و " في الأرض " متعلق به.

وقيل : الخبر " مطمئنين " و " يمشون " صفة ، وهذان الوجهان ضعيفان ؛ لأن المعنى على الأول.

فإن قيل : إنه تعالى لو قال : قل لو كان في الأرض ملائكة ، لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا كان كافيا في هذا المعنى.

فما **الحكمة في** قوله : {يمشون مطمئنين} ؟ !.

٣٩٠

" (١).

"قضائها جاز عند الشافعي – رحمه الله – ، ولو دخل عليه وقت فريضة وتذكر فائتة ، فإن كان في الوقت سعة استحب أن يبدأ بالفائتة ، ولو بدأ بصلاة الوقت جاز ، وأن ضاق الوقت بحيث لو بدأ بالفائتة فاتت صلاة الوقت فيجب البداءة بصلاة الوقت لئلا تفوت الأخرى.

ولو تذكر الفائتة بعد ما شرع في صلاة الوقت أتمها ثم قضى الفائتة.

ويستحب أن يعيد صلاة الوقت بعدها ، ولا يجب.

وقال أبو حنيفة رحمه الله : يجب الترتيب في قضاء الفوائت ما لم تزد على صلاة يوم الجمعة حتى قال : ولو تذكر في صلاة الوقت فائتة تركها اليوم يبطل فرض الوقت ، فيقضي الفائتى ، ثم يعيد صلاة الوقت إلا أن يكون الوقت ضيقا فلا يبطل ، واستدل بالآية والخبر والقياس والأثر.

أما الآية فقوله تعالى : {أقم الصلاة لدلوك الشمس} [الإسراء : ٧٨] أي عند دلوك الشمس ، فالمعنى : أقم الصلاة عند تذكرها ، وذلك يقتضي وجوب الترتيب.

وأما الخبر فقوله عليه السلام : " من نسي صلاة فليصلها إذا ذكرها " والفاء للتعقيب.

وروي في الصحيحين " أن عمر بن الخطاب جاء إلى النبي – صلى الله عليه وسلم – يوم الخندق فجعل

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/٣٣٧٧

يسب كفار قريش ويقول : والله يا رسول الله ما صليت العصر حتى كادت الشمس تغرب.
فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " وأنا والله ما صليتها بعد " قال : فنزل إلى بطحان فصلى العصر (بعد ما غربت الشمس) ثم صلى بعدها المغرب " والاستدلال به من وجهين : أحدهما : أنه قال : " صلوا كما رأيتموني أصلي " وقد صلى الفوائت على الولاء فيجب علينا اتباعه.
١٩٧
والثاني : أن فعل النبي – صلى الله عليه وسلم – إذا خرج مخرج البيان للمجمل كان حجة ، وهذا الفعل خرج بيانا لمجمل قوله : " أقيموا الصلاة " ولهذا قالوا : إن الفوائت إذا كانت قليلة يجب مراعاة الترتيب فيها ، فإذا كثرت سقط الترتيب للمشقة.
وأما الأثر : فروي عن ابن عمر أنه قال : " من فاته صلاة فلم يذكرها إلا في صلاة الإمام فليمض في صلاته ، فإذا قضى صلاته مع الإمام يصلي ما فاته ، ثم ليعد التي صلاها مع الإمام " وروي ذلك مرفوعا إلى النبي صلى الله عليه وسلم.
وأما القياس : فإنهما صلاتا فرض جمعهما وقت واحد في اليوم والليلة ، فأشبهتا صلاتي عرفة والمزدلفة ، فلما لم يجب إسقاط الترتيب فيهما ، وجي أن يكون حكم الفوائت فيما دون اليوم والليلة كذلك.
واحتج الشافعي رحمه الله بما روى أبو قتادة : " أنهم لما ناموا عن صلاة الفجر ثم انتبهوا بعد طلوع الشمس أمرهم النبي صلى الله عليه وسلم أن يقودوا رواحلهم ثم صلاها " ولو كان وقت التذكير معينا للصلاة لما جاز ذلك ، فعلمنا أن ذلك الوقت وقت لتقرر الوجوب عليه ، لكن لا على سبيل التضييق بل على سبيل التوسع ، وإذا ثبت هذا فنقول : إيجاب قضاء الفوائت ، وإيجاب أداء فرض الوقت الحاضر يجري مجرى التخيير بين الواجبين ، فوجب أن يكون المكلف مخيرا في تقديم أيهما شاء ، ولأنه لو كان الترتيب واجبا في الفوائت لما سقط بالنسيان ، ألا ترى أنه إذا صلى الظهر والعصر بعرفة في يوم غيم ، ثم تبين أنه صلى الظهر قبل الزوال (والعصر بعد الزوال) فإنه يعيدهما جميعا ، ولم يسقط الترتيب بالنسيان لما
١٩٨
كان شرطا فيهما ، فها هنا أيضا لو كلن الترتيب شرطا فيهما لما كان يسقط بالنسيان.
جزء : ١٣ رقم الصفحة : ١٩٢
قوله تعالى : {إن الساعة آتية أكاد أخفيها}.

(لما خاطب موسى عليه السلام بقوله : " فاعبدني وأقم الصلاة لذكري " أتبعه بقوله : " إن الساعة آتية أكاد أخفيها " ، وما أليق هذا بتأويل من تأول قوله : " لذكري " أي لأذكرك بالإثابة والكرامة فقال عقيب ذلك " إن الساعة آتية " لأنها وقت الإثابة ووقت المجازاة ، ثم قال : " أكاد أخفيها ".

العامة على ضم الهمزة من " أخفيها ".

وفيها تأويلات : أحدها : أن الهمزة في " أخفيها " للسلب والإزالة ، أي : أزيل خفاءها نحو : أعجمت الكتاب أي : أزلت عجمته ، وأشكيته أي أزلت شكواه ، ثم في ذلك معينان : أحدهما : أن الخفاء بمعنى (الستر) ، ومتى أزال سترها فقد أظهرها ، والمعنى : أنها لتحقق وقوعها وقربها أكاد أظهرها لولا ما تقتضيه الحكمة من التأخير.

والثاني : أن الخفاء هو الظهور كما سيأتي ، والمعنى : أزيل ظهورها ، وإذا أزال ظهورها فقد استترت ، والمعنى : أن لشدة إبهامها أكاد أخفيها فلا أظهرها ألبتة وإن كان لا بد من إظهارها ، ولذلك يوجد في بعض المصاحف كمصحف أبي : " أكاد أخفيها من نفسي فكيف أظهركم عليها " وهو على عادة العرب في المبالغة في الإخفاء ، قال الشاعر : ٣٦٤٤ - أيام تصحبني هند وأخبرها

ما كدت أكتمه عني من الخبر

١٩٩

" (١).

"وكيف يتصور كتمانه من نفسه ؟ قال القاضي : هذا بعيد ، لأن الإخفاء إنما يصح ممن يصح له الإظهار ، وذلك مستحيل عليه تعالى ، لأن كل معلوم له ، فالإظهار والإسرار فيه مستحيل.

ويمكن أن يجاب بأن ذلك واقع على التقدير ، بمعنى لو صح مني إخفاؤه عن نفس أخفيته عني ، والإخفاء وإن كان محالا في نفسه إلا أنه يمتنع أن يذكر على هذا التقدير ، مبالغة في عدم إطلاع الغير عليه.

والتأويل الثاني : أن (كاد) زائدة قاله ابن جبير ، وأنشد غيره شاهدا عليه قول زيد الخيل : ٣٦٤٥ - سريع إلى الهيجاء شاك سلاحه

فما إن يكاد قرنه يتنفس

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/٣٥٤٨

وقول الآخر : ٣٦٤٦ - وأن لا ألوم النفس مما أصابني
وأن لا أكاد بالذي نلت أنجح
جزء : ١٣ رقم الصفحة : ١٩٩
ولا حجة في شيء منه.
٢٠٠
والتأويل الثالث : أن الكيد ورد بمعنى الإرادة ، قاله الأخفش وجماعة ، وهو قول إبي مسلم ، فهو كقوله : "كذلك كدنا ليوسف " ومن أمثالهم المتداولة " لا أفعل ذلك ولا أكاد.
أي : لا أريد أن أفعله ، وهذا) لا ينفع فيما قصدوه.
التأويل الرابع : أن خبرها محذوف ، تقديره : أكاد آتي بها لقربها ، وأنشدوا قول ضابئ البرجمي : ٣٦٤٧ - همست ولم أفعل وكدت وليتني
تركت على عثمان تبكي حلائله
أي : وكدت أفعل.
فالوقف على " أكاد " والابتداء بـ " أخفيها " ، واستحسنه أبو جعفر.
٢٠١
وذكر ابن الخطيب هنا سؤالا : فقال : إن (كاد) نفيه إثبات وإثباته نفي ، قال تعالى : " وما كادوا يفعلون " ، أي : ففعلوا ذلك ، فقوله : " أكاد أخفيها " يقتضي أنه ما أخفاها.
وذلك باطل لوجهين : أحدهما : لقوله تعالى : {إن الله عنده علم الساعة} [لقمان : ٣٤] الثاني : إن قوله : {لتجزى كل نفس بما تسعى } إنما يليق بالإخفاء لا بالإظهار.
ثم أجاب بوجوه : الأول : أن "كاد " موضوع للمقاربة فقط من غير بيان النفي والإثبات ، فقوله : " أكاد أخفيها " معناه : قرب الأمر فيه من الإخفاء.
وأما أنه هل حصل ذلك أو ما حصل فهو غير مستفاد من اللفظ بل بقرينة قوله : {لتجزى كل نفس بما تسعى } فإن ذلك إنما يليق بالإخفاء لا بالإظهار.
الثاني : أن "كاد " من الله : وجب ، فمعنى قوله : أكاد أخفيها " أي : أنا أخفيها عن الخلق ، كقوله : {عسى أن يكون قريبا} [الإسراء : ٥١] أي هو قريب قاله الحسن.

وذكر باقي التأويلات المتقدمة.

وقرأ أبو الدرداء وابن جبير والحسن ومجاهد وحميد : " أخفيها " بفتح الهمزة

٢٠٢

والمعنى : أظهرها بالتأويل المتقدم ، يقال : خفيت الشيء : أظهرته وأخفيته سترته هذا هو المشهور وقد نقل عن أبي الخطاب أن خفيت وأخفيت بمعنى.

وحكى عن أبي عبيد أن أخفى من الأضداد يكون بمعنى أظهر وبمعنى ستر.

وعلى هذا تتخذ (القراءتان).

ومن مجئ خفيت بمعنى أظهرت قول امرئ القيس : ٣٦٤٨ - خفاهن من أنفاقهن كأنما

خفاهن ودق من عشي مجلب

)

جزء : ١٣ رقم الصفحة : ١٩٩

وقول الآخر : ٣٦٤٩ - فإن تدفنوا الداء لا نخفه

وإن توقدوا الحرب لا نقعد)

قال الزجاج : وهذه القراءة أبين ، لأن معناها : أكاد أظهرها (فيفيد أنه قد أخفاها).

والحكمة في إخفاء الساعة وإخفاء وقت الموت : أن الله تعالى وعد قبلها التوبة عند قربهما ، فلو عرف وقت الموت لاشتغل بالمعصية إلى وقت قرب ذلك الوقت ثم يتوب فيتخلص من عقاب المعصية ، فتعريف وقت الموت كالإغراء بفعل معصية وهو لا يجوز.

قوله : " لتجزى " هذه لام كي ، وليست بمعنى

٢٠٣

". (١)

"وإنما قال : " مآرب " في معنى جماعة ، فكأنه قال جماعة من الحاجات أخرى ، ولم يقل أخر لرؤوس الآي (و " أخرى ") كقوله : " الأسماء الحسنى " وقد تقدم قريبا.

قال أبو البقاء : ولو قال : أخر لكان على اللفظ.

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل ، ص/٣٥٤٩

يعني أخر كقوله : " فعدة من أيام أخر " بضم الهمزة وفتح الخاء واللفظ لفظ الجمع.

ونقل الأهوازي عن شيبة والزهري : مارب " قال : بغير همز كذا أطلق والمراد بغير همز محقق بل مسهل بين بين وإلا فالحذف بالكلية شاذ.

فصل قيل : كما قال : " هي عصاي " فقد تم الجواب إلا أنه عليه السلام ذكر الوجوه الآخر ، لأنه كان يجب المكالمة مع ربه تعالى ، فجعل ذلك كوسيلة إلى تحصيل هذا الغرض.

٢١٣

" أتوكأ عليها " التوكؤ والاتكاء واحد كالتوقي والاتقاء ، أي أعتمد عليها إذا عييت ، أو وقفت على رأس القطيع " وأهش بها على غنمي " أي : أضرب أغصان الشجر ليسقط ورقها على الغنم (فتأكله).

" ولي فيها مآرب أخرى " أي حوائج ومنافع ، وإنما أجمل في المآرب رجاء أن يسأله ربه عن تلك المآرب ، فيسمع كلام الله مرة أخرى ، ويطول أمر المكالمة بسبب (ذلك).

قال وهب : كانت ذا شعبتين (ومحجن ، فإذا طلب ثمر الشجرة جناه بالمحجن ، فإذا حاول كسره لواه بالشعبتين).

فإذا سار وضعها على عاتقه يعلق عليها أداته من القوس والكنانة والثياب ، وإذا كان في البرية ركزها وألقى عليها كساء فكان ظلا.

وقيل : كان فيها من المعجزات أنه كان يستقي بها فتطول طول البئر ، وتصير شعبتاها دلوا ، ويصيران شمعتين في الليل وإذا ظهر عدو حاربت عنه ، وإذا اشتهى ثمرة ركزها فأورقت وأثمرت ، وكان يحمل عليها زاده وماءه وكانت يابسة ويركزها فينبع الماء ، وإذا رفعها نضب ، وكان تقيه الهوام قال مقاتل : كان اسمها نبعة.

وروي عن ابن عباس : أنها كانت تماشيه وتحدثه.

قال الله تعالى : " ألقها يا موسى " أي انبذها.

قال وهب ظن موسى أنه يقول أرفضها " فألقاها " على وجه الأرض ثم ينظر إليها " فإذا هي حية تسعى " صفراء أعظم ما تكون من الحيات تمشي بسرعة لها عرف

٢١٤

كعرف الفرس ، وكان بين لحييها أربعون ذراعا ، صارت شدقين لها والمحجن عنقا يهتز ، وعيناها متقدان

كالنار ، وتمر بالصخرة العظيمة مثل الخلفة من الإبل فتلتقمها ، وتقصف الشجرة العظيمة بأنيابها ، ويسمع لأسنانها (صريف عظيم).

وهذا خارق عظيم وبرهان قاطع على أن الذي يكلمه هو الذي يقول للشيء كن فيكون.

فصل والحكمة في قلب العصا حية في ذلك الوقت من وجوه : أحدها : لتكون معجزة لموسى - عليه السلام - يعرف بها نبوة نفسه ، لأنه عليه السلام - إلى هذا الوقت ما سمع إلا النداء.

والنداء وإن كان مخالفا للعادات إلا انه لم يكن معجزا ، لاحتمال أن يكون ذلك من عادات الملائكة أو الجن ، فقلب العصا حية ليكون دليلا قاهرا على الممعجزة.

الثاني : أنه تعالى عرضها عليه ليشاهدوها أولا ، فإذا شاهدها عند فرعون لا يخافها.

وثالثها : أنه كان راعيا فقيرا ثم نصب للمنصب العظيم فلعله بقي يتعجب من ذلك ، فقلب العصا حية تنبيا على أني لما قدرت على ذلك ، فكيف يستبعد مني نصرة مثلك في إظهار الدين.

فإن قيل : كيف قال ههنا " حية " وفي موضع آخر " جان " وهو الحية الخفية الصغيرة ، وقال في موضع " ثعبان " وهو أكبر ما يكون من الحيات ؟ فالجواب : أن الحية اسم جنس يقع على الذكر والأنثى والصغير والكبير وأما

٢١٥

الجان فقيل : عبارة عن ابتداء حالها فإنها كانت حية على قدر العصا ثم تورمت وتزايدت وانتفخت حتى صارت ثعبانا.

وقيل : كانت في عظم الثعبان وسرعة الجان لقوله تعالى : {فلما رآها تهتز كأنها جآن} [النمل : ١٠ ، القصص : ٣١].

(و " تسعى ") يجوز أن تكون خبرا ثانيا عند من يجوز ذلك ويجوز أن تكون صفة لـ " حية " فلما عاين موسى ذلك " ولى مدبرا " ، وهرب ثم ذكر ربه فوقف استحياء فنودي : " خذها فلا تخف سنعيدها سيرتها " (وهيبتها) " الأولى " أي نردها عصا كما كانت.

قوله : " سيرتها " في نصبها أوجه : أحدها : أن تكون منصوبة على الظرف ، أي في سيرتها أي : طريقتها.

الثاني : أن تكون منصوبة على البدل من " ها " " سنعيدها " بدل اشتمال لأن السيرة الصفة ، أي سنعيدها صفتها وشكلها.

الثالث : أنها منصوبة على إسقاط الخافض أي : إلى سيرتها.
قال الزمخشري : ويجوز أن يكون مفعولا من عاد أي عاد إليه ، فيتعدى لمفعولين ، ومنه بيت زهير :
٣٦٥٢ - وعادك أن تلاقيها عداء
٢١٦
." (١)
"وقرأ الآخرون بإسكانها.
والمراد بالذكر تبليغ الرسالة.
وقيل : لا تفترا عن ذكر الله.
(والحكمة فيه) أن من ذكر جلال الله استخف غيره ، فلا يخاف أحدا ، ويقوى روحه بذلك الذكر فلا يضعف في مقصوده ، ومن ذكر الله فلا بد وأن يكون ذاكرا إحسانه (وذاكر إحسانه) لا يفتر في أداء أوامره.
وقيل : لا تنيا في ذكري عند فرعون ، وكيفية الذكر أن يذكرا لفرعون وقومه أن الله تعالى لا يرضى منهم الكفر ، ويذكرا لهم أمر الثواب والعقاب ، والترغيب والترهيب.
جزء : ١٣ رقم الصفحة : ٢٨٦
قوله : {اذهبآ إلى فرعون إنه طغى } ذكر المذهوب إليه في قوله : {اذهبآ إلى فرعون} وحذفه في الأول في قوله : {اذهب أنت وأخوك} [طه : ٤٢] اختصارا في الكلام.
وقال القفال : فيه وجهان : أحدهما : أن قوله : {اذهب أنت وأخوك} [طه : ٤٢] يحتمل أن يكون كل واحد منهما مأمورا بالذهاب على الانفراد ، فقيل مرة أخرى : " اذهبا " ليعرفا أن المراد منه أن يشتغلا بذلك جميعا لا أن ينفرد به أحدهما دون الآخر.
٢٥١
والثاني : أن قوله : {اذهب أنت وأخوك بآياتي} [طه : ٤٢] أمر بالذهاب إلى كل الناس من بني إسرائيل وقوم فرعون ، ثم قوله : {اذهبآ إلى فرعون} أمر بالذهاب إلى فرعون وحده.
قيل : وهذا فيه بعد ، بل الذهابان متوجهان لشيء واحد وهو فرعون ، وقد حذف من كل الذهابين ما أثبته في الآخر ، وذلك أنه حذف المذهوب إليه من الأول وأثبته في الثاني ، وحذف المذهوب به ، وهو

---
(١) تفسير اللباب لابن عادل ، ص/٣٥٥٢

" بآياتي " من الثاني وأثبته في الأول.

فإن قيل : قوله : {اذهبآ إلى فرعون} خطاب من موسى وهارون ، (وهارون عليه السلام) لم يكن حاضرا هناك ، وكذا في قوله تعالى : {قالا ربنآ إننا نخاف أن يفرط علينآ أو أن يطغى } [طه : ٤٥] وأجاب القفال بوجوه : أحدها : أن الكلام كام مع موسى إلا انه كان متبوع هارون ، فجعل الخطاب معه خطابا مع هارون ، (وكلام هارون) على سبيل التقدير بالخطاب في تلك الحالة ، وإن كان مع موسى - عليه السلام - وحده ، إلا أنه تعالى أضافه إليهما كما في قوله تعالى : {وإذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها} [البقرة : ٧٢] وقوله : {لئن رجعنآ إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل} [المنافقون : ٨] روي أن القائل هو عبد الله ابن أبي وحده.

وثانيها : يحتمل أن الله تعالى لما قال : {قد أوتيت سؤلك يا موسى } [طه : ٣٦] سكت حتى لقي أخاه ، ثم إن الله - تعالى - خاطبهما بقوله : {اذهبآ إلى فرعون}.

وثالثها : حكي في مصحف ابن مسعود " قال ربنا إننا نخاف " أي أنا وأخي.

٢٥٢

قوله : {فقولا له قولا لينا} قرأ أبو معاذ " قولا لينا " وهو تخفيف من لين كميت في ميت.

وقوله : " لعله " فيه أوجه : أحدها : أن " لعل " على بابها للترجي ، وذلك بالنسبة إلى المرسل وهو موسى وهارون ، أي اذهبا على رجائكما وطمعكما في إيمانه أي اذهبا مترجين طامعين ، وهذا معنى قول الزمخشري ولا يستفقيم أن يرد ذلك في حق الله تعالى ، إذ هو عالم بعواقب الأمور.

وعن سيبويه : كل ما ورد في القرآن من (لعل ، وعسى) فهو من عند الله واجب.

يعني أنه يستحيل بقاء معناه في حق الله تعالى.

والثاني : أن " لعل " بمعنى (كي) فتفيد العلية ، وهذا قول الفراء قال : كما تقول : اعمل لعلك تأخذ أجرك ، أي : كي تأخذ.

والثالث : أنها استفهامية ، أي : هل يتذكر أو يخشى ؟ وهذا قول ساقط ، وذلك أنه يستحيل الاستفهام في حق الله تعالى كما يستحيل الترجي ، فإذا كان لا بد من التأويل فجعل اللفظ على مدلوله باقيا أولى من إخراجه عنه.

فإن قيل : لم أمر الله تعالى باللين مع الكافر الجاحد ؟ فالجواب من وجهين : أحدهما : أنه قد ربى

موسى – عليه السلام – فأمره أن يخاطبه بالرفق رعاية لتلك الحقوق ، وهاذ تنبيه على نهاية تعظيم حق الأبوين.

٢٥٣

." (١)

"كقول إبراهيم عليه السلام : {وقال إني ذاهب إلى ربي سيهدين} [الصافات : ٩٩].

قوله : {ومن يأته مؤمنا}.

قرأ أبو عمرو ساكنة الهاء ، ويختلسها أبو جعفر وقالون ويعقوب والآخرون بالإشباع.

" مؤمنا " مات على الإيمان " قد عمل " أي وقد عمل الصالحات ، واعلم أن قوله : {قد عمل الصالحات} يقتضي أن يكون آتيا بكل الصالحات وذلك بالاتفاق غير معتبر ولا ممكن ، فينبغي أن يحمل ذلك على أداء الواجبات ثم ذكر أن من أتى بالإيمان والأعمال الصالحة كانت لهم الدرجات العلا ، ثم فسر الدرجات العلا فقال : {جنات عدن تجري من تحتها الأنهار} وفي الآية تنبيه على حصول العفو لأصحاب الكبائر ، لأنه تعالى جعل الدرجات العلا من الجنة لمن أتى بالإيمان والأعمال الصالحة فسائر الدرجات التي هي غير عالية ولا بد وأن تكون لغيرهم ، وما هم إلا العصاة من أهل الإيمان.

والعلا : جميع العليا ، والعليا تأنيث الأعلى.

قوله : " جنات " بدل من الدرجات " أو بيان ، قال أبو البقاء : ولا يجوز أن يكون التقدير : هي جنات ، لأن " خالدين " على هذا التقدير لا يكون في الكلام ما يعمل في الثاني ، وعلى الأول يكون في الحال الاستقرار ، أو معنى الإشارة.

قوله : {وذالك جزآء من تزكى } قال ابن عباس : يريد من قال : لا إله إلا الله ومعنى " تزكى " تطهر من الذنوب ، قال عليه السلام " إن أهل الدرجات العلى لترونهم من تحتهم كما ترون الكوكب الدري في أفق السماء ، وإن أبا بكر وعمر منهم " واعلم أنه ليس في القرآن أن فرعون فعل بأولئك القوم المؤمنين ما أوعدهم ، ولم يثبت في الأخبار.

٣٣٠

جزء : ١٣ رقم الصفحة : ٣٢٦

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل ، ص/٣٥٦٣

قوله تعالى : {ولقد أوحينآ إلى موسى أن أسر بعبادي} الآية.

وفي هذه الآية دلالة على أن موسى - عليه السلام - في تلك (الحال كثرة مستجيبوه) فأراد الله تعالى تمييزهم من طائفة فرعون ، فأوحى إليه أن يسري بهم ليلا ، والسرى سير الليل ، والإسراء مثله والحكمة في السرى بهم : لئلا يشاهدهم العدو فيمنعهم عن مرادهم أو ليكون ذلك عائقا لفرعون عن طلبه ومتبعيه أو ليكون إذا تقارب العسكران لا يرى عسكر موسى عسكر فرعون فلا يهابونهم.

قوله : {فاضرب لهم طريقا} في نصب " طريقا " وجهان : أحدهما : أنه مفعول به ، وذلك في سبيل المجاز ، وهو أن الطريق متسبب عن ضرب البحر ، إذ المعنى : اضرب البحر لينفلق لهم فيصير طريقا فبهذا يصح نسبة الضرب إلى الطريق.

وقيل : ضرب هنا بمعنى جعل ، أي : اجعل لهم طريقا وأشرعه فيه.

والثاني : أنه منصوب على الظرف ، قال أبو البقاء : التقدير موضع طريق فهو مفعول به على الظاهر ، ونظيره قوله : أن اضرب بعصاك البحر وهو مثل ضربت زيدا.

وقيل : ضرب هنا بمعنى جعل وشرع مثل قولهم : ضربت له

٣٣١

بسهم.

انتهى.

فقوله على الظاهر ، يعني أنه لولا التأويل لكان ظرفا.

قوله : " يبسا " صفة لـ " طريقا " وصف به لما يؤول إليه ، لأنه لم يكن يبسا بعد إنما مرت عليه الصبا فجففته كما روي في التفسير.

وقيل : في الأصل مصدر وصف به مبالغة ، (أو على حذف مضاف أو جمع يابس كخادم وخدم ، ووصف به الواحد مبالغة) كقوله : ٣٦٧٩ - ....

....

ومعى جياعا

أي : كجماعة جياع ، وصف به لفرط جوعه.

وقرأ الحسن : " يبسا " بالسكون ، وهو مصدر أيضا.

وقيل : المفتوح اسم ، (والساكن مصدر).

وقرأ أبو حيوة : " يابسا " اسم فاعل جعله بمعنى الطريق.

ومن قرأ " يبسا " بتحريك الباء ، فالمعنى : طريقا ذا يبس.

ومن قرأ بتسكين الباء فهو مخفف عن اليبس فالمعنى ما كان فيه وحل ولا نداوة فضلا عن الماء ، وذلك أن الله – تعالى – أيبس لهم الطريق في البحر.

٣٣٢

قوله : " لا تخاف " العامة على " لا تخاف " مرفوعا ، وفيه أوجه : أحدها : أنه مستأنف فلا محل له من الإعراب.

الثاني : أنه في محل نصب على الحال من فاعل " اضرب " غير خائف.

والثالث : أنه صفة لـ " طريقا " ، والعائد محذوف ، أي : لا تخاف فيه وحمزة وحده من السبعة : " لا تخف " بالجزم ، وفيه أوجه : أحدها : أن يكون نهيا مستأنفا.

الثاني : أنه نهي أيضا في محل نصب على الحال من فاعل " اضرب " ، أو صفة لـ " طريقا "كما تقدم في قراءة العامة إلا أن ذلك يحتاج إلى إضمار قول ، أي مقولا لك ، أو طريقا مقولا فيه : لا تخف كقوله :

٣٣٣

٣٦٨٠ – جاءوا بمذق هل رأيت الذئب قط

". (١)

"ومن الناس من أجاب عن سؤال ابن الزبعرى ، فقال : إن الله – تعالى – يصور لهم في النار ملكا على صورة من عبدوه وحينئذ تبقى الآية على ظاهرها وهذا ضعيف من وجهين : الأول : أن القوم لم يعبدوا تلك الصورة وإنما عبدوا شيئا آخر لم يحصل معهم في النار.

الثاني : أن الملك لا يصير حصب جهنم في الحقيقة ، وإن صح أن يدخلها ، فإن خزنة النار يدخلونها مع أنهم ليسوا حصب جهنم.

فصل الحكمة في أنهم بآلهتهم أمور : أحدها : أنهم لا يزالون بمقارنتهم في زيادة غم وحسرة لأنهم ما

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/٣٥٨٨

وقعوا في ذلك العذاب إلا بسببهم ، والنظر إلى وجه العدو باب من العذاب.

وثانيها : أنهم قدروا أن يشفعوا لهم في الآخرة ، فإذا وجدوا الأمر على عكس ما قدروا لم يكن شيء أبغض إليهم منهم.

وثالثها : أن إلقاءها في النار يجري مجرى الاستهزاء بها.

ورابعها : قيل ما كان منها حجرا أو حديدا يحمى فيعذب بعبادها ، وما كان خشبا يجعل جمرة يعذب بها صاحبها.

قوله تعالى : {لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها} اعلم أن قوله : {وما تعبدون} بالأصنام أليق ، لدخول لفظ " ما " وهذا الكلام بالشياطين أليق ، لقوله : " هؤلاء " ويحتمل أن يريد الشياطين والأصنام وغلب العقلاء ونبه الله - تعالى - على أنه من يرمي في النار لا يمكن أن يكون ذكرها لنفسه أو لغيره ، فإن ذكرها لنفسه فلا فائدة فيه ، لأنه كان عالما بأنها ليست آلهة ، وإن ذكرها لغيره فإما أن ي١كرها لمن يصدق بنبوته ، (أو ذكرها لمن يكذب بنبوته) فإن ذكرها لمن يصدق بنبوته فلا حاجة إلى هذه الحجة ، لأن كل من صدق بنبوته لم

٦٠٧

يقل بالإهية هذه الأصنام ، وإن ذكرها لمن كذب بنبوته فذلك المكذب لا يسلم أن تلك الآلهة يردون النار ، فكان ذكر هذه الحجة لا فائدة فيه كيف كان.

وأيضا فالقائلون بإلاهيتها لم يعتقدوا إلا كونها تماثيل الكواكب أو صورة الشفعاء ، وذلك لا يمنع من دخولها النار.

وأجيب عن ذلك بأن المفسرين قالوا : المعنى لو كان هؤلاء - يعني الأصنام - آلهة على الحقيقة ما وردوها ، أي : ما دخل عابدوها النار.

قوله : " آلهة " العامة على النصب خبرا لـ " كان ".

وقرأ طلحة بالرفع وتخريجها كتخريج قوله :

٣٧٤٠ - إذا مت كان الناس صنفان

جزء : ١٣ رقم الصفحة : ٦٠٣

ففيها ضمير الشأن.

قوله : {وكل فيها خالدون} يعني : العابدين والمعبودين ، وهو تفسير لقوله : {إنكم وما تعبدون من دون الله}.

وقوله : {لهم فيها زفير} قال الحسن : الزفير هو اللهيب ، أي : يرتفعون بسبب لهب النار حتى إذا ارتفعوا وأرادوا الخروج ضربوا بمقامع الحديد ، فهووا إلى أسفلها سبعين خريفا.

قال الخليل : الزفير أن يملأ الرجل صدره غما ثم يتنفس.

٦٠٨

قال أبو مسلم : قوله : " لهم " عام لكل معذب ، فيقول : لهم زفير من شدة ما ينالهم والضمير في قوله : " وهم فيها " يرجع إلى المعبودين أي : لا يسمعون صراخهم وشكواهم ، ومعناه أنهم لا يغيثونهم ، وشبهه : (سمع الله لمن حمده ، أي : أجاب الله دعاه.

وقوله : {وهم فيها لا يسمعون} على قول أبي مسلم محمول على الأنام.

ومن حمله على الكفار فيحتمل ثلاثة أوجه : أحدها : أن الكفار يحشرون صما كما يحشرون عميا زيداة في عذابهم.

والثاني : لا يسمعون ما ينفعهم ، لأنهم إنما يسمعون أصوات المعذبين ، أو كلام من يتولى تعذيبهم من الملائكة.

والثالث : قال ابن مسعود - رضي الله عنه - : إن الكفار يجعلون في توابيت (من نار ، ثم يجعل تلك التوابيت في توابيت أخر ، ثم تلك التوابيت في توابيت) أخر من نار عليها مسامير من نار ، فلذلك لا يسمعون شيئا ، ولا يرى أحد منهم أن أحدا يعذب غيره.

والأول ضعيف ، لأن أهل النار سمعون كلام أهل الجنة ، فلذلك يستغيثون بهم على ما ذكره الله تعالى في سورة الأعراف.

جزء : ١٣ رقم الصفحة : ٦٠٣

قوله : {إن الذين سبقت لهم منا الحسنى } الآية.

قال بعض أهل العلم " إن " ههنا بمعنى (إلا) أي : إلا الذين سبقت لهم منا الحسنى.

قال ابن الخطيب : قد بينا فساد هذا القول ، وذكرنا أن سؤال ابن الزبعرى لم يكن واردا ، فلم يبق إلا أحد أمرين :

٦٠٩

." (١)

"أيدي جوار يتعاطين الورق

جزء : ١٤ رقم الصفحة : ٩٠

٩٢

وقول الآخر :

٣٧٦٧ - وكسوت عار لحمه

ويدل على هذه قراءة بعضهم " صوافي " بياء ساكنة من غير تنوين نحو رأيت القاضي يا فتى.

بسكون الياء.

ويجوز أن يكون سكن الياء في هذه القراءة للوقف ثم أجرى الوصل مجراه.

وقرأ العبادلة ومجاهد والأعمش " صوافن " بالنون جمع صافنة ، وهي التي تقوم على ثلاثة وطرف الرابعة أي : على طرف سنبكه ، لأن البدنة تعلق إحدى يديها ، فتقوم على ثلاثة إلا أن الصوافن إنما يستعمل في الخيل كقوله : " الصافنات الجياد "كما سيأتي ، فيكون استعماله في الإبل استعارة.

فصل سميت البدنة بدنة لعظمها يريد الإبل العظام الصحاح الأجسام ، يقال : بدن الرجل بدنا وبدانة : إذا ضخم ، فأما إذا أسن واسترخى يقال : بدن تبدينا.

{جعلناها لكم من شعائر الله} أي : من أعلام دينه ، سميت شعائر ، لأنها تشعر ، وهو أن تطعن بحديدة في سنامها فيعلم أنها هدي.

{لكم فيها خير} النفع في الدنيا والأجر في العقبى.

{فاذكروا اسم الله عليها} عند نحرها " صواف " أي قياما على ثلاث قوائم قد صفت رجليها وإحدى يديها ويدها اليسرى معقولة فينحرها كذلك لما روى زياد بن جبير

٩٣

قال : رأيت ابن عمر أتى على رجل قد أناخ بدنة ينحرها فقال : ابعثها قياما مقيدة سنة محمد - صلى الله عليه وسلم - .

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل ، ص/٣٦٨١

وقال مجاهد : الصواف إذا علقت رجلها اليسرى وقامت على ثلاث.

قال المفسرون : قوله : {فاذكروا اسم الله عليها} فيه حذف أي اذكروا اسم الله على نحرها ، وهو أن يقال عند النحر : باسم الله والله أكبر ولا إله إلا الله والله أكبر اللهم منك وإليك.

والحكمة في اصطفافها ظهور كثرتها للناظر فتقوى نفوس المحتاجين ، ويكون التقرب بنحرها عند ذلك أعظم أجرا ، وإعلاء اسم الله وشعائر دينه.

فصل إذا قال : لله علي بدنة ، هل يجوز نحرها في غير مكة ؟ قال أبو حنيفة ومحمد يجوز وقال أبو يوسف : لا يجوز إلا بمكة.

واتفقوا في من نذر هديا أن عليه ذبحه بمكة.

ومن قال : لله علي جزور أنه يذبحه حيث شاء.

وقال أبو حنيفة : البدنة بمنزلة الجزور ، فوحب أن يجوز له نحرها حيث يشاء ، بخلاف الهدي فإنه قال : {هديا بالغ الكعبة} [المائدة : ٩٥] فجعل بلوغ الكعبة من صفة الهدي.

واحتج أبو يوسف بقوله : {والبدن جعلناها لكم من شعائر الله} فكان اسم البدنة يفيد كونها قربة فكان كاسم الهدي.

وأجاب أبو حنيفة بأنه ليس كل ما كان ذبحه قربة اختص بالحرم ، فإن الأضحية قربة وهي جائزة في سائر الأماكن.

قوله : {فإذا وجبت جنوبها} أي سقطت بعد النحر فوقعت جنوبها على الأرض.

وأصل الوجوب السقوط ، يقال : وجبت الشمس إذا سقطت للمغيب ، ووجب الجدار : أي سقط ، ومنه الواجب الشرعي كأنه وقع علينا ولزمنا.

قال أوس بن حجر : ٣٧٦٨ - ألم تكسف الشمس شمس النها

ر والبدر للجبل الواجب

جزء : ١٤ رقم الصفحة : ٩٠

٩٤

قوله : {فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر} أمر إباحة {وأطعموا القانع والمعتر} اختلفوا في معناهما ، فقال عكرمة وإبراهيم وقتادة : القانع الجالس في بيته المتعفف يقنع بما يعطى ولا يسأل.

والمعتر الذي يسأل.
قال الأزهري : قال ابن الأعرابي : يقال : عروت فلانا وأعتريته وعررته واعتررته : إذا أتيته تطلب معروفه ونحوه.
قال أبو عبيدة : روى العوفي عن ابن عباس : القانع الذي لا يتعرض ولا يسأل ، والمعتر الذي يريك نفسه ويتعرض ولا يسأل.
فعلى هذين التأويلين يكون القانع من القناعة ، يقال : قنع قناعة : إذا رضي بما قسم له.
وقال سعيد بن جبير والحسن والكلبي : القانع الذي يسأل ، والمعتر الذي يتعرض ولا يسأل.
وقيل : القانع الراضي بالشيء اليسير من قنع يقنع قناعة فهو قانع.
والقنع بغير ألف هو السائل.
ذكره أبو البقاء.
وقال الزمخشري القانع السائل ءن قنعت وكنعت إذا خضعت له وسألته قنوعا ، والمعتر : المتعرض بغير سؤال أو القانع الراضي بما عنده وبما يعطى من غير سؤال من قنعت قنعا وقناعة ، والمعتر المتعرض للسؤال. انتهى.
وفرق بعضهم بين المعنيين بالمصدر فقال : " قنع يقنع قنوعا " أي : سأل ، وقناعة أي : تعفف ببلغته واستغنى به ، وأنشد للشماخ : ٣٧٦٩ - لمال المرء يصلحه فيغني
مفاقره أعف من القنوع
وقال ابن قتيبة : المعتر المتعرض من غير سؤال ، يقال : عره واعتره وعراه واعتراه أي : أتاه طالبا معروفه ، قال :
٩٥
٣٧٧٠ - لعمرك ما المعتر يغشى بلادنا
لنمنعه بالضائع المتهضم
وقول الآخر.

٣٧٧١ – سلي الطارق المعتر يا أم مالك
." (١)

"فإذا يعود فراجع أدراج

وعلمت أني إن أبيت نزاله

أني من الحجاج لست بناج

فقوله : فأكر تصوير للحالة التي لابسها.

قال شهاب الدين : أما قوله : وأيضا فإن جواب الاستفهام ينعقد مع الاستفهام.

إلى قوله : إنما هو مترتب على الإنزال.

منتزع من كلام أبي البقاء.

قال أبو البقاء : إنما رفع الفعل هنا وإن كان قبله استفهام لأمرين : أحدهما : أنه استفهام بمعنى الخبر ، أي قدر رأيت فلا يكون له جواب.

والثاني : أن ما بعد الفاء ينصب إذا كان المستفهم عنه سببا له ، ورؤيته لإنزال الماء لا يوجب اخضرار الأرض ، وإنما يجب على الماء.

وأما قوله : وإنما عبر بالمضارع.

فهو معنى كلام الزمخشري بعينه ، وإنما غير عبارته وأوسعها.

١٣٨

وقوله : " فتصبح " استدل به بعضهم على أن الفاء لا تقتضي التعقيب ، قال : لأن اخضرارها متراخ عن إنزال الماء ، هذا بالمشاهدة.

وأجيب عن ذلك بما نقله عكرمة من أن أرض مكة وتهامة على ما ذكروا أنها تمطر الليلة فتصبح الأرض غدوة خضرة ، فالفاء على بابها.

قال ابن عطية : شاهدت هذا في السوس الأقصى نزل المطر ليلا بعد قحط فأصبحت تلك الأرض الرملة التي نسفتها الرياح قد اخضرت بنبات ضعيف.

وقيل : تراها كل شيء بحسبه ، وقيل : ثم جمل محذوفة قبل الفاء تقديره : فتهتز وتربو وتنبت ، بين ذلك

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/٣٧٢٠

قوله تعالى : {فإذآ أنزلنا عليها المآء اهتزت وربت وأنبتت} [الحج : ٥] وهذا من الحذف الذي يدل عليه فحوى الكلام كقوله تعالى : {فأرسلون يوسف أيها الصديق أفتنا} [يوسف : ٤٥ - ٤٦] إلى آخر القصة.
و " تصبح " يجوز أن تكون الناقصة وأن تكون التامة " مخضرة " حال قاله أبو البقاء.
وفيه بعد عن المعنى إذ يصير التقدير فتدخل الأرض في وقت الصباح على هذه الحال.
ويجوز فيها أيضا أن تكون على بابها من الدلالة على اقتران مضمون الجملة بهذا الزمن الخاص ، وإنما خص هذا الوقت لأن الخضرة والبساتين أبهج ما ترى فيه ويجوز أن تكون بمعنى تصير.
وقرأ العامة " مخضرة " بضم الميم وتشديد الراء اسم فاعل من اخضرت فهي مخضرة ، والأصل مخضررة بكسر الراء الأولى فأدغمت في مثلها.
وقرأ بعضهم " مخضرة " بفتح الميم وتخفيف الراء بزنة مبقلة ومسبعة.
والمعنى : ذات خضروات وذات سباع وذات بقل.
ثم قال : {إن الله لطيف خبير} أي : أنه رحيم بعباده ولرحمته فعل ذلك حتى عظم انتفاعهم به ، لأن الأرض إذا أصبحت مخضرة ، والسماء إذا أمطرت كان ذلك سببا لعيش الحيوان أجمع.
ومعنى " خبير " أي ؛ عالم بمقادير مصالحهم فيفعل على قدر
١٣٩
ذلك من غير زيادة ولا نقصان.
وقال ابن عباس : " لطيف " بأرزاق عباده " خبير " بما في قلوبهم من القنوط.
وقال الكلبي : " لطيف " في أفعاله " خبير " بأعمال خلقه.
وقال مقاتل : " لطيف " باستخراج النبت " خبير " بكيفية خلقه.
{له ما في السماوات وما في الأرض} عبيدا وملكا ، وهو غني عن كل شيء لأنه كامل لذاته ، ولكنه لما خلق الحيوان فلا بد في الحكمة من مطر ونبات فخلق هذه الأشياء رحمة للحيوانات وإنعاما عليهم لا لحاجة به إلى ذلك ، وإذا كان كذلك كان إنعامه خاليا عن غرض عائد إليه ، فكان مستحقا للحمد ، فكأنه قال : إنه لكونه غنيا لم يفعل ما فعله إلا للإحسان ، ومن كان كذلك كان مستحقا للحمد فوجب أن يكون حميدا ، فلهذا قال : {وإن الله لهو الغني الحميد}.
قوله تعالى : {ألم تر أن الله سخر لكم ما في الأرض} أي ذلل لكم ما فيها فلا أصلب من الحجر ، ولا

أشد من الحديد ، ولا أكثر هيبة من النار ، وقد سخرها لكم ، وسخر الحيوانات أيضا حتى ينتفع بها للأكل والركوب والحمل.

قوله : " والفلك " العامة على نصب " الفلك " وفيه وجهان : أحدهما : أنها عطف على {ما في الأرض} أي سخر لكم ما في الأرض وسخر لكم الفلك ، وأفردها بالذكر وإن اندرجت بطريق العموم تحت " ما " في قوله {ما في الأرض} لظهور الامتنان بها ، ولعجيب تسخيرها دون سائر المسخرات ، و " تجري " على هذا حال.

والثاني : أنها عطف على الجلالة ، وتقديره : ألم تر أن الفلك تجري في البحر ، ف " تجري " خبر على هذا.

وضم لام " الفلك " هنا الكسائي فيما رواه عن الحسن ، وهي قراءة ابن مقسم ، وقرأ أبو عبد الرحمن وطلحة والأعرج وأبو حيوة والزعفراني برفع " والفلك " على الابتداء ، و " تجري " بعده الخبر.

ويجوز أن يكون ارتفاعه

١٤٠

." (١)

"كانت من أسباب السعادة لعمر ، وسبب الشقاوة لعبد الله ، كما قال تعالى : {يضل به كثيرا ويهدي به كثيرا} [البقرة : ٢٦].

فإن قيل : فعلى كل الروايات فقد تكلم البشر ابتداء بمثل نظم القرآن ، وذلك يقدح في كونه معجزا كما ظنه عبد الله.

فالجواب : هذا غير مستبعد إذا كان قدره القدر الذي لا يظهر فيه الإعجاز ، فسقطت شبهة عبد الله.

قوله : {ثم إنكم بعد ذالك لميتون} أي : بعدما ذكر ، ولذلك أفرد اسم الإشارة ، وقرأ العامة " لميتون " ، وزيد بن علي وابن أبي عبلة وابن محيصن " لمائتون " والفرق بينهما : أن الميت يدل على الثبوت والاستقرار ، والمائت على الحدوث كضيق وضائق وفرح وفارح ، فيقال لمن سيموت : ميت ومائت ، ولمن مات : ميت فقط دون مائت ، لاستقرار الصفة وثبوتها ، وسيأتي مثله في الزمر إن شاء الله تعالى.

فإن قيل : الموت لم يختلف فيه اثنان وكم من مخالف في البعث ، فلم أكد المجمع علىه أبلغ تأكيد

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/٣٧٣٩

وترك المختلف فيه من تلك المبالغة في التأكيد ؟ فالجواب : أن البعث لما تظاهرت أدلته وتظافرت ، أبرز في صورة المجمع عليه المستغني عن ذلك ، وأنهم لما لم يعملوا للموت ، ولم يهتموا بأموره ، نزلوا منزلة من ينكره ، فأبرز لهم في صورة المنكر الذي استبعدوه كل استبعاد.

وكان أبو حيان سئل عن ذلك ، فأجاب أن اللام غالبا تخلص المضارع للحال ، ولا يمكن دخولها في " تبعثون " ، لأنه مخلص للاستقبال لعمله في الظرف المستقبل ، واعترض على نفسه بقوله : {وإن ربك ليحكم بينهم يوم القيامة} [النحل : ١٢٤] فإن اللام دخلت على المضارع العامل في ظرف مستقبل وهو " يوم القيامة " فأجاب بأنه خرج هذا بقوله : غالبا ، وبأن العامل في " يوم القيامة " مقدر ، وفيه نظر إذ فيه تهيئة العامل للعمل وقطعه عنه.

و " بعد ذلك " متعلق بـ " ميتون " ، ولا تمنع لام الابتداء من ذلك.

١٨٤

قوله : {ثم إنكم يوم القيامة تبعثون} جعل الإماتة التي هي إعدام الحياة والبعث الذي هو إعادة ما يفنيه ويعدمه دليلين على اقتدار عظيم بعد الإنشاء والاختراع.

فإن قيل : ما الحكمة في الموت ، وهلا وصل نعيم الآخرة وثوابها بنعيم الدنيا فيكون ذلك في الإنعام أبلغ ؟ فالجواب هذا كالمفسدة في حق المكلفين لأنه متى عجل للمرء الثواب فيما يتحمله من المشقة في الطاعات صار إتيانه بالطاعات لأجل تلك المنافع لا لأجل طاعة الله بدليل أنه لو قيل لمن يصوم : إذا فعلت ذلك أدخلناك الجنة في الحال فإنه لا يأتي بذلك الفعل إلا لطلب الجنة ، فلا جرم أخره وبعده بالإماتة ، وهو الإعادة ، ليكون العبد عابدا لطاعته لا لطلب الانتفاع.

فإن قيل : هذه الآية تدل على نفي عذاب القبر ، لأنه قال : {ثم إنكم بعد ذالك لميتون ثم إنكم يوم القيامة تبعثون} ولم يذكر بين الأمرين الإحياء في القبر والإماتة.

فالجواب من وجهين : الأول : أنه ليس في ذكر الحياتين نفي الثالثة.

والثاني : أن الغرض من ذكر هذه الأجناس الثلاثة الإحياء والإماتة والإعادة والذي ترك ذكره فهو من جنس الإعادة.

جزء : ١٤ رقم الصفحة : ١٧٥

قوله تعالى : {ولقد خلقنا فوقكم سبع طرآئق} الآية ، أي : سبع سموات سميت طرائق لتطارقها ، وهو

أن بعضها فوق بعض ، يقال : طارقت النعل : إذا أطبق نعلا على نعل ، وطارق بين الثوبين : إذا لبس ثوبا على ثوب قاله الخليل والزجاج والفراء قال الزجاج : هو كقوله : {سبع سماوات طباقا} [الملك : ٣] وقال علي بن عيسى : سميت بذلك ، لأنها طرائق الملائكة في العروج والهبوط ، وقيل : لأنها طرائق الكواكب في مسيرها.

١٨٥

." (١)

"صحة القرآن الذي لم ينقل بالتواتر ، وفتح هذين البابين يطرق الشك إلى كل القرآن وإنه باطل.

وروي عن الحسن البصري أنه قال : " إن في الكلام تقديما وتاخيرا ، فالمعنى : حتى تسلموا على أهلها وتستأنسوا ".

وهذا أيضا خلاف الظاهر.

وفي قراءة عبد الله : {حتى تسلموا وتستأذنوا} وهو أيضا خلاف الظاهر.

واعلم أن هذا نظير ما تقدم في الرعد : (في) {أفلم ييأس الذين آمنوا اا} [الرعد : ٣١] وتقدم القول فيه.

والاستئناس : الاستعلام (والاستكشاف ، من أنس الشيء : إذا أبصره ، كقوله : {إني آنست نارا} [طه : ١٠] ، والمعنى : حتى تستعلموا الحال ، هل يراد دخولكم ؟) قال : ٣٨٢٥ - كأن رحلي وقد زال النهار بنا

يوم الجليل على مستأنس وحد

جزء : ١٤ رقم الصفحة : ٣٤١

وقيل : هو من " الإنس " بكسر الهمزة ، أي : يتعرف هل فيها إنس أم لا ؟ وحكى الطبري أنه بمعنى : " وتؤنسوا أنفسكم ".

قال ابن عطية : وتصريف الفعل يأبى أن يكون من " أنس ".

٣٤٢

فصل قال الخليل : الاستئناس : الاستبصار من (أنس الشيء إذا أبصره) كقوله : " آنست نارا " أي : أبصرت.

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/٣٧٥٧

وقيل : هو أن يتكلم بتسبيحة أو تكبيرة أو بتنحنح يؤذن أهل البيت.

وجملة حكم الآية أنه لا يدخل بيت الغير إلا بعد السلام والاستئذان.

واختلفوا : هل يقدم الاستئذان أو السلام ؟ فقيل : يقدم الاستئذان ، فيقول : أأدخل ؟ سلام عليكم ، لقوله : " حتى تستأنسوا " أي : تستأذنوا {وتسلموا على أهلها}.

والأكثرون على أنه يقدم السلام فيقول : سلام عليكم ، أأدخل ؟ (" لما روي أن رجلا دخل على النبي - صلى الله عليه وسلم - ولم يسلم ولم يستأذن ، فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - : " ارجع فقل : السلام عليكم ، أأدخل ") وروى ابن عمر أن رجلا استأذن عليه فقال : أأدخل ؟ فقال ابن عمر : لا ، فأمر بعضهم الرجل أن يسلم ، فسلم ، فأذن له.

وقيل إن وقع بصره على إنسان قدم السلام ، وإلا قدم الاستئذان ثم يسلم.

والحكمة في إيجاب تقديم الاستئذان ألا يهجم على ما لا يحل له أن ينظر إليه من عورة ، أو على ما لا يحب القوم أن يعرفه من الأحوال.

فصل عدد الاستئذان ثلاثا لما روى أبو هريرة قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - " الاستئذان ثلاث ، الأولى يستضيئون ، والثانية يستصلحون ، والثالثة يأذنون أو يردون " وعن أبي سعيد الخدري قال : "كنت جالسا في مجلس الأنصار ، فجاء أبو موسى فزعا ، فقلنا له : ما أفزعك ؟ فقال : أخبرني عمر أن آتيه فأتيته ، فاستأذنت ثلاثا ، فلم يؤذن لي ، فرجعت ، فقال : ما منعك أن تأتيني ؟ فقلت : قد جئت فاستأذنت ثلاثا فلم يؤذن لي ، وقد قال عليه السلام - : " إذا استأذن أحدكم ثلاثا فلم يؤذن له فليرجع ".

فقال : لتأتيني (على هذا) بالبينة ، أو لأعاقبنك ، فقال أبو سعيد : لا يقوم معك إلا

٣٤٣

صغير القوم ، قال : فقام أبو سعيد ، فشهد له ".

وفي بعض الروايات أن عمر قال لأبي موسى : لم أتهمك ، ولكن خشيت أن يتقول الناس على رسول الله.

وعن قتادة : " الاستئذان ثلاثة : الأول ليسمع الحي ، والثاني ليتهيأ ، والثالث إن شاء أذن وإن شاء رد ".

وهذا من محاسن الآداب ، لأنه في أول كرة ربما منعهم بعض الأشغال من الإذن ، وفي الثانية ربما كان

هناك ما يمنع ، فإذا لم يجب في الثالثة يستدل بعدم الإذن على مانع.

ويجب أن يكون بين كل واحدة والأخرى وقت ما.

فأما قرع الباب بعنف ، والصياح بصاحب الدار فذاك حرام ، لأنه إيذاء ، وكذا قصة بني أسد وما نزل فيها من قوله : {إن الذين ينادونك من ورآء الحجرات أكثرهم لا يعقلون} [الحجرات : ٤].

فصل في كيفية الوقوف على الباب روى أبو سعيد قال : استأذن رجل على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وهو مستقبل الباب ، فقال عليه السلام : " لا تستأذن وأنت مستقبل الباب ".

" وروي أنه عليه السلام كان إذا أتى باب قوم لم يستقبل الباب من تلقاء وجهه ، ولكن من ركنه الأيمن أو الأيسر ، فيقول : " السلام عليكم " وذلك أن الدور لم يكن عليها يومئذ ستور.

فصل كلمة " حتى " للغاية ، والحكم بعد الغاية يكون بخلاف ما قبلها ، فقوله : {لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا} يقتضي جواز الدخول بعد الاستئذان وإن لم يكن من صاحب البيت إذن.

٣٤٤

". (١)

"والجواب أن الله تعالى جعل الغاية الاستئناس ، ولا يحصل إلا بعد الإذن.

وأيضا فإنا علمنا بالنص أن الحكمة في الاستئذان ألا يدخل الإنسان على غيره بغير إذنه ، فإن ذلك مما يسوؤه ، وهذا المقصود لا يحصل إلا بعد الإذن.

وأيضا قوله : {فإن لم تجدوا فيهآ أحدا فلا تدخلوها (حتى يؤذن لكم}) فمنع الدخول إلا مع الإذن ، فدل على أن الإذن شرط في إباحة الدخول في الآية الأولى.

وإذا ثبت هذا فنقول : لا بد من الإذن أو ما يقوم مقامه ، لقوله عليه السلام " إذا دعي أحدكم فجاء مع الرسول فإن ذلك له إذن ".

وقال بعضهم : إن من جرت العادة بإباحة الدخول فهو غير محتاج إلى الاستئذان.

واعلم أن ظاهر الآية يقتضي قبول الإذن مطلقا سواء كان الآذن صبيا أو امرأة أو عبدا أو ذميا ، فإنه لا يعتبر في هذا الإذن صفات الشهادة ، وكذلك قبول إحضار هؤلاء في الهدايا ونحوها.

فصل ويستأذن على المحارم ، " لما روي أن رجلا سأل النبي – صلى الله عليه وسلم – فقال : " أأستأذن

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل ـ ، ص/٣٨١٧

على أختي ؟ " فقال عليه السلام : " نعم ، أتحب أن تراها عريانة ؟ " وسأل رجل حذيفة : " أأستأذن على أختي ؟ " فقال : " إن لم تستأذن عليها رأيت ما يسوؤك ".

ولعموم قوله : {وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا} [النور : ٥٩] إلا أن ترك الاستئذان على المحارم وإن كان غير جائز أيسر لجواز النظر إلى شعرها وصدرها وساقها ونحوه.

فصل إذا اطلع إنسان في دار إنسان بغير إذنه ففقأ عينه فهي هدر ، لقوله عليه السلام : " من اطلع في دار قوم بغير إذنهم ففقأوا عينه فقد هدرت عينه ".

٣٤٥

وقال أبو بكر الرازي : هذا الخبر ورد على خلاف قياس الأصول ، فإنه لا خلاف أنه لو دخل داره بغير إذنه ففقأ عينه كان ضامنا ، وكان عليه القصاص إن كان عامدا ، والأرش إن كان مخطئا ، والداخل قد اطلع وزاد على الاطلاع ، فظاهر الحديث مخالف لما حصل عليه الاتفاق ، فإن صح فمعناه : من اطلع في دار قوم ونظر إلى حرمهم فمنع فلم يمتنع فذهب عينه في حال الممانعة فهي هدر ، فأما إذا لم يكن إلا النظر ولم يقع فيه ممانعة ولا نهي ثم جاء إنسان ففقأ عينه فهذا جان يلزمه حكم جنايته لظاهر قوله تعالى : " العين بالعين " إلى قوله : " والجروح قصاص ".

وأجيب بأن التمسك بقوله : " العين بالعين " ضعيف ، لأنا أجمعنا على أن هذا النص مشروط بما إذا لم تكن العين مستحقة ، فإنه لو كانت مستحقة القصاص ، فلم قلت : إن من اطلع في دار إنسان لم تكن عينه مستحقة ؟ وأما قوله : إنه لو دخل لم يجز فقء عينه ، فكذا إذا نظر.

والفرق بينهما أنه إذا دخل ، علم القوم بدخوله عليهم ، فاحترزوا عنه وتستروا ، فأما إذا نظر فقد لا يكونون عالمين بذلك فيطلع منهم على ما لا يجوز الاطلاع عليه ، فلا يبعد في حكم الشرع أن يبالغ هنا في الزجر حسما لهذه المفسدة.

وأيضا فرد حديث رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بهذا القدر من الكلام ليس جائزا.

فصل إذا عرض أمر في دار من حريق أو هجوم سارق ، أو ظهور منكر فهل يجب الاستئذان ؟ فقيل : كل ذلك مستثنى بالدليل.

فأما السلام فهو من سنة المسلمين التي أمروا بها ، وهو تحية أهل الجنة ، ومجلبة للمودة ، وناف للحقد والضغائن.

قال عليه السلام : " لما خلق الله آدم ونفخ فيه الروح عطس فقال : الحمد لله ، فحمد الله بإذن الله ، فقال له الله : يرحمك ربك يا آدم ، اذهب إلى هؤلاء الملائكة

٣٤٦

." (١)

"قوله تعالى : {الذي خلق السماوات والأرض} الآية.

لما أمر الرسول بأن يتوكل عليه وصف نفسه بأمور منها : أنه حي لا يموت ، وأنه عالم بجميع المعلومات بقوله {وكفى به بذنوب عباده خبيرا} [الفرقان : ٥٨] ومنها أنه قادر على كل الممكنات ، وهو قوله : {الذي خلق السماوات والأرض} وهذا متصل بقوله : {الحي الذي لا يموت} [الفرقان : ٥٨] لأنه سبحانه لما كان خالقا للسموات والأرض ولكل ما بينهما ثبت أنه القادر على جميع المنافع ودفع المضار ، وأن النعم كلها من جهته فحينئذ لا يجوز التوكل إلا عليه.

و " الذي خلق " يجوز أن يكون مبتدأ ، و " الرحمن " خبره ، وأن يكون خبر مبتدأ مقدر ، أي : هو الذي

٥٥٤

خلق ، وأن يكون منصوبا بفعل مضمر ، وأن يكون صفة للحي الذي لا يموت ، أو بدلا ، أو بيانا هذا على قراءة " الرحمن " بالرفع ومن قرأه بالجر فيتعين أن يكون " الذي خلق " صفة للحي فقط.

قوله : {في ستة أيام} فيه سؤال ، وهو أن الأيام عبارة عن حركة الشمس في السموات فقيل السموات لا أيام ، فكيف قال : خلقها في ستة أيام ؟ والجواب : في مدة مقدارها (هذه المدة) ، لا يقال : الشيء الذي يتقدر بمقدار محدود ويقبل الزيادة والنقصان والتجزئة لا يكون عدما محضا بل لا بد وأن يكون موجودا فيلزم من وجوده وجود مدة قبل وجود العالم وذلك يقتضي قدم الزمان ، لأنا نقول : هذا معارض بنفس الزمان ، لأن المدة المتوهمة المحتملة لعشرة أيام لا تحتمل بخمسة أيام والمدة المتوهمة المحتملة لخمسة أيام لا تحتمل عشرة أيام فيلزم أن يكون للمدة مدة أخرى ، فلما لم يلزم من هذا قدم الزمان لم يلزم ما قلتموه ، وعلى هذا نقول لعل الله سبحانه خلق المدة أولا ثم خلق السموات والأرض فيها بمقدار ستة أيام.

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/٣٨١٨

وقيل : في ستة أيام من أيام الآخرة كل يوم مقداره ألف سنة.

وهو بعيد ، لأن التعريف لا بد وأن يكون بأمر معلوم لا بأمر مجهول.

فإن قيل : لم قدر الخلق والإيجاد بهذا المقدار ؟ فالجواب على قول أهل السنة المشيئة والقدرة كافية للتخصيص ، وقالت المعتزلة : لا بد وأن يكون من حكمة وهو أن التخصيص بهذا المقدار أصلح ، وهذا بعيد لوجهين : الأول : أن حصول تلك الحكمة إما أن يكون واجبا لذاته أو جائزا ، فإن كان واجبا وجب أن لا يتغير فيكون حاصلا في كل الأزمنة فلا يصلح أن يكون سببا لزمان معين ، وإن كان جائزا افتقر حصول تلك الحكمة في ذلك الوقت إلى مخصص آخر ، ولزم التسلسل.

والثاني : أن التفاوت بين كل واحد مما لا يصل إليه خاطر المكلف وعقله فحصول ذلك التفاوت لما لم يكن مشعورا به كيف يقدح في حصول المصالح.

ooo

واعلم أنه يجب على المكلف سواء كان على قولنا أو على قول المعتزلة أن يقطع الطمع عن أمثال هذه الأسئلة ، فإنه بحر لا ساحل له ، كتقدير ملائكة النار بتسعة عشر ، وحملة العرش بثمانية ، والسموات بالسبع ، وعدد الصلوات ، ومقادير النصب في الزكوات ، وكذا في الحدود ، والكفارات ، فالإقرار بكل ما قال الله حق هو الدين ، والواجب ترك البحث عن هذه الأشياء ، وقد نص الله على ذلك في قوله تعالى : {وما جعلنآ أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا اا إيمانا ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذآ أراد الله بهاذا مثلا} [المدثر : ٣١] ثم قال : {وما يعلم جنود ربك إلا هو} [المدثر : ٣١] ، وهو الجواب أيضا في أنه لم لم يخلقها في لحظة وهو قادر على ذلك.

وعن سعيد بن جبير : إنما خلقها في ستة أيام وهو يقدر أن يخلقها في لحظة تعليما لخلقه الرفق والتثبت.

وقيل : ثم خلقها في يوم الجمعة فجعله الله عيدا للمسلمين.

قوله : {ثم استوى على العرش} لا يجوز حمله على الاستيلاء والقدرة ؛ لأن أوصاف الله لم تزل ، فلا يصح دخول " ثم " فيه.

ولا على الاستقرار ، لأنه يقتضي التغيير الذي هو دليل الحدوث ، ويقتضي التركيب ، وكل ذلك على الله محال ، بل المراد أنه خلق العرش ورفعه.

فإن قيل : يلزم أن يكون خلق العرش بعد خلق السموات وليس كذلك لقوله تعالى : {وكان عرشه على المآء} [هود : ٧].

فالجواب : كلمة " ثم " ما دخلت على خلق العرش بل على رفعه على السموات.

قوله : " الرحمن " قرأ العامة بالرفع ، وفيه أوجه : أحدها : أنه خبر " الذي " ، أو خبر مبتدأ مضمر ، أي : الرحمن ، ولهذا أجاز الزجاج وغيره الوقف على العرش ثم يبدأ الرحمن ، أي : هو الرحمن الذي لا ينبغي السجود والتعظيم إلا له ، أو يكون بدلا من الضمير في " استوى " أو يكون مبتدأ وخبره

٥٥٦

الجملة من قوله " فاسأل " على رأي الأخفش كقوله :

" (١).

"ولو كان ذا اسمها لقال معروفا ، وابن عطية منع ذلك في الآية ، قال : لأن تفسير الأمر والشأن لا يكون بجملة فيها محذوف ، كأنه يريد أن الجار متعلق بمحذوف وضمير الشأن لا يفسر إلا بجملة مصرح بجزيئها إلا أن في هذا نظرا إن أراده ، لأن هذا الجار قائم مقام الخبر ولا أظن أحدا يمنع : هو السلطان في البلد ، وهي الدار ، والخيرة : من التخير كالطيرة من التطير فيستعملان استعمال المصدر ، وقال الزمخشري {ما كان لهم الخيرة} بيان لقوله " ويختار " ، لأن معناه : ويختار ما يشاء ولهذا

٢٨٢

لم يدخل العاطف ، والمعنى أن الخيرة لله في أفعاله وهو أعلم بوجوه **الحكمة فيها** ليس لأحد من خلقه أن يختار عليه.

قال شهاب الدين : لم يزل الناس يقولون : إن الوقف على " يختار " والابتداء بما على أنها نافية هو مذهب أهل السنة ، ونقل ذلك عن جماعة كأبي وغيره ، وأن كونها موصولة متصلة " يختار " غير موقوف عليه هو مذهب المعتزلة ، وهذا الزمخشري قد قرر كونها نافية وحصل غرضه في كلامه وهو موافق لكلام أهل السنة ظاهرا وإن كان لا يريده ، وهذا الطبري من كبار أهل السنة منع أن تكون نافية ، قال : لئلا يكون المعنى : أنه إن لم يكن لهم الخيرة فيما مضى وهي لهم فيما يستقبل ، وأيضا فلم يتقدم نفي ، وهذا الذي قاله ابن جرير مروي عن ابن عباس ، وقال بعضهم : ويختار لهم ما يشاؤه من الرسل فـ " ما " على هذا

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/٣٩٠٠

واقعة على العقلاء.
فصل إن قيل : " ما " للإثبات فمعناه : ويختار الله ما كان لهم الخيرة ، أي : يختار ما هو الأصلح والخير ، وإن قيل : ما للنفي أي : ليس إليهم الاختيار ، أو ليس لهم أن يختاروا على الله كقوله : {وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم} [الأحزاب : ٣٦] ثم قال منزها نفسه سبحانه وتعالى " عما يشركون " أي : إن الخلق والاختيار والإعزاز والإذلال مفوض إليه ليس لأحد فيه شركة ومنازعة ثم أكد ذلك بأنه {يعلم ما تكن صدورهم} من عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم " وما يعلنون " من مطاعنهم فيه ، وقولهم : هلا اختير غيره في النبوة ، .
ولما بين علمه بما هم عليه من الغل والحسد والسفاهة قال : {وهو الله لا اا إله إلا هو له الحمد في الأولى والآخرة} ، وهذا تنبيه على كونه قادرا على كل الممكنات عالما بكل المعلومات منزها عن النقائص والآفات {له الحمد في الأولى والآخرة} وهذا ظاهر على مذهب أهل السنة لأن الثواب غير واجب عليه بل يعطيه فضلا وإحسانا ، و {له الحمد في الأولى والآخرة} ويؤكد قول أهل الجنة {الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن} [فاطر : ٣٤].
{الحمد لله الذي صدقنا وعده} [الزمر :
٢٨٣
٧٤] {وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين} [يونس : ١٠] " وله الحكم " وفصل القضاء بين الخلق ، قال ابن عباس : حكم لأهل طاعته بالمغفرة ولأهل المعصية بالشقاء " وإليه ترجعون " أي : إلى حكمه وقضائه.
جزء : ١٥ رقم الصفحة : ٢٨١
قوله تعالى : {قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا} الآية ، لما بين بقوله {وهو الله لا اا إله إلا هو له الحمد في الأولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون} [القصص : ٧٠] فصل عقيب ذلك ببعض ما يجب أن يحمد عليه بما لا يقدر عليه سواه ، فقال : {قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا} ، نبه بذلك على كون الليل والنهار نعمتان متعاقبتان على الزمان ، ووجهه أن المرء في الدنيا مضطر إلى أن يتعب لتحصيل ما يحتاج إليه ولا يتم ذلك إلا براحة وسكون بالليل ولا بد منها والحالة هذه ، فأما في الجنة فلا نصب ولا تعب ولا حاجة بهم إلى الليل ، ولذلك يدوم لهم الضياء واللذات ، فبين بذلك أن القادر على

ذلك ليس إلا الله فقال : " قل أرأيتم " أخبروني يا أهل مكة {إن جعل الله عليكم الليل سرمدا} دائما {إلى يوم القيامة{ لا نهار معه {من إله غير الله يأتيكم بضيآء} بنهار تطلبون فيه المعيشة " أفلا تسمعون " سماع فهم وقبول ؟ قوله : أرأيتم ، وجعل تنازعا في " الليل " وأعمل الثاني ومفعول " أرأيتم " هي جملة الاستفهم بعده والعائد منها على الليل محذوف تقديره : بضياء بعده ، وجواب الشرط محذوف ، وتقدم تحرير هذا في الأنعام ، وسرمدا مفعول ثان إن كان

٢٨٤

الجعل تصييرا ، أو حال إن كان خلقا وإنشاء ، والسرمد : الدائم الذي لا ينقطع قال طرفة : ٤٠١٥ -

لعمرك ما أمري علي بغمة

نهاري ولا ليلي علي بسرمد

." (١)

"سورة العنكبوت

مكية إلا عشر آيات من أولها إلى قوله : "وليعلمن المنافقين".

قال الشعبي : فإنها مدنية.

وهي تسع وستون آية ، وألف وتسعمائة وإحدى وثمانون كلمة ، وأربعة آلافومائة وخمسة وتسعون(حرفا).

جزء : ١٥ رقم الصفحة : ٣٠٤

اعلم أن منكري الحشر يقولون لا فائدة في التكاليف ، فإنها مشاق في الحال ، ولا فائدة لها في المآل ؛ إذ لا مآل ولا مرجع بعد الهلاك والزوال ، فلما بين الله تعالى أنهم إليه يرجعون في آخر السورة قبلها بين أن الأمر ليس على ما حسبوه ، بل (حسن التكليف) ، لأنه يهذب الشكور ويعذب الكفور ، فقال : {أحسب الناس أن يتركوا} غير مكلفين من غير عمل يرجعون به إلى ربهم.

فصل في حكمة افتتاح هذه السور بحروف التهجي ولنذكر كلاما كليا في افتتاح السور بالحروف.

اعلم أن الحكيم إذا خاطب من يكون محل الغفلة ، أو من يكون مشغول البال بشغل يشغله يقدم على الكلام المقصود سببا غيره لي{تفت المخاطب (إليه) بسببه ، ويقبل بقلبه عليه ، ثم يشرع في المقصود.

واعلم أن ذلك المتقدم على الكلام (المقصود قد يكون كلاما له معنى مفهوما ، كقول القائل : " زيد ، ويا

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل ـ ، ص/٤٠١٨

زيد " و " ألا زيد ".

٣٠٥

وقد يكون المقدم صوتا) غير مفهوم ، كمن يصفر خلف إنسان ليلتفت وقد يكون الصوت بغير افم ، كتصفيق الإنسان بيده ، ليقبل السامع عليه.

ثم إن توقع الغفلة (كلما كان أتم ، والكلام المقصود كان أهم) ، كان المقدم على الكلام المقصود أكثر ولهذا ينادى القريب " بالهمزة " فيقال : " أزيد " ، والبعيد بـ " يا " ، فيقال : " يا زيد " ، والغافل ينبه أولا ، فيقال : " ألا يا زيد ".

إذا تقرر هذا فنقول : النبي – صلى الله عليه وسلم – وإن كان يقظان الجنان لكنه إنسان يشغله شأن عن شأن ، فحسن من الحكيم أن يقدم على الكلام المقصود حروفا هي كالمنبهات.

وتلك الحروف إذا لم يفم معناها تكون أتم في إفادة المقصود الذي هو التنبيه من تقديم الحروف المفهومة ، لأن الحروف إذا كانت مفهومة المعنى ، وذكرت لإقبال السامع على المتكلم لكي يسمع ما بعد ذلك فربما يظن السامع أنه كل المقصود و " لا " كلام بعد ذلك فيقطع الالتفات عنه أما إذا سمع صوتا بلا معنى فإنه يقبل عليه ولا يقطع نظره عنه ما لم يسمع غيره ، لجزمه بأن ما سمعه ليس هو المقصود.

فإذن تقديم الحروف التي لا يفهم معناها على الكلام المقصود فيه حكمة بالغة.

فإن قيل : فما الحكمة في اختصاص بعض السورة بهذه الحروف ؟ فالجواب : قال ابن الخطيب : عقل البشر يعجز عن إدراك الأشياء الكلية على تفاصيلها ، لكن نذكر ما يوفقنا الله له فنقول : كل سورة في أوائلها (حروف التهجي فإن في أوائلها) ذكر الكتاب أو التنزيل ، أو القرآن كقوله تعالى : {الاما ذلك الكتاب} [البقرة : ١ – ٢] ، {الاما الله لا اا إلاه إلا هو الحي القيوم} [آل عمران : ١ – ٣] ، {الاماصا كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك} [الأعراف : ١ – ٢] ، {يسا والقرآن الحكيم} [يس : ١ – ٢] ، {الاما تنزيل الكتاب} [السجدة : ١ – ٢] ، {حما تنزيل} [غافر : ١ – ٢] {قا

٣٠٦." (١)

"والقرآن المجيد} [ق : ١ – ٢].

{صا والقرآن ذي الذكر} [ص : ١ – ٢](إلا ثلاث سور) {كاهيعاصا} [مريم : ١] {الاما أحسب

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/٤٠٢٧

الناس} [العنكبوت : ١ - ٢] {الـما غلبت الروم} [الروم : ١ - ٢].

والحكمة في افتتاح السور التي فيها الكتاب والتنزيل والكتاب بالحروف (و) هي أن القرآن عظيم ، والإنزال له أثقل ، كما قال تعالى : {إنا سنلقي عليك قولا ثقيلا} [المزمل : ٥] ، فكذلك قدم عليها تنبيه يوجب ثبات المخاطب لاستماعه.

لا يقال : كل سورة قرآن ، واستماعها استماع للقرآن ، سواء كان فيها ذكر الكتاب أو التنزيل أو القرآن أو لم يكن فيجب أن يكون في أول كل سورة (منبه) ، وأيضا فقد وردت سور فيها ذكر الإنزال ، والكتاب ، وليس فيها حروف ، كقوله تعالى : {الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا} [الكهف : ١] {سورة أنزلناها وفرضناها} [النور : ١] {تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا} [الفرقان : ١] {إنا أنزلناه في ليلة القدر} [القدر : ١] لأنا نقول جوابا عن الأول : (لا ريب) في أن كل سورة من القرآن ، لكن السورة التي فيها ذكر القرآن والكتاب - مع أنهما من القرآن - فيها تنبيه على كل القرآن ، فإن قوله تعالى : {طه مآ أنزلنا عليك القرآن لتشقى } [طه : ١ - ٢] مع أنها بعض القرآن فيها ذكر جميع القرآن ، فيصير مثاله كتاب يرد من ملك على مملوكه فيه شغل ما ، وكتاب آخر يدر منه عليه فيه : " إنا كتبنا إليك كتابا فيه أمرنا فامتثله " فلا شك أن هذا الكتاب الآخر أكثر ثقلا من الأول.

وعن الثاني : أن قوله : " الحمد لله ، وتبارك الذي " تسبيحات مقصودة ، وتسبيح الله لا يغفل عنه العبد ، فلا يحتاج إلى منبه ، بخلاف الأوامر والنواهي ، وأما ذكر الكتاب فيها فلبيان وصف عظمة من له التسبيح ، و " سورة أنزلناها " قد بينا أنها بعض من القرآن فيها ذكر إنزالها ، وفي السورة التي ذكرناها ذكر جميع القرآن فهو أعظم وأثقل.

وأما قوله تعالى : " إنا أنزلناه " فهذا ليس وردا على مشغول القلب بشيء غيره ، بدليل أنه ذكر الكتاب فيها وهي ترجع إلى مذكور سابق أو معلوم عند النبي - صلى الله عليه وسلم - فكان منبها له فلم ينبه.

واعلم أن التنبيه قد حصل في القرآن بغير الحروف التي لا يفهم معناها ، كقوله تعالى : { يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم} [الحج : ١] ، وقوله : { يا أيها النبي اتق الله} [الأحزاب : ١] ، { يا أيها النبي لم تحرم} [التحريم : ١] لأنها أشياء هائلة

٣٠٧

عظيمة ، فإن تقوى الله حق تقاته أمر عظيم فقدم عليها النداء الذي يكون للبعيد الغافل عنها.

وأما هذه السور افتتحت بالحروف وليس فيها الابتداء بالكتاب والقرآن ، وذلك لأن ثقل القرآن هو ما فيه من التكاليف والمعاد ، وهذه السورة فيها ذكر جميع التكاليف حيث قال : {أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا " يعني لا يتركون بمجرد ذلك ، بل لا بد وأن يؤمنوا بأنواع التكاليف ، ففيها المعنى الذي في السورة التي ذكر يها القرآن المشتمل على الأومر والنواهي.

فإن قيل : فهذا المعنى ورد في سورة التوبة وهو قوله : {برآءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين} [التوبة : ١] ولم يقدم عليه حروف التهجي!.

فالجواب : أن هذا ابتداء كلام ، ولهذا وقع الاستفهام بالهمزة ، فقال : " أحسب " ، وذلك وسط كلام بدليل وقوع الاستفهام تاما ، والتنبيه (يكون) في أول الكلام ، لا في أثنائه.

وأما {الىما غلبت الروم} فسيجيء في موضعه إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى : {أحسب الناس أن يتركوا اا أن يقولوا اا آمنا}.

قوله : " أن يتركوا " سد مفعولي " حسب " عند الجمهور ، ومسد أحدهما عند الأخفش.

قوله : " أن يقولوا " فيه أوجه : أحدها : أنه بدل من " أن يتركوا " ، أبدل مصدرا مؤولا من مثله.

الثاني : أنها على إسقاط الخافض ، وهو الباء واللام ، أي : بأن يقولوا ، أو لأن يقولوا.

٣٠٨

." (١)

"السدي ، ابن زيد هذا (في) المنافق إذا أوذي في الله رجع عن الدين وكفر.

واعلم أنه قال : " فتنة الناس " ولم يقل : " عذاب الناس " ؛ لأن فعل العبد ابتلاه من الله ، والفتنة تسليط بعض الناس على من أظهر كلمة الإيمان ليؤذيه فبين منزلته ، كما جعل التكاليف ابتلاء وامتحانا ، وهذا إشارة (إلى) أن الصبر على البلية الصادرة (من الإنسان) كالصبر (على العبادات) فإن قيل : هذا يقتضي منع المؤمن من إظهار كلمة الكفر بالإكراه لأن من أظهر كلمة الكفر بالإكراه - احترازا عن العذيب العاجل - يكون قد جعل فتنة الناس كعذاب الله.

فالجواب : ليس كذلك لأن من أكره على الكفر وقلبه مطمئن بالإيمان لم يجعل فتنة الناس كعذاب الله لأن عذاب الله يوجب ترك ما يعذب عليه ظاهرا وباطنا بل في بطنه الإيمان.

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/٤٠٢٨

قوله : {ولئن جآء نصر من ربك} أي فتح ودولة للمؤمنين " ليقولن " يعني هؤلاء المنافقين للمؤمنين {إنا كنا معكم} على عدوكم ، وقال : {ولئن جآء نصر من ربك} ولم يقل : " ولئن جاءكم " " ولئن جاءك " والنصر لو جاءهم ما كانوا يقولون إنا معكم ، وهذا يقتضي أن يكونوا قائلين : " إنا معكم " إذا جاء النصر لا يجيء إلا للمؤمنين كما قال تعالى : {وكان حقا علينا نصر المؤمنين} [الروم : ٤٧] ، ولأن غلبة الكافر على المسلم ليس بنصر ، لأن النصر ما يكون عاقبته سليمة ، بدليل أن أحد الجيشين إذا انهزم في الحال ثم ذكر المهزوم كرة أخرى وهزموا الغالبين لا يطلق اسم النصر إلا على من كان له العاقبة فكذلك المسلم وإن كسر في الحال فالعاقبة للمتقين ، اولنصر لهم في الحقيقة.

فإن قيل : {ولئن جاء نصر من ربك} ولم يقل : " من الله " من أن ما تقدم كله يذكر الله كقوله : {أوذي في الله} ، وقوله : "كعذاب الله " فما الحكمة في ذلك ؟ فالجواب : لأن - " الرب " - اسم مدلوله الخاص به الشفقة والرحمة ، و " الله " اسم مدلوله الهيبة والعظمة ، فعند النصر ذكر الاسم الدال على الرحمة والشفقة ، وعند العذاب ذكر اللفظ الدال على العظمة.

قوله : " ليقولن " العامة على ضم اللام ، أسند الفعل

٣٢١

لضمير جماعة ، حملا على معنى " من " بعد أن حمل على لفظها ، ونقل أبو معاذ النحوي أنه قراىء : ليقولن بالفتح ، جريا على مراعاة لفظها أيضا ، وقراءة العامة أحسن لقوله : " إنا كنا ".

فصل المعنى : إن المنافقين لما قالوا إنا كنا معكم ، أي على عدوكم وكنا مسلمين ، وإنما أكرهنا حتى قلنا ما قلنا فكبهم (الله) وقال : {أو ليس الله بأعلم بما في صدور العالمين} من الإيمان والنفاق ولما بين أنه علم بما في قلوب العالمين بين أنه يعلم المؤمن المحق وإن لم يتكلم ، والمنافق وإن لم يتكلم فقال : {وليعلمن الله الذين آمنوا} صدقوا فثبتوا على الإسلام عند البلاء ، " وليعلمن المنافقين " بترك الإسلام عند البلاء ، وتقدم الكلام على (نظر) ذلك.

(قال عكرمة) عن ابن عباس إنها نزلت في الذين أخرجهم المشركون معهم إلى " بدر " ، وهم الذين نزلت فيهم : {إن الذين آمنوا وليعلمن المنافقين} ، وقال مجاهد : نزلت في أناس كانوا يؤمنون بألسنتهم فإذا أصابهم بلاء من الناس ، أو مصيبة في أنفسهم افتتنوا ، وقال قتادة : نزلت في القوم الذين ردهم المشركون إلى مكة.

جزء : ١٥ رقم الصفحة : ٣٢٠
". (١)

"قال قطرب : ما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء لو كنتم فيها ، كقول القائل : (لا) يفوتني فلان هاهنا ولا في البصرة أي ولا بالبصرة لو كان بها كقوله تعالى {إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض} [الرحمن : ٣٣] ، أي على تقدير أن يكونوا فيها ، وأبعد من ذلك من قدره موصولين محذوفين ؛ أي) وما أنتم مبعجزين من في الأرض من الجن والإنس ، ولا من في السماء من الملائكة فكيف تعجزون خالقها (و) على قول الجمهور يكون المفعول محذوفا أي وما أنتم بمعجزين أين فائتين ما يريد الله بكم.

فصل اعلم أن إعجاز المعذب عن التعذيب إما بالهرب منه ، أو بالثبات ومدافعته فذكر الله تعالى القسمين فقال : {وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء} ، يعني بالهرب لو صعدتم إلى السماء ، أو هربتم إلى تخوم الأرض (لم) تخرجوا من قبضة قدرة الله - عز وجل - ، فلا مطمع في الإعجاز بالهرب ، وأما بالثبات فكذلك لأن الإعجاز بالثبات إما أن يكون بالاستناد إلى ركن شديد يشفع ، ولا يمكن المعذب مخالفته فيفوته المعذب ، ويعجز عنه أو بالانتصار بقوي يدافعه ، وكلاهما محال فلهذا قال : {وما لكم من دون الله من ولي} يشفع {ولا نصير} يدفع.

فإن قيل : ما الحكمة في قوله : {وما أنتم بمعجزين} ولم يقل : " ولا تعجزن " بصيغة الفعل ؟ فالجواب : لأن نفي الفعل لا يدل على نفي الصلاحة فإن من قال : إن فلانا لا يخيط لا يدل على ما يدل عليه انه ليس بخائط ، وقدم " الأرض " على " السماء " ، و " الولي " على " النصير " ؛ لأن هربهم الممكن في الأرض ، فإن كان يقع منهم هرب فإنه يكون في الأرض ، ثم إن فرضنا لهم قدرة غير ذلك فيصعدون في السماء وأما الدفع فإن العاقل متى أمكنه الدفع فأجمل الطرق فيه الشفاعة ، لأن ما من أحد في الشاهد إلا ويكون له شفيع يتكلم في حقه عند ملكن وليس لكل أحد ناصر يعادي الملك فلذلك قدم الأرض على السماء ، والولي على النصير.

٣٣٥

جزء : ١٥ رقم الصفحة : ٣٣٣

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/٤٠٣٤

قوله تعالى : {والذين كفروا بآيات الله ولقآئه} أي بالقرآن وبالبعث {أولـائك يئسوا من رحمتي} يوم القيامة فإن قيل : هلا اكتفي بقوله : " أولئك " مرة واحدة ؟ فالجواب : أن لك لفائدة وهو أنه لو قال أولئك يئسوا وهم في عذاب أليم ذهب (ذاهب) إلى أن هذا المجموع منحصر فيهم ، فلا يوجد المجموع إلا فيهم.
(و) أضاف الرحمة إلى نفسه في قوله تعالى : {يئسوا من رحمتي} وأضاف اليأس إليهم بقوله : " يئسوا " إعلاما لعباده بعموم رحمته.
قوله تعالى : {فما كان جواب قومه} العامة على نصبه والحسن وسالم الأفطس برفعه وتقدم تحقيق هذا.
هذه الآيات في تذكير أهل إبراهيم وتحذيرهم وهي معترضة في قصة " إبراهيم " صلوات الله عليه ، ثم عاد إلى قصة " إبراهيم " فقال تعالى : {فما كان جواب قومه إلا أن قالوا اقتلوه أو حرقوه}.
لما أقام إبراهيم صلوات الله عليه بالبرهان على الأصول الثلاثة لم يجيبوه إلا بقولهم {اقتلوه أو حرقوه} فإن قيل : كيف سمى قولهم : اقتلوه جوابا مع أنه ليس بجواب ؟ فالجواب عند من وجهين : أحدهما : أنه خرج مخرج كلام متكبر ، كما يقول الملك لرسول خصمه : جوابكم السيف ، مع أن السيف ليس بجوابه وإنما معناه لا أقابل بالجواب وإنما أقابل بالسيف.
وثانيهما : أن الله تعالى أراد بيان (ضلالتهم) وأنهم ذكروا ما ليس بجواب في
٣٣٦
." (١)

"معرض الجواب فبين أنهم لم يكن لهم جواب أصلا ، وذلك أن من لا يجيب غيره ويسكت لا يعلم (أنه لا يقدر أم لا) لجواز أن يكون سكوته لعدم الالتفات ، وأما إذا أجاب بجواب فاسد علم أنه قصد الجواب وما قدر عليه.
فصل " أو " تذكر لأمرين الثاني منهما لا ينفك عن الأول ، كما يقال : " زوج أو فرد " ، ويقال : هذا إنسان أو حيوان ، يعني إن لم يكن إنسانا فهو حيوان ، ولايصح أن يقال : " هذا حيوان أو إنسان " إذ يفهم منه أن يقول : هذا حيوان ، فإن لم يكن حيوانا فهو إنسان ، وهذا فاسد ، وإذا كان كذلك فالتحريق مشتمل على القتل ، فقوله : " اقتلوه أو حرقوه " كقولك : هذا إنسان أو حيوان.
فالجواب عن هذا من وجهين.

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/٤٠٤٠

أحدهما : أن الاستعمال على خلاف ما ذكر شائع كقولك : أعطه دينارا أو دينارين.

قال تعالى : {قم الليل إلا قليلا نصفه أو انقص منه قليلا أو زد عليه} [المزمل : ٢ - ٤] فكذا هاهنا قال : اقتلوه أو زيدواعلى القتل لأن التحريق قتل وزيادة.

الثاني : سلمنا ما ذكرتم ، والأمر هنا كذلك لأن التحريق فعل مفض إلى القتل ، وقد يتخلف عنه القتل فإن من ألقي في النار حتى احترق جلده بأسره وأخرج منها حيا يصح أن يقال : احترق فلان ، وأحرق وما مات.

فكذلك هاهنا قال : اقتلوه ولا تعجلوا قتله وعذبوه بالنار ، فإن ترك مقالته فخلو سبيله وإن أصر فاتركوه في النار.

قوله تعالى : {فأنجاه الله من النار} ، قيل : بردت النار وقيل : خلق في إبراهيم صلوات الله (وسلامه) عليه كيفية استبردت النار.

وقيل : ترك إبراهيم (على) ما كان عليه (والنار على ما كانت عليه) ومنع أذى النار عنه ، والكل ممكن والله قادر عليه.

قوله تعالى : {إن في ذالك لآيات لقوم يؤمنون} فإن قيل : ما **الحكمة في** قوله هناك " آية للعالمين " في إنجاء نوح صلوات الله (وسلامه) عليه وأصحاب السفينة جعلناها آية وقال هاهنا آيات بالجمع , فما الحكمة ؟

٣٣٧

فالجواب : إن إنجاء السفينة شيء يتسع له العقول ، فلم يكن فيه من الآية إلا إعلام الله تعالى إياه بالإنجاء وقت الحاجة بسبب أن الله تعالى صان السفينة عن المهلكات كالرياح ، وأما الإنجاء من النار فعجيب فقال فيه لآيات فإن قيل : ما **الحكمة في** قوله تعالى هنا : " آية للعالمين " وقال هنا " لقوم يؤمنون " فخص الآيات بالمؤمنين ؟ فالجواب : أن السفينة بقيت أعواما حتى مر عليها الناس ورأوها فحصل العلم بها لكل أحد ، وأما تبريد النار فلم يبق فلم يظهر (لمن بعده) إلا بطريق الإيمان والتصديق ، وفيه لطيفة (وهو) أن الله تعالى لما برد النار على إبراهيم بسبب اهتدائه في نفسه وهدايته لأبناء جنسه ، وقد قال الله تعالى للمؤمنين بأن لهم أسوة في إبراهيم ، فحصل للمؤمنين بشارة بأن الله تبارك وتعالى يبرد عنه النار يوم القيامة ، فقال : {إن في ذالك لآيات لقوم يؤمنون} ، فإن قيل : لم قال هناك : " جعلناها " ، (وقال هنا

جعلناه) ؟ فالجواب : لأن السفينة ما صارت آية في نفسها ، ولولا خلق الله الطوفان لبقي فعل نوح (سفها) فالله تعالى جعل السفينة بعد وجودها آية ، وأما تبريد النار فهو في نفسه (آية) إذا وجدت لا تحتاج إلى شيء آخر كخلق الطوفان حتى يصير آية.

قوله : " إنما اتخذتم " في " ما " هذه ثلاثة أوجه : أحدها : أن تكون موصولة بمعنى الذي ، والعائد محذوف وهو المفعول الأول ، و " أوثانا " مفعول ثان ، والخبر " مودة " في قراءة من رفع كما سيأتي ، والتقدير : إن الذي اتخذتموه أوثانا مودة أي ذو مودة أو جعل نفس المودة محذوف على قراءة من نصب " مودة " أي الذي اتخذتموه أوثانا لأجل المودة لا تنفكم ، أو يكون " عليكم " لدلالة قوله : {ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض}.

والثاني : أن تجعل " ما "كافة ، و " أوثانا " مفعول به ، والاتخاذ هنا يتعدى لواحد

٣٣٨

." (١)

"أو لاثنين والثاني هو {من دون الله} فمن رفع " مودة "كانت خبر مبتدأ مضمر أي هي مودة أي ذات مودة ، أو جعلت نفس المودة مبالغة والجملة حينئذ صفة " لأوثانا " ، أو مستأنفة ، ومن نصب كانت مفعولا به ، أو بإضمار " أعني ".

الثالث : أن تجعل " ما " مصدرية ، وحينئذ يجوز أن تقدر مضافا من الأول أي أن سبب اتخاذكم أوثانا من دون الله (مودة فيمن رفع مودة ، ويجوزأن لا يقدر بل يجعل نفس الاتحاد) هو المودة مبالغة (و) في قراءة من نصب يكون الخبر محذوفا على ما مر في الوجه الأول.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي برفع " مودة " غير منونة ، وجر " بينكم " ، ونافع وابن عامر وأبو بكر بنصب " مودة " (منونة ونصب " بينكم " وحمزة وحفص بنصب " مودة ") غير منونة وجر بينكم ، فالرفع قد تقدم ، والنصب أيضا تقدم فيه وجهان.

ويجوز وجه ثالث وهو أن يجعل مفعولا ثانيا على المبالغة والإضافة للاتساع في الظرف كقولهم : " يا سارق الليلة أهل الدار " من صبه فعلى أصله ، ونقل عن عاصم أنه رفع " مودة " غير منونة ، ونصب بينكم وخرجت إضافة " مودة " للظرف ،

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/٤٠٤١

٣٣٩
وإنما بني لإضافته إلي غير متمكن كقراءة : {لقد تقطع بينكم} بالفتح إذا جعلنا (بينكم) فاعلا ، وأما " في الحياة " ففيه أوجه : أحدها : أنه هو وبينكم متعلقان " بمودة " إذا نونت جاز تعلقها بعامل واحد لاختلافهما.

الثاني : أن يتعلقا بمحذوف على أنهما صفتان لـ " المودة ".

الثالث : أن يتعلق " بينكم " " بمودة " و " في الحياة " صفة لمودة ، ولا يجوز العكس لئلا يلزم إعمال المصدر الموصوف ، والفرق بينه وبين الأول عمل فيه المصدر قبل أن يوصف ، وهذا عمل فيه بعد أن وصف ، على أن ابن عطية جوز ذلك هو وغيره ، وكأنهم اتسعوا في الظرف ، فهذا وجه رابع.

الخامس : أن يتعلق " في الحياة " بنفس " بينكم " لأنه بمعنى الفعل ، (إذ) التقدير : اجتماعكم ووصلكم.

السادس : أن يكون حالا من نفس " دينكم ".

السابع : أن يكون " بينكم " صفة المودة و " في الحياة " ، حال من الضمير المستكن فيه.

الثامن : أن يتعلق " في الحياة " " باتخذتم " على أن يكون " ما "كافة و " مودة " منصوبة ، قال أبو البقاء : لئلا يؤدي إلى الفصل بين الموصول وما في الصلة (بالخبر).

قوله : " وقال " يعني إبراهيم {إنما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم} ، فعلى قراءة رفع " مودة " وخفض " بينكم " بالإضافة يكون المعنى : اتخذتم من دون الله أوثانا وهي مودة بينكم في الحياة الدنيا ثم تنقطع ولا تنفع في الآخرة ، ومن خفض " مودة " من غير تنوين على الإضافة لوقوع الاتخاذ عليها ، ومن نصب " مودة " ونونها ونصب " بينكم "

٣٤٠
فالمعنى : إنكم إنما اتخذتم هذه الأوثان مودة بينكم في الحياة الدنيا تتوادون على عبادتها ، وتتواصلون عليها في الدنيا {ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم} تتبرأ الأوثان من عبادة عباديها وتتبرأ السادة من الأتباع ، ويلعن الأتباع القادة.

ومأواكم النار جميعا ، العابدون والمعبودون {وما لكم من ناصرين}.

فإن قيل : (قال قبل هذا) ومأواكم النار ، وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير على لفظ الواحد.

وقال هنا : {وما لكم من ناصرين} على لفظ الجمع فما **الحكمة فيه** ؟ فالجواب : أنهم لما أرادوا إحراق

إبراهيم عليه (الصلاة و) السلام ، قالوا : نحن ننصر آلهتنا ، كما قال تعالى (عنهم) : حرقوه وانصروا آلهتكم ، فقال : أنتم ادعيتم أن لهؤلاء ناصرين فما لكم كلكم أي الأوثان وعبدتهما من ناصرين ، وأما هناك فلم يسبق منهم دعوى النصر فنفى الجنس بقوله : " ولا نصير ".

جزء : ١٥ رقم الصفحة : ٣٣٦

قوله تعالى : {فآمن له لوط} أي صدقه ، وهو أول من صدق إبراهيم ، وكان ابن أخيه وقال إبراهيم : {إني مهاجر إلى ربي} إلى حيث أمرني ربي بالتوجه إليه من "كوثا " وهو من سواد الكوفة إلى " حران ثم إلى الشام ومعه " لوط " وامرأته " سارة " وهو أول من هاجر ".

وقال مقاتل : هاجر إبراهيم (عليه الصلاة والسلام) وهو ابن خمس وسبعين سنة.

ثم قال : {إنه عزيز حكيم} ، عزيز يمنع أعدائي عن إيذائي بعونه ، و " حكيم " لا يأمرني إلا بما يوافق الحكمة.

(فإن قيل) : قوله {فآمن له لوط} أي بعد ما رأى منه العجز القاهر ، ودرجة لوط كانت عالية فبقاؤه إلى هذه الوقت مما ينقص من الدرجة ، ألا ترى إلى أبي بكر - رضي الله عنه - لما قبل دين محمد - صلى الله عليه وسلم - كان قبوله قبل الكل من غير سماع تكلم الخصى ، ولا رؤية انشقاق القمر.

فالجواب : أن لوطا لما رأى معجزته آمن برسالته ، وأما بالوحدانية فآمن من حيث سمع مقالته ، ولهذا قال : {فآمن له لوط} ، ولم يقل : " فآمن لوط ".

٣٤١

". (١)

"فإن قيل : ما وجه تعلق قوله : {وقال إني مهاجر إلى ربى } بما تقدم ؟ فنقول : لما بالغ إبراهيم في الإرشاد ، ولم يهتد قومه وحصل اليأس الكلي ، ورأى القوم الآية الكبرى ولم يؤمنوا وجبت المهاجرة ، لأن الهادي إذا هدى قومه ولم ينتفعوا فبقاؤه فيهم مفسد ، لأنه إذا دام على الإرشاد كان اشتغالا بما لا ينتفع في علمه ، فيصير كمن يقول للحجر صدق ، وهو عبث والسكوت دليل الرضا فيقال : إنه صار منا ، ورضي بأفعالنا ، وإذا لم يبق للإقامة وجه وجبت المهاجرة.

فإن قيل : ما **الحكمة في** قوله : {إني مهاجر إلى ربى } ولم يقل : " مهاجر إلى حيث أمرني ربي} مع

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/٤٠٤٢

أن المهاجرة إلى الرب توهم الجهة.
فالجواب : أن قوله {إلى ربى } ليس في الإخلاص ، كقوله : " إلى ربي " لأن الملك إذا صدر منه أمر برواح الأجناد إلى موضع ثم إن واحدا منهم عاد إلى ذلك الموضع لغرض (في) نفسه يصيبه ، فقد هاجر إلى حيث أمره الملك ولكن لا مخلصا لوجهه ، وقال : {مهاجر إلى ربي} يعني : توجهي إلى الجهة المأمور بالهجرة إليها ليس طلبا للجهة ، إنما طلب لله.
قوله : {ووهبنا له إسحاق ويعقوب وجعلنا في ذريته النبوة} ، قيل : إن الله لم يبعث نبيا بعد " براهيم " إلا من نسله ، {وآتيناه أجره في الدنيا} وهو الثناء الحسن ، وكل الأديان يقولون به ، وقال السدي : هو الولد الصالح ، وقيل : إنه رأى مكانه في الجنة {وإنه في الآخرة لمن الصالحين} أي في زمرة الصالحين قال ابن عباس : " مثل آدم ، ونوح " وفي هذه الآية لطيفة وهي أن الله تعالى بدل جميع أحوال إبراهيم في الدنيا بأضدادها لما عذبه قومه بالنار كان وحيدا فريدا ، فبدل الله وحدته بالكثرة حتى ملأ الدنيا من ذريته ، ولما كانت أقاربه القريبة ضالين مضلين من جملتهم " آزر " بدل الله أقاربه بأقارب مهتدين هادين ، وهم ذريته الذين جعل فيهم النبوة والكتاب ، وكان أولا لا جاه له , ولا مال ، وهم غاية اللذة في الدنيا آتاه الله أجره في المال والجاه وكثر ماله حتى كان له من المواشي ما علم الله عدده حتى قيل : إنه كان له اثنا عشر ألف كلب حارس بأطواق ذهب وأما الجاه فصار (بحيث تقرن) الصلاة عليه بالصلاة على سائر الأنبياء إلى يوم القيامة ، وصار معروفا وشيخ المرسلين بعد أن كان خاملا حتى قال قائلهم : {سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم} [الأنبياء : ٦٠] ، هذا الكلام لا يقال إلا في مخمول من الناس.
فإن قيل : إن إسماعيل كان من أولاده الصالحين (وكان قد) سلم لأمر الله بالذبح ، وانقاد لحكم الله ولم يذكر.
٣٤٢
فالجواب : هو مذكور في قوله : {وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب} (و) لكن لم يصرح باسمه ؛ لأنه كان بين فضله معه بهبته الأولاد والأحفاد ، فذكر من الأولاد واحدا وهو الأكبر ، ومن الأحفاد واحدا كما يقال القائل : إن السلطان في خدمته الملوك والأمراء ، والملك الفلاني ، والأمير الفلاني ، ولا يعدد الكل لأنه ذكر ذلك الواحد لبيان الجنس لا لخصوصه ، ولولا ذكر غيره لفهم منه التعديد ، واستيعاب الكل فيظن أنه ليس معه غير المذكور.

فإن قيل : إن الله تعالى لما جعل في ذريته النبوة أجابه لدعائه ، والوالد يجب أن يسوي بين ولده فكيف صارت النبوة في ولد " إسحاق " أكثر من النبوة في أولاد إسماعيل ؟ فالجواب : أن الله تعالى قسم الزمان من وقت إبراهيم إلى (يوم) القيامة قسمين والناس أجمعين ، فالقسم الأول من الزمان بعث الله تعالى (فيه) أنبياء فيهم فضائل جمة ، وجاءوا تترى واحدا بعد واحد ، ومجتمعين في عصر واحد كلهم من ورثة إسحاق عليه السلام ، (ثم في القسم الثاني من الزمان أخرج من ذرية ولده إسماعيل واحدا اجتمع فيه ما كان فيه وأرسله إلى كافة الخلق وهو محمد عليه السلام) وجعله خاتم النبيين ، وقد دام الخلق على دين إسماعيل أكثر من أربعة آلاف سنة ، ولا يبعد أن يبقى الخلق على دين ذرية إسماعيل مثل ذلك المقدار.

جزء : ١٥ رقم الصفحة : ٣٤١

قوله تعالى : " ولوطا " إعرابه كإعراب إبراهيم {إذ قال لقومه إنكم} قرأ أبو عمرو ، وحمزة والكسائي وأبو بكر " أئنكم " بالاستفهام ، وقرأ الباقون بلا استفهام ، واتفقوا على استفهام الثانية " لتأتون الفاحشة " وهو إتيان الرجال ، {ما سبقكم بها} يجوز

٣٤٣

" (١).

"فإن قيل : القوم عذبوا بسبب ما صدر منهم من الفاحشة وامرأته لم يصدر منها ذلك.

فكيف كانت من الغابرين معهم ؟ فالجواب : أن الدال على الشر كفاعل الشر كما أن الدال على الخير كفاعله ، وهي كانت تدل القوم على ضيوف لوط حتى كانوا يقصدونهم فبالدلالة صارت كأحدهم ، ثم إنهم بعد بشارة " لوط " بالتنجية ذكروا أنهم منزلون على أهل هذه القرية العذاب.

واختلفوا في ذلك ، فقيل : حجارة ، وقيل : نار ، وقيل : خسف ، وعلى هذا يكون قولهم : {رجزا من السمآء} بمعنى أن الأمر من السماء بالخسف والقضاء به من السماء ، واعلم أن كلام الملائكة مع لوط جرى على (نمط) كلامهم مع إبراهيم ، فقدموا البشارة على إنزال العذاب ، فقالوا : " إنا منجوك " ثم قالوا : " إنا منزلون " ولم يعللوا التنجية ، فلم يقولوا : إنا منجوك لأنك نبي أو عابد ، وعللو الإهلاك ، فقالوا : {بما كانوا يفسقون} كقولهم هناك : {إن أهلها كانوا ظالمين}.

قوله : {ولقد تركنا منهآ آية} فيها وجهان : أحدهما : أن بعضها " باق " وهو آية باقية إلى اليوم ، والمعنى

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل ، ص/٤٠٤٣

تركنا من قريات (قوم) لوط آية بينة عبرة ظاهرة.

الثاني : أن " من " مزيدة ، وإليه نحا الفراء أي تركناها أية كقوله :

– ٤٠٢٩ أمهرت منها جبة وتيسا

جزء : ١٥ رقم الصفحة : ٣٤٧

أي أمهرتها ، وهذا يجيء على رأي الأخفش ، أي ولقد تركنا القرية.

والقربة معلومة ، وفيها الماء الأسود وهي بين القدس والكرك.

فإن قيل : كيف جعل الآية في " نوح " و " إبراهيم " بالنجاة فقال : {فأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناهآ آية للعالمين} [العنكبوت : ١٥].

وقال : {فأنجاه الله من النار (إن في ذالك لآيات} [العنكبوت : ٢٤] ، وجعل ههنا الهلاك آية.

٣٥٠

فالجواب : أن الآية في إبراهيم كانت في النجاة لأنفي ذلك الوقت لم يكن إهلاك ، وأما في نوح فلأن الإنجاء من الطوفان الذي على أعلى الجبال بأسره أمر عجيب غلهي وما به النجاة وهو السفقينة كان باقيا ، والغرق لم يبق لمن بعده أثره ، فجعل الباقي آية ، وأما ههنا فنجاة " لوط " لم يكن بأمر يبقى أثره للحس والهلاك أثره محسوس في البلاد ، فجعل الآية ههنا البلاد ، وهنا السفينة ، وهنا لطيفة وهي أن الله تعالى آية قدره موجودة في الإنجاء والإهلاك ، فذكر من كل باب آية ، وقدم آيات الإنجاء لأنها أثر الرحمة ، وأخر آيات الإهلاك لأنها أثر الغضب ، ورحمته سابقة.

فإن قيل : اما الحكمة في قوله في السفينة " جعلناها آية " ، ولم يقل بينة وقال ههنا آية بينة ؟ فالجواب : أن الأإنجاء بالسفينة أمر يسع له كل العقل وقد يقع في ذهن جاهل أن الإنجاء لا يفتقر إلى أمر آخر ، وأما الآية ههنا الخسف ، وجعل ديارهم المعمورة عاليها سافلها ، وهو ليس بمعتاد وإنما ذلك بإرادة قادر مخصصة بمكان دون مكان وفي زمان دون زمان فهي بينة لا يمكن لجاهل ، أن يقول هذا أمر يكون كذلك ، وكان له أن يقول في السفينة أمرها يكون كذلك ، فيقال له : فلو دام الماء حتى ينفذ زادهم كيف كان حصل لهم النجاة ؟ ولو سلط الله عليهم الريح العاصبة ، وكيف تكون أحوالهم ؟ فإن قيل : ما الحكمة في قوله هناك : " للعالين " ، وفي قوله ههنا : " لقوم يعقلون " ؟ فالجواب : أن السفينة (موجودة) معلومة في جميع أقطار العالم فعند كل قوم مثال السفينة يتذكرون بها حال نوح ، وإذا ركبوها يطلبون من الله النجاة

، فلا يثق أحد بمجرد السفينة ، بل يكون دائما مرتجف القلب متضرعا إلى الله طالبا النجاة ، وأما أثر الهلاك في بلاد لوط ففي موضع مخصوص لا يطلع عليها إلا من مر بها ، ويصل إليها وويكون له عقل يعلم أن ذلك من الله فإرادته بسبب اختصاصه بمكان دون مكان ووجوده في زمان دون زمان ، قال ابن عباس : الآية البينة : آثار منازلهم الخربة.

وقال قتادة : هي الحدارة التي أهلكوا بها أبقاها الله (تعالى) حتى

٣٥١

أدركها أوائل هذه الأمة.

وقال مجاهد : هي ظهور الماء الأسود على وجه الأرض.

جزء : ١٥ رقم الصفحة : ٣٤٧

." (١)

"قوله تعالى : " وإلى مدين " أي وأرسلنا ، أو بعثنا إلى مدين أخاهم " شعيبا " بدل ، أو بيان ، أو بإضمار : أعني ، قيل : مدين : اسم رجل في الأصل وجهل وله ذرية فاشتهر في القبيلة ، كتميم ، وقيس وغيرهما ، وقيل : اسم ما نسب القوم إليه فاشتهر في القوم ، والأول أظهر ، لأن الله تعالى أضافه إلى مدين بقوله : {ولما ورد ماء مدين} ولو كان اسم الماء لكانت الإضافة غير صحيحة أو غير حقيقية فالأصل في الإضافة التغاير حقيقة وقوله : " أخاهم " ، قيل : لأن شعيبا كان منهم نسبا.

فإن قيل : قال الله (تعالى) في " نوح " : {ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه} [العنكبوت : ١٤] فقدم نوحا في الذكر وعرف القوم بالإضافة إليه وكذلك في إبراهيم ، ولوط ، وههنا ذكر القوم أولا ، وأضاف إليهم أخاهم " شعيبا " فما الحكمة ؟ فالجواب : أن الأصل في الجميع أن يذكر القوم ثم يذكر رسولهم لأن الرسل لا تبعث إلا غير معينين ، وإنما تبعث الرسلإلى قوم محتاجين إلى الرسل فيرسل إليهم من يختاره ، غير أن قوم نوح وإبراهيم ولوط لم يكن لهم اسم خاص ، ولا نسبة مخصوصة يعرفون بها ، فعرفوا بالنبي ، فقيل : قوم نوح ، وقوم لوط ، وأما قوم " شعيب " و " هود " و " صالح " فكان لهم نسب معلوم اشترهوا به عند الناس فجرى الكلام على أصله ، وقال الله : {وإلى مدين أخاهم شعيبا} ، {وإلى عاد أخاهم هودا} فإن قيل : لم يذكر عن " لوط " أنه أمر قومه بالعبادة والتوحيد ، وذكر عن شعيب ذلك.

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل ، ص/٤٠٤٧

فالجواب قد تقدم وهو أن " لوطا " كان من قوم " إبراهيم " ، وفي زمانه ، وكان

٣٥٢

إبراهيم سبقه بذلك ، واجتهد فيه حتى اشتهر الأمر بالتوحيد عند الخلق عن " إبراهيم " فلم يحتج " لوط " إلى ذكره ، وإنما ذكر ما اختص به من المنع من الفاحشة وغيرها ، وإن كان هو بدأ يأمر بالتوحيد ، (إذ ما من رسول إلا ويكون أكثر كلاما في التوحيد ، وأما " شعيب " فكان بعد انقراض ذلك الزمان ، وذلك القوم ، فكان هو أصلا في التوحيد) فبدأ به وقال اعبدوا الله.

قوله : {وارجوا اليوم الآخر} ، قال الزمشخري : معناه افعلوا فعل من يرجو اليوم الآخر ؛ إذ يقول القائل لغيره : كن عاقلا ويكون معناه افعل فعل من يكون عاقلا ، فقوله : {وارجوا اليوم آلآخر} بعد قوله : " واعبدوا الله " يدل علي التفضل لا على الوجوب.

قوله : {وارجوا اليوم الآخر} ، تقدم الكلام عليه ، ونصب " مفسدين " على المصدر ، كقول القائل : اجلس قعودا.

قوله : {فكذبوه فأخذتهم الرجفة}.

فإن قيل : (ما الحكمة) فيما حكاه الله عن شعيب من أمر ونهي ، فالأمر لا يكذب ، ولا يصدق ، فإن قال لغيره اعبد الله لا يقال له : كذبت ؟ فالجواب : كان شعيب يقول : الله واحد فاعبدوه ، والحشر كائن فارجوه ، والفساد محرم فلا تقربوه ، وهذه فيها إخبارات ، فكذبوه بما أخبر به.

(فإن قيل هنا) قال في الأعراف : " فأخذتهم الرجفة " وقال في هود : " فأخذتهم الصيحة " والحكاية واحدة.

(فالحواب) : لا تعارض بينهما ، فإن الصيحة كانت سببا للرجفة ، قيل : إن جبريل صاح فتزلزلت الأرض من صيحته ، فرجفت قلوبهم ، والإضافة إلى السبب لا تنافي الإضافة إلى سبب السبب.

فإن قيل : ما الحكمة في أنه حخيث قال : " فأخذتهم الصيحة " قال : " في ديارهم " وحيث قال : " فأخذتهم الرجفة " قال في " دارهم " ؟

٣٥٣

فالجواب : أن المراد من الدار هو الديار ، والإضافة إلى الجمع يجوز أن تكون بلفظ الجمع ، وأن تكون بلفظ الواحد إذا أمن (من) الالتباس ، وإنما اختلف اللفظ للطيفة وهي أن اللطيفة هائلة في نفسها ، فلم

يحتج إلى تهول بها ، وأما الصيحة فغير هائلة في نفسها ولكن تلك الصيحة لما كانت عظيمة حتى أحدثت الزلزلة في الأرض ذكر الديار بلفظ الجمع حتى يعلم هيئتها ، والرجفة بمعنى الزلزلة عظيمة عند كل أحد فلم يحتج إلى معظم لأمرها ، وقيل : إن الصيحة كانت أعظم حيث عمت الأرض والجو والزلزلة لم تكن إلا في الأرض فذكر الديار هنا ، وهذا ضعيف لأن لادار والديار موضع الجثوم لا موضع الصيحة والرجفة فهم ما أصبحوا جاثمين إلا في ديارهم أو دارهم.

جزء : ١٥ رقم الصفحة : ٣٥٢

قوله تعالى : " وعادا وثمودا " نصب " بأهلكنا " مقدرا ، أو عطف على مفعول " فأخذتهم " أو على منصوب " ولقد فتنا " أول السورة ، وهو قول الكسائي.

وفيه بعد كثير وتقدم تنوين " ثمود " ، وعدمه في هود ، وقرأ ابن وثاب : " وعاد وثمود " بالخفض عطفا على " مدين " عطف لمجرد الدلالة ، وإلا يلزم أن يكون شعيب مرسلا إليهما ، وليس كذلك.

قوله : {وقد تبين لكم من مساكنهم} أي ما حل بهم وقرأ الأعمش : " مساكنهم "

٣٥٤

." (١)

"قوله تعالى : {ولا تجادلوا اا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن} أي لا تخاصمهم إلا بالتي هي أحسن أي بالدعاء إلى الله بآياته والتنبيه على حججه ، وأراد من قبل الجزية منهم لما بين طريقة إرشاد المشركين بين طريقة إرشاد أهل الكتاب.

قوله : {إلا الذين ظلموا} استثناء متصل ، وفيه معنيان.

أحدهما : إلا الظلمة فلا تجادلوهم ألبتة بل جاهدوهم بالسسيف حتى يسلموا أو يعطوا الجزية.

ومجاز الآية : إلا الذين ظلموكم لأن جميعهم ظالم بالكفر.

والثاني : جادلوهم بغير التي هي أحسن أي أغلظوا لهم كما أغلظوا عليكم ، قال سعيد بن جبير : أهل الحرب ، ومن لا عهد له ، وقال قتادة ومقاتل : نسخت بقوله :

٣٦١

{قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله} [التوبة : ٢٩] ، وقرأ بن عباس " ألا " حرف تنبيه أي فجادلوهم.

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/٤٠٤٨

قوله : {وقولوا اا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم} وهذا تبين لمجادلتهم بالتي هي أحسن يريد إذا أخبركم واح منهم ممن قبل الجزية بشيء مما في كتبهم فلا تجادلوهم عله ولا تصدقوهم ولا تكذبوهم {وقولوا اا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلاهنا وإلاهكم واحد ونحن له مسلمون} ، روى أبو هريرة قال : "كان أهل الكتاب يقرأون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : لا تصدقوهم ولا تكذبهم وقولوا : آمنا بالله وما نزل إلينا...

الآية " وروى معمر عن الزهري أن أبا نملة الأنصاري أخبره أنه بينما هو جالس عند رسول الله – صلى الله عليه وسلم – جاءه رجل من اليهود ومر بجنازة فقالك يا محمد هل تتكلم هذه الجنازة فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – (الله) أعلم فقال اليهودي : إنها تتكلم فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : " ما حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالله وكتبه ورسله فإن كان باطلا لم تصدقوه وإن كان حقا ,م تكذبوه " قوله : " وكذلك أنزلنا " أي كما أنزلنا إليهم الكتاب أنزلنا إليك الكتاب {فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به} يعنى (مؤمني) أهل الكتاب عبد الله بن سلام ، (وأصحابه) " ومن هؤلاء " يعني أهل مكة {من يؤمنون به} وهم مؤمنوا أهل مكة {وما يجحد بآياتنآ إلا الكافرون} وذلك أن اليهود عرفوا أن محمدا نبي ، والقرآن حق ، فجحدوا ، وقال قتادة : الجحود إنما يكون بعد المعرفة وهذا تنفير لهم عما هم عليه يعني إنكم آمنتم بكل شيء وامتزتم عن المشركين بكل فضيلة إلا هذه المسألة الواحدة ، وبإنكارها تلتحقون بهم ، وتبطلون مزاياكم ، فإن الجاحد بآية يكون كافرا.

قوله : {وما كنت تتلو من قبله} أي من قبل ما أنزلنا إليك الكتاب.

قوله : " من كتاب " مفعول " تتلو " و " من " زائدة و " من قبله " حال من "كتاب " أو

٣٦٢

متعلق بنفس " تتلو " و " تخطه بيمينك " أي ولا تكتبه أي لم تكن تقرأ ولا تكتب قبل الوحي قوله : " إذا لارتاب " جواب وجزاء ، أي لو تلوت كتابا قبل القرآن أو كنت ممن يكتب لارتاب المبطلون ولشك (المشركون من) أهل مكة ، وقالوا : إنه يقرأه من كتب الأولين وينسخه منها ، وقال قتادة ومقاتل : المبطلون هم اليهود والمعنى : لشكوا فيك واتهموك ، وقالوا : من الذي نجد نعته في التوراة أمي لا يقرأ ولا يكتب وليس هذا على ذلك النعت.

قوله : {بل هو آيات بينات} قرأ قتادة " آية " بالتوحيد ، قال الحسن : يعني القرآن (" آيات بينات "}

، يعني : " المؤمنين " الذين حملوا القرآن ، وقال ابن عباس وقتادة : (" بل هو ") يعني : محمدا – صلى الله عليه وسلم – ذو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم من أهل الكتاب لأنهم يجدونه بنعته وصفته في كتبهم وما يجحد بآياتنآ إلا الظالمون}.

فإن قيل : ما الحكمة في قوله ههنا : " الظالمون " ومن قبل قال : الكافرون ؟ فالجواب : أنهم قبل بيان المعجزة قيل لهم : إن لكم المزايا فلا تبطلوها بإنكار محمد فتكونوا كافرين فلفظ الكافر هانك أبلغ فمنعهم عن ذلك لاستنكافهم عن الكفر ، ثم بعد بيان المعجزة قال لهم إن جحدتم هذه الآيات لزمكم إنكار إرسال الرسل فتلحقوا في أول الأمر بالمشركين حكما ، وتلتحقون عند جحد هذه الآيات بالمشركين حقيقة فتكونوا ظالمين أي مشركين ، كما قال : {إن الشرك لظلم عظيم} [لقمان : ١٣] فهذا اللفظ هنا أبلغ.

جزء : ١٥ رقم الصفحة : ٣٦١

وله تعالى : {وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه} كما أنزل على الأنبياء من قبل.

٣٦٣

". (١)

"وقرأ الأخوان وابن كثير ، وأبو بكر بالإفراد ؛ لأن غالب ما جاء في القرآن كذلك والباقون " آيات " بالجمع لأن بعده {قل إنما الآيات} بالجمع إجماعا ، والرسم يحتمله.

فصل اعلم أنهم قالوا : إنك تقول : إنك أنزل إليك الكتاب كما أنزل إلى موسى وعيسى ، وليس كذلك ؛ لأن موسى أوتي تسع آيات بينات علم بها كون الكتاب من عند الله ، وأنت ما أوتيت شيئا منها ثم إنه تعالى أرشد نبيه إلى أجوبة هذه الشبهة منها.

قوله : " أولم يكفهم " هذا جواب لقولهم : {لولا أنزل عليه آيات من ربه} قل : {أولم يكفهم أنآ أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم} ، ففاعل " يكفهم " هو قوله : " أنا أنزلنا " والمعنى : إن كان إنزال الآيات شرطا في الرسالة فلا يشترط إلا إنزال " آية " وقد أنزل القرآن ، وهو آية معجزة ظاهرة كافية.

وقوله : " أولم يكفهم " عبارة تنبىء عن كون القرآن آية فوق الكفاية وبيانه أن القرآن أتم من كل معجزة لوجوه : أحدها : أن تلك المعجزات وجدت وما دامت ، فإن قلب العصا ثعبانا ، وإحياء الميت لم يبق لنا منه أثر ، فلو أنكره واحد لم يمكن إثباتها معه بدون الكتاب ، وأما القرآن فهو باق لو أنكره واحد فيقال

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/٤٠٥٢

له : فأت بآية من مثله.

الثاني : أن قلب العصا ثعبانا كان في آن واحد ولم يره من لم يكن في ذلك المكان ، وأما القرآن فقد وصل إلى المشرق والمغرب وسمعه كل واحده ، وهنا لطيفه هي أن آيات النبي - صلى الله عليه وسلم - كانت أشياء لا تختص بمكان دون مكان ، لأن من جملتها انشقاق القمر وهو يعم الأرض لأن الخوف إذا وقع عم ، وذلك لأن نبوته كانت عامة لا تختص بقطر دون قطر.

وغاص بحر " ساوة " في قطر ، وسقط إيوان كسرى في قطر (وانهدت) الكنيسة بالروم في قطر آخر إعلاما بأنه يكون أمرا عاما.

الثالث : أن غير هذه المعجزة يقول الكفار المعاند هذا سحر (وعمل بدواء) والقرآن لا يمكن هذا القول فيه.

ثم قال تعالى : {إن في ذالك لرحمة} أي في إنزال القرآن {لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون} أي تذكير وعظمة لمن آمن وعمل به.

قوله (تعالى) : {قل كفى بالله بيني وبينكم شهيدا} أني رسوله ، وهذا القرآن

٣٦٤

كتابه ، وهذا كما يقول الصادق إذا كذب ، وأتى بكل ما يدل على صدقه ولم يصدقه المعاند : " الله يعلم صدقي وتكذيبك أيها المعاند وهو على ما أقول شهيد يحكم بيني وبينك " ، كل ذلك إنذار وتهديد ثم بين كونه كافيا ، بكونه عالما بجميع الأشياء ، فقال : {يعلم ما في السماوات والأرض}.

فإن قيل : ما الحكمة في أنه أخر شهادة أهل الكتاب في آخر الوعد في قوله : {ويقول الذين كفروا لست مرسلا قل كفى بالله شهيدا بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب} [الرعد : ٤٣] وهنا قدم شهادة أهل الكتاب ، فقال : {فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به (ومن هؤلاء من يؤمن به "} [العنكبوت : ٤٧] أي من الكتاب ؟ فالجواب : أن الكلام هناك مع المشركين فاستدل عليهم بشهادة غيرهم (ثم) إن شهادة الله أقوى (في ألزمهم) من شهادة غير الله ، وهاهنا الكلام مع أهل الكتاب فشهادة الله على نفسه هو إقراره وهو أقوى الحجج عليه فقدم ما هو ألزم عليهم ، ثم (إنه) تعالى لما بين الطريقتين في إرشاد الفريقين المشركين وأهل الكتاب عاد الكلام الشامل لهما والإنكار العام فقال : {والذين آمنوا بالباطل} ، قال ابن عباس : بغير الله {وكفروا بالله أولائك هم الخاسرون}.

فإن قيل : قوله {أولئك هم الخاسرون} يقتضي الحصر ، أي من أتى بالإيمان (بالباطل) والكفر (بالله) فهو الخاسر فمن يأتي بأحدهما دون الآخر ينبغي أن لا يكون خاسرا.

فالجواب : أنه يستحيل أن يكون الآتي بأحدهما لا يكون آتيا بالآخر لأن المؤمن بما سوى الله مشرك ، لأنه جعل غير الله مثله ، وغير الله عاجز ممكن باطل فيكون الله كذلك ، ومن كفر بالله وأنكره فيكون قائلا بأن العالم ليس له إله موجود فوجود العالم من نفسه فيكون قائلا : بأن العالم واجب الوجود ، والواجب إله (فيكون قائلا) بأن غير الله إله فيكون إثباتا لغير الله وإيمانا به.

فإن قيل : إذا كان الإيما بما سواه كفرا (به) فيكون كل من آمن بالباطل فقد كفر بالله فهل لهذا العطف فائدة (غير التأكيد) الذي في قوله القائل (قم ولا تقعد و " واقترب مني ولا تبعد " ؟

٣٦٥

فالجواب : فيه فائدة) غيرها وهو أنه ذكر الثاني لبيان قبح الأول كقول القائل : أتقول بالباطل وتترك الحلق لشأ أن القول بالباطل قبيح.

جزء : ١٥ رقم الصفحة : ٣٦٣

." (١)

"قوله : " ويستعجلونك بالعذاب " نزلت في النضر بن الحارث حين قال : {فأمطر علينا حجارة من السمآء} [الأنفال : ٣٢] {ولولا أجل مسمى} قال ابن عباس : ما وعدتك أني لا أعذب قومك ولا أستأصلهم وأؤخر عذابهم إلى يوم القيامة كما قال : {بل الساعة موعدهم} [القمر : ٤٦] وقيل : يوم بدر.

ولولا ذلك الأجل المسمى الذي اقتضته حكمته {لجآءهم العذاب وليأتينهم بغتة} يعني العذاب.

وقيل : الأجل بغتة {وهم لا يشعرون} بإتيانه ، وقوله : {وهم لا يشعرون} يحتمل وجهين : أحدهما : معنى تأكيد قوله : " بغتة " ، كما يقول القائل : أتيته على غفلة منه بحث لم يدر.

فقوله : {بحيث لم يدر} أكد معنى الغفلة.

والثاني : أنه يفيد فائدة مستقلة وهي أن العذاب يأتيهم بغتة {وهم لا يشعرون} هذا الأمر ، ويظنون أن العذاب لا يأتيهم أصلا.

قوله : {يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين} ذكر هذا للتعجب ، لأن من توعد بأمر فيه

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/٤٠٥٣

ضرر يسير كلطمة أو لكمة فيرى في نفسه الجلد ويقول : بسم الله هات ، وأما من توعد بإغراق أو إحراق ويقطع بأن المتوعد قادر لا يخلف الميعاد لا يخطر ببال العاقل أن يقول له : هات ما توعدني به فقال ههنا " يستعجلونك بالعذاب " والعذاب بنار جهنم المحيطة (بهم) فقوله (" يستعجلونك بالعذاب ") أولا : إخبارا عنهم ، وثانيا : تعجبا منهم.

وقيل : أعاده تأكيدا ، ثم ذكر كيفية إحاطة جهنم فقال : {يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم}.

فإن قيل : لم يخص الجانبين ولم يذكر اليمين والشمال وخلف وقدام ؟

٣٦٦

فالجواب : أن المقصود ذكر ما تتميز به نار جهنم عن نار الدنيا ، (ونار) الدنيا تحيط بالجوانب الأربعة فإن من دخلها تكون الشعلة قدامه وخلفه ويمينه ويساره ، فأما النار من فوق لا تنزل وإنما تصعد من أسفل في العادة وتحت الأقدام ، ولا تبقى الشعلة بل تنطفىء الشعلة التي تحت القدم ، ونار جهنم تنزل من فوق ولا تنطفىء بالدوس موضع القدم.

فإن قيل : ما الحكمة في قوله : {من فوقهم ومن تحت أرجلهم} ولم يقل : من فوق رؤوسهم ولا قال من فوقهم " ولا من تحتهم " بل ذكر المضاف إليه عند ذكر " تحت " ولم يذكره عند ذكر " فوق " ؟

فالجواب : أن نزول النار من " فوق " سواء كان من (سميت) الرأس أو موضع آخر عجيب فلهذا لم يخصه بالرؤوس وأما بقاء النار تحت القدم فهو عجيبن وإلا فمن جوابن القدم في الدنيا تكون الشعلة فذكر العجيب وهو ما تحت الأرجل حيث لم ينطق بالدوس.

وأما " فوق " فعلى الإطلاق.

قوله : " ويقول ذوقوا " قرأ نافع وأهل الكوفة " ويقول " بياء الغيبة أي الله تعالى ، أو الملك الموكل بعذابهم ، وباقي السبعة بالنون أي جماعة الملائكة ، أو نون العظمة لله تعالى ، وأبو البرهشم بالتاء من فوق أي جهنم كقوله : {وتقول هل من مزيد} [ق : ٣٠] وعبد الله وابن أبي عبلة : " ويقال " مبنيا للمفعول ، وقوله : {ما كنتم تعملون} أي جزاء ما كنتم تعملون لما بين عذاب أجسامهم بين عذاب أرواحهم وهو أن يقال لهم على سبيل التنكيل والإهانة {ذوقوا ما كنتم تعملون} جعل ذلك عين ما كانوا يعملون مبالغة بطريق إطلاق اسم المسبب على السبب ، فإن عملهم كان سببا لعذابهم وهذا كثير في الاستعمال.

جزء : ١٥ رقم الصفحة : ٣٦٦
." (١)

"ويسقينا ؟ فأنزل الله تعالى : {وكأين من دابة} وكم من دابة ذات حاجة إلى غذاء و {لا تحمل رزقها} لضعفها ، كالقمل والبرغوث والدود {الله يرزقها وإياكم} حيث ما كنتم " وهو السميع " لأقوالكم : ما نجد ما ننفق بالمدينة ، {العليم بما في قلوبكم}.

قال سفيان : ليس شيء مما خلق الله نجبا إلا الإنسان والفأرة والنملة روى بن عمر قال : " دخلت مع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – حائطا من حوائط الأنصار فجعل رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يلقط الرطب بيده ويأكل ، فقال : كل يا ابن عمر ، (قلت : لا أشتهيها يا رسول الله قال : لكني أشتهيه ، وهذه صبح رابعة لم أطعم طعاما ولم أجده) فقلت : إنا لله الله المستعان قال يا ابن عمر : لو سألت ربي لأعطاني مثل ملك كسرى وقيصر أضعافا مضاعفة ولكني أجوع يوما وأشبع يوما فكيف بك يا ابن عمر إذا عمرت وبقيت في أمر الناس يخبئون رزق سنة ويضعف اليقين فنزلت : {وكأين من دابة لا تحمل رقها} الآية ، وقال عليه (الصلاة و) السلام " لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا ، وتروح بطانا "

جزء : ١٥ رقم الصفحة : ٣٦٨

قوله تعالى : " ولئن سألتهم " يعني كفار مكة {من خلق السماوات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فأنى يؤفكون} أي هم يعتقدون هذا فكيف يصدفون عن عبادة الله مع أن من علم عظمته وجب خدمته ولا عظم فوق السماوات والأرض ، ولا حاقرة فوق حقارة الجماد ؛ لأن الجماد دون الحيوان والحيوان دون الإنسان ، والإنسان دون سكان السماوات فكيف يتركون عبادة أعظم الموجودات ويشتغلون بعبادة أخس الموجودات ؟ فصل لما بين أمر المشرك مخاطبا معه ، (ولم ينتفع به ، وأعرض عنه ، وخاطب
٣٧٣
المؤمنين بقوله : " يا عبادي " وأتم الكلام معه ذكر معه) ما يكون إرشادا للمشرك بحيث يسمعه وهذا طريق في غاية الحسن ، فإن السيد إذا كان له عبدان أو الوالد إذا كان ولدان ، وأحدهما رشيد ، والآخر مفسد ينصح أولا المفسد فإن لم يسمع يلتفت إلى الرشيد ويعرض عن المفسد ، ويقول : إن هذا لا يستحق

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/٤٠٥٤

الخطاب فاسمع أنت ولا يكن منك هذا المفسد فيتضمن هذا الكلام نصيحة الرشيد ، وزجر المفسد ، فإن قوله هذا لا يستحق الخطاب الموجب نكاية في قلبه ، ثم إذا ذكر مع المصلح في أثناء الكلام والمفسد يسمعه إن هذا أخاك العجب منه أنه يعلم قبح فعله ويعرف فيه الفساد من الصلاح ، وسبيل الرشاد والفلاح ويشتغل بضده يكون هذا الكلام أيضا داعيا إلى الرشاد ومانعا له من الفساد فكذلك قال الله للؤمن العجب منهم إنهم إن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولون الله ثم لا يؤمنون.

فصل ذرك في السماوات والأرض الخلق ، وفي الشمس والقمر التسخير ، لأن مجرد خلق الشمس والقمر ليس حكمة فإن الشمس لو كانت مخلوقة بحيث تكون في موضع واحد لا تتحرك ما حصل الليل ولا النهار ، ولا الصيف ولا الشتاء فإذن **الحكمة في** تحريكهما (وتسخيرهما).

واعلم أن في لفظ التسخير دون التحريك فائدة وهي أن التحريك يدل على مجرد الحركة ، وليست مجرد الحركة كافية ؛ لأنها لو كانت تتحرك مثل حركتنا لما كانت تقطع الفلك في ألوف من السنين ، **فالحكمة في** تسخيرها تحريكها في قدر ما ينتقل الإنسان آلافا من الفراسخ ، ثم لم يجعل لها حركة واحدة ، بل حركات.

إحداها : حركة من المشرق إلى المغرب في كل يوم وليلة مرة ، والأخرى : حركتها من المغرب إلى المشرق ويدل عليها أن الهلال يرى في جانب (المغرب) على بعد مخصوص من الشمس ثم يبعد منها غلى جانب المشرق حتى يرى القمر في نصف الشهر في مقابلة الشمس ، والشمس على أفق المغرب ، والقمر على أفق المشرق وأيضا حركة الأوج ، وحركة المائل والتدوير في القمر ، ولا الحركة التي من المغرب إلى المشرق لما حصلت الفصول.

واعلم أن أصحاب الهيئة قالوا : الشمس مركوزة في الفلك ، والفلك يديرها بدوران.

وأنكره المفسرون الظاهريون.

واعلم أنه لا بعد في ذلك (إن) لم يقولوا

٣٧٤

(١) ".

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/٤٠٥٧

"بالطبيعة ؛ فإن الله تعالى فاعل مختار إن أراد أن يحركهما (في الفلك وبالفلك ساكن يجوز ، وإن أراد أن يحركهما) بحركة الفلك وهما ساكنان يجوز ولم يرد فيه نص قاطع أو ظاهر.

واعلم أنه تعالى ذكر إيجاد الذوات بقوله : {خلق السموات والأرض} وذكر إيجاد الصفات بقوله : {وسخر الشمس والقمر} ثم قال : {الله يبسط الرزق لمن يشآء من عباده} لما ذكر الخلق ذكر الرزق ؛ لأن بقاء الخلق ببقائه ، وبقاء الإنسان بالرزق ، فقال المعبود إما أن يعبد لاستحقاق العبادة والأصنام ليست كذلك والله مستحقها وإما لكونه عظيم الشأن والله الذي خلق السماوات عظيم الشأن فله العبادة ، وإما لكونه يأمر الإحسان ، والله يرزق الخلق فله الفضل والإحسان ، والامتنان فله العبادة {إن الله بكل شيء عليم} يعلم مقادير الحاجات والأرزاق ، ولما قال : " يبسط الرزق " ذكر اعترافهم بذلك فقال : {ولئن سألتهم من نزل من السمآء مآء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله} يعني سبب الرزق ، وموجد السبب موجد المسبب فالرزق من الله.

قوله : {قل الحمد لله} على ما أقروا به ، ولزوم الحجة عليهم {بل أكثرهم لا يعقلون} (ينكرون التوحيد مع إقرارهم بأنه خالق لهذه الأشياء فقل الحمد لله على ظهور تناقضهم وأكثرهم لا يعقلون) هذا التناقض ، وقيل : هذا كلام معترض في أثناء كلام ، فإنه قال : {بل أكثرهم لا يعقلون} فذكر في أثناء هذا الكلام الحمد لذكر النعمة كقوله : ٤٠٣١ - إن الثمانين - وبلغتها -

قد أحوجت سمعي إلى ترجمان

جزء : ١٥ رقم الصفحة : ٣٧٣

قوله (تعالى) : {وما هاذه الحياة الدنيآ إلا لهو ولعب} " اللهو " هو : الاستمتاع بلذات الدنيا ، و " اللعب " (العبث) ، سميت بها ، لأنها فانية ، وقيل : " اللهو " الإعراض عن الحق ، و " اللعب " في الإقبال على الباطل.

فإن قيل : قال في الأنعام : {وما الحياة الدنيآ} (ولم يقل : " وما هذه الحياة ") وقال ههنا : {وما هذه الحياة} فما فائدته ؟

٣٧٥

فالجواب : أن المذكور (من قبل ههنا أمر الدنيا ، حيث قال : {فأحيا به الأرض من بعد موتها} فقال : هذه ، والمذكور قبلها) هناك الآخرة حيث قال : {يا حسرتنا على ما فرطنا فيها وهم يحملون أوزارهم على

ظهورهم} [الأنعام : ٣١] فلم تكن الدنيا في ذلك الوقت في خاطرهم فقال : {وما الحياة الدنيا}.

فإن قيل : ما الحكمة في تقديمه هناك " اللعب " على " اللهو " وههنا أخر " اللعب " عن " اللهو ".

فالجواب : لما كان المذكور من قبل هناك الآخرة ، وإظهارها للحسرة ففي ذلك الوقت يبعد الاستغراق في الدنيا ، بل نفس الاشتغال بها فأخذ الأبعد ، وههنا لما كان المذكور من قبل الدنيا وهي خداعة تدعو النفوس إلى الإقبال عليها والاستغراق فيها ، اللهم إلا لمانع يمنع من الاستغراق فيشتغل بها من غير استغراق (بها) ، أو لعاصم يعصمه فلا يستغل بها أصلا ، فكان : (ههنا) الاستغراق أقرب من عدمه فقدم اللهو.

فإن قيل : ما الحكمة في قوله هناك : {ولدار الآخرة خير} [يوسف : ١٠٩][النحل : ٣٠] وقال ههنا {وإن الدار الآخرة لهي الحيوان} ؟ .

فالجواب : لما كان الحال هناك حال إظهار الحسرة ما كان المكلف يحتاج إلى وازع قوي فقال : الآخرة خير ولما كان الحال هنا حال الاستغال بالدنيا احتاج إلى وازع قوي فقال : لا حياة إلا حياة الآخرة.

قوله : {وإن الدار الآخرة لهي الحيوان} قدر أبو البقاء وغيره قبل المبتدأ مضافا أي وإن حياة الدار الآخرة وإنما قدر ذلك ليتطابق المبتدأ والخبر والمبالغة أحسن و " واو " الحيوان (عن ياء) عند سيبويه وأتباعه ، وإنما أبدلت واوا شذوذا ، وكذلك في " حياة " علما وقال أبو البقاء لئلا يلتبس بالتثنية يعني لو قيل : حييان - قال : ولم

٣٧٦

تقلب ألفا لتحركها وانفتاح ما قبلها ؛ لئلا يحذف إحدى الألفين وغير سيبويه حمل ذلك على ظاهره ، فالحياة عند لامها " واو ".

ولا دليل لسيبويه في " حيي " ؛ لأن الواو متى انكسر ما قبلها قلبت ياء نحو : " عدي ، ودعي ، ورضي ".

ومعنى الآية : {وإن الدار الآخرة لهي الحيوان} أي الحياة الدائمة الباقية ، والحيوان بمعنى الحياة أي فيها الحياة الدائمة {لو كانوا يعلمون} أي لو كانوا يعلمون أنها الحيوان لما آثروا عليها الدنيا.

فإن قيل : ما الحكمة في قوله : في الأنعام {أفلا تعقلون} [الأنعام : ٣٢] وقال هنا {لو كانوا يعلمون} ؟ فالجواب : أن المثبت هناك كون الآخرة ، ولأنه ظاهر لا يتوقف إلا على العقل والمثبت هنا أن لا حياة إلا حياة الآخرة.

وهذا دقيق لا يعلم إلا بعلم نافع.
." (١)

"سورة الروم

جزء : ١٥ رقم الصفحة : ٣٨٠

قوله تعالى : {الاما غلبت الروم} وجه تعلق هذه السورة بما قبلها أن الله تعالى لما قال : {ولا تجادلوا اا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن} وكان يجادل المشركين بنسبتهم إلى عدم العقل كما في قوله : {صم بكم عمي فهم لا يرجعون} [البقرة : ١٨] وكان أهل الكتاب يوافقون النبي والإله كما قال : {وإلاهكم واحد} [العنكبوت : ٤٦] وكانوا يؤمنون بكثير مما يقوله ، بل كثير منهم كانوا مؤمنين (به) كما قال : {فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به} [العنكبوت : ٤٧] أبغض المشركون أهل الكتاب وتركوا مراجعتهم وكانوا من قبل يراجعونهم في الأمور ، وكان بين فارس والروم قتال والمشركون يودون أن تغلب فارس الروم لأن أهل فارس كانوا مجوسا آمنين ، والمسلمين يودون غلبة الروم على فارس لكونهم أهل كتاب فبعث " كسرى " جيشا إلى الروم واستعمل عليهم رجلا (يقال له : شهريار وبعث " قيص " جيشا واستعمل عليهم) رجلا يدعى يحانس ، فالتقيا باذرعات ، وبصرى ، وقال عكرمة : هي أذرعات وكسكر ، وقال مجاهد : أرض الجزيرة ، وقال مقاتل : الأردن وفلسطين هي أدنى الشام إلى أرض العرب والعجم فغلبت فارس الروم فبلغ ذلك المسلمين بمكة ، فشق ذلك عليهم وفرح به كفار مكة وقالوا للمسلمين : إنكم
٣٨١
أهل الكتاب والنصارى أهل كتاب ونحن أميون وقد ظهر إخواننا من أهل فارس على إخوانكم من الروم وإنكم إن قاتلتمونا لنظهرن عليكم فأنزل الله هذه الآيات لبيان أن الغلبة لا تدل على الحق بل الله قد يريد في ثواب المؤمنين من يبتليه ، ويسلط عليه الأعادي ، وقد يختار تعجيل العذاب الأدنى العذاب الأكبر قبل يوم الميعاد.

فصل قد تقدم أن كل سورة افتتحت بحروف التهجي فإن في أولها ذكر الكتاب أو التنزيل أو القرآن ، كقوله : {الم.
ذلك الكتاب} {المص.

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/٤٠٥٨

كتاب} {طه ما أنزلنا عليك القرآن} {الم.

تنزيل الكتاب} {حم.

تنزيل من الرحمن الرحيم} {يس.

والقرآن} {ق.

والقرآن} إلا هذه السورة وسورتين أخريين ذكرناهما في العنكبوت ، وذكرنا **الحكمة منهما** هناك.

وأما ما يتعلق بهذه السورة فنقول : إن السورة التي في أوائلها التنزيل والكتاب والقرآن في أوائلها ذكر ما هو معجزة فقدمت عليها الحروف على ما تقدم بيانه في العنكبوت ، وهذه في أوائلها ذكر ما هو معجز وهو الإخبار عن الغيب ، فقدمت الحروف التي لا يعلم معناها ليتنبه السامع فيقبل بقلبه على الاستماع لما ترد عليه المعجزة ويفزع للاستماع.

قوله : {في أدنى الأرض} زعم بعضهم أن " أل " عوض عن الضمير ، وأن الأصل {في أدنى أرضهم} وهو قول كوفي ، وهذا على قول إن الهرب كان من جهة بلادهم ، وأما من يقول : إنه من جهة بلاد العرب فلا يتأتى ذلك.

وقرأ العامة " غلبت " مبنيا للمفعول ، وعلي بن أبي طالب وأبو سعيد الخدري وابن عمر وأهل الشام ببنائه للفاعل.

قوله : {في أدنى الأرض} أي الروم من بعد غلب فارس إياهم.

والغلب.

والغلبة " لغتان " فعلى القراءة الشهيرة يكون المصدر مضافا لمفعوله.

ثم هذا المفعول إما أن يكون مرفوع المحل على أن المصدر المضاف إليه مأخذو من مبني (للمفعول) على خلاف في ذلك.

وإما منصوب المحل على أن المصدر من مبني للفاعل ، والفاعل محذوف تقديره : من بعد أن غلبهم عدوهم وهم فارس ، وأما على القراءة الثانية فهو مضاف لفاعله.

٣٨٢." (١)

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/٤٠٦٠

"قوله : " وعد الله " مصدر مؤكد ناصبه مضمر أي وعدهم الله ذلك وعدا بظهور الروم على فارس {لا يخلف الله وعده} وهذا مقدر لمعنى هذا المصدر ويجوز أن يكون قوله : {لا يخلف الله وعده} حالا من المصدر فيكون كالمصدر الموصوف فهو مبين للنوع (و) كأنه قيل : وعد اله وعدا غير مخلف {ولـاكن أكثر الناس لا يعلمون}.

قوله : {يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا} يعني أمر معايشهم كيف يكتسبون ويتجرون ومتى يغرسون قال الحسن : إن أحدهم لينقر الدرهم بطرف ظفره فيذكر وزنه ، ولا يخطىء وهو لا يحسن (يصلي) والمعنى أن علمهم منحصر في الدنيا بل لا يعلمون الدنيا كما هي وإنما يعلمون ظاهرها وهو ملاذها ، ولا يعلمون باطنها وهو مضارها ومتاعبها ولا يعلمون فناها {وهم عن الآخرة هم غافلون} ساهون جاهلون بها لا يتفكرون فيها ، وذكرهم الثانية ليفيد أن الغفلة منهم وإلا فأسباب التذكر حاصلة.

قوله : " أولم يتفكروا " فقوله في أنفسهم ظرف للتفكر ، وليس مفعولا للتفكر (ومتعلقه خلق) السماوات والأرض ، والمعنى أن أسباب التفكر حاصلة وهي أنفسهم لو تفكروا فيها لعلموا وحدانية الله ، وصدقوا بالحشر أما الوحدانية فلأن الله تعالى خلقهم في أحسن تقويم ، ومن يفكر في تشريح بدن الإنسان وحواسه رأى في ذلك حكما كل واحدة منها كافية في معرفة كون الله فاعلا مختارا قادرا كاملا عالما ، ومن يكون كذلك يكون واحدا وإلا لكان عاجزا عن إرادة شريكه ضد ما أراده وأما دلاله

٣٨٧

الإنسان على الحشر فلأنه إذا تفكر في نفسه يرى قوى مصائره إلى الزوال ، وأجزاء ماثلة إلى الانحلال وله فناء ضروري فلو لم يكن حياة أخرى لكان خلقه على هذا الوجه عبثا وإليه الإشارة بقوله {أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا} [المؤمنون : ١١٥] ، هذا ظاهر ، لأن من يفعل شيئا للعبث ، فلو بالغ في أحكامه لضحك منه فأذن خلقه لذلك للبقاء ولا بقاء دون اللقاء بالآخرة فإذن لا بد من البعث.

ثم إنه تعالى ذكر بعد دليل الأنفس دليل الأقطار فقال : {ما خلق الله السماوات والأرض وما بينهمآ إلا بالحق وأجل مسمى} فقوله : " إلا بالحق " إشارة إلى وجه دلالتها على الوحدانية وقد بينا ذلك في قوله : {إن في ذالك لآية للمؤمنين} [العنكبوت : ٤٤].

قوله : " ما خلق " " ما " نافية ، وفي هذه الجملة وجهان : أحدهما : أنها مستأنفة لا تعلق لها بما قبلها. والثاني : أنها معلقة للتفكر فتكون في محل نصب على إسقاط الخافض ويضعف أن تكون استفهامية

بمعنى النفي ، وفيها الوجهان المذكوران.

والباء في " بالحق " إما سببية ، وإما حالية لإقامة الحق ، وقوله : " وأجل مسمى تذكير بالأصل الآخر الذي أنكروه أي لوقت معلوم ، إذا انتهت إليه فنيت وهو يوم القيامة ، {وإن كثيرا من الناس بلقآء ربهم لكافرون} لا يعلمون أنه لا بد بعد هذه الحياة من لقاء وبقاء.

قوله : " بلقاء " متعلق " بالكافرين " واللام لا تمنع من ذلك لكونها في خبر " إن ".

فإن قيل : ما الحكمة في تقديمه ههنا دلائل الأنفس على دلائل الآفاق وقدم دليل الآفاق على دلائل الأنفس في قوله : {سنريهم آياتنا في الآفاق وفى أنفسهم} [فصلت : ٥٣] ؟ فالجواب : أن المفيد إذا أفاد فائدة يتذكرها على وجه جيد يختاره فإن مهمة السامع المستفيد فذاك ، وإلا يذكرها على وجه أبين منه وينزل درجة فدرجة وأما المستفيد فإنه يفهم أولا الأبين ثم يرتقي إلى فهم ذلك الأخفى الذي لم يكن فهمه فيفهمه بعد فهم الأبين المذكور آخرا فالمذكور من المفيد أخرا مفهوم عند المستمع أولا ، إذا علم هذا

٣٨٨

". (١)

"يخاف الابتلاء فيستعد له ، والذي له صهريج ، أو مصنع يحتاج إلى ماء أو زرع يسوي مجاري الماء ، وأيضا أهل البوادي لا يعلمون أن البلاد عشبة إن لم يكونوا قد رأوا البروق اللائحة من جانب دون جانب ، واعلم أن دلائل البرق وفوائده وإن لم تظهر للمقيمين في البلاد فهي ظاهرة للبادين فلهذا جعل تقديم البرق على تنزيل الماء من السماء نعمة وآية.

فصل أما كونه آية فلأن الذي فس السحاب ليس إلا ماء وهواء وخروج النار منهما بحيث يحرق الجبال في غاية البعد فلا بد له من خالق وهو الله.

وقالت الفلاسفة : السحاب فيه كثافة ولطافة بالنسبة إلى الهواء أو الماء فالهوى ألطف منه والماء أكثف فإذا هبت الريح قوية تحرك السحاب فيحدث صوت الرعد وتخرج منه النار ، كما أن النار تخرج من وقع الحجر على الحديد فإن قيل : الحديد والحجر جسمان صلبان ، والسحاب والريح جسمان (لينان)(فنقول لكن حركة يد الإنسان ضعيفة ، وحركة الريح قوية تقلع الأشجار) فنقول لهم الرعد والبرق (أمران) حادثان لا بد لهما من مسبب ، وقد علم بالبرهان كون كل حادث (فهما) من الله ثم نقول : (هب) أن الأمر كما

(١) تفسير اللباب لابن عادل ، ص/٤٠٦٣

يقولون فهبوب تلك الريح القوية من الأمور الحادثة العجيبة فلا بد لها من سبب وينتهي إلى واجب الوجود فهو آية للعاقل على قدرة الله كيفما فرضتم.

فإن قيل : ما الحكمة في قوله ههنا : {آيات لقوم يعقلون} وقوله فيما تقدم : " لقوم يتفكرون ؟ " فالجواب : لما كان حدوث الولد من الوالد أمرا عاديا مطردا قليل الاختلاف كان يتطرق إلى الأوهام العامية أن ذلك بالطبيعة لأن المطرد أقرب إلى الطبيعة (من) المختلف ، والبرق والمطر ليس أمرا دون وقت ، وتارة يكون قويا ، وتارة يكون ضعيفا فهو أظهر في العقل دلالة على الفاعل المختار ، فقال هو آية لمن له عقل وإن لم يتفكر تفكرا تاما.

٤٠٠

جزء : ١٥ رقم الصفحة : ٣٩٦

قوله تعالى : {ومن آياته أن تقوم السمآء والأرض بأمره} قال ابن مسعود : قامتا على غير عمد بأمره.

واعلم أنه ذكر من لوزم المساء والأرض قيامهما فإن الأرض لثقلها يتعجب الإنسان من وقوفها وعدم نزولها وكون السماء في علوها معجب من علوها وثباتها من غير عمد ، وهذا من اللوازم ، فإن الأرض لا تخرج عن مكانه الذي فيه.

(فإن قيل :) بأنها تتحرك في مكانها كالرحاء ، ولكن اتفق العقلاء على أنها في مكانها (لا تخرج عنه.

وهذا آية ظاهرة لأن كونهما في الموضع الذي هما فيه ، وعلى الموضع الذي هما عليه) من الأمور الممكنة وكونهما في غير ذلك الموضع جائز فكان يمكن أن يخرجا منه ، فلما لم يخرجا كان ذلك ترجيحا للجائز على غيره وذلك لا يكون إلا بفاعل مختار ، وقالت الفلاسفة : كون الأرض في الكائن الذي هي فيه طبيعى لها لأنها أثقل الأشياء ، والثقيل يطلب المركز والخفيف يطلب المحيط وكون السماء في مكانها إن كانت ذات مكان فلذاتها ، فقيامها فيه لطبعها وأجيبوا بأنكم وافقتمونا بأن ما جاز على أحد المثلين جاز على المثل الآخر لكن مقعر الفلك لا يخالف محدبه في الطبع فيجوز حصول مقعره في موضع محدبه وذلك بالخروج والزوال فإذن تطرق الزوال إليه عن المكان ممكن لا سيما على السماء الدنيا فإنها ليست محدده للجهات على مذهبكم أيضا والأرض كانت يجوز عليها الحركة الدورية كما تقول على السماء فعدمها وسكونها ليس إلا بفاعل مختار.

فصل ذكر الله تعالى من كل باب أمرين : أما من الأنفس فقوله : " (خلقكم) وخلق لكم " واستدل بخلق

الزوجين ومن الآفاق السماء والأرض (فقال : " خلق السماوات والأرض ") ومن لواز الإنسان اختلاف اللسان واختلاف الألوان ومن عوارض الآفاق البرق والأمطار ومن لوازمها قيام السماء والأرض ؛ لأن الواحد يكفي للإقرار بالحق ، والثاني يفيد الاستقرار ومن هذا اعتبر شهادة شاهدين ، فإن قول أحدهما يفيد الظن ، ، وقول الآخر يفيد تأكيده ، ولهذا قال إبراهيم عليه (الصلاة و) السلام : {بلى ولكن ليطمئن قلبي} [البقرة : ٦٠].

٤٠١

". (١)

"فصل قوله : بأمره أي بقوله : " قوما " أو بإرادته قيامها ؛ لأن الأمر عند المعتزلة موافق للإرادة وعندنا ليس كذلك ولكن النزاع في أمر التكليف ، لا في أمر التكوين فإنا لا ننازعهم في أن قوله : "كن فيكون " و "كوني " و "كونوا " موافق للإرادة.

فإن قيل : ما الفائدة في قوله " ههنا " : {ومن آياته أن تقوم السمآء} وقال قبله : {ومن آياته يريكم} [الروم : ٢٤] (ولم يقل : أن يريكم) ليصير (كالمصدر " بأن " ؟).

فالجواب : أن القيام لما كان غير متغير أخرج الفعل بأن عن الفعل المستقبل ولم يذكر معه الحروف المصدرية.

فإن قيل : ما **الحكمة في** أنه ذكر ست دلائل وذكر في أربعة منها : {إن في ذلك لآيات} [الروم : ٢٤] ولم يذكر الأولى وهو قوله : {ومن آياته أن خلقكم من تراب} [الروم : ٢٠] ولا في الآخر وهو قوله : {ومن آياته أن تقوم السمآء والأرض} ؟ .

فالجواب : أما الأول فلأن قوله بعده : {ومن آياته أن خلق لكم} أيضا دليل الأنفس فخلق السماء والأرض وخلق الأزواج من باب واحد على ما تقدم من أنه تعالى ذكر من كل باب أمرين للتقرير والتوكيد.

فلما قال في الثانية : {إن في ذلك لآيات} كان عائدا إليهما ، وأما في قيام السماء والأرض فلأنه ذكر في الآيات السماوية أنها آيات للعالمين ولقوم يعقلون وذلك لظهور فلما كان في أول الأمر ظاهرا ففي آخر الأمر بعد سرد الدلائل يكون أظهر (فلم يميز أحدا في ذلك عن الآخر).

ثم إنه تعالى لما ذكر الدليل على القدرة والتوحيد ذكر مدلوله وهو قدرته على الإعادة فقال : {ثم إذا

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل ، ص/٤٠٦٩

دعاكم دعوة من الأرض إذآ أنتم تخرجون} وجه العطف " بثم " و " بم تعلق " فمعناه أنه تعالى إذا بين لكم كمال قدرته بهذه الآيات بعد ذلك يخبركم ويعلمكم أنه إذا قال للعظام الرميمة اخرجوا من الأجداث يخرجون أحياء.

قوله : " من الأرض " فيه أوجه : أظهرها : أنه متعلق بمحذوف يدل عليه " يخرجون " أي خرجتم من الأرض ، ولا جائز أن يتعلق " بتخرجون " لأن ما بعد " إذا " لا يعمل فيما قبلها.

٤٠٢

فصل قول القائل : " دعا فلان فلانا من الجبل " يحتمل أن يكون الدعاء من الجبل كما يقول القائلك يا فلان (اصعد) إلى الجبل ، (فيقال : دعاه من الجبل ، ويحتمل أن يكون المدعو يدعى من الجبل كما يقول القائل : يا فلان انزل من الجبل فيقال دعاه من الجبل) ، ولا يخفى على العاقل أن الدعاء لا يكون من الرض إذا كان الداعي هو الله ، والمدعو يدعى من الأرض ، يعني أنكم في الأرض فيدعوكم منها فتخرجون ، وإذا هي الفجائية ، قال أكثر العلماء معنى الآية : ثم إذا دعاكم دعوة إذا أنتم تخرجون من الأرض.

فصل قال ههنا : {إذا أنتم تخرجون} وقال في خلق الإنسان أولا : {ثم إذا أنتم بشر تنتشرون} لأن هناك يكون خلق وتقدير وتدريج حتى يصير التراب قابلا للحياة فينفخ فيه روحه فإذا هو بشر ، وأما في الإعادة فلا يكون تدريج وتراخ بل يكون نداء وخروج ، فلم يقل ههنا : " ثم ".

قوله : {وله من في السماوات والأرض كل له قانتون} قال ابن عباس : كل له مطيعون في الحياة والفناء والموت والبعث وإن عصوا في العبادة.

وقال الكلبي : هذا خاص لمن كان منهم مطيعا.

ولما ذكر الآيات التي تدل على القدرة على الحشر الذي هو الأصل الآخر والوحدانية التي هي الأصل الأول أشار إليهما بقوله : {وله من في السماوات والأرض} ونفس السموات والأرض له وملكه فكل له منقادون قانتون ، والشريك يكون منازعا ، فلا شريك له أصلا ، ثم ذكر المدلول الآخر فقال : {هو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده} يخلقهم أولا ، ثم يعيدهم بعد الموت للبعث.

جزء : ١٥ رقم الصفحة : ٤٠١

قوله : {وهو أهون عليه} في " أهون " قولان : أحدهما : أنها للتفضيل على بابها وعلى هذا يقال : كيف

يتصور التفضيل ، والإعادة والبداءة بالنسبة إلى الله تعالى على حد سواء ؟ في ذلك أجوبة : أحدها : أن ذلك بالنسبة

٤٠٣

." (١)

"" الناس " إذا أريد بهم المؤمنون ، وقال الزجاج بعد قوله : " وجهك " معطوف تقديره " فأقم وجهك وأمتك " فالحال من الجميع ، وجاز حذل المعطوف لدلالة " منيبين " عليه ، كما جاز حذفه في قوله : {يا أيها النبي} أي والناس لدلالة : " إذا طلقتم " عليه ، كذا زعم الزجاج ، في { يا أيها النبي} [الطلاق : ١] وقيل : على خبر كان ، أي كونوا منيبين ، لدلالة قوله : " ولا تكونوا ".

فصل معنى منيبين إليه أي مقبلين عليه بالتوبة والطاعة ، " واتقوه " إي إذا أقبلتم عليه ، وتركتم الدنيا ، فلا تأمنوا فتتركوا عبادته بل خافوه وداوموا على العبادة " وأقيموا الصلاة " ولا تكونوا من المشركين ؛ بإعادة العامل.

وتقدم قراءتا " فرقوا ، وفارقوا " وتفسير " الشيع " أيضا.

قوله : " فرحون " الظاهر أنه خبر عن "كل حزب " ؛ وجوز الزمخشري أن يرتفع صفة " لكل " قال : ويجوز أن يكون " من الذين " منقطعا مما قبله ومعناه من المفارقين دينهم كل حزب فرحين بما لديهم ، ولكنه رفع " فرحين " وصفا لكل كقوله : ٤٠٤٢ - وكل خليل غير هاضم نفسه

....

جزء : ١٥ رقم الصفحة : ٤٠٨

قال أبو حيان : قدر أولا " فرحين " مجرورا صفة " لرجل " وهو الاكثر كقوله :

٤١١

٤٠٤٣ - جادت عليه كل عين ثرة

فتركن كل حديقة كالدرهم

وجاز الرفع نعتا " لكل "كقوله : ٤٠٤٤ - ولهت عليه كل معصفة

هوجاء ليس للبها زبر

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/٤٠٧٠

وهو تقدير حسن.

جزء : ١٥ رقم الصفحة : ٤٠٨

قوله : {وإذا مس الناس ضر} قحط وشدة ، {دعوا ربهم منيبين إليه} بالدعاء ، لما بين التوحيد بالدليل وبالمثل بين أن لهم حالة يعترفون بها ، وإن كانوا ينكرونه في وقت ما وهي حالة الشدة ، {ثم إذا أذاقهم منه رحمة} ، خصب أو نعمة ، يعني إذا خلصناهم من تلك الشدة {إذا فريق منهم بربهم يشركون} ، وقوله : " منه " أي من الضر ؛ لأن الرحمة غير مطلقة لهم إنما هي على ذلك الضر وحده ، وأما الضر المؤخر فلا يذوقون منه رحمة ويحتمل أن يكون الضمير في " منه " عائد إلى الله تعالى ، والتقدير ثم إذا أذاقهم الله من فضله رحمة خلصهم بها من ذلك الضر.

قوله : " إذا فريق " هذه " إذا " الفجائية ، وقعت جواب الشرط ؛ لأنها كالفاء في أنها للتعقيب ولا يقع أول كلام ، وقد تجامعها الفاء زائدة.

٤١٢

فإن قيل : ما الحكمة في قوله ههنا : {إذا فريق منهم} ، وقال في موضع : {فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون} ولم يقل : فريق.

فالجواب : أن المذكور هناك غير معين ، وهو ما يكون من هول البحر ، والتخلص منه بالنسبة إلى الخلق قليل ، والذي لا يشرك منهم بعد الخلاص فرقة منهم فهم في غاية القلة ، فلم يجعل المشركين فريقا لقلة من خرج من الشرك وأما المذكور ههنا الضر مطلقا فيتناول ضر البحر والأمراض والأهوال ، والمتخلص من أنواع الضر خلق كثير بل جميع الناس يكونون قد وقعوا في ضر ما فتخلصوا منه والذي لا يبقى بعد الخلاص مشركا من الناس يكونون قد وقعوا في ضر ما فتخلصوا منه والذي لا يبقى بعد الخلاص مشركا من جميع الأنواع إذا جمع فهو خلق عظيم وهو جميع المسلمين فإنهم تخلصوا من ضر ولم يبقوا مشركين ، وأما المسلمون فلم يتخلصوا من ضر البحر بأجمعهم فلما كان الناجي من الضر المؤمن جمعا كثيرا سمى الباقي فريقا.

قوله : " ليكفروا " يجوز أن تكون لام " كي " وأن تكون لام الأمر ومعناه التهديد كقوله : {اعملوا ما شئتم} [فصلت : ٤٠] ثم خاطب هؤلاء الذين فعلوا هذا خطاب تهديد فقال : " فتمتعوا ".

قرأ العامة بالخطاب فيه ، وفي " تعلمون " ، وأبو العالية بالياء فيهما ، والأول مبني للمفعول.

وعنه أيضا " فيتمتعوا " بياء قبل التاء ، وعن عبد الله " فليتمتعوا " بلام الأمر ، والمعنى : فسوف تعلمون حالكم في الآخرة.

قوله : {أم أنزلنا عليهم سلطانا} أي برهانا وحجة ، فإن جعلناه حقيقة كان يتكلم مجازا ، وإن جعلناه على حذف مضاف أي ذا سلطان كان يتكلم حقيقة ، وقال أبو البقاء هنا : وقيل : هو جميع سليط كرغيف ورغفان انتهى.

٤١٣

قال شهاب الدين : وهذا لا يجوز لأنه كان ينبغي أن يقال فهم يتكلمون.

و " فهو يتكلم " جواب الاستفهام الذي تضمنته " أم " المنقطعة ، وهذا استفهام بمعنى الإنكار أي ما أنزلنا بما يقولون سلطانا ، قال ابن عباس : حجة وعذرا ، وقال قتادة : كتابا يتكلم بما كانوا به يشركون " أي ينطق بشركهم ".

". (١)

"استماع الميت والأصم وأثبت إسماع المؤمن بآياته لزم أن يكون المؤمن حيا سميعا وهو كذلك لأن المؤمن ينظر في البراهين ويسمع زواجر الوعظ فتظهر منه الأفعال الحسنة ويفعل ما يجب عليه فهم مسلمون مطيعون كما قال تعالى (عهنم) : {سمعنا وأطعنا} [البقرة : ٢٨٥].

قوله : {الله الذي خلقكم من ضعف} لما أعاد دليل الآفاق بقوله : {الله الذي يرسل الرياح} [الروم : ٤٨] أعاد دليلا من دلائل الأنفس أيضا وهو خلق الآدمي وذكر أحواله فقال : {خلقكم من ضعف} أي (بأذى ضعف) كقوله : {ألم نخلقكم من مآء مهين} [المرسلات : ٢٠] ، وقرىء : " ضعف " بضم الضاد ، وفتحها ، فالضم لغة قريش ، والفتح لغة تميم " " من ضعف " أي من نطفة.

وتقدم الكلام في القراءتين والفرق بينهما في الأنفال ، {ثم جعل من بعد ضعف قوة} (أي) من بعد ضعف الطفولية شبابا وهو وقت القوة {ثم جعل من بعد قوة ضعفا} هرما " وشيبة " والشيبة هي تمام الضعف {يخلق ما يشآء}.

(فإن قيل : ما الحكمة في قوله ههنا : {وهو العليم القدير}) فقدم العلم على القدرة ، وقوله من قبل : {وهو العزيز الحكيم} والعزة إشارة إلى كما القدرة ، والحكمة إشارة إلى كمال العلم ، فقدم القدرة هناك

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/٤٠٧٤

على العلم ؟ !.
فالجواب أن المذكور هناك الإعادة {وهو أهون عليه وله المثل الأعلى في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم} لأن الإعادة بقوله : "كن فيكون " فالقدرة هناك أظهر وههنا المذكور الإبداء وهو أطوار وأحوال والعلم بكل حال حاصل فالعلم ههنا أظهر ثم إن قوله تعالى : {وهو العليم القدير} فيه تبشير وإنذار ؛ لأنه إذا كان عالما بأحوال الخلق يكون عالما بأحوال المخلوق فإن علموا خيرا علمه ثم إذا كان قادرا فإذا علم الخير أثاب ، وإذا علم الشر عاقب ، ولما كان العلم بالأحوال قبل الإثابة والعقاب اللذين هما بالقدرة (والعلم) قدم العلم ، وأما الآية الأخرى فالعلم بتـ,ك الأحوال قبل العقاب فقال : {وهو العزيز الحكيم}.
٤٢٩
جزء : ١٥ رقم الصفحة : ٤٢٧
قوله : {ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون} يحلف المشركون " ما لبثوا " في الدنيا " غير ساعة " أي إلا ساعة ، لما ذكر الإعادة والإبداء ذكره بذكر أحوالها ووقتها.
قوله : " ما لبثوا " جواب قوله " يقسم " وهو على المعنى ؛ إذا لو حكى قولهم بعينه لقيل : ما لبثنا ، والمعنى أنهم استلقوا أجل الدينا لما عاينوا الآخرة.
وقال مقاتل والكلبي : ما لبثوا في قبورهم غير ساعة كما قال : {كأنهم يوم يرونها} [النازعات : ٤٦] وقوله : {يرون ما يوعدون لم يلبثوا اا إلا ساعة من نهار} [الأحقاف : ٣٥].
قوله : "كذلك " أي مثل ذلك الإفك "كانوا يؤفكون " أي يصرفون عن الحق في الدنيا ، وقال الكلبي ومقاتل كذبوا في (قبورهم) قولهم غير ساعة كما كذبوا في الدنيا أن لا بعث ، والمعنى أن الله تعالى أراد يفضحهم فحلفوا على شيء (يتبـ,ين) لأهل الجمع أنهم كاذبون ، ثم ذكر إنكار المؤمنين عليهم فقال : {وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم في كتاب الله} أي فيما كتب الله لكم في سابق علمه في اللبث في القبور.
وقيل : في كتاب الله في حكم الله أي فيما وعد به في كتابه من الحشر والبعث فيكون " في كتاب الله " متعلقا " بلبثتم " وقال مقاتل وقتادة : فيه تقديم وتأخير معناه وقال الذين أوتوا العلم بكتاب الله والإيمان لقد لبثتم إلى يوم البعث.
٤٣٠

و " في " ترد بمعنى الباء [و] العامة على سكون عين " البعث " والحسن بفتحها ، وقرىء ، بكسرها ، فالمكسور اسم ، والمفتوح مصدر.

قوله : {فهاذا يوم البعث} في الفاء قولان : اظهرهما : أنها عاطفة هذه الجملة على " لقد لبثتم ".

وقال الزمخشري هي جواب شرط مقدر كقوله :

٤٠٤٦ - فقد جئنا خراسانا

كأنه قيل : إن صح ما قلتم إن " خرسان " أقصى ما يراد بكم وآن لنا أن نخلص وكذلك إن كنتم منكرين فهذا يوم البعث ، ويشير إلى البيت المشهور.

٤٠٤٧ - قالوا خراسان أقصى ما يراد بنا

قلنا القفول فقد جئنا خراسانا

جزء : ١٥ رقم الصفحة : ٤٣٠

". (١)

"يدي في يده.

فسكنت الريح فرجع عكرمة إلى مكة فأسلم وحسن إسلامه ، وقال مجاهد : مقتصد في القول أي من الكفار لأن منهم من كان أشد قولا من بعض.

فإن قيل : ما الحكمة في قوله في العنكبوت : {فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون} [العنكبوت : ٦٥] وقال ههنا : {فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد} ؟ !.

فالجواب : لما ذكر ههنا امرا عظيما وهو الموج الذي كالجبال بقي أثر ذلك في قلوبهم فخرج منهم مقتصد أي في الكفر وهو الذي انزجر بعض الانزجار ، ومقتصد في الإخلاص فيبقى معه شيء منه ولم يبق على ما كان عليه من الإخلاص ، وهناك لم يذكر مع ركوب البحر معانيه مثل ذلك الأمر فذكر إشراكهم حيث لم يبق عندهم أر.

قوله : {وما يجحد بآياتنآ} في مقابلة قوله تعالى : {إن في ذالك لآيات} يعني يعترف بها الصبار والشكور ، ويجحدها الختار الكفور فالصبار في موازنة الختار لفظا ومعنى ، والكفور في موازنة الشكور أم لفظا فظاهر ، وأما معنى فلأن الختار هو الغدار الكثير الغدر ، أو شديد الغدر مثال مبالغة من الختر وهو

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/٤٠٨١

أشد الغدر (قال الأعشى) : ٤٠٦٠ - بأبلق الفرد من تيماء منزله

حصن حصين وجار غير ختار

جزء : ١٥ رقم الصفحة : ٤٥٨

وقال عمرو بن معديكرب : ٤٠٦١ - فإنك لو رأيت أبا عمرو

ملأت يديك من غدر وختر

وقالوا : " إن مددت لنأ من غدر مددنا لك باعا من ختر " والغدر لا يكون إلا من قلة الصبر لأن الصبور إن لم يعقد مع أحد لا يعهد منه الإضرار فإنه يصبر ويفوض الأمر إلى الله ، وأما الغدار فيعاهدك ولا يصبر على العهد فينقضه وأما أن الكفور في مقابلة الشكور معنى ظاهر.

٤٦٥

جزء : ١٥ رقم الصفحة : ٤٥٨

قوله تعالى : { يا أيها الناس اتقوا ربكم} لما ذكر الدلائل من أول السورة إلى آخرها وعظ بالتقوى فقال : { يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوما لا يجزي} لا يقضي ، ولا يغني {والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئا}.

قال ابن عباس : كل امرىء تهمه نفسه ، واعلم أنه تعالى ذكر شخصين في غاية الشفقة والحنان والحنو وهو الوالد والولد ، فاستدل بالأولى على الأعلى فذكر الوالد والولد جميعا لأن من الأمور ما يبادر الأب إلى تحمله عن الولد كدفع المال ، وتحمل الآلام والولد لا يبادر إلى تحمله عن الوالد (مثل ما يبادر الوالد إلى تحمله عن الولد) ، ومنها ما يبادر الولد إليه كالإهانة فإن من يريد (إحضار) والد آخر عند وال أو قاض يهون على الابن أن يدفع الإهانة عن والده ويحضر هو بدله وإذا انتهى الأمر إلى الإيلام يهون على الأب أن يدفع الألم عن ابنه وستحمله هو بنفسه.

فقوله : {لا يجزي والد عن ولده} في دفع الآلام {ولا مولود هو جاز عن والده شيئا} في دفع الإهانة ثم قال : {إن وعد الله حق} أي إن هذا اليوم الذي هذا شأنه هو كائن لأن الله وعد به ووعده حق ، وقيل : وعد الله حق بأنه لا يجزي والد عن ولده لأنه وعد بأن لا تزر وازرة وزر أخرى ووعد الله حق {فلا تغرنكم الحياة الدنيا} أي لا تغتروا بالدنيا فإنها زائلة لوقوع اليوم المذكور بالوعد الحق.

{ولا يغرنكم بالله الغرور} يعني الشيطان يزين في عينه الدنيا ويؤمله يقول : إنك تحصل بها الآخرة أو

تلتذ بها ثم تتوب فتجتمع لك الدنيا والآخرة فنهاهم عن الأمرين.

قوله : " ولا مولود " دوزوا فيه وجهين : أحدهما : أنه مبتدأ ، وما بعده الخبر.

والثاني : أنه معطوف على " والد " وتكون الجملة صفة له.

وفيه إشكال وهو أنه

٤٦٦

". (١)

"وعملوا السيئات " ؛ لأن المراد من " فسقوا "كفروا ، ولو جعل العقاب في مقابلة الكفر والعمل لظن (أن) مجرد الكفر (لا) عقاب عليه.

قوله : {الذي كنتم به} صفة لعذاب ، وجوز أبو البقاء أن يكون صفة للنار قال : وذكر على معنى الجحيم والحريق.

قوله : {ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر} قال أبي بن كعب والضحاك والحسن وإبراهيم : العذاب الأدنى مصائب الدنيا وأسقامها وهو رواية الوالبي عن ابن عباس ، وقال عكرمة عنه : الحدود ، وقال مقاتل : الجوع سبع سنين بمكة حتى أكلوا الجيف والعظام والكلاب.

وقال ابن مسعود : هو القتل بالسيف يوم بدر وهو قول قتادة والسدي.

وأما العذاب الأكبر وهو عذاب الآخرة فإن عذاب الدنيا لا نسبة له إلى عذاب الآخرة.

فإن قيل : ما الحكمة في مقابلته " الأدنى " " بالأكبر " ، " والأدنى " إنما هو في مقابلة " الأقصى " " والأكبر " إنما هو مقابله " الأصغر " ؟ فالجواب : أنه حصل في عذاب الدنيا أمران : أحدهما : أنه قريب والآخر : أنه قليل صغير ، وحصل في عذاب الآخرة أيضا أمران ، أحدهما : انه بعيد والأآخر أنه عظيم كبير لكن العرف في عذاب الدنيا هو أنه الذي يصلح التخويف به فإن العذاب العاجل وإن كان قليلا فلا يحترز عنه بعض الناس أكثر مما يحترز من العذاب الشديد إذا كان آجلا ، وكذا الثواب العاجل قد يرعب فيه بعض الناس ويستبعد الثواب العظيم الآجل.

وأما في عذاب الآخرة فالذي يصلح للتخويف هو العظيم والكبير (لا) البعيد لما بينا فقال في عذاب الدنيا الأدنى ليحترز العاقل عنه ولو قال : " ولنذيقنهم

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل ، ص/٤٠٩٥

من العذاب الأصغر " ما كان يحترز عنه لصغره وعدم فهم كونه عاجلا ، وقال في عذاب الآخرة الأكبر لذلك المعنى ولو قال : من العذاب الأبعد الأقصى (لما حصل) التخويف به مثل ما يحصل بوصفه بالكبر.

قوله : " لعلهم يرجعون " إلى الإيمان يعني من بقي منهم بعد " بدر ".

فإن قيل : ما الحكمة في هذا الترجي وهو على الله تعالى محال ؟ فالجواب : فيه وجهان : أحدهما : معناه لنذيقنهم إذاقة الراجين كقوله : " إنا نسناكم " يعني تركناكم كما يترك الناس (حيث لا يلتفت إليه) أصلا كذلك ههنا.

والثاني : نذيقهم العذاب إذاقة يقول القائل : لعلهم يرجعون بسببه.

والثاني : نذيقهم العذاب إذاقة يقول القائل : لعلهم يرجعون بسببه.

قوله : {ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه} (أي من ذكر بآيات الله) من النعم أولا ، والنقم ثانيا ولم يؤمنوا ، فلا أظلم منهم أحد.

قوله : {ثم أعرض عنهآ} هذه أبعد ما بين الرتبتين معنى ، وشبهها الزمخشري بقوله : ٤٠٦٧ – وما يكشف الغماء إلا ابن حرة

يرى غمرات الموت ثم يزورها

جزء : ١٥ رقم الصفحة : ٤٨٣

قال : استبعد (أن يزور) غمرات الموت بعد أن رآها وعرفها ، واطلع على شدتها.

قوله : {إنا من المجرمين} (يعني المشركين) " منتقمون ".

جزء : ١٥ رقم الصفحة : ٤٨٣

قوله : {ولقد آتينا موسى الكتاب} لما قرر الأصول الثلاثة عاد إلى الأمثل الذي بدأ به وهو الرسالة المذكورة في قوله : {لتنذر قوما مآ أتاهم من نذير} [السجدة : ٣] وقال : إنك لست بدعا من الرسل بل كان قبلك رسل مثلك ، وذكر موسى لقربه (من) النبي – صلى الله عليه وسلم – ووجود من كان على دينه إلزاما لهم ، وإنما لم يختر عيسى – عليه (الصلاة و) السلام (للذكر) والاستدلال لأن اليهود ما كانوا يوافقون على نبوته ، وأما النصارى فكانوا يعترفون بنبوة عيسى عليه السلام فتمسك بالمجمع عليه.

قوله : {فلا تكن في مرية} قرأ الحسن بالضم وهي لغة ، وقوله : " من لقائه " في الهاء أقوال : أحدها :

أنها عائدة على " موسى " والمصدر مضاف لمفعوله أي من لقائك موسى ليلة الإسراء.
وامتحن المبرد الزجاج في هذه المسألة فأجاب بما ذكر ، قال ابن عباس وغيره : المعنى فلا تكن في شك من لقاء موسى فإنك تراه وتلقاه ، روى ابن عباس " عن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال : رأيت ليلة أسري بي موسى رحلا آدم طوالا جعدا كأنه من رجال شنوءة ، ورأيت عيسى رجلا مربوعا إلى الحمرة والبياض سبطي الرأس ، ورأيت مالكا خازن النار والدجال في آيات أراهني الله إياه " والثاني : أن المضير يعود على " الكتاب " وحينئذ يجوز أن تكون الإضافة للفاعل أي من لقاء الكتاب لموسى أو للمفعول أي من لقاء موسى الكتاب لأن اللقاء يصح نسبته إلى كل منهما ، لأن من لقيك فقد لقيته.
٤٩٠
." (١)

"إنما أنا أم رجالكم فدل هذا على أن معنى هذه الأمومة تحريم نكاحهن.
فصل قال ابن الخطيب : هذا تقرير آخر ، وذلك لأن زوجة النبي – عليه السلام – ما جعلها الله في حكم الأم إلا لقطع نظر الأمة عما تعلق به غرض النبي – عليه السلام – فإذا تعلق خاطره بامرأة شاركت زوجاته في التعلق فحرمت مثل ما حرمت أزواجه على غيره.
فإن قيل : كيف قال : وأزواجه أمهاتهم وقال من قبل : {ما جعل أزواجكم اللائي تظاهرون منهن أمهاتكم} فأشار إلى أن غير من ولدت لا تصير أما بوجه ، ولذلك قال في موضع آخر {إن أمهاتهم إلا اللائي ولدنهم} [المجادلة : ٢] ؟ .
فالجواب : أن قوله تعالى في الآية المتقدمة : {والله يقول الحق وهو يهدي السبيل} جواب عن هذا والمعنى أن الشرع مثل الحقيقة ولهذا يرجع العاقل عند تعذر اعتبار الحقيقة إلى الشريعة كما أن امرأتين (إذا) ادعت كل واحدة ولدا (بعينه(ولم يكن لهما بينة وحلفت إحداهما دون الأخرى حكم لها بالولد فعلم أن عند عدم الوصول إلى الحقيقة يرجع إلى الشرع بل في بعض المواضع (على المندوب) تغلب الشريعة على الحقيقة فإن الزاني لا يجعل أبا لولد الزنا وإن كان ولده في الحقيقة وإذا كان كذلك فالشارع له الحكم فقول القائل : هذه أمي قول (يفهم) لا عن حقيقة ولا يترتب عليه حقيقة وأما قول الشارع فهو حق فله أن يتصرف في الحقائق كم يشاء ، ألا ترى أن الأم ما صارت أما إلا بخلق الله الولد في رحمها ولو خلقه في

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/٤١٠٤

جوف غيرها لكانت الأم غيرها فإذا كان الذي يجعل الم الحقيقة أما فله أن يسمى أي امرأة أما ويعطيها حكم الأمومة.

على الابن لأن الزوجية تحصل الغيرة فإن تزوج بمن كان تحت الأب يفضي إلى قطع الرحم والعقوق ولكن النبي – عليه الصلاة والسلام – يربي في الدنيا والأخرة فوجب أن يكون زجاته مثل زوجات الآباء.

٥٠٤

فإن قيل : فلم لم يقل إن النبي أبوكم ويحصل هذا المعنى أو لم يقل أزواج أبيكم.

فالجواب : ان **الحكمة فيه** هو النبي (عليه السلام)(مما بينا) أنه إذا أراد زوجة واحد من الأمة وجب عليه تركها ليتزوج بها النبي – عليه (الصلاة و) السلام – فلو قال : أنت أبوهم لحرم عليه زوجات المؤمنين على التأبيد ، ولأنه لام جعل أولى بهم من أنفسهم والنفس مقدمة على الأب لقوله (– عليه السلام –) : " ابدأ بنفسك ثم بمن تعول " ولذلك فإن المحتاج (إلى القوت) لا يجب عليه صرفه إلى (الأب ويجب عليه صرفه إلى) النبي – صلى الله عليه وسلم – ثم إن أزواجه لهم حكم أزواج الأب حتى لا تحرم أولادهن على المؤمنين ولا أخواتهن ولا أمهاتهن وإن كان الكل يحرمن في الأم الحقيقة والرضاعة.

قوله : {وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله} يعني في الميراث قال قتادة : كان المسلمون يتوارثون بالهجرة قال الكلبي : إخاء رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بين الناس كان يؤاخي بين رجلين فإذا مات أحدهما ورثه الأخر دون عصبته حتى نزلت هذه الآية : {وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله} في حكم الله من المؤمنين الذين آخى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بينهم والمهاجرين يعني ذوي القرابات بعضهم أولى بميراث بعض من أن يرثوا بالإيمان والهجرة فنسخت هذه الآية الموارثة بالمؤاخاة والهجرة فصارت بالقرابة وبعضهم يجوز فيه وجهين : أحدهما : أن يكون بدلا من أولو.

والثاني : أنه مبتدأ ، وما بعده خبر ، والجملة خبر الأول.

قوله : {في كتاب الله} يجوز أن يتعلق " بأولي " إلا أن أفعل التفضيل يعمل في الظرف ، ويجوز أن يتعلق بمحذوف على أنه حال من الضمير في أولو والعمل فيها أولو لأنها شبيهة بالظرف ولا جائز أن يكون حالا (من أولو) للفصل بالخبر ولأنه لا عامل فيها.

٥٠٥

." (١)

"الخمسة بالذكر لأنهم أصحاب الكتب والشرائع وأولو العزم من الرسل ، وقدم النبي – صلى الله عليه وسلم – لأنه أولهم في كتاب الله ، "كما قال صلى الله عليه وسلم : كنت أول النبيين في الخلق ، وآخرهم في البعث " قال قتادة وذلك قول الله عز وجل : {وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح} فبدأ به – صلى الله عليه وسلم – قال ابن الخطيب : وخص بالذكر أربعة من الأنبياء وهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ، لأن موسى وعيسى كان لهما في زمان نبينا قوم وأمه فذكرهما احتجاجا على قومهما ، وإبراهيم (عليه الصلاة والسلام) يقولون بفضله (وكانوا يتبعونه في الشعائر ، ونوحا لأنه كان أصلا ثانيا للناس حيث وجد الخلق منه بعد الطوفان) ، وعلى هذا لو قال قائل : فآدم كان أولى بالذكر من نوح فنقول : خلق آدم كان للعمارة ونبوته كانت مثل الأبوة للأولاد ولهذا لم يكن في زمانه إهلاك قوم ولا تعذيب ، وأما نوح فكان مخلوقا للنبوة وأرسل للإنزال ولما كذبوه أهلك قومه وأغرقوا ، وأما ذكرعيسى بقوله : عيسى ابن مريم والمسيح ابن مريم ؛ فهو إشارة إلى أنه لا أب له ، إذ لو كان لوقع التعريف به.

قوله : " ميثاقا غليظا " هو الأول ، وإنما كرر لزيادة صفته وإيذانا بتوكيده ، قال المفسرون : عهدا شديدا على الوفاء بما حملوا.

قوله : " ليسأل " فيها وجهان : أحدهما : أنها لام كي أي أخذنا ميثاقهم ليسأل المؤمنين عن صدقهم والكافرين عن تكذيبهم فاستغنى عن الثاني بذكر مسببه وهو قوله : " وأعد " ومفعول صدقهم محذوف أي صدقهم عهدهم ، ويجوز أن يكون " صدقهم " في معنى تصديقهم ومفعوله محذوف أيضا أي عن تصديقهم الأنبياء.

قوله : " وأعد " يجوز فيه وجهان : أحدهما : أن يكون معطوفا على ما دل عليه " ليسأل الصادقين " ؛ إذ التقدير : فأثاب الصادقين وأعد للكافرين.

٥٠٨

والثاني : أنه معطوف على " أخذنا " ح لأن المعنى أن اںله أكد على النبياء الدعوة إلى دينه لإثابة المؤمنين وأعد للكافرين ، وقيل : إنه حذف من الثاني ما أثبت مقابله في الأول ، ومن الأول ما أثبت مقابله في

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/٤١١١

الثاني والتقدير : ليسأل الصادقين عن صدقهم فأثابهم ويسأل الكافرين عما أجابوا رسلهم {وأعد لهم عذابا مهينا}.

فصل قال المفسرون : المعنى أخذنا ميثاقهم لكي يسأل الصادقين عن صدقهم يعني النبيين عن تبليغهم الرسالة والحكمة في سؤالهم مع علمه أنهم صادقون بتبكيت من أرسلوا إليهم.

وقيل : ليسأل الصادقين عن علمهم بالله عز وجل ، وقيل : ليسأل الصادقين بأفواههم عن صدقهم بقلوبهم.

جزء : ١٥ رقم الصفحة : ٥٠٣

قوله تعالى : { يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم...

} الآية وهذا تحقيق لما سبق من الأمر بتقوى الله بحث لا يبقى معه خوف من أحد وذلك حين حوصر المسلمون مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أيام الخندق ، واجتمع الأحزاب واشتد الأمر على الأصحاب حيث اجتمع المشركون بأسرهم واليهود بأجمعهم ، ونزلوا على المدينة وعمل النبي - صلى الله عليه وسلم - الخندق وكان الأمر في غاية الشدة والخوف بالغا إلى الغاية والله دفع القوم عنهم من غير قتال وآمنهم من الخوف فينبغي أن لا يخاف العبد غير ربه فإنه القادر

٥٠٩

(١) ".

"سورة سبإ

مكية وهي خمس وخمسون آية وثمان مائة وثلاث وثمانون كلمة وأربعة آلاف وخمسمائة واثنا عشر حرفا.

جزء : ١٥ رقم الصفحة : ٥٩٩

قوله تعالى : {الحمد لله الذي له ما في السماوات} اعلم أن السور المفتوحة بالحمد خمس ، سورتان منها في النصف الأول وهما الأنعام والكهف وسورتان في النصف الأخير وهما هذه سورة الملائكة ، والخامسة وهي سورة فاتحة الكتاب تقرأ مع النصف الأخير.

والحكمة فيها أن نعم الله مع كثرتها وعدم قدرتنا على إحصائها منحصرة في قسمين نعمة الإيجاد ونعمة الإبقاء فإن الله خلقنا أولا برحمته وخلق لنا ما نقوم به وهذه النعمة توجد مرة أخرى بالإعادة فإنه خلقنا مرة أخرى ويخلق لنا ما ندوم به فلنا مرة أخرى ويخلق لنا ما ندوم به فلنا حالتان الإبداء والإعادة وفي كل حالة

(١) تفسير اللباب لابن عادل. ، ص/٤١١٣

له تعالى علينا نعمتان نعمة الإيجاد

٣

ونعمة الإبقاء فقال في النصف الأول : " الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور " إشارة إلى الشكر على نعمة الإيجاد ، ويدل عليه قوله تعالى : " الذي خلقكم من طين " فأشار إلى الإيجاد الأول وقال في السورة الثانية : " الحمد لله الذي أنزال على عبده الكتاب ولم يجعل له عواجا قيما لينذر " فأشار إلى الشكر على نعمة الإبقاء فإن الشرائع بها البقاء ولولا شرع ينقاد له لا تبع كل واحد هواه ووقعت المنازعات وأدت إلى التقاتل والتفاني وقال ههنا : " الحمد لله الذي له ما هي السموات والأرض " إشارة إلى نعمة الإيجاد الثاني دليل قوله : {وله الحمد في الآخرة} [سبأ : ١] وقال في الملائكة : {الحمد لله فاطر السماوات والأرض} [فاطر : ١] إشارة إلى نعمة الإبقاء بدليل قوله تعالى : {جاعل الملائكة رسلا} اي : يوم القيامة يرسلهم الله مسلمين على المسلمين كما قال تعالى : {وتتلقاهم الملائكة} [الأنبياء : ١٠٣] وقال تعالى عنهم : {سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين} [الزمر : ٧٣] وفاتحة الكتاب لما اشتملت على ذلك نعمتين أشار بقوله : {الحمد لله رب العالمين} [الفاتحة : ٢] إلى النعمة العاجلة ، وأشار بقوله : " مالك يوم الدين " إلى النعمة الآجلة ، فرتب الافتتاح والاختتام عليهما.

فإن قيل : قد ذكرتم أن الحمد ههنا إشارة إلى النعم التي في يالآخرة فلماذا ذكر الله السموات والأرض ؟ فالجواب : أن نعم الآخرة غير مرئية فذكر الله النعم المرئية وهي ما في السموات وما في الأرض ثم قال : " وله الحمد في الآخرة " لتنقاس نعم الآخرة بنعم الدنيا ويعلم فضلها بدوامها.

قوله : " الذي له " يجوز فيه أن يكون تابعا وأن يكون مقطوعا نصبا ورفعا على المحد فيهما و " ما في السماوات " يجوز أن يكون فاعلا به وهو الأحسن وأن يكون متبدأ.

قوله : " في الآخرة " يجوز أن يتعلق بنفس الحمد ، وأن يتعللق بما تعلق به خبره (وهو الحكيم) يجوز أن يكون معترضا إذا أعربنا " يعلم " حالا مؤكدة من ضمير الباري تعالى ، ويجوز أن يكون " يعلم " مستأنفا ، وأن يكون حالا من الضمير في " الخبير ".

فصل له ما في السموات وما في الأرض ملكا وخلقا وله الحمد في الآخرة كما هو له في

٤." (١)

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/٤١٥٥

"فصل اعمل أنه تعالى ذكر منهم أمرين الإيمان والعمل الصالح وذكر لهم أمرين المغفرة والرزق الكريمة فالمغفرة جزاء الإيمان فكل مؤمن مغفور له لقوله تعالى : {إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذالك لمن يشآء} [النساء : ١١٦] وقوله عليه (الصلاة و) السلام : " يخرج من النار من قال لا إله إلا الله ومن (في) قلبه وزن ذرة من إيمان ".

والرزق الكريم مرتب على العمل الصالح وهذا مناسب فإن من عمل لسيد كريم عملا فعند فراغه من العمل لا بد وأن ينعم عليه.

وتقدم وصف الرزق بالكريم أنه بمعنى ذاكرم أو مكرم أو لأنه من غير طلب بخلاف رزق الدنيا فإنه إن لم يطلب ويتسبب إليه لا يأتي.

فإن قيل : ما الحكمة في تمييزه الرزق بوصفه بأنه كريم ولم يضف المغفرة ؟ فالجواب : لأن المغفرة واحدة وهي للمؤمنين وأما الرزق فمنه شجرة الزقوم والحميم ومن الفواكه والشراب الطهور فميز الرزق لحصول الانقسام فيه ولم يميز المغفرة لعدم الانقسام فيها.

فصل قوله : {أولائك لهم مغفرة ورزق كريم} يحتمل وجهين : أحدهما : أن يكون ذلك لهم جزاء فيوصله إليه لقوله : " ليجزي الذين آمنو ".

وثانيهما : أن يكون ذلك لهم والله يجزيهم بشيء آخر لأن قوله : " أ‍لئك لهم " جملة (تامة اسمية ، وقوله تعالى : " ليجزي الذين آمنوا " جملة) فعلية مستقلة وهذا أبلغ في البشارة من قول القائل : ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات رزقا ".

فصل اللام في " ليجزي " ومعناه الآخرة للجزاء.

فإن قيل : فما وجه المناسبة ؟ فالجواب : أن الله تعالى أرد أن لا يقطع ثوابه فجعل للمكلف دارا باقية تكون ثوابه

١٠

واصلا إليه فيها دائما أبدا وجعل قبلها دارا فيه الآلام والأسقام وفيها الموت ليعلم المكلق مقدار ما يكون فيه في الآخرة إذا نسبه إلى ما قبله.

قوله : " والذين سعوا " يجوز فيه وجهان : أظهرهما : أنه مبتدأ و " أولئك " (و) ما بعده خبره.

والثاني : أنه عطف على الذي قبله أي ويجزي الذين سعوا ويكون " أ‍لئك " الذي بعده مستأنفا و " أ‍لئك

" الذي قبله وما في خبره معترضا بين المتعاطفين.
قوله : {والذين سعوا فى آياتنا معاجزين} أي في إبطال أدلتنا معاجزين يحسبون أنهم يفوتوننا وقد تقدم في الحج قراءتا معاجزين.
وعلم أنه تعالى لما بين حال المؤمنين يوم القيامة بين حال الكافرين والمراد بهم الذين كذبوا بآياتنا وقوله : " معاجزين " أي سعوا في إبطالها لأن المكذب آت بإخفاء آيات بينات فيحتاج إلى السعي العظيم والجد البليغ ليروج كذبه لعله يعجز المتمسك به.
قوله : {أولائك لهم عذاب من رجز أليم} قرأ ابن كثير وحفص هنا وفي الجاثية أليم بالرفع والباقون بالخفض.
فالرفع على أنه نعت " لعذاب " والخفض على أنه نعت " لرجز " إلا أن مكيا ضعف قراءة الرفع واستبعدها قال : لأن الرجز هو العذاب فيصير التقدير عذاب أليم من عذاب وهذا المعنى غير ممكن قال : والاختيار خفض " أليم " لأنه أصح في التقدير والمعنى إذ تقديره لهم عذاب من عذاب أليم أي هذا الصنف من أصناف العذاب ، لأن العاب بعضه آلم من بعض وأجيب : بأن الرجز مطلق العذاب فكأنه قيل : لهم هذا الصنف من العذاب من جنس العذاب ، وكأن أبا البقاء لحظ هذا حيث قال : وبالرفع صفة لعذاب ، والرجز مطلق العذاب.
١١
فصل قال قتادة : الرجز أسوأ العذاب فيكون " من " لبيان الجنس كقولك : خاتم من فضة.
قال ابن الخطيب : قال هناك : لهم رزق كريم ولم يقدر بمن التبغيضية فلم يقل : لهم نصيب من رزق ، ولا رزق من جنس كريم ، وقال ههنا " لهم عذاب منء رجز أليم " بلفظة صالحة للتبعيض ، وذلك إشارة إلى سعة الرحمة وقله الغضب وقال هناك : " لهم مغفرة " ثم قال : {ورزق كريم} [الأنفال : ٤] وههنا لم يقل إلا : " لهم عذاب " فزادهم هناك الرزق الكريم ، وههنا لم يزدهم على العذاب وفيما قاله نظر ، لقوله تعالى في موضع آخر : {زدناهم عذابا فوق العذاب} [النحل : ٨٨].
قوله : {ويرى الذين أوتوا العلم} فيه وجهان : أحدهما : أنه عطف على " ليجزي " قال الزمخشري : أي وليعلم الذين أوتوا العلم عند مجيء الساعة.
وإنما قيده بقوله عند مجيء الساعة لأنه علق : " ليجزي " بقوله : " لتأتينكم " فبنى هذا عليه وهو من

احسن ترتيبز والثاني : أنه مستأنف أخبر عنهم بذلك " و الذي أنزل " هو المفعول الأول وهو فصل و " الحق " مفعول ثان ، لأن الرؤية علمية وقرا ابن أبي عبلة الحق بالرفع على أن خبر " هو " والجملة في موضع المفعول الثاني وهي لغة تميم يجلعون ما هو فل مبتدأ وخبر و " من ربك " حال على القراءتين.

١٢

". (١)

"وقرأ العامة الريح بالإفراد.

والحسن وأبو حيوة ، وخالد بن إلياس الرياح جمعا.

وتقدم في الأنبياء أن الحسن يقرأ مع ذلك بالنصب وهنا لم ينقل له ذلك.

فإن قيل : الواو في قوله : " ولسليمان " للعطف فعلى قراءة الرفع يصير عطفا للجملة الاسمية على فعلية وهو لا يجوز أو لا يحسن ؟ فالجواب : أنه لما بين حال داود فكأنه قال : لما ذكر لداود ولسليمان الريح وإما على النصب على قوله : {وألنا له الحديد} (كأنه قال وألنا لداود الحديد) وسخرنا لسليمان الريح.

قوله : {غدوها شهر} مبتدأ وخبر ولا بد من حذف مضاف أي غدوها مسيرة شهر أو مقدار غدوها شهر ، ولو نصب لجاز ، إلا أنه لم يقرأ بها فيما علمنا ، وقرأ ابن أبي عبلة غدوتها ورحتها على المرة ، والجملة إما مستأنفة ، وإما في محل حال.

فصل المعنى غدو تلك الريح المستمرة له مسيرة شهر ، وسير رواحها شهر فكانت تسير به في يوم واحد مسيرة شهرين.

قال الحسن : كان يغدو من دمشق فيقيل بإصطخر ــ وبينهما مسية شهر ، ثم يروح من إصطخر فيبيت بكابل) وبينهما مسيرة شهر للراكب المسرع وقيل : كان يتغذى بالري ويتعشى بسمرقند.

فإن قيل : ما الحكمة في قوله في الجبال مع داوود الجبال وفي الأنبياء وفي هذه السورة فقال : يا جبال أوبي معه وقال في الريح هناك وههنا : لسليمان باللام ؟ فالجواب : أن الجبال لما سبحت شرفت بذكر الله فلم يضيفها إلى داود بلام الملك بل جعلها معه كالمصاحب والريح لم يذكر تسبيحها فجعلها كالمملوكة له.

٢٥

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/٤١٥٨

قوله : {من يعمل} أي أذبنا له عين النحاس.

والقطر : النحاس قال المفسرون : أجريت له عين النحاس ثلاثة أيام بلياليها كجري المياه.

وكان بأرض اليمن.

وإنما ينتفع الناس اليوم بما أخرج الله لسليمان.

قوله : {} يجوز أن يكون مرفوعا بالابتداء وخبره في الجار قبله أي من الجن من يعمل وأن يكون في موضع نصب بفعل مقدر أي وسخرنا ،ه من يعمل و " من الجن " يتعلق بهذا المقدر ، أو بمحذوف على أنه حال أو بيان ، و " بإذن " حال أي ميسرا بإذن ربه ، والإذن مصدر مضاف لفاعله ، وقرئ : " ومن يزغ " بضم الياء من أزاغ ومفعوله محذوف أي يزغ نفسه ، أي يميلها و " من عذاب " لا بتداء الغاية أو للتبعيض.

فصل قال ابن عباس : سخر الله الجن لسليمان وأمرهم بطاعته فيما يأمرهم به ، ومن يزغ يعدل منهم من الجن عن أمرنا الذي أمرنا به من طاعة سليان نذقه من عذاب السعير في الآخرة ، وقيل : في الدنيا وذلك أن الله وكل بهم ملكا بيده سوط من نار فمن زاغ منهم عن أمر سليمان ضربه ضربة أحرقته.

قوله : {يعملون له ما يشآء} مفسر لقوله : " من يعمل " و " من محاريب " بيان لـ " ما يشاء " والمراد بالمحاريب : المساجد والأبنية المرتفعة ، وكان مما عملوا له بيت المقدس ، ابتدأه داود ورفعه قامة رجل فأوحى إليه أني لم أقض ذلك على يدك ولكن ابن لك أملكه بعدك اسمه سليمان أقضي تمامه على يده ، فلما توفاه الله استخلف سليمان فأحب إتمام بناء بيت المقدس فمجمع الجن والشياطين وقسم عليهم الأعمال فخص كل طائفة منهم بعمل يستصلحه له فأرسل الجن والشياطين في تحصل الرخام والميها الأبيض من معادنه وأمر ببناء المدينة بالرخام والصفاح وجعلها اثني عشر ربضا وأنزل على كل

٢٦

." (١)

"من يشاء " وذلك لأن أشخاص الناس متساوية في الحقيقة والإساءة والإحسان والسيئة والحسنة تمتاز بعضها عن بعض فإذا عرفها البعض دون البعض لا يكون ذلك بالاستقلال منهم فلا بد من الاستناد إلى إرادة الله تعالى.

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/٤١٦٣

ثم سلى - رسول الله صلى الله عليه وسلم - حيث حزن على إصرارهم بعد إتيانه بكل آية ظاهرة وحجة قاهرة فقال : {فلا تذهب نفسك عليهم حسرات} كقوله تعالى : {فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا} [الكهف : ٦] أي لا تغتم بكفرهم وهلاكهم إن لم يؤمنوا.

قوله : {فلا تذهب} العامة على فتح التاء مسندا " لنفسك " من باب " لا أرينك ههنا " أي لا تتعاط أسباب ذلك.

وقرأ أبو جعفر وقتادة والأشهب بضم التاء وكسر مسندا لضمير المخاطب (و) نفسك مفعول به.

قوله : {حسرات} فيه وجهان : أحدهما : أنه مفعول من أجله أي لأجل الحسرات.

والثاني : أنه في موضع الحال على المبالغة كأن كلها صا (ر) ت حسرات لفرط التحسر كما قال :

٤١٥٢ - مشق الهواجر لحمهن مع السرى

حتى ذهبن كلاكلا وصدورا

جزء : ١٦ رقم الصفحة : ١٠٣

يريد : رجعن كلاكلا وصدروا ، أي لم يبق إلا كلاكلها وصدورها كقولهم (شعر) :

١٠٦

٤١٥٣ - فعلى إثرهم تساقط نفسي

حسرات وذكرهم لي سقام

وكون " كلاكل وصدور " حال قوله سيبويه وجعلها المبرد تمييزين منقولين من الفاعلية والحسرة شدة الحزن على ما فات من الأمر.

ثم قال : {إن الله عليم بما يصنعون} أي الله عالم بفعلهم يجازيهم على ما يصنعونه ، ثم عاد إلى البيان وقال : {والله الذى أرسل الرياح} وهبوب الرياح دليل ظاهر على الفاعل المختار ، لأن الهواء قد يسكن وقد يتحرك وعند حركته قد يتحرك إلى اليمين وقد يتحرك إلى الشمال وفي حركاته المخلتفة قد ينشئ السحاب وقد لا ينشئ.

فهذه الاختلافات دليل على مسخر مدبر مؤثر مقدر.

قوله : {فتثر} عطف على " أرسل " لأن " أرسل " بمعنى المستقبل فلذلك عطف عليه وأتى بأرسل لتحقق وقوعه.

و " تثير " لتصور الحال واستحضار الصورة البديعية كقوله : {أنزل من السمآء مآء فتصبح الأرض مخضرة} [الحج : ٦٣] وكقول تأبك شرا : ٤١٥٤ - ألا من مبلغ فتيان فهم

بما لاقيت عند رحا مطان

بأني قد رأيت الغول تهوي

بسهب كالصحيفة صحصحان

فقلت لها كلانا نضو أرض

أخو سفر فخل لي مكاني

فشدت شدة نحوي فأهوت

لها كفي بمصقول يماني

فأضربها بلا دهش فخرت

صريعا لليدين وللجران

١٠٧

حيث قال : " فأضربها " ليصور لقوله حاله وشجاعته وجرأته وقوله : " فسقناه و أحيينا " معدولا بهما عن لفظ الغيبة إلى ما هو أدخل في الاختصاص وأدل عليه.

فصل قال : أرسل بلفظ الماضي وقال : {فتثير سحابا} بلفظ المستقبل ، لأنه لما أسند فعل الإرسال إلى الله وما يفعله يكون بقوله كن فلا يبقى في العدم لا زمانا ولا جزءا من الزمان فلم يقل بلفظ المستقبل لوجوب وقوعه وسرعة كونه كأنه كان ، ولأنه فرغ من كل شيء فهو قدر الإرسال في الأوقات المعلومة وإلى المواضع المعينة.

ولما أسند فعل الإشارة إلى الريح ويه تؤلف في زمان فقال : تثير أي على هيئتها وقال : " سقنا " أسند الفعل غلى المتلكم وكذلك في قوله : " فأحيينا " لأنه في الأول عرف نفسه بفعل من الأفعلا وهو الإرسال ثم لما عرف قال : أنا الذي بعثت السحاب وأحييت الأرض.

ففي الأول كان تعريفا بالفعل العجيب وفي الثاني : كان تذكيرا بالنعمة فإن كمال نعمة الرياح والسحاب بالسوق والإحياء وقوله : " سفنا وأحيينا " بصيغة الماضي يؤيد ما ذكرنا من الفرق بين قوله : " أرسل " وبين قوله : " تثير " ثم قال : "كذلك النشور " أي من القبور ووجه التشبيه من وجوه : أحدها : أن الأرض

الميتة لما وصلت الحياة اللائقة بها كذلك الأعضاء تقبل الحياة.

وثانيها : كما أن الريح تجمع القطع السحابية كذلك نجمع أجزاء الأعطاء وأبعاض الأشياء.

وثالثها : كما أن نسوق الريح والسحاب إلى البلد نسوق الروح إلى الجسد الميت.

فإن قيل : ما **الحكمة في** هذه الآية من بين الآيات مع أن الله تعالى له في كل شيء آية تدل على أنه واحد ؟ فالجواب : أنه تعالى لما ذكر أنه فاطر السماوات والأرض وذكر من الأمور السماوية والأرواح وإرسالها بقوله : " جاعل الملائكة رسلا أولي أجنحة " ذكر في الأمور الأرضية الرياح.

١٠٨

جزء : ١٦ رقم الصفحة : ١٠٣

". (١)

"قوله : {سنة آلأولين} مصدر مضاف لمفعوله و " وسنة الله " مصدر مضاف لفاعله لأنه سنها بهم فصحت إضافتها إلى الفاعل والمفعول.

وهذا جواب (عن) سؤال وهو أن الإهلاك ليس سنة الأولين إنما هو سنة الله ف الأولين والجواب عن هذا السؤال من وجهين : أحدهما : أن المصدر الذي هو المفعول المطلق يضاف إلى الفاعل والمفعول لتعلقه بهما من وجه دون وجه فيقال فيما إذا ضرب زيد عمرا : عجبت من ضرب عمرو وكيف ضرب مع ما له من القوم والقوة ؟ وعجبت من ضرب عمرو وكيف ضرب مع ماله من العلم والحلم ؟ فكذلك سنة الله بهم أضافها إليهم لأنها (سنة) سنت بهم وإضافتها إلى نفسه بعدها بقوله : {فلن تجد لسنة الله} لأنها سنة من الله ، فعلى هذا نقول : أضافها في الأول إليهم حيث قال : سنة الأولين ، لأن سنة الله الإهلاك بالإشراك والإكرام على الإسلام فلا يعلم أنهم ينتظرون أيتهما فإذا قال : سنة الأولين تميزت وفي الثاني أضافها إلى الله لأنها لما علمت فالإضافة إلى الله تعظيما وتبين أنها أمر واقع ليس لها من دافع.

وثانيهما : أن المراد من سنة الأولين استمرارهم على الإنكار واستكبارهم عن الإقرار وسنة الله استئصالهم بإصرارهم فكأنه قال : أنتم تريدون الإتيان بسنة الأولين والله يأتي بسنة لا تبديل لها ولا تحويل عن مستحقها.

فإن قيل : ما **الحكمة في** تكرار التبديل والتحويل ؟ فالجواب : أن المراد بقوله : {فلن تجد لسنة الله تبديلا} حصول العلم بأن العذاب لا يبدل بغيره وبقوله : {ولن تجد لسنة الله تحويلا} حصول العلم بأن

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل ، ص/٤١٩٤

العذاب مع أنه لا يتبدل بالثواب لا يتحول عن مستحقه إلى غيره فيتم تهديد المسيء.
فصل المعنى فهل ينتظرون إلا أن ينزل بهم العذاب كما نزر بمن مضى من الكفار والمخاطب بقوله : {فلن تجد} عام كأنه قال : لن تجد أيها السامع وقيل : الخطاب مع محمد - عليه (الصلاة و) السلام - .

جزء : ١٦ رقم الصفحة : ١٥٠

قوله : {أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم} لما ذكر الأولين وسنته في إهلاكهم نبههم بتذكير الأولين فإنهم كانوا يمرون على ديارهم ويرون آثارهم وأملهم كان فوق أملهم وعملهم كان دون عملهم وكانوا اطول أعمارا منهم وأشد اقتدارا ومع هذا لم يكذبوا مثل محمد وأنتم يا أهل مكة كفرتم محمدا ومن تقدمه.
قوله : {وكانوا اا أشد} جملة في موضع نصب على الحال ونظيرتها في الروم : "كانوا " بلا " واو " على أنها مستأنفة فالمقصدان مختلفان.
وقال ابن الخطيب : الفرق بينهما أن قول القائل : " أما رأيت زيدا كيف أكرمني هو أعظم منك " يفيد أن القائل يخبره بأن زيدا أعظم وإذا قال : ما رأيته كيف أكرمني وهو أعظم (منك) يفيد أن يقرر أن المعنيين حاصلان عند السامع كأنه رآه أكرمه ورآه أكرم منه (و) لا شك في أن هذه العبارة الأخيرة تفيد كون الأمر الثاني في الظهرو مثل الأول بحيث لا يحتاج إلى اعلام من المتكلم ولا إخبار.
وإذا علم هذا فنقول : المذكرو ههنا كونهم أشد منهم قوة لا غير ولعل ذلك كان ظاهرا عندهم فقال " بالواو " أي نظركم كما يقع على عاقبة أمرهم يقع على قولهم وأما هناك فالمذكور أشياء كثيرة فإنه قال : {أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروهآ أكثر} [الروم : ٩] وفي موضع آخر قال : {أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا اا أكثر منهم وأشد قوة وآثارا في الأرض} [غافر : ٨٢] ولعل عملهم لم يحصل بإثارتهم في الأرض أو بكثرتهم ولكن نفس القوة ورجحانهم كان معلوما عندهم فإن كل طائفة تعتقد فيمن تقدمها أنها أقوى منها ولا تنازع فيه.
١٥٩
." (١)

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/٤٢١٥

"وجرحل فما جاء في القرآن إشارة إلى أن تركيب العربية من هذه الحروف على هذه الوجوه فماذا يقول هذا القائل في تخصيص بعض السور بالحرف الواحد ، والبعض بأكثر فلا يعلم ما السر إلا الله من أعلمه الله به وإذا علم هذا العبادة منها قلبية ومنها لسانية ومنها جاريحة ، وكل واحد منها قسمان : قمس عقل معناه وحقيقته وقسم لم يعلم.

أما القلبية مع أنها عن الشك والجهل ففيها ما لم يعلم دليله عقلا وإنما وجب الإيمان به والاعتقاد سمعا كالصراط الذي هو أرق من الشعر وأحد من السيف ، ويمر عليه المؤمن كالبرق الخاطبف ، والميزان الذي تزن به الأعمال الذي لا ثقل بها في نظر الناظر وكيفية الجنة والنار فإن هذه الأشياء وجودها لم يعلم بدليل عقلي وإنما المعلوم بالعقل إمكانها ووقوعها معلوم (و) مقطوع به بالمسع ومنها ما علم معناه وما لم يعلم كمقادير النصب وعدد الركعات والحكمة في ذلك أن العبد إذا أتى بم أمر به من غير أن يعمل ما فيه من الفائدة لا يكون الإتيان إلا لمحض العبادة بخلاف ما لو علم الفائدة فربما يأتي بها لفائدة وإن لم يؤمن كما لو قال السيد لعبده : انقل هذه الحجارة من ههنا ولم يعلمه بما في لانقل فنقها ولو قال انقلها فإن تحتها كنزا هو لك فإنه ينقلها وإن لم يؤمر وإذا علم ها فكذلك في العبادات السانية الذكرية يجب أن يكون ما لم يفهم معناه إذا تكلم به العبد علم أنه لا يعقل غير الانقياد لأمر المعبود الإلهي.

فإذا قال : حم ، يس ، طس علم أنه لا يذكر ذلك لمعنى يفهمه بل يتلفظ به امتثالا لما أمر به.

فصل قال ابن عباس : يس قسم ، ووري عنه أن معناه يا إنسان بلغة طيئ.

قيل : لأن تصغير إنسان أنيسين كما تقدم عن الزمخشري فكأنه حذف الصدر منه وأخذ العجز وقال : ياسين أي أنيسين.

قال أكثر المفسرين عين محمدا - صلى الله عليه وسلم - قال الحسن وسعيد بن جبير وجماعة.

وقال أبو (العالية : يا رجل.

وقال أبو بكر الوراق : يا سيد البشر وقوله : {والقرآن

١٦٦

الحكيم} أي ذي) الحكمة ك {في عيشة راضية} [الحاقة : ٢١] أي ذات رضا ، أو أنه ناطق بالحكمة وهو كالحي المتكلم.

قوله : {إنك} و {على صراط} يجوز أن يكون متعلقا بـ " المرسلين " يقول : أرسلت عليه ، كما قال

تعالى : {وأرسل عليهم طيرا} [الفيل : ٣] وأن يكون متعلقا بمحذوف على أنه حال من الضمير المستكن في " لمن المرسلين " لوقوعه خبرا وأن يكون حالا من " المرسلين " وأن يكون خبرا ثانيا لـ " إنك ".

فصل أقسم بالقرآن على أن محمدا من المرسلين.

وهو رد على الكفار ، حيث قولوا : (لست مرسلا).

فإن قيل : المطلب ثبت بالدليل لا بالقسم فما الحكمة بالإقسام ؟ !.

فالجواب من وجوه : الأول : إن العرب كانوا يتقون الإيمان الفادرة وكانوا يقولون بأن الأيمان الفاجرة توجب خراب العالم وصحح النبي - عليه الصلاة والسلام - ذلك بقوله : " اليمين الكاذبة تدع الديار بلاقع " ثم إنهم كانوا يقولون : إن النبي عليه - (الصلاة و(السلام - يصيبه عذاب آلهتهم ، وهي الكواكب والنبي عليه (الصلاة و) السلام يحلق بأمر الله وإنزال كلامه عليه بأشياء مختلفة ، وما كان يصيبه عذاب بل كان كل يوم أرفع شأنا وأمنع مكانا ، فكان ذلك يوجب اعتقاد أنه ليس بكاذب.

الثاني : أن المتناظر (ين) إذا وقع بينهما كلام ، وغلب أحدهما الآخر بتمشية دليله وأسكته يقول المغلوب : إنك قدرت هذا بقوة جدالك ، وأنت خبير في نفسك بضعف مقالتك ، وتعلم أن الأمر ليس كما تقول وإن أقمت عليه الدليل صورة ، وعجزت

١٦٧

." (١)

"أنا عن القدح فيه وهذا كثير الوقوع بين المتناظرين فعند هذا لا يجوز أن يأتي هو بدليل آخر ؛ لأن الساكت المنقطع يقول في الدليل الآخر ما قاله في الأول ، فلا يجد أمرا إلا باليمين فيقول : والله إني لست مكابرا ، وإن الأمر على ما ذكرت ولم علمت خلافه لرجعت إليه فههنا يتعين اليمين ، فكذلك النبي عليه (الصلاة و) السلام أقام البراهين ، وقالت الكفرة : {ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آبآؤكم} [سبأ : ٤٣] وقالوا {للحق لما جآءهم هذا سحر مبين} [الأحقاف : ٧] فالتمسك بالأيمان لعدم فائدة.

الدليل الثالث : أن هذا ليس مجرد الحلف بل دليل خرج في صورة اليمين ؛ لأن القرآن معجزة ودليل كونه مرسلا هو المعجزة والقرآن كذلك.

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل ، ص/٤٢١٨

فإن قيل : لم لم يذكر في صورة الدليل.

وما **الحكمة في** صورة اليمين ؟ فالجواب : أن الدليل إذا ذكر لا في صورة اليمين ، قد لا يقبل عليه السامع فلا يفيد فائدة ، فإذا ابتدأ به على صورة اليمين لا يقع ولا سيما من العظيم إلا على عظيم ، والأمر العظيم تتوفر الدواعي على الإصغاء إليه فلصروة اليمين تقبل عليه الأسماع لكونه دليلا شافيا يتشربه الفؤاد فيقع في السمع وفي القلب.

قوله : {على صراط مستقيم} أي إنك على صراط مستقيم.

والمسقيم أقرب الطرق الموصلة إلى المقصد والدين كذلك فإنه يوصل إلى الله وهو المقصد.

قوله : {تنزيل العزيز الرحيم} قرأ نافع وابن كثيروأبو عمرو وأبو بكر برفع " تنزيل " على أنه خبر متبدأ مضمير أي هو تنزيل.

ويجوز أن يكون خبرا لمبتدأ إذا جعلت " يس " اسما للسورة أي هذه السورة المسماة بـ " يس " تنزيل ، أو هذه الأحرف المقطعة تنزيل.

والجملة القسمية على هذا اعتراض.

والباقون بالنصب على المصدر كأنه قال : نزل تنزل العزيز الرحيم لتنذر.

أو على أنه معفول بفعل منوي كأنه قال والقرآن الحكيم أعين تنزيل العزيز الرحيم إنك لمن المرسلين لتنذر وهذا اختيار الزمخشري

١٦٨

وهو المراد بقوله : " أو على المدح " وهو في المعنى كالرفع على خبر ابتداء مضمر و " تنزيل " مصدر مضاف لفاعله.

وقيل : هو بمعنى منزل وقرأ أبو حيوة واليزيدي وأبو جعفر يزيد بن القعقاع وشيبة تنزيل بالجر على النعت للقرآن أو البدل منه ، كأن قال : والقرآن الحكيم تنزيل العزيز الرحيم إنك لمن المرسلين.

وقوله : {العزيز الرحيم} إشارة إلى أن الملك إذا أرسل فالمرسل إليهم إما أن يخالفوا المرسل ويعينوا المرسل ، وحينئذ لا يقدر الملك على الانتقام منهم إلا إذا كان عزيزا ، أو يخالفوا المرسل ويكرموا المرسل وحينئذ لا يقدر الملك.

أو يقال : المرسل يكون معه في رسالته منع عن أشياء وإطلاق لأشياء والمنع يؤكده العزة والإطلاق يدل

على الرحمة.

قوله : {لتنذر} يجوز أن يتعلق بـ " تنزيل " أو بمعنى المرسلين يعني بإضمار فعل يدل عليه هذا اللفظ أي أرسلناك لتنذر.

قوله : {قوما مآ أنذر آبآؤهم} يجوز أن تكون " ما " هذه بمعنى الذي ، وأن تكون نكرة موصوفة والعائد على الوجهين مقدر.

أي ما أنذره آباؤهم فتكون ما وصلتها أو وصفتها في محل نصب مفعولا ثانيا لقوله : {لتنذر} كقوله : {إنآ أنذرناكم عذابا قريبا} [النبأ : ٤٠] أو التقدير لتنذر قوما الذي أنذره آباؤهم من العذاب ، أو لتنذر قوما عذابا أنذره آباؤهم.

ويجوز أن تكون مصدرية أي إنذار آبائهم أي مثله.

ويجوز أن تكون ما

١٦٩

نافية ، وتكون الجملة المنفية صلة لـ " قوما " أي قوما غير منذر آباؤهم.

ويجوز أن تكون زاذدة أي قوما أنذر آباؤهم.

والجملة المثبتة أيضا صفة لـ " قوما " قال أبو البقاء.

وهو مناف للوجه الذي قبله.

فعلى قولنا ما نافية ، فالمعنى ما أنذر آباؤهم الأدنون وإن قلنا : ما للإثبات فالمعنى لينذروا بما أنذر آباؤهم الأولون.

وقوله : {فهم غافلون} أي عن الإيمان والرشد.

جزء : 61 رقم الصفحة : ١٦٢

." (١)

"نفسه ولا يقع بصره على بدنه ، ولا يقع نظرهم على الآفاق فلا يتبين لهم الآيات التي في الآفاق.

وعلى هذا فقوله : {إنا جعلنا فى أعناقهم....

وجعلنا من بين أيديهم سدا} إشارة إلى عدم هدايتهم لآيات الله في (الأنفس و) الآفاق.

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/٤٢١٩

" فهم مقمحون " هذا الفاء لأحسن ترتيب ، لأنه لما وصلت الأغلال إلى الأذقان لعرضها لزم عن ذلك ارتفاع رؤوسهم إلى فوق.

أو ولما جمعت الأيدي إلى الأذقان وصارت تحتها لزم من ذلك رفعها إلى فوق فترتفع رؤوسهم.

والإقماح رفع الرأس إلى فوق كالإقناع ، وهو من قمحض البعير رأسه إذا رفعها بعد الشرب ، إما لبرودة الماء وإما لكراهة طعمه قموحا وقماحا - بكسر القاف وضمها - وأقمحته أنا إقماحا ، والجمع قماح

وأنشد : ٤١٦٨ - ونحن على جوانبها قعود

نغض الطف كالإبل القماح

جزء : ١٦ رقم الصفحة : ١٧٠

يصف نفسه وجماعة كانوا في سفينة ، فأصابهم الميد.

قال الزجاج قيل : الكانونين شهرا قماح ، لأن الإبل إذا وردن الماء رفعت رؤوسها ، لشدة البرد وأنشد أبو زيد للهذلي : ٤١٦٩ - فتى ما بن الأغر إذا شتونا

وحب الزاد في شهري قماح

١٧٣

كذا رواه بضم القاف ، وابن السكيت بكسرها.

وقال الليث القموح رفع البعير رأسه إذا شرب الماء الكرية ثم يعود.

وقال أبو عبيدة إذا رفع راسه عن الحوض ولم يشرب والمشهور أنه رفع الرأس إلى السماء كما قتدم تحريه.

وقال الحسن : القامح الطامح يبصره إلى موضع قدمه.

وهذا ينبو عنه اللفظ والمعنى.

وزاد بعضهم مع رفع الرأس غض البصر مستدلا بالبيت المتقدم : ٤١٧٠ - ....

نغض الطرف كالإبل القماح

وزاد مجاهد مع ذلك وضع اليد على الفم.

وسأل الناس أمير المؤمنين (عليا) - كرم الله وجهه - عن هذه الآية فجلع يده تحت لحيته ورفع رأسه وهذه الكيفية ترجح قول الطبري في عود " فهي " على الأيدي.

قوله : {وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا} تقدم خلاف القراء في فتح السين وضمها والفرق

بينهما مستوفى آخر الكهف والحمد لله.

وأما فائدة السد من بين الأيدي فإنهم في الدنيا سالكون فيبغي أن يسلكو الطريقة المستقية " من بين أيديهم سدا " فلا يقدرون على السلوك وأما فائدة السد من خلفهم فهو أن الإنسان له فطرية والكافر ما أدركها فكأنه تعالى يقول : جعلنا من بين أيديهم سدا فلا يسلكون طريق الاهتداء الذي هو فطرية وجعلنا من خلفهم سدا فلا يرجعون إلى الهداية والجبلية التي هي فطرية ، وأيضا فإن الإنسان مبدأه منا لله ومصيره إليه فعمي الكافر لا يبصر ما بين من المصير إلى الله ، وما خلفه من الدخول في الوجود بخلق الله وأيضا فإن السالك إذا لم يكن له بد من سلوك طريق ، فإن اشتد الطريق الذي قدامه يفوته المقصد ولكمنه ريجع ، وإذا اشتد الطريق من خلفه ومن قدامه والموضع الذي هو فيه لا

١٧٤

يكون موضع إقامة يهلك.

فقوله {وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا} إشارة إلى هلاكهم فصاروا بمنزلة من يبنى عليه الحائط وهو واقف.

قوله : {فأغشيناهم} العامة على الغين المعجمة أي غطينا أبصارهم وهو على حذف مضاف.

وابن عباس وعمر بن عبد العزيز ، والحسن ، وابن يعمر ، وأبو رجاء في آخرين بالعين المهملة.

وهو ضعف البصر.

يقال : عشي بصره ، وأعشيته أنا.

وهذا يحتمل الحقية والاستعارة.

فصل قوله : {فأغشيناهم} بحرف الفاء يقتضي أن يكون الإغشاء مرتبا على جعل السد فما وجهه ؟ فيقال من وجهين : أحدهما : أن ذلك بيان لأمور مرتبة لي بعضها سببا في العبض فكأنه تعالى قال : إنا جعلنا في أعناقهم أغلالا فلا يبصرون أنفسهم لإقماحهم ، وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فلا يبصرون ما في الآفاق وحينئذ يمكن أن يروا السماء ما على يمينهم وشمالهم فقال بعد هذا كله : جعلنا على أبصارهم غشاوة فلا يبصرون شيئا أصلا.

والثاني : أن ذلك بيان لكون السد قريبا منهم بحيث يصير ذلك كالغشاوة على أبصارهم ، فإن من جعل من خلف وقدامه سدين ملتزقين به بحيث يبقى بينهما ملتزقا بهما يشى عينه على سطح السد فلا يبصر

شيئا ، لأن شرط المرئي أن يكون قريبا من العين جدا.

فإن قيل : ذكر اسد من بين الأيدي ومن خلف ، ولم يذكر من اليمين والشمال فما **الحكمة فيه** ؟ .

فالجواب : إن قلنا : إنه إشارة إلى الهداية الفطرية والنظرية فظاهر.

وأما على غير ذلك فيقال : إنه حصل العموم بما ذكر والمنع من انتهاج المناهج المستقيمة ، لأنهم إذا قصدوا السلوك إلى جانب اليمين أو جانب الشمال صاروا متوجهين إلى شيء ، ومؤلين

١٧٥

(١) ".

"شهاب الدين : وهذا رجل ثقة قد نقل هذا لاقراءة فتقبل منه.

فإن قيل : ما **الحكمة في** قوله {إن يردن الرحمان بضر} ولم يقل : إن يرد الرحمن بي ضرا وكذلك قوله تعالى : {إن أرادني الله بضر هل هن كاشفات ضره} [الزمر : ٣٨] ولم يقل : إن أراد الله بي ضرا ؟ .

فالجواب : أن الفعل إذا كان متعديا إلى مفعول واحد تعدى إلى مفعولين بالحرف كالأمر تعدى بالحرف في قولهم : ذهب به وخرج به.

ثم إن المتكلم البليغ يجعل المفعول بغير حرف أولى بوقوع الفعل عليه ويجعل الآخر مفعولا بحرف فإذا قال القائل مثلا : كيف حال فلان ؟ يقول : اختصه الملك بالكرامة والنعمة.

فإذا قال : كيف كرامة الملك ؟ يقول : اختصها بزيد فيقول المسؤول مفعولا بغير حرف ؛ لأنه هو المقصود وإذا تقرر هذا فالمقصود فيما نحن فيه : بيان كون العبد تحت تصرف الله يقلبه كيف يشاء في البؤس والرخاء وليس الضر مقصود بيانه كيف والقائل مؤمن يرجو الرحمة والنعمة بناء على إيمانه بحكم وعد الله ويؤيد هذا قوله من قبل : " الذي فطرني " حيث جعل نفسه مفعول الفطرة فلذلك جعلها مفعول الإرادة ووقع الضر تبعا وكذلك القول في قوله : " إن أرادني الله بضر " المقصود بيان أنه يكون كما يريده الله (وليس الضر) لخصوصيته مقصودا بالذكر ويؤيده ما تقدم حيث قال الله تعالى : {س الله بكاف عبده} [الزمر : ٣٦] يعني هو تحت إرادته.

فإن قيل : ما **الحكمة في** قوله هنا : " إن يردني الرحمن " بصيغة المضارع وقال في الزمر : {إن أرادني الله} [الزمر : ٣٨] بصيغ الماضي وذكر المريد هنا باسم الرحمن وذكر المريد هناك اسم الله ؟ .

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل ، ص/٤٢٢١

فالجواب أن الماضي والمستقبل مع لاشرط يصير الماضي والمستقبل مع الشرط يصير الماضي مستقبلا لأن المذكور هنا من قبل بصيغة الاستقبال في قوله : {أأتخذ} وقوله : {وما لي لا أعبد} والمذكرو هناك من قبل بصيغة الماضي قوله : {أفرأيتم} [الزمر : ٣٨].

١٩٤

قوله : {لا تغن عني شفاعتهم شيئا} [يس : ٢٣] أي إن يمسسني الله بضر أي بسوء ومكروه لا تغن شفاعتهم شيئا أي لا شفاعة لها فتغني " ولا ينقذون " من ذلك المكروه أو لا ينقذون من العذاب لو عذبني الله إن فعلت ذلك.

قوله تعالى : {إنى إذا لفي ضلال مبين} أي خطأ ظهار إن فعلت ذلك فأنا ضال ضلالا بينا.

و " المبين " مفعل بمعنى " فعيل " وعكسه " فعيل " بمعى مفعل في قوله " أليم " بمعنى مؤلم.

قوله : {إنى آمنت بربكم} فيه وجوه : أحدها : أنه خطاب المرسلين.

قال المفسرون : أقبل القوم عليه يريدون قلته فأقبل هو للمرسلين وقال : إني آمن بربكم فاسمعوا قولي واشهدوا لي.

والثاني : هم الكفار لما نصحهم وما نفعهم قال آمنت فاسمعون.

الثالث : بركم أيها السامعون فاسمعوني على العموم كقول الواعظ : يا مسكين ما أكثر أملك (وما أترر عملك " يريد كل سامع يسمعه وفي قوله " فاسمعون " فوائد منها : أنه كلام متفكر حيث قال : اسمعوا فإن المتكلم إذا كان يعمل أن لكلامه جماعة سامعين يتفكر ، ومنها أن ينبه القوم ويقول : إن أخبرتكم بما فعلت حتى لا يقولوا لم أخفيت عنا أمرك ولو أظهرته لآمنا معك.

فإن قيل : قال من قبل : ما لي لا أعبد الذي فطرني ، وقال ههنا : آمنت بربكم ولم يقل : آمن بربي! ؟ فالجواب : إن قلنا : الخطاب مع الرسل فالأمر ظاهر لأنه لما قال : آمنت بربكم ظهر عند الرسل أنه قبل قولهم وآمن بالرب الذي دعوه إليه وقال " بربكم " وإن قلنا : الخطاب مع الكفار ففيه (وجوه) بيان للتوحيد لأنه لما قال : " أعبد الذي فطرني " ثم قال : " آمنت بربكم فاسمعون " فهم أنه يقول : ربي وربكم واحد وهو الذي فطرني وهو بعينه ربكم بخلاف ما لو قال : آمن بربي فيقول الكافر : وأنا أيضا آمنت بربي.

قوله : {فاسمعون} العامة على كسر النون وهي نون الوقاية حذفت بعدها ياء الإضافة مجتزءا عنها بكسرة النون وهي اللغة الغالية.

وقرأ عصمة عن عاصم

١٩٥

". (١)

٢٢٠"

فالجواب : أن حركة الشمس التي لا تدرك بها القمر مختصة بالشمس فجعلها كالصادرة منها فذكر بصيغة الفعل لأن صيغة الفعل لا تطلق على من لا يصدر منه الفعل فلا يقال : يخيط ولا يكون تصدر منه الخياطة وأما حركة القمر فليست مختصة بكوكب من الكواكب بل الكل فيها مشترك بسبب حركة فلك لا يختص بكوكب فالحركة ليس كالصادرة منه فأطلق على اسم الفاعل لأنه لا يستلزم صدور الفعل يقال : فلان خياط وإن لك يكن يخيط.

فإن قيل : قوله : {يغشي الليل النهار يطلبه حثيثا} [الأعراف : ٥٤] يدل على أن الليل سابق.

فالجواب : أن المراد من الليل ها هنا سلطان الليل وهو القمر ولا يسبق الشمس بالحركة اليومية السريعة والمراد من الليل هاك نفس الليل وكل واحد لما كان في عقب الآخر فكأنه طالبه.

فإن قيل : قد ذكر ههنا سابق (النهار) وقال هناك يطلبه ولم يقل طالبه.

فالجواب : لما بينا (من) أن المراد في هذه السورة من الليل كواكب الليل وحركتها بحركة الفلك فكأنها لا حركة لها فلا سبق ولا من شأنها أنها سابقة والمراد هناك نفس الليل والنهار وهما زمانان لا قرار لهما فهو يطلب حثيا لصدور المنقضي منه.

فإن قيل : ما الحكمة في إطلاق الليل وإرادة سلطانه وهو القمر وماذا يكون لو قال : ولا القمر سابق الشمس.

فالجواب : لو قال ولا القمر سابق الشمس ما كان يفهم أن الإشارة إلى الحركة اليومية فكان يتوهم المناقض بأن الشمس إذا كانت لا تدرك القمر فالقمر أسرع ظاهرا وإذا قال : ولا القمر سابق يظن أن القمر لا يسبق فليس بأسرع فقال الليل والنهار ليعمل أن الإشارة إلى الحركة التي بها تتم الدورة في يوم وليلة مرة وأن جميع الكواكب لها طلوع وغروب في الليل والنهار.

قوله : {ولا الليل سابق النهار} قرأ عمارة بنصب " النهار " حذف التنوين لالتقاء الساكنين.

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/٤٢٣٠

٢٢١

قال المبرد : سمعته يقرؤها فقلت : ما هذا ؟ فقال : أردت سابق – يعني بالتنوين – فخففت.

قوله : {وكل في فلك يسبحون} أي يجرون.

وهذا يحقق أن لكل طلوع في يوم وليلة ولا يسبق بعضها بالنسبة إلى هذه الحركة والتنوين في قوله : "كل " عوض عن الإضافة والمعنى كل واحد.

وإسقاط التنوين للإضافة حتى لا يجتمع التعريف والتنكير في شيء واحد فلما أسقط المضاف إليه لفظا رد التنوين عليه لفظا وفي المعنى معرف الإضافة.

فإن قيل : فهل يختلف الأمر عند الإضافة لفظا وتركها ؟ .

فالجواب : نعم ، لأن قول القائل : كل واحد من الناس كذا لا يذهب الفهم إلى غيرهم فيفيد اقتصار الفهم عليه ، فإذا قال : كل كذا يدخل في الفهم عموم أكثر من العموم عند الإضافة وهذا كما في : " قبل وبعد " إذا قلت : أفعل قبل كذا فإذا حذفت المضاف وقلت أفعل قبل أفاد الفعل قبل كل شيء.

فإن قيل : فهل بين قولنا : "كل منهم " وبين : "كلهم " وبين "كل " فرق ؟ .

فالجواب : نعم فقولك : كلهم يثبت الأمر للاقتصار عليهم ، وقولك : كل منهم يثبت الأمر أولا للعموم ثم استدركه بالتخصيص فقال : منهم وقولك : كل يثبت الأمر على العموم وتركت عليه فإن قيل : إذا كان " كل " معناه كل واحد منهم والمذكور الشمس والقمر فكيف قال : يسبحون ؟ .

فالجواب : أن قوله "كل " للعموم فكأنه أخبر عن كل كوكب في السماء سيارا.

وأيضا فلفظ "كل " يجوز أن يوحد نظرا إلى كون لفظه موحدا غير مثنى ولا مجموع ويجوز أن يجمع لكونه معناه جمعا ، وأما التثنيه فلا يدل عليه اللفظ ولا المعنى وعلى هذا يحسن أن يقال : " زيد وعمرو كل جاء " ولا يقال : (كل) جاءا بالتثنية.

وجواب آخرا قوله : {ولا الليل سابق} فالمراد من الليل الكواكب فقال : " يسبحون ".

فصل الفلك هو الجسم المستدير أو السطح المستدير أو الدائرة لأن أهل اللغة اتفقوا على أن فلكة المغزل سميت فلكة لاستدارتها وفلك الخيمة هي الخشبة المسطحة

". (١)

"إذا تقاتل قوم ومات الكل في القتال يقال : هؤلاء القوم هم قتلوا أنفسهم.

" فهم " في الموضعين يكون عائدا إلى القوم ولا يكون المراد أشخاصا معينين بل المراد أن بعضهم قتل بعضهم فكذلك قوله تعالى : " آية لهم " أي آية لكل بعض منهم أ ، ا حلمنا ذرية كل (بعض) منهم ، أو ذرية بعض منهم.

وإن قلنا : المراد جنس الفلك فآية ظاهرة لكل أحد وقوله تعالى في سفينة نوح : {وجعلناها آية للعالمين} [العنكبوت : ١٥] أي بوجود جنسها ومثلها.

ويؤيده قوله تعالى : {ألم تر أن الفلك تجري في البحر بنعمة الله ليريكم من آياته إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور} [لقمان : ٣١] وإن قيل : المراد سفينة نوح فوجه المناسبة أنه ذكرهم بحال نوح وأن المكذبين هلكوا والمؤمنين فازوا فكذلك هم إن آمنوا يفوزوا وإن كذبوا يهلكوا.

والأول أظهر وهو أن المراد بالفلك الموجودة في زمانهم ويؤيده قوله تعالى : {وإن نشأ نغرقهم}.

فإن قيل : لم قال {حملنا ذرييتهم} ولم يقل : " حملناهم " ليكون أعم كما قال : {وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون} [يس : ٣٣] ولم يقل : تأكل ذريتهم ؟ .

فالجواب : قوله تعالى : " حملنا ذريتهم " أي ذريات العباد ولم يقل حملناهم لأن سكون الأرض عام (لـ)كل أحد يسكنها فقال : {وآية لهم الأرض الميتة} إلى أن قال : {فمنه يأكلون} لأن الأكل عام وأما الحمل في السفينة فمن الناس من لا يركبها في عمره ولا يحمل فيها ولكن ذرية العباد لا بد لهم من ذلك فإن فيهم من يحتاج إليها فيحمل فيها.

فإن قيل : ما الحكمة في كونه جمع الفلك في قوله : {وترى الفلك فيه مواخر} [فاطر : ١٢] وأفرده في قوله : {في الفلك المشحون}.

فالجواب : أن فيه تدقيقا مليحا في علم اللغة وهو أن الفلك تكون حركتها مثل حركة تلك الكلمة في الصورة ، والحركتان مختلفتان في المعنى مثاله قولك : سجد يسجد سجودا للمصدر وهم قوم سجود في جمع " ساجد " يظن أنها كلمة واحدة لمعنيين وليس كذلك بل السجود عند كونه مصدرا حركته أصلية إذا

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/٤٢٤٠

قلنا : إن الفعل مشتق من المصدر

٢٢٧

وحركة السجود عند كونه للجمع حركة معتبرة من حيث إن الجمع مشتق من الواحد وينبغي أن يلحق الشمتق تغيير في حرف أو حركة أو في مجموعهما ، فساجد لما أردنا أن يشتق منه لفظ جمع غيرناه وجئنا بلفظ السجود فإذن السجود للمصدر والجمع ليس من قبيل الألفاظ المشتركة التي وضعت بحركة واحدة لمعنيين.

وإذا عرف هذا فنقول " الفلك " عند كونه واحدا مثل : " قفل وبرد " وعند كونها جمعا مثل خشب أو برد أو غيرهما.

فإن قيل : فإذا جعلته جمعا ما يكون واحدها ؟ .

فالجواب : نقول جاز أن يكون واحدها فلكة أو غيرها مما لم يستعمل كواحد النساء لم يستعمل وكذا القول في : " إمام مبين " إمام كزمام وكتاب عند قوله تعالى : {كل أناس بإمامهم} [الإسراء : ٧١] أي بأئمتهم إمام كسهام وحفان ، وهذا من دقيق التصريف.

وأما من جهة المعنى ففيه سؤالات : السؤال الأول : قال ههنا : " حملنا ذريتهم " من عليهم بحمل ذرياتهم وقال تعالى : {إنا لما طغا المآء حملناكم في الجارية} [الحاقة : ١١] من عليهم هناك بحمل أنفسهم.

فالجواب : أن من ينفع المتعلق بالغير يكون قد نفع ذلك الغير ومن يدفع الضر عن المتعلق بالغير لا يكون قد دفع الضر عن ذلك الغير بل يكون قد نفعه كمن أحسن إلى ولد إنسان وفرحة فرح بفرحه أبوه وإذا دفع الألم عن ولد إنسان يكون قد فرح أباه ولا يكون في الحقيقة أزال الألم عن أبيه فعند طغيان الماء كان الضرر يلحقهم فقال : دفعت وههنا عنكم الضرر ولو قلا : دفعت عن أولادكم الضرر لما حصل بين دفع الضرر عنهم وههنا أراد بيان المنافع فقال : " حملنا ذرياتهم " لأن النفع حاصل بنفع الذرية ، ويدل على هذا قوله : " في الفلك المشحون " فإن امتلأ الفلك من الأموال يحصل (بذكره)

٢٢٨

". (١)

(١) تفسير اللباب لابن عادل ، ص/٤٢٤٣

"بيان المنفعة وإذا دفع المضرة فلا لأن الفلك كلما كان أثقل كان الخلاص بها أبطأ وهنالك السلامة فاختار هناك ما يدل على الخلاص من الضرر وهو الجري وههنا ما يدل على كمال المنفعة وهو الشحن.

فإن قيل : قال تعالى : {وحملناهم في البر والبحر} [الإسراء : ٧٠] ولم يقل : وحملنا ذريتكم مع أن المقصود في الموضعين بيان النعمة لا دفع النقمة نقول : لما قال في البر والبحر عم الخلق لأن ما من أحد إلا وحمل في البر والبحر وأما الحمل في البحر فلم يعم فقال إن كنا ما حملناكم بأنفسكم فقد حملنا من يهمكم أمره من الأولاد والأقارب والإخوان والأصدقاء.

فصل وفي قوله : " المشحون " فائدة أخرى وهي أن الآدمي يرسب في الماء ويغرق فحمله في الفلك واقع بقدرته لكن من الطبيعين من يقول : الخفيف لا يرسب ومع هذا حمل الله الإنسان فيه مع ثقله.

فإن قيل : ما الحكمة في قوله : " وآية لهم الأرض (و) وآية لهم الليل " ؟ ولم يقل : وآية لهم الفلك جعلناها بحيث تحملهم ؟ .

فالجواب : أن حملهم في الفلك هو العجيب.

أما نفس الفلك فليس بعجيب لأنه كبيت مبني من خشب وأما نفس الأرض فعجيب ونفس الليل عجيب لا قدرة لأحد عليهما إلا الله.

قوله : {وإن نشأ نغرقهم} قرأ الحسن بتشديد الراء وهذه الآية تدل على أن المراد بقوله : {من مثله} الفلك الموجود في زمانهم وليس المراد الإبل كما قاله بعض المفسرين بأن المراد الإبل لأنها سفن البر لأن ذلك يؤدي إلى أن يكون قوله : {وخلقنا لهم من مثله ما يركبون} فاصلا بين متصلين.

ويحتمل أن يقال : الضمي في مثله يعود إلى معلوم غير مذكور.

وتقريره أن يقال : وخلقنا لهم من مثل ما ذكر من المخلوقات كما في

٢٢٩

قوله تعالى : {ليأكلوا من ثمره} [يس : ٣٥] أن الهاء عائدة إلى ما ذكرنا أي من ثمرنا.

فصل في قوله : {وإن نشأ نغرقهم} فائدتان : إحداهما : أن في حال النعمة ينبغي أن لا يؤمن عذاب الله.

والثانية : أن ذلك جواب عن سؤال مقدر وهو أن الطبيعي يقول : السفينة تحمل بمقتضى الطبيعة والمجوف لا يرسب ، فقال : ليس كذلك بل لو شاء الله إغراقهم لأغرقهم وليس كذلك بمقتضى الطبيعة ولو صح

كلامه الفاسد لكان لقائل أن يقول : ألست توافق أن من السفن ما ينقلب وينكسر ومنها ما يثقبه ثاقب فيرسب وكل ذلك بمشيئة الله فإن شاء أغرقهم من غير شيء من هذه الأسباب كما هو مذهب أهل السنة أو شيء من تلك الأسباب التي سلمتها أنت.

قوله : {فلا صريخ لهم} فعيل بمعنى فاعل لا مغيث لهم وقيل : فلا مستغيث وقال الزمخشري : فلا إغاثة جعله مصدرا من " أصرخ " قال أبو حيان " ويحتاج إلى نقل أن " صريحا يكون مصدرا بمعنى إصراخ " والعامة على فتح " صريخ " وحكى أبو البقاء أنه قرئ بالرفع والتنوين قال : ووجهة على ما في قوله : {خوف عليهم} [البقرة : ٣٨].

فصل معناه : لا مغيث لهم يمنع عنهم الغرق " ولا هم ينقذون " إذا أدركهم الغرق لأن الخلاص من العذاب إما أن يكون برفع العذاب من أصله أو برفعه بعد وقوعه فقال : " لا صريخ لهم " يدفع ولا هم ينقذون بعد الوقوع فيه وهو كقوله تعالى : {لا تغن عني شفاعتهم شيئا ولا ينقذون} [يس : ٢٣] وفيه فائدة أخرى غير الحصر وهي أنه تعالى قال : لا صريخ لهم ولم يقل : ولا منقذ لهم ؛ لأ(ن) من لا يكون من شأنه أن ينصر لا يشرع في

٢٣٠

(١) ".

"حيث قيل لهم : أنققوا ولم ينفقوا فما **الحكمة في** حذف الجواب في قوله : {وإذا قيل لهم أنفقوا} وههنا أجاب وأتى بأكثر من الجواب ولو قال : " وإذا قيل لهم أنقفوا قالوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه " لكان كافيا فما الفائدة في قوله تعالى : {قال الذين كفروا للذين آمنوا اا} فالجواب : أن الكفار كانوا يقولون بأن الإطعام من الصفات الحميدة وكانوا يفتخرون بطعمة الأضياف فأوردوا في ذلك على المؤمنين معتقدين بأن أفعالنا منا ولولا إطعامنا منا لما اندفعت حاجة الضيف وأنتم تقولون : إن إلهكم يرزق من يشاء فلم تقولون لنا : أنفقوا ؟ فلما كان غرضهم الرد على المؤمنين ، لا الامتناع من الإطعام قال تعالى عنهم : {قال الذين كفروا للذين آمنوا اا} إشارة إلى الرد.

وأما قوله : اتقوا ما بين أيديكم " فلم يكن لهم رد على المؤمنين فأعرضوا فأعرض (الله) عن ذكر إعراضهم لحصول العلم به.

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل ، ص/٤٢٤٤

فصل قال المفسرون : إن المؤمنين قالوا لكفار مكة : أنفقوا على المساكين مما زعمتم أنه لله من أموالكم وهو ما جعلوا لله من حروثهم وأنعامهم " قالوا أنطعم " أنرزق " من لو يشاء الله " رزقه ثم لم يرزقه مع قدرته عليه فنحن نوافق مشيئة الله فلا نطعم من لم يطعمه الله.

وهذا مما يتمسك به البخلاء يقولون : لا نعطي من حرمه الله.

وهذا الذي يزعمون باطل ؛ لأن الله تعالى بالإنفاق لا حاجة إلى ماله ولكن ليبلو الغني بالفقير فيما فرض له في مال الغني ولا اعتراض لأحد على مشيئة الله وحكمه في خلقه.

فإن قيل : ما الفائدة من تغيير اللفظ في جوابهم حيث لم يقولوا : أننفق من لو يشاء الله رزقه وذلك أنهم أمروا بالإنفاق في قوله : {وإذا قيل لهم أنفقوا} فكان جوابهم أن يقولوا : أننفق ؛ فلم قالوا : أنطعم ؟ .

فالجواب : أن في هذا بيان غاية مخالفتهم لأنهم إذا أمروا بالإنفاق والإنفاق يدخل فيه الإطعام وغيره فمل يأتوا بالإنفاق ولا بأقل منه وهو الإطعام.

وهذا كقول القائل لغيره : " أعط زيدا دينارا " فيقول : لا أعطيه درهما مع أن المطابق هو أن يقول لا أعطيه دينارا

٢٣٣

ولكن المبالغة في هذا الوجه أتم.

فكذلك ههنا.

فإن قيل : قولهم : {لو يشآء الله أطعمه} كلام حق فلماذا ذكر في معرض الذم ؟ .

فالجواب : لأن مرادهم كان الإنكار لقدرة الله أو لعدم جواز الأمر بالإنفاق مع قدرة الله وكلاهما فاسد فبين الله ذلك بقوله : {مما رزقكم الله} فإنه يدل على قدرته ويصحح أمره بالإعطاء لأن من كان له في يد الغير مال وله في خزانته مال فهو مخير إن أراد أعطى مما في خزانته وإن أراد أمر من عنده المال بالإعطاء ، ولا يجوز أن يقول من في يده مال : في خزانتك أكثير مما في يدي أعطه منه.

قوله : {من لو يشآء الله أطعمه} مفعول " أنطعم " و " أطعمه " جواب " لو " وجاء على أحد الجائزين (و) هو تجرده من اللام.

والأفصح أن يكون بلام ، نحو : {لو نشآء لجعلناه حطاما} [الواقعة : ٦٥] قوله : {إن أنتم إلا في ضلال مبين} يقول الكفار للمؤمنين : ما أنت إلا في خطأ بين في اتباعكم محمدا وترك ما نحن عليه وهذا

إشارة إلى أنهم قطعوا المؤمنين بهذا الكلام وأن أمرهم بالإنفاق مع قولهم بقدرة الله ظاهر الفساد واعتقادهم هو الفاسد.

فصل اعمل أن " إن " وردت للنفي بمعنى " ما " وكان الأصل في " إن " أن تكون للشرط والأصل في " ما " أن تكون للنفي لكنهما اشتركا من بعض الوجوه فتعارضا واستعمل " ما " في الشرط ، واستعمل " إن " في النفي.

أما وجه اشتراكهما فهو أن كل واحدة منها حرف مركب من حرفين متقاربين فإن الهمزة تقرب من الأنف والميم من النون ولا بد أن يكون المعنى الذي يدخل عليه " ما " و " إن " لا يكون ثابتا أما في " ما " فظاهر وأما في " إن " فلأنك إذا قلت : " إن جاء زيد أكرمه " ينبغي أن لا يكون منه في الحال (مجيء) 4٣2

." (١)

"إسحاق والزهري وابن هرمز بضمتين وتشديد اللام والأعمش بكسرتين وتخفيف اللام والأشهب العقيلي واليماني وحماد بن سلمة بكسرة وسكون وهذه لغات في هذه اللفظة وتقدم معناها آخر الشعراء وقرئ جبلا بكسر الجيم وفتح الباء جمع جبلة ، كفطر جمع فطرة وقرأ علي بن أبي طالب بالياء من أسفل (ثنتان) وهي واضحة.

قال ابن الخطيب : الجيم والباء لا تخلو عن معنى الاجتماع (و) الجبل فيه اجتماع الأجسام الكثيرة وجبل الطين فيه اجتماع أجزاء الماء والتراب ، وشاة لجباء إذا كانت مجتمعة اللبن الكثير ، ولا يقال : البلجة نقض على ما ذكرتم فإنها تنبيئ عن التفرق فإن الأبلج خلاف المقرون لأنا نقول : هي لاجتماع الأماكن الخالية التي تسع المتمكنات فإن البلجة بمعنى.

والبلد سمي بلدا للاجتماع ، لا لتفرق الجمع (العظيم) حتى قيل : ن دون العشر آلاف لا يكون بلدا وإن لم يكن صحيحا قوله : {أفلم تكونوا} قرأ العامة بالخطاب لبني آدم.

وطلحة وعيسى بياء الغيبة والضمير للجبل ، ومن حقهما أن يقرءا : ا لتي كانوا يوعدون لولا أن يعتذروا بالالتفات.

فصل في كيفية هذا الإضلال وجهان :

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/٤٢٤٦

٢٥٣

الأول : تولية عن المقصد وخديعته فالشيطان يأمر البعض بترك عبادة الله وبعبادة غيره فهو تولية فإن لم يقدر يحيد بأمر غير ذلك من رياسة وجاه وغيرهما وهو يفضي إلى التولية لأن مقصوده لو حصل لترك الله وأقبل على ذلك الغير فتحصل التولية.

ثم قال : " أفلم تكونوا تعقلون " ما أتاكم من هلاك الأمم الخالية بطاعة إبليس.

ويقال لهم لما دنوا من النار : {هاذه جهنم التي كنتم توعدون} بها في الدنيا " اصلوها اليوم " أي ادخلوها اليوم " بما كنتم تكفرون " وفي هذا الكلام ما يوجب شدة ندامتهم وحزنهم من ثلاثة أوجه : أحدها : قوله تعالى : {اصلوها اليوم} أمر تنكيل وإهانة كقوله : {ذق إنك أنت العزيز الكريم} [الدخان : ٤٩].

الثاني : قوله : " اليوم " يعني العذاب حاضر ولذاتك قد مضت وبقي اليوم العذاب.

الثالث : قوله تعالى : {بما كنتم تكفرون} فإن الكفر والكفاران ينبئ عن نعمة كانت فكفر بها وحياء الكفور من المنعم من أشد الآلام كما قيل : أليس الله بكاف لذي همة حياء المسيء من المحسن.

قوله : {اليوم نختم} اليوم ظرف لما بعده وقرئ يختم مبنيا للمفعول.

والجار بعده قائم مقام فاعله وقرئ : " وتتكلم " بتاءين من فوق.

وقرئ ولتتكلم ولتشهد بلام الأمر.

وقرأ طلحة ولتكلمنا ولتشهد بلام كي ناصبة للفعل ومتعلقها محذوف أي للتكلم وللشهادة ختمنا " وبما كانوا " أي بالذي كانوا أو بكونهم كاسبين.

٢٥٤

فصل في الترتيب وجهان : الأول : أنهم حين يسمعون قوله تعالى : {بما كنتم تكفرون} يريدون ينكرون كفرهم كا قال عنه : " ما أشركنا " " وقالوا آمنا به " فيختم الله على أفواههم فلا يقدرون على الإنكار وينطق الله جوارحهم غير لسانهم فيعترفون بذنوبهم.

الثاني : لما أن قال الله تعالى لهم : {ألم أعهد إليكم} لم يكن لهم جواب فسكتوا وخرسوا تكلمت أعضاؤهم غير اللسان.

وفي الختم على الأفواه وجوه أقواها : أن اللهتعالى يسكت ألسنتهم وينطق جوارحهم فيشهدون عليهم وأه في قدرة الله يسير(و) أما الإسكان فلا خفاء فيه وأما الإنطاق فلأن اللسان عضو متحرك بحركة مخصوصة

كما جاز تحرك غيره بمثلها والله قادر على كل الممكنات.

والوجه الآخر : أنهم لا يتكلمون بشيء لانقطاع أعذارهم وانتهاك أستارهم فيقفون ناكسي الرؤوس لا يجدون عذرا فيعتذرون ولا مجال توبة فيستغفرون وتكلم الأيدي هو ظهرو الأمور بحيث لا يمع مع الإنكار كقول القائل : الحيطان تبكي على صاحب الدار إشارة إلى ظهور الحزن والصحيح الأول لما ثبت في الصحيح أن الله تعالى يقول للعبد كفى بنفسك اليوم عليك شهيدا وبالكرام الكاتبين شهودا قال : فيمختم على فيه ، فيقلا لأركانه انطقي قال : فتنطق بأعماله ثم يخلى بينه وبين الكلام فيقول بعدا لكن وسحقا فعنكن كنت أناضل وقال عليه (الصلاة و) السلام : " أول ما يسأل من أحدكم فخذه ولفه ".

فإن قيل : ما الحكمة في إسناده الختم إلى نفسه وقال " نختم " وأسند الكلام والشهادة إلى الأرجل والأيدي ؟

٢٥٥

(١) ".

"فالجواب : أنه لو قال : نختم على أفواههم وتنطق أيديهم لاحتمل أن يكون ذلك جبرا منه وقهرا والإقرار والإجبار غير مقبول فقال : تكلمنا أيديهم وتشده أرجلهم أي باختيارها يقدرها الله تعالى على الكلام ليكون أدل على صدور الذنب منهم.

فإن قيل : ما الحكمة في جعل الكلام للأيدي وجعل الشهادة للأرجل ؟ فالجواب : لأن الأفعال تنسد إلى الأيدي قال تعالى : {وما عملته أيديهم} [يس : ٣٥] أيما عملوه وقال {ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة} [البقرة : ١٩٥] أي لا تلقوا بأنفسكم ، فإذن الأيدي كالعاملة والشاهد على العامل نبيغي أن يكون غيره فجعل الأرجل والجلود من الشهود لبعد إضافة الأفعال إليهم.

فإن قيل : إن يوم القيامة من تقبل شهادته من المقربين والصديقين كلهم أعداء للمجرمين وشهادة العدو غير مقبولة وإن كان عدلا وغير الصديقين من لكفار والفساق لا تقبل شهادتهم والأيدي والأرجل صدرت الذنوب (منها) فهي فاسقة فينبغي أن لا تقبل شهادتها.

فالجواب : أن الأيدي والأرجل ليسوا من أهل التكليف ولا ينسب إلهيا عدالة ولا فسق ، إنما المنسوب من ذلك إلى العبد المكلف لا إلى أعضائه ، ولا يقالك إن العين تزني إن الفرج يزني وأيضا فإنا نقلو : في

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/٤٢٥٤

در شهادتها (قبول شهادتها) لأنها إن كذبت في مثل ذلك اليوم مع ظهور الأمور لا بد أن يكون مذنبا في الدينا وإن صدقت في مثل ذلك اليوم فقد صدر منها الذنب في الدنيا وهذا كن قال لفاسق : " إن كذبت في نهار هذا اليوم فعبدي حر " فقال الفاسق : كذبت في نهار هذا اليوم عتق العبد ؛ لأنه إن صدق في قوله كذبت في نهار ذلك اليوم فوجد ا االشرط أيضا بخلاف ما لو قال في لايوم الثاني كذبت في نهار اليوم الذي علقت عتق عبدك على كذا فيه.

قوله : {ولو نشآء لطمسنا على أعينهم} أي أذهبنا أعينهم الظاهرة بحيث لا يبدو لها جفن ولا شق وهو معنى الطمس ، كقوله تعالى : {ولو شآء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم} [البقرة : ٢٠] يقول : إذا أعمينا قلوبهم لو شئنا أغمينا أبصارهم الظاهرة.

قوله : {فاستبقوا} عطف على " لطمسنا " وهذا على سبيل الفرض والتقدير وقرأ عيسى فاستبقوا أمرا وهو على إضمار القول أي فيقال لهم استبقوا والصراط ظرف مكان مختص عند الجمهور فلذلك تأولوا وصول الفعل إليه إما بأنه مفعول (به)

٢٥٦

مجازا جعله مستبقا لا مستبقا إليه ويضمن استبقوا معنى بادروا وإما على حذف الجار أي إلى الصراط وقال الزمخشري : منصوب على الظرف وهو ماش على قول ابن الطرواوة فإن الصراط والطريق ونحوهما ليست عنده مختصة إلا أن سيبويه على أن قوله : ٤١٨٤ - لدن بهز الكف يعسل متنه

فيه كما عسل الطريق الثعلب

جزء : ١٦ رقم الصفحة : ٢٥٠

ضرورة لنصبه الطريق.

وقرأ أبو بكر مكاناتهم جمعا ، وتقدم في الأنعام.

والعامة على " مضيا " بضم الميم وهو مصدر على فعول أصله مضوي فأدغم وكسر ما قبل الياء ليصبح نحو " لقيا " وقرأ أبو حيوة ورويت عن الكسائي مضيا (أي) بكسر الميم إتباعا لحركة العين نحو {عتيا} و {صليا} [مريم : ٦٩ - ٧٠] وقرئ بفتحها وهو من المصادر التي وردت على فعيل كالرسيم والزميل.

٢٥٧

فصل المعنى كما أعمينا قلوبهم لو شئنا أعمينا أبصارهم الظاهرة فاستبقوا الصراط فتبادروا إلى الطريق " فأنى

يبصرون "كيف يبصرون وقد أعمينا أعينهم يعني لو نشاء لأضللناهم عن الهدى وتركناهم عميا يترددون فكيف يبصرون الطريق حنيئذ ؟ هذا قول الحسن ، وقتادة ، والسدي.

وقال ابن عباس ومقاتل وعطاء وقتادة : معناه لو نشاء لفقأنا أعين ضلالتهم فأعميناهم من غيهم وحولنا أبصارهم من الضلالة إلى الهدى فأبصروا رشدهم فأنى بصرون ولم أفعل لك بهم " ولو نشاء لمسخناهم على مكانتهم " أي مكانهم أي لو نشاء جعلناهم قردة وخنازير في منازلهم لا أزواد لهم " فما استطاعوا مضيا ولا يرجعون " إلى ما كان,ا عليه وقيل : لا يقدرون على ذهاب ولا رجوع.

قوله : {ومن نعمره ننكسه في الخلق} قرأ عاصم وحمزة بضم النون الأولى وفتح الثانية وكسر الكاف مشددة من نكسه مبالغة والباقون بفتح الأولى وتسكين الثانية وضم الكاف خفيفة من نكسه.

وهي محتملة للمبالغة وعدمها وقد تقدم في الأنعام أن نافعا وابن ذكوان قرءا " تعقلون " زالباقون بالغيبة.

فصل معنى ننكسه نرد إلى أرذل العمر شبه الصبي في ألو الخلق ، وقلي : ننكسه في الخلق أي ضعف جوارحه بعد قوتها ونقصانها بد زيادتها " أفلا يعقلون " فيعتبرون ويعلمون أن الذي قدر على تصريف أحوال الإنسان يقدر على البعث بعد الموت.

جزء : ١٦ رقم الصفحة : ٢٥٠

." (١)

"أي الذي صبح فغنم فآب ، وإما على ترتبها في التفاوت من بعض الوجوه كقولك : خذ الأفضل فالأكمل واعمل الأحسن فالأجمل ، وإما على ترتب موصوفاتها في ذلك كقوله (صلى الله عليه وسلم) : " رحم الله المحلقين فالمقصرين " فأما هنا فإن وجدت الموصوف كانت للدلالة على ترتب الصفات في التفاضل ، فإذا كان الموحد الملائكة فيكون الفضل للصف ثم للزجر ، ثم للتلاوة وعلى العكس وإن ثلثت الموصوف فترتب في الفضل ، فيكون " الصافات " ذوات فضل والزجرات أفضل (و التاليات أبهر فضلا أو على العكس يعني بالعكس فيال موضعين أنك ترتقي من أفضل) إلى فاضل إلى مفضول أو تبدأ بالأدنى ثم بالفاضل ثم بالأفضل.

والواو في هذه للقسم ، والجواب قوله : {إن إلاهكم لواحد}.

وقد ذكر الكلام في الواو (و) الثانية والثالثة هي للقسم أو للعطف.

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/٤٢٥٥

فصل قال ابن عباس والحسن وقتادة : والصافات صفا هم الملائكة في السماء يصفون كصوفوف الخلق في الدنيا للصلاة وقال – عليه (الصلاة و) السلام – : " ألا تصفون تصف الملائكة عند ربهم " ؟ قلنا : وكيف تصف الملائكة عند ربهم قال : يتمون الصفوف المقدمة ويتراصون في الصف " وقيل : هم الملائكة تصف أجنحتها في الهواء واقفة

٢٧٢

حتى يأمر(ها) الله بما يريد ، وقيل : هي الطير لقوله تعالى " والطير صافات " " فالزاجرات زجرا " يعني الملائكة تزجر السحاب وتسوقه ، وقال قتادة : هي زواجر القرآن تنهي وتزجر عن القبيح " فالتاليات ذكرا " هم الملائكة يتلون ذكر الله وقيل : هم جماعة قراء القرآن ، وهذا كله قسم ، وقيل : فيه إضمار ، أي ورب الصافات والزاجرات والتاليات.

فصل قال أبو مسلم الأصفهاني لا يجوز حمل هذه الألفاظ على الملائكة لأنها مشعرة بالتأنيث والملائكة مبرأون عن هذه الصفة ، وأجيب بوجهين : الأول : أن الصافات جمع الجمع فإنه يقال جماعة صافة ، ثم يجمع على صافات.

والثاني : أنهم مبرأون عن التأنيث المعنوي وأما التأنيث اللفظي فلا وكيف وهم يسمون بالملائكة مع أن علامة التأنيث حاصلة.

فصل اختلف الناس ههنا في المقسم به على قولين : أحدهما : أن المقسم به خالق هذه الأشياء لنهيه – صلى الله عليه وسلم – عن الحلف بغير الله تعالى ولأن الحلف في مثل هذا الموضع تعظيم للمحلوف به ، ومثل هذا التعظيم لا يليق إلا بالله تعالى ومما يؤكد هذا أنه تعالى صرح به في قوله : {والسمآء وما بناها والأرض وما طحاها ونفس وما سواها} [الشمس : ٥ – ٧] الثاني : أن المقسم به هو هذه الأشياء لظاهر اللفظ فالعدول عنه خلاف الدليل وأما قوله تعالى : {وما بناها} فإنه علق لفظ القسم بالسماء ثم عطف عليه القسم بالباء في السماء ولو كان لامراد من القسم بالسماء القسم بمن بنى السماء لزم التكرار في موضع واحد وأنه لا يجوز وأيضا لا يبعد أن تكون **الحكمة في** قسم الله تعالى بهذه الأشياء التنبيه على شرف ذواتها.

٢٧٣

." (١)

"والطاعة ثم إن السيد علم منه توطين نفسه على الطاعة فقد يزيد (الألم عنه) بذلك التكليف فكذا ههنا.

فصل احتجوا بهذه الآية على أنه تعالى قد يأمر بما لا يريد وقوعه ، لأنه تعالى لو أراد وقوعه لوقع الذبح لا محالة.

فصل في الحكمة في ورود هذا التكليف في النوم لا في اليقضة وذلك من وجوه : الأول : أن هذا التكليف في نهاية المشقة على الذابح والمذبوح فورد أولا في النوم حتى يصير ذلك كالمفيد لورود هذا التكليف الشاق ، ثم يتأكد ذلك بأحوال اليقضة لكيلا يهجم هذا التكليف الشاق على النفس دفعة واحد بل على التدريج.

الثاني : أن الله تعالى جعل رؤيا الأنبياء – عليهم (الصلاة و) السلام – حقا ، قال تعالى : {لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق} [الفتح : ٢٧] وقال عن يوسف : {إني رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين} [يوسف : ٤] وقول إبراهيم : " إني أرى في المنام أني أذبحك ".

والمقصود من هذا تقوية الدلالة على كونهم صادقين فإذا تظاهرت الحالتان على الصدق دل ذلك نهاية كونهم محقين في كل الأحوال.

فصل والحكمة في مشاورة الابن في هذا الأمر ليظهر له صبره في طاعة الله فيكون فيه قوة عين لإبراهيم حيث يراه قد بلغ في الحكمة إلى هذا الحد العظيم في الصبر على أشد المكاره إلى هذه الدرجة العالية ويحصل للابن الثواب العظيم في الآخرة والثناء الحسن في الدنيا.

قوله : {فلما أسلما} في جوابها ثلاثة أوجه : أظهرهما : أنه محذوف أي ذادته الملائكة أو ظهر صبرهما ، أو أجزلنا لهما أجرهما وقدره بعضهم : بعد الرؤيا ؛ أي كان ما كان مما ينطق به الحال والوصف مما لا يدرك كنهه ونقل ابن عطية : أن التقدير فلما أسلما أسلما وتله كقوله :

٣٣٤

٤٢١٩ – فلما أجزنا ساحة الحي وانتحى

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/٤٢٦٢

بنا بطن خبت ذي قفاف عقنقل

جزء : ١٦ رقم الصفحة : ٣٢٩

أي فلما أجزنا أجزنا وانتحى ويعزى هذا لسيبويه وشيخه الخليل وفيه نظر من حيث اتخاذ الفعلين الجاريين مجرى الشرط والجواب ، إلا أن يقال : جعل التغاير في الآية بالعطف على الفعل وفي البيت بعمل الثاني في " ساحة " وبالعطف عليه أيضا ، والظاهر أن مثل هذا لا يكفي في التغاير.

الثاني : أنه " وتله للجبين " والواو زائدة وهو قول الكوفيين والأخفش.

والثالث : أنه " وناديناه " والواو زائدة أيضا كقوله : {وأجمعوا اا أن يجعلوه في غيابة الجب وأوحينآ إليه} [يوسف : ١٥] فنودي من الجبل أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا.

تم الكلام هنا.

ثم ابتدأ : إن كذلك (نجزي المحسنين) وقرأ علي وعبد الله وابن عباس سلما وقرئ : استسلما " وتله " أي صرعه وأضجعه على شقه ، وقيل : هو الرمي بقوة وأصله من رمى به على التل وهو المكان المرتفع أو من التليل وهو العنق ، أي رماه على عنقه ، ثم قيل لكل إسقاط وإن لم يكن على تل ولا عنق والتل الريح الذي يتل به ،

٣٣٥

." (١)

"وبهذا يتبين ضعف قول الراغب : إنها من ذوات الياء حيث عدها في مادة سيح ، ثم قال : الساحة المكان الواسع ومنه : ساحة الدر.

والسائح الماء الجري في الساحة ،

٣٥٩

وساح فلان في الأرض مر مر السائح.

ورجل سائح وسياح انتهى.

ويحتمل أن يكثون لها مادتان لكن كان ينبغي أن يذكر ما هي الأشهر أو يذكرهما معا.

قوله تعالى : {فإذا نزل بساحتهم} يعني العذاب بساحتهم ، قال مقاتل : بحضرتهم وقيل : بعتابهم.

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/٤٢٨٧

قال الفراء : العرب تكتفي بذكر الساحة عن القوم {فسآء صباح المنذرين} فبئس صباح الكافرين الذين أنذروا بالعذاب.

لما خرج - عليه (الصلاة و) السلام - إلى خبيبر أتاها ليلا ، وكان إذا جاء قوما بليل لم يغز حتى يصبح فلما أصبح خرجت يهود (خيبر) بمساحيها ومكاتلها ، فلما رأوه قالوا : محمد والله محمد والخميس فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الله أكبر خربت خيبر إنا إذا نزلنا بساحة قوم فسوف يبصرون ".

قوله : {فتول عنهم حتى حين وأبصرهم فسوف يبصرون} قيل : المراد من هذه الكلمة فيما تقدم أحوال الدنيا وفي هذه الكلمة أحوال القيامة وعلى التقديرين فالتكرير زائل ، وقيل : المراد من التكرير المبالغة في التهديد والتهويل.

فإن قيل : ما الحكمة في قوله أولا : " وأبصرهم " وههنا قال : " وأبصر " بغير ضمير ؟ فالجواب أنه حذف مفعول " أبصر " الثاني إما اختصرا لدلالة الأولى عليه وما اقتصار تقننا في البلاغة ثم إنه تعالى ختم السورة بتنزيه نفسه عن كل ما لا يليق بصفات الإلهية فقال : {سبحان ربك رب العزة} أي الغلبة والقوة ، أضاف الرب إلى العزة لاختصاصه بها كأنه قيل : ذو العزة ، كما تقول : صاحب صدق لاختصاصه به.

وقيل : المراد بالعزة المخلوقة الكائنة بين خلقه.

ويترتب على القولين مسألة اليمين.

فصل قوله : {ربك رب العزة} الربوبية إشارة إلى كمال الحكمة والرحكمة والعزة إشارة إلى كمال القدرة ، فقوله : " رب العزة " يدل على أنه القادر على جميع الحوادث ، لأن الألف

٣٦٠

واللام في قوله : " العزة " يفيد الاستغراق وإذا كان الكل ملكا له لم يبق لغيره شيء فثبت أن قوله : {سبحان ربك رب العزة عما يصفون} كلمة محتوية على أقصى الدرجات وأكمل النهايات " وسلام على المرسلين " ، الذين بلغوا عن الله التوحيد بالشرائع " والحمد لله رب العالمين " على هلك الأعداد ونصر الأنبياء - عليه (الصلاة و) السلام - .

روي عن علي - رضي الله عنه - قال " من أحب أن يكتال بالمكيال الأوفى من الأجر فليكن آخر كلامه من مجلسه : سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين وروى أبو أمامة عن أبي بن كعب قال : " قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من قرأ سورة " والصافات " أعطي

من الأجر عشر حسنات بعدد كل جني وشيطان وتباعدت منه مردة الشياطين وبرئ من الشرك وشهد له حافظاه يوم القيامة أنه كان مؤمنا ".

والله سبحانه وتعالى أعلم.

٣٦١

جزء : ١٦ رقم الصفحة : ٣٥٨." (١)

"بآيات الله أولائك هم الخاسرون} جملة اسمية وعطف الجملة الاسمية على الجملة الفعلية لا يجوز.

قال شهاب الدين : وهذا الاعتراض معترض إذ لا مانع من ذلك.

ثم قال ابن الخطيب : بل الأقرب عند أن يقال : إنه لما وصف الله تعالى بصفات الإليهة والجلالة وهو كونه مالكا لمقاليد السموات والأرض بأسرها قال بعده : " والذين كفروا بآيات الله " الظاهرة الباهرة هم الخاسرون.

قوله : {قل أفغير الله تأمرونى أعبد} فيه ثلاثة أوجه : أظهرها : أن " غير " منصوب " بأعبد " و " أعبد " معمول " لتأمروني " على إضمار " أن " المصدرية ، فلما حذفت بطل عملها وهو أحد الوجهين والأصل أفتأمروني بأن أعبد غير الله ثم قدم مفعول " أعبد " على " تأمروني " العامل في عامله ، وقد ضعف بعضهم هذا بأنه يلزم منه تقديم معمول الصلة على الموصول ، وذلك أن " غير " منصوب " بأعبد " و " أعبد " صلة " لأن " وهذا لايجوز.

وهذا الرد ليس بشيء لأن الموصول لما حذف لم يراع حكمه فيما ذكر بل إنما يراعى معناه لتصحيح الكلام.

قال أبو البقاء : لو حكمناه بذلك لأفضى إلى حذف الموصول وإبقاء صلته وذلك لا يجوز إلا في ضروة شعر.

وهذا الذي ذكر فيه نظر من حيث إن هذا مختص " بأن " دون سائر الموصولات وهو أنها تحذف ويبقى صلتها وهو منقاس عند البصريين في مواضع تحذف ويبقى علمها وفي غيرها إذا حذفت لا يبقى علمها إلى في ضرورة أو قليل ، وينشد بالوجهين (قوله) : ٤٣١٠ - ألا أيهذا الزاجري أحضر الوعى

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/٤٢٩٨

وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدي

جزء : ١٦ رقم الصفحة : ٥٣٧

٥٣٩

ويدل على إرادة " أن " في الأصل قراءة بعضهم : " أعبد " بنصب الفعل اعتدادا بأن.

الثاني : أن " غير " منصوب " بتأمروني " و " أعبد " بدل منه بدل اشتمال ، و " أن " مضمرة معه أيضا.

والتقدير : أفغير الله تأمروني في عبادته ، والمعنى : أفتأمرون بعبادة غير الله.

الثالث : أنها منصوبة بفعل مقدر (تقديره) فتلزموني غير الله أي عبادة غير الله ، وقدره الزمخشري تعبدون(ي) وتقولون لي أعبده ، والأصل : تأمرونيي أن أعبد (فحذفت) أن ، ورفع الفعل ، ألا ترى أنك تقول : أفغير الله تقولون لي أعبده ، وأفغير الله تقولون لي أعبد ، فكذلك ، أفغير الله تقولون لي أن أعبده ، وأفغير الله تأمروني أن أعبد.

والدليل على صحة هذا الوجه قراءة من قرأ " أعبد " بالنصب ، وأما " أعبد " ففيه ثلاثة أوجه : أحدهما : أنه مع " أن " المضمرة في محصل نصب على البدل من " إير ، وقد تقدم.

الثاني : أنه في محل نصب على الحال.

الثالث : أنه لا محل له ألتة.

قوله : {تأمرونى } قرأ الجمهور " تأمروني " بإدغام نون الرفع في نون الوقاية ، وفتح الياء ابن كثير ، وأرسلها الباقون ، وقرأ نافع " تأمروني " بنون خفيفة وفتح الياء وابن عامر تأمرونني بالفك وسكون الياء ، وقد تقدم في سورة الأنعام ، والحجر ،

٥٤٠

وغيرهما أنه متى اجتمع نون الرفع مع نون الوقاية جاز ذلك أوجه وتقدم تحقيق الخلاف في أيتهما المحذوفة.

قال مقاتل : وذلك حين قاله له المشركون : دع دينك واتبع دين آبائك ونؤمن بإلهك ، ونظير هذه الآية : {قل أغير الله أتخذ وليا} [الأنعام : ١٤] وتقدم في تلك الآية وجه **الحكمة في** تقدم المفعول ووصفهم بالجهل لأنه تقدم وصف الإله بكونه خالقا للأشياء كلها وبكونه له مقاليد السموات والأرض وكون هذه الأصنام جمادات لا تضر ولا تنفع فمن أعرض عن عبادة الإله الموصوف بتلك الصفات المقدسة الشريقة واشتغل بعبادة الأصنام الخسيسة فقد بلغ في الجهل مبلغا لا مزيدة عليه ، فلهذا قال : {أيها الجاهلون}.

قوله : {ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك} الذي عملت قبل الشرك ، واعلم أن الظاهر (أن) قوله " لئن أشركت " هذه الجملة هي القائمة مقام الفاعل لأنها هي الموحاة ,أصول البصريين تأبى ذلك ، ويقدرون أن القائم مقامه ضمير المصدرلأن الجملة لا تكون فاعلا عندهم والقائم هنا مقام الفاعل الجار والمجرور وهو " إليك " وقرئ ليحبطن – بضم الياء وكسر الباء – أي الله ولنحبطن بنون العظمة (وليحبطن) على البناء للمفعول و " عملك " مفعول به على القراءتين الأوليين ومرفوع على الثالثة لقيامه مقام الفاعل.

قال ابن الخطيب : واللام الأولى موطئة للقسم المحذوف والثانية لام الجواب.

فإن قيل : كيف أوحي إليه وإلى من قبله حال شركه على التعيين ؟ .

فالجواب : تقرير الآية أوحي إليك لئن أشركت ليحبطن عملك وإلى الذين من قبلك مثله أي أوحي (إليك) وإلى كل أحد منهم لئن أشركت كما تقول : كسانا حلة : أي كل واحد منا.

فإن قيل : كيف صح هذا الكلام مع علم الله تعالى أن رسله لا يشركون ولا يحبط أعمالهم.

٥٤١

". (١)

"قوله تعالى : {الله الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه} اعلم أن تعلقه بما قبله من وجهين : الأول : كأنه تعالى قال : إني أنعمت عليك قبل طلبك هذه النعم العظيمة ، ومن أنعم عليك قبل السؤال بهذه النعم العالية فكيف لا ينعم بالأشياء القليلة بعد السؤال ؟ !.

والثاني : أنه تعالى لماأمر بالدعاء فكأنه قيل : الاشتغال بالدعاء لا بد وأن يكون مسبوقا بحصول المعرفة فما الدليل على وجود الإله القدر ؟ فذكر تعالى هذه الدلائل العشرة على وجوده وقدرته وحكمته ، وقد تقدم ذكر الدلائل الدالة على وجود الله وقدرته وهي إما فلكية ، وإما عنصرية وأن الفلكيات أقسام كثيرة ، أحدها الليل والنهار ، وأن أكثر مصالح العالم مربوطة بهما فذكرهما الله تعالى ههنا ، وبين أن **الحكمة في** خلق الليل حصول الراحة بالنوم والسكون ، **والحكمة في** خلق النهار إبصار الأشياء ؛ ليمكن التصرف فيها على الوجه الأنفع.

فإن قيل : هلا قيل بحسب رعاية النظم هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار لتبصروا فيه أو يقال

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل ، ص/٧٢٣٤

: جعل لكم الليل ساكنا والنهار مبصرا ولكنه لم يقل ذلك ، فما الفائدة ؟ وما الحكمة في تقدم ذكر الليل ؟.

فالجواب عن الأول : هو أن الليل والنوم في الحقيقة طبيعة عدمية فهو غير مقصود بالذات ، وأما اليقظة فأمور وجودية ، وهي مقصودة بالذات.

وقد بين الشيخ عبد القاهر النحوي في دلائل الإعجاز أن دلالة صيغة الاسم على الكمال والتمام أقوى من دلالة صيغة الفعل عليها فهذا هو السبب في الفرق.

وأما الجواب عن الثاني : فهو أن الظلمة طبيعة عدمية ، والنور طبيعة وجودية ، والعدم في المحدثات مقدم على الوجود ؛ فلهذا السبب قال في أول سورة الأنعام : {وجعل الظلمات والنور} [الأنعام : ١].

ثم قال تعالى : {إن الله لذو فضل على الناس ولـاكن أكثر الناس لا يشكرون} والمعنى أن فضل الله تعالى على الخلق كثير جدا ، ولـكنه لا يشكرونه.

٧٧

واعلم أن ترك الشكر لوجوه : الأول : أن يعتقد الرجل أن هذه النعم ليست من الله ، مثل أن يعتقد أن هذه الأفلاك واجبة الوجود لذواتها ، واجبة الدوران (لذواتها) فيعتقد أن هذه النعم منها.

الثاني : أن يعتقد أن كل هذا العالم إنما حصل بتخليق الله وتكوينه إلا أن نعمة تعاقب الليل والنهار لما دامت واستمرت نسيها الإنسان ، فإذا ابتلي الإنسان بفقدان شيء منها عرف قدرها مثل أ ن يحبس في بئر عميق مظلمة مدة مديدة ، فحينئذ يعرف ذلك الإنسان قدر نعمة الهواء الصافي وقدر نعمة الضوء ، وقد كان بعض الملوك يعذب بعض خدمه بأن يأمر أقواما يمنعونه من النوم وعن الاستناد إلى الجدار.

والثالث : أن الإنسان وإن كان عارفا بهذه النعم إلا أنه يكون حريصا على الدنيا ، محبا المال والجاه ، فإذا فاته المال الكثير والجاه العريض وقع في كفران هذه النعم العظيمة ، ولما كان أكثر الخلق واقعون في أحد هذه الأودية الثلاثة لا جرم قال تعالى : {ولـاكن أكثر الناس لا يشكرون}.

ونظيره قوله تعالى : {وقليل من عبادي الشكور} [سبأ : ١٣] وقول إبليس : {ولا تجد أكثرهم شاكرين} [الاعراف : ١٧].

ولما بين الله تعالى بتلك الدلائل المذكورة وجود الإله القادر قال : {ذلكم الله ربكم خالق كل شيء لا إلـاه إلا هو}.

قال الزمخشري : ذلكم المعلوم المتميز بالأفعال الخاصة التي لا يشاركه فيها أحد هو الله ربكم ، خالق كمل شيء " لا إله إلا هو " أخبار مترادفة أي هو الجامع لهذه الأوصاف من الإلهية والربوبية وخلق كل شيء وأنه لا ثاني له.

{فأنى تؤفكون} أي فأنى تصرفون أي ولم تعدلون عن هذه الدلائل وتكذبون بها ؟ .

قوله : {خالق كل شيء} العام على الرفع ، وزيد بن علي بالنصب.

قال الزمخشري : " على الاختصاص ".

وقرأ طلحة يؤفكون بياء الغيبة.

وقوله : " وكذلك يؤفك " أي مثل ذلك الإفك بمعنى كما أفكتم عن الحق مع قيام الأدلة {كذلك يؤفك الذين كانوا بآيات الله يجحدون} يعني كل من جحد بآيات الله ولم يتأملها ولم يكن فيه عزم طلب الحق وخوف العاقبة أفك كما أفكوا.

٧٨

". (١)

"فصل ذكر المفسرون أن اليهود قالوا للنبي . صلى الله عليه وسلم . ألا تكلم الله وتنظر إليه إن كنت نبيا كما كلمه موسى ونظر إليه ؟ فقال : لم ينظر موسى إلى الله عز وجل.

فأنزل الله تعالى وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أي يوحي إليه في المنام أو بالإلهام أو من وراء حجاب يسمعه كلامه ولا يراه كما كلم موسى عليه الصلاة والسلام أو يرسل رسولا ما جبريل أوة غيره من الملائكة فيوحي بإذنه ما يشاء أن يوحي ذلك الرسول إلى المرسل إليه بإذن الله مايشاء.

وهذه الآية تدل على (أن) الحسن لا يحسن لوجه عائد إليه وأن القبح لا يقبح لوجه عائد إليه بل الله إنما يأمر بما يشاء من غير تخصيص وأنه ينهى عما يشاء من غير تخصيص ، إذ لو لم يكن الأمر كذلك لما صح قوله : " ما يشاء " ، ثم قال : {إنه علي حكيم} أي عليم بصفات المخلوقين حيكم تجري أفعاله على الحكمة فيتكلم تارة بغير واسطة على سبيل الإلهام وأخرى بإسماع الكلام وثالثا بواسطة الملائكة الكرام.

ولما بين الله كيفية أقسام الوحي إلى الأنبياء . عليهم الصلاة والسلام . قال : {وكذلك أوحينآ إليك روحا

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/٤٤١٤

من أمرنا} أي كما أوحينا إلى سائر رسلنا أوحينا إليك روحا من أمرنا.
قال ابن عباس ـ (رضي الله عنهما) ـ نبوة.
وقال الحسن ـ (رضي الله عنه) ـ : رحمة وقال السدي ومقاتل : وحيا.
وقال الكلبي : كتابا ، وقال الربيع ، جبريل.
وقال مالك بن دينار : يعني القرآن.
قوله : {ما كنت تدري ما الكتاب} " ما " الأولى نافية والثانية استفهامية ، والجملة الاستفهامية معلقة للدراية ، فهي في محل نصب لسدها مفعولين ، والجملة المنفية بأسرها في محل نصب على الحال من لكاف في " إليك ".
فصل المعنى : وما كنت تدري قبل الوحي ما الكتاب ولا الإيمان يعني شرائع الإيمان
٢٢٣
ومعاملة.
وقال محمد بن إسحاق بن خزيمة : الإيمان هنا الصلاة لقوله تعالى : {وما كان الله لِيُضيع إيمانكم} [البقرة : ١٤٣] أي صلاتكم.
وقيل : هذا على حذف مضاف أي ما كنت تدري ما الكتب ولا الإيمان حين كنت طفلا في المهد.
وقيل الإيمان عبارة عن الإقرار بجميع ما كلف الله تعالى به وأنه قبل النبوة ما كان عارفا بجميع تكاليف الله تعالى بل كان عارفا بالله تعالى.
وقال بعضهم : صفات الله تعالى على قسمين : منها ما يمكن معرفته بمحض دلائل العقول ومنها مالا يمكن معرفته إلا بالدلائل السمعية فهذا القسم الثاني لم يكن معرفته حاصلا قبل النبوة.
واعلم أن أهل الأصول على أن الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ كانوا مؤمنين من قبل الوحي ، كان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يعبد الله قبل الوحي على دين إبراهيم ولم يتبين له شرائع دينه.
قوله : " جعلناه " الضمير يعود إما لروحا وإما للكتاب ، وإما لهما ، لأنهما مقصد واحد ، فهو كقوله : {والله ورسوله أحق أن يرضوه} [التوبة : ٦٢].
فصل قال ابن عباس ـ (رضي الله عنهما) ـ يعني الإيمان : وقال السدي : يعني القرآن يهدي به من يشاء " نرشد به من نشاء " من عبادنا ، و " نهدي " يجوز أن يكون مستأنفا وأن يكون مفعولا مكررا للفعل وأن

يكون صفة لنورا.

قوله : {وإنك لتهدى } قرأ (شهر) بن حوشب : لتهدي مبنيا للمفعول وابن السميقع : لتهدي بضم التاء وكمسر الدال من : أهدى والمراد بالصراط المستقيم الإسلام.

قوله : {صراط الله} بدل من : " صراط " قبله بدل كل من كل معرفة من نكرة.

١١٤

فصل نبه بهذه الآية على أن الذي يجوز عبادته يجوز عبادته هو الذي يملك السموات والأرض ، ثم قال : {ألا إلى الله تصير الأمور} أمور الخلائق كلها في الآخرة وهذا كالوعيد والزجر أي ترجع الأمور كلها إلى الله تعالى حيث لا يحاكم سواه فيجازي كلا منهم بما يستحقه من ثواب أو عقاب.

روى أبو أمامة عن أبي بن كعب قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ " من قرأ سورة حم عسق كان ممن تصلي عليه الملائكة ويستغفرون له ويسترحمون له " (والله أعلم).

٢٢٥

جزء : ١٧ رقم الصفحة : ٢٢٠." (١)

"أن تقول : " إن زيدا كاتب لشاعر ؛ لأنه منع أن يكون غير المقترن بها خبرا ".

وقرأ حمزة والكسائي إم الكتاب ـ بكسر الألف ـ والباقون بالضم.

والضمير في قوله " وإنه " عائد إلى الكتاب المتقدم ذكره.

فصل قيل : أم الكتاب هو اللوح المحفوظ.

قال قتادة : أم الكتاب أصل الكتاب ، وأم كل شيء أصله.

قال ابن عباس : ـ (رضي الله عنه) ـ : أول ما خلق الله القلم أمره أن يكتب بما يريد أن يخلق فالكتاب عنده ثم قرأ : وإنه في أم الكتاب لدينا ، فالكمتاب مثبت عنده في اللوح المحفوظ كما قال : {بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ} [البروج : ٢١-٢٢].

وقوله : {لعلي حكيم} قال قتادة : يخبر عن منزلته وشرفه ، أي إن كذبتم بالقرآن يا أهل مكة فإنه عندنا " لعلي " رفيع شريف " حكيم " أي محكم في أبواب البلاغة والفصاحة ، أو ذو حكمة بالغة.

قيل : المراد بأم الكتاب الآيات المحكمة لقوله تعالى : {هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل ـ ، ص/٤٤٧٨

هن أم الكتاب} [آل عمران : ٧] والمعنى أن سورة حم واقعة في الآيات المحكمة التي هي الأصل والأم.
فإن قيل : ما الحكمة في خلق هذا اللوح المحفوظ مع أنه تعالى علام الغيوب فيستحيل عليه السهو والنسيان ؟ فالجواب : أنه تعالى لما أثبت في ذلك أحكام حوادث المخلوقات ، ثم إن الملائكة إذا شاهدوا أن جميع الحوادث إنما تحدث على موافقى ذلك المكتوب استدلوا بذلك على كمال حكمته وعلمه.
قوله تعالى : {أفنضرب عنكم الذكر صفحا} في نصب " صفحا " خمسة أوجه : أحدهما : أنه مصدر في معنى يضرب ؛ لأنه يقال : ضرب عن كذا وأضرب عنه بمعنى أعرض عنه وصرف وجهه عنه قال :
٢٢٩

٤٣٨٩. اضرب عنك الهموم طارقها
ضربك بالسيف قونس الفرس

جزء : ١٧ رقم الصفحة : ٢٢٦

والتقدير : أفنصفح عنكم الذكر ، أي أفنزيل القرآن عنكم إزالة ، ينكر عليهم ذلك.
الثاني : أنه منصوب على الحال من الفاعل أي صافحين.
الثالث : أن ينتصب على المصدر المؤكد لمضمون الجملة ، فيكون عامله محذوفا ، نحو : {صنع الله} [النمل : ٨٨] قاله ابن عطية.
الرابع : أن يكون مفعولا من أجله.
الخامس : أن يكون منصوبا على الظرف.
قال الزمخشري : و " صفحا " على وجهين : إما مصدر من صفح عنه إذا أعرض عنه ، منتصب على أنه مفعول له ، على معنى أفنعزل عنكم إنزال القرآن وإلزام الحجة به إعراضا عنكم ؟ وإما بمعنى الجانب من قولهم : نظر إليه بصفح وجهه ، وصفح وجهه بمعنى أفننحيه عنكم جانبا ؟ فينتصب على لاظرف ، نحو : ضعه جانبا ، وأمش جنبا ، وبعضده قراءة : صفحا بالضم.
يشير إلى قراءة حسان بن عبد الرحمن الضبعي وسميط بن عمر وشبيل بن عزرة قرأوا : صفحا . بضم الصاد . وفيه احتمالات : أحدهما : ما ذكره من كونه لغة في المفتوح ، ويكون ظرفا.
وظاهر عبارة أبي البقاء أنه يجوز فيه ما جاز في المفتوح ؛ لأنه جعله لغة فيه كالسد والسد.
والثاني : أنه جمع صفوح ، نحو : صبور ، وصبر ، فينتصب حالا من فاعل " يضرب " وقدر الزمخشري

على عادته فعلا بين الهمزة والفاء ، أي : أنهملكم فنضرب.

وقد تقدم ما فيه.

٢٣٠

قوله : {أن كنتم} قرأ نافع والأخوان بالكسر ، على أنها شرطيه.

وإسرافهم كان متحققا و " إن " إنما تدخل على غير المتحقق أو المتحقق المبهم الزمان.

وأجاب الزمخشري : أنه من الشرط الذي يصدر عن المدلي بصحة الأمر والتحقيق لثبوته كقوله الأجير : " إن كنت عملت لك عملا فوفني حقي " ، وهو عالم بذلك ، ولكنه تخيل في كلامه أن تفريطك في إيصال حقي فعل من له شك في استحقاقه إياه تجهيلا لهم.

وقيل : المعنى على المجازاة ، والمعنى أفنضرب عنكم الذكر صفحا متى أسرفتم ، أي إنكم غير متروكمين من الإنذار متى كنتم قوما مسرفين.

وهذا أراد أبو البقاء بقوله : وقرىء : إن بكسرها على الشرط وما تقدم يدل على الجواب ، والباقون بالفتح عرى العلة ، أي لأن كنتم كقوله : ٤٣٩٠. أتجزع أن بان الخليط المودع

....

ومثله قوله : ٤٣٩١. أتجزع أن أذنا قتيبة جزتا

....

جزء : ١٧ رقم الصفحة : ٢٢٦

٢٣١

." (١)

"(رضي الله عنهم) عن قوله : {إنا أنزلناه في ليلة مباركة} وقوله : {إنا أنزلناه في ليلة القدر} [القدر : ١] كيف يصح ذلك مع أن الله تعالى أنزل القرآن في جميع الأيام ؟ .

فقال ابن عباس : يا ابن الأسود لو هكلت أنا ووقع في نفسك هذا ، ولم تجد جوابه لهلكت ، نزنل القرآن جملة من اللوح المحفوظ إلى بيت المعمور في السماء الدنيا ، ثم نزل بعد ذلك في أنواع الوقائع حالا فحالا.

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/٤٤٨٠

قال قتادة وابن زيد : أنزل الله القرآن في ليلة القدر من أم الكتاب إلى السماء الدنيا ، ثم انزل به جبريل على النبي - صلى الله عليه وسلم - نجوما في عشرين سنة.

قوله : {إنا كنا منذرين} يعني إن الحكمة في إنزال القرآن أن إنذار الخلق لا يتم إلا به.

قوله : " فيها " أي في الليلة المباركة " يفرق " يفصل {كل أمر حكيم} محكم ومعناه ذو الحكمة ، وذلك لأن تخصيص الله تعالى كل واحد بحالة معينة من الأجل والرزق والسعادة والشقاوة يدل على حكمة بالغة لله عز وجل ، فلما دلت تلك الأقضية على حكمة فاعلها ، وصفت بكونها حكمة ، وهذا إسناد مجازي لأن الحكيم صفة صابح الأمر على الحقيقة ، ووصف الأمر به مجاز.

قال ابن عباس : يكتب في أم الكتاب في ليلة القدر ما هو كائن في السنة من الخير ، والشر ، الأرزاق ، والآجال حتى الحجاج يقال : يحج فلان ويحج فلان.

وقال الحسن ومجاهد وقتادة : يبرم في ليلة القدر في شهر رمضان كل أجل ، وعمل ، وخلق ، ورزق ، وما يكون في تلك السنة.

وقال عكرمة : هي ليلة النصف من شعبان يقوم فيها أمر السنة ، وتنسخ الأحياء من الأموات ، فلا يزاد فيهم ، ولا ينقص منه أحد.

قال - عليه الصلاة والسلام - : " تقطع الآجال من شعبان إلى شعبان حتى إن الرجل لينكح ، ويولد له ، ولقد أخرج اسمه في الموتى " وعن ابن عباس - (رضي الله عنهما) - إن الله يقضي الأقضية في ليلة النصف من شعبان ، ويسلمها إلى أربابها في ليلة القدر وروي أن الله تعالى أنزل كل القرآن من اللوح المحفوظ في ليلة البراءة ، ووقع الفراغ في ليلة القدر ، وتدفع نسخة الأرزاق إلى ميكائيل ، ونسخة الحروف إلى جبريل ، وكذلك الزلازل ، والصواعق ، الخسف ، ونسخة الأعمال إلى إسرافيل صابح سماء الدنيا ، وهو ملك عظيم ، ونسخة المصائب إلى ملك الموت.

قوله : " أمرا " فيه اثنا عشر وجها : أحدهما : أن ينتصب حالا من فاعل " أنزلناه ".

الثاني : (أنه) حال من مفعوله أي أنزلناه آمرين ، أو مأمورا به.

الثالث : أن يكون مفعولا له وناصبه إما " أنزلناه " وإما " منذرين " وإما " يفرق ".

الرابع : أنه مصدر من معنى يفرق أي فرقا.

الخامس : أنه مصدر " لأمرنا " محذوفا.

السادس : أن يكون يفرق بمعنى يأمر.
والفرق بين هذا وما تقدم أنك رددت في هذا بالعامل إلى المصدر ، وفميا تقدم بالعكس.
السابع : أنه حال من "كل ".
حكى أبو علي الفارسي عن " أبي) الحسن أنه حمل قوله : " أمرا " على الحال ، وذو الحال "كل أمر حكيم ".
الثامن : أنه حال من " أمر ".
وجاز ذلك ؛ لأنه وصف ؛ إلا أن فيه شيئين : مجيء الحال من المضاف إليه في غير المواضع المذكورة.
والثاني : أنها مؤكدة.
التاسع : أنه مصدر لأنزل ، أي (إنا) أنزلناه إنزالا ، قاله الأخفش.
٣١١
العاشر : أنه مصدر لكان بتأويل العامل فيه إلى معناه ، أي أمرنا به أمرا بسبب الإنزال ، كما قالوا ذلك في وجهي : " فيها يفرق " فرقا ، أو ينزل إنزالا.
الحادي عشر : أنه منصوب على الاختصاص ، قاله الزمخشري.
ولا يعني بذلك الاختصاص الاصطلاحي فإنه لا يكون نكرة.
الثاني عشر : أن يكون حالا من الضمير في " حكيم ".
الثالث عشر : أن ينتصب مفعولا به بمنذرين ، كقوله : {لينذر بأسا شديدا} [الكهف : ٢] ويكون المفعول الأول محذوفا أي منذرين الناس أمرا ، والحاصل أن انتصابه يرجع إلى أربعة أشياء : المفعول به والمفعول له ، والمصدرية ، والحالية ، وإنما التكثير بحسب المحال.
وقرأ زيد بن علي : أمر بالرفع.
قال الزمخشري : وهي تقوي النصب على الاختصاص.
قوله : " من عندنا " يجوز أن يتعلق " بيفرق " أي من جهتنا وهي لابتداء الغاية مجازا.
ويجوز أن تكون صفة لأمرا.
قوله : {إنا كنا مرسلين} جواب ثالث ، أو مستأنف ، أو بدل من قوله : إنا كمنا منذرين.
قال ابن الخطيب : أي إنا فعلنا ذلك الإنذار لأجل أنا كنا مرسلين ، يعني الأنبياء.

قوله : " رحمة " فيها خمسة أوجه : الأول : المفعول له والعامل فيه : إما " أنزلناه " ، وإما " أمرا " ، وإما " يفرق " ، وإما " منذرين ".
الثاني : مصدر بفعل مقدرا ، أي رحمنا رحمة.
٣١٢
." (١)

"سورة محمد

مدنية.

وهي ثمان وثلاثون آية ، وخمسمائة وتسع وثلاثون كلمة ، وألفان وثلاثمائة وتسعة وأربعون حرفا.

جزء : ١٧ رقم الصفحة : ٤٢٣

وقوله تعالى : {الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله...

} أول هذه السورة مناسب لآخر السورة المتقدمة.

والمراد بالذين كفروا قيل : هم الذين كانوا يطعمون الجيش يوم بدر ، منهم أبو جهل والحارث بن هشام ، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة وغيرهم.

وقيل : كفار قريش.

وقيل : أهل الكتاب.

وقيل : كل كافر.

ومعنى صدهم عن سبيل الله ، قيل : صدوا أنفسهم عن السبيل ، ومنعوا عقولهم من اتباع الدليل.

وقيل : صدوا غيرهم ومنعوهم.

قوله : {الذين كفروا} يجوز فيه الرفع على الابتداء والخبر الجملة من قوله : {أعمالهم} ويجوز نصبه على الاشتغال بفعل مقدر يفسره " أضل " من حيث المعنى ، أي خيب الذين كفروا.

قوله : {أعمالهم} أي أبطلها فلم يقبلها وأراد بالأعمال ما فعلوا من إطعام
٤٢٤
الطعام ، وصلة الأرحام ، قال الضحاك : أبطل كيدهم ومكرهم بالنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وجعل الدائرة

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/٤٥١٢

عليهم.

قوله : {والذين آمنوا} يجوز فيه الوجهان المتقدمان ، وتقدير الفعل : " رحم الذين آمنوا ".

قوله : {وآمنوا بما نزل على محمد} والعامة على بناء الفعل نزل للمفعول مشددا ، وزيد بن علي وابن مقسم نزل مبنيا للفاعل وهو الله ، والأعمش أنزلض بهمزة التعدية مبنيا للمفعول.

وقرىء : نزل ثلاثيا مبنيا للفاعل.

قال سفيان الثوري : لم يخالفوه في شيء.

قال بان عباس : " الذين كفروا وصدوا " مشركوا مكة والذين آمنوا وعملوا الصالحات الأنصار.

قوله : {وهو الحق} جملة معترضة بين المبتدأ والخبر المفسر والمفسر.

قوله : {كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم} حالهم.

وتقدم تفسير " البال " في طه.

قال ابن عباس . (رضي الله عنه .) : معنى : أصلح ، أي عصمهم أيام حياتهم يعني أن هذا الإصلاح يعود إلى صلاح أعمالهم حتى لا يعصوا.

فصل قالت المعتزلة : تكفير السيئات مرتب على الإيمان ، والعمل الصالح ، فمن آمن ولم يعمل صالحا يبقى في العذاب خالدا.

والجواب : لو كان كما ذكرتم لكان الإضلال مرتبا على الكفر والصد ، فمن يكفر لا ينبغي أن تضل أعماله.

أو نقول : إن الله تعالى رتب أمرين فمن آمن كفر سيئاته ، ومن عمل صالحا أصلح باله.

أو نقول : أي مؤمن يتصور غير آت بالصالحات بحيث لا يصدر عنه صلاة ولا صيام ولا صدقة ولا طعام ، وعلى هذا فقوله : " وعملوا " من عطف المسبب على السبب كقول القائل : أكلت كثيرا وشبعت.

فإن قيل : ما الحكمة في قوله : " وآمنوا بما نزل على محمد " مع أن قوله : " آمنوا وعلموا الصلحات " أفاد هذا المعنى ؟ .

فالجواب : من وجوه :

٤٢٥." (١)

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/٤٥٦١

"عمل له فهو همج إعدامه خير من وجوده.

{فإذا لقيتم الذين كفروا} بعد ظهور أن لا حرمة لهم بعد إبطال عملهم فاضربوا أعناقهم قال البغوي : فضرب الرقاب نصب على الإغراء.

الثاني : إذا تبين تباين الفريقين وتباعد الطريقين بأن أحدهما يتبع الباطل وهو حزب الشيطان والآخر يتبع الحق وهو حزب الرحمن حق القتال (عند التحزب) فإذا لقيتموهم فاقتلوهم.

الثالث : أن من الناس من يقول لضعف قلبه وقصور نظره إيلام الحيوان من الظلم والطغيان ولا سيما القتل الذي هو تخريب بنيان.

فيقال ردا عليهم : لما كان اعتبار الأعمال باتباع الحق والباطل فلمن يقتل في سبيل الله لتعظيم الله وبأمره له (من) الأجر ما للمصلى والصائم فإذا لقيتم الذين كفروا فاقتلوهم ولا تأخذكم بهم رأفة.

فإن ذلك اتباع للحق والاعتبار به لا بصورة الفعل.

فصل والحكمة في اختيار ضرب الرقبة دون غيرها من الأعضاء ، لأن المؤمن هنا ليس بدافع ، إنما هو مدافع وذلك لأن من يدفع الصائل لا ينبغي أن يقصد أولا مقتله ، بل يتدرج ويضرب غير المقتل فإن اندفع فذاك ، ولا يرقى إلى درجة الإهلاك ، فأخبر تعالى أنه ليس المقصود دفعهم عنكم بل المقصود دفعهم عن وجه الأرض بالكلية ، وتطهير الأرض منهم وكيف لا والأرض لكم مسجد ، والمشركون نجس ، والمسجد يطهر من النجاسة ؟ فإذا ينبغي أن يكون قصدكم أولا إلى قتلهم بخلاف دفع الصائل.

والرقبة أظهر المقاتل ، لأن قطع الحلقوم والأوداج مستلزم للموت ، بخلاف سائر المواضع ولا سيما في الحرب.

وفي قوله " لقيتم " ما ينبيء عن مخالفتهم الصائل ، لأن قوله : " لقيتم " يدل على أن القصد من جانبهم بخلاف قولنا " لقيكم " ، ولذلك قال في غير هذا الموضع {واقتلوهم حيث ثقفتموهم} [النساء : ٩١].

فإن قيل : ما الفائدة في قوله ههنا : {فضرب الرقاب} بإضمار الفعل وإظهار

٤٢٨

المصدر ، وقال في الأنفال : {فاضربوا فوق الأعناق} [الأنفال : ١٢] بإظهار الفعل وترك المصدر ؟ !.

فالجواب مبني على تقديم مقدمة ، وهي أن المقصود في بعض الصور قد يكون صدور الفعل من فاعل ويتبعه المصدر ضمنا ؛ إذ لا يمكن أن يفعل فاعل إلا فاعل ، فيطلب منه أن يفعل مثاله من قال : أني

حلفت أن أخرج من المدينة ، فيقال له : فاخرج صار المقصود صدور الفعل منه والخروج في نفسه غير مقصود الابتعاد ولو أمكن أن يخرج من غير تحقق الخروج منه لما كان عليه أن لا يخرج لكن في ضرورة الخروج أن يخرج.

فإذا قال قائل صادق : ضاق بي المكان بسبب الأعداء فيقال مثلا : الخروج يعني الخروج فاخرج فإن الخروج هو المطلوب ، حتى لو أمكن الخروج منغير فعل منه ، لحصل الغرض لكنه محال فيعبته الفعل.

وإذا عرف هذا فيقال : في الأنفال الحكاية عن الحرب الكائنة ، وهم كانوا فيها والملائكة أنزلوا للنصرة (و) من حضر في صف القتال ، فصدور الفعل منه مطلوب.

وههنا الأمر وارد ليس في وقت القتال ، بدليل قوله تعالى : {فإذا لقيتم} والمقصود بيان كون المصدر مطلوبا لتقدم المأمور على الفعل قال : {فضرب الرقاب}.

وفي ذلك بيان فائدة أخرى ، وهي أن الله تعالى قال هناك {واضربوا منهم كل بنان} [الأنفال : ١٢] وذلك لأن الوقت وقت القتال فأرشدهم إلى القتل وغيره إن لم يصيبوا المقتل وههنا ليس وقت القتال.

فبين أن المقصود القتل وغرض المسلم ذلك.

قوله : {حتى إذآ أثخنتموهم} هذه غاية للأمر بضرب الرقاب ، لا لبيان غاية القتل.

وقوله : {فشدوا الوثاق} قرأ السلمي : فشدوا . بكسر الشين وهي ضعيفة جدا ، .

والوثاق . بالفتح وفيه الكسر . اسم ما يوثق به والمعنى حتى إذا أثخنتموهم أي بالغتم في القتل وقهرتموهم فشدوا الوثاق يعني في الأسر حتى لا يفلتوا.

والأسر يكون بعد المبالغة في القتل كقوله تعالى : {ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض} [الأنفال : ٦٧].

٩2٤

قوله : {فإما منا بعد وإما فدآء}.

فيهما وجهان : أشهرهما : أنهما منصوبان على المصدر بفعل لا يجوز إظهاره ؛ لأن المصدر متى سبق تفصيلا لعاقبة جملة وجب نصبه بإضمار فعل لا يجوز إظهاره ، والتقدير : فإما أن تمنوا وإما أن تفادوا فداء

ومثله : ٤٤٦٣. لأجهدن فإما درء واقعة

تخشى وإما بلوغ السؤل والأمل

جزء : ١٧ رقم الصفحة : ٤٢٧
". (١)

"تطيب للأكل ولا للشرب ، فإن الدهن لا يأكل ولا يشرب في الغالب وأما اللبن ففيه الدسم الكائن في يغره وهو طيب للأكل وبه تغذية الحيوان أولا فذكره الله تعالى ؛ وأما ما يشرب لغير الطعم فالماء والخمر ، فإن الخمر كريهة الطعم ، لحصول التواتر بذلك ، وإنما تشرب لأمر آخر غير الطعام وأما الماء فلأن به بقاء الحيوان فذكره.

فإن قيل : ما الحكمة في قوله في الخمر : {لذة للشاربين} ولم يقل في اللبن : لم يخبر طعمه للطاعمين ولا قال في العسل مصفى للناظرين ؟ فالجواب : قال ابن الخطيب : لأن اللذة تختلف باختلاف الأشخاص فرب طعام يلتذ به شخص ويعافه الآخر فقال : لذة للشاربين بأسرهم ، ولأن الخمر كريهة الطعم في الدنيا ، فقال لذة ، أي لا يكون في خمر الآخرة كراهة طعم وأما الطعم واللون فلا يختلف باختلاف الناس ، فإن الحلو والحامض وغيرهما يدركه كل أحد قد يعافه بعض الناس ويلتذ به البعض مع اتفاقهم على أن لهم طعما واحدا وكذلك اللون فلم يكن للتصريح بالتعميم حاجة.

قوله : {كل الثمرات} فيه وجهان : أحدهما : أن هذا الجار صفة لمقدر ، وذلك المقدر مبتدأ وخبره الجار قبله وهو " لهم " و " فيها " متعلق بما تعلق به ، والتقدير : ولهم فيها زوجان من كل الثمرات ، كأنه انتزعه من قوله تعالى : {فيهما من كل فاكهة زوجان} [الرحمن : ٥٢] وقدر بعضهم صنف.

والأول أليق.

والثاني : أن " من " مزيدة في المبتدأ.

قوله : {ومغفرة} فيه وجهان : أحدهما : أنه عطف على ذلك المقدر لا بقيد كونه في الجنة ، أي ولهم مغفرة ؛ لأن المغفرة تكون قبل دخول الجنة ؛ أو بقيد ذلك.

ولا بد من حذف مضاف حينئذ أي وبنعيم مغفرة ؛ لأنه ناشيء عن المغفرة وهو الجنة.

والثاني : أن يجعل خبرها مقدرا على ولهم مغفرة.

والجملة مستأنفة ، والفرق بين الوجيهن أن الوجه الذي قبل هذا فيه الإخبار بـ " لهم " الملفوظ به عن شيئين ، ذلك المحذوف ومغفرة.

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/٤٥٦٣

وفي الوجه الآخر الخبر جار آخر حذف للدلالة عليه.

قوله : {كمن هو} قد تقدم أنه يجوز أن يكون خبرا عن : {مثل الجنة} ، بالتأويلين

٤٤٤

المذكورين عن ابن عطية والزمخشري وأما إذا لم تجعله خبرا عن " مثل " ففيه أربعة أوجه : أحدها : أنه خبر مبتدأ محذوف تقديره : حال هؤلاء المتقين كحال من هو خالد.

وهذا تأويل صحيح.

وذكر فيه أبو البقاء الأوجه الباقية فقال : وهو في موضع رفع أي حالهم كحال من هو خالد في النار.

وقيل : هو استهزاء بهم.

وقيل : هو على معنى الاستفهام أي أكمن هو خالد ، وقيل : في موضع نصب أي يشبهون (حال) من هو خالد في النار.

انتهى.

ومعنى قوله : وقيل : هو استهزاء أي أن الإخبار بقولك : حالهم كحال من (هو خالد) على سبيل الاستهزاء والتهكم.

قال البغوي : معناه أمن كان في هذا النعيم كمن هو خالد في النار ؟ .

قوله : {وسقوا} عطف على الصلة عطف فعلية على اسمية ، لكنه راعى في الأول لفظ " من " فأفرد وفي الثانية معناه فجمع.

والأمعاء جمع معى . بالقصر . وهو المصران التي في البطن.

وقد وصف بالجمع في قوله : ٤٤٧١..........................

....

ومعى جياع

جزء : ١٧ رقم الصفحة : ٤٤٠

على إرادة الجنس.

فصل الماء الحميم هو الشديد الحر تسعر عليه النار منذ خلقت إذا أدني منهم شوى وجوههم ، ووقعت فروة رؤسهم ، فإذا شربوا قطع أمعاءهم فخرجت من أدبارهم جميع ما في البطن من الحوايا ، واحدها معى.

." (١)

"حاكيا عنهم : {وفي آذاننا وقر} [فصلت : ٥] والوقر دون الصمم.

فصل {أولائك الذين لعنهم الله} إشارة إلى من سبق ذكرهم من المنافقين ، أبعدهم الله عنه أةو عن الخبر الخير فأصمهم لا يسمعون الكلام المبين وأعمى أبصارهم عن الحق.

قوله : {أفلا يتدبرون القرآن} فيه سؤال وهو أنه تعالى قال : فأصمهم وأعمى أبصارهم فيكف يمكنهم التدبر في القرآن وهو كقول القائل الأعمى أبصر وللأصم أسمع ؟ !.

فالجواب من ثلاثة أوجه مترتبة بعضها أحسن من بعض : الأول : تكليفه ما لا يطاق جائز والله أمر من علم منه أنه لايؤمن بأن يؤمن فلذلك جاز أين يصمهم ويعميهم ويذمهم على ترك التدبر.

الثاني : أن قوله : {أفلا يتدبرون القرآن} المراد منه الناس.

الثالث : أن يقال : هذه الآية وردت محققة لمعنى الآية المقتدمة كأنه تعالى قال : {أولائك الذين لعنهم الله} أي أبعدهم عنه أو عن الصدق أو الخير أو غير ذلك من الأمور الحسنة فأصمهم لا يسمعون حقيقة الكلام وأعماهم لا يتبعون طريقة الإسلام ، فإذن هم بين أمرين إما لا يتدبرون القرآن فيبعدون منه ، لأن الله لعنهم وأبعدهم عن الخير والصدق والقرآن منهما هو الصف الأعلى بل النوع الأشرف وإما يتدبرون لكن لا تدخل معانيه في قلوبهم لكونها مقفلة تقديره : أفلا يتبدون القرآن لكونهم ملعونين مبعدين {أم على قلوب أقفالهآ} فيتدبرون ولا يفهمون ؛ وعلى هذا لا يحتاج إلى أن يقول : أم بمعنى " بل " بل هي على حقيقتها للاستفهام واقعة والهمزة أخذت مكانها وهو الصدر.

وقيلأ : أم بمعنى بل.

والمعنى بل على قلوب أقفالها فلا تفهم مواعظ القرآن وأحكامه روى هشام بن عروة عن أبيه قال : " تلا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم أفلا يتبدرون القرآن أم على قلوب أقفالها فقال شبا من أهل اليمن بل على قولب أقفالها حتى يكون الله يفتحها أو يفرجها ، فما زال الشاب في نفس عمر حتى ولي فاستعان به ".

قوله : {أم على قلوب} أم منقطعة وتقدم الكلام على " أم " منقطعة.

وقرأ العامة :

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/٤٥٧٠

٤٥٨
" أقفالها " بالجمع على أفعال.

وقرىء أقفلها (بالجمع) على أفعل.

وقرىء إقفالها بكسر الهمزة مصدرا كالإقبال.

وهذا الكلام استعارة بليغة قيل : ذلك عبارة عن عدم وصول الحق إليها.

فإن قيل : ما الفائدة في تنكير القلوب ؟ .

فقال الزمخشري : يحتمل وجهين : أحدهما : أن يكون للتنبيه على كون موصوفا لأن النكرة بالوصف أولى من المعرفة فكأنه قال : أم على قلوب قاسية أو مظلمة.

الثاني : أن تكون للتبعيض كأنه قال : أم على نفس القلوب ؛ لأن النكرة لا تعم ، تقول : جاءني رجال فيفهم البعض وجاءني الرجال فيفهم الكل.

والتنكير في القلوب للتنبيه على الإنكار الذي في القلوب وذلك لأن القلب إذا كان عارفا كان معروفا ، لأن القلب خلق للمعرفة فإذا لم يكن فيه المعرفة فكأنه لا يعرف قلبا ، فلا يكون قلبا يعرف ، كما يقال للإنسان المؤذي : هذا ليس بإنسان فكذلك يقال : هذا ليس بقلب هذا حجر.

وإذا علم هذا فالتعريف إما بالألف واللام وإما بالإضافة بأن يقال : على قلوبهم أقفالها أو هي لنعدم عود فائدة إليهم كأنها ليست لهم.

فإن قيل : قد قال تعالى : {ختم الله على قلوبهم} [البقرة : ٧] وقال : {فويل للقاسية قلوبهم} [الزمر : ٢٢].

فالجواب : الإقفال أبلغ من الختم ، فترك الإضافة لعدم انتفاعهم رأسا.

فإن قيل : ما الحكمة في قوله : " أقفالها " بالإضافة ولم يقل : أقفال كما قال : قلوب ؟ .

فالجواب : لأن الأقفال كأنها ليست إلا لها ولم تضف القلوب إليهم لعدم نفعها إياهم وإضافة الأقفال إليها لكونها مناسبة لها.

أو يقال : أراد به أقفالا مخصوصة هي أقفال الكفر والعناد.

قوله : {إن الذين ارتدوا على أدبارهم} رجعوا كفارا {من بعد ما تبين لهم الهدى}
٤٥٩

قال قتادة : هم كفار أهل الكتاب كفروا بمحمد . صلى الله عليه وسلم . بعدما عرفوه ووجدوا نعته في كتابهم.

وقال ابن عباس والضحاك والسدي : هم المنافقون.

قوله : {الشيطان سول لهم} أي زين لهم القبيح.

وهذه الجملة خبر : {إن الذين ارتدوا على أدبارهم} وتقدم الكلام على سول معنى واشتقاقا.

وقال الزمخشري هنا : وقد اشتقه من السؤل من لا علم له بالتصريف والاشتقاق جميعا.

قال شهاب الدين : كأنه يشير إلى ما قاله ابن بحر من أن المعنى أعطاهم سؤلهم.

ووجه الغلط فيه أن مادة السول من السؤال بالهمز ومادة هذا بالواو فافترقا ، فلو كان على ما قيل لقيل سأل بتشديد الهمزة لا بالواو.

وفيما قال الزمخشري نظر ؛ لأن السؤال له مادتان سأل بالهمزة وسال بالألف المنقلبة من واو.

وعليه قراءة : " سال سائل " وقوله : ٤٤٧٩. سألت هذيل رسول الله فاحشة

". (١)

"قوله : {ا اا إيمانا مع إيمانهم} ، قال ابن عباس . (رضي الله عنهما) . بعث الله رسوله محمدا . صلى الله عليه وسلم . بشهادة أن لا إله إلا الله ، فلما صدقوا زادهم الصلاة ، ثم الزكامة ، ثم الصيام ، ثم الحج ، ثم الجهاد حتى أكمل لهم دينهم وكلما أمروا بشيء فصدقوه ازدادوا تصديقا إلى تصديقهم.

وقال الضحاك : يقينا مع يقينهم ، وقيل : أنزل السكينة عليهم فصبروا ورأوا عين القين ما علموا النصر علم اليقين إيمانا بالغيب فازدادوا إيمانا مستفادا من الغيب مع إيمانهم المستفاد من الشهادة.

وقيل : ازدادوا إيمانا بالفروع مع إيمانهم بالأصول فإنهم آمنوا بأن محمدا رسول الله ، فإن الله واحد ، والحشر كائن فآمنوا بأن كل ما يقول النبي . صلى الله عليه وسلم . فهو صدق ، وكل ما يأمر الله تعالى به فهو واجب.

وقيل : ازدادوا إيمانا استدلاليا مع إيمانهم الفطري.

فإن قيل : ما الحكمة في قوله في حق الكفار : {إنما نملي لهم ليزدادوا اا إثما} [آل عمران : ١٧٨] ولم يقل مع كفرهم وقال في حق المؤمنين : {ا اا إيمانا مع إيمانهم} ؟ فالجواب : أن كفر الكافر عنادي

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/٤٥٧٦

، وليس في الوجود كفر فطري ، ولا في الوجود كفر عنادي لينضم إلى الكفر الفطري بل الكفر ليس إلا عنادا وكذلك الكفر بالفروع لا يقال : انضم إلى الكفر بالأصول ، لأن من ضرورة الكفر بالأصول الكفر بالفروع وليس من ضرورة الإيمان بالأصول الإيمان بالفروع بمعنى الطاعهة والانقياد ، ولهذا قال : {ا اا إيمانا مع إيمانهم}.

قوله : {ولله جنود السماوات والأرض} فهو قادر على أهلاك عدوهم بجنود ، بل بصيحة ولم يفعل بل أنزل السكينة على المؤمنين ليكون إهلاك أعدائه بأديهيم فيكون لهم الثواب.

والمراد بجنود السموات والأرض الملائكة ، وقيل : جنود السموات الملائكة وجنود الأرض الجن والحيوانات.

وقيل : الأسباب السماوية.

{وكان الله عليما} لما قال : {ولله جنود السماوات والأرض} وعددهم غير محصور فقال " عليما : إشارة إلى أنه لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض.

وقيل : لما ذكر القلوب بقوله : {أنزل السكينة في قلوب المؤمنين} والإيمان الذي من عمل القلوب ذكر العلم إشارة إلى أنه يعلم السر وأخفى.

وقوله " حكيما " بعد " عليما " إشارة إلى أنه يفعل على وفق العلم ، فإن الحكيم من يعمل شيئا متقنا وبعلمه.

قوله تعالى : {ليدخل المؤمنين} في متعلق هذه اللام أربعة أوجه : أحدهما : محذوف تقديره : يبتلي بتلك الجنود من شاء فيقبل الخبر ممن أهله له والشر ممن قضى له به ليدخل ويعذب.

٤٨١

الثاني : أنها متعلقة بقوله : " إنا فتحنا " لأنه روي أن المؤمنين قالوا للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ هنيئا لك إن الله غفر لك فما بالنا ؟ فنزلت الآية فكأنه تعالى قال : إنا فتحنا لك ليغفر لك وفتحنا للمؤمنين ليدخلهم جنات.

الثالث : أنها متعلقة بـ " ينصرك " كأنه تعالى قال : وينصرك الله بالمؤمنين ليدخل المؤمنين جنات.

الرابع : أنها متعلقة بـ " يزدادوا " واستشكل هذا بأن قوله : " ويعذب " عطف عليه وازديادهم الإيمان ليس سببا عن تعذيب الله الكفار.

وأجيب : بأن اعتقادهم أن الله يعذب الكفار يزيد في إيمانهم لا محالة.

وقال أبو حيان : والازدياد لا يكون سببا لتعذيب الكفار.

وأجيب : بأنه ذكر لكونه مقصودا للمؤمن كأنه قيل : بسبب ازديادكم في الإيمان يدخلكم الجنة ويعذب الكفار بأيديكم في الدنيا.

وفيه نظر لأنه كان ينبغي أن يقول : لا يكون مسببا عن تعذيب الكفار وهذا يشبه ما تقدم في قوله : " ليغفر لك الله ".

وأجاب ابن الخطيب بوجهين آخرين : أحدهما : (تقديره) ويعذب نقيض ما لكم من الازدياد ، يقال : فعلت لأخبر به العدو والصديق أي لأعرف بوجوده الصديق وبعدمه العدو ، فكذا ههنا ليزداد المؤمن إيمانا يدخله الجنة ويزداد ال كافر كفرا فيعذبه (به).

وثانيهما : أن بسبب زيادة إيمان المؤمن يكثر صبرهم وثباتهم ويتعب المنافق والكافر معه ويتعذب.

ثم ذكر وجوها أخر في تعلق الجار منها : أن الجار يتعلق بقوله : " حكيما "كأنه تعالى قال : ويتم نعمته عليك لأن الله حكيم فعل ما فعل ليدخل المؤمنين.

ومنها : أن يتعلق بقوله : " ويتم نعمته عليك " فيستجيب دعاءك في الدنيا ويقبل شفاعتك في العقبى ليدخل المؤمنين جنات.

ومنها : أن يتعلق بأمر مفهوم من قرينة الحال وهو الأمر بالقتال لأنه لما ذكر الفتح والنصر علم أن الحال حال القتال ، فكأنه تعالى قال : إن الله تعالى أمر

٤٨٢

". (١)

"بالقتال ليدخل المؤمنين ، أو عرف من قرينة الحال أن الله اختار المؤمنين (فكأنه تعالى قال : اختار المؤمنين) ليدخلهم جنات.

فإن قيل : ما الحكمة في أنه تعالى ذكر في بعض المواضع المؤمنين والمؤمنات وفي بعضها اكتفى بذكر المؤمنين ودخلت المؤمنات فيهم كقوله تعالى : {قد أفلح المؤمنون} [المؤمنون : ١] وقوله : وبشر المومنين بأن لهم (من الله فضلا كبيرا) ؟ فالجواب : أنه في المواضع التي فيها ما يوهم اختصاص المؤمنين بالخير

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل ، ص/٤٥٨٦

الموعود به مع مشاركة المؤمنات لهم ذكرهن الله صريحا وفي المواضع التي فيها ما يوهم ذلك اكتفى بدخولهن في المؤمنين كقوله : " وبشر المؤمنين " مع أنه علم من قوله تعالى : {ومآ أرسلناك إلا كآفة للناس بشيرا ونذيرا} [سبأ : ٢٨] العموم ، فلا يوهم خروج المؤمنين عن البشارة.

وأما ههنا فلما كان قوله تعالى : {ليدخل المؤمنين} متعلقا بفعل سابق وهو إما الأمر بالقتال أو الصبر فيه ، أو النصرة (بالمؤمنين) أو الفتح بأيديهم على ما تقدم.

فإدخال المؤمنين كان للقتال والمرأة لا تقاتل فلا تدخل الجنة الموعد بها فصرح الله بذكرهن ، وكذا في قوله تعالى : {إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات} [الأحزاب : ٣٥] ؛ لأن الموضع ذكر النساء وأحوالهن لقوله : {ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى وأقمن...

وآتين...

وأطعن...

واذكرن ما يتلى في بيوتكن} [الأحزاب : ٣٤.٣٣] فكان ذكر النساء هنا(ك) أصلا لكن الرجال لما كان لهم ما للنساء من الأمر العظيم ذكرهم وذكرهن بفلظ مفرد من غير تبعية لما بينا (أن الأصل ذكرهن في ذلك الموضع).

قوله : {ويكفر عنهم سيئاتهم} فيه سؤال وهو أن تكفير السيئات قبل الإدخال فكيف ذكره بعد ذكر الإدخال ؟ والجواب من وجهين : أحدهما : أن الواو لا تقتضي الترتيب.

والثاني : أن تكفير السيئات والمغفرة من توابع كون المكلف من أهل الجنة فقدم الإدخال في الذكر بمعنى أنه من أهل الجنة.

قوله : {ذلك عند الله فوزا عظيما} " عندا الله " متعلق بمحذوف على أنه حال من " فوزا " لأنه صفته في الأصل.

وجوز أبو البقاء أن يكون ظرفا لمكان.

وفيه خلاف.

وأن يكون ظرفا لمحذوف دل عليه الفوز ، أي يفوزون عند الله ولا يتعلق

٤٨٣

" بفوزا " ؛ لأنه مصدر فلا يتقدم معموله عليه.

من اغتفر ذلك في الظرف جوزه.

قال ابن الخطيب : معناه أن ذلك الإدخال والتكفير في علم الله فوز عظيم يقال : عندي هذا الأمر على هذا الوجه أي في اعتقادي.

قوله تعالى : {ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات...

} الآية.

اعلم أنه قدم المنافقين على المشركين في كثير من المواضع لأمور : أحدها : أنهم كانوأ شد على المؤمنين من الكافر المجاهر ؛ لأن المؤمن كان يتوقى المشرك المجاهر ويخالط المنافق لظنه بإيمانه وكان يفشي أسراره.

وإلى هذا أشار النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بقوله " اعدى عدوك نفسك الذي بين جنبيك " ولهذا قال الشاعر : ٤٤٨٩. احذر عدوك مرة

واحذر صديقك ألف مره

جزء : ١٧ رقم الصفحة : ٤٨٠

فلربما (انقلب) الصديق

عدوا وكان أعلم بالمضره

وثانيها : أن المنافق كان يظن أن يتخلص بالمخادعة والكافر لا يقطع بأن المؤمن إن غلبه يعذبه فلهذا أول ما أخبر الله عن المنافق.

قوله : {الظآنين بالله} صفة للفريقين.

وتقدم الخلاف في السوء في التوبة.

وقرأ الحسن السوء بالضم فيهما.

فصل قال المفسرون : ظن السوء هو أن ينصر محمدا والمؤمنين.

وقال ابن الخطيب : هذا الظن يحتمل وجوها : أحدها : هو الظن الذي ذكره الله بقوله : {بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول} [الفتح : ١٢].

وثانيها : ظن المشركين بالله في الإشراك كقوله تعالى : {إن هي إلا أسمآء

٤٨٤

(١) ".

"الياء وضم الزاي وهو أيضا وجعفر بن محمد كذلك إلا أنهما كسرا الزاي.

وابن عباس واليماني ويعززوه كالعامة إلا أنه بزايين من العزة.

فإن قيل : ما **الحكمة في** قوله في الأحزاب : {إنآ أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا} [الأحزاب : ٤٥.٤٦] وههنا اقتصر على الثلاثة الأول ؟ .

فالجواب من وجهين : أحدهما : أن ذلك المقام كان مقام ذكر ، لأن أكثر السورة ذكر الرسول وأحواله وما تقدمه من المبايعة و الوعد بالدخول ففصل هناك ولم يفصل هنا.

وثانيهما : أن قوله : " شاهدا " لما لم يقتض أن يكون داعيا لجواز أن يقول مع نفسه أشهد أن لا إله إلا الله ولا يدعو الناس قال هناك : " وداعيا " كذلك ههنا لما لم يكن كونه شاهدا ينبيء عن كونه داعيا قال : ليؤمنوا بالله ويعزروه ويوقروه.

وقوله : " بكرة وأصيلا " يحتمل أن يكون إشارة إلى المداومة ، ويحتمل أن يكون لمخالفة عمل المشركين ، فإنهم كانوا يعبدون الأصنام في الكعبة بكرة وعشية ، فأمر الله بالتسبيح في أوقات ذكرهم الفحشاء والمنكر.

قوله تعالى : {إن الذين يبايعونك} يا محمد بالحديبية على أن لا يفروا {إنما يبايعون الله} لأنهم باعوا أنفسهم من الله تعالى بالجنة ، روى يزيد بن (أبي) عبيد قال : قلت لسلمة بن الأكوع : على أي شيء بايعتم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يوم الحديبية ؟ قال : على الموت.

قوله : {إنما يبايعون الله} خبر " إن الذين " و {يد الله فوق أيديهم} جملة حالية ، أو خبر ثان وهو ترشيح للمجاز في مبايعة الله.

وقرأ تمام بن العباس : يبايعون لله ، والمفعول محذوف أي إنما يبايعونك لأجل الله.

٤٨٧

قوله : {يد الله فوق أيديهم} لما بين أنه مرسل ذكر أن من بايعه فقد بايع الحق.

وقوله : {يد الله فوق أيديهم} يحتمل وجوها ، وذلك أن اليد في الموضعين إما أن تكون بمعنى واحد ،

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/٤٥٨٧

وإما أن تكومن بمعنيين فإن كانا بمعنى واحد ففيه وجهان : أحدهما : قال الكلبي : نعمة الله عليه في الهداية فوق ما صنعوا من البيعة كما قال تعالى : {بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان} [الحجرات : ١٧].

وثانيهما : قال ابن عباس ومجاهد : يد الله بالوفاء بما عاهدهم من النصر والخير وأقوى وأعلى من نصرتهم إياه ، ويقال : اليد لفلان أي الغلبة والقوة.

وإن كانا بمعنيين ففي حق الله بمعنى الحفظ ، وفي حق المبايعين بمعنى الجارحة قال السدي : كانوا يأخذون بيد رسول . صلى الله عليه وسلم . ويبايعونه ويد الله فوق أيديهم في المبايعة ، وذلك أن المتبايعين إذا مد أحدهما يده إلى الآخر في البيع ، وبينهما ثالث فيضع يده على يديهما ويحفظ أيديهما إلى أن يتم العقد ولا يترك أحدهما بترك يد الآخر لكي يلزم العقد ولا يتفاسخان فصار وضع اليد فوق الأيدي سبباب لحفظ البيعة ، فقال تعالى : {يد الله فوق أيديهم} يحفظهم على البيعة كما يحفظ المتوسط أيدي المتبايعين.

قوله : " فمن نكث " أي نقص البيعة {فإنما ينكث على نفسه} أي عليه و ما له {ومن أوفى بما عاهد عليه الله} أي ثبت على البيعة {فسيؤتيه أجرا عظيما} قرأ أهل العراق فسيؤتيه بالياء من تحت ، وقرأ الآخرون بالنون.

والمراد بالأجر العظيم الجنة.

وتقدم الكلام في معنى الأجر العظيم.

جزء : ١٧ رقم الصفحة : ٤٨٦

." (١)

"قوله (تعالى) : { يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى } الآية هذه الآية مبينة ومقررة لما تقدم لأن السخرية من الغير والعيب إن كان بسبب التفاوت في الدين والإيمان فهو جائز ، وكذلك لمزه وغيبته وإن لم يكن بسبب الدين والإيمان فلا يجوز ، لأن الناس بعمومهم كافرهم ومؤمنهم يشتركون فيما يفتخر به المفتخر ، لأن التكبر والافتخار إن كان بسبب الغنى فالكافر قد يكون غنيا المؤمن فقيرا وبالعكس ، وإن كان بسبب النسب فالكافشر قد يكون نسيبا والمؤمن مولى لعبد أسود وبالعكس فالناس فيما ليس من

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/٤٥٨٩

الدين والتقوى متساوون أو متقاربون ولا يؤثر شيء من ذلك مع عدم التقوى كما قال تعالى : {إن أكرمكم عند الله أتقاكم} فقوله تعالى : { يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى } يعنى كآدم أي أنكم متساوون في النسب فلا تفاخر لبعض على بضع لكونهم أبناء رجل واحد وامرأة واحدة.

فصل قال ابن عباس (رضي الله عنهما) نزلت في ثابت بن قيس وقوله للرجل الذي لم يتفسح له : ابن فلانة فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الذكر فلانة ؟ قال ثابت : أنا يا رسول الله فقال : انظر في وجوه القوم فنظر ، فقال : ما رأيت ثابت ؟ قال : رأيت أبيض وأحمر وأسود ، قال : فإنك لا تفضلهم إلا في الدين والتقوى ، فنزلت هذه الآية ونزل في الذي لم يتفسح : { يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا في المجالس فافسحوا} [المجادلة : ١١].

وقال مقاتل : لما كان فتح مكة أمر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بلالا حتى علا ظهر الكعبة

٥٥٣

فأذن فقال عتاب بن أسيد بن أبي العيص : الحم لله الذي قبض أبي حتى لم ير هذا اليوم.

وقال الحارث بن هشام : أما وجد محمد غير هذا الغراب الأسود مؤذنا ؟ وقال سهيل بن عمرو : إن يرد الله شيئا يغيره.

وقال أبو سفيان : إني لا أقول شيئا أخاف أن يخبر به رب السموات فأتى جبريل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأخبره بما قالوا : فدعاهم عما قالوا فأقروا فأنز لالله ـ عز وجل ـ هذه الآية وزجرهم عن التفاخر بالأنساب و التكاثر بالأموال ، والإزراء بالفقراء.

فإن قيل : هذه الآية تدل على عدم اعتبار النسب وليس كذلك فإن للنسب اعتبار عرفا وشرعا حتى لا يجوز تزويج الشريفة بالنبطي!.

فالجواب : إذا جاء الأمر العظيم لا يبقى الأمر الحقير معتبرا ، وذلك في الجنس والشرع والعرف أما الجنس فلأن الكواكب لا ترى عند طلوع الشمس ، ولحناح الذباب دوي ولا يسمع عندما يكون رعد قوي.

وأما العرف فلأن من جاءه غلام ملك أقبل عليه وأكرمه فإذا جاءه مع الملك لا يبقى له اعتبار ولا يلتفت إليه.

وإذا علم هذه ففي الشرع كذلك إذا جاء الشرف الديني الإلهي لا يبقى هناك اعتبار لا لنسب ولا لسبب ، ألا ترى أن الكافر وإن كان من أعلى الناس نسبا ، والمؤمن وإن كان من أدونهم نسبا لا يقاس أحدهما

بالآخر وكذلك ما هو من الدين مع غيره ، ولهذا تصلح المناصب الدينية كالقضاء والشهادة لكل شريف ووضيع إذا كان دينا عالما ، ولا يصلح لشيء منها فاسق وإ ، كان قرشي النسب وقاروني النشب ولكن إذا اجتمع في اثنين الدين المتين وأحدهما نسيب يرجح بالنسب عند الناس لا عند الله ، لقوله تعالى {وأن ليس للإنسان إلا ما سعى } [النجم : ٣٩] وشرف النسب ليس مكتسبا و لايحصل بعسي.

فصل الحكمة في اختيار النسب من جملة أسباب التفاخر ، ولم يذكر المال ، لأن الأمور التي يفتخر بها في الدنيا وإن كانت كثيرة ، لكن النسب أعلاها ، لأن المال قد يحصل للفقير فيبطل افتخار المفتخر به عليه والسن والحسن وغير ذلك لا يدوم ، والنسب ثابت مستمر غير مقدور التحصيل لمن ليس له ذلك فاختاره الله للذكر وأبطل اعتباره بالنسبة إلى التقوى ليعلم منه بطلان غيره بطريق الأولى.

فإن قيل : إذا كان ورود الآية لبيان عدم جواز الافتخار بغير التقوى فما فائدة قوله تعالى : {إنا خلقناكم} ؟ فالجواب : بأن كل شيء يترجح علىغيره ، فإما أن يرجح بأمر فيه يلحقه ويرتب

٥٥٤

". (١)

"الرابع : {إن في ذلك لذكرى } [ق : ٣٧].

الخامس : " بل عجبوا ".

وهو قول كوفي ، قالوا : لأنه بمعنى قد عجبوا.

السادس : أنه محذوف ، فقدره الزجاج والأخفش والمبرد : لتبعثن ، وغيرهم : لقد جئتهم منذرا.

واعلم أن جوابات القسم سبعة ، إن المشددة كقوله : {والعصر إن الإنسان لفى خسر} [العصر : ١ و ٢] ، و " ما " النافية كقوله : {والضحى والليل إذا سجى ما ودعك ربك وما قلى } [الضحى : ١ - ٣] واللام المفتوحة كقوله : {فوربك لنسألنهم} [الحجر : ٩٢] وإن الخفيفة كقوله : {تالله إن كنا لفي ضلال مبين} [الشعراء : ٩٧] ولا النافية كقوله : {وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت} [النحل : ٣٨] ، و " قد " كقوله : {والشمس وضحاها والقمر إذا تلاها والنهار إذا جلاها والليل إذا يغشاها والسمآء وما بناها والأرض وما طحاها ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها} [الشمس : ١ - ٩] ، وبل كقوله : {والقرآن المجيد بل عجبوا اا}.

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/٤٦١٨

والمجيد : العظيم.
وقيل : المجيد : الكثير الكرم.
فإن قلنا : المجيد العظيم ، فلأن القرآن عظيم الفائدة ولأنه ذكر الله العظيم ، وذكر العظيم عظيم ولأنه لم يقدر عليه أحد من الخلق ، وقال تعالى : {ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم} [الحجر : ٨٧].
ولا يبدل ولا يغير ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وإن قلنا : المجيد هو الكثير الكفر فالقرآن كريم كل من طلب منه مقصودا وجده ، ويغني كل من لاذ به وإغناء المحتاج غاية الكرم.
فإن قيل : القرآن مقسم به فما المقسم عليه ؟ .
فالجواب : أن المقسم عليه إما أن يفهم بقرينة حالية أو قرينة مقالية ، والمقالية إما أن تكون متقدمة على المقسم به أو متأخرة ، فإن فهم من قرينة مقالية متقدمة ، فلا يتقدم هنا لفظا إلا " ق " فيكون التقدير : هذا ق والقرآن ، أو ق أنزلها الله تعالى ,القرآن ، كقولك : هذا حاتم والله ؛ أي هو المشهور بالسخاء ، وتقول : الهلال والله أي رأيته والله.
وإن فهم من قرينة مقالية متأخرة فذلك أمران : أحدهما : أن التقدير : والقرآن المجيد إنك المنذر ، أو والقرآن المجيد إن الرجع لكائن ، لأن كلام الأمرين ورد طاهرا ، أما الأول فقوله تعالى : {يسا والقرآن الحكيم} [يس : ١ - ٢] إلى أن قال : {لتنذر قوما} [يس : ١ - ٦].
٨
وأما الثاني : فقوله تعالى : {والطور وكتاب مسطور في رق منشور والبيت المعمور والسقف المرفوع والبحر المسجور إن عذاب ربك لواقع} [الطور : ١ - ٧].
قال ابن الخطيب : وهذا الوجه يظهر غاية الظهور على قال من قال : " ق " اسم جبل فإن القسم يكون بالجبل والقرآن ، وهناك أقسم بالطور والكتاب المسطور وهو الجبل والقرآن وإن فهم بقرينة حالية فهو كون محمد - صلى الله عليه وسلم - على الحق فإن الكفار كانوا ينكرون ذلك.
قوله : " بل عجبوا " يقتضي أن يكون هناك أمر مضروب عنه فما ذلك ؟ أجاب الواحدي ووافقه الزمخشري أنه تقرير كأنه قال : ما الأمر كما تقولون.
قال ابن الخطيب : والتقدير والقرآن المجيد إنك لمنذر ، وكأنه قال بعده : إنهم شكوا فيه.
ثم أضرب عنه وقال : بل عجبوا أي فلم يكتفوا بالشك ولا بالرد حتى عجبوا بل جزموا بالخلاف حتى

جعلوا ذلك من الأمور العجيبة.

فإن قيل : فما الحكمة في هذا الاختصار العظيم في موضع واحد حذف المقسم عليه والمضرب عنه ، وأتى بأمر لا يفهم إلا بعد الفكر العظيم ولا يفهم مع الفكر إلا بالتوثيق العزيز ؟ !.

قال ابن الخطيب : أما حذف المقسم عليه فلأن الترك في بعض المواضع يفهم منه ظهور لا يفهم من الذكر ، لأن من ذكر الملك العظيم في مجلس ، وأثنى عليه يكون قد عظمه ، فإذا قال له غيره : هو لا يذكر في هذا المجلس يكون بالإرشاد إلى ترك الذكر دالا على عظمة فوق ما استفيد بذكره فالله (تعالى) ذكر المقسم عليه لبيان هو أظهر من أن يذكر.

وأما حذف المضرب عنه ، فلأن المضرب عنه إذا ذكر وأضرب عنه بأمر آخر ، وكان بين المذكورين تفاوت ما ، فإذا عظم التفاوت لا يحسن ذكرهما مع الإضراب ، مثاله يحسن أن يقال : الوزير يعظم ، فلا يماثل الملك بعظمه ، ولا يحسن أن يقال : البواب يعظم فلا يماثل الملك بعظمه لكون البون بينهما بعيدا ، إذ الإضراب للتدريج ، فإذا ترك المتكلم المضرب عنه صريحا وأتى بحرف الإضراب استفيد منه أمران : أحدهما : الإشارة إلى أمر آخر قبله مضرب عنه.

٩

". (١)

"قوله : " لها طلع " يجوز أن تكون الجملة حالا من النخل أو من الضمير في " باسقات " ويجوز أن يكون الحال وحده " لها " وطلع فاعل به.

ونضيد بمعنى منضود بعضها فوق بعض في كمامها كما في سنبلة الزرع ، وهو عجيب ، فإن الأشجار الطوال ثمارها بعضها على بعض ، لكل واحد منها أصل يخرج منه كالجوز واللوز وغيرهما ، والطلع كالسنبلة الواحدة يكون على أصل واحد.

قوله : " رزقا " يجوز أن يكون حالا أي مرزوقا للعباد أي ذا رزق ، وإن يكون مصدرا من معنى أنبتنا ؛ لأن إنبات هذه رزق فكأنه قال : أنبتناها إنباتا للعباد ويجوز أن تكون مفعولا له للعباد ، إما صفة ، وإما متعلق بالمصدر ، وإما مفعولا للمصدر ، واللام زائدة ، أي رزقا العباد.

فصل قال ابن الخطيب : ما الحكمة في قوله عند خلق السماء والأرض : " تبصرة وذكرى " وفي الثمار

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل ، ص/٤٦٢٧

قال : " رزقا " والثمار أيضا فيها تبصرة وفي السماء والأرض أيضا منفعة غير التبصرة والتذكرة ؟ نقول : فيه وجوه : أحدها : أن الاستدلال وقع لوجود أمرين : أحدهما الإعادة ، والثاني : البقاء بعد الإعادة ، فإن النبي – صلى الله عليه وسلم – كان يخبرهم بحشر وجمع يكون بعده الثواب الدائم ، والعقاب الدائم ، وأنكروا ذلك ، فقال أما الأول فالله القادر على خلق السموات والأرض قادر على خلق الخلق بعد الفناء ، وأما الثاني فلأن البقاء في الدنيا بالرزق والقادر على إخراج الأرزاق من النخل والشجر قادر على أن يرزق بعد الحشر فكان الأول تبصرة وتذكرة بالخلق ، والثاني تذكرة بالبقاء بالرزق ، ويدل على هذا الفصل بينهما بقوله تعالى : {تبصرة وذكرى} حيث ذكر ذلك بعد الآيتين ، ثم بدأ بذكر الماء وإنزاله وإنبات النبات.

ثانيها : منفعة الثمار الظاهرة وهي الرزق فذكرها ، ومنفعة السماء الظاهرة ليست أمرا عائدا إلى انتفاع العباد لبعدها عن ذهنهم حتى أنهم لو توهموا عدم الزرع والثمر لظنوا أن يهلكوا ولو توهموا عدم السماء فوقهم لقالوا : لا يضرنا ذلك مع أن الأمر بالعكس أولى لأن السماء سبب الأرزاق بقدرة الله تعالى ، وفيها منافع غير ذلك والثمار وإن لم تكن كان العيش كما أنزل الله على قوم المن والسلوى ، وعلى قوم المائدة من السماء فذكر الأظهر للناس في هذا المواضع.

٢٠

ثالثها : قوله : رزقا إشارة إلى كونه منعما ليكون تكذيبهم في غاية القبح فإنه يكون إشارة بالمنعم وهو أقبح ما يكون.

فصل قال : {تبصرة وذكرى لكل عبد منيب} فقيد العبد بكونه منيبا ، لأن العبودية حصلت لكل أحد غير أن المنيب يأكل ذاكرا شاكرا للإنعام وغيره يأكل كما تأكل الأنعام ، فلم يخصص بقيد.

قوله : " فأحيينا به " أي بالماء و " ميتا " صفة لـ " بلدة " ولم يؤنث حملا على معنى المكان.

والعامة على التخفيف.

وأبو جعفر وخالد بالتثقيل.

فإن قيل : ما الفرق بين هذا الموضع وبين قوله : {وآية لهم الأرض الميتة} [يس : ٣٣] حيث أثبت (الهاء) هناك ؟ فالجواب : أن الأصل في الأرض الوصف فقال الميتة ، لأن معنى الفاعلية ظاهر هناك والبلدة الأصل فيها الحياة لأن الأرض إذا صارت حية صارت آهلة وأقام بها القوم وعمروها فصارت بلدة فأسقط الهاء لأن معنى الفاعلية ظاهر فيثبت فيه الهاء ، وإذا كان بمعنى الفاعل لم يظهر لا يثبت فيه الهاء

، ويحقق هذا قوله : {بلدة طيبة} [سبأ : ١٥] حيث أثبت الهاء حيث ظهر معنى الفاعلية ولم يثبت حيث لم يظهر.

قوله : "كذلك الخروج " أي من القبور أي كالإحياء الخروج.

فإن قيل : الإحياء يشبه به الإخراج لا الخروج ؟ فالجواب : تقديره أحيينا به بلدة ميتا فتشققت وخرج منها النبات كذلك تتشقق ويخرج منها الأموات.

قال ابن الخطيب : وهذا يؤكد قولنا : إن الرجع بمعنى الرجوع في قوله : {ذلك رجع بعيد} ؛ لأنه تعالى بين لهم ما استبعدوه فلو استبعدوا الرجع الذي هو من المتعدي لناسبه أن يقول : كذلك الإخراج فلما قال : كذلك الخروج فهم أنهم أنكروا الرجوع فقال : كذلك الرجوع والخروج.

٢١

جزء : ١٨ رقم الصفحة : ١٦

." (١)

"حيث النحو ، فلأن الحقائق لا يوصف بها ، فلا يقال : جسم رجل جاءني ، كما يقال : جسم ناطق جاءني ؛ لأن الوصف يقوم بالموصوف والحقيقة تقوم بنفسها لا بغيرها.

فقولنا : عالم أي شيء له علم.

فصل والخشية والخوف معناهما واحد عند أهل اللغة ، لكن بينهما فرق ، وهو أن الخشية خوف من عظمة المخشي ، لأن تركيب حروف " ش ي خ " في تقاليبها يلزمه معنى الهيبة ، يقال : شيخ للسيد وللرجل الكبير السن ، وهما جميعا مهيبان والخوف خشية من ضعف الخاشي ، لأن تركيب " خ و ف " في تقاليبها يدل على الضعف ، ويدل على ذلك أنه حيث كان الخوف من عظمة المخشي قال تعالى : {إنما يخشى الله من عباده العلماء} [فاطر : ٢٨] ، وقال : {هم من خشية ربهم مشفقون} [المؤمنون : ٥٧] مع أن الملائكة والجبل أقوياء وحيث كان الخوف من ضعف الخاشي سماه خوفا قال تعالى : {ألا تخافوا ولا تحزنوا} [فصلت : ٣٠] أي بسبب مكروه يلحقكم في الآخرة.

وقال تعالى : {خآئفا يترقب} [القصص : ١٨] وقال : " إني أخاف أن يقتلون " لوحدته وضعفه هذا في أكثر الاستعمال وربما يتخلف (المدعى عنه لكن الكثرة كافية).

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/٤٦٣٣

فصل معنى الآية من خاف الرحمن فأطاعه بالغيب ، ولم يره.

وقال الضحاك والسدي : يعني في الخلوة حيث لا يراه أحد.

قال الحسن : إذا أرخى الستر وأغلق الباب.

{وجآء بقلب منيب} هذه صفة مدح ، لأن شأن الخائف أن يهرب ، فأما المتقي فجاء ربه لعلمه أنه لا ينجي الفرار منه.

وقوله : " منيب " أي مخلص مقبل على طاعة الله تعالى.

والباء في " بقلب " إما للتعدية ، وإما للمصاحبة ، وإما للسببية.

٤١

والقلب المنيب كالقلب السليم في قوله تعالى : {إذ جآء ربه بقلب سليم} [الصافات : ٨٤] أي سليم من الشرك.

قوله : " ادخلوها بسلام " الجار والمجرور حال من فاعل " ادخلوها " أي سالمين من الآفات فهي حال مقارنة ، أو مسلما عليكم فهي حال مقدرة كقوله : {فادخلوها خالدين} [الزمر : ٧٣].

كذا قيل وفيه نظر ، إذ لا مانع من مقارنة وتسليم الملائكة عليهم حال الدخول بخلاف فادخلوها خالدين فإنه لا يعقل الخلود إلا بعد الدخول ، والضمير في " ادخلوها " عائد إلى الجنة ، أي ادخلوا الجنة بسلامة من العذاب والهموم وقيل : بسلام من الله وملائكته عليهم.

قوله : {ذلك يوم الخلود} قال أبو البقاء : أي ومن ذلك يوم الخلود كأنه جعل " ذلك " إشارة إلى ما تقدم من إنعام الله عليهم بما ذكره ، وقيل " ذلك " مشار به لما بعده من الزمان ، كقولك : هذا زيد.

قال الزمخشري : في قوله : {ذلك يوم الخلود} إضمار تقديره : ذلك يوم تقرير الخلود.

ويحتمل أن يقال : اليوم يذكر ويراد به الزمان المطلق سواء كان يوما أو ليلا ، تقول : يوم يولد لفلان يكون السرور العظيم ، ولو ولد له بالليل لكان السرور حاصلا فالمراد به الزمان فكأنه تعالى قال : ذلك زمان الإقامة الدائمة.

فإن قيل : المؤمن قد علم أنه إذا دخل الجنة خلد فيها فما فائدة القول ؟ فالجواب من وجهين : الأول : أن قوله : {ذلك يوم الخلود} قول قاله الله في الدنيا ، إعلاما وإخبارا ، وليس ذلك قولا يقوله عند قوله : " ادخلوها " ، فكأنه تعالى أخبر في يومنا أن ذلك اليوم يوم الخلود.

٤٢

الثاني : أن اطمئنان القلب بالقول أكثر.

قوله : {لهم ما يشآءون فيها} يجوز أن يتعلق " فيها " بـ " يشاؤون " ويجوز أن يكون حالا من الموصول ، أو من عائده والأول أولى.

فصل ما الحكمة في أنه تعالى قال : ادخلوها بسلام على المخاطبة ، ثم قال : " لهم " ولم يقل : لكم ؟ فالجواب من وجوه : الأول : أن قوله تعالى : " ادخلوها " فيه مقدر ، أي فيقال لهم ادخلوها.

فلا يكون التفاتا.

الثاني : أنه التفات ، والحكمة الجمع بين الطرفين ، كأنه تعالى يقول : غير محل بهم في غيبتهم وحضورهم.

ففي حضورهم الحبور ، وفي غيبتهم الحور والقصور.

الثالث : أنه يجوز أن يكون قوله تعالى : " لهم "كلاما مع الملائكة ، يقول للملائكة توكلوا بخدمتهم ، واعلموا أن لهم ما يشاؤون فيها فأحضروا بين أيديهم ما يشاؤون ، وأما أنا فعندي ما لا يخطر ببالهم ولا تقدرون أنتم عليه.

و " المزيد " يحتمل أن يكون معناه الزيادة ، كقوله تعالى : {للذين أحسنوا الحسنى وزيادة} [يونس : ٢٦] ويحتمل أن يكون بمعنى المفعول ، أي عندنا ما نزيده على ما يرجون ويأملون.

قال أنس وجابر : هو النظر إلى وجه الله الكريم.

جزء : ١٨ رقم الصفحة : ٣٦

قوله تعالى : {وكم أهلكنا} نصب بما بعده.

وقدم إما لأنه استفهام ، وإما

٤٣

". (١)

"سورة الذاريات

مكية وهي ستون آية ، وثلاثمائة وستون كلمة ، وألف ومائتان وتسعة وثمانون حرفا.

جزء : ١٨ رقم الصفحة : ٥٥

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/٤٦٤٣

قوله تعالى : {والذاريات ذروا} أول هذه السورة مناسب لآخرها قبلها ، لأنه تعالى لما بين الحشر بدلائله ، وقال : {ذلك حشر علينا يسير} [ق : ٤٤] وقال : {ومآ أنت عليهم بجبار} [ق : ٤٥] تجبرهم على الإيمان ، إشارة إلى إصرارهم على الكفر بعد إقامة البرهان ، وتلاوة القرآن عليهم ، لم يبق إلا اليمين فقال : {والذاريات..

إنما توعدون لصادق} وقال في آخرها {فويل للذين كفروا من يومهم الذي يوعدون} [الذاريات : ٦٠].

فصل وفي الحكمة في القسم ههنا وجوه : أحدها : أن الكفار كانوا ينسبون النبي – صلى الله عليه وسلم – للجدال ، ومعرفة طرقه ، وأنه عالم بفساد قولهم ، وأنه يغلبهم بمعرفته بالجدال ، وحينئذ لا يمكن أن يقابلهم بالأدلة ، كما أن من أقام خصمه عليه الدليل ولم يبق له حجة , يقول : إنه غلبني ، لعلمه بالجدل وعجزي عن ذلك ، وهو يعلم في نفسه أن الحق تبعي ولا يبقى للمتكلم المبرهن غير اليمين ، ليقول : والله إن الأمر كما أقول ولا أجادلك بالباطل لأنه لو استدل بطريق آخر يقول خصمه فيه كقوله الأول ، فلا يبقى إلا السكوت ، أو التمسك بالأيمان ، وترك إقامة البرهان.

٥٦

الثاني : أن العرب كانت تحترز عن الأيمان الكاذبة ، وتعتقد أنها تخرب المنازل ، فكان النبي – صلى الله عليه وسلم – يكثر الإقسام ، دلالة على أنه صادق ولذلك كان أمره يتزايد ويعلموا أنه لا يحلف بها كاذبا.

الثالث : أن الأيمان التي أقسم بها كلها دلائل أخرجت في صورة الأيمان لينبه بها على كمال القدرة ، كقول القائل للمنعم : وحق نعمتك الكثيرة إني لا زال أشكرك.

فذكر النعم التي هي سبب مفيد لدوام الشكر ، وإنما أخرجها مخرج الإيمان ، إيذانا بأنه يريد أن يتكلم بكلام عظيم فيصغي إليه السامع أكثر ما يصغي إليه حيث يعلم أن الكلام ليس بمعتبر فبدأ بالحلف.

فصل أورد القسم على أمور منها الوحدانية ، ولظهور أمرها واعترافهم بها حيث يقولون : {ما نعبدهم إلا ليقربونآ إلى الله زلفى } [الزمر : ٣] وقولهم : {من خلق السماوات والأرض ليقولن الله} [لقمان : ٢٥] لم يقسم عليها إلا في سورة الصافات ومنها الرسالة وهو في سورتين " والنجم " " والضحى " ، وبالحروف في " يس " ومنها الحشر ، والجزاء وما يتعلق به ، فلكثرة إنكارهم له كرر القسم عليه.

فصل أقسم الله بجمع السلامة المؤنث في سور خمس ، ولم يقسم بجمع السلامة المذكر في سورة أصلا ، فلم يقل : والصالحين من عبادي ، ولا المقربين إلى غير ذلك مع أن المذكر أشرف ؛ لأن جموع السلامة

بالواو والنون في الغالب لمن يعقل.
٥٧
فصل روي عن علي – (رضي الله عنه) – في قوله تعالى : {والذاريات} قال هي الرياح التي تذرو التراب يقال : ذرت الريح التراب وأذرت " الحاملات وقرا " يعني السحاب تحمل ثقلا من الماء " فالجاريات يسرا " هي السفن تجري في الماء جريا سهلا " فالمقسمات أمرا " هي الملائكة يقسمون الأمور بين الخلق على ما أمروا به ، أقسم بهذه الأشياء ، لما فيها من الدلالة على صنعته وقدرته.
قال ابن الخطيب : والأقرب أن هذه صفات للرياح ، فالذاريات هي التي تنشئ السحاب أولا ، والحاملات هي التي تحمل السحب التي هي بحار المياه التي إذا سحت جرت السيول العظيمة ، وهي أوقار أثقل من جبال.
والجاريات هي التي تجري السحب عند حملها ، والمقسمات هي الرياح التي تقسم الأمطار وتفرقها على الأقطار ، ويحتمل أن يقال : هذه أمور أربعة ذكرت لأمور أربعة بها تتم الإعادة ، لأن الأجزاء المتفرقة بعضها في تخوم الأرض ، وبعضها في قعر البحار ، وبعضها في جو الهواء ، وفي الأجزاء البخارية اللطيفة المنفصلة عن الأبدان فالذاريات هي التي تجمع الذرات من الأرض ، وتذرو التراب من وجه الأرض والحاملات هي التي تجمع الأجزاء من الجو وتحمله حملا ، فإن التراب لا ترفعه الرياح حملا مستقلا بل تنقله من موضع إلى موضع ، بخلاف السحاب فإنه يحمله في الجو حملا لا يقع منه شيء ، والجاريات هي الجامعة من الماء ، فإن من يجري السفن الثقيلة في تيار البحار قادر على نقل الأجزاء من البحر إلى البر ، فإذن تبين أن الجمع من الأرض وجو الهواء ووسط البحار ممكن ، وإذا اجتمع ذلك كله بقي نفخ الروح ، وهي من أمر الله ، فقال : " فالمقسمات أمرا " يعني الملائكة التي تنفخ الروح في الجسد بأمر الله.
قوله : " ذروا " منصوب على المصدر المؤكد العامل فيه فرعه وهو اسم الفاعل ، والمفعول محذوف اختصارا إذ لا نظير لما تذروه هنا.
وأدغم أبو عمرو وحمزة تاء " الذاريات " في ذال " ذروا " وأما " وقرا " فهو
٥٨." (١)

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/٤٦٤٩

"وجعل الجار خبرا ، والصفة فضلة ، وعكس هذا في قوله تعالى : {إن المجرمين في عذاب جهنم خالدون} [الزخرف : ٧٤] ، قيل : لأن الخبر مقصور الجملة ، والغرض هناك الإخبار عن تخليدهم ، لأن المؤمن قد يدخل النار ، ولكن لا بد من خروجه ، وأما آية المتقين ، فجعل الظرف فيها خبرا لأمنهم الخروج منها ، فجعل ذلك محط الفائدة ليحصل لهم الطمأنينة فانتصبت الصفة حالا.

فصل اعلم أنه تعالى وحد الجنة تارة ، قال تعالى : {مثل الجنة التي وعد المتقون} [الرعد : ٣٥] و[محمد : ١٥] وأخرى جمعها كقوله ههنا : {إن المتقين في جنات} وتارة ثناها ، قال تعالى : {ولمن خاف مقام ربه جنتان} [الرحمن : ٤٦] ، **والحكمة فيه** أن الجنة في توحيدها لاتصال المنازل والأشجار والأنهار كجنة واحدة ، وأما جمعها فلأنها بالنسبة إلى الدنيا وبالإضافة إليها جنات لا يحصرها عدد ، وأما تثنيتها فسيأتي في سورة الرحمن.

قال ابن الخطيب : غير أنا نقول ههنا : إن الله تعالى عند الوعد وحد الجنة وعند الإعطاء جمعها إشارة إلى أن الزيادة في الوعد موجودة بخلاف ما لو وعد بجنات ثم يقول إنه في جنة ، لأنه دون الموعود ، وقوله : " وعيون " يقتضي أن يكون المتقي فيها ولا لذة في كون الإنسان في ماء ؛ فالمعنى في خلال العيون ، أي بين الأنهار كقوله : " في جنات " معناه بين الجنات وفي خلالها ؛ لأن الجنة هي الأحجار ، ونكرها مع كونها معرفة للتعظيم كقولك : فلان رجل أي عظيم في الرجولة.

ومعنى : " آخذين " أي قابضين ما آتاهم شيئا فشيئا ولا يستوفونه بكماله ، لامتناع استيفاء ما لا نهاية له.

وقيل : معنى آخذين أي قابلين قبول راض كقوله تعالى : {ويأخذ الصدقات} [التوبة : ١٠٤] أي يقبلها ، قاله الزمخشري.

وقال ابن الخطيب : وفيه وجه ثالث ، وهو أن قوله : في جنات يدل على السكنى حيث قال : آخذين بلاد كذا ، أو قلعة كذا ، أي دخلها متملكا لها ، وكذا يقال لمن اشترى دارا أو بستانا أخذه بثمن قليل أي تملكه ، وإن لم يكن هناك قبض حسا ولا قبول برضى.

وحيئذ فائدته بيان أن دخولهم فيها ليس دخول مستعير أو من يسترد منه ذلك بل هو ملكه الذي اشتراه بماله ونفسه من الله.

وقوله : " آتاهم " لبيان (أن) أخذهم ذلك لم يكن عنوة ، وإنما نال ذلك بإعطاء الله تعالى.

وعلى هذا الوجه " ما " راجعة إلى الجنات والعيون.

٦٧

وقوله : {إنهم كانوا قبل ذلك محسنين} إشارة إلى أنهم أخذوها بثمنها وملكوها بالإحسان في الدنيا ، والإشارة بذلك إما لدخول الجنة ، وإما لإيتاء الله ، وإما ليوم الدين ، والإحسان هو قول لا إله إلا الله ؛ ولهذا قيل في معنى كلمة التقوى : إنها لا إله إلا الله ، وفي قوله تعالى : {ومن أحسن قولا ممن دعآ إلى الله} [فصلت : ٣٣] وقوله : {هل جزآء الإحسان إلا الإحسان} [الرحمن : ٦٠] هو الإتيان بكلمة لا إله إلا الله.

قوله : {كانوا قليلا من الليل ما يهجعون} وهذا كالتفسير لكونهم محسنين ، وفيه أوجه : أحدها : أن الكلام تم على " قليلا " ولهذا وقف بعضهم على قليلا ليؤاخي بها قوله تعالى : {وقليل ما هم} [ص : ٢٤] {وقليل من عبادي الشكور} [سبأ : ١٣] ويبتدئ : {من الليل ما يهجعون} أي ما يهجعون من الليل.

والمعنى كانوا من الناس قليلا ، ثم ابتدأ فقال : ما يهجعون وجعله جحدا أي لا ينامون بالليل ألبتة يقومون للصلاة والعبادة.

وهو قول الضحاك ومقاتل.

وهذا لا يظهر من حيث المعنى ، ولا من حيث الصناعة ، أما الأول فلا بد أن يهجعوا ، ولا يتصور نفي هجوعهم ، وأما الصناعة فلأن " ما " في حيز النفي لا يتقدم عليه عند البصريين.

هذا إن جعلتها نافية ، وإن جعلتها مصدرية صار التقدير من الليل هجوعهم.

ولا فائدة فيه ، لأن غيره من سائر الناس بهذه المثابة.

الثاني : أن تجعل " ما " مصدرية في محل رفع " بقليلا " ، والتةدير : كانوا قليلا هجوعهم.

الثالث : أن تجعل ما المصدرية بدلا من اسم كان بدل اشتمال أي كان هجوعهم قليلا.

و " من الليل " على هذين لا يتعلق بـ " يهجعون " لأن ما في حيز المصدر لا يتقدم عليه على المشهور.

وبعض المانعين اغتفروا في الظرف فيجوز هذا عنده والمانع يقدر فعلا يدل عليه : " يهجعون من الليل ".

الرابع : أن " ما " مزيدة و " يهجعون " خبر كان ، والتقدير : كانوا يهجعون من الليل

." (١)

"قوله تعالى : {هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين} هذا تسلية للنبي – صلى الله عليه وسلم – وتيسير له بالفرج ، وسماهم ضيفا ، لأنه حسبهم كذلك ، ويقع على الواحد والجمع ، لأنه مصدر وسماهم مكرمين أي عند الله أو لأن إبراهيم – عليه الصلاة والسلام – أكرمهم بأن عجل قراهم ، وأجلسهم في أكرم المواضع واختار إبراهيم لكونه شيخ المرسلين ، وكون النبي – عليه الصلاة والسلام – مأمورا بأن يتبع ملته ، كما قال تعالى : {ثم أوحينآ إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا} [النحل : ١٢٣].

وقيل : سماهم مكرمين لأنهم كانوا ضيف إبراهيم – عليه الصلاة والسلام – (وكان إبراهيم أكرم الخليقة ، وضيف الكرام مكرمون.

وقال ابن أبي نجيح – عن مجاهد – : لأن إبراهيم – عليه الصلاة والسلام – خدمهم بنفسه) وعن ابن عباس : سماهم مكرمين لأنهم جاءوا غير مدعوين ، وقال عليه الصلاة والسلام : " من كان يؤمن بالله واليوم الآخِر فليكرم ضيفه ".

فإن قيل : إذا كان المراد من الآية التسلية والإنذار ، فأي فائدة في حكاية الضيافة ؟ فالجواب : ليكون ذلك إشارة إلى أن الفرج في حق الأنبياء ، والبلاء على الجهلة يأتي من حيث لم يحتسبوا ، كقوله تعالى : {فأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون} [الزمر : ٢٥] ، فلم يكن عند إبراهيم – عليه الصلاة والسلام – خبر من إنزال العذاب مع ارتفاع منزلته وقد تقدم عددهم في سورة هود.

قوله تعالى : {إذ دخلوا عليه} العامل في " إذ " أوجه : أحدها : أنه " حديث " أي هل أتاك حديثهم الواقع في وقت دخولهم عليه.

الثاني : أنه منصوب بما في " ضيف " من معنى الفعل ، لأنه في الأصل مصدر ، ولذلك استوى فيه الواحد المذكور وغيره ، كأنه قيل : الذين أضافهم في وقت دخولهم عليه.

الثالث : أنه منصوب بالمكرمين إن أريد بإكرامهم أن إبراهيم أكرمهم بخدمته لهم كأنه تعالى يقول : أكرموا إذ دخلوا.

الرابع : أنه منصوب بإضمار " اذكر " ولا يجوز نصبه بـ " أتاك " لاختلاف الزمانين.

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/٤٦٥٣

٨١

وقرأ العامة المكرمين – بتخفيف الراء – من أكرم ، وعكرمة : بالتشديد.

فإن قيل : أرسلوا بالعذاب بدليل قولهم : {إنآ أرسلنآ إلى قوم مجرمين} [الذاريات : ٣٢] فما **الحكمة في** مجيئهم إلى إبراهيم – عليه الصلاة والسلام – ؟ فالجواب من وجهين : الأول : أن إبراهيم – عليه الصلاة والسلام – شيخ المرسلين ، ولوط من قومه ، ومن عادة الملك إذا أرسل رسولا لملك وفي طريقه من هو أكبر منه يقول له : اعبر على فلان الملك ، وأخبره برسالتك وخذ فيها رأيه.

الثاني : أن إبراهيم – عليه الصلاة والسلام – كان شديد الشفقة حليما فكان يشق عليه إهلاك أمة عظيمة وكان ذلك مما يحزن إبراهيم – عليه الصلاة والسلام – شفقة منه على العباد فقال (لهم) بشروه بغلام يخرج من صلبه أضعاف من يهلك ، ويكون من صلبه خروج الأنبياء – عليهم الصلاة والسلام – .

قوله : {فقالوا سلاما قال سلام} العامة على نصب " سلاما " الأول ، ورفع الثاني.

فأما نصب الأول فالمشهور أن السلام التحية أي نسلم سلاما.

ويحتمل أن " سلاما " معناه حسنا أي قالوا كلاما حسنا ؛ لأنه كلام سلم به المتكلم من أن يلغو أو يأثم فكأنهم قالوا قولا حسنا سلموا به من الإثم فيكون مفعولا به لأنه في معنى القول ، كما قيل في قوله تعالى : {وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما} [الفرقان : ٦٣] ، أو هو مفعول بفعل محذوف ، أي نبلغك سلاما.

ولم يقولوا من الله شفقة على قلب إبراهيم فأتوا به مجملا ، ثم فسروه بعد ذلك.

وأما رفع الثاني فالمشهور أنه التحية ، فهو مبتدأ ، وخبره محذوف أي عليكم ، ويحتمل أنه السلامة ، أي أمري سلام لأني لا أعرفكم ، أو قولكم سلام ، أي ينبئ عن السلامة وأنتم قوم منكرون فما خطبكم ؟

٨٢

". (١)

"قوله : {والسمآء بنيناها بأيد} العامة على النصب على الاشتغال ، وكذلك قوله : {والأرض فرشناها} والتقدير : وبنينا السماء بنيناها.

وقال أبو البقاء : أي ورفعنا السماء بنيناها فقدر الناصب من غير لفظ الظاهر.

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل ، ص/٤٦٥٩

وهذا إنما يصار إليه عند تعذر التقدير الموافق لفظا نحو : زيد مررت به ، وزيد ضربت غلامه وأما في نحو : زيدا ضربته ، فلا يقدر إلا ضربت زيدا.

وقرأ أبو السمال وابن مقسم برفعهما ؛ على الابتداء ، والخبر ما بعدهما.

والنصب أرجح لعطف جملة الاشتغال على جملة فعلية قبلها.

قوله : " بأيد " يجوز أن يتعلق بمحذوف على أنه حال وفيها وجهان : أحدهما : أنها حال من فاعل " بنيناها " أي ملتبسين بأيد أي بقوة ؛ قال تعالى : {واذكر عبدنا داوود ذا الأيد} [ص : ١٧].

الثاني : أنه حال من مفعوله أي ملتبسة بقوة.

ويجوز أن تكون الباء للسبب أي بسبب قدرتنا.

ويجوز أن تكون الباء معدية مجازا على أن تجعل الأيدي كالآلة المبني بها ، كقولك : بنيت بيتك بالآجر.

قوله : " وإنا لموسعون " يجوز أن تكون الجملة حالا من فاعل " بنيناها ".

ويجوز أن تكون حالا من مفعوله ومفعول " موسعون " محذوف أي موسعون بناءها.

ويجوز أن لا يقدر له مفعول ؛ لأن معناه : لقادرون كقولك : ما في وسعي كذا أي ما في طاقتي وقوتي ؛ كقوله تعالى : {لا يكلف الله نفسا إلا وسعها} [البقرة : ٢٨٦] قاله ابن عباس وعنه أيضا : لموسعون الرزق على خلقنا.

وقيل : ذو سعة.

وقال الضحاك : أغنياء ، دليله قوله تعالى : {على الموسع قدره} [البقرة : ٢٣٦].

١٠٠

قال ابن الخطيب : ويجوز أن يكون من السعة أي أوسعناها بحيث صارت الأرض وما يحيط بها من الماء والهواء بالنسبة إلى سعتها داخل فيها والبناء الواسع الفضاء عجيب ، فإن القبة الواسعة لا يقدر عليها البناؤون ، لأنهم محتاجون إلى إقامة آلة يصح بها استدارتها ، ويثبت بها تماسك أجزائها إلى أن يتصل بعضها ببعض.

فقوله : " وإنا لموسعون " بيان للإعراب (في الفعل).

فصل **والحكمة في** كثرة ذكر البناء في السموات كقوله تعالى : {والسمآء وما بناها} [الشمس : ٥] ، وقوله : {أم السمآء بناها} [النازعات : ٢٧] أن بناء السماء باق إلى قيام الساعة ، لم يسقط منها شيء

، ولم يعدم منها جزء.

وأما الأرض فهي في التبدل والتغير كالفراش الذي يبسط ويطوى وينقل ، والسماء كالبناء المبني الثابت كما أشار إليه بقوله : {سبعا شدادا} [النبأ : ١٢] وأما الأرض فكم صارت بحرا ، وعادت أرضا من وقت حدوثها ، وأيضا فالسماء ترى كالقبة المبنية فوق الرؤوس ، والأرض مبسوطة مدحوة ، وذكر البناء بالمرفوع أليق كقوله تعالى : {رفع سمكها} [النازعات : ٢٨].

وقال بعض الحكماء : السماء مسكن الأرواح ، والأرض موضع الأعمال والمسكن أليق بكونه بناء.

والله أعلم.

فإن قيل : ما الحكمة في تقديم المفعول على الفعل ولو قال : وبنينا السماء بأيد كان أوجز ؟ !.

فالجواب : قال ابن الخطيب : لأن الصنع قبل الصانع عند الناظر في المعرفة ، فلما كان المقصود إثبات العلم بالصانع قدم الدليل وقال : والسماء المبنية التي لا تشكون في بنيانها ، فاعرفونا بها إن كنتم لا تعرفوننا.

فإن قيل : إذا كان إثبات التوحيد فكيف قال : بنيناها ، ولم يقل : بنيتها ؟ ولا بناها الله ؟ ! فالجواب : أن قوله : بنيناها أدل على عدم الشريك ، لأن الشركة ضعيفة ؛ فإن الشريك يمنع شريكه عن التصرف والاستبداد ، وقوله : " بنيناها " يدل على العظمة ، وبين العظمة والضعف تنافر فبين قوله : " بنيناها " وبين أن يكون شريك منافاة.

وتقريره أن قوله تعالى : {بنيناها} لا يورث إيهاما بأن الآلهة التي كانوا يعبدونها هي التي يرجع إليها

١٠١

". (١)

"فصل في تعلق الآية بما قبلها أن بعثة الأنبياء منحصرة في أمرين عبادة الله وهداية الخلق ، فلما قال تعالى : {فتول عنهم فمآ أنت بملوم} [الذاريات : ٥٤] بين أن الهداية قد سقطت عند اليأس ، وأما العبادة فهي لازمة للخلق المطلق وليس الخلق المطلق للهداية ، وقيل : إنه لما بين حال من قبله في التكذيب ذكر هذه ليتبين سوء صنيعهم ، حيث تركوا عبادة الله الذي خلقهم للعبادة.

فإن قيل : ما الحكمة في أنه لم يذكر الملائكة مع أنهم من أصناف المكلفين وعبادتهم أكثر من عبادة

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل ـ ، ص/٤٦٦٨

غيرهم من المكلفين ، قال تعالى : {بل عباد مكرمون} [الأنبياء : ٢٦] وقال : {لا يستكبرون عن عبادته} [الأعراف : ٢٠٦].

فالجواب من وجوه : أحدها : أنه تقدم أن الآية سيقت لبيان قبح ما يفعله الكفرة ، من ترك ما خلقوا له. وهذا مختص بالجن والإنس ؛ لأن الكفر موجود في الجن والإنس بخلاف الملائكة.

الثاني : أن النبي – صلى الله علىيه وسلم – كان مبعوثا إلى الجن والإنس ، فلما قال : " وذكر " بين ما يذكر به وهو كون الخلق للعبادة ، وخصص أمته بالذكر أي ذكر الإنس والجن.

الثالث : أن عباد الأصنام كانوا يقولون : إن الله تعالى عظيم الشأن خلق الملائكة وجعلهم مقربين ، فهم يعبدون الله وخلقهم لعبادته ونحن لنزول درجتنا لا نصلح لعبادة الله فنعبد الملائكة وهم يعبدون الله كما قالوا : {ما نعبدهم إلا ليقربونآ إلى الله زلفى } [الزمر : ٣] فقال تعالى : {ما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون} ولم يذكر الملائكة لأن الأمر فيهم كان مسلما من القوم ، فذكر المتنازع فيه.

الرابع : فعل الجن يتناول الملائكة ، لأن أصل الجن من الاستتار ، وهم مستترون عن الخلق فذكر الجن لدخول الملائكة فيهم.

قوله : {مآ أريد منهم من رزق} أي يرزقوا أحدا من خلقي ، ولا أن يرزقوا أنفسهم {ومآ أريد أن يطعمون} أي يطعموا أحدا من خلقي.

وإنما أسند الإطعام إلى نفسه لأن الخلق عيال الله ومن أطعم عيال أحد فقد أطعمه ، قال عليه الصلاة والسلام : " استطعمتك فلم تطعمني " ، أي لم تطعم عبدي.

فصل استدل المعتزلة بقوله تعالى : {وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون} على أن

١٠٦

أفعال الله تعالى معللة بالأغراض وأجيبوا بوجوه تقدمت منها : أن اللام قد تثبت لغير الغرض كقوله تعالى : {أقم الصلاة لدلوك الشمس} [الإسراء : ٧٨] وقوله : {فطلقوهن لعدتهن} [الطلاق : ١] ومعناه المقارنة فمعناه : قرنت الخلق بالعبادة أي خلقتهم ، وفرضت عليهم العبادة.

ومنها : قوله تعالى : {الله خالق كل شيء} [الزمر : ٦٢] و[الرعد : ١٦].

ومنها : ما يدل على أن الإضلال بفعل الله كقوله تعالى : {يضل من يشآء ويهدي من يشآء} [النحل : ٩٣] وأمثاله.

ومنها : قوله تعالى : {لا يسأل عما يفعل} [الأنبياء : ٢٣] وقوله : {ويفعل الله ما يشآء} [إبراهيم : ٢٧] و {يحكم ما يريد} [المائدة : ١].

وقوله تعالى : {مآ أريد منهم من رزق ومآ أريد أن يطعمون} معناه : أن النفع يعود إليهم لا لي.

فإن قيل : ما الفائدة في تكرير الإرادتين مع أن من لا يريد من أحد رزقا لا يريد أن يطعمه ؟ !.

فالجواب : أن السيد قد يطلب من العبد المتكسب له ، فيطلب منه الرزق ، وقد يكون للسيد مال وافر يستغني به عن التكسب لكنه يطلب من العبد قضاء حوائجه وإحضار الطعام بين يديه ، فقال : لا أريد ذلك ولا هذا.

وقد طلب الرزق على طلب الإطعام من باب الارتقاء من الأدنى إلى الأعلى.

فإن قيل : ما فائدة تخصيص الإطعام بالذكر مع أن المراد عدم طلب فعل منهم غير التعظيم ؟ !.

فالجواب : أنه لما عمم النفي في الطلب الأول بقوله : " من رزق " وذلك إشارة إلى التعميم بذكر الإطعام ونفي الأدنى يستتبعه نفي الأعلى بطريق الأولى ، فكأنه قال : ما أريد منهم من غنى ولا عمل.

فإن قيل : المطالب لا تنحصر فيما ذكره فإن السيد قد يشتري العبد لا لطلب عمل منه ، ولا لطلب رزق ولا للتعظيم ، بل يشتريه للتجارة! فالجواب : أن عموم قوله : {مآ أريد منهم من رزق} يتناول ذلك.

قوله : " أن يطعمون " قيل : فيه حذف مضاف أي يطعموا خلقي كما تقدم في التفسير.

وقيل : المعنى أن ينفعون فعبر ببعض وجوه الانتفاعات لأن عادة السادة أن ينتفعوا بعبيدهم ، والله مستغن عن ذلك.

١٠٧

." (١)

"قوله تعالى : {إن الله هو الرزاق} يعني لجميع خلقه ، وهذا تقرير لعدم طلب الرزق ، وقوله : " ذو القوة " تقرير لعدم طلب العمل لأن من يطلب رزقا يكون فقيرا محتاجا ، ومن يطلب عملا يكون عاجزا لا قوة له فكأنه يقول : ما أريد منهم من رزق فإني أنا الرزاق ، ولا العمل فإني قوي.

وروي أن النبي – عليه الصلاة والسلام – قرأ : إني أنا الرزاق ، وقرأ ابن محيصن : الرازق ، كما تقدم في قراءته : {وفي السماء رازقكم}.

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/٤٦٧١

قوله : " المتين " العامة على رفعه ، وفيه أوجه : إما النعت للرزاق ، وإما النعت لذو ، وإما النعت لاسم " إن " على الموضع.

وهو مذهب الجرمي والفراء ، وغيرهما.

وإما خبر بعد خبر ، وإما خبر مبتدأ مضمر.

وعلى كل تقدير فهو تأكيد ، لأن " ذو القوة " يفيد فائدته.

وقرأ يحيى بن وثاب والأعمش المتين – بالجر – فقيل : صفة " القوة " ، وإنما ذكر وصفها لكون تأنيثها غير حقيقي.

وقيل : لأنها في معنى الأيد.

وقال ابن جني : هو خفض على الجوار كقولهم : " هذا جحر ضب خرب " يعني أنه صفة للمرفوع ، وإنما جر لما جاور مجرورا.

وهذا مرجوح لإمكان غيره ، والجوار لا يصار إليه إلا عند الحاجة.

فصل قال تعالى : " ما أريد " ولم يقل : إني رازق بل قال على الحكاية عن الغائب إن الله هو الرزاق فما الحكمة فيه ؟ .

١٠٨

قال ابن الخطيب : نقول : قد روي أن النبي – صلى الله عليه وسلم – قرأ : إني أنا الرزاق.

وأما على القراءة المشهورة فالمعنى : قل يا محمد إن الله هو الرزاق ، أو يكون من باب الالتفات من التكلم إلى الغيبة ، أو يكون قل مضمرا عند قوله : " ما أريد " أي قل يا محمد : ما أريد منهم من رزق فيكون بمعنى قوله : {قل مآ أسألكم عليه من أجر} [ص : ٨٦] ويكون على هذا قوله تعالى : {إن الله هو الرزاق} ، ولم يقل : القوي ، بل قال : ذو القوة ، لأن المقصود تقرير ما تقدم من عدم إرادة الرزق ، وعدم الاستعانة بالغير لكن في عدم طلب الرزق لا يكفي كون المستغني بحيث يرزق واحدا ، فإن كثيرا من الناس يرزق ولده وعبده ويسترزق والملك يرزق الجند ، ويسترزق ، فإذا كثر منه الرزق قل منه الطلب لأن المسترزق منه يكثر الرزق ، لا يسترزق من رزقه فلم يكن ذلك المقصود يحصل إلا بالمبالغة في وصف الرازق ، فقال : الرزاق ، وأما ما يغني عن الاستعانة بالغير ، فهو دون ذلك لأن القوي إذا كان في غاية القوة يعين الغير ، فإذا كان دون ذلك لا يعين غيره ولا يستعين به استعانة قوية بل استعانة ما وتتفاوت بعد

ذلك ، ولما قال : {ومآ أريد أن يطعمون} كفاه بيان نفس القوة فقال : " ذو القوة " ، لأن قولنا : ذو القوة في إفادة معنى القوي دون إفادة القوي ، لأن ذلك لا يقال في الوصف اللازم البين ، يقال في الآدمي : ذو مال ومتمول ، وذو جمال ، وجميل ، وذو خلق حسن إلى غير ذلك مما (لا) يلزم لزوما بينا.

,لا يقال في الثلاثة : ذات فردية ، ولا في الأربعة : ذات زوجية ، وهذا لم يرد في الأوصاف الحقيقية فلم يسمع ذو الوجود ولا ذو الحياة ولا ذو العلم ، ويقال في الإنسان : ذو علم ، وذو حياة لأنها فيه عرض لا لازم بين.

وفي صفات الفعل يقال : الله تعالى ذو الفضل كثيرا (وذو الخلق قليلا) ؛ لأن " ذا كذا " بمعنى صاحب والصحبة لا يفهم منها اللزوم فضلا عن اللزوم البين.

ويؤيد هذا قوله تعالى : {وفوق كل ذي علم عليم} [يوسف : ٧٦] فجعل غيره ذا علم ووصف نفسه بالفعل فبين ذي العلم والعليم فرق وكذلك بين ذي القوة والقوي ، ويؤيده أيضا قوله تعالى : {فأخذهم الله إنه قوي} [غافر : ٢٢] وقوله : {الله لطيف بعباده يرزق من يشآء وهو القوي} [الشورى : ١٩] وقال : {لأغلبن أنا ورسلى إن الله قوي عزيز} [المجادلة : ٢١] لأن هذه الصور كان المراد بها بيان القيام بالأفعال العظيمة وههنا المراد عدم الاحتياج ومن لا يحتاج إلى الغير يكفيه من القوة قدر (ما).

ومن يقوم مستبدا بالفعل لا بد له من قوة عظيمة ، لأن عدم الحاجة قد يكون بترك الفعل والاستغناء عنه.

١٠٩

." (١)

"سورة الطور

مكية وهي تسع وأربعون آية ، واثنتي عشرة كلمة ، وألف وخمسمائة حرف.

جزء : ١٨ رقم الصفحة : ١١٢

قوله تعالى : {والطور} وما بعده أقسام جوابها {إن عذاب ربك لواقع} والواوات التي بعد الأولى عواطف لا حروف قسم كما تقدم في أول هذا الكتاب عن الخليل.

ونكر الكتاب تفخيما وتعظيما.

فصل مناسبة هذه السورة لما قبلها من حيث الافتتاح بالقسم وبيان الحشر فيهما ، وأول هذه السورة مناسب

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل ، ص/٤٦٧٢

لآخر ما قبلها ، لأن في آخرها قوله تعالى : {فويل للذين كفروا من يومهم الذي يوعدون} [الذاريات : ٦٠] وفي أول هذه السورة {فويل يومئذ للمكذبين} [الطور : ١١] وفي آخر تلك السورة قوله : {فإن للذين ظلموا ذنوبا} [الذاريات : ٥٩] ؛ وذلك إشارة إلى العذاب ، وقال ههنا : إن عذاب ربك لواقع.

فصل قيل : المراد بالطور الجبل الذي كلم الله عليه موسى – عليه الصلاة والسلام – بالأرض المقدسة ، أقسم الله به.

وقيل : هو الجبل الذي قال الله تعالى : {وطور سينين}

١١٣

[التين : ٢].

وقيل : هو اسم جنس ، والمراد بالكتاب المسطور كتاب موسى عليه الصلاة والسلام ، وهو التوراة.

وقيل : الكتاب الذي في السماء ، وقيل : صحائف أعمال الخلق ، وقال تعالى : {ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا} [الإسراء : ١٣].

وقيل : الفرقان.

والمراد بالمسطور المكتوب.

قوله : في رق يجوز أن يتعلق " بمسطور " ؛ أي مكتوب في رق.

وجوز أبو البقاء أن يكون نعتا آخر لكتاب وفيه نظر ؛ لأنه يشبه تهيئة العامل للعمل وقطعه منه.

والرق – بالفتح – الجلد الرقيق يكتب فيه.

وقال الراغب : الرق ما يكتب فيه شبه كاغد.

انتهى فهو أعم من كونه جلدا أو غيره.

ويقال فيه : رق بالكسر.

فأما ملك العبيد فلا يقال إلا رق بالكسر.

وقال الزمخشري : والرق الصحيفة.

وقيل : الجلد الذي يكتب فيه.

انتهى.

وقد غلط بعضهم من يقول : كتبت في الرق بالكسر ؛ وليس بغلط لثبوته به لغة.

وقد قرأ أبو السمال : في رق ، بالكسر.
فإن قيل : ما الفائدة في قوله تعالى : {في رق منشور} وعظمة الكتاب بلفظه ومعناه لا بخطه ورقه ؟ !.
فالجواب : أن هذا إشارة إلى الوضع لأن الكتاب المطوي لا يعلم ما فيه فقال : في رق منشور أي ليس كالكتب المطوية أي منشور لكم لا يمنعكم أحد من مطالعته.
(قوله : " والبيت المعمور " قيل : هو بيت في السماء العليا تحت العرش بحيال الكعبة يقال له : الصراح حرمته في السماء كحرمة الكعبة في الأرض يدخله كل يوم سبعون ألفا من الملائكة يطوفون به ويصلون فيه ، ثم لا يعودون إليه أبدا.
ووصفه بالعمارة لكثرة الطائفين به من الملائكة.
وقيل : هو بيت الله الحرام وهو معمور بالحجاج الطائفين به.
١١٤
وقيل : اللام في " البيت المعمور " لتعريف جنس كأنه يقسم بالبيوت المعمورة والعمائر المشهورة).
قوله : " والسقف المرفوع " يعني السماء.
ونظيره : {وجعلنا السمآء سقفا محفوظا} [الأنبياء : ٣٢].
قوله : " والبحر المسجور " قيل : هو من الأضداد ، يقال : بحر مسجور أي مملوء ، وبحر مسجور أي فارغ.
وروى ذو الرمة الشاعر عن ابن عباس - (رضي الله عنهما) - أنه قال : خرجت أمة لتستقي فقالت : إن الحوض مسجور ؛ أي فارغ.
ويؤيد هذا أن البحار يذهب ماؤها يوم القيامة.
وقيل : المسجور الممسوك ، ومنه ساجور الكلب لأنه يمسكه ويحبسه.
وقال محمد بن كعب القرظي والضحاك : يعني الموقد المحمى بمنزلة التنور المحمى ، وهو قول ابن عباس (- رضي الله عنهما -) ؛ لما روى أن الله تعالى يجعل البحار كلها يوم القيامة نارا فيزاد بها في نار جهنم كما قال تعالى : {وإذا البحار سجرت} [التكوير : ٦].
وروى عبد الله بن عمر - (رضي الله عنهما) - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " لا يركبن رجل بحرا إلا غازيا أو معتمرا أو حاجا ، فإن تحت البحر نارا وتحت النار بحرا " وقال الربيع بن أنس

: المسجور المختلط العذب بالمالح.

وروى الضحاك عن النزال بن سبرة عن علي أنه قال : البحر المسجور : هو بحر تحت العرش ، كما بين سبع سموات إلى سبع أرضين فيه ماء غليظ ، يقال له : بحر الحيوان يمطر العباد منه بعد النفخة الأولى أربعين صباحا فينبتون في قبورهم.

وهذا قول مقاتل.

فصل قيل : **الحكمة في** القسم بهذه الثلاثة أشياء أن هذه الأماكن الثلاثة وهي : الطور ، والبيت المعمور ، والبحر المسجور كانت لثلاثة أنبياء للخلوة بربهم والخلاص من الخلق

١١٥." (١)

"وخطابهم مع الله.

أما الطور فانتقل إليه موسى – عليه الصلاة والسلام – وخاطب الله تعالى هناك وأما البيت المعمور فانتقل إليه محمد – عليه الصلاة والسلام – وقال لربه : " سلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك ".

وأما البحر المسجور فانتقل إليه يونس – عليه الصلاة والسلام – ، ونادى في الظلمات : {أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين} فصارت هذه الأماكن شريفة بهذه الأسباب فأقسم الله تعالى بها.

وأما ذكر الكتاب فلأن الأنبياء كان لهم في هذه (الأماكن) مع الله تعالى كلام والكلام في الكتاب (واقترانه بالطور أدل على ذلك ؛ لأن موسى – عليه السلام – كان له مكتوب ينزل عليه وهو بالطور).

فصل أقسم في بعض السور بجموع كقوله : {والذاريات} [الذاريات : ١] {والمرسلات} [المرسلات : ١] {والنازعات} [النازعات : ١] وفي بعضها بأفراد كقوله : " والطور " ولم يقل : والأطوار والبحار.

قال ابن الخطيب : **والحكمة فيه** : أن في أكثر الجموع أقسم عليها بالمتحركات والريح الواحدة ليست بثابتة بل هي متبدلة بأفرادها مستمرة بأنواعها ، والمقصود منها لا يحصل إلا بالبدل والتغير ، فقال : " والذاريات " إشارة إلى النوع المستمر ، لا الفرد المعين المستقر ، وأما الجبل فهو ثابت غير متغير عادة فالواحد من الجبال دائم زمانا ودهرا ، فأقسم في ذلك بالواحد ، وكذلك في قوله : {والنجم} [النجم : ١] ، ولو قال : " والريح " لما علم المقسم به ، وفي الطور علم.

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/٤٦٧٤

قوله : {إن عذاب ربك لواقع} نازل وكائن.
وقوله : " من دافع " يجوز أن تكون الجملة خبرا ثانيا ، وأن تكون صفة لواقع أي واقع غير مدفوع.
قال أبو البقاء.
و " من دافع " يجوز أن يكون فاعلا ، وأن يكون مبتدأ و " من " مزيدة على الوجهين.
١١٦
فصل قال جبير بن مطعم : قدمت المدينة لأكلم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في أسارى بدر فدفعت إليه وهي يصلي بأصحابه المغرب وصوته يخرج من المسجد فسمعته يقرأ " والطور " إلى قوله : {إن عذاب ربك لواقع ما له من دافع} فكأنما صدع قلبي حين سمعت (ه) ولم أكن أسلم يومئذ قال : فأسلمت خوفا من نزول العذاب وما كنت أظن أن أقوم من مكاني حتى يقع بي العذاب.
جزء : ١٨ رقم الصفحة : ١١٣
قوله : {يوم تمور السمآء} يجوز أن يكون العامل فيه : " واقع " أي يقع في ذلك اليوم.
وعلى هذا فتكون الجملة المنفية معترضة بين العامل ومعموله.
ويجوز أن يكون العامل فيه " دافع ".
قاله الحوفي ، وأبو البقاء.
ومنعه مكي.
قال أبو حيان : ولم يذكر دليل المنع.
قال شهاب الدين : وقد ذكر دليل المنع في الكشف إلا أنه ربما يكون غلطا عليه فإنه وهم ، وعبارته قال : العامل فيه واقع أي إن عذاب ربك لواقع في يوم تمور السماء ، ولا يعمل فيه " دافع " ؛ لأن المنفي لا يعمل فيما قبل النافي ، لا يقول : طعامك ما زيد آكلا ، رفعت آكلا أو نصبته أو أدخلت عليه الباء.
فإن رفعت الطعام بالابتداء وأوقعت " آكلا " على " هاء " جاز وما بعد الطعام خبرا.
انتهى.
١١٧
وهذا كلام صحيح في نفسه ، إلا أنه ليس في الآية شيء من ذلك ؛ لأن العامل - وهو دافع - والمعمول - وهو يوم - كلاهما بعد النافي وفي حيزه.

وقوله : وأوقعت آكلا على هاء أي على ضمير يعود على الطعام فتقول : طعامك ما زيد آكله.
وقد يقال : إن وجه المنع من ذلك خوف الوهم أنه يفهم أن أحدا يدفع العذاب في غير ذلك اليوم.
والغرض أن عذاب الله لا يدفع في كل وقت وهذا أمر مناسب قد ذكر مثله كثير ، ولذلك منع بعضهم أن ينتصب {يوم تجد كل نفس} [آل عمران : ٣٠] بقوله : {والله على كل شيء قدير} [آل عمران : ٢٩] لئلا يفهم منه ما لا يليق.
وهذا أبعد من هذا في الوهم كثير.
وقال أبو البقاء : وقيل : يجوز أن يكون ظرفا لما دل عليه " فويل " انتهى.
وقال ابن الخطيب : والذي أظنه أن العامل هو الفعل المدلول عليه بقوله : {ما له من دافع} [الطور : ٨] ؛ لأن العذاب الواقع على هذا ينبغي أن يقع في ذلك اليوم ، لأن العذاب الذي به التخويف هو الذي بعد الحشر ومور السماء لأنه في معنى قوله : {فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا} [غافر : ٨٥].
فصل والمور الاضطراب والحركة.
يقال : مار الشيء أي ذهب وجاء.
وقال الأخفش وأبو عبيدة تكفأ وأنشد للأعشى : ٤٥٣٢ - كأن مشيتها من بيت جارتها
مور السحابة لا ريث ولا عجل
جزء : ١٨ رقم الصفحة : ١١٧
." (١)

"أي في الذي حدثتني.
وجوز في (ما) وجهين آخرين : أحدهما : أن يكون بمعنى الذي.
والثاني : أن تكون مصدرية ويجوز أن يكون فاعل (رأى) ضميرا يعود على الفؤاد أي لم يشك قلبه فيما رآه بعينه.
فصل قال الزمخشري معناه : أن قلبه لم يكذب وما قال إن من يراه بصرك ليس بصحيح ولو قال فؤاده ذلك لكان كاذبا فيما قاله فما كذب الفؤاد.
هذا على قراءة التخفيف ، يقال : كذبه إذا قال له الكذب.

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل ، ص/٤٦٧٥

وأما قراءة التشديد فمعناه ما قال : إن المرئي خيال لا حقيقة.

وأما الرائي فقيل : هو الفؤاد كأنه تعالى قال : ما كذب الفؤاد ما رآه الفؤاد أي لم يقل : إنه هاجس شيطان بل تيقن أن ما رآه بفؤاده صدق صحيح.

وقيل : الرائي هو البصر أي ما كذب الفؤاد ما رآه البصر خيال.

وقيل : ما كذب الفؤاد وما رأى محمد - عليه الصلاة والسلام - وعلى هذا فالمراد بالفؤاد الجنس ؛ أي القلوب شهدت بصحة ما رآه محمد - صلى الله عليه وسلم - .

وأما المرئي فقيل : هو الرب تعالى.

وقيل : جبريل - عليه الصلاة والسلام - وقيل : الآيات العجيبة الإلهية.

فالقائل بأن المرئي جبريل - عليه الصلاة والسلام - هو ابن مسعود وعائشة - رضي الله عنهما - ومن قال بأن المرئي هو الله تعالى اختلفوا في معنى الرؤية ، فقال بعضهم : جعل بصره في فؤاده فرآه بفؤاده.

وهو قول ابن عباس ، قال : رآه بفؤاده مرتين {ما كذب الفؤاد ما رأى } {ولقد رآه نزلة أخرى } [النجم : ١٣].

وقال أنس والحسن وعكرمة : رأى محمد ربه بعينيه.

وروى عكرمة عن ابن عباس (رضي الله عنهما) قال : " إن الله

١٦٧

اصطفى إبراهيم بالخلة ، واصطفى موسى بالكلام ، واصطفى محمدا بالرؤية - صلى الله عليه وسلم ".

وكانت عائشة - رضي الله عنها - تقول : لم ير رسول الله صلى الله عليه وسلم - ربه.

وتحمل الرؤية على رؤية جبريل.

وقال مسروق : قلت لعائشة : يا أمتاه هل رأى محمد ربه ؟ فقالت : لقد قف شعري لما قلت أين أنت من ثلاث من حدثكهن فقد كذب ، من حدثك أن محمدا رأى ربه فقد كذب ، ثم قرأت : {لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير} [الأنعام : ١٠٣] {وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من ورآء حجاب} [الشورى : ٥١] ومن حدثك أنه يعلم ما في غد فقد كذب ثم قرأت : {وما تدري نفس ماذا تكسب غدا} [لقمان : ٣٤] ومن حدثك أنه كتم شيئا مما أنزل الله فقد كذب ثم قرأت : {ياأيها الرسول بلغ مآ أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته} الآية [المائدة : ٦٧] ولكنه

رأى جبريل في صورته مرتين.

وروى أبو ذر قال : " سألت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : هل رأيت ربك قط ؟ قال : نور أنى أراه ".

قوله : " أفتمارونه " قرأ الأخوان أفتمرونه بفتح التاء وسكون الميم ، والباقون تمارونه.

وعبد الله الشعبي أفتمرون بضم التاء وسكون الميم.

فأما الأولى ففيها وجهان : أحدهما : أنها من مريته حقه إذا علمته وجحدته إياه ، وعدي بعلى لتضمنه معنى الغلبة.

وأنشد : ٤٥٥٤ – لئن هجوت أخا صدق ومكرمة

لقد مريت أخا ما كان يمريكا

جزء : ١٨ رقم الصفحة : ١٥٢

لأنه إذا جحده حقه فقد غلبه عليه.

وقال المبرد يقال : مراه عن حقه وعلى حقه إذا منعه منه ، قال : ومثل " على " بمعنى " عن " قول بني كعب بن ربيعة : " رضي الله عليك " ؛ أي : عنك.

والثاني : أنها من مرأه على كذا أي غلبه عليه ، فهو من المراء وهو الجدال.

وأما الثانية : فهي من ماراه يماريه مراء أي جادله.

واشتقاقه من مري الناقة لأن كل واحد من المتجادلين يمري ما عند صاحبه.

وكان من حقه أن يتعدى بفي كقولك : جادلته في كذا.

وإنما ضمن معنى الغلبة.

وأما قراءة عبد الله فمن أمراه رباعيا.

١٦٨

فصل المعنى أفتجادلونه أي كيف تجادلونه على ما يرى ، وذلك أنهم جادلوه حين أسري به فقالوا : صف لنا بيت المقدس وأخبرنا عن عيرنا في الطريق وغير ذلك مما جادلوه والمعنى أفتجادلونه جدالا ترومون به دفعه عما رآه وعلمه وتيقنه.

فإن قيل : هلا قيل : أفتمارونه على ما رأى بصيغة الماضي لأنهم إنما جادلوه حين أسري به كما تقدم وما

الحكمة في إبرازه بصيغة المضارع ؟ فالجواب : أن التقدير أفتمارونه على ما يرى فكيف وهو قد رآه في السماء فماذا تقولون فيه ؟ .

جزء : ١٨ رقم الصفحة : ١٥٢

". (١)

"فإن قيل : ما الحكمة في قوله تعالى : {وأنه خلق} ولم يقل : " وأنه هو خلق "كما قال : {وأنه هو أضحك وأبكى } ؟ فالجواب : أن الضحك والبكاء ربما يتوهم أنه بفعل الإنسان ، والإماتة والإحياء وإن كان ذلك التوهم أبعد لكن ربما يقول به جاهل كما قال من حاج إبراهيم عليه الصلاة والسلام {قال أنا أحيي وأميت} [البقرة : ٢٥٨] فأكد ذلك بالفصل.

وأما خلق الذكر والأنثى من النطفة فلا يتوهم أحد أنه بفعل واحد من الناس ، فلم يؤكد بالفصل ، ألا ترى إلى قوله : {وأنه هو أغنى وأقنى } حيث كان الإغناء عندهم غير مسند إلى الله ، وكان في معتقدهم أن ذلك بفعلهم كما قال قارون : {إنمآ أوتيته على علم عندى } [القصص : ٧٨] وكذلك قال : {وأنه هو رب الشعرى } فأكد في مواضع استبعادهم إلى الإسناد ولم يؤكد في غيره.

واختلفوا في الذكر والأنثى هل هما اسمان وهما صفة ؟ أو اسمان ليسا بصفة ؟ فالمشهور عند أهل اللغة أنهما اسمان ليسا بصفة.

قال ابن الخطيب : والظاهر أنهما من الأسماء التي هي صفات فالذكر كالحسن ، والأنثى كالحبلى والكبرى.

قوله : {من نطفة إذا تمنى } أي تصب في الرحم ؛ يقال : منى الرجل وأمنى.

قاله الضحاك وعطاء بن أبي رباح.

وقيل : تقدر ، يقال : منيت الشيء إذا قدرته.

وهذا أيضا تنبيه على كمال القدرة ، لأن النطفة جسم متناسب الأجزاء يخلق الله منها أعضاء مختلفة ، وطباعا متباينة ، وخلق الذكر والأنثى منها أعجب ما يكون ، ولهذا لم يقدر أحد على أن يدعيه كما لم يقدر على أن يدعي خلق السموات ، ولهذا قال تعالى : {ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله} [لقمان : ٢٥].

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل ، ص/٤٦٩٧

قوله : {وأن عليه النشأة الأخرى } أي الخلق الثاني للبعث يوم القيامة.

قال ابن الخطيب : يحتمل أن يكون المراد من قوله : {وأن عليه النشأة الأخرى } هو نفخ الروح الإنسانية فيه كما قال تعالى : {ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر} [المؤمنون : ١٣ و ١٤] أي غير خلق النطفة علقة ، والعلقة مضغة ، والمضغة عظاما.

وبهذا الخلق الآخر وهو نفخ الروح تميز الإنسان عن أنواع الحيوانات فكما قال هناك : {أنشأناه خلقا آخر}

٢١٣

بعد خلق النطفة قال ههنا : {وأن عليه النشأة الأخرى } فجعل خلق الروح نشأة أخرى كما جعله هناك إنشاء آخر.

فإن قيل : الإعادة لا تجب على الله ، فما معنى قوله تعالى : " وأن عليه " ؟ فالجواب على مذهب المعتزلة يجب عليه عقلا ، فإن الجزاء واجب ، وذلك لا يتم إلا بالحشر فتجب الإعادة عليه عقلا ، وأما على مذهب أهل السنة ففيه وجهان : الأول : " عليه " بحكم الوعد ، فإنه قال : {إنا نحن نحيي الموتى } [يس : ١٢] " فعليه " بحكم الوعد لا بالعقل ولا بالشرع.

الثاني : " عليه " بحكم التعيين ، فإن من حضر بين جمع وحاولوا أمرا وعجزوا عنه ، يقال له : وجب عليك إذن أن تفعله أي تعينت له.

فصل قرئ النشأة على أنه مصدر كالضربة على وزن فعلة وهي المرة يقال : ضربة وضربتان يعني النشأة مرة أخرى عليه.

وقرئ النشاءة - بالمد - على أنه مصدر على وزن فعالة ، كالكفالة.

وكيفما قرئ فهي من " نشأ " ، وهو لازم.

قوله : {وأنه هو أغنى وأقنى } قال أبو صالح : " أغنى " الناس بالأموال " وأقنى " أعطى القنية وأصول الأموال وما يدخرونه بعد الكفاية.

وقال الضحاك : " أغنى " بالذهب والفضة ، وصنوف الأموال ، " وأقنى " بالإبل والبقر والغنم ، وقال الحسن وقتادة : أخدم.

وقال ابن عباس – (رضي الله عنهما) أغنى وأقنى أعطى فأرضى.
وقال مجاهد ومقاتل : أرضى بما أعطى وقنع.
وقال الراغب : وتحقيقه أنه جعل له قنية من الرضا.
وقال سليمان التيمي : أغنى نفسه وأفقر خلقه إليه.
وقال ابن زيد : " أغنى " أكثر " وأقنى " أقل ، وقرأ : {يبسط الرزق لمن يشآء ويقدر} [الإسراء : ٣٠].
وقال الأخفش : " أقنى " : أفقر.
وقال ابن كيسان : أولد.
قال الزمخشري : " أقنى " أعطى القنية ، وهي المال الذي تأثلته وعزمت أن لا يخرج من يدك.
وقال
٢١٤
." (١)

"نخل خاوية لأجل الفواصل كقوله : مستمر ، ومنهمر ، ومنتشر.
وقيل : إن النخل لفظه لفظ واحد ، ومعناه الجمع ، فيقال : نخل منقعر ، ومنقعرة ومنقعرات ، ونخل خاو وخاوية وخاويات ونخل باسق وباسقة وباسقات.
فإذا قيل : " منقعر أو خاو أو باسق " فالبنظر إلى اللفظ ، وإذا قيل : منقعرات أو خاويات أو باسقات فلأجل المعنى.
قال أبو بكر بن الأنباري : سئل المبرد بحضرة القاضي إسرفيل عن ألف مسألة هذه من جملتها فقال : ما الفرق بين قوله تعالى : {ولسليمان الريح عاصفة} [الأنبياء : ٨١] وقال : {جآءتها ريح عاصف} [يونس : ٢٢] ، وقوله : {أعجاز نخل خاوية} [الحاقة : ٧] و {أعجاز نخل منقعر} ؟ فقال : كل ما ورد عليك من هذا القرآن ، فإن شئت رددته إلى اللفظ تذكيرا أو إلى المعنى تأنيثا.
قال ابن الخطيب : ذكر الله لفظ النخل في مواضع ثلاثة ووصفها على الأوجه الثلاثة ، قال : {والنخل باسقات} [ق : ١٠] وذلك حال عنها وهي كالوصف وقال : " نخل خاوية " و " نخل منقعر " فحيث قال : " منقعر " كان المختار ذلك ، لأن المنقعر في حقيقة الأمر كالمفعول ؛ لأنه ورد عليه القعر ، فهو

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/٤٧١٨

مقعور ، و " الخاوي والباسق " فاعل وإخلاء المفعول من علامة التأنيث أولى ، تقول : امرأة قتيل.

وأما الباسقات فهي فاعلات حقيقة ، لأن البسوق اسم قام بها ، وأما الخاوية فهو من باب " حسن الوجه " ؛ لأن الخاوي موضعها فكأنه قال : نخل خاوية المواضع ، وهذا غاية الإعجاز حيث أتى بلفظ مناسب للألفاظ السابقة واللاحقة من حيث اللفظ.

قوله : {فكيف كان عذابي ونذر} قال أكثر المفسرين : إن " النذر " ههنا جمع " نذير " الذي هو مصدر بمعنى الإنذار فما الحكمة في توحيد العذاب حيث لم يقال : فكيف أنواع عذابي وقال : إنذاري ؟ !.

قال ابن الخطيب : هذا إشارة إلى غلبة الرحمة ، لأن الإنذار إشفاق ورحمة فقال :

٢٥٨

الإنذارات التي هي نعم ورحمة تواترت ، فلما لم ينفع وقع العذاب دفعة واحدة فكانت النعم كثيرة والنقمة واحدة.

جزء : ١٨ رقم الصفحة : ٢٥٣

قوله : {كذبت (ثمود بالنذر} اعلم أنه تعالى لم يقل في قوم نوح : كذبت قوم نوح) بالنذر " وكذلك في قصة عاد.

لأن المراد بقوله : {كذبت قبلهم قوم نوح} أن عادتهم إنكار الرسل وتكذيبهم فكذبوا نوحا على مذهبهم وعادتهم.

وإنما صرح ههنا ، لأن كل قوم يأتون بعد قوم ، فالمكذب المتأخر يكذب المرسلين جميعا حقيقة ، والأولون يكذبون رسولا واحدا حقيقة ويلزم منه تكذيب من بعده تبعا ، ولهذا المعنى قال في قوم نوح : {كذبت قوم نوح المرسلين} [الشعراء : ١٠٥] وقال في عاد : {وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله} [هود : ٥٩] فذكر بلفظ الجمع المستغرق ثم إنه تعالى قال عن نوح : {رب إن قومي كذبون} [الشعراء : ١١٧] ولم يقل : كذبوا رسلك إشارة إلى ما صدر منهم حقيقة لا إلى ما لزم منه ، وقوله تعالى : {كذبت ثمود بالنذر} إن قلنا : إن النذر هم الرسل فهو كما تقدم ، وإن قلنا : إن النذر هي الإنذارات فنقول : قوم نوح وعاد لم تستمر المعجزات التي ظهرت في زمانهم.

وأما ثمود فأنذروا وأخرج لهم ناقة من صخرة وكانت تدور بينهم وكذبوا فكان تكذيبهم بإنذارات وآيات

ظاهرة فصرح بها.

قوله : " أبشرا " منصوب على الاشتغال وهو الراجح ، لتقدم أداة هي بالفعل أولى.

و " منا " نعت له.

و " واحدا " فيه وجهان : أظهرهما : أنه نعت " لبشرا " إلا أنه يشكل عليه تقديم الصفة المؤولة على

٢٥٩

". (١)

"الصريحة.

ويجاب : بأن " منا " حينئذ ليس وصفا بل حال من " واحدا " قدم عليه.

والثاني : أنه نصب على الحال من هاء " نتبعه ".

وهو يخلص من الإعراب المتقدم ، إلا أن المرجع لكونه صفة قراءتهما مرفوعين : {أبشرا منا واحدا نتبعه} على ما سيأتي ، فهذا يرجح كون " واحدا " نعتا " لبشر " لا حالا.

وقرأ أبو السمال فيما نقل الهذلي والداني برفعهما على الابتداء ، و " واحد " صفته و " نتبعه " خبره.

وقرأ أبو السمال أيضا فيما نقل ابن خالويه ، وأبو الفضل وابن عطية : برفع " بشر " ونصب " واحدا " وفيه أوجه : أحدها : أن يكون " أبشر " مبتدأ وخبره مضمر تقديره : أبشر منا يبعث إلينا أو يرسل.

وأما انتصاب " واحدا " ففيه وجهان : أحدهما : أنه حال من الضمير المستتر في (منا) لأنه وقع نعتا.

الثاني : أنه حال من هاء " نتبعه ".

وهذا كله تخريج أبي الفضل الرازي.

والثاني : أنه مرفوع بالابتداء أيضا ، والخبر " نتبعه " و " واحدا " حال على الوجهين المذكورين آنفا.

الثالث : أنه مرفوع بفعل مضمر مبني للمفعول تقديره : أينبأ بشر ، و(منا) نعت و(واحدا) حال أيضا على الوجهين المذكورين آنفا.

وإليه ذهب ابن عطية.

فصل قال ابن الخطيب : والحكمة في تأخير الفعل في الظاهر أن البليغ يقدم في الكلام ما يكون تعلق غرضه به أكثر والقوم كانوا يريدون بيان كونهم محقين في ترك الاتباع ، فلو

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل ، ص/٤٧٣٧

٢٦٠

قالوا : أنتبع بشرا أمكن أن يقال : نعم اتبعوه ، وماذا يمنعكم من اتباعه ؟ فإذا قدمنا حاله وقالوا : هو من نوعنا بشر من صفتنا رجل ليس غريبا نعتقد فيه أنه يعلم ما لا نعلم أو يقدر على ما لا نقدر وهو واحد وليس له جند ولا حشم ولا خدم ولا خيل وهو وحيد ونحن جماعة فكيف نتبعه ؟ ! فيكونون قد قدموا الموجب لجواز الامتناع عن اتباعه.

وفي الآية إشارات إلى ذلك ، منها تنكيره حيث قالوا : أبشرا ، ولم يقولوا : أرجلا ، ومنها : قولهم : منا وهو يحتمل أمرين : أحدهما : من صنفنا ليس غريبا.

والثاني : " منا " أي تبعنا ؛ لأن " من " للتبعيض والبعض يتبع الكل ، لا الكل يتبع البعض.

ومنها قولهم : " واحدا " ، وهو يحتمل أمرين أيضا : أحدهما : وحيدا إشارة إلى ضعفه.

وثانيهما : واحدا أي هو من آحاد الناس أي هو ممن ليس بمشهور بحسب ولا نسب ، إذا حدث لا يعرف ولا يمكن أن يقال عنه : قال فلان ، بل يقال : قال واحد ، وذلك غاية الخمول ، أو لأن الأرذل لا ينضم إليه أحد.

قوله : {إنآ إذا لفي ضلال} خطأ ، وذهاب عن الصواب " وسعر " (قال ابن عباس : عذاب.

وقال الحسن : شدة العذاب.

وقال قتادة : عناء).

" وسعر " يجوز أن يكون مفردا أي جنون يقال : ناقة مسعورة أي كالمجنونة في سيرها ، قال الشاعر (- رحمة الله عليه -) : ٤٦٠٠ - كأن بها سعرا إذا السعر هزها

ذميل وإرخاء من السير متعب

جزء : ١٨ رقم الصفحة : ٢٥٩

وأن يكون جمع " سعير " وهو النار.

قاله سفيان بن عيينة.

والاحتمالان منقولان عنه.

٢٦١

والمعنى : إنا إذن لفي عناء وعذاب مما يلزمنا من طاعته.

وقال وهب : معناه : بعد عن الحق.

قوله : {أألقي الذكر عليه من بيننا} معناه أأنزل عليه الذكر ، وهو الوحي " من بيننا " حال من هاء " عليه " ، أي ألقي عليه منفردا من بيننا أي خصص بالرسالة من بين آل ثمود وفيهم من هو أكثر مالا وأحسن حالا.

وهو استفهام بمعنى الإنكار.

قوله : {بل هو كذاب أشر} الأشر البطر ، يقال : أشر يأشر أشرا فهو أشر كفرح ، وآشر كضارب وأشران كسكران ، وأشارى كأسارى.

وقرأ أبو قلابة : {بل هو الكذاب الأشر} ، {من الكذاب الأشر} ؟ بفتح الشين وتشديد الراء ، جعلهما أفعل تفضيل.

وهو شاذ ، لأنه (لم) يحذف الهمزة من لفظ الخير والشر في " أفعل " التفضيل ، تقول : زيد خير من عمرو وشر من بكر ، ولا تقول : أخير ولا أشر إلا في ندور كهذه القراءة وكقول رؤبة :

٤٦٠١ - بلال خير الناس وابن الأخير

وتثبت فيهما في التعجب نحو : ما أخيره وما أشره.

ولا يحذف إلى في ندور عكس أفعل التفضيل ، قالوا : ما خير اللبن للصحيح ، وما شره للمبطون.

وهذا من محاسن الصناعة.

وقرأ أبو قيس الأودي ومجاهد الحرف الثاني الأشر بثلاث ضمات ، وتخريجها على أن فيه لغة أشر بضم الشين كحذر وحذر ، ثم ضمت الهمزة إتباعا لضم الشين.

ونقل الكسائي عن مجاهد ضم الشين وفتح الهمزة على أصل تيك اللغة كحذر.

٢٦٢

." (١)

"أحدهما : بيان أنه لا حاجة إلى تكرير القول إشارة إلى نفاذ القول.

ثانيهما : بيان عدم اختلاف الحال فأمره عند خلق العرش العظيم كأمره عند خلق النملة الصغيرة فأمره عند الكل واحد.

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/٤٧٣٨

وقوله : "كلمح بالبصر " تشبيه للكون لا تشبيه الأمر ، فكأنه قال : أمرنا واحدة ، فإذا المأمور كائن كلمح بالبصر ، لأنه لو كان راجعا إلى الأمر لا يكون ذلك صفة مدح يليق به ، فإن كلمة "كن " شيء أيضا يوجد كلمح بالبصر.

ومعنى "كلمح بالبصر " أي كنظر العين.

والباء للاستعانة مثل : كتبت بالقلم ، دخلت على الآلة ومثل بها ؛ لأنها أسرع حركة في الإنسان ؛ لأن العين وجد فيها قرب المحرك منها ، ولا يفضل عليه بخلاف العظام ، واستدارة شكلها ، فإن دحرجة الكرة أسرع من دحرجة المثلث والمربع ، ولأنها في رطوبة مخلوقة في العضو الذي هو موضعها ، وهو **الحكمة في** كثرة المرئيات بخلاف المأكولات والمسموعات والمفاصل التي تفصل بالأرجل والمذوقات فلولا سرعة حركة الآلة التي بها إدراك المبصرات لما وصل إلى الكل إلا بعد طول بيان.

وقيل : معنى : "كلمح بالبصر " البرق يمر به سريعا ، فالباء تكون للإلصاق ، نحو : مررت به ، وفي قوله : "كلمح بالبصر " ولم يقل : كلمح البرق فائدة ، وهي أن لمح البرق له مبدأ ونهاية فالذي يمر بالبصر منه يكون أدل من جملته مبالغة في القلة ، ونهاية السرعة.

قوله تعالى : {ولقد أهلكنآ أشياعكم} أي أشباهكم ونظراءكم في الكفر من الأمم السابقة.

وقيل : أتباعكم وأعوانكم.

{فهل من مدكر} ، أي يتذكر ويعلم أن ذلك حق فيخاف ويعتبر.

(قوله) {وكل شيء فعلوه في الزبر} أي جميع ما فعلته الأمم قبلهم من خير وشر فإنه مكتوب عليهم أي في كتب الحفظة.

وقيل : في اللوح المحفوظ.

وقيل : في أم الكتاب.

قال القرطبي : وهذا بيان لقوله : {إنا كل شيء خلقناه بقدر} أي " في الزبر " أي في اللوح المحفوظ.

قوله : {وكل صغير وكبير مستطر} أي كل صغير وكبير مكتوب على عامله قبل أن يفعلوه.

وقرأ العامة مستطر بتخفيف الراء من السطر وهو الكتب أي مكتتب يقال : سطرت واستطرت وكتبت وقرأ الأعمش وعمران بن حدير - وتروى عن عاصم - بتشديدها ، وفيه وجهان :

٢٨٥

أحدهما : أنه مشتق من طر الشارب والنبات أي ظهر وثبت بمعنى أن كل شيء قل أو كثر ظاهر في اللوح غير خفي ، فوزنه مستفعل كمستخرج.

والثاني : أنه من الاستطار كقراءة العامة ، وإنما شددت الراء من أجل الوقوف كقولهم : هذا جعفر ونفعل ، ثم أجري الوصل مجرى الوقف فوزنه مفتعل كقراءة الجمهور.

قوله تعالى : {إن المتقين في جنات ونهر} العامة بالإفراد ، وهو اسم جنس بدليل مقارنته للجمع والهاء مفتوحة كما هو الفصيح.

وسكنها مجاهد والأعرج وأبو السمال " والفياض ".

وهي لغة تقدم الكلام عليها أول البقرة.

قال ابن جريج : معنى (نهر) أنهار الماء والخمر والعسل.

ووحد ؛ لأنه رأس آية.

ثم الواحد قد ينبئ عن الجمع.

وقال الضحاك ليس المراد هنا نهر الماء ، وإنما المراد سعة الأرزاق ؛ لأن المادة تدل على ذلك كقول قيس بن الخطيم : ٤٦١٥ - ملكت بها كفي فأنهرت فتقها

يرى قائم من دونها ما وراءها

جزء : ١٨ رقم الصفحة : ٢٨١

أي وسعته.

ومنه : أنهرت الجرح.

ومنه : النهار ، لضيائه.

وقرأ أبو نهيك وأبو مجلز والأعمش وزهير الفرقبي - ونقله القرطبي أيضا عن طلحة بن مصرف والأعرج وقتادة - : " ونهر " بضم النون والهاء وهي تحتمل وجهين : أحدهما : أن يكون نهر بالتحريك وهو الأولى نحو : أسد في أسد.

٢٨٦

والثاني : أن يكون جمع الساكن نحو : سقف في سقف ، ورهن في رهن.

والجمع مناسب للجمع قبله في جنات.

وقراءة العامة بإفراده أبلغ ، وقد تقدم كلام ابن عباس في قوله تعالى آخر البقرة {وملائكته وكتابه} [لبقرة : ٢٨٥] بالإفراد أنه أكثر من الكتب ، وتقدم أيضا تقرير الزمخشري لذلك.

قال القرطبي (رحمة الله عليه) كأنه جمع نهار لا ليل لهم كسحاب وسحب.

قال الفراء : أنشدني بعض العرب : ٤٦١٦ - إن تك ليليا فإني نهر

متى أرى الصبح فلا أنتظر

أي صاحب النهار.

وقال آخر :

٤٦١٧ - لولا الثريد إن هلكنا بالضمر . ثريد ليل وثريد بالنهر

فصل لما وصف الكفار المؤمنين أيضا ، فقال : {إن المتقين في جنات} الجنات : اسم للأشجار أي هم خلالها وكذلك الأنهر ، والمعنى : جنات وعند عيون كقوله : ٤٦١٨ - علفتها تبنا وماء باردا

....

". (١)

"وفي حديث النبي صلى الله عليه وسلم " أنه لما بايع الأنصار ليلة " العقبة " ، صاح الشيطان : يا أهل الجباجب هذا مذمم يبايع بني " قيلة " على حربكم ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " هذا أزب العقبة ، أما والله لأتفرغن لك " أي : أقصد إلى إبطال أمرك.

وهذا اختيار القتبي والكسائي وغيرهما.

قال ابن الأثير : الأزب في اللغة : الكثير الشعر ، وهو هاهنا شيطان اسمه " أزب العقبة " وهو الحية.

وقيل : إن الله - تعالى - وعد على التقوى ، وأوعد على الفجور ، ثم قال : {سنفرغ لكم} أي : مما وعدناكم ، ونوصل كلا إلى ما وعدناه ، أقسم ذلك وأتفرغ منه.

قاله الحسن ، ومقاتل ، وابن زيد.

قوله تعالى : {أيها الثقلان}.

تقدم الكلام في قراءة " أيها " في " النور " [النور : ٣١] وهو منادى ، **والحكمة في** نداء المبهم هي تنبيه كل سامع ، ثم يخصص المقصود بعد ذلك ، فيكون فيه اهتمام بالمنادى.

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/٤٧٤٩

وأيضا يجعل المبهم وصلة لنداء المعرف باللام ، وزيد معه هاء التي للتنبيه عوضا عن الإضافة ؛ لأن المبهم يضاف.

و " الثقلان " الجن والإنس ، سميا بذلك لعظم شأنهما بالإضافة إلى ما في الأرض من غيرهما بسبب التكليف.

وقيل : سموا بذلك ؛ لأنهما ثقلا الأرض أحياء وأمواتا.

قال تعالى : {وأخرجت الأرض أثقالها} [الزلزلة : ٢].

ومنه قولهم : أعطه ثقله أي وزنه.

وقال بعض أهل المعاني : كل شيء له قدر ووزن ينافس فيه فهو ثقل ، ومنه قيل لبيض النعام : ثقل ، لأن واجده وصائده يفرح به إذا ظفر به.

وقال جعفر الصادق : سميا ثقلين ؛ لأنهم مثقلان بالذنوب.

وقيل : الثقل الإنس لشرفهم ، وسمي الجن بذلك مجازا للمجاورة والتغليب كالعمرين والقمرين والثقل : العظيم الشريف.

قال عليه الصلاة والسلام : " إني تارك فيكم ثقلين : كتاب الله وعترتي ".

٣٢٩

فصل في سبب التثنية بعد الجمع جمع في قوله تعالى : {سنفرغ لكم} ثم قال : {أيها الثقلان} ؛ لأنهما فريقان ، وكل فريق جمع ، وهذا كقوله تعالى : {يا معشر الجن والإنس إن استطعتم} ، ولم يقل " إن استطعتما " ؛ لأنهما فريقان في حال الجمع ، كقوله تعالى : {فإذا هم فريقان يختصمون} [النمل : ٤٥].

وقوله تعالى : {هـاذان خصمان اختصموا في ربهم} [الحج : ١٩] ، ولو قال : سنفرغ لكما ، أو قال : استطعتما ، لجاز.

وقرأ أهل " الشام " : " أيه الثقلان " بضم الهاء ، والباقون : بفتحها.

فصل في أن الجن مكلفون هذه الآيات التي في " الأحقاف " ، و {قل أوحي} [الجن : ١] دليل على أن الجن مخاطبون مكلفون مأمورون منهيون مثابون معاقبون كالإنس سواء ، مؤمنهم كمؤمنهم ، وكافرهم ككافرهم.

قوله تعالى : {يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا} [الرحمن

: ٣٣] الآية.

لما بين أن الله تعالى لا يشغله شأن عن شأن ، كأن قائلا قال : فلم أخر عذابهم ؟ .

فأجيب : بأن الجميع في قبضته ، وأن الذي يستعجل إنما يخاف الفوت ، والجميع في قبضة الله – تعالى – فلا يفوتونه.

و " المعشر " : الجماعة العظيمة ؛ لأن المعشر هو العدد الكامل الكثير الذي لا عدد بعده إلا بابتداء فيه حيث يعيد الآحاد ، تقول : أحد عشر ، واثنا عشر وعشرون ، وثلاثون ، أي ثلاث عشرات ، فالمعشر كأنه في محل العشر الذي هو الكثرة الكاملة.

فإن قيل : ما الحكمة في تقديم الجن على الإنس هاهنا ، وتقديم الإنس على الجن في قوله تعالى : {قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن} [الإسراء : ٨٨] ؟ .

فالجواب : أن النفوذ من أقطار السموات والأرض بالجن أليق إن أمكن ، والإتيان

٣٣٠

". (١)

"والجواب : أنه كثر وقوع النكرة خبرا عن هذه الأشياء كثرة متزايدة ، فاطرد الباب ، ليجري على سنن واحدة ، هكذا أجابوا.

وهذا لا ينهض مانعا من جواز أن يكون " ما " و "كم " و " أفعل " خبرا مقدما ولو قيل به لم يكن خطأ ، بل أقرب إلى الصواب.

و " الميمنة " " مفعلة " من لفظ اليمين ، وكذلك " المشأمة " من اليد الشؤمى وهي الشمال لتشاؤم العرب بها ، أو من الشؤم.

فصل في تحرير معنى الآية قال السدي : " أصحاب الميمنة " هم الذين يؤخذ بهم ذات اليمين إلى الجنة ، و " أصحاب المشأمة " هم الذين يؤخذ بهم ذات الشمال إلى النار.

و " المشأمة " : الميسرة ، وكذلك الشأمة ، يقال : قعد فلان شأمة.

ويقال : شائم بأصحابك أي : خذ بهم شأمة أي : ذات الشمال والعرب تقول لليد الشمال : الشؤمى ، وللجانب الشمال : الأشأم.

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/٤٧٦٥

وكذلك يقال لما جاء عن اليمين : اليمين ، ولما جاء عن الشمال : الشؤم.
قال البغوي : " ومنه سمي " الشام واليمين " ؛ لأن " اليمين " عن يمين الكعبة ، و " الشام " عن شمالها ".
قال ابن عباس والسدي : " أصحاب الميمنة " هم الذين كانوا عن يمين آدم حين أخرجت الذرية من صلبه ، فقال الله لهم : هؤلاء في الجنة ولا أبالي ".
وقال زيد بن أسلم : هم الذين أخذوا من شق آدم الأيمن يومئذ ، وأصحاب المشأمة الذين أخذوا من شق آدم الأيسر.
وقال عطاء ومحمد بن كعب : " أصحاب الميمنة من أوتي كتابه بيمينه ، وأصحاب المشأمة من أوتي كتابه بشماله ".
وقال ابن جريج : " أصحاب الميمنة " هم أصحاب الحسنات ، وأصحاب المشأمة ؛ هم أهل السيئات.
٣٧٦
وقال الحسن والربيع : " أصحاب الميمنة " الميامين على أنفسهم بالأعمال الصالحة ، وأصحاب المشأمة : المشائيم على أنفهسم بالأعمال السيئة.
وفي صحيح مسلم من حديث " الإسراء " عن أبي ذر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " فلما علونا السماء الدنيا ، فإذا رجل عن يمينه أسودة ، وعن يساره أسودة ، قال فإذا نظر قبل يمينه ضحك ، وإذا نظر قبل شماله بكى ، قال : فقال : مرحبا بالنبي الصالح والابن الصالح ، قال : فقلت : يا جبريل من هذا ؟ .
قال : هذا آدم – عليه الصلاة والسلام – وهذه الأسودة عن يمينه وعن شماله بنوه فأهل اليمين أهل الجنة ، والأسودة التي عن شماله أهل النار " وذكر الحديث.
وقال المبرد : " أصحاب الميمنة " أصحاب التقدم ، وأصحاب المشأمة أصحاب التأخر والعرب تقول : اجعلني في يمينك ولا تجعلني في شمالك أي : اجعلني من المتقدمين ولا تجعلني من المتأخرين.
ثم عجب نبيه صلى الله عليه وسلم فقال : {مآ أصحاب الميمنة} وهذا كما يقال : " زيد ما زيد " ، يريد " زيد شديد " فالتكرير في {مآ أصحاب الميمنة} ، و {مآ أصحاب المشأمة} للتفخيم والتعجب ، كقوله : {الحاقة ما الحآقة} [الحاقة : ١ ، ٢] ، و {القارعة ما القارعة} [القارعة : ١ ، ٢] كما يقال : " زيد

ما زيد ".

وفي حديث أم زرع رضي الله عنها : " مالك ، وما مالك ؟ ".

والمقصود : تكثير ما لأصحاب الميمنة في الثواب ، وأصحاب المشأمة من العقاب.

والفاء في قوله : " فأصحاب " تدل على التقسيم ، وبيان ما ورد عليه التقسيم ، كأنه قال : أزواجا ثلاثة : أصحاب الميمنة ، وأصحاب المشأمة ، والسابقون ، وبين حال كل قسم فقال : {مآ أصحاب الميمنة} وترك التقسيم أولا ، واكتفى بما يدل عليه بأن تذكر الأقسام الثلاثة مع أحوالها.

فإن قيل : ما الحكمة في اختيار لفظ " المشأمة " في مقابلة " الميمنة " مع أنه قال في بيان أحوالهم {وأصحاب الشمال مآ أصحاب الشمال} ؟ [الواقعة : ٤١].

فالجواب : أن اليمين وضع للجانب المعروف ، واستعملوا منها ألفاظا في مواضع فقالوا : " هذا ميمون " تيمنا به ، ووضعوا مقابلة اليمين اليسار من الشيء اليسير إشارة إلى ضعفه ، ولفظ الشمال في مقابلته ، واس‍تعملوا منه ألفاظا تشاؤما به ، فذكر " المشأمة "

٣٧٧

[في] مقابلة [" الميمنة "] [وذكر الشمال في مقابلة اليمين] فاستعمل كل لفظ مع ما يقابله.

قوله : {والسابقون السابقون}.

فيه أوجه : أحدها : أنها مبتدأ وخبر ، وفي ذلك تأويلان : أحدهما : أنه بمعنى : السابقون هم الذين اشتهرت حالتهم بذلك.

كقولهم : " أنت أنت ، والناس الناس ".

وقوله : [الرجز]

٤٦٧١ - أنا أبو النجم وشعري شعري

(١) ".

"وهذه القراءة تحتمل وجهين : أحدهما : أن يكون نصبا كقراءة عبد الله وأبي.

وأن يكون جرا كقراءة الأخوين ؛ لأن هذين الاسمين لا يتصرفان ، فهما محتملان للوجهين.

وتقدم الكلام في اشتقاق العين.

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل ـ ، ص/٤٧٨٤

" كأمثال " : صفة ، أو حال.

و " جزاء " : مفعول من أجله ، أو مصدر ، أي : يحزون جزاء.

فصل في تفسير الآية قال المفسرون : " حور " بيض ، " عين " ضخام الأعين ، {كأمثال اللؤلؤ المكنون} أي المخزون في الصدف لم تمسه الأيدي ، ولم يقع عليه الغبار ، فهو أشد ما يكون صفاء.

وقوله : {جزآء بما كانوا يعملون}.

قالت المعتزلة : هذا يدل على أن يقال : الثواب واجب على الله - تعالى - لأن الجزاء لا يجوز الإخلال به.

وأجيبوا بأنه لو صح ما ذكروا لما كان في الوعد بهذه الأشياء فائدة ؛ لأن العقل إذا حكم بأن ترك الجزاء قبيح ، وعلم بالعقل أن القبيح من الله تعالى لا يوجد ، علم أن الله تعالى يعطي هذه الأشيء ، لأنها أجزية ، وإيصال الثواب واجب ، وأيضا فكان لا يصح التمدح به.

قوله : {لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما}.

قال ابن عباس : باطلا وكذبا.

و " اللغو " : ما يلغى من الكلام.

و " التأثيم " : مصدر أثمته ، أي : قلت له : أثمت.

قال محمد بن كعب : " ولا تأثيما " ، أي : لا يؤثم بعضهم بعضا.

وقال مجاهد : {لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما} : شتما ولا مأثما.

قوله : " إلا قيلا " ، فيه قولان :

٣٩٣

أحدهما : أنه استثناء منقطع ، وهذا واضح ؛ لأنه لم يندرج تحت اللغو والتأثيم.

والثاني : أنه متصل.

وفيه بعد ، وكأن هذا رأى أن الأصل : لا يسمعون فيها كلاما ، فاندرج عنده فيه.

وقال مكي : وقيل : منصوب بـ " يسمعون ".

وكأنه أراد هذا القول.

قوله : {سلاما سلاما}.

فيه أوجه : أحدها : أنه بدل من " قيلا " أي : لا يسمعون فيها إلا سلاما سلاما.

الثاني : أنه نعت لـ " قيلا ".

الثالث : أنه منصوب بنفس " قيلا " ، أي : إلا أن يقولوا : سلاما سلاما ، وهو قول الزجاج.

الرابع : أن يكون منصوبا بفعل مقدر ، ذلك الفعل محكي بـ " قيلا " تقديره : إلا قيلا سلموا سلاما.

وقرئ : " سلام " بالرفع.

قال الزمخشري : " على الحكاية ".

قال مكي : " ويجوز أن يكون في الكلام الرفع على معنى " سلام عليكم " ابتداء وخبر " وكأنه لم يعرفها قراءة.

فصل في معنى الآية معنى " قيلا سلاما " أي : قولا سلاما.

وقال عطاء : يحيي بعضهم بعضا بالسلام.

قال القرطبي : " والسلام الثاني بدل من الأول ، والمعنى : إلا قيلا يسلم فيه من اللغو ، وقيل : تحييهم الملائكة ، أو يحييهم ربهم عز وجل ".

وكرر السلام إشارة إلى كثرة السلام عليهم ، ولهذا لم يكرر قوله : {سلام قولا من رب رحيم} [يس : ٥٨].

و " القيل " مصدر كالقول.

٣٩٤

قال ابن الخطيب : فيكون " قيلا " مصدرا ، لكن لا نظير له في " باب " فعل يفعل من الأجوف.

وقيل : إنه اسم ، والقول مصدر.

جزء : ١٨ رقم الصفحة : ٣٧٢

قوله تعالى : {وأصحاب اليمين مآ أصحاب اليمين}.

رجع إلى ذكر أصحاب الميمنة ، والتكرير لتعظيم شأن النعيم.

فإن قيل : ما الحكمة في ذكرهم بلفظ " أصحاب الميمنة " عند تقسيم الأزواج الثلاثة ؟ فلفظ أصحاب الميمنة " " مفعلة " إما بمعنى موضع اليمين [كالحكمة موضع الحكم ، أي : الأرض التي فيها " اليمن " ، وإما بمعنى موضع اليمين] كالمنارة موضع النار ، والمجمرة موضع الجمرة ، وكيفما كان ، فالميمنة فيها

دلالة على الموضع ، لكن الأزواج الثلاثة في أول الأمر يتميزون بعضهم عن بعض ويتفرقون ، لقوله تعالى : {يومئذ يتفرقون} [الروم : ١٤] ، وقال : {يومئذ يصدعون} [الروم : ٤٣] فيتفرقون بالمكان ، فأشار إليهم في الأول بلفظ يدل على المكان ، ثم عند الثواب وقع تفريقهم بأمر منهم لا بأمر هم فيه وهو المكان ، فقال : " وأصحاب اليمين " أي الذين يأخذون كتبهم بأيمانهم.

وقيل : أصحاب القوة.

وقيل : أصحاب النور.

قوله : {في سدر مخضود}.

قال ابن عباس وغيره : {في سدر مخضود} أي : في نبق قد خضد شوكه.

وذكر ابن المبارك قال : أخبرنا صفوان عن سليم بن عامر عن أبي أمامة ، قال : كان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يقولون : إنه لينفعنا الأعراب ومسائلهم ، قال : " أقبل أعرابي يوما ، فقال : يا رسول الله : لقد ذكر الله شجرة في القرآن مؤذية ، وما كنت أرى في الجنة شجرة تؤذي صاحبها ؟ .

٣٩٥

". (١)

"فصل في تفسير الآية قال الحسن ، والضحاك ، وابن زيد : " يصرون على الحنث العظيم " أي : يقيمون على الشرك.

وقال قتادة ومجاهد : الذنب العظيم الذي لا يتوبون منه.

وقال الشعبي : هو اليمين الغموس ، وهي من الكبائر ، يقال : حنث في يمينه ، أي : لم يبرها ورجع فيها ، وكانوا يقسمون أن لا بعث ، وأن الأصنام أنداد الله فذلك حنثهم.

فصل في **الحكمة من** ذكر عذاب هذه الطائفة قال ابن الخطيب : **والحكمة في** ذكره سبب عذابهم ، ولم يذكر في أصحاب اليمين سبب ثوابهم ، فلم يقل : إنهم كانوا قبل ذلك شاكرين مذعنين ، وذلك تنبيه على أن ذلك الثواب منه فضل ، والعقاب منه عدل ، والفضل سواء ذكر سببه ، أو لم يذكره لا يتوهم بالمتفضل نقص وظلم.

وأما العدل إن لم يعلم سبب العقاب ، يظن أن هناك ظلما ، ويدل على أنه تعالى لم يقل في أصحاب

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/٤٧٩٠

اليمين : {جزآء بما كانوا يعملون} [الواقعة : ٢٤] كما قاله في السابقين ؛ لأن أصحاب اليمين نجوا بالفضل العظيم لا بالعمل ، بخلاف من كثرت حسناته يحسن إطلاق الجزاء في حقه.

واعلم أن المترف هو المنعم ، وذلك لا يوجب ذما ، وإنما حصل لهم الذم بقوله : {وكانوا يصرون على الحنث العظيم} ، فإن صدور المعاصي ممن كثرت النعم عليه [من] أقبح القبائح ، فقال : {إنهم كانوا قبل ذلك مترفين} ، ولم يشكروا نعم الله ، بل أصروا على الذنب العظيم.

وفي الآية مبالغة ؛ لأن قوله : {وكانوا يصرون} يقتضي أن ذلك عادتهم ، والإصرار على مداومة المعصية والحنث أبلغ من الذنب ؛ لأن الذنب يطلق على الصغيرة ، ويدل على ذلك قولهم : " بلغ الحنث " أي : بلغ مبلغا تلحقه فيه الكبيرة.

وأما الصغيرة فتلحق الصغير ، فإن وليه يعاقبه على إساءة الأدب ، وترك الصلاة ، ولأن وصفه بالعظيم مبالغة.

قاله ابن الخطيب.

قوله تعالى : {وكانوا يقولون أإذا متنا} الآية.

٤٠٨

هذا استبعاد منهم للبعث وتكذيب له , وقد تقدم الكلام على ذلك في " والصافات " ، وتقدم الكلام على الاستفهامين في سورة " الرعد ".

فإن قيل : كيف أتى بـ " اللام " المؤكدة في قوله تعالى : {لمبعوثون} ، مع أن المراد هو النفي ، وفي النفي لا تدخل " اللام " في خبر " إن " ، تقول : " إن زيدا ليجيء ، وإن زيدا لا يجيء " فلا تذكر " اللام " ، ومرادهم بالاستفهام : الإنكار ، بمعنى إنا لا نبعث ؟ .

فالجواب من وجهين : أحدهما : عند التصريح بالنفي وصيغته ، يجب التصريح بالنفي وصيغته.

والثاني : أنهم أرادوا تكذيب من يخبر عن البعث ، فذكروا أن المخبر عنه يبالغ في الإخبار ، ونحن ننكر مبالغته وتأكيده ، فحكوا كلام المخبر على طريقة الاستفهام والإنكار ، ثم إنهم أشاروا في الإنكار إلى أمور اعتقدوها مقررة لصحة إنكارهم ، فقالوا : " أئذا متنا " ثم لم يقتصروا عليه ، بل قالوا بعده : {وكنا ترابا وعظاما} أي : وطال عهدنا بعد كوننا أمواتا حتى صارت اللحوم ترابا ، والعظام رفاتا ثم زادوا وقالوا : مع هذا يقال لنا : إنكم لمبعوثون بطريق التأكيد من ثلاثة أوجه : أحدها : استعمال " إن ".

ثانيها : إثبات " اللام " في خبرها.

ثالثها : ترك صيغة الاستقبال ، والإتيان بالمفعول كأنه كائن ، ثم زادوا وقالوا : {أو آبآؤنا الأولون} فقال الله تعالى لهم : " قل " يا محمد {إن الأولين} من آبائكم ، و {والآخرين} منكم {لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم} يعني : يوم القيامة.

ومعنى الكلام : القسم ودخول " اللام " في قوله تعالى : {لمجموعون} هو دليل القسم في المعنى ، أي : إنكم لمجموعون قسما حقا ، بخلاف قسمكم الباطل.

قوله : {ثم إنكم أيها الضآلون} عن الهدى {المكذبون} بالبعث {لآكلون من شجر من زقوم} ، وهو شجر كريه المنظر كريه الطعم ، وهو المذكور في سورة " والصافات ".

وهذا الخطاب عام ، وقيل : لأهل " مكة " ، وهو من تمام كلام النبي صلى الله عليه وسلم وقدم هنا الضالين على المكذبين في آخر السورة ، قال : {وأمآ إن كان من المكذبين الضآلين} [الواقعة : ٩٢] ، فقدم المكذبين على الضالين ؛ لأنهم هنا أصروا على الحنث العظيم فضلوا عن السبيل ، ثم كذبوا الرسول ، وقالوا : " أئذا متنا ".

وفي آخر السورة قدم المكذبين بالحشر على الضالين عن طريق الخلاص ، أو

٤٠٩

." (١)

"وقرأ ابن أبي عبلة : " ثلاثة " ، و " خمسة " نصبا على الحال ، وفي صاحبها وجهان : أحدهما : أنه محذوف مع رافعه تقديره : يتناجون ثلاثة ، وحذف لدلالة " نجوى ".

والثاني : أنه الضمير المستكن في " نجوى " إذا جعلناها بمعنى المتناجين [قاله الزمخشري ، رحمه الله. قال مكي : " ويجوز في الكلام رفع " ثلاثة " على البدل من موضع " نجوى " ؛ لأن موضعها رفع و " من " زائدة ، ولو نصبت " ثلاثة " على الحال من الضمير المرفوع إذا جعلت " نجوى " بمعنى المتناجين جاز في الكلام "].

قال شهاب الدين : " ولا يقرأ به فيما علمت ، وهو جائز في غير القرآن كما قال ، وأما النصب فقد قرئ به ، وكأنه لم يطلع عليه ".

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/٤٧٩٥

قوله : {إلا هو رابعهم} ، {إلا هو خامسهم} ، {إلا هو معهم} كل هذه الجمل بعد " إلا " في موضع نصب على الحال أي : ما يوجد شيء من هذه الأشياء إلا في حال من هذه الأحوال ، فالاستثناء مفرغ من الأحوال العامة.

وقرأ أبو جعفر : " ما تكون " بتاء التأنيث لتأنيث النجوى.

قال أبو الفضل : إلا أن الأكثر في هذا الباب التذكير على ما في قراءة العامة ؛ لأنه مسند إلى " من نجوى " وهو اسم جنس مذكر.

قال ابن جني : التذكير الذي عليه العامة هو الوجه ؛ لوقوع الفاصل بين الفعل والفاعل ، وهو كلمة " من " ، ولأن تأنيث النجوى غير حقيقي.

قوله : " ولا أكثر ".

العامة على الجر عطفا على لفظ " نجوى ".

وقرأ الحسن ، والأعمش ، وابن أبي إسحاق ، وأبو حيوة ويعقوب : " ولا أكثر " بالرفع ، وفيه وجهان :
٥٣٣

أحدهما : أنه معطوف على موضع " نجوى " لأنه مرفوع ، و " من " مزيدة ، فإن كان مصدرا كان على حذف مضاف كما تقدم ، أي : من ذوي نجوى ، وإن كان بمعنى متناجين ، فلا حاجة إلى ذلك.

الثاني : " أدنى " مبتدأ ، و {إلا هو معهم} خبره ، فيكون " ولا أكثر " عطفا على المبتدأ ، وحينئذ يكون " ولا أدنى " من باب عطف الجمل لا المفردات.

وقرأ الحسن ويعقوب أيضا ومجاهد والخليل : " ولا أكبر " بالباء الموحدة والرفع على ما تقدم.

وزيد بن علي : " ينبيهم " - بسكون النون - من أنبأ إلا أنه حذف الهمزة وكسر الهاء.

وقرئ كذلك إلا أنه بإثبات الهمزة وضم الهاء ، والعامة بالتشديد من " نبأ ".

فصل في النجوى " النجوى " : التناجي ، وهو السرار وهو مصدر يوصف به ، يقال : قوم نجوى ، وذوو نجوى.

قال تعالى : {وإذ هم نجوى } [الإسراء : ٤٧].

قال الزجاج : " النجوى " مشتقة من النجوة وهي ما ارتفع وتنجى ، فالكلام المذكور سرا ، لما خلا عن استماع الغير صار كالأرض المرتفعة ، فإنها لارتفاعها خلت عن اتصال الغير ، والسرار ما كان بين اثنين.

قوله : {إلا هو رابعهم} أي : يعلم ، ويسمع نجواهم بدليل افتتاح الآية بالعلم.

فإن قلت : ما الحكمة في ذكره - سبحانه وتعالى - الثلاثة والخمسة ، وأهمل الأربعة ؟ .

فالجواب من وجوه : الأول : أن ذلك إشارة إلى كمال الرحمة ؛ لأن الثلاثة إذا اجتمعوا ، فإذا تناجى اثنان

٥٣٤

". (١)

"سورة الصف

[مدنية] في قول الأكثرين.

وذكر النحاس [عن ابن عباس] : أنها مكية ، وهي أربع عشرة آية ومئتان وإحدى وعشرون كلمة وتسعمائة حرف.

جزء : ١٩ رقم الصفحة : ٣٩

قال ابن الخطيب : وجه تعلق هذه السورة بما قبلها ، هو أن في السورة التي قبلها ، بين الخروج إلى الجهاد في سبيل الله ، وابتغاء مرضاته بقوله : {إن كنتم خرجتم جهادا في سبيلي وابتغآء مرضاتي} [الممتحنة : ١] ، وفي هذه السورة بين ما يحمل المؤمن ، ويحثه على الجهاد ، فقال : {إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص} [الصف : ٣].

فإن قيل : ما الحكمة في أنه - تعالى - قال في بعض السور : " سبح لله " بلفظ الماضي ، وفي بعضها : " يسبح " بلفظ المضارع ، وفي بعضها بلفظ الأمر ؟ .

فالجواب : أن الحكم في ذلك تعليم العبد ، أن تسبيح الله تعالى دائم لا ينقطع ، كما أن الماضي يدل عليه في الماضي من الزمان ، والمستقبل يدل عليه في المستقبل من الزمان والأمر يدل عليه في الحال.

و " العزيز " : هو الغالب على غيره أي شيء كان ذلك الغير ، ولا يمكن أن [يحكم] عليه غيره ، و " الحكيم " : هو الذي يحكم على غيره ، أي شيء كان ذلك الغير.

فإن قيل : هلا قيل : سبح لله ما في السماوات وما في الأرض وما فيهما وهو أكثر مبالغة ؟ فالجواب : إنما يكون كذلك ، إذا كان المراد التسبيح بلسان الحال ، أما إذا كان المراد من التسبيح المخصوص

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل ، ص/٤٨٤٩

باللسان فالبعض بوصف معي ، فلا يكون كذلك.

٤٣

جزء : ١٩ رقم الصفحة : ٤٣." (١)

"قوله : {مثل الذين حملوا التوراة}.

هذه قراءة العامة.

وقرأ زيد بن علي ويحيى بن يعمر : " حملوا " مخففا مبنيا للفاعل.

قوله : {كمثل الحمار}.

هذه قراءة العامة.

وقرأ عبد الله : " حمار " منكرا ، وهو في قوة قراءة الباقين ، لأن المراد بالحمار : الجنس ولهذا وصف بالجملة بعده ، كما سيأتي.

وقرأ المأمون بن هارون الرشيد : " يحمل " مشددا مبنيا للمفعول.

والجملة من " يحمل أو يحمل " فيها وجهان : أشهرهما : أنه في موضع الحال من " الحمار ".

٧٣

والثاني : أنها في موضع الصفة للحمار ، لجريانه مجرى النكرة ، إذ المراد به الجنس.

قال الزمخشري : أو الجر على الوصف لان الحمار كاللئيم ، في قوله : [الكامل] ٤٧٦٧ - ولقد أمر على الئيم يسبني

....

وتقدم تحرير ذلك وأن منه عند بعضهم : {وآية لهم الليل نسلخ} [يس : ٣٧] ، وأن " نسلخ " نعت لليل ، والجمهور يجعلونه حالا للتعريف اللفظي.

وأما على قراءة عبد الله : فالجملة وصف فقط ، ولا يمتنع أن تكون حالا عند سيبويه والأسفار : جمع سفر ، وهو الكتاب المجتمع الأوراق.

فصل في تفسير هذا المثل هذا مثل ضرب لليهود لما تركوا العمل بالتوراة ، ولم يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم " حملوا التوراة " أي : كلفوا العمل بها.

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/٤٩٠٦

قاله ابن عباس.

وقال الجرجاني : هو من الحمالة بمعنى الكفالة ، أي : ضمنوا أحكام التوراة.

وقوله : {ثم لم يحملوها}.

لم يعملوا بما فيها ولم يؤذوا حقها {كمثل الحمار يحمل أسفارا} أي : كتبا من العلم ، واحدها سفر.

قال الفراء : هي الكتب العظام ، لأنها تسفر عما فيها من المعاني إذا قرئت ، ونظيره : شبر وأشبار.

يعني كما أن الحمار يحملها ولا يدري ما فيها ولا ينتفع بها كذلك اليهود يقرأون التوراة ولا ينتفعون بها ، لأنهم خالفوا مافيها.

قال ميمون بن مهران : الحمار لا يدري أسفر على ظهره أم زبيل ، كذلك اليهود ، وفي هذا تنبيه من الله تعالى لمن حمل الكتاب أن يتعلم معانيه ويعلم ما فيه ويعمل به لئلا يلحقه من الذم ما لحق هؤلاء.

قال الشاعر : [الطويل] ٤٧٦٨ - لعمرك ما يدري البعير إذا غدا

بأوساقه أو راح ما في الغرائر

جزء : ١٩ رقم الصفحة : ٧٣

٧٤

قوله : {بئس مثل القوم} فيه أوجه : أحدها : وهو المشهور أن " مثل القوم " فاعل " بئس " والمخصوص [بالذم الموصول بعده ، وهذا مشكل ؛ لأنه لا بد من تصادق فاعل " نعم وبئس " والمخصوص هنا : " المثل " ليس بالقوم المكذبين] والجواب : أنه على حذف مضاف ، أي : بئس مثل القوم الذي كذبوا.

الثاني : أن " الذين " صفة للقوم فيكون مجرور المحل ، والمخصوص بالذم محذوف لفهم المعنى ، تقديره : بئس مثل القوم المكذبين مثل هؤلاء ، وهو قريب من الأول.

الثالث : أن الفاعل محذوف ، وأن " مثل القوم " هو المخصوص بالذم ، وتقديره : بئس المثل مثل القوم , ويكون الموصول نعتا للقوم أيضا ، وإليه ينحو كلام ابن عطية فإنه قال : والتقدير {بئس المثل مثل القوم}.

وهذا فاسد : لأنه لا يحذف الفاعل عند البصريين إلا في مواضع ثلاثة ليس هذا منها ، اللهم إلا أن يقول بقول الكوفيين.

الرابع : أن يكون التمييز محذوفا ، والفاعل المفسر به مستتر ، تقديره : " بئس مثلا مثل القوم " وإليه

ينحو كلام الزمخشري فإنه قال : " بئس مثلا مثل القوم ".
فيكون الفاعل مستترا مفسرا بـ " مثلا " ، و " مثل القوم " هو المخصوص بالذم ، والموصول صفة له ، وحذف التمييز ، وهذا لا يجيزه سيبويه وأصحابه ألبتة.
نصوا على امتناع حذف التمييز ، وكيف يحذف وهو مبين.
فصل قال ابن الخطيب : فإن قيل : ما الحكمة في تعيين الحمار من دون سائر الحيوانات ؟ فالجوب من وجوه : أحدها : أنه تعالى خلق الخيل والبغال والحمير للركوب والزينة ، كما قال تعالى : {والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة} [النحل : ٨٧] ، والزينة في الخيل أظهر وأكثر بالنسبة إلى الركوب والحمل عليه ، وفي البغال دون الخيل ، وفي الحمير دون البغال ، فالحمار كالمتوسط في المعاني الثلاثة ، وحينئذ يكون الحمار في معنى الحمل أظهر.
٧٥
". (١)

"فصل في ختم الآية بـ " لا يفقهون " قال ابن الخطيب : فإن قيل : ما الحكمة في أنه تعالى ختم الآية الأول بقوله : " لا يفقهون " وختم الثانية بقوله : " لا يعلمون " ؟ .
فالجواب : ليعلم بالأولى قلة كياستهم وفهمهم ، وبالثانية حماقتهم وجهلهم ، ولا يفقهون من فقه يفقه ، كعلم يعلم ، أو من فقه يفقه ، كعظم يعظم ، فالأول لحصول الفقه بالتكلف ، والثاني لا بالتكلف ، فالأول علاجي ، والثاني مزاجي.
جزء : ١٩ رقم الصفحة : ١١٥
قوله تعالى : { يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله}.
حذر المؤمنين أخلاق المنافقين ، أي : لا تشتغلوا بأموالكم كما فعل المنافقون إذ قالوا – لأجل الشح بأموالهم – : {لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا}.
وقوله : {عن ذكر الله}.
أي : عن الحج والزكاة.
وقيل : عن قراءة القرآن.

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل ، ص/٤٩١٨

وقيل : عن إدامة الذكر.
وقال الضحاك : عن الصلوات الخمس.
وقال الحسن : عن جميع الفرائض ، كأنه قال : عن طاعة الله.
وقيل : هذا خطاب للمنافقين ، أي : آمنتم بالقول فآمنوا بالقلب ، {ومن يفعل ذلك} يشتغل بالمال والولد عن طاعة ربه {فأولائك هم الخاسرون}.
قوله : {وأنفقوا من ما رزقناكم}.
قال ابن عباس : يريد زكاة الأموال.
١١٧
{من قبل أن يأتي أحدكم الموت}.
قال القرطبي : " هذا يدل على وجوب تعجيل إخراج الزكاة ولا يجوز تأخيرها أصلا وكذلك سائر العبادات إذا دخل وقتها ".
قال ابن الخطيب : وبالجملة فقوله : {لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله} تنبيه على المحافظة على الذكر قبل الموت.
وقوله : {وأنفقوا من ما رزقناكم} : تنبيه على الشكر كذلك.
قوله : {فيقول رب لولا اا أخرتنى }.
أي : هلا أخرتني.
وقيل : " لا " صلة ، فيكون الكلام بمعنى التمني.
أي لو أخرتني إلى أجل قريب فنسأل الرجعة إلى الدنيا لنعمل صالحا.
روى الترمذي عن الضحاك بن مزاحم عن ابن عباس قال : " من كان له مال يبلغه حج بيت ربه أو يجب عليه فيه زكاة فلم يفعل ، سأل الرجعة عند الموت ، فقال رجل : يا ابن عباس ، اتق اله ، إنما سأل الرجعة الكفار ، فقال : سأتلو عليك بذلك قرآنا { يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله} إلى قوله {والله خبير بما تعملون} قال : فما يوجب الزكاة ؟ قال : إذا بلغ المال مائتين فصاعدا ، قال : فما يوجب الحج ؟ قال : الزاد والراحلة ".
قال القرطبي : ذكره الحليمي في كتاب " منهاج الدين " مرفوعا ، فقال : وقال ابن عباس " قال رسول الله

صلى الله عليه وسلم : " من كان عنده مال يبلغه الحج " الحديث.
قال ابن العربي : " أخذ ابن عباس بعموم الآية في إنفاق الواجب خاصة دون النفل ، فأما تفسيره بالزكاة فصحيح كله عموما وتقديرا بالمائتين.
وأما القول بالحج ففيه إشكال ؛ لأننا إن قلنا : الحج على التراخي ففي المعصية بالموت قبل الحج خلاف بين العلماء ، فلا تخرج الآية عليه.
وإن قلنا : الحج على الفور فالعموم في الآية صحيح لأن من وجب عليه الحج فلم
١١٨
يؤده لقي من الله ما يود لو أنه رجع ليأتي بماترك من العبادات.
وأما تقدير الأمر بالزاد والراحلة ففي ذلك خلاف مشهور بين العلماء ، وليس لكلام ابن عباس فيه مدخل ، لأجل أن الرجعة والوعيد لا يدخل في المسائل المجتهد فيها ولا المختلف عليها ، وإنما تدخل في المتفق عليه.
والصحيح تناوله للواجب من الإنفاق بالإجماع أو بنص القرآن ؛ لأن ما عدا ذلك لا يتحقق فيه الوعيد ".
قوله : {فأصدق}.
نصب على جواب [التمني] في قوله : {لولا اا أخرتنى }.
وقرأ أبي وعبد الله وابن جبير : " فأتصدق " ، وهي أصل قراءة العامة ولكن أدغمت الفاء في الصاد.
قوله : " وأكن ".
قرأ أبو عمرو : " وأكون " بنصب الفعل عطفا على " فأصدق " ز والباقون : " وأكن " مجزوما ، وحذفت الواو لالتقاء الساكنين.
واختلف عبارات الناس في ذلك.
فقال الزمخشري : " عطفا على محل " فأصدق "كأنه قيل : إن أخرتني أصدق وأكن ".
وقال ابن عطية : عطفا على الموضع : لأن التقدير : إن أخرتني أصدق وأكن ، وهذا مذهب أبي علي الفارسي ".
وقال القرطبي : " عطلف على موضع الفاء ، لأن قوله : " فأصدق " لو لم تكن الفاء لكان مجزوما ، أي " أصدق " ، ومثله : {من يضلل الله فلا هادي له ويذرهم} [الأعراف : ١٨٦] فيمن جزم.

فأما ما حكاه سيبويه عن الخليل فهو غير هذا ، وهو أنه جزم على توهم

١١٩

." (١)

"فصل استدل بعض العلماء بقوله تعالى : {ذلك يوم التغابن} على أنه لا يجوز الغبن في المعاملات الدنيوية ، لأن الله تعالى خص التغابن بيوم القيامة فقال : {ذلك يوم التغابن}.

وهذا الاختصاص يفيد أي أنه لا غبن في الدنيا ، فكل من اطلع على غبن في بيع فإنه مردود إذا زاد على الثلث.

واختاره البغداديون ، " واحتجوا عليه بقوله - عليه الصلاة والسلام - لحبان بن منقد : " إذا بعت فقل : لا خلابة ولك الخيار ثلاثا " ولأن الغبن في الدنيا ممنوع منه بالإجماع في حكم الدين إذ هو من باب الخداع المحرم شرعا في كل ملة ، لكن اليسير منه لا يمكن الاحتراز عنه فمضي في البيوع ، إذ لو حكما برده ما نفذ بيع أبدا ؛ لأنه لا يخلو منه ، فإن ذكان كثيرا أمكن الاحتراز منه فوجب الرد به ، والفرق بين القليل والكثير في الشريعة معلوم فقدرناه بالثلث ، وهذا الحد اعتبر الشارع في الوصية وغيرها.

ويكون معنى الآية عرى هذا : يوم التغابن الجائز مطلقا من غير تفصيل ، وذلك يوم التغابن الذي لا يستدرك أبدا.

قال بعض علماء الصوفية ، إن الله - تعالى - كتب الغبن على الخلق أجمعين ، فلا يلقى أحد ربه إلا مغبونا ؛ لأنه لا يمكنه الاستيفاء للعمل حتى يحصل له استيفاء الثواب.

قال - عليه الصلاة والسلام - : " لا يلقى الله أحد إلا نادما إن كان مسيئا أن لم يحسن ، وإن كان محسنا أن لم يزدد " قوله : {ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يكفر عنه سيئاته ويدخله}.

قرأ نافع وابن عامر : بالنون ، والباقون : بالياء.

قوله : {والذين كفروا وكذبوا بآياتنآ} يعني القرآن {أولائك أصحاب النار خالدين فيها وبئس المصير}.

قال ابن الخطيب : فإنه قيل : قال الله تعالى في حق المؤمنين : {ومن يؤمن بالله} بلفظ المستقبل ، وفي حق الكفار قال : " والذين كفروا " بلفظ الماضي ؟ فالجواب : أن تقدير الكلام : ومن يؤمن بالله من الذين كفروا وكذبوا بآياتنا تدخله جنات ومن لم يؤمن منهم أولئك أصحاب النار.

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/٤٩٣٧

فإن يل : قال تعالى : {ومن يؤمن بالله} بلفظ الواحد و " خالدين " بلفظ الجمع ؟ .

فالجواب : ذلك بحسب اللفظ وهذا بحسب المعنى.

١٣٢

فإن قيل : ما الحكمة في قوله تعالى : {وبئس المصير} بعد قوله : {خالدين فيهآ} وذلك بئس المصير ؟ والجواب : أن ذلك وإن كان في معناه فلا بد من التصريح [بما] يؤكده.

جزء : ١٩ رقم الصفحة : ١٢٧

فصل لما ذكر ما للمؤمنين ذكر ما للكفار فقال : {مآ أصاب من مصيبة إلا بإذن الله} أي : بإرادته وقضائه.

وقال الفراء : يريد إلا بأمر الله.

وقيل : إلا بعلم الله.

وقيل : سبب نزول هذه الآية : أن الكفار قالوا : لو كان ما عليه المسلمون حقا لصانهم الله عن المصائب في الدنيا فبين الرب تعالى ما أصاب من مصيبة في نفس أو مال أو قول أو فعل يقتضي هما أو يجب عقابا آجلا أو عاجلا فبعلم الله وقضائه.

فإن قيل : بم يتصل قوله : {مآ أصاب من مصيبة إلا بإذن الله} ؟ .

فالجواب : يتعلق بقوله : {فآمنوا بالله ورسوله} [التغابن : ٨] كما أن من يؤمن بالله يصدق بأنه لا تصيبه مصيبة إلا بإذن الله.

قوله : {ومن يؤمن بالله} يصدق ويعلم أنه لا تصيبه مصيبة إلا بإذن الله {يهد قلبه} للصبر والرضا.

وقيل : يثبته على الإيمان.

وقال أبو عثمان الجيزي : من صح إيمانه يهد الله قلبه لاتباع السنة.

وقيل : {ومن يؤمن بالله يهد قلبه} عند المصيبة فيقول : {إنا لله وإنآ إليه راجعون} [البقرة : ١٥٦].

قال ابن جبير.

وقال ابن عباس : هو أن يجعل في قلبه اليقين ليعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه.

١٣٣

وقال الكلبي : هو إذا ابتلي صبر وإذا أنعم عليه شكر وإذا ظلم غفر.
وقيل : {يهد قلبه} إلى نيل الثواب في الجنة.
قوله : {يهد قلبه}.
قراءة العامة : بالياء مجزوما جوابا للشرك لتقدم ذكر الله.
وابن جبير وابن هرمز طلحة والأزرق : بالنون على التعظيم.
والضحاك وأبو حفص وأبو عبد الرحمن وقتادة : " يهد " مبنيا للمفعول " قلبه " قائم مقام الفاعل.
ومالك بن دينار ، وعمرو بن دينار ، وعكرمة ، " يهدأ " بهمزة ساكنة " قلبه " فاعل به ، بمعنى يطمئن ويسكن.
وعمرو بن فائد : " يهدا " بألف مبدلة من الهمزة كالتي قبلها ، ولم يحذفها نظرا إلى الأصل ، وهي أفصح اللغتين.
وعكرمة ومالك بن دينار أيضا : " يهد " بحذف هذه الألف إجراء لها مجرى الألف الأصلية ، كقول زهير : [الطويل] ٤٧٧٩ - جريء متى يظلم يعاقب بظلمه
سريعا ، وإلا يبد بالظلم يظلم
جزء : ١٩ رقم الصفحة : ١٣٣
." (١)

"مذهب الشافعي.
لولا قوله بعد ذلك : {لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا} [الطلاق : ١] ، وهذا يبطل دخول الثلاث تحت الآية ، وبذلك قال أكثر العلماء.
قال القرطبي : وأما مالك فلم يخف عليه إطلاق الآية ، ولكن الحديث فسرها ، وأما قول الشعبي فمردود بحديث ابن عمر.
واحتج الشافعي بأن عبد الرحمن بن عوف طلق امرأته تماضر بنت الأصبغ الكلبية وهي أم أبي سلمة ثلاث تطليقات في كلمة واحدة ، ولم يبلغنا أن أحدا من الصحابة عاب ذلك عليه.
وأن حفص بن المغيرة طلق امرأته فاطمة بنت قيس على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/٤٩٤٣

تطليقات في كلمة واحدة ، فأبانها منه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يبلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عاب ذلك عليه.

وبحديث عويمر العجلاني ، لما لاعن ، قال : يا رسول الله ، هي طالق ثلاثة ، فلم ينكر عليه النبي صلى الله عليه وسلم.

فصل في نزول العدة للطلاق روى أبو داود عن أسماء بنت يزيد بن السكن الأنصارية ، أنها طلقت على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يكن للمطلقة عدة فأنزل الله – تعالى – حين طلقت أسماء العدة للطلاق ، فكانت أول من أنزل فيها العدة للطلاق.

قوله : {وأحصوا العدة}.

يعني في المدخول بها ، أي : احفظوا الوقت الذي وقع فيه الطلاق.

قيل : أمر بإحصاء العدة لتفريق الطلاق على الأقراء إذا أراد أن يطلق ثلاثا ، وقيل : للعلم ببقاء زمان الرجعة ومراعة أمر النفقة والسكن.

وفي المخاطب الإحصاء أقوال.

أحدها : أنهم الأزواج.

والثاني : هم الزوجات.

والثالث : هم المسلمون.

قال ابن العربي : والصحيح أنهم الأزواج ؛ لأن الضمائر كلها من " طلقتم " ، و " أحصوا العدة " و " لا تخرجوهن " على نظام واحد ، فرجع إلى الأزواج ، ولكن

١٤٩

الزوجات داخلة فيه بالإلحاق ، لأن الزوج يحصي ليراجع ، وينفق أو يقطع ، وليسكن أو يخرج ، وليلحق نسبه أو يقطع ، وهذه أمور كلها مشتركة بينه وبين المرأة ، وتنفرد المرأة دونه بغير ذلك وكذلك الحاكم يفتقر إلى إحصاء العدة للفتوى عليها ، وفصل الخصومة عند المنازعة ، وهذه فوائد الأمر بإحصاء العدة.

قوله : {واتقوا الله ربكم}.

أي : لا تعصوه.

{لا تخرجوهن من بيوتهن}.

أي : ليس للزوج أن يخرجها من مسكن النكاح ما دامت في العدة ، ولا يجوز لها الخروج أيضا لحق الزوج إلا لضرورة ظاهرة ، فإن خرجت أثمت ، ولا تنقطع العدة.

فإن قيل : ما الحكمة في قوله تعالى : {واتقوا الله ربكم} ولم يقتصر على قوله {واتقوا الله} ؟ .

فالجواب : إن في هذا من المبالغة ما ليس في ذلك ، فإن لفظ الرب يفهم منه التربية ، وينبه على كثرة الإنعام بوجوه كثيرة ، فيبالغون في التقوى حينئذ خوفا من فوت تلك التربية.

فصل في الرجعية والمبتوتة.

والرجعية والمبتوتة في هذا سواء ، وذلك لصيانة ماء الرجل ، وهذا معنى إضافة البيوت إليهن ، كقوله تعالى : {واذكرن ما يتلى في بيوتكن} [الأحزاب : ٢٤] ، وقوله تعالى : {وقرن في بيوتكن} [الأحزاب : ٣٣] فهو إضافة إسكان لا إضافة تمليك ، وقوله {لا تخرجوهن} يقتضي أن يكون حقا على الأزواج ، وقوله : {ولا يخرجن} يقتضي أنه حق على الزوجات ، فلا يجوز لها أن تخرج ما لم تنقض عدتها ، فلها أن تخرج إلى ضرورة أو حاجة أثمت ، فإن وقعت ضرورة أو خافت هدما أو غرقا ، فلها أن تخرج إلى منزل آخر ، وكذلك إن كانت لها حاجة من بيع غزل أو شراء قطن ، فيجوز لها الخروج نهارا ولا يجوز ليلا ؛ فإن رجالا استشهدوا بـ " أحد " ، فقالت نساؤهم : نستوحش في بيوتنا فإذن لهن النبي صلى الله عليه وسلم أن يتحدثن عند إحداهن ، إذا كان وقت الليل تأويل كل امرأة إلى بيتها.

وأذن النبي صلى الله عليه وسلم لخالة جابر لما طلقها زوجها أن تخرج لجداد نخلها.

وإذا لزمتها العدة في السفر تعتد ذاهبة وجائية ، والبدوية تنتوي حيث ينتوي أهلها في العدة ، لأن الانتقال في حقهم كالإقامة في حق المقيم.

١٥٠

". (١)

"وقال تعالى : {ومآ آتيتم من ربا ليربو في أموال الناس فلا يربو عند الله ومآ آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولائك هم المضعفون} [الروم : ٣٩] ، ولا شك أن التماس الشكر من جنس المن والأذى ، إذا عرفت ذلك فنقول : القوم لما قالوا : " إنما نطعمكم لوجه الله " بقي فيه احتمال ، أنه أطعمه لوجه الله ولسائر الأغراض على سبيل التشريك ، فلا جرم نفى هذا الاحتمال بقوله تعالى : {لا نريد منكم جزآء ولا

(١) تفسير اللباب لابن عادل ، ص/٤٩٥٠

شكورا}.

فصل في الشكر والكفور الشكور والكفور : مصدران ك " الشكر والكفر " وهو على وزمن " الدخول والخروج " هذا قول جمهور أهل اللغة.

وقال الأخفش : إن شئت جعلت الشكور ، جماعة الشكر ، وجعلت الكفور في قوله تعالى : {فأبى الظالمون إلا كفورا} مثل " برد وبرود " وإن شئت جعلته مصدرا واحدا في معنى جمع مثل : قعد قعودا ، وخرج خروجا.

قوله : {إنا نخاف من ربنا} يحتمل وجهين : أحدهما : إن إحساننا إليكم للخوف من شدة ذلك اليوم لإرادة مكافأتهم.

والثاني : لا نريد منكم المكافأة لخوف عقاب الله تعالى علل المكافأة بخوف عقاب الله على طلب المكافأة بالصدقة.

فإن قيل : إنه - تعالى - لما حكى عنهم الإيفاء بالنذر ، علل ذلك بخوف القيامة فقط ، ولما حكى عنهم الإطعام علل ذلك بأمرين : بطلب رضا الله تعالى ، وبالخوف ، فما الحكمة في ذلك ؟ .

فالجواب : أن النذر هو الذي أوجبه على نفسه لأجل الله ، فلما كان كذلك ، لا جرم علله بخوف القيامة فقط ، وإما الإطعام فالله - تعالى - هو الذي شرعه ، فلا جرم ضم إليه خوف القيامة.

قوله : " يوما عبوسا قمطريرا ".

القمطرير : الشديد ، وأصله كما قال الزجاج : " مشتق من اقمطرت الناقة إذا رفعت ذنبها ، وجمعت قطريها وزمت بأنفها ".

قال الزمخشري : اشتقاقه من القطر ، وجعلت الميم زائدة ؛ قال أسد بن ناعصة : [الخفيف] ٥٠٣٥ - واصطليت الحروب في كل يوم

باسل الشر قمطرير الصباح

جزء : ٢٠ رقم الصفحة : ١٣

٢٥

قال أبو حيان : واختلف النحاة في هذا الوزن ، والأكثر على أنه لا يثبت " افمعل " في أوزان الأفعال ويقال : اقمطر يقمطر فهو مقمطر ؛ قال الشاعر : [الرجز] ٥٠٣٦ - قد جعلت شبوة تزبئر

تكسو لحما وتقمطر

ويوم قمطرير وقماطر : بكعنى شديد ؛ قال الشاعر : [الطويل] ٥٠٣٧ - ففروا إذا ما الحرب ثار غبارها

ولج بها اليوم العبوس القماطر

وقال الزجاج : القمطرير : الذي يعبس حتى يجتمع ما بين عينيه.

انتهى.

فعلى هذا استعماله في اليوم مجاز ، وفي بعض كلام الزمخشري ، أنه جعله من " القمط " فعلى هذا تكن الراءان فيه مزيدتين.

وقال القرطبي : " القمطرير : الطويل " ؛ قال الشاعر :

٥٠٣٨ - شديدا عبوسا قمطريرا

تقول العرب : يوم قمطرير ، وقماطر ، وعصيب بمعنى ؛ وأنشد الفراء : [الطويل] ٥٠٣٩ - بني عمنا هل تذكرون بلاءنا

عليكم إذا ما كان يوم قماطر

بضم القاف ، واقمطر : إذا اشتد ، وقال الأخفش : القمطرير : أشد ما يكن من الأيام وأطوله في البلاء ؛ وأنشد : [الطويل]

٥٠٤٠ - ففروا إذا ما الحرب

البيت المتقدم.

وقال الكسائي : يقال : اقمطر اليوم وازمهر اقمطرارا وازمهرارا ، وهو القمطرير والزمهرير ، ويوم مقمطر ، إذا كاتن صعبا شديدا ؛ قال الهذلي : [الطويل] ٥٠٤١ - بنو الحرب ارضعنا لهم مقمطرة

ومن يلق منا ذلك اليوم يهرب

٢٦

." (١)

"وقال آخر : [الكامل] ٥١٦٦ - والزعفران على ترائبها

شرق به اللبات والنحر

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل ، ص/٥١٤٦

٢٦٣

وقال المثقب العبدي : [الوافر] ٥١٦٧ - ومن ذهب يلوح على تريب

كلون العاج ليس له غصون

وقال الشاعر : [الرجز]

٥١٦٨ - أشرف ثدياها على التريب

وعن ابن عباس وعكرمة : الترائب : ما بين ثدييها.

وقيل : الترائب : التراقي.

وقيل : أضلاع الرجل التي أسفل الصلب.

وحكى الزجاج : أن الترائب أربعة أضلاع من يكنة الصدر ، وأربعة أضلاع من يسرة الصدر.

وعن ابن عباس : أطراف المرء ، يداه ورجلاه وعيناه ، وهو قول الضحاك.

وقيل : عصارة القلب ، وهو قول معمر بن أبي حبيبة.

قال ابن عطية : وفي هذه الأقوال تحكم على اللغة.

وقال سعيد بن جبير : هو الجيد.

وقال مجاهد : ما بين المنكبين والصدر.

وقال القرطبي : والمشهور من كلام العرب أنها عظام الصدر والنحر.

جاء في الحديث : أن الولد يخلق من ماء الرجل ، يخرج من صلبه العظم والعصب ، وماء المرأة التي يخرج من ترائبها اللحم والدم.

حكى القرطبي : أن ماء الرجل يخرج من الدماغ ، ثم يجتمع في الأنثيين ، وهذا لا يعارض : " من بين الصلب والترائب " ؛ لأنه إن نزل من الدماغ ، فإنما يمر بين الصلب والترائب.

قال قتادة : المعنى : يخرج من صلب الرجل وترائب المرأة.

٢٦٤

وحكى الفراء : أن مثل هذا يأتي عن العرب ، فيكون معنى ما بين الصلب : من الصلب.

والمعنى من صلب الرجل وترائب المرأة ، ثم إنا نعلم أن النطفة من جميع أجزاء البدن ، ولذلك يشبه الرجل والديه كثيرا ، وهذه الحكمة في غسل جميع الجسد من خروج المني ، وأيضا فالمكثر من الجماع يجد

وجعا في صلبه وظهره ، وليس ذلك إلا لخلو صلبه عما كان محتبسا من الماء.

قال المهدوي : من جعل المني يخرج من بين صلب الرجل وترائبه ، فالضمير في " يخرج " للماء ، ومن جعله من بين صلب الرجل وترائب المرأة ، فالضمير للإنسان.

قوله : {إنه}.

الضمير للخالق المدلول عليه بقوله تعالى : {خلق} ؛ لأنه معلوم أن لا خالق سواه سبحانه.

قوله : {على رجعه} ، في الهاء وجهان : أحدهما : أنه ضمير الإنسان أي على بعثه بعد موته ، وهو قول ابن عباس وقتادة والحسن وعكرمة ، وهو اختيار الطبري ، لقوله تعالى : {يوم تبلى السرآئر}.

والثاني : أنه ضمير الماء ، أي : يرجع المني في الإحليل أو الصلب.

قاله الضحاك ومجاهد ، والأول قول الضحاك أيضا وعكرمة.

[وعن الضحاك أيضا أن المعنى أنه رد الإنسان من الكبر إلى الشباب ، ومن الشباب إإلى الكبر.

حكاه المهدوي.

وفي الماوردي والثعلبي : إلى الصبا ومن الصبا إلى النطفة.

وقال ابن زيد : إنه على حبس ذلك الماء حتى يخرج لقادر.

وقال الماوردي : يحتمل أنه على أن يعيده إلى الدنيا بعثه إلى الآخرة ؛ لأن الكفار يسألون فيها الرجعة ، والرجع مصدر رجعت الشيء أي : رددته].

٢٦٥

قوله : {يوم تبلى السرآئر}.

فيه أوجه ، وقد رتبها أبو البقاء على الخلاف في الضمير ، فقال : على القول بكون الضمير للإنسان ، فيه أوجه : أحدها : أنه معمول لـ " قادر ".

إلا أن ابن عطية قال - بعد أن حكى أوجها عن النحاة - : " وكل هذه الفرق فرت من أن يكون العامل " لقادر " ، لئلا يظهر من ذلك تخصيص القدرة في ذلك اليوم وحده ".

ثم قال : " وإذا تؤمل المعنى وما يقتضيه فصيح كلام العرب جاز أن يكون العامل " لقادر " ، وذلك أنه قال : " إنه على رجعه لقادر " ؛ لأنه إذا قدر على ذلك في هذا الوقت كان في غيره أقدر بطريق الأولى.

الثاني : أن يكون العامل مضمر على التبيين ، أي : يرجعه يوم تبلى.

الثالث : تقديره : اذكر ، فيكون مفعولا به ، وعلى عوده على الماء يكون العامل فيه : اذكر " انتهى مخلصا.

وجوز بعضهم أن يكون العامل فيه " ناصر " ، وهو فاسد ؛ لأن ما بعد " ما " النافية وما بعد الفاء لا يعمل فيما قبلهما.

وقيل : العامل " رجعه " وهو فاسد ؛ لأنه قد فصل بين المصدر ومعموله بأجنبي ، وهو خر " إن ".

وبعضهم يقتصره في الظرف.

قوله : " تبلى " تختبر وتعرف ؛ قال الراجز : [الرجز] ٥١٦٩ - قد كنت قبل اليوم تزدريني

فاليوم أبلوك وتبتليني

جزء : ٢٠ رقم الصفحة : ٢٦٢

." (١)

"والمشهور أن المراد به الفقير ، ويؤيده ما روي في مصحف عبد الله : " ووجدك عديما ".

وقوله تعالى : {فأغنى } ، أي : فأغناك خديجة وتربية أبي طالب ، ولما اختل ذلك أغناك بمال أبي بكر - رضي الله عنه - ، ولما اختل ذلك أمره بالهجرة وأغناه بإعانة الأنصار - رضي الله عنهم - ، ثم أمره بالجهاد ، وأغناه صلى الله عليه وسلم بالغنائم.

[وقال مقاتل : أغناك بما أعطاك من الرزق.

وقال عطاء : وجدك فقير النفس ، فأغنى قلبك ، وقيل : فقيرا من الحجج والبراهين ، فأغناك بها].

قوله : {فأما اليتيم فلا تقهر}.

اليتيم منصوب بـ " تقهر " ، وبه استدل ابن مالك على أنه لا يلزم من تقديم المعمول تقديم العامل ؛ ألا ترى أن اليتيم منصوب بالمجزوم ، وقد تقدم الجازم ، لو قدمت المجزوم على جازمه ، لامتنع ، لأن المجزوم لا يتقدم على جازمه ، كالمجرور لا يقدم على جاره.

وتقدم ذلك في سورة هود عليه السلام عند قوله تعالى : {ألا يوم يأتيهم ليس مصروفا عنهم} [هود : ٨].

وقرأ العامة : " تقهر " بالقاف من الغلبة ، وابن مسعود ، والشعبي ، وإبراهيم النخعي والأشهب العقيلي ، "

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/٥٢٤٩

تكهر " بالكاف.

كهر في وجهه : أي عبس ، وفلان ذو كهرة ، أي : عابس الوجه.

ومنه الحديث : " فبأبي هو وأمي فوالله ما كهرني ".

قال أبو حيان : " وهي لغة بمعنى قراءة الجمهور " انتهى.

والكهر في الأصل : ارتفاع النهار مع شدة الحر.

وقيل : الكهر : الغلبة ، والكهر : الزجر.

والمعنى : لا تسلط عليه بالظلم ، بل ادفع إليه حقه ، واذكر يتمك.

قاله الأخفش.

وقال مجاهد : لا تحتقر.

وخص اليتيم ، لأنه لا ناصر له غير الله تعالى ، فغلظ في تأثير العقوبة على ظالمه ، والمعنى : عامله كما عاملناك به ، ونظيره : {وأحسن كمآ أحسن الله إليك} [القصص : ٧٧].

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الله الله فيمن ليس له إلا الله ".

٣٩٢

فصل دلت الآية على الlطف باليتيم وبره والإحسان إليه ، قال قتادة : كن لليتيم كالأب الرحيم ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أنا وكافل اليتيم كهاتين ، وأشار بالسبابة والوسطى ".

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من ضم يتيما فكان في نفقته وكفاه مؤنته ، كان له حجابا من النار يوم القيامة ".

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : " من مسح برأس يتيم كان له بكل شعرة حسنة ".

فصل **الحكمة في** أن الله تعالى اختار لنبيه اليتيم ، أنه عرف حرارة اليتم ، فيرفق باليتيم ، وأيضا ليشاركه في الاسم ، فيكرمه لأجل ذلك ، لقوله - عليه الصلاة والسلام - : " إذا سميتم الولد محمدا فأكرموه ووسعوا له في المجلس " وأيضا ليعتمد من أول عمره على الله تعالى ، فيشبه إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - في قوله : " حسبي من سؤالي ، علمه بحالي ".

وأيضا فالغالب أن اليتيم تظهر عيوبه فلما لم يجدوا فيه عيبا ، لم يجدوا فيه مطعنا.

وأيضا جعله يتيما ، ليعلم كل أحد فضيلته ابتداء من الله تعالى ، لا من التعليم ، لأن من له أب فإن أباه

يعلمه ، ويؤدبه.

وأيضا فاليتم والفقر نقص في العادة ، فكونه صلى الله عليه وسلم مع هذين الوصفين من أكرم الخلق كان ذلك قلبا للعادة ، فكان معجزة ظاهرة.

قوله تعالى : {وأما السآئل فلا تنهر} ، أي : فلا تزجره ، يقال : نهره ، وانتهره إذا زجره ، وأغلظ له في القول ، ولكن يرده ردا جميلا.

[قال إبراهيم بن أدهم : نعم القوم السؤال ، يحملون زادنا إلى الآخرة.

وقال إبراهيم النخعي : السائل يريد الآخرة يجيء إلى باب أحدكم فيقول : هل تبعثون إلى أهليكم بشيء.

وقيل : المراد بالسائل الذي يسأل عن الدين].

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " سألت ربي مسألة وددت أني لم أسألها ، قلت : يا رب ، اتخذت إبراهيم خليلا ، وكلمت موسى تكليما ، وسخرت مع داود الجبال يسبحن ،

٣٩٣

وأعطيت فلانا كذا فقال عز وجل : ألم أجدك يتيما فأويتك ؟ ألم أجدك ضالا فهديتك ؟ ألم أجدك عائلا فأغنيتك ؟ ألم أشرح لك صدرك ؟ ألم أوتك ما لم أوت أحدا قبلك خواتيم سورة البقرة ؟ ألم أتخذك خليلا كما اتخذت إبراهيم خليلا ؟ قلت : بلى يا رب ".

قوله : {وأما بنعمة ربك فحدث}.

الجار متعلق بـ " حدث " والفاء غير مانعة من ذلك قال مجاهد : تلك النعمة هي القرآن والحديث.

وعنه أيضا : تلك النعمة هي النبوة ، أي : بلغ ما أنزل إليك من ربك قيل : تلك النعمة هي أن وفقك الله تعالى ، ورعيت حق اليتيم والسائل ، فحدث بها ؛ ليقتدي بك غيرك.

وعن الحسين علي – رضي الله عنهما – قال : إذا عملت خيرا فحدث به الثقة من إخوانك ليقتدوا بك.

إلا أن هذا لا يحسن إلا إذا لم يتضمن رياء ، وظن أن غيره يقتدي به.

" وروى مالك بن نضلة الجشمي ، قال : كنت جالسا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرآني رث الثياب فقال : " ألك مال " ؟ قلت : نعم ، يا رسول الله ، من كل المال ، قال : " إذا آتاك الله مالا فلير أثره عليك ".

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله تعالى جميل يحب الجمال ، ويحب أن يرى أثر نعمته

على عبده ".

فإن قيل : ما الحكمة في أن الله اخر نفسه على حق اليتيم والسائل ؟ فالجواب : كأنه سبحانه وتعالى يقول : أنا غني ، وهما محتاجان ، وحق المحتاج أولى بالتقديم ، واختار قوله : " فحدث " على قوله " فخبر " ليكون ذلك حديثا عنه وينساه ، ويعيده مرة أخرى.

فصل يكبر القارئ في رواية البزي عن ابن كثير ، وقد رواه مجاهدعن ابن عباس ، وروي عن أبي بن كعب ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا بلغ آخر "الضحى"كبر بين كل سورة

٣٩٤

تكبيرة إلى أن يختم القرآن ، ولا يصل آخر السورة بتكبيرة ، بل يفصل بينهما بسكتة ، وكأن المعنى في ذلك أن الوحي تأخر عن النبي صلى الله عليه وسلم أياما ، فقال ناس من المشركين : قد ودعه صاحبه ، فنزلت هذه السورة فقال : " الله أكبر ".

قال مجاهد : قرأت على ابن عباس ، فأمرني به ، وأخبرني به عن أبي عن النبي صلى الله عليه وسلم.

ولا يكبر في [رواية] الباقين ، لأنها ذريعة إلى الزيادة في القرآن.

قال القرطبي : القرآن ثبت نقله بالتواتر سورة ، وآياته ، وحروفه بغير زيادة ، ولا نقصان ، وعلى هذا فالتكبير ليس بقرآن.

" روى الثعلبي عن أبي بن كعب – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " من قرأ سورة {والضحى } كان فيمن يرضاه الله تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم أن يشفع له ، وكتب الله تعالى له من الحسنات بعدد كل يتيم وسائل " والله أعلم.

٣٩٥

جزء : ٢٠ رقم الصفحة : ٣٨٧." (١)

"فصل في تعيين ليلة القدر اختلفوا في تعيين ليلة القدر ، فالأكثرون على أنها ليلة سبع وعشرين ، لحديث أبي ابن كعب : أنها في العشر الأواخر ، وأنها ليلة سبع وعشرين.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من كان متحريا لليلة القدر فليتحرها في ليلة سبع وعشرين ".

" وقال أبي بن كعب : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " ليلة القدر سبع وعشرين ".

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ، ص/٥٣٠٢

وقال أبو بكر الوراق : كرر ذكرها ثلاث مرات ، وهي تسعة أحرف ، فيكون سبعة وعشرين.
وقال عبيد بن عمير : كنت ليلة السابع والعشرين في البحر فأخذت من مائة ، فوجدته عذبا سلسلا.
وقال أبو هريرة وغيره : هي ليلة السنة كلها ، وغليه ذهب أوب حنيفة ، وعنه أنها رفعت ، وأنها إنما كانت مرة واحدة قال الخليل : من قال : إن فضلها لنزول القرآن [يقول] انقطعت ، والجمهور على أنها في كل عام من رمضان ، ثم اختلفوا.
فقيل : هي ليلة الثالث والعشرين ، " لما روى ابن عمر - رضي اله عنه - أن رجلا قال : يا رسول الله ، إني رأيت ليلة القدر في سابعة تبقى ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " أرى رؤياكم قد تواطأت على ثلاث وعشرين ، فمن أراد أن يقوم من الشهر شيئا فليقم ليلة ثلاث وعشرين ".
وقيل : ليلة خمس وعشرين ، " لما روى مسلم عن أبي سعيد الخدري : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " التمسوها في العشر الأواخر ، في تاسعة تبقى ، في سابعة تبقى ، في خامسة تبقى ".
٤٣١
[قال مالك رضي الله عنه : يريد بالتاسعة ليلة إحدى وعشرين ، وبالسابعة ليلة ثلاث وعشرين ، وبالخامسة ليلة خمس وعشرين.
وقيل : سبع وعشرين وقد تقدم].
وقيل : ليلة تسع وعشرين ، " لقول النبي صلى الله عليه وسلم : " ليلة القدر التاسعة والعشرون ، والسابعة والعشرون ".
وقال الحسن - رضي الله عنه - : " ارتقبت الشمس ليلة أربع وعشرين عشرين سنة فرأيتها تطلع بيضاء لا شعاع لها ، يعني من كثرة الأنوار في تلك الليلة ".
[وروي عن أبي بكر - رضي الله عنه - أنها في ليالي الأفراد من النصف الأخير من شهر رمضان مستقلة في ليالي الجمع ، ونظمه محمد ابن الأثير فقال : [الطويل] ٥٢٦٣ - ثلاث شروط هن في ليلة القدر
كذا قال شيخ العرب فيها أبو بكر
جزء : ٢٠ رقم الصفحة : ٤٢٦
فأولها وتر وليلة جمعة
وثالثها النصف الأخير من الشهر

وقيل : هي تنتقل في جميع السنة].

قالوا : والحكمة في إخفائها ليجتهد الناس في إحياء جميع الليالي ، كما أخفى رمضان في الطاعات ، حتى يرغبوا في الكل ، وأخفى ساعة الإجابة في الدعاء ، ليبالغوا في كل الساعات ، وأخفى الاسم الأعظم ، ليعظموا كل الأسماء ، وأخفى قبول التوبة ، ليحافظوا على جميع أقسام التوبة ، وأخفى وقت الموت ، ليخاف الموت المكلف ، وكذلك أخفى هذه الليلة ، ليعظموا جميع ليالي رمضان.

فصل في أحكام تتعلق بليلة القدر نقل القرطبي عن بعض العلماء : أن من علق طلاق امرأته ، أو عتق عبده بليلة القدر لم يقع الطلاق والعتق إلى مضى سنة من يوم حلف ، لأنه لا يجوز إيقاع الطلاق بالشك ، ولم يثبت اختصاصها بوقت ، فلا ينبغي وقوع الطلاق إلا لمضي حول.

وفي هذا نظر ؛ لأنه تقدم عن أبي حنيفة في أحد قوليه أنها رفعت ، فعلى هذا لا ينبغي أن يقع شيء أصلا ، لوجود الخلاف في بقائها.

وروى الثعلبي عن أبي – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من قرأ سورة القدر ، كان كمن صام رمضان ، وأحيا ليلة القدر ".

٤٣٢

جزء : ٢٠ رقم الصفحة : ٤٢٦." (١)

"" صفحة رقم ٢٦١ "

٩٩ وروي ان معاذ بن جبل وثعلبة بن غنم الأنصاري قالا يا رسول الله ما بال الهلال يبدو دقيقا مثل الخيط ثم يزيد حتى يمتلىء ويستوي ثم لا يزال ينقص حتى يعود كما بدا لا يكون على حالة واحدة فنزلت

) مواقيت (

معالم يوقت بها الناس مزارعهم ومتاجرهم ومحال ديونهم وصومهم وفطرهم وعدد نسائهم وأيام حيضهن ومدد حملهن وغير ذلك ومعالم للحج يعرف بها وقته

كان ناس من الأنصار اذا احرموا لم يدخل أحد منهم حائطا ولا دارا ولا فسطاطا من باب فإذا كان من اهل المدر نقب نقبا في ظهر بيته منه يدخل ويخرج أو يتخذ سلما يصعد فيه وإن كان من اهل الوبر خرج من خلف الخباء فقيل لهم

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل ، ص/٥٣١٨

) وليس البر (
بتحرجكم من دخول الباب
) ولكن البر (
بر
) من اتقى (
ما حرم الله
فإن قلت ما وجه اتصاله بما قبله قلت كانه قيل لهم عند سؤالهم عن الأهلة وعن **الحكمة في** نقصانها وتمامها معلوم أن كل ما يفعله الله عز وجل لا يكون الا حكمة بالغة ومصلحة لعباده فدعوا السؤال عنه وانظروا في واحدة تفعلونها أنتم مما ليس من البر في شيء وأنتم تحسبونها برا
ويجوز ان يجري ذلك على طريق الاستطراد لما ذكر انها مواقيت للحج لأنه كان من أفعالهم في الحج
ويحتمل ان يكون هذا تمثيلا لتعكيسهم في سؤالهم وان مثلهم فيه كمثل من يترك باب البيت ويدخله من ظهره
والمعنى ليس البر وما ينبغي ان تكونوا عليه بان تعكسوا في مسائلكم ولكن البر بر من اتقى ذلك وتجنبه ولم يجسر على مثله
ثم قال
) وأتوا البيوت من أبوابها (."(١)
"" صفحة رقم ٣٤٣ "
الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشآء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا والله واسع عليم ٢٦٨
البقرة : (٢٦٨) الشيطان يعدكم الفقر . . . . .
أي يعدكم في الانفاق
) الفقر (
ويقول لكم ان عاقبة انفاقكم ان تفتقروا
وقرىء (الفقر) بالضم (والفقر) بفتحتين والوعد يستعمل في الخير والشر قال الله تعالى

---
(١) تفسير الكشاف ، ١/٢٦١

) النار وعدها الله الذين كفروا (الحج ٧٢

) ويأمركم بالفحشاء (

ويغريكم على البخل ومنع الصدقات اغراء الآمر للمامور

والفاحش عند العرب البخيل

) والله يعدكم (

في الانفاق

) مغفرة (لذنوبكم وكفارة لها

) وفضلا (

وان يخلف عليكم أفضل مما انفقتم أو ثوابا عليه في الآخرة

يؤتى الحكمة من يشآء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا وما يذكر إلا أولوا الألباب ٢٦٩

(

البقرة : (٢٦٩) يؤتي الحكمة من . . . . .

يؤتي الحكمة (

يوفق للعلم والعمل به والحكيم عند الله هو العالم العامل وقريء (ومن يؤت الحكمة بمعنى) ومن يؤته الله الحكمة

وهكذا قرا الأعمش و

) خيرا كثيرا (

تنكير تعظيم كانه قال فقد اوتي أي خير كثير

" وما يذكر الا أولو الألباب "

يريد الحكماء العلاء العمال والمراد به الحث على العمل بما تضمنت الآي في معنى الانفاق

ومآ أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فإن الله يعلمه وما للظالمين من أنصار ٢٧٠

البقرة : (٢٧٠) وما أنفقتم من . . . . .

) وما أنفقتم من نفقة (

في سبيل الله أو في سبيل الشيطان

) أو نذرتم من نذر (
في طاعة الله أو في معصيته
) فإن الله يعلمه (
لا يخفى عليه وهو مجازيكم عليه
) وما للظالمين (
الذين يمنعون الصدقات أو ينفقون اموالهم في المعاصي أو لا يفون بالنذور أو ينذرون في المعاصي
) من أنصار (
ممن ينصرهم من الله ويمنعهم من عقابه
إن تبدوا الصدقات فنعما هى وإن تخفوها وتؤتوها الفقرآء فهو خير لكم ويكفر عنكم من سيئاتكم والله بما تعملون خبير ٢٧١
البقرة : (٢٧١) إن تبدوا الصدقات . . . . .
(ما) في
) نعما (
نكرة غير موصولة ولا موصوفة ومعنى
) فنعما هي (
فنعم شيئا ابداؤها
وقرىء بكسر النون وفتحها
) وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء (
وتصيبوا بها مصارفها مع الاخفاء
) فهو خير لكم (
فالاخفاء خير لكم
والمراد الصدقات المتطوع بها فإن." (١)

---

(١) تفسير الكشاف . ، ٣٤٣/١

"" صفحة رقم ٣٦٦ "

القيامة ٢٣

) لا يأمر بالفحشاء (الأعراف ٢٧

) أمرنا مترفيها (الاسراء ١٦ فإن قلت فهلا كان القرآن كله محكما قلت لو كان كله محكما لتعلق الناس به لسهولة مأخذه ولأعرضوا عما يحتاجون فيه إلى الفحص والتأمل من النظر والاستدلال ولو فعلوا ذلك لعطلوا الطريق الذي لا يتوصل إلى معرفة الله وتوحيده الا به ولما في المتشابه من الابتلاء والتمييز بين الثابت على الحق والمتزلزل فيه ولما في تقادح العلماء وإتعابهم القرائح في استخراج معانيه ورده إلى المحكم من الفوائد الجليلة والعلوم الجمة ونيل الدرجات عند الله ولأن المؤمن المعتقد أن لا مناقضة في كلام الله ولا اختلاف إذا رأى فيه ما يتناقض في ظاهره وأهمه طلب ما يوفق بينه ويجريه على سنن واحد ففكر وراجع نفسه وغيره ففتح الله عليه وتبين مطابقة المتشابه المحكم ازداد طمانينة إلى معتقده وقوة في ايقانه

) الذين في قلوبهم زيغ (

هم اهل البدع

) فيتبعون ما تشابه منه (فيتعلقون بالمتشابه الذي يحتمل ما يذهب اليه المبتدع مما لا يطابق المحكم ويحتمل ما يطابقه من قول أهل الحق

) ابتغاء الفتنة (

طلب ان يفتنوا الناس عن دينهم ويضلوهم

(وابتغاء تأويله)

وطلب ان يأولوه التاويل الذي يشتهونه

) وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم (

أي لا يهتدي إلى تأويله الحق الذي يجب ان يحمل عليه الا الله وعباده الذين رسخوا في العلم أي ثبتوا فيه وتمكنوا وعضوا فيه بضرس قاطع

ومنهم من يقف على قوله (الا الله) ويبتدىء (والراسخون في العلم يقولون) ويفسرون المتشابه بما استأثر الله بعلمه وبمعرفة **الحكمة فيه** من آياته كعدد الزبانية ونحوه والأول هو الوجه

ويقولون كلام مستأنف موضع لحال الراسخين بمعنى هؤلاء العالمون بالتاويل

" يقولون ءامنا به "

أي بالمتشابه

)كل من عند ربنا (

أي كل واحد منه ومن المحكم من عنده أو بالكتاب كل من متشابهه ومحكمه من عند الله الحكيم الذي لا يتناقض كلامه." (١)

"" صفحة رقم ٣٠ "

اتباعه بقوله :) قل إني على بينة من ربى (ومعنى قوله :) إنى على بينة من ربى وكذبتم به (: إني من معرفة ربي وأنه لا معبود سواه ، على حجة واضحة وشاهد صدق) وكذبتم به (أنتم حيث أشركتم به غيره . ويقال : أنا على بينة من هذا الأمر وأنا على يقين منه ، إذا كان ثابتا عندك بدليل . ثم عقبه بما دل على استعظام تكذيبهم بالله وشدة غضبه عليهم لذلك وأنهم أحقاء بأن يغافصوا بالعذاب المستأصل فقال :) ما عندى ما تستعجلون به (يعني العذاب الذي استعجلوه في قولهم :) فأمطر علينا حجارة من السماء ((الأنفال : ٣٢)) إن الحكم إلا لله (في تأخير عذابكم) يقض الحق (أي القضاء الحق في كل كا يقضي من التأخير والتعجيل في أقسامه) وهو خير الفاصلين (أي القاضين . وقرىء : (يقض الحق) أي يتبع الحق والحكمة فيما يحكم به ويقدره ، من قص أثره) لو أن عندى (أي في قدرتي وإمكاني) ما تستعجلون به (من العذاب) لقضى الامر بينى وبينكم (لأهلكتكم عاجلا غضبا لربي وامتعاضا من تكذيبكم به . ولتخلصت منكم سريعا) والله أعلم بالظالمين (وبما يجب في الحكمة من كنه عقابهم . وقيل) على بينة من ربى (على حجة من جهة ربي وهي القرآن) وكذبتم به (أي بالبينة . وذكر الضمير على تأويل البيان أو القرآن . فإن قلت : بم انتصب الحق ؟ قلت : بأنه صفة لمصدر يقضي أي يقضي القضاء الحق . ويجوز أن يكون مفعولا به من قولهم : قضى الدرع إذا صنعها ، أي يصنع الحق ويدبره . وفي قراءة عبد الله : (يقضى بالحق) فإن قلت : لم أسقطت الياء في الخط ؟ قلت : إتباعا للخط اللفظ ، وسقوطها في اللفظ لالتقاء الساكنين .

(وعنده مفاتح الغيب لا يعلمهآ إلا هو ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الا رض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين)

---

(١) تفسير الكشاف ، ١/٣٦٦

الأنعام : (٥٩) وعنده مفاتح الغيب . . . . .

جعل للغيب مفاتح على طريق الاستعارة ، لأن المفاتح يتوصل بها إلى ما في." [١]

"" صفحة رقم ٤٢٩ "

) ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما وكذالك نجزى المحسنين (

يوسف : (٢٢) ولما بلغ أشده . . . . .

قيل في الأشد : ثماني عشرة ، وعشرون ، وثلاث وثلاثون ، وأربعون . وقيل : أقصاه ثنتان وستون) حكما (حكمة وهو العلم بالعمل واجتناب ما يجهل فيه . وقيل : حكما بين الناس وفقها) وكذلك نجزى المحسنين (تنبيه على أنه كان محسنا في عمله ، متقيا في عنفوان أمره ، وأن الله آتاه الحكم والعلم جزاء على إحسانه . وعن الحسن : من أحسن عبادة ربه في شبيبته آتاه الله **الحكمة في** اكتهاله .

) وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه وغلقت الا بواب وقالت هيت لك قال معاذ الله إنه ربى أحسن مثواى إنه لا يفلح الظالمون (

يوسف : (٢٣) وراودته التي هو . . . . .

المراودة : مفاعلة ، من راد يرود إذا جاء وذهب ، كأن المعني : خادعته عن نفسه ، أي : فعلت ما يفعل المخادع لصاحبه عن الشيء الذي لا يريد أن يخرجه من يده ، يحتال أن يغلبه عليه ويأخذه منه ، وهي عبارة عن التحمل لمواقعته إياها) وغلقت الابواب (قيل : كانت سبعة . وقرىء : (هيت) بفتح الهاء وكسرها مع فتح التاء ، وبناؤها كبناء أين ، وعيط . وهيت كجير وهيت كحيث . وهئت بمعنى تهيأت يقال : هاء يهيء ، كجاء يجيء : إذا تهيأ . وهيئت لك واللام من صلة الفعل وأما في الأصوات فللبيان كأنه قيل : لك أقول هذا ، كما تقول : هلم لك) معاذ الله (أعوذ بالله معاذا) أنه (إن الشأن والحديث) ربى (سيدي ومالكي ، يريد قطفير) أحسن مثواى (حين قال لك أكرمي مثواه ، فما جزاؤه أن أخلفه في أهله سوء الخلافة وأخونه فيهم) إنه لا يفلح الظالمون (الذين يجازون الحسن بالسيء . وقيل : أراد الزناة لأنهم ظالمون أنفسهم . وقيل : أراد الله تعالى ، لأنه مسبب الأسباب .

) ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه كذالك لنصرف عنه السوء والفحشآء إنه من عبادنا المخلصين (

---

(١) تفسير الكشاف . ، ٢/٣٠

يوسف : (٢٤) ولقد همت به . . . . .

هم بالأمر إذا قصده وعزم عليه ، قال : هممت ولم أفعل وكدت وليتني

تركت على عثمان تبكي حلائله

ومنه قولك : لا أفعل ذلك ولا كيدا ولا هما . أي ولا أكاد أن أفعله كيدا ، ولا أهم بفعله هما ، حكاه سيبويه ، ومنه : الهمام وهو الذي إذا هم بأمر أمضاه ولم ينكل عنه . وقوله :) ولقد همت به (معناه . ولقد همت بمخالطته) وهم بها (وهم بمخالطتها) لولا أن رأى برهان ربه (جوابه محذوف ، تقديره : لولا أن رأى برهان ربه لخالطها ، فحذف ؛ لأن قوله :) وهم بها (يدل عليه ، كقولك : هممت بقتله لولا أني خفت الله ، معناه لولا." (١)

"" صفحة رقم ٦٣٧ "

تعطنا ذلك ، فأعطناه في الآخرة . فقال : وعزتي وجلالي ، لا أجعل ذرية من خلقت بيدي كمن قلت له كن فكان . ورووا عن أبي هريرة أنه قال : لمؤمن أكرم على الله من الملائكة الذين عنده . ومن ارتكابهم أنهم فسروا) (هو ما سوى الملائكة وحسب بني آدم تفضيلا أن ترفع عليهم الملائكة وهم هم ومنزلتهم عند الله منزلتهم . والعجب من المجبرة كيف عكسوا في كل شيء وكابروا ، حتى جسرتهم عادة المكابرة على العظيمة التي هي تفضيل الإنسان على الملك ، وذلك بعد ما سمعوا تفخيم الله أمرهم وتكثيره مع التعظيم ذكرهم ، وعلموا أين أسكنهم ، وأنى قربهم ، وكيف نزلهم من أنبيائه منزلة أنبيائه من أممهم ، ثم جرهم فرط التعصب عليهم إلى أن لفقوا أقوالا وأخبارا منها :

(٦٢٣) قالت الملائكة : ربنا إنك أعطيت بني آدم الدنيا يأكلون منها ويتمتعون ولم تعطنا ذلك ، فأعطناه في الآخرة . فقال : وعزتي وجلالي ، لا أجعل ذرية من خلقت بيدي كمن قلت له كن فكان . ورووا عن أبي هريرة أنه قال : لمؤمن أكرم على الله من الملائكة الذين عنده . ومن ارتكابهم أنهم فسروا) كثيرا (بمعنى (جميع) في هذه الآية ، وخذلوا حتى سلبوا الذوق فلم يحسوا ببشاعة قولهم : وفضلناهم على جميع ممن خلقنا ، على أن معنى قولهم) على جميع ممن خلقنا (أشجى لحلوقهم وأقذى لعيونهم ، ولكنهم لا يشعرون . فانظر إلى تمحلهم وتشبثهم بالتأويلات البعيدة في عداوة الملأ الأعلى ، كأن جبريل عليه السلام غاظهم حين أهلك مدائن قوم لوط ، فتلك السخيمة لا تنحل عن قلوبهم .

---

(١) تفسير الكشاف ، ٢/٤٢٩

) يوم ندعوا كل أناس بإمامهم فمن أوتى كتابه بيمينه فأولائك يقرءون كتابهم ولا يظلمون فتيلا (الإسراء : (٧١) يوم ندعوا كل . . . . . .

قرىء : (يدعو) ، بالياء والنون . ويدعى كل أناس ، على البناء للمفعول . وقرأ الحسن (يدعوا كل أناس) ، على قلب الألف واوا في لغة من يقول : افعوا . والظرف نصب بإضمار اذكر . ويجوز أن يقال : إنها علامة الجمع ، كما في) وأسروا النجوى الذين ظلموا ((الأنبياء : ٣) والرفع مقدر كما في يدعى ، ولم يؤت بالنون قلة مبالاة بها ، لأنها غير ضمير ، ليست إلا علامة) بإمامهم (بمن ائتموا به من نبي أو مقدم في الدين ، أو كتاب ، أو دين ، فيقال : يا أتباع فلان ، يا أهل دين كذا وكتاب كذا ، وقيل : بكتاب أعمالهم ، فيقال : يا أصحاب كتاب الخير ، ويا أصحاب كتاب الشر . وفي قراءة الحسن (بكتابهم) ومن بدع التفاسير : أن الإمام جمع أم ، وأن الناس يدعون يوم القيامة بأمهاتهم ، وأن الحكمة في الدعاء بالأمهات دون الاباء رعاية حق عيسى عليه السلام ، وإظهار شرف الحسن والحسين ، وأن لا يفتضح أولاد الزنا . وليت شعري أيهما أبدع ؟ أصحة لفظه أم بهاء حكمته ؟) فمن أوتى (من هؤلاء المدعوين) كتابه بيمينه فأولئك يقرءون كتابهم (قيل أولئك ، لأن من أوتي في معنى الجمع . فإن قلت : لم خص أصحاب اليمين بقراءة كتابهم ؟ كأن أصحاب الشمال لا يقرؤن كتابهم ؟ قلت : بلى ، ولكن إذا اطلعوا على ما في كتابهم ، أخذهم ما يأخذ المطالب بالبداء على جناياته ، والاعتراف بمساويه ، أمام التنكيل به والانتقام." (١)

"" صفحة رقم ٢٨٣ "

) نزل (ههنا بمعنى أنزل لا غير ، كخبر بمعنى أخبر ، وإلا كان متدفعا . وهذا أيضا من اعتراضاتهم واقتراحاتهم الدالة على شرادهم عن الحق وتجافيهم عن اتباعه . قالوا : هلا أنزل عليه دفعة واحدة في وقت واحد كما أنزلت الكتب الثلاثة ، وما له أنزل على التفاريق . والقائلون : قريش . وقيل : اليهود . وهذا فضول من القول ومماراة بما لا طائل تحته ؛ لأن أمر الإعجاز والاحتجاج به لا يختلف بنزوله جملة واحدة أو مفرقا . وقوله :) كذالك (جواب لهم ، أي : كذلك أنزل مفرقا . والحكمة فيه : أن نقوي بتفريقه فؤادك حتى تعيه وتحفظه ؛ لأن المتلقن إنما يقوى قلبه على حفظ العلم شيئا بعد شيء ، وجزأ عقيب جزء . ولو ألقى عليه جملة واحدة لبعل به وتعيا بحفظه ، والرسول (صلى الله عليه وسلم) فارقت حاله حال

---

(١) تفسير الكشاف . ، ٦٣٧/٢

موسى وداود وعيسى عليهم السلام ، حيث كان أميا لا يقرأ ولا يكتب وهم كانوا قارئين كاتبين ، فلم يكن له بد من التلقن والتحفظ ، فأنزل عليه منجما في عشرين سنة . وقيل : في ثلاث وعشرين . وأيضا : فكان ينزل على حسب الحوادث وجوابات السائلين ، ولأن بعضه منسوخ وبعضه ناسخ ، ولا يتأتى ذلك إلا فيما أنزل مفرقا . فإن قلت : ذلك في كذلك يجب أن يكون إشارة إلى شيء تقدمه ، والذي تقدم هو إنزاله جملة واحدة ، فكيف فسرته بكذلك أنزلناه مفرقا ؟ قلت : لأن قولهم : لولا أنزل عليه جملة : معناه : لم أنزل مفرقا ؟ والدليل على فساد هذا الاعتراض : أنهم عجزوا عن أن يأتوا بنجم واحد من نجومه ، وتحدوا بسورة واحدة أصغر السور ، فأبرزوا صفحة عجزهم وسجلوا به على أنفسهم حين لاذوا بالمناصبة وفزعوا إلى المحاربة ، ثم قالوا : هلا نزل جملة واحدة ، كأنهم قدروا على تفاريقه حتى يقدروا على جملته) ورتلناه (معطوف على الفعل الذي تعلق به كذلك ، كأنه قال : كذلك فرقناه ورتلناه . ومعنى ترتيله : أن قدره آية بعد آية ، ووقفه عقيب وقفه ، ويجوز أن يكون المعنى : وأمرنا بترتيل قراءته ، وذلك قوله :) ورتل القرءان ترتيلا ((المزمل : ٤) أي اقرأه بترسل وتثبت . ومنه حديث عائشة رضي الله عنها في صفة قراءته (صلى الله عليه وسلم) :

(٧٧٤) (لا كسردكم هذا ، لو أراد السامع أن يعد حروفه يعدها) وأصله : الترتيل." (١)

"" صفحة رقم ٢٩٤ "

) وتوكل على الحى الذى لا يموت وسبح بحمده وكفى به بذنوب عباده خبيرا (

الفرقان : (٥٨) وتوكل على الحي . . . . .

أمره بأن يثق به ويسند أمره إليه في استكفاء شرورهم ، مع التمسك بقاعدة التوكل وأساس الالتجاء وهو طاعته وعبادته وتنزيهه وتحميده ، وعرفه أن الحي الذي لا يموت ، حقيق بأن يتوكل عليه وحده ولا يتكل على غيره من الأحياء الذين يموتون . وعن بعض السلف أنه قرأها فقال : لا يصح لذي عقل أن يثق بعدها بمخلوق ، ثم أراه أن ليس إليه من أمر عباده شيء . آمنوا أم كفروا ، وأنه خبير أحوالهم كاف في جزاء أعمالهم .

) الذى خلق السماوات والا رض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش الرحمان فاسأل به خبيرا (

الفرقان : (٥٩) الذي خلق السماوات . . . . .

---

(١) تفسير الكشاف . ، ٢٨٣/٣

) فـي ستة أيام (يعني في مدة : مقدارها هذه المدة ، لأنه لم يكن حينئذ نهار ولا ليل ، وقيل : ستة أيام من أيام الآخرة ، وكل يوم ألف سنة . والظاهر أنها من أيام الدنيا . وعن مجاهد : أولها يوم الأحد ، وآخرها يوم الجمعة . ووجهه أن يسمي الله لملائكته تلك الأيام المقدرة بهذه الأسماء فلما خلق الشمس وأدارها وترتب أمر العالم على ما هو عليه ، جرت التسمية على هذه الأيام . وأما الداعي إلى هذا العدد أعني الستة دون سائر الأعداد فلا نشك أنه داعي حكمة ؛ لعلمنا أنه لا يقدر تقديرا إلا بداعي حكمة ، وإن كنا لا نطلع عليه ولا نهتدي إلى معرفته . ومن ذلك تقدير الملائكة الذين هم أصحاب النار تسعة عشر ، وحملة العرش ثمانية ، والشهور أثني عشر ، والسماوات سبعا والأرض كذلك ، والصلوات خمسا ، وأعداد النصب والحدود والكفارات وغير ذلك . والإقرار بدواعي الحكمة في جميع أفعاله ، وبأن ما قدره حق وصواب هو الإيمان . وقد نص عليه في قوله :) وما جعلنا أصحاب النار إلا ملئكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين ((المدثر : ٣١) ثم قال :) وما يعلم جنود ربك إلا هو ((المدثر : ٣١) وهو الجواب أيضا في أن لم يخلقها في لحظة ، وهو قادر على ذلك . وعن سعيد بن جبير رضي الله عنهما . إنما خلقها في ستة أيام وهو يقدر على أن يخلقها في لحظة ، تعليما لخلقه الرفق والتثبت . وقيل : اجتمع خلقها يوم الجمعة فجعله الله عيدا للمسلمين . الذي خلق مبتدأ . و) الرحمان (خبره . أو صفة للحي ، والرحمان : خبر مبتدأ محذوف . أو بدل عن المستتر في استوى . وقرىء : (الرحمن) بالجر صفة للحي . وقرىء : (فسل) والباء في به صلة." (١)

"" صفحة رقم ٤٣٢ "

) فعسى أن (يفلح عند الله ، و (عسى) من الكرام تحقيق . ويجوز أن يراد : ترجي التائب وطعمه ، وكأنه قال : فليطمع أن يفلح .

) وربك يخلق ما يشآء ويختار ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون (

القصص : (٦٨) وربك يخلق ما . . . . .

الخيرة من التخير ، كالطيرة من التطير : تستعمل بمعنى المصدر هو التخير ، وبمعنى المتخير كقولهم : محمد خيرة الله من خلقه) ما كان لهم الخيرة (بيان لقوله :) ويختار (لأن معناه : ويختار ما يشاء ، ولهذا لم يدخل العاطف . والمعنى : أن الخير لله تعالى في أفعاله ، وهو أعلم بوجوه الحكمة فيها ، ليس

---

(١) تفسير الكشاف ، ٣/٢٩٤

لأحد من خلقه أن يختار عليه . قيل : السبب فيه قول الوليد بن المغيرة :) لولا نزل هاذا القرءان على رجل من القريتين عظيم ((الزخرف : ٣١) يعني : لا يبعث الله الرسل باختيار المرسل إليهم . وقيل : معناه ويختار الذي لهم فيه الخيرة ، أي : يختار للعباد ما هو خير لهم وأصلح ، وهو أعلم بمصالحهم من أنفسهم ، من قولهم في الأمرين : ليس فيهما خيرة لمختار . فإن قلت : فأين الراجع من الصلة إلى الموصول إذا جعلت ما موصولة ؟ قلت : أصل الكلام : ما كان لهم فيه الخيرة ، فحذف (فيه) كما حذف ، منه في قوله :) إن ذلك لمن عزم الامور ((الشورى : ٤٣) لأنه مفهوم) سبحان الله (أي الله بريء من إشراكهم ومايحملهم عليه من الجراءة على الله واختيارهم عليه ما لا يختار .

) وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون وهو الله لا إلاه إلا هو له الحمد فى الا ولى والا خرة وله الحكم وإليه ترجعون (

القصص : (٦٩) وربك يعلم ما . . . . . .

) ما تكن صدورهم (من عداوة رسول الله وحسده) وما يعلنون (من مطاعنهم فيه . وقولهم : هلا اختير عليه غيره في النبوة) هو الله (وهو المستأثر بالإلهية المختص بها ، و) لا إلاه إلا هو (تقرير لذلك ، كقولك : الكعبة القبلة ، لا قبلة إلا هي . فإن قلت : الحمد في الدنيا ظاهر فما الحمد في الآخرة ؟ قلت : هو قولهم :) الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن ((فاطر : ٣٤) ،) الحمد لله الذى صدقنا وعده ((الزمر : ٧٤)) وقيل الحمد لله رب العالمين ((الزمر : ٧٥) والتحميد هناك على وجه اللذة لا الكلفة . وفي الحديث :

(٨١٨) (يلهمون التسبيح والتقديس)) وله الحكم (القضاء بين عباده .." (١)

"" صفحة رقم ٥٠٠ "

أسود من سودان مصر خياطا ، وعن مجاهد : كان عبدا أسود غليظ الشفتين متشقق القدمين . وقيل : كان نجارا . وقيل : كان راعيا وقيل : كان يحتطب لمولاه كل يوم حزمة . وعنه أنه قال لرجل ينظر إليه : إن كنت تراني غليظ الشفتين فإنه يخرج من بينهما كلام رقيق ، وإن كنت تراني أسود فقلبي أبيض . وروي أن رجلا وقف عليه في مجلسه فقال : ألست الذي ترعى معي في مكان كذا ؟ قال : بلى . قال ما بلغ بك ما أرى ؟ قال : صدق الحديث والصمت عما لا يعنيني . وروي أنه دخل على داود عليه السلام وهو

---

(١) تفسير الكشاف ، ٤٣٢/٣

يسرد الدرع وقد لين الله له الحديد كالطين ، فأراد أن يسأله فأدركته الحكمة فسكت ، فلما أتمها لبسها وقال : نعم لبوس الحرب أنت . فقال : الصمت حكمة وقليل فاعله ، فقال له داود : بحق ما سميت حكيما . وروي أن مولاه أمره بذبح شاة وبأن يخرج منها أطيب مضغتين ، فأخرج اللسان والقلب ، ثم أمره بمثل ذلك بعد أيام وأن يخرج أخبث مضغتين فأخرج اللسان والقلب ، فسأله عن ذلك ؟ فقال : هما أطيب ما فيها إذا طابا ، وأخبث ما فيها إذا خبثا . وعن سعيد بن المسيب أنه قال لأسود : لا تحزن ، فإنه كان من خير الناس ثلاثة من السودان : بلال ومهجع مولى عمر ، ولقمان .) ءان (هي المفسرة ، لأن إيتاء الحكمة في معنى القول ، وقد نبه الله سبحانه على أن الحكمة الأصلية والعلم الحقيقي : هو العمل بهما وعبادة الله والشكر له ، حيث فسر إيتاء الحكمة بالبعث على الشكر) غنى (غير محتاج إلى الشكر) حميد (حقيق بأن يحمد وإن لم يحمده أحد .

) وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يابنى لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم (

لقمان : (١٣) وإذ قال لقمان . . . . . .

قيل : كان اسم ابنه (أنعم) وقال الكلبي : (أشكم) وقيل : كان ابنه وامرأته كافرين ، فما زال بہما حتى أسلما) لظلم عظيم (لأن التسوية بين من لا نعمة إلا هي منه ، ومن لا نعمة منه البتة ولا يتصور أن تكون منه ظلم لا يكتنه عظمه .

) ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله فى عامين أن اشكر لى ولوالديك إلى المصير وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا واتبع سبيل من أناب إلى ثم إلى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون (

لقمان : (١٤) ووصينا الإنسان بوالديه . . . . .

أي) حملته (تهن) وهنا على وهن (كقولك رجع عودا على يده ، بمعنى ؛ يعود." (١)

"" صفحة رقم ٣٠ "

وقرىء : (لتنذر) بالتاء . ولينذر : من نذر به إذا علمه) من كان حيا (أي عاقلا متأملا ، لأن الغافل كالميت . أو معلوما منه أنه يؤمن فيحيا بالإيمان) ويحق القول (وتجب كلمة العذاب) على الكافرين (الذي لا يتأملون ولا يتوقع منهم الإيمان .

---

(١) تفسير الكشاف . ، ٣/٥٠٠

) أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينآ أنعاما فهم لها مالكون وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون) ولهم فيها منافع ومشارب أفلا يشكرون (

يس : (٧١) أو لم يروا . . . . .

) مما عملت أيدينا (مما تولينا نحن إحداثه ولم يقدر على توليه غيرنا ، وإنما قال ذلك لبائع الفطرة والحكمة فيها ، التي لا يصح أن يقدر عليها إلا هو . وعمل الأيدي : استعارة من عمل من يعملون بالأيدي) فهم لها مالكون (أي خلقناها لأجلهم فملكناها إياهم ، فهم متصرفون فيها تصرف الملاك ، مختصون بالانتفاع فيها لا يزاحمون . أو فهم لها ضابطون قاهرون ، من قوله : أصبحت لا أحمل السلاح ولا

أملك رأس البعير إن نفرا

أي لا أضبطه ، وهو من جملة النعم الظاهرة ، وإلا فمن كان يقدر عليها لولا تذليله وتسخيره لها ، كما قال القائل : يصرفه الصبي بكل وجه

ويحبسه على الخسف الجرير

وتضربه الوليدة بالهراوى

فلا غير لديه ولا نكير

ولهذا ألزم الله سبحانه الراكب أن يشكر هذه النعمة ويسبح بقوله : سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين . وقرىء : (ركوبهم) وركوبتهم . وهما ما يركب ، كالحلوب والحلوبة . وقيل : الركوبة جمع . وقرىء : (ركوبهم) أي ذو ركوبهم . أو فمن منافعها ركوبهم) منافع (من الجلود والأوبار والأصواف وغير ذلك) مشارب (من اللبن ، ذكرها مجملة ، وقد فصلها في قوله تعالى :) سكنا وجعل لكم من جلود الانعام بيوتا ((النحل : ٨٠) . . . الآية ، والمشارب : جمع مشرب وهو موضع الشرب ، أو الشرب .

) أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينآ أنعاما فهم لها مالكون وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون) ولهم فيها منافع ومشارب أفلا يشكرون (

) مما عملت أيدينا (مما تولينا نحن إحداثه ولم يقدر على توليه غيرنا ، وإنما قال ذلك لبائع الفطرة والحكمة فيها ، التي لا يصح أن يقدر عليها إلا هو . وعمل الأيدي : استعارة من عمل من يعملون بالأيدي) فهم لها مالكون (أي خلقناها لأجلهم فملكناها إياهم ، فهم متصرفون فيها تصرف الملاك ،

مختصون بالانتفاع فيها لا يزاحمون . أو فهم لها ضابطون قاهرون ، من قوله : أصبحت لا أحمل السلاح ولا

أملك رأس البعير إن نفرا

أي لا أضبطه ، وهو من جملة النعم الظاهرة ، وإلا فمن كان يقدر عليها لولا تذليله وتسخيره لها ، كما قال القائل : يصرفه الصبي بكل وجه

ويحبسه على الخسف الجرير

وتضربه الوليدة بالهراوى

فلا غير لديه ولا نكير

ولهذا ألزم الله سبحانه الراكب أن يشكر هذه النعمة ويسبح بقوله : سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين . وقرىء : (ركوبهم) وركوبتهم . وهما ما يركب ، كالحلوب والحلوبة . وقيل : الركوبة جمع . وقرىء : (ركوبهم) أي ذو ركوبهم . أو فمن منافعها ركوبهم) منافع (من الجلود والأوبار والأصواف وغير ذلك) مشارب (من اللبن ، ذكرها مجملة ، وقد فصلها في قوله تعالى :) سكنا وجعل لكم من جلود الانعام بيوتا ((النحل : ٨٠) . . . الآية ، والمشارب : جمع مشرب وهو موضع الشرب ، أو الشرب .) واتخذوا من دون الله ءالهة لعلهم ينصرون لا يستطيعون نصرهم وهم لهم جند." (١)

"" صفحة رقم ٩١ "

للزهري : هل سمعت ما بلغنا ؟ قال : وما هو ؟ قال : بلغنا أن الخليفة لا يجري عليه القلم ولا تكتب عليه معصية . فقال : يا أمير المؤمنين ، الخلفاء أفضل من الأنبياء ؟ ثم تلا هذه الآية .

) وما خلقنا السمآء والا رض وما بينهما باطلا ذالك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار (ص : (٢٧) وما خلقنا السماء . . . . .

) باطلا (خلقا باطلا ، لا لغرض صحيح وحكمة بالغة . أو مبطلين عابثين ، كقوله تعالى :) وما خلقنا السماوات والارض وما بينهما لاعبين ما خلقناهما إلا بالحق ((الدخان : ٣٩) وتقديره : ذوي باطل أو عبثا ، فوضع باطلا موضعه ، كما وضعوا هنيئا موضع المصدر ، وهو صفة ، أي : ما خلقناهما وما بينهما للعبث واللعب ، ولكن للحق المبين ، وهو أن خلقناها نفوسا أودعناها العقل والتمييز ، ومنحناها التمكين

---

(١) تفسير الكشاف ، ٤/٣٠

، وأزحنا عللها ثم عرضناها للمنافع العظيمة بالتكليف ، وأعددنا لها عاقبة وجزاء على حسب أعمالهم . و) ذالك (إشارة إلى خلقها باطلا ، والظن : بمعنى المظنون أي : خلقها للعبث لا للحكمة هو مظنون الذين كفروا . فإن قلت : إذا كانوا مقرين بأن الله خالق السماوات والأرض وما بينهما بدليل قوله :) ولئن سألتهم من خلق السماوات والارض ليقولن الله ((لقمان : ٢٥) فبم جعلوا ظانين أنه خلقها للعبث لا للحكمة . قلت : لما كان إنكارهم للبعث والحساب والثواب والعقاب ، مؤديا إلى أن خلقها عبث وباطل ، جعلوا كأنهم يظنون ذلك ، ويقولونه ، لأن الجزاء هو الذي سبقت إليه الحكمة في خلق العالم من رأسها ، فمن جحده فقد جحد الحكمة من أصلها ، ومن جحد الحكمة في خلق العالم فقد سفه الخالق ، وظهر بذلك أنه لا يعرفه ول‍ا يقدره حق قدره ، فكان إقراره بكونه خالقا كلا إقرار .

) أم نجعل الذين ءامنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الا رض أم نجعل المتقين كالفجار (

ص : (٢٨) أم نجعل الذين . . . . . .

) أم (منقطعة . ومعنى الاستفهام فيها الإنكار ، والمراد : أنه لو بطل الجزاء كما يقول الكافرون لاستوت عند الله أحوال من أصلح وأفسد ، واتقى وفجر ، ومن سوى بينهم كان سفيها ولم يكن حكيما .

)كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا ءاياته وليتذكر أولو الا لباب (

ص : (٢٩) كتاب أنزلناه إليك . . . . . .

وقرىء : (مباركا) وليتدبروا : على الأصل ، ولتدبروا : على الخطاب . وتدبر." (١)

"" صفحة رقم ٢٥٤ "

وأبوابا وسررا كلها من فضة وزخرف ، وجعلنا لهم زخرفا ، أي : زينة من كل شيء . والزخرف : الزينة والذهب . ويجوز أن يكون الأصل : سقفا من فضة وزخرف ، يعني : بعضها من فضة وبعضها من ذهب ، فنصب عطفا على محل) من فضة (وفي معناه قول رسول الله (صلى الله عليه وسلم) :

(١٠٠٣) (لو وزنت الدنيا عند الله جناح بعوضة ما سقى الكافر منها شربة ماء) فإن قلت : فحين لم يوسع على الكافرين للفتنة التي كان يؤدي إليها التوسعة عليهم من إطباق الناس على الكفر لحبهم الدنيا وتهالكهم عليها ، فهلا وسع على المسلمين ليطبق الناس على الإسلام ؟ قلت : التوسعة عليهم مفسدة أيضا لما تؤدى إليه من الدخول في الإسلام لأجل الدنيا ، والدخول في الدين لأجل الدنيا من دين المنافقين

(١) تفسير الكشاف .، ٩١/٤

، فكانت الحكمة فيما دبر : حيث جعل في الفريقين أغنياء وفقراء ، وغلب الفقر على الغنى .

) ومن يعش عن ذكر الرحمان نقيض له شيطانا فهو له قرين وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون حتى إذا جآءنا قال ياليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم فى العذاب مشتركون (

الزخرف : (٣٦) ومن يعش عن . . . . . .

قرىء (ومن يعش) بضم الشين وفتحها . والفرق بينهما أنه إذا حصلت الآفة في بصره قيل : عشي . وإذا نظر نظر العشي ولا آفة به قيل عشا . ونظيره : عرج ، لمن به." (١)

"" صفحة رقم ٤٧٧ "

) سابقوا (سارعوا مسارعة المسابقين لأقرانهم في المضمار ، إلى جنة) عرضها كعرض السماء والارض (قال السدي : كعرض سبع السموات وسبع الأرضين ، وذكر العرض دون الطول ؛ لأن كل ماله عرض وطول فإن عرضه أقل من طوله ، فإذا وصف عرضه بالبسطة : عرف أن طوله أبسط وأمد . ويجوز أن يراد بالعرض : البسطة ، كقوله تعالى :) فذو دعاء عريض ((فصلت : ٥١) لما حقر الدنيا وصغر أمرها وعظم أمر الآخرة : بعث عباده على المسارعة إلى نيل ما وعد من ذلك : وهي المغفرة المنجية من العذاب الشديد والفوز بدخول الجنة) ذلك (الموعود من المغفرة والجنة) فضل الله (عطاؤه) يؤتيه من يشاء (وهم المؤمنون .

) مآ أصاب من مصيبة فى الا رض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأهآ إن ذلك على الله يسير لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بمآ ءاتاكم والله لا يحب كل مختال فخور الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ومن يتول فإن الله هو الغنى الحميد (

الحديد : (٢٢) ما أصاب من . . . . . .

المصيبة في الأرض : نحو الجدب وآفات الزروع والثمار . وفي الأنفس : نحو الأدواء والموت) فى كتاب (في اللوح) من قبل أن نبرأها (يعني الأنفس أو المصائب) إن ذلك (إن تقدير ذلك وإثباته في كتاب) على الله يسير (وإن كان عسيرا على العباد ، ثم علل ذلك وبين الحكمة فيه فقال :) لكيلا تأسوا ولا تفرحوا (يعني أنكم إذا علمتم أن كل شيء مقدر مكتوب عند الله قل أساكم على الفائت وفرحكم على

---

(١) تفسير الكشاف ،. ٤/٢٥٤

الآتي ؛ لأن من علم أن ما عنده معقود لا محالة : لم يتفاقم جزعه عند فقده ، لأنه وطن نفسه على ذلك ، وكذلك من علم أن بعض الخير واصل إليه ، وأن وصوله لا يفوته بحال : لم يعظم فرحه عند نيله) والله لا يحب كل مختال فخور (لأن من فرح بحظ من الدنيا وعظم في نفسه : اختال وافتخر به وتكبر على الناس . قرىء : (بما آتاكم) وأتاكم ، من الإيتاء والإتيان . وفي قراءة ابن مسعود (بما أوتيتم) فإن قلت : فلا أحد يملك نفسه عند مضرة تنزل به ، ولا عند منفعة ينالها أن لا يحزن ولا يفرح . قلت : المراد : الحزن المخرج إلى ما يذهل صاحبه عن الصبر والتسليم لأمر الله ورجاء ثواب الصابرين ، والفرح المطغى الملهى عن الشكر ؛ فأما الحزن الذي لا يكاد الإنسان يخلو منه مع الاستسلام ، والسرور بنعمة الله والاعتداد بها مع الشكر : فلا بأس بهما) الذين يبخلون (بدل من قوله :) كل مختال فخور (كأنه قال : لا يحب الذين يبخلون ، يريد : الذين يفرحون الفرح المطغى إذا رزقوا مالا وحظا من الدنيا فلحبهم له." (١)

"" صفحة رقم ٦٤٠ "

والكسر . والمعنى : أشد ثبات قدم وأبعد من الزلل . أو أثقل وأغلظ على المصلى من صلاة النهار ، من قوله عليه السلام .

(١٢٣٩) (اللهم اشدد وطأتك على مضر)) وأقوم قيلا (وأسد مقالا وأثبت قراءة لهدو الأصوات . وعن أنس رضي الله عنه أنه قرأ : وأصوب قيلا ، فقيل له : يا أبا حمزة ، إنما هي : وأقوم ؛ فقال : إن أقوم وأصوب وأهيأ واحد . وروى أبو زيد الأنصاري عن أبي سرار الغنوي أنه كان يقرأ : فحاسوا ، بحاء غير معجمة ، فقيل له : إنما هو (جاسوا) بالجيم ، فقال : وجاسوا وحاسوا واحد .

) إن لك فى النهار سبحا طويلا (

المزمل : (٧) إن لك في . . . . .

) سبحا (تصرفا وتقلبا في مهماتك وشواغلك ، ولا تفرغ إلا بالليل ؛ فعليك بمناجاة الله التي تقتض فراغ البال وانتفاء الشواغل . وأما القراءة بالخاء فاستعارة من سبخ الصوف ، وهو نفشه ونشر أجزائه ؛ لانتشار الهم وتفرق القلب بالشواغل : كلفه قيام الليل ، ثم ذكر **الحكمة فيما** كلفه منه : وهو أن الليل أعون على المواطأة وأشد للقراءة ، لهدو الرجل وخفوت الصوت : وأنه أجمع للقلب وأضم لنشر الهم من النهار ؛ لأنه

---

(١) تفسير الكشاف ، ٤/٤٧٧

وقت تفرق الهموم وتوزع الخواطر والتقلب في حوائج المعاش والمعاد . وقيل : فراغا وسعة لنومك وتصرفك في حوائجك وقيل : إن فاتك من الليل شيء فلك في النهار فراغ تقدر على تداركه فيه .

) واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا رب المشرق والمغرب لا إلاه إلا هو فاتخذه وكيلا واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا (

المزمل : (٨ - ١٠) واذكر اسم ربك . . . . .

) واذكر اسم ربك (ودم على ذكره في ليلك ونهارك ، واحرص عليه ، وذكر الله يتناول كل ما كان من ذكر طيب : تسبيح ، وتهليل ، وتكبير ، وتمجيد ، وتوحيد ، وصلاة ، وتلاوة قرآن ، ودراسة علم ، وغير ذلك مما كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يستغرق به ساعة ليله ونهاره) وتبتل إليه (وانقطع إليه . فإن قلت : كيف قيل) تبتيلا (مكان تبتلا ؟ قلت : لأن معنى تبتل بتل نفسه ، فجيء به على معناه مراعاة لحق الفواصل) رب المشرق والمغرب (قرىء مرفوعا على المدح ، ومجرورا على البدل من ربك . وعن ابن عباس : على القسم بإضمار حرف القسم ، كقولك الله لأفعلن ، وجوابه) لا إلاه إلا هو (كما تقول : والله لا أحد في الدار إلا زيد . وقرأ ابن عباس (رب المشارق والمغارب)) فاتخذه وكيلا." (١)

"" صفحة رقم ٦٤٤ "

الله وحده ؛ وتقديم اسمه عز وجل مبتدأ مبنيا عليه يقدر : هو الدال على معنى الاختصاص بالتقدير ؛ والمعنى : إنكم لا تقدرون عليه ، والضمير في) لن تحصوه (لمصدر يقدر ، أي علم أنه لا يصح منكم ضبط الأوقات ولا يتأتى حسابها بالتعديل والتسوية ، إلا أن تأخذوا بالأوسع للاحتياط : وذلك شاق عليكم بالغ منكم) فتاب عليكم (عبارة عن الترخيص في ترك القيام المقدر . كقوله :) فتاب عليكم وعفا عنكم فالن باشروهن ((البقرة : ١٨٧) والمعنى : أنه رفع التبعة في تركه عنكم ، كما يرفع التبعة عن التائب . وعبر عن الصلاة بالقراءة ؛ لأنها بعض أركانها ، كما عبر عنها بالقيام والركوع والسجود يريد : فصلوا ما تيسر عليكم ، ولم يتعذر من صلاة الليل ؛ وهذا ناسخ للأول ، ثم نسخا جميعا بالصلوات الخمس . وقيل هي قراءة القرآن بعينها ؛ قيل : يقرأ مائة آية ومن قرأ مائة آية في ليلة لم يحاجه القرآن ، وقيل : من قرأ مائة آية كتب من القانتين . وقيل : خمسين آية . وقد بين الحكمة في النسخ . وهي تعذر القيام على المرضى ، والضاربين في الأرض للتجارة ، والمجاهدين في سبيل الله . وقيل : سوى الله بين المجاهدين والمسافرين

---

(١) تفسير الكشاف . ، ٤/٦٤٠

لكسب الحلال . وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه :
(١٢٤١) أيما رجل جلب شيئا إلى مدينة من مدائن المسلمين صابرا محتسبا ، فباعه بسعر يومه : كان عند الله من الشهداء . وعن عبد الله بن عمر : ما خلق الله موتة أموتها بعد القتل في سبيل الله أحب إلي من أن أموت بين شعبتي رجل : أضرب في الأرض أبتغى من فضل الله . و) علم (استئناف على تقدير السؤال عن وجه النسخ) وأقيموا الصلواة (يعني المفروضة والزكاة الواجبة وقيل : زكاة الفطر ؛ لأنه لم يكن بمكة زكاة . وإنما وجبت بعد ذلك . ومن فسرها بالزكاة الواجبة جعل آخر السورة مدنيا) وأقرضوا الله قرضا حسنا (يجوز أن يريد : سائر الصدقات وأن يريد : أداء الزكاة على أحسن وجه : من إخراج أطيب المال وأعوده على الفقراء ، ومراعاة النية وابتغاء وجه الله ، والصرف إلى المستحق ، وأن يريد : كل شيء يفعل من الخير مما يتعلق بالنفس والمال) خيرا (ثاني مفعولي وجد . وهو فصل . وجاز وإن لم يقع بين معرفتين . لأن أفعل من." (١)

"" صفحة رقم ٦٥٤ "

عداهم ، كأنه قال : ولتخالف حالهم حال الشاكين المرتابين من أهل النفاق والكفر . فإن قلت : كيف ذكر الذين في قلوبهم مرض وهم المنافقون ، والسورة مكية ، ولم يكن بمكة نفاق ، وإنما نجم بالمدينة ؟ قلت : معناه وليقول المنافقون الذين ينجمون في مستقبل الزمان بالمدينة بعد الهجرة) والكافرون (بمكة) ماذا أراد الله بهاذا مثلا (وليس في ذلك إلا إخبار بما سيكون كسائر الإخبارات بالغيوب ، وذلك لا يخالف كون السورة مكية . ويجوز أن يراد بالمرض : الشك والارتياب ، لأن أهل مكة كان أكثرهم شاكين وبعضهم قاطعين بالكذب . فإن قلت : قد علل جعلهم تسعة عشر بالاستيقان وانتفاء الارتياب وقول المنافقين والكافرين غرضا ؟ قلت : أفادت اللام معنى العلة والسبب ، ولا يجب في العلة أن تكون غرضا ، ألا ترى إلى قولك : خرجت من البلد لمخافة الشر ، فقد جعلت المخافة علة لخروجك وما هي بغرضك .) مثلا (تمييز لهذا ، أو حال منه ، كقوله :) هاذه ناقة الله لكم ءاية ((هود : ٦٤) ، فإن قلت : لم سموه مثلا ؟ قلت : هو استعارة من المثل المضروب . لأنه مما غرب من الكلام وبدع ، استغرابا منهم لهذا العدد واستبداعا له . والمعنى : أي شيء أراد الله بهذا العدد العجيب ، وأي غرض قصد في أن جعل الملائكة تسعة عشر لا عشرين سواء ، ومرادهم إنكاره من أصله ، وأنه ليس من عند الله ، وأنه لو كان من

---

(١) تفسير الكشاف ، ٤/٦٤٤

عند الله لما جاء بهذا العدد الناقص . الكاف في) كذلك (نصب ، وذلك : إشارة إلى ما قبله من معنى الإضلال والهدى ، أي : مثل ذلك المذكور من الإضلال والهدى يضل الكافرين ويهدي المؤمنين ، يعني : يفعل فعلا حسنا مبنيا على الحكمة والصواب ، فيراه المؤمنون حكمة ويذعنون له لاعتقادهم أن أفعال الله كلها حسنة وحكمة فيزيدهم إيمانا ، وينكره الكافرون ويشكون فيه فيزيدهم كفرا وضلالا) وما يعلم جنود ربك (وما عليه كل جدد من العدد الخاص من كون بعضها على عقد كامل وبعضها على عدد ناقص ، وما في اختصاص كل جند بعدده من الحكمة) إلا هو (ولا سبيل لأحد إلى معرفة ذلك كما لا يعرف الحكمة في أعداد السموات والأرضين وأيام السنة والشهور والبروج والكواكب وأعداد النصب والحدود والكفارات والصلوات في الشريعة أو : وما يعلم جنود ربك لفرط كثرتها إلا هو ، فلا يعز عليه تتميم الخزنة عشرين ، ولكن له في هذا العدد الخاص حكمة لا تعلمونها وهو يعلمها . وقيل : هو جواب لقول أبي جهل : أما لرب محمد أعوان إلا تسعة عشر ، وما جعلنا أصحاب النار إلى قوله إلا هو : اعتراض . وقوله :) وما هي إلا ذكرى (متصل بوصف سقر وهي ضميرها أي : وما سقر وصفتها إلا تذكرة) للبشر (أو ضمير الآيات التي ذكرت فيها .." (١)

"" صفحة رقم ٧٥٣ "

عليه فقد اختبر حاله أيصبر أم يجزع ؟ فالحكمة فيهما واحد . ونحوه قوله تعالى :) ونبلوكم بالشر والخير فتنة ((الأنبياء : ٣٥) ، فإن قلت : هلا قال : فأهانه وقدر عيه رزقه ، كما قال فأكرمه ونعمه ؟ قلت لأن البسط إكرام من الله لعبده بإنعامه عليه متفضلا من غير سابقة ، وأما التقدير فليس بإهانة له ؛ لأن الإخلال بالتفضل لا يكون إهانة ، ولكن تركا للكرامة ، وقد يكون المولى مكرما لعبده ومهينا له ، وغير مكرم ولا مهين ؛ وإذا أهدى لك زيد هدية قلت : أكرمني بالهدية ، ولا تقول : أهانني ولا أكرمني إذا لم يهد لك . فإن قلت : فقد قال :) فأكرمه (فصحح إكرامه وأثبته ، ثم أنكر قوله :) ربى أكرمن (وذمه عليه ، كما أنكر قوله :) أهانن (وذمه عليه . قلت : فيه جوابان ، أحدهما : أنه إنما أنكر قوله ربي أكرمن وذمه عليه ، لأنه قال على قصد خلاف ما صححه الله عليه وأثبته ، وهو قصده إلى أن الله أعطاه ما أعطاه إكراما له مستحقا مستوجبا على عادة افتخارهم وجلالة أقدارهم عندهم ، كقوله :) إنما أوتيته على علم عندى ((القصص : ٧٨) ، وإنما أعطاه الله على وجه التفضل من غير استيجاب منه له ولا سابقة ما لا

---

(١) تفسير الكشاف ، ٤/٦٥٤

يعتد الله إلا به ، وهو التقوى دون الأنساب والأحساب التي كانوا يفتخرون بها ويرون استحقاق الكرامة من أجلها . والثاني : أن ينساق الإنكار والذم إلى قوله :) ربى أهانن (يعني أنه إذا تفضل عليه بالخير وأكرم به اعترف بتفضل الله وإكرامه ، وإذا لم يتفضل عليه سمى ترك التفضل هوانا وليس بهوان ، ويعضد هذا الوجه ذكر الإكرام في قوله :) فأكرمه (وقرىء (فقدر) بالتخفيف والتشديد وأكرمن ، وأهانن : بسكون النون في الوقف ، فيمن ترك الياء في الدرج مكتفيا منها بالكسرة .

)كلا بل لا تكرمون اليتيم ولا تحاضون على طعام المسكين وتأكلون." (١)

٤٦"

سورة البقرة مدنية وهي مائتان وسبع وثمانون آية

سورة البقرة الآيات ١ - ٢

قال الفقيه رحمة الله عليه حدثنا أبي رحمه الله قال حدثني محمد بن حامد قال حدثنا علي بن إسحاق قال حدثنا محمد بن مروان عن عطاء بن السائب عن أبي الضحى عن ابن عباس في قوله تعالى " الم " قال أنا الله أعلم ومعنى قول ابن عباس أنا الله أعلم يعني الألف أنا واللام الله والميم أعلم لأن القرآن نزل بلغة العرب والعرب قد كانت تذكر حرفا وتريد به تمام الكلمة ألا ترى إلى قول القائل

(قلنا لها قفي فقالت قاف % لا تحسبي أنا نسينا الإيجاف)

يعني بالقاف قد وقفت

وقال الكلبي هذا قسم أقسم الله تعالى بالقرآن أن هذا الكتاب الذي أنزل على قلب محمد صلى الله عليه وسلم هو الكتاب الذي نزل من عند الله تعالى لا ريب فيه وقال بعض أهل اللغة إن هذا الذي قال الكلبي لا يصح لأن جواب القسم معقود على حروف مثل إن وقد ولقد وما واللام وهنا لم نجد حرفا من هذه الحروف فلا يجوز أن يكون يمينا ولكن الجواب أن يقال موضع القسم قوله " لا ريب فيه " فلو أن إنسانا حلف فقال والله هذا الكتاب لا ريب فيه لكان الكلام سديدا وتكون " لا " جوابا للقسم فثبت أن قول الكلبي صحيح سديد فإن قيل إيش الحكمة في القسم من الله تعالى وكان القوم في ذلك الزمان على صنفين مصدق ومكذب فالمصدق يصدق بغير قسم والمكذب لا يصدق مع القسم قيل له القرآن نزل بلغة

(١) تفسير الكشاف ، ٧٥٣/٤

العرب والعرب إذا أراد بعضهم أن يؤكد كلامه أقسم على كلامه فالله تعالى أراد أن يؤكد عليهم بالحجة فأقسم أن القرآن من عنده." (١)

"

٨٤

ثم قال تعالى " قد علم كل أناس مشربهم " أي قد عرف كل سبط مشربهم أي موضع شربهم من العيون لا يخالطهم فيها غيرهم والحكمة في ذلك أن الأسباط كانت بينهم عصبية ومباهاة وكل سبط منهم لا يتزوج من سبط آخر وأراد كل سبط تكثير نفسه فجعل لكل سبط منهم نهرا على حدة يستقون منه ويسقون دوابهم لكيلا يقع بينهم جدال ومخاصمة ويقال كان الحجر من الجنة ويقال رفعه موسى من أسفل البحر حيث مر فيه مع قومه ويقال كان حجرا من أحجار الأرض

قوله تعالى "كلوا واشربوا من رزق الله " يعني قيل لهم كلوا من المن والسلوى واشربوا من ماء العيون

وقوله تعالى " ولا تعثوا في الأرض مفسدين " يعني لا تعملوا في الأرض بالمعاصي يقال عثا يعثو عثوا إذا أظهر الفساد وعثي يعثى عثيا وعاث يعيث عيوثا ومعاثا ثم أجمعوا من المن والسلوى

سورة البقرة آية ٦١

قوله تعالى " وإذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد " يعني من جنس واحد " فادع لنا ربك " يعني سل لنا ربك " يخرج لنا مما تنبت الأرض " يعني مما تخرج الأرض " من بقلها وقثائها " وقوله " بقلها " أراد به البقول كلها وقوله " وقثائها " أراد به جميع ما يخرج من الفاكهة نحو القثاء والبطيخ ونحو ذلك وقوله " وفومها " يعني طعامها وهي الحبوب كلها ويقال هي الحنطة خاصة وقال مجاهد الفوم الخبز وقال الفراء فومي لنا يا جارية يعني اخبزي لنا ويقال الفوم هو الثوم والعرب تبدل الفاء بالثاء لقرب مخرجيهما وفي قراءة عبد الله بن مسعود " وثومها وعدسها وبصلها "

فغضب عليهم موسى و " قال أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير " يعني أتستبدلون الردئ من الطعام بالذي هو خير يعني بالشريف الأعلى ويقال معناه تسألون الدنيء من الطعام وقد أعطاكم الله الشريف منه وهو المن والسلوى ويقال أتختارون الدنيء الخسيس وهو الثوم والبصل على الذي هو أعلى وأشرف وهو المن والسلوى فقال لهم " اهبطوا مصرا " قرأ أبي بن كعب وابن مسعود رضي الله عنهما بلا تنوين يعني

---

(١) بحر العلوم . ، ٤٥/١

مصر الذي خرجتم منه وهو مصر فرعون ومن قرأ " مصرا " بالتنوين يعني ادخلوا مصرا من الأمصار " فإن لكم " فيه " ما سألتم " تزرعون وتحصدون
(١) ".

٢٠٤"

ثم قال تعالى " يؤتي **الحكمة من** يشاء " قال ابن عباس يعني النبوة وقال الكلبي يعني الفقه وقال مقاتل يعني علم القرآن ويقال الإصابة في القول ويقال المعرفة بمكائد الشيطان ووساوسه وقال مجاهد الإصابة في القول والفهم والفقه " ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا " يقول من يعط علم القرآن فقد أعطي خيرا كثيرا " وما يذكر " يعني لا يتفكر في ذلك " إلا أولو الألباب " يعني إلا ذوي العقول ويقال إن من أعطي الحكمة والقرآن فقد أعطي أفضل مما أعطي من جميع كتب الأولين من الصحف وغيرها لأنه تعالى قال لأولئك " وما أوتيتم من العلم إلا قليلا " سورة الإسراء ٨٥ وسمي هذا " خيرا كثيرا " لأن هذا جوامع الكلم

وقال بعض الحكماء من أعطي من العلم والقرآن ينبغي أن يعرف نفسه ولا يتواضع لأصحاب الدنيا لأجل دنياهم لأن ما أعطي أفضل مما أعطي أصحاب الدنيا لأن الله تعالى سمى الدنيا متاعا قليلا وقال " قل متاع الدنيا قليل " النساء ٧٧ وسمى العلم " خيرا كثيرا " البقرة ٢٦٩

سورة البقرة الآيات ٢٧٠ - ٢٧١

قوله تعالى " وما أنفقتم من نفقة " يقول ما تصدقتم من صدقة " أو نذرتم من نذر " فوفيتم بنذوركم " فإن الله يعلمه " يعني يحصيه ويقبله منكم وهذا وعد من الله تعالى فكأنه يقول إنه لا ينسى بل يعطي ثوابكم " وما للظالمين من أنصار " يعني ليس للمشركين من مانع في الآخرة يمنعهم من العذاب

ثم قال تعالى " إن تبدوا الصدقات " وذلك أن الله تعالى لما حثهم على الصدقة سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا يا رسول الله صدقة السر أفضل أم صدقة العلانية فنزل قوله " إن تبدوا الصدقات " يعني إن تعلنوا الصدقات المفروضة " فنعما هي " قرأ حمزة والكسائي وابن عامر " فنعما هي " بنصب النون وكسر العين وقرأ أبو عمرو وعاصم في رواية حفص ونافع في رواية ورش وابن كثير بكسر النون وكسر العين وقرأ أبو عمرو وءاصم في رواية أبي بكر " فنعما " بكسر النون وجزم العين وكل ذلك جائز وفيه ثلاث لغات

---

(١) بحر العلوم . ، ١/٨٤

نعم نعم ونعم وما زيدت فيها للصلة

قوله تعالى " ويكفر عنكم سيئاتكم " وقرأ ابن عامر وعاصم في رواية حفص " ويكفر " بالياء وضم الراء وقرأ حمزة ونافع والكسائي " ونكفر " بالنون وجزم الراء وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم في رواية أبي بكر " ونكفر " بالنون وضم الراء فمن قرأ بالجزم فهو جزاء." (١)

"٢١٩

في ذلك الوقت والثالث حيث يقبض روحي ملك الموت فيقول يا رب أمع الكفر أم مع الإيمان فلا أدري كيف يخرج الجواب والرابع حيث يقول " وامتازوا اليوم أيها المجرمون " يس٥٩ فلا أدري من أي الفريقين أكون وإلى هذا ذهب أهل الخبر

ثم قال تعالى " لا إله إلا هو " يعني لا خالق ولا مصور إلا هو " العزيز الحكيم " يعني المنيع بالنقمة لمن جحده " الحكيم " يحكم تصوير الخلق على ما يشاء

سورة آل عمران الآيات ٧ - ٩

قوله تعالى " هو الذي أنزل عليك الكتاب " يعني جبريل أنزل بالقرآن " منه آيات محكمات " يعني من القرآن آيات واضحات ويقال مبينات بالحلال والحرام ويقال ناسخات لم تنسخ قط " هن أم الكتاب " يعني أصل كل كتاب وهي ثلاث آيات من سورة الأنعام وهو قوله تعالى " قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم " الأنعام ١٥١ إلى آخر الآيات وروي عن ابن عباس أنه سمع رجلا يقول فاتحة الكتاب أم الكتاب فقال له ابن عباس بل أم الكتاب قوله تعالى " قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم " الأنعام ١٥١ إلى آخر ثلاث آيات

ثم قال تعالى " وأخر متشابهات " قال الضحاك يعني منسوخات وقال الكلبي يعني ما اشتبه على اليهود كعب بن الأشرف وأصحابه " الألم " و " المر " ويقال المحكم ما كان واضحا لا يحتمل التأويل والمتشابه الذي يكون اللفظ يشبه اللفظ والمعنى مختلف

ويقال المحكم الذي هو حقيقة اللغة والمتشابه ما كان مجازا ويقال المحكمات التي فيها دلالة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم والمتشابه الذي اشتبهت الدلالة فيه فإن قيل إذا أنزل القرآن للبيان فكيف لم يجعل كله واضحا قيل له **الحكمة في** ذلك والله أعلم أن يظهر فضل العلماء لأنه لو كان الكل واضحا لم يظهر

---

(١) بحر العلوم .، ١/٢٠٤

فضل العلماء بعضهم على بعض وهكذا يفعل كل من يصنف تصنيفا يجعل بعضه واضحا وبعضه مشكلا ويترك للحيرة موضعا لأن ما هان وجوده قل بهاؤه

ثم قال تعالى " فأما الذين في قلوبهم زيغ " يعني ميل عن الحق وهم اليهود " فيتبعون ما تشابه منه " قال الضحاك يعني ما نسخ منه " ابتغاء الفتنة " يعني طلب الشرك واستبقاؤه ما." (١)

"٢٣٥

وقال مقاتل كانت أختها امرأة زكريا وكانت إذا طهرت من حيضها واغتسلت ردها إلى المحراب وقال بعضهم كانت لا تحيض وكانت مطهرة من الحيض وكان زكريا إذا دخل عليها في أيام الشتاء رأى عندها فاكهة الصيف وإذا دخل عليها في أيام الصيف رأى عندها فاكهة الشتاء وكانت الحكمة في ذلك أن لا يدخل في قلب زكريا شيء من الريبة إذا رأى الفاكهة في غير أوانها وعلم أنه لم يدخل عليها أحد من الآدميين فذلك قوله تعالى "كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا " ويقال " المحراب " في اللغة أشرف المجالس وهو المكان العالي وقد قيل إن مساجدهم كانت تسمى المحاريب ف " قال " لها زكريا " يا مريم أنى لك هذا " يعني من أين لك هذا فإنه لا يدخل عليك أحد غيري " فقالت " مريم " هو " أي هذا الرزق " من عند الله " يعني من فضل الله " إن الله يرزق من يشاء بغير حساب " في غير حينه ويقال من حيث لا يحتسب

سورة آل عمران ٣٨

قوله تعالى " هنالك دعا زكريا ربه " يقول عند ذلك طمع في الولد وكان آيسا من ذلك وكان مفاتيح بيت القربان عند آبائه وقد صار ذلك بيده وكان يخشى أن يخرج من أهل بيته إذا مات فقال عند ذلك إن الله قادر على أن يأتيها برزق الشتاء في الصيف وبرزق الصيف في الشتاء فهو قادر أن يرزق لي الولد بعد الكبر فذلك قوله تعالى " هنالك دعا زكريا ربه " " قال رب هب لي من لدنك " يعني من عندك " ذرية طيبة " يعني نقيه مهذبه ويقال مستوي الخلق ويقال مسلمة مطيعة ويقال تقيه " أنك سميع الدعاء " أي مجيبا له

سورة آل عمران ٣٩ - ٤٠

قوله تعالى " فنادته الملائكة " قرأ حمزة والكسائي بالياء يعني ناداه جبريل عليه السلام وإنما صار مذكرا على معنى الجنس كما يقال فلان ركب السفن وإنما ركب سفينة واحدة وقرأ الباقون " فنادته " على معنى

---

(١) بحر العلوم.، ٢١٩/١

التأنيث لأن اللفظ لفظ الجماعة والمراد به أيضا جبريل " إن الله يبشرك بيحييى " قرأ حمزة وابن عامر " إن الله يبشرك " بكسر الألف ومعناه فنادته الملائكة وقالوا له إن الله يبشرك وقرأ الباقون بالنصب ومعناه فنادته الملائكة بأن الله يبشرك " بيحيى " قال مقاتل اشتق اسمه من اسم الله تعالى حي والله تعالى حي فسماه الله تعالى يحيي ويقال لأنه حيي به رحم أمه ويقال لأنه حي به المجالس

ثم قال تعالى " مصدقا بكلمة من الله " يعني بعيسى عليه السلام وكان يحيى أول من." (١)

١٠٣"

ربهم وهي الجنة وقال إبن عباس يعني السعادة عند ربهم وهي الجنة وروي عن أبي سعيد الخدري أنه قال يعني شفاعة محمد صلى الله عليه وسلم لهم شفيع صدق عند ربهم وقال الحسن هي رضوان الله في الجنة وقال القتبي " قدم صدق " يعني عملا صالحا قدموه

" قال الكافرون إن هذا لساحر مبين " قرأ نافع وأبو عمرو وإبن عامر " لسحر " بغير ألف يعني إن هذا القرآن لسحر مبين يعني كذب بين ظاهر وقرأ الباقون " لساحر مبين " يعني أن الذي يقرأ عليهم القرآن لساحر مبين فالساحر إسم والسحر فعل فإن قيل إذا قال الكفار هذا القول فما **الحكمة في** حكاية كلامهم في القرآن قيل له **الحكمة فيه** من وجوه أحدها أنهم كانوا يقولون قولا فيما بينهم فيظهر قولهم عند النبي صلى الله عليه وسلم فكان في ذلك علامة لنبوته لمن أيقن به والثاني أن في ذلك تعزية للنبي صلى الله عليه وسلم ليصبر على ذلك كما قال " فاصبر على ما يقولون " والثالث أن في ذلك تنبيها لمن بعده أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ولا يمتنع بما يسمع من المكروه

سورة يونس ٣ - ٥

قوله تعالى " إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم إستوى على العرش " وقد ذكرناه ثم قال " يدبر الأمر " يعني يقضي القضاء وينظر في تدبير الخلق وروى الأعمش عن عمرو بن مرة عن إبن سابط قال مدبر أمر الدنيا أربعة جبريل وميكائيل وملك الموت وإسرافيل أما جبريل فعلى الرياح والوحي والجنود وأما ميكائيل فعلى النبات والمطر وأما ملك الموت فعلى الأنفس وأما إسرافيل فينزل إليهم بما يؤمرون " ما من شفيع إلا من بعد إذنه " لأن الكفار كانوا يعبدون الأصنام ويقولون هم شفعاؤنا عند الله وبعضهم كانوا يعبدون الملائكة فأخبر الله تعالى أنه لا شفاعة لأحد إلا بإذن الله ويقال " ما من شفيع إلا

---

(١) بحر العلوم.، ٢٣٥/١

من بعد إذنه " يعني لا يشفع أحد لأحد يوم القيامة من الملائكة ولا من المرسلين إلا من بعد إذنه في الشفاعة لهم

" ذلكم الله ربكم " يعني الذي يفعل هذا من خلق السموات والأرض وتدبير الخلق هو ربكم وخالقكم " فاعبدوه " فدل أولا على وحدانيته وتدبيره ثم أمرهم بالتوحيد والطاعة." (١)

"٣١٣

وأما الآخر فكان لا يستنزه عن البول ثم أخذ جريدتين من شجر وغرس إحداهما في قبر والأخرى في قبر الآخر فقال لعلهما لا يعذبان ما دامتا رطبتين قال الحكماء **الحكمة في** ذلك أنهما ما دامتا رطبتين تسبحان الله تعالى ويقال معناه ما من شيء إلا يسبح بحمده ويقال معناه " وإن من شيء إلا يسبح بحمده " يدل على وحدانية الله تعالى ويسبحه فإن الله خالقه " ولكن لا تفقهون تسبيحهم " يعني أثر صنعه فيهم هذا بعيد وهو خلاف أقاويل المفسرين " إنه كان حليما " حيث لم يجعل العقوبة لمن إتخذ معه آلهة " غفورا " لمن تاب منهم

سورة الإسراء ٤٥ - ٤٧

قوله عز وجل " وإذا قرأت القرآن " يعني إذا أخذت في قراءة القرآن " جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا " قال بعضهم الحجاب المستور هو أن يمنعهم عن الوصول إليه كما روي أن إمرأة أبي لهب جاءت إلى النبي صلى الله عليه وسلم وكان عنده أبو بكر فدخلت فقالت لأبي بكر هجاني صاحبك قال أبو بكر والله هو ما ينطق بالشعر ولا يقوله فرجعت فقال أبو بكر أما رأتك يا رسول الله فقال النبي صلى الله عليه وسلم لم يزل بيني وبينها ملك يسترني عنها حتى رجعت وقال قتادة الحجاب المستور هو الأكنة وقال مقاتل الحجاب المستور هو قوله " وجعلنا على قلوبهم أكنة " أي جعلنا أعمالهم على قلوبهم أغطية حتى لا يرغبوا في الحق ويقال " جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة " يعني الجن والشياطين " حجابا مستورا " فلا يصلون إليك وقال الكلبي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا تلا القرآن ستره الله وحجبه عن المشركين بثلاث آيات إذا قرأهن حجب عنهم إحداهن في سورة الكهف " وجعلنا على قلوبهم أكنة " [الكهف : ٥٧] والآية الثانية في النحل " أولئك الذين طبع الله على قلوبهم

---

(١) بحر العلوم ـ ، ١٠٣/٢

" [النحل : ١٠٨] والثالثة في حم الجاثية " أفرءيت من إتخذ إلهه هواه " [ال جاثية : ٢٣] الآية قوله تعالى " وفي آذانهم وقرأ " أي صمما وثقلا لا يسمعون الحق قرأ إبن كثير " قل لو." (١)

٣٩٢"

ثم رجع إلى قصة موسى بقوله " إن الساعة آتية " يعني كائنة " أكاد أخفيها " يعني أسرها عن نفسي فكيف أعلنها لكم يا أهل مكة هكذا روي عن جماعة من المتقدمين وهكذا قال إبن عباس في رواية أبي صالح وقال القتبي كذلك في قراءة أبي " أخفيها " من نفسي وهكذا ورى جماعة من المتقدمين وروى طلحة عن عطاء " إن الساعة آتية أكاد أخفيها " عن نفسي وروي في إحدى الروايتين عن أبي بن كعب أنه كان يقول تقرأ " أكاد أخفيها " بنصب الألف يعني أكاد أظهرها وهي قراءة سعيد بن جبير قال أهل اللغة خفى يخفى أي أظهر وقال إمرؤ القيس

(خفاهن من إنفاقهن كأنما % خفاهن من ودق سحاب مركب) يذكر الفرس أنه إستخرج الفأرة من جحرهن كالمطر

ثم قال " لتجزى كل نفس بما تسعى " يعني لتثاب كل نفس بما تعمل

ثم قال عز وجل " فلا يصدنك عنها " يعني لا يصرفنك عنها يعني عن الإقرار بقيام الساعة " من لا يؤمن بها " يعني من لا يصدق بقيام الساعة " واتبع هواه فتردى " يعني فتهلك ويقال الردى الموت والهلاك

سورة طه ١٧ - ٢٣

ثم رجع إلى قصة موسى عليه السلام فقال عز وجل " وما تلك بيمينك يا موسى " يعني أي شيء الذي بيدك أو ما الذي بيدك وكان عالما بما في يده ولكن **الحكمة في** سؤاله لإزالة الوحشة عن موسى لأن موسى كان خائفا مستوحشا كرجل دخل على ملك وهو خائف فسأله عن شيء فتزول بعض الوحشة عنه بذلك ويستأنس بسؤاله وقال بعضهم إنما سأله تقريرا له أن ما في يده عصا لكيلا يخاف إذا صار ثعبانا ف " قال " موسى " هي عصاي أتوكأ عليها " يعني أعتمد عليها إذا أعييت " وأهش بها على غنمي " يعني أخبط بها ورق الشجر لغنمي فإن قيل إنما سأله عما في يده ولم يسأله عما يصنع بها فلم أجاب موسى عن شيء لم يسأله عنه قيل له قد قال بعضهم في الآية إضمار يعني " وما تلك بيمينك يا موسى قال هي

---

(١) بحر العلوم ، ٣١٣/٢

عصاي " فقال وما تصنع بها قال " أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي " وقال بعضهم إنما خاف موسى بذلك لأنه أمره بأن يخلع نعليه فخاف أن يأمره بإلقاء عصاه فجعل يذكر." (١)

"٤٤٢

طالب رضي الله عنه أنه كان يقرأ حطب جهنم وروي عن إبن عباس أنه كان يقرأ حضب جهنم بالضاد وقراءة العامة " حصب " بالصاد يعني رميا في جهنم وكل ما يرمى في جهنم فهو حصب ويقال الحصب هو الحطب بلسان الزنجية ومن قرأ حطب أي كل ما يوقد به جهنم ومن قرأ حضب بالضاد معناه ما يهيج به النار " أنتم لها واردون " أي داخلون

وقال إبن عباس في رواية أبي صالح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى قريشا وهم في المسجد مجتمعون وثلاثمائة وستون صنما مصفوفة وصنم كل قوم بحيالهم فقال " إنكم وما تعبدون من دون الله " يعني من هذه الأصنام في النار ثم انصرف عنهم فشق ذلك عليهم مشقة عظيمة شديدة وأتاهم عبد الله بن الزبعري وكان شاعرا فقال ما لي أراكم بحال لم أركم عليها فقالوا إن محمدا يزعم أنا وما نعبد في النار فقال لو كنت ها هنا لخصمته فقالوا هل لك أن نرسل إليه فقال نعم فبعثوا إليه فأتاهم فقال له إبن الزبعري أرأيت ما قلت لقومك آنفا أخاص لهم أم عام فقال بل عام كل من عبد من دون الله فهو وما عبد في النار قال أرأيت عيسى إبن مريم عليه السلام هذه النصارى تعبده فعيسى والنصارى في النار وهذا عزير تعبده اليهود فعزير واليهود في النار وهذا حي يقال لهم بنو مليح يعبدون الملائكة عليهم السلام فالملائكة وهم في النار فسكت النبي صلى الله عليه وسلم ولم يجبهم فضج أصحابه وضحكوا فنزل " ولما ضرب إبن مريم مثلا " ونزل في عيسى وعزير والملائكة " إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون " [الأنبياء : ١٠١]

ويقال إن هذه القصة لا تصح لأن النبي صلى الله عليه وسلم كان أفصح العرب وأنطقهم لسانا وأحضرهم جوابا كما وصف نفسه أنا أفصح العرب فلا يجوز أن يسكت على مثل هذا السؤال ولم يكن السؤال لازما ويقال كان سكوته للإستخفاف لأنه سئل سؤالا محالا لأنه قال " إنكم وما تعبدون من دون الله " ولم يقل ومن تعبدون وما لا يقع على النواطق ومن تقع على النواطق ويقال هذا القول يقال لهم يوم القيامة لأنه قال " قد كنا في غفلة من هذا بل كنا ظالمين " يقال لهم عند ذلك " إنكم وما تعبدون من دون الله حصب

(١) بحر العلوم.، ٣٩٢/٢

جهنم " فإن قيل ما الحكمة في إدخال الأصنام في النار قيل زيادة عقوبة للكفار لأن الأصنام أحجار فيكون الحر فيها أشد ويقال الفائدة في إدخال المعبود النار زيادة ذل وصغار عليهم حيث رأوا معبودهم في النار معهم من غير أن يكون للأصنام عقوبة لأنه لا يجوز التعذيب بذنب غيرهم." (١)

"٤٧٨

سورة المؤمنون ٢٣ - ٢٥

قوله عز وجل " ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه " يعني أرسلناه إلى قومه كما أرسلناك إلى قومك فإن قيل إيش الحكمة في تكرار القصص قيل له لأن في كل قصة كررها ألفاظا وفوائد ونكتا ما ليس في الأخرى ونظمها سوى نظم الأخرى وقال الحسن للقصة ظهر وبطن فالظهر خبر يخبرهم والبطن عظة تعظهم ويقال إنما كررها تأكيدا للحجة والعظة كما أنه كرر الدلائل ويكفي دليل واحد لمن يستدل به تفضلا من الله تعالى ورحمة منه

فقال تعالى " ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال يا قوم أعبدوا الله " يعني أطيعوا الله عز وجل ووحدوه " ما لكم من إله غيره " يعني ليس لكم رب سواه " أفلا تتقون " عبادة غير الله تعالى فتوحدونه يعني إتقوه ووحدوه

قوله عز وجل " فقال الملأ الذين كفروا " يعني الأشراف الذين كفروا " من قومه ما هذا إلا بشر مثلكم " يعني خلقا آدميا مثلكم " يريد أن يتفضل عليكم " بالرسالة ويقال " يريد أن يتفضل عليكم " يعني يريد أن يجعل لنفسه فضلا عليكم بالرسالة " ولو شاء الله لأنزل ملائكة " أي لو شاء أن يرسل إلينا رسولا لأنزل ملائكة " ما سمعنا بهذا " يعني ما يدعونا إليه من التوحيد " في آبائنا الأولين إن هو إلا رجل به جنة " أي الجنون " فتربصوا به حتى حين " يعني إنتظروا به حتى يتبين لكم أمره وصدقه من كذبه ويقال " حتى حين " يعني حتى يموت فتنجوا منه

سورة المؤمنون ٢٦ - ٣٠

فلما أبوا على نوح عليه السلام دعا عليهم " قال رب أنصرني " يعني أعني عليهم بالعذاب " بما كذبون " يعني بتحقيق قولي في العذاب لأنه أنذر قومه بالعذاب فكذبوه

---

(١) بحر العلوم .، ٤٤٢/٢

قوله عز وجل " فأوحينا إليه أن إصنع الفلك بأعيننا " يعني إعمل السفينة بأعيننا يعني بمنظر منا وبعلمنا ثم قال " ووحينا " يعني بوحينا إليك وأمرنا " فإذا جاء أمرنا "." (١)

"٥١٨

يعني لآية " لأولي الأبصار " يعني لذوي العقول والفهم في الدين وسئل سعيد بن المسيب أي العبادة أفضل فقال التفكير في خلقه والتفقه في دينه ويقال العبر بالوقار والمعتبر بمثقال

سورة النور ٤٥ - ٤٦

قوله عز وجل " والله خلق كل دابة من ماء " يعني من ماء الذكر قرأ حمزة والكسائي " خالق كل دابة " على معنى الإضافة وقرأ الباقون " خلق كل دابة " على معنى فعل الماضي ويقال هذا معطوف على ما سبق " يهدي الله لنوره من يشاء " فكأنه يقول يهدي من يشاء ويضل من يشاء كما أنه يخلق ما يشاء من الخلق ألوانا

ثم وصف الخلق فقال تعالى " فمنهم من يمشي على بطنه " مثل الحية ونحو ذلك فإن قيل لا يقال للدواب منهم وأن هذا اللفظ يستعمل للعقلاء قيل له الدابة إسم عام وهو يقع على ذي روح فيقع ذلك على العقلاء وغيرهم فإذا كان هذا اللفظ يقع على العقلاء وغيرهم فذكر بلفظ العقلاء ولو قال فمنه كان جائزا وينصرف إلى قوله "كل " ولكنه لم يقرأ وإنما قال " يمشي " على وجه المجاز وإن كان حقيقته المشي بالرجل لأنه جمعه مع الذي يمشي على وجه التبع

ثم قال " ومنهم من يمشي على رجلين " مثل الإنسان ونحوه " ومنهم من يمشي على أربع " أي على أربع قوائم مثل الدواب وأشباهها فإن قيل إيش الحكمة في خلق كل شيء من الماء قيل له لأن الخلق من الماء أعجب لأنه ليس شيء من الأشياء أشد طوعا من الماء لأن الإنسان لو أراد أن يمسكه بيده أو أراد أن يبني عليه أو يتخذ منه شيئا لا يمكنه والناس يتخذون من سائر الأشياء أنواع الأشياء قيل فالله تعالى أخبر أنه يخلق من الماء ألوانا من الخلق وهو قادر على كل شيء

ثم قال " يخلق الله ما يشاء " يعني كما يشاء وكيف يشاء " إن الله على كل شيء " من الخلق وخلقه " قدير " أي قادر

قوله عز وجل " لقد أنزلنا آيات مبينات " قرأ أبو عمرو وعاصم ونافع وإبن كثير في رواية أبي بكر " مبينات

---

(١) بحر العلوم .، ٢/٤٧٨

" بنصب الياء في جميع القرآن يعني مفصلات وقرأ حمزة والكسائي وإبن عامر " مبينات " بكسر الياء يعني يبين للناس دينهم " والله يهدي من يشاء " أي يرشد من كان أهلا لذلك " إلى صراط مستقيم " يعني إلى دين مستقيم وهو دين الإسلام." (١)

"٢١

سورة لقمان ١٠ - ١١

ثم بين علامة وحدانيته فقال عز وجل " خلق السموات بغير عمد ترونها " أي خلقها بغير عمد ترونها بأعينكم

ويقال معناه " بغير عمد ترونها " أنتم يعني لها عمد ولكن لا ترونها

والعمد جماعة العماد

ثم قال " وألقى في الأرض رواسي " يعني الجبال الثوابت " أن تميد بكم " يعني لكيلا تزول بكم الأرض

ثم قال " وبث فيها " يعني وخلق فيها في الأرض ويقال وبسط فيها " من كل دابة وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم " وقد ذكرناه

قوله عز وجل " هذا خلق الله " يقول هذا الذي خلقت أنا " فأروني ماذا خلق الذين من دونه " يعني الذين تدعونه إلها من دون الله يعني الأصنام

ويقال " هذا خلق الله " يعني مخلوق الله ويقال هذا صنع الله

ثم قال " بل الظالمون " يعني الكافرون " في ضلال مبين " يعني في خطأ بين لا يعتبرون ولا يتفكرون فيما خلق الله عز وجل فيعبدونه ويقال " في ضلال مبين " يعني في خسران بين

سورة لقمان ١٢ - ١٤

قوله عز وجل " ولقد آتينا لقمان الحكمة " وقال مجاهد يعني أعطينا لقمان العقل والفقه والإصابة في غير نبوة

ويقال أيضا الحكمة والعقل والإصابة في القول

وروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال (ما زهد عبد في الدنيا إلا أثبت الله تعالى **الحكمة في** قلبه وأنطق بها لسانه وبصره عيوب الدنيا وعيوب نفسه

---

(١) بحر العلوم . ، ٢/٥١٨

وإذا رأيتم أخاكم قد زهد في الدنيا فاقتربوا إليه فاستمعوا منه فإنه يلقى الحكمة)

وقال السدي " ولقد آتينا لقمان الحكمة " النبوة

وعن عكرمة قال كان لقمان نبيا

وعن وهب بن مبنه قال كان لقمان رجلا حكيما ولم يكن نبيا

وروي عن ابن عباس قال كان لقمان عبدا حبشيا ويقال إن أول ما ظهرت حكمته أن مولاه قال له يوما اذبح لنا هذه الشاة فذبحها

ثم قال أخرج منها أطيب مضغتين فيها." (١)

"١٠٣

يدخل الجنة فإذا دخلوا الجنة قالوا " الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور "

وقد قيل غير هذا إلا أنه يطول وفيما ذكرنا كفاية لمن عمل به

وأكثر الروايات أن الأصناف الثلاثة كلهم مؤمنون وأول الآية وآخرها دليل على ذلك

فأما أول الآية فقوله عز وجل " ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا " يعني أعطينا الكتاب فأخبر أنه أعطى الكتاب لهؤلاء الثلاثة

وقال في آخر الآية " جنات عدن يدخلونها " [النحل ٣١] فأشار إلى الأصناف الثلاثة

وقال بعضهم تأول قول ابن عباس الذي قاله في رواية أبي صالح إن الظالم كافر يعني كفر النعمة ومعناه فمنهم من كفر بهذه النعمة ولم يشكر الله عز وجل عليها ومنهم مقتصد يعني يشكر ويكفر ومنهم سابق يعني يشكر ولا يكفر

وروي عن كعب الأحبار أنه قيل له ما منعك أن تسلم على عهد النبي صلى الله عليه وسلم قال كان أبي مكنني من جميع التوراة إلا ورقات منعني أن أنظر فيها فخرج أبي يوما لحاجة فنظرت فيها فوجدت فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمته وأنه يجعلهم يوم القيامة ثلاثة أثلاث ثلث يدخلون الجنة وثلث يحاسبون حسابا يسيرا ويدخلون الجنة وثلث تشفع لهم الملائكة والنبيون عليهم السلام فأسلمت وقلت لعلي أكون من الصنف الأول وإن لم أكن من الصنف الأول لعلي أن أكون من الصنف الثاني أو من الصنف الثالث

---

(١) بحر العلوم . ، ٢١/٣

فلما قرأت القرآن وجدتها في القرآن وهو قوله عز وجل " ثم أورثنا الكتاب الذين " إلى قوله " جنات عدن يدخلونها " الآية

فإن قيل إيش الحكمة في ذكره الظالم ابتداء وتأخيره ذكر السابق قيل له الحكمة فيه والله أعلم لكيلا يعجب السابق بنفسه ولا ييأس الظالم من رحمة الله عز وجل

ثم قال " ذلك هو الفضل الكبير " من الله تعالى يعني الذي أورثهم الكتاب واختارهم هو الفضل الكبير من الله تعالى

سورة فاطر ٣٣ - ٣٥

ثم قال عز وجل " جنات عدن " يعني لهم جنات عدن أي دار الإقامة

يقال عدن يعدن إذا قام

قرأ أبو عمرو وابن كثير في إحدى الروايتين " يدخلونها " بضم الياء وفتح الخاء على معنى فعل ما لم يسم فاعله

وقرأ الباقون " يدخلونها " على معنى أن الفعل لهم " يحلون فيها من أساور " يعني يلبسون الحلي من أساور " من ذهب ولؤلؤا " قرأ نافع وعاصم." (١)

"٢٢٣

سورة الشورى

مكية وهي خمسون وثلاث آيات

سورة الشورى ١ - ٤

قوله تبارك وتعالى " حم عسق " روي عن ابن عباس أنه قال الحاء حكم الله والميم ملك الله والعين علو الله والسين سناء الله والقاف قدرة الله

فكأنه يقول فبحكمي وملكي وعلوي وسنائي وقدرتي لا أعذب عبدا قال لا إله إلا الله مخلصا فلقيني بها

ومعنى قول ابن عباس لا يعذب عبدا يعني لا يعذبه عذابا دائما خالدا

وروى المسيب عن رجل عن أبي عبيدة قال العين عذاب الله والسين سنون والقاف فيها القحط العجب

وقال وروي النبي صلى الله عليه وسلم قال (افتحوا صبيانكم قول لا إله إلا الله ولقنوا موتاكم لا إله إلا الله

---

(١) بحر العلوم ، ١٠٣/٣

(
والحكمة في ذلك لأن حال الصبيان حال حسن لا غل ولا غش في قلوبهم وحال الموتى حال الاضطرار
فإذا قلتم ذلك في أول ما يجري عليكم القلم وآخر ما يجف القلم فعسى الله أن يتجاوز ما بين ذلك وقال
المسيب وحدثنا محدث قال قاف قدف
وقال الضحاك في قوله " حم عسق " قال عذاب سيكون واقعا وأرجو أن يكون قد مضى يوم بدر والسنون
وقال شهر بن حوشب " حم عسق " حرب يذل فيه العزيز ويعز فيه الذليل من قريش ثم يفضي إلى العرب
ثم إلى العجم ثم هي متصلة إلى خروج الدجال
وقال عطاء الحاء حرب وهو موت ذريع في الناس وفي الحيوان حتى يبيدهم ويفنيهم
والميم تحويل ملك من قوم إلى قوم والعين عدو لقريش يركبهم ثم ترجع الدولة إليهم لحرمة البيت والسين
هو استئصال بالسنين كسني يوسف والقاف قدر من الله نافذ في ملكوت الأرض لا يخرجون من قدره وهو
نافذ فيهم
وقال السدي الحاء حلمه والميم ملكه والعين عظمته والسين سناؤه والقاف قدرته
وقال قتادة هو اسم من أسماء الله تعالى ويقال اسم من أسماء القرآن." (١)
"٤١١
النطف في أصلاب الآباء " المصور " للولد في أرحام الأمهات ويقال " الخالق " يعني المقدر
" البارئ " الذي يجعل الروح في الجسد ويقال " البارئ " يعني خالق الأشياء ابتداء
ثم قال " له الأسماء الحسنى " يعني الصفات العلى ويقال " له الأسماء الحسنى " وهي تسعة وتسعون
اسما وروى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال " إن لله تسعة وتسعين اسما مائة غير واحد
من أحصاها دخل الجنة "
ثم قال " يسبح له ما في السموات والأرض " يعني يخضع له ما في السموات والأرض يعني جميع الأشياء
كقوله " وإن من شيء إلا يسبح بحمده " [الإسراء ٤٤]
ثم قال " وهو العزيز " يعني العزيز في ملكه " الحكيم " في أمره
فإن قال قائل قد قال الله تعالى " فلا تزكوا أنفسكم " [النجم ٣٢] فما الحكمة في أنه نهى عباده عن

---

(١) بحر العلوم . ، ٢٢٣/٣

مدح أنفسهم ومدح نفسه قيل له عن هذا السؤال جوابان أحدهما أن العبد وإن كان فيه خصال الخير فهو ناقص وإن كان ناقصا لا يجوز له أن يمدح نفسه والله سبحانه وتعالى تام الملك والقدرة فيستوجب به المدح فمدح نفسه ليعلم عباده فيمدحوه

وجواب آخر أن العبد وإن كان فيه خصال الخير فتلك الخصال أفضال من الله تعالى ولم يكن ذلك بقدرة العبد فلهذا لا يجوز له أن يمدح نفسه

والله سبحانه وتعالى إنما قدرته وملكه له ليس لغيره فيستوجب فيه المدح

ومثال هذا أن الله تعالى نهى عباده أن يمنوا على أحد بالمعروف وقد من الله تعالى على عباده للمعنى الذي ذكرناه في المدح والله أعلم و صلى الله عليه وسلم على سيدنا محمد وآله وسلم." (١)

"٢٨١٤- حدثنا الحسن بن أحمد، ثنا إسحاق بن إسماعيل، ثنا يزيد بن زريع، ثنا سعيد، عن قتادة،"قوله: " والله بما تعملون بصير " هذا مثل ضربه الله لعمل المؤمن، يقول: ليس لخيره خلف، كما ليس لخير هذه الجنة خلف، على أي حال كان، إما وابل، وإما طل".

قال تعالى:

{أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجري من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون * يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه واعلموا أن الله غني حميد * الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا والله واسع عليم * يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر إلا أولوا الألباب }

قوله تعالى: " أيود أحدكم " ." (٢)

"٢٨٦٣- أخبرنا محمد بن الفضل بن موسى، ثنا محمد بن علي بن الحسن بن شقيق، أنبأ محمد بن مزاحم، عن بكير بن معروف، عن مقاتل بن حيان،"قوله: " والله يعدكم مغفرة منه " لذنوبكم عند

---

(١) بحر العلوم ـ ، ٤١١/٣

(٢) تفسير ابن أبي حاتم، ٣٠٨/٢

الصدقة".

قوله تعالى: " وفضلا والله واسع عليم "

٢٨٦٤- حدثنا أحمد بن منصور المروزي، ثنا علي بن الحسن، أنبأ الحسين بن واقد، ثنا يزيد النحوي، عن عكرمة، عن ابن عباس: " " والله يعدكم مغفرة منه وفضلا " ، قال: في الرزق".

٢٨٦٥- حدثنا أبي، ثنا عبدة بن سليمان، أنبأ ابن المبارك، ثنا سعيد أو غيره، عن قتادة: " " والله يعدكم مغفرة منه وفضلا " ، قال: فضلا لفقركم".

٢٨٦٦- قرأت على محمد بن الفضل، ثنا محمد بن علي، أنبأ محمد بن مزاحم، عن بكير بن معروف، عن مقاتل بن حيان،"قوله: " والله يعدكم مغفرة منه وفضلا " يعني: أن يخلفكم نفقاتكم"قوله تعالى: " يؤتي الحكمة من يشاء "

٢٨٦٧- حدثنا أبي، ثنا أبو صالح كاتب الليث، حدثني معاوية بن صالح، عن علي بن طلحة، عن ابن عباس،"يعني في قوله: " يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا " ، قال: المعرفة بالقرآن، ناسخه ومنسوخه، ومحكمه ومتشابهه، ومقدمه ومؤخره، وحلاله وحرامه، وأمثاله"والوجه الثاني:." (١)

"٢٨٦٨- حدثنا أبي، أنبأ يحيى بن المغيرة، أنبأ جرير، عن ليث، عن مجاهد: " " يؤتي الحكمة من يشاء " ، قال: ليست بالنبوة، ولكنه العلم والفقه والقرآن"والوجه الثالث:

٢٨٦٩- حدثنا أبي، ثنا ابن نفيل، ثنا عثمان بن عبد الرحمن، عن أبي جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية،"في قوله: " يؤتي الحكمة من يشاء " ، قال: الحكمة: الخشية، فإن خشية الله رأس كل حكمة"والوجه الرابع:

٢٨٧٠- حدثنا أبي، ثنا قبيصة، ثنا سفيان، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد: " " يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا " ، قال: هو الإصابة في القول"والوجه الخامس:

٢٨٧١- حدثنا حجاج بن حمزة، ثنا محمد بن بشر، ثنا سفيان، عن أبي حمزة، عن إبراهيم: " ومن يؤت الحكمة " ، قال: الفهم"والوجه السادس:

٢٨٧٢- حدثنا أبو بكر بن أبي موسى، ثنا هارون بن حاتم، ثنا عبد الرحمن ابن أبي حماد، عن أسباط،

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم، ٢/٣٢٢

عن السدي، عن أبي مالك،"قوله: " الحكمة " ، قال: السنة"والوجه السابع:

٢٨٧٣- حدثنا أبو زرعة، ثنا عمرو بن حماد، عن أسباط، عن السدي،"قوله: " ومن يؤت الحكمة " ، قال: الحكمة: هي النبوة"والوجه الثامن:." (١)

"٢٨٨٣- حدثنا علي بن الحسين، ثنا هارون بن سعيد الأيلي، أخبرنا ابن وهب، قال: سمعت عبد الرحمن بن زيد، يقول: "منهم من يؤتى حكمته في لسانه، ولا يؤتى حكمته في قلبه، ومنهم من يؤتى حكمته في قلبه، ولا يؤتى في لسانه ، ليس في القلب منها شيء يعمل به، فالعمل لا يصدق ما ينطق به اللسان، والذي يؤتى الحكمة في قلبه ولا يؤتاها في لسانه يعمل بما جعل الله له في قلبه من الحكمة، وإذا لم يؤتاها بلسانه، لم تبلغ عنه، فهذا ينفع نفسه ولا ينفع غيره ، والثالث يعمل بما جعل الله في قلبه من الحكمة، عمل الحكماء، وينطق بما جعل الله في لسانه من الحكمة منطق الحكماء، ينفع به نفسه وغيره، الذي ينطق به اللسان، دليل على ما في القلب، والذي عمل به الذي في القلب من الحكمة، مصدق للذي نطق به"والوجه السابع:

٢٨٨٤- حدثنا سعيد بن سعد البخاري، ثنا عمرو بن عون، أنبأ هشيم، عن كوثر بن حكيم، عن مكحول، قال: "إن القرآن جزء من اثنين وسبعين جزءا من النبوة، وهو الحكمة التي قال الله: " ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا " "والوجه الثامن:." (٢)

"١٥٥٥٤- أخبرنا أبو عبد الله الطهراني فيما كتب إلي، أنبأ إسماعيل بن عبد الكريم، حدثني عبد الصمد، أنه سمع وهبا، يقول:"إن الله عز وجل أوحى إلى نبي من أنبياء بني إسرائيل يقال له أشعيا، أن قم في قومك بني إسرائيل فإني مطلق لسانك بوحي، فقال: يا سماء اسمعي ويا أرض أنصتي، فإن الله عز وجل يريد أن يقص شأن بني إسرائيل، إن قومك يسألون عن غيبي الكهان والأسرار، وإني أريد أن أحدث حدثا أنا منفذه، فليخبروني: متى هو؟ وفي أي زمان يكون؟ أريد أن أحول الريف إلى الفلاة، والآجام في الغيطان، والأنهار في الصحاري، والنعمة في الفقراء، والملك في الرعاة، وأبعث نبيا أميا، ليس أعمى من عميان، أبعثه ليس بفظ ولا غليظ، ولا صخاب في الأسواق، لو يمر إلى جنب السراج لم يطفئه من سكينته، ولو يمشي على القصب اليابس لم يسمع من تحت قدميه، أبعثه مبشرا ونذيرا لا يقول الخنا، أفتح به أعينا

(١) تفسير ابن أبي حاتم، ٣٢٣/٢

(٢) تفسير ابن أبي حاتم، ٣٢٦/٢

عميا، وآذانا صما، وقلوبا غلفا أسدده لكل أمر جميل، وأهب له كل خلق كريم، وأجعل السكينة لباسه، والبر شعاره، والتقوى ضميره، **والحكمة منطقه**، والصدق والوفاء طبيعته، والعفو والمعروف خلقه، والحق شريعته، والعدل سيرته، والهدى إمامه." (١)

"{ ٢٢١ } { ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم أولئك يدعون إلى النار والله يدعو إلى الجنة والمغفرة بإذنه ويبين آياته للناس لعلهم يتذكرون } .

أي: { ولا تنكحوا } النساء { المشركات } ما دمن على شركهن { حتى يؤمن } لأن المؤمنة ولو بلغت من الدمامة ما بلغت خير من المشركة، ولو بلغت من الحسن ما بلغت، وهذه عامة في جميع النساء المشركات، وخصصتها آية المائدة، في إباحة نساء أهل الكتاب كما قال تعالى: { والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب } .

{ ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا } وهذا عام لا تخصيص فيه.

ثم ذكر تعالى، **الحكمة في** تحريم نكاح المسلم أو المسلمة، لمن خالفهما في الدين فقال: { أولئك يدعون إلى النار } أي: في أقوالهم أو أفعالهم وأحوالهم، فمخالطتهم على خطر منهم، والخطر ليس من الأخطار الدنيوية، إنما هو الشقاء الأبدي.

ويستفاد من تعليل الآية، النهي عن مخالطة كل مشرك ومبتدع، لأنه إذا لم يجز التزوج مع (١) أن فيه مصالح كثيرة فالخلطة المجردة من باب أولى، وخصوصا، الخلطة التي فيها ارتفاع المشرك ونحوه على المسلم، كالخدمة ونحوها.

وفي قوله: { ولا تنكحوا المشركين } دليل على اعتبار الولي [في النكاح].

{ والله يدعو إلى الجنة والمغفرة } أي: يدعو عباده لتحصيل الجنة والمغفرة، التي من آثارها، دفع العقوبات وذلك بالدعوة إلى أسبابها من الأعمال الصالحة، والتوبة النصوح، والعلم النافع، والعمل الصالح.

{ ويبين آياته } أي: أحكامه وحكمها { للناس لعلهم يتذكرون } فيوجب لهم ذلك التذكر لما نسوه، وعلم ما جهلوه، والامتثال لما ضيعوه.

[ص ١٠٠]

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم، ١٠/١٨٨

ثم قال تعالى:

---

(١) في أ: لمع.." (١)

"{ وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف ولا تمسكوهن ضرارا لتعتدوا ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه ولا تتخذوا آيات الله هزوا واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به واتقوا الله واعلموا أن الله بكل شيء عليم } .

ثم قال تعالى: { وإذا طلقتم النساء } أي: طلاقا رجعيا بواحدة أو ثنتين.

{ فبلغن أجلهن } أي: قاربن انقضاء عدتهن.

{ فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف } أي: إما أن تراجعوهن، ونيتكم القيام بحقوقهن، أو تتركوهن بلا رجعة ولا إضرار، ولهذا قال: { ولا تمسكوهن ضرارا } أي: مضارة بهن { لتعتدوا } في فعلكم هذا الحلال، إلى الحرام، فالحلال: الإمساك بمعروف (١) والحرام: المضارة، { ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه } ولو كان الحق يعود للمخلوق فالضرر عائد إلى من أراد الضرار.

{ ولا تتخذوا آيات الله هزوا } لما بين تعالى حدوده غاية التبيين، وكان المقصود، العلم بها والعمل، والوقوف معها، وعدم مجاوزتها، لأنه تعالى لم ينزلها عبثا، بل أنزلها بالحق والصدق والجد، نهى عن اتخاذها هزوا، أي: لعبا بها، وهو التجرؤ عليها، وعدم الامتثال لواجبها، مثل استعمال المضارة في الإمساك، أو الفراق، أو كثرة الطلاق، أو جمع الثلاث، والله من رحمته جعل له واحدة بعد واحدة، رفقا به وسعيا في مصلحته.

{ واذكروا نعمة الله عليكم } عموما باللسان ثناء وحمدا، وبالقلب اعترافا وإقرارا، وبالأركان بصرفها في طاعة الله، { وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة } أي: السنة اللذين بين لكم بهما طرق الخير ورغبكم فيها، وطرق الشر وحذركم إياها، وعرفكم نفسه ووقائعه في أوليائه وأعدائه، وعلمكم ما لم تكونوا تعلمون.

وقيل: المراد بالحكمة أسرار الشريعة، فالكتاب فيه، الحكم، **والحكمة فيها**، بيان حكمة الله في أوامره ونواهيه، وكلا المعنيين صحيح، ولهذا قال { يعظكم به { أي: بما أنزل عليكم، وهذا مما يقوي أن المراد بالحكمة، أسرار الشريعة، لأن الموعظة ببيان الحكم والحكمة، والترغيب، أو الترهيب، فالحكم به، يزول

---

(١) تفسير السعدي، ص/٩٩

الجهل، والحكمة مع الترغيب، يوجب الرغبة، والحكمة مع الترهيب يوجب الرهبة.

{ واتقوا الله } في جميع أموركم { واعلموا أن الله بكل شيء عليم } فلهذا بين لكم هذه الأحكام بغاية الإحكام والإتقان التي هي جارية مع المصالح في كل زمان ومكان، [فله الحمد والمنة].

---

(١) في ب: بالمعروف.." (١)

"{ ٢٣٤ } { والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا فإذا بلغن أجلهن فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن بالمعروف والله بما تعملون خبير } .

أي: إذا توفي الزوج، مكثت زوجته، متربصة أربعة أشهر وعشرة أيام وجوبا، **والحكمة في** ذلك، ليتبين الحمل في مدة الأربعة، ويتحرك في ابتدائه في الشهر الخامس، وهذا العام مخصوص بالحوامل، فإن عدتهن بوضع الحمل، وكذلك الأمة، عدتها على النصف من عدة الحرة، شهران وخمسة أيام.

وقوله: { فإذا بلغن أجلهن } أي: انقضت عدتهن { فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن } أي: من مراجعتها للزينة والطيب، { بالمعروف } أي: على وجه غير محرم ولا مكروه.

وفي هذا وجوب الإحداد مدة العدة، على المتوفى عنها زوجها، دون غيرها من المطلقات والمفارقات، وهو مجمع عليه بين العلماء.

{ والله بما تعملون خبير } أي: عالم بأعمالكم، ظاهرها وباطنها، جليلها وخفيها، فمجازيكم عليها.

وفي خطابه للأولياء بقوله: { فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن } [ص ١٠٥] دليل على أن الولي ينظر على المرأة، ويمنعها مما لا يجوز فعله ويجبرها على ما يجب، وأنه مخاطب بذلك، واجب عليه.." (٢)

"{ ٢٦٩ } { يؤتي **الحكمة من** يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر إلا أولو الألباب } .

لما أمر تعالى بهذه الأوامر العظيمة المشتملة على الأسرار والحكم وكان ذلك لا يحصل لكل أحد، بل لمن من عليه وآتاه الله الحكمة، وهي العلم النافع والعمل الصالح ومعرفة أسرار الشرائع وحكمها، وإن من

---

(١) تفسير السعدي، ص/١٠٣

(٢) تفسير السعدي، ص/١٠٤

آتاه الله الحكمة فقد آتاه خيرا كثيرا وأي خير أعظم من خير فيه سعادة الدارين والنجاة من شقاوتهما! وفيه التخصيص بهذا الفضل وكونه من ورثة الأنبياء، فكمال العبد متوقف على الحكمة، إذ كماله بتكميل قوتيه العلمية والعملية فتكميل قوته العلمية بمعرفة الحق ومعرفة المقصود به، وتكميل قوته العملية بالعمل بالخير وترك الشر، وبذلك يتمكن من الإصابة بالقول والعمل وتنزيل الأمور منازلها في نفسه وفي غيره، وبدون ذلك لا يمكنه ذلك، ولما كان الله تعالى قد فطر عباده على عبادته ومحبة الخير والقصد للحق، فبعث الله الرسل مذكرين لهم بما ركز في فطرهم وعقولهم، ومفصلين لهم ما لم يعرفوه، انقسم الناس قسمين قسم أجابوا دعوتهم فتذكروا ما ينفعهم ففعلوه، وما يضرهم فتركوه، وهؤلاء هم أولو الألباب الكاملة، والعقول التامة، وقسم لم يستجيبوا لدعوتهم، بل أجابوا ما عرض لفطرهم من الفساد، وتركوا طاعة رب العباد، فهؤلاء ليسوا من أولي الألباب، فلهذا قال تعالى: { وما يذكر إلا أولو الألباب } .." (١)

"{ ٢٨٢ } { يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالعدل ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله فليكتب وليملل الذي عليه الحق وليتق الله ربه ولا يبخس منه شيئا فإن كان الذي عليه الحق سفيها أو ضعيفا أو لا يستطيع أن يمل هو فليملل وليه بالعدل واستشهدوا شهيدين من رجالكم فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى ولا يأب الشهداء إذا ما دعوا ولا تسأموا أن تكتبوه صغيرا أو كبيرا إلى أجله ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا إلا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح ألا تكتبوها وأشهدوا إذا تبايعتم ولا يضار كاتب ولا شهيد وإن تفعلوا فإنه فسوق بكم واتقوا الله ويعلمكم الله والله بكل شيء عليم } .

هذه آية الدين، وهي أطول آيات القرآن، وقد اشتملت على أحكام عظيمة جليلة المنفعة والمقدار، أحدها: أنه تجوز جميع أنواع المداينات من سلم وغيره، لأن الله أخبر عن المداينة التي عليها المؤمنون إخبار مقرر لها ذاكرا أحكامها، وذلك يدل على الجواز، الثاني والثالث أنه لا بد للسلم من أجل وأنه لا بد أن يكون معينا معلوما فلا يصح حالا ولا إلى أجل مجهول، الرابع: الأمر بكتابة جميع عقود المداينات إما وجوبا وإما استحبابا لشدة الحاجة إلى كتابتها، لأنها بدون الكتابة يدخلها من الغلط والنسيان والمنازعة والمشاجرة شر عظيم، الخامس: أمر الكاتب أن يكتب، السادس: أن يكون عدلا في نفسه لأجل اعتبار كتابته، لأن

(١) تفسير السعدي، ص/١١٥

الفاسق لا يعتبر قوله ولا كتابته، السابع أنه يجب عليه العدل بينهما، فلا يميل لأحدهما لقرابة أو صداقة أو غير ذلك، الثامن: أن يكون الكاتب عارفا بكتابة الوثائق وما يلزم فيها كل واحد منهما، وما يحصل به التوثق، لأنه لا سبيل إلى العدل إلا بذلك، وهذا مأخوذ من قوله: } وليكتب بينكم كاتب بالعدل { التاسع: أنه إذا وجدت وثيقة بخط المعروف بالعدالة المذكورة يعمل بها، ولو كان هو والشهود قد ماتوا، العاشر: قوله: { ولا يأب كاتب أن يكتب } أي: لا يمتنع من من الله عليه بتعليمه الكتابة أن يكتب بين المتداينين، فكما أحسن الله إليه بتعليمه، فليحسن إلى عباد الله المحتاجين إلى كتابته، ولا يمتنع من الكتابة لهم، الحادي عشر: أمر الكاتب أن لا يكتب إلا ما أملاه من عليه الحق، الثاني عشر: أن الذي يملي من المتعاقدين من عليه الدين، الثالث عشر: أمره أن يبين جميع الحق الذي عليه ولا يبخس منه شيئا، الرابع عشر: أن إقرار الإنسان على نفسه مقبول، لأن الله أمر من عليه الحق أن يمل على الكاتب، فإذا كتب إقراره بذلك ثبت موجبه ومضمونه، وهو ما أقر به على نفسه، ولو ادعى بعد ذلك غلطا أو سهوا، الخامس عشر: أن من عليه حقا من الحقوق التي البينة (١) على مقدارها وصفتها من كثرة وقلة وتعجيل وتأجيل، أن قوله هو المقبول دون قول من له الحق، لأنه تعالى لم ينهه عن بخس الحق الذي عليه، إلا أن قوله مقبول على ما يقوله من مقدار الحق وصفته، السادس عشر: أنه يحرم على من عليه حق من الحقوق أن يبخس وينقص شيئا من مقداره، أو طيبه وحسنه، أو أجله أو غير ذلك من توابعه ولواحقه، السابع عشر: أن من لا يقدر على إملاء الحق لصغره أو سفهه أو خرسه، أو نحو ذلك، فإنه ينوب وليه منابه في الإملاء والإقرار، الثامن عشر: أنه يلزم الولي من العدل ما يلزم من عليه الحق من العدل، وعدم البخس لقوله { بالعدل } التاسع عشر: أنه يشترط عدالة الولي، لأن الإملاء بالعدل المذكور لا يكون من فاسق، العشرون: ثبوت الولاية في الأموال، الحادي والعشرون: أن الحق يكون على الصغير والسفيه والمجنون والضعيف، لا على وليهم، الثاني والعشرون: أن إقرار الصغير والسفيه والمجنون والمعتوه ونحوهم وتصرفهم غير صحيح، لأن الله جعل الإملاء لوليهم، ولم يجعل لهم منه شيئا لطفا بهم ورحمة، خوفا من تلاف أموالهم، الثالث والعشرون: صحة تصرف الولي في مال من ذكر، الرابع والعشرون: فيه مشروعية كون الإنسان يتعلم الأمور التي يتوثق بها المتداينون كل واحد من صاحبه، لأن المقصود من ذلك التوثق والعدل، وما لا يتم المشروع إلا به فهو مشروع، الخامس والعشرون: أن تعلم الكتابة مشروع، بل هو فرض كفاية، لأن الله أمر بكتابة الديون وغيرها، ولا يحصل ذلك إلا بالتعلم، السادس والعشرون: أنه مأمور بالإشهاد على العقود، وذلك على وجه الندب،

لأن المقصود من ذلك الإرشاد إلى ما يحفظ الحقوق، فهو عائد لمصلحة المكلفين، نعم إن كان [ص ١١٩] المتصرف ولي يتيم أو وقف ونحو ذلك مما يجب حفظه تعين أن يكون الإشهاد الذي به يحفظ الحق واجبا، السابع والعشرون: أن نصاب الشهادة في الأموال ونحوها رجلان أو رجل وامرأتان، ودلت السنة أيضا أنه يقبل الشاهد مع يمين المدعي، الثامن والعشرون: أن شهادة الصبيان غير مقبولة لمفهوم لفظ الرجل، التاسع والعشرون: أن شهادة النساء منفردات في الأموال ونحوها لا تقبل، لأن الله لم يقبلهن إلا مع الرجل، وقد يقال إن الله أقام المرأتين مقام رجل للحكمة التي ذكرها وهي موجودة سواء كن مع رجل أو منفردات والله أعلم. الثلاثون: أن شهادة العبد البالغ مقبولة كشهادة الحر لعموم قوله: { فاستشهدوا شهيدين من رجالكم } والعبد البالغ من رجالنا، الحادي والثلاثون: أن شهادة الكفار ذكورا كانوا أو نساء غير مقبولة، لأنهم ليسوا منا، ولأن مبنى الشهادة على العدالة وهو غير عدل، الثاني والثلاثون: فيه فضيلة الرجل على المرأة، وأن الواحد في مقابلة المرأتين لقوة حفظه ونقص حفظها، الثالث والثلاثون: أن من نسي شهادته ثم ذكرها فذكر فشهادته مقبولة لقوله: { فتذكر إحداهما الأخرى } الرابع والثلاثون: يؤخذ من المعنى أن الشاهد إذا خاف نسيان شهادته في الحقوق الواجبة وجب عليه كتابتها، لأن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، والخامس والثلاثون: أنه يجب على الشاهد إذا دعي للشهادة وهو غير معذور، لا يجوز له أن يأبى لقوله: { ولا يأب الشهداء إذا ما دعوا } السادس والثلاثون: أن من لم يتصف بصفة الشهداء المقبولة شهادتهم، لم يجب عليه الإجابة لعدم الفائدة بها ولأنه ليس من الشهداء، السابع والثلاثون: النهي عن السآمة والضجر من كتابة الديون كلها من صغير وكبير وصفة الأجل وجميع ما احتوى عليه العقد من الشروط والقيود، الثامن والثلاثون: بيان الحكمة في مشروعية الكتابة والإشهاد في العقود، وأنه { أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا } فإنها متضمنة للعدل الذي به قوام العباد والبلاد، والشهادة المقترنة بالكتابة تكون أقوم وأكمل وأبعد من الشك والريب والتنازع والتشاجر، التاسع والثلاثون: يؤخذ من ذلك أن من اشتبه وشك في شهادته لم يجز له الإقدام عليها بل لا بد من اليقين، الأربعون: قوله: { إلا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح ألا تكتبوها } فيه الرخصة في ترك الكتابة إذا كانت التجارة حاضرا بحاضر، لعدم شدة الحاجة إلى الكتابة، الحادي والأربعون: أنه وإن رخص في ترك الكتابة في التجارة الحاضرة، فإنه يشرع الإشهاد لقوله: { وأشهدوا إذا تبايعتم } الثاني والأربعون: النهي عن مضارة الكاتب بأن يدعى وقت اشتغال وحصول مشقة عليه، الثالث والأربعون: النهي عن مضارة الشهيد أيضا بأن

يدعى إلى تحمل الشهادة أو أدائها في مرض أو شغل يشق عليه، أو غير ذلك هذا على جعل قوله: { ولا يضار كاتب ولا شهيد } مبنيا للمجهول، وأما على جعلها مبنيا للفاعل ففيه نهي الشاهد والكاتب أن يضارا صاحب الحق بالامتناع أو طلب أجرة شاقة ونحو ذلك، وهذان هما الرابع والأربعون والخامس والأربعون والسادس والأربعون أن ارتكاب هذه المحرمات من خصال الفسق لقوله: { وإن تفعلوا فإنه فسوق بكم } السابع والأربعون أن الأوصاف كالفسق والإيمان والنفاق والعداوة والولاية ونحو ذلك تتجزأ في الإنسان، فتكون فيه مادة فسق وغيرها، وكذلك مادة إيمان وكفر لقوله: { فإنه فسوق بكم } ولم يقل فأنتم فاسقون أو فساق. الثامن والأربعون: - وحقه أن يتقدم على ما هنا لتقدم موضعه- اشتراط العدالة في الشاهد لقوله: { ممن ترضون من الشهداء } التاسع والأربعون: أن العدالة يشترط فيها العرف في كل مكان وزمان، فكل من كان مرضيا معتبرا عند الناس قبلت شهادته، الخمسون: يؤخذ منها عدم قبول شهادة المجهول حتى يزكى، فهذه الأحكام مما يستنبط من هذه الآية الكريمة على حسب الحال الحاضرة والفهم القاصر، ولله في كلامه حكم وأسرار يخص بها من يشاء من عباده.

وقوله تعالى:

---

(١) الكلمة غير الواضحة في الأصل، وأقرب ما يكون أنها على ما أثبت والله أعلم.." (١)

"{ ٣٣ - ٣٧ } { إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين * ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم * إذ قالت امرأة عمران رب إني نذرت لك ما في بطني محررا فتقبل مني إنك أنت السميع العليم * فلما وضعتها قالت رب إني وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثى وإني سميتها مريم وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم * فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتا حسنا وكفلها زكريا كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا قال يا مريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب } .

يخبر تعالى باختيار من اختاره من أوليائه وأصفيائه وأحبابه، فأخبر أنه اصطفى آدم، أي: اختاره على سائر المخلوقات، فخلقه بيده ونفخ فيه من روحه، وأمر الملائكة بالسجود له، وأسكنه جنته، وأعطاه من العلم [ص ١٢٩] والحلم والفضل ما فاق به سائر المخلوقات، ولهذا فضل بنيه، فقال تعالى: { ولقد كرمنا

---

(١) تفسير السعدي، ص/١١٨

بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا } .

واصطفى نوحا فجعله أول رسول إلى أهل الأرض حين عبدت الأوثان، ووفقه من الصبر والاحتمال والشكر والدعوة إلى الله في جميع الأوقات ما أوجب اصطفاءه واجتباءه، وأغرق الله أهل الأرض بدعوته، ونجاه ومن (١) معه في الفلك المشحون، وجعل ذريته هم الباقين، وترك عليه ثناء يذكر في جميع الأحيان والأزمان.

واصطفى آل إبراهيم وهو إبراهيم خليل الرحمن الذي اختصه الله بخلته، وبذل نفسه للنيران وولده للقربان وماله للضيفان، ودعا إلى ربه ليلا ونهارا وسرا وجهارا، وجعله الله أسوة يقتدي به من بعده، وجعل في ذريته النبوة والكتاب، ويدخل في آل إبراهيم جميع الأنبياء الذين بعثوا من بعده لأنهم من ذريته، وقد خصهم بأنواع الفضائل ما كانوا به صفوة على العالمين، ومنهم سيد ولد آدم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فإن الله تعالى جمع فيه من الكمال ما تفرق في غيره، وفاق صلى الله عليه وسلم الأولين والآخرين، فكان سيد المرسلين المصطفى من ولد إبراهيم.

واصطفى الله آل عمران وهو والد مريم بنت عمران، أو والد موسى بن عمران عليه السلام، فهذه البيوت التي ذكرها الله هي صفوته من العالمين، وتسلسل الصلاح والتوفيق بذرياتهم، فلهذا قال تعالى { ذرية بعضها من بعض } .

أي: حصل التناسب والتشابه بينهم في الخلق والأخلاق الجميلة، كما قال تعالى لما ذكر جملة من الأنبياء الداخلين في ضمن هذه البيوت الكبار { ومن آبائهم وإخوانهم وذرياتهم واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم } { والله سميع عليم } يعلم من يستحق الاصطفاء فيصطفيه ومن لا يستحق ذلك فيخذله ويرديه، ودل هذا على أن هؤلاء اختارهم لما علم من أحوالهم الموجبة لذلك فضلا منه وكرما، ومن الفائدة **والحكمة في** قصه علينا أخبار هؤلاء الأصفياء أن نحبهم ونقتدي بهم، ونسأل الله أن يوفقنا لما وفقهم، وأن لا نزال نزري (٢) أنفسنا بتأخرنا عنهم وعدم اتصافنا بأوصافهم ومزاياهم الجميلة، وهذا أيضا من لطفه بهم، وإظهاره الثناء عليهم في الأولين والآخرين، والتنويه بشرفهم، فلله ما أعظم جوده وكرمه وأكثر فوائد معاملته، لو لم يكن لهم من الشرف إلا أن أذكارهم مخلدة ومناقبهم مؤبدة لكفى بذلك فضلا

ولما ذكر فضائل هذه البيوت الكريمة ذكر ما جرى لمريم والدة عيسى وكيف لطف الله بها في تربيتها ونشأتها، فقال: { إذ قالت امرأة عمران } أي: والدة مريم لما حملت { رب إني نذرت لك ما في بطني

محررا } أي: جعلت ما في بطني خالصا لوجهك، محررا لخدمتك وخدمة بيتك { فتقبل مني } هذا العمل المبارك { إنك أنت السميع العليم } تسمع دعائي وتعلم نيتي وقصدي، هذا وهي في البطن قبل وضعها

{ فلما وضعتها قالت رب إني وضعتها أنثى } كأنها تشوفت أن يكون ذكرا ليكون أقدر على الخدمة وأعظم موقعا، ففي كلامها [نوع] (٣) عذر من ربها، فقال الله: { والله أعلم بما وضعت } أي: لا يحتاج إلى إعلامها، بل علمه متعلق بها قبل أن تعلم أمها ما هي { وليس الذكر كالأنثى وإني سميتها مريم } فيه دلالة على تفضيل الذكر على الأنثى، وعلى التسمية وقت الولادة، وعلى أن للأم تسمية الولد إذا لم يكره الأب { وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم } دعت لها ولذريتها أن يعيذهم الله من الشيطان الرجيم.

{ فتقبلها ربها بقبول حسن } أي: جعلها نذيرة مقبولة، وأجارها وذريتها من الشيطان { وأنبتها نباتا حسنا } أي: نبتت نباتا حسنا في بدنها وخلقها وأخلاقها، لأن الله تعالى قيض لها زكريا عليه السلام { وكفلها } إياه، وهذا من رفقه بها ليربيها على أكمل الأحوال، فنشأت في عبادة ربها وفاقت النساء، وانقطعت لعبادة ربها، ولزمت محرابها أي: مصلاها فكان { كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا } أي: من غير كسب ولا تعب، بل رزق ساقه الله إليها، وكرامة أكرمها الله بها، فيقول لها زكريا { أنى لك هذا قالت هو من عند الله } فضلا وإحسانا { إن الله يرزق من يشاء بغير حساب } أي: من غير حسبان من العبد ولا كسب، قال تعالى: { ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب } وفي هذه الآية دليل على إثبات كرامات الأولياء الخارقة للعادة كما قد تواترت الأخبار بذلك، خلافا لمن نفى ذلك، فلما رأى زكريا عليه السلام ما من الله به على مريم، وما أكرمها به من رزقه الهنيء الذي أتاها بغير سعي منها ولا كسب، طمعت نفسه بالولد، فلهذا قال تعالى:

---

(١) في الأصل: وممن.

(٢) في الأصل: نزدي.

(٣) الكلمة غير واضحة في الأصل ويبدو - والله أعلم - أنها كما أثبت.." (١)

---

(١) تفسير السعدي، ص/١٢٨

"{ ١٢١ - ١٢٢ } { وإذ غدوت من أهلك تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال والله سميع عليم } .

هذه الآيات نزلت في وقعة "أحد" وقصتها مشهورة في السير والتواريخ، ولعل **الحكمة في** ذكرها في هذا الموضع، وأدخل في أثنائها وقعة "بدر" لما أن الله تعالى قد وعد المؤمنين أنهم إذا صبروا واتقوا نصرهم، ورد كيد الأعداء عنهم، وكان هذا حكما عاما ووعدا صادقا لا يتخلف مع الإتيان بشرطه، فذكر نموذجا من هذا في هاتين القصتين، وأن الله نصر المؤمنين في "بدر" لما صبروا واتقوا، وأدال عليهم العدو لما صدر من بعضهم من الإخلال بالتقوى ما صدر، ومن حكمة الجمع بين القصتين أن الله يحب من عباده إذا أصابهم ما يكرهون أن يتذكروا ما يحبون، فيخف عنهم البلاء ويشكروا الله على نعمه العظيمة التي إذا قوبلت بما ينالهم من المكروه الذي هو في الحقيقة خير لهم، كان المكروه بالنسبة إلى المحبوب نزرا يسيرا، وقد أشار تعالى إلى هذه **الحكمة في** قوله { أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها } وحاصل قضية "أحد" وإجمالها أن المشركين لما رجع فلهم من "بدر" إلى مكة، وذلك في سنة اثنتين من الهجرة، استعدوا بكل ما يقدرون عليه من العدد بالأموال والرجال والعدد، حتى اجتمع عندهم من ذلك ما جزموا بحصول غرضهم وشفاء غيظهم، ثم وجهوا من مكة للمدينة في ثلاثة آلاف مقاتل، حتى نزلوا قرب المدينة، فخرج النبي صلى الله عليه وسلم إليهم هو وأصحابه بعد المراجعة والمشاورة حتى استقر رأيهم على الخروج، وخرج في ألف، فلما ساروا قليلا رجع عبد الله بن أبي المنافق بثلث الجيش ممن هو على مثل طريقته، وهمت طائفتان من المؤمنين أن يرجعوا وهم بنو سلمة وبنو حارثة فثبتهم الله، فلما وصلوا إلى أحد رتبهم النبي صلى الله عليه وسلم في مواضعهم وأسندوا ظهورهم إلى أحد، ورتب النبي صلى الله عليه وسلم خمسين رجلا من أصحابه في خلة في جبل "أحد" وأمرهم أن يلزموا مكانهم ولا يبرحوا منه ليأمنوا أن يأتيهم أحد من ظهورهم، فلما التقى المسلمون والمشركون انهزم المشركون هزيمة قبيحة وخلفوا معسكرهم خلف ظهورهم، واتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون، فلما رآهم الرماة الذين جعلهم النبي صلى الله عليه وسلم في الجبل، قال بعضهم لبعض: الغنيمة الغنيمة، ما يقعدنا هاهنا والمشركون قد انهزموا، ووعظهم أميرهم عبد الله بن جبير عن المعصية فلم يلتفتوا إليه، فلما أخلوا موضعهم فلم يبق فيه إلا نفر يسير، منهم أميرهم عبد الله بن جبير، جاءت خيل المشركين من ذلك الموضع واستدبرت المسلمين وقاتلت ساقتهم، فجال المسلمون جولة ابتلاهم الله بها وكفر بها عنهم، وأذاقهم فيها عقوبة المخالفة، فحصل ما حصل من قتل من قتل منهم، ثم إنهم انحازوا إلى رأس جبل "أحد" وكف الله عنهم أيدي المشركين وانكفأوا إلى بلادهم، ودخل رسول الله

صلى الله عليه وسلم وأصحابه المدينة قال الله تعالى { وإذ غدوت من أهلك } والغدو هاهنا مطلق الخروج، ليس المراد به الخروج في أول النهار، لأن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه لم يخرجوا إلا بعدما صلوا الجمعة { تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال } أي: تنزلهم وترتبهم كل في مقعده اللائق به، وفيها أعظم مدح للنبي صلى الله عليه وسلم حيث هو الذي يباشر تدبيرهم وإقامتهم في مقاعد القتال، وما ذاك إلا لكمال علمه ورأيه، وسداد نظره وعلو همته، حيث يباشر هذه الأمور بنفسه وشجاعته الكاملة صلوات الله وسلامه عليه { والله سميع } لجميع المسموعات، ومنه أنه يسمع ما يقول المؤمنون والمنافقون كل يتكلم بحسب ما في قلبه { عليم } بنيات العبيد، فيجازيهم عليها أتم الجزاء، وأيضا فالله سميع عليم بكم، يكلؤكم، ويتولى تدبير أموركم، ويؤيدكم بنصره كما قال تعالى لموسى وهارون { إنني معكما أسمع وأرى } .." (١)

"{ ١٢٣ - ١٢٦ } { ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون * إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين * بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين * وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم } .

وهذا امتنان منه على عباده المؤمنين، وتذكير لهم بما نصرهم به يوم بدر وهم أذلة في قلة عددهم وعددهم مع كثرة عدد عدوهم وعددهم، وكانت وقعة بدر في السنة الثانية من الهجرة، خرج النبي صلى الله عليه وسلم من المدينة بثلاث مئة وبضعة عشر من أصحابه، ولم يكن معهم إلا سبعون بعيرا وفرسان لطلب عير لقريش قدمت من الشام، فسمع به المشركون فتجهزوا من مكة لفكاك عيرهم، وخرجوا في زهاء ألف مقاتل مع العدة الكاملة والسلاح العام والخيل الكثيرة، فالتقوا هم والمسلمون في ماء يقال له "بدر" بين مكة والمدينة فاقتتلوا، ونصر الله المسلمين نصرا عظيما، فقتلوا من المشركين سبعين قتيلا من صناديد المشركين وشجعانهم، وأسروا سبعين، واحتووا على معسكرهم ستأتي - إن شاء الله - القصة في سورة الأنفال، فإن ذلك موضعها، ولكن الله تعالى هنا أتى بها ليتذكر بها المؤمنون ليتقوا ربهم ويشكروه، فلهذا قال { فاتقوا الله لعلكم تشكرون } لأن من اتقى ربه فقد شكره، ومن ترك التقوى فلم يشكره، إذ تقول يا محمد للمؤمنين يوم بدر مبشرا لهم بالنصر.

---

(١) تفسير السعدي، ص/١٤٥

{ ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا } أي: من مقصدهم هذا، وهو وقعة بدر { يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين } أي: معلمين بعلامة الشجعان، فشرط الله لإمدادهم ثلاثة شروط: الصبر، والتقوى، وإتيان المشركين من فورهم هذا، فهذا الوعد بإنزال الملائكة المذكورين وإمدادهم بهم، وأما وعد النصر وقمع كيد الأعداء فشرط الله له الشرطين الأولين كما تقدم في قوله: { وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا } .

{ وما جعله الله } أي: إمداده لكم بالملائكة { إلا بشرى } تستبشرون بها وتفرحون { ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله } فلا تعتمدوا على ما معكم من الأسباب، بل الأسباب فيها طمأنينة لقلوبكم، وأما النصر الحقيقي الذي لا معارض له، فهو مشيئة الله لنصر من يشاء من عباده، فإنه إن شاء نصر من معه الأسباب كما هي سنته في خلقه، وإن شاء نصر المستضعفين الأذلين ليبين لعباده أن الأمر كله بيديه، ومرجع الأمور إليه، ولهذا قال { عند الله العزيز } فلا يمتنع عليه مخلوق، بل الخلق كلهم أذلاء مدبرون تحت تدبيره وقهره { الحكيم } الذي يضع الأشياء مواضعها، وله الحكمة في إدالة الكفار في بعض الأوقات على المسلمين إدالة غير مستقرة، قال تعالى: { ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض } .." (١)

"{ ١٦٥ - ١٦٨ } { أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم إن الله على كل شيء قدير } .

هذا تسلية من الله تعالى لعباده المؤمنين، حين أصابهم ما أصابهم يوم "أحد" وقتل منهم نحو سبعين، فقال الله: إنكم { قد أصبتم } من المشركين { مثليها } يوم بدر فقتلتم سبعين من كبارهم وأسرتم سبعين، فليهن الأمر ولتخف المصيبة عليكم، مع أنكم لا تستوون أنتم وهم، فإن قتلاكم في الجنة وقتلاهم في النار.

{ قلتم أنى هذا } أي: من أين أصابنا ما أصابنا وهزمنا؟ { قل هو من عند أنفسكم } حين تنازعتم وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون، فعودوا على أنفسكم باللوم، واحذروا من الأسباب المردية.

{ إن الله على كل شيء قدير } فإياكم وسوء الظن بالله، فإنه قادر على نصركم، ولكن له أتم الحكمة في ابتلائكم ومصيبتكم. { ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض } .." (٢)

---

(١) تفسير السعدي، ص/١٤٦

(٢) تفسير السعدي، ص/١٥٦

"{ ١١ ، ١٢ } { يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين فإن كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك وإن كانت واحدة فلها النصف ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك إن كان له ولد فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث فإن كان له إخوة فلأمه السدس من بعد وصية يوصي بها أو دين آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعا فريضة من الله إن الله كان عليما حكيما } .

هذه الآيات والآية التي هي آخر السورة هن آيات المواريث المتضمنة لها. فإنها مع حديث عبد الله بن عباس الثابت في صحيح البخاري "ألحقوا الفرائض بأهلها، فما بقي فلأولى رجل ذكر" - مشتملات على جل أحكام الفرائض، بل على جميعها كما سترى ذلك، إلا ميراث الجدات فإنه غير مذكور في ذلك. لكنه قد ثبت في السنن عن المغيرة بن شعبة ومحمد بن مسلمة أن النبي صلى الله عليه وسلم أعطى الجدة السدس، مع إجماع العلماء على ذلك.

فقوله تعالى: { يوصيكم الله في أولادكم } أي: أولادكم -يا معشر الوالدين- عندكم ودائع قد وصاكم الله عليهم، لتقوموا بمصالحهم الدينية والدنيوية، فتعلمونهم وتؤدبونهم وتكفونهم عن المفاسد، وتأمرونهم بطاعة الله وملازمة التقوى على الدوام كما قال تعالى: { يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة } فالأولاد عند والديهم موصى بهم، فإما أن يقوموا بتلك الوصية، وإما أن يضيعوها فيستحقوا بذلك الوعيد والعقاب.

وهذا مما يدل على أن الله تعالى أرحم بعباده من الوالدين، حيث أوصى الوالدين مع كمال شفقتهم، عليهم.

ثم ذكر كيفية إرثهم فقال: { للذكر مثل حظ الأنثيين } أي: الأولاد للصلب، والأولاد للابن، للذكر مثل حظ الأنثيين، إن لم يكن معهم صاحب فرض، أو ما أبقت الفروض يقتسمونه كذلك، وقد أجمع العلماء على ذلك، وأنه -مع وجود أولاد الصلب- فالميراث لهم. وليس لأولاد الابن شيء، حيث كان أولاد الصلب ذكورا وإناثا، هذا مع اجتماع الذكور والإناث. وهنا حالتان: انفراد الذكور، وسيأتي حكمها. وانفراد الإناث، وقد ذكره بقوله: { فإن كن نساء فوق اثنتين } أي: بنات صلب أو بنات ابن، ثلاثا فأكثر { فلهن ثلثا ما ترك وإن كانت واحدة } أي: بنتا أو بنت ابن { فلها النصف } وهذا إجماع.

بقي أن يقال: من أين يستفاد أن للابنتين الثنتين الثلثين بعد الإجماع على ذلك؟

فالجواب أنه يستفاد من قوله: { وإن كانت واحدة فلها النصف } فمفهوم ذلك أنه إن زادت على الواحدة، انتقل الفرض عن النصف، ولا ثم بعده إلا الثلثان. وأيضا فقوله: { للذكر مثل حظ الأنثيين } إذا خلف ابنا

وبنتا، فإن الابن له الثلثان، وقد أخبر الله أنه مثل حظ الأنثيين، فدل ذلك على أن للبنتين الثلثين.

وأيضا فإن البنت إذا أخذت الثلث مع أخيها - وهو أزيد ضررا عليها من أختها، فأخذها له مع أختها من باب أولى وأحرى.

وأيضا فإن قوله تعالى في الأختين: { فإن كانتا اثنتين فلهما الثلثان مما ترك } نص في الأختين الثنتين.

فإذا كان الأختان الثنتان -مع بعدهما- يأخذان الثلثين فالابنتان -مع قربهما- من باب أولى وأحرى. وقد أعطى النبي صلى الله عليه وسلم ابنتي سعد الثلثين كما في الصحيح.

بقي أن يقال: فما الفائدة في قوله: { فوق اثنتين } ؟. قيل: الفائدة في ذلك -والله أعلم- أنه ليعلم أن الفرض الذي هو الثلثان لا يزيد بزيادتهن على الثنتين بل من الثنتين فصاعدا. ودلت الآية الكريمة أنه إذا وجد بنت صلب واحدة، وبنت ابن أو بنات ابن، فإن لبنت الصلب النصف، ويبقى من الثلثين اللذين فرضهما الله للبنات أو بنات الابن السدس، فيعطى بنت الابن، أو بنات الابن، ولهذا يسمى هذا السدس تكملة الثلثين. [ص ١٦٧]

ومثل ذلك بنت الابن، مع بنات الابن اللاتي أنزل منها.

وتدل الآية أنه متى استغرق البنات أو بنات الابن الثلثين، أنه يسقط من دونهن من بنات الابن لأن الله لم يفرض لهن إلا الثلثين، وقد تم. فلو لم يسقطن لزم من ذلك أن يفرض لهن أزيد من الثلثين، وهو خلاف النص.

وكل هذه الأحكام مجمع عليها بين العلماء ولله الحمد.

ودل قوله: { مما ترك } أن الوارثين يرثون كل ما خلف الميت من عقار وأثاث وذهب وفضة وغير ذلك، حتى الدية التي لم تجب إلا بعد موته، وحتى الديون التي في الذمم (١) .

ثم ذكر ميراث الأبوين فقال: { ولأبويه } أي: أبوه وأمه { لكل واحد منهما السدس مما ترك إن كان له ولد } أي: ولد صلب أو ولد ابن ذكرا كان أو أنثى، واحدا أو متعددا.

فأما الأم فلا تزيد على السدس مع أحد من الأولاد.

وأما الأب فمع الذكور منهم، لا يستحق أزيد من السدس، فإن كان الولد أنثى أو إناثا ولم يبق بعد الفرض شيء -كأبوين وابنتين- لم يبق له تعصيب. وإن بقي بعد فرض البنت أو البنات شيء أخذ الأب السدس فرضا، والباقي تعصيبا، لأننا ألحقنا الفروض بأهلها، فما بقي فلأولى رجل ذكر، وهو أولى من الأخ والعم

وغيرهما.

{ فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث } أي: والباقي للأب لأنه أضاف المال إلى الأب والأم إضافة واحدة، ثم قدر نصيب الأم، فدل ذلك على أن الباقي للأب.

وعلم من ذلك أن الأب مع عدم الأولاد لا فرض له، بل يرث تعصيبا المال كله، أو ما أبقت الفروض، لكن لو وجد مع الأبوين أحد الزوجين -ويعبر عنهما بالعمريتين- فإن الزوج أو الزوجة يأخذ فرضه، ثم تأخذ الأم ثلث الباقي والأب الباقي.

وقد دل على ذلك قوله: { وورثه أبواه فلأمه الثلث } أي: ثلث ما ورثه الأبوان. وهو في هاتين الصورتين إما سدس في زوج وأم وأب، وإما ربع في زوجة وأم وأب. فلم تدل الآية على إرث الأم ثلث المال كاملا مع عدم الأولاد حتى يقال: إن هاتين الصورتين قد استثنيتا من هذا.

ويوضح ذلك أن الذي يأخذه الزوج أو الزوجة بمنزلة ما يأخذه الغرماء، فيكون من رأس المال، والباقي بين الأبوين.

ولأنا لو أعطينا الأم ثلث المال، لزم زيادتها على الأب في مسألة الزوج، أو أخذ الأب في مسألة الزوجة زيادة عنها نصف السدس، وهذا لا نظير له، فإن المعهود مساواتها للأب، أو أخذه ضعف ما تأخذه الأم.

{ فإن كان له إخوة فلأمه السدس } أشقاء، أو لأب، أو لأم، ذكورا كانوا أو إناثا، وارثين أو محجوبين بالأب أو الجد [لكن قد يقال: ليس ظاهر قوله: { فإن كان له إخوة } شاملا لغير الوارثين بدليل عدم تناولها للمحجوب بالنصف، فعلى هذا لا يحجبها عن الثلث من الإخوة إلا الإخوة الوارثون. ويؤيده أن الحكمة في حجبهم لها عن الثلث لأجل أن يتوفر لهم شيء من المال، وهو معدوم، والله أعلم] (٢) ولكن بشرط كونهم اثنين فأكثر، ويشكل على ذلك إتيان لفظ "الإخوة" بلفظ الجمع. وأجيب عن ذلك بأن المقصود مجرد التعدد، لا الجمع، ويصدق ذلك باثنين.

وقد يطلق الجمع ويراد به الاثنان، كما في قوله تعالى عن داود وسليمان { وكنا لحكمهم شاهدين } وقال في الإخوة للأم: { وإن كان رجل يورث كلالة أو امرأة وله أخ أو أخت فلكل واحد منهما السدس فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث } .

فأطلق لفظ الجمع والمراد به اثنان فأكثر بالإجماع. فعلى هذا لو خلف أما وأبا وإخوة، كان للأم السدس، والباقي للأب فحجبوها عن الثلث، مع حجب الأب إياهم [إلا على الاحتمال الآخر فإن للأم الثلث والباقي

للأب] (٣) .
ثم قال تعالى: { من بعد وصية يوصي بها أو دين } أي: هذه الفروض والأنصباء والمواريث إنما ترد وتستحق بعد نزع الديون التي على الميت لله أو للآدميين، وبعد الوصايا التي قد أوصى الميت بها بعد موته، فالباقي عن ذلك هو التركة الذي يستحقه الورثة.
وقدم الوصية مع أنها مؤخرة عن الدين للاهتمام بشأنها، لكون إخراجها شاقا على الورثة، وإلا فالديون مقدمة عليها، وتكون من رأس المال. [ص ١٦٨]
وأما الوصية فإنها تصح من الثلث فأقل للأجنبي الذي هو غير وارث. وأما غير ذلك فلا ينفذ إلا بإجازة الورثة، قال تعالى: { آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعا } .
فلو رد تقدير الإرث إلى عقولكم واختياركم لحصل من الضرر ما الله به عليم، لنقص العقول وعدم معرفتها بما هو اللائق الأحسن، في كل زمان ومكان. فلا يدرون أي الأولاد أو الوالدين أنفع لهم، وأقرب لحصول مقاصدهم الدينية والدنيوية.
{ فريضة من الله إن الله كان عليما حكيما } أي: فرضها الله الذي قد أحاط بكل شيء علما، وأحكم ما شرعه وقدر ما قدره على أحسن تقدير لا تستطيع العقول أن تقترح مثل أحكامه الصالحة الموافقة لكل زمان ومكان وحال.

---

(١) في ب: الذمة.
(٢) زيادة من هامش ب وهناك زيادة أخرى في هامش أ وإن لم يتبين محلها، لكنها ذات صلة بهذا الموضوع وهي قوله: [وعند شيخ الإسلام إذا كان الإخوة غير وارثين فإنهم لا يحجبون الأم] وبعد كلمة الأم كلمة غير واضحة في الأصل.
(٣) زيادة من هامش ب.." (١)
"{ ٢٣ ، ٢٤ } { حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة وأمهات نسائكم وربائبكم اللاتي في حجوركم من نسائكم اللاتي دخلتم بهن فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم

---

(١) تفسير السعدي، ص/١٦٦

وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف إن الله كان غفورا رحيما } .
هذه الآيات الكريمات مشتملات على المحرمات بالنسب، والمحرمات بالرضاع، والمحرمات بالصهر، والمحرمات بالجمع، وعلى المحللات من النساء. فأما المحرمات في النسب فهن السبع اللاتي ذكرهن الله.
الأم يدخل فيها كل من لها عليك ولادة، وإن بعدت، ويدخل في البنت كل من لك عليها ولادة، والأخوات الشقيقات، أو لأب أو لأم. والعمة: كل أخت لأبيك أو لجدك وإن علا.
والخالة: كل أخت لأمك، أو جدتك وإن علت وارثة أم لا. وبنات الأخ وبنات الأخت أي: وإن نزلت.
فهؤلاء هن المحرمات من النسب بإجماع العلماء كما هو نص الآية الكريمة وما عداهن فيدخل في قوله: { وأحل لكم ما وراء ذلكم } وذلك كبنت العمة والعم وبنت الخال والخالة.
وأما المحرمات بالرضاع فقد ذكر الله منهن الأم والأخت. وفي ذلك تحريم الأم مع أن اللبن ليس لها، إنما هو لصاحب اللبن، دل بتنبيهه على أن صاحب اللبن يكون أبا للمرتضع فإذا ثبتت الأبوة والأمومة ثبت ما هو فرع عنهما كإخوتهما وأصولهم وفروعهم (١) .
وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب" فينتشر التحريم من جهة المرضعة ومن له اللبن كما ينتشر في الأقارب، وفي الطفل المرتضع إلى ذريته فقط. لكن بشرط أن يكون الرضاع خمس رضعات في الحولين كما بينت السنة.
وأما المحرمات بالصهر فهن أربع. حلائل الآباء وإن علوا، وحلائل الأبناء وإن نزلوا، وارثين أو محجوبين. وأمهات الزوجة وإن علون، فهؤلاء الثلاث يحرمن بمجرد العقد.
والرابعة: الربيبة وهي بنت زوجته وإن نزلت، فهذه لا تحرم حتى يدخل بزوجته كما قال هنا { وربائبكم اللاتي في حجوركم من نسائكم اللاتي دخلتم بهن } الآية.
وقد قال الجمهور: إن قوله: { اللاتي في حجوركم } قيد خرج مخرج [ص ١٧٤] الغالب لا مفهوم له، فإن الربيبة تحرم ولو لم تكن في حجره ولكن للتقييد بذلك فائدتان:
إحداهما: فيه التنبيه على الحكمة في تحريم الربيبة وأنها كانت بمنزلة البنت فمن المستقبح إباحتها.
والثانية: فيه دلالة على جواز الخلوة بالربيبة وأنها بمنزلة من هي في حجره من بناته ونحوهن. والله أعلم.
وأما المحرمات بالجمع فقد ذكر الله الجمع بين الأختين وحرمه وحرم النبي صلى الله عليه وسلم الجمع

بين المرأة وعمتها أو خالتها، فكل امرأتين بينهما رحم محرم لو قدر إحداهما ذكرا والأخرى أنثى حرمت عليه فإنه يحرم الجمع بينهما، وذلك لما في ذلك من أسباب التقاطع بين الأرحام.

______

(١) في ب: وأصولهما وفروعهما.." (١)

"{ أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا * أم لهم نصيب من الملك فإذا لا يؤتون الناس نقيرا * أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما * فمنهم من آمن به ومنهم من صد عنه وكفى بجهنم سعيرا * إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم نارا كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب إن الله كان عزيزا حكيما * والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا لهم فيها أزواج مطهرة وندخلهم ظلا ظليلا } .

وهذا من قبائح اليهود وحسدهم للنبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين، أن أخلاقهم الرذيلة وطبعهم الخبيث، حملهم على ترك الإيمان بالله ورسوله، والتعوض عنه بالإيمان بالجبت والطاغوت، وهو الإيمان بكل عبادة لغير الله، أو حكم بغير شرع الله.

فدخل في ذلك السحر والكهانة، وعبادة غير الله، وطاعة الشيطان، كل هذا من الجبت والطاغوت، وكذلك حملهم الكفر والحسد على أن فضلوا طريقة الكافرين بالله -عبدة الأصنام- على طريق المؤمنين فقال: { ويقولون للذين كفروا } أي: لأجلهم تملقا لهم ومداهنة، وبغضا للإيمان: { هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا } أي: طريقا. فما أسمجهم وأشد عنادهم وأقل عقولهم! كيف سلكوا هذا المسلك الوخيم والوادي الذميم؟. هل ظنوا أن هذا يروج على أحد من العقلاء، أو يدخل عقل أحد من الجهلاء، فهل يفضل دين قام على عبادة الأصنام والأوثان، واستقام على تحريم الطيبات، وإباحة الخبائث، وإحلال كثير من المحرمات، وإقامة الظلم بين الخلق، وتسوية الخالق بالمخلوقين، والكفر بالله ورسله وكتبه، على دين قام على عبادة الرحمن، والإخلاص لله في السر والإعلان، والكفر بما يعبد من دونه من الأوثان والأنداد والكاذبين، وعلى صلة الأرحام والإحسان إلى جميع الخلق، حتى البهائم، وإقامة العدل والقسط بين الناس، وتحريم كل خبيث وظلم، والصدق في جميع الأقوال والأعمال، فهل هذا إلا من الهذيان، وصاحب هذا

______

(١) تفسير السعدي، ص/١٧٣

القول إما من أجهل الناس وأضعفهم عقلا وإما من أعظمهم عنادا وتمردا ومراغمة للحق، [ص ١٨٣] وهذا هو الواقع، ولهذا قال تعالى عنهم: { أولئك الذين لعنهم الله } أي: طردهم عن رحمته وأحل عليهم نقمته. { ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا } أي: يتولاه ويقوم بمصالحه ويحفظه عن المكاره، وهذا غاية الخذلان.

{ أم لهم نصيب من الملك } أي: فيفضلون من شاءوا على من شاءوا بمجرد أهوائهم، فيكونون شركاء لله في تدبير المملكة، فلو كانوا كذلك لشحوا وبخلوا أشد البخل، ولهذا قال: { فإذا } أي: لو كان لهم نصيب من الملك { لا يؤتون الناس نقيرا } أي: شيئا ولا قليلا. وهذا وصف لهم بشدة البخل على تقدير وجود ملكهم المشارك لملك الله. وأخرج هذا مخرج الاستفهام المتقرر إنكاره عند كل أحد.

} أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله } أي: هل الحامل لهم على قولهم كونهم شركاء لله فيفضلون من شاءوا؟ أم الحامل لهم على ذلك الحسد للرسول وللمؤمنين على ما آتاهم الله من فضله؟ وذلك ليس ببدع ولا غريب على فضل الله. { فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما } وذلك ما أنعم الله به على إبراهيم وذريته من النبوة والكتاب والملك الذي أعطاه من أعطاه من أنبيائه كـ "داود" و "سليمان" . فإنعامه لم يزل مستمرا على عباده المؤمنين. فكيف ينكرون إنعامه بالنبوة والنصر والملك لمحمد صلى الله عليه وسلم أفضل الخلق وأجلهم وأعظمهم معرفة بالله وأخشاهم له؟.

{ فمنهم من آمن به } أي: بمحمد صلى الله عليه وسلم فنال بذلك السعادة الدنيوية والفلاح الأخروي. { ومنهم من صد عنه } عنادا وبغيا وحسدا فحصل لهم من شقاء الدنيا ومصائبها ما هو بعض آثار معاصيهم { وكفى بجهنم سعيرا } تسعر على من كفر بالله، وجحد نبوة أنبيائه من اليهود والنصارى وغيرهم من أصناف الكفرة.

ولهذا قال: { إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم نارا } أي: عظيمة الوقود شديدة الحرارة { كلما نضجت جلودهم } أي: احترقت { بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب } أي: ليبلغ العذاب منهم كل مبلغ. وكما تكرر منهم الكفر والعناد وصار وصفا لهم وسجية؛ كرر عليهم العذاب جزاء وفاقا، ولهذا قال: { إن الله كان عزيزا حكيما } أي: له العزة العظيمة **والحكمة في** خلقه وأمره، وثوابه وعقابه.

{ والذين آمنوا } أي: بالله وما أوجب الإيمان به { وعملوا الصالحات } من الواجبات والمستحبات {

سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا لهم فيها أزواج مطهرة } أي: من الأخلاق الرذيلة، والخلق الذميم، ومما يكون من نساء الدنيا من كل دنس وعيب { وندخلهم ظلا ظليلا } .." (١)

"وفي قوله: { ومن أصدق من الله حديثا } { ومن أصدق من الله قيلا } إخبار بأن حديثه وأخباره وأقواله في أعلى مراتب الصدق، بل أعلاها. فكل ما قيل في العقائد [والعلوم] (١) والأعمال مما يناقض ما أخبر الله به، فهو باطل لمناقضته للخبر الصادق اليقين، فلا يمكن أن يكون حقا. [ص ١٩٢]

{ ٨٨ - ٩١ } { فما لكم في المنافقين فئتين والله أركسهم بما كسبوا أتريدون أن تهدوا من أضل الله ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا * ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا في سبيل الله فإن تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ولا تتخذوا منهم وليا ولا نصيرا * إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق أو جاءوكم حصرت صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم ولو شاء الله لسلطهم عليكم فلقاتلوكم فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا * ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم كلما ردوا إلى الفتنة أركسوا فيها فإن لم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السلم ويكفوا أيديهم فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأولئكم جعلنا لكم عليهم سلطانا مبينا } .

(٢) المراد بالمنافقين المذكورين في هذه الآيات: المنافقون المظهرون إسلامهم، ولم يهاجروا مع كفرهم، وكان قد وقع بين الصحابة رضوان الله عليهم فيهم اشتباه، فبعضهم تحرج عن قتالهم، وقطع موالاتهم بسبب ما أظهروه من الإيمان، وبعضهم علم أحوالهم بقرائن أفعالهم فحكم بكفرهم. فأخبرهم الله تعالى أنه لا ينبغي لكم أن تشتبهوا فيهم ولا تشكوا، بل أمرهم واضح غير مشكل، إنهم منافقون قد تكرر كفرهم، وودوا مع ذلك كفركم وأن تكونوا مثلهم. فإذا تحققتم ذلك منهم { فلا تتخذوا منهم أولياء } وهذا يستلزم عدم محبتهم لأن الولاية فرع المحبة.

ويستلزم أيضا بغضهم وعداوتهم لأن النهي عن الشيء أمر بضده، وهذا الأمر موقت بهجرتهم فإذا هاجروا جرى عليهم ما جرى على المسلمين، كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يجري أحكام الإسلام لكل من كان معه وهاجر إليه، وسواء كان مؤمنا حقيقة أو ظاهر الإيمان.

وأنهم إن لم يهاجروا وتولوا عنها { فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم } أي: في أي وقت وأي محل كان،

---

(١) تفسير السعدي، ص/١٨٢

وهذا من جملة الأدلة الدالة على نسخ القتال في الأشهر الحرم، كما هو قول جمهور العلماء، والمنازعون يقولون: هذه نصوص مطلقة، محمولة على تقييد التحريم في الأشهر الحرم.

ثم إن الله استثنى من قتال هؤلاء المنافقين ثلاث فرق:

فرقتين أمر بتركهم وحتم [على] ذلك، إحداهما (٣) : من يصل إلى قوم بينهم وبين المسلمين عهد وميثاق بترك القتال فينضم إليهم، فيكون له حكمهم في حقن الدم والمال.

والفرقة الثانية: قوم { حصرت صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم } أي: بقوا، لا تسمح أنفسهم بقتالكم، ولا بقتال قومهم، وأحبوا ترك قتال الفريقين، فهؤلاء أيضا أمر بتركهم، وذكر الحكمة في ذلك في قوله: { ولو شاء الله لسلطهم عليكم فلقاتلوكم } فإن الأمور الممكنة ثلاثة أقسام:

إما أن يكونوا معكم ويقاتلوا أعداءكم، وهذا متعذر من هؤلاء، فدار الأمر بين قتالكم مع قومهم وبين ترك قتال الفريقين، وهو أهون الأمرين عليكم، والله قادر على تسليطهم عليكم، فاقبلوا العافية، واحمدوا ربكم الذي كف أيديهم عنكم مع التمكن من ذلك.

{ فـ } هؤلاء { إن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا } .

الفرقة الثالثة: قوم يريدون مصلحة أنفسهم بقطع النظر عن احترامكم، وهم الذين قال الله فيهم: { ستجدون آخرين } أي: من هؤلاء المنافقين. { يريدون أن يأمنوكم } أي: خوفا منكم { ويأمنوا قومهم كلما ردوا إلى الفتنة أركسوا فيها } أي: لا يزالون مقيمين على كفرهم ونفاقهم، وكلما عرض لهم عارض من عوارض الفتن أعماهم ونكسهم على رءوسهم، وازداد كفرهم ونفاقهم، وهؤلاء في الصورة كالفرقة الثانية، وفي الحقيقة مخالفة لها.

فإن الفرقة الثانية تركوا قتال المؤمنين احتراما لهم لا خوفا على أنفسهم، وأما هذه الفرقة فتركوه خوفا لا احتراما، بل لو وجدوا فرصة في قتال المؤمنين، فإنهم مستعدون (٤) لانتهازها، فهؤلاء إن لم يتبين منهم ويتضح اتضاحا عظيما اعتزال المؤمنين وترك قتالهم، فإنهم يقاتلون، ولهذا قال: { فإن لم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السلم } أي: المسالمة والموادعة { ويكفوا أيديهم فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأولئكم جعلنا لكم عليهم سلطانا مبينا } أي: حجة بينة واضحة، لكونهم معتدين ظالمين لكم تاركين للمسالمة، فلا يلوموا إلا أنفسهم.

---

(١) زيادة من هامش ب.
(٢) في هامش أ: (وقد ثبت في الصحيحين من حديث زيد بن أرقم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج إلى أحد، فرجع ناس خرجوا معه، فكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم فرقتين: فرقة تقول: نقتلهم، وفرقة تقول: لا، فأنزل الله: "فما لكم في المنافقين فئتين" فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنها طيبة، وإنها تنفي الخبث كما تنفي النار خبث الحديد". وليس هناك علامة تدل على محل هذه الزيادة.
(٣) كذا في ب، وفي أ: أحدها.
(٤) في ب: سيقدمون.." (١)

"{ يا موسى إنا لن ندخلها أبدا ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون } .
فما أشنع هذا الكلام منهم، ومواجهتهم لنبيهم في هذا المقام الحرج الضيق، الذي قد دعت الحاجة والضرورة إلى نصرة نبيهم، وإعزاز أنفسهم.
وبهذا وأمثاله يظهر التفاوت بين سائر الأمم، وأمة محمد صلى الله عليه وسلم حيث قال الصحابة لرسول الله صلى الله عليه وسلم -حين شاورهم في القتال يوم "بدر" مع أنه لم يحتم عليهم: يا رسول الله، لو خضت بنا هذا البحر لخضناه معك، ولو بلغت بنا برك الغماد ما تخلف عنك أحد. ولا نقول كما قال قوم موسى لموسى: { اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون } ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، من بين يديك ومن خلفك، وعن يمينك وعن يسارك.
فلما رأى موسى عليه السلام عتوهم عليه { قال رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي } أي: فلا يدان لنا بقتالهم، ولست بجبار على هؤلاء. { فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين } أي: احكم بيننا وبينهم، بأن تنزل فيهم من العقوبة ما اقتضته حكمتك، ودل ذلك على أن قولهم وفعلهم من الكبائر العظيمة الموجبة للفسق.
{ قال } الله مجيبا لدعوة موسى: { فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض } أي: إن من عقوبتهم أن نحرم عليهم دخول هذه القرية التي كتبها الله لهم، مدة أربعين سنة، وتلك المدة أيضا يتيهون في الأرض، لا يهتدون إلى طريق ولا يبقون مطمئنين، وهذه عقوبة دنيوية، لعل الله تعالى كفر بها عنهم، ودفع عنهم عقوبة أعظم منها، وفي هذا دليل على أن العقوبة على الذنب قد تكون بزوال نعمة موجودة، أو

---
(١) تفسير السعدي، ص/١٩١

دفع نقمة قد انعقد سبب وجودها أو تأخرها إلى وقت آخر.

ولعل الحكمة في هذه المدة أن يموت أكثر هؤلاء الذين قالوا هذه المقالة، الصادرة عن قلوب لا صبر فيها ولا ثبات، بل قد ألفت الاستعباد لعدوها، ولم تكن لها همم ترقيها إلى ما فيه ارتقاؤها وعلوها، ولتظهر ناشئة جديدة تتربى عقولهم على طلب قهر الأعداء، وعدم الاستعباد، والذل المانع من السعادة.

ولما علم الله تعالى أن عبده موسى في غاية الرحمة على الخلق، خصوصا قومه، وأنه ربما رق لهم، واحتملته الشفقة على الحزن عليهم في هذه العقوبة، أو الدعاء لهم بزوالها، مع أن الله قد حتمها، قال: { فلا تأس على القوم الفاسقين } أي: لا تأسف عليهم ولا تحزن، فإنهم قد فسقوا، وفسقهم اقتضى وقوع ما نزل بهم لا ظلما منا.." (١)

"{ ٣٣ ، ٣٤ } { إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم * إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أن الله غفور رحيم } .

المحاربون لله ولرسوله، هم الذين بارزوه بالعداوة، وأفسدوا في الأرض [ص ٢٣٠] بالكفر والقتل، وأخذ الأموال، وإخافة السبل.

والمشهور أن هذه الآية الكريمة في أحكام قطاع الطريق، الذين يعرضون للناس في القرى والبوادي، فيغصبونهم أموالهم، ويقتلونهم، ويخيفونهم، فيمتنع الناس من سلوك الطريق التي هم بها، فتنقطع بذلك.

فأخبر الله أن جزاءهم ونكالهم -عند إقامة الحد عليهم- أن يفعل بهم واحد من هذه الأمور.

واختلف المفسرون: هل ذلك على التخيير، وأن كل قاطع طريق يفعل به الإمام أو نائبه ما رآه المصلحة من هذه الأمور المذكورة؟ وهذا ظاهر اللفظ، أو أن عقوبتهم تكون بحسب جرائمهم، فكل جريمة لها قسط يقابلها، كما تدل عليه الآية بحكمتها وموافقتها لحكمة الله تعالى. وأنهم إن قتلوا وأخذوا مالا تحتم قتلهم وصلبهم، حتى يشتهروا ويختزوا ويرتدع غيرهم.

وإن قتلوا ولم يأخذوا مالا تحتم قتلهم فقط. وإن أخذوا مالا ولم يقتلوا تحتم أن تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، اليد اليمنى والرجل اليسرى. وإن أخافوا الناس ولم يقتلوا، ولا أخذوا مالا نفوا من الأرض، فلا يتركون يأوون في بلد حتى تظهر توبتهم. وهذا قول ابن عباس رضي الله عنه وكثير من الأئمة، على اختلاف في

---

(١) تفسير السعدي، ص/٢٢٨

بعض التفاصيل.

{ ذلك } النكال { لهم خزي في الدنيا } أي: فضيحة وعار { ولهم في الآخرة عذاب عظيم } فدل هذا أن قطع الطريق من أعظم الذنوب، موجب لفضيحة الدنيا وعذاب الآخرة، وأن فاعله محارب لله ولرسوله.

وإذا كان هذا شأن عظم هذه الجريمة، علم أن تطهير الأرض من المفسدين، وتأمين السبل والطرق، عن القتل، وأخذ الأموال، وإخافة الناس، من أعظم الحسنات وأجل الطاعات، وأنه إصلاح في الأرض، كما أن ضده إفساد في الأرض.

{ إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم } أي: من هؤلاء المحاربين، { فاعلموا أن الله غفور رحيم } أي: فيسقط عنه ما كان لله، من تحتم القتل والصلب والقطع والنفي، ومن حق الآدمي أيضا، إن كان المحارب كافرا ثم أسلم، فإن كان المحارب مسلما فإن حق الآدمي، لا يسقط عنه من القتل وأخذ المال.

ودل مفهوم الآية على أن توبة المحارب -بعد القدرة عليه- أنها لا تسقط عنه شيئا، **والحكمة في** ذلك ظاهرة.

وإذا كانت التوبة قبل القدرة عليه، تمنع من إقامة الحد في الحرابة، فغيرها من الحدود -إذا تاب من فعلها، قبل القدرة عليه- من باب أولى.." (١)

"ولم يبق إلا العذاب الأليم، الموجع الدائم الذي لا يخرجون منه أبدا، بل هم ماكثون فيه سرمدا.

[ص ٢٣١]

{ ٣٨ - ٤٠ } { والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم * فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه إن الله غفور رحيم * ألم تعلم أن الله له ملك السماوات والأرض يعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء والله على كل شيء قدير } .

السارق: هو من أخذ مال غيره المحترم خفية، بغير رضاه. وهو من كبائر الذنوب الموجبة لترتب العقوبة الشنيعة، وهو قطع اليد اليمنى، كما هو في قراءة بعض الصحابة.

وحد اليد عند الإطلاق من الكوع، فإذا سرق قطعت يده من الكوع، وحسمت في زيت لتنسد العروق فيقف الدم، ولكن السنة قيدت عموم هذه الآية من عدة أوجه:

منها: الحرز، فإنه لا بد أن تكون السرقة من حرز، وحرز كل مال: ما يحفظ به عادة. فلو سرق من غير

---

(١) تفسير السعدي، ص/٢٢٩

حرز فلا قطع عليه.

ومنها: أنه لا بد أن يكون المسروق نصابا، وهو ربع دينار، أو ثلاثة دراهم، أو ما يساوي أحدهما، فلو سرق دون ذلك فلا قطع عليه.

ولعل هذا يؤخذ من لفظ السرقة ومعناها، فإن لفظ"السرقة" أخذ الشيء على وجه لا يمكن الاحتراز منه، وذلك أن يكون المال محرزا، فلو كان غير محرز لم يكن ذلك سرقة شرعية.

ومن الحكمة أيضا أن لا تقطع اليد في الشيء النزر التافه، فلما كان لا بد من التقدير، كان التقدير الشرعي مخصصا للكتاب.

والحكمة في قطع اليد في السرقة، أن ذلك حفظ للأموال، واحتياط لها، وليقطع العضو الذي صدرت منه الجناية، فإن عاد السارق قطعت رجله اليسرى، فإن عاد، فقيل: تقطع يده اليسرى، ثم رجله اليمنى، وقيل: يحبس حتى يموت. وقوله: { جزاء بما كسبا } أي: ذلك القطع جزاء للسارق بما سرقه من أموال الناس. { نكالا من الله } أي: تنكيلا وترهيبا للسارق ولغيره، ليرتدع السراق -إذا علموا- أنهم سيقطعون إذا سرقوا. { والله عزيز حكيم } أي: عز وحكم فقطع السارق.

{ فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه إن الله غفور رحيم } فيغفر لمن تاب فترك الذنوب، وأصلح الأعمال والعيوب.

وذلك أن لله (١) ملك السماوات والأرض، يتصرف فيهما بما شاء من التصاريف القدرية والشرعية، والمغفرة والعقوبة، بحسب ما اقتضته حكمته ورحمته الواسعة ومغفرته.

---

(١) في ب: الله له.." (١)

"ولما كان نفي الجناح يشمل المذكورات وغيرها، قيد ذلك بقوله: { إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات } أي: بشرط أنهم تاركون للمعاصي، مؤمنون بالله إيمانا صحيحا، موجبا لهم عمل الصالحات، ثم استمروا على ذلك. وإلا فقد يتصف العبد بذلك في وقت دون آخر. فلا يكفي حتى يكون كذلك حتى يأتيه أجله، ويدوم على إحسانه، فإن الله يحب المحسنين في عبادة الخالق، المحسنين في نفع العبيد، ويدخل في هذه الآية الكريمة، من طعم المحرم، أو فعل غيره بعد التحريم، ثم اعترف بذنبه وتاب إلى الله،

---

(١) تفسير السعدي، ص/٢٣٠

واتقى وآمن وعمل صالحا، فإن الله يغفر له، ويرتفع عنه الإثم في ذلك.

[ص ٢٤٤]

{ ٩٤ - ٩٦ } { يا أيها الذين آمنوا ليبلونكم الله بشيء من الصيد تناله أيديكم ورماحكم ليعلم الله من يخافه بالغيب فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم * يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم ومن قتله منكم متعمدا فجزاء مثل ما قتل من النعم يحكم به ذوا عدل منكم هديا بالغ الكعبة أو كفارة طعام مساكين أو عدل ذلك صياما ليذوق وبال أمره عفا الله عما سلف ومن عاد فينتقم الله منه والله عزيز ذو انتقام } .

هذا من منن الله على عباده، أن أخبرهم بما سيفعل قضاء وقدرا، ليطيعوه ويقدموا على بصيرة، ويهلك من هلك عن بينة، ويحيا من حي عن بينة، فقال تعالى: { يا أيها الذين آمنوا } لا بد أن يختبر الله إيمانكم. { ليبلونكم الله بشيء من الصيد } أي: بشيء غير كثير، فتكون محنة يسيرة، تخفيفا منه تعالى ولطفا، وذلك الصيد الذي يبتليكم الله به { تناله أيديكم ورماحكم } أي: تتمكنون من صيده، ليتم بذلك الابتلاء، لا غير مقدور عليه بيد ولا رمح، فلا يبقى للابتلاء فائدة.

ثم ذكر الحكمة في ذلك الابتلاء، فقال: { ليعلم الله } علما ظاهرا للخلق يترتب عليه الثواب والعقاب { من يخافه بالغيب } فيكف عما نهى الله عنه مع قدرته عليه وتمكنه، فيثيبه الثواب الجزيل، ممن لا يخافه بالغيب، فلا يرتدع عن معصية تعرض له فيصطاد ما تمكن منه { فمن اعتدى } منكم { بعد ذلك } البيان، الذي قطع الحجج، وأوضح السبيل. { فله عذاب أليم } أي: مؤلم موجع، لا يقدر على وصفه إلا الله، لأنه لا عذر لذلك المعتدي، والاعتبار بمن يخافه بالغيب، وعدم حضور الناس عنده. وأما إظهار مخافة الله عند الناس، فقد يكون ذلك لأجل مخافة الناس، فلا يثاب على ذلك.

ثم صرح بالنهي عن قتل الصيد في حال الإحرام، فقال: { يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم } أي: محرمون في الحج والعمرة، والنهي عن قتله يشمل النهي عن مقدمات القتل، وعن المشاركة في القتل، والدلالة عليه، والإعانة على قتله، حتى إن من تمام ذلك أنه ينهى المحرم عن أكل ما قتل أو صيد لأجله، وهذا كله تعظيم لهذا النسك العظيم، أنه يحرم على المحرم قتل وصيد ما كان حلالا له قبل الإحرام.

وقوله: { ومن قتله منكم متعمدا } أي: قتل صيدا عمدا { ف } عليه { جزاء مثل ما قتل من النعم } أي: الإبل، أو البقر، أو الغنم، فينظر ما يشبه شيئا من ذلك، فيجب عليه مثله، يذبحه ويتصدق به. والاعتبار

بالمماثلة أن { يحكم به ذوا عدل منكم } أي: عدلان يعرفان الحكم، ووجه الشبه، كما فعل الصحابة رضي الله عنهم، حيث قضوا بالحمامة شاة، وفي النعامة بدنة، وفي بقر الوحش -على اختلاف أنواعه- بقرة، وهكذا كل ما يشبه شيئا من النعم، ففيه مثله، فإن لم يشبه شيئا ففيه قيمته، كما هو القاعدة في المتلفات، وذلك الهدي لا بد أن يكون { هديا بالغ الكعبة } أي: يذبح في الحرم.
{ أو كفارة طعام مساكين } أي: كفارة ذلك الجزاء طعام مساكين، أي: يجعل مقابلة المثل من النعم، طعام يطعم المساكين.
قال كثير من العلماء: يقوم الجزاء، فيشترى بقيمته طعام، فيطعم كل مسكين مد بر أو نصف صاع من غيره.
{ أو عدل ذلك } الطعام { صياما } أي: يصوم عن إطعام كل مسكين يوما. { ليذوق } بإيجاب الجزاء المذكور عليه { وبال أمره } { ومن عاد } بعد ذلك { فينتقم الله منه والله عزيز ذو انتقام } وإنما نص الله على المتعمد لقتل الصيد، مع أن الجزاء يلزم المتعمد والمخطئ، كما هو القاعدة الشرعية -أن المتلف للنفوس والأموال المحترمة، فإنه يضمنها على أي حال كان، إذا كان إتلافه بغير حق، لأن الله رتب عليه الجزاء والعقوبة والانتقام، وهذا للمتعمد. وأما المخطئ فليس عليه عقوبة، إنما عليه الجزاء، [هذا جواب الجمهور من هذا القيد الذي ذكره الله. وطائفة من أهل العلم يرون تخصيص الجزاء بالمتعمد وهو ظاهر الآية. والفرق بين هذا وبين التضمين في الخطأ في النفوس والأموال في هذا الموضع الحق فيه لله، فكما لا إثم لا جزاء لإتلافه نفوس الآدميين وأموالهم] (١) .

---

(١) ما بين القوسين زيادة من هامش أ، وجاء في هامش ب بدلا منها بخط المؤلف: (هذا قول جمهور العلماء، والصحيح ما صرحت به الآية أنه لا جزاء على غير المتعمد كما لا إثم عليه).." (١)

"{ ١٥٨ } { هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك أو يأتي بعض آيات ربك يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا قل انتظروا إنا منتظرون } .
يقول تعالى: هل ينظر هؤلاء الذين استمر ظلمهم وعنادهم، { إلا أن تأتيهم } مقدمات العذاب، ومقدمات الآخرة بأن تأتيهم { الملائكة } لقبض أرواحهم، فإنهم إذا وصلوا إلى تلك الحال، لم ينفعهم الإيمان ولا

---

(١) تفسير السعدي، ص/٢٤٣

صالح الأعمال. { أو يأتي ربك } لفصل القضاء بين العباد، ومجازاة المحسنين والمسيئين. { أو يأتي بعض آيات ربك } الدالة على قرب الساعة.

{ يوم يأتي بعض آيات ربك } الخارقة للعادة، التي يعلم بها أن الساعة قد دنت، وأن القيامة قد اقتربت.

{ لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا } أي: إذا وجد بعض آيات الله لم ينفع الكافر إيمانه أن آمن، ولا المؤمن المقصر أن يزداد خيره بعد ذلك، بل ينفعه ما كان معه من الإيمان قبل ذلك، وما كان له من الخير المرجو قبل أن يأتي بعض الآيات.

والحكمة في هذا ظاهرة، فإنه إنما كان الإيمان ينفع إذا كان إيمانا بالغيب، وكان اختيارا من العبد، فأما إذا وجدت الآيات صار الأمر شهادة، ولم يبق للإيمان فائدة، لأنه يشبه الإيمان الضروري، كإيمان الغريق والحريق ونحوهما، ممن إذا رأى الموت، أقلع عما هو فيه كما قال تعالى: { فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين * فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التي قد خلت في عباده } [ص ٢٨٢] .

وقد تكاثرت الأحاديث الصحيحة عن النبي صلى الله عليه وسلم أن المراد ببعض آيات الله طلوع الشمس من مغربها وأن الناس إذا رأوها آمنوا فلم ينفعهم إيمانهم ويغلق حينئذ باب التوبة.

ولما كان هذا وعيدا للمكذبين بالرسول صلى الله عليه وسلم منتظرا وهم ينتظرون بالنبي صلى الله عليه وسلم وأتباعه قوارع الدهر ومصائب الأمورقال { قل انتظروا إنا منتظرون } فستعلمون أينا أحق بالأمن.

وفي هذه الآية دليل لمذهب أهل السنة والجماعة في إثبات الأفعال الاختيارية لله تعالى كالاستواء والنزول والإتيان لله تبارك وتعالى من غير تشبيه له بصفات المخلوقين.

وفي الكتاب والسنة من هذا شيء كثير وفيه أن من جملة أشراط الساعة طلوع الشمس من مغربها وأن الله تعالى حكيم قد جرت عادته وسنته أن الإيمان إنما ينفع إذا كان اختياريا لا اضطراريا كما تقدم.

وأن الإنسان يكتسب الخير بإيمانه فالطاعة والبر والتقوى إنما تنفع وتنمو إذا كان مع العبد الإيمان فإذا خلا القلب من الإيمان لم ينفعه شيء من ذلك.." (١)

"{ ٢٢ - ٢٣ } { إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون * ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون } .

---

(١) تفسير السعدي، ص/٢٨١

يقول تعالى: { إن شر الدواب عند الله } من لم تفد فيهم الآيات والنذر،وهم { الصم } عن استماع الحق { البكم } عن النطق به. { الذين لا يعقلون } ما ينفعهم، ويؤثرونه على ما يضرهم،فهؤلاء شر عند الله من جميع (١) الدواب، لأن الله أعطاهم أسماعا وأبصارا وأفئدة، ليستعملوها في طاعة الله، فاستعملوها في معاصيه وعدموا – بذلك – الخير الكثير،فإنهم كانوا بصدد أن يكونوا من خيار البرية.

فأبوا هذا الطريق، واختاروا لأنفسهم أن يكونوا من شر البرية،والسمع الذي نفاه الله عنهم، سمع المعنى المؤثر في القلب،وأما سمع الحجة، فقد قامت حجة الله تعالى عليهم بما سمعوه من آياته،وإنما لم يسمعهم السماع النافع، لأنه لم يعلم فيهم خيرا يصلحون به لسماع آياته.

{ ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم ولو أسمعهم } على الفرض والتقدير { لتولوا } عن الطاعة { وهم معرضون } لا التفات لهم إلى الحق بوجه من الوجوه،وهذا دليل على أن الله تعالى لا يمنع الإيمان والخير، إلا لمن لا خير فيه، الذي لا يزكو لديه ولا يثمر عنده. .وله الحمد تعالى والحكمة في هذا.

---

(١) في ب: من شرار.." (١)

"{ ٥٣ – ٥٤ } { ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وأن الله سميع عليم *كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآيات ربهم فأهلكناهم بذنوبهم وأغرقنا آل فرعون وكل كانوا ظالمين } .

{ ذلك } العذاب الذي أوقعه الله بالأمم المكذبين (١) وأزال عنهم ما هم فيه من النعم والنعيم، بسبب ذنوبهم وتغييرهم ما بأنفسهم،فإن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم من نعم الدين والدنيا، بل يبقيها ويزيدهم منها، إن ازدادوا له شكرا. { حتى يغيروا ما بأنفسهم } من الطاعة إلى المعصية فيكفروا نعمة الله ويبدلوها كفرا، فيسلبهم إياها ويغيرها عليهم كما غيروا ما بأنفسهم.

ولله الحكمة في ذلك والعدل والإحسان إلى (٢) عباده، حيث لم يعاقبهم إلا بظلمهم، وحيث جذب قلوب أوليائه إليه، بما يذيق العباد من النكال إذا خالفوا أمره.

{ وأن الله سميع عليم } يسمع جميع ما نطق به الناطقون، سواء من أسر القول ومن جهر به،ويعلم ما تنطوي عليه الضمائر، وتخفيه السرائر، فيجري على عباده من الأقدار ما اقتضاه علمه وجرت به مشيئته.

---

(١) تفسير السعدي، ص/٣١٨

{ كدأب آل فرعون } أي: فرعون وقومه { والذين من قبلهم كذبوا بآيات ربهم } حين جاءتهم { فأهلكناهم بذنوبهم } كل بحسب جرمه.

{ وأغرقنا آل فرعون وكل } من المهلكين المعذبين { كانوا ظالمين } لأنفسهم، ساعين في هلاكها، لم يظلمهم الله، ولا أخذهم بغير جرم اقترفوه،فليحذر المخاطبون أن يشابهوهم في الظلم، فيحل الله بهم من عقابه ما أحل بأولئك الفاسقين.

---

(١) في ب: المكذبة.

(٢) كذا في ب، وفي أ: على.." (١)

"{ ٤٦ -٤٨ } { ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين * لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين } .

يقول تعالى مبينا أن المتخلفين من المنافقين قد ظهر منهم من القرائن ما يبين أنهم ما قصدوا الخروج للجهاد بالكلية، وأن أعذارهم التي اعتذروها باطلة، فإن العذر هو المانع الذي يمنع إذا بذل العبد وسعه، وسعى في أسباب الخروج، ثم منعه مانع شرعي، فهذا الذي يعذر.

{ و } أما هؤلاء المنافقون ف { لو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة } أي: لاستعدوا وعملوا ما يمكنهم من الأسباب، ولكن لما لم يعدوا له عدة، علم أنهم ما أرادوا الخروج.

{ ولكن كره الله انبعاثهم } معكم في الخروج للغزو { فثبطهم } قدرا وقضاء، وإن كان قد أمرهم وحثهم على الخروج، وجعلهم مقتدرين عليه، ولكن بحكمته ما أراد إعانتهم، بل خذلهم وثبطهم { وقيل اقعدوا مع القاعدين } من النساء والمعذورين.

ثم ذكر الحكمة في ذلك فقال { لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا } أي: نقصا.

{ ولأوضعوا خلالكم } أي: ولسعوا في الفتنة والشر بينكم، وفرقوا جماعتكم المجتمعين، { يبغونكم الفتنة } أي: هم حريصون على فتنتكم وإلقاء العداوة بينكم.

{ وفيكم } أناس ضعفاء العقول { سماعون لهم } أي: مستجيبون لدعوتهم يغترون بهم، فإذا كانوا هم

---

(١) تفسير السعدي، ص/٣٢٤

حريصين على خذلانكم، وإلقاء الشر بينكم، وتثبيطكم عن أعدائكم، وفيكم من يقبل منهم ويستنصحهم. فما ظنك بالشر الحاصل من خروجهم مع المؤمنين، والنقص الكثير منهم، فلله أتم الحكمة حيث ثبطهم ومنعهم من الخروج مع عباده المؤمنين رحمة بهم، ولطفا من أن يداخلهم ما لا ينفعهم، بل يضرهم.
{ والله عليم بالظالمين } فيعلم عباده كيف يحذرونهم، ويبين لهم من المفاسد الناشئة من مخالطتهم.." (١)

"{ ٩٨ } { فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين } .

يقول تعالى: { فلولا كانت قرية } من قرى المكذبين { آمنت } حين رأت العذاب { فنفعها إيمانها } أي: لم يكن منهم أحد انتفع بإيمانه، حين رأى العذاب، كما قال تعالى عن فرعون ما تقدم قريبا، لما قال: { آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين } فقيل له { آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين }

وكما قال تعالى: { فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين * فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التي قد خلت في عباده }

وقال تعالى { حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون لعلي * أعمل صالحا فيما تركت كلا }

والحكمة في هذا ظاهرة فإن الإيمان الاضطراري ليس بإيمان حقيقة ولو صرف عنه العذاب والأمر الذي اضطره إلى الإيمان لرجع إلى الكفران

وقوله { إلا قوم يونس لما آمنوا } بعدما رأوا العذاب { كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين } فهم مستثنون من العموم السابق

ولا بد لذلك من حكمة لعالم الغيب والشهادة لم تصل إلينا ولم تدركها أفهامنا

قال الله تعالى { وإن يونس لمن المرسلين } إلى قوله { وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون * فآمنوا فمتعناهم إلى حين } ولعل **الحكمة في** ذلك أن غيرهم من المهلكين لو ردوا لعادوا لما نهوا عنه

وأما قوم يونس فإن الله علم أن إيمانهم سيستمر بل قد استمر فعلا وثبتوا عليه والله أعلم." (٢)

---

(١) تفسير السعدي، ص/٣٣٩

(٢) تفسير السعدي، ص/٣٧٤

"{ ١٢٠ - ١٢٣ } { وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين * وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم إنا عاملون * وانتظروا إنا منتظرون * ولله غيب السماوات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون } .

لما ذكر في هذه السورة من أخبار الأنبياء، ما ذكر، ذكر الحكمة في ذكر ذلك، فقال: { وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك } أي: قلبك ليطمئن ويثبت ويصبر كما صبر أولو العزم من الرسل، فإن النفوس تأنس بالاقتداء، وتنشط على الأعمال، وتريد المنافسة لغيرها، ويتأيد الحق بذكر شواهده، وكثرة من قام به.

{ وجاءك في هذه } السورة { الحق } اليقين، فلا شك فيه بوجه من الوجوه، فالعلم بذلك من العلم بالحق الذي هو أكبر فضائل النفوس.

{ وموعظة وذكرى للمؤمنين } أي: يتعظون به، فيرتدعون عن الأمور المكروهة، ويتذكرون الأمور المحبوبة لله فيفعلونها.

وأما من ليس من أهل الإيمان، فلا تنفعهم المواعظ، وأنواع التذكير، ولهذا قال: { وقل للذين لا يؤمنون } بعد ما قامت عليهم الآيات، { اعملوا على مكانتكم } أي: حالتكم التي أنتم عليها { إنا عاملون } على ما كنا عليه.

{ وانتظروا } ما يحل بنا { إنا منتظرون } ما يحل بكم.

وقد فصل الله بين الفريقين، وأرى عباده، نصره لعباده المؤمنين، وقمعه لأعداء الله المكذبين.

{ ولله غيب السماوات والأرض } أي: ما غاب فيهما من الخفايا، والأمور الغيبية.

{ وإليه يرجع الأمر كله } من الأعمال والعمال، فيميز الخبيث من الطيب { فاعبده وتوكل عليه } أي: قم بعبادته، وهي جميع ما أمر الله به مما تقدر عليه، وتوكل على الله في ذلك.

{ وما ربك بغافل عما تعملون } من الخير والشر، بل قد أحاط علمه بذلك، وجرى به قلمه، وسيجري عليه حكمه، وجزاؤه.

تم تفسير سورة هود، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وسلم.

[وكان الفراغ من نسخه في يوم السبت في ٢١ من شهر ربيع الآخر ١٣٤٧] (١) .

المجلد الرابع من تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام الرب المنان لجامعه الفقير إلى الله: عبد الرحمن

بن ناصر السعدي غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين آمين. [ص ٣٩٣]

(١) زيادة من ب.." (١)

"{ ٣٨ - ٤٠ } { وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت بلى وعدا عليه حقا ولكن أكثر الناس لا يعلمون * ليبين لهم الذي يختلفون فيه وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين * إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون } .

يخبر تعالى عن المشركين المكذبين لرسوله أنهم { أقسموا بالله جهد أيمانهم } أي: حلفوا أيمانا مؤكدة مغلظة على تكذيب الله، وأن الله لا يبعث الأموات، ولا يقدر على إحيائهم بعد أن كانوا ترابا، قال تعالى مكذبا لهم: { بلى } سيبعثهم ويجمعهم ليوم لا ريب فيه { وعدا عليه حقا } لا يخلفه ولا يغيره { ولكن أكثر الناس لا يعلمون } ومن جهلهم العظيم إنكارهم للبعث والجزاء، ثم ذكر الحكمة في الجزاء والبعث فقال: { ليبين لهم الذي يختلفون فيه } من المسائل الكبار والصغار، فيبين حقائقها ويوضحها.." (٢)

"أما رحمة الله به فلما خصه الله بوحيه ومن عليه بما من به على أولي العزم وأما رحمته بوالدته فلما حصل لها من الفخر والثناء الحسن والمنافع العظيمة وأما رحمته بالناس فإن أكبر نعمه عليهم أن بعث فيهم رسولا يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة فيؤمنون به ويطيعونه وتحصل لهم سعادة الدنيا والآخرة { وكان } أي وجود عيسى عليه السلام على هذه الحالة { أمرا مقضيا } قضاء سابقا فلا بد من نفوذ هذا التقدير والقضاء فنفخ جبريل عليه السلام في جيبها

[ص ٤٩٢]

{ ٢٢ - ٢٦ } { فحملته فانتبذت به مكانا قصيا * فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا * فناداها من تحتها ألا تحزني قد جعل ربك تحتك سريا * وهزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا } .

أي: لما حملت بعيسى عليه السلام، خافت من الفضيحة، فتباعدت عن الناس { مكانا قصيا } فلما قرب ولادها، ألجأها المخاض إلى جذع نخلة، فلما آلمها وجع الولادة، ووجع الانفراد عن الطعام والشراب،

---

(١) تفسير السعدي، ص/٣٩٢

(٢) تفسير السعدي، ص/٤٤٠

ووجع قلبها من قالة الناس، وخافت عدم صبرها، تمنت أنها ماتت قبل هذا الحادث، وكانت نسيا منسيا فلا تذكر. وهذا التمني بناء على ذلك المزعج، وليس في هذه الأمنية خير لها ولا مصلحة، وإنما الخير والمصلحة بتقدير ما حصل.

فحينئذ سكن الملك روعها وثبت جأشها وناداها من تحتها، لعله في مكان أنزل من مكانها، وقال لها: لا تحزني، أي: لا تجزعي ولا تهتمي، فـ { قد جعل ربك تحتك سريا } أي: نهرا تشربين منه.

{ وهزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا } أي: طريا لذيذا نافعا." (١)

"{ ٦٤ - ٦٥ } { وما نتنزل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نسيا } .

استبطأ النبي صلى الله عليه وسلم جبريل عليه السلام مرة في نزوله إليه فقال له: " لو تأتينا أكثر مما تأتينا " -تشوقا إليه، وتوحشا [ص ٤٩٨] لفراقه، وليطمئن قلبه بنزوله- فأنزل الله تعالى على لسان جبريل: { وما نتنزل إلا بأمر ربك } أي: ليس لنا من الأمر شيء، إن أمرنا، ابتدرنا أمره، ولم نعص له أمرا، كما قال عنهم: { لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون } فنحن عبيد مأمورون، { له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك } أي: له الأمور الماضية والمستقبلة والحاضرة، في الزمان والمكان، فإذا تبين أن الأمر كله لله، وأننا عبيد مدبرون، فيبقى الأمر دائرا بين: " هل تقتضيه الحكمة الإلهية فينفذه؟ أم لا تقتضيه فيؤخره " ؟ ولهذا قال: { وما كان ربك نسيا } أي: لم يكن لينساك ويهملك، كما قال تعالى: { ما ودعك ربك وما قلى } بل لم يزل معتنيا بأمورك، مجريا لك على أحسن عوائده الجميلة، وتدابيره الجميلة.

أي: فإذا تأخر نزولنا عن الوقت المعتاد، فلا يحزنك ذلك ولا يهمك، واعلم أن الله هو الذي أراد ذلك، لما له من الحكمة فيه.." (٢)

"{ إن الساعة آتية } أي: لا بد من وقوعها { أكاد أخفيها } أي: عن نفسي كما في بعض القراءات، كقوله تعالى: { يسألك الناس عن الساعة قل إنما علمها عند الله } وقال: { وعنده علم الساعة } فعلمها قد أخفاه عن الخلائق كلهم، فلا يعلمها ملك مقرب، ولا نبي مرسل، والحكمة في إتيان الساعة

---

(١) تفسير السعدي، ص/٤٩١

(٢) تفسير السعدي، ص/٤٩٧

{ لتجزى كل نفس بما تسعى } من الخير والشر، فهي الباب لدار الجزاء { ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى }." (١)

"{ ٩٨ - ١٠٣ } { إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون * لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها وكل فيها خالدون * لهم فيها زفير وهم فيها لا يسمعون * إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون } .

أي: إنكم أيها العابدون مع الله آلهة غيره { حصب جهنم } أي: وقودها وحطبها { أنتم لها واردون } وأصنامكم.

والحكمة في دخول الأصنام النار، وهي جماد، لا تعقل، وليس عليها ذنب، بيان كذب من اتخذها آلهة، وليزداد عذابهم، فلهذا قال: { لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها } وهذا كقوله تعالى: { ليبين لهم الذي يختلفون فيه وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين } وكل من العابدين والمعبودين فيها، خالدون، لا يخرجون منها، ولا ينتقلون عنها.

{ لهم فيها زفير } من شدة العذاب { وهم فيها لا يسمعون } صم بكم عمي، أولا يسمعون من الأصوات غير صوتها، لشدة غليانها، واشتداد زفيرها وتغيظها.

ودخول آلهة المشركين النار، إنما هو الأصنام، أو من عبد، وهو راض بعبادته.

وأما المسيح، وعزير، والملائكة ونحوهم، ممن عبد من الأولياء، فإنهم لا يعذبون فيها، ويدخلون في قوله: { إن الذين سبقت لهم منا الحسنى } أي: سبقت لهم سابقة السعادة في علم الله، وفي اللوح المحفوظ وفي تيسيرهم في الدنيا لليسرى والأعمال الصالحة.

{ أولئك عنها } أي: عن النار { مبعدون } فلا يدخلونها، ولا يكونون قريبا منها، بل يبعدون عنها، غاية البعد، حتى لا يسمعوا حسيسها، ولا يروا شخصها.." (٢)

"{ ٣٤ - ٣٥ } { ولكل أمة جعلنا منسكا ليذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فإلهكم إله واحد فله أسلموا وبشر المخبتين * الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم والصابرين على ما أصابهم والمقيمي الصلاة ومما رزقناهم ينفقون } .

---

(١) تفسير السعدي، ص/٥٠٣

(٢) تفسير السعدي، ص/٥٣١

أي: ولكل أمة من الأمم السالفة جعلنا منسكا، أي: فاستبقوا إلى الخيرات وتسارعوا إليها، ولننظر أيكم أحسن عملا **والحكمة في** جعل الله لكل أمة منسكا، لإقامة ذكره، والالتفات لشكره، ولهذا قال: { ليذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فإلهكم إله واحد } وإن اختلفت أجناس الشرائع، فكلها متفقة على هذا الأصل، وهو ألوهية الله، وإفراده بالعبودية، وترك الشرك به ولهذا قال: { فله أسلموا } أي: انقادوا واستسلموا له لا لغيره، فإن الإسلام له طريق إلى الوصول إلى دار السلام. { وبشر المخبتين } بخير الدنيا والآخرة، والمخبت: الخاضع لربه، المستسلم لأمره، المتواضع لعباده ، ثم ذكر صفات المخبتين فقال: { الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم } أي: خوفا وتعظيما، فتركوا لذلك المحرمات، لخوفهم ووجلهم من الله وحده، { والصابرين على ما أصابهم } من البأساء والضراء، وأنواع الأذى، فلا يجري منهم التسخط لشيء من ذلك، بل صبروا ابتغاء وجه ربهم، محتسبين ثوابه، مرتقبين أجره، { والمقيمي الصلاة } أي: الذين جعلوها قائمة مستقيمة كاملة، بأن أدوا اللازم فيها والمستحب، وعبوديتها الظاهرة والباطنة، { ومما رزقناهم ينفقون } وهذا يشمل جميع النفقات الواجبة، كالزكاة، والكفارة، والنفقة على الزوجات والمماليك، والأقارب، والنفقات المستحبة، كالصدقات بجميع وجوهها، وأتي بـ { من } المفيدة للتبعيض، ليعلم سهولة ما أمر الله به ورغب فيه، وأنه جزء يسير مما رزق الله، ليس للعبد في تحصيله قدرة، لولا تيسير الله له ورزقه إياه. فيا أيها المرزوق من فضل الله، أنفق مما رزقك الله، ينفق الله عليك، ويزدك من فضله.." (١)

"{ ٦١ } { ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم أو بيوت آبائكم أو بيوت أمهاتكم أو بيوت إخوانكم أو بيوت أخواتكم أو بيوت أعمامكم أو بيوت عماتكم أو بيوت أخوالكم أو بيوت خالاتكم أو ما ملكتم مفاتحه أو صديقكم ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعا أو أشتاتا فإذا دخلتم بيوتا فسلموا على أنفسكم تحية من عند الله مباركة طيبة كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تعقلون } .

يخبر تعالى عن منته على عباده، وأنه لم يجعل عليهم في الدين من حرج بل يسره غاية التيسير، فقال: { ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج } أي: ليس على هؤلاء جناح، في ترك الأمور الواجبة، التي تتوقف على واحد منها، وذلك كالجهاد ونحوه، مما يتوقف على بصر الأعمى، أو سلامة الأعرج، أو صحة للمريض، ولهذا المعنى العام الذي ذكرناه، أطلق الكلام في ذلك، ولم يقيد،

---

(١) تفسير السعدي، ص/٥٣٨

كما قيد قوله: { ولا على أنفسكم } أي: حرج { أن تأكلوا من بيوتكم } أي: بيوت أولادكم، وهذا موافق للحديث الثابت: " أنت ومالك لأبيك " والحديث الآخر: " إن أطيب ما أكلتم من كسبكم، وإن أولادكم من كسبكم " وليس المراد من قوله: { من بيوتكم } بيت الإنسان نفسه، فإن هذا من باب تحصيل الحاصل، الذي ينزه عنه كلام الله، ولأنه نفى الحرج عما يظن أو يتوهم فيه الإثم من هؤلاء المذكورين، وأما بيت الإنسان نفسه فليس فيه أدنى توهم.

{ أو بيوت آبائكم أو بيوت أمهاتكم أو بيوت إخوانكم أو بيوت أخواتكم أو بيوت أعمامكم أو بيوت عماتكم أو بيوت أخوالكم أو بيوت خالاتكم } وهؤلاء معروفون، { أو ما ملكتم مفاتحه } أي: البيوت التي أنتم متصرفون فيها بوكالة، أو ولاية ونحو ذلك، وأما تفسيرها بالمملوك، فليس بوجيه، لوجهين: أحدهما: أن المملوك لا يقال فيه " ملكت مفاتحه " بل يقال: " ما ملكتموه " أو " ما ملكت أيمانكم " لأنهم مالكون له جملة، لا لمفاتحه فقط.

والثاني: أن بيوت المماليك، غير خارجة عن بيت الإنسان نفسه، لأن المملوك وما ملكه لسيده، فلا وجه لنفي الحرج عنه.

{ أو صديقكم } وهذا الحرج المنفي عن الأكل (١) من هذه البيوت كل ذلك، إذا كان بدون إذن، والحكمة فيه معلومة من السياق، فإن هؤلاء المسمين (٢) قد جرت العادة والعرف، بالمسامحة في الأكل منها، لأجل القرابة القريبة، أو التصرف التام، أو الصداقة، فلو قدر في أحد من هؤلاء عدم المسامحة والشح في الأكل المذكور، لم يجز الأكل، ولم يرتفع الحرج، نظرا للحكمة والمعنى.

وقوله: { ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعا أو أشتاتا } فكل ذلك جائز، أكل أهل البيت الواحد جميعا، أو أكل كل واحد منهم وحده، وهذا نفي للحرج، لا نفي للفضيلة وإلا فالأفضل الاجتماع على الطعام.

{ فإذا دخلتم بيوتا } نكرة في سياق الشرط، يشمل بيت الإنسان وبيت غيره، سواء كان في البيت ساكن أم لا فإذا دخلها الإنسان { فسلموا على أنفسكم } أي: فليسلم بعضكم على بعض، لأن المسلمين كأنهم شخص واحد، من توادهم، وتراحمهم، وتعاطفهم، فالسلام مشروع لدخول سائر البيوت، من غير فرق بين بيت وبيت، والاستئذان تقدم أن فيه تفصيلا في أحكامه، ثم مدح هذا السلام فقال: { تحية من عند الله مباركة طيبة } [ص ٥٧٦] أي: سلامكم بقولكم: " السلام عليكم ورحمة الله وبركاته " أو " السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين " إذ تدخلون البيوت، { تحية من عند الله } أي: قد شرعها لكم، وجعلها

تحيتكم، { مباركة } لاشتمالها على السلامة من النقص، وحصول الرحمة والبركة والنماء والزيادة، { طيبة } لأنها من الكلم الطيب المحبوب عند الله، الذي فيه طيب نفس للمحيا، ومحبة وجلب مودة.

لما بين لنا هذه الأحكام الجليلة قال:

{ كذلك يبين الله لكم الآيات } الدالات على أحكامه الشرعية وحكمها، { لعلكم تعقلون } عنه فتفهمونها، وتعقلونها بقلوبكم، ولتكونوا من أهل العقول والألباب الرزينة، فإن معرفة أحكامه الشرعية على وجهها، يزيد في العقل، وينمو به اللب، لكون معانيها أجل المعاني، وآدابها أجل الآداب، ولأن الجزاء من جنس العمل، فكما استعمل عقله للعقل عن ربه، وللتفكر في آياته التي دعاه إليها، زاده من ذلك.

وفي هذه الآيات دليل على قاعدة عامة كلية وهي: أن " العرف والعادة مخصص للألفاظ، كتخصيص اللفظ للفظ " فإن الأصل، أن الإنسان ممنوع من تناول طعام غيره، مع أن الله أباح الأكل من بيوت هؤلاء، للعرف والعادة، فكل مسألة تتوقف على الإذن من مالك الشيء، إذا علم إذنه بالقول أو العرف، جاز الإقدام عليه.

وفيها دليل على أن الأب يجوز له أن يأخذ ويتملك من مال ولده ما لا يضره، لأن الله سمى بيته بيتا للإنسان.

وفيها دليل على أن المتصرف في بيت الإنسان، كزوجته، وأخته ونحوهما، يجوز لهما الأكل عادة، وإطعام السائل المعتاد.

وفيها دليل، على جواز المشاركة في الطعام، سواء أكلوا مجتمعين، أو متفرقين، ولو أفضى ذلك إلى أن يأكل بعضهم أكثر من بعض.

---

(١) في ب: من.

(٢) مراد الشيخ -رحمه الله- فإن بيوت هؤلاء المسمين، كما يبدو -والله أعلم-.." (١)

"{ ٥١ } { ترجي من تشاء منهن وتؤوي إليك من تشاء ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك ذلك أدنى أن تقر أعينهن ولا يحزن ويرضين بما آتيتهن كلهن والله يعلم ما في قلوبكم وكان الله عليما حليما } .

---

(١) تفسير السعدي، ص/٥٧٥

وهذا أيضا من توسعة الله على رسوله ورحمته به، أن أباح له ترك القسم بين زوجاته، على وجه الوجوب، وأنه إن فعل ذلك، فهو تبرع منه، ومع ذلك، فقد كان صلى الله عليه وسلم يجتهد في القسم بينهن في كل شيء، ويقول "اللهم هذا قسمي فيما أملك، فلا تلمني فيما لا أملك" .

فقال هنا: { ترجي من تشاء منهن } [أي: تؤخر من أردت من زوجاتك فلا تؤويها إليك، ولا تبيت عندها] (١) { وتؤوي إليك من تشاء } أي: تضمها وتبيت عندها.

{ و } مع ذلك لا يتعين هذا الأمر { من ابتغيت } أي: أن تؤويها { فلا جناح عليك } والمعنى أن الخيرة بيدك في ذلك كله [وقال كثير من المفسرين: إن هذا خاص بالواهبات، له أن يرجي من يشاء، ويؤوي من يشاء، أي: إن شاء قبل من وهبت نفسها له، وإن شاء لم يقبلها، والله أعلم] (٢) .

ثم بين الحكمة في ذلك فقال: { ذلك } أي: التوسعة عليك، وكون الأمر راجعا إليك وبيدك، وكون ما جاء منك إليهن تبرعا منك { أدنى أن تقر أعينهن ولا يحزن ويرضين بما آتيتهن كلهن } لعلمهن أنك لم تترك واجبا، ولم تفرط في حق لازم.

[ص ٦٧٠]

{ والله يعلم ما في قلوبكم } أي: ما يعرض لها عند أداء الحقوق الواجبة والمستحبة، وعند المزاحمة في الحقوق، فلذلك شرع لك التوسعة يا رسول الله، لتطمئن قلوب زوجاتك.

{ وكان الله عليما حليما } أي: واسع العلم، كثير الحلم. ومن علمه، أن شرع لكم ما هو أصلح لأموركم، وأكثر لأجوركم. ومن حلمه، أن لم يعاقبكم بما صدر منكم، وما أصرت عليه قلوبكم من الشر.

---

(١) زيادة من ب.

(٢) زيادة من هامش (ب) وفي بعض الكلمات عدم وضوح وتم تصويبها من طبعة السلفية.." (١)

"{ ٢٧ - ٢٨ } { ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود * ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور } .

يذكر تعالى خلقه للأشياء المتضادات، التي أصلها واحد، ومادتها واحدة، وفيها من التفاوت والفرق ما هو

---

(١) تفسير السعدي، ص/٦٦٩

مشاهد معروف، ليدل العباد على كمال قدرته وبديع حكمته.

فمن ذلك: أن الله تعالى أنزل من السماء ماء، فأخرج به من الثمرات المختلفات، والنباتات المتنوعات، ما هو مشاهد للناظرين، والماء واحد، والأرض واحدة.

ومن ذلك: الجبال التي جعلها الله أوتادا للأرض، تجدها جبالا مشتبكة، بل جبلا واحدا، وفيها ألوان متعددة، فيها جدد بيض، أي: طرائق بيض، وفيها طرائق صفر وحمر، وفيها غرابيب سود، أي: شديدة السواد جدا.

ومن ذلك: الناس والدواب، والأنعام، فيها من اختلاف الألوان والأوصاف والأصوات والهيئات، ما هو مرئي بالأبصار، مشهود للنظار، والكل من أصل واحد ومادة واحدة.

فتفاوتها دليل عقلي على مشيئة الله تعالى، التي خصصت ما خصصت منها، بلونه، ووصفه، وقدرة الله تعالى حيث أوجدها كذلك، وحكمته ورحمته، حيث كان ذلك الاختلاف، وذلك التفاوت، فيه من المصالح والمنافع، ومعرفة الطرق، ومعرفة الناس بعضهم بعضا، ما هو معلوم.

وذلك أيضا، دليل على سعة علم الله تعالى، وأنه يبعث من في القبور، ولكن الغافل ينظر في هذه الأشياء وغيرها نظر غفلة لا تحدث له [ص ٦٨٩] التذكر، وإنما ينتفع بها من يخشى الله تعالى، ويعلم بفكره الصائب وجه **الحكمة فيها**.

ولهذا قال: { إنما يخشى الله من عباده العلماء } فكل من كان بالله أعلم، كان أكثر له خشية، وأوجبت له خشية الله، الانكفاف عن المعاصي، والاستعداد للقاء من يخشاه، وهذا دليل على فضيلة العلم، فإنه داع إلى خشية الله، وأهل خشيته هم أهل كرامته، كما قال تعالى: { رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه }

{ إن الله عزيز } كامل العزة، ومن عزته خلق هذه المخلوقات المتضادات.

{ غفور } لذنوب التائبين.." (١)

"{ ٢٧ - ٢٩ } { وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار * أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار *كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب } .

---

(١) تفسير السعدي، ص/٦٨٨

يخبر تعالى عن تمام حكمته في خلقه السماوات والأرض، وأنه لم يخلقهما باطلا أي: عبثا ولعبا من غير فائدة ولا مصلحة.

{ ذلك ظن الذين كفروا } بربهم، حيث ظنوا ما لا يليق بجلاله. { فويل للذين كفروا من النار } فإنها التي تأخذ الحق منهم، وتبلغ منهم كل مبلغ.

وإنما خلق الله السماوات والأرض بالحق وللحق، فخلقهما ليعلم العباد كمال علمه وقدرته وسعة سلطانه، وأنه تعالى وحده المعبود، دون من لم يخلق مثقال ذرة من السماوات والأرض، وأن البعث حق، وسيفصل الله بين أهل الخير والشر.

ولا يظن الجاهل بحكمة الله أن يسوي الله بينهما في حكمه، ولهذا قال: { أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار } هذا غير لائق بحكمتنا وحكمنا.

{ كتاب أنزلناه إليك مبارك } فيه خير كثير، وعلم غزير، فيه كل هدى من ضلالة، وشفاء من داء، ونور يستضاء به في الظلمات، وكل حكم يحتاج إليه المكلفون، وفيه من الأدلة القطعية على كل مطلوب، ما كان به أجل كتاب طرق العالم منذ أنشأه الله.

{ ليدبروا آياته } أي: هذه **الحكمة من** إنزاله، ليتدبر الناس آياته، فيستخرجوا علمها ويتأملوا أسرارها وحكمها، فإنه بالتدبر فيه والتأمل لمعانيه، وإعادة الفكر فيها مرة بعد مرة، تدرك بركته وخيره، وهذا يدل على الحث على تدبر القرآن، وأنه من أفضل الأعمال، وأن القراءة المشتملة على التدبر أفضل من سرعة التلاوة التي لا يحصل بها هذا المقصود.

{ وليتذكر أولو الألباب } أي: أولو العقول الصحيحة، يتذكرون بتدبرهم لها كل علم ومطلوب، فدل هذا على أنه بحسب لب الإنسان وعقله يحصل له التذكر والانتفاع بهذا الكتاب.." (١)

"{ ١ - ٣ } { بسم الله الرحمن الرحيم تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم * إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصا له الدين * ألا لله الدين الخالص والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى إن الله يحكم بينهم في ما هم فيه يختلفون إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار } .

يخبر تعالى عن عظمة القرآن، وجلالة من تكلم به ونزل منه، وأنه نزل من الله العزيز الحكيم، أي: الذي وصفه الألوهية للخلق، وذلك لعظمته وكماله، والعزة التي قهر بها كل مخلوق، وذل له كل شيء، **والحكمة**

---

(١) تفسير السعدي، ص/٧١٢

في خلقه وأمره.
فالقرآن نازل ممن هذا وصفه، والكلام وصف للمتكلم، والوصف يتبع الموصوف، فكما أن الله تعالى [ص ٧١٨] هو الكامل من كل وجه، الذي لا مثيل له، فكذلك كلامه كامل من كل وجه لا مثيل له، فهذا وحده كاف في وصف القرآن، دال على مرتبته.
ولكنه - مع هذا - زاد بيانا لكماله بمن نزل عليه، وهو محمد صلى الله عليه وسلم، الذي هو أشرف الخلق فعلم أنه أشرف الكتب، وبما نزل به، وهو الحق، فنزل بالحق الذي لا مرية فيه، لإخراج الخلق من الظلمات إلى النور، ونزل مشتملا على الحق في أخباره الصادقة، وأحكامه العادلة، فكل ما دل عليه فهو أعظم أنواع الحق، من جميع المطالب العلمية، وما بعد الحق إلا الضلال.
ولما كان نازلا من الحق، مشتملا على الحق لهداية الخلق، على أشرف الخلق، عظمت فيه النعمة، وجلت، ووجب القيام بشكرها، وذلك بإخلاص الدين لله، فلهذا قال: { فاعبد الله مخلصا له الدين } أي: أخلص لله تعالى جميع دينك، من الشرائع الظاهرة والشرائع الباطنة: الإسلام والإيمان والإحسان، بأن تفرد الله وحده بها، وتقصد به وجهه، لا غير ذلك من المقاصد.
{ ألا لله الدين الخالص } هذا تقرير للأمر بالإخلاص، وبيان أنه تعالى كما أنه له الكمال كله، وله التفضل على عباده من جميع الوجوه، فكذلك له الدين الخالص الصافي من جميع الشوائب، فهو الدين الذي ارتضاه لنفسه، وارتضاه لصفوة خلقه وأمرهم به، لأنه متضمن للتأله لله في حبه وخوفه ورجائه، وللإنابة إليه في عبوديته، والإنابة إليه في تحصيل مطالب عباده.
وذلك الذي يصلح القلوب ويزكيها ويطهرها، دون الشرك به في شيء من العبادة. فإن الله بريء منه، وليس لله فيه شيء، فهو أغنى الشركاء عن الشرك، وهو مفسد للقلوب والأرواح والدنيا والآخرة، مشق للنفوس غاية الشقاء، فلذلك لما أمر بالتوحيد والإخلاص، نهى عن الشرك به، وأخبر بذم من أشرك به فقال: { والذين اتخذوا من دونه أولياء } أي: يتولونهم بعبادتهم ودعائهم، [معتذرين] (١) عن أنفسهم وقائلين: { ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى } أي: لترفع حوائجنا لله، وتشفع لنا عنده، وإلا فنحن نعلم أنها، لا تخلق، ولا ترزق، ولا تملك من الأمر شيئا.
أي: فهؤلاء، قد تركوا ما أمر الله به من الإخلاص، وتجرأوا على أعظم المحرمات، وهو الشرك، وقاسوا الذي ليس كمثله شيء، الملك العظيم، بالملوك، وزعموا بعقولهم الفاسدة ورأيهم السقيم، أن الملوك كما

أنه لا يوصل إليهم إلا بوجهاء، وشفعاء، ووزراء يرفعون إليهم حوائج رعاياهم، ويستعطفونهم عليهم، ويمهدون لهم الأمر في ذلك، أن الله تعالى كذلك.

وهذا القياس من أفسد الأقيسة، وهو يتضمن التسوية بين الخالق والمخلوق، مع ثبوت الفرق العظيم، عقلا ونقلا وفطرة، فإن الملوك، إنما احتاجوا للوساطة بينهم وبين رعاياهم، لأنهم لا يعلمون أحوالهم. فيحتاج من يعلمهم بأحوالهم، وربما لا يكون في قلوبهم رحمة لصاحب الحاجة، فيحتاج من يعطفهم عليه [ويسترحمه لهم] (٢) ويحتاجون إلى الشفعاء والوزراء، ويخافون منهم، فيقضون حوائج من توسطوا لهم، مراعاة لهم، ومداراة لخواطرهم، وهم أيضا فقراء، قد يمنعون لما يخشون من الفقر.

وأما الرب تعالى، فهو الذي أحاط علمه بظواهر الأمور وبواطنها، الذي لا يحتاج من يخبره بأحوال رعيته وعباده، وهو تعالى أرحم الراحمين، وأجود الأجودين، لا يحتاج إلى أحد من خلقه يجعله راحما لعباده، بل هو أرحم بهم من أنفسهم ووالديهم، وهو الذي يحثهم ويدعوهم إلى الأسباب التي ينالون بها رحمته، وهو يريد من مصالحهم ما لا يريدونه لأنفسهم، وهو الغني، الذي له الغنى التام المطلق، الذي لو اجتمع الخلق من أولهم وآخرهم في صعيد واحد فسألوه، فأعطى كلا منهم ما سأل وتمنى، لم ينقصوا من غناه شيئا، ولم ينقصوا مما عنده، إلا كما ينقص البحر إذا غمس فيه المخيط.

وجميع الشفعاء يخافونه، فلا يشفع منهم أحد إلا بإذنه، وله الشفاعة كلها.

فبهذه الفروق يعلم جهل المشركين به، وسفههم العظيم، وشدة جراءتهم عليه.

ويعلم أيضا **الحكمة في** كون الشرك لا يغفره الله تعالى، لأنه يتضمن القدح في الله تعالى، ولهذا قال حاكما بين الفريقين، المخلصين والمشركين، وفي ضمنه التهديد للمشركين-: { إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون }

وقد علم أن حكمه أن المؤمنين المخلصين في جنات النعيم، ومن [ص ٧١٩] يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة، ومأواه النار. { إن الله لا يهدي } أي: لا يوفق للهداية إلى الصراط المستقيم { من هو كاذب كفار } أي: وصفه الكذب أو الكفر، بحيث تأتيه المواعظ والآيات، ولا يزول عنه ما اتصف به، ويريه الله الآيات، فيجحدها ويكفر بها ويكذب، فهذا أنى له الهدى وقد سد على نفسه الباب، وعوقب بأن طبع الله على قلبه، فهو لا يؤمن؟"

---

(١) في أ: متعذرين.

(٢) كذا في النسختين ولعل الصواب "ويسترحمهم له)..". [١]

"{ ٢٧ - ٣١ } { ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون * قرآنا عربيا غير ذي عوج لعلهم يتقون * ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ورجلا سلما لرجل هل يستويان مثلا الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون * إنك ميت وإنهم ميتون * ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون } .

يخبر تعالى أنه ضرب في القرآن من جميع الأمثال، أمثال أهل الخير وأمثال أهل الشر، وأمثال التوحيد والشرك، وكل مثل يقرب حقائق الأشياء، والحكمة في ذلك { لعلهم يتذكرون } عندما نوضح لهم الحق فيعلمون ويعملون.

{ قرآنا عربيا غير ذي عوج } أي: جعلناه قرآنا عربيا، واضح الألفاظ، [ص ٧٢٤] سهل المعاني، خصوصا على العرب. { غير ذي عوج } أي: ليس فيه خلل ولا نقص بوجه من الوجوه، لا في ألفاظه ولا في معانيه، وهذا يستلزم كمال اعتداله واستقامته كما قال تعالى: { الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا قيما }

{ لعلهم يتقون } الله تعالى، حيث سهلنا عليهم طرق التقوى العلمية والعملية، بهذا القرآن العربي المستقيم، الذي ضرب الله فيه من كل مثل.

ثم ضرب مثلا للشرك والتوحيد فقال: { ضرب الله مثلا رجلا } أي: عبدا { فيه شركاء متشاكسون } فهم كثيرون، وليسوا متفقين على أمر من الأمور وحالة من الحالات حتى تمكن راحته، بل هم متشاكسون متنازعون فيه، كل له مطلب يريد تنفيذه ويريد الآخر غيره، فما تظن حال هذا الرجل مع هؤلاء الشركاء المتشاكسين؟

{ ورجلا سلما لرجل } أي: خالصا له، قد عرف مقصود سيده، وحصلت له الراحة التامة. { هل يستويان } أي: هذان الرجلان { مثلا } ؟ لا يستويان.

كذلك المشرك، فيه شركاء متشاكسون، يدعو هذا، ثم يدعو هذا، فتراه لا يستقر له قرار، ولا يطمئن قلبه في موضع، والموحد مخلص لربه، قد خلصه الله من الشركة لغيره، فهو في أتم راحة وأكمل طمأنينة، فـ { هل يستويان مثلا الحمد لله } على تبيين الحق من الباطل، وإرشاد الجهال. { بل أكثرهم لا يعلمون }

(١) تفسير السعدي، ص/٧١٧

{ إنك ميت وإنهم ميتون } أي: كلكم لا بد أن يموت { وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإن مت فهم الخالدون }

{ ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون } فيما تنازعتم فيه، فيفصل بينكم بحكمه العادل، ويجازي كلا ما عمله { أحصاه الله ونسوه }." (١)

"{ ١-٥ } { بسم الله الرحمن الرحيم حم * والكتاب المبين * إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون * وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم * أفنضرب عنكم الذكر صفحا أن كنتم قوما مسرفين } .

هذا قسم بالقرآن على القرآن، فأقسم بالكتاب المبين وأطلق، ولم يذكر المتعلق، ليدل على أنه مبين لكل ما يحتاج إليه العباد من أمور الدنيا والدين والآخرة.

{ إنا جعلناه قرآنا عربيا } هذا المقسم عليه، أنه جعل بأفصح اللغات وأوضحها وأبينها، وهذا من بيانه. وذكر الحكمة في ذلك فقال: { لعلكم تعقلون } ألفاظه ومعانيه لتيسرها وقربها من الأذهان.

{ وإنه } أي: هذا الكتاب { لدينا } في الملأ الأعلى في أعلى الرتب وأفضلها { لعلي حكيم } أي: لعلي في قدره وشرفه ومحله، حكيم فيما يشتمل عليه من الأوامر والنواهي والأخبار، فليس فيه حكم مخالف للحكمة والعدل والميزان.

ثم أخبر تعالى أن حكمته وفضله يقتضي أن لا يترك عباده هملا لا يرسل إليهم رسولا ولا ينزل عليهم كتابا، ولو كانوا مسرفين ظالمين فقال:." (٢)

"{ ١-٤ } { بسم الله الرحمن الرحيم قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير * الذين يظاهرون منكم من نسائهم ما هن أمهاتهم إن أمهاتهم إلا اللائي ولدنهم وإنهم ليقولون منكرا من القول وزورا وإن الله لعفو غفور * والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا ذلكم توعظون به والله بما تعملون خبير * فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكينا ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله وتلك حدود الله وللكافرين عذاب أليم } .

[ص ٨٤٤]

---

(١) تفسير السعدي، ص/٧٢٣

(٢) تفسير السعدي، ص/٧٦٢

نزلت هذه الآيات الكريمات في رجل من الأنصار اشتكته زوجته [إلى الله، وجادلته] (١) إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لما حرمها على نفسه، بعد الصحبة الطويلة، والأولاد، وكان هو رجلا شيخا كبيرا، فشكت حالها وحاله إلى الله وإلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وكررت ذلك، وأبدت فيه وأعادت.

فقال تعالى: { قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما } أي: تخاطبكما فيما بينكما، { إن الله سميع } لجميع الأصوات، في جميع الأوقات، على تفنن الحاجات.

{ بصير } يبصر دبيب النملة السوداء، على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء، وهذا إخبار عن كمال سمعه وبصره، وإحاطتهما بالأمور الدقيقة والجليلة، وفي ضمن ذلك الإشارة بأن الله [تعالى] سيزيل شكواها، ويرفع بلواها، ولهذا ذكر حكمها، وحكم غيرها (٢) على وجه العموم، فقال: { الذين يظاهرون منكم من نسائهم ما هن أمهاتهم إن أمهاتهم إلا اللائي ولدنهم }

المظاهرة من الزوجة: أن يقول الرجل لزوجته: "أنت علي كظهر أمي" أو غيرها من محارمه، أو "أنت علي حرام" وكان المعتاد عندهم في هذا لفظ "الظهر" ولهذا سماه الله "ظهارا" فقال: { الذين يظاهرون منكم من نسائهم ما هن أمهاتهم } أي: كيف يتكلمون بهذا الكلام الذي يعلم (٣) أنه لا حقيقة له، فيشبهون أزواجهم بأمهاتهم اللاتي ولدنهم؟ ولهذا عظم الله أمره وقبحه، فقال: { وإنهم ليقولون منكرا من القول وزورا } أي: قولا شنيعا، { وزورا } أي: كذبا.

{ وإن الله لعفو غفور } عمن صدر منه بعض المخالفات، فتداركها بالتوبة النصوح.

{ والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا } اختلف العلماء في معنى العود، فقيل: معناه العزم على جماع من ظاهر منها، وأنه بمجرد عزمه تجب عليه الكفارة المذكورة، ويدل على هذا، أن الله تعالى ذكر في الكفارة أنها (٤) تكون قبل المسيس، وذلك إنما يكون بمجرد العزم، وقيل: معناه حقيقة الوطء، ويدل على ذلك أن الله قال: { ثم يعودون لما قالوا } والذي قالوا إنما هو الوطء.

وعلى كل من القولين { ف } إذا وجد العود، صار كفارة هذا التحريم { تحرير رقبة } مؤمنة كما قيدت في آية أخرى (٥) ذكر أو أنثى، بشرط أن تكون سالمة من العيوب المضرة (٦) بالعمل.

{ من قبل أن يتماسا } أي: يلزم الزوج أن يترك وطء زوجته التي ظاهر منها حتى يكفر برقبة.

{ ذلكم } الحكم الذي ذكرناه لكم، { توعظون به } أي: يبين لكم حكمه مع الترهيب المقرون به، لأن معنى الوعظ ذكر الحكم مع الترغيب والترهيب، فالذي يريد أن يظاهر، إذا ذكر أنه يجب عليه عتق رقبة

كف نفسه عنه، { والله بما تعملون خبير } فيجازي كل عامل بعمله.

{ فمن لم يجد } رقبة يعتقها، بأن لم يجدها أو [لم] يجد ثمنها { ف } عليه { صيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا فمن لم يستطع } الصيام { فإطعام ستين مسكينا } إما بأن يطعمهم من قوت بلده ما يكفيهم، كما هو قول كثير من المفسرين، وإما بأن يطعم كل مسكين مد بر أو نصف صاع من غيره مما يجزي في الفطرة، كما هو قول طائفة أخرى.

ذلك الحكم الذي بيناه لكم، ووضحناه لكم { لتؤمنوا بالله ورسوله } وذلك بالتزام هذا الحكم وغيره من الأحكام، والعمل به، فإن التزام أحكام الله، والعمل بها من الإيمان، [بل هي المقصودة] ومما يزيد به الإيمان (٧) ويكمل وينمو.

{ وتلك حدود الله } التي تمنع من [ص ٨٤٥] الوقوع فيها، فيجب أن لا تتعدى ولا يقصر عنها.

{ وللكافرين عذاب أليم } وفي هذه الآيات، عدة أحكام:

منها: لطف الله بعباده واعتناؤه بهم، حيث ذكر شكوى هذه المرأة المصابة، وأزالها ورفع عنها البلوى، بل رفع البلوى بحكمه العام لكل من ابتلي بمثل هذه القضية.

ومنها: أن الظهار مختص بتحريم الزوجة، لأن الله قال { من نسائهم } فلو حرم أمته، لم يكن [ذلك] ظهارا، بل هو من جنس تحريم الطعام والشراب، تجب فيه كفارة اليمين فقط.

ومنها: أنه لا يصح الظهار من امرأة قبل أن يتزوجها، لأنها لا تدخل في نسائه وقت الظهار، كما لا يصح طلاقها، سواء نجز ذلك أو علقه.

ومنها: أن الظهار محرم، لأن الله سماه منكرا [من القول] وزورا.

ومنها: تنبيه الله على وجه الحكم وحكمته، لأن الله تعالى قال: { ما هن أمهاتهم }

ومنها: أنه يكره للرجل أن ينادي زوجته ويسميها (٨) باسم محارمه، كقوله " يا أمي " " يا أختي " ونحوه، لأن ذلك يشبه المحرم.

ومنها: أن الكفارة إنما تجب بالعود لما قال المظاهر، على اختلاف القولين السابقين، لا بمجرد الظهار.

ومنها: أنه يجزئ في كفارة الرقبة، الصغير والكبير، والذكر والأنثى، لإطلاق الآية في ذلك.

ومنها: أنه يجب إخراجها إن (٩) كانت عتقا أو صياما قبل المسيس، كما قيده الله. بخلاف كفارة الإطعام، فإنه يجوز المسيس والوطء في أثنائها.

ومنها: أنه لعل الحكمة في وجوب الكفارة قبل المسيس، أن ذلك أدعى لإخراجها، فإنه إذا اشتاق إلى الجماع، وعلم أنه لا يمكن من ذلك إلا بعد الكفارة، بادر لإخراجها.

ومنها: أنه لا بد من إطعام ستين مسكينا، فلو جمع طعام ستين مسكينا، ودفعها لواحد أو أكثر من ذلك، دون الستين لم يجز ذلك، لأن الله قال: { فإطعام ستين مسكينا }

---

(١) زيادة من هامش: ب.

(٢) كذا في ب، وفي أ: ذكر حكم هذا الحكم وحكم غيره.

(٣) في ب: يعلمون.

(٤) كذا في ب، وفي أ: أن.

(٥) في ب: آية القتال.

(٦) في ب: الضارة

(٧) في ب: ويزداد به الإيمان.

(٨) في ب: ويدعوها

(٩) في ب: إذا.." (١)

"{ ١ - ١١ } { بسم الله الرحمن الرحيم يا أيها المزمل * قم الليل إلا قليلا * نصفه أو انقص منه قليلا * أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا * إنا سنلقي عليك قولا ثقيلا * إن ناشئة الليل هي أشد وطئا وأقوم قيلا * إن لك في النهار سبحا طويلا * واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا * رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا * واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا * وذرني والمكذبين أولي النعمة ومهلهم قليلا } .

المزمل: المتغطي بثيابه كالمدثر، وهذا الوصف حصل من رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أكرمه الله برسالته، وابتدأه بإنزال [وحيه بإرسال] جبريل إليه، فرأى أمرا لم ير مثله، ولا يقدر على الثبات له إلا المرسلون، فاعتراه في ابتداء ذلك (١) انزعاج حين رأى جبريل عليه السلام، فأتى إلى أهله، فقال: " زملوني زملوني " وهو ترعد فرائصه، ثم جاءه جبريل فقال: " اقرأ " فقال: " ما أنا بقارئ " فغطه حتى بلغ منه

---

(١) تفسير السعدي، ص/٨٤٣

الجهد، وهو يعالجه على القراءة، فقرأ صلى الله عليه وسلم، ثم ألقى الله عليه الثبات، وتابع عليه الوحي، حتى بلغ مبلغا ما بلغه أحد من المرسلين.

فسبحان الله، ما أعظم التفاوت بين ابتداء نبوته ونهايتها، ولهذا خاطبه الله بهذا الوصف الذي وجد منه في أول أمره.

فأمره هنا بالعبادات المتعلقة به، ثم أمره بالصبر على أذية أعدائه (٢) ، ثم أمره بالصدع بأمره، وإعلان دعوتهم إلى الله، فأمره هنا بأشرف العبادات، وهي الصلاة، وبآكد الأوقات [ص ٨٩٣] وأفضلها، وهو قيام الليل.

ومن رحمته تعالى، أنه لم يأمره بقيام الليل كله، بل قال: { قم الليل إلا قليلا } .

ثم قدر ذلك فقال: { نصفه أو انقص منه } أي: من النصف { قليلا } بأن يكون الثلث ونحوه.

{ أو زد عليه } أي: على النصف، فيكون الثلثين ونحوها. { ورتل القرآن ترتيلا } فإن ترتيل القرآن به يحصل التدبر والتفكر، وتحريك القلوب به، والتعبد بآياته، والتهيؤ والاستعداد التام له، فإنه قال: { إنا سنلقي عليك قولا ثقيلا } أي: نوحي إليك هذا القرآن الثقيل، أي: العظيمة معانيه، الجليلة أوصافه، وما كان بهذا الوصف، حقيق أن يتهيأ له، ويرتل، ويتفكر فيما يشتمل عليه.

ثم ذكر الحكمة في أمره بقيام الليل، فقال: { إن ناشئة الليل } أي: الصلاة فيه بعد النوم { هي أشد وطئا وأقوم قيلا } أي: أقرب إلى تحصيل (٣) مقصود القرآن، يتواطأ على القرآن (٤) القلب واللسان، وتقل الشواغل، ويفهم ما يقول، ويستقيم له أمره، وهذا بخلاف النهار، فإنه لا يحصل به هذا المقصود (٥) ، ولهذا قال: { إن لك في النهار سبحا طويلا } أي: ترددا على حوائجك ومعاشك، يوجب اشتغال القلب وعدم تفرغه التفرغ التام.

{ واذكر اسم ربك } شامل لأنواع الذكر كلها { وتبتل إليه تبتيلا } أي: انقطع إلى الله تعالى، فإن الانقطاع إلى الله والإنابة إليه، هو الانفصال بالقلب عن الخلائق، والاتصاف بمحبة الله، وكل ما يقرب إليه، ويدني من رضاه.

{ رب المشرق والمغرب } وهذا اسم جنس يشمل المشارق والمغارب [كلها]، فهو تعالى رب المشارق والمغارب، وما يكون فيها من الأنوار، وما هي مصلحة له من العالم العلوي والسفلي، فهو رب كل شيء وخالقه ومدبره.

{ لا إله إلا هو } أي: لا معبود إلا وجهه الأعلى، الذي يستحق أن يخص بالمحبة والتعظيم، والإجلال والتكريم، ولهذا قال: { فاتخذه وكيلا } أي: حافظا ومدبرا لأمورك كلها.

فلما أمره الله بالصلاة خصوصا، وبالذكر عموما، وذلك يحصل للعبد ملكة قوية في تحمل الأثقال، وفعل الثقيل (٦) من الأعمال، أمره بالصبر على ما يقول فيه المعاندون له ويسبونه ويسبون ما جاء به، وأن يمضي على أمر الله، لا يصده عنه صاد، ولا يرده راد، وأن يهجرهم هجرا جميلا وهو الهجر حيث اقتضت المصلحة الهجر الذي لا أذية فيه، فيقابلهم (٧) بالهجر والإعراض عنهم وعن أقوالهم التي تؤذيه، وأمره بجدالهم بالتي هي أحسن.

{ وذرني والمكذبين } أي: اتركني وإياهم، فسأنتقم منهم، وإن أمهلتهم فلا أهملهم، وقوله: { أولي النعمة } أي: أصحاب النعمة والغنى، الذين طغوا حين وسع الله عليهم من رزقه، وأمدهم من فضله كما قال تعالى: { كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى } .

ثم توعدهم بما عنده من العقاب، فقال:

---

(١) في ب: فاعتراه عند ذلك.

(٢) في ب: على أذية قومه.

(٣) في ب: حصول.

(٤) في ب: عليه.

(٥) في ب: فإنه لا تحصل به هذه المقاصد.

(٦) في ب: وفعل المشق.

(٧) في ب: بل يعاملهم.." (١)

"{ ٢٨ } ثم استدل عليهم وعلى بعثهم بدليل عقلي، وهو دليل الابتداء، فقال: { { نحن خلقناهم } أي: أوجدناهم من العدم، { وشددنا أسرهم } أي: أحكمنا خلقتهم بالأعصاب، والعروق، والأوتار، والقوى الظاهرة والباطنة، حتى تم الجسم واستكمل، وتمكن من كل ما يريده، فالذي أوجدهم على هذه الحالة، قادر على أن يعيدهم بعد موتهم لجزائهم، والذي نقلهم في هذه الدار إلى هذه الأطوار، لا يليق به

---

(١) تفسير السعدي، ص/٨٩٢

أن يتركهم سدى، لا يؤمرون، ولا ينهون، ولا يثابون، ولا يعاقبون، ولهذا قال: { بدلنا أمثالهم تبديلا } أي: أنشأناكم للبعث نشأة أخرى، وأعدناكم بأعيانكم، وهم بأنفسهم أمثالهم. { إن هذه تذكرة } أي: يتذكر بها المؤمن، فينتفع بما فيها من التخويف والترغيب. { فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا } أي: طريقا موصلا إليه، فالله يبين الحق والهدى، ثم يخير الناس بين الاهتداء بها أو النفور عنها، مع قيام الحجة عليهم (١) ، { وما تشاءون إلا أن يشاء الله } فإن مشيئة الله نافذة، { إن الله كان عليما حكيما } فله الحكمة في هداية المهتدي، وإضلال الضال. { يدخل من يشاء في رحمته } فيختصه بعنايته، ويوفقه لأسباب السعادة ويهديه لطرقها. { والظالمين } الذين اختاروا الشقاء على الهدى { أعد لهم عذابا أليما } [بظلمهم وعدوانهم]. تم تفسير سورة الإنسان – ولله الحمد والمنة (٢) .

تفسير سورة المرسلات

وهي مكية

---

(١) في ب: إقامة للحجة ليهلك من هلك عن بينة، ويحيي من حي عن بينة.

(٢) في ب: تمت ولله الحمد.." (١)

"ضعيف قد أصابه الكبر.

فهذه الحال من أفظع الأحوال، ولهذا صدر هذا المثل بقوله: { أيود أحدكم } إلى آخرها بالاستفهام المتقرر عند المخاطبين فظاعته، فإن تلفها دفعة واحدة، بعد زهاء أشجارها، وإيناع ثمارها، مصيبة كبرى.

ثم حصول هذه الفاجعة- وصاحبها كبير قد ضعف عن العمل، وله ذرية ضعفاء، لا مساعدة منهم له، ومؤنتهم عليه- فاجعة أخرى، فصار صاحب هذا المثل، الذي عمل لله، ثم أبطل عمله بمناف له، يشبه حال صاحب الجنة، التي جرى عليها ما جرى، حين اشتدت ضرورته إليها.

المثل الثالث: الذي يرائي الناس، وليس معه إيمان بالله، ولا احتساب لثوابه، حيث شبه قلبه بالصفوان، وهو الحجر الأملس، عليه تراب يظن الرائي أنه إذا أصابه المطر، أنبت كما تنبت الأراضي الطيبة، ولكنه كالحجر، الذي أصابه الوابل الشديد، فأذهب ما عليه من التراب، وتركه صلدا.

وهذا مثل مطابق لقلب المرائي، الذي ليس فيه إيمان، بل هو قاس لا يلين ولا يخشع.

---

(١) تفسير السعدي، ص/٩٠٣

فهذا أعماله ونفقاته لا أصل لها، تؤسس عليه، ولا غاية لها، تنتهي إليها، بل ما عمله، فهو باطل، لعدم شرطه.

والذي قبله بطل بعد وجود الشرط، لوجود المانع، والأول مقبول مضاعف، لوجود شرطه الذي هو الإيمان والإخلاص والثبات، وانتفاء الموانع المفسدة. وهذه الأمثال الثلاثة، تنطبق على جميع العاملين، فليزن العبد نفسه وغيره بهذه الموازين العادلة، والأمثال المطابقة. { وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون }.

{٢٦٧- ٢٦٨} { يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه واعلموا أن الله غني حميد * الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا والله واسع عليم } يحث الباري عباده على الإنفاق مما كسبوا في التجارات، ومما أخرج لهم من الأرض، من الحبوب والثمار، وهذا يشمل زكاة النقدين، والعروض كلها، المعدة للبيع والشراء، والخارج من الأرض، من الحبوب والثمار، ويدخل في عمومها الفرض والنفل.

وأمر تعالى أن يقصدوا الطيب منها، ولا يقصدوا الخبيث، وهو الرديء الدون، يجعلونه لله، ولو بذله لهم من لهم حق عليه، لم يرتضوه ولم يقبلوه إلا على وجه المغاضاة والإغماض.

فالواجب إخراج الوسط من هذه الأشياء، والكمال إخراج العالي، والممنوع إخراج الرديء، فإن هذا لا يجزئ عن الواجب، ولا يحصل فيه الثواب التام في المندوب.

{ واعلموا أن الله غني حميد } فهو غني عن جميع المخلوقين، وهو الغني عن نفقات المنفقين، وعن طاعات الطائعين، وإنما أمرهم بها، وحثهم عليها، لنفعهم، ومحض فضله وكرمه عليهم.

ومع كمال غناه، وسعة عطاياه، فهو الحميد فيما يشرعه لعباده من الأحكام الموصلة لهم إلى دار السلام. وحميد في أفعاله، التي لا تخرج عن الفضل والعدل والحكمة، وحميد الأوصاف، لأن أوصافه كلها محاسن وكمالات، لا يبلغ العباد كنهها، ولا يدركون وصفها.

{٢٦٨} فلما حثهم على الإنفاق النافع، ونهاهم عن الإمساك الضار، بين لهم أنهم بين داعيين:

داعي الرحمن، يدعوهم إلى الخير، ويعدهم عليه الخير، والفضل والثواب العاجل والآجل، وإخلاف ما أنفقوا.

وداعي الشيطان، الذي يحثهم على الإمساك ويخوفهم، إن أنفقوا أن يفتقروا، فمن كان مجيبا لداعي الرحمن،

وأنفق مما رزقه الله، فليبشر بمغفرة الذنوب، وحصول كل مطلوب، ومن كان مجيبا لداعي الشيطان، فإنه إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير، فليختر العبد أي الأمرين أليق به.

وختم الآية بأنه { واسع عليم } أي: واسع الصفات، كثير الهبات، عليم بمن يستحق المضاعفة من العاملين، وعليم بمن هو أهل، فيوفقه لفعل الخيرات، وترك المنكرات.

{٢٦٩} { يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر إلا أولو الألباب }

لما ذكر أحوال المنفقين للأموال، وأن الله أعطاهم، ومن عليهم بالأموال التي يدركون بها النفقات في الطرق الخيرية، وينالون بها المقامات السنية، ذكر ما هو أفضل من ذلك، وهو أنه يعطي الحكمة من يشاء من عباده، ومن أراد بهم خيرا من خلقه.

والحكمة هي العلوم النافعة، والمعارف الصائبة، والعقول المسددة، والألباب الرزينة، وإصابة الصواب في الأقوال والأفعال.

وهذا أفضل العطايا، وأجل الهبات، ولهذا قال: { ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا } ؛ لأنه خرج من ظلمة الجهالات إلى نور الهدى، ومن حمق الانحراف في الأقوال والأفعال، إلى إصابة الصواب فيها، وحصول السداد، ولأنه كمل نفسه بهذا الخير العظيم، واستعد لنفع الخلق أعظم نفع، في دينهم ودنياهم.

وجميع الأمور لا تصلح إلا بالحكمة، التي هي وضع الأشياء مواضعها، وتنزيل الأمور منازلها، والإقدام في محل الإقدام والإحجام في موضع الإحجام.

ولكن ما يتذكر هذا الأمر العظيم، وما يعرف قدر هذا العطاء الجسيم. { إلا أولو الألباب } وهم أهل العقول الوافية، والأحلام الكاملة، فهم الذين يعرفون النافع فيعملونه، والضار فيتركونه.

وهذان الأمران، وهما بذل النفقات المالية، وبذل الحكمة العلمية، أفضل ما تقرب به المتقربون إلى الله، وأعلى ما وصلوا به إلى أجل الكرامات.

وهما اللذان ذكرهما النبي -صلى الله عليه وسلم- بقوله: (لا حسد إلا في اثنتين، رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يعلمها الناس) .

{٢٧٠- ٢٧١} { وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فإن الله يعلمه وما للظالمين من أنصار إن تبدوا الصدقات فنعما هي وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ويكفر عنكم من سيئاتكم والله بما تعملون

خبير } يخبر تعالى، أنه مهما أنفق المنفقون أو تصدق المتصدقون، أو نذر الناذرون، فإن الله يعلم ذلك.." (١)

"ومنها: أن من تمام الكتابة والعدل فيها، أن يحسن الكاتب الإنشاء، والألفاظ المعتبرة في كل معاملة بحسبها، وللعرف في هذا المقام اعتبار عظيم.

ومنها: أن الكتابة من نعم الله على العباد التي لا تستقيم أمورهم الدينية ولا الدنيوية إلا بها، وأن من علمه الله الكتابة، فقد تفضل عليه بفضل عظيم، فمن تمام شكره لنعمة الله تعالى، أن يقضي بكتابته حاجات العباد، ولا يمتنع من الكتابة، ولهذا قال: { ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله }

ومنها: أن الذي يكتبه الكاتب، هو اعتراف من عليه الحق، إذا كان يحسن التعبير عن الحق الذي عليه، فإن كان لا يحسن ذلك- لصغره، أو سفهه، أو جنونه، أو خرسه، أو عدم استطاعته- أملى عنه وليه، وقام وليه في ذلك مقامه.

ومنها: أن الاعتراف من أعظم الطرق، التي تثبت بها الحقوق، حيث أمر الله تعالى أن يكتب الكاتب ما أملى عليه من عليه الحق.

ومنها: ثبوت الولاية على القاصرين، من الصغار والمجانين، والسفهاء ونحوهم.

ومنها: أن الولي يقوم مقام موليه، في جميع اعترافاته المتعلقة بحقوقه.

ومنها: أن من أمنته في معاملة، وفوضته فيها، فقوله في ذلك مقبول، وهو نائب منابك، لأنه إذا كان الولي على القاصرين ينوب منابهم، فالذي وليته باختيارك وفوضت إليه الأمر، أولى بالقبول، واعتبار قوله وتقديمه على قولك عند الاختلاف.

ومنها: أنه يجب على الذي عليه الحق- إذا أملى على الكاتب- أن يتقي الله، ولا يبخس الحق الذي عليه، فلا ينقصه في قدره، ولا في وصفه، ولا في شرط من شروطه، أو قيد من قيوده، بل عليه أن يعترف بكل ما عليه من متعلقات الحق، كما يجب ذلك إذا كان الحق على غيره له، فمن لم يفعل ذلك، فهو من المطففين الباخسين.

ومنها: وجوب الاعتراف بالحقوق الجلية والحقوق الخفية، وأن ذلك من أعظم خصال التقوى، كما أن ترك الاعتراف بها من نواقض التقوى ونواقصها.

---

(١) تفسير السعدي، ص/٩٥٧

ومنها: الإرشاد إلى الإشهاد في البيع، فإن كانت في المداينات، فحكمها حكم الكتابة كما تقدم، لأن الكتابة هي كتابة الشهادة، وإن كان البيع بيعا حاضرا، فينبغي الإشهاد فيه، ولا حرج فيه بترك الكتابة، لكثرته وحصول المشقة فيه.

ومنها: الإرشاد إلى إشهاد رجلين عدلين، فإن لم يمكن، أو تعذر، أو تعسر، فرجل وامرأتان، وذلك شامل لجميع المعاملات، بيوع الإدارة، وبيوع الديون، وتوابعها من الشروط والوثائق وغيرها.

وإذا قيل: قد ثبت أنه -صلى الله عليه وسلم- قضى بالشاهد الواحد مع اليمين، والآية الكريمة ليس فيها إلا شهادة رجلين، أو رجل وامرأتين، قيل: الآية الكريمة، فيها إرشاد الباري عباده إلى حفظ حقوقهم ولهذا أتى فيها بأكمل الطرق، وأقواها، وليس فيها ما ينافي ما ذكره النبي -صلى الله عليه وسلم- من الحكم بالشاهد واليمين.

فباب حفظ الحقوق في ابتداء الأمر، يرشد فيه العبد إلى الاحتراز والتحفظ التام، وباب الحكم بين المتنازعين، ينظر فيه إلى المرجحات والبينات، بحسب حالها.

ومنها: أن شهادة المرأتين قائمة مقام الرجل الواحد، في الحقوق الدنيوية، وأما في الأمور الدينية- كالرواية والفتوى- فإن المرأة فيه، تقوم مقام الرجل، والفرق ظاهر بين البابين.

ومنها: الإرشاد إلى الحكمة في كون شهادة المرأتين عن شهادة الرجل، وأنه لضعف ذاكرة المرأة غالبا، وقوة حافظة الرجل.

ومنها: أن الشاهد لو نسي شهادته، فذكره الشاهد الآخر، فذكر أنه لا يضر ذلك النسيان، إذا زال بالتذكير لقوله: { أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى } ومن باب أولى، إذا نسي الشاهد، ثم ذكر من دون تذكير، فإن الشهادة مدارها على العلم واليقين.

ومنها: أن الشهادة لا بد أن تكون عن علم ويقين، لا عن شك، فمتى صار عند الشاهد ريب في شهادته- ولو غلب على ظنه- لم يحل له أن يشهد إلا بما يعلم.

ومنها: أن الشاهد ليس له أن يمتنع، إذا دعي للشهادة سواء دعي للتحمل أو للأداء، وأن القيام بالشهادة من أفضل الأعمال الصالحة، كما أمر الله بها، وأخبر عن نفعها ومصالحها.

ومنها: أنه لا يحل الإضرار بالكاتب، ولا بالشهيد، بأن يدعيا في وقت أو حالة تضرهما.

وكما أنه نهي لأهل الحقوق والمتعاملين، وأن يضار الشهود والكتاب، فإنه أيضا نهي للكاتب والشهيد، أن

يضار المتعاملين أو أحدهما.

وفي هذا أيضا أن الشاهد والكاتب إذا حصل عليهما ضرر في الكتابة والشهادة أنه يسقط عنهما الوجوب.

وفيها التنبيه على أن جميع المحسنين الفاعلين للمعروف، لا يحل إضرارهم، وتحميلهم ما لا يطيقون، فـ { هل جزاء الإحسان إلا الإحسان } ؟

وكذلك على من أحسن وفعل معروفا، أن يتمم إحسانه يترك الإضرار القولي والفعلي بمن أوقع به المعروف، فإن الإحسان لا يتم إلا بذلك.

ومنها: أنه لا يجوز أخذ الأجرة على الكتابة والشهادة، حيث وجبت، لأنه حق أوجبه الله على الكاتب والشهيد، ولأنه من مضارة المتعاملين.

ومنها: التنبيه على المصالح والفوائد المترتبة على العمل بهذه الإرشادات الجليلة، وأن فيها حفظ الحقوق والعدل، وقطع التنازع والسلامة من النسيان والذهول، ولهذا قال: { ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا } وهذه مصالح ضرورية للعباد.

ومنها: أن تعلم الكتابة من الأمور الدينية، لأنها وسيلة إلى حفظ الدين والدنيا وسبب للإحسان.

ومنها: أن من خصه الله بنعمة من النعم، يحتاج الناس إليها، فمن تمام شكر هذه النعمة، أن يعود بها على عباد الله، وأن يقضي بها حاجتهم، لتعليل الله النهي عن الامتناع عن الكتابة، بتذكير الكاتب بقوله: { كما علمه الله } ومع هذا: فمن كان في حاجة أخيه، كان الله في حاجته .

ومنها: أن الإضرار بالشهود والكتاب، فسوق بالإنسان، فإن الفسوق هو الخروج عن طاعة الله إلى معصيته، وهو يزيد وينقص، ويتبعض، ولهذا لم يقل: "فأنتم فساق" أو فاسقون"، بل قال:

{ فإنه." (١)

" صفحة رقم ٨٤

معانيه الإنكار ذاكرا الاسم الأعظم الذي هو أعلى الأسماء وأبطنها غيبا والضمير الذي (هو) أبطن منه ، وأتبعه بعض ما هم له منكرون أو به جاهلون ، وأشار بقوله : (لكم) مثبتة فيما هو ظاهر عندهم ومحذوفة مما هو خفي عنهم ، كما نبه عليه في الاحتباك إلى أنه لم يخلق هذا النوع البشري للفناء بل للبقاء بما أبان عن أنه إنما خلق جميع ما في هذه الأكوان لأجلهم ، فالبعض رزق لهم والبعض أسباب له ، والبعض

(١) تفسير السعدي، ص/٩٦٠

أسجدهم لأبيهم وهم في صلبه ووكلهم بهم في حفظ أعمالهم وقسم أرزاقهم ونفخ أرواحهم وغير ذلك من تربيتهم وإصلاحهم ؛ لم يكونوا أهلا لفهم هذا الخطاب حق فهمه تلقيا عن الله لعلوه سبحانه وعلو هذا الخطاب بالأسماء الباطنة وما نظم بها من المعاني اللائقة بها علوا وغيبا فأعلم سبحانه بعطف (إذ) على غير ظاهر أنه معطوف على نحو : اذكر لهم أيها الرسول هذا ، لأنه لا يفهمه حق فهمه عنا سواك ، وهم إلى الفهم عنك أقرب (وإذ) أي واذكر ما اتفق إذ ، وحذف هذا المعطوف عليه لاحتمال المأمور بذكره الإنكار والسياق لإيراد الرفق والبشارة على لسانه (صلى الله عليه وسلم) استعطافا لهم إليه وتحبيبا فيه وفي حذفه أيضا والدلالة عليها بالعاطف حث على تدبر ما قبله تنبيها على جلالة مقداره ودقة أسراره ، ولما علمت الإشارة لكن لأهل البصارة أتبعها قصة آدم عليه السلام دليلا ظاهرا ومثالا بينا لخلاصة ما أريد بهذه الجمل مما نبه عليه بالعاطف من أن النوع الآدمي هو المقصود بالذات من هذا الوجود ، وأنه لا يجوز في الحكمة أن يترك بعد موته من غير إحياء يرد به إلى دار لا يكون في شيء من أمورها من أحد نوع من الخلل وتكون **الحكمة فيها** ظاهرة جدا لا خفاء بها أصلا .

فيظهر الحمد أتم ظهور ؛ ولذلك ذكر تفضيل آدم عليه السلام بالعلم ، ثم بإسجاد الملائكة له ، ثم بإسكانه الجنة ، ثم بتلقي أسباب التوبة عند صدور الهفوة ؛ وقد روى البيهقي في أواخر الدلائل والحارث بن أبي أسامة والحاكم في المستدرك عن بشر بن شغاف عن عبد الله بن سلام رضي الله عنه قال : (إن أكرم خليقة الله على الله أبو القاسم (صلى الله عليه وسلم) ، قلت : رحمك الله فأين الملائكة ؟ فنظر ألي وضحك فقال : يا ابن أخي وهل تدري ما الملائكة ؟ إنما الملائكة خلق كخلق الأرض وخلق السماء وخلق السحاب وخلق الجبال وخلق الرياح وسائر الخلائق التي لا تعصي الله شيئا ، وإن أكرم الخلائق على الله أبو القاسم (صلى الله عليه وسلم)) وقال البيهقي : إنه ليس بموقوف بل." (١)

" صفحة رقم ٨٧

والإقصاء توطئة لقبيح ما يقع من بعضهم من اتباع خطوات الشيطان ؛ وذلك لأن في كل آية معنى تنتظم به بما قبلها ومعنى تتهيأ به للانتظام بما بعدها ؛ وبذلك كان انتظام الآي داخلا في معنى الإعجاز الذي لا يأتي الخلق بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا .

) إني (إن حرف يفهم توكيدا من ذات نفس المؤكد وعلمه .

---

(١) نظم الدرر . (– ت: عبدالرزاق غالب)، ٨٤/١

والياء اسم علي يخص المضيف إلى نفسه الذي يضيف الأشياء إليه ،) جاعل في الأرض (ولما كانت خلافة آدم عليه السلام كاملة في جميع الأرض بنفسه وبذريته وحد لذلك مع أنه يصح أن يراد به الجنس فقال : (خليفة (الخليفة ذات قائم بما يقوم به المستخلف على حسب رتبة ذلك الخليفة منه ، فهو خليقة الله في كونه ملكه وملكوته ، وهم أيضا بعضهم خلفاء بعض ؛ فهو خليفة بالمعنيين – انتهى .

وجعل سبحانه هذا التذكير في سياق داع غلى ع بادته وقائد إلى محبته حيث مت إلى هذا النوع الآدمي بنعمه عليهم وإحسانه إليهم قبل إيجادهم ، فذكر لهم ما حاج به ملائكته عنهم ، وما شرف به أباهم آدم من العلم وأمر الملائكة المقربين بالسجود له ، ثم ما وقع لإبليس معه وهماعبدان من عبيده فتاب عليه ولم يتب على إبليس مع سبقه له بالعبادة بل أوجب طرده وأبد بعده فقال تعالى حكاية عن الملائكة جوابا لسؤال من كأنه قال ما قالوا حين أخبرهم سبحانه بذلك : (قالوا (طالبين الإيقان على **الحكمة في** إيجاد من يقع منه شر) أتجعل فيها) أي في الأرض) من يفسد فيها) أي بأنواع المعاصي بالقوة الشهوانية ،) ويسفك (من السفك ، قال الحرالي : وهو سكب بسطوة) الدماء) أي بغير حقها بالقوة الغضبية ، لعدم عصمتهم ، وخلقهم جوفا لا يتمالكون ، وأصحاب شهوات عليها يتهالكون ؛ وكأنهم لما رأوا صورة آدم تفرسوا فيها ذلك لو سألوا عن منافع أعضائه وما أودع فيها من القوى والمعاني أخبرهم تعالى بما تفرسوا منه ذلك والدم .

قال الحرالي : رزق البدن الأقرب إليه المحوط فيه) ونحن) أي والحال إنا نحن ، وهذا الضمير كما قال الحرالي : اسم القائل المستتبع لمن هو في طوع أمره لا يخالفه) نسبح) أي نوقع التسبيح أي التنزيه لك والإبعاد عما لا يليق بك ملتبسين في." (١)

" صفحة رقم ٢٧٥

عوضا من تناشدكم الأشعار .

قال الحرالي : وفيه أخذهم بما هو في طباعهم من إيثار أمر السمع على أمر العين الذي عليه جبلت العرب ، لأنها أمة تؤثر مسموع المدح والثناء من الخلق على ما تناله من الراحة فتجهد في طلب الثناء من الخلق ما لم تجهد أمة غيرها ، فكيف بها إذا كان ما دعيت إليه ثناء الحق عليها وتخليد ذلك لها في كلام هو كلام ربها .

---

(١) نظم الدرر . (– ت: عبدالرزاق غالب)، ١/٨٧

فتنال بذلك ما هو فوق مقصودها مما جبلت عليه من إيثار السماع علىا لعين بخلاف ما عليه سائر الأمم ؛ ثم قال : وفيه إغناء العرب عن إعمال أفكارها في تكسب العلم والحكمة لتستخرج منه أحكاما ، فكان في تلاوة الآيات عليهم إغناؤهم عن الاستدلال بالدلائل وأخذ الأمور بالشواهد وتولي الله ورسوله تعليمهم ليكون شرف المتعلم بحسب علاء من علمه ، ففضل علماء العرب على سائر العلماء كفضل النبي (صلى الله عليه وسلم) على معلمهم ممن سواه (صلى الله عليه وسلم) .

انتهى .

ولما كان السياق لفعل من الأفعال وهو التوجه إلى البيت للصلاة وكانت الصلاة أعظم مطهر للقبول من أوضار الأدناس قدم قوله : (ويزكيكم) أي يطهركم في أقوالكم وأفعالكم وينميكم بإنعاش قلوبكم لتشرف بالمعاني الصالحة والأخلاق الطاهرة الموجبة للفوز الدائم والنجاة عما دنس اليهود وأوجب لهم الضلال من مرض القلب بإنكار النسخ وكتم الحق وإفشاء الباطل المثمر مع الضلال للإضلال .

قال الحرالي : أنبأهم بأن هذا التنزيل لأنفسهم بمنزلة الغذاء للأبدان ، فكما تتنامى أجسادهم بماء المزن وما منه فكذلك تتنامى أنفسهم بأحكام الكتاب وتلاوة الآيات ، وذلك زكاؤها ونماؤها ، لتتأكد فيه رغبتهم ، لأن للمغتذي رغبة في الغذاء إذا تحققه ، فمن علم أن التزام الأحكام غذاء لنفسه حرص عليها ، ومتى نمت النفس وزكت قويت على ما شأنها أن تناله قواها ، كما أن البدن إذا قوي بالغذاء تمكن مما شأنه عمله – انتهى .

) ويعلمكم الكتاب (المقيم للدين والدنيا .

قال الحرالي : أي الفقه فيه) والحكمة (دقائق الإشارات الشافية لأمراض القلوب المانعة من اتباع الهوى .

قال الحرالي : فخص تعليم **الحكمة من** عموم تعليم الكتاب ، لأن التوسل بالأحكام جهد عمل والتوسل بعلم الحكمة يسر منال عقل ، لأن **الحكمة منال** الأمر الذي فيه عسر بسبب فيه يسر فينال الحكيم بحكمته لاطلاعه على إفضاء مجعول الأسباب بعضها لبعض مما بين أسباب عاجل الدنيا ومسببات آجل الآخرة ما لا يصل إليه جهد العامل الكادح وفي تكملة الكتاب والحكمة بكلمة (أل) إنهاء إلى الغاية الجامعة لكل كتاب وحكمة بما يعلمه الأولون والآخرون .

ثم قال : وبذلك كان (صلى الله عليه وسلم) يتكلم في علوم الأولين بكلمات يعجز عنها إدراك الخلق نحو قوله (صلى الله عليه وسلم) : (استاكوا." [1]

" صفحة رقم ٣٣٨

حفظ بدنه بالتغذي وحفظ نسله بالنكاح وخوضه في زور القول وسوء الفعل هو صومه ، وفي الصوم خلاء من الطعام وانصراف عن حال الأنعام وانقطاع شهوات الفرج ، وتمامه الإعراض عن أشغال الدنيا والتوجه إلى الله والعكوف في بيته ليحصل بذلك نبوع الحكمة من القلب ، وجعل كتبا حتى لا يتقاصر عنه من كتب عليه إلا انشرم دينه كما ينشرم خرم القربة المكتوب فيها - انتهى .

)كما كتب) أي فرض ، فالتشبيه في مطلق الفرض) على الذين (وكأنه أريد أهل الكتابيين فقط وأثبت الحال فقال : (من قبلكم (فيه إشعار بأنه مما نقضوا فيه العهد فكتموه حرصا على ضلال العرب ، ولما كان في التأسي إعلاء للهمة القاصرة وإسعار وإغلاء للقلوب الفاترة لأن الشيء الشاق إذا عم سهل تحمله قال : (لعلكم تتقون) أي تجعلون بينكم وبين إسخاط الله وقاية بالمسارعة إليه والمواظبة عليه رجاء لرضى ربكم وخوفا ممن سبق من قبلكم ، لتكون التقوى لكم صفة راسخة فتكونوا ممن جعلت الكتاب هدى لهم ، فإن الصوم يكسر الشهوة فيقمع الهوى فيروع عن موافقة السوء .

قال الحرالي : وفي إشعاره تصنيف المأخوذين بذلك صنفين : من يثمر له صومه على وجه الشدة تقوى ، ومن لا يثمر له ذلك .

ولما كان لهذه الأمة جمع لما في الكتب والصحف كانت مبادئ أحكامها على حكم الأحكام المتقدمة فكما وجهوا وجهة أهل الكتاب ابتداء ثم لهم بالوجهة إلى الكعبة انتهاء كذلك صوموا صوم أهل الكتاب) أياما معدودات) أي قلائل مقدرة بعدد معلوم ابتداء ثم رقوا إلى صوم دائرة الشهر وحدة قدر انتهاء ، وذلك أنه لما كان من قبلهم أهل حساب لما فيه حصول أمر الدنيا فكانت أعوامهم شمسية كان صومهم عدد أيام لا وحدة شهر ، وفي إعلامه إلزام بتجديد النية لكل يوم حيث هي أيام معدودة ، وفي إفهامه منع من تمادي الصوم في زمن الليل الذي هو معنى الوصال الذي يشعر صحته رفع رتبة الصوم إلى صوم الشهر الذي هو دورة القمر يقنع الفطر في ليلة رخصة للضعيف لا عزما على الصائم ، وكان فيه من الكلفة ما في صوم أهل الكتاب من حيث لم يكن فيه أكل ولا نكاح بعد نوم ، فكان فيه كلفة ما في الكتب لينال رأس

---

(١) نظم الدرر . (- ت: عبدالرزاق غالب)، ١/٢٧٥

هذه الأمة وأوائلها حظا من منال أوائل الأمم ثم يرقيها الله إلى حكم ما يخصها فتكون مرباة تجد طعم اليسر بعد العسر – انتهى وفيه تصرف .

ومذهب الشافعي رضي الله تعالى عنه تحريم الوصال ، قالوا : يا رسول الله إنك تواصل قال : (إني لست كهيئتكم) وقال : (من كان." (١)

" صفحة رقم ٣٦٥

وأحسنوا إن الله يحب المحسنين وأتموا الحج والعمرة لله فإن أحصرتم فما استيسر من الهدي ولا تحلقوا رؤوسكم حتى يبلغ الهدي محله فمن كان منكم مريضا أو به أذى من رأسه ففدية من صيام أو صدقة أو نسك فإذآ أمنتم فمن تمتع بالعمرة إلى الحج فما استيسر من الهدي فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجعتم تلك عشرة كاملة ذلك لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام واتقوا الله واعلموا أن الله شديد العقاب) ٧٣

( ) ٧١

ولما كان المراد بما مضى من قتالهم كف أذاهم بأي فعل كان حققه بقوله : (وقاتلوهم) أي هؤلاء الذين نسبناهم إلى قتالكم وإخراجكم وفتنتكم أعم من أن يكونوا كفارا أو لا) حتى لا تكون فتنة) أي توجد فتنة بأن لا يقدروا أن يؤذوا أحدا من أهل الإسلام ليردوه عن دينه أو يخرجوه من داره أو يخلعوه من ماله أو يغلبوه على حقه ، فقتال كل من وقع منه ذلك كفرا أو بغيا في سبيل الله حتى يفيء إلى أمر الله) ويكون الدين) أي الطاعة والعبادة .

ولما كان هذا في أوائل ما بعد الهجرة قبل أن يروا من نصر الله لهم ما يقوي عزائمهم أعراه من التأكيد فقال : (الله) أي الذي لا كفؤ له خاصا به بأن يكون أمر المسلمين ظاهرا ، ليس للشيطان فيه نصيب ، لا يقدر أحد من أهل الكفر ولا أهل البغي على التظاهر بأذى أحد منهم ، وذلك بأن لا يبقى مشرك أصلا ولا يبقى كتابي إلا ألزم الصغار بالجزية ، **والحكمة في** إبقائهم دون المشركين أن لهم كتبا أمهلوا لحرمتها ولينظروا فيها فيقفوا على الحق منها فإنها وإن كانت قد وقع فيها التحريف قد بقي فيها ما يهدي الموفق لأنها لم يعمها التحريف ، وأما أهل الأوثان فليس لهم ما يرشدهم إلى الحق فكان إمهالهم زيادة في شركهم مقطوعا بها من غير فائدة تنتظر .

---

(١) نظم الدرر . (– ت: عبدالرزاق غالب)، ١/٣٣٨

قال الحرالي : ففي طيه إشعار بما وقع وهو واقع وسيقع من قتال طائفة الحق لطائفة البغي سائر اليوم المحمدي بما تخلص من الفتنة ويخلص الدين لله توحيدا ورضى وثباتا على حال السلف الصالح وزمان الخلافة والنبوة – انتهى .

) فإن انتهوا) أي كلفوا أنفسهم الرجوع عما استوجبوا به القتال فقد تركوا الظلم ، والنهي قال الحرالي الحكم المانع من الفعل المترامي إليه بمنزلة أثر العقل المسمى نهى لمنعه عما تهوي إليه النفس مما يستبصر فيه النهى ، قال عليه الصلاة والسلام : (ليليني منكم أولو الأحلام والنهى)." (١)

" صفحة رقم ٤٨٠

وهو السكب المفيض على كلية المسكوب عليه) علينا صبرا (حتى نبلغ من الضرب ما نحب في مثل هذا الموطن) وثبت (من التثبيت تفعيل من الثبات وهو التمكن في الموضع الذي شأنه الاستزلال) أقدامنا (جمع قدم وهو ما يقوم عليه الشيء ويعتمده ، أي بتقوية قلوبنا حتى لا نفر وتكون ضرباتنا منكبة موجعة وأشاروا بقولهم) وانصرنا على القوم الكافرين (موضع قولهم : عليهم ، إلى أنهم إنما يقاتلونهم لتضييعهم حقه سبحانه وتعالى لا لحظ من حظوظ النفس كما كان من معظمهم أول ما سألوا وإلى أنهم أقوياء فلا بد لهم من معونته عليهم سبحانه وتعالى ، ثم رتب على ذلك النتيجة حثا على الاقتداء بهم لنيل ما نالوا فقال عاطفا على ما تقديره : فأجاب الله سبحانه وتعالى دعاءهم : (فهزموهم (مما منه الهزيمة وهو فرار من شأنه الثبات – قاله الحرالي ، وقال : ولم يكن فهزمهم الله ، كما لهذه الأمة في

٧٧)) ولكن الله قتلهم ( ) ٧

[الأنفال : ١٧] انتهى .

) بإذن الله) أي الذي له الأمر كله .

ثم بين ما خص به المتولي لعظم الأمر بتعريض نفسه للتلف في ذات الله سبحانه وتعالى من الخلال الشريفة الموجبة لكمال الحياة الموصلة إلى البقاء السرمدي فقال : (وقتل داود (وكان في جيش طالوت) جالوت (قال الحرالي : مناظرة قوله

٧٧ ( ) وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ( ) ٧

[الأنفال : ١٧] وكان فضل الله عليك عظيما – انتهى .

---

(١) نظم الدرر . (– ت: عبدالرزاق غالب)، ٣٦٥/١

وفي الزبور في المزمور الحادي والخمسين بعد المائة وهو آخره : صغيرا كنت في إخوتي ، حدثا في بيت أبي ، راعيا غنمه ، يداي صنعتا الأرغن ، وأصابعي عملت القيثار ، من الآن اختارني الرب إلهي واستجاب لي وأرسل ملاكه وأخذني من غنم أبي ومسحني بدهن مسحته إخوتي حسان وأكرمني ولم يسر بهم الرب ، خرجت ملتقيا الفلسطيني الجبار الغريب فدعا علي بأوثانه فرميته بثلاثة أحجار في جبهته بقوة الرب فصرعته واستللت سيفه وقطعت به رأسه ونزعت العار عن بني إسرائيل .

) وآتاه الله (بجلاله وعظمته) الملك (قال الحرالي : كان داود عليه الصلاة والسلام عندهم من سبط الملك فاجتمعت له المزيتان من استحقاق البيت وظهور الآية على يديه بقتل جالوت ، قال تعالى : (والحكمة (تخليصا للملك مما يلحقه بفقد الحكمة من اعتداء الحدود انتهى .

فكان داود عليه الصلاة والسلام أول من جمع له بين الملك والنبوة) وعلمه) أي زيادة مما يحتاجان إليه) مما يشاء (من صنعة الدروع وكلام الطير وغير ذلك .." (١)

" صفحة رقم ٥١٣

ولما أراه سبحانه وتعالى ملكوت الأرض صارت تلك الرؤية علما علعزة الله من وراء الملكوت في محل الجبروت فقال : (واعلم أن الله) أي المحيط علما وقدرة) عزيز (ولما كان للعزة صولة لا تقوى لها فطر المخترعين نزل تعالى الخطاب إلى محل حكمته فقال : (حكيم (فكان فيه إشعار بأنه سبحانه وتعالى جعل الأشياء بعضها من بعض كائنة وبعضها إلى بعض عامدة وبعضها من ذلك البعض معادة

٧٧ ( ) منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى ( ) ٧

[طه : ٥٥] وهذه الحكمة التي أشار إليها اسمه الحكيم حكمة ملكوتية جامعة لوصلة ما بين حكمة الدنيا وحكمة الآخرة ، لأن الحكيم بالحقيقة ليس من علمه الله حكمة الدنيا وألبس عليه جعله لها بل ذلك جاهلها كما تقدم ، إنما الحكيم الذي أشهده الله حكمة الدنيا أرضا وأفلاكا ونجوما وآفاقا وموالد وتوالدا ، وأشهده أنه حكيمها ، ومزج له علم حكمة موجود الدنيا بعلم حكمة موجود الآخرة ، وأراه كيفية توالج الحكمتين بعضها في بعض ومآل بعضها إلى بعض حتى يشهد دوران الأشياء في حكمة أمر الآخرة التي هي غيب الدنيا إلى مشهود حكمة موجود الآخرة ، وأراه كيفية توالج الحكمتين بعضها في بعض ومآل بعضها إلى بعض حتى يشهد دوران الأشياء في حكمة أمر الآخرة التي هي غيب الدنيا إلى مشهود حكمة

---

(١) نظم الدرر . (- ت: عبدالرزاق غالب)، ١/ ٤٨٠

الدنيا ثم إلى مشهود حكمة الآخرة كذلك عودا على بدء وبدءا علىعود في ظهور غيب الإبداء إلى مشهوده وفي عود مشهوده إلى غيبه

٧٧ ( ) قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين ( ) ٧

[غافر : ١١] كذلك إلى المعاد الأعظم الإنساني

٧٧ ( ) يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن ( ) ٧

[التغابن : ٩] فهذا هو الحكيم المتوسط الحكمة ، ثم وراء ذلك أمر آخر من على أمر الله متعالي تجلياته بأسماء وأوصاف يتعالى ويتعاظم للمؤمنين ويتبارك ويستعلن للموقنين الموحدين ، فله سبحانه وتعالى العزة في خلقه وأمره وله الحكمة في خلقه وأمره ومن ورائها كلمته التي لا ينفد تفصيل حكمها

٧٧ ( ) قل لو كان البحر مدادا ( ) ٧

[الكهف : ١٠٩] وكلماته لا تحد ولا تعد

٧٧ ( ) ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام ( ) ٧

[لقمان : ٢٧] ، فهو العزيز الحكيم العلي العظيم – انتهى .

وهو أعلى من الجوهر الثمين وقد لاح بهذا أن قصد الخليل عليه أفضل الصلاة والسلام الانتقال من علم اليقين إلى عين اليقين بل إلى حق اليقين ، وكأنه عد المرتبة الدنيا من الطمأنينة بالنسبة غلى العليا عدما ، وقيل : بل كان قصده بالسؤال رؤية المحيي ولكنه طلبها تلويحا فأجيب بالمنع منها بوصف العزة تلويحا ، وموسى عليه الصلاة والسلام لما سأل تصريحا أجيب تصريحا ، وسؤال الخليل عليه الصلاة والسلام ليس على وجه الشك ، وقول النبي (صلى الله عليه وسلم) (نحن أحق بالشك من إبراهيم) يرشد إلى ذلك ، لأنه (صلى الله عليه وسلم) لم يشك ، وإذا انتفى الشك." (١)

" صفحة رقم ٥٢٣

البقرة : (٢٦٩ – ٢٧٤) يؤتي الحكمة من. ... . . .

) يؤتي الحكمة من يشآء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر إلا أولوا الألباب ومآ أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فإن الله يعلمه وما للظالمين من أنصار إن تبدوا الصدقات فنعما هي وإن تخفوها وتؤتوها الفقرآء فهو خير لكم ويكفر عنكم من سيئاتكم والله بما تعملون خبير ليس عليك هداهم ولكن

---

(١) نظم الدرر . (– ت: عبدالرزاق غالب)، ١/٥١٣

الله يهدي من يشآء وما تنفقوا من خير فلأنفسكم وما تنفقون إلا ابتغآء وجه الله وما تنفقوا من خير يوف إليكم وأنتم لا تظلمون للفقرآء الذين أحصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضربا في الأرض يحسبهم الجاهل أغنيآء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافا وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون (( )

ولما انقضى الكلام في الإنفاق والمال المنفق على هذا الأسلوب الحكيم تصريحا وتلويحا وختم ذلك بهاتين الصفتين وتضمن ذلك مع التصريح بأنه عليم أنه حكيم أتبع ذلك الوصف بأن من سعته وعلمه وحكمته أنه يهب من صفاته ما يشاء لمن يشاء بأن يؤتيه **الحكمة فيوقفه** على علم ما خفي من هذه الأمثال المتقنة والأقوال الحسنة تصريحا وتلويحا ويوفقه للعمل بذلك إنشاء وتصحيحا فقال تعالى منبها على ترجيح العمل بأمر الرحمن وقبول وعده بأنه على مقتضى العقل والحكمة وأن أمر الشيطان ووعده على وفق الهوى والشهوة : – وقال الحرالي : ولما أبدى سبحانه وتعالى أمر الآخرة وأظهر ما فيها وبين أمر الدنيا من الترتيب والتسبيب ورجع بعضها على بعض عودا على بدء أنبأ تعالى أن ذلك من حكمته وأنهى الحكمة لما فيها من استيفاء حكمة الدارين فليس الحكيم من علم أمر الدنيا بل من علم أمر ما بين الدنيا والآخرة فداوى أدواء الدنيا بدواء الآخرة وداوى النفس بدواء الدارين وضم جوامعها في تيسير الكلم كما ضمها لمن اصطفاه)) ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة ( ) [النحل : ٣٩] فقال سبحانه وتعالى : (يؤتي الحكمة (انتهى .

وفي ترتيبها على واسع عليم بعد غني حميد بعد عزيز حكيم التحذير من التعريض لإنفاق ما يرده لعزته وغناه وسعته ويذم عليه لعلمه لرداءته أو فساد في نيته وإن خفي فإن ذلك خارج عن منهاج **الحكمة منا** ومقتضى **الحكمة منه** سبحانه وتعالى كما وقع لقابيل إذ قرب رديئا كما هوم شهور في قصته ، ولعله لوح إليه بالتذكر في ختام هذه الآية ثم بقوله : (وما للظالمين من أنصار (فصار كأنه قال سبحانه وتعالى :." (١)

" صفحة رقم ٥٢٤

واعلم أن الله عزيز حكيم يؤتي الحكمة وهي العلم بالأشياء على ما هي عليه المزين بالعمل والعمل المتقن بالعلم) من يشاء (من عباده ، ثم مدح من حلاه بها فقال مشيرا ببناء الفعل للمفعول إلى أنها مقصودة في نفسها : (ومن يؤت الحكمة) أي التي هي صفة من صفاته ، وأشار بالتعريف إلى كمالها بحسب ما

---

(١) نظم الدرر . (– ت: عبدالرزاق غالب)، ١/٥٢٣

تحتمله قوى العبيد ، والحكمة قوة تجمع أمرين : العلم المطابق وفعل العدل وهو العمل على وفق العلم . قال الأصبهاني : والقرآن مملوء من الآيات الدالة على أن كمال الإنسان ليس إلا هاتين القوتين) فقد أوتي خيرا كثيرا (قال الحرالي ما معناه : إنه نكرة لما في الحكمة من التسبب الذي فيه كلفة ولو يسرت فكان الخير الكثير المعرف في الكلمة لما فيها من اليسر والحياطة والإنالة الذي لا ينال منه منال بسبب وإنما هو فضله يؤتيه من يشاء فيصير سبحانه وتعالى سمعه وبصره – إلى آخره .

ولما كان التقدير : فإن ذلك الذي أوتي الحكمة يصير ذا لب فيتأهل لأن يتذكر بما يلقيه الله سبحانه وتعالى من كلمته ما بث في الأنفس والآفاق من حكمته وصل به قوله : (وما يذكر) أي بكلام الله سبحانه وتعالى حكمه) إلا أولوا الألباب) أي أصحاب العقول الصافية عن دواعي الهوى المنبعثة من التوهمات الحاصلة عن الوسوسة فهم يترقون بالتذكر بأنهم لا حول لهم عن المسببات إلى أسبابها إلى أن يصلوا إلى مسببها فيعرفوه حق معرفته .

وقال الحرالي : الذين لهم لب العقل الذي ينال لب الحس كأن الدنيا قشر تنال بظاهر العقل ، والآخرة لب تنال بلب العقل ظاهرا لظاهر وباطنا لباطن ، من تذكر ابتداء من الابتداءات السابقة ورد عليه فضل الله منه ، من رجع من حسه إلى نفسه تنشأت له أوصاف الفضائل النفسانية وترقى عما في محسوسه من المهاوي الشهوانية ، ومن تخلص من نفسه إلى روحه تحسس بالوصلة الرحمانية والمحبة الربانية ، كذلك من ترقى من روحه إلى أمره تحقق بالإحاطة الوحدانية ، ومن استبطن من أمره إلى سره اجتمع إلى الأولية الفردانية ؛ فهذا الترتيب من كمالات هذه الحكمة المؤتاة المنزلة بالوحي في هذا الكتاب الجامع لنبأ ما سبق وخبر ما لحق وباطن ما ظهر أنهى تعالى إلى ذكرها أعمال الخلق وخصوصا في الجود بالموجود كما أنهى إقامة مبنى الدين بظهور وجوده ، فأنهى تنزيل أمره بظهور وجوده وأنهى استخلاف عباده بالانتهاء إلى مدد جوده ، فكان أعلى الحكمة الجود بالموجود فبذلك – والله سبحانه وتعالى أعلم – اتصل ذكر آية الحكمة بالإنفاق نظما وبآية الكرسي مناظرة – انتهى .

ولما كان السياق سابقا ولاحقا للإنفاق علم أن التقدير : فما جمعتم من شيء فإن الله مطالبكم في وضعه وجمعه بوجه الحكمة ومحاسبكم على ذلك ، فعطف عليه حثا." (١)

---

(١) نظم الدرر . (– ت: عبدالرزاق غالب)، ١/٥٢٤

" صفحة رقم ٥٢٥

على الإسرار بالنفقة في الخير والوفاء بالنذر وتحذيرا من الإنفاق في المعصية ولو على أدق الوجوه بأنه يعلم ذلك كله ويجازي عليه قوله : (وما أنفقتم من نفقة) أي في وجه من الوجوه ، فدخل فيه جميع التوسعات المشروعات عند النكاح والختان والولادة واتخاذ المسكن وفي الدعوات للإخوان وغير ذلك .

ولما كان الإنسان كثيرا ما يخشى فوات أمر فينذر إن حصل بنفقة في وجه خير ونحو ذلك ولكن ربما ظن أن الترغيب في الإنفاق خاص بما ندب الله إليه ابتداء لا بما ألزمه الإنسان نفسه قال) أو نذرتم من نذر (وإدخال من لتأكيد الاستغراق .

قال الحرالي : والنذر إبرام العدة بخير يستقبل فعله أو يرتقب له ما يلتزم به وهو أدنى الإنفاق لا سيما إذا كان علوجه الاشتراط ، قال (صلى الله عليه وسلم) : (إنما يستخرج به من البخيل) انتهى .

) فإن الله (عظم الأمر بهذا الاسم الأعظم) يعلمه (ذكر الضمير لأنه مع وضوح عوده إلى المتقدم أشد تعظيما للنذر لما قد يتوهم فيه من النقص عن مندوب الشرع فتحروا في طيب ذلك والوفاء به وجميع ما يدخل فيه من الأوامر والنواهي تحري من يطلب إرضاء ملك عظيم بما يهدي إليه ويعرضه عليه ، فما تصرفتم فيه بالحكمة من إنفاق أو غيره فالله سبحانه وتعالى يجازيكم عليه على حسب ما ذكر لكم من التضعيف ، ومن فعل منكم شيئا منه على غير وجه الحكمة فهو ظالم واضع للشيء في غير موضعه فهو مردود عليه ومعاقب به وما له من ناصر ، هكذا كان الأصل ولكنه سبحانه وتعالى عم وعلق الحكم بالوصف فقال : (وما للظالمين) أي الواضعين للشيء في غير موضعه) من أنصار (قال الحرالي : ففي إفهامه أن الله آخذ بيد السخي وبيد الكريم كلما عثر فيجد له نصيرا ولا يجد الظالم بوضع القهر موضع البر ناصرا ، وفيه اسغراق نفي بما تعرب عنه كلمة من – انتهى .." (١)

" صفحة رقم ٢٩

وإنما العلم عند الله سبحانه وتعالى لم يثبت له علم ، فذلك ختم العمل بالعمل وختم العلم بالجهل ، فكما أطلعه سبحانه وتعالى في فاتحة سورة البقرة على سر تقديره في خلقه أظهرهفي فاتحة سورة آل عمران على علن قيوميته الذي هو شاهده في وحي ربه ، كما هو بصير بسر القدر في تفرق أفعال خلقه ، فكان منزل سورة البقرة قوام التنزيل للكتاب الجامع الأول ، والتنزيل قوام إنزال الكتب ، وإنزال الكتاب الجامع لتفسير

---

(١) نظم الدرر . (– ت: عبدالرزاق غالب)، ١/٥٢٥

الكتب قوام تفصيل الآيات المحكمات والمتشابهات ، والإحكام والتشابه إقامة الهدى والفتنة ، والهدى والفتنة إقامة متصرف الحواس الظاهرة والباطنة ، والأحوال وما دونها من الأفعال على وجه جمع يكون قواما لما تفصل من مجمله وتكثر من وحدته وتفرق من اجتماعه ، ولعلو مضمون هذه السورة لم يقع فيها توجه الخطاب بها لصنف الناس ، واختص خطابها بالذين آمنوا في علو من معاني الإيمان لما ذكر من شرف سن الإيمان على سن الناس في تنامي أسنان القلوب ، وكان خطاب سورة البقرة بمقتضى رتبة العقل الذي به يقع أول الإصغاء والاستماع ، كما ظهر في آيات الاعتبار فيها في قوله سبحانه وتعالى :

٧٧ ( ) إن في خلق السماوات والأرض إلى قوله : لقوم يعقلون ( ) ٧

[البقرة : ١٦٤] فكان خطاب سورة آل عمران إقبالا على أولي الألباب الذين لهم لب العقل ، بما ظهر في أولها وخاتمتها في قوله :

٧٧ ( ) وما يذكر إلا أولوا الألباب ( ) ٧

[آل عمران : ٧] وفي خاتمتها في آيات اعتبارها في قوله سبحانه وتعالى :

٧٧ ( ) إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب ( ) ٧

[آل عمران : ١٩٠] فبالعقل يقع الاعتبار لمنزل الكتاب وباللب يكون التذكر ، إيلاء إلى الذي نزل الكتاب ، وبالجملة فمثاني هذه السورة من تفاصيل آياتها وجمل جوامعها مما هو أعلق بطيب الإيمان واعتبار اللب ، كما أن منزل سورة البقرة أعلق بما هو من أمر الأعمال وإقامة معالم الإسلام بما ظهر في هذه السورة من علن أمر الله ، وبما افتتحت به من اسم الأعظم الذي جميع الأسماء أسماء له لإحاطته واختصاصها بوجه ما ، فكان فيها علن التوحيد وكماله وقوام تنزيل الأمر وتطورالخلق في جميع متنزلها ومثانيها ، وظهر فيها تفصيل وجوه الحكم العلية التي تضمن جملة ذكرها الآية الجامعة في سورة البقرة في قوله سبحانه وتعالى :

٧٧ ( ) يؤتي الحكمة من يشاء ( ) ٧

[البقرة : ٢٦٩] فكان من جملة بناء الحكمة ما هو السبب في ظهور الكفر من الذين كفروا بما غلب عليهم من الفتنة بأموالهم وأولادهم حتى ألهتهم عن ذكر الله ، فانتهوا فيه إلى حد الكفر الذي نبه عليه : (الذين آمنوا (في قوله سبحانه وتعالى

٧٧ ( ) يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ( ) ٧
[المنافقون : ٩] انتهى .." (١)
" صفحة رقم ١٧٨
بما يفهمه الثاقب من دقائق الإشارات وبواطن العبارات ، وقدم التزكية لاقتضاء مقام المعاتبة على الإقبال على الغنيمة ذلك ، كما مضى في سورة البقرة) ويعلمهم الكتاب) أي تلاوة بكونه من نوعهم يلذ لهم التلقي منه) والحكمة (تفسيرا وإبانة وتحريرا) وإن) أي والحال أنهم) كانوا (ولما كانوا قد مرت لهم أزمان وهم على دين أبيهم إسماعيل عليه الصلاة والسلام نبه على ذلك بإدخال الجار فقال) من قبل) أي من قبل ذلك) لفي ضلال مبين) أي ظاهر ، وهو من شدة ظهوره كالذي ينادي على نفسه بإيضاح لبسه ، وفي ذلك إشارة إلى أنه عليه السلام علمهم من الحكمة في هذه الوقعة ما أوجب نصرتهم في أول النهار ، فلما خالفوه حصل الخذلان .
ولما أزال شبهة النسبة إلى الغلول بحذافيرها .
وأثبت ما له من أضدادها من معالي الشيم وشمائل الكرم صوب إلى شبهة قولهم : لو كان رسولا ما انهزم أصحابه عنه ، فقال تعالى : (أولما) أي أتركتم ما أرشدكم إليه الرسول الكريم الحليم العليم الحكيم ولما) أصابتكم) أي في هذا اليوم) مصيبة (لمخالفتكم لأمره وإعراضكم عن إرشاده) قد أصبتم مثليها) أي في بدر وأنتم في لقاء العدو وكأنما تساقون إلى الموت على الضد مما كنتم فيه في هذه الغزوة ، وما كان ذلك إلا بامتثالكم لأمره وقبولكم لنصحه) قلتم أنى (من أين وكيف أصابنا) هذا) أي بعد وعدنا النصر) قل هو من عند انفسكم) أي لأن الوعد كان مقيدا بالصبر والتقوى ، وقد تركتم المركز وأقبلتم على الغنائم قبل الأمر به ، وعن علي رضي الله تعالى عنه أن ذلك باختيارهم الفداء يوم بدر الذي نزل فيه
٧٧ ( ) لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم ( ) ٧
[الأنفال : ٦٨] وأباح لهم سبحانه وتعالى الفداء بعد أن عاتبهم وشرط عليهم إن اختاروه أن يقتل منهم في العام المقبل بعد الأسرى ، فرضوا وقالوا : نستعين بما نأخذه منهم عليهم ثم نرزق الشهادة .
ثم علل ذلك بقوله : (إن اله) أي الذي لا كفوء له) على كل شيء) أي من النصر والخذلان ونصب أسباب كل منهما) قدير (وقد وعدكم بذلك سبحانه وتعالى في العام الماضي حين خيركم فاخترتم الفداء

(١) نظم الدرر . (- ت: عبدالرزاق غالب)، ٢٩/٢

، وخالف من خالف منكم الآن ، فكان ذكر المصيبة التي كان سببها مخالفة ما رتبه (صلى الله عليه وسلم) بعد ختم الآية التي قبلها بالتذكير بما كانوا عليه من الضلال على ما ترى من البلاغة .
ولما كانت نسبة المصيبة إليهم ربما أوهمت من لم ترسخ قدمه في المعارف الإلهية أن بعض الأفعال خارج عما مراده تعالى قال : (وما أصابكم (ولما استغرقت الحرب ذلك اليوم نزع الجار فقال : (يوم التقى الجمعان) أي حزب الهل وحزب الشيطان في أحد) فبإذن الله) أي بتمكين من له العظمة الكاملة وقضائه ، وإثبات أن ذلك بإذنه نحو ما ذكر عند التولية يوم التقى الجمعان من نسبة الإحياء والإماتة إليه .." (١)

" صفحة رقم ٢٣٥

ولما ذكر في هذه الآيات أنواعا من التكاليف هي في غاية الحكمة ، والتعبير عنها في الذروة العليا من العظمة ، وختمها بإسقاط الجناح عند الرضى وكان الرضى أمرا باطنا لا يطلع عليه حقيقة إلا الله تعالى ، حث على الورع في شأنه بنوط الحكم بغلبة الظن فقال مرغبا في امتثال أوامره ونواهيه : (إن الله) أي الذي له الإحاطة التامة علما وقدرة) كان عليما) أي بمن يقدم محتريا لرضى صاحبه أو غير متحر لذلك) حكيما) أي يضع الأشياء في أمكن مواضعها من الجزاء على الذنوب وغيره .
النساء : (٢٥) ومن لم يستطع. .. . . .
) ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات فمن ما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات والله أعلم بإيمانكم بعضكم من بعض فانكحوهن بإذن أهلهن وآتوهن أجورهن بالمعروف محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخدان فإذآ أحصن فإن أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب ذلك لمن خشي العنت منكم وأن تصبروا خير لكم والله غفور رحيم (( )
ولما مضى ذلك على هذا الوجه الجليل عرف أنه كله في الحرائر لأنه الوجه الأحكم في النكاح ، وأتبعه تعليم الحكمة في نكاح الإماء ؛ فقال عاطفا على ما تقديره : هذا حكم من استطاع نكاح حرة : (ومن لم يستطع منكم) أي أيها المؤمنون) طولا) أي سعة وزيادة عبر فيما قبله بالمال تهوينا لبذله بأنه ميال ، لا ثبات له ، وهنا بالطول الذي معناه : التي قل من يجدها) أن) أي لأن) ينكح المحصنات) أي الحرائر ، فإن الحرة مظنة العفة الجاعلة لها فيما هو كالحصن على مريد الفساد ، لأن العرب كانوا يصونونهن

(١) نظم الدرر . (– ت: عبدالرزاق غالب)، ١٧٨/٢

وهن أنفسهن عن أن يكن كالإماء) المؤمنات (بسبب كثرة المؤنة وغلاء المهر) فمن) أي فلينكح إن أراد من) ما ملكت أيمانكم) أي مما ملك غيركم من المؤمنين) من فتياتكم) أي إمائكم ، وأطلقت الفتوة – وهي الشباب – على الرقيق لأنه يفعل ما يفعل الشاب لتكليف السيد له إلى الخدمة وعدم توقيره وإن كان شيخا ، ثم وضح المراد بالإضافة فقال : (المؤمنات) أي لا من الحرائر الكافرات ولا مما ملكتم من الإماء الكافرات ولا مما ملك الكفار حذرا من مخالطة كافرة خوفا من الفتنة – كما مضى في البقرة ، ولئلا يكون الولد المسلم بحكم تبعية أمه في الرق ملكا لكافر ، هذا ما تفهمه العبارة ولكنهم قالوا : إن تقييد المحصنات بالمؤمنات لا مفهوم له ، وإلا لصار نكاح الحرة الكتابية المباح بآية المائدة مشروطا بعقد مسلمة ، حرة كانت أو أمة ، ولم يشترط ذلك ؛ ومذهب الشافعي أنه لا يجوز نكاح الأمة مع القدرة على حرة كتابية ، ." (١)

" صفحة رقم ٣٠٩

ولما كان الله – وله المن – قد رفع عن هذه الأمة الحرج ، وكان المطر والمرض شاقين قال : (ولا جناح) أي حرج) عليكم إن كان بكم أذى) أي وإن كان يسيرا) من مطر) أي لأن حمل السلاح حينئذ يكون سببا لبله) أو كنتم مرضى) أي متصفين بالمرض وكأن التعبير بالوصف إشارة إلى أن ادنى شيء منه لا يرخص) أن تضعوا أسلحتكم) أي لأن حملها يزيد المريض وهنا .

ولما خفف ما أوجبه أولا من أخذ السلاح برفع الجناح في حال العذر ، فكان التقدير : فضعوه إن شئتم ؛ عطف عليه بصيغة الأمر إشارة إلى وجوب الحذر منهم في كل حال قوله : (وخذوا حذركم) أي في كل حالة ، فإن ذلك نفع لا يتوقع منه ضرر ؛ ثم علل ذلك بما بشر فيه بالنصر تشجيعا للمؤمنين ، وإعلاما بأن الأمر بالحزم إنما هو للجري على ما رسمه من الحكمة في قوله – ربط المسببات بالأسباب ، فهو من باب (اعقلها وتوكل) فقال : (إن الله (المحيط علما وقدرة) أعد) أي في الأزل) للكافرين) أي الدائمين على الكفر ، لا من اتصف به وقتا ما وتاب منه) عذابا مهينا) أي يهينهم به ، من أعظمه حذركم الذي لا يدع لهم عليكم مقدما ، ولا تمكنهم معه منكم فرصة .

النساء : (١٠٣ – ١٠٦) فإذا قضيتم الصلاة. .. . . .

) فإذا قضيتم الصلاة فاذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبكم فإذا اطمأننتم فأقيموا الصلاة إن الصلاة كانت

(١) نظم الدرر . (– ت: عبدالرزاق غالب)، ٢/٢٣٥

على المؤمنين كتابا موقوتا ولا تهنوا في ابتغآء القوم إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون وكان الله عليما حكيما إنآ أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بمآ أراك الله ولا تكن للخآئنين خصيما واستغفر الله إن الله كان غفورا رحيما (( )

ولما علمهم بما يفعلون في الصلاة حال الخوف ، أتبع ذلك ما يفعلون بعدها لئلا يظن أنها تغني عن مجرد الذكر ، فقال مشيرا إلى تعقيبه به : (فإذا قضيتم الصلاة) أي فرغتم من فعلها وأديتموها على حالة الخوف أو غيرها) فاذكروا الله) أي بغير الصلاة لأنه لإحاطته بكل شيء يستحق أني راقب فلا ينسى) قياما وقعودا وعلى جنوبكم) أي في كل حالة ، فإن ذكره حصنكم في كل حالة من كل عدو ظاهر أو باطن .

ولما كان الذكر أعظم حفيظ للعبد ، وحارس من شياطين الإنس والجن ، ومسكن للقلوب)) ألا بذكر الله تطمئن القلوب ( ) [الرعد : ٢٨] ؛ اشار إلى ذلك بالأمر بالصلاة حال الطمأنينة ، تنبيها على عظم قدرها ، وبيانا لأنها أوثق عرى الدين وأقوى دعائمه." (١)

" صفحة رقم ٤٥٤

ولما كانت السرقة من جملة المحاربة والسعي بالفساد ، وكان فاعلها غير متق ولا متوسل ، عقب بها فقال : (والسارق (الآخذ لما هو في حرز خفية لكونه لا يستحقه) والسارقة) أي كذلك ؛ ولما كان التقدير : وهما مفسدان ، أو حكمهما فيما يتلى عليكم ، سبب عنه قوله : (فاقطعوا (وال .

قال المبرد - للتعريف بمعنى : الذي ، والفاء للسبب كقولك : الذي يأتيني فله كذا كذا درهم) أيديهما) أي الأيامن من الكوع إذا كان المأخوذ ربع دينار فصاعدا من جرز مثله من غير شبهة له فيه - كما بين جميع ذلك النبي (صلى الله عليه وسلم) - ويرد مع القطع ما سرقه ؛ ثم علل ذلك بقوله : (جزاء بما كسبا) أي فعلا من ذلك ، وإدالته على أدنى وجوه السرقة وقاية للمال وهوانا لها للخاينة ، وديتها إذا قطعت في غير حقها خمسمائة دينار وقاية للنفس من غير أن ترخصها الخيانة ، ثم علل هذا الجزاء بقوله :) نكالا) أي منعا لهما كما يمنع القيد) من الله) أي الذي له جميع العظمة فهو المرهوب لكل مربوب ، وأعاد الاسم الأعظم تعظيما للأمر فقال : (والله) أي الذي له جميع صفات الكمال) عزيز) أي في انتقامه فلا يغالبه شيء) حكيم) أي بالغ الحكم والحكمة في شرائعه ، فلا يستطاع الامتناع من سطوته ولا نقض شيء يفعله ، لأنه يضعه في أتقن مواضعه .

---

(١) نظم الدرر . (- ت: عبدالرزاق غالب)، ٢/٣٠٩

ولما ختم بوصفي العزة والحكمة ، سبب عنهما قوله : (فمن تاب) أي ندم وأقلع ، ودل على كرمه بالقبول في أي وقت وقعت التوبة فيه ولو طال زمن المعصية بإثبات الجار فقال : (من بعد (وعدل عن أن يقول (سرقته) إلى) ظلمه (تعميما للحكم في كل ظلم ، فشمل ذلك فعل طعمة وما ذكر بعده مما تقدم في النساء وغير ذلك من كل ما يسمى ظلما) وأصلح) أي أوجد الإصلاح وأوقعه برد الظلامة والثبات على الإقلاع) فإن الله) أي بما له من كمال العظمة) يتوب عليه (أي يقبل توبته ويرجع به إلى أتم ما كان عليه قبل الظلم من سقوط عذاب الآخرة دون عقاب الدنيا ، رحمة من الله له ورفقا به وبمن ظلمه وعدلا بينهما ، لا يقدر أحد أن يمنعه من ذلك ولا يحول بينه وبينه لحظة ما ؛ ثم علل ذلك بقوله : (إن الله) أي الذي له الكمال كله أزلا وأبدا) غفور رحيم) أي بالغ المغفرة والرحمة ، لا مانع له من ذلك ولا من شيء منه ولا من شيء يريد فعله ، بل هو فعال لما يريد ، والآية معطوفة على آية المحاربين وإنما فصل بينهما بما تقدم لما ذكر من العلة الطالبة لمزيد العناية به .

المائدة : (٤٠ - ٤١) ألم تعلم أن. .. . .

) ألم تعلم أن الله له ملك السماوات والأرض يعذب من يشآء ويغفر لمن يشآء والله على كل شيء قدير يأيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر من الذي قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ومن الذين هادوا." (١)

" صفحة رقم ٥٦٤

بعضها بالفعل والباقي بالقوة لدلالة ما وجد عليه من الآيات الدالة على رسالتك الموجبة لتعظيمك) فقال الذين كفروا) أي غطوا تلك البينات عنادا) منهم إن) أي ما) هذا إلا سحر مبين (ثم بتأييده بالأنصار الذين أحيى أرواحهم بالإيمان وأجسادهم باختراع المأكل الذي من شأنه في العادة حفظ الروح ، وذلك في قصة المائدة وغيرها فقال : (وإذ أوحيت) أي بإلهام باطنا وبإيصال الأوامر على لسانك ظاهرا) إلى الحواريين) أي الأنصار) أن آمنوا بي وبرسولي) أي الذي أمرته بالإبلاغ يعني إبلاغ الناس ما آمرهم به ، ثم استأنف مبينا لسرعة أجابتهم لجعله محببا إليهم مطاعا فيهم بقوله : (قالوا آمنا (.

ولما كان الإيمان باطنا فلا بد في إثباته من دليل ظاهر ، وكان في سياق عد النعم والطواعية لوحي الملك الأعظم دلوا عليه بتمام الانقياد ، ناسب المقام زيادة التأكيد بإثبات النون الثالثة في قولهم : (واشهد بأننا

---

(١) نظم الدرر . (- ت: عبدالرزاق غالب)، ٢/٤٥٤

(بخلاف آل عمران) مسلمون) أي منقادون أتم انقياد ، فلا اختيار لنا إلا ما تأمرنا به ، وانظر ما أنسب إعادة (إذ) عند التذكير بروح كامل حسا أو معنى وحذفها عند الناقص ، فأثبتها عند التأييد بها في أصل الخلق وفي الكمال الموجب للحياة الأبدية وفي تعليم الكتاب وما بعده المفيض لحياة الأبد على كل من تخلق بأخلاقه وفي خلق الطير وهو ظاهر وهكذا إلى الآخر .

ذكر شيء مما عزي إليه من الحكمة في الإنجيل : قال متى : وكان يسوع يطوف المدن والقرى ويعلم في مجامعهم ويكرز ببشارة الملكوت ويشفي كل الأمراض والأوجاع ، ثم قال : فلما سمع يوحنا في السجن بأعمال المسيح أرسل إليه اثنين من تلاميذه قائلا : أنت هو الآتي أم نترجى آخر ؟ قال لوقا : وفي تلك الساعة أبرأ كثيرا من الأمراض والأوجاع والأرواح الشريرة ووهب النظر لعميان كثيرين ، فأجاب يسوع وقال لهما : اذهبا وأعلما يوحنا بما رأيتما وسمعتما ، العميان يبصرون والعرج يمشون والبرص يتطهرون والصم يسمعون والموتى يقومون والمساكين يبشرون ، فطوبى لمن لا يشك في فلما ذهب تلميذا يوحنا بدأ يسوع يقول للجمع من أجل يوحنا : لماذا خرجتم إلى البرية تنظرون – قال لوقا : قصبة تحركها الريح – أم لماذا خرجتم تنظرون ؟ إنسانا لابسا لباسا ناعما ؟ إن اللباس الناعم يكون في بيوت الملوك ، قال لوقا : فإن الذين عليهم لباس المجد والتنعم هم في بيوت الملوك – انتهى .

لكن لماذا خرجتم تنظرون ؟ نبيا ؟ نعم ، أقول لكم : إنه أفضل من هذا الذي كتب من أجله : هوذا أنا مرسل ملكي أمام وجهك ليسهل طريقك قدامك ، الحق أقول لكم إنه لم يقم في مواليد النساء أعظم من يوحنا المعمد ، والصغير في ملكوت السماء أعظم منه ، وجميع الشعب الذي سمع والعشارون شكروا الله حيث اعتمدوا من معمودية يوحنا ، فأما الفريسيون والكتاب." (١)

" صفحة رقم ٥٦٥

فعلموا أنهم رفضوا أمر الله لهم إذ لم يعتمدوا منه ؛ قال متى : ثم قال : من له أذنان سامعتان فليسمع بماذا أشبه هذا الجيل ؟ يشبه صبيانا جلوسا في الأسواق ، يصيحون إلى أصحابهم قائلين : زمرنا لكم فلم ترقصوا ، ونحنا لكم فلم تبكوا ، جاء يوحنا لا يأكل ولا يشرب ، فقالوا : معه جنون ، جاء ابن الإنسان يأكل ويشرب ، فقالوا : هذا إنسان أكول شريب خليل العشارين والخطأة ، فتبررت الحكمة من بنيها ، حينئذ بدأ يعير المدن التي كان فيها أكثر قواته ، لأنهم لم يتوبوا ، ويقول : الويل لك يا كورزين والويل لك يا بيت

(١) نظم الدرر . (– ت: عبدالرزاق غالب)، ٢/٥٦٤

صيدا لأن القوات اللاتي كن فيكما قديما لو كن في صور وصيدا لتابوا بالمسوح والرماد ، لكن أقول لكم : إن لصور وصيدا راحة في يوم الدين أكثر منكن ، وأنت يا كفرناحوم لو ارتفعت إلى السماء ستهبطين إلى الجحيم ، لأنه لو كان في سدوم هذه القوات التي كانت فيك إذن لثبتت إلى اليوم ، وأقول لكم أيضا : إن أرض سدوم تجد راحة يوم الدين أكثر منك .

ثم قال : وانتقل يسوع من هناك ودخل إلى مجمعهم وإذا رجل هناك يده يابسة – وقال لوقا : يده اليمنى يابسة – فسألوه قائلين : هل يحل أن يشفى في السبت ؟ فقال لهم : أي إنسان منكم يكون له خروف ، يسقط في حفرة في السبت ، ولا يمسكه ويقيمه ؟ فبكم أحزي الإنسان أفضل من الخروف ، فإذن جيد هو فعل الخير في السبت ؛ وقال لوقا : فقال للرجل اليابس اليد : قف في الوسط ، فقام ، وقال لهم يسوع : أسألكم ماذا يحل أن يعمل في السبت ؟ خير أم شر ؟ نفس تخلص أم تهلك ؟ فسكتوا ؛ قال متى : حينئذ قال للإنسان : أمدد يدك ، فمدها فصحت مثل الأخرى ، فخرج الفريسيون – قال مرقس : مع أصحاب هيرودس – متوامرين في إهلاكه ، فعلم يسوع وانتقل من هناك وتبعه جمع كثير ، فشقى جميعهم ، وأمرهم أن لا يظهروا ذلك لكي يتم ما قيل في أشعيا النبي القائل : ها هوذا فتاي الذي هويت ، وحبيبي الذي به سررت ، أضع روحي عليه ويخبر الأمم بالحكم ، لا يماري ولا يصيح ولا يسمع أحد صوته في الشوارع ، قصبة مرضوضة لا تكسر ، وسراج مطفطف لا بطفأ حتى يخرج الحكم في الغلبة ، وعلى اسمه تتكل الأمم ؛ ثم قال : وفي ذلك اليوم خرج يسوع من البيت وجلس جانب البحر ، فاجتمع إليه جمع كبير حتى أنه صعد إلى السفينة وجلس ، وكان الجمع كله قياما على الشط ، وكلهم بأمثال كثيرة قائلا : ها هو ذا خرج الزارع ليزرع ، وفيما هو يزرع سقط البعض على الطريق ، فأتى الطير وأكله – وقال لوقا : فديس وأكله طائر السماء – وبعض سقط على الصخرة حيث لم يكن له أرض كثيرة ، وللوقت شرق إذ ليس له عمق أرض ، ولما أشرقت الشمس احترق ، وحيث لم يكن له أصل يبس ، وبعض سقط في الشوك فطلع الشوك وخنقه ؛ وقال مرقس : فخنقه بعلوه عليه فلم." (١)

" صفحة رقم ٧١٦

شيء من ذلك عنهم في حال من الأحوال ، ونطق الكتاب بذلك في صرائح الأقوال ، وفي سوقه معلقا هكذا مع ما تقدم زيادة في عذابهم بتعليق رجائهم من انقطاع بلائهم بما لا مطمع فيه .

---

(١) نظم الدرر . (– ت: عبدالرزاق غالب)، ٢/٥٦٥

ولما كان في إظهار الجلال في هذا الحال من عظيم الأهوال ما لا يسعه المقال ، أتبعه اللطف بالمخاطب به (صلى الله عليه وسلم) فقال : (إن ربك) أي المحسن إليك برفع أوليائك وخفض أعدائك .
ولما كان السياق – في مثل هذه المقاولة في مجمع الحكم – للحكمة والعلم ، وكان النظر إلى الحكمة في تنزيل كل شيء منزلة أعظم ، قدم وصفها فقال : (حكيم) أي فلا يعذب المخلص ويترك المشرك ولا يعذب بعض من أشرك ويترك بعضا) عليم) أي بدقائق الأمور وجلائلها من الفريقين ، فلا يخفى عليه عمل أحد فيهمله لذلك .
ولما استبان بهذا أنه ولى الكفرة من ظالمي الجن ظالمي الإنس وسلطهم عليهم ، أخبر تعالى أن هذا عمله مع كل ظالم من أي قبيل كان سواء كان كافرا أو لا فقال : (وكذلك) أي ومثل تلك التولية التي سلطنا بها الجن على الإنس بما زاد عذاب الفريقين) نولي) أي نتبع في جميع الأزمان من جميع الخلق) بعض الظالمين) أي الغريقين في الظلم) بعضا) أي بأن نجمع بين الأشكال ، في الأوصاف الباطنة والخصال ، ونسلط بعضهم على بعض في الضلال والإضلال ، والأوجاع والأنكال) بما كانوا (بجبلاتهم) يكسبون) أي بسبب اجتماعهم في الطباع التي طبعناهم عليها يجتمعون وينقاد بعضهم لبعض ، بحسب ما سببنا من الأسباب الملائمة لذلك الظلم الذي يسرناه لهم ، حتى صارت أعمالهم كلها في غير مواضعها ، فيظلم بعضهم بعضا ويهلك بعضهم بعضا ، وهم لا يزدادون إلا الالتئام حتى يستحق الكل ما كتبنا لهم من عذاب ؛ روى الطبراني في الأوسط ن جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : (إن الله عز وجل يقول : أنتقم ممن أبغض بمن أبغض ثم أصير كلا إلى النار) وعن مالك بن دينار قال : رأيت في بعض كتب الله المنزلة أن الله تعالى يقول : افني أعدائي بأعدائي ثم أفنيهم بأوليائي .
أو يقال : فقد أخبرنا أن الله عز وجل ولى المؤمنين بسبب محاسن أعمالهم ، ومثل ما ولاهم ليعزهم يولي بعض الظلمة بعضا ليهينهم بسبب ما كانوا يتعاطونه من مساوئ الأعمال ورديء الخلال وغث الخصال فيؤديهم إلى مهلك." (١)

" صفحة رقم ٢٤

عن مطلق الكذب واشدهم تحريا بقوله : (قل إن الله) أي الذي له الكمال كله) لا يأمر بالفحشاء) أي بشيء من هذا الجنس ولما كان الكذب قبيحا في نفسه وهو عندهم أقبح القبيح مطلقا فكيف به غلى كبير

---

(١) نظم الدرر . (– ت: عبدالرزاق غالب)، ٧١٦/٢

منهم فكيف إذا كان على اعظم العظماء قال منكرا عليهم موبخا لهم مهددا) اتقولون على الله) أي الذي له جميع العظمة) ما لا يعلمون (لأنكم لم تستمتعوا ذلك عنالله بلا واسطة ولا نقل إليكم بطريق صحيح عن نبي من النبياء عليهم السلام وفيه تهديد شديد على الجهل والقول على الله بالظنزلما كان تعليلهم بأمر الله مقتضيا لأنه إذا أمر بشيء اتبع أمره أن يبلغهم أمره الذي جاء به دليل العقل مؤيدا بجازم النقل فقال : (قل) أي لهؤلاء الذين نابذوا الشرع والعرف) بالقسط (وهو الأمر المحسن إلي بالتكليف بمحاسن الأعمال التي تدعو إليها الهمم التفريط هابطا منه ؛ ولما كان التقدير فاقسطوا اتباعا لما أمر به ، أو كان القسط مصدرا ينحل إلى : أن أقسطوا عطف عليه) وأقيموا وجوهكم (مخلصين غير مرتكبين لشيء من الجور) عند كل مسجد) أي مكان ووقت وحال يصلح السجود فيه ، ولا يتقيدزن أحد بمكان ولا زمان بأن يقول وقد أدركته الصلاة أذهب فاصلى في مسجدي) وادعوه (عند ذلك كله دعاء عبادة) مخلصين له الدين) أي لا تشركوا به شيءا ولما كان المعنى : فإن من لم يفعل ذلك بعد إعادته له بعد الموت ترجمه مستدلا عليه بقوله معللا : (كما بداكم) أي في النشأة الأولى فأنتم تبتدئون نعيدكم بعد الموت فأنتم) تعودون (حال كونكم فريقين : (فريقا هدى) أي خلق الهدايةفي قلوبهم فحق لهم ثواب الهداية) وفريقا (أضل ، ثم فسر أضل - لأنه واجب الهداية في بالنصب - بقوله : (حق (اي ثبت ووجب) عليهم الضلالة) أي لأنه أضلهم فيحشرون على ما كانو عليه في الدنيا من الأديان ، والبدان ، وقد تبين أن ههنا احتباكين : أثبت في اولهما بدا دليلا على حذف يعيد وذكر تعودون دليلا على حذف تبتدئون ، وأثبت في الثاني هدى دليلا على حذف أضل وذكر حقوق الضلالة دليلا على حذف حقوق الهدى. ، ولما كرر سبحانه ذكر البعث كما تدعو إليه الحكمة في تقرير ما ينكره المخاطب تأنيسا له به وكسرا لشوكته وإيهانا لقوته وقمعا لسورته إلى أن ختم بما هو أدل عليه مما قبل من قوله ومنها تخرجون

٧٧ ( ) فلنسئلن الذين أرسل إليهم ( ) ٧

[الأعراف : ٦] عل ما ختم به هذا الدليل من حقوق الضلالة أي وجوبها اي وجوب وبالها عليهم بقوله) إنهم." (١)

" صفحة رقم ٣٧٨

جميع صفات الكمال) عليم) أي بالغ العلم بكل شيء) حكيم) أي بالغ الحكمة فهو يضع الأشياء في

---

(١) نظم الدرر . (- ت: عبدالرزاق غالب)، ٢٤/٣

أتم محالها .

ولما أثبت هذا الوصف لهذا الصنف بين أن أفراده انقسموا إلى من ثبت على ما هو الأليق بحالهم ، وقسم نزع إلى ما هو الأليق باهل المدر ، كما انقسم أهل المدر إلى مثل ذلك ، وبدأبالخبيث لأنه الأصل فيهم فقال : (ومن الأعراب) أي المذكروين) من يتخذ) أي يتكلف غير ما تدعو إليه الفطرة الأولى من الأريحية والهمم العلية بأن يعد) ما ينفق مغرما (اي فلا يبذله إلا كرها ولا يرى له فائدة أخروية بل يراه مثل الصنائع بالنهب ونحوه) ويتربص) أي يكلف نفسه الربص ، وهو أن يسكن ويصبر وينتظر) بكم الدوائر (اي الدواهي التي تدور بصاحبها فلا يتخلص منها ، وذلك ليستريح من الإنفاق وغيره مما ألزمه به الدين .

ولما تربصوا هذا التربص ، دعا عليهم بمثل ما تربصوا فقال : (عليهم دائرة السوء) أي دائما لا تنفك إما لا تنفك إما بإذلال الإسلام وإما بعذاب الاصطلام ، فهم فيما أرادوه بكم على الدوام ، وقراءة ابن كثير عمرو بضم السين على أن معناه الشر والضر ، وقراءة الباقين بالفتح على أنه مصدر ، فهو ذم للدوائر .

ولما كان الانتقام من الأعداء وإيقاع البأس ببهم لا يتوقف من القادر غالبا إلا على سماع اخبارهم والعلم بها ، جرت سنته تعالى في ختم مثل بقوله : (والله) أي الملك الأعلى الذي له الإحاطة الكاملة) سميع (يسمع ما يقولون) عليم) أي فهو يعلم ما يضرون عطفا على نحو أن يقال : فالله على كل شيء قدير ، ونحوه قوله) إنني معكما أسمع وأرى (

التوبة : (٩٩ - ١٠٠) ومن الأعراب من. .. . .

) ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ما ينفق قربات عند الله وصلوات الرسول ألا إنها قربة لهم سيدخلهم الله في رحمته إن الله غفور رحيم والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار خالدين فيهآ أبدا ذلك الفوز العظيم (( )

ولما افتتح الاية الثانية بقوله : (ومن الأعراب من يؤمن (اي لا يزال يجدد إيمانه آثار الدين) بالله واليوم الآخر (علم ان القسم الول غير مؤمن بذلك ، وإنما وقع منهم الإقرار باللسان من غير إذعان ، والإيمان

هو الأصل الذي يترتب عليه الإنفاق عن طيب نفس لما يرجى من ثوابه في اليوم الآخر الذي لولا هو انتفت **الحكمة من** هذا الخلق." (١)

" صفحة رقم ٤١٣

ساكن الحسد من العدو العظيم ما منحه عيه السلام ، قال تعالى) أكان لناس عجبا أن أوحينا إلى رجل أن أنذر الناس (إلى قوله : (لسحر مبين (ثم قال) إن بكم الله (الآيات ، فبين انفراده تعالى بالربوبية والخلق والاختراع والتدبير ، فكيف تعترض أفعاله أو يطلع البشر على وجه **الحكمة في** كل ما يفعله ويبديه ، وإذا كان الكل ملكه وخلقه فيفعل في ملكه ما يشاء ويحكم في خلقه بما يريد) ذلكم الله ربكم فاعبدوه ( ) ما خلق اله ذلك إلا بالحق (ثم توعد سبحانه الغافلين عن التفكر في عظيم آياته حتى ادتهم الغفلة إلى مرتكب سلفهم في العجب والإنكار حتى قالوا

٧٧ ( ) لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا ( ) ٧

[الفرقان : ٧] وقالوا

٧٧ ( ) قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا ( ) ٧

[يس : ١٥]

٧٧ ( ) قالوا انؤمن لبشرين مثلنا ( ) ٧

[المؤمنون : ٤٧]

٧٧ ( ) ما هذا إلا رجل يريد ان يصدكم عما كان يعبد آباؤكم ( ) ٧

[سبأ : ٤٣] فقال تعالى متوعدا للغافلين) إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا (، ثم وعد المعتبرين فقال) إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم (، وكل هذا بين الالتحام جليل الالتئام ، تناسجت آي السور - انتهى .

ولما كان كونه من عند الله مع كونه حكيما - موجبا لقبوله بادئ بدء والسرور به لما تقرر في العقول وجبلت عليه الفطر من أنه تعالى الخالق الرازق كاشف الضر ومدبر الأمر ، كان ذلك موضع أن يقال : ما كان حال من تلي عليهم ؟ فقيل : لم يؤمنوا ، فقيل : ماشبهتهم ؟ هل قدروا على معارضته والطعن في حكمته ؟ فقيل : لا بل تعجبوا من إنزاله على محمد (صلى الله عليه وسلم) وليس بأكثرهم مالا ولا

---

(١) نظم الدرر . (- ت: عبدالرزاق غالب)، ٣٧٨/٣

بأقدمهم سنا ، فرجع حاصل تعجبهم إلى ما قاله تعالى إنكارا عليهم .
فإنه لو أسل ذا سن قالوا مثل ذلك ، وهل مثل ذلك محل العجب) أكان (اي بوجه من الوجوه) للناس عجبا (اي الذين فيهم اهلية التحرك غلى المعالي ، والعجب : تغير النفس بما لا يعف سببه مما خرج عن العادة ؛ ثم ذكر الحامل على العجب وهو اسم (كان) فقال بعد ما حصل لهم شوق إليه : (أن أوحينا) أي ألقينا أوامرنا بما لنا من العظمة بواسطةو رسلنا في خفاء منهين) إلى رجل (اي هو في غاية الرجولية ، وهو مع ذلك) منهم (بحيث إنهم يعرفون جميع أمره كما فعلنا بمن قبلهم والملك العظيم الملك المالك التام الملك لا اعتراض عليه فيما به تظهر خصوصيته من إعلاء من شاء .
ولما كان في افيحاء معنى القول ، فسره بقوله) ان أنذر الناس) أي عامة ، وهم الذين تقدم نداءهم أول البقرة ، ما أمامهم من البعث وغيره إن لم يؤمنوا أصلا أو إيمانا." (١)
" صفحة رقم ٥٠٥
التكروري الكتبي أنه شاهد غير مرة في دواخل حجارة تقطع من جبل مصر الدود عنده ما يأكل من الحشيش الأخضر وما يشرب من الماء ؛ ونبه بقوله : (ويعلم مستقرها) أي مكانها الذي تستقر فيه) ومستودعها) أي موضعها الذي تودع فيه قبل الاستقرار من صلب أو رحم أو بيضة أو بعده من قبر أو فلاة أو غير ذلك على ما يحيط به علمه من تفاصيلالسكانات والحركات ما كان منها وما يكون من كل ذلك مما يحير الفكر ويدهش الألباب ، ثم جعل فاصلة الآية ما هو في غاية العظمة عند الحق وهو) كل) أي من ذلك) في كتاب مبين (فغنه ليس كل ما يعلمه العبد يقدر على كتابته ولا كل ما يكتبه يكون مبينا بحيث إنه كلما أراد الكشف منه وجد ما يريده ، وإذا وجده كانمفهما له ؛ والدابة : الحي الذي من شانه الدبيب ؛ والمستقر : الموضع الذي يقر فيه الشيء ، وهو قراره ومكانه الذي يأوي إليه ؛ والمستودع : المعنى المجعول في قرارة كالولد الذي يكون في البطن والنطفة التي في الظهر ، وقد جعل سبحانه في كتابه ما ذكر حكما منها ما للملائكة فيه من العبرة عند المقابلة بما يكون من الأمور المكتوبة قبل وجودها .
هود : (٧ - ٨) وهو الذي خلق. .. . .
) وهو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على المآء ليبلوكم أيكم أحسن عملا ولئن

---

(١) نظم الدرر . (- ت: عبدالرزاق غالب)، ٤١٣/٣

قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا إن هذآ إلا سحر مبين ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة ليقولن ما يحبسه ألا يوم يأتيهم ليس مصروفا عنهم وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤون (( )

ولما كان خلق ما منه الرزق أعظم من خلق الرزق وتوزيعه في شمول العلم والقدرة معا ، تلاه بقوله : (وهو) أي وحده) الذي خلق) أي أوجد وقدر) السماوات والأرض (وحده لم يشركه في ذلك أحد كما أنتم معترفون) في ستة ايام (ولما كان خلق العرش اعظم من ذلك كله فإن جميع السماوات والأرض بالنسبة إليه كحلقة ملقاة في فلاة .

وأعظم من ذلك أن يكون محمولا على الماء الذي لا يمكن حمله في العادة إلا في وعاء ضابط محكم ، تلاه بقوله : (وكان (اي قبل خلقه لذلك) عرشه (مستعليا) على الماء (ولا يلزم من ذلك الملاصقة كما ان السماء على الأرض من غير ملاصقة .

وقد علم من هذا السياق انه كان قبل الأرض خلق فثبت ان وما تحته محمولان بمحض القدرة من غير سبب آخر قريب أو بعيد ، فثبت بذلك أن قدرته في درجات من العظمة لا تتناهى ، وهذا زيادة تفصيل لما ذكر في سورة يونس عليه السلام من أمر العرش لأن هذه السورة التفضيل ونبه بقوله تعالى معلقا ب (خلق) : (ليبلوكم (اي أنه خلق ذلك كله لكم سكنا كاملا بمهده وسقفه من أكله وشربه وكل ما تحتاجونه فيه وما يصلحكم وما يفسدكم ومكنكم من جميع ذلك والحكمة في خلق ذلك أنه يعاملكم معاملة المختبر ، ". (١)

" صفحة رقم ٥٠٦

ودل على شدة الاهتمام بذلك بسوقه مساف ق الاستفهام في قوله : (ايكم) أي أيها العباد) أحسن عملا (على أنه فعل هذه الأفعال الهائلة لأجل هذه الأمور التي هم لها مستهينون وبها مستهزئون ، وعلق فعل البلوى عن جملة الاستفهام لما فيه من معنى العلم لأنه طريق إليه ، روى البخاري في التفسير عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الل عليه وسلم قال : قال الله عز وجل : أنفق أنفق عليك ، (صلى الله عليه وسلم)

١٥٤٨ ؛ وقال : (يد الله ملأى لا تغيضها نفقة ، سحاء الليل والنهار ، وقال : أرأيتم ما أنفق مذ خلق السماء والأرض فإنه لم يغض ما في يده ، وكان عرشه على الماء ، .

---

(١) نظم الدرر . (- ت: عبدالرزاق غالب)، ٥٠٥/٣

ويده الميزان يخفض ويرفع (وفي الآية حث على محاسن الأعمال والترقي دائماص في مراتب الكمال من العلم الذي هو عمل القلب والعمل الظاهر الذي هو وظيفة الأركان .

ولما ثبت – بيده الخلق الذي هم به معترفـون – القدرة على إعادته ، وثبت بالابتلاء أنه لا تتم الحكمة في خلق المكلفين إلا باعادتهم ليجازي كلا من المحسن والمسيء بفعلاه وأنهم ما خلقوا إلا لذلك .

عجب من إنكارهم له وأكده لذلك فقالك) ولئن قلت (اي لهؤلاء الذين ما خلقت هذا الخلق العظيم غلا لابتلائهم) إنكم مبعوثون) أي موجودون ، بعثكم قطعا لا بد منه .

ولما كان زمن البعث بعض الزمن قال : (من بعد الموت (الذي هو في غاية الابتداء) ليقولن (أكده دلالة على العلم بالعواقب علما من أعلام النبوة) الذين كفروا إن (اي ما) هذا (اي القول بالبعث) إلا سحر مبين) أي شيء مثل السحر تخييل باطل لا حقيقة له أو خداع يصرف الناس عن الانهماك في اللذات للدخول ي طاعة الأمر .

ولما كان ما تقدم عنهم من الأفعال ومضى من الأقوال مظنة لمعاجلتهم بالأخذ ، وكان الواقع أنه تعالى يعاملهم بالإمهال فضلا منه وكرما ، حكى مقالتهم في مقابلة رحمته لهم فقال : (ولئن أخرنا (اي بما لنا من العظمة التي لا يفوتها شيء) عنهم (اي الكفار) العذاب (اي المتوعد به) إلى أمة (اي مدة من الزمان ليس فيها كدر) معدودة) أي محصورة الأيام أي قصيرة معلومة عندنا حتى تعد الأنفاس) ليقولن (على سبيل التكرار) ما يحبسه) أي العذاب عن الوقوع استعجلا له تكذيبا واستهزاء ، وهو تهديد لهم بأنه آتيهم عن قريب فليعتدوا لذلك .

ولما كان العاقل لا ينبغي أن يسأل عن مثل ذلك إلا بعد قدرته على الدفع ، ." (١)

" صفحة رقم ٢٦

فلما أتى يوسف إخوته خلعوا عنه القميص ذا الكمين الذي لابسه ، وأخذوه فطرحوه في الجب فارغا لا ماء فيه ، فجلسوا يأكلون خبزا فمدوا أبصارهم فرأوا فإذا رفقه من العرب مقبله من جلعاد – وفي نسخة : من الجرش – وكانت إبلهم موقرة سمنا ولبنا وبطما ، وكانوا معتمدين إلى مصر فقال يهوذا لإخوته : ما متعتنا بقتل أخينا وسفك دمه ؟ تعالوا نبيعه من العرب ، ولا نبسط أيدينا إليه لأنه أخونا : لحمنا ودمنا ، فأطاعه إخوته ، فمر بهم قوم تجار مدينيون ، فأصعدوا يوسف من الجب وباعوه من الأعراب بعشرين درهما

---

(١) نظم الدرر . (– ت: عبدالرزاق غالب)، ٥٠٦/٣

، فأتوا به إلى مصر .

فرجع روبيل إلى الجب فإذا ليس فيه يوسف ، فشق ثيابه ورجع إلى إخوته وقال لهم : أين الغلام ؟ إلى أين أذهب أنا الآن ؟ فأخذوا قميص يوسف عليه الصلاة والسلام فذبحوا عتودا من المعز ولوثوا القميص بدمه وأرسلوا به مع من أتى به أباهم وقالوا : وجدنا هذا ، أثبته هل هو قميص ابنك أم لا ؟ فعرفه وقال : القميص قميص ابني ، سبع خبيث افترس ابني يوسف افتراسا ، فحزن على ابنه أياما كثيرة ، فقام جميع بنيه وبناته ليعزوه فأبى أن يقبل العزاء وقال : أنزل إلى القبر وأنا حزين على يوسف ، فبكى عليه أبوه .

وباع المدينيون يوسف من قوطيفر الأمير صاحب شرطة فرعون – انتهى ، وفيه ما يخالف ظاهرة القرآن ويمكن تأويله – والله أعلم .

يوسف : (٢٢ – ٢٤) ولما بلغ أشده. .. . .

) ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزي المحسنين وراودته التي هو في بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك قال معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه كذلك لنصرف عنه السوء والفحشآء إنه من عبادنا المخلصين (( )

ولما أخبر تعالى يوسف عما يريد بيوسف عليه الصلاة والسلام بما ختمه بالإخبارعن قدرته ، أتبعه الإعلام بإيجاد ذلك الفعل دلالة على تمام القدرة وشمول العلم فقال : (ولما بلغ أشده) أي مجتمع قواه) آتيناه) أي بعظمتنا) حكما) أي نبوة أو ملكة يكف بها النفس عن هواها ، من حكمه الفرس ، فلا يقول ولا يفعل إلا أمرا فصلا تدعوا إليه الحكمة ؛ قال الرماني : والأصل في الحكم تبيين ما يشهد به الدليل ، لأن الدليل حكمة من أجل أنه يقود إلى المعرفة) وعلما) أي تبيينا للشيء على ما هو عليه جزاء له لأنه محسن) وكذلك) أي مثل ذلك الجزاء الذي جزيناه به) نجزي المحسنين) أي العريقين في الإحسان كلهم الذين رأسهم محمد (صلى الله عليه وسلم) الذي أسرى به فأعلاه ما لم يعل غيره ؛ وعن الحسن : من أحسن عبادة الله في شبيبته آتاه الله الحكمة في اكتهاله ، ." (١)

" صفحة رقم ١١٠

بين العباب والمحكم : سبحان الله معناه تنزيها لله من الصحابة والولد ، وتبرئة من السوء – هذا معناه في اللغة وبذلك جاء الأثر عن النبي (صلى الله عليه وسلم) ، قال سيبويه : زعم أبو الخطاب أن (سبحان

(١) نظم الدرر . (– ت: عبدالرزاق غالب)، ٤/٢٦

الله) كقولك براءة الله من السوء ، كأنه يقول : أبرىء براءة الله من السوء ، وزعم أن مثل ذلك قول الأعشى :

اقول لما جاءني فخره سبحان من علقمه الفاخر

أي براءة منه ، وبهذا استدل على أن سبحان معرفة إذ لو كان نكرة لانصرف ، قال : وقد جاء في الشعر منونا نكرة ، قال أمية :

سبحانه ثم سبحانا يعود له وقبلنا سبح الجودي والجمد

وقال ابن جني : سبحان اسم علم لمعنى البراءة والتنزيه بمنزلة عثمان وحمران ، اجتمع في سبحان التعريف والألف والنون ، وكلاهما علة تمنع من الصرف - انتهى .

وقال الزجاج : جاء عن النبي (صلى الله عليه وسلم) أن قوله (سبحان الله) تبرئة لله من السوء ، وأهل اللغة كذلك يقولون من غير معرفة بما فيه من الرواية عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال : ولكن تفسيره يجمعون عليه ، وقد سبح الرجل : قال سبحان الله ، وفي التنزيل

٧٧ ( ) كل قد علم صلاته وتسبيحه ( ) ٧

[النور : ٤١] وسبح لغة في سبح ، وحكى ثعلب : سبح تسبيحا وسبحانا ، قال ابن سيده : وعندي أنا سبحانا ليس مصدرا لسبح ، إنما هو مصدر سبح ، وقال النصر : سبحان الله معناه السرعة إليه والخفة في طاعته ، وسبوحه - بفتح السين : البلد الحرام ، وسباح علم الأرض الملساء عند معدن بني سليم ، وسبحات وجه الله : أنواره ، والسبحة : الدعاء ، وأيضا صلاة التطوع - انتهى .

وكله راجع إلى الإبعاد عن السوء ، والسبحان : النفس ، وكل أحد يبرىء نفسه ويرفعها عن السوء .

ولما أوضح أبطال ما تعتنوا به من قولهم (لو أنزل عليه كنز) أتبعه ما يوضح تعنتهم في قولهم) أو جاء معه ملك (بذكر المرسلين ، وأهل السبيل المستقيم ، الداعين إلى الله على بصيرة ، فقال : (وما أرسلنا) أي بما من العظمة .

ولما كان الإرسال لشرفة لا يتأتى على ما جرت به **الحكمة في** كل زمن كما أنه لا يصلح للرسالة كل أحد ، وكان السياق لإنكار التأييد بملك في قوله) أو جاء معه ملك (كالذي في النحل ، لا لأنكار رسالة البشر ، أدخل الجار تنبيها على ذلك فقال : (من قبلك) أي إلى المكلفين) إلا رجالا) أي مثل ما أ

نك رجل ، لا ملائكة ولا إناثا - كما قاله ابن عباس رضي الله عنهما ، والرجل مأخوذ من المشي على الرجل) نوحي إليهم) أي بواسطة الملائكة مثل." (١)

" صفحة رقم ١٦٢

البلاغ (وهو إمرار الشيء إلى منتهاه ، وهو هنا الرسالة ؛ وليس عليك ان تحاربهم ولا أن تأتيهم بالمقترحات) وعلينا الحساب (وهو جزاء كل عامل بما عمل في الدنيا والآخرة ، ولنا القوة التامة عليه ؛ والآية من الاحتباك - كما مضى بيان ذلك في مثلها من سورة يونس عليه السلام .

الرعد : (٤١ - ٤٣) أو لم يروا. .. . .

) أولم يروا أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها والله يحكم لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب وقد مكر الذين من قبلهم فلله المكر جميعا يعلم ما تكسب كل نفس وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار ويقول الذين كفروا لست مرسلا قل كفى بالله شهيدا بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب (( )

ولما أرشد السياق إلى أن التقدير في تحقيق أنه سبحانه قادر على الجزاء لمن أراد : ألم يروا أنا أهلكنا من قبلهم وكانوا أقوى منهم شوكة وأكثر عدة ؟ عطف عليه قوله : (أولم يروا أنا) أي بما لنا من العظمة) نأتي الأرض (التي هؤلاء الكفرة بها ، فكأنه قيل : أي إتيان ؟ فقيل : إتيان البأس إذا أردنا ، والرحمة إذا أردنا) ننقصها (والنقص : أخذ شيء من الجملة تكون به أقل) من أطرافها (بما يفتح الله على المسلمين مما يزيد به في أرض أهل الإسلام بقتل بعض الكفار واستسلام البعض حتى يبيد أهلها على حسب ما نعلمه حكمه من تدبير الأمور وتقليبها حالا إلى حال حتى تنتهي إلى مستقرها بعد الحساب في دار ثواب أو عقاب ، وذلك أن المسلمين كانوا يغزون ما يلي المدينة الشريفة من أطراف بلاد الكفار كما أرشد تعالى إليه بقوله : (قاتلوا الذين يلونكم من الكفار (فيفتحونها أولا فأولا حتى دان العرب كلهم طوعا أوكرها بعد قتل السادة وذل القادة - ولله غالب على أمره ؛ والطرفك المنتهى ، وهو موضع من الشيء ليس وراءه منه شيء ، وأطراف الأرض : جوانبها ، وكان يقال : الأطراف : منازل الأشراف ، يطلبون القرب على الأضيافح ثم أثبت لنفسه تعالى أمرا كليا يندرج ذلك فيه ، فقال لافتا الكلام من أسلوب التكلم بالعظمة إلى غيبة هي أعظم العظمة بالاسم الأعظم : (والله) أي الملك الأعلى) يحكم (ما يريد لأنه) لا معقب) أي أراد ، لأن التعقيب : رد الشيء بعد فصله) لحكمه (وقد حكم للإسلام بالغلب والإقبال ، وعلى الكفر بالانتكاس

---

(١) نظم الدرر . (- ت: عبدالرزاق غالب)، ٤/١١٠

والإدبار ، وكل من حكم على غيره هذه الصفة فليس بحاكم ، وذلك كاف في الخوف من سطوات قدرته) وهو (مع تمام القدرة) سريع الحساب (جزاءه محيط بكل عمل لا يتصور أن يفوته شيء فلا بد من لقاء جزائه ، وكل ما هو آت سريع ، وهو مع ذلك يعد لكل عمل جزاءه على ما تقتضيه **الحكمة من** عدل أو فضل حين صدوره ، لا يحتاج إلى زمان ينظر فيه ما جزاءه ؟ ولا : هل أو لا ؟ لأنه لا تخفي عليه خافية ؛." (١)

" صفحة رقم ١٦٩

وانتهاج ذلك الدليل ، ثم قال تعالى :

٧٧ ( ) وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ( ) ٧

[إبراهيم : ٤] وكأن هذا من تمام قوله سبحانه

٧٧ ( ) ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية ( ) ٧

[الرعد : ٣٨] وذلك أن الكفار لما حملهم الحسد والعناد وبعد الفهم بما جبل على قلوبهم وطبع عليها على أن أنكروا كون الرسل من البشر حتى قالوا :

٧٧ ( ) أبشر يهدوننا ( ) ٧

[التغابن : ٦] ، و

٧٧ ( ) ما أنتم إلا بشر مثلنا ( ) ٧

[يس : ١٥] وحتى قالت قريش :

٧٧ ( ) لولا أنزل عليه ملك ( ) ٧

[الأنعام : ٨] ،) ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق (

٧٧ ( ) وقالوا لولا أنزل هذا القرآن على رجلمن القريتين عظيم ( ) ٧

[الزخرف : ٣١] فما كثر هذا منهم وتبع خلفهم في هذا سلفهم ، رد تعالى أزعامهم وأبطل توهمهم في آيات وردت على التدريج في هذا الغرض شيئا فشيئا ، فأول الوارد من ذلك في معرض الرد عليهم وعلى ترتيب سور الكتاب قوله تعالى :

٧٧ ( ) أكان للناس عجبا أن أوحينا إلى رجل منهم ( ) ٧

---

(١) نظم الدرر . (– ت: عبدالرزاق غالب)، ١٦٢/٤

[يونس : ٢] ، الآية ثم أتبع ذلك بانفراده تعالى بالخلق والاختراع والتدبير والربوبية ، وفي طي ذلك أنه يفعل ما يشاء لأن الكل خلقه وملكه ، وأنه العليم بوجه الحكمة في إرسال الرسل وكونهم من البشر ، فأرغم الله تعالى بمضمون هذة الآي كل جاحد معاند ؛ ثم ذكر تعالى في سورة هود قول قوم نوح

٧٧ ( ) ما نراك إلا بشرا مثلنا ( ) ٧

[هود : ٢٧] ، الآية وجوابه عليه السلام

٧٧ ( ) أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون ( ) ٧

[هود : ٦٣] أي أني وإن كنت في البشرية مثلكم فقد خصني الله بفضله وآتاني رحمة من عنده وبرهانا على ما جئتكم به عنه ، وفي هذه القصة أعظم عظة ، ثم جرى هذا لصالح وشعيب عليهما السلامن وديدن الأمم أبدا مع أنبيائهم ارتكاب هذه المقالات ، وفيها من الحيد والعجز عن مقاومتهم ما لا يخفي وما هو شاهد على تعنتهم ، ثم زاد سبحانه تعالى نبيه صلى الله عليه وعلى آله وسلم تعريفا بأحوال من تقدمه من الأنبياء عليهم السلام ليسمع ذلك من جرى له مثل ما جرى لهم فقال مثل مقالتهم ، فقال تعالى :

٧٧ ( ) ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية ( ) ٧

[الرعد : ٣٨] وأعلم سبحانه أن هذا لا يحط شيئا من مناصبهم ، بل هو واقع في قيام الحجة على العباد .

ثم تلا ذلك بقوله :

٧٧ ( ) وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ( ) ٧

[إبراهيم : ٤] أي ليكون أبلغ في الحجة وأقطع للعذر ، فربما كانوا يقولون عند اختلاف الألسنة : لا نفهم عنهم ، إذ قالوا ذلك مع اتفاق اللغات ، فقد قال فوم شعيب عليه السلام

٧٧ ( ) وما نفقة كثيرا مما تقول ( ) ٧

[هود : ٩١] هذا هو عليه السلام يخاطبهم بلسانهم فكيف لو كان على خلاف ذلك بل لو خالفت الرسل عليهم السلام الأمم في التبتل وعدم اتخاذ الزوجات والأولاد واستعمال الأغذية وغيرها من مألوفات البشر لكان منفرا ، فقد بان وجه الحكمة في كونهم من البشر ولو كانوا من الملائكة لوقع النفار." (١)

---

(١) نظم الدرر . (– ت: عبدالرزاق غالب)، ١٦٩/٤

" صفحة رقم ١٧٩

ضرب لهم في ذلك مثلا فقال : (مثل (وهو مستعار هنا للصفة التي فيها غرابة) الذين كفروا (مستهينن) بربهم (مثل من قصد أمرا ثم لم ينظر لنفسه في السلوك إليه بل اغتر بمن جار به عن الطريق ، فأبعد كل البعد حتى وصل إلى شعاب لا يمكن فيها المقام ، ولا يتأتى منها الرجوع فهلك ضياعا .

ولما كان الفرق بين الإنسان والعدم إنما هو بالعملن ذكر ما علم منه أن المثل لأعمالهم على طريق الجواب لمن كأنه قال : ما مثلهم ؟ فقال : (أعمالهم) أي المكارم التي كانوا يعلمونها في الدنيا من الصلة والعتق وفداء الأسرى والجود ونحو ذلك ، في يوم الجزاء ، ويجوز أن يكون مبتدأ ثانيا - كما قال الحوفي وابن عطية .

وهو وخبره خبر المبتدأ الأول ، ولا يحتاج إلى رابط لأنه نفس المثل الذي معناه الصفة) كرماد (وهو ما سحقه الاحتراق سحق الغبار) اشتدت به الريح) أي أسرعت بالحركة على عظم القوة ؛ والريح : جسم رقيق مثبت في الجو من شأنه الهبوب ، والرياح خمس : شمال وجنوب وصبا ودبور ونكباء) في يوم عاصف) أي شديد الريح ، فأطارته في كل صوب ، فصاروا بحيث) لا يقدرون) أي يوم الجزاء ؛ ولما كان الأمر هنا متمحصا للأعمال ، قدم قوله : (مما كسبوا (في الدنيا من أعمالهم في ذلك اليوم) على شيء (بل ذهب هباء منثورا لبنائه على غير أساس ، فثبت مقتضى ذلك أن الذين كفروا بربهم واستحبوا الحياة الدنيا على الآخرة في ضلال بعيد ، بل) ذلك) أي الأمر الشديد الشناعة) هو) أي خاصة) الضلال البعيد (الذي لا يقدر صاحبه على تداركه .

إبراهيم : (١٩ - ٢١) ألم تر أن. .. . . .

) ألم تر أن الله خلق السماوات والأرض بالحق إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز وبرزوا لله جميعا فقال الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء قالوا لو هدانا الله لهديناكم سوآء علينآ أجزعنآ أم صبرنا ما لنا من محيص (( )

ولما ذكرالآخرة في أول السورة ، ذكر ما هو ثابت لا نزاع فيه ، ثم جر الكلام إليه هنا على هذا الوجه الغريب ، وأتبعه مثل أعمال الكفار في الآخرة ، أتبع ذلك الدليل عليه وعلى أنه لا يسوغ في **الحكمة في** أعمال الضلال إلا الإبطال فقال : (ألم تر أن الله) أي الذي أحاط بكل شيء علما وقدرة) خلق السماوات (على عظمها وارتفاعها) والأرض (على تباعد أقطارها واتساعها) بالحق (بالأمر الثابت من

وضع كل شيء منها في موضعه على ما تدعوا إليه الحكمة لا بالخيالوالتمويه كالسحر ، ومن المعلوم أنهما ظرف ، ولايكون المظروف الذي هو المقصود بالذات إلا مثل ظرفه أو أعلى منه ، ." (١)

" صفحة رقم ٢١٣

فوجدناه حقا للكلمة التي سمعت من السماء .

قال المفسرون رضي الله عنهم : كانت الشياطين لا تحجب عن السماوات فيلقون ما يسمعون منها إلى الكهنة ، فلما ولد عيسى عليه السلام منعوا من ثلاث سماوات ، فلما ولد محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم منعوا من السماوات كلها هكذا رأيت ولد ولعله (بعث) فإن في الصحيح أن الذي منعهم نزول القرآن .

ولما ذكر آية السماء ، ثنى بآية الأرض فقال : (والأرض مددناها) أي بما لنا من العظمة ، في الأبعاد الثلاثة : الطول والعرض والعمق ، على الماء) وألقينا) أي بعظمتنا) فيها) أي الأرض ، جبالا) رواسي) أي ثوابت ، لئلا تميل بأهلها وليكون لهم علامات ؛ ثم نبه على إحياء الموتى بما أنعم به في الأرض بقياس جلي بقوله : (وأنبتنا فيها) أي الأرض ولا سيما الجبال بقوتنا الباهرة) من كل شيء موزون) أي مقدر على مقتضى الحكمة من المعادن والنبات) وجعلنا لكم) أي إنعاما منا عليكم) فيها معايش (وهي بياء صريحة من غير مد ، جمع معيشة ، وهي ما يحصل به العيش من المطاعم والملابس والمعادن وغيرها) ومن لستم) أي أيها الأقوياء الرؤساء) له برازقين (مثلكم في ذلكن جعلنا له فها معايش من العيال والخدم وسائر الحيوانات التي تنتفعون بها وإن ظننتم أنكم ترزقونهم ، فإن ذلك باطل لأنكم لا تقدرون على رزق أنفسكم فكيف بغيركم ؟ فلما ظهر كالشمس كمال قدرته وأنه واحد لا شريك له ، بين أنه - كما كانت هذه الأشياء عنده بحساب قدرة على حكمة دبرها - كان غيرها كذلك ، فذلك هو المانع من معاجلتهم بما يهزؤون به من العذاب ، فقال : (وإن) أي وما) من شيء) أي مما ذكر وغيره من الأشياء الممكنة ، وهي لا نهاية لها) إلا عندنا) أي لما لنا من القدرة الغالبة) خزائنه) أي كما هو مقرر عندكم ، لا تنازعون فيه ، قال في الكشاف : ذكر الخزائن تمثيل) وما ننزله) أي مطلق ذلك الشيء لا بقيد عدم التناهي ، فإن كل ما يبرز إلى الوجود متناه ، فهو استخدام) إلا بقدر معلوم (على حسب

---

(١) نظم الدرر . (- ت: عبدالرزاق غالب)، ٤/١٧٩

التدريج كما ترونه ؛ وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه : ليس عام بأمطر من عام ، ولكن الله يقسمه ويقدره في الأرض كيف يشاء ، عاما ههنا وعاما ههنا ، وربما كان في." (١)

" صفحة رقم ٢٢٠

عمران : ٥٩] إشارة إلى المبدإ الأول ، وفي آخر) من طين (إشارة إلى الجمع بين الماء والتراب ، وفي آخر) من حمإ مسنون (إشارة إلى الطين المتغير المستقر على حالة من الاعتدال تصلح لقبول الصورة ، وفي آخر) من صلصال (إشارة إلى يبسه وسماع صلصلة منه ، وفي آخر)) من صلصال كالفخار ( ) ([الرحمن : ١٤] وهو الذي قد أصلح بأثر من النار فصار كالحذف ، وبهذه القوة النارية حصل في الإنسان أثر من الشيطنة - انتهى .

وقال الرماني : وقد تضمنت الآيات البيان عما يوجبه تقليب الحيوان من حال إلى حال من جاعل قادر قلبه من أصل هو أبعد شيء من حال الحيوان إلى الحيوان ، وقال : إن الحكمة في جعله من الحمأة العبرة في أنه قلب من تلك الحال الحقيرة في الصفة إلى هذه الحال الجليلة .

الحجر : (٢٧ - ٣٠) والجان خلقناه من. .. . . .

) والجآن خلقناه من قبل من نار السم ِوم وإذ قال ربك للملآئكة إني خالق بشرا من صلصال من حمإ مسنون فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين فسجد الملائكة كلهم أجمعون (( )

ولما ذكر سبحانه خلق الإنسان أتبعه ذكر ما خلقه قبله من الجنان فقال : (والجان) أي الذي هو للجن كآدم عليه السلام للناس : وقيل : هو إبليس) خلقناه (وعبر عن تقليل زمان سبق خلقه وتقريبه بإثبات الجار فقال : (من قبل) أي قبل خلق الإنسان) من نار السموم) أي الحر الشديدن قيل : هي نار لا دخان لها ، يكون منها الصواعق ، وهي بين السماء وبين الحجاب ، فإذا أراد الله تعالى خرقت الحجاب ، فهدت إلى ما أمرت به ، فالهداة التي يسمعها الناس هي خرق ذلك الحجاب ؛ وقال الرازي في اللوامع : نار لطيفة تناهت في الغليان في أفق الهواء ، وهي بالإضافة إلى النار الىتي جعلها الله تعالى متاعا كالجمد إلى الماء والحجر إلى التراب - انتهى .

وقال عبد الله : هذه السموم جزء من سبعين جزءا من السموم التي خلق الله منها الجان ، وهي مأخوذة من دخولها بلطفها في مسام البدن ، ومنه السم القاتل - انتهى .

---

(١) نظم الدرر . (- ت: عبدالرزاق غالب)، ٢١٣/٤

ولما كانت نعمة الإيجاد كافية في إخلاص العبادة للموجد ، ثم لم يعتبرها أهل الضلال ، أشار تعالى إلى نعمة هي أكبر منها ، وهي التفضيل على جميع المخلوقات على وجه مبين لسبب الضلال ، فقال عاطفا على ما تقديره : اذكر هذا فإنه كاف في المراد لكل ذي لب : (وإذ) أي واذكر قول ربك إذ) قال ربك) أي المحسن إليك بتشريف أبيك آدم عليه السلام لتشريفك) للملائكة (ولما كان مما يتوقف فيه ، أكده فقال : (إني خالق بشرا) أي حيوانا غير ملبس البشرة بما جعله عليه من الطبيعة على الصورة الإنسانية) من صلصال) أي طين شديد اليبس) من حمإ) أي طين أسود منتن." (١)

" صفحة رقم ٢٥٩

بينا ، وكانوا يدعون أنهم أبصر الناس بالخفيات فكيف بالجليات ، حسن جدا قوله : (ليحملوا (فإنهم يعلمون أن هذا لازم لهم قطعا وإن قالوا بألسنتهم غيره ، أو يقال : إنه قيل ذلك لأنه – مع أن الجهل أولى لهم منه – أخف أحوالهم لأنهم إما أن يعلموا أنهم فعلوا بهذا الطعن ما ليس لهم أولا ، فعلى الثاني هم أجهل الناس ، وعلى الأول فإما أن يكونوا ظنوا أنهم يؤخذون به أو لا ، فعلى الثاني يكون الخلق سدى ، وليس هو من الحكمة في شيء ، فمعتقد هذا من الجهل بمكان عظيم ، وعلى الأول فهم يشاهدون كثيرا من الظلمة لا يجازون في الدنيا ، فيلزمهم في الحكمة اعتقاد الآخرة ، ليجازي بها المحسن والمسيء ، وهذا أخف الأحوال المتقدمة ، ولا يخفي ما في الإقدام على مثله من الغباوة المناقضة لادعائهم أنهم أبصر الناس ، فقد آل الأمر إلى التهكم بهم لأنهم نسبوا إلى علم الجهل خير منه) أوزارهم (التي باشروها لنكوبهم عن الحق تكبرا لا عن شبهة .

ولما كان الله من فضله يكفر عن أهل الإيمان صغائرهم بالطاعات وباجتناب الكبائر فكان التكفير مشروطا بالإيمان ، وكان هؤلاء قد كفروا بالتكذيب بالكتاب ، قال تعالى : (كاملة (لا ينقص منها شيء مما أسروا ولا مما أعلنوا ، لخفاء ولا ذهول بتكفير ولا غيره من دون خلل في وصف من الأوصاف ، فهو أبلغ من (تامة) لأن التمام قد يكون في العدة مع خلل في بعض الوصف) يوم القيامة (الذي لا شك فيه ولا محيص عن إتيانه) و (ليحملوا) من (مثل) أوزار (الجهلة الضعفاء) الذين يضلونهم (فيضلون بهم كما بين أولئك الذين ضلوا) بغير علم (يحملون من أوزارهم من غير أن يباشرونها لما لهم فيها من التسبب من غير أن ينقص من أوزار الضالين بهم شيء وإن كانوا جهلة ، لأن لهم عقولا هي بحيث تهدي إلى سؤال

(١) نظم الدرر . (– ت: عبدالرزاق غالب)، ٢٢٠/٤

أهل الذكر ، وفطرا أولى تنفر من الباطل (أول) م‍ا يعرض علهيا فضيعوها ؛ ثم استأنف التنبيه على عظيم ما يحصل لهم من مرتكبهم من الضرر وعيدا لهم فقال تعالى : (ألا ساء ما يزرون (فأدخل همزة الإنكار على حرف النفي فصار إثباتا على أبلغ وجه .

ولمت كان المراد من هذا الاستكبار محو الحق وإخفاء أمره من غير تصريح بالعناد – بل مع إقامة شبه ربما راجت – وإن اشتد ضعفها – على عقول هي أضعف منها ، وكأن هذا حقيقة المكر التي هي التغطية والستر كما بين في الرعد عند قوله تعالى :

٧٧ ( ) بل زين للذين كفروا مكرهم ( ) ٧

[الرعد : ٢٣] شرع يهدد الماكرين ويحذرهم وقوع ما وقع بمن كانوا أكثر منهم عددا وأقوى يدا ، ويرجي المؤمنين في نصرهم عليهم ، بما له من عظيم القوة وشديد السطوة ، فقال تعالى : (قد مكر الذين (ولما كان المقصود بالإخبار." (١)

" صفحة رقم ٤٣٥

كسفا بإسقاط البرد المهلك ، فثبت بذلك صحة الإخبار بتصريف الأمثال في هذا الكتاب ، فعطف على قوله : (ولقد صرفنا (قوله تعالى : (وبالحق) أي من المعاني الثابتة التي لا مرية فيها لا بغيره) أنزلناه (نحن القرآن أو هذا الذي أخبر منه بالحشر لبني إسرائيل ملتفين بالقبط وبما قبله على ما لنا من العظمة) وبالحق (لا بغيره) نزل (هو ووصل إليهم على لسانك بعد إنزاله عليك كما أنزلنا سواء غضا طريا محفوظا لهم يطرأ عليه طارئ ، فليس فيه شيء من تحريف ولا تبديل كما وقع في كتاب اليهود الذين يسألهم قومك ، فأفاد هذا أن القرآن معجز بكونه مع إعجازه بالبلاغة في تصريف الأمثال ، وغيرها من نظم المقال) وما أرسلناك) أي بما لنا من العظمة) إلا مبشرا ونذيرا (على غاية التمكن في كل من الوصفين – بما أشار إليه الواو والصيغة ، تبلغهم ما فيه من بشارة لمن آمن بذلك اليوم ، ونذارة لمن لم يؤمن به ، فإن قبلوا فهو حظهم ، وإن لم يقبلوا كان عليهم وزرهم ، ولم يكن عليك لوم ، فإنا ما أرسلناك عليهم وكيلا ، وسنزهق باطلهم بهذا الحق لا محالة ، فلا تستعجل لهم) إن الباطل كان زهوقا (ولم نرسلك لتفجير الأنهار ولا إنبات الأشجار ؛ ثم أخبر أن الحكمة في إنزال القرآن منجما فقال تعالى : (وقرءانا) أي وفصلنا أو أنزلنا قرآنا) فرقناه) أي أنزلنا منجما في أوقات متطاولة وميزناه بالحقيقة عن كل باطل ، وبالإعجاز عن كل كلام

---

(١) نظم الدرر . (– ت: عبدالرزاق غالب)، ٤/٢٥٩

) لتقرأه على الناس) أي عامة كل من أمكنك منهم ، فإنك مرسل إليهم كلهم .
ولما كانوا لما لهم من النوس في غاية الزلزلة ، لا يتهذبون إلا في أزمان طويلة وعلاج كبير ، قال مشيرا إلى ذلك : (على مكث) أي تؤده وترسل بأن تقرأ منه كل نجم في وقته الذي أنزلناه فيه مدة ثلاث وعشرين سنة) ونزلناه (من عندنا بما لنا من العظمة) تنزيلا (بعضه في إثر بعض ، مفرقا بحسب الوقائع لأنه أتقن في فصلها ، وأعون على الفهم لطول التأمل لما نزل من نجومه في مدة ما بين النجمين لغزارة ما فيه من المعاني ، وكثرة ما تضمنه من الحكم ، وذلك أيضا أقرب للحفظ ، وأعظم تثبيتا للفؤاد ، وأشرح للصدر ، لأن أخبار الحبيب إذا كانت متواصلة كان المحب كل يوم في عيد ، بهناء جديد ، فعلنا بك ذلك لما تقدم من أن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ، فلما طالت الدلائل ، وزالت الشبه ، وعلم أن الله مع الذين اتقوا والذين هم أدبر ، أمره أن يقول مبنها لهم على ذلك مبكتا لهم بتقاعسهم عنه وعنادهم فيه بقوله تعالى : (قل آمنوا به) أي القرآن) أولا تؤمنوا (فالإيمان به غير محتاج إليكم ولا موقوف عليكم لأنكم إن آمنتم به كان الحظ لكم ، وإلا لم تضروا إلا أنفسكم ، وهو احتقار لهم حيث صرف لهم من كل مثل فأبوا إلا كفورا ، ثم علل ذلك بما يقبل بكل." (١)

" صفحة رقم ٥٤٩

آخر السورة ليكون ذلك أشد تثبيتا للبعث وأعظم تأكيدا ، وإن استطلت هذا العطف مع بعد ما بين المعطوف والمعطوف عليه واستعظمته واستنكرته لذلك واستعبدته فقل : لما كشفت هذه السورة عن هذه القصص الغريبة ، وكان المتعنتون ربما قالوا : نريد أن يخبرنا هذا الذي ينزل عليك بجميع أنباء الأقدمين وأخبار الماضين ، قال جوابا عن ذلك أن قيل : ما أنزلنا عليك بأخبار هؤلاء إلا بأمر ربك ، وما نتنزل فيما يأتي أيضا إلا بأمر ربك ؛ ثم علل ذلك بقوله : (له ما بين أيدينا) أي من المكان والزمان وما فيهما) وما خلفنا (من ذلك) وما بين ذلك (وهو نحن والمكان والزمان اللذان نحن بهما وما فوقه وتحته ، ونحن نعلم ذلك ونعمل على حسب ما نعلم ، فلا نتصرف في ملكه إلا بأمره) وما كان (على تقدير من التقادير) ربك نسيا) أي ذا نسيان لشيء من الأشياء فيترك تفصيل أمر الروح ، ويؤخر الجواب عن الوقت الذي وعدتهم فيه لخفاء شيء من ذلك عليه ، ولا ينسى ما يصلحك فيحتاج إلى مذكر به ، ولا ينسى أحدا منا فينزل في وقت نسيانه له بل هو دائم الاطلاع على حركتنا وسكناتنا ، فنحن له في غاية المراقبة ، وهو

(١) نظم الدرر . (- ت: عبدالرزاق غالب)، ٤٣٥/٤

سبحانه يصرفنا بحسب الحكمة في كل وقت تقتضيه حكمته ، لا يكون شيء من ذلك إلا في الوقت الذي حده له وأراده فيه ، ولا يخرج شيء من الأشياء وإن دق عن مراده .

ويجوز أن يقال في التعبير بصيغة فعيل أنه لا يتمكن العبد من الغيبة عن السيد بغير إذنه إلا أن كان بحيث يمكن أن يغفل وأن تطول غفلته وتعظم لكونه مجبولا عليها ، أو أنه لما استلبث الوحي في أمر الأسئلة التي سألوا عنها من الروح وما معها خمس عشرة ليلة أو أكثر أو أقل – على اختلاف الروايات ، فكان ذلك موهما للأغبياء أنه نسيان ، وكان مثل ذلك لا يفعله إلا كثير النسيان ، نفى هذا الوهم بما اقتضاه من الصيغة ونفى قليل ذلك وكثيرة في السورة التي بعدها ضما لدليل العقل بقوله

٧٧ ( ) ا يضل ربي ولا ينسى ( ) ٧

[طه : ٥٢] لما اقتضاه السياقن فأتى في كل أسلوب بما يناسبه مع الوفاء بما يجب من حق الإعتقاد ، وهذه الآية مع) وبالحق أنزلناه (و

٧٧ ( ) قل لئن اجتمعت الإنس والجن ( ) ٧

[الإسراء : ٨٨] مثل

٧٧ ( ) قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات ( ) ٧

[هود : ٣] – الآيتين في سورة هود عليه السلام ، على ما قدمت في بيانه غير أن ما جمع هناك فصل هنا في أول الجواب على أسئلتهم بآية) قل لئن اجتمعت (وأثنائه بآية) وبالحق أنزلناه (وآخره بهذه الآية ، لتكون الآيات رابطة على هذه الأجوبة وتوابعها وضابطة لها كالشهب والحرس الشديد بالنسبة إلى السماء ، فلا يبغيها متعنت من جهة من جهاتها كيدا إلا رد خاسئا ، ولا يرميها بقادح ألا كان رميه خاطئا .

ولما وصف سبحانه وتعالى بنفوذ الأمر واتساع العلم على وجه ثبت به ما أخبر به." (١)

" صفحة رقم ٢٤٥

النور : (١٧ – ١٩) يعظكم الله أن. .. . .

) يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا إن كنتم مؤمنين ويبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون (( )

ولما كان هذا كله وعظا لهم واستصلاحا ، ترجمه بقوله : (يعظكم الله) أي يرفق قلوبكم الذي له الكمال

---

(١) نظم الدرر . (– ت: عبدالرزاق غالب)، ٥٤٩/٤

كله فيمهل بحمله ، ولا يمهل بحكمته وعلمه ، بالتحذير على وجه الاستعطاف : (إن) أي كراهة لأن) تعودوا لمثله ابدا) أي ما دمتم أهلا لسماع هذا القول ؛ ثم عظم هذا الوعظ ، وألهب سامعه بقوله : (إن كنتم مؤمنين) أي متصفين بالإيمان راسخين فيه فإنكم لا تعودون ، فإن عدتم فأنتم غير صادقين في دعواكم الاتصاف به) ويبين الله) أي بما له من الاتصاف بصفات الجلال والإكرام) لكم الآيات) أي العلامات الموضحة للحق والباطل ، من كل أمر ديني أو دنيوي) والله) أي المحيط بجميع الكمال) عليم (فثقوا ببيانه) حكيم (لا يضع شيئا إلا في أحكم مواضعه وإن دق عليكم فهم ذلك ، فلا تتوقفوا في أمر من أوامره ، واعلموا أنه لم يختر لنبيه عليه الصلاة والسلام إلا الخلص من عباده ، على حسب منازلهم عنده ، وقربهم من قلبه .

ولما كان من أعظم الوعظ بيان ما يستحق على الذنب من العقاب ، أدبهم تأديبا ثالثا اشد من الأولين ، فقال واعظا ومقبحا لحال الخائضين في الإفك ومحذرا ومهددا : (إن الذين يحبون (عبر بالحب إشارة إلى أنه لا يرتكب هذا مع شناعته غلا محب له ، ولا يحبه غلا بعيد عن الاستقامة) أن تشيع (اي تنتشر بالقول أو بالفعل) الفاحشة) أي الفعلة الكبيرة القبح ، ويصير لها شيعة يحامون عليها) في الذين آمنوا (ولو كانوا في أدنى درجات الإيمان فكيف بمن تسنم ذرته ، وتبوأ غايته) لهم عذاب إليم (ردعا لهم عن إرادة إشاعة مثل ذلك لما فيه من عظيم الأذى) في الدنيا (بالحد وغيره مما ينتقم الله منهم به) والآخرة (فإن الله يعلم هل كفر الحد عنهم جميع مرتكبهم أم لا) والله) أي المستجمع لصفات الجلال والجمال) يعلم) أي له العلم التام ، فهو يعلم مقادير الأشياء ما ظهر منها وما بطن وما الحكمة في ستره أو إظهاره أو غير ذلك من جميع الأمور) وأنتم لا تعلمون) أي ليس لكم علم من أنفسكم فاعلموا بما علمكم الله ، ولا تتجاوزوه تضلوا .

النور : (٢٠ – ٢٢) ولولا فضل الله. .. . .

) ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رءوف رحيم يأيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشآء والمنكر ولولا فضل." (١)

" صفحة رقم ٣١٥

الإضمار تنبيها على الوصف الذي حملهم على هذا القول : (وقال الذين كفروا) أي غطوا عدواة وحسدا

---

(١) نظم الدرر . (– ت: عبدالرزاق غالب)، ٥/٢٤٥

ما تشهد عقولهم بصحته من أ ، القرآن كلام لإعجازه لهم متفرقا ، فضلا عن كونه مجتمعا ، وغطوا ما وضح لهم من آثاره الظاهرة الشاهد بوحدانيته ، وغير ذلك من صفاته العلية : (لو لا) أي هلا .

ولما كانوا لشدة ضعفهم لا يكادون يسمحون بتسمية القرآن تنزيلا فضلا عن أن يسندوا إنزاله إلى الله سبحانه وتعالى ، بنوا للمفعول في هذه الشبهة التي أوردها قولهم : (نزل عليه (ولما عبروا بصيغة التفعيل المشيرة إلى التدريج والتفريق استجلابا للسامع لئلا يعرض عنهم ، أشاروا غلى أن ذلك غير مراد فقالوا : (القرآن) أي المقتضي اسمه للجمع ؛ ثم صرحوا بالمراد بقولهم : (جملة (وأكدوا بقولهم : (واحدة) أي من أوله إلى آخره بمرة ، ليتحقق أنه من عند الله ، ويزول عنا ما نتوهمه من أنه هو الذي يرتبه قليلا قليلا ، فتعبيرهم بما يدل على التفريق أبلغ في مرادهم ، فإنهم أرغبوا السامع في الإقبال على كلامهم بتوطينه على ما يقارب مراده ، ثم أزالوا بالتدريج أتم إزالة ، فكان فس ذلك من المفاجأة بالروعن والإقناط مما أمل من المقاربة ما لم يكن في (أنزل) والله أعلم .

ولما كان التقديرك وما له ينزل عليه مفرقا ، وكان للتفريق فوائد جليلة ، أشار سبحانه إلى عظمتها بقوله معبرا للإشارة إلى ما اشتملت عليه من العظمة بأداة البعد : (كذلك) أي أنزلناه شيئا فشيئا على هذا الوجه العظيم الذي أنكروه) لنثبت بهه فؤادك (بالإغاثة بتردد الرسل بيننا وبينك ، وبتكمينك وتمكين أتباعك من تفهم المعاني ، وتخفيفا للأحكام ، في تحميلها أهل الإسلام ، بالتدريج على حسب المصالح ، واتنافي الحكمة في الناسخ والمنسوخ ، لما رتب من المصالح ، وتسهيا للحفظ لا سيما والأمة أمية لا تقرأ ,لا تكتب ، وتلقينا للأجوبه في أوقاتهان وتعظيما للإعجاز ، لأن ما تحدى بنجم منه فعجز عنه علم أن العجز عن أكثر منه أولى ، فالحاصل أن التفريق أدخل في باب الإعجاز وفي كل حكمة ، فعلم أن هذا الاعتراض فضول ومماراة بما لا طائل تحته من ضيق الفطن ، وقلة الحلية ، وحرج الخطيرة ، دأب المقطوع المبهوت ، لأن المدار الإعجاز ، وأما كونه جملة أو مفرقا فأمر لا فائدة لهم فيه ، وليست الإشارة محتملة لأن تكون للكتب الماضية ، لأن نزولها إنما كان منجما كما بينته في سورة النساء عن نص التوراة المشير إليه نص كتابنا ، لا كما يتهمه كثير من الناس ، ولا أصل له إلا كذبة من بعض البهود شبهوا بها على أهل الإسلام فمشت على أكثرهم وشرعوا يتكلفون لها أجوبة ، واليهود الآن معترفون بأن التوراة نزلت في نحو عشرين سنة والله الموفق .." (١)

---

(١) نظم الدرر . (– ت: عبدالرزاق غالب)، ٣١٥/٥

" صفحة رقم ٣٨٦

ولما كان من أتى بعد هذه الأمم كقريش ومن تقدمهم قد علموا أخبارهم ، وضموا إلى بعض الأخبار نظر الديار ، والتوسم في الآثار قال معجبا ن حالهم في ضلالهم : (وما (اي والحال أنه ما) كان أكثرهم مؤمنين (.

ولما كان في ذلك إشارة إلى الإنذار بمثل ما حل بهم من الدمار ، اتبعه التصيح بالتخويف والإطماع فقال : (وإن ربك لهو (اي وحده) العزيز) أي في بطشه بأعدائه) الرحيم (في لطفه بأوليائه ، ورفقه بأعدائه بإرسال الرسل ، وبيان كل مشكل ؛ ثم وصل بذلك دليلهن فقال مذكرا الفعل لشدة كفرهم بدليل ما يأتي من إثبات الواو في) وما أنت إلا بشر مثلنا (: (كذب أصحاب لئيكة) أي الغيضة ذات الأرض الجيدة التي تبتلع الماء فتنبت الشجر الكثير الملتف) المرسلين (لتكذيبهم شعيبا عليه السلام فيما أتى به من المعجزة السماوية في خرق العادة وعجز المتحدين بها عن مقاومتها - لبقية المعجزات الآتي بها الأنبياء عليهم الصلاة والسلام) إذ قال لهم (.

ولما كانوا أهل بدو وكان هو عليه السلام قرويا ، قال : (شعيب (ولم يقل : أخوهم ، إشارة إلى أنه لم يرسل نبيا إلا من أهل القرى ، تشريفا لهم لأن البركة والحكمة في الاجتماعن ولذلك نهى النبي (صلى الله عليه وسلم) عن التعرب بعد الهجرة ، وقال : (من يرد الله به خيرا ينقله من البادية إلى الحاضرة)) ألا تتقون (اي تكونون من أهل التقو ، وهو مخافة من الله سبحانه وتعالى .

ولما كان كأنه قيل : ما لك ولهذا ؟ قال : (إني (واشار إلى تبشيرهم إن أطاعوه بقوله : (لكم رسول) أي من الله ، فهو أمرني أن أقول لكم ذلك) أمين) أي لا غش عندي ولا خداع ولا خيانه ، فلذلك ابلغ جميع ما ارسلت به ، ولذلك سبب عنه قوله : (فاتقوا الله) أي المستحق لجميع العظمة ، وهوالمحسن إليكم بهذه الغيضة وغيرها) وأطيعون (اي لما ثبت من نصحي .

ولا قدم ما هو المقصودبالذات .

عطف على خبر) إن (قوله : (وما أسئلكم عليه من أجر (نفيا لما ينفر عنه ؛ ثم زاد في البراءة مما يوكس من الطمع في أحد من الخلق فقال : (إن (اي ما) أجري إلا على رب العالمين (اي المحسن غلى الخلائق كلهم ، فأنا لا أرجوا أبدا أحدا يحتاج إلى الإحسان إليه ، وإنما أعلق أملي بالمحسن الذي." (١)

---

(١) نظم الدرر . (- ت: عبدالرزاق غالب)، ٣٨٦/٥

" صفحة رقم ٤٠٩

وأحكمهم) لتلقى القرآن (اي تجعل متلقيا له من الملك ، وحذف هنا الواسطة وبناه للمفعول إعلاء له . ولما كانت الأمور التي من عند الله تارة تكون على مقتضى الحكمة فتسند إلى أسبابها ، وأخرى خارقة للعادة فتنسب إليه سبحانه ، والخارقة تارة تكون في أول رتب الغرابة فيعبر عنها بعند ، تارة تكون في أعلاها فيعبر عنها بلدان ، نبه سبحانه على أن هذا القرآن في الذروة نم ا لغرابة في أنواع الخوارق فقال : (من لدن (.

ولما مضى في آخر الشعراء ما تقدم من الحكم الجمة في تنزيله بهذا اللسان .

وعلى قلب سيد ولد عدنان ، بواسطة الروح الأمين ، مباينا لأحوال الشياطين ، إلى غير ذلك مما مضى إلى أن ختمت بتهديد الظالمين ، وكان الظالم إلى الحكمة أحوج منه إلى مطلق العلم ، وقدم في هذه أنه هدى ، وكان الهادي لا يقتدي به ولا يوثق بهدايته إلا إن كان في علمه حكيما ، اقتضى السياق تقديم وصف الحكمة ، واقتضى الحال التنكير لمزيد التعظيم فقال : (حكيم) أي بالغ الحكمة ، فلا شيء من أفعاله إلا وهو في غاية الإتقان) عليم) أي عظيم العلم واسعة تامة شاملة ، فهو بعيد جدا عما ادعوه فيه من أنه كلام الخلق الذي لا علم لهم واسعة تامة شامله ، فهو بعيد جدا عما ادعوه فيه من الخلق عن الإتيان بشيء من مثله ، وإدراك شيء من مغازيه حق إدراكه .

ولما وصفه بتمام الحكمة وشمول العلم ، دل على كل من الوصفين ، وعلى إبانه القرآن وما له من العظمة التي أشار أليها أول السورة بما يأتي في السورة منا لقصص وغيرها ، واقتصر في هذه السورة على هذه القصص لما بينها من عظيم التناسب المناسب لمقصود السورة ، فابتدىء بقصة أجمع فيها الأباعد على الكفران فأهلكوا ، والأقارب على الإيمان فأنجوا ، وثنى بقصة أجمع فيها الباعد على الإيمان ، لم يتخلف منهم إنسان ، وثلث بأخرى حصل بين الأقارب فيها الفرقان ، باقتسام الكفر والإيمان ، وختم بقصة تمالأ الأباعد فيها على العصيان ، وأصروا على الكفران ، فابتلعتهم الأرض ثم غطوا بالماء كما بلغ الأولين الماء فكان فيه التواء .

ولما كان تعلق (إذ) باذكر من ا لوضوح في حد لا يخفى على أحد ، قال دالا على حكمته وعلمه : (إذ (طاويا لمتعلقه لوضوح أمره فصار كأنه) قال (: اذكر حكمته وعلمه حين قال : (موسى لأهله) أي زوجة وهو راجع من مدين إلى مصر ، قيل : ولم يكن معه غيرها : (إني آنست) أي ابصرت إبصارا حصل

لي الأنس ، وأزال عني الوحسة والنوس) نارا (فعلم بما في هذه القصة من الأفعال المحكمة المنبئة عن تمام العلم اتصافه بالوصفين علما مشاهدا ، وقدم ما **الحكمة فيه** أظهر لاقتضاء الحال التأمين من نقص ما يؤمر به من الأفعال .." (١)

" صفحة رقم ٥٣٦

لحمه بأمشاط الحديد ما يرده ذلك عن دينه ، ومن رؤوسهم صاحب أكثر السورة الماضية موسى عليه الصلاة والسلام ، ففي قصته حديث طويل عن ابن عباس رضي الله عنهما يقال له حديث الفتون وهو في مسند أبي يعلى ، ومن آخر ما ابتلى به أمر قارون وأتباعه .

ولما كان الامتحان سببا لكشف مخبآت الإنسان بل الحيوان ، فيكرم عنده أو يهان ، وأرشد السياق إلى أن المعنى : فلنفتنهم ، نسق به قوله : (فليعلمن الله (اي الذي له الكمال كله ، بفتنة خلقه ، علما شهوديا كما كان يعلم ذلك علما غيبيا ، ويظهره لعباده ولو بولغ في ستره ، وعبر بالاسم الأعظم الدال على جميع صفاتالكمال التفاتا عن مظهر العظمة إلى أعظم منه تنبيها للناقصين وهم أكثر الناس على أنه منزه عن كل لا يطلع عليه أحد) الذين صدقوا (في دعواهم الإيمان ولو كانوا في أدنى مراتب الصدق ، وليعلمن الصادقين ، وهم الصابرون الدين يقولون عند البلاء) هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله (فيكون أحدهم عند الرخاء برا شكورا ، وعند البلاء حرا صبورا ، وليعلمن الذين كذبوا في دعواهم) وليعملن الكاذبين) أي الراسخين في الكذب الذين يعبدون على حرف ، فإن اصابهم خير اطمأنوا به وإن أصابيهم فتنة انقليوا على وجوههم ، فظنوا ، فيكون لكل من الجزاء على حسب ما كشف منه البلاء ، والتعبير بالمضارع لتحقق الاختبار ، على تجدد الأعصار ، لجمعي الأخبار والأشرار ، فمن لم يجاهد نفسه عند الفتنة فيطيع في السراء والضراء كان من الكافرين فكان في جهنم) أليس في جهنم مثوى للكافرين (ومن جاهد كان من المحسنين ، والآية من الاحتباك : دل بالذين صدقوا على الذين كذبوا ، وبالكاذبين على الصادقين ، ذكر الفعل أولا دليلا على تقدير ضده ثانيا ، والاسم ثانيا دليلا على حذف ضده أولا .

ولما أثبت سبحانه بهذا علمه الشامل وقدرته التامة الدنيا ، عادله بما يستلزم مثل ذلك في الآخرة ، فكان حاصل ما مضى من الاستفهامك أحسب الناس أنا لا نقدر عليهم ولا نعلم أحوالهم في الدنيا أم حسبوا أنم ذلك لا يكون في الأخرى ، فيذهب ظلمهم في الدنيا وتركهم لأمر الله وتكبرهم على عبادة مجانا ، فيكون

---

(١) نظم الدرر . (– ت: عبدالرزاق غالب)، ٤٠٩/٥

خلقنا لهم عبثا لا حكمة فيه ، بل الحكمة في تركه ، وهذا الثاني هو معنى قوله منكرا أم حسب ، أو يكون المعنى أنه لما أنكر على الناس عموما ظنهم الإهمال ، علم أن أهل السيئات أولى بهذا الحكم ، فكان الإنكار عليهم أشد ، فعادل الهمزة بأم في السياق الإنكار كما عادلها بها في قوله :

٧٧ ( ) أتخذتم عند الله عهدا ( ) ٧

[البقرة : ٨٠] الآية ، فقال : (أم حسب) أي ظن ظنا يمشي له ويستمر عليه ، فلا يبين له جهله فيه بأمر يحسبه فلا يشتبه عليه بوجه) الذين." (١)

" صفحة رقم ٥٦٩

هذا الوجه البعيد المنال البديع المثال) لرحمة (لهم لصقله صدأ القلوب في كل لحظة ، وتطهيره خبث النفوس في كل لمحة) وذكرى) أي عظيمة مستمرا تذكرها .

ولما عم بالقول ، خص من حيث النفع فقال : (لقوم يؤمنون) أي يمكن أن يتجدد لهم إيمان ، ليس من همهم التعنت ، قال الحرالي في كتاب له في أصول الدين : ولما كان القرآن لسان إحاطة لم يف بالقيام به خلق من خلق الله ، لأنه ببناء على كليه أمر الله حتى أن السورة الواحدة منه لما كان موقع الخطاب بها من مدد بنائه على إحاطة أمر الله لا يستطيعها أحد من الخلق ، وإذا كان الأقل من كلام العالم لا يستطيعه مندون رتبته ، فعجز الخلق عن كلام الله أحق وأولى ، ثم كل ناظر فيه – من أي وجه نظره – أدرك بمقتضى علوه على رتبته وجها من العجز فيه ، إن كان فصيحا بليغا فمن جهة البلاغة ، ومعناها بلوغ الكلام في مطابقة أنبائه ويسمى الفصاحة ، وحسن نظم حروف كلماته ويسمى الجزالة ، وكمال انتظام كلماته وآياته ، ويسمى حسن النظم – إلى أنهى غاياته وأتم نهاياته ، وإن كان عالما بأخبار الأولين فبصحة مقتضاها فيه ، وإن كان حكيما فبالإعلام الأتم بوجه تقاضي المترتبات ، وبالجملة فما يكون لأحد اصل من عقل وحظ من علم – أي علم كان – إلا ويجد له موقعا في القرآن ، يفي له بحظ بيان علو مرتبة أنبائه على نهاية مدركة منه بمقدار لا يرتاب في وقوعه فوق طور الخلق ، فكان آية باقية دائمة لم يتفاوت في تلقيه أول سامع له من آخر سامع في وجه سماعه ، فكل نبي فقدت آيته بفقده أو بفقد وقت ظهورها على يديه ، وآية محمد (صلى الله عليه وسلم) باقية ببقاء الله ، فجهات ظهور إعجازه تأتي على حظوظ أصناف الخلق من وجوه الإدراك ، لا يتعين لظهور الإعجاز فيه جهة ، ولا يفقد ناظر فيه حظا يتطرق بمقدار إدراكه

---

(١) نظم الدرر . (– ت: عبدالرزاق غالب)، ٥/٥٣٦

منه إلى يقين وجه إعجازه ، وذلك لما كان محيطا بكل تفصيل وكل إجمال ، ولم يفرط فيه من شيء ، وكان تفصيلا لكل شيء ولإحاطته بإثبات كل رتبة من رتب حكمة الله تعالى لم يقدر أحد من الخلق في التوقف عن الإيمان به من الجن والإنس والأحمر والأسود وجميع خلق الله ، من يعرفه الناس منهم ومن لا يعرفونهم ممن أحاط بهم علم العالمين بإعلام الله ، ومن حكم إحاطة كتابة كان ممكنا من عالية كل بية جاء بها نبي قبله ممن شاهد ذلك منه حاضروه ، ونقله نقل التواتر والاستفاضة حمله العلم خلفا عن سلف ؛ ثم رتب قياسا على إثبات النبوة فقال : إن محمدا (صلى الله عليه وسلم) ذو بية هذا القرآن المشهود ، وهذا القرآن المشهود معجز كل ذي إدراك ، وبشرى من كل جهة من جهات معاينه وبلاغته ، فو آية هذا القرآن نبي ، فمحمد (صلى الله عليه وسلم) نبي ، أما أن (صلى الله عليه وسلم) ذو أيته فبالتجرية السمعية المتيقنة المسماة بالتواتر ، وأما أن هذا القرآن معجز فيما يجده كل ناظر في معناه المشتمل على تمام الحكمة فيما." (١)

" صفحة رقم ١٠

ولما ثبت بهذا الخلق العظيم على هذا الوجه المحكم عزته وحكمته ، ثبتت ألوهيته فألزمهم وجوب توحيده في العبادة كما توحد بالخلق ، لأن ذلك عين الحكمة ، كما كان خلقه لهذا الخلق على هذا النظام ليدل عليه سبحانه سر الحكمة ، فقال ملقنا للمحسنين من حزبه ما ينبهون به المخالفين موبخا لهم مقبحا لحالهم في عدو لهم عنه مع علمهم بما له من التفرد بهذه الصنائع : (هذا) أي الذي تشاهدونه كله) خلق الله) أي الذي له جميع العظمة فلا كفوء له .

ولما كان العاقل بل وغيره لا ينقاد لشيء إلا أن رأى له فعلا يوجب الانقياد له ، نبه على ذلك بقوله جوابا لما تقديره : فإن ادعيتم لما دونه مما عبدتموه من دونه خلقا عبدتموه لأجله : (فأروني ماذا خلق الذين (زاد اسم الإشارة زيادة في التقريع بتأكيد النفي المقصود من الكلام ، ونبه على سفول رتبتهم بقوله مضمرا لأنه ليس فيما أسند إلى الاسم الأعظم حيثية يخشى من التقييد بها نقص : (من دونه (فسأله في رؤية ما خلقوا غبنه أحد أصلا بأن انقدتم لما لا ينقاد له حيوان فضلا عن إنسان بكونه لا فعل له أصلا ، فكان من حقكم - إن كانت لكم عقول - أن تبحثوا اولا هل لهم أفعال أم لا ؟ ثم إذا ثبت فهل هي محكمة أم لا ، ثم إذا ثبت فهل مشاركهم غيرهم أم لا ، وإذا ثبت أن لهم افعالا ترجونهم بها تخشونهم ، فهذا ما لا

---

(١) نظم الدرر . (- ت: عبدالرزاق غالب)، ٥/٥٦٩

يتصوره حيوان أصلا ، ولذلك قال تعالى : (بل (منبها على أن الجواب : ليس لهم خلق ، بل عبدتهم أو أنتم في جعلهم شركاء ، هكذا كان الأصل ، ولكنه قال : (الظالمون) أي العريقون في الظلم ، تعميما وتنبيها على الوصف الذي أوجب لهم كونهم) في ظلال (عظيم جدا محيط بهم) مبين) أي في غاية الوضوح ، وهو كونهم يضعون الأشياء عنهم بجبال الهوى فلا حكمة لهم .

ولما ثبتت حكمته سبحانه وأنه أبعدهم عنها بما قضى عليهم من الجهل وغباوة العقل وآتاها من تاب ، واعتصم بآيات الكتاب ، توقع السامع الإخبار عن بعض من آتاه الحكمة من المتقدمين الذين كانوا من المحسنين ، فوضعوا الأشياء في مواضعها بأن آمنوا على قوله : (وهو العزيز الحكيم)) أو على مقدر تقديره : لأنا أضللناهم بحكمتنا وآتينا الحكمة الذين قبلوا آياتنا وأحسنوا التعبد لنا فما عبدوا صمنا ولا مالوا إلى لهو ، لأن ذلك عين الحكمة لكونه وضعا للشيء في محله ، فهو تقدير لتخصيص النبي (ص) .." (١)

" صفحة رقم ١١

بالرسالة : (ولقد آتينا (بما لنا من العظمة والحكمة) لقمان (وهو عبد من عبيدنا) الحكمة (وهو العلم المؤيد بالعمل والعمل المحكم بالعلم ، وقال الحرالي : هي العلم بالأمر الذي لأجله وجب الحكم ، والحكم الحمل على جميع أنواع الصبر والمصابرة ظاهرا بالإيالة العالية ، ولا يتم الحكم وتستوي الحكمة إلا بحسب سعة العلم ، وقال ابن ميلق : إن مدارها على إصابة الحق والصواب في القول والعمل ، ولهذا قال ابن قتيبة : لا يقال لشخص حكيما حتى تجتمع له الحكمة في القول والفعل ، قال : ولا يسمى المتكلم بالحكمة حكيما حتى يكون عاملا بها – انتهى .

ومن بليغ حكمته ما أسنده صاحب الفردوس عن ابن عمر رضي الله عنهما ان النبي (ص) قال : (حقا أقول لم يكن لقمان نبيا ، ولكن كان عبدا ضمضامة كثير التفكر حسن اليقين ، أحب الله فأحبه ، فمن عليه بالحكمة ، كان نائما نصف النهار إذ جاءه نداء ، قيل : يا لقمان ، هل لك أن يجعلك الله خليفة في الأرض تحكم بين الناس بالحق ، فأجاب : إن خيرني ربي قبلت العافية ولم أقبل البلاء ، وإن عزم علي فسمعا وطاعة ، فإني أعلم أنه أن فعل ذلك ربي عصمني وأعانني ، فقالت الملائكة بصوت لا يراهم : لم يا لقمان ؟ قال : لأن الحاكم بأشد المنازل وأكدرها ، يغشاه الظلم من كل مكان ، إذ يعدل فبالحري أن

---

(١) نظم الدرر . (– ت: عبدالرزاق غالب)، ٦/١٠

ينجو ، وإن أخطأ أخطأ طريق الجنة ، ومن يكن في الدنيا ذليلا خير من أن يكون شريفا ، ومن تخير الدنيا على الآخرة تفتنه الدنيا ولا يصيب الآخرة ، فعجبت الملائكة من حسن منطقته ، فنام نومة فأعطي الحكمة فانتبه يتكلم بها) .

وفي الفردوس عن مكارم الأخلاق لأبي بكر بن لال عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وآله قال : (الحكمة عشرة اجزاء تسعة منها في العزلة وواحد في الصمت) وقال لقمان : لا مال كصحة ولا نعيم كطيب نفس ، وقال : ضرب الوالد لولده كالسماء للزرع ، وقيل له : أي الناس شر ؟ قال : الذي لا يبالي أن يراه الناس مسيئا ، وقيل له : ما أقبح وجهك فقال : تعيب النقش أو النقاش ، وقال البغوي : إنه قيل له : لم بلغت ما بلغت ؟ قال : بصدق الحديث وأداء الأمانة وترك ما لا يعنيني – انتهى .

فهو سبحانه من حكمته وحكمه أن يرفع ما يشاء بما يعلمه منه سلامه الطبع وإن كان عبدا فلا يدع أن يختص محمدا (صلى الله عليه وسلم) ذا النسب العالي والمنصب المنيف في كل خلق شريف بالرسالة من بين قريش وإن لم يكن من أهل الدنيا المتعظمين بها ، ." (١)

" صفحة رقم ١٢

قال ابن ميلق : من حكمته سبحانه أن يجمع بين أثرى عدله وفضله ، وأن يعاقب بينهما في الظهور فيذل ويعز ويفقر ويغني ويسقم ويشفي ويفني ويبقي إلى غير ذلك ، فما من سابق عدل إلا له لحق فضل ، ولا سابق فضل إلا له لاحق عدل ، غير أن أثر العدل والفضل فد يتعلق بالبواطن خاصة ، وقدج يتعلق أحدهما بالظاهر والآخر بالباطن ، وقد يكون اختلاف تعلقمها في حالة واحدة ، وقد يكون على البدل ، وعلى قدر تعلق الأثر السابق يكون تعلق الأثر اللاحق .

ولما كانت الحكمة قاضية بذلك ، أجرى الله سبحانه آثارعدله على ظواهر أصفيائه دون بواطنهم ، ثم عقبت ذلك بإيراد آثار فضله على بواطنهم وظواهرهم حتى صار من قاعدة الحكمة الإلهية تفويض ممالك الأرض للمستضعفين فيها كالنجاشي حيث بيع في صغره ، وذلك كثير موجود بالاستقرار ، فمن كمال تربية الحكيم لمن يريد إعلاء شأنه أن يجري على ظاهره من أثر العدل ما فيه تكميل لهم وتنوير لمداركهم وتطهير لوجودهم وتهذيب وتاديب – إلى غير ذلك – من فؤائد التربية ، ومن تتبع أحوال الأكابر من آدم عليه السلام وهلم جرا رأى من حسن بلاء الله سبحانه وتعالى لهم ما يشهد لما قررته بالصحة إن شاء الله تعالى

---

(١) نظم الدرر . (– ت: عبدالرزاق غالب)، ٦/١١

– انتهى .

ولما كانت الحكمة هي الإقبال على الله قال : (أن اشكر (وهو وإن كان تقديره : قلنا له كذا ، يؤول إلى (آتيناه الشكر) وصرف الكلام إلى الأسم الأعظم الذي لم يتسم به غيره سبحانه دفعا للتعنت ، ونقلا عن مظهر العظمة إلى أعظم منها فقال : (لله (بأن وفقناه له بنا سبناه له من الأمر به لأن **الحكمة في** الحقيقة هي القيام بالشكر لا الإيصاء به ، ويمكن أن تكون (أن) مصدرية ، ويكون التقدير : آتيناه إياها بسبب الشكر ، وعبر بفعل الأمر إعلاما بأن شكره كان لامتثال الأمر ليكون أعلى .

ولما كان التقدير : فبادر وشكر ، فما نفع إلا نفسه ، كما أنه لو كفر ما ضر إلا نفسه ، عطف عليه معرفا أنه غني عن شكر الشاكرين قوله معبرا بالمضارع الدال على أن من اقبل عليه – في أي زمان كان – يلقاه ويكون معروفه له دائما بدوام العمل : (ومن يشكر) أي يجدد الشكر ويتعاهد به نفسه كائنا من كان) فإنما يشكر) أي يفعل ذلك) لنفسه) أي فإنما ينفع نفسه ، فإن الله يزيده من فضله فإن الله شكور مجيد) ومن كفر (فإنما يضر نفسه ، وعبر بالماضي إشارة إلى أن من وقع منه كفر ولو مرة جوزي بالإعراض عنه) فإن الله (عبر الأسم الأعظم لأنه في سياق الحكمة ، والحكيم من أدام استحضار صفات الجلال والجمال فغلب خوفه رجاءه ما دام في دار الأكدار) غني (عن الشكر وغيره) حميد) أي له جميع المحامد وإن كفره جميع الخلائق ، فإن." (١)

" صفحة رقم ٢٣

العفة ، والثالثة الشجاعة ، فأمهات الفضائل هي هذه الثلاث ، وما سوى ذلك إنما هو من تفريعاتها وتركيباتها ، وكل منها وكل منها محتوش بطر في إفراط وتفريط هما رذيلتان ، أما الحكمة فهي معرفة الحقائق على ما هي بقدر الاستطاعة ، وهي العلم النافع المعبر عنه بمعرفة النفس ما لها وما عيلها المشار إليه بقوله تعالى :

٧٧ ( ) ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا ( ) ٧

[البقرة : ٢٦٩] وإفراطها الجزبرة ، وهي استعمال الفكر فيما لا ينبغي كالمتشابهات ، وعلى وجه لا ينبغي ، كالمخالفة الشرائع – نعوذ بالله من علم لا ينفع قلت : وهي بجيم ثم مهملة ثم موحدة ثم زاي مأخوذة من الجزبر – بالضم ، وهو الخب ، أي الخداع الخبيث – والله اعلم ، وتفريطها الغباوة التي هي تعطيل

---

(١) نظم الدرر . (– ت: عبدالرزاق غالب)، ١٢/٦

القوة الفكرية بالإرداة والوقوف على اكتساب العلوم النافعة ، وأما الشجاعة فيه انقياد السبعية للناطقة ليكون إقدامها على حسب الروية من غير اضطراب في الأمور الماثلة ، حتى يكون فعلها جميلا ، وصبرها محمودا ، وإفراطها التهور ، أي الإقدام على ما ينبغي ، وتفريطها الجبن ، أي الحذر عما لا ينبغي ، وأما العفة فهي انقياد البهيمة للناطقة ، لتكون تصرفاتها بحسب اقتضاء الناطقة ، لتسلم عن استبعاد الهوى إياها ، واستخدام اللذات ، وإفراطها الخلاعة والفجور ، أي الوقوع في ازدياد اللذات على ما يجب ، وتفريطها الجمود ، أي السكوت عن طلب الذات بقدر ما رخص فيه العقل والشرع إيثارا لا خلقة ، فالأوساط فضائل ، والأطراف رذائل ، وإذا امتزجت الفضائل الثلاث حصلت من اجتماعها حالة فضائل ، والأطراف رذائل ، وإذا امتزجت الفضائل الثلاث حصلت من اجتماعها حالة متشابهة هي العدالة ، فبهذا الاعتبار عبر عن العدالة بالوساطة ، أي في قوله تعالى :

٧٧ ( ) وكذلك جعلناكم أمة وسطا ( ) ٧

[البقرة : ١٤٣] وإليه أشير بقوله عليه الصلاة والسلام (خير الأمور أوساطها) **والحكمة في** النفس البهيمية بقاء البدن الذي هو مركب النفس الناطقة ليصل إلى كمالها اللائق بها ، ومقصدها المتوجه إليه ، وفي السبعية كسر البهيمية وقهرها ودفع الفساد المتوقع من استيلائها ، واشترط التوسط في افعالها لئلا تستبعد الناطقة هواهما وتصرفاها عن كمالها ومقصدها – انتهى .

ولما انقضت هذه الجمل ، رافعة أعناقها على المشتري وزحل ، قابلة لمن يريد عملها مع الكسل ، والضجر في الفكر والملل ، وأين الثريا من يد المتناول ، وكان قد أخبر سبحانه وتعالى في أول السورة أن الآيات المسموعة هدى لقوم وضلال لآخرين ، وكان من الغرائب أن شيئا واحدا يؤثر شيئين متضادين ، وأتبع ذلك ما دل على أنه من بالغ الحكمة بوجوه مرضية مشرقة مضيئة ، لكنها بمسالك دقيقة وإشارات خفية ، إلى أن." (١)

" صفحة رقم ١٠٣

ولما استعار للمعصية الرجس ، استعار للطاعة الطهر ، ترغيبا لأصحاب الطباع السليمة والعقول المستقيمة ، في الطاعة ، وتنفيرا لهم عن المعصية فقال : (ويطهركم) أي يفعل في طهركم بالصيانة عن جميع القاذورات الحسية والمعنوية فعل المبالغ فيه ، وزاد ذلك عظما بالمصدر فقال : (تطهيرا (.

---

(١) نظم الدرر . (– ت: عبدالرزاق غالب)، ٢٣/٦

ولما ذكر ذلك إلى أن ختم بالتطهير ، أتبعه التذكير بما أنعم سبحانه به مما أثره التطهير من التأهيل لمشاهدة ما يتكرر من تردد الملائكة بنزول الوحي الذي هو السبب في كل طهر ظاهر وباطن ، فقال مخصصا من السياق لأجلهن رضي الله عنهن ، منبها لهن على أن بيوتهن مهابط الوحي ومعادن الأسرار : (واذكرن) أي في أنفسكن ذكرا دائما ، واذكرنه لغيركن على جهة الوعظ والتعليم .

ولما كانت العناية بالمتلو ، بينها بإسناد الفعل إليه لبيان أنه عمدة الجملة فقال بانيا للمفعول : (ما يتلى) أي يتابع ويوالي ذكره والتخلق به ، وأشار لهن إلى ما خصهن منه من الشرف فقال : (في بيوتكن) أي بواسطة النبي (صلى الله عليه وسلم) الذي خيركن) من آيات الله (الذي لا أعظم منه .

ولما كان المراد بذلك القرآن ، عطف عليه ما هو أعم منه ، فقال مبينا لشدة الاهتمام به بإدخاله في جملة المتلو اعتمادا على أن العامل فيه معروف لأن التلاوة لا يقال في غير الكتاب : (والحكمة) أي ويبث وينشر من العلم المزين بالعمل والعمل المتقن بالعلم ، ولا تنسين شيئا من ذلك .

ولما كان السياق للإعراض عن الدنيا ، وكانمت الحكمة منفردة عنها ، أشار بختام الآية إلى أنها مع كونها محصلة لفوز الأخرى جالبة لخير الدنيا ، فقال مؤكدا ردعا لمن يشك في أن الرفعة يوصل إليها بضدها ونحو ذلك مما تضمنه الخبر من جليل العبر : (إن الله) أي والذي له جميع العظمة) كان) أي لم يزل) لطيفا) أي يوصل إلى المقاصد بوسائل االأضداد) خبيرا) أي يدق علمه عن إدراك الأفكار ، فهو يجعل الإعراض عن الدنيا جالبا لها على أجمل الطرائق وأكمل الخلائق وإن رغمت أنوف جميع الخلائق ، ويعلم من يصلح لبيت النبي (صلى الله عليه وسلم) ومن لا يصلح ، وما يصلح الناس دنيا ودينا وما لا يصلحهم ، والطرق الموصلة إلى كل ما قضاه وقدره وإن كانت على غير ما يألفه الناس (من انقطع إلى الله كفاه كل مؤنة ورزقه من حيث لا يحتسب) رواه الطبراني في الصغير وابن أبي الدنيا والبيهقي في الشعب عن عمران بن حصين رضي الله عنه (من توكل على الله كفاه ، ومن انقطع إلى الدنيا وكله الله إليها) - رواه صاحب الفردوس وأبو الشيخ ابن حيان في كتاب الثواب عن عمران رضي الله عنه أيضا ، ولقد صدق الله سبحانه وعده في لطفه وحقق بره في خبره بأن فتح على نبيه (صلى الله عليه وسلم) بعد ذلك خيبر ، فأفاض." (١)

---

(١) نظم الدرر . (- ت: عبدالرزاق غالب)، ١٠٣/٦

" صفحة رقم ١٥٠

بالكتاب والرسول ، وأنه أشير في هذه السورة إلى الإيجاد الثاني لانسياق الكلام إلى إثبات الحشر والرد على منكري الساعة حيث قال سبحانه) وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربي (انتهى ، وقد علم مما قررته أنها من أولها مشيرة إلى ذلك على طريق البرهان .

وقال أبو جعفر بن الزبير : افتتحت بالحمد لله لما أعقب بها ما انطوت عليه سورة الأحزاب من عظيم الآلاء وجليل النعماء حس ما أبين - آنفا - يعني في آخر كلامه على سورة الأحزاب - فكان مظنة الحمد على ما منح عباده المؤمنين وأعطاهم فقال تعالى) الحمد لله الذي له ما في السموات وما في الأرض (ملكا واختراعا ، وقد أشار هذا إلى إرغام من توقف منقطعا عن فهم تصرفه سبحانه في عباده بما تقدم وتفريقهم بحسب ما شاء فكأن قد قيل : إذا كانوا له ملكا وعبيدا ، فلا يتوقف في فعله بهم ما فعل من تيسير للحسنى أو لغير ذلك مما شاءه بهم على فهم علته واستطلاع سببه ، بل يفعل بهم ما شاء وأراد من غير حجر ولا منع) وهو الحكيم الخبير (وجه الحكمة في ذلك التي خفيت عنكم ، وأشار قوله (وله الحمد في الآخرة) إلى أنه سيطلع عباده المؤمنين - من موجبات حمده ما يمنحهم أو يضاعف لهم من الجزاء أو عظيم الثواب في الآخرة - على ما لم تبلغه عقولهم في الدنيا ولا وفت به أفكارهم

٧٧ ( ) فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين ( ) ٧

[السجدة : ١٧] ثم أتبع سبحانه ما تقدم من حمده على ما هو أهله ببسط شواهد حكمته وعلمه فقال تعالى) يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيه (إلى قوله) وهو الحيم (فبرحمته وغفرانه أنال عباده المؤمنين ما خصهم به وأعطاهم ، فله الحمد الذي هو أهله ، ثم أتبع هذا بذكر إمهاله من كذب وكفر مع عظيم اجترائهم لتتبين سعة رحمته ومغفرته فقال تعالى) وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة (إلى قوله : (إن في ذلك لآية لكل عبد منيب) أي إن في إمهاله سبحانه لهؤلاء بعد عتوهم واستهزائهم في قولهم) لا تأتينا الساعة (وقوله : (هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق أنكم لفي خلق جديد (وإغضائهم عن الاعتبار بما بين أيديهم من السماء والأرض وأمنهم أخذهم من أي الجهات وفي إمهالهم وإدرار أرزاقهم مع عظيم مرتكبهم آيات لمن أناب واعتبر ، ثم بسط لعباده المؤمنين من ذكر الاية ونعمه وتصريفه في مخلوقاته ما يوضح استيلاء قهره وملكه ، ويشير إلى عظيم ملكه كما أعلم في قوله سبحانه) الحمد لله الذي له في السموات وما في الأرض (فقال سبحانه) ولقد آتينا داود منا

فضلا يا جبال أوبي معه الطير وألنا له الحديد (ثم قال) ولسليمان الريح (إلى قوله : (اعملوا آل داود شكرا (ثم أتبع ذلك بذكر حال لم يشكر فذكر." (١)

" صفحة رقم ٢٠٢

ولما وصف سبحانه نفسه المقدس بالقدرة الكاملة ، دل على ذلك بما يشاهده كل أحد في نفسه من السعة والضيق مع العجز عن دفع شيء من ذلك أو اقتناصه ، فقال مستأنفا أو معللا مستنتجا : (ما) أي مهما) يفتح الله) أي الذي لا يكافئه شيء .

ولما كان كل شيء من الوجود لأجل الناس قال : (للناس (ولما كان الإنعام مقصودا بالذات محبوبا ، وكانت رحمته سبحانه قد غلبت غضبه ، صرح به فقال مبينا للشرط في موضع الحال من ضميره أي يفتحه كائنا : (من رحمة) أي من الأرزاق الحسية والمعنوية من اللطائف والمعارف التي لا تدخل تحت حصر دقت أو جلت فيرسلها) فلا ممسك لها) أي الرحمة بعد فتحه كما يعلمه كل أحد في نفسه أنه إذا حصل له خير لا يعدم من يود أنه لم يحصل ، ولو قدر على إزالته لأزاله ، ولا يقدر على تأثير ما فيه .

ولما كان حبس النعمة مكروها لم يصرح به ، ترك الشرط على عمومه بعد أن فسر الشرط الأول بالرحمة دلالة على مزيد الاعتناء بها إيذانا بأن رحمته سبقت غضبه فقال : (وما يمسك) أي من رحمة أو نعمة بإغلاق باب الخلق عنه) فلا مرسل له) أي الذي أمسكه بمثل البرهان الماضي في الرحمة .

ولما كان ربما ادعى فجورا حال إمساك الرحمة أو النقمة أنه الممسك قال : (من بعده) أي بعد إمساكه ، فمن كان في يده شيء فليمسك ما أتى به الله حال إيجاده بأن يعدمه .

ولما كان هذا ظاهرا في العزة في أمر الناس والحكمة في تدبيرهم عمم فقال : (وهو) أي هو فاعل ذلك والحال أنه وحده) العزيز) أي القادر على الإمساك والأرسال الغالب لكل شيء ولا غالب له) الحكيم (الذي يفعل في كل من الإمساك والأرسال وغيرهما ما يقتضيه علمه به ويتقن ما أراد على قوانين الحكمة ، فلا يستطاع نفض شيء منه .

ولما بين بما يشاهده كل أحد في نفسه أنه المنعم وحده .

أمر بذكر نعمته بالاعتراف أنها منه ، فإن الذكر يقود إلى الشكر ، وهو قيد الموجود وصيد المعدوم المفقود ، فقال : (يا أيها الناس) أي الذين فيهم أهلية الاضطراب عامة) اذكروا (بالقلب واللسان) نعمت الله

---

(١) نظم الدرر . (– ت: عبدالرزاق غالب)، ١٥٠/٦

) أي الذي لا منعم في الحقيقة سواه ، ولما كانت نعمة عامة غامرة من كل جانب قال : (عليكم) أي في دفع من المحن ، وصنع ما صنع من المنن ، على ما تقدم في الفتح والإمساك لتشكروه ولا تكفروه ، والذي يخص أهل مكة بعد ما شاركوا به الناس – إسكانهم الحرم ، وحفظهم من جميع الأمم ، وتشريفهم بالبيت ، وذلك موجب لأن يكونوا أشكر الناس .

ولما أمر بذكر نعمته ، أكد التعريف بأنها منه وحده على وجه بين عزته وحكمته ، ." (١)

" صفحة رقم ٤٦٥

معنى ما تقدم من كذبه أنه ما جاءني بيان ولا كان لي وقت أتمكن فيه من العمل ، قال تعالى مكذبا له : (بلى) أي قد كان لك الأمران كلاهما) قد جاءتك (ولفت القول إلى التكلم مع تجريد الضمير عن مظهر العظمة لما تقدم من موجبات استحضارها إعلاما بتناهي الغضب بعد لفته إلى تذكير النفس المخاطبة المشير إلى أنها فعلت في العصيان فعل الأقوياء الشداد من التكذيب والكبر مع القدرة في الظاهر على تأمل الآيات ، واستيضاح الدلالات ، والمشي على طرق الهدايات بعد ما أشار تأنيثها إلى ضعفها عن حمل العذاب وغلبة النقائص لها فقال : (آياتي (على عظمتها في البيان الذي ليس مثله بيان في وقت كنت فيه متمكنا من العمل بالجنان واللسان والأركان) فكذبت بها (جرأة على الله وقلة مبالاة بالعواقب) واستكبرت) أي عددت نفسك كبيرا عن قبولها) وكنت) أي كونا كأنه جبلة لك لشدة توغلك فيه وحرصك عليه) من الكافرين) أي العريقين في ستر ما ظهر من أنوار الهداية للتكذيب تكبرا لم يكن لك مانع من الإحسان إلا ذلك لا عدم البيان ولا عدم الزمان القابل للعمل .

ولما كان قد تعمد الكذب عند مس العذاب في عدم البيان والوقت القابل ، قال تعالى محذرا من حاله وحال أمثاله ، ولفت القول إلى من لا يفهمه حق فهمه غيره تسلية له وزيادة في التخويف لغيره : (ويوم القيامة) أي الذي لا يصح في الحكمة تركه) ترى) أي يا محسن) الذين كذبوا (وزاد في تقبيح حالهم في اجترائهم بلفت القول إلى الاسم الأعظم فقال : (على الله) أي الحائز لجميع صفات الكمال بأن وصفوه بما لا يليق به وهو منزه عنه من أنه فعل ما لا يليق بالحكمة من التكليف مع عدم البيان ، ومن خلق يعدو بعضكم على بعض من غير حساب يقع فيه الإنصاف بين الظالم والمظلوم ، أو ادعوا له شريكا أو نحو ذلك ، قال ابن الجوزي : وقال الحسن : هم الذين يقولون : إن شئنا فعلنا ، وإن شئنا لم نفعل –

(١) نظم الدرر . (– ت: عبدالرزاق غالب)، ٦/٢٠٢

انتهى ، وكأنه عنى المعتزلة الذين اعتزلوا مجلسه وابتدعوا قولهم : إنهم يخلقون أفعالهم ، ويدخل فيه كل من تكلم في الدين بجهل ، وكل من كذب وهو يعلم أنه كاذب في أي شيء كان ، فإنه من حيث إن فعله فعل من يظن أن الله لا يعلم كذبه أو لا يقدر على جزائه كأنه كذب على الله – تراهم بالعين حال كونهم) وجوههم مسودة (مبتدأ وخبر ، وهو حال الموصول أي ثابت سوادها زائد البشاعة والمعظم في الشناعة بجعل ذلك إمارة عليهم ليعرفهم من يراهم بما كذبوا في الدنيا فإنهم لم يستحيوا من الكذب المخزي ، أليس ذلك زاجرا عن مطلق الكذب فكيف بالكذب على الله الذي جهنم سجنه فكيف بالمتكبرين عليه) أليس في جهنم) أي التي تلقى فيها بالتهجم والعبوسة) مثوى) أي منزل) للمتكبرين (الذي تكبروا على اتباع أمر الله .." (١)

" صفحة رقم ٦٤٦

) فما له (بسبب إظلال له جميع صفات الجلال والإكرام ، وأعرق في النفي بقوله : (من سبيل) أي تنجية من الضلال ولا مما تسبب عنه من العذب .

ولما كان هذا ، أنتج قطعا قوله : (استجيبوا) أي اطلبوا الإجابة وأوجدوها ، ولفت القول إلى الوصف الإحساني تذكيرا بما يحث على الوفاق ، ويخجل من الخلاف والشقاق ، فقال : (لربكم (الذي لم تروا إحسانا إلا وهو منه فيما دعاكم إليه برسوله (صلى الله عليه وسلم) من الوفاء بعهده في أمره ونهيه ، ولا تكونوا ممن ترك ذلك فتكونوا ممن علم أنه أضله فانسد عليه السبيل .

ولما كان الخوف من الفوت موجبا للمبادرة ، قال مشيرا بالجار إلى أنه يتعد بأدنى خير يكون في أدنى زمن يتصل بالموت : (من قبل أن يأتي يوم) أي يكون فيه ما لا يمكن معه فلاح ؛ ثم وصفه بقوله لافتا إلى الاسم الأعظم الجامع لأوصاف الإحسان والإنعام على المطعين والقهر والانتقام من العاصين : (لا مرد) أي لا رد ولا موضع رد ولا زمان رد) له (كائن) من الله) أي الذي له جميع العظمة وإذا لم يكن له مرد منه لم يكن مرد من غيره ، ومتى ذاك أنتج قوله : (ما لكم (وأعرق في النفي بقوله : (من ملجأ يومئذ) أي مكان تلجؤون إليه في ذلك اليوم وحصن تتحصنون فيه من شيء تكرهونه ، وزاد في التأكيد بإعادة النافي وما في حيزه إبلاغا في التحذير فقال : (وما لكم من نكير) أي من إنكار يمكنكم به من النجاة لأن الحفظة يشهدون عليكم فإن صدقتموهم وإلا شهدت عليكم أعضاؤكم وجلودكم ، ولا لكم من

---

(١) نظم الدرر . (– ت: عبدالرزاق غالب)، ٤٦٥/٦

أحد ينكر شيئا مما تتجاوزون به ليخلصكم منه .

ولما أنهى ما قدمه في قوله) شرع لكم من الدين (نهايته ، ودل عليه وعلى كل ما قادته الحكمة في حيزه حتى لم يبق لأحد شبهة في شيء من الأشياء ، كان ذلك سببا لتهديدهم على الإعراض عنه وتسلية رسولهم (صلى الله عليه وسلم) فقال معرضا عن خطابهم إيذانا بشديد الغضب : (فإن أعرضوا) أي عن إجابة هذا الدعاء الذي وجبت إجابته والشرع الذي وضحت وصحت طريقته بنا تأيد به من الحجج ، ولفت القول إلى مظهر العظمة دفعا لما قد يوهم الإرسال من الحاجة فقال : (فما أرسلناك (مع ما لنا من العظمة) عليهم حفيظا) أي نقهرهم على امتثال ما أرسلناك به .

ولما كان التقدير .

فأعرض عن غير إبلاغهم لأنا إنما أرسلناك مبلغا ، وضع موضعه : (إن) أي ما) عليك إلا البلاغ (لما أرسلناك به ، وأما الهداية والإضلال فإلينا .

ولنا ضمن لهذه الآية ما أرسله له ، أتبعه ما جبل عليه الإنسان بيانا لأنه (صلى الله عليه وسلم) لا." (١)

" صفحة رقم ٢٣

ضلالهم وتيههم ولم أعاجلهم بالعقوبة لأني) متعت (بإفراده ضميرهم سبحانه لأن التمتيع يتضمن إطالة العمر التي لا يقدر عليها ظاهرا ولا باطنا سواه وأما الانتقام فقد يجعله بأيدي عباده من الملائكة وغيرهم فهو من وادي

٧٧ ( ) سنستدرجهم من حيث لا يعلمون وأملي لهم إن كيدي متين ( ) ٧

[القلم : ٤٥]) هؤلاء) أي الذين بحضرتك من المشركين وأعداء الدين) وآباءهم (فمددت من الأعمار مع سلامة الأبدان ومتانة الأركان ، وإسباغ النعم والإعفاء من البلايا والنقم ، فأبطرتهم نعمي وأزهدتهم أيادي جودي وكرمي ، وتمادى بهم ركوب ذلك الباطل) حتى جاءهم الحق (بهذا الدين المتين) ورسول مبين) أي أمره ظاهر في نفسه ، لو لم تكن فيه آيات مبينة كانت بديهية تنبئك بالخبر وهو مع ظهوره ف نفسه مظهر لكل معنى يحتاج إليه ، و) متعت (بالخطاب من لسان الرسول المنزل عليه هذا الكتاب لأنه يدعو انتهازا للفرصة لعله يجاب بما يزيل الغصة يقول : يا رب قد أقمتهم لمن يجهل العواقب في مقام من يرجى رجوعه فما قضيت بذلك بل متعت إلى آخره .

---

(١) نظم الدرر . (– ت: عبدالرزاق غالب)، ٦/٦٤٦

ولما كان التقدير : فلم يردهم التمتيع بإدرار النعم عليهم وإسراعنا بها إليهم مع وضوح الأمر لهم ، بل كان الإنعام عليهم سببا لبطرهم ، وكان البطر سببا لتماديهم على الاستعانة بنعمتنا على عصيان أمرنا وهم يدعون أنهم أتبع الناس للحق وأكفهم عن الباطل ، عطف عليه قوله ؛) ولما جاءهم الحق) أي الكامل في حقيته بمطابقة الواقع إياه من غير إلباس ولا اشتباه ، الظاهر في كماله لكل من له أدنى لب بما عليه القرآن من الإعجاز في نظنه ، وما عليه ما يدعو إليه من الحكمة من جميع حكمه ، والتصادق مع ما يعلمونه من دين إبراهيم عليه." (١)

" صفحة رقم ٤٥

ولما أمرهم بطاعته ، علل ذلك بما أزال تهمته ما يطاع فيه ، فقال مؤكدا لما في أعمالهم من المجاملة المؤذنة بالتكذيب : (إن الله) أي الذي اختص بالجلال والجمال ، فكان أهلا لأن يتقى) هو) أي وحده) ربي وربكم (نحن في العبودية بإحسانه إلينا وسيادته لنا على حد سواء ، فلولا أنه أرسلني لما خصني عنكم بهذه الآيات البينات) فاعبدوه (بما آمركم به لأنه صدقني في أمركم باتباع ما ظهر على يدي فصار هو الآمر لا أنا ولما كان دعاؤه إلى الله بما لا حظ له عليه الصلاة والسلام فيه دل قطعيا على صدقه ولا سيما وقد اقترن بالمعجزات مع كونه في نفسه في غاية الخفية لا يستطاع بعضه بوجه ، أشار إلى ذلك كله على وجه الاستنتاج مما مضى مرغبا فيه دالا على اقتضائه الطاعة) هذا) أي الأمر العظيم الذي دعوتكم إليه) صراط أي طريق واسع جدا وضاح) مسقتيم (لا عوج له .

ذكر ما يدل على انه أتبى بالحكمة من الإنجيل

: قال متى أحد مترجميه الأربعة وقد خلطت تراجمهم وأغلب السياق لمتى : فلما خرج يسوع وجاء إلى نواحي صور وصيدا إذا بامرأة كنعانية – وقال مرقس : يونانية – خرجت من تلك التخوم تصيح وتقول : ارحمني يا رب يا ابن داود ابنتي بها شيطان رديء ، فمل يجبها بكلمة ، فجاء تلاميذه وسألوه قائلين : اصرف هذه المرأة لأنها تصيح خلفنا ، أجاب وقال لهم : لم أرسل إلا إلى الخراف من بيت إسرائيل ، فأتت وسجدت له قائلة : يا رب أعني فأجاب : ليس هو جيدا أن يؤخذ خبز البنين فيعطى للكلاب ، فقالت : نعم يا رب ، والكلاب تأكل من الفتات الذي يسقط من موائد أربابها ، حينئذ أجاب يسوع وقال لها : يا امرأة عظيمة أمنتك يكون لك كما أردت ، فبرئت ابنتها منه تلك الساعة ، وقال مرقس : فقال لها

---

(١) نظم الدرر . (– ت: عبدالرزاق غالب)، ٢٣/٧

من أجل هذه الكلمة اذهبي ، قد خرج الشيطان من ابنتك ، فهذبت إلى ابنتها فوجدت الصبية على السرير والشيطان قد خرج منها ، فجاؤوا إليه بأخرس أصم فطلبوا إليه أن يضع يده عليه ، فأخرجوه وحده من الشعب ، وترك أصابعه في أذنيه ، وتفل ثم مس لسانه ونظر إلى السماء وشهد وقال : الفاثا الذي هو التفتح ، وللوقت انفتح سمعه وسمع ، وانحل رباط لسانه وتكلم مستويا ، ووصاهم أن لا يقولوا لأحد شيئا فأتاهم فكانوا ينكرون كثيرا ويبهتون جدا ، قائلين : ما أحسن كل شيء يصنع الخرس يتكلمون والصم يسمعون ، وقال مرقس : ثم جاء إلى بيت صيدا فقدموا إليه أعمى ، وطلبوا منه أن يلمسه ، فأخذ بيد الأعمى ثم أخرجه خارجا من القرية ، وتفل." (١)

" صفحة رقم ٢٣٠

ولما كان التقدير : فالله منعم بفضل ، بيده كل ضر ونفع ، عطف عليه قوله : (والله) أي المحيط بصفات الكمال) عليم) أي محيط العلم ، فهو يعلم أحوال المؤمنين وما بينهم من التفاضل) حكيم (بالغ الحكمة ، فهو يضع الأشياء في أوفق محالها وأتقنها ، فلذلك وضع نعمته من الرسالة والإيمان على حسب علمه وحكمته .

ولما كانت النميمة ونقل الأخبار الباطلة الذميمة ربما جرت فتنا وأوصلت إلى القتال ، وكان العليم الحكيم لا ينصب سببا إلا ذكر مسببه وأشار إلى دوائه ، وكان لا ينهى عن الشيء إلا من كان متهيئا له لما في جبلته من الداعي إليه ، فكان قد يواقعه ولو في وقت ، قال تعالى معلما لنا طريق **الحكمة في** دفع ما جرت إليه الأخبار الباطلة من القتال ، معبرا بأداة الشك إشارة إلى أن ما في حيزها لا ينبغي أن يقع بينهم ، ولا أن يذكروه إلا على سبيل الفرض : (وإن طائفتين) أي جماعتان بالفعل أو القوة جدير كل جماعة منهما بأن يجتمع على ما دهمها من الأمير بحيث تصير من شدة مراعاته كالطائفة حوله والمتحلقة به ، بحيث لا يدرى من شدة اجتماعها على ذلك أولها من آخرها) من المؤمنين) أي ممن هو معدود في عداد العريقين في الإيمان سواء كان هو عريقا أو فاعلا ما يطلق عليه به الاسم فقط .

ولما كانت الشناعة والفساد في قتال الجماعة أكثر ، عبر بضمير الجمع دون التثنية تصويرا لذلك بأقبح صورة فقال : (اقتتلوا) أي فاختلطوا بسبب القتال حتى كانوا كالفرقة الواحدة) فأصلحوا) أي فأوقعوا الإصلاح ليحصل الصلح .

---

(١) نظم الدرر . (– ت: عبدالرزاق غالب)، ٧/٤٥

ولما كانت العبرة في الصلح إذا وقع بين الطائفتين ما يسكن به الشر وإن تخلف شذان من الجانبين لا يعبأ بهم ، عبر بالتثنية دون الجمع فقال : (بينهما) أي بالوعظ والإرشاد الدنيوي والأخروي ، ولا تظنوا أن الباغي غير مؤمن فتجاوزوا فيه أمر الله .

ولما كان البغي من أشنع الأمور فكان ينبغي أن لم يلم به أحد ، عبر بأداة الشك إرشادا إلى ذلك فقال : (فإن بغت) أي أوقعت الإرادة السيئة الكائنة من النفوس التي لا تأمر بخير) إحداهما) أي الطائفتين) على الأخرى (فلم ترجع إلى حكم الله الذي خرجت عنه ولم تقبل الحق .

ولما كان الإضمار هنا ربما أوهم لبسا فتمسك به متعنت في أمر فساد ، أزال بالإظهار كل لبس فقال : (فقاتلوا) أي أوجدوا واطلبوا مقاتلة) التي (.

ولما كان القتال لا يجوز إلا بالاستمرار على البغي ، عبر بالمضارع إفهاما لأنه متى زال البغي ولو بالتوبة من غير شوكة حرم القتال فقال : (تبغي) أي توقع الإرادة وتصر عليها ، وأديموا القتال لها) حتى تفيء) أي ترجع مما صارت إليه من جر القطيعة الذي كأنه حر الشمس حين نسخه الظل إلى ما كانت فيه من البر والخير الذي هو كالظل الذي ينسخ الشمس ، وهو معنى قوله تعالى : (إلى أمر الله) أي التزام ما أمر به الملك." (١)

" صفحة رقم ٣٩٨

ينقطع ذلك ، ولم يذكر جريهما فكأنهما بحيث يرويان جنتهما ولا يبلغان الجري ، والنضخ دون الجري وفوق النضخ ، قال الأصبهاني : وأصل النضخ بالمعجمة – انتهى .

وكأنهما لمن تغرغر عيناه بالدمع فتمتلئان من غير جري ، وقال ابن برجان ما معناه أن حر (؟) عدم جريهما لكونهما على مثال جنة خريف ما ههنا وشتاء به لبعد عهدهما بنزول الماء وسكنا في أعمالق الأرض لينعكس بالنبع والفوران صاعدا مع أن الجنة لا مطر فيها) فبأي آلاء ربكما) أي نعم المربي البليغ الحكمة في تربية) تكذبان (أبنعمة الذوق من جهة ماوراء اللسان أم غيرها مما جعله مثالا لذلك من الأعين التي تفور ولا تجري والأنابيب المصنوعة لفوران لأنها بحيث تروق ناظرها لصعودها بقوة نبعها وترشيشها من النعم الكبار .

ولما ذكر الري والسبب فيه ، ذكر ما ينشأ عنه فقال : (فيهما فاكهة (الدنيا التي جعلت مثالا لهاتين

---

(١) نظم الدرر . (– ت: عبدالرزاق غالب)، ٧/٢٣٠

الجنتين فقال : (ونخل ورمان (فإن كلا منهما فاكهة وإدام ، فلذا خص تشريفا وتنبيها على ما فيهما من التفكه وأولاهما أعم نفعا وأعجب خلقا فلذا قدم) فبأي آلاء ربكما) أي نعم المحسن إليكما إيها الثقلان بجليل التربية) تكذبان (أبنعمة الذوق من اليمين أم من غيرها مما جعل مثالا لهذا من جنان الدنيا وغير ذلك .

ولما كان ما ذكر لا تكمل لذته إلا بالأنيس ، وكان قد ورد أنه يكون في بعض ثمار الجنة وحمل أشجارها نساء وولدان كما أن أمثال ذلك في بطن مياه الدنيا

٧٧ ( ) وجعلنا من الماء كل شيء حي ( ) ٧

[الأنبياء : ٣٠] قال جامعا على نحو ما مضى من الإشارة إلى أن الجنتين لكل واحد من أفراد هذا الصنف : (فيهن) أي الجنان الأربع أو الجنان التي خصت للنساء ، وجوز ابن برجان أن يكون الضمير للفاكهة والنخل والرمان فإنه يتكون منها نساء وولدان في داخل قشر الرمان ونحوه) خيرات) أي نساء بالغ ما فيهن من الخير ، أله خير مثقلا لأن (خير) الذي للتفضيل لا يجمع جمع سلامة ، ولعله خفف لاتصافهن بالخفة في وجودهن وجميع شأنهن ، ولكون هاتين الجنتين دون ما قبلهما) حسان) أي في غاية الجمال خلقا وخلقا) فبأي آلاء ربكما) أي نعم الكامل الإحسان إليكما) تكذبان (أبنعمة الذوق من جهة اليسار أمن من غيرها ممن جعله مثالا لتكوين النساء والولدان والملابس والحلي من ثمار الأشجار والزروع التي من المياه التي بها العيش ، ففيها التوليد وغير ذلك مما تظهره الكفرة لأهل العبرة لأن كل ما في الجنة ينشأ عن الكلمة من الرزق كما ينشأ عنه سبحانه في هذه الدار على تسبيب. . .

والحكمة ، ثم بينهن بقوله : (حور) أي ذوات أعين شديدة سواد السواد وشديدة بياض." (١)

" صفحة رقم ٤٨٥

وكذا الإفطار بحيض أو نفاس أو جنون بخلاف الإفطار بسفر أو مرض أو خوف على حكمل أو رضيع لأن الحيض معلوم فهو مستثنى شرعا ، وغيره مغيب للعقل – مزيل للتكليف ، وأما المرض ونحوه ففيه تعمد الإفطار مع وجود العقل .

ولما كان الإمساك عن المسيس قد يكون أوسع من الشهرين ، أدخل الجار فقال : (من قبل (وحل المصدر إفادة لمن يكون بعد المظاهرة فقال : (أن يتماسا (فإن جامع ليلا عصى ولم ينقطع التتابع .

---

(١) نظم الدرر . (– ت: عبدالرزاق غالب)، ٣٩٨/٧

ولما كان إطعام نفس قوت نصف يوم كإماتة نفسه بالصيام يوما قال تعالى : (فمن لم يستطع) أي يقدر على الصيام قدرة تامة – بما أشار إليه إظهار التاء لهرم أو مرض أو شبق مفرط يهيجه الصوم) فإطعام) أي فعليه إطعام) ستين مسيكنا (لكل مسكين ما يقوته نصف يوم ، وهو مد بمد النبي (صلى الله عليه وسلم) وذلك نحو نصف قدح بالمصري ، وهو ملء حفنتين بكفي معتدل الخلق من غالب قوت البلد ، وهو كما في الفطرة سواء ، وحذف قيد المماسة لذكره في الأولين ، وعلهل الحكمة في تخصيص هذا به أن ذكره في أول الخصال لا بد منه ، وإعادته في الثاني لطول مدته فالصبر عنه فيها مشقة ، وهذا يمكن أن يفعل في لحظة لطيفة لا مشقة للصبر فيها عن المماسة ، هذا إذا عاد ، فإن وصل الظهار بالطلاق أو مات أحدهما في الحال قبل إمكان الطلاق فلا كفارة ، قال البغوي : لأن العود في القول هو المخالفة ، وفسر ابن عباس رضي الله عنهما العود بالندم فقال : يندمون ويرجعون إلى الألفة ، وهذا يدل على ما قال الشافعي رضي الله عنه : فإن ظاهر عن الرجعية انعقد ظهاره فإن راجعها لزمته الكفارة لأن الرجعة عود .

ولما ذكر الحكم ، بين علته ترغيبا فيه فقال : (ذلك) أي الترخيص العظيم لكم والرفق بكم والبيان الشافي من أمر الله الذي هو موافق للحنيفية السمحة ملة أبيكم إبراهيم عليه الصلاة والسلام كاان) لتؤمنوا (أي وهذا الفعل العظيم الشاق ليتجدد إيمانكم ويتحقق وجوده) بالله) أي الملك الذي لا أمر لأحد معه فتطيعوه بالانسلاخ من فعل الجاهلية) ورسوله (الذي تعظيمه من تعظيمه وقد بعث بملة أبيه إبراهيم عليهما الصلاة والسلام ، فلو ترك هذا الحكم الشديد على ما كان عليه في الجاهلية لكان مشككا في البعث بتلك الملة السمحة .

ولما رغب في ها الحكم ، رهب من التهاون به فقال : (وتلك) أي هذه الأفعال المزكية وكل ما سلف من أمثالها في هذا الكتاب الأعظم) حدود الله) أي أوامر الملك الأعظم ونواهيه وأحكامه التي يجب امتثالها والتقيد بها لترعى حق رعايتها فالتزموها." (١)

" صفحة رقم ٥٤٤

فيها من الأبواب وأوساط الجدر وأطرافها وزواياها غير ذلك ، وكذا الخشاب والحداد في الخشب والحديد وهو البرئ ثم يأخذ الكل البناء فيضعها مواضعها إلى أن تقوم صورتها التي رسمها لمهندس أولا وقدرها ، ولا تقوم الصورة بالحق إلا إذا كانت محكمة بحسب الطاقة كما أن البناء يضع الحجارة أولا ثم يجعل

---

(١) نظم الدرر . (– ت: عبدالرزاق غالب)، ٤٨٥/٧

الخشب فوقها لا بالاتفاق بل بالحكمة ، ولو قلب ذلك لم تثبت الصورة ولم يكن لها الاسم إلا على أقل وجوه الضعف فكل من كان أحكم كان تصويره أعظم ، ولذلك لا مصور في الحقيقة إلا الله الخالق البارئ المصور سبحانه ، قال الرازي في اللوامع : والتصير موجود في كل أجزاء العالم وإن صغر حتى في الذرة والنملة بل في كل عضو من أعضاء النملة ، بل الكلام يطول في طبقات العين وعددها وهيئاتها وشكلها ومقاديرها وألوانها ، ووجه الحكمة فيها ، فمن لم يعرف صورتها لم يعرف مصورها إلا بالاسم المجمل ، وهكذا القول في كل صورة لكل حيوان ونبات بل لكل جزء من نبات وحيوان .

ولما علم من هذا أنه لا بد أن يكون المصور بالغ الحكمة ، أردفه بقوله تعالى : (له) أي خاصة لا لغيره) الأسماء الحسنى (اي من الحكيم وغيره ممن لا يتم التصوير إلا به ولا تدركونه أنتم حق إدراكه .

ولما أخبر سبحانه أول السورة أن الكائنات أوجدت تسبيحه خضوعا لعزته وحمته ، ودل على ذلك بما تقدم إلى أن أسمعه الآذان الواعية بالأسماء الحسنى ، دل على دوام اتصافه بذلك من يحتاج لما له من النقص من الخلق إلى التذكير فعبر بالمضارع فقال : (يسبح) أي يكرر التنزيه الأعظم من كل شائبة نقص على سبيل التجدد والاستمرار) له) أي على وجه التخصيص بما أفهمه قصر المتعدي وتعديته باللام) ما في السماوات (ولما كان هذا المنزه الذي استجلى التنزيه من الأسماء الحسنى قد أشرقت أنفاسه ولطفت أقطاره وأغراسه حتى صار علويا فرأى الأرض عالية كالسماء لما شاركتها به في الدلالة على تمام كماله لجعلها معها لأنه لا يحتاج إلى تأكيد كالشيء الواحدج بإسقاط (ما) وألصقها بها إلاحة إلى ذلك فقال : (والأرض (فمن تأمل الوجود مجملا ومفصلا ، علم تسبيح ذلك كله بنعوت الكمال وأوصاف الجلال والجمال) وهو (اي والحال أنه وحده) العزيز) أي الذي يغلب كل شيء ولا يغلبه شيء ولا يوجد له مثل ، ويعز الوصول إليه ويشتد الحاجة إليه .

ولما كان من يكون بهذه الصفة لا يتم أمره وثبت كل ما يريده إلا إن كان على قانون الحكمة قال : (الحكيم (من الحكمة وهي إتقان الحكم وإنهاؤها إلى جد لا يمكن نقضهن والحكم قال الحرالي : المنع عما يترامى إليه المحكوم إيالة عليه وحمله." (١)

" صفحة رقم ٢٣١

العشرات ، فصار مجموعهما جامعا لأكثر القليل وأقل الكثير ، فكان أجمع الأعداد ، فكان إشارة إلى أن

---

(١) نظم الدرر . (– ت: عبدالرزاق غالب)، ٥٤٤/٧

خزنتها أجمع الجموع ، ويروى عن ابن مسعود رضي الله عنه أن قراءة البسملة تنجي من خزنة النار لإنها تسعة عشر حرفا ، كل حرف منها لملك منهم .

المدثر : (٣١) وما جعلنا أصحاب. .. . . .

) وما جعلنآ أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيمانا ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذآ أراد الله بهذا مثلا كذلك يضل الله من يشآء ويهدي من يشآء وما يعلم جنود ربك إلا هو وما هي إلا ذكرى للبشر (( )

ولما كان هذا غير مميز للمعدود ، وكانت الحكمة في تعيين هذا العد غير ظاهر ، وكان هذا العدد مما يستقله المتعنت فيزيده كفرا ، قال تعالى مبينا لذلك : (وما جعلنا) أي بما لنا من العظمة وإن خفي وجه العظمة فيه على من عمي قلبه) أصحاب النار) أي خزنتها) إلا ملائكتة) أي إنهم ليسوا من جنس المعذبين فيرقوا لهم ويطيق المعذبون محاولتهم أو يستريحوا إليهم وهم أقوى الخلق ، وقد تكرر عليكم ذكرهم وعلمتم أوصافهم وأنهم ليسو كالبشر بل الواحد منم يصيح صيحة واحدة فيهلك مدينة كاملة كما وقع لثمود ، فكيف إذا كا كل واحد من هؤلاء الخزنة رئيسا تحت يده من الجنود ما لا يحصيه إلا الله تعالى) وما جعلنا (على ما لنا من العظمة) عدتهم) أي مذكورة ومحصورة فيما ذكرنا) إلا فتنة) أي حالة مخالطة مميلة محيلة) للذين كفروا) أي أوجدوا هذا الوصف ولو على أدنى الوجوه ، فإنهم يستقلونه ويستهزئون به ويتعنتون أنواعا من التعنت بحيث إن بعض أغبياء قريش وهو أبو جهل ، قال : ثكلتكم أمهاتكم ، أسمع ابن أبي كبشة يقول كذا وأنتم أدلهم ، أيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا برجل منهم ، فقال أبو الأشد بن أسيد بن كلدة الجمحي – وكان شديد البطش : أنا أكفيكم سبعة عشر فاكفوني أنتم اثنين ، وهذا كله على سبيل الاستهزاء ، فإنهم مكذبون بالبعث الذي هذا من آثاره ، وكان في علم أهل الكتاب أن هذه العدة عدتهم ، وأن العرب إذا سمعوا هذه العدة كانت سببا للشك أكثرهم وموضعا للتعنت ، فلذلك علق بالفتنة أو ب (جعلنا) قوله : (ليستقين) أي يوجد اليقين إيجادا تاما كأنه بغاية الرغبة) الذين أوتوا الكتاب (بناه للمفعول لأن مطلق الإيتاء كاف في ذلك من غير احتياج إلى تعيين المؤتي مع أنه معروف أنه هو الله ، قال البغوي : مكتوب في التوراة والإنجيل أنهم تسعة عشر .

(ويزداد الذين آمنوا) أي أوجدوا هذه الحقيقة ولو على أدنى الوجوه إلى ماعندهم من الإيمان) إيمانا (

بتصيدق ما لم يعلموا وجه حكمته لا سيما مع افتتان غيرهم به وكثرة كلامهم فيه ، فإن الإيمان بمثل ذلك يكون أعظم .." (١)

" صفحة رقم ٢٩٦

الحكمة فيه ، فعلم أنه لا بد من وقت ينكشف فيه الغطاء ويجازي الخلائق على نسبة من أحوالهم في الاعتبار والتدبر والخضوع لمن نصب مجموع تلك الدلائل ، ويستشغر من تكرار الفصول وتجدد الحالات وإحياء الأرض بعد موتها ، جرى ذلك في البعث واطراد الحكم ، وإليه الإشارة بقوله :

٧٧ ( ) كذلك نخرج الموتى ( ) ٧

[الأعراف : ٥٧] وقال تعالى منبها على ما ذكرناه) ألم نجعل الأرض مهادا) [النبأ : ٦] إلى قوله :

٧٧ ( ) وجنات ألفافا ( ) ٧

[النبأ : ١٦] فهذه المصنوعات المقصود بها الاعتبار كما قدم ، ثم قال تعالى :

٧٧ ( ) إن يوم الفصل كان ميقاتا ( ) ٧

[النبأ : ١٧] أي موعدا لجزائكم لو اعتبرتم بما ذكر لكم لعلمتم منه وقوعه وكونه ليقع جزاؤكم على ما سلف منكم (فويل يومئذ للمكذبين) ويشهد لهذا القصد ما بعد من الآيات قوله تعالى لما ذكر ما أعد للطاغين :

٧٧ ( ) إنهم كانوا لا يرجون حسابا وكذبوا بآياتنا كذابا وكل شيء أحصيناه كتابا ( ) ٧

[النبأ : ٢٧ ٢٩] ثم قال بعد :

٧٧ ( ) إن للمتقين مفازا حدائق وأعنابا ( ) ٧

[النبأ : ٣١ ٣٢] وقوله بعد : (ذلك اليوم الحق (وأما الحياة الدنيا فلعب ولو وإن الدار الآخرة لهي الحيوان ، وقوله بعد :

٧٧ ( ) يوم ينظر المرء ما قدمت ياده ويقول الكافر يا ليتني كنت ترابا ( ) ٧

[النبأ : ٤٠] انتهى .

ولما كان الأمر من العظمة في هذا الحد قال مؤكدا لأن ما اختلفوا فيه وسألوا عنه ليس موضعا للاختلاف والتساؤل بأداة الردع ، فقال تهديدا لهم وتوكيدا لوعيدهم : (كلا) أي ليس ما سألوا عنه واختلفوا فيه

---

(١) نظم الدرر . (– ت: عبدالرزاق غالب)، ٢٣١/٨

بموضع اختلاف أصلا ، ولا يصح أن يطرقه ريب بوجه من الوجوه فلينزجروا عن ذلك وليرتدعوا قبل حلول ما لا قبل لهم به .

ولما كان كأنه قيل : فهل ينطقع ما هم فيه ؟ أجاب بقوله مهددا حاذفا متعلق العلم للتهويل لأجل ذهاب النفس كل مذهب : (سيعلمون) أي يصلون إلى حد يكون حالهم فيه في ترك العناد حال العالم بكل ما ينفعهم ويضرهم ، وهذا عن قريب بوعد لا خلف فيه ، ويكون لهم حينئذ عين اليقين الذي لا يستطاع دفاعه بعد علم اليقين الذي دافعوه ، وعظم رتبة هذا الردع والتهديد والزجر والوعيد بقوله : (ثم كلا) أي أن أمره في ظهوره رادع عن الاختلاف في أمره) سيعلمون) أي بعد الموت بعد علمهم قبله ما يكون من أمره بوعد صادق لا شك فيه ، ويصير حالهم إذا ذاك حال العالم في كفهم عن العناد ، وهم بين ذلول وذليل وحقير وجليل ، فأما من اخترناه منه للإيمان فيكون ذلولا ، ومن أردنا شقاءه بالكفران فتراه ناكسا ذليلا ، ويشترك الكل بالذوق في حق اليقين ، وقد كان هذا كما قال الجليل بعد زمن قليل ، عندما أوقعتهم أيام الله وأرغمت منهم الأنوف وأذلت الجباه ، وقراءة ابن عامر على ما قيل عنه بتاء الخطاب في الوعيد وأدل على الاستعطاف للمتاب .." (١)

"جزء : ٧ رقم الصفحة : ٤٧٩

إني لعمرك ما بابي بذي غلقعلى الصديق ولا خيري بممنون

وقال مجاهد : غير محسوب ، وقيل : غير مقطوع ، قال الشاعر :

فضل الجواد على الخيل البطاء فلايعطى بذلك ممنونا ولا نزقا

وقيل : لا يمن به لأن أعطيات الله تشريف ، والمن إنما يدخل أعطيات البشر. وقيل : لا يمن به لأنه إنما بمن التفضيل ، فأما الآخر فحق أداؤه ، نقله الزمخشري ، وفيه دسيسة الاعتزال. {قل أانكم لتكفرون} : استفهام توبيخ وتشنيع عليهم ، يكفر من أوجد العالم سفليه وعلويه ، ووصف صورة خلق ذلك ومدته ، والحكمة في الخلق في مدة هو قادر على أن يوجد ذلك دفعة واحدة. فذكر تعالى إيجاد ذلك مرتبا ، وتقدم الكلام في الخلق في مدة هو قادر على أن يوجد ذلك دفعة واحدة. فذكر تعالى إيجاد ذلك مرتب ، وتقدم الكلام في أول ما ابتدىء فيه الخلق ، وما خلق مرتبا. ومعنى {في يومين} : في مقدار يومين. {وتجعلون لها أندادا } : أي أشباها وأمثالا من الملائكة والجن والأصنام يعبدونها دونه. وقال السدي :

---

(١) نظم الدرر . (– ت: عبدالرزاق غالب)، ٢٩٦/٨

أكفاء من الرجال يطيعونهم ، وتجعلون معطوف على لتكفرون ، فهو داخل في حيز الاستفهام المقتضي الإنكار والتوبيخ ، {ذالك} أي موجد الأرض ومخترعها ، {رب العالمين} من الأنداد التي جعلتم له وغيرهم.

{وجعل فيها رواسى} : إخبار مستأنف ، وليس من الصلة في شيء ، بل هو معطوف على قوله : {لتكفرون} . {وبارك فيها} : أكثر فيها خيرها. {وقدر فيهآ أقواتها} : أي أرزاق ساكنيها ومعايشهم ، وأضافهما إلى الأرض من حيث هي فيها وعنها برزت ، قاله السدي. وقال قتادة : أقواتها من الجبال والأنهار والأشجار والصخور والمعادن ، والأشياء التي بها قوام الأرض ومصالحها. وقال مجاهد : أقواتها من المطر والمياه. وقال عكرمة والضحاك ومجاهد أيضا : خصائِصِها التي قسمها في البلاد مما خص به كل إقليم ، فيحتاج بعضها إلى بعض في التفوت من الملابس والمطاعم والنبات. {فى أربعة أيام} : أي في تمام أربعة أيام باليومين المتقدمين. وقال الزمخشري {فى أربعة أيام} ، فذلكة لمدة خلق الله وما فيها ، كأنه قال : كل ذلك في أربعة أيام كاملة مستوية بلا زيادة ولا نقصان. وقال الزجاج : في تتمة أربعة أيام ، يريد بالتتمة اليومين. انتهى ، وهذا كما تقول : بنيت جدار بيتي في يوم ، وأكملت جميعه في يومين ، أي بالأول.

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٤٧٩

وقال أبو عبد الله الرازي : ويفقه من كلام الزمخشري في أربعة أيام فائدة زائدة على قوله في يومين ، لأن قوله في يومين لا يقتضي الاستغراق لذلك العمل. أما لما ذكر خلق الأرض وخلق هذه الأشياء ، ثم قال في أربعة أيام سواء ، دل على أن هذه الأيام مستغرقة في تلك الأعمال من غير زيادة ونقصان. انتهى. ولا فرق بين يومين وأربعة أيام بالنسبة إلى الاستغراق ، فإن كانت أربعة تقتضي الاستغراق ، وكذلك اليومين يقتضيانه ، ومتى كان الظرف معدودا ، كان العمل في جميعه ، إما على سبيل التعميم ، نحو : سرت يومين ، وقد يكون في بعض كل يوم منها ، نحو : تهجدت ليلتين ، فاحتمل الاستغراق ، واحتمل في بعض كل واحد من الليلتين ؛ وإذا كان كذلك ، احتمل أن يكون وقع الخلق للأرض في بعض كل واحد من اليومين ، واحتمل أن يكون اليومين مستغرقين لخلقها ، فكذلك في أربعة أيام يحتمل الاستغراق ، وأن يكون خلق الأرض والجبال والبركة وتقدير الأقوات وقع في بعض كل يوم من

٤٨٥

الأربعة ، فما قاله أبو عبد الله الرازي لم تظهر به فائدة زائدة.
وقرأ الجمهور : سواء بالنصب على الحال ؛ وأبو جعفر بالرفع : أي هو سواء ، وزيد بن علي والحسن وابن أبي إسحاق وعمرو بن عبيد وعيسى ويعقوب : بالخفض نعتا لأربعة أيام. قال قتادة والسدي : معناه سواء لمن سأل عن الأمر واستفهم عن حقيقة وقوعه وأراد العبرة منه ، فإنه يجده كما قال تعالى. وقال ابن زيد وجماعة : معناه متسو مهيأ. أمر هذه المخلوقات ونفعها للمحتاجين إليها من البشر ، فعبر بالسائلين عن الطالبين لأنهم من شأنهم ولا بد طلب ما ينتفعون به ، إذ هم بحال حاجة. وقال الزمخشري : فإن قلت : بم تعلق قوله : {للسآالين} ؟ قلت : بمحذوف ، كأنه قيل هذا الحصر لأجل من سأل في كم خلقت الأرض وما فيها ، أو يقدر ، أو قدر فيها أقواتها لأجل الطالبين لها المحتاجين المقتاتين. انتهى ، وهو راجع لقول المفسرين المتقدمين.
." (١)

"وقال الزمخشري : لما ذكر الوعد والوعيد ، أتبعه ذكر ما يوصل إلى الوعد وينجي من الوعيد. وقيل : المراد هنا بالتسبيح : الصلاة. فعن ابن عباس وقتادة : المغرب والصبح والعصر والظهر ، وأما العشاء ففي قوله : {وزلفا من اليل} . وعن ابن عباس : الخمس ، وجعل {حين تمسون} شاملا للمغرب والعشاء. {وله الحمد فى السماوات والارض} : اعتراض بين الوقتين ، ومعناه : أن الحمد واجب على أهل السموات وأهل الأرض ، وكان الحسن يذهب إلى أن هذه الآية مدنية ، لأنه كان يقول : فرضت الخمس بالمدينة. وقال الأكثرون : بل فرضت بمكة ؛ وفي التحرير ، اتفق المفسرون على أن الخمس داخلة في هذه الآية. وعن ابن عباس : ما ذكرت الخمس إلا فيها ، وقدم الإمساء على الإصباح ، كما قدم في قول {يولج اليل فى النهار} ، والظلمات على النور ، وقابل بالعشي الإمساء ، وبالإظهار الإصباح ، لأن كلا منهما يعقب بما يقابله ؛ فالعشي يعقبه الإمساء ، والإصباح يعقبه الإظهار. ولما لم يتصرف من العشي فعل ، لا يقال أعشى ، كما يقال أمسى وأصبح وأظهر ، جاء التركيب {وعشيا} . وقرأ عكرمة : حينا تمسون وحينا تصبحون ، بتنوين حين ، والجملة صفة حذف منها العائد تقديره : تمسون فيه وتصبحون فيه. ولما ذكر الإبداء والإعادة ، ناسب ذكره : {يخرج الحى من الميت} ، وتقدم الكلام على هذه الآية في آل عمران. {وكذالك} : أي مثل ذلك الإخراج ، والمعنى : تساوي الإبداء والإعادة في حقه تعالى. وقرأ الجمهور :

---

(١) تفسير البحر المحيط . (دار الفكر)، /

{تخرجون} ، بالتاء المضمومة ، مبنيا للمفعول ؛ وابن وثاب وطلحة والأعمش : بفتح تاء الخطاب وضم الراء.

جزء : ٧ رقم الصفحة : ١٦٠

ثم ذكر تعالى آياته من بدء خلق الإنسان ، آية آية ، إلى حين بعثه من القبر فقال : {ومن ءاياتها أن خلقكم من تراب} : جعل خلقهم من تراب ، حيث كان خلق أباهم آدم من تراب. و{تنتشرون} : تتصرفون في أغراضكم بثم المقتضية المهلة والتراخي. ونبه تعالى على عظيم قدرته بخلق الإنسان من تراب ، وهو أبعد الأشياء عن درجة الإحياء ، لأنه بارد يابس ، والحياة بالحرارة والرطوبة ، وكذا الروح نير وثقيل ، والروح خفيف وساكن ، والحيوان متحرك إلى الجهات الست ، فالتراب أبعد من قبول الحياة من سائر الأجسام. {من أنفسكم} : فيها قولا {وخلق منها زوجها} ، إما كون حواء خلقت من ضلع آدم ، وأما من جنسكم ونوعكم. وعلل خلق الأزواج بالسكون إليها ، وهو الإلف. فمتى كان من الجنس ، كان بينهما تألف ، بخلاف الجنسين ، فإن يكون بينهما التنافر ، وهذه الحكمة في بعث الرسل من جنس بني آدم. ويقال : سكن إليه : مال ، ومنه السكن : فعل بمعنى مفعول. {مودة ورحمة} : أي بالأزواج ، بعد أن لم يكن سابقة ـتعارف يوجب التواد. وقال مجاهد والحسن وعكرمة : المودة : النكاح ، والرحمة : الولد ، كنى بذلك

١٦٦

عنهما. وقيل : مودة للشابة ، ورحمة للعجوز. وقيل : مودة للكبير ، ورحمة للصغير. وقيل : هما اشتباك الرحم. وقيل : المودة من الله ، والبغض من الشيطان.

{واختلاف ألسنتكم} : أي لغاتكم ، فمن اطلع على لغات رأى من اختلاف تراكيبها أو قوانينها ، مع اتحاد المدلول ، عجائب وغرائب في المفردات والمركبات. وعن وهب : أن الألسنة اثنان وسبعون لسانا ، في ولد حام سبعة عشر ، وفي ولد سام تسعة عشر ، وفي ولد يافث ستة وثلاثون. وقيل : المراد باللغات : الأصوات والنغم. وقال الزمخشري : الألسنة : اللذات وأجناس النطف وأشكاله. خالف عز وجل بين هذه الأشياء حتى لا تكاد تسمع منطقين متفقين في همس واحد ، ولا جهارة ، ولا حدة ، ولا رخاوة ، ولا فصاحة ، ولا لكنة ، ولا نظم ، ولا أسلوب ، ولا غير ذلك من صفات النطق وأحواله. انتهى. {وألوانكم} : السواد والبياض وغيرهما ، والأنواع والضروب بتخطيط الصور ، ولولا ذلك الاختلاف ، لوقع الالتباس

وتعطلت مصالح كثيرة من المعاملات وغيرها. وفيه آية بينة ، حيث فرعوا من أصل واحد ، وتباينوا في الأشكال على كثرتهم. وقرأ الجمهور : {للعالمين} ، بفتح اللام ، لأنها في نفسها آية منصوبة للعالم. وقرأ حفص وحماد بن شعيب عن أبي بكر ، وعلقمة عن عاصم ، ويونس عن أبي عمرو : بكسر اللام ، إذ المنتفع بها إنما هم أهل العلم ، كقوله : {وما يعقلهآ إلا العالمون} . والظاهر أن {الذين ينفقون} متعلق ، فامتن تعالى بذلك ، لأن النهار قد يقام فيه ، وخصوص من كل مشتغلا في حوائجه بالليل. {والنهار وابتغآؤكم من فضلها} : أي فيهما ، أي في الليل والنهار معا ، لأن بعض الناس قد يبتغي الفعل بالليل ، كالمسافرين والحراس بالليل وغيرهم.

جزء : ٧ رقم الصفحة : ١٦٠

." (١)

"{وعد الله} على أنه مصدر مؤكد لنفسه ، و{حقا} على المصدر المؤكد لغيره ، لأن قوله : {لهم جنات النعيم} ، والعامل فيها متغاير ، فوعد الله منصوب ، أي يوعد الله وعده ، وحقا منصوب بأحق ذلك حقا. {خلق السماوات} إلى {فأنابتنا فيها} ، تقدم الكلام على ذلك. ومعنى {كريم} : مدحته بكرم جوهره ونفاسته وحسن منظره ، وما تقضي له النفوس بأنه أفضل من غيره حتى استحق الكرم ، فيخص لفظ الأزواج ما كان نفيسا مستحسنا من جهة ، أو مدحته بإتقان صفته وظهور حسن الرتبة والتحكم للصنع فيه ، فيعم جميع الأزواج ، وهو الأنواع. {هاذا خلق الله} : إشارة إلى ما ذكر من مخلوقاته ، وبخ بذلك الكفار وأظهر حجته. والخلق بمعنى المخلوق ، كقولهم : درهم ضرب الأمير ، أي مضروبه. ثم سألهم على جهة التهكم بهم أن يورده. وأما خلقته آلتهم لما ذكر مخلوقاته ، فكيف عبدوها من دونه ؟ ويجوز في ماذا أن تكون كلها موصولة بمعنى الذي ، وتكون مفعولا ثانيا لأروني. واستعمال ماذا كلها موصولا قليل ، وقد ذكره سيبويه. ويجوز أن تكون ما استفهامية في موضع رفع على الابتداء ، وذا موصولة بمعنى الذي ، وهو خبر عن ما ، والجملة في موضع نصب بأروني ، وأروني معلقة عن العمل لفظا لأجل الاستفام. ثم أضرب عن توبيخهم وتبكيتهم إلى التسجيل عليهم بأنهم في حيرة واضحة لمن يتدبر ، لأن من عبد صنما وترك خالقه جدير بأن يكون في حية وتيه لا يقلع عنه.

{ولقد ءاتينا لقمان الحكمة أن اشكر للها ومن يشكر فإنما يشكر لنفسها ومن كفر فإن الله غنى حميد

---

(١) تفسير البحر المحيط . (دار الفكر)، /

* وإذ} .

١٨٥

اختلف في لقمان ، أكان حرا أم عبدا ؟ فإذا قلنا : كان حرا ، فقيل : هو ابن باعورا. قال وهب : ابن أخت أيوب عليه السلام. وقال مقاتل : ابن خالته. وقيل : كان من أولاد آزر ، وعاش ألف سنة ، وأدرك داود عليه السلام ، وأخذ منه العلم ، وكان يفتي قبل مبعث داود ، فلما بعث داود ، قطع الفتوى ، فقيل له : لم ؟ فقال : ألا أكتفي إذا كفيت ؟ وكان قاضيا في بني إسرائيل. وقال الواقدي : كان قاضيا في بني إسرائيل ، وزمانه ما بين عيسى ومحمد ، عليهما السلام ، والأكثرون على أنه لم يكن نبيا. وقال عكرمة ، والشعبي : كان نبيا. وإذا قلنا : كان عبدا ، اختلف في جنسه ، فقال ابن عباس ، وابن المسيب ، ومجاهد : كان نوبيا مشقق الرجلين ذا مشافر. وقال الفراء وغيره : كان حبشيا مجدوع الأنف ذا مشفر. واختلف فيما كان يعانيه من الأشغال ، فقال خالد بن الربيع : كان نجارا ، وفي معاني الزجاج : كان نجادا ، بالدال. وقال ابن المسيب : كان خياطا. وقال ابن عباس : كان راعيا. وقيل : كان يحتطب لمولاه كل يوم حزمة. وهذا الاضطراب في كونه حرا أو عبدا ، وفي جنسه ، وفيما كان يعانيه ، يوجب أن لا يكتب شيء من ذلك ، ولا ينقل. لكن المفسرون مولعون بنقل المضطربات حشوا وتكثيرا ، والصواب تركه.

جزء : ٧ رقم الصفحة : ١٨٢

وحكمة لقمان مأثورة كثيرة ، منها : قيل له : أي الناس شر ؟ قال : الذي لا يبالي أن يراه الناس مسيئا. وقال له داود ، عليه السلام ، يوما : كيف أصبحت ؟ قال : أصبحت في يد غيري ، فتفكر داود فيه ، فصعق صعقة. وقال وهب بن منبه : قرأت في حكم لقمان أكثر من عشرة آلاف. و{الحكمة} : المنطق الذي يتعظ به ويتنبه به ، ويتناقله الناس لذلك. {أن اشكر} ، قال الزمخشري : أن هي المفسرة ، لأن إيتاء الحكمة في معنى القول ، وقد نبه سبحانه على أن الحكمة الأصلية والعلم الحقيقي هو العمل بهما ، أو عبادة الله والشكر له ، حيث فسر إيتاء الحكمة بالبعث على الشك. وقال الزجاج : المعنى : {ولقد ءاتينا لقمان الحكمة} لأن يشكر الله ، فجعلها مصدرية ، لا تفسيرية. وحكى سيبويه : كتبت إليه بأن قم. {فإنما يشكر لنفسها} : أي ثواب الشكر لا يحصل إلا للشاكرين ، إذ هو تعالى غني عن الشكر ، فشكر الشاكر لا ينفعه ، وكفر من كفر لا يضره. و{حميد} : مستحق الحمد لذاته وصفاته.

{وإذ قال} : أي واذكر إذ ، وقيل : يحتمل أن يكون التقدير : وآتيناه الحكمة ، إذ قال ، واختصر لدلالة

المتقدم عليه. وابنه بار ، أي : أو أنعم ، أو اشكر ، أو شاكر ، أقوال. {وهو يعظه} : جملة حالية. قيل : كان ابنه وامرأته كافرين ، فما زال يعظهما حتى أسلما. والظاهر أن قوله : {إن الشرك لظلم عظيم} من كلام لقمان. وقيل : هو خبر من الله ، منقطع عن كلام لقمان ، متصل به في تأكيد المعنى ؛ وفي صحيح مسلم ما ظاهره أنه من كلام لقمان. وقرأ البزي : {أو بنى } ، بالسكون ، و{وما يشعركم أنهآ} : بكسر الياء ، و{لسنتنا تحويلا * أقم} : بفتحها. وقيل : بالسكون في الأولى والثانية ، والكسر في الوسطى ؛ وحفص والمفضل عن عاصم : بالفتح في الثلاثة على تقدير يا بنيا ، والاجتزاء بالفتحة عن الألف. وقرأ باقي السبعة : بالكسر في الثلاثة.
." (١)

"أن يقول : مطرنا زبالة فالثعلبية. وهذا الذي ذهب إليه الكوفيون لا يعرفه البصريون ، ورده إلى قواعد البصريين مذكور في غير هذا ، والذي نختاره من هذه الأعاريب أن ضرب يتعدى إلى اثنين هو الصحيح ، وذلك لواحد هو مثلا لقوله تعالى : ضرب مثل ، ولأنه المقدم في التركيب ، وصالح لأن ينتصب بيضرب. وما : صفة تزيد النكرة شياعا ، لأن زيادتها في هذا الموضع لا تنقاس. وبعوضة : بدل لأن عطف البيان مذهب الجمهور فيه أنه لا يكون في النكرات ، إنما ذهب إلى ذلك الفارسي ، ولأن الصفة بأسماء الأجناس لا تنقاس. وقرأ الضحاك ، وإبراهيم بن أبي عبلة ، ورؤبة بن العجاج ، وقطرب : بعوضة بالرفع ، واتفق المعربون على أنه خبر ، ولكن اختلفوا فيما يكون عنه خبرا ، فقيل : خبر مبتدأ محذوف تقديره هو بعوضة ، وفي هذا وجهان : أحدهما : أن هذه الجملة صلة لما ، وما موصولة بمعنى الذي ، وحذف هذا العائد وهذا الإعراب لا يصح إلا على مذهب الكوفيين ، حيث لم يشترطوا في جواز حذف هذا الضمير طول الصلة. وأما البصريون فإنهم اشترطوا ذلك فير غير أي من الموصولات ، وعلى مذهبهم تكون هذه القراءة على هذا التخريج شاذة ، ويكون إعراب ما على هذا التخريج بدلا ، التقدير : مثلا الذي هو بعوضة. والوجه الثاني : أن تكون ما زائدة أو صفة وهو بعوضة وما بعده جملة ، كالتفسير لما انطوى عليه الكلام السابق ، وقيل : خبر مبتدأ ملفوظ به وهو ما ، على أن تكون استفهامية.
جزء : ١ رقم الصفحة : ١١٨
قال الزمخشري ، لما استنكفوا من تمثيل الله لأصنامهم بالمحقرات قال : إن الله لا يستحي أن يضرب

---

(١) تفسير البحر المحيط . (دار الفكر)، /

للأنداد ما شاء من الأشياء المحقرة بله فما فوقها ، كما يقال ، فلأن لا يبالي بما وهب ما دينار وديناران ، والمختار الوجه الثاني لسهولة تخريجه ، لأن الوجه الأول لا يجوز فصيحا على مذهب البصريين ، والثاني فيه غرابة واستبعاد عن معنى الاستفهام ، وما من قوله : فما معطوفة على قوله بعوضة إن نصبنا لما موصولة وصلتها الظرف ، أو موصوفة وصفتها الظرف ، والموصوفة أرجح. وإن رفعنا بعوضة ، وكانت ما موصولة فعطف ما الثانية عليها أو استفهاما ، فذلك من عطف الجمل ، أو كانت البعوضة خبرا لهو محذوفة ، وما زائدة ، أو صفة فعطف على البعوضة ، إما موصولة أو موصوفة ، وما فوقها الظاهر أنه يعني في الحجم كالذباب والعنكبوت ، قاله ابن عباس : ويكون ذكر البعوضة تنبيها على الصغر ، وما فوقها تنبيها على الكبر ، وبه قال أيضا قتادة ، وابن جريج ، وقيل : المعنى فما فوقها في الصغر ، أي وما يزيد عليها في الصغر ، كما تقول : فلان أنذل الناس ، فيقال لك : هو فوق ذلك ، أي أبلغ وأعرق في النذالة ، قاله أبو عبيدة ، والكسائي.

وقال ابن قتيبة : فوق من الأضداد ينطلق على الأكثر والأقل ، فعلى قول من قال بأن اللفظ المشترك يحمل على معانيه ، يكون دلالة على ما هو أصغر من البعوضة وما هو أكبر. وقيل : أراد ما فوقها وما دونها ، فاكتفى بأحد الشيئين عن الآخر لدلالة المعنى عليها ، كما اكتفى في قوله : {سرابيل تقيكم الحر} عن قوله : والبرد ، ورجح القول بالفوقية في الصغر بأن المقصود من التمثيل تحقير الأوثان ، وكلما كان المشبه به أشد حقارة كان المقصود من هذا الباب أكمل ، وبأن الغرض هنا أن الله لا يمتنع عن التمثيل بالشيء الحقير ، وبأن الشيء كلما كان أصغر كان الاطلاع على أسراره أصعب. فإذا كان في نهاية الصغر لم يحط به إلا علم الله سبحانه ، فكان التمثيل به أقوى في الدلالة على كمال الحكمة من التمثيل بالكبير ، والذي نختاره القول الأول لجريان فوق على مشهور ما استقر فيها في اللغة ، وفي المعنى الذي أسند الله إليه عدم الاستحياء من أجله في ضرب المثل بهذه المصغرات والمستضعفات وجوه : أحدها : أن البعوضة قد أوجدها على الغاية القصوى من الإحكام وحسن التأليف والنظام ، وأظهر فيها ، مع صغر حجمها ، من بدائع الحكمة كمثل ما أظهره في الفيل الذي هو في غاية الكبر وعظم الخلقة. وإذا كل واحد منهما قد

١٢٣

جزء : ١ رقم الصفحة : ١١٨
". (١)

"البغي والمعصية ، قاله ابن عباس ومجاهد والسدي عن أشياخه أو علمه بأنه سيكون من ذلك الخليفة أنبياء وصالحون ، قاله قتادة ، أو علمه بمن يملأ جهنم من الجنة والناس ، قاله ابن زيد ؛ أو علمه بعواقب الأمور فيبتلي من تظنون أنه مطيع فيؤديه الابتلاء إلى المعصية ، ومن تظنون أنه عاص فيؤديه الابتلاء إلى الطاعة فيطيع ، قاله الزجاج ، أو علمه بظواهر الأمور وباطنها ، جليها ودقيقها ، عاجلها وآجلها ، صالحها وفاسدها ، على اختلاف الأحوال والأزمان علما حقيقيا ، وأنتم لا تعلمون ذلك ، أو علمه بغير اكتساب ولا نظر ولا تدبر ولا فكر ، وأنتم لا تعلمون المعلومات على هذا النسق. أو علمه بأن معهم إبليس ، أو علمه باستعاظمكم أنفكم بالتسبيح والتقديس. والذي يدل عليه ظاهر اللفظ أنه أخبرهم إذا تكلموا بالجملة السابقة التي هي أتجعل فيها بأنه يعلم ما لا تعلمونه. وأبهم في إخباره الأشياء التي يعلمها دونهم ، فإذا كان كذلك ، فإخباره بأنه يجعل في الأرض خليفة يقتضي التسليم له والرجوع إليه فيما أراد أن يفعله والرضا بذلك ، لأن علمه محيط بما لا يحيط به علم عالم ، جل الله وعز. والأحسن أن يفسر هذا المبهم بما أخبر به تعالى عنه من قوله ، قال :
جزء : ١ رقم الصفحة : ١٣٧
{ألم أقل لكم إنيا أعلم غيب السماوات والارض} الآية.
{وعلم ءادم الاسمآء كلها} : لما أخبر تعالى الملائكة عن وجه الحكمة في خلق آدم وذريته على سبيل الإجمال ، أراد أن يفصل ، فبين لهم من فضل آدم ما لم يكن معلوما لهم ، وذلك بأن علمه الأسماء ليظهر فضله وقصورهم عنه في العلم ، فتأكد الجواب الإجمالي بالتفضيل. ولا بد من تقدير جملة محذوفة قبل هذا ، لأنه بها يتم المعنى ويصح هذا العطف ، وهي : فجعل في الأرض خليفة. ولما كان لفظ الخليفة محذوفا مع الجملة المقدرة ، أبرزه في قوله : {وعلم ءادم} ، ناصا عليه ومنوها بذكره باسمه. وأبعد من زعم أن : {وعلم ءادم} معطوف على قوله ، قال من قوله تعالى : {وإذ قال ربك للملئاكة إني جاعل} . وهل التعليم بتكليم الله تعالى له في السماء ، كما كلم موسى في الأرض ، أو بوساطة ملك أو بالإلهام ؟ أقوال أظهرها أن الباري تعالى هو المعلم ، لا بواسطة ولا إلهام. وقرأ اليماني ويزيد اليزيدي : وعلم آدم مبنيا

(١) تفسير البحر المحيط . (دار الفكر)، ١/١٠٠

للمفعول ، وحذف الفاعل للعلم به والتضعيف في علم للتعدية ، إذ كان قبل التضعيف يتعدى لواحد ، فعدى به إلى اثنين. وليست التعدية بالتضعيف مقيسة ، إنما يقتصر فيه على مورد السماع ، سواء كان الفعل قبل التضعيف لازما أم كان متعديا ، نحو : علم المتعدية إلى واحد. وأما إن كان متعديا إلى اثنين ، فلا يحفظ في شيء منه التعدية بالتضعيف إلى ثلاث. وقد وهم القاسم بن علي الحريري في زعمه في شرح الملحة له أن علم تكون منقولة من علم التي تتعدى إلى اثنين فتصير بالتضعيف متعدية إلى ثلاثة ، ولا يحفظ ذلك من كلامهم.

جزء : ١ رقم الصفحة : ١٣٧

وقد ذهب بعض النحويين إلى اقتباس التعدية بالتضعيف. قال الإمام أبو الحسين بن أبي الربيع في (كتاب التلخيص) من تأليفه : الظاهر من مذهب سيبويه أن النقل بالتضعيف سماع في المتعدي واللازم ، وفيما علمه أقوال : أسماء جميع المخلوقات ، قاله ابن نعباس وابن جبير ومجاهد وقتادة ، أو اسم ما كان وما يكون إلى يوم القيامة ، وعزى إلى ابن عباس ، وهو قريب من الأول ، أو جميع اللغات ، ثم كلم كل واحد من بنيه بلغة فتفرقوا في البلاد ، واختص كل فرقة بلغة أو كلمة واحدة تفرع منها جميع اللغات ، أو أسماء النجوم فقط ، قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة ، أو أسماء الملائكة فقط ، قاله الربيع بن خيثم ، أو أسماء ذريته ، قاله الربيع بن زيد ، أو أسماء ذريته والملائكة ، قاله الطبري واختاره ؛ أو أسماء الأجناس التي خلقها ، علما أن هذا اسمه فرس ، وهذا اسمه بعير ، وهذا اسمه كذا ، وهذا اسمه كذا ، وعلمه أحوالها وما يتعلق بها من المنافع الدينية والدنيوية ، واختاره الزمخشري ، أو أسماء ما خلق في الأرض ، قاله ابن قتيبة ، أو الأسماء بلغة ثم وقع الاصطلاح من ذريته في سواها ، أو علمه كل شيء حتى نحو سيبويه ، قاله أبو علي الفارسي ، أو أسماء

١٤٥

". (١)

"في الموصول ولكن يتكلف به وجه وهو أن يكون استثناء منقطعا فيكون معنى إلا : لكن ، على التقدير الذي استقر في الاستثناء المنقطع ، وتكون ما شرطية منصوبة بعلمتنا ، ويكون الجواب محذوفا كأنهم نفوا أولا سائر العلوم ثم استدركوا أنه في المستقبل ، أي شيء علمهم علموه ، ويكون هذا أبلغ في

---

(١) تفسير البحر المحيط. (دار الفكر)، ١/١٢٠

ترك الدعوى ، إذ محوا أنفسهم من سائر العلوم ونفوا جميعها ، فلم يستثنوا لهم شيئا سابقا ماضيا تحلوا به ، بل صاروا إلى الجهل الصرف والتبري من كل علم. وهذا الوجه ينافي ما روي أنه كان أعلمهم تعالى ، أو علموا باطلاع من اللوح بأنه سيكون في الأرض من يفسد ويسفك ، فإذا صح هذا كانوا قد بالغوا في نفي كل علم عنهم ، وجعلوا هذا العلم الخاص كالمعدوم ، ومن اعتقد أن الملائكة غير معصومين جعل قولهم ، لا علم لنا توبة ، ومن اعتقد بعصمتهم قال : قالوا ذلك على وجه الاعتراف بالعجز والتسليم بأنهم لا يعلمون إلا ما علموا ، أو قالوا : {أتجعل فيها} الآية ، لأنه أعلمهم بذلك ، وأما الأسماء فكيف يعلمونها وما أعلمهم ذلك ؟ ولما نفوا العلم عن أنفسهم أثبتوه لله تعالى على أكمل أوصافه من المبالغة فيه ، ثم أردفوا الوصف بالعلم ، الوصف بالحكمة ، لأنه سبق قوله : {إني جاعل فى الارض خليفة} . فلما صدر من هذا المجعول خليفة ، ما صدر من فضيلة العلم تبين لهم وجه الحكمة في قوله : وجعله خليفة.

جزء : ١ رقم الصفحة : ١٣٧

فانظر إلى حسن هذا الجواب كيف قدموا بين يديه تنزيه الله ، ثم اعترفوا بالجهل ، ثم نسبوا إلى الله العلم والحكمة ، وناسب تقديم الوصف بالعلم على الوصف بالحكمة ، لأنه المتصل به في قوله : {وعلم} ، {أنابئونى} ، {لا علم لنآ} . فالذي ظهرت به المزية لآدم والفضيلة هو ، فناسب ذكره متصلا به ، ولأن الحكمة إنما هي آثار وناشئة عنه ، ولذلك أكثر ما جاء في القرآن تقديم الوصف بالعلم على الوصف بالحكمة. ولأن يكون آخر مقالهم مخالفا لأوله حتى يبين رجوعهم عن قولهم : {أتجعل فيها} ، وعلى القول بأن الحكيم هو ذو الحكمة ، يكون الحكيم صفة ذات ، وعلى القول بأنه المحكم لصنعته يكون صفة فعل. وأنت : يحتمل أن يكون توكيدا للضمير ، فيكون في موضع نصب ، أو مبتدأ فيكون في موضع رفع ، والعليم مخبره ، أو فضلا فلا يكون له موضع من الإعراب ، على رأي البصريين ، ويكون له موضع من الإعراب على رأي الكوفيين. فعند الفراء موضعه على حسب الاسم قبله ، وعند الكسائي على حسب الاسم بعده ، والأحسن أن يحمل العليم الحكيم على العموم ، وقد خصه بعضهم فقال : العليم بما أمرت ونهيت ، الحكيم فيما قدرت وقضيت. وقال آخر : العليم بالسر والعلانية ، والحكيم فيما يفعله وهو قريب من الأول.

{قال ياءادم * {ياادم أنابئهم بأسمآئهم} نادى آدم باسمه العلم ، وهي عادة الله مع أنبيائه ، قال تعالى : {قيل يانوح اهبط بسلام منا} ، {قال يانوح إنه ليس من أهلك} ، {وناديناه أن يا إبراهيم * قد صدقت

الرءيآ} ، {أن ياموسى إنى أنا الله} ، {الله ياعيسى ابن مريم اذكر نعمتى عليك} ، ونادى محمدا نبينا صلى الله عليه وسلم وعلى سائر الأنبياء بالوصف الشريف من الإرسال والإنباء فقال : {الله وأطيعوا الرسول} {يا أيها النبى} . فانظر تفاوت ما بين هذا النداء وذاك النداء ، والضمير في أنبئهم عائد إلى الملائكة ، وفي بأسمائهم عائد على المعروضين على الخلاف السابق. قال القشيري : من آثار العناية بآدم عليه السلام لما قال للملائكة : أنبئوني ، داخلهم من هيبة الخطاب ما أخذهم عنهم ، لا سيما حين طالبهم بإنبائهم إياه ما لم تحط بهم علمومهم. ولما كان حديث آدم رده في الإنباء إليهم فقال : {أنابئهم بأسمآئهم} ، ومخاطبة آدم للملائكة لم توجب الاستغراق في الهيبة. فلما أخبرهم آدم عليه السلام بأسماء ما تقاصرت عنه علومهم ، ظهرت فضيلته عليهم فقال : {ألم أقل لكم إنيا أعلم غيب السماوات} ، يعني ما تقاصرت عنه علوم الخلق وأعلم ما تبدون من الطاعات وتكتمون من اعتقاد الخيرية على آدم. انتهى كلام القشيري.

جزء : ١ رقم الصفحة : ١٣٧

والجملة المفتتحة بالقول إذا كانت مرتبا بعضها على بعض في المعنى ، فالأصح في لسان العرب أنها لا يؤتى فيها بحرف ترتب ، اكتفاء بالتريب المعنوي ، نحو

١٤٨

" (١).

"قوله تعالى : {قالوا أتجعل فيها} ، أتى بعده ، {قال إنيا أعلم} ، ونحو : {قالوا سبحانك} ، {قال يادم أنابئهم} ، ونحو : {قال لاقتلنكا قال إنما يتقبل الله} ، {قال أنى يحا هاذه الله} ، {قال كم لبثتا قال لبثت يوما أو بعض يوم} ، {قال بل لبثت ما ئة عام} ، {قال أوحى} {أولم تؤمنا قال بلى ولكن ليطمان قلبى } {قال فخذ أربعة من الطير} . وقد جاء في سورة الشعراء من ذلك عشرون موضعا في قصة موسى ، على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام ، في إرساله إلى فرعون ومحاورته معه ، ومحاورة السحرة ، إلى آخر القصة ، دون ثلاثة ، جاء منها اثنان جوابا وواحد كالجواب ، ونحو هذا في القرآن كثير. وقرأ الجمهور : أنبئهم بالهمز وضم الهاء ، وهذا الأصل كما تقول : أكرمهم. وروي عن ابن عباس : أنبئهم بالهمز وكسر الهاء ، ووجهه أنه أتبع حركة الهاء لحركة الباء ، ولم يعتد بالهمزة لأنها ساكنة ، فهي

---

(١) تفسير البحر المحيط . (دار الفكر)، ١٢٣/١

حاجز غير حصين. وقرىء : أنبيهم ، بإبدال الهمزة وكسر الهاء. وقرأ الحسن والأعرج وابن كثير من طريق القواس : أنبهم ، على وزن أعطهم ، قال ابن جني : هذا على إبدال الهمزة ياء ، على أنك تقول : أنبيت ، كأعطيت ، قال : وهذا ضعيف في اللغة لأنه بدل لا تخفيف. والبدل عندنا لا يجوز إلا في ضرورة الشعر. انتهى كلام أبي الفتح. وما ذكر من أنه لا يجوز إلا في ضرورة الشعر ليس بصحيح.

حكى الأخفش في الأوسط : أن العرب تحول من الهمزة موضع اللام ياء ، فيقولون : قريت ، وأخطيت ، وتوضيت ، قال : وربما حولوه إلى الواو ، وهو قليل ، نحو : رفوت ، والجيد : رفأت ، ولم أسمع : رفيت. انتهى كلام الأخفش. ودل ذلك على أنه ليس من ضرائر الشعر ، كما ذكر أبو الفتح ، وهو قوله تعالى : {أنابئهم بأسمآئهم} . وقوله : {فلمآ أنابأهم بأسمآئهم} : جملة محذوفة ، التقدير : فأنبئهم بها ، فلما أنبأهم حذفت لفهم المعنى ، وفي قوله : أنبئوني ، فلما أنبأهم تنبيه على إعلام الله أنه قد أعلم الله أنه قد أعلم آدم من أحوالهم ما لم يعلمهم من حاله ، لأنهم رأوه قبل النفخ مصورا ، فلم يعلموا ما هو ، وعلى أنه رفع درجة آدم عندهم ، لكونه قد علم لآدم ما لم يعلمهم ، وعلى إقامته مقام المفيد المعلم ، وإقامتهم مقام المستفيدين منه ، لأنه أمره أن يعلمهم أسماء الذين عرضهم عليهم وعلى أدبهم على ترك الأدب من حيث قالوا : {أتجعل فيها} ، فإن الطواعية المحضة ويكونوا مع عدم العلم بالحكمة فيما أمروا به ، وعدم الاطلاع على ذلك الأمر ومصلحته ومفسدته كهم مع العلم والاطلاع. وكان الامتثال والتسليم ، بغير تعجب ولا استفهام ، أليق بمقامهم لطهارة ذواتهم وكمال صفاتهم.

جزء : ١ رقم الصفحة : ١٣٧

وفي كتاب بعض من عاصرناه ، قالت المعتزلة : ظهر من آدم عليه السلام في علمه بالأسماء معجزة دالة على نبوته في ذلك الوقت ، والأقرب أنه كان مبعوثا إلى حواء ، ولا يبعد أن يكون أيضا مبعوثا إلى من توجه التحدي إليهم من الملائكة ، لأن جميعهم ، وإن كانوا رسلا ، فقد يجوز الإرسال إلى الرسول ، كبعثه إبراهيم عليه السلام إلى لوط عليه السلام ، واحتجوا بكونه ناقضا للعادة. ولقائل أن يقول : حصول العلم باللغة لمن علمه الله وعدم حصوله لمن لم يعلم ليس بناقض للعادة. وأيضا ، فالملائكة أما إن علموا وضع تلك الأسماء للمسميات فلا مزية أو لا ، فكيف علموا إصابته في ذلك ؟ والجواب من وجهين : أحدهما : أنه ربما يكون لكل صنف منهم لغة ، ثم حضر جميعهم فعرف كل صنف إصابته في تلك اللغة ، إلا أنهم بأسرهم عجزوا عن معرفتها بأسرها. الثاني : أن الله عرفهم الدليل على صدقه ، ولم لا يكون من باب

الكرامات أو من باب الإرهاص ؟ واحتج من قال : لم يكن نبيا ، بوجوه : أحدها : صدور المعصية عنه بعد ، وذلك غير جائز على النبي. وثانيها : أنه لو كان مبعوثا لكان إلى أحد ، لأن المقصود منه التبليغ ، وذلك لا يكون الملائكة ، لأنهم أفضل ، ولا حواء ، لأنها مخاطبة بلا واسطة بقوله : {ولا تقربا} ، ولا الجن ، لأنهم لم يكونوا في السماء. وثالثها : قوله : {ثم اجتباه} ، وهذا يدل على أن الاجتباء كان بعد الزلة ، والنبي لا بد أن يكون مجتبى وقت كونه نبيا.
{قال ألم أقل لكم} ؛ جواب فلما ، وقد تقدم ذكر
١٤٩
." (١)

"{واستعينوا بالصبر والصلواة} : تقدم ذكر معاني استفعل عند ذكر المادة في قوله تعالى : {وإياك نستعين} ، وأن من تلك المعاني الطلب ، وأن استعان معناه طلب المعونة ، وظاهر الصبر أنه يراد به ما يقع عليه في اللغة. وقال مجاهد : الصبر : الصوم ، والصوم : صبر ، لأنه إمساك عن الطعام ، وسمي رمضان : شهر الصبر. والصلاة : هي المفروضة مع ما يتبعها من السنن والنوافل ، قاله مجاهد. وقيل : الصلاة الدعاء وقد أضمروا للصبر صلة تقيده ، فقيل : بالصبر على ما تكرهه نفوسكم من الطاعة والعمل ، أو على أداء الفرائض ، روي ذلك عن ابن عباس ، أو عن المعاصي ، أو على ترك الرياسة ، أو على الطاعات وعن الشهوات ، أو على حوائجكم إلى الله ، أو على الصلاة. ولما قدر هذا التقدير ، أعني بالصبر على الصلاة ، توهم بعض من تكلم على القرآن ، أن الواو التي في الصلاة هنا بمعنى على ، وإنما يريد قائل هذا : أنهم أمروا بالاستعانة بالصبر على الصلاة وبالصلاة ، لأن الواو بمعنى على ، ويكون ينظر إلى قوله : {وأمر أهلك بالصلواة واصطبر عليها } وأمروا بالاستعانة بالصلاة ، لأنه يتلى فيها ما يرغب في الآخرة ويزهد في الدنيا ، أو لما فيها من تمحيص الذنوب وترقيق القلوب ، أو لما فيها من إزالة الهموم ، ومنه الحديث : "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة". وقد روي أن ابن عباس نعى إليه قثم أخوه ، فقام يصلي ، وتلا : {واستعينوا بالصبر والصلواة} ، أو لما فيها من النهي عن الفحشاء والمنكر ، وكل هذه الوجوه ذكروها. وقدم الصبر على الصلاة ، قيل : لأن تأثير الصبر في إزالة ما لا ينبغي ، وتأثير الصلاة في حصول ما ينبغي ، والنفي مقدم على الإثبات ، ويظهر أنه قدم الاستعانة به

(١) تفسير البحر المحيط. (دار الفكر)، ١/١٢٤

على الاستعانة بالصلاة ، لأنه سبق ذكر تكاليف عظيمة شاق فراقها على من ألفها واعتادها من ذكر ما نسوه والإيفاء بما أخلفوه والإيمان بكتاب متجدد وترك أخذهم الرشا على آيات الله وتركهم إلباس الحق بالباطل وكتم الحق الذي لهم بذلك الرياسة في الدنيا والاستتباع لعوامهم وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وهذه أمور عظيمة ، فكانت البداءة بالصبر لذلك. ولما كان عمود الإسلام هو الصلاة ، وبها يتميز المسلم من الشرك ، أتبع الصبر بها ،

١٨٤

إذ يحصل بها الاشتغال عن الدنيا ، وبالتلاوة فيها الوقوف على ما تضمنه كتاب الله من الوعد والوعيد ، والمواعظ والآداب ، ومصير الخلق إلى دار الجزاء ، فيرغب المشتغل بها في الآخرة ، ويرغب عن الدنيا. وناهيك من عبادة تتكرر على الإنسان في اليوم والليل خمس مرات ، يناجي فيها ربه ويستغفر ذنبه. وبهذا الذي ذكرناه تظهر الحكمة في أن أمروا بالاستعانة بالصبر والصلاة. ويبعد دعوى من قال : إنه خطاب للمؤمنين برسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : لأن من ينكره لا يكاد يقال له استعن بالصبر والصلاة. قال : ولا يبعد أن يكون الخطاب أولا لبني إسرائيل ، ثم يقع بعد الخطاب للمؤمنين ، والذي يظهر أن ذلك كله خطاب لبني إسرائيل ، لأن صرف الخطاب إلى غيرهم لغير موجب ، ثم يخرج عن نظم الفصاحة.

جزء : ١ رقم الصفحة : ١٨١

{وإنها لكبيرة} : الضمير عائد على الصلاة. هذا ظاهر الكلام ، وهو القاعدة في علم العربية : أن ضمير الغائب لا يعود على غير الأقرب إلا بدليل ، وقيل : يعود على الاستعانة ، وهو المصدر المفهوم من قوله : {واستعينوا } ، فيكون مثل {اعدلوا هو أقرب للتقوى } ، أي العدل أقرب ، قاله البجلي. وقيل : يعود على إجابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأن الصبر والصلاة مما كان يدعو إليه ، قاله الأخفش. وقيل : على العبادة التي يتضمنها بالمعنى ذكر الصبر والصلاة. وقيل : يعود على الكعبة ، لأن الأمر بالصلاة إليها. وقيل : يعود على جميع الأمور التي أمر بها بنو إسرائيل ونهوا عنها ، من قوله : {اذكروا نعمتي} إلى {واستعينوا } . وقيل : المعنى على التثنية ، واكتفى بعوده على أحدهما ، فكأنه قال : وإنهما كقوله : {والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها} في بعض التأويلات ، وكقوله : {والله ورسولها أحق أن

يرضوه} ، وقول الشاعر :
." (١)

"وقد طال بنا الكلام في هذه الجملة ، وتركنا أشياء مما ذكره الناس ، وهذه التقييدات والتفسيرات التي فسر بها الذكران ، لا يدل اللفظ على شيء منها ، وينبغي أن يحمل ذلك من المفسرين له على سبيل التمثيل وجواز أن يكون المراد. وأما دلالة اللفظ فهي طلب مطلق الذكر ، والذي يتبادر إليه الذهن هو الذكر اللساني. والذكر اللساني لا يكون ذكر لفظ الجلالة مفردا من غير إسناد ، بل لا بد من إسناد ، وأولاها الأذكار المروية في الآثار ، والمشار إليها في القرآن. وقد جاء الترغيب في ذكر جملة منها ، والوعد على ذكرها بالثواب الجزيل. وتلك الأذكار تتضمن : الثناء على الله ، والحمد له ، والمدح لجلاله ، والتماس الخير من عنده. فعبر عن ذلك بالذكر ، وأمر العبد به ، فكأنه قيل : عظموا الله ، وأثنوا عليه بالألفاظ الدالة على ذلك. وسمى الثواب المترتب على ذلك ذكرا ، فقال : فاذكروني أذكركم على سبيل المقابلة ، لما كان نتيجة الذكر وناشئا عنه سماه ذكرا. {واشكروا لي} تقدم تفسير الشكر ، وعداه هنا باللام ، وكذلك {أن اشكر لى ولوالديك} ، وهو من الأفعال التي ذكر أنها تارة تتعدى بحرف جر ، وتارة تتعدى بنفسها ، كما قال عمرو بن لجاء التميمي :
جزء : ١ رقم الصفحة : ٤١٧
هم جمعوا بؤسي ونعمي عليكمفهلا شكرت القوم إذ لم تقابل
وفي إثبات هذا النوع من الفعل ، وهو أن يكون يتعدى تارة بنفسه ، وتارة بحرف جر ، بحق الوضع فيهما خلاف. وقالوا : إذا قلت : شكرت لزيد ، فالتقدير : شكرت لزيد صنيعه ، فجعلوه مما يتعدى لواحد بحرف جر ولآخر بنفسه. ولذلك فسر الزمخشري هذا الموضع بقوله : واشكروا لي ما أنعمت به عليكم. وقال ابن عطية : واشكروا لي ، واشكروني بمعنى واحد ، ولي أفصح وأشهر مع الشكر ومعناه : نعمتي وأيادي ، وكذلك إذا قلت : شكرتك ، فالمعنى : شكرت لك صنيعك وذكرته ، فحذف المضاف ، إذ معنى الشكر : ذكر اليد وذكر مسديها معا ، فما حذف من ذلك فهو اختصار لدلالة ما بقي على ما حذف ، انتهى كلامه ، ويحتاج ، كونه يتعدى لواحد بنفسه ، وللآخر بحرف جر ، فتقول : شكرت لزيد صنيعه ، لسماع من العرب ، وحينئذ يصار إليه.

---

(١) تفسير البحر المحيط. (دار الفكر)، ١/١٥٥

{ولا تكفرون} : وهو من كفر النعمة ، وهو على حذف مضاف ، أي ولا تكفروا نعمتي. ولو كان من الكفر ضد الإيمان ، لكان : ولا تكفروا ، أو ولا تكفروا بي. وهذه النون نون الوقاية ، حذفت ياء المتكلم بعدها تخفيفا لتناسب الفواصل. قيل : المعنى واشكروا لي بالطاعة ، ولا تكفرون بالمعصية. وقيل : معنى الشكر هنا : الاعتراف بحق المنعم ، والثناء عليه ، ولذلك قابله بقوله : {ولا تكفرون} . وهنا ثلاث جمل : جملة الأمر بالذكر ، وجملة الأمر بالشكر ، وجملة النهي عن الكفران. فبدىء أولا بجملة الذكر ، لأنه أريد به الثناء والمدح العام والحمد له تعالى ، وذكر له جواب مترتب عليه. وثنى بجملة الشكر ، لأنه ثناء على شيء خاص ، وقد اندرج تحت الأول ، فهو بمنزلة التوكيد ، فلم يحتج إلى جواب. وختم بجملة النهي ، لأنه لما أمر بالشكر ، لم يكن اللفظ ليدل على عموم الأزمان ، ولا يمكن التكليف باستحضار الشكر في كل زمان ، فقد يذهل الإنسان عن ذلك في كثير من الأوقات. ونهى عن الكفران ، لأن النهي يقتضي الامتناع من المنهي عنه في كل الأزمان ، وذلك ممكن لأنه من باب التروك. وقد تقدم لنا الكلام على أنه إذا كان أمر ونهي ، بدىء بالأمر. وذكرنا الحكمة في ذلك في قوله : {وءامنوا بمآ أنزلت مصدقا لما معكم ولا تكونوا أول كافرا بها} ، فأغنى عن إعادته هنا..

٤٤٧

{يا أيها الذين ءامنوا استعينوا بالصبر والصلواة} ،

جزء : ١ رقم الصفحة : ٤١٧

". (١)

"قال الزمخشري : فإن قلت في الميتات ما يحل وهو السمك والجراد. قلت : قصد ما يتفاهمه الناس ويتعارفونه في العادة. ألا ترى أن القائل إذا قال : أكل فلان ميتة ، لم يسبق الفهم إلى السمك والجراد ؟ كما لو قال : أكل دما ، لم يسبق إلى الكبد والطحال. ولاعتبار العادة والتعارف قالوا : من حلف لا يأكل لحما ، فأكل سمكا ، لم يحنث ، وإن أكل لحما في الحقيقة. وقال الله تعالى : {لتأكلوا منه لحما طريا} ، وشبهوه بمن حلف لا يركب دابة ، فركب كافرا ، لم يحنث وإن سماه الله دابة في قوله : {إن شر الدوآب عند الله الذين كفروا } . انتهى كلامه.

وملخص ما يقوله : إن السمك والجراد لم يندرج في عموم الميتة من حيث الدلالة ، وليس كما قال. وكيف

---

(١) تفسير البحر المحيط . (دار الفكر)، ٣٨٩/١

يكون ذلك ، وقد

٤٨٦

روي عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : "أحلت لنا ميتتان" ؟ فلو لم يندرج في الدلالة ، لما احتيج إلى تقرير شرعي في حله ، إذ كان يبقى مدلولا على حله بقوله : {كلوا من طيبات ما رزقناكم} . وليس من شرط العموم ما يتفاهمه الناس ويتعارفونه فى العادة ، كما قال الزمخشري ، بل لو لم يكن للمخاطب شعور البتة ، ولا علم ببعض أفراد العام ، وعلق الحكم على العام ، لاندرج فيه ذلك الفرد الذي لا شعور للمخاطب به. مثال ذلك ما جاء في الحديث : "نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أكل كل ذي ناب من السباع". فهذا علق الحكم فبه بكل ذي ناب. والمخاطب ، الذين هم العرب ، لا علم لهم ببعض أفراد ذي الناب ، وذلك الفرد مندرج في العموم يقضي عليه بالنهي ، كما في بلادنا ، بلاد الأندلس ، حيوان مفترس يسمى عندهم بالدب وبالسمع ، وهو ذو أنياب يفترس الرجل ويأكله ، ولا يشبه الأسد ، ولا الذئب ، ولا النمر ، ولا شيئا مما يعرفه العرب ، ولا نعلمه خلق بغير بلاد الأندلس. فهذا لا يذهب أحد إلى أنه ليس مندرجا في عموم النهي عن أكل كل ذي ناب ، بل شمله النهي ، كما شمل غيره مما تعاهده العرب وعرفوه ، لأن الحكم نيط بالعموم وعلق به ، فهو معلق بكل فرد من أفراده ، حتى بما كان لم يخلق ألبتة وقت الخطاب ، ثم خلق شكلا مباينا لسائر الأشكال ذوات الأنياب ، فيندرج فيه ، ويحكم بالنهي عنه. وإنما تمثيل الزمخشري بالإيمان ، فللإيمان أحكام منوطة بها ، ويؤول التحقيق فيها إلى أن ذلك تخصيص للعموم بإرادة خروج بعض الأفراد منه.

جزء : ١ رقم الصفحة : ٤٧٧

والميتة : ما مات دون ذكاة مما له نفس سائلة. واختلف في السمك الطافي ، وهو ما مات في الماء فطفا. فذهب مالك وغيره أنه حلال. ومذهب العراقيين أنه ممنوع من أكله. وفي كلام بعض الحنفيين عن أبي حنيفة أنه مكروه. وأما ما مات من الجراد بغير تسبب ، فهو عند مالك وجمهور أصحابه أنه حرام ، وعند ابن عبد الحكم وابن نافع حلال ، وعند ابن القاسم وابن وهب وأشهب وسحنون تقييدات في الجراد ذكرت في كتب المالكية. هذا حكم الميتة بالنسبة إلى الأكل. وأما الانتفاع بشيء منها ، نحو : الجلد ، والشعر ، والريش ، واللبن ، والبيض ، والأنفخة ، والجنين ، والدهن ، والعظم ، والقرن ، والناب ، والغصب ، فذلك مذكور في كتب الفقه ، ولهم في ذلك اختلاف وتقييد كثير يوقف على ذلك في تصانيفهم.

والدم : ظاهره العموم ، ويتخصص بالمسفوح لآية الأنعام. فإذا كان مسفوحا ، فلا خلاف في نجاسته وتحريمه. وفي دم السمك المزايل له في مذهب مالك قولان : أحدهما : أنه طاهر ، ويقتضي ذلك أنه غير محرم. وأجمعوا على جواز أكل الدم المتحلل بالعروق واللحم الشاق إخراجه ، وكذلك الكبد والطحال. وذكر المفسرون في يسير الدم المسفوح الخلاف في العفو عنه ، وفي مقدار اليسير ، والخلاف في دم البراغيث والبق والذباب ، وهذا كله من علم الفقه ، فيطالع في كتب الفقه. ولم يذكرالله تعالى حكمة في تحريم أكل الميتة والدم ، ولا جاء نص عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك. ولو تعبدنا تعالى بجواز أكل الميتة والدم ، لكان ذلك شرعا يجب اتباعه. وقد ذكروا أن **الحكمة في** تحريم الميتة جمود الدم فيها بالموت ، وأنه يحدث أذى للآكل. وفي تحريم الدم أنه بعد خروجه يجمد ، فهو في الأذى كالجامد في الميتة ، وهذا ليس بشيء ، لأن الحس يكذب ذلك. وجدنا من يأكل الميتة ، ويشرب الدم من الأمم ، صورهم وسحنهم من أحسن ما يرى وأجمله ، ولا يحدث لهم أذى بذلك.

جزء : ١ رقم الصفحة : ٤٧٧

ولحم الخنزير : ظاهره أن المحرم منه هو لحمه فقط. وقد ذهب إلى ذلك داود ، رأس الظاهرية ، فقال : المحرم اللحم دون الشحم. وقال غيره من سائر العلماء : المحرم لحمه وسائر أجزائه. وإنما خص اللحم بالذكر ، والمراد جميع أجزائه ، لكون اللحم هو معظم ما ينتفع به. كما نص على قتل الصيد على المحرم ، والمراد حظر جميع أفعاله في الصيد. وكما نص على ترك البيع {يا أيها الذين ءامنوا إذا نودى للصلواة} ، لأنه كان أعظم ما كانوا يبتغون به منافعهم ، فهو أشغل

٤٨٧

". (١)

"والضمير في يسألونك ضمير جمع على أن السائلين جماعة ، وإن كان من سأل اثنين ، كما روي ، فيحتمل أن يكون من نسبة الشيء إلى جمع وإن كان ما صدر إلا من واحد منهم أو اثنين ، وهذا كثير في كلامهم ، قيل : أو لكون الإثنين جمعا على سبيل الاتساع والمجاز.

والكاف : خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ، و: يسألونك ، خبر ، فإن كانت الآية نزلت قبل السؤال كان ذلك من الاخبار بالمغيب : وإن كانت نزلت بعد السؤال ، وهو المنقول في أسباب النزول ، فيكون

---

(١) تفسير البحر المحيط . (دار الفكر)، ١/٤٢٥

ذلك حكاية عن حال مضت.
و : عن ، متعلقة بقوله : يسألونك ، يقال : سأل به وعنه ، بمعنى واحد ، ولا يراد بذلك السؤال عن ذات الأهلة ، بل عن حكمة اختلاف أحوالها ، وفائدة ذلك ، ولذلك أجاب بقوله : {قل هى مواقيت للناس} فلو كانت على حالة واحدة ما حصل التوقيت بها.
جزء : ٢ رقم الصفحة : ٥٨
والهلال هو مفرد وجمع باختلاف أزمانه ، قالوا : من حيث كونه هلالا في شهر ، غير كونه هلالا في آخر.
وقرأ الجمهور : عن الأهلة ، بكسر النون وإسكان لام الأهلة بعدها همزة ، وورش على أصله من نقل حركة الهمزة وحذف الهمزة ، وقرأ شاذا بادغام نون : عن في لام الأهلة بعد النقل والحذف.
{قل هى} أي : الأهلة {مواقيت للناس} هذه : **الحكمة في** زيادة القمر ونقصانه إذ هي كونها مواقيت في الآجال ، والمعاملات ، والإيمان ، والعدد ، والصوم ، والفطر ، ومدة الحمل والرضاع ، والنذور المعلقة بالأوقات ، وفضائل الصوم في الأيام التي لا تعرف إلا بالأهلة. وقد ذكر تعالى هذا المعنى في قوله : {وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب} وفي قوله : {فمحونآ ءاية اليل وجعلنآ ءاية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب} .
وقال الراغب : الوقت الزمان
٦١
المفروض للعمل ، ومعنى : مواقيت للناس أي ما يتعلق بهم من أمور معاملاتهم ومصالحهم. انتهى.
وقال الرماني : الوقت مقدار من الزمان محدد في ذاته ، والتوقيت تقدير حده ، وكلما قدرت له غاية فهو موقت ، والميقات منتهى الوقت ، والآخرة منتهى الخلق ، والإهلال ميقات الشهر ، ومواضع الإحرام مواقيت الحج ، لأنها مقادير ينتهي إليها ، والميقات مقدار جعل علما لما يقدر من العمل. انتهى كلامه.
وفي تغيير الهلال بالنقص والنماء رد على الفلاسفة في قولهم : إن الأجرام الفلكية لا يمكن تطرق التغيير إلى أحوالها ، فأظهر تعالى الاختلاف في القمر ولم يظهره في الشمس ليعلم أن ذلك بقدرة منه تعالى.
والحج : معطوف على قوله : للناس ، قالوا : التقدير ومواقيت للحج ، فحذف الثاني اكتفاء بالأول ، والمعنى : لتعرفوا بها أشهر الحج ومواقيته. ولما كان الحج من أعظم ما يطلب ميقاته وأشهره بالأهلة ، أفرد بالذكر ، وكأنه تخصيص بعد تعمم ، إذ قوله : مواقيت للناس ، ليس المعنى مواقيت لذوات الناس ، وإنما

المعنى : مواقيت لمقاصد الناس المحتاج فيها للتأقيت دينا ودنيا. فجاء قوله : والحج ، بعد ذلك تخصيصا بعد تعميم. ففي الحقيقة ليس معطوفا على الناس ، بل على المضاف المحذوف الذي ناب الناس منابه في الإعراب. ولما كانت تلك المقاصد يفضي تعدادها إلى الإطناب ، اقتصر على قوله : مواقيت للناس.
جزء : ٢ رقم الصفحة : ٥٨
وقال القفال : إفراد الحج بالذكر لبيان أن الحج مقصور على الأشهر التي عينها الله تعالى لفرض الحج ، وأنه لا يجوز نقل الحج عن تلك الأشهر لأشهر أخر ، إنما كانت العرب تفعل ذلك في النسيء. انتهى كلامه.
." (١)

"وقرأ الجمهور : والحج ، بفتح الحاء. وقرأ الحسن وابن أبي الحاق : والحج بكسرها في جميع القرآن في قوله : {حج البيت} فقيل بالفتح المصدر وبالكسر الاسم. وقال سيبويه : الحج ، كالرد والسد ، والحج ، كالذكر ، فهما مصدران. والظاهر من قوله : مواقيت للناس ، والحج ، ما ذهب إليه أبو حنيفة ، ومالك من جواز الإحرام بالحج في جميع السنة لعموم الأهلة ، خلافا لمن قال : لا يصح إلا في أشهر الحج. قيل : وفيها دليل على أن من وجب عليها عدتان من رجل واحد اكتفت بمضي عدة واحدة للعدتين ، ولا تستأنف لكل واحدة منهما حيضا ، ولا شهورا ، لعموم قوله : مواقيت للناس. ودليل على أن العدة إذا كان ابتداؤها بالهلال ، وكانت بالشهور ، وجب استيفاؤها بالأهلة لا بعدد الأيام ، ودليل على أن من آلى من امرأته من أول الشهر إلى أن مضى الأربعة الأشهر معتبر في اتباع الطلاق بالأهلة دون اعتبار الثلاثين ، وكذلك فعل النبي صلى الله عليه وسلم حين آلى من نسائه شهرا ، وكذلك الإجارات ، والأيمان ، والديون ، متى كان ابتداؤها بالهلال كان جميعها كذلك ، وسقط اعتبار العدد ، وبذلك حكم النبي صلى الله عليه وسلم في الصوم ، وفيها رد على أهل الظاهر. ومن قال بقولهم : إن المساقات تجوز على الأجل المجهول سنين غير معلومة ، ودليل على من أجاز البيع إلى الحصاد أو الدراس أو للغطاس وشبهه وهو : مالك ، وأبو ثور ، وأحمد ؛ وكذلك إلى قدوم الغزاة وروي عن ابن عباس منعه ، وبه قال الشافعي ، ودليل على عدم اعتبار وصف الهلال بالكبر أو الصغر لأنه يقال : ما فصل ، فسواء رئي كبيرا أو صغيرا ، فإنه لليلة التي رئي فيها.

---

(١) تفسير البحر المحيط . (دار الفكر)، ٣٠/٢

{وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولـاكن البر من اتقى } . قال البراء بن عازب ، والزهري ، وقتادة ، سبب نزولها أن الأنصار كانوا إذا حجوا واعتمروا يلتزمون شرعا أن لا يحول بينهم وبين السماء حائل ، فكانوا يتسمون ظهور بيوتهم على الجدران ، وقيل : كانوا في الجاهلية وفي بدء الإسلام إذا أحرم أحدهم بحج أو عمرة لم يأت حائطا ، ولا بيتا ، ولا دارا من بابه ، فإن كان من أهل المدينة نقب في ظهر بيته نقبا يدخل منه ويخرج ، أو ينصب سلما ، يصعد منه ، وإن كان من أهل الوبر خرج من خلف الخيمة والفسطاط ، ولا يدخل ولا

٦٢

يخرج من الباب حتى يحل إحرامه ، ويرون ذلك برا إلا أن يكون ذلك من الحمس ، وهم : قريش ، وكنانة ، وخزاعة ، وثقيف ، وخثعم ، وبنو عامر بن صعصعة ، وبنو نصر بن معاوية. فدخل النبي صلى الله عليه وسلم ومعه رجل منهم ، فوقف ذلك الرجل وقال : إني أحمس ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "وأنا أحمس". فنزلت. ذكر هذا مختصرا السدي.

جزء : ٢ رقم الصفحة : ٥٨

وروى الربيع أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل وخلفه رجل من الأنصار ، فدخل وخرق عادة قومه ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : "لم دخلت وأنت قد أحرمت" ؟ قال : دخلت أنت فدخلت بدخولك. فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : "إني أحمس ، إني من قوم لا يدينون بذلك". فقال الرجل : وأنا ديني دينك فنزلت.

وقال إبراهيم : كان يفعل ما ذكر قوم من أهل الحجاز ، وقيل : كان الخارج لحاجة لا يعود من بابه مخافة التطير بالخيبة ، ويبقى كذلك حولا كاملا.

وملخص هذه الأسباب أن الله تعالى أنزل هذه الآية رادا على من جعل إتيان البيوت من ظهورها برا ، آمرا بإتيان البيوت من أبوابها ، وهذه أسباب تظافرت على أن البيوت أريد بها الحقيقة ، وأن الإتيان هو المجيء إليها ، والحمل على الحقيقة أولى من ادعاء المجاز مع مخالفة ما تظافرت من هذه الآسباب.

ومناسبة هذه الآية لما قبلها أنه لما ذكر أن الأهلة مواقيت للحج استطرد إلى ذكر شيء كانوا يفعلونه في الحج زاعمءين أنه من البر ، فبين لهم أن ذلك ليس من البر ، وإنما جرت العادة به قبل الحج أن يفعلوه في الحج ، ولما ذكر سؤالهم عن الأهلة بسبب النقصان والزيادة ، وما حكمة ذلك ، وكان من المعلوم أنه

تعالى حكيم ، فأفعاله جارية على الحكمة ، رد عليهم بأن ما يفعلونه من إتيان البيوت من ظهورها ، إذا أحرموا ، ليس من الحكمة في شيء ، ولا من البر ، ولما وقعت القصتان في وقت واحد نزلت الآية فيهما معا ، ووصل إحداهما بالأخرى.

وأما حمل الإتيان والبيوت على المجاز ففيه أقوال.

أحدهما : أن ذلك ضرب ، مثل : المعنى ليس البر أن تسألوا الجهال ، ولكن اتقوا واسألوا العلماء. فهذا كما يقال : أتيت الأمر من بابه ، قاله أبو عبيدة.

الثاني : أنه ذكر إتيان البيوت من أبوابها مثلا لمخالفة الواجب في الحج ، وذلك ما كانوا يعملونه في النسيء ، فانهم كانوا يخرجون الحج عن وقته الذي عينه الله تعالى ، فيحرمون الحلال ويحلون الحرام ، فضرب مثلا للمخالفة ، وقيل : واتقوا الله تحت إتيان كل واجب في اجتناب كل محرم. قاله أبو مسلم. ". (١)

"القرء : أصله في اللغة الوقت المعتاد تردده ، وقرء النجم وقت طلوعه ووقت غروبه ، ويقال منه : أقرأ النجم أي طلع أو غرب ، وقرء المرأة حيضها وطهرها ، فهو من الأضداد ، قاله أبو عمرو ، ويونس ، وأبو عبيد ؛ ويقال منهما : أقرأت المرأة ، وقال أبو عمرو : من العرب من يسمي الحيض مع الطهر قرءا ، وقال بعضهم : القرء ما بين الحيضتين ، وقال الأخفش : أقرأت صارت صاحبة حيض ، فإذا حاضت قلت قرت بغير ألف. وقيل : القرء أصله الجمع من قولهم ، قرأت الماء في الحوض ، جمعته ، ومنه : ما أقرأت هذه الناقة سلا قط ، أي : ما جمعت في بطنها جنينا ، فإذا أريد به الحيض : فهو اجتماع الدم في الرحم ، أو الطهر ، فهو اجتماع الدم في البدن.

جزء : ٢ رقم الصفحة : ١٧٤

الرحم : الفرج من المؤنث ، وقد يستعار للقرابة ، يقال : بينهما رحم ، أي قرابة ، ويصل الرحم.

البعل : الزوج يقال منه ، بعل يبعل بعولة ، أي : صار بعلا ، وباعل الرجل امرأته إذا جامعها ، وهي تباعله إذا فعلت ذلك معه ، وامرأة حسنة التبعيل إذا كانت تحسن عشرة زوجها ، والبعل أيضا الملك ، وبه سمي الصنم لأنه المكتفي بنفسه ، ومنه بعل النخل. وجمع البعل : بعول وبعولة ، كفحل وفحولة ، التاء فيه لتأنيث الجمع ولا ينقاس ، فلا يقال : في كعوب جمع كعب كعوبة.

---

(١) تفسير البحر المحيط . (دار الفكر)، ٢/٣١

الرجل : معروف يجمع على : رجال ، وهو مشتق من الرجلة ، وهي

١٧٥

القوة ، يقال : رجل بين الرجولة والرجلة ، وهو أرجل الرجلين أي : أقواهما ، وفرس رجيل قوي على المشي ، ومنه : سميت الرجل لقوتها على المشي ، وارتجل الكلام قوي عليه ، وترجل النهار قوي ضياؤه ، ويقال : رجل ورجلة ، كما قالوا : امرؤ وامرأة ، وكتبت من خط أستاذنا أبي جعفر بن الزبير رحمه الله تعالى :

كل جار ظل مغتبطاغير جيراني بني جبله

هتكوا جيب فتاتهملم يبالوا حرمة الرجله

الدرجة : المنزلة ، وأصله من درجت الشيء وأدرجته : طويته ، ودرج القوم فنوا ، وأدرجهم الله فهو كطي الشيء منزلة منزلة والدرجة المنزلة من منازل الطي ، ومنه الدرجة التي يرتقى إليها.

الإمساك : للشيء حبسه ، ومنه اسمان : مسك ومساك ، يقال : إنه لذو مسك وميساك إذا كان بخيلا ، وفيه مسكة من خير أي : قوة ، وتماسك ومسيك بين المساكة.

التسريح : الإرسال ، وسرح الشعر خلص بعضه من بعض ، والماشية أرسلها لترعى ، والسرح الماشية ، وناقة مسرح سهلة المسير لانطلاقها فيه.

{ولا تجعلوا الله عرضة لايمانكم} قال ابن عباس : نزلت في عبد الله بن رواحة وختنه بشير بن النعمان ، كان بينهما شيء ، فحلف عبد الله أن لا يدخل عليه ولا يكلمه ولا يصلح بينه وبين زوجته ، وجعل يقول : حلفت بالله ، فلا يحل لي إلا بر يميني.

وقال الربيع : نزلت في الرجل يحلف أن لا يصل رحمه ولايصلح بين الناس ؛ وقال ابن جريج : في أبي بكر حين حلف لا ينفق على مسطح حين تكلم في الإفك ، وقال المقاتلان ابن حيان وابن سليمان : حلف لا ينفق على ابنه عبد الرحمن حتى يسلم ؛ وقيل : حلف أن لا يأكل مع الأضياف حين أخر ولده عنهم العشاء ، وغضب هو على ولده.

وقالت عائشة : نزلت في تكرير الأيمان بالله ، فنهى أن يحلف به برا ، فكيف فاجرا.

ومناسبة هذه الآية لما قبلها ، أنه تعالى لما أمر بتقوى بالله تعالى ، وحذرهم يوم الميعاد ، نهاهم عن ابتذال اسمه ، وجعله معرضا لما يحلفون عليه دائما ، لأن من يتقي ويحذر تجب صيانة اسمه وتنزيهه عمالا يليق به من كونه يذكر في كل ما يحلف عليه ، من قليل أو كثير ، عظيم أو حقير ، لأن كثرة ذلك توجب عدم

الاكترات بالمحلوف به.

جزء : ٢ رقم الصفحة : ١٧٤

وقد تكون المناسبة بأنه تعالى لما أمر المؤمنين بالتحرز في أفعالهم السابقة من : الخمر ، والميسر ، وإنفاق العفو ، وأمر اليتامى ، ونكاح من أشرك ، وحيال وطء الحائض ، أمرهم تعالى بالتحرز في أقوالهم ، فانتظم بذاك أمرهم بالتحرز في الأفعال والأقوال.

واختلفوا في فهم هذه الجملة من قوله {ولا تجعلوا الله عرضة لايمانكم} وهو خلاف مبنى على الاختلاف في اشتقاق العرضة ، فقيل : نهوا عن أن يجعلوا الله معدا لايمانهم فيحلفوا به في البر والفجور ، فإن الحنث مع الإكثار فيه قلة رعي بحق الله تعالى ، كما روي عن عائشة أنها نزلت في تكثير اليمين بالله ، نهى أن يحلف الرجل به برا فكيف فاجرا ؟ وقد ذم الله من أكثر الحلف بقوله : {ولا تطع كل حلاف مهين} وقال : {واحفظوا أيمانكم} . والعرب تمدح بالإقلال من الحلف قال كثير :

قليل ألا لا يا حافظ ليمينهإذا صدرت منه الألية برت

والحكمة في النهي عن تكثير الأيمان بالله أن ذلك لا يبقي لليمين في قلبه وقعا ، ولا يؤمن من إقدامه على اليمين الكاذبة ، وذكر الله أجل من أن يستشهد به في الأعراض الدنيويه.

". (١)

"فهي معترضة في هذه القصة ، جاءت للتشديد والتقوية لمن يؤتيه الله الملك ، أي : فإذا كان الله تعالى هو المتصرف في ملكه فلا اعتراض عليه {لا يسال عما يفعل} وختم بهاتين الصفتين ، إذ تقدم دعواهم أنهم أهل الملك ، وأنهم الأغنياء ، وأن طالوت ليس من بيت الملك ، وأنه فقير فقال تعالى : إنه واسع ، يوسع فضله على الفقير ، عليم بمن هو أحق بالملك ، فيضعه فيه ويختاره له.

وفي قصة طالوت دلالة على أن الإمامة ليست وراثة ، لإنكار الله عليهم ما أنكروه من التمليك عليهم من ليس من أهل النبوة والملك ، وبين أن ذلك مستحق بالعلم والقوة لا بالنسب ، ودل أيضا على أنه لا حظ للنسب مع العلم ، وفضائل النفس ، وأنها مقدمة عليه لاختيار الله طالوت عليهم ، لعلمه وقدرته ، وإن كانوا أشرف منه نسبا.

وقد تضمنت هذه الآيات الشريفة الإخبار بقصة الخارجين من ديارهم ، وهم عالم لا يحصون ، فراراً من

---

(١) تفسير البحر المحيط . (دار الفكر)، ٢/١٢٤

الموت ، إما بالقتل إذ فرض عليهم القتال ، وإما بالوباء ، فأماتهم الله ثم أحياهم ليعلموا أنه لا مفر مما قدره الله تعالى ، وذلك لئلا نسلك ما سلكوه ، فنحجم عن القتال ، فأتت هذه الآية مثبتة لمن جاهد في سبيله ، وذكر تعالى أنه ذو فضل على الناس ، وذلك بإحيائهم والإحسان إليهم ، ومع ذلك فأكثرهم لا يؤدي شكر الله. ثم أمر بالقتال في سبيل الله ، وبأن نعلم أنه سميع لأقوالنا ، عليم بنياتنا ، ثم ذكر أن من أقرض الله فالله يضاعفه حيث يحتاج إليه ، ثم ذكر أن بيده القبض والبسط ، وأن مرجع الكل إليه ، ثم أخبر تعالى بقصة الملأ من بني اسرائيل ، وذلك لنعتبر بها ونقتدي منها بما كان من أحوالهم حسنا ، ونجتنب ما كان قبيحا. وهذه الحكمة في قصص الأولين علينا لنعتبر بها ، وأنهم حين استولى عليهم العدو ، فملك بلادهم وأسر أبناءهم ، ولم يكن لهم ملك يسوسهم في أمر الحرب ، إذ هي محتاجة إلى من يصدر عن أمره ويجتمع عليه ، فسألوا نبيهم أن ينهض. لهم ملكا برسم الجهاد في سبيل الله ، فتوقع النبي منهم أنه لو فرض عليهم القتال نكصوا عنه ، فأجابوه : بأنا قد وترنا ، وأخرجنا من ديارنا ، وأبنائنا ، وهذا أصعب شيء على النفوس ، وهو أن يخرج من مسكن ألفه ، ويفرق بينه وبين أبنائه ، ولهذا دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم : "اللهم حبب لنا المدينة كحبنا مكة أو أكثر". وكثيرا ما بكى الشعراء المساكن والمعاهد ، ألا ترى إلى قول بلال :

جزء : ٢ رقم الصفحة : ٢٤٨

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلةبواد وحولي إذ حر وجليل

وكان قتيبة بن سعيد المحدث قد رزق من النصيب في الدنيا والجلالة ، وحمل الناس العلم عنه ، وكان ببغداد ، فعبر مرة على مكان مولده ومنشئه صغيرا ببغلان ، قيل : وهي ضيعة من أصغر الضياع ، فتمنى أن لو كان مقيما بها ، ويترك رئاسة بغداد ، دار الخلافة ، وذلك نزوع إلى الوطن ، وذكر تعالى أنه لما فرض القتال عليهم : أعرضوا عن قبوله إلا قليلا فإنه أخذ أمر الله بالقبول ، ثم عرض تعالى بالظالمين ، وهم : الذين لم يقبلوا أمر الله بعد أن كانوا طلبوه ، فهو يجازيهم على ظلمهم ، ثم أخبر تعالى عن نبيهم أنه قال لهم عن الله إنه قد بعث طالوت ملكا عليهم ، ولم يكن عندهم من أنفسهم ولا أشرفهم منصبا ، إذ ليس من سبط النبوة ، ولا من سبط الملك ، فلم يأخذوا ما أخبرهم عن الله بالقبول ، وشرعوا يتعنتون على عادتهم مع أنبيائهم ، فاستبعدوا تمليكه عليهم ، لأن فيهم من هو أحق بالملك منه على زعمهم ، إذ لم يسبق له أن يكون من آبائه ملك فيعظم عند العامة ، ولأنه فقير ، وهاتان الخلتان هما يضعفان الملك ، إذ سابق

الرئاسة والجاه والملاءة بالأموال مما يستتبع الرجال ، ويستعبد الأحرار ، وما علموا أن عناية المقادير تجعل المفضول فاضلا. فأخبرهم نبيهم ، أن الله تعالى قد اختاره عليكم ، وشرفه بخصلتين : هما في ذاته : إحداهما : الخلق العظيم ، والأخرى : المعرفة التي هي الفضل الجسيم ، واستغنى بهذين الوصفين الذاتيين عن الوصفين الخارجين عن الذات ، وهما الفخر : بالعظم الرميم ، والاستكثار بالمال الذي مرتعه وخيم.
ثم أخبر أن الله تعالى

٢٥٩

يعطى ملكه من أراد ، وأنه الواسع الفضل ، العالم بمصالح العباد ، فلا اعتراض عليه.

جزء : ٢ رقم الصفحة : ٢٤٨

التابوت : معروف وهو الصندوق ، وفي التابوت قولان.

أحدهما : أن وزنه فاعول ولا يعرف له اشتقاق ولغة فيه التابوه ، بالهاء آخرا ، ويجوز أن تكون الهاء بدلا من التاء كما أبدلوها منها في الوقت ، في مثل : طلحة فقالوا : طلحه ، ولا يجوز أن يكون : فعلوتا كملكوت ، من : تاب يتوب ، لفقدان معنى الاشتقاق فيه.

". (١)

"{ولو شآء الله ما اقتتلوا } قيل : الجملة تكررت توكيدا للأولى ، قاله الزمخشري. وقيل : لا توكيد لاختلاف المشيئتين ، فالأولى : ولو شاء الله أن يحول بينهم وبين القتال بأن يسلبهم القوى والعقول ، والثانية : ولو شاء الله أن يأمر المؤمنين بالقتال ، ولكن أمر وشاء أن يقتتلوا ، وتعلق بهذه الآية مثبتو

٢٧٤

القدر ونافوه ، ولم يزل ذلك مختلفا فيه حتى كان الأعشى في الجاهلية نافيا حيث قال :

استأثر الله بالوفاء وبالعدل وولى الملامة الرجلا

وكان لبيد مثبتا حيث قال :

من هداه سبل الخير اهتدىناعم البال ومن شاء أضل

{ولاكن الله يفعل ما يريد} هذا يدل على أن ما أراد الله فعله فهو كائن لا محالة ، وإن ارادة غيره غير مؤثرة ، وهو تعالى المستأثر بسر الحكمة فيما قدر وقضى من خير وشر ، وهو فعله تعالى. وقال الزمخشري

---

(١) تفسير البحر المحيط. (دار الفكر)، ١٩١/٢

: ولكن الله يفعل ما يريد من الخذلان والعصمة ، وهذا على طريقة الاعتزالية.
قيل : وتضمنت هذه الآية الكريمة من أنواع البلاغة : التقسيم ، في قوله : {منهم من كلم الله} بلا واسطة ، ومنهم من كلمه بواسطة ، وهذا التقسيم اقتضاه المعنى ، وفي قوله {فمنهم من ءامن ومنهم من كفر} وهذا التقسيم ملفوظ به. و: الاختصاص ، مشارا إليه ومنصوبا عليه ، و: التكرار ، في لفظ البينات ، وفي {ولو شآء الله ما اقتتلوا } على أحد التأويلين. و: الحذف ، في قوله {منهم من كلم الله} أي كفاحا وفي قوله {يفعل ما يريد} يعني من هداية من شاء وضلالة من شاء.
{يا أيها الذين ءامنوا أنفقوا مما رزقناكم} مناسبة هذه الآية لما قبلها هو أنه لما ذكر أن الله تعالى أراد الاختلاف إلى مؤمن وكافر ، وأراد الاقتتال ، وأمر به المؤمنين ، وكان الجهاد يحتاج صاحبه إلى الإعانة عليه ، أمر تعالى بالنفقة من بعض ما رزق ، فشمل النفقة في الجهاد ، وهي ، وإن لم ينص عليها ، مندرجة في قوله : أنفقوا ، وداخلة فيها دخولا أوليا ، إذ جاء الأمر بها عقب ذكر المؤمن والكافر واقتتالهم ، قال ابن جريج ، والأكثرون : الآية عامة في كل صدقة واجبة أو تطوع وقال الحسن : هي في الزكاة ، والزكاة منها جزء للمجاهدين ، وقاله الزمخشري ، قال : أراد الإنفاق الواجب لاتصال الوعيد به {من قبل أن يأتى يوم} لا تقدرون فيه على تدارك ما فاتكم من الإنفاق ، لأنه لا بيع فيه حتى تبتاعوا ما تنفقونه ، ولا خلة حتى تسامحكم أخلاؤكم به ، وإن أردتم أن يحط عنكم ما في ذمتكم من الواجب لم تجدوا شفيعا يشفع لكم في حط الواجبات ، لأن الشفاعة ثم في زيادة الفضل لا غير ، {والكافرون هم الظالمون} أراد : والتاركون الزكاة هم الظالمون ، فقال : والكافرون ، للتغليظ ، كما قال في آخر آية الحج. ومن كفر مكان : ومن لم يحج ، ولأنه جعل ترك الزكاة من صفات الكفار ، في قوله {وويل للمشركين * الذين لا يؤتون الزكواة} انتهى كلامه.
جزء : ٢ رقم الصفحة : ٢٧١
ورد قوله بأنه ليس في الآية وعيد ، فكأنه قيل : حصلوا منافع الآخرة حين تكون في الدنيا ، فإنكم إذا خرجتم من الدنيا لا يمكنكم تحصيلها واكتسابها في الآخرة ، وقول الزمخشري : لأن الشفاعة ثم في زيادة الفضل لا غير ، هو قول المعتزلة ، لأن عندهم أن الشفاعة لا تكون للعصاة ، فلا يدخلون النار ، ولا للعصاة الذين دخلوا النار ، فلا يخرجون منها بالشفاعة.
وقيل : المراد منه الإنفاق في الجهاد ، ويدل عليه أنه مذكور بعد الأمر بالجهاد ، فكأن المراد منه الأنفاق

في الجهاد ، وهو قول الأصم.
قال ابن عطية : وظاهر هذه الآية أنها مراد بها جميع وجوه البر من سبيل خير ، وصلة رحم ، ولكن ما تقدم من الآيات في ذكر القتال ، وأن الله يدفع بالمؤمنين في صدور الكافرين ، يترجح منه أن هذا الندب إنما هو في سبيل الله ، ويقوي ذلك قوله في آخر الآية {والكافرون هم الظالمون} أي : فكافحوهم بالقتال بالأنفس وإنفاق الأموال. انتهى كلامه.
وندب تعالى العبد إلى أن ينفق مما رزقه ، والرزق ، وإن تناول غير الحلال ، فالمراد منه هنا الحلال ، و: مما رزقناكم ، متعلق بقوله : أنفقوا ، و: ما ، موصولة بمعنى الذي ، والعائد محذوف ، أي : رزقناكموه ، وقيل : ما مصدرية أي : من رزقنا إياكم ، و: من قبل ، متعلق : بأنفقوا ، أيضا ، واختلف في مدلول : من : فالأولى : للتبعيض ، والثانية : لابتداء الغاية ،
٢٧٥
وزعم بعضهم أنها تتعلق : برزقناكم.
{من قبل أن يأتى يوم} حذر تعالى من الإمساك قبل أن يأتي هذا اليوم ، وهو يوم القيامة.
{لا بيع فيه} أي : لا فدية فيه لأنفسكم من عذاب الله ، وذكر لفظ البيع لما فيه من المعاوضة وأخذ البدل ، وقيل : لافداء عما منعتم من الزكاة تبتاعونه تقدمونه عن الزكاة يومئذ. وقيل : لا بيع فيه للأعمال فتكتسب.
." (١)

"قلت : ليجيب بما أجاب به لما فيه من الفائدة الجليلة للسامعين ، و: بلى ، إيجاب لما بعد النفي ، معناه : بلى آمنت ، ولكن ليطمئن قلبي ، ليزيد سكونا وطمأنينة بمضامة علم الضرورة علم الاستدال. وتظاهر الأدلة أسكن للقلوب ، وأزيد للبصيرة واليقين ، ولأن علم الاستدلال يجوز معه التشكيك ، بخلاف العلم الضروري ، فأراد بطمأنينة القلب العلم الذي لا مجال فيه للتشكيك. انتهى كلامه. وليس علم الاستدلال يجوز معه التشكيك كما قال ، بل منه ما يجوز معه التشكيك. أما إذا كان عن مقدمات صحيحة فلا يجوز معه التشكيك ، كعلمنا بحدوث العالم ، وبوحدانية الموجد ، فمثل هذا لا يجوز معه التشكيك. وقال ابن عطية : ليطمئن ، معناه : ليسكن عن فكره في الشيء المعتقد ، والفكر في صورة الإحياء غير

(١) تفسير البحر المحيط. (دار الفكر)، ٢/٢٠٤

محظور ، كما لنا نحن اليوم أن نفكر فيها ، بل هي فكر فيها عبر ، إذ حركه إلى ذلك ، أما أمر الدابة المأكولة ، وأما ق,ل النمروذ {ألم تر} .

٢٩٨

انتهى كلامه. وهو حسن.

واللام في قوله : ليطمئن ، متعلقة بمحذوف بعد لكن ، التقدير : ولكن سألت مشاهدة الكيفية لإحياء الموتى ليطمئن قلبي ، فيقتضي تقدير هذا المحذوف تقدير محذوف آخر قبل لكن حتى يصح الاستدراك ، التقدير : قال : بلى أي آمنت ، وما سألت عن غير إيمان ، ولكن سألت ليطمئن قلبي.

وروي عن : ابن جبير ، وإبراهيم ، وقتادة : ليزداد يقينا ، وعن بعضهم : لأزداد إيمانا مع إيماني. قال ابن عطية : ولا زيادة في هذا المعنى تمكن إلا السكون عن الفكر ، وإلا فاليقين لا يتبعض انتهى.

وقال النصراباذي : حن الخليل إلى صنع خليله ولم يتهمه في أمره ، فكأنه قوله الشوق : أرني ، كما قال موسى عليه السلام ، ثم تعلل برؤية الصنع له تأدبا. وحكى القشيري أنه قيل : استجلب خطابا بهذه القالة ، حتى قال له الحق : أو لم تؤمن ؟ قال : بلى آمنت ، ولكن اشتقت إلى قولك : أو لم تؤمن ؟ فإني بقولك : أو لم تؤمن ؟ يطمئن قلبي. والمحب أبدا يجتهد في أن يجد خطاب حبيبه على أي وجه أمكنه.

{قال فخذ أربعة من الطير} لما سأل رؤية كيفية إحياء الموتى أجابة تعالى لذلك ، وعلمه كيف يصنع أولا ، فأمره أن يأخذ أربعة من الطير ، ولم يذكر الله تعالى تعيين الأربعة من أي جنس هي من الطير ، فيحتمل أن يكون المأمور به معينا ، وما ذكر تعيينه ، ويحتمل أن يكون أمر بأخذ أربعة ، أي أربعة كانت من غير تعيين ، إذ لا كبير علم في ذكر التعيين.

جزء : ٢ رقم الصفحة : ٢٨٥

وقد احتلفوا فيما أخذ ، فقال ابن عباس : أخذ طاووسا ونسرا وديكا وغرابا. وقال مجاهده ، وعكرمة ، وعطاء ، وابن جريج ، وابن زيد : كذلك ، إلا أنهم جعلوا حمامة بدل النسر. وقال ابن عباس أيضا ، فيما روى عبد الرحمن بن هبيرة عنه : أخذ حمامة وكركيا وديكا وطاووسا. وقال في رواية الضحاك : أخذ طاووسا وديكا ودجاجة سندية وأوزة. وقال في رواية أخرى عن الضحاك : أنه مكان الدجاجة السندية : الرأل ، وهو فرخ النعام. وقال مجاهد فيما روى ليث : ديك وحمامة وبطة وطاووس. وقال : ديك وحمامة وبطة وغراب. وزاد عطاء الخراساني وصفا في هذه الأربعة فقال : ديك أحمر ، وحمامة بيضاء ، وبطة خضراء ، وغراب

أسود.

وقال أبو عبد الله : طاووس وحمامة وديك وهدهد ، ولما سأل ربه أن يريه كيفية إحياء الموتى ، وكان لفظ الموتى جمعا ، أجيب بأن يأخذ ما مدلوله جمع ، لا أن يأخذ واحدا. قيل : وخص هذا العدد بعينه إشارة إلى الأركان الأربعة التي في تركيب أبدان الحيوانات والنباتات ، وكانت من الطير ، قيل لأن الطير همته الطيران في السماء والارتفاع ، والخليل عليه السلام كانت همته العلو والوصول إلى الملكوت ، فجعلت معجزته مشاكلة لهمته ، وعلى القول الأول في تعيين الأربعة بما عين قيل : خص الطاوس إشارة إلى شدة الشغف بالأكل وطول الأمل ، والديك إشارة إلى شدة الشغف بقضاء شهوة النكاح ، والغراب إشارة إلى شدة الحرص والطلب. وما أبدوه في تخصيص الأربعة وفي تعيينها لا تكاد تظهر حكمته فيما ذكروه ، وما أجراه الله تعالى لأنبيائه من الخوارق مختلف ، وحكمة اختصاص كل نبي بما أجرى الله له منها مغيبة عنا. ألا ترى خرق العادة لموسى في أشياء ، ولعيسى في أشياء غيرها ، ولرسولنا محمد صلى الله عليه وسلم وعليهم في أشياء لا يظهر لنا سر **الحكمة في** ذلك ؟ فكذلك كون هذه الأربعة من الطير ، لا يظهر لنا سر حكمته في ذلك.

وأمره بالأخذ للطيور وهو : إمساكها بيده ليكون أثبت في المعرفة بكيفية الإحياء ، لأنه يجتمع عليه حاسة الرؤية ، وحاسة اللمس.

والطير اسم جمع لما لا يعقل ، يجوز تذكيره وتأنيثه ، وهنا أتى مذكرا لقوله تعالى {قال فخذ أربعة من الطير} وجاء على الأفصح في اسم الجمع في العدد حيث فصل : بمن ، فقيل : أربعة من الطير يجوز الإضافة ، كما قال تعالى : {تسعة رهط} ونص بعض أصحابنا على أن الإضافة لاسم الجمع في العدد نادرة لا يقاس عليها ، ونص بعضهم على أن اسم الجمع لما لا يعقل

٢٩٩

مؤنث ، وكلا القولين غير صواب.

(١) ".

"{يؤتى **الحكمة من** يشآء} قرأ الربيع بن خيثم بالتاء في : تؤتي ، وفي : تشاء ، على الخطاب ، وهو التفات إذ هو خروج من غيبة إلى خطاب ، والحكمة : القرآن ، قاله ابن مسعود ، ومجاهد ، والضحاك

---

(١) تفسير البحر المحيط . (دار الفكر)، ٢/٢٢٤

، ومقاتل في آخرين.

وقال ابن عباس فيما رواه عنه علي بن طلحة : معرفة ناسخ القرآن ومنسوخه ، ومحكمه ومتشابهه ، ومقدمه ومؤخره. وقال ، فيما رواه عنه أبو صالح : النبوة ، وقاله السدي. وقال إبراهيم ، وأبو العالية ، وقتادة : الفهم في القرآن. وقال مجاهد. وقال الحسن : الورع في دين الله ، وقال الربيع بن أنس : الخشية ، وقال ابن زيد ، وأبوه زيد بن أسلم : العقل في أمر الله. وقال شريك : الفهم. وقال ابن قتيبة : العلم والعمل ، لا يسمى حكيما حتى يجمعهما. وقال مجاهد أيضا : الكتابة. وقال ابن المقفع : ما يشهد العقل بصحته ، وقال القشيري ، وقال فيما روي عنه ابن القاسم : التفكر في أمر الله والاتباع له ، وقال أيضا : طاعة الله والفقه والدين والعمل به. وقال عطاء : المغفرة. وقال أبو عثمان : نور يفرق به بين الوسواس والمقام. ووجدت في نسخة : والإلهام بدل المقام. وقال القاسم بن محمد : أن يحكم عليك خاطر الحق دون شهوتك. وقال بندار بن الحسين : سرعة الجواب مع إصابة الصواب. وقال المفضل : الرد إلى الصواب. وقال الكتاني : ما تسكن إليه الأرواح. وقيل إشارة بلا علة ، وقيل : إشهاد الحق على جميع الأحوال. وقيل : صلاح الدين وإصلاح الدنيا. وقيل : العلم اللدني. وقيل : تجريد السر لورود الإلهام. وقيل : التفكر في الله تعالى ، والاتباع له. وقيل : مجموع ما تقدم ذكره : فهذه تسع وعشرون مقالة لأهل العلم في تفسير الحكمة.

قال ابن عطية ، وقد ذكر جملة من الأقوال في تفسير الحكمة ما نصه : وهذه الأقوال كلها ، ما عدا قول السدي ، قريب بعضها من بعض ، لأن الحكمة مصدر من الإحكام وهو الإتقان في عمل أو قول ، وكتاب الله حكمة ، وسنة نبيه حكمة ، وكل ما ذكر فهو جزء من الحكمة التي هي الجنس. انتهى كلامه.

وقد تقدم تفسير **الحكمة في** قوله : {ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم} فكان يغني عن إعادة تفسيرها هنا ، إلا أنه ذكرت هنا أقاويل لم يذكرها المفسرون هناك ، فلذلك فسرت هنا.

{ومن يؤت الحكمة} قرأ الجمهور مبنيا للمفعول الذي لم يسم فاعله ، وهو ضمير : من ، وهو المفعول الأول : ليؤت وقرأ يعقوب : ومن يؤت ، بكسر التاء مبنيا للفاعل قال الزمخشري : بمعنى ومن يؤته الله. انتهى.

جزء : ٢ رقم الصفحة : ٣١٥

فإن أراد تفسير المعنى فهو صحيح ، وإن أراد تفسير الإعراب فليس كذلك ، ليس في يؤت ضمير نصب

حذف ، بل مفعوله مقدم بفعل الشرط ، كما تقول : أيا تعط درهما أعطه درهما.
وقرأ
٣٢٠
الأعمش : ومن يؤته الحكمة ، بإثبات الضمير الذي هو المفعول الأول : ليؤت ، والفاعل في هذه القراءة ضمير مستكن في : يؤت ، عائد على الله تعالى. وكرر ذكر الحكمة ولم يضمرها لكونها في جملة أخرى ، وللاعتناء بها ، والتنبيه على شرفها وفضلها وخصالها.
{فقد أوتى خيرا كثيرا } هذا جواب الشرط ، والفعل الماضي المصحوب : بقد ، الواقع جوابا للشرط في الظاهر قد يكون ماضي اللفظ ، مستقبل المعنى. كهذا. فهو الجواب حقيقة ، وقد يكون ماضي اللفظ والمعنى ، كقوله تعالى {وإن يكذبوك فقد كذبت رسل من قبلك} فتكذيب الرسل واقع فيما مضى من الزمان ، وإذا كان كذلك فلا يمكن أن يكون جواب الشرط ، لأن الشرط مستقبل ، وما ترتب على المستقبل مستقبل ، فالجواب في الحقيقة إنما هو محذوف ، ودل هذا عليه ، التقدير : وإن يكذبوك فتسل ، فقد كذبت رسل من قبلك ، فحالك مع قومك كحالهم مع قومهم.
قال الزمخشري : وخيرا كثيرا ، تنكير تعطيم ، كئانه قال : فقد أوتي أي خير كثيرا. انتهى.
وهذا الذي ذكره يستدعي أن في لسان العرب تنكير تعظيم ، ويحتاج إلى الدليل على ثبوته وتقديره ، أي خير كثير ، إنما هو على أن يجعل خير صفة لخير محذوف ، أي : فقد أوتي خيرا ، أي خير ، كثير. ويحتاج إلى إثبات مثل هذا التركيب من لسان العرب ، وذلك أن المحفوظ أنه إذا وصف بأي ، فإنما تضاف للفظ مثل الموصوف ، تقول : مررت برجل أي رجل كما قال الشاعر :
دعوت امرأ ، أي امرىء ، فأجابنيوكنت وإياه ملاذا وموئلا
وإذا تقرر هذا ، فهل يجوز وصف ما يضاف إليه ؟ أي : إذا كانت صفة ، فتقول : مررت برجل أي رجل كريم ، أو لا يجوز ؟ يحتاج جواب ذلك إلى دليل سمعي ، وأيضا ففي تقديره : أي خير كثير ، حذف الموصوف وإقامة أي الصفة ، ولا يجوز ذلك إلا في ندور ، لا تقول : رأيت أي رجل ، تريد رجلا ، أي رجل إلا في ندور نحو قول الشاعر :
إذا حارب الحجاج أي منافقعلاه بسيف كلما هز يقطع
يريد : منافقا ، أي منافق ، وأيضا : ففي تقديره : خيرا كثيرا أي كثير ، حذف أي الصفة ، وإقامة المضاف

إليه مقامها ، وقد حذف الموصوف به ، أي : فاجتمع حذف الموصوف به وحذف الصفة ، وهذا كله يحتاج في إثباته إلى دليل.
." (١)

"والذي تقرر عند البصريين أن هذا المصدر المنسبك من أن المضمرة مع الفعل المنصوب بها هو مرفوع معطوف على مصدر متوهم مرفوع ، تقديره من المعنى ، فإذا قلت : ما تأتينا فتحدثنا ، فالتقدير : ما يكون منك إتيان

٣٢٥

فحديث ، وكذلك إن تجيء وتحسن إلى أحسن إليك ، التقدير إن يكن منك مجيء وإحسان أحسن إليك. وكذلك ما جاء بعد جواب الشرط. كالتقدير الذي قدرناه في : يحاسبكم به الله ، في قراءة من نصب ، فيغفر ، فعلى هذا يكون التقدير : وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء يكن زيادة خير للإخفاء على خير للإبداء وتكفير.

وقال المهدوي : في نصب الراء : هو مشبه بالنصب في جواب الإستفام ، إذ الجزاء يجب به الشيء لوجوب غيره كالاستفهام.

وقال ابن عطية : بالجزم في الراء أفصح هذه القراءات لأنها تؤذن بدخول التكفير في الجزاء ، وكونه مشروطا إن وقع الإخفاء ، وأما رفع الراء فليس فيه هذا المعنى. إنتهى.

ونقول : إن الرفع أبلغ وأعم ، لأن الجزم يكون على أنه معطوف على جواب الشرط الثاني ، والرفع بدل على أن التكفير مترتب من جهة المعنى على بذل الصدقات ، أبديت أو أخفيت ، لأنا نعلم أن هذا التكفير متعلق بما قبله ، ولايختص التكفير بالإخفاء فقط ، والجزم يخصصه به ، ولا يمكن أن يقال : إن الذي يبدي الصدقات لا يكفر من سيئآته ، فقد صار التكفير شاملا للنوعين من إبداء الصدقات وإخفائها ، وإن كان الإخفاء خيرا من الإبداء.

و : من ، في قوله : من سيئاتكم ، للتبغيض ، لأن الصدقة لا تكفر جميع السيئات. وحكى الطبري عن فرقة قالت : من ، زائدة في هذا الموضع. قال ابن عطية وذلك منهم خطأ ، وقول من جعلها سببية وقدر : من أجل ذنوبكم ضعيف.

---

(١) تفسير البحر المحيط. (دار الفكر)، ٢٤٢/٢

{والله بما تعملون خبير} ختم الله بهذه الصفة لأنها تدل على العلم بما لطف من الاشياء وخفي ، فناسب الإخفاء ختمها بالصفة المتعلقة بما خفي ، والله أعلم.

{لَيْسَ عليك هداهم ولاكن الله يهدى من يشآء} اختلف النقل في سبب نزول هذه الآية ، ومضمونها أن من أسلم كره أن يتصدق على قريبه المشرك ، أو على المشركين ، أو نهاهم النبي صلى الله عليه وسلم من التصدق عليهم ، أو امتنع هو من ذلك ، وقد سأله يهودي ، فنزلت هذه الآية.

جزء : ٢ رقم الصفحة : ٣١٥

وظاهر الهدى أنه مقابل الضلال ، وهو مصدر مضاف للمفعول ، أي : ليس عليك أن تهديهم ، أي : خلق الهدى في قلوبهم ، وأما الهدى بمعنى الدعاء فهو عليه ، وليس بمراد هنا. وفي ذلك تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم ، وهو نظير : {إن عليك إلا البلاغ} فالمعنى : ليس عليك هدى من خالفك حتى تمنعه الصدقة لأجل أن يدخلوا في الإسلام ، فتصدق عليهم لوجه الله ، هداهم ليس إليك. وجعل الزمخشري هنا الهدى ليس مقابلا للضلال الذي يراد به الكفر ، فقال : لا يجب عليك أن تجعلهم مهديين إلى الانتهاء عما نهوا عنه من المن والأذى والإنفاق من الخبيث وغيره ، وما عليك إلا أن تبلغهم النواهي فحسب ، ويبعد ما قاله الزمخشري قوله : {ولاكن الله يهدى من يشآء} فظاهره أنه يراد به هدى الإيمان. وقال الزمخشري قوله : {ولاكن الله يهدى من يشآء} تلطف بمن يعلم أن اللطف ينفع فيه ، فينتهي عما نهى عنه. إنتهى. فلم يحمل الهدى في الموضعين على الإيمان المقابل للضلال ، وإنما حمله على هدى خاص ، وهو خلاف الظاهر ، كما قلنا. وقيل : الهداية هنا الغنى أي : ليس عليك أن تغنيهم ، وإنما عليك أن تواسيهم ، فإن الله يغني من يشاء. وتسمية الغنى : هداية ، على طريقة العرب من نحو قولهم : رشدت واهتديت ، لمن ظفر ، وغويت لمن خاب وخسر وعلى هذا قول الشاعر :

فمن يلق خيرا يحمد الناس أمرهومن يغو لا يعدم على الغي لائما

وتفسير الهدى بالغنى أبعد من تفسير الزمخشري ، وفي قوله : هداهم ، طباق معنوي ، إذ المعنى : ليس عليك هدى الضالين ، وظاهر الخطاب في : ليس عليك ، أنه لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفي ذلك تسلية له صلى الله عليه وسلم.

ومناسبة تعلق هذه الجملة بما قبلها أنه لما ذكر تعالى قوله : {يؤتى الحكمة من يشآء} الآية اقتضى انه ليس كل أحد آتاه الله الحكمة ، فانقسم الناس من مفهوم هذا إلى قسمين : من آتاه

الله الحكمة فهو يعمل بها ، ومن لم يؤته إياها فهو يخبط عشواء في الضلال. فنبه بهذه الآية أن هذا القسم ليس عليك هداهم ، بل الهداية وإيتاء الحكمة إنما ذلك إلى الله تعالى ، ليتسلى بذلك في كون هذا القسم لم يحصل له السعادة الأبدية ، ولينبه على أنهم وإن لم يكونوا مهتدين ، تجوز الصدقة عليهم. وقيل : المعنى في : {ليس عليك هداهم} هو ليس عليك أن تلجئهم إلى الهدى بواسطة أن تقف صدقتك على إيمانهم ، فإن مثل هذا الإيمان لا ينتفعون به ، بل المطلوب منهم الإيمان على سبيل الطوع والاختيار. وفي قوله : {ولاكن الله يهدى من يشآء} رد على القدرية ، وتجنيس مغاير إذ : هداهم اسم ، ويهدي فعل.
." (١)

"وقال ابن عطية : خص الخير بالذكر ، وهو تعالى بيده كل شيء ، إذ الآية في معنى دعاء ورغبة ، فكان المعنى : {بيدك الخير} فأجزل حظي منه.
وقال الراغب : لما كانت في الحمد والشكر لا للحكم ، ذكر الخير إذ هو المشكور عليه.
وقال الرازي : الخير فيه الألف واللام الدالة على العموم ، وتقديم : بيدك ، يدل على الحصر ، فدل على أن لا خير إلا بيده ، وأفضل الخيرات الإيمان ، فوجب أن يكون بخلق الله. ولأن فاعل الأشرف أشرف ، والإيمان أشرف.
{تولج اليل فى النهار وتولج النهار فى اليل} قال
٤٢٠
ابن عباس ، ومجاهد ، والحسن ، وقتادة ، والسدي ، وابن زيد : المعنى ما ينتقص من النهار يزيد في الليل ، وما ينتقص من الليل يزيد في النهار ، دأبا كل فصل من السنة ، قيل : حتى يصير الناقص تسع ساعات ، والزائد خمس عشرة ساعة. وذكر بعض معاصرينا : أجمع أرباب علم الهيئة على أن الذي تحصل به الزيادة من الليل والنهار يأخذ كل واحد منهما من صاحبه ثلاثين درجة ، فتنتهي زيادة الليل على النهار إلى أربع عشرة ساعة ، وكذلك العكس.
وذكر الماوردي : أن المعنى في الولوج هنا تغطية الليل بالنهار إذا أقبل ، وتغطية النهار بالليل ، إذا أقبل ،

---

(١) تفسير البحر المحيط . (دار الفكر)، ٢٤٦/٢

فصيرورة كل واحد منهما في زمان الآخر كالولوج فيه ، وأورد هذا القول احتمالا ابن عطية ، فقال : ويحتمل لفظ الآية أن يدخل فيها تعاقب الليل والنهار ، وكان زوال أحدهما ولوج الآخر.

{وتخرج الحى من الميت وتخرج الميت من الحى} معنى الإخراج التكوين هنا ، والإخراج حقيقة هو إخراج الشيء من الظرف قال ابن مسعود ، وابن جبير ، ومجاهد ، وقتادة ، وإبراهيم ، والسدي ، وإسماعيل بن أبي خالة إبراهيم ، وعبد الرحمن بن زيد. تخرج الحيوان من النطفة وهي ميتة إذا انفصلت النطفة من الحيوان ، وتخرج النطفة وهي ميتة من الرجل وهو حي ، فعلى هذا يكون الموت مجازا إذ النطفة لم يسبق لها حياة ، ويكون المعنى : وتخرج الحي من ما لا تحله الحياة وتخرج ما لا تحله الحياة من الحي ، والإخراج عبارة عن تغير الحال.

وقال عكرمة ، والكلبي : أي الفرخ من البيضة ، والبيضة من الطير ، والموت أيضا هنا مجاز والإخراج حقيقة.

جزء : ٢ رقم الصفحة : ٤١٥

وقال أبو مالك : النخلة من النواة ، والسنبلة من الحبة ، والنواة من النخلة ، والحبة من السنبلة ، والموت والحياة في هذا مجاز.

وقال الحسن ، وروى نحوه عن سامان الفارسي : تخرج المؤمن من الكافر ، والكافر من المؤمن ، وهما أيضا مجاز. وفي الحديث : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "سبحان الله الذي يخرج الحي من الميت". وقد رأى امرأة صالحة مات أبوها كافرا وهي خالدة بنت الأسود بن عبد يغوث.

وقال الزجاج : يخرج النبات الغض الطري من الحب ، ويخرج الحب اليابس من النبات الحي.

وقيل : الطيب من الخبيث والخبيث من الطيب وقال الماوردي : ويحتمل يخرج الجلد الفطن من البليد العاجز ، والعكس ، لأن الفطنة حياة الحس والبلادة موته. وقيل : يخرج الحكمة من قلب الفاجر لأنها لا تستقر فيه ، والسقطة من لسان العارف وهذه كلها مجازات بعيدة.

والأظهر في قوله {الحى من الميت} تصور اثنين وقيل : عنى بذلك شيئا واحدا يتغير به الحال ، فيكون ميتا ثم يحيا ، وحيا ثم يموت. نحو قولك : جاء من فلان أسد وقال ابن عطية : ذهب جمهور من العلماء إلى أن الحياة والموت هنا حقيقتان لا استعارة فيهما ، ثم اختلفوا في المثل الذي فسروا به ، وذكر قول ابن مسعود وقول عكرمة المتقدمين ، ولا يمكن الحمل إذ ذاك على الحقيقة أصلا ، وكذلك في الموت ، وشدد

حفص ، ونافع ، وحمزة ، والكسائي : الميت ، في هذه الآية. وفي الأنعام ، والأعراف ، ويونس ، والروم ، وفاطر زاد نافع تشديد الياء في : {أو من كان ميتا فأحييناه} وفي الأنعام و{الارض الميتة} في يس و{لحم أخيه ميتا} في الحجرات. وقرأ الباقون بتخفيف ذلك ، ولا فرق بين التشديد والتخفيف في الاستعمال ، كما تقول : لين ولين وهين وهين. ومن زعم أن المخفف لما قد مات ، والمشدد لما قد مات ولما لم يمت فيحتاج إلى دليل.

{وترزق من تشآء بغير حساب} تقدم تفسير نظيره في قوله {والله يرزق من يشآء بغير حساب *كان الناس أمة واحدة} فأغنى ذلك عن اعادته هنا وقال الزمخشري : ذكر قدرته الباهرة ، فذكر حال الليل والنهار في المعاقبة بينهما ، وحال الحي والميت في إخراج أحدهما من الآخر ، وعطف عليه رزقه بغير حساب دلالة على أن من قدر على تلك الأفعال العظيمة المحيرة للأفهام ، ثم قدر أن يرزق بغير حساب

٤٢١

من يشاء من عباده ، فهو قادر على أن ينزع الملك من العجم ويذلهم ، ويؤتيه العرب ويعزهم. انتهى. وهو حسن.

جزء : ٢ رقم الصفحة : ٤١٥

قيل : وتضمنت هذه الآيات أنواعا من : الفصاحة ، والبلاغة ، والبديع.

." (١)

"{كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا } . قال مجاهد ، والضحاك ، وقتادة ، والسدي : وجد عندها فاكهة الشتاء في الصيف ، وفاكهة الصيف في الشتاء وقال الحسن : تكلمت في المهد ولم تلقم ثديا قط ، وإنما كانت يأتيها

٤٤٢

رزقها من الجنة.

والذي ورد في الصحيح أن الذي تكلم في المهد ثلاثة : عيسى ، وصاحب جريج ، وابن المرأة وورد من طريق شاذ : صاحب الأخدود. والأغرب أن مريم منهم.

وقيل : كان جريج النجار ، واسمه يوسف بن يعقوب ، وكان ابن مريم حين كفلها بالقرعة وقد ضعف زكريا

---

(١) تفسير البحر المحيط. (دار الفكر)، ٣٢٠/٢

عن القيام بها ، يأتيها من كسبه بشيء لطيف على قدر وسعه ، فيزكو ذلك الطعام ويكثر ، فيدخل زكريا عليها فيتحقق أنه ليس من وسع جريج ، فيسألها. وههذا يدل على أن ذلك كان بعد أن كبرت وهو الأقرب للصواب.

وقيل : كانت ترزق من غير رزق بلادهم قال ابن عباس : كان عنبا في مكتل ولم يكن في تلك البلاد عنب ، وقاله ابن جبير ، ومجاهد وقيل : كان بعض الصالحين يأتيها بالرزق.

والذي يدل عليه ظاهر الآية أن الذي كفلها بالتربية هو زكريا لا غيره ، فإن الله تعالى كفاه لما كفلها مؤونة رزقها ، ووضع عنه بحسن التكفل مشقة التكلف.

و : كلما ، تقتضي التكرار ، فيدل على كثرة تعهده وتفقده لأحوالها. ودلت الآية على وجود الرزق عندها كل وقت يدخل عليها ، والمعنى : أنه غذاء يتغذى به لم يعهده عندها ، ولم يوجهه هو. وأبعد من فسر الرزق هنا بأنه فيض كان يأتيها من الله من العلم **والحكمة من** غير تعليم آدمي ، فسماه رزقا قال الراغب : واللفظ محتمل ، انتهى ، وهذا شبيه بتفسير الباطنية.

{قال يامريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله} استغرب زكريا وجود الرزق عندها وهو لم يكن أتى به ، وتكرر وجوده عندها كلما دخل عليها ، فسأل على سبيل التعجب من وصول الرزق إليها ، وكيف أتى هذا الرزق ؟ و: أنى ، سؤال عن الكيفية وعن المكان وعن الزمان ، والأظهر أنه سؤال عن الجهة ، فكأنه قال : من أي جهة لك هذا الرزق ؟ ولذلك قال أبو عبيدة : معناه من أين ؟ ولا يبعد أن يكون سؤالا عن الكيفية ، أي كيف تهيأ وصول هذا الرزق إليك ؟ وقال الكميت :

جزء : ٢ رقم الصفحة : ٤٣٢

أنى ومن أين أتاك الطربمن حيث لا صبوة ولا طرب

وجوابها سؤاله بأنه {من عند الله} ظاهره أنه لم : يأت به آدمي ألبتة ، بل هو رزق يتعهدني به الله تعالى. وظاهره أنه كان يسأل كلما وجد عندها رزقا ، لأن من الجائز في الفعل أن يكون هذا الثاني من جهة غير الجهة التي تقدمت ، فتجيبه بأنه من عند الله ، وتحيله على مسبب الأسباب ، ومبرز الأشياء من العدم الصرف إلى الوجود المحض ، فعند ذلك يستريح قلب زكريا بكونه لم يسبقه أحد إلى تعهد مريم ، وبكونه يشهد مقاما شريفا ، واعتناء لطيفا بمن اختارها الله تعالى بأن جعلها في كفالته.

وهذا الخارق العظيم قيل : هو بدعوة زكريا لها بالرزق ، فيكون من خصائص زكريا وقيل : كان تأسيسا لنبوة

ولدها عيسى. وهذان القولان شبيهان بأقوال المعتزلة حيث ينفون وجود الخارق على غير النبي ، إلا إن كان ذلك في زمان نبي ، فيكون ذلك معجزة لذلك النبي.

والظاهر أنها كرامة خص الله بها مريم ، ولو كان خارقا لأجل زكريا لم يسأل عنه زكريا ، وأما كون ذلك لأجل نبوة عيسى ، فهو كان لم يخلق بعد.

قال الزجاج : وهذا الخارق من الآية التي قال تعالى : {وجعلناها وابنهآ ءاية للعالمين} وقال الجبائي : يجوز أن يكون من معجزات زكريا ، دعا لها على الإجمال. لأن يوصل لها رزقها ، وربما غفل عن تفاصيل ذلك ، فلما رأى شيئا معينا في وقت معين ، سأل عنه ، فعلم أنه معجزة ، فدعا به أو سأل عن ذلك خشية أن يكون الآتي به إنسانا ، فأخبرته أنه {من عن دِ الله} ويحتمل أن يكون على أيدي المؤمنين ، وسأل لئلا يكون على وجه لا ينبغي.

{إن الله يرزق من يشآء بغير حساب} تقدم تفسير هذه الجملة ، والظاهر أنها من كلام مريم وقال الطبري : ليس من كلام مريم ، وأنه خبر من الله تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم..

وروى جابر حديثا مطولا فيه تكثير الخبز واللحم على سبيل

٤٤٣

خرق العادة لفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسألها : من أين لك هذا ؟ فقالت : هو من عند الله. فحمد الله ، وقال : الحمد لله الذي جعلك شبيهة بسيدة نساء بني إسرائيل.

جزء : ٢ رقم الصفحة : ٤٣٢

." (١)

"ومنها قوله : فيكون نفسه مثل نفسه ، ولا يلزم من المماثلة أن تكون في جميع الأشياء ، بل تكفي المماثلة في شيء ما ، هذا الذي عليه أهل اللغة ، لا الذي يقوله المتكلمون : من أن المماثلة تكون في جميع صفات النفس ، هذا اصطلاح منهم لا لغة. فعلى هذا تكفي المماثلة في صفة واحدة ، وهي كونه من بني هاشم ، والعرب تقول : هذا من أنفسنا ، أي : من قبيلتنا. وأما الحديث الذي استدل به فموضوع لا أصل له. وهذه النزغة التي ذهب إليها هذا الحمصي من كون علي أفضل من الأنبياء عليهم السلام سوى محمد صلى الله عليه وسلم ، وتلقفها بعض من ينتحل كلام الصوفية ، ووسع المجال فيها ، فزعم أن الولي

---

(١) تفسير البحر المحيط . (دار الفكر)، ٣٣٦/٢

أفضل من النبي ، ولم يقصر ذلك على ولي واحد ، كما قصر ذلك الحمصي ، بل زعم : أن رتبة الولاية التي لا نبوة معها أفضل من رتبة النبوة. قال : لأن الولي يأخذ عن الله بغير واسطة ، والنبي يأخذ عن الله بواسطة ومن أخذ بلا واسطة أفضل ممن أخذ بواسطة. وهذه المقالة مخالفة لمقالات أهل الإسلام. نعوذ بالله من ذلك ، ولا أحد أكذب ممن يدعي أن الولي يأخذ عن الله بغير واسطة ، لقد يقشعر المؤمن من سماع هذا الافتراء وحكى لي من لا أتهمه عن بعض المنتمين ، إلى أنه من أهل الصلاح ، أنه رؤي في يده كتاب ينظر فيه ، فسئل عنه. فقال : فيه ما أخذته عن رسول الله ، وفيه ما أخذته عن الله شفاها ، أو شافهني به ، الشك من السامع. فانظر إلى جراءة هذا الكاذب على الله حيث ادعى مقام من كلمه الله : كموسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام وعلى سائر الأنبياء

جزء : ٢ رقم الصفحة : ٤٧٠

قيل : وفي هذه الآية ضروب من البلاغة : منها إسناد الفعل إلى غير فاعله ، وهو : {إذ قال الله ياعيسى إني} والله لم يشافهه بذلك ، بل بإخبار جبريل أو غيره من الملائكة. والاستعارة في : {متوفيك} وفي : {فوق الذين كفرُوا } والتفصيل لما أجمل في : {إلي مرجعكم فأحكم} بقوله : فأما ، وأما ، والزيادة لزيادة المعنى في {من ناصرين} أو : المثل في قوله {إن مثل عيسى } . والتجوز بوضع المضارع موضع الماضي في قوله {نتلوه} وفي {فيكون} وبالجمع بين أداتي تشبيه على قول في {كمثل ءادم} وبالتجوز بتسمية الشيء باسم أصله في {خلقه من تراب} . وخطاب العين ، والمراد به غيره ، في {فلا تكن من} . والعام يراد به الخاص في {تعالوا ندع أبنآءنا} الآية والتجوز بإقامة ابن العم مقام النفس على أشهر الأقوال ، والحذف في مواضع كثيرة.

جزء : ٢ رقم الصفحة : ٤٧٠

{إن هذا لهو القصص الحق} هذا خبر من الله جزم مؤكد فصل به بين المختصمين ، والإشارة إلى القرآن على قول الجمهور ، والظاهر أنه إشارة إلى ما تقدم من أخبار عيسى ، وكونه مخلوقا من غيِر أب ، قاله ابن عباس ، وابن جريج ، وابن زيد ، وغيرهم. أي : هذا هو الحق

٤٨١

لا ما يدعيه النصارى فيه من كونه إلها أو ابن الله ، ولا ما تدعيه اليهود فيه ، وقيل : هذا إشارة إلى ما بعده من قوله {وما من إلاه إلا الله} ويضعف بأن هذه الجملة ليست بقصص وبوجود حرف العطف في قوله :

وما قال بعضهم إلا إن أراد بالقصص الخبر ، فيصح على هذا ، ويكون التقدير : إن الخبر الحق أنه ما من إله إلا الله. انتهى. لكن يمنع من هذا التقدير وجود واو العطف واللام في : لهو ، دخلت على الفصل. والقصص خبر إن ، والحق صفة له ، والقصص مصدر ، أو فعل بمعنى مفعول ، أي : المقصوص كالقبض ، بمعنى المقبوض ، ويجوز أن يكون : هو ، مبتدأ و: القصص ، خبره ، والجملة ، في موضع خبر إن ووصف القصص بالحق إشارة إلى القصص المكذوب الذي أتى به نصارى نجران ، وغيرهم ، في أمر عيسى وإلا هيته.

جزء : ٢ رقم الصفحة : ٤٨١

}وما من إلاه إلا الله{ أي : المختص بالإلهية هو الله وحده ، وفيه رد على الثنوية والنصارى ، وكل من يدعي غير الله إلها.

و : من ، زائدة لاستغراق الجنس ، و: إله ، مبتدأ محذوف الخبر ، و: الله ، بدل منه على الموضع ، ولا يجوز البدل على اللفظ ، لأنه يلزم منه زيادة : من ، في الواجب ، ويجوز في العربية في نحو هذا التركيب نصب ما بعد : إلا ، نحو ما من شجاع إلا زيدا ، ولم يقرأ بالنصب في هذه الآية ، وإن كان جائزا في العربية النصب على الاستثناء.

{وإن الله لهو العزيز الحكيم} إشارة إلى وصفي الإلهية وهما : القدرة الناشئة عن الغلبة فلا يمتنع عليه شيء ، والعلم المعبر عنه **بالحكمة فيما** صنع والإتقان لما اخترع ، فلا يخفي عنه شيء. وهاتان الصفتان منفيتان عن عيسى.

ويجوز في : لهو ، من الإعراب ما جاز في : لهو القصص ، وتقديم ذكر فائدة الفصل.
". (١)

"وقيل : {وأنتم الاعلون} ، أي قد أصبتم ببدر ضعف ما أصابوا منكم بأحد أسرا وقتلا فيكون وأنتم الأعلون نصبا على الحال ، أي لاتحزنوا عالين أي منصورين على عدوكم انتهى. وأما كونه من علوهم الجبل كما أشير إليه في سبب النزول فروي ذلك عن ابن عباس وابن جبير. قال ابن عطية : ومن كرم الخلق أن لا يهن الإنسان في حربه وخصامه ، ولا يلين إذا كان محقا ، وأن يتقضى جميع قدرته ، ولا يضرع ولو مات. وإنما يحسن اللين في السلم والرضا ، ومنه قوله عليه السلام : "المؤمن هين لين والمؤمنون هينون

---

(١) تفسير البحر المحيط . (دار الفكر)، ٢/٣٦٧

لينون" وقال منذر بن سعيد : يجب بهذه الآية ألا يوادع العدو ما كانت للمسلمين قوة وشوكة ، فإن كانوا في قطر ما على غير ذلك فينظر الإمام لهم في لا صلح انتهى.
وفي قوله : وأنتم الأعلون دلالة على فضيلة هذه الأمة ، إذ خاطبهم مثل ما خاطب موسى كليمه صلى الله عليه وسلم على نبينا وعليه ، إذ قال له : لا تخف إنك أنت الأعلى. وتعلق قوله : إن كنتم مؤمنين بالنهي ، فيكون ذلك هزا للنفوس يوجب قوة القلب والثقة بصنع الله ، وقلة المبالاة بالأعداء. أو بالجملة الخبرية : أي إن صدقتم بما وعدكم وبشركم به من الغلبة. ويكون شرطا على بابه يحصل به الطعن على من ظهر نفاقه في ذلك اليوم ، أي : لا تكون الغلبة والعلو إلا للمؤمنين ، فاستمسكوا بالإيمان.
{إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثلها} المعنى : إن نالوا منكم يوم أحد فقد نلتم منهم يوم بدر ، ثم لم يضعفوا إن قاتلوكم بعد ذلك ، فلا تضعفوا أنتم. أو فقد مس القوم في غزوة أحد قبل مخالفة أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحوه ، فإنهم يألمون كما تألمون ، وترجون من الله ما لا يرجون. وهذه تسلية منه تعالى للمؤمنين والتأسي فيه أعظم مسلاة. وقالت الخنساء :
ولولا كثرة الباكين حوليعلى إخوانهم لقتلت نفسي
وما يب كون مثل أخي ولكنأعزي النفس عنه بالتأسي
والمثلية تصدق بأدنى مشابهة. وقال ابن عباس والحسن : أصاب المؤمنين يوم أحد ما أصاب المشركين يوم بدر ، استشهد من المؤمنين يوم أحد سبعون. وقال الزمخشري : قتل يومئذ أي يوم أحد خلق من الكفار ، ألا ترى إلى قوله تعالى : {إذ تحسونهم بإذنها} فعلى قوله يكون مس القوم قرح مثله يوم بدر. وأبعد من ذهب إلى أن القوم هنا الأمم التي قد خلت ، أي نال مؤمنهم من أذى كافرهم مثل الذي نالكم من أعدائكم. ثم كانت العاقبة للمؤمنين ، فلكم بهم أسوة. فإن تأسيكم بهم مما يخفف ألمكم ، ويثبت عند اللقاء أقدامكم.
جزء : ٣ رقم الصفحة : ٥٥
وقرأ الأخوان وأبو بكر والأعمش من طريقة قرح بضم القاف فيهما ، وباقي السبعة بالفتح ، والسبعة على تسكين الراء. قال أبو علي : والفتح أولى انتهى. ولا أولوية إذ كلاهما متواتر. وقرأ أبو السمال وابن السميقع قرح بفتح القاف والراء ، وهي لغة : كالطرد والطرد ، والشل والشلل. وقرأ الأعمش : إن تمسسكم بالتاء من فوق قروح بالجمع ، وجواب الشرط محذوف تقديره : فتأسوا فقد مس القوم قرح ، لأن الماضي معنى يمتنع

أن يكون جوابا للشرط. ومن زعم أن جواب الشرط هو فقد مس ، فهو ذاهل.

{وتلك الايام نداولها بين الناس} أخبر تعالى على سبيل التسلية أن الأيام على قديم الدهر لا تبقى لناس على حالة واحدة. والمراد بالأيام أوقات الغلبة والظفر ، يصرفها الله على ما أراد تارة لهؤلاء وتارة لهؤلاء ، كما جاء الحرب سجال. وقال :

٦٢

فيوم علينا ويوم لناويوم نساء ويوم نسر

وسمع بعض العرب الأقحاح قارئا يقرأ هذه الآية فقال : إنما هو نداولها بين العرب ، فقيل له : إنما هو بين الناس ، فقال : أنا الله ، ذهب ملك العرب ورب الكعبة. وقرىء شاذا. يداولها بالياء. وهو جار على الغيبة قبله وبعده. وقراءة النون فيءا التفات ، وإخبار بنون العظمة المناسبة لمداولة الأيام ، والأيام : صفة لتلك ، أو بدل ، أو عطف بيان. والخبر نداولها ، أو خبر لتلك ، ونداولها جملة حالية.

{وليعلم الله الذين ءامنوا } هذه لام كي قبلها حرف العطف ، فتتعلق بمحذوف متأخر أي : فعلنا ذلك وهو المداولة ، أو نيل الكفار منكم. أو هو معطوف على سبب محذوف هو وعامله أي : فعلنا ذلك ليكون كيت وكيت وليعلم. هكذا قدره الزمخشري وغيره ، ولم يعين فاعل العلة المحذوفة إنما كنى عنه بكيت وكيت ، ولا يكنى عن الشيء حتى يعرف. ففي هذا الوجه حذف العلة ، وحذف عاملها ، وإبهام فاعلها. فالوجه الأول أظهر إذ ليس فيه غير حذف العامل. ويعلم هنا ظاهره التعدي إلى واحد ، فيكون كعرف. وقيل : يتعدى إلى ثنين ، الثاني محذوف تقديره : مميزين بالإيمان من غيرهم. أي **الحكمة في** هذه المداولة : أن يصير الذين آمنوا متميزين عن من يدعي الإيمان بسبب صبرهم وثباتهم على الإسلام. (١) ".

"أي للفضيحة العظيمة. قالوا : ويحتمل إن صح أنه قتل غراب غرابا أو كان ميتا ، أن يكون الضمير في أخيه عائدا على الغراب ، أي : ليرى قابيل كيف يواري الغراب سوءة أخيه وهو الغراب الميت ، فيتعلم منه بالأداة كيف يواري قابيل سوءة هابيل ، وهذا فيه بعد. لأن الغراب لا تظهر له سوءة ، والظاهر أن الإرادة هنا من جعله يرى أي : يبصر ، وعلق ليريه عن المفعول الثاني بالجملة التي فيها الاستفهام في موضع المفعول الثاني ، وكيف معمولة ليواري. وليريه متعلق بيبحث. ويجوز أن يتعلق بقوله : فبعث ، وضمير

---

(١) تفسير البحر المحيط . (دار الفكر)، ٣/٤٩

الفاعل في ليريه الظاهر أنه عائد على الله تعالى ، لأن الإراءة حقيقة هي من الله ، إذ ليس للغراب قصد الإراءة وإرادتها. ويجوز أن يعود على الغراب أي : ليريه الغراب ، أي : ليعلمه لأنه لما كان سبب تعليمه فكأنه قصد تعليمه على سبيل المجاز ، ويظهر أن الحكمة في أن كان هذا المبعوث غرابا دون غيره من الحيوان ومن الطيور كونه يتشاءم به في الفراق والاغتراب ، وذلك مناسب لهذه القصة. وقيل : فبعث جملة محذوفة دل عليها المعنى تقديره : فجهل مواراته فبعث.

{قال ياويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأوارى سوءة أخى } استقصر إدراكه وعقله في جهله ما يصنع بأخيه حتى يعلم ، وهو ذو العقل المركب فيه الفكر والرؤيا والتدبير من طائر لا يعقل. ومعنى هذا استفهام : الإنكار على نفسه ، والنعي أي : لا أعجز عن كوني مثل هذا الغرب ، وفي ذلك هضم لنفسه واستصغار لها بقوله : مثل هذا الغراب. وأصل النداء أن يكون لمن يعقل ، ثم قد ينادي ما لا يعقل على سبيل المجاز كقولهم : يا عجبا ويا حسرة ، والمراد بذلك التعجب. كأنه قال : انظروا لهذا العجب ولهذه الحسرة ، فالمعنى : تنبهوا لهذه الهلكة. وتأويله هذا أوانك فاحصري. وقرأ الجمهور : يا ويلتا بألف بعد التاء ، وهي بدل من ياء المتكلم ، وأصله يا ويلتي بالياء ، وهي قراءة الحسن. وأمال حمزة والكسائي وأبو عمر وألف ويلتي. وقرأ الجمهور : أعجزت بفتح

٤٦

الجيم. وقرأ ابن مسعود ، والحسن ، وفياض ، وطلحة ، وسليمان : بكسرها وهي لغة شاذة ، وإنما مشهور الكسر في قولهم : عجزت المرأة إذا كبرت عجيزتها. وقرأ الجمهور : فأواري بنصب الياء عطفا على قوله : أن أكون. كأنه قال : أعجزت أن أواري سوءة أخي. وقال الزمخشري : فأواري بالنصب على جواب الاستفهام انتهى. وهذا خطأ فاحش ، لأن الفاء الواقعة جوابا للاستفهام تنعقد من الجملة الاستفهامية والجواب شرط وجزاء ، وهنا تقول : أتزورني فأكرمك ، والمعنى : إن تزرني أكرمك. وقال تعالى :

جزء : ٣ رقم الصفحة : ٤٥٩

{فهل لنا من شفعآء فيشفعوا لنآ} أي إن يكن لنا شفعاء يشفعوا. ولو قلت هنا : إن أعجز أن أكون مثل هذا الغراب أوار سوءة أخي لم يصح ، لأن المواراة لا تترتب على عجزه عن كونه مثل الغراب. وقرأ طلحة بن مصرف ، والفياض بن غزوان : فأواري بسكون الياء ، فالأولى أن يكون على القطع أي : فأنا أواري سوءة أخي ، فيكون أواري مرفوعا. وقال الزمخشري : وقرىء بالسكون على فأنا أواري ، أو على التسكين

في موضع النصب للتخفيف انتهى. يعني : الزمخشري : وقرىء بالسكون على فأنا أواري ، أو على التسكين في موضع النصب للتخفيف انتهى. يعني : أنه حذف الحركة وهي الفتحة تخفيفا استثقلها على حرف العلة. وقال ابن عطية : هي لغة لتوالي الحركات انتهى. ولا ينبغي أن يخرج على النصب ، لأن نصب مثل هذا هو بظهور الفتحة ، ولا تستثقل الفتحة فتحذف تخفيفا كما أشار إليه الزمخشري ، ولا ذلك لغة كما زعم ابن عطية ، ولا يصلح التعليل بتوالي الحركات ، لأنه لم يتوال فيه الحركات. وهذا عند النحويين . أعني النصب . بحذف الفتحة ، لا يجوز إلا في الضرورة ، فلا تحمل القراءة عليها إذا وجد حملها على جه صحيح ، وقد وجد وهو الاستئناف أي : فأنا أواري. وقرأ الزهري : سوة أخي بحذف الهمزة ، ونقل حركتها إلى الواو. ولا يجوز قلب الواو ألفا لتحركها وانفتا ما قبلها ، لأن الحركة عارضة كهي في سمول وجعل. وقرأ أبو حفص : سوة بقلب الهمزة واوا ، وأدغم الواو فيه ، كما قالوا في شيء شي ، وفي سيئة سية. قال الشاعر :

وإن رأوا سية طاروا بها فرحامني وما علموا من صالح دفنوا

{فأصبح من النادمين} قيل : هذه جملة محذوفة تقديره : فوارى سوءة أخيه. والظاهر أن ندمه كان على قتل أخيه لما لحقه من عصيان وإسخاط أبويه ، وتبشيره أنه من أصحاب النار. وهذا يدل على أنه كان عاصيا لا كافرا. قيل : ولم ينفعه ندمه ، لأن كون الندم توبة خاص بهذه الأمة. وقيل : من النادمين على جملة. وقيل : من النادمين خوف الفضيحة. وقال الزمخشري : من النادمين على قتله لما تعب من حمله ، وتحيره في أمره ، وتبين له من عجزه ونلمذته للغراب ، واسوداد لونه ، وسخط أبيه ، ولم يندم ندم التائبين انتهى.

." (١)

"{قل لو أن عندى ما تستعجلون بها لقضى الامر بينى وبينكم} أي لو كان في قدرتي الوصول إلى ما تستعجلون به من اقتراح الآيات أو من حلول العذاب لبادرت إليه ووقع الانفصال بيني وبينكم. وروي عن عكرمة في {لقضى الامر بينى وبينكم} أي لقامت القيامة وما روي عن ابن جريج من أن المعنى لذبح الموت لا يصح ولا له هنا معنى. وقال الزمخشري و{ما تستعجلون بها} من العذاب لأهلكنكم عاجلا غضبا لربي وامتعاضا من تكذيبكم به ولتخلصت منكم سريعا ؛ انتهى. وهو قول ابن عباس لم أمهلكم ساعة

---

(١) تفسير البحر المحيط . (دار الفكر)، ٣/٣٧٥

ولأهلكنكم. {والله أعلم بالظالمين} الظاهر أن المعنى والله أعلم بكم فوضع الظاهر المشعر بوصفهم بالظلم موضع المضمر ومعنى {أعلم} بهم أي بمجازاتهم ففيه وعيد وتهديد. وقيل : بتوقيت عقابهم وقيل : بما آل أمرهم من هداية بعض واستمرار بعض. وقيل : بمن ينبغي أن يؤخذ وبمن يمهل. وقيل : بما تقتضيه الحكمة من عذابهم.

اسم الكتاب : تفسير البحر المحيط

١٤٣

السقوط : الوقوع من علو. الورقة : واحدة الورق من النبات والكاغد وهي معروفة. الرطب واليابس معروفان يقال رطب فهو رطب ورطيب ويبس وييبس ، وشذ فيه يبس بحذف الياء وكسر الباء. الكرب الغم يأخذ بالنفس كربت الرجل فهو مكروب. قال الشاعر :

جزء : ٤ رقم الصفحة : ١٤٣

ومكروب كشفت الكرب عنهبطعنة فيصل لما دعاني

الشيعة : الفرقة تتبع الأخرى ويجمع على أشياع ، وشيعت فلانا اتبعته وتقول : العرب شاعكم السلام أي اتبعكم وأشاعكم الله السلم أي اتبعكم. الإبسال : تسليم المرء نفسه للهلاك ويقال أبسلت ولدي أرهنته ، قال الشاعر :

وابسالي بني بغير جرمبعوناه ولا بدم مراق

بعوناه جنيناه والبعوا الجناية. الحميم : الماء الحار. الحيرة : التردد في الأمر لا يهتدي إلى مخرج منه ومنه تحير الماء في الغيم يقال حار يحار حيرة وحيرا وحيرانا وحيرورة. الصور : جمع صورة والصور القرن بلغة أهل اليمن. قال :

نحن نطحناهم غداة الجمعينبالشامخات في غبار النقعين

نطحا شديدا لا كنطح الصورين

{وعنده مفاتح الغيب لا يعلمهآ إلا هو} لما قال تعالى : إن الحكم إلا لله وقال هو أعلم بالظالمين بعد قوله {ما تستعجلون بها} انتقل من خاص إلى عام وهو علم الله بجميع الأمور الغيبية ، واستعارة للقدرة عليها المفاتح لما كانت سببا للوصول إلى الشيء فاندرج في هذا العام ما استعجلوا وقوعه وغيره. والمفاتح جمع مفتح بكسر الميم وهي الآية التي يفتح بها ما أغلق. قال الزهراوي : ومفتح أفصح من مفاتح ويحتمل

أن يكون جمع مفتاح لأنه يجوز في مثل هذا أن لا يؤتى فيه بالياء قالوا : مصابح ومحارب وقراقر في جميع مصباح وقرقور. وقرأ ابن السميقع : مفاتيح بالياء وروي عن بعضهم مفتاح الغيب على التوحيد. وقيل : جمع مفتح بفتح الميم ويكون للمكان أي أماكن الغيب ومواضعها يفتح عن المغيبات ويؤيده ما روي عن ابن عباس إنها خزائن المطر والنبات ونزول العذاب. وقال السدي : وغيره خزائن الغيب. وروي عن ابن عمر عنه عليه السلام أنه قال : "مفاتح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله" ، {إن الله عنده علم الساعة} إلى آخر السورة. وقيل : {مفاتح الغيب} الأمور التي يستدل بها على الغائب فتعلم حقيقته من قولك : فتحت على الإمام إذا عرفته ما نسي. وقال أبو مسعود : أوتي

١٤٤

نبيكم كل شيء إلا مفاتح الغيب. وروي عن ابن عباس أنها خزائن غيب السموات والأرض من الأقدار والأرزاق. وقال عطاء : ما غاب من الثواب والعقاب وما تصير إليه الأمور. وقال الزجاج : الوصلة إلى علم الغيب إذا استعلم. وقيل : عواقب الأعمار وخواتيم الأعمال. وقيل : ما لم يكن هل يكون أم لا يكون ؟ وما يكون كيف يكون وما لا يكون إن كان كيف يكون ؟ و{لا يعلمهآ إلا هو} حصر أنه لا يعلم تلك المفاتح ولا يطلع عليها غيره تعالى ، ولقد يظهر من هؤلاء المنتسبة إلى الصوف أشياء من ادعاء علم المغيبات والاطلاع على علم عواقب أتباعهم وأنهم معهم في الجنة مقطوع لهم ولأتباعهم بها يخبرون بذلك على رؤوس المنابر ولا ينكر ذلك أحد هذا مع خلوهم عن العلوم يوهمون أنهم يعلمون الغيب. وفي صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها ومن زعم أن محمدا يخبر بما يكون في غد فقد أعظم على الله الفرية والله تعالى يقول : {قل لا يعلم من فى السماوات والارض الغيب إلا الله} وقد كثرت هذه الدعاوي والخرافات في ديار مصر وقام بها ناس صبيان العقول يسمون بالشيوخ عجزوا عن مدارك العقل والنقل وأعياهم طلاب العلوم :

جزء : ٤ رقم الصفحة : ١٤٣

فارتموا يدعون أمرا عظيمالم يكن للخليل لا والكليم

بينما المرء منهم في انسفالأبصر اللوح ما به من رقوم

فجنى العلم منه غضا طرياودرى ما يكون قبل الهجوم

إن عقلي لفي عقال إذا ماأنا صدقت بافتراء عظيم

". (١)

"الاحتجاج من قوله {فلما جن عليه اليل} إلى قوله {وهم مهتدون} وهذا الظاهر ، وأضافها إليه تعالى على سبيل التشريف وكان المضاف إليه بنون العظمة لإيتاء المتكلم و{ءاتيناهآ} أي أحضرناها بباله وخلقناها في نفسه إذ هي من الحجج العقلية ، أو {ءاتيناهآ} بوحي منا ولقناه إياها وإن أعربت وتلك مبتدأ وحجتنا بدلا خيرا لـ(تلك) لم يخبر أن يتعلق (على قومه) بـ(حجتنا) كذا ابدأ(وتلك حجتنا) مبتدأ وخبر حال العامل فيها اسم الإشارة لأن الحجة ليست مصدرا وإنما هو الكلام المؤلف للاستدلال على الشيء ولو جعلناه مصدرا مجازا لم يجز ذلك أيضا لأنه لا يفصل بالخبر ولا بمثل هذه الحال بين المصدر ومطلوبه ، وأجاز الحوفي أن يكون{حجتنآ ءاتيناهآ} في موضع النعت لحجتنا والنية فيها الانفصال والتقدير : وتلك حجة لنا آتيناها انتهى ، وهذا بعيد جدا. وقال الحوفي : وهاء مفعول أول وإبراهيم مفعول ثان وهذا قد قدمنا أنه مذهب السهيلي ، وأما مذهب الجمهور فالهاء مفعول ثان وابراهيم مفعول أول ، وقال الحوفي وابن عطية {على قومه} متعلق . قال ابن عطية أظهرناها لإبراهيم على قومه ، وقال أبو البقاء : بمحذوف تقديره حجة على قومه ودليلا ، وقال الزمخشري : {ءاتيناهآ إبراهيم على } أرشدناه إليها ووفقناه لها وهذا تفسير معنى ، ويجوز أن يكون في موضع الحال وحذف مضاف أي {إبراهيم على } مستعلية على حجج قومه قاهرة لها.

{نرفع درجات من نشآء} أي مراتب ومنزلة من نشاء وأصل الدرجات في المكان ورفعها بالمعرفة أو بالرسالة أو بحسن الخلق أو بخلوص العمل في الآخرة أو بالنبوة والحكمة في الدنيا أو بالثواب والجنة في الآخرة ، أو بالحجة والبيان ، أقوال أقر بها الأخير لسياق الآية ونون درجات الكوفيون وأضافها الباقون ونصبوا المنون على الظرف أو على أنه مفعول ثان ، ويحتاج هذا القول إلى تضمين نرفع معنى ما يعدي إلى اثنين أي نعطي من نشاء درجات.

جزء : ٤ رقم الصفحة : ١٦١

{إن ربك حكيم عليم} أي {حكيم} في تدبير عباده {عليم} بأفعالهم أو حكيم في تقسيم عباده إلى عابد صنم وعابد الله {عليم} بما يصدر بينهم من الاحتجاج ، ويحتمل أن يكون الخطاب في {إن ربك}

---

(١) تفسير البحر المحيط . (دار الفكر)، ١١٥/٤

للرسول ويحتمل أن يكون المراد به إبراهيم فيكون من باب الالتفات والخروج من ضمير الغيبة إلى ضمير الخطاب على سبيل التشريف بالخطاب.
{و وهبنا له إسحاق ويعقوب} {إسحاق} ابنه لصلبه من سارة و{يعقوب} ابن إسحاق كما قال تعالى : {فبشرناها بإسحاق ومن ورآء إسحاق يعقوب} ، وعدد تعالى نعمه على إبراهيم فذكر إيتاءه الحجة على قومه ، وأشار إلى رفع درجاته وذكر ما من به عليه من هبته له هذا النبي الذي تفرعت منه أنبياء بني إسرائيل ، ومن أعظم المنن أن يكون من نسل الرجل الأنبياء والرسل ولم يذكر إسماعيل مع إسحاق. قيل : لأن المقصود بالذكر هنا أنبياء بني إسرائيل وهم بأسرهم أولاد إسحاق ويعقوب ولم يخرج من صلب إسماعيل نبي إلا محمد صلى الله عليه وسلم ولم يذكره في هذا المقام لأنه أمره عليه السلام أن يحتج على العرب في نفي الشرك بالله بأن جدهم إبراهيم لما كان موحدا لله متبرئا من الشرك رزقه الله أولا ملوكا وأنبياء ، والجملة من قوله : {ووهبنا} معطوفة على قوله : {وتلك حجتنآ} عطف فعلية على اسمية ، وقال ابن عطية : {ووهبنا} عطف على {ءاتيناهآ} انتهى. ولا يصح هذا لأن {ءاتيناهم} لها موضع من الإعراب إما خبر. وإما حال ولا يصح في {ووهبنا} شيء منهما.
{كلا هدينا } أي كل واحد من إسحاق ويعقوب هدينا.
{ونوحا هدينا من قبل} لما ذكر شرف أبناء إبراهيم ذكر شرف آبائه فذكر نوحا الذي هو آدم الثاني وقال : {من قبل} تشبيها على قدمه
١٧٢
وفي ذكره لطيفة وهي أن نوحا عليه السلام عبدت الأصنام في زمانه ، وقومه أول قوم عبدوا الأصنام ووحد هو الله تعالى ودعا إلى عبادته ورفض تلك الأصنام وحكى الله عنه مناجاته لربه في قومه حيث قالوا : لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا} وكان إبراهيم عبدت الأصنام في زمانه ووحد هو الله تعالى ودعا إلى رفضها فذكر الله تعالى نوحا وأنه هداه كما هدى إبراهيم.
جزء : ٤ رقم الصفحة : ١٦١
وكان إبراهيم عبدت الأصنام في زمانه ووحد هو الله تعالى ودعا إلى رفضها فذكر الله تعالى نوحا وأنه هداه

كما هدى إبراهيم.
." (١)

"{ذالكم وصاكم بها لعلكم تتقون} كرر التوصية على سبيل التوكيد ولما كان الصراط المستقيم هو الجامع للتكاليف وأمر تعالى باتباعه ونهى عن بنيات الطرق ختم ذلك بالتقوى التي هي اتقاد النار ، إذ من اتبع صراطه نجاه النجاة الأبدية وحصل على السعادة السرمدية. قال ابن عطية : ومن حيث كانت المحرمات الأول لا يقع فيها عاقل قد نظر بعقله جاءت العبادة {لعلكم تعقلون} والمحرمات الأخر شهوات وقد يقع فيها من العقلاء من لم يتذكر وركوب الجادة الكاملة تتضمن فعل الفضائل وتلك درجة التقوى.
جزء : ٤ رقم الصفحة : ٢٥٣
{ثم ءاتينا موسى الكتاب تماما على الذى أحسن وتفصيلا لكل شىء وهدى ورحمة لعلهم بلقآء ربهم يؤمنون} {ثم} تقتضي المهلة في الزمان هذا أصل وضعها ثم تأتي للمهلة في الإخبار. فقال الزجاج : هو معطوف على أتل تقديره أتل ما حرم ثم أتل {ءاتينآ} . وقيل : معطوف على {قل} على إضمار قل أي ثم قال {ءاتينآ} . وقيل : التقدير ثم إني أخبركم إنا آتينا. وقال الحوفي : رتبتم التلاوة أي تلونا عليكم قصة محمد ثم نتلو عليكم قصة موسى. وقال ابن عطية : مهلتها في ترتيب القول الذي أمر به محمد صلى الله عليه وسلم كأنه قال : ثم مما وصينا {ءاتينا موسى الكتاب تماما} ويدعو إلى ذلك أن موسى عليه السلام متقدم بالزمان على محمد صلى الله عليه وسلم. وقال ابن القشيري : في الكلام محذوف تقديره ثم كنا قد {موسى الكتاب تماما} قبل إنزالنا القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم. وقال الزمخشري عطف على {وصاكم به} (فإن قلت) : كيف صح عطفه عليه بثم والإيتاء قبل التوصية بدهر طويل ؟ (قلت) : هذه التوصية قديمة لم تزل تواصاها كل أمة على لسان نبيها كما قال ابن عباس : محكمات لم ينسخهن شيء من جميع الكتب فكأنه قيل : {ذالكم وصاكم به} يا بني آدم قديما وحديثا ثم أعظم من ذلك {ءاتينا موسى الكتاب تماما} وأنزلنا هذا الكتاب المبارك ؟ وقيل : هو معطوف على ما تقدم قبل شطر السورة من قوله : { وهبنا له إسحاق ويعقوب} ؛ انتهى. وهذه الأقوال كلها متكلفة والذي ينبغي أن يذهب إليه أنها استعملت للعطف كالواو من غير اعتبار مهلة ، وقد ذهب إلى ذلك بعض النحاة و{الكتاب} هنا التوراة بلا خلاف وانتصب تماما على المفعول له أو على المصدر أتممناه تماما مصدر على حذف الزوائد أو

(١) تفسير البحر المحيط. (دار الفكر)، ٤/١٣٧

على الحال إما من الفاعل والمفعول وكل قد قيل. وقيل : معنى {مر} أي دفعة واحدة لم نفرق إنزاله كما فرقنا إنزال القرآن قاله أبو سليمان الدمشقي. والذي أحسن جنس أي على من كان محسنا من أهل ملته قاله مجاهد أي إتماما للنعمة عندهم. وقيل : المراد بالذي أحسن مخصوص. فقال الماوردي : إبراهيم كانت نبوة موسى نعمة على إبراهيم لأنه من ولده والإحسان للأبناء إحسان للآباء. وقيل : موسى عليه السلام تتمة للكرامة على العبد الذي أحسن الطاعة في التبليغ وفي كل ما أمر به ، والذي في هذه التأويلات واقعة على من يعقل. وقال ابن الأنباري :

جزء : ٤ رقم الصفحة : ٢٥٣

{تماما على الذى أحسن} موسى من العلم وكتب الله القديمة ونحو منه قول ابن قتيبة ، قال : معنى الآية {تماما} على ما كان أحسن من العلم والحكمة من العلم والحكمة من قولهم : فلان يحسن كذا أي يعلمه. وقال الزمخشري في هذا التأويل : {تماما على الذى أحسن} موسى من العلم والشرائع من أحسن الشيء إذا أجاد معرفته أي زيادة على علمه على وجه التتميم ؛ انتهى. وقال ابن عطية : على ما أحسن هو من عبادة ربه والاضطلاع بأمور نبوته يريد موسى عليه السلام هذا تأويل الربيع وقتادة ؛ انتهى. والذي في هذا التأويل واقعة على غير العاقل. وقيل : {الذى } وهو قول كوفي وفي {هم أحسن} ضمير موسى أي تماما على إحسان موسى بطاعتنا وقيامه بأمرنا ونهينا ، ويكون في على إشعار بالعلية كما تقول : أحسنت إليك على إحسانك إلي. وقيل : الضمير في {أحسن} يعود على الله تعالى وهذا قول ابن زيد ، ومتعلق الإحسان إلى أنبيائه أو إلى موسى قولان : وأحسن ما في هذه الأقوال كلها فعل. وقال بعض نحاة الكوفة : يصح أن يكون {أحسن} اسما وهو أفعل التفضيل وهو مجرور صفة للذي وإن كان نكرة من حيث قارب المعرفة إذ لا يدخله أل كما تقول العرب : مررت بالذي خير منك ، ولا يجوز مررت بالذي عالم ؛ انتهى. وهذا سائغ على مذهب الكوفيين في الكلام وهو خطأ عند البصريين. وقرأ يحيى بن معمرو ابن أبي إسحاق {أحسن} برفع النون وخرج على أنه خبر مبتدأ محذوف أي هو أحسن و{أحسن} خبر صلة كقراءة من قرأ مثلا ما بعوضة أي تماما على الذي

٢٥٥

".(١)

---

(١) تفسير البحر المحيط . (دار الفكر)، ٤/٢٠٧

"بل قدرته تعالى على التصرف في هذا العالم ، ونقله أهله من عز إلى ذل ، ومن ذل إلى عز ، وبفناء الدنيا ، فيعتبر بذلك. وأن ذلك القصص بوحي من الله ، إذ أعلم بذلك على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم من غير تحريف مع كونه لم يتعلم ولم يتتلمذ. الثاني : كلما سمعوا خروف التهجي ولم يفهموا منها شيئا ساء ظنهم ، وقد أجاب الله بقوله : {بينة} الآية. الثالث : ظهور القرآن شيئا فشيئا ، فساء ظنهم وقالوا : {لولا نزل عليه القرءان جملة واحدة} وقد أجاب تعالى وشرح في مكانه. الرابع : القرآن مملوء من الحشر ، وكانوا ألفوا المحسوسات ، فاستبعدوا حصول الحياة بعد الموت ، فبين الله صحة المعاد بالدلائل الكثيرة. الخامس : أنه مملوء من الأمر بالعبادات ، وكانوا يقولون : إله العالم غني عن طاعتنا ، وهو أجل أن يأمرنا بما لا فائدة له فيه. وأجاب تعالى بقوله : {إن أحسنتم أحسنتم} الآية وبالجملة فشبه الكفار كثيرة ، فلما رأوا القرآن مشتملا على أمور ما عرفوا حقيقتها ولا اطلعوا على وجه **الحكمة فيها** كذبوا بالقرآن فقوله : بما لم يحيطوا بعلمه ، إشارة إلى عدم علمهم هذه الأشياء وقوله : ولما يأتهم تأويله ، إشارة إلى عدم جهدهم واجتهادهم في طلب أسرار ما تضمنه القرآن انتهى ملخصا.

جزء : ٥ رقم الصفحة : ١٤٥

وقال الزمخشري : (فإن قلت) : ما معنى التوقع في قوله تعالى : ولم ايأتهم تأويله ؟ (قلت) : معناه أنهم كذبوا به على البديهة قبل التدبر ، ومعرفة التأويل تقليدا للآباء ، وكذبوه بعد التدبر تمردا وعنادا فذمهم بالتسرع إلى التكذيب قبل العلم به ، وجاء بكلمة التوقع ليؤذن أنهم علموا بعد علو شأنه وإعجازه لما كرر عليهم التحدي ورازوا قواهم في المعارضة ، واستيقنوا عجزهم عن مثله ، فكذبوا به بغيا وحسدا انتهى. ويحتاج كلامه هذا إلى نظر. وقال أيضا : ويجوز أن يكون المعنى : ولما يأتهم تأويله ، ولما يأتهم بعد تأويل ما فيه من الإخبار بالغيوب أي عاقبته ، حتى يتبين لهم أكذب هو أم صدق ؟ يعني : أنه كتاب معجز من جهتين : من جهة إعجاز نظمه ، ومن جهة ما فيه من الإخبار بالغيوب. فتسرعوا إلى التكذيب به قبل أن ينظروا في نظمه وبلوغه حد الإعجاز ، وقبل أن يخبروا إخباره بالمغيبات وصدقه وكذبه انتهى. وبقيت جملة الإحاطة بلم ، وجملة إتيان التأويل بلما ، ويحتاج في ذلك إلى فرق دقيق. والكاف في موضع نصب أي : مثل ذلك التكذيب كذب الذين من قبلهم ، يعني : قبل النظر في معجزات الأنبياء وقبل تدبرها من غير إنصاف من أنفسهم ، ولكن قلدوا الآباء عاندوا. قال ابن عطية : قال الزجاج : كيف ، في موضع نصب على خبر كان ، لا يجوز أن يعمل فيه انظر ، لأن ما قبل الاستفهام لا يعمل فيه ، هذا قانون النحويين

لأنهم عاملوا كيف في كل مكان معاملة الاستفهام المحض. في قولك : كيف زيد ؟ ولكيف تصرفات غير هذا تحل محل المصدر الذي هو كيفية ، وينخلع معنى الاستفهام ، ويحتمل هذا الموضع أن يكون منها ومن تصرفاتها قولهم : كن كيف شئت ، وانظر قول البخاري : كيف كان بدء الوحي ، فإنه لم
١٥٩
يستقيم انتهى. وقول الزجاج : لا يجوز أن يعمل فيه انظر ، وتعليله : يريد لا يجوز أن تعمل فيه انظر لفظا ، لكن الجملة في موضع نصب لا نظر معلقة ، وهي من نظر القلب. وقولابن عطية : هذا قانون النحويين إلى آخر تعليله ، ليس كما ذكر ، بل لكيف كعنيان : أحدهما : الاستفهام المحض ، وهو سؤال عن الهيئة ، إلا أن تعلق عنها العامل فمعناها معنى الأسماء التي يستفهم بها إذا علق عنها العامل. والثاني : الشرط. لقول العرب : كيف تكون أكون وقوله : ولكيف تصرفات إلى آخره ، ليس كيف تحل محل المصدر ، ولا لفظ كيفية هو مصدر ، إنما ذلك نسبة إلى كيف. وقوله : ويحتمل أن يكون هذا الموضع منها ومن تصرفاتها قولهم : كن كيف شئت ، لا يحتمل أن يكون منها ، لأنه لم يثبت لها المعنى الذي ذكر من كون كيف بمعنى كيفية وادعاء مصدر كيفية. وأما كن كيف شئت ، فكيف ليست بمعنى كيفية ، وإنما هي شرطية وهو المعنى الثاني الذي لها. وجوابها محذوف التقدير : كيف شئت فكن ، كما تقول : قم متى شئت ، فمتى اسم شرط ظرف لا يعمل فيه قم ، والجواب محذوف تقديره : متى شئت فقم ، وحذف الجواب لدلالة ما قبله عليه كقولهم : إضرب زيدا إن أساء إليك ، التقدير : إن أساء إليك فاضربه ، وحذف فاضربه لدلالة اضرب المتقدم عليه. وأما قول البخاري : كيف كان بدء الوحي ؟ فهو استفهام محض ، إما على سبيل الحكاية كأن قائلا سأله فقال : كيف كان بدء الوحي ؟ فأجاب بالحديث الذي فيه كيفية ذلك. والظالمين : الظاهر أنه أريد به الذين من قبلهم ، ويحتمل أن يراد به من عاد عليه ضمير بل كذبوا.
جزء : ٥ رقم الصفحة : ١٤٥
" (١).

"ويجوز أن يكون به بمنزلة فيه ، فتتعلق الباء بالمستقر. واختلاف هذين الوجهين إنما هو لفظي ، والمعنى في الآية واحدة. وذكر الطبري عن ابن زيد تأويلا في قوله : إني أعظك أن تكون من الجاهلين لا يناسب النبوة تركناه ، ويوقف عليه في تفسير ابن عطية. وقيل : سأل نوح ربه حين صار عنه ابنه بمعزل ،

---

(١) تفسير البحر المحيط. (دار الفكر)، ١٢٨/٥

وقيل : قبل أن عرف هلاكه ، وقيل : بعد أن عرف هلاكه سأل الله له المغفرة أن أسألك من أن أطلب في المستقبل ما لا علم لي بصحته تأديبا بأدبك ، واتعاظا بموعظتك ، وهذه إنابة من نوح عليه السلام وتسليم لأمر الله. قال ابن عطية : والسؤال الذي وقع النهي عنه والاستعاذة والاستغفار منه هو سؤال العزم الذي معه محاجة ، وطلبه ملحة فيما قد حجب وجه **الحكمة فيه**. وأما السؤال في الأمور على جهة التعلم والاسترشاد فغير داخل في هذا ، وظاهر قوله : فلا تسألن ما ليس لك به علم ، يعم النحوين من السؤال ، ولذلك نبهت على أن المراد أحدهما دون الآخر ، والخاسرون هم المغبونون حظوظهم من الخير انتهى ، ونسب نوح النقص والذنب إلى نفسه تأدبا مع ربه فقال : وألا تغفر لي ، أي ما فرط من سؤالي وترحمني بفضلك ، وهذا كما قال آدم عليه السلام.

{قيل يانوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معكا وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم * تلك من أنابآء الغيب نوحيهآ إليكا ما كنت تعلمهآ أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبرا إن العاقبة للمتقين} : بني الفعل للمفعول ، فقيل : القائل هو الله تعالى ، وقيل : الملائكة

٢٣٠

تبليغا عن الله تعالى. والظاهر الأول لقوله : منا. وسنمتعهم أمر عند نزوله بالهبوط من السفينة ومن الجبل مع أصحابه للانتشار في الأرض ، والباء للحال أي : مصحوبا بسلامة وأمن وبركات ، وهي الخيرات النامية في كل الجهات. ويجوز أن تكون اللام بمعنى التسليم أي : اهبط مسلما عليك مكرما. وقرىء اهبط بضم الباء ، وحكى عبد العزيز بن يحيى وبركة على التوحيد عن الكسائي وبشر بالسلامة إيذانا له بمغفرة ربه له ورحمته إياه ، وبإقامته في الأرض آمنا من الآفات الدنيوية ، إذ كانت الأرض قد خلت مما ينتفع به من النبات والحيوان ، فكان ذلك تبشيرا له بعود الأرض إلى أحسن حالها ، ولذلك قال : وبركات عليك أي دائمة باقية عليك. والظاهر أن من لابتداء الغاية أي : ناشئة من الذين معك ، وهم الأمم المؤمنون إلى آخر الدهر. قال الزمخشري : ويحتمل أن تكون من للبيان فتراد الأمم الذين كانوا معه في السفينة لأنهم كانوا جماعات. وقيل لهم : أمم ، لأن الأمم تشعبت منهم انتهى. وهذا فيه بعد تكلف ، إذ يصير التقدير : وعلى أمم هم من معك ، ولو أريد هذا المعنى لا غنى عنه ، وعلى أمم معك أو على من معك ، فكان يكون أخضر وأقرب إلى الفهم ، وأبعد عن اللبس. وارتفع أمم على الابتداء. قال الزمخشري : وسنمتعهم صفة ، والخبر محذوف تقديره وممن معك أمم سنمتعهم ، وإنما حذف لأن قوله : ممن معك ، والمعنى : أن

السلام منا والبركات عليك وعلى أمم مؤمنين ينشئون ممن معك ، وأمم ممتعون بالدنيا منقلبون إلى النار انتهى. ويجوز أن يكون أمم مبتدأ ، ومحذوف الصفة وهي المسوغة لجواز الابتداء بالنكرة ، والتقدير : وأمم منهم أي ممن معك ، أي ناشئة ممن معك ، وسنمتعهم هو الخبر كما قالوا : السمن منوان بدرهم ، أي منوان منه ، فحذف منه وهو صفة لمنوان ، ولذلك جاز الابتداء بمنوان وهو نكرة. ويجوز أن يقدر مبتدأ ولا يقدر صفة الخبر سنمتعهم ، ومسوغ الابتداء كون المكان مكان تفصيل ، فكان مثل قول الشاعر :

جزء : ٥ رقم الصفحة : ٢٢٣

إذا ما بكى من خلفها انحرفت لهبشق وشق عندنا لم يحول

." (١)

"بن بروان بن أراشه بن فاران بن عمرو بن عملاق بن لاوذ بن سام بن نوح ، فملك بعده قابوس بن مصعب بن تمر بن السلواس بن فاران بن عمرو المذكور في نسب الريان ، فدعاه يوسف إلى الإيمان فأبى ، فاشتراه العزيز وهو ابن سبع عشرة سنة ، وأقام في منزله ثلاث عشرة سنة ، واستوزره الريان بن الوليد وهو ابن ثلاثين سنة ، وآتاه الله الحكمة والعلم وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة ، وتوفي وهو ابن مائة وعشرين سنة. وقيل : كان الملك في أيامه فرعون موسى عاش أربعمائة سنة ، بدليل قوله : {ولقد جآءكم يوسف من قبل بالبينات} وقيل : فرعون موسى من أولاد فرعون يوسف ، وقيل : عرض في السوق وكان أجمل الناس ، فوقعت فيه مزايدة حتى بلغ ثمنا عظيما. فقيل : وزنه من ذهب ومن فضة ومن حرير ، فاشتراه العزيز وهو كان صاحب الملك وخازنه ، واسم الملك الريان بن الوليد. وقيل : مصعب بن الريان ، وهو أحد الفراعنة ، واسم العزيز قطفير ، قاله ابن عباس ، وقيل : اطفير ، وقيل : قنطور ، واسم امرأته راعيل ، وقيل : زليخا. قال ابن عطية : وظاهر أمر العزيز أنه كان كافرا ، ويدل على ذلك كون الصنم في بيته حسبما يذكر. وقال مجاهد : كان مسلما ، واسم امرأة العزيز راعيل بنت رعاييل. وقال السدي : العزيز هو الملك ، واسم امرأته زليخا بنت تمليخا ، ومثواه مكان إقامته وهو كناية عن الإحسان إليه في مأكل ومشرب وملبس. ولام لامرأته تتعلق بقال فهي للتبليغ ، نحو قلت لك : لا باشتراه عسى أن ينفعنا ، لعله إذا تدرب وراض الأمور وعرف مجاريها نستعين به على بعض ما نحن بصدده ، فينفعنا بكفايته ، أو نتبناه ونقيمه مقام الولد ، وكان قطفير

---

(١) تفسير البحر المحيط . (دار الفكر)، ٥/١٩٠

عقيما لا يولد له ، فتفرس فيه الرشد فقال ذلك. وكذلك أي : مثل ذلك التمكين من قلب العزيز حتى عطف عليه ، وأمر امرأته بإكرام مثواه. مكنا ليوسف في الأرض أي : أرض مصر يتصرف فيها بأمره ونهيه ، أي : حكمناه فيها. ولام ولنعلمه متعلقة بمحذوف ، إما قبله لتملكه ولنعلمه ، وإما بعده أي ولنعلمه من تأويل الأحاديث كان ذلك الإنجاء والتمكين ، أو الواو مقحمة أي : مكنا ليوسف في الأرض لنعلمه وكل مقول. والأحاديث : الرؤيا ، قاله مجاهد. وقيل : أحاديث الأنبياء والأمم. والضمير في على أمره الظاهر عوده على الله قاله ابن جبير ، لا يمنع عما يشاء ولا ينازع فيما يريد ، ويقضي. أو على يوسف قاله الطبري ، أي : يديره ولا يكله إلى غيره. قد أراد أخوته به ما أرادوا ، ولم يكن إلا ما أراد الله ودبره ، وأكثر الناس المنفى عنهم العلم هم الكفار قاله ابن عطية. وقال الزمخشري : لا يعملون أن الأمر بيد الله ، وقيل : المراد بالأكثر الجميع أي : لا يطلعون على غيبه. وقيل : المراد بأكثر الناس أهل مصر ، وقيل : أهل مكة. والأشد عند سيبويه جمع واحد شدة ، وأشد كنعمة وأنعم. وقال الكسائي : شد وأشد نحو صك وأصك ، وقال الشاعر :

جزء : ٥ رقم الصفحة : ٢٧٥

عهدي به شد النهار كأنماخضب البنان ورأسه بالعظلم

وزعم أبو عبيدة أنه لا واحد له من لفظه عند العرب والأشد بلوغ الحلم قاله : الشعبي ، وربيعة ، وزيد بن أسلم ، أو سبعة عشر عاما إلى نحو الأربعين قاله الزجاج ، أو ثمانية عشر إلى ستين أو ثمانية عشر قاله عكرمة ، ورواه أبو صالح عن ابن عباس ، أو عشرون قاله الضحاك ، أو إحدى وعشرون سنة أو ثلاثون أو ثلاثة وثلاثون قاله مجاهد وقتادة. ورواه ابن جبير عن ابن عباس ، أو ثمان وثلاثون حكاه ابن قتيبة ، أو أربعون قاله الحسن. وسئل الفاضل النحوي مهذب الدين محمد بن علي بن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه الخيمي عن الأشد فقال : هو خمس وثلاثون ، وتمامه أربعون. وقيل : أقصاه اثنان وستون. والحلم الحكم ، والعلم النبوة. وقيل : الحكم بين الناس ، والعلم : الفقه في الدين. وهذا أشبه لمجيء

٢٩٢

قصة المراودة بعد هذه القصة ، وكذلك أي : مثل ذلك الجزاء لمن صبر ورضي بالمقادير نجزي المحسنين. وفيه تنبيه على أن يوسف كان محسنا في عنفوان شبابه فآتاه الله الحكم والعلم جزاء على إحسانه. وعن الحسن : من أحسن عبادة الله في شبيبته آتاه الله **الحكمة في** اكتهاله. وقال ابن عباس : المحسنين

المهتدين ، وقال الضحاك : الصابرين على النوائب.

{وراودته التى هو فى بيتها عن نفسها وغلقت الابواب وقالت هيت لكا قال معاذ الله إنه ربى أحسن مثواى} : المراودة : المطالبة برفق ، من راد يرود إذا ذهب وجاء ، وهي مفاعلة من واحد نحو : داويت المريض ، وكنى به عن طلب النكاح والمخادعة لأجله. كان المعنى وخادعته عن نفسه ، ولذلك عداه بعن. وقال التي هو في بيتها ، ولم يصرح باسمها ، ولا بامرأة العزيز ، سترا على الحرم. والعرب تضيف البيوت إلى النساء فتقول : ربة البيت ، وصاحبة البيت قال الشاعر :

يا ربة البيت قومي غير صاغرة

جزء : ٥ رقم الصفحة : ٢٧٥

(١) ".

"قالوا في قوله : عن اليمين والشمائل ، بحثان. أحدهما : ما المراد بذلك. والثاني : ما الحكمة في إفراد اليمين وجمع الشمائل ؟ أما الأول فقالوا : يمين الفلك وهو المشرق. وشماله هو المغرب. وخص هذان الاسمان بهذين الجانبين لأن أقوى جانبي الإنسان يمينه ، ومنه تظهر الحركة الفلكية اليومية آخذة من المشرق إلى المغرب ، لا جرم كان المشرق يمين الفلك والمغرب شماله ، فعلى هذا تقول الشمس عند طلوعها إلى وقت انتهائها إلى وسط الفلك يقع الظلال إلى الجانب الغربي ، فإن انحدرت من وسط الفلك عن الجانب الغربي وقعت الظلال في الجانب الشرقي ، فهذا المراد من تفيؤ الظلال من اليمين إلى الشمال. وقيل : البلدة التي عرضها أقل من مقدار الميل تكون الشمس في الصيف عن يمين البلدة فتقع الظلال على يمينهم. وقال الزمخشري : المعنى أو لم يروا إلى ما خلق الله من الأجرام التي لها ضلال متفيئة عن أيمانها وشمائله، عن جانبي كل واحد منها وشقيه ، استعارة من يمين الإنسان وشماله بجانبي الشيء أي : ترجع الظلال من جانب إلى جانب انتهى. وقال ابن عطية : والمقصود العبرة في هذه الآية ، هو كل جرم له ظل كالجبال والشجر وغير ذلك ، والذي يترتب فيه أيمان وشمائل إنما هو البشر فقط ، لكن ذكر الأيمان والشمائل هنا على حسب الاستعارة لغير اللبس تقدره : ذا يمين وشمال ، وتقدره : بمستقبل أي جهة شئت ، ثم تنظر ظله فتراه يميل إما إلى جهة اليمين وإما إلى جهة الشمال ، وذلك في كل أقطار الدنيا ، فهذا يعم ألفاظ الآية. وفيه تجوز واتساع. ومن ذهب إلى أن اليمين من غدوة الزوال ، ويكون من

(١) تفسير البحر المحيط . (دار الفكر)، ٥/٢٤٣

الزوال إلى المغيب عن الشمال ، وهو قول قتادة وابن جريج ، فإنما يترتب فيما قدره مستقبل الجنوب انتهى. وأما الثاني فقال الزمخشري : واليمين بمعنى الأيمان ، فجعله وهو مفرد بمعنى الجمع ، فطابق الشمائل من حيث المعنى كما قال : {ويولون الدبر} يريد الإدبار. وقال الفراء : كأنه إذا وجد ذهب إلى واحد من ذوات الظلال ، وإذا جمع ذهب إلى كلها لأن قوله ما خلق الله من شيء ، لفظ واحد ومعناه الجمع ، فعبر عن أحدهما بلفظ الواحد لقوله : {وجعل الظلمات والنور} وقوله : {ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم} وقيل : إذا فسرنا اليمين بالمشرق ، كانت النقطة التي هي مشرق الشمس واحدة بعينها ، فكانت اليمين واحدة. وأما الشمائل فهي عبارة عن الانحرافات الواقعة في تلك الظلال بعد وقوعها على الأرض ، وهي كثيرة ، فلذلك عبر عنها بصيغة الجمع. وقال الكرماني يحتمل أن يراد بالشمائل الشمال والقدام والخلف ، لأن الظل يفيء من الجهات كلها فبدىء باليمين لأن ابتداء التفيؤ منها ، أو تيمنا بذكرها ، ثم جمع الباقي على لفظ الشمال لما بين اليمين والشمال من التضاد ، وتنزل القدام والخلف منزلة الشمال لما بينهما وبين اليمين من الخلاف. وقيل : وحد اليمين وجمع الشمائل ، لأن الابتداء عن اليمين ، ثم ينقبض شيئا فشيئا حالا بعد حال ، فهو بمعنى الجمع ، فصدق على كل حال لفظة الشمال ، فتعدد بتعدد الحالات. وقال ابن عطية : وما قال بعض الناس من أن اليمين أول وقعة للظل بعد الزوال ، ثم الآخر إلى الغروب هي عن الشمائل ، وأفرد اليمين فتخليط من القول ومبطل من جهات. وقال ابن عباس : إذا صليت الفجر كان ما بين مطلع الشمس إلى مغربها ظلا ، ثم بعث الله عليه الشمس دليلا فقبض إليه الظل ، فعلى هذا تأول دورة الشمس بالظل عن يمين مستقبل الجنوب ، ثم يبدأ الانحراف فهو من الشمائل ، لأنه حركات كثيرة وظلال منقطعة ، فهي شمائل كثيرة ، فكان الظل عن اليمين متصلا واحدا عاما لكل شيء انتهى. وقال شيخنا الأستاذ أبو الحسن علي بن محمد بن يوسف الكتامي المعروف بانب الصائغ : أفرد وجمع بالنظر إلى الغايتين ، لأن ظل الغداة يضمحل حتى لا يبقى منه إلا اليسير فكأنه في جهة واحدة ، وهو بالعشي على العكس

٤٩٧

جزء : ٥ رقم الصفحة : ٤٨٧

لاستيلائه على جميع الجهات ، فلحظت الغايتان في الآية : هذا من جهة المعنى ، وفيه من جهة اللفظ المطابقة ، لأن سجدا جمع فطابقه جمع الشمائل لاتصاله به ، فحصل في الآية مطابقة اللفظ للمعنى ،

ولحظهما معا وتلك الغاية في الإعجاز انتهى. والظاهر حمل الظلال على حقيقتها ، وعلى ذلك وقع كلام أكثر المفسرين وقالوا : إذا طلعت الشمس وأنت متوجه إلى القبلة كان الظل قدامك ، فإذا ارتفعت كان على يمينك ، فإذا كان بعد ذلك كان خلفك فإذا أرادت الغروب كان على يسارك. وقالت فرقة : الظلال هنا الأشخاص وهي المرادة نفسها ، والعرب تخبر أحيانا عن الأشخاص بالظلال. ومنه قول عبدة بن الطبيب :

إذا نزلنا نصبنا ظل أخبيةوفار للقوم باللحم المراجيل

وإنما تنصب الأخبية ، ومنه قول الشاعر :

تتبع أفياء الظلال عيشةأي : أفياء الأشخاص. قال ابن عطية : وهذا كله محتمل غير صريح ، وإن كان أبو علي قرره انتهى.

." (١)

"ولما ذكر تعالى أنواعا من كرامات الإنسان في الدنيا ذكر شيئا من أحوال الآخرة فقال : {يوم ندعوا كل أناسا بإمامهم} واختلفوا في العامل في {يوم} . فقيل : العامل فيه ما دل عليه قوله متى هو. وقيل : فتستجيبون. وقيل : هو بدل من يوم يدعوكم وهذه أقوال في غاية الضعف ، ولولا أنهم ذكروها لضربت عن ذكرها صفحا وهو في هذه الأقوال ظرف. وقال الحوفي وابن عطية انتصب على الظرف والعامل فيه اذكر وعلى تقدير اذكر لا يكون ظرفا بل هو مفعول. وقال ابن عطية أيضا بعد قوله هو ظرف : والعامل فيه أذكر أو فعل يدل عليه قوله {ولا يظلمون} ، وحكاه أبو البقاء وقدره {ولا يظلمون} يوم ندعو. وقال ابن عطية أيضا : ويصح أن يعمل فيه {وفضلناهم} وذلك أن فضل البشر يوم القيامة على سائر الحيوان بين لأنهم المنعمون المكلفون المحاسبون الذين لهم القدر إلا أن هذا يرده أن الكفار يومئذ أخسر من كل حيوان ، إذ يقول الكافر : يا ليتني كنت ترابا. وقال ابن عطية أيضا : ويصح أن يكون {يوم} منصوبا على البناء لما أضيف إلى غير متمكن ، ويكون موضعه رفعا بالابتداء ، والخبر في التقسيم الذي أتى بعد في قوله {فمن أوتى كتابه} إلى قوله {ومن كان} انتهى. وقوله منصوبا على البناء كل ينبغي أن يقول مبنيا على الفتح ، وقوله : لما أضيف إلى غير متمكن ليس بجيد لأن الذي ينقسم إلى متمكن وغير متمكن هو الاسم لا الفعل ، وهذا أضيف إلى فعل مضارع ومذهب البصريين أنه إذا أضيف إلى فعل مضارع معرب لا يجوز بناؤه

---

(١) تفسير البحر المحيط. (دار الفكر)، ٥/٤٠٦

، وهذا الوجه الذي ذكره هو على رأي الكوفيين. وأما قوله : والخبر في التقسيم عار من رابط لهذه الجملة التقسيمية بالمبتدأ لا أن قدر محذوفا ، فقد يمكن أي ممن {أوتى كتابه} فيه {بيمينه} وهو بعد ذلك التخريج تخريج متكلف.

جزء : ٦ رقم الصفحة : ٦١

وقال بعض النحاة : العامل فيه {وفضلناهم} على تقدير {وفضلناهم} بالثواب ، وهذا القول قريب من قول ابن عطية الذي ذكرناه عنه قبل. وقال الزجاج : هو ظرف لقوله ثم لا تجد. وقال الفراء : هو معمول لقوله نعيدكم مضمرة أي نعيدكم {يوم ندعوا } والأقرب من هذه الأقوال أن يكون منصوبا على المفعول به بأذكر مضمرة. وقرأ الجمهور : بنون العظمة ، ومجاهد يدعو بياء الغيبة أي يدعو الله ، والحسن فيما ذكر أبو عمرو الداني يدعى مبنيا للمفعول {والمؤمنونا كل} مرفوع به ، وفيما ذكر غيره يدعو بالواو وخرج على إبدال الألف واوا على لغة من

٦٢

يقول : أفعو في الوقف على أفعى ، وإجراء الوصل مجرى الوقف وكل مرفوع به ، وعلى أن تكون الواو ضميرا مفعولا لم يسم فاعله ، وأصله يدعون فحذفت النون كما حذفت في قوله :

أبيت أسرى وتبيتى تدلكيوجهك بالعنبر والمسك الزكي

أي تبيتين تدلكين وكل بدل من واو الضمير. اسم جمع لا واحد له من لفظه ، والباء في {أناسا بإمامهم} الظاهر أنها تتعلق بندعو ، أي باسم إمامهم. وقيل : هي باء الحال أي مصحوبين {بإمامهم} . والإمام هنا قال ابن عباس والحسن وأبو العالية والربيع كتابهم الذي فيه أعمالهم. وقال الضحاك وابن زيد : كتابهم الذي نزل عليهم. وقال مجاهد وقتادة : نبيهم. قال ابن عطية : والإمام يعم هذا كله لأنه مما يؤتم به. وقال الزمخشري : إمامهم من ائتموا به نبي أو مقدم في الدين أو كتاب أو دين ، فيقال : يا أهل دين كذا وكتاب كذا. وقيل : بكتاب أعمالهم يا أصحاب كتاب الخير ويا أصحاب كتاب الشر. وفي قراءة الحسن بكتابهم ومن بدع التفسير أن الإمام جمع أم وأن الناس يدعون يوم القيامة بأمهاتهم ، وأن **الحكمة في** الدعاء بالأمهات دون الآباء رعاية حق عيسى وشرف الحسن والحسين. وأن لا يفتضح أولاد الزنا وليت شعري أيهما أبدع أصحة لفظه أم بهاء حكمته انتهى. وإيتاء الكتاب دليل على ما تقرر في الشريعة من الصحف التي يؤتاها المؤمن والكافر ، وإيتاؤه باليمين دليل على نجاة الطائع وخلاص الفاسق من النار إن دخلها

وبشارته أنه لا يخلد فيها {فأولائك} جاء جمعا على معنى من إذ قد حمل على اللفظ أولا فأفرد في قوله {أوتى كتابه بيمينه} وقراءتهم كتبهم هو على سبيل التلذذ بالإطلاع على ما تضمنتها من البشارة ، وإلا فقد علموا من حيث إيتاؤهم إياها باليمين أنهم من أهل السعادة ومن فرحهم بذلك يقول الباري لأهل المحشر : {هآؤم اقرءوا كتابيه} ولم يأت هنا قسيم من {أوتى كتابه بيمينه} وهو من يؤتي كتابه بشماله ، وإن كان قد أتى في غير هذه الآية بل جاء قسيمه قوله.

جزء : ٦ رقم الصفحة : ٦١

". (١)

"جزء : ٦ رقم الصفحة : ٤٣٥

{عظيم * يعظكم الله أن تعودوا } أي في أن تعودوا ، تقول : وعظت فلانا في كذا فتركه. {إن كنتم مؤمنين} حث لهم على الاتعاظ وتهييج لأن من شأن المؤمن الاحتراز مما يشينه من القبائح. وقيل :

٤٣٨

{أن تعودوا } مفعول من أجله أي كراهة {أن تعودوا } . {ويبين الله لكم الايات} أي الدلالات على علمه وحكمته بما ينزل عليكم من الشرائع ويعلمكم من الآداب ، ويعظكم من المواعظ الشافية. {إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة} . قال مجاهد وابن زيد الإشارة إلى عبد الله بن أبي ومن أشبهه. {إن الذين يحبون} لعداوتهم لهم ، والعذاب الأليم في الدنيا الحد ، وفي الآخرة النار. والظاهر في {الذين يحبون أن تشيع الفاحشة} العموم في كل قاذف منافقا كان أو مؤمنا ، وتعليق الوعيد على محبة الشياع دليل على أن إرادة الفسق فسق والله يعلم أي البريء من المذنب وسرائر الأمور ، ووجه **الحكمة في** ستركم والتغليظ في الوعيد.

وقال الحسن : عنى بهذا الوعيد واللعن المنافقين ، وأنهم قصدوا وأحبوا إذاية الرسول صلى الله عليه وسلم وذلك كفر وملعون فاعله. وقال أبو مسلم : هم المنافقون أوعدهم الله بالعذاب في الدنيا على يد الرسول بالمجاهدة كقوله {جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم} . وقال الكرماني : والله يعلم كذبهم {وأنتم لا تعلمون} لأنه غيب. وجواب {لولا} محذوف أي لعاقبكم. {إن الله} بالتبرئة {لرءوف رحيم} بقبول

٤٣٩

---

(١) تفسير البحر المحيط . (دار الفكر)، ٦/٤٥

توبة من تاب ممن قذف. قال ابن عباس : الخطاب لحسان ومسطح وحمنة والظاهر العموم.
جزء : ٦ رقم الصفحة : ٤٣٥
تقدم الكلام على {خطوات الشيطان} تفسيرا وقراءة في البقرة. والضمير في {فإنها} عائد على {مَن} الشرطية ، أي فإن متبع خطوات الشيطان {يأمر بالفحشآء} وهو ما أفرط قبحه {والمنكر} وهو ما تنكره العقول السليمة أي يصير رأسا في الضلال بحيث يكون آمرا يطيعه أصحابه.
{ولولا فضل الله عليكم ورحمته} بالتوبة الممحصة ما طهر أحد منكم. وقرأ الجمهور {ما زكى } بتخفيف الكاف ، وأمال حمزة والكسائي وأبو حيوة والحسن والأعمش وأبو جعفر في رواية وروح بتشديدها ، وأماله الأعمش وكبت {زكى } المخفف بالياء وهو من ذوات الواو على سبيل الشذوذ لأنه قد يمال ، أو على قراءة من شد الكاف. {ولاكن الله يزكى من يشآء} ممن سبقت له السعادة ، وكان علمه الصالح أمارة على سبقها أو من يشاء بقبول التوبة النصوح {والله سميع} لأقوالهم {عليم} بضمائرهم.
جزء : ٦ رقم الصفحة : ٤٤٠
{ولا يأتل} هو مضارع ائتلى افتعل من الألية وهي الحلف. وقيل : معناه يقصر من افتعل ألوت قصرت ومنه {لا يألونكم} . وقول الشاعر :
وما المرء ما دامت حشاشة نفسهبمدرك أطراف الخطوب ولا آل وهذا قول أبي عبيدة ، واختاره أبو مسلم. وسبب نزولها المشهور أنه حلف أبي بكر على مسطح أن لا ينفق عليه ولا ينفعه بنافعة. وقال ابن عياش والضحاك : قطع جماعة من المؤمنين منافعهم عمن قال في الإفك ، وقالوا : لا نصل من تكلم فيه فنزلت في جميعهم. والآية تتناول من هو بهذا الوصف. وقرأ الجمهور {يأتل} . وقرأ عبد الله بن عياش بن ربيعة وأبو جعفر مولاه وزيد بن أسلم والحسن يتأل مضارع تألى بمعنى حلف. قال الشاعر :
تألى ابن أوس حلفة ليردني
إلى نسوة كأنهن معائد
والفضل والسعة يعني المال ، وكان مسطح ابن خالة أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، وكان من المهاجرين وممن شهد بدرا ، وكان ما نسب إليه داعيا أبا بكر أن لا يحسن إليه ، فأمر هو ومن جرى مجراه بالعفو والصفح ، وحين سمع أبو بكر {ألا تحبون أن يغفر الله لكم} ؟ قال : بلى ، أحب أن يغفر الله لي ورد إلى مسطح نفقته وقال : والله لا أنزعها أبدا. وقرأ أبو حيوة وابن قطيب وأبو البرهثيم أن تؤتوا بالتاء على

الالتفات ، ويناسبه {ألا تحبون} و{أن يؤتوا } نصب الفعل المنهي فإن كان بمعنى الحلف فيكون التقدير كراهة {أن يؤتوا } وأن لا يؤتوا فحذف لا ، وإن كان بمعنى يقصر فيكون التقدير في أن يؤتوا أو عن أن يؤتوا. وقرأ عبد الله والحسن وسفيان بن الحسين وأسماء بنت يزيد ولتعفوا ولتصفحوا بالتاء أمر خطاب للحاضرين.

." (١)

"قال الزمخشري : وشبهها يعني أعماله في ظلمتها وسوادها لكونا باطلة ، وفي خلوها عن نور الحق بظلمات متراكمة من لجج البحر والأمواج والسحاب ، ومنهم من لاحظ التقابل فقال : الظلمات الأعمال الفاسدة والمعتقدات الباطلة. والبحر اللجي صدر الكافر وقلبه ، والموج الضلال والجهالة التي غمرت قلبه والفكر المعوجة والسحاب شهوته في الكفر وإعراضه عن الإيمان.

وقال الفراء : هذا مثل لقلب الكافر أي إنه يعقل ولا يبصر. وقيل : {الظلمات} أعماله والبحر هواه. القيعان القريب الغرق فيه الكثير الخطر ، والموج ما يغشى قلبه من جهل وغفلة ، والموج الثاني ما يغشاه من شك وشبهة ، والسحاب ما يغشاه من شرك وحيرة فيمنعه من الاهتداء على عكس ما في مثل نور الدين انتهى. والتفسير بمقابلة الأجزاء شبيه بتفسير الباطنية ، وعدول عن منهج كلام العرب.

ولما شبه أعمال الكفار بالظلمات المتراكمة وذكر أنه لا يكاد يرى اليد من شدة الظلمة قال {ومن لم يجعل الله له نورا} أي من لم ينور قلبه بنور الإيمان ويهده إليه فهو في ظلمة ولا نور له ، ولا يهتدي أبدا. وهذا النور هو في الدنيا. وقيل : هو في الآخرة أي من لم ينوره الله بعفوه ويرحمه برحمته له ، وكونه في الدنيا أليق بلفظ الآية وأيضا فذلك متلازم لأن نور الآخرة هو لمن نور الله قلبه في الدنيا. وقال الزمخشري : ومن لم يوله نور توفيقه وعصمته ولطفه فهو في ظلمة الباطل لا نور له. وهذا الكلام مجراه مجرى الكنايات لأن الألطاف إنما نردف الإيمان والعمل الصالح أو كونهما مرتقبين ، ألا ترى إلى قوله {والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا } وقوله {ويضل الله الظالمين} انتهى. وهو على طريقة الاعتزال.

جزء : ٦ رقم الصفحة : ٤٥٩

لما ذكر تعالى مثل المؤمن والكافر وأن الإيمان والضلال أمرهما راجع إليه أعقب بذكر الدلائل على قدرته وتوحيده ، والظاهر حمل التسبيح على حقيقته وتخصيص {من} في قوله ومن في الأرض بالمطيع لله

---

(١) تفسير البحر المحيط . (دار الفكر)، ٣٢١/٦

تعالى من الثقلين. وقيل : {من} عام لكل موجود غلب من يعقل على ما لا يعقل ، فأدرج ما لا يعقل فيه ويكون المراد بالتسبيح دلالته بهده الأشياء على كونه تعالى منزها عن النقائص موصوفا بنعوت الكمال. وقيل : المراد بالتسبيح التعظيم فمن ذي الدين بالنطق والصلاة ومن غيرهم من مكلف وجماد بالدلالة ، فيكون ذلك قدرا مشتركا بينهما وهو التعظيم. وقال سفيان : تسبيح كل شيء بطاعته وانقياده.

{والطير صا فات} أي صفت أجنحتها في الهواء للطيران ، وإنما خص الطير بالذكر لأنها تكون بين السماء والأرض إذا طارت فهي خارجة من جملة {من فى السماوات والارض} حالة طيرانها. وقرأ الجمهور {والطير} مرفوعا عطفا على {من} و{صا فات} نصب على الحال. وقرأ الأعرج {والطير} بالنصب على أنه مفعول معه. وقرأ الحسن وخارجة عن نافع {والطير صا فات} برفعهما مبتدأ وخبر تقديره يسبحن. قيل : وتسبيح الطير حقيقي قاله الجمهور. قال الزمخشري : ولا يبعد أن يلهم الله الطير دعاءه وتسبيحه كما ألهمها سائر العلوم الدقيقة التي لا يكاد العقلاء يهتدون إليها. وقال الحسن وغيره : هو تجوز إنما تسبيحه ظهور **الحكمة فيه** فهو لذلك يدعو إلى التسبيح.

جزء : ٦ رقم الصفحة : ٤٦٣

{كل} أي كل ممن ذكر ، فيشمل الطير والظاهر أن الفاعل المستكن في {علم} وفي {صلاته وتسبيحها} عائد على {كل} وقاله الحسن قال : فهو مثابر عليهما يؤديهما. وقال الزجاج : الضمير في {علم} وفي {صلاته وتسبيحها} لكل. وقيل : الضمير في {علم} لكل وفي {صلاته وتسبيحها} لله أي صلاة الله وتسبيحه اللذين أمر بهما وهدى إليهما ، فهذه إضافة خلق إلى خالق. وقال مجاهد : الصلاة للبشر

٤٦٣

والتسبيح لما عداهم.

وقرأ الحسن وعيسى وسلام وهارون عن أبي عمر وتفعلون بتاء الخطاب ، وفيه وعيد وتخويف. و{ولله ملك السماوات والارض} إخبار بأن جميع المخلوقات تحت ملكه يتصرف فيهم بما يشاء تصرف القاهر الغالب. وإليه {المصير} أي إلى جزائه من ثواب وعقاب. وفي ذلك تذكير وتخويف.

". (١)

(١) تفسير البحر المحيط . (دار الفكر)، ٦/٣٣٧

"قال الزمخشري : **والحكمة فيه** أن نقوي بتفريقه فؤادك حتى تعيه وتحفظه لأن المتلقن إنما يقوى قلبه على حفظ العلم شيئا بعد شيء ، وجزأ عقيب جزء ، ولو ألقي عليه جملة واحدة لكان يعيا في حفظه والرسول عليه السلام فارقت حاله حال داود وموسى وعيسى عليهم السلام حيث كان أميا لا يكتب وهم كانوا قارئين كاتبين ، فلم يكن له بد من التلقن والتحفظ فأنزل عليه منجما في عشرين سنة. وقيل : في ثلاث وعشرين سنة وأيضا فكان ينزل على حسب الحوادث وجواب السائلين ، ولأن

٤٩٦

بعضه منسوخ وبعضه ناسخ ، ولا يتأتى ذلك إلا فيما أنزل مفرقا انتهى.

واللام في {لنثبت به} لام العلة. وقال أبو حاتم : هي لام القسم والتقدير والله ليثبتن فحذفت النون وكسرت اللام انتهى. وهذا قول في غاية الضعف وكان ينحو إلى مذهب الأخفش أن جواب القسم يتلقى بلام كي وجعل منه ولتصغي إليه أفئدة وهو مذهب مرجوح. وقرأ عبد الله ليثبت بالياء أي ليثبت الله {ورتلناه} أي فصلناه. وقيل : بيناه. وقيل : فسرناه.

{ولا يأتونك بمثل} يضربونه على جهة المعارضة منهم كتمثيلهم في هذه بالتوراة والإنجيل الإحاء القرآن بالحق في ذلك ثم هو أوضح بيانا وتفصيلا. وقال الزمخشري : {ولا يأتونك بمثل} بسؤال عجيب من سؤالاتهم الباطلة كأنه مثل في البطلان إلا أتيناك نحن بالجواب الحق الذي لا محيد عنه وبما هو أحسن معنى ومؤدى من سؤالهم. ولما كان التفسير هو الكشف عما يدل عليه الكلام وضع موضع معناه فقالوا : تفسير هذا الكلام كيت وكيت ، كما قيل معناه كذا أو {ولا يأتونك} بحال وصفة عجيبة يقولون هلا كانت هذه صفتك وحالك نحو إن يقرن بك ملك ينذر معك أو يلقى إليك كنز أو تكون لك جنة أو ينزل عليك القرآن جملة إلا أعطيناك ما يحق لك في حكمتنا ومشيئتنا أن تعطاه وما هو أحسن تكشيفا لما بعثت عليه ودلالة على صحته انتهى. وقيل : {ولا يأتونك} بشبهة في إبطال أمرك إلا جئناك بالحق الذي يدحض شبهة أهل الجهل ويبطل كلام أهل الزيغ ، والمفضل عليه محذوف أي {وأحسن تفسيرا} من مثلهم ومثلهم قولهم {وقال الذين كفروا } .

جزء : ٦ رقم الصفحة : ٤٩٣

و{الذين يحشرون} . قال الكرماني : متصل بقوله {أصحاب الجنة يومئذ} الآية. قيل : ويجوز أن يكون متصلا بقوله {وكذالك جعلنا لكل نبى عدوا من المجرمين} انتهى. والذي يظهر أنهم لم اعترضوا في

حديث القرآن وإنزاله مفرقا كان في ضمن كلامهم أنهم ذو ورشد وخير ، وأنهم على طريق مستقيم ولذلك اعتراضوا فأخبر تعالى بحالهم وما يؤول إليه أمرهم في الآخرة بكونهم {شر مكانا وأضل سبيلا} والظاهر أنه يحشر الكافر على وجهه بأن يسحب على وجهه. وفي الحديث "إن الذي أمشاهم على أرجلهم قادر أن يمشيهم على وجوههم". وهذا قول الجمهور. وقيل : هو مجاز للذلة المفرطة والهوان والخزي. وقيل : هو من قول العرب مر فلان على وجه إذا لم يدر أين ذهب. ويقال : مضى على وجهه إذا أسرع متوجها لقصده و{شر} و{أضل} ليسا على بابهما من الدلالة على التفضيل. وقوله {شر مكانا} أي مستقرا وهو مقابل لقوله {خير مستقرا} ويحتمل أن يراد بالمكان المكانة والشرف لا المستقر.

وأعربوا {الذين} مبتدأ والجملة من {أوالئاك} في موضع الخبر ويجوز عندي أن يكون {الذين} خبر مبتدأ محذوف لما تقدم ذكر الكافرين وما قالوا قال إبعادا لهم وتسميعا بما يؤول إليه حالهم هم {الذين يحشرون} ثم استأنف إخبارا أخبر عنهم فقال {أوالئاك شر مكانا}

جزء : ٦ رقم الصفحة : ٤٩٣

٤٩٧

لما تقدم تكذيب قريش والكفار لما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر تعالى ما فيه تسلية للرسول وإرهاب للمكذبين وتذكير لهم أن يصيبهم ما أصاب الأمم السابقة من هلاك الاستئصال لما كذبوا رسلهم ، فناسب أن ذكر أولا من نزل عليه كتابه جملة واحدة ومع ذلك كفروا وكذبوا به فكذلك هؤلاء لو نزل عليه القرآن دفعة لكذبوا وكفروا كما كذب قوم موسى.

و{الكتاب} هنا التوراة و{هارون} بدل أو عطف بيان ، واحتمل أن يكون معه المفعول الثاني لجعلنا. وأن يكون {وزيرا} والوزارة لا تنافي النبوة فقد كان في الزمان الواحد أنبياء يوازر بعضهم بعضا ، والمذهوب إليهم القبط وفرعون. وفي الكلام حذف أي فذهبا وأديا الرسالة فكذبوهما {فدمرناهم} والتدمير أشد الإهلاك وأصله كسر الشيء على وجه لا يمكن إصلاحه. وقصة موسة ومن أرسل إليه ذكرت منتهية في غير ما موضع وهنا اختصرت فأوجز بذكر أولها وآخرها لأنه بذلك يلزم الحجة ببعثة الرسل واستحقاق التدمير بتكذيبهم.

جزء : ٦ رقم الصفحة : ٤٩٧
". (١)

"{مآ أصاب من مصيبة} : أي مصيبة ، وذكر فعلها ، وهو جائز التذكير والتأنيث ، ومن التأنيث {ما تسبق من أمة أجلها} . ولفظ مصيبة يدل على الشر ، لأن عرفها ذلك. قال ابن عباس ما معناه : أنه أراد عرف المصيبة ، وهو استعمالها في الشر ، وخصصها بالذكر لأنها أهم على البشر. والمصيبة في الأرض مثل القحط والزلزلة وعاهة الزرع ، وفي الأنفس : الأسقام والموت. وقيل : المراد بالمصيبة الحوادث كلها من خير وشر ، {إلا فى كتاب} : هو اللوح المحفوظ ، أي مكتوبة فيه ، {من قبل أن نبرأهآ} : أي نخلقها. برأ : خلق ، والضمير في نبرأها الظاهر أنه يعود على المصيبة ، لأنها هي المحدث عنها ، وذكر الأرض والأنفس هو على سبيل محل المصيبة. وقيل : يعود على الأرض. وقيل : على الأنفس ، قاله ابن عباس وقتادة وجماعة. وذكر المهدوي جواز عود الضمير على جميع ما ذكر. قال ابن عطية : وهي كلها معارف صحاح ، لأن الكتاب السابق أزلي قبل هذه كلها. انتهى. {إن ذالك} : أي يحصل كل ما ذكر في كتاب وتقديره ، {على الله يسير} : أي سهل ، وإن كان عسيرا على العباد.

ثم بين تعالى الحكمة في إعلامنا بذلك الذي فعله من تقدير ذلك ، وسبق قضائه به فقال : {لكيلا تأسوا} : أي تحزنوا ، {على ما فاتكم} ، لأن العبد إن أعلم ذلك سلم ، وعلم أن ما فاته لم يكن ليصيبه ، وما أصابه لم يكن ليخطئه ، فلذلك لا يحزن على فائت ، لأنه ليس بصدد أن يفوته ، فهون عليه أمر حوادث الدنيا بذلك ، إذ قد وطن نفسه على هذه العقيدة. ويظهر أن المراد بقوله : {لكيلا تحزنوا على ما فاتكم} : أن يلحق الحزن الشديد على ما فات من الخير ، فيحدث عنه التسخط وعدم الرضا بالمقدور. {ولا تفرحوا بمآ ءاتاكم} : أن يفرح الفرح المؤدي إلى البطر المنهي عنه في قوله تعالى : {لا تفرحا إن الله لا يحب الفرحين} ، فإن الحزن قد ينشأ عنه البطر ، ولذلك ختم بقوله : {والله لا يحب كل مختال فخور} . فالفرح بما ناله من حطام الدنيا يلحقه في نفسه الخيلاء والافتخار والتكبر على الناس ، فمثل هذا هو المنهي عنه. وأما الحزن على ما فات من طاعة الله ، والفرح بنعم الله والشكر عليها والتواضع ، فهو مندوب إليه.

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٢١٦

---

(١) تفسير البحر المحيط . (دار الفكر)، ٣٦٢/٦

وقال ابن عباس : ليس أحد إلا يحزن ويفرح ، ولكن من أصابته مصيبة فجعلها صبرا ، ومن أصاب خيرا جعله شكرا. انتهى ، يعني هو المحمود. وقال الزمخشري : فإن قلت : فلا أحد يملك نفسه عند مضرة تنزل به ، ولا عند منفعة ينالها أن لا يحزن ولا يفرح. قلت : المراد : الحزن المخرج إلى ما يذهل صاحبه عن الصبر ، والتسليم لأمر الله تعالى ، ورجاء ثواب الصابرين ، والفرح المطغي الملهي عن الشكر. فأما الحزن الذي لا يكاد الإنسان يخلو منه مع الاستسلام والسرور بنعمة الله والاعتداد بها مع الشكر ، فلا بأس به. انتهى. وقرأ الجمهور : بما آتاكم : أي أعطاكم ؛ وعبد الله : أوتيتم ، مبنيا للمفعول : أي أعطيتم ؛ وأبو عمرو : أتاكم : أي جاءكم.

{الذين يبخلون} : أي هم الذين يبخلون ، أو يكون الذين مبتدأ محذوف الخبر على جهة

٢٢٥

الإبهام تقديره : مذمومون ، أو موعودون بالعذاب ، أو مستغنى عنهم ، أو على إضمار ، أعني فهو في موضع نصب ، أو في موضع نصب صفة لكل مختال ، وإن كان نكرة ، فهو مخصص نوعا ما ، فيسوغ لذلك وصفة بالمعرفة. قال ابن عطية : هذا مذهب الأخفش. انتهى.

". (١)

"الظاهر إطلاق المصيبة على الرزية وما يسوء العبد ، أي في نفس أو مال أو ولد أو قول أو فعل ، وخصت بالذكر ، وإن كان جميع الحوادث لا تصيب إلا بإذن الله. وقيل : ويحتمل أن يريد بالمصيبة الحادثة من خير وشر ، إذ **الحكمة في** كونها بأذن الله. وما نافية ، ومفعول أصاب محذوف ، أي ما أصاب أحدا ، والفاعل من مصيبة ، ومن زائدة ، ولم تلحق التاء أصاب ، وإن كان الفاعل مؤنثا ، وهو فصيح ، والتأنيث لقوله تعالى : {ما تسبق من أمة أجلها} ، وقوله : {وما كان لرسول أن يأتي باية إلا بإذن الله} ، أي بإرادته وعلمه وتمكينه. {ومن يؤمنا بالله} : أي يصدق بوجوده ويعلم أن كل حادثة بقضائه وقدره ، {يهد قلبها} على طريق الخير والهداية. وقرأ الجمهور : يهد بالياء ، مضارعا لهدى ، مجزوما على جواب الشرط. وقرأ ابن جبير وطلحة وابن هرمز والأزرق عن حمزة :

٢٧٨

بالنون ؛ والسلمي والضحاك وأبو جعفر : يهد مبنيا للمفعول ، قلبه : رفع ؛ وعكرمة وعمرو بن دينار ومالك

---

(١) تفسير البحر المحيط . (دار الفكر)، ٨/١٧٠

بن دينار : يهدأ بهمزة ساكنة ، قلبه بالرفع : يطمئن قلبه ويسكن بإيمانه ولا يكون فيه اضطراب. وعمرو بن فايد : يهدا بألف بدلا من الهمزة الساكنة ؛ وعكرمة ومالك بن دينار أيضا : يهد بحذف الألف بعد إبدالها من الهمزة الساكنة وإبدال الهمزة ألفا في مثل يهدأ ويقرأ ، ليس بقياس خلافا لمن أجاز ذلك قياسا ، وبنى عليه جواز حذف تلك الألف للجازم ، وخرج عليه قول زهير بن أبي سلمى :

جزى متى يظلم يعاقب بظلمهسريعا وإن لا يبد بالظلم يظلم

أصله : يبدأ ، ثم أبدل من الهمزة ألفا ، ثم حذفها للجازم تشبيها بألف يخشى إذا دخل الجازم.

ولما قال تعالى : {مآ أصاب من مصيبة إلا بإذن الله} ، ثم أمر بطاعة الله وطاعة رسوله ، وحذر مما يلحق الرجل من امرأته وولده بسبب ما يصدر من بعضهم من العداوة ، ولا أعدى على الرجل من زوجته وولده إذا كانا عدوين ، وذلك في الدنيا والآخرة. أما في الدنيا فبإذهاب ماله وعرضه ، وأما في الآخرة فبما يسعى في اكتسابه من الحرام لهما ، وبما يكسبانه منه بسبب جاهه. وكم من امرأة قتلت زوجها وجذمت وأفسدت عقله ، وكم من ولد قتل أباه. وفي التواريخ وفيما شاهدناه من ذلك كثير.

وعن عطاء بن أبي رباح : أن عوف بن مالك الأشجعي أراد الغزو مع النبي صلى الله عليه وسلم ، فاجتمع أهله وولده ، فثبطوه وشكوا إليه فراقة ، فرق ولم يغز ؛ إنه ندم بمعاقبتهم ، فنزلت : {ذلك بأن الذين كفروا } الآية.

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٢٧٥

وقيل : آمن قوم بالله ، وثبطهم أزواجهم وأولادهم عن الهجرة ، ولم يهاجروا إلا بعد مدة ، فوجدوا غيرهم قد تفقه في الدين ، فندموا وأسفوا وهموا بمعاقبة أزواجهم وأولادهم ، فنزلت. وقيل : قالوا لهم : أين تذهبون وتدعون بلدكم وعشيرتكم وأموالكم ؟ فغضبوا عليهم وقالوا : لئن جمعنا الله في دار الهجرة لم نصبكم بخير. فلما هاجروا ، منعوهم الخير ، فحبوا أن يعفوا عنهم ويردوا إليهم البر والصلة. ومن في {من أزواجكم وأولادكم} للتبعيض ، وقد توجد زوجة تسر زوجها وتعينه على مقاصده في دينه ودنياه ، وكذلك الولد. وقال الشعب العبسي يمدح ولده رباطا :

إذا كان أولاد الرجال حزازةفأنت الحلال الحلو والبارد العذب

لنا جانب منه دميث وجانبإذا رامه الأعداء مركبه صعب

وتأخذه عند المكارم هزةكما اهتز تحت البارح الغصن الرطب

وقال فرعان بن الأعرف في ابنه منازل ، وكان عاقا له ، قصيدة فيها بعض طول منها :
وربيته حتى إذا ما تركتهأخا القوم واستغنى عن المسح شاربه
فلما رآني أحسب الشخص أشخصابعيدا وذا الشخص البعيد أقاربه
تعمد حقي ظالما ولوى يديلوى يده الله الذي هو غالبه
{إنمآ أموالكم وأولادكم فتنة} : أي بلاء ومحنة ، لأنهم يوقعون في الإثم والعقوبة ، ولا بلاء أعظم منهما. وفي باب العداوة جاء بمن التي تقتضي التبعيض ، وفي الفتنة حكم بها على الأموال والأولاد على بعضها ، وذلك لغلبة الفتنة بهما ، وكفى بالمال فتنة قصة ثعلبة بن حاطب ، أحد من نزل فيه ، ومنهم من عاهد الله : {لان ءاتانا من فضله} الآيات. وقد شاهدنا من ذكر أنه يشغله الكسب والتجارة في أمواله حتى يصلي كثيرا من الصلوات الخمس فائتة. وقد شاهدنا من كان موصوفا عند الناس بالديانة والورع ، فحين لاح له منصب وتولاه ، استناب من يلوذ به من أولاده وأقاربه ، وإن كان بعض من استنابه صغير السن قليل العلم سيىء الطريقة ، ونعوذ بالله من الفتن. وقدمت الأموال على الأولاد لأنها أعظم فتنة ، {كلا إن الانسان ليطغى * أن رءاه استغنى } ،
٢٧٩
شغلتنا أموالنا وأهلونا. {واللہ عندها أجر عظيم} : تزهيد في الدنيا وترغيب في الآخرة. والأجر العظيم : الجنة.
{فاتقوا الله ما استطعتم} ، قال أبو العالية : جهدكم. وقال مجاهد : هو أن يطاع فلا يعصى ، {واسمعوا } ما توعظون به ، {وأطيعوا } فيما أمرتم به ونهيتم عنه ، {وأنفقوا } فيما وجب عليكم. و{خيرا} منصوب بفعل محذوف تقديره : وأتوا خيرا ، أو على إضمار يكن فيكون خبرا ، أو على أنه نعت لمصدر محذوف ، أي إنفاقا خيرا ، أو على أنه حال ، أو على أنه مفعول بوأنفقوا خيرا ، أي مالا ، أقوال ، الأول عن سيبويه.
جزء : ٨ رقم الصفحة : ٢٧٥
ولما أمر بالإنفاق ، أكده بقوله : {إن تقرضوا الله قرضا حسنا} ، ورتب عليه تضعيف القرض وغفران الذنوب. وفي لفظ القرض تلطف في الاستدعاء ، وفي لفظ المضاعفة تأكيد للبذل لوجه الله تعالى. ثم اتبع جوابى الشرط بوصفين : أحدهما عائد إلى المضاعفة ، إذ شكره تعالى مقابل للمضاعفة ، وحلمه مقابل للغفران. قيل : وهذا الحض هو في الزكاة المفروضة ، وقيل ، هو في المندوب إليه. وتقدم الخلاف

في القراءة في {يوق} وفي {شح} وفي {يضاعفه} .
جزء : ٨ رقم الصفحة : ٢٧٥." (١)
"وحكى الطبري أن بعض المفسرين قال معنى " إن كنتم " إذ كنتم
قال الطبري وهذا خطأ
وإن قال قائل ما الحكمة في قول الله تعالى للملائكة " إني جاعل " الآية قيل هذا منه امتحان لهم واختبار ليقع منهم ما وقع ويؤدبهم تعالى من تعليم آدم وتكريمه بما أدب
و "
سبحانك " معناه تنزيها لك وتبرئة أن يعلم أحد من علمك إلا ما علمته و " سبحانك " نصب على المصدر
وقال الكسائي نصبه على أنه منادى مضاف
قال الزهراوي موضع " ما " من قولهم " ما علمتنا " نصب ب " علمتنا " وخبر التبرئة في " لنا " ويحتمل أن يكون موضع " ما " رفعا على أنه بدل من خبر التبرئة كما تقول لا إله إلا الله أي لا إله في
١٢٢
الوجود إلا الله و " أنت " في موضع نصب تأكيد للضمير في " إنك " أو في موضع رفع على الابتداء
و " العليم " خبره والجملة خبر إن أو فاصلة لا موضع لها من الإعراب
و " العليم " معناه العالم ويزيد عليه معنى من المبالغة والتكثير من المعلومات في حق الله عز وجل
و " الحكيم " معناه الحاكم وبينهما مزية المبالغة وقيل معناه المحكم كما قال عمرو بن معد يكرب
(أمن ريحانة الداعي السميع
) " الوافر "
أي المسمع ويجيء " الحكيم " على هذا من صفات الفعل
وقال قوم " الحكيم " المانع من الفساد ومنه حكمة الفرس ما نعته ومنه قول جرير
(أبني حنيفة أحكموا سفهاءكم
إني أخاف عليكم أن أغضبا) " الكامل "
سورة البقرة ٣٣ - ٣٤

(١) تفسير البحر المحيط . (دار الفكر)، ٢٠٩/٨

" أنبئهم " معناه أخبرهم وهو فعل يتعدى إلى مفعولين أحدهما بحرف جر وقد يحذف حرف الجر أحيانا تقول نبئت زيدا

قال سيبويه معناه نبئت عن زيد

والضمير في " أنبئهم " عائد على الملائكة بإجماع والضمير في أسمائهم مختلف فيه حسب الاختلاف في الأسماء التي علمها آدم

قال أبو علي كلهم قرأ أنبئهم بالهمز وضم الهاء إلا ما روي عن ابن عامر أنبئهم بالهمز وكسر الهاء وكذلك روى بعض المكيين عن ابن كثير وذلك على إتباع كسرة الهاء لكسرة الباء وإن حجز الساكن فحجزه لا يعتد به

قال أبو عمرو الداني وقرأ الحسن والأعرج أنبيهم بغير همز

قال ابن جني وقرأ الحسن أنبهم على وزن أعطهم وقد روي عنه انبيهم بغير همز

قال أبو عمرو وقد روي مثل ذلك عن ابن كثير من طريق القواس

قال أبو الفتح أما قراءة الحسن أنبهم كأعطهم فعلى إبدال الهمزة ياء على أنك تقول أنبيت كأعطيت وهذا ضعيف في اللغة لأنه بدل لا تخفيف والبدل عندنا لا يجوز إلا في ضرورة شعر

قال بعض العلماء إن في قوله تعالى " فلما أنبأهم " نبوة لآدم عليه السلام إذ أمره الله أن ينبىء الملائكة بما ليس عندهم من علم الله عز وجل

١٢٣

ويجوز فتح الياء من إني وتسكينها

قال الكسائي رأيت العرب إذا لقيت عندهم الياء همزة فتحوها

." (١)

"أعباء النبوءة فإذا كان هذا التوقف فيه لمحمد وإبراهيم ونوح فغيره أحرى فربط الباب أن التفضيل فيهم على غير تعيين المفضول وقد قال أبو هريرة خير ولد آدم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد وهم أولوا العزم والمكلم موسى صلى الله عليه وسلم

وقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن آدم أنبي مرسل هو فقال نعم نبي مكلم وقد تأول بعض الناس

---

(١) المحرر الوجيز ـ ، ١٠٦/١

أن تكليم آدم كان في الجنة فعلى هذا تبقى خاصة موسى وقوله تعالى " ورفع بعضهم درجات " قال مجاهد وغيره هي إشارة إلى محمد صلى الله عليه وسلم لأنه بعث إلى الناس كافة وأعطي الخمس التي لم يعطها أحد قبله وهو أعظم الناس أمة وختم الله به النبوات إلى غير ذلك من الخلق العظيم الذي أعطاه الله ومن معجزاته وباهر آياته ويحتمل اللفظ أن يراد به محمد وغيره ممن عظمت آياته ويكون الكلام تأكيدا للأول ويحتمل أن يريد رفع إدريس المكان العلي ومراتب الأنبياء في السماء فتكون

٣٣٩

الدرجات في المسافة ويبقى التفضيل مذكورا في صدر الآية فقط وبينات عيسى عليه السلام هي إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص وخلق الطير من الطين وروح القدس جبريل عليه السلام وقد تقدم ما قال العلماء فيه

سورة البقرة ٢٥٣

ظاهر اللفظ في قولهم من بعدهم يعطي أنه أراد القوم الذين جاؤوا من بعد جميع الرسل وليس كذلك المعنى بل المراد ما اقتتل الناس بعد كل نبي فلف الكلام لفا يفهمه السامع وهذا كما تقول اشتريت خيلا ثم بعتها فجائزة لك هذه العبارة وأنت اشتريت فرسا ثم بعته ثم آخر وبعته ثم آخر وبعته وكذلك هذه النوازل إنما اختلف الناس بعد كل نبي فمنهم من آمن ومنهم من كفر بغيا وحسدا وعلى حطام الدنيا وذلك كله بقضاء وقدر وإرادة من الله تعالى ولو شاء خلاف ذلك لكان

ولكنه المستأثر بسر **الحكمة في** ذلك

الفعال لما يريد فاقتتلوا بأن قاتل المؤمنون الكافرين على مر الدهر

وذلك هو دفع الله الناس بعضهم ببعض

سورة البقرة ٢٥٤

". (١)

"يؤته الحكمة وقرأ الربيع بن خيثم تؤتي **الحكمة من** تشاء بالتاء في تؤتي وتشاء منقوطة من فوق ومن يؤت الحكمة بالياء وباقي الآية تذكرة بينة وإقامة لهمم الغفلة والألباب العقول واحدها لب

سورة البقرة ٢٧٠ - ٢٧١

---

(١) المحرر الوجيز ـ، ١/٣٣٢

كانت النذر من سيرة العرب تكثر منها فذكر تعالى ا زكلنوعين ما يفعله المرء متبرعا وما يفعله بعد إلزامه لنفسه ويقال نذر الرجل كذا إذا التزم فعله ينذر بضم الذال وينذر بكسرها وقوله تعالى " فإن الله يعلمه " قال مجاهد معناه يحصيه وفي الآية وعد ووعيد أي من كان خالص النية فهو مثاب ومن أنفق رئاء أو لمعنى آخر مما يكشفه المن والأذى ونحو ذلك فهو ظالم يذهب فعله باطلا ولا يجد ناصرا فيه ووحد الضمير في " يعلمه " وقد ذكر شيئين من حيث أراد ما ذكر أو نص وقوله تعالى " إن تبدوا الصدقات " الآية ذهب جمهور المفسرين إلى أن هذه الآية هي في صدقة التطوع قال ابن عباس جعل الله صدقة السر في الـتطوع تفضل علانيتها يقال بسبعين ضعفا وجعل صدقة الفريضة علانيتها أفضل من سرها يقال بخمسة وعشرين ضعفا قال وكذلك جميع الفرائض والنوافل في الأشياء كلها

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه ويقوي ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم (صلاة الرجل في بيته أفضل من صلاته في المسجد إلا المكتوبة وذلك أن الفرائض لا يدخلها رياء والنوافل عرضة لذلك) وقال سفيان الثوري هذه الآية في التطوع وقال يزيد بن أبي حبيب إنما أنزلت هذه الآية في الصدقة على اليهود والنصارى وكان يأمر بقسم الزكاة في السر وهذا مردود لا سيما عند السلف الصالح فقد قال الطبري أجمع الناس على أن إظهار الواجب أفضل قال المهدوي وقيل المراد بالآية فرض الزكاة وما تطوع به فكان الإخفاء فيهما أفضل في مدة النبي صلى الله عليه وسلم ثم ساءت ظنون الناس بعد ذلك فاستحسن العلماء إظهار الفرض لئلا يظن بأحد المنع قال أبو محمد وهذا القول مخالف للآثار ويشبه في زمننا أن يحسن التستر

بصدقة الفرض فقد كثر المانع لها وصار إخراجها عرضة للرياء وقال النقاش إن هذه الآية نسخها قوله تعالى " الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية " البقرة ٢٧٤ وقوله " فنعما هي " ثناء على إبداء الصدقة ثم حكم أن الإخفاء خير من ذلك الإبداء واختلف القراء في قوله " فنعما هي " فقرأ نافع في غير رواية ورش وأبو عمرو وعاصم في رواية أبي بكر والمفضل فنعما بكسر النون وسكون فنعما بكسر النون والعين وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي فنعما بفتح النون وكسر العين وكلهم شدد الميم قال أبو علي من قرأ بسكون العين لم يستقم قوله لأنه جمع بين ساكنين الأول منهما ليس بحرف مد ولين وإنما يجوز ذلك عند النحويين إذا كان الأول حرف

٣٦٦
." (١)

"وقوله تعالى " فأما الذين كفروا " الآية إخبار بما يجعل عليه حالهم من أول أمرهم وليس بإخبار عما يفعل بعد يوم القيامة لأنه قد ذكر الدنيا وهي قبل وإنما المعنى فأما الكافرون فالصنع بهم أنهم يعذبون " عذابا شديدا في الدنيا " بالأسر والقتل والجزية والذل ولم ينله منهم فهو تحت خوفه إذ يعلم أن شرع الإسلام طالب له بذلك وقد أبرز الوجود هذا وفي " الآخرة " معناه بعذاب النار ثم ذكر قسم الإيمان وقرن به الأعمال الصالحات تنبيها على درجة الكمال ودعاء إليها وقرأ حفص عن عاصم فيوفيهم بالياء على الغيبة والفعل مسند إلى الله تعالى وقرأ الباقون وأبو بكر عن عاصم فنوفيهم بالنون وهي نون العظمة وتوفية
الأجور هي قسم المنازل في الجنة فذلك هو بحسب الأعمال وأما نفس دخول الجنة فبرحمة الله وبفضله وتقدم نظير قوله " والله لا يحب الظالمين " في قوله قبل " فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين " آل ع،ران
٣٢

سورة آل عمران ٥٨ - ٦١

" ذلك " رفع بالابتداء والإشارة به إلى ما تقدم من الأنباء و " نتلوه عليك " خبر ابتداء وقوله " من الآيات " لبيان الجنس ويجوز أن تكون للتبعيض ويصح أن يكون " نتلوه عليك " حالا ويكون الخبر في
٤٤٦
قوله " من الآيات " وعلى قول الكوفيين يكون قوله " نتلوه " صلة لذلك على حد قولهم في بيت ابن مفرغ الحميري

(وهذا تحملين طليق
)

ويكون الخبر في قوله " من الآيات " وقول البصريين في البيت أن تحملين حال التقدير وهذا محمولا و " نتلوه " معناه نسرده و " من الآيات " ظاهره آيات القرآن ويحتمل أن يريد بقوله " من الآيات " من المعجزات والمستغربات أن تأتيهم بهذه الغيوب من قبلنا وبسبب تلاوتنا وأنت أمي لا تقرأ ولست ممن أصحب أهل الكتاب فالمعنى أنها آيات لنبوتك وهذا الاحتمال إنما يتمكن مع كون " نتلوه " حالا و "

---

(١) المحرر الوجيز . ، ٣٦٢/١

الذكر " ما ينزل من عند الله و " الحكيم " يجوز أن يتأول بمعنى المحكم فهو فعيل بمعنى مفعول ويصح أن يتأول بمعنى مصرح بالحكمة فيكون بناء اسم الفاعل قال ابن عباس " الذكر " القرآن و " الحكيم " الذي قد كمل في حكمته

وذكر ابن عباس وقتادة وعكرمة والسدي وغيرهم قالوا سبب نزول قوله تعالى " إن مثل عيسى " الآية أن وفد نصارى نجران جادلوا النبي صلى الله عليه وسلم في أمر عيسى وقالوا بلغنا أنك تشتم صاحبنا وتقول هو عبد فقال النبي صلى الله عليه وسلم (وما يضر ذلك عيسى أجل هو عبد الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فقالوا فهل رأيت بشرا قط جاء من غير فحل أو سمعت به) وخرجوا من عند النبي فأنزل الله عليه هذه الآية

(١) ".

"ولكن أكثرهم لا يعلمون " أن الله تعالى إنما جعل المصلحة في آيات معرضة للنظر والتأمل ليهتدي قوم ويضل آخرون وقوله تعالى " وما من دابة " الآية المعنى في هذه الآية التنبيه على آيات الله الموجودة في أنواع مخلوقاته أي قل لهم إن الله قادر على أن ينزل آية إلا أنكم لا تعلمون وجه الحكمة في أن لا ينزل آية مجهزة وإنما يحيل على الآيات المنصوبة لمن فكر واعتبر كالدواب والطير التي قد حصرت جميع الحيوان وهي أمم أي جماعات مماثلة للناس في الخلق والرزق والحياة والموت والحشر ويحتمل أن يريد بالمماثلة أنها في كونها أمما لا غير كما تريد بقولك مررت برجل مثلك أي في رجل ويصح في غير ذلك من الأوصاف إلا أن الفائدة في هذه الآية إنما تقع بأن تكون المماثلة في أوصاف غير كونها أمما قال الطبري وغيره والمماثلة في أنها يهتبل بأعمالها وتحاسب ويقتص لبعضها من بعض على ما روي في الأحاديث أي فإذا كان يفعل هذا بالبهائم فأنتم أحرى إذ أنتم مكلفون عقلاء وروى أبو ذر أنه انتطحت عنزان بحضرة النبي صلى الله عليه وسلم فقال أتعلمون فيم انتطحتا قلنا لا قال فإن الله يعلم وسيقضي بينهما وقد قال مكي في المماثلة في أنها تعرف الله تعالى وتعبده وهذا قول خلف و " دابة " وزنها فاعلة وهي صفة وضعت موضع الاسم كما قالوا الأعرج والأبرق وأزيل منه معنى الصفة وليست بالصفة الغالبة في قولنا العباس

٢٩٠

(١) المحرر الوجيز ـ ، ١/٤٥٩

والحارث لأن معنى الصفة باق في الصفة الغالبة وقرأت طائفة ولا طائر عطفا على اللفظ وقرأ إبراهيم بن أبي عبلة ولا طائر بالرفع عطفا على المعنى وقرأت فرقة ولا طير وهو جمع طائر وقوله " بجناحيه " تأكيد وبيان وإزالة للاستعارة المتعاهدة في هذه اللفظة فقد يقال طائر السعد والنحس

وقوله تعالى " ألزمناه طائره في عنقه " أي عمله ويقال طار لفلان طائر كذا أي سهمه في المقتسمات فقوله تعالى " بجناحيه " إخراج للطائر عن هذا كله وقرأ علقمة وابن هرمز فرطنا في الكتاب بتخفيف الراء والمعنى واحد وقال النقاش معنى فرطنا مخففة أخرنا كما قالوا فرط الله عنك المرض أي أزاله والأول أصوب والتفريط التقصير في الشيء مع القدرة على ترك التقصير والكتاب القرآن وهو الذي يقتضيه نظام المعنى في هذه الآيات وقيل اللوح المحفوظ ومن شيء على هذا القول عام في جميع الأشياء وعلى القول بأنه قرآن خاص في الأشياء التي فيها منافع للمخاطبين وطرائق هدايتهم و " يحشرون " قالت فرقة حشر البهائم موتها وقالت فرقة حشرها بعثها واحتجوا بالأحاديث المضمنة أن الله تعالى يقتص للجماء من القرناء إنما هي كناية عن العدل وليست بحقيقة فهو قول مردود ينحو إلى القول بالرموز ونحوها

قوله عز وجل

سورة الأنعام ٣٩ ٤٠ ٤١

." (١)

"وغيرهما وقال ابن عباس " تأويله " مآله يوم القيامة وقال السدي ذلك في الدنيا وقعة بدر وغيرها ويوم القيامة أيضا والمراد هل ينتظر هؤلاء الكفار إلا مآل الحال في هذا الدين وما دعوا إليه وما صدوهم عنه وهم يعتقدون مآله جميلا لهم فأخبر الله عز وجل أن مآله يوم يأتي يقع معه ندمهم ويقولون تأسفا على ما فاتهم من الإيمان لقد صدقت الرسل وجاءوا بالحق فالتأويل على هذا مأخوذ من آل يؤول وقال الخطابي أولت الشيء رددته إلى أوله فاللفظة مأخوذة من الأول حكاه النقاش

قال القاضي أبو محمد وقد قيل أولت معناه طلبت أول الوجوه والمعاني و " نسوه " في الآية يحسن أن يكون النسيان من أول الآية بمعنى الترك ويقرون بالحق ويستفهمون عن وجوه الخلاص في وقت لا مستعتب لهم فيه وقرأت فرقة أو نرد برفع الفعل على تقدير أو هل نرد وبنصب فنعمل في جواب هذا الاستفهام الأخير وقرأ الحسن بن أبي الحسن أو نرد فنعمل بالرفع فيهما على عطف فنعمل وقرأ ابن أبي إسحاق وأبو حيوة

---

(١) المحرر الوجيز . ، ٣٤١/٢

أو نرد فنعمل ونصب نرد في هذه القراءة إما على العطف على قوله " فيشفعوا " وإما بما حكاه الفراء من أن أو تكون بمعنى حتى كنحو قول امرىء القيس

(أو نموت فنعذرا

)

ويجيء المعنى أن الشفاعة تكون في أن يردوا ثم أخبر تعالى عن خسارتهم أنفسهم واضمحلال افترائهم على الله وكذبهم في جعل الأصنام آلهة

وقوله تعالى " إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام " الآية خطاب عام يقتضي التوحيد والحجة عليه بدلائله والرب أصله في اللغة المصلح من رب يرب وهو يجمع في جهة ذكر الله تعالى المالك والسيد وغير ذلك من استعمالات العرب ولا يقال الرب معرفا إلا لله وإنما يقال في البشر بإضافة وروى بكار بن الشقير إن ربكم الله بنصب الهاء وقوله " في ستة أيام " حكى الطبري عن مجاهد أن اليوم كألف سنة وهذا كله والساعة اليسيرة سواء في قدرة الله تعالى وأما وجه الحكمة في ذلك فمما انفرد الله عز وجل بعلمه كسائر أحوال الشرائع وما ذهب إليه من أراد أن يوجه هذا كالمهدوي وغيره تخرص وجاء في التفسير وفي الأحاديث أن الله ابتدأ الخلق يوم الأحد وكملت المخلوقات يوم الجمعة ثم بقي دون خلق يوم السبت ومن ذلك اختارته اليهود لراحتها وعلى هذا توالت تفاسير الطبري وغيره ولليهود لعنهم الله في هذا كلام سوء تعالى الله عما يصفون

". (١)

"هذه مخاطبة للمؤمنين أعلم الله بها أن القتلة من المؤمنين ليس هم مستبدين بالقتل لأن القتل بالإقدار عليه والخلق والاختراع في جميع حالات القاتل إنما هي لله تعالى ليس للقاتل فيها شيء وإنما يشاركه بتكسبه وقصده وهذه الألفاظ ترد على من يقول بأن أفعال العباد خلق لهم وسبب هذه الآية فيما روي عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لما صدروا عن بدر ذكر كل واحد منهم ما فعل فقال قتلت كذا وفعلت كذا فجاء من ذلك تفاخر ونحو ذلك فنزلت الآية وقوله " وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى " يراد به ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم فعله يومئذ وذلك أنه أخذ قبضات من حصى وتراب فرمى بها في وجوه القوم وتلقاهم ثلاث مرات فانهزموا عند آخر رمية ويروى أنه قال يوم بدر شاهت الوجوه

---

(١) المحرر الوجيز ـ ، ٢/٤٧٤

وهذه الفعلة أيضا كانت يوم حنين بلا خلاف وروي أن التراب الذي رمى به لم يبق كافر إلا دخل في عينيه منه شيء وروي أنه رمى بثلاثة أحجار فكانت الهزيمة مع الحجر الثالث
قال القاضي أبو محمد فيحتمل قوله تعالى " وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى " ما قلناه في قوله " فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم " وذلك منصوص في الطبري وغيره وهو خارج في كلام العرب على معنى وما رميت الرمي الكافي إذ رميت ونحوه قول العباس بن مرداس
(فلم أعط شيئا ولم أمنع
) " المتقارب "
أي لن أعط شيئا مرضيا ويحتمل أن يريد وما رميت الرعب في قلوبهم إذ رميت حصياتك ولكن الله رماه وهذا أيضا منصوص في المهدوي وغيره ويحتمل أن يريد وما أغنيت إذ رميت حصياتك ولكن الله رمى أي أعانك وأظفرك والعرب تقول في الدعاء رمى الله لك أي أعانك وصنع لك
وحكى هذا أبو عبيدة في كتاب المجاز وقرأت فرقة ولكن الله رمى بتشديد النون وفرقة ولكن الله بتخفيفها ورفع الهاء من الله " وليبلي " أي ليصيبهم ببلاء حسن فظاهر وصفه بالحسن يقتضي أنه أراد الغنيمة والظفر والعزة وقيل أراد
الشهادة لمن استشهد يوم بدر وهم أربعة عشر رجلا منهم عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب ومهجع مولى عمر ومعاذ وعمرو ابنا عفراء وغيرهم " إن الله سميع " لاستغاثتكم " عليم " بوجه الحكمة في جميع أفعاله لا إله إلا هو وحكى الطبري أن المراد بقوله " وما رميت إذ رميت " رمي رسول الله صلى الله عليه وسلم الحربة على أبي بن خلف يوم أحد
". (١)

"ومن هذه اللفظة قول النبي صلى الله عليه وسلم في صفة جهنم حتى يضع الجبار فيها قدمه فتقول قط قط أي ما قدم لها من خلقه هذا على أن الجبار اسم الله تعالى ومن جعله اسم جنس كأنه أراد الجبارين من بني آدم فالقدم على هذا التأويل الجارحة والصدق في هذه الآية بمعنى الصلاح كما تقول رجل صدق ورجل سوء وقوله " قال الكافرون " يحتمل أن يكون تفسير لقوه أكان وحينا إلى بشر عجبا قال الكافرون عنه كذا وكذا وذهب الطبري إلى إن في الكلام حذفا يدل الظاهر عليه تقديره فلما أنذر وبشر قال الكافرون

---

(١) المحرر الوجيز ـ ، ٢/٥٨٥

كذا وكذا وقرأ جمهور الناس وهي قراءة نافع وأبي عمرو وابن عامر إن هذا لسحر مبين وقرأ مسروق بن الأجدع وابن جبير والباقون من السبعة وابن مسعود وأبو رزين ومجاهد وابن وثاب وطلحة والأعمش وعيسى بن عمر بخلاف وابن محيصن وابن كثير بخلاف عنه إن هذا لساحر والمعنى
متقارب وفي مصحف أبي قال الكافرون ما هذا إلا سحر مبين وقولهم في الإنذار والبشارة سحر إنما هو بسبب أنه فرق بذلك كلمتهم وحال بين القريب وقريبه فأشبه ذلك ما يفعله الساحر فظنوه من ذلك الباب
.

قوله عز وجل

يونس ٣ - ٤

١٠٤

هذا ابتداء دعاء إلى عبادة الله عز وجل وإعلام بصفاته والخطاب بها لجميع الناس و " خلق السماوات والأرض " هو على ما تقرر أن الله عز وجل خلق الأرض " ثم استوى " إلى السماء وهي دخان فخلقها ثم دحا الأرض بعد ذلك وقوله " في ستة أيام " قيل هي من أيام الآخرة وقال الجمهور وهو الصواب بل من أيام الدنيا .
قال القاضي أبو محمد وذلك في التقدير لأن الشمس وجريها لم يتقدم حينئذ وقول النبي صلى الله عليه وسلم في خلق الله المخلوقات إن الله ابتدأ يوم الأحد كذا ويوم كذا كذا إنما هو على أن نقدر ذلك الزمان ونعكس إليه التجربة من حين ابتدأ ترتيب اليوم والليلة والمشهور أن الله ابتدأ بالخلق يوم الأحد ووقع في بعض الأحاديث في كتاب مسلم وفي الدلائل أن البداءة وقعت يوم السبت وذكر بعض الناس أن الحكمة في خلق الله تعالى هذه الأشياء في مدة محدودة ممتدة وفي القدرة أن يقول كن فيكون إنما هو ليعلم عباده التؤدة والتماهل في الأمور .
قال القاضي أبو محمد وهذا مما لا يوصل تعليله وعلى هذا هي الأجنة في البطون وخلق الثمار وغير ذلك والله عز وجل قد جعل لكل شيء قدرا وهو أعلم بوجه الحكمة في ذلك وقوله " ثم استوى على العرش " قد تقدم القول فيه في " المص " وقوله " يدبر الأمر " يصح أن يريد ب " الأمر " اسم الجنس من الأمور ويحتمل أن يريد " الأمر " الذي هو مصدر أمر يأمر وتدبيره لا إله إلا هو إنما هو الإنفاذ لأنه قد أحاط

بكل شيء علما .

". (١)

"هذه الآية فيها إنابة نوح وتسليمه لأمر الله تعالى واستغفاره بالسؤال الذي وقع النهي عليه والإستعاذة والإستغفار منه هو سؤال العزم الذي معه محاجة وطلبة ملحة فيما قد حجب وجه الحكمة فيه وأما السؤال في الأمور على جهة التعلم والاسترشاد فغير داخل في هذا .

وظاهر قوله " فلا تسألن ما ليس لك به علم " يعم

النحويين من السؤال فلذلك نبهت على أن المراد أحدهما دون الآخر والخاسرون هم المغبونون حظوظهم من الخير وقوله تعالى " قيل

١٧٩

كان هذا عند نزوله من السفينة مع أصحابه للانتشار في الأرض والسلام عنا السلامة والأمن ونحوه والبركات الخير والنمو في كل الجهات وهذه العدة تعم جميع المؤمنين إلى يوم القيامة قال محمد بن كعب القرظي وقوله " ممن معك " أي من ذرية من معك ومن مسلهم ف " من " على هذا هي لابتداء الغاية أي من هؤلاء تكون هذه الأمم و " من " موصولة وصلتها " معك " وما بتقدر معها نحو ةولك ممن استقر معك ونحوه ثم قطع قوله " وأمم " على وجه الابتداء إذ كان أمرهم مقطوعا من الأمر الأول وهؤلاء هم الكفار إلى يوم القيامة .

وقوله تعالى " تلك من أنباء الغيب " الآية إشارة إلى القصة أي هذه من الغيوب التي تقادم عهدها ولم يبق علمها إلا عند الله تعالى ولم يكن علمها أو علم أشباهه عندك ولا عند قومك ونحن نوحيها إليك لتكون لك هداية وأسوة فيما لقيه غيرك من الأنبياء وتكون لقومك مثالا وتحذيرا لئلا يصيبهم إذا كذبوك مثل ما أصاب هؤلاء وغيرهم من الأمور المعذبة .

قال القاضي أبو محمد وعلى هذا المعنى ظهرت فصاحة قوله " فاصبر إن العاقبة للمتقين " أي فاجتهد في التبليغ وجد في الرسالة واصبر على الشدائد واعلم أن العاقبة لك كما كانت لنوح في هذه القصة .

وفي مصحف ابن مسعود من قبل هذا القرآن .

قوله عز وجل

---

(١) المحرر الوجيز ، ٣/١١٧

" وإلى عاد " عطف على قوله " إلى قومه " في قصة نوح و " عاد " قبيلة وكانت عربا فيما ذكر وهود عليه السلام منهم وجعله " أخاهم " بحسب النسب والقرابة فإن فرضناه ليس منهم فالأخوة بحسب المنشأ واللسان والجيرة .

وأما قول من قال هي أخوة بحسب النسب الآدمي فضعيف .

وقرأ جمهور الناس يا قوم بكسر الميم وقرأ ابن محيصن يا قوم برفع الميم وهي لغة حكاها سيبويه وقرأ جمهور الناس غيره بالرفع على النعت أو البدل من موضع قوله " من إله " .

وقرأ الكسائي وحده بكسر الراء حملا على لفظ " إله " وذلك أيضا على النعت أو البدل ويجوز غيره نصبا على الإستثناء .

." (١)

"والتاء على هذه اللغات كلها مبنية فهي في حال الرفع كقبل وبعد وفي الكسر على الباب لالتقاء الساكنين وفي حال النصب ككيف ونحوها قال أبو عبيدة و " هيت " لا تثنى ولا تجمع تقول العرب " هيت لك " وهيت لكما وهيت لكم .

وقرأ هشام ابن عامر هئت بكسر الهاء والهمز ضم التاء وهي قراءة علي بن أبي طالب وأبي وائل وأبي رجاء ويحيى ورويت عن أبي عمرو وهذا يحتمل أن يكون من هاء الرجل يهيء إذا أحسن هيئته على مثال جاء يجيء ويحتمل أن يكون بمعنى تهيأت كما يقال فئت وتفيأت بمعنى واحد قال الله عز وجل " يتفيؤا ظلاله " وقال " حتى تفيء إلى أمر الله " .

وقرأ ابن أبي إسحاق أيضا هيت بتسهيل الهمزة من هذه القراءة المتقدمة .

وقرأ ابن عباس أيضا هيت لك .

وقرأ الحلواني عن هشام هئت بكسر الهاء والهمز وفتح التاء قال أبو علي ظاهر أن هذه القراءة وهم لأنه كان ينبغي أن تقول هئت لي وسياق الآيات يخالف هذا .

وحكى النحاس أنه يقرأ هيت بكسر الهاء وسكون الياء وكسر التاء .

و " معاذ " نصب على المصدر ومعنى الكلام أعوذ بالله .

---

(١) المحرر الوجيز . ، ١٩٤/٣

ثم قال " إنه ربي " فيحتمل أن يعود الضمير في " إنه " على الله عز وجل ويحتمل أن يريد العزيز سيده أي فلا يصلح لي أن أخونه وقد أكرم مثواي وائتمنني قال مجاهد والسدي " ربي " معناه سيدي وقاله ابن إسحاق .

قال القاضي أبو محمد وإذا حفظ الآدمي لإحسانه فهو عمل زاك وأحرى أن يحفظ ربه .

ويحتمل أن يكون الضمير للأمر والشأن ثم يبتدئ " ربي أحسن مثواي " .

والضمير في قوله " إنه لا يفلح " مراد به الأمر والشأن فقط وحكى بعض المفسرين أن يوسف عليه الصلاة والسلام لما قال معاذ الله ثم دافع الأمر باحتجاج وملاينة امتحنه

الله تعالى بالهم بما هم به ولو قال لا حول ولا قوة إلا بالله ودافع بعنف وتغيير لم يهم بشيء من المكروه .

وقرأ الجحدري مثواي وقرأها كذلك أبو طفيل وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم فمن تبع هداي .

وقوله " ولقد همت به " الآية لا شك أن هم زليخا كان في أن يواقعها يوسف واختلف في هم يوسف عليه السلام فقال الطبري قالت فرقة كان مثل همها واختلفوا كيف يقع من مثل يوسف وهو نبي فقيل ذلك ليريه الله تعالى موقع العفو والكفاية وقيل **الحكمة في** ذلك أن يكون مثالا للمذنبين

٢٣٤

ليروا أن توبتهم ترجع بهم إلى عفو الله كما رجعت بمن هو خير منهم ولم يوبقه القرب من الذنب وهذا كله على أن هم يوسف بلغ فيما روت هذه الفرقة إلى أن جلس بين رجلي زليخا وأخذ في حل ثيابه وتكته ونحو هذا وهي قد استقلت له قاله ابن عباس وجماعة من السلف .

". (١)

"والإمام في كلام العرب الشيء الذي يهتدي به ويؤتم يقولونه لخيط البناء وقد يكون الطريق وقد يكون الكتاب المفيد وقد يكون القياس الذي يعمل عليه الصناع وقد يكون الرجل المقتدى به ونحو هذا ومن رأى عود الضمير في " إنهما " على المدينتين قال الإمام الطريق وقيل على ذلك الإمام الكتاب الذي سبق فيه إهلاكهما و " أصحاب الحجر " هو ثمود وقد تقدم قصصهم و " الحجر " مدينتهم وهي ما بين المدينة وتبوك وقال " المرسلين " من حيث يجب بتكذيب رسول واحد تكذيب الجميع إذ القول في

---

(١) المحرر الوجيز ـ ، ٣/٢٤٤

المعتقدات واحد للرسل أجمع فهذه العبارة أشنع على المكذبين والآية التي آتاهم الله هي الناقة وما اشتملت عليه من خرق العادة حسبما تقدم تفسيره وبسطه وقرأ أبو حيوة وآتيناهم مفردة وقوله تعالى " وكانوا ينحتون " الآية يصف قوم صالح بشدة النظر للدنيا والتكسب منها فذكر من ذلك مثالا أن بيوتهم كانوا ينحتونها في حجر الجبال والنحت النقر بالمعاول ونحوها في الحجارة والعود ونحوه وقرأ جمهور الناس ينحتون بكسر الحاء وقرأ الحسن ينحتون بفتحها وذلك لأجل حرف الحلق وهي قراءة أبي حيوة وقوله " آمنين " قيل معناه من انهدامها وقيل من حوادث الدنيا وقيل من الموت لاغترارهم بطول الأعمال .

قال القاضي أبو محمد وهذا كله ضعيف وأصح ما يظهر في ذلك أنهم كانوا يأمنون عواقب الآخرة ٣فكانوا لا يعملون بحسبها بل كانوا يعملون بحسب الأمن منها ومعنى " مصبحين " أي عند دخولهم في الصباح وذكر أن ذلك كان يوم سبت وقد تقدم قصص عذابهم وميعادهم وتغير ألوانهم ولم تغن عنهم شدة نظرهم للدنيا وتكسبهم شيئا ولا دفع عذاب الله و " ما

" الأولى تحتمل النفي وتحتمل التقرير والثانية مصدرية وقوله تعالى " وما خلقنا السماوات والأرض " الآية المراد أن هؤلاء المكتسبين للدنيا الذين لم يغن عنهم اكتسابهم ليسوا في شيء فإن السماوات والأرض وجميع الأشياء لم تخلق عبثا ولا سدى ولا لتكون طاعة الله كما فعل هؤلاء ونظراؤهم وإنما خلقت بالحق ولواجب مراد وأغراض لها نهايات من عذاب أو تنعيم " وإن الساعة لآتية " على جميع أمور الدنيا أي فلا تهتم يا محمد بأعمال قومك فإن الجزاء لهم بالمرصاد " فاصفح " عن أعمالهم أي ولها صفحة عنقك بالإعراض عنها وأكد الصفح بنعت الجمال إذ المراد منه أن يكون لا عتب فيه ولا تعرض . وهذه الآية تقتضي مداهنة ونسخها في آية السيف قاله قتادة ثم تلاه في آخر الآية بأن الله تعالى يخلق من شاء لما شاء ويعلم تعالى وجه الحكمة في ذلك لا هذه الأوثان التي يعبدونها وقرا جمهور الناس الخلاق وقرأ الأعمش والجحدري الخالق .

قوله عز وجل

سورة الحجر ٨٧ - ٩٣

٣٧٣

". (١)

---

(١) المحرر الوجيز ـ ، ٣/٣٦٩

"هذه مخاطبة المستنزل المبالغ في حسن الأدب المعنى هل يتفق لك ويخف عليك وهذا كما في الحديث هل تستطيع أن تريني كيف كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتوضأ وعلى بعض التأويلات يجيء كذلك قوله " هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة " وقرأ ابن كثير ونافع وعاصم رشدا بضم الراء والشين وقرأ أبو عمرو رشدا بفتح الراء والشين ونصبه على وجهين أحدهما أن يكون مفعولا ثانيا ب " تعلمني " والآخر أن يكون حالا من الضمير في قوله " أتبعك " ثم قال الخضر " إنك لن تستطيع معي صبرا " أي إنك يا موسى لا تطيق أن تصبر على ما تراه من عملي لأن الظواهر التي علمك لا تعطيه " وكيف تصبر على " ما تراه خطأ ولم تخبر بوجه الحكمة فيه ولا طريق الصواب فقرب له موسى الأمر بوعده أنه سيجده ثم استثنى حين حكم على نفسه بأمر فقوى الخضر وصاته وأمره بالإمساك عن السؤال والإكنان لما يراه حتى يبتدئه الخضر لشرح ما يجب شرحه وقرأ نافع فلا تسألني بفتح اللام وتشديد النون وإثبات الياء وقرأ ابن عامر كذلك إلا أنه حذف الباء فقال تسألن وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم وحمزة والكسائي تسألني بسكون اللام وثبوت الياء وقرأ الجمهور خبرا بسكون الباء

وقرأ الأعرج خبرا بضمها وقوله " فانطلقا " روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنهما انطلقا ماشيين على سيف البحر حتى مرت بهما سفينة فعرف الخضر فحملا بغير قول إلى مقصد أمه الخضر وعرفت " السفينة " بالألف واللام تعريف الجنس لا لعهد عينها فلما ركبا عمد الخضر إلى وتد فجعل يضرب في جنب السفينة حتى قلع به فيما روي لوحين من ألواحها فذلك هو معنى " خرقها " فلما

٥٣١

رأى ذلك موسى غلبه ظاهر الأمر على الكلام حين رأى فعلا يؤدي إلى غرقة جميع من في السفينة فوقفه بقوله " أخرقتها " وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر وعاصم لتغرق أهلها بالتاء وقرأ أبو رجاء لتغرق بشد الراء وفتح الغين وقرأ حمزة والكسائي ليغرق أهلها برفع الأهل وإسناد الفعل إليهم والإمر الشنيع من الأمور كالداهية والإد ونحوه ومنه أمر إمر ابن أبي كبشة ومنه أمر القوم إذ كثروا وقال مجاهد (الإمر) المنكر .

(١) ".

(١) المحرر الوجيز . ، ٥٥٨/٣

"قال مجاهد وابن زيد الإشارة بهذه الآية إلى المنافقين عبد الله بن أبي ومن أشبهه وهي خاصة في أمر عائشة رضي الله عنها ع فحبهم شياع " الفاحشة " في المؤمنين متمكن على وجهه لعداوتهم في أهل الإيمان وعذابهم الأليم " في الدنيا " الحدود وفي " الآخرة " النار وقالت فرقة وقولها الأظهر الآية عامة في كل قاذف منافقا كان أو مؤمنا ع فالقاذف المؤمن لا يتصف بحب شياع " الفاحشة " في المؤمنين
١٧٢
جملة لكنه يحبها لمقذوفه وكذلك آخر لمقذوفه وآخر حتى " تشيع الفاحشة " من مجموع فعلهم فهم لها محبون بهذا الوجه من حيث أحب كل واحد جزءا من شياعها والعذاب الأليم " في الدنيا " الحدود وفي " الآخرة " يحتمل وجهين أحدهما أن يكون القاذف متوعدا من بين العصاة بعذاب الآخرة لا يزيله الحد حسب مقتضى حديث عبادة بن الصامت ويكون أمره كأمر المحاربين إذا صلبوا لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب والوجه الثاني أن يحكم بأن الحد مسقط عذاب الآخرة حسب حديث عبادة بن الصامت وأن قوله " والآخرة " لا يريد به عموم القذفة بل يريد إما المنافقين وإما من لم يتب وقال الطبري معناه إن مات مصرا غير تائب وقوله " والله يعلم " معناه البريء من المذنب وسائر الأمور وحجة الحكمة في ستركم والتغليظ في الوعيد والعذاب على قاذفيكم وقوله " ولولا فضل الله " الآية جواب " لولا " محذوف لدلالة الكلام عليه تقديره لفضحكم بذنوبكم ولعذبكم فيما أفضتم فيه من قول الباطل والبهتان .
قوله عز وجل
سورة النور الآية ٢١
هذا الخطاب عام لجميع المؤمنين و " خطوات " جمع خطوة وهي ما بين القدمين في المشي فكأن المعنى لا تمشوا في سبله وطرقه من الأفعال الخبيثة وقال منذر بن سعيد يجوز أن يكون " خطوات " جمع خطأ من الخبيثة وسهلت الهمزة فنطق بها " خطوات " وقرأ بضم الطاء من خطوات الجمهور وقرأ بسكونها عاصم والأعمش وقرأ الجمهور ما زكى بتخفيف الكاف أي ما اهتدى ولا أسلم ولا عرف رشدا وقرأ أبو حيوة والحسن زكى بشد الكاف أي تزكيته لكم وتطهيره وهدايته إنما هي بفضله لا بأعمالكم وتحرزكم من المعاصي ثم ذكر تعالى أنه " يزكي من يشاء " ممن سبقت له السعادة وكان عمله الصالح أمارة على سبق السعادة له ثم أخبر بأنه " سميع " لجميع أقوالهم وكلامهم من قذف وغيره " عليم " بحق ذلك من باطله لا يجوز عليه في ذلك وهم ولا غلط .

قوله عز وجل

سورة النور الآية ٢٢

المشهور

" (١).

"" ألم تر " تنبيه والرؤية رؤية الفكر قال سيبويه كأنه قال انتبه الله يسبح له من في السماوات والتسبيح هنا التعظيم والتنزيه فهو من العقلاء بالنطق وبالصلاة من كل ذي دين واختلف في تسبيح " الطير " وغير ذلك مما قد ورد الكتاب بتسبيحه فالجمهور على أنه تسبيح حقيقي وقال الحسن وغيره هو لفظ تجوز وإنما تسبيحه بظهور **الحكمة فيه** فهو لذلك يدعو إلى التسبيح وقال المفسرون قوله " من في السماوات والأرض " عامة لكل شيء من له عقل وسائر الجمادات لكنه لما اجتمع ذلك عبر عنه ب " من " تغليبا لحكم من يعقل و " صافات " معناه مصطفة في الهواء وقرأ الأعرج والطير بنصب الراء وقرأ الحسن والطير صافات مرفوعتان وقوله " كل قد علم صلاته وتسبيحه " قال الحسن المعنى

١٨٩

كل قد علم صلاة نفسه وتسبيح نفسه فهو يثابر عليها قال مجاهد الصلاة للبشر والتسبيح لما عداهم وقالت فرقة المعنى كل قد علم صلاة الله وتسبيح الله اللذين أمر بهما وهدى إليهما فهذه إضافة خلق إلى خالق وقال الزجاج وغيره المعنى " كل قد علم " الله " صلاته وتسبيحه " فالضميران للكل وقرأت فرقة علم صلاته وتسبيحه بالرفع وبناء الفعل للمفعول الذي لم يسم فاعله ذكرها أبو حاتم وقرأ الجمهور يفعلون بالياء على معنى المبالغة في وصف قدرة الله وعلمه بخلقه وقرأ عيسى والحسن تفعلون بالتاء من فوق ففيه المعنى المذكور وزيادة الوعيد والتخويف من الله تعالى وإعلام بعد بكون الملك على الإطلاق له وتذكيره بأمر المصير إليه والحشر يقوي امر التخويف من الله تعالى وفي مصحف أبي بن كعب وابن مسعود والله بصير بما تفعلون .

قوله عز وجل

سورة النور ٤٣٤٤

الرؤية في هذه الآية رؤية عين والتقدير أن أمر الله وقدرته و " يزجي " معناه يسوق والإزجاء إنما يستعمل

---

(١) المحرر الوجيز . ، ٤/٢٠٨

في سوق كل ثقيل ومدافعته كالسحاب والإبل المزاحف كما قال الفرزدق على مزاحيف تزجيها مخارير والبضاءة المزجاة التي تحتاج من الشفاعة والتحسين إلى ما هو كسوق الثقيل ومنه قول حبيب في الشيب ونحن نزجيه وسيبويه أبدا يقول في كلامه فأنت تزجيه إلى كذا أي تسوقه ثقيلا متباطئا وقوله " يؤلف بينه " أي بين مفترق السحاب نفسه لأن مفهوم السحاب يقتضي أن بينه فروجا وهذا كما تقول جلست بين الدور ولو أضيفت بين إلى مفرد لم يصح إلا أن تريد آخر لا تقول جلست بين الدار إلا أن تريد وبين كذا وورش عن نافع لا يهمز يولف وقالون عن نافع والباقون يهمزون يؤلف وهو الأصل والركام الذي يركب بعضه بعضا ويتكاثف والعرب تقول إن الله تعالى إذا جعل السحاب ركاما بالريح عصر بعضه بعضا فخرج " الودق " منه ومن ذلك قوله تعالى " وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا " ومن ذلك قول حسان بن ثابت " الكامل " (١) ".

"قال القاضي أبو محمد ولا شك أنه يفيض عليه فضل الله ويعتمد به فيقلبه صلى الله عليه وسلم وهذه الآية رد على كفار قريش في قولهم إن القرآن من تلقاء محمد صلى الله عليه وسلم بن عبد الله و " من لدن " معناه من عنده ومن جهته والحكيم ذو **الحكمة في** معرفته حيث يجعل رسالاته وفي غير ذلك لا إله إلا هو ثم قص تعالى خبر موسى والتقدير اذكر " إذ قال موسى " وكان من أمر موسى عليه السلام أنه حين خرج بزوجه بنت شعيب عليه السلام يريد مصر وقد قرب وقت نبوته مشوا في ليلة ظلماء ذات برد ومطر ففقدوا النار ومسهم البرد واشتدت عليهم الظلمة وضلوا الطريق وأصلد زناد موسى عليه السلام فبينما هو في هذه الحالة إذ رأى نارا على بعد و " آنست " معناه رأيت ومنه قول حسان بن ثابت . " المنسرح "

انظر خليلي بباب جلق هل تؤنس
دون البلقاء من أحد)
فلما رأى موسى ذلك قال لأهله ما في الآية

ومشى نحوها فلما دنا منها رأى النار في شجرة سمر خضراء وهي لا تحرقها وكلما قرب هو منها بعدت هي منه وكان ذلك نورا من نور الله عز وجل ولم يكن نارا في نفسها لكن ظنه موسى نارا فناداه الله عز وجل عند ذلك وسمع موسى عليه السلام النداء من جهة الشجرة وأسمعه الله كلامه والخبر الذي رجاه

(١) المحرر الوجيز . ، ٤/٢٣٢

موسى عليه السلام هو الإعلام بالطريق وقوله " بشهاب قبس " شبه النار التي تؤخذ في طرف عود أو غيره ب الشهاب ثم خصصه بأنه مما اقتبس إذ الشهب قد تكون من غير اقتباس والقبس اسم لقطعة النار تقتبس في عود أو غيره كما القبض اسم ما يقبض ومنه قول أبي زيد : " المنسرح "

(في كفة صعدة مثقفة

فيها سنان كشعلة القبس)

ومنه قول الآخر من شاء من نار الجحيم اقتبسا وأصل الشهاب الكوكب المنقض في أثر مسترق السمع وكل من يقال له شهاب من

المنيرات فعلى التشبيه قال الزجاج كل ابيض ذي نور فهو شهاب وكلامه معترض والقبس يحتمل أن يكون أسما غير صفة ويحتمل أن يكون صفة فعلى كونه اسما غير صفة اضاف إليه بمعنى بشهاب اقتبسته أو اقتبسه وعلى كونه صفة يكون ذلك كإضافة الدار إلى الآخرة والصلاة إلى الأولى وغير ذلك وقرأ الجمهور بإضافة شهاب إلى قبس وهي قراءة الحسن وأهل المدينة ومكة والشام وقرأ عاصم وحمزة والكسائي بشهاب قبس بتنوين شهاب فهذا على الصفة .

٢٥٠

." (١)

"وروي الزكاة قنطرة الإسلام من قطعها نجا ومن جانبها هلك

واحتج لهذا التأويل بقول أبي بكر في الزكاة وقت

٥

الردة

وقال ابن عباس والجمهور " الزكاة " في هذه الآية لا إله الا الله التوحيد كما قال موسى لفرعون " هل لك إلى ان تزكى " النازعات١٨ ويرجح هذا التأويل أن الآية من اول المكي وزكاة المال إنما نزلت بالمدينة وإنما هذه زكاة القلب والبدن أي تطهيره من الشرك والمعاصي وقاله مجاهد والربيع

وقال الضحاك ومقاتل معنى " الزكاة " هنا النفقة في الطاعة وأعاد الضمير في قوله " هم كافرون " توكيدا قوله عز وجل

---

(١) المحرر الوجيز . ، ٢٩٧/٤

ذكر عز وجل حالة الذين آمنوا معادلا بذلك حالة الكافرين المذكورين ليبين الفرق
وقوله " غير ممنون " قال ابن عباس معناه غير منقوص
وقالت فرقة معناه غيرمقطوع يقال مننت الحبل إذا قطعته
وقال مجاهد معناه غير محسوب لأن كل محسوب محصور فهو معد لأن يمن به فيظهر في الاية أنه وصفه بعدم المن والأذى من حيث هو من جهة الله تعالى فهو شريف لا من فيه وأعطيات البشر هي التي يدخلها المن
وقال السدي نزلت هذه الآية من المرضى والزمنى إذا عجزوا عن إكمال الطاعات كتب لهم من الأجر كأصح ما كانوا يعملون ثم أمر تعالى نبيه أن يوقفهم موبخا على كفرهم بخالق الارض والسماوات ومخترعها ووصف صورة خلقها ومدته والحكمة في خلقه هذه المخلوقات في مدة ممتدة مع قدرة الله على إيجادها في حين واحد
وهي إظهار القدرة في ذلك حسب شرف الإيجاد اولا أولا
قال قوم وليعلم عباده التأني في الأمور والمهل وقد تقدم القول غير مرة في نظير قوله " أئنكم "
واختلف رواة الحديث في اليوم الذي ابتدأ الله تعالى فيه خلق الأرض فروي عن ابن عباس وغيره ان اول يوم هو الأحد وان الله تعالى خلق فيه وفي الاثنين الأرض ثم خلق الجبال ونحوها يوم الثلاثاء
قال ابن عباس فمن هنا قيل هو يوم ثقيل
ثم خلق الشجر والثمار والأنهار يوم الأربعاء ومن هنا قيل هو يوم راحة وتفكر في هذه التي خلقت فيه
ثم خلق السماوات وما فيها يوم الخميس ويوم الجمعة وفي
آخر ساعة من يوم الجمعة خلق آدم
وقال السدي وسمي يوم الجمعة لاجتماع المخلوقات فيه وتكاملها فهذه رواية فها احاديث مشهورة
ولما لم يخلق تعالى في يوم السبت شيئا امتنع فيه بنو إسرائيل عن الشغل
ووقع في كتاب مسلم بن الحجاج ان اول يوم خلق الله فيه التربة يوم السبت ثم رتب المخلوقات على ستة أيام وجعل الجمعة عاريا من المخلوقات على ستة أيام الا من آدم وحده
والظاهر من القصص في طينة آدم ان الجمعة التي خلق فيها آدم قد تقدمتها أيام وجمع كثيرة وان هذه

الايام التي خلق الله فيها هذه
٦
(١) ".

"حدثني المثنى، قال: ثنا آدم، قال: ثنا أبو جعفر، عن الربيع، عن أبي العالية: " {﴿بغيا} [البقرة: ٩٠] يعني حسدا أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده، وهم اليهود كفروا بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم " حدثت عن عمار بن الحسن، قال: ثنا ابن أبي جعفر، عن أبيه، عن الربيع مثله قال أبو جعفر: فمعنى الآية: بئس الشيء باعوا به أنفسهم الكفر بالذي أنزل الله في كتابه على موسى من نبوة محمد صلى الله عليه وسلم والأمر بتصديقه واتباعه، من أجل أن أنزل الله من فضله، وفضله حكمته وآياته ونبوته على من يشاء من عباده، يعني به على محمد صلى الله عليه وسلم، بغيا وحسدا لمحمد صلى الله عليه وسلم، من أجل أنه كان من ولد إسماعيل، ولم يكن من بني إسرائيل. -[٢٤٩]- فإن قال قائل: وكيف باعت اليهود أنفسها بالكفر فقيل: {بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله} [البقرة: ٩٠] وهل يشترى بالكفر شيء؟ قيل: إن معنى الشراء والبيع عند العرب: هو إزالة مالك ملكه إلى غيره بعوض يعتاضه منه، ثم تستعمل العرب ذلك في كل معتاض من عمله عوضا شرا أو خيرا، فتقول: نعم ما باع به فلان نفسه، وبئس ما باع به فلان نفسه، بمعنى: نعم الكسب أكسبها وبئس الكسب أكسبها إذا أورثها بسعيه عليها خيرا أو شرا. فكذلك معنى قوله جل ثناؤه: {بئسما اشتروا به أنفسهم} [البقرة: ٩٠] لما أوبقوا أنفسهم بكفرهم بمحمد صلى الله عليه وسلم فأهلكوها، خاطبهم الله والعرب بالذي يعرفونه في كلامهم فقال: {بئسما اشتروا به أنفسهم} [البقرة: ٩٠] يعني بذلك: بئس ما أكسبوا أنفسهم بسعيهم، وبئس العوض اعتاضوا من كفرهم بالله في تكذيبهم محمدا، إذ كانوا قد رضوا عوضا من ثواب الله وما أعد لهم، لو كانوا آمنوا بالله وما أنزل على أنبيائه، بالنار، وما أعد لهم بكفرهم بذلك. وهذه الآية وما أخبر الله فيها عن حسد اليهود محمدا صلى الله عليه وسلم وقومه من العرب، من أجل أن الله جعل النبوة **والحكمة فيهم** دون اليهود من بني إسرائيل، حتى دعاهم ذلك إلى الكفر به مع علمهم بصدقه، وأنه نبي لله مبعوث ورسول مرسل؛ نظيره الآية الأخرى في سورة النساء، وذلك قوله، {ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا أولئك الذين لعنهم الله

---

(١) المحرر الوجيز . ، ٥/٥

﴿من يلعن الله فلن تجد له نصيرا أم لهم نصيب من الملك فإذا لا يؤتون الناس نقيرا أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما﴾ [النساء: ٥٢]." (١)

"على ذلك بطاعته فيما أمركم به ونهاكم عنه، واذكروا أيضا مع ذلك، ما أنزل عليكم من كتابه ذلك، القرآن الذي أنزله على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، واذكروا ذلك فاعملوا به، واحفظوا حدوده فيه. والحكمة: يعني: وما أنزل عليكم من الحكمة وهي السنن التي علمكموها رسول الله صلى الله عليه وسلم وسنها لكم، وقد ذكرت اختلاف المختلفين في معنى **الحكمة فيما** مضى قبل في قوله: ﴿ويعلمهم الكتاب والحكمة﴾ [البقرة: ١٢٩] فأغنى عن إعادته، في هذا الموضع." (٢)

"القول في تأويل قوله تعالى: ﴿يؤتي **الحكمة من** يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر إلا أولوا الألباب﴾ [البقرة: ٢٦٩] يعني بذلك جل ثناؤه: يؤتي الله الإصابة في القول والفعل من يشاء من عباده، ومن يؤت الإصابة في ذلك منهم، فقد أوتي خيرا كثيرا. واختلف أهل التأويل في ذلك، فقال بعضهم: الحكمة التي ذكرها الله في هذا الموضع هي القرآن والفقه به." (٣)

"حدثنا ابن حميد، قال: ثنا جرير، عن ليث، عن مجاهد، قوله: ﴿يؤتي **الحكمة من** يشاء. ﴾ [البقرة: ٢٦٩] الآية، قال: «ليست بالنبوة، ولكنه القرآن والعلم والفقه»." (٤)

"حدثنا بشر، قال: ثنا يزيد، قال: ثنا سعيد، عن قتادة قوله: ﴿يؤتي **الحكمة من** يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا﴾ [البقرة: ٢٦٩] " والحكمة: الفقه في القرآن "." (٥)

"حدثنا الحسن بن يحيى، قال: أخبرنا عبد الرزاق، قال: أخبرنا معمر، عن قتادة، في قوله: ﴿يؤتي **الحكمة من** يشاء﴾ [البقرة: ٢٦٩] قال: " الحكمة: القرآن، والفقه في القرآن "." (٦)

---

(١) تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر الطبري، أبو جعفر ٢٤٨/٢
(٢) تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر الطبري، أبو جعفر ١٨٦/٤
(٣) تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر الطبري، أبو جعفر ٨/٥
(٤) تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر الطبري، أبو جعفر ٩/٥
(٥) تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر الطبري، أبو جعفر ٩/٥
(٦) تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر الطبري، أبو جعفر ٩/٥

"حدثني محمد بن عمرو، قال: ثنا أبو عاصم، عن عيسى، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد في قول الله عز وجل: {ﵟيؤتي الحكمة من يشاء} [البقرة: ٢٦٩] قال: «يؤتي إصابته من يشاء»." (١)

"حدثني المثنى، قال: ثنا أبو حذيفة، قال: ثنا شبل، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد: {ﵟيؤتي الحكمة من يشاء} [البقرة: ٢٦٩] قال: «الكتاب يؤتي إصابته» وقال آخرون: هو العلم بالدين." (٢)

"ذكر من قال ذلك: حدثني يونس، قال: أخبرنا ابن وهب، قال: قال ابن زيد: {ﵟيؤتي الحكمة من يشاء} [البقرة: ٢٦٩] «العقل في -[١١]- الدين» ، وقرأ: {ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا} [البقرة: ٢٦٩]." (٣)

"ذكر من قال ذلك: حدثني المثنى، قال: ثنا إسحاق، قال: ثنا ابن أبي جعفر، عن أبيه، عن الربيع، في قوله: {ﵟيؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة} [البقرة: ٢٦٩] الآية، قال: " الحكمة: الخشية؛ لأن رأس كل شيء خشية الله "، وقرأ: {إنما يخشى الله من عباده العلماء} [فاطر: ٢٨] وقال آخرون: هي النبوة." (٤)

"ذكر من قال ذلك: حدثني موسى، قال: ثنا عمرو، قال: ثنا أسباط، عن السدي، قوله: {ﵟيؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة} [البقرة: ٢٦٩] الآية، قال: «الحكمة هي النبوة» وقد بينا فيما مضى معنى الحكمة، وأنها مأخوذة من الحكم وفصل القضاء، وأنها الإصابة بما دل على صحته، فأغنى ذلك عن تكريره في هذا الموضع. فإذا كان ذلك كذلك معناه، كان جميع الأقوال التي قالها القائلون الذين ذكرنا قولهم في ذلك داخلا فيما قلنا من ذلك؛ لأن الإصابة في الأمور إنما تكون عن فهم بها وعلم ومعرفة، وإذا كان ذلك كذلك كان المصيب عن فهم منه بمواضع الصواب في أموره فهما خاشيا لله فقيها عالما، وكانت النبوة من أقسامه؛ لأن الأنبياء مسددون مفهمون، وموفقون لإصابة الصواب في بعض الأمور، والنبوة بعض معاني الحكمة. فتأويل الكلام: يؤتي الله إصابة الصواب في القول والفعل من يشاء، ومن يؤته الله ذلك فقد آتاه خيرا كثيرا." (٥)

---

(١) تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر الطبري، أبو جعفر ١٠/٥

(٢) تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر الطبري، أبو جعفر ١٠/٥

(٣) تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر الطبري، أبو جعفر ١٠/٥

(٤) تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر الطبري، أبو جعفر ١١/٥

(٥) تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر الطبري، أبو جعفر ١٢/٥

"وكنت امرأ أفضت إليك ربابتي ... وقبلك ربتني فضعت ربوب

يعني بقوله: «ربتني» : ولي أمري والقيام به قبلك من يربه ويصلحه، فلم يصلحوه، ولكنهم أضاعوني فضعت، يقال منه: رب أمري فلان فهو يربه ربا وهو رابه، فإذا أريد به المبالغة في مدحه قيل: هو ربان، كما يقال: هو نعسان، من قولهم: نعس ينعس، وأكثر ما يجيء من الأسماء على فعلان ما كان من الأفعال ماضيه على «فعل» مثل قولهم: هو سكران وعطشان وريان، من سكر يسكر، وعطش يعطش، وروي يروى، وقد يجيء مما كان ماضيه على «فعل، يفعل» نحو ما قلنا من نعس ينعس، ورب يرب. فإذا كان الأمر في ذلك على ما وصفنا، وكان الربان ما ذكرنا، والرباني: هو المنسوب إلى من كان بالصفة التي وصفت، وكان العالم بالفقه والحكمة من المصلحين، يرب أمور الناس بتعليمه إياهم الخير، ودعائهم إلى ما فيه مصلحتهم، وكان كذلك الحكيم التقي لله، والولي الذي يلي أمور الناس على المنهاج الذي وليه المقسطون من المصلحين أمور الخلق بالقيام فيهم، بما فيه صلاح عاجلهم وآجلهم، وعائدة النفع عليهم في دينهم ودنياهم؛ كانوا جميعا مستحقين أنهم ممن دخل في قوله عز وجل {ولكن كونوا ربانيين} [آل عمران: ٧٩]." (١)

"حدثني يونس، قال: أخبرنا ابن وهب، قال: قال ابن زيد، في قوله {ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة} [الإسراء: ٣٩] قال: القرآن وقد بينا معنى الحكمة فيما مضى من كتابنا هذا، بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع. {ولا تجعل مع الله إلها آخر فتلقى في جهنم ملوما مدحورا} [الإسراء: ٣٩] يقول: ولا تجعل مع الله شريكا في عبادتك، فتلقى في جهنم ملوما تلومك نفسك وعارفوك من الناس {مدحورا} [الأعراف: ١٨] يقول: مبعدا مقصيا في النار، ولكن أخلص العبادة لله الواحد القهار، فتنجو من عذابه. وبنحو الذي قلنا في قوله {ملوما مدحورا} [الإسراء: ٣٩] قال أهل التأويل." (٢)

"حدثنا ابن حميد قال: ثنا سلمة قال: فحدثني محمد بن إسحاق قال: وكان وهب بن منبه يقول: " لبث في ذلك البلاء ثلاث سنين ، لم يزد يوما واحدا ، فلما غلبه أيوب فلم يستطع منه شيئا، اعترض لامرأته في هيئة ليست كهيئة بني آدم في العظم والجسم والطول ، على مركب ليس من مراكب الناس، له عظم وبهاء وجمال ليس لها، فقال لها: أنت صاحبة أيوب هذا الرجل المبتلى؟ قالت نعم. قال: هل

---

(١) تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر الطبري، أبو جعفر ٥٣٠/٥

(٢) تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر الطبري، أبو جعفر ٦٠١/١٤

تعرفينني؟ قالت لا. قال: فأنا إله الأرض ، وأنا الذي صنعت بصاحبك ما صنعت، وذلك أنه عبد إله السماء ، وتركني فأغضبني، ولو سجد لي سجدة واحدة رددت عليه وعليك كل ما كان لكما من مال وولد، فإنه عندي ثم أراها إياهم فيما ترى ببطن الوادي الذي لقيها فيه. قال: وقد سمعت أنه إنما قال: لو أن صاحبك أكل طعاما ولم يسم عليه لعوفي مما به من البلاء، والله أعلم. وأراد عدو الله أن يأتيه من قبلها. فرجعت إلى أيوب، فأخبرته بما قال لها ، وما أراها ، قال: أو قد أتاك عدو الله ليفتنك عن دينك؟ ثم أقسم إن الله عافاه ليضربها مائة ضربة ، فلما طال عليه البلاء، جاءه أولئك النفر الذين كانوا معه قد آمنوا به وصدقوه، -[٣٥٥]- معهم فتى حديث السن ، قد كان آمن به وصدقه، فجلسوا إلى أيوب ، ونظروا إلى ما به من البلاء، فأعظموا ذلك ، وفظعوا به، وبلغ من أيوب صلوات الله عليه مجهوده، وذلك حين أراد الله أن يفرج عنه ما به ، فلما رأى أيوب ما أعظموا ما أصابه قال: أي رب ، لأي شيء خلقتني ، ولو كنت إذ قضيت علي البلاء تركتني فلم تخلقني؟ ليتني كنت دما ألقتني أمي. ثم ذكر نحو حديث ابن عسكر، عن إسماعيل بن عبد الكريم، إلى: وكابدوا الليل، واعتزلوا الفراش، وانتظروا الأسحار ، ثم زاد فيه: أولئك الآمنون الذي لا يخافون، ولا يهتمون ، ولا يحزنون، فأين عاقبة أمرك يا أيوب من عواقبهم؟ قال فتى حضرهم ، وسمع قولهم ، ولم يفطنوا له ، ولم يأبهوا لمجلسه، وإنما قيضه الله لهم لما كان من جورهم في المنطق ، وشططهم، فأراد الله أن يصغر به إليهم أنفسهم ، وأن يسفه بصغره لهم أحلامهم ، فلما تكلم تمادى في الكلام، فلم يزدد إلا حكما. وكان القوم من شأنهم الاستماع والخشوع إذا وعظوا ، أو ذكروا ، فقال: إنكم تكلمتم قبلي أيها الكهول، وكنتم أحق بالكلام ، وأولى به مني لحق أسنانكم، ولأنكم جربتم قبلي ، ورأيتم وعلمتم ما لم أعلم ، وعرفتم ما لم أعرف، ومع ذلك قد تركتم من القول أحسن من الذي قلتم ، ومن الرأي أصوب من الذي رأيتم ، ومن الأمر أجمل من الذي أتيتم ، ومن الموعظة أحكم من الذي وصفتم، وقد كان لأيوب عليكم من الحق والذمام أفضل من الذي وصفتم، هل تدرون أيها الكهول حق من انتقصتم ، وحرمة من انتهكتم ، ومن الرجل الذي عبتم واتهمتم؟ ولم تعلموا أيها الكهول أن أيوب نبي الله ، -[٣٥٦]- وخيرته وصفوته من أهل الأرض يومكم هذا، اختاره الله لوحيه ، واصطفاه لنفسه ، وائتمنه على نبوته، ثم لم تعلموا ، ولم يطلعكم الله على أنه سخط شيئا من أمره مذ أتاه ما آتاه إلى يومكم هذا ، ولا على أنه نزع منه شيئا من الكرامة التي أكرمه بها مذ آتاه ما آتاه إلى يومكم هذا، ولا أن أيوب غير الحق في طول ما صحبتموه إلى يومكم هذا ، فإن كان البلاء هو الذي أزرى به عندكم ووضعه في أنفسكم،

فقد علمتم أن الله يبتلي النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، ثم ليس بلاؤه لأولئك بدليل سخطه عليهم ، ولا لهوانه لهم، ولكنها كرامة ، وخيرة لهم ، ولو كان أيوب ليس من اللہ بهذه المنزلة ، ولا في النبوة ، ولا في الأثرة ، ولا في الفضيلة ، ولا في الكرامة، إلا أنه أخ أحببتموه على وجه الصحابة، لكان لا يجمل بالحكيم أن يعذل أخاه عند البلاء ، ولا يعيره بالمصيبة بما لا يعلم ، وهو مكروب حزين، ولكن يرحمه ويبكي معه ، ويستغفر له ، ويحزن لحزنه ، ويدله على مراشد أمره ، وليس بحكيم ، ولا رشيد من جهل هذا، فالله الله أيها الكهول في أنفسكم قال: ثم أقبل على أيوب: صلى الله عليه وسلم: فقال، وقد كان في عظمة الله وجلاله وذكر الموت: ما يقطع لسانك، ويكسر قلبك، وينسيك حججك؟ ألم تعلم يا أيوب أن لله عبادا أسكتتهم خشيته من غير عي ، ولا بكم ، وإنهم لهم الفصحاء النطقاء ، النبلاء ، الألباء ، العالمون بالله وبآياته؟ ولكنهم إذا ذكروا عظمة الله انقطعت ألسنتهم ، واقشعرت جلودهم ، وانكسرت قلوبهم ، وطاشت عقولهم إعظاما لله ، وإعزازا ، وإجلالا، فإذا استفاقوا من ذلك استبقوا إلى الله بالأعمال -[٣٥٧]- الزاكية، يعدون أنفسهم مع الظالمين والخاطئين، وإنهم لأنزاه برآء، ومع المقصرين والمفرطين، وإنهم لأكياس أقوياء، ولكنهم لا يستكثرون لله الكثير، ولا يرضون لله بالقليل، ولا يدلون عليه بالأعمال ، فهم مروعون مفزعون مغتمون خاشعون وجلون مستكينون معترفون متى ما رأيتهم يا أيوب قال أيوب: إن الله يزرع الحكمة بالرحمة في قلب الصغير والكبير، فمتى نبتت في القلب يظهرها الله على اللسان، وليست تكون الحكمة من قبل السن ولا الشبيبة ، ولا طول التجربة، وإذا جعل الله العبد حكيما في الصيام لم يسقط منزله عند الحكماء وهم يرون عليه من الله نور الكرامة، ولكنكم قد أعجبتكم أنفسكم ، وظننتم أنكم عوفيتم بإحسانكم، فهنالك بغيتم وتعززتم، ولو نظرتم فيما بينكم وبين ربكم ثم صدقتم أنفسكم لوجدتم لكم عيوبا سترها الله بالعافية التي ألبسكم ، ولكني قد أصبحت اليوم وليس لي رأي ، ولا كلام معكم، قد كنت فيما خلا مسموعا كلامي ، معروفا حقي ، منتصفا من خصمي ، قاهرا لمن هو اليوم يقهرني ، مهيبا مكاني ، والرجال مع ذلك ينصتون لي ، ويوقروني، فأصبحت اليوم قد انقطع رجائي ، ورفع حذري ، وملني أهلي ، وعقني أرحامي ، وتنكرت لي معارفي ، ورغب عني صديقي ، وقطعني أصحابي ، وكفرني أهل بيتي ، وجحدت حقوقي ، ونسيت صنائعي، أصرخ فلا يصرخونني ، وأعتذر فلا يعذرونني، وإن قضاءه هو الذي أذلني ، وأقمأني ، وأخسأني، وإن سلطانه هو الذي أسقمني ، -[٣٥٨]- وأنحل جسمي. ولو أن ربي نزع الهيبة التي في صدري ، وأطلق لساني حتى أتكلم بملء فمي، ثم كان ينبغي

للعبد يحاج عن نفسه، لرجوت أن يعافيني عند ذلك مما بي ، ولكنه ألقاني ، وتعالى عني، فهو يراني ولا أراه، ويسمعني ولا أسمعه ، لا نظر إلي فرحمني، ولا دنا مني ولا أدناني فأدلي بعذري ، وأتكلم ببراءتي ، وأخاصم عن نفسي لما قال ذلك أيوب وأصحابه عنده، أظله غمام حتى ظن أصحابه أنه عذاب، ثم نودي منه، ثم قيل له: يا أيوب، إن الله يقول: ها أنا ذا قد دنوت منك، ولم أزل منك قريبا، فقم فأدل بعذرك الذي زعمت، وتكلم ببراءتك ، وخاصم عن نفسك، واشدد إزارك ثم ذكر نحو حديث ابن عسكر، عن إسماعيل، إلى آخره، وزاد فيه: ورحمتي سبقت غضبي، فاركض برجلك ، هذا مغتسل بارد ، وشراب فيه شفاؤك، وقد وهبت لك أهلك ، ومثلهم معهم ، ومالك ومثله معه وزعموا: ومثله معه لتكون لمن خلفك آية، ولتكون عبرة لأهل البلاء ، وعزاء للصابرين فركض برجله، فانفجرت له عين، فدخل فيها فاغتسل، فأذهب الله عنه كل ما كان به من البلاء. ثم خرج فجلس، وأقبلت امرأته تلتمسه في مضجعه، فلم تجده، فقامت كالوالهة متلددة، ثم قالت: يا عبد الله، هل لك علم بالرجل المبتلى الذي كان ههنا؟ قال: لا ، ثم تبسم، فعرفته بمضحكه، فاعتنقته." (١)

"﴿وقوله: {وآتيناه الحكمة} [ص: ٢٠] اختلف أهل التأويل في معنى الحكمة في هذا الموضع، فقال بعضهم: عني بها النبوة." (٢)

"ذكر من قال ذلك: حدثنا بشر، قال: ثنا يزيد، قال: ثنا سعيد، عن قتادة {﴿وآتيناه الحكمة} [ص: ٢٠] «أي السنة» -[٤٩]- وقد بينا معنى الحكمة في غير هذا الموضع بشواهده، فأغنى ذلك عن إعادته في هذا الموضع." (٣)

"﴿وقوله: {قال قد جئتكم بالحكمة} [الزخرف: ٦٣] قيل: عنى بالحكمة في هذا الموضع: النبوة." (٤)

---

(١) تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر الطبري، أبو جعفر ٣٥٤/١٦

(٢) تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر الطبري، أبو جعفر ٤٨/٢٠

(٣) تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر الطبري، أبو جعفر ٤٨/٢٠

(٤) تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر الطبري، أبو جعفر ٦٣٥/٢٠

"ذكر من قال ذلك: حدثني محمد قال: ثنا أحمد قال: ثنا أسباط، عن السدي، {﴿قال قد جئتكم بالحكمة} [الزخرف: ٦٣] قال: «النبوة» وقد بينت معنى الحكمة فيما مضى من كتابنا هذا بشواهده، وذكرت اختلاف المختلفين في تأويله، فأغنى ذلك عن إعادته." (١)

"قال مقاتل: خلق الله كل شيء- الحيوان والجماد وغيرها- ثم علم آدم أسماءها كلها.

فقال له: يا آدم هذا فرس، وهذا بغل، وهذا حمار حتى أتى على آخرها ثم عرض تلك الأشياء كما عرض الموجودات على الملائكة. فكذلك قال: ثم عرضهم ولم يقل: عرضها، ورده الى الشخوص والمسميات لأن الأعراض لا تعرض.

وقيل: علم الله آدم عليه السلام صنعة كل شيء.

جويبر عن الضحاك عن ابن عباس قال: علم الله آدم أسماء الخلق والقرى والمدن والجبال والسباع وأسماء الطير والشجر وأسماء ما كان وما يكون وكل نسمة الله عز وجل بارئها إلى يوم القيامة، وعرض تلك الأسماء على الملائكة.

فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين إن الخليفة الذي أجعله في الأرض يفسد فيها ويسفك الدماء.

أراد الله تعالى بذلك: كيف تدعون علم ما لم يكن بعد، وأنتم لا تعلمون ما ترون وتعاينون.

وقال الحسن وقتادة:

إن كنتم صادقين إني لا أخلق خلقا إلا كنتم أعلم وأفضل منه، قالت الملائكة: إقرارا بالعجز واعتذارا.

قالوا سبحانك: تنزيها لك عن الاعتراض لعلمك في حكمك وتدبيرك، وهو نصب على المصدر، أي نسبح سبحانا في قول الخليل.

وقال الكسائي: خارج عن الوصف، وقيل: على النداء المضاف أي: يا سبحانك.

لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم بخلقك الحكيم في أمرك.

وللحكيم معنيان: أحدهما: المحكم للفعل، كقوله: عذاب أليم، وحز وجيع. قال الشاعر:

أمن ريحانة الداعي السميع ... يؤرقني وأصحابي هموع «١»

أي المؤلم والموجع، والمسمع «٢» فعيل بمعنى: مفعل وعلى هذا التأويل هو صفة فعل.

والآخر: بمعنى (الحاكم العالم) وحينئذ يكون صفة ذات، وأصل الحكمة في كلام العرب: المنع. يقال:

---

(١) تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر الطبري، أبو جعفر ٦٣٦/٢٠

أحكمت اليتيم عن الفساد وحكمته، أي منعته.

قال جرير:

---

(١) تفسير الطبري: ١/ ١٧٩، وهو لعمرو بن معد يكرب.

(٢) هذا تفسير للشعر فقوله فيه: السميع: أي المسمع كما في تفسير الطبري.." (١)

"قيل: وجر إلى باب سبط آخر فاختصم فيه السبطان.

وقال ابن سيرين: قتله القاتل ثم احتمله فوضعه على باب رجل منهم ثم أصبح يطلب بثأره ودمه ويدعيه عليه. قال: فجاء أولياء القتيل إلى موسى وأتوه بناس وادعوا عليهم القتل وسألوا القصاص فسألهم موسى عن ذلك فجحدوا فاشتبه أمر القتيل على موسى ووقع بينهم خلاف.

وقال الكلبي: وذلك قبل نزول القسامة في التوراة فسألوا موسى أن يدعوا الله ليبين لهم ذلك فسأل موسى ربه فأمرهم بذبح بقرة. فقال لهم موسى: إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة.

قالوا أتتخذنا هزوا يا موسى أي أتستهزئ بنا حين نسألك عن القتيل وتأمرنا بذبح البقرة وإنما قالوا ذلك لتباعد الأمرين في الظاهر، ولم يدروا ما **الحكمة فيه**.

وقرأ ابن محيصن: أيتخذنا بالياء قال: يعنون الله ولا يستبعد هذا من جهلهم لأنهم الذين قالوا اجعل لنا إلها كما لهم آلهة «١» .

وفي هذا ثلاثة لغات هزؤا: بالتخفيف والهمز ومثله كفؤا وهي قراءة الأعمش وحمزة وخلف وإسماعيل.

وهزؤا وكفؤا مثقلان مهموزان وهي قراءة أبي عمرو وأهل الحجاز والشام واختيار الكسائي وأبي عبيد وأبي حاتم.

وهزوا وكفوا مثقلان بغير همزة وفي رواية حفص بن سليمان البزاز عن عاصم وكلها لغات صحيحة معناها الاستهزاء فقال لهم موسى عليه السلام: قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين أي من المستهزئين بالمؤمنين فلما علم القوم إن ذبح البقرة عزم من الله عز وجل سألوه الوصف.

قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي ولو أنهم عمدوا إلى أدنى بقرة فذبحوها لأجزأت عنهم ولكنهم شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم وإنما كان تشديدهم تقديرا من الله عز وجل وحكمة، وكان السبب في ذلك على

---

(١) تفسير الثعلبي = الكشف والبيان عن تفسير القرآن الثعلبي ١/١٧٨

ما ذكره السدي وغيره.

إن رجلا في بني إسرائيل كان بارا بأبيه وبلغ من بره به إن رجلا أتاه بلؤلؤة فابتاعها بخمسين ألفا وكان فيها فضل فقال للبائع أبي نائم ومفتاح الصندوق تحت رأسه فأمهلني حتى يستيقظ وأعطيك الثمن. قال: فأيقظ أباك واعطني المال. قال: ما كنت لأفعل ولكن أزيدك عشرة آلأف فانتظرني حتى ينتبه أبي.

فقال الرجل: فأنا أعط عنك عشرة آلاف إن أيقظت أباك وعجلت النقد. قال: وأنا أزيدك عشرين ألفا إن انتظرت انتباه أبي. ففعل ولم يوقظ الرجل أباه فأعقبه بره بأبيه أن جعل تلك البقرة عنده وأمر بني إسرائيل أن يذبحوا تلك البقرة بعينها.

---

(١) سورة الأعراف: ١٣٨.." (١)

"ولا المشركين «١» مجرور في اللفظ بالنسق على من مرفوع المعنى بفعله كقوله عز وجل وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه «٢» أن ينزل عليكم من خير أي خبر كما نقول: ما أتاني من أحد من فيه، وفي جوابها صلة، وهي كثيرة في القرآن.

والله يختص والاختصاص أوكد من الخصوص لأن الاختصاص لنفسك والخصوص لغيرك.

برحمته بنبوته. من يشاء يخص بها محمدا صلى الله عليه وسلم.

والله ذو الفضل العظيم [أي ابتداء لعلى ... خبر علة أو المراد من الرحمة الإسلام والهداية «٣»] ما ننسخ من آية أو ننسها الآية وذلك إن المشركين قالوا: ألا ترون إلى محمد يأمر أصحابه بأمر لم ينهاهم عنه، ويأمرهم بخلافه ويقول اليوم قولا ويرجع فيه غدا، ما هذا القرآن إلا كلام محمد يقوله من تلقاء نفسه، وهو كلام يناقض بعضہ بعضا. فأنزل الله وإذا بدلنا آية مكان آية «٤» ، وأنزل أيضا ما ننسخ من آية ثم بين وجه الحكمة في النسخ بهذه الآية.

وأعلم إن النسخ في اللغة شيئان:

الوجه الأول: بمعنى التغيير والتحويل قال الفراء: يقال: مسخه الله قردا ونسخه قردا، ومنه نسخ الكتاب وهو أن يحول من كتاب إلى كتاب فينقل ما فيه إليه قال الله تعالى إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون «٥» : أي نأمر الملائكة بنسخها.

---

(١) تفسير الثعلبي = الكشف والبيان عن تفسير القرآن الثعلبي ٢١٤/١

قال ابن عباس في هذه الآية: ألستم قوما عربا هل يكون نسخة إلا من أصل كان قبل ذلك؟ وعلى هذا الوجه القرآن كله منسوخ لأنه نسخ من اللوح المحفوظ فأنزل على النبي صلى الله عليه وسلم.

روى عبد الوهاب بن عطاء عن داود عن عكرمة عن ابن عباس: أنزل الله تعالى القرآن جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا ثم أنزله جبرائيل على محمد آيا بعد آي، وكان فيه ما قال المشركون ورد عليهم.

والوجه الثاني: بمعنى رفع الشيء وإبطاله يقال: نسخت الشمس الظل: أي ذهبت به وأبطلته [...] عنى بقوله ما ننسخ من آية وعلى هذا الوجه يكون بعض القرآن ناسخا ومنسوخا وهي ما تعرفه الأمة من ناسخ القرآن ومنسوخه وهذا أيضا يتنوع نوعين:

---

(١) في هامش المخطوطة: والمراد مشركو العرب كأبي سفيان.

(٢) سورة الأنعام: ٣٨.

(٣) عن هامش المخطوط.

(٤) سورة النحل: ١٠١.

(٥) سورة الجاثية: ٢٩.." (١)

"وقال أبو بكر الوراق: الكنود الذي يرى النعمة من نفسه وأعوانه. محمد بن علي الترمذي: هو الذي يرى النعمة ولا يرى المنعم، وقال أبو بكر الواسطي: هو الذي ينفق نعم الله سبحانه في معاصي الله، وقال بسام بن عبد الله: هو الذي يجادل ربه على عقد العوض. ذو النون: تفسير الهلوع والكنود قوله: إذا مسه الشر جزوعا وإذا مسه الخير منوعا «١» .

وقيل: هو الذي يكفر باليسير ولا يشكر الكثير، وقيل: الحقود، وقيل: الحسود. وقيل: جهول القدر. وفي الحكمة من جهل قدره هتك ستره. وقال بعضهم والحسن: رأسه على وسادة النعمة وقلبه في ميدان الغفلة. وقيل: يرى ما منه ولا يرى ما إليه، وجمع الكنود كند. قال الأعشى:

أحدث لها [تحدث] لوصلك أنها ... كند لوصل الزائر المعتاد «٢»

وإنه على ذلك لشهيد قال أكثر المفسرين: وإن الله على كنود هذا الإنسان وصنيعه لشاهد، وقال ابن

---

(١) تفسير الثعلبي = الكشف والبيان عن تفسير القرآن الثعلبي ١/٢٥٣

كيسان: ال (هاء) راجعة إلى الإنسان، يعني أنه شاهد على نفسه بما يصنع، وإنه يعني الإنسان لحب الخير أي المال.

وقال ابن زيد: سمى الله المال خيرا وعسى أن يكون خبيثا وحراما ولكن الناس يعدونه خيرا فسماه الله خيرا لأن الناس يسمونه خيرا وسمي الجهاد سوءا فقال: فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء «٣» أي قتال. وليس هو عند الله بسوء ولكن سماه الله سوءا لأن الناس يسمونه سوءا.

ومعنى الآية وإنه من أجل حب المال لشديد بخيل، ويقال للبخيل: شديد ومتشدد، قال طرفة:

أرى الموت يعتام الكرام ويصطفي ... عقيلة مال الفاحش المتشدد «٤»

والفاحش: البخيل أيضا قال الله سبحانه: ويأمركم بالفحشاء «٥» أي البخل، وقيل:

معناه: وإنه لحب الخير لقوي، وقال الفراء: كان موضع الحب أن يكون بعد شديد وأن يضاف شديد إليه فيقال: وإنه لشديد الحب للخير، فلما يقدم الحب قبل شديد وحذف من آخره لما جرى ذكره في أوله، ولرؤوس الآيات كقوله سبحانه: في يوم عاصف «٦» والعصوف لا يكون

---

(١) سورة المعارج: ٢٠- ٢١.

(٢) تفسير الطبري: ٣٠/ ٣٥٣.

(٣) سورة آل عمران: ١٧٤.

(٤) لسان العرب: ٣/ ٢٣٤.

(٥) سورة البقرة: ٢٦٨.

(٦) سورة إبراهيم: ١٨.." (١)

"الحسن: هو أن يكون على الرجل لصاحبه حق فإذا طالبه به دعاه إلى الحكام فيحلف له ويذهب بحقه.

الكلبي: هو أن يقيم شهادة الزور.

قتادة: لا تدل بمال أخيك إلى الحاكم وأنت تعلم إنك ظالم فإن قضاءه لا يحل حرامه ومن قضى له بالباطل فإن خصومته لم ينقض حتى يجمع الله عز وجل يوم القيامة بينه وبين خصيمه فيقضي بينهما بالحق.

---

(١) تفسير الثعلبي = الكشف والبيان عن تفسير القرآن الثعلبي ٢٧٢/١٠

وقال شريح: إني لأقضي لك، وإني لأظنك ظالما، ولكن لا يسعني إلا أن أقضي بما يحضرني من البينة، وإن قضائي لا يحل لك حراما.

محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنما أنا بشر ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي له فمن قضيت له بشيء من حق أخيه فإنما أقطع له قطعة من النار» [٦٦] «١» .

يسئلونك عن الأهلة

نزلت في معاذ بن جبل وثعلبة بن غنمة الأنصاريين قالا: يا رسول الله ما بال الهلال يبدوا دقيقا مثل الخيط ثم يزيد حتى يمتلئ ويستوي ثم لا يزال ينقص حتى يعود كما بدأ لا يكون على حالة واحدة فأنزل الله تعالى يسئلونك يا محمد عن الأهلة

وهي جمع هلال مثل رداء وأردية واشتقاق الهلال من قولهم استهل الصبي إذا صرخ حين يولد.

وأهل القوم بالحج والعمرة إذا رفعوا أصواتهم بالتلبية.

قال الشاعر:

يهل بالفرقد ركبانها ... كما يهل الراكب المعتمر

فسمي هلالا لأنه حين يري يهل الناس بذكر الله ويذكره.

قل هي مواقيت وهو الزمان المحدود للشيء للناس والحج أخبر الله عن الحكمة في زيادة القمر ونقصانه واختلاف أحواله، اعلم إنه فعل ذلك: ليعلم الناس أوقاتهم في حجتهم وعمرتهم وحل ديونهم ووعد حلفائهم وأجور أجرائهم ومحيض الحائض ومدة الحامل ووقت الصوم والإفطار وغير ذلك، فلذلك خالف بينه وبين الشمس التي هي دائمة على حالة واحدة.

وليس البر بأن تأتوا ال◌بيوت من ظهورها

قال المفسرون: كان الناس في الجاهلية وفي أول الإسلام إذا أحرم الرجل منهم بالحج أو العمرة لم يدخل حائطا ولا بيتا ولا دارا من بابه فإن كان من أهل المدن نقب نقبا في ظهر بيته منه يدخل ويخرج، أو يتخذ سلما فيصعد منه وإن

(١) مسند أحمد: ٢/ ٣٣٢، وسنن ابن ماجة: ٢/ ٧٧٧.." (١)

"رحيم بعباده، نظيرها في الأنفال وقاتلوهم يعني المشركين حتى لا تكون فتنة شرك يعني قاتلوهم حتى يسلموا فليس يقبل من المشرك الوثني جزية ولا يرضى منه إلا بالإسلام وليسوا كأهل الكتاب بالذين يؤخذ منهم الجزية **والحكمة فيه** على ما قال المفضل بن سلمة إن مع أهل الكتاب كتبا منزلة فيها الحق وإن كانوا قد حرفوها فأمهلهم الله تعالى بحرمة تلك الكتب من القتل [وأهواء] صغارهم بالجزية، ولينظروا في كتبهم ويتدبرونها فيقفوا على الحق منها ويمنعوه كفعل مؤمني أهل الكتاب ولم يكن لأهل الأوثان من يرشدهم إلى الحق وكان إمهالهم زائدا في اشراكهم فإن الله تعالى لن يرضى منهم إلا بالإسلام أو القتل عليه.

ويكون الدين الإسلام لله وحده فلا يعبد دونه شيء،

قال المقداد بن الأسود:

سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «لا يبقى على ظهر الأرض بيت [معد] ولا وبر إلا أدخله الله عز وجل كلمة الإسلام، إما يعز عزيز أو يذل ذليل، إما أن يعزهم فيجعلهم الله من أهله فيعزوا به، وإما أن يذلهم فيدينون لها» [٦٩] «١» .

فإن انتهوا عن الكفر والقتال فلا عدوان فلا سبيل ولا حجة إلا على الظالمين.

قال ابن عباس: يدل عليه قوله عز وجل قال ذلك بيني وبينك أيما الأجلين قضيت فلا عدوان علي «٢» أي فلا سبيل علي وقال أهل المعاني: العدوان الظلم، دليله قوله تعالى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان «٣» ولم يرد الله تعالى بهذا أمرا بالظلم أو إباحة له وإنما حمله على اللفظ الأول على ظهر [المجادلة] فسمى الجزاء على الفعل فعلا كقوله تعالى وجزاء سيئة سيئة مثلها «٤» وقوله فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم «٥» .

وقال عمرو بن كلثوم:

ألا لا يجهلن أحد علينا ... فنجهل فوق جهل الجاهلينا

قتادة وعكرمة: في هذه الآية، الظالم الذي يأبى أن يقول لا إله إلا الله، وإنما سمي الكافر ظالما، لوضعه

(١) تفسير الثعلبي = الكشف والبيان عن تفسير القرآن الثعلبي ٢/٨٥

العبادة في غير موضعها.

[سورة البقرة (٢) : الآيات ١٩٤ الى ١٩٧]

الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين (١٩٤) وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة وأحسنوا إن الله يحب المحسنين (١٩٥) وأتموا الحج والعمرة لله فإن أحصرتم فما استيسر من الهدي ولا تحلقوا رؤسكم حتى يبلغ الهدي محله فمن كان منكم مريضا أو به أذى من رأسه ففدية من صيام أو صدقة أو نسك فإذا أمنتم فمن تمتع بالعمرة إلى الحج فما استيسر من الهدي فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجعتم تلك عشرة كاملة ذلك لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام واتقوا الله واعلموا أن الله شديد العقاب (١٩٦) الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج وما تفعلوا من خير يعلمه الله وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقون يا أولي الألباب (١٩٧)

---

(١) مسند أحمد: ٦/ ٤، وكنز العمال: ١/ ٩٨ ح ٤٣٧.

(٢) سورة القصص: ٢٨. [.....]

(٣) سورة المائدة: ٢.

(٤) سورة الشورى: ٤٠.

(٥) سورة البقرة: ١٩٤.." (١)

"في بيتها، فإذا كان الحول خرجت فمن كملت رمته ببعرة «١» أفلا أربعة أشهر وعشرا» [١٥٤] «٢» .

وروى نافع عن صفية بنت عبد الرحمن عن حفصة بنت عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحد على ميت فوق ثلاث إلا على زوج، فإنها تحد عليه أربعة أشهر وعشرا» [١٥٥] «٣» .

وقال سعيد بن المسيب: **الحكمة في** هذه المدة أن فيها ينفخ الروح في الولد، وإنما قال وعشرا بلفظ

---

(١) تفسير الثعلبي = الكشف والبيان عن تفسير القرآن الثعلبي ٢/٨٩

المؤنث لأنه أراد الليالي لأن العرب إذا أتممت العدد من الليالي والأيام غلبت عليه الليالي فيقولون: صمنا عشرا، والصوم لا يكون إلا بالنهار، قال الشاعر:

وطافت ثلاثا بين يوم وليلة ... وكان النكير أن يضيف ويجار

أي يخاف فاضح، ويدل عليه قراءة ابن عباس: أربعة أشهر وعشر ليال، وقال المبرد: إنما أنث العشر لأنه أراد به المدد.

فإذا بلغن أجلهن يعني انقضاء العدة فلا جناح عليكم يخاطب الأولياء فيما فعلن في أنفسهن من البر في أن يتولوه لهن بالمعروف والله بما تعملون خبير.

[سورة البقرة (٢) : الآيات ٢٣٥ الى ٢٣٧]

ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء أو أكننتم في أنفسكم علم الله أنكم ستذكرونهن ولكن لا تواعدوهن سرا إلا أن تقولوا قولا معروفا ولا تعزموا عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب أجله واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه واعلموا أن الله غفور حليم (٢٣٥) لا جناح عليكم إن طلقتم النساء ما لم تمسوهن أو تفرضوا لهن فريضة ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعا بالمعروف حقا على المحسنين (٢٣٦) وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم إلا أن يعفون أو يعفوا الذي بيده عقدة النكاح وأن تعفوا أقرب للتقوى ولا تنسوا الفضل بينكم إن الله بما تعملون بصير (٢٣٧)

ولا جناح عليكم يا معشر الرجال فيما عرضتم به من خطبة النساء النساء المعتدات، وأصل التعريض التلويح بالشيء. قال الشاعر:

كما خط عبرانية بيمينه ... بتيماء حبر ثم عرض أسطرا «٤»

والتعريض في الكلام ما كان من لحن الكلام الذي يفهم به السامع من غير تصريح، وأصله

---

(١) في المصادر: ترمي بالبعرة، أو رمت ببعرة وراءها.

(٢) جامع البيان للطبري: ٢/ ٦٩٦ والسنن الكبرى: ٦/ ٢٠٦ بتفاوت.

(٣) صحيح البخاري: ٢/ ٧٩.

(٤) الصحاح للجوهري: ٣/ ١٠٨٧، والبيت أنشده الأصمعي للشماخ.." [(١)]

"فذلك قوله: ثم ادعهن يأتينك سعيا هو مصدر، أي يسعين سعيا، وقيل: نصب بنزع حرف الصفة، أي بالسعي، واختلفوا في معنى السعي، فقال بعضهم: هو الإسراع والعدو، وقال بعضهم: مشيا على أرجلهن كقوله سبحانه في سورة القصص: وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى «١» نظيره في سورة الجمعة: فاسعوا إلى ذكر الله «٢» أي فامضوا.

والحكمة في المشي دون الطيران كونه أبلغ في الحجة وأبعد من الشبهة لأنها لو طارت لتوهم متوهم أنها غير تلك الطير أو أن أرجلها غير سليمة والله أعلم.

وقال بعضهم: هو بمعنى الطيران، وقال النضر بن شميل: سألت الخليل بن أحمد عن قوله يأتينك سعيا هل يقال لطائر إذا طار سعي؟

قال: لا.

قلت: فما معنى قوله: يأتينك سعيا؟

قال: معناه: يأتينك وأنت تسعى سعيا.

قال الثعلبي: سمعت أبا القاسم بن حبيب يقول: سمعت أبي يقول: سمعت أبا الحسن الأقطع وكان حكيما يقول: صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «لكل آية ظهر وبطن ولكل حرف حد ومطلع» [١٨٩] «٣» .

وظاهر الآية ما ذكره أهل التفسير، وبطنها: إن إبراهيم عليه السلام أمر بذبح أربعة أشياء في نفسه بسكين [الأياس] كما ذبح في الظاهر الأربعة الأطيار بسكين الحديد، فالنسر مثل لطول العمر [والأجل] ، والطاوس زينة الدنيا وبهجتها، والغراب الحرص، والديك الشهوة.

قال الله تعالى: واعلم أن الله عزيز حكيم.

[سورة البقرة (٢) : الآيات ٢٦١ الى ٢٦٤]

مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف

(١) تفسير الثعلبي = الكشف والبيان عن تفسير القرآن الثعلبي ٢/١٨٥

لمن يشاء والله واسع عليم (٢٦١) الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون (٢٦٢) قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غني حليم (٢٦٣) يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذي ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلدا لا يقدرون على شيء مما كسبوا والله لا يهدي القوم الكافرين (٢٦٤)

---

(١) سورة القصص: ٢٠.

(٢) سورة الجمعة: ٩.

(٣) كنز العمال: ٢/ ٥٣. وفيه: لكل حرف، بدل: لكل آية.." (١)

"شركائه في الجيد فأما إذا كان المال كله ردئا فلا بأس بإعطاء الردي لأن الواجب فيه ذلك إلا أن تتطوع.

واعلموا أن الله غني عن نفقاتكم وصدقاتكم حميد محمود في أفعاله.

وعن معبد بن منقذ ان أبا شريح الكعبي صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إذا رأيتموني أتصدق شر ما عندي فاكووني واعلموا إني مجنون.

[سورة البقرة (٢) : الآيات ٢٦٨ الى ٢٧١]

الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا والله واسع عليم (٢٦٨) يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر إلا أولوا الألباب (٢٦٩) وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فإن الله يعلمه وما للظالمين من أنصار (٢٧٠) إن تبدوا الصدقات فنعما هي وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ويكفر عنكم من سيئاتكم والله بما تعملون خبير (٢٧١)

الشيطان يعدكم الفقر أي بالفقر فحذف الباء كقول الشاعر:

أمرتك الخير فافعل ما أمرت به ... فقد تركتك ذا مال وذا نسب «١»

ويقال: وعدته خيرا ووعدته شرا، قال الله تعالى في الخير: وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها «٢» وفي

---

(١) تفسير الثعلبي = الكشف والبيان عن تفسير القرآن الثعلبي ٢/٢٥٧

الشر: النار وعدها الله الذين كفروا «٣» فإذا لم يذكر الخير والشر قلت في الخير:

وعدته، وفي الشر: أوعدته وأنشد أبو عمرو:

وإني وإن أوعدته أو وعدته ... لمخلف أيعادي ومنجز موعدي «٤»

والفقر: سوء الحال وقلة اليد، وفيه لغتان: الفقر والفقر كالضعف والضعف.

وأصله من كسر الفقار، يقال: رجل فقار وفقير، أي مكسور فقار الظهر. قال الشاعر:

وإذا تلسنني ألسنتها ... إنني لست بموهون فقر «٥»

ومعنى الآية: إن الشيطان يخوفكم بالفقر ويقول للرجل أمسك مالك فإن تصدقت افتقرت.

ويأمركم بالفحشاء أي البخل ومنع الزكاة.

وزعم مقاتل [بن حيان] أن كل فحشاء في القرآن فهو الزنا إلا في هذه الآية.

---

(١) تفسير الطبري: ٩/ ١٠١.

(٢) سورة الفتح: ٢٠.

(٣) سورة الحج: ٧٢.

(٤) لسان العرب: ١٤/ ٢٢٣.

(٥) تاج العروس: ٩/ ٣٣٤. [.....]."[١]

"والله يعدكم أي يجازيكم، وعد الله إلهام وتنزيل، ووعد الشيطان وساوس وتخيل.

مغفرة منه لذنوبكم وفضلا أي رزقا وخلفا والله واسع غني عليم يقال:

مكتوب في التوراة: عبدي أنفق من رزقي، أبسط عليك من فضلي.

يؤتي **الحكمة من** يشاء قال السدي: هي النبوة. ابن عباس وقتادة وأبو العالية: علم القرآن: ناسخه ومنسوخه، ومحكمه ومتشابهه، ومقدمه ومؤخره، وحلاله وحرامه.

الضحاك: القرآن والحكم فيه. وقال: في القرآن مائة وتسع آيات ناسخة ومنسوخة، وألف [آية] «١» حلال وحرام، ولا يسع المؤمنين تركهن حتى يتعلموهن فيعلموهن، ولا تكونوا كأهل النهروان تأولوا آيات من القرآن في أهل القبلة وإنما نزلت في أهل الكتاب، جهلوا علمها فسفكوا بها الدماء وشهدوا علينا بالضلال وانتهبوا

---

(١) تفسير الثعلبي = الكشف والبيان عن تفسير القرآن الثعلبي ٢/٢٧٠

الأموال.

فعليكم بعلم القرآن فإنه من علم فيما أنزل لم يختلف في شيء منه نفع وأنتفع به. مجاهد:

أما أنها ليست بالنبوة ولكنها القرآن والعلم والفقه.

وروى ابن أبي نجيح: الإصابة في القول والفعل. ابن زيد: العقل. ابن المقفع: كل قول أو فعل شهد العقل بصحته. إبراهيم: الفهم. عطاء: المعرفة بالله عز وجل. ربيع: خشية الله.

سهل بن عبد الله التستري: الحكمة: السنة.

وقال بعض أهل الإشارة: العلم الرباني. وقيل: إشارة بلا علة، وقيل: إشهاد الحق تعالى على جميع الأحوال.

أبو عثمان: هو النور المفرق بين الإلهام والوسواس. وقيل: تجريد السر لورود الإلهام.

القاسم: أن يحكم عليك خاطر الحق ولا تحكم عليك شهوتك.

بندار بن الحسين وقد سئل عن قوله تعالى يؤتي الحكمة من يشاء. فقال: سرعة الجواب مع إصابة الصواب. وقال أهل اللغة: كل فضل جرك من قول أو فعل وهي أحكام الشيء المفضل.

[...] «٢» الحكمة الرد إلى الصواب، وحكمة الدابة من ذلك لأنها تردها إلى القصد.

منصور بن عبد الله قال: سمعت الكتابي يقول: إن الله بعث الرسل بالنصح لأنفس خلقه، فأنزل الكتب لتنبيه قلوبهم وأنزل الحكمة لسكون أرواحهم، والرسول داع إلى الله، والكتاب داع

---

(١) في المخطوط: آيات.

(٢) كلمة غير مقروءة في المخطوط.." (١)

"قال سعيد بن جبير: يوم وليلة ويوم وليلة عند خلق السموات والأرض إلى أن تقوم الساعة، ثم قرأ: يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل.

يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي قال ابن مسعود وابن جبير ومجاهد وقتادة والضحاك وإبراهيم والسدي وإسماعيل بن أبي خالد وعبد الرحمن بن زيد: يخرج الحيوان من النطفة وهي ميتة، ويخرج النطفة من الحيوان.

عكرمة والكلبي: يخرج الحي من الميت، أي الفرخ من البيضة ويخرج البيضة من الطير.

---

(١) تفسير الثعلبي = الكشف والبيان عن تفسير القرآن الثعلبي ٢٧١/٢

أبو مالك: يخرج النخلة من النواة، ويخرج النواة من النخلة، ويخرج السنبلة من الحبة والحبة من السنبلة.
الحسن: يخرج المؤمن من الكافر، ويخرج الكافر من المؤمن، والمؤمن عبد حي الفؤاد، والكافر عبد ميت الفؤاد يدل عليه قوله: أومن كان ميتا فأحييناه.. «١» .
معمر عن الزهري: أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل على بعض نسائه، فإذا بامرأة حسنة الهيئة، فقال: من هذه؟ قالت: إحدى خالاتك، فقال: إن خالاتي بهذه البلاد [كثير] أي خالاتي هذه؟ قالت: هذه خالدة بنت الأسود بن عبد يغوث، فقال: «سبحان الله الذي يخرج الحي من الميت» [٤٢] . وكانت امرأة صالحة. وكان مات أبوها كافرا «٢» .
الفراء: يخرج الطيب من الخبيث والخبيث من الطيب.
وقال أهل الإشارة: يخرج الحكمة من قلب الفاجر حتى لا تستقر فيه، والسقطة من لسان العارف.
وترزق من تشاء بغير حساب، لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين قال ابن عباس: كان الحجاج بن عمرو وابن أبي الحقيق وقيس بن زيد ظفروا «٣» بنفر من الأنصار ليفتنوهم عن دينهم، فقال رفاعة بن المنذر وعبد الله بن جبير وسعد بن جهيمة لأولئك النفر:
اجتنبوا هؤلاء اليهود، واحذروا لزومهم ومخاطبتهم وملازمتهم فأنزل الله تعالى فيهم هذه الآية.
وقال المقاتلان: نزلت في حاطب بن أبي بلتعة وغيره، كانوا يظهرون المودة لكفار مكة فنهاهم الله عز وجل عن ذلك.

---

(١) سورة الأنعام: ١٢٢.
(٢) مجمع الزوائد: ٩/ ٢٦٤، جامع البيان للطبري: ٣/ ٣٠٦. [.....]
(٣) في المصدر: كظنوا.." (١)

"تعالى قوله فأعرض عنهم بقوله: يا أيها النبي جاهد الكفار «١» بالسيف والمنافقين بالكلام الغليظ.
فإن قيل: ما وجه الحكمة في [أعدائه] ذكر مهلهم. ثم قال (بيت طائفة منهم) فصرف الخطاب من [جلهم] إلى بعضهم.
يقال: إذ إنما عبر عن حال من علم الله وبقي على كفره ونفاقه، فأما من علم أنه يرجع عن ذلك فإنه صفح

---

(١) تفسير الثعلبي = الكشف والبيان عن تفسير القرآن الثعلبي ٤٦/٣

عن ذكرهم، وقد قيل: إنه غير عن حال من أحوالهم قد تستر في أمره، فأما من سمع وسكت فإنه لم يذكرهم، وفي قوله من يطع الرسول فقد أطاع الله دليل على إبطال قول من زعم أن السنة تعرض على الكتاب لم يعمل بها وذلك إن كل ما نص الله عز وجل، عليه فإنما صار فرضا بالكتاب، فإذا عدم النص من الكتاب، وورد به السنة فوجب إتباعها، ومن خالفها فقد خالف رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن خالف رسول الله فقد خالف الله، لأن في طاعة الرسول طاعة الله، فمن زعم أنه لم يقبل خبره إلا بعد أن يعرض على كتاب الله، فقد أبطل كل حكم ورد عنه ما لم ينص عليه الكتاب.

وأما قوله ويقولون طاعة ففيه دليل على أن من لم يعتقد الطاعة فليس بمطيع على الحقيقة، وذلك أن الله تعالى لما تحقق طاعتهم فيما أظهروه، فقال: ويقولون ذلك لأنه لو كان للطاعة حقيقة إلا بالاعتقاد لحكم لهم بها [فثبت] أنه لا يكون المطيع مطيعا، إلا باعتقاد الطاعة مع وجودها.

أفلا يتدبرون القرآن يعني أفلا يتفكرون في القرآن، فيرون بعضه يشبه بعضا، ويصدق بعضه بعضا، وإن أحدا من الخلائق لم يكن يقدر عليه فسيعلمون بذلك إنه من عند الله إذ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا أي تفاوتا وتناقضا كثيرا هذا قول ابن عباس.

وقال بعضهم: ولو كان هو من عند غير الله لوجدوا فيه أي في الإخبار عما غاب عنهم.

ما كان وما يكون اختلافا كثيرا، يعني تفاوتا بينا. إذا الغيب لا يعلمه إلا الله فيعلم بذلك أنه كلام الله وأن محمدا رسول الله صادق، وفي هذه الآية دليل على أن القرآن غير مخلوق إذ هو معرى عن الأخلاق من كل الجهات ولو كان مخلوقا لكان لا يخلو من اختلاف وتفاوت.

وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف الآية، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يبعث السرايا فإذا غلبوا أو غلبوا بادر المنافقون إلى الاستفسار عن حال السرايا فيفشون ويحدثون به قبل أن يحدث به رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله وإذا جاءهم يعني المنافقين، أمر من الأمن

---

(١) سورة التوبة: ٧٣.." (١)

"يسئلك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابا من السماء «١» إلى قوله تعالى: وكان الله عزيزا حكيما «٢» .

---

(١) تفسير الثعلبي = الكشف والبيان عن تفسير القرآن الثعلبي ٣٥٠/٣

لفضحهم وذكر عيوبهم وذنوبهم غضبوا وقالوا: ما أنزل الله على بشر من شيء وأنزل إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح جعله الله تعالى ثاني المصطفى صلى الله عليه وسلم في موضعين من كتابه في أهل الميثاق بقوله تعالى: وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح «٣» والثاني في الوحي، فقال: إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح فإن قيل: ما **الحكمة في** تقديم نوح على سائر الأنبياء وفيهم من هو أفضل منه؟ يقال: لأنه كان أبو البشر قال الله تعالى وجعلنا ذريته هم الباقين وقيل: لأنه أول نبي من أنبياء الشريعة وأول داع ونذير عن الشرك.

وقيل: لأنه أول من عذب أمته لردهم دعوته وأهلك كل الأرض بدعائه عليهم لأنه كان أطول الأنبياء عمرا.

وقيل: إنه كبير الأنبياء، وجعل معجزته في نفسه لأنه عمر ألف سنة ولم ينقص له سن ولم تنقص له قوة ولم يشب له شعر.

وقيل لأنه لم يبالغ أحد من الأنبياء في الدين ما بالغ نوح ولم يصبر على أذى قوم ما صبر نوح وكان يدعو قومه ليلا ونهارا إعلانا وإسرارا وكان يشتم ويضرب حتى يغمى عليه فإذا فاق دعا وبالغ وكان الرجل منهم يأخذ بيد ابنه فيقول له: يا بني احذر هذا فإنه ساحر كذاب. قال الله تعالى وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغى «٤» وقال من عتق عنه [......] «٥» يوم القيامة بعد محمد صلى الله عليه وسلم، وقيل لأن مقامه الشكر قال الله تعالى إنه كان عبدا شكورا «٦» فكما [......] «٧» القرآن فكذلك نوح (عليه السلام) صدر [......] «٨» وقال أول من يدعى إلى الجنة الحمادون لله على كل حال.

وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وهم أولاد يعقوب وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبورا قرأ يحيى بن وثاب، والأعمش وحمزة زبورا بضم الزاي بمعنى جمع زبر وزبور كأنه قال: قد كتبنا صحفا من بعده أي مكتوبة، والباقون بفتح الزاي على أنه كتاب داود المسمى زبورا، وكان داود يبرز إلى البرية فيدعو بالزبور وكان يقوم معه علماء بني إسرائيل فيقومون خلفه. ويقوم الناس خلف العلماء ويقوم الجن خلف الناس، الأعظم فالأعظم في [فلاة] عظيمة ويقوم [الناس] لهذا الجن الأعظم

---

(١) سورة النساء: ١٥٣.

(٢) سورة النساء: ١٦٥.

(٣) سورة الأحزاب: ٧.

(٤) سورة النجم: ٥٢.

(٥) كلمة غير مقروءة.

(٦) سورة الإسراء: ٣.

(٧) كلمة غير مقروءة.

(٨) كلمة غير مقروءة.." (١)

"وروى الحسن عن عبد الله بن معقل قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لولا أن الكلاب أمة من الأمم لأمرت بقتلها فاقتلوا منها الأسود البهيم وأيما قوم اتخذوا كلبا ليس بكلب حرث أو صيد أو ماشية نقصوا من أجورهم كل يوم قيراطا» «١» [١٨] .

عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «من اقتنى كلبا ليس كلب صيد ولا ماشية ولا أرض فإنه ينتقص من أجره قيراطان كل يوم» «٢» [١٩] .

والحكمة في ذلك ما

روى أبو بكر بن أبي شيبة عن عبد الرزاق السريعي قال: قيل لعبد الله بن المبارك: ما تقول في قول المصطفى صلى الله عليه وسلم: «من اقتنى كلبا لا كلب صيد ولا ماشية نقص من عمله كل يوم كذا وكذا من الأجر» «٣» [٢٠] .

فقال حدثني [الأصمعي] قال: قال أبو جعفر المنصور لعمرو بن عبيد: ما بلغك في الكلب؟ قال: بلغني أن من أخذ كلبا لغير زرع ولا حراسة نقص من أجره كل يوم قيراط. فقال له: ولم ذلك؟ قال: هكذا جاء الحديث، قال: خذها بحقها إنما ذلك لأنه ينبح على الضيف ويروع السائل «٤» .

وكانت أسخياء العرب تبغض الكلاب لهذا المعنى وتذم من ربطه وهم بقتله.

قال الثعلبي: أنشدني أبو الحسن الفارسي قال: أنشدني أبو الحسن الحراني البصري أن بعض شعراء البصرة نزل بعمار فسمع لكلابه نبحا فأنشأ يقول:

نزلنا بعمار فأشلى كلابه ... علينا فكدنا بين بيتيه نؤكل

فقلت لأصحابي أسر إليهم ... إذا اليوم أم يوم القيامة أطول «٥» .

قال عطاء بن دينار عن سعيد بن جبير في هذه الآية قال: نزلت في عدي بن حاتم وزيد بن المهلهل

---

(١) تفسير الثعلبي = الكشف والبيان عن تفسير القرآن الثعلبي ٤١٥/٣

[الطائيين] وهو زيد الخيل الذي سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم زيد الخير وذلك إنهما جاءا إلى النبي صلى الله عليه وسلم قالا: يا رسول الله إنا قوم نصيد الكلاب والبزاة فإن كلاب آل درع وآل حورية تأخذ البقر والحمر والظباء والضب فمنه ما يدرك ذكاته ومنه ما يقتل فلا يدرك ذكاته وقد حرم الله الميتة فماذا يحل لنا منها فنزلت يسئلونك يا محمد ماذا أحل لهم قل: أحل لكم الطيبات يعني الذبائح التي أحلها الله وما علمتم يعني وصيد ما علمتم من الجوارح.

(١) مسند أحمد: ٤/ ٨٥
. (٢) صحيح مسلم: ٥/ ٣٨
. (٣) مسند أحمد: ٢/ ٦٠
. (٤) تنوير الحوالك: ٦٩٧ ح ١٧٤٢،
. (٥) عمار: اسم شخص، والبيت في تفسير القرطبي: ٦/ ٧٤
.." (١)

"[قلنا:] نتذاكر الساعة.

قال: «إنها لا تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات: الدخان، ودابة الأرض، وخسفا بالمشرق، وخسفا بالمغرب، وخسفا بجزيرة العرب، ويأجوج ومأجوج، ونارا تخرج من قعر عدن، ونزول عيسى، وطلوع الشمس من مغربها» [١٦٣] «١» .

ويقال: إن الآيات تتابع كالنظم في الخيط عاما فعاما «٢» .

وقال عبد العزيز بن يحيى الكناني: والحكمة في طلوع الشمس من مغربها إن إبراهيم (عليه السلام) قال لنمرود: ربي الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر «٣» .

وأن الملحدة والمنجمة عن آخرهم ينكرون ذلك ويقولون هو غير [كائن] فيطلعها الله تعالى يوما من المغرب ليري المنكرين قدرته فإن الشمس من ملكه إن شاء أطلعها من المطلع وإن شاء من المغرب.

وقال عبد الله بن عمر: يبقى الناس بعد طلوع الشمس من مغربها مائة وعشرين سنة حتى يغرسوا النخل.

قال الله: قل انتظروا إنا منتظرون العذاب إن الذين فرقوا دينهم

(١) تفسير الثعلبي = الكشف والبيان عن تفسير القرآن الثعلبي ١٩/٤

قرأ حمزة والكسائي: فارقوا بالألف أي خرجوا من دينهم وتركوه وهي قراءة علي بن أبي طالب- كرم الله وجهه-، ورواه معاذ عن النبي صلى الله عليه وسلم

وقرأ الباقون مشددا بغير ألف وهي قراءة ابن مسعود وابن عباس وأبي بن كعب أي جعلوا دين الله- وهو واحد دين الحنيفية- أديانا مختلفة فتهود قوم وتنصر آخرون يدل عليه قوله وكانوا شيعا أي صاروا فرقا مختلفة وهم اليهود والنصارى في قول مجاهد وقتادة والسدي والضحاك.

وروى ليث عن طاوس عن أبي هريرة: قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « [إن] هذه الآية إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء وليسوا منك، هم أهل البدع وأهل الشبهات وأهل من هذه الأمة

لست منهم في شيء» ، أي [نفر] منهم ورسول الله [١٦٤] «٤» .

قالوا: وهذه اللفظة منسوخة بآية القتال.

وقال زادان أبو عمر قال لي علي (عليه السلام) : «يا أبا عمر أتدري كم افترقت اليهود؟

---

(١) مسند أحمد: ٤/ ٦

. (٢) تفسير القرطبي: ٧/ ١٤٧

. (٣) سورة البقرة: ٢٥٨

. (٤) جامع البيان للطبري: ٨/ ١٣٩

.." (١)

"فلنسئلن الذين أرسل إليهم يعني الأمم عن إجابتهم الرسل ولنسئلن المرسلين عن تبليغ الأمم فلنقصن عليهم بعلم قال ابن عباس: ينطق لهم كتاب أعمالهم يدل عليه قوله هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق الآية «١» .

وما كنا غائبين عن الرسل فيما يلقون وعن الأمم فيما أجابوا والوزن يومئذ يعني [السؤال] الحق قال مجاهد: والقضاء يومئذ العدل، وقال آخرون: أراد به دون [وزن الأعمال] وذلك أن الله عز وجل ينصب الميزان له [يدان وكفان] يوم القيامة يوزن أعمال العباد خيرها وشرها فيثقل مرة ميزان الحسنات لنجاة من يريد نجاته.

---

(١) تفسير الثعلبي = الكشف والبيان عن تفسير القرآن الثعلبي ٤/ ٢١٠

ويخفف مرة ميزان الحسنات علامة هلاك من يريد هلاكه.

فإن قيل: ما الحكمة في وزن أعمال العباد والله هو العالم بمقدار كل شيء قبل خلقه إياه وبعده قلنا أربعة أشياء: أحدهما: امتحان الله تعالى عباده بالإيمان به في الدنيا، والثاني: جعل ذلك علامة لأهل السعادة والشقاوة في العقبى.

والثالث: تعريف الله عز وجل للعباد ما عند الله من جزاء على خير وشر، والرابع: إلقائه الحجة عليه.

ونظيره قوله هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق «٢» الآية فأخبر ما تأتي الأعمال ونسخها مع علمه بها ما ذكرناه من المعاني والله أعلم.

فمن ثقلت موازينه قال مجاهد: حسناته فأولئك هم المفلحون ومن خفت موازينه إلى قوله تعالى يظلمون يجحدون قال حذيفة: صاحب الموازين يوم القيامة جبرائيل يقول الله تعالى «يا جبرائيل زن بينهم فرد بعضهم على بعض» قال: ليس ثم ذهب ولا فضة وإن كان للظالم حسنات أخذ من حسناته فيرد على المظلوم وإن لم يكن له حسنات يحمل عليه من سيئات صاحبه، يرجع الرجل وعليه مثل الجبال [١٧٢] .

قال ابن عباس: توزن الحسنات والسيئات في ميزان لسان وكفتان فأما المؤمن فيؤتي بعمله في أحسن صورة فيرتفع في كفة الميزان وهو الحق فينقل حسناته على سيئات فيوضع عمله في الجنة يعرفها بعمله فذلك قوله: فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون الناجون ولهم غرف بمنازلهم في الجنة إذا انصرفوا إليها من أهل [الجنة] إذا انصرفوا إلى منازلهم.

وأما الكفار فيؤتى بأعمالهم في أقبح صورة فيوضع في كفة الميزان وهي الباطل فيخف وزنه حتى يقع في النار ثم يقال للكافر: الحق بعملك.

---

(١) سورة الجاثية: ٢٩ [.....]

. (٢) سورة الجاثية: ٢٩

(١) "..

"إن ابن عباس يقول: الحين حينان حين يعرف ويبدل وحين لا يعرف. فأما الحين الذي لا يعرف ولتعلمن نبأه بعد حين «١» وأما الذي يعرف تؤتي أكلها كل حين فهو ما بين العام إلى العام المقبل.

---

(١) تفسير الثعلبي = الكشف والبيان عن تفسير القرآن الثعلبي ٢١٦/٤

فقال: أصبت يا مولى ابن عباس وأحسنت «٢» .
وقال سعيد بن جبير وقتادة والحسن: كل ستة أشهر ما بين عرامها «٣» إلى حملها.
وروى طارق بن عبد الرحمن عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه سئل عن رجل حلف ألا يكلم أخاه حينا فقال: الحين سبعة أشهر، وقرأ هذه الآية.
فقال سعيد بن المسيب: الحين شهران لأن النخلة لا يكون فيها أكلها إلا شهرين.
وقال الربيع بن أنس: كل حين كل غدوة وعشية، كذلك يصعد عمل المؤمن عن أول النهار وآخره، وهي رواية أبي ظبيان عن ابن عباس.
قال الضحاك: كل ساعة ليلا ونهارا، شتاء وصيفا يؤكل في جميع الأوقات. كذلك المؤمن لا يخلو من الخير في الأوقات كلها «٤» .
وقرأ أبو الحكم في تمثيل الله الإيمان بالشجرة فهي أن الشجرة لا تكون شجرة إلا بثلاثة أشياء عود راسخ وأصل قائم وفرع عال. كذلك الإيمان لا يتم ولا يقوم إلا بثلاثة أشياء تصديق بالقلب، وقول باللسان، وعمل بالأبدان.
يدل عليه ما
روى جعفر بن محمد عن أبيه علي بن الحسين عن أبيه الحسين بن علي بن أبي طالب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الإيمان تصديق بالقلب وإقرار باللسان وعمل بالإيمان» [١٦٠] .
لحميد الطويل عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ألا إن مثل هذا الدين مثل شجرة ثابتة، الإيمان أصلها، والزكاة فرعها، والصيام عروقها، والداعي في الله نباتها، وحسن الخلق ورقها، والكف عن محارم الله خضرتها، فكما لا- يكمل هذه الشجرة إلا بثمر طيبة، لا يكمل الإيمان إلا بالكف عن محارم الله» [١٦١] «٥» .
والحكمة في تشبهها إياه بالحنطة من بين سائر الأشجار أنها لما كانت أشبه الأشجار بالإنسان شبهت به وذلك أن كل شجرة إذا قطع رأسها تشعبت بالغصون عن جوانبها والنخلة إذا

---

(١) سورة ص: ٨٨.
(٢) معاني القرآن للنحاس باختصار: ٣/ ٥٢٨.

(٣) العرام: الغشر، راجع لسان العرب: ١٢/ ٣٩٥.

(٤) راجع زاد المسير: ٤/ ٢٦٣. ٢٦٤.

(٥) تفسير القرطبي: ٩/ ٣٦٠.." (١)

"فإن قيل: إنما قال الله سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى فلم قال: إنه أسرى إلى السماء.

فالجواب أنه قال: إنما قال: أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى كان ابتدأ أمر المعراج كان المسري، والعروج كان بعد الإسراء، وقد أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدق، **والحكمة فيه** والله أعلم أنه لو أخبر ابتدأ بعروجه إلى السماء لاشتد إنكارهم وعظم ذلك في قلوبهم ولم يصدقوه، فأخبر بيت المقدس بها فلما تمكن ذلك في قلوبهم وبان لهم صدقة وقامت الحجة عليهم له، أخبر بصعوده إلى السماء العليا وسدرة المنتهى وبقرينة حتى دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى وآتينا موسى الكتاب كما أسرينا بمحمد صلى الله عليه وسلم، وجعلناه هدى لبني إسرائيل الآية يعني ألا تتخذوا من دوني وكيلا ربا وشريكا وكفيلا.

قرأه العامة: يتخذوا بالياء، يعني قلنا لهم لا يتخذوا.

وقرأ ابن عباس ومجاهد وأبو عمر: بالياء واختاره أبو عبيد قال: لأنه خبر عنهم ذرية من حملنا مع نوح فأنجيناهم من الطوفان إنه كان عبدا شكورا.

قال المفسرون: كان نوح (عليه السلام) إذا لبس ثوبا يأكل طعاما أو شرب شرابا. قال:

الحمد لله، فسمي عبدا شكورا.

روى النظر بن شقي عن عمران بن سليم قال: إنما سمي نوح (عليه السلام) عبدا شكورا لأنه كان إذا أكل طعاما قال: الحمد لله الذي أطعمني ولو شاء أجاعني، فإذا شرب قال: الحمد لله الذي سقاني ولو أشاء أظماني وإذا اكتسى قال: الحمد لله الذي كساني ولو أشاء أعراني، فإذا اهتدى قال: الحمد لله الذي هداني ولو أشاء لما هداني فإذا قضى حاجته قال: الحمد لله الذي أخرج عني الأذى في عافية ولو شاء لحبسه.

---

(١) تفسير الثعلبي = الكشف والبيان عن تفسير القرآن الثعلبي ٥/٣١٥

[سورة الإسراء (١٧) : الآيات ٤ الى ٨]
وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلن علوا كبيرا (٤) فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عبادا لنا أولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعدا مفعولا (٥) ثم رددنا لكم الكرة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيرا (٦) إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها فإذا جاء وعد الآخرة ليسوؤا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما علوا تتبيرا (٧) عسى ربكم أن يرحمكم وإن عدتم عدنا وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا (٨)
وقضينا إلى بني إسرائيل إلى قوله حصيرا.
روى سفيان بن سهيل عن منصور بن المعتمر عن ربعي بن خراش قال: سمعت حذيفة بن اليمان قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن بني إسرائيل لما اعتدوا وعتوا وقتلوا الأنبياء بعث الله عليهم." (١)

"أحسن من الذي قلتم ومن الرأي أصوب من الذي رأيتم، ومن الأمر أجمل من الذي أتيتم، وقد كان لا يؤت عليكم من الحق والذمام أفضل من الذي وصفتم، فهل تدرون أيها الكهول حق من انتقصتم وحرمة من انتهكتم، ومن الرجل الذي عبتم واتهمتم؟ ألم تعلموا أن أيوب نبي الله وخيرته وصفوته من أهل الأرض يومكم هذا، ثم لم تعلموا أو لم يطلعكم الله على أنه قد سخط شيئا من أمره منذ أتاه ما أتاه إلى يومكم هذا، ولا على أنه نزع منه شيئا من الكرامة التي أكرمه بها، ولا أن أيوب غير الحق في طول ما صحبتموه إلى يومكم هذا، وإن كان البلاء هو الذي أزري به عندكم ووضعه في أنفسكم، فقد علمتم أن الله سبحانه يبتلي النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، ثم ليس بلاؤه لأولئك بدليل على سخطه عليهم، ولا هو انه لهم، ولكنها كرامة وخيرة لهم، ولو كان أيوب ليس من الله تعالى بهذه المنزلة إلا أنه أخ اجتبيتموه على وجه الصحبة لكان لا يجمل بالحليم أن يعذل أخاه عند البلاء ولا يعيره بالمصيبة ولا يعيبه بما لا يعلم، وهو مكروب جرين، ولكنه يرحمه ويبكي معه ويستغفر له ويحزن بحزنه ويدله على مراشد أمره، وليس بحكيم ولا رشيد من جهل هذا، فالله الله أيها الكهول وقد كان في عظمة الله وجلاله وذكر الموت ما يقطع ألسنتكم ويكسر قلوبكم.
ألم تعلموا أن لله عبادا أسكتتهم خشية من غير عي ولا بكم، وأنهم لهم الفصحاء البلغاء النبلاء الأولياء العالمون بالله وبأيامه، ولكنهم إذا ذكروا عظمة الله انقطعت ألسنتهم واقشعرت جلودهم، وانكسرت قلوبهم،

---

(١) تفسير الثعلبي = الكشف والبيان عن تفسير القرآن الثعلبي ٦/٦٩

وطاشت عقولهم إعظاما لله وإعزازا وإجلالا، فإذا استفاقوا من ذلك استبقوا إلى الله بالأعمال الزاكية، يعدون أنفسهم مع الظالمين والخاطئين، وإنهم لأنزاه برآء، ويعدون أنفسهم مع المقصرين المفرطين، وإنهم لأكياس أقوياء، ولكنهم لا يستكثرون لله الكثير ولا يرضون لله بالقليل، ولا يدلون عليه بالأعمال فهم مروعون مفزعون خاشعون مستكينون.

فقال أيوب: إن الله سبحانه يزرع الحكمة بالرحمة في قلب الصغير والكبير فمتى ثبتت في القلب يظهرها الله على اللسان، وليست تكون الحكمة من قبل السن والشيبة ولا طول التجربة، ولئن جعل الله تعالى العبد حكيما في الصبا لم يسقط منزلته عند الحكماء وهم يرون من الله سبحانه عليه نور الكرامة.

ثم أقبل أيوب على الثلاثة فقال: أتيتموني غضابا رهبتم قبل أن تسترهبوا، وبكيتم من قبل أن تضربوا، كيف بي لو قلت لكم تصدقوا عني بأموالكم! لعل الله أن يخلصني، أو قربوا عني قربانا لعل الله يتقبله ويرضى عني، وإنكم قد أعجبتكم أنفسكم وظننتم أنكم عوقبتم بإحسانكم فهنالك بغيتم وتعززتم ولو نظرتم فيما بينكم وبين ربكم ثم صدقتم لوجدتم لكم عيوبا سترها الله بالعافية التي ألبسكم، وقد كنت فيما خلا والرجال يوقرونني وأنا مسموع كلامي، معروف حقي، منصف من خصمي، فأصبحت اليوم وليس لي رأي ولا كلام معكم، فإنكم كنتم على أشد من مصيبتي.

ثم أعرض عنهم وأقبل على ربه مستعينا به متضرعا إليه فقال: رب لأي شيء خلقتني؟." (١)

"قال: حدثنا محمد بن موسى قال: حدثنا ابن «١» شعيب الحراني قال: حدثنا يحيى بن عبد الله ابن الضحاك قال: سمعت الأوزاعي يقول: بلغني أن في السماء ملكا ينادي كل يوم: ألا ليت الخلق لم يخلقوا، ويا ليتهم إذ خلقوا عرفوا ما خلقوا له وجلسوا فذكروا ما عملوا.

فصل في ذكر وجوه الحكمة في خلق الله سبحانه الخلق

قال المحققون: خلق الله سبحانه الخلق ليدل بذلك على وجوده وكمال علمه وقدرته، إذ لو لم يخلق لم يكن لوجوده معنى.

وأخبرني محمد بن القاسم قال: حدثنا محمد بن يزيد قال: حدثنا الحسن بن سفيان قال:

حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة قال: حدثنا ابن علية عن منصور بن عبد الرحمن قال: قلت للحسن البصري

---

(١) تفسير الثعلبي = الكشف والبيان عن تفسير القرآن الثعلبي ٢٩١/٦

في قوله سبحانه ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك «٢» .

قال: الناس مختلفون على أديان شتى إلا من رحم ربك، ومن رحم ربك غير مختلف.

فقيل له: ولذلك خلقهم؟.

قال: نعم، خلق هؤلاء لجنته وخلق هؤلاء لناره، وخلق هؤلاء لرحمته وخلق هؤلاء لعذابه.

وأخبرنا محمد بن القاسم الفقيه قال: أخبرنا أبو جعفر محمد بن موسى الفقيه قال: حدثنا أبي قال: حدثنا محمد بن خالد «٣» البرقي عن أبيه عن أحمد بن نصر قال: سئل جعفر بن محمد: لم خلق الله الخلق؟

قال: لأن الله سبحانه كان محسنا بما لم يزل فيما لم يزل، إلى ما لم يزل فأراد سبحانه وتعالى أن يفوض إحسانه إلى خلقه وكان غنيا عنهم، لم يخلقهم لجر منفعة، ولا لدفع مضرة، ولكن خلقهم وأحسن إليهم وأرسل إليهم الرسل حتى يفصلوا بين الحق والباطل، فمن أحسن كافأه بالجنة، ومن عصى كافأه بالنار.

وقال محمد بن علي الترمذي: إن الله سبحانه خلق الخلق عبيدا ليعبدوه فيثيبهم على العبودية ويعاقبهم على تركها، فإن عبدوه فهم اليوم عبيد أحرار كرام، وغدا أحرار وملوك في دار السلام، وإن رفضوا العبودية فهم اليوم عبيد أباق سفلة لئام، وغدا أعداء في السجون بين أطباق النيران.

---

(١) في النسخة الثانية: أبو.

(٢) سورة هود: ١١٨- ١١٩.

(٣) في النسخة الثانية: وأخبرنا أبو الحسن محمد بن القاسم الفقيه عن أبي محمد بن خالد.." (١)

"محتوى الجزء السابع من كتاب تفسير الثعلبي

سورة الحج ٥ سورة المؤمنون ٣٧ فصل في ذكر وجوه الحكمة في خلق الله سبحانه الخلق ٦٠ سورة النور ٦٢ ذكر حكم الآية ٧١ باب ذكر بعض ما ورد من الأخبار في الترغيب في النكاح ٩٠ فصل فيمن يستحب ويختار من النساء ٩٢ فصل في الآداب الواردة في النكاح والزفاف ٩٣ سورة الفرقان ١٢٢ سورة الشعراء ١٥٥ سورة النمل ١٨٨ ذكر الأخبار الواردة في صفة دابة الأرض وكيفية خروجها ٢٢٣ سورة

---

(١) تفسير الثعلبي = الكشف والبيان عن تفسير القرآن الثعلبي ٦٠/٧

القصص ٢٣٢ سورة العنكبوت ٢٦٩ سورة الروم ٢٩١ سورة لقمان ٣٠٩ فصل في ذكر بعض ما روي من حكم لقمان ٣١٦ سورة السجدة ٣٢٥." (١)

"الذين اصطفينا من عبادنا وهم أمة محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) . ثم قسمهم ثلاث طبقات ورتبهم على ثلاث درجات فقال الله تعالى: فمنهم ظالم لنفسه قيد اللفظ وعلق الظلم بالنفس فلذلك ساغ أن يكون من أهل الاصطفاء مع ظلمه.

فإن قيل: ما وجه الحكمة في تقديم الظالم وتأخير السابق وإنما يقدم الأفضل؟

فالجواب عنه أن نقول: إنما أخر السابق ليكون أقرب إلى الجنان والثواب، كما قدم الصوامع والبيع والصلوات في سورة الحج على المساجد التي هي أفضل بقاع الأرض، فتكون الصوامع أقرب إلى الهدم والخراب وتكون المساجد أقرب إلى ذكر الله تعالى.

ومنهم من قال: إنما جعل ذلك لأن الملوك إذا أرادوا الجمع بين الأشياء بالذكر قدموا الأدنى على الأفضل.

كقوله تعالى: إن ربك لسريع العقاب وإنه لغفور رحيم «١» ، وقال:

يولج الليل في النهار «٢» ، وقال: يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور «٣» وقال:

خلق الموت والحياة «٤» .

وقيل: قدم الظالم لئلا ييأس من رحمته وأخر السابق لئلا يعجب بعمله.

وقال جعفر الصادق (عليه السلام) : «بدأ بالظالم إخبارا «٥» أنه لا يتقرب إليه إلا بصرف رحمته وكرمه، وأن الظلم لا يؤثر في الاصطفائية ثم ثنى بالمقتصدين لأنهم بين الخوف والرجاء، ثم ختم بالسابقين لئلا يأمن أحد مكر الله وكلهم في الجنة بحرمة كلمة الإخلاص»

[٥٤] «٦» .

وقال بعضهم: قدم الظالم لأنه لم يكن له شيء يتكل عليه إلا رحمة الله فاعتمد على الله واتكل على رحمته واتكل المقتصد على حسن ظنه بربه واتكل السابق على حسناته وطاعته.

وقال محمد بن علي الترمذي: جمعهم في الاصطفاء إزالة للعلل عن العطاء لأن الاصطفاء أوجب الإرث لا الإرث أوجب الاصطفاء لذلك قيل: صحح النسبة ثم أطمع في الميراث.

وقال أبو بكر الوراق: إنما رتبهم هذا الترتيب على مقامات الناس لأن أحوال العبد ثلاث: معصية، وغفلة،

---

(١) تفسير الثعلبي = الكشف والبيان عن تفسير القرآن الثعلبي ٣٣٦/٧

ثم توبة وقربة. فإذا عصى دخل في حيز الظالمين، وإذا تاب دخل في

---

(١) سورة الرعد: ٦.

(٢) سورة الحج: ٦١.

(٣) سورة الشورى: ٤٩.

(٤) سورة الملك: ٢.

(٥) في المصدر: قدم الظالم ليخبر. [.....]

(٦) تفسير القرطبي: ١٤/ ٣٤٩.." (١)

"وقيل: خاطب بلفظ التثنية على عادة العرب، وقد مضت هذه المسألة في قوله سبحانه: ألقيا في جهنم.

وأما الحكمة من تكرارها فقال القتيبي: إن الله سبحانه وتعالى عدد في هذه السورة نعماه، وذكر خلقه آلاءه. ثم أتبع ذكر كل كلمة وضعها، ونعمة ذكرها بهذه الآية، وجعلها فاصلة بين كل نعمتين لينبههم على النعم ويقررهم بها، وهو كقولك لرجل «١» : أحسنت إليه وتابعت بالأيادي، وهو في كل ذلك ينكرك ويكفرك: ألم تكن فقيرا فأغنيتك؟ أفتنكر؟ ألم تكن عريانا فكسوتك؟، أفتنكر هذا؟ ألم أحملك وأنت راحل؟ أفتنكر هذا؟ ألم تكن خاملا فعززتك؟، أفتنكر هذا؟ ألم تكن صرورة فحججت بك؟ أفتنكر هذا؟

والتكرار سائغ في كلام العرب، حسن في مثل هذا الموضع. قال الشاعر:

المم سلومه المم «٢» المم

وقال الآخر:

كم نعمة كانت لكم ... كم كم وكم «٣»

وقال آخر:

فكادت فرارة تصلى بنا ... فاولى فرارة أولى فرارا

وقال آخر:

لا تقطعن الصديق ما طرفت ... عيناك من قول كاشح أشر «٤»

---

(١) تفسير الثعلبي = الكشف والبيان عن تفسير القرآن الثعلبي ١٠٧/٨

ولا تملن من زيارته ... زره وزره وزر وزر وزر
وقال الحسين بن الفضل: التكرار لطرد الغفلة وتأكيد الحجة.

[سورة الرحمن (٥٥) : الآيات ١٤ الى ٣٠]
خلق الإنسان من صلصال كالفخار (١٤) وخلق الجان من مارج من نار (١٥) فبأي آلاء ربكما تكذبان (١٦) رب المشرقين ورب المغربين (١٧) فبأي آلاء ربكما تكذبان (١٨)
مرج البحرين يلتقيان (١٩) بينهما برزخ لا يبغيان (٢٠) فبأي آلاء ربكما تكذبان (٢١) يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان (٢٢) فبأي آلاء ربكما تكذبان (٢٣)
وله الجوار المنشآت في البحر كالأعلام (٢٤) فبأي آلاء ربكما تكذبان (٢٥) كل من عليها فان (٢٦) ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام (٢٧) فبأي آلاء ربكما تكذبان (٢٨)
يسئله من في السماوات والأرض كل يوم هو في شأن (٢٩) فبأي آلاء ربكما تكذبان (٣٠)

---

(١) في المخطوط: كقول الرجل.
(٢) كذا في المخطوط.
(٣) تفسير القرطبي: ١٧/ ١٦٠.
(٤) تفسير القرطبي: ١٧/ ١٦٠.." [١]

"عليك "، والله يعدل مغفرة على تركك هذه المعاصي، وفضلا في الرزق ".
وقال قتادة: " والله يعدكم مغفرة لفحشائكم، وفضلا لفقركم ".
{والله واسع} يعطيكم من سعته، ما شاء لمن شاء.
{عليم} بمن [يطيعه فيتفضل] عليه، ومن يعصيه فيغفر له أو يعاقبه.
وروي أن في التوراة مكتوبا: " عبدي أنفق من رزقي أبسط عليك من فضلي، فإن يدي مبسوطة على كل يد مبسوطة ".
وفي القرآن نظير/ هذا، {ومآ أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين} [سبأ: ٣٩].

---

(١) تفسير الثعلبي = الكشف والبيان عن تفسير القرآن الثعلبي ١٨٠/٩

قوله: {يؤتي الحكمة من يشآء}.

قال ابن عباس: " الحكمة علوم القرآن/ مقدمة ومؤخرة وناسخة ومنسوخة،." (١)

"جيب ذراعها بعد أمن منعته منه إذ لم تعرفه.

وقيل: أمر الله تعالى جبريل A، فنفخ الروح الذي هو روح عيسى في فرجها فحيي بذلك.

ثم قال تعالى: {وجعلناها وابنهآ آية للعالمين} أي: عبرة لعالم زمانهما. والتقدير على مذهب سيبويه: وجعلناها آية وابنها آية، ثم حذف الأولى. أي: علما وحجة على العالمين والمعنى: جعلها آية إذا ولدت من غير فحل، وجعله آية إذ ولد من غير نطفة، وإذ نطق في يوم ولد، وتكلم بالحكمة في ذلك اليوم.

ثم قال تعالى ذكره: {إن هذه أمتكم أمة واحدة}.

أي: وإن هذه ملتكم ملة واحدة، وأنا ربكم أيها الناس فاعبدون، دون الأصنام والأوثان.

قال مجاهد وابن عباس: " أمتكم أمة واحدة " أي: دينكم دين واحد. وأمة نصبت على الحال/.." (٢)

"والحكمة هنا: ما أوحي إلى النبي A من أمر دينه مما لم ينزل به قرآن، وذلك السنة.

قال قتادة: الحمكة السنة امتن (الله) عليهن بذلك.

وقيل: معناه الحكمة من الآيات.

ثم قال: {إن الله كان لطيفا} أي (ذا) لطف بكن إذ جعلكن في البيوت التي يتلى فيها القرآن والسنة.

{خبيرا} بكن إذ اختاركن لرسوله أزواجا.

ثم قال تعالى (ذكره) بعقب (ذكر) ما أمر به أزواج نبيه A.

{ إن المسلمين والمسلمات} الآية، أي: (المتذللين) بالطاعة والمتذللات.

وأصل الإسلام/ التذلل والانقياد والخضوع.

{والمؤمنين والمؤمنات} أي: المصدقين الله ورسوله والمصدقات.

وأصل الإيمان التصديق.." (٣)

---

(١) الهداية الى بلوغ النهاية مكي بن أبي طالب ٨٩٥/١

(٢) الهداية الى بلوغ النهاية مكي بن أبي طالب ٤٨١١/٧

(٣) الهداية الى بلوغ النهاية مكي بن أبي طالب ٥٨٣٥/٩

"{يسألونك عن الأهلة} سأل معاذ بن جبل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن زيادة القمر ونقصانه فأنزل الله تعالى: {يسألونك عن الأهلة} وهي جمع هلال {قل هي مواقيت للناس والحج} أخبر الله عنه أن الحكمة في زيادته ونقصانه زوال الالتباس عن أوقات الناس في حجهم ومحل ديونهم وعدد نسائهم وأجور أجرائهم ومدد حواملهم وغير ذلك {وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها} كان الرجل في الجاهلية إذا إذا أحرم نقب من بيته نقبا من مؤخره يدخل فيه ويخرج فأمرهم الله بتر ك سنة الجاهلية وأعلمهم أن ذلك ليس ببر {ولكن البر} بر {من اتقى} مخالفة الله {وأتوا البيوت من أبوابها} الآية." (١)

"إسحاق؛ لأنه قال: إنه (١) مكث يدعو الآباء فلم يؤمنوا وآمنت طائفة من أولادهم (٢)، وعلى هذين القولين (٣) (الهاء) في (قومه) كناية عن موسى.

= المنذر وأبو الشيخ كما في "الدر المنثور" ٣/ ٥٦٥، ومعناه: إن من أرسل إليهم موسي من قومه لم يؤمنوا به، وطال الزمن حتى كان لهم ذرية آمنت به ثم هلك الآباء الذين لم يؤمنوا، وبقي الأبناء المؤمنون. وهذا القول غير صحيح لعدة أوجه:

أ- قول الله تعالى: {وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك وآلهتك قال سنقتل أبناءهم} [الأعراف: ١٢٧]، يدل على أن قوم موسى صغارا وكبارا آمنوا به وتركوا ما كان يعبد فرعون.

ب- أن مواقف بني إسرائيل المخزية مع نبيهم موسى عليه السلام كأقوالهم فيما أخبر الله عنهم {اجعل لنا إلها}، و {لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة}، و {أتتخذنا هزوا}، و {فاذهب أنت وربك فقاتلا}، وغير ذلك كثير، يدل دلالة واضحة أن جل بني إسرائيل آمنوا على كبر، وليس المؤمنون منهم ذرية صغيرة نشأت على يد موسى وغذاها بغذاء الإيمان.

ج- أن المفسرين ذكروا أن الحكمة من ضرب التيه على بني إسرائيل هلاك الآباء ونشوء ذرية تتربى على عين موسى.

انظر: "تفسير ابن جرير" ١٠/ ١٩٧، "في ظلال القرآن" ٢/ ٨٧١، وقول مجاهد يقتضي أن هلاك الآباء كان في أرض مصر.

---

(١) الوجيز للواحدي الواحدي ص/١٥٣

د- أن تاريخ بني إسرائيل لا يؤيد قول مجاهد هذا، إذ إن من تتبع قصة بني إسرائيل في القرآن الكريم وفي ما ورد من أخبارهم يعلم يقينا أنهم أمة قد نالها من ذل فرعون وطغيانه ما جعلهم يأملون الخلاص من ظلمه على يد نبي منهم، فالعقل والعادة يقتضيان إطباقهم على الإيمان بموسى قناعة بما جاء به، أو رغبة في إصلاح دنياهم وتغيير أوضاعهم ودرء الظلم عنهم، ومجاهد يقول إن الآباء لم يؤمنوا.

(١) ساقط من (ح) و (ز).

(٢) "معاني القرآن وإعرابه" ٣/ ٣٠، وليس في كلامه ما يدل على أنه اختار هذا القول، بل صدره بقوله: قيل: إنه مكث ... إلخ. وهو أسلوب يقتضي عادة عدم القناعة التامة.

(٣) في (ي): (الوجهين).." [1]

"كقولهم: جارية مغنوجة (١)، أي ذات غنج، ولا يقال: غنجتها؛ ومكان مهول: فيه هول، ولا يقال: هلت المكان؛ جعلت فيه الهول؛ ورجل مرطوب: ذو رطوبة، ولا يقال: رطبته (٢).

القول الثاني: أن معنى الحجاب هاهنا: الطبع الذي على قلوبهم، والمنع الذي منعهم عن أن يدركوا ما يأتي به من الحكمة في القرآن فينتفعوا به، وهذا قول قتادة؛ قال: هو الأكنة (٣)، وعلى هذا قوله: {جعلنا بيتك}، أي: بين قولك وقراءتك وفهم ما تأتي به، {وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا}، وهو ما لا يرونه ولا يعلمونه من الطبع على قلوبهم، وإن شئت قلت: حجابا ساترا، على ما ذكرنا.

٤٦ - قوله تعالى: {على قلوبهم أكنة} جمع كنان، وهو ما ستر الشيء (٤)، قال ابن عباس: يريد مثل كنانة النبل (٥).

وقوله تعالى: {أن يفقهوه}، أي: كراهية أن يفقهوه، وأن لا يفقهوه، وقد ذكرنا هذا في مواضع، كقوله: {يبين الله لكم أن تضلوا} [النساء: ١٧٦]، {وفي آذانهم وقرا}: ثقلا وصمما، وفيه إضمار حذف لدلالة الكلام

---

(١) الغنج: الدل، والغنج في الجارية: تكسر وتدلل، وقيل: الغنج: ملاحة العينين. انظر: "اللسان" (غنج) ٦/ ٣٣٠٥.

---

(١) التفسير البسيط الواحدي ٢٨٢/١١

(٢) وردت هذه الأمثله في "تفسير الفخر الرازي" ٢٠/ ٢٢٢، و"أبي حيان" ٦/ ٤٢، و"الدر المصون" ٧/ ٣٦٢.

(٣) أخرجه بلفظه: "عبد الرزاق" ٢/ ٣٧٩، و"الطبري" ١٥/ ٩٣، وورد بلفظه في "تفسير السمرقندي" ٢/ ٢٧٠، انظر: "تفسير البغوي" ٥/ ٩٧، و"ابن الجوزي" ٥/ ٤٠.

(٤) انظر: (كنن) في "تهذيب اللغة" ٤/ ٣١٩٦، و"المحيط في اللغة" ٦/ ١٤٤، و"الصحاح" ٦/ ٢١٨٨، و"اللسان" ٧/ ٣٩٤٢.

(٥) ورد غير منسوب في "تفسير ابن عطية" ٩/ ٩٩، و"الفخر الرازي" ٢٠/ ٢٢٢.." [١]

"وبمن يجزع (١). وقال ابن عباس: يريد بما تعملون (٢).

٢١ - قوله تعالى {وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة} قال المفسرون، وأهل المعاني: لا يخشون ولا يخافون البعث (٣).

كقوله: {إن الذين لا يرجون لقاءنا} [يونس: ٧] {لولا} هلا (٤) {أنزل علينا الملائكة} وكانوا رسلا إلينا (٥) {أو نرى ربنا} فيخبرنا أنك

---

(١) أخرج هذا ابن جرير ١٨/ ١٩٥، عن ابن جريج. وذكره الثعلبي ٩٤ ب، ولم ينسبه. ونسبه له الماوردي ٤/ ١٣٨.

(٢) أخرج ابن أبي حاتم ٨/ ٢٦٧٦، عن عبيد بن عمير: قال تعالى: {وكان ربك بصيرا} قال: يعني: الناس عامة. ولم ينسبه لابن عباس. وقال السمرقندي ٢/ ٤٥٧: عالما بمن يصلح له الغنى، والفقر. وقال الماوردي ٤/ ١٣٩: بصيرا **بالحكمة فيما** جعل بعضكم لبعض فتنة. ولا تعارض بينها. ولم يذكره الواحدي -رحمه الله- في "الوسيط" ٣/ ٣٣٧.

(٣) "معاني القرآن" للفراء ٢/ ٢٦٥. و"مجاز القرآن" لأبي عبيدة ٢/ ٧٣. و"غريب القرآن" لابن قتيبة ص ٣١٢. و"الطبري" ١٩/ ١. وحكى الماوردي ٤/ ١٣٩، فيها ثلاثة أقوال، هذا أحدها ونسبه للسدي، والثاني: لا يبالون، قاله ابن عمير، والثالث: لا يأملون. وهي متقاربة. وفي "تفسير الطوسي" ٧/ ٤٨٢ وإذا

---

(١) التفسير البسيط الواحدي ٣٤٩/١٣

استعملوا الرجاء مع النفي أرادوا به الخوف، كقوله تعالى: {لا ترجون لله وقارا}. وأما ابن عطية ١١/ ٢٣، فقد ذهب إلى أن الرجاء هنا على بابه؛ لأن خوف لقاء الله تعالى مقترن أبدا برجائه، وفي ذكر الكفار بنفي الرجاء تنبيه على غبطة ما فاتهم من رجاء الله تعالى. وهذا توجيه حسن. واختاره ابن جزي ٤٨٣. وأبو حيان ٦/ ٤٥٠. والشوكاني ٤/ ٦٧.

(٤) "تنوير المقباس" ص ٢، ٣ أ. و"تفسير مقاتل" ص ٤٤ أ. و"تفسير هود الهواري" ٣/ ٢٠٦. و"تفسير الطبري" ١٩/ ١ و"معاني القرآن" للزجاج ٤/ ٦٣.

(٥) "تفسير مقاتل" ص ٤٤ أ. وطلبهم إنزال الملائكة إما ليكونوا رسلا إليهم كما ذكر الواحدي هنا، واقتصر عليه، وكذا في "الوسيط" ٣/ ٣٣٨. وإما لكي يصدقوا الرسول. كما قال تعالى {لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا}. وذكره في "الوجيز" ٢/ ٧٧٧، واقتصر عليه. وذكر الوجه الثاني الهواري ٣/ ٢٠٦، واقتصر =." (١)

"الآية (١).

٥٨ - قوله تعالى: {وتوكل على الحي الذي لا يموت} ظاهر التفسير إلى آخر الآية.

٥٩ - وقوله: {الذي خلق السماوات والأرض} مفسر في سورة الأعراف (٢). إلى قوله {فاسأل به خبيرا} قال الكلبي: يقول: فأسأل الخبير بذلك (٣). وعلى هذا الكناية في: {به} تعود إلى ما ذكر من خلق السماوات، والأرض، والاستواء على العرش، والباء: من صلة الخبير قدم عليه، وذلك الخبير هو: الله -عز وجل-، وقيل: جبريل -عليه السلام- (٤). وقيل: هذا الخطاب ظاهره للنبي -صلى الله عليه وسلم- والمراد به غيره (٥).

= يتخذ إلى ربه سبيلا فليتخذه. ويحتمل أن يكون المعنى: أن تتخذوا إلى ربكم سبيلا بالتقرب إليه، وعبادته، فالاستثناء على هذا متصل. تفسير ابن جزي ٤٨٦. وذكر القولين أبو حيان ٦/ ٤٦٥، واستظهر القول بأن الاستثناء منقطع.

(١) في "تفسير مقاتل" ص ٤٦ ب: {سبيلا} طاعته. وهو قول قتادة؛ أخرجه عنه ابن أبي حاتم ٨/

---

(١) التفسير البسيط الواحدي ٤٤٩/١٦

٢٧١٢. ولم يجعله في "تنوير المقباس" ص ٣٠٤، متعلقا بالأجر، وإنما جعله راجعا إلى الإيمان، والتوحيد. قال الهواري ٣/ ٢١٥: أي: إنما جئتكم بالقرآن ليتخذ به من آمن إلى ربه سبيلا بطاعته. أي: تقرب به إلى الله. وقريب من كلام الواحدي، في "تفسير ابن جرير" ١٩/ ٢٧.

(٢) عند قوله تعالى: {إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام} [الأعراف: ٥٤]، حيث تكلم عن كلمة: ستة، وبين أصل اشتقاقها، والمراد بها في الآية، والحكمة من ذلك، ثم تكلم عن بقية معاني الآية في خمس صفحات.

(٣) "الوسيط" ٣/ ٣٤٤، ونسبه البغوي ٦/ ٩١، للكلبي. وهذا القول اختيار الهوارى ٣/ ٢١٥: أي: خبيرا بالعباد.

(٤) "تفسير الثعلبي" ٨/ ١٠١ أ، بنحوه.

(٥) وجزم به في "الوسيط" ٣/ ٣٤٤. وكذا البغوي، في "تفسيره" ٦/ ٩١.." [1]

"الرعد (١). وقوله: {رواسي أن تميد بكم} مفسر في سورة النحل (٢).

١٢ - قوله تعالى: {ولقد آتينا لقمان الحكمة} قال سعيد بن المسيب: كان لقمان أسود من أهل مصر، خياطا (٣).

وقال مجاهد: كان لقمان الحديث (٤) رجلا أسود عظيم المشافر (٥) (٦). وأكثر العلماء على أنه لم يكن نبيا (٧).

وروي ذلك عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: "لم يكن لقمان نبيا، ولكن كان عبدا كثير التفكر، حسن اليقين، أحب الله فأحبه" (٨).

وقال عكرمة والسدى: كان نبيا (٩). وهو قول ابن عباس في رواية عطاء (١٠). وهؤلاء فسروا الحكمة في هذه الآية بالنبوة.

وقال مجاهد في تفسير الحكمة هاهنا: الفقه والعقل وإصابة في القول

---

(١) عند قوله تعالى: {الله الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها} [الآية: ٢].

---

(١) التفسير البسيط الواحدي ٥٥٥/١٦

(٢) عند قوله تعالى: {وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم} [الآية: ١٥].
(٣) انظر: "تفسير الماوردي" ٤/ ٣٣١.
(٤) هكذا في جميع النسخ، ولعل الصواب: (الحكيم).
(٥) المشافر: جمع مشفر وهي الشفاه الغليظة.
(٦) ذكر قول مجاهد: "الثعلبي في تفسيره" ٣/ ١٧٢ أ، قال: كان لقمان عبدا أسود عظيم الشفتين متشقق القدمين. وذكره القرطبي في "تفسيره" ١٤/ ٥٩.
(٧) حكى الثعلبي في "تفسيره" ٣/ ١٧٢ أالإجماع على أن لقمان كان حكيما ولم يكن نبيا. إلا عكرمة فإنه قال: كان نبيا، تفرد بهذا القول.
(٨) ذكره الثعلبي في "تفسيره" ٢/ ١٧٢ ب، عن ابن عمر، وذكره القرطبي في "تفسيره" ١٤/ ٥٩، عن ابن عمر أيضا.
(٩) انظر: "تفسير الطبري" ٢١/ ٦٨، "بحر العلوم" ٣/ ٢٠.
(١٠) لم أجد فيما عندي من مراجع من نسب القول بنبوة لقمان إلى ابن عباس رضي الله عنهما.." [(١)]

"قال الشنفرى (١):

فلا تدفنوني إن دفني محرم ... عليكم ولكن خامري أم عامر (٢)

أراد: ولكن دعوني للتي يقال لها إذا أريد صيدها: خامري أم عامر، فحذف (٣).

قال الزجاج: ويجوز أن يكون هذا القول من الملائكة على وجه استعلام وجه الحكمة، لا على الإنكار. معناه: كيف تجعل في الأرض من يفسد ويسفك الدماء ونحن نسبحك الآن إذ أجليناهم (٤) وصرنا سكانها، فأخبرنا (٥) وجه **الحكمة فيه** (٦).

---

(١) الشنفرى: شاعر جاهلي من الأزد، والشنفرى اسمه، وقيل: لقبه ومعناه: العظيم الشفة، انظر: "الخزانة" ٣/ ٣٤٣، "الأعلام" ٥/ ٨٥.
(٢) البيت قاله الشنفرى الأزدي في قصة طويلة انظر تفاصيلها في "الخزانة" ٣/ ٣٤٤ - ٣٤٨، ويروى البيت (لا تقتلوني)، (إن قبري)، (ولكن أبشري) وفي "ذيل الأمالي" (لا تقتلوني)، (إن قتلي). وأم عامر:

---

(١) التفسير البسيط الواحدي ٩٩/١٨

كنية الضبع و (خامري) أي استتري، يريد دنو الضبع مستخفية ملازمة لمكانها حتى تخالط القتيل فتصيب منه. والمعنى:

يقول لا تدفنوني بعد قتلي واتركوني للتي يقال لها (أم عامر).

ورد البيت في "تفسير الطبري" ١/ ٢١٠، "الحماسة بشرح المرزوقي" ٢/ ٤٨٧، "الشعر والشعراء" ص ٣١، "ذيل الأمالي" للقالي ٣/ ٣٦، "الخزانة" ٣/ ٣٢٧.

(٣) السؤال الذي ذكره الواحدي والإجابة عنه، ورد عند الطبري في "تفسيره" ١/ ٢١٠.

(٤) في (ب): (اخليناهم).

(٥) في (ب): (فأضرها).

(٦) نقل الواحدي كلام الزجاج بمعناه، ومنه قوله: (روي أن خلقا يقال لهم: (الجان) كانوا في الأرض فأفسدوا وسفكوا الدماء. فبعث الله ملائكته فأجلتهم من الأرض، وقيل: إن هؤلاء الملائكة صاروا سكان الأرض بعد الجان .. إلخ) وهذا يوضح قول الواحدي: (ونحن نسبحك الآن إذ أجليناهم وصرنا سكانها). "معاني القرآن" للزجاج ١/ ٧٦.." (١)

"٣٢ - فقال الله -عز وجل- إنكارا وردا عليهم: {أهم يقسمون رحمت ربك} قال ابن عباس: نبوة ربك، وهو قول جميع المفسرين (١)، والمعنى: أنهم [أعرضوا] (٢) على الله بقولهم لم لم ينزل هذا القرآن على غير محمد؟ فبين الله -عز وجل- أنه هو الذي يقسم بفضله ورحمته لا غير، وقال مقاتل في هذه الآية: أبأيديهم مفاتيح الرسالة فيضعونها حيث شاءوا، أي: أنها ليست بأيديهم، ولكنا نختار لها من نشاء من عبادنا (٣).

ثم قال قوله تعالى: {نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا} قال ابن عباس: يريد أرزاقهم (٤)، واختلفوا في معنى ذكر سبب قسمة المعيشة هاهنا، فقال مقاتل في هذه الآية: يقول لم أعط الوليد وأبا مسعود الذي أعطيناهما من الغنى لكرامتهما على الله، ولكنه قسمة من الله بين الخلق (٥)، فعلى هذا المعنى: نحن أعطيناهما ذلك فلا يغر بهما الغنى ولا يبطر بهما النعمة، فإن من قسمها لهما قادر على نزعها عنهما، ثم ذكر الحكمة في تفضيل بعض على بعض في الرزق في باقي الآية.

وقال أهل المعاني: إن الله قسم النبوة كما قسم الرزق في المعيشة، فليس لأحد أن يتحكم في شيء من

---

(١) التفسير البسيط الواحدي ٢/٣٢٧

ذلك، وكما فضلنا بعضهم فوق بعض في الرزق والمنزلة، كذلك اصطفينا للرسالة من نشاء، وعلى هذا معنى الآية: إنا تولينا قسم معيشتهم، كذلك تولينا قسم النبوة بالرحمة، فلا

---

(١) انظر: "تفسير الطبري" ١٣/ ٦٥، "الثعلبي" ١٠/ ٨٢ أ، "الماوردي" ٥/ ٢٢٣.

(٢) كذا في الأصل، ولعل الصواب (اعترضوا).

(٣) انظر: "تفسير مقاتل" ٣/ ٧٩٤.

(٤) لم أقف عليه.

(٥) انظر: "تفسير مقاتل" ٣/ ٧٩٤.." [1]

"وقوله تعالى: {كذلك}، أي كما أضل من أنكر عدد الخزنة، ولم يؤمن به، وهدى من صدق ذلك وآمن به.

{يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء}.

وأنزل في قول أبي جهل: أما لمحمد من الجنود إلا تسعة عشر: {وما يعلم جنود ربك إلا هو}، قال مقاتل: أي من الكثرة (١).

وذلك أنهم استقلوا ذلك العدد، فأخبر الله تعالى عن كثرة جنوده، بأن أعيانهم وعددهم لا يعلمها إلا هو.

وقال عطاء: "جنود ربك" يعني: من الملائكة الذين خلقهم، يعذبون أهل النار، لا يعلم عدتهم إلا الله (٢).

وعلى هذا "تسعة عشر" هم خزنة النار، ولهم الأعوان والجنود من الملائكة ما لا يعلمه إلا الله.

ثم رجع إلى ذكر سقر فقال: {وما هي إلا ذكرى للبشر}.

قال ابن عباس (٣)، (ومقاتل (٤)) (٥)، أي: موعظة وتذكرة للعالم.

وقال أبو إسحاق: جاء في التفسير أن النار في الدنيا تذكر النار في

= الحكمة في ذكر هذا هاهنا، قال الله تعالى: {كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء}، أي: من مثل هذا وأشباهه بتأكيد الإيمان في قلوب أقوام، ويتزلزل عند آخرين، وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة. "تفسير القرآن العظيم" ٤/ ٤٧٤.

---

(١) التفسير البسيط الواحدي ٣٤/٢٠

(١) "تفسير مقاتل" ٢١٦/ ب.

(٢) "معالم التنزيل" ٤/ ٤١٧.

(٣) لم أعثر على مصدر لقوله، وقد ورد في الوسيط: ٤/ ٣٨٥ من غير عزو.

(٤) "تفسير مقاتل" ٢١٦/ ب.

(٥) ما بين القوسين ساقط من: (أ).." [١]

"النبيين، وإن آدم لمنجدل في طينته، وسوف أنبئكم بتلك دعوة أبي إبراهيم {ربنا وابعث فيهم}. الآية، وبشارة عيسى قومه: {ومبشرا برسول} [الصف: ٦]، ورؤيا أمي، التي رأت أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام (١) ".

وقوله تعالى: {ويعلمهم الكتاب والحكمة} قال ابن عباس: يريد القرآن الذي أنزل عليه، وما فيه من الفرائض والأحكام والسنن وشرائع النبيين (٢).

فعلى هذا الحكمة: هي نفس الكتاب، وجمع بينهما لاختلاف اللفظين. **والحكمة في** اللغة: فهم المعاني، وبه قال مجاهد، فإنه قال: يعنى بالحكمة فهم القرآن (٣).

وقال عبد الله بن مسلم: هي العلم والعمل، ولا يسمى الرجل حكيما

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في "المسند" ٤/ ١٢٧، وابن حبان (٦٤٠٤)، والحاكم ٢/ ٤١٨، ٦٠٠، والبيهقي في "الدلائل" ١/ ٣٨٩، والبغوي في "تفسيره" ١٥/ ١٥١، وفي "شرح السنة" ١٣/ ٢٠٧، والطبري ١/ ٥٥٦، والطبراني ١٨/ ٢٥٢ (٦٢٩)، (٦٣٠)، والبخاري في "تاريخه" ٦/ ٦٨ والثعلبي في "تفسيره"، وآخرون من حديث العرباض بن سارية وروايتهم: وسأنبئكم بتأويل ذلك، أو سأنبئكم بأول ذلك، أو سأخبركم عن ذلك، وذكر الآيات ليس في الرويات، ومعنى منجدل: أي: ملقى على الجدالة وهي الأرض، والحديث صححه ابن حبان والحاكم، وقال: الهيثمي: أحد أسانيد أحمد رجاله رجال الصحيح غير سعيد بن سويد وثقه ابن حبان، وينظر: "الكشاف" لابن حجر ص١٠، وهو صحيح لغيره.

(٢) لعله من رواية عطاء، وينظر: "تفسير الطبري" ١/ ٥٥٧، عن قتادة وغيره "المحرر الوجيز" ١/ ٢١٢.

---

(١) التفسير البسيط الواحدي ٤٤٢/٢٢

(٣) ذكره الثعلبي في "تفسيره" ١/ ١١٨٨ عن مجاهد، وعنه البغوي ١/ ١١٨٨، "الخازن" ١/ ١١٢، وذكره أبو حيان في "البحر المحيط" ١/ ٣٩٣.." (١)

"وشهر مستهل بعد شهر ... وحول بعده (١) حول جديد (٢) (٣)

قال ابو إسحاق: فعال يجمع في أقل العدد على أفعلة، نحو: مثال وأمثلة، وحمار وأحمرة، وفي أكثر العدد يجمع على فعل، نحو: مثل وحمر، إلا أنهم كرهوا في التضعيف فعلا، نحو هلل وحلل (٤)، واقتصروا على جمع أدنى العدد، كما اقتصروا في ذوات الياء والواو على ذلك، نحو: أكسية وأردية، للقليل والكثير (٥).

أخبر الله سبحانه أن **الحكمة في** زيادة القمر ونقصانه زوال الالتباس عن أوقات الناس في حجهم (٦)، وحل ديونهم، وعدد نسائهم، وأجور أجرائهم، ومدد حواملهم، ووقت صومهم وإفطارهم، فقال: {قل هي مواقيت للناس والحج} (٧).

والمواقيت: جمع الميقات، والميقات: الوقت، كالميعاد بمعنى الوعد. وقال بعضهم: الميقات: منتهى الوقت، قال الله تعالى {فتم ميقت ربه} [الأعراف: ١٤٢] والهلال: ميقات الشهر، ومواضع الإحرام:

---

(١) في (م): (بعد).

(٢) البيت بلا نسبة في "لسان العرب" ٨/ ٤٦٩٠ (هلل). ورواية "تهذيب اللغة" ٤/ ٣٧٨٤ (هلل: ويوم بعده يوم قريب).

(٣) ينظر في هلال: "تهذيب اللغة" ٤/ ٣٧٨٤ - ٣٧٨٨، "المفردات" ص٥٢٢، "اللسان" ٨/ ٤٦٩٠ (هلل).

(٤) في "معاني القرآن" للزجاج: نحو هلل وخلل، فقالوا: أهلة وأخلة.

(٥) من "معاني القرآن" ١/ ٢٦٢.

(٦) في (ش): (حجتهم).

(٧) "تفسير الثعلبي" ٢/ ٣٩٢، وينظر: "تفسير الطبري" ٢/ ١٨٥، "البحر المحيط" ٢/ ٦١.." (٢)

---

(١) التفسير البسيط الواحدي ٣/٣٢٤

(٢) التفسير البسيط الواحدي ٣/٦١٧

"وقال آخرون: إنهم نهوا عن ابتدائهم بقتل أو قتال، حتى يبتدئ المشركون بذلك، وهذه الآية محكمة. ولا يجوز الابتداء بالقتال في الحرم، وعلى هذا أكثر المفسرين، وغلطوا مقاتلا فيما قال (١).
وقرأ حمزة والكسائي (ولا تقتلوهم) (حتى يقتلوكم) (فإن قتلوكم) هذه الثلاثة بغير ألف (٢)، وجاز ذلك، وإن وقع القتل ببعض دون بعض؛ لأن العرب تقول: قتلنا بني تميم، وإنما قتلوا بعضهم (٣).

١٩٣ - وقوله تعالى: {وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة} أي: شرك (٤)، يعني: قاتلوهم حتى يسلموا، فليس يقبل من المشرك الوثني جزية، ولا يرضى منه إلا بالإسلام (٥)، {ويكون الدين}، أي: الطاعة والعبادة {لله}

= والقرطبي ٢/ ٣٣٠، وابن كثير ١/ ٢٤٢ قال النحاس في "الناسخ والمنسوخ" ١/ ٥١٩: هذه الآية من أصعب ما في الناسخ والمنسوخ.
(١) ينظر: "التفسير الكبير" ٥/ ١٣٠، "تفسير القرطبي" ٢/ ٣٣٠، ونسبه الطبري في "تفسيره" ٢/ ١٩٢ إلى مجاهد، وقال القرطبي: وبه قال طاوس، وهو الذي يقتضيه نص الآية، وهو الصحيح من القولين، وإليه ذهب أبو حنيفة وأصحابه، ثم استدل بحديث ابن عباس، وفيه: وإنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلي ولم يحل لي إلا ساعة من نهار فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، وقد ذكر -رحمه الله- أدلة الفريقين.
(٢) قرأ حمزة والكسائي وخلف بحذف الألف في الثلاثة، والباقون بإثباتها. "النشر" ٢/ ٢٢٦ - ٢٢٧.
(٣) "معاني القرآن" للزجاج ١/ ٢٦٤، "تفسير الثعلبي" ٢/ ٤٠٩.
(٤) ينظر: "تأويل مشكل القرآن" ٣٧٤، "تفسير الطبري" ٢/ ١٩٤، وابن أبي حاتم في "تفسيره" ١/ ٣٢٧ حيث ذكر الآثار في ذلك عن ابن عباس ومجاهد وقتادة والسدي والربيع وابن زيد. وينظر: "تفسير الثعلبي" ٢/ ٤١١.
(٥) "تفسير الثعلبي" ٢/ ٤١١، وقد ذكر عن المفضل بن سلمة الحكمة في أخذ الجزية =." (١)
"أرى الموت يعتام الكرام ويصطفي ... عقيلة مال الفاحش المتشدد (١) (٢)
{والله يعدكم} أن يجازيكم على صدقتكم {مغفرة} لذنوبكم، وأن يخلف عليكم (٣).

---

(١) التفسير البسيط الواحدي ٦٢٦/٣

٢٦٩ - قوله تعالى: {يؤتي الحكمة من يشاء} الآية. ابن عباس (٤) وقتادة (٥)، وأكثر المفسرين (٦) على أن المراد بالحكمة هاهنا: علم القرآن، والفهم فيه، والفقه في الدين.

وقال السدي: هي النبوة (٧)، وقال مجاهد، في رواية ابن أبي نجيح (٨): هي الإصابة في القول والفعل (٩).

---

(١) البيت في "ديوانه" ص ٣٤، و"لسان العرب" ٤/ ٢٢١٥ (مادة: شدد) ٦/ ٣٣٥٦ (مادة: فحش) ٥/ ٣١٩٥ مادة: عيم.

(٢) "تهذيب اللغة" ٣/ ٢٧٤٦، وينظر "المفردات" ٣٧٥ - ٣٧٦.

(٣) "تفسير الثعلبي" ٢/ ١٦٣٠.

(٤) رواه أبو عبيد في "الناسخ والمنسوخ" ص ٥، والطبري في "تفسيره" ٣/ ٨٩، و"ابن أبي حاتم" في تفسيره ٢/ ٥٣.

(٥) رواه عبد الرزاق في "تفسيره" ١/ ١٠٩، والطبري ٣/ ٨٩، وذكره البغوي ١/ ٣٣٤.

(٦) ينظر: "تفسير الطبري" ٣/ ٨٩، "تفسير ابن أبي حاتم" ٢/ ٥٣١، "تفسير الثعلبي" ٢/ ١٦٣١، "الدر المنثور" ٢/ ٦٦.

(٧) رواه عنه الطبري في "تفسيره" ٣/ ٩١، وا بن أبي حاتم في "تفسيره" ٢/ ٥٣٢، وذكره الثعلبي في "تفسيره" ٢/ ١٦٣١، والبغوي في "تفسيره" ١/ ٣٣٤.

(٨) هو: أبو يسار عبد الله بن يسار بن أبي نجيح المكي الثقفي، مفسر، أخذ التفسير عن مجاهد وعطاء، من الرواة الثقات لكنه رمي بالقدر ولم يثبت عنه ذلك، توفي سنة ١٣١هـ. ينظر: "طبقات المفسرين" للداودي ١/ ٢٥٨، "التقريب" ص ٣٣٠ (٣٧١٩).

(٩) في "تفسير مجاهد" ١/ ١١٦، ورواه الدارمي في "السنن" ٢/ ٤٣٦، والطبري في "تفسيره" ٣/ ٩٠، وابن أبي حاتم في "تفسيره" ٢/ ٥٣٢.." (١)

---

(١) التفسير البسيط الواحدي ٤/ ٤٣٠

"بالقرآن لعباده الهدى والبيان؟ فيقال: إن القرآن نزل بألفاظ العرب ومذاهبها في: الإيجاز؛ (للاختصار) (١)، والإطالة؛ (للتوكيد) (٢)، والإشارة إلى الشيء، واغماض بعض المعاني؛ حتى لا يظهر عليه إلا اللقن (٣). ولو كان القرآن كله ظاهرا مكشوفا، حتى يستوي في معرفته العالم والجاهل، لبطل التفاضل بين الناس، وسقطت المحنة، وماتت الخواطر. ومع الحاجة تقع الفكرة (٤) والحيلة، ومع الكفاية يقع العجز والبلادة (٥).

وأصل التشابه (٦): أن يشبه اللفظ اللفظ في (الظاهر) (٧)، والمعنيان مختلفان. قال الله عز وجل في وصف ثمار الجنة: {وأتوا به متشابها} [البقرة: ٢٥]؛ أي: متفق المناظر، [و] (٨) مختلف الطعوم (٩).

---

(١) في (د)، "وتأويل المشكل": (والاختصار).

(٢) في "تأويل المشكل": (والتوكيد).

(٣) في (د): (الكفر). واللقن، هو: سريع الفهم. انظر: "القاموس" ص ١٢٣٢١ (لقن).

(٤) في (ج): (النكر).

(٥) انظر الحكمة في ورود المحكم والمتشابه في القرآن، في "الكشاف" ١/ ٤١٢، "تفسير الفخر الرازي" ٧/ ١٨٥ - ١٨٦، "البرهان في علوم القرآن" للزركشي: ٢/ ٧٥، "الفوائد الجميلة على الآيات الجليلة" للرجراجي: ١٦١، "أقاويل الثقات في تأويل الأسماء والصفات" للكرمي: ٥٠، "نور من القرآن" لعبد الوهاب خلاف: ٦٧، "علوم القرآن" د. عدنان زرزور: ١٧٧، "الناسخ والمنسوخ بين الإثبات والنفي" لعبد المتعال الجبري: ١٣٥.

(٦) من قوله: (وأصل التشابه ..) إلى (.. وإن لم يكن غموضه من هذه الجهة، مشكل): نقله بتصرف واختصار يسيرين عن "تأويل مشكل القرآن" ١٠١ - ١٠٢.

(٧) (الظاهر): ساقطة من: (ج).

(٨) ما بين المعقوفين: زيادة من: (ج).

(٩) ممن قال هذا: ابن مسعود، وابن عباس، ومجاهد، والحسن، والربيع، وغيرهم.=." [1]

---

(١) التفسير البسيط الواحدي ٣٩/٥

"المتشابه ممن ينكر أمر البعث.

وقوله تعالى: {إن الله لا يخلف الميعاد} [يجوز أن يكون إخبارا عن المؤمنين أنهم قالوا ذلك، فيكون متصلا بما قبله، لكنه على تلوين الخطاب (١)، و] (٢) يجوز أن يكون استئنافا، أخبر الله تعالى أنه لا يخلف الميعاد. ولا يدل هذا على تخليد مرتكبي الكبائر من المسلمين في النار، وإن وعد ذلك بقوله: {ومن يعص الله ورسوله} [النساء: ١٤]. الآية؛ لأن المراد بالميعاد (٣) ههنا يوم القيامة (٤) لأن الآية وردت في ذكره. أو يحمل [هذا (٥) على ميعاد الأولياء دون وعيد الأعداء؛ لأن خلف الوعيد كرم (٦) عند العرب] (٧)، والدليل: أنهم يمدحون بذلك، ومنه قول الشاعر:

---

(١) يعني بتلوين الخطاب، أي: الانتقال من أسلوب الخطاب في قوله تعالى: {ربنا إنك} إلى أسلوب الغيبة في قوله: {إن الله}. قال أبو حيان ذاكرا الحكمة في تغيير الأسلوب، هنا: (لما في ذكره باسمه الأعظم من التفخيم والتعظيم والهيبة ..) "البحر المحيط" ٢/ ٣٨٧.

(٢) ما بين المعقوفين زيادة من: (ج)، (د).

(٣) في (ب): (المعاد).

(٤) ومما يؤكد ذلك لغة أن الميعاد هو: وقت الوعد وموضعه، ففي "تهذيب اللغة" (والميعاد، لا يكون إلا وقتا أو موضعا) وفي "اللسان" (والموعد: موضع التواعد، وهو الميعاد). انظر مادة (وعد) في "تهذيب اللغة" ٤/ ٣٩١٥، "الصحاح" ٢/ ٥٥٢، و"اللسان" ٨/ ٤٨٧١، و"القاموس المحيط" ٣٢٦. لكن أبا عبيدة في "مجاز القرآن" ٢/ ١٤٩، ١٨٩: ذكر أن الوعد والميعاد والوعيد، واحد. وعلى الرغم من هذا، فإن سياق الآية وأقوال من سبق من أهل اللغة، يؤكد ما ذكره المؤلف من أن الآية لا دلالة فيها على تخليد مرتكبي الكبائر من المسلمين في النار.

(٥) أي: على فرض التسليم بدلالة الآية على ما ذكر.

(٦) في (د): (لزم).

(٧) ما بين المعقوفين زيادة من: (ج)، (د).." [1]

---

(١) التفسير البسيط الواحدي ٥/٦٥

"وانعامه عليه (١).

٣٢ - قوله تعالى {قل أطيعوا الله والرسول} قيل: لما نزل (٢) قوله: {قل إن كنتم تحبون الله}، الآية، قال عبد الله بن أبي (٣): إن محمدا يجعل طاعته كطاعة الله، ويأمرنا أن نحبه كما أحبت النصارى عيسى، فنزلت هذه الآية (٤) وبين فيها أن طاعة الله معلقة بطاعة الرسول، ولا يتم لأحد طاعة الله، مع عصيان الرسول؛ ولهذا قال الشافعي - رضي الله عنه -: كل أمر أو نهي، ثبت عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، جرى ذلك في الفريضة واللزوم، مجرى ما أمر الله به

---

(١) نقل القرطبي في تفسيره قريبا من هذا القول عن الأزهري. انظر: "تفسير القرطبي" ٤/ ٦٠، "فتح القدير" ١/ ٥٠١، "فتح البيان" ٢/ ٤٢.

وما ذكره المؤلف هنا في محبة الله تعالى هو ما عليه مذهب الأشاعرة؛ حيث ينفون هذه الصفة، وغيرها من الصفات، عن الله تعالى ويءطلونها، ويفسرونها إذا وردت في القرآن والسنة بلوازمها ومقتضياتها، من إرادة الثواب للعبد والعفو عنه والإنعام عليه كما فعل المؤلف، فينفون حقيقة صفة الله، ويحرفونها ويؤولونها، بدعوى أنها توهم النقص في الذات العلية؛ لأن المحبة عندهم، هي: ميل القلب إلى ما يلائم الطبع، وهذا من صفات المخلوق، والله منزه عن ذلك الأمر الذي دعاهم إلى تأويل صفة المحبة، وحملها على الإرادة كما فعل المؤلف.

والذي أوقع الأشاعرة في هذا الخطأ العقدي، هو قياسهم صفات الخالق على صفات المخلوق. ومن قواعد منهج السلف الصالح: أن الكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات، فكما أن ذات الحق لا تشبه ذوات الخلق، فكذلك صفاته. ومن قواعدهم: أن القول في بعض الصفات كالقول في بعضها الآخر، فيثبت السلف جميع صفات الله، ويمرونها كما جاءت بما يليق بذاته العلية، ولا يؤولونها، ومنها: صفة المحبة. ويثبتون كذلك لوازمها من إرادة الله إكرام من يحبه وإثابته، فالله تعالى يحب، ويحب لذاته، وليس فقط لثوابه، كما قال: {فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه} [المائدة: ٥٤].

وتأويل الأشاعرة ومنهم المؤلف لصفة المحبة بالإرادة، إنما هو حرف لحقيقة الصفة، وصرف لها عن وجهها الصحيح، ويقال لهم: إن المعنى الذي صرفتم اللفظ إليه، هو نفس المعنى الذي صرفتموه عنه، فالإرادة، هي: ميل الإنسان إلى ما يلائمه، أو إلى ما ينفعه، ودفع ما يضره، وهي من صفات المخلوقين، والله منزه

عن ذلك، فإن قال الأشاعرة: إرادة تليق به، قيل لهم: وكذلك له محبة، وصفات تليق به، فالسلامة والحكمة في منهج السلف.

انظر: "لوامع الأنوار البهية" للسفاريني ١/ ٢٢١ وما بعدها، "شرح العقيدة الواسطية" محمد هراس ٤٥، "التحفة المهدية شرح الرسالة التدمرية" لفالح آل مهدي: ١/ ٤٧، "الكواشف الجلية عن معاني الواسطية" للسلمان ١٨٣.

(٢) في (ب): (نزلت).

(٣) هو: عبد الله بن أبي بن سلول، العوفي الخزرجي. رأس المنافقين بالمدينة، وكان سيد أهل المدينة قبل هجرة النبي - صلى الله عليه وسلم - إليها، وقد اجتمعت الأوس والخزرج على أن يتوجوه عليهم ملكا، فجاء الإسلام وهدى الله الحيين له، ففرط منه هذا الشرف، فدخل في الإسلام مكرها، وأبطن النفاق والضغينة. انظر أخباره في "سيرة ابن هشام" ٢/ ١٧٣، ٢٣٤، ٢٣٦ - ٢٣٨، ٣/ ٥١ - ٥٣، ٦٨، ٢٠٠، ٣٠٣.

(٤) ورد هذا الأثر في "تفسير الثعلبي" ٣/ ٣٧ ب، "تفسير البغوي" ٢/ ٢٧، "زاد المسير" ١/ ٣٧٣ - ٣٧٤، وقال: (هذا قول ابن عباس)، كما ذكره الرازي ٨/ ٢٠.." [1]

"ابن الأعرابي والمبرد (١).

وقوله تعالى: {بما كنتم تعلمون الكتاب} (٢). ويقرأ: {تعلمون} (٣)، من: العلم. والباء (٤) في {بما}، متعلقة بقوله: {كونوا}. و (ما) في القراءتين، هي التي بمعنى المصدر مع الفعل، والتقدير: كونوا ربانيين،

---

(١) قال الطبري: (وأولى الأقوال عندي بالصواب في (الربانيين): أنهم جمع (رباني)، وأن (الرباني): المنسوب إلى (الربان) الذي يرب الناس، وهو الذي يصلح أمورهم، و (ويربها)، ويقوم بها ..). ثم قال: (يقال منه: (رب أمري فلان، فهو يربه ربا، وهو رابه). فإذا أريد به المبالغة في مدحه، قيل: (هو ربان) ..). ثم تابع قائلا جامعا بين الأقوال المختلفة: (فإذا كان الأمر في ذلك على ما وصفنا وكان (الربان) ما ذكرنا، و (الرباني) هو المنسوب إلى من كان بالصفة التي وصفت وكان العالم بالفقه والحكمة من المصلحين يرب أمور الناس، بتعليمه إياهم الخير، ودعائهم إلى ما فيه مصلحتهم وكان كذلك الحكيم التقي لله، والوالي

---

(١) التفسير البسيط الواحدي ٥/١٨٢

الذي يلي أمور الناس على المنهاج الذي وليه المقسطون من المصلحين أمور الخلق، بالقيام فيهم بما فيه صلاح عاجلهم وآجلهم، وعائدة النفع عليهم في دينهم، ودنياهم، كانوا جميعا يستحقون أن [يكونوا] ممن دخل في قوله: {ولكن كونوا ربانيين}. ف (الربانيون) إذا، هم عماد الناس في الفقه والعلم وأمور الدين والدنيا. ولذلك قال مجاهد: (وهم فوق الأحبار)؛ لأن (الأحبار): هم العلماء، و (الرباني): الجامع إلى العلم والفقه، البصر بالسياسة والتدبير والقيام بأمور الرعية، وما يصلحهم في دنياهم ودينهم). تفسيره: ٣/ ٢٩٦.

(٢) (الكتاب): ساقطة من (ج).

(٣) في (أ): (تعلمون). وفي (ب)، (ج) مهمل، لم يضبط بالشكل. وما أثبته هو الصواب. وهذه القراءة بفتح التاء، وإسكان العين وفتح اللام، قراءة نافع، وابن كثير، وأبي عمرو. وقرأ عاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: {تعلمون} بضم التاء وتشديد اللام المكسورة. انظر: "السبعة" ٢١٣، "الكشف" ١/ ٣٥١.

(٤) من قوله: (الباء ..) إلى (.. أبلغ في هذا الوضع): نقله باختصار وتصرف من "الحجة" للفارسي: ٣/ ٥٩ - ٦١.." (١)

"وقال السدي: يعني بالملك العظيم ما أحل لداود من النساء، وهن تسع وتسعون. ولسليمان ألف، بين حرة ومملوكة (١).

وقال الحسن وابن جريج وقتادة: الفضل في هذه الآية النبوة وكانت اليهود حسدت محمدا ما آتاه الله من النبوة، وقد علموا أن النبوة في آل إبراهيم فقيل لهم: أتحسدون النبي - صلى الله عليه وسلم - وقد كانت النبوة في آله، وهم آل إبراهيم (٢).

وهذا الوجه اختيار أبي إسحاق (٣). **والحكمة في** هذا القول النبوة.

وقال مجاهد في قوله: {وآتيناهم ملكا عظيما}: النبوة (٤).

لأن الملك لمن له الأمر والطاعة، والأنبياء لهم الطاعة والأمر.

وليس يحتاج في تصحيح معنى الآية إلى إضمار، ومثله من الكلام أن نقول: أتحسدون زيدا ما أعطاه الله من المال، فعند عمرو أكثر من ذلك، أو فقد آتى عمرا أكثر من ذلك. وتأويل هذا: فلا تحسدوا زيدا، ولتحسدوا عمرا. وهذا مفهوم من فحوى الكلام وإن لم يذكر.

(١) التفسير البسيط الواحدي ٣٨٣/٥

٥٥ - وقوله تعالى: {فمنهم من آمن به}.

قال ابن عباس والأكثرون: من أهل الكتاب من آمن بمحمد عليه السلام،

---

(١) أخرجه الطبري ٥/ ١٤٠ بنحوه لكن فيه: "وينكح سليمان مائة"، وانظر: "زاد المسير" ٢/ ١١١، "الدر المنثور" ٢/ ٣٠٩.

(٢) أخرجه عن قتادة بنحوه وعن ابن جريج مختصرا: الطبري ٥/ ١٣٩ - ١٤٠، أما الحسن فقد فسر الملك بالنبوة، لا الفضل، كما أخرج ذلك ابن أبي حاتم. انظر: "الدر المنثور" ٢/ ٣٠٩، "تفسير الحسن" ١/ ٢٨٤.

(٣) الزجاج في "معانيه" ٢/ ٦٤، وانظر: "زاد المسير" ٢/ ١١٠.

(٤) "تفسيره" ١/ ١٦٢، وأخرجه الطبري ٥/ ١٤٠، وعبد بن حميد وابن المنذر. انظر: "الدر المنثور" ٢/ ٣٠٩، وهو قول الحسن كما تقدم.." [١]

"للقدرية (١) حيث جوزوا أن يستبد الإنسان بقدرة يجتلب بها المنافع ويدفع بها المضار.

١٨٩ - و (٢) قوله تعالى: {هو الذي خلقكم من نفس واحدة}، قال ابن عباس (٣) والمفسرون (٤): (يعني: آدم). {وجعل منها زوجها} كما قال في سورة النساء: {خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها} [النساء: ١].

وقوله تعالى: {ليسكن إليها}. قال ابن عباس: (يريد: ليأنس بها ويأوي إليها) (٥).

قال أهل المعاني: (والحكمة في أن الله تعالى خلق حواء من ضلع آدم هو أن يكون آدم إليها أميل، ولها آلف وأحب؛ إذ الشكل إلى شكله أحب (٦)، ولذلك كانت الأشياء تحن إلى أشكالها، وتهرب من

---

(١) انظر: "تفسير الرازي" ١٥/ ٨٣ - ٨٤

(٢) لفظ: (الواو) ساقط من (ب).

(٣) "تنوير المقباس" ٢/ ١٤٦، وذكره الرازي ١٥/ ٨٥، والسيوطي في "الدر" ٣/ ٢٧٨.

---

(١) التفسير البسيط الواحدي ٦/٥٢٥

(٤) انظر: "تفسير الطبري" ٩/ ١٤٣، وأخرجه بسند جيد عن قتادة والسدي، وبسند ضعيف عن مجاهد، وأخرجه ابن أبي حاتم ٥/ ١٦٣٠ بسند ضعيف عن الضحاك، وقال ابن أبي حاتم: (وروي عن مجاهد وأبي مالك وقتادة والسدي ومقاتل بن حيان نحو ذلك) اهـ.
وانظر: "معاني الزجاج" ٢/ ٣٩٤، و"النحاس" ٣/ ١١٣، و"تفسير السمرقندي" ١/ ٥٨٨، والثعلبي ٦/ ٢٨ ب، والماوردي ٢/ ٧٥، وقال القرطبي ٧/ ٣٣٧: (قال جمهور المفسرين: المراد بالنفس الواحدة آدم) اهـ.

(٥) ذكره الثعلبي ٦/ ٢٨ ب، والواحدي في "الوسيط" ٢/ ٢٨٢، والبغوي ٣/ ٣١١، والقرطبي ٧/ ٣٣٧، الخازن ٢/ ٣٢٤ بلا نسبة، ونحوه قال الطبرى ٩/ ١٤٣، وانظر: السمرقندي ١/ ٥٨٨، والماوردي ٢/ ٧٥.

(٦) لفظ: (أحب) غير واضح في (أ)، وكأنه: (أجذب)." [١]

"وقال قتادة: ذكر لنا أنهم سألوا نبي الله صلى الله عليه وسلم: لم خلقت هذه الأهلة؟ فأنزل الله تعالى: {قل هي مواقيت للناس والحج} [البقرة: ١٨٩] .

أخبر الله تعالى أن **الحكمة في** زيادة القمر ونقصانه زوال الالتباس عن أوقات الناس في حجهم وحل ديونهم، وعدد نسائهم، وأجور أجرائهم، ووقت صومهم وإفطارهم.

٩٠ - حدثنا الشيخ أبو معمر المفضل بن إسماعيل، إملاء، بجرجان سنة إحدى وثلاثين وأربع مائة، حدثنا جدي: أبو بكر الإسماعيلي، أخبرني الحسن بن سفيان، حدثنا حبان بن موسى، أخبرنا عبد الله بن المبارك، أخبرنا يحيى بن عبيد الله، أنه سمع أباه يقول: سمعت أبا هريرة يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله جعل الأهلة مواقيت للناس فلا تقدموا الشهر بالصيام، فإذا رأيتموه فصوموا، وإذا رأيتموه فأفطروا، فإن غم عليكم فأتموا ثلاثين» .

و «المواقيت» : جمع الميقات، بمعنى: الوقت، كالميعاد بمعنى: الوعد

وقوله: {وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها} [البقرة: ١٨٩] قال عامة المفسرين: كان أهل الجاهلية

---

(١) التفسير البسيط الواحدي ٩/٥٠٩

وفي أول الإسلام إذا أحرم الرجل منهم نقب في بيته نقبا من مؤخره، يخرج منه ويدخل، فأعلمهم الله أن ذلك ليس ببر، {ولكن البر من." (١)

"{يأيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه واعلموا أن الله غني حميد {٢٦٧} الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا والله واسع عليم {٢٦٨} يؤتي **الحكمة من** يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر إلا أولو الألباب {٢٦٩} } [البقرة: ٢٦٧-٢٦٩] قوله: {يأيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم} [البقرة: ٢٦٧] قال مجاهد: يعني التجارة، والمعنى: أنفقوا، أي: أدوا الزكاة.

ما كسبتم بالتجارة والصناعة من الذهب والفضة، {ومما أخرجنا لكم من الأرض} [البقرة: ٢٦٧] يعني: الحبوب مما تجب فيه الزكاة، {ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون} [البقرة: ٢٦٧] التيمم: القصد والتعمد، يقال: أممته وتيممته ويممته.

أي: قصدته.

قال المفسرون: كانوا يتصدقون بشرار ثمارهم ورذالة أموالهم، فأنزل الله تعالى: {ولا تيمموا الخبيث} [البقرة: ٢٦٧] يقول: لا تقصدوا إلى الرديء من أموالكم فتنفقونه في سبيل الله.

وقراءة العامة: ولا تيمموا مخففة التاء، وعلى حذف إحدى التاءين، لأن الأصل: لا تتيمموا، وقرأ ابن كثير: مشددة التاء على الإدغام.

وقوله: {ولستم بآخذيه} [البقرة: ٢٦٧] أي: بأخذ ذلك الرديء الخبيث لو كان لكم على إنسان حق، {إلا أن تغمضوا فيه} [البقرة: ٢٦٧] والإغماض في اللغة: غض البصر وإطباق جفن على جفن، ثم صار عبارة عن التسامح والتساهل في البيع وغيره.

يقول: أنتم لا تأخذونه إلا بتساهل، فكيف تعطونه في الصدقة؟." (٢)

"وقوله: {واعلموا أن الله غني} [البقرة: ٢٦٧] أي: عن صدقات الناس، حميد على إحسانه وإنعامه.

قوله: {الشيطان يعدكم الفقر} [البقرة: ٢٦٨] أي: يخوفكم بالفقر على إنفاق المال والتصدق به.

---

(١) التفسير الوسيط للواحدي الواحدي ١/٢٩٠

(٢) التفسير الوسيط للواحدي الواحدي ١/٣٨١

يقول: أمسك مالك فإنك إن تصدقت افتقرت.

{ويأمركم بالفحشاء} [البقرة: ٢٦٨] أي: البخل ومنع الزكاة.

والله يعدكم أي: يجازيكم على صدقاتكم، مغفرة منه لذنوبكم، وفضلا وهو أن يخلف عليكم ما أنفقتم، والله واسع الفضل لمن أنفق، عليم بمن ينفق ومن لا ينفق.

قوله تعالى: {يؤتي الحكمة من يشاء} [البقرة: ٢٦٩] قال ابن عباس والمفسرون: يعني القرآن والفهم فيه.

وقال الحسن: يعني الورع في دين الله.

{ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا} [البقرة: ٢٦٩] قال مجاهد: ليست بالنبوة، ولكنه القرآن والعلم والفقه.

{وما يذكر إلا أولو الألباب} [البقرة: ٢٦٩] أي: ما يتعظ إلا ذوو العقول.

{وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فإن الله يعلمه وما للظالمين من أنصار {٢٧٠} إن تبدوا الصدقات فنعما هي وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ويكفر عنكم من سيئاتكم والله بما تعملون خبير {٢٧١} } [البقرة: ٢٧٠-٢٧١] قوله: {وما أنفقتم من نفقة} [البقرة: ٢٧٠] يعني: ما أديتم من زكاة مفروضة، {أو نذرتم من نذر} [البقرة: ٢٧٠] يعني: تطوعتم بصدقة، والنذر: ما يلتزمه الإنسان لله بإيجابه على نفسه، وكل ما نوى الإنسان أن يتطوع به فهو نذر.

وقوله: {فإن الله يعلمه} [البقرة: ٢٧٠] أي: يجازي به، فدل بذكر العلم على تحقيق الجزاء، وعادت الكناية في قوله: يعلمه إلى ما في قوله: وما أنفقتم لأنها اسم.." (١)

"يسأل الله العباد فيم استعملوها.

في هذا زجر عن النظر إلى ما لا يحل، والاستماع إلى ما يحرم، وإرادة ما لا يجوز.

قوله: {ولا تمش في الأرض مرحا} [الإسراء: ٣٧] المرح شدة الفرح، قال ابن عباس: يريد بالكبرياء والعظمة.

وقال الزجاج: ولا تمش في الأرض مختالا فخورا.

{إنك لن تخرق الأرض} [الإسراء: ٣٧] الخرق الشق، يقال: خرق ثوبه إذا شقه.

قال ابن عباس: لن تخرق الأرض بكبرك ومشيك عليها.

---

(١) التفسير الوسيط للواحدي الواحدي ٣٨٣/١

{ولن تبلغ الجبال طولا} [الإسراء: ٣٧] بعظمتك وإنما أنت مخلوق عبد ذليل، والمعنى: أنك لا تقدر أن تثقب الأرض حتى تبلغ آخرها، ولا أن تطول الجبال، فلا تستحق الكبر والبذخ، {كل ذلك} [الإسراء: ٣٨] إشارة إلى جميع ما تقدم ذكره مما أمر به ونهى عنه، كان سيئه قرئ بالإضافة والتنوين، قال الزجاج: والإضافة أحسن، لأن فيما تقدم من الآيات سيئا وحسنا، سيئه هو المكروه، ويقوى ذلك التذكير في المكروه. ومن قرأ بالتنوين جعل كلا إحاطة بالمنهي عنه دون الحسن، المعنى: كل ما نهى الله عنه كان سيئه فكان مكروها، والمكروه على هذه القراءة بدل من السيئة، وليس بنعت.

قوله: {ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة ولا تجعل مع الله إلها آخر فتلقى في جهنم ملوما مدحورا} [الإسراء: ٣٩] {ذلك مما أوحى إليك ربك} [الإسراء: ٣٩] يعني ما تقدم ذكره من الفرائض والسنن، من الحكمة من القرآن ومواعظه، {ولا تجعل مع الله إلها آخر} [الإسراء: ٣٩] هذا خطاب لكل واحد من المؤمنين، كأنه قال: ولا تجعل أيها الإنسان.

ثم خاطب المشركين الذين زعموا أن الملائكة بنات الله منكرا عليهم، فقال: {أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثا إنكم لتقولون قولا عظيما {٤٠} ولقد صرفنا في هذا القرءان ليذكروا وما يزيدهم إلا نفورا {٤١} قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذا لابتغوا إلى ذي العرش سبيلا {٤٢} سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا {٤٣} تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليما غفورا {٤٤} } [الإسراء: ٤٠-٤٤] {أفأصفاكم ربكم بالبنين} [الإسراء: ٤٠] يقال: أصفاه بالشيء إذا آثره به.

قال أبو عبيدة: أفأصفاكم خصكم.

وقال المفضل: أخلصكم.

وهذا توبيخ للكفار، يقال: اختار لكم ربكم البنين دونه، وجعل البنات مشتركة بينه وبينكم، فاختصكم بالأجل، وجعل لنفسه الأدون؟ إنكم لتقولون بهذا الزعم الباطل، قولا عظيما يعظم خطؤه وإثمه.

قوله: {ولقد صرفنا في هذا القرءان} [الإسراء: ٤١] أي: صرفنا ضروب القول فيه من الأمثال وغيرها مما يوجب الاعتبار به، ومعنى التصريف ههنا التبيين، لأنه إنما يصرف القول ليبين، وقوله: {ليذكروا} [الإسراء: ٤١] ليتعظوا، ويتدبروه بعقولهم، ويتفكروا فيه، وقراءة حمزة بالتخفيف بهذا المعنى كقوله: {خذوا ما آتيناكم

بقوة واذكروا ما فيه} [البقرة: ٦٣] وقوله: {وما يزيدهم إلا نفورا} [الإسراء: ٤١] قال ابن عباس: ينفرون من الحق، ويتعبون الباطل.." (١)

"وواحد الملائكة: ملك، وفي الأصل: ملأك، مقلوب من: مألك، فقلبت (١) الهمزة استخفافا فقيل: ملك، مأخوذ من المألكة وهي الرسالة (٢).

وقوله: {إني جاعل في الأرض خليفة} دليل على ثبوت صفات الفعل قبل المفاعيل.

(خليفة): آدم وذريته (٣)، والهاء للمبالغة والتأكيد (٤). وهذا اسم لمن يخلف الغير ويقوم مقامه في ما أسند إليه (٥)، وآدم خلف الملائكة في اتخاذ الأرض مسكنا (٦).

{قالوا أتجعل فيها:} أتخلف (٧) فيها. والألف ألف الإيجاب (٨)، كما قال جرير (٩): [من الوافر]

ألستم خير من ركب المطايا ... وأندى العالمين بطون راح (١٠)

واستخبارهم على وجه الاستسلام والتعرف دون الإنكار، كأنهم قالوا: يا رب إن كان هذا ظننا (١١) فعرفنا وجه الحكمة فيه (١٢).

وإنما علموا الفساد وسفك الدماء بإخبار الله تعالى في رواية السدي (١٣)، وبالقياس (١٤) على الجان في رواية الضحاك. وقيل (١٥): إن إبليس كان منهم في الخلقة ومن (١٦) الملائكة في الرتبة (١٧)، فسلطه الله بمن معه من الملائكة عليهم حتى أفسدوا وسفكوا الدماء فأجلوهم إلى الجزائر والخراب من الأرض.

{ويسفك الدماء:} (١٨) يصب (١٩).

---

(١) ليس قلبا، بل حذف.

(٢) ينظر: مشكل إعراب القرآن ١/ ٨٦، والبيان في غريب إعراب القرآن ١/ ٧٠، والبحر المحيط ١/ ٢٨٤.

(٣) ينظر: التبيان في تفسير القرآن ١/ ١٣١، والكشاف ١/ ١٢٤، والدر المصون ١/ ٢٥٣.

(٤) ينظر: مشكل إعراب القرآن ١/ ٨٧، وزاد المسير ١/ ٤٧، والبحر المحيط ١/ ٢٨٤.

(٥) ينظر: تفسير الطبري ١/ ٢٨٧، والفروق اللغوية ٢٢٢، ونظام الحكومة النبوية المسمى التراتيب الإدارية

---

(١) التفسير الوسيط للواحدي الواحدي ١٠٨/٣

١/ ٢.
(٦) ينظر: التبيان في تفسير القرآن ١/ ١٣١، والوجيز ١/ ٩٨، وزاد المسير ١/ ٤٧.
(٧) في ب: أتخلق، وهو تصحيف.
(٨) ينظر: معاني القرآن وإعرابه ١/ ١٠٩، والقطع والائتناف ١٣٣، والنكت والعيون ١/ ٨٧.
(٩) شرح ديوانه ٨٩.
(١٠) في ب: روح، وهو تحريف.
(١١) في الأصل وك وب: طينيا. وما أثبته من ع يوافق ما في معاني القرآن وإعرابه ١/ ١٠٩.
(١٢) ينظر: تفسير الطبري ١/ ٣٠٠، والتبيان في تفسير القرآن ١/ ١٣٣، وزاد المسير ١/ ٤٧.
(١٣) ينظر: تفسير الطبري ١/ ٢٩٣، وزاد المسير ١/ ٤٧، والتفسير الكبير ٢/ ١٧٠.
(١٤) مكررة في ب. وينظر: تفسير القرآن الكريم ١/ ٣١٤، والوجيز ١/ ٩٨، والكشاف ١/ ١٢٥.
(١٥) ينظر: تفسير البغوي ١/ ٦٠.
(١٦) (من) ساقطة من ب.
(١٧) في ك: الزينة.
(١٨) ليس في ب. وينظر: النكت والعيون ١/ ٨٧.
(١٩) ينظر: غريب القرآن وتفسيره ٦٧، ومعاني القرآن وإعرابه ١/ ١١٠، والعمدة في غريب القرآن ٧٢.." (١)

"محل النصب (١)، والواو عند البصريين للجمع (٢)، وعند الكوفيين للصرف (٣)، قال (٤): [من الكامل]

لا تنه عن خلق وتأتي مثله ... عار عليك إذا فعلت عظيم

{بها:} أي: بالحجة، يقال: أدلى بحجته (٥). ويقال: بالأموال، أي: الرشوة، أي: لا تتوسلوا بها إلى الحكام (٦)، وفي حديث عمر حيث استسقى: وقد دلونا به إليك، أي: توسلنا بالعباس قدس الله روحه (٧).

وأصل الإدلاء إرسال الدلو (٨).

---

(١) درج الدرر في تفسير الآي والسور ط الفكر الجرجاني، عبد القاهر ١٣٠/١

و {الحكام:} جمع حاكم، مثل: شاطر وشطار. والحاكم الذي يمنع الخصمين بقضائه (٩) عن التعدي. والحكم القضاء الحتم (١٠).

١٨٩ - {يسئلونك عن الأهلة:} نزلت في معاذ بن جبل وأمثاله {(يسئلونك عن الأهلة)}، هكذا روي عن ابن عباس وقتادة والربيع (١١)، فبين الله لهم وجه الحكمة في زيادة القمر ونقصانه، وهو أن يشترك الناس كلهم في معرفة مواقيتهم التي هي لمعاملاتهم وحجهم وصومهم وزكاتهم من غير استخراج بحساب دقيق مخوف عليه من غلط فاحش (١٢).

و {(الأهلة)}: جمع هلال كالإمام والأئمة (١٣).

قال الزجاج: الهلال يكون ليلتين (١٤) من أول الشهر، وقيل: ثلاث ليال، وقال الأصمعي: ما لم يتحجر، أي: بخط مستدير، وقيل: ما لم يبهر بالليل، ثم يصير قمرا (١٥).

---

(١) (والواو للعطف. . . النصب) ليس في ك وع. وينظر: معاني القرآن للفراء ١/ ١١٥، وللأخفش ١/ ٣٥٣، ومشكل إعراب القرآن ١/ ١٢٣.

(٢) ينظر: البيان في غريب إعراب القرآن ١/ ١٤٥.

(٣) ينظر: معاني القرآن للفراء ١/ ١١٥، وتفسير الطبري ٢/ ٢٥٢.

(٤) أبو الأسود الدؤلي، ديوانه ٢٣٣.

(٥) ينظر: إعراب القرآن ١/ ٢٩٠، وتفسير القرطبي ٢/ ٣٣٩ و ٣٤٠.

(٦) ينظر: تفسير غريب القرآن ٧٥، وإعراب القرآن ١/ ٢٩٠، والوجيز ١/ ١٥٣.

(٧) ينظر: تأويل مختلف الحديث ٢٥٣.

(٨) ينظر: تفسير الطبري ٢/ ٢٥٢، ومعاني القرآن وإعرابه ١/ ٢٥٨، والوجيز ١/ ١٥٣.

(٩) في ع: لقضائه. وينظر: التبيان في تفسير القرآن ٢/ ١٣٨، ومجمع البيان ٢/ ٢٤.

(١٠) ينظر: لسان العرب ١٢/ ١٤١ (حكم).

(١١) ينظر: تفسير الطبري ٢/ ٢٥٣ - ٢٥٤، والقرطبي ٢/ ٣٤١، والبيضاوي ١/ ٤٧٤.

(١٢) ينظر: تفسير الطبري ٢/ ٢٥٤، ومعاني القرآن الكريم ١/ ١٠٣، وتفسير القرآن الكريم ١/ ٥٧٧ - ٥٧٨.

(١٣) ينظر: إعراب القرآن ١/ ٢٩٠، وتفسير البغوي ١/ ١٦٠، ولسان العرب ١١/ ٧٠٣ (هلل).

(١٤) في ب: لليلتين، وبعدها (من أول الشهر) ساقطة منها.

(١٥) ينظر: معاني القرآن وإعرابه ١/ ٢٥٩ - ٢٦٠، والتبيان في تفسير القرآن ٢/ ١٤٠، ومجمع البيان ٢/ ٢٦.." [1]

"وذكر العلم والحكمة لإفادة العلم والحكمة في الشريعة، أو لعلمه بعلل النصوص وبالمصالح فيها (١).

٢٥ - {ومن لم يستطع:} نزلت اختيار المؤمنات حرائرهن وإمائهن على الكتابيات حرائرهن وإمائهن، لا في قصر الإباحة على المؤمنات.

و (الطول): الفضل والغنى (٢)، منصوب على التفسير للاستطاعة المنفية (٣). وعن إبراهيم النخعي أن المراد به الهوى (٤)، والتقدير: من لم يكن عنده قصد رأي وحزم ليصابر (٥) الهوى فيصبر عن الإماء.

{أن ينكح المحصنات:} «الحرائر» (٦).

{فمن ما ملكت أيمانكم:} فليتزوج مما ملكت أيمانكم من الإماء (٧).

{من فتياتكم:} إمائكم (٨) {المؤمنات.} و (الفتاة): الشابة في اللغة (٩)، وقال صلى الله عليه وسلم: لا يقولن أحدكم: عبدي وأمتي بل يقول: فتاي وفتاتي أو غلامي وجاريتي فإنكم كلكم عبيد والرب واحد (١٠).

وعدم الطول ليس بشرط في جواز نكاح الإماء المؤمنات، ولكنه مندوب إليه بقول علي رضي الله عنه: إذا تزوج الحرة على الأمة قسم للأمة الثلث وللحرة الثلثين (١١). وقال جابر بن عبد الله: «لا تنكح الأمة على الحرة وتنكح الحرة (١٢) على الأمة».

{والله أعلم بإيمانكم:} يريد الأخذ بالظاهر ووكول الحقيقة إلى الله تعالى (١٣).

{بعضكم من بعض:} أي: الأحرار (٧٤ ب) والعبيد والحرائر والإماء بعضهم من بعض

---

(١) ينظر: تفسير الطبري ٥/ ٢١، ومعاني القرآن وإعرابه ٢/ ٣٩.

---

(١) درج الدرر في تفسير الآي والسور ط الفكر الجرجاني، عبد القاهر ٢٩٢/١

(٢) ينظر: غريب القرآن وتفسيره ١١٦، وتفسير الطبري ٥/ ٢٢، والتبيان في تفسير القرآن ٣/ ١٦٨ - ١٦٩.
(٣) في المصادر التي بين يدي أنه مفعول به، ينظر: البيان في غريب إعراب القرآن ١/ ٢٥٠، والتبيان في إعراب القرآن ١/ ٣٤٨، والبحر المحيط ٣/ ٢٣٠.
(٤) ينظر: تفسير الطبري ٥/ ٢٣.
(٥) في الأصل وب: لتصابر، وبعدها في ع: ويصبر، بدل (فيصبر).
(٦) تفسير غريب القرآن ١٢٤، وتفسير الطبري ٥/ ٢٤، ومعاني القرآن الكريم ٢/ ٦٣.
(٧) ينظر: تفسير الطبري ٥/ ٢٤.
(٨) غريب القرآن وتفسيره ١١٧، والعمدة في غريب القرآن ١٠٨، وتفسير البغوي ١/ ٤١٥.
(٩) ينظر: التبيان في تفسير القرآن ٣/ ١٧٠، ومجمع البيان ٣/ ٦٣، ولسان العرب ١٥/ ١٤٥ (فتا).
(١٠) ينظر: سنن أبي داود ٤/ ٢٩٤، وعمل اليوم والليلة ٢٤٧، وشعب الإيمان ٤/ ٣١٢.
(١١) ينظر: سنن الدارقطني ٣/ ٢٨٥، والمحلى ١/ ٦٦، والتحقيق في أحاديث الخلاف ٢/ ٢٨٧.
(١٢) ساقطة من ب. والخبر في مصنف عبد الرزاق ٧/ ٢٦٥، والسنن الكبرى للبيهقي ٧/ ١٧٥، وتلخيص الحبير ٣/ ١٧١.
(١٣) ينظر: تفسير الطبري ٥/ ٢٧، وتفسير القرآن الكريم ٢/ ٢٩٨، وتفسير البغوي ١/ ٤١٦.." [١]
"{سلما:} مرقاة (١).

وفي هذا تعجيز للنبي صلى الله عليه وسلم، وفي اليأس إحدى الراحتين، أي: ليس بيدك شيء من الآيات الملجئة المضطرة فإنما أنت رحمة.

{ولو شاء الله:} تنبيه على أنه شاء أن لا يجمعهم. وإنما نبه عليه (٢) تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم. و (الجهل): أن يتكلف (٣) إيجاد ما علم أن الله تعالى لم يشأه.

٣٦ - {الذين يسمعون:} هم (٤) الموفقون لاستماع الحق (٥).
والواو للاستئناف، {والموتى:} الكفار (٦)، شبههم بالموتى لعدم روح الإيمان.

---

(١) درج الدرر في تفسير الآي والسور ط الفكر الجرجاني، عبد القاهر ٤٧٩/١

وذكر المبعث للتهديد (٧).

٣٧ - {وقالوا لولا نزل:} أخبر عن اقتراحهم آية (٨) ملجئة وأنها مقدورة له، ولكن لا يعلمون وجه **الحكمة في** الإمهال إلى تتمة الآجال وإيمان لمن قدر من النساء والرجال (٩).

٣٨ - {وما من دابة:} اتصالها بما قبلها من حيث التنبيه على كمال القدرة (١٠).

وجناح الطير (١١) بمكان الأيدي. وذكر الجناحين للتأكيد (١٢) كقوله: {إلهين اثنين} [النحل:٥١]، و {فأسرها يوسف في نفسه} [يوسف:٧٧].

والمماثلة بالحاجة إلى الصانع، وبالدلالة (١٣) على حدوث ذواتها، وبالشهادة لله بالوحدانية، عن السدي، وبالتسبيح لله، عن عطاء (١٤)، وبأنها أصناف مصنفة تعرف بأسمائها، عن مجاهد (١٥).

---

(١) ينظر: زاد المسير ٢/ ٢٥، والبحر المحيط ٤/ ١١٨.

(٢) في ع: على. وينظر: تفسير الطبري ٧/ ٢٤٣ - ٢٤٤، والتبيان في تفسير القرآن ٤/ ١٢٣ - ١٢٤.

(٣) في ع: تتكلف. وينظر: الوجيز ١/ ٣٥١ - ٣٥٢، وتفسير البغوي ٢/ ٩٤، والبحر المحيط ٤/ ١٢٠ - ١٢١.

(٤) في ك: هو.

(٥) ينظر: تفسير البغوي ٢/ ٩٥، والقرطبي ٦/ ٤١٨.

(٦) ينظر: تفسير مجاهد ١/ ٢١٤، والطبري ٧/ ٢٤٤ - ٢٤٥، ومعاني القرآن الكريم ٢/ ٤٢١.

(٧) ينظر: تفسير القرآن الكريم ٣/ ٢٢٦,

(8) في الأصل وك وب: أنه.

(٩) ينظر: تفسير القرآن الكريم ٣/ ٢٢٦ - ٢٢٧، والتبيان في تفسير القرآن ٤/ ١٢٦، ومجمع البيان ٤/ ٤٦ - ٤٧.

(١٠) ينظر: الكشاف ٢/ ٢١.

(١١) في الآية نفسها: ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم. وينظر: مجمع البيان ٤/ ٤٨.

(١٢) ينظر: معاني القرآن وإعرابه ٢/ ٢٤٥، ومعاني القرآن الكريم ٢/ ٤٢٢، وتفسير القرآن الكريم ٣/

.٢٢٧

(١٣) في ع: بالدلالة. وينظر: مجمع البيان ٤/ ٤٨ - ٤٩.

(١٤) ينظر: تفسير البغوي ٢/ ٩٥، وزاد المسير ٣/ ٢٦.

(١٥) ينظر: تفسير الطبري ٧/ ٢٤٧، ومعاني القرآن الكريم ٢/ ٤٢٢، وتفسير البغوي ٢/ ٩٥.." [1]

"{فيشفعوا لنا:} جواب الاستفهام بالفاء (١).

{أو نرد:} «أو هل نرد» (٢).

وإنما خسروا أنفسهم لكونها رهينة بما كسبت.

٥٤ - {إن ربكم:} فصل في دلائل الربوبية ترتب على فصل الوعد والوعيد ليكون أنجع (٣) في القلوب، وكذلك هو في أول سورة البقرة.

و {السماوات:} إنما لم يجمع سماءات؛ لأن الهمزة في وحدانها (٤) غير أصلية، وهي واو انقلبت (٥) همزة لوقوعها طرفا بعد ألف زائدة (٦).

{ستة:} اسم عدد الثلاث مرتين، أصله: سدسة (٧).

والمراد به الأيام العقباوية، كل يوم ألف سنة من سني الدنيا (٨)، يدل عليه ما يروى من خلق آدم عليه السلام ودخوله في الجنة وخروجه منها وبكائه على خطيئته وقبول توبته، كل ذلك في آخر يوم الجمعة، وقيل: والجمعة الثانية يوم القيامة.

والحكمة في الخلق على المهلة مع كونه مقدورا في أقل من لحظة هو (٩) التنبيه على حسن الوقار.

وقوله: {ثم استوى على العرش} يدل [على] (١٠) أن العرش لم يكن مستوى عليه في هذه الأيام الستة مع كونه موجودا من قبل لقوله: {وكان عرشه على الماء} [هود:٧].

وهذا الكلام يفيد كون العرش آية على الربوبية يوجب العلم لمن (١١) شاهده من غير استدلال، فإن العيون تتجه إليه عند رؤية من تعالى عن الجهات، وإن الأسماع تصغي إليه عند استماع كلام من تعالى عن المخارج واللهاة (١٢).

---

(١) درج الدرر في تفسير الآي والسور ط الفكر الجرجاني، عبد القاهر ٦٠٦/١

(١) ينظر: إعراب القرآن ٢/ ١٣٠، والتبيان في إعراب القرآن ١/ ٥٧٣، وتفسير القرطبي ٧/ ٢١٨.

(٢) معاني القرآن للفراء ١/ ٣٨٠، ومعاني القرآن وإعرابه ٢/ ٣٤٢، وإعراب القرآن ٢/ ١٣٠.

(٣) في ع: الجمع.

(٤) في ع: واحدتها.

(٥) في ب: تقلب.

(٦) ينظر: التبيان في تفسير القرآن ٤/ ٤٢١.

(٧) ينظر: التفسير الكبير ١٤/ ٩٦، وتفسير القرطبي ٧/ ٢١٨، والمجيد ٢٤٤ (تحقيق: د. إبراهيم الدليمي).

(٨) ينظر: تفسير الطبري ٨/ ٢٦٨، والبغوي ٢/ ١٦٤، والقرطبي ٧/ ٢١٩.

(٩) في ع: وهو، والواو مقحمة. وينظر: تفسير البغوي ٢/ ١٦٤، والقرطبي ٧/ ٢١٩.

(١٠) من ب، و (يدل على أن العرش) ساقطة من ع.

(١١) في ع: بمن.

(١٢) في الأصل وع وب: واللهات.." (١)

"خالق. {في الأرض خليفة} أي بدلا منكم ورافعكم إلي، فكرهوا ذلك لأنهم كانوا أهون الملائكة عبادة.

والمراد بالخليفة هاهنا آدم سماه خليفة لأنه خلف الجن أي جاء بعدهم وقيل لأنه يخلفه غيره والصحيح أنه خليفة الله في أرضه لإقامة أحكامه وتنفيذ وصاياه (١) {قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها} بالمعاصي. {ويسفك الدماء} بغير حق أي كما فعل بنو الجان فقاسوا الشاهد على الغائب وإلا فهم ما كانوا يعلمون الغيب {ونحن نسبح بحمدك} قال الحسن: نقول سبحان الله وبحمده وهو صلاة الخلق {وصلاة البهائم وغيرهما} (٢) سوى الآدميين وعليها يرزقون.

أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر أنا عبد الغافر بن محمد أنا محمد بن عيسى أنا إبراهيم بن محمد بن سفيان أنا مسلم بن الحجاج أنا زهير بن حرب أنا حبان بن هلال أنا وهيب أنا سعيد الجريري عن أبي عبد الله الجسري عن عبادة بن الصامت عن أبي ذر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل أي الكلام أفضل

---

(١) درج الدرر في تفسير الآي والسور ط الفكر الجرجاني، عبد القاهر ٦٥٨/١

قال: "ما اصطفى الله لملائكته أو لعباده سبحان الله وبحمده" (٣) وقيل: ونحن نصلي بأمرك، قال ابن عباس: كل ما في القرآن من التسبيح فالمراد منه الصلاة }ونقدس لك} أي نثني عليك بالقدس والطهارة وقيل: ونطهر أنفسنا لطاعتك وقيل: وننزهك. واللام صلة وقيل: لم يكن هذا من الملائكة على طريق الاعتراض والعجب بالعمل بل على سبيل التعجب وطلب وجه **الحكمة فيه** {قال} الله {إني أعلم ما لا تعلمون} المصلحة فيه، وقيل: إني أعلم أن في ذريته من يطيعني ويعبدني من الأنبياء والأولياء والعلماء وقيل: إني أعلم أن فيكم من يعصيني وهو إبليس، وقيل إني أعلم أنهم يذنبون وأنا أغفر لهم. قرأ أهل الحجاز والبصرة إني أعلم بفتح الياء وكذلك كل ياء إضافة استقبلها ألف مفتوحة إلا في مواضع معدودة ويفتحون في بعض المواضع عند الألف المضمومة والمكسورة (وعند غير الألف) (٤) وبين القراء في تفصيله اختلاف.

{وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين (٣١) }

قوله تعالى {وعلم آدم الأسماء كلها} سمي آدم لأنه خلق من أديم الأرض، وقيل: لأنه كان آدم اللون

---

(١) ولابن القيم في كتابه "مفتاح دار السعادة" ١ / ١٥١ كلام مفيد وتفصيل رشيد حول خلافة الله في أرضه فليراجع لفائدته.

(٢) ساقط من الأصل.

(٣) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء باب فضل سبحان الله وبحمده برقم (٢٧٣١) : ٤ / ٢٠٩٣ والترمذي في الدعوات، باب أي الكلام أحب إلى الله. ١٠ / ٥٢ وقال هذا حديث حسن صحيح.

(٤) في ب لأجل ألف.." (١)

"وكنيته أبو محمد وأبو البشر فلما خلقه الله تعالى علمه أسماء الأشياء وذلك أن الملائكة قالوا: لما قال الله تعالى: {إني جاعل في الأرض خليفة} ليخلق ربنا ما شاء فلن يخلق خلقا أكرم عليه منا وإن كان فنحن أعلم منه لأنا خلقنا قبله ورأينا ما لم يره. فأظهر الله تعالى فضله عليهم بالعلم وفيه دليل على أن الأنبياء أفضل من الملائكة وإن كانوا رسلا كما ذهب إليه أهل السنة والجماعة قال ابن عباس ومجاهد وقتادة: علمه اسم كل شيء حتى القصعة والقصيعة وقيل: اسم ما كان وما يكون إلى يوم القيامة. وقال

---

(١) تفسير البغوي - طيبة البغوي ، أبو محمد ٧٩/١

الربيع بن أنس: أسماء الملائكة وقيل: أسماء ذريته، وقيل: صنعة كل شيء قال أهل التأويل: إن الله عز وجل علم آدم جميع اللغات ثم تكلم كل واحد من أولاده بلغة فتفرقوا في البلاد واختص كل فرقة منهم بلغة (١) . {ثم عرضهم على الملائكة} إنما قال عرضهم ولم يقل عرضها لأن المسميات إذا جمعت من يعقل وما لا يعقل يكنى عنها بلفظ من يعقل كما يكنى عن الذكور والإناث بلفظ الذكور وقال مقاتل: خلق الله كل شيء الحيوان والجماد ثم عرض تلك الشخوص على الملائكة فالكناية راجعة إلى الشخوص فلذلك قال عرضهم {فقال أنبئوني} أخبروني {بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين} في أني لا أخلق خلقا إلا وكنتم أفضل وأعلم منه فقالت الملائكة إقرارا بالعجز:

{قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم (٣٢) قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون (٣٣) }

{قالوا سبحانك} تنزيها لك {لا علم لنا إلا ما علمتنا} معناه فإنك أجل من أن نحيط بشيء من علمك إلا ما علمتنا {إنك أنت العليم} بخلقك {الحكيم} في أمرك والحكيم له معنيان: أحدهما الحاكم وهو القاضي العدل والثاني المحكم للأمر كي لا يتطرق إليه الفساد وأصل **الحكمة في** اللغة: المنع فهي تمنع صاحبها من الباطل ومنه حكمة الدابة لأنها تمنعها من الاعوجاج فلما ظهر عجزهم {قال} الله تعالى:

{يا آدم أنبئهم بأسمائهم} أخبرهم بأسمائهم فسمى آدم كل شيء باسمه وذكر الحكمة التي لأجلها خلق {فلما أنبأهم بأسمائهم قال} الله تعالى {ألم أقل لكم} يا ملائكتي {إني أعلم غيب السماوات والأرض} ما كان منهما وما يكون لأنه قد قال لهم {إني أعلم ما لا تعلمون} (٣٠-البقرة) {وأعلم ما تبدون} قال الحسن وقتادة: يعني قولهم أتجعل فيها من يفسد فيها {وما كنتم تكتمون} قولكم لن يخلق الله خلقا أكرم عليه منا، قال ابن عباس رضي الله عنهما هو أن إبليس مر على

---

(١) انظر: تفسير الطبري: ١ / ٤٨٥، الوسيط للواحدي: ١ / ٧٧.." (١)

---

(١) تفسير البغوي - طيبة البغوي ، أبو محمد ٨٠/١

"موته قتله ليرثه، وحمله إلى قرية أخرى وألقاه بفنائهم، ثم أصبح يطلب ثأره وجاء بناس إلى موسى يدعي عليهم القتل، فسألهم موسى فجحدوا، واشتبه أمر القتيل على موسى، قال الكلبي: وذلك قبل نزول القسامة (١) في التوراة، فسألوا موسى أن يدعو الله ليبين لهم بدعائه، فأمرهم الله بذبح بقرة فقال لهم موسى: إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة {قالوا أتتخذنا هزوا} أي: تستهزئ بنا، نحن نسألك عن أمر القتيل وتأمرنا بذبح البقرة!! وإنما قالوا ذلك لبعد ما بين الأمرين في الظاهر، ولم يدروا ما الحكمة فيه، قرأ حمزة هزوا وكفوا بالتخفيف وقرأ الآخرون بالتثقيل، وبترك الهمزة حفص {قال} موسى {أعوذ بالله} أمتنع بالله {أن أكون من الجاهلين} أي من المستهزئين بالمؤمنين وقيل: من الجاهلين بالجواب لا على وفق السؤال لأن الجواب لا على وفق السؤال جهل، فلما علم (القوم) (٢) أن ذبح البقرة عزم من الله عز وجل استوصفوها، ولو أنهم عمدوا إلى أدنى بقرة فذبحوها لأجزأت عنهم، ولكنهم شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم وكانت تحته حكمة، وذلك أنه كان في بني إسرائيل رجل صالح له (ابن) (٣) طفل وله عجلة أتى بها إلى غيضة (٤) وقال: اللهم إني أستودعك هذه العجلة لابني حتى تكبر، ومات الرجل فصارت العجلة في الغيضة عوانا (٥) ، وكانت تهرب من كل من رآها فلما كبر الابن وكان بارا بوالدته، وكان يقسم الليل ثلاثة أثلاث يصلي ثلثا وينام ثلثا ويجلس عند رأس أمه ثلثا، فإذا أصبح انطلق فاحتطب على ظهره فيأتي به إلى السوق فيبيعه بما شاء الله ثم يتصدق بثلثه، ويأكل ثلثه، ويعطي والدته ثلثه، فقالت له أمه يوما: إن أباك ورثك عجلة استودعها الله في غيضة كذا فانطلق وادع إله إبراهيم وإسماعيل وإسحاق أن يردها عليك ١٣/ب وعلامتها أنك إذا نظرت إليها يخيل إليك أن شعاع الشمس يخرج من جلدها، وكانت تسمى المذهبة لحسنها وصفرتها، فأتى الفتى الغيضة فرآها ترعى فصاح بها وقال: أعزم بإله إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب أن تأتي إلي فأقبلت تسعى حتى قامت بين يديه فقبض على عنقها يقودها، فتكلمت البقرة بإذن الله تعالى فقالت: أيها الفتى البار بوالدتك اركبني فإن ذلك أهون عليك، فقال الفتى: إن أمي لم تأمرني بذلك ولكن قالت: خذ بعنقها، فقالت البقرة: بإله بني إسرائيل لو ركبتني ما كنت تقدر علي أبدا، فانطلق فإنك لو أمرت الجبل أن ينقلع من أصله وينطلق معك لفعل لبرك بأمك، فسار الفتى بها إلى أمه فقالت له: إنك فقير لا مال لك فيشق عليك الاحتطاب بالنهار والقيام بالليل فانطلق فبع هذه البقرة، قال: بكم أبيعها؟ قالت: بثلاثة دنانير ولا تبع بغير مشورتي وكان ثمن البقرة يومئذ ثلاثة دنانير، فانطلق بها إلى السوق، فبعث الله ملكا ليري خلقه قدرته وليختبر الفتى كيف بر بوالدته، وكان الله

به خبيرا فقال له الملك: بكم تبيع هذه البقرة؟ قال: بثلاثة دنانير وأشترط عليك رضى والدتي فقال الملك: لك ستة دنانير ولا تستأمر والدتك فقال الفتى: لو أعطيتني وزنها ذهبا لم آخذه إلا برضى أمي فردها إلى أمه فأخبرها بالثمن فقالت: ارجع فبعها بستة دنانير على رضى مني فانطلق بها إلى السوق وأتى الملك فقال: استأمرت أمك فقال الفتى: إنها أمرتني أن لا أنقصها عن ستة على أن أستأمرها فقال الملك: فإني أعطيك اثني عشر على أن لا تستأمرها، فأبى الفتى، فرجع إلى أمه فأخبرها، فقالت إن الذي يأتيك ملك في صورة آدمي ليختبرك فإذا أتاك فقل له: أتأمرنا أن نبيع هذه البقرة أم لا؟ (ففعل) (٦) فقال له الملك: اذهب إلى أمك وقل لها أمسكي هذه البقرة فإن موسى بن عمران عليه السلام يشتريها منك لقتيل يقتل في بني إسرائيل فلا تبيعوها إلا بملء مسكها دنانير، فأمسكوها، وقدر الله تعالى على بني إسرائيل ذبح تلك البقرة بعينها فما زالوا يستوصفون موسى حتى وصف لهم تلك البقرة، مكافأة له على بره بوالدته فضلا منه ورحمة (فذلك) (٧)

{قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي قال إنه يقول إنها بقرة لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك فافعلوا ما تؤمرون (٦٨) قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها قال إنه يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين (٦٩) }

قوله تعالى {قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي} أي (ما صفتها) (٨) {قال} موسى {إنه يقول} يعني فسأل الله تعالى فقال: إنه، يعني أن الله تعالى يقول {إنها بقرة لا فارض ولا بكر} أي لا كبيرة ولا صغيرة، والفارض المسنة التي لا تلد، يقال منه: فرضت تفرض فروضا، والبكر الفتاة الصغيرة التي لم تلد قط، وحذفت (الهاء) (٩) منهما للاختصاص بالإناث كالحائض (عوان) وسط نصف {بين ذلك} أي بين السنين يقال عونت المرأة تعوينا: إذا زادت على الثلاثين، قال الأخفش (العوان: التي لم تلد قط، وقيل:) (١٠) العوان التي نتجت مرارا وجمعها عون {فافعلوا ما تؤمرون} ذبح البقرة ولا تكثروا السؤال

{قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها قال إنه يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها} قال ابن عباس: شديدة الصفرة، وقال قتادة: صاف، وقال الحسن: الصفراء السوداء، والأول أصح لأنه لا يقال أسود فاقع إنما يقال: أصفر فاقع، وأسود (حالك) (١١) وأحمر قانئ، وأخضر ناضر، وأبيض بقق للمبالغة، {تسر

---

(١) الأيمان تقسم على أولياء القتيل الذين ادعوا الدم.

(٢) في الأصل: الناس.

(٣) من ب.

(٤) الشجر الملتف.

(٥) متوسط في السن بين الصغر والكبر.

(٦) من ب.

(٧) من ب.

(٨) في ب: سنها.

(٩) من ب.

(١٠) ساقط من (ب) من المطبوع.

(١١) في الأصل كالح.." (١)

"{ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير (١٠٦) ألم تعلم أن الله له ملك السماوات والأرض وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير (١٠٧) أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل (١٠٨) }

قوله عز وجل {ما ننسخ من آية أو ننسها} وذلك أن المشركين قالوا: إن محمدا ما يأمر أصحابه بأمر ثم ينهاهم عنه ويأمرهم بخلاف ما يقوله إلا من تلقاء نفسه يقول [اليوم قولا ويرجع عنه غدا كما أخبر الله "وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم] (١) بما ينزل قالوا: إنما أنت مفتر" (١٠١-النحل) وأنزل {ما ننسخ من آية أو ننسها} فبين وجه **الحكمة من** النسخ بهذه الآية.

والنسخ في اللغة شيئان (٢)

---

(١) ساقطة من أ.

(٢) انظر: معجم مقاييس اللغة لابن فارس: ٥ / ٤٢٤، مفردات القرآن للراغب الأصفهاني ص (٤٩٠).." (٢)

---

(١) تفسير البغوي - طيبة البغوي ، أبو محمد ١٠٦/١

(٢) تفسير البغوي - طيبة البغوي ، أبو محمد ١٣٣/١

"فقالت زينب: كانت المرأة إذا توفي عنها زوجها دخلت حفشا (١) أي بيتا صغيرا ولبست شر ثيابها ولم تمس طيبا ولا شيئا حتى تمر بها سنة، ثم تؤتى بدابة، حمار أو شاة أو طيرا فتفتض به، أي تمسح فقلما تفتض بشيء إلا مات، ثم تخرج فتعطى بعرة فترمي بها، ٣٩/ب ثم تراجع بعد ذلك ما شاءت من طيب أو غيره، وقال مالك: تفتض أي تمسح جلدها.

وقال سعيد بن المسيب: الحكمة في هذه المدة أن فيها ينفخ الروح في الولد، ويقال إن الولد يرتكض أي يتحرك في البطن لنصف مدة الحمل أربعة أشهر وعشرا قريبا من نصف مدة الحمل، وإنما قال عشرا بلفظ المؤنث لأنه أراد الليالي لأن العرب إذا أبهمت العدد بين الليالي والأيام غلبت عليها الليالي فيقولون صمنا عشرا والصوم لا يكون إلا بالنهار.

وقال المبرد: إنما أنث العشر لأنه أراد المدد أي عشر مدد كل مدة يوم وليلة، وإذا كان المتوفى عنها زوجها حاملا فعدتها بوضع الحمل عند أكثر أهل العلم من الصحابة فمن بعدهم وروي عن علي وابن عباس رضي الله عنهم أنها تنتظر آخر الأجلين من وضع الحمل أو أربعة أشهر وعشرا، وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: أنزلت سورة النساء القصرى بعد الطولى أراد بالقصرى سورة الطلاق "وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن (٤-الطلاق) نزلت بعد قوله تعالى "يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا" في سورة البقرة فحمله على النسخ، وعامة الفقهاء خصوا الآية بحديث سبيعة وهو ما أخبرنا أبو الحسن السرخسي أخبرنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحاق الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن هشام بن عروة عن أبيه عن المسور بن مخرمة أن سبيعة نفست بعد وفاة زوجها بليال فجاءت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستأذنته أن تنكح فأذن لها فنكحت. (٢)

قوله تعالى {فإذا بلغن أجلهن} أي انقضت عدتهن {فلا جناح عليكم} خطاب للأولياء {فيما فعلن في أنفسهن} أي من اختيار الأزواج دون العقد فإن العقد إلى الولي، وقيل فيما فعلن من التزين

---

(١) الحفش بالكسر الدرج، وقيل: الحفش البيت الصغير الذليل القريب السمك سمي به لضيقه. النهاية لابن الأثير.

(٢) رواه البخاري: في الطلاق باب: وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن ٩ / ٤٦٩. ومسلم: في الطلاق - باب: انقضاء عدة المتوفى عنها زوجها وغيرها بوضع الحمل برقم (١٤٨٥) ٢\١١٢٣.." (١)

"يصير صيرا إذا قطع، وانصار الشيء انصيارا إذا انقطع.

قال الفراء: هو مقلوب من صريت أصري صريا إذا قطعت، وقرأ الآخرون {فصرهن} بضم الصاد ومعناه أملهن إليك ووجههن، يقال: صرت الشيء أصوره إذا أملته، ورجل أصور إذا كان مائل العنق، وقال عطاء: معناه اجمعهن واضممهن إليك يقال: صار يصور صورا إذا اجتمع ومنه قيل لجماعة النحل صور، ومن فسره بالإمالة والضم قال فيه إضمار معناه فصرهن إليك ثم قطعهن فحذفه اكتفاء بقوله: {ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا} لأنه يدل عليه، وقال أبو عبيدة: فصرهن معناه قطعهن أيضا، والصور القطع.

قوله تعالى: {ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا} قرأ عاصم برواية أبي بكر {جزءا} مثقلا مهموزا، والآخرون بالتخفيف والهمز، وقرأ أبو جعفر مشددة الزاي بلا همز وأراد به بعض الجبال.

قال بعض المفسرين: أمر الله إبراهيم أن يذبح تلك الطيور وينتف ريشها ويقطعها ويخلط ريشها ودماءها ولحومها بعضها ببعض ففعل، ثم أمره أن يجعل أجزاءها على الجبال.

واختلفوا في عدد الأجزاء والجبال فقال ابن عباس رضي الله عنهما وقتادة: أمر أن يجعل كل طائر أربعة أجزاء ويجعلها على أربعة أجبل على كل جبل ربعا من كل طائر وقيل: جبل على جانب الشرق، وجبل على جانب الغرب، وجبل على جانب الشمال، وجبل على جانب الجنوب.

وقال ابن جريج والسدي: جزأها سبعة أجزاء ووضعها على سبعة أجبل وأمسك رءوسهن ثم دعاهن: ٤٧/أتعالين بإذن الله تعالى، فجعلت كل قطرة من دم طائر تطير إلى القطرة الأخرى، وكل ريشة تطير إلى الريشة الأخرى، وكل عظم يصير إلى العظم الآخر، وكل بضعة تصير إلى الأخرى، وإبراهيم ينظر، حتى لقيت كل جثة بعضها بعضا في الهواء بغير رأس ثم أقبلن إلى رءوسهن سعيا فكلما جاء طائر مال برأسه فإن كان رأسه دنا منه، وإن لم يكن تأخر، حتى التقى كل طائر برأسه فذلك قوله تعالى {ثم ادعهن يأتينك سعيا} قيل المراد بالسعي الإسراع والعدو، وقيل المراد به المشي دون الطيران كما قال الله تعالى "فاسعوا إلى ذكر الله" (٩-الجمعة) أي فامضوا، **والحكمة في** المشي دون الطيران كونه أبعد من الشبهة لأنها لو طارت لتوهم متوهم أنها غير تلك الطير وإن أرجلها غير سليمة والله أعلم. وقيل السعي بمعنى الطيران

---

(١) تفسير البغوي - طيبة البغوي ، أبو محمد ١/٢٨١

{واعلم أن الله عزيز حكيم}

{مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم (٢٦١) }

قوله تعالى: {مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله} فيه إضمار تقديره مثل صدقات الذين ينفقون أموالهم {كمثل} زارع {حبة} وأراد بسبيل الله الجهاد، وقيل جميع أبواب الخير {أنبتت}." (١)

"أقناء (١) من التمر والبسر فيعلقونه على حبل بين الأسطوانتين في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فيأكل منه فقراء المهاجرين، فكان الرجل منهم يعمد فيدخل قنو الحشف (٢) وهو يظن أنه جائز عنه في كثرة ما يوضع من الأقناء، فنزل فيمن فعل ذلك {ولا تيمموا الخبيث} أي الحشف والرديء، وقال الحسن ومجاهد والضحاك: كانوا يتصدقون بشرار ثمارهم ورذالة أموالهم ويعزلون الجيد ناحية لأنفسهم، فأنزل الله تعالى {ولا تيمموا الخبيث} الرديء {منه تنفقون} {ولستم بآخذيه} يعني الخبيث {إلا أن تغمضوا فيه} الإغماض غض البصر، وأراد هاهنا التجوز والمساهلة، معناه لو كان لأحدكم على رجل حق فجاءه بهذا لم يأخذه إلا وهو يرى أنه قد أغمض له عن حقه وتركه. وقال الحسن وقتادة: لو وجدتموه يباع في السوق ما أخذتموه بسعر الجيد.

وروي عن البراء قال: لو أهدي ذلك لكم ما أخذتموه إلا على استحياء من صاحبه وغيظ، فكيف ترضون ما لا ترضون لأنفسكم؟ هذا إذا كان المال كله جيدا فليس له إعطاء الرديء، لأن أهل السهمان شركاؤه فيما عنده، فإن كان كل ماله رديئا فلا بأس بإعطاء الرديء، {واعلموا أن الله غني} عن صدقاتكم {حميد} محمود في أفعاله.

{الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا والله واسع عليم (٢٦٨) يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر إلا أولو الألباب (٢٦٩) }

{الشيطان يعدكم الفقر} أي يخوفكم بالفقر، يقال وعدته خيرا ووعدته شرا، قال الله تعالى في الخير "وعدكم الله مغانم كثيرة" (٢٠-الفتح) وقال في الشر "النار وعدها الله الذين كفروا" (٧٢-الحج) فإذا لم يذكر الخير والشر قلت في الخير: وعدته وفي الشر، أوعدته، والفقر سوء الحال وقلة ذات اليد، وأصله من كسر الفقار، ومعنى الآية: أن الشيطان يخوفكم بالفقر ويقول للرجل أمسك عليك مالك فإنك إذا

---

(١) تفسير البغوي - طيبة البغوي ، أبو محمد ١/٣٢٤

تصدقت به افتقرت {ويأمركم بالفحشاء} أي بالبخل ومنع الزكاة، وقال الكلبي: كل الفحشاء في القرآن فهو الزنا إلا هذا {والله يعدكم مغفرة منه} أي لذنوبكم {فضلا} أي رزقا خلفا (٣) {والله واسع} غني {عليم}

أخبرنا حسان بن سعيد المنيعي، أخبرنا أبو طاهر الزيادي أخبرنا محمد بن الحسين القطان أخبرنا أحمد بن يوسف السلمي، أخبرنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر عن همام بن منبه قال: حدثنا أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "إن الله تعالى يقول: ابن آدم أنفق أنفق عليك" وقال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "يمين الله ملأى لا تغيضها نفقة، سحاء (٤) الليل والنهار، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السماوات

---

(١) جمع قنو: وهو عذق النخل.

(٢) أردأ التمر.

(٣) ساقط من نسخة ب.

(٤) بمهملتين مثقلا ممدودا، أي دائمة.." (١)

"والأرض فإنه لم ينقص ما في يمينه {قال} وعرشه على الماء وبيده الأخرى القسط يرفع ويخفض" (١) .

أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، أخبرنا محمد بن إسماعيل، أخبرنا عبيد الله بن سعيد أخبرنا عبد الله بن نمير أخبرنا هشام بن عروة عن فاطمة بنت المنذر عن أسماء أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لها "أنفقي ولا تحصي فيحصي الله عليك ولا توعي (٢) فيوعي الله عليك" (٣) .

قوله تعالى: {يؤتي **الحكمة من** يشاء} قال السدي: هي النبوة، وقال ابن عباس رضي الله عنهما وقتادة: علم القرآن ناسخه ومنسوخه ومحكمه ومتشابهه ومقدمه ومؤخره وحلاله وحرامه وأمثاله، وقال الضحاك: القرآن والفهم فيه، وقال: في القرآن مائة وتسع آيات ناسخة ومنسوخة وألف آية حلال وحرام، لا يسع المؤمنين تركهن حتى يتعلموهن، ولا تكونوا كأهل نهروان تأولوا آيات من القرآن في أهل القبلة وإنما أنزلت

---

(١) تفسير البغوي - طيبة البغوي ، أبو محمد ١/٣٣٣

في أهل الكتاب جهلوأ ٤٨/ب علمها فسفكوا بها الدماء وانتهبوا الأموال وشهدوا علينا بالضلالة، فعليكم بعلم القرآن فإنه من علم فيم أنزل الله لم يختلف في شيء منه.

وقال مجاهد: هي القرآن والعلم والفقه، وروى ابن أبي نجيح عنه: الإصابة في القول والفعل، وقال إبراهيم النخعي: معرفة معاني الأشياء وفهمها.

{ومن يؤت الحكمة} في محل الرفع على ما لم يسم فاعله، والحكمة خبره (٤) ، وقرأ يعقوب -يؤت الحكمة -بكسر التاء أي من يؤته الله الحكمة، دليل قراءة الأعمش، ومن يؤته الله، حكي عن الحسن {ومن يؤت الحكمة} قال: الورع في دين الله {فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر} يتعظ {إلا أولو الألباب} ذوو العقول.

---

(١) رواه البخاري: في تفسير سورة هود - باب: وكان عرشه على الماء - ٨ / ٣٥٢ وفي التوحيد. ومسلم: في الزكاة - باب الحث على النفقة وتبشير المنفق بالخلف برقم (٩٩٣) ٢ / ٦٩٠. والمصنف: في شرح السنة: ٦ / ١٥٤-١٥٥.

(٢) الإيعاء جعل الشيء في الوعاء، وأصله الحفظ.

(٣) رواه البخاري: في الهبة - باب: هبة المرأة لغير زوجها وعتقها إذا كان لها زوج ٥ / ٢١٧. ومسلم: في الزكاة: باب: الحث في الإنفاق وكراهية الإحصاء برقم (١٠٢٩) ٢ / ٧١٣. والمصنف: في شرح السنة: ٦ / ١٥٤.

(٤) انظر: التبيان في إعراب القرآن للعكبري: ١ / ٢٢٠.." (١)

"واختلفوا في كيفية الوزن، فقال بعضهم: توزن صحائف الأعمال: وروينا: "أن رجلا ينشر عليه تسعة وتسعون سجلا كل سجل مد البصر، فيخرج له بطاقة فيها شهادة أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، فتوضع السجلات في كفة، والبطاقة في كفة، فطاشت السجلات وثقلت البطاقة" (١) .

وقيل: توزن الأشخاص، وروينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة فلا يزن عند الله جناح بعوضة" (٢) .

وقيل: توزن الأعمال، روي ذلك عن ابن عباس، فيؤتى بالأعمال الحسنة على صورة حسنة وبالأعمال

---

(١) تفسير البغوي - طيبة البغوي ، أبو محمد ١/٣٣٤

السيئة على صورة قبيحة فتوضع في الميزان، والحكمة في وزن الأعمال امتحان الله عباده بالإيمان في الدنيا وإقامة الحجة عليهم في العقبى، {فمن ثقلت موازينه} قال مجاهد: حسناته، {فأولئك هم المفلحون}

{ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون (٩) ولقد مكناكم في الأرض وجعلنا لكم فيها معايش قليلا ما تشكرون (١٠) ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين (١١) }

---

(١) أخرجه الترمذي في الإيمان، باب فيمن يموت وهو يشهد أن لا إله إلا الله: ٧ / ٣٩٥-٣٩٧، وقال: حديث حسن غريب، وابن ماجه في الزهد، باب ما يرجى من رحمة الله يوم القيامة، برقم (٤٣٠٠) : ٢ / ١٤٣٧، وصححه الحاكم: ١ / ٦، وابن حبان ص (٦٢٥) من الموارد، وأخرجه الإمام أحمد: ٢ / ٢١٣، والمصنف في شرح السنة: ١٥ / ١٣٤.

(٢) أخرجه البخاري في التفسير، باب "أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم": ٨ / ٤٢٦، ومسلم في صفات المنافقين وأحكامهم، باب صفة القيامة والجنة والنار، برقم (٢٧٨٥) : ٤ / ٢١٤٧، والمصنف في شرح السنة: ١٥ / ١٤٣.." (١)

"{تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون (٢٥) } .

{تؤتي أكلها} تعطي ثمرها، {كل حين بإذن ربها} ١٩٣/ب والحين في اللغة هو الوقت.

وقد اختلفوا في معناه ها هنا فقال مجاهد وعكرمة: الحين ها هنا: سنة كاملة، لأن النخلة تثمر كل سنة.

وقال سعيد بن جبير وقتادة والحسن: ستة أشهر من وقت إطلاعها إلى صرامها. وروي ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وقيل: أربعة أشهر من حين ظهورها إلى إدراكها.

وقال سعيد بن المسيب: شهران من حين تؤكل إلى حين الصرام.

وقال الربيع بن أنس: "كل حين": أي: كل غدوة وعشية، لأن ثمر النخل يؤكل أبدا ليلا ونهارا، صيفا وشتاء، إما تمرا أو رطبا أو بسرا، كذلك عمل المؤمن يصعد أول النهار وآخره وبركة إيمانه لا تنقطع أبدا،

---

(١) تفسير البغوي - طيبة البغوي ، أبو محمد ٢١٥/٣

بل تصل إليه في كل وقت (١) .

والحكمة في تمثيل الإيمان بالشجرة: هي أن الشجرة لا تكون شجرة إلا بثلاثة أشياء: عرق راسخ، وأصل قائم، وفرع عال، كذلك الإيمان لا يتم إلا بثلاثة أشياء: تصديق بالقلب، وقول باللسان، وعمل بالأبدان.

---

(١) انظر هذه الأقوال الخمسة في معنى "الحين"، وقولا سادسا عن علي: أنه ثمانية أشهر، في: تفسير الطبري: ١٦ / ٥٧٥-٥٧٩، الدر المنثور: ٥ / ٢٤-٢٥، وزاد المسير: ٤ / ٣٥٩، البحر المحيط: ٥ / ٤٢٢. قال الطبري: "وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب قول من قال: عنى بالحين، في هذا الموضع؛ غدوة وعشية وكل ساعة؛ لأن الله تعالى ذكره ضرب ما تؤتي هذه الشجرة كل حين من الأكل لعمل المؤمن وكلامه مثلا، ولا شك أن المؤمن يرفع له إلى الله في كل يوم صالح من العمل والقول، لا في كل سنة، أو في كل ستة أشهر، أو في كل شهرين، فإذا كان ذلك كذلك، فلا شك أن المثل لا يكون خلافا للممثل به في المعنى، وإذا كان ذلك كذلك كان بينا صحة ما قلنا. فإن قال قائل: فأي نخلة تؤتي أكلها في كل وقت أكلا صيفا وشتاء؟ قيل: أما في الشتاء: فإن الطلع من أكلها، وأما في الصيف: فالبلح والبسر والرطب والتمر، وذلك كله من أكلها".." (١)

"أخبرنا أبو عبد الله محمد بن الفضل الخرقي، أنبأنا أبو الحسن علي بن عبد الله الطيسفوني، أنبأنا عبد الله بن عمر الجوهري، أخبرنا أحمد بن علي الكشميهني، حدثنا علي بن حجر، حدثنا إسماعيل بن جعفر، حدثنا عبد الله بن دينار أنه سمع ابن عمر رضي الله عنهما يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها، وإنها مثل المسلم فحدثوني ما هي؟ قال عبد الله: فوقع الناس في شجر البوادي، ووقع في نفسي أنها النخلة فاستحييت، ثم قالوا: حدثنا ما هي يا رسول الله؟ قال: هي النخلة. قال عبد الله: فذكرت ذلك لعمر، فقال: لأن تكون قلت هي النخلة كان أحب إلي من كذا وكذا" (١) .

وقيل: **الحكمة في** تشبيهها بالنخلة من بين سائر الأشجار: أن النخلة شبه (٢) الأشجار بالإنسان من حيث إنها إذا قطع رأسها يبست، وسائر الأشجار تتشعب من جوانبها بعد قطع رؤوسها (٣) ولأنها تشبه الإنسان في أنها لا تحمل إلا بالتلقيح ولأنها خلقت من فضل طينة آدم عليه السلام، ولذلك قال النبي

---

(١) تفسير البغوي - طيبة البغوي ، أبو محمد ٣٤٧/٤

صلى الله عليه وسلم: "أكرموا عمتكم" قيل: ومن عمتنا؟ قال: "النخلة" (٤) {ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون} (٥) .

{ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار (٢٦) } .

{ومثل كلمة خبيثة} وهي الشرك، {كشجرة خبيثة} وهي الحنظل (٦) .

---

(١) متفق عليه، وسبق تخريجه قبل قليل ص (٣٤٦) تعليق (٣) .

(٢) في "ب": أشبه.

(٣) في "ب": رأسها.

(٤) حديث ضعيف أخرجه أبو نعيم في الحلية: ٦ / ١٢٣، وأبو يعلى في مسنده، وابن أبي حاتم، وابن عدي في "الكامل": ٦ / ٢٤٢٤، والعقيلي في "الضعفاء" وابن السني وابن مردويه معا في الطب، قال الهيثمي: فيه مسرور بن سعيد، وهو ضعيف. وقال العقيلي: حديثه غير محفوظ. انظر: مجمع الزوائد: ٥ / ٣٩، فيض القدير: ٢ / ٩٥، كشف الخفاء: ١ / ١٩٥، تمييز الطيب من الخبيث ص (٣٦) ، تنزيه الشريعة المرفوعة لابن عراق: ١ / ٢٠٩، وانظر في الحكمة من تشبيه الإيمان بالنخلة أيضا: زاد المسير: ٤ / ٣٥٩-٣٦٠.

(٥) أي: ويمثل الله الأمثال للناس، ويشبه لهم الأشباه ليتذكروا حجة الله عليهم، فيعتبروا بها ويتعظوا، فينزجروا عما هم عليه من الكفر به إلى الإيمان. انظر: تفسير الطبري: ١٦ / ٥٦٧.

(٦) قال الطبري: ١٦ / ٥٨٥: وقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بتصحيح قول من قال: هي الحنظلة، خبر فإن صح، فلا قول يجوز أن يقال غيره، وإلا فإنها شجرة بالصفة التي وصفها الله بها. ثم ساق حديثا للترمذي والحاكم عن أنس ضعفه الشيخ محمود شاكر. انظر: الطبري: ١٦ / ٥٧٠-٥٧١، ٥٨٥.." (١)

"وربما قال في الحجر (١) بين النائم واليقظان"، وذكر بين رجلين (٢) "فأتيت بطست من ذهب مملوء حكمة وإيمانا فشق من النحر إلى مراق البطن (٣) واستخرج قلبي فغسل ثم حشي ثم أعيد" (٤) . وقال سعيد وهشام: ثم غسل البطن بماء زمزم ثم ملئ إيمانا وحكمة، ثم أوتيت بالبراق، وهو دابة أبيض

---

(١) تفسير البغوي - طيبة البغوي ، أبو محمد ٤/٣٤٨

طويل فوق الحمار ودون البغل، يضع حافره عند منتهى طرفه، فركبته فانطلقت مع جبريل حتى أتيت بيت المقدس، قال: فربطته بالحلقة التي تربط بها الأنبياء، قال: ثم دخلت المسجد فصليت فيه ركعتين ثم خرجت، فجاءني جبريل بإناء من خمر وإناء من لبن، فاخترت اللبن، فقال جبريل: اخترت الفطرة، فانطلق بي جبريل حتى أتى السماء الدنيا فاستفتح، قيل من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحبا به، فنعم المجيء جاء، ففتح، فلما خلصت، فإذا فيها آدم، فقال لي: هذا أبوك آدم، فسلم عليه، فسلمت عليه، فرد السلام، ثم قال: مرحبا بالنبي الصالح والابن الصالح.

وفي حديث أبي ذر: علونا السماء الدنيا، فإذا رجل قاعد عن يمينه أسودة وعن يساره أسودة، إذا نظر قبل يمينه ضحك، وإذا نظر قبل شماله بكى، فقال: مرحبا بالنبي الصالح والابن الصالح. قلت لجبريل: من هذا؟ قال: هذا آدم، وهذه الأسودة التي عن يمينه وشماله نسم بنيه، فأهل اليمين منهم أهل الجنة، والأسودة التي عن شماله أهل النار، فإذا نظر عن يمينه ضحك، وإذا نظر قبل شماله بكى.

ثم صعد حتى أتى السماء الثانية فاستفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحبا به فنعم المجيء جاء، ففتح، فلما خلصت إذا

---

(١) هو شك من قتادة. والمراد بالحطيم هنا: الحجر. انظر: فتح الباري: ٧ / ٢٠٤.

(٢) قال ابن حجر في الموضع السابق: ووقع في بدء الخلق من صحيح البخاري بلفظ "وذكر بين الرجلين" وهو مختصر، وقد أوضحته رواية مسلم من طريق سعيد عن قتادة بلفظ: "إذ سمعت قائلا يقول: أحد الثلاثة بين الرجلين فأتيت، فانطلق بي".. والمراد بالرجلين حمزة وجعفر، وكان النبي صلى الله عليه وسلم نائما بينهما.

(٣) "مراق البطن": بفتح الميم وتخفيف الراء وتشديد القاف، هو: ما أسفل من البطن ورق من جلده، وأصله مراقق، وسميت بذلك لأنها موضع رقة الجلد. انظر: فتح الباري: ٦ / ٣٠٨.

(٤) قال الحافظ ابن حجر في الفتح: (٧ / ٣٠٤-٣٠٥) : "وقد استنكر بعضهم وقوع شق الصدر ليلة الإسراء وقال: إنما كان ذلك وهو صغير في بني سعد. ولا إنكار في ذلك، فقد تواردت الروايات به، وثبت شق الصدر أيضا عند البعثة، كما أخرجه أبو نعيم في "الدلائل"، ولكل منهما حكمة؛ فالأول وقع فيه من

الزيادة -كما عند مسلم من حديث أنس- "فأخرج علقة فقال: هذا حظ الشيطان منك"، وكان هذا في زمن الطفولية، فنشأ على أكمل الأحوال من العصمة من الشيطان. ثم وقع شق الصدر عند البعث زيادة في إكرامه ليتلقى ما يوحي إليه بقلب قوي في أكمل الأحوال من التطهير ثم وقع شق الصدر عند إرادة العروج إلى السماء ليتأهب للمناجاة. ويحتمل أن تكون الحكمة في هذا الغسل لتقع المبالغة في الإسباغ بحصول المرة الثالثة كما تقرر في شرعه صلى الله عليه وسلم". قارن بـ: الشفا للقاضي عياض: ١ / ٢٥٤-٢٥٥.." (١)

"المجيبين وأرحم الراحمين؟ فكيف أرفع صيامهم وهم يلبسونه بقول الزور ويتقوون عليه بطعمة الحرام؟ أم كيف أنور صلاتهم وقلوبهم صاغية إلى من يحاربني ويحادني وينتهك محارمي؟ أم كيف تزكى عندي صدقاتهم وهم يتصدقون بأموال غيرهم؟ إنما آجر عليها أهلها المغصوبين؟ أم كيف أستجيب دعاءهم وإنما هو قول بألسنتهم والفعل من ذلك بعيد إنما أستجيب للداعي اللين وإنما أسمع قول المستعفف المسكين وإن من علامة رضاي رضا المساكين.

يقولون لما سمعوا كلامي وبلغتهم رسالتي: إنها أقاويل منقولة وأحاديث متوارثة وتأليف مما يؤلف السحرة والكهنة وزعموا أنهم لو شاءوا أن يأتوا بحديث مثله فعلوا ولوا شاءوا أن يطلعوا ٢٠٦/أعلى علم الغيب بما يوحي إليهم الشياطين اطلعوا وإني قد قضيت يوم خلقت السماء والأرض قضاء أثبته وحتمته على نفسي وجعلت دونه أجلا مؤجلا لا بد أنه واقع فإن صدقوا فيما ينتحلون من علم الغيب فليخبروك متى أنفذه؟ أو في أي زمان يكون؟ وإن كانوا يقدرون على أن يأتوا بما يشاؤون فليأتوا بمثل هذه القدرة التي بها أمضيت فإني مظهره على الدين كله ولو كره المشركون وإن كانوا يقدرون على أن يقولوا ما يشاؤون فليقولوا مثل الحكمة التي بها أدبر أمر ذلك القضاء إن كانوا صادقين وإني قد قضيت يوم خلقت السماء والأرض أن أجعل النبوة في الأجراء وأن أجعل الملك في الرعاء والعز في الأذلاء والقوة في الضعفاء والغنى في الفقراء والعلم في الجهالة والحكمة في الأميين فسلهم متى هذا ومن القائم به ومن أعوان هذا الأمر وأنصاره إن كانوا يعلمون فإني باعث لذلك نبيا أميا أمينا ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق ولا متزين بالفحش ولا قوال للخنا أسدده لكل جميل وأهب له كل خلق كريم أجعل السكينة لباسه والبر شعاره والتقوى ضميره والحكمة معقوله والصدق والوفاء طبيعته والعفو والمعروف خلقه والعدل سيرته [والحق

(١) تفسير البغوي - طيبة البغوي ، أبو محمد ٦٠/٥

شريعته] (١) والهدى [والقرآن] إمامه، والإسلام ملته وأحمد اسمه أهدي به بعد الضلالة وأعلم به بعد الجهالة وأرفع به بعد الخمالة وأشهر به بعد النكرة وأكثر به بعد القلة وأغني به بعد العيلة وأجمع به بعد الفرقة وأؤلف به بين قلوب مختلفة وأهواء متشتة وأمم متفرقة وأجعل أمته خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر توحيدا لي وإيمانا وإخلاصا لي يصلون قياما وقعودا وركعا وسجودا ويقاتلون في سبيلي صفوفا وزحوفا ويخرجون من ديارهم وأموالهم ابتغاء رضواني ألهمهم التكبير والتوحيد والتسبيح والتحميد والمدحة والتمجيد في مسيرهم ومجالسهم ومضاجعهم ومناقبهم ومثواهم يكبرون ويهللون ويقدسون على رءوس الأشراف ويطهرون لي الوجوه والأطراف يعقدون لي الثياب على الأنصاف قربانهم دماؤهم وأناجيلهم في صدورهم رهبان بالليل ليوث بالنهار ذلك فضلي أوتيه من أشاء وأنا ذو الفضل العظيم.

---

(١) ساقط من "ب".." (١)

"وقال الأخفش: أكاد: أي أريد، ومعنى الآية: أن الساعة آتية أريد أخفيها.

والمعنى في إخفائها التهويل والتخويف، لأنهم إذا لم يعلموا متى تقوم الساعة كانوا على حذر منها كل وقت.

وقرأ الحسن بفتح الألف أي أظهرها، يقال: خفيت الشيء: إذا أظهرته، وأخفيته: إذا سترته.

قوله تعالى: {لتجزى كل نفس بما تسعى} أي بما تعمل من خير وشر.

{فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى (١٦) وما تلك بيمينك يا موسى (١٧) قال هي عصاي أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي ولي فيها مآرب أخرى (١٨) }

{فلا يصدنك عنها} فلا يصرفنك عن الإيمان بالساعة، {من لا يؤمن بها واتبع هواه} مراده خالف أمر الله {فتردى} أي: فتهلك. قوله عز وجل: {وما تلك بيمينك يا موسى} سؤال تقرير، **والحكمة في** هذا السؤال: تنبيهه وتوقيفه على أنها عصا حتى إذا قلبها حية علم أنه معجزة عظيمة. وهذا على عادة العرب، يقول الرجل لغيره: هل تعرف هذا؟ وهو لا يشك أنه يعرفه، ويريد أن ينضم إقراره بلسانه إلى معرفته بقلبه. {قال هي عصاي} قيل: وكانت لها شعبتان، وفي أسفلها سنان، ولها محجن. قال مقاتل: اسمها نبعة. {أتوكأ عليها} أعتمد عليها إذا مشيت وإذا أعييت وعند الوثبة، {وأهش بها على غنمي} أضرب بها

---

(١) تفسير البغوي - طيبة البغوي ، أبو محمد ٥/٧٢

الشجرة اليابسة ليسقط ورقها فترعاه الغنم.
وقرأ عكرمة " وأهس " بالسين غير المعجمة، أي: أزجر بها الغنم، و"الهس": زجر الغنم.
{ولي فيها مآرب أخرى} حاجات ومنافع أخرى، جمع "مأربة" بفتح الراء وضمها، ولم يقل: " أخر " لرءوس الآي. وأراد بالمآرب: ما يستعمل فيه العصا في السفر، وكان يحمل بها الزاد ويشد بها الحبل (١) فيستقي الماء من البئر، ويقتل بها الحيات، ويحارب بها السباع، ويستظل بها إذا قعد

---

(١) في "ب" الدلو.." (١)

"الغنم فوقعت فيه حكة فحك بأظفاره حتى سقطت كلها ثم حكها بالمسوح الخشنة حتى قطعها، ثم حكها بالفخار والحجارة الخشنة، فلم يزل يحكها حتى نغل لحمه، وتقطع وتغير وأنتن، وأخرجه أهل القرية فجعلوه على كناسة، وجعلوا له عريشا، فرفضه خلق الله كلهم غير امرأته، وهي رحمة بنت أفراثيم بن يوسف بن يعقوب كانت تختلف إليه بما يصلحه وتلزمه، فلما رأى الثلاثة من أصحابه وهم: يقن ويلدد وصافر ما ابتلاه الله به اتهموه ورفضوه من غير أن يتركوا دينه، فلما طال به البلاء انطلقوا إليه فبكتوه ولاموه وقالوا له: تب إلى الله من الذنب الذي عوقبت به، قال: وحضره معهم فتى حديث السن قد آمن به وصدقه، فقال لهم: إنكم تكلمتم أيها الكهول، وكنتم أحق بالكلام مني لأسنانكم، ولكن قد تركتم من القول أحسن من الذي قلتم، ومن الرأي أصوب من الذي رأيتم، ومن الأمر أجمل من الذي أتيتم، وقد كان لأيوب عليكم من الحق والذمم أفضل من الذي وصفتم، فهل تدرون أيها الكهول حق من انتقصتم وحرمة من انتهكتم، ومن الرجل الذي عبتم واتهمتم؟ ألم تعلموا أن أيوب نبي الله وخيرته من خلقه وصفوته من أهل الأرض إلى يومكم هذا، ثم لم تعلموا ولم يطلعكم الله من أمره على أنه قد سخط عليه شيئا من أمره منذ آتاه الله ما آتاه إلى يومك هذا، ولا على أنه نزع منه شيئا من الكرامة التي أكرمه بها، ولا أن أيوب قال على الله غير الحق في طول ما صحبتموه إلى يومكم هذا، فإن كان البلاء هو الذي أزرى به عندكم ووضعه في أنفسكم فقد علمتم أن الله يبتلي المؤمنين والصديقين والشهداء والصالحين، وليس بلاؤه لأولئك بدليل على سخطه عليهم ولا لهوانه لهم، ولكنه كرامة وخيرة لهم، ولو كان أيوب ليس من الله بهذه المنزلة إلا أنه أخ أحببتموه على وجه الصحبة لكان لا يجمل بالحليم أن [يعذل] (١) أخاه عند البلاء، ولا يعيره

---

(١) تفسير البغوي - طيبة البغوي ، أبو محمد ٢٦٨/٥

بالمصيبة، ولا يعيبه بما لا يعلم وهو مكروب حزين، ولكنه يرحمه ويبكي معه، ويستغفر له، ويحزن لحزنه، ويدله على مراشد أمره، وليس بحليم ولا رشيد من جهل هذا، فالله الله أيها الكهول وقد كان في عظمة الله وجلاله، وذكر الموت ما يقطع ألسنتكم، ويكسر قلوبكم، ألم تعلموا أن لله عبادا أسكتتهم خشية من غير عي ولا بكم، وأنهم لهم الفصحاء البلغاء النبلاء الألباء العالمون بالله، ولكنهم إذا ذكروا عظمة الله انقطعت ألسنتهم، واقشعرت جلودهم، وانكسرت قلوبهم، وطاشت عقولهم إعظاما وإجلالا لله عز وجل، فإذا استفاقوا من ذلك استبقوا إلى الله عز وجل بالأعمال الزاكية يعدون أنفسهم مع الظالمين والخاطئين، وإنهم لأبرار برءاء، ومع المقصرين والمفرطين، وإنهم لأكياس أقوياء، فقال أيوب: إن الله عز وجل يزرع الحكمة بالرحمة في قلب الصغير والكبير، فمتى نبتت في القلب يظهرها الله على اللسان، وليست تكون الحكمة من قبل السن والشيبة ولا طول التجربة، وإذا جعل الله العبد حكيما في الصبا لم تسقط منزلته عند الحكماء وهم يرون من الله سبحانه عليه نور الكرامة، ثم أعرض عنهم أيوب وأقبل على ربه مستغيثا به متضرعا إليه، فقال رب لأي شيء خلقتني ليتني إذ كرهتني لم تخلقني يا ليتني قد عرفت الذنب الذي أذنبت، والعمل الذي عملت، فصرفت وجهك الكريم عني، لو كنت أمتني فألحقتني بآبائي الكرام، فالموت كان أجمل بي ألم أكن للغريب دارا، وللمسكين قرارا، ولليتيم وليا، وللأرملة قيما، إلهي أنا عبدك إن أحسنت فالمن لك، وإن أسأت فبيدك عقوبتي، جعلتني +عرضا، وللفتنة نصبا، وقد وقع علي بلاء لو سلطته على جبل ضعف عن حمله، فكيف يحمله ضعفي وإن قضاءك هو الذي أذلني، وإن سلطانك هو الذي أسقمني وأنحل جسمي، ولو أن ربي نزع الهيبة التي في صدري وأطلق لساني حتى أتكلم بملء فمي بما كان ينبغي للعبد أن يحاج عن نفسه لرجوت أن يعافيني عند ذلك مما بي، ولكنه ألقاني وتعالى عني فهو يراني ولا أراه ويسمعني ولا أسمعه، لا نظر إلي فيرحمني، ولا دنا مني ولا أدناني فأدلي بعذري وأتكلم ببراءتي وأخاصم ٢٠/أعن نفسي (٢) فلما قال ذلك أيوب وأصحابه عنده أظله غمام حتى ظن أصحابه أنه عذاب أليم، ثم نودي يا أيوب إن الله عز وجل يقول: ها أنا قد دنوت منك ولم أزل منك قريبا قم فأدل بعذرك، وتكلم ببراءتك، وخاصم عن نفسك، واشدد إزرك، وقم مقام جبار يخاصم جبارا إن استطعت، فإنه لا ينبغي أن يخاصمني إلا جبار مثلي، لقد +منتك نفسك يا أيوب أمرا ما تبلغ بمثل قوتك، أين أنت مني يوم خلقت الأرض فوضعتها على أساسها، هل كنت معي تمد بأطرافها؟ وهل علمت بأي مقدار قدرتها أم على أي شيء وضعت أكنافها؟ أبطاعتك حمل الماء الأرض أم بحكمتك كانت الأرض للماء

غطاء؟ أين كنت مني يوم رفعت السماء سقفا في الهواء لا تعلق بسبب من فوقها ولا يقلها دعم من تحتها؟ حتى تبلغ من حكمتك أن تجري نورها أو تسير نجومها أو يختلف بأمرك ليلها ونهارها؟ أين أنت مني يوم نبعث الأنهار وسكرت البحار، أسلطانك حبس أمواج البحار على حدودها؟ أم قدرتك فتحت الأرحام حين بلغت مدتها؟ أين أنت مني يوم صببت الماء على التراب ونصبت شوامخ الجبال؟ هل تدري على أي شيء أرسيتها؟ وبأي مثقال وزنتها؟ أم هل لك من ذراع تطيق حملها؟ أم هل تدري من أين الماء الذي أنزلت من السماء؟ أم هل تدري من أي شيء أنشيء السحاب؟ أم هل تدري أين خزائن الثلج؟ أم أين جبال البرد أم أين خزانة الليل بالنهار [وخزانة النهار بالليل] (٣) ؟ وأين خزانة الريح؟ وبأي لغة تتكلم الأشجار؟ ومن جعل العقول في أجواف الرجال؟ ومن شق الأسماع والأبصار؟ ومن ذلت الملائكة لملكه وقهر الجبارين بجبروته؟ وقسم الأرزاق بحكمته؟ في كلام كثير من آثار قدرته ذكرها لأيوب، فقال أيوب: صغر شأني وكل لساني وعقلي ورائي وضعفت قوتي عن هذا الأمر الذي تعرض لي يا إلهي، قد علمت أن كل الذي ذكرت صنع يديك وتدبير حكمتك وأعظم من ذلك وأعجب لو شئت عملت، لا يعجزك شيء ولا يخفى عليك خافية إذ لقيني البلاء، يا إلهي فتكلمت ولم أملك لساني وكان البلاء هو الذي أنطقني، فليت الأرض انشقت لي فذهبت فيها ولم أتكلم بشيء يسخط ربي، وليتني مت بغمي في أشد بلائي قبل ذلك، إنما تكلمت حين تكلمت لتعذرني، وسكت حين سكت لترحمني، كلمة زلت مني فلن أعود، وقد وضعت يدي على فمي وعضضت على لساني، وألصقت بالتراب خدي، أعوذ بك اليوم منك وأستجيرك من جهد البلاء فأجرني، وأستغيث بك من عقابك فأغثني، وأستعين بك على أمري فأعني، وأتوكل عليك فاكفني، وأعتصم بك فاعصمني، وأستغفرك فاغفر لي، فلن أعود لشيء تكرهه مني، قال الله تعالى: يا أيوب نفذ فيك علمي وسبقت رحمتي غضبي فقد غفرت لك، ورددت عليك أهلك ومالك ومثلهم معهم لتكون لمن خلقت آية، وتكون عبرة لأهل البلاء وعزاء للصابرين، فاركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب فيه شفاؤك وقرب عن أصحابك قربانا فاستغفر لهم فإنهم قد عصوني فيك، فركض برجله فانفجرت له عين فدخل فيها فاغتسل فأذهب الله عنه كل ما كان به من البلاء، ثم خرج فجلس فأقبلت امرأته تلتمسه في مضجعه فلم تجده فقامت كالوالهة مترددة (٤) ثم قالت: يا عبد الله هل لك علم بالرجل المبتلى الذي كان هاهنا؟ قال لها: هل تعرفينه إذا رأيتيه؟ قالت: نعم وما لي لا أعرفه، فتبسم وقال: أنا هو فعرفته بضحكه فاعتنقته. قال ابن عباس: فوالذي نفس عبد الله بيده ما فارقته من عناقه حتى مر بهما كل

مال لهما وولد (٥) .

فذلك قوله تعالى: {وأيوب إذ نادى ربه أني مسني الضر} واختلفوا في وقت ندائه والسبب الذي قال لأجله: إني مسني الضر، وفي مدة بلائه.

روى ابن شهاب عن أنس يرفعه أن أيوب لبث في بلائه ثماني عشرة سنة (٦) .

وقال وهب: لبث أيوب في البلاء ثلاث سنين لم يزد يوما (٧) .

وقال كعب: كان أيوب في بلائه سبع سنين وسبعة أشهر وسبعة أيام.

وقال الحسن: مكث أيوب مطروحا على كناسة في مزبلة لبني إسرائيل سبع سنين وأشهرا تختلف فيه الدواب لا يقربه أحد غير رحمة صبرت معه بصدق وتأتيه بطعام وتحمد الله معه إذا حمد، وأيوب على ذلك لا يفتر عن ذكر الله والصبر على ابتلائه (٨) فصرخ إبليس صرخة جمع بها جنوده من أقطار الأرض، فلما اجتمعوا إليه قالوا: له حزنك؟ قال أعياني هذا العبد الذي لم أدع له مالا ولا ولدا فلم يزد إلا صبرا، ثم سلطت على جسده فتركته قرحة ملقاة على كناسة لا يقربه إلا امرأته، فاستعنت بكم لتعينوني عليه، فقالوا له أين مكرك الذي أهلكت به من مضى؟ قال: بطل ذلك كله في أيوب فأشيروا علي قالوا نشير عليك، من أين أتيت آدم حين أخرجته من الجنة؟ قال من قبل امرأته قالوا فشأنك بأيوب من قبل امرأته فإنه لا يستطيع أن يعصيها وليس أحد يقربه غيرها، قال: أصبتم، فانطلق حتى أتى امرأته وهي تصدق فتمثل لها في صورة رجل فقال: أين بعلك يا أمة الله؟ قالت هو ذاك يحك قروحه وتتردد الدواب في جسده، فلما سمعها طمع أن تكون كلمة جزع فوسوس إليها وذكرها ما كانت فيه من النعم والمال، وذكرها جمال أيوب وشبابه وما هو فيه من الضر وأن ذلك لا ينقطع عنهم أبدا، قال الحسن فصرخت فلما صرخت علم أن قد جزعت فأتاها بسخلة وقال ليذبح هذه لي أيوب ويبرأ، فجاءت تصرخ يا أيوب حتى متى يعذبك ربك، أين المال، أين الولد، أين الصديق، أين لونك الحسن، أين جسمك [الحسن] (٩) اذبح هذه السخلة واسترح، قال أيوب أتاك عدو الله فنفخ فيك ويلك أرأيت ما تبكين ٢٠/ب عليه من المال والولد والصحة من أعطانيه؟ قالت الله، قال فكم متعنا به؟ قالت ثمانين سنة، قال فمنذ كم ابتلانا؟ قالت منذ سبع سنين وأشهر، قال ويلك

---

(١) في "ب" يعتزل.

(٢) أخرجه الطبري: ١٧ / ٦٥ -٦٨ دون أن يعلق بشيء على ما في الرواية من الإسرائيليات كما قال صاحب أضواء البيان: ٤ / ٦٨١، ومنها ما ذكره جماعة من المفسرين: أن الله سلط الشيطان على ماله وأهله ابتلاء لأيوب، فأهلك الشيطان ماله وولده، ثم سلطه على بدنه ابتلاء له فنفخ في جسده نفخة اشتعل منها، فصار في جسده ثآليل، فحكمها بأظافره حتى دميت، ثم بالفخار حتى تساقط لحمه، وعصم الله قلبه ولسانه (وغالب ذلك من الإسرائيليات) انتهى. وقال الدكتور محمد أبو شهبة في كتابه (الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير ص ٣٩١ - ٣٩٢) بعد أن ساق عدة روايات في ابتلاء أيوب عليه السلام: والمحققون من العلماء على أن نسبة هذا إلى المعصوم - صلى الله عليه وسلم - إما من عمل بعض الوضاعين الذين يركبون الأسانيد للمتون، أو من غلط بعض الرواة، وأن ذلك من إسرائيليات بني إسرائيل وافترائهم على الأنبياء. . . ثم قال: وقد دلك كتاب الله الصادق، على لسان نبيه محمد الصادق على أن الله - تبارك وتعالى - ابتلى نبيه: أيوب - عليه السلام - في جسده، وأهله، وماله وأنه صبر حتى صار مضرب الأمثال في ذلك. . . والذي يجب أن نعتقده أنه ابتلى، ولكن بلاءه لم يصل إلى حد هذه الأكاذيب، من أنه أصيب بالجذام وأن جسمه أصبح قرحة، وأنه ألقي على كناسة بني إسرائيل، يرعى في جسده الدود، وتعبث به دواب بني إسرائيل، أو أنه أصيب بمرض الجدري، وأيوب - عليه صلوات الله وسلامه - أكرم على الله من أن يقلى على مزبلة، وأن يصاب بمرض ينفر الناس من دعوته، ويقززهم منه، وأي فائدة تحصل من الرسالة وهو على هذه الحال المزرية التي لا يرضاها الله لأنبيائه ورسله.

(٣) زيادة من "ب".

(٤) متلددة: متلفتة يمينا وشمالا.

(٥) أخرجه الطبري: ١٧ / ٦٨ - ٦٩.

(٦) أخرجه الحاكم: ٢ / ٥٨١ إلا أنه ذكر مدة البلاء خمس عشرة سنة، وابن حبان في موارد الظمآن ص ٥١١، وعزاه السيوطي: ٥ / ٦٥٩ لابن أبي الدنيا وأبي يعلي وابن جرير وابن أبي حاتم، وذكره ابن كثير ٣ / ١٨٩ من رواية ابن أبي حاتم عن أنس ابن مالك وقال: رفع هذا الحديث غريب جدا.

(٧) أخرجه الطبري: ١٧ / ٦٦.

(٨) أخرجه الطبري: ١٧ / ٦٩.

(٩) في "ب" الصحيح.." (١)

"أخبرنا أحمد بن إبراهيم الشريحي، أخبرنا أبو إسحاق الثعلبي، أخبرني الحسين بن محمد الحديثي، أخبرنا عبد الله بن أحمد بن يعقوب المقرئ، أخبرنا محمد بن محمد بن سليمان الساعدي، أخبرنا هارون بن محمد بن بكار بن بلال، أخبرنا أبي، أخبرنا سعيد -يعني ابن بشير-عن قتادة عن الحسن، عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "كنت أول النبيين في الخلق وآخرهم في البعث" (١) .

قال قتادة: وذلك قول الله عز وجل: {وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح} فبدأ به صلى الله عليه وسلم قبلهم.

{وأخذنا منهم ميثاقا غليظا} عهدا شديدا على الوفاء بما حملوا.

{ليسأل الصادقين عن صدقهم وأعد للكافرين عذابا أليما (٨) يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرا (٩) }

{ليسأل الصادقين عن صدقهم} يقول: أخذنا ميثاقهم [لكي نسأل الصادقين عن صدقهم، يعني النبيين عن تبليغهم] (٢) الرسالة. والحكمة في سؤالهم، مع علمه أنهم صادقون، تبكيت (٣) من أرسلوا إليهم.

وقيل: ليسأل الصادقين عن عملهم لله عز وجل. وقيل: ليسأل الصادقين بأفواههم عن صدقهم في قلوبهم. {وأعد للكافرين عذابا أليما} قوله عز وجل: {يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم} وذلك حين حوصر المسلمون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم أيام الخندق، {إذ جاءتكم جنود} يعني الأحزاب، وهم قريش، وغطفان، ويهود قريظة، والنضير، {فأرسلنا عليهم ريحا} وهي الصبا، قال عكرمة: قالت الجنوب للشمال ليلة الأحزاب انطلقي ننصر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت الشمال إن الحرة لا تسري بالليل، وكانت الريح التي أرسلت عليهم الصبا (٤)

---

(١) أخرجه الطبري: ٢١ / ١٢٥، وعزاه ابن كثير في التفسير: ٣ / ٤٧٠ لابن أبي حاتم، وقال: (سعيد بن بشير فيه ضعف، وقد رواه سعيد بن أبي عروبة عن قتادة مرسلا، وهو أشبه، ورواه بعضهم عن قتادة موقوفا. والله أعلم) .

---

(١) تفسير البغوي - طيبة البغوي ، أبو محمد ٥/٣٤٠

(٢) ما بين القوسين ساقط من "أ".

(٣) في "ب" بتكذيب.

(٤) انظر: القرطبي: ١٤ / ١٤٣-١٤٤.." [1]

"[سورة البقرة (٢) : آية ١٨٩]

يسئلونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها واتقوا الله لعلكم تفلحون (١٨٩)

وروى أن معاذ بن جبل وثعلبة بن غنم الأنصارى قالا: يا رسول الله، ما بال الهلال يبدو دقيقا مثل الخيط ثم يزيد حتى يمتلئ ويستوي، ثم لا يزال ينقص حتى يعود كما بدا لا يكون على حالة واحدة؟ فنزلت «١» مواقيت معالم يوقت بها الناس مزارعهم ومتاجرهم ومحال ديونهم وصومهم وفطرهم وعدد نسائهم وأيام حيضهن ومدد حملهن وغير ذلك، ومعالم للحج يعرف بها وقته. كان ناس من الأنصار إذا أحرموا لم يدخل أحد منهم حائطا ولا دارا ولا فسطاطا من باب، فإذا كان من أهل المدر نقب نقبا في ظهر بيته منه يدخل ويخرج، أو يتخذ سلما يصعد فيه وإن كان من أهل الوبر خرج من خلف الخباء فقيل لهم: ليس البر بتحرجكم من دخول الباب ولكن البر بر من اتقى ما حرم الله. فإن قلت: ما وجه اتصاله بما قبله «٢» ؟ قلت: كأنه قيل لهم عند سؤالهم عن الأهلة وعن الحكمة في نقصانها- وتمامها معلوم-: أن كل ما يفعله الله عز وجل لا يكون إلا حكمة بالغة ومصلحة لعباده، فدعوا السؤال عنه وانظروا في واحدة تفعلونها أنتم مما ليس من البر في شيء وأنتم تحسبونها برا. ويجوز أن يجرى ذلك على طريق الاستطراد لما ذكر أنها مواقيت للحج، لأنه كان من أفعالهم في الحج. ويحتمل أن يكون هذا لتعكيسهم في سؤالهم، وأن مثلهم فيه كمثل من يترك باب البيت ويدخله من ظهره. والمعنى: ليس البر وما ينبغي أن تكونوا عليه بأن تعكسوا في مسائلكم، ولكن البر بر من اتقى ذلك وتجنبه

---

(١) . عزاه الواحدي في الأسباب إلى ابن الكلبي مختصرا وذكره الشعبي، كما ذكره المصنف.

(٢) . قال محمود رحمه الله: «فان قلت ما وجه إيصال هذا الكلام ... الخ» قال أحمد رحمه الله: ومثل هذا من الاستطراد في كتاب الله تعالى قوله: (وما يستوي البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح

---

(١) تفسير البغوي - طيبة البغوي ، أبو محمد ٣٢١/٦

أجاج) ومن كل تأكلون لحما طريا ...) إلى آخر الآية فانه تعالى بين عدم الاستواء بينهما إلى قوله: (أجاج) وبذلك تم القصد في تمثيل عدم استواء الكافر والمسلم، ثم قوله: (ومن كل تأكلون) لا يتقرر به عدم الاستواء، بل المفاد به استواؤهما فيما ذكر، فهو من إجراء الله الكلام بطريق الاستطراد المذكور. وإنما مثلت هذا النوع الذي نبه عليه الزمخشري لأنه مفرد عن الاستطراد الذي بوب عليه أهل صناعة البديع والمطابق لما بوبوا عليه سواء قوله تعالى:

(لا تتولوا قوما غضب الله عليهم قد يئسوا من الآخرة كما يئس الكفار من أصحاب القبور) . فانه ذم اليهود واستطرد بذلك ذم المشركين المنكرين للبعث على نوع من التشبيه لطيف المنزع وفي البديع التمثيل بقوله:

إذا ما اتقى الله الفتى وأطاعه ... فليس به بأس وإن كان من جرم

وسيأتى فيه مزيد تقرير إن شاء الله.." (١)

"فبلغن أجلهن أى آخر عدتهن وشارفن منتهاها. والأجل يقع على المدة كلها، وعلى آخرها، يقال لعمر الإنسان: أجل، وللموت الذي ينتهى به: أجل، وكذلك الغاية والأمد، يقول النحويون «من» لابتداء الغاية، و «إلى» لانتهاء الغاية. وقال:

كل حى مستكمل مدة العمر ... ومود إذا انتهى أمده «١»

ويتسع في البلوغ أيضا فيقال: بلغ البلد إذا شارفه وداناه. ويقال: قد وصلت، ولم يصل وإنما شارف، ولأنه قد علم أن الإمساك بعد تقضى الأجل لا وجه له، لأنها بعد تقضيه غير زوجة له في غير عدة منه، فلا سبيل له عليها فأمسكوهن بمعروف فإما أن يراجعها من غير طلب ضرار بالمراجعة أو سرحوهن بمعروف وإما أن يخليها حتى تنقضي عدتها وتبين من غير ضرار ولا تمسكوهن ضرارا كان الرجل يطلق المرأة ويتركها حتى يقرب انقضاء عدتها، ثم يراجعها لا عن حاجة، ولكن ليطول العدة عليها، فهو الإمساك ضرارا لتعتدوا لتظلموهن. وقيل:

لتلجئوهن إلى الافتداء فقد ظلم نفسه بتعريضها لعقاب الله ولا تتخذوا آيات الله هزوا أى جدوا في الأخذ بها والعمل بما فيها، وارعوها حق رعايتها، وإلا فقد اتخذتموها هزوا ولعبا.

ويقال لمن لم يجد في الأمر: إنما أنت لاعب وهازئ. ويقال: كن يهوديا وإلا فلا تلعب بالتوراة.

وقيل: كان الرجل يطلق ويعتق ويتزوج ويقول: كنت لاعبا. وعن النبي صلى الله عليه وسلم:

---

(١) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل الزمخشري ٢٣٤/١

«ثلاث جدهن جد وهزلهن جد: الطلاق «٢» والنكاح والرجعة «٣» واذكروا نعمة الله عليكم بالإسلام وبنبوة محمد صلى الله عليه وسلم وما أنزل عليكم من الكتاب **والحكمة من** القرآن والسنة وذكرها مقابلتها بالشكر والقيام بحقها يعظكم به بما أنزل عليكم فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن إما أن يخاطب به الأزواج الذين يعضلون نساءهم بعد انقضاء العدة ظلما وقسرا، ولحمية الجاهلية لا يتركونهن يتزوجن من شئن من الأزواج. والمعنى: أن ينكحن أزواجهن الذين يرغبن فيهم ويصلحون لهن، وإما أن يخاطب به الأولياء في عضلهن أن يرجعن إلى أزواجهن.

روى أنها نزلت في معقل بن يسار حين عضل أخته أن ترجع إلى الزوج الأول. وقيل: في جابر

---

(١) . يقال: أودى إذا هلك، وأودى به السيل ونحوه أهلكه وذهب به. والودي كالغنى: الهلاك. ويروى أجله. والأمد والأجل يطلقان على جميع مدة الشيء. وعلى منتهاها، كما تطلق الغاية على جميع المسافة وعلى آخرها.

يقول: كل حى لا بد أنه يستكمل مدة عمره ويهلك إذا انتهت مدته وتسكين العمر لغة فيه.

(٢) . قوله «وهزلهن جد الطلاق والنكاح والرجعة» في أبى السعود: النكاح والطلاق والعتاق. (ع)

(٣) . أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجة والحاكم والدارقطني والبيهقي، من حديث أبى هريرة. وفي إسناده ضعف.." (١)

"وتيممه وتأممه، سواء في معنى قصده ولستم بآخذيه وحالكم أنكم لا تأخذونه في حقوقكم إلا أن تغمضوا فيه إلا بأن تتسامحوا في أخذه وتترخصوا فيه من قولك: أغمض فلان عن بعض حقه، إذا غض بصره. ويقال للبائع: أغمض، أى لا تستقص، كأنك لا تبصر. وقال الطرماح:

لم يفتنا بالوتر «١» قوم وللضيم رجال يرضون بالإغماض «٢»

وقرأ الزهري: تغمضوا. وأغمض وغمض بمعنى. وعنه: تغمضوا، بضم الميم وكسرها. من غمض يغمض ويغمض. وقرأ قتادة: تغمضوا، على البناء للمفعول، بمعنى إلا أن تدخلوا فيه وتجذبوا إليه. وقيل: إلا أن توجدوا مغمضين. وعن الحسن رضى الله عنه: لو وجدتموه في السوق يباع ما أخذتموه حتى يهضم لكم من ثمنه. وعن ابن عباس رضى الله عنهما: كانوا يتصدقون بحشف التمر وشراره فنهوا عنه.

---

(١) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل الزمخشري ٢٧٧/١

[سورة البقرة (٢) : آية ٢٦٨]

الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا والله واسع عليم (٢٦٨)

أى يعدكم في الإنفاق الفقر ويقول لكم إن عاقبة إنفاقكم أن تفتقروا. وقرئ:

الفقر، بالضم. والفقر- بفتحتين- والوعد يستعمل في الخير والشر. قال الله تعالى: (النار وعدها الله الذين كفروا) . ويأمركم بالفحشاء ويغريكم على البخل ومنع الصدقات إغراء الآمر للمأمور.

والفاحش عند العرب: البخيل «٣» والله يعدكم في الإنفاق مغفرة لذنوبكم وكفارة لها وفضلا وأن يخلف عليكم أفضل مما أنفقتم، أو وثوابا عليه في الآخرة

[سورة البقرة (٢) : آية ٢٦٩]

يؤتي **الحكمة من** يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر إلا أولوا الألباب (٢٦٩)

---

(١) . قوله «لم يفتنا بالوتر قوم» في الصحاح «الموتور» الذي قتل له قتيل فلم يدرك بدمه. تقول منه: وتره وترا وترة. وكذلك وتره حقه أى نقصه. (ع)

(٢) . الباء للملابسة أو بمعنى مع. والوتر- بالكسر- الظلم ونقص بعض الحق، ومثله الترة. والفعل وتر كوعد. والضيم: الظلم، والإغماض: ترك بعض الحق والاعراض عنه، كأنه لا يراه. يقول: لم يسبقنا قوم بالوتر ويظفروا منا به. وقوله: وللضيم رجال: استئناف، يعنى إنا لا نعرض عن حقنا كغيرنا لشجاعتنا دونهم، أو حال، أى والحال أن للظلم ناس يرضون بترك حقوقهم لعجزهم، ويؤول إلى الأول.

(٣) . قوله «والفاحش عند العرب البخيل» قال:

أرى الموت يعتام الكرام ويصطفى ... عقيلة مال الفاحش المتشدد (ع)." (١)

"محتملات هن أم الكتاب أى أصل الكتاب تحمل المتشابهات عليها وترد إليها، ومثال ذلك (لا تدركه الأبصار) ، (إلى ربها ناظرة) ، (لا يأمر بالفحشاء) . (أمرنا مترفيها)

. فإن قلت:

---

(١) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل الزمخشري ٣١٥/١

فهلا كان القرآن كله محكما؟ قلت: لو كان كله محكما لتعلق الناس به لسهولة مأخذه، ولأعرضوا عما يحتاجون فيه إلى الفحص والتأمل من النظر والاستدلال، ولو فعلوا ذلك لعطلوا الطريق الذي لا يتوصل إلى معرفة الله وتوحيده إلا به، ولما في المتشابه من الابتلاء والتمييز بين الثابت على الحق والمتزلزل فيه، ولما في تقادح العلماء وإتعابهم القرائح في استخراج معانيه ورده إلى المحكم من الفوائد الجليلة والعلوم الجمة ونيل الدرجات عند الله، ولأن المؤمن المعتقد أن لا مناقضة في كلام الله ولا اختلاف، إذا رأى فيه ما يتناقض في ظاهره، وأهمه طلب ما يوفق بينه ويجريه على سنن واحد، ففكر وراجع نفسه وغيره ففتح الله عليه وتبين مطابقة المتشابه المحكم، ازداد طمأنينة إلى معتقده وقوة في إيقانه الذين في قلوبهم زيغ هم أهل البدع فيتبعون ما تشابه منه فيتعلقون بالمتشابه الذي يحتمل ما يذهب إليه المبتدع مما لا يطابق المحكم ويحتمل ما يطابقه من قول أهل الحق ابتغاء الفتنة طلب أن يفتنوا الناس عن دينهم ويضلوهم وابتغاء تأويله وطلب أن يأولوه التأويل الذي يشتهونه وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم أى لا يهتدى إلى تأويله الحق الذي يجب أن يحمل عليه إلا الله «١» وعباده الذين رسخوا في العلم، أى ثبتوا فيه وتمكنوا وعضوا فيه بضرس قاطع. ومنهم من يقف على قوله إلا الله، ويبتدئ والراسخون في العلم يقولون.

ويفسرون المتشابه بما استأثر الله بعلمه، وبمعرفة الحكمة فيه من آياته، كعدد الزبانية ونحوه:

والأول هو الوجه. ويقولون: كلام مستأنف موضح لحال الراسخين بمعنى هؤلاء العالمون بالتأويل يقولون آمنا به أى بالمتشابه كل من عند ربنا أى كل واحد منه ومن المحكم من عنده، أو بالكتاب كل من متشابهه ومحكمه من عند الله الحكيم الذي لا يتناقض كلامه ولا يختلف كتابه وما يذكر إلا أولوا الألباب مدح للراسخين بإلقاء الذهن وحسن التأمل. ويجوز أن يكون

---

(١) . قال محمود: معناه لا يهتدى إلى تأويله ... الخ» قال أحمد رحمه الله: وقوله «لا يهتدى إليه إلا الله» عبارة قلقة، ولم يرد إطلاق الاهتداء على علم الله تعالى، مع أن في هذه اللفظة إيهاما إذ الاهتداء لا يكون في الإطلاق إلا عن جبل وضلال- جل الله وعز- حتى إن الكافر إذا أسلم أطلق أهل العرف عليه: فلان المهتدى، ذلك مقتضى اللغة فيه فانه مطاوع هدى. يقال: هديته فاهتدى، والإجماع منعقد على أن ما لم يرد إطلاقه وكان موهما لا يجوز إطلاقه على الله عز وجل. ولذا أنكر على القاضي إطلاقه المعرفة على علم الله تعالى حيث حد مطلق العلم بأنه معرفة المعلوم على ما هو عليه. فلأن ينكر على الزمخشري

إطلاق الاهتداء على علم الله تعالى أجدر. وما أراها صدرت منه إلا وهما حيث أضاف العلم إلى الله تعالى وإلى الراسخين في العلم، فأطلق الاهتداء على الراسخين، أو عقل عن كونه ذكرهم مضائين إلى الله تعالى في الفعل المذكور والله أعلم. [.....]."(١)

"القول على معناه لأن معنى (ما قلت لهم إلا ما أمرتني به) . ما أمرتهم إلا بما أمرتنى به، حتى يستقيم تفسيره يأن اعبدوا الله ربى وربكم. ويجوز أن تكون «أن» موصولة «١» عطف بيان للهاء لا بدلا وكنت عليهم شهيدا رقيبا كالشاهد على المشهود عليه، أمنعهم من أن يقولوا ذلك ويتدينوا به فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم تمنعهم من القول به بما نصبت لهم من الأدلة، وأنزلت عليهم من البينات، وأرسلت إليهم من الرسل إن تعذبهم فإنهم عبادك الذين عرفتهم عاصين جاحدين لآياتك مكذبين لأنبيائك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز القوى القادر على الثواب والعقاب الحكيم الذي لا يثيب ولا يعاقب إلا عن حكمة وصواب. فإن قلت: المغفرة لا تكون للكفار فكيف قال: (وإن تغفر لهم) «٢» ؟ قلت: ما قال إنك تغفر لهم، ولكنه بنى الكلام على: إن غفرت، فقال: إن عذبتهم عدلت، لأنهم أحقاء

---

(١) . عاد كلامه. قال: ويجوز أن تكون أن موصولة ... الخ» قال أحمد: يريد بجعله عطف بيان أن يسلم من تقدير إطراح الأول في البدل وخلو الصلة حينئذ من العائد. وقد بينا أن ذلك غير لازم في البدل. والعجب أنه أيضا في مفصله لم يفصل بين عطف البيان والبدل، إلا في مثل قول المرار:

أنا ابن التارك البكري بشر

لأنه لو جعله بدلا للزم تكرير العامل، وإضافة اسم الفاعل العرف بالألف واللام إلى العلم ولم يفصل بينهما في غير هذا المثال ومن حيث المعنى أن المعتمد في عطف البيان الأول. وأما الثاني فللتوضيح. والمعتمد في البدل الثاني.

وأما الأول فبساط لذكره، لا على أنه مطرح مهدر.

(٢) . قال محمود «إن قلت المغفرة لا تكون للكفار فكيف قال وإن تغفر لهم ... الخ» ؟ قال أحمد رحمه الله: تذبذب الزمخشري في هذا الموضع فلا إلى أهل السنة ولا إلى القدرية. أما أهل السنة، فالمغفرة للكافر جائزة عندهم في حكم الله تعالى عقلا، بل عقاب المتقى المخلص كذلك غير ممتنع عقلا من الله

---

(١) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل الزمخشري ٣٣٨/١

تعالى، وإذا كان كذلك فهذا الكلام خرج على الجواز العقلي، وإن كان السمع ورد بتعذيب الكفار وعدم الغفران لهم، إلا أن ورود السمع بذلك لا يرفع الجواز العقلي. وأما القدرية فيزعمون أن المغفرة للكافر ممتنعة عقلا، لا تجوز على الله تعالى لمناقضتها الحكمة، فمن ثم كفحتهم هذه الآية بالرد، إذ لو كان الأمر كزعمهم لما دخلت كلمة «إن» المستعملة عند الشك في وقوع الفعل بعدها لغة في فعل لا شك في عدم وقوعه عقلا، ولكان ذلك من باب التعليق بالمحال، كأن يبيض القار وأشباهه. وليس هذا مكان. فقول الزمخشري إذا (إن تغفر لهم) لم يعدم وجها من الحكمة في المغفرة لأن العفو عن المجرم حسن عقلا لا يأتلف بقواعد السنة، إذ لا يلتفت عندهم إلى التحسين العقلي، ولا يأتلف أيضا بنزغات القدرية، لأنهم يجزمون بأنه لا وجه من الحكمة في المغفرة للكافر، ويقطعون بمنافاتها الحكمة، فكيف يخاطب الله تعالى به، فعلم أن عيسى عليه السلام يبرأ إلى الله من هذا الإطلاق ومما اشتمل عليه من سوء الأدب، فان قول القائل لمن يخاطبه: ما فعل كذا فلن يعدم فيه عذرا ووجها من المصلحة كلام مبذول وعبارة نازلة عن أوفى مراتب الأدب، إنما يطلقها المتكلم لمن هو دونه عادة، فنسأل الله إلهام الأدب وتجنب ما في إساءته من مزلات العطب.." (١)

"نهيت صرفت وزجرت، بما ركب فى من أدلة العقل، وبما أوتيت من أدلة السمع عن عبادة ما تعبدون من دون الله وفيه استجهال لهم ووصف بالاقتحام فيما كانوا فيه على غير بصيرة قل لا أتبع أهواءكم أى لا أجرى في طريقتكم التي سلكتموها في دينكم من اتباع الهوى دون اتباع الدليل، وهو بيان للسبب الذي منه وقعوا في الضلال، وتنبيه لكل من أراد إصابة الحق ومجانبة الباطل قد ضللت إذا أى إن اتبعت أهواءكم فأنا ضال وما أنا من الهدى في شيء يعنى أنكم كذلك. ولما نفى أن يكون الهوى متبعا نبه على ما يجب اتباعه بقوله قل إني على بينة من ربي ومعنى قوله إني على بينة من ربي وكذبتم به: إنى من معرفة ربى وأنه لا معبود سواه، على حجة واضحة وشاهد صدق وكذبتم به أنتم حيث أشركتم به غيره. يقال: أنا على بينة من هذا الأمر وأنا على يقين منه، إذا كان ثابتا عندك بدليل. ثم عقبه بما دل على استعظام تكذيبهم بالله وشدة غضبه عليهم لذلك وأنهم أحقاء بأن يغافصوا «١» بالعذاب المستأصل فقال ما عندي ما تستعجلون به يعنى العذاب الذي استعجلوه في قولهم فأمطر علينا حجارة من السماء إن الحكم إلا لله في تأخير عذابكم يقص الحق أى القضاء الحق في كل ما يقضى من التأخير والتعجيل في أقسامه وهو خير الفاصلين

---

(١) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل الزمخشري ١/٦٩٦

أى القاضين. وقرئ: يقص الحق «٢» أى يتبع الحق والحكمة فيما يحكم به ويقدره، من قصر أثره لو أن عندي أى في قدرتي وإمكانى ما تستعجلون به من العذاب لقضي الأمر بيني وبينكم لأهلكتكم عاجلا غضبا لربي وامتعاضا «٣» من تكذيبكم به. ولتخلصت منكم سريعا والله أعلم بالظالمين وبما يجب في الحكمة من كنه عقابهم. وقيل على بينة من ربي على حجة من جهة ربى وهي القرآن وكذبتم به أى بالبينة. وذكر الضمير على تأويل البيان أو القرآن. فإن قلت: بم انتصب الحق؟ قلت: بأنه صفة لمصدر يقضى، أى يقضى القضاء الحق. ويجوز أن يكون مفعولا به من قولهم: قضى الدرع إذا صنعها، أى يصنع الحق ويدبره. وفي قراءة عبد الله: يقضى بالحق. فإن قلت: لم أسقطت الياء في الخط؟ قلت: اتباعا للخط اللفظ، وسقوطها في اللفظ لالتقاء الساكنين.

---

(١) . قوله «يغافصوا» أى يؤاخذوا على غفلة. يقال: غافصت الرجل أخذته على غرة اه (ع)

(٢) . قوله «وقرئ يقص الحق» ظاهره أن قراءة يقص من القضاء، هي المشهورة. فليحرر. (ع)

(٣) . قوله «وامتعاضا» الامتعاض: امتداد الغضب. أفاده الصحاح. (ع)." [1]

"مسكا وورقا وحريرا، فابتاعه قطفير بذلك المبلغ أكرمي مثواه اجعلي منزله ومقامه عندنا كريما، أى حسنا مرضيا، بدليل قوله إنه ربي أحسن مثواي والمراد تفقديه بالإحسان وتعهديه بحسن الملكة، حتى تكون نفسه طيبة في صحبتنا، ساكنة في كنفنا. ويقال للرجل: كيف أبو مثواك وأم مثواك لمن ينزل به من رجل أو امرأة، يراد: هل تطيب نفسك بثوائك عنده، وهل يراعى حق نزولك به. واللام في لامرأته متعلقة بقال، لا باشتراه عسى أن ينفعنا لعله إذا تدرب وراض الأمور وفهم مجاريها، نستظهر به على بعض ما نحن بسبيله، فينفعنا فيه بكفايته وأمانته. أو نتبناه ونقيمه مقام الولد، وكان قطفير عقيما لا يولد له، وقد تفرس فيه الرشد فقال ذلك. وقيل: أفرس الناس ثلاثة: العزيز حين تفرس في يوسف، فقال لامرأته أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا والمرأة التي أتت موسى وقالت لأبيها يا أبت استأجره وأبو بكر حين استخلف عمر رضى الله عنهما. وروى أنه سأله عن نفسه، فأخبره بنسبه فعرفه وكذلك الإشارة إلى ما تقدم من إنجائه وعطف قلب العزيز عليه، والكاف منصوب تقديره: ومثل ذلك الإنجاء والعطف مكنا له، أى: كما أنجيناه وعطفنا عليه العزيز، كذلك مكنا له في أرض مصر وجعلناه ملكا يتصرف فيها بأمره ونهيه ولنعلمه من تأويل

---

(١) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل الزمخشري ٢/٣٠

الأحاديث كان ذلك الإنجاء والتمكين لأن غرضنا ليس إلا ما تحمد عاقبته من علم وعمل والله غالب على أمره على أمر نفسه: لا يمنع عما يشاء ولا ينازع ما يريد ويقضى. أو على أمر يوسف يدبره لا يكله إلى غيره، قد أراد إخوته به ما أرادوا، ولم يكن إلا ما أراد الله ودبره ولكن أكثر الناس لا يعلمون أن الأمر كله بيد الله.

[سورة يوسف (١٢) : آية ٢٢]

ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزي المحسنين (٢٢)

قيل في الأشد: ثماني عشرة، وعشرون، وثلاث وثلاثون، وأربعون. وقيل: أقصاه ثنتان وستون حكما حكمة وهو العلم بالعمل واجتناب ما يجهل فيه. وقيل: حكما بين الناس وفقها وكذلك نجزي المحسنين تنبيه على أنه كان محسنا في عمله، متقيا في عنفوان أمره، وأن الله آتاه الحكم والعلم جزاء على إحسانه. وعن الحسن: من أحسن عبادة ربه في شبيبته آتاه الله **الحكمة في** اكتهاله.

[سورة يوسف (١٢) : آية ٢٣]

وراودته التي هو في بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك قال معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون (٢٣)

المراودة: مفاعلة، من راد يرود إذا جاء وذهب، كأن المعنى: خادعته عن نفسه، أى:." (١)

"جميع ممن خلقنا» أشجى لحلوقهم وأقذى لعيونهم، ولكنهم لا يشعرون. فانظر إلى تمحلهم وتشبثهم بالتأويلات البعيدة في عداوة الملأ الأعلى، كأن جبريل عليه السلام غاظهم حين أهلك مدائن قوم لوط، فتلك السخيمة لا تنحل عن قلوبهم «١»

[سورة الإسراء (١٧) : آية ٧١]

يوم ندعوا كل أناس بإمامهم فمن أوتي كتابه بيمينه فأولئك يقرؤن كتابهم ولا يظلمون فتيلا (٧١)

قرئ: يدعو، بالياء والنون. ويدعى كل أناس، على البناء للمفعول. وقرأ الحسن: يدعوا كل أناس، على قلب

---

(١) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل الزمخشري ٢/٤٥٤

الألف واوا في لغة من يقول: افعوا. والظرف نصب بإضمار اذكر.

ويجوز أن يقال: إنها علامة الجمع، كما في وأسروا النجوى الذين ظلموا والرفع مقدر كما في:

يدعى، ولم يؤت بالنون، قلة مبالاة بها، لأنها غير ضمير، ليست إلا علامة بإمامهم بمن ائتموا به من نبى أو مقدم في الدين، أو كتاب، أو دين «٢» ، فيقال: يا أتباع فلان، يا أهل دين كذا وكتاب كذا. وقيل: بكتاب أعمالهم، فيقال: يا أصحاب كتاب الخير، ويا أصحاب كتاب الشر. وفي قراءة الحسن: بكتابهم.

ومن بدع التفاسير: أن الإمام جمع أم، وأن الناس يدعون يوم القيامة بأمهاتهم، وأن **الحكمة في** الدعاء بالأمهات دون الاباء رعاية حق عيسى عليه السلام، وإظهار شرف الحسن والحسين، وأن لا يفتضح أولاد الزنا. وليت شعري أيهما أبدع؟ أصحة لفظه أم بهاء حكمته؟ فمن أوتي من هؤلاء المدعوين كتابه بيمينه فأولئك يقرؤن كتابهم قيل أولئك، لأن من أوتى في معنى الجمع.

فإن قلت: لم خص أصحاب اليمين بقراءة كتابهم؟ كأن أصحاب الشمال لا يقرؤن كتابهم. قلت:

بلى، ولكن إذا اطلعوا على ما في كتابهم، أخذهم ما يأخذ المطالب بالنداء على جناياته، والاعتراف بمساويه، أما التنكيل به والانتقام منه، من الحياء والخجل ,والانخزال، وحبسة اللسان، والتتعتع، والعجز عن إقامة حروف الكلام، والذهاب عن تسوية القول، فكأن قراءتهم كلا قراءة. وأما أصحاب اليمين فأمرهم على عكس ذلك، لا جرم أنهم يقرؤن كتابهم أحسن قراءة وأبينها، ولا يقنعون بقراءتهم وحدهم حتى يقول القارئ لأهل المحشر: هاؤم اقرؤا كتابيه

---

(١) . قوله «فتلك السخيمة لا تنحل عن قلوبهم» في الصحاح «السخيمة» الضغينة والموجدة في النفس. (ع)

(٢) . قال محمود: «بإمامهم معناه بمن ائتموا به من نبى أو كتاب أو دين ... الخ» قال أحمد: ولقد استبدع بدعا لفظا ومعنى، فان جمع الأم المعروف أمهات، أما رعاية عيسى عليه السلام بذكر أمهات الخلائق ليذكر بأمه، فيستدعى أن خلق عيسى من غير أب غميزة في منصبه، وذلك عكس الحقيقة، فان خلقه من غير أب كان آية له، وشرفا في حقه، والله أعلم.." (١)

---

(١) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل الزمخشري ٢/٨٢٦

"أعلم؟ قال: الذي يبتغى علم الناس إلى علمه، عسى أن يصيب كلمة تدله على هدى، أو ترده عن ردى. فقال: إن كان في عبادك من هو أعلم منى فادللني عليه. قال: أعلم منك الخضر. قال:

أين أطلبه؟ قال: على الساحل عند الصخرة. قال: يا رب، كيف لي به؟ قال: تأخذ حوتا في مكتل، فحيث فقدته فهو هناك. فقال لفتاه: إذا فقدت الحوت فأخبرنى، فذهبا يمشيان، فرقد موسى، فاضطرب الحوت ووقع في البحر، فلما جاء وقت الغداء طلب موسى الحوت، فأخبره فتاه بوقوعه في البحر، فأتيا الصخرة، فإذا رجل مسجى بثوبه، فسلم عليه موسى، فقال:

وأنى بأرضنا السلام، فعرفه نفسه، فقال: يا موسى، أنا على علم علمنيه الله لا تعلمه أنت، وأنت على علم علمكه الله لا أعلمه أنا. فلما ركبا السفينة جاء عصفور فوقع على حرفها فنقر في الماء فقال الخضر: ما ينقص علمى وعلمك من علم الله مقدار ما أخذ هذا العصفور من البحر نسيا حوتهما أى نسيا تفقد أمره وما يكون منه مما جعل أمارة على الظفر بالطلبة. وقيل:

نسى يوشع أن يقدمه، ونسى موسى أن يأمره فيه بشيء. وقيل: كان الحوت سمكة مملوحة. وقيل:

إن يوشع حمل الحوت والخبز في المكتل، فنزلا ليلة على شاطئ عين تسمى عين الحياة، ونام موسى، فلما أصاب السمكة برد الماء وروحه عاشت. وروى: أنهما أكلا منها. وقيل: توضأ يوشع من تلك العين فانتضح الماء على الحوت فعاش ووقع في الماء سربا أمسك الله جرية الماء على الحوت فصار عليه مثل الطاق، وحصل منه في مثل السرب «١» معجزة لموسى أو للخضر فلما جاوزا الموعد وهو الصخرة لنسيان موسى تفقد أمر الحوت وما كان منه.

ونسيان يوشع أن يذكر لموسى ما رأى من حياته ووقوعه في البحر. وقيل: سارا بعد مجاوزة الصخرة الليلة والغد إلى الظهر، وألقى على موسى النصب والجوع حين جاوز الموعد، ولم ينصب ولا جاع قبل ذلك، فتذكر الحوت وطلبه. وقوله من سفرنا هذا إشارة إلى مسيرهما وراء الصخرة. فإن قلت: كيف نسى يوشع ذلك، ومثله لا ينسى «٢» لكونه أمارة لهما على الطلبة التي

---

(١) . قوله «في مثل السرب» في الصحاح «السرب» بيت في الأرض. تقول منه. انسرب الوحش في سربه.

وانسرب الثعلب في جحره. (ع)

(٢) . قال محمود: «إن قلت كيف نسي يوشع ذلك ومثله لا ينسى ... الخ» ؟ قال أحمد: وقد ورد في الحديث:

أن موسى عليه السلام لم ينصب ولم يقل لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا، إلا منذ جاوز الموضع الذي حده الله تعالى له، فلعل **الحكمة في** إنساء الله تعالى ليوشع أن يتيقظ موسى عليه السلام لمنة الله تعالى على المسافر في طاعة وطلب علم، بالتيسير عليه وحمل الأعباء عنه، وتلك سنة الله الجارية في حق من صحت له نية في عبادة من العبادات: أن ييسرها ويحمل عنه مؤنتها، ويتكفل به ما دام على تلك الحالة، وموقع الإيقاظ أنه وجد بين حالة سفره للموعد وحالة مجاوزته بونابينا، والله أعلم. وإن كان موسى عليه السلام متيقظا لذلك، فالمطلوب إيقاظ غيره من أمته، بل من أمة محمد عليه الصلاة والسلام إذا قص عليهم القصة، فما أورد الله تعالى قصص أنبيائه ليسمر بها الناس، ولكن ليشمر الخلق لتدبرها واقتباس أنوارها ومنافعها عاجلا وآجلا، والله أعلم.." (١)

"نزل هاهنا بمعنى أنزل لا غير، كخبر بمعنى أخبر، وإلا كان متدفعا. وهذا أيضا من اعتراضاتهم واقتراحاتهم الدالة على شرادهم عن الحق وتجافيهم عن اتباعه. قالوا: هلا أنزل عليه دفعة واحدة في وقت واحد كما أنزلت الكتب الثلاثة، وماله أنزل على التفاريق. والقائلون:

قريش. وقيل: اليهود. وهذا فضول من القول ومماراة بما لا طائل تحته، لأن أمر الإعجاز والاحتجاج به لا يختلف بنزوله جملة واحدة أو مفرقا. وقوله كذلك جواب لهم، أى:

كذلك أنزل مفرقا. **والحكمة فيه**: أن نقوى بتفريقه فؤادك حتى تعيه وتحفظه، لأن المتلقن إنما يقوى قلبه على حفظ العلم شيئا بعد شيء، وجزأ عقيب جزء. ولو ألقى عليه جملة واحدة لبعل به وتعيا «١» بحفظه، والرسول صلى الله عليه وسلم فارقت حاله حال موسى وداود وعيسى عليهم السلام، حيث كان أميا لا يقرأ ولا يكتب وهم كانوا قارئين كاتبين، فلم يكن له بد من التلقن والتحفظ، فأنزل عليه منجما في عشرين سنة. وقيل: في ثلاث وعشرين. وأيضا: فكان ينزل على حسب الحوادث وجوابات السائلين، ولأن بعضه منسوخ وبعضه ناسخ، ولا يتأتى ذلك إلا فيما أنزل مفرقا. فإن قلت: ذلك في كذلك يجب أن يكون إشارة إلى شيء تقدمه، والذي تقدم هو إنزاله جملة واحدة، فكيف فسرته بكذلك أنزلناه مفرقا؟ قلت: لأن قولهم: لولا أنزل عليه جملة: معناه: لم أنزل مفرقا؟ والدليل على فساد هذا الاعتراض: أنهم عجزوا عن أن يأتوا بنجم

---

(١) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل الزمخشري ٢/٧٣٢

واحد من نجومه، وتحدوا بسورة واحدة من أصغر السور، فأبرزوا صفحة عجزهم وسجلوا به على أنفسهم حين لاذوا بالمناصبة وفزعوا إلى المحاربة، ثم قالوا: هلا نزل جملة واحدة، كأنهم قدروا على تفاريقه حتى يقدروا على جملته ورتلناه معطوف على الفعل الذي تعلق به كذلك، كأنه قال: كذلك فرقناه ورتلناه. ومعنى ترتيله: أن قدره آية بعد آية، ووقفة عقيب وقفة. ويجوز أن يكون المعنى: وأمرنا بترتيل قراءته، وذلك قوله ورتل القرآن ترتيلا أى اقرأه بترسل وتثبت. ومنه حديث عائشة رضى الله عنها في صفة قراءته صلى الله عليه وسلم «لا كسردكم هذا، لو أراد السامع أن يعد حروفه يعدها» «٢» وأصله: الترتيل في الأسنان:

---

(١) . قوله «لبعل به وتعيا بحفظه» في الصحاح: بعل الرجل- بالكسر-: أى دهش: وفيه أيضا: عييت بأمرى، إذا لم تهتد لوجهه. وأعيا عليه الأمر وتعيا وتعايا، بمعنى اه فتدبر. (ع)

(٢) . أخرجه البخاري. من رواية عروة. قال «جلس أبو هريرة رضى الله عنه إلى حجرة عائشة رضى الله عنها فقال إن النبي صلى الله عليه وسلم إنما كان يحدث الحديث لوعده العاد لأحصاه» ولمسلم «لم يكن يسرد الحديث كسردكم» وزاد الترمذي والنسائي ولكن كان يتكلم بكلام فصل يحفظه من جلس اليه» وسيأتى في المزمل.." (١)

"مثال إلا من شاء والمراد: إلا فعل من شاء واستثنائه عن الأجر قول ذى شفقة عليك قد سعى لك في تحصيل مال: ما أطلب منك ثوابا على ما سعيت إلا أن تحفظ هذا المال ولا تضيعه.

فليس حفظك المال لنفسك من جنس الثواب، ولكن صوره هو بصورة الثواب وسماه باسمه، فأفاد فائدتين، إحداهما: قلع شبهة الطمع في الثواب من أصله، كأنه يقول لك: إن كان حفظك لمالك ثوابا فإنى أطلب الثواب، والثانية: إظهار الشفقة البالغة وأنك إن حفظت مالك: اعتد بحفظك ثوابا ورضى به كما يرضى المثاب بالثواب. ولعمري إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان مع المبعوث إليهم بهذا الصدد وفوقه. ومعنى اتخاذهم إلى الله سبيلا: تقربهم إليه وطلبهم عنده الزلفى بالإيمان والطاعة. وقيل: المراد التقرب بالصدقة والنفقة في سبيل الله.

[سورة الفرقان (٢٥) : آية ٥٨]

---

(١) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل الزمخشري ٨٧٢/٣

وتوكل على الحي الذي لا يموت وسبح بحمده وكفى به بذنوب عباده خبيرا (٥٨)
أمره بأن يثق به ويسند أمره إليه في استكفاء شرورهم، مع التمسك بقاعدة التوكل وأساس الالتجاء وهو طاعته وعبادته وتنزيهه وتحميده، وعرفه أن الحي الذي لا يموت، حقيق بأن يتوكل عليه وحده ولا يتكل على غيره من الأحياء الذين يموتون. وعن بعض السلف أنه قرأها فقال: لا يصح لذي عقل أن يثق بعدها بمخلوق، ثم أراه أن ليس إليه من أمر عباده شيء، آمنوا أم كفروا، وأنه خبير بأعمالهم كاف في جزاء أعمالهم.

[سورة الفرقان (٢٥) : آية ٥٩]
الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش الرحمن فسئل به خبيرا (٥٩)
في ستة أيام يعنى في مدة: مقدارها هذه المدة، لأنه لم يكن حينئذ نهار ولا ليل. وقيل:
ستة أيام من أيام الآخرة، وكل يوم ألف سنة. والظاهر أنها من أيام الدنيا. وعن مجاهد:
أولها يوم الأحد، وآخرها يوم الجمعة. ووجهه أن يسمى الله لملائكته تلك الأيام المقدرة بهذه الأسماء فلما خلق الشمس وأدارها وترتب أمر العالم على ما هو عليه، جرت التسمية على هذه الأيام. وأما الداعي إلى هذا العدد- أعنى الستة دون سائر الأعداد- فلا نشك أنه داعى حكمة، لعلمنا أنه لا يقدر تقديرا إلا بداعي حكمة، وإن كنا لا نطلع عليه ولا نهتدي إلى معرفته.
ومن ذلك تقدير الملائكة الذين هم أصحاب النار تسعة عشر، وحملة العرش ثمانية، والشهور اثنى عشر، والسماوات سبعا والأرض كذلك، والصلوات خمسا، وأعداد النصب والحدود والكفارات وغير ذلك. والإقرار بدواعى الحكمة في جميع أفعاله، وبأن ما قدره حق وصواب هو الإيمان.
وقد نص عليه في قوله وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة، وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين." (١)
"مؤمنين، لما رأوه. أو تمنوا لو كانوا مهتدين. أو تحيروا عند رؤيته وسدروا «١» فلا يهتدون طريقا.
حكى أولا ما يوبخهم به من اتخاذهم له شركاء، ثم ما يقوله الشياطين أو أئمتهم عند توبيخهم لأنهم إذا وبخوا بعبادة الآلهة، اعتذروا بأن الشياطين هم الذين استغووهم وزينوا لهم عبادتها، ثم ما يشبه الشماتة بهم من استغاثتهم آلهتهم وخذلانهم لهم وعجزهم عن نصرتهم، ثم ما يبكتون به من الاحتجاج عليهم بإرسال

(١) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل الزمخشري ٢٨٨/٣

الرسل وإزاحة العلل فعميت عليهم الأنباء فصارت الأنباء كالعمى عليهم جميعا لا تهتدى إليهم فهم لا يتساءلون لا يسأل بعضهم بعضا كما يتساءل الناس في المشكلات، لأنهم يتساوون جميعا في عمى الأنباء عليهم والعجز عن الجواب. وقرئ:

فعميت، والمراد بالنبإ: الخبر عما أجاب به المرسل إليه رسوله، وإذا كانت الأنبياء لهول ذلك اليوم يتتعتعون في الجواب عن مثل هذا السؤال، ويفوضون الأمر إلى علم الله، وذلك قوله تعالى يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم؟ قالوا لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب فما ظنك بالضلال من أممهم.

[سورة القصص (٢٨) : آية ٦٧]

فأما من تاب وآمن وعمل صالحا فعسى أن يكون من المفلحين (٦٧)

فأما من تاب من المشركين من الشرك، وجمع بين الإيمان والعمل الصالح فعسى أن يفلح عند الله، و «عسى» من الكرام تحقيق. ويجوز أن يراد: ترجى التائب وطمعه، كأنه قال:

فليطمع أن يفلح.

[سورة القصص (٢٨) : آية ٦٨]

وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون (٦٨)

الخيرة من التخير، كالطيرة من التطير: تستعمل بمعنى المصدر هو التخير، وبمعنى المتخير كقولهم: محمد خيرة الله من خلقه ما كان لهم الخيرة بيان لقوله ويختار لأن معناه: ويختار ما يشاء، ولهذا لم يدخل العاطف. والمعنى: أن الخيرة لله تعالى في أفعاله، وهو أعلم بوجوه الحكمة فيها، ليس لأحد من خلقه أن يختار عليه. قيل: السبب فيه قول الوليد بن المغيرة:

لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم يعنى: لا يبعث الله الرسل باختيار المرسل إليهم. وقيل: معناه ويختار الذي لهم فيه الخيرة، أى: يختار للعباد ما هو خير لهم وأصلح، وهو أعلم بمصالحهم من أنفسهم، من قولهم في الأمرين: ليس فيهما خيرة لمختار. فإن قلت: فأين الراجع من الصلة إلى الموصول إذا جعلت ما موصولة؟ قلت: أصل الكلام: ما كان لهم فيه

(١) . قوله «وسدروا» أى تحيروا. أفاده الصحاح. (ع)." (١)

"ألف سنة، وأدرك داود عليه السلام وأخذ منه العلم، وكان يفتي قبل مبعث داود عليه السلام، فلما بعث قطع الفتوى، فقيل له؟ فقال: ألا أكتفى إذا كفيت؟ وقيل: كان قاضيا في بنى إسرائيل، وأكثر الأقاويل أنه كان حكيما ولم يكن نبيا، وعن ابن عباس رضى الله عنهما: لقمان لم يكن نبيا ولا ملكا. ولكن كان راعيا أسود، فرزقه الله العتق، ورضى قوله ووصيته، فقص أمره في القرآن لتمسكوا بوصيته. وقال عكرمة والشعبي: كان نبيا. وقيل: خير بين النبوة والحكمة فاختار الحكمة «١» . وعن ابن المسيب: كان أسود من سودان مصر خياطا، وعن مجاهد: كان عبدا أسود غليظ الشفتين متشقق «٢» القدمين. وقيل: كان نجارا. وقيل: كان راعيا وقيل: كان يحتطب لمولاه كل يوم حزمة. وعنه أنه قال لرجل ينظر إليه: إن كنت تراني غليظ الشفتين فإنه يخرج من بينهما كلام رقيق، وإن كنت تراني أسود فقلبي أبيض. وروى أن رجلا وقف عليه في مجلسه فقال: ألست الذي ترعى معى في مكان كذا؟ قال: بلى. قال ما بلغ بك ما أرى؟ قال: صدق الحديث والصمت عما لا يعنيني. وروى أنه دخل على داود عليه السلام وهو يسرد الدرع وقد لين الله له الحديد كالطين، فأراد أن يسأله فأدركته الحكمة فسكت، فلما أتمها لبسها وقال: نعم لبوس الحرب أنت. فقال: الصمت حكمة وقليل فاعله، فقال له داود: بحق ما سميت حكيما. وروى أن مولاه أمره بذبح شاة وبأن يخرج منها أطيب مضغتين، فأخرج اللسان والقلب، ثم أمره بمثل ذلك بعد أيام وأن يخرج أخبث مضغتين فأخرج اللسان والقلب، فسأله عن ذلك؟ فقال: هما أطيب ما فيها إذا طابا، وأخبث ما فيها إذا خبثا. وعن سعيد بن المسيب أنه قال لأسود: لا تحزن، فإنه كان من خير الناس ثلاثة من السودان: بلال، ومهجع مولى عمر، ولقمان. أن هي المفسرة، لأن إيتاء الحكمة في معنى القول، وقد نبه الله سبحانه على أن الحكمة الأصلية والعلم الحقيقي: هو العمل بهما وعبادة الله والشكر له، حيث فسر إيتاء الحكمة بالبعث على الشكر غني غير محتاج إلى الشكر حميد حقيق بأن يحمد وإن لم يحمده أحد.

[سورة لقمان (٣١) : آية ١٣]

وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم (١٣)

---

(١) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل الزمخشري ٣/٤٢٧

قيل: كان اسم ابنه «أنعم» وقال الكلبي: «أشكم» وقيل: كان ابنه وامرأته كافرين، فما زال

---

(١) . ذكر محمود في ذلك اختلاف العلماء في نبوته، وذكر أثناء ذلك أنه خير بين النبوة والحكمة فاختار الحكمة. قال أحمد: وفي هذا بعد بين، وذلك أن الحكمة داخلة في النبوة، وقطرة من بحرها، وأعلى درجات الحكماء تنحط عن أدنى درجات الأنبياء بما لا يقدر قدره. وليس من الحكمة اختيار الحكمة المجردة من النبوة،

(٢) . قوله «متشفق» في الصحاح: «الشفق» : الرديء من الأشياء. يقال: غطاء مشفق، أى: مقلل اه والظاهر أنه متشقق بقافين. (ع)." (١)

"قلت: ما هو إلا كلام من جنس كلامه الذي كان يرمى به على السليقة، من غير صنعة ولا تكلف، إلا أنه اتفق ذلك من غير قصد إلى ذلك ولا التفات منه إليه إن جاء موزونا، كما يتفق في كثير من إنشاءات الناس في خطبهم ورسائلهم ومحاوراتهم أشياء موزونة لا يسميها أحد شعرا ولا يخطر ببال المتكلم ولا السامع أنها شعر، وإذا فتشت في كل كلام عن نحو ذلك وجدت الواقع في أوزان البحور غير عزيز، على أن الخليل ما كان يعد المشطور من الرجز شعرا، ولما نفى أن يكون القرآن من جنس الشعر قال إن هو إلا ذكر وقرآن مبين يعنى: ما هو إلا ذكر من الله تعالى يوعظ به الإنس والجن، كما قال إن هو إلا ذكر للعالمين وما هو إلا قرآن كتاب سماوي، يقرأ في المحاريب، ويتلى في المتعبدات، وينال بتلاوته والعمل بما فيه فوز الدارين، فكم بينه وبين الشعر الذي هو من همزات الشياطين؟ لينذر القرآن أو الرسول وقرئ: لتنذر، بالتاء. ولينذر: من نذر به إذا علمه من كان حيا أى عاقلا متأملا، لأن الغافل كالميت. أو معلوما منه أنه يؤمن فيحيا بالإيمان ويحق القول وتجب كلمة العذاب على الكافرين الذين لا يتأملون ولا يتوقع منهم الإيمان.

[سورة يس (٣٦) : الآيات ٧١ الى ٧٣]

أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما فهم لها مالكون (٧١) وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون (٧٢) ولهم فيها منافع ومشارب أفلا يشكرون (٧٣)

---

(١) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل الزمخشري ٤٩٣/٣

مما عملت أيدينا مما تولينا نحن إحداثه ولم يقدر على توليه غيرنا، وإنما قال ذلك لبائع الفطرة **والحكمة فيها**، التي لا يصح أن يقدر عليها إلا هو. وعمل الأيدى: استعارة من عمل من يعملون بالأيدى فهم لها مالكون أى خلقناها لأجلهم فملكناها إياهم، فهم متصرفون فيها تصرف الملاك، مختصون بالانتفاع فيها لا يزاحمون. أو فهم لها ضابطون قاهرون، من قوله:." (١)

"والتمييز، ومنحناها التمكين، وأزحنا عللها ثم عرضناها للمنافع العظيمة بالتكليف، وأعددنا لها عاقبة وجزاء على حسب أعمالهم. وذلك إشارة إلى خلقها باطلا، والظن: بمعنى المظنون، أى: خلقها للعبث لا للحكمة هو مظنون الذين كفروا. فإن قلت: إذا كانوا مقرين بأن الله خالق السماوات والأرض وما بينهما بدليل قوله: ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله فبم جعلوا ظانين أنه خلقها للعبث لا للحكمة. قلت: لما كان إنكارهم للبعث والحساب والثواب والعقاب، مؤديا إلى أن خلقها عبث وباطل، جعلوا كأنهم يظنون ذلك ويقولونه، لأن الجزاء هو الذي سبقت إليه **الحكمة في** خلق العالم من رأسها، فمن جحده فقد جحد **الحكمة من** أصلها، ومن جحد **الحكمة في** خلق العالم فقد سفه الخالق، وظهر بذلك أنه لا يعرفه ولا يقدره حق قدره، فكان إقراره بكونه خالقا كلا إقرار.

[سورة ص (٣٨) : آية ٢٨]

أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار (٢٨)

أم منقطعة. ومعنى الاستفهام فيها الإنكار، والمراد: أنه لو بطل الجزاء كما يقول الكافرون لاستوت عند الله أحوال من أصلح وأفسد، وأتقى وفجر، ومن سوى بينهم كان سفيها ولم يكن حكيما.

[سورة ص (٣٨) : آية ٢٩]

كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب (٢٩)

وقرئ: مباركا، وليتدبروا: على الأصل، ولتدبروا: على الخطاب. وتدبر الآيات:

التفكر فيها، والتأمل الذي يؤدى إلى معرفة ما يدبر ظاهرها من التأويلات الصحيحة والمعاني الحسنة، لأن من اقتنع بظاهر المتلو، لم يحل منه بكثير طائل، «١» وكان مثله كمثل من له لقحة درور لا يحلبها، ومهرة

---

(١) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل الزمخشري ٤/٢٧

نثور لا يستولدها. وعن الحسن: قد قرأ هذا القرآن عبيد وصبيان لا علم لهم بتأويله: حفظوا حروفه وضيعوا حدوده، حتى إن أحدهم ليقول: والله لقد قرأت القرآن فما أسقطت منه حرفا، وقد والله أسقطه كله، ما يرى للقرآن عليه أثر في خلق ولا عمل، والله ما هو بحفظ حروفه وإضاعة حدوده، والله ما هؤلاء بالحكماء ولا الوزعة، «٢» لا كثر

---

(١) . قوله لم يحل منه بكثير طائل» في الصحاح: قولهم «لم يحل منه بطائل» أى: لم يستفد منه كبير فائدة وفيه: اللقح- بالكسر-: الإبل بأعيانها، الواحدة: لقوح، وهي الحلوب، مثل: فلوص وقلاص: واللقحة: اللقوح، والجمع لقح مثل قربة قرب، وفيه: ناقة درور، أى: كثيرة اللبن. وفيه: النثور، أى: كثيرة الولد.
(٢) . قوله «ولا الوزعة» جمع وازع، وهو الذي يكف عن الضرر، والذي يتقدم الصف فيصلحه بالتقديم والتأخير. أفاده الصحاح. (ع)." (١)

"من فضة وزخرف، وجعلنا لهم زخرفا، أى: زينة من كل شيء. والزخرف: الزينة والذهب.

ويجوز أن يكون الأصل: سقفا من فضة وزخرف، يعنى: بعضها من فضة وبعضها من ذهب، فنصب عطفا على محل من فضة وفي معناه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لو وزنت الدنيا عند الله جناح بعوضة ما سقى الكافر منها شربة ماء» «١» فإن قلت: فحين لم يوسع على الكافرين للفتنة التي كان يؤدى إليها التوسعة عليهم من إطباق الناس على الكفر لحبهم الدنيا وتهالكهم عليها، فهلا وسع على المسلمين ليطبق الناس على الإسلام؟ قلت: التوسعة عليهم مفسدة أيضا لما تؤدى إليه من الدخول في الإسلام لأجل الدنيا، والدخول في الدين لأجل الدنيا من دين المنافقين «٢» ، فكانت الحكمة فيما دبر: حيث جعل في الفريقين أغنياء وفقراء، وغلب الفقر على الغنى.

[سورة الزخرف (٤٣) : الآيات ٣٦ الى ٣٩]

ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين (٣٦) وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون (٣٧) حتى إذا جاءنا قال يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين (٣٨) ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم في العذاب مشتركون (٣٩)

---

(١) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل الزمخشري ٤/٩٠

قرئ: ومن يعش، بضم الشين وفتحها. والفرق بينهما أنه إذا حصلت الآفة في بصره قيل: عشى. وإذا نظر نظر العشى ولا آفة به قيل عشا. ونظيره: عرج، لمن به الآفة «٣» .

---

(١) . فيه عبد الحميد بن سليمان وتابعه زكريا بن منظور. وقال الترمذي: وفي الباب عن أبى هريرة، وحديثه عند البزار من حديث صالح مولى التوأمة عنه. ولفظه «ما أعطي كافرا منها شيئا» ورواه البيهقي في الشعب في الحادي والسبعين من رواية أبى معشر عن المقبري عنه وفي الباب عن ابن عباس. أخرجه أبو نعيم في الحلية. وفيه الحسن ابن عمارة وهو ضعيف جدا. وأخرجه القضاعي في مسند الشهاب من رواية مالك عن نافع عن ابن عمر، بلفظ المصنف قال ابن طاهر: فيه على بن محمد بن أحمد بن أبى عوف عن أبى مصعب عنه، لا أصل له من حديث ملك

(٢) . قال محمود: «فحين لم يوسع على الكافرين للفتنة التي كان يؤدى إليها التوسعة من الاطباق على الكفر» فهلا وسع على المسلمين ليطبق الناس على الايمان؟ وأجاب بأن التوسعة عليهم مفسدة أيضا لما يؤدى إليه من الدخول في الإسلام لأجل الدنيا، وذلك من دين المنافقين» قال أحمد: سؤال وجواب مبنيان على قاعدتين فاسدتين. إحداهما:
تعليل أفعال الله تعالى، والأخرى: أن الله تعالى أراد الإسلام من الخلق أجمعين. أما الأولى فقد أخرس الله السائل عنه بقوله لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون وأما الثانية فقد كفى الله المؤمنين الجواب عنه فيه بقوله ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا.

(٣) . قال محمود: «يقال عشى بصره بكسر الشين إذا أصابته الآفة ... » قال أحمد: في هذه الآية نكتتان بديعتان، إحداهما: الدلالة على أن النكرة الواقعة في سياق الشرط تفيد العموم، وهي مسألة اضطرب فيها الأصوليون وإمام الحرمين من القائلين بافادتها العموم، حتى استدرك على الأئمة إطلاقهم القول بأن النكرة في سياق الإثبات تخص، وقال: إن الشرط يعم، والنكرة في سياقه تعم. وقد رد عليه الفقيه أبو الحسن على الأنبارى شارح كتابه ردا عنيفا. وفي هذه الآية للإمام ومن قال بقوله كفاية، وذلك أن الشيطان ذكر فيها منكرا في سياق شرط، ونحن نعلم أنه إنما أراد عموم الشياطين لا واحدا لوجهين، أحدهما: أنه قد ثبت أن لكل أحد شيطانا، فكيف بالعاشى عن ذكر الله، والآخر: يؤخذ من الآية: وهو أنه أعاد عليه الضمير مجموعا في قوله وإنهم فانه عائد إلى الشيطان قولا واحدا «ولولا إفادته عموم الشمول لما جاز

عود ضمير الجمع عليه بلا إشكال، فهذه نكتة تجد عند إسماعها لمخالفي هذا الرأى سكتة. والنكتة الثانية: أن في هذه الآية ردا على من زعم أن العود على معنى من يمنع من العود على لفظها بعد ذلك. واحتج المانع لذلك بأنه إجمال بعد تفسير، وهو خلاف المعهود من الفصاحة.

وقد نقض الكندي هذا بقوله تعالى ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا قد أحسن الله له رزقا ونقض غيره بقوله ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزوا أولئك لهم عذاب مهين وإذا تتلى عليه ... الآية وكان جدي رحمه الله قد استخرج من هذه الآية بعض ذلك، لأنه أعاد على اللفظ في قوله: يعش وله مرتين، ثم على المعنى في قوله ليصدونهم ثم على اللفظ بقوله حتى إذا جاءنا وقد قدمت أن الذي منع ذلك قد يكون اقتصر بمنعه على مجيء ذلك في جملة واحدة وأما إذا تعددت الجمل واستقلت كل بنفسها فقد لا يمنع ذلك حتى رددت على الزمخشري في قوله تعالى لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهدا فان الجملة واحدة، فانظره في موضعه.." (١)

"الكفار الجاحدون لنعمة الله فيما رزقهم من الغيث والنبات، فبعث عليه العاهة فهاج واصفر وصار حطاما عقوبة لهم على جحودهم، كما فعل بأصحاب الجنة وصاحب الجنتين. وقيل الكفار: الزراع. وقرئ: مصفارا

[سورة الحديد (٥٧) : آية ٢١]

سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم (٢١)

سابقوا سارعوا مسارعة المسابقين لأقرانهم في المضمار، إلى جنة عرضها كعرض السماء والأرض قال السدى: كعرض سبع السماوات وسبع الأرضين، وذكر العرض دون الطول، لأن كل ماله عرض وطول فإن عرضه أقل من طوله، فإذا وصف عرضه بالبسطة:

عرف أن طوله أبسط وأمد. ويجوز أن يراد بالعرض: البسطة، كقوله تعالى فذو دعاء عريض۟ لما حقر الدنيا وصغر أمرها وعظم أمر الآخرة: بعث عباده على المسارعة إلى نيل ما وعد من ذلك: وهي المغفرة المنجية

(١) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل الزمخشري ٤/٢٥٠

من العذاب الشديد والفوز بدخول الجنة ذلك الموعود من المغفرة والجنة فضل الله عطاؤه يؤتيه من يشاء وهم المؤمنون.

[سورة الحديد (٥٧) : الآيات ٢٢ الى ٢٤]

ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير (٢٢) لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخور (٢٣) الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ومن يتول فإن الله هو الغني الحميد (٢٤)

المصيبة في الأرض: نحو الجدب وآفات الزروع والثمار. وفي الأنفس: نحو الأدواء والموت في كتاب في اللوح من قبلِ أن نبرأها يعنى الأنفس أو المصائب إن ذلك إن تقدير ذلك وإثباته في كتاب على الله يسير وإن كان عسيرا على العباد، ثم علل ذلك وبين **الحكمة فيه** فقال لكيلا تأسوا ... ولا تفرحوا يعنى أنكم إذا علمتم أن كل شيء مقدر مكتوب عند الله قل أساكم على الفائت وفرحكم على الآتي، لأن من علم أن ما عنده معقود لا محالة: لم يتفاقم جزعه عند فقده، لأنه وطن نفسه على ذلك، وكذلك من علم أن بعض الخير واصل إليه، وأن وصوله لا يفوته بحال: لم يعظم فرحه عند نيله والله لا يحب كل مختال." (١)

"القائم لسانه: إن أردت القيام أو العبادة أو الساعات. أو أشد موافقة لما يراد من الخشوع والإخلاص. وعن الحسن: أشد موافقة بين السر والعلانية، لانقطاع رؤية الخلائق. وقرئ:

أشد وطأ بالفتح والكسر. والمعنى: أشد ثبات قدم وأبعد من الزلل. أو أثقل وأغلظ على المصلى من صلاة النهار، من قوله عليه السلام «اللهم اشدد وطأتك على مضر» «١» وأقوم قيلا وأسد مقالا وأثبت قراءة لهدو الأصوات. وعن أنس رضى الله عنه أنه قرأ: وأصوب قيلا، فقيل له: يا أبا حمزة، إنما هي: وأقوم، فقال: إن أقوم وأصوب وأهيأ واحد. وروى أبو زيد الأنصارى عن أبى سرار الغنوي أنه كان يقرأ: فحاسوا، محاء غير معجمة، فقيل له:

إنما هو فجاسوا بالجيم، فقال: وجاسوا وحاسوا واحد.

[سورة المزمل (٧٣) : آية ٧]

---

(١) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل الزمخشري ٤/٤٧٩

إن لك في النهار سبحا طويلا (٧)

سبحا تصرفا وتقلبا في مهماتك وشواغلك، ولا تفرغ إلا بالليل، فعليك بمناجاة الله التي تقتضي فراغ البال وانتفاء الشواغل. وأما القراءة بالخاء. فاستعارة من سبخ الصوف:

وهو نفشه ونشر أجزائه، لانتشار الهم وتفرق القلب بالشواغل: كلفه قيام الليل، ثم ذكر الحكمة فيما كلفه منه: وهو أن الليل أعون على المواطأة وأشد للقراءة، لهدو الرجل وخفوت الصوت: وأنه أجمع للقلب وأضم لنشر الهم من النهار، لأنه وقت تفرق الهموم وتوزع الخواطر والتقلب في حوائج المعاش والمعاد. وقيل: فراغا وسعة لنومك وتصرفك في حوائجك. وقيل:

إن فاتك من الليل شيء فلك في النهار فراغ تقدر على تداركه فيه.

[سورة المزمل (٧٣) : الآيات ٨ الى ١٠]

واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا (٨) رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا (٩) واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا (١٠)

واذكر اسم ربك ودم على ذكره في ليلك ونهارك، واحرص عليه. وذكر الله يتناول كل ما كان من ذكر طيب: تسبيح، وتهليل، وتكبير، وتمجيد، وتوحيد، وصلاة، وتلاوة قرآن، ودراسة علم، وغير ذلك مما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستغرق به ساعة ليله ونهاره وتبتل إليه وانقطع إليه. فإن قلت: كيف قيل تبتيلا مكان تبتلا؟ قلت: لأن معنى تبتل بتل نفسه، فجيء به على معناه مراعاة لحق الفواصل رب المشرق والمغرب قرئ مرفوعا على المدح، ومجرورا على البدل من ربك. وعن ابن عباس: على القسم بإضمار حرف

---

(١) . متفق عليه من حديث أبى هريرة، وقد تقدم في الأنبياء.." (١)

"أدنى من ثلثي الليل أقل منهما، وإنما استعير الأدنى وهو الأقرب للأقل، لأن المسافة بين الشيئين إذا دنت: قل ما بينهما من الأحياز، وإذا بعدت كثر ذلك. وقرئ: ونصفه وثلثه بالنصب على أنك تقوم أقل من الثلثين، وتقوم النصف والثلث: وهو مطابق لما مر في أول السورة: من التخيير بين قيام النصف بتمامه وبين قيام الناقص منه- وهو الثلث- وبين قيام الزائد عليه- وهو الأدنى من الثلثين. وقرئ: ونصفه، وثلثه:

---

(١) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل الزمخشري ٦٣٩/٤

بالجر، أى: تقوم أقل من الثلثين وأقل من النصف والثلث، وهو مطابق للتخيير بين النصف: وهو أدنى من الثلثين.

والثلث: وهو أدنى من النصف. والربع: وهو أدنى من الثلث، وهو الوجه الأخير وطائفة من الذين معك ويقوم ذلك جماعة من أصحابك والله يقدر الليل والنهار ولا يقدر على تقدير الليل والنهار ومعرفة مقادير ساعاتهما إلا الله وحده، وتقديم اسمه عز وجل مبتدأ مبنيا عليه يقدر: هو الدال على معنى الاختصاص بالتقدير، والمعنى: أنكم لا تقدرون عليه، والضمير في لن تحصوه لمصدر يقدر، أى علم أنه لا يصح منكم ضبط الأوقات ولا يتأتى حسابها بالتعديل والتسوية، إلا أن تأخذوا بالأوسع للاحتياط: وذلك شاق عليكم بالغ منكم فتاب عليكم عبارة عن الترخيص في ترك القيام المقدر، كقوله فتاب عليكم وعفا عنكم فالآن باشروهن والمعنى: أنه رفع التبعة في تركه عنكم، كما يرفع التبعة عن التائب. وعبر عن الصلاة بالقراءة، لأنها بعض أركانها، كما عبر عنها بالقيام والركوع والسجود. يريد: فصلوا ما تيسر عليكم، ولم يتعذر من صلاة الليل، وهذا ناسخ للأول، ثم نسخا جميعا بالصلوات الخمس. وقيل هي قراءة القرآن بعينها، قيل: يقرأ مائة آية. ومن قرأ مائة آية في ليلة لم يحاجه القرآن، وقيل:

من قرأ مائة آية كتب من القانتين. وقيل: خمسين آية. وقد بين **الحكمة في** النسخ. وهي تعذر القيام على المرضى، والضاربين في الأرض للتجارة، والمجاهدين في سبيل الله. وقيل: سوى الله بين المجاهدين والمسافرين لكسب الحلال. وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه: أيما رجل جلب شيأ إلى مدينة من مدائن المسلمين صابرا محتسبا، فباعه بسعر يومه: كان عند الله من الشهداء «١» . وعن عبد الله بن عمر: ما خلق الله موتة أموتها بعد القتل في سبيل الله أحب إلى من أن أموت بين شعبتى رحل: أضرب في الأرض أبتغى من فضل الله «٢» . وعلم

---

(١) . أخرجه الثعلبي من رواية فرقد السبخى عن إبراهيم عن ابن مسعود موقوفا. وفرقد ضعيف. ووصله ابن مردويه بذكر علقمة بن إبراهيم وعبد الله ورفعه أيضا. وزاد: ثم قرأ وآخرون يضربون في الأرض- الآية

(٢) . أخرجه الثعلبي من رواية القاسم بن عبد الله عن أبيه عن نافع عن ابن عمر به. وإسناده ضعيف. ورواه ابن معبد في الطاعة والمعصية عن ابن وهب عن يونس عن ابن شهاب عن نافع أن ابن عمر قال «ما خلق الله موتة أموتها إلا أن أموت مجاهدا في سبيل الله أحب إلى من أن أموت- إلى آخره» والبيهقي في

الشعب في الثالث عشر من طريق عبد الرزاق عن معمر عن الزهري عن عبد الله ذكر عمر أو غيره قال «ما خلق الله إلى آخره» .." (١)

"وما يعلم جنود ربك وما عليه. كل جدد من العدد الخاص من كون بعضها على عقد كامل وبعضها على عدد ناقص، وما في اختصاص كل جند بعدده من الحكمة إلا هو ولا سبيل لأحد إلى معرفة ذلك كما لا يعرف الحكمة في أعداد السماوات والأرضين وأيام السنة والشهور والبروج والكواكب وأعداد النصب والحدود والكفارات والصلوات في الشريعة. أو: وما يعلم جنود ربك لفرط كثرتها إلا هو، فلا يعز عليه تتميم الخزنة عشرين، ولكن له في هذا العدد الخاص حكمة لا تعلمونها وهو يعلمها. وقيل: هو جواب لقول أبى جهل: أما لرب محمد أعوان إلا تسعة عشر، وما جعلنا أصحاب النار- إلى قوله- إلا هو: اعتراض. وقوله وما هي إلا ذكرى متصل بوصف سقر وهي ضميرها، أى: وما سقر وصفتها إلا تذكرة للبشر أو ضمير الآيات التي ذكرت فيها.

[سورة المدثر (٧٤) : الآيات ٣٢ الى ٣٧]

كلا والقمر (٣٢) والليل إذ أدبر (٣٣) والصبح إذا أسفر (٣٤) إنها لإحدى الكبر (٣٥) نذيرا للبشر (٣٦)

لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر (٣٧)

كلا إنكار بعد أن جعلها ذكرى أن تكون لهم ذكرى، لأنهم لا يتذكرون. أو ردع لمن ينكر أن تكون إحدى الكبر نذيرا. و «دبر» بمعنى أدبر «١» ، كقبل بمعنى أقبل. ومنه صاروا كأمس الدابر. وقيل: هو من دبر الليل النهار إذا خلفه. وقرئ: إذ أدبر إنها لإحدى الكبر جواب القسم. أو تعليل لكلا، والقسم معترض للتوكيد. والكبر: جمع الكبرى، جعلت ألف التأنيث كتائها «٢» ، فلما جمعت فعلة على فعل: جمعت فعلى عليها، ونظير ذلك:

السوافي في جمع السافياء، والقواصع في جمع القاصعاء، كأنها جمع فاعلة، أى: لإحدى البلايا أو الدواهي الكبر، ومعنى كونها إحداهن: أنها من بينهن واحدة في العظم لا نظيرة لها، كما تقول: هو أحد الرجال، وهي إحدى النساء. ونذيرا تمييز من إحدى، على معنى: إنها لإحدى الدواهي إنذارا، كما تقول: هي إحدى

---

(١) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل الزمخشري ٤/٦٤٣

النساء عفافا. وقيل: هي حال. وقيل: هو متصل بأول السورة، يعنى: قم نذيرا، وهو من بدع التفاسير. وفي قراءة أبى: نذير بالرفع

---

(١) . قوله «ودبر بمعنى أدبر» يعنى في قراءة: والليل إذ أدبر. وعبارة النسفي: والليل إذ أدبر: نافع وحفص وحمزة ويعقوب وخلف وغيرهم إذا دبر. ودبر بمعنى أدبر. وقوله الآتي: وقرئ: إذ أدبر، يفيد أن قراءة «دبر» هي المشهورة. (ع) [.....]

(٢) . قوله «جعلت ألف التأنيث كتائها» لعله كتائه. (ع)." [١]

"فراس كان بين ثوبيه، يدق الظلمة بإنكاره، ويقصع أهل الأهواء «١» والبدع باحتجاجه.

[سورة الفجر (٨٩) : الآيات ١٥ الى ١٦]

فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربي أكرمن (١٥) وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهانن (١٦)

فإن قلت: بم اتصل قوله «٢» فأما الإنسان؟ قلت: بقوله إن ربك لبالمرصاد كأنه قيل: إن الله لا يريد من الإنسان إلا الطاعة والسعى للعاقبة، وهو مرصد بالعقوبة للعاصي، فأما الإنسان فلا يريد ذلك ولا يهمه إلا العاجلة وما يلذه وينعمه فيها. فإن قلت: فكيف توازن قوله، فأما الإنسان، إذا ما ابتلاه ربه وقوله وأما إذا ما ابتلاه «٣» وحق التوازن أن يتقابل الواقعان بعد أما وأما، تقول: أما الإنسان فكفور، وأما الملك فشكور. أما إذا أحسنت إلى زيد فهو محسن إليك، وأما إذا أسأت إليه فهو مسيء إليك؟ قلت: هما متوازنان من حيث إن التقدير: وأما هو إذا ما ابتلاه ربه، وذلك أن قوله فيقول ربي أكرمن خبر المبتدأ الذي هو الإنسان، ودخول الفاء لما في «أما» من معنى الشرط، والظرف المتوسط بين المبتدأ والخبر في تقدير التأخير، كأنه قيل: فأما الإنسان فقائل ربى أكرمن وقت الابتلاء، فوجب أن يكون فيقول الثاني خبرا لمبتدإ واجب تقديره. فإن قلت: كيف سمى كلا الأمرين من بسط الرزق وتقديره ابتلاء؟ قلت: لأن كل واحد منهما اختبار للعبد، فإذا بسط له فقد اختبر حاله أيشكر أم يكفر؟ وإذا قدر عليه فقد اختبر حاله أيصبر أم يجزع؟ فالحكمة فيهما واحدة. ونحوه قوله تعالى ونبلوكم بالشر والخير فتنة. فإن قلت:

---

(١) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل الزمخشري ٤/٦٥٣

هلا قال: فأهانه وقدر عليه رزقه، كما قال فأكرمه ونعمه؟ قلت: لأن البسط إكرام من الله لعبده بإنعامه عليه متفضلا من غير سابقة «٤» ، وأما التقدير فليس بإهانة له، لأن الإخلال بالتفضل لا يكون إهانة، ولكن تركا للكرامة، وقد يكون المولى مكرما لعبده ومهينا له، وغير مكرم ولا مهين، وإذا أهدى لك زيد هدية قلت: أكرمنى بالهدية، ولا تقول: أهاننى

---

(١) . قوله «ويقصع أهل الأهواء» في الصحاح «قصعت الرجل» صغرته وحقرته. (ع)
(٢) . قال محمود: «إن قلت: كيف اتصل قوله فأما الإنسان بما قبله ... الخ» قال أحمد: قوله لا يريد من الإنسان إلا الطاعة ولا يأمره إلا بها: فاسد الصدر، مبنى على أصله الفاسد، سليم العجز.
(٣) . قال محمود: «فان قلت كيف توازن قوله فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه وقوله وأما إذا ما ابتلاه قال أحمد: يريد أنه صدر ما بعد أما الأولى بالاسم، وما بعد أما الثانية بالفعل. ومقصود السائل أن يكونا مصدرين: إما باسمين أو بفعلين.
(٤) . قال محمود: «فان قلت هلا قال فأهانه وقدر عليه رزقه، كما قال فأكرمه ونعمه؟ وأجاب بأن البسط إكرام من الله تعالى العبد من غير سابقة» قال أحمد: «قيد زائد تفريعا على أصله الفاسد، والحق أن كل نعمة من الله كذلك.." (١)

"جعل الإشارة ب هؤلاء إلى أشخاص الأسماء وهي غائبة، إذ قد حضر ما هو منها بسبب، وذلك أسماؤها، وكأنه قال لهم في كل اسم لأي شخص هذا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والذي يظهر أن الله تعالى علم آدم الأسماء وعرض مع ذلك عليه الأجناس أشخاصا، ثم عرض تلك على الملائكة وسألهم عن تسمياتها التي قد تعلمها آدم، ثم إن آدم قال لهم هذا اسمه كذا، وهذا اسمه كذا، وهؤلاء لفظ مبني على الكسر والقصر فيه لغة تميم وبعض قيس وأسد، قال الأعشى: [الخفيف] .

هؤلا ثم هؤلا كلا أعطي ... ت نعالا محذوة بنعال

وكنتم في موضع الجزم بالشرط، والجواب عند سيبويه فيما قبله، وعند المبرد محذوف، والتقدير: إن كنتم صادقين فأنبئوني.

---

(١) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل الزمخشري ٧٤٩/٤

وقال ابن مسعود وابن عباس وناس من أصحاب النبي عليه السلام، معنى الآية: إن كنتم صادقين في أن الخليفة يفسد ويسفك.

وقال آخرون: صادقين في أني إن استخلفتكم سبحتم بحمدي وقدستم لي.

وقال الحسن وقتادة: روي أن الملائكة قالت حين خلق الله آدم: ليخلق ربنا ما شاء فلن يخلق خلقا أعلم منا ولا أكرم عليه، فأراد الله تعالى أن يريهم من علم آدم وكرامته خلاف ما ظنوا فالمعنى إن كنتم صادقين في دعواكم العلم.

وقال قوم: معنى الآية إن كنتم صادقين في جواب السؤال عالمين بالأسماء. قالوا: ولذلك لم يسغ للملائكة الاجتهاد وقالوا: سبحانك حكاه النقاش. قال: ولو لم يشترط عليهم الصدق في الإنباء لجاز لهم الاجتهاد كما جاز للذي أماته الله مائة عام حين قال له «كم لبثت؟» ولم يشترط عليه الإصابة.

فقال، ولم يصب فلم يعنف.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا كله محتمل.

وحكى الطبري أن بعض المفسرين قال: معنى إن كنتم «إذ كنتم» .

قال الطبري: وهذا خطأ. وإن قال قائل ما **الحكمة في** قول الله تعالى للملائكة إني جاعل الآية، قيل: هذا منه امتحان لهم واختبار ليقع منهم ما وقع ويؤدبهم تعالى من تعليم آدم وتكريمه بما أدب.

وسبحانك معناه: تنزيها لك وتبرئة أن يعلم أحد من علمك إلا ما علمته، وسبحانك نصب على المصدر.

وقال الكسائي: «نصبه على أنه منادى مضاف» .

قال الزهراوي: موضع ما من قولهم ما علمتنا نصب ب علمتنا، وخبر التبرئة في لنا، ويحتمل أن يكون موضع ما رفعا على أنه بدل من خبر التبرئة، كما تقول لا إله إلا الله أي لا إله في." (١)

"الدرجات في المسافة ويبقى التفضيل مذكورا في صدر الآية فقط، وبينات عيسى عليه السلام هي إحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص، وخلق الطير من الطين، و «روح القدس» جبريل عليه السلام، وقد تقدم ما قال العلماء فيه.

قوله عز وجل:

ولو شاء الله ...

---

(١) تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ابن عطية ١٢١/١

ظاهر اللفظ في قولهم: من بعدهم يعطي أنه أراد القوم الذين جاؤوا من بعد جميع الرسل، وليس كذلك المعنى، بل المراد ما اقتتل الناس بعد كل نبي فلف الكلام لفا يفهمه السامع، وهذا كما تقول:

اشتريت خيلا، ثم بعتها، فجائزة لك هذه العبارة وأنت اشتريت فرسا ثم بعته، ثم آخر وبعته، ثم آخر وبعته، وكذلك هذه النوازل إنما اختلف الناس بعد كل نبي فمنهم من آمن ومنهم من كفر بغيا وحسدا، وعلى حطام الدنيا، وذلك كله بقضاء وقدر وإرادة من الله تعالى، ولو شاء خلاف ذلك لكان. ولكنه المستأثر بسر الحكمة في ذلك. الفعال لما يريد، فاقتتلوا بأن قاتل المؤمنون الكافرين على مر الدهر. وذلك هو دفع الله الناس بعضهم ببعض.

قوله عز وجل:

[سورة البقرة (٢) : آية ٢٥٤]

يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة والكافرون هم الظالمون (٢٥٤)

قال ابن جريج: هذه الآية تجمع الزكاة والتطوع، وهذا كلام صحيح فالزكاة واجبة والتطوع مندوب إليه، وظاهر هذه الآية أنها مراد بها جميع وجوه البر من سبيل وصلة رحم، ولكن ما تقدم من الآيات في ذكر القتال وأن الله يدفع بالمؤمنين في صدور الكافرين، يترجح منه أن هذا الندب إنما هو في سبيل الله، ويقوي ذلك قوله في آخر الآية: والكافرون هم الظالمون، أي فكافحوهم بالقتال بالأنفس وإنفاق الأموال، وندب الله تعالى بهذه الآية، إلى إنفاق شيء مما أنعم به وهذه غاية التفضل فعلا وقولا، وحذر تعالى من الإمساك، إلى أن يجيء يوم لا يمكن فيه بيع ولا شراء ولا استدراك بنفقة في ذات الله، إذ هي مبايعة على ما قد فسرناه في قوله تعالى: من ذا الذي يقرض الله [البقرة: ٢٤٥] ، أو إذ البيع فدية لأن المرء قد يشتري نفسه ومراده بماله، وكأن معنى الآية معنى سائر الآي التي تتضمن إلا فدية يوم القيامة.

وأخبر الله تعالى بعدم الخلة يوم القيامة، والمعنى: خلة نافعة تقتضي المساهمة، كما كانت في الدنيا، وأهل التقوى بينهم في ذلك اليوم خلة ولكنها غير محتاج إليها. وخلة غيرهم لا تغني من الله شيئا.

وأخبر تعالى أن الشفاعة أيضا معدومة في ذلك اليوم، فحمل الطبري ذلك على عموم اللفظ وخصوص المعنى، وأن المراد ولا شفاعة للكفار. وهذا لا يحتاج إليه. بل الشفاعة المعروفة في الدنيا وهي." (١)

"عازب أيضا: معناه ولستم بآخذيه لو أهدي إليكم إلا أن تغمضوا أي تستحيي من المهدوي أن تقبل منه ما لا حاجة لك فيه، ولا قدر له في نفسه.

قال القاضي أبو محمد: وهذا يشبه كون الآية في التطوع، وقال ابن زيد معنى الآية: ولستم بآخذي الحرام إلا أن تغمضوا في مكروهه، وقرأ جمهور الناس «إلا أن تغمضوا» بضم التاء وسكون الغين وكسر الميم. وقرأ الزهري بفتح التاء وكسر الميم مخففا، وروي عنه أيضا «تغمضوا» بضم التاء وفتح الغين وكسر الميم مشددة، وحكى مكي عن الحسن البصري «تغمضوا» مشددة الميم مفتوحة وبفتح التاء. وقرأ قتادة بضم التاء وسكون الغين وفتح الميم مخففا قال أبو عمرو معناه: إلا أن يغمض لكم.

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه: هذه اللفظة تنتزع إما من قول العرب أغمض الرجل في أمر كذا إذا تساهل فيه ورضي ببعض حقه وتجاوز، فمن ذلك قول الطرماح بن حكيم: [الخفيف]

لم يفتنا بالوتر قوم وللذ ... ل أناس يرضون بالإغماض

وإما أن تنتزع من تغميض العين لأن الذي يريد الصبر على مكروه يغمض عنه عينيه ومنه قول الشاعر:

إلى كم وكم أشياء منكم تريبني ... أغمض عنها لست عنها بذي عمى

وهذا كالإغضاء عند المكروه، وقد ذكر النقاش هذا المعنى في هذه الآية وأشار إليه مكي، وإما من قول العرب أغمض الرجل إذا أتى غامضا من الأمر كما تقول: أعمن إذا أتى عمان، وأعرق إذا أتى العراق، وأنجد، وأغور، إذا أتى نجدا والغور الذي هو تهامة، ومنه قول الجارية: وإن دسر أغمض فقراءة الجمهور تخرج على التجاوز وعلى تغميض العين لأن أغمض بمنزلة غمض وعلى أنها بمعنى حتى تأتوا غامضا من التأويل والنظر في أخذ ذلك إما لكونه حراما على قول ابن زيد، وإما لكونه مهديا أو مأخوذا في دين على قول غيره، وأما قراءة الزهري الأولى فمعناها تهضموا سومها من البائع منكم فيحطكم، قال أبو عمرو معنى قراءتي الزهري حتى تأخذوا بنقصان.

قال القاضي أبو محمد: وأما قراءته الثانية فهذا مذهب أبي عمرو الداني فيها. ويحتمل أن تكون من تغميض العين. وأما قراءة قتادة فقد ذكرت تفسير أبي عمرو لها. وقال ابن جني: معناها توجدوا قد غمضتم في الأمر

---

(١) تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ابن عطية ٣٣٩/١

بتأولكم أو بتساهلكم وجريتم على غير السابق إلى النفوس، وهذا كما تقول: أحمدت الرجل وجدته محمودا إلى غير ذلك من الأمثلة، ثم نبه تعالى على صفة الغنى أي لا حاجة به إلى صدقاتكم، فمن تقرب وطلب مثوبة فليفعل ذلك بما له قدر، وحميد معناه محمود في كل حال، وهي صفة ذات.

قوله عز وجل:

[سورة البقرة (٢) : الآيات ٢٦٨ الى ٢٦٩]

الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا والله واسع عليم (٢٦٨) يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر إلا أولوا الألباب (٢٦٩)." (١)

"هذه الآية وما بعدها وإن لم تكن أمرا بالصدقة فهي جالبة للنفوس إلى الصدقة، بين عز وجل فيها نزغات الشيطان ووسوسته وعداوته، وذكر بثوابه هو لا رب غيره. وذكر بتفضله بالحكمة وأثنى عليها، ونبه أن أهل العقول هم المتذكرون الذين يقيمون بالحكمة قدر الإنفاق في طاعة الله عز وجل وغير ذلك، ثم ذكر علمه بكل نفقة ونذر. وفي ذلك وعد ووعيد. ثم بين الحكم في الإعلان والإخفاء وكذلك إلى آخر المعنى. والوعد في كلام العرب إذا أطلق فهو في الخير وإذا قيد بالموعود ما هو فقد يقيد بالخير وبالشر كالبشارة. فهذه الآية مما قيد الوعد فيها بمكروه وهو الفقر و «الفحشاء» كل ما فحش وفحش ذكره، ومعاصي الله كلها فحشاء، وروى حيوة عن رجل من أهل الرباط أنه قرأ «الفقر» بضم الفاء، وهي لغة، وقال ابن عباس: في الآية اثنتان من الشيطان، واثنتان من الله تعالى، وروى ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: إن للشيطان لمة من ابن آدم وللملك لمة فأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق، فمن وجد ذلك فليتعوذ، وأما لمة الملك فوعد بالحق وتصديق بالخير فمن وجد ذلك فليحمد الله، ثم قرأ عليه السلام الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم الآية، والمغفرة هي الستر على عباده في الدنيا والآخرة، والفضل هو الرزق في الدنيا والتوسعة فيه والتنعيم في الآخرة، وبكل قد وعد الله تعالى، وذكر النقاش أن بعض الناس تأنس بهذه الآية في أن الفقر أفضل من الغنى، لأن الشيطان إنما يبعد العبد من الخير وهو بتخويفه الفقر يبعد منه.

قال القاضي أبو محمد: وليس في الآية حجة قاطعة أما إن المعارضة بها قوية وروي أن في التوراة «عبدي

---

(١) تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ابن عطية ٣٦٣/١

أنفق من رزقي أبسط عليك فضلي، فإن يدي مبسوطة على كل يد مبسوطة» وفي القرآن مصداقه:
وهو وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه، وهو خير الرازقين [سبأ: ٣٩] وواسع لأنه وسع كل شيء رحمة وعلما، ثم أخبر تعالى عن نفسه أنه يؤتي الحكمة أي يعطيها لمن يشاء من عباده، واختلف المتأولون في الحكمة في هذا الموضع فقال السدي: الحكمة النبوءة، وقال ابن عباس: هي المعرفة بالقرآن فقهه ونسخه ومحكمه ومتشابهه وعربيته. وقال قتادة: الحكمة الفقه في القرآن، وقاله مجاهد:
وقال مجاهد أيضا: الحكمة الإصابة في القول والفعل، وقال ابن زيد وأبوه زيد بن أسلم: الحكمة العقل في الدين، وقال مالك: الحكمة المعرفة في الدين والفقه فيه والاتباع له، وروى عنه ابن القاسم أنه قال: الحكمة التفكر في أمر الله والاتباع له، وقال أيضا الحكمة طاعة الله والفقه في الدين والعمل به، وقال الربيع: الحكمة الخشية، ومنه قول النبي عليه السلام: «رأس كل شيء خشية الله تعالى» ، وقال إبراهيم: الحكمة الفهم وقاله زيد بن أسلم، وقال الحسن: الحكمة الورع، وهذه الأقوال كلها ما عدا قول السدي قريب بعضها من بعض لأن الحكمة مصدر من الإحكام وهو الإتقان في عمل أو قول. وكتاب الله حكمة، وسنة نبيه حكمة. وكل ما ذكر فهو جزء من الحكمة التي هي الجنس.
وقرأ الجمهور «من يؤت الحكمة» على بناء الفعل للمفعول. وقرأ الزهري ويعقوب «ومن يؤت» بكسر التاء على معنى ومن يؤت الله الحكمة ف من مفعول أول مقدم والحكمة مفعول ثان، وقرأ الأخفش: «ومن." (١)

"يؤته الحكمة» ، وقرأ الربيع بن خثيم «تؤتي الحكمة من تشاء» بالتاء في «تؤتي» و «تشاء» منقوطة من فوق، «ومن يؤت الحكمة» بالياء، وباقي الآية تذكرة بينة وإقامة لهمم الغفلة، والألباب العقول واحدها لب.
قوله عز وجل:

[سورة البقرة (٢) : الآيات ٢٧٠ الى ٢٧١]
وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فإن الله يعلمه وما للظالمين من أنصار (٢٧٠) إن تبدوا الصدقات فنعما هي وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ويكفر عنكم من سيئاتكم والله بما تعملون خبير

(١) تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ابن عطية ٣٦٤/١

كانت النذر من سيرة العرب تكثر منها، فذكر تعالى النوعين ما يفعله المرء متبرعا وما يفعله بعد إلزامه لنفسه، ويقال: نذر الرجل كذا إذا التزم فعله «ينذر» بضم الذال «وينذر» بكسرها، وقوله تعالى: فإن الله يعلمه قال مجاهد: معناه يحصيه، وفي الآية وعد ووعيد، أي من كان خالص النية فهو مثاب ومن أنفق رئاء أو لمعنى آخر مما يكشفه المن والأذى ونحو ذلك فهو ظالم يذهب فعله باطلا ولا يجد ناصرا فيه، ووحد الضمير في يعلمه وقد ذكر شيئين من حيث أراد ما ذكر أو نص، وقوله تعالى: إن تبدوا الصدقات الآية، ذهب جمهور المفسرين إلى أن هذه الآية هي في صدقة التطوع، قال ابن عباس: جعل الله صدقة السر في التطوع تفضل علانيتها، يقال بسبعين ضعفا، وجعل صدقة الفريضة علانيتها أفضل من سرها يقال بخمسة وعشرين ضعفا، قال: وكذلك جميع الفرائض والنوافل في الأشياء كلها.

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه: ويقوي ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم «صلاة الرجل في بيته أفضل من صلاته في المسجد إلا المكتوبة، وذلك أن الفرائض لا يدخلها رياء والنوافل عرضة لذلك، وقال سفيان الثوري هذه الآية في التطوع، وقال يزيد بن أبي حبيب: إنما أنزلت هذه الآية في الصدقة على اليهود والنصارى، وكان يأمر بقسم الزكاة في السر، وهذا مردود لا سيما عند السلف الصالح، فقد قال الطبري: أجمع الناس على أن إظهار الواجب أفضل، قال المهدوي: وقيل المراد بالآية فرض الزكاة وما تطوع به، فكان الإخفاء فيهما أفضل في مدة النبي عليه السلام، ثم ساءت ظنون الناس بعد ذلك فاستحسن العلماء إظهار الفرض لئلا يظن بأحد المنع، قال أبو محمد: وهذا القول مخالف للآثار، ويشبه في زمننا أن يحسن التستر بصدقة الفرض، فقد كثر المانع لها وصار إخراجها عرضة للرياء، وقال النقاش: إن هذه الآية نسخها قوله تعالى: الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية [البقرة: ٢٧٤] ، وقوله: فنعما هي ثناء على إبداء الصدقة، ثم حكم أن الإخفاء خير من ذلك الإبداء، واختلف القراء في قوله فنعما هي، فقرأ نافع في غير رواية ورش، وأبو عمرو وعاصم في رواية أبي بكر والمفضل «فنعما» بكسر النون وسكون «فنعما» بكسر النون والعين، وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي «فنعما» بفتح النون وكسر العين وكلهم شدد الميم، قال أبو علي من قرأ بسكون العين لم يستقم قوله، لأنه جمع بين ساكنين الأول منهما ليس بحرف مد ولين، وإنما يجوز ذلك عند النحويين إذا كان الأول حرف." (١)

---

(١) تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ابن عطية ٣٦٥/١

"المعجزة، وهذه لفظة تستعملها الصوفية إذا بلغت الموعظة من أحد مبلغا شافيا قالوا سمع، ثم قال تعالى: والموتى يريد الكفار، فعبر، عنهم بضد ما عبر عن المؤمنين وبالصفة التي تشبه حالهم في العمى عن نور الله تعالى والصمم عن وعي كلماته، قاله مجاهد وقتادة والحسن، ويبعثهم الله يحتمل معنيين قال الحسن معناه «يبعثهم الله» بأن يؤمنوا حين يوقفهم.

قال القاضي أبو محمد: فتجيء الاستعارة في هذا التأويل، في الوجهين في تسميتهم موتى وفي تسمية إيمانهم وهدايتهم بعثا، والواو على هذا مشركة في العامل عطفت الموتى على الذين، ويبعثهم الله في موضع الحال، وكأن معنى الآية إنما يستجيب الذين يرشدون حين يسمعون فيؤمنون والكفار حين يرشدهم الله بمشيئته، فلا تتأسف أنت ولا تستعجل ما لم يقدر، وقرأ الحسن «ثم إليه يرجعون» فتناسبت الآية، وقال مجاهد وقتادة: والموتى يريد الكفار، أي هم بمثابة الموتى حين لا يرون هدى ولا يسمعون فيعون، ويبعثهم الله أي: يحشرهم يوم القيامة ثم إليه أي إلى سطوته وعقابه يرجعون، وقرأت هذه الطائفة يرجعون بياء والواو على هذا عاطفة جملة كلام على جملة، والموتى مبتدأ ويبعثهم الله خبره، فكأن معنى الآية إنما يستجيب الذين يسمعون فيعون والكفار سيبعثهم الله ويردهم إلى عقابه، فالآية على هذا متضمنة الوعيد للكفار، والعائد على الذين هو الضمير في يسمعون، والضمير في قالوا عائد على الكفار، ولولا تحضيض بمعنى هلا، قال الشاعر [جرير] : [الطويل]

تعدون عقر النيب أفضل مجدكم ... بني ضوطرى لولا الكمي المقنعا

ومعنى الآية هلا أنزل على محمد بيان واضح لا يقع معه توقف من أحد كملك يشهد له أو أكثر أو غير ذلك من تشططهم المحفوظ في هذا، فأمر عليه السلام بالرد عليهم بأن الله عز وجل له القدرة على إنزال تلك الآية، ولكن أكثرهم لا يعلمون أنها لو نزلت ولم يؤمنوا لعوجلوا بالعذاب، ويحتمل ولكن أكثرهم لا يعلمون أن الله تعالى إنما جعل المصلحة في آيات معرضة للنظر والتأمل ليهتدي قوم ويضل آخرون، وقوله تعالى: وما من دابة الآية، المعنى في هذه الآية التنبيه على آيات الله الموجودة في أنواع مخلوقاته، أي قل لهم إن الله قادر على أن ينزل آية إلا أنكم لا تعلمون وجه **الحكمة في** أن لا ينزل آية مجهزة وإنما يحيل على الآيات المنصوبة لمن فكر واعتبر كالدواب والطير التي قد حصرت جميع الحيوان، وهي أمم أي جماعات مماثلة للناس في الخلق والرزق والحياة والموت والحشر، ويحتمل أن يريد بالمماثلة أنها في كونها أمما لا غير كما تريد بقولك مررت برجل مثلك أي في رجل، ويصح في غير ذلك من الأوصاف إلا أن

الفائدة في هذه الآية، إنما تقع بأن تكون المماثلة في أوصاف غير كونها أمما، قال الطبري وغيره: والمماثلة في أنها يهتبل بأعمالها وتحاسب ويقتص لبعضها من بعض على ما روي في الأحاديث، أي: فإذا كان يفعل هذا بالبهائم فأنتم أحرى إذ أنتم مكلفون عقلاء وروى أبو ذر أنه انتطحت عنزان بحضرة النبي صلى الله عليه وسلم فقال: أتعلمون فيم انتطحتا؟ قلنا لا: قال: فإن الله يعلم وسيقضي بينهما، وقد قال مكي في المماثلة في أنها تعرف الله تعالى وتعبده، وهذا قول خلف ودابة وزنها فاعلة وهي صفة وضعت موضع الاسم كما قالوا الأعرج والأبرق، وأزيل منه معنى الصفة وليست بالصفة الغالبة في قولنا العباس." (١)

"وغيرهما، وقال ابن عباس: تأويله مآله يوم القيامة، وقال السدي: ذلك في الدنيا وقعة بدر وغيرها ويوم القيامة أيضا، والمراد هل ينتظر هؤلاء الكفار إلا مآل الحال في هذا الدين وما دعوا إليه وما صدوهم عنه وهم يعتقدون مآله جميلا لهم؟ فأخبر الله عز وجل أن مآله يوم يأتي يقع معه ندمهم، ويقولون تأسفا على ما فاتهم من الإيمان لقد صدقت الرسل وجاءوا بالحق، فالتأويل على هذا مأخوذ من آل يؤول، وقال الخطابي: أولت الشيء رددته إلى أوله فاللفظة مأخوذة من الأول، حكاه النقاش.

قال القاضي أبو محمد: وقد قيل أولت معناه طلبت أول الوجوه والمعاني ونسوه في الآية يحسن أن يكون النسيان من أول الآية بمعنى الترك ويقرون بالحق ويستفهمون عن وجوه الخلاص في وقت لا مستعتب لهم فيه، وقرأت فرقة: «أو نرد» برفع الفعل على تقدير أو هل نرد وبنصب «فنعمل» في جواب هذا الاستفهام الأخير، وقرأ الحسن بن أبي الحسن «أو نرد فنعمل» بالرفع فيهما على عطف «فنعمل» ، وقرأ ابن أبي إسحاق وأبو حيوة «أو نرد فنعمل» ونصب نرد في هذه القراءة إما على العطف على قوله: فيشفعوا، وإما بما حكاه الفراء من أن «أو تكون» بمعنى حتى كنحو قول امرئ القيس:

أو نموت فنعذرا ويجيء المعنى، أن الشفاعة تكون في أن يردوا ثم أخبر تعالى عن خسارتهم أنفسهم واضمحلال افترائهم على الله وكذبهم في جعل الأصنام آلهة.

وقوله تعالى: إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام الآية، خطاب عام يقتضي التوحيد والحجة عليه بدلائله، والرب أصله في اللغة المصلح من رب يرب وهو يجمع في جهة ذكر الله تعالى المالك والسيد وغير ذلك من استعمالات العرب، ولا يقال الرب معرفا إلا لله، وإنما يقال في البشر بإضافة،

---

(١) تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ابن عطية ٢٨٩/٢

وروى بكار بن الشقير «إن ربكم الله» بنصب الهاء، وقوله في ستة أيام حكى الطبري عن مجاهد أن اليوم كألف سنة، وهذا كله والساعة اليسيرة سواء في قدرة الله تعالى، وأما وجه **الحكمة في** ذلك فمما انفرد الله عز وجل بعلمه كسائر أحوال الشرائع، وما ذهب إليه من أراد أن يوجه هذا كالمهدوي وغيره تخرص، وجاء في التفسير وفي الأحاديث أن الله ابتدأ الخلق يوم الأحد وكملت المخلوقات يوم الجمعة، ثم بقي دون خلق يوم السبت، ومن ذلك اختارته اليهود لراحتها، وعلى هذا توالت تفاسير الطبري وغيره، ولليهود لعنهم الله تعالى في هذا كلام سوء تعالى الله عما يصفون.

ووقع حديث في كتاب مسلم بن الحجاج في كتاب الدلائل لثابت السرقسطي، أن الله تعالى خلق التربة يوم السبت وذكره مكي في الهداية، وقوله تعالى: استوى على العرش معناه عند أبي المعالي وغيره من حذاق المتكلمين بالملك والسلطان، وخص العرش بالذكر تشريفا له إذ هو أعظم المخلوقات، وقال سفيان الثوري: فعل فعلا في العرش سماه استواء.

قال القاضي أبو محمد: والعرش مخلوق معين جسم ما، هذا الذي قررته الشريعة، وبلغني عن أبي الفضيل بن النحوي أنه قال: العرش مصدر عرش يعرش عرشا، والمراد بقوله استوى على العرش هذا.

قال القاضي أبو محمد: وهذا خروج كثير عن ما فهم من العرش في غير ما حديث عن النبي صلى." (١)

"قوله عز وجل:

[سورة الأنفال (٨) : الآيات ١٧ الى ١٨]

فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى وليبلي المؤمنين منه بلاء حسنا إن الله سميع عليم (١٧) ذلكم وأن الله موهن كيد الكافرين (١٨)

هذه مخاطبة للمؤمنين أعلم الله بها أن القتلة من المؤمنين ليس هم مستبدين بالقتل، لأن القتل بالإقدار عليه، والخلق والاختراع في جميع حالات القاتل إنما هي لله تعالى ليس للقاتل فيها شيء، وإنما يشاركه بتكسبه وقصده، وهذه الألفاظ ترد على من يقول بأن أفعال العباد خلق لهم، وسبب هذه الآية فيما روي عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لما صدروا عن بدر ذكر كل واحد منهم ما فعل، فقال قتلت كذا وفعلت كذا فجاء من ذلك تفاخر ونحو ذلك فنزلت الآية، وقوله وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى

---

(١) تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ابن عطية ٤٠٨/٢

يراد به ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم فعله يومئذ، وذلك أنه أخذ قبضات من حصى وتراب، فرمى بها في وجوه القوم وتلقاهم ثلاث مرات فانهزموا عند آخر رمية، ويروى أنه قال يوم بدر: شاهت الوجوه، وهذه الفعلة أيضا كانت يوم حنين بلا خلاف، وروي أن التراب الذي رمى به لم يبق كافر إلا دخل في عينيه منه شيء، وروي أنه رمى بثلاثة أحجار فكانت الهزيمة مع الحجر الثالث.

قال القاضي أبو محمد: فيحتمل قوله تعالى: وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ما قلناه في قوله فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وذلك منصوص في الطبري وغيره، وهو خارج في كلام العرب على معنى وما رميت الرمي الكافي إذ رميت، ونحوه قول العباس بن مرداس: [المتقارب] فلم أعط شيئا ولم أمنع أي لن أعط شيئا مرضيا ويحتمل أن يريد، وما رميت الرعب في قلوبهم إذ رميت حصياتك، ولكن الله رماه وهذا أيضا منصوص في المهدوي وغيره، ويحتمل أن يريد وما أغنيت إذ رميت حصياتك ولكن الله رمى أي أعانك وأظفرك، والعرب تقول في الدعاء: رمى الله لك، أي أعانك وصنع لك.

وحكى هذا أبو عبيدة في كتاب المجاز وقرأت فرقة «ولكن الله رمى» بتشديد النون، وفرقة «ولكن الله» بتخفيفها ورفع الهاء من «الله» ، وليبلي أي ليصيبهم ببلاء حسن، فظاهر وصفه بالحسن يقتضي أنه أراد الغنيمة والظفر والعزة، وقيل أراد الشهادة لمن استشهد يوم بدر وهم أربعة عشر رجلا، منهم عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب ومهجع مولى عمر، ومعاذ وعمرو ابنا عفراء، وغيرهم، إن الله سميع لاستغاثتكم، عليم بوجه الحكمة في جميع أفعاله لا إله إلا هو، وحكى الطبري: أن المراد بقوله وما رميت إذ رميت رمي رسول الله صلى الله عليه وسلم الحربة على أبي بن خلف يوم أحد.

قال القاضي أبو محمد: وهذا ضعيف لأن الآية نزلت عقب بدر، وعلى هذا القول تكون أجنبية مما قبلها وما بعدها وذلك بعيد، وحكي أيضا أن المراد السهم الذي رمى به رسول الله صلى الله عليه وسلم في حصن خيبر فصار في الهوي حتى أصاب ابن أبي الحقيق فقتله وهو على فراشه، وهذا فاسد، وخيبر فتحها أبعد من أحد بكثير، والصحيح في قتل ابن أبي الحقيق غير هذا، فهذان القولان ضعيفان لما." (١)

"هذا ابتداء دعاء إلى عبادة الله عز وجل وإعلام بصفاته، والخطاب بها لجميع الناس، وخلق السماوات والأرض هو على ما تقرر أن الله عز وجل خلق الأرض ثم استوى إلى السماء وهي دخان فخلقها، ثم دحا الأرض بعد ذلك، وقوله في ستة أيام قيل هي من أيام الآخرة، وقال الجمهور، وهو الصواب:

---

(١) تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ابن عطية ٢/٥١١

بل من أيام الدنيا.

قال القاضي أبو محمد: وذلك في التقدير لأن الشمس وجريها لم يتقدم حينئذ وقول النبي صلى الله عليه وسلم في خلق الله المخلوقات إن الله ابتدأ يوم الأحد كذا ويوم كذا كذا إنما هو على أن نقدر ذلك الزمان ونعكس إليه التجربة من حين ابتدأ ترتيب اليوم والليلة والمشهور أن الله ابتدأ بالخلق يوم الأحد، ووقع في بعض الأحاديث في كتاب مسلم وفي الدلائل أن البداءة وقعت يوم السبت وذكر بعض الناس أن الحكمة في خلق الله تعالى هذه الأشياء في مدة محدودة ممتدة وفي القدرة أن يقول كن فيكون إنما هو ليعلم عباده التؤدة والتماهل في الأمور.

قال القاضي أبو محمد: وهذا مما لا يوصل تعليله وعلى هذا هي الأجنة في البطون وخلق الثمار وغير ذلك والله عز وجل قد جعل لكل شيء قدرا وهو أعلم بوجه الحكمة في ذلك وقوله ثم استوى على العرش قد تقدم القول فيه في المص [الأعراف: ١] وقوله يدبر الأمر يصح أن يريد ب الأمر اسم الجنس من الأمور ويحتمل أن يريد الأمر الذي هو مصدر أمر يأمر، وتدبيره لا إله إلا هو إنما هو الإنفاذ لأنه قد أحاط بكل شيء علما. وقال مجاهد يدبر الأمر معناه يقضيه وحده، وقوله ما من شفيع إلا من بعد إذنه رد على العرب في اعتقادها أن الأصنام تشفع لها، وقوله ذلكم إشارة إلى الله تعالى أي هذا الذي هذه صفاته فاعبدوه، ثم قررهم على هذه الآيات والعبر فقال أفلا تذكرون أي فيكون التذكر سببا للاهتداء، واختصر القول في قوله ثم استوى على العرش [إما] أن يكون استوى بقهره وغلبته وإما أن يكون استوى بمعنى استولى إن صحت اللفظة في اللسان، فقد قيل في قول الشاعر:

قد استوى بشر على العراق ... من غير سيف ودم مهراق

إنه بيت مصنوع. وإما أن يكون فعل فعلا في العرش سماه استوى، واستيعاب القول قد تقدم، وقوله إليه مرجعكم جميعا الآية، آية إنباء بالبعث من القبور وهي من الأمور التي جوزها العقل وأثبت وقوعها الشرع، وقوله جميعا حال من الضمير في مرجعكم، وعد الله نصب على المصدر، وكذلك قوله حقا وقال أبو الفتح حقا نعت، وقرأ الجمهور «إنه» بكسر الألف على القطع والاستئناف، وقرأ أبو جعفر بن القعقاع والأعمش وسهل بن شعيب وعبد الله «أنه» بفتح الألف، وموضعها النصب على تقدير أحق أنه، وقال الفراء: موضعها رفع على تقدير يحق أنه.

قال القاضي أبو محمد: يجوز عندي أن يكون إنه بدلا من قوله وعد الله، قال أبو الفتح: إن شئت قدرت

لأنه يبدأ الخلق أي فمن في قدرته هذا فهو غني عن إخلاف الوعد. وإن شئت قدرته «وعد الله حقا أنه» ولا يعمل فيه المصدر الذي هو وعد الله لأنه قد وصف فإذن." (١)

"لنفحات الرحمة والتذكير، وعلى هذا القدر وقع عتابه، ولذلك جاء بتلطف وترفيع في قوله: إني أعظك أن تكون من الجاهلين، وقد قال الله لمحمد صلى الله عليه وسلم: فلا تكونن [البقرة: ١٤٧، الأنعام: ٣٤- ١١٤، يونس: ٩٤] ، وذلك هنا بحسب الأمر الذي عوتب فيه وعظمته، فإنه لضيق صدره بتكاليف النبوة، وإلا فمتقرر أن محمدا صلى الله عليه وسلم أفضل البشر وأولاهم بلين المخاطبة ولكن هذا بحسب الأمرين لا بحسب النبيين. وقال قوم: إنما وقر نوح لسنه. وقال قوم: إنما حمل اللفظ على محمد صلى الله عليه وسلم كما يحمل الإنسان على المختص به الحبيب إليه.

قال القاضي أبو محمد: وهذا كله ضعيف، ويحتمل قوله: فلا تسئلن ما ليس لك به علم، أي لا تطلب مني أمرا لا تعلم المصلحة فيه علم يقين، ونحا إلى هذا أبو علي الفارسي، وقال: إن به يجوز أن يتعلق بلفظة علم كما قال الشاعر: [الرجز] كان جزائي بالعصا أن أجلدا ويجوز أن يكون به بمنزلة فيه، فتتعلق الباء بالمستقر.

قال القاضي أبو محمد: واختلاف هذين الوجهين إنما هو لفظي، والمعنى في الآية واحد، وروي أن هذا الابن إنما كان ربيبه وهذا ضعيف وحكى الطبري عن ابن زيد أن معنى قوله: إني أعظك أن تكون من الجاهلين في أن تعتقد أني لا أفي لك بوعد وعدتك به.

قال القاضي أبو محمد: وهذا تأويل بشع، وليس في الألفاظ ما يقتضي أن نوحا اعتقد هذا وعياذا بالله، وغاية ما وقع لنوح عليه السلام أن رأى ترك ابنه معارضا للوعد فذكر به، ودعا بحسب الشفقة ليكشف له الوجه الذي استوجب به ابنه الترك في الغرقى.

قوله عز وجل:

[سورة هود (١١) : الآيات ٤٧ الى ٤٩]

قال رب إني أعوذ بك أن أسئلك ما ليس لي به علم وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين (٤٧) قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم

---

(١) تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ابن عطية ١٠٤/٣

(٤٨) تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين (٤٩)

هذه الآية فيها إنابة نوح وتسليمه لأمر الله تعالى واستغفاره بالسؤال الذي وقع النهي عليه والاستعاذة والاستغفار منه هو سؤال العزم الذي معه محاجة وطلبة ملحة فيما قد حجب وجه **الحكمة فيه** وأما السؤال في الأمور على جهة التعلم والاسترشاد فغير داخل في هذا.

وظاهر قوله: فلا تسئلن ما ليس لك به علم [هود: ٤٦] يعم النحويين من السؤال، فلذلك نبهت على أن المراد أحدهما دون الآخر، و «الخاسرون» هم المغبونون حظوظهم من الخير، وقوله تعالى: قيل." (١)

"ومن ذلك أيضا قول الشاعر: [الرجز]

قد رابني أن الكرى قد أسكتا ... ولو غدا يعني بنا لهيتا

أسكت: دخل في سكوت، و «هيت» معناه: قال: هيت، كما قالوا: أفف إذا قال: أف أف، ومنه سبح وكبر ودعدع إذ قال: داع داع.

والتاء على هذه اللغات كلها مبنية فهي في حال الرفع كقبل وبعد، وفي الكسر على الباب لالتقاء الساكنين، وفي حال النصب ككيف ونحوها قال أبو عبيدة: وهيت لا تثنى ولا تجمع، تقول العرب:

هيت لك، وهيت لكما، وهيت لكم.

وقرأ هشام ابن عامر «هيت» ، بكسر الهاء والهمز، ضم التاء وهي قراءة علي بن أبي طالب، وأبي وائل، وأبي رجاء ويحيى، ورويت عن أبي عمرو، وهذا يحتمل أن يكون من هاء الرجل يهيء إذا أحسن هيئته- على مثال جاء يجيء- ويحتمل أن يكون بمعنى تهيأت، كما يقال: فئت وتفيأت بمعنى واحد، قال الله عز وجل: يتفيؤا ظلاله [النحل: ٤٨] وقال: حتى تفيء إلى أمر الله [الحجرات: ٩] .

وقرأ ابن أبي إسحاق- أيضا- «هيت» بتسهيل الهمزة من هذه القراءة المتقدمة. وقرأ ابن عباس- أيضا- «هيت لك» . وقرأ الحلواني عن هشام «هئت» بكسر الهاء والهمز وفتح التاء قال أبو علي: ظاهر أن هذه القراءة وهم، لأنه كان ينبغي أن تقول: هئت لي، وسياق الآيات يخالف هذا. وحكى النحاس: أنه يقرأ «هيت» بكسر الهاء وسكون الياء وكسر التاء. ومعاذ نصب على المصدر ومعنى الكلام أعوذ بالله.

ثم قال: إنه ربي فيحتمل أن يعود الضمير في إنه على الله عز وجل، ويحتمل أن يريد العزيز سيده، أي فلا

---

(١) تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ابن عطية ١٧٨/٣

يصلح لي أن أخونه وقد أكرم مثواي وائتمنني، قال مجاهد، والسدي ربي معناه سيدي، وقاله ابن إسحاق.
قال القاضي أبو محمد: وإذا حفظ الآدمي لإحسانه فهو عمل زاك، وأحرى أن يحفظ ربه.
ويحتمل أن يكون الضمير للأمر والشأن، ثم يبتدىء ربي أحسن مثواي.
والضمير في قوله: إنه لا يفلح مراد به الأمر والشأن فقط، وحكى بعض المفسرين: أن يوسف عليه الصلاة والسلام- لما قال: معاذ الله ثم دافع الأمر باحتجاج وملاينة، امتحنه الله تعالى بالهم بما هم به، ولو قال لا حول ولا قوة إلا بالله، ودافع بعنف وتغيير- لم يهم بشيء من المكروه.
وقرأ الجحدري «مثواي» وقرأها كذلك أبو طفيل وروي عن النبي عليه السلام: «فمن تبع هداي» .
وقوله: ولقد همت به الآية، لا شك أن «هم» زليخا كان في أن يواقعها يوسف، واختلف في «هم» يوسف عليه السلام، فقال الطبري: قالت فرقة: كان مثل «همها» ، واختلفوا كيف يقع من مثل يوسف وهو نبي؟ فقيل ذلك ليريه الله تعالى موقع العفو والكفاية، وقيل الحكمة في ذلك أن يكون مثالا للمذنبين." (١)

"وما خليج من المروت ذو حدب ... يرمي الصعيد بخشب الأيك والضال

والضمير في قوله وإنهما يحتمل أن يعود على المدينتين اللتين تقدم ذكرهما: مدينة قوم لوط، ومدينة أصحاب الأيكة، ويحتمل أن يعود للنبيين: على لوط وشعيب، أي أنهما على طريق من الله وشرع مبين. و «الإمام» في كلام العرب الشيء الذي يهتدى به ويؤتم، يقولونه لخيط البناء، وقد يكون الطريق، وقد يكون الكتاب المفيد، وقد يكون القياس الذي يعمل عليه الصناع، وقد يكون الرجل المقتدى به، ونحو هذا، ومن رأى عود الضمير في إنهما على المدينتين قال «الإمام» الطريق، وقيل على ذلك «الإمام» الكتاب الذي سبق فيه إهلاكهما، وأصحاب الحجر هم ثمود، وقد تقدم قصصهم، والحجر مدينتهم، وهي ما بين المدينة وتبوك، وقال المرسلين من حيث يجب بتكذيب رسول واحد تكذيب الجميع، إذ القول في المعتقدات واحد للرسل أجمع، فهذه العبارة أشنع على المكذبين، و «الآية» التي آتاهم الله هي الناقة وما اشتملت عليه من خرق العادة حسبما تقدم تفسيره وبسطه، وقرأ أبو حيوة «وآتيناهم آيتنا» مفردة، وقوله تعالى: وكانوا ينحتون الآية، يصف قوم صالح بشدة النظر للدنيا والتكسب منها فذكر من ذلك مثالا أن بيوتهم كانوا ينحتونها في حجر الجبال، و «النحت» النقر بالمعاول ونحوها في الحجارة والعود ونحوه، وقرأ جمهور الناس «ينحتون» بكسر الحاء، وقرأ الحسن «ينحتون» بفتحها، وذلك لأجل حرف الحلق، وهي قراءة أبي

---

(١) تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ابن عطية ٣/٢٣٣

حيوة، وقوله آمنين قيل معناه من انهدامها، وقيل من حوادث الدنيا، وقيل من الموت لاغترارهم بطول الأعمال.

قال القاضي أبو محمد: وهذا كله ضعيف، وأصح ما يظهر في ذلك أنهم كانوا يأمنون عواقب الآخرة. فكانوا لا يعملون بحسبها، بل كانوا يعملون بحسب الأمن منها، ومعنى مصبحين أي عند دخولهم في الصباح، وذكر أن ذلك كان يوم سبت، وقد تقدم قصص عذابهم وميعادهم وتغير ألوانهم، ولم تغن عنهم شدة نظرهم للدنيا وتكسبهم شيئا، ولا دفع عذاب الله، وما الأولى تحتمل النفي وتحتمل التقرير، والثانية مصدرية، وقوله تعالى: وما خلقنا السماوات والأرض الآية، المراد أن هؤلاء المكتسبين للدنيا الذين لم يغن عنهم اكتسابهم ليسوا في شيء، فإن السماوات والأرض وجميع الأشياء لم تخلق عبثا ولا سدى، ولا لتكون طاعة الله كما فعل هؤلاء ونظراؤهم، وإنما خلقت بالحق ولواجب مراد وأغراض لها نهايات من عذاب أو تنعيم وإن الساعة لآتية على جميع أمور الدنيا، أي فلا تهتم يا محمد بأعمال قومك فإن الجزاء لهم بالمرصاد، فاصفح عن أعمالهم، أي ولها صفحة عنقك بالإعراض عنها، وأكد الصفح بنعت الجمال إذ المراد منه أن يكون لا عتب فيه ولا تعرض.

وهذه الآية تقتضي مداهنة، ونسخها في آية السيف قاله قتادة، ثم تلاه في آخر الآية بأن الله تعالى يخلق من شاء لما شاء ويعلم تعالى وجه الحكمة في ذلك لا هذه الأوثان التي يعبدونها، وقرأ جمهور الناس «الخلاق» ، وقرأ الأعمش والجحدري «الخالق» .

قوله عز وجل:

[سورة الحجر (١٥) : الآيات ٨٧ الى ٩٣]

ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم (٨٧) لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم ولا تحزن عليهم واخفض جناحك للمؤمنين (٨٨) وقل إني أنا النذير المبين (٨٩) كما أنزلنا على المقتسمين (٩٠) الذين جعلوا القرآن عضين (٩١)

فو ربك لنسئلنهم أجمعين (٩٢) عما كانوا يعملون (٩٣)." (١)

(١) تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ابن عطية ٣٧٢/٣

"وجد الخضر قاعدا على تيح البحر، وسمي الخضر خضرا لأنه جلس على فروة يابسة فاهتزت تحته خضراء، روي ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم، و «الرحمة» في هذه الآية النبوءة، وقد ذكرنا الحديث المضمن أن سبب هذه القصة أن موسى عليه السلام، قيل له تعلم أحدا أعلم منك، قال: لا، وحكى الطبري حديثا آخر، مضمنه: أن موسى عليه السلام قال: من قبل نفسه: أي رب، أي عبادك أعلم؟ قال الذي يبتغي علم الناس إلى علمه عسى أن يصيب كلمة خير تهديه، قال رب فهل في الأرض أحد؟ قال نعم فسأل السبيل إلى لقيه، والحديث الأول في صحيح البخاري، وقرأ الجمهور «من لدنا» بتشديد النون وقرأ أبو عمرو من «لدنا» بضم الدال وتخفيف النون، قال أبو حاتم هما لغتان.

قوله عز وجل:

[سورة الكهف (١٨) : الآيات ٦٦ الى ٧٣]

قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا (٦٦) قال إنك لن تستطيع معي صبرا (٦٧) وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا (٦٨) قال ستجدني إن شاء الله صابرا ولا أعصي لك أمرا (٦٩) قال فإن اتبعتني فلا تسئلني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرا (٧٠)

فانطلقا حتى إذا ركبا في السفينة خرقها قال أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئا إمرا (٧١) قال ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبرا (٧٢) قال لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسرا (٧٣)

هذه مخاطبة المستنزل المبالغ في حسن الأدب، المعنى: هل يتفق لك ويخف عليك، وهذا كما في الحديث «هل تستطيع أن تريني كيف كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتوضأ» وعلى بعض التأويلات يجيء كذلك قوله هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة]المائدة: ١١٢] وقرأ ابن كثير ونافع وعاصم «رشدا» بضم الراء والشين، وقرأ أبو عمرو «رشدا» بفتح الراء والشين، ونصبه على وجهين: أحدهما: أن يكون مفعولا ثانيا ب تعلمن والآخر أن يكون حالا من الضمير في قوله أتبعك ثم قال الخضر، إنك لن تستطيع معي صبرا أي إنك يا موسى، لا تطيق أن تصبر على ما تراه من عملي، لأن الظواهر التي علمك لا تعطيه، وكيف تصبر على ما تراه خطأ، ولم تخبر بوجه **الحكمة فيه** ولا طريق الصواب، فقرب له موسى الأمر بوعده أنه سيجده، ثم استثنى حين حكم على نفسه بأمر فقوى الخضر وصاته وأمره بالإمساك عن السؤال والإكنان لما يراه حتى يبتدئه الخضر لشرح ما يجب شرحه، وقرأ نافع فلا «تسألني» بفتح اللام، وتشديد النون وإثبات الياء وقرأ ابن عامر كذلك إلا أنه حذف الباء فقال «تسألن» ، وقرأ ابن كثير وأبو

عمرو وعاصم وحمزة والكسائي «تسألني» بسكون اللام وثبوت الياء، وقرأ الجمهور «خبرا» بسكون الباء، وقرأ الأعرج «خبرا» بضمها، وقوله فانطلقا روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنهما انطلقا ماشيين على سيف البحر حتى مرت بهما سفينة، فعرف الخضر فحملا بغير قول إلى مقصد أمه الخضر، وعرفت السفينة بالألف واللام تعريف الجنس لا لعهد عينها، فلما ركبا عمد الخضر إلى وتد فجعل يضرب في جنب السفينة حتى قلع به، فيما روي لوحين من ألواحها فذلك هو معنى خرقها فلما." (١)

"جملة لكنه يحبها لمقذوفه، وكذلك آخر لمقذوفه، وآخر حتى تشيع الفاحشة من مجموع فعلهم فهم لها محبون بهذا الوجه من حيث أحب كل واحد جزءا من شياعها، والعذاب الأليم في الدنيا الحدود وفي الآخرة يحتمل وجهين أحدهما أن يكون القاذف متوعدا من بين العصاة بعذاب الآخرة لا يزيله الحد، حسب مقتضى حديث عبادة بن الصامت ويكون أمره كأمر المحاربين إذا صلبوا لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب، والوجه الثاني أن يحكم بأن الحد مسقط عذاب الآخرة حسب حديث عبادة بن الصامت وأن قوله والآخرة لا يريد به عموم القذفة بل يريد إما المنافقين وإما من لم يتب، وقال الطبري معناه إن مات مصرا غير تائب، وقوله والله يعلم معناه البريء من المذنب وسائر الأمور، وحجة **الحكمة في** ستركم والتغليظ في الوعيد والعذاب على قاذفيكم، وقوله: ولولا فضل الله الآية جواب لولا محذوف لدلالة الكلام عليه تقديره لفضحكم بذنوبكم ولعذبكم فيما أفضتم فيه من قول الباطل والبهتان.

قوله عز وجل:

[سورة النور (٢٤) : آية ٢١]

يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبدا ولكن الله يزكي من يشاء والله سميع عليم (٢١)

هذا الخطاب عام لجميع المؤمنين، وخطوات جمع خطوة وهي ما بين القدمين في المشي فكأن المعنى لا تمشوا في سبله وطرقه من الأفعال الخبيثة، وقال منذر بن سعيد يجوز أن يكون خطوات جمع خطأ من الخبيثة، وسهلت الهمزة فنطق بها خطوات وقرأ بضم الطاء من «خطوات» الجمهور، وقرأ بسكونها عاصم والأعمش، وقرأ الجمهور «ما زكى» ، بتخفيف الكاف أي ما اهتدى ولا أسلم ولا عرف رشدا، وقرأ أبو

---

(١) تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ابن عطية ٣/٥٣٠

حيوة والحسن «زكى» بشد الكاف أي تزكيته لكم وتطهيره وهدايته إنما هي بفضله لا بأعمالكم وتحرزكم من المعاصي، ثم ذكر تعالى أنه يزكي من يشاء ممن سبقت له السعادة وكان عمله الصالح أمارة على سبق السعادة له، ثم أخبر بأنه سميع لجميع أقوالهم وكلامهم من قذف وغيره، عليم بحق ذلك من باطله لا يجوز عليه في ذلك وهم ولا غلط.

قوله عز وجل:

[سورة النور (٢٤) : آية ٢٢]

ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولي القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم (٢٢)

المشهور من الروايات أن هذه الآية نزلت في قصة أبي بكر بن أبي قحافة الصديق ومسطح بن أثاثة، وذلك أنه كان ابن خالته وكان من المهاجرين البدريين المساكين وهو مسطح بن أثاثة بن عباد بن المطلب بن عبد مناف، وقيل اسمه عوف ومسطح لقب، وكان أبو بكر ينفق عليه لمسكنته، فلما وقع أمر." (١)

"قال الفقيه الإمام القاضي: وهذا التأويل سائغ وإن لا يقدر هذا التقابل سائغ، وقرأ سفيان بن حسين «أو كظلمات» بفتح الواو، وقرأ جمهور السبعة «سحاب» بالرفع والتنوين «ظلمات» بالرفع، وقرأ ابن كثير في رواية قنبل «سحاب» بالرفع والتنوين «ظلمات» بالخفض على البدل من «ظلمات» الأول، وقرأ ابن أبي بزة عن ابن كثير «سحاب» بغير تنوين على الإضافة على الظلمات، وقوله إذا أخرج يده لم يكد يراها لفظ يقتضي مبالغة الظلمة، واختلف الناس في هذا اللفظ هل يقتضي أن هذا الرجل المقدر في هذه الأحوال وأخرج يده رأى يده ولم يرها البتة، فقالت فرقة لم يرها جملة وذلك أن «كاد» معناها قارب فكأنه قال إذا أخرج يده لم يقارب رؤيتها، وهذا يقتضي نفي الرؤية جملة، وقالت فرقة بل رآها بعد عسر وشدة وكان أن لا يراها ووجه ذلك أن «كاد» إذا صحبها حرف النفي وجب الفعل الذي بعدها وإذا لم يصحبها انتفى الفعل ع وهذا لازم متى كان حرف النفي بعد «كاد» داخلا على الفعل الذي بعدها، تقول: كاد زيد يقوم، فالقيام منفي فإذا قلت كاد زيد أن لا يقوم فالقيام واجب واقع،

وتقول كاد النعام يطير، فهذا يقتضي نفي الطيران عنه، فإذا قلت كاد النعام أن يطير وجب الطيران له، فإذا

---

(١) تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ابن عطية ١٧٢/٤

كان حرف النفي مع «كاد» فالأمر محتمل مرة يوجب الفعل ومرة ينفيه، تقول المفلوج لا يكاد يسكن فهذا كلام صحيح تضمن نفي السكون، وتقول رجل متكلم لا يكاد يسكن، فهذا كلام صحيح يتضمن إيجاب السكون بعد جهد ونادرا ومنه قوله تعالى: فذبحوها وما كادوا يفعلون [البقرة: ٧١] نفي مع كاد تضمن وجوب الذبح، وقوله في هذه الآية لم يكد يراها نفي مع كاد يتضمن في أحد التأويلين، نفي الرؤية، ولهذا ونحوه قال سيبويه رحمه الله إن أفعال المقاربة لها نحو آخر بمعنى أنها دقيقة التصرف، وقوله تعالى: ومن لم يجعل الله لہ نورا فما له من نور قالت فرقة يريد في الدنيا، أي من لم يهده الله لم يهتد، وقالت فرقة أراد في الآخرة أي من لم يرحمه الله وينور حاله بالعفو والرحمة فلا رحمة له، والأول أبين وأليق بلفظ الآية، وأيضا فذلك لازم نور الآخرة إنما هو لمن نور قلبه في الدنيا وهدى، وقد قررت الشريعة أن من مر لآخرته على كفره فهو غير مرحوم ولا مغفور له.

قوله عز وجل:

[سورة النور (٢٤) : الآيات ٤١ الى ٤٢]

ألم تر أن الله يسبح له من في السماوات والأرض والطير صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه والله عليم بما يفعلون (٤١) ولله ملك السماوات والأرض وإلى الله المصير (٤٢)

ألم تر تنبيه، و «الرؤية» رؤية الفكر، قال سيبويه كأنه قال انتبه الله يسبح له من في السماوات، والتسبيح هنا التعظيم والتنزيه فهو من العقلاء بالنطق وبالصلاة من كل ذي دين، واختلف في تسبيح الطير وغير ذلك مما قد ورد الكتاب بتسبيحه، فالجمهور على أنه تسبيح حقيقي وقال الحسن وغيره هو لفظ تجوز وإنما تسبيحه بظهور الحكمة فيه، فهو لذلك يدعو إلى التسبيح، وقال المفسرون قوله من في السماوات والأرض عامة لكل شيء من له عقل وسائر الجمادات، لكنه لما اجتمع ذلك عبر عنه ب من تغليبا لحكم من يعقل، وصافات معناه مصطفة في الهواء، وقرأ الأعرج «والطير» بنصب الراء، وقرأ الحسن و «الطير صافات» مرفوعتان وقوله: كل قد علم صلاته وتسبيحه قال الحسن المعنى." (١)

"قوله عز وجل:

---

(١) تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ابن عطية ١٨٨/٤

[سورة النمل (٢٧) : الآيات ٦ الى ٩]

وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم (٦) إذ قال موسى لأهله إني آنست نارا سآتيكم منها بخبر أو آتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون (٧) فلما جاءها نودي أن بورك من في النار ومن حولها وسبحان الله رب العالمين (٨) يا موسى إنه أنا الله العزيز الحكيم (٩)

«تلقى» تفعل مضاعف لقي يلقى ومعناه تعطى، كما قال وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم [فصلت: ٣٥] قال الحسن المعنى أنك لتقبل القرآن.

قال القاضي أبو محمد: ولا شك أنه يفيض عليه فضل الله ويعتمد به فيقلبه صلى الله عليه وسلم، وهذه الآية رد على كفار قريش في قولهم إن القرآن من تلقاء محمد صلى الله عليه وسلم بن عبد الله، ومن لدن، معناه من عنده ومن جهته، و «الحكيم» ذو الحكمة في معرفته، حيث يجعل رسالاته وفي غير ذلك لا إله إلا هو، ثم قص تعالى خبر موسى، والتقدير اذكر إذ قال موسى وكان من أمر موسى عليه السلام أنه حين خرج بزوجه بنت شعيب عليه السلام يريد مصر وقد قرب وقت نبوته مشوا في ليلة ظلماء ذات برد ومطر ففقدوا النار ومسهم البرد واشتدت عليهم الظلمة وضلوا الطريق وأصلد زناد موسى عليه السلام، فبينما هو في هذه الحالة إذ رأى نارا على بعد، وآنست معناه رأيت، ومنه قول حسان بن ثابت: [المنسرح]

انظر خليلي بباب جلق هل تؤنس ... دون البلقاء من أحد

فلما رأى موسى ذلك قال لأهله ما في الآية.

ومشى نحوها فلما دنا منها رأى النار في شجرة سمر خضراء وهي لا تحرقها، وكلما قرب هو منها بعدت هي منه، وكان ذلك نورا من نور الله عز وجل ولم يكن نارا في نفسها لكن ظنه موسى نارا فناداه الله عز وجل عند ذلك، وسمع موسى عليه السلام النداء من جهة الشجرة وأسمعه الله كلامه والخبر الذي رجاه موسى عليه السلام هو الإعلام بالطريق، وقوله بشهاب قبس شبه النار التي تؤخذ في طرف عود أو غيره ب «الشهاب» ، ثم خصصه بأنه مما اقتبس، إذ الشهب قد تكون من غير اقتباس، و «القبس» اسم لقطعة النار تقتبس في عود أو غيره كما القبض اسم ما يقبض ومنه قول أبي زيد: [المنسرح]

في كفة صعدة مشققة ... فيها سنان كشعلة القبس

ومنه قول الآخر: «من شاء من نار الجحيم اقتبسا» وأصل الشهاب الكوكب المنقض في أثر مسترق السمع وكل من يقال له شهاب من المنيرات فعلى التشبيه، قال الزجاج: كل أبيض ذي نور فهو شهاب وكلامه

معترض، و «القبس» يحتمل أن يكون اسما غير صفة ويحتمل أن يكون صفة، فعلى كونه اسما غير صفة أضاف إليه بمعنى بشهاب اقتبسته أو اقتبسه، وعلى كونه صفة يكون ذلك كإضافة الدار إلى الآخرة والصلاة إلى الأولى وغير ذلك، وقرأ الجمهور بإضافة «شهاب» إلى «قبس» وهي قراءة الحسن وأهل المدينة ومكة والشام، وقرأ عاصم وحمزة والكسائي «بشهاب قبس» بتنوين «شهاب» فهذا على الصفة.." (١)

"الردة. وقال ابن عباس والجمهور: الزكاة في هذه الآية: لا إله إلا الله التوحيد كما قال موسى لفرعون: هل لك إلى أن تزكى [النازعات: ١٨] ويرجح هذا التأويل أن الآية من أول المكي، وزكاة المال إنما نزلت بالمدينة، وإنما هذه زكاة القلب والبدن، أي تطهيره من الشرك والمعاصي، وقاله مجاهد والربيع.

وقال الضحاك ومقاتل: معنى الزكاة هنا: النفقة في الطاعة، وأعاد الضمير في قوله: هم كافرون توكيدا.

قوله عز وجل:

[سورة فصلت (٤١) : الآيات ٨ الى ١٠]

إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون (٨) قل أإنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين (٩) وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين (١٠)

ذكر عز وجل حالة الذين آمنوا معادلا بذلك حالة الكافرين المذكورين ليبين الفرق.

وقوله: غير ممنون قال ابن عباس معناه: غير منقوص. وقالت فرقة معناه: غير مقطوع، يقال مننت الحبل: إذا قطعته. وقال مجاهد معناه: غير محسوب، لأن كل محسوب محصور، فهو معد لأن يمن به، فيظهر في الآية أنه وصفه بعدم المن والأذى من حيث هو من جهة الله تعالى، فهو شريف لا من فيه، وأعطيات البشر هي التي يدخلها المن. وقال السدي: نزلت هذه الآية من المرضى والزمنى، إذا عجزوا عن إكمال الطاعات كتب لهم من الأجر كأصح ما كانوا يعملون، ثم أمر تعالى نبيه أن يوقفهم موبخا على كفرهم بخالق الأرض والسماوات ومخترعها، ووصف صورة خلقها ومدته، **والحكمة في** خلقه هذه المخلوقات في مدة ممتدة مع قدرة الله على إيجادها في حين واحد. وهي إظهار القدرة في ذلك حسب شرف الإيجاد أولا أولا. قال قوم: وليعلم عباده التأني في الأمور والمهل، وقد تقدم القول غير مرة في نظير قوله: أإنكم.

---

(١) تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ابن عطية ٤/٢٤٩

واختلف رواة الحديث في اليوم الذي ابتدأ الله تعالى فيه خلق الأرض، فروي عن ابن عباس وغيره: أن أول يوم هو الأحد، وأن الله تعالى خلق فيه وفي الاثنين: الأرض، ثم خلق الجبال ونحوها يوم الثلاثاء. قال ابن عباس فمن هنا قيل: هو يوم ثقيل. ثم خلق الشجر والثمار والأنهار يوم الأربعاء، ومن هنا قيل: هو يوم راحة وتفكر في هذه التي خلقت فيه. ثم خلق السماوات وما فيها يوم الخميس ويوم الجمعة، وفي آخر ساعة من يوم الجمعة: خلق آدم. وقال السدي: وسمي يوم الجمعة لاجتماع المخلوقات فيه وتكاملها، فهذه رواية فيها أحاديث مشهورة. ولما لم يخلق تعالى في يوم السبت شيئا امتنع فيه بنو إسرائيل عن الشغل. ووقع في كتاب مسلم بن الحجاج: أن أول يوم خلق الله فيه التربة يوم السبت، ثم رتب المخلوقات على ستة أيام، وجعل الجمعة ع‍اريا من المخلوقات على ستة أيام إلا من آدم وحده. والظاهر من القصص في طينة آدم أن الجمعة التي خلق فيها آدم قد تقدمتها أيام وجمع كثيرة، وأن هذه الأيام التي خلق الله فيها هذه." (١)

"[سورة البقرة (٢) : آية ٣]

الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون (٣)

قوله تعالى: الذين يؤمنون بالغيب، الايمان في اللغة: التصديق، والشرع أقره على ذلك، وزاد فيه القول والعمل. وأصل الغيب: المكان المطمئن الذي يستتر فيه لنزوله عما حوله، فسمي كل مستتر:

غيبا. وفي المراد بالغيب ها هنا ستة أقوال: أحدها: أنه الوحي، قاله ابن عباس، وابن جريج. والثاني:

القرآن، قاله أبو رزين العقيلي، وزر بن حبيش. والثالث: الله عز وجل، قاله عطاء، وسعيد بن جبير.

والرابع: ما غاب عن العباد من أمر الجنة والنار، ونحو ذلك مما ذكر في القرآن. رواه السدي عن أشياخه، وإليه ذهب أبو العالية، وقتادة. والخامس: أنه قدر الله عز وجل، قاله الزهري. والسادس: أنه الايمان بالرسول في حق من لم يره. قال عمرو بن مرة: قال أصحاب عبد الله «١» له: طوبى لك، جاهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وجالسته. فقال: إن شأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان مبينا لمن رآه، ولكن أعجب من ذلك: قوم يجدون كتابا مكتوبا يؤمنون به ولم يروه، ثم قرأ: الذين يؤمنون بالغيب.

قوله تعالى: ويقيمون الصلاة. الصلاة في اللغة: الدعاء. وفي الشريعة: أفعال وأقوال على صفات مخصوصة. وفي تسميتها بالصلاة ثلاثة أقوال: أحدها: أنها سميت بذلك لرفع الصلا، وهو مغرز الذنب من الفرس.

---

(١) تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ابن عطية ٥/٥

والثاني: أنها من صليت العود، إذا لينته، فالمصلي يلين ويخشع. والثالث:
أنها مبنية على السؤال والدعاء، والصلاة في اللغة: الدعاء، وهي في هذا المكان اسم جنس. قال مقاتل: أراد بها هاهنا: الصلوات الخمس.

وفي معنى إقامتها ثلاثة أقوال: أحدها: أنه تمام فعلها على الوجه المأمور به، روي عن ابن عباس، ومجاهد. والثاني: أنه المحافظة على مواقيتها ووضوئها وركوعها وسجودها، قاله قتادة، ومقاتل. والثالث: أنه إدامتها، والعرب تقول في الشيء الراتب: قائم، وفلان يقيم أرزاق الجند، قاله ابن كيسان.

قوله تعالى: ومما رزقناهم أي: أعطيناهم ينفقون أي: يخرجون. وأصل الإنفاق الإخراج. يقال: نفقت الدابة: إذا خرجت روحها. وفي المراد بهذه النفقة أربعة أقوال: أحدها: أنها النفقة على الأهل والعيال، قاله ابن مسعود، وحذيفة. والثاني: أنها الزكاة المفروضة، قاله ابن عباس، وقتادة. والثالث: أنها الصدقات النوافل، قاله مجاهد والضحاك. والرابع: أنها النفقة التي كانت واجبة قبل وجوب الزكاة، ذكره بعض المفسرين، وقالوا: إنه كان فرض على الرجل أن يمسك مما في يده مقدار كفايته يومه وليلته. ويفرق باقيه على الفقراء. فعلى قول هؤلاء، الآية منسوخة بآية الزكاة، وغير هذا القول أثبت. واعلم أن **الحكمة في** الجمع بين الإيمان بالغيب وهو عقد القلب، وبين الصلاة وهي فعل البدن، وبين الصدقة وهو تكليف يتعلق بالمال، أنه ليس في التكليف قسم رابع، إذ ما عدا هذه الأقسام فهو ممتزج بين اثنين منهما، كالحج والصوم ونحوهما.

[سورة البقرة (٢) : آية ٤]

والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون (٤)

---

(١) هو عبد الله بن مسعود، أحد الصحابة السابقين، توفي سنة ٣٣ رضي الله عنه.." (١)

"[سورة البقرة (٢) : آية ٣٥]

وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين (٣٥)

قوله تعالى: وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة، زوجه: حواء، قال الفراء: أهل الحجاز يقولون لامرأة

---

(١) زاد المسير في علم التفسير ابن الجوزي ٢٨/١

الرجل: زوج، ويجمعونها: الأزواج، وتميم وكثير من قيس وأهل نجد يقولون: زوجة، ويجمعونها: زوجات. قال الشاعر:

فان الذي يسعى يحرش زوجتي ... كماش إلى أسد الشرى يستبيلها «١»

وأنشدني أبو الجراح:

يا صاح بلغ ذوي الزوجات كلهم ... أن ليس وصل اذا انحلت عرى الذنب

وفي الجنة التي أسكنها آدم قولان: أحدهما: جنة عدن. والثاني: جنة الخلد.

والرغد: الرزق الواسع الكثير، يقال: أرغد فلان: إذا صار في خصب وسعة.

قوله تعالى: ولا تقربا هذه الشجرة أي: بالأكل لا بالدنو منها. وفي الشجرة ستة أقوال:

أحدها: أنها السنبلة، وهو قول ابن عباس، وعبد الله بن سلام، وكعب الأحبار، ووهب بن منبه، وقتادة، وعطية العوفي، ومحارب بن دثار، ومقاتل. والثاني: أنها الكرم، روي عن ابن مسعود وابن عباس وسعيد بن جبير وجعدة بن هبيرة. والثالث: أنها التين، روي عن الحسن، وعطاء بن أبي رباح، وابن جريج. والرابع: أنها شجرة يقال لها: شجرة العلم، قاله أبو صالح عن ابن عباس. والخامس:

أنها شجرة الكافور، نقل عن علي بن أبي طالب. والسادس: أنها النخلة، روي عن أبي مالك. وقد ذكروا وجها سابعا عن وهب بن منبه أنه قال: هي شجرة يقال لها شجرة الخلد، وهذا لا يعد وجها لأن الله تعالى سماها شجرة الخلد وإنما الكلام في جنسها.

قوله تعالى: فتكونا من الظالمين. قال ابن الأنباري: الظلم: وضع الشيء في غير موضعه، ويقال: ظلم الرجل سقاءه اذا سقاه قبل أن يخرج زبده. قال الشاعر:

وصاحب صدق لم تربني شكاته ... ظلمت وفي ظلمي له عامدا أجر

أراد بالصاحب: وطب اللبن، وظلمه إياه: أن يسقيه قبل أن يخرج زبده.

والعرب تقول: هو أظلم من حية، لأنها تأتي الحفر الذي لم تحفره فتسكنه، ويقال: قد ظلم الماء الوادي: إذا وصل منه إلى مكان لم يكن يصل إليه فيما مضى.

فان قيل: ما وجه الحكمة في تخصيص تلك الشجرة بالنهي؟ فالجواب: أنه ابتلاء من الله تعالى بما أراد. وقال أبو العالية «٢» : كان لها ثفل «٣» من بين أشجار الجنة، فلما أكل منها، قيل: أخرج إلى

---

(١) في «اللسان» يستبيلها: يأخذ بولها في يده. والبيت للفرزدق.
(٢) أبو العالية: هو رفيع بن مهران الرياحي بكسر الراء والتحتانية، قال ابن حجر في «التقريب» : ثقة كثير الإرسال، من الطبقة الثانية، توفي سنة ٩٠ هـ وقيل ٩٣ وقيل بعد ذلك. روى له الجماعة.
(٣) في «اللسان» : ثفل كل شيء: ما استقر تحته من كدرة.." (١)
"وقال ابن زيد: لا تعجل علينا. قوله: واسمعوا أي: ما تؤمرون به.

[سورة البقرة (٢) : آية ١٠٥]
ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم (١٠٥)
قوله تعالى: ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب. قال ابن عباس: هم يهود المدينة، ونصارى نجران، فالمشركون مشركو أهل مكة. أن ينزل عليكم، أي: على رسولكم. من خير من ربكم، أراد: النبوة والإسلام. وقال أبو سليمان الدمشقي: أراد بالخير: العلم والفقه والحكمة. والله يختص برحمته من يشاء. في هذه الرحمة قولان: أحدهما: أنها النبوة، قاله علي بن أبي طالب، ومحمد بن علي بن الحسين، ومجاهد والزجاج. والثاني: أنها الإسلام، قاله ابن عباس ومقاتل.

[سورة البقرة (٢) : الآيات ١٠٦ الى ١٠٧]
ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير (١٠٦) ألم تعلم أن الله له ملك السماوات والأرض وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير (١٠٧)
قوله تعالى: ما ننسخ من آية. سبب نزولها: أن اليهود قالت لما نسخت القبلة: إن محمدا يحل لأصحابه إذا شاء، ويحرم عليهم إذا شاء فنزلت هذه الآية. قال الزجاج: النسخ في اللغة: إبطال شيء وإقامة آخر مقامه، تقول العرب: نسخت الشمس الظل: إذا أذهبته وحلت محله. وفي المراد بهذا النسخ ثلاثة أقوال: أحدها: رفع اللفظ والحكم. والثاني: تبديل الآية بغيرها. رويا عن ابن عباس، والأول قول السدي، والثاني قول مقاتل. والثالث: رفع الحكم مع بقاء اللفظ، رواه مجاهد عن أصحاب ابن مسعود، وبه قال أبو العالية.

---
(١) زاد المسير في علم التفسير ابن الجوزي ٥٥/١

وقرأ ابن عامر: «ما ننسخ» بضم النون، وكسر السين. قال أبو علي: أي: ما نجده منسوخا كقولك: أحمدت فلانا، أي: وجدته محمودا، وإنما يجده منسوخا بنسخه إياه.

قوله تعالى: أو ننسها، قرأ ابن كثير وأبو عمرو: «ننسأها» بفتح النون مع الهمزة، والمعنى: نؤخرها. قال أبو زيد: نسأت الإبل عن الحوض، فأنا أنسأها: إذا أخرتها، ومنه: النسيئة في البيع.

وفي معنى نؤخرها ثلاثة أقوال: أحدها: نؤخرها عن النسخ فلا ننسخها، قاله الفراء. والثاني: نؤخر إنزالها، فلا ننزلها البتة. والثالث: نؤخرها عن العمل بها بنسخنا إياها، حكاهما أبو علي الفارسي. وقرأ سعد بن أبي وقاص «تنسها» بتاء مفتوحة ونون. وقرأ سعيد بن المسيب والضحاك «تنسها» بضم التاء.

وقرأ نافع: «أو ننسها» بنونين: الأولى مضمومة، والثانية ساكنة. أراد: أو ننسكها، من النسيان.

قوله تعالى: نأت بخير منها، قال ابن عباس: بألين منها، وأيسر على الناس.

قوله تعالى: أو مثلها، أي: في الثواب والمنفعة، فتكون الحكمة في تبديلها بمثلها الاختبار. ألم تعلم لفظه لفظ الاستفهام، ومعناه التوقيف والتقرير. والملك في اللغة: تمام القدرة واستحكامها، فالله عز وجل يحكم بما يشاء على عباده ويغير ما يشاء من أحكام.." (١)

"يسمع، وكذلك في النطق والنظر، وقد سبق شرح هذا المعنى.

[سورة البقرة (٢) : آية ١٧٣]

إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه إن الله غفور رحيم (١٧٣)

قوله تعالى: إنما حرم عليكم الميتة. قرأ أبو جعفر «الميتة» هاهنا، وفي (المائدة) و (النحل) ، و «بلدة ميتا» بالتشديد، حيث وقع. والميتة في عرف الشرع: اسم لكل حيوان خرجت روحه بغير ذكاة. وقيل: إن الحكمة في تحريم الميتة أن جمود الدم فيها بالموت يحدث أذى للآكل، وقد يسمى المذبوح في بعض الأحوال: ميتة حكما، لأن حكمه حكم الميتة، كذبيحة المرتد فأما الدم فالمحرم منه: المسفوح، لقوله تعالى: أو دما مسفوحا «١» . قال القاضي أبو يعلى: فأما الدم الذي يبقى في خلل اللحم بعد الذبح، وما يبقى في العروق فهو مباح.

---

(١) زاد المسير في علم التفسير ابن الجوزي ٩٨/١

فأما لحم الخنزير فالمراد: جملته، وإنما خص اللحم، لأنه معظم المقصود. قال الزجاج:
الخنزير يشتمل على الذكر والأنثى. ومعنى وما أهل به لغير الله: ما رفع فيه الصوت بتسمية غير الله، ومثله الإهلال بالحج، إنما هو رفع الصوت بالتلبية.
قوله تعالى: فمن اضطر، أي: ألجئ بضرورة. وقرأ أبو جعفر: (فمن اضطر) بكسر الطاء حيث كان. وأدغم ابن محيصن الضاد في الطاء.
قوله تعالى: غير باغ، قال الزجاج: البغي: قصد الفساد، يقول: بغى الجرح: إذا ترامى إلى الفساد. وفي قوله: غير باغ ولا عاد أربعة أقوال: أحدها: أن معناه غير باغ على الولاة، ولا عاد يقطع السبيل، هذا قول سعيد بن جبير، ومجاهد. والثاني: غير باع في أكله فوق حاجته، ولا متعد بأكلها وهو يجد غيرها. هذا قول الحسن، وعكرمة، وقتادة، والربيع. والثالث: غير باغ، أي:
مستحل، ولا عاد: غير مضطر، روي عن سعيد بن جبير، ومقاتل. والرابع: غير باغ شهوته بذلك، ولا عاد بالشبع منه، قاله السدي.
فصل: معنى الضرورة في إباحة الميته: أن يخاف على نفسه أو بعض أعضائه. سئل أحمد، رضي الله عنه، عن المضطر إذا لم يأكل الميتة، فذكر عن مسروق أنه قال: من اضطر فلم يأكل فمات دخل النار. وأما مقدار ما يأكل فنقل حنبل: يأكل بمقدار ما يقيمه عن الموت، ونقل ابن منصور:
يأكل بقدر ما يستغني. فظاهر الأولى: أنه لا يجوز له الشبع، وهو قول أبي حنيفة والشافعي، وظاهر الثانية: جواز الشبع وهو قول مالك «٢» .

---

(١) الأنعام: ١٤٥.

(٢) قال الإمام الموفق رحمه الله في «المغني» ١٣/ ٣٣٠: أجمع العلماء على تحريم الميتة حالة الاختيار، وعلى إباحة الأكل منها في الاضطرار. وكذلك سائر المحرمات. والأصل في هذا قول الله تعالى: إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه ويباح له أكل ما يسد الرمق، ويأمن معه الموت، بالإجماع. ويحرم ما زاد على الشبع، بالإجماع أيضا. وفي الشبع روايتان أظهرهما، لا يباح. وهو قول أبي حنيفة، وإحدى الروايتين عن مالك وأحد القولين للشافعي. قال الحسن:

يأكل قدر ما يقيمه، لأن الآية دلت على تحريم الميتة، واستثنى ما اضطر إليه، فإذا اندفعت الضرورة لم يحل له الأكل، كحالة الابتداء، ولأنه بعد سد الرمق غير مضطر، فلم يحل له الأكل، للآية، يحققه أنه بعد سد رمقه كهو قبل أن يضطر، وثم لم يبح له الأكل كذا هاهنا. والثانية: يباح له الشبع. اختارها أبو بكر، لما روى جابر بن سمرة أن رجلا نزل الحرة، فنفقت عنده ناقة، فقالت له امرأته: اسلخها، حتى نقدد شحمها ولحمها، ونأكله. فقال حتى أسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم. فسأله فقال: «هل عندك غنى يغنيك؟» . قال: لا. قال: «فكلوها» ولم يفرق. رواه أبو داود ولأن ما جاز سد الرمق منه، جاز الشبع منه، كالمباح. ويحتمل أن يفرق بين إذا ما كانت الضرورة مستمرة، وبين ما إذا كانت مرجوة الزوال فما كانت مستمرة، كحال الأعرابي الذي سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم جاز له الشبع، لأنه إذا اقتصر على سد الرمق، عادت الضرورة إليه عن قرب، ولا يتمكن من البعد عن الميتة، مخافة الضرورة المستقبلية، ويفضي إلى ضعف بدنه، وربما أدى ذلك إلى تلفه. بخلاف التي ليست مستمرة، فإنه يرجو الغنى عنها بما يحل له. والله أعلم. إذا ثبت هذا، فإن الضرورة المبيحة، هي التي يخاف التلف بها إن ترك الأكل. قال أحمد: إذا كان يخشى على نفسه، سواء كان من جوع، أو يخاف إن ترك الأكل عجز المشي، وانقطع عن الرفقة فيهلك، أو يعجز عن الركوب فيهلك، ولا يتقيد ذلك بزمن محصور. وهل يجب الأكل من الميتة على المضطر؟ فيه وجهان: أحدهما يجب وهو قول مسروق، وأحد الوجهين لأصحاب الشافعي. قال الأثرم: سئل أبو عبد الله عن المضطر يجد الميتة، ولم يأكل؟. فذكر قول مسروق: فمن اضطر فلم يأكل ولم يشرب، فمات، دخل النار. وهذا اختيار ابن حامد. والثاني: لا يلزمه.." (١)

"فأما التفسير فانما سألوه عن وجه الحكمة في زيادة الأهلة ونقصانها، فأخبرهم أنها مقادير لما يحتاج الناس إليه في صومهم وحجهم وغير ذلك. والأهلة: جمع هلال. وكم يبقى الهلال على هذه التسمية؟ فيه للعرب أربعة أقوال: أحدها: أنه يسمى هلالا لليلتين من الشهر. والثاني: لثلاث ليال، ثم يسمى قمرا. والثالث: إلى أن يحجر، وتحجيره: أن يستدير بخطة دقيقة، وهو قول الأصمعي.

والرابع: إلى أن يبهر ضوؤه سواد الليل. حكى هذه الأقوال ابن السري واختار الأول، قال: واشتقاق الهلال من قولهم: استهل الصبي: إذا بكى حين يولد. وأهل القوم بالحج: إذا رفعوا أصواتهم بالتلبية، فسمي هلالا لأنه حين يرى يهل الناس بذكره.

---

(١) زاد المسير في علم التفسير ابن الجوزي ١/١٣٣

قوله تعالى: ولكن البر من اتقى، مثل قوله تعالى: ولكن البر من آمن بالله، وقد سبق بيانه، واختلف القراء في البيوت وما أشبهها، قرأ ابن كثير، وابن عامر، والكسائي بكسر باء «البيوت» وعين «العيون» وغين «الغيوب» ، وروي عن نافع أنه ضم باء «البيوت» وعين «العيون» وغين «الغيوب» وجيم «الجيوب» وشين «الشيوخ» ، وروى عنه قالون أنه كسر باء «البيوت» ، وقرأ أبو عمرو، وأبو جعفر بضم الأحرف الخمسة، وكسرهن جميعا حمزة، واختلف عن عاصم. قال الزجاج: من ضم «البيوت» فعلى أصل الجمع: بيت وبيوت، مثل: قلب وقلوب، وفلس وفلوس. ومن كسر، الياء بعد الباء، وذلك عند البصريين رديء جدا، لأنه ليس في الكلام فعول بكسر الفاء. وسمعت شيخنا أبا منصور اللغوي يقول: إذا كان الجمع على فعول، وثانيه ياء، جاز فيه الضم والكسر، تقول: بيوت وبيوت، وشيوخ وشيوخ، وقيود وقيود.

[سورة البقرة (٢) : آية ١٩٠]

وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين (١٩٠)

قوله تعالى: وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم (٧٦) سبب نزولها: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما صد عن البيت، ونحر هديه بالحديبية، وصالحه المشركون على أن يرجع من العام المقبل رجع، فلما تجهز في العام المقبل خاف أصحابه أن لا تفي لهم قريش بذلك، وأن يصدوهم ويقاتلوهم، وكره أصحابه القتال في الشهر الحرام فنزلت هذه الآية، قاله ابن عباس.

قوله تعالى: ولا تعتدوا، أي: ولا تظلموا. وفي المراد بهذا الاعتداء أربعة أقوال: أحدها:

أنه قتل النساء والولدان، قاله ابن عباس، ومجاهد. والثاني: أن معناه: لا تقاتلوا من لم يقاتلكم، قاله سعيد بن جبير، وأبو العالية، وابن زيد. والثالث: أنه إتيان ما نهوا عنه، قاله الحسن. والرابع: أنه ابتداؤهم بالقتال في الحرم في الشهر الحرام، قاله مقاتل.

فصل: اختلف العلماء: هل هذه الآية منسوخة أم لا؟ على قولين:

أحدهما: أنها منسوخة. واختلف أرباب هذا القول في المنسوخ منها على قولين: أحدهما: أنه

ضعيف جدا، ذكره الواحدي في «أسباب النزول» ١٠٢ تعليقا عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس به، وهذا إسناد ساقط، وتقدم بيانه في المقدمة. وسيأتي بنحو هذا السياق عند الآية ١٩٤.." (١)

"أحدهما: أنه يوم القيامة أيضا، وهو قول الجمهور. والثاني: أنه عند الموت، قاله قتادة. وقرأ الحسن بخفض «الملائكة» . وو قضي الأمر: فرغ منه. وو إلى الله ترجع الأمور، أي: تصير. قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وعاصم، «ترجع» بضم التاء. وقرأ ابن عامر، وحمزة، والكسائي بفتحها. فان قيل:
فكأن الأمور كانت إلى غيره؟ فعنه أربعة أجوبة: أحدها: أن المراد به إعلام الخلق أنه المجازي على الأعمال بالثواب والعقاب، قاله الزجاج. والثاني: أنه لما عبد قوم غيره، ونسبوا أفعاله إلى سواه، ثم انكشف الغطاء يوم القيامة ردوا إليه ما أضافوا إلى غيره. والثالث: أن العرب تقول: قد رجع علي من فلان مكروه: إذا صار إليه منه مكروه، وإن لم يكن سبق. قال الشاعر:

فان تكن الأيام أحسن مرة ... إلي فقد عادت لهن ذنوب

ذكرهما ابن الأنباري. ومما يشبه هذا قول لبيد:

وما المرء إلا كالشهاب وضوئه ... يحور رمادا بعد إذ هو ساطع

أراد: يصير رمادا لا أنه كان رمادا، ومثله قول أمية بن أبي الصلت:

تلك المكارم لا قعبان من لبن ... شيبا بماء فعادا بعد أبوالا «١»

أي: صارا. والرابع: أنه لما كانت الأمور إليه قبل الخلق، ثم أوجدهم فملكهم بعضها رجعت إليه بعد هلاكهم. فإن قيل: قد جرى ذكر اسمه تعالى في قوله: أن يأتيهم الله، فما **الحكمة في** أنه لم يقل: وإليه ترجع الأمور؟ فالجواب: أن إعادة اسمه أفخم وأعظم، والعرب إذا جرى ذكر شيء يفخم أعادوا لفظه، وأنشدوا:

لا أرى الموت يسبق الموت شيء ... نغص الموت ذا الغنى والفقيرا

فأعادوا ذكر الموت لفخامته في صدورهم، ذكره الزجاج.

[سورة البقرة (٢) : آية ٢١١]

سل بني إسرائيل كم آتيناهم من آية بينة ومن يبدل نعمة الله من بعد ما جاءته فإن الله شديد العقاب

---

(١) زاد المسير في علم التفسير ابن الجوزي ١٥٣/١

(١١2)

قو\هـ تعالى: سل بني إسرائيل الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم، والمعنى: له وللمؤمنين. قال الفراء: أهل الحجاز يقولون: «سل» بغير همز، وبعض تميم يقولون: «اسأل» بالهمز، وبعضهم يقول: «إسل» «٢» بالألف وطرح الهمز، والأولى أغربهن، وبها جاء الكتاب. وفي المراد بالسؤال قولان: أحدهما: أنه

---

(١) في اللسان: القعب: القدح الضخم.

(٢) قال القرطبي رحمه الله ٣/ ٢٩ و ٣٠: قوله تعالى: سل بني إسرائيل كم آتيناهم من آية بينة «سل» من السؤال بتخفيف الهمز، فلما تحركت السين لم يحتج إلى ألف الوصل. وقيل: إن للعرب في سقوط ألف الوصل في «سل» وثبوتها في «واسأل» وجهين: أحدهما- حذفها في إحداهما وثبوتها في الأخرى، وجاء القرآن بهما. فاتبع خط المصحف في إثباته للهمزة وإسقاطها. والوجه الثاني- أنه يختلف إثباتها وإسقاطها باختلاف الكلام المستعمل فيه فتحذف الهمزة في الكلام المبتدأ، مثل قوله: سل بني إسرائيل وقوله:

سلهم أيهم بذلك زعيم [ن: ٤٠] وتثبت في العطف، مثل قوله: وسئل القرية [يوسف: ٨٢] وسئلوا الله من فضله [النساء: ٣٢] قاله علي بن عيسى. وقرأ أبو عمرو في رواية ابن عباس عنه «اسأل» على الأصل. وقرأ قوم «اسل» على نقل الحركة إلى السين وإبقاء ألف الوصل، على لغة من قال: الأحمر.." (١)

"لكثرة تغليبهم الليالي على الأيام، فاذا أظهروا مع العدد تفسيره، كانت الإناث بغير هاء، والذكور بالهاء «١» كقوله تعالى: سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما «٢»

. فان قيل: ما وجه الحكمة في زيادة هذه العشرة؟ فالجواب: أنه يبين صحة الحمل بنفخ الروح فيه، قاله سعيد بن المسيب، وأبو العالية.

(١٢١) ويشهد له الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم: «إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوما نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل إليه الملك، فينفخ فيه الروح» .

فصل: وهذه الآية ناسخة للتي تشابهها، وهي تأتي بعد آيات، وهي قوله: والذين يتوفون منكم ويذرون

---

(١) زاد المسير في علم التفسير ابن الجوزي ١٧٥/١

أزواجا وصية لأزواجهم متاعا إلى الحول لأن تلك كانت تقتضي وجوب العدة سنة،

صحيح. أخرجه البخاري ٣٢٠٨ و ٣٣٣٢ و ٦٥٩٤ و 45٧٤ ومسلم ٢٦٤٣ وأبو داود ٤٧٠٨ والترمذي ٢١٣٧ والنسائي ٦/ ٢٩ وابن ماجة ٧٦ وابن حبان ٦١٧٤ والبيهقي ٣٨٧ و ١٣٧- ١٣٨ من حديث ابن مسعود: «إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوما وأربعين ليلة، ثم يكون علقة مثله ثم يكون مضغة مثله ثم يبعث إليه الملك فيؤذن بأربع كلمات فيكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أم سعيد ثم ينفخ فيه الروح، فإن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى لا يكون بينها وبينه إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخل النار وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينها وبينه إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل عمل أهل الجنة فيدخلها» لفظ البخاري.

---

(١) قال أبو حيان في «البحر المحيط» ٢/ ٢٣٤: ولا يحتاج إلى تأويل عشر بأنها ليال لأجل حذف التاء ولا إلى تأويلها بمدد كما ذهب إليه «المبرد» بل الذي نقل أصحابنا إنه إذا كان المعدود مذكرا وحذفته فلك فيه وجہان أحدهما وهو الأصل أن يبقى العدد على ما كان عليه لو لم يحذف المعدود فتقول صمت خمسة تريد خمسة أيام قالوا وهو الفصيح قالوا ويجوز أن تحذف منه كله تاء التأنيث، وحكى «الكسائي» عن أبي الجراح صمنا من الشهر خمسا ومعلوم أن الذي يصام من الشهر إنما هي الأيام واليوم مذكر. وقوله ولا تراهم قط يستعملون التذكير فيه كما ذكر بل استعمال التذكير هو الكثير الفصيح فيه كما ذكرنا وقوله ومن البين فيه إن لبثتم إلا عشرا قد بينا مجيء هذا على الجائز فيه وأن محسن ذلك إنما هو كونه فاصلة وقوله: إن لبثتم إلا يوما [طه:
١٠٤] .
فائدة: ذكر «الزمخشري» هذا أنه على زعمه أراد الليالي والأيام داخلة معها فأتى بقوله إلا يوما للدلالة على ذلك وهذا عندنا يدل على أن قوله عشرا إنما يريد بها الأيام لأنهم اختلفوا في مدة اللبث فقال قوم عشر، وقال أمثلهم طريقة يوم، فقوله: إلا يوما مقابل لقولهم إلا عشرا ويبين أنه أريد بالعشر الأيام إذ ليس من التقابل أن يقول بعضهم عشر ليال، ويقول بعض يوما، وظاهر قوله أربعة أشهر ما يقع عليه اسم الشهر فلو وجبت العدة مع رؤية الهلال لاعتدت بالأهلة، كان الشهر تاما أو ناقصا وإن وجبت في بعض شهر فقيل

تستوفي مائة وثلاثين يوما وقيل تعتد بما يمر عليها من الأهلة شهورا ثم تكمل الأيام الأول، وكلا القولين عن أبي حنيفة ولما كان الغالب على من مات عنها زوجها أن تعلم ذلك فتعتد إثر الوفاة جاء الفعل مسندا إليهن وأكد بقوله بأنفسهن فلو مضت عليها مدة العدة من حين الوفاة وقامت على ذلك البينة ولم تكن علمت بوفاته إلى أن انقضت العدة فالذي عليه الجمهور أن عدتها من يوم الوفاة.

(٢) الحاقة: ٧.." (١)

"أحدها: سبعون ألفا، قاله ابن عباس. والثاني: ثمانون ألفا، قاله عكرمة والسدي. والثالث: مائة ألف، قاله مقاتل. قال: وساروا في حر شديد، فابتلاهم الله بالنهر. والابتلاء: الاختبار. وفي النهر لغتان: إحداهما: تحريك الهاء، وهي قراءة الجمهور. والثانية: تسكينها، وبها قرأ الحسن ومجاهد. وفي هذا النهر قولان: أحدهما: أنه نهر فلسطين، قاله ابن عباس والسدي. والثاني: نهر بين الأردن وفلسطين، قاله عكرمة، وقتادة، والربيع بن أنس.

ووجه الحكمة في ابتلائهم أن يعلم طالوت من له نية في القتال منهم، ومن ليس له نية.

وقوله تعالى: فليس مني أي ليس من أصحابي. قوله تعالى: إلا من اغترف غرفة، قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو: «غرفة» بفتح الغين، وقرأ ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي بضمها، قال الزجاج: من فتح الغين أراد المرة الواحدة باليد، ومن ضمها أراد ملء اليد. وزعم مقاتل أن الغرفة كان يشرب منها الرجل ودابته وخدمه ويملأ قربته. وقال بعض المفسرين: لم يرد به غرفة الكف، وإنما أراد المرة الواحدة بقربة أو جرة أو ما أشبه ذلك. وفي عدد القليل الذين لم يشربوا إلا غرفة قولان:

أحدهما: أنهم أربعة آلاف، قاله عكرمة والسدي. والثاني: ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا، وهو الصحيح، لما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لأصحابه يوم بدر:

(١٣٤) «أنتم بعدة أصحاب طالوت يوم لقاء جالوت» ، وكانوا يوم بدر ثلاثمائة وثلاثة عشر.

قوله تعالى: لا طاقة لنا، أي: لا قوة لنا، قال الزجاج: أطقت الشيء، إطاقة وطاقة، وطوقا، مثل قولك: أطعته إطاعة وطاعة وطوعا. واختلفوا في القائلين لهذا على ثلاثة أقوال: أحدها:

أنهم الذين شربوا أكثر من غرفة، فإنهم انصرفوا ولم يشهدوا، وكانوا أهل شك ونفاق، قاله ابن عباس، والسدي. والثاني: أنهم الذين قلت بصائرهم من المؤمنين، قاله الحسن، وقتادة، وابن زيد. والثالث:

---

(١) زاد المسير في علم التفسير ابن الجوزي ٢٠٩/١

أنه قول الذين جاوزوا معه، وإنما قال ذلك بعضهم لبعض، لما رأوا من قلتهم، وهذا اختيار الزجاج.
قوله تعالى: قال الذين يظنون في هذا الظن قولان: أحدهما: أنه بمعنى اليقين، قاله السدي في آخرين. والثاني: أنه الظن الذي هو التردد، فان القوم توهموا لقلة عددهم أنهم سيقتلون فيلقون الله، قاله الزجاج في آخرين. وفي الظانين هذا الظن قولان: أحدهما: أنهم الثلاثمائة والثلاثة عشر، قالوا للراجعين: كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة، قاله السدي. والثاني: أنهم أولو العزم والفضل من الثلاثمائة والثلاثة عشر. والفئة: الفرقة، قال الزجاج: وإنما قيل لهم: فئة من قولهم: فأوت رأسه بالعصا، وفأيته: إذا شققته. قوله تعالى: بإذن الله، قال الحسن: بنصر الله. قوله تعالى: والله مع الصابرين: أي بالنصر والإعانة.

[سورة البقرة (٢) : آية ٢٥٠]

ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرغ علينا صبرا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين (٢٥٠)
(١٣٤) أخرجه الطبري ٥٧٣٢ عن قتادة مرسلا. وورد عن البراء بن عازب قال «كنا أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم نتحدث أن عدة أصحاب بدر على عدة أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر ولم يجاوز معه إلا مؤمن بضعة عشر وثلاثمائة» . أخرجه البخاري ٣٩٥٨ وهذا هو الصواب، كونه موقوفا.." (١)

"أغمض عينيه، لئلا يرى جميع ما يكره جعل التجاوز والمساهلة في كل شيء إغماضا. قوله تعالى: واعلموا أن الله غني، قال الزجاج: لم يأمركم بالتصدق عن عوز، لكنه بلا أخباركم، فهو حميد على ذلك. يقال: قد غني زيد، يغنى غنى، مقصور: إذا استغنى، وقد غني القوم: إذا نزلوا في مكان يغنيهم، والمكان الذي ينزلون فيه مغنى. والغواني: النساء، قيل: إنما سمين بذلك، لأنهن غنين بجمالهن، وقيل: بأزواجهن. فأما «الحميد» فقال الخطابي: هو بمعنى المحمود، فعيل بمعنى مفعول.

[سورة البقرة (٢) : آية ٢٦٨]

الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا والله واسع عليم (٢٦٨)
قوله تعالى: الشيطان يعدكم الفقر، قال الزجاج: يقال: وعدته أعده وعدا وعدة وموعدا وموعدة وموعودا، ويقال: الفقر، والفقر. ومعنى الكلام: يحملكم على أن تؤدوا من الرديء، يخوفكم الفقر بإعطاء الجيد.

---

(١) زاد المسير في علم التفسير ابن الجوزي ٢٢٦/١

ومعنى: يعدكم الفقر، أي: بالفقر، وحذفت الباء. قال الشاعر «١» :

أمرتك الخير فافعل ما أمرت به ... فقد تركتك ذا مال وذا نشب

وفي الفحشاء قولان: أحدهما: البخل. والثاني: المعاصي. قال ابن عباس: والله يعدكم مغفرة لفحشائكم، وفضلا في الرزق.

[سورة البقرة (٢) : آية ٢٦٩]

يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر إلا أولوا الألباب (٢٦٩)

قوله تعالى: يؤتي الحكمة من يشاء، في المراد بهذه الحكمة أحد عشر قولا «٢» : أحدها: أنها القرآن، قاله ابن مسعود، ومجاهد، والضحاك، ومقاتل في آخرين. والثاني: معرفة ناسخ القرآن، ومنسوخه، ومحكمه، ومتشابهه، ومقدمه، ومؤخره، ونحو ذلك، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس. والثالث: النبوة، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والرابع: الفهم في القرآن، قاله أبو العالية، وقتادة، وإبراهيم. والخامس: العلم والفقه، رواه ليث عن مجاهد. والسادس: الإصابة في القول، رواه ابن أبي نجيح عن مجاهد. والسابع: الورع في دين الله، قاله الحسن. والثامن: الخشية لله، قاله الربيع بن أنس. والتاسع: العقل في الدين، قاله ابن زيد. والعاشر: الفهم، قاله شريك. والحادي عشر: العلم والعمل، لا يسمى الرجل حكيما إلا إذا جمعهما، قاله ابن قتيبة.

قوله تعالى: ومن يؤت الحكمة، قرأ يعقوب بكسر تاء «يؤت» ، ووقف عليها بهاء والمعنى:

ومن يؤته الله الحكمة. وكذلك هي في قراءة ابن مسعود بهاء بعد التاء. قوله تعالى: وما يذكر، قال الزجاج: أي: وما يفكر فكرا يذكر به ما قص من آيات القرآن إلا ذوو العقول. قال ابن قتيبة:

«أولو» بمعنى: ذوو، وواحد «أولو» «ذو» ، و «أولات» «ذات» .

---

(١) هو عمرو بن معدي كرب.

(٢) قال ابن كثير رحمه الله ١/ ٣٢٢: والصحيح أن الحكمة كما قاله الجمهور لا تختص بالنبوة بل هي

أعم منها وأعلاها النبوة، والرسالة أخص، ولكن لأتباع الأنبياء حظ من الخير على سبيل التبع كما جاء في بعض الأحاديث «من حفظ القرآن فقد أدرجت النبوة بين كتفيه غير أنه لا يوحى إليه» .." (١)

"وقرأ نافع، وحمزة، والكسائي: «ونكفر» بالنون وجزم الراء. قال أبو علي: وهذا على حمل الكلام على موضع قوله: فهو خير لكم لأن قوله: فهو خير لكم في موضع جزم، ألا ترى أنه لو قال: وإن تخفوها يكون أعظم لأجركم لجزم، ومثله: لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن «١» ، حمل قوله و «أكن» على موضع «فأصدق» . وقرأ ابن عامر: «ويكفر» بالياء والرفع، وكذلك حفص عن عاصم على الكناية عن الله عز وجل، وقرأ أبان عن عاصم، «وتكفر» بالتاء المرفوعة، وفتح الفاء مع إسكان الراء. قوله تعالى: من سيئاتكم، في «من» قولان: أحدهما: أنها زائدة. والثاني: أنها داخلة للتبعيض. قال أبو سليمان الدمشقي: ووجه **الحكمة في** ذلك أن يكون العباد على خوف ووجل.

[سورة البقرة (٢) : آية ٢٧٢]

ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء وما تنفقوا من خير فلأنفسكم وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله وما تنفقوا من خير يوف إليكم وأنتم لا تظلمون (٢٧٢)

قوله تعالى: ليس عليك هداهم في سبب نزولها قولان:

(١٤٢) أحدهما: أن المسلمين كرهوا أن يتصدقوا على أقربائهم من المشركين، فنزلت هذه الآية، هذا قول الجمهور.

والثاني: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لا تتصدقوا إلا على أهل دينكم» ، فنزلت هذه الآية، قاله سعيد بن جبير.

والخير في الآية، أريد به المال، قاله ابن عباس، ومقاتل. ومعنى: فلأنفسكم، أي: فلكم ثوابه. قوله تعالى: وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله، قال الزجاج: هذا خاص للمؤمنين، أعلمهم الله أنه قد علم أن مرادهم ما عنده، وإذا أعلمهم بصحة قصدهم، فقد أعلمهم بالجزاء عليه.

قوله تعالى: يوف إليكم، أي: توفون أجره. ومعنى الآية: ليس عليك أن يهتدوا، فتمنعهم الصدقة ليدخلوا

---

(١) زاد المسير في علم التفسير ابن الجوزي ٢٤٢/١

في الإسلام، فان تصدقتم عليهم أثبتم. والآية محمولة على صدقة التطوع، إذ لا يجوز أن يعطى الكافر من الصدقة المفروضة شيئا.

[سورة البقرة (٢) : آية ٢٧٣]

للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضربا في الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسئلون الناس إلحافا وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم (٢٧٣)

(١٤٢) أخرجه الواحدي في «الأسباب» ١٧٤ عن ابن الحنفية به، وفي الإسناد سلمان المكي، لم أجد له ترجمة.

- ولمعناه شواهد منها عن ابن عباس: أخرجه الطبري ٦٢٠٠ وكرره ٦٢٠٣ من وجه آخر، وإسناده حسن. وفي الباب مراسيل كثيرة، فالخبر قوي بشواهده.

ضعيف. أخرجه الواحدي في «الأسباب» ١٧٣ وابن أبي شيبة كما في «الدر» ١/ ٦٣١ عن سعيد بن جبير مرسلا، فهو ضعيف لإرساله.

---

(١) المنافقون: ١٠.." (١)

"أنهم النصارى، فهم فوق اليهود، واليهود مستذلون مقهورون، قاله ابن زيد.

قوله تعالى: فيما كنتم فيه تختلفون يعني الدين.

[سورة آل عمران (٣) : آية ٥٦]

فأما الذين كفروا فأعذبهم عذابا شديدا في الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين (٥٦)

قوله تعالى: فأما الذين كفروا قيل: هم اليهود والنصارى. وعذابهم في الدنيا بالسيف والجزية، وفي الآخرة بالنار.

[سورة آل عمران (٣) : آية ٥٧]

---

(١) زاد المسير في علم التفسير ابن الجوزي ٢٤٤/١

وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم والله لا يحب الظالمين (٥٧)

قوله تعالى: فيوفيهم أجورهم قرأ الأكثرون بالنون، وقرأ الحسن، وقتادة، وحفص عن عاصم: «فيوفيهم» بالياء معطوفا على قوله تعالى إذ قال الله يا عيسى.

[سورة آل عمران (٣) : آية ٥٨]

ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم (٥٨)

قوله تعالى: ذلك نتلوه عليك يعني ما جرى من القصص. من الآيات يعني الدلالات على صحة رسالتك، إذ كانت أخبارا لا يعلمها أمي. والذكر الحكيم قال ابن عباس: هو القرآن. قال الزجاج: معناه: ذو الحكمة في تأليفه ونظمه، وإبانة الفوائد منه.

[سورة آل عمران (٣) : آية ٥٩]

إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون (٥٩)

قوله تعالى: إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم قال أهل التفسير: سبب نزول هذه الآية، مخاصمة وفد نجران من النصارى للنبي صلى الله عليه وسلم، في أمر عيسى، وقد ذكرناه في أول السورة «١» . فأما تشبيه عيسى بآدم، فلأنهما جميعا من غير أب.

وقوله تعالى: خلقه من تراب يعني: آدم. قال ثعلب: وهذا تفسير لأمر آدم. وليس بحال.

قوله تعالى: ثم قال له يعني آدم، وقيل لعيسى كن فيكون أي: فكان: فأريد بالمستقبل الماضي، كقوله تعالى: واتبعوا ما تتلوا الشياطين «٢» أي: ما تلت.

[سورة آل عمران (٣) : آية ٦٠]

الحق من ربك فلا تكن من الممترين (٦٠)

قوله تعالى: الحق من ربك قال الزجاج: الحق مرفوع على خبر ابتداء محذوف، المعنى: الذي أنبأتك به في قصة عيسى الحق من ربك فلا تكن من الممترين أي: الشاكين. والخطاب للنبي خطاب للخلق، لأنه لم يشك.

[سورة آل عمران (٣) : آية ٦١]
فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنت الله على الكاذبين (٦١)
قوله تعالى: فمن حاجك فيه في هاء «فيه» قولان: أحدهما: أنها ترجع إلى عيسى. والثاني:

---

(١) تقدم برقم ١٥٣.
(٢) البقرة: ١٠٢.." (١)

"قوله تعالى: والله يكتب ما يبيتون فيه ثلاثة أقوال: أحدها: يكتبه في الأعمال التي تثبتها الملائكة، قاله مقاتل في آخرين. والثاني: ينزله إليك في كتابه. والثالث: يحفظه عليهم ليجازوا به، ذكر القولين الزجاج. قال ابن عباس: فأعرض عنهم: فلا تعاقبهم، وثق بالله عز وجل، وكفى بالله ثقة لك. قال: ثم نسخ هذا الإعراض، وأمر بقتالهم.
فإن قيل: ما الحكمة في أنه ابتدأ بذكرهم جملة، ثم قال: بيت طائفة، والكل منافقون؟
فالجواب من وجهين، ذكرهما أهل التفسير: أحدهما: أنه أخبر عمن سهر ليله، ودبر أمره منهم دون غيره منهم. والثاني: أنه ذكر من علم أنه يبقى على نفاقه دون من علم أنه يرجع.

[سورة النساء (٤) : آية ٨٢]
أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا (٨٢)
قوله تعالى: أفلا يتدبرون القرآن قال الزجاج: «التدبر» : النظر في عاقبة الشيء. و «الدبر» النحل، سمي دبرا، لأنه يعقب ما ينتفع به، و «الدبر» : المال الكثير، سمي دبرا لكثرته، لأنه يبقى للأعقاب، والأدبار. وقال ابن عباس: أفلا يتدبرون القرآن، فيتفكرون فيه، فيرون تصديق بعضه لبعض، وأن أحدا من الخلائق لا يقدر عليه. قال ابن قتيبة: والقرآن من قولك: ما قرأت الناقة سلى «١» قط، أي: ما ضمت في رحمها ولدا، وأنشد أبو عبيدة:
هجان اللون لم تقرأ جنينا «٢» وإنما سمي قرآنا، لأنه جمع السور، وضمها.

---

(١) زاد المسير في علم التفسير ابن الجوزي ٢٨٨/١

قوله تعالى: لوجدوا فيه اختلافا كثيرا فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه التناقض، قاله ابن عباس، وابن زيد، والجمهور. والثاني: الكذب، قاله مقاتل، والزجاج. والثالث: أنه اختلاف تفاوت من جهة بليغ من الكلام، ومرذول، إذ لا بد للكلام إذا طال من مرذول، وليس في القرآن إلا بليغ، ذكره الماوردي في جماعة.

[سورة النساء (٤) : آية ٨٣]

وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلا (٨٣)

قوله تعالى: وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف في سبب نزولها قولان:

(٣١٩) أحدهما: أن النبي صلى الله عليه وسلم لما اعتزل نساءه، دخل عمر المسجد، فسمع الناس يقولون: طلق

صحيح. أخرجه مسلم ١٤٧٩ عن ابن عباس عن عمر في أثناء خبر مطول، وكرره لكن دون ذكر الآية.
- وسيأتي باستيفاء في سورة الأحزاب.

---

(١) في «اللسان» السلى: لفاقة الولد من الدواب والإبل.
(٢) هو عجز بيت لعمرو بن كلثوم كما في اللسان: (قرأ) ، وصدره: ذراعي عيطل أدماء بكر.
والعيطل: الناقة الطويلة العنق، في حسن منظر وسمن. الأدماء: البيضاء مع سواد المقلتين. وهجان اللون: بيضاء كريمة.." (١)

"يقال: الإسلام درجة، والهجرة في الإسلام درجة، والجهاد في الهجرة درجة، والقتل في الجهاد درجة. وقال ابن زيد: الدرجات: هي السبع التي ذكرها الله تعالى في براءة حين قال: ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ... إلى قوله: ولا يقطعون واديا إلا كتب لهم ... «١» . فان قيل: ما **الحكمة في** أن الله تعالى ذكر في أول الكلام درجة، وفي آخره درجات؟ فعنه جوابان: أحدهما: أن الدرجة الأولى تفضيل المجاهدين على القاعدين من أولي الضرر منزلة، والدرجات: تفضيل المجاهدين على القاعدين من غير أولي الضرر

---

(١) زاد المسير في علم التفسير ابن الجوزي ١/٤٣٨

منازل كثيرة، وهذا معنى قول ابن عباس. والثاني: أن الدرجة الأولى درجة المدح والتعظيم، والدرجات: منازل الجنة، ذكره القاضي أبو يعلى.

[سورة النساء (٤) : آية ٩٧]

إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا (٩٧)

قوله تعالى: إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم في سبب نزولها ثلاثة أقوال:

(٣٤١) أحدها: أن أناسا كانوا بمكة قد أقروا بالإسلام، فلما خرج النبي صلى الله عليه وسلم إلى بدر لم تدع قريش أحدا إلا أخرجوه معهم، فقتل أولئك الذين أقروا بالإسلام، فنزلت فيهم هذه الآية، رواه عكرمة عن ابن عباس.

(٣٤٢) وقال قتادة: نزلت في أناس تكلموا بالإسلام، فخرجوا مع أبي جهل، فقتلوا يوم بدر، واعتذروا بغير عذر، فأبى الله أن يقبل منهم.

(٣٤٣) والثاني: أن قوما نافقوا يوم بدر، وارتابوا، وقالوا: غر هؤلاء دينهم وأقاموا مع المشركين حتى قتلوا، فنزلت فيهم هذه الآية. رواه أبو صالح عن ابن عباس.

(٣٤٤) والثالث: أنها نزلت في قوم تخلفوا عن النبي صلى الله عليه وسلم، ولم يخرجوا معه، فمن مات منهم قبل أن يلحق بالنبي، ضربت الملائكة وجهه ودبره، رواه العوفي عن ابن عباس.

وفي «التوفي» قولان: أحدهما: أنه قبض الأرواح بالموت، قاله ابن عباس، ومقاتل. والثاني: الحشر إلى النار، قاله الحسن. قال مقاتل: والمراد بالملائكة ملك الموت وحده. وقال في موضع

صحيح. أخرجه الطبري ١٠٢٦٥ من طريق عمرو بن دينار عن عكرمة عن ابن عباس بأتم منه. وورد من وجه آخر عن أبي الأسود عن عكرمة عن ابن عباس أن ناسا من المسلمين كانوا يكثرون سواد المشركين على رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتي السهم فيرمى به فيصيب أحدهم فيقتله أو يضرب فيقتل فأنزل الله إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم الآية. لفظ البخاري. أخرجه البخاري ٤٥٩٦ والنسائي في «الكبرى» ١١١٩ والطبري ١٠٢٦٦ و ١٠٢٦٧ والواحدي ٣٥٦ وانظر تفسير القرطبي بتخريجنا.

مرسل. أخرجه الطبري ١٠٢٧٢ عن قتادة مرسلا، وهو شاهد لما قبله.

عزاه المصنف لأبي صالح عن ابن عباس، وأبو صالح غير ثقة في روايته عن ابن عباس.

ضعيف. أخرجه الطبري ١٠٢٦٨ برواية العوفي عن ابن عباس، والعوفي وهو محمد بن سعد واه، والصواب ما تقدم عن ابن عباس برواية البخاري.

---

(١) سورة التوبة: ١٢٠- ١٢١.." (١)

"والثاني: أنه قاله له حين رفعه إليه، قاله السدي، والأول أصح.

وفي «إذ» ثلاثة أقوال: أحدها: أنها زائدة، والمعنى: وقال الله، قاله أبو عبيدة. والثاني: أنها على أصلها، والمعنى: وإذ يقول الله له، قاله ابن قتيبة. والثالث: أنها بمعنى: «إذا» ، كقوله تعالى:

ولو ترى إذ فزعوا «١» والمعنى: إذا. قال أبو النجم:

ثم جزاك الله عني إِذ جزى ... جنات عدن في السماوات العلا

ولفظ الآية لفظ الاستفهام، ومعناها التوبيخ لمن ادعى ذلك على عيسى.

قال أبو عبيدة: وإنما قال: «إلهين» ، لأنهم إذ أشركوا فعل ذكر مع فعل أنثى ذكروهما. فإن قيل: فالنصارى لم يتخذوا مريم إلها، فكيف قال الله تعالى ذلك فيهم؟ فالجواب: أنهم لما قالوا: لم تلد بشرا، وإنما ولدت إلها، لزمهم أن يقولوا: إنها من حيث البعضية بمثابة من ولدته، فصاروا بمثابة من قاله.

قوله تعالى: قال سبحانك أي: براءة لك من السوء ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق أي: لست أستحق العبادة فأدعو الناس إليها. وروى عطاء بن السائب عن ميسرة قال: لما قال الله تعالى لعيسى: أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله رعد كل مفصل منه حتى وقع مخافة أن يكون قد قاله، وما قال: إني لم أقل، ولكنه قال: إن كنت قلته فقد علمته. فإن قيل: ما **الحكمة في** سؤال الله تعالى له عن ذلك وهو يعلم أنه ما قاله؟ فالجواب: أنه تثبيت للحجة على قومه، وإكذاب لهم في ادعائهم عليه أنه أمرهم بذلك، ولإنه إقرار من عيسى بالعجز في قوله: ولا أعلم ما في نفسك وبالعبودية في قوله: أن اعبدوا الله ربي وربكم.

قوله تعالى: تعلم ما في نفسي قال الزجاج: تعلم ما أضمره، ولا أعلم ما عندك علمه، والتأويل: تعلم ما أعلم وأنا لا أعلم ما تعلم.

---

(١) زاد المسير في علم التفسير ابن الجوزي ٥٦/١ ٤

[سورة المائدة (٥) : آية ١١٧]

ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد (١١٧)

قوله تعالى: أن اعبدوا الله قال مقاتل: وحدوه.

قوله تعالى: وكنت عليهم شهيدا أي: على ما يفعلون ما كنت مقيما فيهم، وقوله: فلما توفيتني فيه قولان: أحدهما: بالرفع إلى السماء. والثاني: بالموت عند انتهاء الأجل. و «الرقيب» مشروح في سورة (النساء) ، و «الشهيد» في (آل عمران) .

[سورة المائدة (٥) : آية ١١٨]

إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم (١١٨)

قوله تعالى: إن تعذبهم فإنهم عبادك قال الحسن، وأبو العالية: إن تعذبهم، فبإقامتهم على كفرهم، وإن تغفر لهم، فبتوبة كانت منهم. وقال الزجاج: علم عيسى أن منهم من آمن، ومنهم من أقام

---

(١) سورة سبأ: ٥١.." (١)

"تطلع الشمس من مغربها، فاذا طلعت، طبع على كل قلب بما فيه، وكفي الناس العمل» .

والثاني: أنه طلوع الشمس والقمر من مغربهما، رواه مسروق عن ابن مسعود. والثالث: أنه إحدى الآيات الثلاث، طلوع الشمس من مغربها، والدابة، وفتح يأجوج ومأجوج، روى هذا المعنى القاسم عن ابن مسعود. والرابع: أنه طلوع الشمس من مغربها، والدجال، ودابة الأرض، قاله أبو هريرة والأول أصح.

والمراد بالخير ها هنا: العمل الصالح وإنما لم ينفع الإيمان والعمل الصالح حينئذ، لظهور الآية التي تضطرهم إلى الإيمان. وقال الضحاك: من أدركه بعض الآيات وهو على عمل صالح مع إيمانه، قبل منه، كما يقبل منه قبل الآية. وقيل: إن **الحكمة في** طلوع الشمس من مغربها، أن الملحدة والمنجمين، زعموا أن ذلك لا يكون، فيريهم الله تعالى قدرته، ويطلعها من المغرب كما أطلعها من المشرق، ولتحقق عجز نمرود حين

---

(١) زاد المسير في علم التفسير ابن الجوزي ٦٠٥/١

قال له إبراهيم: فأت بها من المغرب فبهت «١» .
(فصل:) وفي قوله: قل انتظروا إنا منتظرون قولان: أحدهما: أن المراد به التهديد، فهو محكم.
والثاني: أنه أمر بالكف عن القتال، فهو منسوخ بآية السيف.

[سورة الأنعام (٦) : آية ١٥٩]

إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء إنما أمرهم إلى الله ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون (١٥٩)

قوله تعالى: إن الذين فرقوا دينهم قرأ ابن كثير، وأبو عمرو: «فرقوا» مشددة. وقرأ حمزة، والكسائي: «فارقوا» بألف. وكذلك قرءوا في (الروم) فمن قرأ: «فرقوا» ، أراد: آمنوا ببعض، وكفروا ببعض. ومن قرأ: «فارقوا» ، أراد: باينوا. وفي المشار إليهم أربعة أقوال:

أحدها: أنهم أهل الضلالة من هذه الأمة، قاله أبو هريرة. والثاني: أنهم اليهود والنصارى، قاله ابن عباس، والضحاك، وقتادة، والسدي. والثالث: اليهود، قاله مجاهد. والرابع: جميع المشركين، قاله الحسن. فعلى هذا القول، دينهم: الكفر الذي يعتقدونه دينا، وعلى ما قبله، دينهم: الذي أمرهم الله به. والشيع: الفرق والأحزاب. قال الزجاج: ومعنى «شيعت» في اللغة: اتبعت. والعرب تقول:

شاعكم السلام، وأشاعكم، أي: تبعكم. قال الشاعر:

ألا يا نخلة من ذات عرق ... برود الظل شاعكم السلام «٢»

وتقول: أتيتك غدا، أو شيعة، أي: أو اليوم الذي يتبعه. فمعنى الشيعة: الذين يتبع بعضهم بعضا، وليس كلهم متفقين.

ثقات. وأخرجه أحمد ٤/ ٩٩ من حديث معاوية، وإسناده حسن. وقال الهيثمي في «المجمع» ٥/ ٢٥١: رجال أحمد ثقات.

---

(١) سورة البقرة: ٢٥٨.

(٢) البيت غير منسوب في «أساس البلاغة» «واللسان» شيع.." (١)

"قد كنت قبل لقائكم ذا مرة ... عندي لكل مخاصم ميزانه «١»

يعني: مثل كلامه ولفظه.

(فصل:) والقول بالميزان مشهور في الحديث، وظاهر القرآن ينطق به. وأنكرت المعتزلة ذلك، وقالوا: الأعمال أعراض، فكيف توزن؟ فالجواب: أن الوزن يرجع إلى الصحائف، بدليل حديث عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:

(٥٦٨) «إن الله عز وجل يستخلص رجلا من أمتي على رؤوس الناس يوم القيامة، فينشر عليه تسعة وتسعين سجلا، كل سجل مد البصر، ثم يقول له: أتنكر من هذا شيئا؟ أظلمتك كتبتي الحافظون؟

فيقول: لا يا رب. فيقول: ألك عذر أو حسنة؟ فيبهت الرجل، فيقول: لا يا رب فيقول: بلى، إن لك عندنا حسنة واحدة، لا ظلم عليك اليوم، فيخرج له بطاقة فيها: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله، فتوضع السجلات في كفة، والبطاقة في كفة قال: فطاشت السجلات وثقلت البطاقة» أخرجه أحمد في «مسنده» ، والترمذي.

(٥٦٩) وروى أبو هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «يؤتى بالرجل الطويل الأكول الشروب، فلا يزن جناح بعوضة» ، فعلى هذا يوزن الإنسان.

قال ابن عباس: توزن الحسنات والسيئات في ميزان، له لسان وكفتان. فأما المؤمن، فيؤتى بعمله في أحسن صورة، فيوضع في كفة الميزان، فيخف وزنه. وقال الحسن: للميزان لسان وكفتان. وجاء في الحديث:

(٥٧٠) أن داود عليه السلام سأل ربه ان يريه الميزان، فأراه إياه فقال: يا إلهي، من يقدر أن يملأ كفتيه حسنات؟ فقال: يا داود، إني إذا رضيت عن عبدي، ملأتها بتمرة.

وقال حذيفة: جبريل صاحب الميزان يوم القيامة يقول له ربه: زن بينهم، ورد من بعضهم على بعض فيرد على المظلوم من الظالم ما وجد له من حسنة. فان لم تكن له حسنة، أخذ من سيئات المظلوم، فرد على سيئات الظالم، فيرجع وعليه مثل الجبل.

فإن قيل: أليس الله عز وجل يعلم مقادير الأعمال، فما الحكمة في وزنها؟

---

(١) زاد المسير في علم التفسير ابن الجوزي ٢/٩٦

فالجواب أن فيه خمسة حكم: إحداها: امتحان الخلق بالإيمان بذلك في الدنيا. والثانية: إظهار علامة السعادة والشقاوة في الأخرى. والثالثة: تعريف العباد ما لهم من خير وشر. والرابعة: إقامة

حديث حسن صحيح. أخرجه الترمذي ٢٦٣٩ وابن ماجة ٤٣٠٠ وأحمد ٢/ ٢١٣ وابن حبان ٢٢٥ والحاكم ١/ ٥٢٩. من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص. وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي، وهو حسن لأجل عامر بن يحيى، وبقية رجاله رجال مسلم. وورد من طريق ابن لهيعة أخرجه أحمد ٢/ ٢٢٢ وابن لهيعة حسن الحديث في الشواهد والمتابعات. وانظر «تفسير الشوكاني» ٩٦٧ بتخريجنا.

صحيح. أخرجه البخاري ٤٧٢٩ ومسلم ٢٧٨٥ من حديث أبي هريرة.

لم أقف عليه، ولعل مصدره كتب الأقدمين، والله أعلم.

---

(١) البيت منسوب إلى ثعلب في «اللسان» . والميزان: المقدار.." (١)

"ابن عباس، وبه قال ابن مسعود، وأنس بن مالك، ومجاهد، وعكرمة، والضحاك في آخرين.

والثاني: أنها شجرة في الجنة، رواه أبو ظبيان عن ابن عباس. والثالث: أنها المؤمن، وأصله الثابت أنه يعمل في الأرض ويبلغ عمله السماء. وقوله عز وجل: تؤتي أكلها كل حين فالمؤمن يذكر الله كل ساعة من النهار، ورواه عطية عن ابن عباس.

قوله تعالى: أصلها ثابت أي: في الأرض، وفرعها أعلاها عال في السماء أي: نحو السماء، وأكلها: ثمرها. وفي الحين ها هنا ستة أقوال «١» : أحدها: أنه ثمانية أشهر، قاله علي عليه السلام. والثاني: ستة أشهر، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس، وبه قال الحسن، وعكرمة، وقتادة. والثالث: أنه بكرة وعشية، رواه أبو ظبيان عن ابن عباس. والرابع: أنه السنة، روي عن ابن عباس أيضا، وبه قال مجاهد، وابن زيد. والخامس: أنه شهران، قاله سعيد بن المسيب. والسادس: أنه غدوة وعشية وكل ساعة، قاله ابن جرير. فمن قال: ثمانية أشهر، أشار إلى مدة حملها باطنا وظاهرا، ومن قال: ستة أشهر، فهي مدة حملها إلى حين صرامها، ومن قال: بكرة وعشية، أشار إلى الاجتناء منها، ومن قال: سنة، أشار إلى أنها لا تحمل في السنة إلا مرة، ومن قال: شهران، فهو مدة صلاحها. قال ابن المسيب: لا يكون في النخلة أكلها إلا شهرين. ومن قال: كل

---

(١) زاد المسير في علم التفسير ابن الجوزي ١٠٣/٢

ساعة، أشار إلى أن ثمرتها تؤكل دائما. قال قتادة: تؤكل ثمرتها في الشتاء والصيف. وقال ابن جرير: الطلع في الشتاء من أكلها، والبلح والبسر والرطب والتمر في الصيف.

فأما الحكمة في تمثيل الإيمان بالنخلة، فمن أوجه: أحدها: أنها شديدة الثبوت، فشبه ثبات الإيمان في قلب المؤمن بثباتها. والثاني: أنها شديدة الارتفاع، فشبه ارتفاع عمل المؤمن بارتفاع فروعها. والثالث: أن ثمرتها تأتي في كل حين، فشبه ما يكسب المؤمن من بركة الإيمان وثوابه في كل وقت بثمرتها المجتناة في كل حين على اختلاف صنوفها، فالمؤمن كلما قال: لا إله إلا الله، صعدت إلى السماء، ثم جاءه خيرها ومنفعتها. والرابع: أنها أشبه الشجر بالإنسان، فإن كل شجرة يقطع رأسها تتشعب غصونها من جوانبها، إلا هي، إذا قطع رأسها يبست، ولأنها لا تحمل حتى تلقح، ولأنها فضلة تربة آدم عليه السلام فيما يروى «٢» .

---

(١) قال الإمام الطبري رحمه الله ٧/ ٤٤٣: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: عنى بالحين في ذلك الموضع غدوة وعشية كل ساعة، لأن الله تعالى ذكره، ضرب ما تؤتي هذه الشجرة كل حين من الأكل لعمل المؤمن وكلامه مثلا، ولا شك أن المؤمن يرفع له إلى الله في كل يوم صالح من العمل والقول لا في كل سنة أو في كل ستة أشهر أو في كل شهرين فإذا كان ذلك كذلك فلا شك أن المثل لا يكون خلافا للممثل به في المعنى، وإذا كان ذلك كذلك كان بينا صحة ما قلنا. فإن قال قائل: فأي نخلة تؤتي أكلها في كل وقت أكلا صيفا أو شتاء؟ قيل: أما في الشتاء فإن الطلع من أكلها، وأما في الصيف فالبلح والبسر والرطب والتمر. وذلك كله من أكلها.

(٢) يشير المصنف لحديث علي رضي الله عنه، ولفظه: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أكرموا عمتكم النخلة فإنها خلقت من فضلة طينة آدم، وليس من الشجر شجرة أكرم على الله من شجرة ولدت تحتها مريم بنت عمران، فأطعموا نساءكم الولد الرطب فإن لم يكن رطبا فتمرا» . وهو ضعيف جدا. أخرجه أبو يعلى ٤٥٥، وابن حبان في «المجروحين» ٣/ ٤٤، وابن الجوزي في «الموضوعات» ١/ ١٨٤، وأبو نعيم في «الحلية» ٦/ ١٢٣. وفي إسناده مسرور بن سعيد. قال ابن الجوزي: لا يصح، مسرور بن سعيد منكر الحديث.." (١)

---

(١) زاد المسير في علم التفسير ابن الجوزي ٢/٥١١

"قيل: ما معنى قوله تعالى: إلى المسجد الأقصى وأنتم تقولون: صعد إلى السماء؟ فالجواب: أن الإسراء كان إلى هنالك، والمعراج كان من هنالك. وقيل: إن **الحكمة في** ذكر ذلك، أنه لو أخبر بصعوده إلى السماء في بدء الحديث، لاشتد إنكارهم، فلما أخبر ببيت المقدس، وبان لهم صدقه فيما أخبرهم به من العلامات الصادقة، أخبر بمعراجه.

قوله تعالى: لنريه من آياتنا يعني: ما رأى تلك الليلة من العجائب التي أخبر بها الناس. إنه هو السميع لمقالة قريش، البصير بها. وقد ذكرنا في كتابنا المسمى ب «الحدائق» أحاديث المعراج، وكرهنا الإطالة ها هنا.

[سورة الإسراء (١٧) : الآيات ٢ الى ٣]

وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبني إسرائيل ألا تتخذوا من دوني وكيلا (٢) ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبدا شكورا (٣)

قوله تعالى: وآتينا موسى الكتاب لما ذكر في الآية الأولى إكرام محمد صلى الله عليه وسلم، ذكر في هذه كرامة موسى. والكتاب: التوراة. وجعلناه هدى لبني إسرائيل أي: دللناهم به على الهدى. ألا تتخذوا قرأ أبو عمرو: «يتخذوا» بالياء، والمعنى: هديناهم لئلا يتخذوا، وقرأ الباقون بالتاء، قال أبو علي: وهو على الانصراف إلى الخطاب بعد الغيبة، مثل: الحمد لله ثم قال: إياك نعبد. قوله تعالى: وكيلا قال مجاهد: شريكا. وقال الزجاج: ربا. قال ابن الأنباري: وإنما قيل للرب: وكيل، لكفايته وقيامه بشأن عباده، من أجل أن الوكيل عند الناس قد علم أنه يقوم بشئون أصحابه، وتفقد أمورهم، فكان الرب وكيلا من هذه الجهة، لا على معنى ارتفاع منزلة الموكل وانحطاط أمر الوكيل.

قوله تعالى: ذرية من حملنا قال مجاهد: هو نداء: يا ذرية من حملنا. قال ابن الأنباري:

من قرأ: «ألا تتخذوا» بالتاء، فإنه يقول: بعد الذرية مضمر حذف اعتمادا على دلالة ما سبق، تلخيصه: يا ذرية من حملنا مع نوح لا تتخذوا وكيلا، ويجوز أن يستغني عن الإضمار بقوله تعالى: إنه كان عبدا شكورا لأنه بمعنى: اشكروني كشكره. ومن قرأ: «ألا يتخذوا» بالياء، جعل النداء متصلا بالخطاب، و «الذرية» تنتصب بالنداء، ويجوز نصبها بالاتخاذ على أنها مفعول ثان، تلخيص الكلام: ألا يتخذوا ذرية من حملنا مع نوح وكيلا. قال قتادة: الناس كلهم ذرية من أنجى الله في تلك السفينة. قال العلماء: ووجه الإنعام على الخلق بهذا القول، أنهم كانوا في صلب من نجا. قوله تعالى: إنه كان عبدا شكورا قال سلمان

الفارسي: كان إذا أكل قال: «الحمد لله» وإذا شرب قال: «الحمد لله» . وقال غيره: كان إذا لبس ثوبا قال: «الحمد لله» فسماه الله «عبدا شكورا» .

[سورة الإسراء (١٧) : الآيات ٤ الى ٦]

وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلن علوا كبيرا (٤) فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عبادا لنا أولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعدا مفعولا (٥) ثم رددنا لكم الكرة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيرا (٦)." (١)

"«تزور» بفتح التاء والزاي وتشديد الواو المفتوحة خفيفة الراء، مثل: «تكور» والمعنى: تميل أو تعدل.

قال الزجاج: «تزاور» : تتزاور، فأدغمت التاء في الزاي، و (تقرضهم) أي: تعدل عنهم وتتركهم، وقال ذو الرمة:

إلى ظعن يقرضن أجواز مشرف ... شمالا وعن أيمانهن الفوارس «١»

يقرضن: يتركن. وأصل القرض: القطع والتفرقة بين الأشياء، ومنه: أقرضني درهما، أي: اقطع لي من مالك درهما. قال المفسرون: كان كهفهم بازاء بنات نعش في أرض الروم، فكانت الشمس تميل عنهم طالعة وغاربة لا تدخل عليهم فتؤذيهم بحرها وتغير ألوانهم. ثم أخبر أنهم كانوا في متسع من الكهف ينالهم فيه برد الريح، ونسيم الهواء، فقال: وهم في فجوة منه قال أبو عبيدة: أي: في متسع، والجميع: فجوات، وفجاء، بكسر الفاء. وقال الزجاج: إنما صرف الشمس عنهم آية من الآيات، ولم يرض قول من قال: كان كهفهم بازاء بنات نعش.

قوله تعالى: ذلك من آيات الله يشير إلى ما صنعه بهم من اللطف في هدايتهم، وصرف أذى الشمس عنهم، والرعب الذي ألقى عليهم حتى لم يقدر الملك الظالم ولا غيره على أذاهم. «من آيات الله» أي: من دلائله على قدرته ولطفه. من يهد الله فهو المهتد هذا بيان أنه هو الذي تولى هداية القوم، ولولا ذلك لم يهتدوا.

[سورة الكهف (١٨) : آية ١٨]

---

(١) زاد المسير في علم التفسير ابن الجوزي ٩/٣

وتحسبهم أيقاظا وهم رقود ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا ولملئت منهم رعبا (١٨)

قوله تعالى: وتحسبهم أيقاظا أي: لو رأيتهم لحسبتهم أيقاظا. قال الزجاج: الأيقاظ:

المنتبهون، واحدهم: يقظ، ويقظان، والجميع: أيقاظ والرقود: النيام. وقال الفراء: واحد الأيقاظ:

يقظ، ويقظ. قال ابن السائب: وإنما يحسبون أيقاظا، لأن أعينهم مفتحة وهم نيام. وقيل: لتقلبهم يمينا وشمالا. وذكر بعض أهل العلم: أن وجه الحكمة في فتح أعينهم، أنه لو دام طبقها لذابت. قوله تعالى: ونقلبهم وقرأ الحسن وأبو رجاء: «وتقلبهم» بتاء مفتوحة، وسكون القاف، وتخفيف اللام المكسورة. وقرأ أبو الجوزاء، وعكرمة: «ونقلبهم» مثلها، إلا أنه بالنون. ذات اليمين أي: على أيمانهم وعلى شمائلهم. قال ابن عباس: كانوا يقلبون في كل عام مرتين، ستة أشهر على هذا الجنب، وستة أشهر على هذا الجنب، لئلا تأكل الأرض لحومهم. وقال مجاهد: كانوا ثلاثمائة عام على شق واحد، ثم قلبوا تسع سنين.

قوله تعالى: وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد أخبر أن الكلب كان على مثل حالهم في النوم، وهو في رأي العين منتبه. وفي الوصيد أربعة أقوال «٢» : أحدها: أنه الفناء فناء الكهف، رواه ابن أبي

(١) هو في «ديوانه» ٤٠٣ و «مجاز القرآن» ١/ ٣٩٦ ومشرف والفوارس: موضعان بنجد كما في «معجم من استعجم» .

(٢) قال الإمام الطبري رحمه الله في «تفسيره» ٨/ ١٩٥: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: الوصيد:

الباب، أو فناء الباب حيث يغلق الباب، وذلك أن الباب يوصد وإيصاده: إطباقه وإغلاقه من قوله تعالى: إنها عليهم مؤصدة الهمزة: ٨.." (١)

"(١١٩٨) سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله: لمستقر لها قال: «مستقرها تحت العرش» .

وقال: «إنها تذهب حتى تسجد بين يدي ربها، فتستأذن في الطلوع، فيؤذن لها» .

والثاني: أن مستقرها مغربها لا تجاوزه ولا تقصر عنه، قاله مجاهد. والثالث: لوقت واحد لا تعدوه، قاله

(١) زاد المسير في علم التفسير ابن الجوزي ٧١/٣

قتاده. وقال مقاتل: لوقت لها إلى يوم القيامة. والرابع: تسير في منازلها حتى تنتهي إلى مستقرها الذي لا تجاوزه، ثم ترجع إلى أول منازلها، قاله ابن السائب. وقال ابن قتيبة: إلى مستقر لها، ومستقرها: أقصى منازلها في الغروب، وذلك لأنها لا تزال تتقدم إلى أقصى مغاربها ثم ترجع. وقرأ ابن مسعود وعكرمة وعلي بن الحسين والشيزري عن الكسائي «لا مستقر لها» والمعنى أنها تجري أبدا لا تثبت في مكان واحد.
قوله تعالى: ذلك الذي ذكر من أمر الليل والنهار والشمس والقمر تقدير العزيز في ملكه العليم بما يقدر.
قوله تعالى: والقمر قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو: «والقمر» بالرفع. وقرأ عاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: «والقمر» بالنصب. قال الزجاج: من قرأ بالنصب، فالمعنى: وقدرنا القمر قدرناه منازل، ومن قرأ بالرفع، فالمعنى: وآية لهم القمر قدرناه، ويجوز أن يكون على الابتداء، و «قدرناه» الخبر. قال المفسرون: ومنازل القمر ثمانية وعشرون منزلا ينزلها من أول الشهر إلى آخره، وقد سميناها في سورة يونس «١» ، فإذا صار إلى آخر منازله، دق فعاد كالعرجون، وهو عود العذق الذي تركته الشماريخ «٢» ، فإذا جف وقدم يشبه الهلال. قال ابن قتيبة: و «القديم» ها هنا: الذي قد أتى عليه حول، شبه القمر آخر ليلة يطلع به. قال الزجاج: وتقدير «عرجون» : فعلون، من الانعراج. وقرأ أبو مجلز، وأبو رجاء، والضحاك، وعاصم الجحدري، وابن السميفع: «كالعرجون» ، بكسر العين.
قوله تعالى: لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر فيه ثلاثة أقوال «٣» : أحدها: أنهما إذا اجتمعا في السماء، كان أحدهما بين يدي الآخر، فلا يشتركان في المنازل، قاله ابن عباس. والثاني: لا يشبه ضوء أحدهما ضوء الآخر، قاله مجاهد. والثالث: لا يجتمع ضوء أحدهما مع الآخر، فإذا جاء سلطان أحدهما ذهب سلطان الآخر، قاله قتادة فيكون وجه الحكمة في ذلك أنه لو اتصل الضوء، لم يعرف

صحيح. أخرجه البخاري ٤٨٠٣ و ٧٤٣٣ ومسلم ١٥٩ ح ٢٥١ وأحمد ٥/ ١٥٨ وابن حبان ٦١٥٢ والواحدي في «الوسيط» ٣/ ٥١٤ من طرق عن وكيع به عن أبي ذر مرفوعا.
- وأخرجه الطحاوي في «المشكل» ٢٨١ من طريق أبي معاوية عن الأعمش به.

---

(١) يونس: ٥.
(٢) في «اللسان» : الشمروخ: غصن دقيق رخص ينبت في أعلى الغصن الغليظ في سنته رخصا.

(٣) قال الطبري رحمه الله في «تفسيره» ١٠/ ٤٤٢: يقول تعالى ذكره: لا الشمس يصلح لها إدراك القمر فيذهب ضوءها بضوئه فتكون الأوقات كلها نهارا لا ليل فيها، ولا الليل سابق النهار يقول تعالى ذكره: ولا الليل بفائت النهار حتى تذهب ظلمته بضيائه فتكون الأوقات كلها ليلا اه.

وقال ابن كثير رحمه الله: يعني لكل منهما سلطانا، فلا ينبغي للشمس أن تطلع بالليل ولا ينبغي إذا كان الليل أن يكون ليل آخر حتى يكون النهار، فسلطان الشمس بالنهار، وسلطان القمر بالليل. وأنه لا فترة بين الليل والنهار بل كل منهما يعقب الآخر بلا مهلة ولا تراخ، لأنهما سخران دائبين يتطالبان طلبا حثيثا.." (١)

"والأعمش: «جبلا» بضم الجيم والباء مع تشديد اللام. وقرأ عبد الله بن عمرو، وابن السميفع: «جبلا» بكسر الجيم وسكون الباء وتخفيف اللام. وقرأ سعيد بن جبير، وأبو المتوكل، ومعاذ القارئ: «جبلا» برفع الجيم وفتح الباء وتخفيف اللام. وقرأ أبو العالية: وابن يعمر: «جبلا» بكسر الجيم وفتح الباء وتخفيف اللام. وقرأ أبو عمران الجوني، وعمرو بن دينار: «جبالا» مكسورة الجيم مفتوحة الباء وبألف. ومعنى الكلمة كيف تصرفت في هذه اللغات: الخلق والجماعة فالمعنى: ولقد أضل منكم خلقا كثيرا أفلم تكونوا تعقلون فالمعنى: قد رأيتم آثار الهالكين قبلكم بطاعة الشيطان، أفلم تعقلوا ذلك؟! وقرأ ابن عباس، وأبو رزين، وأبو عبد الرحمن السلمي، وأبو رجاء، ومجاهد، وابن يعمر:

«أفلم يكونوا يعقلون» بالياء فيهما، فإذا أدنوا إلى جهنم قيل لهم: هذه جهنم التي كنتم توعدون بها في الدنيا اصلوها أي: قاسوا حرها.

[سورة يس (٣٦) : الآيات ٦٥ الى ٦٨]

اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون (٦٥) ولو نشاء لطمسنا على أعينهم فاستبقوا الصراط فأنى يبصرون (٦٦) ولو نشاء لمسخناهم على مكانتهم فما استطاعوا مضيا ولا يرجعون (٦٧) ومن نعمره ننكسه في الخلق أفلا يعقلون (٦٨)

قوله تعالى: اليوم نختم على أفواههم وقرأ أبو المتوكل، وأبو الجوزاء: «يختم» بياء مضمومة وفتح التاء وتكلمنا قرأ ابن مسعود: «ولتكلمنا» بزيادة لام مكسورة وفتح الميم وواو قبل اللام. وقرأ أبي بن كعب، وابن

---

(١) زاد المسير في علم التفسير ابن الجوزي ٣/٥٢٤

أبي عبلة: «لتكلمنا» بلام مكسورة من غير واو قبلها وبنصب الميم وقرءوا جمي‌عا:

«ولتشهد أرجلهم» بلام مكسورة وبنصب الدال. ومعنى «نختم» : نطبع عليها، وقيل: منعها من الكلام هو الختم عليها، وفي سبب ذلك أربعة أقوال: أحدها: أنهم لما قالوا: والله ربنا ما كنا مشركين «١» ختم الله على أفواههم ونطقت جوارحهم، قاله أبو موسى الأشعري. والثاني: ليعلموا أن أعضاءهم التي كانت أعوانا لهم على المعاصي صارت شهودا عليهم. والثالث: ليعرفهم أهل الموقف، فتميزوا منهم بذلك. والرابع: لأن إقرار الجوارح أبلغ في الإقرار من نطق اللسان، ذكرهن الماوردي. فإن قيل: ما **الحكمة في** تسمية نطق اليد كلاما ونطق الرجل شهادة؟ فالجواب: أن اليد كانت مباشرة والرجل حاضرة، وقول الحاضر على غيره شهادة بما رأى، وقول الفاعل على نفسه إقرار بما فعل.

قوله تعالى: ولو نشاء لطمسنا على أعينهم فيه ثلاثة أقوال: أحدها: ولو نشاء لأذهبن أعينهم حتى لا يبدو لها شق ولا جفن. والمطموس: الذي لا يكون بين جفنيه شق، فاستبقوا الصراط أي:

فتبادروا إلى الطريق فأنى يبصرون أي: فكيف يبصرون وقد أعمينا أعينهم؟! وقرأ أبو بكر الصديق، وعروة بن الزبير، وأبو رجاء: «فاستبقوا» بكسر الباء «فأنى تبصرون» بالتاء. وهذا تهديد لأهل مكة، وهو قول الأكثرين. والثاني: ولو نشاء لأضللناهم وأعميناهم عن الهدى، فأنى يبصرون الحق؟ رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس. والثالث: ولو نشاء لفقأنا أعين ضلالتهم وأعميناهم عن غيهم وحولنا أبصارهم من الضلالة إلى الهدى فأبصروا رشدهم، فأنى يبصرون ولم أفعل ذلك بهم؟! حكي عن جماعة منهم مقاتل.

---

(١) الأنعام: ٢٣. [.....]."(١)

"قوله تعالى: فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله قد بينا معنى القساوة في البقرة «١» . فإن قيل: كيف يقسو القلب من ذكر الله عز وجل؟ فالجواب: أنه كلما تلي عليهم ذكر الله الذي يكذبون به، قست قلوبهم عن الإيمان به. وذهب مقاتل في آخرين إلى أن «من» هاهنا بمعنى «عن» قال الفراء: كما تقول: أتخمت عن طعام أكلته، ومن طعام أكلته وإنما قست قلوبهم من ذكر الله، لأنهم جعلوه كذبا فأقسى قلوبهم ومن قال: قست قلوبهم عنه، أراد: أعرضت عنه. وقد قرأ أبي بن كعب، وابن أبي عبلة، وأبو عمران: «قلوبهم عن ذكر الله» مكان قوله: «من» .

---

(١) زاد المسير في علم التفسير ابن الجوزي ٥٢٩/٣

اللَّه نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إِلى ذكر اللَّه ذلك هدى اللَّه يهدي به من يشاء ومن يضلل اللَّه فما له من هاد (٢٣)
قوله تعالى: اللَّه نزل أحسن الحديث يعني القرآن وقد ذكرنا سبب نزولها في أول يوسف «٢» .
قوله تعالى: كتابا متشابها فيه قولان: أحدهما: أن بعضه يشبه بعضا في الآي والحروف، فالآية تشبه الآية، والكلمة تشبه الكلمة، والحرف يشبه الحرف. والثاني: أن بعضه يصدق بعضا، فليس فيه اختلاف ولا تناقض.
وإنما قيل له: مثاني لأنه كررت فيه القصص والفرائض والحدود والثواب والعقاب.
فإن قيل: ما الحكمة في تكرار القصص، والواحدة قد كانت تكفي؟
فالجواب: أن وفود العرب كانت ترد على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيقرئهم المسلمون شيئا من القرآن، فيكون ذلك كافيا لهم، وكان يبعث إلى القبائل المتفرقة بالسور المختلفة، فلو لم تكن الأنباء والقصص مثناة مكررة، لوقعت قصة موسى إلى قوم، وقصة عيسى إلى قوم، وقصة نوح إلى قوم، فأراد الله تعالى أن يشهر هذه القصص في أطراف الأرض ويلقيها إلى كل سمع. فأما فائدة تكرار الكلام من جنس واحد، كقوله تعالى: فبأي آلاء ربكما تكذبان «٣» ، وقوله: لا أعبد ما تعبدون «٤» ، وقوله تعالى: أولى لك فأولى «٥» وما أدراك ما يوم الدين «٦» فسنذكرها في سورة الرحمن عز وجل.
قوله تعالى: تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم أي: تأخذهم قشعريرة، وهو تغير يحدث في جلد الإنسان من الوجل.
(١٢٢٦) وروى العباس بن عبد المطلب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إذا اقشعر جلد العبد من

ضعيف. أخرجه الواحدي في «الوسيط» ٣/ ٥٧٨ والبيهقي في «الشعب» ٨٠٣ والبغوي في »تفسيره» ١٨١٨ من طريق يحيى بن عبد الحميد الحماني من حديث العباس وإسناده ضعيف جدا، يحيى الحماني متروك، متهم بسرقة الحديث، وعبد العزيز هو الدراوردي روى مناكير، وأم كلثوم مجهولة لا تعرف، وقد توبع الحماني، وعلة الحديث جهالة أم كلثوم. وأخرجه البزار ٤/ ٧٤ «كشف» والبيهقي ٨٠٣ من طريق عبد

العزيز بن محمد الدراوردي بهذا الإسناد. وقال الهيثمي في «المجمع» ١٠/ ٣١٠: وفيه أم كلثوم بنت العباس، ولم أعرفها، وبقية رجاله ثقات. قلت: الدراوردي، وإن وثقه غير واحد، فقد روى مناكير، راجع «الميزان» .

---

(١) البقرة: ٧٤. [.....]

(٢) يوسف: ٣.

(٣) الرحمن: ١٣.

(٤) الكافرون: ٢.

(٥) القيامة: ٣٤.

(٦) الانفطار: ١٧.." (١)

"[سورة الزمر (٣٩) : الآيات ٧١ الى ٧٥]

وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمرا حتى إذا جاؤها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين (٧١) قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين (٧٢) وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا حتى إذا جاؤها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين (٧٣) وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين (٧٤) وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضي بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين (٧٥)

قوله تعالى: وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمرا قال أبو عبيدة: الزمر: جماعات في تفرقة بعضهم على إثر بعض، واحدها: زمرة. قوله تعالى: رسل منكم أي: أنفسكم. وكلمة العذاب هي قوله تعالى: لأملأن جهنم «١» . قوله تعالى: فتحت أبوابها قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر: «فتحت» «وفتحت» مشددتين، وقرأ عاصم، وحمزة، والكسائي: بالتخفيف. وفي هذه الواو ثلاثة أقوال: أحدها: أنها زائدة، روي عن جماعة من اللغويين منهم الفراء. والثاني: أنها واو الحال فالمعنى: جاءوها وقد فتحت أبوابها، فدخلت

---

(١) زاد المسير في علم التفسير ابن الجوزي ٤/ ١٤

الواو لبيان أن الأبواب كانت مفتحة قبل مجيئهم، وحذفت من قصة أهل النار لبيان أنها كانت مغلقة قبل مجيئهم، ووجه الحكمة في ذلك من ثلاثة أوجه: أحدها: أن أهل الجنة جاءوها وقد فتحت أبوابها ليستعجلوا السرور والفرح إذا رأوا الأبواب مفتحة، وأهل النار يأتونها وأبوابها مغلقة ليكون أشد لحرها، ذكره أبو إسحاق ابن شاقلا من أصحابنا. والثاني: أن الوقوف على الباب المغلق نوع ذل، فصين أهل الجنة عنه، وجعل في حق أهل النار، ذكره لي بعض مشايخنا والثالث: أنه لو وجد أهل الجنة بابها مغلقا لأثر انتظار فتحه في كمال الكرم، ومن كمال الكرم غلق باب النار إلى حين مجيء أهلها، لأن الكريم يعجل المثوبة، ويؤخر العقوبة، وقد قال عز وجل: ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم «٢» قال المصنف: هذا وجه خطر لي. والقول الثالث: أن الواو زيدت، لأن أبواب الجنة ثمانية، وأبواب النار سبعة. والعرب تعطف في العدد بالواو على ما فوق السبعة على ما ذكرناه في قوله تعالى: ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم «٣» ، حكى هذا القول والذي قبله الثعلبي. واختلف العلماء أين جواب هذه الآية على ثلاثة أقوال: أحدها: أن الجواب محذوف، قاله أبو عبيدة، والمبرد، والزجاج في آخرين. وفي تقدير هذا المحذوف قولان: أحدهما: أن تقديره: حتى إذا جاؤها إلى آخر الآية ... سعدوا، قاله المبرد.

والثاني: حتى إذا جاؤها إلى قوله تعالى: فادخلوها خالدين.. دخلوها، وإنما حذف، لأن في الكلام دليلا عليه، وهذا اختيار الزجاج. والقول الثاني: أن الجواب: قال لهم خزنتها، والواو زائدة، ذكره الأخفش، قال: ومثله في الشعر.

---

(١) الأعراف: ١٨.

(٢) النساء: ١٤٧.

(٣) الكهف: ٢٢.." (١)

"يا ابنة عمي لاحني الهواجر

وقرأ ابن مسعود، وابن السميفع، وابن عبلة «لواحة» بالنصب.

وفي «البشر» قولان: أحدهما: أنه جمع بشرة، وهي جلدة الإنسان الظاهرة، وهذا قول مجاهد، والفراء، والزجاج. والثاني: أنهم الإنس من أهل النار، قاله الأخفش، وابن قتيبة في آخرين.

---

(١) زاد المسير في علم التفسير ابن الجوزي ٢٧/٤

قوله عز وجل: عليها تسعة عشر وهم خزنتها.

(١٥٠٢) مالك ومعه ثمانية عشر، أعينهم كالبرق الخاطف، وأنيابهم كالصياصي يخرج لهب النار من أفواههم، ما بين منكبي أحدهم مسيرة سنة، يسع كف أحدهم مثل ربيعة ومضر. قد نزعت منهم الرحمة. فلما نزلت هذه الآية قال أبو جهل: يخوفكم محمد بتسعة عشر، ما له من الجنود إلا هؤلاء! أيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا بواحد منهم، ثم يخرجون من النار! فقال أبو الأشد «١» قال مقاتل:

اسمه: أسيد بن كلدة. وقال غيره: كلدة بن خلف الجمحي: يا معشر قريش: أنا أمشي بين أيديكم وأدفع عشرة بمنكبي الأيمن، وتسعة بمنكبي الأيسر، فندخل الجنة، فأنزل الله تعالى: وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة لا آدميين، فمن يطيقهم ومن يغلبهم؟! وما جعلنا عدتهم في هذه القلة إلا فتنة أي: ضلالة للذين كفروا حتى قالوا ما قالوا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب أن ما جاء به محمد حق، لأن عدتهم في التوراة تسعة عشر، ويزداد الذين آمنوا من أهل الكتاب إيمانا أي: تصديقا بمحمد صلى الله عليه وسلم إذ وجدوا ما يخبرهم به موافقا لما في كتابهم ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون أي: ولا يشك هؤلاء في عدة الخزنة.

وليقول الذين في قلوبهم مرض وفيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه النفاق، ذكره الأكثرون. والثاني: أنه الشك، قاله مقاتل، وزعم أنهم يهود أهل المدينة، وعنده أن هذه الآية مدنية. والثالث: أنه الخلاف، قاله الحسين بن الفضل. وقال: لم يكن بمكة نفاق. وهذه مكية. فأما «الكافرون» فهم مشركو العرب، ماذا أراد الله أي: أي شيء أراد الله بهذا الحديث والخبر مثلا والمثل يكون بمعنى الحديث نفسه ومعنى الكلام: يقولون ما هذا من الحديث كذلك أي: كما أضل من أنكر عدة الخزنة، وهدى من صدق يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وأنزل في قول أبي جهل: أما لمحمد من الجنود إلا تسعة عشر: وما يعلم جنود ربك إلا هو يعني: من الملائكة الذين خلقهم لتعذيب أهل النار. وذلك أن لكل واحد من هؤلاء التسعة عشر من الأعوان ما لا يعلمه إلا الله عز وجل، وذكر الماوردي في وجه **الحكمة في** كونهم تسعة عشرة قولا محتملا، فقال: التسعة عشر: عدد يجمع أكثر القليل، وأقل الكثير، لأن الآحاد أقل الأعداد، وأكثرها تسعة، وما سوى الآحاد كثير. وأقل الكثير: عشرة، فوقع الاقتصار على عدد يجمع أقل الكثير، وأكثر القليل. ثم رجع إلى ذكر النار فقال عز وجل: وما هي إلا ذكرى أي: ما

لا أصل له بهذا اللفظ. ذكره الزمخشري في «الكشاف» ٤/ ٦٥١ فقال الحافظ: لم أجده. والظاهر أن مصدره مقاتل، حيث ذكره المصنف في أثناء الخبر، أو يكون الكلبي، وكلاهما ممن يضع الحديث.

---

(١) وقع في المطبوع: أبو الأسدين، وسيأتي في سورة الانفطار، الآية ٦: أبو الأشدين، والتصويب عن «معالم التنزيل» ٤/ ٣٨٥ و «الكشاف» ٤/ ٦٥١ و «تفسير الماوردي» ٤/ ١٤٥.." (١)

"فليتحرها ليلة سبع وعشرين، يعني: ليلة القدر، وهذا مذهب علي وأبي بن كعب.

(١٥٥٧) وكان أبي يحلف لا يستثني أنها ليلة سبع وعشرين، وبه قال ابن عباس، وعائشة، ومعاوية. واختاره أحمد بن حنبل رضي الله عنه.

وروى ابن عباس: أنه استدل على ذلك بشيئين: أحدهما: أنه قال: إن الله تعالى خلق الإنسان على سبعة أصناف، يشير إلى قوله عز وجل: ولقد خلقنا الإنسان من سلالة الآيات «١» . ثم جعل رزقه في سبعة أصناف يشير إلى قوله عز وجل. أنا صببنا الماء صبا «٢» ثم يصلي الجمعة على رأس سبعة أيام. وجعل السموات سبعا، والأرضين سبعا، والمثاني سبعا «٣» ، فلا أرى ليلة القدر إلا ليلة السابعة.

والثاني: أنه قال: قوله عز وجل: سلام هي الكلمة السابعة والعشرون، فدل على أنها كذلك.

واحتج بعضهم فقال: ليلة القدر كررت في هذه السورة ثلاث مرات، وهي تسعة أحرف، والتسعة إذا كررت ثلاثا فهي سبع وعشرون، وهذا تنبيه على ذلك.

والقول الخامس: أن الأولى طلبها في أول ليلة من رمضان، قاله أبو رزين العقيلي.

وروى أيوب عن أبي قلابة أنه قال: ليلة القدر تنتقل في العشر الأواخر.

فأما **الحكمة في** إخفائها فليتحقق اجتهاد العباد في ليالي رمضان طمعا منهم في إدراكها، كما أخفى ساعة الجمعة، وساعة الليل، واسمه الأعظم، والصلاة الوسطى، والولي في الناس.

قوله عز وجل: وما أدراك ما ليلة القدر هذا على سبيل التعظيم والتشوق إلى خيرها.

قوله عز وجل: ليلة القدر خير من ألف شهر قال مجاهد: قيامها والعمل فيها خير من قيام ألف شهر وصيامها ليس فيها ليلة القدر، وهذا قول قتادة، واختيار الفراء، وابن قتيبة، والزجاج.

(١٥٥٨) وروى عطاء عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر له رجل من بني إسرائيل حمل

---

(١) زاد المسير في علم التفسير ابن الجوزي ٣٦٤/٤

ـــــــــــــــ

وانظر «الجامع لأحكام القرآن» ٦٤٢١.

صحيح. أخرجه مسلم ٢/ ٨٢٨ ح ٢٢٠ والحميدي ٣٧٥ وابن خزيمة ٢١٩١ وابن حبان ٣٦٨٩ والبيهقي ٤/ ٣١٢ من طرق عن سفيان بن عيينة عن عبدة بن أبي لبابة، وعاصم عن زر بن حبيش به.

وأخرجه مسلم ٧٦٢ ح ١٨٠ والواحدي في «الوسيط» ٤/ ٥٣٥ من طرق شعبة عن عبدة بن أبي لبابة عن زر به مختصرا. وأخرجه أبو داود ١٣٧٨ والترمذي ٧٩٣ وعبد الرزاق ٧٧٠٠ وابن خزيمة ٢١٩٣ وابن حبان ٣٦٩١ والواحدي في «الوسيط» ٤/ ٥٣٣. وأخرجه ابن أبي شيبة ٣/ ٧٦ من طريق أبي خالد وعامر الشعبي عن زر به.

وأخرجه مسلم ٧٦٢ ح ١٧٩ وابن حبان ٣٦٩٠ من طريق الأوزاعي عن عبدة عن زر به. وهم جميعا من حديث زر بن حبيش قال: قلت لأبي بن كعب: يا أبا المنذر أخبرنا عن ليلة القدر، فإن ابن مسعود عبد الله يقول: من يقم الحول يصبها فقال: رحم الله أبا عبد الرحمن، أما إنه قد علم أنها في رمضان ولكن كره أن يخبركم فتتكلوا. هي والذي أنزل القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم ليلة سبع وعشرين، فقلنا: يا أبا المنذر أنى علمت هذا؟ قال: بالآية التي أخبرنا النبي صلى الله عليه وسلم فحفظناها وعددناها هي والله لا تنس، قال قلنا: وما الآية؟ قال: تطلع الشمس كأنها طاس ليس لها شعاع.

ضعيف جدا. ذكره المصنف عن عطاء عن ابن عباس ولم أره عنه مسندا.

وأخرجه الواحدي في «أسباب النزول» ٨٦٤ والبيهقي في «الشعب» ٣٦٦٨ وابن أبي حاتم كما في «تفسير ابن-

ـــــــــــــــ

(١) المؤمنون: ١٢.

(٢) عبس: ٢٥. [.....]

(٣) الفاتحة: وهي سبع آيات.." [1]

ـــــــــــــــ

(١) زاد المسير في علم التفسير ابن الجوزي ٤٧٢/٤

"والحروف، فعند ذلك يجب البحث عن حقيقة الصوت، وعن أسباب وجوده ولا شك أن حدوث الصوت في الحيوان إنما كان بسبب خروج النفس من الصدر، فعندها يجب البحث عن حقيقة النفس، وأنه ما **الحكمة في** كون الإنسان متنفسا على سبيل الضرورة وأن هذا الصوت يحصل بسبب استدخال النفس أو بسبب إخراجه، وعند هذا تحتاج هذه المباحث إلى معرفة أحوال القلب والرئة، ومعرفة الحجاب الذي هو المبدأ الأول لحركة الصوت ومعرفة سائر العضلات المحركة للبطن والحنجرة واللسان والشفتين، وأما الحرف فيجب البحث أنه هل هو نفس الصوت، أو هيئة موجودة في الصوت مغايرة له؟ وأيضا لا شك أن هذه الحروف إنما تتولد عند تقطيع الصوت، وهي مخارج مخصوصة في الحلق واللسان والأسنان والشفتين، فيجب البحث عن أحوال تلك المحابس، ويجب أيضا البحث عن أحوال العضلات التي باعتبارها تتمكن الحيوانات من إدخال الأنواع الكثيرة من الجنس في الوجود وهذه المباحث لا تتم دلالتها إلا عند الوقوف على علم التشريح.

ثم نقول: والمرتبة السادسة: من البحث هي أن الحرف والصوت كيفيات محسوسة بحاسة السمع، وأما الألوان والأضواء فهي كيفيات محسوسة بحاسة البصر، والطعوم كيفيات محسوسة بحاسة الذوق، وكذا القول في سائر الكيفيات المحسوسة، فهل يصح أن يقال: هذه الكيفيات/ أنواع داخلة تحت جنس واحد وهي متباينة بتمام الماهية، وأنه لا مشاركة بينها إلا باللوازم الخارجية أم لا؟.

ثم نقول: والمرتبة السابعة: من البحث أن الكيفيات المحسوسة نوع واحد من أنواع جنس الكيف في المشهور، فيجب البحث عن تعريف مقولة الكيف، ثم يجب البحث أن وقوعه على ما تحته هل هو قول الجنس على الأنواع أم لا؟.

ثم نقول: والمرتبة الثامنة: أن مقولة الكيف، ومقولة الكم، ومقولة النسبة عرض، فيجب البحث عن مقولة العرض وأقسامه، وعن أحكامه ولوازمه وتوابعه.

ثم نقول: والمرتبة التاسعة: أن العرض والجواهر يشتركان في الدخول تحت الممكن والواجب مشتركان في الدخول تحت الموجود، فيجب البحث عن لواحق الوجود والعدم، وهي كيفية وقوع الموجود على الواجب والممكن أنه هل هو قول الجنس على أنواعه أو هو قول اللوازم على موصوفاتها وسائر المباحث المتعلقة بهذا الباب.

ثم نقول: والمرتبة العاشرة: أن نقول: لا شك أن المعلوم والمذكور والمخبر عنه يدخل فيها الموجود

والمعدوم، فكيف يعقل حصول أمر أعم من الموجود؟ ومن الناس من يقول المظنون أعم من المعلوم، وأيضا فهب أن أعم الاعتبارات هو المعلوم، ولا شك أن المعلوم مقابله غير المعلوم، لكن الشيء ما لم تعلم حقيقته امتنع الحكم عليه بكونه مقابلا لغيره، فلما حكمنا على غير المعلوم بكونه مقابلا للمعلوم، وجب أن يكون غير المعلوم معلوما، فحينئذ يكون المقابل للمعلوم معلوما، وذلك محال.

واعلم أن من اعتبر هذه المراتب العشرة في كل جزء من جزئيات الموجودات فقد انفتحت عليه أبواب مباحث لا نهاية لها، ولا يحيط عقله بأقل القليل منها، فظهر بهذا كيفية الاستنباط للعلوم الكثيرة من الألفاظ القليلة." (١)

"يمكن تعريف تلك الأحوال بالبيانات اللفظية- فهكذا يجب أن يتصور معنى ما يقال إن كثيرا من المعاني لا يمكن تعريفها بالألفاظ.

الحكمة في وضع الألفاظ للمعاني المسألة الحادية والأربعون [**الحكمة في** وضع الألفاظ للمعاني] : في **الحكمة في** وضع الألفاظ للمعاني: وهي أن الإنسان خلق بحيث لا يستقل بتحصيل جميع مهماته فاحتاج إلى أن يعرف غيره ما في ضميره ليمكنه التوسل به إلى الاستعانة بالغير، ولا بد لذلك التعريف من طريق، والطرق كثيرة مثل الكتابة والإشارة والتصفيق باليد والحركة بسائر الأعضاء، إلا أن أسهلها وأحسنها هو تعريف ما في القلوب والضمائر بهذه الألفاظ، ويدل عليه وجوه:

أحدها أن النفس عند الإخراج سبب لحدوث الصوت، والأصوات عند تقطيعاتها أسباب لحدوث الحروف المختلفة، وهذه المعاني تحصل من غير كلفة ومعونة بخلاف الكتابة والإشارة وغيرهما، والثاني أن هذه الأصوات كما توجد تفنى عقيبه في الحال، فعند الاحتياج إليه تحصل وعند زوال الحاجة تفنى وتنقضي، والثالث: أن الأصوات بحسب التقطيعات الكثيرة في مخارج الحروف تتولد منها الحروف الكثيرة، وتلك الحروف الكثيرة بحسب تركيباتها الكثيرة يتولد منها كلمات تكاد أن تصير غير متناهية، فإذا جعلنا لكل واحد من المعاني واحدا من تلك الكلمات توزعت الألفاظ على المعاني من غير التباس واشتباه، ومثل هذا لا يوجد في الإشارة والتصفيق، فلهذه الأسباب الثلاثة قضت العقول السليمة، بأن أحسن التعريفات لما في القلوب هو الألفاظ.

لذاته معرفة الحق المسألة الثانية والأربعون [لذاته معرفة الحق] : كمال الإنسان في أن يعرف الحق لذاته،

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ١/ ٢٨

والخير لأجل العمل به، وجوهر النفس في أصل الخلقة عار عن هذين الكمالين، ولا يمكنها اكتساب هذه الكمالات إلا بواسطة هذا البدن، فصار تخليق هذا البدن مطلوبا لهذه الحكمة، ثم إن مصالح هذا البدن ما كانت تتم إلا إذا كان القلب ينبوعا للحرارة الغريزية، ولما كانت هذه الحرارة قوية احتاجت إلى الترويح لأجل التعديل، فدبر الخالق الرحيم الحكيم هذا المقصود بأن جعل للقلب قوة انبساط بها يجذب الهواء البارد من خارج البدن إلى نفسه، ثم إذا بقي ذلك الهواء في القلب لحظة/ تسخن واحتد وقويت حرارته، فاحتاج القلب إلى دفعه مرة أخرى، وذلك هو الانقباض فإن القلب إذا انقبض انعصر ما فيه من الهواء وخرج إلى الخارج، فهذا هو الحكمة في جعل الحيوان متنفسا، والمقصود بالقصد الأول هو تكميل جوهر النفس بالعلم والعمل، فوقع تخليق البدن في المرتبة الثانية من المطلوبية، ووقع تخليق القلب وجعله منبعا للحرارة الغريزية في المرتبة الثالثة، ووقع إقدار القلب على الانبساط الموجب لانجذاب الهواء الطيب من الخارج لأجل الترويح في المرتبة الرابعة، ووقع إقدار القلب على الانقباض الموجب لخروج ذلك الهواء المحترق في المرتبة الخامسة، ووقع صرف ذلك الهواء الخارج عند انقباض القلب إلى مادة الصوت في المرتبة السادسة، ثم إن المقدر الحكيم والمدبر الرحيم جعل هذا الأمر المطلوب على سبيل الغرض الواقع في المرتبة السابعة مادة للصوت، وخلق محابس ومقاطع للصوت في الحلق واللسان والأسنان والشفتين، وحينئذ يحدث بذلك السبب هذه الحروف المختلفة، ويحدث من تركيباتها الكلمات التي لا نهاية لها، ثم أودع في هذا النطق والكلام حكما عالية وأسرارا باهرة عجزت عقول الأولين." (١)

"النكتة السابعة عشرة: قال جعفر الصادق: إنه لا بد قبل القراءة من التعوذ، وأما سائر الطاعات فإنه لا يتعوذ فيها، والحكمة فيه أن العبد قد ينجس لسانه بالكذب والغيبة والنميمة فأمر الله تعالى العبد بالتعوذ ليصير لسانه طاهرا فيقرأ بلسان طاهر كلاما أنزل من رب طيب طاهر. النكتة الثامنة عشرة: كأنه تعالى يقول: إنه شيطان رجيم، وأنا رحمن رحيم، فابعد عن الشيطان الرجيم لتصل إلى الرحمن الرحيم. النكتة التاسعة عشرة: الشيطان عدوك، وأنت عنه غافل غائب، قال تعالى: إنه يراكم/ هو وقبيله من حيث لا ترونهم [الأعراف: ٢٧] .

فعلى هذا لك عدو غائب ولك حبيب غالب، لقوله تعالى: والله غالب على أمره [يوسف: ٢١] فإذا قصدك العدو الغائب فافزع إلى الحبيب الغالب، والله سبحانه وتعالى أعلم بمراده.

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٣٩/١

الباب السابع في المسائل الملتحقة بقوله: (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم)

المسألة الأولى: فرق بين أن يقال: «أعوذ بالله» وبين أن يقال: (بالله أعوذ) فإن الأول لا يفيد الحصر، والثاني: يفيده، فلم ورد الأمر بالأول دون الثاني مع أنا بينا أن الثاني أكمل وأيضا جاء قوله: «الحمد لله» وجاء قوله: «لله الحمد» وأما هنا فقد جاء «أعوذ بالله» وما جاء قوله «بالله أعوذ» فما الفرق؟.

المسألة الثانية: قوله: (أعوذ بالله) لفظه الخبر ومعناه الدعاء، والتقدير: اللهم أعذني. ألا ترى أنه قال: وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم [آل عمران: ٣٦] كقوله: «أستغفر الله» أي اللهم اغفر لي، والدليل عليه أن قوله: أعوذ بالله إخبار عن فعله، وهذا القدر لا فائدة فيه إنما الفائدة في أن يعيذه الله، فما السبب في أنه قال: «أعوذ بالله» ولم يقل أعذني؟ والجواب أن بين الرب وبين العبد عهدا كما قال تعالى: وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم [النحل: ٩١] وقال: وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم [البقرة: ٤٠] فكأن العبد يقول أنا مع لؤم الإنسانية ونقص البشرية وفيت بعهد عبوديتي حيث قلت: «أعوذ بالله» فأنت مع نهاية الكرم وغاية الفضل والرحمة أولى بأن تفي بعهد الربوبية فتقول: إني أعيذك من الشيطان الرجيم.

المسألة ج: أعوذ فعل مضارع، وهو يصلح للحال والاستقبال، فهل هو حقيقة فيهما؟ والحق أنه حقيقة في الحال مجاز في الاستقبال، وإنما يختص به بحرف السين وسوف.

(د) لم وقع الاشتراك بين الحاضر والمستقبل، ولم يقع بين الحاضر والماضي؟.

(هـ) كيف المشابهة بين المضارع وبين الاسم.

(و) كيف العامل فيه، ولا شك أنه معمول فما هو.

(ز) قوله: (أعوذ) يدل على أن العبد مستعيذ في الحال وفي كل المستقبل، وهو الكمال، فهل يدل على أن هذه الاستعاذة باقية في الجنة.." (١)

"من كان اطلاعه على آثار حكمة الله تعالى في تدبير العالم الأعلى وتدبير العالم الأسفل أكثر، كان اطلاعه على أسماء الله تعالى أكثر، ووقوفه على الصفات الموجبة للمدح والتعظيم أكثر، فمن طالع تشريح بدن الإنسان ووقف فيه على ما يقرب من عشرة آلاف نوع من أنواع الرحمة **والحكمة في** تخليق بدن الإنسان فقد حصل في عقله عشرة آلاف نوع من أسماء الله تعالى الدالة على المدح والتعظيم، ثم إن من

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٩٥/١

وقف على العدد الذي ذكرناه من أقسام الرحمة والحكمة في بدن الإنسان صار ذلك منبها للعقل على أن الذي لم يعرفه من أقسام الحكمة والرحمة في تخليق هذا البدن أكثر مما عرفه، وذلك لما عرف أن الأرواح الدماغية من العصب سبعة، عرف لكل واحد منها فائدة وحكمة، ثم لما عرف أن كل واحد من هذه الأرواح ينقسم إلى ثلاثة أقسام أو أربعة عرف بالجبلة الشديدة وجه الحكمة في كل واحد من تلك الأقسام. ثم إن العقل يعلم أن كل واحد من تلك الأقسام ينقسم إلى شظايا دقيقة، وكل واحدة من تلك الشظايا تنقسم إلى أقسام أخر وكل واحد من تلك الأقسام يتصل بعضو معين اتصالا معينا. ويكون وصول ذلك القسم إلى ذلك العضو في ممر معين، إلا أنها لما كثرت ودقت خرجت عن ضبط العقل، فثبت أن تلك العشرة آلاف تنبه العقل على أن أقسام حكمة الله تعالى في تخليق هذا البدن خارج عن التعديد والتحديد والإحصاء والاستقصاء كما قال تعالى: وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها [إبراهيم: ٣٤، النحل: ١٨] فكل من وقف على نوع آخر من أنواع تلك الحكمة فقد وصل إلى معرفة اسم آخر من أسماء الله تعالى، ولما كان لا نهاية لمراتب حكمة الله تعالى ورحمته فكذلك لا نهاية لأسمائه الحسنى ولصفاته العليا، وذكر جالينوس في «كتاب منافع الأعضاء» أنه لما صنف ذلك الكتاب لم يكتب فيه منافع مجمع النور، قال: وإنما تركت كتابتها ضنة بها لشرفها، فرأيت في بعض/ الليالي كأن ملكا نزل من السماء وقال: جالينوس، إن إلهك يقول: لم أخفيت حكمتي عن عبادي قال: فلما انتهيت صنفت في هذا المعنى كتابا مفردا، وبالغت في شرحه، فثبت بما ذكرنا أنه لا نهاية لأسماء الله الحسنى.

حكم الأذكار التي في الرقى:

المسألة الرابعة: [حكم الأذكار التي في الرقى] أنا نرى في «كتب الطلسمات والعزائم» أذكارا غير معلومة ورقى غير مفهومة وكما أن تلك الألفاظ غير معلومة فقد تكون الكتابة غير معلومة، وأقول: لا شك أن الكتابة دالة على الألفاظ، ولا شك أن الألفاظ دالة على الصور الذهنية فتلك الرقى إن لم يكن فيها دلالة على شيء أصلا لم يكن فيها فائدة. وإن كانت دالة على شيء فدلالتها إما أن تكون على صفات الله ونعوت كبريائه، وإما أن تكون دالة على شيء آخر:

أما الثاني فإنه لا يفيد، لأن ذكر غير الله لا يفيد لا الترغيب ولا الترهيب، فبقي أن يقال: إنها دالة على ذكر الله وصفات المدح والثناء، فنقول: ولما كانت أقسام ذكر الله مضبوطة ولا يمكن الزيادة عليه كان أحسن أحوال تلك الكلمات أن تكون من جنس هذه الأدعية، وأما الاختلاف الحاصل بسبب اختلاف

اللغات فقليل الأثر، فوجب أن تكون هذه الأذكار المعلومة أدخل في التأثير من قراءة تلك المجهولات، لكن لقائل أن يقول: إن نفوس أكثر الخلق ناقصة قاصرة، فإذا قرءوا هذه الأذكار المعلومة وفهموا ظواهرها وليست لهم نفوس قوية مشرقة إلهية لم يقو تأثرهم عن الإلهيات ولم تتجرد نفوسهم عن هذه الجسمانيات، فلا تحصل لنفوسهم قوة وقدرة على التأثير، أما إذا قرءوا تلك الألفاظ المجهولة ولم يفهموا منها شيئا وحصلت عندهم أوهام أنها كلمات عالية استولى الخوف والفزع والرعب على نفوسهم فحصل لهم بهذا السبب نوع من التجرد عن عالم الجسم." (١)

"الثانية عشرة: الباء من «بسم» مشتق من البر فهو البار على المؤمنين بأنواع الكرامات في الدنيا والآخرة، وأجل بره وكرامته أن يكرمهم يوم القيامة برؤيته.

مرض لبعضهم جار يهودي قال: فدخلت عليه للعيادة وقلت له: أسلم، فقال: على ماذا؟ قلت: من خوف النار قال: لا أبالي بها، فقلت: للفوز بالجنة، فقال: لا أريدها، قلت: فماذا تريد؟ قال: على أن يريني وجهه الكريم، قلت: أسلم على أن تجد هذا المطلوب، فقال لي: اكتب بهذا خطا، فكتبت له بذلك خطا فأسلم ومات من ساعته، فصلينا عليه ودفناه، فرأيته في النوم كأنه يتبختر فقلت له: يا شمعون، ما فعل بك ربك؟ قال: غفر لي، وقال لي: أسلمت شوقا إلي.

وأما السين فهو مشتق من اسمه السميع، يسمع دعاء الخلق من العرش إلى ما تحت الثرى.

روي أن زيد بن حارثة خرج مع منافق من مكة إلى الطائف فبلغا خربة فقال المنافق ندخل هاهنا ونستريح، فدخلا ونام زيد فأوثق المنافق زيدا وأراد قتله، فقال زيد: لم تقتلني؟ قال: لأن محمدا يحبك وأنا أبغضه، فقال زيد: يا رحمن أغثني، فسمع المنافق صوتا يقول: ويحك لا تقتله، فخرج من الخربة ونظر فلم ير أحدا، فرجع وأراد قتله فسمع صائحا أقرب من الأول يقول: لا تقتله، فنظر فلم يجد أحدا، فرجع الثالثة وأراد قتله فسمع صوتا قريبا يقول: لا تقتله، فخرج فرأى فارسا معه رمح فضربه الفارس ضربة فقتله، ودخل الخربة وحل وثاق زيد، وقال له: أما تعرفني؟ أنا جبريل حين دعوت كنت في السماء السابعة فقال الله عز وجل: (أدرك عبدي) ، وفي الثانية كنت في السماء الدنيا، وفي الثالثة بلغت إلى المنافق.

وأما الميم فمعناه أن من العرش إلى ما تحت الثرى ملكه وملكه.

قال السدي: أصاب الناس قحط على عهد سليمان بن داود عليهما السلام، فأتوه فقالوا له: يا نبي الله، لو

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ١/١٤٢

خرجت بالناس إلى الاستسقاء، فخرجوا وإذا بنملة قائمة على رجليها باسطة يديها وهي تقول: اللهم إنا خلق من خلقك، ولا غنى لي عن فضلك، قال: فصب الله تعالى عليهم المطر، فقال لهم سليمان عليه السلام: ارجعوا فقد استجيب لكم بدعاء غيركم.

أما قوله: «الله» فاعلموا أيها الناس أني أقول طول حياتي الله، فإذا مت أقول الله، وإذا سئلت في القبر أقول الله، وإذا جئت يوم القيامة أقول الله، وإذا أخذت الكتاب أقول الله وإذا وزنت أعمالي أقول الله، وإذا جزت الصراط أقول الله، وإذا دخلت الجنة أقول الله، وإذا رأيت الله قلت الله. النكتة الثالثة عشرة: الحكمة في ذكر هذه الأسماء الثلاثة أن المخاطبين في القرآن ثلاثة أصناف كما قال تعالى: فمنهم ظالم لنفسه، ومنهم مقتصد، ومنهم سابق بالخيرات [فاطر: ٣٢] فقال: أنا الله للسابقين، الرحمن للمقتصدين، الرحيم للظالمين، وأيضا الله هو معطي العطاء، والرحمن هو المتجاوز عن زلات الأولياء، والرحيم هو المتجاوز عن الجفاء، ومن كمال رحمته كأنه تعالى يقول أعلم منك ما لو علمه أبواك لفارقاك، ولو علمته المرأة لجفتك، ولو علمته الأمة لأقدمت على الفرار منك، ولو علمه الجار لسعى في تخريب الدار، وأنا أعلم كل ذلك وأستره بكرمي لتعلم أني إله كريم.

الرابعة عشرة: الله يوجب ولايته، قال الله تعالى: الله ولي الذين آمنوا [البقرة: ٢٥٦] والرحمن يوجب." (١)

"محبته، قال الله تعالى: إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا [مريم: ٩٦] والرحيم يوجب رحمته وكان بالمؤمنين رحيما [الأحزاب: ٤٣] .

الخامسة عشرة:

قال عليه الصلاة والسلام: من رفع قرطاسا من الأرض فيه «بسم الله الرحمن الرحيم» إجلالا له تعالى كتب عند الله من الصديقين، وخفف عن والديه وإن كانا مشركين،

وقصة بشر الحافي في هذا الباب معروفة،

وعن أبي هريرة أنه عليه الصلاة والسلام قال: «يا أبا هريرة، إذا توضأت فقل: بسم الله، فإن حفظتك لا تبرح أن تكتب لك الحسنات حتى تفرغ، وإذا غشيت أهلك فقل: بسم الله، فإن حفظتك يكتبون لك الحسنات حتى تخرج منها» .

وعن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ستر ما بين أعين الجن والعورات بني آدم

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ١٥٤/١

إذا نزعوا ثيابهم أن يقولوا: بسم الله الرحمن الرحيم،
والإشارة فيه أنه إذا صار هذا الاسم حجابا بينك وبين أعدائك من الجن في الدنيا أفلا يصير حجابا بينك وبين الزبانية في العقبى؟» .
السادسة عشرة: كتب قيصر إلى عمر رضي الله عنه أن بي صداعا لا يسكن فابعث لي دواء، فبعث إليه عمر قلنسوة فكان إذا وضعها على رأسه يسكن صداعه، وإذا رفعها عن رأسه عاوده الصداع، فعجب منه ففتش القلنسوة فإذا فيها كاغد مكتوب فيه: بسم الله الرحمن الرحيم.
السابعة عشرة:
قال صلى الله عليه وسلم: «من توضأ ولم يذكر اسم الله تعالى كان طهورا لتلك الأعضاء، ومن توضأ وذكر اسم الله تعالى كان طهورا لجميع بدنه، فإذا كان الذكر على الوضوء طهورا لكل البدن فذكره عن صميم القلب أولى أن يكون طهورا للقلب عن الكفر والبدعة.
الثامنة عشرة: طلب بعضهم آية من خالد بن الوليد فقال: إنك تدعي الإسلام فأرنا آية لنسلم، فقال: ائتوني بالسم القاتل، فأتي بطاس من السم، فأخذها بيده وقال: بسم الله الرحمن الرحيم، وأكل الكل وقام سالما بإذن الله تعالى، فقال المجوس هذا دين حق.
التاسعة عشرة:
مر عيسى ابن مريم عليه السلام على قبر فرأى ملائكة العذاب يعذبون ميتا، فلما انصرف من حاجته مر على القبر فرأى ملائكة الرحمة معهم أطباق من نور، فتعجب من ذلك، فصلى ودعا الله تعالى فأوحى الله تعالى إليه: يا عيسى، كان هذا العبد عاصيا ومذ مات كان محبوسا في عذابي، وكان قد ترك امرأة حبلى فولدت ولدا وربته حتى كبر، فسلمته إلى الكتاب فلقنه المعلم بسم الله الرحمن الرحيم، فاستحيت من عبدي أن أعذبه بناري في بطن الأرض وولده يذكر اسمي على وجه الأرض.
العشرون: سئلت عمرة الفرغانية- وكانت من كبار العارفات- ما الحكمة في أن الجنب والحائض منهيان عن قراءة القرآن دون التسمية فقالت: لأن التسمية ذكر اسم الحبيب والحبيب لا يمنع من ذكر الحبيب.
الحادية والعشرون: قيل في قوله: «الرحيم» هو تعالى رحيم بهم في ستة مواضع في القبر وحشراته، والقيامة وظلماته، والميزان ودرجاته، وقراءة الكتاب وفزعاته، والصراط ومخافاته والنار ودركاته.." (١)

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ١/١٥٥

"وقعت قطرة النطفة من صلب الأب إلى رحم الأم فانظر كيف أنها صارت علقة أولا، ثم مضغة ثانيا، ثم تولدت منها أعضاء مختلفة مثل العظام والغضاريف والرباطات والأوتار والأوردة والشرايين، ثم اتصل البعض بالبعض، ثم حصل في كل واحد منها نوع خاص من أنواع القوى، فحصلت القوة الباصرة في العين، والسامعة في الأذن، والناطقة في اللسان، فسبحان من أسمع بعظم، وبصر بشحم، وأنطق بلحم، واعلم أن كتاب التشريح لبدن الإنسان مشهور، وكل ذلك يدل على تربية الله تعالى للعبد المثال الثاني: أن الحبة الواحدة إذا وقعت في الأرض فإذا وصلت نداوة الأرض إليها انتفخت ولا تنشق من شيء من الجوانب إلا من أعلاها وأسفلها، مع أن الانتفاخ حاصل من جميع الجوانب: أما الشق الأعلى فيخرج منه الجزء الصاعد من الشجرة، وأما الشق الأسفل فيخرج منه الجزء الغائص في الأرض، وهو عروق الشجرة، فأما الجزء الصاعد فبعد صعوده يحصل له ساق، ثم ينفصل من ذلك الساق أغصان كثيرة، ثم يظهر على تلك الأغصان الأنوار أولا، ثم الثمار ثانيا، ويحصل لتلك الثمار أجزاء مختلفة بالكثافة واللطافة وهي القشور ثم اللبوب ثم الأدهان، وأما الجزء الغائص من الشجرة فإن تلك العروق تنتهي إلى أطرافها، وتلك الأطراف تكون في اللطافة كأنها مياه منعقدة، ومع غاية لطافتها فإنها تغوص في الأرض الصلبة الخشنة، وأودع الله فيها قوى جاذبة تجذب الأجزاء اللطيفة من الطين إلى نفسها، **والحكمة في** كل هذه التدبيرات تحصيل ما يحتاج العبد إليه من الغذاء والأدام والفواكه والأشربة والأدوية، كما قال تعالى: أنا صببنا الماء صبا، ثم شققنا الأرض شقا [عبس: ٢٥، ٢٦] الآيات.

المثال الثالث: أنه وضع الأفلاك والكواكب بحيث صارت أسبابا لحصول مصالح العباد، فخلق الليل ليكون سببا للراحة والسكون وخلق النهار ليكون سببا للمعاش والحركة هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق، [يونس: ٥] وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر [الأنعام: ٩٧] واقرأ قوله: ألم نجعل الأرض مهادا، والجبال أوتادا [النبأ: ٥، ٦]- إلى آخر الآية واعلم أنك إذا تأملت في عجائب أحوال المعادن والنبات والحيوان وآثار حكمة الرحمن في خلق الإنسان قضى صريح عقلك بأن أسباب تربية الله كثيرة، ودلائل رحمته لائحة ظاهرة، وعند ذلك يظهر لك قطرة من بحار أسرار قوله الحمد لله رب العالمين.

الفائدة الخامسة: أضاف الحمد إلى نفسه فقال تعالى الحمد لله، ثم أضاف نفسه إلى العالمين/ والتقدير: إني أحب الحمد فنسبته إلى نفسي بكونه ملكا لي ثم لما ذكرت نفسي عرفت نفسي بكوني ربا للعالمين،

ومن عرف ذاتا بصفة فإنه يحاول ذكر أحسن الصفات وأكملها، وذلك يدل على أن كونه ربا للعالمين أكمل الصفات، والأمر كذلك، لأن أكمل المراتب أن يكون تاما، وفوق التمام، فقو◌لنا الله يدل على كونه واجب الوجود لذاته في ذاته وبذاته وهو التمام، وقوله رب العالمين معناه أن وجود كل ما سواه فائض عن تربيته وإحسانه وجوده وهو المراد من قولنا أنه فوق التمام.

الفائدة السادسة: أنه يملك عبادا غيرك كما قال: وما يعلم جنود ربك إلا هو [المدثر: ٣١] وأنت ليس لك رب سواه، ثم إنه يربيك كأنه ليس له عبد سواك وأنت تخدمه كأن لك ربا غيره، فما أحسن هذه التربية أليس أنه يحفظك في النهار عن الآفات من غير عوض، وبالليل عن المخافات من غير عوض؟ واعلم أن الحر◌اس يحرسون الملك كل ليلة، فهل يحرسونه عن لدغ الحشرات وهل يحرسونه عن أن تنزل به البليات؟ أما." (١)

"[آل عمران: ٣٨] ، ورب أرني [الأعراف: ١٤٣] والسبب فيه أن الرد من الكريم على سبيل المشافهة والمخاطبة بعيد وأيضا العبادة خدمة، والخدمة في الحضور أولى. الوجه الثالث: أن من أول السورة إلى قوله إياك نعبد ثناء، والثناء في الغيبة أولى، ومن قوله إياك نعبد وإياك نستعين إلى آخر السورة دعاء، والدعاء في الحضور أولى. الوجه الرابع: العبد لما شرع في الصلاة وقال نويت أن أصلي تقربا إلى الله فينوي حصول القربة، ثم إنه ذكر بعد هذه النية أنواعا من الثناء على الله، فاقتضى كرم الله إجابته في تح◌صيل تلك القربة، فنقله من مقام الغيبة إلى مقام الحضور، فقال: إياك نعبد وإياك نستعين.

الفصل السادس في قوله وإياك نستعين

معنى قوله: وإياك نستعين:

اعلم أنه ثبت بالدلائل العقلية أنه لا حول عن معصية الله إلا بعصمة الله، ولا قوة على طاعة الله إلا بتوفيق الله، ويدل عليه وجوه من العقل والنقل، أما العقل فمن وجوه: الأول: أن القادر متمكن من الفعل والترك على السوية، فما لم يحصل المرجح لم يحصل الرجحان، وذلك المرجح ليس من العبد، وإلا لعاد في الطلب، فهو من الله تعالى، فثبت أن الع◌بد لا يمكنه الإقدام على الفعل إلا بإعانة الله. الثاني: أن جميع الخلائق يطلبون الدين الحق والاعتقاد الصدق مع استوائهم في القدرة والعقل والجد والطلب، ففوز البعض

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٠٠/١

بدرك الحق لا يكون إلا بإعانة معين، وما ذاك المعين إلا الله تعالى، لأن ذلك المعين لو كان بشرا أو ملكا لعاد الطلب فيه. الثالث: أن الإنسان قد يطالب بشيء مدة مديدة ولا يأتي به، ثم في أثناء حال أو وقت يأتي به ويقدم عليه، ولا يتفق له تلك الحالة إلا إذا وقعت داعية جازمة في قلبه تدعوه إلى ذلك الفعل، فإلقاء تلك الداعية في القلب وإزالة الدواعي المعارضة لها ليست إلا من الله تعالى، ولا معنى للإعانة إلا ذلك.

وأما النقل فيدل عليه آيات: أولاها: قوله وإياك نستعين، وثانيتها: قوله: استعينوا بالله [الأعراف: ١٢٨] وقد اضطربت الجبرية والقدرية في هذه الآية: أما الجبرية فقالوا: لو كان العبد مستقلا بالفعل لما كان للاستعانة على الفعل فائدة، وأما القدرية فقالوا الاستعانة إنما تحسن لو كان العبد متمكنا من أصل الفعل، فتبطل الإعانة من الغير، أما إذا لم يقدر على الفعل لم تكن للاستعانة فائدة.

وعندي أن القدرة لا تؤثر في الفعل إلا مع الداعية الجازمة، فالإعانة المطلوبة عبارة عن خلق الداعية الجازمة، وإزالة الداعية الصارفة ولنذكر ما في هذه الكلمة من اللطائف والفوائد: - الفائدة الأولى: لقائل أن يقول: الاستعانة على العمل إنما تحسن قبل الشروع في العمل وهاهنا ذكر قوله إياك نعبد ثم ذكر عقيبه وإياك نستعين، فما الحكمة فيه؟ الجواب من وجوه: الأول: كأن المصلي يقول:

شرعت في العبادة فأستعين بك في إتمامها، فلا تمنعني من إتمامها بالموت ولا بالمرض ولا بقلب الدواعي وتغيرها. الثاني: كأن الإنسان يقول: يا إلهي إني أتيت بنفسي إلا أن لي قلبا يفر مني، فأستعين بك في." (١)

"فإن قيل: لم قدم ذكر العصاة على ذكر الكفرة؟ قلنا: لأن كل واحد يحترز عن الكفر أما قد لا يحترز عن الفسق فكان أهم فلهذا السبب قدم.

الفائدة الثامنة: في الآية سؤال، وهو أن غضب الله إنما تولد عن علمه بصدور القبيح والجناية عنه، فهذا العلم إما أن يقال إنه قديم، أو محدث، فإن كان هذا العلم قديما فلم خلقه ولم أخرجه من العدم إلى الوجود مع علمه بأنه لا يستفيد من دخوله في الوجود إلا العذاب الدائم، ولأن من كان غضبان على الشيء كيف يعقل إقدامه على إيجاده وعلى تكوينه؟ وأما إن كان ذلك العلم حادثا كان الباري تعالى محلا للحوادث، ولأنه يلزم أن يفتقر إحداث ذلك العلم إلى سبق علم آخر، ويتسلسل، وهو محال، وجوابه يفعل الله ما

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢١٦/١

يشاء ويحكم ما يريد.

الفائدة التاسعة: في الآية سؤال آخر، وهو أن من أنعم الله عليه امتنع أن يكون مغضوبا عليه وأن يكون من الضالين، فلما ذكر قوله أنعمت عليهم فما الفائدة في أن ذكر عقيبه غير المغضوب عليهم ولا الضالين؟

والجواب: الإيمان إنما يكمل بالرجاء والخوف، كما

قال عليه السلام: «لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه لاعتدلا،

فقوله: صراط الذين أنعمت عليهم يوجب الرجاء الكامل، وقوله: غير المغضوب عليهم ولا الضالين يوجب الخوف الكامل، وحينئذ يقوى الإيمان بركنيه وطرفيه، وينتهي إلى حد الكمال.

الفائدة العاشرة: في الآية سؤال آخر، ما الحكمة في أنه تعالى جعل المقبولين طائفة واحدة وهم الذين أنعم الله عليهم، والمردودين فريقين: المغضوب عليهم، والضالين؟ والجواب أن الذين كملت نعم الله عليهم هم الذين جمعوا بين معرفة الحق لذاته والخير لأجل العمل به، فهؤلاء هم المرادون بقوله: أنعمت عليهم، فإن اختل قيد العمل فهم الفسقة وهم المغضوب عليهم كما قال تعالى: ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه ولعنه [النساء: ٩٣] وإن اختل قيد العلم فهم الضالون لقوله تعالى: فماذا بعد الحق إلا الضلال [يونس: ٣٢] وهذا آخر كلامنا في تفسير كل واحدة من آيات هذه السورة على التفصيل، والله أعلم.

القسم الثاني

الكلام في تفسير مجموع هذه السورة، وفيه فصول

الفصل الأول في الأسرار العقلية المستنبطة من هذه السورة

اعلم أن عالم الدنيا عالم الكدورة، وعالم الآخرة عالم الصفاء، فالآخرة بالنسبة إلى الدنيا كالأصل بالنسبة إلى الفرع، وكالجسم بالنسبة إلى الظل، فكل ما في الدنيا فلا بد له في الآخرة من أصل، وإلا كان كالسراب الباطل والخيال العاطل، وكل ما في الآخرة فلا بد له في الدنيا من مثال، وإلا لكان كالشجرة بلا ثمرة

ومدلول بلا دليل، فعالم الروحانيات عالم الأضواء والأنوار والبهجة والسرور واللذة والحبور، ولا شك أن الروحانيات." (١)

"الحمد لله رب العالمين

[يونس: ١٠] وإذا قلت الرحمن الرحيم فأبصر به عالم الجمال، وهو الرحمة والفضل والإحسان، وإذا قلت مالك يوم الدين فأبصر به عالم الجلال وما يحصل فيه من الأحوال والأهوال، وإذا قلت إياك نعبد فأبصر به عالم الشريعة، وإذا قلت وإياك نستعين فأبصر به الطريقة، وإذا قلت اهدنا الصراط المستقيم فأبصر به الحقيقة، وإذا قلت صراط الذين أنعمت عليهم فأبصر به درجات أرباب السعادات وأصحاب الكرامات من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وإذا قلت غير المغضوب عليهم فأبصر به مراتب فساق أهل الآفاق، وإذا قلت ولا الضالين فأبصر به دركات أهل الكفر والشقاق والخزي والنفاق على كثرة درجاتها وتباين أطرافها وأكنافها.

ثم إذا انكشفت لك هذه الأحوال العالية والمراتب السامية فلا تظنن أنك بلغت الغور والغاية، بل عد إلى الإقرار للحق بالكبرياء، ولنفسك بالذلة والمسكنة، وقل: الله أكبر، ثم انزل من صفة الكبرياء إلى صفة العظمة، فقل: سبحان ربي العظيم، وإن أردت أن تعرف ذرة من صفة العظمة فاعرف أنا بينا أن العظمة صفة العرش، ولا يبلغ مخلوق بعقله كنه عظمة العرش وإن بقي إلى آخر أيام العالم، ثم اعرف أن عظمة العرش في مقابلة عظمة الله كالقطرة في البحر فكيف يمكنك أن تصل إلى كنه عظمة الله؟ ثم هاهنا سر عجيب وهو أنه ما جاء سبحان ربي الأعظم وإنما جاء سبحان ربي العظيم، وما جاء سبحان ربي العالي وإنما جاء سبحان ربي الأعلى، ولهذا التفاوت أسرار عجيبة لا يجوز ذكرها، فإذا ركعت وقلت سبحان ربي العظيم فعد إلى القيام ثانيا، وادع لمن وقف موقفك وحمد حمدك وقل: سمع الله لمن حمده، فإنك إذا سألتها لغيرك وجدتها لنفسك وهو المراد من

قوله عليه السلام: «لا يزال الله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه المسلم» .

قال قيل: ما السبب في أنه لم يحصل في هذا المقام التكبير؟.

قلنا: لأن التكبير مأخوذ من الكبرياء وهو مقام الهيبة والخوف، وهذا المقام مقام الشفاعة، وهما متباينان. ثم إذا فرغت من هذه الشفاعة فعد إلى التكبير وانحدر به إلى صفة العلو وقل سبحان ربي/ الأعلى، وذلك

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ١/ ٢٢٤

لأن السجود أكثر تواضعا من الركوع، لا جرم الذكر المذكور في السجود هو بناء المبالغة- وهو الأعلى- والذكر المذكور في الركوع هو لفظ العظيم من غير بناء المبالغة،

روي أن لله تعالى ملكا تحت العرش اسمه حزقيل أوحى الله إليه: أيها الملك، طر فطار مقدار ثلاثين ألف سنة ثم ثلاثين ثم ثلاثين فلم يبلغ من أحد طرفي العرش إلى الثاني، فأوحى الله إليه لو طرت إلى نفخ الصور لم تبلغ الطرف الثاني من العرش، فقال الملك عند ذلك: سبحان ربي الأعلى.

فإن قيل: فما **الحكمة في** السجدتين؟ قلنا: فيه وجوه: الأول: أن السجدة الأولى للأزل، والثانية للأبد، والارتفاع فيما بينهما إشارة إلى وجود الدنيا فيما بين الأزل والأبد، وذلك لأنك تعرف بأزليته أنه هو الأول لا أول قبله فتسجد له، وتعرف بأبديته أنه الآخر لا آخر بعده فتسجد له ثانيا. الثاني: قيل: اعلم بالسجدة الأولى فناء الدنيا في الآخرة، وبالسجدة الثانية فناء عالم الآخرة عند ظهور نور جلال الله. الثالث: السجدة الأولى فناء الكل في نفسها والسجدة الثانية بقاء الكل بإبقاء الله تعالى: كل شيء هالك إلا وجهه.

[القصص: ٨٨] الرابع: السجدة الأولى تدل على انقياد عالم الشهادة لقدرة الله، والسجدة الثانية تدل على انقياد." (١)

"مهرها من زوجها، ولا على إبرائه عنه، بخلاف الحرة، فلهذه الوجوه ما أذن الله في نكاح الأمة إلا على سبيل الرخصة والله أعلم.

قوله تعالى: فمن ما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات فيه مسائل:

المسألة الأولى: قوله: فمن ما ملكت أيمانكم أي فليتزوج مما ملكت أيمانكم. قال ابن عباس:

يريد جارية أختك، فإن الإنسان لا يجوز له أن يتزوج بجارية نفسه.

المسألة الثانية: الفتيات: المملوكة جمع فتاة، والعبد فتى،

وعن النبي صلى الله عليه وسلم: «لا يقولن أحدكم عبدي ولكن ليقل فتاي وفتاتي»

ويقال للجارية الحديثة: فتاة، وللغلام فتى، والأمة تسمى فتاة، عجوزا كانت أو شابة، لأنها كالشابة في أنها لا توقر توقير الكبير.

المسألة الثالثة: قوله: من فتياتكم المؤمنات يدل على تقييد نكاح الأمة بما إذا كانت مؤمنة فلا يجوز

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٣٩/١

التزوج بالأمة الكتابية، سواء كان الزوج حرا أو عبدا، وهذا قول مجاهد وسعيد والحسن، وقول مالك والشافعي، وقال أبو حنيفة: يجوز التزوج بالأمة الكتابية.

حجة الشافعي رضي الله عنه: أن قوله: من فتياتكم المؤمنات تقييد لجواز نكاح الأمة بكونها مؤمنة، وذلك ينفي جواز نكاح غير المؤمنة من الوجهين اللذين ذكرناهما في مسألة طول الحرة، وأيضا قال تعالى: ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن [البقرة: ٢٢١] .

حجة أبي حنيفة رضي الله عنه من وجوه: النص والقياس: أما النص فالعمومات التي ذكرنا تمسكه بها في طول الحرة، وآكدها قوله: والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم [المائدة: ٥] وأما القياس فهو أنا أجمعنا على أن الكتابية الحرة مباحة، والكتابية المملوكة أيضا مباحة، فكذلك إذا تزوج بالكتابية المملوكة وجب أنه يجوز.

والجواب عن العمومات: أن دلائلنا خاصة فتكون مقدمة على العمومات، وعن القياس: أن الشافعي قال: إذا تزوج بالحرة الكتابية فهناك نقص واحد، أما إذا تزوج بالأمة الكتابية فهناك نوعان من النقص: الرق والكفر، فظهر الفرق.

ثم قال تعالى: والله أعلم بإيمانكم قال الزجاج: معناه اعملوا على الظاهر في الإيمان فإنكم مكلفون بظواهر الأمور، والله يتولى السرائر والحقائق.

ثم قال تعالى: بعضكم من بعض وفيه وجهان: الأول: كلكم أولاد آدم فلا تداخلنكم أنفة من تزوج الإماء عند الضرورة. والثاني: أن المعنى: كلكم مشتركون في الإيمان، والإيمان أعظم الفضائل، فإذا حصل الاشتراك في أعظم الفضائل كان التفاوت فيما وراءه غير ملتفت إليه، ونظيره قوله تعالى: والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض [التوبة: ٧١] وقوله: إن أكرمكم عند الله أتقاكم [الحجرات: ١٣] قال الزجاج: فهذا الثاني أولى لتقدم ذكر المؤمنات، أو لأن الشرف بشرف الإسلام أولى منه بسائر الصفات، وهو يقوي قول الشافعي رضي الله عنه: إن الإيمان شرط لجواز/ نكاح الأمة.

واعلم أن الحكمة في ذكر هذه الكلمة أن العرب كانوا يفتخرون بالأنساب، فأعلم في ذكر هذه الكلمة أن." (١)

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٤٩/١٠

"انضاف إليه القول لا جرم كمل الإيمان. الثاني: روى عطاء عن ابن عباس أنه قال قوله بما قالوا يريد بما سألوا، يعني قولهم فاكتبنا مع الشاهدين [المائدة: ٨٣] .

المسألة الثانية: الآية دالة على أن المؤمن الفاسق لا يبقى مخلدا في النار، وبيانه من وجهين: الأول: أنه تعالى قال: وذلك جزاء المحسنين وهذا الإحسان لا بد وأن يكون هو الذي تقدم ذكره من المعرفة وهو قوله مما عرفوا من الحق [المائدة: ٨٣] ومن الإقرار به، وهو قوله فأثابهم الله بما قالوا وإذا كان كذلك، فهذه الآية دالة على أن هذه المعرفة، وهذا الإقرار يوجب أن يحصل له هذا الثواب، وصاحب الكبيرة له هذه المعرفة وهذا الإقرار، فوجب أن يحصل له هذا الثواب، فأما أن ينقل من الجنة إلى النار وهو باطل بالإجماع، أو يقال: يعاقب على ذنبه ثم ينقل إلى الجنة وذلك هو المطلوب.

الثاني: هو أنه تعالى قال: والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم فقوله أولئك أصحاب الجحيم يفيد الحصر، أي أولئك أصحاب الجحيم لا غيرهم، والمصاحب للشيء هو الملازم له الذي لا ينفك عنه، فهذا يقتضي تخصيص هذا الدوام بالكفار، فصارت هذه الآية من هذين الوجهين من أقوى الدلائل على أن الخلود في النار لا يحصل للمؤمن الفاسق.

[سورة المائدة (٥) : آية ٨٧]

يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين (٨٧)

اعلم أن الله تعالى لما استقصى في المناظرة مع اليهود والنصارى عاد بعده إلى بيان الأحكام وذكر جملة منها.

النوع الأول: ما يتعلق بحل المطاعم والمشارب واللذات فقال: يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم وفيه مسائل:

المسألة الأولى: الطيبات اللذيذات التي تشتهيها النفوس، وتميل إليها القلوب، وفي الآية قولان: الأول: روي أنه صلى الله عليه وسلم وصف يوم القيامة لأصحابه في بيت عثمان بن مظعون وبالغ وأشبع الكلام في الإنذار والتحذير، فعزموا على أن يرفضوا الدنيا ويحرموا على أنفسهم المطاعم الطيبة والمشارب اللذيذة، وأن يصوموا النهار ويقوموا الليل وأن لا يناموا على الفرش، ويخصوا أنفسهم ويلبسوا المسوح ويسيحوا في الأرض، فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم بذلك، فقالوا لهم «إني لم أومر بذلك إن لأنفسكم عليكم حقا فصوموا وأفطروا وقوموا وناموا فإني أقوم وأنام وأصوم وأفطر آكل اللحم والدسم وآتي النساء فمن رغب عن

سنتي فليس مـ◌◌◌ي»

وبهذا الكلام ظهر وجه النظم بين هذه الآية وبين ما قبلها، وذلك لأنه تعالى مدح النصارى بأن منهم قسيسين ورهبانا، وعادتهم الاحتراز عن طيبات الدنيا ولذاتها، فلما مدحهم أوهم ذلك المدح ترغيب المسلمين في مثل تلك الطريقة، فذكر تعالى عقيب هذه الآية إزالة لذلك الوهم، ليظهر للمسلمين أنهم ليسوا مأمورين بذلك.

فإن قيل: ما **الحكمة في** هذا النهي، فإن من المعلوم أن حب الدنيا مستول على الطباع والقلوب، فإذا توسع الإنسان في اللذات والطيبات اشتد ميله إليها وعظمت رغبته فيها، وكـ◌لما كانت تلك النعم أكثر وأدوم كان ذلك الميل أقوى وأعظم، وكلما ازداد الميل قوة ورغبة ازداد حرصه في طلب الدنيا واستغراقه في تحصيلها، وذلك يمنعه عن الاستغراق في معرفة الله وفي طاعته ويمنعه عن طلب سعادات الآخرة، وأما إذا أعرض عن." (١)

"لذات الدنيا وطيباتها، فكلما كان ذلك الإعراض أتم وأدوم كان ذلك الميل أضعف والرغبة أقل، وحينئذ تتفرغ النفس لطلب معرفة الله تعالى والاستغراق في خدمته، وإذا كان الأمر كذلك فما **الحكمة في** نهي الله تعالى عن الرهبانية؟

والجواب: عنه من وجوه: الأول: أن الرهبانية المفرطة والاحتراز التام عن الطيبات واللذات مما يوقع الضعف في الأعضاء الرئيسة التي هي القلب والدماغ، وإذا وقع الضعف فيهما اختلف الفكرة وتشوش العقل.

ولا شك أن أكمل السعادات وأعظم القربات إنما هو معرفة/ الله تعالـ◌ى، فإذا كانت الرهبانية الشديدة مما يوقع الخلل في ذلك بالطريق الذي بيناه لا جرم وقع النهي عنها. والثاني: وهو أن حاصل ما ذكرتم أن اشتغال النفس بطلب اللذات الحسية يمنعها عن الاستكمال بالسعادات العقلية، وهذا مسلم لكن في حق النفوس الضعيفة، أما النفوس المستعلية الكاملة فإنها لا يكون استعمالها في الأعمال الحسية مانعا لها من الاستكمال بالسعادات العقلية، فإنا نشاهد النفوس قد تكون ضعيفة بحيث متى اشتغلت بمهم امتنع عليها الاشتغال بمهم آخر، وكلما كانت النفس أقوى كانت هذه الحالة أكمل، وإذا كان كذلك كانت الرهبانية الخالصة دليلا على نوع من الضعف والقصور، وإنما الكمال في الوفاء بالجهتين والاستكمال في الناس. الثالث: وهو أن من استوفى اللذات الحسية، كان غرضه منها الاستعانة بها على استيفاء اللذات العقلية

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ١٢/٤١٦

فإن رياضته ومجاهدته أتم من رياضة من أعرض عن اللذات الحسية، لأن صرف حصة النفس إلى جانب الطاعة أشق وأشد من الإعراض عن حصة النفس بالكلية، فكان الكمال في هذا أتم. الرابع: وهو أن الرهبانية التامة توجب خراب الدنيا وانقطاع الحرث والنسل. وأما ترك الرهبانية مع المواظبة على المعرفة والمحبة والطاعات فإنه يفيد عمارة الدنيا والآخرة، فكانت هذه الحالة أكمل، فهذا جملة الكلام في هذا الوجه.

القول الثاني: في تفسير هذه الآية ما ذكره القفال، وهو أنه تعالى قال في أول السورة أوفوا بالعقود فبين أنه كما لا يجوز استحلال المحرم كذلك لا يجوز تحريم المحلل، وكانت العرب تحرم من الطيبات ما لم يحرمه الله تعالى، وهي البحيرة والسائبة والوصيلة والحام، وقد حكى الله تعالى ذلك في هذه السورة وفي سورة الأنعام، وكانوا يحللون الميتة والدم وغيرهما، فأمر الله تعالى أن لا يحرموا ما أحل الله ولا يحللوا ما أحل الله ولا يحللوا ما حرمه الله تعالى حتى يدخلوا تحت قوله يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود [المائدة: ١] .

المسألة الثانية: قوله لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم يحتمل وجوها: أحدها: لا تعتقدوا تحريم ما أحل الله تعالى لكم، وثانيها: لا تظهروا باللسان تحريم ما أحله الله لكم، وثالثها: لا تجتنبوا عنها اجتنابا شبيه الاجتناب من المحرمات، فهذه الوجوه الثلاثة محمولة على الاعتقاد والقول والعمل، ورابعها: لا تحرموا على غيركم بالفتوى، وخامسها: لا تلتزموا تحريمها بنذر أو يمين، ونظير هذه الآية قوله تعالى: يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك [التحريم: ١] وسادسها: أن يخلط المغصوب بالمملوك خلطا لا يمكنه التمييز، وحينئذ يحرم الكل، فذلك الخلط سبب لتحريم ما كان حلالا له، وكذلك القول فيما إذا خلط النجس بالطاهر، والآية محتملة لكل هذه الوجوه، ولا يبعد حملها على الكل والله أعلم.

المسألة الثالثة: قوله ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين [البقرة: ١٩٠] فيه وجوه: الأول: أنه تعالى/ جعل تحريم الطيبات اعتداء وظلما فنهى عن الاعتداء ليدخل تحته النهي عن تحريمها، والثاني: أنه لما أباح." (١)

"لا يتفاوت الحال فيه سواء كان هو في نفسه ملكا أو بشرا. ألا ترى أن جميع الرسل عاينوا الملائكة في صورة البشر كأضياف إبراهيم، وأضياف لوط، وكالذين تسوروا المحراب، وكجبريل حيث تمثل لمريم بشرا سويا.

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٤١٧/١٢

والوجه الثالث: أن إنزال الملك آية باهرة جارية مجرى الإلجاء، وإزالة الاختيار، وذلك مخل بصحة التكليف.
الوجه الرابع: أن إنزال الملك وإن كان يدفع الشبهات المذكورة إلا أنه يقوي الشبهات من وجه آخر، وذلك لأن أي معجزة ظهرت عليه قالوا هذا فعلك فعلته باختيارك وقدرتك، ولو حصل لنا مثل ما حصل لك من القدرة والقوة والعلم لفعلنا مثل ما فعلته أنت، فعلمنا أن إنزال الملك وإن كان يدفع الشبهة من الوجوه المذكورة لكنه يقوي الشبهة من هذه الوجوه.
وأما قوله ثم لا ينظرون فالفائدة في كلمة ثم التنبيه على أن عدم الإنظار أشد من قضاء الأمر، لأن مفاجأة الشدة أشد من نفس الشدة. وأما الثاني: فقوله ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا أي لجعلناه في صورة البشر.
والحكمة فيه أمور: أحدها: أن الجنس إلى الجنس أميل. وثانيها: أن البشر لا يطيق رؤية الملك، وثالثها: أن طاعات الملائكة قوية فيستحقرون طاعة البشر، وربما لا يعذرونهم في الإقدام على المعاصي.
ورابعها: أن النبوة فضل من الله فيختص بها من يشاء من عباده، سواء كان ملكا أو بشرا.
ثم قال: وللبسنا عليهم ما يلبسون قال الواحدي: يقال لبست الأمر على القوم ألبسه لبسا إذا شبهته عليهم وجعلته مشكلا، وأصله من التستر بالثوب، ومنه لبس الثوب لأنه يفيد ستر النفس والمعنى أنا إذا جعلنا الملك في صورة البشر فهم يظنون كون ذلك الملك بشرا فيعود سؤالهم أنا لا نرضى برسالة هذا الشخص.
وتحقيق الكلام أن الله لو فعل ذلك لصار فعل الله نظيرا لفعلهم في التلبيس، وإنما كان ذلك تلبيسا لأن الناس يظنون أنه بشر مع أنه ليس كذلك، وإنما كان فعلهم تلبيسا لأنهم يقولون لقومهم إنه بشر مثلكم والبشر لا يكون رسولا من عند الله تعالى.

[سورة الأنعام (٦) : آية ١٠]
ولقد استهزئ برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزؤن (١٠)
اعلم أن بعض الأقوام الذين كانوا يقولون إن رسول الله يجب أن يكون ملكا من الملائكة كانوا يقولون هذا الكلام على سبيل الاستهزاء، وكان يضيق قلب الرسول عند سماعه فذكر ذلك ليصير سببا للتخفيف عن القلب لأن أحدا ما يخفف عن القلب المشاركة في سبب المحنة والغم. فكأنه قيل له إن هذه الأنواع الكثيرة من سوء الأدب التي يعاملونك بها قد كانت موجودة في سائر القرون مع أنبيائهم، فلست أنت فريدا في هذا الطريق.
وقوله فحاق بالذين سخروا منهم الآية ونظيره قوله ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله [فاطر: ٤٣] وفي

تفسيره وجوه كثيرة لأهل اللغة وهي بأسرها متقاربة. قال النضر: وجب عليهم. قال الليث (الحيق) ما حاق بالإنسان من مكر أو سوء يعمله فنزل ذلك به، يقول أحاق الله بـهم مكرهم وحاق بهم مكرهم، وقال الفراء (حاق بهم) عاد عليهم، وقيل (حاق بهم) حل بهم ذلك. وقال الزجاج «حاق» أي أحاط. قال الأزهري: فسر الزجاج (حاق) بمعنى أحاط وكان مأخذه من الحوق وهو ما استدار بالكمرة. وفي الآية بحث آخر وهو أن لفظة (ما) في قوله ما كانوا به يستهزؤن فيها قولان: الأول: أن المراد به القرآن والشرع وهو ما جاء به محمد عليه السلام.

وعلى هذا التقدير فتصير هذه الآية من باب حذف المضاف، والتقدير فحاق بهم عقاب ما كانوا به يستهزؤن.." (١)

"[في قوله تعالى قل لو أن عندي ما تستعجلون به لقضي الأمر بيني وبينكم والله أعلم بالظالمين] اعلم أن المعنى لو أن عندي أي في قدرتي وإمكاني ما تستعجلون به من العذاب لقضي الأمر بيني وبينكم لأهلكتكم عاجلا غضبا لربي، واقتصاصا من تكذيبكم به. ولتخلصت سريعا والله أعلم بالظالمين وبما يجب في الحكمة من وقت عقابهم ومقداره، والمعنى: إني لا أعلم وقت عقوبة الظالمين.

والله تعالى يعلم ذلك فهو يؤخره إلى وقته، والله أعلم.

[في قوله تعالى وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو إلى قوله إلا في كتاب مبين] قوله تعالى: وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين.

اعلم أنه تعالى قال في الآية الأولى والله أعلم بالظالمين يعني أنه سبحانه هو العالم بكل شيء فهو يعجل ما تعجيله أصلح ويؤخر ما تأخيره أصلح. وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: المفاتح جمع مفتح. ومفتح، والمفتح بالكسر المفتاح الذي يفتح به والمفتح بفتح الميم الخزانة وكل خزانة كانت لصنف من الأشياء فهو مفتح، قال الفراء في قوله تعالى: ما إن مفاتحه لتنوأ بالعصبة [القصص: ٧٦] يعني خزائنه فلفظ المفاتح يمكن أن يكون المراد منه المفاتيح يتوصل بها إلى ما الخزائن أما على التقدير الأول. فقد جعل للغيب مفاتيح على طريق الاستعارة لأن المفاتيح يتوصل بها إلى ما في الخزائن المستوثق منها بالأغلاق والأقفال فالعالم بتلك المفاتيح وكيفية استعمالها في فتح تلك

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ١٢/٤٨٧

الأغلاق والأقفال يمكنه أن يتوصل بتلك المفاتيح إلى ما في تلك الخزائن فكذلك هاهنا الحق سبحانه لما كان عالما بجميع المعلومات عبر عن هذا المعنى بالعبارة المذكورة وقرئ مفاتيح وأما على التقدير الثاني فالمعنى وعنده خزائن الغيب. فعلى التقدير الأول يكون المراد العلم بالغيب، وعلى التقدير الثاني المراد منه القدرة على كل الممكنات كما في قوله: وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم [الحجر: ٢١] وللحكماء في تفسير هذه الآية كلام عجيب مفرع على أصولهم فإنهم قالوا: ثبت أن العلم بالعلة علة للعلم بالمعلول وأن العلم بالمعلول لا يكون علة للعلم بالعلة. قالوا: وإذا ثبت هذا فنقول: الموجود إما أن يكون واجبا لذاته، وإما أن يكون ممكنا لذاته، والواجب لذاته ليس إلا الله سبحانه وتعالى. وكل ما سواه فهو ممكن لذاته، والممكن لذاته لا يوجد إلا بتأثير الواجب لذاته وكل ما سوى الحق سبحانه فهو موجود بإيجاده كائن بتكوينه واقع بإيقاعه. إما بغير واسطة واحدة وإما بوسائط كثيرة على الترتيب النازل من عنده طولا وعرضا. إذا ثبت هذا فنقول: علمه بذاته يوجب عمله بالأثر الأول الصادر منه، ثم علمه بذلك الأثر الأول يوجب عمله بالأثر الثاني لأن الأثر الأول علة قريبة للأثر الثاني. وقد ذكرنا أن العلم بالعلة يوجب العلم بالمعلول فبهذا علم الغيب ليس إلا علم الحق بذاته المخصوصة ثم يحصل له من علمه بذاته علمه بالآثار الصادرة عنه على ترتيبها المعتبر، ولما كان علمه بذاته لم يحصل إلا لذاته لا جرم صح أن يقال: وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو فهذا هو طريقة هؤلاء الفرقة الذين فسروا هذه الآية بناء على هذه الطريقة.

ثم اعلم أن هاهنا دقيقة أخرى، وهي: أن القضايا العقلية المحضة يصعب تحصيل العلم بها على سبيل التمام والكمال إلا للعقلاء الكاملين الذين تعودوا الإعراض عن قضايا الحس والخيال وألفوا استحضار." (١)

"والقول الأول أولى، لأنه أكمل في الدلالة على الدهشة والضعف.

الصفة الثانية: قوله: حيران قال الأصمعي: يقال حار يحار حيرة وحيرا، وزاد الفراء حيرانا وحيرورة، ومعنى الحيرة هي التردد في الأمر بحيث لا يهتدي إلى مخرجه. ومنه يقال: الماء يتحير في الغيم أي يتردد، وتحيرت الروضة بالماء إذا امتلأت فتردد فيها الماء. واعلم أن هذا المثل في غاية الحسن، وذلك لأن الذي يهوي من المكان العالي إلى الوهدة العميقة يهوي إليها مع الاستدارة على نفسه، لأن الحجر حال نزوله

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ١٣/ ١٠

من الأعلى إلى الأسفل ينزل على الاستدارة، وذلك يوجب كمال التردد، والتحير، وأيضا فعند نزوله لا يعرف أنه يسقط على موضع يزداد بلاؤه بسبب سقوطه عليه أو يقل، فإذا اعتبرت مجموع هذه الأحوال علمت أنك لا تجد مثالا للمتحير المتردد الخائف أحسن ولا أكمل من هذا المثال.

الصفة الثالثة: قوله تعالى: له أصحاب يدعونه إلى الهدى ائتنا قالوا: نزلت هذه الآية في عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه فإنه كان يدعو أباه إلى الكفر وأبوه كان يدعوه إلى الإيمان ويأمره بأن يرجع من طريق الجهالة إلى الهداية ومن ظلمة الكفر إلى نور الإيمان. وقيل: المراد أن لذلك الكافر الضال أصحابا يدعونه إلى ذلك الضلال ويسمونه بأنه هو الهدى وهذا بعيد. والقول الصحيح هو الأول.

ثم قال تعالى: قل إن هدى الله هو الهدى يعني هو الهدى الكامل النافع الشريف كما إذا قلت علم زيد هو العلم وملك عمرو هو الملك كان معناه ما ذكرناه من تقرير أمر الكمال والشرف.

ثم قال تعالى: وأمرنا لنسلم لرب العالمين [إلى قوله إليه تحشرون] واعلم أن قوله: إن هدى الله هو الهدى دخل فيه جميع أقسام المأمورات والاحتراز عن كل المنهيات، وتقرير الكلام أن كل ما تعلق أمر الله به، فإما أن يكون من باب الأفعال، وإما أن يكون من باب التروك.

أما القسم الأول: فإما أن يكون من باب أعمال القلوب وإما أن يكون من باب أفعال الجوارح، ورئيس أعمال القلوب الإيمان بالله والإسلام له، ورئيس أعمال الجوارح الصلاة، وأما الذي يكون من باب التروك فهو التقوى وهو عبارة عن الاتقاء عن كل ما لا ينبغي، والله سبحانه لما بين أولا أن الهدى النافع هو هدى الله، أردف ذلك الكلام الكلي بذكر أشرف أقسامه على الترتيب وهو الإسلام الذي هو رئيس الطاعات الروحانية، والصلاة التي هي رئيسة الطاعات الجسمانية، والتقوى التي هي رئيسة لباب التروك والاحتراز عن كل ما لا ينبغي، ثم بين منافع هذه الأعمال فقال: وهو الذي إليه تحشرون يعني أن منافع هذه الأعمال إنما تظهر في يوم الحشر والبعث والقيامة.

فإن قيل: كيف حسن عطف قوله: وأن أقيموا الصلاة على قوله: وأمرنا لنسلم لرب العالمين؟

قلنا: ذكر الزجاج فيه وجهين: الأول: أن يكون التقدير، وأمرنا فقيل لنا أسلموا لرب العالمين وأقيموا الصلاة.

فإن قيل: هب أن المراد ما ذكرتم، لكن ما الحكمة في العدول عن هذا اللفظ الظاهر والتركيب الموافق للعقل إلى ذلك اللفظ الذي لا يهتدي العقل إلى معناه إلا بالتأويل؟

قلنا: وذلك لأن الكافر ما دام يبقي على كفره، كان كالغائب الأجنبي فلا جرم يخاطب بخطاب الغائبين،." (١)

"المسألة الأولى: اعلم أن المراد من قوله: وكذلك نصرف الآيات يعني أنه تعالى يأتي بها متواترة حالا بعد حال، ثم قال: وليقولوا درست وفيه مباحث:

البحث الأول: حكى الواحدي: في قوله درس الكتاب قولين: الأول: قال الأصمعي أصله من قولهم: درس الطعام إذا داسه، يدرسه دراسا والدراس الدياس بلغة أهل الشام قال: ودرس الكلام من هذا أي يدرسه فيخف على لسانه. والثاني: قال أبو الهيثم درست الكتاب أي ذللته بكثرة القراءة حتى خف حفظه، من قولهم درست الثوب أدرسه درسا فهو مدروس ودريس، أي أخلقته، ومنه قيل للثوب الخلق دريس لأنه قد لان، والدراسة الرياضة، ومنه درست السورة حتى حفظتها، ثم قال الواحدي: وهذا القول قريب مما قاله الأصمعي بل هو نفسه لأن المعنى يعود فيه إلى الدليل والتليين.

البحث الثاني: قرأ ابن كثير وأبو عمر ودارست بالألف ونصب التاء، وهو قراءة ابن عباس ومجاهد وتفسيرها قرأت على اليهود وقرءوا عليك، وجرت بينك وبينهم مدارسة ومذاكرة، ويقوي هذه القراءة قوله تعالى: إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون [الفرقان: ٤] وقرأ ابن عامر درست أي هذه الأخبار التي تلوتها علينا قديمة قد درست وانمحت، ومضت من الدرس الذي هو تعفي الأثر وإمحاء الرسم، قال الأزهري من قرأ درست فمعناه تقادمت أي هذا الذي تتلوه علينا قد تقادم وتطاول وهو من قولهم درس الأثر يدرس دروسا.

واعلم أن صاحب «الكشاف» روى هاهنا قراءات أخرى: فإحداها: درست بضم الراء مبالغة في درست أي اشتد دروسها. وثانيها: درست على البناء للمفعول بمعنى قدمت وعفت. وثالثها:

دارست وفسروها بدارست اليهود محمدا. ورابعها: درس أي درس محمد. وخامسها: دارسات على معنى هي دارسات أي قديمات أو ذات درس كعيشة راضية.

البحث الثالث: «الواو» في قوله: وليقولوا عطف على مضمر والتقدير وكذلك نصرف الآيات لنلزمهم الحجة وليقولوا فحذف المعطوف عليه لوضوح معناه.

البحث الرابع: اعلم أنه تعالى قال: وكذلك نصرف الآيات ثم ذكر الوجه الذي لأجله صرف هذه الآيات

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ١٣/٢٦

وهو أمران: أحدهما قوله تعالى: وليقولوا دارست والثاني: قوله: ولنبينه لقوم يعلمون أما هذا الوجه الثاني فلا إشكال فيه لأنه تعالى بين أن الحكمة في هذا التصريف أن يظهر منه البيان والفهم والعلم. وإنما الكلام في الوجه الأول وهو قوله: وليقولوا دارست لأن قولهم للرسول دارست كفر منهم بالقرآن والرسول، وعند هذا الكلام عاد بحث مسألة الجبر والقدر. فأما أصحابنا فإنهم أجروا الكلام على ظاهره فقالوا معناه أنا ذكرنا هذه الدلائل حالا بعد حال ليقول بعضهم دارست فيزداد كفرا على كفر، وتثبيتا لبعضهم فيزداد إيمانا على إيمان، ونظيره قوله تعالى: يضل به كثيرا ويهدي به كثيرا [البقرة: ٢٦] وقوله: وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم [التوبة: ١٢٥] وأما المعتزلة فقد تحيروا. قال الجبائي والقاضي: وليس فيه إلا أحد وجهين: الأول: أن يحمل هذا الإثبات على النفي، والتقدير: وكذلك نصرف الآيات لئلا يقولوا درست. ونظيره قوله تعالى: يبين الله لكم أن تضلوا ومعناه: لئلا تضلوا. والثاني: أن تحمل هذه اللام على." (١)

"والسؤال السابع: انه تعالى خلق السموات والأرض في مدة متراخية فما الحكمة في تقييدها وضبطها بالأيام الستة؟ فنقول: أما على مذهبنا فالأمر في الكل سهل واضح لأنه تعالى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ولا اعتراض عليه في أمر من الأمور وكل شيء صنعه ولا علة لصنعه. ثم نقول:

أما السؤال الأول: فجوابه أنه سبحانه ذكر في أول التوراة انه خلق السموات والأرض في ستة أيام والعرب كانوا يخالطون اليهود والظاهر أنهم سمعوا ذلك منهم فكأنه سبحانه يقول لا تشتغلوا بعبادة الأوثان والأصنام فإن ربكم هو الذي سمعتم من عقلاء الناس انه هو الذي خلق السموات والأرض على غاية عظمتها ونهاية جلالتها في ستة أيام.

وأما السؤال الثالث: فجوابه أن المقصود منه أنه سبحانه وتعالى وإن كان قادرا على إيجاد جميع الأشياء دفعة واحدة لكنه جعل لكل شيء حدا محدودا ووقتا مقدرا فلا يدخله في الوجود إلا على ذلك الوجه فهو وإن كان قادرا على إيصال الثواب إلى المطيعين في الحال وعلى إيصال العقاب إلى المذنبين في الحال إلا انه يؤخر هما إلى أجل معلوم مقدر فهذا التأخير ليس لأجل أنه تعالى أهمل العباد بل لما ذكرنا أنه خص كل شيء بوقت معين لسابق مشيئته فلا يفتر عنه ويدل على هذا قوله تعالى في سورة ق: ولقد خلقنا السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب فاصبر على ما يقولون [ق: ٣٨ ٣٩] بعد

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ١٣/١٠٦

أن قال قبل هذا: وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أشد منهم بطشا فنقبوا في البلاد هل من محيص إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد [ق: ٣٦ ٣٧] فأخبرهم بأنه قد أهلك من المشركين به والمكذبين لأنبيائه من كان أقوى بطشا من مشركي العرب إلا أنه أمهل هؤلاء لما فيه من المصلحة كما خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام متصلة لا لأجل لغوب لحقه في الإمهال ولما بين بهذا الطريق أنه تعالى إنما خلق العالم لا دفعة لكن قليلا قليلا قال بعده: فاصبر على ما يقولون من الشرك والتكذيب ولا تستعجل لهم العذاب بل توكل على الله تعالى وفوض الأمر إليه وهذا معنى ما يقوله المفسرون من أنه تعالى إنما خلق العالم في ستة أيام ليعلم عباده الرفق في الأمور والصبر فيها ولأجل أن لا يحمل المكلف تأخر الثواب والعقاب على الإهمال والتعطيل. ومن العلماء من ذكر فيه وجهين آخرين:

الوجه الأول: أن الشيء إذا أحدث دفعة واحدة ثم انقطع طريق الإحداث فلعله يخطر/ ببال بعضهم أن ذاك إنما وقع على سبيل الاتفاق أما إذا حدثت الأشياء على التعاقب والتواصل مع كونها مطابقة للمصلحة والحكمة كان ذلك أقوى في الدلالة على كونها واقعة بإحداث محدث قديم حكيم وقادر عليم رحيم.

الوجه الثاني: أنه قد ثبت بالدليل أنه تعالى يخلق العاقل أولا ثم يخلق السموات والأرض بعده ثم إن ذلك العاقل إذا شاهد في كل ساعة وحين حدوث شيء آخر على التعاقب والتوالي كان ذلك أقوى لعلمه وبصيرته لأنه يتكرر على عقله ظهور هذا الدليل لحظة بعد لحظة فكان ذلك أقوى في إفادة اليقين.

وأما السؤال الرابع: فجوابه ان ذكر السموات والأرض في هذه الآية يشتمل أيضا على ذكر ما بينهما والدليل عليه أنه تعالى ذكر سائر المخلوقات في سائر الآيات فقال: الله الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع وقال: وتوكل على الحي الذي." (١)

"اعلم أنه تعالى لما ذكر الدلائل الدالة على كمال القدرة والحكمة والرحمة، وعند هذا تم التكليف المتوجه إلى تحصيل المعارف النفسانية، والعلوم الحقيقة، أتبعه بذكر الأعمال اللائقة بتلك المعارف وهو الاشتغال بالدعاء والتضرع، فإن الدعاء مخ العبادة، فقال: ادعوا ربكم تضرعا وخفية وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: قوله: ادعوا ربكم فيه قولان: قال بعضهم: اعبدوا وقال آخرون: هو الدعاء، ومن قال بالأول عقل من الدعاء أنه طلب الخير من الله تعالى، وهذه صفة العبادة، لأنه يفعل تقربا، وطلبا للمجازاة لأنه

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ١٤/٢٥٧

تعالى عطف عليه قوله: وادعوه خوفا وطمعا والمعطوف ينبغي أن يكون مغايرا للمعطوف عليه. والقول الثاني هو الأظهر، لأن الدعاء مغاير للعبادة في المعنى.

إذا عرفت هذا فنقول: اختلف الناس في الدعاء، فمنهم من أنكره واحتج على صحة قوله بأشياء: الأول: أن المطلوب بالدعاء إن كان معلوم الوقوع كان واجب الوقوع لامتناع وقوع التغيير في علم الله تعالى، وما كان واجب الوقوع لم يكن في طلبه فائدة، وإن كان معلوم اللاوقوع كان ممتنع الوقوع فلا فائدة أيضا في طلبه.

الثاني: أنه تعالى إن كان قد أراد في الأزل إحداث ذلك المطلوب، فهو حاصل سواء حصل هذا الدعاء أو لم يحصل وإن كان قد أراد في الأزل أن لا يعطيه فهو ممتنع الوقوع فلا فائدة في الطلب، وإن قلنا أنه ما أراد في الأزل إحداث ذلك الشيء لا وجوده ولا عدمه، ثم إنه عند ذلك الدعاء، صار مريدا له لزم وقوع التغير في ذات الله وفي صفاته، وهو محال لأن على هذا التقدير: يصير إقدام العبد على الدعاء علة لحدوث صفة في ذات الله تعالى، فيكون العبد متصرفا في صفة الله بالتبديل والتغيير، وهو محال. والثالث: أن المطلوب بالدعاء إن اقتضت الحكمة والمصلحة إعطاءه، فهو تعالى يعطيه من غير هذا الدعاء لأنه منزه عن أن يكون بخيلا وإن اقتضت **الحكمة منعه**، فهو لا يعطيه سواء أقدم العبد على الدعاء أو لم يقدم عليه. والرابع: أن الدعاء غير الأمر، ولا تفاوت بين البابين إلا كون الداعي أقل رتبة، وكون الآمر أعلى رتبة وإقدام العبد على أمر الله سوء أدب، وأنه لا يجوز. الخامس: الدعاء يشبه ما إذا أقدم العبد على إرشاد ربه وإلهه إلى فعل الأصلح والأصوب، وذلك سوء أدب أو أنه ينبه الإله على شيء ما كان منتبها له، وذلك كفر وأنه تعالى قصر في الإحسان والفضل فأنت بهذا تحمله على الإقدام على الإحسان والفضل، وذلك جهل. السادس: أن الإقدام على الدعاء يدل على كونه غير راض بالقضاء إذ لو رضي بما قضاه الله عليه لترك تصرف نفسه، ولما طلب من الله شيئا على التعيين وترك الرضا بالقضاء أمر من المنكرات. السابع: كثيرا ما يظن العبد بشيء كونه نافعا وخيرا، ثم إنه عند دخوله في الوجود يصير سببا للآفات الكثيرة والمفاسد العظيمة، وإذا كان كذلك كان طلب الشيء المعين من الله غير جائز، بل الأولى طلب ما هو المصلحة والخير، وذلك حاصل من الله تعالى سواء طلبه العبد بالدعاء أو لم يطلبه فلم يبق في الدعاء فائدة. الثامن: أن الدعاء عبارة عن/ توجه القلب إلى طلب شيء من الله تعالى، وتوجه القلب إلى طلب ذلك الشيء المعين يمنع القلب من الاستغراق في معرفة الله تعالى، وفي محبته، وفي عبوديته، وهذه مقامات عالية

شريفة، وما يمنع من حصول المقامات العالية الشريفة كان مذموما. التاسع:
روي أنه عليه الصلاة والسلام قال حاكيا عن الله سبحانه: «من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين»
وذلك يدل على أن الأولى ترك الدعاء. العاشر: أن علم الحق محيط بحاجة العبد، والعبد إذا علم أن." (١)

"تعالى ما أنزل عذاب الاستئصال، إلا في زمن هؤلاء الأنبياء فقط، فبين في هذه الآية أن هذا الجنس من الهلاك قد فعله بغيرهم، وبين العلة التي بها يفعل ذلك: قال تعالى: وما أرسلنا في قرية من نبي إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء وإنما ذكر القرية لأنها مجتمع القوم الذين إليهم يبعث الرسل، ويدخل تحت هذا اللفظ المدينة، لأنها مجتمع الأقوام وقوله: من نبي فيه حذف وإضمار، والتقدير: من نبي فكذب أو كذبه أهلها، إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء. قال الزجاج: البأساء كل ما نالهم من الشدة في أحوالهم، والضراء ما نالهم من الأمراض وقيل على العكس، ثم بين تعالى أنه يفعل ذلك لكي يضرعوا، معناه: يتضرعوا، والتضرع هو الخضوع والانقياد لله تعالى، ولما علمت أن قوله: لعلهم لا يمكن حمله على الشك في حق الله تعالى، وجب حمله على أن/ المراد أنه تعالى فعل هذا الفعل لكي يتضرعوا. قالت المعتزلة، وهذا يدل على أنه تعالى أراد من كل المكلفين الإيمان والطاعة. وقال أصحابنا: لما ثبت بالدليل أن تعليل أفعال الله وأحكامه محال وجب حمل الآية على أنه تعالى فعل، ما لو فعله غيره لكان ذلك شبيها بالعلة والغرض، ثم بين تعالى أن تدبيره في أهل القرى لا يجري على نمط واحد، وإنما يدبرهم بما يكون إلى الإيمان أقرب فقال: ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة لأن ورود النعمة في البدن والمال بعد البأساء والضراء، يدعو إلى الانقياد والاشتغال بالشكر، ومعنى الحسنة والسيئة هاهنا الشدة والرخاء. قال أهل اللغة: (السيئة) كل ما يسوء صاحبه، و (الحسنة) ما يستحسنه الطبع والعقل، والمعنى: أنه تعالى أخبر أنه يأخذ أهل المعاصي بالشدة تارة، وبالرخاء أخرى. وقوله: حتى عفوا قال الكسائي: يقال: قد عفا الشعر وغيره، إذا كثر، يعفو فهو عاف. ومنه قوله تعالى: حتى عفوا يعني كثروا ومنه ما
ورد في الحديث أنه عليه الصلاة والسلام، أمر أن تحف الشوارب، وتعفى اللحى
يعني توفر وتكثر وقوله: وقالوا قد مس آباءنا الضراء والسراء فالمعنى: أنهم متى نالهم شدة قالوا: ليس هذا

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٧٩/١٤

بسبب ما نحن عليه من الدين والعمل وتلك عادة الدهر، ولم يكن ما مسنا من البأساء والضراء عقوبة من الله وهذه الحكاية تدل على أنهم لم ينتفعوا بما دبرهم الله عليه من رخاء بعد شدة، وأمن بعد خوف، بل عدلوا إلى أن هذه عادة الزمان في أهله، فمرة يحصل فيهم الشدة والنكد، ومرة يحصل لهم الرخاء والراحة، فبين تعالى أنه أزال عذرهم وأزاح علتهم، فلم ينقادوا ولم ينتفعوا بذلك الإمهال، وقوله:

فأخذناهم بغتة والمعنى: أنهم لما تمردوا على التقديرين، أخذهم الله بغتة أينما كانوا، ليكون ذلك أعظم في الحسرة. وقوله: وهم لا يشعرون أي يرون العذاب والحكمة في حكاية هذا المعنى أن يحصل الاعتبار لمن سمع هذه القصة وعرفها.

[سورة الأعراف (٧) : الآيات ٩٦ الى ٩٩]

ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون (٩٦) أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا وهم نائمون (٩٧) أوأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون (٩٨) أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون (٩٩)

اعلم أنه تعالى لما بين في الآية الأولى أن الذين عصوا وتمردوا أخذهم الله بغتة، بين في هذه الآية أنهم لو." (١)

"لكونهما صنفين ونوعين، ومرة عبر عنهما بلفظ الجمع، وهو قوله تعالى: فتعالى الله عما يشركون.

الوجه الثالث: في الجواب سلمنا أن الضمير في قوله: جعلا له شركاء فيما آتاهما عائد إلى آدم وحواء عليهما السلام، إلا أنه قيل: إنه تعالى لما آتاهما الولد الصالح عزما على أن يجعلاه وقفا على خدمة الله وطاعته وعبوديته على الإطلاق. ثم بدا لهم في ذلك، فتارة كانوا ينتفعون به في مصالح الدنيا ومنافعها، وتارة كانوا يأمرونه بخدمة الله وطاعته. وهذا العمل وإن كان منا قربة وطاعة، إلا أن حسنات الأبرار سيئات المقربين، فلهذا قال تعالى: فتعالى الله عما يشركون والمراد من هذه الآية ما

نقل عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال حاكيا عن الله سبحانه: «أنا أغنى الأغنياء عن الشرك، من عمل عملا أشرك فيه غيري تركته وشركه»

وعلى هذا التقدير: فالإشكال زائل.

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٣٢١/١٤

الوجه الرابع: في التأويل أن نقول: سلمنا صحة تلك القصة المذكورة، إلا أنا نقول: إنهم سموا بعيد الحرث لأجل أنهم اعتقدوا أنه إنما سلم من الآفة والمرض بسبب دعاء ذلك الشخص المسمى بالحرث، وقد يسمى المنعم عليه عبدا للمنعم. يقال في المثل: أنا عبد من تعلمت منه حرفا، ورأيت بعض الأفاضل كتب على عنوان: كتابة عبد وده فلان. قال الشاعر:

وإني لعبد الضيف ما دام ثاويا ... ولا شيمة لي بعدها تشبه العبدا

فآدم وحواء عليهما السلام سميا ذلك الولد بعبد الحرث تنبيها على أنه إنما سلم من الآفات ببركة دعائه، وهذا لا يقدح في كونه عبد الله من جهة أنه مملوكه ومخلوقه، إلا أنا قد ذكرنا أن حسنات الأبرار سيئات المقربين فلما حصل الاشتراك في لفظ العبد لا جرم صار آدم عليه السلام معاتبا في هذا العمل بسبب الاشتراك الحاصل في مجرد لفظ العبد، فهذا جملة ما نقوله في تأويل هذه الآية.

المسألة الثانية: في تفسير ألفاظ الآية وفيها مباحث:

البحث الأول: قوله: هو الذي خلقكم من نفس واحدة المشهور أنها نفس آدم وقوله: / خلق منها زوجها المراد حواء. قالوا ومعنى كونها مخلوقة من نفس آدم، أنه تعالى خلقها من ضلع من أضلاع آدم.

قالوا: **والحكمة فيه** أن الجنس إلى الجنس أميل، والجنسية علة الضم، وأقول هذا الكلام مشكل لأنه تعالى لما كان قادرا على أن يخلق آدم ابتداء فما الذي حملنا على أن نقول إنه تعالى خلق حواء من جزء أجزاء آدم؟ ولم لا نقول: إنه تعالى خلق حواء أيضا ابتداء؟ وأيضا الذي يقدر على خلق إنسان من عظم واحد فلم لا يقدر على خلقه ابتداء، وأيضا الذي يقال: إن عدد أضلاع الجانب الأيسر أنقص من عدد أضلاع الجانب الأيمن فيه مؤاخذة تنبي عن خلاف الحس والتشريح. بقي أن يقال: إذا لم نقل بذلك، فما المراد من كلمة (من) في قوله: وجعل منها زوجها فنقول: قد ذكرنا أن الإشارة إلى الشيء تارة تكون بحسب شخصه، وأخرى بحسب نوعه

قال عليه الصلاة والسلام: «هذا وضوء لا يقبل الله الصلاة إلا به»

وليس المراد ذلك الفرد المعين بل المراد ذلك النوع.

وقال عليه الصلاة والسلام: «في يوم عاشوراء هذا هو اليوم الذي أظهر الله فيه موسى على فرعون»

والمراد خلق من النوع الإنساني زوجة آدم، والمقصود التنبيه على أنه تعالى جعل زوج آدم إنسانا مثله قوله:

فلما تغشاها أي جامعها، والغشيان إتيان الرجل المرأة وقد غشاها وتغشاها إذا علاها، وذلك لأنه إذا علاها فقد صار كالغاشية لها، ومثله يجللها، وهو يشبه التغطي واللبس. قال تعالى: هن لباس لكم وأنتم." (١)

"القيد الرابع: قوله: ودون الجهر من القول والمراد منه أن يقع ذلك الذكر بحيث يكون متوسطا بين الجهر والمخافتة كما قال تعالى: ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا [الإسراء: ١١٠] وقال عن زكريا عليه السلام: إذ نادى ربه نداء خفيا [مريم: ٣] قال ابن عباس: وتفسير قوله: ودون الجهر من القول المعنى أن يذكر ربه على وجه يسمع نفسه، فإن المراد حصول الذكر اللساني، والذكر اللساني إذا كان بحيث يسمع نفسه، فإنه يتأثر الخيال من ذلك الذكر، وتأثر الخيال يوجب قوة في الذكر القلبي الروحاني، ولا يزال يتقوى كل واحد من هذه الأركان الثلاثة، وتنعكس أنوار هذه الأذكار من بعضها إلى بعض، وتصير هذه الانعكاسات سببا لمزيد القوة والجلاء والانكشاف والترقي من حضيض ظلمات عالم الأجسام إلى أنوار مدبر النور والظلام.

والقيد الخامس: قوله: بالغدو والآصال وهاهنا مسائل:

المسألة الأولى: في لفظ «الغدو» قولان:

القول الأول: أنه مصدر يقال غدوت أغدو غدوا غدوا، ومنه قوله تعالى: غدوها شهر [سبأ: ١٢] / أي غدوها للسير، ثم سمي وقت الغدو غدوا، كما يقال: دنا الصباح أي وقته، ودنا المساء أي وقته.

القول الثاني: أن يكون الغدو جمع غدوة، قال الليث: الغدو جمع مثل الغدوات وواحد الغدوات غدوة، وأما الآصال فقال الفراء: واحدها أصل وواحد الأصل الأصيل. قال يقال جئناهم مؤصلين أي عند الآصال، ويقال الأصيل مأخوذ من الأصل واليوم بليلته، إنما يبتدأ بالشروع من أول الليل وآخر نهار كل يوم متصل بأول ليل اليوم الثاني، فسمي آخر النهار أصيلا، لكونه ملاصقا لما هو الأصل لليوم الثاني.

المسألة الثانية: خص الغدو والآصال بهذا الذكر، **والحكمة فيه** أن عند الغدوة انقلب الإنسان من النوم الذي هو كالموت إلى اليقظة التي هي كالحياة، والعالم انقلب من الظلمة التي هي طبيعة عدمية إلى النور الذي هو طبيعة وجودية. وأما عند الآصال فالأمر بالضد لأن الإنسان ينقلب فيه من الحياة إلى الموت، والعالم ينقلب فيه من النور الخالص إلى الظلمة الخالصة، وفي هذين الوقتين يحصل هذان النوعان من التغيير العجيب القوي القاهر ولا يقدر على مثل هذا التغيير إلا الإله الموصوف بالحكمة الباهرة والقدرة

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ١٥/٤٢٩

الغير المتناهية، فلهذه الحكمة العجيبة خص الله تعالى هذين الوقتين بالأمر بالذكر. ومن الناس من قال: ذكر هذين الوقتين والمراد مداومة الذكر والمواظبة عليه بقدر الإمكان. عن ابن عباس أنه قال في قوله: الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم [الأعراف: ١٩١] لو حصل لابن آدم حالة رابعة سوى هذه الأحوال لأمر الله بالذكر عندها والمراد منه أنه تعالى أمر بالذكر على الدوام.

والقيد السادس: قوله تعالى: ولا تكن من الغافلين والمعنى أن قوله: بالغدو والآصال دل على أنه يجب أن يكون الذكر حاصلا في كل الأوقات وقوله: ولا تكن من الغافلين يدل على أن الذكر القلبي يجب أن يكون دائما، وأن لا يغفل الإنسان لحظة واحدة عن استحضار جلال الله وكبريائه بقدر الطاقة البشرية والقوة الإنسانية، وتحقيق القول، أن بين الروح وبين البدن علاقة عجيبة، لأن كل أثر حصل في جوهر الروح نزل منه أثر إلى البدن، وكل حالة حصلت في البدن صعدت منها نتائج إلى الروح، ألا ترى أن الإنسان إذا تخيل الشيء الحامض ضرس سنه، وإذا تخيل حالة مكروهة وغضب سخن بدنه، فهذه آثار تنزل من الروح إلى البدن، وأيضا." (١)

"فإن قيل: رؤية الكثير قليلا غلط، فكيف يجوز من الله تعالى أن يفعل ذلك؟

قلنا: مذهبنا أنه تعالى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، وأيضا لعله تعالى أراه البعض دون البعض فحكم الرسول على أولئك الذين رآهم بأنهم قليلون. وعن الحسن: هذه الإراءة كانت في اليقظة. قال: والمراد من المنام العين التي هي موضع النوم.

ثم قال تعالى: ولو أراكهم كثيرا لذكرته للقوم ولو سمعوا ذلك لفشلوا ولتنازعوا، ومعنى التنازع في الأمر، الاختلاف الذي يحاول به كل واحد نزع صاحبه عما هو عليه، والمعنى: لاضطرب أمركم واختلفت كلمتكم ولكن الله سلم أي سلمكم من المخالفة فيما بينكم. وقيل: سلم الله لهم أمرهم حتى أظهرهم على عدوهم، وقيل سلمهم من الهزيمة يوم بدر والأظهر أن المراد، ولكن الله سلمكم من التنازع إنه عليم بذات الصدور يعلم ما يحصل فيها من الجراءة والجبن والصبر والجزع.

[سورة الأنفال (٨) : آية ٤٤]

وإذ يريكموهم إذ التقيتم في أعينكم قليلا ويقللكم في أعينهم ليقضي الله أمرا كان مفعولا وإلى الله ترجع

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٤٤٤/١٥

الأمور (٤٤)

اعلم أن هذا هو النوع الثالث من النعم التي أظهرها الله للمسلمين يوم بدر، والمراد أن القليل الذي حصل في النوم تأكد ذلك بحصوله في اليقظة. قال صاحب «الكشاف» : وإذ يريكموهم الضميران مفعولان يعني إذ يبصركم إياهم، وقليلا نصب على الحال.

واعلم أنه تعالى قلل عدد المشركين في أعين المؤمنين، وقلل أيضا عدد المؤمنين في أعين المشركين.

والحكمة في التقليل الأول، تصديق رؤيا الرسول صلى الله عليه وسلم، وأيضا لتقوى قلوبهم وتزداد جراءتهم عليهم، والحكمة في التقليل. الثاني: أن المشركين لما استقلوا عدد المسلمين لم يبالغوا في الاستعداد والتأهب والحذر، فصار ذلك سببا لاستيلاء المؤمنين عليهم.

فإن قيل: كيف يجوز أن يريهم الكثير قليلا؟

قلنا: أما على ما قلنا فذاك جائز، لأن الله تعالى خلق الإدراك في حق البعض دون البعض. وأما المعتزلة فقالوا: لعل العين منعت من إدراك الكل، أو لعل الكثير منهم كانوا في غاية البعد فما حصلت رؤيتهم.

ثم قال: ليقضي الله أمرا كان مفعولا.

فإن قيل: ذكر هذا الكلام في الآية المتقدمة، فكان ذكره هاهنا محض التكرار.

قلنا: المقصود من ذكره في الآية المتقدمة هو أنه تعالى فعل تلك الأفعال ليحصل استيلاء المؤمنين على المشركين على وجه يكون معجزة دالة على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم. والمقصود من ذكره هاهنا، ليس هو ذلك المعنى، بل المقصود أنه تعالى ذكر هاهنا أنه قلل عدد المؤمنين في أعين المشركين، فبين هاهنا أنه إنما فعل ذلك ليصير ذلك سببا لئلا يبالغ الكفار في تحصيل الاستعداد والحذر، فيصير ذلك سببا لانكسارهم.

ثم قال: وإلى الله ترجع الأمور والغرض منه التنبيه على أن أحوال الدنيا غير مقصودة لذواتها، وإنما المراد منها ما يصلح أن يكون زادا ليوم المعاد.." (١)

"المسألة الثانية: أحد مرتفع بفعل مضمر يفسره الظاهر، وتقديره: وإن استجارك أحد، ولا يجوز أن يرتفع بالابتداء لأن إن من عوامل الفعل لا يدخل على غيره.

فإن قيل: لما كان التقدير ما ذكرتم فما الحكمة في ترك هذا الترتيب الحقيقي؟

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ١٥/٤٨٨

قلنا: الحكمة فيه ما ذكره سيبويه، وهو إنهم يقدمون الأهم والذي هم بشأنه، أعنى وقد بينا هاهنا أن ظاهر الدليل يقتضي إباحة دم المشركين، فقدم ذكره ليدل ذلك على مزيد العناية بصون دمه عن الإهدار، قال الزجاج: المعنى إن طلب منك أحد منهم أن تجيره من القتل إلى أن يسمع كلام الله فأجره.

المسألة الثالثة: قالت المعتزلة: هذه الآية تدل على أن كلام الله يسمعه الكافر والمؤمن والزنديق والصديق والذي يسمعه جمهور الخلق ليس إلا هذه الحروف والأصوات، فدل ذلك على أن كلام الله ليس إلا هذه الحروف والأصوات، ثم من المعلوم بالضرورة أن الحروف والأصوات لا تكون قديمة، لأن تكلم الله بهذه الحروف إما أن يكون معا أو على الترتيب، فإن تكلم بها معا لم يحصل منه هذا الكلام المنتظم، لأن الكلام لا يحصل منتظما إلا عند دخول هذه الحروف في الوجود على التعاقب، فلو حصلت معا لا متعاقبة لما حصل الانتظام، فلم يحصل الكلام. وأما إن حصلت متعاقبة، لزم أن ينقضي المتقدم ويحدث المتأخر، وذلك يوجب الحدوث، فدل هذا عن أن كلام الله محدث. قالوا: فإن قلتم إن كلام الله شيء مغاير لهذه الحروف والأصوات فهذا باطل لأن الرسول ما كان يشير بقوله كلام الله إلا هذه الحروف والأصوات، وأما الحشوية والحمقى من الناس، فقالوا ثبت بهذه الآية أن كلام الله ليس إلا هذه الحروف والأصوات، وثبت أن كلام الله قديم، فوجب القول بقدم الحروف والأصوات.

واعلم أن الأستاذ أبا بكر بن فورك زعم أنا إذا سمعنا هذه الحروف والأصوات فقد سمعنا مع ذلك كلام الله تعالى وأما سائر الأصحاب فقد أنكروا عليه هذا القول، وذلك لأن ذلك الكلام القديم إما أن يكون نفس هذه الحروف والأصوات، وإما أن يكون شيئا آخر مغايرا لها. والأول: هو قول الرعاع والحشوية وذلك لا يليق بالعقلاء.

وأما الثاني: فباطل لأنا على هذا التقدير لما سمعنا هذه الحروف والأصوات، فقد سمعنا شيئا آخر يخالف ماهية هذه الحروف والأصوات، لكنا نعلم بالضرورة أن عند سماع هذه الحروف والأصوات لم نسمع شيئا آخر سواها ولم ندرك بحاسة السمع أمرا آخر مغايرا لها فسقط هذا الكلام.

والجواب الصحيح عن كلام المعتزلة أن نقول: هذا الذي نسمعه ليس عين كلام الله على مذهبكم، لأن كلام الله ليس إلا الحروف والأصوات التي خلقها أولا، بل تلك الحروف والأصوات انقضت وهذه التي نسمعها حروف وأصوات فعلها الإنسان، فما ألزمتموه علينا فهو لازم عليكم.

واعلم أن أبا علي الجبائي لقوة هذا الإلزام ارتكب مذهبا عجيبا فقال: كلام الله شيء مغاير للحروف

والأصوات وهو باق مع قراءة كل قارئ، وقد أطبق المعتزلة على سقوط هذا المذهب والله أعلم.
المسألة الرابعة: اعلم أن هذه الآية تدل على أن التقليد غير كاف في الدين وأنه لا بد من النظر والاستدلال، وذلك لأنه لو كان التقليد كافيا، لوجب أن لا يمهل هذا الكافر، بل يقال له إما أن تؤمن، وإما أن." (١)

"قلنا: إن هذا المعنى غير مستبعد في الشرائع، فإن أمثلته كثيرة ألا ترى أنه تعالى ميز البلد الحرام عن سائر البلاد بمزيد الحرمة، وميز يوم الجمعة عن سائر أيام الأسبوع بمزيد الحرمة، وميز يوم عرفة عن سائر الأيام بتلك العبادة المخصوصة، وميز شهر رمضان عن سائر الشهور بمزيد حرمة وهو وجوب الصوم وميز بعض ساعات اليوم بوجوب الصلاة فيها وميز بعض الليالي عن سائرها وهي ليلة القدر، وميز بعض الأشخاص عن سائر الناس بإعطاء خلعة الرسالة. وإذا كانت هذه الأمثلة ظاهرة مشهورة، فأي استبعاد في تخصيص بعض.
الأشهر بمزيد الحرمة، ثم نقول: لا يبعد أن يعلم الله تعالى أن وقوع الطاعة في هذه الأوقات أكثر تأثيرا في طهارة النفس، ووقوع المعاصي فيها أقوى تأثيرا في خبث النفس، وهذا غير مستبعد عند الحكماء، ألا ترى أن فيهم من صنف كتبا في الأوقات التي ترجى فيها إجابة الدعوات، وذكروا أن تلك الأوقات المعينة حصلت فيها أسباب توجب ذلك.
وسئل النبي عليه الصلاة والسلام: أي الصيام أفضل؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «أفضله بعد صيام شهر رمضان صيام شهر الله المحرم»
وقال عليه الصلاة والسلام: «من صام يوما من أشهر الله الحرم كان له بكل يوم ثلاثون يوما»
وكثير من الفقهاء غلظوا الدية على القاتل بسبب وقوع القتل في هذه الأشهر، وفيه فائدة أخرى: وهي أن الطباع مجبولة على الظلم والفساد وامتناعهم من هذه القبائح على الإطلاق شاق عليهم، فالله سبحانه وتعالى خص بعض الأوقات بمزيد التعظيم والاحترام، وخص بعض الأماكن بمزيد التعظيم والاحترام، حتى إن الإنسان ربما امتنع في تلك الأزمنة وفي تلك الأمكنة من القبائح والمنكرات، وذلك يوجب أنواعا من الفضائل والفوائد: أحدها: أن ترك تلك القبائح في تلك الأوقات أمر مطلوب، لأنه يقل القبائح.
وثانيها: أنه لما تركها في تلك الأوقات فربما صار تركه لها في تلك الأوقات سببا لميل طبعه إلى الإعراض عنها مطلقا. وثالثها: أن الإنسان إذا أتى بالطاعات في تلك الأوقات وأعرض عن المعاصي فيها، فبعد

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ١٥/٥٣٠

انقضاء تلك الأوقات لو شرع في القبائح والمعاصي صار شروعه فيها سببا لبطلان ما تحمله من العناء والمشقة في أداء تلك الطاعات في تلك الأوقات، والظاهر من حال العاقل أن لا يرضى بذلك فيصير ذلك سببا لاجتنابه عن المعاصي بالكلية، فهذا هو **الحكمة في** تخصيص بعض الأوقات وبعض/ البقاع بمزيد التعظيم والاحترام.

ثم قال تعالى: ذلك الدين القيم وفيه بحثان:

البحث الأول: أن قوله: ذلك إشارة إلى قوله: إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا لا أزيد ولا أنقص أو إلى قوله: منها أربعة حرم وعندي أن الأول أولى، لأن الكفار سلموا أن أربعة منها حرم، إلا أنهم بسبب الكبسة ربما جعلوا السنة ثلاثة عشر شهرا، وكانوا يغيرون مواقع الشهور، والمقصود من هذه الآية الرد على هؤلاء، فوجب حمل اللفظ عليه.

البحث الثاني: في تفسير لفظ الدين وجوه: الأول: أن الدين قد يراد به الحساب. يقال: الكيس من دان نفسه أي حاسبها، والقيم معناه المستقيم فتفسير الآية على هذا التقدير، ذلك الحساب المستقيم الصحيح والعدل المستوفى. الثاني: قال الحسن: ذلك الدين القيم الذي لا يبدل ولا يغير، فالقيم هاهنا بمعنى القائم الذي لا يبدل ولا يغير، الدائم الذي لا يزول، وهو الدين الذي فطر الناس عليه. الثالث: قال بعضهم: المراد أن هذا التعبد هو الدين اللازم في الإسلام. وقال القاضي: حمل لفظ الدين على العبادة أولى من حمله على الحساب، لأنه مجاز فيه، ويمكن أن يقال: الأصل في لفظ الدين الانقياد يقال: يا من دانت له الرقاب، أي." (١)

"منها إلى مرتبة أخرى وهي أن يقول: سيؤتينا الله من فضله ورسوله إما في الدنيا إن اقتضاه التقدير، وإما في الآخرة وهي أولى وأفضل.

والمرتبة الرابعة: أن يقول: إنا إلى الله راغبون فنحن لا نطلب من الإيمان والطاعة أخذ الأموال والفوز بالمناصب في الدنيا، وإنما المراد إما اكتساب سعادات الآخرة. وإما الاستغراق في العبودية على ما دل لفظ الآية عليه فإنه قال: إنا إلى الله راغبون ولم يقل: إنا إلى ثواب الله راغبون.

ونقل أن عيسى عليه السلام مر بقوم يذكرون الله تعالى فقال: ما الذي يحملكم عليه؟ قالوا: الخوف من عقاب الله، فقال: أصبتم ثم مر على قوم آخرين يذكرون الله، فقال: ما الذي يحملكم عليه، فقالوا: الرغبة

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٤٢/١٦

في الثواب، فقال: أصبتم، ثم مر على قوم ثالث مشتغلين بالذكر فسألهم فقالوا: لا نذكره للخوف من العقاب، ولا للرغبة في الثواب، بل لإظهار ذلة العبودية، وعزة الربوبية وتشريف القلب بمعرفته، وتشريف اللسان بالألفاظ الدالة على صفات قدسه وعزته.

فقال: أنتم المحقون المحققون.

[سورة التوبة (٩) : آية ٦٠]

إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم (٦٠)

اعلم أن المنافقين لما لمزوا الرسول صلى الله عليه وسلم في الصدقات، بين لهم أن مصرف الصدقات هؤلاء، ولا تعلق لي بها، ولا آخذ لنفسي نصيبا منها، فلم يبق لهم طعن في الرسول بسبب أخذ الصدقات.

وهاهنا مقامات:

المقام الأول: بيان الحكمة في أخذ القليل من أموال الأغنياء، وصرفها إلى المحتاجين من الناس.

والمقام الثاني: بيان حال هؤلاء الأصناف الثمانية المذكورين في هذه الآية.

أما المقام الأول: فنقول: الحكمة في إيجاب الزكاة أمور، بعضها مصالح عائدة إلى معطي الزكاة. وبعضها عائدة إلى آخذ الزكاة.

أما القسم الأول: فهو أمور: الأول: أن المال محبوب بالطبع، والسبب فيه أن القدرة صفة من صفات الكمال محبوبة لذاتها، ولعينها لا لغيرها لأنه لا يمكن أن يقال: إن كل شيء فهو محبوب لمعنى آخر وإلا لزم، إما التسلسل وإما الدور، وهما محالان، فوجب الانتهاء في الأشياء المحبوبة إلى ما يكون محبوبا لذاته.

والكمال محبوب لذاته، والنقصان مكروه لذاته فلما كانت القدرة صفة كمال، وصفة الكمال محبوبة لذاتها، كانت القدرة محبوبة لذاتها. والمال سبب لحصول تلك القدرة، ولكمالها في حق البشر فكان أقوى أسباب القدرة في حق البشر هو المال، والذي يتوقف عليه المحبوب فهو محبوب، فكان المال محبوبا، فهذا هو السبب في كونه محبوبا إلا أن الاستغراق في حبه يذهل النفس عن حب الله وعن التأهب للآخرة فاقتضت حكمة الشرع تكليف مالك المال بإخراج طائفة منه من يده، ليصير ذلك الإخراج كسرا من شدة الميل إلى المال، ومنعا من انصراف النفس بالكلية إليها وتنبيها لها على أن سعادة الإنسان لا تحصل عند

الاشتغال بطلب المال وإنما تحصل/ بإنفاق المال في طلب مرضاة الله تعالى فإيجاب الزكاة علاج صالح متعين لإزالة مرض حب الدنيا عن القلب، فالله سبحانه أوجب الزكاة لهذه الحكمة. وهو المراد من قوله: خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها [التوبة: ١٠٣] أي تطهرهم وتزكيهم عن الاستغراق في طلب الدنيا.." (١)

"القول الأول: قال عامة المفسرين هم الصائمون. وقال ابن عباس: كل ما ذكر في القرآن من السياحة، فهو الصيام.

وقال النبي عليه الصلاة والسلام: «سياحة أمتي الصيام»

وعن الحسن: أن هذا صوم الفرض. وقيل هم الذين يديمون الصيام، وفي المعنى الذي لأجله حسن تفسير السائح بالصائم، وجهان: الأول: قال الأزهري: قيل للصائم سائح، لأن الذي يسيح في الأرض متعبدا لا زاد معه، كان ممسكا عن الأكل، والصائم يمسك عن الأكل، فلهذه المشابهة سمي الصائم سائحا. الثاني: أن أصل السياحة الاستمرار على الذهاب في الأرض كالماء الذي يسيح والصائم يستمر على فعل الطاعة، وترك المشتهى، وهو الأكل والشرب والوقاع، وعندي فيه وجه آخر، وهو أن الإنسان إذا امتنع من الأكل والشرب والوقاع وسد على نفسه أبواب الشهوات، انفتحت عليه/ أبواب الحكمة، وتجلت له أنوار عالم الجلال، ولذلك

قال عليه الصلاة والسلام: «من أخلص لله أربعين صباحا، ظهرت ينابيع **الحكمة من** قلبه على لسانه»

فيصير من السائحين في عالم جلال الله المنتقلين من مقام إلى مقام، ومن درجة إلى درجة، فيحصل له سياحة في عالم الروحانيات.

والقول الثاني: أن المراد من السائحين طلاب العلم ينتقلون من بلد إلى بلد في طلب العلم، وهو قول عكرمة، وعن وهب بن منبه: كانت السياحة في بني إسرائيل، وكان الرجل إذا ساح أربعين سنة رأى ما كان يرى السائحون قبله. فساح ولد بغي منهم أربعين سنة فلم ير شيئا، فقال: يا رب ما ذنبي بأن أساءت أمي، فعند ذلك أراه الله ما أرى السائحين وأقول للسياحة أثر عظيم في تكميل النفس لأنه يلقاه أنواع من الضر والبؤس، فلا بد له من الصبر عليها، وقد ينقطع زاده، فيحتاج إلى التوكل على الله، وقد يلقى أفاضل مختلفين، فيستفيد من كل أحد فائدة مخصوصة، وقد يلقى الأكابر من الناس، فيستحقر نفسه في

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ١٦/٧٧

مقابلتهم، وقد يصل إلى المرادات الكثيرة، فينتفع بها وقد يشاهد اختلاف أحوال أهل الدنيا بسبب ما خلق الله تعالى في كل طرف من الأحوال الخاصة بهم فتقوى معرفته، وبالجملة فالسياحة لها آثار قوية في الدين.

والقول الثالث: قال أبو مسلم: السائحون السائرون في الأرض، وهو مأخوذ من السيح، سيح الماء الجاري، والمراد به من خرج مجاهدا مهاجرا، وتقريره أنه تعالى حث المؤمنين في الآية الأولى على الجهاد، ثم ذكر هذه الآية في بيان صفات المجاهدين، فينبغي أن يكونوا موصوفين بمجموع هذه الصفات.

الصفة الخامسة والسادسة: قوله: الراكعون الساجدون والمراد منه إقامة الصلوات. قال القاضي:

وإنما جعل ذكر الركوع والسجود كناية عن الصلاة لأن سائر أشكال المصلي موافق للعادة، وهو قيامه وقعوده.

والذي يخرج عن العادة في ذلك هو الركوع والسجود، وبه يتبين الفضل بين المصلي وغيره ويمكن أن يقال:

القيام أول مراتب التواضع لله تعالى والركوع وسطها والسجود غايتها. فخص الركوع والسجود بالذكر لدلالتهما على غاية التواضع والعبودية تنبيها على أن المقصود من الصلاة نهاية الخضوع والتعظيم.

الصفة السابعة والثامنة: قوله: الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر واعلم أن كتاب أحكام الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، كتاب كبير مذكور في علم الأصول. فلا يمكن إيراده هاهنا. وفيه إشارة إلى إيجاب الجهاد، لأن رأس المعروف الإيمان بالله، ورأس المنكر الكفر بالله. / والجهاد يوجب الترغيب في الإيمان، والزجر عن الكفر. والجهاد داخل في باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وأما دخول الواو في قوله: والناهون عن المنكر ففيه وجوه:." (١)

"[سورة يونس (١٠) : آية ٥]

هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون (٥)

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: [في ذكر الدلائل الدلالة على الإلهية.] اعلم أنه تعالى لما ذكر الدلائل الدالة على الإلهية،

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ١٥٤/١٦

ثم فرع عليها صحة القول بالحشر والنشر، عاد مرة أخرى إلى ذكر الدلائل الدلالة على الإلهية.

واعلم أن الدلائل المتقدمة في إثبات التوحيد والإلهية هي التمسك بخلق السموات والأرض، وهذا النوع إشارة إلى التمسك بأحوال الشمس والقمر، وهذا النوع الأخير إشارة إلى ما يؤكد الدليل الدال على صحة الحشر والنشر، وذلك لأنه تعالى أثبت القول بصحة الحشر والنشر، بناء على أنه لا بد من إيصال الثواب إلى أهل الطاعة، وإيصال العقاب إلى أهل الكفر، وأنه يجب في الحكمة تمييز المحسن عن المسيء، ثم إنه تعالى ذكر في هذه الآية أنه جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل ليتوصل المكلف بذلك إلى معرفة السنين والحساب، فيمكنه ترتيب مهمات معاشه من الزراعة والحراثة، وإعداد مهمات الشتاء والصيف، فكأنه تعالى يقول: تمييز المحسن عن المسيء والمطيع عن العاصي، أوجب في الحكمة من تعليم أحوال السنين والشهور فلما اقتضت الحكمة والرحمة خلق الشمس والقمر لهذا المهم الذي لا نفع له إلا في الدنيا فبأن تقتضي الحكمة والرحمة تمييز المحسن عن المسيء بعد الموت، مع أنه يقتضي النفع الأبدي والسعادة السرمدية، كان ذلك أولى فلما كان الاستدلال بأحوال الشمس والقمر من الوجه المذكور في هذه الآية مما يدل على التوحيد من وجه، وعلى صحة القول بالمعاد من الوجه الذي ذكرناه، لا جرم ذكر الله هذا الدليل بعد ذكر الدليل على صحة المعاد.

المسألة الثانية: الاستدلال بأحوال الشمس والقمر على وجود الصانع المقدر هو أن يقال: الأجسام في ذواتها متماثلة، وفي ماهياتها متساوية، ومتى كان الأمر كذلك كان اختصاص جسم الشمس بضوئه الباهر وشعاعه القاهر، واختصاص جسم القمر بنوره المخصوص لأجل الفاعل الحكيم المختار، أما بيان أن الأجسام متماثلة في ذواتها وماهياتها، فالدليل عليه أن الأجسام لا شك أنها متساوية في الحجمية والتحيز والجرمية، فلو خالف بعضها بعضا لكانت تلك المخالفة في أمر وراء الحجمية والجرمية ضرورة أن ما به المخالفة غير ما به المشاركة، وإذا كان كذلك فنقول إن ما به حصلت المخالفة من الأجسام إما أن يكون صفة لها أو موصوفا بها أو لا صفة لها ولا موصوفا بها والكل باطل.

أما القسم الأول: فلأن ما به حصلت المخالفة لو كانت صفات قائمة بتلك الذوات، فتكون/ الذوات في أنفسها، مع قطع النظر عن تلك الصفات، متساوية في تمام الماهية، وإذا كان الأمر كذلك، فكل ما يصح على جسم، وجب أن يصح على كل جسم، وذلك هو المطلوب.

وأما القسم الثاني: وهو أن يقال: إن الذي به خالف بعض الأجسام بعضا، أمور موصوفة بالجسمية

والتحيز والمقدار فنقول: هذا أيضا باطل لأن ذلك الموصوف، إما أن يكون حجما ومتحيزا أو لا يكون، والأول باطل، وإلا لزم افتقاره إلى محل آخر، ويستمر ذلك إلى غير النهاية وأيضا فعلى هذا التقدير يكون." (١)

"أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا [المؤمنون: ١١٥] وبقوله: إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها [الإسراء: ٧] وبالجملة فشبهات الكفار كثيرة، فهم لما رأوا القرآن مشتملا على أمور ما عرفوا حقيقتها ولم يطلعوا على وجه **الحكمة فيها** لا جرم كذبوا بالقرآن، والحاصل أن القوم ما كانوا يعرفون أسرار الإلهيات، وكانوا يجرون الأمور على الأحوال المألوفة في عالم المحسوسات وما كانوا يطلبون حكمها ولا وجوه تأويلاتها، فلا جرم وقعوا في التكذيب والجهل، فقوله: بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه إشارة إلى عدم علمهم بهذه الأشياء، وقوله: ولما يأتهم تأويله إشارة إلى عدم جدهم واجتهادهم في طلب تلك الأسرار.

ثم قال: فانظر كيف كان عاقبة الظالمين والمراد أنهم طلبوا الدنيا وتركوا الآخرة، فلما ماتوا فاتتهم الدنيا والآخرة فبقوا في الخسار العظيم، ومن الناس من قال المراد منه عذاب الاستئصال وهو الذي نزل بالأمم الذين كذبوا الرسل من ضروب العذاب في الدنيا، قال أهل التحقيق قوله: / ولما يأتهم تأويله يدل على أن من كان غير عارف بالتأويلات وقع في الكفر والبدعة، لأن ظواهر النصوص قد يوجد فيها ما تكون متعارضة، فإذا لم يعرف الإنسان وجه التأويل فيها وقع في قلبه أن هذا الكتاب ليس بحق، أما إذا عرف وجه التأويل طبق التنزيل على التأويل فيصير ذلك نورا على نور يهدي الله لنوره من يشاء.

[سورة يونس (١٠) : الآيات ٤٠ الى ٤١]

ومنهم من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن به وربك أعلم بالمفسدين (٤٠) وإن كذبوك فقل لي عملي ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون (٤١)

اعلم أنه تعالى لما ذكر في الآية المتقدمة قوله: فانظر كيف كان عاقبة الظالمين وكان المراد منه تسليط العذاب عليهم في الدنيا، أتبعه بقوله: ومنهم من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن به منبها على أن الصلاح عنده تعالى كان في هذه الطائفة التبقية دون الاستئصال، من حيث كان المعلوم أن منهم من يؤمن به، والأقرب أن يكون الضمير في قوله: به راجعا إلى القرآن، لأنه هو المذكور من قبل، ثم يعلم أنه متى حصل

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٠٧/١٧

الإيمان بالقرآن، فقد حصل معه الإيمان بالرسول عليه الصلاة والسلام أيضا. واختلفوا في قوله: ومنهم من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن به لأن كلمة يؤمن فعل مستقبل وهو يصلح للحال والاستقبال، فمنهم من حمله على الحال، وقال: المراد أن منهم من يؤمن بالقرآن باطنا، لكنه يتعمد الجحد وإظهار التكذيب، ومنهم من باطنه كظاهره في التكذيب، ويدخل فيه أصحاب الشبهات، وأصحاب التقليد، ومنهم من قال: المراد هو المستقبل، يعني أن منهم من يؤمن به في المستقبل بأن يتوب عن الفكر ويبدله بالإيمان ومنهم من بصر ويستمر على الكفر.

ثم قال: وربك أعلم بالمفسدين أي هو العالم بأحوالهم في أنه هل يبقى مصرا على الكفر أو يرجع عنه.

ثم قال: وإن كذبوك فقل لي عملي ولكم عملكم قيل فقل لي عملي الطاعة والإيمان، ولكم عملكم الشرك، وقيل: لي جزاء عملي ولكم جزاء عملكم.

ثم قال: أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون قيل معنى الآية الزجر والردع، وقيل بل معناه." [1]

"[سورة يونس (١٠) : الآيات ١٠٤ الى ١٠٦]

قل يا أيها الناس إن كنتم في شك من ديني فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله ولكن أعبد الله الذي يتوفاكم وأمرت أن أكون من المؤمنين (١٠٤) وأن أقم وجهك للدين حنيفا ولا تكونن من المشركين (١٠٥) ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك فإن فعلت فإنك إذا من الظالمين (١٠٦)

واعلم أنه تعالى لما ذكر الدلائل على أقصى الغايات وأبلغ النهايات، أمر رسوله بإظهار دينه وبإظهار المباينة عن المشركين، لكي تزول الشكوك والشبهات في أمره وتخرج عبادة الله من طريقة السر إلى الإظهار فقال: قل يا أيها الناس إن كنتم في شك من ديني واعلم أن ظاهر هذه الآية يدل على أن هؤلاء الكفار ما كانوا يعرفون دين رسول الله صلى الله عليه وسلم،

وفي الخبر أنهم كانوا يقولون فيه قد صبأ وهو صابئ فأمر الله تعالى أن يبين لهم أنه على دين إبراهيم حنيفا مسلما

لقوله تعالى: إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا [النحل: ١٢٠] ولقوله: وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفا [الأنعام: ٧٩] ولقوله: لا أعبد ما تعبدون [الكافرون: ٢] والمعنى: أنكم إن كنتم لا تعرفون ديني فأنا أبينه لكم على سبيل التفصيل ثم ذكر فيه أمورا.

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٥٦/١٧

فالقيد الأول: قوله: فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله وإنما وجب تقديم هذا النفي لما ذكرنا أن إزالة النقوش الفاسدة عن اللوح لا بد وأن تكون مقدمة على إثبات النقوش الصحيحة في ذلك اللوح، وإنما وجب هذا النفي لأن العبادة غاية التعظيم وهي لا تليق إلا بمن حصلت له غاية الجلال والإكرام، وأما الأوثان فإنها أحجار والإنسان أشرف حالا منها، وكيف يليق بالأشرف أن يشتغل بعبادة الأخس.

القيد الثاني: قوله: ولكن أعبد الله الذي يتوفاكم والمقصود أنه لما بين أنه يجب ترك عبادة غير الله، بين أنه يجب الاشتغال بعبادة الله.

فإن قيل: ما الحكمة في ذكر المعبود الحق في هذا المقام بهذه الصفة وهي قوله: الذي يتوفاكم.

قلنا فيه وجوه الأول: يحتمل أن يكون المراد أني أعبد الله الذي خلقكم أولا ثم يتوفاكم ثانيا ثم يعيدكم ثالثا، وهذه المراتب الثلاثة قد قررناها في القرآن مرارا وأطوارا فههنا اكتفى بذكر التوفي منها لكونه منبها على البواقي. الثاني: أن الموت أشد الأشياء مهابة، فنخص هذا الوصف بالذكر في هذا المقام، ليكون أقوى في الزجر والردع. الثالث: أنهم لما استعجلوا نزول العذاب قال تعالى: فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم قل فانتظروا إني معكم من المنتظرين ثم ننجي رسلنا والذين آمنوا [يونس: ١٠٢، ١٠٣] فهذه الآية تدل على أنه تعالى يهلك أولئك الكفار ويبقي المؤمنين ويقوي دولتهم فلما كان قريب العهد بذكر هذا الكلام لا جرم قال هاهنا: ولكن أعبد الله الذي يتوفاكم وهو إشارة إلى ما قرره وبينه في تلك الآية كأنه يقول: أعبد ذلك الذي وعدني بإهلاكهم وبإبقائي.

والقيد الثالث: من الأمور المذكورة في هذه الآية قوله: وأمرت أن أكون من المؤمنين واعلم أنه لما ذكر العبادة وهي من جنس أعمال الجوارح انتقل منها إلى الإيمان والمعرفة، وهذا يدل على أنه ما لم يصر الظاهر مزينا بالأعمال الصالحة، فإنه لا يحصل في القلب نور الإيمان والمعرفة.." (١)

"الحاصل في الحقيقة بعضا من أبعاض الملك، وبعضا من أبعاض العلم، فلهذا السبب ذكر فيه كلمة «من» لأنها دالة على التبعيض، ثم قال: فاطر السماوات والأرض وفيه أبحاث:

البحث الأول: في تفسير لفظ الفاطر بحسب اللغة. قال ابن عباس رضي الله عنهما: ما كنت أدري معنى الفاطر حتى احتكم إلي أعرابيان في بئر فقال أحدهما: أنا فطرتها وأنا ابتدأت حفرها. قال أهل اللغة: أصل الفطر في اللغة الشق يقال: فطر ناب البعير إذ بدا وفطرت الشيء فانفطر، أي شققته فانشق، وتفطر الأرض

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ١٧/٣٠٨

بالنبات والشجر بالورق إذا تصدعت، هذا أصله في اللغة، ثم صار عبارة عن الإيجاد، لأن ذلك الشيء حال عدمه كأنه في ظلمة وخفاء فلما دخل في الوجود صار كأنه انشق عن العدم وخرج ذلك الشيء منه.

البحث الثاني: أن لفظ الفاطر قد يظن أنه عبارة عن تكوين الشيء عن العدم المحض بدليل الاشتقاق الذي ذكرناه، إلا أن الحق أنه لا يدل عليه ويدل عليه وجوه: أحدها: أنه قال: الحمد لله فاطر السماوات والأرض [فاطر: ١] ثم بين تعالى أنه إنما خلقها من الدخان حيث قال: ثم استوى إلى السماء وهي دخان [فصلت:

١١] فدل على أن لفظ الفاطر لا يفيد أنه أحدث ذلك الشيء من العدم المحض. وثانيها: أنه قال تعالى: فطرت الله التي فطر الناس عليها [الروم: ٣٠] مع أنه تعالى إنما خلق الناس من التراب. قال تعالى: / منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى [طه: ٥٥] وثالثها: أن الشيء إنما يكون حاصلا عند حصول مادته وصورته مثل الكوز، فإنه إنما يكون موجودا إذا صارت المادة المخصوصة موصوفة بالصفة المخصوصة، فعند عدم الصورة ما كان ذلك المجموع موجودا، وبإيجاد تلك الصورة صار موجدا لذلك الكوز فعلمنا أن كونه موجدا للكون لا يقتضي كونه موجدا لمادة الكوز، فثبت أن لفظ الفاطر لا يفيد كونه تعالى موجدا للأجزاء التي منها تركبت السموات والأرض، وإنما صار إلينا كونه تعالى موجدا لها بحسب الدلائل العقلية لا بحسب لفظ القرآن.

واعلم أن قوله: فاطر السماوات والأرض يوهم أن تخليق السموات مقدم على تخليق الأرض عند من يقول: الواو تفيد الترتيب، ثم العقل يؤكده أيضا، وذلك لأن تعين المحيط يوجب تعين المركز وتعينه فإنه لا يوجب تعين المحيط، لأنه يمكن أن يحيط بالمركز الواحد محيطات لا نهاية لها، أما لا يمكن أن يحصل للمحيط الواحد إلا مركز واحد بعينه. وأيضا اللفظ يفيد أن السماء كثيرة والأرض واحدة، ووجه الحكمة فيه قد ذكرناه في قوله: الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض [الأنعام: ١] .

البحث الثالث: قال الزجاج: نصبه من وجهين: أحدهما: على الصفة لقوله: رب وهو نداء مضاف في موضع النصب. والثاني: يجوز أن ينصب على نداء ثان.

ثم قال: أنت وليي في الدنيا والآخرة والمعنى: أنت الذي تتولى إصلاح جميع مهماتي في الدنيا والآخرة فوصل الملك الفاني بالملك الباقي، وهذا يدل على أن الإيمان والطاعة كلمة من الله تعالى إذ لو كان ذلك من العبد لكان المتولي لمصالحه هو هو، وحينئذ يبطل عموم قوله: أنت وليي في الدنيا والآخرة.

ثم قال: توفني مسلما وألحقني بالصالحين وفيه مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أن

النبي عليه الصلاة والسلام حكى عن جبريل عليه السلام عن رب العزة أنه قال: «من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين»

فلهذا المعنى من أراد الدعاء فلا بد وأن يقدم عليه." (١)

"والإعدام والإحياء والإماتة والإغناء والإفقار بحيث لا يطلع على تلك الغيوب أحد من خلقه.

واعلم أن هذا الباب فيه مجال عظيم.

فإن قال قائل: ألستم تزعمون أن المقادير سابقة قد جف بها القلم وليس الأمر بأنف، فكيف يستقيم مع هذا المعنى المحو والإثبات؟

قلنا: ذلك المحو والإثبات أيضا مما جف به القلم فلا يمحو إلا ما سبق في علمه وقضائه محوه.

المسألة الخامسة: قالت الرافضة: البداء جائز على الله تعالى، وهو أن يعتقد شيئا ثم يظهر له أن الأمر بخلاف ما اعتقده، وتمسكوا فيه بقوله: يمحوا اللــه ما يشاء ويثبت.

واعلم أن هذا باطل لأن علم الله من لوازم ذاته المخصوصة، وما كان كذلك كان دخول التغير والتبدل فيه محالا.

المسألة السادسة: أما أم الكتاب فالمراد أصل الكتاب، والعرب تسمي كل ما يجري مجرى الأصل للشيء أما له ومنه أم الرأس للدماغ، وأم القرى لمكة، وكل مدينة فهي أم لما حولها من القرى، فكذلك أم الكتاب هو الذي يكون أصلا لجميع الكتب، وفيه قولان:

القول الأول: أن أم الكتاب هو اللوح المحفوظ، وجميع حوادث العالم العلوي والعالم السفلي مثبت فيه عن النبي صلى اللـه عليه وسلم أنه قال: «كان الله ولا شيء معه ثم خلق اللوح وأثبت فيه أحوال جميع الخلق إلى قيام الساعة»

قال المتكلمون: **الحكمة فيه** أن يظهر للملائكة كونه تعالى عالما بجميع المعلومات على سبيل التفصيل، وعلى هذا التقدير: فعند الله كتابان: أحدهما: الكتاب الذي يكتبه الملائكة على الخلق وذلك الكتاب محل المحو والإثبات. والكتاب الثاني: هو اللوح المحفوظ، وهو الكتاب المشتمل على تعين جميع

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ١٨/٥١٥

الأحوال العلوية والسفلية، وهو الباقي.
روى أبو الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم: «أن الله سبحانه وتعالى في ثلاث ساعات بقين من الليل ينظر في الكتاب الذي لا ينظر فيه أحد غيره، فيمحو ما يشاء ويثبت ما يشاء،
وللحكماء في تفسير هذين الكتابين كلمات عجيبة وأسرار غامضة.
والقول الثاني: أن أم الكتاب هو علم الله تعالى، فإنه تعالى عالم بجميع المعلومات من الموجودات والمعدومات وإن تغيرت، إلا أن علم الله تعالى بها باق منزه عن التغير، فالمراد بأم الكتاب هو ذاك. والله أعلم.

[سورة الرعد (١٣) : آية ٤٠]
وإن ما نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب (٤٠)
اعلم أن المعنى: وإن ما نرينك بعض الذي نعدهم من العذاب: أو نتوفينك قبل ذلك، والمعنى: / سواء أريناك ذلك أو توفيناك قبل ظهوره، فالواجب عليك تبليغ أحكام الله تعالى وأداء أمانته ورسالته وعلينا الحساب. والبلاغ اسم أقيم مقام التبليغ كالسراج والأداء.

[سورة الرعد (١٣) : الآيات ٤١ الى ٤٢]
أولم يروا أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها والله يحكم لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب (٤١) وقد مكر الذين من قبلهم فلله المكر جميعا يعلم ما تكسب كل نفس وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار (٤٢)." (١)
"إنما هو في أن وجود الله تعالى لا يحتمل الشك، وأقول من الناس من ذهب إلى أنه قبل الوقوف على الدلائل الدقيقة فالفطرة شاهدة بوجود الصانع المختار، ويدل على أن الفطرة الأولية شاهدة بذلك وجوه:
الوجه الأول: قال بعض العقلاء: إن من لطم على وجه صبي لطمة فتلك اللطمة تدل على/ وجود الصانع المختار، فلأن الصبي العاقل إذا وقعت اللطمة على وجهه يصيح ويقول: من الذي ضربني وما ذاك إلا أن شهادة فطرته تدل على أن اللطمة لما حدثت بعد عدمها وجب أن يكون حدوثها لأجل فاعل فعلها،

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ١٩/٥٢

ولأجل مختار أدخلها في الوجود فلما شهدت الفطرة الأصلية بافتقار ذلك الحادث مع قلته وحقارته إلى الفاعل فبأن تشهد بافتقار جميع حوادث العالم إلى الفاعل كان أولى، وأما دلالتها على وجوب التكليف، فلأن ذلك الصبي ينادي ويصيح ويقول: لم ضربني ذلك الضارب؟ وهذا يدل على أن فطرته شهدت بأن الأفعال الإنسانية داخلة تحت الأمر والنهي ومندرجة تحت التكليف، وأن الإنسان ما خلق حتى يفعل أي فعل شاء واشتهى، وأما دلالتها على وجوب حصول دار الجزاء فهو أن ذلك الصبي يطلب الجزاء على تلك اللطمة ومادام يمكنه طلب ذلك الجزاء فإنه لا يتركه فلما شهدت الفطرة الأصلية بوجوب الجزاء على ذلك العمل القليل فبأن تشهد على وجوب الجزاء على جميع الأعمال كان أولى، وأما دلالتها على وجوب النبوة فلأنهم يحتاجون إلى إنسان يبين لهم أن العقوبة الواجبة على ذلك القدر من الجناية كم هي ولا معنى للنبي إلا الإنسان الذي يقدر هذه الأمور ويبين لهم هذه الأحكام، فثبت أن فطرة العقل حاكمة بأن الإنسان لا بد له من هذه الأمور الأربعة.

الوجه الثاني: في التنبيه على أن الإقرار بوجود الصانع بديهي هو أن الفطرة شاهد بأن حدوث دار منقوشة بالنقوش العجيبة، مبنية على التركيبات اللطيفة الموافقة للحكم والمصلحة يستحيل إلا عند وجود نقاش عالم، وبان حكيم، ومعلوم أن آثار الحكمة في العالم العلوي والسفلي أكثر من آثار الحكمة في تلك الدار المختصرة فلما شهدت الفطرة الأصلية بافتقار النقش إلى النقاش، والبناء إلى الباني، فبأن تشهد بافتقار كل هذا العالم إلى الفاعل المختار الحكيم كان أولى.

الوجه الثالث: أن الإنسان إذا وقع في محنة شديدة وبلية قوية لا يبقى في ظنه رجاء المعاونة من أحد، فكأنه بأصل خلقته ومقتضى جبلته يتضرع إلى من يخلصه منها ويخرجه عن علائقها وحبائلها وما ذاك إلا شهادة الفطرة بالافتقار إلى الصانع المدبر.

الوجه الرابع: أن الموجود إما أن يكون غنيا عن المؤثر أو لا يكون، فإن كان غنيا عن المؤثر فهو الموجود الواجب لذاته، فإنه لا معنى للواجب لذاته إلا الموجود الذي لا حاجة به إلى غيره. وإن لم يكن غنيا عن المؤثر فهو محتاج، والمحتاج لا بد له من المحتاج إليه وذلك هو الصانع المختار.

الوجه الخامس: أن الاعتراف بوجود الإله المختار المكلف، وبوجود المعاد أحوط، فوجب المصير إليه فهذه مراتب أربعة: أولها: أن الإقرار بوجود الإله أحوط، لأنه لو لم يكن موجودا فلا ضرر في الإقرار بوجوده وإن كان موجودا ففي إنكاره أعظم المضار. وثانيها: الإقرار بكونه فاعلا مختارا لأنه لو كان موجبا فلا ضرر

في الإقرار بكونه مختارا. أما لو كان مختارا ففي إنكار كونه مختارا أعظم المضار. وثالثها: الإقرار بأنه كلف عباده، لأنه لو لم يكلف أحدا من عبيده شيئا فلا ضرر في اعتقاد أنه كلف العباد، أما إنه لو كلف ففي إنكار تلك التكاليف أعظم المضار. ورابعها: الإقرار بوجود المعاد فإنه إن كان الحق أنه لا معاد فلا ضرر في الإقرار." (١)

"والوقف هاهنا واجب لوجوه.

أحدها: أن قوله تعالى: والراسخون في العلم [آل عمران: ٧] لو كان معطوفا على قوله: إلا الله لبقي يقولون آمنا به منقطعا عنه وأنه غير جائز لأنه وحده لا يفيد، لا يقال إنه حال، / لأنا نقول حينئذ يرجع إلى كل ما تقدم، فيلزم أن يكون الله تعالى قائلا: آمنا به كل من عند ربنا وهذا كفر. وثانيها: أن الراسخين في العلم لو كانوا عالمين بتأويله لما كان لتخصيصهم بالإيمان به وجه، فإنهم لما عرفوه بالدلالة لم يكن الإيمان به إلا كالإيمان بالمحكم، فلا يكون في الإيمان به مزيد مدح وثالثها: أن تأويلها لو كان مما يجب أن يعلم لما كان طلب ذلك التأويل ذما، لكن قد جعله الله تعالى ذما حيث قال: فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله [آل عمران: ٧] .

احتجاجهم بالخبر:

وأما الخبر فقد روينا في أول هذه المسألة خبرا يدل على قولنا،

وروي أنه عليه السلام قال: «إن من العلم كهيئة المكنون لا يعلمه إلا العلماء بالله، فإذا نطقوا به أنكره أهل الغرة بالله»

ولأن القول بأن هذه الفواتح غير معلومة مروي عن أكابر الصحابة فوجب أن يكون حقا،

لقوله عليه السلام «أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم» .

احتجاجهم بالمعقول:

وأما المعقول فهو أن الأفعال التي كلفنا بها قسمان. منها ما نعرف وجه الحكمة فيها على الجملة بعقولنا: كالصلاة والزكاة والصوم، فإن الصلاة تواضع محض وتضرع للخالق، والزكاة سعي في دفع حاجة الفقير، والصوم سعي في كسر الشهوة. ومنها ما لا نعرف وجه الحكمة فيه: كأفعال الحج فإننا لا نعرف بعقولنا وجه الحكمة في رمي الجمرات والسعي بين الصفا والمروة، والرمل، والاضطباع، ثم اتفق المحققون على

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ١٩/ ٧١

أنه كما يحسن من الله تعالى أن يأمر عباده بالنوع الأول فكذا يحسن الأمر منه بالنوع الثاني، لأن الطاعة في النوع الأول لا تدل على كمال الانقياد لاحتمال أن المأمور إنما أتى به لما عرف بعقله من وجه المصلحة فيه، أما الطاعة في النوع الثاني فإنه يدل على كمال الانقياد ونهاية التسليم، لأنه لما لم يعرف فيه وجه مصلحة البتة لم يكن إتيانه به إلا لمحض الانقياد والتسليم، فإذا كان الأمر كذلك في الأفعال فلم لا يجوز أيضا أن يكون الأمر كذلك في الأقوال؟ وهو أن يأمرنا الله تعالى تارة أن نتكلم بما نقف على معناه، وتارة بما لا نقف على معناه، ويكون المقصود من ذلك ظهور الانقياد والتسليم من المأمور للآمر، بل فيه فائدة أخرى، وهي أن الإنسان إذا وقف على المعنى وأحاط به سقط وقعه عن القلب، وإذا لم يقف على المقصود مع قطعه بأن المتكلم بذلك أحكم الحاكمين فإنه يبقى قلبه ملتفتا إليه أبدا، ومتفكرا فيه أبدا، ولباب التكليف إشغال السر بذكر الله تعالى والتفكر في كلامه، فلا يبعد أن يعلم الله تعالى أن في بقاء العبد ملتفت الذهن مشتغل الخاطر بذلك أبدا مصلحة عظيمة له، فيتعبده بذلك تحصيلا لهذه المصلحة، فهذا ملخص كلام الفريقين في هذا الباب.

هل المراد من الفواتح معلوم:

القول الثاني: قول من زعم أن المراد من هذه الفواتح معلوم، ثم اختلفوا فيه وذكروا وجوها. الأول: أنها أسماء السور، وهو قول أكثر المتكلمين واختيار الخليل وسيبويه وقال القفال: وقد سمت العرب بهذه الحروف." (١)

"من البعض، ولأنا لو فتحنا هذا الباب لانفتحت أبواب تأويلات الباطنية وسائر الهذيانات، وذلك مما لا سبيل إليه.

أما الجواب عن المعارضة الأولى: فهو أن لا يبعد أن يكون في تسمية السور الكثيرة باسم واحد- ثم يميز كل واحد منها عن الآخر بعلامة أخرى- حكمة خفية.

وعن الثاني: أن تسمية السورة بلفظة معينة ليست من الأمور العظام، فجاز أن لا يبلغ في الشهرة إلى حد التواتر.

وعن الثالث: أن التسمية بثلاثة أسماء خروج عن كلام العرب إذا جعلت اسما واحدا على طريقة «حضرموت» فأما غير مركبة بل صورة نثر أسماء الأعداد فذاك جائز، فإن سيبويه نص على جواز التسمية

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٥٢/٢

بالجملة، والبيت من الشعر، والتسمية بطائفة من أسماء حروف المعجم.

وعن الرابع: أنه لا يبعد أن يصير اللقب أكثر شهرة من الاسم الأصلي فكذا هاهنا.

وعن الخامس: أن الاسم لفظ دال على أمر مستقل بنفسه من غير دلالة على زمانه المعين، ولفظ الاسم كذلك، فيكون الاسم اسما لنفسه، فإذا جاز ذلك فلم لا يجوز أن يكون جزء الشيء اسما له.

وعن السادس: أن وضع الاسم إنما يكون بحسب الحكمة، ولا يبعد أن تقتضي الحكمة/ وضع الاسم لبعض السور دون البعض. على أن القول الحق: أنه تعالى يفعل ما يشاء، فهذا منتهى الكلام في نصرة هذه الطريقة.

واعلم أن بعد هذا المذهب الذي نصرناه بالأقوال التي حكيناها قول قطرب: من أن المشركين قال بعضهم لبعض: لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه [فصلت: ٢٦] فكان إذا تكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم في أول هذه السورة بهذه الألفاظ ما فهموا منها شيئا، والإنسان حريص على ما منع، فكانوا يصغون إلى القرآن ويتفكرون ويتدبرون في مقاطعه ومطالعه، رجاء أنه ربما جاء كلام يفسر ذلك المبهم، ويوضح ذلك المشكل. فصار ذلك وسيلة إلى أن يصيروا مستمعين للقرآن ومتدبرين في مطالعه ومقاطعه. والذي يؤكد هذا المذهب أمران: أحدهما: أن هذه الحروف ما جاءت إلا في أوائل السور، وذلك يوهم أن الغرض ما ذكرنا والثاني: أن العلماء قالوا: إن الحكمة في إنزال المتشابهات هي أن المعلل لما علم اشتمال القرآن على المتشابهات فإنه يتأمل القرآن ويجتهد في التفكر فيه على رجاء أنه ربما وجد شيئا يقوي قوله وينصر مذهبه، فيصير ذلك سببا لوقوفه على المحكمات المخلصة له عن الضلالات، فإذا جاز إنزال المتشابهات التي توهم الضلالات لمثل هذا الغرض فلأن يجوز إنزال هذه الحروف التي لا توهم شيئا من الخطأ والضلال لمثل هذا الغرض كان أولى. أقصى ما في الباب أن يقال: لو جاز ذلك فليجز أن يتكلم بالزنجية مع العربي وأن يتكلم بالهذيان لهذا الغرض، وأيضا فهذا يقدح في كون القرآن هدى وبيانا، لكنا نقول: لم لا يجوز أن يقال: إن الله تعالى إذا تكلم بالزنجية مع العربي – وكان ذلك متضمنا لمثل هذه المصلحة – فإن ذلك يكون جائزا؟ وتحقيقه أن الكلام فعل من الأفعال، والداعي إليه قد يكون هو الإفادة، وقد يكون غيرها، قوله: «إنه يكون هذيانا» قلنا: إن عنيت بالهذيان الفعل الخالي عن المصلحة بالكلية فليس الأمر كذلك، وإن عنيت به الألفاظ الخالية عن الإفادة فلم قلت إن ذلك يقدح في الحكمة إذا كان فيها وجوه." (١)

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢/٢٥٧

"[البقرة: ١٨٥] واختلفوا في تفسيره، فقيل: سمي بذلك لأن نزوله كان متفرقا أنزله في نيف وعشرين سنة، ودليله قوله تعالى: وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا [الإسراء: ١٠٦] ونزلت سائر الكتب جملة واحدة، ووجه **الحكمة فيه** ذكرناه في سورة الفرقان في قوله تعالى: وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك [الفرقان: ٣٢] وقيل: سمي بذلك لأنه يفرق بين الحق والباطل، والحلال والحرام، والمجمل والمبين، والمحكم والمؤول، وقيل: الفرقان هو النجاة، وهو قول عكرمة والسدي، وذلك لأن الخلق في ظلمات الضلالات فبالقرآن وجدوا النجاة، / وعليه حمل المفسرون قوله: وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان لعلكم تهتدون [البقرة: ٥٣] .

معنى تسميته بالذكر:

ورابعها: الذكر، والتذكرة، والذكرى، أما الذكر فقوله: وهذا ذكر مبارك أنزلناه [الأنبياء: ٥٠] إنا نحن نزلنا الذكر [الحجر: ٩] . وإنه لذكر لك ولقومك [الزخرف: ٤٤] وفيه وجهان: أحدهما: أنه ذكر من الله تعالى ذكر به عباده فعرفهم تكاليفه وأوامره. والثاني: أنه ذكر وشرف وفخر لمن آمن به، وأنه شرف لمحمد صلى الله عليه وسلم، وأمته، وأما التذكرة فقوله: وإنه لتذكرة للمتقين [الحاقة: ٤٨] وأما الذكرى فقوله تعالى: وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين [الذاريات: ٥٥] .

تسميته تنزيلا وحديثا:

وخامسها: التنزيل وإنه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين [الشعراء: ١٩٢- ١٩٣] .

وسادسها: الحديث الله نزل أحسن الحديث كتابا [الزمر: ٢٣] سماه حديثا، لأن وصوله إليك حديث، ولأنه تعالى شبهه بما يتحدث به، فإن الله خاطب به المكلفين.

وسابعها: الموعظة يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم [يونس: ٥٧] وهو في الحقيقة موعظة لأن القائل هو الله تعالى، والآخذ جبريل، والمستملي محمد صلى الله عليه وسلم، فكيف لا تقع به الموعظة.

تسميته بالحكم والحكمة:

وثامنها: الحكم، والحكمة، والحكيم، والمحكم، أما الحكم فقوله: وكذلك أنزلناه حكما عربيا [الرعد: ٣٧] وأما الحكمة فقوله: حكمة بالغة [القمر: ٥] واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة [الأحزاب: ٣٤] وأما الحكيم فقوله: يس والقرآن الحكيم [يس: ١، ٢] وأما المحكم فقوله: كتاب أحكمت آياته [هود: ١] .

معنى الحكمة:

واختلفوا في معنى الحكمة، فقال الخليل: هو مأخوذ من الإحكام والإلزام، وقال المؤرج: هو مأخوذ من حكمة اللجام، لأنها تضبط الدابة، والحكمة تمنع من السفه.

وتاسعها: الشفاء وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين [الإسراء: ٨٢] وقوله: وشفاء لما في الصدور وفيه وجهان: أحدهما: أنه شفاء من الأمراض. والثاني: أنه شفاء من مرض الكفر، لأنه تعالى." (١)

"التجاوز عن الوعيد مستحسن فيما بين الناس، قال الشاعر:

وإني إذا أوعدته أو وعدته ... لمخلف إيعادي ومنجز موعدي

بل الإصرار على تحقيق الوعيد كأنه يعد لؤما، وإذا كان كذلك وجب أن لا يصلح من الله تعالى، وهذا بناء على حرف وهو أهل السنة جوزوا نسخ الفعل قبل مدة الامتثال وحاصل حروفهم فيه أن الأمر يسن تارة لحكمة تنشأ من نفس المأمور به، وتارة لحكمة تنشأ من نفس الأمر، فإن السيد قد يقول لعبده افعل الفعل الفلاني غدا وإن كان يعلم في الحال أنه سينهاه عنه غدا، ويكون مقصوده من ذلك الأمر أن يظهر العبد الانقياد لسيده في ذلك ويوطن نفسه على طاعته، فكذلك إذا علم الله من العبد أنه سيموت غدا فإنه يحسن عند أهل السنة أن يقول: صل غدا إن عشت، ولا يكون المقصود من هذا الأمر تحصيل المأمور به، لأنه هاهنا محال بل المقصود حكمة تنشأ من نفس الأمر فقط، وهو حصول الانقياد والطاعة وترك التمرد. إذا ثبت هذا فنقول: لم لا يجوز أن يقال الخبر أيضا كذلك؟ فتارة يكون منشأ الحكمة من الأخبار هو الشيء المخبر عنه وذلك في الوعد، وتارة يكون منشأ الحكمة هو نفس الخبر لا المخبر عنه كما في الوعيد، فإن الأخبار على سبيل الوعيد مما يفيد الزجر عن المعاصي والإقدام على الطاعات، فإذا حصل هذا المقصود جاز أن لا يوجد المخبر عنه كما في الوعيد، وعند هذا قالوا إن وعد الله بالثواب حق لازم، وأما توعده بالعقاب فغير لازم، وإنما قصد به صلاح المكلفين مع رحمته الشاملة لهم، كالوالد يهدد ولده/ بالقتل والسمل والقطع والضرب، فإن قبل الولد أمره فقد انتفع وإن لم يفعل فما في قلب الوالد من الشفقة يرده عن قتله وعقوبته، فإن قيل فعلى جميع التقادير يكون ذلك كذبا والكذب قبيح قلنا لا نسلم أن كل كذب قبيح بل القبيح هو الكذب الضار، فأما الكذب النافع فلا، ثم إن سلمنا ذلك، لكن لا نسلم أنه

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢/٢٦١

كذب، أليس أن جميع عمومات القرآن مخصوصة ولا يسمى ذلك كذبا، أليس أن كل المتشابهات مصروفة عن ظواهرها، ولا يسمى ذلك كذبا فكذا هاهنا. وثالثها: أليس أن آيات الوعيد في حق العصاة مشروطة بعدم التوبة وإن لم يكن هذا الشرط مذكورا في صريح النص، فهي أيضا عندنا مشروطة بعدم العفو وإن لم يكن هذا الشرط مذكورا بصريح النص صريحا، أو نقول: معناه أن العاصي يستحق هذه الأنواع من العقاب فيحمل الإخبار عن الوقوع على الإخبار عن استحقاق الوقوع فهذا جملة ما يقال في تقرير هذا المذهب. وأما الذين أثبتوا وقوع العذاب، فقالوا إنه نقل إلينا على سبيل التواتر من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقوع العذاب فإنكاره يكون تكذيبا للرسول وأما الشبه التي تمسكتم بها في نفي العقاب فهي مبنية على الحسن والقبح وذلك مما لا نقول به والله أعلم.

[سورة البقرة (٢) : آية ٨]

ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين (٨)

اعلم أن المفسرين أجمعوا على أن ذلك في وصف المنافقين قالوا: وصف الله الأصناف الثلاثة من المؤمنين والكافرين والمنافقين فبدأ بالمؤمنين المخلصين الذين صحت سرائرهم وسلمت ضمائرهم، ثم أتبعهم بالكافرين الذين من صفتهم الإقامة على الجحود والعناد، ثم وصف حال من يقول بلسانه إنه مؤمن وضميره يخالف ذلك، وفيه مسائل:." (١)

"المعبود أو إلى العابد أما إلى المعبود فمحال لأنه كامل لذاته، والكامل لذاته لا يكون كاملا بغيره، ولأنا نعلم بالضرورة أن الإله العالي على الدهر والزمان يستحيل أن ينتفع بركوع العبد وسجوده، وأما إلى العابد فمحال، لأن جميع الفوائد محصورة في حصول اللذة ودفع الألم، وهو سبحانه وتعالى قادر على تحصيل كل ذلك للعبد ابتداء من غير توسط هذه المشاق فيكون توسطها عبثا، والعبث غير جائز على الحكيم. ورابعها: أن العبد غير موجد لأفعاله لأنه غير عالم بتفاصيلها ومن لا يعلم تفاصيل الشيء لا يكون موجدا له وإذا لم يكن العبد موجدا لأفعال نفسه فإن أمره بذلك الفعل حال ما خلقه فيه فقد أمره بتحصيل الحاصل، وإن أمره به حال ما لم يخلقه فيه فقد أمره بالمحال وكل ذلك باطل. وخامسها: أن المقصود من التكليف إنما هو تطهير القلب على ما دلت عليه ظواهر القرآن فلو قدرنا إنسانا مشتغل القلب دائما بالله

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٩٩/٢

تعالى وبحيث لو اشتغل بهذه الأفعال الظاهرة لصار ذلك عائقا له عن الاستغراق في معرفة الله تعالى وجب أن يسقط عنه هذه التكاليف الظاهرة، فإن الفقهاء والقياسيين قالوا إذا لاح المقصود **والحكمة في** التكاليف وجب اتباع الأحكام المعقولة لا اتباع الظواهر.

والجواب: عن الشبه الثلاثة الأول من وجهين: الأول: أن أصحاب هذه الشبه أوجبوا بما ذكروه اعتقاد عدم التكاليف فهذا تكليف ينفي التكليف وأنه متناقض. الثاني: أن عندنا يحسن من الله تعالى كل شيء سواء كان ذلك تكليف ما لا يطاق أو غيره لأنه تعالى خالق مالك، والمالك لا اعتراض عليه في فعله. البحث السادس:

قالوا: الأمر بالعبادة وإن كان عاما لكل الناس لكنه مخصوص في حق من لا يفهم كالصبي والمجنون والغافل والناسي، وفي حق من لا يقدر لقوله تعالى: لا يكلف الله نفسا إلا وسعها [البقرة: ٢٣٣] .

ومنهم من قال إنه مخصوص في حق العبيد، لأن الله تعالى أوجب عليهم طاعة مواليهم، واشتغالهم بطاعة الموالي يمنعهم عن الاشتغال بالعبادة، والأمر الدال على وجوب طاعة المولى/ أخص من الأمر الدال على وجوب العبادة والخاص يقدم على العام والكلام في هذا المعنى مذكور في أصول الفقه.

المسألة السابعة: قال القاضي: الآية تدل على أن سبب وجود العبادة ما بينه من خلقه لنا والإنعام علينا. واعلم أن أصحابنا يحتجون بهذه الآية على أن العبد لا يستحق بفعله الثواب لأنه لما كان خلقه إيانا وإنعامه علينا سببا لوجوب العبادة فحينئذ يكون اشتغالنا بالعبادة أداء للواجب، والإنسان لا يستحق بأداء الواجب شيئا فوجب أن لا يستحق العبد على العبادة ثوابا على الله تعالى أما قوله: ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون ففيه مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أنه سبحانه لما أمر بعبادة الرب أردفه بما يدل على وجود الصانع وهو خلق المكلفين وخلق من قبلهم، وهذا يدل على أنه لا طريق إلى معرفة الله تعالى إلا بالنظر والاستدلال وطعن قوم من الحشوية في هذه الطريقة وقالوا الاشتغال بهذا العلم بدعة ولنا في إثبات مذهبنا وجوه نقلية وعقلية وهاهنا ثلاث مقامات: المقام الأول: في بيان فضل هذا العلم وهو من وجوه: أحدها: أن شرف العلم بشرف المعلوم فمهما كان المعلوم أشرف كان العلم الحاصل به أشرف فلما كان أشرف المعلومات ذات الله تعالى وصفاته وجب أن يكون العلم المتعلق به أشرف العلوم. وثانيها: أن العلم إما أن يكون دينيا أو غير ديني، ولا شك أن العلم الديني أشرف من غير الديني، وأما العلم الديني فإما أن يكون هو علم الأصول، أو ما

عداه، أما ما عداه فإنه تتوقف صحته على علم الأصول، لأن المفسر إنما يبحث عن معاني كلام الله تعالى، وذلك فرع على وجود." (١)

"الحال في الجنة، فالحاصل أن الأرض أمك بل أشفق من الأم، لأن الأم تسقيك لونا واحدا من اللبن، والأرض تطعمك كذا وكذا لونا من الأطعمة، ثم قال: منها خلقناكم وفيها نعيدكم [طه: ٥٥] معناه نردكم إلى هذه الأم، وهذا ليس بوعيد، لأن المرء لا يوعد بأمه وذلك لأن مكانك من الأم التي ولدتك أضيق من مكانك من الأرض، ثم إنك كنت في بطن الأم تسعة أشهر فما مسك جوع ولا عطش، فكيف إذا دخلت بطن الأم الكبرى، ولكن الشرط أن تدخل بطن هذه الأم الكبرى، كما كنت في بطن الأم الصغرى، لأنك حين كنت في بطن الأم الصغرى ما كانت لك زلة، فضلا عن أن تكون لك كبيرة، بل كنت مطيعا لله بحيث دعاك مرة إلى الخروج إلى الدنيا فخرجت إليها بالرأس طاعة منك لربك، واليوم يدعوك سبعين مرة إلى الصلاة فلا تجيبه برجلك، واعلم أنه سبحانه وتعالى لما ذكر الأرض والسماء بين ما بينهما من شبه عقد النكاح بإنزال الماء من السماء على الأرض والإخراج به من بطنها أشباه النسل الحاصل من الحيوان، ومن أنواع الثمار رزقا لبني آدم ليتفكروا في أنفسهم وفي أحوال ما فوقهم وما تحتهم، ويعرفوا أن شيئا من هذه الأشياء لا يقدر على تكوينها وتخليقها إلا من كان مخالفا لها في الذات والصفات، وذلك هو الصانع الحكيم سبحانه وتعالى. وهاهنا سؤالات: السؤال الأول: هل تقولون إن الله تعالى هو الخالق لهذه الثمرات عقيب وصول الماء إليها بمجرى العادة، أو تقولون إن الله تعالى خلق في الماء طبيعة مؤثرة، وفي الأرض طبيعة قابلة، فإذا اجتمعا حصل الأثر من تلك القوة التي خلقها الله تعالى؟ والجواب: لا شك أن على كلا القولين لا بد من الصانع الحكيم وأما التفصيل فنقول: لا شك أنه تعالى قادر على خلق هذه الثمار ابتداء من غير هذه الوسائط لأن الثمرة لا معنى لها إلا جسم قام به طعم ولون ورائحة ورطوبة، والجسم قابل لهذه الصفات، وهذه الصفات مقدورة لله تعالى ابتداء لأن المصحح للمقدورية إما الحدوث، أو الإمكان، وإما هما وعلى التقديرات فإنه يلزم أن يكون الله تعالى قادرا على خلق هذه الأعراض في الجسم ابتداء بدون هذه الوسائط، ومما يؤكد هذا الدليل العقلي من الدلائل النقلية ما ورد الخبر بأنه تعالى يخترع نعيم أهل الجنة للمثابين من غير هذه الوسائط، إلا أنا نقول قدرته على خلقها ابتداء لا تنافي قدرته عليها بواسطة خلق هذه القوى المؤثرة والقابلة في الأجسام، وظاهر قول المتأخرين من المتكلمين إنكار

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢/٣٢٣

ذلك ولا بد فيه من دليل. السؤال الثاني: لما كان قادرا على خلق هذه الثمار بدون هذه الوسائط فما الحكمة في خلقها بهذه الوسائط في هذه المدة الطويلة؟ والجواب: يفعل الله ما يشاء ويحكم ما يريد. ثم ذكروا من الحكم المفصلة وجوها: أحدها: أنه تعالى إنما أجرى العادة بأن لا يفعل ذلك إلا على ترتيب وتدريج، لأن المكلفين إذا تحلوا المشقة في الحرث والغرس طلبا/ للثمرات وكدوا أنفسهم في ذلك حالا بعد حال علموا أنهم لما احتاجوا إلى تحمل هذه المشاق لطلب هذه المنافع الدنيوية، فلأن يتحملوا مشاق أقل من المشاق الدنيوية لطلب المنافع الأخروية التي هي أعظم من المنافع الدنيوية كان أولى، وصار هذا كما قلنا أنه تعالى قادر على خلق الشفاء من غير تناول الدواء لكنه أجرى عادته بتوقيفه عليه لأنه إذا تحمل مرارة الأدوية دفعا لضرر المرض، فلأن يتحمل مشاق التكليف دفعا لضرر العقاب كان أولى وثانيها: أنه تعالى لو خلقها دفعة من غير هذه الوسائط لحصل العلم الضروري بإسنادها إلى القادر الحكيم، وذلك كالمنافي للتكليف والابتلاء أما لو خلقها بهذه الوسائط فحينئذ يفتقر المكلف في إسنادها إلى القادر إلى نظر دقيق، وفكر غامض فيستوجب الثواب، ولهذا قيل: لولا

الأسباب لما ارتاب مرتاب. وثالثها: أنه ربما كان للملائكة ولأهل الاستبصار عبر في ذلك وأفكار صائبة. السؤال الثالث: قوله: وأنزل من السماء ماء يقتضي نزول المطر من السماء وليس الأمر كذلك." (١)

"ربهم، من كانت له أذن تسمع فليسمع، وأضرب لكم مثلا آخر يشبه ملكوت السماء: لو أن رجلا أخذ حبة من خردل وهي أصغر الحبوب وزرعها في قريته، فلما نبتت عظمت حتى صارت كأعظم شجرة من البقول وجاء طير من السماء فعشش في فروعها فكذلك الهدى من دعا إليه ضاعف الله أجره وعظمه ورفع ذكره، ونجى من اقتدى به، وقال: لا تكونوا كمنخل يخرج منه الدقيق الطيب ويمسك النخالة، وكذلك أنتم تخرج الحكمة من أفواهكم وتبقون الغل في صدوركم، وقال: قلوبكم كالحصاة التي لا تنضجها النار ولا يلينها الماء ولا تنسفها الرياح، وقال لا تدخروا ذخائركم حيث السوس والأرضة فتفسدها، ولا في البرية حيث السموم اللصوص فتحرقها السموم وتسرقها اللصوص ولكن ادخروا ذخائركم عند الله وقال: نحفر فنجد دواب عليها لباسها وهناك بلباسهن وأرزاقهن إلا الله؟ أفلا تعقلون، وقال: لا تثيروا الزنابير فتلدغكم ولا تخاطبوا السفهاء فيشتموكم، فظهر أن الله تعالى ضرب الأمثال بهذه الأشياء الحقيرة وأما العقل فلأن من طبع الخيال المحاكاة والتشبه فإذا ذكر المعنى وحده أدركه العقل ولكن مع منازعة الخيال، وإذا ذكر

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٣٤٣/٢

معه الشبه أدركه العقل مع معاونة الخيال، ولا شك أن الثاني يكون أكمل وأيضا فنحن نرى أن الإنسان يذكر معنى ولا يلوح له كما ينبغي فإذا ذكر المثال اتضح وصار مبينا مكشوفا، وإن كان التمثيل يفيد زيادة البيان والوضوح، وجب ذكره في الكتاب الذي لا يراد منه إلا الإيضاح والبيان، أما قولهم: ضرب الأمثال بهذه الأشياء الحقيرة لا يليق بالله تعالى، قلنا هذا جهل، لأنه تعالى هو الذي خلق الصغير والكبير وحكمه في كل ما خلق وبرأ عام لأنه قد أحكم جميعه، وليس الصغير أخف عليه من الكبير والعظيم أصعب من الصغير، وإذا كان الكل بمنزلة واحدة لم يكن الكبير أولى أن يضربه مثلا لعباده من الصغير بل المعتبر فيه ما يليق بالقصة، فإذا كان الأليق بها الذباب

والعنكبوت يضرب المثل بهما لا بالفيل والجمل، فإذا أراد تعالى أن يقبح عبادتهم الأصنام وعدولهم عن عبادة الرحمن صلح أن يضرب المثل/ بالذباب، ليبين أن قدر مضرتها لا يندفع بهذه الأصنام، ويضرب المثل لبيت العنكبوت ليبين أن عبادتها أوهن وأضعف من ذلك وفي مثل ذلك كل ما كان المضروب به المثل أضعف كان المثل أقوى وأوضح.

المسألة الرابعة: قال الأصم: «ما» في قوله مثلا ما صلة زائدة كقوله: فبما رحمة من الله [آل عمران: ١٥٩] وقال أبو مسلم معاذ الله أن يكون في القرآن زيادة ولغو والأصح قول أبي مسلم لأن الله تعالى وصف القرآن بكونه هدى وبيانا وكونه لغوا ينافي ذلك، وفي بعوضة قراءتان: إحداهما: النصب وفي لفظة ما على هذه القراءة وجهان: الأول: أنها مبنية وهي التي إذا قرنت باسم نكرة أبهمته إبهاما وزادته شيوعا وبعدا عن الخصوصية. بيانه أن الرجل إذا قال لصاحبه أعطني كتابا أنظر فيه فأعطاه بعض الكتب صح له أن يقول أردت كتابا آخر ولم أرد هذا ولو قاله مع ما لم يصح له ذلك لأن تقدير الكلام أعطني كتابا أي كتاب كان. الثاني: أنها نكرة قام تفسيرها باسم الجنس مقام الصفة، أما على قراءة الرفع ففيها وجهان: الأول: أنها موصولة صلتها الجملة لأن التقدير هو بعوضة فحذف المبتدأ كما حذف في تماما على الذي أحسن [الأنعام: ١٥٤] .

الثاني: أن تكون استفهامية فإنه لما قال: إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلا كأنه قال بعده ما بعوضة فما فوقها حتى يضرب المثل به، بل له أن يمثل بما هو أقل من ذلك كثيرا كما يقال فلان لا يبالي بما وهب، ما دينار وديناران، أي يهب ما هو أكثر من ذلك بكثير.

المسألة الخامسة: قال صاحب «الكشاف» : ضرب المثل اعتماده وتكوينه من ضرب اللبن وضرب الخاتم.." (١)

"المسألة السادسة: انتصب بعوضة بأنه عطف بيان لمثلا أو مفعول ليضرب ومثلا حال من النكرة مقدم عليه أو ثاني مفعولين ليضرب مضمنا معنى يجعل، وهذا إذا كانت ما صلة أو إبهامية، فإن كانت مفسرة ببعوضة فهي تابعة لما هي تفسير له، والمفسر والمفسر معا لمجموعهما عطف بيان أو مفعول، ومثلا حال مقدمة، وأما رفعها فبكونها خبر مبتدأ، أما إذا كانت ما موصولة أو موصوفة أو استفهامية فأمرها ظاهر، فإذا كانت إبهامية فهي على الجواب كأن قائلا قال ما هو فقيل بعوضة.

المسألة السابعة: قال صاحب «الكشاف» : اشتقاق البعوض من البعض وهو القطع كالبضع والعضب يقال بعضه البعوض ومنه بعض الشيء لأنه قطعة منه والبعوض في أصله صفة على فعول كالقطوع فغلبت اسميته، وعن بعضهم اشتقاقه من بعض الشيء سمي به لقلة جرمه وصغره ولأن بعض الشيء قليل بالقياس إلى كله، والوجه القوي هو الأول، قال وهو من عجائب خلق الله تعالى فإنه صغير جدا وخرطومه في غاية الصغر ثم إنه مع ذلك مجوف ثم ذلك الخرطوم مع فرط صغره وكونه جوفا يغوص في جلد الفيل والجاموس على ثخانته كما يضرب الرجل إصبعه في الخبيص، / وذلك لما ركب الله في رأس خرطومه من السم.

المسألة الثامنة: في قوله: فما فوقها وجهان: أحدهما: أن يكون المراد فما هو أعظم منها في الجثة كالذباب والعنكبوت والحمار والكلب، فإن القوم أنكروا تمثيل الله تعالى بكل هذه الأشياء. والثاني: أراد بما فوقها في الصغر أي بما هو أصغر منها والمحققون مالوا إلى هذا القول لوجوه: أحدها: أن المقصد من هذا التمثيل تحقير الأوثان، وكلما كان المشبه به أشد حقارة كان المقصود في هذا الباب أكمل حصولا. وثانيها: أن الغرض هاهنا بيان أن الله تعالى لا يمتنع من التمثيل بالشيء الحقير، وفي مثل هذا الموضع يجب أن يكون المذكور ثانيا أشد حقارة من الأول يقال إن فلانا يتحمل الذل في اكتساب الدينار، وفي اكتساب ما فوقه، يعني في القلة لأن تحمل الذل في اكتساب أقل من الدينار أشد من تحمله في اكتساب الدينار. وثالثها: أن الشيء كلما كان أصغر كان الاطلاع على أسراره أصعب، فإذا كان في نهاية الصغر لم يحط به إلا علم الله تعالى، فكان التمثيل به أقوى في الدلالة على كمال الحكمة من التمثيل بالشيء الكبير، واحتج الأولون بوجهين: الأول: بأن لفظ «فوق» يدل على العلو، فإذا قيل هذا فوق ذاك، فإنما معناه أنه أكبر

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢/٣٦٣

منه

ويروى أن رجلا مدح عليا رضي الله عنه والرجل متهم فيه، فقال علي: أنا دون ما تقول وفوق ما في نفسك، أراد بهذا أعلى مما في نفسك. الثاني:

كيف يضرب المثل بما دون البعوضة وهي النهاية في الصغر؟ والجواب عن الأول: أن كل شيء كان ثبوت صفة فيه أقوى من ثبوتها في شيء آخر كان ذلك الأقوى فوق الأضعف في تلك الصفة يقال إن فلانا فوق فلان في اللؤم والدناءة. أي هو أكثر لؤما ودناءة منه، وكذا إذا قيل هذا فوق ذلك في الصغر وجب أن يكون أكثر صغرا منه، والجواب عن الثاني أن جناح البعوضة أقل منها وقد ضربه رسول الله صلى الله عليه وسلم مثلا للدنيا.

المسألة التاسعة: «أما» حرف فيه معنى الشرط، ولذلك يجاب بالفاء وهذا يفيد التأكيد تقول زيد ذاهب فإذا قصدت توكيد ذلك وأنه لا محالة ذاهب قلت أما زيد فذاهب، إذا ثبت هذا فنقول: إيراد الجملتين مصدرتين به إحماد عظيم لأمر المؤمنين واعتداد بعلمهم أنه الحق وذم عظيم للكافرين على ما قالوه وذكروه.

المسألة العاشرة: «الحق» الثابت الذي لا يسوغ إنكاره يقال حق الأمر إذا ثبت ووجب وحقت كلمة ربك، وثوب محقق محكم النسج.." (١)

"به هذا الإضلال بعد أن صار هو من الفاسقين الناقضين لعهد الله باختيار نفسه، فدل ذلك على أن هذا الإضلال الذي يحصل بعد صيرورته فاسقا وناقضا للعهد مغاير لفسقه ونقضه، وحادي عاشرها: أنه تعالى فسر الإضلال المنسوب إليه في كتابه، إما بكوه ابتلاء وامتحانا، أو بكونه عقوبة ونكالا، فقال في الابتلاء: وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا أي امتحانا إلى أن قال: كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء [المدثر: ٣١] فبين أن إضلاله للعبد يكون على هذا الوجه من إنزاله آية متشابهة أو فعلا متشابها لا يعرف حقيقة الغرض فيه، والضال به هو الذي لا يقف على المقصود ولا يتفكر في وجه **الحكمة فيه** بل يتمسك بالشبهات في تقرير المجمل الباطل كما قال تعالى: فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله [آل عمران: ٧] وأما العقوبة والنكال فكقوله: إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون [غافر: ٧١] إلى أن قال: كذلك يضل الله الكافرين فبين أن إضلاله لا يعدو أحد هذين الوجهين وإذا كان الإضلال مفسرا بأحد هذين الوجهين

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢/٣٦٤

وجب أن لا يكون مفسرا بغيرهما دفعا للاشتراك، فثبت أنه لا يجوز حمل الإضلال على خلق الكفر والضلال وإذا ثبت ذلك فنقول بينا أن الإضلال في أصل اللغة الدعاء إلى الباطل والترغيب فيه والسعي في إخفاء مقابحه وذلك لا يجوز على الله تعالى فوجب المصير إلى التأويل، والتأويل الذي ذهبت الجبرية إليه قد أبطلناه فوجب المصير إلى وجوه أخر من التأويلات. أحدها: أن الرجل إذا ضل باختياره عند حصول شيء من غير أن يكون ذلك الشيء أثر في إضلاله فيقال لذلك الشيء إنه أضله قال تعالى في/ حق الأصنام رب إنهن أضللن كثيرا من الناس [إبراهيم: ٣٦] أي ضلوا بهن، وقال:

ولا يغوث ويعوق ونسرا وقد أضلوا كثيرا [نوح: ٢٣، ٢٤] أي ضل كثير من الناس بهم وقال: وليزيدن كثيرا منهم ما أنزل إليك من ربك طغيانا وكفرا [المائدة: ٦٤] وقال: فلم يزدهم دعائي إلا فرارا [نوح: ٦] أي لم يزدادوا بدعائي لهم إلا فرارا وقال: فاتخذتموهم سخريا حتى أنسوكم ذكري [المؤمنون: ١١٠] وهم لم ينسوهم في الحقيقة بل كانوا يذكرونهم الله ويدعونهم إليه ولكن لما كان اشتغالهم بالسخرية منهم سببا لنسيانهم أضيف الإنساء إليهم وقال في براءة: وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانا، فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون، وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم [التوبة: ١٢٤، ١٢٥] فأخبر سبحانه أن نزول السورة المشتملة على الشرائع يعرف أحوالهم فمنهم من يصلح عليها فيزداد بها إيمانا، ومنهم من يفسد عليها فيزداد بها كفرا، فإذن أضيفت الزيادة في الإيمان والزيادة في الكفر إلى السورة، إذ كانوا إنما صلحوا عند نزولها وفسدوا كذلك أيضا، فكذا أضيف الهدى والإضلال إلى الله تعالى إذا كان إحداثهما عند ضربه تعالى الأمثال لهم وقال في سورة المدثر: وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيمانا [المدثر: ٣١] فأخبر تعالى أن ذكره لعدة خزنة النار امتحان منه لعباده ليتميز المخلص من المرتاب فآلت العاقبة إلى أن صلح عليها المؤمنون وفسد الكافرون وأضاف زيادة الإيمان وضدها إلى الممتحنين فقال ليزداد وليقول ثم قال بعد قوله: ماذا أراد الله بهذا مثلا، كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء [المدثر: ٣١] فأضاف إلى نفسه إضلالهم وهداهم بعد أن أضاف إليهم الأمرين معا، فبين تعالى أن الإضلال مفسر بهذا الامتحان ويقال في العرف أيضا. أمرضني الحب أي مرضت به: ويقال قد أفسدت فلانة فلانا وهي لم تعلم به، وقال الشاعر:." (١)

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٣٦٨/٢

"[ص: ١٧] ، واضرب لهم مثلا أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون إذ أرسلنا إليهم اثنين [يس: ١٣، ١٤] والقرآن كله كالكلمة الواحدة ولا يبعد أن تكون هذه المواضع المصرحة نزلت قبل هذه السورة فلا جرم ترك ذلك هاهنا اكتفاء بذلك المصرح. قال صاحب «الكشاف» : ويجوز أن ينتصب «إذ» بقالوا.

المسألة الثانية: الملك أصله من الرسالة، يقال ألكني إليه أي أرسلني إليه والمألكة والألوكة الرسالة وأصله الهمزة من «ملأكة» حذفت الهمزة وألقيت حركتها على ما قبلها طلبا للخفة لكثرة استعمالها، قال صاحب «الكشاف» : الملائك جمع ملأك على الأصل كالشمائل في جمع شمأل وإلحاق التاء لتأنيث الجمع.

المسألة الثالثة: من الناس من قال: الكلام في الملائكة ينبغي أن يكون مقدما على الكلام في الأنبياء لوجهين: الأول: أن الله تعالى قدم ذكر الإيمان بالملائكة على ذكر الإيمان بالرسل في قوله: والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله [المؤمنون: ٢٨٥]

ولقد قال عليه السلام: «ابدءوا بما بدأ الله به»

الثاني: أن الملك واسطة بين الله وبين الرسول في تبليغ الوحي والشريعة فكان مقدما على الرسول، ومن الناس من قال:

الكلام في النبوات مقدم على الكلام في الملائكة لأنه لا طريق لنا إلى معرفة وجود الملائكة بالعقل بل بالسمع، فكان الكلام في النبوات أصلا للكلام في الملائكة فلا جرم وجب تقديم الكلام في النبوات، والأولى أن يقال الملك قبل النبي بالشرف والعلية وبعده في عقولنا وأذهاننا بحسب وصولنا إليها بأفكارنا.

واعلم أنه لا خلاف بين العقلاء في أن شرف الرتبة للعالم العلوي هو وجود الملائكة فيه كما أن شرف الرتبة للعالم السفلي هو وجود الإنسان فيه إلا أن الناس اختلفوا في ماهية الملائكة وحقيقتهم وطريق ضبط المذاهب أن يقال: الملائكة لا بد وأن تكون ذوات قائمة بأنفسها ثم إن تلك الذوات إما أن تكون متحيزة أولا تكون، أما الأول: وهو أن تكون الملائكة ذوات متحيزة فهنا أقوال: أحدها: أنها أجسام لطيفة هوائية تقدر على التشكل بأشكال مختلفة مسكنها السموات، وهذا قول أكثر المسلمين. وثانيا: قول طوائف من عبدة الأوثان وهو أن الملائكة هي الحقيقة في هذه الكواكب الموصوفة بالإسعاد والإنحاس فإنها بزعمهم أحياء ناطقة، وأن المسعدات منها ملائكة الرحمة والمنحسات منها ملائكة العذاب، وثالثها: قول معظم المجوس والثنوية وهو أن هذا العالم مركب من أصلين أزليين وهما النور والظلمة، وهما في الحقيقة جوهران شفافان مختاران قادران متضادا النفس والصورة مختلفا الفعل والتدبير، فجوهر النور فاضل خير نقي طيب

الريح كريم النفس يسر ولا يضر، وينفع ولا يمنع، ويحيي ولا يبلي وجوهر الظلمة على ضد ذلك. ثم إن جوهر النور لم يزل يولد الأولياء وهم الملائكة لا على سبيل التناكح بل على سبيل تولد الحكمة من الحكيم والضوء من المضيء. وجوهر الظلمة لم يزل يولد الأعداء وهم الشياطين على سبيل تولد السفه من السفيه لا على سبيل التناكح فهذه أقوال من جعل الملائكة أشياء متحيزة جسمانية. القول الثاني: أن الملائكة ذوات قائمة بأنفسها وليست بمتحيزة ولا بأجسام فههنا قولان: أحدهما:

قول طوائف من النصارى وهو أن الملائكة في الحقيقة هي الأنفس الناطقة المفارقة لأبدانها على نعت الصفاء والخيرية وذلك لأن هذه النفوس المفارقة إن كانت صافية خالصة فهي الملائكة، وإن كانت خبيثة كدرة فهي الشياطين. وثانيهما: قول الفلاسفة: وهي أنها جواهر قائمة بأنفسها وليس بمتحيزة البتة، وأنها بالماهية مخالفة لأنواع النفوس الناطقة البشرية وأنها أكمل قوة منها وأكثر علما منها، وأنها للنفوس البشرية جارية مجرى الشمس بالنسبة إلى الأضواء، ثم إن هذه الجواهر على قسمين، منها ما هي بالنسبة إلى أجرام الأفلاك." (١)

"النار هم فيها خالدون

والجواب عن الشبهة الأولى أن نقول: أما الوجه الأول وهو قولهم إنهم اعترضوا على الله تعالى وهذا من أعظم الذنوب فنقول إنه ليس غرضهم من ذلك السؤال تنبيه الله على شيء كان غافلا عنه، فإن من اعتقد ذلك في الله فهو كافر، ولا الإنكار على الله تعالى في فعل فعله، بل المقصود من ذلك السؤال أمور:

أحدها: أن الإنسان إذا كان قاطعا بحكمة غيره ثم رأى أن ذلك الغير يفعل فعلا لا يقف على وجه الحكمة فيه فيقول له أتفعل هذا! كأنه يتعجب من كمال حكمته وعلمه، ويقول إعطاء هذه النعم لمن يفسد من الأمور التي لا تهتدي العقول فيها إلى وجه الحكمة فإذا كنت تفعلها واعلم أنك لا تفعلها إلا لوجه دقيق وسر غامض أنت مطلع عليه فما أعظم حكمتك وأجل علمك فالحاصل أن قوله: أتجعل فيها من يفسد فيها كأنه تعجب من كمال علم الله تعالى وإحاطة حكمته بما خفي على كل العقلاء. وثانيها: أن إيراد الإشكال طلبا للجواب غير محذور فكأنهم قالوا إلهنا أنت الحكيم الذي لا يفعل السفه البتة ونحن نرى في العرف أن تمكين السفيه من السفه سفه فإذا خلقت قوما يفسدون ويقتلون وأنت مع علمك أن حالهم كذلك خلقتهم ومكنتهم وما منعتهم عن ذلك فهذا يوهم السفه وأنت الحكيم المطلق فكيف يمكن الجمع

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢/٣٨٤

بين الأمرين فكأن الملائكة أوردوا هذا السؤال طلبا للجواب، وهذا جواب المعتزلة قالوا: وهذا يدل على أن الملائكة لم يجوزوا صدور القبيح من الله تعالى وكانوا على مذهب أهل العدل قالوا والذي يؤكد هذا الجواب وجهان: أحدهما: أنهم أضافوا الفساد وسفك الدماء إلى المخلوقين لا إلى الخالق. والثاني: أنهم قالوا: ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك لأن التسبيح تنزيه ذاته عن صفة الأجسام والتقديس تنزيه أفعاله عن صفة الذم ونعت السفه، وثالثها: أن الشرور وإن كانت حاصلة في تركيب هذا العالم السفلي إلا أنها من لوازم الخيرات الحاصلة فيه وخيراتها غالبة على شرورها وترك الخير الكثير لأجل الشر القليل شر كثير فالملائكة ذكروا تلك الشرور، فأجابهم الله تعالى بقوله: إني أعلم ما لا تعلمون يعني أن الخيرات الحاصلة من أجل تراكيب العالم السفلي أكثر من الشرور الحاصلة فيها والحكمة تقتضي إيجاد ما هذا شأنه لا تركه وهذا جواب الحكماء. ورابعها: أن سؤالهم كان على وجه المبالغة في إعظام الله تعالى فإن العبد المخلص لشدة حبه لمولاه يكره أن يكون له عبد يعصيه. وخامسها: أن قول الملائكة:

أتجعل فيها من يفسد فيها مسألة منهم/ أن يجعل الأرض أو بعضها لهم إن كان ذلك صلاحا فكأنهم قالوا:

يا إلهنا اجعل الأرض لنا لا لهم كما قال موسى عليه السلام: أتهلكنا بما فعل السفهاء منا [الأعراف: ١٥٥] والمعنى لا تهلكنا فقال تعالى: إني أعلم ما لا تعلمون من صلاحكم وصلاح هؤلاء الذين أجعلهم في الأرض فبين ذلك أنه اختار لهم السماء خاصة ولهؤلاء الأرض خاصة لعلمه بصلاح ذلك في أديانهم ليرضى كل فريق بما اختاره الله له. وسادسها: أنهم طلبوا الحكمة التي لأجلها خلقهم مع هذا الفساد والقتل، وسابعها: قال القفال يحتمل أن الله تعالى لما أخبرهم أنه يجعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها، أي ستفعل ذلك فهو إيجاب خرج مخرج الاستفهام قال جرير:

ألستم خير من ركب المطايا ... وأندى العالمين بطون راح

أي أنتم كذلك. ولو كان استفهاما لم يكن مدحا، ثم قالت الملائكة إنك تفعل ذلك ونحن مع هذا نسبح بحمدك ونقدس لما أنا نعلم أنك لا تفعل إلا الصواب والحكمة فلما قالوا ذلك قال الله تعالى لهم: إني أعلم ما لا تعلمون كأنه قال والله أعلم نعم ما فعلتم حيث لم تجعلوا ذلك قادحا في حكمتي فإني أعلم ما لا تعلمون." (١)

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٣٩١/٢

"قولهم: ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك أضافوا هذه الأفعال إلى أنفسهم فلو كانت أفعالا لله تعالى لما حسن التمدح بذلك ولا فضل لذلك على سفك الدماء إذ كل ذلك من فعل الله تعالى. وثانيها: لو كان الفساد والقتل فعلا لله تعالى لكان يجب أن يكون الجواب أن يقول إني مالك أفعل ما أشاء. وثالثها: أن قوله: أعلم ما لا تعلمون يقتضي التبري من الفساد والقتل لكن التبري من فعل نفسه محال. ورابعها: إذا كان لا فاحشة ولا قبح ولا جور ولا ظلم ولا فساد إلا بصنعه وخلقه ومشيئته فكيف يصح التنزيه والتقديس؟ وخامسها: أن قوله: أعلم ما لا تعلمون يدل على مذهب العدل لأنه لو كان خالقا للكفر لكان خلقهم لذلك الكفر فكان ينبغي أن يكون الجواب نعم خلقهم ليفسدوا وليقتلوا. فلما لم يرضى بهذا الجواب سقط هذا المذهب.

وسادسها: لو كان الفساد والقتل، من فعل الله تعالى لكان ذلك جاريا مجرى ألوانهم وأجسامهم وكما لا يصح التعجب من هذه الأشياء فكذا من الفساد والقتل والجواب عن هذه الوجوه المعارضة بمسألة الداعي والعلم والله أعلم.

المسألة السادسة: إن قيل قوله: إني أعلم ما لا تعلمون كيف يصلح أن يكون جوابا عن السؤال الذي ذكروه قلنا قد ذكرنا أن السؤال يحتمل وجوها: أحدها: أنه للتعجب فيكون قوله: أعلم ما لا تعلمون جوابا له من حيث إنه قال تعالى لا تتعجبوا من أن يكون فيهم من يفسد ويقتل فإني أعلم مع هذا بأن فيهم جمعا من الصالحين والمتقين وأنتم لا تعلمون. وثانيها: أنه للغم فيكون الجواب لا تغتموا بسبب وجود المفسدين فإني أعلم أيضا أن فيهم جمعا من المتقين، ومن لو أقسم علي لأبره. وثالثها: أنه طلب الحكمة فجوابه أن مصلحتكم فيه أن تعرفوا وجه **الحكمة فيه** على الإجمال دون التفصيل. بل ربما كان ذلك التفصيل مفسدة لكم ورابعها: أنه التماس لأن يتركهم في الأرض وجوابه إني أعلم أن مصلحتكم أن تكونوا في السماء لا في الأرض، وفيه وجه خامس: وهو أنهم لما قالوا: نسبح بحمدك ونقدس لك قال تعالى: إني أعلم ما لا تعلمون وهو أن معكم إبليس وأن في قلبه حسدا وكبرا ونفاقا. ووجه سادس: وهو أني أعلم ما لا تعلمون فإنكم لما وصفتم أنفسكم بهذه المدائح فقد استعظمتم أنفسكم فكأنكم أنتم بهذا الكلام في تسبيح أنفسكم لا في تسبيحي ولكن اصبروا حتى يظهر البشر فيتضرعون إلى الله بقولهم: ربنا ظلمنا أنفسنا [الأعراف: ٤٤] وبقوله: والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي [الشعراء: ٨٢] وبقوله: وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين [النمل: ١٩] .

[سورة البقرة (٢) : آية ٣١]

وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين (٣١)

أعلم أن الملائكة لما سألوا عن وجه الحكمة في خلق آدم وذريته وإسكانه تعالى إياهم في الأرض وأخبر الله تعالى عن وجه الحكمة في ذلك على سبيل الإجمال بقوله تعالى: إني أعلم ما لا تعلمون أراد تعالى أن يزيدهم بيانا وأن يفصل لهم ذلك المجمل، فبين تعالى لهم من فضل آدم عليه السلام ما لم يكن من ذلك معلوما لهم، وذلك بأن علم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم عليهم ليظهر بذلك كمال فضله وقصورهم عنه في العلم فيتأكد ذلك الجواب الإجمالي بهذا الجواب التفصيلي وهاهنا مسائل:

المسألة الأولى: قال الأشعري والجبائي والكعبي: اللغات كلها توقيفية. بمعنى أن الله تعالى خلق علما." (١)

"نبيا في ذلك الزمان، لكان قد صدرت المعصية عنه بعد النبوة. وذلك غير جائز، فوجب أن لا يكون نبيا في ذلك الزمان أما الملازمة فلأن صدور الزلة عنه كان بعد هذه الواقعة بالاتفاق وتلك الزلة من باب الكبائر على ما سيأتي شرحه إن شاء الله تعالى والإقدام على الكبيرة يوجب استحقاق الطرد والتحقير واللعن وكل ذلك على الأنبياء غير جائز فيجب أن يقال وقعت تلك الواقعة قبل النبوة. وثانيها: لو كان رسولا في ذلك الوقت لكان إما أن يكون مبعوثا إلى أحد أو لا يكون فإن كان مبعوثا إلى أحد، فإما أن يكون مبعوثا إلى الملائكة أو الإنس أو الجن والأول باطل لأن الملائكة عند المعتزلة أفضل من البشر ولا يجوز جعل الأدون رسولا إلى الأشرف لأن الرسول والأمة تبع، وجعل الأدون متبوع الأشرف خلاف الأصل وأيضا فالمرء إلى قبول القول ممن هو من جنسه أمكن ولهذا قال تعالى: ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا [الأنعام: ٩] ولا جائز أن يكون مبعوثا إلى البشر، لأنه ما كان هناك أحد من البشر إلا حواء، وإن حواء إنما عرفت التكليف لا بواسطة آدم لقوله تعالى:

ولا تقربا هذه الشجرة [الأعراف: ١٩] شافههما بهذا التكليف وما جعل آدم واسطة ولا جائز أن يكون مبعوثا إلى الجن لأنه ما كان في السماء أحد من الجن ولا جائز أيضا أن يكون مبعوثا إلى أحد لأن المقصود من جعله رسولا التبليغ فحيث لا مبلغ لم يكن في جعله رسولا فائدة وهذا الوجه ليس في غاية القوة. وثالثها: قوله تعالى: ثم اجتباه ربه [طه: ١٢٢] فهذه الآية دلت على أنه تعالى إنما اجتباه بعد الزلة

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢/٣٩٦

فوجب أن يقال إنه قبل الزلة ما كان مجتبى، وإذا لم يكن ذلك الوقت مجتبى وجب أن لا يكون رسولا لأن الرسالة والاجتباء متلازمان لأن الاجتباء لا معنى لہ إلا التخصيص بأنواع التشريفات وكل من جعله الله رسولا فقد خصه بذلك لقوله تعالى:

الله أعلم حيث يجعل رسالته [الأنعام: ١٢٤] .

المسألة الخامسة: ذكروا في قوله: إن كنتم صادقين وجوها: أحدها: معناه أعلموني أسماء هؤلاء إن علمتم أنكم تكونون صادقين في ذلك الإعلام. وثانيها: معناه أخبروني ولا تقولوا إلا حقا وصدقا فيكون الغرض منه التوكيد لما نبههم عليه من القصور والعجز، لأنه متى تمكن في أنفسهم العلم بأنهم إن أخبروا لم يكونوا صادقين ولا لهم إليه سبيل علموا أن ذلك متعذر عليهم. وثالثها: إن كنتم صادقين في قولكم أنه لا شيء مما يتعبد به الخلق إلا وأنتم تصلحون وتقومون به وهو قول ابن عباس وابن مسعود. ورابعها: إن كنتم صادقين في قولكم أني لم أخلق خلقا إلا كنتم أعلم منه فأخبروني بأسماء هؤلاء.

المسألة السادسة: هذه الآية دالة على فضل العلم فإنه سبحانه ما أظهر كمال حكمته في خلقه آدم عليه السلام إلا بأن أظهر علمه فلو كان في الإمكان وجود شيء من العلم أشرف من العلم لكان من الواجب إظهار فضله بذلك الشيء. لا بالعلم، واعلم أنه يدل على فضيلة العلم الكتاب والسنة والمنقول، أما الكتاب فوجوه:

الأول: أن الله تعالى سمى العلم بالحكمة ثم إنه تعالى عظم أمر الحكمة وذلك يدل على عظم شأن العلم، بيان أنه تعالى سمى العلم بالحكمة ما يروى عن مقاتل: أنه قال: تفسير **الحكمة في** القرآن على أربعة أوجه: أحدها:

مواعظ القرآن قال في البقرة: وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة [البقرة: ٢٣١] يعني مواعظ القرآن وفي النساء: وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة

[النساء: ١١٣] يعني المواعظ ومثلها في آل عمران. وثانيها:

الحكمة بمعنى الفهم والعلم قوله تعالى/ وآتيناه الحكم صبيا [مريم: ١٢] وفي لقمان ولقد آتينا لقمان الحكمة [لقمان: ١٢] يعني الفهم والعلم وفي الأنعام أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم [الأنعام: ٨٩]." (١)

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٣٩٩/٢

"العالم بالله خائف والخائف من أهل الجنة. وثانيها: أن ظاهر الآية يدل على أنه ليس للجنة أهل إلا العلماء، وذلك لأن كلمة إنما للحصر، فهذا يدل على أن خشية الله لا تحصل إلا للعلماء. والآية الثانية وهي قوله: ذلك لمن خشي ربه [البينة: ٨] دالة على أن الجنة لأهل الخشية وكونها لأهل الخشية ينافي كونها لغيرهم، فدل مجموع الآيتين على أنه ليس للجنة أهل إلا العلماء واعلم أن هذه الآية فيها تخويف شديد، وذلك لأنه ثبت أن الخشية من الله تعالى من لوازم العلم بالله، فعند عدم الخشية يلزم عدم العلم بالله، وهذه الدقيقة تنبهك على أن العلم الذي هو سبب القرب من الله تعالى هو الذي يورث الخشية، وأن أنواع المجادلات وإن دقت وغمضت إذا خلت عن إفادة الخشية كانت من العلم المذموم. وثالثها: قرئ إنما يخشى الله من عباده العلماء برفعه الأول ونصب الثاني، ومعنى هذه القراءة: أنه تعالى لو جازت الخشية عليه، لما خشي العلماء، لأنهم هم الذين يميزون بين ما يجوز وبين ما لا يجوز. وأما الجاهل الذي لا يميز بين هذين البابين فأي مبالاة به وأي التفات إليه، ففي هذه القراءة نهاية المنصب للعلماء والتعظيم. الرابع: قوله تعالى: وقل رب زدني علما [طه: ١١٤] . وفيه أدل دليل على نفاسة العلم وعلو مرتبته وفرط محبة الله تعالى إياه، حيث أمر نبيه بالازدياد منه خاصة دون غيره.

وقال قتادة: لو اكتفى أحد من العلم لاكتفى نبي الله موسى عليه السلام ولم يقل هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا [الكهف: ٦٦] . الخامس: كان لسليمان عليه السلام من ملك الدنيا ما كان حتى إنه قال رب اغفر لي وهب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي [ص: ٣٥] ثم إنه لم يفتخر بالمملكة وافتخر بالعلم حيث قال: يا أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء [النمل: ١٦] فافتخر بكونه عالما بمنطق الطير فإذا حسن من سليمان أن يفتخر بذلك العلم فلأن يحسن بالمؤمن أن يفتخر بمعرفة رب العالمين كان أحسن ولأنه قدم ذلك على قوله: وأوتينا من كل شيء وأيضا فإنه تعالى لما ذكر كمال حالهم قدم العلم أولا وقال: وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث [الأنبياء: ٧٨] إلى قوله: وكلا آتينا حكما وعلما [الأنبياء: ٧٩] ثم إنه تعالى ذكر بعد ذلك ما يتعلق بأحوال الدنيا فدل على أن العلم أشرف. السادس: قال بعضهم الهدهد مع أنه في نهاية الضعف ومع أنه كان في موقف المعاتبة قال لسليمان أحطت بما لم تحط به [النمل: ٢٢] فلولا أن العلم أشرف الأشياء وإلا فمن أين للهدهد أن يتكلم في مجلس سليمان بمثل هذا الكلام ولذلك يرى الرجل الساقط إذا تعلم العلم صار نافذ القول عند السلاطين وما ذاك إلا ببركة العلم، السابع:

قال عليه الصلاة والسلام: «تفكر ساعة خير من عبادة ستين سنة»

وفي التفضيل وجهان: أحدها: أن التفكر يوصلك إلى الله تعالى والعبادة توصلك إلى ثواب الله تعالى والذي يوصلك إلى الله خير مما يوصلك إلى غير الله. والثاني: أن التفكر عمل القلب والطاعة عمل الجوارح، والقلب أشرف من الجوارح فكان عمل القلب أشرف من عمل الجوارح والذي يؤكد هذا الوجه قوله تعالى: وأقم الصلاة لذكري [طه: ١٤] جعل الصلاة وسيلة إلى ذكر القلب والمقصود أشرف من الوسيلة فدل ذلك على أن العلم أشرف من غيره. الثامن: قال تعالى: وعلمك ما لم تكن تعلم، وكان فضل الله عليك عظيما

[النساء: ١١٣] فسمى العلم عظيما وسمى الحكمة خيرا كثيرا فالحكمة هي العلم وقال أيضا: الرحمن علم القرآن [الرحمن: ١] فجعل هذه النعمة مقدمة على جميع النعم، فدل على أنه أفضل من غيره. التاسع: أن سائر كتب الله ناطقة بفضل العلم. أما التوراة

فقال تعالى لموسى عليه السلام «عظم الحكمة فإني لا أجعل **الحكمة في** قلب عبد إلا وأردت أن أغفر له فتعلمها ثم اعمل بها ثم ابذلها كي تنال بها كرامتي في الدنيا والآخرة»

وأما الزبور

فقال سبحانه وتعالى: «يا داود قل لأحبار بني." (١)

"أدركه أولا فهذا هو المعرفة فيقال: عرفت هذا الرجل وهو فلان الذي كنت رأيته وقت كذا. ثم في الناس من يقول بقدم الأرواح ومنهم من يقول بتقدمها على الأبدان ويقول إنها هي الذر المستخرج من صلب آدم عليه السلام وإنها أقرت بالإلهية واعترفت بالربوبية إلا أنها لظلمة العلاقة البدنية نسيت مولاها فإذا عادت إلى نفسها متخلصة من ظلمة البدن وهاوية الجسم عرفت ربها وعرفت أنها كانت عارفة به فلا جرم سمي هذا الإدراك عرفانا. وثامنها: الفهم وهو تصور الشيء من لفظ المخاطب والإفهام هو اتصال المعنى باللفظ إلى فهم السامع، وتاسعها: الفقه وهو العلم بغرض المخاطب من خطابه يقال فقهت كلامك أي وقفت على غرضك من هذا الخطاب ثم إن كفار قريش لما كانوا أرباب الشبهات والشهوات فما كانوا يقفون على ما في تكاليف الله تعالى من المنافع العظيمة لا جرم قال تعالى: لا يكادون يفقهون قولا [الكهف: ٩٣] أي لا يقفون على المقصود الأصلي والغرض الحقيقي. وعاشرها: العقل وهو العلم بصفات

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٤٠٧/٢

الأشياء من حسنها وقبحها وكمالها ونقصانها فإنك متى علمت ما فيها من المضار والمنافع صار علمك بما في/ الشيء من النفع داعيا لك إلى الفعل وعلمك بما فيه من الضرر داعيا لك إلى الترك فصار ذلك العلم مانعا من الفعل مرة ومن الترك أخرى فيجري ذلك العلم مجرى عقال الناقة. ولهذا لما سئل بعض الصالحين عن العقل، قال هو العلم بخير الخيرين وشر الشرين ولما سئل عن العاقل قال العاقل من عقل عن الله أمره ونهيه، فهذا هو القدر اللائق بهذا المكان والاستقصاء فيه يجيء في موضع آخر إن شاء الله تعالى. الحادي عشر: الدراية وهي المعرفة الحاصلة بضرب من الحيل وهو تقديم المقدمات واستعمال الرواية وأصله من دريت الصيد والدرية لما يتعلم عليه الطعن والمدرى يقال لما يصلح به الشعر وهذا لا يصح إطلاقه على الله تعالى لامتناع الفكر والحيل عليه تعالى. الثاني عشر: الحكمة: وهي اسم لكل علم حسن، وعمل صالح وهو بالعلم العملي أخص منه بالعلم النظري وفي العمل أكثر استعمالا منه في العلم، ومنها يقال أحكم العمل إحكاما إذا أتقنه وحكم بكذا حكما **والحكمة من** الله تعالى خلق ما فيه منفعة العباد ومصلحتهم في الحال وفي المآل ومن العباد أيضا كذلك ثم قد حدت الحكمة بألفاظ مختلفة فقيل هي معرفة الأشياء بحقائقها، وهذا إشارة إلى أن إدراك الجزئيات لا كمال فيه لأنها إدراكات متغيرة. فأما إدراك الماهية، فإنه باق مصون عن التغير والتبدل وقيل هي الإتيان بالفعل الذي عاقبته محمودة وقيل هي الاقتداء بالخالق سبحانه وتعالى في السياسة بقدر الطاقة البشرية وذلك بأن يجتهد بأن ينزه علمه عن الجهل وفعله عن الجور وجوده عن البخل وحلمه عن السفه. الثالث عشر: علم

اليقين وعين اليقين وحق اليقين قالوا إن اليقين لا يحصل إلا إذا اعتقد أن الشيء كذا وأنه يمتنع كون الأمر بخلاف معتقده إذا كان لذلك الاعتقاد موجب هو إما بديهية الفطرة وإما نظر العقل، الرابع عشر: الذهن وهو قوة النفس على اكتساب العلوم التي هي غير حاصلة وتحقيق القول فيه أنه سبحانه وتعالى خلق الروح خاليا عن تحقيق الأشياء وعن العلم بها كما قال تعالى: والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا [النحل: ٧٨] لكنه سبحانه وتعالى إنما خلقها للطاعة على ما قال تعالى: وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون [الذاريات: ٥٦] والطاعة مشروطة بالعلم وقال في موضع آخر وأقم الصلاة لذكري [طه: ١٤] فبين أنه أمر بالطاعة لغرض العلم والعلم لا بد منه على كل حال فلا بد وأن تكون النفس متمكنة من تحصيل هذه المعارف والعلوم فأعطاه الحق سبحانه من الحواس ما أعان على تحصيل هذا الغرض فقال في السمع:

وهديناه النجدين [البلد: ١٠] وقال في البصر: سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم [فصلت: ٥٣] وقال في الفكر: وفي أنفسكم أفلا تبصرون [الذاريات: ٢١] فإذا تطابقت هذه." (١)

"عروق كلامك ولو أجمع الأولون والآخرون على هذا البرهان لما تخلصوا عنه إلا بالتزام وقوع الممكن لا عن مرجح وحينئذ ينسد باب إثبات الصانع أو بالتزام أنه يفعل الله ما يشاء ويحكم ما يريد وهو جوابنا. المسألة السادسة: للعقلاء في قوله تعالى: وكان من الكافرين قولان: أحدهما: أن إبليس حين اشتغاله بالعبادة كان منافقا كافرا وفي تقرير هذا القول وجهان: أحدهما: حكى محمد بن عبد الكريم الشهرستاني في أول كتابه المسمى «بالملل والنحل» عن ماري شارح الأناجيل الأربعة وهي مذكورة في التوراة متفرقة على شكل مناظرة بينه وبين الملائكة بعد الأمر بالسجود قال إبليس للملائكة إني أسلم أن لي إلها هو خالقي، وموجدي، وهو خالق الخلق، لكن لي على حكمة الله تعالى أسئلة سبعة، الأولى: ما **الحكمة في** الخلق لا سيما إن كان عالما بأن الكافر لا يستوجب عند خلقه الآلام؟ الثاني: ثم ما الفائدة في التكليف مع أنه لا يعود منه ضر ولا نفع وكل ما يعود إلى المكلفين فهو قادر على تحصيله لهم من غير واسطة التكليف؟ الثالث: هب أنه كلفني بمعرفته وطاعته فلماذا كلفني السجود لآدم؟ الرابع: ثم لما عصيته في ترك السجود لآدم فلم لعنني وأوجب عقابي مع أنه لا فائدة له ولا لغيره فيه، ولي فيه أعظم الضرر؟ الخامس: ثم لما فعل ذلك فلم مكنني من الدخول إلى الجنة ووسوست لآدم عليه السلام؟ السادس: ثم لما فعلت ذلك/ فلم سلطني على أولاده ومكنني من إغوائهم وإضلالهم؟ السابع: ثم لما استمهلته المدة الطويلة في ذلك، فلم أمهلني. ومعلوم أن العالم لو كان خاليا عن الشر لكان ذلك خيرا؟ قال شارح الأناجيل: فأوحى الله تعالى إليه من سرادقات الجلال والكبرياء: يا إبليس إنك ما عرفتني، ولو عرفتني لعلمت أنه لاعتراض علي في شيء من أفعالي فإني أنا الله لا إله إلا أنا لا أسأل عما أفعل. واعلم أنه لو اجتمع الأولون والآخرون من الخلائق وحكموا بتحسين العقل وتقبيحه لم يجدوا عن هذه الشبهات مخلصا وكان الكل لازما، أما إذا أجبنا بذلك الجواب الذي ذكره الله تعالى زالت الشبهات واندفعت الاعتراضات وكيف لا وكما أنه سبحانه واجب الوجود في ذاته واجب الوجود في صفاته فهو مستغن في فاعليته عن المؤثرات والمرجحات إذ لو افتقر لكان فقيرا لا غنيا فهو سبحانه مقطع الحاجات ومنتهى الرغبات ومن عنده نيل الطلبات وإذا كان كذلك لم تتطرق اللمية إلى أفعاله ولم يتوجه الاعتراض على خالقيته وما أحسن ما قال بعضهم: جل

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢/٤٢٢

جناب الجلال عن أن يوزن بميزان الاعتزال فهذا القائل أجرى قوله تعالى:
وكان من الكافرين على ظاهره وقال إنه كان كافرا منافقا منذ كان. الوجه الثاني: في تقرير أنه كان كافرا أبدا قول أصحاب الموافاة وذلك لأن الإيمان يوجب استحقاق العقاب الدائم والجمع بين الثواب الدائم والعقاب الدائم محال فإذا صدر الإيمان من المكلف في وقت ثم صدر عنه والعياذ بالله بعد ذلك كفر فإما أن يبقى الاستحقاقان معا وهو محال على ما بيناه أو يكون الطارئ مزيلا للسابق وهو أيضا محال لأن القول بالإحباط باطل فلم يبق إلا أن يقال إن هذا الفرض محال وشرط حصول الإيمان أن لا يصدر الكفر عنه في وقت قط فإذا كانت الخاتمة على الكفر علمنا أن الذي صدر عنه أولا ما كان إيمانا إذا ثبت هذا فنقول: لما كان ختم إبليس على الكفر علمنا أنه ما كان مؤمنا قط، القول الثاني: إن إبليس كان مؤمنا ثم كفر بعد ذلك وهؤلاء اختلفوا في تفسير قوله تعالى: وكان من الكافرين فمنهم من قال معناه وكان من الكافرين في علم الله تعالى أي كان عالما في الأزل بأنه سيكفر فصيغة كان متعلقة بالعلم لا بالمعلوم، والوجه الثاني: أنه لما كفر في وقت معين بعد أن كان مؤمنا قبل ذلك فبعد مضي كفره صدق عليه في ذلك الوقت أنه كان في ذلك الوقت من الكافرين ومتى." (١)

"قلنا: الحكمة الإلهية اقتضت تدبير كل شيء على الوجه اللائق به الموافق لمصلحته، فمزاج الذكر من كل حيوان يجب أن يكون حارا يابسا، ومزاج الأنثى يجب أن يكون باردا رطبا، **والحكمة فيه** أن الولد إنما يتكون في داخل بدن الأنثى، فوجب أن تكون الأنثى مختصة بمزيد الرطوبات لوجهين: الأول: أن الولد إنما يتولد من الرطوبات، فوجب أن يحصل في بدن الأنثى رطوبات كثيرة لتصير مادة لتولد الولد. والثاني: أن الولد إذا كبر وجب أن يكون بدن الأم قابلا للتمدد حتى يتسع لذلك الولد، فإذا كانت الرطوبات غالبة على بدن الأم كان بدنها قابلا للتمدد، فيتسع للولد، فثبت بما ذكرنا أنه تعالى خص بدن الأنثى من كل حيوان بمزيد الرطوبات لهذه الحكمة، ثم إن الرطوبات التي كانت تصير مادة لازدياد بدن الجنين حين كان في رحم الأم، فعند انفصال الجنين تنصب إلى الثدي والضرع ليصير مادة لغذاء ذلك الطفل الصغير. إذا عرفت هذا فاعلم أن السبب الذي لأجله يتولد اللبن من الدم في حق الأنثى غير حاصل في حق الذكر فظهر الفرق.

إذا عرفت هذا التصوير فنقول: المفسرون قالوا: المراد من قوله: من بين فرث ودم هو أن هذه الثلاثة تتولد

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢/٤٤٧

في موضع واحد، فالفرث يكون في أسفل الكرش، والدم يكون في أعلاه، واللبن يكون في الوسط، وقد دللنا على أن هذا القول على خلاف الحس والتجربة، ولأن الدم لو كان يتولد في أعلى المعدة والكرش كان يجب إذا قاء أن يقيء الدم وذلك باطل قطعا. وأما نحن فنقول: المراد من الآية هو أن اللبن إنما يتولد من بعض أجزاء الدم، والدم إنما يتولد من الأجزاء اللطيفة التي في الفرث، وهو الأشياء المأكولة الحاصلة في الكرش، وهذا اللبن متولد من الأجزاء التي كانت حاصلة فيما بين الفرث أولا، ثم كانت حاصلة فيما بين الدم ثانيا، فصفاه الله تعالى عن تلك الأجزاء الكثيفة الغليظة، وخلق فيها الصفات التي باعتبارها صارت لبنا موافقا لبدن الطفل، فهذا ما حصلناه في هذا المقام، والله أعلم.

المسألة الرابعة: اعلم أن حدوث اللبن في الثدي واتصافه بالصفات التي باعتبارها يكون موافقا لتغذية الصبي مشتمل على حكم عجيبة وأسرار بديعة، يشهد صريح العقل بأنها لا تحصل إلا بتدبير الفاعل الحكيم والمدبر الرحيم، وبيانه من وجوه: الأول: أنه تعالى خلق في أسفل المعدة منفذا يخرج منه ثقل الغذاء، فإذا تناول الإنسان غذاء أو شربة رقيقة انطبق ذلك المنفذ انطباقا كليا لا يخرج منه شيء من ذلك المأكول والمشروب إلى أن يكمل انهضامه في المعدة وينجذب ما صفا منه إلى الكبد ويبقى الثقل هناك، فحينئذ ينفتح ذلك المنفذ ويترك منه ذلك الثقل، وهذا من العجائب التي لا يمكن حصولها إلا بتدبير الفاعل الحكيم، لأنه متى كانت الحاجة إلى بقاء الغذاء في المعدة حاصلة انطبق ذلك المنفذ، وإذا حصلت الحاجة إلى خروج ذلك الجسم عن المعدة انفتح، فحصول الانطباق تارة والانفتاح أخرى، بحسب الحاجة وتقدير المنفعة، مما لا يتأتى إلا بتقدير الفاعل الحكيم. الثاني: أنه تعالى أودع في الكبد قوة تجذب الأجزاء اللطيفة الحاصلة في ذلك المأكول أو المشروب، ولا تجذب الأجزاء الكثيفة، وخلق في الأمعاء قوة تجذب تلك الأجزاء الكثيفة التي هي الثقل، ولا تجذب الأجزاء اللطيفة البتة. ولو كان الأمر بالعكس لاختلفت مصلحة البدن ولفسد نظام هذا التركيب.

الثالث: أنه تعالى أودع في الكبد قوة هاضمة طابخة، حتى أن تلك الأجزاء اللطيفة تنطبخ في الكبد وتنقلب دما، ثم إنه تعالى أودع في المرارة قوة جاذبة للصفراء، وفي الطحال قوة جاذبة للسوداء، وفي الكلية قوة جاذبة." (١)

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٠/٢٣٣

"لزيادة المائية، حتى يبقى الدم الصافي الموافق لتغذية البدن. وتخصيص كل واحد من هذه الأعضاء بتلك القوة والخاصية لا يمكن إلا بتقدير الحكيم العليم. الرابع: أن في الوقت الذي يكون الجنين في رحم الأم ينصب من ذلك الدم نصيب وافر إليه حتى يصير مادة لنمو أعضاء ذلك الولد وازدياده، فإذا انفصل ذلك الجنين عن الرحم ينصب ذلك النصيب إلى جانب الثدي ليتولد منه اللبن الذي يكون غذاء له، فإذا كبر الولد لم ينصب ذلك النصيب لا إلى الرحم ولا إلى الثدي، بل ينصب على مجموع بدن المتغذي، فانصباب ذلك الدم في كل وقت إلى عضو آخر انصبابا موافقا للمصلحة والحكمة لا يتأتى إلا بتدبير الفاعل المختار الحكيم. والخامس: أن عند تولد اللبن في الضرع أحدث تعالى في حلمة الثدي ثقوبا صغيرة ومسام ضيقة، وجعلها بحيث إذا اتصل المص أو الحلب بتلك الحلمة انفصل اللبن عنها في تلك المسام الضيقة، ولما كانت تلك المسام ضيقة جدا، فحينئذ لا يخرج منها إلا ما كان في غاية الصفاء واللطافة، وأما الأجزاء الكثيفة فإنه لا يمكنها الخروج من تلك المنافذ الضيقة فتبقى في الداخل. **والحكمة في إحداث** تلك الثقوب الصغيرة، والمنافذ الضيقة في رأس حلمة الثدي أن يكون ذلك كالمصفاة، فكل ما كان لطيفا/ خرج، وكل ما كان كثيفا احتبس في الداخل ولم يخرج، فبهذا الطريق يصير ذلك اللبن خالصا موافقا لبدن الصبي سائغا للشاربين. السادس: أنه تعالى ألهم ذلك الصبي إلى المص، فإن الأم كلما ألقمت حلمة الثدي في فم الصبي فذلك الصبي في الحال يأخذ في المص، فلولا أن الفاعل المختار الرحيم ألهم ذلك الطفل الصغير ذلك العمل المخصوص، وإلا لم يحصل الانتفاع بتخليق ذلك اللبن في الثدي. السابع: أنا بينا أنه تعالى إنما خلق اللبن من فضلة الدم، وإنما خلق الدم من الغذاء الذي يتناوله الحيوان، فالشاة لما تناولت العشب والماء فالله تعالى خلق الدم من لطيف تلك الأجزاء، ثم خلق اللبن من بعض أجزاء ذلك الدم، ثم إن اللبن حصلت فيه أجزاء ثلاثة على طبائع متضادة، فما فيه من الدهن يكون حارا رطبا، وما فيه من المائية يكون باردا رطبا، وما فيه من الجبنية يكون باردا يابسا، وهذه الطبائع ما كانت حاصلة في ذلك العشب الذي تناولته الشاة، فظهر بهذا أن هذه الأجسام لا تزال تنقلب من صفة إلى صفة ومن حالة إلى حالة، مع أنه لا يناسب بعضها بعضا ولا يشاكل بعضها بعضا، وعند ذلك يظهر أن هذه الأحوال إنما تحدث بتدبير فاعل حكيم رحيم يدبر أحوال هذا العالم على وفق مصالح العباد، فسبحان من تشهد جميع ذرات العالم الأعلى والأسفل بكمال قدرته ونهاية حكمته ورحمته، له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين.

أما قوله: سائغا للشاربين فمعناه: جاريا في حلوقهم لذيذا هنيئا. يقال: ساغ الشراب في الحلق وأساغه صاحبه، ومنه قوله: ولا يكاد يسيغه [إبراهيم: ١٧] .
المسألة الخامسة: قال أهل التحقيق: اعتبار حدوث اللبن كما يدل على وجود الصانع المختار سبحانه، فكذلك يدل على إمكان الحشر والنشر، وذلك لأن هذا العشب الذي يأكله الحيوان إنما يتولد من الماء والأرض، فخالق العالم دبر تدبيرا، فقلب ذلك الطين نباتا وعشبا، ثم إذا أكله الحيوان دبر تدبيرا آخر فقلب ذلك العشب دما، ثم دبر تدبيرا آخر فقلب ذلك الدم لبنا، ثم دبر تدبيرا آخر فحدث من ذلك اللبن الدهن والجبن، فهذا يدل على أنه تعالى قادر على أن يقلب هذه الأجسام من صفة إلى صفة، ومن حالة إلى حالة فإذا كان كذلك لم يمتنع أيضا أن يكون قادرا على أن يقلب أجزاء أبدان الأموات إلى صفة الحياة والعقل كما كانت قبل ذلك، فهذا الاعتبار يدل من هذا الوجه على أن البعث والقيامة أمر ممكن غير ممتنع والله أعلم.." (١)

"الأشياء، ولا بد من تفصيل القول فيه فنقول: الأحوال التي وقع التكليف بها إما الاعتقادات وإما أعمال الجوارح. أما الاعتقادات: فالعدل في كلها واجب الرعاية فأحدها: قال ابن عباس: إن المراد بالعدل هو قول لا إله إلا الله، وتحقيق القول فيه أن نفي الإله تعطيل محض وإثبات أكثر من إله واحد تشريك وتشبيه وهما مذمومان، والعدل هو إثبات الإله الواحد وهو قول لا إله إلا الله. وثانيها: أن القول بأن الإله ليس بموجود ولا شيء تعطيل محض، والقول بأنه جسم وجوهر ومركب من الأعضاء، ومختص بالمكان تشبيه محض، والعدل إثبات إله موجود متحقق بشرط أن يكون منزها عن الجسمية والجوهرية والأعضاء والأجزاء والمكان، وثالثها:
أن القول بأن الإله غير موصوف بالصفات من العلم والقدرة تعطيل محض، والقول بأن صفاته حادثة متغيرة تشبيه محض. والعدل هو إثبات أن الإله عالم قادر حي مع الاعتراف بأن صفاته ليست حادثة ولا متغيرة. ورابعها: أن القول بأن العبد ليس له قدرة ولا اختيار جبر محض، والقول بأن العبد مستقل بأفعاله قدر محض وهما مذمومان، والعدل أن يقال: إن العبد يفعل الفعل لكن بواسطة قدرة وداعية يخلقهما الله تعالى فيه، وخامسها: القول بأن الله تعالى لا يؤاخذ عبده على شيء من الذنوب مساهلة عظيمة، والقول بأنه تعالى يخلد في النار عبده العارف بالمعصية الواحدة تشديد عظيم، والعدل أنه يخرج من النار كل من قال

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٠/٢٣٤

واعتقد أنه لا إله إلا الله، فهذه أمثلة ذكرناها في رعاية معنى العدل في الاعتقادات، وأما رعاية العدل فيما يتعلق بأفعال الجوارح، فنذكر ستة أمثلة منها: أحدها: أن قوما من نفاة التكاليف يقولون: لا يجب على العبد الاشتغال بشيء من الطاعات ولا يجب عليه الاحتراز عن شيء من المعاصي، وليس لله عليه تكليف أصلا وقال قوم من الهند، ومن المانوية إنه يجب على الإنسان أن يجتنب عن كل الطيبات وأن يبالغ في تعذيب نفسه وأن يحترز عن كل ما يميل الطبع إليه حتى أن المانوية يخصون أنفسهم ويحترزون عن التزوج ويحترزون عن أكل الطعام الطيب والهند يحرقون أنفسهم ويرمون أنفسهم من شاهق الجبل، فهذان الطريقان مذمومان، والوسط المعتدل هو هذا الشرع الذي جاءنا به محمد صلى الله عليه وسلم. وثانيها: أن التشديد في دين موسى عليه السلام غالب جدا، والتساهل في دين عيسى عليه السلام غالب جدا والوسط العدل شريعة محمد صلى الله عليه وسلم. قيل: كان شرع موسى عليه السلام في القتل العمد استيفاء القصاص لا محالة، وفي شرع عيسى عليه السلام العفو. أما في شرعنا فإن شاء استوفى القصاص على سبيل المماثلة، وإن شاء استوفى الدية وإن شاء عفا، وأيضا شرع موسى يقتضي/ الاحتراز العظيم عن المرأة حال حيضها وشرع عيسى يقتضي حل وطء الحائض، والعدل ما حكم به شرعنا وهو أنه يحرم وطؤها احترازا عن التلطخ بتلك الدماء الخبيثة أما لا يجب إخراجها عن الدار. وثالثها: أنه تعالى قال: وكذلك جعلناكم أمة وسطا [البقرة: ١٤٣] يعني متباعدين عن طرفي الإفراط والتفريط في كل الأمور، وقال: والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما [الفرقان: ٦٧] وقال: ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط [الإسراء: ٢٩] ولما بالغ رسول الله صلى الله عليه وسلم في العبادات قال تعالى: طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى [طه: ١، ٢] ولما أخذ قوم في المساهلة قال: أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا [المؤمنون: ١١٥] والمراد من الكل رعاية العدل والوسط. ورابعها: أن شريعتنا أمرت بالختان، **والحكمة فيه** أن رأس العضو جسم شديد الحس ولأجله عظم الالتذاذ عند الوقاع، فلو بقيت تلك الجلدة على ذلك العضو بقي ذلك العضو على كمال القوة وشدة الإحساس فيعظم الالتذاذ أما إذا قطعت تلك الجلدة بقي ذلك العضو عاريا فيلقى الثياب وسائر الأجسام فيتصلب ويضعف حسه ويقل شعوره فيقل الالتذاذ بالوقاع فتقل الرغبة فيه، فكأن الشريعة إنما أمرت." (١)

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٠/٢٦٠

"القادر هل يتوقف على حصول الداعي أم لا؟ فالذين يقولون إنه متوقف قالوا هذا القسم ممتنع الحصول، والذين قالوا إنه لا يتوقف قالوا: هذا الفعل لا أثر له في الباطن وهو محرم في الظاهر لأنه عبث، والله أعلم.

ثم قال تعالى: كلا أي كل واحد من الفريقين، والتنوين عوض من المضاف إليه: نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك أي أنه تعالى يمد الفريقين بالأموال ويوسع عليهما في الرزق مثل الأموال والأولاد، وغيرهما من أسباب العز والزينة في الدنيا، لأن عطاءنا ليس يضيق عن أحد مؤمنا كان أو كافرا لأن الكل مخلوقون في دار العمل، فوجب إزاحة العذر وإزالة العلة عن الكل وإيصال متاع الدنيا إلى الكل على القدر الذي يقتضيه الصلاح فبين تعالى أن عطاءه ليس بمحظور، أي غير ممنوع يقال حظره يحظره، وكل من حال بينك وبين شيء فقد حظره عليك.

ثم قال تعالى: انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وفيه قولان:

القول الأول: المعنى: انظر إلى عطائنا المباح إلى الفريقين في الدنيا، كيف فضلنا بعضهم على بعض فأوصلناه إلى مؤمن وقبضناه عن مؤمن آخر، وأوصلناه إلى كافر، وقبضناه عن كافر آخر، وقد بين تعالى وجه الحكمة في هذا التفاوت فقال: نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا [الزخرف: ٣٢] وقال في آخر سورة الأنعام: ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم في ما آتاكم [الأنعام: ١٦٥] .

ثم قال: وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا والمعنى: أن تفاضل الخلق في درجات منافع الدنيا محسوس، فتفاضلهم في درجات منافع الآخرة أكبر وأعظم، فإن نسبة التفاضل في درجات الآخرة إلى التفاضل في درجات الدنيا كنسبة الآخرة إلى الدنيا، فإذا كان الإنسان تشتد رغبته في طلب فضيلة الدنيا فبأن تقوى رغبته في طلب فضيلة الآخرة أولى.

القول الثاني: أن المراد أن الآخرة أعظم وأشرف من الدنيا، والمعنى أن المؤمنين يدخلون/ الجنة، والكافرين يدخلون النار، فيظهر فضل المؤمنين على الكافرين، ونظيره قوله تعالى: أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا [الفرقان: ٢٤] .

[سورة الإسراء (١٧) : آية ٢٢]

لا تجعل مع الله إلها آخر فتقعد مذموما مخذولا (٢٢)

في الآية مسائل:
المسألة الأولى: في بيان وجه النظم فنقول: إنه تعالى لما بين أن الناس فريقان منهم من يريد بعمله الدنيا فقط وهم أهل العقاب والعذاب، ومنهم من يريد به طاعة الله وهم أهل الثواب ثم شرط ذلك بشرائط ثلاثة: أولها: إرادة الآخرة. وثانيها: أن يعمل عملا ويسعى سعيا موافقا لطلب الآخرة. وثالثها: أن يكون مؤمنا لا جرم فصل في هذه الآية تلك المجملات فبدأ أولا بشرح حقيقة الإيمان، وأشرف أجزاء الإيمان هو التوحيد ونفي الشركاء والأضداد فقال: لا تجعل مع الله إلها آخر ثم ذكر عقيبه سائر الأعمال التي يكون المقدم عليها، والمشتغل بها ساعيا سعيا يليق بطلب الآخرة، وصار من الذين سعد طائرهم وحسن بختهم وكملت أحوالهم.." (١)

"تعالى: وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم [إبراهيم: ٢٢] . وأيضا فلو قدر على هذه الأعمال لكان يجب أن يتخبط أهل الفضل وأهل العلم دون سائر الناس ليكون ضرره أعظم. ثم قال وإنما يزول عقله لا من جهة الشيطان لكن لغلبة الأخلاط الفاسدة ولا يمتنع أن يكون أحد أسباب ذلك المرض اعتقاد أن الشيطان يقدم عليه فيغلب الخوف عليه فيحدث ذلك المرض.
والقول الثاني: أن المراد بقوله: إن عبادي أهل الفضل والعلم والإيمان لما بينا فيما تقدم/ أن لفظ العباد في القرآن مخصوص بأهل الإيمان، والدليل عليه أنه قال في آية أخرى: إنما سلطانه على الذين يتولونه [النحل: ١٠٠] .
ثم قال: وكفى بربك وكيلا وفيه بحثان:
البحث الأول: أنه تعالى لما مكن إبليس من أن يأتي بأقصى ما يقدر عليه في باب الوسوسة، وكان ذلك سببا لحصول الخوف الشديد في قلب الإنسان قال: وكفى بربك وكيلا ومعناه أن الشيطان وإن كان قادرا فالله تعالى أقدر منه وأرحم بعباده من الكل فهو تعالى يدفع عنه كيد الشيطان ويعصمه من إضلاله وإغوائه.
البحث الثاني: هذه الآية تدل على أن المعصوم من عصمه الله تعالى وأن الإنسان لا يمكنه أن يحترز بنفسه عن مواقع الضلالة، لأنه لو كان الإقدام على الحق والإحجام عن الباطل إنما يحصل للإنسان من نفسه لوجب أن يقال: وكفى الإنسان نفسه في الاحتراز عن الشيطان، فلما لم يقل ذلك بل قال: وكفى

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٣١٩/٢٠

بربك علمنا أن الكل من الله، ولهذا قال المحققون: لا حول عن معصية الله إلا بعصمة الله، ولا قوة على طاعة الله إلا بتوفيق الله. بقي في الآية سؤالان:

السؤال الأول: أن إبليس هل كان عالما بأن الذي تكلم معه بقوله: واستفزز من استطعت منهم هو إله العالم أو لم يعلم ذلك؟ فإن علم ذلك ثم إنه تعالى قال: فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفورا [الإسراء: ٦٣] فكيف لم يصر هذا الوعيد الشديد مانعا له من المعصية مع أنه سمعه من الله تعالى من غير واسطة؟ وإن لم يعلم أن هذا القائل هو إله العالم، فكيف قال: أرأيتك هذا الذي كرمت علي [الإسراء: ٦٢] .

والجواب: لعله كان شاكا في الكل أو كان يقول في كل قسم ما يخطر بباله على سبيل الظن.

والسؤال الثاني: ما الحكمة في أنه تعالى أنظره إلى يوم القيامة ومكنه من الوسوسة؟ والحكيم إذا أراد أمرا وعلم أن شيئا من الأشياء يمنع من حصوله فإنه لا يسعى في تحصيل ذلك المانع.

والجواب: أما مذهبنا فظاهر في هذا الباب، وأما المعتزلة فلهم قولان: قال الجبائي: علم الله تعالى أن الذين كفروا عند وسوسة إبليس يكفرون بتقدير أن لا يوجد إبليس، وإذا كان كذلك لم يكن في وجوده مزيد مفسدة، وقال أبو هاشم: لا يبعد أن يحصل من وجوده مزيد مفسدة، إلا أنه تعالى أبقاه تشديدا للتكليف على الخلق ليستحقوا بسبب ذلك التشديد مزيد الثواب، وهذان الوجهان قد ذكرناهما في سورة الأعراف والحجر، وبالغنا في الكشف عنهما، والله أعلم.

[سورة الإسراء (١٧) : الآيات ٦٦ الى ٦٩]

ربكم الذي يزجي لكم الفلك في البحر لتبتغوا من فضله إنه كان بكم رحيما (٦٦) وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفورا (٦٧) أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر أو يرسل عليكم حاصبا ثم لا تجدوا لكم وكيلا (٦٨) أم أمنتم أن يعيدكم فيه تارة أخرى فيرسل عليكم قاصفا من الريح فيغرقكم بما كفرتم ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعا (٦٩)." [١]

"[في قوله تعالى يوم ندعوا كل أناس بإمامهم فمن أوتي كتابه بيمينه فأولئك يقرؤن كتابهم ولا يظلمون فتيلا] اعلم أنه تعالى لما ذكر أنواع كرامات الإنسان في الدنيا ذكر أحوال درجاته في الآخرة في هذه الآية وفيها مسائل:

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢١/٣٧٠

المسألة الأولى: قرئ يدعوا بالياء والنون وو يدعى كل أناس على البناء للمفعول وقرأ الحسن يدعو كل أناس قال الفراء وأهل العربية لا يعرفون وجها لهذه القراءة المنقولة عن الحسن ولعله قرأ يدعى بفتحة ممزوجة بالضم فظن الراوي أنه قرأ يدعو.

المسألة الثانية: قوله يوم ندعوا نصب بإضمار اذكر ولا يجوز أن يقال العامل فيه قوله وفضلناهم [الإسراء: ٧٠] لأنه فعل ماض ويمكن أن يجاب عنه فيقال المراد ونفضلهم بما نعطيهم من الكرامة والثواب.

المسألة الثالثة: قوله: بإمامهم الإمام في اللغة كل من ائتم به قوم كانوا على هدى أو ضلالة فالنبي إمام أمته، والخليفة إمام رعيته، والقرآن إمام المسلمين وإمام القوم هو الذي يقتدى به في الصلاة وذكروا في تفسير الإمام هاهنا أقوال، القول الأول:

إمامهم نبيهم روي ذلك مرفوعا عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم

ويكون المعنى أنه ينادى يوم القيامة يا أمة إبراهيم يا أمة موسى يا أمة عيسى يا أمة محمد فيقوم أهل الحق الذين اتبعوا الأنبياء فيأخذون كتبهم بأيمانهم ثم ينادى يا أتباع فرعون يا أتباع نمرود يا أتباع فلان وفلان من رؤساء الضلال وأكابر الكفر وعلى هذا القول فالباء في قوله: بإمامهم فيه وجهان. الأول: أن يكون التقدير يدعو كل أناس بإمامهم تبعا وشيعة لأمامهم كما تقول أدعوك باسمك. والثاني: أن يتعلق بمحذوف وذلك المحذوف في موضع الحال كأنه قيل يدعو كل أناس مختلطين بإمامهم أي يدعون وإمامهم فيهم نحو ركب بجنوده. والقول الثاني: وهو قول الضحاك وابن زيد بإمامهم أي بكتابهم الذي أنزل عليهم وعلى هذا التقدير ينادى في القيامة يا أهل القرآن يا أهل التوراة يا أهل الإنجيل. والقول الثالث: قال الحسن بكتابهم الذي فيه أعمالهم وهو قول الربيع وأبي العالية والدليل على أن هذا الكتاب يسمى إماما قوله تعالى: وكل شيء أحصيناه في إمام مبين [يس: ١٢] فسمى الله تعالى هذا الكتاب إماما، وتقدير الباء على هذا القول بمعنى مع أي ندعو كل أناس ومعهم كتابهم كقولك ادفعه إليه برمته أي ومعه رمته. القول الرابع: قال صاحب «الكشاف» ومن بدع التفاسير أن الإمام جمع أم، وأن الناس يدعون يوم القيامة بأمهاتهم وأن الحكمة في الدعاء بالأمهات دون الآباء رعاية حق عيسى وإظهار شرف الحسن والحسين وأن لا يفتضح أولاد الزنا ثم قال صاحب «الكشاف» وليت شعري أيهما أبدع أصحة لفظه أم بيان حكمته. والقول الخامس: أقول في اللفظ احتمال آخر وهو أن أنواع الأخلاق الفاضلة والفاسدة كثيرة والمستولي على كل إنسان نوع من تلك الأخلاق فمنهم من يكون الغالب عليه الغضب ومنهم من يكون

الغالب عليه شهوة النقود أو شهوة الضياع ومنهم من يكون الغالب عليه الحقد والحسد وفي جانب الأخلاق الفاضلة منهم من يكون الغالب عليه العفة أو الشجاعة أو/ الكرم أو طلب العلم والزهد إذا عرفت هذا فنقول: الداعي إلى الأفعال الظاهرة من تلك الأخلاق الباطنة فذلك الخلق الباطن كالإمام له والملك المطاع والرئيس المتبوع فيوم القيامة إنما يظهر الثواب والعقاب بناء على الأفعال الناشئة من تلك الأخلاق فهذا هو المراد من قوله: يوم ندعوا كل أناس بإمامهم فهذا الاحتمال خطر بالبال والله أعلم بمراده ثم قال تعالى: فمن أوتي كتابه بيمينه فأولئك يقرؤن كتابهم ولا يظلمون فتيلا قال صاحب «الكشاف» إنما قال أولئك لأن من أوتي في معنى الجمع والفتيل القشرة التي في شق النواة وسمي بهذا الاسم لأنه إذا أراد الإنسان استخراجه." (١)

"هذا التقدير مبالغة في عدم إطلاع الغير عليه، قال قطرب: هذا على عادة العرب في مخاطبة بعضهم بعضا يقولون: إذا بالغوا في كتمان الشيء كتمته حتى من نفسي فالله تعالى بالغ في إخفاء الساعة فذكره بأبلغ ما تعرفه العرب في مثله. وخامسها: أكاد صلة في الكلام والمعنى: إن الساعة آتية أخفيها، قال زيد الخيل:

سريع إلى الهيجاء شاك سلاحه ... فما إن يكاد قرنه يتنفس

والمعنى فما يتنفس قرنه. وسادسها: قال أبو الفتح الموصلي أكاد أخفيها تأويله أكاد أظهرها وتلخيص هذا اللفظ أكاد أزيل عنها إخفاءها لأن أفعل قد يأتي بمعنى السلب والنفي كقولك أعجمت الكتاب وأشكلته أي أزلت عجمته وإشكاله وأشكيته أي أزلت شكواه. وسابعها: قرئ أخفيها بفتح الألف أي أكاد أظهرها من خفاه إذا أظهره أي قرب إظهارها كقوله: اقتربت الساعة [القمر: ١] قال امرؤ القيس:

فإن تدفنوا الداء لا نخفه ... وإن تمنعوا الحرب لا نقعد

أي لا نظهره قال الزجاج وهذه القراءة أبين لأن معنى أكاد أظهرها يفيد أنه قد أخفاها. وثامنها: أراد أن الساعة آتية أكاد وانقطع الكلام ثم قال أخفيها ثم رجع الكلام الأول إلى أن الأولى الإخفاء: لتجزى كل نفس بما تسعى وهذا الوجه بعيد والله أعلم. السؤال الثاني: ما **الحكمة في** إخفاء الساعة وإخفاء وقت الموت؟ الجواب: لأن الله تعالى وعد قبول التوبة فلو عرف وقت الموت لاشتغل بالمعصية إلى قريب من ذلك الوقت ثم يتوب فيتخلص من عقاب المعصية فتعريف وقت الموت كالإغراء بفعل المعصية، وإنه لا

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٣٧٦/٢١

يجوز. أما قوله: لتجزى كل نفس بما تسعى ففيه مسائل:

المسألة الأولى: أنه تعالى لما حكم بمجيء يوم القيامة ذكر الدليل عليه وهو أنه لولا القيامة لما تميز المطيع عن العاصي والمحسن عن المسيء وذلك غير جائز وهو الذي عناه الله تعالى بقوله: أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض. أم نجعل المتقين كالفجار [ص: ٢٨] .

المسألة الثانية: احتجت المعتزلة بهذه الآية على أن الثواب مستحق على العمل لأن الباء للإلصاق فقوله: بما تسعى يدل على أن المؤثر في ذلك الجزاء هو ذلك السعي.

المسألة الثالثة: احتجوا بها على أن فعل العبد غير مخلوق لله تعالى وذلك لأن الآية صريحة في إثبات سعي العبد ولو كان الكل مخلوقا لله تعالى لم يكن للعبد سعي البتة أما قوله: فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها فالصد المنع وهاهنا مسائل:

المسألة الأولى: في هذين الضميرين وجهان. أحدهما: قال أبو مسلم لا يصدنك عنها أي عن الصلاة التي أمرتك بها من لا يؤمن بها أي بالساعة فالضمير الأول عائد إلى الصلاة والثاني إلى الساعة ومثل هذا جائز في اللغة فالعرب تلف الخبرين ثم ترمي بجوابهما جملة ليرد السامع إلى كل خبر حقه. وثانيهما: قال ابن عباس فلا يصدنك عن الساعة أي عن الإيمان بمجيئها من لا يؤمن بها فالضميران عائدان إلى يوم القيامة. قال القاضي: وهذا أولى لأن الضمير يجب عوده إلى أقرب المذكورين وهاهنا الأقرب هو الساعة وما قاله أبو مسلم فإنما يصار إليه عند الضرورة ولا ضرورة هاهنا.

المسألة الثانية: الخطاب في قوله: فلا يصدنك يحتمل أن يكون مع موسى عليه السلام وأن يكون مع." (١)

"أتته وليست في يده وإنما استطاع أن يلقي من يده ما ليس في يده فذلك محال، أما قوله: فألقاها فإذا هي حية تسعى ففيه أسئلة: السؤال الأول: ما **الحكمة في** قلب العصا حية في ذلك الوقت؟ الجواب فيه وجوه: أحدها:

أنه تعالى قلبها حية لتكون معجزة لموسى عليه السلام يعرف بها نبوة نفسه وذلك لأنه عليه السلام إلى هذا الوقت ما سمع إلا النداء، والنداء وإن كان مخالفا للعادات إلا أنه لم يكن معجزا لاحتمال أن يكون ذلك من عادات الملائكة أو الجن فلا جرم قلب الله العصا حية ليصير ذلك دليلا قاهرا والعجب أن

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٢/٢٢

موسى عليه السلام قال: أتوكأ عليها فصدقه الله تعالى فيه وجعلها متكأ له بأن جعلها معجزة له. وثانيها: أن النداء كان إكراما له فقلب العصا حية مزيدا في الكرامة ليكون توالي الخلع والكرامات سببا لزوال الوحشة عن قلبه. وثالثها: أنه عرض عليه ليشاهده أولا فإذا شاهده عند فرعون لا يخافه. ورابعها: أنه كان راعيا فقيرا ثم إنه نصب للمنصب العظيم فلعله بقي في قلبه تعجب من ذلك فقلب العصا حية تنبيها على أني لما قدرت على ذلك فكيف يستبعد مني نصرة مثلك في إظهار الدين. وخامسها: أنه لما قال: هي عصاي أتوكؤا عليها إلى قوله: ولي فيها مآرب أخرى فقيل له: ألقها فلما ألقاها وصارت حية فر موسى عليه السلام منها فكأنه قيل له: ادعيت أنها عصاك وأن لك فيها مآرب أخرى فلم تفر منها، تنبيها على سر قوله: ففروا إلى الله [الذاريات: ٥٠] وقوله:

قل الله ثم ذرهم [الأنعام: ٩١] . السؤال الثاني: قال هاهنا حية وفي موضع آخر ثعبان وجان، أما الحية فاسم جنس يقع على الذكر والأنثى والصغير والكبير، وأما الثعبان والجان فبينهما تناف لأن الثعبان العظيم من الحيات والجان الدقيق وفيه وجهان: أحدهما: أنها كانت وقت انقلابها حية صغيرة دقيقة ثم تورمت وتزايد جرمها حتى صارت ثعبانا فأريد بالجان أول حالها وبالثعبان مآلها. والثاني: أنها كانت في شخص الثعبان وسرعة حركة الجان، والدليل عليه قوله تعالى: فلما رآها تهتز كأنها جان. السؤال الثالث: كيف كانت صفة الحية. الجواب كان لها عرف كعرف الفرس وكان بين لحييها أربعون ذراعا، وابتلعت كل ما مرت به من الصخور والأشجار حتى سمع موسى صرير الحجر في فمها وجوفها، أما قوله تعالى: قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى ففيه سؤالات: السؤال الأول: لما نودي موسى/ وخص بتلك الكرامات العظيمة وعلم أنه مبعوث من عند الله تعالى إلى الخلق فلم خاف. والجواب من وجوه: أحدها: أن ذلك الخوف كان من نفرة الطبع لأنه عليه السلام ما شاهد مثل ذلك قط. وأيضا فهذه الأشياء معلومة بدلائل العقول. وعند الفزع الشديد قد يذهل الإنسان عنه. قال الشيخ أبو القاسم الأنصاري رحمه الله تعالى وذلك الخوف من أقوى الدلائل على صدقه في النبوة لأن الساحر يعلم أن الذي أتى به تمويه فلا يخافه البتة. وثانيها: قال بعضهم: خافها لأنه عليه السلام عرف ما لقي آدم منها. وثالثها: أن مجرد تلك الطاعة لكن قوله: لا تخف لا يدل على حصول الخوف كقوله تعالى: ولا تطع الكافرين [الأحزاب: ١] لا يدل على وجود تلك الطاعة لكن قوله: فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا [النمل: ١٠] يدل عليه، ولكن ذلك الخوف إنما ظهر ليظهر الفرق بينه وبين محمد صلى الله عليه وسلم فإنه عليه السلام أظهر تعلق

القلب بالعصا والنفرة عن الثعبان، وأما محمد عليه السلام فما أظهر الرغبة في الجنة ولا النفرة عن النار. السؤال الثاني: متى أخذها، بعد انقلابها عصا أو قبل ذلك. والجواب:

روي أنه أدخل يده بين أسنانها فانقلبت خشبة

والقرآن يدل عليه أيضا بقوله: سنعيدها سيرتها الأولى وذلك يقع في الاستقبال، وأيضا فهذا أقرب للكرامة لأنه كما أن انقلاب العصا حية معجزة فكذلك إدخال يده في فمها من غير ضرر معجزة وانقلابها خشبا معجز آخر فيكون فيه توالي المعجزات فيكون أقوى في الدلالة. السؤال الثالث: كيف أخذه،." (١)

"والجواب في كتابه في عدة مواضع منها أصولية ومنها فروعية، أما الأصولية فأولها في البقرة: يسئلونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج [البقرة: ١٨٩] . وثانيها: في بني إسرائيل ويسئلونك عن الروح قل الروح من أمر ربي [الإسراء: ٨٥] . وثالثها: ويسئلونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفا [طه: ١٠٥] .

ورابعها: يسئلونك عن الساعة أيان مرساها [النازعات: ٤٢] وأما الفروعية فستة منها في البقرة على التوالي: أحدها:

يسئلونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين [البقرة: ٢١٥] وثانيها: يسئلونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير [البقرة: ٢١٧] . وثالثها: يسئلونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير [البقرة: ٢١٩] . ورابعها: ويسئلونك ماذا ينفقون قل العفو [البقرة: ٢١٩] . وخامسها: ويسئلونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير [البقرة: ٢٢٠] . وسادسها: ويسئلونك عن المحيض قل هو أذى [البقرة: ٢٢٢] . وسابعها: يسئلونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول [الأنفال: ١] . وثامنها:

ويسئلونك عن ذي القرنين قل سأتلوا عليكم منه ذكرا [الكهف: ٨٣] . وتاسعها: ويستنبئونك أحق هو قل إي وربي إنه لحق [يونس: ٥٣] . وعاشرها: يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة [النساء: ١٧٦[.

والحادية عشر: وإذا سألك عبادي عني فإني قريب [البقرة: ١٨٦] إذا عرفت هذا فنقول جاءت هذه الأسئلة والأجوبة على صور مختلفة، فالأغلب فيها أنه سبحانه وتعالى لما ذكر السؤال قال لمحمد صلى الله عليه وسلم قل وفي صورة أخرى جاء الجواب بصيغة فقل مع فاء التعقيب وفي صورة ثالثة ذكر السؤال ولم يذكر الجواب، وهو قوله تعالى: يسئلونك عن الساعة أيان مرساها [الأعراف: ١٨٧] وفي صورة رابعة

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٧/٢٢

ذكر الجواب ولم يذكر فيه لفظ قل ولا لفظ فقل وهو قوله تعالى: وإذا سألك عبادي عني فإني قريب ولا بد لهذه الأشياء من الفائدة فنقول:

أما الأجوبة الواردة بلفظ قل فلا إشكال فيها لأن قوله تعالى قل كالتوقيع المحدد في ثبوت نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وكالتشريف المحدد في كونه مخاطبا من الله تعالى بأداء الوحي والتبليغ. وأما الصورة الثانية وهي قوله: فقل ينسفها ربي نسفا [طه: ١٠٥] فالسبب أن قوله: ويسئلونك عن الجبال [طه: ١٠٥] سؤال إما عن قدمها أو عن وجوب بقائها وهذه المسألة من أمهات مسائل أصول الدين فلا جرم أمر الله تعالى محمدا صلى الله عليه وسلم أن يجيب بلفظ/ الفاء المفيد للتعقيب كأنه سبحانه قال يا محمد أجب عن هذا السؤال في الحال ولا تقتصر فإن الشك فيه كفر ولا تمهل هذا الأمر لئلا يقعوا في الشك والشبهة، ثم كيفية الجواب أنه قال: فقل ينسفها ربي نسفا ولا شك أن النسف ممكن لأنه ممكن في حق كل جزء من أجزاء الجبل والحس يدل عليه فوجب أن يكون ممكنا في حق كل الجبل وذلك يدل على أنه ليس بقديم ولا واجب الوجود لأن القديم لا يجوز عليه التغير والنسف، فإن قيل: إنهم قالوا: أخبرنا عن إلهك أهو ذهب أو فضة أو حديد فقال: قل هو الله أحد [الإخلاص: ١] ولم يقل فقل هو الله أحد مع أن هذه المسألة من المهمات قلنا إنه تعالى لم يحك في هذا الموضع سؤالهم وحرف الفاء من الحروف العاطفة فيستدعي سبق كلام فلما لم يوجد ترك الفاء بخلاف هاهنا فإنه تعالى حكى سؤالهم فحسن عطف الجواب عليه بحرف الفاء. وأما الصورة الثالثة: فإنه تعالى لم يذكر الجواب في قوله: يسئلونك عن الساعة أيان مرساها **فالحكمة فيه** أن معرفة وقت الساعة على التعيين مشتملة على المفاسد التي شرحناها فيما سبق فلهذا لم يذكر الله تعالى ذلك الجواب وذلك يدل على أن من الأسئلة ما لا يجاب عنها. وأما الصورة الرابعة: وهي قوله: فإني قريب ولم يذكر في جوابه قل ففيه وجوه. أحدها: أن ذلك يدل على تعظيم حال الدعاء وأنه من أعظم العبادات فكأنه سبحانه قال: يا عبادي أنت إنما تحتاج إلى الواسطة في غير الدعاء أما في." (١)

"القول الثالث: أن الله تعالى آتاه العصا واليد وحل عقدة لسانه وذلك أيضا معجز فكانت الآيات ثلاثة هذا هو شرح الأمر أما النهي فهو قوله تعالى: ولا تنيا في ذكري الوني الفتور والتقصير وقرئ ولا تنيا بكسر حرف المضارعة للاتباع ثم قيل فيه أقوال: أحدها: المعنى لا تنيا بل اتخذا ذكري آلة لتحصيل

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٢/٣٣

المقاصد واعتقدا أن أمرا من الأمور لا يتمشى لأحد إلا بذكري **والحكمة فيه** أن من ذكر جلال الله استحقر غيره فلا يخاف أحدا ولأن من ذكر جلال الله تقوى روحه بذلك الذكر فلا يضعف في المقصود، ولأن ذاكر الله تعالى لا بد وأن يكون ذاكرا لإحسانه وذاكر إحسانه لا يفتر في أداء أوامره. وثانيها: المراد بالذكر تبليغ الرسالة فإن الذكر يقع على كل العبادات وتبليغ الرسالة من أعظمها فكان جديرا بأن يطلق عليه اسم الذكر. وثالثها: قوله: ولا تنيا في ذكري عند فرعون وكيفية الذكر هو أن يذكرا لفرعون وقومه أن الله تعالى لا يرضى منهم بالكفر ويذكرا لهم أمر الثواب والعقاب والترغيب والترهيب. ورابعها: أن يذكرا لفرعون آلاء الله ونعماءه وأنواع إحسانه إليه ثم قال بعد ذلك: اذهبا إلى فرعون إنه طغى وفيه سؤالان: الأول: ما الفائدة في ذلك بعد قوله: اذهب أنت وأخوك بآياتي قال القفال فيه وجهان. أحدهما: أن قوله: اذهب أنت وأخوك بآياتي يحتمل أن يكون كل واحد منهما/ مأمورا بالذهاب على الانفراد فقيل مرة أخرى اذهبا ليعرفا أن المراد منه أن يشتغلا بذلك جميعا لا أن ينفرد به هارون دون موسى. والثاني: أن قوله: اذهب أنت وأخوك بآياتي أمر بالذهاب إلى كل الناس من بني إسرائيل وقوم فرعون، ثم إن قوله: اذهبا إلى فرعون أمر بالذهاب إلى فرعون وحده.

السؤال الثاني: قوله: اذهبا إلى فرعون خطاب مع موسى وهارون عليهما السلام وهذا مشكل لأن هارون عليه السلام لم يكن حاضرا هناك وكذلك في قوله تعالى: قالا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى [طه: ٤٥] أجاب القفال عنه من وجوه. أحدها: أن الكلام كان مع موسى عليه السلام وحده إلا أنه كان متبوع هارون فجعل الخطاب معه خطابا مع هارون وكلام هارون على سبيل التقدير فالخطاب في تلك الحالة وإن كان مع موسى عليه السلام وحده إلا أنه تعالى أضافه إليهما كما في قوله: وإذ قتلتم نفسا [البقرة: ٧٢] وقوله: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل [المنافقون: ٨] وحكي أن القائل هو عبد الله بن أبي وحده. وثانيها: يحتمل أن الله تعالى لما قال: قد أوتيت سؤلك يا موسى سكت حتى لقي أخاه، ثم إن الله تعالى خاطبهما بقوله: اذهبا إلى فرعون. وثالثها: أنه حكي أنه في مصحف ابن مسعود وحفصة: قال ربنا إننا نخاف أي قال موسى: أنا وأخي نخاف فرعون أما قوله تعالى: فقولا له قولا لينا ففيه سؤالان:

السؤال الأول: لم أمر الله تعالى موسى عليه السلام باللين مع الكافر الجاحد. الجواب لوجهين: الأول: أنه عليه السلام كان قد رباه فرعون فأمره أن يخاطبه بالرفق رعاية لتلك الحقوق وهذا تنبيه على نهاية تعظيم

حق الأبوين. الثاني: أن من عادة الجبابرة إذا غلظ لهم في الوعظ أن يزدادوا عتوا وتكبرا، والمقصود من البعثة حصول النفع لا حصول زيادة الضرر فلهذا أمر الله تعالى بالرفق.

السؤال الثاني: كيف كان ذلك الكلام اللين. الجواب: ذكروا فيه وجوها. أحدها: ما حكى الله تعالى بعضه فقال: هل لك إلى أن تزكى وأهديك إلى ربك فتخشى [النازعات: ١٨، ١٩] وذكر أيضا في هذه السورة بعض ذلك فقال: فأتياه فقولا إنا رسولا ربك إلى قوله: والسلام على من اتبع الهدى [طه: ٤٧] .

وثانيها: أن تعداه شبابا لا يهرم بعده وملكا لا ينزع منه إلا بالموت وأن يبقى له لذة المطعم." (١)

"لا إله إلا الله، وأقول لما دلت هذه الآية على أن الدرجات العالية هي جزاء من تزكى أي تطهر عن الذنوب وجب بحكم ذلك الخطاب أن الدرجات التي لا تكون عالية أن لا تكون جزاء من تزكى فهي لغيرهم ممن يكون قد أتى بالمعاصي وعفا الله بفضله ورحمته عنهم، واعلم أنه ليس في القرآن أن فرعون فعل بأولئك القوم المؤمنين ما أوعدهم به ولكن ثبت ذلك في الأخبار.

[سورة طه (٢٠) : الآيات ٧٧ الى ٧٩]

ولقد أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي فاضرب لهم طريقا في البحر يبسا لا تخاف دركا ولا تخشى (٧٧) فأتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليم ما غشيهم (٧٨) وأضل فرعون قومه وما هدى (٧٩)

واعلم أن في قوله: ولقد أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي دلالة على أن موسى عليه السلام في تلك الحالة كثر مستجيبوه. فأراد الله تعالى تمييزهم من طائفة فرعون وخلاصهم فأوحى إليه أن يسري بهم ليلا، والسرى اسم لسير الليل والإسراء مثله، فإن قيل: ما **الحكمة في** أن يسري بهم ليلا، قلنا لوجوه: أحدها: أن يكون اجتماعهم لا بمشهد من العدو فلا يمنعهم عن استكمال مرادهم في ذلك. وثانيها: ليكون عائقا عن طلب فرعون ومتبعيه. وثالثها: ليكون إذا تقارب العسكران لا يرى عسكر موسى عسكر فرعون فلا يهابوهم، أما قوله: فاضرب لهم طريقا في البحر يبسا ففيه وجهان: الأول: أي فاجعل لهم من قولهم ضرب له في ماله سهما، وضرب اللبن عمله. والثاني: بين لهم طريقا في البحر بالضرب بالعصا وهو أن يضرب البحر بالعصا حتى ينفلق، فعدى الضرب إلى الطريق. والحاصل أنه أريد بضرب الطريق جعل الطريق بالضرب يبسا ثم بين تعالى أن جميع أسباب الأمن كان حاصلا في ذلك الطريق. أحدها: أنه كان يبسا قرئ يابسا ويبسا

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٥٢/٢٢

بفتح الياء وتسكين الباء فمن قال: يابسا جعله بمعنى الطريق ومن قال يبسا بتحريك الباء فاليبس واليابس شيء واحد والمعنى طريقا أيبس. ومن قال: يبسا بتسكين الباء فهو مخفف عن اليبس، والمراد أنه ما كان فيه وحل ولا نداوة فضلا عن الماء. وثانيها: قوله: لا تخاف دركا ولا تخشى أي لا تخاف أن يدركك فرعون فإني أحول بينك وبينه بالتأخير، قال سيبويه: قوله: تخاف رفعه على وجهين: أحدهما: على الحال كقولك غير خائف ولا خاش. والثاني: على الابتداء أي أنت لا تخاف وهذا قول الفراء، قال الأخفش والزجاج: المعنى لا تخاف فيه كقوله: واتقوا يوما لا تجزي نفس عن نفس [البقرة: ٤٨] أي لا تجزي فيه نفس وقرأ حمزة لا تخف وفيه وجهان. أحدهما: أنه نهي. والثاني: قال أبو علي: جعله جواب الشرط على معنى إن تضرب لا تخف وعلى هذه القراءة ذكروا في قوله: ولا تخشى ثلاثة «١» أوجه. أحدهما: أن يستأنف كأنه قيل وأنت لا تخشى أي ومن شأنك أنك آمن لا تخشى. وثانيها: أن لا تكون الألف هي الألف المنقلبة عن الياء التي هي لام الفعل ولكن زائدة للإطلاق من أجل الفاصلة كقوله تعالى: فأضلونا السبيلا [الأحزاب: ٦٧] وتظنون بالله الظنونا [الأحزاب: ١٠] . وثالثها: أن يكون مثل قوله:

]وتضحك مني شيخة عبشمية «٢»] ... كأن لم تري قبلي أسيرا يمانيا

---

(١) الصواب أربعة أوجه كما سيأتي.

(٢) الشعر لمالك بن الريب وقد وضعت صدره بين معكفين لأنه ليس في الأصول.." (١)

"فأفحمه ثم تلا عليهم: إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم الآية فأقبل عبد الله بن الزبعرى فرآهم يتهامسون فقال: فيم خوضكم؟ فأخبره الوليد بن المغيرة بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال عبد الله أما والله لو وجدته لخصمته فدعوه، فقال ابن الزبعرى أأنت قلت ذلك؟ قال نعم، قال قد خصمتك ورب الكعبة أليس اليهود عبدوا عزيرا والنصارى عبدوا المسيح وبنوا مليح عبدوا الملائكة «١» ثم روي في ذلك روايتان: إحداها: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سكت ولم يجب فضحك القوم فنزل قوله تعالى: ولما ضرب ابن مريم مثلا إذا قومك منه يصدون وقالوا أآلهتنا خير أم هو ما ضربوه لك إلا جدلا بل هم قوم خصمون [الزخرف: ٥٧، ٥٨] ونزل في عيسى والملائكة: إن الذين سبقت لهم منا الحسنى [الأنبياء: ١٠١] الآية هذا قول ابن عباس. الرواية الثانية: أنه عليه السلام أجاب وقال بل هم عبدوا الشياطين التي

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٨٠/٢٢

أمرتهم بذلك فأنزل الله سبحانه: إن الذين سبقت لهم منا الحسنى [الأنبياء: ١٠١] الآية يعني عزيرا والمسيح والملائكة واعلم أن سؤال ابن الزبعرى ساقط من وجوه: أحدها: أن قوله: إنكم خطاب مشافهة وكان ذلك مع مشركي مكة وهم كانوا يعبدون الأصنام فقط. وثانيها: أنه لم يقل ومن تعبدون بل قال ما تعبدون وكلمة ما لا تتناول العقلاء.

أما قوله تعالى: والسماء وما بناها [الشمس: ٥] وقوله: لا أعبد ما تعبدون [الكافرون: ٢] فهو محمول على الشيء ونظيره هاهنا أن يقال: إنكم والشيء الذي تعبدون من دون الله لكن لفظ الشيء لا يفيد العموم فلا يتوجه سؤال ابن الزبعرى. وثالثها: أن من عبد الملائكة لا يدعي أنهم آلهة، وقال سبحانه: لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها. ورابعها: هب أنه ثبت العموم لكنه/ مخصوص بالدلائل العقلية والسمعية في حق الملائكة والمسيح وعزير لبراءتهم من الذنوب والمعاصي، ووعد الله إياهم بكل مكرمة، وهذا هو المراد من قوله سبحانه: إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون [الأنبياء: ١٠١] . وخامسها: الجواب الذي ذكره رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو أنهم كانوا يعبدون الشياطين، فإن قيل الشياطين عقلاء، ولفظ ما لا يتناولهم فكيف قال الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك؟ قلنا كأنه عليه السلام قال: لو ثبت لكم أنه يتناول العقلاء فسؤالكم أيضا غير لازم من هذا الوجه. وأما ما قيل: إنه عليه السلام سكت عند إيراد ابن الزبعرى هذا السؤال فهو خطأ لأنه لا أقل من أنه عليه السلام كان يتنبه لهذه الأجوبة التي ذكرها المفسرون، لأنه عليه السلام كان أعلم منهم باللغة وبتفسير القرآن، فكيف يجوز أن تظهر هذه الأجوبة لغيره، ولا يظهر شيء منها له عليه السلام. فإن قيل: جوزوا أن يسكت عليه السلام انتظارا للبيان قلنا: لما كان البيان حاضرا معه لم يجز عليه السكوت لكي لا يتوهم فيه الانقطاع عن سؤالهم، ومن الناس من أجاب عن سؤال ابن الزبعرى فقال:

إن الله تعالى يصور لهم في النار ملكا على صورة من عبدوه، وحينئذ تبقى الآية على ظاهرها واعلم أن هذا ضعيف من وجهين. الأول: أن القوم لم يعبدوا تلك الصورة وإنما عبدوا شيئا آخر لم يحصل معهم في النار.

الثاني: وهو أن الملك لا يصير حصب جهنم في الحقيقة وإن صح أن يدخلها، فإن خزنة النار يدخلونها مع أنهم ليسوا حصب جهنم.

المسألة الثانية: **الحكمة في** أنهم قرنوا بآلهتهم أمور. أحدها: أنهم لا يزالون لمقارنتهم في زيادة غم

(١) لهذا الخبر تتمة، وهي أن

الرسول صلى الله عليه وسلم رد على ابن الزبعري حينئذاك بقوله: «ما أجهلك بلغة قومك! ما لما لا يعقل، أي أن العرب جعلوا من للعقلاء وما لغيرهم وعزير والأنبياء والملائكة من العقلاء فلا يشار إليهم بما.." (١)

"بدنة فيها جمل لأبي في أنفه برة من ذهب»

والوجه الثاني: في تعظيم شعائر الله تعالى أن يعتقد أن طاعة الله تعالى في التقرب بها وإهدائها إلى بيته المعظم أمر عظيم لا بد وأن يحتفل به ويتسارع فيه فإنها من تقوى القلوب أي إن تعظيمها من أفعال ذوي تقوى القلوب فحذفت هذه المضافات، ولا يستقيم المعنى إلا بتقديرها لأنه لا بد من راجع من الجزاء إلى من ارتبط به وإنما ذكرت القلوب لأن المنافق قد يظهر التقوى من نفسه.

ولكن لما كان قلبه خاليا عنها لا جرم لا يكون مجدا في أداء الطاعات، أما المخلص الذي تكون التقوى متمكنة في قلبه/ فإنه يبالغ في أداء الطاعات على سبيل الإخلاص، فإن قال قائل: ما **الحكمة في** أن الله تعالى بالغ في تعظيم ذبح الحيوانات هذه المبالغة؟ فالجواب قوله تعالى:

[سورة الحج (٢٢) : الآيات ٣٣ الى ٣٥]

لكم فيها منافع إلى أجل مسمى ثم محلها إلى البيت العتيق (٣٣) ولكل أمة جعلنا منسكا ليذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فإلهكم إله واحد فله أسلموا وبشر المخبتين (٣٤) الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم والصابرين على ما أصابهم والمقيمي الصلاة ومما رزقناهم ينفقون (٣٥)

اعلم أن قوله تعالى: لكم فيها منافع إلى أجل مسمى لا يليق إلا بأن تحمل الشعائر على الهدي الذي فيه منافع إلى وقت النحر، ومن يحمل ذلك على سائر الواجبات يقول لكم فيها أي في التمسك بها منافع إلى أجل ينقطع التكليف عنده، والأول هو قول جمهور المفسرين، ولا شك أنه أقرب. وعلى هذا القول فالمنافع مفسرة بالدر والنسل والأوبار وركوب ظهورها، فأما قوله إلى أجل مسمى ففيه قولان: أحدهما: أن لكم أن تنتفعوا بهذه البهائم إلى أن تسموها ضحية وهديا فإذا فعلتم ذلك فليس لكم أن تنتفعوا بها، وهذا قول ابن عباس ومجاهد وعطاء وقتادة والضحاك وقال آخرون لكم فيها أي في البدن منافع مع تسميتها

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٢/١٨٧

هديا بأن تركبوها إن احتجتم إليها وأن تشربوا ألبانها إذا اضطررتم إليها إلى أجل مسمى يعني إلى أن تنحروها هذه هي الرواية الثانية عن ابن عباس رضي الله عنهما وهو اختيار الشافعي، وهذا القول أولى لأنه تعالى قال: لكم فيها منافع أي في الشعائر ولا تسمى شعائر قبل أن تسمى هديا

وروى أبو هريرة أنه عليه السلام «مر برجل يسوق بدنة وهو في جهد، فقال عليه السلام اركبها فقال يا رسول الله إنها هدي فقال اركبها ويلك»

وروى جابر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «اركبوا الهدي بالمعروف حتى تجدوا ظهرا»

واحتج أبو حنيفة رحمه الله على أنه لا يملك منافعها بأن لا يجوز له أن يؤجرها للركوب فلو كان مالكا لمنافعها لملك عقد الإجارة عليها كمنافع سائر المملوكات، وهذا ضعيف لأن أم الولد لا يمكنه بيعها، ويمكنه الانتفاع بها فكذا هاهنا.

أما قوله تعالى: ثم محلها إلى البيت العتيق فالمعنى أن لكم في الهدايا منافع كثيرة في دنياكم ودينكم وأعظم هذه المنافع محلها إلى البيت العتيق أي وجوب نحرها أو وقت وجوب نحرها منتهية إلى البيت، كقوله:

هديا بالغ الكعبة [المائدة: ٩٥] وبالجملة فقوله: محلها يعني حيث يحل نحرها، وأما البيت العتيق فالمراد به الحرم كله، ودليله قوله تعالى: فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا [التوبة: ٢٨] أي الحرم كله فالمنحر على هذا القول كل مكة، ولكنها تنزهت عن الدماء إلى منى ومنى من مكة،

قال عليه السلام: «كل." (١)

"وجبت جنوبها

وهذا يختص بالإبل فإنها تنحر قائمة دون البقر، وقال قوم البدن الإبل والبقر التي يتقرب بها إلى الله تعالى في الحج والعمرة، لأنه إنما سمي بذلك لعظم البدن فالأولى دخولها فيه، أما الشاة فلا تدخل وإن كانت تجوز في النسك لأنها صغيرة الجسم فلا تسمى بدنة.

المسألة الثانية: قرأ الحسن والبدن بضمتين كثمر في جمع ثمرة، وابن أبي إسحاق بالضمتين وتشديد النون على لفظ الوقف، وقرئ بالنصب والرفع كقوله: والقمر قدرناه منازل [يس: ٣٩] والله أعلم.

المسألة الثالثة: إذا قال لله علي بدنة، هل يجوز له نحرها في غير مكة؟ قال أبو حنيفة ومحمد رحمهما

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٢٤/٢٣

الله يجوز، وقال أبو يوسف رحمه الله لا يجوز إلا بمكة واتفقوا فيمن نذر هديا أن عليه ذبحه بمكة، ولو قال: لله علي جزور، أنه يذبحه حيث شاء، وقال أبو حنيفة رحمه الله البدنة بمنزلة الجزور فوجب أن يجوز له نحرها حيث يشاء بخلاف الهدي فإنه تعالى قال: هديا بالغ الكعبة [المائدة: ٩٥] فجعل بلوغ الكعبة من صفة الهدي، واحتج أبو يوسف رحمه الله بقوله تعالى: والبدن جعلناها لكم من شعائر الله فكان اسم البدنة يفيد كونها قربة فكان كاسم الهدي، أجاب أبو حنيفة رحمه الله/ بأنه ليس كل ما كان ذبحه قربة اختص بالحرم فإن الأضحية قربة وهي جائزة في سائر الأماكن.

أما قوله تعالى: جعلناها لكم فاعلم أنه سبحانه لما خلق البدن وأوجب أن تهدى في الحج جاز أن يقول جعلناها لكم من شعائر الله أما قوله: لكم فيها خير فالكلام فيه ما تقدم في قوله: لكم فيها منافع [الحج: ٣٣] وإذا كان قوله: لكم فيها خير كالترغيب فالأولى أن يراد به الثواب في الآخرة وما أخلق العاقل بالحرص على شيء شهد الله تعالى بأن فيه خيرا وبأن فيه منافع، أما قوله: فاذكروا اسم الله عليها ففيه حذف أي اذكروا اسم الله على نحرها، قال المفسرون هو أن يقال عند النحر أو الذبح بسم الله والله أكبر اللهم منك وإليك، أما قوله: صواف، فالمعنى قائمات قد صففن أيديهن وأرجلهن وقرئ صوافن من صفون الفرس، وهو أن تقوم على ثلاث وتنصب الرابعة على طرف سنبكه لأن البدنة تعقل إحدى يديها فتقوم على ثلاث، وقرئ صوافي أي خوالص لوجه الله تعالى لا تشركوا بالله في التسمية على نحرها أحدا كما كان يفعله المشركون، وعن عمرو بن عبيد صوافيا بالتنوين عوضا عن حرف الإطلاق عند الوقف، وعن بعضهم صوافي نحو قول العرب أعط القوس باريها ولا يبعد أن تكون الحكمة في إصفافها ظهور كثرتها للناظرين فتقوى نفوس المحتاجين ويكون التقرب بنحرها عند ذلك أعظم أجرا وأقرب إلى ظهور التكبير وإعلاء اسم الله وشعائر دينه، وأما قوله: فإذا وجبت جنوبها فاعلم أن وجوب الجنوب وقوعها على الأرض من وجب الحائط وجبة إذا سقط، ووجبت الشمس وجبة إذا غربت، والمعنى إذا سقطت على الأرض وذلك عند خروج الروح منها فكلوا منها وقد ذكرنا اختلاف العلماء فيما يجوز أكله منها وأطعموا القانع والمعتر القانع السائل يقال قنع يقنع قنوعا إذا سأل قال أبو عبيد هو الرجل يكون مع القوم يطلب فضلهم ويسأل معروفهم ونحوه، قال الفراء والمعنى الثاني القانع هو الذي لا يسأل من القناعة يقال قنع يقنع قناعة إذا رضي بما قسم له وترك السؤال، أما المعتر فقيل إنه المتعرض بغير سؤال، وقيل إنه المتعرض بالسؤال قال الأزهري قال ابن الأعرابي يقال عروت فلانا وأعررته وعروته واعتريته إذا أتيته تطلب معروفه ونحوه، قال أبو عبيد والأقرب أن

القانع هو الراضي بما يدفع إليهٍ من غير سؤال وإلحاح، والمعتر هو الذي يتعرض ويطلب ويعتريهم حالا بعد حال فيفعل ما يدل على." (١)

"حقيقته فهو أولى وثانيها: أن المراد ألم تخبر على سبيل الاستفهام/ وثالثها: المراد ألم تعلم والقول الأول ضعيف لأن الماء وإن كان مرئيا إلا أن كون الله منزلا له من السماء غير مرئي إذا ثبت هذا وجب حمله على العلم، لأن المقصود من تلك الرؤية هو العلم، لأن الرؤية إذا لم يقترن بها العلم كانت كأنها لم تحصل.

المسألة الثانية: قرئ مخضرة كمبقلة ومسبعة أي ذات خضرة، وهاهنا سؤالات:

السؤال الأول: لم قال: فتصبح الأرض ولم يقل فأصبحت؟ الجواب: لنكتة فيه وهي إفادة بقاء أثر المطر زمانا بعد زمان، كما تقول أنعم على فلان عام كذا فأروح وأغد شاكرا له، ولو قلت فرحت وغدوت لم يقع ذلك الموقع.

السؤال الثاني: لم رفع ولم ينصب جوابا للاستفهام؟ والجواب: لو نصب لأعطى عكس ما هو الغرض، لأن معناه إثبات الاخضرار فينقلب بالنصب إلى نفي الاخضرار مثاله أن تقول لصاحبك ألم تر أني أنعمت عليك فتشكر. وإن نصبته فأنت ناف لشكره شاك لتفريطه، وإن رفعته فأنت مثبت للشكر.

السؤال الثالث: لم أورد تعالى ذلك دلالة على قدرته على الإعادة، كما قال أبو مسلم. الجواب: يحتمل ذلك ويحتمل أنه نبه به على عظيم قدرته وواسع نعمه.

السؤال الرابع: ما تعلق قوله: إن الله لطيف خبير بما تقدم؟ الجواب: من وجوه أحدها: أراد أنه رحيم بعباده ولرحمته فعل ذلك حتى عظم انتفاعهم به، لأن الأرض إذا أصبحت مخضرة والسماء إذا أمطرت كان ذلك سببا لعيش الحيوانات على اختلافها أجمع. ومعنى خبير أنه عالم بمقادير مصالحهم فيفعل على قدر ذلك من دون زيادة ونقصان وثانيها: قال ابن عباس لطيف بأرزاق عباده خبير بما في قلوبهم من القنوط وثالثها: قال الكلبي لطيف في أفعاله خبير بأعمال خلقه ورابعها: قال مقاتل: لطيف باستخراج النبت خبير بكيفية خلقه.

الدلالة الثانية: قوله تعالى: له ما في السماوات وما في الأرض وإن الله لهو الغني الحميد والمعنى أن كل ذلك منقاد له غير ممتنع من التصرف فيه وهو غني عن الأشياء كلها وعن حمد الحامدين أيضا لأنه كامل

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٢٦/٢٣

لذاته، والكامل لذاته غني عن كل ما عداه في كل الأمور، ولكنه لما خلق الحيوان فلا بد في الحكمة من قطر ونبات فخلق هذه الأشياء رحمة للحيوانات وإنعاما عليهم، لا لحاجة به إلى ذلك. وإذا كان كذلك كان إنعامه خاليا عن غرض عائد إليه فكان مستحقا للحمد. فكأنه قال إنه لكونه غنيا لم يفعل ما فعله إلا للإحسان، ومن كان كذلك كان مستحقا للحمد فوجب أن يكون حميدا. فلهذا قال: وإن الله لهو الغني الحميد.

الدلالة الثالثة: قوله: ألم تر أن الله سخر لكم ما في الأرض أي ذلل لكم ما فيها فلا أصلب من الحجر ولا أحد من الحديد ولا أكثر هيبة من النار، وقد سخرها لكم وسخر الحيوانات أيضا حتى ينتفع بها من حيث الأكل والركوب والحمل عليها والانتفاع بالنظر إليها، فلولا أن سخر الله/ تعالى الإبل والبقر مع قوتهما حتى يذللهما الضعيف من الناس ويتمكن منهما لما كان ذلك نعمة.

الدلالة الرابعة: قوله تعالى: والفلك تجري في البحر بأمره والأقرب أن المراد وسخر لكم الفلك لتجري في البحر، وكيفية تسخيره الفلك هو من حيث سخر الماء والرياح لجريها، فلولا صفتهما على ما هما." (١)

"الله كما قال تعالى: يضل به كثيرا ويهدي به كثيرا [البقرة: ٢٦] فإن قيل فعلى كل الروايات قد تكلم البشر ابتداء بمثل نظم القرآن، وذلك يقدح في كونه معجزا كما ظنه عبد الله والجواب: هذا غير مستبعد إذا كان قدره القدر الذي لا يظهر فيه الإعجاز فسقطت شبهة عبد الله.

المرتبة الثامنة: قوله: ثم إنكم بعد ذلك لميتون قرأ ابن أبي عبلة وابن محيصن لمائتون والفرق بين الميت والمائت، أن الميت كالحي صفة ثابتة، وأما المائت فيدل على الحدوث تقول زيد ميت الآن ومائت غدا، وكقولك يموت ونحوهما ضيق وضائق في قوله: وضائق به صدرك [هود: ١٢] .

المرتبة التاسعة: قوله: ثم إنكم يوم القيامة تبعثون فالله سبحانه جعل الإماتة التي هي إعدام الحياة والبعث الذي هو إعادة ما يفنيه ويعدمه دليلين أيضا على اقتدار عظيم بعد الإنشاء والاختراع وهاهنا سؤالات:

السؤال الأول: ما الحكمة في الموت، وهلا وصل نعيم الآخرة وثوابها بنعيم الدنيا فيكون ذلك في الإنعام أبلغ؟ والجواب: هذا كالمفسدة في حق المكلفين لأنه متى عجل للمرء الثواب فيما يتحمله من المشقة في الطاعات صار إتيانه بالطاعات لأجل تلك المنافع لا لأجل طاعة الله، يبين ذلك أنه لو قيل لمن يصلي ويصوم إذا فعلت ذلك أدخلناك الجنة في الحال، فإنه لا يأتي بذلك الفعل/ إلا لطلب الجنة، فلا

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٤٧/٢٣

جرم أخره الله تعالى وبعده بالإماتة ثم الإعادة ليكون العبد عابدا لربه بطاعته لا لطلب الانتفاع.

السؤال الثاني: هذه الآية تدل على نفي عذاب القبر لأنه قال: ثم إنكم بعد ذلك لميتون ثم إنكم يوم القيامة تبعثون ولم يذكر بين الأمرين الإحياء في القبر والإماتة والجواب: من وجهين: الأول: أنه ليس في ذكر الحياتين نفي الثالثة والثاني: أن الغرض من ذكر هذه الأجناس الثلاثة الإنشاء والإماتة والإعادة، والذي ترك ذكره فهو من جنس الإعادة.

النوع الثاني: من الدلائل الاستدلال بخلقة السموات وهو قوله تعالى: ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق وما كنا عن الخلق غافلين [المؤمنون: ١٧] .

فقوله: سبع طرائق [المؤمنون: ١٧] أي سبع سموات وإنما قيل لها طرائق لتطارقها بمعنى كون بعضها فوق بعض يقال طارق الرجل نعليه إذا أطبق نعلا على نعل وطارق بين ثوبين إذا لبس ثوبا فوق ثوب.

هذا قول الخليل والزجاج والفراء قال الزجاج هو كقوله: سبع سماوات طباقا [نوح: ١٥] وقال علي بن عيسى سميت بذلك لأنها طرائق للملائكة في العروج والهبوط والطيران، وقال آخرون لأنها طرائق الكواكب فيها مسيرها والوجه في إنعامه علينا بذلك أنه تعالى جعلها موضعا لأرزاقنا بإنزال الماء منها، وجعلها مقرا للملائكة، ولأنها موضع الثواب، ولأنها مكان إرسال الأنبياء ونزول الوحي.

أما قوله: وما كنا عن الخلق غافلين [المؤمنون: ١٧] ففيه وجوه: أحدها: ما كنا غافلين بل كنا للخلق حافظين من أن تسقط عليهم الطرائق السبع فتهلكهم وهذا قول سفيان بن عيينة، وهو كقوله تعالى: إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا [فاطر: ٤١] وثانيها: إنما خلقناها فوقهم لننزل عليهم الأرزاق والبركات منها عن الحسن وثالثها: أنا خلقنا هذه الأشياء فدل خلقنا لها على كمال قدرتنا ثم بين كمال العلم بقوله: وما كنا عن الخلق غافلين [المؤمنون: ١٧] يعني عن أعمالهم وأقوالهم وضمائرهم وذلك يفيد نهاية الزجر." (١)

"باب قوم لم يستقبل الباب من تلقاء وجهه ولكن من ركنه الأيمن أو الأيسر فيقول السلام عليكم، وذلك لأن الدور لم يكن عليها حينئذ ستور.

السؤال السادس: أن كلمة (حتى) للغاية والحكم بعد الغاية يكون بخلاف ما قبلها فقوله: لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا يقتضي جواز الدخول بعد الاستئذان وإن لم يكن من صاحب البيت إذن فما

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٣/٢٦٧

قولكم فيه؟ الجواب: من وجوه: أحدها: أن الله تعالى جعل الغاية الاستئناس لا الاستئذان، والاستئناس لا يحصل إلا إذا حصل الإذن بعد الاستئذان وثانيها: أنا لما عل◌منا بالنص أن **الحكمة في** الاستئذان أن لا يدخل الإنسان على غيره بغير إذنه فإن ذلك مما يسوءه، وعلمنا أن هذا المقصود لا يحصل إلا بعد حصول الإذن، علمنا أن الاستئذان ما لم يتصل به الإذن وجب أن لا يكون كافيا وثالثها: أن قوله تعالى: فإن لم تجدوا فيها أحدا فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم فحظر الدخول إلا بإذن، فدل على أن الإذن مشروط بإباحة الدخول في الآية الأولى، فإن قيل إذا ثبت أنه لا بد من الإذن فهل يقوم مقامه غيره أم لا؟ قلنا

روى أبو هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «رسول الرجل إلى الرجل إذنه»

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي عليه الصلاة والسلام قال: «إذا دعي أحدكم فجاء مع الرسول فإن ذلك له إذن»

وهذا الخبر يدل على معنيين أحدهما: أن الإذن محذوف من قوله: حتى تستأنسوا وهو المراد منه والثاني: أن الدعاء إذن إذا جاء مع الرسول وأنه لا يحتاج إلى استئذان ثان، وقال بعضهم إن من قد جرت العادة له بإباحة الدخول فهو غير محتاج إلى الاستئذان.

السؤال السابع: ما حكم من اطلع على دار غيره بغير إذنه؟ الجواب: قال الشافعي رحمه الله: ل◌و فقئت عينه فهي هدر، وتمسك بما

روى سهل بن سعد قال: «اطلع رجل في حجرة من حجر النبي صلى الله عليه وسلم ومعه مدرى يحك بها رأسه فقال: لو علمت أنك تنظر إلي لطعنت بها في عينك إنما الاستئذان قبل النظر»

وروى أبو هريرة رضي الله عنه أنه عليه الصلاة والسلام قال: «من/ اطلع في دار قوم بغير إذنهم ففقؤوا عينه فقد هدرت عينه»

قال أبو بكر الرازي: هذا الخبر يرد لوروده على خلاف قياس الأصول، فإنه لا خلاف أنه لو دخل داره بغير إذنه ففقأ عينه كان ضامنا وكان عليه القصاص إن كان عامدا وال◌أرش إن كان مخطئا، ومعلوم أن الداخل قد اطلع وزاد على الاطلاع، فظاهر الحديث مخالف لما حصل عليه الاتفاق، فإن صح فمعناه: من اطلع في دار قوم ونظر إلى حرمهم ونسائهم فمونع فلم يمتنع فذهبت عينه في حال الممانعة فهي هدر، فأما إذا لم يكن إلا النظر ولم يقع فيه ممانعة ولا نهي، ثم جاء إنسان ففقأ عينه، فهذا جان يلزمه حكم جنايته لظاهر قوله تعالى: العين بالعين إلى قوله: والجروح قصاص [المائدة: ٤٥] واعلم أن التمسك بقوله تعالى:

والعين بالعين في هذه المسألة ضعيف، لأنا أجمعنا على أن هذا النص مشروط بما إذا لم تكن العين مستحقة، فإنها لو كانت مستحقة لم يلزم القصاص، فلم قلت: إن من اطلع في دار إنسان لم تكن عينه مستحقة؟ وهذا أول المسألة.

أما قوله: إنه لو دخل لم يجز فقء عينه، فكذا إذا نظر قلنا الفرق بين الأمرين ظاهر، لأنه إذا دخل علم القوم دخوله عليهم فاحترزوا عنه وتستروا، فأما إذا نظر فقد لا يكونون عالمين بذلك فيطلع منهم على ما لا يجوز الاطلاع عليه، فلا يبعد في حكم الشرع أن يبالغ هاهنا في الزجر حسما لباب هذه المفسدة، وبالجملة فرد حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم لهذا القدر من الكلام غير جائز.

السؤال الثامن: لما بينتم أنه لا بد من الإذن فهل يكفي الإذن كيف كان أو لا بد من إذن مخصوص؟." (١)

"عليه صار المتوكل ضائعا، أما هو سبحانه وتعالى فإنه حي لا يموت فلا يضيع المتوكل عليه البتة.

أما قوله: وسبح بحمده فمنهم من حمله على نفس التسبيح بالقول، ومنهم من حمله على الصلاة، ومنهم من حمله على التنزيه لله تعالى عما لا يليق به في توحيده وعدله وهذا هو الظاهر ثم قال: وكفى به بذنوب عباده خبيرا وهذه كلمة يراد بها المبالغة يقال: كفى بالعلم جمالا، وكفى بالأدب مالا وهو بمعنى حسبك، أي لا تحتاج معه إلى غيره لأنه خبير بأحوالهم قادر على مكافأتهم وذلك وعيد شديد، كأنه قال إن أقدمتم على مخالفة أمره كفاكم علمه في مجازاتكم بما تستحقون من العقوبة.

[سورة الفرقان (٢٥) : الآيات ٥٩ الى ٦٠]

الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش الرحمن فسئل به خبيرا (٥٩)

وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفورا (٦٠)

[في قوله تعالى الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش الرحمن فسئل به خبيرا] اعلم أنه سبحانه لما أمر الرسول بأن يتوكل عليه وصف نفسه بأمور: أولها: بأنه حي لا يموت وهو قوله:

وتوكل على الحي الذي لا يموت [الفرقان: ٥٨] وثانيها: أنه عالم بجميع المعلومات وهو قوله: وكفى به

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٣٥٨/٢٣

بذنوب عباده خبيرا [الفرقان: ٥٨] وثالثها: أنه قادر على كل الممكنات وهو المراد من قوله: الذي خلق السماوات والأرض فقوله: الذي خلق متصل بقوله: الحي الذي لا يموت لأنه سبحانه لما كان هو الخالق للسموات والأرضين ولكل ما بينهما ثبت أنه هو القادر على جميع وجوه المنافع ودفع المضار، وأن النعم كلها من جهته فحينئذ لا يجوز التوكل إلا عليه. وفي الآية سؤالات:

السؤال الأول: الأيام عبارة عن حركات الشمس في السموات فقبل السموات لا أيام، فكيف قال الله خلقها في ستة أيام؟ الجواب: يعني في مدة مقدارها هذه المدة لا يقال الشيء الذي يتقدر بمقدار محدود ويقبل الزيادة والنقصان والتجزئة لا يكون عدما محضا، بل لا بد وأن يكون موجودا فيلزم من وجوده وجود مدة قبل وجود العالم وذلك يقتضي قدم الزمان، لأنا نقول هذا/ معارض بنفس الزمان، لأن المدة المتوهمة المحتملة لعشرة أيام لا تحتمل خمسة أيام، والمدة المتوهمة التي تحتمل خمسة أيام لا تحتمل عشرة أيام، فيلزم أن يكون للمدة مدة أخرى، فلما لم يلزم هذا لم يلزم ما قلتموه وعلى هذا نقول لعل الله سبحانه خلق المدة أولا ثم السموات والأرض فيها بمقدار ستة أيام، ومن الناس من قال في ستة أيام من أيام الآخرة وكل يوم ألف سنة وهو بعيد لأن التعريف لا بد وأن يكون بأمر معلوم لا بأمر مجهول.

السؤال الثاني: لم قدر الخلق والإيجاد بهذا التقدير؟ الجواب: أما على قولنا فالمشيئة والقدرة كافية في التخصيص، قالت المعتزلة بل لا بد من داعي حكمة وهو أن تخصيص خلق العالم بهذا المقدار أصلح للمكلفين وهذا بعيد لوجهين: أحدهما: أن حصول تلك الحكمة، إما أن يكون واجبا لذاته أو جائزا فإن كان واجبا وجب أن لا يتغير فيكون حاصلا في كل الأزمنة، فلا يصلح أن يكون سببا لتخصيص زمان معين وإن كان جائزا افتقر حصول تلك الحكمة في ذلك الوقت إلى مخصص آخر ويلزم التسلسل والثاني: أن التفاوت بين كل واحد مما لا يصل إليه خاطر المكلف وعقله، فحصول ذلك التفاوت لما لم يكن مشعورا به كيف يقدح في حصول المصالح.." (١)

"الضحاك ومقاتل يعني أهل مصر لا يعلمون أن الله وعدها برده إليها وثالثها: هذا كالتعريض بما فرط منها حين سمعت بخبر موسى عليه السلام فجزعت وأصبح فؤادها فارغا ورابعها: أن يكون المعنى إنا إنما رددناه إليها لتعلم أن وعد الله حق والمقصود الأصلي من ذلك الرد هذا الغرض الديني، ولكن الأكثر لا يعلمون أن هذا هو الغرض الأصلي، وأن ما سواه من قرة العين وذهاب الحزن تبع، قال الضحاك لما قبل

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٤/٤٧٧

ثديها قال هامان إنك لأمه، قالت لا قال فما بالك قبل ثديك من بين النسوة قالت أيها الملك إني امرأة طيبة الريح حلوة اللبن ما شم ريحي صبي إلا أقبل على ثديي، قالوا صدقت فلم يبق أحد من آل فرعون إلا أهدى إليها وأتحفها بالذهب والجواهر.

[سورة القصص (٢٨) : الآيات ١٤ الى ١٧]

ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزي المحسنين (١٤) ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه قال هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين (١٥) قال رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له إنه هو الغفور الرحيم (61) قال رب بما أنعمت علي فلن أكون ظهيرا للمجرمين (١٧)

اعلم أن في قوله: بلغ أشده واستوى قولين: أحدهما: أنهما بمعنى واحد وهو استكمال القوة واعتدال المزاج والبنية والثاني: وهو الأصح أنهما معنيان متغايران ثم اختلفوا على وجوه: أحدها: وهو الأقرب أن الأشد عبارة عن كمال القوة الجسمانية البدنية، والاستواء عبارة عن كمال القوة العقلية وثانيها: الأشد عبارة عن كمال القوة، والاستواء عبارة عن كمال البنية والخلقة وثالثها: الأشد عبارة عن البلوغ، والاستواء عبارة عن كمال الخلقة ورابعها: قال ابن عباس الأشد ما بين الثمان عشرة سنة «١» إلى الثلاثين ثم من الثلاثين سنة إلى الأربعين يبقى سواء من غير زيادة ولا نقصان، ومن الأربعين يأخذ في النقصان، وهذا الذي قاله ابن عباس رضي الله عنهما حق، لأن الإنسان يكون في أول العمر في النمو والتزايد ثم يبقى من غير زيادة ولا نقصان، ثم يأخذ في الانتقاص فنهاية مدة الازدياد من أول العمر إلى العشرين ومن العشرين إلى الثلاثين يكون التزايد قليلا والقوة قوية جدا ثم من الثلاثين إلى الأربعين يقف فلا يزداد ولا ينتقص ومن الأربعين إلى الستين يأخذ في الانتقاص الخفي، ومن الستين إلى آخر العمر يأخذ في الانتقاص البين الظاهر،

ويروى أنه لم يبعث نبي إلا على رأس أربعين سنة

والحكمة فيه ظاهرة لأن الإنسان يكون إلى رأس الأربعين قواه الجسمانية من الشهوة والغضب والحس قوية مستكملة فيكون الإنسان منجذبا إليها فإذا انتهى إلى الأربعين أخذت القوى الجسمانية في الانتقاص، والقوة العقلية في الازدياد فهناك يكون الرجل أكمل ما يكون فلهذا السر اختار الله تعالى هذا السن للوحي.

المسألة الثانية: اختلفوا في واحد الأشد، قال الفراء: الأشد واحدها شد في القياس ولم يسمع لها

(١) في الأصل: ما بين الثمانية عشر سنة، ولعله خطأ من الناسخ.." (١)

"ثبت هذا فنقول ذلك المقدم على المقصود قد يكون كلاما له معنى مفعوم، كقول القائل اسمع، واجعل بالك إلي، وكن لي، وقد يكون شيئا هو في معنى الكلام المفهوم كقول القائل أزيد ويا زيد وألا يا زيد، وقد يكون ذلك المقدم على المقصود صوتا غير مفهوم كمن يصفر خلف إنسان ليلتفت إليه، وقد يكون ذلك الصوت بغير الفم كما يصفق الإنسان بيديه ليقبل السامع عليه. ثم إن موقع الغفلة كلما كان أتم والكلام المقصود كان أهم، كان المقدم على المقصود أكثر. ولهذا ينادى القريب بالهمزة فيقال أزيد والبعيد بيا فيقال يا زيد، والغافل ينبه أولا فيقال ألا يا زيد. إذا ثبت هذا فنقول إن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وإن كان يقظان الجنان لكنه إنسان يشغله شأن عن شأن فكان يحسن من الحكيم أن يقدم على الكلام المقصود حروفا هي كالمنبهات، ثم إن تلك الحروف إذا لم تكن بحيث يفهم معناها تكون أتم في إفادة المقصود الذي هو التنبيه من تقديم الحروف التي لها معنى، لأن تقديم الحروف إذا كان لإقبال السامع على المتكلم لسماع ما بعد ذلك فإذا كان ذلك المقدم كلاما منظوما وقولا مفهوما فإذا سمعه السامع ربما يظن أنه كل المقصود ولا كلام له بعد ذلك فيقطع الالتفات عنه. أما إذا سمع منه صوتا بلا معنى يقبل عليه ولا يقطع نظره عنه ما لم يسمع غيره لجزمه بأن ما سمعه ليس هو المقصود، فإذن تقديم الحروف التي لا معنى لها في الوضع على الكلام المقصود فيه حكمة بالغة، فإن قال قائل فما الحكمة في اختصاص بعض السور بهذه الحروف؟ فنقول عقل البشر عن إدراك الأشياء الجزئية على تفاصيلها عاجز والله أعلم بجميع الأشياء، لكن نذكر ما يوفقنا الله له فنقول كل سورة في أوائلها حروف التهجي فإن في أوائلها ذكر الكتاب أو التنزيل أو القرآن كقوله تعالى: الم ذلك الكتاب [البقرة: ١، ٢] الم الله لا إله إلا هو الحي القيوم نزل عليك الكتاب [آل عمران: ١- ٣] المص كتاب أنزل إليك [الأعراف: ١، ٢] ، يس والقرآن [يس: ١، ٢] ، ص والقرآن [ص: ١] ق والقرآن [ق: ١] ، الم تنزيل الكتاب [السجدة: ١، ٢] ، حم تنزيل الكتاب [الجاثية: ١، ٢] إلا ثلاث سور كهيعص [مريم: ١] ، الم أحسب الناس، الم غلبت الروم [الروم: ١، ٢] والحكمة في افتتاح السور التي فيها القرآن أو التنزيل أو الكتاب بالحروف هي أن القرآن عظيم والإنزال له ثقل والكتاب له عبء كما قال تعالى: إنا سنلقي عليك قولا

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٤/٥٨٣

ثقيلا [المزمل: ٥] وكل سورة في أولها ذكر القرآن والكتاب والتنزيل قدم عليها منبه يوجب ثبات المخاطب لاستماعه، لا يقال كل سورة قرآن واستماعه استماع القرآن سواء كان فيها ذكر القرآن لفظا أو لم يكن، فكان الواجب أن يكون في أوائل كل سورة منبه، وأيضا فقد وردت/ سور فيها ذكر الإنزال والكتاب ولم يذكر قبلها حروف كقوله تعالى: الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب [الكهف: ١] وقوله:
سورة أنزلناها [النور: ١] وقوله: تبارك الذي نزل الفرقان [الفرقان: ١] وقوله: إنا أنزلناه في ليلة القدر [القدر: ١] لأنا نقول جوابا عن الأول لا ريب في أن كل سورة من القرآن لكن السورة التي فيها ذكر القرآن والكتاب مع أنها من القرآن تنبه على كل القرآن فإن قوله تعالى: طه ما أنزلنا عليك القرآن [طه:
١، ٢] مع أنها بعض القرآن فيها ذكر جميع القرآن فيصير مثاله مثال كتاب يرد من ملك على مملوكه فيه شغل ما، وكتاب آخر يرد منه عليه فيه: إنا كتبنا إليك كتبا فيها أوامرنا فامتثلها، لا شك أن عبء الكتاب الآخر أكثر من ثقل الأول وعن الثاني أن قوله: الحمد لله، وتبارك الذي تسبيحات مقصودة وتسبيح الله لا يغفل عنه العبد فلا يحتاج إلى منبه بخلاف الأوامر والنواهي، وأما ذكر الكتاب فيها فلبيان وصف عظمة من له التسبيح وسورة أنزلناها قد بينا أنها من القرآن فيها ذكر إنزالها وفي السورة التي ذكرناها ذكر جميع القرآن." (١)

"العلم الواضح الذي كالرؤية والعاقل يعلم أن البدء من الله لأن الخلق الأول لا يكون من مخلوق وإلا لما كان الخلق الأول خلقا أول، فهو من الله هذا إن قلنا أن المراد إثبات نفس الخلق، وإن قلنا إن المراد بالبدء خلق الآدمي أولا وبالإعادة خلقه ثانيا، فنقول العاقل لا يخفى عليه أن خالق نفسه «١» ليس إلا قادر حكيم يصور الأولاد في الأرحام، ويخلقه من نطفة في غاية الإتقان والإحكام، فذلك الذي خلق أولا معلوم ظاهر فأطلق على ذلك العلم لفظ الرؤية، وقال: أولم يروا أي ألم يعلموا علما ظاهرا واضحا كيف يبدئ الله الخلق يخلقه من تراب يجمعه فكذلك يجمع أجزاءه من التراب ينفخ فيه روحه بل هو أسهل بالنسبة إليكم، فإن من نحت حجارات ووضع شيئا بجنب شيء ففرقه أمر ما فإنه يقول وضعه شيئا بجنب شيء في هذه النوبة أسهل علي لأن الحجارات منحوتة، ومعلوم أن آية واحدة منها تصلح لأن تكون بجنب الأخرى، وعلى هذا المخرج خرج كلام الله في قوله وهو أهون [الروم: ٢٧] وإليه الإشارة بقوله: إن ذلك على الله يسير.

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٤/٢٥

المسألة الثانية: قال: أولم يروا كيف يبدئ الله الخلق علق الرؤية بالكيفية لا بالخلق وما قال: أولم يروا أن الله خلق، أو بدأ الخلق، والكيفية غير معلومة؟ فنقول هذا القدر من الكيفية معلوم، وهو أنه خلقه ولم يكن شيئا مذكورا، وأنه خلقه من نطفة هي من غذاء هو من ماء وتراب وهذا القدر كاف في حصول العلم بإمكان الإعادة فإن الإعادة مثله.

المسألة الثالثة: لم قال: ثم يعيده إن ذلك على الله يسير فأبرز اسمه مرة أخرى، ولم يقل إن ذلك عليه يسير كما قال ثم يعيده من غير إبراز؟ نقول مع إقامة البرهان على أنه يسير فأكده بإظهار اسمه فإن يوجب المعرفة أيضا بكون ذلك يسيرا، فإن الإنسان إذا سمع لفظ الله وفهم معناه أنه الحي القادر، بقدرة كاملة، لا يعجزه شيء، العالم بعلم محيط بذرات كل جسم، نافذ الإرادة لا راد لما أراده، يقطع بجواز الإعادة. ثم قال تعالى:

[سورة العنكبوت (٢٩) : آية ٢٠]

قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة إن الله على كل شيء قدير (٢٠)

الآية المتقدمة كانت إشارة إلى العلم الحدسي وهو الحاصل من غير طلب فقال أولم يروا على سبيل الاستفهام بمعنى استبعاد عدمه، وقال في هذه الآية إن لم يحصل لكم هذا العلم فتفكروا في أقطار الأرض لتعلموا بالعلم الفكري، وهذا لأن الإنسان له مراتب في الإدراك بعضهم يدرك شيئا من غير تعليم وإقامة برهان له، وبعضهم لا يفهم إلا بإبانة وبعضهم لا يفهمه أصلا فقال: إن كنتم لستم من القبيل الأول فسيروا في الأرض، أي سيروا فكركم في الأرض وأجيلوا ذهنكم في الحوادث الخارجة عن أنفسكم لتعلموا بدء الخلق وفي الآية مسائل:

الأولى: قال في الآية الأولى بلفظ الرؤية وفي هذه بلفظ النظر ما **الحكمة فيه**؟ نقول العلم الحدسي أتم من العلم الفكري كما تبين، والرؤية أتم من النظر لأن النظر يفضي إلى الرؤية، يقال نظرت فرأيت

---

(١) – المراد بنفسه هنا نفس الإنسان فهو من إضافة اسم الفاعل لمفعوله له لا لفاعله كما يتبادر إلى الذهن لأول وهلة، تعالى الله عن الشبه والمثل والنظير.." (١)

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٥/٤٠

"[سورة العنكبوت (٢٩) : آية ٢٥]

وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم في الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا ومأواكم النار وما لكم من ناصرين (٢٥)

لما خرج إبراهيم من النار عاد إلى عذل الكفار وبيان فساد ما هم عليه، وقال إذا بينت لكم فساد مذهبكم وما كان لكم جواب ولا ترجعون عنه، فليس هذا إلا تقليدا، فإن بين بعضكم وبعض مودة/ فلا يريد أحدكم أن يفارقه صاحبه في السيرة والطريقة أو بينكم وبين آبائكم مودة فورثتموهم وأخذتم مقالتهم ولزمتم ضلالتهم وجهالتهم فقوله: إنما اتخذتم ... مودة بينكم يعني ليس بدليل أصلا وفيه وجه آخر وهو تحقيق دقيق، وهو أن يقال قوله: إنما اتخذتم ... مودة بينكم أي مودة بين الأوثان وبين عبدتها، وتلك المودة هي أن الإنسان مشتمل على جسم وعقل، ولجسمه لذات جسمانية ولعقله لذات عقلية، ثم إن من غلبت فيه الجسمية لا يلتفت إلى اللذات العقلية، ومن غلبت عليه العقلية لا يلتفت إلى اللذات الجسمانية، كالمجنون إذا احتاج إلى قضاء حاجة من أكل أو شرب أو إراقة ماء وهو بين قوم من الأكابر في مجمع يحصل ما فيه لذة جسمه من الأكل وإراقة الماء وغيرهما ولا يلتفت إلى اللذة العقلية من حسن السيرة وحمد الأوصاف ومكرمة الأخلاق. والعاقل يحمل الألم الجسماني ويحصل اللذة العقلية، حتى لو غلبت قوته الدافعة على قوته الماسكة وخرج منه ريح أو قطرة ماء يكاد يموت من الخجالة والألم العقلي. إذا ثبت هذا فهم كانوا قليلي العقل غلبت الجسمية عليهم فلم يتسع عقلهم لمعبود لا يكون فوقهم ولا تحتهم، ولا يمينهم ولا يسارهم، ولا قدامهم ولا وراءهم، ولا يكون جسما من الأجسام، ولا شيئا يدخل في الأوهام، ورأوا الأجسام المناسبة للغالب فيهم مزينة بجواهر فودوها فاتخاذهم الأوثان كان مودة بينهم وبين الأوثان، ثم قال تعالى: ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض يعني يوم يزول عمى القلوب وتتبين الأمور للبيب والغفول يكفر بعضكم ببعض ويعلم فساد ما كان عليه فيقول العابد ما هذا معبودي، ويقول المعبود ما هؤلاء عبدتي ويعلن بعضكم بعضا، ويقول هذا لذاك أنت أوقعتني في العذاب حيث عبدتني، ويقول ذاك لهذا أنت أوقعتني فيه حيث أضللتني بعبادتك، ويريد كل واحد أن يبعد صاحبه باللعن ولا يتباعدون، بل هم مجتمعون في النار كما كانوا مجتمعين في هذه الدار كما قال تعالى: ومأواكم النار ثم قال تعالى: وما لكم من ناصرين يعني ليس تلك النار مثل ناركم التي أنجى الله منها إبراهيم ونصره فأنتم في النار ولا ناصر لكم، وهاهنا مسائل:

المسألة الأولى: قال قبل هذا وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير [العنكبوت: ٢٢] على لفظ الواحد،

وقال هاهنا على لفظ الجمع وما لكم من ناصرين والحكمة فيه أنهم لما أرادوا إحراق إبراهيم عليه السلام قالوا نحن ننصر آلهتنا كما حكى الله تعالى عنهم حرقوه وانصروا آلهتكم [الأنبياء: ٦٨] فقال أنتم ادعيتم أن لهؤلاء ناصرين فما لكم ولهم، أي للأوثان وعبدتها من ناصرين، وأما هناك ما سبق منهم دعوى الناصرين فنفى الجنس بقوله: ولا نصير.

المسألة الثانية: قال هناك ما لكم من دون الله من ولي ولا نصير وما ذكر الولي هاهنا فنقول: قد بينا أن المراد بالولي الشفيع يعني ليس لكم شافع ولا نصير دافع، وهاهنا لما كان الخطاب دخل فيه الأوثان أي ما لكم كلكم لم يقل شفيع لأنهم كانوا معترفين أن كلهم ليس لهم شافع لأنهم كانوا يدعون أن آلهتهم شفعاء، كما قال." (١)

"[سورة العنكبوت (٢٩) : الآيات ٣٣ الى ٣٥]

ولما أن جاءت رسلنا لوطا سيء بهم وضاق بهم ذرعا وقالوا لا تخف ولا تحزن إنا منجوك وأهلك إلا امرأتك كانت من الغابرين (٣٣) إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزا من السماء بما كانوا يفسقون (٣٤) ولقد تركنا منها آية بينة لقوم يعقلون (٣٥)

[في قوله تعالى ولما أن جاءت رسلنا لوطا إلى قوله بما كانوا يفسقون] ثم إنهم جاءوا من عند إبراهيم إلى لوط على صورة البشر فظنهم بشرا فخاف عليهم من قومه لأنهم كانوا على أحسن صورة خلق الله والقوم كما عرف حالهم فسيء بهم أي جاءه ما ساءه وخاف ثم عجز عن تدبيرهم فحزن وضاق بهم ذرعا كناية عن العجز في تدبيرهم، قال الزمخشري يقال طال ذرعه وذراعه للقادر وضاق للعاجز، وذلك لأن من طال ذراعه يصل إلى ما لا يصل إليه قصير الذراع والاستعمال يحتمل وجها معقولا غير ذلك، وهو أن الخوف والحزن يوجبان انقباض الروح ويتبعه اشتمال القلب عليه فينقبض هو أيضا والقلب هو المعتبر من الإنسان، فكأن الإنسان انقبض وانجمع وما يكون كذلك يقل ذرعه ومساحته فيضيق، ويقال في الحزين ضاق ذرعه والغضب والفرح يوجبان انبساط الروح فينبسط مكانه وهو القلب ويتسع فيقال اتسع ذرعه، ثم إن الملائكة لما رأوا خوفه في أول الأمر وحزنه بسبب تدبيرهم في ثاني الأمر قالوا لا تخف علينا ولا تحزن بسبب التفكر في أمرنا ثم ذكروا ما يوجب زوال خوفه وحزنه فإن مجرد قول القائل لا تخف لا يوجب زوال الخوف فقالوا معرضين بحالهم: إنا منجوك وأهلك وإنا منزلون عليهم العذاب حتى يتبين له أنهم ملائكة

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٤٦/٢٥

فيطول ذرعه ويزول روعه وفي الآية مسائل:
إحداها: أنه تعالى قال من قبل: ولما جاءت رسلنا إبراهيم [العنكبوت: ٣١] وقال هاهنا: ولما أن جاءت رسلنا فما الحكمة فيه؟ فنقول حكمة بالغة وهي أن الواقع في وقت المجيء هناك قول/ الملائكة إنا مهلكوا وهو لم يكن متصلا بمجيئهم لأنهم بشروا أولا ولبثوا، ثم قالوا: إنا مهلكوا وأيضا فالتأني واللبث بعد المجيء ثم الإخبار بالإهلاك حسن فإن من جاء ومعه خبر هائل يحسن منه أن لا يفاجئ به، والواقع هاهنا هو خوف لوط عليهم، والمؤمن حين ما يشعر بمضرة تصل بريئا من الجناية ينبغي أن يحزن ويخاف عليه من غير تأخير، إذا علم هذا فقوله هاهنا: ولما أن جاءت رسلنا يفيد الاتصال يعني خاف حين المجيء، فإن قلت هذا باطل بما أن هذه الحكاية جاءت في سورة هود [٧٧] ، وقال: ولما جاءت رسلنا لوطا من غير أن، فنقول هناك جاءت حكاية إبراهيم بصيغة أخرى حيث قال هناك: ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى [هود: ٦٩] فقوله هنالك: ولقد جاءت لا يدل على أن قولهم: إنا أرسلنا كان في وقت المجيء. وقوله: ولما جاءت رسلنا لوطا سيء بهم دل على أن حزنه كان وقت المجيء. إذا علم هذا فنقول: هناك قد حصل ما ذكرنا من المقصود بقوله في حكاية إبراهيم: ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى ثم جرى أمور من الكلام وتقديم الطعام، ثم قالوا: لا تخف ولا تحزن إنا أرسلنا إلى قوم لوط [هود: ٥٧] فحصل تأخير الإنذار، وبقوله في حكاية لوط ولما جاءت رسلنا حصل بيان تعجيل الحزن، وأما هنا لما قال في قصة إبراهيم ولما جاءت قال في حكاية لوط ولما أن جاءت لما ذكرنا من الفائدة.
المسألة الثانية: قال هنا إنا منجوك وأهلك وقال لإبراهيم لننجينه [العنكبوت: ٣٢] بصيغة الفعل فهل فيه." (١)

"التراب، والعذاب بالإغراق وهو بالماء. فحصل العذاب بالعناصر الأربعة والإنسان مركب منها وبها قوامه وبسببها بقاؤه ودوامه، فإذا أراد الله هلاك الإنسان جعل ما منه وجوده سببا لعدمه، وما به بقاؤه سببا لفنائه، ثم قال تعالى: وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون يعني لم يظلمهم بالهلاك، وإنما هم ظلموا أنفسهم بالإشراك وفيه وجه آخر ألطف وهو أن الله ما كان يظلمهم أي ما كان يضعهم في غير موضعهم فإن موضعهم الكرامة كما قال تعالى: ولقد كرمنا بني آدم [الإسراء: ٧٠] لكنهم ظلموا أنفسهم حيث وضعوها مع شرفهم في عبادة الوثن مع خسته.

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٥٢/٢٥

[سورة العنكبوت (٢٩) : آية ٤١]

مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون (٤١)

ثم قال تعالى: مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا.

لما بين الله تعالى أنه أهلك من أشرك عاجلا وعذب من كذب آجلا، ولم ينفعه في الدارين معبوده ولم يدفع ذلك عنه ركوعه وسجوده، مثل اتخاذه ذلك معبودا باتخاذ العنكبوت بيتا لا يجير آويا ولا يريح ثاويا، وفي الآية لطائف نذكرها في مسائل:

المسألة الأولى: ما الحكمة في اختيار هذا المثل من بين سائر الأمثال؟ فنقول فيه وجوه/ الأول: أن البيت ينبغي أن يكون له أمور: حائط، وسقف مظل، وباب يغلق، وأمور ينتفع بها ويرتفق، وإن لم يكن كذلك فلا بد من أحد أمرين. إما حائط حائل يمنع من البرد وإما سقف مظل يدفع عنه الحر، فإن لم يحصل منهما شيء فهو كالبيداء ليس ببيت لكن بيت العنكبوت لا يجنها ولا يكنها وكذلك المعبود ينبغي أن يكون منه الخلق والرزق وجر المنافع وبه دفع المضار، فإن لم تجتمع هذه الأمور فلا أقل من دفع ضر أو جر نفع، فإن من لا يكون كذلك فهو والمعدوم بالنسبة إليه سواء، فإذن كما لم يحصل للعنكبوت باتخاذ ذلك البيت من معاني البيت شيء، كذلك الكافر لم يحصل له باتخاذ الأوثان أولياء من معاني الأولياء شيء الثاني: هو أن أقل درجات البيت أن يكون للظل فإن البيت من الحجر يفيد الاستظلال ويدفع أيضا الهواء والماء والنار والتراب، والبيت من الخشب يفيد الاستظلال ويدفع الحر والبرد ولا يدفع الهواء القوي ولا الماء ولا النار، والخباء الذي هو بيت من الشعر أو الخيمة التي هي من ثوب إن كان لا يدفع شيئا يظل ويدفع حر الشمس لكن بيت العنكبوت لا يظل فإن الشمس بشعاعها تنفذ فيه، فكذلك المعبود أعلى درجاته أن يكون نافذ الأمر في الغير، فإن لم يكن كذلك فيكون نافذ الأمر في العابد، فإن لم يكن فلا أقل من أن لا ينفذ أمر العابد فيه لكن معبودهم تحت تسخيرهم إن أرادوا أجلوه وإن أحبوا أذلوه الثالث: أدنى مراتب البيت أنه إن لم يكن سبب ثبات وارتفاق لا يصير سبب شتات وافتراق، لكن بيت العنكبوت يصير سبب انزعاج العنكبوت، فإن العنكبوت لو دام في زاوية مدة لا يقصد ولا يخرج منها، فإذا نسج على نفسه واتخذ بيتا يتبعه صاحب الملك بتنظيف البيت منه والمسح بالمسوح الخشنة المؤذية لجسم العنكبوت، فكذلك العابد بسبب العبادة ينبغي أن يستحق الثواب، فإن لم يستحقه فلا أقل من أن لا

يستحق بسببها العذاب، والكافر يستحق بسبب العبادة العذاب.

المسألة الثانية: مثل الله اتخاذهم الأوثان أولياء باتخاذ العنكبوت نسجه بيتا ولم يمثله بنسجه وذلك لوجهين أحدهما: أن نسجه فيه فائدة له، لولاه لما حصل وهو اصطيادها الذباب به من غير أن يفوته ما هو أعظم." (١)

"والتاجر، / وبعلمه كالطبيب والفقيه، وبقوة جسمه كالعتال والحمال، والحيوان لا مكاسب له، فالرغيف الذي يحتاج إليه الإنسان غدا أو بعد غد، بعيد أن لا يرزقه الله مع هذه المكاسب، فهو أولى بالتوكل. وأيضا الله تعالى خلق الإنسان بحيث يأتيه الرزق وأسبابه، فإن الله ملك الإنسان عمائر الدنيا وجعلها بحيث تدخل في ملكه شاء أم أبى، حتى أن نتاج الأنعام وثمار الأشجار تدخل في الملك وإن لم يرده مالك النعم والشجر، وإذا مات قرن ينتقل ذلك إلى قرن آخر قهرا شاءوا أم أبوا، وليس كذلك حال الحيوان أصلا، فإن الحيوان إن لم يأت الرزق لا يأتيه رزقه، فإذن الإنسان لو توكل كان أقرب إلى العقل من توكل الحيوان، ثم قال: وهو السميع العليم سميع إذا طلبتم الرزق، يسمع ويجيب، عليهم إن سكتم، لا تخفى عليه حاجتكم ومقدار حاجتكم. ثم قال تعالى:

[سورة العنكبوت (٢٩) : آية ٦١]

ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فأنى يؤفكون (٦١)

نقول لما بين الله الأمر للمشرك مخاطبا معه ولم ينتفع به وأعرض عنه وخاطب المؤمن بقوله: يا عبادي الذين آمنوا

[العنكبوت: ٥٦] وأتم الكلام معه ذكر معه ما يكون إرشادا للمشرك بحيث يسمعه وهذا طريق في غاية الحسن، فإن السيد إذا كان له عبدان، أو الوالد إذا كان له ولدان وأحدهما رشيد والآخر مفسد، ينصح أولا المفسد، فإن لم يسمع يقول معرضا عنه، ملتفتا إلى الرشيد، إن هذا لا يستحق الخطاب فاسمع أنت ولا تكن مثل هذا المفسد، فيتضمن هذا الكلام نصيحة المصلح وزجر المفسد، فإن قوله هذا لا يستحق الخطاب يوجب نكاية في قلبه، ثم إذا ذكر مع المصلح في أثناء الكلام والمفسد يسمعه، إن هذا أخاك العجب منه أنه يعلم قبح فعله ويعرف الفساد من الصلاح وسبيل الرشاد والفلاح ويشتغل بضده، يكون هذا

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٥/٥٧

الكلام أيضا داعيا له إلى سبيل الرشاد مانعا له من ذلك الفساد، فكذلك الله تعالى قال مع المؤمن العجب منهم أنهم إن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله ثم لا يؤمنون، وفي الآية لطائف إحداها: ذكر في السموات والأرض الخلق، وفي الشمس والقمر التسخير، وذلك لأن مجرد خلق الشمس والقمر ليس حكمة، فإن الشمس لو كانت مخلوقة بحيث تكون في موضع واحد لا تتحرك ما حصل الليل والنهار ولا الصيف ولا الشتاء، فإذا **الحكمة في** تحريكهما وتسخيرهما الثانية: في لفظ التسخير، وذلك لأن التحريك يدل على مجرد الحركة وليس مجرد الحركة كافيا، لأنها لو كانت تتحرك مثل حركتنا لما كانت تقطع الفلك بألوف من السنين، **فالحكمة في** تسخيرهما تحركهما في قدر ما يتنفس الإنسان/ آلافا من الفراسخ، ثم لم يجعل لهما حركة واحدة بل حركات، إحداها حركتها من المشرق إلى المغرب في كل يوم وليلة مرة، والأخرى حركتها من المغرب إلى المشرق، والدليل عليها أن الهلال يرى في جانب الغرب على بعد مخصوص من الشمس، ثم يبعد منه إلى جانب الشرق حتى يرى القمر في نصف الشهر في مقابلة الشمس، والشمس على أفق المغرب، والقمر على أفق المشرق، وحركة أخرى حركة الأوج وحركة المائل والتدوير في القمر، ولولا الحركة التي من المغرب إلى المشرق لما حصلت الفصول، ثم اعلم أن أصحاب الهيئة قالوا الشمس في الفلك مركوزة والفلك يديرها بدورانه وأنكره المفسرون الظاهريون، ونحن نقول لا بعد في ذلك إن لم يقولوا بالطبيعة، فإن الله تعالى فاعل مختار إن أراد أن يحركهما في الفلك والفلك ساكن يجوز، وإن أراد أن يحركهما بحركة الفلك وهما ساكنان يجوز ولم يرد فيه نص قاطع أو ظاهر، وسنذكر تمام البحث في قوله تعالى: وكل في فلك يسبحون [الأنبياء: ٣٣] الثالثة: ذكر أمرين أحدهما خلق السموات والأرض والآخر تسخير الشمس والقمر، لأن الإيجاد قد يكون للذوات وقد يكون للصفات،." (١)

"سورة الروم

ستون آية مكية [إلا آية ١٧ فمدنية، نزلت بعد الانشقاق] بسم الله الرحمن الرحيم

[سورة الروم (٣٠) : الآيات ١ الى ٤]

بسم الله الرحمن الرحيم

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٥/٧٣

الم (١) غلبت الروم (٢) في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون (٣) في بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون (٤)

الم غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين.

وجه تعلق أول هذه السورة بما قبلها يتبين منه سبب النزول، فنقول لما قال الله تعالى في السورة المتقدمة ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن [العنكبوت: ٤٦] وكان يجادل المشركين بنسبتهم إلى عدم العقل كما في قوله: صم بكم عمي فهم لا يعقلون [البقرة: ١٧١] وكان أهل الكتاب يوافقون النبي في الإله كما قال: وإلهنا وإلهكم واحد [العنكبوت: ٤٦] وكانوا يؤمنون بكثير مما يقوله بل كثير منهم كانوا مؤمنين به كما قال: فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به [العنكبوت: ٤٧] أي أبغض المشركون أهل الكتاب وتركوا مراجعتهم وكانوا من قبل يراجعونهم في الأمور، فلما وقعت الكرة عليهم حين قاتلهم الفرس المجوس فرح المشركون بذلك، فأنزل الله تعالى هذه الآيات لبيان أن الغلبة لا تدل على الحق، بل الله تعالى قد يريد مزيد ثواب في المحب فيبتليه ويسلط عليه الأعادي، وقد يختار تعجيل العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر قبل يوم الميعاد للمعادي، وفي الآية مسائل:

الأولى: ما الحكمة في افتتاح هذه السورة بحروف التهجي؟ فنقول قد سبق منا أن كل سورة افتتحت بحروف التهجي فإن في أوائلها ذكر الكتاب أو التنزيل أو القرآن كما في قوله تعالى: الم ذلك الكتاب [البقرة: ١، ٢] المص كتاب [الأعراف: ١، ٢] ، طه ما أنزلنا عليك القرآن [طه: ١، ٢] ، الم تنزيل الكتاب [السجدة: ١، ٢] حم تنزيل من الرحمن الرحيم [فصلت: ١، ٢] يس والقرآن [يس: ١، ٢] ، ص والقرآن [ص: ١، ٢] إلا هذه السورة وسورتين أخريين ذكرناهما في العنكبوت وقد ذكرنا ما الحكمة فيهما في موضعهما فنقول ما يتعلق بهذه السور وهو أن السورة التي في أوائلها التنزيل والكتاب والقرآن في أوائلها ذكر ما هو معجزة فقدمت عليها الحروف على ما تقدم بيانه في العنكبوت." (١)

"أن اشكر لله فإن أن في مثل هذا تسمى المفسرة ففسر الله إيتاء الحكمة بقوله: أن اشكر لله وهو كذلك، لأن من جملة ما يقال إن العمل موافق للعلم، لأن الإنسان إذا علم أمرين أحدهما أهم من الآخر، فإن اشتغل بالأهم كان عمله موافقا لعلمه وكان حكمة، وإن أهمل الأهم كان مخالفا للعلم ولم يكن من الحكمة في شيء، لكن شكر الله أهم الأشياء فالحكمة أول ما تقتضي، ثم إن الله تعالى بين أن بالشكر

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٥/٧٩

لا ينتفع إلا الشاكر بقوله:

ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه وبين أن بالكفران لا يتضرر غير الكافر بقوله: ومن كفر فإن الله غني حميد أي الله غير محتاج إلى شكر حتى يتضرر بكفران الكافر وهو في نفسه محمود سواء شكره الناس أو لم يشكروه، وفي الآية مسائل ولطائف الأولى: فسر الله إيتاء الحكمة بالأمر بالشكر، لكن الكافر والجاهل مأموران بالشكر فينبغي أن يكون قد أوتي الحكمة والجواب: أن قوله تعالى: أن اشكر لله أمر تكوين معناه آتيناه الحكمة بأن جعلناه من الشاكرين، وفي الكافر الأمر بالشكر أمر تكليف.

المسألة الثانية: قال في الشكر ومن يشكر بصيغة المستقبل، وفي الكفران: ومن كفر فإن الله غني، وإن كان الشرط يجعل الماضي والمستقبل في معنى واحد، كقول القائل: من دخل داري فهو حر، ومن يدخل داري فهو حر، فنقول فيه إشارة إلى معنى وإرشاد إلى أمر، وهو أن الشكر ينبغي أن يتكرر في كل وقت لتكرر النعمة، فمن شكر ينبغي أن يكرر، والكفر ينبغي أن ينقطع فمن كفر ينبغي أن يترك الكفران، ولأن الشكر من الشاكر لا يقع بكماله، بل أبدا يكون منه شيء في العدم يريد الشاكر إدخاله في الوجود، كما قال: رب أوزعني أن أشكر نعمتك [النمل: ١٩] وكما قال تعالى: وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها [النمل: ١٨] فأشار إليه بصيغة المستقبل تنبيها على أن الشكر بكماله لم يوجد وأما الكفران فكل جزء يقع منه تام، فقال بصيغة الماضي.

المسألة الثالثة: قال تعالى هنا: ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر بتقديم الشكر على الكفران، وقال في سورة الروم: من كفر فعليه كفره ومن عمل صالحا فلأنفسهم يمهدون [الروم: ٤٤] فنقول هناك كان الذكر للترهيب لقوله تعالى من قبل: فأقم وجهك للدين القيم من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله يومئذ يصدعون [الروم: ٤٣] وهاهنا الذكر للترغيب، لأن وعظ الأب للابن يكون بطريق اللطف والوعد، وقوله: ومن عمل صالحا يحقق ما ذكرنا أولا، لأن المذكور في سورة الروم لما كان بعد اليوم الذي لا مرد له تكون الأعمال قد سبقت فقال بلفظ الماضي ومن عمل وهاهنا لما كان المذكور في الابتداء قال ومن يشكر بلفظ المستقبل وقوله: ومن كفر فإن الله غني عن حمد الحامدين، حميد في ذاته من غير حمدهم، وإنما الحامد ترتفع مرتبته بكونه حامدا لله تعالى. ثم قال تعالى:

[سورة لقمان (٣١) : آية ١٣]

وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم (١٣)

عطف على معنى ما سبق وتقديره آتينا لقمان الحكمة حين جعلناه شاكرا في نفسه وحين جعلناه واعظا لغيره وهذا لأن علو مرتبة الإنسان بأن يكون كاملا في نفسه ومكملا لغيره فقوله: أن اشكر إشارة إلى الكمال وقوله: وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه إشارة إلى التكميل، وفي هذا لطيفة وهي أن الله ذكر لقمان وشكر سعيه حيث أرشد ابنه ليعلم منه فضيلة النبي عليه السلام الذي أرشد الأجانب والأقارب فإن إرشاد الولد أمر معتاد، وأما تحمل المشقة في تعليم الأباعد فلا، ثم إنه في الوعظ بدأ بالأهم وهو المنع من الإشراك وقال: إن الشرك لظلم عظيم أما أنه ظلم فلأنه وضع للنفس الشريف المكرم بقوله تعالى: ولقد كرمنا بني آدم." (١)

"أما الكفر إذا جاء فلا التفات إلى الأعمال، فلم يقل وأما الذين فسقوا وعملوا السيئات لأن المراد من فسقوا كفروا ولو جعل العقاب في مقابلة الكفر والعمل، لظن أن مجرد الكفر لا عقاب عليه، وقوله في حق المؤمنين (لهم) بلام التمليك زيادة إكرام لأن من قال لغيره اسكن هذه الدار يكون ذلك محمولا على العارية وله استرداده، وإذا قال هذه الدار لك يكون ذلك محمولا على نسبة الملكية إليه وليس/ له استرداده بحكم قوله وكذلك في قوله: لهم جنات [البقرة: ٢٥] ألا ترى أنه تعالى لما أسكن آدم الجنة وكان في علمه أنه يخرجه منها قال: اسكن أنت وزوجك الجنة [البقرة: ٣٥] ولم يقل لكما الجنة وفي الآخرة لما لم يكن للمؤمنين خروج عنها قال: لهم الجنة [التوبة:
١١١] ولهم جنات وقوله: كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وقيل لهم ذوقوا إشارة إلى معنى حكمي، وهو أن المؤلم إذا تمكن والألم إذا امتد لم يبق به شعور تام ولهذا قال الأطباء إن حرارة حمى الدق بالنسبة إلى حرارة الحمى البلغمية نسبة النار إلى الماء المسخن، ثم إن المدقوق لا يحس من الحرارة بما يحس به من به الحمى البلغمية لتمكن الدق وقرب العهد بظهور حرارة الحمى البلغمية، وكذلك الإنسان إذا وضع يده في ماء بارد يتألم من البرد، فإذا صبر زمانا طويلا تثلج يده ويبطل عنه ذلك الألم الشديد مع فساد مزاجه، إذا علمت هذا فقوله: كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها إشارة إلى أن الإله لا يسكن عنهم بل يرد عليهم في كل حال أمر مؤلم يجدد وقوله: ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون يقرر ما ذكرنا ومعناه أنهم في الدنيا كانوا يكذبون بعذاب النار، فلما ذاقوه كان أشد إيلاما لأن من لا يتوقع شيئا فيصيبه يكون أشد تأثيرا، ثم إنهم في الآخرة كما في الدنيا يجزمون أن لا عذاب إلا وقد وصل إليهم ولا يتوقعون

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ١١٩/٢٥

شيئا آخر من العذاب فيرد عليهم عذاب أشد من الأول، وكانوا يكذبون به بقولهم لا عذاب فوق ما نحن فيه فان معنى قوله تعالى: ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون ليس مقتصرا على تكذيبهم الذي كان في الدنيا بل كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وقيل لهم ذوقوا عذابا كذبتم به من قبل، أما في الدنيا بقولكم لا عذاب في الآخرة، وأما في الآخرة فبقولكم لا عذاب فوق ما نحن فيه ثم لما هددهم قال تعالى:

[سورة السجده (٣٢) : آية ٢١]

ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون (٢١)

يعني قبل عذاب الآخرة نذيقهم عذاب الدنيا فإن عذاب الدنيا لا نسبة له إلى عذاب الآخرة لأن عذاب الدنيا لا يكون شديدا، ولا يكون مديدا فإن العذاب الشديد في الدنيا يهلك فيموت المعذب ويستريح منه فلا يمتد، وإن أراد المعذب أن يمتد عذاب المعذب لا يعذبه بعذاب في غاية الشدة، وأما عذاب الآخرة فشديد ومديد، وفي الآية مسألتان:

إحداهما: قوله تعالى: ولنذيقنهم من العذاب الأدنى في مقابلته العذاب الأقصى والعذاب الأكبر في مقابلته العذاب الأصغر، فما الحكمة في مقابلة الأدنى بالأكبر؟ فنقول حصل في عذاب الدنيا أمران: أحدهما: أنه قريب والآخر أنه قليل صغير وحصل في عذاب الآخرة أيضا أمران أحدهما: أنه بعيد والآخر أنه عظيم كثير، لكن القرب في عذاب الدنيا هو الذي يصلح/ للتخويف به، فإن العذاب العاجل وإن كان قليلا قد يحترز منه بعض الناس أكثر مما يحترز من العذاب الشديد إذا كان آجلا، وكذا الثواب العاجل قد يرغب فيه بعض الناس ويستبعد الثواب العظيم الآجل، وأما في عذاب الآخرة فالذي يصلح للتخويف به هو العظيم والكبير لا البعيد لما بينا فقال في عذاب الدنيا العذاب الأدنى ليحترز العاقل عنه ولو قال: (لنذيقنهم من العذاب الأصغر) ما." (١)

"كان يحترز عنه لصغره وعدم فهم كونه عاجلا وقال في عذاب الآخرة الأكبر لذلك المعنى، ولو قال دون العذاب الأبعد الأقصى لما حصل التخويف به مثل ما يحصل بوصفه بالكبر، وبالجملة فقد اختار الله تعالى في العذابين الوصف الذي هو أصلح للتخويف من الوصفين الآخرين فيهما لحكمة بالغة.

المسألة الثانية: قوله تعالى: لعلهم يرجعون لعل هذه الترجي والله تعالى محال ذلك عليه فما الحكمة فيه؟

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ١٤٨/٢٥

نقول فيه وجهان أحدهما: معناه لنذيقنهم إذاقة الراجين كقوله تعالى: إنا نسيناكم [السجدة: ١٤] يعني تركناكم كما يترك الناسي حيث لا يلتفت إليه أصلا، فكذلك هاهنا نذيقهم على الوجه الذي يفعل بالراجي من التدريج وثانيهما: معناه نذيقهم العذاب إذاقة يقول القائل لعلهم يرجعون بسببه، ونزيد وجها آخر من عندنا، وهو أن كل فعل يتلوه أمر مطلوب من ذلك الفعل يصح تعليل ذلك الفعل بذلك الأمر، كما يقال فلان اتجر ليربح، ثم إن هذا التعليل إن كان في موضع لا يحصل الجزم بحصول الأمر من الفعل نظرا إلى نفس الفعل وإن حصل الجزم والعلم بناء على أمر من خارج فإنه يصح أن يقال يفعل كذا رجاء كذا، كما يقال يتجر رجاء أن يربح، وإن حصل للتاجر جزم بالربح لا يقدح ذلك في صحة قولنا يرجو لما أن الجزم غير حاصل نظرا إلى التجارة وإن كان الجزم حاصلا نظرا إلى الفعل، لا يصح أن يقال يرجو وإن كان ذلك الجزم يحتمل خلافه كقول القائل فلان حز رقبة عدوه رجاء أن يموت، لا يصح لحصوله الجزم بالموت عقيب الحز نظرا إليه وإن أمكن أن لا يموت نظرا إلى قدرة الله تعالى، ويصحح قولنا قوله تعالى في حق إبراهيم والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي [الشعراء: ٨٢] مع أنه كان عالما بالمغفرة لكن لما لم يكن الجزم حاصلا من نفس الفعل أطلق عليه الطمع وكذلك قوله تعالى: لعلهم فإن نظرنا إلى الفعل لا يلزم الجزم، فإن من التعذيب لا يلزم الرجوع لزوما بينا فصح قولنا يرجو وإن كان علمه حاصلا بما يكون غاية ما في الباب أن الرجاء في أكثر الأمر استعمل فيما لا يكون الأمر معلوما فأوهم أن لا يجوز الإطلاق في حق الله تعالى وليس كذلك بل الترجي يجوز في حق الله تعالى، ولا يلزم منه عدم العلم، وإنما يلزم عدم الجزم بناء على ذلك الفعل وعلم الله ليس مستفادا من الفعل فيصح حقيقة الترجي في حقه على ما ذكرنا من المعنى/ ثم قال تعالى:

[سورة السجده (23) : الآيات ٢٢ الى ٢٤]

ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها إنا من المجرمين منتقمون (٢٢) ولقد آتينا موسى الكتاب فلا تكن في مرية من لقائه وجعلناه هدى لبني إسرائيل (٢٣) وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون (٢٤)

قوله تعالى: ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها يعني لنذيقنهم ولا يرجعون فيكونون قد ذكروا بآيات الله من النعم أولا والنقم ثانيا ولم يؤمنوا فلا أظلم منهم أحد، لأن من يكفر بالله ظالم فإن الله لذوي البصائر ظاهر لا يحتاج المستنير الباطن إلى شاهد يشهد عليه بل هو شهيد على كل شيء كما قال

تعالى: أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد [فصلت: ٥٣] أي دليلك الله لا تحتاج تأثير الباطن إلى دليل على الله، ولهذا قال بعض العارفين رأيت الله قبل كل شيء فمن لم يكفه الله فسائر الموجودات سواء، كان فيها نفع أو ضر كاف في معرفة الله كما قال تعالى: سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم [فصلت: ٥٣] فإن لم يكفهم ذلك." (١)

"سورة سبأ

مكية وقيل فيها آية مدنية وهي ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك الآية وهي أربع وقيل خمس وخمسون آية بسم الله الرحمن الرحيم

[سورة سبإ (٣٤) : آية ١]

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي له ما في السماوات وما في الأرض وله الحمد في الآخرة وهو الحكيم الخبير (١)

السور المفتتحة بالحمد خمس سور سورتان منها في النصف الأول وهما الأنعام والكهف وسورتان في الأخير وهما هذه السورة وسورة الملائكة والخامسة وهي فاتحة الكتاب تقرأ مع النصف الأول ومع النصف الأخير **والحكمة فيها** أن نعم الله مع كثرتها وعدم قدرتنا على إحصائها منحصرة في قسمين نعمة الإيجاد ونعمة الإبقاء، فإن الله تعالى خلقنا أولا برحمته وخلق لنا ما نقوم به وهذه النعمة توجد مرة أخرى بالإعادة فإنه يخلقنا مرة أخرى ويخلق لنا ما يدوم فلنا حالتان الابتداء والإعادة وفي كل حالة له تعالى علينا نعمتان نعمة الإيجاد ونعمة الإبقاء فقال في النصف الأول: الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور [الأنعام: ١] إشارة إلى الشكر على نعمة الإيجاد ويدل عليه قوله تعالى فيه: هو الذي خلقكم من طين [الأنعام: ٢] إشارة إلى الإيجاد الأول وقال في السورة الثانية وهي الكهف الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا قيما [الكهف: ١، ٢] إشارة إلى الشكر على نعمة الإبقاء، فإن الشرائع بها البقاء ولولا شرع ينقاد له الخلق لا تبع كل واحد هواه ولو وقعت المنازعات في المشتبهات وأدى إلى التقاتل والتفاني، ثم قال في هذه السورة الحمد لله إشارة إلى نعمة الإبقاء ويدل عليه قوله تعالى: وله الحمد في الآخرة وقال في الملائكة: الحمد لله إشارة إلى نعمة الإبقاء ويدل عليه قوله

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ١٤٩/٢٥

تعالى: جاعل الملائكة رسلا [فاطر: ١] والملائكة بأجمعهم لا يكونون رسلا إلا يوم القيامة يرسلهم الله مسلمين كما قال تعالى: وتتلقاهم الملائكة [الأنبياء: ١٠٣] وقال تعالى عنهم: سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين [الزمر: ٧٣] وفاتحة الكتاب لما اشتملت على ذكر النعمتين بقوله تعالى: الحمد لله رب العالمين [الفاتحة: ٢] إشارة إلى النعمة العاجلة وقوله: مالك يوم الدين [الفاتحة: ٤] إشارة إلى النعمة/ الآجلة قرئت في الافتتاح وفي الاختتام، ثم في الآية مسائل:." (١)

"الصالح فاعملوا ذلك وأكثروا منه، والكسب قدروا فيه، ثم أكد طلب الفعل الصالح بقوله: إني بما تعملون بصير وقد ذكرنا مرارا أن من يعمل لملك شغلا ويعلم أنه بمرأى من الملك يحسن العمل ويتقنه ويجتهد فيه، ثم لما ذكر المنيب الواحد ذكر منيبا آخر وهو سليمان، كما قال تعالى: وألقينا على كرسيه جسدا ثم أناب [ص: ٣٤] . وذكر ما استفاد هو بالإنابة فقال:

[سورة سبإ (٣٤) : آية ١٢]

ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر وأسلنا له عين القطر ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير (١٢)

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قرئ ولسليمان الريح بالرفع وبالنصب وجه الرفع: ولسليمان الريح مسخرة أو سخرت لسليمان الريح ووجه النصب ولسليمان سخرنا الريح وللرفع وجه آخر/ وهو أن يقال معناه: ولسليمان الريح كما يقال لزيد الدار، وذلك لأن الريح كانت له كالمملوك المختص به يأمرها بما يريد حيث يريد.

المسألة الثانية: الواو للعطف فعلى قراءة الرفع يصير عطفا لجملة اسمية على جملة فعلية وهو لا يجوز أولا يحسن فكيف هذا فنقول لما بين حال داود كأنه تعالى قال ما ذكرنا لداود ولسليمان الريح، وأما على النصب فعلى قولنا: وألنا له الحديد كأنه قال: وألنا لداود الحديد وسخرنا لسليمان الريح.

المسألة الثالثة: المسخر لسليمان كانت ريحا مخصوصة لا هذه الرياح، فإنها المنافع عامة في أوقات الحاجات ويدل عليه أنه لم يقرأ إلا على التوحيد فما قرأ أحد الرياح.

المسألة الرابعة: قال بعض الناس: المراد من تسخير الجبال وتسبيحها مع داود أنها كانت تسبح كما يسبح

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ١٩٠/٢٥

كل شيء وإن من شيء إلا يسبح بحمده [الإسراء: ٤٤] ، وكان هو عليه السلام يفقه تسبيحها فيسبح، ومن تسخير الريح أنه راض الخيل وهي كالريح وقوله: غدوها شهر ثلاثون فرسخا لأن من يخرج للتفرج في أكثر الأمر لا يسير أكثر من فرسخ ويرجع كذلك، وقوله في حق داود: وألنا له الحديد وقوله في حق سليمان:

وأسلنا له عين القطر أنهم استخرجوا تذويب الحديد والنحاس بالنار واستعمال الآلات منهما والشياطين أي أناسا أقوياء وهذا كله فاسد حمله على هذا ضعف اعتقاده [و] عدم اعتماده على قدرة الله والله قادر على كل ممكن وهذه أشياء ممكنة.

المسألة الخامسة: أقول قوله تعالى: وسخرنا مع داود الجبال [الأنبياء: ٧٩] وقوله: ولسليمان الريح عاصفة [الأنبياء: ٨١] لو قال قائل ما **الحكمة في** أن الله تعالى قال في الأنبياء: وسخرنا مع داود الجبال وفي هذه السورة قال: يا جبال أوبي معه [سبأ: ١٠] وقال في الريح هناك وهاهنا: ولسليمان تقول الجبال لما سبحت شرفت بذكر الله فلم يضفها إلى داود بلام الملك بل جعلها معه كالمصاحب، والريح لم يذكر فيها أنها سبحت فجعلها كالمملوكة له وهذا حسن وفيه أمر آخر معقول يظهر لي وهو أن على قولنا: أوبي معه سيري فالجبل في السير ليس أصلا بل هو يتحرك معه تبعا، والريح لا تتحرك مع سليمان بل تحرك سليمان مع نفسها." (١)

"يتحرك إلى اليمين، وقد يتحرك إلى اليسار، وفي حركاته المختلفة قد ينشئ السحاب، وقد لا ينشئ، فهذه الاختلافات دليل على مسخر مدبر ومؤثر مقدر، وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: قال تعالى: والله الذي أرسل بلفظ الماضي وقال: فتثير سحابا بصيغة المستقبل، وذلك لأنه لما أسند فعل الإرسال إلى الله وما يفعل الله يكون بقوله كن فلا يبقى في العدم لا زمانا ولا جزءا من الزمان، فلم يقل بلفظ المستقبل لوجوب وقوعه وسرعة كونه كأنه كان وكأنه فرغ من كل شيء فهو قدر الإرسال في الأوقات المعلومة إلى المواضع المعينة والتقدير كالإرسال، ولما أسند فعل الإثارة إلى الريح وهو يؤلف في زمان فقال: فتثير أي على هيئتها.

المسألة الثانية: قال: أرسل إسنادا للفعل إلى الغائب وقال: فسقناه بإسناد الفعل إلى المتكلم وكذلك في قوله: فأحيينا وذلك لأنه في الأول عرف نفسه بفعل من الأفعال وهو الإرسال، ثم لما عرف قال: أنا الذي

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ١٩٧/٢٥

عرفتني سقت السحاب وأحييت الأرض فنفي الأول كان تعريفا بالفعل العجيب، وفي الثاني كان تذكيرا بالنعمة فإن كما [ل] «١» نعمة الرياح والسحب بالسوق والإحياء وقوله: فسقناه ... فأحيينا بصيغة الماضي يؤيد ما ذكرناه من الفرق بين قوله: أرسل وبين قوله: (فتثير) .

المسألة الثالثة: ما وجه التشبيه بقوله: كذلك النشور فيه وجوه: أحدها: أن الأرض الميتة لما قبلت الحياة اللائقة بها كذلك الأعضاء تقبل الحياة وثانيها: كما أن الريح يجمع القطع السحابية كذلك يجمع بين أجزاء الأعضاء وأبعاض الأشياء وثالثها: كما أنا نسوق الريح والسحاب إلى البلد الميت نسوق الروح والحياة إلى البدن الميت.

المسألة الرابعة: ما الحكمة في اختيار هذه الآية من بين الآيات مع أن الله تعالى له في كل شيء آية تدل على أنه واحد، فنقول لما ذكر الله أنه فاطر السموات والأرض، وذكر من الأمور السماوية الأرواح وإرسالها بقوله: جاعل الملائكة رسلا [فاطر: ١] ذكر من الأمور الأرضية الرياح وإرسالها بقوله: والله الذي أرسل الرياح. ثم قال تعالى:

[سورة فاطر (٣٥) : آية ١٠]

من كان يريد العزة فلله العزة جميعا إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد ومكر أولئك هو يبور (١٠)

لما بين برهان الإيمان إشارة إلى ما كان يمنع الكفار منه وهو العزة الظاهرة التي كانوا يتوهمونها من حيث إنهم ما كانوا في طاعة أحد ولم يكن لهم من يأمرهم وينهاهم، فكانوا ينحتون الأصنام وكانوا يقولون إن هذه آلهتنا، ثم إنهم كانوا ينقلونها مع أنفسهم وأية عزة فوق المعية مع المعبود فهم كانوا يطلبون العزة وهي عدم التذلل للرسول وترك الاتباع له، فقال إن كنتم تطلبون بهذا الكفر العزة في الحقيقة، فهي كلها لله ومن يتذلل له فهو العزيز، ومن يتعزز عليه فهو الذليل وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: قال في هذه الآية: فلله العزة جميعا وقال في آية أخرى: ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين

---

(١) في الأصل الأميري »فإن كما نعمة» ولا معنى لها وقد زدت اللام ليستقيم الكلام.." (١)

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٢٥/٢٦

"وفيه من التحذير ما ليس في قوله ولا يلحق أو ولا يصل، وأما في قوله: بأهله ففيه ما ليس في قول القائل ولا يحيق المكر السيء إلا بالماكر، كي لا يأمن المسيء فإن من أساء ومكره سيء آخر قد يلحقه جزاء على سيئة، وأما إذا لم يكن سيئا فلا يكون أهلا فيأمن المكر السيء، وأما في النفي والإثبات ففائدته الحصر بخلاف ما يقول القائل المكر السيء يحيق بأهله، فلا ينبئ عن عدم الحيق بغير أهله، فإن قال قائل: كثيرا ما نرى أن الماكر يمكر ويفيده المكر ويغلب الخصم بالمكر والآية تدل على عدم ذلك، فنقول الجواب عنه من وجوه أحدها: إن المكر المذكور في الآية هو المكر الذي مكروه مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم من العزم على القتل والإخراج ولم يحق إلا بهم، حيث قتلوا يوم بدر وغيره وثانيها: هو أن نقول المكر السيء عام وهو الأصح فإن النبي عليه السلام نهى عن المكر

وأخبر عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «لا تمكروا ولا تعينوا ماكرا فإن الله يقول ولا يحيق المكر السيء/ إلا بأهله»

وعلى هذا فذلك الرجل الممكور به [لا] يكون أهلا فلا يرد نقضا وثالثها: أن الأمور بعواقبها، ومن مكر به غيره ونفذ فيه المكر عاجلا في الظاهر ففي الحقيقة هو الفائز والماكر هو الهالك وذلك مثل راحة الكافر ومشقة المسلم في الدنيا، ويبين هذا المعنى قوله تعالى: فهل ينظرون إلا سنت الأولين يعني إذا كان لمكرهم في الحال رواج فالعاقبة للتقوى والأمور بخواتيمها، فيهلكون كما هلك الأولون.

وقوله تعالى: فهل ينظرون إلا سنت الأولين أي ليس لهم بعد هذا إلا انتظار الإهلاك وهو سنة الأولين وفيه مسائل:

المسألة الأولى: الإهلاك ليس سنة الأولين إنما هو سنة الله بالأولين، فنقول الجواب عنه من وجهين أحدهما: أن المصدر الذي هو المفعول المطلق يضاف إلى الفاعل والمفعول لتعلقه بهما من وجه دون وجه فيقال فيما إذا ضرب زيد عمرا عجبت من ضرب عمرو كيف ضرب مع ماله من العزم والقوة وعجبت من ضرب زيد كيف ضرب مع ماله من العلم والحكمة فكذلك سنة الله بهم أضافها إليهم لأنها سنة سنت بهم وأضافها إلى نفسه بعدها بقوله:

فلن تجد لسنت الله تبديلا لأنها سنة من سنن الله، إذا علمت هذا فنقول أضافها في الأول إليهم حيث قال: سنت الأولين لأن سنة الله الإهلاك بالإشراك والإكرام على الإسلام فلا يعلم أنهم ينتظرون أيهما فإذا قال سنة الأولين تميزت وفي الثاني أضافها إلى الله، لأنها لما علمت فالإضافة إلى الله تعظمها وتبين أنها

أمر واقع ليس لها من دافع وثانيهما: أن المراد من سنة الأولين استمرارهم على الإنكار واستكبارهم عن الإقرار، وسنة الله استئصالهم بإصرارهم فكأنه قال: أنتم تريدون الإتيان بسنة الأولين والله يأتي بسنة لا تبديل لها ولا تحويل عن مستحقها.

المسألة الثانية: التبديل تحويل فما الحكمة في التكرار؟ نقول بقوله: فلن تجد لسنت الله تبديلا حصل العلم بأن العذاب لا تبديل له بغيره، وبقوله: ولن تجد لسنت الله تحويلا حصل العلم بأن العذاب مع أنه لا تبديل له بالثواب لا يتحول عن مستحقه إلى غيره فيتم تهديد المسيء.

المسألة الثالثة: المخاطب بقوله: فلن تجد يحتمل وجهين وقد تقدم مرارا أحدهما: أن يكون عاما كأنه قال فلن تجد أيها السامع لسنة الله تبديلا والثاني: أن يكون مع محمد صلى الله عليه وآله وسلم وعلى هذا فكأنه قال: سنة الله أنه لا يهلك ما بقي في القوم من كتب الله إيمانه، فإذا/ آمن من في علم الله أنه يؤمن يهلك الباقين كما قال نوح:." (١)

"سورة يس

ثمانون وثلاث آيات مكية بسم الله الرحمن الرحيم

[سورة يس (٣٦) : الآيات ١ الى ٢]

بسم الله الرحمن الرحيم

يس (١) والقرآن الحكيم (٢)

قد ذكرنا كلاما كليا في حروف التهجي في سورة العنكبوت وذكرنا أن في كل سورة بدأ الله فيها بحروف التهجي كان في أوائلها الذكر أو الكتاب أو القرآن ولنذكر هاهنا أبحاثا:

البحث الأول: هو أن في ذكر هذه الحروف في أوائل السور أمورا تدل على أنها غير خالية عن الحكمة ولكن علم الإنسان لا يصل إليها بعينها فنقول ما هو الكلي من الحكمة فيها، أما بيان أن فيها ما يدل على الحكمة فهو أن الله تعالى ذكر من الحروف نصفها وهي أربعة عشر حرفا وهي نصف ثمانية وعشرين حرفا، وهي جميع الحروف التي في لسان العرب على قولنا الهمزة ألف متحركة، ثم إنه تعالى قسم الحروف ثلاثة أقسام تسعة أحرف من الألف إلى الذال وتسعة أحرف أخر في آخر الحروف من الفاء إلى

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٦/٢٤٧

الياء وعشرة من الوسط من الراء إلى الغين، وذكر من القسم الأول حرفين هما الألف والحاء وترك سبعة وترك من القسم الآخر حرفين هما الفاء والواو وذكر سبعة، ولم يترك من القسم الأول من حروف الحلق والصدر إلا واحدا لم يذكره وهو الخاء، ولم يذكر من القسم الآخر من حروف الشفة إلا واحدا لم يتركه وهو الميم، والعشر الأواسط ذكر منها حرفا وترك حرفا فذكر الراء وترك الزاي وذكر السين وترك الشين وذكر الصاد وترك الضاد وذكر الطاء وترك الظاء وذكر العين وترك الغين، وليس هذا أمرا يقع اتفاقا بل هو ترتيب مقصود فهو لحكمة، وأما أن عينها غير معلومة فظاهر وهب أن واحدا يدعي فيها شيئا فماذا يقول في كون بعض السور مفتتحة بحرف كسورة ن وق وص وبعضها بحرفين كسورة حم ويس وطس وطه وبعضها بثلاثة أحرف كسورة الم وطسم والر وبعضها بأربعة كسورتي المر والمص وبعضها بخمسة أحرف كسورتي حم عسق وكهيعص وهب أن قائلا يقول إن هذا إشارة إلى أن الكلام، إما حرف، وإما فعل، وإما اسم، والحرف كثيرا ما جاء على حرف كواو العطف وفاء التعقيب وهمزة الاستفهام وكاف التشبيه وباء الإلصاق/ وغيرها وجاء على حرفين كمن للتبعيض وأو للتخيير وأم للاستفهام المتوسط وأن للشرط وغيرها والاسم والفعل والحرف جاء على ثلاثة أحرف كإلى وعلى في الحرف وإلى وعلى في الاسم وألا يألو وعلا يعلو في الفعل، والاسم والفعل جاء على أربعة، والاسم خاصة جاء على ثلاثة وأربعة وخمسة كفجل وسجل وجردحل فما جاء في القرآن إشارة إلى أن تركيب العربية من هذه الحروف على هذه الوجوه، فماذا يقول هذا القائل في تخصيص بعض السور." (١)

"بالحرف الواحد والبعض بأكثر فلا يعلم تمام السر إلا الله ومن أعلمه الله به، إذا علمت هذا فنقول اعلم أن العبادة منها قلبية، ومنها لسانية، ومنها جارحية، وكل واحدة منها قسمان قسم عقل معناه وحقيقته وقسم لم يعلم، أما القلبية مع أنها أبعد عن الشك والجهل ففيها ما لم يعلم دليله عقلا، وإنما وجب الإيمان به والاعتقاد سمعا كالصراط الذي [هو] أرق من الشعرة وأحد من السيف ويمر عليه المؤمن والموقن كالبرق الخاطف والميزان الذي توزن به الأعمال التي لا ثقل لها في نظر الناظر وكيفيات الجنة والنار فإن هذه الأشياء وجودها لم يعلم بدليل عقلي، وإنما المعلوم بالعقل إمكانها ووقوعها معلوم مقطوع به بالسمع ومنها ما علم كالتوحيد والنبوة وقدرة الله وصدق الرسول، وكذلك في العبادات الجارحية ما علم معناه وما لم يعلم كمقادير النصب وعدد الركعات، وقد ذكرنا **الحكمة فيه** وهي أن العبد إذا أتى بما أمر به من غير أن يعلم

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٦/٢٥٠

ما فيه من الفائدة لا يكون إلا آتيا بمحض العبادة بخلاف ما لو علم الفائدة فربما يأتي به للفائدة وإن لم يؤمن كما لو قال السيد لعبده انقل هـذه الحجارة من هاهنا ولم يعلم بما في النقل فنقلها ولو قال انقلها فإن تحتها كنزا هو لك ينقلها وإن لم يؤمن، إذا علم هذا فكذلك في العبادات اللسانية الذكرية وجب أن يكون منها ما لا يفهم معناه حتى إذا تكلم به العبد علم منه أنه لا يقصد غير الانقياد لأمر المعبود الآمر الناهي فإذا قال: حم، يس، الم، طس علم أنه لم يذكر ذلك لمعنى يفهمه أو يفهمه فهو يتلفظ به إقامة لما أمر به.

البحث الثاني: قيل في خصوص يس إنه كلام هو نداء معناه يا إنسان، وتقريره هو أن تصغير إنسان أنيسين فكأنه حذف الصدر منه وأخذ العجز وقال: يس أي أنيسين، وعلى هذا يحتمل أن يكون الخطاب مع محمد صلى الله عليه وآله وسلم ويدل عليه قوله تعالى بعده: إنك لمن المرسلين [يس: ٣] .

البحث الثالث: قرئ يس إما بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف هو قوله هذه كأنه قال: هذه يس، وإما بالضم على نداء المفرد أو على أنه مبني كحيث، وقرئ يس إما بالنصب على معنى اتل يس وإما بالفتح كأين وكيف، وقرئ يس بالكسر كجير لإسكان الياء وكسرة ما قبلها ولا يجوز أن يقال بالجر لأن إضمار الجار غير جائز وليس فيه حرف قسم ظاهر وقوله تعالى: والقرآن الحكيم أي ذي الحكمة كعيشة راضية أي ذات رضا أو على أنه ناطق بالحكمة فهو كالحي المتكلم. وقوله تعالى:

[سورة يس (٣٦) : آية ٣]

إنك لمن المرسلين (٣)

مقسم عليه وفيه مسائل:

المسألة الأولى: الكفار أنكروا كون محمد مرسلا والمطالب تثبت بالدليل لا بالقسم فما **الحكمة في** الإقسام؟ نقول فيه وجوه الأول: هو أن العرب كانوا يتوقون الأيمان الفاجرة وكانوا يقولون إن اليمين الفاجرة توجب خراب العالم وصحح النبي صلى الله عليه وآله وسلم ذلك

بقوله: «اليمين الكاذبة تدع الديار بلاقع»

ثم إنهم كانوا يقولون إن النبي صلى الله عليه وآله وسلم يصيبه من آلهتهم عذاب وهي الكواكب فكان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يحلف بأمر الله وإنزال كلامه عليه وبأشياء مختلفة، وما كان يصيبه عذاب بل كان كل يوم أرفع شأنا وأمنع مكانا فكان ذلك يوجب اعتقاد أنه ليس بكاذب الثاني: هو أن المتناظرين

إذا وقع بينهما كلام وغلب أحدهما الآخر بتمشية دليله وأسكته يقول المطلوب إنك قررت هذا بقوة جدالك وأنت خبير في نفسك بضعف مقالك وتعلم أن الأمر ليس كما تقول وإن أقمت عليه." (١)

"صورة دليل وعجزت أنا عن القدح فيه، وهذا كثير الوقوع بين المتناظرين فعند هذا لا يجوز أن يأتي هو بدليل آخر، لأن الساكت المنقطع يقول في الدليل الآخر ما قاله في الأول فلا يجد أمرا إلا اليمين، فيقول والله إني لست مكابرا وإن الأمر على ما ذكرت ولو علمت خلافه لرجعت إليه فههنا يتعين اليمين، فكذلك النبي صلى الله عليه وآله وسلم لما أقام البراهين وقالت الكفرة: ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم ... وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم إن هذا إلا سحر مبين [سبأ: ٤٣] تعين التمسك بالأيمان لعدم فائدة الدليل الثالث: هو أن هذا ليس مجرد الحلف، وإنما هو دليل خرج في صورة اليمين لأن القرآن معجزة ودليل كونه مرسلا هو المعجزة والقرآن كذلك فإن قيل فلم لم يذكر في صورة الدليل؟ وما الحكمة في ذكر الدليل في صورة اليمين؟ قلنا الدليل أن ذكره «١» في صورة اليمين قد لا يقبل عليه سامع فلا يقبله فؤاده فإذا ابتدئ به على صورة اليمين واليمين لا يقع لا سيما من العظيم الأعلى أمر عظيم والأمر العظيم تتوفر الدواعي على الإصغاء إليه فلصورة اليمين تشرئب إليه الأجسام، ولكونه دليلا شافيا يتشربه الفؤاد فيقع في السمع وينفع في القلب.

المسألة الثانية: كون القرآن حكيما عندهم لكون محمد رسولا، فلهم أن يقولوا إن هذا ليس بقسم، نقول الجواب عنه من وجهين أحدهما: أن كون القرآن معجزة بين إن أنكروه قيل لهم فأتوا بسورة من مثله والثاني: أن العاقل لا يثق بيمين غيره إلا إذا حلف بما يعتقد عظمته، فالكافر إن حلف بمحمد لا نصدقه كما نصدقه لو حلف بالصليب والصنم، ولو حلف بديننا الحق لا يوثق بمثل ما يوثق به لو حلف بدينه الباطل وكان من المعلوم أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه يعظمون القرآن فحلفه به هو الذي يوجب ثقتهم به. وقوله تعالى:

[سورة يس (٣٦) : آية ٤]

على صراط مستقيم (٤)

خبر بعد خبر أي أنك على صراط مستقيم والمستقيم/ أقرب الطرق الموصلة إلى المقصد والدين كذلك

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٦/٢٥١

فإنه توجه إلى الله تعالى وتولى عن غيره والمقصد هو الله والمتوجه إلى المقصد أقرب إليه من المولي عنه والمتحرف منه ولا يذهب فهم أحد إلى أن قوله إنك منهم على صراط مستقيم مميز له عن غيره كما يقال إن محمدا من الناس مجتبى لأن جميع المرسلين على صراط مستقيم، وإنما المقصود بيان كون النبي صلى الله عليه وآله وسلم على الصراط المستقيم الذي يكون عليه المرسلون وقوله: على صراط مستقيم فيه معنى لطيف يعلم منه فساد قول المباحية الذين يقولون المكلف يصير واصلا إلى الحق فلا يبقى عليه تكليف وذلك من حيث إن الله بين أن المرسلين ما داموا في الدنيا فهم سالكون سائحون مهتدون منتهجون إلى السبيل المستقيم فكيف ذلك الجاهل العاجز. وقوله تعالى:

[سورة يس (٣٦) : آية ٥]

تنزيل العزيز الرحيم (٥)

قرئ بالجر على أنه بدل من القرآن كأنه قال: والقرآن الحكيم تنزيل العزيز الرحيم إنك لمن المرسلين لتنذر وقرئ بالنصب وفيه وجهان أحدهما: أنه مصدر فعله منوي كأنه قال نزل تنزيل العزيز الرحيم لتنذر ويكون تقديره نزل القرآن أو الكتاب الحكيم والثاني: أنه مفعول فعل منوي كأنه قال والقرآن الحكيم أعني

---

(١) في الأصل «أن ذكر لا» ولما كان لا معنى لها فمما لا شك فيه أنها مصحفة عما ذكرناه، لأن كتابة الهاء المربوطة في الخط قريبة من «لا» في الصورة فهي مصحفة عنها.." (١)

"الإغشاء مرتبا على جعل السد فكيف ذلك؟ فنقول ذلك من وجهين أحدهما: أن يكون ذلك بيانا لأمور مترتبة يكون بعضها سببا للبعض فكأنه تعالى قال: إنا جعلنا في أعناقهم أغلالا فلا يبصرون أنفسهم لإقماحهم وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فلا يبصرون ما في الآفاق وحينئذ يمكن أن يروا السماء وما على يمينهم وشمالهم فقال بعد هذا كله: وجعلنا على أبصارهم غشاوة فلا يبصرون شيئا أصلا وثانيهما: هو أن ذلك بيان لكون السد قريبا منهم بحيث يصير ذلك كالغشاوة على أبصارهم فإن من جعل من خلفه ومن قدامه سدين ملتزقين به بحيث يبقى بينهما ملتزقا بهما تبقى عينه على سطح السد فلا يبصر شيئا، أما غير السد فللحجاب، وأما عين السد فلكون شرط المرئي أن لا يكون قريبا من العين جدا.

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٦/٢٥٢

المسألة الثالثة: ذكر السدين من بين الأيدي ومن خلف ولم يذكر من اليمين والشمال ما الحكمة فيه؟ فنقول، أما على قولنا إنه إشارة إلى الهداية الفطرية والنظرية فظاهر، وأما على غير ذلك فنقول بما ذكر حصل العموم والمنع من انتهاج المناهج المستقيمة، لأنهم إن قصدوا السلوك إلى جانب اليمين أو جانب الشمال صاروا متوجهين إلى شيء ومولين عن شيء فصار ما إليه توجههم ما بين أيديهم فيجعل الله السد هناك فيمنعه من السلوك، فكيفما يتوجه الكافر يجعل الله بين يديه سدا ووجه آخر: أحسن مما ذكرنا وهو أنا لما بينا أن جعل السد صار سببا للإغشاء كان السد ملتزقا به وهو ملتزق بالسدين فلا قدرة له على الحركة يمنة ولا يسرة فلا حاجة إلى السد عن اليمين وعن الشمال وقوله تعالى: فأغشيناهم فهم لا يبصرون يحتمل ما ذكرنا أنهم لا يبصرون شيئا، ويحتمل أن يكون المراد هو أن الكافر مصدود وسبيل الحق عليه مسدود وهو لا يبصر السد ولا يعلم الصد، فيظن أنه على الطريقة المستقيمة، وغير ضال.

ثم إنه تعالى بين أن الإنذار لا ينفعهم مع ما فعل الله بهم من الغل والسد والإغشاء والإعماء بقوله تعالى:

[سورة يس (٣٦) : آية ١٠]

وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون (١٠)

أي الإنذار وعدمه سيان بالنسبة إلى الإيمان منهم إذ لا وجود له منهم على التقديرين، فإن قيل إذا كان الإنذار وعدمه سواء فلماذا الإنذار؟ نقول قد أجبنا في غير هذا الموضع أنه تعالى قال: سواء عليهم وما قال سواء/ عليك فالإنذار بالنسبة إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ليس كعدم الإنذار لأن أحدهما مخرج له عن العهدة وسبب في زيادة سيادته عاجلا وسعادته آجلا، وأما بالنسبة إليهم على السواء فإنذار النبي صلى الله عليه وآله وسلم ليخرج عما عليه وينال ثواب الإنذار وإن لم ينتفعوا به لما كتب عليهم من البوار في دار القرار. ثم قال تعالى:

[سورة يس (٣٦) : آية ١١]

إنما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب فبشره بمغفرة وأجر كريم (١١)

والترتيب ظاهر وفي التفسير مسائل:

المسألة الأولى: قال من قبل لتنذر [يس: ٦] وذلك يقتضي الإنذار العام على ما بينا وقال: إنما تنذر وهو يقضي التخصيص فكيف الجمع بينهما؟ نقول من وجوه: الأول: هو أن قوله: لتنذر أي كيفما كان

سواء كان مفيدا أو لم يكن وقوله: إنما تنذر أي الإنذار المفيد لا يكون إلا بالنسبة إلى من يتبع الذكر ويخشى الثاني: هو أن الله تعالى لما قال إن الإرسال والإنزال، وذكر أن الإنذار وعدمه سيان بالنسبة إلى أهل العناد قال لنبيه: ليس إنذارك غير مفيد من جميع الوجوه فأنذر على سبيل العموم وإنما تنذر بذلك الإنذار العام." (١)

"بزيد فيجعل المسؤول مفعولا بغير حرف لأنه هو المقصود إذا علمت هذا فالمقصود فيما نحن فيه بيان كون العبد تحت تصرف الله يقلبه كيف يشاء في البؤس والرخاء، وليس الضر بمقصود بيانه، كيف والقائل مؤمن يرجو الرحمة والنعمة بناء على إيمانه بحكم وعد الله ويؤيد هذا قوله من قبل الذي فطرني [يس: ٢٢] حيث جعل نفسه مفعول الفطرة فكذلك جعلها مفعول الإرادة وذكر الضر وقع تبعا وكذا القول في قوله تعالى: إن أرادني الله بضر [الزمر: ٣٨] المقصود بيان أنه يكون كما يريد الله وليس الضر بخصوصه مقصودا بالذكر ويؤيده ما تقدم حيث قال تعالى: أليس الله بكاف عبده [الزمر: ٣٦] يعني هو تحت إرادته ويتأيد ما ذكرناه بالنظر في قوله تعالى: قل من ذا الذي يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءا [الأحزاب: ١٧] حيث خالف هذا النظم وجعل المفعول من غير حرف السوء وهو كالضر والمفعول بحرف هو المكلف، وذلك لأن المقصود ذكر الضر للتخويف وكونهم محلا له، وكيف لا وهم كفرة استحقوا العذاب بكفرهم فجعل الضر مقصودا بالذكر لزجرهم، فإن قيل فقد ذكر الله الرحمة أيضا حيث قال: أو أراد بكم رحمة [الأحزاب: ١٧] نقول المقصود ذلك، ويدل عليه قوله تعالى من بعده ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا [الأحزاب: ١٧] وإنما ذكر الرحمة تتمة للأمر بالتقسيم الحاصر، وكذلك إذا تأملت في قوله تعالى: يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم قل فمن يملك لكم من الله شيئا إن أراد بكم ضرا أو أراد بكم نفعا

[الفتح: ١١] فإن الكلام أيضا مع الكفار وذكر النفع وقع تبعا لحصر الأمر بالتقسيم، ويدل عليه قوله تعالى: بل كان الله بما تعملون خبيرا [الفتح: ١١] فإنه للتخويف، وهذا كقوله تعالى: وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين [سبأ: ٢٤] ، والمقصود إني على هدى وأنتم في ضلال، ولو قال هكذا لمنع مانع فقال بالتقسيم كذلك هاهنا/ المقصود الضر واقع بكم ولأجل دفع المانع قال الضر والنفع.

المسألة الثانية: قال هاهنا: إن يردن الرحمن وقال في الزمر: إن أرادني الله [الزمر: ٣٨] فما **الحكمة في**

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٦/٢٥٦

اختيار صيغة الماضي هنالك واختيار صيغة المضارع هاهنا وذكر المريد باسم الرحمن هنا وذكر المريد باسم الله هناك؟ نقول أما الماضي والمستقبل فإن إن في الشرط تصير الماضي مستقبلا وذلك لأن المذكور هاهنا من قبل بصيغة الاستقبال في قوله: أأتخذ وقوله: وما لي لا أعبد [يس: ٢٢] والمذكور هناك من قبل بصيغة الماضي في قوله: أفرأيتم [الزمر: ٣٨] وكذلك في قوله تعالى: وإن يمسسك الله بضر [الأنعام: ١٧] لكون المتقدم عليه مذكورا بصيغة المستقبل وهو قوله: من يصرف عنه [الأنعام: ١٦] وقوله: إني أخاف إن عصيت [الأنعام: ١٥] **والحكمة فيه** هو أن الكفار كانوا يخرفون النبي صلى الله عليه وآله وسلم بضر يصيبه من آلهتهم فكأنه قال صدر منكم التخويف، وهذا ما سبق منكم، وهاهنا ابتداء كلام صدر من المؤمن للتقرير، والجواب ما كان يمكن صدوره منهم فافترق الأمران، وأما قوله هناك: إن أرادني الله [الزمر: ٣٨] فنقول قد ذكرنا أن الاسمين المختصين بواجب الوجود الله والرحمن كما قال تعالى: قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن [الإسراء: ١١٠] والله للهيبة والعظمة والرحمن للرأفة والرحمة، وهناك وصف الله بالعزة والانتقام في قوله:

أليس الله بعزيز ذي انتقام [الزمر: ٣٧] وذكر ما يدل على العظمة ما يدل على العظمة بقوله: ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض [العنكبوت: ٦١] فذكر الاسم الدال على العظمة وقال هاهنا ما يدل على الرحمة بقوله: الذي فطرني [يس: ٢٢] فإنه نعمة هي شرط سائر النعم فقال: إن يردن الرحمن بضر ثم قال." (١)

"وقوله: حتى عاد كالعرجون القديم أي رجع في الدقة إلى حالته التي كان عليها من قبل.

والعرجون من الانعراج يقال لعود العذق عرجون، والقديم المتقادم الزمان، قيل إن ما غبر عليه سنة فهو قديم، والصحيح أن هذه بعينها لا تشترط في جواز إطلاق القديم عليه وإنما تعتبر العادة، حتى لا يقال لمدينة بنيت من سنة وسنتين إنها بناء قديم أو هي قديمة/ ويقال لبعض الأشياء إنه قديم، وإن لم يكن له سنة، ولهذا جاز أن يقال بيت قديم وبناء قديم ولم يجز أن يقال في العالم إنه قديم، لأن القدم في البيت والبناء يثبت بحكم تقادم العهد ومرور السنين عليه، وإطلاق القديم على العالم لا يعتاد إلا عند من يعتقد أنه لا أول له ولا سابق عليه. ثم قال تعالى:

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٦٦/٢٦

[سورة يس (٣٦) : آية ٤٠]

لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون (٤٠)

إشارة إلى أن كل شيء من الأشياء المذكورة خلق «١» على وفق الحكمة، فالشمس لم تكن تصلح لها سرعة الحركة بحيث تدرك القمر وإلا لكان في شهر واحد صيف وشتاء فلا تدرك الثمار وقوله: ولا الليل سابق النهار قيل في تفسيره إن سلطان الليل وهو القمر ليس يسبق الشمس وهي سلطان النهار، وقيل معناه ولا الليل سابق النهار أي الليل لا يدخل وقت النهار والثاني بعيد لأن ذلك يقع إيضاحا للواضح والأول صحيح إن أريد به ما بينته وهو أن معنى قوله تعالى: ولا الليل سابق النهار أن القمر إذا كان على أفق المشرق أيام الاستقبال تكون الشمس في مقابلته على أفق المغرب، ثم إن عند غروب الشمس يطلع القمر وعند طلوعها يغرب القمر، كأن لها حركة واحدة مع أن الشمس تتأخر عن القمر في ليلة مقدارا ظاهرا في الحس، فلو كان للقمر حركة واحدة بها يسبق الشمس ولا تدركه الشمس وللشمس حركة واحدة بها تتأخر عن القمر ولا تدرك القمر لبقي القمر والشمس مدة مديدة في مكان واحد، لأن حركة الشمس كل يوم درجة فخلق الله تعالى في جميع الكواكب حركة أخرى غير حركة الشهر والسنة، وهي الدورة اليومية وبهذه الدورة لا يسبق كوكب كوكبا أصلا، لأن كل كوكب من الكواكب إذا طلع غرب مقابله وكلما تقدم كوكب إلى الموضع الذي فيه الكوكب الآخر بالنسبة إلينا تقدم ذلك الكوكب، فبهذه الحركة لا يسبق القمر الشمس، فتبين أن سلطان الليل لا يسبق سلطان النهار فالمراد من الليل القمر ومن النهار الشمس، فقوله: لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر إشارة إلى حركتها البطيئة التي تتم الدورة في سنة وقوله: ولا الليل سابق النهار إشارة إلى حركتها اليومية التي بها تعود من المشرق إلى المشرق مرة أخرى في يوم وليلة، وعلى هذا ففيه مسائل:

المسألة الأولى: ما الحكمة في إطلاق الليل وإرادة سلطانه وهو القمر، وماذا يكون لو قال ولا القمر سابق الشمس؟ نقول لو قال ولا القمر سابق الشمس ما كان يفهم أن الإشارة إلى الحركة اليومية فكان يتوهم التناقض، فإن الشمس إذا كانت لا تدرك القمر والقمر أسرع ظاهرا، وإذا قال/ ولا القمر سابق يظن أن القمر لا يسبق فليس بأسرع، فقال الليل والنهار ليعلم أن الإشارة إلى الحركة التي بها تتم الدورة في مدة يوم وليلة، ويكون لجميع الكواكب أو عليها طلوع وغروب في الليل والنهار.

المسألة الثانية: ما الفائدة في قوله تعالى: لا الشمس ينبغي لها أن تدرك بصيغة الفعل وقوله:

(١) في الطبعة الأميرية «خلقها» وهو تحريف واضح.." (١)

"المسألة الثالثة: للناس في هذا الموضع قولان الأول: قول من يقول المقسم به هاهنا خالق هذه الأشياء لا أعيان هذه الأشياء، واحتجوا عليه بوجوه الأول: أنه صلى الله عليه وسلم نهى عن الحلف بغير الله فكيف يليق بحكمة الله أن يحلف بغير الله والثاني: أن الحلف بالشيء في مثل هذا الموضع تعظيم عظيم للمحلوف به، ومثل هذا التعظيم لا يليق إلا بالله. والثالث: أن هذا الذي ذكرناه تأكد بما أنه تعالى صرح به في بعض السور وهو قوله تعالى:

والسماء وما بناها والأرض وما طحاها ونفس وما سواها [الشمس: ٥- ٧] ، والقول الثاني: قول من يقول إن القسم واقع بأعيان هذه الأشياء واحتجوا عليه بوجوه الأول: أن القسم وقع بهذه الأشياء بحسب ظاهر اللفظ فالعدول عنه خلاف الدليل والثاني: أنه تعالى قال: والسماء وما بناها فعلق لفظ القسم بالسماء، ثم عطف عليه القسم بالباني للسماء، فلو كان المراد من القسم بالسماء القسم بمن بنى السماء لزم التكرار في موضع واحد وأنه لا يجوز الثالث: أنه لا يبعد أن تكون الحكمة في قسم من الله تعالى بهذه الأشياء التنبيه على شرف ذواتها وكمال حقائقها، لا سيما إذا حملنا هذه الألفاظ على الملائكة فإنه تكون الحكمة في القسم بها التنبيه على جلالة درجاتها وكمال مراتبها والله أعلم، فإن قيل ذكر الحلف في هذا الموضع غير لائق وبيانه من وجوه الأول: أن المقصود من هذا القسم إما إثبات هذا المطلوب عند المؤمن أو عند الكافر والأول باطل لأن المؤمن مقر به سواء حصل الحلف أو لم يحصل، فهذا الحلف عديم الفائدة على كل التقديرات/ الثاني: أنه تعالى حلف في أول هذه السورة على أن الإله واحد، وحلف في أول سورة والذاريات على أن القيامة حق فقال: والذاريات ذروا إلى قوله: إنما توعدون لصادق وإن الدين لواقع [الذاريات: ١- ٦] وإثبات هذه المطالب العالية الشريفة على المخالفين من الدهرية وأمثالهم بالحلف واليمين لا يليق بالعقلاء، والجواب من وجوه الأول: أنه تعالى قرر التوحيد وصحة البعث والقيامة في سائر السور بالدلائل اليقينية، فلما تقدم ذكر تلك الدلائل لم يبعد تقريرها فذكر القسم تأكيدا لما تقدم لا سيما والقرآن إنما أنزل بلغة العرب وإثبات المطالب بالحلف واليمين طريقة مألوفة عند العرب والوجه الثاني: في الجواب أنه تعالى لما أقسم بهذه الأشياء على صحة قوله تعالى: إن إلهكم لواحد ذكر عقيبه ما هو

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٧٨/٢٦

كالدليل اليقيني في كون الإله واحدا، وهو قوله تعالى:

رب السماوات والأرض وما بينهما ورب المشارق وذلك لأنه تعالى بين في قوله: لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا [الأنبياء: ٢٢] أن انتظام أحوال السموات والأرض يدل على أن الإله واحد، فههنا لما قال: إن إلهكم لواحد أردفه بقوله: رب السماوات والأرض وما بينهما ورب المشارق كأنه قيل قد بينا أن النظر في انتظام هذا العالم يدل على كونه الإله واحدا فتأملوا في ذلك الدليل ليحصل لكم العلم بالتوحيد الوجه الثالث:

في الجواب أن المقصود من هذا الكلام الرد على عبدة الأصنام في قولهم بأنها آلهة فكأنه قيل هذا المذهب قد بلغ في السقوط والركاكة إلى حيث يكفي في إبطاله مثل هذه الحجة والله أعلم.

المسألة الرابعة: أما دلالة أحوال السموات والأرض على وجود الإله القادر العالم الحكيم، وعلى كونه واحدا منزها عن الشريك فقد سبق تقريرها في هذا الكتاب مرارا وأطوارا وأما قوله تعالى: ورب المشارق فيحتمل أن يكون المراد مشارق الشمس قال السدي المشارق ثلاثمائة وستون مشرقا وكذلك المغارب فإنه تطلع الشمس كل يوم من مشرق وتغرب كل يوم في مغرب، ويحتمل أن يكون المراد مشارق الكواكب لأن لكل كوكب مشرقا ومغربا، فإن قيل لم اكتفى بذكر المشارق؟ قلنا لوجهين الأول: أنه اكتفى بذكر المشارق كقوله:." (١)

"جهل الله تعالى وإنه محال، فهذا تمام الكلام في هذا الباب والجواب: عن الأول أنا قد دللنا على أنه تعالى إنما أمره بالذبح.

أما قوله تعالى: قد صدقت الرؤيا فهذا يدل على أنه اعترف بكون تلك الرؤيا واجب العمل بها ولا يدل على أنه أتى بكل ما رآه في ذلك المنام. وأما قوله ثانيا كلما قطع إبراهيم عليه السلام جزءا أعاد الله تعالى التأليف إليه، فنقول هذا باطل لأن إبراهيم عليه السلام لو أتى بكل ما أمر به لما احتاج إلى الفداء وحيث احتاج إليه علمنا أنه لم يأت بما أمر به. وأما قوله ثالثا إنه يلزم، إما الأمر بالقبيح وإما الجهل، فنقول هذا بناء على أن الله تعالى لا يأمر إلا بما يكون حسنا في ذاته ولا ينهى إلا عما يكون قبيحا في ذاته، وذلك بناء على تحسين العقل وتقبيحه وهو باطل، وأيضا فهب أنا نسلم ذلك إلا أنا نقول لم لا يجوز أن يقال إن الأمر بالشيء تارة يحسن لكون المأمور به حسنا وتارة لأجل أن ذلك الأمر يفيد صحة مصلحة

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٣١٦/٢٦

من المصالح وإن لم يكن المأمور به حسنا ألا ترى أن السيد إذا أراد أن يروض عبده، فإنه يقول له إذا جاء يوم الجمعة فافعل الفعل الفلاني، ويكون ذلك الفعل من الأفعال الشاقة، ويكون مقصود السيد من ذلك الأمر ليس أن يأتي ذلك العبد بذلك الفعل، بل أن يوطن العبد نفسه على الانقياد والطاعة، ثم إن السيد إذا علم منه أنه وطن نفسه على الطاعة فقد يزيل الألم عنه ذلك التكليف، فكذا هاهنا، فما لم تقيموا الدلالة على فساد هذا الاحتمال لم يتم كلامكم.

المسألة الرابعة: احتج أصحابنا بهذه الآية على أن الله تعالى قد يأمر بما لا يريد وقوعه، والدليل عليه أنه أمر بالذبح وما أراد وقوعه، أما أنه أمر بالذبح فلما تقدم في المسألة الأولى. وأما أنه ما أراد وقوعه فلأن عندنا أن كل ما أراد الله وقوعه فإنه يقع، وحيث لم يقع هذا الذبح علمنا أنه تعالى ما أراد وقوعه، وأما عند المعتزلة فلأن الله تعالى نهى عن ذلك الذبح، والنهي عن الشيء يدل على أن الناهي لا يريد وقوعه فثبت أنه تعالى أمر بالذبح، وثبت أنه تعالى ما أراده، وذلك يدل على أن الأمر قد يوجد بدون الإرادة، وتمام الكلام في أن الله تعالى أمر بالذبح ما تقدم في المسألة المتقدمة، والله أعلم.

المسألة الخامسة: في بيان **الحكمة في** ورود هذا التكليف في النوم لا في اليقظة وبيانه من وجوه الأول: أن هذا التكليف كان في نهاية المشقة على الذابح والمذبوح، فورد أولا في النوم حتى يصير ذلك كالمنبه لورود هذا التكليف الشاق، ثم يتأكد حال النوم بأحوال اليقظة، فحينئذ لا يهجم هذا التكليف دفعة واحدة بل شيئا فشيئا الثاني: أن الله تعالى جعل رؤيا الأنبياء عليهم السلام حقا، قال الله تعالى في حق محمد صلى الله عليه وسلم: لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام [الفتح: ٢٧] وقال عن يوسف عليه السلام: إني رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين [يوسف: ٤] وقال في حق إبراهيم عليه السلام:

إني أرى في المنام أني أذبحك [الصافات: ١٠٢] والمقصود من ذلك تقوية الدلالة على كونهم صادقين، لأن الحال إما حال يقظة وإما حال منام، فإذا تظاهرت الحالتان على الصدق، كان ذلك هو النهاية في بيان كونهم محقين صادقين في كل الأحوال، والله أعلم.

ثم نقول مقامات الأنبياء عليهم السلام على ثلاثة أقسام منها ما يقع على وفق الرؤية كما في قوله تعالى في حق رسولنا صلى الله عليه وسلم: لتدخلن المسجد الحرام ثم وقع ذلك الشيء بعينه، ومنها ما يقع

على الضد كما في حق إبراهيم عليه السلام فإنه رأى الذبح وكان الحاصل هو الفداء والنجاة، ومنها ما يقع على ضرب من التأويل." (١)

"والمناسبة كما في رؤيا يوسف عليه السلام، فلهذا السبب أطبق أهل التعبير على أن المنامات واقعة على هذه الوجوه الثلاثة.

المسألة السادسة: قرأ حمزة والكسائي: تري بضم التاء وكسر الراء، أن ما تري من نفسك من الصبر والتسليم؟ وقيل ما تشير، والباقون بفتح التاء، ثم منهم من يميل ومنهم من لا يميل.

المسألة السابعة: الحكمة في مشاورة الابن في هذا الباب أن يطلع ابنه على هذه الواقعة ليظهر له صبره في طاعة الله فتكون فيه قرة عين لإبراهيم حيث يراه قد بلغ في الحلم إلى هذا الحد العظيم، وفي الصبر على أشد المكاره إلى هذه الدرجة العالمية ويحصل للابن الثواب العظيم في الآخرة والثناء الحسن في الدنيا، ثم إنه تعالى حكى عن ولد إبراهيم عليه السلام أنه قال افعل ما تؤمر ومعناه افعل ما تؤمر به، فحذف الجار كما حذف من قوله:

أمرتك الخبر فافعل ما أمرت [به]

ثم قال تعالى: ستجدني إن شاء الله من الصابرين وإنما علق ذلك بمشيئة الله تعالى على سبيل التبرك والتيمن، وأنه لا حول عن معصية الله إلا بعصمة الله ولا قوة على طاعة الله إلا بتوفيق الله.

ثم قال تعالى: فلما أسلما يقال سلم لأمر الله وأسلم واستسلم بمعنى واحد، وقد قرئ بهن جميعا إذ انقاد له وخضع، وأصلها من قولك سلم هذا لفلان إذا خلص له، ومعناه سلم من أن ينازع فيه، وقولهم سلم لأمر الله وأسلم له منقولان عنه بالهمزة، وحقيقة معناها أخلص نفسه لله وجعلها سالمة له خالصة، وكذلك معنى استسلم استخلص نفسه لله وعن قتادة في أسلما أسلم هذا ابنه وهذا نفسه، ثم قال تعالى: وتله للجبين أي صرعه على شقه فوقع أحد جبينيه على الأرض وللوجه جبينان، والجبهة بينهما، قال ابن الأعرابي التليل والمتلول المصروع والمتل الذي يتل به أي يصرع، فالمعنى أنه صرعه على جبينه، وقال مقاتل كبه على جبهته، وهذا خطأ لأن الجبين غير الجبهة.

ثم قال تعالى: وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا وفيه قولان الأول: أن هذا جواب فلما عند الكوفيين والفراء والواو زائدة والقول الثاني: أن عند البصريين لا يجوز ذلك والجواب مقدر والتقدير: فلما فعل ذلك

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٣٤٩/٢٦

وناداه الله أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا، سعد سعادة عظيمة وآتاه الله نبوة ولده وأجزل له الثواب، قالوا وحذف الجواب ليس بغريب في القرآن والفائدة فيه أنه إذا كان محذوفا كان أعظم وأفخم، قال المفسرون لما أضجعه للذبح نودي من الجبل: يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا قال المحققون: السبب في هذا التكليف كمال طاعة إبراهيم لتكاليف الله تعالى فلما كلفه الله تعالى بهذا التكليف الشاق الشديد وظهر منه كمال الطاعة وظهر من ولده كمال الطاعة والانقياد، لا جرم قال قد صدقت الرؤيا، يعني حصل المقصود من تلك الرؤيا.

وقوله: إنا كذلك نجزي المحسنين ابتداء إخبار من الله تعالى، وليس يتصل بما تقدم من الكلام، والمعنى أن إبراهيم وولده كانا محسنين في هذه الطاعة، فكما جزينا هذين المحسنين فكذلك نجزي كل المحسنين.

ثم قال تعالى: إن هذا لهو البلاء المبين أي الاختبار البين الذي يتميز فيه المخلصون من غيرهم أو المحنة البينة الصعوبة التي لا محنة أصعب منها وفديناه بذبح عظيم الذبح مصدر ذبحت والذبح أيضا ما يذبح وهو المراد في هذه الآية، وهاهنا مباحث تتعلق بالحكايات فالأول: حكي في قصة الذبيح أن إبراهيم عليه." (١)

"الدنيوية أو الدينية، أما الأول فذكروا فيه وجهين الأول: روى الواحدي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان يحرسه كل ليلة ستة وثلاثون ألف رجل، فإذا أصبح قيل ارجعوا فقد رضي عنكم نبي الله، وزاد آخرون فذكروا أربعين ألفا. قالوا وكان أشد ملوك الأرض سلطانا، وعن عكرمة عن ابن عباس أن رجلا ادعى عند داود على رجل أخذ منه بقرة فأنكر المدعى عليه، فقال داود للمدعي أقم البينة فلم يقمها، فرأى داود في منامه أن الله يأمره أن يقتل المدعى عليه فثبت داود وقال هو منام فأتاه الوحي بعد ذلك بأن تقتله فأحضره وأعلمه أن الله أمره بقتله، فقال المدعى عليه صدق الله إني كنت قتلت أبا هذا الرجل غيلة فقتله داود.

فهذه الواقعة شددت ملكه، وأما الأسباب الدينية الموجبة لهذا الشد فهي الصبر والتأمل التام والاحتياط الكامل.

الصفة التاسعة: قوله: وآتيناه الحكمة واعلم أنه تعالى قال: ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا [البقرة:

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٦/٣٥٠

٢٦٩] واعلم أن الفضائل على ثلاثة أقسام النفسانية والبدنية والخارجية، والفضائل النفسانية محصورة في قسمين العلم والعمل، أما العلم فهو أن تصير النفس بالتصورات الحقيقية والتصديقات النفسانية بمقتضى الطاقة البشرية، وأما العمل فهو أن يكون الإنسان آتيا بالعمل الأصلح الأصوب بمصالح الدنيا والآخرة، فهذا هو الحكمة وإنما سمي هذا بالحكمة لأن اشتقاق **الحكمة من** إحكام الأمور وتقويتها وتبعيدها عن أسباب الرخاوة والضعف، والاعتقادات الصائبة الصحيحة لا تقبل النسخ والنقض فكانت في غاية الإحكام، وأما الأعمال المطابقة لمصالح الدنيا والآخرة فإنها واجبة الرعاية ولا تقبل النقض والنسخ، فلهذا السبب سمينا تلك المعارف وهذه الأعمال بالحكمة.

الصفة العاشرة: قوله: وفصل الخطاب واعلم أن أجسام هذا العالم على ثلاثة أقسام أحدها: ما تكون خالية عن الإدراك والشعور وهي الجمادات والنباتات وثانيها: التي يحصل لها إدراك وشعور ولكنها لا تقدر على تعريف غيرها الأحوال التي عرفوها في الأكثر وهذا القسم هو جملة الحيوانات سوى الإنسان وثالثها: الذي يحصل له إدراك وشعور ويحصل عنده قدرة على تعريف غيره الأحوال المعلومة له، وذلك هو الإنسان وقدرته على تعريف الغير الأحوال المعلومة عنده بالنطق والخطاب، ثم إن الناس مختلفون في مراتب القدرة على التعبير عما في الضمير، فمنهم من يتعذر عليه إيراد الكلام المرتب المنتظم بل يكون مختلط الكلام مضطرب القول، ومنهم من يتعذر عليه الترتيب من بعض الوجوه، ومنهم من يكون قادرا على ضبط المعنى والتعبير عنه إلى/ أقصى الغايات، وكل من كانت هذه القدرة في حقه أكمل كانت الآثار الصادرة عن النفس النطقية في حقه أكمل، وكل من كانت تلك القدرة في حقه أقل كانت تلك الآثار أضعف، ولما بين الله تعالى كمال حال جوهر النفس النطقية التي لداود بقوله: وآتيناه الحكمة أردفه ببيان كمال حاله في النطق واللفظ والعبارة فقال وفصل الخطاب وهذا الترتيب في غاية الجلالة، ومن المفسرين من فسر ذلك بأن داود أول من قال في كلامه أما بعد، وأقول حقا إن الذين يتبعون أمثال هذه الكلمات فقد حرموا الوقوف على معاني كلام الله تعالى حرمانا عظيما «١» والله أعلم، وقول من قال المراد معرفة الأمور التي بها يفصل بين الخصوم وهو طلب البينة واليمين فبعيد أيضا، لأن فصل الخطاب عبارة عن كونه قادرا على التعبير عن كل ما يخطر بالبال ويحضر في الخيال،

---

(١) يقصد المؤلف بعبارته هذه الذين فسروا إيتاء داود الحكمة بأنه أول من قال أما بعد، لبعدهم عن الفهم وعن الصواب، وقد روي أن أول من قال أما بعد هو قس بن ساعدة الإيادي الخطيب المشهور.." (١)

"اعلم أن المقصود من ذكر هذه القصة المنع من الحسد والكبر، وذلك لأن إبليس، إنما وقع فيما وقع فيه بسبب الحسد والكبر، والكفار إنما نازعوا محمدا عليه السلام بسبب الحسد والكبر، فالله تعالى ذكر هذه القصة هاهنا ليصير سماعها زاجرا لهم عن هاتين الخصلتين المذمومتين والحاصل أنه تعالى رغب المكلفين في النظر والاستدلال، ومنعهم عن الإصرار والتقليد وذكر في تقريره أمورا أربعة أولها: أنه نبأ عظيم فيجب الاحتياط فيه والثاني: أن قصة سؤال الملائكة عن **الحكمة في** تخليق البشر يدل على أن الحكمة الأصلية في تخليق آدم هو المعرفة والطاعة لا الجهل والتكبر الثالث: أن إبليس إنما خاصم آدم عليه السلام لأجل الحسد والكبر فيجب على العاقل أن يحترز عنهما، فهذا هو وجه النظم في هذه الآيات، واعلم أن هذه القصة قد تقدم شرحها في سور كثيرة، فلا فائدة في الإعادة إلا ما لا بد منه وفيها مسائل:

المسألة الأولى: في قوله: إني خالق بشرا من طين سؤالات:

الأول: أن هذا النظم إنما يصح لو أمكن خلق البشر لا من الطين، كما إذا قيل أنا متخذ سوارا من ذهب، فهذا إنما يستقيم لو أمكن اتخاذه من الفضة.

الثاني: ذكر هاهنا أنه خلق البشر من طين، وفي سائر الآيات ذكر أنه خلقه من سائر الأشياء كقوله تعالى في آدم إنه خلقه من تراب وكقوله: من صلصال من حمإ مسنون [الحجر: ٢٦] وكقوله: خلق الإنسان من عجل [الأنبياء: ٣٧] .

الثالث: أن هذه الآية تدل على أنه تعالى لما أخبر الملائكة بأنه خلق بشرا من طين. لم يقولوا شيئا، وفي الآية الأخرى وهي التي قال: إني جاعل في الأرض خليفة [البقرة: ٣٠] بين أنهم أوردوا السؤال والجواب فبينهما تناقض، والجواب عن الأول أن التقدير كأنه سبحانه وصف لهم أولا أن البشر شخص جامع للقوة البهيمية والسبعية والشيطانية والملكية، فلما قال: إني خالق بشرا من طين فكأنه قال ذلك الشخص المستجمع لتلك الصفات، إنما أخلقه من الطين، والجواب عن الثاني أن المادة البعيدة هو التراب، وأقرب منه الطين، وأقرب منه الحمأ المسنون، وأقرب منه الصلصال فثبت أنه لا منافاة بين الكل، والجواب عن الثالث أنه في الآية المذكورة في سورة البقرة بين لهم أنه يخلق في الأرض خليفة، وبالآية المذكورة هاهنا

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٦/٣٧٦

بين أن ذلك الخليفة بشر مخلوق من الطين.

المسألة الثانية: قال فإذا سويته ونفخت فيه من روحي وهذا يدل على أن تخليق البشر لا يتم إلا بأمرين التسوية أولا، ثم نفخ الروح ثانيا، وهذا حق لأن الإنسان مركب من جسد ونفس.

أما الجسد فإنه إنما يتولد من المني، والمني إنما يتولد من دم الطمث وهو إنما يتولد من الأخلاط الأربعة، وهي إنما تتولد من الأركان الأربعة، ولا بد في حصول هذه التسوية من رعاية مقدار مخصوص لكل واحد منها، ومن رعاية كيفية امتزاجاتها وتركيباتها، ومن رعاية المدة التي في مثلها حصل ذلك المزاج الذي لأجله يحصل الاستعداد لقبول النفس الناطقة.." (١)

"ثم قال تعالى: له مقاليد السماوات والأرض والمعنى أنه سبحانه مالك أمرها وحافظها وهو من باب الكناية، لأن حافظ الخزائن ومدبر أمرها هو الذي بيده مقاليدها، ومنه قولهم: فلان ألقيت مقاليد الملك إليه وهي المفاتيح، قال صاحب «الكشاف» : ولا واحد لها من لفظها، وقيل مقليد ومقاليد، وقيل مقلاد ومقاليد مثل مفتاح ومفاتيح، وقيل إقليد وأقاليد، قال صاحب «الكشاف» : والكلمة أصلها فارسية، إلا أن القوم لما عربوها صارت عربية.

واعلم أن الكلام في تفسير قوله له مقاليد السماوات والأرض قريب من الكلام في قوله تعالى:

وعنده مفاتح الغيب [الأنعام: ٥٩] وقد سبق الاستقصاء هناك،

قيل سأل عثمان رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تفسير قوله له مقاليد السماوات والأرض فقال: «يا عثمان ما سألني عنها أحد قبلك، تفسيرها لا إله إلا الله والله أكبر، سبحان الله وبحمده، أستغفر الله ولا حول ولا قوة إلا بالله، هو الأول والآخر والظاهر والباطن بيده الخير، يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير» هكذا نقله صاحب «الكشاف» .

ثم قال تعالى: والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الخاسرون وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: صريح الآية يقتضي أنه لا خاسر إلا كافر، وهذا يدل على أن كل من لم يكن كافرا فإنه لا بد وأن يحصل له حظ من رحمة الله.

المسألة الثانية: أورد صاحب «الكشاف» سؤالا، وهو أنه بم اتصل قوله والذين كفروا؟ وأجاب عنه بأنه اتصل بقوله تعالى: وينجي الله الذين اتقوا [الزمر: ٦١] أي ينجي الله المتقين بمفازتهم والذين كفروا بآيات

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٤٠٩/٢٦

الله أولئك هم الخاسرون واعترض ما بينهما أنه خالق للأشياء كلها، وأن له مقاليد السموات والأرض.
وأقول هذا عندي ضعيف من وجهين الأول: أن وقوع الفاصل الكبير بين المعطوف والمعطوف عليه بعيد الثاني: أن قوله وينجي الله الذين اتقوا بمفازتهم جملة فعلية، وقوله والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الخاسرون جملة اسمية، وعطف الجملة الاسمية على الجملة الفعلية لا يجوز، بل الأقرب عندي أن يقال إنه لما وصف الله تعالى نفسه بالصفات الإلهية والجلالية، وهو كونه خالقا للأشياء كلها، وكونه مالكا لمقاليد السموات والأرض بأسرها، قال بعده: والذين كفروا بهذه الآيات الظاهرة الباهرة أولئك هم الخاسرون.
ثم قال تعالى: قل أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون وفيه مسائل:
المسألة الأولى: قرأ ابن عامر تأمرونني بنونين ساكنة الياء وكذلك هي في مصاحف الشام، قال الواحدي وهو الأصل، وقرأ ابن كثير تأمروني بنون مشددة على إسكان الأولى وإدغامها في الثانية، وقرأ نافع تأمروني بنون واحدة خفيفة، على حذف إحدى النونين والباقون بنون واحدة مكسورة مشددة.
المسألة الثانية: أفغير الله منصوب بأعبد وتأمروني اعتراض، ومعناه: أفغير الله أعبد بأمركم؟ وذلك حين قال له المشركون أسلم ببعض آلهتنا ونؤمن بإلهك، وأقول نظير هذه الآية، قوله تعالى: قل أغير الله أتخذ وليا فاطر السماوات والأرض [الأنعام: ١٤] وقد ذكرنا في تلك الآية وجه **الحكمة في** تقديم الفعل.
المسألة الثالثة: إنما وصفهم بالجهل لأنه تقدم وصف الإله بكونه خالقا للأشياء وبكونه مالكا لمقاليد السموات والأرض، وظاهر كون هذه الأصنام جمادات أنها لا تضر ولا تنفع، ومن أعرض عن عبادة الإله." (١)

"الله، فهذا الإنسان ما دعا ربه في وقت، أما إذا دعا في وقت لا يبقى في القلب التفات إلى غير الله، فالظاهر أنه تحصل الاستجابة، إذا عرفت هذا ففيه بشارة كاملة، وهي أن انقطاع القلب بالكلية عما سوى الله لا يحصل إلا عند القرب من الموت، فإن الإنسان قاطع في ذلك الوقت بأنه لا ينفعه شيء سوى فضل الله تعالى، فعلى القانون الذي ذكرناه وجب أن يكون الدعاء في ذلك الوقت مقبولا عند الله، ونرجو من فضل الله وإحسانه أن يوفقنا للدعاء المقرون بالإخلاص والتضرع في ذلك الوقت، واعلم أن الكلام المستقصى في الدعاء قد سبق ذكره في سورة البقرة.
ثم قال تعالى: إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين أي صاغرين وهذا إحسان عظيم

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٤٧١/٢٧

من الله تعالى حيث ذكر الوعيد الشديد على ترك الدعاء، فإن قيل

روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال حكاية عن رب العزة أنه قال: «من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين»

فهذا الخبر يقتضي أن ترك الدعاء أفضل، وهذه الآية تدل على أن ترك الدعاء يوجب الوعيد الشديد، فكيف الجمع بينهما؟ قلنا لا شك أن العقل إذا كان مستغرقا في الثناء كان ذلك أفضل من الدعاء، لأن الدعاء طلب للحظ والاستغراق في معرفة جلال الله أفضل من طلب الحظ، أما إذا لم يحصل ذلك الاستغراق كان الاشتغال بالدعاء أولى، لأن الدعاء يشتمل على معرفة عزة الربوبية وذلة العبودية، ثم قال تعالى: الله الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه واعلم أن تعلقه بما قبله من وجهين الأول: كأنه تعالى قال: إني أنعمت عليك قبل طلبك لهذه النعم الجليلة العظيمة، ومن أنعم قبل السؤال بهذه النعم العالية فكيف لا ينعم بالأشياء القليلة بعد السؤال والثاني: أنه تعالى لما أمر بالدعاء، فكأنه قيل الاشتغال بالدعاء لا بد وأن يكون مسبوقا بحصول المعرفة، فما الدليل على وجود الإله القادر، وقد ذكر الله تعالى هذه الدلائل العشرة على وجوده وقدرته وحكمته، واعلم أنا بينا أن دلائل وجود الله وقدرته، إما فلكية، وإما عنصرية، أما الفلكيات فأقسام كثيرة أحدها: تعاقب الليل والنهار، و [لما] كان أكثر مصالح العالم مربوطا بهما فذكرهما الله/ تعالى في هذا المقام، وبين أن الحكمة في خلق الليل حصول الراحة بسبب النوم والسكون، والحكمة في خلق النهار، إبصار الأشياء ليحصل مكنة التصرف فيها على الوجه الأنفع، أما أن السكون في وقت النوم سبب للراحة فبيانه من وجهين: الأول: أن الحركات توجب الإعياء من حيث إن الحركة توجب السخونة والجفاف، وذلك يوجب التألم والثاني: أن الإحساس بالأشياء إنما يمكن بإيصال الأرواح الجسمانية إلى ظاهر الحس، ثم إن تلك الأرواح تتحلل بسبب كثرة الحركات فتضعف الحواس والإحساسات، وإذا نام الإنسان عادت الأرواح الحساسة في باطن البدن وركزت وقويت وتخلصت عن الإعياء، وأيضا الليل بارد رطب فبرودته ورطوبته يتداركان ما حصل في النهار من الحر والجفاف بسبب ما حدث من كثرة الحركات، فهذه هي المنافع المعلومة من قوله تعالى: الله الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه وأما قوله والنهار مبصرا فاعلم أن الإنسان مدني بالطبع، ومعناه أنه ما لم يحصل مدينة تامة لم تنتظم مهمات الإنسان في مأكوله ومشروبه وملبسه ومنكحه، وتلك المهمات لا تحصل إلا بأعمال كثيرة، وتلك الأعمال تصرفات في أمور، وهذه التصرفات لا تكمل إلا بالضوء والنور حتى يميز الإنسان بسبب ذلك

النور بين ما يوافقه وبين ما لا يوافقه، فهذا هو الحكمة في قوله والنهار مبصرا فإن قيل كان الواجب بحسب رعاية النظم أن يقال هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار لتبصروا فيه، أو فجعل لكم الليل ساكنا ولكنه لم يقل كذلك بل قال في الليل لتسكنوا." (١)

"فيه، وقال في النهار مبصرا فما الفائدة فيه؟ وأيضا فما الحكمة في تقديم ذكر الليل على ذكر النهار مع أن النهار أشرف من الليل؟ قلنا: أما الجواب عن الأول: فهو أن الليل والنوم في الحقيقة طبيعة عدمية فهو غير مقصود بالذات، أما اليقظة فأمور وجودية، وهي مقصودة بالذات، وقد بين الشيخ عبد القاهر النحوي في «دلائل الإعجاز» أن دلالة صيغة الاسم على التمام والكمال أقوى من دلالة صيغة الفعل عليهما، فهذا هو السبب في هذا الفرق والله أعلم، وأما الجواب عن الثاني: فهو أن الظلمة طبيعة عدمية والنور طبيعة وجودية والعدم في المحدثات مقدم على الوجود، ولهذا السبب قال في أول سورة الأنعام وجعل الظلمات والنور [الأنعام: ١] .

واعلم أنه تعالى لما ذكر ما في الليل والنهار من المصالح والحكم البالغة قال: إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون والمراد أن فضل الله على الخلق كثيرا جدا ولكنهم لا يشكرونه، وأعلم أن ترك الشكر لوجوه: أحدها: أن يعتقد الرجل أن هذه النعم ليست من الله تعالى مثل أن يعتقد أن هذه الأفلاك واجبة الوجود لذواتها وواجبة الدوران لذواتها، فحينئذ هذا الرجل لا يعتقد أن هذه النعم من الله وثانيها: أن الرجل وإن اعتقد أن كل هذا العالم حصل بتخليق الله وتكوينه إلا أن هذه النعم العظيمة، أعني نعمة تعاقب الليل والنهار لما دامت واستمرت نسيها الإنسان، فإذا ابتلي الإنسان بفقدان شيء منها عرف قدرها مثل أن يتفق لبعض الناس والعياذ بالله أن يحبسه بعض الظلمة في آبار عميقة مظلمة مدة مديدة، فحينئذ يعرف ذلك الإنسان قدر نعمة/ الهواء الصافي وقدر نعمة الضوء، ورأيت بعض الملوك كان يعذب بعض خدمه بأن أمر أقواما حتى يمنعونه عن الاستناد إلى الجدار وعن النوم فعظم وقع هذا التعذيب وثالثها: أن الرجل وإن كان عارفا بمواقع هذه النعم إلا أنه يكون حريصا على الدنيا محبا للمال والجاه، فإذا فاته المال الكثير والجاه العريض وقع في كفران هذه النعم العظيمة، ولما كان أكثر الخلق هالكين في أحد هذه الأودية الثلاثة التي ذكرناها، لا جرم قال تعالى: ولكن أكثر الناس لا يشكرون ونظيره قوله تعالى: وقليل من عبادي الشكور [سبأ: ١٣] وقول إبليس ولا تجد أكثرهم شاكرين [الأعراف: ١٧] ولما بين الله

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٧/٥٢٨

تعالى بتلك الدلائل المذكورة وجود الإله القادر الرحيم الحكيم قال: ذلكم الله ربكم خالق كل شيء لا إله إلا هو قال صاحب «الكشاف» ذلكم المعلوم المميز بالأفعال الخاصة التي لا يشاركه فيها أحد هو الله ربكم خالق كل شيء لا إله إلا هو أخبار مترادفة أي هو الجامع لهذه الأوصاف من الإلهية والربوبية وخلق كل شيء وأنه لا ثاني له فأنى تؤفكون والمراد فأنى تصرفون ولم تعدلون عن هذه الدلائل وتكذبون بها، ثم قال تعالى: كذلك يؤفك الذين كانوا بآيات الله يجحدون يعني أن كل من جحد بآيات الله ولم يتأملها ولم يكن فيه همة لطلب الحق وخوف العاقبة أفك كما أفكوا.

[سورة غافر (٤٠) : الآيات ٦٤ الى ٦٧]

الله الذي جعل لكم الأرض قرارا والسماء بناء وصوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين (٦٤) هو الحي لا إله إلا هو فادعوه مخلصين له الدين الحمد لله رب العالمين (٦٥) قل إني نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله لما جاءني البينات من ربي وأمرت أن أسلم لرب العالمين (٦٦) هو الذي خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم يخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ثم لتكونوا شيوخا ومنكم من يتوفى من قبل ولتبلغوا أجلا مسمى ولعلكم تعقلون (٦٧)." (١)

"المسألة الثانية: من الناس من قال المراد من قوله ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله/ هو الرسول صلى الله عليه وسلم، ومنهم من قال هم المؤذنون، ولكن الحق المقطوع به أن كل من دعا إلى الله بطريق من الطرق فهو داخل فيه، والدعوة إلى الله مراتب:

فالمرتبة الأولى: دعوة الأنبياء عليهم السلام راجحة على دعوة غيرهم من وجوه أحدها: أنهم جمعوا بين الدعوة بالحجة أولا، ثم الدعوة بالسيف ثانيا، وقلما اتفق لغيرهم الجمع بين هذين الطريقين وثانيها: أنهم هم المبتدئون بهذه الدعوة، وأما العلماء فإنهم يبنون دعوتهم على دعوة الأنبياء، والشارع في إحداث الأمر الشريف على طريق الابتداء أفضل وثالثها: أن نفوسهم أقوى قوة، وأرواحهم أصفى جوهرا، فكانت تأثيراتها في إحياء القلوب الميتة وإشراق الأرواح الكدرة أكمل، فكانت دعوتهم أفضل ورابعها: أن النفوس على ثلاثة أقسام:

ناقصة وكاملة لا تقوى على تكميل الناقصين وكاملة تقوى على تكميل الناقصين فالقسم الأول: العوام

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٥٢٩/٢٧

والقسم الثاني: هم الأولياء والقسم الثالث: هم الأنبياء، ولهذا السبب

قال صلى الله عليه وسلم: «علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل»

وإذا عرفت هذا فنقول: إن نفوس الأنبياء حصلت لها مزيتان: الكمال في الذات، والتكميل للغير، فكانت قوتهم على الدعوة أقوى، وكانت درجاتهم أفضل وأكمل، إذا عرفت هذا فنقول: الأنبياء عليهم السلام لهم صفتان:

العلم والقدرة، أما العلماء، فهم نواب الأنبياء في العلم، وأما الملوك، فهم نواب الأنبياء في القدرة، والعلم يوجب الاستيلاء على الأرواح، والقدرة توجب الاستيلاء على الأجساد، فالعلماء خلفاء الأنبياء في عالم الأرواح، والملوك خلفاء الأنبياء في عالم الأجساد. وإذا عرفت هذا ظهر أن أكمل الدرجات في الدعوة إلى الله بعد الأنبياء درجة العلماء، ثم العلماء على ثلاثة أقسام: العلماء بالله، والعلماء بصفات الله، والعلماء بأحكام الله. أما العلماء بالله، فهم الحكماء الذين قال الله تعالى في حقهم يؤتي **الحكمة من** يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا [البقرة: ٢٢٩] وأما العلماء بصفات الله تعالى فهم أصحاب الأصول، وأما العلماء بأحكام الله فهم الفقهاء، ولكل واحد من هذه المقامات ثلاث درجات لا نهاية لها، فلهذا السبب كان للدعوة إلى الله درجات لا نهاية لها، وأما الملوك فهم أيضا يدعون إلى دين الله بالسيف، وذلك بوجهين إما بتحصيله عند عدمه مثل المحاربة مع الكفار، وإما بإبقائه عند وجوده وذلك مثل قولنا المرتد يقتل، وأما المؤذنون فهم يدخلون في هذا الباب دخولا ضعيفا، أما دخولهم فيه فلأن ذكر كلمات الأذان دعوة إلى الصلاة، فكان ذلك داخلا تحت الدعاء إلى الله، وأما كون هذه المرتبة ضعيفة فلأن الظاهر من حال المؤذن أنه لا يحيط بمعاني تلك الكلمات وبتقدير أن يكون محيطا بها إلا أنه لا يريد بذكرها تلك المعاني الشريفة، فهذا هو الكلام، في مراتب الدعوة إلى الله.

المسألة الثالثة: قوله ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله يدل على أن الدعوة إلى الله أحسن من كل ما سواها، إذا عرفت هذا فنقول: كل ما كان أحسن الأعمال وجب أن يكون واجبا، لأن كل ما لا يكون واجبا فالواجب أحسن منه، فثبت أن كل ما كان أحسن الأعمال فهو/ واجب، إذا عرفت هذا فنقول الدعوة إلى الله أحسن الأعمال بمقتضى هذه الآية، وكل ما كان أحسن الأعمال فهو واجب، ثم ينتج أن الدعوة إلى الله واجبة، ثم نقول الأذان دعوة إلى الله والدعوة إليه واجبة فينتج الأذان واجب، واعلم أن الأكثرين من

الفقهاء زعموا أن الأذان غير واجب، وزعموا أن الأذان غير داخل في هذه الآية، والدليل القاطع عليه أن الدعوة المرادة بهذه الآية." (١)

"خلق الله القلم، فأمره أن يكتب ما يريد أن يخلق» «١» فالكتاب عنده فإن قيل وما **الحكمة في** خلق هذا اللوح المحفوظ مع أنه تعالى علام الغيوب ويستحيل عليه السهو والنسيان؟ قلنا إنه تعالى لما أثبت في ذلك أحكام حوادث المخلوقات، ثم إن الملائكة يشاهدون أن جميع الحوادث إنما تحدث على موافقة ذلك المكتوب، استدلوا بذلك على كمال حكمة الله وعلمه.

الصفة الثانية: من صفات اللوح المحفوظ قوله لدينا هكذا ذكره ابن عباس، وإنما خصه الله تعالى بهذا التشريف لكونه كتابا جامعا لأحوال جميع المحدثات، فكأنه الكتاب المشتمل على جميع ما يقع في ملك الله وملكوته، فلا جرم حصل له هذا التشريف، قال الواحدي، ويحتمل أن يكون هذا صفة القرآن والتقدير إنه لدينا في أم الكتاب.

الصفة الثالثة: كونه عليا والمعنى كونه عاليا عن وجوه الفساد والبطلان وقيل المراد كونه عاليا على جميع الكتب بسبب كونه معجزا باقيا على وجه الدهر.

الصفة الرابعة: كونه حكيما أي محكما في أبواب البلاغة والفصاحة، وقيل حكيم أي ذو حكمة بالغة، وقيل إن هذه الصفات كلها صفات القرآن على ما ذكرناه والقول الثاني: في تفسير أم الكتاب أنه الآيات المحكمة لقوله تعالى: هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب [آل عمران: ٧] ومعناه أن سورة حم واقعة في الآيات المحكمة التي هي الأصل والأم.

ثم قال تعالى: أفنضرب عنكم الذكر صفحا أن كنتم قوما مسرفين وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قرأ نافع وحمزة والكسائي إن كنتم بكسر الألف تقديره: إن كنتم مسرفين لا نضرب عنكم الذكر صفحا، وقيل (إن) بمعنى إذ كقوله تعالى: وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين [البقرة: ٢٧٨] وبالجملة فالجزاء مقدم على الشرط، وقرأ الباقون بفتح الألف على التعليل أي لأن كنتم مسرفين.

المسألة الثانية: قال الفراء والزجاج يقول ضربت عنه وأضربت عنه أي تركته وأمسكت عنه وقوله صفحا أي إعراضا والأصل فيه أنك توليت بصفحة عنقك وعلى هذا فقوله أفنضرب عنكم الذكر صفحا تقديره: أفنضرب عنكم إضرابنا أو تقديره أفنصفح عنكم صفحا، واختلفوا/ في معنى الذكر فقيل معناه أفنرد عنكم

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٧/٥٦٣

ذكر عذاب الله، وقيل أفنرد عنكم النصائح والمواعظ، وقيل أفنرد عنكم القرآن، وهذا استفهام على سبيل الإنكار، يعني إنا لا نترك هذا الإعذار والإنذار بسبب كونكم مسرفين، قال قتادة: لو أن هذا القرآن رفع حين رده أوائل هذه الأمة لهلكوا ولكن الله برحمته كرره عليهم ودعاهم إليه عشرين سنة إذا عرفت هذا فنقول هذا الكلام يحتمل وجهين: الأول: الرحمة يعني أنا لا نترككم مع سوء اختياركم بل نذكركم ونعظكم إلى أن ترجعوا إلى الطريق الحق الثاني: المبالغة في التغليظ يعني أتظنون أن تتركوا مع ما تريدون، كلا بل نلزمكم العمل وندعوكم إلى الدين ونؤاخذكم متى أخللتم بالواجب وأقدمتم على القبيح.

المسألة الثالثة: قال صاحب «الكشاف» : الفاء في قوله أفنضرب للعطف على محذوف تقديره أنهملكم فنضرب عنكم الذكر.

---

(١) هكذا في الأصل والعبارة ويظهر أن به سقطا.." (١)

"المسألة السادسة:

روي أن عطية الحروري سأل ابن عباس رضي الله عنهما عن قوله إنا أنزلناه في ليلة القدر [القدر: ١] وقوله إنا أنزلناه في ليلة مباركة كيف يصح ذلك مع أن الله تعالى أنزل القرآن في جميع الشهور؟ فقال ابن عباس رضي الله عنهما: يا ابن الأسود لو هلكت أنا ووقع هذا في نفسك ولم تجد جوابه هلكت، نزل القرآن جملة من اللوح المحفوظ إلى البيت المعمور، وهو في السماء الدنيا، ثم نزل بعد ذلك في أنواع الوقائع حالا فحالا.

والله أعلم.

المسألة السابعة: في بيان نظم هذه الآيات، اعلم أن المقصود منها تعظيم القرآن من ثلاثة أوجه أحدها: بيان تعظيم القرآن بحسب ذاته الثاني: بيان تعظيمه بسبب شرف الوقت الذي نزل فيه الثالث: بيان تعظيمه بحسب شرف منزلته، أما بيان تعظيمه بحسب ذاته فمن ثلاثة أوجه أحدها: أنه تعالى أقسم به وذلك يدل على شرفه وثانيها: أنه تعالى أقسم به على كونه نازلا في ليلة مباركة، وقد ذكرنا أن القسم بالشيء على حالة من أحوال نفسه يدل على كونه في غاية الشرف وثالثها: أنه تعالى وصفه بكونه مبينا وذلك يدل أيضا على شرفه في ذاته.

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٦١٨/٢٧

وأما النوع الثاني: وهو بيان شرفه لأجل شرف الوقت الذي أنزل فيه فهو قوله إنا أنزلناه في ليلة مباركة وهذا تنبيه على أن نزوله في ليلة مباركة يقتضي شرفه وجلالته، ثم نقول إن قوله إنا أنزلناه في ليلة مباركة يقتضي أمرين: أحدها: أنه تعالى أنزله والثاني: كون تلك الليلة مباركة فذكر تعالى عقيب هذه الكلمة ما يجري مجرى البيان لكل واحد منهما، أما بيان أنه تعالى لم أنزله فهو قوله إنا كنا منذرين يعني الحكمة في إنزال هذه السورة أن إنذار الخلق لا يتم/ إلا به، وأما بيان أن هذه الليلة ليلة مباركة فهو أمران: أحدهما: أنه تعالى يفرق فيها كل أمر حكيم، والثاني: أن ذلك الأمر الحكيم مخصوصا بشرف أنه إنما يظهر من عنده، وإليه الإشارة بقوله أمرا من عندنا.

وأما النوع الثالث: فهو بيان شرف القرآن لشرف منزله وذلك هو قوله إنا كنا مرسلين فبين أن ذلك الإنذار والإرسال إنما حصل من الله تعالى، ثم بين أن ذلك الإرسال إنما كان لأجل تكميل الرحمة وهو قوله رحمة من ربك وكان الواجب أن يقال رحمة منا إلا أنه وضع الظاهر موضع المضمر إيذانا بأن الربوبية تقتضي الرحمة على المربوبين، ثم بين أن تلك الرحمة وقعت على وفق حاجات المحتاجين لأنه تعالى يسمع تضرعاتهم، ويعلم أنواع حاجاتهم، فلهذا قال: إنه هو السميع العليم فهذا ما خطر بالبال في كيفية تعلق بعض هذه الآيات ببعض.

المسألة الثامنة: في تفسير مفردات هذه الألفاظ، أما قوله تعالى: إنا أنزلناه في ليلة مباركة فقد قيل فيه إنه تعالى أنزل كلية القرآن من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا في هذه الليلة، ثم أنزل في كل وقت ما يحتاج إليه المكلف، وقيل يبدأ في استنساخ ذلك من اللوح المحفوظ في ليلة البراءة ويقع الفراغ في ليلة القدر فتدفع نسخة الأرزاق إلى ميكائيل، ونسخة الحروب إلى جبرائيل وكذلك الزلازل والصواعق والخسف، ونسخة الأعمال إلى إسماعيل «١» صاحب سماء الدنيا وهو ملك عظيم، ونسخة المصائب إلى ملك الموت.

---

(١) هكذا في الأصل والمعروف المشهور المتواتر أن اسمه «إسرافيل» .." (١)

"[سورة محمد (٤٧) : آية ٢]

والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد وهو الحق من ربهم كفر عنهم سيئاتهم وأصلح

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٦٥٤/٢٧

بالهم (٢)

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قد ذكرنا مرارا أن الله تعالى كلما ذكر الإيمان والعمل الصالح، رتب عليهما المغفرة والأجر كما قال: فالذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة ورزق كريم [الحج: ٥٠] وقال: والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفرن عنهم سيئاتهم ولنجزينهم [العنكبوت: ٧] وقلنا بأن المغفرة ثواب الإيمان والأجر على العمل الصالح واستوفينا البحث فيه في سورة العنكبوت فنقول هاهنا جزاء ذلك قوله كفر عنهم سيئاتهم إشارة إلى ما يثيب على الإيمان، وقوله وأصلح بالهم إشارة إلى ما يثيب على العمل الصالح.

المسألة الثانية: قالت المعتزلة تكفير السيئات مرتب على الإيمان والعمل الصالح فمن آمن ولم يفعل الصالحات يبقى في العذاب خالدا، فنقول لو كان كما ذكرتم لكان الإضلال مرتبا على الكفر والضد، فمن يكفر لا ينبغي أن تضل أعماله، أو نقول قد ذكرنا أن الله رتب أمرين على أمرين فمن آمن كفر سيئاته ومن عمل صالحا أصلح باله أو نقول أي مؤمن يتصور أنه غير آت بالصالحات بحيث لا يصدر عنه صلاة ولا صيام ولا صدقة ولا إطعام، وعلى هذا فقوله وعملوا عطف المسبب على السبب، كما قلنا في قول القائل أكلت كثيرا وشبعت.

المسألة الثالثة: قوله وآمنوا بما نزل على محمد مع أن قوله آمنوا وعملوا الصالحات أفاد هذا المعنى فما الحكمة فيه وكيف وجهه؟ فنقول: أما وجهه فبيانه من وجوه الأول: قوله والذين آمنوا أي بالله ورسوله واليوم الآخر، وقوله وآمنوا بما نزل أي بجميع الأشياء الواردة في كلام الله ورسوله تعميم بعد أمور خاصة وهو حسن، تقول خلق الله السموات والأرض وكل شيء إما على معنى وكل شيء غير ما ذكرنا وإما على العموم بعد ذكر الخصوص الثاني: أن يكون المعنى آمنوا وآمنوا من قبل بما نزل على محمد وهو الحق المعجز الفارق بين الكاذب والصادق يعني آمنوا أولا بالمعجز وأيقنوا بأن القرآن لا يأتي به غير الله، فآمنوا وعملوا الصالحات والواو للجمع المطلق، ويجوز أن يكون المتأخر ذكرا متقدما وقوعا، وهذا كقول القائل آمن به، وكان الإيمان به واجبا، أو يكون بيانا لإيمانهم كأنهم وآمنوا بما نزل على محمد أي آمنوا وآمنوا بالحق كما يقول القائل خرجت وخرجت مصيبا أي وكان خروجي جيدا حيث نجوت من كذا وربحت كذا فكذلك لما قال آمنوا بين أن إيمانهم كان بما أمر الله وأنزل الله لا بما كان باطلا من عند غير الله الثالث: ما قاله أهل المعرفة، وهو أن العلم العمل والعمل العلم، فالعلم يحصل ليعمل به لما جاء: إذا عمل

العالم العمل الصالح علم ما لم يكن يعلم، فيعلم الإنسان مثلا قدرة الله بالدليل وعلمه وأمره فيحمله الأمر على الفعل ويحثه عليه علمه فعلمه بحاله وقدرته على ثوابه وعقابه، فإذا أتى بالعمل الصالح علم من أنواع مقدورات الله ومعلومات الله تعالى ما لم يعلمه أحد إلا بإطلاع الله عليه وبكشفه ذلك له فيؤمن، وهذا هو المعني في قوله هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم [الفتح: ٤] فإذا آمن المكلف بمحمد بالبرهان وبالمعجزة وعمل صالحا حمله علمه على أن يؤمن بكل ما قاله محمد ولم يجد في نفسه شكا، وللمؤمن في المرتبة الأولى أحوال وفي المرتبة الأخيرة أحوال، أما في الإيمان بالله ففي الأول يجعل الله معبودا، وقد يقصد غيره في حوائجه فيطلب الرزق من." (١)

"المسألة الثالثة: ما الحكمة في اختيار ضرب الرقبة على غيرها من الأعضاء نقول فيه: لما بين أن المؤمن ليس يدافع إنما هو دافع، وذلك أن من يدفع الصائل لا ينبغي أن يقصد أولا مقتله بل يتدرج ويضرب على غير المقتل، فإن اندفع فذاك ولا يترقى إلى درجة الإهلاك، فقال تعالى ليس المقصود إلا دفعهم عن وجه الأرض، وتطهير الأرض منهم، وكيف لا والأرض لكم مسجد، والمشركون نجس، والمسجد يطهر من النجاسة، فإذا ينبغي أن يكون قصدكم أولا إلى قتلهم بخلاف دفع الصائل، والرقبة أظهر المقاتل لأن قطع الحلقوم والأوداج مستلزم للموت لكن في الحرب لا يتهيأ ذلك، والرقبة ظاهرة في الحرب ففي ضربها حز العنق وهو مستلزم للموت بخلاف سائر المواضع، ولا سيما في الحرب، وفي قوله لقيتم ما ينبئ عن مخالفتهم الصائل لأن قوله لقيتم يدل على أن القصد من جانبهم بخلاف قولنا لقيكم، ولذلك قال في غير هذا الموضع واقتلوهم حيث ثقفتموهم [البقرة: ١٩١] .

المسألة الرابعة: قال هاهنا فضرب الرقاب بإظهار المصدر وترك الفعل، وقال في الأنفال فاضربوا فوق الأعناق [الأنفال: ١٢] بإظهار الفعل، وترك المصدر، فهل فيه فائدة؟ نقول نعم ولنبينها بتقديم مقدمة، وهي أن المقصود أولا في بعض السور قد يكون صدور الفعل من فاعل ويتبعه المصدر/ ضمنا، إذ لا يمكن أن يفعل فاعل إلا ويقع منه المصدر في الوجود، وقد يكون المقصود أولا المصدر ولكنه لا يوجد إلا من فاعل فيطلب منه أن يفعل، مثاله من قال: إني حلفت أن أخرج من المدينة. فيقال له: فاخرج، صار المقصود منه صدور الفعل منه والخروج في نفسه غير مقصود الانتفاء، ولو أمكن أن يخرج من غير تحقق الخروج منه لما كان عليه إلا أن يخرج لكن من ضرورات الخروج أن يخرج، فإذا قال قائل ضاق بي

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٣٤/٢٨

المكان بسبب الأعداء فيقال له مثلا الخروج يعني الخروج فاخرج فإن الخروج هو المطلوب حتى لو أمكن الخروج من غير فاعل لحصل الغرض لكنه محال فيتبعه الفعل، إذا عرفت هذا فنقول في الأنفال الحكاية عن الحرب الكائنة وهم كانوا فيها والملائكة أنزلوا لنصرة من حضر في صف القتال فصدور الفعل منه مطلوب، وهاهنا الأمر وارد وليس في وقت القتال بدليل قوله تعالى: فإذا لقيتم والمقصود بيان كون المصدر مطلوبا لتقدم المأمور على الفعل قال:

فضرب الرقاب وفيما ذكرنا تبيين فائدة أخرى وهي أن الله تعالى قال هناك واضربوا منهم كل بنان [الأنفال: ١٢] وذلك لأن الوقت وقت القتال فأرشدهم إلى المقتل وغيره إن لم يصيبوا المقتل، وهاهنا ليس وقت القتال فبين أن المقصود القتل وغرض المسلم ذلك.

المسألة الخامسة: حتى لبيان غاية الأمر لا لبيان غاية القتل أي حتى إذا أثخنتموهم لا يبقى الأمر بالقتل، ويبقى الجواز ولو كان لبيان القتل لما جاز القتل، والقتل جائز إذا التحق المثخن بالشيخ الهرم، والمراد كما إذا قطعت يداه ورجلاه فنهى عن قتله.

ثم قال تعالى: فشدوا الوثاق أمر إرشاد.

ثم قال تعالى: فإما منا بعد وإما فداء وفيه مسائل:

المسألة الأولى: (إما) وإنما للحصر وحالهم بعد الأسر غير منحصر في الأمرين، بل يجوز القتل والاسترقاق والمن والفداء، نقول هذا إرشاد فذكر الأمر العام الجائز في سائر الأجناس، والاسترقاق غير جائز." (١)

"[سورة الفتح (٤٨) : آية ٥]

ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ويكفر عنهم سيئاتهم وكان ذلك عند الله فوزا عظيما (٥)

[فيه مسائل] [المسألة الأولى] يستدعي فعلا سابقا ليدخل فإن من قال ابتداء لتكرمني لا يصح ما لم يقل قبله جئتك أو ما يقوم مقامه وفي ذلك الفعل وجوه وضبط الأحوال فيه بأن تقول ذلك الفعل إما أن يكون مذكورا بصريحه أو لا يكون، وحينئذ ينبغي أن يكون مفهوما، فإما أن يكون مفهوما من لفظ يدل عليه بل فهم بقرينة حالية فإن كان مذكورا فهو يحتمل وجوها أحدها: قوله ليزدادوا إيمانا [الفتح: ٤] كأنه تعالى أنزل السكينة/ ليزدادوا إيمانا بسبب الإنزال ليدخلهم بسبب الإيمان جنات، فإن قيل فقوله ويعذب [الفتح:

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٣٨/٢٨

٦] عطف على قوله ليدخل وازدياد إيمانهم لا يصلح سببا لتعذيبهم، نقول بلى وذلك من وجهين أحدهما: أن التعذيب مذكور لكونه مقصودا للمؤمنين، كأنه تعالى يقول بسبب ازديادكم في الإيمان يدخلكم في الآخرة جنات ويعذب بأيديكم في الدنيا الكفار والمنافقين الثاني: تقديره ويعذب بسبب ما لكم من الازدياد، يقال فعلته لأجرب به العدو والصديق أي لأعرف بوجوده الصديق وبعدمه العدو فكذلك ليزداد المؤمن إيمانا فيدخله الجنة ويزداد الكافر كفرا فيعذبه به ووجه آخر ثالث: وهو أن سبب زيادة إيمان المؤمنين بكثرة صبرهم وثباتهم فيعيى المنافق والكافر معه ويتعذب وهو قريب مما ذكرنا الثاني: قوله وينصرك الله [الفتح: ٣] كأنه تعالى قال وينصرك الله بالمؤمنين ليدخل المؤمنين جنات الثالث: قوله ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك [الفتح: ٢] على قولنا المراد ذنب المؤمن كأنه تعالى قال ليغفر لك ذنب المؤمنين، ليدخل المؤمنين جنات، وأما إن قلنا هو مفهوم من لفظ غير صريح فيحتمل وجوها أيضا أحدها: قوله حكيما [الفتح: ٤] يدل على ذلك كأنه تعالى قال: الله حكيم، فعل ما فعل ليدخل المؤمنين جنات وثانيها: قوله تعالى: ويتم نعمته عليك [الفتح: ٢] في الدنيا والآخرة، فيستجيب دعاءك في الدنيا ويقبل شفاعتك في العقبى ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات ثالثها: قوله إنا فتحنا لك [الفتح: ١] ووجهه هو أنه

روي أن المؤمنين قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم هنيئا لك إن الله غفر لك فماذا لنا؟

فنزلت هذه الآية

كأنه تعالى قال: إنا فتحنا لك فتحا مبينا ليغفر لك وفتحنا للمؤمنين ليدخلهم جنات، وأما إن قلنا إن ذلك مفهوم من غير مقال بل من قرينة الحال، فنقول هو الأمر بالقتال لأن من ذكر الفتح والنصر علم أن الحال حال القتال، فكأنه تعالى قال إن الله تعالى أمر بالقتال ليدخل المؤمنين، أو نقول عرف من قرينة الحال أن الله اختار المؤمنين ليدخلهم جنات.

المسألة الثانية: قال هاهنا وفي بعض المواضع المؤمنين والمؤمنات وفي بعض المواضع اكتفى بذكر المؤمنين ودخلت المؤمنات فيهم كما في قوله تعالى: وبشر المؤمنين [الأحزاب: ٤٧] وقوله تعالى: قد أفلح المؤمنون [المؤمنون: ١] فما الحكمة فيه؟ نقول في المواضع التي فيها ما يوهم اختصاص المؤمنين بالجزاء الموعود به مع كون المؤمنات يشتركن معهم ذكرهن الله صريحا، وفي المواضع التي ليس فيها ما يوهم ذلك اكتفى بدخولهم في المؤمنين فقوله وبشر المؤمنين مع أنه علم من قوله تعالى: وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا

ونذيرا [سبأ: ٢٨] العموم لا يوهم خروج المؤمنات عن البشارة، وأما هاهنا فلما كان قوله تعالى: ليدخل المؤمنين لفعل سابق وهو إما الأمر بالقتال أو الصبر فيه أو النصر للمؤمنين أو الفتح بأيديهم على ما." (١)

"[سورة الفتح (٤٨) : الآيات ٨ الى ٩]

إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا (٨) لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلا (٩)

قال المفسرون: شاهدا على أمتك بما يفعلون كما قال تعالى: ويكون الرسول عليكم شهيدا [البقرة: ١٤٣] والأولى أن يقال إن الله تعالى قال: إنا أرسلناك شاهدا وعليه يشهد أنه لا إله إلا الله كما قال تعالى: شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم [آل عمران: ١٨] وهم الأنبياء عليهم السلام، الذين آتاهم الله علما من عنده وعلمهم ما لم يكونوا يعلمون، ولذلك قال تعالى: فاعلم أنه لا إله إلا الله [محمد: ١٩] أي فاشهد وقوله ومبشرا لمن قبل شهادته وعمل بها ويوافقه فيها ونذيرا لمن رد شهادته ويخالفه فيها ثم بين فائدة الإرسال على الوجه الذي ذكره فقال: لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلا وهذا يحتمل وجهين: أحدهما: أن تكون الأمور الأربعة المذكورة مرتبة على الأمور المذكورة من قبل فقوله لتؤمنوا بالله ورسوله مرتب على قوله إنا أرسلناك/ لأن كونه مرسلا من الله يقتضي أن يؤمن المكلف بالله والمرسل وبالمرسل وقوله شاهدا يقتضي أن يعزر الله ويقوي دينه لأن قوله شاهدا على ما بينا معناه أنه يشهد أنه لا إله إلا هو فدينه هو الحق وأحق أن يتبع وقوله مبشرا يقتضي أن يوقر الله لأن تعظيم الله عنده على شبه تعظيم الله إياه. وقوله نذيرا يقتضي أن ينزه عن السوء والفحشاء مخافة عذابه الأليم وعقابه الشديد، وأصل الإرسال مرتب على أصل الإيمان ووصف الرسول يترتب عليه وصف المؤمن وثانيهما: أن يكون كل واحد مقتضيا للأمور الأربعة فكونه مرسلا يقتضي أن يؤمن المكلف بالله ورسوله ويعزره ويوقره ويسبحه، وكذلك كونه شاهدا بالوحدانية يقتضي الأمور المذكورة، وكذلك كونه مبشرا ونذيرا لا يقال إن اقتران اللام بالفعل يستدعي فعلا مقدما يتعلق به ولا يتعلق بالوصف وقوله لتؤمنوا يستدعي فعلا وهو قوله إنا أرسلناك فكيف تترتب الأمور على كونه شاهدا ومبشرا لأنا نقول يجوز الترتيب عليه معنى لا لفظا، كما أن القائل إذا قال بعثت إليك عالما لتكرمه فاللفظ ينبئ عن كون البعث سبب الإكرام، وفي المعنى كونه عالما هو السبب للإكرام، ولهذا لو قال بعثت إليك جاهلا لتكرمه كان حسنا، وإذا أردنا الجمع بين اللفظ

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٦٩/٢٨

والمعنى نقول: الإرسال الذي هو إرسال حال كونه شاهدا كما تقول بعث العالم سبب جعله سببا لا مجرد البعث، ولا مجرد العالم، في الآية مسائل:

المسألة الأولى: قال في الأحزاب إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا [الأحزاب: ٤٥، ٤٦] وهاهنا اقتصر على الثلاثة من الخمسة فما **الحكمة فيه**؟ نقول الجواب عنه من وجهين أحدهما: أن ذلك المقام كان مقام ذكره لأن أكثر السورة في ذكر الرسول صلى الله عليه وسلم وأحواله وما تقدمه من المبايعة والوعد والدخول ففصل هنالك، ولم يفصل هاهنا ثانيهما: أن نقول الكلام مذكور هاهنا لأن قوله شاهدا لما لم يقتض أن يكون داعيا لجواز أن يقول مع نفسه أشهد أن لا إله إلا الله، ولا يدعو الناس قال هناك وداعيا لذلك، وهاهنا لما لم يكن كونه شاهدا منبئا عن كونه داعيا قال: لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه دليل على كونه سراجا لأنه أتى بما يجب من التعظيم والاجتناب عما يحرم من السوء والفحشاء بالتنزيه وهو التسبيح.." (١)

"العالم بحال المحل والثاني: ما يحصل من القتل خطأ، وهو/ غير عدم العلم، فقال: تصيبكم منهم معرة غير معلومة، لا التي تكون عن العلم وجواب: لولا محذوف تقديره: لولا ذلك لما كف أيديكم عنهم، هذا ما قاله الزمخشري وهو حسن، ويحتمل أن يقال جوابه: ما يدل عليه قوله تعالى: هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام يعني قد استحقوا لأن لا يهملوا، ولولا رجال مؤمنون لوقع ما استحقوه، كما يقول القائل:

هو سارق ولولا فلان لقطعت يده، وذلك لأن لولا لا تستعمل إلا لامتناع الشيء لوجود غيره، وامتناع الشيء لا يكون إلا إذا وجد المقتضي له فمنعه الغير فذكر الله تعالى أولا المقتضي التام البالغ وهو الكفر والصد والمنع، وذكر ما امتنع لأجله مقتضاه وهو وجود الرجال المؤمنين.

وقوله تعالى: ليدخل الله في رحمته من يشاء لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذابا أليما فيه أبحاث:

الأول: في الفعل الذي يستدعي اللام الذي بسببه يكون الإدخال وفيه وجوه أحدها: أن يقال هو قوله أيديكم عنهم ليدخل، لا يقال بأنك ذكرت أن المانع وجود رجال مؤمنين فيكون كأنه قال: كف أيديكم لئلا تطئوا فكيف يكون لشيء آخر؟ نقول الجواب عنه من وجهين أحدهما: أن نقول كف أيديكم لئلا تطئوا لتدخلوا كما يقال أطعمته ليشبع ليغفر الله لي أي الإطعام للشابع كان ليغفر الثاني: هو أنا بينا أن

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٧٢/٢٨

لولا جوابه ما دل عليه قوله هم الذين كفروا فيكون كأنه قال هم الذين كفروا واستحقوا التعجل في إهلاكهم، ولولا رجال لعجل بهم ولكن كف أيديكم ليدخل ثانيها: أن يقال فعل ما فعل ليدخل لأن هناك أفعالا من الألطاف والهداية وغيرهما، وقوله ليدخل الله في رحمته من يشاء ليؤمن منهم من علم الله تعالى أنه يؤمن في تلك السنة أو ليخرج من مكة ويهاجر فيدخلهم في رحمته وقوله تعالى: لو تزيلوا أي لو تميزوا، والضمير يحتمل أن يقال هو ضمير الرجال المؤمنين والنساء المؤمنات، فإن قيل كيف يصح هذا وقد قلتم بأن جواب لولا محذوف وهو قوله لما كف أو لعجل ولو كان لو تزيلوا راجعا إلى الرجال لكان لعذبنا جواب لولا؟ نقول وقد قال به الزمخشري فقال: لو تزيلوا يتضمن ذكر لولا فيحتمل أن يكون لعذبنا جواب لولا، ويحتمل أن يقال هو ضمير من يشاء، كأنه قال ليدخل من يشاء في رحمته لو تزيلوا هم وتميزوا وآمنوا لعذبنا الذين كتب الله عليهم أنهم لا يؤمنون، وفيه أبحاث:

البحث الأول: وهو على تقدير نفرضه فالكلام يفيد أن العذاب الأليم اندفع عنهم، إما بسبب عدم التزييل، أو بسبب وجود الرجال وعلم تقدير وجود الرجال والعذاب الأليم لا يندفع/ عن الكافر، نقول المراد عذابا عاجلا بأيديكم يبتدئ بالجنس إذ كانوا غير مقرنين ولا منقلبين إليهم فيظهرون ويقتدرون يكون أليما.

البحث الثاني: ما **الحكمة في** ذكر المؤمنين والمؤمنات مع أن المؤنث يدخل في ذكر المذكر عند الاجتماع؟ قلنا الجواب عنه من وجهين أحدهما: ما تقدم يعني أن الموضع موضع وهم اختصاص الرجال بالحكم لأن قوله تطؤهم فتصيبكم معناه تهلكوهم والمراد لا تقاتل ولا تقتل فكان المانع وهو وجود الرجال المؤمنين فقال: والنساء المؤمنات أيضا لأن تخريب بيوتهن ويتم أولادهن بسبب رجالهن وطأة شديدة وثانيهما:

أن في محل الشفقة تعد المواضع لترقيق القلب، يقال لمن يعذب شخصا لا تعذبه وارحم ذله وفقره وضعفه، ويقال أولاده وصغاره وأهله الضعفاء العاجزين، فكذلك هاهنا قال: لولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات." (١)

"الخطاب وتاء الفاعل حرفان من جنس واحد في كلمة وهمزة الاستفهام كلمة برأسها وهمزة أنذرتهم أخرى واحتمال حرفين في كلمتين أسهل من احتماله في كلمة، ولهذا وجب الإدغام في قولنا: مد، ولم يجب في قولنا امدد، و [في] قولنا: مر، [دون] قوله: أمر ربنا.

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٨٣/٢٨

[سورة الحجرات (٤٩) : آية ١٢]

يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه واتقوا الله إن الله تواب رحيم (١٢)

[في قوله تعالى يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم] لأن الظن هو السبب فيما تقدم وعليه تبنى القبائح، ومنه يظهر العدو المكاشح والقائل إذا أوقف أموره على اليقين فقلما يتيقن في أحد عيبا فيلمزه به، فإن الفعل في الصورة قد يكون قبيحا وفي نفس الأمر لا يكون كذلك، لجواز أن يكون فاعله ساهيا أو يكون الرائي مخطئا، وقوله كثيرا إخراج للظنون التي عليها تبنى الخيرات

قال النبي صلى الله عليه وسلم: «ظنوا بالمؤمن خيرا»

وبالجملة كل أمر لا يكون بناؤه على اليقين، فالظن فيه غير مجتنب مثاله حكم الحاكم على قول الشهود وبراءة الذمة عند عدم الشهود إلى غير ذلك فقوله اجتنبوا كثيرا وقوله تعالى: إن بعض الظن إثم إشارة إلى الأخذ بالأحوط كما أن الطريق المخوفة لا يتفق كل مرة فيه قاطع طريق، لكنك لا تسلك لاتفاق ذلك فيه مرة ومرتين، إلا إذا تعين فتسلكه مع رفقة كذلك الظن ينبغي بعد اجتهاد تام ووثوق بالغ.

ثم قال تعالى: ولا تجسسوا إتماما لما سبق لأنه تعالى لما قال: اجتنبوا كثيرا من الظن فهم منه أن المعتبر اليقين فيقول القائل أنا أكشف فلانا يعني أعلمه يقينا وأطلع على عيبه مشاهدة فأعيب فأكون قد اجتنبت الظن فقال تعالى: ولا تتبعوا الظن، ولا تجتهدوا في طلب اليقين في معايب الناس.

ثم قال تعالى: ولا يغتب بعضكم بعضا إشارة إلى وجوب حفظ عرض المؤمن في غيبته وفيه معان أحدها: في قوله تعالى: بعضكم بعضا فإنه للعموم في الحقيقة كقوله لا تلمزوا أنفسكم [الحجرات: ١١] وأما من اغتاب فالمغتاب أولا يعلم عيبه فلا يحمل فعله على أن يغتابه فلم يقل ولا تغتابوا أنفسكم لما أن الغيبة ليست حاملة للعائب على عيبه من اغتابه، والعيب حامل على العيب ثانيها: لو قال قائل هذا المعنى كان حاصلا بقوله تعالى: لا تغتابوا، مع الاقتصار عليه نقول لا، وذلك لأن الممنوع اغتياب المؤمن فقال: بعضكم بعضا وأما الكافر فيعلن ويذكر بما فيه وكيف لا والفاسق يجوز أن يذكر بما فيه عند الحاجة [قوله تعالى: أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا] ثالثها: قوله تعالى: أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا دليل على أن الاغتياب الممنوع اغتياب المؤمن لا ذكر الكافر، وذلك لأنه شبهه بأكل لحم الأخ، وقال من قبل إنما المؤمنون إخوة

[الحجرات: ١٠] فلا أخوة إلا بين المؤمنين، ولا منع إلا من شيء يشبه أكل لحم الأخ ففي هذه الآية نهي عن اغتياب المؤمن دون الكافر رابعها: ما الحكمة في هذا التشبيه؟ نقول هو إشارة إلى أن عرض الإنسان كدمه ولحمه، وهذا من باب القياس الظاهر، وذلك لأن عرض المرء أشرف من لحمه، فإذا لم يحسن من العاقل أكل لحوم الناس لم يحسن منه قرض عرضهم بالطريق الأولى لأن ذلك آلم، وقوله لحم أخيه آكد في المنع لأن العدو يحمله الغضب على مضغ لحم العدو، فقال أصدق الأصدقاء من ولدته أمك، فأكل لحمه أقبح/ ما يكون، وقوله تعالى: ميتا إشارة إلى دفع وهم، وهو أن يقال القول في الوجه يؤلم فيحرم، وأما الاغتياب فلا اطلاع عليه للمغتاب فلا." (١)

"اثنين الدين المتين، وأحدهما نسيب ترجح بالنسب عند الناس لا عند الله لأن الله تعالى يقول: وأن ليس للإنسان إلا ما سعى [النجم: ٣٩] وشرف النسب ليس مكتسبا ولا يحصل بسعي.

البحث الثاني: ما الحكمة في اختيار النسب من جملة أسباب التفاخر، ولم يذكر المال؟ نقول الأمور التي يفتخر بها في الدنيا وإن كانت كثيرة لكن النسب أعلاها، لأن المال قد يحصل للفقير فيبطل افتخار المفتخر به، والحسن والسن، وغير ذلك غير ثابت دائم، والنسب ثابت مستمر غير مقدور التحصيل لمن ليس له فاختاره الله للذكر وأبطل اعتباره بالنسبة إلى التقوى ليعلم منه بطلان غيره بالطريق الأولى.

البحث الثالث: إذا كان ورود الآية لبيان عدم جواز الافتخار بغير التقوى فهل لقوله تعالى: إنا خلقناكم فائدة؟ نقول نعم، وذلك لأن كل شيء يترجح على غيره، فإما أن يترجح بأمر فيه يلحقه، ويترتب عليه بعد وجوده، وإما أن يترجح عليه بأمر هو قبله، والذي بعده/ كالحسن والقوة وغيرهما من الأوصاف المطلوبة من ذلك الشيء، والذي قبله فإما راجع إلى الأصل الذي منه وجد، أو إلى الفاعل الذي هو له أوجد، كم يقال في إناءين هذا من النحاس وهذا من الفضة، ويقال هذا عمل فلان، وهذا عمل فلان، فقال تعالى لا ترجيح فيما خلقتم منه لأنكم كلكم من ذكر وأنثى، ولا بالنظر إلى جاعلين لأنكم كلكم خلقكم الله، فإن كان بينكم تفاوت يكون بأمور تلحقكم وتحصل بعد وجودكم وأشرفها التقوى والقرب من الله تعالى. ثم قال تعالى: وجعلناكم شعوبا وقبائل وفيه وجهان: أحدهما: جعلناكم شعوبا متفرقة لا يدرى من يجمعكم كالعجم، وقبائل يجمعكم واحد معلوم كالعرب وبني إسرائيل وثانيهما: جعلناكم شعوبا داخلين في قبائل، فإن القبيلة تحتها الشعوب، وتحت الشعوب البطون وتحت البطون الأفخاذ، وتحت الأفخاذ الفصائل،

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ١١٠/٢٨

وتحت الفصائل الأقارب، وذكر الأعم لأنه أذهب للافتخار، لأن لأمر الأعم منها يدخله فقراء وأغنياء كثيرة غير محصورة، وضعفاء وأقوياء كثيرة غير معدودة، ثم بين فائدة ذلك وهي التعارف وفيه وجهان:

أحدهما أن فائدة ذلك التناصر لا التفاخر وثانيهما: أن فائدته التعارف لا التناكر، واللمز والسخرية والغيبة تفضي إلى التناكر لا إلى التعارف وفيه معان لطيفة الأولى: قال تعالى: إنا خلقناكم وقال: وجعلناكم لأن الخلق أصل تفرع عليه الجعل شعوبا فإن الأول هو الخلق والإيجاد، ثم الاتصاف بما اتصفوا به، لكن الجعل شعوبا للتعارف والخلق للعبادة كما قال تعالى: وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون [الذاريات: ٥٦] واعتبار الأصل متقدم على اعتبار الفرع، فاعلم أن النسب يعتبر بعد اعتبار العبادة كما أن الجعل شعوبا يتحقق بعد ما يتحقق الخلق، فإن كان فيكم عبادة تعتبر فيكم أنسابكم وإلا فلا الثانية: قوله تعالى: خلقناكم، وجعلناكم إشارة إلى عدم جواز الافتخار لأن ذلك ليس لسعيكم ولا قدرة لكم على شيء من ذلك، فكيف تفتخرون بما لا مدخل لكم فيه؟ فإن قيل الهداية والضلال كذلك لقوله تعالى: إنا هديناه السبيل [الإنسان: ٣] نهدي به من نشاء [الشورى: ٥٢] فنقول أثبت الله لنا فيه كسبا مبنيا على فعل، كم قال الله تعالى: فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا [المزمل: ١٩] .

ثم قال تعالى: وما تشاؤن إلا أن يشاء الله وأما في النسب فلا الثالثة: قوله تعالى: لتعارفوا إشارة إلى قياس خفي، وبيانه هو أنه تعالى قال: إنكم جعلتم قبائل لتعارفوا وأنتم إذا كنتم أقرب إلى شريف تفتخرون به فخلقكم لتعرفوا ربكم، فإذا كنتم أقرب منه وهو أشرف الموجودات كان الأحق بالافتخار هناك من الكل." (١)

"هو بنفسه دليلا على الحشر، بل فيه أمارات مفيدة للجزم بالحشر بعد معرفة صدق الرسول، وأما إن قلنا هو مفهوم بقرينة حالية، فهو كون محمد صلى الله عليه وسلم على الحق ولكلامه صفة الصدق، فإن الكفار كانوا ينكرون ذلك والمختار ما ذكرناه والثاني: بل عجبوا [ق: ٢] يقتضي أن يكون هناك أمر مضرب عنه فما ذلك؟

نقول قال الواحدي ووافقه الزمخشري إنه تقدير قوله ما الأمر كما يقولون ونزيده وضوحا، فنقول على ما اخترناه: فإن التقدير والله أعلم ق، والقرآن المجيد إنك لتنذر، فكأنه قال بعده وإنهم شكوا فيه فأضرب عنه.

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ١١٣/٢٨

[سورة ق (٥٠) : آية ٢]

بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب (٢)

[في قوله تعالى بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم] يعني لم يقتنعوا بالشك في صدق الأمر وطرحه بالترك وبعد الإمكان، بل جزموا بخلافه حتى جعلوا ذلك من الأمور العجيبة، فإن قيل فما الحكمة في هذا الاختصار العظيم في موضع واحد حذف المقسم عليه والمضرب عنه، وأتى بأمر لا يفهم إلا بعد الفكر العظيم ولا يفهم مع الفكر إلا بالتوفيق العزيز؟ فنقول إنما حذف المقسم عليه لأن الترك في بعض المواضع يفهم منه ظهور لا يفهم من الذكر، وذلك لأن من ذكر الملك العظيم في مجلس وأثنى عليه يكون قد عظمه، فإذا قال له غيره هو لا يذكر في هذا المجلس يكون بالإرشاد إلى ترك الذكر دالا على عظمته فوق ما يستفيد صاحبه بذكره فالله تعالى يقول لبيان رسالتك أظهر من أن يذكر، وأما حذف المضرب عنه، فلأن المضرب عنه إذا ذكر وأضرب عنه بأمر آخر إنما يحسن إذا كان بين المذكورين تفاوت ما، فإذا عظم التفاوت لا يحسن ذكرهما مع الإضراب، مثاله يحسن أن يقال/ الوزير يعظم فلانا بل الملك يعظمه، ولا يحسن أن يقال البواب يعظم فلانا بل الملك يعظمه لكون البون بينهما بعيدا، إذ الإضراب للتدرج، فإذا ترك المتكلم المضرب عنه صريحا وأتى بحرف الإضراب استفيد منه أمران أحدهما: أنه يشير إلى أمر آخر قبله وثانيهما: أنه يجعل الثاني: تفاوتا عظيما مثل ما يكون ومما لا يذكر، وهاهنا كذلك لأن الشك بعد قيام البرهان بعيد لكن القطع بخلافه في غاية ما يكون من البعد.

المبحث الثالث: أن مع الفعل يكون بمثابة ذكر المصدر، تقول أمرت بأن أقوم وأمرت بالقيام، وتقول ما كان جوابه إلا أن قال وما كان جوابه إلا قوله كذا وكذا، وإذا كان كذلك فلم ينزل عن الإتيان بالمصدر حيث جاز أن يقال أمرت أن أقوم من غير حرف الإلصاق، ولا يجوز أن يقال أمرت القيام بل لا بد من الباء، ولذلك قالوا أي عجبوا من مجيئه، نقول أن جاءهم وإن كان في المعنى قائما مقام المصدر لكنه في الصورة فعل وحرف، وحروف التعدية كلها حروف جارة والجار لا يدخل على الفعل، فكان الواجب أن لا يدخل فلا أقل من أن يجوز عدم الدخول، فجاز أن يقال عجبوا أن جاءهم ولا يجوز عجبوا مجيئهم لعدم المانع من إدخال الحروف عليه.

وقوله تعالى: منهم يصلح أن يكون مذكورا كالمقرر لتعجبهم، ويصلح أن يكون مذكورا لإبطال تعجبهم، أما التقرير فلأنهم كانوا يقولون أبشرا منا واحدا نتبعه [القمر: ٢٤] وقالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا [يس: ١٥]

إشارة إلى أنه كيف يجوز اختصاصكم بهذه المنزلة الرفيعة مع اشتراكنا في الحقيقة واللوازم وأما الإبطال فلأنه إذا كان واحدا منهم ويرى بين أظهرهم، وظهر عليه ما عجز عنه كلهم ومن بعدهم كان يجب عليهم أن يقولوا هذا ليس من عنده ولا من عند أحد من جنسنا، فهو من عند الله بخلاف ما لو جاءهم واحد من." (١)

"عجيب، فإن الأشجار الطوال أثمارها بارزها متميز بعضها من بعض لكل واحد منها أصل يخرج منه كالجوز واللوز وغيرهما والطلع كالسنبلة الواحدة يكون على أصل واحد.

[سورة ق (٥٠) : آية ١١]

رزقا للعباد وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج (١١)

ثم قال تعالى: رزقا للعباد وفيه وجهان أحدهما نصب على المصدر لأن الإنبات رزق/ فكأنه تعالى قال: أنبتناها إنباتا للعباد، والثاني نصب على كونه مفعولا له كأنه قال: أنبتناها لرزق العباد، وهاهنا مسائل:

المسألة الأولى: قال في خلق السماء والأرض تبصرة وذكرى [ق: ٨] وفي الثمار قال: رزقا والثمار أيضا فيها تبصرة، وفي السماء والأرض أيضا منفعة غير التبصرة والتذكرة، فما الحكمة في اختيار الأمرين؟ نقول فيه وجوه أحدها: أن نقول الاستدلال وقع لوجود أمرين أحدهما الإعادة والثاني البقاء بعد الإعادة فإن النبي صلى الله عليه وسلم كان يخبرهم بحشر وجمع يكون بعد الثواب الدائم والعقاب الدائم، وأنكروا ذلك، فأما الأول فالله القادر على خلق السموات والأرض قادر على خلق الخلق بعد الفناء، وأما الثاني فلأن البقاء في الدنيا بالرزق والقادر على إخراج الأرزاق من النجم والشجر، قادر على أن يرزق العبد في الجنة ويبقى، فكأن الأول تبصرة وتذكرة بالخلق، والثاني تذكرة بالبقاء بالرزق، ويدل على هذا الفصل بينهما بقوله تبصرة وذكرى حيث ذكر ذلك بعد الآيتين، ثم بدأ بذكر الماء وإنزاله وإنباته النبات ثانيها: أن منفعة الثمار الظاهرة هي الرزق فذكرها ومنفعة السماء الظاهرة ليست أمرا عائدا إلى انتفاع العباد لبعدها عن ذهنهم، حتى أنهم لو توهموا عدم الزرع والثمر لظنوا أن يهلكوا، ولو توهموا عدم السماء فوقهم لقالوا لا يضرنا ذلك مع أن الأمر بالعكس أولى، لأن السماء سبب الأرزاق بتقدير الله، وفيها غير ذلك من المنافع، والثمار وإن لم تكن [ما] كان العيش، كما أنزل الله على قوم المن والسلوى وعلى قوم المائدة من

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ١٢٣/٢٨

السماء فذكر الأظهر للناس في هذا الموضع ثالثها: قوله رزقا إشارة إلى كونه منعما لكون تكذيبهم في غاية القبح فإنه يكون إشارة [للتكذيب] بالمنعم وهو أقبح ما يكون.

المسألة الثانية: قال: تبصرة وذكرى لكل عبد منيب [ق: ٨] فقيد العبد بكونه منيبا وجعل خلقها تبصرة لعباده المخلصين وقال: رزقا للعباد مطلقا لأن الرزق حصل لكل أحد، غير أن المنيب يأكل ذاكرا شاكرا للإنعام، وغ◌يره يأكل كما تأكل الأنعام فلم يخصص الرزق بقيد.

المسألة الثالثة: ذكر في هذه الآية أمور ثلاثة أيضا وهي إنبات الجنات والحب والنخل كما ذكر في السماء والأرض في كل واحدة أمورا ثلاثة، وقد ثبت أن الأمور الثلاثة في الآيتين المتقدمين متناسبة، فهل هي كذلك في هذه الآية؟ نقول قد بينا أن الأمور الثلاثة إشارة إلى الأجناس الثلاثة، وهي التي يبقى أصلها سنين، ولا تحتاج إلى عمل عامل والتي لا يبقى أصلها وتحتاج كل سنة إلى عمل عامل، والتي يجتمع فيها الأمران وليس شيء من الثمار والزروع خارجا عنه أصلا كما أن أمور الأرض منحصر◌ة في ثلاثة: ابتداء وهو المد، ووسط وهو النبات بالجبال الراسية، وثالثها هو غاية الكمال وهو الإنبات والتزيين بالزخارف.

ثم قال تعالى: وأحيينا به بلدة ميتا عطفا على فأنبتنا به [ق: ٩] وفهي بحثان:." (١)

"بما فيها من الحسان، ثم قال لهم هذا لكم، بقوله هذا ما توعدون [ق: ٣٢] ثم بين أنه أجر أعمالهم الصالحة بقوله لكل أواب حفيظ وقوله من خشي الرحمن [ق: ٣٣] فإن تصرف المالك الذي ملك شيئا بعوض أتم فيه من تصرف من ملك بغير عوض، لإمكان الرجوع في التمليك بغير عوض، ثم زاد في الإكرام بقوله ادخلوها [ق: ٣٤] كما بينا أن ذلك إكرام، لأن من فتح بابه للناس، ولم يقف ببابه من يرحب الداخلين، لا يكون قد أتى بالإكرام التام، ثم قال: ذلك يوم الخلود [ق: ٣٤] أي لا تخافوا ما لحقكم من قبل حيث أخرج أبويكم منها، فهذا دخول لا خروج◌ بعده منها.

ثم لما بين أنهم فيها خالدون قال لا تخافوا انقطاع أرزاقكم وبقاءكم في حاجة، كما كنتم في الدنيا من كان يعمر ينكس ويحتاج، بل لكم الخلود، ولا ينفد ما تمتعون به فلكم ما تشاءون في أي وقت تشاءون، وإلى الله المنتهى، وعند الوصول إليه، والمثول بين يديه، فلا يوصف ما لديه، ولا يطلع أحد عليه، وعظمة من عنده تدلك على فضيلة ما عنده، هذا هو الترتيب، وأما التفسير، ففيه مسألتان.

المسألة الأولى: قال تعالى: ادخلوها بسلام [ق: ٣٤] على سبيل المخاطبة، ثم قال: لهم ولم يقل لكم ما

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ١٣٠/٢٨

الحكمة فيه؟ الجواب: عنه من وجوه الأول: هو أن قوله تعالى: ادخلوها مقدر فيه يقال لهم، أي يقال لهم ادخلوها فلا يكون على هذا التفاتا الثاني: هو أنه من باب الالتفات والحكمة الجمع بين الطرفين، كأنه تعالى يقول: أكرمهم به في حضورهم، ففي حضورهم الحبور، وفي غيبتهم الحور والقصور والثالث: هو أن يقال قوله تعالى: لهم جاز أن يكون كلاما مع الملائكة، يقول للملائكة: توكلوا بخدمتهم، واعلموا أن لهم ما يشاءون فيها، فأحضروا بين أيديهم ما يشاءون، وأما أنا فعندي ما لا يخطر ببالهم، ولا تقدرون أنتم عليه.

المسألة الثانية: قد ذكرنا أن لفظ مزيد [ق: ٣٠] يحتمل أن يكون معناه الزيادة، فيكون كما في قوله تعالى: للذين أحسنوا الحسنى وزيادة [يونس: ٢٦] ويحتمل أن يكون بمعنى المفعول، أي عندنا ما نزيده على ما يرجون وما يكون مما يشتهون.

[سورة ق (٥٠) : آية ٣٦]

وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أشد منهم بطشا فنقبوا في البلاد هل من محيص (٣٦)

ثم قال تعالى: وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أشد منهم بطشا.

لما أنذرهم بم بين أيديهم من اليوم العظيم والعذاب الأليم، أنذرهم بما يعجل لهم من العذاب المهلك والإهلاك المدرك، وبين لهم حال من تقدمهم، وقد تقدم تفسيره في مواضع، والذي يختص بهذا الموضع أمور أحدها: إذا كان ذلك للجمع بين الإنذار بالعذاب العاجل والعقاب الآجل، فلم توسطهما قوله تعالى: وأزلفت الجنة للمتقين إلى قوله ولدينا مزيد [ق: ٣١- ٣٥] نقول ليكون ذلك دعاء بالخوف والطمع، فذكر حال الكفور المعاند، وحال الشكور العابد في الآخرة ترهيبا وترغيبا، ثم قال تعالى: إن كنتم في شك من العذاب الأبدي الدائم، فما أنتم في ريب من العذاب العاجل المهلك الذي أهلك أمثالكم، فإن قيل: فلم لم يجمع بين الترهيب والترغيب في العاجلة، كما جمع بينهما في الآجلة، ولم يذكر حال من أسلم من قبل وأنعم عليه، كما ذكر حال من أشرك به فأهلكه نقول لأن النعمة كانت قد وصلت إليهم، وكانوا متقلبين في النعم، فلم يذكرهم." (١)

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ١٤٩/٢٨

"فتنتكم والفتنة الامتحان، فإن قيل فإذا جعلت يوم هم على النار يفتنون مقولا لهم ذوقوا فتنتكم فما قوله هذا الذي كنتم به تستعجلون؟ قلنا يحتمل أن يكون المراد كنتم تستعجلون بصريح القول كما في قوله تعالى حكاية عنهم ربنا عجل لنا قطنا [ص: ١٦] وقوله فأتنا بما تعدنا [الأعراف: ٧٠] إلى غير ذلك يدله عليه هاهنا قوله تعالى: يسئلون أيان يوم الدين [الذاريات: ١٢] فإنه نوع استعجال، ويحتمل أن يكون المراد الاستعجال بالفعل وهو الإصرار على العناد وإظهار الفساد فإنه يعجل العقوبة. / ثم قال تعالى:

[سورة الذاريات (٥١) : آية ١٥]

إن المتقين في جنات وعيون (١٥)

بعد بيان حال المغترين المجرمين بين حال المحق المتقي، وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قد ذكرنا أن المتقي له مقامات أدناها أن يتقي الشرك، وأعلاها أن يتقي ما سوى الله، وأدنى درجات المتقي الجنة، فما من مكلف اجتنب الكفر إلا ويدخل الجنة فيرزق نعيمها.

المسألة الثانية: الجنة تارة وحدها كما قال تعالى: مثل الجنة التي وعد المتقون [الرعد: ٣٥] وأخرى جمعها كما في هذا المقام قال: إن المتقين في جنات وتارة ثناها فقال تعالى: ولمن خاف مقام ربه جنتان [الرحمن: ٤٦] فما الحكمة فيه؟ نقول أما الجنة عند التوحيد فلأنها لاتصال المنازل والأشجار والأنهار كجنة واحدة، وأما حكمة الجمع فلأنها بالنسبة إلى الدنيا وبالإضافة إلى جنانها جنات لا يحصرها عدد، وأما التثنية فسنذكرها في سورة الرحمن غير أنا نقول هاهنا الله تعالى عند الوعد وحد الجنة، وكذلك عند الشراء حيث قال: إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة [التوبة: ١١١] وعند الإعطاء جمعها إشارة إلى أن الزيادة في الوعد موجودة والخلاف ما لو وعد بجنات، ثم كان يقول إنه في جنة لأنه دون الموعود الثالثة: قوله تعالى: وعيون يقتضي أن يكون المتقي فيها ولا لذة في كون الإنسان في ماء أو غير ذلك من المائعات، نقول معناه في خلال العيون، وذلك بين الأنهار بدليل أن قوله تعالى: في جنات ليس معناه إلا بين جنات وفي خلالها لأن الجنة هي الأشجار، وإنما يكون بينها كذلك القول في العيون والتنكير، مع أنها معرفة للتعظيم يقال فلان رجل أي عظيم في الرجولية.

[سورة الذاريات (٥١) : آية ١٦]

آخذين ما آتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين (١٦)

وقوله تعالى: آخذين ما آتاهم ربهم فيه مسائل ولطائف، أما المسائل:

فالأولى منها: ما معنى آخذين؟ نقول فيه وجهان أحدهما: قابضين ما آتاهم شيئا فشيئا ولا يستوفونه بكماله لامتناع استيفاء ما لا نهاية له ثانيها: آخذين قابلين قبول راض كما قال تعالى: ويأخذ الصدقات [التوبة: ١٠٤] أي يقبلها، وهذا ذكره الزمخشري وفيه وجه ثالث: وهو أن قوله في جنات يدل على السكنى فحسب وقوله آخذين يدل على التملك ولذا يقال أخذ بلاد كذا وقلعة كذا إذا دخلها متملكا لها، وكذلك يقال لمن اشترى دارا أو بستانا أخذه بثمن قليل أي تملكه، وإن لم يكن هناك قبض حسا ولا قبول برضا، وحينئذ فائدته بيان أن دخولهم فيها ليس دخول مستعير أو ضعف يسترد منه ذلك، بل هو ملكه الذي اشتراه بماله ونفسه من الله تعالى." (١)

"له الهجوع قلنا ذكر الأمر العام وإرادة التخصيص حسن فنقول: رأيت حيوانا ناطقا فصيحا، وذكر الخاص وإرادة العام لا يحسن إلا في بعض المواضع فلا نقول رأيت فصيحا ناطقا حيوانا، إذا عرفت هذا فنقول في قوله تعالى: كانوا قليلا من الليل ذكر أمرا هو كالعام يحتمل أن يكون بعده: كانوا من الليل يسبحون ويستغفرون أو يسهرون أو غير ذلك، فإذا قال يهجعون فكأنه خصص ذلك الأمر العام المحتمل له ولغيره فلا إشكال فيه. ثم قال تعالى:

[سورة الذاريات (٥١) : آية ١٨]

وبالأسحار هم يستغفرون (١٨)

إشارة إلى أنهم كانوا يتهجدون ويجتهدون يريدون أن يكون عملهم أكثر من ذلك وأخلص منه ويستغفرون من التقصير وهذا سيرة الكريم يأتي بأبلغ وجوه الكرم ويستقله ويعتذر من التقصير، واللئيم يأتي بالقليل ويستكثره ويمن به.

وفيه وجه آخر ألطف منه، وهو أنه تعالى لما بين أنهم يهجعون قليلا، والهجوع مقتضى الطبع، قال: يستغفرون أي من ذلك القدر من النوم القليل، وفيه لطيفة أخرى تنبيها في جواب سؤال، وهو أنه تعالى مدحهم بقلة الهجوع، ولم يمدحهم بكثرة السهر، وما قال: كانوا كثيرا من الليل ما يسهرون، فما الحكمة فيه، مع أن السهر هو الكلفة والاجتهاد لا الهجوع؟ نقول إشارة إلى أن نومهم عبادة، حيث مدحهم

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٨/١٦٥

الله تعالى بكونهم هاجعين قليلا، وذلك الهجوع أورثهم لاشتغال بعبادة أخرى، وهو الاستغفار في وجوه الأسحار، ومنعهم من الإعجاب بأنفسهم والاستكبار. وفيه مباحث:

البحث الأول: في الباء فإنها استعملت للظرف هاهنا، وهي ليست للظرف، نقول قال بعض النحاة: إن حروف الجر ينوب بعضها مناب بعض، يقال في الظرف خرجت لعشر بقين وبالليل وفي شهر رمضان، فيستعمل اللام والباء وفي، وكذلك في المكان، نقول: أقمت بالمدينة كذا وفيها، ورأيته ببلدة كذا وفيها، فإن قيل ما التحقيق فيه؟ نقول الحروف لها معاني مختلفة، كما أن الأسماء والأفعال كذلك، غير أن الحروف غير مستقلة بإفادة المعنى، والاسم والفعل/ مستقلان، لكن بين بعض الحروف وبعضها تناف وتباعد، كما في الأسماء والأفعال، فإن البيت والمسكن مختلفان متفاوتان، وكذلك سكن ومكث، ولا كذلك كل اسمين يفرض أو كل فعلين يوجد، إذا عرفت هذا فنقول: بين الباء واللام وفي مشاركة، أما الباء فإنها للإلصاق، والمتمكن في مكان ملتصق به متصل، وكذلك الفعل بالنسبة إلى الزمان، فإذا قال: سار بالنهار معناه ذهب ذهابا متصلا بالنهار، وكذا قوله تعالى: وبالأسحار هم يستغفرون أي استغفارا متصلا بالأسحار مقترنا بها، لأن الكائن فيها مقترنا بها، فإن قيل: فهل يكون بينهما في المعنى تفاوت؟ نقول نعم، وذلك لأن من قال: قمت بالليل واستغفرت بالأسحار أخبر عن الأمرين، وذلك أدل على وجود الفعل مع أول جزء من أجزاء الوقت من قوله قمت في الليل، لأنه يستدعي احتواش الزمان بالفعل وكذلك قول القائل: أقمت ببلد كذا، لا يفيد أنه كان محاطا بالبلد، وقوله أقمت فيها يدل على إحاطتها به، فإذن قول القائل: أقمت بالبلدة ودعوت بالأسحار، أعم من قوله: قمت فيه، لأن القائم فيه قائم به، والقائم به ليس قائما فيه من كل بد، إذا علمت هذا فقوله تعالى: وبالأسحار هم يستغفرون إشارة إلى أنهم لا يخلون وقتا عن العبادة، فإنهم بالليل لا يهجعون، ومع أول جزء من السحر يستغفرون، فيكون فيه بيان كونهم مستغفرين من غير أن يسبق منهم ذنب، لأنهم وقت الانتباه في الأسحار لم يخلو الوقت للذنب، فإن قيل: زدنا بيانا فإن من الأزمان أزمانا لا تجعل ظروفا بالباء، فلا يقال خرجت بيوم." (١)

"ذلك إشارة إلى الفرج في حق الأنبياء، والبلاء على الجهلة والأغبياء، إذا جاءهم من حيث لا يحتسب. قال الله تعالى: فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا [الحشر: ٢] فلم يكن عند إبراهيم عليه السلام خبر من إنزال العذاب مع ارتفاع مكانته.

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ١٦٨/٢٨

المسألة الثانية: كيف سماهم ضيفا ولم يكونوا؟ نقول لما حسبهم إبراهيم عليه السلام ضيفا لم يكذبه الله تعالى في حسابه إكراما له، يقال في كلمات المحققين الصادق يكون ما يقول، والصديق يقول ما يكون.
المسألة الثالثة: ضيف لفظ واحد والمكرمين جمع، فكيف وصف الواحد بالجمع؟ نقول الضيف يقع على القوم، يقال قوم ضيف ولأنه مصدر فيكون كلفظ الرزق مصدرا، وإنما وصفهم بالمكرمين إما لكونهم عبادا مكرمين كما قال تعالى: بل عباد مكرمون [الأنبياء: ٢٦] وإما لإكرام إبراهيم عليه السلام إياهم، فإن قيل: بماذا أكرمهم؟ قلنا ببشاشة الوجه أولا، وبالإجلاس في أحسن المواضع وألطفها ثانيا، وتعجيل القرى ثالثا، وبعد التكليف للضيف بالأكل والجلوس وكانوا عدة من الملائكة في قول ثلاثة جبريل وميكائيل وثالث، وفي قول عشرة، وفي آخر اثنا عشرة.
المسألة الرابعة: هم أرسلوا للعذاب بدليل قولهم إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين [الذاريات: ٣٢] وهم لم يكونوا من قوم إبراهيم عليه السلام، وإنما كانوا من قوم لوط فما **الحكمة في** مجيئهم إلى إبراهيم عليه السلام؟ نقول فيه حكمة بالغة، وبيانها من وجهين أحدهما: أن إبراهيم عليه السلام شيخ المرسلين وكان لوط من قومه ومن إكرام الملك للذي في عهدته وتحت طاعته إذا كان يرسل رسول إلى غيره يقول له اعبر على فلان الملك وأخبره برسالتك وخذ فيها رأيه وثانيهما: هو أن/ الله تعالى لما قدر أن يهلك قوما كثيرا وجما غفيرا، وكان ذلك مما يحزن إبراهيم عليه السلام شفقة منه على عباده قال لهم بشروه بغلام يخرج من صلبه أضعاف ما يهلك، ويكون من صلبه خروج الأنبياء عليهم السلام. ثم قال تعالى:

[سورة الذاريات (٥١) : آية ٢٥]
إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال سلام قوم منكرون (٢٥)
وفيه مسائل:
المسألة الأولى: ما العامل في إذ؟ فيه وجوه أحدها: ما في المكرمين من الإشارة إلى الفعل إن قلنا وصفهم بكونهم مكرمين بناء على أن إبراهيم عليه السلام أكرمهم فيكون كأنه تعالى يقول: أكرموا إذ دخلوا، وهذا من شأن الكريم أن يكرم ضيفه وقت الدخول ثانيها: ما في الضيف من الدلالة على الفعل، لأنا قلنا إن الضيف مصدر فيكون كأنه يقول: أضافهم إذ دخلوا وثالثها: يحتمل أن يكون العامل فيه أتاك تقديره ما أتاك حديثهم وقت دخولهم، فاسمع الآن ذلك، لأن هل ليس للاستفهام في هذا الموضع حقيقة بل للإعلام، وهذا أولى لأنه فعل مصرح به، ويحتمل أن يقال اذكر إذ دخلوا.

المسألة الثانية: لماذا اختلف إعراب السلامين في القراءة المشهورة؟ نقول: نبين أولا وجوه النصب والرفع، ثم نبين وجوه الاختلاف في الإعراب، أما النصب فيحتمل وجوها:

أحدها: أن يكون المراد من السلام هو التحية وهو المشهور، ونصبه حينئذ عل المصدر تقديره نسلم سلاما

ثانيها: هو أن يكون السلام نوعا من أنواع الكلام وهو كلام سلم به المتكلم من أن يلغو أو يأثم فكأنهم." (١)

"المسألة الثانية: كرر ذكر البناء في السموات، قال تعالى: والسماء وما بناها [الشمس: ٥] وقال تعالى:

[النازعات: ٢٧] أم السماء بناها وقال تعالى: جعل لكم الأرض قرارا والسماء بناء [غافر: ٦٤] فما الحكمة فيه؟ نقول فيه وجوه أحدها: أن البناء باق إلى قيام القيامة لم يسقط منه شيء ولم يعدم منه جزء، وأما الأرض فهي في التبدل والتغير فهي كالفرش الذي يبسط ويطوى وينقل، والسماء كالبناء المبني الثابت، وإليه الإشارة بقوله تعالى: سبعا شدادا [النبأ: ١٢] وأما الأراضي فكم منها ما صار بحرا وعاد أرضا من وقت/ حدوثها ثانيها:

أن السماء ترى كالقبة المبنية فوق الرؤوس، والأرض مبسوطة مدحوة والبناء بالمرفوع أليق، كما قال تعالى: رفع سمكها [النازعات: ٢٨] ثالثها: قال بعض الحكماء: السماء مسكن الأرواح والأرض موضع الأعمال والمسكن أليق بكونه بناء والله أعلم.

المسألة الثالثة: الأصل تقديم العامل على المعمول والفعل هو العامل فقوله بنينا عامل في السماء، فما الحكمة في تقديم المفعول على الفعل ولو قال: وبنينا السماء بأيد، كان أوجز؟ نقول الصانع قبل الصنع عند الناظر في المعرفة، فلما كان المقصود إثبات العلم بالصانع، قدم الدليل فقال والسماء المزينة التي لا تشكون فيها بنيناها فاعرفونا بها إن كنتم لا تعرفوننا.

المسألة الرابعة: إذا كان المقصود إثبات التوحيد، فكيف قال: بنيناها ولم يقل بنيتها أو بناها الله؟ نقول قوله بنينا أدل على عدم الشريك في التصرف والاستبداد وقوله بنيتها يمكن أن يكون فيه تشريك، وتمام التقرير هو أن قوله تعالى: بنيناها لا يورث إيهاما بأن الآلهة التي كانوا يعبدونها هي التي يرجع إليها الضمير في بنيناها لأن تلك إما أصنام منحوتة وإما كواكب جعلوا الأصنام على صورها وطبائعها، فأما

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ١٧٤/٢٨

الأصنام المنحوتة فلا يشكون أنها ما بنت من السماء شيئا، وأما الكواكب فهي في السماء محتاجة إليها فلا تكون هي بانيتها، وإنما يمكن أن يقال إنما بنيت لها وجعلت أماكنها، فلما لم يتوهم ما قالوا قال بنينا نحن ونحن غير ما يقولون ويدعونه فلا يصلحون لنا شركاء لأن كل ما هو غير السماء ودون السماء في المرتبة فلا يكون خالق السماء وبانيها فإذن علم أن المراد جمع التعظيم وأفاد النص عظمته، فالعظمة أنفى للشريك فثبت أن قوله بنيناها أدل على نفي الشريك من بنيتها وبناها الله.

فإن قيل: لم قلت إن الجمع يدل على التعظيم؟ قلنا الجواب من الوجهين الأول: أن الكلام على قدر فهم السامع، والسامع هو الإنسان، والإنسان يقيس الشاهد على الغائب، فإن الكبير عندهم من يفعل الشيء بجنده وخدمه ولا يباشر بنفسه، فيقول الملك فعلنا أي فعله عبادنا بأمرنا ويكون في ذلك تعظيم، فكذلك في حق الغائب الوجه الآخر: هو أن القول إذا وقع من واحد وكان الغير به راضيا يقول القائل فعلنا كلنا كذا وإذا اجتمع جمع على فعل لا يقع إلا بالبعض، كما إذا خرج جم غفير وجمع كثير لقتل سبع وقتلوه يقال قتله أهل بلدة كذا لرضا الكل به وقصد الكل إليه، إذا عرفت هذا فالله تعالى كيفما أمر بفعل شيء لا يكون لأحد رده وكان كل واحد منقادا له، يقول بدل فعلت فعلنا، ولهذا الملك العظيم أجمعنا بحيث لا ينكره أحد ولا يرده نفس، وقوله تعالى: بأيد أي قوة والأيد القوة هذا هو المشهور وبه فسر قوله تعالى: ذا الأيد إنه أواب [ص: ١٧] يحتمل أن يقال إن المراد جمع اليد، ودليله أنه قال تعالى: لما خلقت بيدي [ص: ٧٥] وقال تعالى: مما عملت أيدينا أنعاما [يس: ٧١] وهو راجع في الحقيقة إلى المعنى الأول وعلى هذا فحيث قال: خلقت." (١)

"[سورة الذاريات (٥١) : آية ٥١]

ولا تجعلوا مع الله إلها آخر إني لكم منه نذير مبين (٥١)

ثم قال تعالى: ولا تجعلوا مع الله إلها آخر إتماما للتوحيد، وذلك لأن التوحيد بين التعطيل والتشريك، وطريقة التوحيد هي الطريقة، فالمعطل يقول لا إله أصلا، والمشرك يقول في الوجود آلهة، والموحد يقول قوله الاثنين باطل، نفي الواحد باطل، فقوله تعالى: ففروا إلى الله [الذاريات: ٥٠] أثبت وجود الله، ولما قال: ولا تجعلوا مع الله إلها آخر نفى الأكثر من الواحد فصح التوحيد بالآيتين، ولهذا قال مرتين: إني لكم منه نذير مبين أي في المقامين والموضعين، وقد ذكرنا مرارا أن المعطل إذا قال لا واجب يجعل الكل

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ١٨٧/٢٨

ممكنا، فإن كل موجود ممكن، ولكن الله في الحقيقة موجود، فقد جعله في تضاعيف قوله كالممكنات فقد أشرك، وجعل الله كغيره، والمشرك لما قال بأن غيره إله يلزم من قوله نفي كون الإله إلها لما ذكرنا في تقرير دلالة التمانع مع أنه لو كان فيهما آلهة إلا الله للزم عجز كل واحد، فلا يكون في الوجود إله أصلا، فيكون ناقيا للإلهية، فيكون معطلا، فالمعطل مشرك، والمشرك معطل، وكل واحد من الفريقين معترف بأن خصمه مبطل، لكنه هو على مذهب خصمه يقول إنه نفسه مبطل وهو لا يعلم، والحمد لله الذي هدانا، وقوله ولا تجعلوا فيه لطيفة، وهي أنه إشارة إلى أن الآلهة مجعولة، لا يقال فالله متخذ لقوله فاتخذه وكيلا [المزمل: ٩] قلنا الجواب: عنه الظاهر، وقد سبق في قوله تعالى: واتخذوا من دون الله آلهة [مريم: ٨١] .

ثم قال تعالى:

[سورة الذاريات (٥١) : آية ٥٢]

كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون (٥٢)

والتفسير معلوم مما سبق، وقد ذكرنا أنه يدل على أن ذكر الحكايات للتسلية، غير أن فيه لطيفة واحدة لا نتركها، وهي أن هذه الآية دليل على أن كل رسول كذب، وحينئذ يرد عليه أسئلة الأول: هو أنه من الأنبياء من قرر دين النبي الذي كان قبله، وبقي القوم على ما كانوا عليه/ كأنبياء بني إسرائيل مدة، وكيف وآدم لما أرسل لم يكذب الثاني: ما الحكمة في تقدير الله تكذيب الرسل، ولم يرسل رسولا مع كثرتهم واختلاف معجزاتهم بحيث يصدقه أهل زمانه؟ الثالث: قوله ما أتى ... إلا قالوا دليل على أنهم كلهم قالوا ساحر، وليس كذلك لأنه ما من رسول إلا وآمن به قوم، وهم ما قالوا ذلك والجواب عن الأول: هو أن نقول، أما المقرر فلا نسلم أنه رسول، بل هو نبي على دين رسول، ومن كذب رسوله فهو مكذبه أيضا ضرورة. وعن الثاني: هو أن الله لا يرسل إلا عند حاجة الخلق، وذلك عند ظهور الكفار في العلم، ولا يظهر الكفر إلا عند كثرة الجهل، ثم إن الله تعالى لا يرسل رسولا مع كون الإيمان به ضروريا، وإلا لكان الإيمان به إيمان اليأس فلا يقبل، والجاهل إذا لم يكن المبين له في غاية الوضوح لا يقبله فيبقى في ورطة الضلالة، فهذا قدر لزم بقضاء الله على الخلق على هذا الوجه، وقد ذكرنا مرة أخرى أن بعض الناس يقول: كل ما هو قضاء الله فهو خير، والشر في القدر، فالله قضى بأن النار فيها مصلحة للناس لأنها نور، ويجعلونها متاعا في الأسفار وغيرها كما ذكر الله، والماء فيه مصلحة الشرب، لكن النار إنما تتم مصلحتها

بالحرارة البالغة والماء بالسيلان القوي، وكونهما كذلك يلزمهما بإجراء الله عادته عليهما أن يحرق ثوب الفقير، ويغرق شاة المسكين، فالمنفعة في القضاء والمضرة في القدر، وهذا الكلام له غور، والسنة أن نقول (يفعل الله ما يشاء، ويحكم ما يريد) وعن الثالث: أن ذلك ليس بعام، فإنه لم يقل إلا قال كلهم، وإنما قال: إلا قالوا ولما كان كثير منهم، بل أكثرهم قائلين به، قال الله تعالى: إلا." (١)

"وهذه الآية فيها فوائد كثيرة، ولنذكرها على وجه الاستقصاء، فنقول أما تعلقها بما قبلها فلوجوه أحدها:

أنه تعالى لما قال: وذكر [الذاريات: ٥٥] يعني أقصى غاية التذكير وهو أن الخلق ليس إلا للعبادة، فالمقصود من إيجاد الإنسان العبادة فذكرهم به وأعلمهم أن كل ما عداه تضييع للزمان الثاني: هو أنا ذكرنا مرارا أن شغل الأنبياء منحصر في أمرين عبادة الله وهداية الخلق، فلما قال تعالى: فتول عنهم فما أنت بملوم [الذاريات: ٥٤] بين أن الهداية قد تسقط عند اليأس وعدم المهتدي، وأما العبادة فهي لازمة والخلق المطلق لها وليس الخلق المطلق للهداية، فما أنت بملوم إذا أتيت بالعبادة التي هي أصل إذا تركت الهداية بعد بذل الجهد فيها الثالث: هو أنه لما بين حال من قبله من التكذيب، ذكر هذه الآية ليبين سوء/ صنيعهم حيث تركوا عبادة الله فما كان خلقهم إلا للعبادة، وأما التفسير ففيه مسائل:

المسألة الأولى: الملائكة أيضا من أصناف المكلفين ولم يذكرهم الله مع أن المنفعة الكبرى في إيجاده لهم هي العبادة ولهذا قال: بل عباد مكرمون [الأنبياء: ٢٦] وقال تعالى: لا يستكبرون عن عبادته [الأعراف: ٢٠٦] فما **الحكمة فيه**؟ نقول: الجواب عنه من وجوه الأول: قد ذكرنا في بعض الوجوه أن تعلق الآية بما قبلها بيان قبح ما يفعله الكفرة من ترك ما خلقوا له، وهذا مختص بالجن والإنس لأن الكفر في الجن أكثر، والكافر منهم أكثر من المؤمن لما بينا أن المقصود بيان قبحهم وسوء صنيعهم الثاني: هو أن النبي صلى الله عليه وسلم كان مبعوثا إلى الجن، فلما قال وذكرهم ما يذكر به وهو كون الخلق للعبادة خص أمته بالذكر أي ذكر الجن والإنس الثالث: أن عباد الأصنام كانوا يقولون بأن الله تعالى عظيم الشأن خلق الملائكة وجعلهم مقربين فهم يعبدون الله وخلقهم لعبادته ونحن لنزول درجتنا لا نصلح لعبادة الله فنعبد الملائكة وهم يعبدون الله، فقال تعالى: وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ولم يذكر الملائكة لأن الأمر فيهم كان مسلما بين القوم فذكر المتنازع فيه الرابع: قيل الجن يتناول الملائكة لأن الجن أصله من الاستتار

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٨/١٩٠

وهم مستترون عن الخلق، وعلى هذا فتقديم الجن لدخول الملائكة فيهم وكونهم أكثر عبادة وأخصلها الخامس: قال بعض الناس كلما ذكر الله الخلق كان فيه التقدير في الجرم والزمان قال تعالى: خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام [الفرقان: ٥٩] وقال تعالى: خلق الأرض في يومين [فصلت: ٩] وقال: خلقت بيدي [ص: ٧٥] إلى غير ذلك، وما لم يكن ذكره بلفظ الأمر قال تعالى: إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون [يس: ٨٢] وقال: قل الروح من أمر ربي [الإسراء: ٨٥] وقال تعالى: ألا له الخلق والأمر [الأعراف: ٥٤] والملائكة كالأرواح من عالم الأمر أوجدهم من غير مرور زمان فقوله وما خلقت إشارة إلى من هو من عالم الخلق فلا يدخل فيه الملائكة، وهو باطل لقوله تعالى: خالق كل شيء [غافر: ٦٢] فالملك من عالم الخلق.

المسألة الثانية: تقديم الجن على الإنس لأية حكمة؟ نقول فيه وجوه الأول: بعضها مر في المسألة الأولى الثاني: هو أن العبادة سرية وجهرية، وللسرية فضل على الجهرية لكن عبادة الجن سرية لا يدخلها الرياء العظيم، وأما عبادة الإنس فيدخلها الرياء فإنه قد يعبد الله لأبناء جنسه، وقد يعبد الله ليستخبر من الجن أو مخافة منهم ولا كذلك الجن.

المسألة الثالثة: فعل الله تعالى ليس لغرض وإلا لكان بالغرض مستكملا وهو في نفسه كامل فكيف يفهم لأمر الله الغرض والعلة؟ نقول المعتزلة تمسكوا به، وقالوا أفعال الله تعالى لأغراض وبالغوا في الإنكار على." (١)

"طلب فعل منهم غير التعظيم؟ نقول لما عمم في المطلب الأول اكتفى بقوله من رزق فإنه يفيد العموم، وأشار إلى التعظيم فذكر الإطعام، وذلك لأن أدنى درجات الأفعال أن تستعين السيد بعبده أو جاريته في تهيئة أمر الطعام، ونفي الأدنى يستتبعه نفي الأعلى بطريق الأولى فصار كأنه تعالى قال: ما أريد منهم من عين ولا عمل.

المسألة الخامسة: على ما ذكرت لا تنحصر المطالب فيما ذكره، لأن السيد قد يشتري لعبد لا لطلب عمل منه ولا لطلب رزق ولا للتعظيم، بل تشتريه للتجارة والربح فيه، نقول عموم قوله ما أريد منهم من رزق يتناول ذلك فإن من اشترى عبدا ليتجر فيه فقد طلب منه رزقا.

المسألة السادسة: ما أريد في العربية يفيد النفي في الحال، والتخصيص بالذكر يوهم نفي ما عدا المذكور،

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ١٩٢/٢٨

لكن الله تعالى لا يريد منهم رزقا لا في الحال ولا في الاستقبال، فلم لم يقل لا أريد منهم من رزق ولا أريد؟ نقول ما للنفي في الحال، ولا للنفي في الاستقبال، فالقائل إذا قال فلان لا يفعل هذا الفعل وهو في الفعل لا يصدق، لكنه إذا ترك مع فراغه من قوله يصدق القائل، ولو قال ما يفعل لما صدق فيما ذكرنا من الصورة، مثاله إذا كان الإنسان في الصلاة وقال قائل إنه ما يصلي فانظر إليه فإذا كان نظر إليه الناظر وقد قطع صلاة نفسه صح أن يقول إنك لا تصلي، ولو قال القائل إنه ما يصلي في تلك الحالة لما صدق، فإذا علمت هذا فكل واحد من اللفظين للنافية فيه خصوص لكن النفي في الحال أولى لأن المراد من الحال الدنيا والاستقبال هو في أمر الآخرة فالدنيا وأمورها كلها حالية فقوله ما أريد أي في هذه الحالة الراهنة التي هي ساعة الدنيا، ومن المعلوم أن العبد بعد موته لا يصلح أن يطلب منه رزق أو عمل فكان قوله ما أريد مفيدا للنفي العام، ولو قال لا أريد لما أفاد ذلك. ثم قال تعالى:

[سورة الذاريات (٥١) : آية ٥٨]

إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين (٥٨)

تعليلا لما تقدم من الأمرين، فقوله هو الرزاق تعليل لعدم طلب الرزق وقوله تعالى: ذو القوة تعليل لعدم طلب العمل، لأن من يطلب رزقا يكون فقيرا محتاجا ومن يطلب عملا من غيره يكون عاجزا لا قوة له، فصار كأنه يقول ما أريد منهم من رزق فإني أنا الرزاق ولا عمل فإني قوي وفيه مباحث الأول: قال: ما أريد ولم يقل إني رزاق بل قال على الحكاية عن الغائب إن الله فما الحكمة فيه؟ نقول

قد روي أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ (إني أنا الرزاق)

على ما ذكرت وأما القراءة المشهورة ففيها وجوه الأول: أن يكون المعنى قل يا محمد إن الله هو الرزاق الثاني: أن يكون ذلك من باب الالتفات والرجوع من التكلم عن النفس إلى التكلم عن الغائب، وفيه هاهنا فائدة وهي أن اسم الله يفيد كونه رزاقا وذلك لأن الإله بمعنى المعبود كما ذكرنا مرارا وتمسكنا بقوله تعالى: ويذرك وآلهتك [الأعراف: ١٢٧] أي معبوديك وإذ كان الله هو المعبود ورزق العبد استعمله من غير الكسب إذ رزقه على السيد وهاهنا لما قال: ما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون فقد بين أنه استخلصهم لنفسه وعبادته وكان عليه رزقهم فقال تعالى: إن الله هو الرزاق بلفظ الله الدال على كونه رزاقا، ولو قال إني أنا الرزاق

لحصلت المناسبة التي ذكرت ولكن لا يحصل ما ذكرنا الثالث: أن يكون قل مضمرا عند قوله تعالى:

ما أريد منهم تقديره قل يا محمد ما أريد منهم من رزق فيكون بمعنى قوله قل ما أسئلكم عليه من أجر [الفرقان: ٥٧] ويكون على هذا قوله تعالى: إن الله هو الرزاق من قول النبي صلى الله عليه وسلم ولم يقل القوي، بل." (١)

"سورة الطور

أربعون وتسع آيات مكية بسم الله الرحمن الرحيم

[سورة الطور (٥٢) : الآيات ١ الى ٦]

بسم الله الرحمن الرحيم

والطور (١) وكتاب مسطور (٢) في رق منشور (٣) والبيت المعمور (٤)

والسقف المرفوع (٥) والبحر المسجور (٦)

هذه السورة مناسبة للسورة المتقدمة من حيث الافتتاح بالقسم وبيان الحشر فيهما، وأول هذه السورة مناسب لآخر ما قبلها، لأن في آخرها قوله تعالى: فويل للذين كفروا [الذاريات: ٦٠] وهذه السورة في أولها فويل يومئذ للمكذبين [الطور: ١١] وفي آخر تلك السورة قال: فإن للذين ظلموا ذنوبا [الذاريات: ٥٩] إشارة إلى العذاب وقال هنا إن عذاب ربك لواقع [الطور: ٧] وفيه مسائل:

المسألة الأولى: ما الطور، وما الكتاب المسطور؟ نقول فيه وجوه: الأول: الطور هو جبل معروف كلم الله تعالى موسى عليه السلام الثاني: هو الجبل الذي قال الله تعالى: وطور سينين [التين: ٢] الثالث: هو اسم الجنس والمراد القسم بالجبل غير أن الطور الجبل العظيم كالطود، وأما الكتاب ففيه أيضا وجوه: أحدها: كتاب موسى عليه السلام ثانيها: الكتاب الذي في السماء ثالثها: صحائف أعمال الخلق رابعها: القرآن وكيفما كان فهي في رقوق، وسنبين فائدة قوله تعالى: في رق منشور وأما البيت المعمور ففيه وجوه: الأول: هو بيت في السماء العليا عند العرش ووصفه بالعمارة لكثرة الطائفين به من الملائكة الثاني: هو بيت الله الحرام وهو معمور بالحاج الطائفين به العاكفين الثالث: البيت المعمور اللام فيه لتعريف الجنس كأنه يقسم بالبيوت المعمورة والعمائر المشهورة، والسقف المرفوع السماء، والبحر المسجور، قيل الموقد يقال سجرت التنور، وقيل هو البحر المملوء ماء المتموج، وقيل هو بحر معروف في السماء يسمى بحر

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ١٩٥/٢٨

الحيوان.

المسألة الثانية: ما الحكمة فـي اختيار هذه الأشياء؟ نقول هي تحتمل وجوها: أحدها: أن الأماكن الثلاثة." (١)

"وهي: الطور، والبيت المعمور، والبحر المسجور، أماكن كانت لثلاثة أنبياء ينفردون فيها للخلوة بربهم والخلاص من الخلق والخطاب مع الله، أما الطور فانتقل إليه موسى/ عليه السلام، والبيت محمد صلى الله عليه وسلم، والبحر المسجور يونس عليه السلام، والكل خاطبوا الله هناك فقال موسى: أتهلكنا بما فعل السفهاء منا إن هي إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء [الأعراف: ١٥٥] وقال: أرني أنظر إليك [الأعراف: ١٤٣] وأما

محمد صلى الله عليه وسلم فقال: «السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، لا أحـصي ثناء عليك كما أثنيت على نفسك»

وأما يونس فقال: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين [الأنبياء: ٨٧] فصارت الأماكن شريفة بهذه الأسباب، فحلف الله تعالى بها، وأما ذكر الكتاب فإن الأنبياء كان لهم في هذه الأماكن مع الله تعالى كلام والكلام في الكتاب واقترانه بالطور أدل على ذلك، لأن موسى عليه السلام كان له مكتوب ينزل عليه وهو بالطور، وأما ذكر السقف المرفوع ومعه البيت المعمور ليعلم عظمة شأن محمد صلى الله عليه وسلم ثانيها: وهو أن القسم لما كان على وقوع العذاب وعلى أنه لا دافع له، وذلك لأن لا مهرب من عذاب الله لأن من يريد دفع العذاب عن نفسه، ففي بعض الأوقات يتحصن بمثل الجبال الشاهقة التي ليس لها طرف وهي متضايقة بين أنه لا ينفع التحصن بها من أمر الله تعالى كما قال ابن نوح عليه السلام سآوي إلى جبل يعصمني من الماء قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم [هود: ٤٣] حكاية عن نوح عليه السلام.

المسألة الثالثة: ما الحكمة في تنكير الكتاب وتعريف باقي الأشياء؟ نقول ما يحتمل الخفاء من الأمور الملتبسة بأمثالها من الأجناس يعرف باللام، فيقال رأيت الأمير ودخلت على الوزير، فإذا بلغ الأمير الشهرة بحيث يؤمن الالتباس مع شهرته، ويريد الواصف وصفه بالعظمة، يقول: اليوم رأيت أميرا ما له نظير جالسا وعليه سيما الملوك وأنت تريد ذلك الأمير المعلوم، والسبب فيه أنك بالتنكير تشير إلى أنه خرج عن أن

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٨/١٩٨

يعلم ويعرف بكنه عظمته، فيكون كقوله تعالى: الحاقة ما الحاقة وما أدراك ما الحاقة [الحاقة: ١- ٣] فاللام وإن كانت معرفة لكن أخرجها عن المعرفة كون شدة هولها غير معروف، فكذلك هاهنا الطور ليس في الشهرة بحيث يؤمن اللبس عند التنكير، وكذلك البيت المعمور، وأما الكتاب الكريم فقد تميز عن سائر الكتب، بحيث لا يسبق إلى أفهام السامعين من النبي صلى الله عليه وسلم لفظ الكتاب إلا ذلك، فلما أمن اللبس وحصلت فائدة التعريف سواء ذكر باللام أو لم يذكر قصدا للفائدة الأخرى وهي في الذكر بالتنكير، وفي تلك الأشياء لما لم تحصل فائدة التعريف إلا بآلة التعريف استعملها، وهذا يؤيد كون المراد منه القرآن وكذلك اللوح المحفوظ مشهور.

المسألة الرابعة: ما الفائدة في قوله تعالى: في رق منشور وعظمة الكتاب بلفظه ومعناه لا بخطه ورقه؟ نقول هو إشارة إلى الوضوح، وذلك لأن الكتاب المطوي لا يعلم ما فيه فقال هو في رق منشور وليس كالكتب المطوية وعلى هذا المراد اللوح المحفوظ فمعناه هو منشور لكم لا يمنعكم أحد من مطالعته، وإن قلنا بأن المراد كتاب أعمال كل أحد فالتنكير لعدم المعرفة بعينه وفي رق منشور لبيان وصفه كما قال تعالى: كتابا يلقاه منشورا [الإسراء: ١٣] وذلك لأن غير المعروف إذا/ وصف كان إلى المعرفة أقرب شبها.

المسألة الخامسة: في بعض السور أقسم بجموع كما في قوله تعالى: والذاريات وقوله." (١)

"والمرسلات وقوله والنازعات وفي بعضها بإفراد كما في هذه السورة حيث قال: والطور ولم يقل والأطوار والبحار، ولا سيما إذا قلنا المراد من الطور الجبل العظيم كالطود، كما في قوله تعالى: ورفعنا فوقهم الطور [النساء: ١٥٤] أي الجبل فما **الحكمة فيه**؟ نقول في الجموع في أكثرها أقسم بالمتحركات والريح الواحدة ليست بثابتة مستمرة حتى يقع القسم بها، بل هي متبدلة بأفرادها مستمرة بأنواعها والمقصود منها لا يحصل إلا بالتبدل والتغير فقال: والذاريات إشارة إلى النوع المستمر إلى الفرد المعين المستقر، وأما الجبل فهو ثابت قليل التغير والواحد من الجبال دائم زمانا ودهرا، فأقسم في ذلك بالواحد وكذلك قوله والنجم والريح ما علم القسم به وفي الطور علم. ثم قال تعالى:

[سورة الطور (٥٢) : الآيات ٧ الى ٨]

إن عذاب ربك لواقع (٧) ما له من دافع (٨)

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٨/١٩٩

إشارة إلى المقسم عليه وفيه مباحث الأول: في حرف (إن) وفيه مقامات الأول: هي تنصب الاسم وترفع الخبر والسبب فيه هو أنها شبهت بالفعل من حيث اللفظ والمعنى، أما اللفظ فلكون الفتح لازما فيها واختصاصها بالدخول على الأسماء والمنصوب منها على وزن إن أنينا، وأما المعنى، فنقول اعلم أن الجملة الإثباتية قبل الجملة الانتفائية، ولهذا استغنوا عن حرف يدل على الإثبات، فإذا قالوا زيد منطلق فهم منه إرادة إثبات الانطلاق لزيد، والانتفائية لما كانت بعد المثبتة زيد فيها حرف يغيرها عن الأصل وهو الإثبات فقيل ليس زيد منطلقا، فصار ليس زيد منطلقا بعد قول القائل زيد منطلق، ثم إن قول القائل إن زيدا منطلق مستنبط من قوله ليس زيد منطلقا، كأن الواضع لما وضع أولا زيد منطلق للإثبات وعند النفي يحتاج إلى ما يغيره أتى بلفظ مغير وهو فعل من وجه لأنك قد تبقي مكانه ما النافية ولهذا قيل لست وليسوا، فألحق به ضمير الفاعل، ولولا أنه فعل لما جاز ذلك، ثم أراد أن يضع في مقابلة ليس زيد منطلقا جملة إثباتية فيها لفظ الإثبات، كما أن في النافية لفظ النفي فقال إن ولم يقصد أن إن فعل لأن ليس يشبه بالفعل لما فيه من معنى الفعل وهو التغيير، فإنها غيرت الجملة من أصلها الذي هو الإثبات وأما إن فلم تغيره فالجملة على ما كانت عليه إثباتية فصارت مشبهة بالمشبهة بالفعل وهي ليس، وهذا ما يقوله النحويون في إن وأن وكأن وليت ولعل إنها حروف مشبهة بالأفعال إذا علمت هذا، فنقول كما أن ليس لها اسم كالفاعل وخبر كالمفعول، تقول ليس زيد لئيما بالرفع والنصب كما تقول بات زيد كريما، فكذلك إن لها اسم وخبر، لكن اسمها يخالف اسم ليس وخبرها خبرها فإن اسم إن منصوب وخبرها مرفوع، لأن إن لما كانت زيادة على خلاف الأصل لأنها لا تفيد إلا الإثبات الذي كان مستفادا من غير حرف، وليس لما كانت زيادة على الأصل لأنها تغير الأصل/ ولو لاها لما حصل المقصود جعل المرفوع والمنصوب في ليس على الأصل، لأن الأصل تقديم الفاعل، وفي إن جعل ذلك على خلاف الأصل وقدم المشبه بالمفعول على المشبه بالفاعل تقديما لازما فلا يجوز أن يقال إن منطلق زيدا وهو في ليس منطلقا زيد جائز كما في الفعل لأنها فعل.

المقام الثاني: هي لم تكسر تارة وتفتح أخرى؟ نقول الأصل فيها الكسرة والعارض وإن كان هذا في الظاهر يخالف قول النحاة لكن في الحقيقة هي كذلك.." (١)

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٨/٢٠٠

"قوله تعالى: في بطون أمهاتكم؟ نقول: التنبيه على كمال العلم والقدرة، فإن بطن الأم في غاية الظلمة، ومن علم بحال الجنين فيها لا يخفى عليه ما ظهر من حال العباد.

المسألة الخامسة: لقائل أن يقول: إذا قلنا إن قوله هو أعلم بكم تقرير لكونه عالما بمن ضل، فقوله تعالى: فلا تزكوا أنفسكم تعلقه به ظاهر، وأما إن قلنا إنه تأكيد وبيان للجزاء، فإنه يعلم الأجزاء فيعيدها إلى أبدان أشخاصها، فكيف يتعلق به فلا تزكوا أنفسكم؟ نقول: معناه حينئذ فلا تبرئوا أنفسكم من العذاب، ولا تقولوا تفرقت الأجزاء فلا يقع العذاب، لأن العالم بكم عند الإنشاء عالم بكم عند الإعادة، وعلى هذا قوله:

أعلم بمن اتقى أي يعلم أجزاءه فيعيدها إليه، ويثيبه بما أقدم عليه.

المسألة السادسة: الخطاب مع من؟ فيه ثلاثة احتمالات الأول: مع الكفار، وهذا على قولنا إنهم قالوا كيف يعلمه الله، فرد عليهم قولهم الثاني كل من كان زمان الخطاب وبعده من المؤمنين والكفار الثالث هو مع المؤمنين، وتقريره: هو أن الله تعالى لما قال: فأعرض عن من تولى عن ذكرنا [النجم: ٢٩] قال لنبيه صلى الله عليه وسلم:

قد علم كونك ومن معك على الحق، وكون المشركين على الباطل، فأعرض عنهم ولا تقولوا: نحن على الحق وأنتم على الضلال، لأنهم يقابلونكم بمثل ذلك، وفوض الأمر إلى الله تعالى، فهو أعلم بمن اتقى ومن طغى، وعلى هذا فقول من قال: فأعرض منسوخ أظهر، وهو كقوله تعالى: وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين [سبأ: ٢٤] والله أعلم بجملة الأمور، ويحتمل أن يقال: على هذا الوجه الثالث إنه إرشاد للمؤمنين، فخاطبهم الله وقال: هو أعلم بكم أيها المؤمنون، علم ما لكم من أول خلقكم إلى آخر يومكم، فلا تزكوا أنفسكم رياء وخيلاء، ولا تقولوا لآخر أنا خير منك وأنا أزكى منك وأتقى، فإن الأمر عند الله، ووجه آخر وهو إشارة إلى وجوب الخوف من العاقبة، أي لا تقطعوا بخلاصكم أيها المؤمنون، فإن الله يعلم عاقبة من يكون على التقى، وهذا يؤيد قول من يقول: أنا مؤمن إن شاء الله للصرف إلى العاقبة ثم قال تعالى:

[سورة النجم (٥٣) : الآيات ٣٣ الى ٣٥]

أفرأيت الذي تولى (٣٣) وأعطى قليلا وأكدى (٣٤) أعنده علم الغيب فهو يرى (٣٥)

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قال بعض المفسرين: نزلت الآية في الوليد بن المغيرة جلس عند النبي صلى الله عليه وسلم وسمع وعظه، وأثرت الحكمة فيه تأثيرا قويا، فقال له رجل: لم تترك دين آبائك، ثم قال له: لا تخف وأعطني كذا وأنا أتحمل عنك أوزارك، فأعطاه بعض ما التزمه، وتولى عن الوعظ وسماع الكلام من النبي صلى الله عليه وسلم، وقال بعضهم:

نزلت في عثمان رضي الله عنه، كان يعطي ماله عطاء كثيرا، فقال له أخوه من أمه عبد الله بن سعد بن أبي سرح:

يوشك أن يفنى مالك فأمسك، فقال له عثمان: إن لي ذنوبا أرجو أن يغفر الله لي بسبب العطاء، فقال له أخوه:

أنا أتحمل عنك ذنوبك إن تعطي ناقتك مع كذا، فأعطاه ما طلب وأمسك يده عن العطاء، فنزلت الآية، وهذا قول باطل لا يجوز ذكره، لأنه لم يتواتر ذلك ولا اشتهر، وظاهر حال عثمان رضي الله عنه يأبى ذلك، بل الحق أن يقال: إن الله تعالى لما قال لنبيه صلى الله عليه وسلم من قبل فأعرض عن من تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا." (١)

"ولم يرتدعوا حتى دعا عليهم نبيهم، ولا يدعو نبي على قومه إلا بعد الإصرار العظيم، والظالم واضع الشيء في غير موضعه، والطاغي المجاوز الحد فالطاغي أدخل في الظلم فهو كالمغاير والمخالف فإن المخالف مغاير مع وصف آخر زائد، وكذا المغاير والمضاد وكل ضد غير وليس كل غير ضدا، وعليه سؤال وهو أن قوله: وقوم نوح المقصود منه تخويف الظالم/ بالهلاك، فإذا قال: هم كانوا في غاية الظلم والطغيان فأهلكوا يقول الظالم هم كانوا أظلم فأهلكوا لمبالغتهم في الظلم، ونحن ما بالغنا فلا نهلك، وأما لو قال أهلكوا لأنهم ظلمة لخاف كل ظالم فما الفائدة في قوله: أظلم؟ نقول: المقصود بيان شدتهم وقوة أجسامهم فإنهم لم يقدموا على الظلم والطغيان الشديد إلا بتماديهم وطول أعمارهم، ومع ذلك ما نجا أحد منهم فما حال من هو دونهم من العمر والقوة فهو كقوله تعالى: أشد منهم بطشا [الزخرف: ٨] . وقوله تعالى:

[سورة النجم (٥٣) : آية ٥٣]

والمؤتفكة أهوى (٥٣)

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٧٢/٢٩

المؤتفكة المنقلبة، وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قرئ: والمؤتفكات والمشهور فيه أنها قرئ قوم لوط لكن كانت لهم مواضع ائتفكت فهي مؤتفكات، ويحتمل أن يقال المراد كل من انقلبت مساكنه ودثرت أماكنه ولهذا ختم المهلكين بالمؤتفكات كمن يقول: مات فلان وفلان وكل من كان من أمثالهم وأشكالهم.

المسألة الثانية: أهوى أي أهواها بمعنى أسقطها، فقيل: أهواها من الهوى إلى الأرض من حيث حملها جبريل عليه السلام على جناحه، ثم قلبها، وقيل: كانت عمارتهم مرتفعة فأهواها بالزلزلة وجعل عاليها سافلها.

المسألة الثالثة: قوله تعالى: والمؤتفكة أهوى على ما قلت: كقول القائل والمنقلبة قلبها وقلب المنقلب تحصيل الحاصل، نقول: ليس معناه المنقلبة ما انقلبت بنفسها بل الله قلبها فانقلبت.

المسألة الرابعة: ما **الحكمة في** اختصاص المؤتفكة باسم الموضع في الذكر، وقال في عاد وثمود، وقوم نوح اسم القوم؟ نقول: الجواب عنه من وجهين أحدهما: أن ثمود اسم الموضع فذكر عادا باسم القوم، وثمود باسم الموضع، وقوم نوح باسم القوم والمؤتفكة باسم الموضع ليعلم أن القوم لا يمكنهم صون أماكنهم عن عذاب الله تعالى ولا الموضع يحصن القوم عنه فإن في العادة تارة يقوى الساكن فيذب عن مسكنه وأخرى يقوى المسكن فيرد عن ساكنه وعذاب الله لا يمنعه مانع، وهذا المعنى حصل للمؤمنين في آيتين أحدهما قوله تعالى: وكف أيدي الناس عنكم [الفتح: ٢٠] وقوله تعالى: وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله [الحشر: ٢] ففي الأول لم يقدر الساكن على حفظ مسكنه وفي الثاني لم يقو الحصن على حفظ الساكن والوجه الثاني: هو أن عادا وثمود وقوم نوح، كان أمرهم متقدما، وأماكنهم كانت قد دثرت، ولكن أمرهم كان مشهورا متواترا، وقوم لوط كانت مساكنهم وآثار الانقلاب فيها ظاهرة، فذكر الأظهر من الأمرين في كل قوم. ثم قال تعالى:

[سورة النجم (٥٣) : آية ٥٤]

فغشاها ما غشى (٥٤)." (١)

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٨٤/٢٩

"أو متعظ على ما فسرنا به قوله تعالى: يسرنا القرآن للذكر وقوله: فهل من مدكر وعلى قولنا المراد متذكر إشارة إلى ظهور الأمر فكأنه لا يحتاج إلى نكر، بل هو أمر حاصل عنده لا يحتاج إلى معاودة ما عند غيره. ثم قال تعالى:

[سورة القمر (٥٤) : آية ١٨]

كذبت عاد فكيف كان عذابي ونذر (١٨)

وفيه مسائل:

الأولى: قال في قوم نوح: كذبت قوم نوح [الشعراء: ١٠٥] ولم يقل في عاد كذبت قوم هود وذلك لأن التعريف كلما أمكن أن يؤتى به على وجه أبلغ فالأولى أن يؤتى به والتعريف بالاسم العلم أولى من التعريف بالإضافة إليه، فإنك إذا قلت: بيت الله لا يفيد ما يفيد قولك الكعبة، فكذلك إذا قلت: رسول الله لا يفيد ما يفيد قولك محمد فعاد اسم علم للقوم لا يقال قوم هود أعرف لوجهين أحدهما: أن الله تعالى وصف عادا بقوم هود حيث قال: ألا بعدا لعاد قوم هود [هود: ٦٠] ولا يوصف الأظهر بالأخفى والأخص بالأعم ثانيهما: أن قوم هود واحد وعاد، قيل: إنه لفظ يقع على أقوام ولهذا قال تعالى: عادا الأولى [النجم: ٥٠] لأنا نقول: أما قوله تعالى: لعاد قوم هود [هود: ٦٠] فليس ذلك صفة وإنما هو بدل ويجوز في البدل أن يكون دون المبدل في المعرفة، ويجوز أن يبدل عن المعرفة بالنكرة، وأما عادا الأولى فقد قدمنا أن ذلك لبيان تقدمهم أي عادا الذين تقدموا وليس ذلك للتمييز والتعريف كما تقول محمد النبي شفيعي والله الكريم ربي ورب الكعبة المشرفة لبيان الشرف لا لبيانها وتعريفها كما تقول: دخلت الدار المعمورة من الدارين وخدمت الرجل الزاهد من الرجلين فتبين المقصود بالوصف.

المسألة الثانية: لم يقل كذبوا هودا كما قال: فكذبوا عبدنا [القمر: ٩] وذلك لوجهين أحدهما: أن تكذيب نوح كان أبلغ وأشد حيث دعاهم قريبا من ألف سنة وأصروا على التكذيب، ولهذا ذكر الله تعالى تكذيب نوح في مواضع ولم يذكر تكذيب غير نوح صريحا وإن نبه عليه [في] واحد منها في الأعراف قال: فأنجيناه والذين معه في الفلك [الأعراف: ٦٤] وقال حكاية عن نوح: قال رب إن قومي كذبون [الشعراء: ١١٧] وقال: إنهم عصوني [نوح: ٢١] وفي هذه المواضع لم يصرح بتكذيب قوم غيره منهم إلا قليلا ولذلك قال تعالى في مواضع ذكر شعيب فكذبوه: وقال الذين كذبوا شعيبا [الأعراف: ٩٢] وقال تعالى عن قومه: وإنا لنظنك من الكاذبين [الأعراف: ٦٦] لأنه دعا قومه زمانا مديداو ثانيهما: أن حكاية عاد مذكورة هاهنا

على سبيل الاختصار فلم يذكر إلا تكذيبهم وتعذيبهم فقال: كذبت عاد كما قال: كذبت (قبلهم) قوم نوح ولم يذكر دعاءه عليهم وإجابته كما قال في نوح.

المسألة الثالثة: قال تعالى: فكيف كان عذابي ونذر قبل أن بين العذاب وفي حكاية نوح بين العذاب، ثم قال: فكيف كان فما الحكمة فيه؟ نقول: الاستفهام الذي ذكره في حكاية نوح/ مذكور هاهنا، وهو قوله تعالى: فكيف كان عذابي ونذر كما قال من قبل ومن بعد في حكاية ثمود غير أنه تعالى حكى في حكاية عاد فكيف كان مرتين، المرة الأولى استفهم ليبين كما يقول المعلم لمن لا يعرف كيف المسألة الفلانية ليصير المسئول سائلا، فيقول: كيف هي فيقول إنها كذا وكذا فكذلك هاهنا قال: كذبت عاد فكيف كان عذابي فقال." (١)

"النخل لفظه لفظ الواحد، كالبقل والنمل ومعناه معنى الجمع، فيجوز أن يقال فيه: نخل منقعر ومنقعرة ومنقعرات، ونخل خاو وخاوية وخاويات ونخل باسق وباسقة وباسقات، فإذا قال قائل: منقعر أو خاو أو باسق جرد النظر إلى اللفظ ولم يراع جانب المعنى، وإذا قال: منقعرات أو خاويات أو باسقات جرد النظر إلى المعنى ولم يراع جانب اللفظ، وإذا قال: منقعرة أو خاوية أو باسقة جمع بين الاعتبارين من حيث وحدة اللفظ، وربما قال: منقعرة على الإفراد من حيث اللفظ، وألحق به تاء التأنيث التي في الجماعة إذا عرفت هذا فنقول: ذكر الله تعالى لفظ النخل في مواضع ثلاثة، ووصفها على الوجوه الثلاثة، فقال: والنخل باسقات [ق: ١٠] فإنها حال منها وهي كالوصف، وقال: نخل خاوية [الحاقة: ٧] وقال: نخل منقعر فحيث قال: منقعر كان المختار ذلك لأن المنقعر في حقيقة الأمر كالمفعول، لأنه الذي ورد عليه القعر فهو مقعور، والخاو والباسق فاعل ومعناه إخلاء ما هو مفعول من علامة التأنيث أولا، كما تقول: امرأة كفيل، وامرأة كفيلة، وامرأة كبير، وامرأة كبيرة. وأما الباسقات، فهي فاعلات حقيقة، لأن البسوق أمر قام بها، وأما الخاوية، فهي من باب حسن الوجه، لأن الخاوي موضعها، فكأنه قال: نخل خاوية المواضع، وهذا غاية الإعجاز حيث أتى بلفظ مناسب للألفاظ السابقة واللاحقة من حيث/ اللفظ، فكان الدليل يقتضي ذلك، بخلاف الشاعر الذي يختار اللفظ على المذهب الضعيف لأجل الوزن والقافية. ثم قال تعالى:

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٩/٣٠١

[سورة القمر (٥٤) : الآيات ٢١ الى ٢٢]

فكيف كان عذابي ونذر (٢١) ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر (٢٢)

وتفسيره قد تقدم والتكرير للتقرير، وفي قوله: عذابي ونذر لطيفة ما ذكرناها، وهي تثبت بسؤال وجواب لو قال القائل: أكثر المفسرين على أن النذر في هذا الموضع جمع نذير الذي هو مصدر معناه إنذار، فما الحكمة في توحيد العذاب حيث لم يقل: فكيف كان أنواع عذابي ووبال إنذاري؟ نقول: فيه إشارة إلى غلبة الرحمة الغضب، وذلك لأن الإنذار إشفاق ورحمة، فقال: الإنذارات التي هي نعم ورحمة تواترت، فلما لم تنفع وقع العذاب دفعة واحدة، فكانت النعم كثيرة، والنقمة واحدة وسنبين هذا زيادة بيان حين نفسر قوله تعالى: فبأي آلاء ربكما تكذبان [الرحمن: ١٣] حيث جمع الآلاء وكثر ذكرها وكررها ثلاثين مرة، ثم بين الله تعالى حال قوم آخرين. فقال:

[سورة القمر (54) : آية ٢٣]

كذبت ثمود بالنذر (٢٣)

وقد تقدم تفسيره غير أنه في قصة عاد قال: كذبت [القمر: ١٨] ولم يقل: بالنذر، وفي قصة نوح قال: كذبت قوم نوح المرسلين «١» [الشعراء: ١٠٥] فنقول: هذا يؤيد ما ذكرنا من أن المراد بقوله: كذبت قبلهم قوم نوح [القمر: ٩] أن عادتهم ومذهبهم إنكار الرسل وتكذيبهم فكذبوا نوحا بناء على مذهبهم وإنما صرح هاهنا لأن كل قوم يأتون بعد قوم وأتاهما رسولان فالمكذب المتأخر يكذب المرسلين جميعا حقيقة والأولون يكذبون رسولا واحدا حقيقة ويلزمهم تكذيب من بعده بناء على ذلك لأنهم لما كذبوا من تقدم في قوله: الله تعالى واحد، والحشر كائن، ومن أرسل بعده كذلك قوله ومذهبه لزم منه أن يكذبوه ويدل على هذا

---

(١) لم نعثر عليها في المعجم، ولفظ (بالنذر) مقحمة فإزالتها تستقيم الآية.." (١)

"أن الله تعالى قال في قوم نوح: فكذبوه فأنجيناه [الأعراف: ٦٤] وقال في عاد: وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله [هود: ٥٩] وأما قوله تعالى: كذبت قوم نوح المرسلين [الشعراء: ١٠٥] فإشارة

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٩/٣٠٥

إلى أنهم كذبوا وقالوا ما يفضي إلى تكذيب جميع المرسلين، ولهذا ذكره بلفظ الجمع المعرف للاستغراق، ثم إنه تعالى قال هناك عن نوح: رب إن قومي كذبون [الشعراء: ١١٧] ولم يقل: كذبوا رسلك إشارة إلى ما صدر منهم حقيقة لا أن ما ألزمهم لزمه. إذا عرفت هذا فلما سبق قصة ثمود ذكر رسولين ورسولهم ثالثهم قال:

كذبت ثمود بالنذر هذا كله إذا قلنا إن النذر جمع نذير بمعنى منذر، أما إذا قلنا إنها الإنذارات فنقول: قوم نوح وعاد لم تستمر المعجزات التي ظهرت في زمانهم، وأما ثمود فأنذروا وأخرج لهم ناقة من صخرة وكانت تدور بينهم وكذبوا فكان تكذيبهم بإنذارات وآيات ظاهرة فصرح بها، وقوله: فقالوا أبشرا منا/ واحدا نتبعه [القمر: ٢٤] يؤيد الوجه الأول، لأن من يقول لا أتبع بشرا مثلي وجميع المرسلين من البشر يكون مكذبا للرسل والباء في قوله بالنذر يؤيد الوجه الثاني لأنا بينا أن الله تعالى في تكذيب الرسل عدى التكذيب بغير حرف فقال: فكذبوه [الأعراف: ٦٤] وكذبوا (....) رسلنا [غافر: ٧٠] فكذبوا عبدنا [القمر: ٩] وكذبون [المؤمنون: ٢٦] وقال: كذبوا بآيات ربهم [الأنفال: ٥٤] وبآياتنا [البقرة: ٣٩] فعدى بحرف لأن التكذيب هو النسبة إلى الكذب والقائل هو الذي يكون كاذبا حقيقة والكلام والقول يقال فيه كاذب مجازا وتعلق التكذيب بالقائل أظهر فيستغني عن الحرف بخلاف القول، وقد ذكرنا ذلك وبيناه بيانا شافيا.

[سورة القمر (٥٤) : آية ٢٤]

فقالوا أبشرا منا واحدا نتبعه إنا إذا لفي ضلال وسعر (٢٤)

وفي قوله تعالى: فقالوا أبشرا منا واحدا نتبعه مسائل:

المسألة الأولى: زيدا ضربته وزيد ضربته كلاهما جائز والنصب مختار في مواضع منها هذا الموضع وهو الذي يكون ما يرد عليه النصب والرفع بعد حرف الاستفهام، والسبب في اختيار النصب أمر معقول وهو أن المستفهم يطلب من المسئول أن يجعل ما ذكره بعد حرف الاستفهام مبدأ لكلامه ويخبر عنه، فإذا قال: أزيد عندك معناه أخبرني عن زيد واذكر لي حاله، فإذا انضم إلى هذه الحالة فعل مذكور ترجح جانب النصب فيجوز أن يقال: أزيدا ضربته وإن لم يجب فالأحسن ذلك فإن قيل: من قرأ أبشر منا واحدا نتبعه كيف ترك الأجود؟

نقول: نظرا إلى قوله تعالى: فقالوا إذ ما بعد القول لا يكون إلا جملة والاسمية أولى والأولى أقوى وأظهر.

المسألة الثانية: إذا كان بشرا منصوبا بفعل، فما الحكمة في تأخر الفعل في الظاهر؟ نقول: قد تقدم مرارا

أن البليغ يقدم في الكلام ما يكون تعلق غرضه به أكثر وهم كانوا يريدون تبيين كونهم محقين في ترك الاتباع فلو قالوا: أنتبع بشرا يمكن أن يقال نعم اتبعوه وماذا يمنعكم من اتباعه، فإذا قدموا حاله وقالوا هو نوعنا بشر ومن صنفنا رجل ليس غريبا نعتقد فيه أنه يعلم ما لا نعلم أو يقدر ما لا نقدر وهو واحد وحيد وليس له جند وحشم وخيل وخدم فكيف نتبعه، فيكونون قد قدموا الموجب لجواز الامتناع من الاتباع، واعلم أن في هذه الآية إشارات إلى ذلك أحدها: نكروه حيث قالوا أبشرا ولم يقولوا: أنتبع صالحا أو الرجل المدعي النبوة أو غير ذلك من المعرفات والتنكير تحقير ثانيها: قالوا أبشرا ولم يقولوا أرجلا ثالثها: قالوا منا وهو يحمل أمرين أحدهما من صنفنا ليس غريبا، وثانيهما منا أي تبعنا يقول القائل لغيره أنت منا فيتأذى السامع ويقول: لا بل أنت منا ولست أنا منكم، وتحقيقه أن من للتبعيض والبعض يتبع الكل لا الكل يتبع البعض رابعها: واحدا." (١)

"الحجارة قال الله تعالى: وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل [الحجر: ٧٤] وقال تعالى عن الملائكة: لنرسل عليهم حجارة من طين [الذاريات: ٣٣] فالمرسل عليهم ليس بحاصب فكيف الجواب عنه؟ نقول: الجواب من وجوه الأول: أرسلنا عليهم ريحا حاصبا بالحجارة التي هي الحصباء وكثر استعمال الحاصب في الريح الشديدة فأقام الصفة مقام الموصوف، فإن قيل: هذا ضعيف من حيث اللفظ والمعنى، أما اللفظ فلأن الريح مؤنثة قال تعالى: بريح صرصر عاتية [الحاقة: ٦] ، بريح طيبة [يونس: ٢٢] وقال تعالى: فسخرنا له الريح تجري بأمره [ص: ٣٦] وقال تعالى: غدوها شهر [سبأ: ١٢] وقال تعالى في: [وأرسلنا] الرياح لواقح [الحجر: ٢٢] وما قال لقاحا ولا لقحة، وأما المعنى فلأن الله تعالى بين أنه أرسل عليهم حجارة من سجيل مسومة عليها علامة كل واحد وهي لا تسمى حصباء، وكان ذلك بأيدي الملائكة لا بالريح، نقول: تأنيث الريح ليس حقيقة ولها أصناف الغالب فيها التذكير كالإعصار، قال تعالى: فأصابها إعصار فيه نار [البقرة: ٢٦٦] فلما كان حاصب حجارة كان كالذي فيه نار، وأما قوله: كان الرمي بالسجيل لا بالحصباء، وبأيدي الملائكة لا بالريح، فنقول: كل ريح يرمي بحجارة يسمى حاصبا، وكيف لا والسحاب الذي يأتي بالبرد يسمى حاصبا تشبيها للبرد بالحصباء، فكيف لا يقال في السجيل. وأما الملائكة فإنهم حركوا الريح وهي حصبت الحجارة عليهم الجواب الثاني: المراد عذاب حاصب وهذا أقرب لتناوله الملك والحساب والريح وكل ما يفرض الجواب الثالث: قوله: حاصبا هو أقرب من الكل لأن قوله:

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٣٠٦/٢٩

إنا أرسلنا يدل على مرسل هو مرسل الحجارة وحاصبها، فإن قيل: كان ينبغي أن يقول حاصبين، نقول لما لم يذكر الموصوف رجح جانب اللفظ كأنه قال شيئا حاصبا إذ المقصود بيان جنس العذاب لا بيان من على يده العذاب، وهذا وارد على من قال: الريح مؤنث لأن ترك التأنيث هناك كترك علامة الجمع هنا.

المسألة الثانية: ما رتب الإرسال على التكذيب بالفاء فلم يقل: كذبت قوم لوط بالنذر فأرسلنا كما قال: ففتحنا أبواب السماء [القمر: ١١] لأن الحكاية مسوقة على مساق ما تقدم من الحكايات، فكأنه قال: فكيف كان عذابي ونذر [القمر: ٣٠] كما قال من قبل ثم قيل: لا علم لنا به وإنما أنت العليم فأخبرنا، فقال:

إنا أرسلنا.

المسألة الثالثة: ما الحكمة في ترك العذاب حيث لم يقل: فكيف كان عذابي كما قال في الحكايات الثلاث، نقول: لأن التكرار ثلاث مرات بالغ، ولهذا

قال صلى الله عليه وسلم: «ألا هل بلغت ثلاثا»

وقال: «فنكاحها باطل باطل باطل»

والإذكار تكرر ثلاث مرات فبثلاث مرار حصل التأكيد وقد بينا أنه تعالى ذكر: فكيف كان عذابي في حكاية نوح للتعظيم وفي حكاية ثمود للبيان وفي حكاية عاد أعادها مرتين للتعظيم والبيان جميعا واعلم أنه تعالى ذكر: فكيف كان عذابي في ثلاث حكايات أربع مرات فالمرة الواحدة للإنذار، والمرات الثلاث للإذكار، لأن المقصود حصل بالمرة الواحدة، وقوله تعالى: فبأي آلاء ربكما تكذبان [الرحمن: ١٣] ذكره مرة للبيان وأعادها ثلاثين مرة غير المرة الأولى كما أعاد: فكيف كان عذابي ونذر ثلاث مرات غير المرة/ الأولى فكان ذكر الآلاء عشرة أمثال ذكر العذاب إشارة إلى الرحمة التي قال في بيانها من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها [الأنعام: ١٦٠] وسنبين ذلك في سورة: الرحمن.

المسألة الرابعة: إلا آل لوط استثناء مما ذا؟ إن كان من الذين قال فيهم: إنا أرسلنا عليهم حاصبا." (١)

"واحد فإنهم كانوا يقولون: كل واحد منا يغلب محمدا صلى الله عليه وسلم كما قال أبي بن خلف الجمحي وهذا فيه معنى لطيف وهو أنهم ادعوا أن كل واحد غالب، والله رد عليهم بأجمعهم بقوله:

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٩/٣١٣

[سورة القمر (٥٤) : آية ٤٥]

سيهزم الجمع ويولون الدبر (٤٥)

وهو أنهم ادعوا القوة العامة بحيث يغلب كل واحد منهم محمدا صلى الله عليه وسلم والله تعالى بين ضعفهم الظاهر الذي يعمهم جميعهم بقوله: ويولون الدبر وحينئذ يظهر سؤال وهو أنه قال: يولون الدبر ولم يقل: يولون الأدبار.

وقال في موضع آخر: يو◌لوكم الأدبار ثم لا ينصرون [آل عمران: ١١١] وقال: ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار [الأحزاب: ١٥] وقال في موضع آخر: فلا تولوهم الأدبار [الأنفال: ١٥] فكيف تصحيح الإفراد وما الفرق بين المواضع؟ نقول: أما التصحيح فظاهر لأن قول القائل: فعلوا كقوله فعل هذا وفعل ذاك وفعل الآخر. قالوا: وفي الجمع تنوب مناب الواوات التي في العطف، وقوله: يولون بمثابة يول هذا/ الدبر، ويول ذاك ويول الآخر أي كل واحد يولي دبره، وأما الفرق فنقول اقتضاء أواخر الآيات حسن الإفراد، فقوله: يولون الدبر إفراده إشارة إلى أنهم في الت◌◌ولية كنفس واحدة، فلا يتخلف أحد عن الجمع ولا يثبت أحد للزحف فهم كانوا في التولية كدبر واحد، وأما في قوله: فلا تولوهم الأدبار أي كل واحد يوجد به ينبغي أن يثبت ولا يولي دبره، فليس المنهي هناك توليتهم بأجمعهم بل المنهي أن يولي واحد منهم دبره، فكل أحد منهي عن تولية دبره، فجعل كل واحد برأسه في الخطاب ثم جمع الفعل بقوله: فلا تولوهم ولا يتم إلا بقوله: الأدبار وكذلك في قوله: ولقد كانوا عاهدوا الله [الأحزاب: ١٥] أي كل واحد قال: أنا أثبت ولا أولي دبري، وأما في قوله: لي ◌لن الأدبار [الحشر: ١٢] فإن المراد المنافقون الذين وعدوا اليهود وهم متفرقون بدليل قوله تعالى: تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى [الحشر: ١٤] ، وأما في هذا الموضع فهم كانوا يدا واحدة على من سواهم. ثم قال تعالى:

[سورة القمر (٥٤) : آية ٤٦]

بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر (٤٦)

إشارة إلى أن الأمر غير مقتصر على انهزامهم وإدبارهم بل الأمر أعظم منه فإن الساعة موعدهم فإنه ذكر ما يصيبهم في الدنيا من الدبر، ثم بين ما هو منه على طريقة الإصرار، هذا قول أكثر المفسرين، والظاهر أن الإنذار بالساعة عام لكل من تقدم، كأنه قال: أهلكنا الذين كفروا من قبلك وأصروا وقوم محمد عليه السلام

ليسوا بخير منهم فيصيبهم ما أصابهم إن أصروا، ثم إن عذاب الدنيا ليس لإتمام المجازاة فإتمام المجازاة بالأليم الدائم. وفيه مسائل:

المسألة الأولى: ما الحكمة في كون اختصاص الساعة موعدهم مع أنها موعد كل أحد؟ نقول: الموعد الزمان الذي فيه الوعد والوعيد والمؤمن موعود بالخير ومأمور بالصبر فلا يقول هو: متى يكون، بل يفوض الأمر إلى الله، وأما الكافر فغير مصدق فيقول: متى يكون العذاب؟ فيقال له: اصبر فإنه آت يوم القيامة، ولهذا كانوا يقولون: عجل لنا قطنا [ص: ١٦] وقال: ويستعجلونك بالعذاب [الحج: ٤٧] .

المسألة الثانية: أدهى من أي شيء؟ نقول: يحتمل وجهين أحدهما: ما مضى من أنواع عذاب الدنيا ثانيهما: أدهى الدواهي فلا داهية مثلها.." (١)

"وجهان أحدهما: النظر بالعين يقال: لمحته ببصري كما يقال: نظرت إليه بعيني والباء حينئذ كما يذكر في الآيات فيقال: كتبت بالقلم، واختار هذا المثال لأن النظر بالعين أسرع حركة توجد في الإنسان لأن العين وجد فيها أمور تعين على سرعة الحركة أحدها: قرب المحرك منها فإن المحرك العصبية ومنبتها الدماغ والعين في غاية القرب منه ثانيها: صغر حجمها فإنها لا تعصى على المحرك ولا تثقل عليه بخلاف العظام ثالثها: استدارة شكلها فإن دحرجة الكرة أسهل من دحرجة المربع والمثلث رابعها: كونها في رطوبة مخلوقة في العضو الذي هو موضعها وهذه الحكمة في أن المرئيات في غاية الكثرة بخلاف المأكولات والمسموعات والمقاصد التي تقصد بالأرجل والمذوقات، فلولا سرعة حركة الآلة التي بها إدراك المبصرات لما وصل إلى الكل إلا بعد طول زمان.

وثانيهما: اللمح بالبصر معناه البرق يخطف بالبصر ويمر به سريعا والباء حينئذ للإلصاق لا للاستعانة كقوله: مررت به وذلك في غاية السرعة، وقوله: بالبصر فيه فائدة وهي غاية السرعة فإنه لو قال: كلمح البرق حين برق ويبتدئ حركته من مكان وينتهي إلى مكان آخر في أقل زمان يفرض لصح، لكن مع هذا فالقدر الذي مروره يكون بالبصر أقل من الذي يكون من مبتداه إلى منتهاه، فقال: كلمح لا كما قيل: من المبدأ إلى المنتهى بل القدر الذي يمر بالبصر وهو غاية القلة ونهاية السرعة. ثم قال تعالى:

[سورة القمر (٥٤) : آية ٥١]

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٣٢٢/٢٩

ولقد أهلكنا أشياعكم فهل من مدكر (٥١)
والأشياع الأشكال، وقد ذكرنا أن هذا يدل على أن قوله: وما أمرنا إلا واحدة [القمر: ٥٠] تهديد بالإهلاك والثاني ظاهر. وقوله تعالى:

[سورة القمر (٥٤) : آية ٥٢]
وكل شيء فعلوه في الزبر (٥٢)
إشارة إلى أن الأمر غير مقتصر على إهلاكهم بل الإهلاك هو العاجل والعذاب الآجل الذي هو معد لهم على ما فعلوه، مكتوب عليهم، والزبر هي كتب الكتبة الذين قال تعالى فيهم: كلا بل تكذبون بالدين وإن عليكم لحافظين كراما كاتبين [الانفطار: ٩- ١١] و: فعلوه صفة شيء والنكرة توصف بالجمل. وقوله تعالى:

[سورة القمر (٥٤) : آية ٥٣]
وكل صغير وكبير مستطر (٥٣)
تعميم للحكم أي ليست الكتابة مقتصرة على ما فعلوه بل ما فعله غيرهم أيضا مسطور فلا يخرج عن الكتب صغيرة ولا كبيرة، وقد ذكرنا في قوله تعالى: لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر/ إلا في كتاب
[سبأ: ٣] أن في قوله أكبر فائدة عظيمة وهي أن من يكتب حساب إنسان فإنما يكتبه في غالب الأمر لئلا ينسى فإذا جاء بالجملة العظيمة التي يأمن نسيانها ربما يترك كتابتها ويشتغل بكتابة ما يخاف نسيانه، فلما قال: ولا أكبر أشار إلى الأمور العظام التي يؤمن من نسيانها أنها مكتوبة أي ليست كتابتنا مثل كتابتكم التي يكون المقصود منها الأمن من النسيان، فكذلك نقول: هاهنا وفي قوله تعالى: مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها [الكهف: ٤٩] وفي جميع هذه المواضع قدم الصغيرة لأنها أليق بالتثبت عند الكتابة فيبتدئ بها حفظا عن النسيان في عادة الخلق فأجرى الله الذكر على." (١)

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٣٣٠/٢٩

"عادتهم، وهذا يؤيد ما ذكرنا من قبل أن كلا وإن كان نكرة يحسن الابتداء به للعموم وعدم الإبهام.
ثم قال تعالى:

[سورة القمر (٥٤) : آية ٥٤]
إن المتقين في جنات ونهر (٥٤)
قد ذكرنا تفسير المتقين والجنات في سور منها: الطور وأما النهر ففيه قراءات فتح النون والهاء كحجر وهو اسم جنس ويقوم مقام الأنهار وهذا هو الظاهر الأصح وفيه مسائل:
المسألة الأولى: لا شك أن كمال اللذة بالبستان أن يكون الإنسان فيه، وليس من اللذة بالنهر أن يكون الإنسان فيه، بل لذته أن يكون في الجنة عند النهر، فما معنى قوله تعالى: ونهر؟ نقول: قد أجبنا عن هذا في تفسير قوله تعالى: إن المتقين في جنات وعيون [الذاريات: ١٥] في سورة الذاريات، وقلنا: المراد في خلال العيون، وفيما بينها من المكان وكذلك في جنات لأن الجنة هي الأشجار التي تستر شعاع الشمس، ولهذا قال تعالى: في ظلال وعيون [المرسلات: ٤١] . وإذا كانت الجنة هي الأشجار الساترة فالإنسان لا يكون في الأشجار وإنما يكون بينها أو خلالها، فكذلك النهر، ونزيد هاهنا وجها آخر وهو أن المراد في جنات وعند نهر لكون المجاورة تحسن إطلاق اللفظ الذي لا يحسن إطلاقه عند عدم المجاورة كما قال:
«علفتها تبنا وماء باردا»
وقالوا: تقلدت سيفا ورمحا، والماء لا يعلف والرمح لا يتقلد ولكن لمجاورة التبن والسيف حسن الإطلاق فكذلك هنا لم يأت في الثاني بما أتى به في الأول من كلمة في.
المسألة الثانية: وحد النهر مع جمع الجنات وجمع الأنهار وفي كثير من المواضع كما في قوله تعالى: تجري من تحتها الأنهار [البقرة: ٢٥] إلى غيره من المواضع فما **الحكمة فيه**؟ نقول: أما على الجواب الأول فنقول: لما بين أن معنى في نهر في خلال فلم يكن للسامع حاجة إلى سماع الأنهار، لعلمه بأن النهر الواحد لا يكون له خلال. وأما في قوله تعالى: تجري من تحتها الأنهار فلو لم يجمع الأنهار لجاز أن يفهم أن في الجنات كلها نهرا واحدا كما في الدنيا فقد يكون نهر واحد ممتد جار في جنات كثيرة وأما على الثاني فنقول: الإنسان يكون في جنات لأنا بينا أن الجمع في جنات إشارة إلى سعتها وكثرة/ أشجارها وتنوعها والتوحيد عند ما قال: مثل الجنة [محمد: ١٥] وقال: إن الله اشترى من المؤمنين

أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة [التوبة: ١١١] لاتصال أشجارها ولعدم وقوع القيعان الخربة بينها، وإذا علمت هذا فالإنسان في الدنيا إذا كان في بيت في دار وتلك الدار في محلة، وتلك المحلة في مدينة، يقال إنه في بلدة كذا، وأما القرب فإذا كان الإنسان في الدنيا بين نهرين بحيث يكون قربه منهما على السواء يقال إنه جالس عند نهرين، فإذا قرب من أحدهما يقال من عند أحد نهرين دون الآخر، لكن في دار الدنيا لا يمكن أن يكون عند ثلاثة أنهار وإنما يمكن أن يكون عند نهرين، والثالث منه أبعد من النهرين، فهو في الحقيقة ليس يكون في زمان واحد عند أنهار والله تعالى يذكر أمر الآخرة على ما نفهمه في الدنيا، فقال: عند نهر لما بينا أن قوله: ونهر وإن كان يقتضي في نهر لكن ذلك للمجاورة كما في تقلدت سيفا ورمحا، وأما قوله: تجري من تحتها الأنهار فحقيقته مفهومة عندنا لأن الجنة الواحدة قد يجري فيها أنهار كثيرة أكثر من ثلاثة وأربعة، فهذا ما فيه مع أن أواخر." (١)

"الأول: ما الحكمة في تعريفه عما يرجع إلى الله تعالى حيث قال هما: بحسبان ولم يقل: حركهما الله بحسبان أو سخرهما أو أجراهما كما قال: خلق الإنسان وقال: علمه البيان؟ [الرحمن: ٣، ٤] نقول: فيه حكم منها أن يكون إشارة إلى أن خلق الإنسان وتعليمه البيان أتم وأعظم من خلق المنافع له من الرزق وغيره، حيث صرح هناك بأنه فاعله وصانعه ولم يصرح هنا، ومنها أن قوله: الشمس والقمر هاهنا بمثل هذا في العظم يقول القائل: إني أعطيتك الألوف والمئات مرارا وحصل لك الآحاد والعشرات كثيرا وما شكرت، ويكون معناه حصل لك مني ومن عطائي لكنه يخصص التصريح بالعطاء عند الكثير، ومنها أنه لما بينا أن قوله:

الشمس والقمر إشارة إلى دليل عقلي مؤكد السمعي ولم يقل: فعلت صريحا إشارة إلى أنه معقول إذا نظرت إليه عرفت أنه مني واعترفت به، وأما السمعي فصرح بما يرجع إليه من الفعل الثاني: على أي وجه تعلق الباء من بحسبان، نقول: هو بين من تفسيره والتفسير أيضا مر بيانه وخرج من وجه آخر، فنقول: في الحسبان وجهان الأول: المشهور أن المراد الحساب يقال: حسب حسابا وحسبانا، وعلى هذا فالباء للمصالحة تقول:

قدمت بخير أي مع خير ومقرونا بخير فكذلك الشمس والقمر يجريان ومعهما حسابهما ومثله: إنا كل شيء خلقناه بقدر [القمر: ٤٩] ، وكل شيء عنده بمقدار [الرعد: ٨] ويحتمل أن تكون للاستعانة كما

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٩/٣٣١

في قولك:

بعون الله غلبت، وبتوفيق الله حجت، فكذلك يجريان بحسبان من الله والوجه الثاني: أن الحسبان هو الفلك تشبيها له بحسبان الرحا وهو ما يدور فيدير الحجر، وعلى هذا فهو للاستعانة كما يقال في الآلات كتبت بالقلم فهما يدوران بالفلك وهو كقوله تعالى: وكل في فلك يسبحون [يس: ٤٠] ، الثالث: على الوجه المشهور هل كل واحد يجري بحسبان أو كلاهما بحسبان واحد ما المراد؟ نقول: كلاهما محتمل فإن نظرنا إليهما فلكل واحد منهما حساب على حدة فهو/ كقوله تعالى: كل في فلك [الأنبياء: ٣٣] لا بمعنى أن الكل مجموع في فلك واحد وكقوله: وكل شيء عنده بمقدار [الرعد: ٨] وإن نظرنا إلى الله تعالى فللكل حساب واحد قدر الكل بتقدير حسبانهما بحساب، مثاله من يقسم ميراث نفسه لكل واحد من الورثة نصيبا معلوما بحساب واحد، ثم يختلف الأمر عندهم فيأخذ البعض السدس والبعض كذا والبعض كذا، فكذلك الحساب الواحد. وأما قوله:

والنجم والشجر يسجدان ففيه أيضا مباحث:

الأول: ما الحكمة في ذكر الجمل السابقة من غير واو عاطفة، ومن هنا ذكرها بالواو العاطفة؟ نقول ليتنوع الكلام نوعين، وذلك لأن من بعد النعم على غيره تارة يذكر نسقا من غير حرف، فيقول: فلان أنعم عليك كثيرا، أغناك بعد فقر، أعزك بعد ذلك، قواك بعد ضعف، وأخرى يذكرها بحرف عاطف وذلك العاطف قد يكون واوا وقد يكون فاء وقد يكون ثم، فيقول: فلان أكرمك وأنعم عليك وأحسن إليك، ويقول: رباك فعلمك فأغناك، ويقول: أعطاك ثم أغناك ثم أحوج الناس إليك، فكذلك هنا ذكر التعديد بالنوعين جميعا، فإن قيل:

زده بيانا وبين الفرق بين النوعين في المعنى، قلنا: الذي يقول بغير حرف كأنه يقصد به بيان النعم الكثيرة فيترك الحرف ليستوعب الكل من غير تطويل كلام، ولهذا يكون ذلك النوع في أغلب الأمر عند مجاوزة النعم ثلاثا أو عند ما تكون أكثر من نعمتين فإن ذكر ذلك عند نعمتين فيقول: فلان أعطاك المال وزوجك البنت، فيكون في كلامه إشارة إلى نعم كثيرة وإنما اقتصر على النعمتين للأنموذج، والذي يقول بحرف فكأنه يريد التنبيه على استقلال كل نعمة بنفسها، وإذهاب توهم البدل والتفسير، فإن قول القائل: أنعم عليك أعطاك المال هو تفسير." (١)

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٣٤٠/٢٩

"للأول فليس في كلامه ذكر نعمتين معا بخلاف ما إذا ذكر بحرف، فإن قيل: إن كان الأمر على ما ذكرت فلو ذكر النعم الأول بالواو ثم عند تطويل الكلام في الآخر سردها سردا، هل كان أقرب إلى البلاغة؟ وورود كلامه تعالى عليه كفاه دليلا على أن ما ذكره الله تعالى أبلغ، وله دليل تفصيلي ظاهر يبين ببحث وهو أن الكلام قد يشرع فيه المتكلم أولا على قصد الاختصار فيقتضي الحال التطويل، إما لسائل يكثر السؤال، وإما لطالب يطلب الزيادة للطف كلام المتكلم، وإما لغيرهما من الأسباب وقد يشرع ع‍ل‍ى قصد الإطناب والتفصيل، فيعرض ما يقتضي الاقتصار على المقصود من شغل السامع أو المتكلم وغير ذلك مما جاء في كلام الآدميين، نقول: كلام الله تعالى فوائده لعباده لا له ففي هذه السورة ابتدأ الأمر بالإشارة إلى بيان أتم النعم إذ هو المقصود، فأتى بما يختص بالكثرة، ثم إن الإنسان ليس بكامل العلم يعلم مراد المتكلم إذا كان الكلام من أبناء جنسه، فكيف إذا كان الكلام كلام الله تعالى، فبدأ الله به على الفائدة الأخرى وإذهاب توهم البدل والتفسير والنعي على أن كل واحد منها نعمة كام‍ل‍ة، فإن قيل: إذا كان كذلك فما **الحكمة في** تخصيص العطف بهذا الكلام والابتداء به لا بما قبله ولا بما بعده؟ قلنا: ليكون النوعان على السواء فذكر الثمانية من النعم كتعليم القرآن وخلق الإنسان وغير ذلك أربعا منها بغير واو وأربعا بواو، / وأما قوله تعالى: فيها فاكهة والنخل [الرحمن: ١١] وقوله:

والحب ذو العصف [الرحمن: ١٢] فلبيان نعمة الأرض على التفصيل ثم في اختيار الثمانية لطيفة، وهي أن السبعة عدد كامل والثمانية هي السبعة مع الزيادة فيكون فيه إشارة إلى أن نعم الله خارجة عن حد التعديد لما أن الزائد على الكمال لا يكون معينا مبينا، فذكر الثمانية منها إشارة إلى بيان الزيادة على حد العدد لا لبيان الانحصار فيه.

المسألة الثانية: النجم ماذا؟ نقول: فيه وجهان أحدهما: النبات الذي لا ساق له والثاني: نجم السماء والأول أظهر لأنه ذكره مع الشجر في مقابلة الشمس والقمر ذكر أرضين في مقابلة سماوين، ولأن قوله: يسجدان يدل على أن المراد ليس نجم السماء لأن من فسر به قال: يسجد بالغروب، وعلى هذا فالشمس والقمر أيضا كذلك يغربان، فلا يبقى للاختصاص فائدة، وأما إذا قلن‍ا: هما أرضان فنقول: يسجدان بمعنى ظلالهما تسجد فيختص السجود بهما دون الشمس والقمر، وفي سجودهما وجوه أحدها: ما ذكرنا من سجود الظلال ثانيها: خضوعهما لله تعالى وخروجهما من الأرض ودوامهما وثباتهما عليها بإذن الله تعالى، فسخر الشمس والقمر بحركة مستديرة والنجم بحركة مستقيمة إلى فوق، فشبه النبات في مكانها

بالسجود لأن الساجد يثبت. ثالثها: حقيقة السجود توجد منهما وإن لم تكن مرئية كما يسمح كل منهما وإن لم يفقه كما قال تعالى:

ولكن لا تفقهون تسبيحهم [الإسراء: ٤٤] ، رابعها: السجود وضع الجبهة أو مقاديم الرأس على الأرض والنجم والشجر في الحقيقة رؤوسهما على الأرض وأرجلهما في الهواء، لأن الرأس من الحيوان ما به شربه واغذاؤه، وللنجم والشجر اغتذاؤهما وشربهما بأجذالهما ولأن الرأس لا تبقى بدونه الحياة والشجر والنجم لا يبقى شيء منهما ثابتا غضا عند وقوع الخلل في أصولهما، ويبقى عند قطع فروعهما وأعاليهما، وإنما يقال:

للفروع رؤوس الأشجار، لأن الرأس في الإنسان هو ما يلي جهة فوق فقيل لأعالي الشجر رؤوس، إذا علمت هذا فالنجم والشجر رؤوسهما على الأرض دائما، فهو سجودهما بالشبه لا بطريق الحقيقة.

المسألة الثالثة: في تقديم النجم على الشجر موازنة لفظية للشمس والقمر وأمر معنوي، وهو أن النجم في." (١)

"وقوله تعالى: والنخل ذات الأكمام إشارة إلى النوع الآخر من الأشجار، لأن الأشجار المثمرة أفضل الأشجار وهي منقسمة إلى أشجار ثمار هي فواكه لا يقتات بها وإلى أشجار ثمار هي قوت وقد يتفكه بها، كما أن الفاكهة قد يقتات بها، فإن الجائع إذا لم يجد غير الفواكه يتقوت بها ويأكل غير متفكه بها، وفيه مباحث:

الأول: ما الحكمة في تقديم الفاكهة على القوت؟ نقول: هو باب الابتداء بالأدنى والارتقاء إلى الأعلى، والفاكهة في النفع دون النخل الذي منه القوت، والتفكه وهو دون الحب الذي عليه المدار في سائر المواضع، وبه يتغذى الأنام في جميع البلاد، فبدأ بالفاكهة ثم ذكر النخل ثم ذكر الحب الذي هو أتم نعمة لموافقته مزاج الإنسان، ولهذا خلقه الله في سائر البلاد وخصص النخل بالبلاد الحارة.

البحث الثاني: ما الحكمة في تنكير الفاكهة وتعريف النخل؟ وجوابه من وجوه أحدها: أن القوت محتاج إليه في كل زمان متداول في كل حين وأوان فهو أعرف والفاكهة تكون في بعض الأزمان وعند بعض الأشخاص وثانيها: هو أن الفاكهة على ما بينا ما يتفكه به وتطيب به النفس وذلك عند كل أحد بحسب كل وقت شيء، فمن غلب عليه حرارة وعطش، يريد التفكه بالحامض وأمثاله، ومن الناس من يريد

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٣٤١/٢٩

التفكه بالحلو وأمثاله، فالفاكهة غير متعينة فنكرها والنخل والحب معتادان معلومان فعرفهما وثالثها: النخل وحدها نعمة عظيمة تعلقت بها منافع كثيرة، وأما الفاكهة فنوع منها كالخوخ والإجاص مثلا ليس فيه عظيم النعمة كما في النخل، فقال: فاكهة بالتنكير ليدل على الكثرة وقد صرح بالكثرة في مواضع أخر فقال: يدعون فيها بفاكهة كثيرة [ص: ٥١] وقال: وفاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة [الواقعة: ٣٢، ٣٣] ، فالفاكهة ذكرها الله تعالى ووصفها بالكثرة صريحا وذكرها منكرة، لتحمل على أنها موصوفة بالكثرة اللائقة بالنعمة في النوع الواحد منها بخلاف النخل.

البحث الثالث: ما **الحكمة في** ذكر الفاكهة باسمها لا باسم أشجارها، وذكر النخل باسمها لا باسم ثمرها؟ نقول: قد تقدم بيانه في سورة: يس حيث قال تعالى: من نخيل وأعناب [يس: ٣٤] وهو أن شجرة العنب، وهي الكرم بالنسبة إلى ثمرتها وهي العنب حقيرة، وشجرة النخل بالنسبة إلى ثمرتها عظيمة، وفيها من الفوائد الكثيرة على ما عرف من اتخاذ الظروف منها والانتفاع بجمارها وبالطلع والبسر والرطب وغير ذلك، فثمرتها في أوقات مختلفة كأنها ثمرات مختلفة، فهي أتم نعمة بالنسبة إلى الغير من الأشجار، فذكر النخل باسمه وذكر الفاكهة دون أشجارها، فإن فوائد أشجارها في عين ثمارها.

البحث الرابع: ما معنى: ذات الأكمام؟ نقول: فيه وجهان أحدهما: الأكمام كل ما يغطي/ جمع كم بضم الكاف، ويدخل فيه لحاؤها وليفها ونواها والكل منتفع به، كما أن النخل منتفع بها وأغصانها وقلبها الذي هو الجمار ثانيهما: الأكمام جمع كم بكسر الكاف وهو وعاء الطلع فإنه يكون أولا في وعاء فينشق ويخرج منه الطلع، فإن قيل على الوجه الأول: ذات الأكمام في ذكرها فائدة لأنها إشارة إلى أنواع النعم، وأما على الوجه الثاني فما فائدة ذكرها؟ نقول: الإشارة إلى سهولة جمعها والانتفاع بها فإن النخلة شجرة عظيمة لا يمكن هزها لتسقط منها الثمرة فلا بد من قطف الشجرة فلو كان مثل الجميز الذي يقال: إنه يخرج من الشجرة متفرقا واحدة لصعب قطافها فقال: ذات الأكمام أي يكون في كم شيء كثير إذا أخذ عنقود واحد منه كفى رجلا واثنين كعناقيد العنب، فانظر إليها فلو كان العنب حباتها في الأشجار متفرقة كالجميز والزعرور لم يمكن." (١)

"وكذلك إلى جملة التقسيمات، فأشار إلى القسمين الحاصرين على أن ليس لأحد ولا لشيء أن ينكر نعم الله الخامس: التكذيب قد يكون بالقلب دون اللسان، كما في المنافقين، وقد يكون باللسان

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٩/٣٤٥

دون القلب كما في المعاندين وقد يكون بهما جميعا، فالكذب لا يخرج عن أن يكون باللسان أو بالقلب فكأنه تعالى قال: يا أيها القلب واللسان فبأي آلاء ربكما تكذبان فإن النعم بلغت حدا لا يمكن المعاند أن يستمر على تكذيبها، السادس:

المكذب مكذب بالرسول والدلائل السمعية التي بالقرآن ومكذب بالعقل والبراهين والتي في الآفاق والأنفس فكأنه تعالى قال: يا أيها المكذبان بأي آلاء ربكما تكذبان، وقد ظهرت آيات الرسالة فإن الرحمن علم القرآن، وآيات الوحدانية فإنه تعالى خلق الإنسان وعلمه البيان، ورفع السماء ووضع الأرض السابع: المكذب قد يكون مكذبا بالفعل وقد يكون التكذيب منه غير واقع بعد لكنه متوقع فالله تعالى قال: يا أيها المكذب تكذب وتتلبس بالكذب، ويختلج في صدرك أنك تكذب، فبأي آلاء ربكما تكذبان، وهذه الوجوه قريبة بعضها من بعض والظاهر منها الثقلان، لذكر هما في الآيات من هذه السورة بقوله: سنفرغ لكم أيه الثقلان [الرحمن: ٣١] ، وبقوله: يا معشر الجن والإنس [الرحمن: ٣٣] وبقوله: خلق الإنسان من صلصال كالفخار وخلق الجان [الرحمن: ١٤، ١٥] إلى غير ذلك، (والزوجان) لوروده في القرآن كثير والتعميم بإرادة نوعين حاصرين للجميع، ويمكن أن يقال: التعميم أولى لأن المراد لو كان الإنس والجن اللذان خاطبهما بقوله: فبأي آلاء ربكما تكذبان ما كان يقول بعد خلق الإنسان، بل كان يخاطب ويقول: خلقناك يا أيها الإنسان من صلصال وخلقناك يا أيها الجان أو يقول: خلقك يا أيها الإنسان/ لأن الكلام صار خطابا معهما، ولما قال الإنسان، دل على أن المخاطب غيره وهو العموم فيصير كأنه قال: يا أيها الخلق والسامعون إنا خلقنا الإنسان من صلصال كالفخار، وخلقنا الجان من مارج من نار. وسيأتي باقي البيان في مواضع من تفسير هذه السورة إن شاء الله تعالى الثاني:

ما الحكمة في الخطاب ولم يسبق ذكر مخاطب، نقول: هو من باب الالتفات إذ مبنى افتتاح السورة على الخطاب مع كل من يسمع، فكأنه لما قال: الرحمن علم القرآن [الرحمن: ١، ٢] قال: اسمعوا أيها السامعون، والخطاب للتقريع والزجر كأنه تعالى نبه الغافل المكذب على أنه يفرض نفسه كالواقف بين يدي ربه يقول له ربه: أنعمت عليك بكذا وكذا، ثم يقول: فبأي آلائي تكذب ولا شك أنه عند هذا يستحي استحياء لا يكون عنده فرض الغيبة الثالث: ما الفائدة في اختيار لفظة الرب وإذا خاطب أراد خطاب الواحد فلم قال:

ربكما تكذبان وهو الحاضر المتكلم فكيف يجعل التكذيب المسند إلى المخاطب واردا على الغائب ولو

قال: بأي آلائي تكذبان كان أليق في الخطاب؟ نقول: في السورة المتقدمة قال: كذبت ثمود بالنذر [القمر:

٢٣] وكذبت قوم لوط بالنذر [القمر: ٣٣] وقال: كذبوا بآياتنا [القمر: ٤٢] وقال: فأخذناهم [القمر: ٤٢] وقال: فكيف كان عذابي ونذر [القمر: ٢١] كلها بالاستناد إلى ضمير المتكلم حيث كان ذلك للتخويف فالله تعالى أعظم من أن يخشى فلو قال: أخذهم القادر أو المهلك لما كان في التعظيم مثل قوله:

فأخذناهم ولهذا قال تعالى: ويحذركم الله نفسه [آل عمران: ٢٨] وهذا كما أن المشهور بالقوة يقول أنا الذي تعرفني فيكون في إثبات الوعيد فوق قوله أنا المعذب فلما كان الإسناد إلى النفس مستعملا في تلك السورة عند الإهلاك والتعذيب ذكر في هذه السورة عند بيان الرحمة لفظ يزيل الهيبة وهو لفظ الرب فكأنه تعالى قال فبأي آلاء ربكما تكذبان وهو رباكما الرابع: ما الحكمة في تكرير هذه الآية وكونه إحدى وثلاثين مرة؟

نقول: الجواب عنه من وجوه الأول: أن فائدة التكرير التقرير وأما هذا العدد الخاص فالأعداد توقيفية لا تطلع." (١)

"والتي دلت عليها الثامنة: (تكذبان) وإذا نظرت إلى ما دلت عليه الثمانية وإلى قوله: كل يوم هو في شأن فبأي آلاء ربكما تكذبان [الرحمن: ٢٩، ٣٠] ، يظهر لك صحة ما ذكر أنه بين قدرته وعظمته ثم يقول: فبأي تلك الآلاء التي عددتها أولا تكذبان، وسنذكر تمامه عند تلك الآيات. ثم قال تعالى:

[سورة الرحمن (٥٥) : الآيات ١٧ الى ١٨]

رب المشرقين ورب المغربين (١٧) فبأي آلاء ربكما تكذبان (١٨)

وفيه وجوه أولها مشرق الشمس والقمر ومغربهما، والبيان حينئذ في حكم إعادة ما سبق مع زيادة، لأنه تعالى لما قال: الشمس والقمر بحسبان [الرحمن: ٥] دل على أن لهما مشرقين ومغربين، ولما ذكر: خلق الإنسان علمه البيان [الرحمن: ٣، ٤] دل على أنه مخلوق من شيء فبين أنه الصلصال الثاني: مشرق الشتاء ومشرق الصيف فإن قيل: ما الحكمة في اختصاصهما مع أن كل يوم من ستة أشهر للشمس

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٣٤٧/٢٩

مشرق ومغرب يخالف بعضها البعض؟ نقول: غاية انحطاط الشمس في الشتاء وغاية ارتفاعها في الصيف والإشارة إلى الطرفين تتناول ما بينهما فهو كما يقول القائل في وصف ملك عظيم له المشرق والمغرب ويفهم أن له ما بينهما أيضا الثالث: التثنية إشارة إلى النوعين الحاصرين كما بينا أن كل شيء فإنه ينحصر في قسمين فكأنه قال: رب مشرق الشمس ومشرق غيرها فهما مشرقان فتناول الكل، أو يقال: مشرق الشمس والقمر وما يغرض إليهما العاقل من مشرق غيرهما فهو تثنية في معنى الجمع. ثم قال تعالى:

[سورة الرحمن (٥٥) : الآيات ١٩ الى ٢١]

مرج البحرين يلتقيان (١٩) بينهما برزخ لا يبغيان (٢٠) فبأي آلاء ربكما تكذبان (٢١)

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: في تعلق الآية بما قبلها فنقول: لما ذكر تعالى المشرق والمغرب وهما حركتان في الفلك ناسب ذلك ذكر البحرين لأن الشمس والقمر يجريان في الفلك كما يجري الإنسان في البحر قال تعالى: وكل في فلك يسبحون [الأنبياء: ٣٣] فذكر البحرين عقيب المشرقين والمغربين ولأن المشرقين والمغربين فيهما إشارة إلى البحر لانحصار البر والبحر بين المشرق والمغرب، لكن البر كان مذكورا بقوله تعالى: والأرض وضعها [الرحمن: ١٠] فذكر هاهنا ما لم يكن مذكورا.

المسألة الثانية: مرج، إذا كان متعديا كان بمعنى خلط أو ما يقرب منه فكيف قال تعالى: من مارج من نار [الرحمن: ١٥] ولم يقل: من ممروج؟ نقول: مرج متعد ومرج بكسر الراء لازم فالمارج والمريج من مرج يمرج كفرح يفرح، والأصل في فعل أن يكون غريزيا والأصل في الغريزي أن يكون لازما، ويثبت له حكم الغريزي، وكذلك فعل في كثير من المواضع.

المسألة الثالثة: في البحرين وجوه أحدها: بحر السماء وبحر الأرض ثانيها: البحر الحلو والبحر المالح كما قال تعالى: وما يستوي البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج [فاطر: ١٢] وهو أصح وأظهر من الأول ثالثها: ما ذكر في المشرقين وفي قوله: تكذبان أنه إشارة إلى النوعين الحاصرين فدخل فيه." (١)

"المسألة الثانية: فما السبب في حسن إطلاق لفظ الوجه على الذات؟ نقول: إنه مأخوذ من عرف الناس، فإن الوجه يستعمل في العرف لحقيقة الإنسان، ألا ترى أن الإنسان إذا رأى وجه غيره يقول: رأيته،

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٣٥٠/٢٩

وإذا رأى غير الوجه من اليد والرجل مثلا لا يقول: رأيته، وذلك لأن اطلاع الإنسان على حقائق الأشياء في أكثر الأمر يحصل بالحس، فإن الإنسان إذا رأى شيئا علم منه ما لم يكن يعلم حال غيبته، لأن الحس لا يتعلق بجميع المرئي وإنما يتعلق ببعضه، ثم إن الحس يدرك والحدس يحكم فإذا رأى شيئا بحسه يحكم عليه بأمر بحدسه، لكن الإنسان اجتمع في وجهه أعضاء كثيرة كل واحد يدل على أمر، فإذا رأى الإنسان وجه الإنسان حكم عليه بأحكام ما كان يحكم بها لولا رؤيته وجهه، فكان أدل على حقيقة الإنسان وأحكامه من غيره، فاستعمل الوجه في الحقيقة في الإنسان ثم نقل إلى غيره من الأجسام، ثم نقل لي ما ليس بجسم، يقال في الكلام هذا وجه حسن وهذا وجه ضعيف، وقول من قال: إن الوجه من المواجهة كما هو المسطور في البعض من الكتب الفقهية فليس بشيء إذ الأمر على العكس، لأن الفعل من المصدر والمصدر من الاسم الأصلي وإن كان بالنقل، فالوجه أول ما وضع للعضو ثم استعمل واشتق منه غيره، ويعرف ذلك العارف بالتصريف البارع في الأدب.

المسألة الثالثة: لو قال: ويبقى ربك أو الله أو غيره فحصلت الفائدة من غير وقوع في توهم ما هو ابتدع، نقول: ما كان يقوم مقام الوجه لفظ آخر ولا وجه فيه إلا ما قاله الله تعالى، وذلك لأن سائر الأسماء المعروفة لله تعالى أسماء الفاعل كالرب والخالق والله عند البعض بمعنى المعبود، فلو قال: ويبقى ربك ربك، وقولنا: ربك معنيان عند الاستعمال أحدهما أن يقال: شيء من كل ربك، ثانيهما أن يقال: يبقى ربك مع أنه حالة البقاء ربك فيكون المربوب في ذلك الوقت، وكذلك لو قال: يبقى الخالق والرازق وغيرهما.

المسألة الرابعة: ما الحكمة في لفظ الرب وإضافة الوجه إليه، وقال في موضع آخر: فأينما تولوا فثم وجه الله [البقرة: ١١٥] وقال: يريدون وجه الله [الروم: ٣٨] نقول: المراد في الموضعين المذكورين هو العبادة. أما قوله: فثم وجه الله فظاهر لأن المذكور هناك الصلاة، وأما قوله: يريدون وجه الله فالمذكور هو الزكاة قال تعالى من قبل: فآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل [الروم: ٣٨] ذلك خير للذين يريدون وجه الله [الروم: ٣٨] ولفظ الله يدل على العبادة، لأن الله هو المعبود، والمذكور في هذا الموضع النعم التي بها تربية الإنسان فقال: وجه ربك.

المسألة الخامسة: الخطاب بقوله: ربك مع من؟ نقول: الظاهر أنه مع كل أحد كأنه يقول: ويبقى وجه ربك أيها السامع، ويحتمل أن يكون الخطاب مع محمد صلى الله عليه وسلم، فإن قيل: فكيف قال: فبأي

آلاء ربكما تكذبان خطابا مع الاثنين، وقال: وجه ربك خطابا مع الواحد؟ نقول: عند قوله: ويبقى وجه ربك وقعت الإشارة إلى فناء كل أحد، وبقاء الله فقال/ وجه ربك أي يا أيها السامع فلا تلتفت إلى أحد غير الله تعالى، فإن كل من عداه فان، والمخاطب كثيرا ما يخرج عن الإرادة في الكلام، فإنك إذا قلت: لمن يشكو إليك من أهل موضع سأعاقب لأجلك كل من في ذلك الموضع يخرج المخاطب عن الوعيد، وإن كان من أهل الموضع فقال: ويبقى وجه ربك ليعلم كل أحد أن غيره فان، ولو قال: وجه ربكما لكان كل واحد يخرج نفسه ورفيقه المخاطب من الفناء، فإن قلت: لو قال ويبقى وجه الرب من غير خطاب كان أدل على فناء الكل؟

نقول: كأن الخطاب في الرب إشارة إلى اللطف والإبقاء إشارة إلى القهر، والموضع موضع بيان اللطف وتعديد." (١)

"التحقيق في قوله تعالى:

[سورة الرحمن (٥٥) : الآيات ٣١ الى ٣٢]

سنفرغ لكم أيه الثقلان (٣١) فبأي آلاء ربكما تكذبان (٣٢)

ولنذكر أولا ما قيل فيه تبركا بأقوال المشايخ ثم نحققه بالبيان الشافي فنقول: اختلف المفسرون فيه وأكثرهم على أن المراد سنقصدكم بالفعل، وقال بعضهم: خرج ذلك مخرج التهديد على ما هي عادة استعمال الناس/ فإن السيد يقول لعبده عند الغضب: سأفرغ لك، وقد يكون السيد فارغا جالسا لا يمنعه شغل، وأما التحقيق فيه، فنقول: عدم الفراغ عبارة عن أن يكون الفاعل في فعل لا يمكنه معه إيجاد فعل آخر فإن من يخيط يقول: ما أنا بفارغ للكتابة، لكن عدم الفراغ قد يكون لكون أحد الفعلين مانعا للفاعل من الفعل الآخر، يقال:

هو مشغول بكذا عن كذا كما في قول القائل: أنا مشغول بالخياطة عن الكتابة، وقد يكون عدم الفراغ لكون الفعل مانعا من الفعل لا لكونه مانعا من الفاعل كالذي يحرك جسما في زمان لا يمكن تسكينه في ذلك الزمان فهو ليس بفارغ للتسكين، ولكن لا يقال في مثل هذا الوقت أنا مشغول بالتحريك عن التسكين، فإن في مثل هذا الموضع لو كان غير مشغول به بل كان في نفس المحل حركة لا بفعل ذلك الفاعل لا

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٣٥٦/٢٩

يمكنه التسكين فليس امتناعه منه إلا لاستحالته بالتحريك، وفي الصورة الأولى لولا اشتغاله بالخياطة لتمكن من الكتابة، إذا عرفت هذا صار عدم الفراغ قسمين أحدهما: بشغل والآخر ليس بشغل، فنقول: إذا كان الله تعالى باختياره أوجد الإنسان وأبقاه مدة أرادها بمحض القدرة والإرادة لا يمكن مع هذا إعدامه، فهو في فعل لا يمنع الفاعل لكن يمنع الفعل ومثل هذا بينا أنه ليس بفراغ، وإن كان له شغل، فإذا أوجد ما أراد أولا ثم بعد ذلك أمكن الإعدام والزيادة في آنه فيتحقق الفراغ لكن لما كان للإنسان مشاهدة مقتصرة على أفعال نفسه وأفعال أبناء جنسه وعدم الفراغ منهم بسبب الشغل يظن أن الله تعالى فارغ فحمل الخلق عليه أنه ليس بفارغ، فيلزم منه الفعل وهو لا يشغله شأن عن شأن يلزمه حمل اللفظ على غير معناه، واعلم أن هذا ليس قولا آخر غير قول المشايخ، بل هو بيان لقولهم: سنقصدكم، غير أن هذا مبين، والحمد لله على أن هدانا للبيان من غير خروج عن قول أرباب اللسان. واعلم أن أصل الفراغ بمعنى الخلو، لكن ذلك إن كان في المكان فيتسع ليتمكن آخر، وإن كان في الزمان فيتسع للفعل، فالأصل أن زمان الفاعل فارغ عن فعله وغير فارغ لكن المكان مرئي بالخلو فيه، فيطلق الفراغ على خلو المكان في الظرف الفلاني والزمان غير مرئي، فلا يرى خلوه. ويقال: فلان في زمان كذا فارغ لأن فلانا هو المرئي لا الزمان والأصل أن هذا الزمان من أزمنة فلان فارغ فيمكنه وصفه للفعل فيه، وقوله تعالى: سنفرغ لكم استعمال على ملاحظة الأصل، لأن المكان إذا خلا يقال: لكذا ولا يقال: إلى كذا فكذلك الزمان لكن لما نقل إلى الفاعل وقيل: الفاعل على فراغ وهو عند الفراغ يقصد إلى شيء آخر قيل في الفاعل: فرغ من كذا إلى كذا، وفي الظرف يقال: فرغ من كذا لكذا فقال لكم على ملاحظة الأصل، وهو يقوي ما ذكرنا أن المانع ليس بالنسبة إلى الفعل بل بالنسبة إلى الفعل. وأما أيه فنقول: الحكمة في نداء المبهم والإتيان بالوصف بعده هي أن المنادي يريد صون كلامه عن الضياع، فيقول أولا: يا أي نداء لمبهم ليقبل عليه كل من يسمع ويتنبه لكلامه من يقصده، ثم عند إقبال السامعين يخصص المقصود فيقول: الرجل والتزم فيه." (١)

"المسألة الرابعة: ما الحكمة في تقديم الجن على الإنس هاهنا وتقديم الإنس على الجن في قوله تعالى:

قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله؟ [الإسراء: ٨٨] نقول: النفوذ من أقطار السموات والأرض بالجن أليق إن أمكن، والإتيان بمثل القرآن بالإنس أليق إن أمكن، فقدم في

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٩/٣٦٠

كل موضع من يظن به القدرة على ذلك.
المسألة الخامسة: ما معنى: لا تنفذون إلا بسلطان؟ نقول: ذلك يحتمل وجوها أحدها: أن يكون بيانا بخلاف ما تقدم أي ما تنفذون ولا تنفذون إلا بقوة وليس لكم قوة على ذلك. ثانيها: أن يكون على تقدير وقوع الأمر الأول، وبيان أن ذلك لا ينفعكم، وتقديره ما تنفذوا وإن نفذتم ما تنفذون إلا ومعكم سلطان الله، كما يقول: خرج القوم بأهلهم أي معهم ثالثها: أن المراد من النفوذ ما هو المقصود منه؟ وذلك لأن نفوذهم إشارة إلى طلب خلاصهم فقال: لا تنفذون من أقطار السموات لا تتخلصون من العذاب ولا تجدون ما تطلبون من النفود وهو الخلاص من العذاب إلا بسلطان من الله يجيركم وإلا فلا مجير لكم، كما تقول: لا ينفعك البكاء إلا إذا صدقت وتريد به أن الصدق وحده ينفعك، لا أنك إن صدقت فينفعك البكاء رابعها: أن هذا إشارة إلى تقرير التوحيد، ووجهه هو كأنه تعالى قال: يا أيها الغافل لا يمكنك أن تخرج بذهنك عن أقطار السموات والأرض فإذا أنت أبدا تشاهد دليلا من دلائل الوحدانية، ثم هب أنك تنفذ من أقطار السموات والأرض، فاعلم أنك لا تنفذ إلا بسلطان تجده خارج السموات والأرض قاطع دال على وحدانيته تعالى والسلطان هو القوة الكاملة. ثم قال تعالى:

[سورة الرحمن (٥٥) : الآيات ٣٥ الى ٣٦]
يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران (٣٥) فبأي آلاء ربكما تكذبان (٣٦)
وفيه مسائل:
المسألة الأولى: ما وجه تعلق الآية بما قبلها؟ نقول: إن قلنا يا معشر الجن والإنس نداء ينادى به يوم القيامة، فكأنه تعالى قال: يوم يرسل عليكما شواظ من نار فلا يبقى لكما انتصار/ إن استطعتما النفوذ فانفذا، وإن قلنا: إن النداء في الدنيا، فنقول قوله: إن استطعتم إشارة إلى أنه لا مهرب لكم من الله فيمكنكم الفرار قبل الوقوع في العذاب ولا ناصر لكم فيخلصكم من النار بعد وقوعكم فيها وإرسالها عليكم، فكأنه قال: إن استطعتم الفرار لئلا تقعوا في العذاب ففروا ثم إذا تبين لكم أن لا فرار لكم ولا بد من الوقوع فيه فإذا وقعتم فيه وأرسل عليكم فاعلموا أنكم لا تنصرون فلا خلاص لكم إذن، لأن الخلاص إما بالدفع قبل الوقوع وإما بالرفع بعده، ولا سبيل إليهما.
المسألة الثانية: كيف ثنى الضمير في قوله: عليكما مع أنه جمع قبله بقوله: إن استطعتم [الرحمن: ٣٣] والخطاب مع الطائفتين وقال: فلا تنتصران وقال من قبل: لا تنفذون إلا بسلطان؟

[الرحمن: ٣٣] نقول: فيه لطيفة، وهي أن قوله: إن استطعتم لبيان عجزهم وعظمة ملك الله تعالى، فقال: إن استطعتم أن تنفذوا باجتماعكم وقوتكم فانفذوا، ولا تستطيعون لعجزكم فقد بان عند اجتماعكم واعتضادكم بعضكم ببعض فهو عند افتراقكم أظهر، فهو خطاب عام مع كل أحد عند الانضمام إلى جميع من عداه من." (١)

"وفيه مسائل:

المسألة الأولى: ما الحكمة في تأخير ذكر اتكائهم عن ذكر نسائهم في هذا الموضع مع أنه تعالى قدم ذكر اتكائهم على ذكر نسائهم في الجنتين المتقدمتين حيث قال: متكئين على فرش [الرحمن: ٥٤] ثم قال:

قاصرات الطرف [الرحمن: ٥٦] وقال هاهنا: فيهن خيرات حسان [الرحمن: ٧٠] ثم قال: متكئين؟

والجواب عنه من وجهين أحدهما: أن أهل الجنة ليس عليهم تعب وحركة فهم منعمون دائما لكن الناس في الدنيا على أقسام منهم من يجتمع مع أهله اجتماع مستفيض وعند قضاء وطره يستعمل الاغتسال والانتشار في الأرض للكسب، ومنهم من يكون مترددا في طلب الكسب وعند تحصيله يرجع إلى أهله ويريح قلبه من التعب قبل قضاء الوطر فيكون التعب لازما قبل قضاء الوطر أو بعده فالله تعالى قال في بيان أهل الجنة: متكئين قبل الاجتماع بأهلهم وبعد الاجتماع كذلك، ليعلم أنهم دائم على السكون فلا تعب لهم لا قبل الاجتماع ولا بعد الاجتماع وثانيهما: هو أنا بينا في الوجهين المتقدمين أن الجنتين المتقدمتين لأهل الجنة الذين جاهدوا والمتأخرين لذرياتهم الذين ألحقوا بهم، فهم فيهما وأهلهم في الخيام منتظرات قدوم أزواجهن، فإذا دخل المؤمن جنته التي هي سكناه يتكئ على الفرش وتنتقل إليه أزواجه الحسان، فكونهن في الجنتين المتقدمتين بعد اتكائهم على الفرش، وأما كونهم في الجنتين المتأخرتين فذلك حاصل في يومنا، واتكاء المؤمن غير حاصل في يومنا، فقدم ذكر كونهن فيهن هنا وأخره هناك.

ومتكئين حال والعامل فيه/ ما دل عليه قوله:

لم يطمثهن إنس قبلهم [الرحمن: ٧٤] وذلك في قوة الاستثناء كأنه قال: لم يطمثهن إلا المؤمنون فإنهم يطمثوهن متكئين وما ذكرنا من قبل في قوله تعالى: متكئين على فرش [الرحمن: ٥٤] يقال هنا.

المسألة الثانية: الرفرف إما أن يكون أصله من رف الزرع إذا بلغ من نضارته فيكون مناسبا لقوله تعالى:

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٣٦٢/٢٩

مدهامتان [الرحمن: ٦٤] ويكون التقدير أنهم متكئون على الرياض والثياب العبقرية، وإما أن يكون من رفرفة الطائر، وهي حومه في الهواء حول ما يريد النزول عليه فيكون المعنى أنهم على بسط مرفوعة كما قال تعالى: وفرش مرفوعة [الواقعة: ٣٤] وهذا يدل على أن قوله تعالى: ومن دونهما جنتان [الرحمن: ٦٢] أنهما دونهما في المكان حيث رفعت فرشهم، وقوله تعالى: خضر صيغة جمع فالرفرف يكون جمعا لكونه اسم جنس ويكون واحده رفرفة كحنظلة وحنظل والجمع في متكئين يدل عليه فإنه لما قال: متكئين دل على أنهم على رفارف.

المسألة الثالثة: ما الفرق بين الفرش والرفرف حيث لم يقل: رفارف اكتفاء بما يدل عليه قوله: متكئين وقال: فرش ولم يكتف بما يدل عليه ذلك؟ نقول: جمع الرباعي أثقل من جمع الثلاثي، ولهذا لم يجيء للجمع في الرباعي إلا مثال واحد وأمثلة الجمع في الثلاثي كثيرة وقد قرئ: (على رفارف خضر) ، و (رفارف خضار وعباقر) .

المسألة الرابعة: إذا قلنا: إن الرفرف هي البسط فما الفائدة في الخضر حيث وصف تعالى ثياب الجنة بكونها خضرا قال تعالى: ثياب سندس خضر؟ [الإنسان: ٢١] نقول: ميل الناس إلى اللون الأخضر في الدنيا أكثر، وسبب الميل إليه هو أن الألوان التي يظن أنها أصول الألوان سبعة وهي الشفاف وهو الذي لا يمنع نفوذ البصر فيه ولا يحجب ما وراءه كالزجاج والماء الصافي وغيرهما ثم الأبيض بعده ثم الأصفر ثم الأحمر ثم." (١)

"أشغال الناس وهؤلاء أعلى منزلة من أصحاب اليمين، ثم إنه تعالى لم يقل: في مقابلتهم قوما يكونون متخلفين مؤخرين عن أصحاب الشمال لا يلتفت إليهم لشدة الغضب عليهم وكانت القسمة في العادة رباعية فصارت بسبب الفضل ثلاثية وهو كقوله تعالى: فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات [فاطر: ٣٢] لم يقل: منهم متخلف عن الكل.

المسألة الرابعة: ما الحكمة في الابتداء بأصحاب اليمين والانتقال إلى أصحاب الشمال ثم إلى السابقين مع أنه في البيان بين حال السابقين ثم أصحاب الشمال على الترتيب والجواب: أن نقول: ذكر الواقعة وما يكون عند وقوعها من الأمور الهائلة إنما يكون لمن لا يكون عنده من محبة الله تعالى ما يكفه مانعا عن المعصية، وأما الذين سرهم مشغول بربهم فلا يجزون بالعذاب، فلما ذكر تعالى: إذا وقعت الواقعة

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٣٨١/٢٩

[الواقعة: ١] وكان فيه من التخويف مالا يخفى وكان التخويف بالذين يرغبون ويرهبون بالثواب والعقاب أولى ذكر ما ذكره لقطع العذر لا نفع الخبر، وأما السابقون فهم غير محتاجين إلى ترغيب أو ترهيب فقدم سبحانه أصحاب اليمين الذين يسمعون ويرغبون ثم ذكر السابقين ليجتهد أصحاب اليمين ويقربوا من درجتهم وإن كان لا ينالها أحد إلا بجذب من الله فإن السابق يناله ما يناله بجذب، وإليه الإشارة بقوله: جذبة من جذبات الرحمن خير من عبادة سبعين سنة.

المسألة الخامسة: ما معنى قوله: ما أصحاب الميمنة؟ نقول: هو ضرب من البلاغة وتقريره هو أن يشرع المتكلم في بيان أمر ثم يسكت عن الكلام ويشير إلى أن السامع لا يقدر على سماعه كما يقول القائل لغيره: أخبرك بما جرى علي ثم يقول هناك هو مجيبا لنفسه لا أخاف أن يحزنك وكما يقول القائل: من يعرف فلانا فيكون أبلغ من أن يصفه، لأن السامع إذا سمع وصفه يقول: هذا نهاية ما هو عليه، فإذا قال: من يعرف فلانا بفرض السامع من نفسه شيئا، ثم يقول: فلان عند هذا المخبر أعظم مما فرضته وأنبه مما علمت منه.

المسألة السادسة: ما إعرابه ومنه يعرف معناه؟ نقول: فأصحاب الميمنة مبتدأ أراد المتكلم أن يذكر خبره فرجع عن ذكره وتركه وقوله: ما أصحاب الميمنة جملة استفهامية على معنى التعجب كما تقول:
لمدعي العلم ما معنى كذا مستفهما ممتحنا زاعما أنه لا يعرف الجواب حتى إنك تحب وتشتهي ألا يجيب عن سؤالك ولو أجاب لكرهته لأن كلامك مفهوم كأنك تقول: إنك لا تعرف الجواب، إذا عرفت هذا فكأن المتكلم في أول الأمر مخبرا ثم لم يخبر بشيء لأن في الأخبار تطويلا ثم لم يسكت وقال ذلك ممتحنا زاعما أنك لا تعرف كنهه، وذلك لأن من يشرع في كلام ويذكر المبتدأ ثم يسكت عن الخبر قد يكون ذلك السكوت لحصول علمه بأن المخاطب قد علم الخبر من غير ذكر الخبر، كما أن قائلا: إذا أراد أن يخبره غيره بأن زيدا وصل، وقال: إن زيدا ثم قبل قوله: جاء وقع بصره على زيد ورآه جالسا عنده يسكت ولا يقول جاء لخروج الكلام عن الفائدة وقد يسكت عن ذكر الخبر من أول الأمر لعلمه بأن المبتدأ وحده يكفي لمن قال: من جاء فإنه إن قال:
زيد يكون جوابا وكثيرا ما نقول: زيد ولا نقول: جاء، وقد يكون السكوت عن الخبر إشارة إلى طول القصة كقول القائل: الغضبان من زيد ويسكت ثم يقول: ماذا أقول عنه. إذا علم هذا فنقول لما قال: فأصحاب الميمنة كان كأنه يريد أن يأتي بالخبر فسكت عنه ثم قال في نفسه: إن السكوت قد يوهم أنه لظهور حال

الخبر كما يسكت على زيد في جواب من جاء فقال: ما أصحاب الميمنة ممتحنا زاعما أنه لا يفهم ليكون ذلك." (١)

"دليلا على أن سكوته على المبتدأ لم يكن لظهور الأمر بل لخفائه وغرابته، وهذا وجه بليغ، وفيه وجه ظاهر وهو أن يقال: معناه أنه جملة واحدة استفهامية كأنه قال: وأصحاب الميمنة ما هم؟ على سبيل الاستفهام غير أنه أقام المظهر مقام المضمر وقال: فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة والإتيان بالمظهر إشارة إلى تعظيم أمرهم حيث ذكرهم ظاهرا مرتين وكذلك القول في قوله تعالى: وأصحاب المشئمة ما أصحاب المشئمة وكذلك في قوله: الحاقة ما الحاقة [الحاقة: ١، ٢] وفي قوله: القارعة ما القارعة [القارعة: ١، ٢] .

المسألة السابعة: ما الحكمة في اختيار لفظ المشئمة في مقابلة الميمنة، مع أنه قال في بيان أحوالهم: وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال؟ نقول: اليمين وضع للجانب المعروف أولا ثم تفاءلوا به واستعملوا منه ألفاظا في مواضع وقالوا: هذا ميمون وقالوا: أيمن به ووضعوا للجانب المقابل/ له اليسار من الشيء اليسير إشارة إلى ضعفه، فصار في مقابلة اليمين كيفما يدور فيقال: في مقابلة اليمنى اليسرى، وفي مقابلة الأيمن الأيسر، وفي مقابلة الميمنة الميسرة، ولا تستعمل الشمال كما تستعمل اليمين، فلا يقال: الأشمل ولا المشملة، وتستعمل المشأمة كما تستعمل الميمنة، فلا يقال: في مقابلة اليمين لفظ من باب الشؤم، وأما الشآم فليس في مقابلة اليمين بل في مقابلة يمان، إذا علم هذا فنقول: بعد ما قالوا باليمين لم يتركوه واقتصروا على استعمال لفظ اليمين في الجانب المعروف من الآدمي، ولفظ الشمال في مقابلته وحدث لهم لفظان آخران فيه أحدهما: الشمال وذلك لأنهم نظروا إلى الكواكب من السماء وجعلوا ممرها وجه الإنسان وجعلوا السماء جانبين وجعلوا أحدهما أقوى كما رأوا في الإنسان، فسموا الأقوى بالجنوب لقوة الجانب كما يقال: غضوب ورؤوف، ثم رأوا في مقابلة الجنوب جانبا آخر شمل ذلك الجانب عمارة العالم فسموه شمالا واللفظ الآخر:

المشأمة والأشأم في مقابلة الميمنة والأيمن، وذلك لأنهم لما أخذوا من اليمين اليمن وغيره للتفاؤل وضعوا الشؤم في مقابلته لا في أعضائهم وجوانبهم تكرها لجعل جانب من جوانب نفسه شؤما، ولما وضعوا ذلك واستمر الأمر عليه نقلوا اليمين من الجانب إلى غيره، فالله تعالى ذكر الكفار بلفظين مختلفين فقال:

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٣٨٨/٢٩

وأصحاب المشئمة وأصحاب الشمال [الواقعة: ٤١] وترك لفظ الميسرة واليسار الدال على هون الأمر، فقال هاهنا: وأصحاب المشئمة بأفظع الاسمين، ولهذا قالوا في العساكر: الميمنة والميسرة اجتنابا من لفظ الشؤم. ثم قال تعالى:

[سورة الواقعة (٥٦) : الآيات ١٠ الى ١١]

والسابقون السابقون (١٠) أولئك المقربون (١١)

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: في إعرابه ثلاثة أوجه أحدها: والسابقون عطف على فأصحاب الميمنة [الواقعة: ٨] وعنده تم الكلام، وقوله: والسابقون ... أولئك المقربون جملة واحدة والثاني: أن قوله: والسابقون السابقون جملة واحدة، كما يقول القائل: أنت أنت وكما قال الشاعر:

أنا أبو النجم وشعري شعري

وفيه وجهان أحدهما: أن يكون لشهرة أمر المبتدأ بما هو عليه فلا حاجة إلى الخبر عنه وهو مراد الشاعر وهو المشهور عند النحاة والثاني: للإشارة إلى أن في المبتدأ مالا يحيط العلم به ولا يخبر عنه ولا يعرف منه إلا." (١)

"واحد منهما مشاركا للآخر في القرب منها والوجه الثاني: أن يكون عطفا في المعنى على جنات النعيم، أي هم المقربون في جنات وفاكهة، ولحم وحور، أي في هذه النعم يتقلبون، والمشهور أنه عطف في اللفظ للمجاورة لا في المعنى، وكيف لا يجوز هذا، وقد جاز تقلد سيفا ورمحا.

المسألة الثانية: هل في تخصيص التخيير بالفاكهة والاشتهاء باللحم بلاغة؟ قلت: وكيف لا وفي كل حرف من حروف القرآن بلاغة وفصاحة، وإن كان لا يحيط بها ذهني الكليل، ولا يصل إليها علمي القليل، والذي يظهر لي فيه أن اللحم والفاكهة إذا حضرا عند الجائع تميل نفسه إلى اللحم، وإذا حضرا عند الشبعان تميل إلى الفاكهة، والجائع مشته والشبعان غير مشته، وإنما هو مختار إن أراد أكل، وإن لم يرد لا يأكل، ولا يقال في الجائع إن أراد أكل لأن إن لا تدخل إلا على المشكوك، إذا علم هذا ثبت أن في الدنيا اللحم عند المشتهي مختار والفاكهة عند غير المشتهي مختارة وحكاية الجنة على ما يفهم في الدنيا فحص

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٣٨٩/٢٩

اللحم بالاشتهاء والفاكهة بالاختيار، والتحقيق فيه من حيث اللفظ أن الاختيار هو أخذ الخير من أمرين والأمران اللذان يقع فيهما الاخ‍تيار في الظاهر لا يكون للمختار أو لا ميل إلى أحدهما، ثم يتفكر ويتروى، ويأخذ ما يغلبه نظره على الآخر فالتفكه هو ما يكون عند عدم الحاجة، وأما إن اشتهى واحد فاكهة بعينها فاستحضرها وأكلها فهو ليس بمتفكه وإنما هو دافع حاجة، وأما فواكه الجنة تكون أولا عند أصحاب الجنة من غير سبق ميل منهم إليها ثم يتفكهون بها على حسب اختيارهم، وأما اللحم فتميل أنفسهم إليه أدنى ميل فيحضر عندهم، وميل النفس إلى المأكول شهوة، ويدل على هذا قوله تعالى: قطوفها دانية [الحاقة: ٢٣] وقوله: وجنى الجنتين دان [الرحمن: ٥٤] وقوله تعالى: وفاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة [الواقعة: ٣٢، ٣٣] فهو دليل على أنها دائمة الحضور، وأما اللحم

فالمروي أن الطائر يطير فتميل نفس المؤمن إلى لحمه فينزل مشويا ومقليا على حسب ما يشتهيه، فالحاصل أن الفاكهة تحضر عندهم فيتخير المؤمن بعد الحضور واللحم يطلبه المؤمن وتميل نفسه إليه أدنى ميل، وذلك لأن الفاكهة تلذ الأعين بحضورها، واللحم لا تلذ الأعين بحضوره، ثم إن في اللفظ لطيفة، وهي أنه تعالى قال: مما يتخيرون ولم يقل: مما يختارون مع قرب أحدهما إلى الآخر في المعنى، وهو أن التخير من باب التكلف فكأنهم يأخذون ما يكون في نهاية الكمال، وهذا لا يوجد إلا ممن لا يكون له حاجة ولا اضطرار.

المسألة الثالثة: ما الحكمة في تقديم الفاكهة على اللحم؟ نقول: الجواب عنه من وجوه أحدها: العادة في الدنيا التقديم للفواكه في الأكل والجنة وضعت بما علم في الدنيا من الأوصاف وعلى ما علم فيها، ولا سيما عادة أهل الشرب وكأن المقصود بيان حال شرب أهل الجنة وثانيها: الحكمة في الدنيا تقتضي أكل الفاكهة أولا لأنها ألطف وأسرع انحدارا وأقل حاجة إلى المك‍ث الطويل في المعدة للهضم، ولأن الفاكهة تحرك الشهوة للأكل واللحم يدفعها وثالثها: يخرج مما ذكرنا جوابا خلا عن لفظ التخيير والاشتهاء هو أنه تعالى لما بين أن الفاكهة دائمة الحضور والوجود، واللحم يشتهى ويحضر عند الاشتهاء دل هذا على عدم الجوع لأن الجائع حاجته إلى اللحم أكثر من اختياره اللحم فقال: وفاكهة لأن الحال في الجنة يشبه حال الشبعان في الدنيا فيميل إلى الفاكهة أكثر فقدمها، وهذا الوجه أصح لأن من الفواكه ما لا يؤكل إلا بعد الطعام، فلا يصح الأول جوابا في الكل/. ثم قال تعالى:." (١)

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٣٩٦/٢٩

"وإن كان دليلا على القرب وعلو المنزلة لكنه في مقابلة قوله: لفي سجين [المطففين: ٧] فقوله تعالى في حقهم: يشرب بها المقربون مع قوله تعالى: وسقاهم ربهم شرابا طهورا [الإنسان: ٢١] يدل على أن المراد منه القرب الذي يكون لجلساء الملك عند الملك، وقوله في حق الملائكة في تلك السورة: يشهده المقربون [المطففين: ٢١] يدل على أن المراد منه القرب الذي يكون للكتاب والحساب عند الملك لما أنه في الدنيا يحسد أحدهما الآخر، فإن الكاتب إن كان قربه من الملك بسبب الخدمة لا يختار قرب الكتاب والحساب، بل قرب النديم، ثم إنه بين ذلك النوع من القرب وبين القرب الذي بسبب الكتابة ما يحمله على أن يختار غيره، وفي سورة المطففين قوله: لمحجوبون يدل على أن المقربين غير محجوبين عن النظر إلى الله تعالى، وينبغي أن لا ينظر إلى الله قولنا: جلساء الملك في ظاهر النظر الذي يقتضي في نظر القوم الجهة وإلى القرب الذي يفهم العامي منه المكان إلا بنظر العلماء الأخبار الحكماء الأخبار.

المسألة الثالثة: قالوا قوله تعالى: بما كانوا يعملون يدل على أن العمل عملهم وحاصل بفعلهم، نقول: لا نزاع في أن العلم في الحقيقة اللغوية وضع للفعل والمجنون للذي لا عقل له والعاقل للذي بلغ الكمال فيه، وذلك ليس إلا بوضع اللغة لما يدرك بالحس، وكل أحد يرى/ الحركة من الجسمين فيقول: تحرك وسكن على سبيل الحقيقة، كما يقول: تدور الرحا ويصعد الحجر، وإنما الكلام في القدرة التي بها الفعل في المحل المرئي، وذلك خارج عن وضع اللغة. ثم قال تعالى:

[سورة الواقعة (٥٦) : الآيات ٢٥ الى ٢٦]

لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما (٢٥) إلا قيلا سلاما سلاما (٢٦)

المسألة الأولى: ما الحكمة في تأخير ذكره عن الجزاء مع أنه من النعم العظيمة؟ نقول فيه لطائف الأولى: أن هذا من أتم النعم، فجعلها من باب الزيادة التي منها الرؤية عند البعض ولا مقابل لها من الأعمال، وإنما قلنا: إنها من أتم النعم، لأنها نعمة سماع كلام الله تعالى على ما سنبين أن المراد من قوله: سلاما هو ما قال في سورة يس: سلام قولا من رب رحيم [يس: ٥٨] فلم يذكرها فيما جعله جزاء، وهذا على قولنا: أولئك المقربون [الواقعة: ١١] ليس فيه دلالة على الرؤية الثانية: أنه تعالى بدأ بأتم النعم وهي نعمة الرؤيا، وهي الرؤية بالنظر كما مر وختم بمثلها، وهي نعمة المخاطبة الثالثة: هي أنه تعالى لما ذكر النعم الفعلية وقابلها بأعمالهم حيث قال: جزاء بما كانوا يعملون [الواقعة: ٢٤] ذكر النعم القولية في مقابلة أذكارهم

الحسنة ولم يذكروا اللذات العقلية التي في مقابلة أعمال قلوبهم من إخلاصهم واعتقادهم، لأن العمل القلبي لم ير ولم يسمع، فما يعطيهم الله تعالى من النعمة تكون نعمة لم ترها عين ولا سمعتها أذن، وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم فيها: «مالا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر»

وقوله عليه السلام: «ولا خطر»

إشارة إلى الزيادة، والذي يدل على النعمة القولية في مقابلة قولهم الطيب قوله تعالى: إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا إلى قوله: نزلا من غفور رحيم [فصلت: ٣٠- ٣٢] .

المسألة الثانية: قوله تعالى: لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما نفي للمكروه لما أن اللغو كلام غير." (١)

"لما بين حال السابقين شرع في شأن أصحاب الميمنة من الأزواج الثلاثة، وفيه مسائل:

المسألة الأولى: ما الفائدة في ذكرهم بلفظ: أصحاب الميمنة [الواقعة: ٨] عند ذكر الأقسام، وبلفظ أصحاب اليمين عند ذكر الإنعام؟ نقول: الميمنة مفعلة إما بمعنى موضع اليمين كالمحكمة لموضع الحكم، أي الأرض التي فيها اليمين وإما بمعنى موضع اليمين كالمنارة موضع النار، والمجمرة موضع الجمر، فكيفما كان الميمنة فيها دلالة على الموضع، لكن الأزواج الثلاثة في أول الأمر يتميز بعضهم عن بعض، ويتفرقون لقوله تعالى: يومئذ يتفرقون [الروم: ١٤] وقال: يصدعون [الروم: ٤٣] فيتفرقون بالمكان فأشار في الأول إليهم بلفظ يدل على المكان، ثم عند الثواب وقع تفرقهم بأمر مبهم لا يتشاركون فيه كالمكان، فقال: وأصحاب اليمين وفيه وجوه أحدها: أصحاب اليمين الذين يأخذون بأيمانهم كتبهم ثانيها: أصحاب القوة ثالثها: أصحاب النور، وقد تقدم بيانه.

المسألة الثانية: ما الحكمة في قوله تعالى: في سدر وأية نعمة تكون في كونهم في سدر، والسدر من أشجار البوادي، لا بمر ولا بحلو ولا بطيب؟ نقول: فيه حكمة بالغة غفلت عنها الأوائل والأواخر، واقتصروا في الجواب والتقريب أن الجنة تمثل بما كان عند العرب عزيزا محمودا، وهو صواب ولكنه غير فائق، والفائق الرائق الذي هو بتفسير كلام الله لائق، هو أن نقول: إنا قد بينا مرارا أن البليغ يذكر طرفي أمرين، يتضمن ذكرهما الإشارة إلى جميع ما بينهما، كما يقال: فلان ملك الشرق والغرب، ويفهم منه أنه ملكهما وملك ما بينهما، ويقال: فلان أرضى الصغير والكبير، ويفهم منه أنه أرضى كل أحد إلى غير ذلك،

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٤٠٠/٢٩

فنقول: لا خفاء في أن تزين المواضع التي يتفرج فيها بالأشجار، وتلك الأشجار تارة يطلب منها نفس الورق والنظر إليه والاستظلال به، وتارة يقصد إلى ثمارها، وتارة يجمع بينهما، لكن الأشجار أوراقها على أقسام كثيرة، ويجمعها نوعان: أوراث صغار، وأوراق كبار، والسدر في غاية الصغر، والطلح وهو شجر الموز في غاية الكبر، فقوله تعالى: في سدر مخضود وطلح منضود إشارة إلى ما يكون ورقه/ في غاية الصغر من الأشجار، وإلى ما يكون ورقه في غاية الكبر منها، فوقعت الإشارة إلى الطرفين جامعة لجميع الأشجار نظرا إلى أوراقها، والورق أحد مقاصد الشجر ونظيره في الذكر ذكر النخل والرمان عند القصد إلى ذكر الثمار، لأن بينهما غاية الخلاف كما بيناه في موضعه، فوقعت الإشارة إليهما جامعة لجميع الأشجار نظرا إلى ثمارها، وكذلك قلنا في النخيل والأعناب، فإن النخل من أعظم الأشجار المثمرة، والكرم من أصغر الأشجار المثمرة، وبينهما أشجار فوقعت الإشارة إليهما جامعة لسائر الأشجار، وهذا جواب فائق وفقنا الله تعالى له.

المسألة الثالثة: ما معنى المخضود؟ نقول فيه وجهان أحدهما: مأخوذ الشوك، فإن شوك السدر يستقصف ورقها، ولولاه لكان منتزه العرب، ذلك لأنها تظل لكثرة أوراقها ودخول بعضها في بعض وثانيهما: مخضود أي متعطف إلى أسفل، فإن رؤوس أغصان السدر في الدنيا تميل إلى فوق بخلاف أشجار الثمار، فإن رؤوسها تتدلى، وحينئذ معناه أنه يخالف سدر الدنيا، فإن لها ثمرا كثيرا.." (١)

"كثير وذلك الماء عند العرب عزيز لا يسكب، بل يحفظ ويشرب، فإذا ذكروا النعم يعدون كثرة الماء ويعبرون عن كثرتها بإراقتها وسكبها، والأول أصح. ثم قال تعالى:

[سورة الواقعة (٥٦) : الآيات ٣٢ الى ٣٣]

وفاكهة كثيرة (٣٢) لا مقطوعة ولا ممنوعة (٣٣)

لما ذكر الأشجار التي يطلب منها ورقها ذكر بعدها الأشجار التي يقصد ثمرها، وفيه مسائل:

المسألة الأولى: ما الحكمة في تقديم الأشجار المورقة على غير المورقة؟ نقول: هي ظاهرة، وهو أنه قدم الورق على الشجر على طريقة الارتقاء من نعمة إلى ذكر نعمة فوقها، والفواكه أتم نعمة.

المسألة الثانية: ما الحكمة في ذكر الأشجار المورقة بأنفسها، وذكر أشجار الفواكه بثمارها؟ نقول: هي

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٩/٤٠٤

أيضا ظاهرة، فإن الأوراق حسنها عند كونها على الشجر، وأما الثمار فهي في أنفسها مطلوبة سواء كانت عليها أو مقطوعة، ولهذا صارت الفواكه لها أسماء بها تعرف أشجارها، فيقال: شجر التين وورقه.

المسألة الثالثة: ما الحكمة في وصف الفاكهة بالكثرة، لا بالطيب واللذة؟ نقول: قد بينا في سورة الرحمن أن الفاكهة فاعلة كالراضية في قوله: في عيشة راضية [الحاقة: ٢١] أي ذات فكهة، وهي لا تكون بالطبيعة إلا بالطيب واللذة، وأما الكثرة، فبينا أن الله تعالى حيث ذكر الفاكهة ذكر ما يدل على الكثرة، لأنها ليست لدفع الحاجة حتى تكون بقدر الحاجة، بل هي للتنعم، فوصفها بالكثرة والتنوع.

المسألة الرابعة: لا مقطوعة أي ليست كفواكه الدنيا، فإنها تنقطع في أكثر الأوقات والأزمان، وفي كثير من المواضع والأماكن ولا ممنوعة أي لا تمنع من الناس لطلب الأعواض والأثمان، والممنوع من الناس لطلب الأعواض والأثمان ظاهر في الحس، لأن الفاكهة في الدنيا تمنع عن البعض فهي ممنوعة، وفي الآخرة ليست ممنوعة. وأما القطع فيقال في الدنيا: إنها انقطعت فهي منقطعة لا مقطوعة، فقوله تعالى: لا مقطوعة في غاية الحسن، لأن فيه إشارة إلى دليل عدم القطع، كما أن في: لا ممنوعة دليلا على عدم المنع، وبيانه هو أن الفاكهة في الدنيا لا تمنع إلا لطلب العوض، وحاجة صاحبها إلى ثمنها لدفع حاجة به، وفي الآخرة مالكها الله تعالى ولا حاجة له، فلزم أن لا تمنع الفاكهة من أحد كالذي له فاكهة كثيرة، ولا يأكل ولا يبيع، ولا يحتاج إليها بوجه من الوجوه لا شك في أن يفرقها ولا يمنعها من أحد. وأما الانقطاع فنقول الذي يقال في الدنيا: الفاكهة انقطعت، ولا يقال عند وجودها: امتنعت، بل يقال: منعت، وذلك لأن الإنسان لا يتكلم إلا بما يفهمه الصغير والكبير، ولكن كل أحد إذا نظر إلى الفاكهة زمان وجودها يرى أحدا يحوزها ويحفظها ولا يراها بنفسها تمتنع فيقول: إنها ممنوعة، وأما عند انقطاعها وفقدها لا يرى أحدا قطعها حسا وأعدمها فيظنها منقطعة بنفسها لعدم إحساسه بالقاطع ووجود إحساسه بالمانع، فقال تعالى: لو نظرتم في الدنيا حق النظر علمتم أن كل زمان نظرا إلى كونه ليلا ونهارا ممكن فيه الفاكهة فهي بنفسها لا تنقطع، وإنما لا توجد عند المحقق لقطع الله إياها وتخصيصها بزمان دون زمان، وعند غير المحقق لبرد الزمان وحره، وكونه محتاجا إلى الظهور والنمو والزهر ولذلك تجري العادة بأزمنة فهي يقطعها الزمان في نظر غير المحقق فإذا كانت الجنة." (١)

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٩/٤٠٦

"حسناتهم وكثرت وسنذكر الدليل عليه في قوله تعالى: فسلام لك من أصحاب اليمين [الواقعة: ٩١]
. / ثم قال تعالى:

[سورة الواقعة (٥٦) : الآيات ٤١ الى ٤٣]

وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال (٤١) في سموم وحميم (٤٢) وظل من يحموم (٤٣)

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: ما الحكمة في ذكر السموم والحميم وترك ذكر النار وأهوالها؟ نقول: فيه إشارة بالأدنى إلى الأعلى فقال: هواؤهم الذي يهب عليهم سموم، وماؤهم الذي يستغيثون به حميم، مع أن الهواء والماء أبرد الأشياء، وهما أي السموم والحميم من أضر الأشياء بخلاف الهواء والماء في الدنيا فإنهما من أنفع الأشياء فما ظنك بنارهم التي هي عندنا أيضا أحر، ولو قال: هم في نار، كنا نظن أن نارهم كنارنا لأنا ما رأينا شيئا أحر من التي رأيناها، ولا أحر من السموم، ولا أبرد من الزلال، فقال: أبرد الأشياء لهم أحرها فكيف حالهم مع أحرها، فإن قيل: ما السموم؟ نقول: المشهور هي ريح حارة تهب فتمرض أو تقتل غالبا، والأولى أن يقال:

هي هواء متعفن، يتحرك من جانب إلى جانب فإذا استنشق الإنسان منه يفسد قلبه بسبب العفونة ويقتل الإنسان، وأصله من السم كسم الحية والعقرب وغيرهما، ويحتمل أن يكون هذا السم من السم، وهو خرم الإبرة، كما قال تعالى: حتى يلج الجمل في سم الخياط [الأعراف: ٤٠] لأن سم الأفعى ينفذ في المسام فيفسدها، وقيل: إن السموم مختصة بما يهب ليلا، وعلى هذا فقوله: سموم إشارة إلى ظلمة ما هم فيه غير أنه بعيد جدا، لأن السموم قد ترى بالنهار بسبب كثافتها.

المسألة الثانية: الحميم هو الماء الحار وهو فعيل بمعنى فاعل من حمم الماء بكسر الميم، أو بمعنى مفعول من حمم الماء إذا سخنه، وقد ذكرناه مرارا غير أن هاهنا لطيفة لغوية: وهي أن فعولا لما تكرر منه الشيء والريح لما كانت كثيرة الهبوب تهب شيئا بعد شيء خص السموم بالفعول، والماء الحار لما كان لا يفهم منه الورود شيئا بعد شيء لم يقل: فيه حموم، فإن قيل: ما اليحموم؟ نقول: فيه وجوه أولها: أنه اسم من أسماء جهنم ثانيها: أنه الدخان ثالثها: أنه الظلمة، وأصله من الحمم وهو الفحم فكأنه لسواده فحم فسموه باسم مشتق منه، وزيادة الحرف فيه لزيادة ذلك المعنى فيه، وربما تكون الزيادة فيه جاءت لمعنيين: الزيادة في سواده والزيادة في حرارته، وفي الأمور الثلاثة إشارة إلى دونهم في العذاب دائما لأنهم إن تعرضوا

لمهب الهواء أصابهم الهواء الذي هو السموم، وإن استكنوا كما يفعله الذي يدفع عن نفسه السموم بالاستكنان في الكن يكونوا في ظل من يحموم وإن أرادوا الرد عن أنفسهم السموم بالاستكنان في مكان من حميم فلا انفكاك لهم من عذاب الحميم، ويحتمل أن يقال فيه ترتيب وهو أن السموم يضربه فيعطش وتلتهب نار السموم في أحشائه فيشرب الماء/ فيقطع أمعاءه ويريد الاستظلال بظل فيكون ذلك الظل ظل اليحموم، فإن قيل: كيف وجه استعمال (من) في قوله تعالى: من يحموم؟ فنقول: إن قلنا إنه اسم جهنم فهو لابتداء الغاية كما تقول:

جاءني نسيم من الجنة، وإن قلنا: إنه دخان فهو كما في قولنا: خاتم من فضة، وإن قلنا: إنه الظلمة فكذلك،." (١)

"فإن قيل: كيف يصح تفسيره بجهنم مع أنه اسم منصرف منكر فكيف وضع لمكان معرف، ولو كان اسما لها، قلنا: استعماله بالألف واللام كالجحيم، أو كان غير منصرف كأسماء جهنم يكون مثله على ثلاثة مواضع كلها يحموم. ثم قال تعالى:

[سورة الواقعة (٥٦) : آية ٤٤]

لا بارد ولا كريم (٤٤)

قال الزمخشري: كرم الظل نفعه الملهوف، ودفعه أذى الحر عنه، ولو كان كذلك لكان البارد والكريم بمعنى واحد، والأقرب أن يقال: فائدة الظل أمران: أحدهما دفع الحر، والآخر كون الإنسان فيه مكرما، وذلك لأن الإنسان في البرد يقصد عين الشمس ليتدفأ بحرها إذا كان قليل الثياب، فإذا كان من المكرمين يكون أبدا في مكان يدفع الحر والبرد عن نفسه في الظل، أما الحر فظاهر، وأما البرد فيدفعه بإدفاء الموضع بإيقاد ما يدفئه، فيكون الظل في الحر مطلوبا للبرد فيطلب كونه باردا، وفي البرد يطلب لكونه ذا كرامة لا لبرد يكون في الظل فقال: لا بارد يطلب لبرده، ولا ذي كرامة قد أعد للجلوس فيه، وذلك لأن المواضع التي يقع عليها ظل كالمواضع التي تحت أشجار وأمام الجدار يتخذ منها مقاعد فتصير تلك المقاعد محفوظة عن القاذورات، وباقي المواضع تصير مزابل، ثم إذا وقعت الشمس في بعض الأوقات عليها تطلب لنظافتها، وكونها معدة للجلوس، فتكون مطلوبة في مثل هذا الوقت لأجل كرامتها لا لبردها، فقوله

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٤٠٩/٢٩

تعالى: لا بارد ولا كريم يحتمل هذا، ويحتمل أن يقال: إن الظل يطلب لأمر يرجع إلى الحس، أو لأمر يرجع إلى العقل، فالذي يرجع إلى الحس هو برده، والذي يرجع إلى العقل أن يكون الرجوع إليه كرامة، وهذا لا برد له ولا كرامة فيه، وهذا هو المراد بما نقله الواحدي عن الفراء أن العرب تتبع كل منفي بكريم إذا كان المنفي أكرم فيقال: هذه الدار ليست بواسعة ولا كريمة، والتحقيق فيه ما ذكرنا أن وصف الكمال، إما حسي، وإما عقلي، والحسي يصرح بلفظه، وأما العقلي فلخفائه عن الحس يشار إليه بلفظ جامع، لأن الكرامة، والكرامة عند العرب من أشهر أوصاف المدح ونفيهما نفي وصف الكمال العقلي، فيصير قوله تعالى: لا بارد ولا كريم معناه لا مدح فيه أصلا لا حسا ولا عقلا.

ثم قال تعالى:

[سورة الواقعة (٥٦) : الآيات ٤٥ الى ٤٨]

إنهم كانوا قبل ذلك مترفين (٤٥) وكانوا يصرون على الحنث العظيم (٤٦) وكانوا يقولون أإذا متنا وكنا ترابا وعظاما أإنا لمبعوثون (٤٧) أوآباؤنا الأولون (٤٨)

وفي الآيات لطائف، نذكرها في مسائل:

المسألة الأولى: ما الحكمة في بيان سبب كونهم في العذاب مع أنه تعالى لم يذكر سبب كون أصحاب اليمين في النعيم، ولم يقل: إنهم كانوا قبل ذلك شاكرين مذعنين؟ فنقول: قد ذكرنا مرارا أن الله تعالى عند إيصال الثواب لا يذكر أعمال العباد الصالحة، وعند إيصال العقاب يذكر أعمال المسيئين لأن الثواب فضل والعقاب عدل، والفضل سواء ذكر سببه أو لم يذكر لا يتوهم في المتفضل به نقص وظلم، وأما العدل فإن لم." (١)

"المسألة الأولى: المراد من كلمة: لولا معنى هلا من كلمات التحضيض وهي أربع كلمات: لولا، ولو ما، وهلا، وألا ويمكن أن يقال: أصل الكلمات لم لا، على السؤال كما يقول القائل: إن كنت صادقا فلم لا يظهر صدقك، ثم إنما قلنا: الأصل لم لا لكونه استفهاما أشبه قولنا: هلا، ثم إن الاستفهام تارة يكون عن وجود شيء وأخرى عن سبب وجوده، فيقال: هل جاء زيد ولم جاء، والاستفهام بهل قبل الاستفهام بلم، ثم إن الاستفهام قد يستعمل للإنكار وهو كثير، ومنه قوله تعالى هاهنا: أفبهذا الحديث أنتم مدهنون

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٤١٠/٢٩

[الواقعة: ٨١] وقوله: أتدعون بعلا وتذرون [الصافات: ١٢٥] وقوله تعالى: أإفكا آلهة دون الله تريدون [الصافات:

٨٦] ونظائرها كثيرة، وقد ذكرنا لك **الحكمة فيه**، وهي أن النافي والناهي لا يأمر أن يكذب المخاطب فعرض بالنفي لئلا يحتاج إلى بيان النفي، إذا ثبت هذا فالاستفهام «بهل» لإنكار الفعل، والاستفهام «بلم» لإنكار سببه، وبيان ذلك أن من قال: لم فعلت كذا، يشير إلى أنه لا سبب للفعل، ويقول: كان الفعل وقع من غير سبب الوقوع، وهو غير جائز، وإذا قال: هل فعلت، ينكر نفس الفعل لا الفعل من غير سبب، وكأنه في الأول يقول:

لو وجد للفعل سبب لكان فعله أليق، وفي الثاني يقول: الفعل غير لائق ولو وجد له سبب.

المسألة الثانية: إن كل واحد منهما يقع في صدر الكلام، ويستدعي كلاما مركبا من كلامين في الأصل، أما في «هل» فلأن أصلها أنك تستعملها في جملتين، فتقول: هل جاء زيد أو ما جاء، لكنك ربما تحذف إحداهما، وأما في (لو) فإنك تقول: لو كان كذا لكان كذا، وربما تحذف الجزاء كما ذكرنا في قوله تعالى: لو تعلمون [الواقعة: ٧٦] لأنه يشير بلو إلى أن المنفي له دليل، فإذا قال القائل: لو كنتم تعلمون، وقيل له لم لا يعلمون، قال: إنهم لو يعلمون لفعلوا كذا، فدليله مستحضر إن طولب به بينه وإذا ثبت أن النفي بلو، والنفي بهل، أبلغ من النفي بلا، والنفي بقوله: لم، وإن كان بينهما اشتراك معنى ولفظا وحكما وصارت كلمات التحضيض وهي: لو ما، ولولا، وهلا وألا، كما تقول: لم لا فإذن قول القائل: هل تفعل وأنت عنه مستغن، كقوله: لم تفعل وهو قبيح، وقوله: وهلا تفعل وأنت إليه محتاج، وألا تفعل/ وأنت إليه محتاج، وقوله: لولا، ولو ما، كقوله: لم لا تفعل، ولم لا فعلت، فقد وجد في ألا زيادة نص، لأن نقل اللفظ لا يخلو من نص، كما أن المعنى صار فيه زيادة ما، على ما في الأصل كما بيناه، وقوله تعالى: فلولا إذا بلغت الحلقوم أي لم لا يقولون عند الموت وهو وقت ظهور الأمور وزمان اتفاق الكلمات، ولو كان ما يقولونه حقا ظاهرا كما يزعمون لكان الواجب أن يشركوا عند النزع، وهذا إشارة إلى أن كل أحد يؤمن عند الموت لكن لم يقبل إيمان من لم يؤمن قبله، فإن قيل: ما سمع منهم الاعتراف وقت النزع بل يقولون: نحن نكذب الرسل أيضا وقت بلوغ النفس إلى الحلقوم ونموت عليه؟ فنقول: هذه الآية بعينها إشارة وبشارة، أما الإشارة فإلى الكفار، وأما البشارة فللرسل، أما الإشارة وهي أن الله تعالى ذكر للكفار حالة لا يمكنهم إنكارها وهي حالة الموت فإنهم وإن كفروا بالحشر وهو الحياة بعد الموت لكنهم لم ينكروا

الموت، وهو أظهر من كل ما هو من مثله فلا يشكون في حالة النزع، ولا يشكون في أن في ذلك الوقت لا يبقى لهم لسان ينطق، ولا إنكار بعمل فتفوتهم قوة الاكتساب لإيمانهم ولا يمكنهم الإتيان بما يجب فيكون ذلك حثا لهم على تجديد النظر في طلب الحق قبل تلك الحالة، وأما البشارة فلأن الرسل لما كذبوا وكذب مرسلهم صعب عليهم، فبشروا بأن المكذبين سيرجعون عما يقولون، ثم هو إن كان قبل النزع فذلك مقبول وإلا فعند الموت وهو غير نافع، والضمير في بلغت للنفس." (١)

"إلى شيء من الشفاعة وغيرها، فسلام لك يا محمد منهم فإنهم في سلامة وعافية لا يهمك أمرهم، أو فسلام لك يا محمد منهم، وكونهم ممن يسلم على محمد صلى الله عليه وسلم دليل العظمة، فإن العظيم لا يسلم عليه إلا عظيم، وعلى هذا ففيه لطيفة: وهي أن النبي صلى الله عليه وسلم مكانته فوق مكانة أصحاب اليمين بالنسبة إلى المقربين الذين هم في عليين، كأصحاب الجنة بالنسبة إلى أهل عليين، فلما قال: وأما إن كان من أصحاب اليمين كان فيه إشارة إلى أن مكانهم غير مكان الأولين المقربين، فقال تعالى: هؤلاء وإن كانوا دون الأولين لكن لا تنفع بينهم المكانة والتسليم، بل هم يرونك ويصلون إليك وصول جليس الملك إلى الملك والغائب إلى أهله وولده، وأما المقربون فهم يلازمونك ولا يفارقونك وإن كنت أعلى مرتبة منهم. / ثم قال تعالى:

[سورة الواقعة (٥٦) : الآيات ٩٢ الى ٩٤]

وأما إن كان من المكذبين الضالين (٩٢) فنزل من حميم (٩٣) وتصلية جحيم (٩٤)

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: قال هاهنا: من المكذبين الضالين وقال من قبل: ثم إنكم أيها الضالون المكذبون [الواقعة: ٥١] وقد بينا فائدة التقديم والتأخير هناك.

المسألة الثانية: ذكر الأزواج الثلاثة في أول السورة بعبارة وأعادهم بعبارة أخرى فقال: فأصحاب الميمنة [الواقعة: ٨] ثم قال: وأصحاب اليمين [الواقعة: ٢٧] وقال: وأصحاب المشئمة [الواقعة: ٩] ثم قال: وأصحاب الشمال [الواقعة: ٤١] وأعادهم هاهنا، وفي المواضع الثلاثة ذكر أصحاب اليمين بلفظ واحد أو بلفظين مرتين، أحدهما غير الآخر، وذكر السابقين في أول السورة بلفظ السابقين، وفي

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٤٣٥/٢٩

آخر السورة بلفظ المقربين، وذكر أصحاب النار في الأول بلفظ أصحاب المشئمة ثم بلفظ أصحاب الشمال ثم بلفظ المكذبين فما **الحكمة فيه**؟ نقول: أما السابق فله حالتان إحداهما في الأولى، والأخرى في الآخرة، فذكره في المرة الأولى بماله في الحالة الأولى، وفي الثانية بماله في الحالة الآخرة، وليس له حالة هي واسطة بين الوقوف للعرض وبين الحساب، بل هو ينقل من الدنيا إلى أعلى عليين، ثم ذكر أصحاب اليمين بلفظين متقاربين، لأن حالهم قريبة من حال السابقين، وذكر الكفار بألفاظ ثلاثة كأنهم في الدنيا ضحكوا عليهم بأنهم أصحاب موضع شؤم، فوصفوهم بموضع الشؤم، فإن المشأمة مفعلة وهي الموضع، ثم قال: أصحاب الشمال فإنهم في الآخرة يؤتون كتابهم بشمالهم، ويقفون في موضع هو شمال، لأجل كونهم من أهل النار، ثم إنه تعالى لما ذكر حالهم في أول الحشر بكونهم من أصحاب الشمال ذكر ما يكون لهم من السموم والحميم، ثم لم يقتصر عليه، ثم ذكر السبب فيه، فقال: إنهم كانوا قبل ذلك مترفين وكانوا يصرون [الواقعة: ٤٥، ٤٦] فذكر سبب العقاب لما بينا مرارا أن العادل يذكر للعقاب سببا، والمتفضل لا يذكر للإنعام والتفضل سببا، فذكرهم في الآخرة ما عملوه في الدنيا، فقال: وأما إن كان من المكذبين ليكون ترتيب العقاب على تكذيب الكتاب فظهر العدل، وغير ذلك ظاهر. ثم قال تعالى:

[سورة الواقعة (٥٦) : الآيات ٩٥ الى ٩٦]

إن هذا لهو حق اليقين (٩٥) فسبح باسم ربك العظيم (٩٦)." (١)

"على الله الكذب

[النساء: ٥٠] ، انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض [الإسراء: ٢١] قال: وقد يتعدى هذا بإلى كقوله: أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت [الغاشية: ١٧] وهذا نص على التأمل، وبين وجه **الحكمة فيه**، وقد يتعدى بقي، كقوله: أولم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض [الأعراف: ١٨٥] ، أولم يتفكروا في أنفسهم [الروم: ٨] وثالثها: أن يراد بالنظر الرؤية كما في قوله:

ولما بدا حوران والآل دونه ... نظرت فلم تنظر بعينك منظرا

والمعنى نظرت، فلم تر بعينك منظرا تعرفه في الآل قال: إلا أن هذا على سبيل المجاز، لأنه دلت الدلائل

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٤٣٩/٢٩

على أن النظر عبارة عن تقلب الحدقة نحو المرئي التماسا لرؤيته، فلما كانت الرؤية من توابع النظر ولوازمه غالبا أجرى على الرؤية لفظ النظر على سبيل إطلاق اسم السبب على المسبب قال: ويجوز أن يكون قوله: نظرت فلم تنظر، كما يقال: تكلمت وما تكلمت، أي ما تكلمت بكلام مفيد، فكذا هنا نظرت وما نظرت نظرا مفيدا ورابعها: أن يكون النظر بمعنى الانتظار، ومنه قوله تعالى: إلى طعام غير ناظرين إناه [الأحزاب: ٥٣] أي غير منتظرين إدراكه وبلوغه، وعلى هذا الوجه يكون نظرت معناه انتظرت، ومجيء فعلت وافتعلت بمعنى واحد كثير، كقولهم: شويت واشتويت، وحقرت واحتقرت، إذا عرفت هذا فقوله: انظرونا يحتمل وجهين الأول: انظرونا، أي انتظرونا، لأنه يسرع بالمؤمنين إلى الجنة كالبروق الخاطفة، والمنافقون مشاة والثاني: انظرونا أي انظروا إلينا، لأنهم إذا نظروا إليهم استقبلوهم بوجوههم، والنور بين أيديهم فيستضيئون به، وأما قراءة (أنظرونا) مكسورة الظاء فهي من النظرة والإمهال، ومنه قوله تعالى: أنظرني إلى يوم يبعثون [الحجر: ٣٦] وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بإنظار المعسر، والمعنى أنه جعل اتئادهم في المشي إلى أن يلحقوا بهم إنظارا لهم.

واعلم أن أبا عبيدة والأخفش كانا يطعنان في حصة هذه القراءة، وقد ظهر الآن وجه صحتها.

المسألة الثالثة: اعلم أن الاحتمالات في هذا الباب ثلاثة أحدها: أن يكون الناس كلهم في الظلمات، ثم إنه تعالى يعطي المؤمنين هذه الأنوار، والمنافقون يطلبونها منهم وثانيها: أن تكون الناس كلهم في الأنوار، ثم إن المؤمنين يكونون في الجنات فيمرون سريعا، والمنافقون يبقون وراءهم فيطلبون منهم الانتظار وثالثها: أن يكون المؤمنون في النور والمنافقون في الظلمات، ثم المنافقون يطلبون النور مع المؤمنين، وقد ذهب إلى كل واحد من هذه الاحتمالات قوم، فإن كانت هذه الحالة إنما تقع/ عند الموقف، فالمراد من قوله: انظرونا انظروا إلينا، لأنهم إذا نظروا إليهم، فقد أقبلوا عليهم، ومتى أقبلوا عليهم وكانت أنوارهم من قدامهم استضاءوا بتلك الأنوار، وإن كانت هذه الحالة إنما تقع عند مسير المؤمنين إلى الجنة، كان المراد من قوله: انظرونا يحتمل أن يكون هو الانتظار وأن يكون النظر إليهم.

المسألة الرابعة: القبس: الشعلة من النار أو السراج، والمنافقون طمعوا في شيء من أنوار المؤمنين أن يقتبسوه كاقتباس نيران الدنيا وهو منهم جهل، لأن تلك الأنوار نتائج الأعمال الصالحة في الدنيا، فلما لم توجد تلك الأعمال في الدنيا امتنع حصول تلك الأنوار في الآخرة، قال الحسن: يعطى يوم القيامة كل أحد نورا على قدر عمله، ثم إنه يؤخذ من حر جهنم ومما فيه من الكلاليب والحسك ويلقى على الطريق،

فتمضي زمرة من المؤمنين وجوههم كالقمر ليلة البدر، ثم تمضي زمرة أخرى كأضواء الكواكب في السماء، ثم على ذلك تغشاهم." (١)

"نقول: إنه هو النور، لأنه بواسطته اهتدى، الخلق، أو هو النور لكونه مبينا للناس ما نزل إليهم، والمبين هو النور، ثم الفوائد في كونه نورا وجوه منها: أنه يدل على علو شأنه وعظمة برهانه، وذلك لوجهين أحدهما:

الوصف بالنور وثانيهما: الإضافة إلى الحضرة، ومنها: أنه إذا كان نورا من أنوار الله تعالى كان مشرقا في جميع أقطار العالم، لأنه لا يكون مخصوصا ببعض الجوانب، فكان رسولا إلى جميع الخلائق، لما روي عنه صلى الله عليه وسلم: «بعثت إلى الأحمر والأسود»

فلا يوجد شخص من الجن والإنس إلا ويكون من أمته إن كان مؤمنا فهو من أمة المتابعة، وإن كان كافرا فهو من أمة الدعوة.

وقوله تعالى: ولو كره الكافرون أي اليهود والنصارى وغيرهم من المشركين، وقوله: بالهدى لمن اتبعه ودين الحق قيل: الحق هو الله تعالى، أي دين الله: وقيل: نعت للدين، أي والدين هو الحق، وقيل: الذي يحق أن يتبعه كل أحد وليظهره على الدين كله يريد الإسلام، وقيل: ليظهره، أي الرسول صلى الله عليه وسلم بالغلبة وذلك بالحجة، وهاهنا مباحث:

الأول: والله متم نوره والتمام لا يكون إلا عند النقصان، فكيف نقصان هذا النور؟ فنقول إتمامه بحسب النقصان في الأثر، وهو الظهور في سائر البلاد من المشارق إلى المغارب، إذ الظهور لا يظهر إلا بالإظهار وهو الإتمام، يؤيده قوله تعالى: اليوم أكملت لكم دينكم [المائدة: ٣] وعن أبي هريرة: أن ذلك عند نزول عيسى من السماء، قال مجاهد.

الثاني: قال هاهنا: متم نوره وقال في موضع آخر: مثل نوره [النور: ٣٥] وهذا عين ذلك أو غيره؟ نقول: هو غيره، لأن نور الله في ذلك الموضع هو الله تعالى عند أهل التحقيق، وهنا هو الدين أو الكتاب أو الرسول.

الثالث: قال في الآية المتقدمة: ولو كره الكافرون وقال في المتأخرة: ولو كره المشركون فما **الحكمة فيه**؟ فنقول: إنهم أنكروا الرسول، وما أنزل إليه وهو الكتاب، وذلك من نعم الله، والكافرون كلهم في كفران النعم،

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٤٥٧/٢٩

فلهذا قال: ولو كره الكافرون ولأن لفظ الكافر أعم من لفظ المشرك، والمراد من الكافرين هاهنا اليهود والنصارى والمشركون، وهنا ذكر النور وإطفاءه، واللائق به الكفر لأنه الستر والتغطية، لأن من يحاول الإطفاء إنما يريد الزوال، وفي الآية الثانية ذكر الرسول والإرسال ودين الحق، وذلك منزلة عظيمة للرسول عليه السلام، وهي اعتراض على الله تعالى كما قال:

ألا قل لمن ظل لي حاسدا ... أتدري على من أسأت الأدب

أسأت على الله في فعله ... كأنه لم تعرض لي ما وهب

والاعتراض قريب من الشرك، ولأن الحاسدين للرسول عليه السلام، كان أكثرهم من قريش وهم المشركون، ولما كان النور أعم من الدين والرسول، لا جرم قابله بالكافرين الذين هم جميع مخالفي الإسلام والإرسال، والرسول والدين أخص من النور قابله بالمشركين الذين هم أخص من الكافرين. ثم قال تعالى:

[سورة الصف (٦١) : الآيات ١٠ الى ١١]

يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم (١٠) تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون (١١)." (١)

"هذا مما وقع فيه النزاع الشديد بين سكان النواحي فكل طائفة تدعي أنها أفضل وأكثر استجماعا لصفات الكمال ونحن نشير إلى معاقد الكلام في هذا الباب بتوفيق الله تعالى وعونه «١» .

[سورة البقرة (٢) : آية ٤٨]

واتقوا يوما لا تجزي نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون (٤٨)

اعلم أن اتقاء اليوم اتقاء لما يحصل في ذلك اليوم من العقاب والشدائد لأن نفس اليوم لا يتقى ولا بد من أن يرده أهل الجنة والنار جميعا. فالمراد ما ذكرناه ثم إنه تعالى وصف اليوم/ بأشد الصفات وأعظمها تهويلا، وذلك لأن العرب إذا دفع أحدهم إلى كريهة وحاولت أعوانه دفاع ذلك عنه بذلت ما في نفوسها الأبية من مقتضى الحمية فذبت عنه كما يذب الوالد عن ولده بغاية قوته، فإن رأى من لا طاقة له بممانعته عاد بوجوه الضراعة وصنوف الشفاعة فحاول بالملاينة ما قصر عنه بالمخاشنة، فإن لم تغن عنه الحالتان

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٩/٥٣٠

من الخشونة والليان لم يبق بعده إلا فداء الشيء بمثله. إما مال أو غيره وإن لم تغن عنه هذه الثلاثة تعلل بما يرجوه من نصر الأخلاء والإخوان فأخبر الله سبحانه أنه لا يغني شيء من هذه الأمور عن المجرمين في الآخرة. بقي على هذا الترتيب سؤالان:

السؤال الأول: الفائدة من قوله: لا تجزي نفس عن نفس شيئا هي الفائدة من قوله: ولا هم ينصرون فما المقصود من هذا التكرار؟ والجواب: المراد من قوله: لا تجزي نفس عن نفس شيئا أنه لا يتحمل عنه غيره ما يلزمه من الجزاء، وأما النصرة فهي أن يحاول تخليصه عن حكم المعاقب وسنذكر فرقا آخر إن شاء الله تعالى.

السؤال الثاني: أن الله تعالى قدم في هذه الآية قبول الشفاعة على أخذ الفدية وذكر هذه الآية في هذه السورة بعد العشرين والمائة وقدم قبول الفدية على ذكر الشفاعة فما **الحكمة فيه**؟ الجواب: أن من كان ميله إلى حب المال أشد من ميله إلى علو النفس فإنه يقدم التمسك بالشافعين على إعطاء الفدية ومن كان بالعكس يقدم الفدية على الشفاعة، ففائدة تغيير الترتيب، الإشارة إلى هذين الصنفين: ولنذكر الآن تفسير الألفاظ: أما قوله تعالى: لا تجزي نفس عن نفس شيئا فقال القفال: الأصل في جزى هذا عند أهل اللغة قضى ومنه الحديث

أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأبي بردة بن يسار: «تجزيك ولا تجزي أحدا بعدك» ،

هكذا يرويه أهل العربية: «تجزيك» بفتح التاء غير مهموز أي تقضي عن أضحيتك وتنوب، ومعنى الآية أن يوم القيامة لا تنوب نفس عن نفس شيئا ولا تحمل عنها شيئا مما أصابها، بل يفر المرء فيه من أخيه وأمه وأبيه ومعنى هذه النيابة أن طاعة المطيع لا تقضي على العاصي ما كان واجبا عليه. وقد تقع هذه النيابة في الدنيا كالرجل يقضي عن قريبه وصديقه دينه ويتحمل عنه، فأما يوم القيامة فإن قضاء الحقوق إنما يقع فيه من الحسنات.

روى أبو هريرة قال: قال عليه السلام: «رحم الله عبدا كان عنده لأخيه مظلمة في عرض أو مال أو جاه فاستحله قبل أن يؤخذ منه وليس ثم دينار ولا درهم فإن كانت له حسنات أخذ من حسناته وإن لم يكن له حسنات حمل من سيئاته» .

قال صاحب الكشاف: و (شيئا) مفعول به ويجوز أن يكون في موضع مصدر أي قليلا من الجزاء كقوله تعالى: ولا يظلمون شيئا [مريم: ٦٠] . ومن قرأ: «لا يجزي» من أجزأ عنه إذا أغنى عنه فلا يكون في

قراءته إلا بمعنى شيئا من

---

(١) لم يذكر في الأصول التي بأيدينا في هذا الموضع شيء مما أشار إليه المصنف رحمه الله تعالى. (المصحح) .." (١)

"محال. أما الوجهان الأخيران فكل واحد منهما محتمل، فإن كان على الوجه الأول فقد أزال الله تعالى اليبوسة عن أجزاء الهواء وخلق الرطوبة فيها وإن كان على الوجه الثاني فقد خلق تلك الأجزاء وخلق الرطوبة فيها.

واعلم أن الكلام في هذا الباب كالكلام فيما كان من رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض الغزوات وقد ضاق بهم الماء فوضع يده في متوضئه ففار الماء من بين أصابعه حتى استكفوا.

السؤال الخامس: معجزة موسى في هذا المعنى أعظم أم معجزة محمد عليه السلام؟ الجواب: كل واحدة منهما معجزة باهرة قاهرة، لكن التي لمحمد صلى الله عليه وسلم أقوى لأن نبوع الماء من الحجر معهود في الجملة، أما نبوعه من بين الأصابع فغير معتاد البتة فكان ذلك أقوى.

السؤال السادس: ما **الحكمة في** جعل الماء اثنتي عشرة عينا؟ والجواب: أنه كان في قوم موسى كثرة والكثير من الناس إذا اشتدت بهم الحاجة إلى الماء ثم وجدوه فإنه يقع بينهم تشاجر وتنازع وربما أفضى ذلك إلى الفتن العظيمة فأكمل الله تعالى هذه النعمة بأن عين لكل سبط منهم ماء معينا لا يختلط بغيره والعادة في الرهط الواحد أن لا يقع بينهم من التنازع مثل ما يقع بين المختلفين.

السؤال السابع: من كم وجه يدل هذا الانفجار على الإعجاز؟ والجواب: من وجوه: أحدها: أن نفس ظهور الماء معجز، وثانيها: خروج الماء العظيم من الحجر الصغير، وثالثها: خروج الماء بقدر حاجتهم، ورابعها: خروج الماء عند ضرب الحجر بالعصا، وخامسها: انقطاع الماء عند الاستغناء عنه، فهذه الوجوه الخمسة لا يمكن تحصيلها إلا بقدرة تامة نافذة في كل الممكنات وعلم نافذ في جميع المعلومات وحكمة عالية على الدهر والزمان، وما ذاك إلا للحق سبحانه وتعالى.

أما قوله تعالى: قد علم كل أناس مشربهم فنقول: إنما علموا ذلك لأنه أمر كل إنسان أن لا يشرب إلا من جدول معين كيلا يختلفوا عند الحاجة إلى الماء، وأما إضافة المشرب إليهم فلأنه تعالى لما أباح لكل سبط

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٤٩٤/٣

من الأسباط ذلك الماء الذي ظهر من ذلك الشق الذي يليه صار ذلك كالملك لهم وجازت إضافته إليهم.
أما قوله تعالى: كلوا واشربوا من رزق الله ففيه حذف، والمعنى: فقلنا لهم أو قال لهم موسى: كلوا واشربوا، وإنما قال: كلوا لوجهين، أحدهما: لما تقدم من ذكر المن والسلوى، فكأنه قال: كلوا من المن والسلوى الذي رزقكم الله بلا تعب ولا نصب واشربوا من هذا الماء. والثاني: أن الأغذية لا تكون إلا بالماء، فلما أعطاهم الماء فكأنه تعالى أعطاهم المأكول والمشروب. واحتجت المعتزلة بهذه الآية على أن الرزق هو الحلال، قالوا: لأن أقل درجات قوله: كلوا واشربوا الإباحة، وهذا يقتضي كون الرزق مباحا، فلو وجد رزق حرام لكان ذلك الرزق مباحا وحراما وإنه/ غير جائز.
أما قوله تعالى: ولا تعثوا في الأرض مفسدين فالعثي أشد الفساد، فقيل لهم: لا تتمادوا في الفساد في حالة إفسادكم لأنهم كانوا متمادين فيه، والمقصود منه ما جرت العادة بين الناس من التشاجر والتنازع في الماء عند اشتداد الحاجة إليه، فكأنه تعالى قال: إن وقع التنازع بسبب ذلك الماء فلا تبالغوا في التنازع والله أعلم.

[سورة البقرة (٢) : آية ٦١]
وإذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها قال أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير اهبطوا مصرا فإن لكم ما سألتم وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباؤ بغضب من الله ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون (٦١)." (١)
"وقد سوى بين أولاده في العطية فانتفع بعضهم: لولا أن أباك فضلك لكنت فقيرا، وهذا الجواب ضعيف لأن أهل اللغة نصوا على أن: «لولا» تفيد انتفاء الشيء لثبوت غيره وبعد ثبوت هذه المقدمة فكلام الكعبي ساقط جدا.

[سورة البقرة (٢) : الآيات ٦٥ الى ٦٦]
ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين (٦٥) فجعلناها نكالا لما بين

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٥٣٠/٣

يديها وما خلفها وموعظة للمتقين (٦٦)
اعلم أنه تعالى لما عدد وجوه إنعامه عليهم أولا ختم ذلك بشرح بعض ما وجه إليهم من التشديدات، وهذا هو النوع الأول وفيه مسائل:
المسألة الأولى: روي عن ابن عباس أن هؤلاء القوم كانوا في زمان داود عليه السلام بأيلة على ساحل البحر بين المدينة والشام وهو مكان من البحر يجتمع إليه الحيتان من كل أرض في شهر من السنة حتى لا يرى الماء لكثرتها وفي غير ذلك الشهر في كل سبت خاصة وهي القرية المذكورة في قوله: وسئلهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر إذ يعدون في السبت [الأعراف: ١٦٣] فحفروا حياضا عند البحر وشرعوا إليها الجداول فكانت الحيتان تدخلها فيصطادونها يوم الأحد فذلك الحبس في الحياض هو اعتداؤهم، ثم إنهم أخذوا السمك واستغنوا بذلك وهم خائفون من العقوبة فلما طال/ العهد استسن الأبناء بسنة الآباء واتخذوا الأموال فمشى إليهم طوائف من أهل المدينة الذين كرهوا الصيد يوم السبت ونهوهم فلم ينتهوا وقالوا: نحن في هذا العمل منذ زمان فما زادنا الله به إلا خيرا، فقيل لهم: لا تغتروا فربما نزل بكم العذاب والهلاك فأصبح القوم وهم قردة خاسئون فمكثوا كذلك ثلاثة أيام ثم هلكوا.
المسألة الثانية: المقصود من ذكر هذه القصة أمران. الأول: إظهار معجزة محمد عليه السلام فإن قوله: ولقد علمتم كالخطاب لليهود الذين كانوا في زمان محمد عليه السلام فلما أخبرهم محمد عليه السلام عن هذه الواقعة مع أنه كان أميا لم يقرأ ولم يكتب ولم يخالط القوم دل ذلك على أنه عليه السلام إنما عرفه من الوحي. الثاني: أنه تعالى لما أخبرهم بما عامل به أصحاب السبت فكأنه يقول لهم أما تخافون أن ينزل عليكم بسبب تمردكم ما نزل عليهم من العذاب فلا تغتروا بالإمهال الممدود لكم ونظيره قوله تعالى: يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقا لما معكم من قبل أن نطمس وجوها فنردها على أدبارها [النساء: ٤٧].
المسألة الثالثة: الكلام فيه حذف كأنه قال: ولقد علمتم اعتداء من اعتدى منكم في السبت لكي يكون المذكور من العقوبة جزاء لذلك، ولفظ الاعتداء يدل على أن الذي فعلوه في السبت كان محرما عليهم وتفصيل ذلك غير مذكور في هذه الآية لكنه مذكور في قوله: وسئلهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر ثم يحتمل أن يقال: إنهم إنما تعدوا في ذلك الاصطياد فقط، وأن يقال: إنما تعدوا لأنهم اصطادوا مع أنهم استحلوا ذلك الاصطياد.

المسألة الرابعة: قال صاحب الكشاف: السبت مصدر سبتت اليهود إذا عظمت يوم السبت. فإن قيل: لما كان الله نهاهم عن الاصطياد يوم السبت فما **الحكمة في** أن أكثر الحيتان يوم السبت دون سائر الأيام كما قال:

تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا ويوم لا يسبتون لا تأتيهم كذلك نبلوهم [الأعراف: ١٦٣] وهل هذا إلا." (١)

"حتى قلت له إن فعلت كذا نالك كذا، أي ما أمرت به بل حذرته عنه.

واعلم أن هذه الأقوال وإن كانت حسنة إلا أن القول الأول أحسن منها، وذلك لأن عطف قوله: وما أنزل على ما يليه أولى من عطفه على ما بعد عنه إلا لدليل منفصل، أما قوله: لو نزل السحر عليهما لكان منزل ذلك السحر هو الله تعالى. قلنا: تعريف صفة الشيء قد يكون لأجل الترغيب في إدخاله في الوجود وقد يكون لأجل أن يقع الاحتراز عنه كما قال الشاعر:

عرفت الشر لا للشر لكن لتوقيه

قوله ثانيا: أن تعليم السحر كفر لقوله تعالى: ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر، فالجواب: أنا بينا أنه واقعة حال فيكفي في صدقها صورة واحدة وهي ما إذا اشتغل بتعليم سحر من يقول بإلهية الكواكب ويكون قصده من ذلك التعليم إثبات أن ذلك المذهب حق. قوله ثالثا: أنه لا يجوز بعثة الأنبياء عليهم السلام لتعليم السحر فكذا الملائكة. قلنا: لا نسلم أنه لا يجوز بعثة الأنبياء عليهم السلام لتعليمه بحيث يكون الغرض من ذلك التعليم التنبيه على إبطاله. قوله رابعا: إنما يضاف السحر إلى الكفرة والمردة فكيف يضاف إلى الله تعالى ما ينهى عنه؟ قلنا: فرق بين العمل وبين التعليم فلم لا يجوز أن يكون العمل منهيا عنه؟ وأما تعليمه لغرض التنبيه على فساده فإنه يكون مأمورا به.

المسألة الثانية: قرأ الحسن: (ملكين) بكسر اللام وهو مروي عن الضحاك وابن عباس ثم اختلفوا، فقال الحسن: كانا علجين أقلفين ببابل يعلمان الناس السحر، وقيل: كانا رجلين صالحين من الملوك. والقراءة المشهورة بفتح اللام وهما كانا ملكين نزلا من السماء، وهاروت وماروت اسمان لهما، وقيل: هما جبريل وميكائيل عليهما السلام، وقيل غيرهما: أما الذين كسروا اللام فقد احتجوا بوجوه، أحدها: أنه لا يليق بالملائكة تعليم السحر، وثانيها: كيف يجوز إنزال/ الملكين مع قوله: ولو أنزلنا ملكا لقضي الأمر ثم لا

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٣/٥٤٠

ينظرون [الأنعام: ٨] ، وثالثها: لو أنزل الملكين لكان إما أن يجعلهما في صورة الرجلين أو لا يجعلهما كذلك، فإن جعلهما في صورة الرجلين مع أنهما ليسا برجلين كان ذلك تجهيلا وتلبيسا على الناس وهو غير جائز، ولو جاز ذلك فلم لا يجوز أن كل واحد من الناس الذين نشاهدهم لا يكون في الحقيقة إنسانا، بل ملكا من الملائكة؟ وإن لم يجعلهما في صورة الرجلين قدح ذلك في قوله تعالى: ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا [الأنعام: ٩] والجواب عن الأول: أنا سنبين وجه **الحكمة في** إنزال الملائكة لتعليم السحر، وعن الثاني: أن هذه الآية عامة وقراءة الملكين بفتح اللام متواترة وخاصة والخاص مقدم على العام، وعن الثالث: أن الله تعالى أنزلهما في صورة رجلين وكان الواجب على المكلفين في زمان الأنبياء أن لا يقطعوا على من صورته صورة الإنسان بكونه إنسانا، كما أنه في زمان الرسول عليه الصلاة والسلام كان الواجب على من شاهد دحية الكلبي أن لا يقطع بكونه من البشر بل الواجب التوقف فيه.

المسألة الثالثة: إذا قلنا بأنهما كانا من الملائكة فقد اختلفوا في سبب نزولهما فروي عن ابن عباس أن الملائكة لما أعلمهم الله بآدم وقالوا: أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء فأجابهم الله تعالى بقوله: إني أعلم ما لا تعلمون [البقرة: ٣٠] ثم إن الله تعالى وكل عليهم جمعا من الملائكة وهم الكرام الكاتبون فكانوا يعرجون بأعمالهم الخبيثة فعجبت الملائكة منهم ومن تبقية الله لهم مع ما ظهر منهم من القبائح، ثم." (١)

"الآية، وقوله تعالى: لم يحملوها أي لم يؤدوا حقها ولم يحملوها حق حملها على ما بيناه، فشبههم والتوراة في أيديهم وهم لا يعملون بها بحمار يحمل كتبا، وليس له من ذلك إلا ثقل الحمل من غير انتفاع مما يحمله، كذلك اليهود ليس لهم من كتابهم إلا وبال الحجة عليهم، ثم ذم المثل، والمراد منه ذمهم فقال: بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله أي بئس القوم مثلا الذين كذبوا، كما قال: ساء مثلا القوم [الأعراف: ١٧٧] وموضع الذين رفع، ويجوز أن يكون جرا، وبالجملة لما بلغ كذبهم مبلغا وهم أنهم كذبوا على الله تعالى كان في غاية الشر والفساد، فلهذا قال: بئس مثل القوم والمراد بالآيات هاهنا الآيات الدالة على صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، وهو قول ابن عباس ومقاتل، وقيل: الآيات التوراة لأنهم كذبوا بها حين تركوا الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم، وهذا أشبه هنا والله لا يهدي القوم الظالمين قال عطاء: يريد الذين ظلموا أنفسهم بتكذيب الأنبياء وهاهنا مباحث:

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٣/٦٣٠

البحث الأول: ما الحكمة في تعيين الحمار من بين سائر الحيوانات؟ نقول: لوجوه منها: أنه تعالى خلق الخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة والزينة في الخيل أكثر وأظهر، بالنسبة/ إلى الركوب، وحمل الشيء عليه، وفي البغال دون، وفي الحمار دون البغال، فالبغال كالمتوسط في المعاني الثلاثة، وحينئذ يلزم أن يكون الحمار في معنى الحمل أظهر وأغلب بالنسبة إلى الخيل والبغال، وغيرهما من الحيوانات، ومنها: أن هذا التمثل لإظهار الجهل والبلادة، وذلك في الحمار أظهر، ومنها: أن في الحمار من الذل والحقارة مالا يكون في الغير، والغرض من الكلام في هذا المقام تعيير القوم بذلك وتحقيرهم، فيكون تعيين الحمار أليق وأولى، ومنها أن حمل الأسفار على الحمار أتم وأعم وأسهل وأسلم، لكونه ذلولا، سلس القياد، لين الانقياد، يتصرف فيه الصبي الغبي من غير كلفة ومشقة. وهذا من جملة ما يوجب حسن الذكر بالنسبة إلى غيره ومنها: أن رعاية الألفاظ والمناسبة بينها من اللوازم في الكلام، وبين لفظي الأسفار والحمار مناسبة لفظية لا توجد في الغير من الحيوانات فيكون ذكره أولى.

الثاني: يحمل ما محله؟ نقول: النصب على الحال، أو الجر على الوصف كما قال في «الكشاف» إذ الحمار كاللئيم في قوله:

ولقد أمر على اللئيم يسبني ... [فمررت ثمة قلت لا يعنيني]

الثالث: قال تعالى: بئس مثل القوم كيف وصف المثل بهذا الوصف؟ نقول: الوصف وإن كان في الظاهر للمثل فهو راجع إلى القوم، فكأنه قال: بئس القوم قوما مثلهم هكذا.

ثم إنه تعالى أمر النبي صلى الله عليه وسلم بهذا الخطاب لهم وهو قوله تعالى:

[سورة الجمعة (٦٢) : الآيات ٦ الى ٧]

قل يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين (٦) ولا يتمنونه أبدا بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين (٧)

هذه الآية من جملة ما مر بيانه، وقرئ: فتمنوا الموت بكسر الواو، وهادوا أي تهودوا، وكانوا يقولون نحن أبناء الله وأحباؤه، فلو كان قولكم حقا وأنتم على ثقة فتمنوا على الله أن يميتكم وينقلكم سريعا إلى." (١)

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٣٠/٥٤٠

"وغير ذلك من الأمور الحسنة، والظاهر هو الأول، وعن عراك بن مالك أنه كان إذا صلى الجمعة انصرف فوقف على باب المسجد [و] قال: اللهم أجبت دعوتك، وصليت فرضيتك، وانتشرت كما أمرتني، فارزقني من فضلك وأنت خير الرازقين، وقوله تعالى: واذكروا الله كثيرا قال مقاتل: باللسان، وقال سعيد بن جبير:

بالطاعة وقال مجاهد: لا يكون من الذاكرين كثيرا حتى يذكره قائما وقاعدا ومضطجعا، والمعنى إذا رجعتم إلى التجارة وانصرفتم إلى البيع والشراء مرة أخرى فاذكروا الله كثيرا، قال تعالى: رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله.

وعن عمر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم: «إذا أتيتم السوق فقولوا لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير، فإن من قالها كتب الله له ألف ألف حسنة وحط عنه ألف ألف خطيئة ورفع له ألف ألف درجة»

وقوله تعالى: لعلكم تفلحون من جملة ما قد مر مرارا، وفي الآية مباحث:

البحث الأول: ما **الحكمة في** أن شرع الله تعالى في يوم الجمعة هذا التكليف؟ فنقول: قال القفال: هي أن الله عز وجل خلق الخلق فأخرجهم من العدم إلى الوجود وجعل منهم جمادا وناميا وحيوانا، فكان ما سوى الجماد أصنافا، منها بهائم وملائكة وجن وإنس، ثم هي مختلفة المساكن من العلو والسفل فكان أشرف العالم السفلي هم الناس لعجيب تركيبهم، ولما كرمهم الله تعالى به من النطق، وركب فيهم من العقول والطباع التي بها غاية التعبد بالشرائع، ولم يخف موضع عظم المنة وجلالة قدر الموهبة لهم فأمروا بالشكر على هذه الكرامة في يوم من الأيام السبعة التي فيها أنشئت الخلائق وتم وجودها، ليكون في اجتماعهم في ذلك اليوم تنبيه على عظم ما أنعم الله تعالى به عليهم، وإذا كان شأنهم لم يخل من حين ابتدئوا من نعمة تتخللهم، وإن منة الله مثبتة عليهم/ قبل استحقاقهم لها، ولكل أهل ملة من الملل المعروفة يوم منها معظم، فلليهود يوم السبت وللنصارى يوم الأحد، وللمسلمين يوم الجمعة،

روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «يوم الجمعة هذا اليوم الذي اختلفوا فيه فهدانا الله له فلليهود غدا وللنصارى بعد غد»

ولما جعل يوم الجمعة يوم شكر وإظهار سرور وتعظيم نعمة احتيج فيه إلى الاجتماع الذي به تقع شهرته فجمعت الجماعات له كالسنة في الأعياد، واحتيج فيه إلى الخطبة تذكيرا بالنعمة وحثا على استدامتها

بإقامة ما يعود بآلاء الشكر، ولما كان مدار التعظيم، إنما هو على الصلاة جعلت الصلاة لهذا اليوم وسط النهار ليتم الاجتماع ولم تجز هذه الصلاة إلا في مسجد واحد ليكون أدعى إلى الاجتماع والله أعلم.

الثاني: كيف خص ذكر الله بالخطبة، وفيها ذكر الله وغير الله؟ نقول: المراد من ذكر الله الخطبة والصلاة لأن كل واحدة منهما مشتملة على ذكر الله، وأما ما عدا ذلك من ذكر الظلمة والثناء عليهم والدعاء لهم فذلك ذكر الشيطان.

الثالث: قوله: وذروا البيع لم خص البيع من جميع الأفعال؟ نقول: لأنه من أهم ما يشتغل به المرء في النهار من أسباب المعاش، وفيه إشارة إلى ترك التجارة، ولأن البيع والشراء في الأسواق غالبا، والغفلة على أهل السوق أغلب، فقوله: وذروا البيع تنبيه للغافلين، فالبيع أولى بالذكر ولم يحرم لعينه، ولكن لما فيه من الذهول عن الواجب فهو كالصلاة في الأرض المغصوبة.

الرابع: ما الفرق بين ذكر الله أولا وذكر الله ثانيا؟ فنقول: الأول من جملة مالا يجتمع مع التجارة أصلا إذ." (١)

"من قومه فقال: أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، يعني بالأعز نفسه وبالأذل رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم أقبل على قومه فقال: لو أمسكتم النفقة عن هؤلاء يعني المهاجرين لأوشكوا أن يتحولوا عن دياركم وبلادكم فلا تنفقوا عليهم حتى ينفضوا من حول محمد فنزلت، وقرئ: ليخرجن بفتح الياء، وقرأ الحسن وابن أبي عيلة: لنخرجن بالنون ونصب الأعز والأذل، وقوله تعالى: ولله خزائن السماوات والأرض قال مقاتل: يعني مفاتيح الرزق والمطر والنبات، والمعنى أن الله هو الرازق: قل من يرزقكم من السماء والأرض [يونس: ٣١] وقال أهل المعاني: خزائن الله تعالى مقدوراته لأن فيها كل ما يشاء مما يريد إخراجه، وقال الجنيد: خزائن الله تعالى في السموات الغيوب وفي الأرض القلوب وهو علام الغيوب ومقلب القلوب، وقوله تعالى: ولكن المنافقين لا يفقهون أي لا يفقهون أن: أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون [يس: ٨٢] وقوله يقولون: لئن رجعنا أي من تلك الغزوة وهي غزوة بني المصطلق إلى المدينة فرد الله تعالى عليه وقال: ولله العزة أي الغلبة والقوة ولمن أعزه الله وأيده من رسوله ومن المؤمنين وعزهم بنصرته إياهم وإظهار دينهم على سائر الأديان وأعلم رسوله بذلك ولكن المنافقين لا يعلمون ذلك ولو علموه ما قالوا:

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٥٤٣/٣٠

مقالتهم هذه، قال صاحب «الكشاف» : ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين وهم الأخصاء بذلك كما أن المذلة والهوان للشيطان وذويه من الكافرين والمنافقين، وعن بعض الصالحات وكانت في هيئة رثة ألست على الإسلام وهو العز الذي لا ذل معه، والغنى الذي لا فقر معه،

وعن الحسن بن علي رضي الله عنهما أن رجلا قال له: إن الناس يزعمون أن فيك تيها قال: ليس بتيه ولكنه عزة فإن هذا العز الذي لا ذل معه والغنى الذي لا فقر معه، وتلا هذه الآية

قال بعض العارفين في تحقيق هذا المعنى: العزة غير الكبر ولا يحل للمؤمن أن يذل نفسه، فالعزة معرفة الإنسان بحقيقة نفسه وإكرامها عن أن يضعها لأقسام عاجلة دنيوية كما أن الكبر جهل الإنسان بنفسه وإنزالها فوق منزلها فالعزة تشبه الكبر من حيث الصورة، وتختلف من حيث الحقيقة كاشتباه التواضع بالضعة والتواضع محمود، والضعة مذمومة، والكبر مذموم، والعزة محمودة، ولما كانت غير مذمومة وفيها مشاكلة للكبر، قال تعالى: بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق وفيه إشارة/ خفية لإثبات العزة بالحق، والوقوف على حد التواضع من غير انحراف إلى الضعة وقوف على صراط العزة المنصوب على متن نار الكبر، فإن قيل:

قال في الآية الأولى: لا يفقهون وفي الأخرى لا يعلمون فما **الحكمة فيه**؟ فنقول: ليعلم بالأول قلة كياستهم وفهمهم، وبالثاني كثرة حماقتهم وجهلهم، ولا يفقهون من فقه يفقه، كعلم يعلم، ومن فقه يفقه: كعظم يعظم، والأول لحصول الفقه بالتكلف والثاني لا بالتكلف، فالأول علاجي، والثاني مزاجي، ثم قال تعالى:

[سورة المنافقون (٦٣) : الآيات ٩ الى ١١]

يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون (٩) وأنفقوا من ما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين (١٠) ولن يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلها والله خبير بما تعملون (١١)

لا تلهكم لا تشغلكم كما شغلت المنافقين، وقد اختلف المفسرون منهم من قال: نزلت في حق." (١)

"بسم الله الرحمن الرحيم

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٥٤٩/٣٠

سورة التغابن

(ثمان عشرة آية مكية)

[سورة التغابن (٦٤) : آية ١]

بسم الله الرحمن الرحيم

يسبح لله ما في السماوات وما في الأرض له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير (١)

وجه التعلق بما قبلها ظاهر لما أن تلك السورة للمنافقين الكاذبين وهذه السورة للمنافقين الصادقين، وأيضا تلك السورة مشتملة على بطالة أهل النفاق سرا وعلانية، وهذه السورة على ما هو التهديد البالغ لهم، وهو قوله تعالى: يعلم ما في السماوات والأرض ويعلم ما تسرون وما تعلنون والله عليم بذات الصدور وأما الأول بالآخر فلأن في آخر تلك السورة التنبيه على الذكر والشكر كما مر، وفي أول هذه إشارة إلى أنهم إن أعرضوا عن الذكر والشكر، قلنا: من الخلق قوم يواظبون على الذكر والشكر دائما، وهم الذين يسبحون، كما قال تعالى: يسبح لله ما في السماوات وما في الأرض، وقوله تعالى: له الملك وله الحمد معناه إذا سبح لله ما في السموات وما في الأرض فله الملك وله الحمد، ولما كان له الملك فهو متصرف في ملكه والتصرف مفتقر إلى القدرة فقال: وهو على كل شيء قدير وقال في «الكشاف» : قدم الظرفان ليدل بتقديمهما على معنى اختصاص الملك والحمد بالله تعالى وذلك لأن الملك في الحقيقة له لأنه مبدئ لكل شيء ومبدعه والقائم به والمهيمن عليه، وكذلك الحمد فإن أصول النعم وفروعها منه، وأما ملك غيره فتسليط منه واسترعاء، وحمده اعتداد بأن نعمة الله جرت على يده، وقوله تعالى: وهو على كل شيء قدير قيل: معناه وهو على كل شيء أراده قدير، وقيل: قدير يفعل ما يشاء بقدر ما يشاء لا يزيد عليه ولا ينقص. وقد مر ذلك، وفي الآية مباحث:

الأول: أنه تعالى قال في الحديد: سبح [الحديد: ١] والحشر والصف كذلك، وفي الجمعة والتغابن يسبح لله فما الحكمة فيه؟ نقول: الجواب عنه قد تقدم.

البحث الثاني: قال في موضع: سبح لله ما في السماوات وما في الأرض [الحشر: ١] وفي موضع/ آخر سبح لله ما في السماوات والأرض [الحديد: ١] فما الحكمة فيه؟ قلنا: الحكمة لا بد منها، ولا نعلمها كما هي، لكن نقول: ما يخطر بالبال، وهو أن مجموع السموات والأرض شيء واحد، وهو عالم مؤلف من الأجسام الفلكية والعنصرية، ثم الأرض من هذا المجموع شيء والباقي منه شيء آخر، فقوله تعالى:

يسبح لله ما في السماوات وما في الأرض بالنسبة إلى هذا الجزء من المجموع وبالنسبة إلى ذلك الجزء منه كذلك، وإذا كان كذلك فلا يبعد أن يقال، قال تعالى في بعض السور كذا وفي البعض هذا ليعلم أن هذا العالم الجسماني من وجه شيء واحد، ومن وجه شيئان بل أشياء كثيرة، والخلق في المجموع غير ما في هذا الجزء، وغير ما في." (١)

"الثاني: بم انتصب الظرف؟ نقول: قال الزجاج: بقوله: لتبعثن وفي «الكشاف» : بقوله: لتنبؤن أو بخبير لما فيه من معنى الوعيد. كأنه قيل: والله معاقبكم يوم يجمعكم أو بإضمار اذكر.

الثالث: قال تعالى في الإيمان: ومن يؤمن بالله بلفظ المستقبل، وفي الكفر وقال: والذين كفروا بلفظ الماضي، فنقول: تقدير الكلام: ومن يؤمن بالله من الذين كفروا وكذبوا بآياتنا يدخله جنات ومن لم يؤمن منهم أولئك أصحاب النار.

الرابع: قال تعالى: ومن يؤمن بلفظ الواحد وخالدين فيها بلفظ الجمع، نقول: ذلك بحسب اللفظ، وهذا بحسب المعنى.

الخامس: ما الحكمة في قوله: وبئس المصير بعد قوله: خالدين فيها وذلك بئس المصير فنقول: ذلك وإن كان في معناه فلا يدل عليه بطريق التصريح فالتصريح مما يؤكده ثم قال تعالى:

[سورة التغابن (٦٤) : الآيات ١١ الى ١٣]

ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله ومن يؤمن بالله يهد قلبه والله بكل شيء عليم (١١) وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن توليتم فإنما على رسولنا البلاغ المبين (١٢) الله لا إله إلا هو وعلى الله فليتوكل المؤمنون (١٣)

قوله تعالى: إلا بإذن الله أي بأمر الله قاله الحسن، وقيل: بتقدير الله وقضائه، وقيل: بإرادة/ الله تعالى ومشيئته، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: بعلمه وقضائه وقوله تعالى: يهد قلبه أي عند المصيبة أو عند الموت. أو المرض أو الفقر أو القحط، ونحو ذلك فيعلم أنها من الله تعالى فيسلم لقضاء الله تعالى ويسترجع، فذلك قوله: يهد قلبه أي للتسليم لأمر الله، ونظيره قوله: الذين إذا أصابتهم مصيبة إلى قوله: أولئك هم المهتدون [البقرة: ١٥٦، ١٥٧] ، قال أهل المعاني: يهد قلبه للشكر عند الرخاء والصبر عند

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٥٥١/٣٠

البلاء، وهو معنى قول ابن عباس رضي الله عنهما يهد قلبه إلى ما يحب ويرضى وقرئ نهد قلبه بالنون وعن عكرمة يهد قلبه بفتح الدال وضم الياء، وقرئ يهدأ قال الزجاج: هدأ قلبه يهدأ إذا سكن، والقلب بالرفع والنصب ووجه النصب أن يكون مثل سفه نفسه [البقرة: ١٣٠] . والله بكل شيء عليم يحتمل أن يكون إشارة إلى اطمئنان القلب عند المصيبة، وقيل: عليم بتصديق من صدق رسوله فمن صدقه فقد هدى قلبه:

وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول فيما جاء به من عند الله يعني هونوا المصائب والنوازل واتبعوا الأوامر الصادرة من الله تعالى ومن الرسول فيما دعاكم إليه.

وقوله: فإن توليتم أي عن إجابة الرسول فيما دعاكم إليه فإنما على رسولنا البلاغ المبين «١» الظاهر والبيان البائن، وقوله: الله لا إله إلا هو يحتمل أن يكون هذا من جملة ما تقدم من الأوصاف الحميدة لحضرة الله تعالى من قوله: له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير [التغابن: ١] فإن من كان موصوفا بهذه الصفات ونحوها: فهو الذي لا إله إلا هو أي لا معبود إلا هو ولا مقصود إلا هو عليه التوكل في كل

---

(١) في تفسير الرازي المطبوع فما على الرسول إلا البلاغ وهو خطأ حسب الآية (١٢) السابقة.." (١)

"غير جماع، وهذا قول مجاهد وعكرمة ومقاتل والحسن، قالوا: أمر الله تعالى الزوج بتطليق امرأته إذا شاء الطلاق في طهر لم يجامعها فيه، وهو قوله تعالى: لعدتهن أي لزمان عدتهن، وهو الطهر بإجماع الأمة، وقيل: لإظهار عدتهن وجماعة من المفسرين قالوا: الطلاق للعدة أن يطلقها طاهرة من غير جماع، وبالجملة، فالطلاق في حال الطهر لازم، وإلا لا يكون الطلاق سنيا، والطلاق في السنة إنما يتصور في البالغة المدخول بها غير الآيسة والحامل، إذ لا سنة في الصغير وغير المدخول بها، والآيسة والحامل، ولا بدعة أيضا لعدم العدة بالأقراء، وليس في عدد الطلاق سنة وبدعة، على مذهب الشافعي حتى لو طلقها ثلاثا في طهر صحيح لم يكن هذا بدعيا بخلاف ما ذهب إليه أهل العراق، فإنهم قالوا: السنة في عدد الطلاق أن يطلق كل طلقة في طهر صحيح. وقال صاحب «النظم» : فطلقوهن لعدتهن صفة للطلاق كيف يكون، وهذه اللام تجيء لمعان مختلفة للإضافة وهي أصلها، ولبيان السبب والعلة كقوله تعالى: إنما

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٥٥٥/٣٠

نطعمكم لوجه الله [الإنسان: ٩] وبمنزلة عند مثل قوله: أقم الصلاة لدلوك الشمس [الإسراء: ٧٨] أي عنده، وبمنزلة في مثل قوله تعالى:

هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر [الحشر: ٢] وفي هذه الآية بهذا المعنى، لأن المعنى فطلقوهن في عدتهن، أي في الزمان الذي يصلح لعدتهن فقال صاحب «الكشاف» :

فطلقوهن مستقبلات لعدتهن كقوله: أتيته لليلة بقيت من المحرم أي مستقبلا لها،

وفي قراءة النبي صلى الله عليه وسلم: (من قبل عدتهن)

فإذا طلقت المرأة في الطهر المتقدم للقرء الأول من أقرائها فقد طلقت مستقبلة العدة، المراد أن يطلقن في طهر لم يجامعن فيه، يخلين إلى أن تنقضي عدتهن، وهذا أحسن الطلاق وأدخله في السنة وأبعده من الندم ويدل عليه ما روي عن إبراهيم النخعي أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يستحبون «١» أن لا يطلقوا أزواجهم للسنة إلا واحدة ثم لا يطلقوا غير ذلك حتى تنقضي العدة وكان أحسن «٢» عندهم من أن يطلق الرجل ثلاث تطليقات، وقال مالك بن أنس: لا أعرف طلاقا إلا واحدة، وكان يكره الثلاث مجموعة كانت أو متفرقة، وأما أبو حنيفة وأصحابه فإنما كرهوا ما زاد على الواحدة في طهر واحد، وروي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لابن عمر حين طلق امرأته وهي حائض: ما هكذا أمرك الله تعالى إنما السنة أن تستقبل الطهر استقبالا وتطلقها لكل قرء تطليقة

وعند الشافعي لا بأس بإرسال الثلاث، وقال: لا أعرف في عدد الطلاق سنة ولا بدعة وهو مباح فمالك يراعي في طلاق السنة الواحدة والوقت، وأبو حنيفة يراعي التفريق والوقت، والشافعي يراعي الوقت وحده، وقوله تعالى: وأحصوا العدة أي أقراءها فاحتفظوا لها واحفظوا الحقوق والأحكام التي تجب في العدة واحفظوا نفس ما تعتدون به وهو عدد الحيض، ثم جعل الإحصاء إلى الأزواج يحتمل وجهين أحدهما: أنهم هم الذين يلزمهم الحقوق والمؤمن وثانيهما: ليقع/ تحصن الأولاد في العدة، ثم في الآية مباحث:

الأول: ما الحكمة في إطلاق السنة وإطلاق البدعة؟ نقول: إنما سمي بدعة لأنها إذا كانت حائضا لم تعتد بأيام حيضها عن عدتها بل تزيد على ثلاثة أقراء فتطول العدة عليها حتى تصير كأنها أربعة أقراء وهي في الحيض الذي طلقت فيه في صورة المعلقة التي لا هي معتدة ولا ذات بعل والعقول تستقبح الإضرار، وإذا كانت طاهرة مجامعة لم يؤمن أن قد علقت من ذلك الجمع بولد ولو علم الزوج لم يطلقها، وذلك

أن الرجل قد يرغب في

---

(١) في مطبوع التفسير الكبير للرازي (يستحيون) والمثبت من الكشاف للزمخشري (٤/ ١١٨. ط. دار الفكر) .

(٢) في مطبوع التفسير الكبير للرازي (وما كان أخس) والمثبت من المرجع السابق.." (١)

"دفعا للحرج، وفي القراءة الكثيرة حرج فلا يمكن اعتبارها. وهاهنا بحث آخر وهو ما روي عن ابن عباس أنه قال: سقط عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قيام الليل وصارت تطوعا وبقي ذلك فرضا على رسول الله صلى الله عليه وسلم.

[في قوله تعالى علم أن سيكون منكم مرضى إلى قوله وآتوا الزكاة] ثم إنه تعالى ذكر **الحكمة في** هذا النسخ فقال تعالى: علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله فاقرؤا ما تيسر منه وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة.

واعلم أن تقدير هذه الآية كأنه قيل: لم نسخ الله ذلك؟ فقال: لأنه علم كذا وكذا والمعنى لتعذر القيام على المرضى والضاربين في الأرض للتجارة والمجاهدين في سبيل الله، أما المرضى فإنهم لا يمكنهم الاشتغال بالتهجد لمرضهم، وأما المسافرون والمجاهدون فهم مشتغلون في النهار بالأعمال الشاقة، فلو لم يناموا في الليل لتوالت أسباب المشقة عليهم، وهذا السبب ما كان موجودا في حق النبي صلى الله عليه وسلم، كما قال تعالى: إن لك في النهار سبحا طويلا [المزمل: ٧] فلا جرم ما صار وجوب التهجد منسوخا في حقه. ومن لطائف هذه الآية أنه تعالى سوى بين المجاهدين والمسافرين للكسب الحلال وعن ابن مسعود: «أيما رجل جلب شيئا إلى مدينة من مدائن المسلمين صابرا محتسبا فباعه بسعر يومه كان عند الله من الشهداء» ثم أعاد مرة أخرى قوله: فاقرؤا ما تيسر منه وذلك للتأكيد ثم قال: وأقيموا الصلاة يعني المفروضة وآتوا الزكاة أي الواجبة وقيل: زكاة الفطر لأنه لم يكن بمكة زكاة وإنما وجبت بعد ذلك ومن فسرها بالزكاة الواجبة جعل آخر السورة مدنيا.

قوله تعالى: وأقرضوا الله قرضا حسنا فيه ثلاثة أوجه أحدها: أنه يريد سائر الصدقات وثانيها: يريد أداء الزكاة على أحسن وجه، وهو إخراجها من أطيب الأموال وأكثرها نفعا للفقراء ومراعاة النية وابتغاء وجه الله والصرف

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٥٥٩/٣٠

إلى المستحق وثالثها: يريد كل شيء يفعل من الخير مما يتعلق بالنفس والمال.

[قوله تعالى وما تقدموا لأنفسكم إلى قوله إن الله غفور رحيم] ثم ذكر تعالى الحكمة في إعطاء المال فقال: وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا واستغفروا الله إن الله غفور رحيم وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: قال ابن عباس: تجدوه عند الله خيرا وأعظم أجرا من الذي تؤخره إلى وصيتك عند الموت، وقال الزجاج: وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا لكم من متاع الدنيا، والقول ما قاله ابن عباس.

المسألة الثانية: معنى الآية: وما تقدموا لأنفسكم من خير فإنكم تجدوه عند الله خيرا وأعظم أجرا إلا أنه قال: هو خيرا للتأكيد والمبالغة، وقرأ أبو السمال هو خير وأعظم أجرا بالرفع على الابتداء والخبر، ثم قال: واستغفروا الله لذنوبكم والتقصيرات الصادرة منكم خاصة في قيام الليل إن الله غفور لذنوب المؤمنين رحيم بهم، وفي الغفور قولان: أحدهما: أنه غفور لجميع الذنوب، وهو قول مقاتل والثاني: أنه غفور لمن يصر على الذنب، احتج مقاتل على قوله بوجهين الأول: أن قوله: غفور رحيم يتناول التائب والمصر، بدليل أنه يصح استثناء كل واحد منهما وحده عنه وحكم الاستثناء إخراج ما لولاه لدخل والثاني: أن غفران التائب واجب عند الخصم ولا يحصل المدح بأداء الواجب، والغرض من الآية تقرير المدح فوجب حمله على الكل تحقيقا للمدح، والله سبحانه وتعالى أعلم، والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين محمد النبي وآله وصحبه أجمعين.." (١)

"على تحسين الخلق وتطهير النفس عن المعاصي والقبائح.

المسألة الثانية: احتج من جوز المعاصي على الأنبياء بهذه الآية، قال لولا أنه كان مشتغلا بها وإلا لما زجر عنها بقوله: والرجز فاهجر والجواب المراد منه الأمر بالمداومة على ذلك الهجران، كما أن المسلم إذا قال: اهدنا فليس معناه أنا لسنا على الهداية فاهدنا، بل المراد ثبتنا على هذه الهداية، فكذا هاهنا.

المسألة الثالثة: قرأ عاصم في رواية حفص والرجز بضم الراء في هذه السورة وفي سائر القرآن بكسر الراء، وقرأ الباقون وعاصم في رواية أبي بكر بالكسر وقرأ يعقوب بالضم، ثم قال الفراء: هما لغتان والمعنى واحد، وفي كتاب الخليل الرجز بضم الراء عبادة الأوثان وبكسر الراء العذاب، ووسواس الشيطان أيضا رجز،

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٦٩٥/٣٠

وقال أبو عبيدة: أفشى اللغتين وأكثرهما الكسر.

[سورة المدثر (٧٤) : آية ٦]

ولا تمنن تستكثر (٦)

فيه مسائل:

المسألة الأولى: القراءة المشهورة تستكثر برفع الراء وفيه ثلاثة أوجه أحدها: أن/ يكون التقدير ولا تمنن لتستكثر فتنزع اللام فيرتفع وثانيها: أن يكون التقدير لا تمنن أن تستكثر ثم تحذف أن الناصبة فتسلم الكلمة من الناصب والجازم فترتفع ويكون مجاز الكلام لا تعط لأن تستكثر وثالثها: أنه حال متوقعة أي لا تمنن مقدرا أن تستكثر قال أبو علي الفارسي: هو مثل قولك مررت برجل معه صقر صائدا به غدا أي مقدرا للصيد فكذا هاهنا المعنى مقدرا الاستكثار، قال: ويجوز أن يحكى به حالا آتيه، إذا عرفت هذا فنقول، ذكروا في تفسير الآية وجوها أحدها: أنه تعالى أمره قبل هذه الآية، بأربعة أشياء: إنذار القوم، وتكبير الرب، وتطهير الثياب، وهجر الرجز، ثم قال: ولا تمنن تستكثر أي لا تمنن على ربك بهذه الأعمال الشاقة، كالمستكثر لما تفعله، بل اصبر على ذلك كله لوجه ربك متقربا بذلك إليه غير ممتن به عليه. قال الحسن، لا تمنن على ربك بحسناتك فتستكثرها وثانيها: لا تمنن على الناس بما تعلمهم من أمر الدين، والوحي كالمستكثر لذلك الإنعام، فإنك إنما فعلت ذلك بأمر الله، فلا منة لك عليهم، ولهذا قال: ولربك فاصبر [المدثر: ٧] ، وثالثها: لا تمنن عليهم بنبوتك لتستكثر، أي لتأخذ منهم على ذلك أجرا تستكثر به مالك ورابعها: لا تمنن أي لا تضعف من قولهم:

حبل منين أي ضعيف، يقال: منه السير أي أضعفه. والتقدير فلا تضعف أن تستكثر من هذه الطاعات الأربعة التي أمرت بها قبل هذه الآية، ومن ذهب إلى هذا قال: هو مثل قوله: أفغير الله تأمروني أعبد [الزمر: ٦٤] أي أن أعبد فحذفت أن وذكر الفراء أن في قراءة عبد الله (ولا تمتن تستكثر) وهذا يشهد لهذا التأويل، وهذا القول اختيار مجاهد وخامسها: وهو قول أكثر المفسرين أن معنى قوله: ولا تمنن أي لا تعط يقال: مننت فلانا كذا أي أعطيته، قال: هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك [ص: ٣٩] أي فأعط، أو أمسك وأصله أن من أعطى فقد من، فسميت العطية بالمن على سبيل الاستعارة، فالمعنى ولا تعط مالك لأجل أن تأخذ أكثر منه، وعلى هذا التأويل سؤالات:

السؤال الأول: ما الحكمة في أن الله تعالى منعه من هذا العمل؟ الجواب: الحكمة فيه من وجوه الأول:

لأجل أن تكون عطاياه لأجل الله لا لأجل طلب الدنيا، فإنه نهي عن طلب الدنيا في قوله: ولا تمدن عينيك." (١)

"أن للعالم صانعا قادرا عالما غنيا فوجب أن يكون في غاية الحكمة، ثم إنا نرى الناس بعضهم محتاجا إلى البعض، فإن الإنسان الواحد لا يمكنه القيام بمهمات نفسه، بل لا بد من بلدة يكون كل واحد من أهلها مشغولا بمهم آخر «١» حتى يتنظم من مجموعهم مصلحة كل واحد منهم، وذلك الانتظام لا يحسن إلا مع التكليف المشتمل على الوعد والوعيد، ذلك لا يحصل إلا بالبعث والقيامة وخلق الجنة والنار فثبت أن إقامة الدلالة على الصانع الحكيم توجب القول بصحة البعث والقيامة فلهذا السبب ذكر الله دلالة التوحيد في آخر هذه السورة، فإن قيل: فأي مجانسة بين الإبل والسماء والجبال والأرض، ثم لم بدأ بذكر الإبل؟ قلنا فيه وجهان: الأول: أن جميع المخلوقات متساوية في هذه الدلالة وذكر جميعها غير ممكن لكثرتها وأي واحد منها ذكر دون غيره كان هذا السؤال عائدا، فوجب الحكم بسقوط هذا السؤال على جميع التقادير، وأيضا فلعل **الحكمة في** ذكر هذه الأشياء التي هي غير متناسبة التنبيه على أن هذا الوجه من الاستدلال غير مختص بنوع دون نوع بل هو عام في الكل على ما قال: وإن من شيء إلا يسبح بحمده [الإسراء: ٤٤] ولو ذكر غيرها لم يكن الأمر كذلك لا جرم ذكر الله تعالى أمورا غير متناسبة بل متباعدة جدا، تنبيها على أن جميع الأجسام العلوية والسفلية صغيرها وكبيرها حسنها وقبيحها متساوية في الدلالة على الصانع الحكيم، فهذا وجه حسن معقول وعليه الاعتماد الوجه الثاني: وهو أن نبين ما في كل واحد من هذه الأشياء من المنافع والخواص الدالة على الحاجة إلى الصانع المدبر، ثم نبين أنه كيف يجانس بعضها بعضا.

أما المقام الأول: فنقول الإبل له خواص منها أنه تعالى جعل الحيوان الذي يقتنى أصنافا شتى فتارة يقتنى ليؤكل لحمه وتارة ليشرب لبنه وتارة ليحمل الإنسان في الأسفار وتارة/ لينقل أمتعة الإنسان من بلد إلى بلد وتارة ليكون له به زينة وجمال وهذه المنافع بأسرها حاصلة في الإبل، وقد أبان الله عز وجل عن ذلك بقوله:

أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما فهم لها مالكون وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون [يس: ٧١، ٧٢] ، قال: والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون، ولكم فيها جمال حين

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٧٠٠/٣٠

تريحون وحين تسرحون وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس [النحل: ٥- ٧] وإن شيئا من سائر الحيوانات لا يجتمع فيه هذه الخصال فكان اجتماع هذه الخصال فيه من العجائب وثانيها: أنه في كل واحد من هذه الخصال أفضل من الحيوان الذي لا يوجد فيه إلا تلك الخصلة لأنها إن جعلت حلوبة سقت فأروت الكثير، وإن جعلت أكولة أطعمت وأشبعت الكثير، وإن جعلت ركوبة أمكن أن يقطع بها من المسافات المديدة ما لا يمكن قطعه بحيوان آخر، وذلك لما ركب فيها من قوة احتمال المداومة على السير والصبر على العطش والاجتزاء من العلوفات بما لا يجتزئ حيوان آخر، وإن جعلت حملة استغلت بحمل الأحمال الثقيلة التي لا يستقل بها سواها، ومنها أن هذا الحيوان كان أعظم الحيوانات وقعا في قلب العرب ولذلك فإنهم جعلوا دية قتل الإنسان إبلا، وكان الواحد من ملوكهم إذا أراد المبالغة في إعطاء الشاعر الذي جاءه من المكان البعيد أعطاه مائة بعير، لأن امتلاء العين منه أشد من امتلاء العين من غيره، ولهذا قال تعالى: ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون

[النحل: ٦] ومنها أني كنت مع جماعة في مفازة فضللنا الطريق فقدموا جملا وتبعوه فكان

---

(١) هكذا في الأصل، ولعله سقط شيء وصوابه: بل لا بد في كل بلدة أن يكون كل واحد من أهلها مشغولا بمهم وغيره مشغولا بمهم آخر.." (١)

"وللشهوة فيها نصيب معا، ومنها ما يكون للحكمة فيها نصيب، وليس للشهوة فيها نصيب.

والقسم الأول: كالإنسان الحسن الوجه، والبساتين النزهة، والذهب والفضة وغيرها، فهذه الأشياء يمكن الاستدلال بها على الصانع الحكيم، إلا أنها متعلق الشهوة ومطلوبة للنفس، فلم يأمر تعالى بالنظر فيها، لأنه لم يؤمن عند النظر إليها وفيها أن تصير داعية الشهوة غالبة على داعية الحكمة فيصير ذلك مانعا عن إتمام النظر والفكر وسببا لاستغراق النفس في محبته.

أما القسم الثاني: فهو كالحيوانات التي لا يكون في صورتها حسن، ولكن يكون داعية تركيبها حكم باللغة وهي مثل الإبل وغيرها، إلا أن ذكر الإبل هاهنا أولى لأن إلف العرب بها أكثر وكذا السماء والجبال والأرض، فإن دلائل الحدوث والحاجة فيها ظاهرة، وليس فيها ما يكون نصيبا للشهوة، فلما كان هذا القسم بحيث يكمل نصيب الحكمة فيه مع الأمن من زحمة الشهوة لا جرم أمر الله بالتدبر فيها فهذا ما يحضرنا

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ١٤٤/٣١

في هذا الموضع وبالله التوفيق.

[سورة الغاشية (٨٨) : آية ٢١]

فذكر إنما أنت مذكر (٢١)

اعلم أنه تعالى لما بين الدلائل على صحة التوحيد والمعاد، قال لرسوله صلى الله عليه وسلم: فذكر إنما أنت مذكر وتذكير الرسول إنما يكون بذكر هذه الأدلة وأمثالها والبعث على النظر فيها والتحذير من ترك تلك، وذلك بعث منه تعالى للرسول على التذكير والصبر على كل عارض معه، وبيان أنه إنما بعث لذلك دون غيره، فلهذا قال:

إنما أنت مذكر.

[سورة الغاشية (٨٨) : آية ٢٢]

لست عليهم بمصيطر (٢٢)

قال صاحب «الكشاف» : بمصيطر بمسلط، كقوله: وما أنت عليهم بجبار [ق: ٤٥] وقوله: أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين [يونس: ٩٩] وقيل: هو في لغة تميم مفتوح الطاء على أن سيطر متعد عندهم، والمعنى أنك ما أمرت إلا بالتذكير، فإما أن تكون مسلطا عليهم حتى تقتلهم، أو تكرههم على الإيمان فلا، قالوا: ثم نسختها آية القتال، هذا قول جميع المفسرين، والكلام في تفسير هذا الحرف قد تقدم عند قوله: أم هم المصيطرون [الطور: ٣٧] . أما قوله تعالى:

[سورة الغاشية (٨٨) : الآيات ٢٣ الى ٢٤]

إلا من تولى وكفر (٢٣) فيعذبه الله العذاب الأكبر (٢٤)

ففيه مسائل.

المسألة الأولى: في الآية قولان: أحدهما: أنه استثناء حقيقي، وعلى هذا التقدير هذا الاستثناء، استثناء عما ذا؟ فيه احتمالان الأول: أن يقال التقدير: فذكر إلا من تولى وكفر والثاني: أنه استثناء عن الضمير في عليهم [الغاشية: ٢٢] والتقدير: لست عليهم بمسيطر إلا من تولى. واعترض عليه بأنه عليه السلام ما كان حينئذ مأمورا بالقتال وجوابه: لعل المراد أنك لا تصبر مسلطا إلا على من تولى القول الثاني: أنه استثناء

منقطع عما قبله، كما تقول في الكلام: قعدنا نتذكر العلم، إلا أن كثيرا من الناس لا يرغب، فكذا هاهنا التقدير لست." (١)

"جميع الوجوه فلا يستقيم على قوله شيء من هذه الوجوه، بل يلزمه القطع بأن وجدان الدنيا هو السعادة وفقدانها هو الشقاوة، ولكن فيه دقيقة أخرى وهي أنه ربما كان وجدان الدنيا الكثيرة سببا للقتل والنهب والوقوع في أنواع العذاب، فربما كان الحرمان سببا لبقاء السلامة، فعلى هذا التقدير لا يجوز أيضا لمنكر البعث من جميع الوجوه أن يقضي على صاحب الدنيا بالسعادة، وعلى فاقدها بالهوان، فربما ينكشف له أن الحال بعد ذلك بالضد، وفي الآية سؤالات:

السؤال الأول: قوله: فأما الإنسان المراد منه شخصين معين أو الجنس؟ الجواب: فيه قولان: الأول: أن المراد منه شخصين معين، فروي عن ابن عباس أنه عتبة بن ربيعة، وأبو حذيفة ابن المغيرة، وقال الكلبي: هو أبي بن خلف، وقال مقاتل: نزلت في أمية بن خلف والقول الثاني: أن المراد من كان موصوفا بهذا الوصف وهو الكافر الجاحد ليوم الجزاء.

السؤال الثاني: كيف سمى بسط الرزق وتقديره ابتلاء؟ الجواب: لأن كل واحد منهما اختبار للعبد، فإذا بسط له فقد اختبر حاله أيشكر أم يكفر، وإذا قدر عليه فقد اختبر حاله أيصبر أم يجزع، فالحكمة فيهما واحدة، ونحوه قوله تعالى: ونبلوكم بالشر والخير فتنة [الأنبياء: ٣٥] .

السؤال الثالث: لما قال: فأكرمه فقد صحح أنه أكرمه. وأثبت ذلك ثم إنه لما حكى عنه أنه قال: ربي أكرمن ذمه عليه فكيف الجمع بينهما؟ والجواب: لأن كلمة الإنكار هي قوله: كلا فلم لا يجوز أن يقال: إنها مختصة بقوله: ربي أهانن سلمنا أن الإنكار عائد إليهما معا ولكن فيه وجوه ثلاثة أحدها: أنه اعتقد حصول الاستحقاق في ذلك الإكرام الثاني: أن نعم الله تعالى كانت حاصلة قبل وجدان المال، وهي نعمة سلامة البدن والعقل والدين، فلما لم يعترف بالنعمة إلا عند وجدان المال، علمنا أنه ليس غرضه من ذلك شكر نعمة الله، بل التصلف بالدنيا والتكثر بالأموال والأولاد الثالث: أن تصلفه بنعمة الدنيا وإعراضه عن ذكر نعمة الآخرة يدل على كونه منكرا للبعث، فلا جرم استحق الذم على ما حكى الله تعالى ذلك، فقال: ودخل جنته وهو ظالم لنفسه، قال ما أظن أن تبيد هذه أبدا وما أظن الساعة قائمة إلى قوله: أكفرت بالذي خلقك من تراب [الكهف: ٣٥- ٣٧] .

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ١٤٦/٣١

السؤال الرابع: لم قال في القسم الأول: إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه وفي القسم الثاني: وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فذكر الأول بالفاء والثاني بالواو؟ والجواب: لأن رحمة الله سابقة على غضبه وابتلاءه بالنعم سابق على ابتلائه بإنزال الآلام، فالفاء تدل على كثرة ذلك القسم وقبله الثاني على ما قال: وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها [النحل: ١٨] .

السؤال الخامس: لما قال في القسم الأول: فأكرمه ... فيقول ربي أكرمن يجب أن يقول في القسم الثاني: فأهانه فيقول: ربي أهانن لكنه لم يقل ذلك والجواب: لأنه في قوله: أكرمن صادق وفي قوله:

أهانن غير صادق فهو ظن قلة الدنيا وتقتيرها إهانة، وهذا جهل واعتقاد فاسد، فكيف يحكي الله سبحانه ذلك عنه.

السؤال السادس: ما معنى قوله: فقدر عليه رزقه؟ الجواب: ضيق عليه بأن جعله على مقدار البلغة." (١)

"بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الضحى

إحدى عشرة آية مكية وأنا على عزم أن أضم إلى تفسير هذه السورة ما فيها من اللطائف التذكارية.

[سورة الضحى (٩٣) : الآيات ١ الى ٢]

بسم الله الرحمن الرحيم

والضحى (١) والليل إذا سجى (٢)

لأهل التفسير في قوله: والضحى وجهان: أحدهما: أن المراد بالضحى وقت الضحى وهو صدر النهار حين ترتفع الشمس وتلقي شعاعها وثانيها: الضحى هو النهار كله بدليل أنه جعل في مقابلة الليل كله.

وأما قوله: والليل إذا سجى فذكر أهل اللغة في سجى ثلاثة أوجه متقاربة: سكن وأظلم وغطى أما الأول: فقال أبو عبيد والمبرد والزجاج: سجى أي سكن يقال: ليلة ساجية أي ساكنة الريح، وعين ساجية أي فاترة الطرف. وسجى البحر إذا سكنت أمواجه، وقال في الدعاء:

يا مالك البحر إذا البحر سجى وأما الثاني: وهو تفسير سجى بأظلم فقال الفراء: سجى أي أظلم وركد في

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٣١/١٥٦

طوله.

وأما الثالث: وهو تفسير سجى بغطى، فقال الأصمعي وابن الأعرابي سجى الليل تغطيته النهار، مثل ما يسجى الرجل بالثوب، واعلم أن أقوال المفسرين غير خارجة عن هذه الوجوه الثلاثة فقال ابن عباس: غطى الدنيا بالظلمة، وقال الحسن: ألبس الناس ظلامه، وقال ابن عباس في رواية سعيد بن جبير: إذا أقبل الليل غطى كل شيء، وقال مجاهد وقتادة والسدي وابن زيد: سكن بالناس ولسكونه معنيان أحدهما: سكون الناس فنسب إليه كما يقال ليل نائم ونهار صائم والثاني: هو أن سكونه عبارة عن استقرار ظلامه واستوائه فلا يزداد بعد ذلك، وهاهنا سؤالات:

السؤال الأول: ما الحكمة في أنه تعالى في السورة الماضية قدم ذكر الليل، وفي هذه السورة أخره؟ قلنا: فيه وجوه أحدها: أن بالليل والنهار ينتظم مصالح المكلفين، والليل له فضيلة السبق لقوله: وجعل الظلمات والنور [الأنعام: ١] وللنهار فضيلة النور، بل الليل كالدنيا والنهار كالآخرة، فلما كان لكل واحد فضيلة ليست للآخر، لا جرم قدم هذا على ذاك تارة وذاك، على هذا أخرى، / ونظيره أنه تعالى قدم السجود على الركوع في." (١)

"بسبب جهلهم، وأنت صاحب العلم، فهداهم على يدك، وهاهنا سؤالات.

السؤال الأول: ما الحكمة في أنه تعالى اختار له اليتم؟ قلنا فيه وجوه أحدها: أن يعرف قدر اليتامى فيقوم بحقهم وصلاح أمرهم، ومن ذلك كان يوسف عليه السلام لا يشبع. فقيل له في ذلك: فقال أخاف إن أشبع فأنسى الجياع وثانيها: ليكون اليتيم مشاركا له في الاسم فيكرم لأجل ذلك، ومن ذلك

قال عليه السلام: «إذا سميتم الولد محمدا فأكرموه، ووسعوا له في المجلس»

وثالثها: أن من كان له أب أو أم كان اعتماده عليهما، فسلب عنه الولدان حتى لا يعتمد من أول صباه إلى آخر عمره على أحد سوى الله، فيصير في طفوليته متشبها بإبراهيم عليه السلام في قوله: حسبي من سؤالي، علمه بحالي، وكجواب مريم: أنى لك هذا قالت هو من عند الله [آل عمران: ٣٧] . ورابعها: أن العادة جارية بأن اليتيم لا تخفى عيوبه بل تظهر، وربما زادوا على الموجود فاختار تعالى له اليتيم، ليتأمل كل أحد في أحواله، ثم لا يجدوا عليه عيبا فيتفقون على نزاهته، فإذا اختاره الله للرسالة لم يجدوا عليه مطعنا وخامسها: جعله يتيما ليعلم كل أحد أن فضيلته من الله ابتداء لأن الذي له أب، فإن أباه يسعى

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٣١/١٩٠

في تعليمه وتأديبه وسادسها: أن اليتم والفقر نقص في حق/ الخلق، فلما صار محمد عليه الصلاة والسلام، مع هذين الوصفين أكرم الخلق، كان ذلك قلبا للعادة، فكان من جنس المعجزات.

السؤال الثاني: ما الحكمة في أن الله ذكر هذه الأشياء؟ الجواب: الحكمة أن لا ينسى نفسه فيقع في العجب.

السؤال الثالث:

روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «سألت ربي مسألة وددت أني لم أسألها، قلت: اتخذت إبراهيم خليلا، وكلمت موسى تكليما، وسخرت مع داود الجبال، وأعطيت سليمان كذا وكذا، وأعطيت فلانا كذا وكذا، فقال: ألم أجدك يتيما فآويتك؟ ألم أجدك ضالا فهديتك؟ ألم أجدك عائلا فأغنيتك؟ قلت: بلى.

فقال: ألم أشرح لك صدرك؟ قلت: بلى، قال: ألم أرفع لك ذكرك؟ قلت: بلى! قال: ألم أصرف عنك وزرك؟

قلت: بلى، ألم أوتك ما لم أوت نبيا قبلك وهي خواتيم سورة البقرة؟ أم أتخذك خليلا كما اتخذت إبراهيم خليلا؟»

فهل يصح هذا الحديث قلنا: طعن القاضي في هذا الخبر فقال: إن الأنبياء عليهم السلام لا يسألون مثل ذلك إلا عن إذن، فكيف يصح أن يقع من الرسول مثل هذا السؤال. ويكون منه تعالى ما يجري مجرى المعاتبة.

[سورة الضحى (٩٣) : آية ٩]

فأما اليتيم فلا تقهر (٩)

وقرئ فلا تكهر، أي لا تعبس وجهك إليه، والمعنى عامله بمثل ما عاملتك به، ونظيره من وجه:

وأحسن كما أحسن الله إليك [القصص: ٧٧] ومنه

قوله عليه السلام: «الله الله فيمن ليس له إلا الله»

وروي: أنها نزلت حين صاح النبي صلى الله عليه وسلم على ولد خديجة

ومنه

حديث موسى عليه السلام حين: «قال: إلهي بم نلت ما نلت؟ قال: أتذكر حين هربت منك السخلة، فلما

قدرت عليها قلت: أتعبت نفسك ثم حملتها، فلهذا السبب جعلتك وليا على الخلق،
فلما نال موسى عليه السلام النبوة بالإحسان إلى الشاة فكيف بالإحسان إلى اليتيم، وإذا كان هذا العتاب بمجرد الصياح أو العبوسية في الوجه، فكيف إذا أذله أو أكل ماله،
عن أنس عن النبي عليه الصلاة والسلام: «إذا بكى اليتيم وقعت دموعه في كف الرحمن، ويقول تعالى: من أبكى هذا اليتيم الذي واريت والده التراب، من أسكته فله الجنة» .
ثم قال تعالى:

[سورة الضحى (٩٣) : آية ١٠]
وأما السائل فلا تنهر (١٠)." (١)

"يقال: نهره وانتهره إذا استقبله بكلام يزجره، وفي المراد من السائل قولان: أحدهما: وهو اختيار الحسن أن المراد منه من يسأل العلم ونظيره من وجه: عبس وتولى أن جاءه الأعمى [عبس: ١، ٢] وحينئذ يحصل الترتيب، لأنه تعالى قال له أولا: ألم يجدك يتيما فآوى ووجدك ضالا فهدى ووجدك عائلا فأغنى [الضحى: ٦- ٨] ثم اعتبر هذا الترتيب، فأوصاه برعاية حق اليتيم، ثم برعاية حق من يسأله عن العلم والهداية، ثم أوصاه بشكر نعم الله عليه/ والقول الثاني: أن المراد مطلق السائل ولقد عاتب الله رسوله في القرآن في شأن الفقراء في ثلاثة مواضع أحدها: أنه كان جالسا وحوله صناديد قريش، إذ جاء ابن أم مكتوم الضرير، فتخطى رقاب الناس حتى جلس بين يديه، وقال: علمني مما علمك الله، فشق ذلك عليه فعبس وجهه فنزل عبس وتولى [عبس: ١] ، والثاني: حين قالت له قريش: لو جعلت لنا مجلسا وللفقراء مجلسا آخر فهم أن يفعل ذلك فنزل قوله: واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم [الكهف: ٢٨] والثالث: كان جالسا فجاءه عثمان بعذق من ثمر فوضعه بين يديه فأراد أن يأكل فوقف سائل بالباب، فقال: رحم الله عبدا يرحمنا، فأمر بدفعه إلى السائل فكره عثمان ذلك، وأراد أن يأكله النبي عليه السلام فخرج واشتراه من السائل، ثم رجع السائل ففعل ذلك ثلاث مرات، وكان يعطيه النبي عليه السلام إلى أن قال له النبي صلى الله عليه وسلم: أسائل أنت أم بائع؟ فنزل: وأما السائل فلا تنهر.
ثم قوله تعالى:

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٠٠/٣١

[سورة الضحى (٩٣) : آية ١١]

وأما بنعمة ربك فحدث (١١)

وفيه وجوه أحدها: قال مجاهد: تلك النعمة هي القرآن، فإن القرآن أعظم ما أنعم الله به على محمد عليه السلام، والتحديث به أن يقرأه ويقرئ غيره ويبين حقائقه لهم وثانيها: روي أيضا عن مجاهد: أن تلك النعمة هي النبوة، أي بلغ ما أنزل إليك من ربك وثالثها: إذا وفقك الله فراعيت حق اليتيم والسائل، وذلك التوفيق نعمة من الله عليك فحدث بها ليقتدي بك غيرك، ومنه ما

روي عن الحسين بن علي عليه السلام أنه قال: إذا عملت خيرا فحدث إخوانك ليقتدوا بك،

إلا أن هذا إنما يحسن إذا لم يتضمن رياء، وظن أن غيره يقتدي به، ومن ذلك

لما سئل أمير المؤمنين علي عليه السلام عن الصحابة فأثنى عليهم وذكر خصالهم، فقالوا له: فحدثنا عن نفسك فقال: مهلا، فقد نهى الله عن التزكية فقيل له: أليس الله تعالى يقول: وأما بنعمة ربك فحدث فقال:

فإني أحدث، كنت إذا سئلت أعطيت وإذا سكت ابتديت، وبين الجوانح علم جم فاسألوني،

فإن قيل: فما الحكمة في أن أخر الله تعالى حق نفسه عن حق اليتيم والعائل؟ قلنا: فيه وجوه أحدها: كأنه يقول أنا غني وهما محتاجان وتقديم حق المحتاج أولى وثانيها: أنه وضع في حظهما الفعل ورضي لنفسه بالقول وثالثها: أن المقصود من جميع الطاعات استغراق القلب في ذكر الله تعالى، فجعل خاتمة هذه الطاعات تحدث القلب واللسان بنعم الله تعالى حتى تكون ختم الطاعات على ذكر الله، واختار قوله: فحدث على قوله فخبر، ليكون ذلك حديثا عند لا ينساه، ويعيده مرة بعد أخرى، والله أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

تم الجزء الحادي والثلاثون ويتلوه الجزء الثاني والثلاثون. وأوله تفسير سورة الإنشراح.." (١)

"التأويل في قولك قبل الأكل بسم الله وكذا قبل كل فعل مباح؟ قلنا: فيه وجهان أحدهما: أن ذلك إضافة مجازية كما تضيف ضيعتك إلى بعض الكبار لتدفع بذلك ظلم الظلمة، كذا تضيف فعلك إلى الله ليقطع الشيطان طمعه عن مشاركتك،

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٠١/٣١

فقد روي أن من لم يذكر اسم الله شاركه الشيطان في ذلك الطعام

والثاني: أنه ربما استعان بذلك المباح على التقوى على طاعة الله فيصير المباح طاعة فيصح ذلك التأويل فيه.

أما قوله: ربك ففيه سؤالان:

أحدها: وهو أن الرب من صفات الفعل، والله من أسماء الذات وأسماء الذات أشرف من أسماء الفعل، ولأنا قد دللنا بالوجوه الكثيرة على أن اسم الله أشرف من اسم الرب، ثم إنه تعالى قال هاهنا: باسم ربك ولم يقل: اقرأ باسم الله كما قال في التسمية المعروفة: بسم الله الرحمن الرحيم وجوابه: أنه أمر بالعبادة، وبصفات الذات، وهو لا يستوجب شيئا، وإنما يستوجب العبادة بصفات الفعل، فكان ذلك أبلغ في الحث على الطاعة، ولأن هذه السورة كانت من أوائل ما نزل على ما كان الرسول عليه السلام قد فزع فاستماله ليزول الفزع، فقال:

هو الذي رباك فكيف يفزعك؟ فأفاد هذا الحرف معنيين أحدهما: ربيتك فلزمك القضاء فلا تتكاسل والثاني: أن الشروع ملزم للإتمام، وقد ربيتك منذ كذا فكيف أضيعك؟ أي حين كنت علقا لم أدع تربيتك فبعد أن صرت خلقا نفيسا موحدا عارفا بي كيف أضيعك؟.

السؤال الثاني: ما الحكمة في أنه أضاف ذاته إليه فقال: باسم ربك؟ الجواب: تارة يضيف ذاته إليه بالربوبية كما هاهنا، وتارة يضيفه إلى نفسه بالعبودية، أسرى بعبده، نظيره

قوله عليه السلام: «علي مني وأنا منه»

كأنه تعالى يقول: هو لي وأنا له، يقرره قوله تعالى: من يطع الرسول فقد أطاع الله [النساء: ٨٠] أو نقول: إضافة ذاته إلى عبده أحسن من إضافة العبد إليه، إذ قد علم في الشاهد أن من له ابنان ينفعه أكبرهما دون الأصغر، يقول: هو ابني فحسب لما أنه ينال منه المنفعة، فيقول الرب تعالى: المنفعة تصل مني إليك، ولم تصل منك إلي خدمة ولا طاعة إلى الآن، فأقول: أنا لك ولا أقول أنت لي، ثم إذا أتيت بما طلبته منك من طاعة أو توبة أضفتك إلى نفسي فقلت: أنزل على عبده يا عبادي الذين أسرفوا [الزمر: ٥٣] .

السؤال الثالث: لم ذكر عقيب قوله: ربك قوله: الذي خلق؟ الجواب: كأن العبد يقول: ما الدليل على أنك ربي؟ فيقول: لأنك كنت بذاتك وصفاتك معدوما ثم صرت موجودا فلا بد لك في ذاتك وصفاتك من خالق، وهذا الخلق والإيجاد تربية فدل ذلك على أني ربك وأنت مربوبي.

أما قوله تعالى: الذي خلق خلق الإنسان من علق ففيه مسائل:
المسألة الأولى: في تفسير هذه الآية ثلاثة أوجه أحدها: أن يكون قوله: الذي خلق لا يقدر له مفعول، ويكون المعنى أنه الذي حصل منه الخلق واستأثر به لا خالق سواه والثاني: أن يقدر له مفعول ويكون المعنى أنه الذي خلق كل شيء، فيتناول كل مخلوق، لأنه مطلق، فليس ح◌مله على البعض أولى من حمله على الباقي، كقولنا: الله أكبر، أي من كل شيء، ثم قوله بعد ذلك: خلق الإنسان من علق تخصيص للإنسان بالذكر من بين جملة المخلوقات، إما لأن التنزيل إليه أو لأنه أشرف ما على وجه الأرض والثالث: أن يكون قوله: اقرأ باسم ربك الذي خلق مبهما ثم فسره بقوله: خلق الإنسان من علق تفخيما لخلق الإنسان ودلالة على عجيب فطرته.." (١)

"المسألة الرابعة: أول السورة يدل على مدح العلم وآخرها على مذمة المال، وكفى بذلك مرغبا في الدين والعلم ومنفرا عن الدنيا والمال. ثم قال تعالى:

[سورة العلق (٩٦) : آية ٨]
إن إلى ربك الرجعى (٨)
وفيه مسائل:
المسألة الأولى: هذا الكلام واقع على طريقة الالتفات إلى الإنسان تهديدا له وتحذيرا من عاقبة الطغيان.
المسألة الثانية: الرجعى
المرجع والرجوع وهي بأجمعها مصادر، يقال: رجع إليه رجوعا/ ومرجعا ورجعى على وزن فعلى، وفي معنى الآية وجهان: أحدهما: أنه يرى ثواب طاعته وعقاب تمرده وتكبره وطغيانه، ونظي◌ره قوله: ولا تحسبن الله غافلا إلى قوله: إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار [إبراهيم: ٤٢] وهذه الموعظة لا تؤثر إلا في قلب من له قدم صدق، أما الجاهل فيغضب ولا يعتقد إلا الفرح العاجل والقول الثاني: أنه تعالى يرده ويرجعه إلى النقصان والفقر والموت، كما رده من النقصان إلى الكمال، حيث نقله من الجمادية إلى الحياة، ومن الفقر إلى الغنى، ومن الذل إلى العز، فما هذا التعزز والقوة.
المسألة الثالثة:

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢١٦/٣٢

روي أن أبا جهل قال للرسول عليه الصلاة والسلام: أتزعم أن من استغنى طغى، فاجعل لنا جبال مكة ذهبا وفضة لعلنا نأخذ منها فنطغى، فندع ديننا ونتبع دينك، فنزل جبريل وقال: إن شئت فعلنا ذلك، ثم إن لم يؤمنوا فعلنا بهم مثل ما فعلنا بأصحاب المائدة، فكف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الدعاء إبقاء عليهم.

[سورة العلق (٩٦) : الآيات ٩ الى ١٠]

أرأيت الذي ينهى (٩) عبدا إذا صلى (١٠)

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: روي عن أبي جهل لعنه الله أنه قال: هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم؟ قالوا: نعم، قال: فوالذي يحلف به لئن رأيته لأطأن عنقه، ثم أنه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم في الصلاة فنكص على عقبيه، فقالوا له: مالك يا أبا الحكم؟ فقال: إن بيني وبينه لخندقا من نار وهو لا شديدا. وعن الحسن أن أمية بن خلف كان ينهى سلمان عن الصلاة.

واعلم أن ظاهر الآية هو الإنسان المتقدم ذكره، فلذلك قالوا: إنه ورد في أبي جهل، وذكروا ما كان منه من التوعد لمحمد عليه الصلاة والسلام حين رآه يصلي، ولا يمتنع أن يكون نزولها في أبي جهل، ثم يعم في الكل، لكن ما بعده يقتضي أنه في رجل بعينه.

المسألة الثانية: قوله: أرأيت خطاب مع الرسول على سبيل التعجب، ووجه التعجب فيه أمور أحدها:

أنه عليه السلام قال: اللهم أعز الإسلام إما بأبي جهل بن هشام أو بعمر،

فكأنه تعالى قال له: كنت تظن أنه يعز به الإسلام، أمثله يعز به الإسلام، وهو ينهى عبدا إذا صلى وثانيها: أنه كان يلقب بأبي الحكم، فكأنه تعالى يقول: كيف يليق به هذا اللقب وهو ينهى العبد عن خدمة ربه، أيوصف **بالحكمة من** يمنع عن طاعة الرحمن ويسجد للأوثان! وثالثها: أن ذلك الأحمق يأمر وينهى، ويعتقد أنه يجب على الغير طاعته، مع أنه ليس." (١)

"المسألة الثالثة في قوله: علم اليقين وجهان أن معناه علما يقينا فأضيف الموصوف إلى الصفحة، كقوله تعالى: ولدار الآخرة [يوسف: ١٠٩] وكما يقال: مسجد الجامع وعام الأول والثاني: أن اليقين

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٢١/٣٢

هاهنا هو الموت والبعث والقيامة، وقد سمي الموت يقينا في قوله: واعبد ربك حتى يأتيك اليقين [الحجر: ٩٩] ولأنهما إذا وقعا جاء اليقين، وزال الشك فالمعنى لو تعلمون علم الموت وما يلقى الإنسان معه وبعده في القبر وفي الآخرة لم يلهكم التكاثر والتفاخر عن ذكر الله، وقد يقول الإنسان: أنا أعلم علم كذا أي أتحققه، وفلان يعلم علم الطب وعلم الحساب، لأن العلوم أنواع فيصلح لذلك أن يقال: علمت علم كذا.

المسألة الرابعة: العلم من أشد البواعث على العمل، فإذا كان وقت العمل أمامه كان وعدا وعظة، وإن كان بعد وفاة وقت العمل فحينئذ يكون حسرة وندامة، كما ذكر أن ذا القرنين لما دخل الظلمات [وجد خرزا] ، فالذين كانوا معه أخذوا من تلك الخرز فلما خرجوا من الظلمات وجدوها جواهر، ثم الآخذون كانوا في الغم أي لما لم يأخذوا أكثر مما أخذوا، والذين لم يأخذوا كانوا أيضا في الغم، فهكذا يكون أحوال أهل القيامة.

المسألة الخامسة: في الآية تهديد عظيم للعلماء فإنها دلت على أنه لو حصل اليقين بما في التكاثر والتفاخر من الآفة لتركوا التكاثر والتفاخر، وهذا يقتضي أن من لم يترك التكاثر والتفاخر لا يكون اليقين حاصلا له فالويل للعالم الذي لا يكون عاملا ثم الويل له.

المسألة السادسة: في تكرار الرؤية وجوه أحدها: أنه لتأكيد الوعيد أيضا لعل القوم/ كانوا يكرهون سماع الوعيد فكرر لذلك ونون التأكيد تقتضي كون تلك الرؤية اضطرارية، يعني لو خليتم ورأيكم ما رأيتموها لكنكم تحملون على رؤيتها شئتم أم أبيتم وثانيها: أن أولهما الرؤية من البعيد: إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا [الفرقان: ١٢] وقوله: وبرزت الجحيم لمن يرى [النازعات: ٣٦] والرؤية الثانية إذا صاروا إلى شفير النار وثالثها: أن الرؤية الأولى عند الورود والثانية عند الدخول فيها، قيل: هذا التفسير ليس بحسن لأنه قال: ثم لتسئلن والسؤال يكون قبل الدخول ورابعها: الرؤية الأولى للوعد والثانية المشاهدة وخامسها: أن يكون المراد لترون الجحيم غير مرة فيكون ذكر الرؤية مرتين عبارة عن تتابع الرؤية واتصالها لأنهم مخلدون في الجحيم فكأنه قيل لهم: على جهة الوعيد، لئن كنتم اليوم شاكين فيها غير مصدقين بها فسترونها رؤية دائمة متصلة فتزول عنكم الشكوك وهو كقوله: ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت- إلى قوله- ثم ارجع البصر كرتين [الملك: ٣، ٤] بمعنى لو أعدت النظر فيها ما شئت لم تجد فطورا ولم يرد مرتين فقط، فكذا هاهنا، إن قيل: ما فائدة تخصيص الرؤية الثانية باليقين؟ قلنا: لأنهم في المرة الأولى رأوا

لهبا لا غير، وفي المرة الثانية رأوا نفس الحفرة وكيفية السقوط فيها وما فيها من الحيوانات المؤذية، ولا شك أن هذه الرؤية أجلى، والحكمة في النقل من العلم الأخفى إلى الأجلى التفريع على ترك النظر لأنهم كانوا يقتصرون على الظن ولا يطلبون الزيادة.

المسألة السابعة: قراءة العامة (لترون) بفتح التاء، وقرئ بضمها من رأيته الشيء، والمعنى أنهم يحشرون إليها فيرونها، وهذه القراءة تروى عن ابن عامر والكسائي كأنهما أرادا لترونها فترونها، ولذلك قرأ الثانية: ثم لترونها بالفتح، وفي هذه الثانية دليل على أنهم إذا أروها وفي قراءة العامة الثانية تكرير للتأكيد ولسائر الفوائد التي عددناها، واعلم أن قراءة العامة أولى لوجهين الأول: قال الفراء: قراءة العامة أشبه بكلام العرب." (١)

"الرسول بذلك حتى عظم غضبه وأظهر العداوة الشديدة، فصار بسبب تلك العداوة متهما في القدح في محمد عليه الصلاة والسلام، فلم يقبل قوله فيه بعد ذلك وثانيها: أن الحكمة في ذلك أن محمدا لو كان يداهن أحدا في الدين ويسامحه فيه، لكانت تلك المداهنة والمسامحة مع عمه الذي هو قائم مقام أبيه، فلما لم تحصل هذه المداهنة معه انقطعت الأطماع وعلم كل أحد أنه لا يسامح أحدا في شيء يتعلق بالدين أصلا وثالثها: أن الوجه الذي ذكرتم كالمتعارض، فإن كونه عما يوجب أن يكون له الشفقة العظيمة عليه، فلما انقلب الأمر وحصلت العداوة العظيمة، لا جرم استحق التغليظ العظيم.

السؤال الثالث: ما السبب في أنه لم يقل قل تبت يدا أبي لهب وتب وقال في سورة الكافرون: قل يا أيها الكافرون؟ الجواب: من وجوه الأول: لأن قرابة العمومة تقتضي/ رعاية الحرمة فلهذا السبب لم يقل له: قل ذلك لئلا يكون مشافها لعمه بالشتم بخلاف السورة الأخرى فإن أولئك الكفار ما كانوا أعماما له الثاني: أن الكفار في تلك السورة طعنوا في الله فقال الله تعالى: يا محمد أجب عنهم: قل يا أيها الكافرون وفي هذه السورة طعنوا في محمد، فقال الله تعالى أسكت أنت فإن أشتمهم: تبت يدا أبي لهب الثالث: لما شتموك، فاسكت حتى تندرج تحت هذه الآية: وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما [الفرقان: ٦٣] وإذا سكت أنت أكون أنا المجيب عنك،

يروى أن أبا بكر كان يؤذيه واحد فبقي ساكتا، فجعل الرسول يدفع ذلك الشاتم ويزجره، فلما شرع أبو بكر في الجواب سكت الرسول، فقال أبو بكر: ما السبب في ذلك؟ قال: لأنك حين كنت ساكتا كان الملك

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٧٣/٣٢

يجيب عنك، فلما شرعت في الجواب انصرف الملك وجاء الشيطان.

واعلم أن هذا تنبيه من الله تعالى على أن من لا يشافه السفيه كان الله ذابا عنه وناصرا له ومعينا.

السؤال الرابع: ما الوجه في قراءة عبد الله بن كثير المكي حيث كان يقرأ: أبي لهب ساكنة الهاء؟

الجواب: قال أبو علي: يشبه أن يكون لهب ولهب لغتين كالشمع والشمع والنهر والنهر، وأجمعوا في قوله: سيصلى نارا ذات لهب [المسد: ٣] على فتح الهاء، وكذا قوله: ولا يغني من اللهب [المرسلات: ٣١] وذلك يدل على أن الفتح أوجه من الإسكان، وقال غيره: إنما اتفقوا على الفتح في الثانية مراعاة لوفاق الفواصل.

[سورة المسد (١١١) : آية ٢]

ما أغنى عنه ماله وما كسب (٢)

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: ما في قوله: ما أغنى يحتمل أن يكون استفهاما بمعنى الإنكار، ويحتمل أن يكون نفيا، وعلى التقدير الأول يكون المعنى أي تأثير كان لماله وكسبه في دفع البلاء عنه، فإنه لا أحد أكثر مالا من قارون فهل دفع الموت عنه «١» ، ولا أعظم ملكا من سليمان فهل دفع الموت عنه، وعلى التقدير الثاني يكون ذلك إخبارا بأن المال والكسب لا ينفع في ذلك.

المسألة الثانية: (ما كسب) مرفوع وما موصولة أو مصدرية يعني مكسوبه أو كسبه،

يروى أنه كان يقول: إن كان ما يقول ابن أخي حقا فأنا أفتدي منه نفسي بمالي وأولادي، فأنزل الله تعالى هذه الآية،

ثم ذكروا في

---

(١) المناسب هنا أن يقول فهل الخسف عثة، للذي تنص عليه الآية الكريمة فخسفنا به وبداره الأرض [القصص: ٨١] .." (١)

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٣٢/٣٥١

"المؤثر فيه إما أن يكون حال عدمه أو حال وجوده، فإن كان الأول فذلك الممكن محدث، وإن كان الثاني فاحتياج ذلك الموجود إلى المؤثر، إما أن يكون حال بقائه أو حال حدوثه، والأول محال لأنه يقتضي إيجاد الوجود فتعين الثاني وذلك يقتضي كون ذلك الممكن محدثا فثبت أن كل ما سوى الله محدث مسبوق بالعدم وأن وجوده إنما حصل بخلق الله تعالى وإيجاده وإبداعه، فثبت أن كلما سواه فهو عبده وملكه فيستحل أن يكون شيء مما سواه ولدا له، وهذا البرهان إنما استفدناه من قوله: بل له ما في السماوات والأرض أي له كل ما سواه على سبيل الملك والخلق والإيجاد والإبداع. والثاني: أن هذا الذي أضيف إليه بأنه ولده إما أن يكون قديما أزليا أو محدثا، فإن كان أزليا لم يكن حكمنا بجعل أحدهما ولدا والآخر والدا أولى من العكس، فيكون ذلك الحكم حكما مجردا من غير دليل/ وإن كان الولد حادثا كان مخلوقا لذلك القديم وعبدا له فلا يكون ولدا له. الثالث: أن الولد لا بد وأن يكون من جنس الوالد، فلو فرضنا له ولدا لكان مشاركا له من بعض الوجوه، وممتازا عنه من وجه آخر، وذلك يقتضي كون كل واحد منهما مركبا ومحدثا وذلك محال، فإذن المجانسة ممتنعة فالولدية ممتنعة. الرابع: أن الولد إنما يتخذ للحاجة إليه في الكبر ورجاء الانتفاع بمعونته حال عجز الأب عن أمور نفسه، فعلى هذا إيجاد الولد إنما يصح على من يصح عليه الفقر والعجز والحاجة، فإذا كان كل ذلك محال كان إيجاد الولد عليه سبحانه وتعالى محالا، واعلم أنه تعالى حكى في مواضع كثيرة عن هؤلاء الذين يضيفون إليه الأولاد قولهم، واحتج عليهم بهذه الحجة وهي أن كل من في السموات والأرض عبد له، وبأنه إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون، وقال في

مريم: ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذي فيه يمترون ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون [مريم: ٣٤، ٣٥] وقال أيضا في آخر هذه السورة: وقالوا اتخذ الرحمن ولدا لقد جئتم شيئا إدا تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا أن دعوا للرحمن ولدا وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا إن كل من في السماوات والأرض إلا آتي الرحمن عبدا [مريم: ٨٨- ٩٣] فإن قيل: ما **الحكمة في** أنه تعالى استدل في هذه الآية بكونه مالكا لما في السموات والأرض، وفي سورة مريم بكونه مالكا لمن في السموات والأرض على ما قال: إن كل من في السماوات والأرض إلا آتي الرحمن عبدا قلنا: قوله تعالى في هذه السورة: بل له ما في السماوات والأرض أتم، لأن كلمة «ما» تتناول جميع الأشياء، وأما قوله تعالى: كل له قانتون [الروم: ٢٦] ففيه مسائل:

المسألة الأولى: القنوت: أصله الدوام، ثم يستعمل على أربعة أوجه: الطاعة، كقوله تعالى: يا مريم اقنتي لربك [آل عمران: ٤٣] وطول القيام،

كقوله عليه السلام لما سئل: أي الصلاة أفضل؟ قال: «طول القنوت»

وبمعنى السكوت، كما قال زيد بن أرقم: كنا نتكلم في الصلاة حتى نزل قوله تعالى: وقوموا لله قانتين [البقرة: ٢٣٨] فأمسكنا عن الكلام، ويكون بمعنى الدوام، إذا عرفت هذا فنقول: قال بعض المفسرين: كل له قانتون أي كل ما في السموات والأرض قانتون مطيعون، والتنوين في كل عوض عن المضاف إليه وهو قول مجاهد وابن عباس، فقيل لهؤلاء الكفار: ليسوا مطيعين، فعند هذا قال آخرون: المعنى أنهم يطيعون يوم القيامة، وهو قول السدي، فقيل لهؤلاء: هذه صفة المكلفين، وقوله: له ما في السماوات يتناول من لا يكون مكلفا فعند هذا فسروا القنوت بوجوه أخر. الأول: بكونها شاهدة على وجود الخالق سبحانه بما فيها من آثار الصنعة وأمارات الحدوث والدلالة على الربوبية. الثاني: كون جميعها في ملكه وقهره يتصرف." (١)

"المسألة الثانية: المراد بقوله: الذين آتيناهم الكتاب من هم فيه قولان:

القول الأول: أنهم المؤمنون الذين آتاهم الله القرآن واحتجوا عليه من وجوه. أحدها: أن قوله: يتلونه حق تلاوته حث وترغيب في تلاوة هذا الكتاب، ومدح على تلك التلاوة، والكتاب الذي هذا شأنه هو القرآن لا التوراة والإنجيل، فإن قراءتهما غير جائزة. وثانيها: أن قوله تعالى: أولئك يؤمنون به يدل على أن الإيمان مقصود عليهم، ولو كان المراد أهل الكتاب لما كان كذلك. وثالثها: قوله: ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون والكتاب الذي يليق به هذا الوصف هو القرآن.

القول الثاني: أن المراد بالذين آتاهم الكتاب، هم الذين آمنوا بالرسول من اليهود، والدليل عليه أن الذين تقدم ذكرهم هم أهل الكتاب فلما ذم طريقتهم وحكى عنهم سوء أفعالهم، أتبع ذلك بمدح من ترك طريقتهم، بل تأمل التوراة وترك تحريفها وعرف منها صحة نبوة محمد عليه السلام.

أما قوله تعالى: يتلونه حق تلاوته فالتلاوة لها معنيان. أحدهما: القراءة. الثاني: الاتباع فعلا، لأن من اتبع غيره يقال تلاه فعلا، قال الله تعالى: والقمر إذا تلاها [الشمس: ٢] فالظاهر أنه يقع عليهما جميعا، ويصح فيهما جميعا المبالغة لأن التابع لغيره قد يستوفي حق الاتباع فلا يخل بشيء منه، وكذلك التالي يستوفي

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٤/٢٣

حق قراءته فلا يخل بما يلزم فيه، والذين تأولوه على القراءة هم الذين اختلفوا على وجوه. فأولها: أنهم تدبروه فعملوا بموجبه حتى تمسكوا بأحكامه من حلال وحرام وغيرهما. وثانيها: أنهم خضعوا عند تلاوته، وخشعوا إذا قرءوا القرآن في صلاتهم وخلواتهم. وثالثها: أنهم عملوا بمحكمه وآمنوا بمتشابهه، وتوقفوا فيما أشكل عليهم منه وفوضوه إلى الله سبحانه. ورابعها: يقرءونه كما أنزل الله، ولا يحرفون الكلم عن مواضعه، ولا يتأولونه على غير الحق. وخامسها: أن تحمل الآية على كل هذه الوجوه لأنها مشتركة في مفهوم واحد، وهو تعظيمها، والانقياد لها لفظا ومعنى، فوجب حمل اللفظ على هذا القدر المشترك تكثيرا لفوائد كلام الله تعالى والله أعلم.

[سورة البقرة (٢) : الآيات ١٢٢ الى ١٢٤]

يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين (١٢٢) واتقوا يوما لا تجزي نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة ولا هم ينصرون (١٢٣) وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إني جاعلك للناس إماما قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين (١٢٤)

اعلم أنه سبحانه وتعالى لما استقصى في شرح وجوه نعمه على بني إسرائيل ثم في شرح قبائحهم في أديانهم وأعمالهم وختم هذا الفصل بما بدأ به وهو قوله: يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي إلى قوله: ولا هم ينصرون شرع سبحانه هاهنا في نوع آخر من البيان وهو أن ذكر قصة إبراهيم عليه السلام وكيفية أحواله، **والحكمة فيه** أن إبراهيم عليه السلام شخص يعترف بفضله جميع الطوائف والملل، فالمشركين كانوا معترفين بفضله متشرفين بأنهم من أولاده ومن ساكني حرمه وخادمي بيته.

[أما قوله تعالى وإذ ابتلى إبراهيم إلى قوله لا ينال عهدي الظالمين] وأهل الكتاب من اليهود والنصارى كانوا أيضا." (١)

"[المائدة: ١] وقال: لم تقولون ما لا تفعلون كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون [الصف: ٢، ٣] وأما عهده سبحانه وتعالى فقال فيه: ومن أوفى بعهده من الله [التوبة: ١١١] ثم بين كيفية عهده إلى أبينا آدم فقال:

ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزما [طه: ١١٥] ثم بين كيفية عهده إلينا فقال: ألم أعهد

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٤/٣٠

إليكم يا بني/ آدم [يس: ٦٠] ثم بين كيفية عهده مع بني إسرائيل فقال: إن الله عهد إلينا ألا نؤمن لرسول [آل عمران: ١٨٣] ثم بين كيفية عهده مع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فقال: وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل [البقرة: ١٢٥] ثم بين في هذه الآية أن عهده لا يصل إلى الظالمين فقال: لا ينال عهدي الظالمين فهذه المبالغة الشديدة في هذه المعاهدة تقتضي البحث عن حقيقة هذه المعاهدة فنقول: العهد المأخوذ عليك ليس إلا عهد الخدمة والعبودية، والعهد الذي التزمه الله تعالى من جهته ليس إلا عهد الرحمة والربوبية، ثم إن العاقل إذا تأمل في حال هذه المعاهدة لم يجد من نفسه إلا نقض هذا العهد، ومن ربه إلا الوفاء بالعهد، فلنشرع في معاقد هذا الباب فنقول: أول إنعامه عليك إنعام الخلق والإيجاد والإحياء وإعطاء العقل والآلة والمقصود من كل ذلك اشتغالك بالطاعة والخدمة والعبودية على ما قال: وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون [الذاريات: ٥٦] ونزه نفسه عن أن يكون هذا الخلق والإيجاد منه على سبيل العبث فقال:

وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين [الأنبياء: ١٦] ما خلقناهما إلا بالحق [الدخان: ٣٩] وقال أيضا: وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا [ص: ٢٧] وقال: أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون [المؤمنون: ١١٥] ثم بين على سبيل التفصيل ما هو **الحكمة في** الخلق والإيجاد فقال: وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون فهو سبحانه وفى بعهد الربوبية حيث خلقك وأحياك وأنعم عليك بوجوه النعم وجعلك عاقلا مميزا فإذا لم تشتغل بخدمته وطاعته وعبوديته فقد نقضت عهد عبوديتك مع أن الله تعالى وفى بعهد ربوبيته. وثانيها: أن عهد الربوبية يقتضي إعطاء التوفيق والهداية وعهد العبودية منك يقتضي الجد والاجتهاد في العمل، ثم إنه وفى بعهد الربوبية فإنه ما ترك ذرة من الذرات إلا وجعلها هادية لك إلى سبيل الحق: وإن من شيء إلا يسبح بحمده [الإسراء: ٤٤] وأنت ما وفيت البتة بعهد الطاعة والعبودية.

وثالثها: أن نعمة الله بالإيمان أعظم النعم، والدليل عليه أن هذه النعمة لو فاتتك لكنت أشقى الأشقياء أبد الآبدين ودهر الداهرين، ثم هذه النعمة من الله تعالى لقوله: وما بكم من نعمة فمن الله [النحل: ٥٣] ثم مع أن هذه النعمة منه فإنه يشكرك عليها وقال: فأولئك كان سعيهم مشكورا [الإسراء: ١٩] فإذا كان الله تعالى يشكرك على هذه النعمة فبأن تشكره على ما أعطى من التوفيق والهداية كان أولى، ثم إنك ما أتيت إلا بالكفران على ما قال: قتل الإنسان ما أكفره [عبس: ١٧] فهو تعالى وفى بعهده، وأنت نقضت

عهدك. ورابعها: أن تنفق نعمه في سبيل مرضاته، فعهده معك أن يعطيك أصناف النعم وقد فعل وعهدك معه أن تصرف نعمه في سبيل مرضاته وأنت ما فعلت ذلك: كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى [العلق: ٦، ٧] . وخامسها:

أنعم عليك بأنواع النعم لتكون محسنا إلى الفقراء: وأحسنوا إن الله يحب المحسنين ثم إنك توسلت به إلى إيذاء الناس وإيحاشهم: الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل [الحديد: ٢٤] [النساء: ٣٧] . وسادسها: أعطاك النعم العظيمة لتكون مقبلا على حمده وأنت تحمد غيره فانظر إن السلطان العظيم لو أنعم عليك بخلعة نفيسة، ثم إنك في حضرته تعرض عنه وتبقى مشغولا بخدمة بعض الأسقاط كيف تستوجب الأدب والمقت فكذا هاهنا، واعلم أنا لو اشتغلنا/ بشرح كيفية وفائه سبحانه بعهد الإحسان والربوبية وكيفية نقضنا لعهد الإخلاص." (١)

"رسولا

يريد من أراد بقوله: ومن ذريتنا أمة مسلمة لك لأنه المذكور من قبل ووصفه لذريته بذلك لا يليق إلا بأمة محمد صلى الله عليه وسلم، فعطف عليه بقوله تعالى: ربنا وابعث فيهم رسولا منهم وهذا الدعاء يفيد كمال حال ذريته من وجهين. أحدهما: أن يكون فيهم رسول يكمل لهم الدين والشرع ويدعوهم إلى ما يثبتون به على الإسلام. والثاني: أن يكون ذلك المبعوث منهم لا من غيرهم لوجوه. أحدها: ليكون محلهم ورتبتهم في العز والدين أعظم، لأن الرسول والمرسل إليه إذا كانا معا من ذريته، كان أشرف لطلبته إذا أجيب إليها. وثانيها: أنه إذا كان منهم فإنهم يعرفون مولده ومنشأه فيقرب الأمر عليهم في معرفة صدقه وأمانته. وثالثها: أنه إذا كان منهم كان أحرص الناس على خيرهم وأشفق عليهم من الأجنبي لو أرسل إليهم، إذا ثبت هذا فنقول: إذا كان مراد إبراهيم عليه السلام عمارة الدين في الحال وفي المستقبل، وكان قد غلب على ظنه أن ذلك إنما يتم ويكمل بأن يكون القوم من ذريته حسن منه أن يريد ذلك ليجتمع له بذلك نهاية المراد في الدين، ويضاف إليه السرور العظيم بأن يكون هذا الأمر في ذريته لأن لا عز ولا شرف أعلى من هذه الرتبة. وأما إن الرسول هو محمد صلى الله عليه وسلم فيدل عليه وجوه. أحدها: إجماع المفسرين وهو حجة. وثانيها: ما

روي عنه عليه السلام أنه قال: «أنا دعوة إبراهيم وبشارة عيسى»

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٤/ ٤٠

وأراد بالدعوة هذه الآية، وبشارة عيسى عليه السلام ما ذكر في سورة الصف من قوله:
مبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد [الصف: ٦] . وثالثها: أن إبراهيم عليه السلام إنما دعا بهذا الدعاء بمكة لذريته الذين يكونون بها وبما حولها ولم يبعث الله تعالى إلى من بمكة وما حولها إلا محمدا صلى الله عليه وسلم.
وهاهنا سؤال وهو أنه يقال: ما **الحكمة في** ذكر إبراهيم عليه السلام مع محمد صلى الله عليه وسلم في باب الصلاة حيث يقال: اللهم صل على محمد وآل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم؟
وأجابوا عنه من وجوه، أولها: أن إبراهيم عليه السلام دعا لمحمد عليه السلام حيث قال: ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياتك فلما وجب للخليل على الحبيب حق دعائه له/ قضى الله تعالى عنه حقه بأن أجرى ذكره على ألسنة أمته إلى يوم القيامة. وثانيها: أن إبراهيم عليه السلام سأل ذلك ربه بقوله: واجعل لي لسان صدق في الآخرين [الشعراء: ٨٤] يعني أبق لي ثناء حسنا في أمة محمد صلى الله عليه وسلم، فأجابه الله تعالى إليه وقرن ذكره بذكر حبيبه إبقاء للثناء الحسن عليه في أمته. وثالثها: أن إبراهيم كان أب الملة لقوله: ملة أبيكم إبراهيم [الحج: ٧٨] ومحمد كان أب الرحمة، وفي قراءة ابن مسعود: النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وهو أب لهم وقال في قصته: بالمؤمنين رؤف رحيم [التوبة: ١٢٨]
وقال عليه السلام: «إنما أنا لكم مثل الوالد» ،
يعني في الرأفة والرحمة، فلما وجب لكل واحد منهم حق الأبوة من وجه قرب بين ذكرهما في باب الثناء والصلاة. ورابعها: أن إبراهيم عليه السلام كان منادي الشريعة في الحج: وأذن في الناس بالحج [الحج: ٢٧] وكان محمد عليه السلام منادي الدين: سمعنا مناديا ينادي للإيمان [آل عمران: ١٩٣] فجمع الله تعالى بينهما في الذكر الجميل.
واعلم أنه تعالى لما طلب بعثة رسول منهم إليهم، ذكر لذلك الرسول صفات. أولها: قوله: يتلوا عليهم آياتك وفيه وجهان. الأول: أنها الفرقان الذي أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم لأن الذي كان يتلوه عليهم ليس إلا ذلك، فوجب حمله عليه. الثاني: يجوز أن تكون الآيات هي الأعلام الدلالة على وجود الصانع وصفاته سبحانه وتعالى، ومعنى تلاوته إياها عليهم: أنه كان يذكرهم بها ويدعوهم إليها ويحملهم على الإيمان بها. وثانيها:." (١)

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٥٨/٤

"الكل. قال القاضي: المقصود من الآية بيان وقوع هذا الكلام منهم في الجملة وإذا كان كذلك لم يكن ادعاء العموم فيه بعيدا قلنا: هذا القدر لا ينافي العموم ولا يقتضي تخصيصه بل الأقرب أن يكون الكل قد قال ذلك لأن الأعداء مجبولون على القدح والطعن فإذا وجدوا مجالا لم يتركوا مقالا البتة.

أما قوله تعالى: ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها ففيه مسائل:

المسألة الأولى: ولاه عنه صرفه عنه وولى إليه بخلاف ولى عنه ومنه قوله: ومن يولهم يومئذ دبره [الأنفال: ١٦] وقوله: ما ولاهم استفهام على جهة الاستهزاء والتعجب.

المسألة الثانية: في هذا التولي وجهان. الأول: وهو المشهور المجمع عليه عند المفسرين: أنه لما حولت القبلة إلى الكعبة من بيت المقدس عاب الكفار المسلمين فقالوا: ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها فالضمير في قوله: ما ولاهم للرسول والمؤمنين والقبلة التي كانوا عليها هي بيت المقدس، واختلفت الروايات في أنه عليه الصلاة والسلام متى حول القبلة بعد ذهابه إلى المدينة فعن أنس بن مالك رضي الله عنه بعد تسعة أشهر أو عشرة أشهر، وعن معاذ بعد ثلاثة عشر شهرا وعن قتادة بعد ستة عشر شهرا وعن ابن عباس والبراء بن عازب بعد سبعة عشر شهرا، وهذا القول أثبت عندنا من سائر الأقوال وعن بعضهم ثمانية عشر شهرا من مقدمه. قال الواقدي: صرفت القبلة يوم الاثنين النصف من رجب على رأس سبعة عشر شهرا، وقال آخرون: بل سنتان. الوجه الثاني: قول أب مسلم وهو أنه لما صح الخبر بأن الله تعالى حوله عن بيت المقدس إلى الكعبة وجب القول به، ولولا ذلك لاحتمل لفظ الآية أن يراد بقوله كانوا عليها، أي السفهاء كانوا عليها فإنهم كانوا لا يعرفون إلا قبلة اليهود وقبلة النصارى، فالأولى إلى المغرب والثانية إلى المشرق، وما جرت عادتهم بالصلاة حتى يتوجهوا إلى شيء من الجهات فلما رأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم متوجها نحو الكعبة كان ذلك عندهم مستنكرا، فقالوا: كيف يتوجه أحد إلى هاتين الجهتين المعروفتين، فقال الله تعالى رادا عليهم قل لله المشرق والمغرب واعلم أن أبا مسلم صدق فإنه لولا الروايات الظاهرة لكان هذا القول محتملا والله أعلم.

/ المسألة الثالثة: قال القفال: القبلة هي الجهة التي يستقبلها الإنسان، وهي من المقابلة، وإنما سميت القبلة لأن المصلي يقابلها وتقابله، وقال قطرب: يقولون في كلامهم ليس لفلان قبلة، أي ليس له جهة يأوي إليها، وهو أيضا مأخوذ من الاستقبال، وقال غيره: إذ تقابل الرجلان فكل واحد منهما قبلة للآخر، وقال بعض المحدثين:

جعلت مأواك لي قرارا ... وقبلة حيثما لجأت

أما قوله تعالى: قل لله المشرق والمغرب فاعلم أن هذا هو الجواب الأول عن تلك الشبهة، وتقريره أن الجهات كلها لله ملكا وملكا، فلا يستحق شيء منها لذاته أن يكون قبلة، بل إنما تصير قبلة لأن الله تعالى جعلها قبلة، وإذا كان الأمر كذلك فلا اعتراض عليه بالتحويل من جهة إلى جهة أخرى، فإن قيل: ما الحكمة أولا في تعيين القبلة؟ ثم ما الحكمة في تحويل القبلة من جهة إلى جهة؟ قلنا: أما المسألة الأولى ففيها الخلاف الشديد بين أهل السنة والمعتزلة، أما أهل السنة فإنهم يقولون: لا يجب تعليل أحكام الله تعالى البتة، واحتجوا عليه بوجوه. أحدها: أن كل من فعل فعلا لغرض، فإما أن يكون وجود ذلك الغرض أولى له من لا وجوده،." (١)

"وإما أن لا يكون كذلك، بل الوجود والعدم بالنسبة إليه سيان، فإن كان الأول، كان ناقصا لذاته مستكملا بغيره، وذلك على الله محال، وإن كان الثاني استحال أن يكون غرضا ومقصودا ومرجحا فإن قيل: إنه وإن كان وجوده وعدمه بالنسبة إليه على السوية إلا أن وجوده لما كان أنفع للغير من عدمه، فالحكيم يفعله ليعود النفع إلى الغير قلنا: عود النفع إلى الغير ولا عوده إليه، هل هما بالنسبة إلى الله تعالى على السواء، أو ليس الأمر كذلك، وحينئذ يعود التقسيم. وثانيها: إن كل من فعل فعلا لغرض فإما أن يكون قادرا على تحصيل ذلك الغرض من دون تلك الواسطة، أو لا يكون قادرا عليه. فإن كان الأول كان توسط تلك الواسطة عبثا، وإن كان الثاني كان عجزا وهو على الله محال. وثالثها: أنه تعالى إن فعل فعلا لغرض فذلك الغرض إن كان قديما لزم من قدمه قدم الفعل وهو محال، وإن كان محدثا توقف إحداثه على غرض آخر، ولزم الدور أو التسلسل وهو محال.

ورابعها: أن تخصيص إحداث العالم بوقت معين دون ما قبله وما بعده إن كان لحكمة اختص بها ذلك الوقت دون ما قبله وما بعده كان طلب العلة في أنه لم حصلت تلك الحكمة في ذلك الوقت دون سائر الأوقات كطلب العلة في أنه لم حصل العالم في ذلك الوقت دون سائر الأوقات، فإن استغنى أحدهما عن المرجح فكذا الآخر، وإن افتقر فكذا الآخر وإن لم يتوقف ذلك على الحكمة فقد بطل توقيف فاعلية الله على الحكمة والغرض.

وخامسها: ما سبق من الدلائل على أن جميع الكائنات من الخير والشر، والكفر، والإيمان، والطاعة

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٤/ ٨٠

والعصيان واقع بقدرة الله تعالى وإرادته، وذلك يبطل القول بالغرض، لأنه يستحيل أن يكون لله غرض يرجع إلى العبد في خلق الكفر فيه وتعذيبه عليه أبد الآباد. وسادسها: أن تعلق قدرة الله تعالى وإرادته بإيجاد الفعل المعين في/ الأزل، إما أن يكون جائزا أو واجبا، فإن كان جائزا افتقر إلى مؤثر آخر ويلزم التسلسل، ولأنه يلزم صحة العدم على القديم، وإن كان واجبا فالواجب لا يعلل فثبت عندنا بهذه الوجوه أن تعليل أفعال الله وأحكامه بالدواعي والأغراض محال، وإذا كان كذلك كانت فاعليته بمحض الإلهية والقدرة والنفاذ والاستيلاء، وهذا هو الذي دل عليه صريح قوله تعالى: قل لله المشرق والمغرب فإنه علل جواز النسخ بكونه مالكا للمشرق والمغرب، والملك يرجع حاصله إلى القدرة، ولم يعلل ذلك بالحكمة على ما تقوله المعتزلة، فثبت أن هذه الآية دالة بصريحها على قولنا ومذهبنا، أما المعتزلة فقد قالوا: لما دلت الدلائل على أنه تعالى حكيم، والحكيم لا يجوز أن تكون أفعاله خالية عن الأغراض، علمنا أن له سبحانه في كل أفعاله وأحكامه حكما وأغراضا، ثم إنها تارة تكون ظاهرة جلية لنا، وتارة مستورة خفية عنا، وتحويل القبلة من جهة إلى جهة أخرى يمكن أن يكون لمصالح خفية وأسرار مطوية عنا، وإذا كان الأمر كذلك: استحال الطعن بهذا التحويل في دين الإسلام.

المسألة الرابعة: في الكلام في تلك الحكم على سبيل التفصيل، واعلم أن أمثال هذه المباحث لا تكون قطعية، بل غايتها أن تكون أمورا احتمالية أما تعيين القبلة في الصلاة فقد ذكروا فيه حكما. أحدها: أن الله تعالى خلق في الإنسان قوة عقلية مدركة للمجردات والمعقولات، وقوة خيالية متصرفة في عالم الأجساد، وقلما تنفك القوة العقلية عن مقارنة القوة الخيالية ومصاحبتها، فإذا أراد الإنسان استحضار أمر عقلي مجرد وجب أن يضع له صورة خيالية يحسبها حتى تكون تلك الصورة الخيالية معينة على إدراك تلك المعاني العقلية، ولذلك فإن المهندس إذا أراد إدراك حكم من أحكام المقادير، وضع له صورة معينة وشكلا معينا ليصير الحس والخيال معينين للعقل على إدراك ذلك الحكم الكلي، ولما كان العبد الضعيف إذا وصل إلى مجلس الملك العظيم، فإنه." (١)

"لجميع الأمة فإن قيل: لو كان الأمر كذلك لكان هذا خطابا لجميع من يوجد إلى قيام الساعة، فإنما حكم لجماعتهم بالعدالة فمن أين حكمت لأهل كل عصر بالعدالة حتى جعلتهم حجة على من بعدهم؟ قلنا: لأنه تعالى لما جعلهم شهداء على الناس، فلو اعتبرنا أول الأمة وآخرها بمجموعها في كونها

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٨١/٤

حجة على غيرها لزالت الفائدة إذ لم يبق بعد انقضائها من تكون الأمة حجة عليه، فعلمنا أن المراد به أهل كل عصر، ويجوز تسمية أهل العصر الواحد بالأمة، فإن الأمة اسم للجماعة التي تؤم جهة واحدة، ولا شك أن أهل كل عصر كذلك ولأنه تعالى قال: أمة وسطا فعبر عنهم بلفظ النكرة ولا شك أن هذا يتناول أهل كل عصر.

المسألة الخامسة: اختلف الناس في أن الشهادة المذكورة في قوله تعالى: لتكونوا شهداء على الناس تحصل في الآخرة أو في الدنيا. فالقول الأول: إنها تقع في الآخرة، والذاهبون إلى هذا القول لهم وجهان.

الأول: وهو الذي عليه الأكثرون: أن هذه الأمة تشهد للأنبياء على أممهم الذين يكذبونهم، روي أن الأمم يجحدون تبليغ الأنبياء، فيطالب الله تعالى الأنبياء بالبينة على/ أنهم قد بلغوا وهو أعلم، فيؤتى بأمة محمد صلى الله عليه وسلم الله عليه وسلم فيشهدون فتقول الأمم من أين عرفتم فيقولون: علمنا ذلك بإخبار الله تعالى في كتابه الناطق على لسان نبيه الصادق، فيؤتى بمحمد عليه الصلاة والسلام، فيسأل عن حال أمته فيزكيهم ويشهد بعدالتهم وذلك قوله: فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا [النساء: ٤١] وقد طعن القاضي في هذه الرواية من وجوه:

أولها: أن مدار هذه الرواية عن أن الأمم يكذبون أنبياءهم وهذا بناء على أن القيامة قد يكذبون، وهذا باطل عند القاضي، إلا أنا سنتكلم على هذه المسألة في سورة الأنعام في تفسير قوله تعالى: ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين انظر كيف كذبوا على أنفسهم [الأنعام: ٢٣، ٢٤] .

وثانيها: أن شهادة الأمة وشهادة الرسول مستندة في الآخرة إلى شهادة الله تعالى على صدق الأنبياء، وإذا كان كذلك فلم لم يشهد الله تعالى لهم بذلك ابتداء؟ وجوابه: الحكمة في ذلك تمييز أمة محمد صلى الله عليه وسلم في الفضل عن سائر الأمم بالمبادرة إلى تصديق الله تعالى وتصديق جميع الأنبياء، والإيمان بهم جميعا، فهم بالنسبة إلى سائر الأمم كالعدل بالنسبة إلى الفاسق، فلذلك يقبل الله شهادتهم على سائر الأمم ولا يقبل شهادة الأمم عليهم إظهارا لعدالتهم وكشفا عن فضيلتهم ومنقبتهم.

وثالثها: أن مثل هذه الأخبار لا تسمى شهادة وهذا ضعيف

لقوله عليه الصلاة والسلام: «إذا علمت مثل الشمس فاشهد»

والشيء الذي أخبر الله تعالى عنه فهو معلوم مثل الشمس فوجب جواز الشهادة عليه.

الوجه الثاني: قالوا معنى الآية: لتشهدوا على الناس بأعمالهم التي خالفوا الحق فيها قال ابن زيد:

الأشهاد أربعة. أولها: الملائكة الموكلون بإثبات أعمال العباد. قال تعالى: وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد [ق: ٢١] وقال: ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد [ق: ١٨] وقال: وإن عليكم لحافظين كراما كاتبين يعلمون ما تفعلون [الانفطار: ١٠- ١٢] . وثانيها: شهادة الأنبياء وهو المراد بقوله حاكيا عن عيسى عليه السلام: وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد [المائدة: ١١٧] وقال في حق محمد صلى الله عليه وسلم وأمته في هذه الآية: لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا وقال: فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا." (١)

"المسألة الثالثة: أما أن الابتلاء كيف يصح على الله تبارك وتعالى فقد تقدم في تفسير قوله تعالى: وإذ ابتلى إبراهيم ربه [البقرة: ١٢٤] وأما الحكمة في تقدم تعريف هذا الابتلاء ففيها وجوه. أحدها: ليوطنوا أنفسهم على الصبر عليها إذا وردت، فيكون ذلك أبعد لهم عن الجزع، وأسهل عليهم/ بعد الورود. وثانيها: أنهم إذا علموا أنه ستصل إليهم تلك المحن، اشتد خرقهم، فيصير ذلك الخوف تعجيلا للابتلاء، فيستحقون به مزيد الثواب. وثالثها: أن الكفار إذا شاهدوا محمدا وأصحابه مقيمين على دينهم مستقرين عليه مع ما كانوا عليه من نهاية الضر والمحنة والجوع، يعلمون أن القوم إنما اختاروا هذا الدين لقطعهم بصحته، فيدعوهم ذلك إلى مزيد التأمل في دلائله، ومن المعلوم الظاهر أن التبع إذا عرفوا أن المتبوع في أعظم المحن بسبب المذهب الذي ينصره، ثم رأوه مع ذلك مصرا على ذلك المذهب كان ذلك أدعى لهم إلى اتباعه مما إذا رأوه مرفه الحال لا كلفة عليه في ذلك المذهب. ورابعها: أنه تعالى أخبر بوقوع ذلك الابتلاء قبل وقوعه، فوجد مخبر ذلك الخبر على ما أخبر عنه فكان ذلك إخبارا عن الغيب فكان معجزا. وخامسها: أن من المنافقين من أظهر متابعة الرسول طمعا منه في المال وسعة الرزق فإذا اختبره تعالى بنزول هذه المحن فعند ذلك يتميز المنافق عن الموافق لأن المنافق إذا سمع ذلك نفر منه وترك دينه فكان في هذا الاختبار هذه الفائدة. وسادسها: أن إخلاص الإنسان حالة البلاء ورجوعه إلى باب الله تعالى أكثر من إخلاصه حال إقبال الدنيا عليه، فكانت الحكمة في هذا الابتلاء ذلك.

المسألة الرابعة: إنما قال بشيء على الوحدان، ولم يقل بأشياء على الجمع لوجهين. الأول: لئلا يوهم بأشياء من كل واحد، فيدل على ضروب الخوف والتقدير بشيء من كذا وشيء من كذا. الثاني: معناه

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٤/ ٨٧

بشيء قليل من هذه الأشياء.
المسألة الخامسة: اعلم أن كل ما يلاقيك من مكروه ومحبوب، فينقسم إلى موجود في الحال وإلى ما كان موجودا في الماضي وإلى ما سيوجد في المستقبل، فإذا خطر ببالك موجود فيما مضى سمي ذكرا وتذكرا وإن كان موجودا في الحال: يسمى ذوقا ووجدا وإنما سمي وجدا لأنها حالة تجدها من نفسك وإن كان قد خطر ببالك وجود شيء في الاستقبال وغلب ذلك على قبلك، سمي انتظارا وتوقعا، فإن كان المنتظر مكروها حصل منه ألم في القلب يسمى خوفا وإشفاقا، وإن كان محبوبا سمي ذلك ارتياحا، والارتياح رجاء، فالخوف هو تألم القلب لانتظار ما هو مكروه عنده، والرجاء هو ارتياح القلب لانتظار ما هو محبوب عنده، وأما الجوع فالمراد منه القحط وتعذر تحصيل القوت: قال القفال رحمه الله: أما الخوف الشديد فقد حصل لهم عند مكاشفتهم العرب بسبب الدين، فكانوا لا يأمنون قصدهم إياهم واجتماعهم عليهم، وقد كان من الخوف في وقعة الأحزاب ما كان، قال الله تعالى: هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا [الأحزاب: ١١] وأما الجوع فقد أصابهم في أول مهاجرة النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة لقلة أموالهم، حتى أنه عليه السلام كان يشد الحجر على بطنه،
وروى أبو الهيثم بن التيهان أنه عليه السلام لما خرج التقى مع أبي بكر قال: ما أخرجك؟ قال: الجوع. قال:
أخرجني ما أخرجك:
وأما النقص في الأموال والأنفس فقد يحصل ذلك عند محاربة العدو بأن ينفق الإنسان ماله في الاستعداد للجهاد وقد يقتل، فهناك يحصل/ النقص في المال والنفس وقال الله تعالى: وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم [التوبة: ٤١] وقد يحصل الجوع في السفر الجهاد عند فناء الزاد قال الله تعالى: ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله [التوبة: ١٢٠] وقد يكون النقص في النفس بموت بعض." (١)

"١٥٠] وكان السعي بين الصفا والمروة من شعائر إبراهيم على ما ذكر في قصة بناء الكعبة وسعي هاجر بين الجبلين فلما كان الأمر كذلك ذكر الله تعالى هذا الحكم عقيب تلك الآية. وثانيها: أنه تعالى لما قال: ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع [البقرة: ١٥٥] إلى قوله: وبشر الصابرين قال: إن الصفا والمروة من شعائر الله وإنما جعلهما كذلك لأنهما من آثار هاجر وإسماعيل مما جرى عليهما من البلوى

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ١٢٩/٤

واستدلوا بذلك على أن من صبر على البلوى لا بد وأن يصل إلى أعظم الدرجات وأعلى المقامات. وثالثها: أن أقسام تكليف الله تعالى ثلاثة.

أحدها: ما يحكم العقل بحسنه في أول الأمر فذكر هذا القسم أولا وهو قوله: فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون [البقرة: ١٥٢] فإن كان عاقل يعلم أن ذكر المنعم بالمدح والثناء والمواظبة على شكره أمر مستحسن في العقول. وثانيها: ما يحكم العقل بقبحه في أول الأمر إلا أنه بسبب ورود الشرع به يسلم حسنه، وذلك مثل إنزال الآلام والفقر والمحن فإن ذلك كالمستقبح في العقول لأن الله تعالى لا ينتفع به ويتألم العبد منه فكان ذلك كالمستقبح إلا أن الشرع لما ورد به وبين **الحكمة فيه**، وهي الابتلاء والامتحان على ما قال:

ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع [البقرة: ١٥٥] فحينئذ يعتقد المسلم حسنه وكونه حكمة وصوابا.

وثالثها: الأمر الذي لا يهتدى لا إلى حسنه ولا إلى قبحه، بل يراه كالعبث الخالي عن المنفعة والمضرة وهو مثل أفعال الحج من السعي بين الصفا والمروة، فذكر الله تعالى هذا القسم عقيب القسمين الأولين ليكون قد نبه على جميع أقسام تكاليفه وذكرا لكلها على سبيل الاستيفاء والاستقصاء والله أعلم.

المسألة الثانية: اعلم أن الصفا والمروة علمان للجبلين المخصوصين إلا أن الناس تكلموا في أصل اشتقاقهما قال القفال رحمه الله: قيل إن الصفا واحد ويجمع على صفي وأصفاء كما يقال عصا وعصي، ورحا وأرحاء قال الزاجر:

كأن متنيه من النفي ... مواقع الطير من الصفي

وقد يكون بمعنى جمع واحدته صفاة قال جرير:

إنا إذا قرع العدو صفاتنا ... لاقوا لنا حجرا أصم صلودا

وفي كتاب الخليل: الصفا الحجر الضخم الصلب الأملس، وإذا نعتوا الصخرة قالوا: صفاة صفواء، وإذا ذكروا قالوا: صفا صفوان: فجعل الصفا والصفاة كأنهما في معنى واحد وقال المبرد الصفا كل حجر لا يخالطه غيره من طين أو تراب متصل به، واشتقاقه من صفا يصفوا إذا خلص وأما المروة فقال الخليل: من الحجارة ما كان أبيض أملس صلبا شديد الصلابة، وقاله غير: هو الحجارة الصغيرة يجمع في القليل مروات وفي الكثير مرو قال أبو ذؤيب:

حتى كأني للحوادث مروة ... بصفا المشاعر كل يوم يقرع

وأما شعائر الله فهي أعلام طاعته، وكل شيء جعل علما من أعلام طاعة الله فهو من شعائر/ الله، قال الله تعالى: والبدن جعلناها لكم من شعائر الله [الحج: ٣٦] أي علامة للقربة، وقال: ذلك ومن يعظم شعائر الله [الحج: ٣٢] وشعائر الحج: معالم نسكه ومنه المشعر الحرام، ومنه إشعار السنام: وهو أن يعلم بالمدية فيكون ذلك علما على إحرام صاحبها، وعلى أنه قد جعله هديا لبيت الله، ومنه الشعائر في الحرب،." (١)

"وهو العلامة التي يتبين بها إحدى الفئتين من الأخرى والشعائر جمع شعيرة، وهو مأخوذ من الإشعار الذي هو الإعلام ومنه قولك: شعرت بكذا، أي علمت.

المسألة الثالثة: الشعائر إما أن نحملها على العبادات أو على النسك، أو نحملها على مواضع العبادات والنسك، فإن قلنا بالأول حصل في الكلام حذف، لأن نفس الجبلين لا يصح وصفهما بأنهما دين ونسك، فالمراد به أن الطواف بينهما والسعي من دين الله تعالى، وإن قلنا بالثاني استقام ظاهر الكلام، لأن هذين الجبلين يمكن أن يكونا موضعين للعبادات والمناسك وكيف كان فالسعي بين هذين الجبلين من شعائر الله ومن أعلام دينه، وقد شرعه الله تعالى لأمة محمد صلى الله عليه وسلم ولإبراهيم عليه السلام قبل ذلك، وهو من المناسك الذي حكى الله تعالى عن إبراهيم عليه السلام أنه قال: وأرنا مناسكنا [البقرة: ١٢٨] واعلم أن السعي ليس عبادة تامة في نفسه بل إنما يصير عبادة إذا صار بعضا من أبعاض الحج، فلهذا السر بين الله تعالى الموضع الذي فيه يصير السعي عبادة فقال: فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما.

المسألة الرابعة: **الحكمة في شرع** هذا السعي الحكاية المشهورة وهي أن هاجر أم إسماعيل حين ضاق بها الأمر في عطشها وعطش ابنها إسماعيل عليه السلام أغاثها الله تعالى بالماء الذي أنبعه لها ولابنها من زمزم حتى يعلم الخلق أنه سبحانه وإن كان لا يخلي أولياءه في دار الدنيا من أنواع المحن إلا أن فرجه قريب ممن دعاه فإنه غياث المستغيثين، فانظر إلى حال هاجر وإسماعيل كيف أغاثهما وأجاب دعاءهما، ثم جعل أفعالهما طاعة لجميع المكلفين إلى يوم القيامة، وآثارهما قدوة للخلائق أجمعين ليعلم أن الله لا يضيع أجر المحسنين، وكل ذلك تحقيق لما أخبر به قبل ذلك من أنه يبتلي عباده بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات إلا أن من صبر على ذلك نال السعادة في الدارين وفاز

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ١٣٥/٤

بالمقصد الأقصى في المنزلين.

المسألة الخامسة: ذكر القفال في لفظ الحج أقوالا. الأول: الحج في اللغة كثرة الاختلاف إلى شيء والتردد إليه، فمن زار البيت للحج فإنه يأتيه أولا ليعرفه ثم يعود إليه للطواف ثم ينصرف إلى منى ثم يعود إليه لطواف الزيارة ثم يعود إليه لطواف الصدر. الثاني: قال قطرب: الحج الحلق يقال: احجج شجتك، وذلك أن يقطع الشعر من نواحي الشجة ليدخل المحجاج في الشجة، فيكون المعنى: حج فلان أي خلق، قال القفال وهذا محتمل لقوله تعالى: لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤسكم ومقصرين [الفتح: ٢٧] أي حجاجا وعمارا، فعبر عن ذلك بالحلق فلا يبعد أن يكون الحج مسمى بهذا الاسم لمعنى الحلق. الثالث: قال قوم الحج القصد، يقال: رجل محجوج، ومكان/ محجوج إذا كان مقصودا، ومن ذلك محجة الطريق، فكان البيت لما كان مقصودا بهذا النوع من العبادة سمي ذلك الفعل حجا، قال القفال: والقول الأول أشبه بالصواب لأن قولهم رجل محجوج إنما هو فيمن يختلف إليه مرة بعد أخرى، وكذلك محجة الطريق هو الذي كثر السير إليه.

وأما العمرة فقال أهل اللغة: الاعتمار هو القصد والزيارة، قال الأعشى:

وجاشت النفس لما جاء جمعهم ... وراكب جاء من تثليث معتمر

وقال قطرب: العمرة في كلام عبد القيس: المسجد، والبيعة، والكنيسة، قال القفال: ولا شبهة في." (١)

"القول الثاني: أن الضمير يرجع إلى الإيتاء كأنه قيل: يعطي ويحب الإعطاء رغبة في ثواب الله.

القول الثالث: أن الضمير عائد على اسم الله تعالى، يعني يعطون المال على حب الله أي على طلب مرضاته.

المسألة الثانية: اختلفوا في المراد من هذا الإيتاء فقال قوم: إنها الزكاة وهذا ضعيف وذلك لأنه تعالى عطف الزكاة عليه بقوله: وأقام الصلاة وآتى الزكاة ومن حق المعطوف والمعطوف عليه أن يتغايرا، فثبت أن المراد به غير الزكاة، ثم إنه لا يخلوا إما أن يكون من التطوعات أو من الواجبات، لا جائز أن يكون من التطوعات لأنه تعالى قال في آخر الآية: أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون وقف التقوى عليه، ولو كان ذلك ندبا لما وقف التقوى عليه، فثبت أن هذا الإيتاء، وإن كان غير الزكاة إلا أنه من الواجبات ثم فيه قولان:

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ١٣٦/٤

القول الأول: أنه عبارة عن دفع الحاجات الضرورية مثل إطعام المضطر، ومما يدل على تحقق هذا الوجوب النص والمعقول، أما النص

فقوله عليه الصلاة والسلام «لا يؤمن بالله واليوم الآخر من بات شبعانا وجاره طاو إلى جنبه»

وروي عن فاطمة بنت قيس: أن في المال حقا سوى الزكاة، ثم تلت وآتى المال على حبه وحكي عن الشعبي أنه سئل عمن له مال فأدى زكاته فهل عليه شيء سواه؟ فقال: نعم يصل القرابة، ويعطي السائل، ثم تلا هذه الآية، وأما العقل فإنه لا خلاف أنه إذا انتهت الحاجة إلى الضرورة، وجب على الناس أن يعطوه مقدار دفع الضرورة/ وإن لم تكن الزكاة واجبة عليهم، ولو امتنعوا من الإعطاء جاز الأخذ منهم قهرا، فهذا يدل على أن هذا الإيتاء واجب، واحتج من طعن في هذا القول بما

روي عن علي رضي الله عنه أنه قال: إن الزكاة نسخت كل حق.

والجواب: من وجوه الأول: أنه معارض بما

روي أنه عليه الصلاة والسلام قال: «في المال حقوق سوى الزكاة»

وقول الرسول أولى من قول علي الثاني: أجمعت الأمة على أنه إذا حضر المضطر فإنه يجب أن يدفع إليه ما يدفع الضرر، وإن كان قد أدى الزكاة بالكمال الثالث: المراد أن الزكاة نسخت الحقوق المقدرة، أما الذي لا يكون مقدرا فإنه غير منسوخ بدليل أنه يلزم التصدق عند الضرورة، ويلزم النفقة على الأقارب، وعلى المملوك، وذلك غير مقدر، فإن قيل: هب أنه صح هذا التأويل لكن ما **الحكمة في** هذا الترتيب؟ قلنا فيه وجوه أحدها:

أنه تعالى قدم الأولى فالأولى لأن الفقير إذا كان قريبا فهو أولى بالصدقة من غيره من حيث إنه يكون ذلك جامعا بين الصلة والصدقة، ولأن القرابة من أوكد الوجوه في صرف المال إليه وذلك يستحق به الإرث ويحجر بسببه على المالك في الوصية، حتى لا يتمكن من الوصية إلا في الثلث، ولذلك كانت الوصية للأقارب من الواجبات على ما قال كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت [آل عمران: ١٨٠] الآية، وإن كانت تلك الوصية قد صارت منسوخة إلا عند بعضهم، فلهذه الوجوه قدم ذا القربى، ثم أتبعه تعالى باليتامى، لأن الصغير الفقير الذي لا والد له ولا كاسب فهو منقطع الحيلة من كل الوجوه، ثم أتبعهم تعالى بذكر المساكين لأن الحاجة قد تشتد بهم، ثم ذكر ابن السبيل إذ قد تشتد حاجته عند اشتداد رغبته إلى أهله، ثم ذكر السائلين وفي الرقاب لأن حاجتهما دون حاجة من تقدم ذكره وثانيها: أن معرفة المرء

بشدة حاجة هذه الفرق تقوى وتضعف، فرتب تعالى ذكر هذه الفرق على هذا الوجه لأن علمه بشدة حاجة من يقرب إليه أقرب، ثم بحاجة الأيتام، ثم بحاجة." (١)

"كما كتب على الذين من قبلكم [البقرة: ١٨٣] وتكون المماثلة واقعة بين الفرضين من هذا الوجه، وهو تعليق الصوم بمدة غير متطاولة وإن اختلفت المدتان في الطول والقصر، ويكون المراد ما ذكرناه من تعريفه سبحانه إيانا أن فرض الصوم علينا وعلى من قبلنا ما كان إلا مدة قليلة لا تشتد مشقتها، فكان هذا بيانا لكونه تعالى رحيما بجميع الأمم، ومسهلا أمر التكاليف على كل الأمم.

أما قوله تعالى: فمن كان منكم مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر فالمراد منه أن فرض الصوم في الأيام المعدودات إنما يلزم الأصحاء المقيمين فأما من كان مريضا أو مسافرا فله تأخير الصوم عن هذه الأيام إلى أيام أخر قال القفال رحمه الله: انظروا إلى عجيب ما نبه الله عليه من سعة فضله ورحمته في هذا التكليف، وأنه تعالى بين في أول الآية أن لهذه الأمة في هذا التكليف أسوة بالأمة المتقدمة والغرض منه ما ذكرنا أن الأمور الشاقة إذا عمت خفت، ثم ثانيا بين وجه **الحكمة في** إيجاب الصوم، وهو أنه سبب لحصول التقوى، فلو لم يفرض الصوم لفات هذا المقصود الشريف، ثم ثالثا: بين أنه مختص بأيام معدودة، فإنه لو جعله أبدا أو في أكثر الأوقات لحصلت المشقة العظيمة ثم بين رابعا: أنه خصه من الأوقات بالشهر الذي أنزل فيه القرآن لكونه أشرف الشهور بسبب هذه الفضيلة، ثم بين خامسا: إزالة المشقة في إلزامه فأباح تأخيره لمن شق عليه من المسافرين والمرضى إلى أن يصيروا إلى الرفاهية والسكون، فهو سبحانه راعى في إيجاب الصوم هذه/ الوجوه من الرحمة فله الحمد على نعمه كثيرا، إذا عرفت هذا فنقول في الآية مسائل:

المسألة الأولى: قوله تعالى: فمن كان منكم مريضا إلى قوله: أخر فيه معنى الشرط والجزاء أي من يكن منكم مريضا أو مسافرا فأفطر فليقض، وإذا قدرت فيه معنى الشرط كان المراد بقوله كان الاستقبال لا الماضي، كما تقول: من أتاني أتيته.

المسألة الثانية: المرض عبارة عن عدم اختصاص جميع أعضاء الحي بالحالة المقتضية لصدور أفعاله سليمة سلامة تليق به، واختلفوا في المرض المبيح للفطر على ثلاثة أقوال أحدها: أن أي مريض كان، وأي مسافر كان، فله أن يترخص تنزيلا للفظه المطلق على أقل أحواله، وهذا قول الحسن وابن سيرين، يروى أنهم

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢١٦/٥

دخلوا على ابن سيرين في رمضان وهو يأكل، فاعتل بوجع أصبعه وثانيها: أن هذه الرخصة مختصة بالمريض الذي لو صام لوقع في مشقة وجهد، وبالمسافر الذي يكون كذلك، وهذا قول الأصم، وحاصله تنزيل اللفظ المطلق على أكمل الأحوال وثالثها: وهو قول أكثر الفقهاء: أن المرض المبيح للفطر هو الذي يؤدي إلى ضرر النفس أو زيادة في العلة، إذ لا فرق في الفعل بين ما يخاف منه وبين ما يؤدي إلى ما يخاف منه كالمحموم إذا خاف أنه لو صام تشتد حماه، وصاحب وجع العين يخاف إن صام أن يشتد وجع عينه، قالوا: وكيف يمكن أن يقال كل مرض مرخص مع علمنا أن في الأمراض ما ينقصه الصوم، فالمراد إذن منه ما يؤثر الصوم في تقويته، ثم تأثيره في الأمر اليسير لا عبرة به، لأن ذلك قد يحصل فيمن ليس بمريض أيضا، فإذن يجب في تأثيره ما ذكرناه.

المسألة الثالثة: أصل السفر من الكشف وذلك أنه يكشف عن أحوال الرجال وأخلاقهم والمسفرة المكنسة، لأنها تسفر التراب عن الأرض، والسفير الداخل بين اثنين للصلح، لأنه يكشف المكروه الذي اتصل بهما، والمسفر المضيء، لأنه قد انكشف وظهر ومنه أسفر الصبح والسفر الكتاب، لأنه يكشف عن المعاني." (١)

"عظيم من آيات العبودية وهو الصوم، مما يحقق ذلك أن الأنوار الصمدية متجلية أبدا يمتنع عليها الإخفاء والاحتجاب إلا أن العلائق البشرية مانعة من ظهورها في الأرواح البشرية والصوم أقوى الأسباب في إزالة العلائق البشرية ولذلك فإن أرباب المكاشفات لا سبيل لهم إلى التوصل إليها إلا بالصوم، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: «لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السموات» فثبت أن بين الصوم وبين نزول القرآن مناسبة عظيمة فلما كان هذا الشهر مختصا بنزول القرآن، وجب أن يكون مختصا بالصوم، وفي هذا الموضع أسرار كثيرة والقدر الذي أشرنا إليه كاف هاهنا، ثم هاهنا مسائل:

المسألة الأولى: قوله تعالى: أنزل فيه القرآن في تفسيره قولان الأول: وهو اختيار الجمهور: أن الله تعالى أنزل القرآن في رمضان

عن النبي صلى الله عليه وسلم: «نزل صحف إبراهيم في أول ليلة من رمضان وأنزلت التوراة لست مضين والإنجيل لثلاث عشر والقرآن لأربع وعشرين»

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٥/٢٤٣

وهاهنا سؤالات:

السؤال الأول: أن القرآن ما نزل على محمد عليه الصلاة والسلام دفعة، وإنما نزل عليه في مدة ثلاث وعشرين سنة منجما مبعضا، وكما نزل بعضه في رمضان نزل بعضه في سائر الشهور، فما معنى تخصيص إنزاله برمضان.

والجواب عنه من وجهين الأول: أن القرآن أنزل في ليلة القدر جملة إلى سماء الدنيا، ثم نزل إلى الأرض نجوما، وإنما جرت الحال على هذا الوجه لما علمه تعالى من المصلحة على هذا الوجه فإنه لا يبعد أن يكون للملائكة الذين هم سكان سماء الدنيا مصلحة في إنزال ذلك إليهم أو كان في المعلوم أن في ذلك مصلحة للرسول عليه السلام في توقع الوحي من أقرب الجهات، أو كان فيه مصلحة لجبريل عليه السلام، لأنه كان هو المأمور بإنزاله وتأديته، أما **الحكمة في** إنزال القرآن على الرسول منجما مفرقا فقد شرحناها في سورة الفرقان في تفسير قوله تعالى: وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك [الفرقان: ٣٢] .

الجواب الثاني عن هذا السؤال: أن المراد منه أنه ابتدئ إنزاله ليلة القدر من شهر رمضان وهو قول محمد بن إسحاق وذلك لأن مبادئ الملل والدول هي التي يؤرخ بها لكونها أشرف الأوقات ولأنها أيضا أوقات مضبوطة معلومة.

واعلم أن الجواب الأول لا يحتاج فيه إلى تحمل شيء من المجاز وهاهنا يحتاج فإنه لا بد على هذا الجواب من حمل القرآن على بعض أجزائه وأقسامه.

السؤال الثاني: كيف الجمع بين هذه الآية على هذا القول، وبين قوله تعالى: إنا أنزلناه في ليلة القدر [القدر: ١] وبين قوله: إنا أنزلناه في ليلة مباركة [الدخان: ٣] .

والجواب: روي أن ابن عمر استدل بهذه الآية وبقوله: إنا أنزلناه في ليلة القدر أن ليلة القدر لا بد وأن تكون في رمضان، وذلك لأن ليلة القدر إذا كانت في رمضان كان إنزاله في ليلة القدر إنزالا له في رمضان، وهذا كمن يقول: لقيت فلانا في هذا الشهر فيقال له. في أي يوم منه فيقول يوم كذا فيكون ذلك تفسيرا للكلام الأول فكذا هاهنا.." (١)

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٥٢/٥

"المسألة الأولى: نقل عن ابن عباس أنه قال: ما كان قوم أقل سؤالا من أمة محمد صلى الله عليه وسلم سألوا عن أربعة عشر حرفا فأجيبوا.

وأقول: ثمانية منها في سورة البقرة أولها: وإذا سألك عبادي عني فإني قريب [البقرة: ١٨٦] وثانيها: هذه الآية ثم الستة الباقية بعد في سورة البقرة، فالمجموع ثمانية في هذه السورة والتاسع: قوله تعالى في سورة المائدة: يسئلونك ماذا أحل لهم [المائدة: ٤] والعاشر: في سورة الأنفال يسئلونك عن الأنفال [الأنفال: ١] والحادي عشر: في بني إسرائيل يسئلونك عن الروح [الإسراء: ٨٥] والثاني عشر: في الكهف ويسئلونك عن ذي القرنين [الكهف: ٨٣] والثالث عشر: في طه ويسئلونك عن الجبال [طه: ١٠٥] والرابع عشر: في النازعات يسئلونك عن الساعة [النازعات: ٤٢] ولهذه الأسئلة ترتيب عجيب: اثنان منها في الأول في شرح المبدأ فالأول: قوله: وإذا سألك عبادي عني [البقرة: ١٨٦] وهذا سؤال عن الذات والثاني: قوله: يسئلونك/ عن الأهلة وهذا سؤال عن صفة الخلاقية **والحكمة في** جعل الهلال على هذا الوجه، واثنان منها في الآخرة في شرح المعاد أحدهما: قوله: ويسئلونك عن الجبال والثاني: قوله: يسئلونك عن الساعة أيان مرساها [الأعراف: ١٨٧] ونظير هذا أنه ورد في القرآن سورتان أولهما: يا أيها الناس [البقرة: ٢١] أحدهما: في النصف الأول: وهي السورة الرابعة من سورة النصف الأول، فإن أولاها الفاتحة وثانيتها البقرة وثالثها آل عمران ورابعتها النساء وثانيتهما: في النصف الثاني من القرآن وهي أيضا السورة الرابعة من سور النصف الثاني أولاها مريم، وثانيتها طه، وثالثتها الأنبياء، ورابعتها الحج، ثم يا أيها الناس التي في النصف الأول تشتمل على شرح المبدأ فقال يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة [النساء: ١] ويا أيها الناس التي في النصف الثاني تشتمل على شرح المعاد فقال: يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم [الحج: ١] فسبحان من له في هذا القرآن أسرار خفية، وحكم مطوية لا يعرفها إلا الخواص من عبيده.

المسألة الثانية:

روي أن معاذ بن جبل وثعلبة بن غنم وكل واحد منهما كان من الأنصار قالا يا رسول الله: ما بال الهلال يبدو دقيقا مثل الخيط ثم يزيد حتى يمتلئ ويستوي، ثم لا يزال ينقص حتى يعود كما بدأ، لا يكون على حالة واحدة كالشمس، فنزلت هذه الآية ويروى أيضا عن معاذ أن اليهود سألت عن الأهلة. واعلم أن قوله تعالى: يسئلونك عن الأهلة ليس فيه بيان أنهم عن أي شيء سألوا لكن الجواب كالدال

على موضع السؤال، لأن قوله: قل هي مواقيت للناس والحج يدل على أن سؤالهم كان على وجه الفائدة والحكمة في تغير حال الأهلة في النقصان والزيادة، فصار القرآن والخبر متطابقين في أن السؤال كان عن هذا المعنى.

المسألة الثالثة: الأهلة جمع هلال وهو أول حال القمر حين يراه الناس، يقال له: هلال ليلتين من أول الشهر ثم يكون قمرا بعد ذلك، وقال أبو الهيثم: يسمى القمر ليلتين من أول الشهر هلالا، وكذلك ليلتين من آخر الشهر، ثم يسمى ما بين ذلك قمرا، قال الزجاج: فعال يجمع في أقل العدد على أفعلة، نحو مثال وأمثلة، وحمار وأحمرة، وفي أكثر العدد يجمع على فعل مثل حمر لأنهم كرهوا في التضعيف فعل، نحو هلل وخلل، فاقتصروا على جمع أدنى العدد.." (١)

"وأما الشهر فهو عبارة عن دورة القمر في فلكه الخاص وزعموا أن نوره مستفاد من الشمس وأبدا يكون أحد نصفيه مضيئا بالتمام إلا أنه عند الاجتماع يكون النصف المضيء هو النصف الفوقاني فلا جرم نحن لا نرى من نوره شيئا وعند الاستقبال يكون نصفه المضيء مواجها لنا فلا جرم نراه مستنيرا بالتمام، وكلما كان القمر أقرب إلى الشمس، كان المرئي من نصفه المضيء أقل وكلما كان أبعد كان المرئي من نصفه المضيء أكثر، ثم إنه من وقت الاجتماع إلى وقت الانفصال يكون كل ليلة أبعد من الشمس، ويرى كل ليلة ضوءه أكثر من وقت الاستقبال إلى وقت الاجتماع، ويكون كل ليلة أقرب إلى الشمس، فلا جرم يرى كل ليلة ضوءه أقل، ولا يزال يقل ويقل: حتى عاد كالعرجون القديم [يس: ٣٩] فهذا ما قاله أصحاب الطبائع والنجوم.

وأما الذي يقوله الأصوليون فهو أن القمر جسم، والأجسام كلها متساوية في الجسمية، والأشياء المتساوية في تمام الماهية يمتنع اختلافها في اللوازم، وهذه مقدمة يقينية فإذن حصول الضوء في جرم الشمس والقمر أمر جائز أن يحصل، وما كان كذلك امتنع رجحان وجوده على عدمه إلا بسبب الفاعل المختار، وكل ما كان فعلا لفاعل مختار، فإن ذلك يكون قادرا على إيجاده وعلى إعدامه، وعلى هذا التقدير فلا حاجة إلى إسناد هذه الاختلافات الحاصلة في نور القمر إلى قربها وبعدها من الشمس، بل عندنا أن حصول النور في جرم الشمس إنما كان بسبب إيجاد القادر المختار، وكذا الذي في جرم القمر.

بقي هاهنا أن يقال الفاعل المختار لم خصص القمر دون الشمس بهذه الاختلافات، فنقول لعلماء الإسلام

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٨١/٥

في هذا المقام جوابان أحدهما: أن يقال: إن فاعلية الله تعالى لا يمكن تعليلها بغرض ومصلحة، ويدل عليه وجوه أحدها: إن من فعل فعلا لغرض فإن قدر على تحصيل ذلك الغرض بدون تلك الواسطة، فحينئذ يكون فعل تلك الواسطة عبثا، وإن لم يقدر فهو عاجز وثانيها: إن كل من فعل فعلا لغرض، فإن كان وجود ذلك الغرض أولى له من لا وجوده فهو ناقص بذاته، مستكمل بغيره، وإن لم يكن أولى له لم يكن غرضا وثالثها: أنه لو كان فعله معللا بغرض فذلك الغرض إن كان محدثا افتقر إحداثه إلى غرض آخر، وإن كان قديما لزم من قدمه قدم الفعل وهو محال، فلا جرم قالوا: كل شيء صنعه ولا علة لصنعه، ولا يجوز تعليل أفعاله وأحكامه ألبتة لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون [الأنبياء: ٢٣] .

والجواب الثاني: قول من قال: لا بد في أفعال الله وأحكامه من رعاية المصالح والحكم، والقائلون بهذا المذهب سلموا أن العقول البشرية قاصرة في أكثر المواضع عن الوصول إلى أسرار/ حكم الله تعالى في ملكه وملكوته، وقد دللنا على أن القوم إنما سألوا عن الحكمة في اختلاف أحوال القمر فالله سبحانه وتعالى ذكر وجوه الحكمة فيه وهو قوله: قل هي مواقيت للناس والحج وذكر هذا المعنى في آية أخرى وهو قوله:

وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب [يونس: ٥] وقال في آية ثالثة فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب [الإسراء: ١٢] وتفصيل القول فيه أن تقدير الزمان بالشهور فيه منافع بعضها متصل بالدين وبعضها بالدنيا، أما ما يتصل منها بالدين فكثيرة منها الصوم، قال الله تعالى: شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن [البقرة: ١٨٥] وثانيها: الحج، قال الله تعالى:

الحج أشهر معلومات [البقرة: ١٩٧] وثالثها: عدة المتوفى عنها زوجها قال الله تعالى: يتربص بأنفسهن." (١)

"اتقى مخالفة الله وأمرهم بترك سنة الجاهلية فقال: وأتوا البيوت من أبوابها فهذا ما قيل في سبب نزول هذه الآية.

المسألة الثانية: ذكروا في تفسير الآية ثلاثة أوجه الأول: وهو قول أكثر المفسرين حمل الآية على هذه الأحوال التي رويناها في سبب النزول، إلا أن على هذا التقدير صعب الكلام في نظم الآية، فإن القوم سألوا

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٥/٢٨٣

رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الحكمة في تغيير نور القمر، فذكر الله تعالى الحكمة في ذلك، وهي قوله: قل هي مواقيت للناس والحج فأي تعلق بين بيان الحكمة في اختلاف نور القمر، وبين هذه القصة، ثم القائلون بهذا القول أجابوا عن هذا السؤال من وجوه أحدها: أن الله تعالى لما ذكر أن الحكمة في اختلاف أحوال الأهلة جعلها مواقيت للناس/ والحج، وكان هذا الأمر من الأشياء التي اعتبروها في الحج لا جرم تكلم الله تعالى فيه وثانيها: أنه تعالى إنما وصل قوله: وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها بقوله: يسئلونك عن الأهلة لأنه إنما اتفق وقوع القصتين في وقت واحد فنزلت الآية فيهما معا في وقت واحد ووصل أحد الأمرين بالآخر وثالثها: كأنهم سألوا عن الحكمة في اختلاف حال الأهلة فقيل لهم: اتركوا السؤال عن هذا الأمر الذي لا يعنيكم وارجعوا إلى ما البحث عنه أهم لكم فإنكم تظنون أن إتيان البيوت من ظهورها بر وليس الأمر كذلك.

القول الثاني: في تفسير الآية أن قوله تعالى: وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها مثل ضربه الله تعالى لهم، وليس المراد ظاهره، وتفسيره أن الطريق المستقيم المعلوم هو أن يستدل بالمعلوم على المظنون، فأما أن يستدل بالمظنون على المعلوم فذاك عكس الواجب وضد الحق وإذا عرفت هذا فنقول: إنه قد ثبت بالدلائل أن للعالم صانعا مختارا حكيما، وثبت أن الحكيم لا يفعل إلا الصواب البريء عن العبث والسفه، ومتى عرفنا ذلك، وعرفنا أن اختلاف أحوال القمر في النور من فعله علمنا أن فيه حكمة ومصلحة، وذلك لأن علمنا بهذا الحكيم الذي لا يفعل إلا الحكمة يفيدنا القطع بأن فيه حكمة، لأنه استدلال بالمعلوم على المجهول، فأما أن يستدل بعدم علمنا بما فيه من الحكمة على أن فاعله ليس بالحكيم، فهذا الاستدلال باطل، لأنه استدلال بالمجهول على القدح في المعلوم إذا عرفت هذا فالمراد من قوله تعالى: وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها يعني أنكم لما لم تعلموا حكمته في اختلاف نور القمر صرتم شاكين في حكمة الخالق، فقد أتيتم الشيء لا من البر ولا من كمال العقل إنما البر أن تأتوا البيوت من أبوابها فتستدلوا بالمعلوم المتيقن وهو حكمة خالقها على هذا المجهول فتقطعوا بأن فيه حكمة بالغة، وإن كنتم لا تعلمونها، فجعل إتيان البيوت من ظهورها كناية عن العدول عن الطريق الصحيح، وإتيانها من أبوابها كناية عن التمسك بالطريق المستقيم، وهذا طريق مشهور في الكناية فإن من أرشد غيره إلى الوجه الصواب يقول له: ينبغي أن تأتي الأمر من بابه وفي ضده يقال: إنه ذهب إلى الشيء من غير بابه قال تعالى: فنبذوه وراء ظهورهم [آل عمران: ١٨٧] وقال:

واتخذتموه وراءكم [هود: ٩٢] فلما كان هذا طريقا مشهورا معتادا في الكنايات، ذكره الله تعالى هاهنا، وهذا تأويل المتكلمين ولا يصح تفسير هذه الآية فإن تفسيرها بالوجه الأول يطرق إلى الآية سوء الترتيب وكلام الله منزه عنه.

القول الثالث: في تفسير الآية ما ذكره أبو مسلم، أن المراد من هذه الآية ما كانوا يعلمونه من النسيء،." (١)

"في هذا القدر بيان أنه طاعة عظيمة كاملة عند الله سبحانه وتعالى، فلما قال/ بعده: تلك عشرة كاملة دل ذلك على أن هذه الطاعة في غاية الكمال، وذلك لأن الصوم مضاف إلى الله تعالى بلام الاختصاص على ما قال تعالى: الصوم لي والحج أيضا مضاف إلى الله تعالى بلام الاختصاص، على ما قال: وأتموا الحج والعمرة لله وكما دل النص على مزيد اختصاص لهاتين العبادتين بالله سبحانه وتعالى، فالعقل دل أيضا على ذلك، أما في حق الصوم فلأنه عبادة لا يطلع العقل ألبتة على وجه **الحكمة فيها**، وهو مع ذلك شاق على النفس جدا، فلا جرم لا يؤتى به إلا لمحض مرضاة الله تعالى، والحج أيضا عبادة لا يطلع العقل ألبتة على وجه **الحكمة فيها**، وهو مع ذلك شاق جدا لأنه يوجب مفارقة الأهل والوطن، ويوجب التباعد عن أكثر اللذات، فلا جرم لا يؤتى به إلا لمحض مرضاته، ثم إن هذه الأيام العشرة بعضه واقع في زمان الحج فيكون جمعا بين شيئين شاقين جدا، وبعضه واقع بعد الفراغ من الحج وهو انتقال من شاق إلى شاق، ومعلوم أن ذلك سبب لكثرة الثواب وعلو الدرجة فلا جرم أوجب الله تعالى صيام هذه الأيام العشرة، وشهد سبحانه على أنه عبادة في غاية الكمال والعلو، فقال: تلك عشرة كاملة فإن التنكير في هذا الموضع يدل على تعظيم الحال، فكأنه قال:

عشرة وأية عشرة، عشرة كاملة، فقد ظهر بهذه الوجوه العشرة اشتمال هذه الكلمة على هذا الفوائد النفيسة، وسقط بهذا البيان طعن الملحدين في هذه الآية والحمد لله رب العالمين.

أما قوله تعالى: ذلك لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام ففيه مسائل:

المسألة الأولى: قوله: ذلك إشارة إلى ما تقدم، وأقرب الأمور المذكورة ذكر ما يلزم المتمتع من الهدي وبدله، وأبعد منهم ذكر تمتعهم. فلهذا السبب اختلفوا، فقال الشافعي رضي الله عنه، إنه راجع إلى الأقرب، وهو لزوم الهدي وبدله على المتمتع، أي إنما يكون إذا لم يكن المتمتع من حاضري المسجد

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٨٦/٥

الحرام، فأما إذا كان من أهل الحرم فإنه لا يلزمه الهدي ولا بدله، وذلك لأن عند الشافعي رضي الله عنه هذا الهدي إنما لزم الآفاقي لأنه كان من الواجب عليه أن يحرم عن الحج من الميقات: فلما أحرم من الميقات عن العمرة، ثم أحرم عن الحج لا من الميقات، فقد حصل هناك الخلل فجعل مجبورا بهذا الدم، والمك◌ي لا يجب عليه أن يحرم من الميقات، فإقدامه على التمتع لا يوقع خللا في حجه، فلا جرم لا يجب عليه الهدي ولا بدل، وقال أبو حنيفة رضي الله عنه: إن قوله: ذلك إشارة إلى الأبعد، وهو ذكر التمتع، وعنده لا متعة ولا قران لحاضري المسجد الحرام، ومن تمتع أو قرن كان عليه دم هو دم جناية لا يأكل منه، حجة الشافعي رضي الله عنه من وجوه.

الحجة الأولى: قوله تعالى: فمن تمتع بالعمرة إلى الحج عام يدخل فيه الحرمي.

الحجة الثانية: قوله: ذلك كناية فوجب عودها إلى المذكور الأقرب، وهو وجوب/ الهدي، وإذا خص إيجاد الهدي بالمتمتع الذي يكون آفاقيا لزم القطع بأن غير الآفاقي قد يكون أيضا متمتعا.

الحجة الثالثة: أن الله تعالى شرع القران والمتعة إبانة لنسخ ما كان عليه أهل الجاهلية في تحريمهم العمرة في أشهر الحج والنسخ يثبت في حق الناس كافة.

الحجة الرابعة: أن من كان من أهل الإفراد كان من أهل المتعة قياسا على المدني، إلا أن المتمتع المكي." (١)

"عليه الحج في وقت إبراهيم عليه السلام، وهو المراد

بقوله عليه الصلاة والسلام في حجة الوداع: «ألا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض»

فهذا مجموع ما قاله المفسرون في هذا الباب.

وذكر القاضي كلاما حسنا في هذا الموضع فقال: قوله تعالى: فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج يحتمل أن يكون خبرا وأن يكون نهيا كقوله: لا ريب فيه [السجدة: ٢] أي لا ترتابوا فيه، وظاهر اللفظ للخبر فإذا حملناه على الخبر كان معناه أن الحج لا يثبت مع واحدة من هذه الخلال بل يفسد لأنه كالضد لها وهي مان◌ِعة من صحته، وعلى هذا الوجه لا يستقيم المعنى، إلا أن يراد بالرفث الجماع المفسد للحج، ويحمل الفسوق على الزنا لأنه يفسد الحج، ويحمل الجدال على الشك في الحج ووجوبه لأن

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٣١٢/٥

ذلك يكون كفرا فلا يصح معه الحج وإنما حملنا هذه الألفاظ الثلاثة على هذه المعاني حتى يصح خبر الله بأن هذه الأشياء لا توجد مع الحج، فإن قيل: أليس أن مع هذه الأشياء يصير الحج فاسدا ويجب على صاحبه المضي فيه، وإذا كان الحج باقيا معها لم يصدق الخبر بأن هذه الأشياء لا توجد مع الحج، قلنا: المراد من الآية حصول المضادة بين هذه الأشياء وبين الحجة التي أمر الله تعالى بها ابتداء وتلك الحجة الصحيحة لا تبقى مع هذه الأشياء بدليل أنه يجب قضاؤها، والحجة الفاسدة التي يجب عليه المضي فيها شيء آخر سوى تلك الحجة التي أمر الله تعالى بها ابتداء، وأما الجدال الحاصل بسبب الشك في وجوب الحج فظاهر أنه لا يبقى معه عمل الحج لأن ذلك كفر وعمل الحج مشروط بالإسلام فثبت أنا إذا حملنا اللفظ على الخبر وجب حمل الرفث والفسوق الجدال على ما ذكرناه، أما إذا حملناه على النهي وهو في الحقيقة عدول عن ظاهر اللفظ فقد يصح أن يراد بالرفث الجماع ومقدماته وقول الفحش، وأن يراد بالفسوق جميع أنواعه، وبالجدال جميع أنواعه، لأن اللفظ مطلق ومتناول لكل هذه الأقسام فيكون النهي عنها نهيا عن جميع أقسامها، وعلى هذا الوجه تكون هذه الآية كالحث على الأخلاق الجميلة، والتمسك بالآداب الحسنة، والاحتراز عما/ يحبط ثواب الطاعات.

المسألة الثالثة: **الحكمة في** أن الله تعالى ذكر هذه الألفاظ الثلاثة لا أزيد ولا أنقص، وهو قوله: فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج هي أنه قد ثبت في العلوم العقلية أن الإنسان فيه قوى أربعة: قوة شهوانية بهيمية، وقوة غضبية سبعية، وقوة وهمية شيطانية، وقوة عقلية ملكية، والمقصود من جميع العبادات قهر القوى الثلاثة، أعني الشهوانية، والغضبية، والوهمية، فقوله فلا رفث إشارة إلى قهر الشهوانية، وقوله: ولا فسوق إشارة إلى قهر القوة الغضبية التي توجب التمرد والغضب، وقوله: ولا جدال إشارة إلى القوة الوهمية التي تحمل الإنسان على الجدال في ذات الله، وصفاته، وأفعاله، وأحكامه، وأسمائه، وهي الباعثة للإنسان على منازعة الناس ومماراتهم، والمخاصمة معهم في كل شيء، فلما كان منشأ الشر محصورا في هذه الأمور الثلاثة لا جرم قال: فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج أي فمن قصد معرفة الله ومحبته والاطلاع على نور جلاله، والانخراط في سلك الخواص من عباده، فلا يكون فيه هذه الأمور، وهذه أسرار نفسية هي المقصد الأقصى من هذه الآيات، فلا ينبغي أن يكون العاقل غافلا عنها، ومن الله التوفيق في كل الأمور.

المسألة الرابعة: من الناس من عاب الاستدلال والبحث والنظر والجدال واحتج بوجوه أحدها: أنه تعالى

قال: ولا جدال في الحج وهذا يقتضي نفي جميع أنواع الجدال، ولو كان الجدال في الدين طاعة وسبيلا." (١)

"ومعاذا ونفرا من الصحابة قالوا: يا رسول الله أفتنا في الخمر، فإنها مذهبة للعقل، مسلبة للمال، فنزل فيها قوله تعالى: قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس فشربها قوم وتركها آخرون، ثم دعا عبد الرحمن بن عوف ناسا منهم، فشربوا وسكروا، فقام بعضهم يصلي فقرأ: قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون، فنزلت: لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى [النساء: ٤٣] فقل من شربها، ثم اجتمع قوم من الأنصار وفيهم سعد بن أبي وقاص، فلما سكروا افتخروا وتناشدوا الأشعار حتى أنشد سعد شعرا فيه هجاء للأنصار، فضربه أنصاري بلحي بعير فشجه شجة موضحة، فشكا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عمر: اللهم بين لنا في الخمر بيانا شافيا فنزل: إنما الخمر والميسر إلى قوله: فهل أنتم منتهون [المائدة: ٩١] فقال عمر: انتهينا يا رب، قال القفال رحمه الله:

والحكمة في وقوع التحريم على هذا الترتيب أن الله تعالى علم أن القوم قد كانوا ألفوا شرب الخمر، وكان انتفاعهم بذلك كثيرا، فعلم أنه لو منعهم دفعة واحدة لشق ذلك عليهم، فلا جرم استعمل في التحريم هذا التدريج، وهذا الرفق، ومن/ الناس من قال بأن الله حرم الخمر والميسر بهذه الآية، ثم نزل قوله تعالى: لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى فاقتضى ذلك تحريم شرب الخمر وقت الصلاة، لأن شارب الخمر لا يمكنه أن يصلي إلا مع السكر، فكان المنع من ذلك منعا من الشرب ضمنا، ثم نزلت آية المائدة فكانت في غاية القوة في التحريم، وعن الربيع بن أنس أن هذه الآية نزلت بعد تحريم الخمر.

المسألة الثانية: اعلم أن عندنا أن هذه الآية دالة على تحريم الخمر فنفتقر إلى بيان أن الخمر ما هو؟ ثم إلى بيان أن هذه الآية دالة على تحريم شرب الخمر.

أما المقام الأول: في بيان أن الخمر ما هو؟ [النوع الأول من الدلائل على أن كل مسكر خمر] قال الشافعي رحمه الله: كل شراب مسكر فهو خمر، وقال أبو حنيفة: الخمر عبارة عن عصير العنب الشديد الذي قذف بالزبد، حجة الشافعي على قوله وجوه أحدها: ما روى أبو داود في «سننه» : عن الشعبي عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: نزل تحريم الخمر يوم نزل وهي من خمسة: من العنب، والتمر، والحنطة، والشعير، والذرة، والخمر ما خامر العقل، وجه الاستدلال به من ثلاثة أوجه أحدها: أن عمر رضي الله عنه

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٣١٩/٥

أخبر أن الخمر حرمت يوم حرمت وهي تتخذ من الحنطة والشعير، كما أنها كانت تتخذ من العنب والتمر، وهذا يدل على أنهم كانوا يسمونها كلها خمرا وثانيها: أنه قال: حرمت الخمر يوم حرمت، وهي تتخذ من هذه الأشياء الخمس، وهذا كالتصريح بأن تحريم الخمر يتناول تحريم هذه الأنواع الخمسة وثالثها: أن عمر رضي الله عنه ألحق بها كل ما خامر العقل من شراب، ولا شك أن عمر كان عالما باللغة، وروايته أن الخمر اسم لكل ما خامر العقل فغيره.

الحجة الثانية:

روى أبو داود عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن من العنب خمرا، وإن من التمر خمرا، وإن من العسل خمرا، وإن من البر خمرا، وإن من الشعير خمرا»

والاستدلال به من وجهين أحدهما: أن هذا صريح في أن هذه الأشياء داخلة تحت اسم الخمر فتكون داخلة تحت الآية الدالة على تحريم الخمر والثاني: أنه ليس مقصود الشارع تعليم اللغات، فوجب أن يكون مراده من ذلك بيان أن الحكم الثابت في الخمر ثابت فيها، أو الحكم المشهور الذي اختص به الخمر هو حرمة الشرب، فوجب أن يكون ثابتا في هذه الأشربة، قال الخطابي رحمه الله: وتخصيص الخمر بهذه الأشياء الخمسة ليس لأجل أن الخمر لا يكون إلا من هذه الخمسة بأعيانها، وإنما جرى ذكرها خصوصا لكونها معهودة في ذلك الزمان، فكل." (١)

"وقال الشاعر:

ولا تجعلني عرضة للوائم

وقد ذم الله تعالى من أكثر الحلف بقوله: ولا تطع كل حلاف مهين [القلم: ١٠] وقال تعالى: واحفظوا أيمانكم [المائدة: ٨٩] والعرب كانوا يمدحون الإنسان بالإقلال من الحلف، كما قال كثير:

قليل الألايا حافظ ليمينه ... وإن سبقت منه الألية برت

والحكمة في الأمر بتقليل الأيمان أن من حلف في كل قليل وكثير بالله انطلق لسانه بذلك ولا يبقى لليمين في قلبه وقع، فلا يؤمن إقدامه على اليمين الكاذبة، فيختل ما هو الغرض الأصلي في اليمين، وأيضا كلما كان الإنسان أكثر تعظيما لله تعالى كان أكمل في العبودية ومن كمال التعظيم أن يكون ذكر الله تعالى أجل وأعلى عنده من أن يستشهد به في غرض من الأغراض الدنيوية.

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٣٩٦/٦

وأما قوله تعالى بعد ذلك: أن تبروا فهو علة لهذا النهي، فقوله: أن تبروا أي إرادة أن تبروا، والمعنى: إنما نهيتكم عن هذا لما أن توقي ذلك من البر والتقوى والإصلاح، فتكونون يا معشر المؤمنين بررة أتقياء مصلحين في الأرض غير مفسدين.

فإن قيل: وكيف يلزم من ترك الحلف حصول البر والتقوى والإصلاح بين الناس؟.

قلنا: لأن من ترك الحلف لاعتقاده أن الله تعالى أجل وأعظم أن يستشهد باسمه العظيم في/ مطالب الدنيا وخسائس مطالب الحلف، فلا شك أن هذا من أعظم أبواب البر وأما معنى التقوى فظاهر أنه اتقى أن يصدر منه ما يخل بتعظيم الله، وأما الإصلاح بين الناس فمتى اعتقدوا في صدق لهجته، وبعده عن الأغراض الفاسدة فيقبلون قوله فيحصل الصلح بتوسطه.

التأويل الثاني: قالوا: العرضة عبارة عن المانع، والدليل على صحة هذه اللغة أنه يقال: أردت أفعل كذا فعرض لي أمر كذا، واعترض أي تحامى ذلك فمنعني منه، واشتقاقها من الشيء الذي يوضع في عرض الطريق فيصير مانعا للناس من السلوك والمرور ويقال: اعترض فلان على كلام فلان، وجعل كلامه معارضا لكلام آخر، أي ذكر ما يمنعه من تثبيت كلامه، إذا عرفت أصل الاشتقاق فالعرضة فعلة بمعنى المفعول، كالقبضة، والغرفة، فيكون اسما لما يجعل معرضا دون الشيء، ومانعا منه، فثبت أن العرضة عبارة عن المانع، وأما اللام في قوله: لأيمانكم فهو للتعليل.

إذا عرفت هذا فنقول: تقدير الآية: ولا تجعلوا ذكر الله مانعا بسبب أيمانكم من أن تبروا أو في أن تبروا، فأسقط حرف الجر لعدم الحاجة إليه بسبب ظهوره، قالوا: وسبب نزول الآية أن الرجل كان يحلف على ترك الخيرات من صلة الرحم، أو إصلاح ذات البين، أو إحسان إلى أحد أدعيائه ثم يقول: أخاف الله أن أحنث في يميني فيترك البر إرادة البر في يمينه فقيل: لا تجعلوا ذكر الله مانعا بسبب هذه الأيمان عن فعل البر والتقوى هذا أجود ما ذكره المفسرون وقد طولوا في كلمات أخر، ولكن لا فائدة فيها فتركناها، ثم قال في آخر الآية: والله سميع عليم أي: إن حلفتم يسمع، وإن تركتم الحلف تعظيما لله وإجلالا له من أن يستشهد باسمه الكريم في الأعراض العاجلة فهو عليم عالم بما في قلوبكم ونيتكم.." (١)

"فالقرينة تخرجها لأن المقصود من العدة براءة الرحم، والحاجة إلى البراءة لا تحصل إلا عند سبق الشغل، وأما الحامل والآيسة فهما خارجتان عن اللفظ لأن إيجاب الاعتداد بالأقراء إنما يكون حيث

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٤٢٥/٦

تحصل الأقراء، وهذان القسمان لم تحصل الأقراء في حقهما، وأما الرقيقة فتزويجها كالنادر فثبت أن الأعم الأغلب باق تحت هذا العموم.

السؤال الثاني: قوله: يتربصن لا شك أنه خبر، والمراد منه الأمر فما الفائدة في التعبير عن الأمر بلفظ الخبر.

والجواب من وجهين: الأول: أنه تعالى لو ذكره بلفظ الأمر لكان ذلك يوهم أنه لا يحصل المقصود إلا إذا شرعت فيها بالقصد والاختيار، وعلى هذا التقدير فلو مات الزوج ولم تعلم المرأة ذلك حتى انقضت العدة وجب أن لا يكون ذلك كافيا في المقصود، لأنها لما كانت مأمورة بذلك لم تخرج عن العهدة إلا إذا قصدت أداء التكليف، أما لما ذكر الله تعالى هذا التكليف بلفظ الخبر زال ذلك الوهم، وعرف أنه مهما انقضت هذه العدة حصل المقصود، سواء علمت ذلك أو لم تعلم وسواء شرعت في العدة بالرضا أو بالغضب الثاني: قال صاحب «الكشاف» : التعبير عن الأمر بصيغة الخبر يفيد تأكيد الأمر إشعارا بأنه مما يجب أن يتعلق بالمسارعة إلى امتثاله، فكأنهن امتثلن الأمر بالتربص فهو يخبر عنه موجودا، ونظيره قولهم في الدعاء: رحمك الله أخرج في صورة الخبر ثقة بالإجابة كأنها وجدت الرحمة فهو يخبر عنها.

السؤال الثالث: لو قال يتربص المطلقات: لكان ذلك جملة من فعل وفاعل، فما الحكمة في ترك ذلك، وجعل المطلقات مبتدأ، ثم قوله: يتربصن إسناد الفعل إلى الفاعل، ثم جعل هذه الجملة خبرا عن ذلك المبتدأ.

الجواب: قال الشيخ عبد القاهر الجرجاني في كتاب «دلائل الإعجاز» : إنك إذا قدمت الاسم فقلت: زيد فعل فهذا يفيد من التأكيد والقوة ما لا يفيده قولك: فعل زيد، وذلك لأن قولك: زيد فعل يستعمل في أمرين أحدهما: أن يكون لتخصيص ذلك الفاعل بذلك الفعل، كقولك: أنا أكتب في المهم الفلاني إلى السلطان، والمراد دعوى الإنسان الانفراد الثاني: أن لا يكون المقصود ذلك، بل المقصود أن تقديم ذكر المحدث عنه بحديث كذا لإثبات ذلك الفعل، كقولهم: هو يعطي الجزيل لا يريد الحصر، بل أن يحقق عند السامع أن إعطاء الجزيل دأبه ومثله قوله تعالى: والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئا وهم يخلقون [النحل: ٢٠] ليس المراد تخصيص المخلوقية وقوله تعالى: وإذا جاؤكم قالوا آمنا وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به [المائدة: ٦١] وقول الشاعر:

هما يلبسان المجد أحسن لبسة ... شجيعان ما اسطاعا عليه كلاهما

والسبب في حصول هذا المعنى عند تقديم ذكر المبتدأ أنك إذا قلت: عبد الله، فقد أشعرت بأنك تريد الإخبار عنه، فيحصل في العقل شوق إلى معرفة ذلك فإذا ذكرت ذلك الخبر قبله العقل قبول العاشق لمعشوقه، فيكون ذلك أبلغ في التحقيق ونفي الشبهة.." (١)

"فكانت الآية مشتملة على بيان كل الأقسام، أما لو جعلنا التسريح بالإحسان طلاقا آخر لزم ترك أحد الأقسام الثلاث، ولزم التكرير في ذكر الطلاق وإنه غير جائز وثالثها: أن ظاهر التسريح هو الإرسال والإهمال فحمل اللفظ على ترك المراجعة أولى من حمله على التطليق ورابعها: أنه قال بعد ذكر التسريح ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئا والمراد به الخلع، ومعلوم أنه لا يصح الخلع بعد أن طلقها الثالثة، فهذه الوجوه ظاهرة لو لم يثبت الخبر الذي رويناه في صحة ذلك القول، فإن صح ذلك الخبر فلا مزيد عليه.

واعلم أن المراد من الإحسان، هو أنه إذا تركها أدى إليها حقوقها المالية، ولا يذكرها بعد المفارقة بسوء ولا ينفر الناس عنها.

المسألة الثالثة: **الحكمة في** إثبات حق الرجعة أن الإنسان ما دام يكون مع صاحبه لا يدري أنه هل تشق عليه مفارقته أو لا فإذا فارقه فعند ذلك يظهر، فلو جعل الله الطلقة الواحدة مانعة من الرجوع لعظمت المشقة على الإنسان بتقدير أن تظهر المحبة بعد المفارقة، ثم لما كان كمال التجربة لا يحصل بالمرة الواحدة، فلا جرم أثبت تعالى حق المراجعة بعد المفارقة مرتين، وعند ذلك قد جرب الإنسان نفسه في تلك المفارقة وعرف حال قلبه في ذلك الباب، فإن كان الأصلح إمساكها راجعها وأمسكها بالمعروف، وإن كان الأصلح له تسريحها سرحها على أحسن الوجوه وهذا التدريج والترتيب يدل على كمال رحمته ورأفته بعبده.

[قوله تعالى: ولا يحل لكم إلى قوله فأولئك هم الظالمون] قوله تعالى: ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئا إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله فإن خفتم ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون.

واعلم أن هذا الحكم الرابع من أحكام الطلاق وهو بيان الخلع، واعلم أنه تعالى لما أمر أن يكون التسريح مقرونا بالإحسان، بين في هذه الآية أن من جملة الإحسان أنه إذا طلقها لا يأخذ منها شيئا من الذي

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٦/٤٣٤

أعطاها من المهر والثياب وسائر ما تفضل به عليها، وذلك لأنه ملك بضعها، واستمتع بها في مقابلة ما أعطاها، فلا يجوز أن يأخذ منها شيئا، ويدل في هذا النهي أن يضيق عليها ليلجئها إلى الافتداء، كما قال في سورة النساء: ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن [النساء: ١٩] وقوله هاهنا: إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله هو كقوله هناك: إلا أن يأتين بفاحشة مبينة فثبت أن الإتيان بالفاحشة المبينة قد يكون بالبذاء وسوء الخلق، ونظيره قوله تعالى: لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة [الطلاق: ١] فقيل المراد من الفاحشة المبينة البذاء على أحمائها وقال أيضا: فلا تأخذوا منه شيئا أتأخذونه بهتانا وإثما مبينا [النساء: ٢٠] فعظم في أخذ شيء من ذلك بعد الإفضاء.

فإن قيل: لمن الخطاب في قوله: ولا يحل لكم أن تأخذوا فإن كان للأزواج لم يطابقه قوله: فإن خفتم ألا يقيما حدود الله وإن قلت للأئمة والحكام فهؤلاء لا يأخذون منهن شيئا.

قلنا: الأمران جائزان فيجوز أن يكون أول الآية خطابا للأزواج وآخرها خطابا للأئمة والحكام، وذلك غير غريب في القرآن، ويجوز أن يكون الخطاب كله للأئمة والحكام، لأنهم هم الذين يأمرون بالأخذ والإيتاء عند الترافع إليهم فكأنهم هم الآخذون والمؤتون.." (١)

"النهار: الصبح، والعصر، وقوله: وزلفا من الليل المغرب والعشاء، وكان بعضهم يتمسك به في وجوب الوتر، لأن لفظ زلفا جمع فأقله الثلاثة.

المسألة الثانية: اعلم أن الأمر بالمحافظة على الصلاة أمر بالمحافظة على جميع شرائطها، أعني طهارة البدن، والثوب، والمكان، والمحافظة على ستر العورة، واستقبال القبلة، والمحافظة على جميع أركان الصلاة، والمحافظة على الاحتراز عن جميع مبطلات الصلاة سواء كان ذلك من أعمال القلوب أو من أعمال اللسان، أو من أعمال الجوارح، وأهم الأمور في الصلاة، رعاية النية فإنها هي المقصود الأصلي من الصلاة، قال تعالى: وأقم الصلاة لذكري [طه: ١٤] فمن أدى الصلاة على هذا الوجه كان محافظا على الصلاة وإلا فلا.

فإن قيل: المحافظة لا تكون إلا بين اثنين، كالمخاصمة، والمقاتلة، فكيف المعنى هاهنا؟

والجواب: من وجهين أحدهما: أن هذه المحافظة تكون بين العبد والرب، كأنه قيل له: احفظ الصلاة ليحفظك الإله الذي أمرك بالصلاة وهذا كقوله: فاذكروني أذكركم [البقرة: ١٥٢]

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٦/٤٤٤

وفي الحديث: «احفظ الله يحفظك»

الثاني: أن تكون المحافظة بين المصلي والصلاة فكأنه قيل: احفظ الصلاة/ حتى تحفظك الصلاة، واعلم أن حفظ الصلاة للمصلي على ثلاثة أوجه الأول: أن الصلاة تحفظه عن المعاصي، قال تعالى: إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر [العنكبوت: ٤٥] فمن حفظ الصلاة حفظته الصلاة عن الفحشاء

والثاني:

أن الصلاة تحفظه من البلايا والمحن، قال تعالى: واستعينوا بالصبر والصلاة [البقرة: ١٥٣] وقال تعالى: وقال الله إني معكم لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة [المائدة: ١٢] ومعناه: إني معكم بالنصرة والحفظ إن كنتم أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة والثالث: أن الصلاة تحفظ صاحبها وتشفع لمصليها، قال تعالى: وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله [البقرة: ١١٠] ولأن الصلاة فيها القراءة، والقرآن يشفع لقارئه، وهو شافع مشفع

وفي الخبر: «إنه تجيء البقرة وآل عمران كأنهما عمامتان فيشهدان ويشفعان»

وأيضا

في الخبر «سورة الملك تصرف عن المتهجد بها عذاب القبر وتجادل عنه في الحشر وتقف في الصراط عند قدميه وتقول للنار لا سبيل لك عليه»

والله أعلم.

المسألة الثالثة: اختلفوا في الصلاة الوسطى على سبعة مذاهب.

فالقول الأول: أن الله تعالى أمر بالمحافظة عليها، ولم يبين لنا أنها أي صلاة هي، وإنما قلنا: إنه لم يبين لأنه لو بين ذلك لكان إما أن يقال: إنه تعالى بينها بطريق قطعي، أو بطريق ظني والأول باطل لأنه بيان إما أن يكون بهذه الآية، أو بطريق آخر قاطع، أو خبر متواتر ولا يمكن أن يكون البيان حاصلا في هذه الآية، لأن عدد الصلوات خمس، وليس في الآية ذكر لأولها وآخرها، وإذا كان كذلك أمكن في كل واحدة من تلك الصلوات أن يقال: إنما هي الوسطى، وإما أن يقال: بيان حصل في آية أخرى أو في خبر متواتر، وذلك مفقود، وأما بيانه بالطريق الظني وهو خبر الواحد والقياس فغير جائز، لأن الطريق المفيد للظن معتبر في العمليات، وهذه المسألة ليست كذلك، فثبت أن الله تعالى لم يبين أن الصلاة الوسطى ما هي

ثم قالوا: **والحكمة فيه** أنه تعالى لما خصها بمزيد التوكيد، مع أنه تعالى لم يبينها جوز المرء في كل صلاة

يؤديها أنها هي الوسطى فيصير ذلك داعيا إلى أداء الكل على نعت الكمال والتمام، ولهذا السبب أخفى الله تعالى ليلة القدر في رمضان، وأخفى." (١)

"هلكوا، وذلك لانقطاع أثرهم فإذا أقرض فالمراد قطع له من ماله أو عمله قطعة يجازى عليها.

والقول الثاني: أن لفظ القرض هاهنا مجاز، وذلك لأن القرض هو أن يعطي الإنسان شيئا ليرجع إليه مثله وهاهنا المنفق في سبيل الله إنما ينفق ليرجع إليه بدله إلا أنه جعل الاختلاف بين هذا الإنفاق وبين القرض من وجوه أحدها: أن القرض إنما يأخذه من يحتاج إليه لفقره وذلك في حق الله تعالى محال وثانيها: أن البدل في القرض المعتاد لا يكون إلا المثل، وفي هذا الإنفاق هو الضعف وثالثها: أن المال الذي يأخذه المستقرض لا يكون ملكا له وهاهنا هذا المال المأخوذ ملك لله، ثم مع حصول هذه الفروق سماه الله قرضا، والحكمة فيه التنبيه على أن ذلك لا يضيع عند الله، فكما أن القرض يجب أداؤه لا يجوز الإخلال به فكذا الثواب الواجب على هذا الإنفاق واصل إلى المكلف لا محالة،

ويروى أنه لما نزلت هذه الآية قالت اليهود: إن الله فقير ونحن أغنياء، فهو يطلب منا القرض،

وهذا الكلام لائق بجهلهم وحمقهم، لأن الغالب عليهم التشبيه، ويقولون: إن معبودهم شيخ، قال القاضي: من يقول في معبوده مثل هذا القول/ لا يستبعد منه أن يصفه بالفقر.

فإن قيل: فما معنى قوله تعالى: من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا ولأي فائدة جرى الكلام على طريق الاستفهام.

قلنا: إن ذلك في الترغيب في الدعاء إلى الفعل أقرب من ظاهر الأمر.

أما قوله تعالى: قرضا حسنا ففيه مسألتان:

المسألة الأولى: قال الواحدي: القرض في هذه الآية اسم لا مصدر، ولو كان مصدرا لكان ذلك إقراضا.

المسألة الثانية: كون القرض حسنا يحتمل وجوها أحدها: أراد به حلالا خالصا لا يختلط به الحرام، لأن مع الشبهة يقع الاختلاط، ومع الاختلاط ربما قبح الفعل وثانيها: أن لا يتبع ذلك الإنفاق منا ولا أذى وثالثها:

أن يفعله على نية التقرب إلى الله تعالى، لأن ما يفعل رياء وسمعة لا يستحق به الثواب.

أما قوله تعالى: فيضاعفه له ففيه مسألتان:

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٦/٤٨٣

المسألة الأولى: في قوله: فيضاعفه أربع قراءات أحدها: قرأ أبو عمرو ونافع وحمزة والكسائي فيضاعفه بالألف والرفع والثاني: قرأ عاصم فيضاعفه بألف والنصب والثالث: قرأ ابن كثير فيضعفه بالتشديد والرفع بلا ألف والرابع: قرأ ابن عامر فيضعفه بالتشديد والنصب.

فنقول: أما التشديد والتخفيف فهما لغتان، ووجه الرفع العطف على يقرض، ووجه النصب أن يحمل الكلام على المعنى لا على اللفظ لأن المعنى يكون قرضا فيضاعفه، والاختيار الرفع لأن فيه معنى الجزاء، وجواب الجزاء بالفاء لا يكون إلا رفعا.

المسألة الثانية: التضعيف والإضعاف والمضاعفة واحد وهو الزيادة على أصل الشيء حتى يبلغ مثلين أو أكثر، وفي الآية حذف، والتقدير: فيضاعف ثوابه.

أما قوله تعالى: أضعافا كثيرة فمنهم من ذكر فيه قدرا معينا، وأجود ما يقال فيه: إنه القدر المذكور في قوله تعالى: مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل [البقرة: ٢٦١] فيقال." (١)

"الانتفاع بلذات الدنيا مشوب بالمضار، فلا ترى شيئا من اللذات إلا ويكون سببا للمحنة من ألف وجه بخلاف منافع الآخرة فإنها خالصة عن الشوائب، ومن تأمل فيما ذكرناه علم أن الانقياد لوعد الرحمن بالفضل والمغفرة أولى من الانقياد لوعد الشيطان.

إذا عرفت هذا فنقول: المراد بالمغفرة تكفير الذنوب كما قال: خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها [التوبة: ١٠٣] وفي الآية لفظان يدلان على كمال هذه المغفرة أحدها: التنكير في لفظة المغفرة، والمعنى مغفرة أي مغفرة والثاني: قوله مغفرة منه فقوله منه يدل على كمال حال هذه المغفرة لأن كمال كرمه ونهاية جوده معلوم لجميع العقلاء وكون المغفرة منه معلوم أيضا لكل أحد فلما خص هذه المغفرة بأنها منه علم أن المقصود تعظيم حال هذه المغفرة، لأن عظم المعطي يدل على عظم العطية، وكمال هذه المغفرة يحتمل أن يكون المراد منه ما قاله في آية أخرى فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات [الفرقان: ٧٠] ويحتمل أن يكون المراد منه أن يجعله شفيعا في غفران ذنوب سائر المذنبين، ويحتمل أن يكون كمال تلك المغفرة أمرا لا يصل إليه عقلنا ما دمنا في دار الدنيا فإن تفاصيل أحوال الآخرة أكثرها محجوبة عنا ما دمنا في الدنيا، وأما معنى الفضل فهو الخلف المعجل في الدنيا، وهذا الفضل يحتمل عندي وجوهاأحدها: أن

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٥٠٠/٦

المراد من هذا الفضل الفضيلة الحاصلة للنفس وهي فضيلة الجود والسخاء، وذلك لأن مراتب السعادة ثلاث: نفسانية، وبدنية، وخارجية، وملك المال من الفضائل الخارجية وحصول خلق الجود والسخاوة من الفضائل النفسانية وأجمعوا على أن أشرف هذه المراتب الثلاث: السعادات النفسانية، وأخسها السعادات الخارجية فمتى لم يحصل إنفاق المال كانت السعادة الخارجية حاصلة والنقيضة النفسانية معها حاصلها ومتى حصل الإنفاق حصل الكمال النفساني والنقصان الخارجي ولا شك أن هذه الحالة أكمل، فثبت أن مجرد الإنفاق يقتضي حصول ما وعد الله به من حصول الفضل والثاني: وهو أنه متى حصل ملكة الإنفاق زالت عن الروح هيئة الاشتغال بلذات الدنيا والتهالك في مطالبها، ولا مانع للروح من تجلي نور جلال الله لها إلا حب الدنيا، ولذلك

قال عليه الصلاة والسلام: «لولا أن الشياطين يوحون إلى قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السموات» وإذا زال عن وجه القلب غبار حب الدنيا استنار بأنوار عالم القدس وصار كالكوكب الدري والتحق بأرواح الملائكة، وهذا هو الفضل لا غير والثالث: وهو أحسن الوجوه: أنه مهما عرف من الإنسان كونه منفقا لأمواله في وجوه الخيرات مالت القلوب إليه فلا يضايقونه في مطالبه، فحينئذ تنفتح عليه أبواب الدنيا، ولأن أولئك الذين أنفق ماله عليهم يعينونه بالدعاء والهمة فيفتح الله عليه أبواب الخير.

ثم ختم الآية بقوله والله واسع عليم أي أنه واسع المغفرة، قادر على إغنائكم، وإخلاف/ ما تنفقونه وهو عليم لا يخفى عليه ما تنفقون. فهو يخلفه عليكم.

[سورة البقرة (٢) : آية ٢٦٩]

يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر إلا أولوا الألباب (٢٦٩)

اعلم أنه تعالى لما ذكر في الآية المتقدمة أن الشيطان يعد بالفقر ويأمر بالفحشاء، وأن الرحمن يعد بالمغفرة والفضل نبه على أن الأمر الذي لأجله وجب ترجيح وعد الرحمن على وعد الشيطان هو أن وعد." (١)

"الرحمن ترجحه الحكمة والعقل، ووعد الشيطان ترجحه الشهوة والنفس من حيث إنهما يأمران بتحصيل اللذة الحاضرة واتباع أحكام الخيال والوهم، ولا شك أن حكم الحكمة والعقل هو الحكم الصادق المبرأ عن الزيغ والخلل، وحكم الحس والشهوة والنفس توقع الإنسان في البلاء والمحنة، فكان حكم

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٥٧/٧

الحكمة والعقل أولى بالقبول، فهذا هو الإشارة إلى وجه النظم. بقي في الآية مسائل:

المسألة الأولى: المراد من الحكمة إما العلم وإما فعل الصواب يروى عن مقاتل أنه قال: تفسير الحكمة في القرآن على أربعة أوجه أحدها: مواعظ القرآن، قال في البقرة وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به [البقرة: ٢٣١] يعني مواعظ القرآن وفي النساء وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعني المواعظ، ومثلها في آل عمران وثانيها: الحكمة بمعنى الفهم والعلم، ومنه قوله تعالى: وآتيناه الحكم صبيا [مريم: ١٢] وفي لقمان ولقد آتينا لقمان الحكمة [لقمان: ١٢] يعني الفهم والعلم وفي الأنعام أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم [الأنعام: ٨٩] وثالثها: الحكمة بمعنى النبوة في النساء فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة [النساء: ٥٤] يعني النبوة، وفي ص وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب [ص: ٢٠] يعني النبوة، وفي البقرة وآتاه الله الملك والحكمة [البقرة: ٢٥١] ورابعها: القرآن بما فيه من عجائب الأسرار في النحل ادع إلى سبيل ربك بالحكمة [النحل: ١٢٥] وفي هذه الآية ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وجميع هذه الوجوه عند التحقيق ترجع إلى العلم، ثم تأمل أيها المسكين فإنه تعالى ما أعطى إلا القليل من العلم، قال تعالى: وما أوتيتم من العلم إلا قليلا [الإسراء: ٨٥] وسمى الدنيا بأسرها قليلا، فقال: قل متاع الدنيا قليل [النساء: ٧٧] وانظر كم مقدار هذا القليل حتى تعرف عظمة ذلك الكثير، والبرهان العقلي أيضا يطابقه لأن الدنيا متناهية المقدار، متناهية المدة، والعلوم لا نهاية لمراتبها وعددها ومدة بقائها، والسعادة/ الحاصلة منها، وذلك ينبئك على فضيلة العلم والاستقصاء في هذا الباب قد مر في تفسير قوله تعالى: وعلم آدم الأسماء كلها [البقرة: ٣١] وأما الحكمة بمعنى فعل الصواب فقيل في حدها: إنها التخلق بأخلاق الله بقدر الطاقة البشرية، ومداد هذا المعنى على

قوله صلى الله عليه وسلم: «تخلقوا بأخلاق الله تعالى»

واعلم أن الحكمة لا يمكن خروجها عن هذين المعنيين، وذلك لأن كمال الإنسان في شيئين: أن يعرف الحق لذاته، والخير لأجل العمل به، فالمرجع بالأول: إلى العلم والإدراك المطابق، وبالثاني: إلى فعل العدل والصواب، فحكي عن إبراهيم صلى الله عليه وسلم قوله رب هب لي حكما [الشعراء: ٨٣] وهو الحكمة النظرية وألحقني بالصالحين [الشعراء: ٨٣] الحكمة العملية، ونادى موسى عليه السلام فقال: إنني أنا الله لا إله إلا أنا وهو الحكمة النظرية، ثم قال:

فاعبدني وهو الحكمة العملية، وقال عن عيسى عليه السلام أنه قال: إني عبد الله [مريم: ٣٠] الآية، وكل

ذلك للحكمة النظرية، ثم قال: وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيا [مريم: ٣١] وهو الحكمة العملية، وقال في حق محمد صلى الله عليه وسلم: فاعلم أنه لا إله إلا الله [محمد: ١٩] وهو الحكمة النظرية، ثم قال:

واستغفر لذنبك [غافر: ٥٥] [محمد: ١٩] وهو الحكمة العملية، وقال في جميع الأنبياء ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا [النحل: ٢] وهو الحكمة النظرية: ثم قال:

فاتقون وهو الحكمة العملية، والقرآن هو من الآية الدالة على أن كمال حال الإنسان ليس إلا في هاتين القوتين، قال أبو مسلم: الحكمة فعلة من الحكم، وهي كالنحلة من النحل، ورجل حكيم إذا كان ذا حجى." (١)

"يقتضي حل الربا كما حكمنا بحل سائر البياعات لأجل دفع الحاجة، فهذا هو شبهة القوم، والله تعالى أجاب عنه بحرف واحد، وهو قوله وأحل الله البيع وحرم الربا ووجه الجواب أن ما ذكرتم معارضة للنص بالقياس، وهو من عمل إبليس، فإنه تعالى لما أمره بالسجود لآدم صلى الله عليه وسلم عارض النص بالقياس، فقال: أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين [الأعراف: ١٢] [ص: ٧٦] واعلم أن نفاة القياس يتمسكون بهذا الحرف، فقالوا: لو كان الدين بالقياس لكانت هذه الشبهة لازمة، فلما كانت مدفوعة علمنا أن الدين بالنص لا بالقياس، وذكر القفال رحمة الله عليه الفرق بين البابين، فقال: من باع ثوبا يساوي عشرة بعشرين فقد جعل ذات/ الثوب مقابلا بالعشرين، فلما حصل التراضي على هذا التقابل صار كل واحد منهما مقابلا للآخر في المالية عندهما، فلم يكن أخذ من صاحبه شيئا بغير عوض، أما إذا باع العشرة بالعشرة فقد أخذ العشرة الزائدة من غير عوض، ولا يمكن أن يقال: إن غرضه هو الإمهال في مدة الأجل، لأن الإمهال ليس مالا أو شيئا يشار إليه حتى يجعله عوضا عن العشرة الزائدة، فظهر الفرق بين الصورتين.

المسألة الثانية: ظاهر قوله تعالى: ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا يدل على أن الوعيد إنما يحصل باستحلالهم الربا دون الإقدام عليه، وأكله مع التحريم، وعلى هذا التقدير لا يثبت بهذه الآية كون الربا من الكبائر.

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٥٨/٧

فإن قيل: مقدمة الآية تدل على أن قيامهم يوم القيامة متخبطين كان بسبب أنهم أكلوا الربا.

قلنا: إن قوله ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا صريح في أن العلة لذلك التخبط هو هذا القول والاعتقاد فقط، وعند هذا يجب تأويل مقدمة الآية، وقد بينا أنه ليس المراد من الأكل نفس الأكل، وذكرنا عليه وجوها من الدلائل، فأنتم حملتموه على التصرف في الربا، ونحن نحمله على استحلال الربا واستطابته، وذلك لأن الأكل قد يعبر به عن الاستحلال، يقال: فلان يأكل مال الله قضما خصما، أي يستحل التصرف فيه، وإذا حملنا الأكل على الاستحلال، صارت مقدمة الآية مطابقة لمؤخرتها، فهذا ما يدل عليه لفظ الآية، إلا أن جمهور المفسرين حملوا الآية على وعيد من يتصرف في مال الربا، لا على وعيد من يستحل هذا العقد.

المسألة الثالثة: في الآية سؤال، وهو أنه لم لم يقل: إنما الربا مثل البيع، وذلك لأن حل البيع متفق عليه، فهم أرادوا أن يقيسوا عليه الربا، ومن حق القياس أن يشبه محل الخلاف بمحل الوفاق، فكان نظم الآية أن يقال: إنما الربا مثل البيع، فما الحكمة في أن قلب هذه القضية، فقال: إنما البيع مثل الربا.

والجواب: أنه لم يكن مقصود القوم أن يتمسكوا بنظم القياس، بل كان غرضهم أن الربا والبيع متماثلان من جميع الوجوه المطلوبة فكيف يجوز تخصيص أحد المثلين بالحل والثاني بالحرمة وعلى هذا التقدير فأيهما قدم أو أخر جاز.

أما قوله تعالى: وأحل الله البيع وحرم الربا ففيه مسائل:

المسألة الأولى: يحتمل أن يكون هذا الكلام من تمام كلام الكفار، والمعنى أنهم قالوا: البيع مثل الربا، ثم إنكم تقولون وأحل الله البيع وحرم الربا فكيف يعقل هذا؟ يعني أنهما لما كانا متماثلين فلو حل أحدهما وحرم الآخر لكان ذلك إيقاعا للتفرقة بين المثلين، وذلك غير لائق بحكمة الحكيم فقوله أحل الله البيع وحرم." (١)

"قلنا: نحمل الرؤية على الظن والحسبان، وذلك لأن من اشتد خوفه قد يظن في الجمع القليل أنهم في غاية الكثرة، وإما أن نقول إن الله تعالى أنزل الملائكة حتى صار عسكر المسلمين كثيرين والجواب الأول أقرب، لأن الكلام مقتصر على الفئتين ولم يدخل فيهما قصة الملائكة.

والوجه الرابع: في بيان كون هذه القصة آية، قال الحسن: إن الله تعالى أمد رسوله صلى الله عليه وسلم في

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٧٧/٧

تلك الغزوة بخمسة آلاف من الملائكة لأنه قال: فاستجاب لكم أني ممدكم بألف [الأنفال: ٩] وقال: بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة [آل عمران: ١٢٥] والألف مع الأربعة آلاف: خمسة آلاف من الملائكة وكان سيماهم هو أنه كان على أذناب خيولهم ونواصيها صوف أبيض، وهو المراد بقوله والله يؤيد بنصره من يشاء والله أعلم.

ثم قال الله تعالى: فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: القراءة المشهورة فئة بالرفع، وكذا قوله وأخرى كافرة وقرئ فئة فقاتل وأخرى كافرة بالجر على البدل من فئتين، وقرئ بالنصب إما على الاختصاص، أو على الحال من الضمير في التقتا، قال الواحدي رحمه الله: والرفع هو الوجه لأن المعنى إحداهما تقاتل في سبيل الله فهو رفع على استئناف الكلام.

المسألة الثانية: المراد بالفئة التي تقاتل في سبيل الله هم المسلمون، لأنهم قاتلوا لنصرة دين الله.

وقوله وأخرى كافرة المراد بها كفار قريش.

ثم قال تعالى: يرونهم مثليهم رأي العين وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: قرأ نافع وأبان عن عاصم ترونهم بالتاء المنقطة من فوق، والباقون بالياء فمن قرأ بالتاء فلأن ما قبله خطاب لليهود، والمعنى ترون أيها اليهود المسلمين مثلي ما كانوا، أو مثلي/ الفئة الكافرة، أو تكون الآية خطابا مع مشركي قريش والمعنى: ترون يا مشركي قريش المسلمون مثلي فئتكم الكافرة، ومن قرأ بالياء فللمغالبة التي جاءت بعد الخطاب، وهو قوله فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم فقوله يرونهم يعود إلى الإخبار عن إحدى الفئتين.

المسألة الثانية: اعلم أنه قد تقدم في هذه الآية ذكر الفئة الكافرة وذكر الفئة المسلمة فقوله يرونهم مثليهم يحتمل أن يكون الراؤن هم الفئة الكافرة، والمرئيون هم الفئة المسلمة، ويحتمل أن يكون بالعكس من ذلك فهذان احتمالان، وأيضا فقوله مثليهم يحتمل أن يكون المراد مثلي الرائين وأن يكون المراد مثلي المرئين فإذن هذه الآية تحتمل وجوها أربعة الأول: أن يكون المراد أن الفئة الكافرة رأت المسلمين مثلي عدد المشركين قريبا من ألفين.

والاحتمال الثاني: أن الفئة الكافرة رأت المسلمين مثلي عدد المسلمين ستمائة ونيفا وعشرين، **والحكمة**

في ذلك أنه تعالى كثر المسلمين في أعين المشركين مع قلتهم ليهابوهم فيحترزوا عن قتالهم.

فإن قيل: هذا متناقض لقوله تعالى في سورة الأنفال ويقللكم في أعينهم [الأنفال: ٤٤] .." [١]

"البحث الأول: (من) في قوله من النساء والبنين كما في قوله فاجتنبوا الرجس من الأوثان [الحج: ٣٠] فكما أن المعنى فاجتنبوا الأوثان التي هي رجس فكذا أيضا معنى هذه الآية: زين للناس حب النساء وكذا وكذا التي هي مشتهاة.

البحث الثاني: اعلم أنه تعالى عدد هاهنا من المشتهيات أمورا سبعة أولها: النساء وإنما قدمهن على الكل لأن الالتذاذ بهن أكثر والاستئناس بهن أتم ولذلك قال تعالى: خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة [الروم: ٢١] ومما يؤكد ذلك أن العشق الشديد المفلق المهلك لا يتفق إلا في هذا النوع من الشهوة.

المرتبة الثانية: حب الولد: ولما كان حب الولد الذكر أكثر من حب الأنثى، لا جرم خصه الله تعالى بالذكر، ووجه التمتع بهم ظاهر من حيث السرور والتكثر بهم إلى غير ذلك.

واعلم أن الله تعالى في إيجاد حب الزوجة والولد في قلب الإنسان حكمة بالغة، فإنه لولا هذا الحب لما حصل التوالد والتناسل ولأدى ذلك إلى انقطاع النسل، وهذه المحبة كأنها حالة غريزية ولذلك فإنها حاصلة لجميع الحيوانات، **والحكمة فيه** ما ذكرنا من بقاء النسل.

المرتبة الثالثة والرابعة: القناطير المقنطرة من الذهب والفضة وفيه أبحاث:

البحث الأول: قال الزجاج: القنطار مأخوذ من عقد الشيء وإحكامه، والقنطرة مأخوذة من ذلك لتوثقها بعقد الطاق، فالقنطار مال كثير يتوثق الإنسان به في دفع أصناف النوائب، وحكى أبو عبيد عن العرب أنهم يقولون: إنه وزن لا يحد، واعلم أن هذا هو الصحيح، ومن الناس من حاول تحديده، وفيه روايات:

فروى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «القنطار اثنا عشر ألف أوقية»

وروى أنس عنه أيضا أن القنطار ألف دينار،

وروى أبي بن كعب أنه عليه السلام قال: القنطار ألف ومائتا أوقية

وقال ابن عباس: القنطار ألف دينار أو اثنا عشر/ ألف درهم، وهو مقدار الدية، وبه قال الحسن، وقال الكلبي: القنطار بلسان الروم ملء مسك ثور من ذهب أو فضة، وفيه أقوال سوى ما ذكرنا لكنا تركناها

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ١٥٧/٧

لأنها غير مقصودة بحجة البتة.

البحث الثاني: المقنطرة منفعلة من القنطار، وهو للتأكيد، كقولهم: ألف مؤلفة، وبدرة مبدرة، وإبل مؤبلة، ودراهم مدرهمة، وقال الكلبي: القناطير ثلاثة، والمقنطرة المضاعفة، فكان المجموع ستة.

البحث الثالث :الذهب والفضة إنما كانا محبوبين لأنهما جعلا ثمن جميع الأشياء، فمالكهما كالمالك لجميع الأشياء، وصفة المالكية هي القدرة، والقدرة صفة كمال، والكمال محبوب لذاته، فلما كان الذهب والفضة أكمل الوسائل إلى تحصيل هذا الكمال الذي هو محبوب لذاته وما لا يوجد المحبوب إلا به فهو محبوب، لا جرم كانا محبوبين.

المرتبة الخامسة: الخيل المسومة قال الواحدي: الخيل جمع لا واحد له من لفظه، كالقوم والنساء والرهط، وسميت الأفراس خيلا لخيلائها في مشيها، وسميت حركة الإنسان على سبيل الجولان اختيالا، وسمي الخيال خيالا، والتخيل تخيلا، لجولان هذه القوة في استحضار تلك الصورة، والأخيل الشقراق، لأنه يتخيل تارة أخضر، وتارة أحمر، واختلفوا في معنى المسومة على ثلاثة أقوال الأول: أنها الراعية، يقال:." (١)

"على حقيقة اللغة، فصار قوله والله لا يحب الظالمين بمنزلة قوله (لا يريد ظلم الظالمين) «١» هكذا قرره القاضي، وعند أصحابنا أن المحبة عبارة عن إرادة إيصال الخير إليه فهو تعالى وإن أراد كفر الكافر إلا أنه لا يريد إيصال الثواب إليه، وهذه المسألة قد ذكرناها مرارا وأطوارا.

[سورة آل عمران (٣) : آية ٥٨]

ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم (٥٨)

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: ذلك إشارة إلى ما تقدم من نبأ عيسى وزكريا وغيرهما، وهو مبتدأ، خبره نتلوه ومن الآيات خبر بعد خبر أو خبر مبتدأ محذوف، ويجوز أن يكون ذلك ب◌معنى الذي، ونتلوه صلته، ومن الآيات الخبر.

المسألة الثانية: التلاوة والقصص واحد في المعنى، فإن كلا منهما يرجع معناه إلى شيء يذكر بعضه على إثر بعض، ثم إنه تعالى أضاف التلاوة إلى نفسه في هذه الآية، وفي قوله نتلوا عليك من نبإ موسى

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ١٦٢/٧

[القصص: ٣] وأضاف القصص إلى نفسه فقال: نحن نقص عليك أحسن القصص [يوسف: ٣] وكل ذلك يدل على أنه تعالى جعل تلاوة الملك جارية مجرى تلاوته سبحانه وتعالى، وهذا تشريف عظيم للملك، وإنما حسن ذلك لأن تلاوة جبريل صلى الله عليه وسلم لما كان بأمره من غير تفاوت أصلا أضيف ذلك إليه سبحانه وتعالى.

المسألة الثالثة: قوله من الآيات يحتمل أن يكون المراد منه، أن ذلك من آيات القرآن ويحتمل أن يكون المراد منه أنه من العلامات الدالة على ثبوت رسالتك، لأنها أخبار لا يعلمها إلا/ قارئ من كتاب أو من يوحى إليه، فظاهر أنك لا تكتب ولا تقرأ، فبقي أن ذلك من الوحي.

المسألة الرابعة: والذكر الحكيم فيه قولان الأول: المراد منه القرآن وفي وصف القرآن بكونه ذكرا حكيما وجوه الأول: أنه بمعنى الحاكم مثل القدير والعليم، والقرآن حاكم بمعنى أن الأحكام تستفاد منه والثاني: معناه ذو الحكمة في تأليفه ونظمه وكثرة علومه والثالث: أنه بمعنى المحكم، فعيل بمعنى مفعل، قال الأزهري: وهو شائع في اللغة، لأن حكمت يجري مجرى أحكمت في المعنى، فرد إلى الأصل، ومعنى المحكم في القرآن أنه أحكم عن تطرق وجوه الخلل إليه قال تعالى: أحكمت آياته [هود: ١] والرابع: أن يقال القرآن لكثرة حكمه إنه ينطق بالحكمة، فوصف بكونه حكيما على هذا التأويل.

القول الثاني: أن المراد بالذكر الحكيم هاهنا غير القرآن، وهو اللوح المحفوظ الذي منه نقلت جميع الكتب المنزلة على الأنبياء عليهم السلام، أخبر أنه تعالى أنزل هذا القصص مما كتب هنالك، والله أعلم بالصواب.

[سورة آل عمران (٣) : آية ٥٩]

إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون (٥٩)

أجمع المفسرون على أن هذه الآية نزلت عند حضور وفد نجران على الرسول صلى الله عليه وسلم، وكان من جملة شبههم أن قالوا: يا محمد، لما سلمت أنه لا أب له من البشر وجب أن يكون أبوه هو الله تعالى، فقال: إن آدم ما كان له أب ولا أم ولم يلزم أن يكون ابنا لله تعالى، فكذا القول في عيسى عليه السلام، هذا حاصل الكلام، وأيضا إذا جاز أن

(١) ليست هذه آية إنما المثبت في المصحف وما الله يريد ظلما للعباد [غافر: ٣١] .." [١]

"الفضيلة الثالثة: قلة ما يجتمع فيه من حصى الجمار، فإنه منذ آلاف سنة وقد يبلغ من يرمي في كل سنة ستمائة ألف إنسان كل واحد منهم سبعين حصاة، ثم لا يرى هناك إلا ما لو اجتمع في سنة واحدة لكان غير كثير وليس الموضع الذي ترمى إليه الجمرات مسيل ماء ولا مهب رياح شديدة وقد جاء في الآثار أن من كانت حجته مقبولة رفعت حجارة جمراته إلى السماء.

الفضيلة الرابعة: أن الطيور تترك المرور فوق الكعبة عند طيرانها في الهواء بل تنحرف عنها إذا ما وصلت إلى فوقها.

الفضيلة الخامسة: أن عنده يجتمع الوحش لا يؤذي بعضها بعضا كالكلاب والظباء، ولا/ يصطاد فيه الكلاب والوحوش وتلك خاصية عجيبة وأيضا كل من سكن مكة أمن من النهب والغارة وهو بركة دعاء إبراهيم عليه السلام حيث قال: رب اجعل هذا بلدا آمنا [البقرة: ١٢٦] وقال تعالى في صفة أمنه أولم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم [العنكبوت: ٦٧] وقال: فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف [قريش: ٣، ٤] ولم ينقل ألبتة أن ظالما هدم الكعبة وخرب مكة بالكلية وأما بيت المقدس فقد هدمه بختنصر بالكلية.

الفضيلة السادسة: أن صاحب الفيل وهو أبرهة الأشرم لما قاد الجيوش والفيل إلى مكة لتخريب الكعبة وعجز قريش عن مقاومة أولئك الجيوش وفارقوا مكة وتركوا له الكعبة فأرسل الله عليهم طيرا أبابيل، والأبابيل هم الجماعة من الطير بعد الجماعة، وكانت صغارا تحمل أحجارا ترميهم بها فهلك الملك وهلك العسكر بتلك الأحجار مع أنها كانت في غاية الصغر، وهذه آية باهرة دالة على شرف الكعبة وإرهاص لنبوة محمد عليه الصلاة والسلام.

فإن قال قائل: لم لا يجوز أن يقال إن كل ذلك بسبب طلسم موضوع هناك بحيث لا يعرفه أحد فإن الأمر في تركيب الطلسمات مشهور.

قلنا: لو كان هذا من باب الطلسمات لكان هذا طلسما مخالفا لسائر الطلسمات فإنه لم يحصل لشيء سوى الكعبة مثل هذا البقاء الطويل في هذه المدة العظيمة، ومثل هذا يكون من المعجزات، فلا يتمكن

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٤٢/٨

منها سوى الأنبياء.

الفضيلة السابعة: إن الله تعالى وضعها بواد غير ذي زرع، والحكمة من وجوه أحدها: أنه تعالى قطع بذلك رجاء أهل حرمه وسدنة بيته عمن سواه حتى لا يتوكلوا إلا على الله وثانيها: أنه لا يسكنها أحد من الجبابرة والأكاسرة فإنهم يريدون طيبات الدنيا فإذا لم يجدوها هناك تركوا ذلك الموضع، فالمقصود تنزيه ذلك الموضع عن لوث وجود أهل الدنيا وثالثها: أنه فعل ذلك لئلا يقصدها أحد للتجارة بل يكون ذلك لمحض العبادة والزيارة فقطو رابعها: أظهر الله تعالى بذلك شرف الفقر حيث وضع أشرف البيوت في أقل المواضع نصيبا من الدنيا، فكأنه قال: جعلت الفقراء في الدنيا أهل البلد الأمين، فكذلك أجعلهم في الآخرة أهل المقام الأمين، لهم في الدنيا بيت الأمن وفي الآخرة دار الأمن وخامسها: كأنه قال: لما لم أجعل الكعبة إلا في موضع خال عن جميع نعم الدنيا فكذا لا أجعل كعبة المعرفة إلا في كل قلب خال عن محبة الدنيا، فهذا ما يتعلق." (١)

"من سبيل

[غافر: ١١] وقال: هل إلى مرد من سبيل [الشورى: ٤٤] وقال: ما على المحسنين من سبيل [التوبة: ٩١] فيعتبر في حصول هذا الإمكان صحة البدن، وزوال خوف التلف من السبع أو العدو، وفقدان الطعام والشراب والقدرة على المال الذي يشترى به الزاد والراحلة وأن يقضي جميع الديون ويرد جميع الودائع، وإن وجب عليه الإنفاق على أحد لم يجب عليه الحج إلا إذا ترك من المال ما يكفيهم في المجيء والذهاب وتفاصيل هذا الباب مذكور في كتب الفقهاء والله أعلم.

ثم قال تعالى: ومن كفر فإن الله غني عن العالمين وفيه مسائل:

المسألة الأولى: في هذه الآية قولان:

القول الأول: أنها كلام مستقل بنفسه ووعيد عام في حق كل من كفر بالله ولا تعلق له بما قبله.

القول الثاني: أنه متعلق بما قبله والقائلون بهذا القول منهم من حمله على تارك الحج ومنهم من حمله على من لم يعتقد وجوب الحج، أما الذين حملوه على تارك الحج فقد عولوا فيه على ظاهر الآية فإنه لما تقدم الأمر بالحج ثم أتبعه بقوله ومن كفر فهم منه أن هذا الكفر ليس إلا ترك ما تقدم الأمر به ثم إنهم أكدوا هذا الوجه بالأخبار،

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٨/٢٩٨

روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «من مات ولم يحج فليمت إن شاء يهوديا وإن شاء نصرانيا»

وعن أبي أمامة قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «من مات ولم يحج حجة الإسلام ولم تمنعه حاجة ظاهرة أو مرض حابس أو سلطان جائر فليمت على أي حال شاء يهوديا أو نصرانيا»

وعن سعيد بن جبير: لو مات جار لي وله ميسرة ولم يحج لم أصل عليه، فإن قيل: كيف يجوز الحكم عليه بالكفر بسبب ترك الحج؟

أجاب القفال رحمه الله تعالى عنه: يجوز أن يكون المراد منه التغليظ، أي قد قارب الكفر وعمل ما يعمله من كفر بالحج، ونظيره قوله تعالى: وبلغت القلوب الحناجر [الأحزاب: ١٠] أي كادت تبلغ ونظيره قوله عليه الصلاة والسلام: «من ترك صلاة متعمدا فقد كفر»

وقوله عليه الصلاة والسلام: «من أتى امرأة حائضا أو في دبرها فقد كفر»

وأما الأكثرون: فهم الذين حملوا هذا الوعيد على من ترك اعتقاد وجوب الحج،

قال الضحاك: لما نزلت آية الحج جمع الرسول صلى الله عليه وسلم أهل الأديان الستة المسلمين، والنصارى واليهود والصابئين والمجوس والمشركين فخطبهم وقال: «إن الله تعالى كتب عليكم الحج فحجوا» فآمن به المسلمون وكفرت به الملل الخمس، وقالوا: لا نؤمن/ به، ولا نصلي إليه، ولا نحجه، فأنزل الله تعالى قوله ومن كفر فإن الله غني عن العالمين

وهذا القول هو الأقوى.

المسألة الثانية: اعلم أن تكليف الشرع في العبادات قسمان، منها ما يكون أصله معقولا إلا أن تفاصيله لا تكون معقولة مثل الصلاة فإن أصلها معقول وهو تعظيم الله أما كيفية الصلاة فغير معقولة، وكذا الزكاة أصلها دفع حاجة الفقير وكيفيتها غير معقولة، والصوم أصله معقول، وهو قهر النفس وكيفيته غير معقولة، أما الحج فهو سفر إلى موضع معين على كيفيات مخصوصة، فالحكمة في كيفيات هذه العبادات غير معقولة وأصلها غير معلومة.

إذا عرفت هذا فنقول: قال المحققون إن الإتيان بهذا النوع من العبادة أدل على كمال العبودية والخضوع والانقياد من الإتيان بالنوع الأول، وذلك لأن الآتي بالنوع الأول يحتمل أنه إنما أتى به لما عرف بعقله من وجوه." (١)

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٣٠٥/٨

"المنافع فيه، أما الآتي بالنوع الثاني فإنه لا يأتي به إلا لمجرد الانقياد والطاعة والعبودية، فلأجل هذا المعنى اشتمل الأمر بالحج في هذه الآية على أنواع كثيرة من التوكيد أحدها: قوله ولله على الناس حج البيت والمعنى أنه سبحانه لكونه إلها ألزم عبيده هذه الطاعة فيجب الانقياد سواء عرفوا وجه **الحكمة فيها** أو لم يعرفوا وثانيها: أنه ذكر الناس ثم أبدل منه من استطاع إليه سبيلا وفيه ضربان من التأكيد، أما أولا فلأن الإبدال تثنية للمراد وتكرير، وذلك يدل على شدة العناية، وأما ثانيا فلأنه أجمل أولا وفصل ثانيا وذلك يدل على شدة الاهتمام وثالثها: أنه سبحانه عبر عن هذا الوجوب بعبارتين إحداهما: لام الملك في قوله ولله وثانيتهما:

كلمة (على) وهي للوجوب في قوله ولله على الناس ورابعها: أن ظاهر اللفظ يقتضي إيجابه على كل إنسان يستطيعه، وتعميم التكليف يدل على شدة الاهتمام وخامسها: أنه قال ومن كفر مكان، ومن لم يحج وهذا تغليظ شديد في حق تارك الحج وسادسها: ذكر الاستغناء وذلك مما يدل على المقت والسخط والخذلان وسابعها: قوله عن العالمين ولم يقل عنه لأن المستغني عن كل العالمين أولى أن يكون مستغنيا عن ذلك الإنسان الواحد وعن طاعته، فكان ذلك أدل على السخط وثامنها: أن في أول الآية قال: ولله على الناس فبين أن هذا الإيجاب كان لمجرد عزة الإلهية وكبرياء الربوبية، لا لجر نفع ولا لدفع ضر، ثم أكد هذا في آخر الآية بقوله فإن الله غني عن العالمين ومما يدل من الأخبار على تأكيد الأمر بالحج،

قوله عليه الصلاة والسلام: «حجوا قبل أن لا تحجوا فإنه قد هدم البيت مرتين ويرفع في الثالث»

وروي «حجوا قبل أن لا تحجوا حجوا قبل أن يمنع البر جانبه»

قيل: معناه أنه يتعذر عليكم السفر في البر في مكة لعدم الأمن أو غيره، وعن ابن مسعود «حجوا هذا البيت قبل أن تنبت في البادية شجرة لا تأكل منها دابة إلا هلكت» .

[سورة آل عمران (٣) : الآيات ٩٨ الى ٩٩]

قل يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله والله شهيد على ما تعملون (٩٨) قل يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجا وأنتم شهداء وما الله بغافل عما تعملون (٩٩)

[في قوله تعالى يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله] اعلم أن في كيفية النظم وجهين الأول: وهو الأوفق: أنه تعالى لما أورد الدلائل على نبوة محمد عليه الصلاة والسلام مما ورد في التوراة والإنجيل من البشارة بمقدمه، ثم ذكر عقيب ذلك شبهات القوم.

فالشبهة الأولى: ما يتعلق بإنكار النسخ.

وأجاب عنها بقوله كل الطعام كان حلا لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه [آل عمران: ٩٣] .

والشبهة الثانية: ما يتعلق بالكعبة ووجوب استقبالها في الصلاة ووجوب حجها.

وأجاب عنها بقوله إن أول بيت وضع للناس [آل عمران: ٩٦] إلى آخرها، فعند هذا تمت وظيفة الاستدلال وكمل الجواب عن شبهات أرباب الضلال، فعند ذلك خاطبهم بالكلام اللين وقال: لم تكفرون بآيات الله بعد ظهور البينات وزوال الشبهات، وهذا هو الغاية القصوى في ترتيب الكلام وحسن نظمه.

الوجه الثاني: وهو أنه تعالى لما بين فضائل الكعبة ووجوب الحج، والقوم كانوا عالمين بأن هذا هو الدين الحق والملة الصحيحة قال لهم: لم تكفرون بآيات الله بعد أن علمتم كونها حقة صحيحة.." (١)

"بمعنى استبشر بنعم الله وفضله، وعلى ضد ذلك إذا رأى الكافر أعماله القبيحة محصاة اسود وجهه بمعنى شدة الحزن والغم وهذا قول أبي مسلم الأصفهاني.

والقول الثاني: إن هذا البياض والسواد يحصلان في وجوه المؤمنين والكافرين، وذلك لأن اللفظ حقيقة فيهما، ولا دليل يوجب ترك الحقيقة، فوجب المصير إليه، قلت: ولأبي مسلم أن يقول: الدليل دل على ما قلناه، وذلك لأنه تعالى قال: وجوه يومئذ مسفرة ضاحكة مستبشرة ووجوه يومئذ عليها غبرة ترهقها قترة فجعل الغبرة والقترة في مقابلة الضحك والاستبشار، فلو لم يكن المراد بالغبرة والقترة ما ذكرنا من المجاز لما صح جعله مقابلا، فعلمنا أن المراد من هذه الغبرة والقترة الغم والحزن حتى يصح هذا التقابل، ثم قال القائلون بهذا القول: **الحكمة في** ذلك أن أهل/ الموقف إذا رأوا البياض في وجه إنسان عرفوا أنه من أهل الثواب فزادوا في تعظيمه فيحصل له الفرح بذلك من وجهين أحدهما: أن السعيد يفرح بأن يعلم قومه أنه من أهل السعادة، قال تعالى مخبرا عنهم يا ليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين [يس: ٢٦، ٢٧] الثاني: أنهم إذا عرفوا ذلك خصوه بمزيد التعظيم فثبت أن ظهور البياض في وجه المكلف سبب لمزيد سروره في الآخرة وبهذا الطريق يكون ظهور السواد في وجه الكفار سببا لمزيد غمهم في الآخرة، فهذا وجه **الحكمة في** الآخرة، وأما في الدنيا فالمكلف حين يكون في الدنيا إذا عرف حصول هذه الحالة في الآخرة صار ذلك مرغبا له في الطاعات وترك المحرمات لكي يكون في الآخرة من قبيل من يبيض وجهه لا من قبيل من يسود وجهه، فهذا تقرير هذين القولين.

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٣٠٦/٨

المسألة الثالثة: احتج أصحابنا بهذه الآية على أن المكلف إما مؤمن وإما كافر، وأنه ليس هاهنا منزلة بين المنزلتين كما يذهب إليه المعتزلة، فقالوا: إنه تعالى قسم أهل القيامة إلى قسمين منهم من يبيض وجهه وهم المؤمنون، ومنهم من يسود وجهه وهم الكافرون ولم يذكر الثالث، فلو كان هاهنا قسم ثالث لذكره الله تعالى قالوا وهذا أيضا متأكد بقوله تعالى: وجوه يومئذ مسفرة ضاحكة مستبشرة ووجوه يومئذ عليها غبرة ترهقها قترة أولئك هم الكفرة الفجرة [عبس: ٣٨- ٤٢] .

أجاب القاضي عنه بأن عدم ذكر القسم الثالث لا يدل على عدمه، يبين ذلك أنه تعالى إنما قال: يوم تبيض وجوه وتسود وجوه فذكرهما على سبيل التنكير، وذلك لا يفيد العموم، وأيضا المذكور في الآية المؤمنون والذين كفروا بعد الإيمان ولا شبهة أن الكافر الأصلي من أهل النار مع أنه غير داخل تحت هذين القسمين، فكذا القول في الفساق.

واعلم أن وجه الاستدلال بالآية هو أنا نقول: الآيات المتقدمة ما كانت إلا في الترغيب في الإيمان بالتوحيد والنبوة وفي الزجر عن الكفر بهما ثم إنه تعالى أتبع ذلك بهذه الآية فظاهرها يقتضي أن يكون ابيضاض الوجه نصيبا لمن آمن بالتوحيد والنبوة، واسوداد الوجه يكون نصيبا لمن أنكر ذلك، ثم دل ما بعد هذه الآية على أن صاحب البياض من أهل الجنة، وصاحب السواد من أهل النار، فحينئذ يلزم نفي المنزلة بين المنزلتين، وأما قوله يشكل هذا بالكافر الأصلي فجوابنا عنه من وجهين الأول: أن نقول لم لا يجوز أن يكون المراد منه أن كل أحد أسلم وقت استخراج الذرية من صلب آدم؟ وإذا كان كذلك كان الكل داخلا فيه والثاني: وهو أنه تعالى قال في آخر الآية فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون فجعل موجب العذاب هو الكفر من حيث إنه كفر لا الكفر." (١)

"لأنه تعالى أخرج المسكنة عن الاستثناء وذلك يدل على أنها باقية عليهم غير زائلة عنهم، والباقي عليهم ليس إلا الجزية، وقال آخرون: المراد بالمسكنة أن اليهودي يظهر من نفسه الفقر وإن كان غنيا موسرا، وقال بعضهم:

هذا إخبار من الله سبحانه بأنه جعل اليهود أرزاقا للمسلمين فيصيرون مساكين، ثم إنه تعالى لما ذكر هذه الأنواع من الوعيد قال: ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق والمعنى: أنه تعالى ألصق باليهود ثلاثة أنواع من المكروهات أولها: جعل الذلة لازمة لهم وثانيها: جعل غضب الله لازما لهم

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٣١٨/٨

وثالثها: جعل المسكنة لازمة لهم، ثم بين في هذه الآية أن العلة لإلصاق هذه الأشياء المكروهة بهم هي: أنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق، وهنا سؤالات:

السؤال الأول: هذه الذلة والمسكنة إنما التصقت باليهود بعد ظهور دولة الإسلام، والذين قتلوا الأنبياء بغير حق هم الذين كانوا قبل محمد صلى الله عليه وسلم بأدوار وأعصار، فعلى هذا الموضع الذي حصلت فيه العلة وهو قتل الأنبياء لم يحصل فيه المعلول الذي هو الذلة والمسكنة، والموضع الذي حصل فيه هذا المعلول لم تحصل فيه العلة، فكان الإشكال لازما.

والجواب عنه: أن هؤلاء المتأخرين وإن كان لم يصدر عنهم قتل الأنبياء عليهم السلام لكنهم كانوا راضين بذلك، فإن أسلافهم هم الذين قتلوا الأنبياء وهؤلاء المتأخرون كانوا راضين بفعل أسلافهم، فنسب ذلك الفعل إليهم من حيث كان ذلك الفعل القبيح فعلا لآبائهم وأسلافهم مع أنهم كانوا مصوبين لأسلافهم في تلك الأفعال.

السؤال الثاني: لم كرر قوله ذلك بما عصوا وما **الحكمة فيه** ولا يجوز أن يقال التكرير/ للتأكيد، لأن التأكيد يجب أن يكون بشيء أقوى من المؤكد، والعصيان أقل حالا من الكفر فلم يجز تأكيد الكفر بالعصيان؟.

والجواب: من وجهين الأول: أن علة الذلة والغضب والمسكنة هي الكفر وقتل الأنبياء، وعلة الكفر وقتل الأنبياء هي المعصية، وذلك لأنهم لما توغلوا في المعاصي والذنوب فكانت ظلمات المعاصي تتزايد حالا فحالا، ونور الإيمان يضعف حالا فحالا، ولم يزل كذلك إلى أن بطل نور الإيمان وحصلت ظلمة الكفر، وإليه الإشارة بقوله كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون [المطففين: ١٤] فقوله ذلك بما عصوا إشارة إلى علة العلة ولهذا المعنى قال أرباب المعاملات، من ابتلي بترك الآداب وقع في ترك السنن، ومن ابتلي بترك السنن وقع في ترك الفريضة، ومن ابتلي بترك الفريضة وقع في استحقار الشريعة، ومن ابتلي بذلك وقع في الكفر الثاني: يحتمل أن يريد بقوله ذلك بأنهم كانوا يكفرون من تقدم منهم، ويريد بقوله ذلك بما عصوا من حضر منهم في زمان الرسول صلى الله عليه وسلم، وعلى هذا لا يلزم التكرار، فكأنه تعالى بين علة عقوبة من تقدم، ثم بين أن من تأخر لما تبع من تقدم كان لأجل معصيته وعداوته مستوجبا لمثل عقوبتهم حتى يظهر للخلق أن ما أنزله الله بالفريقين من البلاء والمحنة ليس إلا من باب العدل والحكمة.

[سورة آل عمران (٣) : الآيات ١١٣ الى ١١٥]

ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون (١١٣) يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين (١١٤) وما يفعلوا من خير فلن يكفروه والله عليم بالمتقين (١١٥)

[في قوله تعالى ليسوا سواء من أهل الكتاب إلى قوله تعالى وأولئك من الصالحين]." (١)

"اتق الله

[الأحزاب: ١] فهذا لا يدل على أنه ما كان يتقي الله، ثم قال: ولا تطع الكافرين وهذا لا يدل على أنه أطاعهم، والفائدة في هذا المنع أنه لما حصل ما يوجب الغم الشديد، والغضب العظيم، وهو مثلة عمه حمزة، وقتل المسلمين، والظاهر أن الغضب يحمل الإنسان على ما لا ينبغي من القول والفعل، فلأجل أن لا تؤدي مشاهدة تلك المكاره إلى ما لا يليق من القول والفعل نص الله تعالى على المنع تقوية لعصمته وتأكيدا لطهارته والثاني: لعله عليه الصلاة والسلام إن فعل لكنه كان ذلك من باب ترك الأفضل والأولى، فلا جرم أرشده الله إلى اختيار الأفضل والأولى، ونظيره قوله تعالى: وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين واصبر وما صبرك إلا بالله [النحل: ١٢٦، ١٢٧] كأنه تعالى قال: إن كنت تعاقب ذلك الظالم فاكتف بالمثل، ثم قال ثانيا: وإن تركته كان ذلك أولى، ثم أمره أمرا جازما بتركه، فقال: واصبر وما صبرك إلا بالله.

الوجه الثالث: في الجواب: لعله صلى الله عليه وسلم لما مال قلبه إلى اللعن عليهم استأذن ربه فيه، فنص الله تعالى على المنع منه، وعلى هذا التقدير لا يدل هذا النهي على القدح في العصمة.

المسألة الثالثة: قوله ليس لك من الأمر شيء فيه قولان الأول: أن معناه ليس لك من قصة هذه الواقعة ومن شأن هذه الحادثة شيء وعلى هذا فنقل عن المفسرين عبارات أحدهما: ليس لك من مصالح عبادي شيء إلا ما أوحي إليك وثانيها: ليس لك من مسألة إهلاكهم شيء، لأنه تعالى أعلم بالمصالح فربما تاب عليهم وثالثها: ليس لك في أن يتوب الله عليهم، ولا في أن يعذبهم شيء.

والقول الثاني: أن المراد هو الأمر الذي يضاد النهي، والمعنى: ليس لك من أمر خلقي شيء إلا إذا كان على وفق أمري، وهو كقوله ألا له الحكم [الأنعام: ٦٢] وقوله لله الأمر من قبل ومن بعد [الروم: ٤] وعلى القولين فالمقصود من الآية منعه صلى الله عليه وسلم من كل فعل وقول إلا ما كان بإذنه وأمره وهذا هو

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٨/٣٣٠

الإرشاد إلى أكمل درجات العبودية، ثم اختلفوا في أن المنع من اللعن لأي معنى كان؟ منهم من قال الحكمة فيه أنه تعالى ربما علم من حال بعض الكفار أنه يتوب، أو إن لم يتب لكنه علم أنه سيولد منه ولد يكون مسلما برا تقيا، وكل من كان كذلك، فإن اللائق برحمة الله تعالى أن يمهله في الدنيا وأن يصرف عنه الآفات إلى أن يتوب أو إلى أن يحصل ذلك الولد فإذا حصل دعاء الرسول عليهم بالإهلاك، فإن قبلت دعوته فات هذا المقصود، وإن لم تقبل دعوته كان ذلك كالاستخفاف بالرسول صلى الله عليه وسلم، فلأجل هذا المعنى منعه الله تعالى من اللعن وأمره بأن يفوض الكل إلى علم الله تعالى، ومنهم من قال: المقصود منه إظهار عجز العبودية وأن لا يخوض العبد في أسرار الله تعالى في ملكه وملكوته، هذا هو الأحسن عندي والأوفق لمعرفة الأصول الدالة على حقيقة الربوبية والعبودية.

المسألة الرابعة: ذكر الفراء والزجاج وغيرهما في هذه الآية قولين أحدهما: أن قوله أو يتوب عليهم عطف على ما قبله، والتقدير: ليقطع طرفا من الذين كفروا، أو يكبتهم، أو يتوب عليهم، أو يعذبهم، ويكون قوله ليس لك من الأمر شيء كالكلام الأجنبي الواقع بين المعطوف والمعطوف عليه، كما تقول: ضربت زيدا، فأعلم ذلك عمرا، فعلى هذا القول هذه الآية متصلة بما قبلها.

والقول الثاني: أن معنى أو هاهنا معنى حتى، أو إلا أن كقولك: لألزمنك أو تعطيني حقي والمعنى: إلا أن." (١)

"وليعلم الله الذين آمنوا ففيه مسائل.

المسألة الأولى: اللام في قوله: وليعلم الله متعلق بفعل مضمر، إما بعده أو قبله، أما الإضمار بعده فعلى تقدير وليعلم الله الذين آمنوا فعلنا هذه المداولة، وأما الإضمار قبله فعلى تقدير وتلك الأيام نداولها بين الناس لأمور، منها ليعلم الله الذين آمنوا، ومنها ليتخذ منكم شهداء، ومنها ليمحص الله الذين آمنوا، ومنها ليمحق الكافرين، فكل ذلك كالسبب والعلة في تلك المداولة.

المسألة الثانية: الواو في قوله: وليعلم الله الذين آمنوا نظائره كثيرة في القرآن، قال تعالى: وليكون من الموقنين [الأنعام: ٧٥] وقال تعالى: ولتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون [الأنعام: ١١٣] والتقدير: وتلك الأيام نداولها بين الناس ليكون كيت وكيت وليعلم الله، وإنما حذف المعطوف عليه للإيذان بأن المصلحة في هذه المداولة ليست بواحدة، ليسليهم عما جرى، وليعرفهم أن تلك الواقعة وأن شأنهم فيها،

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٣٥٦/٨

فيه من وجوه المصالح ما لو عرفوه لسرهم.
المسألة الثالثة: ظاهر قوله تعالى: وليعلم الله الذين آمنوا مشعر بأنه تعالى إنما فعل تلك المداولة ليكتسب هذا العلم، ومعلوم أن ذلك محال على الله تعالى، ونظير هذه الآية في الإشكال قوله تعالى: أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين [آل عمران: ١٤٢] وقوله: ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين [العنكبوت: ٣] وقوله: لنعلم أي الحزبين أحصى لما لبثوا أمدا [الكهف: ١٢] وقوله: ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين [محمد: ٣١] وقوله: إلا لنعلم من يتبع الرسول [البقرة: ١٤٣] وقوله: ليبلوكم أيكم أحسن عملا [هود: ٧، الملك: ٢] وقد احتج هشام بن الحكم بظواهر هذه الآيات على أن الله تعالى لا يعلم حدوث الحوادث إلا عند وقوعها، فقال: كل هذه الآيات دالة على أنه تعالى إنما صار عالما بحدوث هذه الأشياء عند حدوثها.
أجاب المتكلمون عنه بأن الدلائل العقلية دلت على أنه تعالى يعلم الحوادث قبل وقوعها، فثبت أن التغيير في العلم محال إلا أن إطلاق لفظ العلم على المعلوم والقدرة على المقدور مجاز مشهور، يقال: هذا علم فلان والمراد معلومه، وهذه قدرة فلان والمراد مقدوره، فكل آية يشعر ظاهرها بتجدد العلم، فالمراد تجدد المعلوم.
إذا عرفت هذا، فنقول في هذه الآية وجوه: أحدها: ليظهر الإخلاص من النفاق والمؤمن من الكافر.
والثاني: ليعلم أولياء الله، فأضاف إلى نفسه تفخيما. وثالثها: ليحكم بالامتياز، فوضع العلم مكان الحكم بالامتياز، لأن الحكم بالامتياز لا يحصل إلا بعد العلم. ورابعها: ليعلم ذلك واقعا منهم كما كان يعلم أنه سيقع، لأن المجازاة تقع على الواقع دون المعلوم الذي لم يوجد.
المسألة الرابعة: العلم قد يكون بحيث يكتفى فيه بمفعول واحد، كما يقال: علمت زيدا، أي علمت ذاته وعرفته، وقد يفتقر إلى مفعولين، كما يقال: علمت زيدا كريما، والمراد منه في هذه الآية هذا القسم الثاني، إلا أن المفعول الثاني محذوف والتقدير: وليعلم الله الذين آمنوا متميزين بالإيمان من غيرهم، أي الحكمة في هذه المداولة أن يصير الذين آمنوا متميزين عمن يدعي الإيمان بسبب صبرهم وثباتهم على الإسلام، ويحتمل أن يكون العلم هاهنا من القسم الأول، بمعنى معرفة الذات، والمعنى وليعلم الله الذين

آمنوا لما يظهر من صبرهم على جهاد عدوهم، أي ليعرفهم بأعيانهم إلا أن سبب حدوث هذا العلم، وهو ظهور الصبر حدف هاهنا.." (١)

"لأنهما أقرب إلى الميت من الأختين، ولما كان نصيب البنات الكثيرة لا يزداد على الثلثين وجب أن لا يزداد نصيب الأخوات الكثيرة على ذلك، لأن البنت لما كانت أشد اتصالا بالميت امتنع جعل الأضعف زائدا على الأقوى، فهذا مجموع الوجوه المذكورة في هذا الباب، فالوجوه الثلاثة الأول مستنبطة من الآية، والرابع: مأخوذ من السنة، والخامس: من القياس الجلي.

أما القسم الثالث: وهو إذا مات وخلف الأولاد الذكور فقط فنقول: أما الابن الواحد فإنه إذا انفرد أخذ كل المال، وبيانه من وجوه: الأول: من دلالة قوله تعالى: فللذكر مثل حظ الأنثيين [النساء: ١٧٦] فإن هذا يدل على أن نصيب الذكر مثل نصيب الأنثيين.

ثم قال تعالى في البنات: وإن كانت واحدة فلها النصف فلزم من مجموع هاتين الآيتين أن نصيب الابن المفرد جميع المال. الثاني: أنا نستفيد ذلك من السنة وهي

قوله عليه الصلاة والسلام: «ما أبقت السهام فلا ولى عصبة ذكر»

ولا نزاع أن الابن عصبة ذكر، ولما كان الابن آخذا لكل ما بقي بعد السهام وجب فيما إذا لم يكن سهام أن يأخذ الكل. الثالث: إن أقرب العصبات إلى الميت هو الابن، وليس له بالإجماع قدر معين من الميراث، فإذا لم يكن معه صاحب فرض لم يكن له أن يأخذ قدرا أولى منه بأن يأخذ الزائد، فوجب أن يأخذ الكل.

فإن قيل: حظ الأنثيين هو الثلثان فقوله: للذكر مثل حظ الأنثيين يقتضي أن يكون حظ/ الذكر مطلقا هو الثلث، وذلك ينفي أن يأخذ كل المال.

قلنا: المراد منه حال الاجتماع لا حال الانفراد، ويدل عليه وجهان: أحدهما: أن قوله: يوصيكم الله في أولادكم يقتضي حصول الأولاد، وقوله: للذكر مثل حظ الأنثيين يقتضي حصول الذكر والأنثى هناك.

والثاني: أنه تعالى ذكر عقيبه حال الانفراد، هذا كله إذا مات وخلف ابنا واحدا فقط، أما إذا مات وخلف أبناء كانوا متشاركين في جهة الاستحقاق ولا رجحان، فوجب قسمة المال بينهم بالسوية والله أعلم. بقي في الآية سؤالان:

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٣٧٣/٩

السؤال الأول: لا شك أن المرأة أعجز من الرجل لوجوه: أما أولا فلعجزها عن الخروج والبروز، فإن زوجها وأقاربها يمنعونها من ذلك. وأما ثانيا: فلنقصان عقلها وكثرة اختداعها واغترارها. وأما ثالثا: فلأنها متى خالطت الرجال صارت متهمة، وإذا ثبت أن عجزها أكمل وجب أن يكون نصيبها من الميراث أكثر، فإن لم يكن أكثر فلا أقل من المساواة، فما الحكمة في أنه تعالى جعل نصيبها نصف نصيب الرجل.

والجواب عنه من وجوه: الأول: أن خروج المرأة أقل، لأن زوجها ينفق عليها، وخرج الرجل أكثر لأنه هو المنفق على زوجته، ومن كان خروجه أكثر فهو إلى المال أحوج. الثاني: أن الرجل أكمل حالا من المرأة في الخلقة وفي العقل وفي المناصب الدينية، مثل صلاحية القضاء والإمامة، وأيضا شهادة المرأة نصف شهادة الرجل، ومن كان كذلك وجب أن يكون الإنعام عليه أزيد. الثالث: أن المرأة قليلة العقل كثيرة الشهوة، فإذا انضاف إليها المال الكثير عظم الفساد قال الشاعر:

إن الفراغ والشباب والجده ... مفسدة للمرء أي مفسده

وقال تعالى: إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى [العلق: ٦، ٧] وحال الرجل بخلاف ذلك.

والرابع: أن الرجل لكمال عقله يصرف المال إلى ما يفيده الثناء الجميل في الدنيا والثواب الجزيل في الآخرة." (١)

"وإذا ثبت ذلك في الأختين لزم ثبوته في الأخوين، لأنه لا قائل بالفرق، فهذا أحسن ما يمكن أن يقال في هذا الموضع، وفيه إشكال لأن إجراء القياس في التقديرات صعب لأنه غير معقول المعنى، فيكون ذلك مجرد تشبيه من غير جامع، ويمكن أن يقال: لا يتمسك به على طريقة القياس، بل على طريقة الاستقراء لأن الكثرة أمارة العموم، إلا أن هذا الطريق في غاية الضعف والله أعلم، واعلم أنه تأكد هذا بإجماع التابعين على سقوط مذهب ابن عباس، والأصح في أصول الفقه أن الإجماع الحاصل عقيب الخلاف حجة والله أعلم.

المسألة الثانية: الإخوة إذا حجبوا الأم من الثلث إلى السدس فهم لا يرثون شيئا البتة، بل/ يأخذ الأب كل الباقي وهو خمسة أسداس، سدس بالفرض، والباقي بالتعصيب، وقال ابن عباس: الإخوة يأخذون السدس الذي حجبوا الأم عنه، وما بقي فللأب، وحجته أن الاستقراء دل على أن من لا يرث لا يحجب، فهؤلاء الإخوة لما حجبوا وجب أن يرثوا، وحجة الجمهور أن عند عدم الإخوة كان المال ملكا للأبوين، وعند

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٥١١/٩

وجود الإخوة لم يذكرهم الله تعالى إلا بأنهم يحجبون الأم من الثلث إلى السدس، ولا يلزم من كونه حاجبا كونه وارثا، فوجب أن يبقى المال بعد حصول هذا الحجب على ملك الأبوين، كما كان قبل ذلك والله أعلم.

قوله تعالى: من بعد وصية يوصي بها أو دين.

اعلم أن مسائل الوصايا تذكر في خاتمة هذه الآية وهاهنا مسائل:

المسألة الأولى: أنه تعالى لما ذكر أنصباء الأولاد والوالدين، قال: من بعد وصية يوصي بها أو دين أي هذه الأنصباء إنما تدفع إلى هؤلاء إذا فضل عن الوصية والدين، وذلك لأن أول ما يخرج من التركة الدين، حتى لو استغرق الدين كل مال الميت لم يكن للورثة فيه حق، فأما إذا لم يكن دين، أو كان إلا أنه قضي وفضل بعده شيء، فإن أوصى الميت بوصية أخرجت الوصية من ثلث ما فضل، ثم قسم الباقي ميراثا على فرائض الله.

المسألة الثانية:

روي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: إنكم لتقرءون الوصية قبل الدين، وإن الرسول صلى الله عليه وسلم قضى بالدين قبل الوصية.

واعلم أن مراده رضي الله تعالى عنه التقديم في الذكر واللفظ، وليس مراده أن الآية تقتضي تقديم الوصية على الدين في الحكم لأن كلمة «أو» لا تفيد الترتيب البتة.

واعلم أن **الحكمة في** تقديم الوصية على الدين في اللفظ من وجهين: الأول: أن الوصية مال يؤخذ بغير عوض فكان إخراجها شاقا على الورثة، فكان أداؤها مظنة للتفريط بخلاف الدين، فإن نفوس الورثة مطمئنة إلى أدائه، فلهذا السبب قدم الله ذكر الوصية على ذكر الدين في اللفظ بعثا على أدائها وترغيبا في إخراجها، ثم أكد في ذلك الترغيب بإدخال كلمة «أو» على الوصية والدين، تنبيها على أنهما في وجوب الإخراج على السوية.

الثاني: أن سهام المواريث كما أنها تؤخر عن الدين فكذا تؤخر عن الوصية، ألا ترى أنه إذا أوصى بثلث ماله كان سهام الورثة معتبرة بعد تسليم الثلث إلى الموصى له، فجمع الله بين ذكر الدين وذكر الوصية، ليعلمنا أن سهام الميراث معتبرة/ بعد الوصية كما هي معتبرة بعد الدين، بل فرق بين الدين وبين الوصية من جهة أخرى، وهي أنه لو هلك من المال شيء دخل النقصان في أنصباء أصحاب الوصايا وفي أنصباء

أصحاب الإرث، وليس كذلك الدين، فانه لو هلك من المال شيء دخل النقصان في أنصباء أصحاب الوصايا وفي أنصباء أصحاب الإرث، وليس كذلك الدين، فإنه لو هلك من المال شيء استوفي الدين كله من الباقي، وإن استغرقه بطل حق الموصى له وحق الورثة جميعا، فالوصية تشبه الإرث من وجه، والدين من وجه آخر، أما مشابهتها بالإرث فما ذكرنا أنه متى هلك من المال شيء دخل النقصان في أنصباء أصحاب الوصية والإرث، وأما مشابهتها بالدين فلأن سهام." (١)

"مائة جلدة

[النور: ٢] ومن المعلوم أن جعل هذا الحديث بيانا لإحدى الآيتين ومخصصا للآية الأخرى، أولى من الحكم بوقوع النسخ مرارا، وكيف وآية الحبس مجملة قطعا فإنه ليس في الآية ما يدل على أن ذلك السبيل كيف هو؟ فلا بد لها من المبين، وآية الجلد مخصوصة ولا بد لها من المخصص، فنحن جعلنا هذا الحديث مبينا لآية/ الحبس مخصصا لآية الجلد، وأما على قول أصحاب أبي حنيفة فقد وقع النسخ من ثلاثة أوجه:

الأول: آية الحبس صارت منسوخة بدلائل الرجم، فظهر أن الذي قلناه هو الحق الذي لا شك فيه.

الوجه الثاني: في دفع كلام الرازي: إنك تثبت أنه لا يجوز أن تكون آية الجلد متقدمة على

قوله: «خذوا عني»

فلم قلت إنه يجب أن تكون هذه الآية متأخرة عنه؟ ولم لا يجوز أن يقال: إنه لما نزلت هذه الآية ذكر الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك؟ وتقديره أن قوله: الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة مخصوص بالإجماع في حق الثيب المسلم، وتأخير بيان المخصص عن العام المخصوص غير جائز عندك وعند أكثر المعتزلة، لما أنه يوهم التلبيس، وإذا كان كذلك فثبت أن الرسول صلى الله عليه وسلم إنما قال ذلك مقارنا لنزول قوله: الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة وعلى هذا التقدير سقط قولك: إن الحديث كان متقدما على آية الجلد.

هذا كله تفريع على قول من يقول: هذا الآية أعني آية الحبس نازلة في حق الزناة، فثبت أن على هذا القول لم يثبت الدليل كونها منسوخة، وأما على قول أبي مسلم الأصفهاني فظاهر أنها غير منسوخة والله أعلم.

المسألة الخامسة: القائلون بأن هذه الآية نازلة في الزنا يتوجه عليهم سؤالات:

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٥١٨/٩

السؤال الأول: ما المراد من قوله: من نسائكم؟

الجواب فيه وجوه: أحدها: المراد، من زوجاتكم كقوله: والذين يظاهرون من نسائهم [المجادلة: ٣] وقوله: من نسائكم اللاتي دخلتم بهن [النساء: ٢٣] وثانيها: من نسائكم، أي من الحرائر كقوله: واستشهدوا شهيدين من رجالكم [البقرة: ٢٨٢] والغرض بيان أنه لا حد على الإماء. وثالثها: من نسائكم، أي من المؤمنات ورابعها: من نسائكم، أي من الثيبات دون الأبكار.

السؤال الثاني: ما معنى قوله: فأمسكوهن في البيوت؟

الجواب: فخلدوهن محبوسات في بيوتكم، **والحكمة فيه** أن المرأة إنما تقع في الزنا عند الخروج والبروز، فإذا حبست في البيت لم تقدر على الزنا، وإذا استمرت على هذه الحالة تعودت العفاف والفرار عن الزنا.

السؤال الثالث: ما معنى يتوفاهن الموت والموت والتوفي بمعنى واحد، فصار في التقدير: أو يميتهن الموت؟

الجواب: يجوز أن يراد حتى يتوفاهن ملائكة الموت، كقوله: الذين تتوفاهم الملائكة [النحل: ٣٨] قل/ يتوفاكم ملك الموت [السجدة: ١١] أو حتى يأخذهن الموت ويستوفي أرواحهن.

السؤال الرابع: إنكم تفسرون قوله: أو يجعل الله لهن سبيلا بالحديث وهو

قوله عليه الصلاة والسلام: «قد جعل الله لهن سبيلا البكر تجلد والثيب ترجم»

وهذا بعيد، لأن هذا السبيل عليها لا لها، فإن الرجم لا شك أنه أغلظ من الحبس.

والجواب:

أن النبي عليه الصلاة والسلام فسر السبيل بذلك فقال: «خذوا عني قد جعل الله لهن سبيلا." (١)

"وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة لما قرر وحدانيته تعالى وبين الطريق الموصل إلى العلم بها، ذكر عقيبه ما هو الحجة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، وهو القرآن المعجز بفصاحته التي بذت فصاحة كل منطيق وإفحامه، من طولب بمعارضته من مصاقع الخطباء من العرب العرباء مع كثرتهم وإفراطهم في المضادة والمضارة، وتهالكهم على المعازة والمعارة، وعرف ما يتعرف به إعجازه ويتيقن أنه من عند الله كما يدعيه.

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٩/ ٥٣٠

وإنما قال: مما نزلنا لأن نزوله نجما منجما بحسب الوقائع على ما ترى عليه أهل الشعر والخطابة مما يريبهم، كما حكى الله عنهم فقال وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة. فكان الواجب تحديهم على هذا الوجه إزاحة للشبهة وإلزاما للحجة، وأضاف العبد إلى نفسه تعالى تنويها بذكره، وتنبيها على أنه مختص به منقاد لحكمه تعالى، وقرئ «عبادنا» يريد محمدا صلى الله عليه وسلم وأمته. والسورة الطائفة من القرآن المترجمة التي أقلها ثلاث آيات، وهي إن جعلت واوها أصلية منقولة من سور المدينة لأنها محيطة بطائفة من القرآن مفرزة محوزة على حيالها، أو محتوية على أنواع من العلم احتواء سور المدينة على ما فيها، أو من السورة التي هي الرتبة، قال النابغة:

ولرهط حراب وقد سورة ... في المجد ليس غرابها بمطار

لأن السور كالمنازل والمراتب يترقى فيها القارئ، أولها مراتب في الطول والقصر والفضل والشرف وثواب القراءة. وإن جعلت مبدلة من الهمزة فمن السورة التي هي البقية والقطعة من الشيء. **والحكمة في** تقطيع القرآن سورا: إفراد الأنواع، وتلاحق الأشكال، وتجاوب النظم، وتنشيط القارئ، وتسهيل الحفظ، والترغيب فيه. فإنه إذا ختم سورة نفس ذلك عنه، كالمسافر إذا علم أنه قطع ميلا أو طوى بريدا، والحافظ متى حذفها اعتقد أنه أخذ من القرآن حظا تاما، وفاز بطائفة محدودة مستقلة بنفسها، فعظم ذلك عنده وابتهج به إلى غير ذلك من الفوائد.

من مثله صفة سورة أي: بسورة كائنة من مثله، والضمير لما نزلنا، و (من) للتبعيض أو للتبيين.

وزائدة عند الأخفش أي بسورة مماثلة للقرآن العظيم في البلاغة وحسن النظم. أو لعبدنا، و (من) للابتداء أي: بسورة كائنة ممن هو على حاله عليه الصلاة والسلام من كونه بشرا أميا لم يقرأ الكتب ولم يتعلم العلوم. أو صلة فأتوا، والضمير للعبد صلى الله عليه وسلم، والرد إلى المنزل أوجه لأنه المطابق لقوله تعالى: فأتوا بسورة من مثله ولسائر آيات التحدي، ولأن الكلام فيه لا في المنزل عليه فحقه أن لا ينفك عنه ليتسق الترتيب والنظم، ولأن مخاطبة الجم الغفير بأن يأتوا بمثل ما أتى به واحد من أبناء جلدتهم أبلغ في التحدي من أن يقال لهم:

ليأت بنحو ما أتى به هذا آخر مثله، ولأنه معجز في نفسه لا بالنسبة إليه لقوله تعالى: قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله. ولأن رده إلى عبدنا يوهم إمكان صدوره ممن لم يكن على صفته، ولا يلائمه قوله تعالى.

وادعوا شهداءكم من دون الله فإنه أمر بأن يستعينوا بكل من ينصرهم ويعينهم. والشهداء جمع شهيد بمعنى الحاضر، أو القائم بالشهادة، أو الناصر، أو الإمام. وكأنه سمي به لأنه يحضر النوادي وتبرم بمحضره الأمور، إذ التركيب للحضور، إما بالذات أو بالتصور، ومنه قيل: للمقتول في سبيل الله شهيد لأنه حضر ما كان يرجوه، أو الملائكة حضروه. ومعنى دون أدنى مكان من الشيء ومنه تدوين الكتب، لأنه إدناء البعض من البعض، ودونك هذا أي: خذه من أدنى مكان منك، ثم استعير للرتب فقيل: زيد دون عمرو أي:

في الشرف، ومنه الشيء الدون، ثم اتسع فيه فاستعمل في كل تجاوز حد إلى حد وتخطي أمر إلى آخر، قال تعالى: لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أي لا يتجاوزوا ولاية المؤمنين إلى ولاية الكافرين. قال أمية:

يا نفس ما لك دون الله من واق." (١)

"كان معه في محاربة الجن، فإنه تعالى أسكنهم في الأرض أولا فأفسدوا فيها، فبعث إليهم إبليس في جند من الملائكة فدمرهم وفرقهم في الجزائر والجبال. وجاعل: من جعل الذي له مفعولان وهما في الأرض خليفة أعمل فيهما، لأنه بمعنى المستقبل ومعتمد على مسند إليه. ويجوز أن يكون بمعنى خالق. والخليفة من يخلف غيره وينوب منابه، والهاء فيه للمبالغة، والمراد به آدم عليه الصلاة والسلام لأنه كان خليفة الله في أرضه، وكذلك كل نبي استخلفهم الله في عمارة الأرض وسياسة الناس وتكميل نفوسهم وتنفيذ أمره فيهم، لا لحاجة به تعالى إلى من ينوبه، بل لقصور المستخلف عليه عن قبول فيضه، وتلقي أمره بغير وسط، ولذلك لم يستنبئ ملكا كما قال الله تعالى: ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا ألا ترى أن الأنبياء لما فاقت قوتهم، واشتعلت قريحتهم بحيث يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار، أرسل إليهم الملائكة ومن كان منهم أعلى رتبة كلمه بلا واسطة، كما كلم موسى عليه السلام في الميقات، ومحمدا صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج، ونظير ذلك في الطبيعة أن العظم لما عجز عن قبول الغذاء من اللحم لما بينهما من التباعد، جعل الباري تعالى بحكمته بينهما الغضروف المناسب لهما ليأخذ من هذا ويعطي ذلك. أو خليفة من سكن الأرض قبله، أو هو وذريته لأنهم يخلفون من قبلهم، أو يخلف بعضهم بعضا. وإفراد اللفظ: إما للاستغناء بذكره عن ذكر بنيه كما استغني بذكر أبي القبيلة في قولهم: مضر وهاشم. أو على تأويل من يخلفكم، أو خلفا يخلفكم. وفائدة قوله تعالى هذا للملائكة، تعليم المشاورة، وتعظيم شأن المجعول، بأن

---

(١) تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل ناصر الدين البيضاوي ٥٧/١

بشر عز وجل بوجود سكان ملكوته، ولقبه بالخليفة قبل خلقه، وإظهار فضله الراجح على ما فيه من المفاسد بسؤالهم، وجوابه وبيان أن الحكمة تقتضي إيجاد ما يغلب خيره، فإن ترك الخير الكثير لأجل الشر القليل شر كثير إلى غير ذلك.

قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء تعجب من أن يستخلف لعمارة الأرض وإصلاحها من يفسد فيها، أو يستخلف مكان أهل الطاعة أهل المعصية، واستكشاف عما خفي عليهم من الحكمة التي بهرت تلك المفاسد وألغتها، واستخبار عما يرشدهم ويزيح شبهتهم كسؤال المتعلم معلمه عما يختلج في صدره، وليس باعتراض على الله تعالى جلت قدرته، ولا طعن في بني آدم على وجه الغيبة، فإنهم أعلى من أن يظن بهم ذلك لقوله تعالى: بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون وإنما عرفوا ذلك بإخبار من الله تعالى، أو تلق من اللوح، أو استنباط عما ركز في عقولهم أن العصمة من خواصهم، أو قياس لأحد الثقلين على الآخر. والسفك والسبك والسفح والشن أنواع من الصب، فالسفك يقال في الدم والدمع، والسبك في الجواهر المذابة، والسفح في الصب من أعلى، والشن في الصب من فم القربة ونحوها، وكذلك السن، وقرئ «يسفك» على البناء للمفعول، فيكون الراجع إلى من، سواء جعل موصولا أو موصوفا محذوفا، أي: يسفك الدماء فيهم.

ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك حال مقررة لجهة الإشكال كقولك: أتحسن إلى أعدائك وأنا الصديق المحتاج القديم. والمعنى: أتستخلف عصاة ونحن معصومون أحقاء بذلك، والمقصود منه، الاستفسار عما رجحهم ومع ما هو متوقع منهم. على الملائكة المعصومين في الاستخلاف، لا العجب والتفاخر. وكأنهم علموا أن المجعول خليفة ذو ثلاث قوى عليها مدار أمره: شهوية وغضبية تؤديان به إلى الفساد وسفك الدماء، وعقلية تدعوه إلى المعرفة والطاعة. ونظروا إليها مفردة وقالوا: ما **الحكمة في** استخلافه، وهو باعتبار تينك القوتين لا تقتضي الحكمة إيجاده فضلا عن استخلافه، وأما باعتبار القوة العقلية فنحن نقيم ما يتوقع منها سليما عن معارضة تلك المفاسد. وغفلوا عن فضيلة كل واحدة من القوتين إذا صارت مهذبة مطواعة للعقل، متمرنة على الخير كالعفة والشجاعة ومجاهدة الهوى والإنصاف. ولم يعلموا أن التركيب يفيد ما يقصر عنه الآحاد، كالإحاطة بالجزئيات واستنباط الصناعات واستخراج منافع الكائنات من القوة إلى الفعل الذي هو المقصود من الاستخلاف، وإليه أشار تعالى إجمالا بقوله: قال إني أعلم ما لا." (١)

(١) تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل ناصر الدين البيضاوي ٦٨/١

"تعلمون
والتسبيح تبعيد الله تعالى عن السوء وكذلك التقديس، من سبح في الأرض والماء، وقدس في الأرض إذا ذهب فيها وأبعد، ويقال قدس إذا طهر لأن مطهر الشيء مبعد له عن الأقذار. وبحمدك في موضع الحال، أي: متلبسين بحمدك على ما ألهمتنا معرفتك ووفقتنا لتسبيحك، تداركوا به ما أوهم إسناد التسبيح إلى أنفسهم، ونقدس لك نطهر نفوسنا عن الذنوب لأجلك، كأنهم قابلوا الفساد المفسر بالشرك عند قوم بالتسبيح، وسفك الدماء الذي هو أعظم الأفعال الذميمة بتطهير النفوس عن الآثام وقيل: نقدسك واللام مزيدة.

[سورة البقرة (٢) : آية ٣١]

وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين (٣١)

وعلم آدم الأسماء كلها إما بخلق علم ضروري بها فيه، أو إلقاء في روعه، ولا يفتقر إلى سابقة اصطلاح ليتسلسل. والتعليم فعل يترتب عليه العلم غالبا، ولذلك يقال علمته فلم يتعلم. وآدم اسم أعجمي كآزر وشالح، واشتقاقه من الأدمة أو الأدمة بالفتح بمعنى الأسوة، أو من أديم الأرض لما

روي عنه عليه الصلاة والسلام «أنه تعالى قبض قبضة من جميع الأرض سهلها وحزنها فخلق منها آدم»

فلذلك يأتي بنوه أخيافا، أو من الأدم أو الأدمة بمعنى الألفة، تعسف كاشتقاق إدريس من الدرس، ويعقوب من العقب، وإبليس من الإبلاس. والاسم باعتبار الاشتقاق ما يكون علامة للشيء ودليلا يرفعه إلى الذهن مع الألفاظ والصفات والأفعال، واستعماله عرفا في اللفظ الموضوع لمعنى سواء كان مركبا أو مفردا مخبرا عنه أو خبرا أو رابطة بينهما. واصطلاحا: في المفرد الدال على معنى في نفسه غير مقترن بأحد الأزمنة الثلاثة. والمراد في الآية إما الأول أو الثاني وهو يستلزم الأول، لأن العلم بألفاظ من حيث الدلالة متوقف على العلم بالمعاني، والمعنى أنه تعالى خلقه من أجزاء مختلفة وقوى متباينة، مستعدا لإدراك أنواع المدركات من المعقولات والمحسوسات، والمتخيلات والموهومات. وألهمه معرفة ذوات الأشياء وخواصها وأسمائها وأصول العلوم وقوانين الصناعات وكيفية آلاتها.

ثم عرضهم على الملائكة الضمير فيه للمسميات المدلول عليها ضمنا إذ التقدير أسماء المسميات، فحذف المضاف إليه لدلالة المضاف عليه وعوض عنه اللام كقوله تعالى: واشتعل الرأس شيبا لأن العرض للسؤال عن أسماء المعروضات فلا يكون المعروض نفس الأشياء سيما إن أريد به الألفاظ، والمراد به ذوات الأشياء،

أو مدلولات الألفاظ، وتذكيره ليغلب ما اشتمل عليه من العقلاء، وقرئ «عرضهن» و «عرضها» على معنى عرض مسمياتهن أو مسمياتها.

فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء تبكيت لهم وتنبيه على عجزهم عن أمر الخلافة، فإن التصرف والتدبير إقامة المعدلة قبل تحقق المعرفة، والوقوف على مراتب الاستعدادات وقدر الحقوق محال، وليس بتكليف ليكون من باب التكليف بالمحال، والإنباء: إخبار فيه إعلام، ولذلك يجري مجرى كل واحد منهما.

إن كنتم صادقين في زعمكم أنكم أحقاء بالخلافة لعصمتكم، أو أن خلقهم واستخلافهم وهذه صفتهم لا يليق بالحكيم، وهو وإن لم يصرحوا به لكنه لازم مقالهم. والتصديق كما يتطرق إلى الكلام باعتبار منطوقه قد يتطرق إليه بفرض ما يلزم مدلوله من الأخبار، وبهذا الاعتبار يعتري الإنشاءات.

[سورة البقرة (٢) : آية ٣٢]

قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم (٣٢)

قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا اعتراف بالعجز والقصور، وإشعار بأن سؤالهم كان استفسارا ولم يكن اعتراضا، وأنه قد بان لهم ما خفي عليهم من فضل الإنسان **والحكمة في** خلقه، وإظهار لشكر نعمته." (١)

"أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم

روي أن المسلمين كانوا إذا أمسوا حل لهم الأكل والشرب والجماع إلى أن يصلوا العشاء الآخرة أو يرقدوا، ثم: أن عمر رضي الله عنه باشر بعد العشاء فندم وأتى النبي صلى الله عليه وسلم واعتذر إليه، فقام رجال واعترفوا بما صنعوا بعد العشاء فنزلت

وليلة الصيام: الليلة التي تصبح منها صائما، والرفث: كناية عن الجماع، لأنه لا يكاد يخلو من رفث وهو الإفصاح بما يجب أن يكنى عنه، وعدي بإلى لتضمنه معنى الإفضاء، وإيثاره هاهنا لتقبيح ما ارتكبوه ولذلك سماه خيانة. وقرئ «الرفوث» هن لباس لكم وأنتم لباس لهن استئناف يبين سبب الإحلال وهو قلة الصبر عنهن، وصعوبة اجتنابهن لكثرة المخالطة وشدة الملابسة، ولما كان الرجل والمرأة يعتنقان ويشتمل كل منهما على صاحبه شبه باللباس قال الجعدي:

إذا ما الضجيع ثنى عطفها ... تثنت فكانت عليه لباسا

---

(١) تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل ناصر الدين البيضاوي ١/٦٩

أو لأن كل واحد منهما يستر حال صاحبه ويمنعه من الفجور. علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم تظلمونها بتعريضها للعقاب، وتنقيص حظها من الثواب، والاختيان أبلغ من الخيانة كالاكتساب من الكسب.

فتاب عليكم لما تبتم مما اقترفتموه. وعفا عنكم ومحا عنكم أثره. فالآن باشروهن لما نسخ عنكم التحريم وفيه دليل على جواز نسخ السنة بالقرآن، والمباشرة: إلزاق البشرة كني به عن الجماع. وابتغوا ما كتب الله لكم واطلبوا ما قدره لكم وأثبته في اللوح المحفوظ من الولد، والمعنى أن المباشر ينبغي أن يكون غرضه الولد فإنه **الحكمة من** خلق الشهوة. وشرع النكاح لا قضاء الوطر، وقيل النهي عن العزل، وقيل عن غير المأتي. والتقدير وابتغوا المحل الذي كتب الله لكم. وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر شبه أول ما يبدو من الفجر المعترض في الأفق وما يمتد معه من غبش الليل، بخيطين أبيض وأسود، واكتفى ببيان الخيط الأبيض بقوله من الفجر عن بيان الخيط الأسود، لدلالته عليه. وبذلك خرجا عن الاستعارة إلى التمثيل. ويجوز أن تكون من للتبعيض، فإن ما يبدو بعض الفجر. وما روي أنها نزلت ولم ينزل من الفجر، فعمد رجال إلى خيطين أسود وأبيض ولا يزالون يأكلون ويشربون حتى يتبينا لهم فنزلت، إن صح فلعله كان قبل دخول رمضان وتأخير البيان إلى وقت الحاجة جائزة، أو أكتفي أولا باشتهارهما في ذلك ثم صرح بالبيان لما التبس على بعضهم وفي تجويز المباشرة إلى الصبح الدلالة على جواز تأخير الغسل إليه وصحة صوم المصبح جنبا ثم أتموا الصيام إلى الليل بيان لآخر وقته، الليل عنه فينفي صوم الوصال ولا تباشروهن وأنتم عاكفون في المساجد

معتكفون فيها والاعتكاف هو اللبث في المسجد بقصد القربة. والمراد بالمباشرة: الوطء. وعن قتادة كان الرجل يعتكف فيخرج إلى امرأته فيباشرها ثم يرجع فنهوا عن ذلك. وفي دليل على أن الاعتكاف يكون في المسجد ولا يختص بمسجد دون مسجد.

وأن الوطء يحرم فيه ويفسده لأن النهي في العبادات يوجب الفساد. تلك حدود الله أي الأحكام التي ذكرت. فلا تقربوها نهى أن يقرب الحد الحاجز بين الحق والباطل لئلا يداني الباطل، فضلا عن أن يتخطى عنه. كما

قال عليه الصلاة والسلام «إن لكل ملك حمى وإن حمى الله محارمه فمن رتع حول الحمى يوشك أن يقع فيه»

. وهو أبلغ من قوله فلا تعتدوها، ويجوز أن يريد ب حدود الله محارمه ومناهيه.
كذلك مثل ذلك التبيين يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون مخالفة الأوامر والنواهي.

[سورة البقرة (٢) : آية ١٨٨]
ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون (١٨٨)." (١)

"ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل أي ولا يأكل بعضكم مال بعض بالوجه الذي لم يبحه الله تعالى. وبين نصب على الظرف، أو الحال من الأموال. وتدلوا بها إلى الحكام عطف على المنهي، أو نصب بإضمار أن والإدلاء الإلقاء، أي ولا تلقوا حكومتها إلى الحكام. لتأكلوا بالتحاكم. فريقا طائفة. من أموال الناس بالإثم بما يوجب إثما، كشهادة الزور واليمين الكاذبة، أو ملتبسين بالإثم. وأنتم تعلمون أنكم مبطلون، فإن ارتكاب المعصية مع العلم بها أقبح.
روي أن عبدان الحضرمي ادعى على امرئ القيس الكندي قطعة من أرض ولم يكن له بينة، فحكم رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يحلف امرؤ القيس، فهم به فقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا الآية. فارتدع عن اليمين، وسلم الأرض إلى عبدان، فنزلت
. وفيه دليل على أن حكم القاضي لا ينفذ باطنا، ويؤيده
قوله عليه الصلاة والسلام «إنما أنا بشر وأنتم تختصمون إلي
. ولعل بعضكم يكون ألحن بحجته من بعض، فأقضي له على نحو ما أسمع منه، فمن قضيت له بشيء من حق أخيه فإنما أقضي له قطعة من ناره» .

[سورة البقرة (٢) : آية ١٨٩]
يسئلونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها واتقوا الله لعلكم تفلحون (١٨٩)
يسئلونك عن الأهلة سأله معاذ بن جبل وثعلبة بن غنم فقالا: (ما بال الهلال يبدو دقيقا كالخيط، ثم يزيد

---

(١) تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل ناصر الدين البيضاوي ١٢٦/١

حتى يستوي، ثم لا يزال ينقص حتى يعود كما بدا) قل هي مواقيت للناس والحج فإنهم سألوا عن الحكمة في اختلاف حال القمر وتبدل أمره، فأمره الله أن يجيب بأن الحكمة الظاهرة في ذلك أن تكون معالم للناس يؤقتون بها أمورهم، ومعالم للعبادات المؤقتة يعرف بها أوقاتها. وخصوصا الحج فإن الوقت مراعي فيه أداء وقضاء. والمواقيت: جمع ميقات، من الوقت والفرق بينه وبين المدة والزمان: أن المدة المطلقة امتداد حركة الفلك من مبدئها إلى منتهاها. والزمان: مدة مقسومة، والوقت: الزمان المفروض لأمر. وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها وقرأ أبو عمرو وو ورش وحفص بضم الباء، والباقون بالكسر. ولكن البر من اتقى وقرأ نافع وابن عامر بتخفيف ولكن، ورفع البر. كانت الأنصار إذا أحرموا لم يدخلوا دارا ولا فسطاطا من بابه، وإنما يدخلون من نقب أو فرجة وراءه، ويعدون ذلك برا، فبين لهم أنه ليس ببر وإنما البر:

بر من اتقى المحارم والشهوات، ووجه اتصاله بما قبله أنهم سألوا عن الأمرين. أو أنه لما ذكر أنها مواقيت الحج وهذا أيضا من أفعالهم في الحج ذكره للاستطراد، أو أنهم لما سألوا عما لا يعنيهم ولا يتعلق بعلم النبوة وتركوا السؤال عما يعنيهم ويختص بعلم النبوة، عقب بذكره جواب ما سألوه تنبيها على أن اللائق بهم أن يسألوا أمثال ذلك ويهتموا بالعلم بها، أو أن المراد به التنبيه على تعكيسهم في السؤال بتمثيل حالهم بحال من ترك باب البيت ودخل من ورائه. والمعنى: وليس البر بأن تعكسوا مسائلكم ولكن البر بر من اتقى ذلك ولم يجسر على مثله. وأتوا البيوت من أبوابها إذ ليس في العدول بر فباشروا الأمور من وجوهها. واتقوا الله في تغيير أحكامه والاعتراض على أفعاله. لعلكم تفلحون لكي تظفروا بالهدى والبر.

[سورة البقرة (٢) : آية ١٩٠]

وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين (١٩٠)

وقاتلوا في سبيل الله جاهدوا لإعلاء كلمته وإعزاز دينه. الذين يقاتلونكم قيل: كان ذلك قبل أن أمروا بقتال المشركين كافة المقاتلين منهم والمحاجزين. وقيل معناه الذين يناصبونكم القتال ويتوقع منهم ذلك دون غيرهم من المشايخ والصبيان والرهبان والنساء، أو الكفرة كلهم فإنهم بصدد قتال المسلمين وعلى قصده. ويؤيد الأول ما

روى: أن المشركين صدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الحديبية، وصالحوه على أن يرجع من." (١)

---

(١) تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل ناصر الدين البيضاوي ١٢٧/١

"رفاعة طلقني فبت طلاقي، وإن عبد الرحمن بن الزبير تزوجني وإن ما معه مثل هدبة الثوب. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أتريدين أن ترجعي إلى رفاعة؟ قالت: نعم، قال: لا حتى تذوقي عسيلته ويذوق عسيلتك»

. فالآية مطلقة قيدتها السنة، ويحتمل أن يفسر النكاح بالإصابة، ويكون العقد مستفادا من لفظ الزوج. **والحكمة في** هذا الحكم الردع عن التسرع إلى الطلاق والعود إلى المطلقة ثلاثا والرغبة فيها، والنكاح بشرط التحليل فاسد عند الأكثر. وجوزه أبو حنيفة مع الكراهة، وقد لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم المحلل والمحلل له. فإن طلقها الزوج الثاني فلا جناح عليهما أن يتراجعا أن يرجع كل من المرأة والزوج الأول إلى الآخر بالزواج، إن ظنا أن يقيما حدود الله إن كان في ظنهما أنهما يقيمان ما حده الله وشرعه من حقوق الزوجية، وتفسير الظن بالعلم هاهنا غير سديد لأن عواقب الأمور غيب تظن ولا تعلم، ولأنه لا يقال علمت أن يقوم زيد لأن أن الناصبة للتوقع وهو ينافي العلم. وتلك حدود الله أي الأحكام المذكورة. يبينها لقوم يعلمون يفهمون ويعلمون بمقتضى العلم.

[سورة البقرة (٢) : آية ٢٣١]

وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف ولا تمسكوهن ضرارا لتعتدوا ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه ولا تتخذوا آيات الله هزوا واذكروا نعمت الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به واتقوا الله واعلموا أن الله بكل شيء عليم (٢٣١)

وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن أي آخر عدتهن، والأجل يطلق للمدة ولمنتهاها فيقال لعمر الإنسان وللموت الذي به ينتهي قال:

كل حي مستكمل مدة العم ... ر ومود إذا انتهى أجله

والبلوغ هو الوصول إلى الشيء، وقد يقال للدنو منه على الاتساع، وهو المراد في الآية ليصح أو يرتب عليه. فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف إذ لا إمساك بعد انقضاء الأجل، والمعنى فراجعوهن من غير ضرار، أو خلوهن حتى تنقضي عدتهن من غير تطويل، وهو إعادة للحكم في بعض صوره للاهتمام به.

ولا تمسكوهن ضرارا ولا تراجعوهن إرادة الإضرار بهن، كأن المطلق يترك المعتدة حتى تشارف الأجل ثم يراجعها لتطول العدة عليها، فنهي عنه بعد الأمر بضده مبالغة. ونصب ضرارا على العلة أو الحال بمعنى مضارين. لتعتدوا لتظلموهن بالتطويل أو الإلجاء إلى الإفتداء، واللام متعلقة بضرارا إذ المراد تقييده.

ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه بتعريضها للعقاب. ولا تتخذوا آيات الله هزوا بالإعراض عنها والتهاون في العمل بما فيها من قولهم لمن لم يجد في الأمر إنما أنت هازئ، كأنه نهي عن الهزء وأراد به الأمر بضده. وقيل (كان الرجل يتزوج ويطلق ويعتق ويقول: كنت ألعب) فنزلت.

وعنه عليه الصلاة والسلام:

«ثلاث جدهن جد وهزلهن جد، الطلاق والنكاح والعتاق»

واذكروا نعمة الله عليكم التي من جملتها الهداية، وبعثة محمد صلى الله عليه وسلم بالشكر والقيام بحقوقها. وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة القرآن والسنة أفردهما بالذكر إظهارا لشرفهما. يعظكم به بما أنزل عليكم. واتقوا الله واعلموا أن الله بكل شيء عليم تأكيد وتهديد.

[سورة البقرة (٢) : آية ٢٣٢]

وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن إذا تراضوا بينهم بالمعروف ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر ذلكم أزكى لكم وأطهر والله يعلم وأنتم لا تعلمون (٢٣٢)

وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن أي انقضت عدتهن، وعن الشافعي رحمه الله تعالى دل سياق الكلامين على افتراق البلوغين. فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن المخاطب به الأولياء لما

روي (أنها." (١)

"ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء التعريض والتلويح إيهام المقصود بما لم يوضع له حقيقة ولا مجازا، كقول السائل جئتك لأسلم عليك، والكناية هي الدلالة على الشيء بذكر لوازمه وروادفه، كقولك الطويل النجاد للطويل، وكثير الرماد للمضياف. والخطبة بالضم والكسر اسم الحالة، غير أن المضمومة خصت بالموعظة والمكسورة بطلب المرأة، والمراد بالنساء المعتدات للوفاة، وتعريض خطبتها أن يقول لها إنك جميلة أو نافقة ومن غرضي أن أتزوج ونحو ذلك. أو أكننتم في أنفسكم أو أضمرتم في قلوبكم فلم تذكروه تصريحا ولا تعريضا. علم الله أنكم ستذكرونهن ولا تصبرون على السكوت عنهن وعن الرغبة فيهن وفيه نوع توبيخ. ولكن لا تواعدوهن سرا

استدراك على محذوف دل عليه ستذكرونهن أي فاذكروهن ولكن لا تواعدوهن نكاحا أو جماعا، عبر بالسر

---

(١) تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل ناصر الدين البيضاوي ١٤٣/١

عن الوطء لأنه مما يسر ثم عن العقد لأنه سبب فيه. وقيل معناه لا تواعدوهن في السر على أن المعنى بالمواعدة في السر المواعدة بما يستهجن. إلا أن تقولوا قولا معروفا وهو أن تعرضوا ولا تصرحوا والمستثنى منه محذوف أي: لا تواعدوهن مواعدة إلا مواعدة معروفة، أو إلا مواعدة بقول معروف. وقيل إنه استثناء منقطع من سرا وهو ضعيف لأدائه إلى قولك لا تواعدوهن إلا التعريض، وهو غير موعود. وفيه دليل حرمة تصريح خطبة المعتدة وجواز تعريضها إن كانت معتدة وفاة. واختلف في معتدة الفراق البائن والأظهر جوازه. ولا تعزموا عقدة النكاح ذكر العزم مبالغة في النهي عن العقد، أي ولا تعزموا عقد عقدة النكاح. وقيل معناه ولا تقطعوا عقدة النكاح فإن أصل العزم القطع. حتى يبلغ الكتاب أجله حتى ينتهي ما كتب من العدة. واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم من العزم على ما لا يجوز. فاحذروه ولا تعزموا. واعلموا أن الله غفور لمن عزم ولم يفعل خشية من الله سبحانه وتعالى. حليم لا يعاجلكم بالعقوبة.

[سورة البقرة (٢) : آية ٢٣٦]

لا جناح عليكم إن طلقتم النساء ما لم تمسوهن أو تفرضوا لهن فريضة ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعا بالمعروف حقا على المحسنين (٢٣٦)

لا جناح عليكم لا تبعة من مهر. وقيل من وزر لأنه لا بدعة في الطلاق قبل المسيس. وقيل: كان النبي صلى الله عليه وسلم يكثر النهي عن الطرق فظن أن فيه حرجا فنفى إن طلقتم النساء ما لم تمسوهن أي تجامعوهن.

وقرأ حمزة والكسائي «تماسوهن» بضم التاء ومد الميم في جميع القرآن. أو تفرضوا لهن فريضة إلا أن تفرضوا، أو حتى تفرضوا أو وتفرضوا. والفرض تسمية المهر، وفريضة نصب على المفعول به، فعيلة بمعنى مفعول. والتاء لنقل اللفظ من الوصفية إلى الإسمية، ويحتمل المصدر. والمعنى أنه لا تبعة على المطلق من مطالبة المهر إذا كانت المطلقة غير ممسوسة ولكن يسم لها مهرا، إذ لو كانت ممسوسة فعلية المسمى، أو مهر المثل. ولو كانت غير ممسوسة ولكن سمي لها فلها نصف المسمى، فمنطوق الآية ينفي الوجوب في الصورة الأولى، ومفهومها يقتضي الوجوب على الجملة في الأخيرتين. ومتعوهن عطف على مقدر أي فطلقوهن ومتعوهن، **والحكمة في** إيجاب المتعة جبر إيحاش الطلاق، وتقديرها مفوض إلى رأي الحاكم ويؤيده قوله:

على الموسع قدره وعلى المقتر قدره أي على كل من الذي له سعة، والمقتر الضيق الحال ما يطيقه ويليق

به، ويدل عليه

قوله عليه السلام لأنصاري طلق امرأته المفوضة قبل أن يمسها «متعها بقلنسوتك»

. وقال أبو حنيفة رضي الله تعالى عنه: هي درع وملحفة وخمار حسب الحال إلا أن يقل مهر مثلها عن ذلك فلها نصف مهر المثل، ومفهوم الآية يقتضي تخصيص إيجاب المتعة للمفوضة التي لم يمسها الزوج، وألحق بها الشافعي رحمه الله تعالى في أحد قوليه الممسوسة المفوضة وغيرها قياسا، وهو مقدم على المفهوم. وقرأ حمزة والكسائي وحفص وابن ذكوان بفتح الدال متاعا تمتيعا. بالمعروف بالوجه الذي يستحسنه الشرع والمروءة. حقا صفة لمتاعا، أو مصدر مؤكد أي حق ذلك حقا. على المحسنين الذي يحسنون إلى." (١)

"«تغمضوا» أي تحملوا على الإغماض، أو توجدوا مغمضين. وعن ابن عباس رضي الله عنه: كانوا يتصدقون بحشف التمر وشراره فنهوا عنه. واعلموا أن الله غني عن إنفاقكم، وإنما يأمركم به لانتفاعكم. حميد بقبوله وإثابته.

[سورة البقرة (٢) : آية ٢٦٨]

الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا والله واسع عليم (٢٦٨)

الشيطان يعدكم الفقر في الإنفاق، والوعد في الأصل شائع في الخير والشر. وقرئ الفقر بالضم والسكون وبضمتين وفتحتين. ويأمركم بالفحشاء ويغريكم على البخل، والعرب تسمي البخيل فاحشا.

وقيل المعاصي والله يعدكم مغفرة منه أي يعدكم في الإنفاق مغفرة لذنوبكم. وفضلا خلفا أفضل مما أنفقتم في الدنيا، أو في الآخرة. والله واسع أي واسع الفضل لمن أنفق. عليم بإنفاقه.

[سورة البقرة (٢) : آية ٢٦٩]

يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر إلا أولوا الألباب (٢٦٩)

يؤتي الحكمة تحقيق العلم وإتقان العلم. من يشاء مفعول أول أخر للإهتمام بالمفعول الثاني ومن يؤت الحكمة بناؤه للمفعول لأنه المقصود. وقرأ يعقوب بالكسر أي ومن يؤته الله الحكمة. فقد أوتي خيرا كثيرا

---

(١) تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل ناصر الدين البيضاوي ١٤٦/١

أي: أي خير كثير؟ إذ حيز له خير الدارين. وما يذكر وما يتعظ بما قص من الآيات، أو ما يتفكر، فإن المتفكر كالمتذكر لما أودع الله في قلبه من العلوم بالقوة. إلا أولوا الألباب ذوو العقول الخالصة عن شوائب الوهم والركون إلى متابعة الهوى.

[سورة البقرة (٢) : الآيات ٢٧٠ الى ٢٧٢]
وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فإن الله يعلمه وما للظالمين من أنصار (٢٧٠) إن تبدوا الصدقات فنعما هي وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ويكفر عنكم من سيئاتكم والله بما تعملون خبير (٢٧١) ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء وما تنفقوا من خير فلأنفسكم وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله وما تنفقوا من خير يوف إليكم وأنتم لا تظلمون (٢٧٢)
وما أنفقتم من نفقة قليلة أو كثيرة، سرا أو علانية، في حق أو باطل. أو نذرتم من نذر بشرط أو بغير شرط، في طاعة أو معصية. فإن الله يعلمه فيجازيكم عليه. وما للظالمين الذين ينفقون في المعاصي وينذرون فيها، أو يمنعون الصدقات ولا يوفون بالنذر. من أنصار من ينصرهم من الله ويمنعهم من عقابه.
إن تبدوا الصدقات فنعما هي فنعم شيئا إبداؤها. وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي بفتح النون وكسر العين على الأصل. وقرأ أبو بكر وأبو عمرو وقالون بكسر النون وسكون العين، وروي عنهم بكسر النون وإخفاء حركة العين وهو أقيس. وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء أي تعطوها مع الإخفاء. فهو خير لكم فالإخفاء خير لكم، وهذا في التطوع ولمن لم يعرف بالمال فإن إبداء الفرض لغيره أفضل لنفي التهمة عنه.
عن ابن عباس رضي الله عنهما (صدقة السر في التطوع تفضل علانيتها سبعين ضعفا، وصدقة الفريضة علانيتها أفضل من سرها بخمسة وعشرين ضعفا) . ويكفر عنكم من سيئاتكم قرأ ابن عامر وعاصم في رواية حفص بالياء أي والله يكفر أو الإخفاء. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم في رواية ابن عياش ويعقوب بالنون مرفوعا على أنه جملة فعلية مبتدأة أو إسمية معطوفة على ما بعد الفاء أي: ونحن نكفر. وقرأ نافع وحمزة والكسائي به مجزوما على محل الفاء وما بعده. وقرئ بالتاء مرفوعا ومجزوما والفعل للصدقات. والله بما تعملون خبير ترغيب في الإسرار.." (١)

---

(١) تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل ناصر الدين البيضاوي ١٦٠/١

"ذلك الذي قطعتم به أعماركم من النوم بالليل وكسب الآثام بالنهار، ليقضي الأجل الذي سماه وضربه لبعث الموتى وجزائهم على أعمالهم، ثم إليه مرجعكم بالحساب، ثم ينبئكم بما كنتم تعملون بالجزاء.

[سورة الأنعام (٦) : الآيات ٦١ الى ٦٢]

وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون (٦١) ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين (٦٢)

وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة ملائكة تحفظ أعملكم، وهم الكرام الكاتبون، **والحكمة فيه** أن المكلف إذا علم أن أعماله تكتب عليه وتعرض على رؤوس الأشهاد كان أزجر عن المعاصي، وأن العبد إذا وثق بلطف سيده واعتمد على عفوه وستره لم يحتشم منه احتشامه من خدمه المطلعين عليه. حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا ملك الموت وأعوانه. وقرأ حمزة «توفاه» بالألف ممالة. وهم لا يفرطون بالتواني والتأخير. وقرئ بالتخفيف، والمعنى: لا يجاوزون ما حد لهم بزيادة أو نقصان.

ثم ردوا إلى الله إلى حكمه وجزائه. مولاهم الذي يتولى أمرهم. الحق العدل الذي لا يحكم إلا بالحق وقرئ بالنصب على المدح. ألا له الحكم يومئذ لا حكم لغيره فيه. وهو أسرع الحاسبين يحاسب الخلائق في مقدار حلب شاة لا يشغله حساب عن حساب.

[سورة الأنعام (٦) : الآيات ٦٣ الى ٦٤]

قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعا وخفية لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين (٦٣) قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون (٦٤)

قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر من شدائدهما، استعيرت الظلمة للشدة لمشاركتهما في الهول وإبطال الإبصار فقيل لليوم الشديد يوم مظلم ويوم ذو كواكب، أو من الخسف في البر والغرق في البحر. وقرأ يعقوب ينجيكم بالتخفيف والمعنى واحد. تدعونه تضرعا وخفية معلنين ومسرين، أو إعلانا وإسرارا وقرأ أبو بكر هنا وفي «الأعراف» وخفية بالكسر وقرئ «خيفة» . لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين على إرادة القول أي تقولون لئن أنجيتنا. وقرأ الكوفيون «لئن أنجانا» ليوافق قوله تدعونه وهذه إشارة إلى الظلمة.

قل الله ينجيكم منها شدده الكوفيون وهشام وخففه الباقون. ومن كل كرب غم سواها. ثم أنتم تشركون

تعودون إلى الشرك ولا توفون بالعهد، وإنما وضع تشركون موضع لا تشكرون تنبيها على أن من أشرك في عبادة الله سبحانه وتعالى فكأنه لم يعبده رأسا.

[سورة الأنعام (٦) : الآيات ٦٥ الى ٦٦]

قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض انظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون (٦٥) وكذب به قومك وهو الحق قل لست عليكم بوكيل (٦٦)

قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم كما فعل بقوم نوح ولوط وأصحاب الفيل. أو من تحت أرجلكم كما أغرق فرعون، وخسف بقارون. وقيل من فوقكم أكابركم وحكامكم ومن تحت أرجلكم سفلتكم وعبيدكم. أو يلبسكم يخلطكم. شيعا فرقا متحزبين على أهواء شتى، فينشب القتال بينكم قال:

وكتيبه لبستها بكتيبة ... حتى إذا التبست نفضت لها يدي

ويذيق بعضكم بأس بعض يقاتل بعضكم بعضا. انظر كيف نصرف الآيات بالوعد والوعيد.

لعلهم يفقهون.." (١)

"الصفا فدعاهم فخذا فخذا يحذرهم بأس الله تعالى فقال قائلهم: إن صاحبكم لمجنون بات يهوت إلى الصباح، فنزلت.

إن هو إلا نذير مبين موضح انذاره بحيث لا يخفى على ناظر.

[سورة الأعراف (٧) : الآيات ١٨٥ الى ١٨٦]

أولم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله من شيء وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم فبأي حديث بعده يؤمنون (١٨٥) من يضلل الله فلا هادي له ويذرهم في طغيانهم يعمهون (١٨٦)

أولم ينظروا نظر استدلال. في ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله من شيء مما يقع عليه اسم الشيء من الأجناس التي لا يمكن حصرها ليدلهم على كمال قدرة صانعها، ووحدة مبدعها وعظم شأن مالكها، ومتولي أمرها ليظهر لهم صحة ما يدعوهم إليه. وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم عطف على ملكوت

---

(١) تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل ناصر الدين البيضاوي ١٦٦/٢

وأن مصدرية أو مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن وكذا اسم يكون والمعنى: أو لم ينظروا في اقتراب آجالهم وتوقع حلولها فيسارعوا إلى طلب الحق والتوجه إلى ما ينجيهم، قبل مغافصة الموت ونزول العذاب. فبأي حديث بعده أي بعد القرآن. يؤمنون إذا لم يؤمنوا به، وهو النهاية في البيان كأنه إخبار عنهم بالطبع والتصميم على الكفر بعد إلزام الحجة والارشاد إلى النظر. وقيل هو متعلق بقوله: عسى أن يكون، كأنه قيل لعل أجلهم قد اقترب فما بالهم لا يبادرون الإيمان بالقرآن، وماذا ينتظرون بعد وضوحه فإن لم يؤمنوا به فبأي حديث أحق منه يريدون أن يؤمنوا به.

وقوله: من يضلل الله فلا هادي له كالتقرير والتعليل له. ونذرهم في طغيانهم بالرفع على الاستئناف، وقرأ أبو عمرو وعاصم ويعقوب بالياء لقوله من يضلل اللہ، وحمزة والكسائي به وبالجزم عطفا على محل فلا هادي له، كأنه قيل: لا يهده أحد غيره ويذرهم. يعمهون حال من هم.

[سورة الأعراف (٧) : آية ١٨٧]

يسئلونك عن الساعة أيان مرساها قل إنما علمها عند ربي لا يجليها لوقتها إلا هو ثقلت في السماوات والأرض لا تأتيكم إلا بغتة يسئلونك كأنك حفي عنها قل إنما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون (١٨٧)

يسئلونك عن الساعة أي عن القيامة، وهي من الأسماء الغالبة وإطلاقها عليها إما لوقوعها بغتة أو لسرعة حسابها، أو لأنها على طولها عند الله كساعة. أيان مرساها متى إرساؤها أي إثباتها واستقرارها ورسو الشيء ثباته واستقراره، ومنه رسا الجبل وأرسى السفينة، واشتقاق أيان من أي لأن معناه أي وقت، وهو من أويت إليه لأن البعض أو إلى الكل. قل إنما علمها عند ربي استأثر به لم يطلع عليه ملكا مقربا ولا نبيا مرسلا. لا يجليها لوقتها لا يظهر أمرها في وقتها. إلا هو والمعنى أن الخفاء بها مستمر على غيره إلى وقت وقوعها، واللام للتأقيت كاللام في قوله: أقم الصلاة لدلوك الشمس. ثقلت في السماوات والأرض عظمت على أهلها من الملائكة والثقلين لهولها، وكأنه إشارة إلى الحكمة في إخفائها. لا تأتيكم إلا بغتة إلا فجأة على غفلة، كما

قال عليه الصلاة والسلام: «إن الساعة تهيج بالناس والرجل يصلح حوضه والرجل يسقي ماشيته والرجل يقوم سلعته في سوقه والرجل يخفض ميزانه ويرفعه» .

يسئلونك كأنك حفي عنها عالم بها، فعيل من حفى عن الشيء إذا سأل عنه، فإن من بالغ في السؤال عن

الشيء والبحث عنه استحكم علمه فيه، ولذلك عدي بعن. وقيل هي صلة يسئلونك. وقيل هو من الحفاوة بمعنى الشفقة فإن قريشا قالوا له: إن بيننا وبينك قرابة فقل لنا متى الساعة، والمعنى يسألونك عنها كأنك حفي تتحفى بهم فتخصهم لأجل قرابتهم بتعليم وقتها. وقيل معناه كأنك حفي بالسؤال عنها تحبه، من حفى بالشيء إذا فرح أي تكثره لأنه من الغيب الذي استأثر الله بعلمه. قل إنما علمها عند الله كرره لتكرير يسألونك لما نيط به من هذه الزيادة وللمبالغة. ولكن أكثر الناس لا يعلمون أن علمها عند الله لم يؤته أحدا من خلقه.." (١)

"وبذل المال ونصرة الحق، ووعد لهم الموعد الكريم فقال. لهم مغفرة ورزق كريم لا تبعة له ولا منة فيه، ثم ألحق بهم في الأمرين من سيلحق بهم ويتسم بسمتهم فقال:

والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم أي من جملتكم أيها المهاجرون والأنصار. وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في التوارث من الأجانب. في كتاب الله في حكمه، أو في اللوح أو في القرآن واستدل به على توريث ذوي الأرحام. إن الله بكل شيء عليم من المواريث والحكمة في إناطتها بنسبة الإسلام والمظاهرة، أولا واعتبار القرابة ثانيا.

عن النبي صلى الله عليه وسلم: «من قرأ سورة الأنفال وبراءة فأنا شفيع له يوم القيامة، وشاهد أنه بريء من النفاق، وأعطي عشر حسنات بعدد كل منافق ومنافقة، وكان العرش وحملته يستغفرون له أيام حياته» .." (٢)

"البلاغ ثلاث فوائد هي الغاية والحكمة في إنزال الكتب، تكميل الرسل للناس، واستكمال القوة النظرية التي منتهى كمالها التوحيد، واستصلاح القوة العملية الذي هو التدرع بلباس التقوى، جعلنا الله تعالى من الفائزين بهما.

وعن النبي صلى الله عليه وسلم «من قرأ سورة إبراهيم أعطي من الأجر عشر حسنات بعدد من عبد الأصنام وعدد من لم يعبدها» .." (٣)

"الناس لا يعلمون

أنهم يبعثون إما لعدم علمهم بأنه من مواجب الحكمة التي جرت عادته بمراعاتها، وإما لقصور نظرهم

---

(١) تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل ناصر الدين البيضاوي ٤٤/٣

(٢) تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل ناصر الدين البيضاوي ٦٩/٣

(٣) تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل ناصر الدين البيضاوي ٢٠٥/٣

بالمألوف فيتوهمون امتناعه، ثم إنه تعالى بين الأمرين فقال:

[سورة النحل (١٦) : الآيات ٣٩ الى ٤٠]

ليبين لهم الذي يختلفون فيه وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين (٣٩) إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون (٤٠)

ليبين لهم أي يبعثهم ليبين لهم. الذي يختلفون فيه وهو الحق. وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين فيما يزعمون، وهو إشارة إلى السبب الداعي إلى البعث المقتضي له من حيث الحكمة، وهو المميز بين الحق والباطل والمحق والمبطل بالثواب والعقاب ثم قال:

إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون وهو بيان إمكانه وتقريره أن تكوين الله بمحض قدرته ومشيئته لا توقف له على سبق المواد والمدد، وإلا لزم التسلسل فكما أمكن له تكوين الأشياء ابتداء بلا سبق مادة ومثال أمكن له تكوينها إعادة بعده، ونصب ابن عامر والكسائي ها هنا وفي «يس» فيكون عطفا على نقول أو جوابا للأمر.

[سورة النحل (١٦) : الآيات ٤١ الى ٤٢]

والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا لنبوئنهم في الدنيا حسنة ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون (٤١) الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون (٤٢)

والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا هم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه المهاجرون ظلمهم قريش فهاجر بعضهم إلى الحبشة ثم إلى المدينة وبعضهم إلى المدينة، أو المحبوسون المعذبون بمكة بعد هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم بلال وصهيب وخباب وعمار وعابس وأبو جندل وسهيل رضي الله تعالى عنهم، وقوله. في الله أي في حقه ولوجهه. لنبوئنهم في الدنيا حسنة مباءة حسنة وهي المدينة أو تبوئة حسنة. ولأجر الآخرة أكبر مما يعجل لهم في الدنيا. وعن عمر رضي الله تعالى عنه: أنه كان إذا أعطى رجلا من المهاجرين عطاء قال له خذ بارك الله لك فيه هذا ما وعدك الله في الدنيا وما ادخر لك في الآخرة أفضل. لو كانوا يعلمون الضمير للكفار أي لو علموا أن الله يجمع لهؤلاء المهاجرين خير الدارين لوافقوهم، أو للمهاجرين أي لو علموا ذلك لزادوا في اجتهادهم وصبرهم.

الذين صبروا على الشدائد كأذى الكفار ومفارقة الوطن، ومحله النصب أو الرفع على المدح.

وعلى ربهم يتوكلون منقطعين إلى الله مفوضين إليه الأمر كله.

[سورة النحل (١٦) : الآيات ٤٣ الى ٤٤]
وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم فسئلوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون (٤٣) بالبينات والزبر وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون (٤٤)
وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم رد لقول قريش: الله أعظم من أن يكون رسوله بشرا، أي جرت السنة الإلهية بأن لا يبعث للدعوة العامة إلا بشرا يوحي إليه على ألسنة الملائكة، **والحكمة في** ذلك قد ذكرت في سورة «الأنعام» فإن شككتم فيه. فسئلوا أهل الذكر أهل الكتاب أو علماء الأخبار ليعلموكم. إن كنتم لا تعلمون وفي الآية دليل على أنه تعالى لم يرسل امرأة ولا ملكا للدعوة العامة وقوله: جاعل الملائكة رسلا معناه رسلا إلى الملائكة أو إلى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. وقيل لم يبعثوا إلى الأنبياء إلا متمثلين بصورة الرجال.
ورد بما روي: أنه عليه الصلاة والسلام رأى جبريل صلوات الله عليه على صورته التي هو عليها مرتين.
وعلى وجوب المراجعة إلى العلماء فيما لا يعلم.." (١)
"أم أمنتم أن يعيدكم فيه في البحر. تارة أخرى بخلق دواع تلجئكم إلى أن ترجعوا فتركبوه.
فيرسل عليكم قاصفا من الريح لا تمر بشيء إلا قصفته أي كسرته. فيغرقكم وعن يعقوب بالتاء على إسناده إلى ضمير الريح. بما كفرتم بسبب إشراككم أو كفرانكم نعمة الإنجاء. ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعا مطالبا يتبعنا بانتصار أو صرف.

[سورة الإسراء (١٧) : آية ٧٠]
ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا (٧٠)
ولقد كرمنا بني آدم بحسن الصورة والمزاج الأعدل واعتدال القامة والتمييز بالعقل والإفهام بالنطق والإشارة والخط والتهدي، أو أسباب المعاش والمعاد والتسلط على ما في الأرض والتمكن من الصناعات وانسياق

---

(١) تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل ناصر الدين البيضاوي ٢٢٧/٣

الأسباب والمسببات العلوية والسفلية إلى ما يعود عليهم بالمنافع إلى غير ذلك مما يقف الحصر دون إحصائه ومن ذلك ما ذكره ابن عباس وهو أن كل حيوان يتناول طعامه بفيه إلا الإنسان فإنه يرفعه إليه بيده وحملناهم في البر والبحر على الدواب والسفن من حملته حملا إذا جعلت له ما يركبه أو حملناهم فيهما حتى لم تخسف بهم الأرض ولم يغرقهم الماء ورزقناهم من الطيبات المستلذات مما يحصل بفعلهم وبغير فعلهم. وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا بالغلبة والاستيلاء أو بالشرف والكرامة، والمستثنى جنس الملائكة عليهم الصلاة والسلام أو الخواص منهم، ولا يلزم من عدم تفضيل الجنس عدم تفضيل بعض أفراده والمسألة موضع نظر، وقد أول الكثير بالكل وفيه تعسف.

[سورة الإسراء (١٧) : آية ٧١]

يوم ندعوا كل أناس بإمامهم فمن أوتي كتابه بيمينه فأولئك يقرؤن كتابهم ولا يظلمون فتيلا (٧١)

يوم ندعوا نصب بإضمار اذكر أو ظرف لما دل عليه ولا يظلمون، وقرئ «يدعو» و «يدعي» و «يدعو» على قلب الألف واوا في لغة من يقول أفعو في أفعى، أو على أن الواو علامة الجمع كما في قوله:

وأسروا النجوى الذين ظلموا أو ضميره وكل بدل منه والنون محذوفة لقلة المبالاة بها فإنها ليست إلا علامة الرفع، وهو قد يقدر كما في «يدعي» . كل أناس بإمامهم بمن ائتموا به من نبي أو مقدم في الدين أو كتاب أو دين. وقيل بكتاب أعمالهم التي قدموها فيقال يا صاحب كتاب كذا، أي تنقطع علقة الأنساب وتبقى نسبة الأعمال. وقيل بالقوى الحاملة لهم على عقائدهم وأفعالهم. وقيل بأمهاتهم جمع أم كخف وخفاف، والحكمة في ذلك، إجلال عيسى عليه السلام وإظهار شرف الحسن والحسين رضي الله عنهما، وأن لا يفتضح أولاد الزنا. فمن أوتي من المدعوين. كتابه بيمينه أي كتاب عمله. فأولئك يقرؤن كتابهم ابتهاجا وتبجحا بما يرون فيه. ولا يظلمون فتيلا ولا ينقصون من أجورهم أدنى شيء، وجمع اسم الإشارة والضمير لأن من أوتي في معنى الجمع، وتعليق القراءة بإيتاء الكتاب باليمين يدل على أن من أوتى كتابه بشماله إذا اطلع على ما فيه غشيهم من الخجل والحيرة ما يحبس ألسنتهم عن القراءة، ولذلك لم يذكرهم مع أن قوله:

[سورة الإسراء (١٧) : آية ٧٢]

ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا (٧٢)

ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى أيضا مشعر بذلك فإن الأعمى لا يقرأ الكتاب، والمعنى ومن كان في هذه الدنيا أعمى القلب لا يبصر رشده كان في الآخرة أعمى لا يرى طريق النجاة. وأضل سبيلا منه في الدنيا لزوال الاستعداد وفقدان الآلة والمهلة. وقيل لأن الاهتداء بعد لا ينفعه والأعمى مستعار." (١)

"قالوا أي قال بعضهم لبعض. تقاسموا بالله أمر مقول أو خبر وقع بدلا أو حالا بإضمار قد.
لنبيتنه وأهله لنباغتن صالحا وأهله ليلا. وقرأ حمزة والكسائي بالتاء على خطاب بعضهم لبعض، وقرئ بالياء على أن تقاسموا خبر. ثم لنقولن فيه القراءات الثلاث. لوليه لولي دمه. ما شهدنا مهلك أهله فضلا أن تولينا إهلاكهم، وهو يحتمل المصدر والزمان والمكان وكذا مهلك في قراءة حفص فإن مفعلا قد جاء مصدرا كمرجع. وقرأ أبو بكر بالفتح فيكون مصدرا. وإنا لصادقون ونحلف إنا لصادقون، أو والحال إنا لصادقون فيما ذكرنا لأن الشاهد للشيء غير المباشر له عرفا، أو لأنا ما شهدنا مهلكهم وحده بل مهلكه ومهلكهم كقولك ما رأيت ثمة رجلا بل رجلين.

[سورة النمل (٢٧) : الآيات ٥٠ الى ٥١]
ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون (٥٠) فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين (٥١)
ومكروا مكرا بهذه المواضعة. ومكرنا مكرا بأن جعلناها سببا لإهلاكهم. وهم لا يشعرون بذلك،
روي أنه كان لصالح في الحجر مسجد في شعب يصلي فيه فقالوا: زعم أنه يفرغ منا إلى ثلاث فنفرغ منه ومن أهله قبل الثلاث، فذهبوا إلى الشعب ليقتلوه، فوقع عليهم صخرة حيالهم فطبقت عليهم فم الشعب فهلكوا ثمة وهلك الباقون في أماكنهم بالصيحة
كما أشار إليه قوله:
فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين وكان إن جعلت ناقصة فخبرها كيف وأنا دمرناهم استئناف أو خبر محذوف لا خبر كان لعدم العائد، وإن جعلتها تامة ف- كيف حال. وقرأ الكوفيون ويعقوب أنا دمرناهم بالفتح على أنه خبر محذوف أو بدل من اسم كان أو خبر له وكيف حال.

---

(١) تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل ناصر الدين البيضاوي ٢٦٢/٣

[سورة النمل (٢٧) : الآيات ٥٢ الى ٥٣]

فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إن في ذلك لآية لقوم يعلمون (٥٢) وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون (٥٣)

فتلك بيوتهم خاوية خالية من خوى البطن إذا خلا، أو ساقطة منهدمة من خوى النجم إذا سقط، وهي حال عمل فيها معنى الإشارة. وقرئ بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف. بما ظلموا بسبب ظلمهم.

إن في ذلك لآية لقوم يعلمون فيتعظون.

وأنجينا الذين آمنوا صالحا ومن معه. وكانوا يتقون الكفر والمعاصي فلذلك خصوا بالنجاة.

[سورة النمل (٢٧) : الآيات ٥٤ الى ٥٥]

ولوطا إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون (٥٤) أإنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم تجهلون (٥٥)

ولوطا واذكر لوطا، أو وأرسلنا لوطا لدلالة ولقد أرسلنا عليه. إذ قال لقومه بدل على الأول وظرف على الثاني. أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون تعلمون فحشها من بصر القلب واقتراف القبائح من العالم بقبحها أقبح، أو يبصرها بعضكم من بعض لأنهم كانوا يعلنون بها فتكون أفحش.

أإنكم لتأتون الرجال شهوة بيان لإتيانهم الفاحشة وتعليله بالشهوة للدلالة على قبحه، والتنبيه على أن الحكمة في المواقعة طلب النسل لا قضاء الوطر. من دون النساء اللاتي خلقن لذلك. بل أنتم قوم تجهلون تفعلون فعل من يجهل قبحها، أو يكون سفيها لا يميز بين الحسن والقبيح، أو تجهلون العاقبة والتاء فيه لكون الموصوف به في معنى المخاطب.." (١)

"[سورة الروم (٣٠) : آية ٢٣]

ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون (٢٣)

ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله منامكم في الزمانين لاستراحة القوى النفسانية وتقوي القوى الطبيعية وطلب معاشكم فيهما، أو منامكم بالليل وابتغاؤكم بالنهار فلف وضم بين الزمانين والفعلين بعاطفين إشعارا بأن كلا من الزمانين وإن اختص بأحدهما فهو صالح للآخر عند الحاجة، ويؤيده سائر الآيات الواردة فيه. إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون سماع تفهم واستبصار فإن الحكمة فيه ظاهرة.

---

(١) تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل ناصر الدين البيضاوي ١٦٣/٤

[سورة الروم (٣٠) : آية ٢٤]

ومن آياته يريكم البرق خوفا وطمعا وينزل من السماء ماء فيحيي به الأرض بعد موتها إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون (٢٤)

ومن آياته يريكم البرق مقدر بأن المصدرية كقوله:

ألا أيهذا الزاجري أحضر الوغى ... وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدي

أو الفعل فيه منزلة المصدر كقولهم: تسمع بالمعيدي خير من أن تراه، أو صفة لمحذوف تقديره آية يريكم بها البرق كقوله:

فما الدهر إلا تارتان فمنهما ... أموت وأخرى أبتغي العيش أكدح

خوفا من الصاعقة للمسافر. وطمعا في الغيث للمقيم، ونصبهما على العلة لفعل يلزم المذكور فإن إراءتهم تستلزم رؤيتهم أوله على تقدير مضاف نحو إرادة خوف وطمع، أو تأويل الخوف والطمع بالإخافة والإطماع كقولك فعلته رغما للشيطان، أو على الحال مثل كلمته شفاها. وينزل من السماء ماء وقرئ بالتشديد. فيحيي به الأرض بالنبات. بعد موتها يبسها. إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون يستعملون عقولهم في استنباط أسبابها وكيفية تكونها ليظهر لهم كمال قدرة الصانع وحكمته.

[سورة الروم (٣٠) : الآيات ٢٥ الى ٢٦]

ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون (٢٥) وله من في السماوات والأرض كل له قانتون (٢٦)

ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره قيامهما بإقامته لهما وإرادته لقيامهما في حيزيهما المعينين من غير مقيم محسوس، والتعبير بالأمر للمبالغة في كمال القدرة والغنى عن الآلة. ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون عطف على أن تقوم على تأويل مفرد كأنه قيل: ومن آياته قيام السموات والأرض بأمره ثم خروجكم من القبور إذا دعاكم دعوة واحدة فيقول أيها الموتى اخرجوا، والمراد تشبيه سرعة ترتب حصول ذلك على تعلق إرادته بلا توقف واحتياج إلى تجشم عمل بسرعة ترتب إجابة الداعي المطاع على دعائه، وثم إما لتراخي زمانه أو لعظم ما فيه ومن الأرض متعلق بدعا كقولك: دعوته من أسفل الوادي فطلع إلي لا بتخرجون لأن ما بعد إذا لا يعمل فيما قبلها، وإذا الثانية للمفاجأة ولذلك نابت مناب الفاء في جواب

الأولى.
وله من في السماوات والأرض كل له قانتون منقادون لفعله فيهم لا يمتنعون عليه.

[سورة الروم (٣٠) : آية ٢٧]
وهو الذي يبدؤا الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم (٢٧)." (١)
"[سورة لقمان (٣١) : آية ٧]
وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبرا كأن لم يسمعها كأن في أذنيه وقرا فبشره بعذاب أليم (٧)
وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبرا متكبرا لا يعبأ بها. كأن لم يسمعها مشابها حاله حال من لم يسمعها. كأن في أذنيه وقرا مشابها من في أذنيه ثقل لا يقدر أن يسمع، والأولى حال من المستكن في ولى أو في مستكبرا، والثانية بدل منها أو حال من المستكن في لم يسمعها ويجوز أن يكونا استئنافين، وقرأ نافع في أذنيه. فبشره بعذاب أليم أعلمه بأن العذاب يحيق به لا محالة وذكر البشارة على التهكم.

[سورة لقمان (٣١) : الآيات ٨ الى ٩]
إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات النعيم (٨) خالدين فيها وعد الله حقا وهو العزيز الحكيم (٩)
إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات النعيم أي لهم نعيم الجنات فعكس للمبالغة.
خالدين فيها حال من الضمير في لهم أو من جنات النعيم والعامل ما تعلق به اللام. وعد الله حقا مصدران مؤكدان الأول لنفسه والثاني لغيره لأن قوله لهم جنات وعد وليس كل وعد حقا. وهو العزيز. الذي لا يغلبه شيء فيمنعه عن إنجاز وعده ووعيده. الحكيم الذي لا يفعل إلا ما تستدعيه حكمته.

[سورة لقمان (٣١) : الآيات ١٠ الى ١١]
خلق السماوات بغير عمد ترونها وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم وبث فيها من كل دابة وأنزلنا من

---

(١) تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل ناصر الدين البيضاوي ٢٠٥/٤

السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم (١٠) هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه بل الظالمون في ضلال مبين (١١)

خلق السماوات بغير عمد ترونها قد سبق في «الرعد» . وألقى في الأرض رواسي جبالا شوامخ.

أن تميد بكم كراهة أن تميد بكم، فإن تشابه أجزائها يقتضي تبدل أحيازها وأوضاعها لامتناع اختصاص كل منها لذاته أو لشيء من لوازمه بحيز ووضع معينين. وبث فيها من كل دابة وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم من كل صنف كثير المنفعة وكأنه استدل بذلك على عزته التي هي كمال القدرة، وحكمته التي هي كمال العلم، ومهد به قاعدة التوحيد وقررها بقوله:

هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه هذا الذي ذكر مخلوقه فماذا خلق آلهتكم حتى استحقوا مشاركته، وماذا نصب ب خلق أو ما مرتفع بالابتداء وخبره ذا بصلته فأروني معلق عنه. بل الظالمون في ضلال مبين إضراب عن تبكيتهم إلى التسجيل عليهم بالضلال الذي لا يخفى على ناظر، ووضع الظاهر موضع المضمر للدلالة على أنهم ظالمون بإشراكهم.

[سورة لقمان (٣١) : آية ١٢]

ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن الله غني حميد (١٢)

ولقد آتينا لقمان الحكمة يعني لقمان بن باعوراء من أولاد آزر ابن أخت أيوب أو خالته، وعاش حتى أدرك داود عليه الصلاة والسلام وأخذ منه العلم وكان يفتي قبل مبعثه، والجمهور على أنه كان حكيما ولم يكن نبيا.

والحكمة في عرف العلماء: استكمال النفس الإنسانية باقتباس العلوم النظرية، واكتساب الملكة التامة على الأفعال الفاضلة على قدر طاقتها. ومن حكمته أنه صحب داود شهورا وكان يسرد الدرع فلم يسأله عنها فلما أتمها لبسها وقال:

نعم لبوس الحرب أنت فقال: الصمت حكم وقليل فاعله، وأن داود عليه السلام قال له يوما كيف أصبحت فقال أصبحت في يدي غيري، فتفكر داود فيه فصعق صعقة. وأنه أمره بأن يذبح شاة ويأتي بأطيب مضغتين

منها فأتى باللسان والقلب، ثم بعد أيام أمره بأن يأتي بأخبث مضغتين منها فأتى بهما أيضا فسأله عن ذلك فقال: هما أطيب شيء." (١)

"إذا طابا وأخبث شيء إذا خبثا. أن اشكر لله لأن أشكر أو أي أشكر فإن إيتاء الحكمة في معنى القول. ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه لأن نفعه عائد إليها وهو دوام النعمة واستحقاق مزيدها. ومن كفر فإن الله غني لا يحتاج إلى الشكر. حميد حقيق بالحمد وإن لم يحمد، أو محمود ينطق بحمده جميع مخلوقاته بلسان الحال.

[سورة لقمان (٣١) : آية ١٣]

وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم (١٣)

وإذ قال لقمان لابنه أنعم أو أشكم أو ماثان. وهو يعظه يا بني تصغير إشفاق، وقرأ ابن كثير هنا وفي يا بني أقم الصلاة بإسكان الياء، وحفص فيهما وفي يا بني إنها إن تك بفتح الياء ومثله البزي في الأخير وقرأ الباقون في الثلاثة بكسر الياء. لا تشرك بالله قيل كان كافرا فلم يزل به حتى أسلم، ومن وقف على لا تشرك جعل بالله قسما. إن الشرك لظلم عظيم لأنه تسوية بين من لا نعمة إلا منه ومن لا نعمة منه.

[سورة لقمان (٣١) : آية ١٤]

ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله في عامين أن اشكر لي ولوالديك إلي المصير (١٤)

ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا ذات وهن أو تهن وهنا على وهن أي تضعف ضعفا فوق ضعف فإنها لا تزال يتضاعف ضعفها والجملة في موضع الحال، وقرئ بالتحريك يقال وهن يهن وهنا ووهن يوهن وهنا. وفصاله في عامين وفطامه في انقضاء عامين وكانت ترضعه في تلك المدة، وقرئ «وفصله في عامين» وفيه دليل على أن أقصى مدة الرضاع حولان. أن اشكر لي ولوالديك تفسير ل وصينا أو علة له أو بدل من والديه بدل الاشتمال، وذكر الحمل والفصال في البين اعتراض مؤكد للتوصية في حقها خصوصا ومن ثم

(١) تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل ناصر الدين البيضاوي ٢١٣/٤

قال عليه الصلاة والسلام لمن قال من أبر «أمك ثم أمك ثم أمك ثم قال بعد ذلك أباك» .
إلي المصير فأحاسبك على شكرك وكفرك.

[سورة لقمان (٣١) : آية ١٥]

وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفا واتبع سبيل من أناب إلي ثم إلي مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون (١٥)

وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم باستحقاقه الإشراك تقليدا لهما، وقيل أراد بنفي العلم به نفيه. فلا تطعهما في ذلك. وصاحبهما في الدنيا معروفا صحابا معروفا يرتضيه الشرع ويقتضيه الكرم. واتبع في الدين سبيل من أناب إلي بالتوحيد والإخلاص في الطاعة. ثم إلي مرجعكم مرجعك ومرجعهما. فأنبئكم بما كنتم تعملون

بأن أجازيك على إيمانك وأجازيهما على كفرهما، والآيتان معترضتان في تضاعيف وصية لقمان تأكيدا لما فيها من النهي عن الشرك كأنه قال: وقد وصينا بمثل ما وصى به، وذكر الوالدين للمبالغة في ذلك فإنهما مع أنهما تلو الباري في استحقاق التعظيم والطاعة لا يجوز أن يستحقاه في الإشراك فما ظنك بغيرهما ونزولهما في سعد بن أبي وقاص وأمه مكثت لإسلامه ثلاثا لم تطعم فيها شيئا، ولذلك قيل من أناب إليه أبو بكر رضي الله عنه فإنه أسلم بدعوته.

[سورة لقمان (٣١) : آية ١٦]

يا بني إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السماوات أو في الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير (١٦)

يا بني إنها إن تك مثقال حبة من خردل أي أن الخصلة من الإحسان أو الإساءة إن تك مثلا في الصغر كحبة الخردل. ورفع نافع مثقال على أن الهاء ضمير القصة وكان تامة وتأنيثها لإضافة المثقال إلى الحبة كقول الشاعر:

كما شرقت صدر القناة من الدم." (١)

---

(١) تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل ناصر الدين البيضاوي ٢١٤/٤

"صالحا نؤتها أجرها مرتين

مرة على الطاعة ومرة على طلبهن رضا النبي عليه الصلاة والسلام بالقناعة وحسن المعاشرة. وقرأ حمزة والكسائي «ويعمل» بالياء حملا على لفظ «من ويؤتها» على أن فيه ضمير اسم الله، وأعتدنا لها رزقا كريما في الجنة زيادة على أجرها.

[سورة الأحزاب (٣٣) : آية ٣٢]

يا نساء النبي لستن كأحد من النساء إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض وقلن قولا معروفا (٣٢)

يا نساء النبي لستن كأحد من النساء أصل أحد وحد بمعنى الواحد، ثم وضع في النفي العام مستويا فيه المذكر والمؤنث والواحد والكثير، والمعنى لستن كجماعة واحدة من جماعات النساء في الفضل. إن اتقيتن مخالفة حكم الله ورضا رسوله. فلا تخضعن بالقول فلا تجئن بقولكن خاضعا لينا مثل قول المريبات. فيطمع الذي في قلبه مرض فجور، وقرئ بالجزم عطفا على محل فعل النهي على أنه نهى مريض القلب عن الطمع عقيب نهيهن عن الخضوع بالقول. وقلن قولا معروفا حسنا بعيدا عن الريبة.

[سورة الأحزاب (٣٣) : آية ٣٣]

وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا (٣٣)

وقرن في بيوتكن من وقر يقر وقارا أو من قر يقر حذفت الأولى من راءي اقررن ونقلت كسرتها إلى القاف، فاستغني عن همزة الوصل ويؤيده قراءة نافع وعاصم بالفتح من قررت أقر وهو لغة فيه، ويحتمل أن يكون من قار يقار إذا اجتمع. ولا تبرجن ولا تتبخترن في مشيكن. تبرج الجاهلية الأولى تبرجا مثل تبرج النساء في أيام الجاهلية القديمة، وقيل هي ما بين آدم ونوح، وقيل الزمان الذي ولد فيه إبراهيم عليه الصلاة والسلام كانت المرأة تلبس درعا من اللؤلؤ فتمشي وسط الطريق تعرض نفسها على الرجال والجاهلية الأخرى ما بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام، وقيل الجاهلية الأولى جاهلية الكفر قبل الإسلام، والجاهلية الأخرى جاهلية الفسوق في الإسلام ويعضده

قوله عليه الصلاة والسلام لأبي الدرداء رضي الله عنه «إن فيك جاهلية، قال جاهلية كفر أو إسلام قال بل

جاهلية كفر» .

وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله في سائر ما أمركن به ونهاكن عنه. إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس الذنب المدنس لعرضكم وهو تعليل لأمرهن ونهيهن على الاستئناف ولذلك عمم الحكم. أهل البيت نصب على النداء أو المدح.

ويطهركم عن المعاصي. تطهيرا واستعارة الرجس للمعصية والترشيح بالتطهير للتنفير عنها، وتخصيص الشيعة أهل البيت بفاطمة وعلي وابنيهما رضي الله عنهم لما

روي «أنه عليه الصلاة والسلام خرج ذات غدوة وعليه مرط مرجل من شعر أسود فجلس فأتت فاطمة رضي الله عنها فأدخلها فيه، ثم جاء علي فأدخله فيه ثم جاء الحسن والحسين رضي الله عنهما فأدخلهما فيه ثم قال: إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت» ،

والاحتجاج بذلك على عصمتهم وكون إجماعهم حجة ضعيف لأن التخصيص بهم لا يناسب ما قبل الآية وما بعدها، والحديث يقتضي أنهم من أهل البيت لا أنه ليس غيرهم.

[سورة الأحزاب (٣٣) : آية ٣٤]

واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة إن الله كان لطيفا خبيرا (٣٤)

واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة من الكتاب الجامع بين الأمرين وهو تذكير بما أنعم الله عليهن من حيث جعلهن أهل بيت النبوة ومهبط الوحي وما شاهدن من برحاء الوحي مما يوجب قوة الإيمان والحرص على الطاعة حثا على الانتهاء والائتمار فيما كلفن به. إن الله كان لطيفا خبيرا يعلم ويدبر ما يصلح في الدين ولذلك خيركن ووعظكن، أو يعلم من يصلح لنبوته ومن يصلح أن يكون أهل بيته.." (١)

"السلام على ما يرويه القصاص جلدته مائة وستين.

وقيل إن قوما قصدوا أن يقتلوه فتسوروا المحراب ودخلوا عليه فوجدوا عنده أقواما فتصنعوا بهذا التحاكم فعلم غرضهم وأراد أن ينتقم منهم، فظن أن ذلك ابتلاء من الله له فاستغفر ربه مما هم به وأناب.

[سورة ص (٣٨) : الآيات ٢٥ الى ٢٦]

(١) تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل ناصر الدين البيضاوي ٢٣١/٤

فغفرنا له ذلك وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب (٢٥) يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب (٢٦)

فغفرنا له ذلك أي ما استغفر عنه. وإن له عندنا لزلفى لقربة بعد المغفرة. وحسن مآب مرجع في الجنة.

يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض استخلفناك على الملك فيها، أو جعلناك خليفة ممن قبلك من الأنبياء القائمين بالحق. فاحكم بين الناس بالحق بحكم الله. ولا تتبع الهوى ما تهوى النفس، وهو يؤيد ما قيل إن ذنبه المبادرة إلى تصديق المدعي وتظليم الآخر قبل مسألته. فيضلك عن سبيل الله دلائله التي نصبها على الحق. إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب بسبب نسيانهم وهو ضلالهم عن السبيل، فإن تذكره يقتضي ملازمة الحق ومخالفة الهوى.

[سورة ص (٣٨) : الآيات ٢٧ الى ٢٩]

وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار (٢٧) أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار (٢٨) كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب (٢٩)

وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا خلقا باطلا لا حكمة فيه، أو ذوي باطل بمعنى مبطلين عابثين كقوله: وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين أو للباطل الذي هو متابعة الهوى، بل للحق الذي هو مقتضى الدليل من التوحيد والتدرع بالشرع كقوله: وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون على وضعه موضع المصدر مثل هنيئا ذلك ظن الذين كفروا الإشارة إلى خلقها باطلا والظن بمعنى المظنون.

فويل للذين كفروا من النار بسبب هذا الظن.

أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم منقطعة والاستفهام فيها لإنكار التسوية بين الحزبين التي هي من لوازم خلقها باطلا ليدل على نفيه وكذا التي في قوله: أم نجعل المتقين كالفجار كأنه أنكر التسوية أولا بين المؤمنين والكافرين ثم بين المتقين من المؤمنين والمجرمين منهم، ويجوز أن يكون تكريرا للإنكار الأول باعتبار وصفين آخرين يمنعان التسوية من الحكيم الرحيم، والآية تدل على صحة القول بالحشر، فإن التفاضل بينهما إما أن يكون في الدنيا والغالب فيها عكس ما يقتضي **الحكمة فيه**، أو في غيرها وذلك يستدعي أن يكون لهم حالة أخرى يجازون فيها.

كتاب أنزلناه إليك مبارك نفاع، وقرئ بالنصب على الحال. ليدبروا آياته ليتفكروا فيها فيعرفوا ما يدبر ظاهرها من التأويلات الصحيحة والمعاني المستنبطة. وقرئ «ليتدبروا» على الأصل و «لتدبروا» أي أنت وعلماء أمتك. وليتذكر أولوا الألباب وليتعظ به ذوو العقول السليمة، أو ليستحضروا ما هو كالمركوز في عقولهم من فرط تمكنهم من معرفته بما نصب عليه من الدلائل، فإن الكتب الإلهية بيان لما لا يعرف إلا من الشرع، وإرشاد إلى ما يستقل به العقل، ولعل التدبر للمعلوم الأول والتذكر الثاني.

[سورة ص (٣٨) : الآيات ٣٠ الى ٣١]

ووهبنا لداود سليمان نعم العبد إنه أواب (٣٠) إذ عرض عليه بالعشي الصافنات الجياد (٣١)." (١)

"من يأتيه عذاب يخزيه فإن خزي أعدائه دليل غلبته، وقد أخزاهم الله يوم بدر. ويحل عليه عذاب مقيم دائم وهو عذاب النار.

إنا أنزلنا عليك الكتاب للناس لأجلهم فإنه مناط مصالحهم في معاشهم ومعادهم. بالحق متلبسا به. فمن اهتدى فلنفسه إذ نفع به نفسه. ومن ضل فإنما يضل عليها فإن وباله لا يتخطاها. وما أنت عليهم بوكيل وما وكلت عليهم لتجبرهم على الهدى وإنما أمرت بالبلاغ وقد بلغت.

[سورة الزمر (٣٩) : آية ٤٢]

الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون (٤٢)

الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها أي يقبضها عن الأبدان بأن يقطع تعلقها عنها وتصرفها فيها إما ظاهرا وباطنا وذلك عند الموت، أو ظاهرا لا باطنا وهو في النوم. فيمسك التي قضى عليها الموت ولا يردها إلى البدن، وقرأ حمزة والكسائي قضى بضم القاف وكسر الضاد والموت بالرفع. ويرسل الأخرى أي النائمة إلى بدنها عند اليقظة. إلى أجل مسمى هو الوقت المضروب لموته وهو غاية جنس الإرسال.

وما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن في ابن آدم نفسا وروحا بينهما مثل شعاع الشمس، فالنفس

(١) تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل ناصر الدين البيضاوي ٥/٢٨

التي بها العقل والتمييز، والروح التي بها النفس والحياة، فيتوفيان عند الموت وتتوفى النفس وحدها عند النوم. قريب مما ذكرناه.

إن في ذلك من التوفي والإمساك والإرسال. لآيات دالة على كمال قدرته وحكمته وشمول رحمته.

لقوم يتفكرون في كيفية تعلقها بالأبدان وتوفيها عنها بالكلية حين الموت، وإمساكها باقية لا تفنى بفنائها، وما يعتريها من السعادة والشقاوة والحكمة في توفيها عن ظواهرها وإرسالها حينا بعد حين إلى توفي آجالها.

[سورة الزمر (٣٩) : الآيات ٤٣ الى ٤٤]

أم اتخذوا من دون الله شفعاء قل أولو كانوا لا يملكون شيئا ولا يعقلون (٤٣) قل لله الشفاعة جميعا له ملك السماوات والأرض ثم إليه ترجعون (٤٤)

أم اتخذوا بل اتخذ قريش. من دون الله شفعاء تشفع لهم عند الله. قل أولو كانوا لا يملكون شيئا ولا يعقلون ولو كانوا على هذه الصفة كما تشاهدونهم جمادات لا تقدر ولا تعلم.

قل لله الشفاعة جميعا لعله رد لما عسى يجيبون به وهو أن الشفعاء أشخاص مقربون هي تماثيلهم، والمعنى أنه مالك الشفاعة كلها لا يستطيع أحد شفاعة إلا بإذنه ورضاه، ولا يستقل بها ثم قرر ذلك فقال:

له ملك السماوات والأرض فإنه مالك الملك كله لا يملك أحد أن يتكلم في أمره دون إذنه ورضاه. ثم إليه ترجعون يوم القيامة فيكون الملك له أيضا حينئذ.

[سورة الزمر (٣٩) : آية ٤٥]

وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون (٤٥)

وإذا ذكر الله وحده دون آلهتهم. اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة انقبضت ونفرت. وإذا ذكر الذين من دونه يعني الأوثان. إذا هم يستبشرون لفرط افتتانهم بها ونسيانهم حق الله، ولقد بالغ في الأمرين حتى بلغ الغاية فيهما، فإن الاستبشار أن يمتلئ قلبه سرورا حتى تنبسط له بشرة وجهه، والاشمئزاز أن يمتلئ غما حتى ينقبض أديم وجهه، والعامل في إذا ذكر العامل في إذ المفاجأة.

[سورة الزمر (٣٩) : آية ٤٦]

قل اللهم فاطر السماوات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك في ما كانوا فيه يختلفون (٤٦)." (١)

"أناسا مؤمنين بين أظهر الكافرين جاهلين بهم فيصيبكم بإهلاكهم مكروه لما كف أيديكم عنهم. ليدخل الله في رحمته علة لما دل عليه كف الأيدي عن أهل مكة صونا لمن فيها من المؤمنين، أي كان ذلك ليدخل الله في رحمته أي في توفيقه لزيادة الخير أو للإسلام. من يشاء من مؤمنيهم أو مشركيهم. لو تزيلوا لو تفرقوا وتميز بعضهم من بعض، وقرئ «تزايلوا» . لعذبنا الذين كفروا منهم عذابا أليما بالقتل والسبي.

[سورة الفتح (٤٨) : آية ٢٦]

إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها وكان الله بكل شيء عليما (٢٦)

إذ جعل الذين كفروا مقدر باذكر أو ظرف لعذبنا أو صدوكم. في قلوبهم الحمية الأنفة.

حمية الجاهلية التي تمنع إذعان الحق. فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين فأنزل عليهم الثبات والوقار وذلك ما

روي «أنه عليه الصلاة والسلام لما هم بقتالهم بعثوا سهيل بن عمرو وحويطب بن عبد العزى ومكرز بن حفص ليسألوه أن يرجع من عامه على أن يخلي له قريش مكة من القابل ثلاثة أيام، فأجابهم وكتبوا بينهم كتابا، فقال عليه الصلاة والسلام لعلي رضي الله عنه: «اكتب بسم الله الرحمن الرحيم، فقالوا ما نعرف هذا اكتب باسمك اللهم ثم قال: اكتب هذا ما صالح عليه رسول الله أهل مكة فقالوا: لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت وما قاتلناك، اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله أهل مكة فقال عليه الصلاة والسلام: اكتب ما يريدون»

فهم المؤمنون أن يأبوا ذلك ويبطشوا عليهم فأنزل الله السكينة عليهم فتوقروا وتحملوا. وألزمهم كلمة التقوى كلمة الشهادة أو بسم الله الرحمن الرحيم محمد رسول الله اختارها لهم، أو الثبات والوفاء بالعهد وإضافة ال كلمة إلى التقوى لأنها سببها أو كلمة أهلها. وكانوا أحق بها من غيرهم. وأهلها والمستأهلين لها. وكان الله بكل شيء عليما فيعلم أهل كل شيء وييسره له.

---

(١) تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل ناصر الدين البيضاوي ٤٤/٥

[سورة الفتح (٤٨) : الآيات ٢٧ الى ٢٨]

لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤسكم ومقصرين لا تخافون فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحا قريبا (٢٧) هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا (٢٨)

لقد صدق الله رسوله الرؤيا رأى عليه الصلاة والسلام أنه وأصحابه دخلوا مكة آمنين وقد حلقوا وقصروا، فقص الرؤيا على أصحابه ففرحوا وحسبوا أن ذلك يكون في عامهم، فلما تأخر قال بعضهم والله ما حلقنا ولا قصرنا ولا رأينا البيت فنزلت والمعنى صدقة في رؤياه. بالحق ملتبسا به فإن ما رآه كائن لا محالة في وقته المقدر له وهو العام القابل، ويجوز أن يكون بالحق صفة مصدر محذوف أي صدقا ملتبسا بالحق وهو القصد إلى التمييز بين الثابت على الإيمان والمتزلزل فيه، وأن يكون قسما إما باسم الله تعالى أو بنقيض الباطل وقوله: لتدخلن المسجد الحرام جوابه وعلى الأولين جواب قسم محذوف. إن شاء الله تعليق للعدة. بالمشيئة تعليما للعباد، أو إشعارا بأن بعضهم لا يدخل لموت أو غيبة أو حكاية لما قاله ملك الرؤيا، أو النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه. آمنين حال من الواو والشرط معترض. محلقين رؤسكم ومقصرين أي محلقا بعضكم ومقصرا آخرون. لا تخافون حال مؤكدة أو استئناف أي لا تخافون بعد ذلك. فعلم ما لم تعلموا من **الحكمة في** تأخير ذلك. فجعل من دون ذلك من دون دخولكم المسجد أو فتح مكة. فتحا قريبا هو فتح خيبر ليستروح إليه قلوب المؤمنين إلى أن يتيسر الموعود.

هو الذي أرسل رسوله بالهدى ملتبسا به أو بسببه أو لأجله. ودين الحق وبدين الإسلام.

ليظهره على الدين كله ليغلبه على جنس الدين كله بنسخ ما كان حقا وإظهار فساد ما كان باطلا، أو بتسليط المسلمين على أهله إذ ما من أهل دين إلا وقد قهرهم المسلمون، وفيه تأكيد لما وعده من الفتح.." (١)

"عليهم انذارك وعدمه والجملة خبر لإن وإنما جاز الإخبار عن الفعل مع أنه خبر أبدا لأنه من جنس الكلام المهجور فيه جانب اللفظ إلى جانب المعنى والهمزة وأم مجردتان لمعنى الاستواء وقد انسلخ عنهما معنى الاستفهام رأسا قال سيبويه جرى هذا على حرف الاستفهام كما جرى على حرف النداء في قولك

---

(١) تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل ناصر الدين البيضاوي ١٣١/٥

اللهم اغفر لنا أيتها العصابة يعني أن هذا جرى على صورة الاستفهام ولا استفهام كما جرى ذلك على صورة النداء ولا نداء والإنذار التخويف من عقاب الله بالزجر عن المعاصي {لا يؤمنون} جملة مؤكدة للجملة قبلها أو خبر لإن والجملة قبلها اعتراض أو خبر بعد خبر **والحكمة في** الإنذار مع العلم بالإصرار إقامة الحجة وليكون الإرسال عاما وليثاب الرسول." (١)

"وفقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحي الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون (٧٣)

{فقلنا} والضمير في {اضربوه} يرجع إلى النفس والتذكير بتأويل الشخص والإنسان أو إلى القتيل لما دل عليه ما كنتم تكتمون {ببعضها} ببعض البقرة وهو لسانها أو فخذها اليمنى أو عجبها والمعنى فضربوه فحي فحذف ذلك لدلالة {كذلك يحيي الله الموتى} عليه روي أنهم لما ضربوه قام بإذن الله تعالى وقال قتلنى فلان وفلان لا بنى عمه ثم سقط ميتا فأخذاوقتلا ولم يورث قاتل بعد ذلك وقوله كذلك يحيي الله الموتى إما أن يكون خطابا للمنكرين في زمن النبي عليه السلام وإما أن يكون خطابا للذين حضروا حياة القتيل بمعنى وقلنا لهم كذلك يحيي الله الموتى يوم القيامة {ويريكم آياته} دلالة على أنه قادر على كل شيء {لعلكم تعقلون} فتعملون على قضية عقولكم وهي أن من قدر على إحياء نفس واحدة قدر على إحياء جميعها لعدم الاختصاص **والحكمة في** ذبح البقرة وضربه ببعضها وإن قدر على إحيائه بلا واسطة." (٢)

"لا يكون على حالة واحدة كالشمس فنزل {يسألونك عن الأهلة} جمع هلال سمي به لرفع الناس أصواتهم عند رؤيته {قل هي مواقيت للناس والحج} أي معالم يوقت بها الناس مزارعهم ومتاجرهم ومحال ديونهم وصومهم وفطرهم وعدة نسائهم وأيام حيضهن ومدة حملهن وغير ذلك ومعالم للحج يعرف بها وقته كان ناس من الأنصار إذا أحرموا لم يدخل أحد منهم حائطا ولا دار ولا فسطاطا من باب فإن كان من أهل الدر نقب نقبا في ظهر بيته منه يدخل ويخرج وإن كان من أهل الوبر خرج من خلف الخباء فنزل {وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها} أي ليس البر بتحرجكم من دخول الباب ولا خلاف في رفع البر هنا لأن الآية ثمة تحتمل الوجهين كما بينا فجاز الرفع والنصب ثمة وهذه لا تحتمل إلا وجها واحدا وهو الرفع إذ الباء لا تدخل إلا على خبر ليس {ولكن البر} بر {من اتقى} ما حرم الله البيوت وبابه مدني وبصري

---

(١) تفسير النسفي = مدارك التنزيل وحقائق التأويل النسفي، أبو البركات ٤٥/١

(٢) تفسير النسفي = مدارك التنزيل وحقائق التأويل النسفي، أبو البركات ١٠٠/١

وحفص وهو الأصل مثل كعب وكعوب ومن كسر الباء فلمكان الياء بعدها ولكن هي توجب الخروج من كسر إلى ضم وكأنه قيل لهم عند سؤالهم عن الأهلة وعن **الحكمة في** نقصانها وتمامها معلوم أن كل ما يفعله الله تعالى لا يكون إلا حكمة فدعوا السؤال عنه وانظروا في خصلة واحدة تفعلونها مما ليس من البر في شيء وأنتم تحسبونها برا فهذا وجه اتصاله بما قبله ويحتمل أن يكون ذلك على طريق الاستطراد لما ذكر أنها مواقيت الحج لأنه كان من أفعالهم في الحج ويحتمل أن يكون هذا تمثيلا لتعكيسهم في سؤالهم وإن مثلهم فيه كمثل من يترك باب البيت ويدخل من ظهره والمعنى ليس البر وما ينبغي أن تكونوا عليه بأن تعكسوا في مسائلكم ولكن البر بر من اتقى ذلك وتجنبه ولم يجسر على مثله." (١)

"يؤتي **الحكمة من** يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر إلا أولو الألباب (٢٦٩) {يؤتى **الحكمة من** يشاء} علم القرآن والسنة أو العلم النافع الموصل إلى رضا الله والعمل به والحكيم عند الله هو العالم العامل {ومن يؤت الحكمة} ومن يؤت يعقوب أي ومن يؤته الله الحكمة {فقد أوتى خيرا كثيرا} تكير تعظيم أي أوتي خيرا أي خير كثير {وما يذكر إلا." (٢)

"علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب} هلا أمهلتنا إلى الموت فنموت على الفرش وهو سؤال على وجه **الحكمة في** فرض القتال عليهم لا اعتراض لحكمه بدليل أنهم لم يوبخوا على هذا السؤال بل أجيبوا بقوله {قل متاع الدنيا قليل والأخرة خير لمن اتقى} متاع الدنيا قليل زائل ومتاع الآخرة كثير دائم والكثير إذا كان على شرف الزوال فهو قليل فكيف القليل الزائل {ولا تظلمون فتيلا} ولا تنقصون أدنى شيء من أجوركم على مشاق القتل فلا ترغبوا عنه وبالياء مكي وحمزة وعلى." (٣)

"وعاصم أي يتبع الحق **والحكمة فيما** يحكم به ويقدره من قص آثره الباقون بقص الحق في كل ما يقضي من التأخير والتعجيل فالحق أى القضاء الحق صفة لمصدر يقضي وقوله {وهو خير الفاصلين} أي القاضين بالقضاء الحق إذ الفصل هو القضاء وسقوط الياء من الخط لاتباع اللفظ لالتقاء الساكنين." (٤)

---

(١) تفسير النسفي = مدارك التنزيل وحقائق التأويل النسفي، أبو البركات ١٦٤/١

(٢) تفسير النسفي = مدارك التنزيل وحقائق التأويل النسفي، أبو البركات ٢٢٠/١

(٣) تفسير النسفي = مدارك التنزيل وحقائق التأويل النسفي، أبو البركات ٣٧٦/١

(٤) تفسير النسفي = مدارك التنزيل وحقائق التأويل النسفي، أبو البركات ٥٠٩/١

"وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون (١٠١)
{وإذا بدلنا آية مكان آية} تبديل الآية مكان الآية هو النسخ والله تعالى ينسخ الشرائع بالشرائع لحكمة رآها وهو معنى قوله {والله أعلم بما ينزل} وبالتخفيف
النحل (١٠١ _ ١٠٥)
مكي وأبو عمرو {قالوا إنما أنت مفتر} هو جواب إذا وقوله والله أعلم بما ينزل اعتراض كانوا يقولون إن محمدا يسخر بأصحابه يأمرهم اليوم بأمر وينهاهم عنه غدا فيأتيهم بما هو أهون ولقد افتروا فقد كان ينسخ الأشق بالأهون والأهون بالأشق {بل أكثرهم لا يعلمون} الحكمة في ذلك." (١)
"ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا (٨٥)
{ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى} أي من أمر يعلمه ربي الجمهور على أنه الروح الذي في الحيوان سألوه عن حقيقته فأخبر أنه من مر الله أي مما استأثر بعلمه وعن أبي هريرة لقد مضى النبي صلى الله عليه وسلم وما يعلم الروح وقد عجزت الأوائل عن إدراك ما هيته بعد إنفاق الأعمار الطويلة على الخوض فيه والحكمة في ذلك تعجيز العقل عن إدراك معرفة مخلوق مجاور له ليدل على أنه عن إدراك خالقه أعجز ولذا رد ما قيل في حده أنه جسم دقيق هوائي في كل جزء من الحيوان وقيل هو خلق عظيم روحاني أعظم من الملك وعن ابن عباس رضي الله عنهما هو جبريل عليه السلام نزل به." (٢)
"وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون (٦٨)
{وربك يخلق ما يشاء} وفيه دلالة خلق الأفعال ويوقف على {ويختار} أي وربك يخلق مايشاء وربك يختار ما يشاء {ما كان لهم الخيرة} أي ليس له من يختاروا على الله شيئا ما وله الخيرة عليهم ولم يدخل العاطف فيما كان لهم الخيرة لأنه بيان لقوله ويختار إذ المعنى أن الخيرة لله وهو أعلم بوجود الحكمة في أفعاله فليس لأحد من خلقه أن يختار عليه ومن وصل على معنى ويختار الذي لهم فيه الخيرة فقد أبعد بل ما لنفي إختيار الخلق تقديرا لاختيار الحق ومن قال ومعناه ويختار للعباد ما هو خير لهم وأصلح فهو مائل إلى الاعتزال والخيرة من التخير يستعمل بمعنى المصدر وهو التخير وبمعنى التخير كقولهم محمد خيرة الله

---

(١) تفسير النسفي = مدارك التنزيل وحقائق التأويل النسفي، أبو البركات ٢/٢٣٣
(٢) تفسير النسفي = مدارك التنزيل وحقائق التأويل النسفي، أبو البركات ٢/٢٧٤

من خلقه {سبحان الله وتعالى عما يشركون} أي الله بريء من إشراكهم وهو منزه عن أن يكون لأحد عليه اختيار." (١)

"أولم يتفكروا في أنفسهم ما خلق الله السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى وإن كثيرا من الناس بلقاء ربهم لكافرون (٨)

{أو لم يتفكروا فى أنفسهم} يحتمل أن يكون ظرفا كانه قيل أو لم يثبتوا التفكر في أنفسهم أي في قلوبهم الفارغة من الفكر والتفكر لا يكون إلا في القلوب ولكنه زيادة تصوير لحال المتفكرين كقوله اعتقده في قلبك وأن يكون صلة للتفكر نحو تفكر في الأمر وأجال فيه فكره ومعناه على هذا أولم يتفكروا في أنفسهم التي هي أقرب إليهم من غيرها من المخلوقات وهم أعلم بأحوالها منهم بأحوال ما عداها فيتدبروا ما أودعها الله ظاهرا وباطنا من غرائب الحكمة الدالة على التدبير دون الإهمال وأنه لا بد لها من الانتهاء إلى وقت تجازى فيه على الإحسان إحسانا وعلى الإساءة مثلها حتى يعلموا عند ذلك أن سائر الخلائق كذلك أمرها جار على الحكمة في التدبير وأنه لا بد لها من الانتهاء إ لى ذلك الوقت {ما خلق الله السماوات والأرض وما بينهما} متعلق بالقول المحذوف ومعناه أو لم يتفكروا فيقولوا هذا القول وقيل معناه." (٢)

"ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن الله غني حميد (١٢)

{ولقد آتينا لقمان الحكمة} وهو لقمان بن باعوراء بن أخت أيوب أو ابن خالته وقيل كان من أولاد آزر وعاش ألف سنة وأدرك داود عليه السلام وأخذ منه العلم وكان يفتي قبل مبعث داود عليه السلام فلما بعث قطع الفتوى فقيل له فقال ألا أكتفي إذا كفيت وقيل كان خياطا وقيل نجارا وقيل راعيا وقيل كان قاضيا في بني إسرائيل وقال عكرمة والشعبي كان نبيا والجمهور على أنه كان حكيما ولم يكن نبيا وقيل خير بين النبوة والحكمة فاختار الحكمة وهي الإصابة في القول والعمل وقيل تتلمذ لألف نبى وتتلمذ له ألف نبى وأن في {أن اشكر لله} مفسرة والمعنى أي اشكر لله لأن إيتاء الحكمة في معنى القول وقد نبه الله تعالى على أن الحكمة الأصلية والعلم الحقيقي هو العمل بهما وعبادة الله والشكر له حيث فسر إيتاء الحكمة بالحث

---

(١) تفسير النسفي = مدارك التنزيل وحقائق التأويل النسفي، أبو البركات ٢/٦٥٤

(٢) تفسير النسفي = مدارك التنزيل وحقائق التأويل النسفي، أبو البركات ٢/٦٩١

على الشكر وقيل لا يكون الرجل حكيما حتى يكون حكيما فى قوله وفعل ومعاشرته وصحبه وقال السرى السقطى الشكر أن لا." (١)

"وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار (٢٧)
{وما خلقنا السمآء والأرض وما بينهما} من الخلق باطلا خلقا باطلا لا لحمة بالغة أو مبطلين عابثين كقوله وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين وتقديره ذوي باطل أو عبثا فوضع باطلا موضعه أي ما خلقناهما وما بينهما للعبث واللعب ولكن للحق المبين وهو أنا خلقنا نفوسا أودعناها العقل ومنحناها التمكين وأزحنا عللها ثم عرضناها للمنافع العظيمة بالتكليف وأعددنا لها عاقبة وجزاء على حسب أعمالهم {ذلك} إشارة إلى خلقها باطلا {ظن الذين كفروا} الظن بمعنى المظنون أي خلقها للعبث لا للحكمة هو مظنون الذين كفروا وإنما جعلوا ظانين أنه خلقها للعبث لا للحكمة مع إقرارهم بأنه خالق السموات والأرض وما بينهما لقوله ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله لأنه لما كان إنكارهم للبعث والحساب والثواب والعقاب مؤديا إلى أن خلقها عبث وباطل جعلوا كأنهم يظنون ذلك ويقولونه لأن الجزاء هو الذي سبقت إليه الحكمة في خلق العالم فمن جحده فقد جحد الحكمة في خلق العالم {فويل للذين كفروا من النار}." (٢)

"لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رءوسكم ومقصرين لا تخافون فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحا قريبا (٢٧)
{لقد صدق الله رسوله الرؤيا} أي صدقه في رؤياه ولم يكذبه تعالى الله عن الكذب فحذف الجار وأوصل الفعل كقوله صدقوا ما عاهدوا الله عليه روى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى قبل خروجه إلى الحديبية كأنه وأصحابه قد دخلوا مكة آمنين وقد حلقوا وقصرا فقص الرؤيا على اصحابه ففرحوا وحسبوا
{بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين}
أنهم داخلوها في عامهم وقالوا إن رؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم حق فلما تأخر ذلك قال عبد الله بن أبي وغيره والله ما حلقنا ولا قصرنا ولا رأينا المسجد الحرام فنزلت {بالحق} متعلق بصدق أي صدقه فيما رأى وفي كونه وحصوله صدقا ملتبسا بالحق أي بالحكمة البالغة وذلك ما فيه من الابتلاء والتمييز بين

---

(١) تفسير النسفي = مدارك التنزيل وحقائق التأويل النسفي، أبو البركات ٢/٧١٣

(٢) تفسير النسفي = مدارك التنزيل وحقائق التأويل النسفي، أبو البركات ٣/١٥٣

المؤمن الخالص وبين من في قلبه مرض ويجوز أن يكون بالحق قسما إما بالحق الذي هو نقيض الباطل أو بالحق الذي هو من أسمائه وجوابه {لتدخلن المسجد الحرام} وعلى الأول هو جواب قسم محذوف {إن شآء الله} حكاية من الله تعالى ما قاله رسوله لأصحابه وقص عليهم أو تعليم لعباده أن يقولوا في عداتهم مثل ذلك متأدبين بأدب الله ومقتدين بسنته {آمنين} حال والشرط معترض {محلقين} حال من الضمير في آمنين {رؤوسكم} أي جميع شعورها {ومقصرين} بعض شعورها {لا تخافون} حال مؤكدة {فعلم ما لم تعلموا} من الحكمة في تأخير فتح مكة إلى العام القابل {فجعل من دون ذلك}." (١)

"ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير (٢٢)

{ما أصاب من مصيبة فى الأرض} من الجدب وآفات الزروع والثمار وقوله فى الأرض في موضع الجرى ما أصاب من مصيبة ثابتة في الأرض {ولا فى أنفسكم} من الأمراض والأوصاب وموت الأولاد {إلا فى كتاب} في اللوح وهو موضع الحال أي إلا مكتوبا في اللوح {من قبل أن نبرأها} من قبل أن نخلق الأنفس {إن ذلك} إن تقدير ذلك وإثباته في كتاب {على الله يسير} وإن كان عسيرا على العباد ثم علل ذلك وبين الحكمة فيه بقوله." (٢)

"إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك والله يقدر الليل والنهار علم أن لن تحصوه فتاب عليكم فاقرءوا ما تيسر من القرآن علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله فاقرءوا ما تيسر منه وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأقرضوا الله قرضا حسنا وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا واستغفروا الله إن الله غفور رحيم (٢٠)

{إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى} أقل فاستعير الادنى وهو الأقرب لأن المسافة بين الشيئين إذا دنت قل ما بينهما من الأحياز وإذا بعدت كثر ذلك {من ثلثي الليل} بضم اللام سوى هشام {ونصفه وثلثه} منصوبان عطف على أدنى مكي وكوفي ومن جرهما عطف على ثلثى {وطائفة} عطف على الضمير في تقوم وجاز بلا توكيد لوجود الفاصل {من الذين معك} أي ويقوم ذلك المقدار جماعة من أصحابك {والله يقدر

---

(١) تفسير النسفي = مدارك التنزيل وحقائق التأويل النسفي، أبو البركات ٣/٣٤٣

(٢) تفسير النسفي = مدارك التنزيل وحقائق التأويل النسفي، أبو البركات ٣/٤٤٠

الليل والنهار} أي لا يقدر على تقدير الليل والنهار ولا يعلم مقادير ساعاتهما إلا الله وحده وتقديم اسمه عز وجل مبتدأ مبنيا عليه يقدر هو الدال على أنه مختص بالتقدير ثم إنهم قاموا حتى انتفخت أقدامهم فنزل {علم أن لن تحصوه} لن تطيقوا قيامه على هذه المقادير إلا بشدة ومشقة وفي ذلك حرج {فتاب عليكم} فخفف عليكم وأسقط عنكم فرض قيام الليل {فاقرؤوا} في الصلاة والأمر للوجوب أي وفي غيرها والأمر للندب {ما تيسر} عليكم {من القرآن} روى أبو حنيفة عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أنه قال

من قرأ مائة آية في ليلة لم يكتب من الغافلين ومن قرأ مائتي آية كتب من القانتين وقيل أراد بالقرآن الصلاة لأنه بعض أركانها أي فصلوا ما تيسر عليكم ولم يتعذر من صلاة الليل وهذا ناسخ للأول ثم نسخ هذا بالصلوات الخمس ثم بين الحكمة في." (١)

"به الأرض من الجبال وهي تسعة عشر وكان أصلها مائة وتسعين إلا أن غيرها يشعب عنها {ليستيقن الذين أوتوا الكتاب} لأن عدتهم تسعة عشر في الكتابين فإذا سمعوا بمثلها في القرآن أيقنوا أنه منزل من الله {ويزداد الذين آمنوا} بمحمد وهو عطف على ليستيقن {إيمانا} لتصديقهم بذلك كما صدقوا سائر ما أنزل أو يزدادوا يقينا لموافقة كتابهم كتاب أولئك {ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون} هذا عطف أيضا وفيه توكيد للاستيقان وزيادة الإيمان إذ الاستيقان وازدياد الإيمان دالان على انتفاء الارتياب ثم عطف على ليستيقن أيضا {وليقول الذين في قلوبهم مرض} نفاق {والكافرون} والمشركون فإن قلت النفاق ظهر في المدينة والسورة مكية قلت معناه وليقول المنافقون الذين يظهرون في المستقبل بالمدينة بعد الهجرة والكافرون بمكة {ماذا أراد الله بهذا مثلا} وهذا إخبار بما سيكون

كسائر الاخبارت بالغيوب وذا لا يخالف كون السورة مكية وقيل المراد بالمرض الشك والارتياب لأن أهل مكة كن أكثرهم شاكين ومثلا تمييز لهذا أو حال منه كقوله هذه ناقة الله لكم آية ولما كان ذكر العدد في غاية الغرابة وأن مثله حقيق بأن تسير به الركبان سيرها بالأمثال سمي مثلا والمعنى أي شيء أراد الله بهذا العدد العجيب وأي معنى أراد في أن جعل الملائكة تسعة عشر لا عشرين وغرضهم إنكاره أصلا وأنه ليس من عند الله وأنه لو كان من عند الله لما جاء بهذا العدد الناقص {كذلك يضل الله من يشاء} الكاف نصب وذلك إشارة إلى ما قبله من معنى الإضلال والهدى أي مثل لتصديقه ورؤية الحكمة في ذلك يضل

---

(١) تفسير النسفي = مدارك التنزيل وحقائق التأويل النسفي، أبو البركات ٥٥٩/٣

الله من يشاء من عباده وهو الذي علم منه اختيار الضلال {ويهدى من يشاء} وهو الذي علم منه إختيار الاهداء وفيه دليل خلق الأفعال ووصف الله بالهداية." (١)

"كالزكاة، وما يتعلق بالقلوب كالإخلاص والخوف والرجاء وغير ذلك.

وأما الوعد: فمنه وعد بخير الدنيا من النصر والظهور وغير ذلك، ومنه وعد بخير الآخرة وهو الأكثر كأوصاف الجنة ونعيمها.

وأما الوعيد: فمنه تخويف بالعقاب في الدنيا، ومنه تخويف بالعقاب في الآخرة وهو الأكثر: كأوصاف جهنم وعذابها. وأوصاف القيامة وأهوالها، وتأمل القرآن تجد الوعد مقرونا بالوعيد، قد ذكر أحدهما على إثر ذكر الآخر، ليجمع بين الترغيب والترهيب، وليتبين أحدهما بالآخر، كما قيل:

فبضدها تتبين الأشياء وأما القصص: فهو ذكر أخبار الأنبياء المتقدمين وغيرهم كقصة أصحاب الكهف، وذي القرنين. فإن قيل: ما الحكمة في تكرار قصص الأنبياء في القرآن؟ فالجواب من ثلاثة أوجه الأول: أنه ربما ذكر في سورة من أخبار الأنبياء ما لم يذكره في سورة أخرى، ففي كل واحدة منهما فائدة زائدة على الأخرى: الثاني: أنه ذكرت أخبار الأنبياء في مواضع على طريق الإطناب. وفي مواضع على طريق الإيجاز، لتظهر فصاحة القرآن في الطريقتين.

الثالث: أن أخبار الأنبياء قصد بذكرها مقاصد فتعدد ذكرها بتعدد تلك المقاصد، فمن المقاصد بها إثبات نبوة الأنبياء المتقدمين بذكر ما جرى على أيديهم من المعجزات، وذكر إهلاك من كذبهم بأنواع من المهالك. ومنها إثبات النبوة لمحمد صلى الله عليه وسلم لإخباره بتلك الأخبار من غير تعلم من أحد. وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى: ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا [هود: ٤٩] ومنها إثبات الوحدانية. ألا ترى أنه لما ذكر إهلاك الأمم الكافرة قال: فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء [هود: ١٠١] ومنها الاعتبار في قدرة الله وشدة عقابه لمن كفر. ومنها تسلية النبي صلى الله عليه وسلم عن تكذيب قومه له بالتأسي بمن تقدم من الأنبياء: كقوله: ولقد كذبت رسل من قبلك [الأنعام: ٣٤] ومنها تسليته عليه السلام ووعده بالنصر كما نصر الأنبياء الذين من قبله. ومنها تخويف الكفار بأن يعاقبوا كما عوقب الكفار الذين من قبلهم، إلى غير ذلك مما احتوت عليه أخبار الأنبياء من العجائب والمواعظ واحتجاج الأنبياء. وردهم على الكفار وغير ذلك. فلما كانت أخبار الأنبياء تفيد فوائد كثيرة:

---

(١) تفسير النسفي = مدارك التنزيل وحقائق التأويل النسفي، أبو البركات ٥٦٦/٣

ذكرت في مواضع كثيرة. ولكل مقام مقال.

الباب الرابع: في فنون العلم التي تتعلق بالقرآن.

اعلم أن الكلام على القرآن يستدعي الكلام في اثني عشر فنا من العلوم، وهي:

التفسير، والقراءات، والأحكام، والنسخ، والحديث، والقصص، والتصوف، وأصول الدين، وأصول الفقه، واللغة، والنحو، والبيان.

فأما التفسير فهو المقصود بنفسه وسائر هذه الفنون أدوات تعين عليه أو تتعلق به أو تتفرع منه، ومعنى التفسير: شرح القرآن وبيان معناه، والإفصاح بما يقتضيه بنصه أو إشارته أو فحواه.." (١)

"من ضوء الشمس في الهجيرة حتى يظهر كأنه ماء يجرى على وجه الأرض، والقيعة جمع قاع وهو المنبسط من الأرض، وقيل: بمعنى القاع وليس بجمع يحسبه الظمآن ماء الظمآن العطشان: أي يظن العطشان أن السراب ماء، فيأتيه ليشربه، فإذا جاء خاب ما أمل، وبطل ما ظن، وكذلك الكافر يظن أن أعماله تنفعه، فإذا كان يوم القيامة لم تنفعه فهي كالسراب حتى إذا جاءه ضمير الفاعل للظمآن، وضمير المفعول للسراب أو ضمير الفاعل للكافر وضمير المفعول لعمله لم يجده شيئا أي شيئا ينتفع به أو شيئا موجودا على العموم لأنه معدوم، ويحتمل أن يكون ضمير الفاعل للظمآن وضمير المفعول للسراب. أو ضمير الفاعل للكافر وضمير المفعول لعمله ووجد الله عنده ضمير الفاعل في وجد للكافر، والضمير في عنده لعمله، والمعنى وجد الله عنده بالجزاء، أو وجد زبانية الله.

أو كظلمات هذا هو المثال الثاني، وهو عطف على قوله كسراب، والمشبه بالظلمات أعمال الكافر: أي هم من الضلال والحيرة في مثل الظلمات المجتمعة من ظلمة البحر تحت الموج تحت السحاب في بحر لجي منسوب إلى اللج، وهو معظم الماء، وذهب بعضهم إلى أن أجزاء هذا المثال قوبلت به أجزاء الممثل به: فالظلمات أعمال الكافر، والبحر اللجي صدره، والموج جهله، والسحاب الغطاء الذي على قلبه، وذهب بعضهم إلى أنه تمثيل بالجملة من غير مقابلة وفي وصف هذه الظلمات بهذه الأوصاف مبالغة كما أن وصف النور المذكور قبلها مبالغة إذا أخرج يده لم يكد يراها المعنى مبالغة في وصف الظلمة، والضمير في أخرج وما بعده للرجل الذي وقع في الظلمات الموصوفة، واختلف في تأويل الكلام: فقيل: المعنى إذا أخرج يده لم يقارب رؤيتها، فنفى الرؤية ومقاربتها، وقيل: بل رآها بعد عسر وشدة، لأن كاد إذا نفيت تقتضي

---

(١) تفسير ابن جزي = التسهيل لعلوم التنزيل ابن جزي الكلبي ١٥/١

الإيجاب، وإذا أوجبت تقتضي النفي، وقال ابن عطية: إنما ذلك إذا دخل حرف النفي على الفعل الذي بعدها، فأما إذا دخل حرف النفي على كاد كقوله: لم يكد، فإنه يحتمل النفي والإيجاب.

ومن لم يجعل الله له نورا أي من لم يهده الله لم يهتد، فالنور كناية عن الهدى، والإيمان في الدنيا، وقيل: أراد في الآخرة أي من لم يرحمه الله فلا رحمة له، والأول أليق بما قبله،

ألم تر أن الله يسبح له من في السماوات والأرض الرؤية هنا بمعنى العلم والتسبيح التنزيه والتعظيم، وهو من العقلاء بالنطق، وأما تسبيح الطير وغيرها مما لا يعقل، فقال الجمهور: إنه حقيقي، ولا يبعد أن يلهمها الله التسبيح، كما يلهمها الأمور الدقيقة التي لا يهتدى إليها العقلاء، وقيل: تسبيحه ظهور الحكمة فيه صافات يصففن أجنحتهن في الهواء كل قد علم الضمير في علم لله، أو لكل، والضمير في صلاته وتسبيحه لكل." (١)

"السجود، فقيل: إن الركوع هنا بمعنى السجود، وقيل: خر من ركوعه ساجدا بعد أن ركع، ومعنى أناب: تاب، وروي أنه بقي ساجدا أربعين يوما يبكي حتى نبت البقل من دموعه، وهذا الموضع فيه سجدة عند مالك خلافا للشافعي، إلا أنه اختلف في مذهب مالك هل يسجد عند قوله: وأناب، أو عند قوله: وحسن مآب

وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب الزلفى القربة والمكانة الرفيعة، والمآب المرجع في الآخرة يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض تقديره قال الله يا داود، وخلافة داود بالنبوة والملك، قال ابن عطية: لا يقال خليفة الله إلا لنبي، وأما الملوك والخلفاء فكل واحد منهم خليفة الذي قبله، وقول الناس فيهم خليفة الله تجوز وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا أي عبثا بل خلقهما الله بالحق للاعتبار بهما والاستدلال على خالقهما ذلك ظن الذين كفروا المعنى أن الكفار لما أنكروا الحشر والجزاء كانت خلقة السموات والأرض عندهم باطلا بغير الحكمة، فإن الحكمة في ذلك إنما تظهر في الجزاء الأخروي أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم هنا استفهامية يراد بها الإنكار: أي أن الله لا يجعل المؤمنين والمتقين كالمفسدين والفجار، بل يجازي كل واحد بعمله لتظهر حكمة الله في الجزاء، ففي ذلك استدلال على الحشر والجزاء، وفيه أيضا وعد ووعيد.

إذ عرض عليه بالعشي الصافنات الجياد الصافنات جمع صافن، وهو الفرس الذي يرفع إحدى رجليه أو

---

(١) تفسير ابن جزي = التسهيل لعلوم التنزيل ابن جزي الكلبي ٧٢/٢

يديه ويقف على طرف الأخرى، وقيل: الصافن هو الذي يسوي يديه، والصفن علامة على فراهة الفرس، والجياد السريعة الجري واختلف الناس في قصص هذه الآية، فقال الجمهور: إن سليمان عليه السلام عرضت عليه خيل كان ورثها عن أبيه وقيل:

أخرجتها له الشياطين من البحر، وكانت ذوات أجنحة، وكانت ألف فرس، وقيل: أكثر فتشاغل بالنظر إليها حتى غربت الشمس وفاتته صلاة العشي «العصر» ، فأسف لذلك، وقال: ردوا علي الخيل وطفق يضرب أعناقها وعراقيبها بالسيف حتى عقرها لما كانت سبب فوات الصلاة، ولم يترك منها إلا اليسير، فأبدله الله أسرع منها وهي الريح، وأنكر بعض العلماء هذه الرواية وقال: تفويت الصلاة ذنب لا يفعله سليمان وعقر الخيل لغير فائدة لا يجوز، فكيف يفعله سليمان عليه السلام؟ وأي ذنب للخيل في تفويت الصلاة فقال بعضهم:." (١)

"الشيطان في صدر الإنسان بأنواع كثيرة منها: إفساد الإيمان والتشكيك في العقائد فإن لم يقدر على ذلك أمره بالمعاصي، فإن لم يقدر على ذلك ثبطه عن الطاعات، فإن لم يقدر على ذلك أدخل عليه الرياء في الطاعات ليحبطها، فإن سلم من ذلك أدخل عليه العجب بنفسه، واستكثار عمله، ومن ذلك أنه يوقد في القلب نار الحسد، والحقد، والغضب، حتى يقود الإنسان إلى شر الأعمال وأقبح الأحوال وعلاج وسوسته بثلاثة أشياء واحدها الإكثار من ذكر الله وثانيها الإكثار من الاستعاذة بالله منه ومن أنفع شيء في ذلك قراءة هذه السورة وثالثها مخالفته والعزم على عصيانه فإن قيل: لم قال في الصدور الناس ولم يقل: في قلوب الناس؟ فالجواب أن ذلك إشارة إلى عدم تمكن الوسوسة، وأنها غير حالة في القلب بل هي محومة في صدور حول القلب

من الجنة والناس هذا بيان لجنس الوسواس وأنه يكون من الجن، ومن الناس، ثم إن الموسوس من الإنس يحتمل أن يريد من يوسوس بخدعه وأقواله الخبيثة، فإنه الشيطان كما قال تعالى شياطين الإنس والجن [الأنعام: ١١٢] أو يريد به نفس الإنسان إذ تأمره بالسوء، فإنها أمارة بالسوء والأول أظهر، وقيل: من الناس معطوف على الوسواس كأنه قال: أعوذ من شر الوسواس من الجنة ومن شر الناس، وليس الناس على هذا ممن يوسوس. والأول أظهر وأشهر.

فإن قيل: لم ختم القرآن بالمعوذتين وما **الحكمة في** ذلك؟ فالجواب من ثلاثة أوجه:

---

(١) تفسير ابن جزي = التسهيل لعلوم التنزيل ابن جزي الكلبي ٢٠٧/٢

الأول قال شيخنا الأستاذ أبو جعفر بن الزبير لما كان القرآن من أعظم النعم على عباده، والنعم مظنة الحسد فختم بما يطفئ الحسد من الاستعاذة بالله. الثاني يظهر لي أن المعوذتين ختم بهما لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فيهما: أنزلت علي آيات لم ير مثلهن قط كما قال في فاتحة الكتاب: لم ينزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الفرقان مثلها فافتتح القرآن بسورة لم ينزل مثلها واختتم بسورتين لم ير مثلهما ليجمع حسن الافتتاح والاختتام، ألا ترى أن الخطب والرسائل والقصائد وغير ذلك من أنواع الكلام إنما ينظر فيها إلى حسن افتتاحها واختتامها. الوجه الثالث يظهر لي أيضا أنه لما أمر القارئ أن يفتتح قراءته بالتعوذ من الشيطان الرجيم، ختم القرآن بالمعوذتين ليحصل الاستعاذة بالله عند أول القراءة وعند آخر ما يقرأ من القراءة، فتكون الاستعاذة قد اشتملت على طرفي الابتداء والانتهاء، وليكون القارئ محفوظا بحفظ الله الذي استعاذ به من أول أمره إلى آخره وبالله التوفيق لا رب غيره.

تم بفضل الله كتاب التسهيل لعلوم التنزيل للإمام محمد بن أحمد بن جزي رحمه الله وأجزل مثوبته راجيا من الله حسن الختام لكل من قرأه وانتفع به ودعا لمصححه وناشره وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم." (١)

"مسيلمة الكذاب برحمان اليمامة وهو قول شاعرهم فيه: وأنت غيث الورى لا زلت رحمانا. قلت هو من باب تعنتهم في كفرهم ومبالغتهم في مدح صاحبهم فلا يلتفت إلى قولهم هذا. فإن قلت: قد ذكر الرحمن الرحيم في البسملة فما فائدة تكريره هنا مرة ثانية. قلت: ليعلم أن العناية بالرحمة أكثرها من غيرها من الأمور وأن الحاجة إليها أكثر فنبه سبحانه وتعالى بتكرير ذكر الرحمة على كثرتها وأنه هو المتفضل بها على خلقه. قوله تعالى:

مالك يوم الدين يعني أنه تعالى صاحب ذلك اليوم الذي يكون فيه الجزاء. والمالك هو المتصرف بالأمر والنهي، وقيل: هو القادر على اختراع الأعيان من العدم إلى الوجود ولا يقدر على ذلك إلا الله تعالى. وقيل: مالك أوسع من ملك لأنه يقال مالك العبد والدابة ولا يقال ملك هذه الأشياء ولأنه لا يكون ملكا لشيء إلا وهو يملكه، وقد يكون مالكا لشيء ولا يملكه وقيل ملك أولى، لأن كل ملك مالك وليس كل مالك ملكا وقيل هما بمعنى واحد مثل فرهين وفارهين، قال ابن عباس: مالك يوم الدين قاضي يوم الحساب. وقيل الدين الجزاء ويقع على الخير والشر يقال كما تدين تدان وقيل هو يوم لا ينفع فيه إلا الدين وقيل

---

(١) تفسير ابن جزي = التسهيل لعلوم التنزيل ابن جزي الكلبي ٢/٥٣٠

الدين القهر. يقال: دنته فدان أي قهرته فذل. فإن قلت: لم خص يوم الدين بالذكر مع كونه مالكا للأيام كلها؟ قلت: لأن ملك الأملاك يومئذ زائل فلا ملك ولا أمر يومئذ إلا لله تعالى كما قال تعالى: الملك يومئذ الحق للرحمن وقال: لمن الملك اليوم لله الواحد القهار وقد يسمى في دار الدنيا آحاد الناس بالملك وذلك على المجاز لا على الحقيقة. قوله تعالى: إياك نعبد رجع من الخبر إلى الخطاب، وفائدة ذلك من أول السورة إلى هنا ثناء والثناء في الغيبة أولى. ومن قوله: إياك نعبد دعاء والخطاب في الدعاء أولى. وقيل فيه ضمير أي قولوا: إياك نعبد والمعنى إياك نخص بالعبادة ونوحدك ونطيعك خاضعين لك. والعبادة أقصى غاية الخضوع والتذلل، وسمي العبد عبدا لذلته وانقياده. وقيل: العبادة عبارة عن الفعل الذي يؤدي به الفرض لتعظيم الله تعالى، فقول العبد إياك نعبد معناه لا أعبد أحدا سواك، والعبادة غاية التذلل من العبد ونهاية التعظيم للرب سبحانه وتعالى لأنه العظيم المستحق للعبادة ولا تستعمل العبادة إلا في الخضوع لله تعالى لأنه مولى أعظم النعم وهي إيجاد العبد من العدم إلى الوجود ثم هداه إلى دينه فكان العبد حقيقا بالخضوع والتذلل به وإياك نستعين أي منك نطلب المعونة على عبادتك وعلى جميع أمورنا. فإن قلت: الاستعانة على العمل إنما تكون قبل الشروع فيه فلم أخر الاستعانة على العبادة وما **الحكمة فيه**؟. قلت ذكروا فيه وجوها أحدها أن هذا يلزم من يجعل الاستطاعة قبل الفعل ونحن بحمد الله نجعل التوفيق والاستطاعة مع الفعل فلا فرق بين التقديم والتأخير. الثاني أن الاستعانة نوع تعبد فكأنه ذكر جملة العبادة أولا ثم ذكر ما هو من تفاصيلها ثانيا. الثالث كأن العبد يقول شرعت في العبادة فإني أستعين بك على إتمامها فلا يمنعني من إتمامها مانع. الرابع إن العبد إذا قال إياك نعبد حصل له الفخر وذلك منزلة عظيمة فيحصل بسبب ذلك العجب فأردف ذلك بقوله وإياك نستعين ليزول ذلك العجب الحاصل بسبب تلك العبادة اهدنا الصراط المستقيم أي أرشدنا، وقيل ثبتنا، وهو كما تقول للقائم قم حتى أعود إليك ومعناه دم على ما أنت عليه وهذا الدعاء من المؤمنين مع كونهم على الهداية يعني سؤال التثبيت وطلب مزيد الهداية لأن الألطاف والهدايات من الله لا تتناهى وهذا مذهب أهل السنة والصراط الطريق، قال جرير:

أمير المؤمنين على صراط ... إذا اعوج الموارد مستقيم

أي على طريقة حسنة، قال ابن عباس: هو دين الإسلام، وقيل هو القرآن وروى ذلك مرفوعا. وقيل السنة والجماعة وقيل معناه اهدنا صراط المستحقين للجنة صراط الذين أنعمت عليهم هذا بدل من الأول، أي الذين مننت عليهم بالهداية والتوفيق، وهم الأنبياء والمؤمنين الذين ذكرهم الله تعالى في قوله: فأولئك مع

الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وقال ابن عباس: هم قوم موسى وعيسى الذين لم يغيروا ولم يبدلوا وقيل هم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم وأهل بيته غير المغضوب عليهم يعني غير صراط الذين غضبت." (١)

"سورة البقرة

بسم الله الرحمن الرحيم

[سورة البقرة (٢): الآيات ١ الى ٣]

بسم الله الرحمن الرحيم

الم (١) ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين (٢) الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون (٣)

قال ابن عباس: هي أول ما نزل بالمدينة قيل سوى آية وهي قوله تعالى: واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله فإنها نزلت يوم النحر بمكة في حجة الوداع وهي مائتان وست وقيل سبع وثمانون آية وستة آلاف ومائة وإحدى وعشرون كلمة وخمسة وعشرون ألف حرف وخمسمائة حرف.

(فصل: في فضلها) (م) عن أبي أمامة قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «اقرءوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعا لأصحابه اقرءوا الزهراوين البقرة وآل عمران فإنهما يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيايتان أو كأنهما فرقان من طير صواف يحاجان عن صاحبهما اقرءوا البقرة فإن أخذها بركة وتركها حسرة ولا تستطيعها البطلة» قال معاوية بن سلام بلغني أن البطلة السحرة (قوله اقرءوا الزهراوين) سميتا بذلك لنورهما يقال لكل مستنير زاهر. قوله: كأنهما غمامتان أو غيايتان: قال أهل اللغة الغمامة والغياية كل شيء أظل الإنسان فوق رأسه من سحابة وغيرها والمعنى أن ثوابهما يأتي كغمامتين (قوله: فرقان من طير صواف) الفرقان الجماعة من الطير والصواف جمع صافة وهي التي تصف أجنحتها عند الطيران يحاجان. المحاجة المجادلة والمخاصمة وإظهار الحجة والبطلة السحرة كما جاء في الحديث مبينا يقال أبطل إذا جاء بالباطل. وفي الحديث دليل على جواز قول سورة البقرة وسورة آل عمران وكذا باقي السور، وأنه لا كراهة في ذلك وكرهه بعض المتقدمين. وقال: إنما يقال السورة التي يذكر فيها البقرة وكذا باقي

---

(١) تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل الخازن ١/ ٢٠

السور والصواب هو الأول وبه قال الجمهور لورود النص به (م) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا تجعلوا بيوتكم مقابر إن الشيطان يفر من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة» وعنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لكل شيء سنام وإن سنام القرآن سورة البقرة وفيها آية هي سيدة آي القرآن آية الكرسي» أخرجه الترمذي وقال حديث غريب (بسم الله الرحمن الرحيم) قوله عز وجل: الم قيل إن حروف الهجاء في أوائل السور من المتشابه الذي استأثر الله بعلمه، وهي سر الله في القرآن، فنحن نؤمن بظاهرها، ونكل العلم فيها إلى الله تعالى، وفائدة ذكرها طلب الإيمان بها قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه، في كل كتاب سر وسر الله في القرآن أوائل السور وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه إن لكل كتاب صفوة وصفوة هذا الكتاب حروف التهجي. وأورد على هذا القول بأنه لا يجوز أن يخاطب الله عباده بما لا يعلمون، وأجيب عنه بأنه يجوز أن يكلف الله عباده بما لا يعقل معناه كرمي الجمار فإنه مما لا يعقل معناه والحكمة فيه هو كمال الانقياد والطاعة." (١)

"معناه عقوبة لما مضى من ذنوبهم وعبرة لمن بعدهم وقيل: جعلنا عقوبة قرية أصحاب السبت عبرة لمن بين يديها من القرى التي كانت عامرة في الحال وما خلفها أي. ما يحدث بعدها من القرى ليتعظوا بذلك وقوله عز وجل:

وموعظة للمتقين أي المؤمنين من أمة محمد صلى الله عليه وسلم لئلا يفعلوا مثل فعلهم. قوله عز وجل: وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة البقرة واحدة البقر وهي الأنثى وأصلها البقر وهو الشق سميت بذلك لأنها تشق الأرض للحراثة.

(ذكر الإشارة إلى القصة في ذلك) قال علماء السير والأخبار: إنه كان في زمن بني إسرائيل رجل غني وله ابن عم فقير لا وارث له سواه فلما طال عليه موته قتله ليرثه وحمله إلى قرية أخرى، وألقاه على بابها ثم أصبح يطلب ثاره وجاء بناس إلى موسى يدعي عليهم بالقتل، فجحدوا واشتبه أمر القتيل على موسى عليه الصلاة والسلام. فسألوا موسى أن يدعو الله ليبين لهم ما أشكل عليم، فسأل موسى ربه في ذلك فأمره بذبح بقرة، وأمره أن يضربه ببعضها فقال لهم: إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة قالوا أتتخذنا هزوا أي نحن نسألك أمر القتيل، وأنت تستهزئ بنا وتأمرنا بذبح بقرة وإنما قالوا ذلك لبعد ما بين الأمرين في الظاهر، ولم يعلموا ما وجه الحكمة فيه قال يعني موسى أعوذ بالله أي أمتنع بالله أن أكون من الجاهلين أي المستهزئين

(١) تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل الخازن ٢٢/١

بالمؤمنين وقيل: من الجاهلين بالجواب لا على وفق السؤال فلما علموا أن ذبح البقرة عزم من الله تعالى استوصفوه إياها ولو أنهم عمدوا إلى أي بقرة كانت فذبحوها لأجزأت عنهم ولكن شددوا فشدد عليهم وكان في ذلك حكمة الله عز وجل، وذلك أنه كان رجل صالح في بني إسرائيل، وله ابن طفل وله عجلة فأتى بها غيضة وقال: اللهم إني استودعتك هذه العجلة لابني حتى يكبر ومات ذلك الرجل، وصارت العجلة في الغيضة عوانا وكانت تهرب من الناس، فلما كبر ذلك الطفل، وكان بارا بأمه وكان يقسم ليله ثلاثة أجزاء يصلي ثلثا وينام ثلثا، ويجلس عند رأس أمه ثلثا فإذا أصبح انطلق فيحتطب ويأتي به السوق فيبيعه بما يشاء الله فيتصدق بثلثه ويأكل ثلثه ويعطي أمه ثلثه، فقالت له أمه يوما: يا بني إن أباك ورثك عجلة استودعها الله في غيضة كذا فانطلق وادع إله إبراهيم وإسماعيل وإسحاق أن يردها عليك وعلامتها أنك إذا نظرت إليها يخيل إليك أن شعاع الشمس يخرج من جلدها، وكانت تسمى المذهبة لحسنها وصفرتها، فأتى الفتى غيضة فرآها ترعى فصاح بها وقال أعزم عليك بإله إبراهيم وإسماعيل وإسحاق، فأقبلت البقرة حتى وقفت بين يديه فقبض على قرنها يقودها فتكلمت البقرة بإذن الله تعالى، وقالت: أيها الفتى البار بأمه اركبني فإنه أهون عليك. فقال الفتى: إن أمي لم تأمرني بذلك فقالت البقرة والله لو ركبتني ما كنت تقدر علي أبدا فانطلق فإنك لو أمرت الجبل أن ينقلع من أصله لانقلع لبرك بأمك فسار الفتى بها إلى أمه فقالت له أمه: إنك رجل فقير ولا مال لك ويشق عليك الاحتطاب بالنهار والقيام بالليل فانطلق فبع البقرة، فقال: بكم أبيعها قالت: بثلاثة دنانير ولا تبع بغير مشورتي وكان ثمن البقرة ثلاثة دنانير فانطلق بها الفتى إلى السوق، وبعث الله ملكا ليرى خلقه قدرته، وليختبر الفتى كيف بره بأمه، وهو أعلم فقال له الملك: بكم هذه البقرة؟ قال بثلاثة دنانير، وأشترط عليك رضى أمي فقال له الملك: لك ستة دنانير ولا تستأمر أمك فقال له الفتى لو أعطيتني وزنها ذهبا لم آخذه إلا برضا أمي. ورجع الفتى إلى أمه فأخبرها بالثمن فقالت له: ارجع فبعها بستة دنانير ولا تبعها إلا برضاي فرجع بها إلى السوق وأتى الملك فقال له: استأمرت أمك فقال الفتى: نعم. إنها أمرتني أن لا أنقصها عن ستة على رضاها. فقال الملك: إني أعطيتك اثني عشر دينارا ولا تستأمرها فأبى الفتى ورجع إلى أمه فأخبرها بذلك فقالت له أمه: إن الذي يأتيك ملك في صورة آدمي ليجربك، فإذا أتاك فقل له: أتأمرنا أن نبيع هذه البقرة أم لا ففعل فقال له الملك: اذهب إلى أمك فقل لها أمسكي هذه

البقرة فإن موسى بن عمران يشتريها منك لقتيل يقتل في بني إسرائيل، فلا تبعها إلا بملء مسكها ذهبا والمسك الجلد فأمسكتها وقدر الله على بني إسرائيل ذبح البقرة بعينها." (١)

"كرهت اليهود وأتباعهم من المشركين ذلك حسدا وبغيا منهم على المؤمنين، وذلك أن المسلمين قالوا لحلفائهم من اليهود آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم قالوا: ما هذا الذي تدعوننا إليه بخير مما نحن فيه ولوددنا لو كان خيرا فأنزل الله تعالى هذه الآية تكذيبا لهم والله يختص برحمته من يشاء يعني أنه تعالى يختص بنبوته ورسالته من يشاء من عباده، ويتفضل بالإيمان والهداية على من أحب من خلقه رحمة منه لهم والله ذو الفضل العظيم يعني أن كل خير ناله عباده في دينهم ودنياهم، فإنه منه ابتداء وتفضلا عليهم من غير استحقاق أحد منهم لذلك بل له الفضل والمنة على خلقه. قوله عز وجل: ما ننسخ من آية أو ننسها الآية. وسبب نزولها أن المشركين قالوا: إن محمدا يأمر أصحابه بأمر ثم ينهاهم عنه ويأمرهم بخلافه ويقول: اليوم قولا ويرجع عنه غدا ما يقول: إلا من تلقاء نفسه كما أخبر الله تعالى عنهم بقوله: إذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر فأنزل ما ننسخ من آية فبين بهذه الآية وجه **الحكمة في** النسخ وأنه من عنده لا من عند محمد صلى الله عليه وسلم. وأصل النسخ في اللغة يكون بمعنى النقل والتحويل ومنه نسخ الكتاب، وهو أن ينقل من كتاب إلى كتاب آخر كذلك لا يقتضي إزالة الصورة الأولى بل يقتضي إثبات مثله في كتاب آخر، فعلى هذا المعنى يكون القرآن كله منسوخا، وذلك أنه نسخ من اللوح المحفوظ ونزل جملة واحدة إلى سماء الدنيا، ويكون النسخ بمعنى الرفع والإزالة وهو إزالة شيء بشيء يعقبه كنسخ الشمس الظل، والشيب الشباب فعلى هذا المعنى يكون بعض القرآن منسوخا وبعضه ناسخا، وهو المراد من حكم هذه الآية وهو إزالة الحكم بحكم يعقبه.

(فصل في حكم النسخ) هو في اصطلاح العلماء، عبارة عن رفع الحكم الشرعي بدليل شرعي متأخر عنه، والنسخ جائز عقلا وواقع سمعا خلافا لليهود، فإن منهم من ينكره عقلا لكنه منعه سمعا، وشذت طائفة قليلة من المسلمين فأنكرت النسخ احتج الجمهور من المسلمين على جواز النسخ، ووقوعه بأن الدلائل قد دلت على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ونبوته لا تصح، إلا مع القول، بالنسخ وهو نسخ شرع من قبله فوجب القطع بالنسخ. ولنا على اليهود إلزامات: منها أن الله تعالى حرم عليهم العمل في يوم السبت، ولم يحرمه على من كان قبلهم. ومنها أنه قد جاء في التوراة أن الله تعالى قال لنوح عليه الصلاة والسلام عند

---

(١) تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل الخازن ١/٥٢

خروجه من الفلك: إني جعلت كل دابة مأكولا لك ولذريتك وأطلقت ذلك لكم. ثم إنه تعالى حرم على موسى عليه الصلاة والسلام وعلى بني إسرائيل كثيرا من الحيوانات. ومنها إن آدم عليه الصلاة والسلام كان يزوج الأخ للأخت وقد حرمه على من بعده وعلى موسى عليه الصلاة والسلام فثبت بهذا جواز النسخ، وحيث ثبت جواز النسخ فقد اختلفوا فيه على وجوه: أحدها أن القرآن نسخ جميع الشرائع والكتب القديمة كالتوراة والإنجيل وغيرهما. الوجه الثاني المراد من النسخ هو نسخ القرآن ونقله من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا الوجه الثالث، وهو الصحيح الذي عليه جمهور العلماء أن المراد من النسخ هو رفع حكم بعض الآيات بدليل آخر يأتي بعده وهو المراد بقوله تعالى: ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها لأن الآية إذ أطلقت، فالمراد به آيات القرآن لأنه هو المعهود عندنا.

مسألة: قال الشافعي رضي الله عنه الكتاب لا ينسخ بالسنة المتواترة، واستدل بهذه الآية وهو أنه تعالى قال: ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها وذلك يفيد أنه تعالى هو الآتي والمؤتي به هو من جنس القرآن، وما كان من جنس القرآن فهو قرآن. وقوله: نأت بخير منها يفيد أنه هو المنفرد بالإتيان بذلك الخير، وهو القرآن الذي هو كلام الله دون السنة ولأن السنة لا تكون خيرا من القرآن ولا مثله. واحتج الجمهور على جواز نسخ الكتاب بالسنة بأن آية الوصية للأقربين منسوخة بقوله صلى الله عليه وسلم: «لا وصية لوارث» أجاب الشافعي رضي الله عنه: بأن هذا ضعيف لأن كون الميراث حقا للوارث يمنع من صرفه إلى الوصية فثبت أن آية الميراث مانعة من." (١)

"وإنما تعلمون ذلك بإخباري إياكم به. فإن قلت: ليس سائر المطيعين من المسلمين لله يصل إليهم من نعيم الجنة في قبورهم فلم خصص الشهداء بالذكر؟. قلت: إنما خصهم لأن الشهداء فضلوا على غيرهم بمزيد النعيم وهو أنهم يرزقون من مطاعم الجنة ومآكلها وغيرهم ينعمون بما دون ذلك، وجواب آخر أنه رد لقول من قال: إن من قتل في سبيل الله قد مات وذهب عنه نعيم الدنيا ولذاتها فأخبر الله تعالى بقوله: بل أحياء بأنهم في نعيم دائم.

قوله عز وجل:

[سورة البقرة (٢): الآيات ١٥٥ الى ١٥٦]

---

(١) تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل الخازن ٦٨/١

ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين (١٥٥) الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون (١٥٦)

ولنبلونكم أي لنختبرنكم يا أمة محمد واللام جواب القسم تقديره، والله لنبلونكم، والابتلاء لإظهار الطائع من العاصي لا ليعلم شيئا، لم يكن عالما به فإنه سبحانه وتعالى عالم بجميع الأشياء قبل كونها وحدوثها بشيء إنما قال: بشيء ولم يقل بأشياء لئلا يوهم أن أشياء تدل على ضروب من الخوف. وكذا الباقي فلما قال بشيء كان التقدير بشيء من الخوف، وبشيء من الجوع. وقيل: معناه بشيء قليل من هذه الأشياء من الخوف قال ابن عباس: يعني خوف العدو والخوف توقع مكروه يحصل منه ألم في القلب والجوع يعني القحط وتعذر حصول القوت ونقص من الأموال يعني بالهلاك والخسران والأنفس أي ونقص من الأنفس بالموت أو القتل والثمرات يعني الجوائح في الثمار وقيل: قد يكون بالجدب أيضا وبترك العمل والعمارة في الأشجار. وحكي عن الشافعي رضي الله عنه في تفسير هذه الآية قال: الخوف خوف الله تعالى والجوع صيام شهر رمضان ونقص من الأموال يعني إخراج الزكاة والصدقات والأنفس يعني بالأمراض، والثمرات يعني موت الأولاد، لأن الولد ثمرة القلب. عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا مات ولد العبد قال الله تعالى لملائكته أقبضتم ولد عبدي؟ قالوا: نعم. قال: أقبضتم ثمرة فؤاده؟ قالوا نعم قال فماذا قال؟

قالوا: حمدك واسترجع قال: ابنوا له بيتا في الجنة وسموه بيت الحمد» أخرجه الترمذي، وقال حديث حسن.

فإن قلت ما الحكمة في تقديم تعريف هذا الابتلاء في قوله: ولنبلونكم. قلت فيه حكم: منها أن العبد إذا علم أنه مبتلي بشيء، وطن نفسه على الصبر، فإذا نزل به ذلك البلاء لم يجزع. ومنها أن الكفار إذا شاهدوا المؤمنين مقيمين على دينهم ثابتين عند نزول البلاء صابرين له علموا بذلك صحة الدين فيدعوهم ذلك إلى متابعته والدخول فيه. ومنها أن الله تعالى أخبر بهذا الابتلاء، قبل وقوعه فإذا وقع كان ذلك إخبارا عن غيب فيكون معجزة للنبي صلى الله عليه وسلم ومنها أن المنافقين إنما أظهروا الإيمان طمعا في المال وسعة الرزق من الغنائم فلما أخبر الله أنه مبتلي عباده فعند ذلك تميز المؤمن من المنافق والصادق من الكاذب، ومنها أن الإنسان في حال الابتلاء أشد إخلاصا لله منه في حال الرخاء، فإذا علم أنه مبتلي دام على التضرع والابتهال إلى الله تعالى لينجيه مما عسى أن ينزل به من البلاء ثم قال تعالى: وبشر الصابرين يعني عند

نزول البلاء والمعنى وبشر يا محمد الصابرين على امتحاني بما أمتحنهم به من الشدائد والمكاره، ثم وصفهم بقوله تعالى: الذين إذا أصابتهم مصيبة أي نائبة وابتلاء قالوا إنا لله أي عبيدا وملكا وإنا إليه راجعون يعني في الآخرة (م) عن أم سلمة قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «ما من عبد تصيبه مصيبة فيقول: إنا لله وإنا إليه راجعون اللهم أجرني في مصيبتي وأخلف لي خيرا منها إلا آجره الله في مصيبته وأخلف له خيرا منها» قيل: ما أعطي أحد ما أعطيت هذه الأمة يعني الاسترجاع عند المصيبة ولو أعطيها أحد لأعطى يعقوب عليه السلام ألا تسمع إلى قوله عند فقد يوسف يا أسفى على يوسف. وقيل: في قول العبد إنا لله وإنا إليه راجعون تفويض منه إلى الله وأنه راض بكل ما نزل به من المصائب.." (١)

"أن يأكله بطريق اللهو كالقمار وأجرة المغني وثمن الخمر والملاهي ونحو ذلك. الثالث: أن يأكله بطريق الرشوة في الحكم وشهادة الزور. الرابع: الخيانة وذلك في الوديعة والأمانة ونحو ذلك. وإنما عبر عن أخذ المال بالأكل لأنه المقصود الأعظم، ولهذا وقع في التعارف فلان يأكل أموال الناس بمعنى يأخذها بغير حلها وتدلوا بها إلى الحكام أي وتلقوا أمور تلك الأموال التي فيها الحكومة إلى الحكام. قال ابن عباس هذا في الرجل يكون عليه المال وليس عليه بينة فيجحد ويخاصم إلى الحكام وهو يعلم أن الحق عليه وهو آثم بمنعه وقيل: هو أن يقيم شهادة الزور عند الحاكم وهو يعلم ذلك. وقيل معناه ولا تأكلوا المال بالباطل وتنسبوه إلى الحكام، وقيل: لا تدل بمال أخيك إلى الحاكم وأنت تعلم أنك ظالم فإن قضاءه لا يحل حراما وكان شريح القاضي يقول إني لأقضي لك وإني لأظنك ظالما ولكن لا يسعني إلا أن أقضي بما يحضرني من البينة وإن قضائي لا يحل لك حراما (ق) عن أم سلمة «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع جلبة خصم بباب حجرته فخرج إليهم فقال: إنما أنا بشر وإنه يأتيني الخصم فلعل بعضهم أن يكون أبلغ من بعض» وفي رواية «ألحن بحجته من بعض فأحسب أنه صادق فأقضي له فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هي قطعة من النار فليحملها أو يذرها» قوله سمع جلبة خصم يعني أصوات خصم قوله ألحن بحجته، يقال: فلان ألحن بحجته من فلان أي أقوم بها منه وأقدر عليها، من اللحن بفتح الحاء وهو الفطنة لتأكلوا فريقا أي طائفة وقطعة من أموال الناس بالإثم يعني بالظلم وقال ابن عباس باليمين الكاذبة وقيل بشهادة الزور وأنتم تعلمون يعني أنكم على الباطل. قوله عز وجل:

---

(١) تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل الخازن ٩٤/١

[سورة البقرة (٢): آية ١٨٩]

يسئلونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها واتقوا الله لعلكم تفلحون (١٨٩)

يسئلونك أي يا محمد عن الأهلة نزلت في معاذ بن جبل وثعلبة بن غنم الأنصاريين قالا يا رسول الله ما بال الهلال يبدو دقيقا ثم يزيد حتى يمتلئ نورا، ثم لا يزال ينقص حتى يعود دقيقا كما بدا ولا يكون على حال واحدة فأنزل الله: يسئلونك عن الأهلة وكان هذا سؤالا منهم على وجه الفائدة عن وجه **الحكمة في** تبيين حال الهلال في الزيادة والنقصان والأهلة جمع هلال وهو أول حال القمر حين يراه الناس أول ليلة من الشهر قل هي مواقيت للناس جمع ميقات، والمعنى أن فعلنا ذلك لمصالح دينية ودنيوية ليعلم الناس أوقات حجهم وصومهم وإفطارهم ومحل ديونهم وأجائرهم وعدد النساء وأوقات الحيض وغير ذلك من الأحكام المتعلقة بالأهلة ولهذا خالف بينه وبين الشمس التي هي دائمة على حالة واحدة والحج أي وللحج، وإنما أفرد الحج بالذكر وإن كان داخلا في جملة العبادات لفائدة عظيمة وهي أن العرب في الجاهلية كانت تحج بالعدد وتبدل الشهور فأبطل الله ذلك من فعلهم وأخبر أن الحج مقصور على الأشهر التي عينها لفرض الحج بالأهلة، وأنه لا يجوز نقل الحج عن تلك الأشهر التي عينها الله تعالى له كما كانت العرب تفعل بالنسيء وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها (ق) عن البراء قال: نزلت هذه الآية فينا فكانت الأنصار إذا حجوا فجاؤوا لم يدخلوا من قبل أبواب البيوت فجاء رجل من الأنصار فدخل من قبل بابه فكأنه عير بذلك فنزلت: وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها، وفي رواية كانوا إذا أحرموا في الجاهلية أتوا البيوت من ظهورها فأنزل الله هذه الآية وقيل كان الناس في الجاهلية وفي أول الإسلام إذا أحرم الرجل منهم لم يدخل حائطا ولا دارا ولا فسطاطا من بابه، فإن كان من أهل المدر نقب نقبا في ظهر بيته منه يدخل ويخرج أو يتخذ سلما يصعد منه، وإن كان من أهل الوبر دخل وخرج من خلف الخباء ولا يدخل ولا يخرج من الباب ويرون ذلك برا، وكانت الحمس وهم قريش وكنانة وخزاعة ومن دان بدينهم، سموا حمسا لتشددهم في دينهم والحماسة الشدة كانوا إذا أحرموا لم يدخلوا بيتا البتة ولم يستظلوا بظل، ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل حائطا فدخل." (١)

(١) تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل الخازن ١/١٢٠

"يسئلونك عن الخمر والميسر الآية نزلت في عمر بن الخطاب ومعاذ بن جبل وجماعة من الأنصار أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: يا رسول الله أفتنا في الخمر والميسر فإنهما مذهبة للعقل مسلبة للمال فأنزل الله هذه الآية:

وأصل الخمر في اللغة الستر والتغطية وسميت الخمر خمرا لأنها تخامر العقل أي تخالطه. وقيل: لأنها تستره وتغطيه وجملة القول في تحريم الخمر أن الله عز وجل أنزل في الخمر أربع آيات نزلت بمكة: ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا فكان المسلمون يشربونها في أول الإسلام، وهي لهم حلال ثم نزل بالمدينة في جواب سؤال عمر ومعاذ: يسئلونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير فتركها قوم لقوله، إثم كبير وشربها قوم لقوله ومنافع للناس ثم إن عبد الرحمن بن عوف صنع طعاما، ودعا إليه ناسا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأطعمهم وسقاهم الخمر وحضرت صلاة المغرب فقدموا أحدهم ليصلي بهم فقرأ: قل يا أيها الكافرون أعبد ما تعبدون بحذف حرف لا إلى آخر السورة فأنزل الله عز وجل: يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون فحرم الله السكر في أوقات الصلوات فكان الرجل يشربها بعد صلاة العشاء، فيصبح وقد زال سكره فيصلي الصبح، ويشربها بعد صلاة الصبح، فيصحو وقت الظهر ثم إن عتبان بن مالك اتخذ صنيعا يعني وليمة ودعا رجالا من المسلمين، وفيهم سعد بن أبي وقاص، وكان قد شوى لهم رأس بعير فأكلوا وشربوا الخمر حتى أخذت منهم فافتخروا عند ذلك وانتسبوا وتناشدوا الأشعار، فأنشد سعد قصيدة فيها فخر قومه وهجاء الأنصار، فأخذ رجل من الأنصار لحي البعير فضرب به رأس سعد فشجه موضحة فانطلق سعد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وشك إليه الأنصاري فقال عمر: اللهم بين لنا في الخمر بيانا شافيا، ويروى أن حمزة بن عبد المطلب، شرب الخمر يوما وخرج فلقي رجلا من الأنصار وبيده ناضح له والأنصاري يتمثل ببيتين لكعب بن مالك يمدح قومه وهما:

جمعنا مع الإيواء نصرا وهجرة ... فلم ير حي مثلنا في المعاشر

فأحياؤنا من خير أحياء من مضى ... وأمواتنا من خير أهل المقابر

فقال حمزة: أولئك المهاجرون وقال الأنصاري، بل نحن الأنصار فتنازعا فجرد حمزة سيفه وعدا على الأنصاري فهرب الأنصاري وترك ناضحه فقطعه حمزة فجاء الأنصاري مستعديا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره بفعل حمزة فغرم له رسول الله صلى الله عليه وسلم ناضحا فقال عمر: اللهم بين لنا في

الخمر بيانا شافيا فأنزل الله تعالى الآية التي في المائدة إلى قوله فهل أنتم منتهون فقال عمر: انتهينا يا رب، وذلك بعد غزوة الأحزاب بأيام والحكمة في وقوع التحريم على هذا الترتيب أن الله تعالى علم أن القوم كانوا قد ألفوا شرب الخمر وكان انتفاعهم بذلك كثيرا فعلم أنه لو منعهم من الخمر دفعة واحدة لشق ذلك عليهم فلا جرم استعمل هذا التدريج وهذا الرفق. قال أنس:

حرمت الخمر ولم يكن يومئذ للعرب عيش أعجب منها وما حرم عليهم شيء أشد من الخمر (ق) عن أنس قال:

ما كان لنا خمر غير فضيخكم وإني لقائم أسقي أبا طلحة وأبا أيوب وفلانا وفلانا إذ جاء رجل، فقال: حرمت الخمر فقالوا: أهرق هذه القلال يا أنس فما سألوا عنها ولا راجعوها بعد خبر هذا الرجل. الفضيخ بالضاد والخاء المعجمتين شراب يتخذ من بسر مطبوخ والمفضوخ المشدوخ والمكسور والإهراق الصب والقلال جمع قلة وهي الجرة الكبيرة.

(فصل: في تحريم الخمر ووعيد من شربها) أجمعت الأمة على تحريم الخمر، وأنه يحد شاربها ويفسق بذلك مع اعتقاد تحريمها فإن استحل كفر بذلك ويجب قتله (ق) عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «كل مسكر خمر وكل مسكر حرام ومن شرب الخمر في الدنيا، ومات وهو يدمنها ولم يتب منها لم يشربها في الآخرة» لفظ مسلم (م) عن جابر: «أن رجلا قدم من." (١)

"بذلك ولا ينفق عليه الأب أو ينزعه من أمه فيضره بذلك، فعلى هذا تكون الباء صلة، والمعنى لا تضار والدة ولدها ولا أب ولده وعلى الوارث مثل ذلك يعني وعلى وارث أبي الولد إذا مات مثل ما كان يجب عليه من النفقة والكسوة فيلزم وارث الأب أن يقوم مقامه في القيام بحق الولد. وقيل: المراد بالوارث وارث الصبي الذي لو مات الصبي ورثه فعلى هذا الوارث مثل ما كان على أبي الصبي في حال حياته، واختلف في أي وارث هو فقيل هم عصبة الصبي كالجد والأخ والعم وابنه. وقيل: هو كل وارث له من الرجال والنساء، وبه قال أحمد:

فيجبرون على نفقة الصبي كل على قدر سهمه منه. وقيل هو من كان ذا رحم محرم منه وبه قال أبو حنيفة. وقيل المراد بالوارث الصبي نفسه، فعلى هذا تكون أجرة رضاع الصبي في ماله فإن لم يكن له مال فعلى الأم ولا يجبر على نفقة الصبي غير الأبوين، وبه قال مالك والشافعي. وقيل معناه وعلى الوارث ترك المضارة

---

(١) تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل الخازن ١/١٤٨

فإن أرادا يعني الوالدين فصالا يعني فطام الولد قبل الحولين عن تراض منهما أي على اتفاق من الوالدين في ذلك وتشاور أي يشاورون أهل العلم في ذلك حتى يخبروا أن الفطام قبل الحولين لا يضر بالولد، والمشاورة استخراج الرأي بما فيه مصلحة فلا جناح عليهما أي فلا حرج ولا إثم على الوالدين في الفطام قبل الحولين إذا لم يضر بالولد وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم أي لأولادكم مراضع غير أمهاتهم إذا أبت أمهاتهم إرضاعهم أو تعذر ذلك لعلة بهن من انقطاع لبن أو غير ذلك أو أردن التزويج فلا جناح عليكم إذا سلمتم يعني إلى المراضع ما آتيتم يعني لهن من أجرة الرضاع وقيل إذا سلمتم إلى أمهاتهم من أجرة الرضاع بقدر ما أرضعن بالمعروف أي بالإحسان والإجمال أمروا أن يكونوا عند تسليم الأجرة مستبشري الوجوه ناطقين بالقول الجميل مطيبين لأنفس المراضع بما أمكن حتى يؤمن من تفريطهن بقطع معاذيرهن واتقوا الله يعني وخافوا الله فيما فرض عليكم من الحقوق وفيما أوجب عليكم لأولادكم واعلموا أن الله بما تعملون بصير يعني لا يخفى عليه خافية من جميع أعمالكم سرها وعلانيتها، فإنه تعالى يراها ويعلمها. قوله عز وجل:

[سورة البقرة (٢): آية ٢٣٤]

والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا فإذا بلغن أجلهن فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن بالمعروف والله بما تعملون خبير (٢٣٤)

والذين يتوفون يعني يموتون منكم وأصل التوفي أخذ الشيء وافيا، فمن مات فقد استوفى عمره كاملا، ويقال توفي فلان يعني قبض وأخذ ويذرون أي ويتركون أزواجا والمراد بالأزواج هنا النساء لأن العرب تطلق اسم الزوج على الرجل والمرأة يتربصن أي ينتظرن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا يعني قدر هذه المدة وإنما قال عشرا بلفظ التأنيث لأن العرب إذا أبهمت في العدد من الليالي والأيام غلبوا الليالي حتى إن أحدهم ليقول: صمت عشرا من الشهر لكثرة تغليبهم الليالي على الأيام فإذا أظهروا الأيام قالوا صمنا عشرة أيام وقيل إن هذه الأيام أيام حزن ولبس إحداد فشبهها بالليالي على سبيل الاستعارة ووجه **الحكمة في** أن الله تعالى حد العدة بهذا القدر لأن الولد يركض في بطن أمه لنصف مدة الحمل، يعني يتحرك. وقيل: إن الروح ينفخ في الولد في هذه العشرة أيام، ويدل على ذلك ما روي عن ابن مسعود قال: حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق: «إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوما نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله إليه ملكا يكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد، ثم ينفخ فيه الروح» أخرجاه في الصحيحين بزيادة، فدل هذا الحديث على أن خلق الولد يجتمع في مدة

أربعة أشهر ويتكامل خلقه بنفخ الروح فيه في هذه الأيام الزائدة.
(فصل: في حكم عدة المتوفى عنها زوجها والإحداد. وفي مسائل) المسألة الأولى: عدة المتوفى عنها زوجها أربعة أشهر وعشر وعدة الأمة على نصف عدة الحرة شهران." (١)

"آمنت وصدقت أني أحيي الموتى قال بلى قد آمنت وصدقت ولكن ليطمئن قلبي يعني سألتك ذلك إرادة طمأنينة القلب وزيادة اليقين وقوة الحجة وقال ابن عباس: معناه ولكن لأرى من آياتك وأعلم أنك قد أجبتني قال فخذ أربعة من الطير قيل أخذ طاوسا وديكا وحمامة وغرابا وقيل نسرا بدل الحمامة. فإن قلت لم خص الطير من جملة الحيوانات بهذه الحالة. قلت لأن الطير صفته الطيران في السماء والارتفاع في الهواء، وكانت همة إبراهيم عليه السلام كذلك وهو العلو في الوصول إلى الملكوت فكانت معجزته مشاكلة لهمته. فإن قلت: لم خص هذه الأربعة الأجناس من الطير بالأخذ. قلت فيه إشارة ففي الطاوس إشارة إلى ما في الإنسان من حب الزينة، والجاه وفي النسر إشارة إلى شدة الشغف بالأكل وفي الديك إشارة إلى شدة الشغف بحب النكاح وفي الغراب إشارة إلى شدة الحرص، ففي هذه الطيور مشابهة لما في الإنسان من حب هذه الأوصاف وفيه إشارة إلى أن الإنسان إذا ترك هذه الشهوات الذميمة لحق أعلى الدرجات في الجنة، وفاز بنيل السعادات فصرهن قرئ بكسر الصاد ومعناه قطعهن ومزقهن وقرئ بضم الصاد ومعناه أملهن إليك ووجههن وقيل: معناه اجمعهن واضممهن إليك فمن فسره بالإمالة والضم قال فيه إضمار ومعناه فصرهن إليك ثم قطعهن فحذف اكتفاء بقوله:
ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا لأنه يدل عليه قال لمفسرون: أمر الله تعالى إبراهيم صلى الله عليه وسلم أن يذبح تلك الطيور وينتف ريشها وأن يخلط ريشها ولحمها ودمها بعضه ببعض ففعل ثم أمره أن يجعل على كل جبل منهن جزءا. واختلفوا في عدد الأجزاء والجبال فقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أمر أن يجعل كل طائر أربعة أجزاء وأن يجعلها أربعة أجبل على كل جبل ربعا من كل طائر، قيل: جبل على جهة الشرق وجبل على جهة الغرب، وجبل على جهة الشمال وجبل على جهة الجنوب وقيل جزأه سبعة أجزاء ووضعها على سبعة أجبل وأمسك رؤوسهن بيده ثم دعاهن فقال: تعالين بإذن الله تعالى: فجعلت كل قطرة من دم طائر تطير إلى القطرة الأخرى، وكل ريشة تطير إلى الريشة الأخرى وكل عظم يطير إلى العظم الآخر وكل بضعة تطير إلى البضعة الأخرى، وإبراهيم ينظر حتى لقيت كل جثة بعضها ببعض في السماء بغير

(١) تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل الخازن ١٦٧/١

رؤوس ثم أقبلن سعيا إلى رؤوسهن كلما جاء طائر مال برأسه فإن كان رأسه دنا منه وإن لم يكن تأخر عنه حتى التقى كل طائر برأسه فذلك قوله تعالى: ثم ادعهن يأتينك سعيا وقيل: المراد بالسعي الإسراع والعدو وقيل المشي، والحكمة في سعي الطيور إليه دون الطيران، لأن ذلك أبعد من الشبهة لأنها لو طارت لتوهم متوهم أنها غير تلك الطيور أو أن أرجلها غير سليمة، فنفى الله تعالى هذه الشبهة بقوله: يأتينك سعيا وقيل: المراد بالسعي المشي والمراد بالمشي الطيران وفيه ضعف لأنه لا يقال: للطائر إذا طار سعى وقيل السعي هو الحركة الشديدة واعلم أن الله عزيز يعني أنه تعالى غالب على جميع الأشياء لا يعجزه شيء حكيم يعني في جميع أموره. قوله عز وجل:

[سورة البقرة (٢): الآيات ٢٦١ الى ٢٦٢]

مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم (٢٦١) الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون (٢٦٢)

مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله قيل أراد به الإنفاق في الجهاد وقيل هو الإنفاق في جميع أبواب الخير ووجوه البر فيدخل فيه الواجب والتطوع، وفيه إضمار تقديره مثل صدقات الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أي كمثل زارع حبة أنبتت يعني أخرجت تلك الحبة سبع سنابل جمع سنبلة في كل سنبلة مائة حبة. فإن قلت فهل رأيت سنبلة فيها مائة حبة حتى يضرب المثل بها. قلت: ذلك غير مستحيل وما لا يكون مستحيلا فضرب المثل به جائز وإن لم يوجد والمعنى في كل سنبلة مائة حبة إن جعل الله ذلك فيها، وقيل هو موجود في الدخن، وقيل: إن المقصود من الآية أنه إذا علم الإنسان الطالب للزيادة والربح أنه إذا بذر حبة." (١)

"[سورة البقرة (٢): الآيات ٢٦٨ الى ٢٦٩]

الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا والله واسع عليم (٢٦٨) يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر إلا أولوا الألباب (٢٦٩)

الشيطان يعدكم الفقر أي يخوفكم الفقر يقال: وعدته خيرا ووعدته شرا وإذا لم يذكر الخير والشر يقال: في

---

(١) تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل الخازن ١٩٨/١

الخير وعدته وفي الشر أوعدته والفقر سوء الحال، وقلة ذات اليد وأصله من كسر فقار الظهر ومعنى الآية أن الشيطان يخوفكم بالفقر، ويقول للرجل أمسك عليك مالك فإنك إذا تصدقت افتقرت ويأمركم بالفحشاء يعني يوسوس لكم ويحسن لكم، البخل ومنع الزكاة والصدقة قال الكلبي كل فحشاء في القرآن فهي الزنا إلا هذا الموضع وفي هذه الآية لطيفة وهي أن الشيطان يخوف الرجل أولا بالفقر ثم يتوصل بهذا التخويف إلى أن يأمره بالفحشاء، وهي البخل وذلك لأن البخيل على صفة مذمومة عند كل أحد فلا يستطيع الشيطان أن يحسن له البخل إلا بتلك المقدمة وهي التخويف من الفقر، فلهذا قال تعالى: الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه يعني مغفرة لذنوبكم وسترا لكم وفضلا يعني رزقا وخلفا. فالمغفرة إشارة إلى منافع الآخرة والفضل إشارة إلى منافع الدنيا، وما يحصل من الرزق والخلف. عن ابن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن للشيطان لمة بابن آدم وللملك لمة فأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر، وتكذيب بالحق وأما لمة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله تعالى فليحمد الله ومن وجد الأخرى فليتعوذ بالله من الشيطان ثم قرأ الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء أخرجه الترمذي. وقال هذا حديث حسن غريب قوله: إن للشيطان لمة بابن آدم اللمة الخطرة الواحدة من الإلمام وهو القرب من الشيء والمراد بهذه اللمة اللمة التي تقع في القلب من فعل خير أو شر والعزم فأما لمة الشيطان فوسوسة وأما لمة الملك فإلهام من الله تعالى والله واسع أي غني قادر على إغنائكم وإخلاف ما تنفقونه عليم يعني بما تنفقونه لا تخفى عليه خافية (ق) عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ما من يوم يصبح فيه العباد إلا وملكان ينزلان يقول: أحدهما اللهم أعط منفقا خلفا ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكا تلفا» (ق) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «قال الله تعالى أنفق ينفق عليك» وفي رواية «يد الله ملأى لا تغيضها نفقة سحاء الليل والنهار، وقال: أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض فإنه لم يغض ما في يده» وفي رواية «فإنه لم يغض ما في يمينه، وكان عرشه على الماء وبيده الميزان يخفض ويرفع» وفي رواية وبيده الأخرى الفيض القبض يرفع ويخفض (ق) عن أسماء بنت بكر الصديق قالت: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أنفقي ولا تحصي فيحصى عليك ولا توعي فيوعى عليك» قوله: ولا توعي أي لا تشحي فيشح الله عليك فيجازيك بالتقتير في رزقك ولا يخلف عليك ولا يبارك لك، والمعنى لا تجمعي وتمنعي بل أنفقي ولا تعدي ولا تشحي. قوله عز وجل: يؤتي الحكمة من يشاء قال ابن عباس: هي علم القرآن ناسخه ومنسوخه ومحكمه

ومتشابهه ومقدمه ومؤخره وحلاله وحرامه، وقال الضحاك:
القرآن والفهم فيه وإنما قال: ذلك لتضمن القرآن الحكمة وقال في القرآن: مائة وتسع آيات ناسخة ومنسوخة وألف آية حلال وحرام لا يسع المؤمنين تركهن حتى يعلمونهن ولا يكونوا كأهل النهروان يعني الخوارج تأولوا آيات من القرآن في أهل القبلة وإنما نزلت في أهل الكتاب فجهلوا علمها فسفكوا بها الدماء، وانتهبوا الأموال وشهدوا على أهل السنة بالضلالة فعليكم بعلم القرآن فإنه من علم فيما نزل لم يختلف في شيء منه، وقيل: هي القرآن والعلم والفقه وقيل هي الإصابة في القول والفعل. وحاصل هذه الأقوال إلى شيئين: العلم والإصابة فيه، ومعرفة الأشياء بذواتها وأصل الحكمة المنع ومنه حكمة الدابة لأنها تمنعها قال الشاعر: أبني حنيفة أحكموا سفهاءكم أي امنعوا سفهاءكم، وقال السدي: الحكمة النبوة لأن النبي يحكم بين الناس فهو حاكم وقيل الحكمة." (١)

"فيصرع فلا يستطيعون أن يبرحوا حتى يغشاهم آل فرعون فيردوهم مقبلين ومدبرين فذلك عذابهم في البرزخ بين الدنيا والآخرة، قال: وآل فرعون يقولون: اللهم لا تقم الساعة أبدا. قال: ويوم القيامة يقول أدخلوا آل فرعون أشد العذاب قلت: يا جبريل من هؤلاء؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس». قوله: بطنه مثل البيت الضخم أي العظيم الكبير الغليظ، وقوله: منضدين أي موضوعين بعضهم على بعض والسابلة الطريق، وقوله مثل الإبل المنهومة، النهم بالتحريك إفراط في الشهوة بالطعام من الجوع. قوله عز وجل: ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا أي ذلك الذي نزل بهم من العذاب بقولهم هذا واستحلالهم إياه وذلك أن أهل الجاهلية كان أحدهم إذا حل ماله على غريمه يطالبه به فيقول الغريم لصاحب الحق زدني في الأجل حتى أزيدك في المال فيفعلان ذلك وكانوا يقولون: سواء علينا الزيادة في أول البيع بالربح أو عند المحل لأجل التأخير فكذبهم الله تعالى. ورد عليهم ذلك بقوله: وأحل الله البيع وحرم الربا يعني وأحل الله لكم الأرباح في التجارة بالبيع والشراء وحرم الربا الذي هو زيادة في المال لأجل تأخير الأجل وذلك لأن الله تعالى خلق الخلق فهم عبيده وهو مالكهم يحكم فيهم بما يشاء ويستعبدهم بما يريد ليس لأحد أن يعترض عليه في شيء مما حل أو حرم، وإنما على كافة الخلق الطاعة والتسليم لحكمه وأمره ونهيه. وذكر بعض العلماء الفرق بين البيع والربا فقال إذا باع ثوبا يساوي عشرة بعشرين فقد جعل ذات الثوب مقابلا للعشرين فلما حصل التراضي على هذا التقابل صار كل واحد منهما

---

(١) تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل الخازن ٢٠٤/١

مقابلا للآخر في المالية عندهما فلم يكن أخذ من صاحبه شيئا بغير عوض، أما إذا باع عشرة دراهم بعشرين فقد أخذ العشرة الزائدة بغير عوض ولا يمكن أن يقال: إن العوض هو الإمهال في مدة الأجل لأن الإمهال ليس مالا أو شيئا يشار إليه حتى يجعله عوضا عن العشرة الزائدة فقد ظهر الفرق بين الصورتين.

(فصل: في حكم الربا وفيه مسائل) المسألة الأولى: ذكروا في سبب تحريم الربا وجوها: أحدها: أن الربا يقتضي أخذ مال الغير بغير عوض، لأن من يبيع درهما بدرهمين نقدا كان أو نسيئة فقد حصل له زيادة درهم من غير عوض فهو حرام. الوجه الثاني:

إنما حرم عقد الربا لأنه يمنع الناس من الاشتغال بالتجارة لأن صاحب الدراهم إذا تمكن من عقد الربا خف عليه تحصيل الزيادة من غير تعب ولا مشقة، فيقضي ذلك إلى انقطاع منافع الناس بالتجارات وطلب الأرباح. الوجه الثالث: أن الربا هو سبب إلى انقطاع المعروف بين الناس من القرض، فلما حرم الربا طابت النفوس بقرض الدراهم للمحتاج واسترجاع مثله لطلب الأجر من الله تعالى. الوجه الرابع: أن تحريم الربا قد ثبت بالنص ولا يجب أن يكون حكم جميع التكاليف معلومة للخلق فوجب القطع بتحريم الربا وإن كنا لا نعلم وجه **الحكمة في** ذلك.

المسألة الثانية: اعلم أن الربا في اللغة هو الزيادة، وطلب الزيادة بطريق التجارة غير حرام فثبت أن الزيادة المحرمة هو الربا وهو على صفة مخصوصة في مال مخصوص بينه رسول الله صلى الله عليه وسلم (ق) عن عمر بن الخطاب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الذهب بالورق ربا إلا هاء وهاء والبر بالبر ربا إلا هاء وهاء والشعير بالشعير ربا إلا هاء وهاء والتمر بالتمر ربا إلا هاء وهاء». وفي رواية: «الورق بالورق ربا إلا هاء وهاء والذهب بالذهب ربا إلا هاء وهاء» (م) عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الذهب بالذهب وزنا بوزن مثلا بمثل والفضة بالفضة وزنا بوزن مثلا بمثل فمن زاد واستزاد فقد أربى» وفي رواية: «التمر بالتمر والحنطة بالحنطة والشعير بالشعير والملح بالملح مثلا بمثل يدا بيد، فمن زاد واستزاد فقد أربى إلا ما اختلفت ألوانه. (م) عن عبادة بن الصامت قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الذهب بالذهب والفضة بالفضة والبر وبالبر والشعير بالشعير والتمر بالتمر والملح بالملح مثلا." (١)

---

(١) تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل الخازن ١/٢٠٩

"وهم اليهود والنصارى في قول أكثر المفسرين واختلفوا في دين الله وأمره ونهيه، وقيل تفرقوا واختلفوا بمعنى واحد وإنما ذكرهما للتأكيد وقيل تفرقوا بسبب العداوة واتباع الهوى واختلفوا في دين الله فصاروا فرقا مختلفين قال الربيع في هذه الآية: هم أهل الكتاب نهى الله أهل الإسلام أن يتفرقوا أو يختلفوا كما تفرق واختلف أهل الكتاب. وقال ابن عباس: أمر الله المؤمنين بالجماعة ونهاهم عن الاختلاف والفرقة وأخبرهم إنما هلك من كان قبلهم بالمراء والخصومات في الدين. وقال بعضهم: هم المبتدعة من هذه الأمة وقال أبو أمامة: هم الحرورية:

قال عبد الله بن شداد: وقف أبو أمامة وأنا معه على رؤوس الحرورية على درج جامع دمشق فذرفت عيناه ثم قال:

كلاب أهل النار وكانوا مؤمنين فكفروا بعد إيمانهم، شر قتيل تحت أديم السماء، وخير قتيل تحت أديم السماء الذين قتلهم هؤلاء قلت فما شأنك دمعت عيناك قال رحمة لهم كانوا من أهل الإسلام فكفروا بعد إيمانهم ثم أخذ بيدي وقال: إن بأرضي منهم كثير وفي رواية ثم قرأ بعد قوله: كفروا بعد إيمانهم ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا إلى قوله: أكفرتم بعد إيمانكم ورواه الترمذي عن أبي غالب قال رأى أبو أمامة: رؤوسا منصوبة على درج دمشق فقال أبو أمامة كلاب أهل النار شر قتلي تحت أديم السماء خير قتلي من قتلوه ثم قرأ: يوم تبيض وجوه وتسود وجوه إلى آخر الآية قلت لأبي أمامة: أنت سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال: لو لم أسمعه إلا مرة أو مرتين أو ثلاث مرات أو أربع مرات حتى عد سبعا ما حدثتكموه وقال فيه هذا حسن وقوله تعالى: من بعد ما جاءهم البينات يعني الحجج الواضحات فعلموها ثم خالفوها وإنما قال جاءهم ولم يقل جاءتهم لجواز حذف علامة التأنيث من الفعل في التقديم تشبيه، بعلامة التثنية والجمع وأولئك لهم عذاب عظيم يعني لهؤلاء الذين تفرقوا واختلفوا لهم عذاب عظيم في الآخرة وفيه زجر عظيم للمؤمنين عن التفرق والخلاف عن أبي ذر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من فارق الجماعة شبرا فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه أخرجه أبو داود. أراد بربقة الإسلام عقد الإسلام وأصله أن الربق حبل فيه عدة عرا يشد بها الغنم الواحدة من العري ربقة. وروى البغوي بسنده عن عمر بن الخطاب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «من سره أن يسكن بحبوحة الجنة فعليه بالجماعة فإن الشيطان مع الفذ وهو من الاثنين أبعد» بحبوحة الجنة وسطها والفذ هو الواحد. قوله عز وجل: يوم تبيض وجوه وتسود وجوه يعني اذكروا يوم تبيض وجوه المؤمنين وتسود وجوه الكافرين، وقيل تبيض وجوه أهل السنة

وتسود وجوه أهل البدعة، وقيل تبيض وجوه المخلصين وتسود وجوه المنافقين وفي بياض الوجوه وسوادها قولان: أحدهما، إن البياض كناية عن الفرح والسرور والسواد كناية عن الغم والحزن، وهذا مجاز مستعمل يقال لمن نال بغيته وظفر بمطلوبه ابيض وجهه يعني من السرور والفرح ولمن ناله مكروه اسود وجهه وأريد لونه يعني من الحزن والغم قال الله تعالى: وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا يعني من الحزن فعلى هذا بياض الوجوه إشراقها وسرورها واستبشارها بعملها، وذلك أن المؤمن إذا ورد القيامة على ما قدم من خير وعمل صالح استبشر بثواب الله ونعمه عليه فإذا كان كذلك وسم وجهه ببياض اللون وإشراقه واستنارته وابيضت صحيفته وأشرقت وسعى النور بين يديه وعن يمينه وشماله. وأما الكافر والظالم إذا ورد القيامة على ما قدم من قبيح عمل وسيئات حزن واغتم لعلمه بعذاب الله فإذا كان كذلك وسم وجهه بسواد اللون وكمودته واسودت صحيفته وأظلمت وأحاطت به الظلمة من كل جانب نعوذ بفضل الله وسعة رحمته من الظلمات يوم القيامة والقول الثاني بياض الوجوه وسوادها حقيقة تحصل في الوجه فيبيض وجه المؤمن ويكسى نورا ويسود وجه الكافر ويكسى ظلمة لأن لفظ البياض والسواد حقيقة فيهما **والحكمة في** بياض الوجوه وسوادها أن أهل الموقف إذا رأوا بياض وجه المؤمن عرفوا أنه من أهل السعادة وإذا رأوا سواد وجه الكافر عرفوا أنه من أهل الشقاوة فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون أي فيقال لهم أكفرتم والهمزة للتوبيخ والتقريع.

فإن قلت كيف قال أكفرتم بعد إيمانكم وهم لم يكونوا مؤمنين فمن المراد بهؤلاء الذين كفروا بعد إيمانهم. قلت." (١)

"الإهلاك أو اللعن والخزي فينقلبوا خائبين أي بالخيبة لم ينالوا شيئا من الذي أملوه من الظفر بكم.

قوله عز وجل: ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم اختلف في سبب نزول هذه الآية.

فقيل: إنها نزلت في أهل بئر معونة وهم سبعون رجلا من القراء بعثهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بئر معونة وهي بين مكة وعسفان وأرض هذيل وذلك في صفر سنة أربع من الهجرة على رأس أربعة أشهر من أحد بعثهم ليعلموا الناس القرآن والعلم وأمر عليهم المنذر بن عمرو فقتلهم عامر بن الطفيل فوجد رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذلك وجدا شديدا وقنت شهرا في الصلوات كلها يدعو على جماعة من تلك القبائل باللعن (خ) عن ابن عمر أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا رفع رأسه من الركوع في الركعة

---

(١) تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل الخازن ١/٢٨٢

الأخيرة من الفجر يقول: اللهم العن فلانا وفلانا وفلانا بعد ما يقول سمع الله لمن حمده ربنا لك الحمد فأنزل الله تعالى عليه ليس لك من الأمر شيء إلى قوله فإنهم ظالمون (ق) عن أبي هريرة قال: «لما رفع رسول الله صلى الله عليه وسلم رأسه من الركعة الثانية قال: اللهم أنج الوليد بن الوليد وسلمة بن هشام وعياش بن أبي ربيعة والمستضعفين بمكة «اللهم اشدد وطأتك على مضر اللهم أجعلها عليهم سنين كسني يوسف» زاد في رواية: «اللهم العن فلانا وفلانا لأحياء من العرب حتى أنزل الله تعالى ليس لك من الأمر شيء الآية سماهم في رواية يونس اللهم العن رعلا وذكوان وعصية عصت الله ورسوله قال ثم بلغنا أنه ترك ذلك لما أنزل الله ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم، فإنهم ظالمون وقيل إنها نزلت يوم أحد ثم اختلفوا في سببها فقيل: إن عتبة بن أبي وقاص شج وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم وكسر رباعيته. (ق) عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كسرت رباعيته وشج في رأسه فجعل يسلت الدم عنه ويقول: «كيف يفلح قوم شجوا نبيهم وكسروا رباعيته وهو يدعوهم إلى الله فأنزل الله تعالى: ليس لك من الأمر شيء.

وقيل أراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يدعو عليهم بالاستئصال فنزلت هذه الآية وذلك لعلمه أن أكثرهم يسلمون وقيل إن النبي صلى الله عليه وسلم لما وقف على عمه حمزة ورأى ما صنعوا به من المثلة أراد أن يدعو عليهم فنزلت هذه الآية. وقال العلماء: وهذه الأشياء كلها محتملة فلا يبعد حمل الآية في النزول على كلها ومعنى الآية ليس لك من أمر مصالح عبادي شيء الا ما أوحى إليك، فإن الله تعالى هو مالك أمرهم فإما أن يتوب عليهم ويهديهم فيسلموا أو يهلكهم ويعذبهم إن أصروا على الكفر. وقيل ليس لك مسألة هلاكهم والدعاء عليهم لأنه تعالى أعلم بمصالحهم فربما تاب على من يشاء منهم وقيل معناه ليس لك من أمر خلقي شيء إلا ما وافق أمري إنما أنت عبد مبعوث لإنذارهم ومجاهدتهم، وقيل إن قوله أو يتوب عليهم معطوف على قوله ليقطع طرفا وقوله ليس لك من الأمر شيء كلام معترض بين المعطوف والمعطوف عليه والتقدير ليقطع طرفا من الذين كفروا أو يكبتهم أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون ليس لك من الأمر شيء بل الأمر أمري في ذلك كله. قال بعض العلماء: **والحكمة في** منعه صلى الله عليه وسلم من الدعاء عليهم ولعنهم أن الله تعالى علم من حال بعض الكفار أنه سيسلم فيتوب عليهم أو سيولد من بعضهم ولد يكون مسلما برا تقيا فلأجل هذا المعنى منعه الله تعالى من الدعاء عليهم لأن دعوته صلى الله عليه وسلم مجابة. فلو دعا عليهم بالهلاك هلكوا جميعا لكن اقتضت حكمة الله وما سبق في علمه إبقاءهم ليتوب

على بعضهم وسيخرج من بعضهم ذرية صالحة مؤمنة، ويهلك بعضهم بالقتل والموت وهو قوله أو يعذبهم فيحتمل أن يكون المراد بعذابهم في الدنيا وهو القتل والأسر وفي الآخرة وهو عذاب النار فإنهم ظالمون هو كالتعليل لعذابهم والمعنى إنما يعذبهم لأنهم ظالمون ثم قال تعالى:

[سورة آل عمران (٣): الآيات ١٢٩ الى ١٣٠]

ولله ما في السماوات وما في الأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله غفور رحيم (١٢٩) يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربوا أضعافا مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون (١٣٠)

ولله ما في السماوات وما في الأرض هذا تأكيد لما قبله من قوله ليس لك من الأمر شيء. والمعنى إنما." (١)

"[سورة النساء (٤): الآيات ١٣ الى ١٥]

تلك حدود الله ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم (١٣) ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله نارا خالدا فيها وله عذاب مهين (١٤) واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم فإن شهدوا فأمسكوهن في البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلا (١٥)

تلك حدود الله يعني الأحكام التي تقدم ذكرها في هذه السورة من مال اليتامى والوصايا والأنكحة والمواريث وإنما سماها حدودا لأن الشرائع كالحدود المضروبة للمكلفين فلا يجوز لهم أن يتجاوزوها وقال ابن عباس يريد ما حد الله من فرائضه ومن يطع الله ورسوله يعني في شأن المواريث ورضي بما قسم الله له وحكم عليه يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم ومن يعص الله ورسوله يعني في شأن المواريث ولم يرض بقسمة الله ورسوله ويتعد حدوده يعني ويتجاوز ما أمر الله تعالى به يدخله نارا خالدا فيها وله عذاب مهين فإن قلت كيف قطع للعاصي بالخلود في النار في هذه الآية وهل فيها دليل للمعتزلة على قولهم إن العصاة والفساق من أهل الإيمان يخلدون في النار. قلت قال الضحاك المعصية هنا الشرك وروى عكرمة عن ابن عباس في معنى الآية من لم يرض بقسمة الله ويتعد ما قال الله يدخله نارا وقال الكلبي: يكفر بقسمة المواريث ويتعد حدود الله استحلالا إذا ثبت ذلك فمن رد حكم الله ولم يرض

(١) تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل الخازن ٢٩٥/١

بقسمته كفر بذلك وإذا كفر كان حكمه حكم الكفار في الخلود في النار إذا لم يتب قبل وفاته إذا مات وهو مصر على ذلك كان مخلدا في النار بكفره فلا دليل في الآية للمعتزلة والله أعلم.

قوله تعالى: واللاتي هو جمع التي وهي كلمة يخبر بها عن المؤنثة خاصة يأتين الفاحشة يعني يفعلن الفاحشة يقال أتيت أمرا قبيحا إذا فعلته والفاحشة في اللغة الفعلة القبيحة، وقيل الفاحشة عبارة عن كل فعل أو قول يعظم قبحه في النفوس ويقبح ذكره في الألسنة حتى يبلغ الغاية في جنسه وذلك مخصوص بشهوة الفرج الحرام ولذلك أجمعوا على أن الفاحشة هاهنا هي الزنا وإنما سمي الزنى فاحشة لزيادة قبحه من نسائكم قيل هن الزوجات وقيل المراد بهن جنس النساء فاستشهدوا عليهن أربعة منكم يعني من المسلمين وهذا خطاب للأزواج أي اطلبوا أربعة من الشهود ليشهدوا عليهن وقيل هو خطاب للحكام أي استمعوا شهادة أربع عليهن. ويشترط في هذه الشهادة العدالة والذكورة قال عمر بن الخطاب: إنما جعل الله الشهود أربعة سترا يستركم به دون فواحشكم فإن شهدوا يعني الشهود بالزنا فأمسكوهن في البيوت أي فاحبسوهن في البيوت **والحكمة في** حبسهن أن المرأة إنما تقع في الزنى عند الخروج والبروز للرجال فإذا حبست في البيت لم تقدر على الزنى حتى يتوفاهن الموت يعني تتوفاهن ملائكة الموت عند انقضاء آجالهن أو يجعل الله لهن سبيلا وهذا الحكم كان في أول الإسلام قبل نزول الحدود كانت المرأة إذا زنت حبست في البيت حتى تموت ثم نسخ الحبس بالحدود وجعل الله لهن سبيلا (م) عن عبادة بن الصامت قال: «كان نبي الله صلى الله عليه وسلم إذا أنزل عليه حكم كرب لذلك وتربد وجهه فأنزل الله عليه ذات يوم فبقي كذلك فلما سري عنه قال: خذوا عني قد جعل الله لهن سبيلا البكر بالبكر جلد مائة ونفي سنة والثيب بالثيب جلد مائة والرجم».

(فصل) اتفق العلماء على أن هذه الآية منسوخة ثم اختلفوا في ناسخها فذهب بعضهم إلى أن ناسخها هو حديث عبادة بن الصامت المتقدم وهذا على مذهب من يرى نسخ القرآن بالسنة وذهب بعضهم إلى أن الآية الحد التي في." (١)

"شعبا ولا واديا إلا وهم معنا حبسهم العذر» (خ) عن ابن عباس قال لا يستوي القاعدون من المؤمنين عن بدر والخارجون إليها.

وقوله تعالى: فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة يعني فضيلة في الآخرة قال ابن

---

(١) تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل الخازن ٣٥٣/١

عباس: أراد بالقاعدين هنا أولي الضرر فضل الله المجاهدين على أولي الضرر درجة لأن المجاهد باشر الجهاد بنفسه وماله مع النية وأولو الضرر كانت لهم نية ولم يباشروا الجهاد فنزلوا عن المجاهدين درجة وكلا يعني كلا من المجاهدين والقاعدين وعد الله الحسنى يعني الجنة بإيمانهم وفضل الله المجاهدين يعني في سبيل الله على القاعدين يعني الذين لا عذر لهم ولا ضرر أجرا عظيما يعني ثوابا جزيلا. ثم فسر ذلك الأجر العظيم فقال تعالى:

[سورة النساء (٤): آية ٩٦]

درجات منه ومغفرة ورحمة وكان الله غفورا رحيما (٩٦)

درجات منه قال قتادة: كان يقال للإسلام درجة والهجرة في الإسلام درجة الجهاد في الهجرة درجة والقتل في الجهاد درجة، وقال ابن زيد الدرجات هي سبع وهي التي ذكرها الله في سورة براءة حين قال: ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله إلى قوله: ولا يقطعون واديا إلا كتب لهم وقال ابن محيريز الدرجات سبعون درجة ما بين كل درجتين حضر الفرس الجواد المضمر سبعين سنة (م) عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «من رضي بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد رسولا وجبت له الجنة فتعجب لها أبو سعيد فقال أعدها علي يا رسول الله فأعادها عليه ثم قال وأخرى يرفع الله بها العبد مائة درجة في الجنة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض قال وما هي يا رسول الله؟ قال الجهاد في سبيل الله» (خ) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من آمن بالله ورسوله وأقام الصلاة وآتى الزكاة وصام رمضان وحج كان حقا على الله أن يدخله الجنة جاهد في سبيل الله أو جلس في أرضه التي ولد فيها فقالوا أولا نبشر الناس بقولك؟ فقال إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس الأعلى فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن ومنه تفجر أنهار الجنة» فإن قلت قد ذكر الله عز وجل في الآية الأولى درجة واحدة وذكر في هذه الآية درجات فما وجه **الحكمة في** ذلك؟ قلت أما الدرجة الأولى فلتفضيل المجاهدين على القاعدين بوجود الضرر والعذر. وأما الثانية فلتفضيل المجاهدين على القاعدين من غير ضرر ولا عذر فضلوا عليهم بدرجات كثيرة وقيل يحتمل أن تكون الدرجة الأولى درجة المدح والتعظيم والدرجات درجات الجنة ومنازلها كما في الحديث والله أعلم.

قوله تعالى: ومغفرة يعني لذنوبهم يسترها ويصفح عنها ورحمة يعني رأفة بهم وكان الله غفورا يعني لذنوب

عباده المؤمنين رحيما يعني بهم يتفضل عليهم برحمته ومغفرته عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يحكي عن ربه عز وجل قال: قال: «أيما عبد من عبادي خرج مجاهدا في سبيل الله ابتغاء مرضاتي ضمنت له إن أرجعته أرجعته بما أصاب من أجر أو غنيمة وإن قبضته غفرت له ورحمته» أخرجه النسائي.

(فصل) اعلم أن الجهاد ينقسم إلى: فرض عين وفرض كفاية، ففرض العين أن يدخل العدو دار قوم من المؤمنين وبلادهم فيجب على كل مكلف من الرجال ممن لا عذر له ولا ضرر به من أهل تلك البلدة الخروج إلى عدوهم دفعا عن أنفسهم وعن أهليهم وجيرانهم وسواء في ذلك الحر والعبد والغني والفقير فيجب على الكافة وهو في حق من بعد عنهم من المسلمين فرض كفاية فإن لم تقع الكفاية بمن نزل بهم العدو فتجب مساعدتهم على من." (١)

"[سورة المائدة (٥): الآيات ٦٨ الى ٧١]

قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم وليزيدن كثيرا منهم ما أنزل إليك من ربك طغيانا وكفرا فلا تأس على القوم الكافرين (٦٨) إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون (٦٩) لقد أخذنا ميثاق بني إسرائيل وأرسلنا إليهم رسلا كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم فريقا كذبوا وفريقا يقتلون (٧٠) وحسبوا ألا تكون فتنة فعموا وصموا ثم تاب الله عليهم ثم عموا وصموا كثير منهم والله بصير بما يعملون (٧١)

قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم الآية وقد تقدم معنى إقامة التوراة والإنجيل وإنه يلزمهم العمل بما فيهما وهو الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم وقد تقدم تفسير ما أنزل إليكم من ربكم وليزيدن كثيرا منهم ما أنزل إليك من ربك طغيانا وكفرا وقوله تعالى فلا تأس على القوم الكافرين يعني فلا تحزن يا محمد على هؤلاء اليهود الذي جحدوا نبوتك ولم يؤمنوا بك فإنما يعود ضرر ذلك الكفر عليهم.

قوله عز وجل: إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى لما بين الله عز وجل أن أهل الكتاب ليسوا على شيء ما لم يؤمنوا، بين في هذه الآية أن هذا الحكم عام في كل أهل الملل وأنه لا يحصل لأحد منهم فضيلة ولا منقبة إلا إذا آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا يرضاه الله ومن العمل الصالح الإيمان

---

(١) تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل الخازن ٤١٥/١

بمحمد صلى الله عليه وسلم لأنه لا يتم الإيمان إلا به وقد تقدم تفسير هذه الآية في سورة البقرة.

وقوله تعالى: والصابئون ظاهر الإعراب يقتضي أن يقال: والصابئين، وكذا قراءة أبي بن كعب وابن مسعود وابن كثير من السبعة. وقرأ الجمهور بالرفع. ومذهب الخليل وسيبويه أنه ارتفع الصابئون بالابتداء على نية التأخير كأنه قيل إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون والصابئون كذلك فحذف خبره **والحكمة في** عطف الصابئين على من قبلهم هي أن الصابئين أشد الفرق المذكورة في هذه الآية ضلالا فكأنه قال: كل هؤلاء الفرق إذا آمنوا وأتوا بالعمل الصالح قبل الله توبتهم حتى الصابئون، فإنهم إذا آمنوا كانوا أيضا كذلك، وإنما سموا صابئين، لأنهم صبئوا عن الأديان كلها، بمعنى: خرجوا لأنهم صبئوا إلى اتباع الهوى والشهوات في دينهم ولم يتبعوا ما جاءت به الرسل من عنده الله.

فإن قلت: قد قال الله تعالى في أول الآية إن الذين آمنوا ثم قال في آخر الآية فمن آمن فما فائدة هذا التكرار. قلت: فائدته أن المنافقين كانوا يظهرون الإسلام ويزعمون أنهم مؤمنون، ففي هذا التكرار إخراجهم من قبيل المؤمنين فيكون معنى إن الذين آمنوا أي بألسنتهم لا بقلوبهم. ثم قال: من آمن يعني من ثبت على إيمانه ورجع عن نفاقه منهم. وقيل: فيه فائدة أخرى وهي أن الإيمان يدخل تحته أقسام كثيرة وأشرفها الإيمان بالله واليوم الآخر ففائدة التكرار التنبيه على أشرف أقسام الإيمان هذان القسمان وفي قوله من آمن بالله حذف تقديره من آمن بالله واليوم الآخر منهم وإنما حسن هذا الحذف لكونه معلوما عند السامعين وعمل صالحا يعني وضم إلى إيمانه العمل الصالح وهو الذي يراد به وجه الله تعالى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون يعني في الآخر. قوله عز وجل: لقد أخذنا ميثاق بني إسرائيل يعني أخذنا العهود عليهم في التوراة بأن يعملوا بما فيها من التوحيد والعمل بما أمرناهم به والانتهاء عما نهيناهم عنه وأرسلنا إليهم رسلا يعني لبيان الشرائع والأحكام كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم يعني بما يخالف أهواءهم ويضاد شهواتهم من ميثاق التكليف والعمل بالشرائع فريقا كذبوا يعني من الرسل الذين جاءتهم وفريقا يقتلون يعني من الرسل فكان." (١)

"فينامون حتى إذا استيقظوا والليل مكانه فإذا رأوا ذلك خافوا أن يكون ذلك بين يدي أمر عظيم فإذا أصبحوا فطال عليهم رأت أعينهم طلوع الشمس فبينما هم ينظرونها إذ طلعت عليهم من قبل المغرب فإذا

---

(١) تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل الخازن ٢/٦٤

فعلت ذلك لم ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل» قال ابن عباس: لا ينفع مشركا إيمانه عند الآيات وينفع أهل الإيمان عند الآيات إن كانوا اكتسبوا خيرا قبل ذلك. وقال ابن الجوزي قيل إن **الحكمة في** طلوع الشمس من مغربها أن الملحدة المنجمين زعموا أن ذلك لا يكون فيريهم الله قدرته فيطلعها من المغرب كما أطلعها من المشرق فيتحقق عجزهم وقيل بل ذلك بعض الآيات الثلاثة: الدابة ويأجوج ومأجوج وطلوع الشمس من مغربها. يروى عن ابن مسعود أنه قال: التوبة معروضة على ابن آدم إن قبلها ما لم تخرج إحدى ثلاث: الدابة وطلوع الشمس من مغربها أو يأجوج ومأجوج. ويروى عن عائشة قالت: إذا خرج أول الآيات طرحت التوبة وحبست الحفظة وشهدت الأجساد على الأعمال. ويروى عن أبي هريرة في قوله تعالى أو يأتي بعض الآيات ربك قال هي مجموع الآيات الثلاث: طلوع الشمس من مغربها والدجال ودابة الأرض ورواه مرفوعا عن النبي صلى الله عليه وسلم قال «ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا طلوع الشمس من مغربها والدجال ودابة الأرض» وأصح الأقوال في ذلك ما تظاهرت عليه الأحاديث الصحيحة وثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه طلوع الشمس من مغربها وقوله تعالى: يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل يعني لا ينفع من كان مشركا إيمانه ولا تقبل توبة فاسق عند ظهور هذه الآية العظيمة التي تضطرهم إلى الإيمان والتوبة أو كسبت في إيمانها خيرا يعني أو عملت قبل ظهور هذه الآية خيرا من عمل صالح وتصديق. قال الضحاك: من أدركه بعض الآيات وهو على عمل صالح مع إيمانه قبل الله منه العمل الصالح بعد نزول الآية كما قبل منه قبل ذلك فأما من آمن من شرك أو تاب من معصية عند ظهور هذه الآية فلا يقبل منه لأنها حالة اضطرار كما لو أرسل الله عذابا على أمة فآمنوا وصدقوا فإنها لا ينفعهم إيمانهم ذلك لمعاينتهم الأهوال والشدائد التي تضطرهم إلى الإيمان والتوبة وقوله قل انتظروا يعني ما وعدتم به من مجيء الآية ففيه وعيد وتهديد إنا منتظرون يعني ما وعدكم ربكم من العذاب يوم القيامة أو قبله في الدنيا. قال بعض المفسرين: وهذا إنما ينتظره من تأخر في الوجود من المشركين والمكذبين لمحمد صلى الله عليه وسلم إلى ذلك الوقت والمراد بهذا أن المشركين إنما يمهلون قدر مدة الدنيا فإذا ماتوا أو ظهرت الآيات لم ينفعهم الإيمان وحلت بهم العقوبة اللازمة أبدا. وقيل إن قوله قل انتظروا إنا منتظرون المراد به الكف عن قتال الكفار فتكون الآية منسوخة بآية القتال وعلى القول الأول تكون الآية محكمة.

[سورة الأنعام (٦): آية ١٥٩]

إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء إنما أمرهم إلى الله ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون (١٥٩)

قوله عز وجل: إن الذين فرقوا وقرئ فارقوا دينهم وكانوا شيعا يعني أحزابا متفرقة في الضلالة ومعنى فرقوا دينهم أنهم لم يجتمعوا عليه وكانوا مختلفين فيه فمن قرأ وفرقوا دينهم يعني جعلوا دينهم وهو دين إبراهيم الحنيفية السهلة أديانا مختلفة كاليهودية والنصرانية وعبادة الأصنام ونحو ذلك من الأديان المختلفة، ومن قرأ فارقوا دينهم قال: معناه باينوه وتركوه من المفارقة للشيء. وقيل: إن معنى القراءتين يرجع إلى شيء واحد في الحقيقة وهو أن من فرق دينه فأمر ببعض وأنكر بعضا فارق دينه في الحقيقة ثم اختلفوا في المعنى بهذه الآية، فقال الحسن: هم جميع المشركين لأن بعضهم عبدوا الأصنام وقالوا هؤلاء شفعاؤنا عند الله وبعضهم عبدوا الملائكة وقالوا إنهم بنات الله وبعضهم عبدوا الكواكب فكان هذا تفريق دينهم. وقال مجاهد: هم اليهود. وقال ابن عباس وقتادة والسدي والضحاك: هم اليهود والنصارى لأنهم تفرقوا فكانوا فرقا مختلفة. وقال أبو هريرة:

في هذه الآية هم أهل الضلالة من هذه الأمة وروى ذلك مراوعا قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء وليسوا منك هم أهل البدع وأهل الشبهات وأهل الضلالة من هذه الأمة» أسنده." (١)

"فإن قلت: فما الفائدة في سؤال الرسل مع العلم بأنهم قد بلغوا رسالات ربهم إلى من أرسلنا إليهم من الأمم؟

قلت: إذا كان يوم القيامة أنكر الكفار تبليغ الرسالة من الرسل فقالوا ما جاءنا من بشير ولا نذير فكان مسألة الرسل على وجه الاستشهاد بهم على من أرسلوا إليهم من الأمم أنهم قد بلغوا رسالات ربهم إلى من أرسلوا إليه من الأمم فتكون هذه المسألة كالتقريع والتوبيخ للكفار أيضا لأنهم أنكروا تبليغ الرسل فيزداد بذلك خزيهم وهوانهم وعذابهم.

[سورة الأعراف (٧): الآيات ٧ الى ٩]

فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين (٧) والوزن يومئذ الحق فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون (٨)

---

(١) تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل الخازن ١٧٦/٢

ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون (٩)

وقوله تعالى: فلنقصن عليهم بعلم يعني: فلنخبرن الرسل ومن أرسلوا إليهم بعلم ويقين بما عملوا في الدنيا وما كنا غائبين يعني عنهم وعن أفعالهم وعن الرسل فيما بلغوا وعن الأمم فيما أجابوا.

فإن قلت كيف الجمع بين قوله تعالى: فلنسئلن الذين أرسل إليهم ولنسئلن المرسلين وبين قوله فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين وإذا كان عالما فما فائدة هذا السؤال؟

قلت: فائدة سؤال الأمم والرسل مع علمه سبحانه وتعالى بجميع المعلومات، التقريع، والتوبيخ للكفار لأنهم إذ أقروا على أنفسهم كان أبلغ في المقصود، فأما سؤال الاسترشاد والاستثبات، فهو منفي عن الله عز وجل، لأنه عالم بجميع الأشياء قبل كونها وفي حال كونها وبعد كونها، فهو العالم بالكليات، والجزئيات، وعلمه بظاهر الأشياء كعلمه بباطنها.

قوله تعالى: والوزن يومئذ الحق يعني والوزن يوم سؤال الأمم والرسل وهو يوم القيامة العدل، وقال مجاهد: المراد بالوزن هنا القضاء، ومعنى الحق العدل. وذهب جمهور المفسرين إلى أن المراد بالوزن وزن الأعمال بالميزان وذلك أن الله عز وجل ينصب ميزانا له لسان وكفتان كل كفة ما بين المشرق والمغرب، قال ابن الجوزي: جاء في الحديث «أن داود عليه الصلاة والسلام سأل ربه أن يريه الميزان فأراه إياه فقال إلهي من يقدر أن يملأ كفتيه حسنات فقال يا داود إذا رضيت عن عبدي ملأتها بتمرة» وقال حذيفة: جبريل صاحب الميزان يوم القيامة فيقول له ربه عز وجل زن بينهم ورد من بعضهم على بعض وليس ثم ذهب ولا فضة فيرد على المظلوم من الظالم ما وجد له من حسنة فإن لم يكن له حسنة أخذ من سيئات المظلوم فيرد على سيئات الظالم فيرجع الرجل وعليه مثل الجبل.

فإن قلت: أليس الله عز وجل يعلم مقادير أعمال العباد فما **الحكمة في** وزنها؟

قلت: فيه حكم منها إظهار العدل، وأن الله عز وجل لا يظلم عباده، ومنها امتحان الخلق بالإيمان بذلك في الدنيا وإقامة الحجة عليهم في العقبى ومنها تعريف العباد ما لهم من خير وشر وحسنة وسيئة ومنها إظهار علامة السعادة والشقاوة ونظيره أنه تعالى أثبت أعمال العباد في اللوح المحفوظ ثم في صحائف الحفظة الموكلين ببني آدم من غير جواز النسيان عليه سبحانه وتعالى، ثم اختلف العلماء في كيفية الوزن فقال بعضهم: توزن صحائف الأعمال المكتوبة فيها الحسنات والسيئات ويدل على ذلك حديث البطاقة وهو ما روي عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «إن الله عز وجل

سيخلص رجلا من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة فينشر له تسعة وتسعين سجلا كل سجل مثل مد البصر ثم يقول له أتنكر من هذا شيئا أظلمتك كتبتي الحافظون فيقول لا يا رب فيقول أفلك عذر فيقول لا يا رب فيقول الله تبارك وتعالى بلى إن لك عندنا حسنة فإنه لا ظلم." (١)

"الخلق في يوم الجمعة وتهودت اليهود في يوم السبت ويوم من الستة الأيام كألف سنة مما تعدون ويعضد هذا القول ما حكاه صاحب المحكم ابن سيده قال: وسمي سابع الأسبوع سبتا لأن ابتداء الخلق كان من يوم الأحد إلى يوم الجمعة ولم يكن في السبت خلق. قال أصحاب الأخبار والسير والتواريخ: إن الله تعالى خلق التربة التي هي الأرض بلا دحو ولا بسط في يوم الأحد والاثنين ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات في يومين وهما الثلاثاء والأربعاء ثم دحا الأرض وبسطها وطحاها وأخرج ماءها ومرعاها وخلق دوابها ووحشها وجميع ما فيها في يومين وهما الخميس والجمعة وخلق آدم في يوم الجمعة آخر الخلق في آخر ساعة من ساعات الجمعة وقبل خلق الله عز وجل التربة يوم الأحد ثم استوى إلى السماء فخلقها وجميع ما فيها يوم الاثنين والثلاثاء ثم مد الأرض ودحاها يوم الأربعاء والخميس وخلق آدم يوم الجمعة وأسكنه الجنة هو وزوجته حواء ثم أهبطهما إلى الأرض في آخر ساعة من يوم الجمعة. وقيل: أول ما خلق الله القلم ثم اللوح فكتب فيه ما كان وما سيكون وما خلق وما هو خالق إلى يوم القيامة ثم خلق الظلمة والنور ثم خلق العرش ثم خلق السماء من درة بيضاء ثم خلق التربة ثم خلق السموات وما فيها من نجوم وشمس وقمر ثم مد الأرض وبسطها من التربة التي خلقها أولا ثم خلق جميع ما فيها من جبال وشجر ودواب وغير ذلك ثم خلق آدم آخر الخلق في آخر ساعة من ساعات يوم الجمعة وفيه أهبط إلى الأرض فتكامل جميع الخلق في ستة أيام كل يوم مقداره ألف سنة وهذا قول جمهور العلماء وقيل في ستة أيام من أيام الدنيا.

فإن قلت إن الله عز وجل قادر على أن يخلق جميع الخلق في لحظة واحدة ومنه قوله تعالى: وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر فما الفائدة في خلق السموات والأرض في ستة أيام وما الحكمة في ذلك؟

قلت: إن الله سبحانه وتعالى، وإن كان قادرا على خلق جميع الأشياء في لحظة واحدة، إلا أنه تعالى جعل لكل شيء حدا محدودا ووقتا معلوما فلا يدخل في الوجود إلا في ذلك الوقت والمقصود من ذلك تعليم عباده التثبت والتأني في الأمور. وقال سعيد بن جبير كان الله عز وجل قادرا على خلق السموات والأرض

---

(١) تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل الخازن ٢/١٨٢

في لمحة ولحظة فخلقهن في ستة أيام تعليما لخلقه التثبت والتأني في الأمور كما في الحديث «التأني من الله والعجلة من الشيطان» وقيل إن الشيء إذا أحدث دفعة واحدة فلعله أن يخطر ببال بعضهم أن ذلك الشيء إنما وقع على سبيل الاتفاق فإذا أحدث شيئا بعد شيء على سبيل المصلحة والحكمة كان ذلك أبلغ في القدرة وأقوى في الدلالة.

وقيل: إن الله تعالى أراد أن يوقع في كل يوم أمرا من أمره حتى تستعظمه الملائكة وغيرهم ممن شاهده. وقيل إن التعجيل في الخلق أبلغ في القدرة وأقوى في الدلالة والتثبت أبلغ في الحكمة فأراد الله تعالى إظهار حكمته في خلق الأشياء بالتثبت كما أظهر قدرته في خلق الأشياء بكن فيكون.

وقوله تعالى: ثم استوى على العرش العرش في اللغة: السرير، وقيل: هو ما علا فأظل وسمي مجلس السلطان عرشا اعتبارا بعلوه. ويكنى عن العز والسلطان والمملكة بالعرش على الاستعارة والمجاز. يقال فلان فل عرشه بمعنى ذهب عزه وملكه وسلطانه. قال الراغب في كتابه مفردات القرآن: وعرش الله عز وجل مما لا يعلمه البشر إلا بالاسم على الحقيقة وليس هو كما تذهب إليه أوهام العامة فإنه لو كان كذلك لكان حاملا له تعالى الله عن ذلك وليس كما قال قوم إنه الفلك الأعلى والكرسي فلك الكواكب. وأما استوى بمعنى استقر فقد رواه البيهقي في كتابه الأسماء والصفات برواية كثيرة عن جماعة من السلف وضعفها كلها، وقال: أما الاستواء فالمتقدمون من أصحابنا كانوا لا يفسرونه ولا يتكلمون فيه كنحو مذهبهم في أمثال ذلك، وروى بسنده عن عبد الله بن وهب أنه قال: كنا عند مالك بن أنس فدخل رجل فقال يا أبا عبد الله الرحمن على العرش استوى كيف استواؤه؟ قال: فأطرق مالك وأخذته الرحضاء ثم رفع رأسه فقال: الرحمن على العرش استوى كما وصف نفسه." (١)

"ولكن الله سلم يعني: ولكن الله سلمكم من التنازع والمخالفة فيما بينكم. وقيل: معناه ولكن الله سلمكم من الهزيمة والفشل إنه عليم بذات الصدور يعني أنه تعالى يعلم ما يحصل في الصدور من الجراءة والجبن والصبر والجزع. وقال ابن عباس: معناه أنه عليم بما في صدوركم من الحب لله عز وجل: وإذ يريكموهم إذ التقيتم في أعينكم قليلا يعني أن الله سبحانه وتعالى قلل عدد المشركين في أعين المؤمنين يوم بدر لما التقوا في القتال ليتأكد في اليقظة ما رآه النبي صلى الله عليه وسلم في منامه وأخبر به أصحابه قال ابن مسعود: لقد قللوا في أعيننا حتى قلت لرجل إلى جنبي تراهم سبعين قال: أراهم مائة فأسرنا رجلا منهم

---

(١) تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل الخازن ٢/٢٠٧

فقلنا كم كنتم قال: كنا ألفا. ويقللكم في أعينهم يعني ويقللكم يا معشر المؤمنين في أعين المشركين. قال السدي: قال ناس من المشركين إن العير قد انصرف فارجعوا فقال أبو جهل الآن إذ برز لكم محمد وأصحابه فلا ترجعوا حتى نستأصلهم إنما محمد وأصحابه أكلة جزور يعني لقتلهم في عينيه ثم قال: فلا تقتلوهم واربطوهم في الحبال يقوله من القدرة التي في نفسه **والحكمة في** تقليل المشركين في أعين المؤمنين تصديق رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم ولتقوى بذلك قلوب المؤمنين وتزداد جراءتهم عليه ولا يجبنوا عند قتالهم **والحكمة في** تقليل المؤمنين في أعين المشركين لئلا يهربوا وإذا استقلوا عدد المسلمين لم يبالغوا في الاستعداد والتأهب لقتالهم فيكون ذلك سببا لظهور المؤمنين عليهم.

فإن قلت: كيف يمكن تقليل الكثير وتكثير القليل؟

قلت: ذلك ممكن في القدرة الإلهية فإن الله سبحانه وتعالى على ما يشاء قدير ويكون ذلك معجزة للنبي صلى الله عليه وسلم والمعجزة من خوارق العادات فلا ينكر ذلك ليقضي الله أمرا كان مفعولا يعني أمرا كان كائنا من إعلاء كلمة الإسلام ونصر أهله وإذلال كلمة الشرك وخذلان أهله فإن قلت: قد قال في الآية المتقدمة ولكن ليقضي الله أمرا كان مفعولا وقال في هذه الآية ليقضي الله أمرا كان مفعولا فما معنى هذا التكرار؟

قلت: المقصود من ذكره في الآية المتقدمة ليحصل استيلاء المؤمنين على المشركين على وجه القهر والغلبة ليكون ذلك معجزة دالة على صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم والمقصود من ذكره في هذه الآية لأنه تعالى قلل عدد الفريقين في أعين بعضهم بعضا للحكمة التي قضاها فلذلك قال ليقضي الله أمرا كان مفعولا وإلى الله ترجع الأمور يعني في الآخرة فيجازى كل عامل على قدر عمله فالمحسن بإحسانه والمسيء بإساءته أو يغفر.

[سورة الأنفال (٨): الآيات ٤٥ الى ٤٦]

يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون (٤٥) وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين (٤٦)

قوله تعالى: يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة يعني جماعة كافرة فاثبتوا يعني لقتالهم وهو أن يوطنوا أنفسهم على لقاء العدو وقتاله ولا يحدثوها بالتولي واذكروا الله كثيرا يعني كونوا ذاكرين الله عند لقاء عدوكم ذكرا كثيرا بقلوبكم وألسنتكم أمر الله عباده المؤمنين وأولياءه الصالحين بأن يذكروه في أشد الأحوال وذلك عند

لقاء العدو وقتاله، وفيه تنبيه على أن الإنسان لا يجوز أن يخلو قلبه ولسانه عن ذكر الله. وقيل: المراد من هذا الذكر هو الدعاء بالنصر على العدو وذلك لا يحصل إلا بمعونة الله تعالى فأمر الله سبحانه وتعالى عباده أن يسألوه النصر على العدو عند اللقاء ثم قال تعالى: لعلكم تفلحون يعني: وكونوا على رجاء الفلاح والنصر والظفرة.

فإن قلت: ظاهر الآية يوجب الثبات على كل حال وذلك يوهم أنها ناسخة لآية التحرف والتحيز.

قلت المراد من الثبات هو الثبات عند المحاربة والمقاتلة في الجملة وآية التحرف والتحيز لا تقدح في حصول هذا الثبات في المحاربة بل ربما كان الثبات لا يحصل إلا بذلك التحرف والتحيز ثم قال تعالى مؤكدا لذلك وأطيعوا الله ورسوله يعني في أمر الجهاد والثبات عند لقاء العدو ولا تنازعوا فتفشلوا يعني: ولا." (١)

"فيسألكم عن أعمالكم ألا فلا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض ألا ليبلغ الشاهد الغائب فلعل بعض من يبلغه أن يكون أوعى له من بعض من سمعه ثم قال: ألا هل بلغت ألا هل بلغت قلنا نعم قال: اللهم اشهد.

وقوله تعالى: فلا تظلموا فيهن أنفسكم قيل: الكناية في فيهن ترجع إلى جميع الأشهر أي لا تظلموا أنفسكم في جميع أشهر السنة بفعل المعاصي وترك الطاعات لأن المقصود منع الإنسان من الإقدام على المعاصي والفساد مطلقا في جميع الأوقات إلى الممات. وقيل: إن الكناية ترجع إلى الأشهر الحرم وهو قول أكثر المفسرين. وقال قتادة: العمل الصالح أعظم أجرا في الأشهر الحرم والظلم فيهن أعظم منه فيما سواهن وإن كان الظلم على كل حال عظيما. وقال ابن عباس: لا تظلموا فيهن أنفسكم يريد استحلال الحرام والغارة فيهن وقال محمد بن إسحاق بن يسار: لا تجعلوا حلالها حراما ولا حرامها حلالا كفعل أهل الشرك وهو النسيء. وقيل: إن الأنفس مجبولة بطبعها على الظلم والفساد والامتناع عنه على الإطلاق شاق على النفس لا جرم أن الله خص بعض الأوقات بمزيد التعظيم والاحترام ليمتنع الإنسان في تلك الأوقات من فعل الظلم والقبائح والمنكرات فربما تركها في باقي الأوقات فتصير هذه الأوقات الشريفة والأشهر المحرمة المعظمة سببا لترك الظلم وفعل المعاصي في غيرها من الأشهر فهذا وجه **الحكمة في** تخصيص بعض الأشهر دون بعض بمزيد التشريف والتعظيم وكذلك الأمكنة أيضا. وقوله سبحانه وتعالى: وقاتلوا المشركين كافة كما

---

(١) تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل الخازن ٢/٣١٦

يقاتلونكم كافة يعني قاتلوا المشركين بأجمعكم مجتمعين على قتالهم كما أنهم يقاتلونكم على هذه الصفة والمعنى تعاونوا وتناصروا على قتالهم ولا تتخاذلوا ولا تتدابروا ولا تفشلوا ولا تجبنوا عن قتالهم وكونوا عباد الله مجتمعين متوافقين في مقاتلة أعدائكم من المشركين واختلف العلماء في تحريم القتال في الأشهر الحرم فقال قوم كان كبيرا حراما ثم نسخ بقوله: وقاتلوا المشركين كافة يعني في الأشهر الحرم وفي غيرهن وهذا قول قتادة وعطاء الخراساني والزهري وسفيان الثوري. قالوا: لأن النبي صلى الله عليه وسلم غزا هوازن بحنين وثقيفا بالطائف وحاصرهم في شوال وبعض ذي القعدة. وقال آخرون: إنه غير منسوخ. قال ابن جريج: حلف بالله عطاء بن أبي رباح ما يحل للناس أن يغزو في الحرم ولا في الأشهر الحرم وما نسخت إلا أن يقاتلوا فيها واعلموا أن الله مع المتقين يعني بالنصر والمعونة على أعدائه قوله سبحانه وتعالى:

[سورة التوبة (٩): آية ٣٧]

إنما النسيء زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطؤا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله زين لهم سوء أعمالهم والله لا يهدي القوم الكافرين (٣٧)

إنما النسيء زيادة في الكفر النسيء: في اللغة، عبارة عن التأخير في الوقت ومنه النسيئة في البيع ومعنى النسيء المذكور في الآية هو تأخير شهر حرام إلى شهر آخر وذلك أن العرب في الجاهلية كانت تعتقد حرمة الأشهر الحرم وتعظيمها وكان ذلك مما تمسكت به من ملة إبراهيم صلى الله عليه وسلم وكانت عامة معايش العرب من الصيد والغارة فكان يشق عليهم الكف عن ذلك ثلاثة أشهر متوالية وربما وقعت حروب في بعض الأشهر الحرم فكانوا يكرهون تأخير حروبهم إلى الأشهر الحلال فنسؤوا يعني أخروا تحريم شهر إلى شهر آخر فكانوا يؤخرون تحريم المحرم إلى صفر فيستحلون المحرم ويحرمون صفر فإذا احتاجوا إلى تأخير تحريم صفر أخروه إلى ربيع الأول فكانوا يصنعون هكذا يؤخرون شهرا بعد شهر حتى استدار التحريم على السنة كلها وكانوا يحجون في كل شهر عامين فحجوا في الحجة عامين ثم حجوا في المحرم عامين ثم حجوا في صفر عامين وكذا باقي شهور السنة فوافقت حجة أبي بكر في السنة التاسعة قبل حجة الوداع المرة الثانية من ذي القعدة ثم حج رسول الله صلى الله عليه وسلم في العام المقبل حجة الوداع فوافق حجة شهر ذي الحجة وهو شهر الحج المشروع فوقف بعرفة في اليوم التاسع." (١)

---

(١) تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل الخازن ٣٥٨/٢

"لا يجاوز تراقيهم يمرقون من الدين» وفي رواية «من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية» وقال الكلبي: قال رجل من المنافقين، يقال له أبو الجواظ لم تقسم بالسوية فنزلت هذه الآية، وقال قتادة: ذكر لنا أن رجلا من أهل البادية حديث عهد بأعرابية أتى النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقسم ذهبا وفضة فقال: يا محمد والله لئن كان الله أمرك أن تعدل فما عدلت فقال نبي الله صلى الله عليه وسلم ويلك فمن ذا يعدل بعدي وقال ابن زيد قال المنافقون والله ما يعطيها محمد إلا من أحب ولا يؤثرها إلا من يهواه فأنزل الله سبحانه وتعالى ومنهم من يلمزك في الصدقات يعني ومن المنافقين من يعيبك في قسم الصدقات وفي تفريقها ويطعن عليك في أمرها يقال همزه ولمزه بمعنى واحد أي عابه فإن أعطوا منها يعني من الصدقات رضوا يعني رضوا عنك في قسمتها وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون يعني وإن لم تعطهم منها عابوا عليك وسخطوا.

[سورة التوبة (٩): الآيات ٥٩ الى ٦٠]

ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله إنا إلى الله راغبون (٥٩)

إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم (٦٠)

ولو أنهم رضوا يعني ولو أن المنافقين الذين عابوا عليك رضوا بما قسم الله لهم وقنعوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله أي كافينا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله يعني إليه إنا إلى الله راغبون يعني في أن يوسع علينا من فضله فيغنينا عن الصدقة وعن غيره من أموال الناس وجواب لو محذوف تقديره لكان خيرا لهم وأعود عليهم.

قوله عز وجل: إنما الصدقات للفقراء والمساكين الآية اعلم أن المنافقين لما لمزوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وعابوه في قسم الصدقات بين الله عز وجل في هذه الآية إن المستحقين للصدقات هؤلاء الأصناف الثمانية ومصرفها إليهم ولا تعلن لرسول الله صلى الله عليه وسلم منها بشيء ولم يأخذ لنفسه منها شيئا فلم يلمزونه ويعيبون عليه فلا مطعن لهم فيه بسبب قسم الصدقات. عن زياد بن الحرث الصدائي قال «أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فبايعته فأتاه رجل فقال أعطني من الصدقة فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الله لم يرض بحكم نبي ولا غيره في الصدقات حتى حكم فيها هو فجزأها ثمانية أجزاء فإن كنت من تلك الأجزاء أعطيتك حقك» أخرجه أبو داود.

(فصل في بيان حكم هذه الآية وفيه مسائل)

المسألة الأولى: في بيان وجه **الحكمة في** إيجاب الزكاة على الأغنياء وصرفها إلى المحتاجين من الناس وذلك من وجوه، الوجه الأول أن المال محبوب بالطبع وسببه أن القدرة صفة من صفات الكمال محبوبة لذاتها والمال سبب لتحصيل تلك القدرة فكان المال محبوبا بالطبع فإذا استغرق القلب في حب المال اشتغل به عن حب الله عز وجل وعن الاشتغال بالطاعات المقربة إلى الله عز وجل فاقتضت الحكمة الإلهية إيجاب الزكاة في ذلك المال الذي هو سبب البعد عن الله فيصير سببا للقرب من الله عز وجل بإخراج الزكاة منه. الوجه الثاني: إن كثرة المال توجب قسوة القلب وحب الدنيا والميل إلى شهواتها ولذاتها فأوجب الله سبحانه وتعالى الزكاة ليقل ذلك المال الذي هو سبب لقساوة القلب. والوجه الثالث سبب وجوب الزكاة امتحان العبد المؤمن لأن التكاليف البدنية غير شاقة على العبد وإخراج المال مشق على النفس فأوجب الله عز وجل الزكاة على العباد ليمتحن بإخراج الزكاة أصحاب الأموال لتميز بذلك المطيع المخرج لها طيبة بها نفسه من العاصي المانع لها. الوجه الرابع أن المال مال الله والأغنياء خزان الله والفقراء عيال الله فأمر الله سبحانه وتعالى خزانه الذين هم أغنياء بدفع طائفة من ماله إلى." (١)

"وقابله بالحسنى وألبسه قميصه كفنا وصلى عليه واستغفر له قال الله سبحانه وتعالى وإنك لعلى خلق عظيم وقال البغوي: قال سفيان بن عيينة كانت له يد عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فأحب أن يكافئه بها ويروى أن النبي صلى الله عليه وسلم كلم فيما فعل بعبد الله بن أبي فقال صلى الله عليه وسلم: وما يغني عنه قميصي وصلاتي من الله والله إني كنت أرجو أن يسلم به ألف من قومه.

فيروى أنه أسلم ألف من قومه لما رأوه يتبرك بقميص النبي صلى الله عليه وسلم.

وقوله سبحانه وتعالى: ولا تقم على قبره يعني لا تقف عليه ولا تتول دفنه من قولهم قام فلان بأمر فلان إذا كفاه أمره وناب عنه فيه إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون وهذا تعليل لسبب المنع من الصلاة عليه والقيام على قبره ولما نزلت هذه الآية ما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم على منافق ولا قام على قبره وبعدها.

فإن قلت: الفسق أدنى حالا من الكفر ولما ذكر في تعليل هذا النهي كونه كافرا دخل تحته الفسق وغيره

---

(١) تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل الخازن ٢/٣٧٢

فما الفائدة في وصفه بكونه فاسقا بعد ما وصفه بالكفر قلت إن الكافر قد يكون عدلا في نفسه بأن يؤدي الأمانة ولا يضمر لأحد سوءا وقد يكون خبيثا في نفسه كثير الكذب والمكر والخداع وإضمار السوء للغير وهذا أمر مستقبح عند كل أحد ولما كان المنافقون بهذه الصفة الخبيثة وصفهم الله سبحانه وتعالى بكونهم فاسقين بعد أن وصفهم بالكفر.

قوله تعالى: ولا تعجبك أموالهم وأولادهم إنما يريد الله أن يعذبهم بها في الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون الكلام على هذه الآية في مقامين المقام الأول في وجه التكرار **والحكمة فيه** أن تجدد النزول له شأن في تقرير ما نزل أولا وتأكيده وإرادة أن يكون المخاطب به على بال ولا يغفل عنه ولا ينساه وأن يعتقد أن العمل به مهم وإنما أعيد هذا المعنى لقوته فيما يجب أن يحذر منه وهو أن أشد الأشياء جذبا للقلوب والخواطر الاشتغال بالأموال والأولاد وما كان كذلك يجب التحذير منه مرة بعد أخرى وبالجملة فالتكرير يراد به التأييد والمبالغة في التحذير من ذلك الشيء الذي وقع الاهتمام به وقيل أيضا إنما كرر هذا المعنى لأنه أراد بالآية الأولى قوما من المنافقين كان لهم أموال وأولاد عند نزولها وبالآية الأخرى أقواما آخرين منهم المقام الثاني في وجه بيان ما حصل من التفاوت في الألفاظ في هاتين الآيتين وذلك أنه قال سبحانه وتعالى في الآية الأولى فلا تعجبك بالفاء وقال هنا ولا تعجبك بالواو والفرق بينهما أنه عطف الآية الأولى على قوله ولا ينفقون إلا وهم كارهون وصفهم بكونهم كارهين للإنفاق لشدة المحبة للأموال والأولاد فحسن العطف عليه بالفاء في قوله فلا تعجبك وأما هذه الآية فلا تعلق لها بما قبلها فلهذا أتى بحرف الواو وقال سبحانه وتعالى في الآية الأولى فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم وأسقط حرف لا هنا قال سبحانه وتعالى وأولادهم والسبب فيه أن حرف لا دخل هناك لزيادة التأكيد فيدل على أنهم كانوا معجبين بكثرة الأموال والأولاد وكان إعجابهم بأولادهم أكثر وفي إسقاط حرف لا هنا دليل على أنه لا تفاوت بين الأمرين قال سبحانه وتعالى في الآية الأولى إنما يريد الله ليعذبهم بحرف اللام وقال سبحانه وتعالى هنا أن يعذبهم بحرف أن والفائدة فيه التنبيه على أن التعليل في أحكام الله محال وأنه أينما ورد حرف اللام فمعناه أن كقوله سبحانه وتعالى وما أمروا إلا ليعبدوا الله ومعناه وما أمروا إلا بأن يعبدوا الله وقال تبارك وتعالى في الآية الأولى في الحياة الدنيا وقال تعالى هنا في الدنيا والفائدة في إسقاط لفظة الحياة التنبيه على أن الحياة الدنيا بلغت في الخسة إلى حيث

أنها لا تستحق أن تذكر ولا تسمى حياة بل يجب الاقتصار عند ذكرها على لفظ الدنيا تنبيها على كمال دنائتها فهذه جمل في ذكر الفرق بين هذه الألفاظ والله أعلم بمراده وأسرار كتابه.." (١)

"قوله عز وجل: إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش تقدم تفسير هذا في سورة الأعراف بما فيه كفاية.

وقوله سبحانه وتعالى: يدبر الأمر قال مجاهد: يقضيه وحده. وقيل: معنى التدبير، تنزيل الأمور في مراتبها وعلى أحكام عواقبها. وقيل: إنه سبحانه وتعالى يقضي ويقدر على حسب مقتضى الحكمة وهو النظر في أدبار الأمور وعواقبها لئلا يدخل في الوجود ما لا ينبغي. وقيل: معناه إنه سبحانه وتعالى يدبر أحوال الخلق وأحوال ملكوت السموات والأرض فلا يحدث حدث في العالم العلوي ولا في العالم السفلي إلا بإرادته وتدبيره وقضائه وحكمته ما من شفيع إلا من بعد إذنه يعني: لا يشفع عنده شافع يوم القيامة إلا من بعد أن يأذن له في الشفاعة لأنه عالم بمصالح عباده وبموضع الصواب **والحكمة في** تدبيرهم فلا يجوز لأحد أن يسأله ما ليس له به علم فإذا أذن له في الشفاعة كان له أن يشفع فيمن يأذن له فيه وفيه رد على كفار قريش في قولهم: إن الأصنام تشفع لهم عند الله يوم القيامة فأخبر الله سبحانه وتعالى أنه لا يشفع أحد عنده إلا بإذنه لأن له التصرف المطلق في جميع العالم ذلكم الله ربكم يعني الذي خلق هذه الأشياء ودبرها هو ربكم وسيدكم لا رب لكم سواه فاعبدوه أي فاجعلوا عبادتكم له لا لغيره لأنه المستحق للعبادة بما أنعم عليكم من النعم العظيمة أفلا تذكرون يعني أفلا تتعظون وتعتبرون بهذه الدلائل والآيات التي تدل على وحدانيته سبحانه وتعالى: إليه مرجعكم جميعا يعني إلى ربكم الذي خلق جميع المخلوقات مصيركم جميعا أيها الناس يوم القيامة والمرجع بمعنى الرجوع وعد الله حقا يعني وعدكم الله ذلك وعدا حقا إنه يبدؤا الخلق ثم يعيده أي يحييهم ابتداء ثم يميتهم ثم يحييهم وهذا معنى قول مجاهد فإنه قال يحييه ثم يميته ثم يحييه. وفي هذه الآية دليل على إمكان الحشر والنشر والمعاد وصحة وقوعه ورد على منكري البعث ووقوعه، لأن القادر على خلق هذه الأجسام المؤلفة والأعضاء المركبة على غير مثال سبق، قادر على إعادتها بعد تفرقها بالموت والبلى، فيركب تلك الأجزاء المتفرقة تركيبا ثانيا ويخلق الإنسان الأول مرة أخرى وكما لم يمتنع تعلق هذه النفس بالبدن في المرة الأولى لم يمتنع تعلقها بالبدن مرة أخرى وإذا ثبت القول بصحة المعاد والبعث بعد الموت كان المقصود منه إيصال الثواب للمطيع والعقاب للعاصي وهو قوله سبحانه وتعالى: ليجزي

---

(١) تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل الخازن ٢/٣٩٣

الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط يعني بالعدل لا ينقص من أجورهم شيئا والذين كفروا لهم شراب من حميم هو ماء حار قد انتهى حره وعذاب أليم بما كانوا يكفرون.

[سورة يونس (١٠): الآيات ٥ الى ٧]

هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون (٥) إن في اختلاف الليل والنهار وما خلق الله في السماوات والأرض لآيات لقوم يتقون (٦) إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون (٧)

هو الذي جعل الشمس ضياء يعني ذات ضياء والقمر نورا يعني ذا نور.

واختلف العلماء أصحاب الكلام في أن الشعاع الفائض من الشمس هل هو جسم أو عرض، والحق أنه عرض وهو كيفية مخصوصة فالنور اسم لأصل هذه الكيفية والضوء اسم لهذه الكيفية إذا كانت كاملة تامة قوية فلهذا خص الشمس بالضياء لأنها أقوى وأكمل من النور وخص القمر بالنور لأنه أضعف من الضياء ولأنهما لو تساويا لم يعرف الليل من النهار فدل ذلك على أن الضياء المختص بالشمس أكمل وأقوى من النور المختص." (١)

"على ما أنتم عليه فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله يعني هذه الأوثان وإنما وجب تقديم هذا النفي لأن العبادة هي غاية التعظيم للمعبود فلا تليق لأخس الأشياء وهي الحجارة التي لا تنفع لمن عبدها ولا تضر لمن تركها ولكن تليق العبادة لمن بيده النفع والضر وهو قادر على الإماتة والإحياء وهو قوله سبحانه وتعالى: ولكن أعبد الله الذي يتوفاكم **والحكمة في** وصف الله سبحانه وتعالى في هذا المقام بهذه الصفة أن المراد أن الذي يستحق العبادة أعبده أنا وأنتم هو الذي خلقكم أولا ولم تكونوا شيئا ثم يميتكم ثانيا ثم يحييكم بعد الموت ثالثا، فاكتفى بذكر الوفاة تنبيها على الباقي، وقيل: لما كان الموت أشد الأشياء على النفس ذكر في هذ المقام ليكون أقوى في الزجر والردع وقيل إنهم لما استعجلوا بطلب العذاب أجابهم بقوله ولكن أعبد الله الذي هو قادر على إهلاككم ونصري عليكم وأمرت أن أكون من المؤمنين يعني وأمرني ربي أن أكون من المصدقين بما جاء من عنده قيل لما ذكر العبادة وهي من أعمال الجوارح أتبعها بذكر

(١) تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل الخازن ٢/٤٢٨

الإيمان لأنه من أعمال القلوب وأن أقم وجهك للدين حنيفا الواو في قوله وأن أقم واو عطف معناه وأمرت أن أقيم وجهي يعني أقم نفسك على دين الإسلام حنيفا يعني مستقيما عليه غير معوج عنه إلى دين آخر، وقيل معناه أقم عملك على الدين الحنيفي وقيل أراد بقوله وأن أقم وجهك للدين صرف نفسه بكليته إلى طلب الدين الحنيفي غير مائل عنه ولا تكونن من المشركين يعني ولا تكونن ممن يشرك في عبادة ربه غيره فيهلك وقيل إن النهي عن عبادة الأوثان قد تقدم في الآية المتقدمة فوجب حمل هذا النهي على معنى زائد وهو أن من عرف الله عز وجل وعرف جميع أسمائه وصفاته وأنه المستحق للعبادة لا غيره فلا ينبغي له أن يلتفت إلى غيره بالكلية وهذا هو الذي تسميه أصحاب القلوب بالشكر الخفي ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك يعني إن عبدته ودعوته ولا يضرك يعني إن تركت عبادته فإن فعلت يعني ما نهيتك عنه فعبدت غيري أو طلبت النفع ودفع الضر من غيري فإنك إذا من الظالمين يعني لنفسك لأنك وضعت العبادة في غير موضعها وهذا الخطاب وإن كان في الظاهر للنبي صلى الله عليه وسلم فالمراد به غيره لأنه صلى الله عليه وسلم لم يدع من دون الله شيئا البتة فيكون المعنى ولا تدع أيها الإنسان من دون الله ما لا ينفعك، الآية.

[سورة يونس (١٠): الآيات ١٠٧ الى ١٠٩]

وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا راد لفضله يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم (١٠٧) قل يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها وما أنا عليكم بوكيل (١٠٨) واتبع ما يوحى إليك واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين (١٠٩)

قوله تعالى: وإن يمسسك الله بضر يعني وإن يصبك الله بشدة وبلاء فلا كاشف له يعني لذلك الضر الذي أنزل بك إلا هو لا غيره وإن يردك بخير يعني بسعة ورخاء فلا راد لفضله يعني فلا دافع لرزقه يصيب به يعني: بكل واحد من الضر والخير من يشاء من عباده قيل إن الله سبحانه وتعالى لما ذكر الأوثان وبين أنها لا تقدر على نفع ولا ضر بين تعالى أنه هو القادر على ذلك كله، وأن جميع الكائنات محتاجة إليه وجميع الممكنات مستندة إليه لأنه هو القادر على كل شيء وأنه ذو الجود والكرم والرحمة ولهذا المعنى ختم الآية بقوله وهو الغفور الرحيم وفي الآية لطيفة أخرى وهي أن الله سبحانه وتعالى رجح جانب الخير على جانب الشر وذلك أنه تعالى لما ذكر إمساس الضر بين أنه لا كاشف له إلا هو وذلك يدل على أنه سبحانه وتعالى يزيل جميع المضار ويكشفها لأن الاستثناء من النفي إثبات.

ولما ذكر الخير قال فيه فلا راد لفضله يعني أن جميع الخيرات منه فلا يقدر أحد على ردها لأنه هو الذي." (١)

"يتكلمان فكرهت أن أتكلم فلما لم يقولوا شيئا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «هي النخلة» قال: فلما قمنا قلت لعمر: يا أبتاه والله لقد كان وقع في نفسي أنها النخلة فقال ما منعك أن تتكلم؟ فقلت لم أركم تتكلمون فكرهت أن أتكلم أو أقول شيئا فقال عمر لأن تكون قلته أحب إلي من كذا وكذا وفي رواية: «إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها، وإنها مثل المسلم فحدثوني ما هي؟» فوقع الناس في شجر البوادي قال عبد الله ابن عمر ووقع في نفسي أنها النخلة فاستحييت أن أتكلم ثم قالوا: حدثنا ما هي يا رسول الله قال «هي النخلة» وفي رواية عن ابن عباس، أنها شجرة في الجنة وفي رواية أخرى عنه أنها المؤمن. وقوله أصلها ثابت يعني في الأرض وفرعها يعني أعلاها في السماء يعني ذاهبة في السماء تؤتي أكلها يعني ثمرها كل حين بإذن ربها يعني بأمر ربها والحين في اللغة الوقت يطلق على القليل والكثير واختلفوا في مقداره هذا وقال مجاهد وعكرمة: الحين هنا سنة كاملة لأن النخلة تثمر في كل سنة مرة واحدة. وقال سعيد بن جبير وقتادة والحسن: ستة أشهر يعني من وقت طلعها إلى حين صرامها، وروي ذلك عن ابن عباس أيضا. وقال علي بن أبي طالب: ثمانية أشهر يعني أن مدة حملها باطنا وظاهرا ثمانية أشهر. وقيل: أربعة أشهر من حين ظهور حملها إلى إدراكها. وقال سعيد بن المسيب: شهران يعني من وقت أن يؤكل منها إلى صرامها. وقال الربيع بن أنس: كل حين يعني غدوة وعشية، لأن ثمر النخل يؤكل أبدا ليلا ونهارا وصيفا وشتاء، فيؤكل منها الجمار والطلع والبلح والبسر والمنصف والرطب، وبعد ذلك يؤكل التمر اليابس إلى حين الطري الرطب فأكلها دائم في كل وقت. قال العلماء: ووجه **الحكمة في** تمثيل هذه الكلمة التي هي كلمة الإخلاص وأصل الإيمان بالنخلة حاصل من أوجه: أحدها: أن كلمة الإخلاص شديدة الثبوت في قلب المؤمن كثبوت أصل النخلة في الأرض. الوجه الثاني: أن هذه الكلمة ترفع عمل المؤمن إلى السماء. كما قال تعالى: إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه وكذلك فرع النخلة الذي هو عال في السماء. الوجه الثالث: أن ثمر النخلة يأتي في كل حين ووقت وكذلك ما يكسبه المؤمن من الأعمال الصالحة في كل وقت وحين ببركة هذه الكلمة، فالمؤمن كلما قال: لا إله إلا الله صعدت إلى السماء وجاءته بركتها وثوابها وخيرها ومنفعتها. الوجه الرابع: أن النخلة شبيهة بالإنسان في غالب الأمر لأنها

---

(١) تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل الخازن ٢/٤٦٨

خلقت من

فضلة طينة آدم وأنها إذا قطع رأسها تموت كالآدمي بخلاف سائر الشجر فإنه إذا قطع نبت، وأنها لا تحمل حتى تلقح بطلع الذكر. الوجه الخامس: في وجه **الحكمة في** تمثيل الإيمان بالشجر على الإطلاق لأن الشجرة لا تسمى شجرة إلا بثلاثة أشياء: عرق راسخ، وأصل ثابت، وفرع قائم، وكذلك الإيمان لا يتم إلا بثلاثة أشياء:

تصديق بارقلب، وقول باللسان، وعمل بالأبدان، وقوله سبحانه وتعالى: ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون يعني أن في ضرب الأمثال زيادة في الأفهام وتصويرا للمعاني وتذكيرا ومواعظ لمن تذكر واتعظ. قوله تعالى ومثل كلمة خبيثة وهو الشرك كشجرة خبيثة يعني الحنظل قاله أنس بن مالك ومجاهد: وفي رواية عن ابن عباس إنها الكشوت وعنه أيضا أنها الثوم وعنه أيضا أنها الكافر لأنه لا يقبل عمله فليس له أصل ثابت ولا يصعد إلى السماء اجتثت يعني استؤصلت وقطعت من فوق الأرض ما لها من قرار يعني ما لهذه الشجرة من ثبات في الأرض، لأنها ليس لها أصل ثابت في الأرض ولا فرع صاعد إلى السماء كذلك الكافر لا خير فيه ولا يصعد له. قول طيب ولا عمل صالح ولا لاعتقاده أصل ثابت، فهذا وجه تمثيل الكافر بهذه الشجرة الخبيثة.

عن أنس قال أتي رسول الله صلى الله عليه وسلم بقناع عليه رطب فقال: «مثل كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها قال: هي النخلة ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار قال هي الحنظلة» أخرجه الترمذي. مرفوعا وموقوفا، وقال الموقوف أصح. قوله سبحانه وتعالى:

يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت والقول الثابت: هي الكلمة الطيبة وهي شهادة أن لا إله إلا الله، في قول جمهور المفسرين. ولما وصف الكلمة الخبيثة في الآية المتقدمة بكلمة الشرك قال: في هذه الآية ويضل الله." (١)

"الأنفس التي حرمتها، وأيديهم مخضوبة منها وثيابهم متزملات بدمائها يشيدون لي البيوت مساجد، ويطهرون أجوافها وينجسون قلوبهم وأجسادهم، ويدنسونها ويزوقون لي المساجد ويزينونها، ويخربون عقولهم وأخلاقهم ويفسدونها فأي حاجة لي إلى تشييد البيوت ولست أسكنها، وأي حاجة إلى تزويق المساجد

---

(١) تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل الخازن ٣٥/٣

ولست أدخلها إنما أمرت برفعها لأذكر وأسبح فيها. يقولون: صمنا فلم يرفع صيامنا وصلينا فلم تنور صلاتنا، وتصدقنا فلم تزك صدقتنا، ودعونا بمثل حنين الحمام وبكينا بمثل عواء الذئاب في كل ذلك لا يستجاب لنا، قال الله: فاسألهم ما الذي يمنعني أن أستجيب لهم ألست أسمع السامعين، وأبصر الناظرين وأقرب المجيبين وأرحم الراحمين فكيف أرفع صيامهم وهم يلبسونه بقول الزور، ويتقوون عليه بطعمة الحرام أم كيف أنور صلاتهم وقلوبهم صاغية إلى من يحاربني ويحادني وينتهك محارمي، أم كيف تزكو عندي صدقاتهم وهم يتصدقون بأموال غيرهم إنما آجر عليها أهلها المغصوبين أم كيف أستجيب لهم دعاءهم وإنما هو قولهم بألسنتهم، والفعل من ذلك بعيد وإنما أستجيب للداعي اللين، وإنما استمع قول المستضعف المستكين، وان من علامة رضاي رضى المساكين يقولون لما سمعوا كلامي وبلغتهم رسالتي: إنها أقاويل منقولة، وأحاديث متواترة وتآليف مما تؤلف السحرة والكهنة، وزعموا أنهم لو شاؤوا أن يأتوا بحديث مثله فعلوا، ولو شاؤوا أن يطلعوا على علم الغيب بما توحي إليهم الشياطين اطلعوا، وإني قد قضيت يوم خلقت السموات والأرض قضاء أثبته وحتمته على نفسي وجعلت دونه أجلا مؤجلا لا بد أنه واقع فإن صدقوا فيما ينتحلون من علم الغيب، فليخبروك متى أنفذه أو في أي زمان يكون وإن كانوا يقدرون على أن يأتوا بما يشاءون فليأتوا بمثل هذه القدرة التي بها أمضيت فإني مظهره على الدين كله ولو كره المشركون، وإن كانوا يقدرون على أن يؤلفوا ما يشاءون فيؤلفوا مثل هذه الحكمة التي أدبر بها ذلك القضاء، إن كانوا صادقين وإني قد قضيت يوم خلقت السماء والأرض، أن أجعل النبوة في الأجراء، وأن أجعل الملك في الرعاء والعز في الأذلاء والقوة في الضعفاء والغنى في الفقراء، والعلم في الجهلة والحكمة في الأميين فسلهم متى هذا ومن القائم بهذا، ومن أعوان هذا الأمر وأنصاره إن كانوا يعلمون وإني باعث لذلك نبيا أميا ليس أعمى من عميان، ولا ضالا من ضالين وليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق ولا مترين بالفحش، ولا قوال للخنا أسدده بكل جميل وأهب له كل خلق كريم أجعل السكينة لباسه، والبر شعاره والتقوى ضميره والحكمة معقوله والصدق والوفاء طبيعته والعفو والمعروف خلقه، والعدل سيرته والحق شريعته والهدى إمامه والإسلام ملته وأحمد اسمه أهدي به بعد الضلالة، وأعلم به بعد الجهالة وأرفع به بعد الخمالة وأشهر به بعد النكرة، وأكثر به القلة وأغني به بعد العيلة، وأجمع به بعد الفرقة وأؤلف به بين قلوب مختلفة وأهواء متشتتة وأمم متفرقة، وأجعل أمته خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر توحيدا لي وإيمانا بي وإخلاصا لي يصلون قياما وقعودا، وركعا وسجودا، ويقاتلون في سبيلي صفوفا وزحوفا، ويخرجون من ديارهم

وأموالهم ابتغاء مرضاتي ألهمهم التكبير، والتوحيد

والتسبيح والتحميد والتهليل والمدحة والتمجيد لي في مسيرهم ومجالسهم، ومضاجعهم ومتقلبهم ومثواهم يكبرون ويهللون ويقدسون على رؤوس الأشراف يطهرون لي، الوجوه والأطراف ويعقدون لي الثياب على الأنصاف قربانهم دماؤهم، وأناجيلهم في صدورهم رهبان بالليل ليوث بالنهار ذلك فضلي أوتيه من أشاء أنا ذو الفضل العظيم. فلما فرغ شعياء من مقالته عدوا عليه ليقتلوه فهرب منهم فلقيته شجرة، فانفلقت له فدخل فيها فأدركه الشيطان، فأخذ بهدبة من ثوبه فأراهم إياها فوضعوا المنشار في وسطها فنشروها حتى قطعوها، وقطعوه في وسطها واستخلف الله على بني إسرائيل بعد ذلك رجلا منهم يقال: ناشة بن أموص وبعث لهم أرمياء بن حلقيا نبيا، وكان من سبط هارون بن عمران، وذكر ابن إسحاق أنه الخضر واسمه أرمياء الخضر لأنه جلس على فروة بيضاء، فقام عنه وهي تهتز خضراء فبعث الله أرمياء إلى ذلك الملك ليسدده ويرشده، ثم عظمت الأحداث في بني إسرائيل، وركبوا المعاصي واستحلوا المحارم فأوحى." (١)

"والخيل والحمير والبحر أي وحملناهم في البحر على السفن، وهذا من مؤكدات التكريم لأن الله تعالى سخر لهم هذه الأشياء لينتفعوا بها، ويستعينوا بها على مصالحهم ورزقناهم من الطيبات يعني لذيذ المطاعم والمشارب وقيل الزبد والتمر والحلواء، وجعل رزق غيرهم مما لا يخفى، وقيل: إن جميع الأغذية إما نباتية وإما حيوانية ولا يتغذى الإنسان إلا بأطيب القسمين بعد الطبخ الكامل والنضج التام ولا يحصل هذا لغير الإنسان وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا واعلم أن الله تعالى قال في أول الآية: ولقد كرمنا بني آدم وفي آخرها وفضلناهم، ولا بد من الفرق بين التكريم والتفضيل والإلزام التكرار والأقرب أن يقال: إن الله تعالى كرم الإنسان على سائر الحيوان بأمور خلقية ذاتية طبيعية، مثل العقل والنطق والخط وحسن الصورة، ثم إنه سبحانه وتعالى عرفه بواسطة ذلك العقل وافهم اكتساب العقائد الصحيحة والأخلاق الفاضلة، فالأول هو التكريم والثاني هو التفضيل. ثم قال سبحانه وتعالى: على كثير ممن خلقنا تفضيلا. ظاهر الآية يدل على أنه فضل بني آدم على كثير ممن خلق لا على الكل فقال: قوم فضلوا على جميع الخلق إلا على الملائكة وهذا مذهب المعتزلة. وقال الكلبي: فضلوا على الخلائق كلهم إلا على طائفة من الملائكة مثل جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل وأشباههم. وقيل: فضلوا على جميع الخلائق وعلى الملائكة كلهم. فإن قلت: كيف تصنع بكثير؟ قلت: يوضع الأكثر موضع الكل كقوله تعالى يلقون السمع

---

(١) تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل الخازن ١٢٠/٣

وأكثرهم كاذبون أراد كلهم وفي الحديث عن جابر يرفعه قال:
«لما خلق الله آدم وذريته قالت الملائكة يا رب خلقتهم يأكلون ويشربون وينكحون فاجعل لهم الدنيا، ولنا الآخرة فقال: لا أجعل من خلقته بيدي ونفخت فيه من روحي كمن قلت له كن فكان» وقيل بالتفضيل وهو الأولى والراجح أن خواص بني آدم وهم الأنبياء أفضل من خواص الملائكة، وعوام الملائكة أفضل من عوام البشر من بني آدم، وهذا التفضيل إنما هو بين الملائكة والمؤمنين من بني آدم لأن الكفار لا حرمة لهم قال الله سبحانه وتعالى إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال:
المؤمن أكرم على الله تعالى من الملائكة الذين عنده. قوله عز وجل يوم ندعوا كل أناس بإمامهم أي بنبيهم وقيل بكتابهم الذي أنزل عليهم، وقيل بكتاب أعمالهم وعن ابن عباس: بإمام زمانهم الذي دعاهم في الدنيا إما إلى هدى وإما إلى ضلالة وذلك أن كل قوم يجتمعون إلى رئيسهم في الخير والشر. وقيل: بمعبودهم وقيل بإمامهم جمع أم يعني بأمهاتهم **والحكمة فيه** رعاية حق عيسى عليه السلام وإظهار شرف الحسن والحسين رضي الله تعالى عنهما، وأن لا يفتضح أولاد الزنا فمن أوتي كتابه بيمينه فأولئك يقرؤن كتابهم فإن قلت: لم خص أصحاب اليمين بقراءة كتابهم، مع أن أصحاب الشمال يقرءونه أيضا. قلت: الفرق أن أصحاب الشمال إذا طالعوا كتابهم، وجدوه مشتملا على مشكلات عظيمة فيستولي عليهم الخجل والدهشة فلا يقدرون على إقامة حروفه فتكون قراءتهم كلا قراءة، وأصحاب اليمين إذا طالعوا كتابهم وجدوه مشتملا على الحسنات والطاعات فيقرؤونه أحسن قراءة وأبينها ولا يظلمون فتيلا أي ولا ينقصون من ثواب أعمالهم أدنى شيء.

[سورة الإسراء (١٧): الآيات ٧٢ الى ٧٦]
ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا (٧٢) وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك لتفتري علينا غيره وإذا لاتخذوك خليلا (٧٣) ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا (٧٤) إذا لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيرا (٧٥) وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها وإذا لا يلبثون خلافك إلا قليلا (٧٦)
ومن كان في هذه أعمى المراد عمى القلب والبصيرة لا عمى البصر. والمعنى: ومن كان في هذه الدنيا

أعمى، أي عن هذه النعم التي قد عدها في هذه الآيات المتقدمة فهو في الآخرة أي التي لم تعاين ولم تر." (١)

"فاخلع نعليك كان السبب فيه ما روي عن ابن مسعود مرفوعا في قوله فاخلع نعليك قال كانتا من جلد حمار ميت.

ويروى غير مدبوغ وإنما أمر بخلعها صيانة للوادي المقدس، وقيل أمر بخلعهما ليباشر بقدميه تراب الأرض المقدسة لتناله بركتها فإنها قدست مرتين فخلعها موسى فألقاهما من وراء الوادي إنك بالواد المقدس أي المطهر طوى اسم للوادي الذي حصل فيه وقيل طوى واد مستدير عميق مثل المطوي في استدارته وأنا اخترتك اصطفيتك برسالاتي وبكلامي فاستمع لما يوحى فيه نهاية الهيبة والجلال له فكأنه قال له لقد جاءك أمر عظيم فتأهب له إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني ولا تعبد غيري وأقم الصلاة لذكري أي لتذكرني فيها وقيل لذكري خاصة لا تشوبه بذكر غيري، وقيل لإخلاص ذكري وطلب وجهي ولا ترائي فيها ولا تقصد بها غرضا آخر، وقيل معناه إذا تركت صلاة ثم ذكرتها فأقمها، (ق) عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من نسي صلاة فليصل إذا ذكرها لا كفارة لها إلا ذلك» وتلا قتادة وأقم الصلاة لذكري وفي رواية: «إذا رقد أحدكم في الصلاة أو غفل عنها فليصلها إذا ذكرها فإن الله عز وجل يقول وأقم الصلاة لذكري.

[سورة طه (٢٠): الآيات ١٥ الى ٢٣]

إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى (١٥) فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى (١٦) وما تلك بيمينك يا موسى (١٧) قال هي عصاي أتوكؤا عليها وأهش بها على غنمي ولي فيها مآرب أخرى (١٨) قال ألقها يا موسى (١٩)

فألقاها فإذا هي حية تسعى (٢٠) قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى (٢١) واضمم يدك إلى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء آية أخرى (٢٢) لنريك من آياتنا الكبرى (٢٣)

إن الساعة آتية أكاد أخفيها قال أكثر المفسرين: معناه أكاد أخفيها من نفسي فكيف يعلمها مخلوق وكيف أظهرها لكم، ذكر ذلك على عادة العرب إذا بالغوا في الكتمان للشيء يقولون كتمت سرك في نفسي، أي

---

(١) تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل الخازن ١٣٨/٣

أخفيته غاية الإخفاء، والله تعالى لا يخفى عليه شيء. والمعنى في إخفائها التهويل والتخويف لأنهم إذا لم يعلموا متى تقوم الساعة كانوا على حذر منها كل وقت وكذلك المعنى في إخفاء وقت الموت على الإنسان لأنه إذا عرف وقت موته وانقضاء أجله اشتغل بالمعاصي إلى أن يقرب من ذلك الوقت فيتوب ويصلح العمل فيتخلص من عقاب المعاصي بتعريف وقت الموت، وأنه إذا لم يعرف وقت موته لا يزال على قدم الخوف والوجل فيترك المعاصي أو يتوب منها في كل وقت مخافة معاجلة الأجل.

قوله تعالى لتجزى كل نفس بما تسعى أي بما تعمل من خير وشر فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها أي فلا يصرفك عن الإيمان بالساعة ومجيئها من لا يؤمن بها واتبع هواه أي مراده وخالف أمر الله فتردى أي فتهلك. قوله عز وجل وما تلك بيمينك يا موسى سؤال تقرير **والحكمة فيه** تنبيهه على أنها عصا حتى إذا قلبها حية علم أنها معجزة عظيمة قال هي عصاي قيل كان لها شعبتان وفي أسفلها سنان ولها محجن واسمها نبعة أتوكؤا عليها أي أعتمد عليها إذا مشيت وإذا عييت وعند الوثبة وأهش بها على غنمي أي أضرب بها الشجرة اليابسة ليسقط ورقها فترعاه الغنم ولي فيها مآرب أخرى أي حاجة ومنافع أخرى، وأراد بالمآرب ما كان يستعمل فيه العصا في السفر فكان يحمل بها الزاد ويشد بها الحبل ويستقي بها الماء من البئر ويقتل بها الحيات ويحارب بها السباع ويستظل بها إذا قعد، وروي عن ابن عباس أن موسى كان يحمل عليها زاده وسقاءه فجعلت تماشيه وتحدثه، وكان يضرب بها الأرض فيخرج له ما يأكل يومه، ويركزها فيخرج الماء فإذا رفعها ذهب الماء وكان إذا اشتهى ثمرة ركزها فتصير غصن تلك الشجرة وتورق وتثمر، وإذا أراد الاستقاء من البئر أدلاها فطالت على طول البئر وصارت شعبتاها كدلو حتى يستقي، وكانت تضيء بالليل كالسراج وإذا ظهر له." (١)

"وإجلالا، فإذا اشتاقوا من ذلك استبقوا إلى الله بالأعمال الزاكية يعدون أنفسهم من الظالمين والخاطئين وإنهم لأبرار برآء ومع المقصرين المفرطين وإنهم لأكياس أقوياء.

قال أيوب عليه السلام: إن الله يزرع الحكمة بالرحمة في قلب الصغير والكبير، فإذا نبتت في القلب يظهرها الله على اللسان وليست تكون **الحكمة من** قبل السن ولا طول التجربة، وإذا جعل الله العبد حكيما في الصبا لم تسقط منزلته عند الحكماء، وهم يرون من الله سبحانه وتعالى عليه نور الكرامة، ثم أقبل أيوب على الثلاثة وقال:

---

(١) تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل الخازن ٣/٢٠٢

أتيتموني غضابا رهبتم قبل أن تسترهبوا، وبكيتم قبل أن تضربوا، كيف بي لو قلت تصدقوا عني بأموالكم لعل الله أن يخلصني، أو قربوا عني قربانا لعل الله أن يقبله ويرضى عني وإنكم قد أعجبتكم أنفسكم، وظننتم أنكم قد عوفيتم بإحسانكم، ولو نظرتم فيما بينكم وبين ربكم ثم صدقتم لوجدتم لكم عيوبا سترها الله تعالى بالعافية التي ألبسكم. وقد كنتم فيما خلا توقرونني وأنا مسموع كلامي معروف حقي منتصف من خصمي، فأصبحت اليوم وليس لي رأي ولا كلام معكم، فأنتم كنتم أشد علي من مصيبتي. ثم أعرض عنهم أيوب، وأقبل على ربه مستغيثا به متضرعا إليه فقال: يا رب لأي شيء خلقتني؟ ليتني إذ كرهتني لم تخلقني، يا ليتني عرفت الذنب الذي أذنبت والعمل الذي عملت فصرفت وجهك الكريم عني لو كنت أمتني فألحقتني بآبائي، فالموت كان أجمل بي. ألم أكن للغريب دارا وللمسكين قرارا ولليتيم وليا وللأرملة قيما إلهي أنا عبد ذليل إن أحسنت فالمن لك، وإن أسأت فبيدك عقوبتي، جعلتني للبلاء غرضا، وللفتنة نصيبا، وقد وقع علي من البلاء ما لو سلطته على جبل لضعف عن حمله فكيف يحمله ضعفي. وإن قضاءك هو الذي أذلني، وإن سلطانك هو الذي أسقمني وأنحل جسمي، ولو أن ربي نزع الهيبة التي في صدري وأطلق لساني حتى أتكلم بملء في فأدلي بعذري وأتكلم ببراءتي وأخاصم عن نفسي لرجوت أن يعافيني عند ذلك مما بي، ولكنه ألقاني وتعالى عني فهو يراني ولا أراه ويسمعني ولا أسمعه.

فلما قال ذلك أيوب وأصحابه عنده أظله غمام حتى ظن أصحابه أنه عذاب، ثم نودي يا أيوب إن الله يقول ها أنا قد دنوت منك ولم أزل منك قريبا قم فأدل بعذرك وتكلم ببراءتك وخاصم عن نفسك واشدد أزرك وقم مقام جبار يخاصم جبارا إن استطعت، فإنه لا ينبغي أن يخاصمني إلا جبار مثلي. لقد منتك نفسك يا أيوب أمرا، ما يبلغ لمثله مثلك. أين أنت مني يوم خلقت الأرض فوضعتها على أساسها؟ هل كنت معي تمد بأطرافها؟ هل علمت أي مقدار قدرتها، أم على أي شيء وضعت أكنافها. أبطاعتك حمل الماء الأرض، أم بحكمتك كانت الأرض للماء غطاء؟ أين كنت مني يوم رفعت السماء سقفا في الهواء لا تعلق بسبب من فوقها ولا يقلها دعم من تحتها؟ هل يبلغ من حكمتك أن تجري نورها أو تسير نجومها أو يختلف بأمرك ليلها ونهارها؟ أين كنت مني يوم أنبعت الأنهار وسكبت البحار؟ أبسلطانك حبست أمواج البحار على حدودها أم بقدرتك فتحت الأرحام حين بلغت ملتها؟ أين كنت مني يوم صببت الماء على التراب ونصبت شوامخ الجبال؟ هل تدري على أي شيء أرسيتها أم بأي مثقال وزنتها؟ أم هل لك من ذراع تطيق حملها؟ أم هل تدري من أين الماء الذي أنزلت من السماء؟ أم هل تدري من أي شيء أنشأت

السحاب؟ أم هل تدري أين خزانة الثلج؟ أم أين جبال البرد؟ أم أين خزانة الليل بالنهار وخزانة النهار بالليل؟ وأين خزانة الريح؟ وبأي لغة تتكلم الأشجار ومن جعل العقول في أجواف الرجال؟ وشق الأسماع والأبصار؟ ومن ذلت الملائكة لملكه وقهر الجبارين بجبروته وقسم الأرزاق بحكمته؟ في كلام كثير يدل على آثار قدرته ذكرها لأيوب فقال أيوب: صغر شأني وكل لساني وعقلي ورأيي وضعفت قوتي عن هذا الأمر الذي يعرض علي إلهي. قد علمت أن كل الذي قد ذكرت صنع يديك وتدبير حكمتك وأعظم من ذلك وأعجب لو شئت عملت ولا يعجزك شيء ولا تخفى عليك خافية إلهي أوثقني البلاء فتكلمت ولم أملك نفسي فكان البلاء هو الذي أنطقني. ليت الأرض انشقت بي فذهبت فيها ولم أتكلم بشيء يسخطك. ربي وليتني مت بغمي في أشد بلائي قبل ذلك. إنما تكلمت حين تكلمت بعذري، وسكت حين سكت." (١)

"آدم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون أي تنبسطون في الأرض ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا أي جنسكم من بني آدم وقيل خلق حواء من ضلع آدم لتسكنوا إليها أي لتميلوا للأزواج وتألفوهن وجعل بينكم مودة ورحمة أي جعل بين الزوجين المودة والرحمة فهما يتوادان ويتراحمان من غير سابقة معرفة ولا قرابة ولا سبب يوجب التعاطف وما شيء أحب إلى أحدهما من الآخر من غير تراحم بينهما إلا الزوجان إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون أي في عظمة الله وقدرته ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم أي اختلاف اللغات العربية والعجمية وغيرهما وقيل أراد أجناس النطق وأشكاله خالف بينهما حتى لا تكاد تسمع منطقين حتى لو تكلم جماعة من وراء حائط يعرف كل منهم بنطقه ونغمته لا يشبه صوت أحد صوت الآخر وألوانكم أي أسود وأبيض وأشقر وأسمر وغير ذلك من اختلاف الألوان وأنتم بنو رجل واحد ومن أصل واحد وهو آدم عليه السلام. **والحكمة في** اختلاف الأشكال والأصوات للتعارف أي ليعرف كل واحد بشكله وحليته وصوته وصورته فلو اتفقت الأصوات والصور وتشاكلت وكانت ضربا واحدا لوقع التجاهل والالتباس ولتعطلت مصالح كثيرة وليعرف صاحب الخلق من غيره والعدو من الصديق والقريب من البعيد فسبحان من خلق الخلق على ما أراد وكيف أراد. وفي ذلك دليل على سعة القدرة وكمال العظمة إن في ذلك لآيات للعالمين أي لعموم العلم فيهم ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله أي منامكم الليل للراحة وابتغاؤكم من فضله وهو طلب أسباب المعيشة بالنهار إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون أي سماع تدبر واعتبار ومن آياته يريكم البرق خوفا أي للمسافر ليستعد للمطر وطمعا أي

---

(١) تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل الخازن ٢٣٧/٣

للمقيم ليستعد المحتاج إليه من أجل الزرع وتسوية طرق المصانع وينزل من السماء ماء فيحيي به الأرض بعد موتها إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون أي قدرة الله وأنه القادر عليه ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره قال ابن عباس وابن مسعود قامتا على غير عمد وقيل يدوم قيامهما بأمره ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض قال ابن عباس من القبور إذا أنتم تخرجون أي منها وقيل معنى الآية ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون من الأرض وله من في السماوات والأرض كل له قانتون مطيعون قال ابن عباس كل له مطيعون في الحياة والبقاء والموت والبعث وإن عصوا في العبادة وهو الذي يبدؤا الخلق ثم يعيده أي يخلقهم أولا ثم يعيدهم بعد الموت للبعث وهو أهون عليه أي هو هين عليه وما من شيء عليه بعزيز وقيل معناه وهو أيسر عليه فإن الذي يقع في عقول الناس أن الإعادة تكون أهون من الإنشاء وقيل: هو أهون على الخلق وذلك لأنهم يقومون بصيحة واحدة فيكون أهون عليهم من أن يكونوا نطفا ثم علقا ثم مضغا إلى أن يصيروا رجالا ونساء. وهو رواية عن ابن عباس وله المثل الأعلى أي الصفة العليا قال ابن عباس: ليس كمثله شيء وقيل هو الذي لا إله إلا هو في السماوات والأرض وهو العزيز أي في ملكه الحكيم في خلقه. قوله عز وجل:

[سورة الروم (٣٠): الآيات ٢٨ الى ٣٣]

ضرب لكم مثلا من أنفسكم هل لكم من ما ملكت أيمانكم من شركاء في ما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون (٢٨) بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم فمن يهدي من أضل الله وما لهم من ناصرين (٢٩) فأقم وجهك للدين حنيفا فطرت الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون (٣٠) منيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين (٣١) من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا كل حزب بما لديهم فرحون (٣٢)

وإذا مس الناس ضر دعوا ربهم منيبين إليه ثم إذا أذاقهم منه رحمة إذا فريق منهم بربهم يشركون (٣٣)." (١)

"مؤمن إلا وأنا أولى الناس به في الدنيا والآخرة، واقرءوا إن شئتم النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم فأيما مؤمن ترك مالا فلترثه عصبته من كانوا ومن ترك دينا أو ضياعا فليأتني فأنا مولاه». عصبة الميت من يرثه سوى من له فرض مقدر وقوله أو ضياعا أي عيالا وأصله مصدر ضاع يضيع ضياعا، وإن كسرت الضاد

---

(١) تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل الخازن ٣/٣٩٠

كان جمع ضائع.
قوله تعالى وأزواجه أمهاتهم يعني أمهات المؤمنين في تعظيم الحرمة وتحريم نكاحهن على التأبيد لا في النظر إليهن والخلوة بهن، فإنه حرام في حقهن كما في حق الأجانب ولا يقال لبناتهن هن أخوات المؤمنين ولا لإخوانهن وأخواتهن هن أخوال المؤمنين وخالاتهم. قال الشافعي تزوج الزبير أسماء بنت أبي بكر وهي أخت عائشة أم المؤمنين ولم يقل هي خالة المؤمنين، وقيل إن أزواج النبي صلى الله عليه وسلم كن أمهات المؤمنين والمؤمنات الرجال والنساء وقيل كن أمهات الرجال دون النساء، بدليل ما روي عن مسروق أن امرأة قالت لعائشة يا أمه. فقالت لست لك بأم إنما أنا أم رجالكم. فبان بذلك أن معنى الأمومة إنما هو تحريم نكاحهن وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض يعني في الميراث قيل كان المسلمون يتوارثون بالهجرة، وقيل آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين الناس فكان يؤاخي بين الرجلين فإذا مات أحدهما ورثه الآخر دون عصبته، حتى نزلت وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض وقيل في معنى الآية لا توارث بين المسلم والكافر ولا بين المهاجر وغير المهاجر في كتاب الله أي في حكم الله من المؤمنين الذين آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهم والمهاجرين يعني أن ذوي القرابات أولى بعضهم ببعض فنسخت هذه الآية الموارثة بالمؤاخاة والهجرة وصارت الموارثة بينهم بالقرابة إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفا يعني الوصية للذين يتولونه من المعاقدين، وذلك أن الله تعالى لما نسخ التوارث بالخلف والإخاء والهجرة، أباح أن يوصي لمن يتولاه بما أحب من ثلث ماله، وقيل أراد بالمعروف النصر وحفظ الحرمة بحق الإيمان والهجرة، وقيل معناه إلا أن توصوا إلى قرابتكم بشيء وإن كانوا من غير أهل الإيمان والهجرة كان ذلك أي الذي ذكر من أن أولي الأرحام بعضهم أولى ببعض في الكتاب أي في اللوح المحفوظ وقيل في التوراة مسطورا أي مكتوبا مثبتا. قوله تعالى:

[سورة الأحزاب (٣٣): الآيات ٧ الى ٩]
وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم وأخذنا منهم ميثاقا غليظا (٧) ليسئل الصادقين عن صدقهم وأعد للكافرين عذابا أليما (٨) يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرا (٩)
وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم أي على الوفاء بما حملوا وأن يصدق بعضهم بعضا ويبشر بعضهم ببعض، وقيل على أن يعبدوا الله ويدعوا الناس إلى عبادته وينصحوا لقومهم ومنك يعني يا محمد ومن نوح وإبراهيم

وموسى وعيسى ابن مريم خص هؤلاء الخمسة بالذكر من بين النبيين لأنهم أصحاب الكتب والشرائع وأولو العزم من الرسل، وقدم النبي صلى الله عليه وسلم في الذكر تشريفا له وتفضيلا. ولما روى البغوي بإسناد الثعلبي عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال «كنت أول النبيين في الخلق وآخرهم في البعث». قال قتادة وذلك قول الله وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح فبدأ به صلى الله عليه وسلم وأخذنا منهم ميثاقا غليظا أي عهدا شديدا على الوفاء بما حملوا من تبليغ الرسالة ليسئل الصادقين عن صدقهم يعني أخذ ميثاقهم لكي يسأل الصادقين يعني النبيين عن تبليغهم الرسالة والحكمة في سؤالهم مع علمه سبحانه وتعالى صادقون تبكيت من أرسلوا إليهم وقيل ليسأل الصادقين عن صدقهم عن عملهم لله عز وجل وقيل ليسأل الصادقين بأفواههم عن صدقهم في قلوبهم وأعد للكافرين عذابا أليما قوله تعالى يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم وذلك حين حوصر المسلمون مع النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة أيام الخندق إذ جاءتكم جنود يعني الأحزاب وهم قريش وغطفان ويهود قريظة والنضير فأرسلنا." (١)

"وأن اعبدوني أي أطيعوني ووحدوني هذا صراط مستقيم أي لا صراط أقوم منه قوله تعالى: ولقد أضل منكم جبلا كثيرا أي خلقا كثيرا أفلم تكونوا تعقلون يعني ما أتاكم من هلاك الأمم الخالية بطاعة إبليس ويقال لهم لما دنوا من النار هذه جهنم التي كنتم توعدون يعني بها في الدنيا اصلوها يعني ادخلوها اليوم بما كنتم تكفرون قوله تعالى: اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون معنى الآية أن الكفار ينكرون ويجحدون كفرهم وتكذيبهم الرسل، ويقولون والله ربنا ما كنا مشركين فيختم الله على أفواههم وتنطق جوارحهم ليعلموا أن أعضاءهم التي كانت عونا لهم على المعاصي صارت شاهدة عليهم وذلك أن إقرار الجوارح أبلغ من إقرار اللسان.

فإن قلت ما الحكمة في تسمية نطق اليد كلاما ونطق الرجل شهادة؟

قلت إن اليد مباشرة والرجل حاضرة وقول الحاضر على غيره شهادة بما رأى وقول الفاعل إقرار على نفسه بما فعل (م) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال «سأل الناس رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة قال: هل تضارون في رؤية الشمس في الظهيرة ليست في سحابة قالوا لا يا رسول الله قال فهل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر ليس في سحابة قالوا لا قال فو الذي نفسي بيده لا تضارون في رؤية ربكم إلا كما تضارون في رؤية أحدهما قال فيلقى العبد ربه فيقول أي فل ألم أكرمك

---

(١) تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل الخازن ٣/٤١٠

وأسودك وأزوجك وأسخر لك الخيل والإبل وأذرك ترأس وتربع فيقول بلى يا رب، فيقول أفظننت أنك ملاقي، فيقول لا فيقول اليوم أنساك كما نسيتني، ثم يلقى الثاني فيقول أي فل ألم أكرمك وأسودك وأزوجك وأسخر لك الخيل والإبل وأذرك ترأس وتربع فيقول بلى يا رب فيقول أفظننت أنك ملاقي فيقول لا فيقول اليوم أنساك كما نسيتني، ثم يلقى الثالث فيقول له مثل ذلك فيقول يا رب آمنت بك وبكتابك وبرسلك وصليت وصمت وتصدقت ويثني بخير ما استطاع فيقول هاهنا إذا قال ثم يقول له الآن نبعث شاهدنا عليك فيتفكر في نفسه من ذا الذي يشهد علي فيختم على فيه ويقال لفخذه ولحمه وعظامه انطقي فتنطق فخذه ولحمه وعظامه بعمله وذلك الذي يسخط الله عليه» قوله أي فل يعني يا فلان قوله وأسودك أي أجعلك سيدا قوله وأذرك ترأس أي تتقدم على القوم بأن تصير رئيسهم وتربع أي تأخذ المرباع وهو ما يأخذه رئيس الجيش لنفسه من الغنائم وهو ربعها، وروى ترتع بتاءين أي تتنعم وتنبسط من الرتع قوله وذلك ليعذر من نفسه أي ليقيم الحجة عليها بشهادة أعضائه عليه (م) عن أنس بن مالك قال «كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فضحك فقال هل تدرون مم أضحك، قلنا الله ورسوله أعلم قال من مخاطبة العبد ربه فيقول يا رب ألم تجرني من الظلم قال يقول بلى قال فيقول فإني لا أجيز على نفسي إلا شاهدا مني قال فيقول كفى بنفسك اليوم عليك شهيدا وبالكرام الكاتبين شهودا قال فيختم على فيه ويقال لأركانه انطقي قال فتنطق بأعماله ثم يخلى بينه وبين الكلام فيقول بعدا لكن وسحقا فعنكن كنت أناضل» قوله لا أجيز أي لا أقبل شاهدا على قوله بعدا لكن وسحقا أي هلاكا، قوله فعنكن كنت أناضل أي أجادل وأخاصم قوله تعالى:

[سورة يس (٣٦): الآيات ٦٦ الى ٦٩]

ولو نشاء لطمسنا على أعينهم فاستبقوا الصراط فأنى يبصرون (٦٦) ولو نشاء لمسخناهم على مكانتهم فما استطاعوا مضيا ولا يرجعون (٦٧) ومن نعمره ننكسه في الخلق أفلا يعقلون (٦٨) وما علمناه الشعر وما ينبغي له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين (٦٩)

ولو نشاء لطمسنا على أعينهم أي أذهبنا أعينهم الظاهرة بحيث لا يبدو لها جفن ولا شق والمعنى ولو." (١)

---

(١) تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل الخازن ٤/١١

"إذا لله ذبيح، فلما ولد وبلغ معه السعي قيل له أوف بنذرك. هذا هو السبب في أمر الله تعالى إياه بالذبح فقال لإسحاق انطلق نقرب لله قربانا فأخذ سكينا وحبلا وانطلق معه حتى ذهب به بين الجبال فقال الغلام يا أبت أين قربانك فقال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى، قال يا أبت افعل ما تؤمر. وقال محمد بن إسحاق كان إبراهيم عليه السلام إذا زار هاجر وإسماعيل حمل على البراق فيغدو من الشام فيقيل بمكة ويروح من مكة فيبيت عند أهله بالشام حتى إذا بلغ إسماعيل معه السعي وأخذ بنفسه ورجاه لما كان يؤمل فيه من عبادة ربه وتعظيم حرماته أمر في المنام بذبحه وذلك أنه رأى ليلة التروية كأن قائلا يقول له إن الله يأمرك بذبح ابنك هذا فلما أصبح تروى في نفسه أي فكر من الصباح إلى الرواح أمن الله هذا الحلم أم من الشيطان؟ فمن ثم سمي ذلك اليوم يوم التروية فلما أمسى رأى في المنام ثانيا فلما أصبح عرف أن ذلك من الله تعالى فسمي ذلك اليوم يوم عرفة. وقيل رأى ذلك ثلاث ليال متتابعات فلما عزم على نحره سمي ذلك اليوم يوم النحر فلما تيقن ذلك أخبر به ابنه فقال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى أي في الرأي على وجه المشاورة.

فإن قلت: لم شاوره في أمر قد علم أنه حتم من الله تعالى وما **الحكمة في** ذلك.

قلت لم يشاوره ليرجع إلى رأيه وإنما شاوره ليعلم ما عنده فيما نزل به من بلاء الله تعالى وليعلم صبره على أمر الله وعزيمته على طاعته ويثبت قدمه ويصبره إن جزع ويراجع نفسه ويوطنها ويلقى البلاء وهو كالمستأنس به ويكتسب المثوبة بالانقياد لأمر الله تعالى قبل نزوله.

فإن قلت لم كان ذلك في المنام دون اليقظة وما **الحكمة في** ذلك؟ قلت إن هذا الأمر كان في نهاية المشقة على الذابح والمذبوح.

فورد في المنام كالتوطئة له ثم تأكد حال النوم بأحوال اليقظة فإذا تظاهرت الحالتان كان أقوى في الدلالة ورؤيا الأنبياء وحي وحق قال يا أبت افعل ما تؤمر يعني قال الغلام لأبيه افعل ما أمرت به قال ابن إسحاق وغيره لما أمر إبراهيم بذلك قال لابنه يا بني خذ الحبل والمدية وانطلق إلى هذا الشعب نحتطب فلما خلا إبراهيم بابنه في الشعب أخبره بما أمر الله به فقال افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين إنما علق ذلك بمشيئة الله تعالى على سبيل التبرك وأنه لا حول عن معصية الله تعالى إلا بعصمة الله تعالى ولا قوة على طاعة الله إلا بتوفيق الله فلما أسلما يعني انقادا وخضعا لأمر الله وذلك أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام أسلم ابنه وأسلم الابن نفسه وتله للجبين يعني صرعه على الأرض قال ابن عباس أضجعه على جبينه

على الأرض فلما فعل ذلك قال له ابنه يا أبت أشدد رباطي كيلا أضطرب واكفف عن ثيابك حتى لا ينتضح عليها شيء من دمي فينقص أجري وتراه أمي فتحزن واستحد شفرتك وأسرع مر السكين على حلقي ليكون أهون علي فإن الموت شديد، وإذا أتيت أمي فاقرأ عليها السلام مني وإن رأيت أن ترد قميصي على أمي فافعل فإنه عسى أن يكون أسلى لها عني، فقال إبراهيم عليه السلام: نعم العون أنت يا بني على أمر الله ففعل إبراهيم ما أمره به ابنه ثم أقبل عليه يقبله وهو يبكي وقد ربطه والابن يبكي ثم إنه وضع السكين على حلقه فلم تحك شيئا. ثم إنه حدها مرتين أو ثلاثا بالحجر كل ذلك لا يستطيع أن يقطع شيئا. قيل ضرب الله تعالى صفيحة من نحاس على حلقه والأول أبلغ في القدرة وهو منع الحديد عن اللحم، قالوا فقال الابن عند ذلك: يا أبت كبني لوجهي فإنك إذا نظرت وجهي رحمتني وأدركتك رقة تحول بينك وبين أمر الله تعالى وأنا لا أنظر إلى الشفرة فأجزع منها ففعل إبراهيم عليه الصلاة والسلام ذلك ثم وضع السكين على قفاه فانقلبت ونودي يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا. وروي عن كعب الأحبار وابن إسحاق عن رجاله قالوا لما رأى إبراهيم عليه الصلاة والسلام ذبح ابنه قال الشيطان لئن لم أفتن عند هذا آل إبراهيم لا أفتن منهم أحدا أبدا فتمثل الشيطان في صورة رجل وأتى أم الغلام فقال لها هل تدرين أين ذهب إبراهيم بابنك قالت." (١)

"الوعيد في أول وهلة وإذا ذكر الله ومبني أمره على الرأفة والرحمة استبدلوا بالخشية رجاء في قلوبهم وبالقشعريرة لينا في جلودهم وقيل إن المكاشفة في مقام الرجاء أكمل منها في مقام الخوف لأن الخير مطلوب بالذات والخوف ليس بمطلوب وإذا حصل الخوف اقشعر منه الجلد وإذا حصل الرجاء اطمأن إليه القلب ولان الجلد ذلك أي القرآن الذي هو أحسن الحديث هدى الله يهدي به من يشاء أي هو الذي يشرح الله به صدره لقبول الهداية ومن يضلل الله أي يجعل قلبه قاسيا منافيا لقبول الهداية فما له من هاد أي يهديه. قوله عز وجل:

[سورة الزمر (٣٩): الآيات ٢٤ الى ٢٦]

أفمن يتقي بوجهه سوء العذاب يوم القيامة وقيل للظالمين ذوقوا ما كنتم تكسبون (٢٤) كذب الذين من قبلهم فأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون (25) فأذاقهم الله الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أكبر

---

(١) تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل الخازن ٢٣/٤

لو كانوا يعلمون (٢٦)
أفمن يتقي بوجهه سوء العذاب أي شدته يوم القيامة قيل يجر على وجه في النار وقيل يرمى به في النار منكوسا فأول شيء تمسه النار وجهه، وقيل هو الكافر يرمى به منكوسا في النار مغلولة يداه إلى عنقه وفي عنقه صخرة من كبريت مثل الجبل العظيم فتشعل النار في تلك الصخرة وهي في عنقه فحرها ووهجها على وجهه لا يطيق دفعها عنه للأغلال التي في يديه وعنقه ومعنى الآية أفمن يتقي بوجهه سوء العذاب كمن هو آمن العذاب وقيل للظالمين أي تقول لهم الخزنة ذوقوا ما أي وبال ما كنتم تكسبون أي في الدنيا من المعاصي كذب الذين من قبلهم أي من قبل كفار مكة كذبوا الرسل فأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون يعني وهم غافلون آمنون من العذاب فأذاقهم الله الخزي أي العذاب والهوان في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون قوله عز وجل:

[سورة الزمر (٣٩): الآيات ٢٧ الى ٣١]
ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون (٢٧) قرآنا عربيا غير ذي عوج لعلهم يتقون (٢٨) ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ورجلا سلما لرجل هل يستويان مثلا الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون (٢٩) إنك ميت وإنهم ميتون (٣٠) ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون (٣١)
ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون أي يتعظون قرآنا عربيا أي فصيحا أعجز الفصحاء والبلغاء عن معارضته غير ذي عوج أي منزها عن التناقض، وقال ابن عباس: غير مختلف.
وقيل: غير ذي لبس وقيل: غير مخلوق ويروى ذلك عن مالك بن أنس وحكي عن سفيان بن عيينة عن سبعين من التابعين إن القرآن ليس بخالق ولا مخلوق لعلهم يتقون
أي الكفر والتكذيب.
فإن قلت ما **الحكمة في** تقديم التذكر في الآية الأولى على التقوى في هذه الآية.
قلت سبب تقديم التذكر أن الإنسان إذا تذكر وعرف ووقف على فحوى الشيء واختلط بمعناه واتقاه واحترز منه. قوله تعالى:
ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون أي متنازعون مختلفون سيئة أخلاقهم والشكس السيء الخلق المخالف للناس لا يرضى بالإنصاف ورجلا سلما لرجل أي خالصا له فيه ولا منازع والمعنى واضرب يا محمد لقومك مثلا وقل لهم ما تقولون في رجل مملوك قد اشترك فيه شركاء بينهم اختلاف وتنازع كل واحد

يدعي أنه عبده وهم يتجاذبونه في مهن شتى فإذا عنت لهم حاجة يتدافعونه فهو متحير في أمره لا يدري أيهم يرضي بخدمته وعلى أيهم يعتمد في حاجاته وفي رجل آخر مملوك قد سلم لمالك واحد يخدمه على سبيل." (١)

"سيئاتهم ولا ينقص من حسناتهم ووفيت كل نفس ما عملت أي ثواب ما عملت وهو أعلم بما يفعلون يعني أنه سبحانه وتعالى عالم بأفعالهم لا يحتاج إلى كاتب ولا إلى شاهد.

قوله تعالى: وسيق الذين كفروا إلى جهنم يعني سوقا عنيفا زمرا أفواجا بعضهم على أثر بعض كل أمة على حدة وقيل جماعات متفرقة واحدتها زمرة حتى إذا جاؤها فتحت أبوابها يعني السبعة وكانت قبل ذلك مغلقة وقال لهم خزنتها يعني توبيخا وتقريعا ألم يأتكم رسل منكم أي من أنفسكم ومن جنسكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب أي وجبت على الكافرين وهي قوله لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين قوله عز وجل: وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا فإن قلت عبر عن الفريقين بلفظ السوق فما الفرق بينهما.

قلت المراد بسوق أهل النار طردهم إلى العذاب بالهوان والعنف كما يفعل بالأسير إذا سيق إلى الحبس أو القتل، والمراد بسوق أهل الجنة سوق مراكبهم لأنهم يذهبون إليها راكبين أو المراد بذلك السوق إسراعهم إلى دار الكرامة والرضوان فشتان ما بين السوقين حتى إذا جاؤها وفتحت أبوابها فإن قلت قال في أهل النار فتحت بغير واو وهنا زاد حرف الواو فما الفرق.

قلت فيه وجوه أحدها أنها زائدة الثاني إنها واو الحال مجازه وقد فتحت أبوابها فأدخل الواو لبيان أنها كانت مفتحة قبل مجيئهم إليها وحذف الواو في الآية الأولى لبيان أن أبواب جهنم كانت مغلقة قبل مجيئهم إليها ووجه **الحكمة في** ذلك أن أهل الجنة إذا جاءوها ووجدوا أبوابها مفتحة حصل لهم السرور والفرح بذلك وأهل النار إذا رأوها مغلقة كان ذلك نوع ذلك وهوان لهم. الثالث زيدت الواو هنا لبيان أن أبواب الجنة ثمانية ونقصت هناك لأن أبواب جهنم سبعة والعرب تعطف بالواو فيما فوق السبعة تقول سبعة وثمانية.

فإن قلت حتى إذا جاءوها شرط فأين جوابه؟

---

(١) تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل الخازن ٥٦/٤

قلت فيه وجوه أحدها أنه محذوف والمقصود من الحذف أن يدل على أنه بلغ في الكمال إلى حيث لا يمكن ذكره الثاني أن الجواب هو قوله وقال لهم خزنتها سلام عليكم بغير واو الثالث تقديره فادخلوها خالدين دخلوها فحذف دخلوها لدلالة الكلام عليه وقال لهم خزنتها سلام عليكم أي أبشروا بالسلامة من كل الآفات طبتم قال ابن عباس معناه طاب لكم المقام وقيل إذا قطعوا النار حبسوا على قنطرة بين الجنة والنار فيقتص بعضهم من بعض حتى إذا هذبوا وطيبوا دخلوا الجنة فيقول لهم رضوان وأصحابه سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه إذا سيقوا إلى الجنة فإذا انتهوا إليها وجدوا عند بابها شجرة يخرج من تحتها عينان فيغتسل المؤمن من إحداهما فيطهر ظاهره ويشرب من الأخرى فيطهر باطنه وتتلقاهم الملائكة على أبواب الجنة يقولون سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين.

[سورة الزمر (٣٩): الآيات ٧٤ الى ٧٥]
وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين (٧٤) وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضي بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين (٧٥)

وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده أي بالجنة وأورثنا الأرض أي أرض الجنة نتصرف فيها كما نشاء تشبيها بحال الوارث وتصرفه فيما يرثه وهو قوله تعالى: نتبوأ أي ننزل من الجنة أي في الجنة حيث." (١)

"بهذه الأشياء لما فيها من عظيم قدرته وجواب القسم قوله تعالى: إن عذاب ربك لواقع يعني إنه لحق وكائن ونازل بالمشركين في الآخرة ما له من دافع أي مانع.

قال جبير بن مطعم: قدمت المدينة لأكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم في أسارى بدر فدفعت له وهو يصلي بأصحابه المغرب وصوته يخرج من المسجد فسمعته يقرأ والطور إلى قوله إن عذاب ربك لواقع ما له من دافع فكأنما صدع قلبي حين سمعت ولم يكن أسلم يومئذ فأسلمت خوفا من نزول العذاب وما كنت أظن أني أقوم من مكاني حتى يقع بي العذاب ثم بين أنه متى يقع فقال تعالى: يوم تمور السماء مورا أي تدور كدوران الرحى وتتكفأ بأهلها تكفؤ السفينة وقيل: تتحرك وتختلف أجزاؤها بعضها من بعض وتضطرب وتسير الجبال سيرا أي تزول عن أماكنها وتصير هباء منثورا **والحكمة في** مور السماء وسير الجبال الإنذار

(١) تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل الخازن ٤/٦٥

والأعلام بأن لا رجوع ولا عود إلى الدنيا وذلك لأن الأرض والسماء وما بينهما من الجبال والبحار وغير ذلك إنما خلقت لعمارة الدنيا وانتفاع بني آدم بذلك فلما لم يبق لهم عود إليها أزالها الله تعالى وذلك لخراب الدنيا وعمارة الآخرة.

[سورة الطور (٥٢): الآيات ١١ الى ٢١]

فويل يومئذ للمكذبين (١١) الذين هم في خوض يلعبون (١٢) يوم يدعون إلى نار جهنم دعا (١٣) هذه النار التي كنتم بها تكذبون (١٤) أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون (١٥)

اصلوها فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون (١٦) إن المتقين في جنات ونعيم (١٧) فاكهين بما آتاهم ربهم ووقاهم ربهم عذاب الجحيم (١٨) كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون (١٩) متكئين على سرر مصفوفة وزوجناهم بحور عين (٢٠)

والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء كل امرئ بما كسب رهين (٢١)

فويل أي شدة عذاب يومئذ للمكذبين أي يوم القيامة الذين هم في خوض أي يخوضون في الباطل يلعبون أي غافلون لأهون عما يراد بهم يوم يدعون أي يدفعون إلى نار جهنم دعا يعني دفعا بعنف وجفوة، وذلك أن خزنة جهنم يغلون أيدي الكفار إلى أعناقهم ويجمعون نواصيهم إلى أقدامهم ويدفعون بها دفعا إلى النار على وجوههم وزجا في أقفيتهم حتى يردوا إلى النار، فإذا دنوا منها، قال لهم خزنتها: هذه النار التي كنتم بها تكذبون أي في الدنيا أفسحر هذا ذلك أنهم كانوا ينسبون محمدا صلى الله عليه وسلم إلى السحر وأنه يغطي على الأبصار فوبخوا بذلك وقيل لهم: أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون اصلوها أي قاسوا شدتها فاصبروا أي على العذاب أو لا تصبروا أي عليه سواء عليكم أي الصبر والجزع إنما تجزون ما كنتم تعملون أي من الكفر والتكذيب في الدنيا.

قوله تعالى: إن المتقين في جنات ونعيم فاكهين أي معجبين بذلك ناعمين بما آتاهم ربهم أي من الخير والكرامة ووقاهم ربهم عذاب الجحيم كلوا أي يقال لهم كلوا واشربوا هنيئا أي مأمون العاقبة من التخمة والسقم بما كنتم تعملون أي في الدنيا من الإيمان والطاعة متكئين على سرر مصفوفة أي موضوعة بعضها إلى بعض وزوجناهم بحور عين والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان يعني ألحقنا أولادهم الصغار والكبار بإيمانهم فالكبار بإيمانهم بأنفسهم والصغار بإيمان آبائهم فإن الولد الصغير يحكم بإسلامه تبعا لأحد أبويه

ألحقنا بهم ذريتهم يعني المؤمنين في الجنة بدرجات آبائهم وإن لم يبلغوا بأعمالهم درجات آبائهم تكرمة لآبائهم لتقر بذلك أعينهم هذه رواية عن ابن عباس. وفي رواية أخرى عنه، أن معنى الآية والذين آمنوا واتبعناهم ذرياتهم يعني البالغين بإيمان ألحقنا بهم ذرياتهم الصغار الذين لم يبلغوا الإيمان بإيمان آبائهم أخبر الله تعالى أنه." (١)

"سقر هو اسم من أسماء جهنم وقيل آخر دركاتها وما أدراك ما سقر أي وما أعلمك أي شيء هي سقر، وإنما ذكره على سبيل التهويل والتعظيم لأمرها لا تبقي ولا تذر قيل هما بمعنى كما تقول صد عني وأعرض عني وقيل لا بد من الفرق وإلا لزم التكرار فقيل معناه لا تبقى أحدا من المستحقين للعذاب إلا أخذته، ثم لا تذر من لحوم أولئك شيئا إلا أكلته وأهلكته، وقيل لا يموت فيها ولا يحيا أي لا تبقى من فيها حيا ولا تذر من فيها ميتا كلما احترقوا جددوا وأعيدوا، وقيل لا تبقى لهم لحما ولا تذر منهم عظما، وقيل لكل شيء ملال وفترة إلا جهنم ليس لها ملال ولا فترة فهي لا تبقى عليهم ولا تذرهم لواحة للبشر جمع بشرة أي مغيرة للجلد حتى تجعله أسود قال مجاهد: تلفح الجلد حتى تدعه أشد سوادا من الليل وقال ابن عباس: محرقة للجلد، وقيل تلوح لهم جهنم حتى يروها عيانا.

[سورة المدثر (٧٤): الآيات ٣٠ الى ٣٢]

عليها تسعة عشر (٣٠) وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيمانا ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وما يعلم جنود ربك إلا هو وما هي إلا ذكرى للبشر (٣١) كلا والقمر (٣٢)

عليها تسعة عشر أي على النار تسعة عشر من الملائكة وهم خزنتها مالك ومعه ثمانية عشر جاء في الأثر «إن أعينهم كالبرق الخاطف وأنيابهم كالصياصي يخرج لهب النار من أفواههم ما بين منكبي أحدهم مسيرة سنة قد نزعت منهم الرحمة يدفع أحدهم سبعين ألفا فيرميهم حيث أراد من جهنم» وقال عمرو بن دينار: إن أحدهم يدفع بالدفعة الواحدة في جهنم أكثر من ربيعة ومضر وقال ابن عباس: لما نزلت هذه الآية. قال أبو جهل: لقريش ثكلتكم أمهاتكم أسمع من ابن أبي كبشة يخبر أن خزنة النار تسعة عشر، وأنتم الدهم

---

(١) تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل الخازن ٤/١٩٩

يعني الشجعان أفيعجز كل عشر منكم أن تبطش بواحد منهم يعني خزنة جهنم، فقال أبو الأشد بن أسيد بن كلدة بن خلف الجمحي أنا أكفيكم منهم سبعة عشر عشرة على ظهري، وسبعة على بطني، واكفوني أنتم اثنين ويروى عنه أنه قال أنا أمشي بين أيديكم على الصراط فأدفع عشرة بمنكبي الأيمن وتسعة بمنكبي الأيسر في النار ونمضي فندخل الجنة. فأنزل الله تعالى: وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة يعني لا رجالا آدميين فمن ذا يغلب الملائكة وإنما جعلهم ملائكة ليكونوا من غير جنس المعذبين وأشد منهم لأن الجنسية مظنة الرأفة والرحمة وما جعلنا عدتهم أي عددهم في القلة إلا فتنة للذين كفروا أي ضلالة لهم حتى قالوا ما قالوا، وقيل فتنتهم هي قولهم لم لم يكونوا عشرين، وما الحكمة في تخصيص هذا العدد وقيل فتنتهم هي قولهم كيف يقدر هذا العدد، القليل على تعذيب جميع من في النار.

وأجيب عن قولهم لم لم يكونوا عشرين بأن أفعال الله تعالى لا تعلل ولا يقال فيها لم، وتخصيص الزبانية بهذا العدد لأمر اقتضته الحكمة، وقيل وجه الحكمة في كونهم تسعة عشر أن هذا العدد يجمع أكثر القليل، وأقل الكثير، ووجه ذلك أن الآحاد أقل الأعداد وأكثرها تسعة، وأقل الكثير عشرة فوقع الاقتصار على عدد يجمع أقل الكثير وأكثر القليل لهذه الحكمة، وما سوى ذلك من الأعداد فكثير لا يدخل تحت الحصر.

وأجيب عن قولهم كيف يقدر هذا العدد القليل على تعذيب جميع أهل النار، وذلك بأن الله جل جلاله يعطي هذا القليل من القوة والقدرة ما يقدرون به على ذلك، فمن اعترف بكمال قدرة الله، وأنه على كل شيء قدير وأن أحوال القيامة على خلاف أحوال الدنيا زال عن قلبه هذا الاستبعاد بالكلية. ليستيقن الذين أوتوا الكتاب يعني أن هذا العدد مكتوب في التوراة والإنجيل أنهم تسعة عشر ويزداد الذين آمنوا إيمانا يعني من آمن من أهل الكتاب يزدادون تصديقا بمحمد صلى الله عليه وسلم، وذلك أن العدد كان موجودا في كتابهم وأخبر به النبي صلى الله عليه وسلم." (١)

"صلى الله عليه وسلم بالرؤيا لئلا يفجأه الملك، فيأتيه بصريح النبوة بغتة فلا تحملها القوى البشرية، فبدئ بأول علامات النبوة توطئه للوحي، وأما التحنث فقد فسر في الحديث بالتعبد، وهو تفسير صحيح لأن أصل التحنث من الحنث، وهو الإثم، والمعنى أنه فعل فعلا يخرج به من الإثم وقولها فجأة الحق أي جاءه الحق بالوحي بغتة.

---

(١) تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل الخازن ٣٦٥/٤

قوله: فغطني بالغين المعجمة، والطاء المشالة المهملة، أي عصرني، وضمني ضما شديدا، وهو قوله حتى بلغ مني الجهد قال العلماء: والحكمة في الغط شغله عن الالتفات إلى غيره، والمبالغة في صفاء قلبه ولهذا كرره ثلاثا.

قوله: زملوني زملوني كذا هو في الروايات مكرر مرتين، ومعناه غطوني بالثياب، وقوله حتى ذهب عنه الروع أي الفزع قولها كلا أبشر فو الله لا يخزيك الله أبدا يروى بضم الياء وبالخاء المعجمة من الخزي أي لا يفضحك الله، ولا يكسرك، ولا يهينك ولا يذلك وروي بفتح الياء وبالحاء المهملة وبالنون أي لا يحزنك من الحزن الذي هو ضد الفرح وقولها وتحمل الكل أي الثقيل والحوائج المهمة، وتكسب المعدوم أي تعطي المال لمن هو معدوم عنده ومعنى كلام خديجة أنك لا يصيبك مكروه لما جعل فيك من مكارم الأخلاق وحميد الفعال. وخصال الخير وذلك سبب السلامة من مصارع السوء.

قولها: وكان يكتب الكتاب العبراني فيكتب من الإنجيل بالعبرانية وفي رواية مسلم «وكان يكتب الكتاب العربي يكتب من الإنجيل بالعربية ما شاء الله تعالى أن يكتب» ومعناهما صحيح وحاصله أنه تمكن من دين النصرانية بحيث صار يتصرف في الإنجيل، فيكتب أي موضع شاء منه بالعبرانية إن أراد، أو بالعربية إن أراد ذلك، قوله هذا الناموس الذي أنزل الله على موسى هو بالنون والسين المهملة، يعني جبريل عليه الصلاة والسلام ومعنى الناموس صاحب خبر الخير. إنما سمي جبريل بذلك لأن الله خصه بالوحي إلى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قوله يا ليتني فيها، أي في أيام النبوة وإظهار الرسالة جذعا أي شابا قويا حتى أبالغ في نصرتك، وهو قوله وإن يدركني يومك أنصرك نصرا مؤزرا أي قويا بالغا قولها ثم لم يلبث ورقة أن توفي أي فلم يلبث أن مات قبل ظهور النبي صلى الله عليه وسلم قوله كي يتردى التردي الوقوع من علو، وذروة الجبل أعلاه قوله تبدى له أي ظهر له قوله فيسكن لذلك جأشه أي قلبه، وقيل الجأش هو ثبوت القلب عند الأمر العظيم المهول، وقيل الجأش هو ما ثار من فزعه وهاج من حزنه والله أعلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

[سورة العلق (٩٦): آية ١]

بسم الله الرحمن الرحيم

اقرأ باسم ربك الذي خلق (١)

قوله عز وجل: اقرأ باسم ربك قيل الباء زائدة مجازه اقرأ اسم ربك، والمعنى اذكر اسم ربك أمر أن يبتدئ

القراءة باسم الله تأديبا، وقيل الباء على أصلها والمعنى اقرأ القرآن مفتتحا باسم ربك أي قل بسم الله، ثم اقرأ فعلى هذا يكون في الآية دليل على استحباب البداءة بالتسمية في أول القراءة، وقيل معناه اقرأ القرآن مستعينا باسم ربك على ما تتحمله من النبوة وأعباء الرسالة الذي خلق يعني جميع الخلائق وقيل الذي حصل منه الخلق واستأثر به لا خالق سواه وقيل الذي خلق كل شيء.." (١)

"وأما تخصيص هذه السورة بالقراءة، فإنها مع وجازتها جامعة لأصول وقواعد ومهمات عظيمة، وكان الحال يقتضي الاختصار، وأما الحكمة في أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالقراءة على أبي فهي أن يتعلم أبي القراءة من ألفاظه صلى الله عليه وسلم، وضبط أسلوب الوزن المشروع وقدره بخلاف ما سواه من النعم المستعملة في غيره فكانت قراءته على أبي ليتعلم أبي منه لا ليتعلم هو من أبي وقيل إنما قرأ على أبي ليتعلم غيره التواضع والأدب وأن لا يستنكف الشريف وصاحب الرتبة العالية أن يتعلم القرآن ممن هو دونه، وفيه تنبيه على فضيلة أبي والحث عن الأخذ عنه وتقديمه في ذلك فكان كذلك بعد النبي صلى الله عليه وسلم رأسا وإما ما في القراءة وغيرها، وكان أحد علماء الصحابة رضي الله عنهم أجمعين والله سبحانه وتعالى أعلم بمراده وأسرار كتابه.." (٢)

"القرآن أفضل؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «عربيته، فالتمسوها في الشعر» .

وقال أيضا صلى الله عليه وسلم: «أعربوا القرآن، والتمسوا غرائبه، فإن الله تعالى يحب أن يعرب، وقد فسرت الحكمة من قوله تعالى: ومن يؤت الحكمة «١» بأنها تفسير القرآن» .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يفقه الرجل كل الفقه حتى يرى للقرآن وجوها كثيرة» .

وقال الحسن: أهلكتهم العجمة، يقرأ أحدهم الآية، فيعيا بوجوهها حتى يفتري على الله فيها. وقال ابن عباس: الذي يقرأ القرآن ولا يفسر كالأعرابي الذي يهذ الشعر. ووصف علي جابر بن عبد الله، لكونه يعرف تفسير قوله تعالى: إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد «٢» . ورحل مسروق البصرة في تفسير آية، فقيل له: الذي يفسرها رجع إلى الشام، فتجهز ورحل إليه حتى علم تفسيرها.

وقال مجاهد: أحب الخلق إلى الله تعالى أعلمهم بما أنزل.

وما

---

(١) تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل الخازن ٤/٤٤٧

(٢) تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل الخازن ٤/٤٥٧

روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من كونه لا يفسر من كتاب الله إلا آيا بعدد علمه إياهن جبريل عليه السلام» .

محمول ذلك على مغيبات القرآن وتفسيره لمجمله ونحوه، مما لا سبيل إليه إلا بتوقيف من الله تعالى. وما

روي عنه صلى الله عليه وسلم من قوله: «من تكلم في القرآن برأيه فأصاب، فقد أخطأ

محمول على من تسور على تفسيره برأيه، دون نظر في أقوال العلماء وقوانين العلوم، كالنحو واللغة والأصول، وليس من اجتهد ففسر على قوانين العلم والنظر بداخل في ذلك الحديث، ولا هو يفسر برأيه ولا يوصف بالخطأ. والمنقول عنه الكلام في تفسير القرآن من الصحابة جماعة، منهم: علي بن أبي طالب، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن مسعود، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت، وعبد الله بن عمرو بن العاص. فهؤلاء مشاهير من أخذ عنه التفسير من الصحابة، رضي الله تعالى عنهم، وقد نقل عن غير هؤلاء غير ما شيء من التفسير.

ومن المتكلمين في التفسير من التابعين: الحسن بن أبي الحسن، ومجاهد بن جبر، وسعيد بن جبير، وعلقمة، والضحاك بن مزاحم، والسدي، وأبو صالح. وكان الشعبي يطعن على السدي وأبي صالح، لأنه كان يراهما مقصرين في النظر. ثم تتابع الناس في التفسير وألفوا فيه التآليف. وكانت تآليف المتقدمين أكثرها، إنما هي شرح لغة، ونقل سبب، ونسخ، وقصص، لأنهم كانوا قريبي عهد بالعرب، وبلسان العرب. فلما فسد اللسان، وكثرت العجم، ودخل في دين الإسلام أنواع الأمم المختلفو الألسنة، والناقصو

(١) سورة البقرة: ٢/ ٢٦٩.

(٢) سورة القصص: ٢٨/ ٨٥.." (١)

"قال الزمخشري، لما استنكفوا من تمثيل الله لأصنامهم بالمحقرات قال: إن الله لا يستحيي أن يضرب للأنداد ما شاء من الأشياء المحقرة بله فما فوقها، كما يقال، فلان لا يبالي بما وهب ما دينار وديناران، والمختار الوجه الثاني لسهولة تخريجه، لأن الوجه الأول لا يجوز فصيحا على مذهب البصريين، والثاني فيه غرابة واستبعاد عن معنى الاستفهام، وما من قوله: فما معطوفة على قوله بعوضة إن نصبنا لما

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيان الأندلسي ٢٥/١

موصولة وصلتها الظرف، أو موصوفة وصفتها الظرف، والموصوفة أرجح. وإن رفعنا بعوضة، وكانت ما موصولة فعطف ما الثانية عليها أو استفهاما، فذلك من عطف الجمل، أو كانت البعوضة خبرا لهو محذوفة، وما زائدة، أو صفة فعطف على البعوضة، إما موصولة أو موصوفة، وما فوقها الظاهر أنه يعني في الحجم كالذباب والعنكبوت، قاله ابن عباس: ويكون ذكر البعوضة تنبيها على الصغر، وما فوقها تنبيها على الكبر، وبه قال أيضا قتادة، وابن جريج، وقيل: المعنى فما فوقها في الصغر، أي وما يزيد عليها في الصغر، كما تقول: فلان أنذل الناس، فيقال لك: هو فوق ذلك، أي أبلغ وأعرق في النذالة، قاله أبو عبيدة، والكسائي.

وقال ابن قتيبة: فوق من الأضداد ينطلق على الأكثر والأقل، فعلى قول من قال بأن اللفظ المشترك يحمل على معانيه، يكون دلالة على ما هو أصغر من البعوضة وما هو أكبر.

وقيل: أراد ما فوقها وما دونها، فاكتفى بأحد الشيئين عن الآخر لدلالة المعنى عليها، كما اكتفى في قوله: سرابيل تقيكم الحر «١» عن قوله: والبرد، ورجح القول بالفوقية في الصغر بأن المقصود من التمثيل تحقير الأوثان، وكلما كان المشبه به أشد حقارة كان المقصود من هذا الباب أكمل، وبأن الغرض هنا أن الله لا يمتنع عن التمثيل بالشيء الحقير، وبأن الشيء كلما كان أصغر كان الاطلاع على أسراره أصعب. فإذا كان في نهاية الصغر لم يحط به إلا علم الله سبحانه، فكان التمثيل به أقوى في الدلالة على كمال الحكمة من التمثيل بالكبير، والذي نختاره القول الأول لجريان فوق على مشهور ما استقر فيها في اللغة، وفي المعنى الذي أسند الله إليه عدم الاستحياء من أجله في ضرب المثل بهذه المصغرات والمستضعفات وجوه: أحدها: أن البعوضة قد أوجدها على الغاية القصوى من الإحكام وحسن التأليف والنظام، وأظهر فيها، مع صغر حجمها، من بدائع الحكمة كمثل ما أظهره في النيل الذي هو في غاية الكبر وعظم الخلقة. وإذا كل واحد منهما قد استوفى نصاب حسن الصنعة وبدائع التأليف والصنعة، فضرب المثل بالصغير

---

(١) سورة النحل: ١٦/ ٨١. [.....]."(١)

"ومن تظنون أنه عاص فيؤديه الابتلاء إلى الطاعة فيطيع، قاله الزجاج، أو علمه بظواهر الأمور وباطنها، جليها ودقيقها، عاجلها وآجلها، صالحها وفاسدها، على اختلاف الأحوال والأزمان علما حقيقيا، وأنتم لا

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيان الأندلسي ١/١٩٩

تعلمون ذلك، أو علمه بغير اكتساب ولا نظر ولا تدبر ولا فكر، وأنتم لا تعلمون المعلومات على هذا النسق. أو علمه بأن معهم إبليس، أو علمه باستعظامكم أنفسكم بالتسبيح والتقديس. والذي يدل عليه ظاهر اللفظ أنه أخبرهم إذا تكلموا بالجملة السابقة التي هي أتجعل فيها بأنه يعلم ما لا تعلمونه. وأبهم في إخباره الأشياء التي يعلمها دونهم، فإذا كان كذلك، فإخباره بأنه يجعل في الأرض خليفة يقتضي التسليم له والرجوع إليه فيما أراد أن يفعله والرضا بذلك، لأن علمه محيط بما لا يحيط به علم عالم، جل الله وعز. والأحسن أن يفسر هذا المبهم بما أخبر به تعالى عنه من قوله، قال: ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات والأرض الآية.

وعلم آدم الأسماء كلها: لما أخبر تعالى الملائكة عن وجه **الحكمة في** خلق آدم وذريته على سبيل الإجمال، أراد أن يفصل، فبين لهم من فضل آدم ما لم يكن معلوما لهم، وذلك بأن علمه الأسماء ليظهر فضله وقصورهم عنه في العلم، فتأكد الجواب الإجمالي بالتفضيل. ولا بد من تقدير جملة محذوفة قبل هذا، لأنه بها يتم المعنى ويصح هذا العطف، وهي: فجعل في الأرض خليفة. ولما كان لفظ الخليفة محذوفا مع الجملة المقدرة، أبرزه في قوله: وعلم آدم، ناصا عليه ومنوها بذكره باسمه. وأبعد من زعم أن: وعلم آدم معطوف على قوله، قال من قوله تعالى: وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل. وهل التعليم بتكليم الله تعالى له في السماء، كما كلم موسى في الأرض، أو بوساطة ملك أو بالإلهام؟ أقوال أظهرها أن الباري تعالى هو المعلم، لا بواسطة ولا إلهام.

وقرأ اليماني ويزيد اليزيدي: وعلم آدم مبنيا للمفعول، وحذف الفاعل للعلم به والتضعيف في علم للتعدية، إذ كان قبل التضعيف يتعدى لواحد، فعدى به إلى اثنين. وليست التعدية بالتضعيف مقيسة، إنما يقتصر فيه على مورد السماع، سواء كان الفعل قبل التضعيف لازما أم كان متعديا، نحو: علم المتعدية إلى واحد. وأما إن كان متعديا إلى اثنين، فلا يحفظ في شيء منه التعدية بالتضعيف إلى ثلاث. وقد وهم القاسم بن علي الحريري في زعمه في شرح الملحة له أن علم تكون منقولة من علم التي تتعدى إلى اثنين فتصير بالتضعيف متعدية إلى ثلاثة، ولا يحفظ ذلك من كلامهم.

وقد ذهب بعض النحويين إلى اقتياس التعدية بالتضعيف. قال الإمام أبو الحسين بن." (١)

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيان الأندلسي ٢٣٤/١

"يعلمونها وما أعلمهم ذلك؟ ولما نفوا العلم عن أنفسهم أثبتوه لله تعالى على أكمل أوصافه من المبالغة فيه، ثم أردفوا الوصف بالعلم، الوصف بالحكمة، لأنه سبق قوله: إني جاعل في الأرض خليفة. فلما صدر من هذا المجعول خليفة، ما صدر من فضيلة العلم تبين لهم وجه **الحكمة في** قوله: وجعله خليفة.

فانظر إلى حسن هذا الجواب كيف قدموا بين يديه تنزيه الله، ثم اعترفوا بالجهل، ثم نسبوا إلى الله العلم والحكمة، وناسب تقديم الوصف بالعلم على الوصف بالحكمة، لأنه المتصل به في قوله: وعلم، أنب◌ئوني، لا علم لنا. فالذي ظهرت به المزية لآدم والفضيلة هو العلم، فناسب ذكره متصلا به، ولأن الحكمة إنما هي آثار العلم وناشئة عنه، ولذلك أكثر ما جاء في القرآن تقديم الوصف بالعلم على الوصف بالحكمة. ولأن يكون آخر مقالهم مخالفا لأوله حتى يبين رجوعهم عن قولهم: أتجعل فيها، وعلى القول بأن الحكيم هو ذو الحكمة، يكون الحكيم صفة ذات، وعلى القول بأنه المحكم لصنعته يكون صفة فعل. وأنت: يحتمل أن يكون توكيدا للضمير، فيكون في موضع نصب، أو مبتدأ فيكون في موضع رفع، والعليم خبره، أو فضلا فلا ي◌كون له موضع من الإعراب، على رأي البصريين، ويكون له موضع من الإعراب على رأي الكوفيين. فعند الفراء موضعه على حسب الاسم قبله، وعند الكسائي على حسب الاسم بعده، والأحسن أن يحمل العليم الحكيم على العموم، وقد خصه بعضهم فقال: العليم بما أمرت ونهيت، الحكيم فيما قدرت وقضيت. وقال آخر: العلم بالسر والعلانية، والحكيم فيما يفعله وهو قريب من الأول.

قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم: نادى آدم باسمه العلم، وهي عادة الله مع أنبيائه، قال تعالى: يا نوح اهبط بسلام منا «١» ، يا نوح إنه ليس من أهلك «٢» ، يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا «٣» ، يا موسى إني أنا الله «٤» ، يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك «٥» ، ونادى محمدا نبينا صلى الله عليه وسلم وعلى سائر الأنبياء بالوصف الشريف من الإرسال والإنباء فقال: يا أيها الرسول «٦» يا أيها النبي «٧» . فانظر تفاوت ما بين هذا النداء

---

(١) سورة هود: ١١/ ٤٨.

(٢) سورة هود: ١١/ ٤٦.

(٣) سورة الصافات: ٣٧/ ١٠٤- ١٠٥.

(٤) سورة القصص: ٢٨/ ٣٠.

(٥) سورة المائدة: ٥/ ١١٠.

(٦) سورة المائدة: ٥/ ٤١.

(٧) سورة الأنفال: ٨/ ٦٤ و ٦٥ و ٦٧.." [١]

"قريت، وأخطيت، وتوضيت، قال: وربما حولوه إلى الواو، وهو قليل، نحو: رفوت، والجيد: رفأت، ولم أسمع: رفيت. انتهى كلام الأخفش. ودل ذلك على أنه ليس من ضرائر الشعر، كما ذكر أبو الفتح، وهو قوله تعالى: أنبئهم بأسمائهم. وقوله: فلما أنبأهم بأسمائهم: جملة محذوفة، التقدير: فأنبئهم بها، فلما أنبأهم حذفت لفهم المعنى، وفي قوله: أنبئوني، فلما أنبأهم تنبيه على إعلام الله أنه قد أعلم الله أنه قد أعلم آدم من أحوالهم ما لم يعلمهم من حاله، لأنهم رأوه قبل النفخ مصورا، فلم يعلموا ما هو، وعلى أنه رفع درجة آدم عندهم، لكونه قد علم لآدم ما لم يعلمهم، وعلى إقامته مقام المفيد المعلم، وإقامتهم مقام المستفيدين منه، لأنه أمره أن يعلمهم أسماء الذين عرضهم عليهم وعلى أدبهم على ترك الأدب من حيث قالوا: أتجعل فيها، فإن الطواعية المحضة أن يكونوا مع عدم العلم بالحكمة فيما أمروا به، وعدم الاطلاع على ذلك الأمر ومصلحته ومفسدته كهم مع العلم والاطلاع. وكان الامتثال والتسليم، بغير تعجب ولا استفهام، أليق بمقامهم لطهارة ذواتهم وكمال صفاتهم.

وفي كتاب بعض من عاصرناه، قالت المعتزلة: ظهر من آدم عليه السلام في علمه بالأسماء معجزة دالة على نبوته في ذلك الوقت، والأقرب أنه كان مبعوثا إلى حواء، ولا يبعد أن يكون أيضا مبعوثا إلى من توجه التحدي إليهم من الملائكة، لأن جميعهم، وإن كانوا رسلا، فقد يجوز الإرسال إلى الرسول، كبعثه إبراهيم عليه السلام إلى لوط عليه السلام، واحتجوا بكونه ناقضا للعادة. ولقائل أن يقول: حصول العلم باللغة لمن علمه الله وعدم حصوله لمن لم يعلم ليس بناقض للعادة. وأيضا، فالملائكة أما أن علموا وضع تلك الأسماء للمسميات فلا مزية أو لا، فكيف علموا إصابته في ذلك؟ والجواب من وجهين:

أحدهما: أنه ربما يكون لكل صنف منهم لغة، ثم حضر جميعهم فعرف كل صنف إصابته في تلك اللغة، إلا أنهم بأسرهم عجزوا عن معرفتها بأسرها. الثاني: أن الله عرفهم الدليل على صدقه، ولم لا يكون من باب الكرامات أو من باب الإرهاص؟ واحتج من قال: لم يكن نبيا، بوجوه: أحدها: صدور المعصية عنه بعد،

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيان الأندلسي ١/٢٣٩

وذلك غير جائز على النبي.

وثانيها: أنه لو كان مبعوثا لكان إلى أحد، لأن المقصود منه التبليغ، وذلك لا يكون الملائكة، لأنهم أفضل، ولا حواء، لأنها مخاطبة بلا واسطة بقوله: ولا تقربا، ولا الجن، لأنهم لم يكونوا في السماء. وثالثها: قوله: ثم اجتباه، وهذا يدل على أن الاجتباء كان بعد الزلة، والنبي لا بد أن يكون مجتبى وقت كونه نبيا.." (١)

"إلى دار الجزاء، فيرغب المشتغل بها في الآخرة، ويرغب عن الدنيا. وناهيك من عبادة تتكرر على الإنسان في اليوم والليل خمس مرات، يناجي فيها ربه ويستغفر ذنبه. وبهذا الذي ذكرناه تظهر الحكمة في أن أمروا بالاستعانة بالصبر والصلاة. ويبعد دعوى من قال:

إنه خطاب للمؤمنين برسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: لأن من ينكره لا يكاد يقال له استعن بالصبر والصلاة. قال: ولا يبعد أن يكون الخطاب أولا لبني إسرائيل، ثم يقع بعد الخطاب للمؤمنين، والذي يظهر أن ذلك كله خطاب لبني إسرائيل، لأن صرف الخطاب إلى غيرهم لغير موجب، ثم يخرج عن نظم الفصاحة.

وإنها لكبيرة: الضمير عائد على الصلاة. هذا ظاهر الكلام، وهو القاعدة في علم العربية: أن ضمير الغائب لا يعود على غير الأقرب إلا بدليل، وقيل: يعود على الاستعانة، وهو المصدر المفهوم من قوله: واستعينوا، فيكون مثل اعدلوا هو أقرب للتقوى «١» ، أي العدل أقرب، قاله البجلي. وقيل: يعود على إجابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، لأن الصبر والصلاة مما كان يدعو إليه، قاله الأخفش. وقيل: على العبادة التي يتضمنها بالمعنى ذكر الصبر والصلاة. وقيل: يعود على الكعبة، لأن الأمر بالصلاة إليها. وقيل: يعود على جميع الأمور التي أمر بها بنو إسرائيل ونهوا عنها، من قوله: اذكروا نعمتي إلى واستعينوا. وقيل: المعنى على التثنية، واكتفى بعوده على أحدهما، فكأنه قال: وإنهما كقوله: والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها «٢» في بعض التأويلات، وكقوله:

والله ورسوله أحق أن يرضوه، وقول الشاعر:

إن شرخ الشباب والشعر الأسود ما لم يعاص كان جنونا فهذه سبعة أقوال فيما يعود الضمير عليه، وأظهرها ما بدأنا به أولا، قال مؤرج في عود الضمير: لأن الصلاة أهم وأغلب، كقوله تعالى: انفضوا إليها «٣» ،

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيان الأندلسي ٢٤١/١

انتهى. يعني أن ميل أولئك الذين انصرفوا في الجمعة إلى التجارة أهم وأغلب من ميلهم إلى اللهو، فلذلك كان عود الضمير عليها، وليس يعني أن الضميرين سواء في العود، لأن العطف بالواو يخالف العطف بأو، فالأصل في العطف بالواو مطابقة الضمير لما قبله في تثنية وجمع، وأما العطف بأو فلا يعود الضمير فيه إلا على أحد ما سبق. ومعنى كبر الصلاة: ثقلها وصعوبتها

---

(١) سورة المائدة: ٥/ ٨.

(٢) سورة التوبة: ٩/ ٣٤.

(٣) سورة الجمعة: ٦٢/ ١١.." (١)

"عبد الله: كونوا في أول صف في القتال. وقال أنس: اشهدوا تكبيرة الإحرام مع الإمام.

وقال علي: كن أول داخل في المسجد وآخر خارج.

واستدل بهذا السبق على أن أول أوقات الصلوات أفضل، وجاء لفظ سابقوا كأنهم في مضمار يجرون إلى غاية مسابقين إليهم. عرضها: أي مساحتها في السعة، كما قال: فذو دعاء عريض، أو العرض خلاف الطول. فإذا وصف العرض بالبسطة، عرف أن الطول أبسط وأمد. أعدت: يدل على أنها مخلوقة، وتكرر ذلك في القرآن يقوي ذلك، والسنة ناصة على ذلك، وذلك يرد على المعتزلة في قولهم: إن◌◌ها الآن غير مخلوقة وستخلق. ذلك: أي الموعود من المغفرة والجنة، فضل الله: عطاؤه، يؤتيه من يشاء: وهم المؤمنون. ما أصاب من مصيبة: أي مصيبة، وذكر فعلها، وهو جائز التذكير والتأنيث، ومن التأنيث ما تسبق من أمة أجلها «١» . ولفظ مصيبة يدل على الشر، لأن عرفها ذلك. قال ابن عباس ما معناه: أنه أراد عرف المصيبة، وهو استعمالها في الشر، وخصصها بالذكر لأنها أهم على البشر. والمصيبة في الأرض مثل القحط والزلزلة وعاهة الزرع، وفي الأنفس: الأسقام والموت. وقيل: المراد بالمصيبة الحوادث كله◌ا من خير وشر، إلا في كتاب: هو اللوح المحفوظ، أي مكتوبة فيه، من قبل أن نبرأها: أي نخلقها. برأ:

خلق، والضمير في نبرأها الظاهر أنه يعود على المصيبة، لأنها هي المحدث عنها، وذكر الأرض والأنفس هو على سبيل محل المصيبة. وقيل: يعود على الأرض. وقيل: على الأنفس، قاله ابن عباس وقتادة وجماعة. وذكر المهدوي جواز عود الضمير على جميع ما ذكر. قال ابن عطية: وهي كلها معارف صحاح، لأن

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيان الأندلسي ١/٢٩٩

الكتاب السابق أزلي قبل هذه كلها. انتهى. إن ذلك: أي يحصل كل ما ذكر في كتاب وتقديره، على الله يسير:

أي سهل، وإن كان عسيرا على العباد.

ثم بين تعالى الحكمة في إعلامنا بذلك الذي فعله من تقدير ذلك، وسبق قضائه به فقال: لكيلا تأسوا: أي تحزنوا، على ما فاتكم، لأن العبد إن أعلم ذلك سلم، وعلم أن ما فاته لم يكن ليصيبه، وما أصابه لم يكن ليخطئه، فلذلك لا يحزن على فائت، لأنه ليس بصدد أن يفوته، فهون عليه أمر حوادث الدنيا بذلك، إذ قد وطن نفسه على هذه العقيدة. ويظهر أن المراد بقوله: لكيلا تحزنوا على ما فاتكم: أن يلحق الحزن الشديد على ما فات من الخير، فيحدث عنه التسخط وعدم الرضا بالمقدور.

---

(١) سورة الحجر: ١٥/ ٥، وسورة المؤمنون: ٢٣/ ٤٣.." (١)

"فآمنوا بالله ورسوله: وهو محمد صلى الله عليه وسلم، والنور الذي أنزلنا: هو القرآن، وانتصب يوم يجمعكم بقوله: لتنبؤن، أو بخبير، بما فيه من معنى الوعيد والجزاء، أو باذكر مضمرة، قاله الزمخشري والأول عن النحاس، والثاني عن الحوفي. وقرأ الجمهور: يجمعكم بالياء وضم العين وروي عنه سكونها وإشمامها الضم وسلام ويعقوب وزيد بن علي والشعبي: بالنون. ليوم الجمع: يجمع فيه الأولون والآخرون، وذلك أن كل واحد يبعث طامعا في الخلاص ورفع المنزلة. ذلك يوم التغابن: مستعار من تغابن القوم في التجارة، وهو أن يغبن بعضهم بعضا، لأن السعداء نزلوا منازل الأشقياء لو كانوا سعداء، ونزل الأشقياء منازل السعداء لو كانوا أشقياء،

وفي الحديث: «ما من عبد يدخل الجنة إلا أرى مقعده من النار لو أساء ليزداد شكرا، وما من عبد يدخل النار إلا أرى مقعده من الجنة لو أحسن ليزداد حسرة»

، وذلك معنى يوم التغابن. وعن مجاهد وغيره: إذا وقع الجزاء، غبن المؤمنون الكافرين لأنهم يجوزون الجنة وتحصل الكفار في النار. وقرأ الأعرج وشيبة وأبو جعفر وطلحة ونافع وابن عامر والمفضل عن عاصم وزيد بن علي والحسن بخلاف عنه: نكفر وندخله بالنون فيهما والأعمش وعيسى والحسن وباقي السبعة: بالياء فيهما.

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيان الأندلسي ١١١/١٠

قوله عز وجل: ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله ومن يؤمن بالله يهد قلبه والله بكل شيء عليم، وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن توليتم فإنما على رسولنا البلاغ المبين، الله لا إله إلا هو وعلى الله فليتوكل المؤمنون، يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم، إنما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم، فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا خيرا لأنفسكم ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون، إن تقرضوا الله قرضا حسنا يضاعفه لكم ويغفر لكم والله شكور حليم، عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم.

الظاهر إطلاق المصيبة على الرزية وما يسوء العبد، أي في نفس أو مال أو ولد أو قول أو فعل، وخصت بالذكر، وإن كان جميع الحوادث لا تصيب إلا بإذن الله. وقيل:

ويحتمل أن يريد بالمصيبة الحادثة من خير وشر، إذ الحكمة في كونها بإذن الله. وما نافية، ومفعول أصاب محذوف، أي ما أصاب أحدا، والفاعل من مصيبة، ومن زائدة، ولم تلحق التاء أصاب، وإن كان الفاعل مؤنثا، وهو فصيح، والتأنيث لقوله تعالى: ما تسبق من أمة." (١)

"وجملة الأمر بالشكر، وجملة النهي عن الكفران. فبدىء أولا بجملة الذكر، لأنه أريد به الثناء والمدح العام والحمد له تعالى، وذكر له جواب مترتب عليه. وثنى بجملة الشكر، لأنه ثناء على شيء خاص، وقد اندرج تحت الأول، فهو بمنزلة التوكيد، فلم يحتج إلى جواب. وختم بجملة النهي، لأنه لما أمر بالشكر، لم يكن اللفظ ليدل على عموم الأزمان، ولا يمكن التكليف باستحضار الشكر في كل زمان، فقد يذهل الإنسان عن ذلك في كثير من الأوقات. ونهى عن الكفران، لأن النهي يقتضي الامتناع من المنهي عنه في كل الأزمان، وذلك ممكن لأنه من باب التروك. وقد تقدم لنا الكلام على أنه إذا كان أمر ونهي، بدىء بالأمر. وذكرنا الحكمة في ذلك في قوله: وآمنوا بما أنزلت مصدقا لما معكم ولا تكونوا أول كافر به»

، فأغنى عن إعادته هنا.

يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة، قيل: سبب نزول هذه الآية أن المشركين قالوا: سيرجع محمد إلى ديننا، كما رجع إلى قبلتنا. هزهم بهذا النداء المتضمن هذا الوصف الشريف، وهو الإيمان مجعولا فعلا ماضيا في صلة الذين، دالا على الثبوت والالتباس به في تقدم زمانهم، ليكونوا أدعى لقبول ما يرد عليهم

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيان الأندلسي ١٠/١٩٠

من الأمر والتكليف الشاق، لأن الصبر والصلاة هما ركنا الإسلام. فالصبر قصر النفس على المكاره والتكاليف الشاقة، وهو أمر قلبي والصلاة ثمرته، وهي من أشق التكاليف لتكررها.

ومناسبة هذه الآية لما قبلها ظاهرة، لأنهم سمعوا من طعن الكفار على التوجه إلى الكعبة والصلاة إليها أذى كثيرا، فأمروا عند ذلك بالاستعانة بالصبر والصلاة. وقد قيد بعضهم الصبر هنا: بأنه الصبر على أذى الكفار بالطعن على التحول والصلاة إلى الكعبة، وبعضهم بالصبر على أداء الفرائض. وروي عن ابن عباس وبعضهم قال: هو كناية عن الصوم، ومنه قيل لرمضان: شهر الصبر، وبعضهم قال: هو كناية عن الجهاد لقوله، بعد: ولا تقولوا لمن يقتل، وهو قول أبي مسلم. والأولى ما قدمناه من عموم اللفظ، فتندرج هذه الأفراد تحته.

وروي عن علي كرم الله وجهه أنه قال: الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، ولا خير في جسد لا رأس له.

وقد تقدم الكلام على شرح هذه الجملة من قوله: استعينوا بالصبر والصلاة.

إن الله مع الصابرين: أي بالمعونة والتأييد، كما قال: اهجهم، وروح القدس

---

(١) سورة البقرة: ٢/ ٤١.." (١)

"يخلق ألبتة وقت الخطاب، ثم خلق شكلا مباينا لسائر الأشكال ذوات الأنياب، فيندرج فيه، ويحكم بالنهي عنه. وإنما تمثيل الزمخشري بالإيمان، فللإيمان أحكام منوطة بها، ويؤول التحقيق فيها إلى أن ذلك تخصيص للعموم بإرادة خروج بعض الأفراد منه.

والميتة: ما مات دون ذكاة مما له نفس سائلة. واختلف في السمك الطافي، وهو ما مات في الماء فطفا. فذهب مالك وغيره أنه حلال. ومذهب العراقيين أنه ممنوع من أكله.

وفي كلام بعض الحنفيين عن أبي حنيفة أنه مكروه. وأما ما مات من الجراد بغير تسبب، فهو عند مالك وجمهور أصحابه أنه حرام، وعند ابن عبد الحكم وابن نافع حلال، وعند ابن القاسم وابن وهب وأشهب وسحنون تقييدات في الجراد ذكرت في كتب المالكية. هذا حكم الميتة بالنسبة إلى الأكل. وأما الانتفاع بشيء منها، نحو: الجلد، والشعر، والريش، واللبن، والبيض، والأنفحة، والجنين، والدهن، والعظم، والقرن،

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيان الأندلسي ٢/٥١

والناب، والغصب، فذلك مذكور في كتب الفقه، ولهم في ذلك اختلاف وتقييد كثير يوقف على ذلك في تصانيفهم.

والدم: ظاهره العموم، ويتخصص بالمسفوح لآية الأنعام. فإذا كان مسفوحا، فلا خلاف في نجاسته وتحريمه. وفي دم السمك المزايل له في مذهب مالك قولان:

أحدهما: أنه طاهر، ويقتضي ذلك أنه غير محرم. وأجمعوا على جواز أكل الدم المتحلل بالعروق واللحم الشاق إخراجه، وكذلك الكبد والطحال. وذكر المفسرون في يسير الدم المسفوح الخلاف في العفو عنه، وفي مقدار اليسير، والخلاف في دم البراغيث والبق والذباب، وهذا كله من علم الفقه، فيطالع في كتب الفقه. ولم يذكر الله تعالى حكمة في تحريم أكل الميتة والدم، ولا جاء نص عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك. ولو تعبدنا تعالى بجواز أكل الميتة والدم، لكان ذلك شرعا يجب اتباعه. وقد ذكروا أن الحكمة في تحريم الميتة جمود الدم فيها بالموت، وأنه يحدث أذى للآكل. وفي تحريم الدم أنه بعد خروجه يجمد، فهو في الأذى كالجامد في الميتة، وهذا ليس بشيء، لأن الحس يكذب ذلك. وجدنا من يأكل الميتة، ويشرب الدم من الأمم، صورهم وسحنهم من أحسن ما يرى وأجمله، ولا يحدث لهم أذى بذلك.

ولحم الخنزير: ظاهره أن المحرم منه هو لحمه فقط. وقد ذهب إلى ذلك داود، رأس الظاهرية، فقال: المحرم اللحم دون الشحم. وقال غيره من سائر العلماء: المحرم لحمه وسائر أجزائه. وإنما خص اللحم بالذكر، والمراد جميع أجزائه، لكون اللحم هو." (١)

"والكاف: خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم، و: يسألونك، خبر، فإن كانت الآية نزلت قبل السؤال كان ذلك من الإخبار بالمغيب: وإن كانت نزلت بعد السؤال، وهو المنقول في أسباب النزول، فيكون ذلك حكاية عن حال مضت.

و: عن، متعلقة بقوله: يسألونك، يقال: سأل به وعنه، بمعنى واحد، ولا يراد بذلك السؤال عن ذات الأهلة، بل عن حكمة اختلاف أحوالها، وفائدة ذلك، ولذلك أجاب بقوله: قل هي مواقيت للناس فلو كانت على حالة واحدة ما حصل التوقيت بها.

والهلال هو مفرد وجمع باختلاف أزمانه، قالوا: من حيث كونه هلالا في شهر، غير كونه هلالا في آخر.

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيان الأندلسي ١١٣/٢

وقرأ الجمهور: عن الأهلة، بكسر النون وإسكان لام الأهلة بعدها همزة، وورش على أصله من نقل حركة الهمزة وحذف الهمزة، وقرأ شاذا بإدغام نون: عن في لام الأهلة بعد النقل والحذف.

قل هي أي: الأهلة مواقيت للناس هذه: **الحكمة في** زيادة القمر ونقصانه إذ هي كونها مواقيت في الآجال، والمعاملات، والأيمان، والعدد، والصوم، والفطر، ومدة الحمل والرضاع، والنذور المعلقة بالأوقات، وفضائل الصوم في الأيام التي لا تعرف إلا بالأهلة. وقد ذكر تعالى هذا المعنى في قوله: وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب «١» وفي قوله: فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب «٢» .

وقال الراغب: الوقت الزمان المفروض للعمل، ومعنى: مواقيت للناس أي ما يتعلق بهم من أمور معاملاتهم ومصالحهم. انتهى.

وقال الرماني: الوقت مقدار من الزمان محدد في ذاته، والتوقيت تقدير حده، وكلما قدرت له غاية فهو موقت، والميقات منتهى الوقت، والآخرة منتهى الخلق، والإهلال ميقات الشهر، ومواضع الإحرام مواقيت الحج، لأنها مقادير ينتهي إليها، والميقات مقدار جعل علما لما يقدر من العمل. انتهى كلامه.

وفي تغيير الهلال بالنقص والنماء رد على الفلاسفة في قولهم: إن الإحرام الفلكية

---

(١) سورة يونس: ١٠/ ٥.

(٢) سورة الإسراء: ١٧/ ١٢.." (١)

"العادة به قبل الحج أن يفعلوه، في الحج، ولما ذكر سؤالهم عن الأهلة بسبب النقصان والزيادة، وما حكمة ذلك، وكان من المعلوم أنه تعالى حكيم، فأفعاله جارية على الحكمة، رد عليهم بأن ما يفعلونه من إتيان البيوت من ظهورها، إذا أحرموا، ليس من **الحكمة في** شيء، ولا من البر، أو لما وقعت القصتان في وقت واحد نزلت الآية فيهما معا، ووصل إحداهما بالأخرى.

وأما حمل الإتيان والبيوت على المجاز ففيه أقوال.

أحدها: أن ذلك ضرب، مثل: المعنى ليس البر أن تسألوا الجهال، ولكن اتقوا واسألوا العلماء. فهذا كما يقال: أتيت الأمر من بابه، قاله أبو عبيدة.

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيان الأندلسي ٢/٢٣٥

الثاني: أنه ذكر إتيان البيوت من أبوابها مثلا لمخالفة الواجب في الحج، وذلك ما كانوا يعملونه في النسيء، فإنهم كانوا يخرجون الحج عن وقته الذي عينه الله تعالى، فيحرمون الحلال ويحلون الحرام، فضرب مثلا للمخالفة، وقيل: واتقوا الله تحت إتيان كل واجب في اجتناب كل محرم. قاله أبو مسلم.

الثالث: أن إتيان البيوت من ظهورها كناية عن العدول عن الطريق الصحيح، وإتيانها كناية عن التمسك بالطريق الصحيح، وذلك أن الطريق المستقيم أن يستدل بالمعلوم على المظنون، وقد ثبت أن الصانع حكيم لا يفعل إلا الصواب، وقد عرفنا أن اختلاف أحوال القمر في نوره من فعله، فيعلم أن فيه مصلحة وحكمة، فهذا استدلال بالمعلوم على المجهول. أما أن نستدل بعدم علمنا بما فيه من الحكمة على أن فاعله ليس بحكيم فهذا استدلال بالمجهول على المعلوم، فالمعنى: أنكم لما لم تعلموا حكمته في اختلاف القمر، صرتم شاكين في حكمة الخالق، فقد أتيتم ما تظنونه برا، إنما البر أن تأتوا البيوت من أبوابها فتستدلوا بالمعلوم، وهو حكمة الخالق على المجهول، فتقطعوا أن فيه حكمة بالغة، وإن كنتم لا تعلمون، قاله في (ري الظمآن) وهو قول ملفق من كلام الزمخشري.

قال الزمخشري: ويحتمل أن يكون هذا تمثيلا لتعكيسهم في سؤالهم، وأن مثلهم فيه كمثل من يترك باب البيت ويدخله من ظهره، والمعنى: ليس البر، وما ينبغي أن يكونوا عليه، بأن تعكسوا في مسائلكم، ولكن البر بر من اتقى ذلك وتجنبه، ولم يجسر على مثله.

ثم قال: وأتوا البيوت من أبوابها أي: وباشروا الأمور من وجوهها التي يجب أن." (١)

"ويحذر تجب صيانة اسمه وتنزيهه عما لا يليق به من كونه يذكر في كل ما يحلف عليه، من قليل أو كثير، عظيم أو حقير، لأن كثرة ذلك توجب عدم الاكتراث بالمحلوف به.

وقد تكون المناسبة بأنه تعالى لما أمر المؤمنين بالتحرز في أفعالهم السابقة من: الخمر، والميسر، وإنفاق العفو، وأمر اليتامى، ونكاح من أشرك، وحال وطء الحائض، أمرهم تعالى بالتحرز في أقوالهم، فانتظم بذلك أمرهم بالتحرز في الأفعال والأقوال.

واختلفوا في فهم هذه الجملة من قوله ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم وهو خلاف مبني على الاختلاف في اشتقاق العرضة، فقيل: نهوا عن أن يجعلوا الله معدا لأيمانهم فيحلفوا به في البر والفجور، فإن الحنث مع الإكثار فيه قلة رعي بحق الله تعالى، كما روي عن عائشة أنها نزلت في تكثير اليمين بالله، نهي أن

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيان الأندلسي ٢/٢٣٨

يحلف الرجل به برا فكيف فاجرا؟ وقد ذم الله من أكثر الحلف بقوله: ولا تطع كل حلاف مهين «١» وقال: واحفظوا أيمانكم «٢» .

والعرب تمدح بالإقلال من الحلف قال كثير:

قليل الألايا حافظ ليمينه ... إذا صدرت منه الألية برت

والحكمة في النهي عن تكثير الأيمان بالله أن ذلك لا يبقي لليمين في قلبه وقعا، ولا يؤمن من إقدامه على اليمين الكاذبة، وذكر الله أجل من أن يستشهد به في الأعراض الدنيوية.

وقيل: المعنى: ولا تجعلوا الله قوة لأيمانكم، وتوكيدا لها، وروي عن قريب من هذا المعنى عن: ابن عباس، وإبراهيم، ومجاهد، والربيع، وغيرهم قال: المعنى: فيما تريدون الشدة فيه من ترك صلة الرحم، والبر والإصلاح، وقيل: المعنى: ولا تجعلوا الله حاجزا ومانعا من البر والإصلاح، ويؤكده قول من قال: نزلت في عبد الله بن رواحة، أو في أبي بكر على ما تقدم في سبب النزول، فيكون المعنى: أن الرجل كان يحلف على بعض الخيرات من صلة رحم، وإصلاح ذات بين، أو إحسان إلى أحد، أو عبادة، ثم يقول: أخاف الله أن أحنث في يميني، فيترك البر في يمينه، فنهوا أن يجعلوا الله حاجزا لما حلفوا عليه.

لأيمانكم تحتمل اللام أن تكون متعلقة، بعرضة، فتكون كالمقوية للتعدي، أو معدا ومرصدا لأيمانكم، ويحتمل أن تكون متعلقة بقوله: ولا تجعلوا فتكون للتعليل، أي:

لا تجعلوا الله عرضة لأجل أيمانكم.

---

(١) سورة القلم: ٦٨/ ١٠.

(٢) سورة المائدة: ٥/ ٨٩.." (١)

"لا بالنسب، ودل أيضا على أنه لا حظ للنسب مع العلم، وفضائل النفس، وأنها مقدمة عليه لاختيار الله طالوت عليهم، لعلمه وقدرته، وإن كانوا أشرف منه نسبا.

وقد تضمنت هذه الآيات الشريفة الإخبار بقصة الخارجين من ديارهم، وهم عالم لا يحصون، فرارا من الموت، إما بالقتل إذ فرض عليهم القتال، وإما بالوباء، فأماتهم الله ثم أحياهم ليعلموا أنه لا مفر مما قدره الله تعالى، وذلك لئلا نسلك ما سلكوه، فنحجم عن القتال، فأتت هذه الآية مثبتة لمن جاهد في سبيله،

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيان الأندلسي ٤٣٩/٢

وذكر تعالى أنه ذو فضل على الناس، وذلك بإحيائهم والإحسان إليهم، ومع ذلك فأكثرهم لا يؤدي شكر الله. ثم أمر بالقتال في سبيل الله، وبأن نعلم أنه سميع لأقوالنا، عليم بنياتنا، ثم ذكر أن من أقرض الله فالله يضاعفه حيث يحتاج إليه، ثم ذكر أن بيده القبض والبسط، وأن مرجع الكل إليه، ثم أخبر تعالى بقصة الملإ من بني إسرائيل، وذلك لنعتبر بها وتقتدي منها بما كان من أحوالهم حسنا، ونجتنب ما كان قبيحا. وهذه الحكمة في قصص الأولين علينا لنعتبر بها، وأنهم حين استولى عليهم العدو، فملك بلادهم وأسر أبناءهم، ولم يكن لهم ملك يسوسهم في أمر الحرب، إذ هي محتاجة إلى من يصدر عن أمره ويجتمع عليه، فسألوا نبيهم أن ينهض.

لهم ملكا برسم الجهاد في سبيل الله، فتوقع النبي منهم أنه لو فرض عليهم القتال نكصوا عنه، فأجابوه: بأنا قد وترنا، وأخرجنا من ديارنا، وأبنائنا، وهذا أصعب شيء على النفوس، وهو أن يخرج من مسكن ألفه، ويفرق بينه وبين أبنائه، ولهذا دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«اللهم حبب لنا المدينة كحبنا مكة أو أكثر» . وكثيرا ما بكى الشعراء المساكن والمعاهد، ألا ترى إلى قول بلال:

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة ... بواد وحولي إذخر وجليل

وكان قتيبة بن سعيد المحدث قد رزق من النصيب في الدنيا والجلالة، وحمل الناس العلم عنه، وكان ببغداد، فعبر مرة على مكان مولده ومنشئه صغيرا ببغلان، قيل: وهي ضيعة من أصغر الضياع، فتمنى أن لو كان مقيما بها، ويترك رئاسة بغداد، دار الخلافة، وذلك نزوع إلى الوطن، وذكر تعالى أنه لما فرض القتال عليهم: أعرضوا عن قبوله إلا قليلا فإنه أخذ أمر الله بالقبول، ثم عرض تعالى بالظالمين، وهم: الذين لم يقبلوا أمر الله بعد أن كانوا طلبوه، فهو يجازيهم على ظلمهم، ثم أخبر تعالى عن نبيهم أنه قال لهم عن الله إنه قد بعث طالوت ملكا عليهم، ولم يكن عندهم من أنفسهم ولا أشرفهم منصبا، إذ ليس من." (١)

"من هداه سبل الخير اهتدى ... ناعم البال ومن شاء أضل

ولكن الله يفعل ما يريد هذا يدل على أن ما أراد الله فعله فهو كائن لا محالة، وإن ارادة غيره غيره مؤثرة، وهو تعالى المستأثر بسر الحكمة فيما قدر وقضى من خير وشر، وهو فعله تعالى. وقال الزمخشري: ولكن الله يفعل ما يريد من الخذلان والعصمة، وهذا على طريقة الاعتزالية.

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيان الأندلسي ٢/٥٧٧

قيل: وتضمنت هذه الآية الكريمة من أنواع البلاغة: التقسيم، في قوله: منهم من كلم الله بلا واسطة، ومنهم من كلمه بواسطة، وهذا التقسيم اقتضاه المعنى، وفي قوله فمنهم من آمن ومنهم من كفر وهذا التقسيم ملفوظ به. و: الاختصاص، مشارا إليه ومنصوبا عليه، و: التكرار، في لفظ البينات، وفي ولو شاء الله ما اقتتلوا على أحد التأويلين. و: الحذف، في قوله منهم من كلم الله أي كفاحا وفي قوله يفعل ما يريد يعني من هداية من شاء وضلالة من شاء.

يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم مناسبة هذه الآية لما قبلها هو أنه لما ذكر أن الله تعالى أراد الاختلاف إلى مؤمن وكافر، وأراد الاقتتال، وأمر به المؤمنين، وكان الجهاد يحتاج صاحبه إلى الإعانة عليه، أمر تعالى بالنفقة من بعض ما رزق، فشمل النفقة في الجهاد، وهي، وإن لم ينص عليها، مندرجة في قوله: أنفقوا، وداخلة فيها دخولا أوليا، إذ جاء الأمر بها عقب ذكر المؤمن والكافر واقتتالهم، قال ابن جريج، والأكثرون: الآية عامة في كل صدقة واجبة أو تطوع. وقال الحسن: هي في الزكاة، والزكاة منها جزء للمجاهدين، وقاله الزمخشري، قال: أراد الإنفاق الواجب لاتصال الوعيد به من قبل أن يأتي يوم لا تقدرون فيه على تدارك ما فاتكم من الإنفاق، لأنه لا بيع فيه حتى تبتاعوا ما تنفقونه، ولا خلة حتى تسامحكم أخلاؤكم به، وإن أردتم أن يحط عنكم ما في ذمتكم من الواجب لم تجدوا شفيعا يشفع لكم في حط الواجبات، لأن الشفاعة ثم في زيادة الفضل لا غير، والكافرون هم الظالمون أراد: والتاركون الزكاة هم الظالمون، فقال:

والكافرون، للتغليظ، كما قال في آخر آية الحج: ومن كفر، مكان: ومن لم يحج، ولأنه جعل ترك الزكاة من صفات الكفار، في قوله وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة «١» انتهى كلامه.

---

(١) سورة فصلت: ٤١/ ٦ و ٧.." (١)

"آمنت، ولكن اشتقت إلى قولك: أو لم تؤمن؟ فإني بقولك: أو لم تؤمن؟ يطمئن قلبي والمحب أبدا يجتهد في أن يجد خطاب حبيبه على أي وجه أمكنه.

قال: فخذ أربعة من الطير لما سأل رؤية كيفية إحياء الموتى أجابه تعالى لذلك، وعلمه كيف يصنع أولا، فأمره أن يأخذ أربعة من الطير، ولم يذكر الله تعالى تعيين الأربعة من أي جنس هي من الطير، فيحتمل أن يكون المأمور به معينا، وما ذكر تعيينه، ويحتمل أن يكون أمر بأخذ أربعة، أي أربعة كانت من غير تعيين،

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيان الأندلسي ٢/٦٠٤

إذ لا كبير علم في ذكر التعيين.

وقد اختلفوا فيما أخذ، فقال ابن عباس: أخذ طاووسا ونسرا وديكا وغرابا. وقال مجاهد، وعكرمة، وعطاء، وابن جريج، وابن زيد: كذلك، إلا أنهم جعلوا حمامة بدل النسر. وقال ابن عباس أيضا، فيما روى عبد الرحمن بن هبيرة عنه: أخذ حمامة وكركيا وديكا وطاووسا. وقال في رواية الضحاك: أخذ طاووسا وديكا ودجاجة سندية وأوزة. وقال في رواية أخرى عن الضحاك: أنه مكان الدجاجة السندية: الرأل، وهو فرخ النعام. وقال مجاهد فيما روى ليث: ديك وحمامة وبطة وطاووس. وقال: ديك وحمامة وبطة وغراب.

وزاد عطاء الخراساني وصفا في هذه الأربعة فقال: ديك أحمر، وحمامة بيضاء، وبطة خضراء، وغراب أسود.

وقال أبو عبد الله: طاووس وحمامة وديك وهدهد، ولما سأل ربه أن يريه كيفية إحياء الموتى، وكان لفظ الموتى جمعا، أجيب بأن يأخذ ما مدلوله جمع، لا أن يأخذ واحدا.

قيل: وخص هذا العدد بعينه إشارة إلى الأركان الأربعة التي في تركيب أبدان الحيوانات والنباتات، وكانت من الطير، قيل لأن الطير همته الطيران في السماء والارتفاع، والخليل عليه السلام كانت همته العلو والوصول إلى الملكوت، فجعلت معجزته مشاكلة لهمته، وعلى القول الأول في تعيين الأربعة بما عين قيل: خص الطاووس إشارة إلى ما في الإنسان من حب الزينة والجاه والترفع، والنسر إشارة إلى شدة الشغف بالأكل وطول الأمل، والديك إشارة إلى شدة الشغف بقضاء شهوة النكاح، والغراب إشارة إلى شدة الحرص والطلب. وما أبدوه في تخصيص الأربعة وفي تعيينها لا تكاد تظهر حكمته فيما ذكروه، وما أجراه الله تعالى لأنبيائه من الخوارق مختلف، وحكمة اختصاص كل نبي بما أجرى الله له منها مغيبة عنا. ألا ترى خرق العادة لموسى في أشياء، ولعيسى في أشياء غيرها، ولرسولنا محمد صلى الله عليه وسلم وعليهم في أشياء لا يظهر لنا سر **الحكمة في** ذلك؟ فكذلك كون هذه الأربعة من الطير، لا يظهر لنا سر حكمته في ذلك.." (١)

"والنار التي في الإعصار هي السموم التي تكون فيها. وقال ابن مسعود: السموم التي خلق الله منها الجان جزء من سبعين جزأ من النار، يعني، نار الآخرة، وقد فسر أنها هلكت بالصاعقة. وقال الحسن، والضحاك. إعصار فيه نار، أي: ريح فيها صر برد.

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيان الأندلسي ٢/٦٤٥

كذلك يبين الله لكم الآيات أي: مثل هذا البيان تصرف الأمثال المقربة الأشياء للذهن، يبين لكم العلامات التي يوصل بها إلى اتباع الحق.

لعلكم تتفكرون أي: تعملون أفكاركم فيما يفنى ويضمحل من الدنيا، وفيما هو باق لكم في الآخرة، فتزهدون في الدنيا، وترغبون في الآخرة.

وقد تضمنت هذه الآيات الكريمة من ضروب الفصاحة وصنوف البلاغة أنواعا: من الانتقال من الخصوص إلى العموم، ومن الإشارة، ومن التشبيه، ومن الحذف، ومن الاختصاص، ومن الأمثال، ومن المجاز. وكل هذا قد نبه عليه غضون تفسير هذه الآيات.

[سورة البقرة (٢) : الآيات ٢٦٧ الى ٢٧٣]

يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه واعلموا أن الله غني حميد (٢٦٧) الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا والله واسع عليم (٢٦٨) يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر إلا أولوا الألباب (٢٦٩) وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فإن الله يعلمه وما للظالمين من أنصار (٢٧٠) إن تبدوا الصدقات فنعما هي وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ويكفر عنكم من سيئاتكم والله بما تعملون خبير (٢٧١)

ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء وما تنفقوا من خير فلأنفسكم وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله وما تنفقوا من خير يوف إليكم وأنتم لا تظلمون (٢٧٢) للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضربا في الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسئلون الناس إلحافا وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم (٢٧٣)." (١)

"قد أخذ المجد كما أرادا ... ليس بفحاش يصر الزادا

انتهى. ولا حجة في هذا البيت على أنه أراد بالفحاش البخيل، بل يحمل على السيء الخلق، أو السيء الرد، ويفهم البخيل من قوله: يصر الزادا.

والله يعدكم مغفرة منه وفضلا أي سترا لذنوبكم مكافأة للبذل، وفضلا زيادة على مقتضى ثواب البذل.

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيان الأندلسي ٦٧٤/٢

وقيل: وفضلا، أن يخلف عليكم أفضل مما أنفقتم، أو وثوابا عليه في الآخرة، ولما تقدم قوله: ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون وكان الحامل لهم على ذلك إنما هو الشح والبخل بالجيد الذي مثيره الشيطان، بدىء بهذه الجملة من قوله الشيطان يعدكم الفقر وإن ما تصدقتم من الخبيث إنما ذلك من نزغات الشيطان ليقبح لهم ما ارتكبوه من ذلك بنسبته إلى الشيطان، فيكون أبعد شيء عنه.

ثم ذكر تعالى في مقابلة وعد الشيطان وعد الله بشيئين: أحدهما: الستر لما اجترحوه من الذنوب، والثاني: الفضل وهو زيادة الرزق والتوسعة في الدنيا والآخرة.

روي أن في التوراة: عبدي، أنفق من رزقي أبسط عليك فضلي، فإن يدي مبسوطة على كل يد مبسوطة ، وفي كتاب الله مصداقه: وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه «١» .

والله واسع عليم أي: واسع بالجود والفضل على من أنفق، عليم بنيات من أنفق، وقيل: عليم أين يضع فضله، ووردت الأحاديث بتفضيل الإنفاق والسماحة وذم البخل، منها

حديث البراء، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله يحب الإنفاق ويبغض الإقتار فكل وأطعم ولا تصرر، فيعسر عليك الطلب» .

وقوله صلى الله عليه وسلم: «وأي داء أردأ من البخل»

. يؤتي الحكمة من يشاء قرأ الربيع بن خيثم بالتاء في: تؤتي، وفي: تشاء، على الخطاب، وهو التفات إذ هو خروج من غيبة إلى خطاب، والحكمة: القرآن، قاله ابن مسعود، ومجاهد، والضحاك، ومقاتل في آخرين.

وقال ابن عباس فيما رواه عنه علي بن طلحة: معرفة ناسخ القرآن ومنسوخه، ومحكمه ومتشابهه، ومقدمه ومؤخره. وقال، فيما رواه عنه أبو صالح: النبوة، وقاله السدي. وقال إبراهيم، وأبو العالية، وقتادة: الفهم في القرآن. وقال مجاهد فيما رواه عنه ليث: العلم والفقه وقال فيما رواه عنه ابن نجيح: الإصابة في القول والفعل،

---

(١) سورة سبإ: ٣٤/ ٣٩.." (١)

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيان الأندلسي ٢/٦٨٣

"وقاله مجاهد. وقال الحسن: الورع في دين الله، وقال الربيع بن أنس: الخشية، وقال ابن زيد، وأبوه زيد بن أسلم: العقل في أمر الله. وقال شريك:

الفهم. وقال ابن قتيبة: العلم والعمل، لا يسمى حكيما حتى يجمعهما. وقال مجاهد أيضا: الكتابة. وقال ابن المقفع: ما يشهد العقل بصحته، وقال القشيري:

وقال فيما روى عنه ابن القاسم: التفكر في أمر الله والاتباع له، وقال أيضا: طاعة الله والفقه والدين والعمل به. وقال عطاء: المغفرة. وقال أبو عثمان: نور يفرق به بين الوسواس والمقام. ووجدت في نسخة: والإلهام بدل المقام. وقال القاسم بن محمد: أن يحكم عليك خاطر الحق دون شهوتك. وقال بندار بن الحسين: سرعة الجواب مع إصابة الصواب. وقال المفضل: الرد إلى الصواب. وقال الكتاني: ما تسكن إليه الأرواح. وقيل إشارة بلا علة، وقيل: إشهاد الحق على جميع الأحوال. وقيل: صلاح الدين وإصلاح الدنيا. وقيل: العلم اللدني. وقيل: تجريد السر لورود الإلهام. وقيل:

التفكر في الله تعالى، والاتباع له. وقيل: مجموع ما تقدم ذكره: فهذه تسع وعشرون مقالة لأهل العلم في تفسير الحكمة.

قال ابن عطية، وقد ذكر جملة من الأقوال في تفسير الحكمة ما نصه: وهذه الأقوال كلها، ما عدا قول السدي، قريب بعضها من بعض، لأن الحكمة مصدر من الإحكام وهو الإتقان في عمل أو قول، وكتاب الله حكمة، وسنة نبيه حكمة، وكل ما ذكر فهو جزء من الحكمة التي هي الجنس. انتهى كلامه.

وقد تقدم تفسير **الحكمة في** قوله: ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم «١» فكان يغني عن إعادة تفسيرها هنا، إلا أنه ذكرت هنا أقاويل لم يذكرها المفسرون هناك، فلذلك فسرت هنا.

ومن يؤت الحكمة قرأ الجمهور مبنيا للمفعول الذي لم يسم فاعله، وهو ضمير:

من، وهو المفعول الأول: ليؤت. وقرأ يعقوب: ومن يؤت، بكسر التاء مبنيا للفاعل. قال الزمخشري: بمعنى ومن يؤته الله. انتهى.

فإن أراد تفسير المعنى فهو صحيح، وإن أراد تفسير الإعراب فليس كذلك، ليس في يؤت ضمير نصب حذف، بل مفعوله مقدم بفعل الشرط، كما تقول: أيا تعط درهما أعطه درهما.

(١) سورة البقرة: ٢/ ١٢٩. [.....]."(١)

"عليك هدى من خالفك حتى تمنعه الصدقة لأجل أن يدخلوا في الإسلام، فتصدق عليهم لوجه الله، هداهم ليس إليك. وجعل الزمخشري هنا الهدى ليس مقابلا للضلال الذي يراد به الكفر، فقال: لا يجب عليك أن تجعلهم مهديين إلى الانتهاء عما نهوا عنه من المن والأذى والإنفاق من الخبيث وغيره، وما عليك إلا أن تبلغهم النواهي فحسب، ويبعد ما قاله الزمخشري قوله: ولكن الله يهدي من يشاء فظاهره أنه يراد به هدى الإيمان. وقال الزمخشري قوله: ولكن الله يهدي من يشاء تلطف بمن يعلم أن اللطف ينفع فـيه، فينتهي عما نهي عنه. انتهى. فلم يحمل الهدى في الموضعين على الإيمان المقابل للضلال، وإنما حمله على هدى خاص، وهو خلاف الظاهر، كما قلنا. وقيل: الهداية هنا الغنى أي: ليس عليك أن تغنيهم، وإنما عليك أن تواسيهم، فإن الله يغني من يشاء.

وتسمية الغنى: هداية، على طريقة العرب من نحو قولهم: رشدت واهتديت، لمن ظفر، وغويت لمن خاب وخسر وعلى هذا قول الشاعر:

فمن يلق خيرا يحمد الناس أمره ... ومن يغو لا يعدم على الغي لائما

وتفسير الهدى بالغنى أبعد من تفسير الزمخشري، وفي قوله: هداهم، طباق معنوي، إذ المعنى: ليس عليك هدى الضالين، وظاهر الخطاب في: ليس عليك، أنه لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وفي ذلك تسلية له صلى الله عليه وسلم.

ومناسبة تعلق هذه الجملة بما قبلها أنه لما ذكر تعالى قوله: يؤتي **الحكمة من** يشاء الآية اقتضى أنه ليس كل أحد آتاه الله الحكمة، فانقسم الناس من مفهوم هذا إلى قسمين: من آتاه الله الحكمة فهو يعمل بها، ومن لم يؤته إياها فهو يخبط عشواء في الضلال. فنبه بهذه الآية أن هذا القسم ليس عليك هداهم، بل الهداية وإيتاء الحكمة إنما ذلك إلى الله تعالى، ليتسلى بذلك في كون هذا القسم لم يحصل له السعادة الأبدية، ولينبه على أنهم وإن لم يكونوا مهتدين، تجوز الصدقة عليهم. وقيل: المعنى في: ليس عليك هداهم هو ليس عليك أن تلجئهم إلى الهدى بواسطة أن تقف صدقتك على إيمانهم، فإن مثل هذا الإيمان لا ينتفعون به، بل المطلوب منهم الإيمان على سبيل الطوع والاختيار.

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيان الأندلسي ٢/٦٨٤

وفي قوله: ولكن الله يهدي من يشاء رد على القدرية، وتجنيس مغاير إذ: هداهم اسم، ويهدي فعل. وما تنفقوا من خير فلأنفسكم أي: فهو لأنفسكم، لا يعود نفعه ولا جدواه إلا." (١)

"القول احتمالا ابن عطية، فقال: ويحتمل لفظ الآية أن يدخل فيها تعاقب الليل والنهار، وكان زوال أحدهما ولوج الآخر.

وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي معنى الإخراج التكوين هنا، والإخراج حقيقة هو إخراج الشيء من الظرف. قال ابن مسعود، وابن جبير، ومجاهد، وقتادة، وإبراهيم، والسدي، وإسماعيل بن أبي خالة إبراهيم، وعبد الرحمن بن زيد.

تخرج الحيوان من النطفة وهي ميتة إذا انفصلت النطفة من الحيوان، وتخرج النطفة وهي ميتة من الرجل وهو حي، فعلى هذا يكون الموت مجازا إذ النطفة لم يسبق لها حياة، ويكون المعنى: وتخرج الحي من ما لا تحله الحياة وتخرج ما لا تحله الحياة من الحي، والإخراج عبارة عن تغير الحال.

وقال عكرمة، والكلبي: أي الفرخ من البيضة، والبيضة من الطير، والموت أيضا هنا مجاز والإخراج حقيقة.

وقال أبو مالك: النخلة من النواة، والسنبلة من الحبة، والنواة من النخلة، والحبة من السنبلة، والموت والحياة في هذا مجاز.

وقال الحسن، وروي نحوه عن سلمان الفارسي: تخرج المؤمن من الكافر، والكافر من المؤمن، وهما أيضا مجاز.

وفي الحديث: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «سبحان الله الذي يخرج الحي من الميت» .

وقد رأى امرأة صالحة مات أبوها كافرا وهي خالدة بنت الأسود بن عبد يغوث.

وقال الزجاج: يخرج النبات الغض الطري من الحب، ويخرج الحب اليابس من النبات الحي.

وقيل: الطيب من الخبيث والخبيث من الطيب. وقال الماوردي: ويحتمل يخرج الجلد الفطن من البليد العاجز، والعكس، لأن الفطنة حياة الحس والبلادة موته. وقيل:

يخرج الحكمة من قلب الفاجر لأنها لا تستقر فيه، والسقطة من لسان العارف وهذه كلها مجازات بعيدة. والأظهر في قوله الحي من الميت تصور اثنين وقيل: عنى بذلك شيئا واحدا يتغير به الحال، فيكون ميتا

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيان الأندلسي ٢/٦٩٤

ثم يحيا، وحيا ثم يموت. نحو قولك: جاء من فلان أسد. وقال ابن عطية: ذهب جمهور من العلماء إلى أن الحياة والموت هنا حقيقتان لا استعارة فيهما، ثم." (١)

"قال ابن إسحاق: ضمها إلى خالتها أم يحيى حتى إذا شبت وبلغت مبلغ النساء بنى لها محرابا في المسجد، وجعل بابه في وسطه لا يرقى إليه إلا بسلم، مثل باب الكعبة، ولا يصعد إليها غيره. وقيل: كان يغلق عليها سبعة أبواب إذا خرج. قال مقاتل: كان يغلق عليها الباب ومعه المفتاح لا يأمن عليه أحدا، فإذا حاضت أخرجها إلى منزله تكون مع خالتها أم يحيى أو أختها، فإذا طهرت ردها إلى بيت المقدس. وقيل: كانت مطهرة من الحيض.

كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا. قال مجاهد، والضحاك، وقتادة، والسدي: وجد عندها فاكهة الشتاء في الصيف، وفاكهة الصيف في الشتاء. وقال الحسن: تكلمت في المهد ولم تلقم ثديا قط، وإنما كانت يأتيها رزقها من الجنة.

والذي ورد في الصحيح أن الذي تكلم في المهد ثلاثة: عيسى، وصاحب جريج، وابن المرأة. وورد من طريق شاذ: صاحب الأخدود. والأغرب أن مريم منهم.

وقيل: كان جريح النجار، واسمه يوسف بن يعقوب، وكان ابن عم مريم حين كفلها بالقرعة وقد ضعف زكريا عن القيام بها، يأتيها من كسبه بشيء لطيف على قدر وسعه، فيزكو ذلك الطعام ويكثر، فيدخل زكريا عليها فيتحقق أنه ليس من وسع جريج، فيسألها.

وهذا يدل على أن ذلك كان بعد أن كبرت وهو الأقرب للصواب.

وقيل: كانت ترزق من غير رزق بلادهم. قال ابن عباس: كان عنبا في مكتل ولم يكن في تلك البلاد عنب، وقاله ابن جبير، ومجاهد. وقيل: كان بعض الصالحين يأتيها بالرزق.

والذي يدل عليه ظاهر الآية أن الذي كفلها بالتربية هو زكريا لا غيره، فإن الله تعالى كفاه لما كفلها مؤونة رزقها، ووضع عنه بحسن التكفل مشقة التكلف.

و: كلما، تقتضي التكرار، فيدل على كثرة تعهده وتفقده لأحوالها. ودلت الآية على وجود الرزق عندها كل وقت يدخل عليها، والمعنى: أنه غذاء يتغذى به لم يعهده عندها، ولم يوجهه هو. وأبعد من فسر الرزق هنا بأنه فيض كان يأتيها من الله من العلم والحكمة من غير تعليم آدمي، فسماه رزقا. قال الراغب:

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيان الأندلسي ٨٩/٣

واللفظ محتمل، انتهى، وهذا شبيه بتفسير الباطنية.

قال يا مريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله استغرب زكريا وجود الرزق عندها وهو لم يكن أتى به، وتكرر وجوده عندها كلما دخل عليها، فسأل على سبيل التعجب من." (١)

"إن هذا لهو القصص الحق هذا خبر من الله جزم مؤكد فصل به بين المختصمين، والإشارة إلى القرآن على قول الجمهور، والظاهر أنه إشارة إلى ما تقدم من أخبار عيسى، وكونه مخلوقا من غير أب، قاله ابن عباس، وابن جريج، وابن زيد، وغيرهم. أي: هذا هو الحق لا ما يدعيه النصارى فيه من كونه إلها أو ابن الله، ولا ما تدعيه اليهود فيه، وقيل: هذا إشارة إلى ما بعده من قوله وما من إله إلا الله ويضعف بأن هذه الجملة ليست بقصص وبوجود حرف العطف في قوله: وما قال بعضهم إلا إن أراد بالقصص الخبر، فيصح على هذا، ويكون التقدير: إن الخبر الحق أنه ما من إله إلا الله.

انتهى. لكن يمنع من هذا التقدير وجود واو العطف واللام في: لهو، دخلت على الفصل.

والقصص خبر إن، والحق صفة له، والقصص مصدر، أو فعل بمعنى مفعول، أي:

المقصوص، كالقبض بمعنى المقبوض، ويجوز أن يكون: هو، مبتدأ و: القصص، خبره، والجملة، في موضع خبر إن، ووصف القصص بالحق إشارة إلى القصص المكذوب الذي أتى به نصارى نجران، وغيرهم، في أمر عيسى وإلاهيته.

وما من إله إلا الله أي: المختص بالإلهية هو الله وحده، وفيه رد على الثنوية والنصارى، وكل من يدعي غير الله إلها.

و: من، زائدة لاستغراق الجنس، و: إله، مبتدأ محذوف الخبر، و: الله، بدل منه على الموضع، ولا يجوز البدل على اللفظ، لأنه يلزم منه زيادة: من، في الواجب، ويجوز في العربية في نحو هذا التركيب نصب ما بعد: إلا، نحو ما من شجاع إلا زيدا، ولم يقرأ بالنصب في هذه الآية، وإن كان جائزا في العربية النصب على الاستثناء.

وإن الله لهو العزيز الحكيم إشارة إلى وصفي الإلهية وهما: القدرة الناشئة عن الغلبة فلا يمتنع عليه شيء، والعلم المعبر عنه **بالحكمة فيما** صنع والإتقان لما اخترع، فلا يخفى عنه شيء. وهاتان الصفتان منفيتان عن عيسى.

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيان الأندلسي ١٢٣/٣

ويجوز في: لهو، من الإعراب ما جاز في: لهو القصص، وتقديم ذكر فائدة الفصل.
فإن تولوا فإن الله عليم بالمفسدين قال مقاتل: فإن تولوا عن الملاعنة. وقال." (١)

"فعلى قوله يكون مس القوم قرح مثله يوم بدر. وأبعد من ذهب إلى أن القوم هنا الأمم التي قد خلت، أي نال مؤمنهم من أذى كافرهم مثل الذي نالكم من أعدائكم. ثم كانت العاقبة للمؤمنين، فلكم بهم أسوة. فإن تأسيكم بهم مما يخفف ألمكم، ويثبت عند اللقاء أقدامكم.
وقرأ الأخوان وأبو بكر والأعمش من طريقه قرح بضم القاف فيهما، وباقي السبعة بالفتح، والسبعة على تسكين الراء. قال أبو علي: والفتح أولى انتهى. ولا أولوية إذ كلاهما متواتر. وقرأ أبو السمال وابن السميفع قرح بفتح القاف والراء، وهي لغة: كالطرد والطرد، والشل والشلل. وقرأ الأعمش: إن تمسسكم بالتاء من فوق قروح بالجمع، وجواب الشرط محذوف تقديره: فتأسوا فقد مس القوم قرح، لأن الماضي معنى يمتنع أن يكون جوابا للشرط. ومن زعم أن جواب الشرط هو فقد مس، فهو ذاهل.
وتلك الأيام نداولها بين الناس أخبر تعالى على سبيل التسلية أن الأيام على قديم الدهر لا تبقي الناس على حالة واحدة. والمراد بالأيام أوقات الغلبة والظفر، يصرفها الله على ما أراد تارة لهؤلاء وتارة لهؤلاء، كما جاء: الحرب سجال. وقال:
فيوم علينا ويوم لنا ... ويوم نساء ويوم نسر
وسمع بعض العرب الأقحاح قارئا يقرأ هذه الآية فقال: إنما هو نداولها بين العرب، فقيل له: إنما هو بين الناس، فقال: إنا الله، ذهب ملك العرب ورب الكعبة. وقرىء شاذا: يدا، ولها بالياء. وهو جار على الغيبة قبله وبعده. وقراءة النون فيها التفات، وإخبار بنون العظمة المناسبة لمداولة الأيام، والأيام: صفة لتلك، أو بدل، أو عطف بيان. والخبر نداولها، أو خبر لتلك، ونداولها جملة حالية.
وليعلم الله الذين آمنوا هذه لام كي قبلها حرف العطف، فتتعلق بمحذوف متأخر أي: فعلنا ذلك وهو المداولة، أو نيل الكفار منكم. أو هو معطوف على سبب محذوف هو وعامله أي: فعلنا ذلك ليكون كيت وكيت وليعلم. هكذا قدره الزمخشري وغيره، ولم يعين فاعل العلة المحذوفة إنما كنى عنه بكيت وكيت، ولا يكنى عن الشيء حتى يعرف. ففي هذا الوجه حذف العلة، وحذف عاملها، وإبهام فاعلها. فالوجه الأول أظهر إذ ليس فيه غير حذف العامل. ويعلم هنا ظاهره التعدي إلى واحد، فيكون كعرف.

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيان الأندلسي ١٩٢/٣

وقيل: يتعدى إلى اثنين، الثاني محذوف تقديره: مميزين بالإيمان من غيرهم. أي الحكمة في هذه المداولة:." (١)

"على الغراب الميت. وقيل: بعث الله غرابا واحدا فجعل يبحث ويلقي التراب على هابيل.

وروي أنه أول ميت مات على وجه الأرض،

وكذلك جهل سنة المواراة. والظاهر أنه غراب بعثه الله يبحث في الأرض ليري قابيل كيف يواري سوءة هابيل، فاستفاد قابيل ببحثه في الأرض أن يبحث هو في الأرض فيستر فيه أخاه، والمراد بالسوءة هنا قيل: العورة، وخصت بالذكر مع أن المراد مواراة جميع الجسد للاهتمام بها، ولأن سترها أوكد. وقيل: جميع جيفته. قيل: فإن الميت كله عورة، ولذلك كفن بالأكفان. قال ابن عطية: ويحتمل أن يراد بالسوءة هذه الحالة التي تسوء الناظر بمجموعها، وأضيفت إلى المقتول من حيث نزلت به النازلة، لا على جهة الغض منه، بل الغض لا حق للقاتل وهو الذي أتى بالسوءة انتهى.

والسوءة الفضيحة لقبحها قال الشاعر:

يا لقومي للسوءة السواء أي للفضيحة العظيمة. قالوا: ويحتمل إن صح أنه قتل غراب غرابا أو كان ميتا، أن يكون الضمير في أخيه عائدا على الغراب، أي: ليري قابيل كيف يواري الغراب سوءة أخيه وهو الغراب الميت، فيتعلم منه بالأداة كيف يواري قابيل سوءة هابيل، وهذا فيه بعد. لأن الغراب لا تظهر له سوءة، والظاهر أن الإرادة هنا من جعله يرى أي: يبصر، وعلق ليريه عن المفعول الثاني بالجملة التي فيها الاستفهام في موضع المفعول الثاني، وكيف معمولة ليواري. وليريه متعلق بيبحث. ويجوز أن يتعلق بقوله: فبعث، وضمير الفاعل في ليريه الظاهر أنه عائد على الله تعالى، لأن الإراءة حقيقة هي من الله، إذ ليس للغراب قصد الإراءة وإرادتها. ويجوز أن يعود على الغراب أي: ليريه الغراب، أي: ليعلمه لأنه لما كان سبب تعليمه فكأنه قصد تعليمه على سبيل المجاز، ويظهر أن الحكمة في أن كان هذا المبعوث غرابا دون غيره من الحيوان ومن الطيور كونه يتشاءم به في الفراق والاغتراب، وذلك مناسب لهذه القصة. وقيل: فبعث جملة محذوفة دل عليها المعنى تقديره: فجهل مواراته فبعث.

قال يا ويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوأة أخي استقصر إدراكه وعقله في جهله ما يصنع بأخيه حتى يعلم، وهو ذو العقل المركب فيه الفكر والرؤية والتدبير من طائر لا يعقل. ومعنى هذا الاستفهام:

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيان الأندلسي ٣/٣٥٤

الإنكار على نفسه، والنعي أي: لا أعجز عن كوني مثل هذا الغراب، وفي ذلك هضم لنفسه واستصغار لها بقوله: مثل هذا الغراب.." (١)

"تعالى: إنه لقول فصل «١» وقال: أحكمت آياته ثم فصلت «٢» ، وقال: نفصل الآيات «٣» فلا يلزم من ذكر الفاصلين أن يكون معينا ليقضي وخير هنا أفعل التفضيل على بابها. وقيل: ليست على بابها لأن قضاءه تعالى لا يشبه قضاء ولا يفصل كفصله أحد وهذا الاستدلال يدل على أنها بابها.

قل لو أن عندي ما تستعجلون به لقضي الأمر بيني وبينكم أي لو كان في قدرتي الوصول إلى ما تستعجلون به من اقتراح الآيات أو من حلول العذاب لبادرت إليه ووقع الانفصال بيني وبينكم. وروي عن عكرمة في لقضي الأمر بيني وبينكم أي لقامت القيامة وما روي عن ابن جريج من أن المعنى لذبح الموت لا يصح ولا له هنا معنى. وقال الزمخشري وما تستعجلون به من العذاب لأهلكتكم عاجلا غضبا لربي وامتعاضا من تكذيبكم به ولتخلصت منكم سريعا انتهى. وهو قول ابن عباس لم أمهلكم ساعة ولأهلكتكم. والله أعلم بالظالمين الظاهر أن المعنى والله أعلم بكم فوضع الظاهر المشعر بوصفهم بالظلم موضع المضمر ومعنى أعلم بهم أي بمجازاتهم ففيه وعيد وتهديد. وقيل: بتوقيت عقابهم وقيل: بما آل أمرهم من هداية بعض واستمرار بعض.

وقيل: بمن ينبغي أن يؤخذ وبمن يمهل. وقيل: بما تقتضيه الحكمة من عذابهم.

[سورة الأنعام (٦) : الآيات ٥٩ الى ٧٣]

وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين (٥٩) وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى ثم إليه مرجعكم ثم ينبئكم بما كنتم تعملون (٦٠) وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون (٦١) ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين (٦٢) قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعا وخفية لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين (٦٣)

قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون (٦٤) قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيان الأندلسي ٤/٢٣٤

فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض انظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون (٦٥) وكذب به قومك وهو الحق قل لست عليكم بوكيل (٦٦) لكل نبإ مستقر وسوف تعلمون (٦٧) وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين (٦٨)

وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء ولكن ذكرى لعلهم يتقون (٦٩) وذر الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا وغرتهم الحياة الدنيا وذكر به أن تبسل نفس بما كسبت ليس لها من دون الله ولي ولا شفيع وإن تعدل كل عدل لا يؤخذ منها أولئك الذين أبسلوا بما كسبوا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون (٧٠) قل أندعوا من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا ونرد على أعقابنا بعد إذ هدانا الله كالذي استهوته الشياطين في الأرض حيران له أصحاب يدعونه إلى الهدى ائتنا قل إن هدى الله هو الهدى وأمرنا لنسلم لرب العالمين (٧١) وأن أقيموا الصلاة واتقوه وهو الذي إليه تحشرون (٧٢) وهو الذي خلق السماوات والأرض بالحق ويوم يقول كن فيكون قوله الحق وله الملك يوم ينفخ في الصور عالم الغيب والشهادة وهو الحكيم الخبير (٧٣)

---

(١) سورة الطارق: ٨٦/ ١٣.

(٢) سورة هود: ١١/ ١.

(٣) سورة الأنعام: ٦/ ٥٥ وغيرها.." (١)

"في وقت واحد ولم يلبسوا يحتمل أن يكون معطوفا على الصلة ويحتمل أن يكون حالا دخلت واو الحال على الجملة المنفية بلم كقوله تعالى: أنى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر «١» وما ذهب إليه ابن عصفور من أن وقوع الجملة المنفية بلم قليل جدا وابن خروف من وجوب الواو فيها وإن كان فيها ضمير يعود على ذي الحال خطأ بل ذلك قليل وبغير الواو كثير على ذلك لسان العرب، وكلام الله، وقرأ عكرمة: ولم يلبسوا بضم الياء ويجوز في الذين أن يكون خبر مبتدأ محذوف وأن يكون خبره المبتدأ والخبر الذي هو أولئك لهم الأمن وأبعد من جعل لهم الأمن خبر الذين وجعل أولئك فاصلة وهو النحاس والحوفي.

وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه الإشارة بتلك إلى ما وقع به الاحتجاج من قوله فلما جن عليه الليل

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيان الأندلسي ٥٣٢/٤

إلى قوله وهم مهتدون وهذا الظاهر، وأضافها إليه تعالى على سبيل التشريف وكان المضاف إليه بنون العظمة لإيتاء المتكلم وآتيناها أي أحضرناها بباله وخلقناها في نفسه إذ هي من الحجج العقلية، أو آتيناها بوحي منا ولقناه إياها وإن أعربت وتلك مبتدأ وحجتنا بدلا وآتيناها خبر لتلك، لم يجز أن يتعلق على قومه بحجتنا وكذا إن أعربت وتلك حجتنا مبتدأ وخبر وآتيناها حال العامل فيها اسم الإشارة لأن الحجة ليست مصدرا وإنما هو الكلام المؤلف للاستدلال على الشيء ولو جعلناه مصدرا مجازا لم يجز ذلك أيضا لأنه لا يفصل بالخبر ولا بمثل هذه الحال بين المصدر ومطلوبه، وأجاز الحوفي أن يكون آتيناها في موضع النعت لحجتنا والنية فيها الانفصال والتقدير: وتلك حجة لنا آتيناها انتهى، وهذا بعيد جدا. وقال الحوفي: وهاء مفعول أول وإبراهيم مفعول ثان وهذا قد قدمنا أنه مذهب السهيلي: وأما مذهب الجمهور فالهاء مفعول ثان وابراهيم مفعول أول، وقال الحوفي وابن عطية على قومه متعلق ب آتيناها. قال ابن عطية أظهرناها لإبراهيم على قومه، وقال أبو البقاء: بمحذوف تقديره حجة على قومه ودليلا، وقال الزمخشري: آتيناها إبراهيم أرشدناه إليها ووفقناه لها وهذا تفسير معنى، ويجوز أن يكون في موضع الحال وحذف مضاف أي آتيناها إبراهيم مستعلية على حجج قومه قاهرة لها.

نرفع درجات من نشاء أي مراتب ومنزلة من نشاء وأصل الدرجات في المكان ورفعها بالمعرفة أو بالرسالة أو بحسن الخلق أو بخلوص العمل في الآخرة أو بالنبوة **والحكمة في** الدنيا أو بالثواب والجنة في الآخرة، أو بالحجة والبيان، أقوال أقر بها الأخير

---

(١) آل عمران: ٣/ ٤٧.." (١)

"ثم إني أخبركم أنا آتينا. وقال الحوفي: رتبت ثم التلاوة أي تلونا عليكم قصة محمد ثم نتلو عليكم قصة موسى. وقال ابن عطية: مهلتها في ترتيب القول الذي أمر به محمد صلى الله عليه وسلم كأنه قال: ثم مما وصينا أنا آتينا موسى الكتاب ويدعو إلى ذلك أن موسى عليه السلام متقدم بالزمان على محمد صلى الله عليه وسلم. وقال ابن القشيري: في الكلام محذوف تقديره ثم كنا قد آتينا موسى الكتاب قبل إنزالنا القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم. وقال الزمخشري عطف على وصاكم به (فإن قلت) : كيف صح عطفه عليه بثم والإيتاء قبل التوصية بدهر طويل؟ (قلت) : هذه التوصية قديمة لم تزل تواصاها

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيان الأندلسي ٥٧٢/٤

كل أمة على لسان نبيها كما قال ابن عباس: محكمات لم ينسخهن شيء من جميع الكتب فكأنه قيل: ذلكم وصاكم به يا بني آدم قديما وحديثا ثم أعظم من ذلك أنا آتينا موسى الكتاب وأنزلنا هذا الكتاب المبارك؟ وقيل: هو معطوف على ما تقدم قبل شطر السورة من قوله: ووهبنا له إسحاق ويعقوب «١» انتهى. وهذه الأقوال كلها متكلفة والذي ينبغي أن يذهب إليه أنها استعملت للعطف كالواو من غير اعتبار مهلة، وقد ذهب إلى ذلك بعض النحاة والكتاب هنا التوراة بلا خلاف وانتصب تماما على المفعول له أو على المصدر أتممناه تماما مصدر على حذف الزوائد أو على الحال إما من الفاعل والمفعول وكل قد قيل.

وقيل: معنى تماما أي دفعة واحدة لم نفرق إنزاله كما فرقنا إنزال القرآن قاله أبو سليمان الدمشقي. والذي أحسن جنس أي على من كان محسنا من أهل ملته قاله مجاهد أي إتماما للنعمة عندهم. وقيل: المراد بالذي أحسن مخصوص. فقال الماوردي: إبراهيم كانت نبوة موسى نعمة على إبراهيم لأنه من ولده والإحسان للأبناء إحسان للآباء. وقيل: موسى عليه السلام تتمة للكرامة على العبد الذي أحسن الطاعة في التبليغ وفي كل ما أمر به، والذي في هذه التأويلات واقعة على من يعقل. وقال ابن الأنباري: تماما على الذي أحسن موسى من العلم وكتب الله القديمة ونحو منه قول ابن قتيبة، قال: معنى الآية تماما على ما كان أحسن من العلم **والحكمة من** العلم **والحكمة من** قولهم: فلان يحسن كذا أي يعلمه. وقال الزمخشري في هذا التأويل: تماما على الذي أحسن موسى من العلم والشرائع من أحسن الشيء إذا أجاد معرفته أي زيادة علىى علمه على وجه التتميم انتهى. وقال ابن عطية: على ما أحسن هو من عبادة ربه والاضطلاع بأمور نبوته يريد موسى عليه السلام هذا تأويل الربيع وقتادة انتهى.

والذي في هذا التأويل واقعة على غير العاقل. وقيل: الذي مصدرية وهو قول كوفي وفي

---

(١) سورة الأنبياء: ٢١/ ٧٢.." (١)

"أهله من عز إلى ذل، ومن ذل إلى عز، وبفناء الدنيا، فيعتبر بذلك. وأن ذلك القصص بوحي من الله، إذ أعلم بذلك على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم من غير تحريف مع كونه لم يتعلم ولم يتتلمذ. الثاني: كلما سمعوا خروف التهجي ولم يفهموا منها شيئا ساء ظنهم، وقد أجاب الله بقوله: فيه

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيان الأندلسي ٤/٦٩٣

آيات بينات «١» الآية. الثالث: ظهور القرآن شيئا فشيئا، فساء ظنهم وقالوا: لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة «٢» وقد أجاب تعالى وشرح في مكانه.

الرابع: القرآن مملوء من الحشر، وكانوا ألفوا المحسوسات، فاستبعدوا حصول الحياة بعد الموت، فبين الله صحة المعاد بالدلائل الكثيرة. الخامس: أنه مملوء من الأمر بالعبادات، وكانوا يقولون: إله العالم غني عن طاعتنا، وهو أجل أن يأمرنا بما لا فائدة له فيه. وأجاب تعالى بقوله: إن أحسنتم أحسنتم «٣» الآية وبالجملة فشبه الكفار كثيرة، فلما رأوا القرآن مشتملا على أمور ما عرفوا حقيقتها ولا اطلعوا على وجه **الحكمة فيها** كذبوا بالقرآن فقوله:

بما لم يحيطوا بعلمه، إشارة إلى عدم علمهم بهذه الأشياء وقوله: ولما يأتهم تأويله، إشارة إلى عدم جهدهم واجتهادهم في طلب أسرار ما تضمنه القرآن انتهى ملخصا.

وقال الزمخشري: (فإن قلت) : ما معنى التوقع في قوله تعالى: ولما يأتهم تأويله؟

(قلت) : معناه أنهم كذبوا به على البديهة قبل التدبر، ومعرفة التأويل تقليدا للآباء، وكذبوه بعد التدبر تمردا وعنادا فذمهم بالتسرع إلى التكذيب قبل العلم به، وجاء بكلمة التوقع ليؤذن أنهم علموا بعد علو شأنه وإعجازه لما كرر عليهم التحدي ورازوا قواهم في المعارضة، واستيقنوا عجزهم عن مثله، فكذبوا به بغيا وحسدا انتهى. ويحتاج كلامه هذا إلى نظر. وقال أيضا: ويجوز أن يكون المعنى: ولما يأتهم تأويله، ولم يأتهم بعد تأويل ما فيه من الإخبار بالغيوب أي عاقبته، حتى يتبين لهم أكذب هو أم صدق؟ يعني: أنه كتاب معجز من جهتين: من جهة إعجاز نظمه، ومن جهة ما فيه من الإخبار بالغيوب. فتسرعوا إلى التكذيب به قبل أن ينظروا في نظمه وبلوغه حد الإعجاز، وقبل أن يخبروا إخباره بالمغيبات وصدقه وكذبه انتهى. وبقيت جملة الإحاطة بلم، وجملة إتيان التأويل بلما، ويحتاج في ذلك إلى فرق دقيق. والكاف في موضع نصب أي: مثل ذلك التكذيب كذب الذين من قبلهم، يعني: قبل النظر في معجزات الأنبياء وقبل تدبرها من غير إنصاف من

---

(١) سورة آل عمران: ٣/ ٩٧.

(٢) سورة الفرقان: ٢٥/ ٣٢.

(٣) سورة الإسراء: ١٧/ ٧.." [(١)]

"على أن اشتبه عليه ما يجب بما يجب أن لا يشتبه. وقال ابن عطية: معنى قوله: فلا تسألن ما ليس لك به علم، أي إذ وعدتك فاعلم يقينا أنه لا خلف في الوعد، فإذا رأيت ولدك لم يحمل فكان الواجب عليك أن تقف وتعلم أن ذلك لحق واجب عند الله، ولكن نوحا عليه السلام حملته شفقة البنوة وسجية البشر على التعرض لنفحات الرحمة والتذكير، وعلى هذا القدر وقع عقابه، ولذلك جاء بتلطف وترج في قوله: إني أعظك أن تكون من الجاهلين. ويحتمل قوله:

فلا تسألن ما ليس لك به علم، أي: لا تطلب مني أمرا لا تعلم المصلحة فيه علم يقين، ونحا إلى هذا أبو علي الفارسي وقال: إن به يجوز أن يتعلق بلفظ عام كما قال الشاعر:

كأن جزائي بالعصا أن أجلدا ويجوز أن يكون به بمنزلة فيه، فتتعلق الباء بالمستقر. واختلاف هذين الوجهين إنما هو لفظي، والمعنى في الآية واحد. وذكر الطبري عن ابن زيد تأويلا في قوله: إني أعظك أن تكون من الجاهلين لا يناسب النبوة تركناه، ويوقف عليه في تفسير ابن عطية. وقيل:

سأل نوح ربه حين صار عنه ابنه بمعزل، وقيل: قبل أن عرف هلاكه، وقيل: بعد أن عرف هلاكه سأل الله له المغفرة. أن أسألك من أن أطلب في المستقبل ما لا علم لي بصحته تأديبا بأدبك، واتعاظا بموعظتك، وهذه إنابة من نوح عليه السلام وتسليم لأمر الله. قال ابن عطية: والسؤال الذي وقع النهي عنه والاستعاذة والاستغفار منه هو سؤال العزم الذي معه محاجة، وطلبة ملحة فيما قد حجب وجه الحكمة فيه. وأما السؤال في الأمور على جهة التعلم والاسترشاد فغير داخل في هذا، وظاهر قوله: فلا تسألن ما ليس لك به علم، يعم النحوين من السؤال، ولذلك نبهت على أن المراد أحدهما دون الآخر، والخاسرون هم المغبونون حظوظهم من الخير انتهى. ونسب نوح النقص والذنب إلى نفسه تأدبا مع ربه فقال: وإلا تغفر لي، أي ما فرط من سؤالي وترحمني بفضلك، وهذا كما قال آدم عليه السلام.

قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم. تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين: بني الفعل للمفعول، فقيل: القائل هو الله تعالى، وقيل: الملائكة تبليغا عن الله تعالى. والظاهر الأول لقوله:

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيان الأندلسي ٦/٦٠

منا، وسنمتعهم. أمر عند نزوله بالهبوط من السفينة ومن الجبل مع أصحابه للانتشار في الأرض، والباء للحال أي:." (١)

"الدين. وهذا أشبه لمجيء قصة المراودة بعد هذه القصة، وكذلك أي: مثل ذلك الجزاء لمن صبر ورضي بالمقادير نجزي المحسنين. وفيه تنبيه على أن يوسف كان محسنا في عنفوان شبابه فآتاه الله الحكم والعلم جزاء على إحسانه. وعن الحسن: من أحسن عبادة الله في شبيبته آتاه الله **الحكمة في** اكتهاله. وقال ابن عباس: المحسنين المهتدين، وقال الضحاك: الصابرين على النوائب.

وراودته التي هو في بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك قال معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون. ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين: المراودة: المطالبة برفق، من راد يرود إذا ذهب وجاء، وهي مفاعلة من واحد نحو: داويت المريض، وكني به عن طلب النكاح والمخادعة لأجله. كان المعنى وخادعته عن نفسه، ولذلك عداه بعن. وقال التي هو في بيتها، ولم يصرح باسمها، ولا بامرأة العزيز، سترا على الحرم. والعرب تضيف البيوت إلى النساء فتقول: ربة البيت، وصاحبة البيت. قال الشاعر:

يا ربة البيت قومي غير صاغرة وغلقت الأبواب هو تضعيف تكثير بالنسبة إلى وقوع الفعل بكل باب باب. قيل:

وكانت سبعة أبواب. هيت اسم فعل بمعنى أسرع. ولك للتبيين أي: لك أقول، أمرته بأن يسرع إليها. وزعم الكسائي والفراء أنها لغة حورانية وقعت إلى أهل الحجاز فتكلموا بها ومعناها: تعال، وقاله عكرمة. وقال أبو زيد: هي عبرانية، هيتلخ أي تعاله فأعربه القرآن، وقال ابن عباس والحسن: بالسريانية، وقال السدي: بالقبطية هلم لك، وقال مجاهد وغيره: عربية تدعوه بها إلى نفسها، وهي كلمة حث وإقبال انتهى. ولا يبعد اتفاق اللغات في لفظ، فقد وجد ذلك في كلام العرب مع لغات غيرهم. وقال الجوهري: هوت وهيت به صاح به فدعاه، ولا يبعد أن يكون مشتقا من اسم الفعل، كما اشتقوا من الجمل نحو سبح وحمدك. ولما كان اسم فعل لم يبرز فيه الضمير، بل يدل على رتبة الضمير بما يتصل باللام من الخطاب نحو: هيت لك، وهيت لك، وهيت لكما، وهيت لكم، وهيت لكن.

وقرأ نافع، وابن ذكوان، والأعرج، وشيبة،

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيان الأندلسي ٦/١٦٣

وأبو جعفر: هيت بكسر الهاء بعدها ياء ساكنة وفتح التاء، والحلواني عن هشام كذلك إلا أنه همز وعلي، وأبو وائل، وأبو رجاء، ويحيى، وعكرمة، ومجاهد، وقتادة، وطلحة، والمقري، وابن عباس، وأبو عامر في رواية." (١)

"وقال امرؤ القيس:

تيممت العين التي عند ضارج ... يفيء عليها الظل عرمضها طام

وعن رؤبة ما كانت عليه الشمس فزالت عنه فهو فيء وظل ما لم تكن عليه فهو ظل، وذلك أن الشمس من طلوعها إلى وقت الزوال تنسخ الظل، فإذا زالت رجع، ولا يزال ينمو إلى أن تغيب. والمشهور أن الفيء لا يكون إلا بعد الزوال، والاعتبار في هذه الآية من أول النهار إلى آخره. فمعنى تتفيؤ تتنقل وتميل، وأضاف الظلال وهي جمع إلى ضمير مفرد، لأنه ضمير ما، وهو جمع من حيث المعنى لقوله: لتستووا على ظهوره «١» وقال صاحب اللوامح: في قراءة عيسى ظلله، وظله الغيم وهو جسم، وبالكسر الفيء وهو عرض في العامة: فرأى عيسى أن التفيؤ الذي هو الرجوع بالأجسام أولى، وأما في العامة فعلى الاستعارة انتهى.

قالوا في قوله: عن اليمين والشمائل، بحثان، أحدهما: ما المراد بذلك. والثاني:

ما الحكمة في إفراد اليمين وجمع الشمائل؟ أما الأول فقالوا: يمين الفلك وهو المشرق.

وشماله هو المغرب. وخص هذان الاسمان بهذين الجانبين لأن أقوى جانبي الإنسان يمينه، ومنه تظهر الحركة الفلكية اليومية آخذة من المشرق إلى المغرب، لا جرم كان المشرق يمين الفلك والمغرب شماله، فعلى هذا تقول الشمس عند طلوعها إلى وقت انتهائها إلى وسط الفلك يقع الظلال إلى الجانب الغربي، فإن انحدرت من وسط الفلك عن الجانب الغربي وقعت الظلال في الجانب الشرقي، فهذا المراد من تفيؤ الظلال من اليمين إلى الشمال. وقيل: البلدة التي عرضها أقل من مقدار الميل تكون الشمس في الصيف عن يمين البلدة فتقع الظلال على يمينهم. وقال الزمخشري: المعنى أو لم يروا إلى ما خلق الله من الأجرام التي لها ظلال متفيئة عن أيمانها وشمائلها عن جانبي كل واحد منها وشقيه، استعارة من يمين الإنسان وشماله بجانبي الشيء أي: ترجع الظلال من جانب إلى جانب انتهى. وقال ابن عطية: والمقصود العبرة في هذه الآية، هو كل جرم له ظل كالجبال والشجر وغير ذلك، والذي يترتب فيه أيمان وشمائل إنما هو

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيان الأندلسي ٦/٢٥٦

البشر فقط، لكن ذكر الأيمان والشمائل هنا على حسب الاستعارة لغير اللبس تقدره: ذا يمين وشمال، وتقدره:

بمستقبل أي جهة شئت، ثم تنظر ظله فتراه يميل إما إلى جهة اليمين وإما إلى جهة

---

(١) سورة الزخرف: ٤٣/ ١٣.." (١)

"من هذه الأقوال أن يكون منصوبا على المفعول به باذكر مضمرة. وقرأ الجمهور: ندعوا بنون العظمة، ومجاهد يدعو بياء الغيبة أي يدعو الله، والحسن فيما ذكر أبو عمرو الداني يدعى مبنيا للمفعول كل مرفوع به، وفيما ذكر غيره يدعو بالواو وخرج على إبدال الألف واوا على لغة من يقول: أفعو في الوقف على أفعى، وإجراء الوصل مجرى الوقف وكل مرفوع به، وعلى أن تكون الواو ضميرا مفعولا لم يسم فاعله، وأصله يدعون فحذفت النون كما حذفت في قوله:

أبيت أسري وتبيتي تدلكي ... وجهك بالعنبر والمسك الزكي

أي تبيتين تدلكين وكل بدل من واو الضمير. وأناس اسم جمع لا واحد له من لفظه، والباء في بإمامهم الظاهر أنها تتعلق بندعو، أي باسم إمامهم. وقيل: هي باء الحال أي مصحوبين بإمامهم. والإمام هنا قال ابن عباس والحسن وأبو العالية والربيع كتابهم الذي فيه أعمالهم. وقال الضحاك وابن زيد: كتابهم الذي نزل عليهم. وقال مجاهد وقتادة: نبيهم. قال ابن عطية: والإمام يعم هذا كله لأنه مما يؤتم به. وقال الزمخشري: إمامهم من ائتموا به من نبي أو مقدم في الدين أو كتاب أو دين، فيقال: يا أهل دين كذا وكتاب كذا. وقيل: بكتاب أعمالهم يا أصحاب كتاب الخير ويا أصحاب كتاب الشر. وفي قراءة الحسن بكتابهم ومن بدع التفسير أن الإمام جمع أم وأن الناس يدعون يوم القيامة بأمهاتهم، وأن **الحكمة في** الدعاء بالأمهات دون الآباء رعاية حق عيسى وشرف الحسن والحسين.

وأن لا يفتضح أولاد الزنا وليت شعري أيهما أبدع أصحة لفظه أم بهاء حكمته انتهى. وإيتاء الكتاب دليل على ما تقرر في الشريعة من الصحف التي يؤتاها المؤمن والكافر، وإيتاؤه باليمين دليل على نجاة الطائع وخلاص الفاسق من النار إن دخلها وبشارته أنه لا يخلد فيها فأولئك جاء جمعا على معنى من إذ قد حمل على اللفظ أولا فأفرد في قوله أوتي كتابه بيمينه وقراءتهم كتبهم هو على سبيل التلذذ بالاطلاع على

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيان الأندلسي ٥٣٧/٦

ما تضمنتها من البشارة، وإلا فقد علموا من حيث إيتاؤهم إياها باليمين أنهم من أهل السعادة ومن فرحهم بذلك يقول الباري لأهل المحشر: هاؤم اقرؤا كتابيه «١» ولم يأت هنا قسيم من أوتي كتابه بيمينه وهو من يؤتى كتابه بشماله، وإن كان قد أتى في غير هذه الآية بل جاء قسيمه قوله.

ومن كان في هذه أعمى وذلك من حيث المعنى مقابله لأن مِن أوتي كتابه بيمينه

(١) سورة الحاقة: ٦٩/ ١٩.." (١)

"وتحسبونه هينا أي ذنبا صغيرا وهو عند الله من الكبائر وعلق مس العذاب بثلاثة آثام تلقي الإفك والتكلم به واستصغاره ثم أخذ يوبخهم على التكلم به، وكان الواجب عليهم إذ سمعوه أن لا يفوهوا به.

وقال الزمخشري: فإن قلت: كيف جاز الفصل بين لولا وقلتم؟ قلت:

للظروف شأن وهو تنزلها من الأشياء منزلة نفسها لوقوعها فيها، وأنها لا تنفك عنها فلذلك يتسع فيها ما لا يتسع في غيرها انتهى. وما ذكره من أدوات التحضيض يوهم أن ذلك مختص بالظرف وليس كذلك، بل يجوز تقديم المفعول به على الفعل فِتقول: لولا زيدا ضربت وهلا عمرا قتلت.

قال الزمخشري: فإن قلت: فأي فائدة في تقديم الظرف حتى أوقع فاصلا؟ قلت:

الفائدة بيان أنه كان الواجب عليهم أن ينقادوا حال ما سمعوه بالإفك عن التكلم به، فلما كان ذكر الوقت أهم وجب التقديم.

فإن قلت: ما معنى يكون والكلام بدونه متلئب لو قيل ما لنا أن نتكلم بهذا قلت:

معناه ما ينبغي ويصح أي ما ينبغي لنا أن نتكلم بهذا ولا يصح لنا ونحوه ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق وسبحانك تعجب من عظم الأمر.

فإن قلت: ما معنى التعجب في كلمة التسبيح؟ قِلت: الأصل في ذلك أن تسبيح الله عند رؤية المتعجب من صنائعه ثم كثر حتى استعمل في كل متعجب منه، أو لتنزيه الله عن أن تكون حرمة نبيه صلى الله عليه وسلم كما قيل فيها انتهى.

يعظكم الله أن تعودوا أي في أن تعودوا، تقول: وعظت فلانا في كذا فتركه.

إن كنتم مؤمنين حث لهم على الاتعاظ وتهييج لأن من شأن المؤمن الاحتراز مما يشينه من القبائح. وقيل:

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيان الأندلسي ٨٧/٧

أن تعودوا مفعول من أجله أي كراهة أن تعودوا. ويبين الله لكم الآيات أي الدلالات على علمه وحكمته بما ينزل عليكم من الشرائع ويعلمكم من الآداب، ويعظكم من المواعظ الشافية. إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة. قال مجاهد وابن زيد الإشارة إلى عبد الله بن أبي ومن أشبهه. في الذين آمنوا لعداوتهم لهم، والعذاب الأليم في الدنيا الحد، وفي الآخرة النار. والظاهر في الذين يحبون أن تشيع الفاحشة العموم في كل قاذف منافقا كان أو مؤمنا، وتعليق الوعيد على محبة الشياع دليل على أن إرادة الفسق فسق والله يعلم أي البريء من المذنب وسرائر الأمور، ووجه **الحكمة في** ستركم والتغليظ في الوعيد.." (١)

"في قوله ومن في الأرض بالمطيع لله تعالى من الثقلين. وقيل: من عام لكل موجود غلب من يعقل على ما لا يعقل، فأدرج ما لا يعقل فيه ويكون المراد بالتسبيح دلالته بهذه الأشياء على كونه تعالى منزها عن النقائص موصوفا بنعوت الكمال. وقيل: المراد بالتسبيح التعظيم فمن ذي الدين بالنطق والصلاة ومن غيرهم من مكلف وجماد بالدلالة، فيكون ذلك قدرا مشتركا بينهما وهو التعظيم. وقال سفيان: تسبيح كل شيء بطاعته وانقياده.

والطير صافات أي صفت أجنحتها في الهواء للطيران، وإنما خص الطير بالذكر لأنها تكون بين السماء والأرض إذا طارت فهي خارجة من جملة من في السماوات والأرض حالة طيرانها. وقرأ الجمهور والطير مرفوعا عطفا على من وصافات نصب على الحال. وقرأ الأعرج والطير بالنصب على أنه مفعول معه. وقرأ الحسن وخارجة عن نافع والطير صافات برفعهما مبتدأ وخبر تقديره يسبحن. قيل: وتسبيح الطير حقيقي قاله الجمهور. قال الزمخشري: ولا يبعد أن يلهم الله الطير دعاءه وتسبيحه كما ألهمها سائر العلوم الدقيقة التي لا يكاد العقلاء يهتدون إليها. وقال الحسن وغيره: هو تجوز إنما تسبيحه ظهور **الحكمة فيه** فهو لذلك يدعو إلى التسبيح.

كل أي كل ممن ذكر، فيشمل الطير والظاهر أن الفاعل المستكن في علم وفي صلاته وتسبيحه عائد على كل وقاله الحسن قال: فهو مثابر عليهما يؤديهما.

وقال الزجاج: الضمير في علم وفي صلاته وتسبيحه لكل. وقيل: الضمير في علم لكل وفي صلاته وتسبيحه لله أي صلاة الله وتسبيحه اللذين أمر بهما وهدى إليهما، فهذه إضافة خلق إلى خالق. وقال مجاهد: الصلاة للبشر والتسبيح لما عداهم.

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيان الأندلسي ٨/٢٣

وقرأ الحسن وعيسى وسلام وهارون عن أبي عمر وتفعلون بتاء الخطاب، وفيه وعيد وتخويف. ولله ملك السماوات والأرض إخبار بأن جميع المخلوقات تحت ملكه يتصرف فيهم بما يشاء تصرف القاهر الغالب. وإليه المصير أي إلى جزائه من ثواب وعقاب. وفي ذلك تذكير وتخويف.

ولما ذكر انقياد من في السموات والأرض والطير إليه تعالى وذكر ملكه لهذا العالم وصيرورتهم إليه أكد ذلك بشيء عجيب من أفعاله مشعر بانتقال من حال إلى حال. وكان عقب قوله وإليه المصير فأعلم بانتقال إلى المعاد فعطف عليه ما يدل على تصرفه في نقل الأشياء من حال إلى حال ومعنى يزجي يسوق قليلا قليلا ويستعمل في سوق الثقيل برفق كالسحاب والإبل، والسحاب اسم جنس واحده سحابة، والمعنى يسوق سحابة إلى." (١)

"الآخرة كقوله فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا «١» والظاهر أن مهجورا بمعنى متروكا من الإيمان به مبعدا مقصيا من الهجر بفتح الهاء. وقاله مجاهد والنخعي وأتباعه. وقيل: من الهجر والتقدير مهجورا فيه بمعنى أنه باطل.

وأساطير الأولين أنهم إذا سمعوه هجروا فيه كقوله وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه «٢» .

قال الزمخشري: ويجوز أن يكون المهجور بمعنى الهجر كالملحود والمعقول، والمعنى اتخذوه هجرا والعدو يجوز أن يكون واحدا وجمعا انتهى.

وانتصب هاديا ونصيرا على الحال أو على التمييز. وقالوا أي الكفار على سبيل الاقتراح والاعتراض الدال على نفورهم عن الحق. قال الزمخشري: نزل هاهنا بمعنى أنزل لا غير كخبر بمعنى أخبر وإلا كان متدافعا انتهى. وإنما قال إن نزل بمعنى أنزل لأن نزل عنده أصلها أن تكون للتفريق، فلو أقره على أصله عنده من الدلالة على التفريق تدافع هو. وقوله جملة واحدة وقد قررنا أنا نزل لا تقتضي التفريق لأن التضعيف فيه عندنا مرادف للهمزة. وقد بينا ذلك في أول آل عمران وقائل ذلك كفار قريش قالوا: لو كان هذا من عند الله لنزل جملة كما نزلت التوراة والإنجيل. وقيل: قائلو ذلك اليهود وهذا قول لا طائل تحته لأن أمر الاحتجاج به والإعجاز لا يختلف بنزوله جملة واحدة أو مفرقا بل الإعجاز في نزوله مفرقا أظهر إذ يطالبون بمعارضة سورة منه، فلو نزل جملة واحدة وطولبوا بمعارضته مثل ما نزل لكانوا أعجز منهم حين طولبوا

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيان الأندلسي ٥٦/٨

بمعارضة سورة منه فعجزوا والمشار إليه غير مذكور. فقيل: هو من كلام الكفار وأشاروا إلى التوراة والإنجيل أي تنزيلا مثل تنزيل تلك الكتب الإلهية جملة واحدة ويبقى لنثبت به فؤادك تعليلا لمحذوف أي فرقناه في أوقات لنثبت به فؤادك. وقيل: هو مستأنف من كلام الله تعالى لا من كلامهم، ولما تضمن كلامهم معنى لم أنزل مفرقا أشير بقوله كذلك إلى التفريق أي كذلك أنزل مفرقا.

قال الزمخشري: **والحكمة فيه** أن نقوي بتفريقه فؤادك حتى تعيه وتحفظه لأن المتلقن إنما يقوى قلبه على حفظ العلم شيئا بعد شيء، وجزأ عقيب جزء، ولو ألقي عليه جملة واحدة لكان يعيا في حفظه والرسول عليه السلام فارقت حاله حال داود وموسى وعيسى

---

(١) سورة النساء: ٤/ ٤١.

(٢) سورة فصلت: ٤١/ ٢٦. [.....]."(١)

"من أنفسكم: فيها قولا وخلق منها زوجها «١» . إما كون حواء خلقت من ضلع آدم، وإما من جنسكم ونوعكم. وعلل خلق الأزواج بالسكون إليها، وهو الإلف. فمتى كان من الجنس، كان بينهما تألف، بخلاف الجنسين، فإنه يكون بينهما التنافر، وهذه **الحكمة في** بعث الرسل من جنس بني آدم. ويقال: سكن إليه: مال، ومنه السكن: فعل بمعنى مفعول. مودة ورحمة: أي بالأزواج، بعد أن لم يكن سابقة تعارف يوجب التواد. وقال مجاهد والحسن وعكرمة: المودة: النكاح، والرحمة: الولد، كنى بذلك عنهما. وقيل:

مودة للشابة، ورحمة للعجوز. وقيل: مودة للكبير، ورحمة للصغير. وقيل: هما اشتباك الرحم. وقيل: المودة من الله، والبغض من الشيطان.

واختلاف ألسنتكم: أي لغاتكم، فمن اطلع على لغات رأى من اختلاف تراكيبها أو قوانينها، مع اتحاد المدلول، عجائب وغرائب في المفردات والمركبات. وعن وهب:

أن الألسنة اثنان وسبعون لسانا، في ولد حام سبعة عشر، وفي ولد سام تسعة عشر، وفي ولد يافث ستة وثلاثون. وقيل: المراد باللغات: الأصوات والنغم. وقال الزمخشري:

الألسنة: اللذات وأجناس النطف وأشكاله. خالف عز وجل بين هذه الأشياء حتى لا تكاد تسمع منطقين

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيان الأندلسي ١٠٣/٨

متفقين في همس واحد، ولا جهارة، ولا حدة، ولا رخاوة، ولا فصاحة، ولا لكنة، ولا نظم، ولا أسلوب، ولا غير ذلك من صفات النطق وأحواله. انتهى.

وألوانكم: السواد والبياض وغيرهما، والأنواع والضروب بتخطيط الصور، ولولا ذلك الاختلاف، لوقع الالتباس وتعطلت مصالح كثيرة من المعاملات وغيرها. وفيه آية بينة، حيث فرعوا من أصل واحد، وتباينوا في الأشكال على كثرتهم. وقرأ الجمهور:

للعالمين، بفتح اللام، لأنها في نفسها آية منصوبة للعالم. وقرأ حفص وحماد بن شعيب عن أبي بكر، وعلقمة عن عاصم، ويونس عن أبي عمرو: بكسر اللام، إذ المنتفع بها إنما هم أهل العلم، كقوله: وما يعقلها إلا العالمون «٢» . والظاهر أن بالليل والنهار متعلق ب منامكم، فامتن تعالى بذلك، لأن النهار قد يقام فيه، وخصوص من كان مشتغلا في حوائجه بالليل. وابتغاؤكم من فضله: أي فيهما، أي في الليل والنهار معا، لأن بعض الناس قد يبتغي الفعل بالليل، كالمسافرين والحراس بالليل وغيرهم.

وقال الزمخشري: هذا من باب اللف، وترتيبه: ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم، ولأنه فصل بين الفريقين الأولين بالقرينين الآخرين لأنهما زمانان، والزمان

---

(١) سورة النساء: ٤/.

(٢) سورة العنكبوت: ٢٩/ ٤٣.." (١)

"ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن الله غني حميد، وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم، ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله في عامين أن اشكر لي ولوالديك إلي المصير، وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفا واتبع سبيل من أناب إلي ثم إلي مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون، يا بني إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السماوات أو في الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير، يا بني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور، ولا تصعر خدك للناس ولا تمش في الأرض مرحا إن الله لا يحب كل مختال فخور، واقصد في مشيك واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير.

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيان الأندلسي ٣٨٢/٨

اختلف في لقمان، أكان حرا أم عبدا؟ فإذا قلنا: كان حرا، فقيل: هو ابن باعورا.

قال وهب: ابن أخت أيوب عليه السلام. وقال مقاتل: ابن خالته. وقيل: كان من أولاد آزر، وعاش ألف سنة، وأدرك داود عليه السلام، وأخذ منه العلم، وكان يفتي قبل مبعث داود، فلما بعث داود، قطع الفتوى، فقيل له: لم؟ فقال: ألا أكتفي إذا كفيت؟ وكان قاضيا في بني إسرائيل. وقال الواقدي: كان قاضيا في بني إسرائيل، وزمانه ما بين عيسى ومحمد، عليهما السلام، والأكثرون على أنه لم يكن نبيا. وقال عكرمة، والشعبي: كان نبيا. وإذا قلنا: كان عبدا، اختلف في جنسه، فقال ابن عباس، وابن المسيب، ومجاهد:

كان نوبيا مشقق الرجلين ذا مشافر. وقال الفراء وغيره: كان حبشيا مجدوع الأنف ذا مشفر.

واختلف فيما كان يعانيه من الأشغال، فقال خالد بن الربيع: كان نجارا، وفي معاني الزجاج: كان نجادا، بالدال. وقال ابن المسيب: كان خياطا. وقال ابن عباس: كان راعيا. وقيل: كان يحتطب لمولاه كل يوم حزمة. وهذا الاضطراب في كونه حرا أو عبدا، وفي جنسه، وفيما كان يعانيه، يوجب أن لا يكتب شيء من ذلك، ولا ينقل. لكن المفسرون مولعون بنقل المضطربات حشوا وتكثيرا، والصواب تركه.

وحكمة لقمان مأثورة كثيرة، منها:

قيل له: أي الناس شر؟ قال: الذي لا يبالي أن يراه الناس مسيئا. وقال له داود، عليه السلام، يوما: كيف أصبحت؟ قال: أصبحت في يد غيري، فتفكر داود فيه، فصعق صعقة.

وقال وهب بن منبه: قرأت في حكم لقمان أكثر من عشرة آلاف. والحكمة: المنطق الذي يتعظ به ويتنبه به، ويتناقله الناس لذلك. أن اشكر، قال الزمخشري: أن هي المفسرة، لأن إيتاء الحكمة في معنى القول، وقد نبه." (١)

"أرى حفظه يفضي بتحسين حالتي ... وتضييعه يفضي لتسآل مقبوح

إن الذين آمنوا، قال السدي: نزلت في المرضى والزمنى إذا عجزوا عن إكمال الطاعات، كتب لهم من الأجر كأصح ما كانوا يعملون. والممنون: المنقوص، قاله ابن عباس، رضي الله عنه. قال ذو الأصبغ العدواني:

إني لعمرك ما بابي بذي غلق ... على الصديق ولا خيري بممنون

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيان الأندلسي ٤١٢/٨

وقال مجاهد: غير محسوب، وقيل: غير مقطوع، قال الشاعر:

فضل الجواد على الخيل البطاء فلا ... يعطي بذلك ممنونا ولا نزقا

وقيل: لا يمن به لأن أعطيات الله تشريف، والمن إنما يدخل أعطيات البشر. وقيل:
لا بمن به لأنه إنما بمن التفضيل، فأما الآخر فحق أداؤه، نقله الزمخشري، وفيه دسيسة الاعتزال. قل أإنكم لتكفرون: استفهام توبيخ وتشنيع عليهم، يكفر من أوجد العالم سفليه وعلويه، ووصف صورة خلق ذلك ومدته، والحكمة في الخلق في مدة هو قادر على أن يوجد ذلك دفعة واحدة. فذكر تعالى إيجاد ذلك مرتبا، وتقدم الكلام في أول ما ابتدئ فيه الخلق، وما خلق مرتبا. ومعنى في يومين: في مقدار يومين. وتجعلون له أندادا: أي أشباها وأمثالا من الملائكة والجن والأصنام يعبدونها دونه. وقال السدي:
أكفاء من الرجال يطيعونهم، وتجعلون معطوف على لتكفرون، فهو داخل في حيز الاستفهام المقتضي الإنكار والتوبيخ، ذلك أي موجد الأرض ومخترعها، رب العالمين من الأنداد التي جعلتم له وغيرهم.
وجعل فيها رواسي: إخبار مستأنف، وليس من الصلة في شيء، بل هو معطوف على قوله: لتكفرون. وبارك فيها: أكثر فيها خيرها. وقدر فيها أقواتها: أي أرزاق ساكنيها ومعايشهم، وأضافهما إلى الأرض من حيث هي فيها وعنها برزت، قاله السدي. وقال قتادة: أقواتها من الجبال والأنهار والأشجار والصخور والمعادن، والأشياء التي بها قوام الأرض ومصالحها. وقال مجاهد: أقواتها من المطر والمياه. وقال عكرمة والضحاك ومجاهد أيضا: خصائصها التي قسمها في البلاد مما خص به كل إقليم، فيحتاج بعضها إلى بعض في التفوت من الملابس والمطاعم والنبات. في أربعة أيام: أي في تمام أربعة أيام باليومين المتقدمين. وقال الزمخشري في أربعة أيام، فذلكة لمدة خلق." (١)

"مركبة من همزة وذال ونون، وقد شبهت العرب نونها بتنوين المنصوب فقلبوها في الوقف ألفا وكتبوها الكتاب على ذلك، وهذا نهاية القول فيها. /

وجاء في هذا المكان {من بعد ما جآءك} وقال قبل هذا: {بعد الذي جآءك} [البقرة: ١٢٠] وفي الرعد: {بعد ما جآءك} [الرعد: ٣٧] فلم يأت ب» من «الجارة إلا هنا، واختص موضعا ب» الذي «، وموضعين ب» ما «، فما الحكمة في ذلك؟ والجواب ما ذكره بعضهم وهو أن» الذي «أخص، و» ما «أشد إبهاما، فحيث أتى بالذي أشير به إلى العلم بصحة الدين الذي هو الإسلام المانع من ملتي اليهود والنصارى، فكان

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيان الأندلسي ٩/٢٨٧

اللفظ الأخص الأشهر أولى فيه لأنه علم بكل أصول الدين، وحيث أتى بلفظ» ما «أشير به إلى العلم بركن من أركان الدين، أحدهما: القبلة، والآخر: بعض الكتاب لأنه أشار إلى قولـه: {ومن الأحزاب من ينكر بعضه} [الرعد: ٣٦] . قال» وأما دخول «من» ففائدته ظاهرة وهي بيان أول الوقت الذي وجب [على] عليه السلام أن يخالف أهل الكتاب في قبلتهم، والذي يقال في هذا: إنه من باب التنوع في البلاغة.." (١)

"الساكنين، وضمها الباقون إتباعا لضم الثالث. وليس هذا الخلاف مقصورا على هذه الكلمة، بل إذا التقى ساكنان من كلمتين، وضم الثالث ضما لازما نحو: {ولقد استهزىء} [الأنعام: ١٠] {قل ادعوا} [الإسراء: ١١٠] قالت اخرج جرى الخلاف المذكور. إلا أن أبا عمرو خرج عن أصله في {أو} [المزمل: ٣] و {قل} [١١٠: الإسراء] فضمهما، وابن ذكوان خرج عن أصله فكسر التنوين خاصة نحو: {محظورا انظر} [٢٠-٢١: الإسراء] ، واختلف عنه في: {برحمة ادخلوا} [الأعراف: ٤٩] ، واختلف عنه في: {خبيثة اجتثت} [إبراهيم: ٢٦] ، وسيأتي بيان **الحكمة في** ذلك عند ذكره إن شاء الله تعالى.

قوله: {غير باغ} نصب على الحال، واختلف في صاحبها، فالظاهر أنه هو الضمير المستتر في «اضطر» ، وجعله القاضي وأبو بكر الرازي من فاعل فعل محذوف بعد قوله: «اضطر» ، قالا: تقديره: فمن اضطر فأكل غير باغ، كأنهما قصدا بذلك أن يجعلاه قيدا في الأكل لا في الاضطرار.

قال الشيخ «ولا يتعين ما قالاه، إذا يحتمل أن يكون هذا المقدر بعد قوله: {غير." (٢)

"أبي القاسم ليست بمعنى «خلق» فسرها هنا بمعنى أحدث وأنشأ. وكذا الراغب جعلها بمعنى أوجد. ثم إن الشيخ اعترض عليه هنا لما استطرد، وذكر أنها تكون بمعنى صير، ومثل بقوله: {وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا} [الزخرف: ١٩] فقال: «وما ذكره من أن» جعل «بمعنى صير في قوله: {وجعلوا الملائكة} لا يصح لأنهم لا يصيرهم إناثا، وإنما ذكر بعض النحويين أنها هنا بمعنى سمى» قلت: ليس المراد بالتصيير التصيير بالفعل، بل المراد التصيير بالقول، وقد نص الزمخشري على ذلك، وسيأتي لهذا - إن شاء الله - مزيد بيان في موضعه. وقد ظهر الفرق بين تخصيص السماوات والأرض بالخلق والظلمات والنور بالجعل بما ذكره الزمخشري. وإنما وحد النور وجمع الظلمات لأن النور من جنس واحد

---

(١) الدر المصون في علوم الكتاب المكنون السمين الحلبي ١٦٨/٢

(٢) الدر المصون في علوم الكتاب المكنون السمين الحلبي ٢٣٩/٢

وهو النار، والظلمات كثيرة، فإن ما من جرم إلا وله ظل، وظل◌ه هو الظلمة، وحسن هذا أيضا أن الصلة التي قبلها تقدم فيها جمع ثم مفرد فعطفت هذه عليها كذلك وقد تقدم في البقرة **الحكمة في** جمع السماوات وإفراد الأرض. وقدمت «الظلمات» في الذكر لأنه موافق في الوجود؛ إذ الظلمة قبل النور عند الجمهور.

قوله: {ثم الذين كفروا} «ثم» هذه ليست للترتيب الزماني، وإنما هي للتراخي بين الرتبتين، والمراد استبعاد أن يعدلوا به غيره مع ما أوضح من." (١)

"والسميع «لعطف الصفة على الصفة كقوله:

٢٦٥١ -. . . . . ال ... صابح فالغانم فالآئب

قلت: يريد بقوله» اللف «أنه لف المؤمنين والكافرين اللذين هما مشبهان بقوله» الفريقين «، ولو فسرهما لقال: مثل الفريق المؤمن كالبصير والسميع، ومثل الكافر كالأعمى والأصم، وهي عبارة مشهورة في علم البيان: لفظتان متقابلتان: اللف والنشر، وأشار لقول امرىء القيس وهو:

٢٦٥٢ - كأن قلوب الطير رطبا ويابسا ... لدى وكرها العناب والحشف البالي

أصل الكلام: كأن الرطب من قلوب الطير: العناب، واليابس منها: الحشف، فلف ونشر، واللف والنشر في علم البيان تقسيم كبير، ليس هذا موضعه.

وأشار بقوله» الصابح فالغانم «إلى قوله:

٢٦٥٣ - يا ويح زيابة للحارث ال ... صابح فالغانم فالآئب

وقد تقدم ذلك أول البقرة وتحريره.

فإن قلت: ل◌م قدم تشبيه الكافر على المؤمن؟ أجيب بأن المتقدم ذكر الكفار فلذلك قدم تمثيلهم. فإن قيل: ما **الحكمة في** العدول عن هذا التركيب لو قيل: كالأعمى والبصير والأصم والسميع لتتقابل كل لفظة مع ضدها، ويظهر بذلك التضاد؟ أجيب: بأنه تعالى لما ذكر انسداد العين أتبعه بانسداد الأذن، ولما ذكر انفتاح العين أتبعه بانفتاح الأذن، وهذا التشبيه أحد." (٢)

---

(١) الدر المصون في علوم الكتاب المكنون السمين الحلبي ٥٢٤/٤

(٢) الدر المصون في علوم الكتاب المكنون السمين الحلبي ٣٠٧/٦

"أبيت أسري وتب◌يتي تدلكي ... وجهك بالعنبر والمسك الذكي

و «كل» مرفوع بالبدل من الواو التي هي ضمير، أو بالفاعلية والواو علامة على لغة «يتعاقبون فيكم ملائكة»
.

والتخريج الثاني: أن الأصل «يدعى» كما نقله عنه الداني، إلا أنه قلب الألف واوا وقفا، وهي لغة لقوم، يقولون: هذه أفعو وعصو، يريدون: أفعى وعصا، ثم أجرى الوصل مجرى الوقف. و «كل» مرفوع لقيامه مقام الفاعل على هذا ليس إلا.

قوله: «بإمامهم» يجوز أن تكون الباء متعلقة بالدعاء، أي: باسم إمامهم، وأن تكون للحال فيتعلق بمحذوف، أي: ندعوهم مصاحبين لكتابهم. والإمام: من يقتدى به. وقال الزمخشري «» ومن بدع التفاسير: أن الإمام جمع «أم» وأن الناس يدعون يوم القيامة بأمهاتهم دون آبائهم، وأن الحكمة فيه رعاية حق◌◌ عيسى، وإظهار شرف الحسن والحسين، وأن لا يفضح أولاد الزنى «قال:» وليت شعري أيهما أبدع: أصحة لفظه أم بهاء معناه؟ «.

قلت: وهو معذور لأن» أم «لا يجمع على» إمام «، وهذا قول من لا يعرف الصناعة ولا لغة العرب، وأما ما ذكروه من المعنى فإن الله تعالى نادى عيسى باسمه مضافا لأمه في عدة مواضع من قوله {ياعيسى ابن مريم} [المائدة: ١١٠] ، وأخبرعنه كذلك نحو: {وإذ قال عيسى ابن مريم} [الصف: ٦] ، وفي ذلك."
(١)

"قوله: {لذكري} : يجوز أن يكون المصدر مضافا لفاعله أي: لأني ذكرتها في الكتب، أو لأني أذكرك. ويجوز أن يكون مضافا لمفعوله أي: لأن تذكرني. وقيل: معناه ذكر الصلاة بعد نسيانها كقوله عليه السلام: «من نام عن صلاة أو نسيها فليصلها إذا ذكرها» قال الزمخشري: «وكان حق العبارة:» لذكرها «. ثم قال:» ومن يتمحل له أن يقول: إذا ذكر الصلاة فقد ذكر [الله] ، أو على حذف مضاف أي: لذكر صلاتي، أو لأن الذكر والنيسان من الله تعالى في الحقيقة «.

وقرأ أبو رجاء والسلمي» للذكرى «بلام التعريف وألف التأنيث. وبعضهم» لذكرى «منكرة، وبعضهم» للذكر «بالتعريف والتذكير.

قوله: {أكاد أخفيها} العامة على ضم الهمزة من» أخفيها «. وفيها تأويلات، أحدها: أن الهمزة في»

---

(١) الدر المصون في علوم الكتاب المكنون السمين الحلبي ٧/٣٩٠

أخفيها «للسلب والإزالة أي: أزيل خفاءها نحو: أعجمت الكتاب أي: أزلت عجمته. ثم في ذلك معنيان، أحدهما: أن الخفاء بمعنى الستر، ومتى أزال سترها فقد أظهرها. والمعنى: أنها لتحقق وقوعها وقربها أكاد أظهرها لولا ما تقتضيه الحكمة من التأخير. والثاني: أن الخفاء هو الظهور كما سيأتي. والمعنى: أزيل ظهورها، وإذا أزال ظهورها فقد استترت. والمعنى: أني لشدة أبهامها أكاد أخفيها فلا أظهرها/ البتة، وإن كان." (١)

"والخيرة من التخيير، كالطيرة من التطير فيستعملان استعمال المصدر. وقال الزمخشري: «ما كان لهم الخيرة بيان لقوله» ويختار «لأن معناه: ويختار ما يشاء، ولهذا لم يدخل العاطف. والمعنؤ: أن الخيرة لله تعالى في أفعاله، وهو أعلم بوجوه الحكمة فيها ليس لأحد من خلقه أن يختار عليه» . قتل: لم يزل الناس يقولون: إن الوقف على «يختار» ، والابتداء ب «ما» على أنها نافية هو مذهب أهل السنة. ونقل ذلك عن جماعة كأبي جعفر وغيره، وأن كونها موصولة متصلة ب «يختار» غير موقوف عليه مذهب المعتزلة. وهذا الزمخشري قد قرر كونها نافية، وحصل غرضه في كلامه، وهو موافق لكلام أهل السنة ظاهرا، وإن كان لا يريده. وهذا الطبري من كبار أهل السنة منع أن تكون [ما] نافية قال: لئلا يكون المعنى: أنه لم تكن لهم الخيرة فيما مضى، وهي لهم فيما يستقبل، وأيضا فلم يتقدم نفي «. وهذا الذي قاله ابن جرير مروي عن ابن عباس. وقال بعضهم: ويختار لهم ما يشاء من الرسل، ف» ما «على هذا واقعة على العقلاء.." (٢)

"{وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون (٣٠) }

يخبر (١) تعالى بامتنانه على بني آدم، بتنويهه بذكرهم في الملأ الأعلى قبل إيجادهم، فقال تعالى: {وإذ قال ربك للملائكة} أي: واذكر يا محمد إذ قال ربك للملائكة، واقصص على قومك ذلك. وحكى ابن جرير عن بعض أهل العربية [وهو أبو عبيدة] (٢) أنه زعم أن "إذ" هاهنا زائدة، وأن تقدير الكلام: وقال ربك. ورده ابن جرير.

قال القرطبي: وكذا رده جميع المفسرين حتى قال الزجاج: هذا اجتراء (٣) من أبي عبيدة.

---

(١) الدر المصون في علوم الكتاب المكنون السمين الحلبي ١٩/٨

(٢) الدر المصون في علوم الكتاب المكنون السمين الحلبي ٦٩١/٨

{إني جاعل في الأرض خليفة} أي: قوما يخلف بعضهم بعضا قرنا بعد قرن وجيلا بعد جيل، كما قال تعالى: {وهو الذي جعلكم خلائف الأرض} [الأنعام: ١٦٥] وقال {ويجعلكم خلفاء الأرض} [النمل: ٦٢] . وقال {ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة في الأرض يخلفون} [الزخرف: ٦٠] . وقال {فخلف من بعدهم خلف} [مريم: ٥٩] . [وقرئ في الشاذ: "إني جاعل في الأرض خليقة" حكاه الزمخشري وغيره ونقلها القرطبي عن زيد بن علي] (٤) . وليس المراد هاهنا بالخليفة آدم، عليه السلام، فقط، كما يقوله طائفة من المفسرين، وعزاه القرطبي إلى ابن مسعود وابن عباس وجميع أهل التأويل، وفي ذلك نظر، بل الخلاف في ذلك كثير، حكاه فخر الدين الرازي في تفسيره وغيره، والظاهر أنه لم يرد آدم عينا إذ لو كان كذلك لما حسن قول الملائكة: {أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء} فإنهم (٥) إنما أرادوا أن من هذا الجنس من يفعل ذلك، وكأنهم علموا ذلك بعلم خاص، أو بما فهموه من الطبيعة البشرية فإنه أخبرهم أنه يخلق هذا الصنف من صلصال من حمإ مسنون [أو فهموا من الخليفة أنه الذي يفصل بين الناس ويقع بينهم من المظالم ويرد عنهم المحارم والمآثم، قاله القرطبي] (٦) أو أنهم قاسوهم على من سبق، كما سنذكر أقوال المفسرين في ذلك.

وقول الملائكة هذا ليس على وجه الاعتراض على الله، ولا على وجه الحسد لبني آدم، كما قد يتوهمه بعض المفسرين [وقد وصفهم الله تعالى بأنهم لا يسبقونه بالقول، أي: لا يسألونه شيئا لم يأذن لهم فيه وهاهنا لما أعلمهم بأنه سيخلق في الأرض خلقا. قال قتادة: وقد تقدم إليهم أنهم يفسدون فيها فقالوا: {أتجعل فيها} الآية] (٧) وإنما هو سؤال استعلام واستكشاف عن الحكمة في ذلك، يقولون: يا ربنا، ما الحكمة في خلق هؤلاء مع أن منهم من يفسد في الأرض ويسفك الدماء، فإن كان المراد عبادتك، فنحن نسبح بحمدك ونقدس لك، أي: نصلي لك كما سيأتي، أي: ولا يصدر منا شيء من ذلك، وهلا وقع الاقتصار علينا؟ قال الله تعالى مجيبا لهم عن هذا السؤال: {إني أعلم ما لا تعلمون} أي: إني أعلم من المصلحة (٨) الراجحة في خلق هذا الصنف على المفاسد التي ذكرتموها (٩) ما لا تعلمون أنتم؛ فإني سأجعل فيهم الأنبياء، وأرسل فيهم الرسل، ويوجد فيهم

---

(١) في جـ: "أخبر".

(2) زيادة من جـ، ط، أ، و.

(٣) في أ: "إجرام".

(٤) زيادة من جـ، ط، أ، و.

(٥) في جـ، ب: "فإن الله".

(٦) زيادة من جـ، ط، ب، أ، و.

(٧) زيادة من جـ، ط، ب، أ، و.

(٨) في جـ: "بالمصلحة".

(٩) في جـ: "الذي ذكروها".." (١)

"الدماء، من غيرنا أم منا، فنحن نسبح بحمدك ونقدس لك؟ إن كنتم صادقين في قيلكم: إني إن جعلت خليفتي في الأرض من غيركم عصاني ذريته وأفسدوا وسفكوا الدماء، وإن جعلتكم فيها أطعتموني واتبعتم أمري بالتعظيم لي والتقديس، فإذا كنتم لا تعلمون أسماء هؤلاء الذين عرضت عليكم وأنتم تشاهدونهم، فأنتم بما هو غير موجود من الأمور الكائنة التي لم توجد أحرى أن تكونوا غير عالمين.

[وقوله] (١) {قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم} هذا تقديس وتنزيه من الملائكة لله تعالى أن يحيط أحد بشيء من علمه إلا بما شاء، وأن يعلموا شيئا إلا ما علمهم الله تعالى، ولهذا قالوا: {سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم} أي: العليم بكل شيء، الحكيم في خلقك وأمرك وفي تعليمك من تشاء ومنعك من تشاء، لك **الحكمة في** ذلك، والعدل التام.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا حفص بن غياث، عن حجاج، عن ابن أبي مليكة، عن ابن عباس: سبحان الله، قال: تنزيه الله نفسه عن السوء. [قال] (٢) ثم قال عمر لعلي وأصحابه عنده: لا إله إلا الله، قد عرفناها (٣) فما سبحان الله؟ فقال له علي: كلمة أحبها الله لنفسه، ورضيها، وأحب أن تقال (٤) .

قال: وحدثنا أبي، حدثنا ابن نفيل، حدثنا النضر بن عربي قال: سأل رجل ميمون بن مهران عن "سبحان الله"، فقال: اسم يعظم الله به، ويحاشى به من السوء.

وقوله تعالى: {قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون} قال زيد بن أسلم. قال: أنت جبريل، أنت ميكائيل، أنت

---

(١) تفسير ابن كثير ت سلامة ابن كثير ١/٢١٦

إسرافيل، حتى عدد الأسماء كلها، حتى بلغ الغراب.
وقال مجاهد في قول الله: {يا آدم أنبئهم بأسمائهم} قال: اسم الحمامة، والغراب، واسم كل شيء.
وروي عن سعيد بن جبير، والحسن، وقتادة، نحو ذلك.
فلما ظهر فضل آدم، عليه السلام، على الملائكة، عليهم السلام، في سرده ما علمه الله تعالى من أسماء الأشياء، قال الله تعالى للملائكة: {ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون} أي: ألم أتقدم إليكم أني أعلم الغيب الظاهر والخفي، كما قال [الله] (٥) تعالى: {وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى} وكما قال تعالى إخبارا عن الهدهد أنه قال

---

(١) زيادة من أ.

(٢) زيادة من جـ، ط، أ، و.

(٣) في جـ، ط: "عرفناه".

(٤) تفسير ابن أبي حاتم (١١٧/١) .

(٥) زيادة من أ.." (١)

"المدخول بها عموم الآية الكريمة، وهذا الحديث الذي رواه الإمام أحمد وأهل السنن وصححه الترمذي: أن ابن مسعود سئل عن رجل تزوج امرأة فمات ولم يدخل بها، ولم يفرض لها؟ فترددوا إليه مرارا (١) في ذلك فقال: أقول فيها برأيي، فإن يكن صوابا فمن الله، وإن يكن خطأ فمني ومن الشيطان، والله ورسوله بريئان منه: [أرى] (٢) لها الصداق كاملا. وفي لفظ: لها صداق مثلها، لا وكس، ولا شطط، وعليها العدة، ولها الميراث. فقام معقل بن سنان (٣) الأشجعي فقال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قضى به في بروع بنت واشق. ففرح عبد الله بذلك فرحا شديدا. وفي رواية: فقام رجال من أشجع، فقالوا: نشهد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قضى به في بروع بنت واشق (٤) .
ولا يخرج من ذلك إلا المتوفى عنها زوجها، وهي حامل، فإن عدتها بوضع الحمل، ولو لم تمكث بعده سوى لحظة؛ لعموم قوله: {وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن} [الطلاق: ٤] . وكان ابن عباس يرى: أن عليها أن تتربص بأبعد الأجلين من الوضع، أو أربعة أشهر وعشر، للجمع بين الآيتين، وهذا

---

(١) تفسير ابن كثير ت سلامة ابن كثير ٢٢٥/١

مأخذ جيد ومسلك قوي، لولا ما ثبتت به السنة في حديث سبيعة الأسلمية، المخرج في الصحيحين من غير وجه: أنه توفي عنها زوجها سعد بن خولة، وهي حامل، فلم تنشب أن وضعت حملها بعد وفاته، وفي رواية: فوضعت حملها بعده بليال، فلما تعلت من نفاسها تجملت للخطاب، فدخل عليها أبو السنابل بن بعكك، فقال لها: ما لي أراك متجملة؟ لعلك ترجين النكاح. والله ما أنت بناكح حتى يمر عليك أربعة أشهر وعشر. قالت سبيعة: فلما قال لي ذلك جمعت علي ثيابي حين أمسيت، فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فسألته عن ذلك، فأفتاني بأني قد حللت حين وضعت، وأمرني بالتزويج إن بدا لي (٥) . قال أبو عمر بن عبد البر: وقد روي أن ابن عباس رجع إلى حديث سبيعة، يعني لما احتج عليه به. قال: ويصحح ذلك عنه: أن أصحابه أفتوا بحديث سبيعة، كما هو (٦) قول أهل العلم قاطبة.

وكذلك يستثنى من ذلك الزوجة إذا كانت أمة، فإن عدتها على النصف من عدة الحرة، شهران وخمس ليال، على قول الجمهور؛ لأنها لما كانت على النصف من الحرة في الحد، فكذلك (٧) فلتكن على النصف منها في العدة. ومن العلماء -كمحمد بن سيرين وبعض الظاهرية -من يسوي بين الزوجات الحرائر والإماء في هذا المقام؛ لعموم الآية، ولأن العدة من باب الأمور الجبلية (٨) التي تستوي فيها الخليقة. وقد ذكر سعيد بن المسيب، وأبو العالية وغيرهما: أن الحكمة في جعل عدة الوفاة أربعة أشهر وعشرا؛ لاحتمال اشتمال الرحم على حمل، فإذا انتظر به هذه المدة ظهر إن كان موجودا، كما جاء في حديث ابن مسعود الذي في الصحيحين وغيرهما: "إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوما نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث إليه الملك

---

(١) في جـ، أ، و: "إليه شهرا".

(٢) زيادة من أ، و.

(٣) في هـ، جـ، ط، أ: "معقل بن يسار" والمثبت هو الصواب.

(٤) المسند (٤/٢٨٠) وسنن أبي داود برقم (٢٢١٤، ٢٢١٥) وسنن الترمذي برقم (١١٤٥) وسنن النسائي (٦/١٢١) وسنن ابن ماجة برقم (١٨٩١) .

(٥) صحيح البخاري برقم (٥٣١٩) وصحيح مسلم برقم (١٤٨٤) .

(٦) في جـ: "وهو".

(٧) في جـ: "وكذلك".

(٨) في أ: "الجلية".." (١)

"{والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا وصية لأزواجهم متاعا إلى الحول غير إخراج فإن خرجن فلا جناح عليكم في ما فعلن في أنفسهن من معروف والله عزيز حكيم (٢٤٠) وللمطلقات متاع بالمعروف حقا على المتقين (٢٤١) كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون (٢٤٢) }

قال الأكثرون: هذه الآية منسوخة بالتي قبلها وهي قوله: {يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا}

قال البخاري: حدثنا أمية حدثنا يزيد بن زريع عن حبيب عن ابن أبي مليكة، قال ابن الزبير: قلت لعثمان بن عفان: {والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا} قد نسختها الآية الأخرى فلم تكتبها -أو تدعها؟ قال: يا ابن أخي لا أغير شيئا منه من مكانه (١) .

ومعنى هذا الإشكال الذي قاله ابن الزبير لعثمان: إذا كان حكمها قد نسخ بالأربعة الأشهر فما الحكمة في إبقاء رسمها مع زوال حكمها، وبقاء رسمها بعد التي نسختها يوهم بقاء حكمها؟ فأجابه أمير المؤمنين بأن هذا أمر توقيفي، وأنا وجدتها مثبتة في المصحف كذلك بعدها فأثبتها حيث وجدتها.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح حدثنا حجاج بن محمد عن ابن جريج وعثمان بن عطاء عن عطاء عن ابن عباس في قوله: {والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا وصية لأزواجهم متاعا إلى الحول غير إخراج} فكان للمتوفى عنها زوجها نفقتها وسكناها في الدار سنة، فنسختها آية المواريث فجعل لهن الربع أو الثمن مما ترك الزوج. ثم قال: وروي عن أبي موسى الأشعري، وابن الزبير ومجاهد وإبراهيم وعطاء والحسن وعكرمة وقتادة والضحاك وزيد بن أسلم والسدي ومقاتل بن حيان، وعطاء الخراساني والربيع بن أنس: أنها منسوخة.

وروي من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: كان الرجل إذا مات وترك امرأته اعتدت سنة في بيته ينفق عليها من ماله ثم أنزل الله بعد: {والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا}

فهذه عدة المتوفى عنها زوجها إلا أن تكون حاملا فعدتها أن تضع ما في بطنها وقال: {ولهن الربع مما تركتم إن لم يكن لكم ولد فإن كان لكم ولد فلهن الثمن [مما تركتم] (٢) } [النساء:١٢] فبين ميراث

---

(١) تفسير ابن كثير ت سلامة ابن كثير ٦٣٦/١

المرأة وترك الوصية والنفقة.

قال: وروي عن مجاهد والحسن وعكرمة وقتادة والضحاك والربيع ومقاتل بن حيان، قالوا: نسختها {أربعة أشهر وعشرا}

قال: وروي عن سعيد بن المسيب قال: نسختها التي في الأحزاب: {يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات [ثم طلقتموهن] (٣) } [الأحزاب:٤٩] .

قلت: وروي عن [مقاتل و] (٤) قتادة: أنها منسوخة بآية الميراث.

---

(١) صحيح البخاري برقم (٤٥٣٠) .

(٢) زيادة من و.

(٣) زيادة من جـ.

(٤) زيادة من أ، و.." (١)

"حتى أغرق (١) أعماله (٢) .

ثم رواه البخاري، عن الحسن بن محمد الزعفراني، عن حجاج بن محمد الأعور، عن ابن جريج، فذكره (٣) . وهو من أفراد البخاري، رحمه الله.

وفي هذا الحديث كفاية في تفسير هذه الآية، وتبيين ما فيها من المثل بعمل من أحسن العمل أولا ثم بعد ذلك انعكس سيره، فبدل الحسنات بالسيئات، عياذا بالله من ذلك، فأبطل بعمله الثاني ما أسلفه فيما تقدم من الصالح (٤) واحتاج إلى شيء من الأول في أضيق الأحوال، فلم يحصل له منه شيء، وخانه أحوج ما كان إليه، ولهذا قال تعالى: {وله ذرية ضعفاء فأصابها إعصار} وهو الريح الشديد (٥) {فيه نار فاحترقت} أي: أحرق (٦) ثمارها وأباد أشجارها، فأي حال يكون حاله.

وقد روى ابن أبي حاتم، من طريق العوفي، عن ابن عباس قال: ضرب الله له مثلا حسنا، وكل أمثاله حسن، قال: {أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجري من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات} يقول: ضيعه في شيبته {وأصابه الكبر} وولده وذريته ضعاف عند آخر عمره، فجاءه إعصار فيه نار فأحرق (٧) بستانه، فلم يكن عنده قوة أن يغرس مثله، ولم يكن عند نسله خير يعودون به عليه، وكذلك

---

(١) تفسير ابن كثير ت سلامة ابن كثير ٦٥٨/١

الكافر يوم القيامة، إذ رد إلى الله عز وجل، ليس له خير فيستعتب، كما ليس لهذا قوة فيغرس مثل بستانه، ولا يجده قدم لنفسه خيرا يعود عليه، كما لم يغن عن هذا ولده، وحرم أجره عند أفقر ما كان إليه، كما حرم هذا جنة الله عند أفقر ما كان إليها عند كبره وضعف ذريته.

وهكذا (٨) ، روى الحاكم في مستدركه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول في دعائه: "اللهم اجعل أوسع رزقك علي عند كبر سني وانقضاء عمري" (٩) ؛ ولهذا قال تعالى: {كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون} أي: تعتبرون وتفهمون الأمثال والمعاني، وتنزلونها على المراد منها، كما قال تعالى: {وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون} [العنكبوت:٤٣] .

{يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه واعلموا أن الله غني حميد (٢٦٧) الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا والله واسع عليم (٢٦٨) يؤتي **الحكمة من** يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر إلا أولو الألباب (٢٦٩) }

---

(١) في ج: "حتى أحرق".

(٢) صحيح البخاري برقم (٤٥٣٨) .

(٣) لم أقع على هذا الطريق في صحيح البخاري، ولم يذكره المزي في تحفة الأشراف.

(٤) في أ: "من المصالح".

(٥) في جـ: "الشديدة".

(٦) في جـ: "أي: احترق".

(٧) في جـ: "فأحرقت"، وفي أ: " فاحترقت".

(٨) في جـ: "ولهذا".

(٩) المستدرك (١/٥٤٢) من طريق سعيد بن سليمان، عن عيسى بن ميمون، عن القاسم، عن عائشة، رضي الله عنها، مرفوعا، وقال الحاكم: "هذا حديث حسن الإسناد والمتن غريب في الدعاء مستحب للمشايخ إلا أن عيسى بن ميمون لم يحتج به الشيخان" قال الذهبي: قلت: "عيسى متهم"..". [1]

---

(١) تفسير ابن كثير ت سلامة ابن كثير ١/٦٩٦

"وأخرجه ابن حبان في صحيحه، عن أبي يعلى الموصلي، عن هناد، به (١) . وقال الترمذي: حسن غريب، وهو حديث أبي الأحوص -يعني سلام بن سليم -لا نعرفه مرفوعا إلا من حديثه. كذا قال. وقد رواه أبو بكر بن مردويه في تفسيره، عن محمد بن أحمد، عن محمد بن عبد الله بن رسته، عن هارون الفروي، عن أبي ضمرة (٢) عن ابن شهاب، عن عبيد الله بن عبد الله، عن ابن مسعود، مرفوعا نحوه.

ولكن رواه مسعر، عن عطاء بن السائب، عن أبي الأحوص عوف بن مالك بن نضلة، عن ابن مسعود. فجعله من قوله، والله أعلم.

ومعنى قوله تعالى: {الشيطان يعدكم الفقر} أي: يخوفكم الفقر، لتمسكوا ما بأيديكم فلا تنفقوه في مرضاة الله، {ويأمركم بالفحشاء} أي: مع نهيه إياكم عن الإنفاق خشية الإملاق، يأمركم بالمعاصي والمآثم والمحارم ومخالفة الخلاق، قال [الله] (٣) تعالى: {والله يعدكم مغفرة منه} أي: في مقابلة ما أمركم الشيطان بالفحشاء {وفضلا} أي: في مقابلة ما خوفكم الشيطان من الفقر {والله واسع عليم}

وقوله: {يؤتي الحكمة من يشاء} قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: يعني المعرفة بالقرآن ناسخه ومنسوخه، ومحكمه ومتشابهه، ومقدمه ومؤخره، وحلاله وحرامه، وأمثاله.

وروى جويبر، عن الضحاك، عن ابن عباس مرفوعا: الحكمة: القرآن (٤) . يعني: تفسيره، قال ابن عباس: فإنه [قد] (٥) قرأه البر والفاجر. رواه ابن مردويه.

وقال ابن أبي نجيح، عن مجاهد: يعني بالحكمة: الإصابة في القول.

وقال ليث بن أبي سليم، عن مجاهد: {يؤتي الحكمة من يشاء} ليست بالنبوة، ولكنه العلم والفقه والقرآن.

وقال أبو العالية: الحكمة خشية الله، فإن خشية الله رأس كل حكمة.

وقد روى ابن مردويه، من طريق بقية، عن عثمان بن زفر الجهني، عن أبي عمار الأسدي، عن ابن مسعود مرفوعا: "رأس الحكمة مخافة الله" (٦) .

وقال أبو العالية في رواية عنه: الحكمة: الكتاب والفهم. وقال إبراهيم النخعي: الحكمة: الفهم. وقال أبو مالك: الحكمة: السنة. وقال ابن وهب، عن مالك، قال زيد بن أسلم: الحكمة: العقل. قال مالك: وإنه ليقع في قلبي أن الحكمة هو الفقه في دين الله، وأمر يدخله الله في القلوب من رحمته وفضله، ومما يبين ذلك، أنك تجد الرجل عاقلا في أمر الدنيا ذا نظر فيها، وتجد آخر ضعيفا في أمر دنياه، عالما بأمر دينه، بصيرا به، يؤتيه الله إياه ويحرمه هذا، فالحكمة: الفقه في دين الله.

وقال السدي: الحكمة: النبوة.

---

(١) صحيح ابن حبان برقم (٤٠) "موارد".

(٢) في جـ، أ: "عن أبي حمزة".

(٣) زيادة من جـ، أ.

(٤) عزاه السيوطي في الدر المنثور (٢/٦٦) لابن مردويه في تفسيره وإسناده ضعيف جدا.

(٥) زيادة من أ، و.

(٦) ورواه البيهقي وضعفه في شعب الإيمان برقم (٧٤٤) من طريق محمد بن وصفى عن بقية به، ورواه البيهقي أيضا من وجه آخر موقوفا على ابن مسعود.." (١)

"سيجازيه على ذلك، ويحاسبه على تكذيبه، ويعاقبه على مخالفته كتابه (١)

ثم قال تعالى: {فإن حاجوك} أي: جادلوك في التوحيد {فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعن} أي: فقل أخلصت عبادتي لله وحده، لا شريك له ولا ند [له] (٢) ولا ولد ولا صاحبة له {ومن اتبعن} على ديني، يقول كمقالتي، كما قال تعالى: {قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني [وسبحان الله وما أنا من المشركين] (٣) } [يوسف: ١٠٨] .

ثم قال تعالى آمرا لعبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم أن يدعو إلى طريقته ودينه، والدخول في شرعه وما بعثه الله به الكتابيين (٤) من الملتين والأميين من المشركين فقال: {وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ} أي: والله عليه حسابهم وإليه مرجعهم ومآبهم، وهو الذي يهدي من يشاء، ويضل من يشاء، وله الحكمة في ذلك، والحجة البالغة؛ ولهذا قال: {والله بصير بالعباد} أي: هو (٥) عليم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الضلالة، وهو الذي {لا يسأل عما يفعل وهم يسألون} [الأنبياء: ٣٣] وما ذاك (٦) إلا لحكمته ورحمته.

وهذه الآية وأمثالها من أصرح الدلالات على عموم بعثته، صلوات الله وسلامه (٧) عليه، إلى جميع الخلق، كما هو معلوم من دينه ضرورة، وكما دل عليه الكتاب والسنة في غير (٨) ما آية وحديث، فمن ذلك قوله تعالى: {قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا} [الأعراف: ١٥٨] وقال تعالى: {تبارك

---

(١) تفسير ابن كثير ت سلامة ابن كثير ١/٧٠٠

الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا} [الفرقان: ١] وفي الصحيحين وغيرهما، مما ثبت تواتره بالوقائع المتعددة، أنه بعث كتبه صلى الله عليه وسلم يدعو إلى الله ملوك الآفاق، وطوائف (٩) بني آدم من عربهم وعجمهم، كتابيهم وأميّهم، امتثالا لأمر الله له بذلك. وقد روى عبد الرزاق، عن معمر، عن همام، عن أبي هريرة، عن النبي (١٠) صلى الله عليه وسلم أنه قال: "والذي نفسي بيده، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني، ومات ولم يؤمن بالذي أرسلت به، إلا كان من أهل النار" رواه مسلم (١١) .

وقال صلى الله عليه وسلم: "بعثت إلى الأحمر والأسود" (١٢) وقال: "كان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة". وقال الإمام أحمد: حدثنا مؤمل، حدثنا حماد، حدثنا ثابت عن أنس، رضي الله عنه: أن غلاما يهوديا كان يضع للنبي صلى الله عليه وسلم وضوءه ويناوله نعليه، فمرض، فأتاه النبي صلى الله عليه وسلم فدخل عليه وأبوه قاعد عند رأسه فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: "يا فلان، قل: لا إله إلا الله" فنظر إلى أبيه، فسكت أبوه، فأعاد عليه النبي صلى الله عليه وسلم، فنظر إلى أبيه، فقال أبوه: أطع أبا القاسم، فقال الغلام:: أشهد أن

---

(١) في أ، و: "بكتابه".

(٢) زيادة من جـ، ر، أ، و.

(٣) زيادة من جـ، ر، أ، و، وفي هـ: "الآية".

(٤) في جـ: "أهل الكتابين".

(٥) في أ، و: "وهو".

(٦) في أ، و: "وذلك".

(٧) في جـ: "الله".

(٨) في أ: "وغير".

(٩) في و: "من طوئف".

(١٠) في جـ، ر، أ، و: "رسول الله".

(١١) صحيح مسلم برقم (١٥٣) .

(١٢) في ج، ر، أ، و: "الأسود والأحمر".." (١)

"وقال ابن أبي حاتم: حدثنا الأحمسي (١) حدثنا وكيع، حدثنا هشام بن عروة، عن يحيى بن عباد: أن الزبير [بن العوام] (٢) رضي الله عنه، كان عليه يوم بدر عمامة صفراء معتجرا بها، فنزلت الملائكة عليهم عمائم صفر.

رواه ابن مردويه من طريق هشام بن عروة، عن أبيه، عن عبد الله بن الزبير، فذكره.

وقوله: {وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به} أي: وما أنزل الله الملائكة وأعلمكم بإنزالها إلا بشارة لكم وتطييبا لقلوبكم وتطمينا، وإلا فإنما النصر من عند الله، الذي لو شاء لانتصر من أعدائه بدونكم، ومن غير احتياج إلى قتالكم لهم، كما قال تعالى بعد أمره المؤمنين بالقتال: {ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم. سيهديهم ويصلح بالهم. ويدخلهم الجنة عرفها لهم.} [محمد:٤-٦] . ولهذا قال هاهنا: {وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم} أي: هو ذو العزة التي لا ترام، والحكمة في قدره والإحكام.

ثم قال (٣) تعالى: {ليقطع طرفا من الذين كفروا} أي: أمركم بالجهاد والجلاد، لما له في ذلك من الحكمة في كل تقدير، ولهذا ذكر جميع الأقسام الممكنة في الكفار المجاهدين. فقال: {ليقطع طرفا} أي: ليهلك أمة {من الذين كفروا أو يكبتهم} أي: يخزيهم ويردهم بغيظهم لما لم ينالوا منكم ما أرادوا؛ ولهذا قال: {أو يكبتهم فينقلبوا} أي: يرجعوا {خائبين} أي: لم يحصلوا على ما أملوا.

ثم اعترض بجملة دلت على أن الحكم في الدنيا والآخرة له وحده لا شريك له، فقال: {ليس لك من الأمر شيء} أي: بل الأمر كله إلي، كما قال: {فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب} [الرعد:٤٠] وقال {ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء} [البقرة:٢٧٢] . وقال {إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء} [القصص:٥٦] .

قال محمد بن إسحاق في قوله: {ليس لك من الأمر شيء} أي: ليس لك من الحكم شيء في عبادي إلا ما أمرتك به فيهم.

---

(١) تفسير ابن كثير ت سلامة ابن كثير ٢/٢٦

ثم ذكر تعالى بقية الأقسام فقال: {أو يتوب عليهم} أي: مما هم فيه من الكفر ويهديهم بعد الضلالة {أو يعذبهم} أي: في الدنيا والآخرة على كفرهم وذنوبهم؛ ولهذا قال: {فإنهم ظالمون} أي: يستحقون ذلك.

وقال البخاري: حدثنا حبان بن موسى، أخبرنا عبد الله، أخبرنا معمر، عن الزهري، حدثني سالم، عن أبيه: أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول، إذا رفع رأسه من الركوع في الركعة الثانية من الفجر (٤)

---

(١) في ر: "الأخمسي".

(٢) زيادة من جـ.

(٣) في جـ: "وقال".

(٤) في جـ، ر، أ: "من الفجر يقول".." (١)

"قال ابن أبي حاتم: ذكره أبي، أنبأنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا قراد أبو (١) نوح، حدثنا عكرمة بن عمار، حدثنا سماك الحنفي أبو زميل، حدثني ابن عباس، حدثني عمر بن الخطاب قال: لما كان يوم أحد من العام المقبل، عوقبوا بما صنعوا يوم بدر من أخذهم الفداء، فقتل منهم سبعون وفر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه، وكسرت رباعيته وهشمت البيضة على رأسه، وسال الدم على وجهه، فأنزل الله عز وجل: {أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم} بأخذكم الفداء.

وهكذا رواه الإمام أحمد (٢) عن عبد الرحمن بن غزوان، وهو قراد أبو نوح، بإسناده ولكن بأطول منه، وكذا قال الحسن البصري.

وقال ابن جرير: حدثنا القاسم، حدثنا الحسين، حدثنا إسماعيل بن علية عن ابن عون، عن محمد عن عبيدة (ح) قال سنيد -وهو حسين-: وحدثني حجاج عن جرير، عن محمد، عن عبيدة، عن علي، رضي الله عنه، قال: جاء جبريل، عليه السلام، إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا محمد، إن الله قد كره ما صنع قومك في أخذهم الأسارى، وقد أمرك أن تخيرهم بين أمرين، إما أن يقدموا فتضرب (٣) أعناقهم،

---

(١) تفسير ابن كثير ت سلامة ابن كثير ١١٤/٢

وبين أن يأخذوا الفداء، على أن يقتل منهم عدتهم. قال: فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس فذكر ذلك لهم، فقالوا: يا رسول الله، عشائرنا وإخواننا، ألا نأخذ فداءهم فنتقوى (٤) به على قتال عدونا، ويستشهد منا عدتهم، فليس في ذلك ما نكره؟ قال: فقتل منهم يوم أحد سبعون رجلا عدة أسارى أهل بدر.

وهكذا رواه الترمذي والنسائي من حديث أبي داود الحفري، عن يحيى بن زكريا بن أبي زائدة، عن سفيان بن سعيد، عن هشام بن حسان، عن محمد بن سيرين، به. ثم قال الترمذي: حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث ابن أبي زائدة. وروى أبو أسامة عن هشام نحوه. وروى عن ابن سيرين عن عبيدة، عن النبي صلى الله عليه وسلم مرسلا (٥) .

وقال محمد بن إسحاق، وابن جريج، والربيع بن أنس، والسدي: {قل هو من عند أنفسكم} أي: بسبب عصيانكم رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أمركم أن لا تبرحوا من مكانكم فعصيتم، يعني بذلك الرماة {إن الله على كل شيء قدير} أي: ويفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، لا معقب لحكمه (٦) .

ثم قال تعالى:

{وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله} أي: فراركم بين يدي عدوكم وقتلهم لجماعة منكم وجراحتهم لآخرين، كان بقضاء الله وقدره، وله الحكمة في ذلك. [وقوله] (٧) {وليعلم المؤمنين} أي: الذين صبروا وثبتوا ولم يتزلزلوا.

---

(١) في أ، و: "بن".

(٢) المسند (١/٣٠، ٣١) .

(٣) في جـ، أ، و: "فيضرب".

(٤) في ر: "فنقوى".

(٥) تفسير الطبري (٧/٣٧٦) وسنن الترمذي برقم (١٥٦٧) والنسائي في السنن الكبرى برقم (٨٦٦٢) .

(٦) انظر: تفسير الطبري (٧/٣٧٤) .

(٧) زيادة من جـ، ر.." [1]

---

(١) تفسير ابن كثير ت سلامة ابن كثير ١٥٩/٢

"قال: أقرأني رسول الله صلى الله عليه وسلم: {وليقولوا درست} .

ورواه الحاكم في مستدركه، من حديث وهب بن زمعة، وقال: يعني بجزم السين، ونصب التاء، ثم قال: (١) صحيح الإسناد ولم يخرجاه (٢)

{اتبع ما أوحي إليك من ربك لا إله إلا هو وأعرض عن المشركين (١٠٦) ولو شاء الله ما أشركوا وما جعلناك عليهم حفيظا وما أنت عليهم بوكيل (١٠٧) }

يقول تعالى آمرا لرسوله (٣) صلى الله عليه وسلم ولمن اتبع طريقته: {اتبع ما أوحي إليك من ربك} أي: اقتد به، واقتف أثره، واعمل به؛ فإن ما أوحي إليك من ربك هو الحق الذي لا مرية فيه؛ لأنه لا إله إلا هو.

{وأعرض عن المشركين} أي: اعف عنهم واصفح، واحتمل أذاهم، حتى يفتح الله لك وينصرك ويظفرك عليهم.

واعلم أن لله حكمة في إضلالهم، فإنه لو شاء لهدى الناس كلهم جميعا [ولو شاء الله لجمعهم على الهدى] (٤)

{ولو شاء الله ما أشركوا} أي: بل له المشيئة **والحكمة فيما** يشاؤه ويختاره، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون.

وقوله: {وما جعلناك عليهم حفيظا} أي: حافظا تحفظ أعمالهم وأقوالهم {وما أنت عليهم بوكيل} أي: موكل على أرزاقهم وأمورهم {إن عليك إلا البلاغ} كما قال تعالى: {فذكر إنما أنت مذكر * لست عليهم بمسيطر} [الغاشية: ٢١، ٢٢] ، وقال {فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب} [الرعد:٤٠]

{ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم كذلك زينا لكل أمة عملهم ثم إلى ربهم مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون (١٠٨) }

يقول تعالى ناهيا لرسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين (٥) عن سب آلهة المشركين، وإن كان فيه مصلحة، إلا أنه يترتب عليه مفسدة أعظم منها، وهي مقابلة المشركين بسب (٦) إله المؤمنين، وهو الله لا إله إلا هو.

كما قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في هذه الآية: قالوا: يا محمد، لتنتهين عن سبك آلهتنا، أو لنهجون ربك، فنهاهم الله أن يسبوا أوثانهم، {فيسبوا الله عدوا بغير علم}

وقال عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة: كان المسلمون يسبون أصنام الكفار، فيسب الكفار الله

(١) في م: "وقال".

(٢) المستدرك (٢/٢٣٨).

(٣) في أ: "رسوله".

(٤) زيادة من م، أ.

(٥) في أ: "وللمؤمنين".

(٦) في أ: "سب".." (١)

"فقال: من هذا؟ قالوا: ابن عباس ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال: {الله أعلم حيث يجعل رسالته}

وقوله تعالى: {سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد [بما كانوا يمكرون] } (١) هذا وعيد شديد من الله وتهديد أكيد، لمن تكبر عن اتباع رسله والانقياد لهم (٢) فيما جاؤوا به، فإنه سيصيبه يوم القيامة بين يدي الله {صغار} وهو الذلة الدائمة، لما (٣) أنهم استكبروا أعقبهم ذلك ذلا كما قال تعالى: {إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين} [غافر: ٦٠] أي: صاغرين ذليلين حقيرين.

وقوله: {وعذاب شديد بما كانوا يمكرون} لما كان المكر غالبا إنما يكون خفيا، وهو التلطف في التحيل والخديعة، قوبلوا بالعذاب الشديد جزاء وفاقا، {ولا يظلم ربك أحدا} [الكهف: ٤٩] ، كما قال تعالى: {يوم تبلى السرائر} [الطارق: ٩] أي: تظهر المستترات والمكنونات والضمائر. وجاء في الصحيحين، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "ينصب لكل غادر لواء عند استه يوم القيامة، فيقال: هذه غدرة فلان ابن فلان" (٤) .

والحكمة في هذا أنه لما كان الغدر خفيا لا يطلع عليه الناس، فيوم القيامة يصير علما منشورا على صاحبه بما فعل.

(١) زيادة من م، أ. وفي هـ: "الآية".

(٢) في أ: "إليهم".

(١) تفسير ابن كثير ت سلامة ابن كثير ٣/٣١٤

(٣) في أ: "كما".
(٤) رواه البخاري في صحيحه برقم (٧١١١) ومسلم في صحيحه برقم (١٧٣٥) من حديث عبد الله بن عمر، رضي الله عنه.." (١)

"جزاء الله تعالى وحكمه وعدله، أن النفوس إنما تجازى بأعمالها (١) إن خيرا فخير، وإن شرا فشر، وأنه لا يحمل من خطيئة أحد على أحد. وهذا من عدله تعالى، كما قال: {وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى} [فاطر: ١٨] ، وقوله {فلا يخاف ظلما ولا هضما} [طه: ١١٢] ، قال علماء التفسير (٢) : فلا يظلم بأن يحمل عليه سيئات غيره، ولا يهضم بأن ينقص من حسناته. وقال تعالى: {كل نفس بما كسبت رهينة * إلا أصحاب اليمين} [المدثر: ٣٨، ٣٩] ، معناه: كل نفس مرتهنة بعملها السيئ إلا أصحاب اليمين، فإنه قد تعود (٣) بركات أعمالهم الصالحة على ذراريهم، كما قال في سورة الطور: {والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء} [الآية: ٢١] ، أي: ألحقنا بهم ذرياتهم في المنزلة الرفيعة في الجنة، وإن لم يكونوا قد شاركوهم في الأعمال، بل في أصل الإيمان، {وما ألتناهم} أي: أنقصنا أولئك السادة الرفعاء من أعمالهم شيئا حتى ساويناهم وهؤلاء الذين هم أنقص منهم منزلة، بل رفعهم تعالى إلى منزلة الآباء ببركة أعمالهم، بفضله ومنته (٤) ثم قال: {كل امرئ بما كسب رهين} [الطور: ٢١] ، أي: من شر.

وقوله: {ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون} أي: اعملوا على مكانتكم إنا عاملون على ما نحن عليه، فستعرضون ونعرض عليه، وينبئنا وإياكم بأعمالنا وأعمالكم، وما كنا نختلف فيه في الدار الدنيا، كما قال تعالى: {قل لا تسألون عما أجرمنا ولا نسأل عما تعملون. قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق وهو الفتاح العليم} [سبأ: ٢٥، ٢٦] .

{وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم في ما آتاكم إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم (١٦٥) }

يقول تعالى: {وهو الذي جعلكم خلائف الأرض} أي: جعلكم تعمرون الأرض جيلا بعد جيل، وقرنا بعد قرن، وخلفا بعد سلف. قاله ابن زيد وغيره، كما قال: {ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة في الأرض يخلفون} [الزخرف: ٦٠] ، وكقوله تعالى: {ويجعلكم خلفاء الأرض} [النمل: ٦٢] ، وقوله {إني جاعل في الأرض

(١) تفسير ابن كثير ت سلامة ابن كثير ٣/٣٣٤

خليفة} [البقرة: ٣٠] ، وقوله {عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون} [الأعراف: ١٢٩] .

وقوله: {ورفع بعضكم فوق بعض درجات} أي: فاوت بينكم في الأرزاق والأخلاق، والمحاسن والمساوي، والمناظر والأشكال والألوان، وله الحكمة في ذلك، كقوله: {نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا} [الزخرف: ٣٢] ، وقوله [تعالى] (٥) : {انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا} [الإسراء: ٢١] .

---

(١) في م: "بالأعمال".

(٢) في د، م، أ: "العلماء بالتفسير".

(٣) في أ: "يعود".

(٤) في أ: "ومنه".

(٥) زيادة من أ.." (١)

"نوره وإخماد كلمته، وظهور كذبه وافترائهم، وتخوفوا من [معرفته] (١) أن يستميل (٢) الناس بسحره فيما يعتقدون (٣) فيكون ذلك سببا لظهوره عليهم، وإخراجه إياهم من أرضهم والذي خافوا منه وقعوا فيه، كما قال تعالى: {ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون} [القصص:٦] فلما تشاوروا في شأنه، وائتمروا فيه، اتفق رأيهم على ما حكاه الله تعالى عنهم في قوله تعالى:

{قالوا أرجه وأخاه وأرسل في المدائن حاشرين (١١١) يأتوك بكل ساحر عليم (١١٢) }

قال ابن عباس: {أرجه} أخره. وقال قتادة: احبسه. {وأرسل} أي: ابعث {في المدائن} أي: في الأقاليم ومعاملة ملكك، {حاشرين} أي: من يحشر لك السحرة من سائر البلاد ويجمعهم.

وقد كان السحر في زمانهم غالبا كثيرا ظاهرا. واعتقد من اعتقد منهم، وأوهم من أوهم منهم، أن ما جاء موسى، عليه السلام، من قبيل ما تشعبذه (٤) سحرتهم؛ فلهذا جمعوا له السحرة ليعارضوه بنظير ما أراهم من البينات، كما أخبر تعالى عن فرعون حيث قال: {قال أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى. فلنأتينك بسحر مثله فاجعل بيننا وبينك موعدا لا نخلفه نحن ولا أنت مكانا سوى. قال موعدكم يوم

---

(١) تفسير ابن كثير ت سلامة ابن كثير ٣/٣٨٤

الزينة وأن يحشر الناس ضحى. فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى} [طه:٥٧-٦٠] وقال تعالى هاهنا:

{وجاء السحرة فرعون قالوا إن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين (١١٣) قال نعم وإنكم لمن المقربين (١١٤) }

يخبر تعالى عما تشارط عليه فرعون والسحرة الذين (٥) استدعاهم لمعارضة موسى، عليه السلام: إن غلبوا موسى ليثيبنهم وليعطينهم عطاء جزيلا. فوعدهم ومناهم أن يعطيهم ما أرادوا، ويجعلنهم (٦) من جلسائه والمقربين عنده، فلما توثقوا من فرعون لعنه الله:

{قالوا يا موسى إما أن تلقي وإما أن نكون نحن الملقين (١١٥) قال ألقوا فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم (١١٦) }

هذه مبارزة من السحرة لموسى، عليه السلام، في قولهم: {إما أن تلقي وإما أن نكون نحن الملقين} أي: قبلك. كما قال (٧) في الآية الأخرى: {وإما أن نكون أول من ألقى} [طه:٦٥] فقال لهم موسى، عليه السلام: {ألقوا} أي: أنتم أولا قبلي. **والحكمة في** هذا -والله أعلم -ليرى الناس صنيعهم ويتأملوه، فإذا فرغ من بهرجهم (٨) ومحالهم، جاءهم الحق الواضح الجلي بعد تطلب له والانتظار منهم لمجيئه، فيكون أوقع في النفوس. وكذا كان. ولهذا قال تعالى: {فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم} أي: خيلوا إلى الأبصار أن ما فعلوه له حقيقة في الخارج، ولم يكن إلا مجرد صنعة وخيال، كما قال تعالى: {فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى * فأوجس في نفسه خيفة موسى * قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى * وألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى} [طه:٦٦: ٦٩] .

---

(١) زيادة من ك، م، أ.

(٢) في د: "يميل".

(٣) في ك: "يعتقدوه".

(٤) في ك: "يشعبذه".

(٥) في د: "لما".

(٦) في أ: "وليجعلهم".

(٧) في أ: "قالوا".

(٨) في أ: "بهرجتهم".." (١)

"وقوله: {يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر} كما قال تعالى: {ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون} [آل عمران:١٠٤]

وقوله تعالى: {ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة} أي: يطيعون الله ويحسنون إلى خلقه، {ويطيعون الله ورسوله} أي: فيما أمر، وترك ما عنه زجر، {أولئك سيرحمهم الله} أي: سيرحم الله من اتصف بهذه الصفات، {إن الله عزيز حكيم} أي: عزيز، من أطاعه أعزه، فإن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين، {حكيم} في قسمته هذه الصفات لهؤلاء، وتخصيصه المنافقين بصفاتهم المتقدمة، فإن له الحكمة في جميع ما يفعله، تبارك وتعالى.

{وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم (٧٢) }

يخبر تعالى بما أعده للمؤمنين به والمؤمنات من الخيرات والنعيم المقيم في {جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها} أي: ماكثين فيها أبدا، {ومساكن طيبة} أي: حسنة البناء، طيبة القرار، كما جاء في الصحيحين من حديث أبي عمران الجوني، عن أبي بكر بن أبي موسى عبد الله بن قيس الأشعري، عن أبيه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "جنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وجنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن" (١) وبه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن للمؤمن في الجنة لخيمة من لؤلؤة واحدة مجوفة، طولها ستون ميلا في السماء، للمؤمن فيها أهلون يطوف عليهم، لا يرى بعضهم بعضا" أخرجاه (٢)

وفي الصحيحين أيضا، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من آمن بالله ورسوله، وأقام الصلاة وصام رمضان، فإن (٣) حقا على الله أن يدخله الجنة، هاجر في سبيل الله، أو جلس في أرضه التي ولد فيها". قالوا: يا رسول الله، أفلا نخبر الناس؟ قال: "إن في الجنة مائة درجة، أعدها الله للمجاهدين في سبيله، بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس، فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة، ومنه تفجر أنهار الجنة، وفوقه عرش الرحمن" (٤)

---

(١) تفسير ابن كثير ت سلامة ابن كثير ٣/٤٥٦

وعند الطبراني والترمذي وابن ماجه، من رواية زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن معاذ بن جبل، رضي الله عنه: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول. . . فذكر مثله (٥)

وللترمذي عن عبادة بن الصامت، مثله (٦)

---

(١) صحيح البخاري برقم (٤٨٧٨) وصحيح مسلم برقم (١٨٠) .

(٢) صحيح البخاري برقم (٤٨٧٩) وصحيح مسلم برقم (٢٨٣٨) .

(٣) في ت، ك، أ: "كان".

(٤) صحيح البخاري برقم (٧٤٢٣) من طريق فليح عن هلال، عن عطاء بن يسار، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٥) المعجم الكبير (٢٠/١٥٨) وسنن الترمذي برقم (٢٥٣٠) وعند ابن ماجه القطعة الثانية منه برقم (٤٣٣١) ، وقد أشار الحافظ إلى الاختلاف على عطاء بن يسار.

(٦) سنن الترمذي برقم (٢٥٣١) .." (١)

"الشمس يوم الجمعة، فيه خلق آدم وفيه أدخل الجنة، وفيه أهبط منها، وفيه تقوم الساعة، وفيه ساعة لا يوافقها مؤمن يصلي -وقبض أصابعه قللها (١) -فسأل الله خيرا، إلا أعطاه إياه". قال أبو سلمة: فقال عبد الله بن سلام: قد عرفت تلك الساعة، وهي آخر ساعات النهار من يوم الجمعة، وهي التي خلق الله فيها آدم، قال الله تعالى: {خلق الإنسان من عجل سأريكم آياتي فلا تستعجلون} (٢) .

والحكمة في ذكر عجلة الإنسان هاهنا أنه لما ذكر المستهزئين بالرسول، صلوات الله [وسلامه] (٣) عليه، وقع في النفوس سرعة الانتقام منهم واستعجلت (٤) ، فقال الله تعالى: {خلق الإنسان من عجل} ؛ لأنه تعالى يملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته، يؤجل ثم يعجل، وينظر ثم لا يؤخر؛ ولهذا قال: {سأوريكم آياتي} أي: نقمي وحكمي واقتداري على من عصاني، {فلا تستعجلون} .

{ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين (٣٨) لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ولا هم ينصرون (٣٩) بل تأتيهم بغتة فتبهتهم فلا يستطيعون ردها ولا هم ينظرون (٤٠) } .

---

(١) تفسير ابن كثير ت سلامة ابن كثير ١٧٥/٤

يخبر تعالى عن المشركين أنهم يستعجلون أيضا بوقوع العذاب بهم، تكذيبا و جحودا وكفرا وعنادا واستبعادا، فقال: {ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين}

قال الله تعالى: {لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم} أي: لو تيقنوا أنها واقعة بهم لا محالة لما استعجلوا، به ولو يعلمون حين يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم، {لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل} [الزمر:١٦] ، {لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش} [الأعراف:٤١] ، وقال في هذه الآية: {حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم} وقال: {سرابيلهم من قطران وتغشى وجوههم النار} [إبراهيم:٥٠] ، فالعذاب محيط بهم من جميع جهاتهم، {ولا هم ينصرون} أي: لا ناصر لهم كما قال: {وما لهم من الله من واق} [الرعد:٣٤] .

وقوله: {بل تأتيهم بغتة} (٥) أي: "تأتيهم النار بغتة"، أي: فجأة {فتبهتهم} أي: تذعرهم (٦) فيستسلمون لها حائرين، لا (٧) يدرون ما يصنعون، {فلا يستطيعون ردها} أي: ليس لهم حيلة في ذلك، {ولا هم ينظرون} أي: ولا يؤخر عنهم ذلك ساعة واحدة.

---

(١) في أ: "يقللها"

(٢) أخرج مالك في الموطأ (١٠٨/١) من طريق يزيد بن الهاد عن محمد بن إبراهيم عن أبي سلمة عن أبي هريرة نحوه دون ذكر الآية وأخرج الشيخان أوله والله أعلم.

(٣) زيادة من ف، أ.

(٤) في ف، أ: "واستعجلت ذلك".

)٥) في ف: "بغته فتبهتهم"

(٦) في ف، أ: "تدعوهم".

(٧) في ف: "حائرون ولا".." (١)

"الخنا، أفتح به أعينا عميا، وآذانا صما، وقلوبا غلفا، وأسدده لكل أمر جميل، وأهب له كل خلق كريم، وأجعل السكينة لباسه، والبر شعاره، والتقوى ضميره، **والحكمة منطقه**، والصدق والوفاء طبيعته، والعفو والمعروف خلقه، والحق شريعته، والعدل سيرته، والهدى إمامه، والإسلام ملته، وأحمد اسمه، أهدي

---

(١) تفسير ابن كثير ت سلامة ابن كثير ٣٤٣/٥

به بعد الضلالة، وأعلم به من الجهالة، وأرفع به بعد الخمالة، وأعرف به بعد النكرة، وأكثر به بعد القلة وأغني به بعد العيلة، وأجمع به بعد الفرقة، وأؤلف به بين أمم متفرقة، وقلوب مختلفة، وأهواء متشتتة، وأستنقذ به فئاما من الناس عظيما من الهلكة، وأجعل أمته خير أمة أخرجت للناس، يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، موحدين مؤمنين مخلصين، مصدقين بما جاءت به رسلي. رواه ابن أبي حاتم (١) .

{وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئا ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون (٥٥) }

هذا وعد من الله لرسوله صلى الله عليه وسلم (٢) . بأنه سيجعل أمته خلفاء الأرض، أي: أئمة الناس والولاة عليهم، وبهم تصلح (٣) البلاد، وتخضع (٤) لهم العباد، وليبدلن بعد خوفهم من الناس أمنا وحكما فيهم، وقد فعل تبارك وتعالى ذلك. وله الحمد والمنة، فإنه لم يمت رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى فتح الله عليه مكة وخيبر والبحرين، وسائر جزيرة العرب وأرض اليمن بكمالها. وأخذ الجزية من مجوس هجر، ومن بعض أطراف الشام، وهاداه هرقل ملك الروم وصاحب مصر والإسكندرية -وهو المقوقس- وملوك عمان والنجاشي ملك الحبشة، الذي تملك بعد أصحمة، رحمه الله وأكرمه.

ثم لما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم واختار الله له ما عنده من الكرامة، قام بالأمر بعده خليفته أبو بكر الصديق، فلم شعث ما وهى عند (٥) موته، عليه الصلاة والسلام (٦) وأطد جزيرة العرب ومهدها، وبعث الجيوش الإسلامية إلى بلاد فارس صحبة خالد بن الوليد، رضي الله عنه، ففتحوا طرفا منها، وقتلوا خلقا من أهلها. وجيشا آخر صحبة أبي عبيدة، رضي الله عنه، ومن معه من الأمراء إلى أرض الشام، وثالثا صحبة عمرو بن العاص، رضي الله عنه، إلى بلاد مصر، ففتح الله للجيش الشامي في أيامه بصرى ودمشق ومخاليفهما من بلاد حوران وما والاها، وتوفاه الله عز وجل، واختار له ما عنده من الكرامة. ومن على الإسلام وأهله بأن ألهم الصديق أن استخلف عمر الفاروق، فقام في الأمر بعده قياما تاما، لم يدر الفلك بعد الأنبياء [عليهم السلام] (٧) على مثله، في قوة سيرته وكمال عدله. وتم في أيامه فتح البلاد الشامية بكمالها، وديار مصر إلى آخرها، وأكثر إقليم فارس، وكسر كسرى وأهانه غاية الهوان، وتقهقر إلى أقصى مملكته، وقصر قيصر، وانتزع يده عن بلاد الشام فانحاز إلى قسطنطينة، وأنفق أموالهما في سبيل الله، كما أخبر

(١) وروي عن عبد الله بن سلام وكعب الأحبار كما في الشفا للقاضي عياض (١٥/١) .
(٢) في ف، أ: "صلوات الله وسلامه عليه".
(٣) في ف، أ: "يصلح".
(٤) في ف، أ: "ويخضع".
(٥) في ف: "بعد".
(٦) في ف، أ: "صلى الله عليه وسلم".
(٧) زيادة من ف، أ.." (١)

"يخبر تعالى عن تعنت الكفار وعنادهم وتكذيبهم للحق بلا حجة ولا دليل منهم، وإنما تعللوا بقولهم: {مال هذا الرسول يأكل الطعام} ، يعنون: كما نأكله، ويحتاج إليه كما نحتاج إليه، {ويمشي في الأسواق} أي: يتردد فيها وإليها طلبا للتكسب والتجارة، {لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا} يقولون (١) : هلا أنزل إليه ملك من عند الله، فيكون له شاهدا على صدق ما يدعيه! وهذا كما قال فرعون: {فلولا ألقي عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين} [الزخرف: ٥٣] . وكذلك قال هؤلاء على السواء، تشابهت قلوبهم؛ ولهذا قال: {أو يلقى إليه كنز} أي: علم كنز [يكون] (٢) ينفق منه، {أو تكون له جنة يأكل منها} أي: تسير معه حيث سار. وهذا كله سهل يسير على الله، ولكن له **الحكمة في** ترك ذلك، وله الحجة البالغة {وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا} .

قال الله تعالى: {انظر كيف ضربوا لك الأمثال} أي: جاءوا بما يقذفونك به ويكذبون به عليك، من قولهم "ساحر، مسحور، مجنون، كذاب، شاعر" وكلها أقوال باطلة، كل أحد ممن له أدنى فهم وعقل يعرف كذبهم وافتراءهم في ذلك؛ ولهذا قال: {فضلوا} أي: عن طريق الهدى، {فلا يستطيعون سبيلا} وذلك لأن كل من خرج عن الحق فإنه ضال حيثما توجه؛ لأن الحق واحد ومنهج متحد، يصدق بعضه بعضا.

ثم قال تعالى مخبرا نبيه أنه لو شاء لآتاه خيرا مما يقولون في الدنيا وأفضل وأحسن، فقال [تعالى] (٣) {تبارك الذي إن شاء جعل لك خيرا من ذلك جنات تجري من تحتها الأنهار ويجعل لك قصورا} .

قال مجاهد: يعني: في الدنيا، قال: وقريش يسمون كل بيت من حجارة قصرا، سواء كان كبيرا أو صغيرا

(١) تفسير ابن كثير ت سلامة ابن كثير ٧٧/٦

(٤) .

وقال سفيان الثوري، عن حبيب بن أبي ثابت، عن خيثمة؛ قيل للنبي صلى الله عليه وسلم: إن شئت أن نعطيك خزائن الأرض ومفاتيحها ما لم يعط نبي قبلك، ولا يعطى أحد من بعدك، ولا ينقص ذلك مما لك عند الله؟ فقال: اجمعوها لي في الآخرة، فأنزل الله عز وجل في ذلك: {تبارك الذي إن شاء جعل لك خيرا من ذلك جنات تجري من تحتها الأنهار ويجعل لك قصورا} (٥) .

---

(١) في أ: "يقول".

(٢) زيادة من أ.

(٣) زيادة من أ.

(٤) في ف، أ: "صغيرا أو كبيرا".

(٥) رواه الطبري في تفسيره (١٨/١٤٠) من طريق سفيان به مرسلا.." [1]

"وقد رواه البخاري في "البيوع" عن محمد بن سنان، عن فليح بن سليمان، عن هلال بن علي به.

ورواه في التفسير عن عبد الله –قيل: ابن رجاء، وقيل: ابن صالح –عن عبد العزيز بن أبي سلمة، عن هلال، عن عطاء بن يسار، عن عبد الله بن عمرو، به (١) . ورواه ابن أبي حاتم، عن أبيه، عن عبد الله بن رجاء، عن عبد العزيز بن أبي سلمة الماجشون، به.

وقال البخاري في البيوع: وقال سعيد، عن هلال، عن عطاء، عن عبد الله بن سلام.

وقال وهب بن منبه: إن الله أوحى إلى نبي من أنبياء بني إسرائيل –يقال له: شعياء –أن قم في قومك بني إسرائيل، فإني منطق لسانك بوحي وأبعث أميا من الأميين، أبعثه [مبشرا] (٢) ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب في الأسواق، لو يمر إلى جنب سراج لم يطفئه، من سكينته، ولو يمشي على القصب لم يسمع من تحت قدميه، أبعثه مبشرا ونذيرا، لا يقول الخنا، أفتح به أعينا كمها (٣) ، وآذانا صما، وقلوبا غلفا، أسدده لكل أمر جميل، وأهب له كل خلق كريم، وأجعل السكينة لباسه، والبر شعاره، والتقوى ضميره، **والحكمة منطقه**، والصدق والوفاء طبيعته، والعفو والمعروف خلقه، والحق شريعته، والعدل سيرته، والهدى إمامه، والإسلام ملته، وأحمد اسمه، أهدي به بعد الضلالة، وأعلم به بعد الجهالة، وأرفع به بعد الخمالة،

---

(١) تفسير ابن كثير ت سلامة ابن كثير ٦/٩٥

وأعرف به بعد النكرة، وأكثر به بعد القلة، وأغني به بعد العيلة، وأجمع به بعد الفرقة، وأؤلف به بين أمم متفرقة، وقلوب مختلفة، وأهواء متشتتة، وأستنقذ به فئاما من الناس عظيمة (٤) من الهلكة، وأجعل أمته خير أمة أخرجت للناس، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، موحدين مؤمنين مخلصين، مصدقين لما جاءت به رسلي (٥) ، ألهمهم التسبيح والتحميد، والثناء والتكبير والتوحيد، فـي مساجدهم ومجالسهم، ومضاجعهم ومنقلبهم ومثواهم، يصلون لي قياما وقعودا، ويقاتلون في سبيل الله (٦) صفوفا وزحوفا، ويخرجون من ديارهم ابتغاء مرضاتي ألوفا، يطهرون الوجوه والأطراف، ويشدون الثياب في الأنصاف، قربانهم دماؤهم، وأناجيلهم في صدورهم، رهبان بالليل ليوث بالنهار، وأجعل في أهل بيته وذريته السابقين والصديقين والشهداء والصالحين، أمته من بعده يهدون بالحق وبه يعدلون، أعز من نصرهم، وأؤيد من دعا لهم، وأجعل دائرة السوء على من خالفهم أو بغى عليهم، أو أراد أن ينتزع شيئا مـما في أيديهم. أجعلهم ورثة لنبيهم، والداعية إلى ربهم، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة، ويوفون بعهدهم، أختم بهم الخير الذي بدأته بأولهم، ذلك فضلي أوتيه من أشاء، وأنا ذو الفضل العظيم.

هكذا رواه ابن أبي حاتم، عن وهب بن منبه اليماني، رحمه الله.

ثم قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبد الرحمن بن صالح، حدثنا عبد الرحمن بن محمد

---

(١) المسند (٢/١٧٤) وصحيح البخاري برقم (٢١٢٥) ورقم (٤٨٣٨) .

(٢) زيادة من ت، ف.

(٣) في ت: "أعينا عميا كمها".

(٤) في ت: "عظيم".

(٥) في ت: "الرسل".

(٦) في أ: "في سبيلي".." (١)

"{وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين (٦) } .

يخبر تعالى أنه نزل الكتاب على عبده ورسوله محمد، صلوات الله وسلامه عليه دائما إلى يوم الدين، ووصف نفسه بالعزة التي لا ترام، والحكمة في الأقوال والأفعال، ثم قال: {ما خلقنا السموات والأرض

---

(١) تفسير ابن كثير ت سلامة ابن كثير ٤٣٨/٦

وما بينهما إلا بالحق} أي: لا على وجه العبث والباطل، {وأجل مسمى} أي: إلى مدة معينة مضروبة لا تزيد ولا تنقص.

قوله: {والذين كفروا عما أنذروا معرضون} أي: لاهون (١) عما يراد بهم، وقد أنزل إليهم كتابا وأرسل إليهم رسول، وهم معرضون عن ذلك كله، أي: وسيعلمون غب ذلك.

ثم قال: {قل} أي: لهؤلاء المشركين العابدين مع الله غيره: {أرأيتم ما تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من الأرض} أي: أرشدوني إلى المكان الذي استقلوا بخلقه من الأرض، {أم لهم شرك في السموات} أي: ولا شرك لهم في السموات ولا في الأرض، وما يملكون من قطمير، إن الملك والتصرف كله إلا الله، عز وجل، فكيف تعبدون معه غيره، وتشركون به؟ من أرشدكم إلى هذا؟ من دعاكم إليه؟ أهو أمركم به؟ أم هو شيء اقترحتموه من عند أنفسكم؟ ولهذا قال: {ائتوني بكتاب من قبل هذا} أي: هاتوا كتابا من كتب الله المنزلة على الأنبياء (٢) ، عليهم الصلاة والسلام، يأمركم بعبادة هذه الأصنام، {أو أثارة من علم} أي: دليل بين على هذا المسلك الذي سلكتموه {إن كنتم صادقين} أي: لا دليل لكم نقليا ولا عقليا على ذلك؛ ولهذا قرأ آخرون: "أو أثرة من علم" أي: أو علم صحيح يأثرونه عن أحد ممن قبلهم، كما قال مجاهد في قوله: {أو أثارة من علم} أو أحد يأثر علما.

---

(١) في ت، م، أ: "لاهين".

(٢) في ت، م، أ: "هاتوا كتابا من الكتب المنزلة على أنبيائهم".." (١)

"وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا إبراهيم بن العلاء الزبيدي (١) حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا أبو محمد عيسى بن موسى، عن أبي حازم، عن سهل بن سعد الساعدي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن في أصلاب أصلاب أصلاب رجال [من أصحابي رجالا] (٢) ونساء من أمتي يدخلون الجنة بغير حساب" ثم قرأ: {وآخرين منهم لما يلحقوا بهم} (٣) يعني: بقية من بقي من أمة محمد صلى الله عليه وسلم.

وقوله: {وهو العزيز الحكيم} أي: ذو العزة والحكمة في شرعه وقدره.

وقوله: {ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم} يعني: ما أعطاه الله محمدا صلى الله

---

(١) تفسير ابن كثير ت سلامة ابن كثير ٢٧٤/٧

عليه وسلم من النبوة العظيمة، وما خص به أمته من بعثته صلى الله عليه وسلم إليهم.

{مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدي القوم الظالمين (٥) قل يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين (٦) ولا يتمنونه أبدا بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين (٧) قل إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون (٨) }

يقول تعالى ذاما لليهود الذين أعطوا التوراة وحملوها للعمل بها، فلم يعملوا بها، مثلهم في ذلك كمثل الحمار يحمل أسفارا، أي: كمثل الحمار إذا حمل كتبا لا يدري ما فيها، فهو يحملها حملا حسيا (٤) ولا يدري ما عليه. وكذلك هؤلاء في حملهم الكتاب الذي أوتوه، حفظوه لفظا ولم يفهموه (٥) ولا عملوا بمقتضاه، بل أولوه وحرفوه وبدلوه، فهم أسوأ حالا من الحمير؛ لأن الحمار لا فهم له، وهؤلاء لهم فهوم لم يستعملوها؛ ولهذا قال في الآية الأخرى: {أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون} [الأعراف: ١٧٩] وقال هاهنا: {بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدي القوم الظالمين}

وقال الإمام أحمد رحمه الله: حدثنا ابن نمير، عن مجالد، عن الشعبي، عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من تكلم يوم الجمعة والإمام يخطب، فهو كمثل الحمار يحمل أسفارا، والذي يقول له "أنصت"، ليس له جمعة" (٦)

---

(١) في أ: "الترمذي".

(٢) زيادة من الدر المنثور. مستفادا من هامش ط. الشعب.

(٣) ورواه الطبراني في المعجم الكبير (٢٠١/٦) وابن أبي عاصم في السنة برقم (٣٠٩) من طريق الوليد بن مسلم، عن أبي محمد -عيسى بن موسى- به، وقال الهيثمي في المجمع (٤٠٨/١٠) : "إسناده جيد".

(٤) في أ: "حسنا".

(٥) في م: "ولم يتفهموه".

(٦) المسند (١/٢٣٠) وقال الهيثمي في المجمع (٢/١٨٤) : "فيه مجالد بن سعيد وقد ضعفه الناس ووثقه النسائي في رواية".." (١)

"لا نعرفه (١) إلا من حديث مجالد. وقد رواه الإمام أحمد، عن علي بن المديني، عن سفيان، فقص الدرمك فقط. (٢)

{وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيمانا ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وما يعلم جنود ربك إلا هو وما هي إلا ذكرى للبشر (٣١) كلا والقمر (٣٢) والليل إذ أدبر (٣٣) والصبح إذا أسفر (٣٤) إنها لإحدى الكبر (٣٥) نذيرا للبشر (٣٦) لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر (٣٧) }

يقول تعالى: {وما جعلنا أصحاب النار} أي: خزانها، {إلا ملائكة} أي: [زبانية] (٣) غلاظا شدادا. وذلك رد على مشركي قريش حين ذكر عدد الخزنة، فقال أبو جهل: يا معشر قريش، أما يستطيع كل عشرة منكم لواحد منهم فتغلبونهم (٤) ؟ فقال الله: {وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة} أي: شديدي الخلق لا يقاومون ولا يغالبون. وقد قيل: إن أبا الأشدين -واسمه: كلدة بن أسيد بن خلف-قال: يا معشر قريش، اكفوني منهم اثنين وأنا أكفيكم منهم سبعة عشر، إعجابا منه بنفسه، وكان قد بلغ من القوة فيما يزعمون أنه كان يقف على جلد البقرة ويجاذبه عشرة لينتزعوه من تحت قدميه، فيتمزق الجلد ولا يتزحزح عنه. قال السهيلي: وهو الذي دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مصارعته وقال: إن صرعتني آمنت بك، فصرعه النبي صلى الله عليه وسلم مرارا، فلم يؤمن. قال: وقد نسب ابن إسحاق خبر المصارعة إلى ركانة بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب (٥) .

قلت: ولا منافاة بين ما ذكراه، والله أعلم.

{وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا} أي: إنما ذكرنا عدتهم أنهم تسعة عشر اختبارا منا للناس، {ليستيقن الذين أوتوا الكتاب} أي: يعلمون أن هذا الرسول حق؛ فإنه نطق بمطابقة ما بأيديهم من الكتب السماوية المنزلة على الأنبياء قبله.

{ويزداد الذين آمنوا إيمانا} أي: إلى إيمانهم. بما يشهدون من صدق إخبار نبيهم محمد صلى الله عليه

---

(١) تفسير ابن كثير ت سلامة ابن كثير ١١٧/٨

وسلم، {ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين في قلوبهم مرض} أي: من المنافقين {والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا} ؟ أي: يقولون: ما الحكمة في ذكر هذا هاهنا؟ قال الله

---

(١) في م: "لا يعرف".
(٢) المسند (٣/٣٦١) .
(٣) زيادة من م.
(٤) في أ: "فتغلبوهم".
(٥) الروض الأنف للسهيلي (١/٢٠٠) .." (١)

"فصل في وجوه تربية الله لعبده

قال ابن الخطيب – رحمه الله تعالى –: «وجوه تربية الله للعبد كثيرة غير متناهية، ونحن نذكر منها أمثله:
الأول: لما وقعت النطفة من صلب الأب إلى رحم الأم، فرباها حتى صارت علقة أولا، ثم مضغة ثانية، ثم تولدت منه أعضاء مختلفة، مثل العظام، والغضاريف، والرباطات، والأوتار، والأوردة، والشرايين، ثم اتصل البعض بالبعض، ثم حصل في كل واحد منها نوع خاص من أنواع القوى، فحصلت القوة الباصرة في العين، والسامعة في الأذن، والناطقة في اللسان، فسبحان من بصر بشحم، وأسمع بعظم، وأنطق بلحم» ! .
والثاني: أن الحبة الواحدة إذا وقعت في الأرض، فإذا وصلت نداوة الأرض إليها، انتفخت ولا تنشق من شيء من الجوانب إلا من أعلاها وأسفلها، مع أن الانتفاخ حاصل من جميع الجوانب.
أما الشق الأعلى، فيخرج منه الجزء الصاعد، فبعد صعوده يحصل له ساق، ثم ينفصل من ذلك الساق أغصان كثيرة، ثم يظهر على تلك الأغصان الأنوار أولا، ثم الثمار ثانيا، ويحصل لتلك الثمار أجزاء مختلفة بالكثافة، واللطافة، وهي القشور، واللبوب، ثم الأدهان.
وأما الجزء الغائص من الشجرة، فإن تلك العروق تنتهي إلى أطرافها، وتلك الأطراف تكون في اللطافة كأنها مياع منعقدة، ومع غاية لطفها، فإنها تغوص في الأرض الصلبة اليابسة، وأودع فيها قوى جاذبة تجذب اللطيفة من الطين إلى نفسها، والحكمة في كل هذه التدبيرات تحصيل ما يحتاج العبد إليه من الغذاء، والإدام، والفواكه، والأشربة، والأدوية؛ كما قال تعالى: {أنا صببنا المآء صبا ثم شققنا الأرض شقا}

---

(١) تفسير ابن كثير ت سلامة ابن كثير ٢٦٩/٨

[عبس: ٢٥، ٢٦] .

فصل

اختلفوا في {العالمين} .

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «هم الجن والإنس؛ لأنهم المكلفون بالخطاب» ؛ قال الله تعالى: {ليكون للعالمين نذيرا} [الفرقان: ١] .." (١)

"وقال أبو العالية، والحسن: رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحباه.

قال ابن الخطيب: الحكمة في قوله: «اهدنا» ولم يقل «اهدني» ؛ إما: لأن الدعاء مهما كان أعم، كان إلى الإجابة أقرب.

وإما لقول النبي عليه الصلاة والسلام «ادعوا الله تعالى بألسنة ما عصيتموه بها» قالوا: يا رسول الله، فمن لنا بتلك الألسنة؟ قال: «يدعو بعضكم لبعض؛ لأنك ما عصيت بلسانه، وهو ما عصى بلسانك» .

الثالث: كان العبد يقول: سمعت رسولك يقول: «الجماعة رحمة» ، فلما أردت حمدك، قلت: الحمد لله، ولما ذكرت العبادة، ذكر عبادة الجميع، ولما ذكرت الاستعانة، ذكرت استعانة الجميع، فلا جرم لما طلبت الهداية، طلبتها للجميع، ولما طلبت الاقتداء بالصالحين، طلبت اقتداء الجميع؛ فقلت: «غير المغضوب عليهم ولا الضالين» ، فلما لم أفارق النبياء والصالحين في الدنيا، فأرجو ألا أفارقهم في الآخرة؛ كما قال تعالى: {فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم} [النساء: ٦٩] الآية الكريمة.." (٢)

"أهل الطاعة، وإليهم الإشارة بقوله تعالى: {أنعمت عليهم} .

وأهل البغي والعدوان، وهم المراد بقوله تعالى: {غير المغضوب عليهم} .

وأهل الجهل في دين الله، وإليهم الإشارة بقوله تعالى: {ولا الضآلين} .

فإن قيل: لم قدم ذكر العصاة على ذكر الكفرة؟

قلنا: لأن كل أحد يحترز عن الكفر، أما قد لا يحترز عن الفسق، فكان أهم فقدم لهذا السبب ذلك.

قال ابن الخطيب – رحمه الله تعالى –: ها هنا سؤال، وهو أن غضب الله إنما تولد عن علمه بصدور القبيح والجناية عنه، فهذا العلم إما أن يقال: إنه قديم، أو محدث، فإن كان قديما فلم خلقه، ولم أخرجه

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ١/١٨٢

(٢) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ١/٢٠٨

من العدم إلى الوجود، مع علمه بأنه لا يستفيد من دخوله في الوجود إلا العذاب الدائم، ولأنه من كان غضبان على الشيء كيف [يعقل] إقدامه على إجاده وتكوينه؟ فإن كان ذلك العلم حادثا لكان الباري – تعالى – محلا للحوادث، إلا أنه يلزم أن يفتقر إحداث ذلك العلم إلى سبق علم آخر، وتسلسل، وهو محال.

والجواب: يفعل الله ما يشاء ويحكم ما يريد.

سؤال آخر

وهو من أنعم الله – تعالى – عليه امتنع أن يكون مغضوبا عليه، وأن يكون من الضالين، فلما ذكر قوله: {أنعمت عليهم} ، فما الفائدة في أن ذكر عقبيه: {غير المغضوب عليهم ولا الضآلين} ؟

والجواب: الإيمان إنما يكمل بالرجاء والخوف، كما قال عليه الصلاة والسلام : «لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه لاعتدلا» ، فقوله: {صراط الذين أنعمت عليهم} يوجب الرجاء الكامل، وقوله تعالى: {غير المغضوب عليهم ولا الضآلين} يوجب الخوف الكامل، وحينئذ يقوى الإيمان بركنيه وطرفيه، وينتهي إلى حد الكمال.

سؤال آخر

ما الحكمة في أنه – تعالى – جعل المقبولين طائفة واحدة، وهم الذين أنعم الله عليهم، والمردودين فريقين: المغضوب عليهم، والضالين؟." (١)

"ولأن القول بأن هذه الفواتح غير معلومة مروي عن أكابر الصحابة رضي الله عنهم فوجب أن يكون حقا، لقوله عليه الصلاة والسلام :» أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم «.

وأما المعقول فهو أن الأفعال التي كلفنا الله تعالى بها قسمان: منها ما يعرف وجه الحكمة فيه على الجملة بعقولنا كأفعال الحج في رمي الجمرات، والسعي بين الصفا والمروة، والرمل، والاضطباع.

ثم اتفق المحققون على أنه كما يحسن من الله – تعالى – أن يأمر عباده بالنوع الأول، فكذا يحسن الأمر بالنوع الثاني؛ لأن الطاعة في النوع الأول، تدل على كمال الانقياد والتسليم، لاحتمال أن المأمور إنما أتى به لما عرف بعقله من وجه المصلحة فيه.

أما الطاعة في النوع الثاني، فإنها تدل على كمال الانقياد والتسليم، فإذا كان الأمر كذلك في الأفعال، فلم لا يجوز أيضا أن يكون [الأمر] كذلك في الأقوال؟ وهو أن يأمر الله – تعالى – تارة أن نتكلم بما نقف

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٢٢٧/١

على معناه، وتارة بما لا نقف على معناه، ويكون المقصود من ذلك ظهور الانقياد والتسليم.

القول الثاني: قول من زعم أن هذه الفواتح معلومة، واختلفوا فيه، وذكروا وجوها:

الأول: أنها أسماء السور، وهو قول أكثر المتكلمين، واختيار الخليل وسيبويه رحمهما الله تعالى.

قال القفال – رحمه الله تعالى – وقد سمت العرب هذه الحروف أشياء فسموا ب» لام «: والد حارثة بن لام الطائي، وكقولهم للنخاس:» صاد «، وللنقد:» عين «، وللسحاب:» غين «.

وقالوا: جبل» قاف «، وسموا الحوت:» نونا «.

الثاني: أنها أسماء الله تعالى، روي عن علي – رضي الله تعالى عنه – أنه كان يقول: يا حم عسق.

الثالث: أنها أبعاض أسماء الله تعالى.." (١)

"فصل في ماهية الملائكة

اختلفوا في ماهية الملائكة، وحقيقتهم، والضابط فيه أن يقال: إن الملائكة ذوات قائمة بنفسها، وهي إما متحيزة، أو ليست بمتحيزة، فإن كانت متحيزة فهاهنا أقوال:

أحدها: أنها أجسام لطيفة هوائية تقدر على التشكل بأشكال مختلفة مسكنها السموات، وهذا قول أكثر المسلمين.

الثاني: قول طوائف من عبدة الأوثان: أن الملائكة هي هذه الكواكب الموصوفة بالإسعاد، والإنحاس فالمسعدات منها ملائكة الرحمة، والمنحسات منها ملائكة العذاب.

الثالث: قول معظم المجوس، والثنوية: وهو أن هذا العالم مركب من أصلين أزليين، وهما النور والظلمة، وهما في الحقيقة جوهران شفافان مختاران قادران، متضادا النفس والصورة، مختلفا الفعل والتدبير، فجوهر النور فاضل خير، نقي طيب الريح، كريم النفس يسر ولا يضر، وينفع ولا يمنع، ويحيا ولا يبلى، وجوهر الظلمة على ضد ذلك.

ثم إن جوهر النور لم يزل يولد الأولياء، وهم الملائكة لا على سبيل التناكح، بل على سبيل تولد الحكمة من الحكيم، والضوء من المضيء، وجوهر الظلمة لم يزل يولد الأعداء، وهم الشياطين على سبيل تولد السفه من السفيه لا على سبيل التناكح.

القول الثاني: وهو أنها ذوات قائمة بأنفسها، وليست بمتحيزة، ولا بأجسام. فهاهنا قولان:

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٢٥٦/١

الأول: قول طوائف من النصارى، وهو أن الملائكة في الحقيقة هي الأنفس الناطقة المفارقة لأبدانها على نعت الصفاء والخيرية، وذلك لأن هذه النفوس المفارقة إن كانت صافية خالصة فهي الملائكة، وإن كانت خبيثة كدرة فهي الشياطين.

والثاني: قول الفلاسفة وهي أنها جواهر قائمة بأنفسها وليست بمتحيزة ألبتة، وأنها بالماهية مخالفة لأنواع النفوس الناطقة البشرية، وأنها أكمل قوة منها، وأكثر علما منها، وأنها للنفوس البشرية جارية جرى الشمس بالنسبة إلى الأضواء، ثم إن هذه الجواهر على قسمين: منها ما هي بالنسبة إلى أجرام الأفلاك والكواكب كنفوسنا الناطقة بالنسبة إلى أبداننا، ومنها ما هي لا هي على شيء من تدبير الأفلاك، بل هي مستغرقة في معرفة الله، ومحبته ومشتغلة بطاعته، وهذا القسم هم الملائكة المقربون، ونسبتهم إلى الملائكة الذين يدبرون السماوات، كنسبة أولئك المدبرين إلى نفوسنا الناطقة، فهذان القسمان قد اتفقت الفلاسفة على إثباتهما، ومنهم من أثبت انواعا أخر من الملائكة، وهي الملائكة الأرضية المدبرة لأحوال هذا العالم السفلي، ثم إن المدبرات لهذا العالم إن كانت خيرة فهم الملائكة، وإن كانت شريرة فهم الشياطين.." (١)

"٣٦٨ - فلم أر مثل الحي حيا مصبحا ... ولا مثلنا يوم التقينا فوارسا

أكر وأحمى للحقيقة منهم ... وأضرب منا بالسيوف القوانسا

ف «القوانس» منصوب بفعل مقدر أي: ب «ضرب» لا ب «أضرب» ، وفي ادعاء مثل ذلك في الآية الكريمة بعد الحذف يتبين المفضل عليه، والناصب ل «ما» .

فصل في بيان علام الجواب في الآية

اختلف علماء التأويل في هذا الجواب وهو قوله: «إني أعلم ما لا تعلمون» فقيل: إنه جواب لتعجبهم، كأنه قال: لا تتعجبوا من أن فيهم من يفسد، ويقتل، فإني أعلم مع هذا أن فيهم صالحين، ومتقين، وأنتم لا تعلمون.

وقيل: إنه جواب لغمهم كأنه قال: لا تغتموا بسبب وجود المفسدين، فإني أعلم أيضا أن فيهم جمعا من المتقين، ومن لو أقسم على لأبره. وقيل: إنه طلب الحكمة كأنه قال: إن مصلحتكم أن تعر فوا وجه الحكمة فيه على الإجمال دون التفصيل. بل ربما كان ذلك التفصيل مفسدة لكم.

وقال «ابن عباس» : كان «إبليس» - لعنة الله - قد أعجب ودخله الكبر لما جعله خازن السماء، وشرفه،

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٤٩٧/١

فاعتقد أن ذلك لمزية له، فاستحب الكفر والمعصية في جانب آدم - عليه الصلاة والسلام - وقالت الملائكة: «ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك» ، وهي لا تعلم أن في نفس إبليس خلاف ذلك، فقال الله لهم: «إني أعلم ما لا تعلمون» ، وقيل: المعنى عام، أي: أعلم ما لا تعلمون مما كان، وما يكون، وما هو كائن.." (١)

"وقال بعضهم: الكل ممكن، والأدلة النقلية ضعيفة ومتعارضة، فوجب التوقف وترك القطع، والله أعلم.

فصل في إعراب الآية

قوله: {وكلا منها رغدا} هذه الجملة عطف على «اسكن» ، فهي في محل نصب بالقول، وأصل «اؤكل» بهمزتين: الأولى هزة وصل، والثانية فاء الكلمة، فلو جاءت هذه الكلمة على الأصل لقيل: أوكل بإبدال الثانية حرفا مجانسا لحركة ما قبلها، إلا أن العرب حذفت فاءه في الأمر تخفيفا، فاستغنت حينئذ عن همزة الوصل، فوزنه إلا أن العرب حذفت فاءه في المر تخفيفا، فاستغنت حينئذ عن همزة الوصل، فوزنه «عل» ومثله: «خذ» و «مر» ، ولا يقاس على هذه الأفعال غيرها، في تقول: من «أجر - جر» ولا ترد العرب هذه الفاء في العطف، بل تقول: «قم وخذ وكل» إلا «مر» ، فإن الكثير رد فاءه بعد الواو والفاء، قال تعالى:

{وأمر أهلك} [طه: ١٣٢] ، وعدم الرد قليل.

وحكى سيبويه «اؤكل» على الأصل، وهو شاذ.

وقال «ابن عطية» : حذفت النون من «كلا» للأمر.

وهذه العبارة موهمة لمذهب الكوفيين من أن الأمر عندهم معرب على التدريج، وهو عند البصريين محمول على المجزوم، فإن سكن المجزوم سكن المر منه، وإن حذف منه حرف حذف من الأمر.

و «منها» متعلق به، و «من» للتبعيض، ولا بد من حذف مضاف أي: من ثمارها ويجوز أن تكون «من» لابتداء الغاية، وهو حسن.

فإن قيل: ما الحكمة في عطفه هنا «وكلا» بالوا، وفي «العراف» بالفاء؟

والجواب: كل فعل عطف عليه شيء، وكان الفعل بمنزلة الشرط، وذلك الشيء بمنزلة الجزاء، عطف الثاني على الأول بالفاء دون الواو، كقوله تعالى: {وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها} [البقرة: ٥٨] فعطف

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٥١١/١

«كلوا» على «ادخلوا» بالفاء لما كان وجود الأكل منها متعلقا بدخولها فكأنه قال: إن دخلتموها أكلتم منها، فالدخول موصل إلى الأكل، والكل متعلق وجوده بوجوده يبين ذلك قوله في سورة «الأعراف» : {وإذ قيل لهم اسكنوا هذه القرية وكلوا} [الأعراف: ١٦١] فعطف «كلوا» على قوله: «اسكنوا» بالواو دون الفاء؛ لأن «اسكنوا» من السكنى، وهو المقام مع طول اللبث والكل لا يختص وجوده بوجوده؛ لأن من دخل بستانا قد يأكل منه، وإن كان مجتازا، فلما لم يتعلق الثاني بالأول تعلق الجزاء بالشرط وجب العطف بالواو دون الفاء. إذا ثبت هذا." (١)

"والاحترام، حتى إن الإنسان ربما امتنع في تلك الأزمنة، وفي تلك الأمكنة عن فعل القبائح، وذلك يوجب أنواعا من الفوائد.

أحدها: أن ترك القبائح في تلك الأوقات أمر مطلوب؛ لأنه يقل القبائح.

وثانيها: أن تركها في تلك الأوقات ربما صار سببا لميل طبعه إلى الإعراض عنها مطلقا.

وثالثها: أنه إذا أتى بالطاعات فيها وأعرض عن المعاصي فيها، فبعد انقضاء تلك الأوقات لو شرع في المعاصي صار شروعه فيها سببا لبطلان ما تحمله من العناء والمشقة في أداء الطاعات في تلك الأوقات، والظاهر من حال العاقل أنه لا يرضى بذلك فيصير ذلك سببا لاجتنابه عن المعاصي بالكلية، فهذا هو **الحكمة في** تخصيص بعض الأزمنة، وبعض الأمكنة، بمزيد التعظيم.

قوله {ذلك الدين القيم} أي: الحساب المستقيم، يقال: «الكيس من دان نفسه» أي: حاسبها، وقال الحسن: «ذلك الدين القيم» الذي لا يبدل ولا يغير، «القيم» - ههنا - بمعنى: القائم الدائم الذي لا يزول، وهو الدين الذي فطر الناس عليه.

قوله {فلا تظلموا فيهن أنفسكم} بفعل المعصية، وترك الطاعات، قال ابن عباس: «المراد، فلا تظلموا في الشهور الاثني عشر أنفسكم، والمراد: منع الإنسان من الإقدام على الفساد في جميع العمر» . وقال الأكثرون الضمير في قوله «فيهن» عائد على الأربعة الحرم، وقد تقدم. وقيل: المراد ب «الظلم» النسيء الذي كانوا يعملونه، فينقلون الحج من الشهر الذي أمر الله بإقامته فيه إلى شهر آخر، وقيل: المراد ب «الظلم» ترك المقاتلة في هذه الأشهر.

قوله: {وقاتلوا المشركين كآفة} نصب «كافة» على الحال، إما من الفاعل، أو من المفعول، وقد تقدم أن

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٥٥١/١

«كافة» لا يتصرف فيها بغير النصب على الحال، وأنها لا تدخلها «أل» ؛ لأنها بمعنى قولك: قامُوا جميعا، وقاموا معان وأنها لا تثنى، ولا تجمع، وكذلك «كافة» الثانية، ومعنى «كافة» أي: جميعا.

فصل

معنى الآية: قاتلوهم بأجمعكم مجتمعين على قتالهم، كما أنهم يقاتلونكم على هذه الصفة، أي: تعاونوا وتناصروا على ذلك؛ ولا تتخاذلوا وكونوا عباد الله مجتمعين متوافقين في مقاتلة الأعداء.." (١)

"قوله تعالى: {إنما الصدقات للفقرآء والمساكين} الآية.

اعلم أن المنافقين لما لمزوا الرسول عليه الصلاة والسلام في الصدقات، بين لهم أن مصرف الزكاة هؤلاء، ولا تعلق لي بها، ولا آخذ لنفسي نصيبا منها.

وقد ذكر العلماء في الحكمة في وجوب الزكاة أمورا:

منها: قالوا: شكر النعمة عبارة عن صرفها إلى طلب مرضاة المنعم، والزكاة شكر النعمة. فوجب القول بوجوبها؛ لأن شكر المنعم واجب.

ومنها: أن إيجاب الزكاة توجب حصول الألفة بالمودة، وزوال الحقد والحسد بين المسلمين فهذه وجوه معتبرة في الحكمة الناشئة لوجوب الزكاة.

ومنها: أن الفاضل عن الحاجات الأصلية إذا أمسكه الإنسان عطله عن المقصود." (٢)

"نملك الغرة يا رسول الله، فقال لحمل بن مالك بن النابغة أعنهم بغرة من صدقاتهم» وكان حمل على الصدقة يومئذ.

قوله: {في سبيل الله} قال المفسرون: يعني الغزاة، قال أكثر العلماء: يجوز له أن يأخذ من الزكاة وإن كان غنيا. وقال أبو حنيفة وصاحباه: لا يعطى الغازي إلا مع الحاجة.

ونقل القفال في تفسيره عن بعض العلماء أنهم أجازوا صرف الصدقات إلى جميع وجوه الخير من تكفين الموتى، وبناء الحصون، وعمارة المساجد؛ لأن قوله: {وفي سبيل الله} عام في الكل وقال أكثر أهل العلم: لا يعطى منه شيء في الحج. وقال قوم: يجوز أن يصرف سهم في سبيل الله إلى الحج، يروى ذلك عن ابن عباس وهو قول الحسن، وأحمد، وإسحاق.

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٨٦/١٠

(٢) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ١٢١/١٠

قوله: {وابن السبيل} وهو كل من يريد سفرا مباحا ولم يكن له ما يقطع به المسافة يعطى له قدر ما يقطع به تلك المسافة، وإن كان ذا يسار في بلده. وقال قتادة: ابن السبيل: هو الضعيف وقال فقهاء العراق: ابن السبيل: الحاج المنقطع.

واعلم أن مال الزكاة لا يخرج عن هذه الثمانية. واختلفوا هل يجوز وضعه في بعض الأصناف؟ إذا قلنا يجوز وضعه في بعض الأصناف، فإنما يجوز في غير العامل، فأما وضعه بالكلية في العامل فلا يجوز بالاتفاق.

فإن قيل: ما **الحكمة في** أنه تعالى ذكر الأصناف الستة وهم: الفقراء، والمساكين، والعاملون والمؤلفة، والرقاب، والغارمون، بصيغة الجمع، وذكر الصنفين الآخرين، وهما: في سبيل الله وابن السبيل بصيغة الإفراد؟ فالجواب: أن المراد بهما الجنس هو جمع حقيقة، ولا يقال: هلا ذكر الأصناف الستة بصيغة الإفراد ويكون المراد الجنس كهذين؛ لأنا نقول: لو أفرد في الجميع، فلا يخلو إما أن يفردهم معرفين بالألف واللام للعهد؛ فينصرف بين السامع إلى صرف الزكاة إلى معهود سابق معين وليس هو المقصود من الآية بالإجماع، وإن أفردهم منكرين، فهم منه أن الزكاة لا يجوز دفعها إلى فقير واحد، أو مسكين واحد، وكذلك سائرها، ولا يجوز دفعها لاثنين فما زاد، وهو خلاف الإجماع

فصل

والسبيل: الطريق، ونسب المسافر إليها لملازمته إياها، ومروره عليها قال بعض." (١)

"حال عدم إتيان التأويل، قال الزمخشري: «فإن قلت: ما معنى التوقع في قوله - تعالى -: {ولما يأتهم تأويله} ؟ قلت: معناه: كذبوا به على البديهة، قبل التدبر، ومعرفة التأويل» ، ثم قال أيضا: «ويجوز أن يكون المعنى: ولم يأتهم بعد تأويل ما فيه من الإخبار بالغيوب، أي: عاقبته حتى يتبين لهم: أكذب هو، أم صدق» . انتهى.

وفي وضعه «لم» موضع «لما» نظر لما عرفت ما بينهما من الفرق، ونفيت جملة الإحاطة ب «لم» ، وجملة إتيان التأويل ب «لما» ؛ لأن «لم» للنفي «المطلق على الصحيح، و» لما «لنفي الفعل المتصل بزمن الحال، فالمعنى: أن عدم التأويل متصل بزمن الإخبار.

فصل

قيل المعنى: بل كذبوا بالقرآن {ولما يأتهم تأويله} أي: عاقبة ما وعد الله في القرآن؛ أنه يئول إليه أمرهم

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ١٢٧/١٠

من العقوبة، يريد: أنهم لم يعلموا ما يئول إليه عاقبة أمرهم.

وقيل: كلما سمعوا شيئا من القصص، قالوا: ليس في هذا الكتاب، إلا أساطير الأولين، ولم يعرفوا أن المقصود منها، ليس هو نفس الحكاية، بل أمور أخرى، وهي: بيان قدرة الله - تعالى - على التصرف في هذا العالم، ونقل أهله من العز إلى الذل، ومن الذل إلى العز، وذلك دليل على القدرة الكاملة، وأيضا: تدل على أن الدنيا فانية غير باقية؛ كما قال - تعالى -: {لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ما كان حديثا يفترى} [يوسف: ١١١] ، وأيضا فهي دلالة على العجز؛ لكون النبي - عليه الصلاة والسلام - لم يتعلم، ولم يتتلمذ لأحد؛ فدل ذلك على أنه وحي من الله - تعالى -، كما قال في الشعراء بعد ذكر القصص: {وإنه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين} [الشعراء: ١٩٢ - ١٩٤] ، وقيل: إنهم كانوا كلما سمعوا حروف التهجي في أوائل السور، ولم يفهموها، ساء ظنهم بالقرآن؛ فأجاب - تعالى - بقوله: {هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات} [آل عمران: ٧] ، وقيل: إنهم لما سمعوا القرآن ينزل شيئا فشيئا، ساء ظنهم، وقالوا: لو أنزل عليه القرآن جملة واحدة؛ فأجاب - تعالى -: {كذلك لنثبت به فؤادك} [الفرقان: ٣٢] ، وقيل: إن القرآن لما كان مملوءا من إثبات الحشر والنشر، وكانوا ألفوا الحياة، فاستبعدوا حصول الحياة بعد الموت، فكذبوا بالقرآن، وقيل: إن القرآن لما كان مملوءا بالصلاة، والزكاة، والعبادات، قال القوم: إن إله العالمين غني عنا، وعن طاعتنا، وأنه - تعالى - أجل من أن يأمرنا بشيء لا فائدة فيه، فأجاب الله عنه، بقوله: {إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها} [الإسراء: ٧] ، وبالجملة: فشبهات الكفارة كثيرة؛ فهم لما رأوا القرآن مشتملا على أمور عرفوا حقيقتها، ولم يطلعوا على وجه الحكمة فيها، لا جرم كذبوا بالقرآن.

قوله: «كذلك» : نعت لمصدر محذوف، أي: مثل ذلك التكذيب، كذب الذين من قبلهم، أي: قبل النظر، والتدبر.." (١)

"ثم قال: {ولكن أعبد الله الذي يتوفاكم} يميتكم، ويقبض أرواحكم.

فإن قيل: ما الحكمة في وصف المعبود ههنا بقوله: {الذي يتوفاكم} ؟ .

فالجواب: من وجوه:

الأول: أن المعنى أني أعبد الله الذي خلقكم أولا، ثم يتوفاكم ثانيا ثم يعيدكم ثالثا، فاكتفى بذكر التوفي

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٣٣٥/١٠

لكونه منبها على البواقي.

الثاني: أن الموت أشد الأشياء مهابة، فخص هذا الوصف بالذكر ههنا، ليكون أقوى في الزجر والردع.

الثالث: أنهم لما استعجلوا نزول العذاب قال تعالى: {فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم قل فانتظروا إني معكم من المنتظرين ثم ننجي رسلنا والذين آمنوا} [يونس: ١٠٢ - ١٠٣] وهذا يدل على أنه تعالى يهلك أولئك الكفار، ويبقي المؤمنين ويقوي دولتهم، فلما كان قريب العهد بذكر هذا الكلام لا جرم قال ههنا: }ولكن أعبد الله الذي يتوفاكم} وهو إشارة إلى ما قرره وبينه في تلك الآية كأنه يقول: أعبد الله الذي وعدني بإهلاككم، وإبقائي بعدكم.

قوله: {وأمرت أن أكون من المسلمين} [يونس: ٧٢] ، قال الزمخشري: أصله بأن أكون، فحذف الجار، وهذا الحذف يحتمل أن يكون من الحذف المطرد الذي هو حذف الحروف الجارة مع أن وأن، وأن يكون من الحذف غير المطرد؛ وهو كقوله: [البسيط]

٢٩٣٩ - أمرتك الخير ... ...

{فاصدع بما تؤمر} [الحجر: ٩٤] يعني: بغير المطرد أن حذف حرف الجر مسموع في أفعال لا يجوز القياس عليها، وهي: أمر، واستغفر، كما تقدم [الأعراف١٥٥] ، وأشار بقوله: «أمرتك» إلى البيت المشهور: [البسيط]

٢٩٤٠ - أمرتك الخير فافعل ما أمرت به...... ... ...

وقد قاس ذلك بعض النحويين، ولكن يشترط أن يتعين ذلك الحرف، ويتعين موضعه أيضا، وهو رأي علي بن علي بن سليمان فيجيز «بريت القلم السكين» بخلاف «صككت الحجر بالخشبة» .

قوله: «وأن أقم» يجوز أن يكون على إضمار فعل أي: وأوحي إلي أن أقم، ثم لك في «أن» وجهان أحدهما: أن تكون تفسيرية لتلك الجملة المقدرة، كذا قاله أبو حيان، وفيه نظر، إذا المفسر لا يجوز حذفه، وقد رد هو بذلك في موضع غير هذا، والثاني: أن تكون المصدرية، فتكون هي وما في خبرها في محل رفع بذلك الفعل المقدر، ويحتمل أن تكون «أن» مصدرية فقط، وهي على هذا معمولة لقوله: أمرت مراعى فيها معنى." (١)

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٤٢١/١٠

"سورة هود - عليه الصلاة والسلام -

قال ابن عباس: هي مكية إلا قوله: {وأقم الصلاة طرفي النهار} [هود: ١١٤] . وهنا سؤالان: الأول: أن سورة القصص لم يقص فيها إلا قصة واحدة، وهي قصة موسى - عليه الصلاة والسلام - وفي هذه السورة قص فيها قصصا كثيرة؛ فكان تسمية هذه بالقصص أولى من تسمية تلك، وكان ينبغي أن يسمى القصص بسورة " موسى " - عليه السلام - كما سميت سورة يوسف - عليه الصلاة والسلام -، وسورة " نوح " - عليه الصلاة والسلام -. السؤال الثاني: أن في هذه السورة قصصا كثيرة، فما الحكمة في أنها سميت باسم هود دون غيره من الأنبياء المذكورين فيها؟ .

فصل

يجوز في " هود " مرادا به السورة الصرف وتركه، وذلك باعتبارين: وهما أنك إن عنيت أنه اسم للسورة تعين منعه من الصرف، وهذا رأي الخليل وسيبويه. وكذلك " نوح "، و" لوط " إذا جعلتهما اسمين للسورتين المذكورين فيهما، فتقول: قرأت هود ونوح، وتبركت بهود، ونوح، ولوط. فإن قلت: قد نصوا على أن المؤنث الثلاثي الساكن الوسط؛ نحو: هند ودعد، والأعجمي الثلاثي الساكن الوسط؛ نحو: نوح ولوط حكمه الصرف وتركه، مع أن الصحيح وجوب صرف نوح. فالجواب: أن شرط ذلك ألا يكون المؤنث منقولا من مذكر إلى مؤنث، فلو سميت امرأة ب " زيد " تحتم منعه، وشرط الأعجمي ألا يكون مؤنثا، فلو كان مؤنثا تحتم منعه نحو: ماه وجور. وهود ونوح من هذا القبيل، فإن " هود " في الأصل لمذكر، وكذلك نوح، ثم سمي." (١)

"بوصفيه بشيء واحد بوصفيه، وحينئذ يكون قوله: {كالأعمى والأصم} وقوله: {والبصير والسميع} من باب عطف الصفات؛ كقوله: [المتقارب]

٢٩٥٨ - إلى الملك القرم وابن الهمام ... وليث الكتيبة في المزدحم

وقد أحسن الزمخشري في التعبير عن ذلك فقال: شبه فريق الكافرين بالأعمى والأصم وفريق المؤمنين بالبصير والسميع، وهو من اللف والطباق، وفيه معنيان: أن يشبه الفريقين تشبيهين اثنين، كما شبه امرؤ القيس قلوب الطير بالحشف والعناب، وأن يشبه بالذي جمع بين العمى والصمم، والذي جمع بين البصر والسمع، على أن تكون الواو في «والأصم» وفي «والسميع» لعطف الصفة على الصفة كقوله: [السريع]

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ١٠/٤٢٦

٢٩٥٩ - ... ... الص ... صابح فالغانم فالآيب

يريد بقوله: «اللف» أنه لف المؤمنين، والكافرين اللذين هما مشبهان بقوله: «الفريقين» ولو فسرهما لقال: مثل الفريق المؤمن كالبصير والسميع، ومثل الكافر كالأعمى والأصم، وهي عبارة مشهورة في علم البيان: لفظتان متقابلتان، اللف والنشر، أشار لقول امرىء القيس: [الطويل]

٢٩٦٠ - كأن قلوب الطير رطبا ويابسا ... لدى وكرها العناب والحشف البالي

أصل الكلام: كأن الرطب من قلوب الطير: العناب، واليابس منها: الحشف، فلف ونشر، وللف والنشر في علم البيان تقسيم كثير، ليس هذا موضعه.

وأشار بقوله: «الصابح فالغانم» إلى قوله: [السريع]

٢٩٦١ - يا ويح زيابة للحارث الص ... صابح فالغانم فالآيب

وقد تقدم ذلك في أول البقرة.

فإن قيل: لم قدضم تشبيه الكافر على المؤمن؟

فالجواب: لأن المتقدم ذكر الكفار، فلذلك قدم تمثيلهم.

فإن قيل: ما **الحكمة في** العدول عن هذا التركيب لو قيل: كالأعمى والبصير، والأصم والسميع، لتتقابل كل لفظة مع ضدها، ويظهر بذلك التضاد؟ .

فالجواب: بأنه تعالى لما ذكر انسداد العين أتبعه بانسداد الأذن، ولما ذكر انفتاح العين أتبعه بانفتاح الأذن، وهذا التشبيه أحد الأقسام، وهو تشبيه أمر معقول بأمر." (١)

"ثم قال: {إن هذا لشيء عجيب} .

فإن قيل: كيف تعجبت من قدرة الله - تعالى - والتعجب من قدرة الله يدل على الجهل بقدرة الله تعالى؛ وذلك يوجب الكفر؟ .

فالجواب: أنها إنما تعجبت بحسب العرف والعادة لا بحسب القدرة، فإن الرجل المسلم لو أخبره رجل آخر صادق بأن الله - تعالى - يقلب هذا الجبل إبريزا، فلا شك أنه يتعجب نظرا إلى العادة لا استنكارا للقدرة.

ثم قالت الملائكة: {قالوا أتعجبين من أمر الله} أي: لا تعجبي من أمر الله، فإن الله إذا أراد شيئا كان.

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٤٦٤/١٠

قوله: {رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت} أي: بيت إبراهيم - صلوات الله وسلامه عليه - والمعنى: رحمة الله عليكم متكاثرة، وبركاته عندكم متوالية متعاقبة، وهي النبوة، والمعجزات القاهرة، فإذا خرق الله العادة في تخصيصكم بهذه الكرامات العالية الرفيعة، فلا تعجبي من ذلك. وقيل: هذا على معنى الدعاء من الملائكة.

وقيل: على معنى الخير والرحمة والنعمة. و «البركات» جمع البركة وهي ثبوت الخير.

فإن قيل: ما الحكمة في إفراد الرحمة وجمع البركات، وكذلك إفراد السلام في التشهد وجمع البركات؟ .

فالجواب: قد تقدم في سورة البقرة عند قوله: {أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة} [البقرة: ١٥٧] .

وقال ابن القيم - هنا - إن السلام إما مصدر محض، فهو شيء واحد، فلا معنى لجمعه، وإما اسم من أسماء الله - تعالى - فيستحيل أيضا جمعه، وعلى التقديرين لا سبيل لجمعه.

وأما الرحمة فمصدر كما تقدم، وأما البركة: فإنها لما كانت تتجدد شيئا بعد شيء كان لفظ الجمع أولى بها؛ لدلالتها على المعنى المقصود بها، ولهذا جاءت في القرآن كهذه الآية، وكذلك السلام في التشهد، وهو قوله: السلام عليكم أيها النبي ورحمة الله وبركاته.

وقوله: «عليكم» حكى سيبويه «عليكم» بكسر الكاف لمجاورتها الياء نقله القرطبي وفيه دليل على أن الأزواج من أهل البيت.

قوله: «أهل البيت» في نصبه وجهان:

أحدهما: أنه منادى.

والثاني: أنه منصوب على المدح. وقيل: على الاختصاص، وبين النصبين فرق:." (١)

"وقيل: هذا مثل القرآن: {أنزل من السمآء مآء} وهو القرآن، والأودية: قلوب العباد، يريد: ينزل القرآن، فيحتمل منه القلوب على قدر اليقين، والعقل والشك وكما أن الماء يعلوه زبد، والأجساد يخالطها خبث، ثم إن ذلك الزبد، والخبث يذهب، ويضيع، ويبقى جوهر الماء، وجوهر الأجساد السبعة، كذلك ههنا بيانات القرآن يختلط بها شكوك وشبهات، ثم إنها تزول بالآخرة وتضيع ويبقى العلم والدين والحكمة في العاقبة كذلك ههنا؟

قوله: «أودية» جمع واد، وجمع فال على أفعلة، قال أبو البقاء: «شاذ، ولم نسمعه في غير هذا الحرف.

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٥٢٨/١٠

ووجهه: أن فاعلا قد جاء بمعنى فعيل، وكما جاء فعيل وأفعلة كجريب وأجربة كذلك فاعل» .
قال شهاب الدين: «قد سمع فاعلة، وأفعلة في حرفين آخرين:
أحدهما: قولهم جائر وأجورة.
والثاني: نادج وأنجية» .
وقال الفارسي: «أودية: جع واد ولا نعلم فاعلِ جمع على أفعلة، قال:» ويشبه أن يكون ذلك لتعاقب فاعل، وفعيل على الشيء الواحد، كعالم وعليم، وشاهد وشهيد، وناصر ونصير، ووزن فاعل يجمع على أفعال كصاحب وأصحاب، وطائر وأطيار، [ووزن] فعيل يجمع على أفعلة كجريب، وأجربة، ثم لما حصلت المناسبة المذكورة بين فاعل، وفعيل لا جرم يجمع الفاعل جمع العفيل، فيقال: واد وأودية، ويجمع الفعيل على جمع الفاعل فيقال: يتيم وأيتام، وشريف وأشراف «.
وقال غيره: ن ظير واد، وأودية: ناد، وأندية للمجالس وسمي واديا: لخروجه وسيلانه، والوادي على هذا اسم للماء السائل.
وقال أبو علي:» سالت أودية «فيه توسع، أي: يسال ماؤها فحذف، ومعنى» بقدرها «أي: بقدر مياهها؛ لأن الأودية ما سالت بقدر نفسها» .
قوله: «بقدرها» فيه وجهان:
أحدهما: أنه متعلق ب: سالت «.
والثاني: أنه متعلق بمحذوف؛ لأنه صفة للأودية.
وقرأ العامة بفتح الدال، وزيد بن علي، والأشهب العقيلي، وأبو عمرو في رواية بسكونها، وقد تقدم في البقرة.
قال الواحدي رحمه الله: القدر والقدر: مبلغ الشيء، يقال: كم قدر هذه الدراهم." (١)
"وقال أبو ظيبان عن ابن عباس رضي الله عنه: هي شجرة في الجنة أصلها ثابت في الأرض، وفرعها أعلاها في السماء، كذلك أصل هذه الكلمة راسخ في قلب المؤمن بالمعرفة، والتصديق، فإذا تكلم بها عرجت، فلا تحجب حتى تنتهي إلى الله عز وجل قال تعالى:
{إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه} [فاطر: ١٠] . ووصف الشجرة بكونها طيبة وذلك يشمل

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ١١/٢٨٧

طيب الصورة والشكل والمنظر، والطعم، والرائحة والمنفعة ويكون أصلها ثابت، اي: راسخ آمن من الانقطاع، والزوال ويكون فرعها في السماء؛ لأن ارتفاع الأغصان يدل على ثبات الأصل، وأنها متى ارتفعت كانت عبدية عن عفونات الأرض، فكانت ثمارها نقية طاهرة عن جميع الشوائب، ووصفها أيضا بأنها: «تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها» والحين في اللغة هو الوقت، والمراد أن ثمار هذه الشجرة تكون أبدا حاضرة دائمة في كل الأوقات ولا تكون مثل الأشجار التي تكون ثمارها حضارة في بعض الأوقات دون بعض.

وقال مجاهد وعكرمة: والحين: سنة كاملة؛ لأن النخلة تثمر كل سنة. وقال سعيد بن جبير، وقتادة والحسن: ستة أشهر من وقت إطلاعها إلى حين صرامها وروي ذلك عن ابن عباس رضي الله عنه.

وقيل: أربعة أشهر من حين ظهورها إلى إدراكها.

وقال سعيد بن المسيب: شهران من حين أن يؤكل منها إلى الصرام.

وقال الربيع بن أنس رضي الله عنه: كل حين، أي: كل غدوة، وعشية، لأن ثمرة النخل تؤكل أبدا ليلا ونهارا صيفا وشتاء إما تمرا رطبا أو بسرا، كذلك عمل المؤمن يصعد أول النهار وآخره، وبركة إيمانه لا تنطقع أبدا، بل تتصل في كل وقت.

والحكمة في تمثيل الإيمان بالشجرة، وهي أن الشجرة لا تكون إلا ثلاثة أشياء:." (١)

"تناول الغذاء، ووصل ذلك العلف إلى معدته إن ك ان إنسانا، وإلى كرشه إن كان من الأنعام وغيرها، فإذا طبخ، وحصل الهضم الأول فيه، فما كان منه صافيا انجذب إلى الكبد، وما كان كثيفا، نزل إلى الأمعاء، ثم ذلك الذي يحصل منه في الكبد ينطبخ فيها، ويصير دما، وذلك هو الهضم الثاني، ويكون ذلك الدم مخلوطا بالصفراء، والسوداء، وزيادة المادة المائية، أما الصفراء، فتذهب إلى المرارة، والسوداء إلى الطحال، والماء إلى الكلية، ومنها إلى المثانة، وأما ذلك الدم فإنه يدخل في الأوردة، وهي العروق النابتة من الكبد، وهناك يحصل الهضم الثالث، وبين الكبد، وبين الضرع عروق كثيرة، فينصب الدم من تلك العروق إلى الضرع والضرع لحم غددي رخو أبيض، فيقلب الله - تعالى - الدم عند إصبابه إلى ذلك اللحم الغددي الرخو الأبيض، من صورة الدم إلى صورة اللبن فهذا هو القول الصحىٍح في كيفية تولد اللبن.

فإن قيل: هذه المعاني حاصلة في الحيوان الذكر، فلم لم يحصل منه اللبن؟ قلنا: الحكمة الإلهية قد اقتضت تدبير كل شيء على الوجه اللائق به الموافق لمصلحته، فمزاج الذكر من كل حيوان يجب أن يكون حارا

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٣٨٠/١١

يابسا، ومزاج الأنثى يجب أن يكون باردا رطبا، **والحكمة فيه** أن الولد إنما يتكون في داخل بدن الأنثى؛ فوجب أن يكون بدن الأنثى مختصا بمزيد الرطوبات لوجهين:

الأول: أن الولد إنما يتولد من الرطوبات، فوجب أن يحصل في بدن الأنثى رطوبات كثيرة لتصير مادة لتولد الولد.

والثاني: أن الولد إذا كبر، وجب أن يكون بدن الأم قابلا للتمدد؛ حتى يتسع لذلك الولد، فإذا كانت الرطوبات غالبة على بدن الأم، كان بدنها قابلا للتمدد؛ فيتسع للولد، فثبت بما ذكرنا أنه - تعالى - خص بدن الأنثى من كل حيوان بمزيد الرطجوبات لهذه الحكمة، ثم إن تلك الرطوبات التي كانت تصير مادة لازدياد بدن الجنين حين كان في رحم الأم، فعند انفصال الجنين، تنصب إلى الثدي، والضرع، ليصير مادة لغذاء ذلك الطفل الصغير، فظهر أن السبب الذي لأجله يتولد اللبن من الدم في حق الأنثى غير حاصل في حق الذكر، فظهر الفرق.

وقد تقدم ما نقل عن ابن عباس - رضي الله عنه - في أن الفرث يكون في أسفل الكرش، والدم يكون في أعلاه، واللبن يكون في الوسط، وبينا أن هذا القول على خلاف الحس والتجربة.

واعلم أن حدوث اللبن في الثدي، واتصافه بالصفات الموافقة لتغذية الطفل مشتمل على حكم عجيبة، يشهد صريح العقل بأنها لا تحصل إلا بتدبير الفاعل الحكيم والمدبر الرحيم، وبيانه من وجوه:

الأول: أنه - تعالى - خلق في أسفل المعدة منفذا يخرج منه ثقل الغذاء فإذا تناول." (١)

"الإنسان غذاء، أو شربة رقيقة؛ انطبق ذلك المنفذ انطباقا كليا، لا يخرج منه شيء من ذلك المأكول، والمشروب إلى أن يكمل انهضامه في المعدة، وينجذب ما صفا منه إلى الكبد، ويبقى الثقل هناك، فحينئذ ينفتح ذلك المنفذ، وينزل منه ذلك الثقل، وهذا من العجائب التي لا يمكن حصولها إلا بتدبير الفاعل الحكيم؛ لأنه متى كانت الحاجة إلى خروج ذلك الجسم من المعدة انفتح فحصل الانطباق تارة، والانفتاح أخرى، بحسب الحاجة، وتقدير المنفعة مما لا يتأتى إلا بتدبير الفاعل الحكيم.

الثاني: أنه - تعالى - أودع في الكبدة قوة، تجذب الأجزاء اللطيفة الحاصلة في ذلك المأكول، والمشروب، ولا تجذب الأجزاء الكثيفة، وخلق في الأمعاء قوة تجذب تلك الأجزاء الكثيفة التي هي الثقل، ولا تجذب الأشياء اللطيفة ألبتة، ولو كان الأمر بالعكس، لاختلفت مصلحة البدن، ولفسد نظام هذا التركيب.

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ١٠٤/١٢

الثالث: أنه – سبحانه وتعالى – أودع في الكبد قوة هاضمة طابخة، حتى إن تلك الأجزاء اللطيفة؛ تنطبخ في الكبد، وتنقلب دما، ثم إنه – تعالى – أودع في المرارة قوة جاذبة للصفراء، وفي الطحال قوة جاذبة للسوداء، وفي الكلية قوة جاذبة لزيادة المائية، حتى يبقى الدم الصافي الموافق لتغذية البدن، وتخصيص كل واحد من هذه الأعضاء بتلك القوة الحاصلة، لا يمكن إلا بتدبير الحكيم العليم.

الرابع: أن في الوقت الذي يكون الجنين في رحم الأم ينصب من ذلك الدم نصيب وافر إليه حتى يصير مادة تنمي أعضاء ذلك الولد، وازدياده، فإذا انفصل ذلك الجنين عن الرحم ينصب ذلك النصيب إلى جانب الثدي ليتولد منه اللبن الذي يكون غذاء له، فإذا كبر ذلك الولد لم ينصب ذلك النصيب لا إلى الرحم، ولا إلى الثدي، بل ينصب على مجموع بدن المتغذي، فانصباب ذلك الدم في كل وقت إلى عضو آخر انصبابا موافقا للمصلحة، والحكمة لا يتأتى إلا بتدبير الفاعل المختار الحكيم.

الخامس: أن عند تولد اللبن في الضرع أحدث – تعالى – في حلمة الثدي ثقوبا صغيرة ومساما ضيقة، ولما كانت هذه المسام ضيقة جدا، فحينئذ لا يخرج منها إلا ما كان في غاية الصفاء، واللطافة، وأما الأجزاء الكثيفة فإنه لا يمكنها الخروج من تلك المنافذ الضيقة فتبقى في الداخل، **والحكمة في** إحداث تلك الثقوب الصغيرة والمنافذ الضيقة في رأس الحلمة؛ لكي تكون كالمصفاة، فكل ما كان لطيفا خرج، وما كان كثيفا؛ احتبس في الداخل، فبهذا الطريق يصير ذلك اللبن خالصا موافقا لبدن الصبي «سائغا للشاربين» .

السادس: أنه – تعلى – ألهم ذلك الصبي إلى المص؛ فإن الأم إذا ألقت حلمة الثدي في فم الصبي، فذلك الصبي في الحال يأخذ في المص، ولولا أن الفاعل المختار الرحيم قد ألهم ذلك الطفل الصغير ذلك العمل المخصوص، وإلا لم يحصل تخليق ذلك اللبن في الثدي.." (١)

"وقيل: استسلم المشركون يومئذ إلى الله تعالى وإنفاذ **الحكمة فيهم** ولم تغن عنهم آلهتهم شيئا، {وضل عنهم ما كانوا يفترون} : زال عنهم ما كانوا يفترون من أنها تشفع لهم عند الله، وقيل: ذهب ما زين لهم الشيطان من أن لله صاحبة وشريكا.

وقوله: {الذين كفروا} يجوز أن يكون مبتدأ، والخبر» زدناهم «وهو واضح، وجوز ابن عطية أن يكون» الذين كفروا «بدلا من فاعل» يفترون «، ويكون» زدناهم «مستأنفا.

ويجوز أن يكون «الذين كفروا» نصبا على الذم أو رفعا عليه، فيضمر الناصب والمبتدأ وجوبا.

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ١٢/١٠٥

فصل

لما ذكر وعيد الذين كفروا، أتبعه ب «وعيد» من ضم إلى كفره صد الغير عن سبيل الله، وهو منعهم عن طريق الحق.

وقيل: صدهم عن المسجد الحرام، {زدناهم عذابا فوق العذاب} ؛ لأنهم زادوا على كفرهم صد الغير عن الإيمان.

قال – عليه الصلاة والسلام –: «من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها

» . «قال ابن عباس – رضي الله عنه –[ومقاتل] :» المراد بتلك الزيادة خمسة أنهار من صفر مذاب؛ تسيل من تحت العرش، يعذبون بها ثلاثة بالليل واثنان بالنهار «.

وقال سعيد بن جبير: زدناهم عذابا بحيات كالبخت، وعقارب كالبغال تلسعهم، وقيل: يخرجون من حر النار إلى زمهرير.

وقيل: يضعف لهم العذاب بما كانوا يفسدون، أي: بذلك الصد.." (١)

"ذكره –: {والذين إذآ أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما} [الفرقان: ٦٧] وقال – جل ذكره –: {ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط} [الإسراء: ٢٩] ، وقال صلى الله عليه وسلم : «خير الأمور أوسطها» .

ورابعها: أن شريعتنا أمرت بالختان، **والحكمة فيه**: أن رأس الذكر جسم شديد الإحساس، فلو بقيت القلفة، لبقي العضو على كمال قوته، فيعظم الالتذاذ، أما إذا قطعت الجلدة، بقي العضو عاريا، فيلقى الثياب وسائر الأجسام، فيتصلب فيضعف حسه ويقل شعوره، فيقل الالتذاذ بالوقاع، فتقل الرغبة فيه، فأمرت الشريعة بالختان؛ سعيا في تقليل تلك اللذة، حتى يصير ميل الإنسان إلى الوقاع معتدلا، وألا تصير الرغبة فيه داعية غالبة على الطبع.

فالذي ذهب إليه المانوية من الإخصاء وقطع الآلات مذموم؛ لأنه إفراط، وإبقاء تلك الجلدة مبالغة في تقوية تلك اللذة، والعدل الوسط هو الختان.

واعلم أن الزيادة على العدل قد تكون إحسانا، وقد تكون إساءة؛ فالعدل في الطاعات هو أداء الواجبات، والزيادة على الواجبات طاعات، فهي من جملة الإحسان؛ ولهذا قال – صلوات الله وسلامه عليه – لجبريل

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ١٣٩/١٢

- صلوات الله وسلامه عليه - حين سأله عن الإحسان: «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك» .

وسمي هذا المعنى بالإحسان؛ لأنه بالمبالغة في الطاعة، كأنه يحسن إلى نفسه بإيصال الخير والفعل الحسن، ويدخل في الإحسان التعظيم لأمر الله، والشفقة على خلق الله، ويدخل في الشفقة على خلق الله أقسام كثيرة، وأعظمها: صلة الرحم؛ فلهذا أفرده - تعالى - بالذكر، فقال - تعالى -: {وإيتآء ذي القربى}

وأما الثلاثة التي نهى الله عنها؛ وهي: «الفحشاء والمنكر والبغي» فنقول: إنه - تعالى - أودع في النفس البشرية قوى اربعة؛ وهي: الشهوانية البهيمية، والغضبية والسبعية، والوهمية الشيطانية، والعقلية الملكية.

فالعقلية الملكية لا يحتاج الإنسان إلى تهذيبها؛ لأنه من جوهر الملائكة.

وأما القوة الشهوانية فرغبتها في تحصيل اللذات الشهوانية، وهذا النوع مخصوص بالفحشاء، ألا ترى أنه - تعالى - سمى الزنا فاحشة؛ فقال - جل ذكره -: {إنه كان فاحشة} [الإسراء: ٣٢] ، وقوله - تعالى - : {وينهى عن الفحشاء} المراد منه: المنع من تحصيل اللذات الشهوانية.

وأما القوة الغضبية السبعية: فهي أبدا تسعى في إيصال الشرور والأذى إلى سائر الناس، وهذا مما ينكره الناس، فالمنكر عبارة عن الإفراط الحاصل من آثار القوة الغضبية.

وأما القوة الوهمية الشيطانية: فهي أبدا تسعى في الاستعلاء على الناس، والترفع." (١)

"«كيف» نصب: إما على التشبيه بالظرف، وإما على الحال، وهي معلقة ل «انظر» بمعنى فكر، أو بمعنى أبصر.

والمعنى: أنا أوصلنا إلى مؤمن، وقبضنا عن مؤمن آخر، وأوصلنا إلى كافر، وقبضنا عن كافر آخر، وقد بين - تعالى - وجه **الحكمة في** هذا التفاوت، فقال جل ذكره: {نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات} [الزخرف: ٣٢] .

وقال تعالى في آخر سورة الأنعام: {ورفع بعضكم فوق بعض درجات} [الأنعام: ١٦٥] الآية.

ثم قال تعالى: {وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا} أي: من درجات الدنيا، ومن تفضيل الدنيا، والمعنى: أن الآخرة أعظم وأشرف من الدنيا.

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ١٤٥/١٢

أي: أن المؤمنين يدخلون الجنة، والكافرين يدخلون النار، فتظهر فضيلة المؤمنين على الكافرين، ونظيره قوله – تعالى –: {أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا} [الفرقان: ٢٤] .." (١)

"الأول: أن إبليس، هل كان عالما بأن الذي تكلم معه بقوله: {واستفزز من استطعت منهم} هو إله العالم، أو لم يعلم ذلك؟ فإن علم ذلك، ثم إنه تعالى قال: {فإن جهنم جزآؤكم جزاء موفورا} [الإسراء: ٦٣] فكيف لم يصر هذا الوعيد الشديد مانعا له من المعصية، مع أنه سمعه من الله تعالى من غير واسطة؟ وإن لم يعلم أن هذا القائل هو إله العالم، فكيف قال: «أرأيتك هذا الذي كرمت علي» ؟! .

والجواب: لعله كان شاكا في الكل أو كان يقول في كل قسم ما يخطر بباله على سبيل الظن.

والسؤال الثاني: ما الحكمة في كونه أنظره إلى يوم القيامة، ومكنه من الوسوسة، والحكيم إذا أراد أمرا، وعلم أن شيئا من الأشياء يمنع من حصوله، فإنه لا يسعى في تحصيل ذلك المانع؟ .

والجواب: أما مذهبنا، فظاهر في هذا الباب، وأما المعتزلة، فقال الجبائي: علم الله أن الذين كفروا عند وسوسته يكفرون، بتقدير ألا يوجد إبليس، وإذا كان كذلك، لم يكن في وجوده مزيد مفسدة.

وقال أبو هاشم: لا يبعد أن يحصل من وجوده مزيد مفسدة، إلا أنه تعالى أبقاه تشديدا للتكليف على الخلق؛ ليستحقوا بسبب ذلك التشديد مزيد الثواب، وقد تقدم الكلام على ذلك في الأعراف والحجر.." (٢)

"ورواه أبو هريرة – رضي الله عنه – مرفوعا، فيقال: يا أمة فلان، وقال أبو صالح والضحاك: بكتابهم.

وقال الحسن وأبو العالية: بأعمالهم.

وقال قتادة: بكتابهم الذي فيه أعمالهم؛ بدليل سياق الآية. وقوله تعالى: {أحصيناه في إمام مبين} [يس: ١٢] .

وعن انب عباس – رضي الله عنه – وسعيد بن جبير: بإمام زمانهم الذي دعاهم في الدنيا إلى ضلال أو هدى.

قال تعالى: {وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا} [الأنبياء: ٧٣] وقال تعالى: {وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار} [القصص: ٤١] .

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٢٤٥/١٢

(٢) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٣٣٥/١٢

وقيل: بمعبودهم.

وأن تكون للحال، فيتعلق بمحذوف، أي: ندعوهم مصاحبين لكتابهم، والإمام: من يقتدى به، وقال الزمخشري: «ومن بدع التفاسير: أن الإمام جمع» أم «وأن الناس يدعون يوم القيامة بأمهاتهم دون آبائهم، وأن الحكمة فيه رعاية حق عيسى - صلوات الله عليه -، وإظهار شرف الحسن والحسين، وألا يفضح أولاد الزنى» قال: وليت شعري أيهما أبدع: أصحة لفظه، أم بهاء حكمته؟ «.

وهو معذور لأن» أم «لا يجمع على» إمام «هذا قول من لا يعرف الصناعة، ولا لغة العرب، وأما ما ذكروه من المعنى، فإن الله تعالى نادى عيسى - صلوات الله عليه - باسمه مضافا لأمه في عدة مواضع من قوله {ياعيسى ابن مريم} [المائدة: ١١٠] ، وأخبر عنه علي رضي الله عنه وكرم وجهه.

قوله تعالى: {فمن أوتي كتابه} يجوز أن تكون شرطية، وأن تكون موصولة، والفاء لشبهه بالشرط، وحمل على اللفظ أولا في قوله {أوتي كتابه بيمينه} فأفرد، وعلى المعنى ثانيا في قوله:» فأولئك «فجمع. لأن من أوتي كتابه في معنى الجمع.." (١)

"الصدق هو المعجز] فقط فهذا المعجو سواء ظهر على الملك، أو على البشر، وجب الإقرار برسالته، فقولهم: «لا بد وأن يكون الرسول من الملائكة» : تحكم فاسد باطل.

والجواب الثاني عن شبهتهم، وهي أن أهل الأرض لو كانوا ملائكة، لوجب أن يكون رسولهم من الملائكة؛ لأن الجنس إلى الجنس أميل، فلما كان [أهل الأرض] من البشر، فوجب أن يكون رسولهم من البشر؛ وهذا هو المراد من قوله تعالى: {لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السمآء ملكا رسولا} [الإسراء: ٩٥] .

الجواب الثالث: قوله تعالى: {قل كفى بالله شهيدا بيني وبينكم} .

وتقريره أن الله تعالى، لما أظهر المعجزة على وفق دعواى، كان ذلك شهادة من الله تعالى على كوني صادقا، ومن شهد الله على صدقه، فهو صادق، فقولكم بأن الرسول يجب أن يكون ملكا، فذلك تحكم فاسد؛ لا يلتفت إليه. ولما ذكر الله تعالى هذه الأجوبة الثلاثة، أردفها بما يجري مجرى التهديد، والوعيد؛ فقال: {إنه كان بعباده خبيرا بصيرا} [الإسراء: ٩٦] . أي: يعلم ظواهرهم وبواطنهم، ويعلم أنهم لا يذكرون هذه الشبهات إلا لمحض الحسد، وحب الرياسة.

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٣٤٤/١٢

قوله: {أن يؤمنوا} : مفعول ثان ل «منع» ، أي: ما منعهم إيمانهم؛ و «أن قالوا» هو الفاعل، و «إذ» ظرف ل «منع» ، والتقدير: وما منع الناس من الإيمان وقت مجيء الهدى إياهم إلا قولهم: أبعث الله.

وهذه الجملة المنفية يحتمل أن تكون من كلام الله، فتكون مستأنفة، وأن تكون من كلام الرسول، فتكون منصوبة المحل؛ لاندراجها تحت القول في كلتا القراءتينز

قوله: {بشرا رسولا} تقدم في نظيره وجهان، وكذلك قوله {لنزلنا عليهم من السمآء ملكا رسولا} .

قوله تعالى: {قل لو كان في الأرض} : يجوز في «كان» هذه التمام، أي: لو وجد، وحصل، و «يمشون» صفة ل «ملائكة» و «في الأرض» متعلق به، «مطمئنين» حال من فاعل «يمشون» ، ويجوز أن تكون الناقصة، وفي خبرها أوجه، أظهرها: أنه الجار، و «يمشون» و «مطمئنين» على ما تقدم.

وقيل: الخبر «يمشون» و «في الأرض» متعلق به.

وقيل: الخبر «مطمئنين» و «يمشون» صفة، وهذان الوجهان ضعيفان؛ لأن المعنى على الأول.

فإن قيل: إنه تعالى لو قال: قل لو كان في الأرض ملائكة، لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا كان كافيا في هذا المعنى. فما الحكمة في قوله: {يمشون مطمئنين} ؟! .." (١)

"قوله تعالى: {إن الساعة آتية أكاد أخفيها} .

(لما خاطب موسى عليه السلام بقوله: «فاعبدني وأقم الصلاة لذكري» أتبعه بقوله: «إن الساعة آتية أكاد أخفيها» ، وما أليق هذا بتأويل من تأول قوله: «لذكري» أي لأذكرك بالإثابة والكرامة فقال عقيب ذلك «إن الساعة آتية» لأنها وقت الإثابة ووقت المجازاة، ثم قال: «أكاد أخفيها» . العامة على ضم الهمزة من «أخفيها» .

وفيها تأويلات:

أحدها: أن الهمزة في «أخفيها» للسلب والإزالة، أي: أزيل خفاءها نحو: أعجمت الكتاب أي: أزلت عجمته، وأشكيته أي أزلت شكواه، ثم في ذلك معينان:

أحدهما: أن الخفاء بمعنى (الستر) ، ومتى أزال سترها فقد أظهرها، والمعنى: أنها لتحقق وقوعها وقربها أكاد أظهرها لولا ما تقتضيه الحكمة من التأخير.

والثاني: أن الخفاء هو الظهور كما سيأتي، والمعنى: أزيل ظهورها، وإذا أزال ظهورها فقد استترت، والمعنى:

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٣٩٠/١٢

أن لشدة إبهامها أكاد أخفيها فلا أظهرها ألبتة وإن كان لا بد من إظهارها، ولذلك يوجد في بعض المصاحف كمصحف أبي: «أكاد أخفيها من نفسي فكيف أظهركم عليها» وهو على عادة العرب في المبالغة في الإخفاء، قال الشاعر:

٣٦٤٤ - أيام تصحبني هند وأخبرها ... ما كدت أكتمه عني من الخبر." (١)

"والمعنى: أظهرها بالتأويل المتقدم، يقال: خفيت الشيء: أظهرته وأخفيته سترته هذا هو المشهور وقد نقل عن أبي الخطاب أن خفيت وأخفيت بمعنى. وحكى عن أبي عبيد أن أخفى من الأضداد يكون بمعنى أظهر وبمعنى ستر. وعلى هذا تتخذ (القراءتان) . ومن مجئ خفيت بمعنى أظهرت قول امرئ القيس:

٣٦٤٨ - خفاهن من أنفاقهن كأنما ... خفاهن ودق من عشي مجلب

(وقول الآخر:

٣٦٤٩ - فإن تدفنوا الداء لا نخفه ... وإن توقدوا الحرب لا نقعد)

قال الزجاج: وهذه القراءة أبين، لأن معناها: أكاد أظهرها (فيفيد أنه قد أخفاها) . **والحكمة في** إخفاء الساعة وإخفاء وقت الموت: أن الله تعالى وعد قبلها التوبة عند قربهما، فلو عرف وقت الموت لاشتغل بالمعصية إلى وقت قرب ذلك الوقت ثم يتوب فيتخلص من عقاب المعصية، فتعريف وقت الموت كالإغراء بفعل معصية وهو لا يجوز. قوله:» لتجزى «هذه لام كي، وليست بمعنى." (٢)

"كعرف الفرس، وكان بين لحييها أربعون ذراعا، صارت شدقين لها والمحجن عنقا يهتز، وعيناها متقدان كالنار، وتمر بالصخرة العظيمة مثل الخلفة من الإبل فتلتقمها، وتقصف الشجرة العظيمة بأنيابها، ويسمع لأسنانها (صريف عظيم) .

وهذا خارق عظيم وبرهان قاطع على أن الذي يكلمه هو الذي يقول للشيء كن فيكون.

فصل

والحكمة في قلب العصا حية في ذلك الوقت من وجوه:

أحدها: لتكون معجزة لموسى - عليه السلام - يعرف بها نبوة نفسه، لأنه عليه السلام - إلى هذا الوقت

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ١٩٩/١٣

(٢) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٢٠٣/١٣

ما سمع إلا النداء. والنداء وإن كان مخالفا للعادات إلا انه لم يكن معجزا، لاحتمال أن يكون ذلك من عادات الملائكة أو الجن، فقلب العصا حية ليكون دليلا قاهرا على الممعجزة.

الثاني: أنه تعالى عرضها عليه ليشاهدوها أولا، فإذا شاهدها عند فرعون لا يخافها.

وثالثها: أنه كان راعيا فقيرا ثم نصب للمنصب العظيم فلعله بقي يتعجب من ذلك، فقلب العصا حية تنبيا على أني لما قدرت على ذلك، فكيف يستبعد مني نصرة مثلك في إظهار الدين.

فإن قيل: كيف قال ههنا «حية» وفي موضع آخر «جان» وهو الحية الخفية الصغيرة، وقال في موضع «ثعبان» وهو أكبر ما يكون من الحيات؟

فالجواب: أن الحية اسم جنس يقع على الذكر والأنثى والصغير والكبير وأما." (١)

"وقرأ الآخرون بإسكانها.

والمراد بالذكر تبليغ الرسالة. وقيل: لا تفترا عن ذكر الله. (**والحكمة فيه**) أن من ذكر جلال الله استخف غيره، فلا يخاف أحدا، ويقوى روحه بذلك الذكر فلا يضعف في مقصوده، ومن ذكر الله فلا بد وأن يكون ذاكرا إحسانه (وذاكر إحسانه) لا يفتر في أداء أوامره.

وقيل: لا تنيا في ذكري عند فرعون، وكيفية الذكر أن يذكرا لفرعون وقومه أن الله تعالى لا يرضى منهم الكفر، ويذكرا لهم أمر الثواب والعقاب، والترغيب والترهيب.

قوله

: {اذهبآ

إلى فرعون إنه طغى} ذكر المذهوب إليه في قوله: {اذهبآ إلى فرعون} وحذفه في الأول في قوله: {اذهب أنت وأخوك} [طه: ٤٢] اختصارا في الكلام.

وقال القفال: فيه وجهان:

أحدهما: أن قوله: {اذهب أنت وأخوك} [طه: ٤٢] يحتمل أن يكون كل واحد منهما مأمورا بالذهاب على الانفراد، فقيل مرة أخرى: «اذهبا» ليعرفا أن المراد منه أن يشتغلا بذلك جميعا لا أن ينفرد به أحدهما دون الآخر.." (٢)

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٢١٥/١٣

(٢) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٢٥١/١٣

"قوله تعالى: {ولقد أوحينآ إلى موسى أن أسر بعبادي} الآية. وفي هذه الآية دلالة على أن موسى – عليه السلام – في تلك (الحال كثرة مستجيبوه) فأراد الله تعالى تمييزهم من طائفة فرعون، فأوحى إليه أن يسري بهم ليلا، والسرى سير الليل، والإسراء مثله **والحكمة في** السرى بهم: لئلا يشاهدهم العدو فيمنعهم عن مرادهم أو ليكون ذلك عائقا لفرعون عن طلبه ومتبعيه أو ليكون إذا تقارب العسكران لا يرى عسكر موسى عسكر فرعون فلا يهابونهم.

قوله: {فاضرب لهم طريقا} في نصب «طريقا» وجهان:

أحدهما: أنه مفعول به، وذلك في سبيل المجاز، وهو أن الطريق متسبب عن ضرب البحر، إذ المعنى: اضرب البحر لينفلق لهم فيصير طريقا فبهذا يصح نسبة الضرب إلى الطريق. وقيل: ضرب هنا بمعنى جعل، أي: اجعل لهم طريقا وأشرعه فيه.

والثاني: أنه منصوب على الظرف، قال أبو البقاء: التقدير موضع طريق فهو مفعول به على الظاهر، ونظيره قوله: أن اضرب بعصاك البحر وهو مثل ضربت زيدا. وقيل: ضرب هنا بمعنى جعل وشرع مثل قولهم: ضربت له." (١)

"ومن الناس من أجاب عن سؤال ابن الزبعرى، فقال: إن الله – تعالى – يصور لهم في النار ملكا على صورة من عبدوه وحينئذ تبقى الآية على ظاهرها وهذا ضعيف من وجهين:

الأول: أن القوم لم يعبدوا تلك الصورة وإنما عبدوا شيئا آخر لم يحصل معهم في النار.

الثاني: أن الملك لا يصير حصب جهنم في الحقيقة، وإن صح أن يدخلها، فإن خزنة النار يدخلونها مع أنهم ليسوا حصب جهنم.

فصل

الحكمة في أنهم بآلهتهم أمور:

أحدها: أنهم لا يزالون بمقارنتهم في زيادة غم وحسرة لأنهم ما وقعوا في ذلك العذاب إلا بسببهم، والنظر إلى وجه العدو باب من العذاب.

وثانيها: أنهم قدروا أن يشفعوا لهم في الآخرة، فإذا وجدوا الأمر على عكس ما قدروا لم يكن شيء أبغض إليهم منهم.

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٣٣١/١٣

وثالثها: أن إلقاءها في النار يجري مجرى الاستهزاء بها.

ورابعها: قيل ما كان منها حجرا أو حديدا يحمى فيعذب بعبادها، وما كان خشبا يجعل جمرة يعذب بها صاحبها.

قوله تعالى: {لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها} اعلم أن قوله: {وما تعبدون} بالأصنام أليق، لدخول لفظ «ما» وهذا الكلام بالشياطين أليق، لقوله: «هؤلاء» ويحتمل أن يريد الشياطين والأصنام وغلب العقلاء ونبه الله – تعالى – على أنه من يرمي في النار لا يمكن أن يكون ذكرها لنفسه أو لغيره، فإن ذكرها لنفسه فلا فائدة فيه، لأنه كان عالما بأنها ليست آلهة، وإن ذكرها لغيره فإما أن ي١كرها لمن يصدق بنبوته، (أو ذكرها لمن يكذب بنبوته) فإن ذكرها لمن يصدق بنبوته فلا حاجة إلى هذه الحجة، لأن كل من صدق بنبوته لم." (١)

"قال: رأيت ابن عمر أتى على رجل قد أناخ بدنة ينحرها فقال: ابعثها قياما مقيدة سنة محمد – صلى الله عليه وسلم –. وقال مجاهد: الصواف إذا علقت رجلها اليسرى وقامت على ثلاث. قال المفسرون: قوله: {فاذكروا اسم الله عليها} فيه حذف أي اذكروا اسم الله على نحرها، وهو أن يقال عند النحر: باسم الله والله أكبر ولا إله إلا الله والله أكبر اللهم منك وإليك. **والحكمة في** اصطفافها ظهور كثرتها للناظر فتقوى نفوس المحتاجين، ويكون التقرب بنحرها عند ذلك أعظم أجرا، وإعلاء اسم الله وشعائر دينه.

فصل

إذا قال: لله علي بدنة، هل يجوز نحرها في غير مكة؟ قال أبو حنيفة ومحمد يجوز وقال أبو يوسف: لا يجوز إلا بمكة. واتفقوا في من نذر هديا أن عليه ذبحه بمكة.

ومن قال: لله علي جزور أنه يذبحه حيث شاء. وقال أبو حنيفة: البدنة بمنزلة الجزور، فوحب أن يجوز له نحرها حيث يشاء، بخلاف الهدي فإنه قال: {هديا بالغ الكعبة} [المائدة: ٩٥] فجعل بلوغ الكعبة من صفة الهدي. واحتج أبو يوسف بقوله: {والبدن جعلناها لكم من شعائر الله} فكان اسم البدنة يفيد كونها قربة فكان كاسم الهدي.

وأجاب أبو حنيفة بأنه ليس كل ما كان ذبحه قربة اختص بالحرم، فإن الأضحية قربة وهي جائزة في سائر

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٦٠٧/١٣

الأماكن.

قوله: {فإذا وجبت جنوبها} أي سقطت بعد النحر فوقعت جنوبها على الأرض. وأصل الوجوب السقوط، يقال: وجبت الشمس إذا سقطت للمغيب، ووجب الجدار: أي سقط، ومنه الواجب الشرعي كأنه وقع علينا ولزمنا. قال أوس بن حجر:

٣٧٦٨ - ألم تكسف الشمس شمس النها ... ر والبدر للجبل الواجب." (١)

"من غير زيادة ولا نقصان. وقال ابن عباس: «لطيف» بأرزاق عباده «خبير» بما في قلوبهم من القنوط. وقال الكلبي: «لطيف» في أفعاله «خبير» بأعمال خلقه.

وقال مقاتل: «لطيف» باستخراج النبت «خبير» بكيفية خلقه.

{له ما في السماوات وما في الأرض} عبيدا وملكا، وهو غني عن كل شيء لأنه كامل لذاته، ولكنه لما خلق الحيوان فلا بد في **الحكمة من** مطر ونبات فخلق هذه الأشياء رحمة للحيوانات وإنعاما عليهم لا لحاجة به إلى ذلك، وإذا كان كذلك كان إنعامه خاليا عن غرض عائد إليه، فكان مستحقا للحمد، فكأنه قال: إنه لكونه غنيا لم يفعل ما فعله إلا للإحسان، ومن كان كذلك كان مستحقا للحمد فوجب أن يكون حميدا، فلهذا قال: {وإن الله لهو الغني الحميد} .

قوله تعالى: {ألم تر أن الله سخر لكم ما في الأرض} أي ذلل لكم ما فيها فلا أصلب من الحجر، ولا أشد من الحديد، ولا أكثر هيبة من النار، وقد سخرها لكم، وسخر الحيوانات أيضا حتى ينتفع بها للأكل والركوب والحمل.

قوله: «والفلك» العامة على نصب «الفلك» وفيه وجهان:

أحدهما: أنها عطف على {ما في الأرض} أي سخر لكم ما في الأرض وسخر لكم الفلك، وأفردها بالذكر وإن اندرجت بطريق العموم تحت «ما» في قوله {ما في الأرض} لظهور الامتنان بها، ولعجيب تسخيرها دون سائر المسخرات، و «تجري» على هذا حال.

والثاني: أنها عطف على الجلالة، وتقديره: ألم تر أن الفلك تجري في البحر، ف «تجري» خبر على هذا. وضم لام «الفلك» هنا الكسائي فيما رواه عن الحسن، وهي قراءة ابن مقسم، وقرأ أبو عبد الرحمن وطلحة

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ١٤/٩٤

والأعرج وأبو حيوة والزعفراني برفع «والفلك» على الابتداء، و «تجري» بعده الخبر. ويجوز أن يكون ارتفاعه." (١)

"قوله: {ثم إنكم يوم القيامة تبعثون} جعل الإماتة التي هي إعدام الحياة والبعث الذي هو إعادة ما يفنيه ويعدمه دليلين على اقتدار عظيم بعد الإنشاء والاختراع.

فإن قيل: ما الحكمة في الموت، وهلا وصل نعيم الآخرة وثوابها بنعيم الدنيا فيكون ذلك في الإنعام أبلغ؟ فالجواب هذا كالمفسدة في حق المكلفين لأنه متى عجل للمرء الثواب فيما يتحمله من المشقة في الطاعات صار إتيانه بالطاعات لأجل تلك المنافع لا لأجل طاعة الله بدليل أنه لو قيل لمن يصوم: إذا فعلت ذلك أدخلناك الجنة في الحال فإنه لا يأتي بذلك الفعل إلا لطلب الجنة، فلا جرم أخره وبعده بالإماتة، وهو الإعادة، ليكون العبد عابدا لطاعته لا لطلب الانتفاع.

فإن قيل: هذه الآية تدل على نفي عذاب القبر، لأنه قال: {ثم إنكم بعد ذلك لميتون ثم إنكم يوم القيامة تبعثون} ولم يذكر بين الأمرين الإحياء في القبر والإماتة.

فالجواب من وجهين:

الأول: أنه ليس في ذكر الحياتين نفي الثالثة.

والثاني: أن الغرض من ذكر هذه الأجناس الثلاثة الإحياء والإماتة والإعادة والذي ترك ذكره فهو من جنس الإعادة.." (٢)

"فصل

قال الخليل: الاستئناس: الاستبصار من (أنس الشيء إذا أبصره) كقوله: «آنست نارا» أي: أبصرت.

وقيل: هو أن يتكلم بتسبيحة أو تكبيرة أو بتنحنح يؤذن أهل البيت. وجملة حكم الآية أنه لا يدخل بيت الغير إلا بعد السلام والاستئذان.

واختلفوا: هل يقدم الاستئذان أو السلام؟

فقيل: يقدم الاستئذان، فيقول: أأدخل؟ سلام عليكم، لقوله: «حتى تستأنسوا» أي: تستأذنوا {وتسلموا على أهلها} . والأكثرون على أنه يقدم السلام فيقول: سلام عليكم، أأدخل؟ («لما روي أن رجلا دخل

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ١٤/١٤٠

(٢) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ١٤/١٨٥

على النبي – صلى الله عليه وسلم – ولم يسلم ولم يستأذن، فقال النبي – صلى الله عليه وسلم –:» ارجع فقل: السلام عليكم، أأدخل «) وروى ابن عمر أن رجلا استأذن عليه فقال: أأدخل؟ فقال ابن عمر: لا، فأمر بعضهم الرجل أن يسلم، فسلم، فأذن له.

وقيل إن وقع بصره على إنسان قدم السلام، وإلا قدم الاستئذان ثم يسلم. **والحكمة في** إيجاب تقديم الاستئذان ألا يهجم على ما لا يحل له أن ينظر إليه من عورة، أو على ما لا يحب القوم أن يعرفه من الأحوال.

فصل

عدد الاستئذان ثلاثا لما روى أبو هريرة قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – «الاستئذان ثلاث، الأولى يستضيئون، والثانية يستصلحون، والثالثة يأذنون أو يردون» وعن أبي سعيد الخدري قال: «كنت جالسا في مجلس الأنصار، فجاء أبو موسى فزعا، فقلنا له: ما أفزعك؟ فقال: أخبرني عمر أن آتيه فأتيته، فاستأذنت ثلاثا، فلم يؤذن لي، فرجعت، فقال: ما منعك أن تأتيني؟ فقلت: قد جئت فاستأذنت ثلاثا فلم يؤذن لي، وقد قال عليه السلام –:» إذا استأذن أحدكم ثلاثا فلم يؤذن له فليرجع «. فقال: لتأتيني (على هذا) بالبينة، أو لأعاقبنك، فقال أبو سعيد: لا يقوم معك إلا." (١)

"والجواب أن الله تعالى جعل الغاية الاستئناس، ولا يحصل إلا بعد الإذن.

وأيضا فإنا علمنا بالنص أن **الحكمة في** الاستئذان ألا يدخل الإنسان على غيره بغير إذنه، فإن ذلك مما يسوؤه، وهذا المقصود لا يحصل إلا بعد الإذن.

وأيضا قوله: {فإن لم تجدوا فيهآ أحدا فلا تدخلوها (حتى يؤذن لكم}) فمنع الدخول إلا مع الإذن، فدل على أن الإذن شرط في إباحة الدخول في الآية الأولى.

وإذا ثبت هذا فنقول: لا بد من الإذن أو ما يقوم مقامه، لقوله عليه السلام «إذا دعي أحدكم فجاء مع الرسول فإن ذلك له إذن» .

وقال بعضهم: إن من جرت العادة بإباحة الدخول فهو غير محتاج إلى الاستئذان. واعلم أن ظاهر الآية يقتضي قبول الإذن مطلقا سواء كان الآذن صبيا أو امرأة أو عبدا أو ذميا، فإنه لا يعتبر في هذا الإذن صفات الشهادة، وكذلك قبول إحضار هؤلاء في الهدايا ونحوها.

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ١٤/٣٤٣

فصل

ويستأذن على المحارم، «لما روي أن رجلا سأل النبي – صلى الله عليه وسلم – فقال:» أأستأذن على أختي؟ «فقال عليه السلام:» نعم، أتحب أن تراها عريانة؟ «وسأل رجل حذيفة:» أأستأذن على أختي؟ «فقال:» إن لم تستأذن عليها رأيت ما يسوؤك «. ولعموم قوله: {وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا} [النور: ٥٩] إلا أن ترك الاستئذان على المحارم وإن كان غير جائز أيسر لجواز النظر إلى شعرها وصدرها وساقها ونحوه.

فصل

إذا اطلع إنسان في دار إنسان بغير إذنه ففقأ عينه فهي هدر، لقوله عليه السلام:» من اطلع في دار قوم بغير إذنهم ففقأوا عينه فقد هدرت عينه «.." (١)

"خلق، وأن يكون منصوبا بفعل مضمر، وأن يكون صفة للحي الذي لا يموت، أو بدلا، أو بيانا هذا على قراءة «الرحمن» بالرفع ومن قرأه بالجر فيتعين أن يكون «الذي خلق» صفة للحي فقط.

قوله: {في ستة أيام} فيه سؤال، وهو أن الأيام عبارة عن حركة الشمس في السموات فقيل السموات لا أيام، فكيف قال: خلقها في ستة أيام؟

والجواب: في مدة مقدارها (هذه المدة) ، لا يقال: الشيء الذي يتقدر بمقدار محدود ويقبل الزيادة والنقصان والتجزئة لا يكون عدما محضا بل لا بد وأن يكون موجودا فيلزم من وجوده وجود مدة قبل وجود العالم وذلك يقتضي قدم الزمان، لأنا نقول: هذا معارض بنفس الزمان، لأن المدة المتوهمة المحتملة لعشرة أيام لا تحتمل بخمسة أيام والمدة المتوهمة المحتملة لخمسة أيام لا تحتمل عشرة أيام فيلزم أن يكون للمدة مدة أخرى، فلما لم يلزم من هذا قدم الزمان لم يلزم ما قلتموه، وعلى هذا نقول لعل الله سبحانه خلق المدة أولا ثم خلق السموات والأرض فيها بمقدار ستة أيام. وقيل: في ستة أيام من أيام الآخرة كل يوم مقداره ألف سنة. وهو بعيد، لأن التعريف لا بد وأن يكون بأمر معلوم لا بأمر مجهول. فإن قيل: لم قدر الخلق والإيجاد بهذا المقدار؟

فالجواب على قول أهل السنة المشيئة والقدرة كافية للتخصيص، وقالت المعتزلة: لا بد وأن يكون من حكمة وهو أن التخصيص بهذا المقدار أصلح، وهذا بعيد لوجهين:

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٣٤٥/١٤

الأول: أن حصول تلك الحكمة إما أن يكون واجبا لذاته أو جائزا، فإن كان واجبا وجب أن لا يتغير فيكون حاصلا في كل الأزمنة فلا يصلح أن يكون سببا لزمان معين، وإن كان جائزا افتقر حصول تلك الحكمة في ذلك الوقت إلى مخصص آخر، ولزم التسلسل.

والثاني: أن التفاوت بين كل واحد مما لا يصل إليه خاطر المكلف وعقله فحصول ذلك التفاوت لما لم يكن مشعورا به كيف يقدح في حصول المصالح.." (١)

"لم يدخل العاطف، والمعنى أن الخيرة لله في أفعاله وهو أعلم بوجوه الحكمة فيها ليس لأحد من خلقه أن يختار عليه.

قال شهاب الدين: لم يزل الناس يقولون: إن الوقف على «يختار» والابتداء بما على أنها نافية هو مذهب أهل السنة، ونقل ذلك عن جماعة كأبي وغيره، وأن كونها موصولة متصلة «يختار» غير موقوف عليه هو مذهب المعتزلة، وهذا الزمخشري قد قرر كونها نافية وحصل غرضه في كلامه وهو موافق لكلام أهل السنة ظاهرا وإن كان لا يريده، وهذا الطبري من كبار أهل السنة منع أن تكون نافية، قال: لئلا يكون المعنى: أنه إن لم يكن لهم الخيرة فيما مضى وهي لهم فيما يستقبل، وأيضا فلم يتقدم نفي، وهذا الذي قاله ابن جرير مروي عن ابن عباس، وقال بعضهم: ويختار لهم ما يشاؤه من الرسل ف «ما» على هذا واقعة على العقلاء.

فصل

إن قيل: «ما» للإثبات فمعناه: ويختار الله ما كان لهم الخيرة، أي: يختار ما هو الأصلح والخير، وإن قيل: ما للنفي أي: ليس إليهم الاختيار، أو ليس لهم أن يختاروا على الله كقوله: {وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم} [الأحزاب: ٣٦] ثم قال منزها نفسه سبحانه وتعالى «عما يشركون» أي: إن الخلق والاختيار والإعزاز والإذلال مفوض إليه ليس لأحد فيه شركة ومنازعة ثم أكد ذلك بأنه {يعلم ما تكن صدورهم} من عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم «وما يعلنون» من مطاعنهم فيه، وقولهم: هلا اختير غيره في النبوة. ولما بين علمه بما هم عليه من الغل والحسد والسفاهة قال: {وهو الله لا إله إلا هو له الحمد في الأولى والآخرة} ، وهذا تنبيه على كونه قادرا على كل الممكنات عالما بكل المعلومات منزها عن النقائص والآفات {له الحمد في الأولى والآخرة} وهذا ظاهر على مذهب أهل السنة لأن الثواب غير واجب عليه بل يعطيه فضلا وإحسانا، و {له الحمد في الأولى والآخرة} ويؤكد قول

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ١٤/٥٥٥

أهل الجنة {الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن} [فاطر: ٣٤] . {الحمد لله الذي صدقنا وعده} [الزمر: ٧٤]." (١)

"وقد يكون المقدم صوتا) غير مفهوم، كمن يصفر خلف إنسان ليلتفت وقد يكون الصوت بغير افم، كتصفيق الإنسان بيده، ليقبل السامع عليه.

ثم إن توقع الغفلة (كلما كان أتم، والكلام المقصود كان أهم) ، كان المقدم على الكلام المقصود أكثر ولهذا ينادى القريب «بالهمزة» فيقال: «أزيد» ، والبعيد ب «يا» ، فيقال: «يا زيد» ، والغافل ينبه أولا، فيقال: «ألا يا زيد» .

إذا تقرر هذا فنقول: النبي - صلى الله عليه وسلم - وإن كان يقظان الجنان لكنه إنسان يشغله شأن عن شأن، فحسن من الحكيم أن يقدم على الكلام المقصود حروفا هي كالمنبهات.

وتلك الحروف إذا لم يفم معناها تكون أتم في إفادة المقصود الذي هو التنبيه من تقديم الحروف المفهومة، لأن الحروف إذا كانت مفهومة المعنى، وذكرت لإقبال السامع على المتكلم لكي يسمع ما بعد ذلك فربما يظن السامع أنه كل المقصود و «لا» كلام بعد ذلك فيقطع الالتفات عنه أما إذا سمع صوتا بلا معنى فإنه يقبل عليه ولا يقطع نظره عنه ما لم يسمع غيره، لجزمه بأن ما سمعه ليس هو المقصود.

فإذن تقديم الحروف التي لا يفهم معناها على الكلام المقصود فيه حكمة بالغة.

فإن قيل: فما **الحكمة في** اختصاص بعض السورة بهذه الحروف؟

فالجواب: قال ابن الخطيب: عقل البشر يعجز عن إدراك الأشياء الكلية على تفاصيلها، لكن نذكر ما يوفقنا الله له فنقول: كل سورة في أوائلها (حروف التهجي فإن في أوائلها) ذكر الكتاب أو التنزيل، أو القرآن كقوله تعالى: {الم ذلك الكتاب} [البقرة: ١ - ٢] ،

{الم

الله

لا

إله

إلا هو الحي القيوم} [آل عمران: ١ - ٣] ، {المص كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك} [الأعراف:

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ١٥/٢٨٣

١ – ٢] ، {يس والقرآن الحكيم} [يس: ١ – ٢] ، {الم تنزيل الكتاب} [السجدة: ١ – ٢] ، {حم تنزيل} [غافر: ١ – ٢] {ق." [١]

"والقرآن المجيد} [ق: ١ – ٢] . {ص والقرآن ذي الذكر} [ص: ١ – ٢] (إلا ثلاث سور) {كهيعص} [مريم: ١] {الم أحسب الناس} [العنكبوت: ١ – ٢] {الم غلبت الروم} [الروم: ١ – ٢] .

والحكمة في افتتاح السور التي فيها الكتاب والتنزيل والكتاب بالحروف (و) هي أن القرآن عظيم، والإنزال له أثقل، كما قال تعالى: {إنا سنلقي عليك قولا ثقيلا} [المزمل: ٥] ، فكذلك قدم عليها تنبيه يوجب ثبات المخاطب لاستماعه.

لا يقال: كل سورة قرآن، واستماعها استماع للقرآن، سواء كان فيها ذكر الكتاب أو التنزيل أو القرآن أو لم يكن فيجب أن يكون في أول كل سورة (منبه) ، وأيضا فقد وردت سور فيها ذكر الإنزال، والكتاب، وليس فيها حروف، كقوله تعالى: {الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا} [الكهف: ١] {سورة أنزلناها وفرضناها} [النور: 1] {تبـارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا} [الفرقان: ١] {إنا أنزلناه في ليلة القدر} [القدر: ١] لأنا نقول جوابا عن الأول: (لا ريب) في أن كل سورة من القرآن، لكن السورة التي فيها ذكر القرآن والكتاب – مع أنهما من القرآن – فيها تنبيه على كل القرآن، فإن قوله تعالى: {طه مآ أنزلنا عليك القرآن لتشقى} [طه: ١ – ٢] مع أنها بعض القرآن فيها ذكر جميع القرآن، فيصير مثاله كتاب يرد من ملك على مملوكه فيه شغل ما، وكتاب آخر يدر منه عليه فيه: «إنا كتبنا إليك كتابا فيه أمرنا فامتثله» فلا شك أن هذا الكتاب الآخر أكثر ثقلا من الأول.

وعن الثاني: أن قوله: «الحمد لله، وتبارك الذي» تسبيحات مقصودة، وتسبيح الله لا يغفل عنه العبد، فلا يحتاج إلى منبه، بخلاف الأوامر والنواهي، وأما ذكر الكتاب فيها فلبيان وصف عظمة من له التسبيح، و «سورة أنزلناها» قد بينا أنها بعض من القرآن فيها ذكر إنزالها، وفي السورة التي ذكرناها ذكر جميع القرآن فهو أعظم وأثقل.

وأما قوله تعالى: «إنا أنزلناه» فهذا ليس وردا على مشغول القلب بشيء غيره، بدليل أنه ذكر الكتاب فيها وهي ترجع إلى مذكور سابق أو معلوم عند النبي – صلى الله عليه وسلم – فكان منبها له فلم ينبه.

واعلم أن التنبيه قد حصل في القرآن بغير الحروف التي لا يفهم معناها، كقوله تعالى: {يا أيها الناس اتقوا

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٣٠٦/١٥

ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم} [الحج: ١] ، وقوله: {يا أيها النبي اتق الله} [الأحزاب: ١] ، {يا أيها النبي لم تحرم} [التحريم: ١] لأنها أشياء هائلة." (١)

"السدي، ابن زيد هذا (في) المنافق إذا أوذي في الله رجع عن الدين وكفر.

واعلم أنه قال: «فتنة الناس» ولم يقل: «عذاب الناس» ؛ لأن فعل العبد ابتلاه من الله، والفتنة تسليط بعض الناس على من أظهر كلمة الإيمان ليؤذيه فبين منزلته، كما جعل التكاليف ابتلاء وامتحانا، وهذا إشارة (إلى) أن الصبر على البلية الصادرة (من الإنسان) كالصبر (على العبادات) فإن قيل: هذا يقتضي منع المؤمن من إظهار كلمة الكفر بالإكراه لأن من أظهر كلمة الكفر بالإكراه - احترازا عن العذيب العاجل - يكون قد جعل فتنة الناس كعذاب الله.

فالجواب: ليس كذلك لأن من أكره على الكفر وقلبه مطمئن بالإيمان لم يجعل فتنة الناس كعذاب الله لأن عذاب الله يوجب ترك ما يعذب عليه ظاهرا وباطنا بل في بطنه الإيمان. قوله: {ولئن جآء نصر من ربك} أي فتح ودولة للمؤمنين «ليقولن» يعني هؤلاء المنافقين للمؤمنين {إنا كنا معكم} على عدوكم، وقال: {ولئن جآء نصر من ربك} ولم يقل: «ولئن جاءكم» «ولئن جاءك» والنصر لو جاءهم ما كانوا يقولون إنا معكم، وهذا يقتضي أن يكونوا قائلين: «إنا معكم» إذا جاء النصر لا يجيء إلا للمؤمنين كما قال تعالى: {وكان حقا علينا نصر المؤمنين} [الروم: ٤٧] ، ولأن غلبة الكافر على المسلم ليس بنصر، لأن النصر ما يكون عاقبته سليمة، بدليل أن أحد الجيشين إذا انهزم في الحال ثم ذكر المهزوم كرة أخرى وهزموا الغالبين لا يطلق اسم النصر إلا على من كان له العاقبة فكذلك المسلم وإن كسر في الحال فالعاقبة للمتقين، اولنصر لهم في الحقيقة. فإن قيل: {ولئن جاء نصر من ربك} ولم يقل: «من الله» من أن ما تقدم كله يذكر الله كقوله: {أوذي في الله} ، وقوله: «كعذاب الله» فما الحكمة في ذلك؟

فالجواب: لأن - «الرب» - اسم مدلوله الخاص به الشفقة والرحمة، و «الله» اسم مدلوله الهيبة والعظمة، فعند النصر ذكر الاسم الدال على الرحمة والشفقة، وعند العذاب ذكر اللفظ الدال على العظمة.

قوله: «ليقولن» العامة على ضم اللام، أسند الفعل." (٢)

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٣٠٧/١٥

(٢) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٣٢١/١٥

"قال قطرب: ما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء لو كنتم فيها، كقول القائل: (لا) يفوتني فلان هاهنا ولا في البصرة أي ولا بالبصرة لو كان بها كقوله تعالى {إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض} [الرحمن: ٣٣] ، أي على تقدير أن يكونوا فيها، وأبعد من ذلك من قدره موصولين محذوفين؛ أي) وما أنتم مبعجزين من في الأرض من الجن والإنس، ولا من في السماء من الملائكة فكيف تعجزون خالقها (و) على قول الجمهور يكون المفعول محذوفا أي وما أنتم بمعجزين أين فائتين ما يريد الله بكم.

فصل

اعلم أن إعجاز المعذب عن التعذيب إما بالهرب منه، أو بالثبات ومدافعته فذكر الله تعالى القسمين فقال: {وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء} ، يعني بالهرب لو صعدتم إلى السماء، أو هربتم إلى تخوم الأرض (لم) تخرجوا من قبضة قدرة الله – عز وجل –، فلا مطمع في الإعجاز بالهرب، وأما بالثبات فكذلك لأن الإعجاز بالثبات إما أن يكون بالاستناد إلى ركن شديد يشفع، ولا يمكن المعذب مخالفته فيفوته المعذب، ويعجز عنه أو بالانتصار بقوي يدافعه، وكلاهما محال فلهذا قال: {وما لكم من دون الله من ولي} يشفع {ولا نصير} يدفع. فإن قيل: ما الحكمة في قوله: {وما أنتم بمعجزين} ولم يقل: «ولا تعجزن» بصيغة الفعل؟

فالجواب: لأن نفي الفعل لا يدل على نفي الصلاحة فإن من قال: إن فلانا لا يخيط لا يدل على ما يدل عليه انه ليس بخائط، وقدم «الأرض» على «السماء» ، و «الولي» على «النصير» ؛ لأن هربهم الممكن في الأرض، فإن كان يقع منهم هرب فإنه يكون في الأرض، ثم إن فرضنا لهم قدرة غير ذلك فيصعدون في السماء وأما الدفع فإن العاقل متى أمكنه الدفع فأجمل الطرق فيه الشفاعة، لأن ما من أحد في الشاهد إلا ويكون له شفيع يتكلم في حقه عند ملكن وليس لكل أحد ناصر يعادي الملك فلذلك قدم الأرض على السماء، والولي على النصير.." (١)

"معرض الجواب فبين أنهم لم يكن لهم جواب أصلا، وذلك أن من لا يجيب غيره ويسكت لا يعلم (أنه لا يقدر أم لا) لجواز أن يكون سكوته لعدم الالتفات، وأما إذا أجاب بجواب فاسد علم أنه قصد الجواب وما قدر عليه.

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٣٣٥/١٥

فصل

«أو» تذكر لأمرين الثاني منهما لا ينفك عن الأول، كما يقال: «زوج أو فرد» ، ويقال: هذا إنسان أو حيوان، يعني إن لم يكن إنسانا فهو حيوان، ولايصح أن يقال: «هذا حيوان أو إنسان» إذ يفهم منه أن يقول: هذا حيوان، فإن لم يكن حيوانا فهو إنسان، وهذا فاسد، وإذا كان كذلك فالتحريق مشتمل على القتل، فقوله: «اقتلوه أو حرقوه» كقولك: هذا إنسان أو حيوان.

فالجواب عن هذا من وجهين.

أحدهما: أن الاستعمال على خلاف ما ذكر شائع كقولك: أعطه دينارا أو دينارين.

قال تعالى: {قم الليل إلا قليلا نصفه أو انقص منه قليلا أو زد عليه} [المزمل: ٢ – ٤] فكذا هاهنا قال: اقتلوه أو زيدواعلى القتل لأن التحريق قتل وزيادة.

الثاني: سلمنا ما ذكرتم، والأمر هنا كذلك لأن التحريق فعل مفض إلى القتل، وقد يتخلف عنه القتل فإن من ألقي في النار حتى احترق جلده بأسره وأخرج منها حيا يصح أن يقال: احترق فلان، وأحرق وما مات. فكذلك هاهنا قال: اقتلوه ولا تعجلوا قتله وعذبوه بالنار، فإن ترك مقالته فخلو سبيله وإن أصر فاتركوه في النار.

قوله تعالى: {فأنجاه الله من النار} ، قيل: بردت النار وقيل: خلق في إبراهيم صلوات الله (وسلامه) عليه كيفية استبردت النار. وقيل: ترك إبراهيم (على) ما كان عليه (والنار على ما كانت عليه) ومنع أذى النار عنه، والكل ممكن والله قادر عليه.

قوله تعالى: {إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون} فإن قيل: ما **الحكمة في** قوله هناك «آية للعالمين» في إنجاء نوح صلوات الله (وسلامه) عليه وأصحاب السفينة جعلناها آية وقال هاهنا آيات بالجمع، فما الحكمة؟." (١)

"فالجواب: إن إنجاء السفينة شيء يتسع له العقول، فلم يكن فيه من الآية إلا إعلام الله تعالى إياه بالإنجاء وقت الحاجة بسبب أن الله تعالى صان السفينة عن المهلكات كالرياح، وأما الإنجاء من النار فعجيب فقال فيه لآيات فإن قيل: ما **الحكمة في** قوله تعالى هنا: «آية للعالمين» وقال هنا «لقوم يؤمنون» فخص الآيات بالمؤمنين؟

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٣٣٧/١٥

فالجواب: أن السفينة بقيت أعواما حتى مر عليها الناس ورأوها فحصل العلم بها لكل أحد، وأما تبريد النار فلم يبق فلم يظهر (لمن بعده) إلا بطريق الإيمان والتصديق، وفيه لطيفة (وهو) أن الله تعالى لما برد النار على إبراهيم بسبب اهتدائه في نفسه وهدايته لأبناء جنسه، وقد قال الله تعالى للمؤمنين بأن لهم أسوة في إبراهيم، فحصل للمؤمنين بشارة بأن الله تبارك وتعالى يبرد عنه النار يوم القيامة، فقال: {إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون} ، فإن قيل: لم قال هناك: «جعلناها» ، (وقال هنا جعلناه) ؟

فالجواب: لأن السفينة ما صارت آية في نفسها، ولولا خلق الله الطوفان لبقي فعل نوح (سفها) فالله تعالى جعل السفينة بعد وجودها آية، وأما تبريد النار فهو في نفسه (آية) إذا وجدت لا تحتاج إلى شيء آخر كخلق الطوفان حتى يصير آية.

قوله: «إنما اتخذتم» في «ما» هذه ثلاثة أوجه:

أحدها: أن تكون موصولة بمعنى الذي، والعائد محذوف وهو المفعول الأول، و «أوثانا» مفعول ثان، والخبر «مودة» في قراءة من رفع كما سيأتي، والتقدير: إن الذي اتخذتموه أوثانا مودة أي ذو مودة أو جعل نفس المودة محذوف على قراءة من نصب «مودة» أي الذي اتخذتموه أوثانا لأجل المودة لا تنفكم، أو يكون «عليكم» لدلالة قوله: {ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض} .

والثاني: أن تجعل «ما» كافة، و «أوثانا» مفعول به، والاتخاذ هنا يتعدى لواحد." (١)

"فالمعنى: إنكم إنما اتخذتم هذه الأوثان مودة بينكم في الحياة الدنيا تتوادون على عبادتها، وتتواصلون عليها في الدنيا {ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم} تتبرأ الأوثان من عبادة عباديها وتتبرأ السادة من الأتباع، ويلعن الأتباع القادة.

ومأواكم النار جميعا، العابدون والمعبودون {وما لكم من ناصرين} .

فإن قيل: (قال قبل هذا) ومأواكم النار، وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير على لفظ الواحد.

وقال هنا: {وما لكم من ناصرين} على لفظ الجمع فما **الحكمة فيه**؟

فالجواب: أنهم لما أرادوا إحراق إبراهيم عليه (الصلاة و) السلام، قالوا: نحن ننصر آلهتنا، كما قال تعالى

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ١٥/٣٣٨

(عنهم) : حرقوه وانصروا آلهتكم، فقال: أنتم ادعيتم أن لهؤلاء ناصرين فما لكم كلكم أي الأوثان وعبدتهما من ناصرين، وأما هناك فلم يسبق منهم دعوى النصر فنفى الجنس بقوله: «ولا نصير» .." (١)

"فإن قيل: ما وجه تعلق قوله: {وقال إني مهاجر إلى ربي} بما تقدم؟

فنقول: لما بالغ إبراهيم في الإرشاد، ولم يهتد قومه وحصل اليأس الكلي، ورأى القوم الآية الكبرى ولم يؤمنوا وجبت المهاجرة، لأن الهادي إذا هدى قومه ولم ينتفعوا فبقاؤه فيهم مفسد، لأنه إذا دام على الإرشاد كان اشتغالا بما لا ينتفع في علمه، فيصير كمن يقول للحجر صدق، وهو عبث والسكوت دليل الرضا فيقال: إنه صار منا، ورضي بأفعالنا، وإذا لم يبق للإقامة وجه وجبت المهاجرة.

فإن قيل: ما الحكمة في قوله: {إني مهاجر إلى ربي} ولم يقل: «مهاجر إلى حيث أمرني ربي} مع أن المهاجرة إلى الرب توهم الجهة.

فالجواب: أن قوله {إلى ربي} ليس في الإخلاص، كقوله:» إلى ربي «لأن الملك إذا صدر منه أمر برواح الأجناد إلى موضع ثم إن واحدا منهم عاد إلى ذلك الموضع لغرض (في) نفسه يصيبه، فقد هاجر إلى حيث أمره الملك ولكن لا مخلصا لوجهه، وقال: {مهاجر إلى ربي} يعني: توجهي إلى الجهة المأمور بالهجرة إليها ليس طلبا للجهة، إنما طلب لله.

قوله: {ووهبنا له إسحاق ويعقوب وجعلنا في ذريته النبوة} ، قيل: إن الله لم يبعث نبيا بعد» براهيم «إلا من نسله، {وآتيناه أجره في الدنيا} وهو الثناء الحسن، وكل الأديان يقولون به، وقال السدي: هو الولد الصالح، وقيل: إنه رأى مكانه في الجنة {وإنه في الآخرة لمن الصالحين} أي في زمرة الصالحين قال ابن عباس:» مثل آدم، ونوح «وفي هذه الآية لطيفة وهي أن الله تعالى بدل جميع أحوال إبراهيم في الدنيا بأضدادها لما عذبه قومه بالنار كان وحيدا فريدا، فبدل الله وحدته بالكثرة حتى ملأ الدنيا من ذريته، ولما كانت أقاربه القريبة ضالين مضلين من جملتهم» آزر «بدل الله أقاربه بأقارب مهتدين هادين، وهم ذريته الذين جعل فيهم النبوة والكتاب، وكان أولا لا جاه له، ولا مال، وهم غاية اللذة في الدنيا آتاه الله أجره في المال والجاه وكثر ماله حتى كان له من المواشي ما علم الله عدده حتى قيل: إنه كان له اثنا عشر ألف كلب حارس بأطواق ذهب وأما الجاه فصار (بحيث تقرن) الصلاة عليه بالصلاة على سائر الأنبياء إلى يوم القيامة، وصار معروفا وشيخ المرسلين بعد أن كان خاملا حتى قال قائلهم:

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ١٥/٣٤١

{سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم} [الأنبياء: ٦٠] ، هذا الكلام لا يقال إلا في مخمول من الناس.
فإن قيل: إن إسماعيل كان من أولاده الصالحين (وكان قد) سلم لأمر الله بالذبح، وانقاد لحكم الله ولم يذكر.." (١)

"فالجواب: أن الآية في إبراهيم كانت في النجاة لأنفي ذلك الوقت لم يكن إهلاك، وأما في نوح فلأن الإنجاء من الطوفان الذي على أعلى الجبال بأسرها أمر عجيب غلهي وما به النجاة وهو السفقينة كان باقيا، والغرق لم يبق لمن بعده أثره، فجعل الباقي آية، وأما ههنا فنجاة «لوط» لم يكن بأمر يبقى أثره للحس والهلاك أثره محسوس في البلاد، فجعل الآية ههنا البلاد، وهنا السفينة، وهنا لطيفة وهي أن الله تعالى آية قدره موجودة في الإنجاء والإهلاك، فذكر من كل باب آية، وقدم آيات الإنجاء لأنها أثر الرحمة، وأخر آيات الإهلاك لأنها أثر الغضب، ورحمته سابقة.
فإن قيل: اما الحكمة في قوله في السفينة «جعلناها آية» ، ولم يقل بينة وقال ههنا آية بينة؟
فالجواب: أن الأإنجاء بالسفينة أمر يسع له كل العقل وقد يقع في ذهن جاهل أن الإنجاء لا يفتقر إلى أمر آخر، وأما الآية ههنا الخسف، وجعل ديارهم المعمورة عاليها سافلها، وهو ليس بمعتاد وإنما ذلك بإرادة قادر مخصصة بمكان دون مكان وفي زمان دون زمان فهي بينة لا يمكن لجاهل، أن يقول هذا أمر يكون كذلك، وكان له أن يقول في السفينة أمرها يكون كذلك، فيقال له: فلو دام الماء حتى ينفذ زادهم كيف كان حصل لهم النجاة؟ ولو سلط الله عليهم الريح العاصبة، وكيف تكون أحوالهم؟
فإن قيل: ما الحكمة في قوله هناك: «للعالين» ، وفي قوله ههنا: «لقوم يعقلون» ؟
فالجواب: أن السفينة (موجودة) معلومة في جميع أقطار العالم فعند كل قوم مثال السفينة يتذكرون بها حال نوح، وإذا ركبوها يطلبون من الله النجاة، فلا يثق أحد بمجرد السفينة، بل يكون دائما مرتجف القلب متضرعا إلى الله طالبا النجاة، وأما أثر الهلاك في بلاد لوط ففي موضع مخصوص لا يطلع عليها إلا من مر بها، ويصل إليها وويكون له عقل يعلم أن ذلك من الله فإرادته بسبب اختصاصه بمكان دون مكان ووجوده في زمان دون زمان، قال ابن عباس: الآية البينة: آثار منازلهم الخربة. وقال قتادة: هي الحدارة التي أهلكوا بها أبقاها الله (تعالى) حتى." (٢)

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ١٥/٣٤٢

(٢) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ١٥/٣٥١

"إبراهيم سبقه بذلك، واجتهد فيه حتى اشتهر الأمر بالتوحيد عند الخلق عن «إبراهيم» فلم يحتج «لوط» إلى ذكره، وإنما ذكر ما اختص به من المنع من الفاحشة وغيرها، وإن كان هو بدأ يأمر بالتوحيد، (إذ ما من رسول إلا ويكون أكثر كلاما في التوحيد، وأما «شعيب» فكان بعد انقراض ذلك الزمان، وذلك القوم، فكان هو أصلا في التوحيد) فبدأ به وقال اعبدوا الله.

قوله: {وارجوا اليوم الآخر} ، قال الزمشخري: معناه افعلوا فعل من يرجو اليوم الآخر؛ إذ يقول القائل لغيره: كن عاقلا ويكون معناه افعل فعل من يكون عاقلا، فقوله: {وارجوا اليوم آلآخر} بعد قوله: «واعبدوا الله» يدل علي التفضل لا على الوجوب.

قوله: {وارجوا اليوم الآخر} ، تقدم الكلام عليه، ونصب «مفسدين» على المصدر، كقول القائل: اجلس قعودا.

قوله: {فكذبوه فأخذتهم الرجفة} .

فإن قيل: (ما الحكمة) فيما حكاه الله عن شعيب من أمر ونهي، فالأمر لا يكذب، ولا يصدق، فإن قال لغيره اعبد الله لا يقال له: كذبت؟

فالجواب: كان شعيب يقول: الله واحد فاعبدوه، والحشر كائن فارجوه، والفساد محرم فلا تقربوه، وهذه فيها إخبارات، فكذبوه بما أخبر به.

(فإن قيل هنا) قال في الأعراف: «فأخذتهم الرجفة» وقال في هود: «فأخذتهم الصيحة» والحكاية واحدة.

(فالحواب) : لا تعارض بينهما، فإن الصيحة كانت سببا للرجفة، قيل: إن جبريل صاح فتزلزلت الأرض من صيحته، فرجفت قلوبهم، والإضافة إلى السبب لا تنافي الإضافة إلى سبب السبب.

فإن قيل: ما **الحكمة في** أنه حخيث قال: «فأخذتهم الصيحة» قال: «في ديارهم» وحيث قال: «فأخذتهم الرجفة» قال في «دارهم» ؟." (١)

"متعلق بنفس «تتلو» و «تخطه بيمينك» أي ولا تكتبه أي لم تكن تقرأ ولا تكتب قبل الوحي قوله: «إذا لارتاب» جواب وجزاء، أي لو تلوت كتابا قبل القرآن أو كنت ممن يكتب لارتاب المبطلون ولشك (المشركون من) أهل مكة، وقالوا: إنه يقرأه من كتب الأولين وينسخه منها، وقال قتادة ومقاتل: المبطلون هم اليهود والمعنى: لشكوا فيك واتهموك، وقالوا: من الذي نجد نعته في التوراة أمي لا يقرأ ولا يكتب وليس

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٣٥٣/١٥

هذا على ذلك النعت.

قوله: {بل هو آيات بينات} قرأ قتادة «آية» بالتوحيد، قال الحسن: يعني القرآن («آيات بينات» } ، يعني: «المؤمنين» الذين حملوا القرآن، وقال ابن عباس وقتادة: («بل هو») يعني: محمدا - صلى الله عليه وسلم - ذو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم من أهل الكتاب لأنهم يجدونه بنعته وصفته في كتبهم وما يجحد بآياتنآ إلا الظالمون} .

فإن قيل: ما **الحكمة في** قوله ههنا: «الظالمون» ومن قبل قال: الكافرون؟

فالجواب: أنهم قبل بيان المعجزة قيل لهم: إن لكم المزايا فلا تبطلوها بإنكار محمد فتكونوا كافرين فلفظ الكافر هانك أبلغ فمنعهم عن ذلك لاستنكافهم عن الكفر، ثم بعد بيان المعجزة قال لهم إن جحدتم هذه الآيات لزمكم إنكار إرسال الرسل فتلحقوا في أول الأمر بالمشركين حكما، وتلتحقون عند جحد هذه الآيات بالمشركين حقيقة فتكونوا ظالمين أي مشركين، كما قال: {إن الشرك لظلم عظيم} [لقمان: ١٣] فهذا اللفظ هنا أبلغ.." (١)

"كتابه، وهذا كما يقول الصادق إذا كذب، وأتى بكل ما يدل على صدقه ولم يصدقه المعاند: «الله يعلم صدقي وتكذيبك أيها المعاند وهو على ما أقول شهيد يحكم بيني وبينك» ، كل ذلك إنذار وتهديد ثم بين كونه كافيا، بكونه عالما بجميع الأشياء، فقال: {يعلم ما في السماوات والأرض} .

فإن قيل: ما **الحكمة في** أنه أخر شهادة أهل الكتاب في آخر الوعد في قوله: {ويقول الذين كفروا لست مرسلا قل كفى بالله شهيدا بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب} [الرعد: ٤٣] وهنا قدم شهادة أهل الكتاب، فقال: {فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به (ومن هؤلاء من يؤمن به «} [العنكبوت: ٤٧] أي من الكتاب؟

فالجواب: أن الكلام هناك مع المشركين فاستدل عليهم بشهادة غيرهم (ثم) إن شهادة الله أقوى (في ألزمهم) من شهادة غير الله، وهاهنا الكلام مع أهل الكتاب فشهادة الله على نفسه هو إقراره وهو أقوى الحجج عليه فقدم ما هو ألزم عليهم، ثم (إنه) تعالى لما بين الطريقتين في إرشاد الفرريقين المشركين وأهل الكتاب عاد الكلام الشامل لهما والإنكار العام فقال: {والذين آمنوا بالباطل} ، قال ابن عباس: بغير الله {وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون} .

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٣٦٣/١٥

فإن قيل: قوله {أولئك هم الخاسرون} يقتضي الحصر، أي من أتى بالإيمان (بالباطل) والكفر (بالله) فهو الخاسر فمن يأتي بأحدهما دون الآخر ينبغي أن لا يكون خاسرا.

فالجواب: أنه يستحيل أن يكون الآتي بأحدهما لا يكون آتيا بالآخر لأن المؤمن بما سوى الله مشرك، لأنه جعل غير الله مثله، وغير الله عاجز ممكن باطل فيكون الله كذلك، ومن كفر بالله وأنكره فيكون قائلا بأن العالم ليس له إله موجود فوجود العالم من نفسه فيكون قائلا: بأن العالم واجب الوجود، والواجب إله (فيكون قائلا) بأن غير الله إله فيكون إثباتا لغير الله وإيمانا به.

فإن قيل: إذا كان الإيما بما سواه كفرا (به) فيكون كل من آمن بالباطل فقد كفر بالله فهل لهذا العطف فائدة (غير التأكيد) الذي في قوله القائل (قم ولا تقعد و» واقترب مني ولا تبعد «؟." (١)

"فالجواب: أن المقصود ذكر ما تتميز به نار جهنم عن نار الدنيا، (ونار) الدنيا تحيط بالجوانب الأربعة فإن من دخلها تكون الشعلة قدامه وخلفه ويمينه ويساره، فأما النار من فوق لا تنزل وإنما تصعد من أسفل في العادة وتحت الأقدام، ولا تبقى الشعلة بل تنطفىء الشعلة التي تحت القدم، ونار جهنم تنزل من فوق ولا تنطفىء بالدوس موضع القدم.

فإن قيل: ما الحكمة في قوله: {من فوقهم ومن تحت أرجلهم} ولم يقل: من فوق رؤوسهم ولا قال من فوقهم «ولا من تحتهم» بل ذكر المضاف إليه عند ذكر «تحت» ولم يذكره عند ذكر «فوق» ؟

فالجواب: أن نزول النار من «فوق» سواء كان من (سميت) الرأس أو موضع آخر عجيب فلهذا لم يخصه بالرؤوس وأما بقاء النار تحت القدم فهو عجيبن وإلا فمن جوابن القدم في الدنيا تكون الشعلة فذكر العجيب وهو ما تحت الأرجل حيث لم ينطق بالدوس. وأما «فوق» فعلى الإطلاق.

قوله: «ويقول ذوقوا» قرأ نافع وأهل الكوفة «ويقول» بياء الغيبة أي الله تعالى، أو الملك الموكل بعذابهم، وباقي السبعة بالنون أي جماعة الملائكة، أو نون العظمة لله تعالى، وأبو البرهشم بالتاء من فوق أي جهنم كقوله: {وتقول هل من مزيد} [ق: ٣٠] وعبد الله وابن أبي عبلة: «ويقال» مبنيا للمفعول، وقوله: {ما كنتم تعملون} أي جزاء ما كنتم تعملون لما بين عذاب أجسامهم بين عذاب أرواحهم وهو أن يقال لهم

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٣٦٥/١٥

على سبيل التنكيل والإهانة {ذوقوا ما كنتم تعملون} جعل ذلك عين ما كانوا يعملون مبالغة بطريق إطلاق اسم المسبب على السبب، فإن عملهم كان سببا لعذابهم وهذا كثير في الاستعمال.." (١)

"المؤمنين بقوله: «يا عبادي» وأتم الكلام معه ذكر معه) ما يكون إرشادا للمشرك بحيث يسمعه وهذا طريق في غاية الحسن، فإن السيد إذا كان له عبدان أو الوالد إذا كان ولدان، وأحدهما رشيد، والآخر مفسد ينصح أولا المفسد فإن لم يسمع يلتفت إلى الرشيد ويعرض عن المفسد، ويقول: إن هذا لا يستحق الخطاب فاسمع أنت ولا يكن منك هذا المفسد فيتضمن هذا الكلام نصيحة الرشيد، وزجر المفسد، فإن قوله هذا لا يستحق الخطاب الموجب نكاية في قلبه، ثم إذا ذكر مع المصلح في أثناء الكلام والمفسد يسمعه إن هذا أخاك العجب منه أنه يعلم قبح فعله ويعرف فيه الفساد من الصلاح، وسبيل الرشاد والفلاح ويشتغل بضده يكون هذا الكلام أيضا داعيا إلى الرشاد ومانعا له من الفساد فكذلك قال الله للؤمن العجب منهم إنهم إن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولون الله ثم لا يؤمنون.

فصل

ذرك في السماوات والأرض الخلق، وفي الشمس والقمر التسخير، لأن مجرد خلق الشمس والقمر ليس حكمة فإن الشمس لو كانت مخلوقة بحيث تكون في موضع واحد لا تتحرك ما حصل الليل ولا النهار، ولا الصيف ولا الشتاء فإذن الحكمة في تحريكهما (وتسخيرهما) . واعلم أن في لفظ التسخير دون التحريك فائدة وهي أن التحريك يدل على مجرد الحركة، وليست مجرد الحركة كافية؛ لأنها لو كانت تتحرك مثل حركتنا لما كانت تقطع الفلك في ألوف من السنين، فالحكمة في تسخيرها تحريكها في قدر ما ينتقل الإنسان آلافا من الفراسخ، ثم لم يجعل لها حركة واحدة، بل حركات.

إحداها: حركة من المشرق إلى المغرب في كل يوم وليلة مرة، والأخرى: حركتها من المغرب إلى المشرق ويدل عليها أن الهلال يرى في جانب (المغرب) على بعد مخصوص من الشمس ثم يبعد منها غلى جانب المشرق حتى يرى القمر في نصف الشهر في مقابلة الشمس، والشمس على أفق المغرب، والقمر على أفق المشرق وأيضا حركة الأوج، وحركة المائل والتدوير في القمر، ولا الحركة التي من المغرب إلى المشرق لما حصلت الفصول.

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ١٥/٣٦٧

واعلم أن أصحاب الهيئة قالوا: الشمس مركوزة في الفلك، والفلك يديرها بدوران. وأنكره المفسرون الظاهريون. واعلم أنه لا بعد في ذلك (إن) لم يقولوا." (١)

"فالجواب: أن المذكور (من قبل ههنا أمر الدنيا، حيث قال: {فأحيا به الأرض من بعد موتها} فقال: هذه، والمذكور قبلها) هناك الآخرة حيث قال: {ياحسرتنا على ما فرطنا فيها وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم} [الأنعام: ٣١] فلم تكن الدنيا في ذلك الوقت في خاطرهم فقال: {وما الحياة الدنيا} .

فإن قيل: ما الحكمة في تقديمه هناك «اللعب» على «اللهو» وههنا أخر «اللعب» عن «اللهو» .

فالجواب: لما كان المذكور من قبل هناك الآخرة، وإظهارها للحسرة ففي ذلك الوقت يبعد الاستغراق في الدنيا، بل نفس الاشتغال بها فأخذ الأبعد، وههنا لما كان المذكور من قبل الدنيا وهي خداعة تدعو النفوس إلى الإقبال عليها والاستغراق فيها، اللهم إلا لمانع يمنع من الاستغراق فيشتغل بها من غير استغراق (بها) ، أو لعاصم يعصمه فلا يستغل بها أصلا، فكان: (ههنا) الاستغراق أقرب من عدمه فـقدم اللهو.

فإن قيل: ما الحكمة في قوله هناك: {ولدار الآخرة خير} [يوسف: ١٠٩] [النحل: ٣٠] وقال ههنا {وإن الدار الآخرة لهي الحيوان} ؟ .

فالجواب: لما كان الحال هناك حال إظهار الحسرة ما كان المكلف يحتاج إلى وازع قوي فقال: الآخرة خير ولما كان الحال هنا حال الاستغال بالدنيا احتاج إلى وازع قوي فقال: لا حياة إلا حياة الآخرة.

قوله: {وإن الدار الآخرة لهي الحيوان} قدر أبو البقاء وغيره قبل المبتدأ مضافا أي وإن حياة الدار الآخرة وإنما قدر ذلك ليتطابق المبتدأ والخبر والمبالغة أحسن و «واو» الحيوان (عن ياء) عند سيبويه وأتباعه، وإنما أبدلت واوا شذوذا، وكذلك في «حياة» علما وقال أبو البقاء لئلا يلتبس بالتثنية يعني لو قيل: حييان - قال: ولم." (٢)

"تقلب ألفا لتحركها وانفتاح ما قبلها؛ لئلا يحذف إحدى الألفين وغير سيبويه حمل ذلك على ظاهره، فالحياة عند لامها «واو» . ولا دليل لسيبويه في «حيي» ؛ لأن الواو متى انكسر ما قبلها قلبت ياء نحو: «عدي، ودعي، ورضي» . ومعنى الآية: {وإن الدار الآخرة لهي الحيوان} أي الحياة الدائمة الباقية، والحيوان بمعنى الحياة أي فيها الحياة الدائمة {لو كانوا يعلمون} أي لو كانوا يعلمون أنها الحيوان لما آثروا

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٣٧٤/١٥

(٢) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٣٧٦/١٥

عليها الدنيا.

فإن قيل: ما الحكمة في قوله: في الأنعام {أفلا تعقلون} [الأنعام: ٣٢] وقال هنا {لو كانوا يعلمون} ؟ فالجواب: أن المثبت هناك كون الآخرة، ولأنه ظاهر لا يتوقف إلا على العقل والمثبت هنا أن لا حياة إلا حياة الآخرة. وهذا دقيق لا يعلم إلا بعلم نافع.." (١)

"أهل الكتاب والنصارى أهل كتاب ونحن أميون وقد ظهر إخواننا من أهل فارس على إخوانكم من الروم وإنكم إن قاتلتمونا لنظهرن عليكم فأنزل الله هذه الآيات لبيان أن الغلبة لا تدل على الحق بل الله قد يريد في ثواب المؤمنين من يبتليه، ويسلط عليه الأعادي، وقد يختار تعجيل العذاب الأدنى العذاب الأكبر قبل يوم الميعاد.

فصل

قد تقدم أن كل سورة افتتحت بحروف التهجي فإن في أولها ذكر الكتاب أو التنزيل أو القرآن، كقوله: {الم. ذلك الكتاب} {المص. كتاب} {طه ما أنزلنا عليك القرآن} {الم. تنزيل الكتاب} {حم. تنزيل من الرحمن الرحيم} {يس. والقرآن} {ق. والقرآن} إلا هذه السورة وسورتين أخريين ذكرناهما في العنكبوت، وذكرنا الحكمة منهما هناك. وأما ما يتعلق بهذه السورة فنقول: إن السورة التي في أوائلها التنزيل والكتاب والقرآن في أوائلها ذكر ما هو معجزة فقدمت عليها الحروف على ما تقدم بيانه في العنكبوت، وهذه في أوائلها ذكر ما هو معجز وهو الإخبار عن الغيب، فقدمت الحروف التي لا يعلم معناها ليتنبه السامع فيقبل بقلبه على الاستماع لما ترد عليه المعجزة ويفزع للاستماع.

قوله: {في أدنى الأرض} زعم بعضهم أن «أل» عوض عن الضمير، وأن الأصل {في أدنى أرضهم} وهو قول كوفي، وهذا على قول إن الهرب كان من جهة بلادهم، وأما من يقول: إنه من جهة بلاد العرب فلا يتأتى ذلك. وقرأ العامة «غلبت» مبنيا للمفعول، وعلي بن أبي طالب وأبو سعيد الخدري وابن عمر وأهل الشام ببنائه للفاعل.

قوله: {في أدنى الأرض} أي الروم من بعد غلب فارس إياهم. والغلب. والغلبة «لغتان» فعلى القراءة الشهيرة يكون المصدر مضافا لمفعوله. ثم هذا المفعول إما أن يكون مرفوع المحل على أن المصدر المضاف إليه مأخوذ من مبني (للمفعول) على خلاف في ذلك. وإما منصوب المحل على أن المصدر من مبني للفاعل،

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٣٧٧/١٥

والفاعل محذوف تقديره: من بعد أن غلبهم عدوهم وهم فارس، وأما على القراءة الثانية فهو مضاف لفاعله.." (١)

"الإنسان على الحشر فلأنه إذا تفكر في نفسه يرى قوى مصائره إلى الزوال، وأجزاء ماثلة إلى الانحلال وله فناء ضروري فلو لم يكن حياة أخرى لكان خلقه على هذا الوجه عبثا وإليه الإشارة بقوله {أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا} [المؤمنون: ١١٥] ، هذا ظاهر، لأن من يفعل شيئا للعبث، فلو بالغ في أحكامه لضحك منه فأذن خلقه لذلك للبقاء ولا بقاء دون اللقاء بالآخرة فإذن لا بد من البعث. ثم إنه تعالى ذكر بعد دليل الأنفس دليل الأقطار فقال: {ما خلق الله السماوات والأرض وما بينهمآ إلا بالحق وأجل مسمى} فقوله: «إلا بالحق» إشارة إلى وجه دلالتها على الوحدانية وقد بينا ذلك في قوله: {إن في ذلك لآية للمؤمنين} [العنكبوت: ٤٤] .

قوله: «ما خلق» «ما» نافية، وفي هذه الجملة وجهان:

أحدهما: أنها مستأنفة لا تعلق لها بما قبلها.

والثاني: أنها معلقة للتفكر فتكون في محل نصب على إسقاط الخافض ويضعف أن تكون استفهامية بمعنى النفي، وفيها الوجهان المذكوران. والباء في «بالحق» إما سببية، وإما حالية لإقامة الحق، وقوله: «وأجل مسمى تذكير بالأصل الآخر الذي أنكروه أي لوقت معلوم، إذا انتهت إليه فنيت وهو يوم القيامة، {وإن كثيرا من الناس بلقآء ربهم لكافرون} لا يعلمون أنه لا بد بعد هذه الحياة من لقاء وبقاء.

قوله: «بلقاء» متعلق «بالكافرين» واللام لا تمنع من ذلك لكونها في خبر «إن» .

فإن قيل: ما الحكمة في تقديمه ههنا دلائل الأنفس على دلائل الآفاق وقدم دليل الآفاق على دلائل الأنفس في قوله: {سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم} [فصلت: ٥٣] ؟

فالجواب: أن المفيد إذا أفاد فائدة يتذكرها على وجه جيد يختاره فإن مهمة السامع المستفيد فذاك، وإلا يذكرها على وجه أبين منه وينزل درجة فدرجة وأما المستفيد فإنه يفهم أولا الأبين ثم يرتقي إلى فهم ذلك الأخفى الذي لم يكن فهمه فيفهمه بعد فهم الأبين المذكور آخرا فالمذكور من المفيد أخرا مفهوم عند المستمع أولا، إذا علم هذا." (٢)

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ١٥/٣٨٢

(٢) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ١٥/٣٨٨

"يخاف الابتلال فيستعد له، والذي له صهريج، أو مصنع يحتاج إلى ماء أو زرع يسوي مجاري الماء، وأيضا أهل البوادي لا يعلمون أن البلاد عشبة إن لم يكونوا قد رأوا البروق اللائحة من جانب دون جانب، واعلم أن دلائل البرق وفوائده وإن لم تظهر للمقيمين في البلاد فهي ظاهرة للبادين فلهذا جعل تقديم البرق على تنزيل الماء من السماء نعمة وآية.

فصل

أما كونه آية فلأن الذي فس السحاب ليس إلا ماء وهواء وخروج النار منهما بحيث يحرق الجبال في غاية البعد فلا بد له من خالق وهو الله. وقالت الفلاسفة: السحاب فيه كثافة ولطافة بالنسبة إلى الهواء أو الماء فالهوى ألطف منه والماء أكثف فإذا هبت الريح قوية تحرك السحاب فيحدث صوت الرعد وتخرج منه النار، كما أن النار تخرج من وقع الحجر على الحديد فإن قيل: الحديد والحجر جسمان صلبان، والسحاب والريح جسمان (لينان) (فنقول لكن حركة يد الإنسان ضعيفة، وحركة الريح قوية تقلع الأشجار) فنقول لهم الرعد والبرق (أمران) حادثان لا بد لهما من مسبب، وقد علم بالبرهان كون كل حادث (فهما) من الله ثم نقول: (هب) أن الأمر كما يقولون فهبوب تلك الريح القوية من الأمور الحادثة العجيبة فلا بد لها من سبب وينتهي إلى واجب الوجود فهو آية للعاقل على قدرة الله كيفما فرضتم.

فإن قيل: ما الحكمة في قوله ههنا: {آيات لقوم يعقلون} وقوله فيما تقدم: «لقوم يتفكرون؟» فالجواب: لما كان حدوث الولد من الوالد أمرا عاديا مطردا قليل الاختلاف كان يتطرق إلى الأوهام العامية أن ذلك بالطبيعة لأن المطرد أقرب إلى الطبيعة (من) المختلف، والبرق والمطر ليس أمرا دون وقت، وتارة يكون قويا، وتارة يكون ضعيفا فهو أظهر في العقل دلالة على الفاعل المختار، فقال هو آية لمن له عقل وإن لم يتفكر تفكرا تاما.." (١)

"فصل

قوله: بأمره أي بقوله: «قوما» أو بإرادته قيامها؛ لأن الأمر عند المعتزلة موافق للإرادة وعندنا ليس كذلك ولكن النزاع في أمر التكليف، لا في أمر التكوين فإنا لا ننازعهم في أن قوله: «كن فيكون» و «كوني» و «كونوا» موافق للإرادة.

فإن قيل: ما الفائدة في قوله «ههنا» : {ومن آياته أن تقوم السمآء} وقال قبله: {ومن آياته يريكم} [الروم:

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ١٥/٤٠٠

٢٤] (ولم يقل: أن يريكم) ليصير (كالمصدر «بأن» ؟) .

فالجواب: أن القيام لما كان غير متغير أخرج الفعل بأن عن الفعل المستقبل ولم يذكر معه الحروف المصدرية.

فإن قيل: ما الحكمة في أنه ذكر ست دلائل وذكر في أربعة منها: {إن في ذلك لآيات} [الروم: ٢٤] ولم يذكر الأولى وهو قوله: {ومن آياته أن خلقكم من تراب} [الروم: ٢٠] ولا في الآخر وهو قوله: {ومن آياته أن تقوم السمآء والأرض} ؟ .

فالجواب: أما الأول فلأن قوله بعده: {ومن آياته أن خلق لكم} أيضا دليل الأنفس فخلق السماء والأرض وخلق الأزواج من باب واحد على ما تقدم من أنه تعالى ذكر من كل باب أمرين للتقرير والتوكيد. فلما قال في الثانية: {إن في ذلك لآيات} كان عائدا إليهما، وأما في قيام السماء والأرض فلأنه ذكر في الآيات السماوية أنها آيات للعالمين ولقوم يعقلون وذلك لظهور فلما كان في أول الأمر ظاهرا ففي آخر الأمر بعد سرد الدلائل يكون أظهر (فلم يميز أحدا في ذلك عن الآخر) . ثم إنه تعالى لما ذكر الدليل على القدرة والتوحيد ذكر مدلوله وهو قدرته على الإعادة فقال: {ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذآ أنتم تخرجون} وجه العطف «بثم» و «بم تعلق» فمعناه أنه تعالى إذا بين لكم كمال قدرته بهذه الآيات بعد ذلك يخبركم ويعلمكم أنه إذا قال للعظام الرميمة اخرجوا من الأجداث يخرجون أحياء.

قوله: «من الأرض» فيه أوجه: أظهرها: أنه متعلق بمحذوف يدل عليه «يخرجون» أي خرجتم من الأرض، ولا جائز أن يتعلق «بتخرجون» لأن ما بعد «إذا» لا يعمل فيما قبلها.." (١)

"فإن قيل: ما الحكمة في قوله ههنا: {إذا فريق منهم} ، وقال في موضع: {فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون} ولم يقل: فريق.

فالجواب: أن المذكور هناك غير معين، وهو ما يكون من هول البحر، والتخلص منه بالنسبة إلى الخلق قليل، والذي لا يشرك منهم بعد الخلاص فرقة منهم فهم في غاية القلة، فلم يجعل المشركين فريقا لقلة من خرج من الشرك وأما المذكور ههنا الضر مطلقا فيتناول ضر البحر والأمراض والأهوال، والمتخلص من أنواع الضر خلق كثير بل جميع الناس يكونون قد وقعوا في ضر ما فتخلصوا منه والذي لا يبقى بعد الخلاص مشركا من الناس يكونون قد وقعوا في ضر ما فتخلصوا منه والذي لا يبقى بعد الخلاص مشركا من جميع

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٤٠٢/١٥

الأنواع إذا جمع فهو خلق عظيم وهو جميع المسلمين فإنهم تخلصوا من ضر ولم يبقوا مشركين، وأما المسلمون فلم يتخلصوا من ضر البحر بأجمعهم فلما كان الناجي من الضر المؤمن جمعا كثيرا سمى الباقي فريقا.

قوله: «ليكفروا» يجوز أن تكون لام «كي» وأن تكون لام الأمر ومعناه التهديد كقوله: {اعملوا ما شئتم} [فصلت: ٤٠] ثم خاطب هؤلاء الذين فعلوا هذا خطاب تهديد فقال: «فتمتعوا» .

قرأ العامة بالخطاب فيه، وفي «تعلمون» ، وأبو العالية بالياء فيهما، والأول مبني للمفعول. وعنه أيضا «فيتمتعوا» بياء قبل التاء، وعن عبد الله «فليتمتعوا» بلام الأمر، والمعنى: فسوف تعلمون حالكم في الآخرة.

قوله: {أم أنزلنا عليهم سلطانا} أي برهانا وحجة، فإن جعلناه حقيقة كان يتكلم مجازا، وإن جعلناه على حذف مضاف أي ذا سلطان كان يتكلم حقيقة، وقال أبو البقاء هنا: وقيل: هو جميع سليط كرغيف ورغفان انتهى.." (١)

"استماع الميت والأصم وأثبت إسماع المؤمن بآياته لزم أن يكون المؤمن حيا سميعا وهو كذلك لأن المؤمن ينظر في البراهين ويسمع زواجر الوعظ فتظهر منه الأفعال الحسنة ويفعل ما يجب عليه فهم مسلمون مطيعون كما قال تعالى (عهنم) :

{سمعنا وأطعنا} [البقرة: ٢٨٥] .

قوله: {الله الذي خلقكم من ضعف} لما أعاد دليل الآفاق بقوله: {الله الذي يرسل الرياح} [الروم: ٤٨] أعاد دليلا من دلائل الأنفس أيضا وهو خلق الآدمي وذكر أحواله فقال: {خلقكم من ضعف} أي (بأذى ضعف) كقوله: {ألم نخلقكم من مآء مهين} [المرسلات: ٢٠] ، وقرىء: «ضعف» بضم الضاد، وفتحها، فالضم لغة قريش، والفتح لغة تميم «» من ضعف «أي من نطفة. وتقدم الكلام في القراءتين والفرق بينهما في الأنفال، {ثم جعل من بعد ضعف قوة} (أي) من بعد ضعف الطفولية شبابا وهو وقت القوة {ثم جعل من بعد قوة ضعفا} هرما» وشيبة «والشيبة هي تمام الضعف {يخلق ما يشآء} .

(فإن قيل: ما الحكمة في قوله ههنا: {وهو العليم القدير}) فقدم العلم على القدرة، وقوله من قبل: {وهو العزيز الحكيم} والعزة إشارة إلى كما القدرة، والحكمة إشارة إلى كمال العلم، فقدم القدرة هناك على العلم؟!

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٤١٣/١٥

.

فالجواب أن المذكور هناك الإعادة {وهو أهون عليه وله المثل الأعلى في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم} لأن الإعادة بقوله:» كن فيكون «فالقدرة هناك أظهر وههنا المذكور الإبداء وهو أطوار وأحوال والعلم بكل حال حاصل فالعلم ههنا أظهر ثم إن قوله تعالى: {وهو العليم القدير} فيه تبشير وإنذار؛ لأنه إذا كان عالما بأحوال الخلق يكون عالما بأحوال المخلوق فإن علموا خيرا علمه ثم إذا كان قادرا فإذا علم الخير أثاب، وإذا علم الشر عاقب، ولما كان العلم بالأحوال قبل الإثابة والعقاب اللذين هما بالقدرة (والعلم) قدم العلم، وأما الآية الأخرى فالعلم بتلك الأحوال قبل العقاب فقال: {وهو العزيز الحكيم} .." (١)

"يدي في يده. فسكنت الريح فرجع عكرمة إلى مكة فأسلم وحسن إسلامه، وقال مجاهد: مقتصد في القول أي من الكفار لأن منهم من كان أشد قولا من بعض.

فإن قيل: ما الحكمة في قوله في العنكبوت: {فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون} [العنكبوت: ٦٥] وقال ههنا: {فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد} ؟! .

فالجواب: لما ذكر ههنا امرا عظيما وهو الموج الذي كالجبال بقي أثر ذلك في قلوبهم فخرج منهم مقتصد أي في الكفر وهو الذي انزجر بعض الانزجار، ومقتصد في الإخلاص فيبقى معه شيء منه ولم يبق على ما كان عليه من الإخلاص، وهناك لم يذكر مع ركوب البحر معانيه مثل ذلك الأمر فذكر إشراكهم حيث لم يبق عندهم أر.

قوله: {وما يجحد بآياتنآ} في مقابلة قوله تعالى: {إن في ذلك لآيات} يعني يعترف بها الصبار والشكور، ويجحدها الختار الكفور فالصبار في موازنة الختار لفظا ومعنى، والكفور في موازنة الشكور أما لفظا فظاهر، وأما معنى فلأن الختار هو الغدار الكثير الغدر، أو شديد الغدر مثال مبالغة من الختر وهو أشد الغدر (قال الأعشى) :

٤٠٦٠ - بأبلق الفرد من تيماء منزله ... حصن حصين وجار غير ختار

وقال عمرو بن معديكرب:

٤٠٦١ - فإنك لو رأيت أبا عمرو ... ملأت يديك من غدر وختر

وقالوا: «إن مددت لنأ من غدر مددنا لك باعا من ختر» والغدر لا يكون إلا من قلة الصبر لأن الصبور إن

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ١٥/٤٢٩

لم يعقد مع أحد لا يعهد منه الإضرار فإنه يصبر ويفوض الأمر إلى الله، وأما الغدار فيعاهدك ولا يصبر على العهد فينقضه وأما أن الكفور في مقابلة الشكور معنى ظاهر.." (١)

"وعملوا السيئات» ؛ لأن المراد من «فسقوا» كفروا، ولو جعل العقاب في مقابلة الكفر والعمل لظن (أن) مجرد الكفر (لا) عقاب عليه.

قوله: {الذي كنتم به} صفة لعذاب، وجوز أبو البقاء أن يكون صفة للنار قال: وذكر على معنى الجحيم والحريق.

قوله: {ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر} قال أبي بن كعب والضحاك والحسن وإبراهيم: العذاب الأدنى مصائب الدنيا وأسقامها وهو رواية الوالبي عن ابن عباس، وقال عكرمة عنه: الحدود، وقال مقاتل: الجوع سبع سنين بمكة حتى أكلوا الجيف والعظام والكلاب. وقال ابن مسعود: هو القتل بالسيف يوم بدر وهو قول قتادة والسدي. وأما العذاب الأكبر وهو عذاب الآخرة فإن عذاب الدنيا لا نسبة له إلى عذاب الآخرة.

فإن قيل: ما الحكمة في مقابلته «الأدنى» «بالأكبر» ، «والأدنى» إنما هو في مقابلة «الأقصى» «والأكبر» إنما هو مقابله «الأصغر» ؟

فالجواب: أنه حصل في عذاب الدنيا أمران: أحدهما: أنه قريب والآخر: أنه قليل صغير، وحصل في عذاب الآخرة أيضا أمران، أحدهما: انه بعيد والأآخر أنه عظيم كبير لكن العرف في عذاب الدنيا هو أنه الذي يصلح التخويف به فإن العذاب العاجل وإن كان قليلا فلا يحترز عنه بعض الناس أكثر مما يحترز من العذاب الشديد إذا كان آجلا، وكذا الثواب العاجل قد يرعب فيه بعض الناس ويستبعد الثواب العظيم الآجل.

وأما في عذاب الآخرة فالذي يصلح للتخويف هو العظيم والكبير (لا) البعيد لما بينا فقال في عذاب الدنيا الأدنى ليحترز العاقل عنه ولو قال: «ولنذيقنهم." (٢)

"من العذاب الأصغر» ما كان يحترز عنه لصغره وعدم فهم كونه عاجلا، وقال في عذاب الآخرة الأكبر لذلك المعنى ولو قال: من العذاب الأبعد الأقصى (لما حصل) التخويف به مثل ما يحصل بوصفه

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ١٥/٤٦٥

(٢) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ١٥/٤٨٨

بالكبر.

قوله: «لعلهم يرجعون» إلى الإيمان يعني من بقي منهم بعد «بدر» .

فإن قيل: ما **الحكمة في** هذا الترجي وهو على الله تعالى محال؟

فالجواب: فيه وجهان:

أحدهما: معناه لنذيقنهم إذاقة الراجين كقوله: «إنا نسناكم» يعني تركناكم كما يترك الناس (حيث لا يلتفت إليه) أصلا كذلك ههنا.

والثاني: نذيقهم العذاب إذاقة يقول القائل: لعلهم يرجعون بسببه.

والثاني: نذيقهم العذاب إذاقة يقول القائل: لعلهم يرجعون بسببه.

قوله: {ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه} (أي من ذكر بآيات الله) من النعم أولا، والنقم ثانيا ولم يؤمنوا، فلا أظلم منهم أحد.

قوله: {ثم أعرض عنها} هذه أبعد ما بين الرتبتين معنى، وشبهها الزمخشري بقوله:

٤٠٦٧ - وما يكشف الغماء إلا ابن حرة ... يرى غمرات الموت ثم يزورها

قال: استبعد (أن يزور) غمرات الموت بعد أن رآها وعرفها، واطلع على شدتها.

قوله: {إنا من المجرمين} (يعني المشركين) «منتقمون» .." (١)

"فإن قيل: فلم لم يقل إن النبي أبوكم ويحصل هذا المعنى أو لم يقل أزواج أبيكم.

فالجواب: ان **الحكمة فيه** هو النبي (عليه السلام) (مما بينا) أنه إذا أراد زوجة واحد من الأمة وجب عليه تركها ليتزوج بها النبي - عليه (الصلاة و) السلام - فلو قال: أنت أبوهم لحرم عليه زوجات المؤمنين على التأبيد، ولأنه لام جعل أولى بهم من أنفسهم والنفس مقدمة على الأب لقوله (- عليه السلام -) : «ابدأ بنفسك ثم بمن تعول» ولذلك فإن المحتاج (إلى القوت) لا يجب عليه صرفه إلى (الأب ويجب عليه صرفه إلى) النبي - صلى الله عليه وسلم - ثم إن أزواجه لهم حكم أزواج الأب حتى لا تحرم أولادهن على المؤمنين ولا أخواتهن ولا أمهاتهن وإن كان الكل يحرمن في الأم الحقيقة والرضاعة.

قوله: {وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله} يعني في الميراث قال قتادة: كان المسلمون يتوارثون بالهجرة قال الكلبي: إخاء رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بين الناس كان يؤاخي بين رجلين

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٤٨٩/١٥

فإذا مات أحدهما ورثه الأخر دون عصبته حتى نزلت هذه الآية: {وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله} في حكم الله من المؤمنين الذين آخى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بينهم والمهاجرين يعني ذوي القرابات بعضهم أولى بميراث بعض من أن يرثوا بالإيمان والهجرة فنسخت هذه الآية الموارثة بالمؤاخاة والهجرة فصارت بالقرابة وبعضهم يجوز فيه وجهين:

أحدهما: أن يكون بدلا من أولو.

والثاني: أنه مبتدأ، وما بعده خبر، والجملة خبر الأول.

قوله: {في كتاب الله} يجوز أن يتعلق «بأولي» إلا أن أفعل التفضيل يعمل في الظرف، ويجوز أن يتعلق بمحذوف على أنه حال من الضمير في أولو والعمل فيها أولو لأنها شبيهة بالظرف ولا جائز أن يكون حالا (من أولو) للفصل بالخبر ولأنه لا عامل فيها.." (١)

"والثاني: أنه معطوف على «أخذنا» ح لأن المعنى أن الله أكد على النبياء الدعوة إلى دينه لإثابة المؤمنين وأعد للكافرين، وقيل: إنه حذف من الثاني ما أثبت مقابله في الأول، ومن الأول ما أثبت مقابله في الثاني والتقدير: ليسأل الصادقين عن صدقهم فأثابهم ويسأل الكافرين عما أجابوا رسلهم {وأعد لهم عذابا مهينا} .

فصل

قال المفسرون: المعنى أخذنا ميثاقهم لكي يسأل الصادقين عن صدقهم يعني النبيين عن تبليغهم الرسالة والحكمة في سؤالهم مع علمه أنهم صادقون بتبكيت من أرسلوا إليهم. وقيل: ليسأل الصادقين عن علمهم بالله عز وجل، وقيل: ليسأل الصادقين بأفواههم عن صدقهم بقلوبهم.

قوله

تعالى

: {يا

أيها

الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم ... } الآية وهذا تحقيق لما سبق من الأمر بتقوى الله بحث لا يبقى معه خوف من أحد وذلك حين حوصر المسلمون مع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أيام الخندق،

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ١٥/٥٠٥

واجتمع الأحزاب واشتد الأمر على الأصحاب حيث اجتمع المشركون بأسرهم واليهود بأجمعهم، ونزلوا على المدينة وعمل النبي – صلى الله عليه وسلم – الخندق وكان الأمر في غاية الشدة والخوف بالغا إلى الغاية والله دفع القوم عنهم من غير قتال وآمنهم من الخوف فينبغي أن لا يخاف العبد غير ربه فإنه القادر." (١)

"مكية وهي خمس وخمسون آية وثمان مائة وثلاث وثمانون كلمة وأربعة آلاف وخمسمائة واثنا عشر حرفا. بسم الله الرحمن الرحيم قوله تعالى: {الحمد لله الذي له ما في السماوات} اعلم أن السور المفتوحة بالحمد خمس، سورتان منها في النصف الأول وهما الأنعام والكهف وسورتان في النصف الأخير وهما هذه سورة الملائكة، والخامسة وهي سورة فاتحة الكتاب تقرأ مع النصف الأخير. **والحكمة فيها** أن نعم الله مع كثرتها وعدم قدرتنا على إحصائها منحصرة في قسمين نعمة الإيجاد ونعمة الإبقاء فإن الله خلقنا أولا برحمته وخلق لنا ما نقوم به وهذه النعمة توجد مرة أخرى بالإعادة فإنه خلقنا مرة أخرى ويخلق لنا ما ندوم به فلنا مرة أخرى ويخلق لنا ما ندوم به فلنا حالتان الإبداء والإعادة وفي كل حالة له تعالى علينا نعمتان نعمة الإيجاد." (٢)

"فصل

اعمل أنه تعالى ذكر منهم أمرين الإيمان والعمل الصالح وذكر لهم أمرين المغفرة والرزق الكريمة فالمغفرة جزاء الإيمان فكل مؤمن مغفور له لقوله تعالى: {إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشآء} [النساء: ١١٦] وقوله عليه (الصلاة و) السلام:

«يخرج من النار من قال لا إله إلا الله ومن (في) قلبه وزن ذرة من إيمان» .

والرزق الكريم مرتب على العمل الصالح وهذا مناسب فإن من عمل لسيد كريم عملا فعند فراغه من العمل لا بد وأن ينعم عليه. وتقدم وصف الرزق بالكريم أنه بمعنى ذا كرم أو مكرم أو لأنه من غير طلب بخلاف رزق الدنيا فإنه إن لم يطلب ويتسبب إليه لا يأتي.

فإن قيل: ما **الحكمة في** تمييزه الرزق بوصفه بأنه كريم ولم يضف المغفرة؟

فالجواب: لأن المغفرة واحدة وهي للمؤمنين وأما الرزق فمنه شجرة الزقوم والحميم ومن الفواكه والشراب الطهور فميز الرزق لحصول الانقسام فيه ولم يميز المغفرة لعدم الانقسام فيها.

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٥٠٩/١٥

(٢) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٣/١٦

فصل

قوله: {أولئك لهم مغفرة ورزق كريم} يحتمل وجهين:

أحدهما: أن يكون ذلك لهم جزاء فيوصله إليه لقوله: «ليجزي الذين آمنو» .

وثانيهما: أن يكون ذلك لهم والله يجزيهم بشيء آخر لأن قوله: «ألئك لهم» جملة (تامة اسمية، وقوله تعالى: «ليجزي الذين آمنوا» جملة) فعلية مستقلة وهذا أبلغ في البشارة من قول القائل: ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات رزقا «.

فصل

اللام في» ليجزي «ومعناه الآخرة للجزاء.

فإن قيل: فما وجه المناسبة؟

فالجواب: أن الله تعالى أرد أن لا يقطع ثوابه فجعل للمكلف دارا باقية تكون ثوابه." (١)

"وقرأ العامة الريح بالإفراد. والحسن وأبو حيوة، وخالد بن إلياس الرياح جمعا. وتقدم في الأنبياء أن الحسن يقرأ مع ذلك بالنصب وهنا لم ينقل له ذلك.

فإن قيل: الواو في قوله: «ولسليمان» للعطف فعلى قراءة الرفع يصير عطفا للجملة الاسمية على فعلية وهو لا يجوز أو لا يحسن؟

فالجواب: أنه لما بين حال داود فكأنه قال: لما ذكر لداود ولسليمان الريح وإما على النصب على قوله: {وألنا له الحديد} (كأنه قال وألنا لداود الحديد) وسخرنا لسليمان الريح.

قوله: {غدوها شهر} مبتدأ وخبر ولا بد من حذف مضاف أي غدوها مسيرة شهر أو مقدار غدوها شهر، ولو نصب لجاز، إلا أنه لم يقرأ بها فيما علمنا، وقرأ ابن أبي عبلة غدوتها ورحتها على المرة، والجملة إما مستأنفة، وإما في محل حال.

فصل

المعنى غدو تلك الريح المستمرة له مسيرة شهر، وسير رواحها شهر فكانت تسير به في يوم واحد مسيرة شهرين. قال الحسن: كان يغدو من دمشق فيقيل بإصطخر ــوبينهما مسية شهر، ثم يروح من إصطخر فيبيت بكابل) وبينهما مسيرة شهر للراكب المسرع وقيل: كان يتغذى بالري ويتعشى بسمرقند.

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ١٦/١٠

فإن قيل: ما الحكمة في قوله في الجبال مع داوود الجبال وفي الأنبياء وفي هذه السورة فقال: يا جبال أوبي معه وقال في الريح هناك وههنا: لسليمان باللام؟

فالجواب: أن الجبال لما سبحت شرفت بذكر الله فلم يضيفها إلى داود بلام الملك بل جعلها معه كالمصاحب والريح لم يذكر تسبيحها فجعلها كالمملوكة له.." (١)

"حيث قال: «فأضربها» ليصور لقوله حاله وشجاعته وجرأته وقوله: «فسقناه وأحيينا» معدولا بهما عن لفظ الغيبة إلى ما هو أدخل في الاختصاص وأدل عليه.

فصل

قال: أرسل بلفظ الماضي وقال: {فتثير سحابا} بلفظ المستقبل، لأنه لما أسند فعل الإرسال إلى الله وما يفعله يكون بقوله كن فلا يبقى في العدم لا زمانا ولا جزءا من الزمان فلم يقل بلفظ المستقبل لوجوب وقوعه وسرعة كونه كأنه كان، ولأنه فرغ من كل شيء فهو قدر الإرسال في الأوقات المعلومة وإلى المواضع المعينة. ولما أسند فعل الإشارة إلى الريح ويه تؤلف في زمان فقال: تثير أي على هيئتها وقال: «سقنا» أسند الفعل غلى المتلكم وكذلك في قوله: «فأحيينا» لأنه في الأول عرف نفسه بفعل من الأفعلا وهو الإرسال ثم لما عرف قال: أنا الذي بعثت السحاب وأحييت الأرض. ففي الأول كان تعريفا بالفعل العجيب وفي الثاني: كان تذكيرا بالنعمة فإن كمال نعمة الرياح والسحاب بالسوق والإحياء وقوله: «سفنا وأحيينا» بصيغة الماضي يؤيد ما ذكرنا من الفرق بين قوله: «أرسل» وبين قوله: «تثير» ثم قال: «كذلك النشور» أي من القبور ووجه التشبيه من وجوه:

أحدها: أن الأرض الميتة لما وصلت الحياة اللائقة بها كذلك الأعضاء تقبل الحياة.

وثانيها: كما أن الريح تجمع القطع السحابية كذلك نجمع أجزاء الأعطاء وأبعاض الأشياء.

وثالثها: كما أنا نسوق الريح والسحاب إلى البلد نسوق الروح إلى الجسد الميت.

فإن قيل: ما الحكمة في هذه الآية من بين الآيات مع أن الله تعالى له في كل شيء آية تدل على أنه واحد؟

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ١٦/٢٥

فالجواب: أنه تعالى لما ذكر أنه فاطر السماوات والأرض وذكر من الأمور السماوية والأرواح وإرسالها بقوله: «جاعل الملائكة رسلا أولي أجنحة» ذكر في الأمور الأرضية الرياح.." (١)

"قوله: {سنة آلأولين} مصدر مضاف لمفعوله و «وسنة الله» مصدر مضاف لفاعله لأنه سنها بهم فصحت إضافتها إلى الفاعل والمفعول. وهذا جواب (عن) سؤال وهو أن الإهلاك ليس سنة الأولين إنما هو سنة الله ف الأولين والجواب عن هذا السؤال من وجهين:

أحدهما: أن المصدر الذي هو المفعول المطلق يضاف إلى الفاعل والمفعول لتعلقه بهما من وجه دون وجه فيقال فيما إذا ضرب زيد عمرا: عجبت من ضرب عمرو وكيف ضرب مع ما له من القوم والقوة؟ وعجبت من ضرب عمرو وكيف ضرب مع ماله من العلم والحلم؟ فكذلك سنة الله بهم أضافها إليهم لأنها (سنة) سنت بهم وإضافتها إلى نفسه بعدها بقوله: {فلن تجد لسنة الله} لأنها سنة من الله، فعلى هذا نقول: أضافها في الأول إليهم حيث قال: سنة الأولين، لأن سنة الله الإهلاك بالإشراك والإكرام على الإسلام فلا يعلم أنهم ينتظرون أيتهما فإذا قال: سنة الأولين تميزت وفي الثاني أضافها إلى الله لأنها لما علمت فالإضافة إلى الله تعظيما وتبين أنها أمر واقع ليس لها من دافع.

وثانيهما: أن المراد من سنة الأولين استمرارهم على الإنكار واستكبارهم عن الإقرار وسنة الله استئصالهم بإصرارهم فكأنه قال: أنتم تريدون الإتيان بسنة الأولين والله يأتي بسنة لا تبديل لها ولا تحويل عن مستحقها.

فإن قيل: ما **الحكمة في** تكرار التبديل والتحويل؟

فالجواب: أن المراد بقوله: {فلن تجد لسنة الله تبديلا} حصول العلم بأن العذاب لا يبدل بغيره وبقوله: {ولن تجد لسنة الله تحويلا} حصول العلم بأن العذاب مع أنه لا يتبدل بالثواب لا يتحول عن مستحقه إلى غيره فيتم تهديد المسيء.

فصل

المعنى فهل ينتظرون إلا أن ينزل بهم العذاب كما نزر بمن مضى من الكفار والمخاطب بقوله: {فلن تجد} عام كأنه قال: لن تجد أيها السامع وقيل: الخطاب مع محمد - عليه (الصلاة و) السلام -.." (٢)

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ١٠٨/١٦

(٢) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ١٥٨/١٦

"وجرحل فما جاء في القرآن إشارة إلى أن تركيب العربية من هذه الحروف على هذه الوجوه فماذا يقول هذا القائل في تخصيص بعض السور بالحرف الواحد، والبعض بأكثر فلا يعلم ما السر إلا الله من أعلمه الله به وإذا علم هذا العبادة منها قلبية ومنها لسانية ومنها جاريحة، وكل واحد منها قسمان:

قمس عقل معناه وحقيقته وقسم لم يعلم.

أما القلبية مع أنها عن الشك والجهل ففيها ما لم يعلم دليله عقلا وإنما وجب الإيمان به والاعتقاد سمعا كالصراط الذي هو أرق من الشعر وأحد من السيف، ويمر عليه المؤمن كالبرق الخاطبف، والميزان الذي تزن به الأعمال الذي لا ثقل بها في نظر الناظر وكيفية الجنة والنار فإن هذه الأشياء وجودها لم يعلم بدليل عقلي وإنما المعلوم بالعقل إمكانها ووقوعها معلوم (و) مقطوع به بالمسع ومنها ما علم معناه وما لم يعلم كمقادير النصب وعدد الركعات والحكمة في ذلك أن العبد إذا أتى بما أمر به من غير أن يعمل ما فيه من الفائدة لا يكون الإتيان إلا لمحض العبادة بخلاف ما لو علم الفائدة فربما يأتي بها لفائدة وإن لم يؤمن كما لو قال السيد لعبده: انقل هذه الحجارة من ههنا ولم يعلمه بما في لانقل فنقها ولو قال انقلها فإن تحتها كنزا هو لك فإنه ينقلها وإن لم يؤمر وإذا علم ها فكذلك في العبادات السانية الذكرية يجب أن يكون ما لم يفهم معناه إذا تكلم به العبد علم أنه لا يعقل غير الانقياد لأمر المعبود الإلهي. فإذا قال: حم، يس، طس علم أنه لا يذكر ذلك لمعنى يفهمه بل يتلفظ به امتثالا لما أمر به.

فصل

قال ابن عباس: يس قسم، ووري عنه أن معناه يا إنسان بلغة طيئ. قيل: لأن تصغير إنسان أنيسين كما تقدم عن الزمخشري فكأنه حذف الصدر منه وأخذ العجز وقال: ياسين أي أنيسين.

قال أكثر المفسرين عين محمدا - صلى الله عليه وسلم - قال الحسن وسعيد بن جبير وجماعة. وقال أبو (العالية: يا رجل. وقال أبو بكر الوراق: يا سيد البشر وقوله: {والقرآن." (١)

"أنا عن القدح فيه وهذا كثير الوقوع بين المتناظرين فعند هذا لا يجوز أن يأتي هو بدليل آخر؛ لأن الساكت المنقطع يقول في الدليل الآخر ما قاله في الأول، فلا يجد أمرا إلا باليمين فيقول: والله إني لست مكابرا، وإن الأمر على ما ذكرت ولم علمت خلافه لرجعت إليه فههنا يتعين اليمين، فكذلك النبي عليه (الصلاة و) السلام أقام البراهين، وقالت الكفرة: {ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آبآؤكم}

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ١٦٦/١٦

[سبأ: ٤٣] وقالوا {للحق لما جآءهم هذا سحر مبين} [الأحقاف: ٧] فالتمسك بالأيمان لعدم فائدة.

الدليل الثالث: أن هذا ليس مجرد الحلف بل دليل خرج في صورة اليمين؛ لأن القرآن معجزة ودليل كونه مرسلا هو المعجزة والقرآن كذلك.

فإن قيل: لم لم يذكر في صورة الدليل. وما الحكمة في صورة اليمين؟

فالجواب: أن الدليل إذا ذكر لا في صورة اليمين، قد لا يقبل عليه السامع فلا يفيد فائدة، فإذا ابتدأ به على صورة اليمين لا يقع ولا سيما من العظيم إلا على عظيم، والأمر العظيم تتوفر الدواعي على الإصغاء إليه فلصروة اليمين تقبل عليه الأسماع لكونه دليلا شافيا يتشربه الفؤاد فيقع في السمع وفي القلب.

قوله: {على صراط مستقيم} أي إنك على صراط مستقيم. والمسقيم أقرب الطرق الموصلة إلى المقصد والدين كذلك فإنه يوصل إلى الله وهو المقصد.

قوله: {تنزيل العزيز الرحيم} قرأ نافع وابن كثيروأبو عمرو وأبو بكر برفع «تنزيل» على أنه خبر متبدأ مضمير أي هو تنزيل. ويجوز أن يكون خبرا لمبتدأ إذا جعلت «يس» اسما للسورة أي هذه السورة المسماة ب «يس» تنزيل، أو هذه الأحرف المقطعة تنزيل.

والجملة القسمية على هذا اعتراض. والباقون بالنصب على المصدر كأنه قال: نزل تنزل العزيز الرحيم لتنذر. أو على أنه معفول بفعل منوي كأنه قال والقرآن الحكيم أعين تنزيل العزيز الرحيم إنك لمن المرسلين لتنذر وهذا اختيار الزمخشري." (١)

"يكون موضع إقامة يهلك. فقوله {وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا} إشارة إلى هلاكهم فصاروا بمنزلة من يبنى عليه الحائط وهو واقف.

قوله: {فأغشيناهم} العامة على الغين المعجمة أي غطينا أبصارهم وهو على حذف مضاف. وابن عباس وعمر بن عبد العزيز، والحسن، وابن يعمر، وأبو رجاء في آخرين بالعين المهملة.

وهو ضعف البصر. يقال: عشي بصره، وأعشيته أنا.

وهذا يحتمل الحقية والاستعارة.

فصل

قوله: {فأغشيناهم} بحرف الفاء يقتضي أن يكون الإغشاء مرتبا على جعل السد فما وجهه؟ فيقال من

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ١٦٨/١٦

وجهين:

أحدهما: أن ذلك بيان لأمور مرتبة لي بعضها سببا في العبض فكأنه تعالى قال: إنا جعلنا في أعناقهم أغلالا فلا يبصرون أنفسهم لإقماحهم، وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فلا يبصرون ما في الآفاق وحينئذ يمكن أن يروا السماء ما على يمينهم وشمالهم فقال بعد هذا كله: جعلنا على أبصارهم غشاوة فلا يبصرون شيئا أصلا.

والثاني: أن ذلك بيان لكون السد قريبا منهم بحيث يصير ذلك كالغشاوة على أبصارهم، فإن من جعل من خلف وقدامه سدين ملتزقين به بحيث يبقى بينهما ملتزقا بهما يثى عينه على سطح السد فلا يبصر شيئا، لأن شرط المرئي أن يكون قريبا من العين جدا.

فإن قيل: ذكر اسد من بين الأيدي ومن خلف، ولم يذكر من اليمين والشمال فما **الحكمة فيه**؟ .

فالجواب: إن قلنا: إنه إشارة إلى الهداية الفطرية والنظرية فظاهر. وأما على غير ذلك فيقال: إنه حصل العموم بما ذكر والمنع من انتهاج المناهج المستقيمة، لأنهم إذا قصدوا السلوك إلى جانب اليمين أو جانب الشمال صاروا متوجهين إلى شيء، ومؤلين." (١)

"شهاب الدين: وهذا رجل ثقة قد نقل هذا لاقراءة فتقبل منه.

فإن قيل: ما **الحكمة في** قوله {إن يردن الرحمن بضر} ولم يقل: إن يرد الرحمن بي ضرا وكذلك قوله تعالى: {إن أرادني الله بضر هل هن كاشفات ضره} [الزمر: ٣٨] ولم يقل: إن أراد الله بي ضرا؟ .

فالجواب: أن الفعل إذا كان متعديا إلى مفعول واحد تعدى إلى مفعولين بالحرف كالأمر تعدى بالحرف في قولهم: ذهب به وخرج به. ثم إن المتكلم البليغ يجعل المفعول بغير حرف أولى بوقوع الفعل عليه ويجعل الآخر مفعولا بحرف فإذا قال القائل مثلا: كيف حال فلان؟ يقول: اختصه الملك بالكرامة والنعمة. فإذا قال: كيف كرامة الملك؟ يقول: اختصها بزيد فيقول المسؤول مفعولا بغير حرف؛ لأنه هو المقصود وإذا تقرر هذا فالمقصود فيما نحن فيه: بيان كون العبد تحت تصرف الله يقلبه كيف يشاء في البؤس والرخاء وليس الضر مقصود بيانه كيف والقائل مؤمن يرجو الرحمة والنعمة بناء على إيمانه بحكم وعد الله ويؤيد هذا قوله من قبل: «الذي فطرني» حيث جعل نفسه مفعول الفطرة فلذلك جعلها مفعول الإرادة ووقع الضر تبعا وكذلك القول في قوله: «إن أرادني الله بضر» المقصود بيان أنه يكون كما يريده الله (وليس الضر)

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ١٧٥/١٦

لخصوصيته مقصودا بالذكر ويؤيده ما تقدم حيث قال الله تعالى:

{س الله بكاف عبده} [الزمر: ٣٦] يعني هو تحت إرادته.

فإن قيل: ما الحكمة في قوله هنا: «إن يردني الرحمن» بصيغة المضارع وقال في الزمر: {إن أرادني الله} [الزمر: ٣٨] بصيغ الماضي وذكر المريد هنا باسم الرحمن وذكر المريد هناك اسم الله؟ .

فالجواب أن الماضي والمستقبل مع لاشرط يصير الماضي والمستقبل مع الشرط يصير الماضي مستقبلا لأن المذكور هنا من قبل بصيغة الاستقبال في قوله: {أأتخذ} وقوله: {وما لي لا أعبد} والمذكرو هناك من قبل بصيغة الماضي قوله: {أفرأيتم} [الزمر: ٣٨] .." (١)

"فالجواب: أن حركة الشمس التي لا تدرك بها القمر مختصة بالشمس فجعلها كالصادرة منها فذكر بصيغة الفعل لأن صيغة الفعل لا تطلق على من لا يصدر منه الفعل فلا يقال: يخيط ولا يكون تصدر منه الخياطة وأما حركة القمر فليست مختصة بكوكب من الكواكب بل الكل فيها مشترك بسبب حركة فلك لا يختص بكوكب فالحركة ليس كالصادرة منه فأطلق على اسم الفاعل لأنه لا يستلزم صدور الفعل يقال: فلان خياط وإن لك يكن يخيط. فإن قيل: قوله: {يغشي الليل النهار يطلبه حثيثا} [الأعراف: ٥٤] يدل على أن الليل سابق.

فالجواب: أن المراد من الليل ها هنا سلطان الليل وهو القمر ولا يسبق الشمس بالحركة اليومية السريعة والمراد من الليل هاك نفس الليل وكل واحد لما كان في عقب الآخر فكأنه طالبه.

فإن قيل: قد ذكر ههنا سابق (النهار) وقال هناك يطلبه ولم يقل طالبه.

فالجواب: لما بينا (من) أن المراد في هذه السورة من الليل كواكب الليل وحركتها بحركة الفلك فكأنها لا حركة لها فلا سبق ولا من شأنها أنها سابقة والمراد هناك نفس الليل والنهار وهما زمانان لا قرار لهما فهو يطلب حثيا لصدور المنقضي منه.

فإن قيل: ما الحكمة في إطلاق الليل وإرادة سلطانه وهو القمر وماذا يكون لو قال: ولا القمر سابق الشمس.

فالجواب: لو قال ولا القمر سابق الشمس ما كان يفهم أن الإشارة إلى الحركة اليومية فكان يتوهم المناقض بأن الشمس إذا كانت لا تدرك القمر فالقمر أسرع ظاهرا وإذا قال: ولا القمر سابق يظن أن القمر لا يسبق

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ١٩٤/١٦

فليس بأسرع فقال الليل والنهار ليعمل أن الإشارة إلى الحركة التي بها تتم الدورة في يوم وليلة مرة وأن جميع الكواكب لها طلوع وغروب في الليل والنهار.

قوله: {ولا الليل سابق النهار} قرأ عمارة بنصب «النهار» حذف التنوين لالتقاء الساكنين.." (١)

"إذا تقاتل قوم ومات الكل في القتال يقال: هؤلاء القوم هم قتلوا أنفسهم. «فهم» في الموضعين يكون عائدا إلى القوم ولا يكون المراد أشخاصا معينين بل المراد أن بعضهم قتل بعضهم فكذلك قوله تعالى: «آية لهم» أي آية لكل بعض منهم أ، احلمنا ذرية كل (بعض) منهم، أو ذرية بعض منهم.

وإن قلنا: المراد جنس الفلك فآية ظاهرة لكل أحد وقوله تعالى في سفينة نوح: {وجعلناهآ آية للعالمين} [العنكبوت: ١٥] أي بوجود جنسها ومثلها. ويؤيده قوله تعالى: {ألم تر أن الفلك تجري في البحر بنعمة الله ليريكم من آياته إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور} [لقمان: ٣١] وإن قيل: المراد سفينة نوح فوجه المناسبة أنه ذكرهم بحال نوح وأن المكذبين هلكوا والمؤمنين فازوا فكذلك هم إن آمنوا يفوزوا وإن كذبوا يهلكوا. والأول أظهر وهو أن المراد بالفلك الموجودة في زمانهم ويؤيده قوله تعالى: {وإن نشأ نغرقهم} .

فإن قيل: لم قال {حملنا ذرييتهم} ولم يقل: «حملناهم» ليكون أعم كما قال: {وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون} [يس: ٣٣] ولم يقل: تأكل ذريتهم؟ .

فالجواب: قوله تعالى: «حملنا ذريتهم» أي ذريات العباد ولم يقل حملناهم لأن سكون الأرض عام (ل) كل أحد يسكنها فقال: {وآية لهم الأرض الميتة} إلى أن قال: {فمنه يأكلون} لأن الأكل عام وأما الحمل في السفينة فمن الناس من لا يركبها في عمره ولا يحمل فيها ولكن ذرية العباد لا بد لهم من ذلك فإن فيهم من يحتاج إليها فيحمل فيها.

فإن قيل: ما الحكمة في كونه جمع الفلك في قوله: {وترى الفلك فيه مواخر} [فاطر: ١٢] وأفرده في قوله: {في الفلك المشحون} .

فالجواب: أن فيه تدقيقا مليحا في علم اللغة وهو أن الفلك تكون حركتها مثل حركة تلك الكلمة في الصورة، والحركتان مختلفنان في المعنى مثاله قولك: سجد يسجد سجودا للمصدر وهم قوم سجود في جمع

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٢٢١/١٦

«ساجد» يظن أنها كلمة واحدة لمعنيين وليس كذلك بل السجود عند كونه مصدرا حركته أصلية إذا قلنا: إن الفعل مشتق من المصدر." (١)

"بيان المنفعة وإذا دفع المضرة فلا لأن الفلك كلما كان أثقل كان الخلاص بها أبطأ وهنالك السلامة فاختار هناك ما يدل على الخلاص من الضرر وهو الجري وههنا ما يدل على كمال المنفعة وهو الشحن.

فإن قيل: قال تعالى: {وحملناهم في البر والبحر} [الإسراء: ٧٠] ولم يقل: وحملنا ذريتكم مع أن المقصود في الموضعين بيان النعمة لا دفع النقمة نقول: لما قال في البر والبحر عم الخلق لأن ما من أحد إلا وحمل في البر والبحر وأما الحمل في البحر فلم يعم فقال إن كنا ما حملناكم بأنفسكم فقد حملنا من يهمكم أمره من الأولاد والأقارب والإخوان والأصدقاء.

فصل

وفي قوله: «المشحون» فائدة أخرى وهي أن الآدمي يرسب في الماء ويغرق فحمله في الفلك واقع بقدرته لكن من الطبيعين من يقول: الخفيف لا يرسب ومع هذا حمل الله الإنسان فيه مع ثقله.

فإن قيل: ما الحكمة في قوله: «وآية لهم الأرض (و) وآية لهم الليل» ؟ ولم يقل: وآية لهم الفلك جعلناها بحيث تحملهم؟ .

فالجواب: أن حملهم في الفلك هو العجيب. أما نفس الفلك فليس بعجيب لأنه كبيت مبني من خشب وأما نفس الأرض فعجيب ونفس الليل عجيب لا قدرة لأحد عليهما إلا الله.

قوله: {وإن نشأ نغرقهم} قرأ الحسن بتشديد الراء وهذه الآية تدل على أن المراد بقوله: {من مثله} الفلك الموجود في زمانهم وليس المراد الإبل كما قاله بعض المفسرين بأن المراد الإبل لأنها سفن البر لأن ذلك يؤدي إلى أن يكون قوله: {وخلقنا لهم من مثله ما يركبون} فاصلا بين متصلين. ويحتمل أن يقال: الضمي في مثله يعود إلى معلوم غير مذكور. وتقريره أن يقال: وخلقنا لهم من مثل ما ذكر من المخلوقات كما في." (٢)

"حيث قيل لهم: أنقفوا ولم ينفقوا فما الحكمة في حذف الجواب في قوله: {وإذا قيل لهم أنفقوا} وههنا أجاب وأتى بأكثر من الجواب ولو قال:» وإذا قيل لهم أنفقوا قالوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٢٢٧/١٦

(٢) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٢٢٩/١٦

«لكان كافيا فما الفائدة في قوله تعالى: {قال الذين كفروا للذين آمنوا} فالجواب: أن الكفار كانوا يقولون بأن الإطعام من الصفات الحميدة وكانوا يفتخرون بطعمة الأضياف فأوردوا في ذلك على المؤمنين معتقدين بأن أفعالنا منا ولولا إطعامنا منا لما اندفعت حاجة الضيف وأنتم تقولون: إن إلهكم يرزق من يشاء فلم تقولون لنا: أنفقوا؟ فلما كان غرضهم الرد على المؤمنين، لا الامتناع من الإطعام قال تعالى عنهم: {قال الذين كفروا للذين آمنوا} إشارة إلى الرد.

وأما قوله: اتقوا ما بين أيديكم «فلم يكن لهم رد على المؤمنين فأعرضوا ـفأعرض (الله) عن ذكر إعراضهم لحصول العلم به.

فصل

قال المفسرون: إن المؤمنين قالوا لكفار مكة: أنفقوا على المساكين مما زعمتم أنه لله من أموالكم وهو ما جعلوا لله من حروثهم وأنعامهم» قالوا أنطعم «أنرزق» من لو يشاء الله «رزقه ثم لم يرزقه مع قدرته عليه فنحن نوافق مشيئة الله فلا نطعم من لم يطعمه الله. وهذا مما يتمسك به البخلاء يقولون: لا نعطي من حرمه الله. وهذا الذي يزعمون باطل؛ لأن الله تعالى بالإنفاق لا حاجة إلى ماله ولكن ليبلو الغني بالفقير فيما فرض له في مال الغني ولا اعتراض لأحد على مشيئة الله وحكمه في خلقه.

فإن قيل: ما الفائدة من تغيير اللفظ في جوابهم حيث لم يقولوا: أننفق من لو يشاء الله رزقه وذلك أنهم أمروا بالإنفاق في قوله: {وإذا قيل لهم أنفقوا} فكان جوابهم أن يقولوا: أننفق؛ فلم قالوا: أنطعم؟ .

فالجواب: أن في هذا بـيان غاية مخالفتهم لأنهم إذا أمروا بالإنفاق والإنفاق يدخل فيه الإطعام وغيره فمل يأتوا بالإنفاق ولا بأقل منه وهو الإطعام. وهذا كقول القائل لغيره:» أعط زيدا دينارا «فيقول: لا أعطيه درهما مع أن المطابق هو أن يقول لا أعطيه دينارا." (١)

"فصل

في الترتيب وجهان:

الأول: أنهم حين يسمعون قوله تعالى: {بما كنتم تكفرون} يريدون ينكرون كفرهم كا قال عنه: «ما أشركنا» «وقالوا آمنا به» فيختم الله على أفواههم فلا يقدرون على الإنكار وينطق الله جوارحهم غير لسانهم فيعترفون بذنوبهم.

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٢٣٣/١٦

الثاني: لما أن قال الله تعالى لهم: {ألم أعهد إليكم} لم يكن لهم جواب فسكتوا وخرسوا تكلمت أعضاؤهم غير اللسان. وفي الختم على الأفواه وجوه أقواها: أن اللهتعالى يسكت ألسنتهم وينطق جوارحهم فيشهدون عليهم وأه في قدرة الله يسير (و) أما الإسكان فلا خفاء فيه وأما الإنطاق فلأن اللسان عضو متحرك بحركة مخصوصة كما جاز تحرك غيره بمثلها والله قادر على كل الممكنات. والوجه الآخر: أنهم لا يتكلمون بشيء لانقطاع أعذارهم وانتهاك أستارهم فيقفون ناكسي الرؤوس لا يجدون عذرا فيعتذرون ولا مجال توبة فيستغفرون ،وتكلم الأيدي هو ظهرو الأمور بحيث لا يمع مع الإنكار كقول القائل: الحيطان تبكي على صاحب الدار إشارة إلى ظهور الحزن والصحيح الأول لما ثبت في الصحيح أن الله تعالى يقول للعبد كفى بنفسك اليوم عليك شهيدا وبالكرام الكاتبين شهودا قال: فيمختم على فيه، فيقلا لأركانه انطقي قال: فتنطق بأعماله ثم يخلى بينه وبين الكلام فيقول بعدا لكن وسحقا فعنكن كنت أناضل وقال عليه (الصلاة و) السلام: «أول ما يسأل من أحدكم فخذه ولفه» .

فإن قيل: ما الحكمة في إسناده الختم إلى نفسه وقال «نختم» وأسند الكلام والشهادة إلى الأرجل والأيدي؟ فالجواب: أنه لو قال: نختم على أفواههم وتنطق أيديهم لاحتمل أن يكون ذلك جبرا منه وقهرا والإقرار والإجبار غير مقبول فقال: تكلمنا أيديهم وتشده أرجلهم أي باختيارها يقدرها الله تعالى على الكلام ليكون أدل على صدور الذنب منهم.

فإن قيل: ما الحكمة في جعل الكلام للأيدي وجعل الشهادة للأرجل؟." (١)

"حتى يأمر (ها) الله بما يريد، وقيل: هي الطير لقوله تعالى» والطير صافات «» فالزاجرات زجرا «يعني الملائكة تزجر السحاب وتسوقه، وقال قتادة: هي زواجر القرآن تنهي وتزجر عن القبيح» فالتاليات ذكرا «هم الملائكة يتلون ذكر الله وقيل: هم جماعة قراء القرآن، وهذا كله قسم، وقيل: فيه إضمار، أي ورب الصافات والزاجرات والتاليات.

فصل

قال أبو مسلم الأصفهاني لا يجوز حمل هذه الألفاظ على الملائكة لأنها مشعرة بالتأنيث والملائكة مبرأون عن هذه الصفة، وأجيب بوجهين:

الأول: أن الصافات جمع الجمع فإنه يقال جماعة صافة، ثم يجمع على صافات.

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٢٥٥/١٦

والثاني: أنهم مبرأون عن التأنيث المعنوي وأما التأنيث اللفظي فلا وكيف وهم يسمون بالملائكة مع أن علامة التأنيث حاصلة.

فصل

اختلف الناس ههنا في المقسم به على قولين:

أحدهما: أن المقسم به خالق هذه الأشياء لنهيه - صلى الله عليه وسلم - عن الحلف بغير الله تعالى ولأن الحلف في مثل هذا الموضع تعظيم للمحلوف به، ومثل هذا التعظيم لا يليق إلا بالله تعالى ومما يؤكد هذا أنه تعالى صرح به في قوله: {والسمآء وما بناها والأرض وما طحاها ونفس وما سواها} [الشمس: ٥ - ٧]

الثاني: أن المقسم به هو هذه الأشياء لظاهر اللفظ فالعدول عنه خلاف الدليل وأما قوله تعالى: {وما بناها} فإنه علق لفظ القسم بالسماء ثم عطف عليه القسم بالباء في السماء ولو كان لامراد من القسم بالسماء القسم بمن بنى السماء لزم التكرار في موضع واحد وأنه لا يجوز وأيضا لا يبعد أن تكون الحكمة في قسم الله تعالى بهذه الأشياء التنبيه على شرف ذواتها.." (١)

"والطاعة ثم إن السيد علم منه توطين نفسه على الطاعة فقد يزيد (الألم عنه) بذلك التكليف فكذا ههنا.

فصل

احتجوا بهذه الآية على أنه تعالى قد يأمر بما لا يريد وقوعه، لأنه تعالى لو أراد وقوعه لوقع الذبح لا محالة.

فصل في الحكمة في ورود هذا التكليف في النوم لا في اليقظة

وذلك من وجوه:

الأول: أن هذا التكليف في نهاية المشقة على الذابح والمذبوح فورد أولا في النوم حتى يصير ذلك كالمفيد لورود هذا التكليف الشاق، ثم يتأكد ذلك بأحوال اليقظة لكيلا يهجم هذا التكليف الشاق على النفس دفعة واحد بل على التدريج.

الثاني: أن الله تعالى جعل رؤيا الأنبياء - عليهم (الصلاة و) السلام - حقا، قال تعالى: {لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق} [الفتح: ٢٧] وقال عن يوسف: {إني رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٢٧٣/١٦

لي ساجدين} [يوسف: ٤] وقول إبراهيم: «إني أرى في المنام أني أذبحك» . والمقصود من هذا تقوية الدلالة على كونهم صادقين فإذا تظاهرت الحالتان على الصدق دل ذلك نهاية كونهم محقين في كل الأحوال.

فصل

والحكمة في مشاورة الابن في هذا الأمر ليظهر له صبره في طاعة الله فيكون فيه قوة عين لإبراهيم حيث يراه قد بلغ في الحكمة إلى هذا الحد العظيم في الصبر على أشد المكاره إلى هذه الدرجة العالية ويحصل للابن الثواب العظيم في الآخرة والثناء الحسن في الدنيا.

قوله: {فلما أسلما} في جوابها ثلاثة أوجه:

أظهرهما: أنه محذوف أي ذادته الملائكة أو ظهر صبرهما، أو أجزلنا لهما أجرهما وقدره بعضهم: بعد الرؤيا؛ أي كان ما كان مما ينطق به الحال والوصف مما لا يدرك كنهه ونقل ابن عطية: أن التقدير فلما أسلما أسلما وتله كقوله:." (١)

"وساح فلان في الأرض مر مر السائح. ورجل سائح وسياح انتهى. ويحتمل أن يكثون لها مادتان لكن كان ينبغي أن يذكر ما هي الأشهر أو يذكرهما معا.

قوله تعالى: {فإذا نزل بساحتهم} يعني العذاب بساحتهم، قال مقاتل: بحضرتهم وقيل: بعتابهم.

قال الفراء: العرب تكتفي بذكر الساحة عن القوم {فسآء صباح المنذرين} فبئس صباح الكافرين الذين أنذروا بالعذاب. لما خرج - عليه (الصلاة و) السلام - إلى خيبر أتاها ليلا، وكان إذا جاء قوما بليل لم يغز حتى يصبح فلما أصبح خرجت يهود (خيبر) بمساحيها ومكاتلها، فلما رأوه قالوا: محمد والله محمد والخميس فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

«الله

أكبر خربت خيبر إنا إذا نزلنا بساحة قوم فسوف يبصرون» .

قوله: {فتول عنهم حتى حين وأبصرهم فسوف يبصرون}

قيل: المراد من هذه الكلمة فيما تقدم أحوال الدنيا وفي هذه الكلمة أحوال القيامة وعلى التقديرين فالتكرير زائل، وقيل: المراد من التكرير المبالغة في التهديد والتهويل.

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٣٣٤/١٦

فإن قيل: ما الحكمة في قوله أولا: «وأبصرهم» وههنا قال: «وأبصر» بغير ضمير؟

فالجواب أنه حذف مفعول «أبصر» الثاني إما اختصرا لدلالة الأولى عليه وما اقتصار تقننا في البلاغة ثم إنه تعالى ختم السورة بتنزيه نفسه عن كل ما لا يليق بصفات الإلهية فقال: {سبحان ربك رب العزة} أي الغلبة والقوة، أضاف الرب إلى العزة لاختصاصه بها كأنه قيل: ذو العزة، كما تقول: صاحب صدق لاختصاصه به. وقيل: المراد بالعزة المخلوقة الكائنة بين خلقه.

ويترتب على القولين مسألة اليمين.

فصل

قوله: {ربك رب العزة} الربوبية إشارة إلى كمال الحكمة والرحكمة والعزة إشارة إلى كمال القدرة، فقوله: «رب العزة» يدل على أنه القادر على جميع الحوادث، لأن الألف." (١)

"وغيرهما أنه متى اجتمع نون الرفع مع نون الوقاية جاز ذلك أوجه وتقدم تحقيق الخلاف في أيتهما المحذوفة.

قال مقاتل: وذلك حين قاله له المشركون: دع دينك واتبع دين آبائك ونؤمن بإلهك، ونظير هذه الآية: {قل أغير الله أتخذ وليا} [الأنعام: ١٤] وتقدم في تلك الآية وجه الحكمة في تقدم المفعول ووصفهم بالجهل لأنه تقدم وصف الإله بكونه خالقا للأشياء كلها وبكونه له مقاليد السموات والأرض وكون هذه الأصنام جمادات لا تضر ولا تنفع فمن أعرض عن عبادة الإله الموصوف بتلك الصفات المقدسة الشريقة واشتغل بعبادة الأصنام الخسيسة فقد بلغ في الجهل مبلغا لا مزيدة عليه، فلهذا قال: {أيها الجاهلون} .

قوله: {ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك} الذي عملت قبل الشرك، واعلم أن الظاهر (أن) قوله» لئن أشركت «هذه الجملة هي القائمة مقام الفاعل لأنها هي الموحاة وأصول البصريين تأبى ذلك، ويقدرون أن القائم مقامه ضمير المصدرلأن الجملة لا تكون فاعلا عندهم والقائم هنا مقام الفاعل الجار والمجرور وهو» إليك «وقرئ ليحبطن - بضم الياء وكسر الباء - أي الله ولنحبطن بنون العظمة (وليحبطن) على البناء للمفعول و» عملك «مفعول به على القراءتين الأوليين ومرفوع على الثالثة لقيامه مقام الفاعل.

قال ابن الخطيب: واللام الأولى موطئة للقسم المحذوف والثانية لام الجواب.

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٣٦٠/١٦

فإن قيل: كيف أوحي إليه وإلى من قبله حال شركه على التعيين؟ .
فالجواب: تقرير الآية أوحي إليك لئن أشركت ليحبطن عملك وإلى الذين من قبلك مثله أي أوحي (إليك) وإلى كل أحد منهم لئن أشركت كما تقول: كسانا حلة: أي كل واحد منا.
فإن قيل: كيف صح هذا الكلام مع علم الله تعالى أن رسله لا يشركون ولا يحبط أعمالهم.." (١)
"قوله تعالى: {الله الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه} اعلم أن تعلقه بما قبله من وجهين:
الأول: كأنه تعالى قال: إني أنعمت عليك قبل طلبك هذه النعم العظيمة، ومن أنعم عليك قبل السؤال بهذه النعم العالية فكيف لا ينعم بالأشياء القليلة بعد السؤال؟! .
والثاني: أنه تعالى لماأمر بالدعاء فكأنه قيل: الاشتغال بالدعاء لا بد وأن يكون مسبوقا بحصول المعرفة فما الدليل على وجود الإله القدر؟ فذكر تعالى هذه الدلائل العشرة على وجوده وقدرته وحكمته، وقد تقدم ذكر الدلائل الدالة على وجود الله وقدرته وهي إما فلكية، وإما عنصرية وأن الفلكيات أقسام كثيرة، أحدها الليل والنهار، وأن أكثر مصالح العالم مربوطة بهما فذكرهما الله تعالى ههنا، وبين أن الحكمة في خلق الليل حصول الراحة بالنوم والسكون، والحكمة في خلق النهار إبصار الأشياء؛ ليمكن التصرف فيها على الوجه الأنفع.
فإن قيل: هلا قيل بحسب رعاية النظم هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار لتبصروا فيه أو يقال: جعل لكم الليل ساكنا والنهار مبصرا ولكنه لم يقل ذلك، فما الفائدة؟ وما الحكمة في تقدم ذكر الليل؟ .
فالجواب عن الأول: هو أن الليل والنوم في الحقيقة طبيعة عدمية فهو غير مقصود بالذات، وأما اليقظة فأمور وجودية، وهي مقصودة بالذات. وقد بين الشيخ عبد القاهر النحوي في دلائل الإعجاز أن دلالة صيغة الاسم على الكمال والتمام أقوى من دلالة صيغة الفعل عليها فهذا هو السبب في الفرق.
وأما الجواب عن الثاني: فهو أن الظلمة طبيعة عدمية، والنور طبيعة وجودية، والعدم في المحدثات مقدم على الوجود؛ فلهذا السبب قال في أول سورة الأنعام: {وجعل الظلمات والنور} [الأنعام: ١] .
ثم قال تعالى: {إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون} والمعنى أن فضل الله تعالى على الخلق كثير جدا، ولكنه لا يشكرونه.." (٢)

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٥٤١/١٦
(٢) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٧٧/١٧

"فصل

ذكر المفسرون أن اليهود قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم ألا تكلم الله وتنظر إليه إن كنت نبيا كما كلمه موسى ونظر إليه؟ فقال: لم ينظر موسى إلى الله عز وجل. فأنزل الله تعالى وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أي يوحي إليه في المنام أو بالإلهام أو من وراء حجاب يسمعه كلامه ولا يراه كما كلم موسى عليه الصلاة والسلام أو يرسل رسولا ما جبريل أوة غيره من الملائكة فيوحي بإذنه ما يشاء أن يوحي ذلك الرسول إلى المرسل إليه بإذن الله مايشاء.

وهذه الآية تدل على (أن) الحسن لا يحسن لوجه عائد إليه وأن القبح لا يقبح لوجه عائد إليه بل الله إنما يأمر بما يشاء من غير تخصيص وأنه ينهى عما يشاء من غير تخصيص، إذ لو لم يكن الأمر كذلك لما صح قوله: «ما يشاء» ، ثم قال: {إنه علي حكيم} أي عليم بصفات المخلوقين حيكم تجري أفعاله على الحكمة فيتكلم تارة بغير واسطة على سبيل الإلهام وأخرى بإسماع الكلام وثالثا بواسطة الملائكة الكرام.

ولما بين الله كيفية أقسام الوحي إلى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قال: {وكذلك أوحينآ إليك روحا من أمرنا} أي كما أوحينا إلى سائر رسلنا أوحينا إليك روحا من أمرنا.

قال ابن عباس (رضي الله عنهما) نبوة. وقال الحسن (رضي الله عنه) : رحمة وقال السدي ومقاتل: وحيا. وقال الكلبي: كتابا، وقال الربيع، جبريل. وقال مالك بن دينار: يعني القرآن.

قوله: {ما كنت تدري ما الكتاب} «ما» الأولى نافية والثانية استفهامية، والجملة الاستفهامية معلقة للدراية، فهي في محل نصب لسدها مفعولين، والجملة المنفية بأسرها في محل نصب على الحال من لكاف في «إليك» .

فصل

المعنى: وما كنت تدري قبل الوحي ما الكتاب ولا الإيمان يعني شرائع الإيمان." (١)

"أن تقول: «إن زيدا كاتب لشاعر؛ لأنه منع أن يكون غير المقترن بها خبرا» .

وقرأ حمزة والكسائي إم الكتاب بكسر الألف والباقون بالضم. والضمير في قوله «وإنه» عائد إلى الكتاب المتقدم ذكره.

فصل

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٢٢٣/١٧

قيل: أم الكتاب هو اللوح المحفوظ. قال قتادة: أم الكتاب أصل الكتاب، وأم كل شيء أصله.

قال ابن عباس: (رضي الله عنه) : أول ما خلق الله القلم أمره أن يكتب بما يريد أن يخلق فالكتاب عنده ثم قرأ: وإنه في أم الكتاب لدينا، فالكمتاب مثبت عنده في اللوح المحفوظ كما قال: {بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ} [البروج: ٢١٢٢] .

وقوله: {لعلي حكيم} قال قتادة: يخبر عن منزلته وشرفه، أي إن كذبتم بالقرآن يا أهل مكة فإنه عندنا «لعلي» رفيع شريف «حكيم» أي محكم في أبواب البلاغة والفصاحة، أو ذو حكمة بالغة. قيل: المراد بأم الكتاب الآيات المحكمة لقوله تعالى: {هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب} [آل عمران: ٧] والمعنى أن سورة حم واقعة في الآيات المحكمة التي هي الأصل والأم.

فإن قيل: ما الحكمة في خلق هذا اللوح المحفوظ مع أنه تعالى علام الغيوب فيستحيل عليه السهو والنسيان؟

فالجواب: أنه تعالى لما أثبت في ذلك أحكام حوادث المخلوقات، ثم إن الملائكة إذا شاهدوا أن جميع الحوادث إنما تحدث على موافقى ذلك المكتوب استدلوا بذلك على كمال حكمته وعلمه.

قوله تعالى: {أفنضرب عنكم الذكر صفحا} في نصب «صفحا» خمسة أوجه:

أحدهما: أنه مصدر في معنى يضرب؛ لأنه يقال: ضرب عن كذا وأضرب عنه بمعنى أعرض عنه وصرف وجهه عنه قال:." (١)

"المسلمين في تلك الليلة إلا الكاهن، والمشاحن ومدمن الخمر وعاق والديه والمصر على الزنا»

والخامسة: أنه تعالى أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذه الليلة تمام الشفاعة وذلك أنه سأل في الليلة الثالثة عشر الشفاعة في أمته فأعطي الثلث منها ثم سأل الليلة الرابعة عشر فأعطي الثلثين ثم سأل ليلة الخامس عشرة فأعطي جميع الشفاعة إلا من شرد عن الله شراد البعير، نقله الزمخشري.

فصل

روي أن عطية الحروري سأل ابن عباس (رضي الله عنهم) عن قوله: {إنا أنزلناه في ليلة مباركة} وقوله: {إنا أنزلناه في ليلة القدر} [القدر: ١] كيف يصح ذلك مع أن الله تعالى أنزل القرآن في جميع الأيام؟ .

فقال ابن عباس: يا ابن الأسود لو هكلت أنا ووقع في نفسك هذا، ولم تجد جوابه لهلكت، نزنل القرآن

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٢٢٩/١٧

جملة من اللوح المحفوظ إلى بيت المعمور في السماء الدنيا، ثم نزل بعد ذلك في أنواع الوقائع حالا فحالا.

قال قتادة وابن زيد: أنزل الله القرآن في ليلة القدر من أم الكتاب إلى السماء الدنيا، ثم انزل به جبريل على النبي صلى الله عليه وسلم نجوما في عشرين سنة.

قوله: {إنا كنا منذرين} يعني إن **الحكمة في** إنزال القرآن أن إنذار الخلق لا يتم إلا به.

قوله: «فيها» أي في الليلة المباركة «يفرق» يفصل {كل أمر حكيم} محكم ومعناه ذو الحكمة، وذلك لأن تخصيص الله تعالى كل واحد بحالة معينة من الأجل والرزق والسعادة والشقاوة يدل على حكمة بالغة لله عز وجل، فلما دلت تلك الأقضية على حكمة فاعلها، وصفت بكونها حكمة، وهذا إسناد مجازي لأن الحكيم صفة صابح الأمر على الحقيقة، ووصف الأمر به مجاز. قال ابن عباس: يكتب في أم الكتاب في ليلة القدر ما هو كائن في السنة من الخير، والشر، الأرزاق، والآجال حتى الحجاج يقال: يحج فلان ويحج فلان.

وقال الحسن ومجاهد وقتادة: يبرم في ليلة القدر في شهر رمضان كل أجل، وعمل، وخلق، ورزق، وما يكون في تلك السنة. وقال عكرمة: هي ليلة النصف من شعبان يقوم فيها أمر السنة، وتنسخ الأحياء من الأموات، فلا يزاد فيهم، ولا ينقص منه أحد. قال عليه الصلاة والسلام : «تقطع الآجال من شعبان إلى شعبان حتى إن الرجل لينكح، ويولد له، ولقد أخرج اسمه في الموتى» وعن ابن عباس (."[1]

"الطعام، وصلة الأرحام قال الضحاك: أبطل كيدهم ومكرهم بالنبي صلى الله عليه وسلم وجعل الدائرة عليهم.

قوله: {والذين آمنوا} يجوز فيه الوجهان المتقدمان، وتقدير الفعل: «رحم الذين آمنوا» .

قوله: {وآمنوا بما نزل على محمد} والعامة على بناء الفعل نزل للمفعول مشددا، وزيد بن علي وابن مقسم نزل مبنيا للفاعل وهو الله، والأعمش أنزلض بهمزة التعدية مبنيا للمفعول. وقرىء: نزل ثلاثيا مبنيا للفاعل. قال سفيان الثوري: لم يخالفوه في شيء. قال بان عباس: «الذين كفروا وصدوا» مشركوا مكة والذين آمنوا وعملوا الصالحات الأنصار.

قوله: {وهو الحق} جملة معترضة بين المبتدأ والخبر المفسر والمفسر.

قوله: {كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم} حالهم. وتقدم تفسير «البال» في طه. قال ابن عباس (رضي

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ١٧/ ٣١٠

اللهِ عنه) : معنى: أصلح، أي عصمهم أيام حياتهم يعني أن هذا الإصلاح يعود إلى صلاح أعمالهم حتى لا يعصوا.

فصل

قالت المعتزلة: تكفير السيئات مرتب على الإيمان، والعمل الصالح، فمن آمن ولم يعمل صالحا يبقى في العذاب خالدا.

والجواب: لو كان كما ذكرتم لكان الإضلال مرتبا على الكفر والصد، فمن يكفر لا ينبغي أن تضل أعماله. أو نقول: إن الله تعالى رتب أمرين فمن آمن كفر سيئاته، ومن عمل صالحا أصلح باله. أو نقول: أي مؤمن يتصور غير آت بالصالحات بحيث لا يصدر عنه صلاة ولا صيام ولا صدقة ولا طعام، وعلى هذا فقوله: «وعملوا» من عطف المسبب على السبب كقول القائل: أكلت كثيرا وشبعت.

فإن قيل: ما الحكمة في قوله: «وآمنوا بما نزل على محمد» مع أن قوله: «آمنوا وعلموا الصلحات» أفاد هذا المعنى؟ .

فالجواب: من وجوه:." (١)

"عمل له فهو همج إعدامه خير من وجوده. {فإذا لقيتم الذين كفروا} بعد ظهور أن لا حرمة لهم بعد إبطال عملهم فاضربوا أعناقهم قال البغوي: فضرب الرقاب نصب على الإغراء.

الثاني: إذا تبين تباين الفريقين وتباعد الطريقين بأن أحدهما يتبع الباطل وهو حزب الشيطان والآخر يتبع الحق وهو حزب الرحمن حق القتال (عند التحزب) فإذا لقيتموهم فاقتلوهم.

الثالث: أن من الناس من يقول لضعف قلبه وقصور نظره إيلام الحيوان من الظلم والطغيان ولا سيما القتل الذي هو تخريب بنيان. فيقال ردا عليهم: لما كان اعتبار الأعمال باتباع الحق والباطل فلمن يقتل في سبيل الله لتعظيم الله وبأمره له (من) الأجر ما للمصلى والصائم فإذا لقيتم الذين كفروا فاقتلوهم ولا تأخذكم بهم رأفة. فإن ذلك اتباع للحق والاعتبار به لا بصورة الفعل.

فصل

والحكمة في اختيار ضرب الرقبة دون غيرها من الأعضاء، لأن المؤمن هنا ليس بدافع، إنما هو مدافع وذلك لأن من يدفع الصائل لا ينبغي أن يقصد أولا مقتله، بل يتدرج ويضرب غير المقتل فإن اندفع فذاك،

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٤٢٥/١٧

ولا يرقى إلى درجة الإهلاك، فأخبر تعالى أنه ليس المقصود دفعهم عنكم بل المقصود دفعهم عن وجه الأرض بالكلية، وتطهير الأرض منهم وكيف لا والأرض لكم مسجد، والمشركون نجس، والمسجد يطهر من النجاسة؟ فإذا ينبغي أن يكون قصدكم أولا إلى قتلهم بخلاف دفع الصائل. والرقبة أظهر المقاتل، لأن قطع الحلقوم والأوداج مستلزم للموت، بخلاف سائر المواضع ولا سيما في الحرب. وفي قوله «لقيتم» ما ينبىء عن مخالفتهم الصائل، لأن قوله: «لقيتم» يدل على أن القصد من جانبهم بخلاف قولنا «لقيكم» ، ولذلك قال في غير هذا الموضع

{واقتلوهم حيث ثقفتموهم} [النساء: ٩١] .

فإن قيل: ما الفائدة في قوله ههنا: {فضرب الرقاب} بإضمار الفعل وإظهار." (١)

"تطيب للأكل ولا للشرب، فإن الدهن لا يأكل ولا يشرب في الغالب وأما اللبن ففيه الدسم الكائن في يغره وهو طيب للأكل وبه تغذية الحيوان أولا فذكره الله تعالى؛ وأما ما يشرب لغير الطعم فالماء والخمر، فإن الخمر كريهة الطعم، لحصول التواتر بذلك، وإنما تشرب لأمر آخر غير الطعام وأما الماء فلأن به بقاء الحيوان فذكره.

فإن قيل: ما الحكمة في قوله في الخمر: {لذة للشاربين} ولم يقل في اللبن: لم يخبر طعمه للطاعمين ولا قال في العسل مصفى للناظرين؟

فالجواب: قال ابن الخطيب: لأن اللذة تختلف باختلاف الأشخاص فرب طعام يلتذ به شخص ويعافه الآخر فقال: لذة للشاربين بأسرهم، ولأن الخمر كريهة الطعم في الدنيا، فقال لذة، أي لا يكون في خمر الآخرة كراهة طعم وأما الطعم واللون فلا يختلف باختلاف الناس، فإن الحلو والحامض وغيرهما يدركه كل أحد قد يعافه بعض الناس ويلتذ به البعض مع اتفاقهم على أن لهم طعما واحدا وكذلك اللون فلم يكن للتصريح بالتعميم حاجة.

قوله: {كل الثمرات} فيه وجهان:

أحدهما: أن هذا الجار صفة لمقدر، وذلك المقدر مبتدأ وخبره الجار قبله وهو «لهم» و «فيها» متعلق بما تعلق به، والتقدير: ولهم فيها زوجان من كل الثمرات، كأنه انتزعه من قوله تعالى: {فيهما من كل فاكهة زوجان} [الرحمن: ٥٢] وقدر بعضهم صنف. والأول أليق.

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٤٢٨/١٧

والثاني: أن «من» مزيدة في المبتدأ.
قوله: {ومغفرة} فيه وجهان:
أحدهما: أنه عطف على ذلك المقدر لا بقيد كونه في الجنة، أي ولهم مغفرة؛ لأن المغفرة تكون قبل دخول الجنة؛ أو بقيد ذلك. ولا بد من حذف مضاف حينئذ أي وبنعيم مغفرة؛ لأنه ناشيء عن المغفرة وهو الجنة.
والثاني: أن يجعل خبرها مقدرا على ولهم مغفرة. والجملة مستأنفة، والفرق بين الوجيهن أن الوجه الذي قبل هذا فيه الإخبار ب «لهم» الملفوظ به عن شيئين، ذلك المحذوف ومغفرة. وفي الوجه الآخر الخبر جار آخر حذف للدلالة عليه.
قوله: {كمن هو} قد تقدم أنه يجوز أن يكون خبرا عن: {مثل الجنة} ، بالتأويلين." (١)
"أقفالها» بالجمع على أفعال. وقرىء أقفلها (بالجمع) على أفعل. وقرىء إقفالها بكسر الهمزة مصدرا كالإقبال. وهذا الكلام استعارة بليغة قيل: ذلك عبارة عن عدم وصول الحق إليها.
فإن قيل: ما الفائدة في تنكير القلوب؟ .
فقال الزمخشري: يحتمل وجهين:
أحدهما: أن يكون للتنبيه على كون موصوفا لأن النكرة بالوصف أولى من المعرفة فكأنه قال: أم على قلوب قاسية أو مظلمة.
الثاني: أن تكون للتبعيض كأنه قال: أم على نفس القلوب؛ لأن النكرة لا تعم، تقول: جاءني رجال فيفهم البعض وجاءني الرجال فيفهم الكل. والتنكير في القلوب للتنبيه على الإنكار الذي في القلوب وذلك لأن القلب إذا كان عارفا كان معروفا، لأن القلب خلق للمعرفة فإذا لم يكن فيه المعرفة فكأنه لا يعرف قلبا، فلا يكون قلبا يعرف، كما يقال للإنسان المؤذي: هذا ليس بإنسان فكذلك يقال: هذا ليس بقلب هذا حجر. وإذا علم هذا فالتعريف إما بالألف واللام وإما بالإضافة بأن يقال: على قلوبهم أقفالها أو هي لنعدم عود فائدة إليهم كأنها ليست لهم.
فإن قيل: قد قال تعالى: {ختم الله على قلوبهم} [البقرة: ٧] وقال: {فويل للقاسية قلوبهم} [الزمر: ٢٢] .

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٤٤٤/١٧

فالجواب: الإقفال أبلغ من الختم، فترك الإضافة لعدم انتفاعهم رأسا.

فإن قيل: ما الحكمة في قوله: «أقفالها» بالإضافة ولم يقل: أقفال كما قال: قلوب؟ .

فالجواب: لأن الأقفال كأنها ليست إلا لها ولم تضف القلوب إليهم لعدم نفعها إياهم وإضافة الأقفال إليها لكونها مناسبة لها. أو يقال: أراد به أقفالا مخصوصة هي أقفال الكفر والعناد.

قوله: {إن الذين ارتدوا على أدبارهم} رجعوا كفارا {من بعد ما تبين لهم الهدى}." (١)

"قوله: {إيمانا مع إيمانهم} ، قال ابن عباس (رضي الله عنهما) بعث الله رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم بشهادة أن لا إله إلا الله، فلما صدقوا زادهم الصلاة، ثم الزكامة، ثم الصيام، ثم الحج، ثم الجهاد حتى أكمل لهم دينهم وكلما أمروا بشيء فصدقوه ازدادوا تصديقا إلى تصديقهم. وقال الضحاك: يقينا مع يقينهم، وقيل: أنزل السكينة عليهم فصبروا ورأوا عين القين ما علموا النصر علم اليقين إيمانا بالغيب فازدادوا إيمانا مستفادا من الغيب مع إيمانهم المستفاد من الشهادة. وقيل: ازدادوا إيمانا بالفروع مع إيمانهم بالأصول فإنهم آمنوا بأن محمدا رسول الله، فإن الله واحد، والحشر كائن فآمنوا بأن كل ما يقول النبي صلى الله عليه وسلم فهو صدق، وكل ما يأمر الله تعالى به فهو واجب.

وقيل: ازدادوا إيمانا استدلاليا مع إيمانهم الفطري.

فإن قيل: ما الحكمة في قوله في حق الكفار: {إنما نملي لهم ليزدادوا إثما} [آل عمران: ١٧٨] ولم يقل مع كفرهم وقال في حق المؤمنين: {إإيمانا مع إيمانهم} ؟

فالجواب: أن كفر الكافر عنادي، وليس في الوجود كقر فطري، ولا في الوجود كفر عنادي لينضم إلى الكفر الفطري بل الكفر ليس إلا عنادا وكذلك الكفر بالفروع لا يقال: انضم إلى الكفر بالأصول، لأن من ضرورة الكفر بالأصول الكفر بالفروع وليس من ضرورة الإيمان بالأصول الإيمان بالفروع بمعنى الطاعهة والانقياد، ولهذا قال: {إإيمانا مع إيمانهم} .

قوله: {ولله جنود السماوات والأرض} فهو قادر على أهلاك عدوهم بجنود، بل بصيحة ولم يفعل بل أنزل السكينة على المؤمنين ليكون إهلاك أعدائه بأديهيم فيكون لهم الثواب. والمراد بجنود السموات والأرض الملائكة، وقيل: جنود السموات الملائكة وجنود الأرض الجن والحيوانات. وقيل: الأسباب السماوية.

{وكان الله عليما} لما قال: {ولله جنود السماوات والأرض} وعددهم غير محصور فقال «عليما: إشارة

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٤٥٩/١٧

إلى أنه لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض. وقيل: لما ذكر القلوب بقوله: {أنزل السكينة في قلوب المؤمنين} والإيمان الذي من عمل القلوب ذكر العلم إشارة إلى أنه يعلم السر ِ وأخفى. وقوله» حكيما «بعد» عليما «إشارة إلى أنه يفعل على وفق العلم، فإن الحكيم من يعمل شيئا متقنا وبعلمه.

قوله تعالى: {ليدخل المؤمنين} في متعلق هذه اللام أربعة أوجه:

أحدهما: محذوف تقديره: يبتلي بتلك الجنود من شاء فيقبل الخبر ممن أهله له والشر ممن قضى له به ليدخل ويعذب.." (١)

"بالقتال ليدخل المؤمنين، أو عرف من قرينة الحال أن الله اختار المؤمنين (فكأنه تعالى قال: اختار المؤمنين) ليدخلهم جنات.

فإن قيل: ما **الحكمة في** أنه تعالى ذكر في بعض المواضع المؤمنين والمؤمنات وفي بعضها اكتفى بذكر المؤمنين ودخلت المؤمنات فيهم كقوله تعالى: {قد أفلح المؤمنون} [المؤمنون: ١] وقوله: وبشر المومنين بأن لهم (من الله فضلا كبيرا) ؟

فالجواب: أنه في المواضع التي فيها ما يوهم اختصاص المؤمنين بالخير الموعود به مع مشاركة المؤمنات لهم ذكرهن الله صريحا وفي المواضع التي فيها ما يوهم ذلك اكتفى بدخولهن في المؤمنين كقوله: «وبشر المؤمنين» مع أنه علم من قوله تعالى: {ومآ أرسلناك إلا كآفة للناس بشيرا ونذيرا} [سبأ: ٢٨] العموم، فلا يوهم خروج المؤمنين عن البشارة. وأما ههنا فلما كان قوله تعالى: {ل ِ ِيدخل المؤمنين} متعلقا بفعل سابق وهو إما الأمر بالقتال أو الصبر فيه، أو النصرة (بالمؤمنين) أو الفتح بأيديهم على ما تقدم.

فإدخال المؤمنين كان للقتال والمرأة لا تقاتل فلا تدخل الجنة الموعد بها فصرح الله بذكرهن، وكذا في قوله تعالى: {إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات} [الأحزاب: ٣٥] ؛ لأن الموضع ذكر النساء وأحوالهن لقوله: {ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى وأقمن ... وآتين ... وأطعن ... واذكرن ما يتلى في بيوتكن} [الأحزاب: ٣٣٣٤] فكان ذكر النساء هنا (ك) أصلا لكن الرجال لما كان لهم ما للنساء من الأمر العظيم ذكرهم وذكرهن بفلظ مفرد من غير تبعية لما بينا (أن الأصل ذكرهن في ذلك الموضع) .

قوله: {ويكفر عنهم سيئاتهم} فيه سؤال وهو أن تكفير السيئات قبل الإدخال فكيف ذكره بعد ذكر الإدخال؟ والجواب من وجهين:

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٤٨١/١٧

أحدهما: أن الواو لا تقتضي الترتيب.

والثاني: أن تكفير السيئات والمغفرة من توابع كون المكلف من أهل الجنة فقدم الإدخال في الذكر بمعنى أنه من أهل الجنة.

قوله: {ذلك عند الله فوزا عظيما} «عندا الله» متعلق بمحذوف على أنه حال من «فوزا» لأنه صفته في الأصل. وجوز أبو البقاء أن يكون ظرفا لمكان. وفيه خلاف. وأن يكون ظرفا لمحذوف دل عليه الفوز، أي يفوزون عند الله ولا يتعلق «." (١)

"الياء وضم الزاي وهو أيضا وجعفر بن محمد كذلك إلا أنهما كسرا الزاي. وابن عباس واليماني ويعززوه كالعامة إلا أنه بزايين من العزة.

فإن قيل: ما **الحكمة في** قوله في الأحزاب: {إنآ أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا} [الأحزاب: ٤٥٤٦] وههنا اقتصر على الثلاثة الأول؟ .

فالجواب من وجهين:

أحدهما: أن ذلك المقام كان مقام ذكر، لأن أكثر السورة ذكر الرسول وأحواله وما تقدمه من المبايعة والوعد بالدخول ففصل هناك ولم يفصل هنا.

وثانيهما: أن قوله: «شاهدا» لما لم يقتض أن يكون داعيا لجواز أن يقول مع نفسه أشهد أن لا إله إلا الله ولا يدعو الناس قال هناك: «وداعيا» كذلك ههنا لما لم يكن كونه شاهدا ينبيء عن كونه داعيا قال: ليؤمنوا بالله ويعزروه ويوقروه. وقوله: «بكرة وأصيلا» يحتمل أن يكون إشارة إلى المداومة، ويحتمل أن يكون لمخالفة عمل المشركين، فإنهم كانوا يعبدون الأصنام في الكعبة بكرة وعشية، فأمر الله بالتسبيح في أوقات ذكرهم الفحشاء والمنكر.

قوله تعالى: {إن الذين يبايعونك} يا محمد بالحديبية على أن لا يفروا {إنما يبايعون الله} لأنهم باعوا أنفسهم من الله تعالى بالجنة، روى يزيد بن (أبي) عبيد قال: قلت لسلمة بن الأكوع: على أي شيء بايعتم رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية؟ قال: على الموت.

قوله: {إنما يبايعون الله} خبر «إن الذين» و {يد الله فوق أيديهم} جملة حالية، أو خبر ثان وهو ترشيح

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٤٨٣/١٧

للمجاز في مبايعة الله. وقرأ تمام بن العباس: يبايعون لله، والمفعول محذوف أي إنما يبايعونك لأجل الله.." (١)

"فأذن فقال عتاب بن أسيد بن أبي العيص: الحم لله الذي قبض أبي حتى لم ير هذا اليوم. وقال الحارث بن هشام: أما وجد محمد غير هذا الغراب الأسود مؤذنا؟ وقال سهيل بن عمرو: إن يرد الله شيئا يغيره. وقال أبو سفيان: إني لا أقول شيئا أخاف أن يخبر به رب السموات فأتى جبريل رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره بما قالوا: فدعاهم عما قالوا فأقروا فأنز لالله عز وجل هذه الآية وزجرهم عن التفاخر بالأنساب والتكاثر بالأموال، والإزراء بالفقراء.

فإن قيل: هذه الآية تدل على عدم اعتبار النسب وليس كذلك فإن للنسب اعتبار عرفا وشرعا حتى لا يجوز تزويج الشريفة بالنبطي! .

فالجواب: إذا جاء الأمر العظيم لا يبقى الأمر الحقير معتبرا، وذلك في الجنس والشرع والعرف أما الجنس فلأن الكواكب لا ترى عند طلوع الشمس، ولجناح الذباب دوي ولا يسمع عندما يكون رعد قوي. وأما العرف فلأن من جاءه غلام ملك أقبل عليه وأكرمه فإذا جاءه مع الملك لا يبقى له اعتبار ولا يلتفت إليه. وإذا علم هذه ففي الشرع كذلك إذا جاء الشرف الديني الإلهي لا يبقى هناك اعتبار لا لنسب ولا لسبب، ألا ترى أن الكافر وإن كان من أعلى الناس نسبا، والمؤمن وإن كان من أدونهم نسبا لا يقاس أحدهما بالآخر وكذلك ما هو من الدين مع غيره، ولهذا تصلح المناصب الدينية كالقضاء والشهادة لكل شريف ووضيع إذا كان دينا عالما، ولا يصلح لشيء منها فاسق وإ، كان قرشي النسب وقاروني النشب ولكن إذا اجتمع في اثنين الدين المتين وأحدهما نسيب يرجح بالنسب عند الناس لا عند الله، لقوله تعالى {وأن ليس للإنسان إلا ما سعى} [النجم: ٣٩] وشرف النسب ليس مكتسبا ولايحصل بعسي.

فصل

الحكمة في اختيار النسب من جملة أسباب التفاخر، ولم يذكر المال، لأن الأمور التي يفتخر بها في الدنيا وإن كانت كثيرة، لكن النسب أعلاها، لأن المال قد يحصل للفقير فيبطل افتخار المفتخر به عليه والسن والحسن وغير ذلك لا يدوم، والنسب ثابت مستمر غير مقدور التحصيل لمن ليس له ذلك فاختاره الله للذكر وأبطل اعتباره بالنسبة إلى التقوى ليعلم منه بطلان غيره بطريق الأولى.

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٤٨٧/١٧

فإن قيل: إذا كان ورود الآية لبيان عدم جواز الافتخار بغير التقوى فما فائدة قوله تعالى: {إنا خلقناكم} ؟ فالجواب: بأن كل شيء يترجح علىغيره، فإما أن يرجح بأمر فيه يلحقه ويرتب." (١)

"وأما الثاني: فقوله تعالى: {والطور وكتاب مسطور في رق منشور والبيت المعمور والسقف المرفوع والبحر المسجور إن عذاب ربك لواقع}

[الطور: ١ - ٧] .

قال ابن الخطيب: وهذا الوجه يظهر غاية الظهور على قال من قال: «ق» اسم جبل فإن القسم يكون بالجبل والقرآن، وهناك أقسم بالطور والكتاب المسطور وهو الجبل والقرآن وإن فهم بقرينة حالية فهو كون محمد - صلى الله عليه وسلم - على الحق فإن الكفار كانوا ينكرون ذلك.

قوله: «بل عجبوا» يقتضي أن يكون هناك أمر مضروب عنه فما ذلك؟ أجاب الواحدي ووافقه الزمخشري أنه تقرير كأنه قال: ما الأمر كما تقولون. قال ابن الخطيب: والتقدير والقرآن المجيد إنك لمنذر، وكأنه قال بعده: إنهم شكوا فيه. ثم أضرب عنه وقال: بل عجبوا أي فلم يكتفوا بالشك ولا بالرد حتى عجبوا بل جزموا بالخلاف حتى جعلوا ذلك من الأمور العجيبة.

فإن قيل: فما **الحكمة في** هذا الاختصار العظيم في موضع واحد حذف المقسم عليه والمضرب عنه، وأتى بأمر لا يفهم إلا بعد الفكر العظيم ولا يفهم مع الفكر إلا بالتوثيق العزيز؟ {.

قال ابن الخطيب: أما حذف المقسم عليه فلأن الترك في بعض المواضع يفهم منه ظهور لا يفهم من الذكر، لأن من ذكر الملك العظيم في مجلس، وأثنى عليه يكون قد عظمه، فإذا قال له غيره: هو لا يذكر في هذا المجلس يكون بالإرشاد إلى ترك الذكر دالا على عظمة فوق ما استفيد بذكره فالله (تعالى) ذكر المقسم عليه لبيان هو أظهر من أن يذكر. وأما حذف المضرب عنه، فلأن المضرب عنه إذا ذكر وأضرب عنه بأمر آخر، وكان بين المذكورين تفاوت ما، فإذا عظم التفاوت لا يحسن ذكرهما مع الإضراب، مثاله يحسن أن يقال: الوزير يعظم، فلا يماثل الملك بعظمه، ولا يحسن أن يقال: البواب يعظم فلا يماثل الملك بعظمه لكون البون بينهما بعيدا، إذ الإضراب للتدريج، فإذا ترك المتكلم المضرب عنه صريحا وأتى بحرف الإضراب

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ١٧/٥٥٤

استفيد منه أمران:

أحدهما: الإشارة إلى أمر آخر قبله مضرب عنه.." (١)

"قوله: «لها طلع» يجوز أن تكون الجملة حالا من النخل أو من الضمير في «باسقات» ويجوز أن يكون الحال وحده «لها» وطلع فاعل به. ونضيد بمعنى منضود بعضها فوق بعض في كمامها كما في سنبلة الزرع، وهو عجيب، فإن الأشجار الطوال ثمارها بعضها على بعض، لكل واحد منها أصل يخرج منه كالجوز واللوز وغيرهما، والطلع كالسنبلة الواحدة يكون على أصل واحد.

قوله: «رزقا» يجوز أن يكون حالا أي مرزوقا للعباد أي ذا رزق، وإن يكون مصدرا من معنى أنبتنا؛ لأن إنبات هذه رزق فكأنه قال: أنبتناها إنباتا للعباد ويجوز أن تكون مفعولا له للعباد، إما صفة، وإما متعلق بالمصدر، وإما مفعولا للمصدر، واللام زائدة، أي رزقا العباد.

فصل

قال ابن الخطيب: ما **الحكمة في** قوله عند خلق السماء والأرض: «تبصرة وذكرى» وفي الثمار قال: «رزقا» والثمار أيضا فيها تبصرة وفي السماء والأرض أيضا منفعة غير التبصرة والتذكرة؟

نقول: فيه وجوه:

أحدها: أن الاستدلال وقع لوجود أمرين: أحدهما الإعادة، والثاني: البقاء بعد الإعادة، فإن النبي – صلى الله عليه وسلم – كان يخبرهم بحشر وجمع يكون بعده الثواب الدائم، والعقاب الدائم، وأنكروا ذلك، فقال أما الأول فالله القادر على خلق السموات والأرض قادر على خلق الخلق بعد الفناء، وأما الثاني فلأن البقاء في الدنيا بالرزق والقادر على إخراج الأرزاق من النخل والشجر قادر على أن يرزق بعد الحشر فكان الأول تبصرة وتذكرة بالخلق، والثاني تذكرة بالبقاء بالرزق، ويدل على هذا الفصل بينهما بقوله تعالى: {تبصرة وذكرى} حيث ذكر ذلك بعد الآيتين، ثم بدأ بذكر الماء وإنزاله وإنبات النبات.

ثانيها: منفعة الثمار الظاهرة وهي الرزق فذكرها، ومنفعة السماء الظاهرة ليست أمرا عائدا إلى انتفاع العباد لبعدها عن ذهنهم حتى أنهم لو توهموا عدم الزرع والثمر لظنوا أن يهلكوا ولو توهموا عدم السماء فوقهم لقالوا: لا يضرنا ذلك مع أن الأمر بالعكس أولى لأن السماء سبب الأرزاق بقدرة الله تعالى، وفيها منافع

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٩/١٨

غير ذلك والثمار وإن لم تكن كان العيش كما أنزل الله على قوم المن والسلوى، وعلى قوم المائدة من السماء فذكر الأظهر للناس في هذا المواضع.." (١)

"الثاني: أن اطمئنان القلب بالقول أكثر.

قوله: {لهم ما يشآءون فيها} يجوز أن يتعلق «فيها» ب «يشاؤون» ويجوز أن يكون حالا من الموصول، أو من عائده والأول أولى.

فصل

ما الحكمة في أنه تعالى قال: ادخلوها بسلام على المخاطبة، ثم قال: «لهم» ولم يقل: لكم؟

فالجواب من وجوه:

الأول: أن قوله تعالى: «ادخلوها» فيه مقدر، أي فيقال لهم ادخلوها.

فلا يكون التفاتا.

الثاني: أنه التفات، والحكمة الجمع بين الطرفين، كأنه تعالى يقول: غير محل بهم في غيبتهم وحضورهم. ففي حضورهم الحبور، وفي غيبتهم الحور والقصور.

الثالث: أنه يجوز أن يكون قوله تعالى: «لهم» كلاما مع الملائكة، يقول للملائكة توكلوا بخدمتهم، واعلموا أن لهم ما يشاؤون فيها فأحضروا بين أيديهم ما يشاؤون، وأما أنا فعندي ما لا يخطر ببالهم ولا تقدرون أنتم عليه.

و «المزيد» يحتمل ان يكون معناه الزيادة، كقوله تعالى: {للذين أحسنوا الحسنى وزيادة} [يونس: ٢٦] ويحتمل أن يكون بمعنى المفعول، أي عندنا ما نزيده على ما يرجون ويأملون.

قال أنس وجابر: هو النظر إلى وجه الله الكريم.." (٢)

"مكية وهي ستون آية، وثلاثمائة وستون كلمة، وألف ومائتان وتسعة وثمانون حرفا بسم الله الرحمن الرحيم قوله تعالى: {والذاريات ذروا} أول هذه السورة مناسب لآخرها قبلها، لأنه تعالى لما بين الحشر بدلائله، وقال: {ذلك حشر علينا يسير} [ق: ٤٤] وقال: {ومآ أنت عليهم بجبار} [ق: ٤٥] تجبرهم على الإيمان، إشارة إلى إصرارهم على الكفر بعد إقامة البرهان، وتلاوة القرآن عليهم، لم يبق إلا اليمين

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٢٠/١٨

(٢) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٤٣/١٨

فقال: {والذاريات. . إنما توعدون لصادق} وقال في آخرها {فويل للذين كفروا من يومهم الذي يوعدون} [الذاريات: ٦٠] .

فصل

وفي الحكمة في القسم ههنا وجوه:

أحدها: أن الكفار كانوا ينسبون النبي - صلى الله عليه وسلم - للجدال، ومعرفة طرقه، وأنه عالم بفساد قولهم، وأنه يغلبهم بمعرفته بالجدال، وحينئذ لا يمكن أن يقابلهم بالأدلة، كما أن من أقام خصمه عليه الدليل ولم يبق له حجة، يقول: إنه غلبني، لعلمه بالجدل وعجزي عن ذلك، وهو يعلم في نفسه أن الحق تبعي ولا يبقى للمتكلم المبرهن غير اليمين، ليقول: والله إن الأمر كما أقول ولا أجادلك بالباطل لأنه لو استدل بطريق آخر يقول خصمه فيه كقوله الأول، فلا يبقى إلا السكوت، أو التمسك بالأيمان، وترك إقامة البرهان.." (١)

"وجعل الجار خبرا، والصفة فضلة، وعكس هذا في قوله تعالى: {إن المجرمين في عذاب جهنم خالدون} [الزخرف: ٧٤] ، قيل: لأن الخبر مقصور الجملة، والغرض هناك الإخبار عن تخليدهم، لأن المؤمن قد يدخل النار، ولكن لا بد من خروجه، وأما آية المتقين، فجعل الظرف فيها خبرا لأمنهم الخروج منها، فجعل ذلك محط الفائدة ليحصل لهم الطمأنينة فانتصبت الصفة حالا.

فصل

اعلم أنه تعالى وحد الجنة تارة، قال تعالى: {مثل الجنة التي وعد المتقون} [الرعد: ٣٥] و [محمد: ١٥] وأخرى جمعها كقوله ههنا: {إن المتقين في جنات} وتارة ثناها، قال تعالى: {ولمن خاف مقام ربه جنتان} [الرحمن: ٤٦] ، والحكمة فيه أن الجنة في توحيدها لاتصال المنازل والأشجار والأنهار كجنة واحدة، وأما جمعها فلأنها بالنسبة إلى الدنيا وبالإضافة إليها جنات لا يحصرها عدد، وأما تثنيتها فسيأتي في سورة الرحمن.

قال ابن الخطيب: غير أنا نقول ههنا: إن الله تعالى عند الوعد وحد الجنة وعند الإعطاء جمعها إشارة إلى أن الزيادة في الوعد موجودة بخلاف ما لو وعد بجنات ثم يقول إنه في جنة، لأنه دون الموعود، وقوله: «وعيون» يقتضي أن يكون المتقي فيها ولا لذة في كون الإنسان في ماء؛ فالمعنى في خلال العيون، أي

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٥٦/١٨

بين الأنهار كقوله: «في جنات» معناه بين الجنات وفي خلالها؛ لأن الجنة هي الأحجار، ونكرها مع كونها معرفة للتعظيم كقولك: فلان رجل أي عظيم في الرجولة.

ومعنى: «آخذين» أي قابضين ما آتاهم شيئا فشيئا ولا يستوفونه بكماله، لامتناع استيفاء ما لا نهاية له. وقيل: معنى آخذين أي قابلين قبول راض كقوله تعالى: {ويأخذ الصدقات} [التوبة: ١٠٤] أي يقبلها، قاله الزمخشري. وقال ابن الخطيب: وفيه وجه ثالث، وهو أن قوله: في جنات يدل على السكنى حيث قال: آخذين بلاد كذا، أو قلعة كذا، أي دخلها متملكا لها، وكذا يقال لمن اشترى دارا أو بستانا أخذه بثمن قليل أي تملكه، وإن لم يكن هناك قبض حسا ولا قبول برضى.

وحيئذ فائدته بيان أن دخولهم فيها ليس دخول مستعير أو من يسترد منه ذلك بل هو ملكه الذي اشتراه بماله ونفسه من الله.

وقوله: «آتاهم» لبيان (أن) أخذهم ذلك لم يكن عنوة، وإنما نال ذلك بإعطاء الله تعالى. وعلى هذا الوجه «ما» راجعة إلى الجنات والعيون.." (١)

"وقرأ العامة المكرمين - بتخفيف الراء - من أكرم، وعكرمة: بالتشديد.

فإن قيل: أرسلوا بالعذاب بدليل قولهم: {إنآ أرسلنآ إلى قوم مجرمين} [الذاريات: ٣٢] فما **الحكمة في** مجيئهم إلى إبراهيم - عليه الصلاة والسلام -؟

فالجواب من وجهين:

الأول: أن إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - شيخ المرسلين، ولوط من قومه، ومن عادة الملك إذا أرسل رسولا لملك وفي طريقه من هو أكبر منه يقول له: اعبر على فلان الملك، وأخبره برسالتك وخذ فيها رأيه.

الثاني: أن إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - كان شديد الشفقة حليما فكان يشق عليه إهلاك أمة عظيمة وكان ذلك مما يحزن إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - شفقة منه على العباد فقال (لهم) بشروه بغلام يخرج من صلبه أضعاف من يهلك، ويكون من صلبه خروج الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام -.

قوله: {فقالوا سلاما قال سلام} العامة على نصب «سلاما» الأول، ورفع الثاني. فأما نصب الأول فالمشهور أن السلام التحية أي نسلم سلاما. ويحتمل أن «سلاما» معناه حسنا أي قالوا كلاما حسنا؛ لأنه كلام سلم به المتكلم من أن يلغو أو يأثم فكأنهم قالوا قولا حسنا سلموا به من الإثم فيكون مفعولا به لأنه في معنى

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٦٧/١٨

القول، كما قيل في قوله تعالى: {وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما} [الفرقان: ٦٣] ، أو هو مفعول بفعل محذوف، أي نبلغك سلاما.

ولم يقولوا من الله شفقة على قلب إبراهيم فأتوا به مجملا، ثم فسروه بعد ذلك.

وأما رفع الثاني فالمشهور أنه التحية، فهو مبتدأ، وخبره محذوف أي عليكم، ويحتمل أنه السلامة، أي أمري سلام لأني لا أعرفكم، أو قولكم سلام، أي ينبئ عن السلامة وأنتم قوم منكرون فما خطبكم؟." (١)

"قال ابن الخطيب: ويجوز أن يكون من السعة أي أوسعناها بحيث صارت الأرض وما يحيط بها من الماء والهواء بالنسبة إلى سعتها داخل فيها والبناء الواسع الفضاء عجيب، فإن القبة الواسعة لا يقدر عليها البناؤون، لأنهم محتاجون إلى إقامة آلة يصح بها استدارتها، ويثبت بها تماسك أجزائها إلى أن يتصل بعضها ببعض. فقوله: «وإنا لموسعون» بيان للإعراب (في الفعل) .

فصل

والحكمة في كثرة ذكر البناء في السموات كقوله تعالى: {والسمآء وما بناها} [الشمس: ٥] ، وقوله: {أم السمآء بناها} [النازعات: ٢٧] أن بناء السماء باق إلى قيام الساعة، لم يسقط منها شيء، ولم يعدم منها جزء. وأما الأرض فهي في التبدل والتغير كالفراش الذي يبسط ويطوى وينقل، والسماء كالبناء المبني الثابت كما أشار إليه بقوله: {سبعا شدادا} [النبأ: ١٢] وأما الأرض فكم صارت بحرا، وعادت أرضا من وقت حدوثها، وأيضا فالسماء ترى كالقبة المبنية فوق الرؤوس، والأرض مبسوطة مدحوة، وذكر البناء بالمرفوع أليق كقوله تعالى: {رفع سمكها} [النازعات: ٢٨] .

وقال بعض الحكماء: السماء مسكن الأرواح، والأرض موضع الأعمال والمسكن أليق بكونه بناء. والله أعلم.

فإن قيل: ما **الحكمة في** تقديم المفعول على الفعل ولو قال: وبنينا السماء بأيد كان أوجز؟! .

فالجواب: قال ابن الخطيب: لأن الصنع قبل الصانع عند الناظر في المعرفة، فلما كان المقصود إثبات العلم بالصانع قدم الدليل وقال: والسماء المبنية التي لا تشكون في بنيانها، فاعرفونا بها إن كنتم لا تعرفوننا.

فإن قيل: إذا كان إثبات التوحيد فكيف قال: بنيناها، ولم يقل: بنيتها؟ ولا بناها الله؟!

فالجواب: أن قوله: بنيناها أدل على عدم الشريك، لأن الشركة ضعيفة؛ فإن الشريك يمنع شريكه عن

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٨٢/١٨

التصرف والاستبداد، وقوله: «بنيناها» يدل على العظمة، وبين العظمة والضعف تنافر فبين قوله: «بنيناها» وبين أن يكون شريك منافاة. وتقريره أن قوله تعالى: {بنيناها} لا يورث إيهاما بأن الآلهة التي كانوا يعبدونها هي التي يرجع إليها." (١)

"فصل

في تعلق الآية بما قبلها أن بعثة الأنبياء منحصرة في أمرين عبادة الله وهداية الخلق، فلما قال تعالى: {فتول عنهم فمآ أنت بملوم} [الذاريات: ٥٤] بين أن الهداية قد سقطت عند اليأس، وأما العبادة فهي لازمة للخلق المطلق وليس الخلق المطلق للهداية، وقيل: إنه لما بين حال من قبله في التكذيب ذكر هذه ليتبين سوء صنيعهم، حيث تركوا عبادة الله الذي خلقهم للعبادة.

فإن قيل: ما **الحكمة في** أنه لم يذكر الملائكة مع أنهم من أصناف المكلفين وعبادتهم أكثر من عبادة غيرهم من المكلفين، قال تعالى: {بل عباد مكرمون} [الأنبياء: ٢٦] وقال: {لا يستكبرون عن عبادته} [الأعراف: ٢٠٦] .

فالجواب من وجوه:

أحدها: أنه تقدم أن الآية سيقت لبيان قبح ما يفعله الكفرة، من ترك ما خلقوا له. وهذا مختص بالجن والإنس؛ لأن الكفر موجود في الجن والإنس بخلاف الملائكة.

الثاني: أن النبي - صلى الله عليه وسلم - كان مبعوثا إلى الجن والإنس، فلما قال: «وذكر» بين ما يذكر به وهو كون الخلق للعبادة، وخصص أمته بالذكر أي ذكر الإنس والجن.

الثالث: أن عباد الأصنام كانوا يقولون: إن الله تعالى عظيم الشأن خلق الملائكة وجعلهم مقربين، فهم يعبدون الله وخلقهم لعبادته ونحن لنزول درجتنا لا نصلح لعبادة الله فنعبد الملائكة وهم يعبدون الله كما قالوا:

{ما نعبدهم إلا ليقربونآ إلى الله زلفى} [الزمر: ٣] فقال تعالى: {ما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون} ولم يذكر الملائكة لأن الأمر فيهم كان مسلما من القوم، فذكر المتنازع فيه.

الرابع: فعل الجن يتناول الملائكة، لأن أصل الجن من الاستتار، وهم مستترون عن الخلق فذكر الجن لدخول الملائكة فيهم.

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ١٠١/١٨

قوله: {مآ أريد منهم من رزق} أي يرزقوا أحدا من خلقي، ولا أن يرزقوا أنفسهم {ومآ أريد أن يطعمون} أي يطعموا أحدا من خلقي. وإنما أسند الإطعام إلى نفسه لأن الخلق عيال الله ومن أطعم عيال أحد فقد أطعمه، قال عليه الصلاة والسلام : «استطعمتك فلم تطعمني» ، أي لم تطعم عبدي.

فصل

استدل المعتزلة بقوله تعالى: {وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون} على أن." (١)

"قوله تعالى: {إن الله هو الرزاق} يعني لجميع خلقه، وهذا تقرير لعدم طلب الرزق، وقوله: «ذو القوة» تقرير لعدم طلب العمل لأن من يطلب رزقا يكون فقيرا محتاجا، ومن يطلب عملا يكون عاجزا لا قوة له فكأنه يقول: ما أريد منهم من رزق فإني أنا الرزاق، ولا العمل فإني قوي.

وروي أن النبي - عليه الصلاة والسلام - قرأ: إني أنا الرزاق، وقرأ ابن محيصن: الرازق، كما تقدم في قراءته: {وفي السماء رازقكم} .

قوله: «المتين» العامة على رفعه، وفيه أوجه:

إما النعت للرزاق، وإما النعت لذو، وإما النعت لاسم «إن» على الموضع. وهو مذهب الجرمي والفراء، وغيرهما. وإما خبر بعد خبر، وإما خبر مبتدأ مضمر. وعلى كل تقدير فهو تأكيد، لأن «ذو القوة» يفيد فائدته.

وقرأ يحيى بن وثاب والأعمش المتين - بالجر - فقيل: صفة «القوة» ، وإنما ذكر وصفها لكون تأنيثها غير حقيقي. وقيل: لأنها في معنى الأيد.

وقال ابن جني: هو خفض على الجوار كقولهم: «هذا جحر ضب خرب» يعني أنه صفة للمرفوع، وإنما جر لما جاور مجرورا. وهذا مرجوح لإمكان غيره، والجوار لا يصار إليه إلا عند الحاجة.

فصل

قال تعالى: «ما أريد» ولم يقل: إني رازق بل قال على الحكاية عن الغائب إن الله هو الرزاق فما **الحكمة فيه**؟ .." (٢)

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ١٠٦/١٨

(٢) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ١٠٨/١٨

"وقيل: اللام في «البيت المعمور» لتعريف جنس كأنه يقسم بالبيوت المعمورة والعمائر المشهورة) .
قوله: «والسقف المرفوع» يعني السماء. ونظيره: {وجعلنا السمآء سقفا محفوظا} [الأنبياء: ٣٢] .
قوله: «والبحر المسجور» قيل: هو من الأضداد، يقال: بحر مسجور أي مملوء، وبحر مسجور أي فارغ. وروى ذو الرمة الشاعر عن ابن عباس - (رضي الله عنهما) - أنه قال: خرجت أمة لتستقي فقالت: إن الحوض مسجور؛ أي فارغ. ويؤيد هذا أن البحار يذهب ماؤها يوم القيامة.
وقيل: المسجور الممسوك، ومنه ساجور الكلب لأنه يمسكه ويحبسه. وقال محمد بن كعب القرظي والضحاك: يعني الموقد المحمى بمنزلة التنور المحمى، وهو قول ابن عباس (- رضي الله عنهما -) ؛ لما روى أن الله تعالى يجعل البحار كلها يوم القيامة نارا فيزاد بها في نار جهنم كما قال تعالى: {وإذا البحار سجرت} [التكوير: ٦] .
وروى عبد الله بن عمر - (رضي الله عنهما) - قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: «لا يركبن رجل بحرا إلا غازيا أو معتمرا أو حاجا، فإن تحت البحر نارا وتحت النار بحرا» وقال الربيع بن أنس: المسجور المختلط العذب بالمالح. وروى الضحاك عن النزال بن سبرة عن علي أنه قال: البحر المسجور: هو بحر تحت العرش، كما بين سبع سموات إلى سبع أرضين فيه ماء غليظ، يقال له: بحر الحيوان يمطر العباد منه بعد النفخة الأولى أربعين صباحا فينبتون في قبورهم. وهذا قول مقاتل.
فصل
قيل: الحكمة في القسم بهذه الثلاثة أشياء أن هذه الأماكن الثلاثة وهي: الطور، والبيت المعمور، والبحر المسجور كانت لثلاثة أنبياء للخلوة بربهم والخلاص من الخلق." (١)
"وخطابهم مع الله. أما الطور فانتقل إليه موسى - عليه الصلاة والسلام - وخاطب الله تعالى هناك وأما البيت المعمور فانتقل إليه محمد - عليه الصلاة والسلام - وقال لربه: «سلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك» . وأما البحر المسجور فانتقل إليه يونس - عليه الصلاة والسلام -، ونادى في الظلمات: {أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين} فصارت هذه الأماكن شريفة بهذه الأسباب فأقسم الله تعالى بها.

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ١١٥/١٨

وأما ذكر الكتاب فلأن الأنبياء كان لهم في هذه (الأماكن) مع الله تعالى كلام والكلام في الكتاب (واقترانه بالطور أدل على ذلك؛ لأن موسى – عليه السلام – كان له مكتوب ينزل عليه وهو بالطور) .

فصل

أقسم في بعض السور بجموع كقوله: {والذاريات} [الذاريات: ١] {والمرسلات} [المرسلات: ١] {والنازعات} [النازعات: ١] وفي بعضها بأفراد كقوله: «والطور» ولم يقل: والأطوار والبحار.

قال ابن الخطيب: والحكمة فيه: أن في أكثر الجموع أقسم عليها بالمتحركات والريح الواحدة ليست بثابتة بل هي متبدلة بأفرادها مستمرة بأنواعها، والمقصود منها لا يحصل إلا بالبدل والتغير، فقال: «والذاريات» إشارة إلى النوع المستمر، لا الفرد المعين المستقر، وأما الجبل فهو ثابت غير متغير عادة فالواحد من الجبال دائم زمانا ودهرا، فأقسم في ذلك بالواحد، وكذلك في قوله:

{والنجم} [النجم: ١] ، ولو قال: «والريح» لما علم المقسم به، وفي الطور علم.

قوله: {إن عذاب ربك لواقع} نازل وكائن. وقوله: «من دافع» يجوز أن تكون الجملة خبرا ثانيا، وأن تكون صفة لواقع أي واقع غير مدفوع. قال أبو البقاء. و «من دافع» يجوز أن يكون فاعلا، وأن يكون مبتدأ و «من» مزيدة عىل الوجهين.." (١)

"فصل

المعنى أفتجادلونه أي كيف تجادلونه على ما يرى، وذلك أنهم جادلوه حين أسري به فقالوا: صف لنا بيت المقدس وأخبرنا عن عيرنا في الطريق وغير ذلك مما جادلوه والمعنى أفتجادلونه جدالا ترومون به دفعه عما رآه وعلمه وتيقنه.

فإن قيل: هلا قيل: أفتمارونه على ما رأى بصيغة الماضي لأنهم إنما جادلوه حين أسري به كما تقدم وما الحكمة في إبرازه بصيغة المضارع؟ فالجواب: أن التقدير أفتمارونه على ما يرى فكيف وهو قد رآه في السماء فماذا تقولون فيه؟ .." (٢)

"فإن قيل: ما الحكمة في قوله تعالى: {وأنه خلق} ولم يقل: «وأنه هو خلق» كما قال: {وأنه هو أضحك وأبكى} ؟

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ١٨/١١٦

(٢) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ١٨/١٦٩

فالجواب: أن الضحك والبكاء ربما يتوهم أنه بفعل الإنسان، والإماتة والإحياء وإن كان ذلك التوهم أبعد لكن ربما يقول به جاهل كما قال من حاج إبراهيم عليه الصلاة والسلام {قال أنا أحيي وأميت} [البقرة: ٢٥٨] فأكد ذلك بالفصل. وأما خلق الذكر والأنثى من النطفة فلا يتوهم أحد أنه بفعل واحد من الناس، فلم يؤكد بالفصل، ألا ترى إلى قوله: {وأنه هو أغنى وأقنى} حيث كان الإغناء عندهم غير مسند إلى الله، وكان في معتقدهم أن ذلك بفعلهم كما قال قارون: {إنمآ أوتيته على علم عنديا} [القصص: ٧٨] وكذلك قال: {وأنه هو رب الشعرى} فأكد في مواضع استبعادهم إلى الإسناد ولم يؤكد في غيره.

واختلفوا في الذكر والأنثى هل هما اسمان وهما صفة؟ أو اسمان ليسا بصفة؟ فالمشهور عند أهل اللغة أنهما اسمان ليسا بصفة.

قال ابن الخطيب: والظاهر أنهما من الأسماء التي هي صفات فالذكر كالحسن، والأنثى كالحبلى والكبرى.

قوله: {من نطفة إذا تمنى} أي تصب في الرحم؛ يقال: منى الرجل وأمنى. قاله الضحاك وعطاء بن أبي رباح.

وقيل: تقدر، يقال: منيت الشيء إذا قدرته. وهذا أيضا تنبيه على كمال القدرة، لأن النطفة جسم متناسب الأجزاء يخلق الله منها أعضاء مختلفة، وطباعا متباينة، وخلق الذكر والأنثى منها أعجب ما يكون، ولهذا لم يقدر أحد على أن يدعيه كما لم يقدر على أن يدعي خلق السموات، ولهذا قال تعالى: {ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله} [لقمان: ٢٥] .

قوله: {وأن عليه النشأة الأخرى} أي الخلق الثاني للبعث يوم القيامة. قال ابن الخطيب: يحتمل أن يكون المراد من قوله: {وأن عليه النشأة الأخرى} هو نفخ الروح الإنسانية فيه كما قال تعالى: {ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر} [المؤمنون: ١٣ و١٤] أي غير خلق النطفة علقة، والعلقة مضغة، والمضغة عظاما. وبهذا الخلق الآخر وهو نفخ الروح تميز الإنسان عن أنواع الحيوانات فكما قال هناك: {أنشأناه خلقا آخر} ." (١)

"نخل خاوية لأجل الفواصل كقوله: مستمر، ومنهمر، ومنتشر.

وقيل: إن النخل لفظه لفظ واحد، ومعناه الجمع، فيقال: نخل منقعر، ومنقعرة ومنقعرات، ونخل خاو

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٢١٣/١٨

وخاوية وخاويات ونخل باسق وباسقة وباسقات.

فإذا قيل: «منقعر أو خاو أو باسق» فبالنظر إلى اللفظ، وإذا قيل: منقعرات أو خاويات أو باسقات فلأجل المعنى.

قال أبو بكر بن الأنباري: سئل المبرد بحضرة القاضي إسرفيل عن ألف مسألة هذه من جملتها فقال: ما الفرق بين قوله تعالى: {ولسليمان الريح عاصفة} [الأنبياء: ٨١] وقال: {جآءتها ريح عاصف} [يونس: ٢٢] ، وقوله: {كأنهم أعجاز نخل خاوية} [الحاقة: ٧] و {أعجاز نخل منقعر} ؟ فقال: كل ما ورد عليك من هذا القرآن، فإن شئت رددته إلى اللفظ تذكيرا أو إلى المعنى تأنيثا.

قال ابن الخطيب: ذكر الله لفظ النخل في مواضع ثلاثة ووصفها على الأوجه الثلاثة، قال: {والنخل باسقات} [ق: ١٠] وذلك حال عنها وهي كالوصف وقال: «نخل خاوية» و «نخل منقعر» فحيث قال: «منقعر» كان المختار ذلك، لأن المنقعر في حقيقة الأمر كالمفعول؛ لأنه ورد عليه القعر، فهو مقعور، و «الخاوي والباسق» فاعل وإخلاء المفعول من علامة التأنيث أولى، تقول: امرأة قتيل.

وأما الباسقات فهي فاعلات حقيقة، لأن البسوق اسم قام بها، وأما الخاوية فهو من باب «حسن الوجه» ؛ لأن الخاوي موضعها فكأنه قال: نخل خاوية المواضع، وهذا غاية الإعجاز حيث أتى بلفظ مناسب للألفاظ السابقة واللاحقة من حيث اللفظ.

قوله: {فكيف كان عذابي ونذر} قال أكثر المفسرين:

إن «النذر» ههنا جمع «نذير» الذي هو مصدر بمعنى الإنذار فما الحكمة في توحيد العذاب حيث لم يقال: فكيف أنواع عذابي وقال: إنذاري؟! .

قال ابن الخطيب: هذا إشارة إلى غلبة الرحمة، لأن الإنذار إشفاق ورحمة فقال:." (١)

"الصريحة. ويجاب: بأن «منا» حينئذ ليس وصفا بل حال من «واحدا» قدم عليه.

والثاني: أنه نصب على الحال من هاء «نتبعه» . وهو يخلص من الإعراب المتقدم، إلا أن المرجع لكونه صفة قراءتهما مرفوعين: {أبشرا منا واحدا نتبعه} على ما سيأتي، فهذا يرجح كون «واحدا» نعتا «لبشر» لا حالا.

وقرأ أبو السمال فيما نقل الهذلي والداني برفعهما على الابتداء، و «واحد» صفته و «نتبعه» خبره.

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٢٥٨/١٨

وقرأ أبو السمال أيضا فيما نقل ابن خالويه، وأبو الفضل وابن عطية: برفع «بشر» ونصب «واحدا» وفيه أوجه:

أحدها: أن يكون «أبشر» مبتدأ وخبره مضمر تقديره: أبشر منا يبعث إلينا أو يرسل. وأما انتصاب «واحدا» ففيه وجهان:

أحدهما: أنه حال من الضمير المستتر في (منا) لأنه وقع نعتا.

الثاني: أنه حال من هاء «نتبعه» . وهذا كرهه تخريج أبي الفضل الرازي.

والثاني: أنه مرفوع بالابتداء أيضا، والخبر «نتبعه» و «واحدا» حال على الوجهين المذكورين آنفا.

الثالث: أنه مرفوع بفعل مضمر مبني للمفعول تقديره: أينبأ بشر، و (منا) نعت و (واحدا) حال أيضا على الوجهين المذكورين آنفا.

وإليه ذهب ابن عطية.

فصل

قال ابن الخطيب: والحكمة في تأخير الفعل في الظاهر أن البليغ يقدم في الكلام ما يكون تعلق غرضه به أكثر والقوم كانوا يريدون بيان كونهم محقين في ترك الاتباع، فلو." (١)

"أحدهما: بيان أنه لا حاجة إلى تكرير القول إشارة إلى نفاذ القول.

ثانيهما: بيان عدم اختلاف الحال فأمره عند خلق العرش العظيم كأمره عند خلق النملة الصغيرة فأمره عند الكل واحد. وقوله: «كلمح بالبصر» تشبيه للكون لا تشبيه الأمر، فكأنه قال: أمرنا واحدة، فإذا المأمور كائن كلمح بالبصر، لأنه لو كان راجعا إلى الأمر لا يكون ذلك صفة مدح يليق به، فإن كلمة «كن» شيء أيضا يوجد كلمح بالبصر. ومعنى «كلمح بالبصر» أي كنظر العين. والباء للاستعانة مثل: كتبت بالقلم، دخلت على الآلة ومثل بها؛ لأنها أسرع حركة في الإنسان؛ لأن العين وجد فيها قرب المحرك منها، ولا يفضل عليه بخلاف العظام، واستدارة شكلها، فإن دحرجة الكرة أسرع من دحرجة المثلث والمربع، ولأنها في رطوبة مخلوقة في العضو الذي هو موضعها، وهو الحكمة في كثرة المرئيات بخلاف المأكولات والمسموعات والمفاصل التي تفصل بالأرجل والمذوقات فلولا سرعة حركة الآلة التي بها إدراك المبصرات لما وصل إلى الكل إلا بعد طول بيان.

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٢٦٠/١٨

وقيل: معنى: «كلمح بالبصر» البرق يمر به سريعا، فالباء تكون للإلصاق، نحو: مررت به، وفي قوله: «كلمح بالبصر» ولم يقل: كلمح البرق فائدة، وهي أن لمح البرق له مبدأ ونهاية فالذي يمر بالبصر منه يكون أدل من جملته مبالغة في القلة، ونهاية السرعة.

قوله تعالى: {ولقد أهلكنآ أشياعكم} أي أشباهكم ونظراءكم في الكفر من الأمم السابقة.

وقيل: أتباعكم وأعوانكم.

{فهل من مدكر} ، أي يتذكر ويعلم أن ذلك حق فيخاف ويعتبر.

(قوله) {وكل شيء فعلوه في الزبر} أي جميع ما فعلته الأمم قبلهم من خير وشر فإنه مكتوب عليهم أي في كتب الحفظة. وقيل: في اللوح المحفوظ.

وقيل: في أم الكتاب. قال القرطبي: وهذا بيان لقوله: {إنا كل شيء خلقناه بقدر} أي «في الزبر» أي في اللوح المحفوظ.

قوله: {وكل صغير وكبير مستطر} أي كل صغير وكبير مكتوب على عامله قبل أن يفعلوه.

وقرأ العامة مستطر بتخفيف الراء من السطر وهو الكتب أي مكتتب يقال: سطرت واستطرت وكتبت واكتتبت وقرأ الأعمش وعمران بن حدير – وتروى عن عاصم – بتشديدها، وفيه وجهان:." (١)

"وفي حديث النبي صلى الله عليه وسلم «أنه لما بايع الأنصار ليلة» العقبة «، صاح الشيطان: يا أهل الجباجب هذا مذمم يبايع بني» قيلة «على حربكم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم :» هذا أزب العقبة، أما والله لأتفرغن لك «

أي: أقصد إلى إبطال أمرك.

وهذا اختيار القتبي والكسائي وغيرهما.

قال ابن الأثير: الأزب في اللغة: الكثير الشعر، وهو هاهنا شيطان اسمه «أزب العقبة» وهو الحية.

وقيل: إن الله – تعالى – وعد على التقوى، وأوعد على الفجور، ثم قال: {سنفرغ لكم} أي: مما وعدناكم، ونوصل كلا إلى ما وعدناه، أقسم ذلك وأتفرغ منه. قاله الحسن، ومقاتل، وابن زيد.

قوله تعالى: {أيه الثقلان} . تقدم الكلام في قراءة «أيها» في «النور» [النور: ٣١] وهو منادى، والحكمة في نداء المبهم هي تنبيه كل سامع، ثم يخصص المقصود بعد ذلك، فيكون فيه اهتمام بالمنادى.

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ١٨/٢٨٥

وأيضا يجعل المبهم وصلة لنداء المعرف باللام، وزيد معه هاء التي للتنبيه عوضا عن الإضافة؛ لأن المبهم يضاف.

و «الثقلان» الجن والإنس، سميا بذلك لعظم شأنهما بالإضافة إلى ما في الأرض من غيرهما بسبب التكليف.

وقيل: سموا بذلك؛ لأنهما ثقلا الأرض أحياء وأمواتا.

قال تعالى: {وأخرجت الأرض أثقالها} [الزلزلة: ٢] .

ومنه قولهم: أعطه ثقله أي وزنه.

وقال بعض أهل المعاني: كل شيء له قدر ووزن ينافس فيه فهو ثقل، ومنه قيل لبيض النعام: ثقل، لأن واجده وصائده يفرح به إذا ظفر به.

وقال جعفر الصادق: سميا ثقلين؛ لأنهم مثقلان بالذنوب.

وقيل: الثقل الإنس لشرفهم، وسمي الجن بذلك مجازا للمجاورة والتغليب كالعمرين والقمرين والثقل: العظيم الشريف.

قال عليه الصلاة والسلام : «إني تارك فيكم ثقلين: كتاب الله وعترتي» .." (١)

"فصل في سبب التثنية بعد الجمع

جمع في قوله تعالى: {سنفرغ لكم} ثم قال: {أيه الثقلان} ؛ لأنهما فريقان، وكل فريق جمع، وهذا كقوله تعالى: {يامعشر الجن والإنس إن استطعتم} ، ولم يقل «إن استطعتما» ؛ لأنهما فريقان في حال الجمع، كقوله تعالى: {فإذا هم فريقان يختصمون} [النمل: ٤٥] .

وقوله تعالى: {هذان خصمان اختصموا في ربهم} [الحج: ١٩] ، ولو قال: سنفرغ لكما، أو قال: استطعتما، لجاز.

وقرأ أهل «الشام» : «أيه الثقلان» بضم الهاء، والباقون: بفتحها.

فصل في أن الجن مكلفون

هذه الآيات التي في «الأحقاف» ، و {قل أوحي} [الجن: ١] دليل على أن الجن مخاطبون مكلفون مأمورون منهيون مثابون معاقبون كالإنس سواء، مؤمنهم كمؤمنهم، وكافرهم ككافرهم.

---

(١) اللباب في ع‍لوم الكتاب ابن عادل ٣٢٩/١٨

قوله تعالى: {يامعشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا} [الرحمن: ٣٣] الآية. لما بين أن الله تعالى لا يشغله شأن عن شأن، كأن قائلا قال: فلم أخر عذابهم؟ .

فأجيب: بأن الجميع في قبضته، وأن الذي يستعجل إنما يخاف الفوت، والجميع في قبضة الله – تعالى – فلا يفوتونه.

و «المعشر» : الجماعة العظيمة؛ لأن المعشر هو العدد الكامل الكثير الذي لا عدد بعده إلا بابتداء فيه حيث يعيد الآحاد، تقول: أحد عشر، واثنا عشر وعشرون، وثلاثون، أي ثلاث عشرات، فالمعشر كأنه في محل العشر الذي هو الكثرة الكاملة.

فإن قيل: ما الحكمة في تقديم الجن على الإنس هاهنا، وتقديم الإنس على الجن في قوله تعالى: {قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن} [الإسراء: ٨٨] ؟ .

فالجواب: أن النفوذ من أقطار السموات والأرض بالجن أليق إن أمكن، والإتيان." (١)

"وقال الحسن والربيع: «أصحاب الميمنة» الميامين على أنفسهم بالأعمال الصالحة، وأصحاب المشأمة: المشائيم على أنفهسم بالأعمال السيئة.

وفي صحيح مسلم من حديث «الإسراء» عن أبي ذر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «فلما علونا السماء الدنيا، فإذا رجل عن يمينه أسودة، وعن يساره أسودة، قال فإذا نظر قبل يمينه ضحك، وإذا نظر قبل شماله بكى، قال: فقال: مرحبا بالنبي الصالح والابن الصالح، قال: فقلت: يا جبريل من هذا؟ .

قال: هذا آدم – عليه الصلاة والسلام – وهذه الأسودة عن يمينه وعن شماله بنوه فأهل اليمين أهل الجنة، والأسودة التي عن شماله أهل النار» وذكر الحديث.

وقال المبرد: «أصحاب الميمنة» أصحاب التقدم، وأصحاب المشأمة أصحاب التأخر والعرب تقول: اجعلني في يمينك ولا تجعلنِي في شمالك أي: اجعلني من المتقدمين ولا تجعلني من المتأخرين.

ثم عجب نبيه صلى الله عليه وسلم فقال: {مآ أصحاب الميمنة} وهذا كما يقال: «زيد ما زيد» ، يريد «زيد شديد» فالتكرير في {مآ أصحاب الميمنة} ، و {مآ أصحاب المشأمة} للتفخيم والتعجب، كقوله: {الحاقة ما الحآقة} [الحاقة: ١، ٢] ، و {القارعة ما القارعة} [القارعة: ١، ٢] كما يقال: «زيد ما زيد» .

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٣٣٠/١٨

وفي حديث أم زرع رضي الله عنها: «مالك، وما مالك؟» .

والمقصود: تكثير ما لأصحاب الميمنة في الثواب، وأصحاب المشأمة من العقاب.

والفاء في قوله: «فأصحاب» تدل على التقسيم، وبيان ما ورد عليه التقسيم، كأنه قال: أزواجا ثلاثة: أصحاب الميمنة، وأصحاب المشأمة، والسابقون، وبين حال كل قسم فقال: {مآ أصحاب الميمنة} وترك التقسيم أولا، واكتفى بما يدل عليه بأن تذكر الأقسام الثلاثة مع أحوالها.

فإن قيل: ما الحكمة في اختيار لفظ «المشأمة» في مقابلة «الميمنة» مع أنه قال في بيان أحوالهم {وأصحاب الشمال مآ أصحاب الشمال} ؟ [الواقعة: ٤١] .

فالجواب: أن اليمين وضع للجانب المعروف، واستعملوا منها ألفاظا في مواضع فقالوا: «هذا ميمون» تيمنا به، ووضعوا مقابلة اليمين اليسار من الشيء اليسير إشارة إلى ضعفه، ولفظ الشمال في مقابلته، واستعملوا منه ألفاظا تشاؤما به، فذكر «المشأمة» [."(١)

"قوله تعالى: {وأصحاب اليمين مآ أصحاب اليمين} .

رجع إلى ذكر أصحاب الميمنة، والتكرير لتعظيم شأن النعيم.

فإن قيل: ما الحكمة في ذكرهم بلفظ «أصحاب الميمنة» عند تقسيم الأزواج الثلاثة؟ فلفظ «أصحاب الميمنة» «مفعلة» إما بمعنى موضع اليمين [كالحكمة موضع الحكم، أي: الأرض التي فيها «اليمن» ، وإما بمعنى موضع اليمين] كالمنارة موضع النار، والمجمرة موضع الجمرة، وكيفما كان، فالميمنة فيها دلالة على الموضع، لكن الأزواج الثلاثة في أول الأمر يتميزون بعضهم عن بعض ويتفرقون، لقوله تعالى: {يومئذ يتفرقون} [الروم: ١٤] ، وقال: {يومئذ يصدعون} [الروم: ٤٣] فيتفرقون بالمكان، فأشار إليهم في الأول بلفظ يدل على المكان، ثم عند الثواب وقع تفريقهم بأمر منهم لا بأمر هم فيه وهو المكان، فقال: «وأصحاب اليمين» أي الذين يأخذون كتبهم بأيمانهم.

وقيل: أصحاب القوة.

وقيل: أصحاب النور.

قوله: {في سدر مخضود} .

قال ابن عباس وغيره: {في سدر مخضود} أي: في نبق قد خضد شوكه.

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٣٧٧/١٨

وذكر ابن المبارك قال: أخبرنا صفوان عن سليم بن عامر عن أبي أمامة، قال: كان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يقولون: إنه لينفعنا الأعراب ومسائلهم، قال: «أقبل أعرابي يوما، فقال: يا رسول الله: لقد ذكر الله شجرة في القرآن مؤذية، وما كنت أرى في الجنة شجرة تؤذي صاحبها؟ .." (١)

"فصل في تفسير الآية

قال الحسن، والضحاك، وابن زيد: {يصرون على الحنث العظيم} أي: يقيمون على الشرك.

وقال قتادة ومجاهد: الذنب العظيم الذي لا يتوبون منه.

وقال الشعبي: هو اليمين الغموس، وهي من الكبائر، يقال: حنث في يمينه، أي: لم يبرها ورجع فيها، وكانوا يقسمون أن لا بعث، وأن الأصنام أنداد الله فذلك حنثهم.

فصل في الحكمة من ذكر عذاب هذه الطائفة

قال ابن الخطيب: والحكمة في ذكره سبب عذابهم، ولم يذكر في أصحاب اليمين سبب ثوابهم، فلم يقل: إنهم كانوا قبل ذلك شاكرين مذعنين، وذلك تنبيه على أن ذلك الثواب منه فضل، والعقاب منه عدل، والفضل سواء ذكر سببه، أو لم يذكره لا يتوهم بالمتفضل نقص وظلم.

وأما العدل إن لم يعلم سبب العقاب، يظن أن هناك ظلما، ويدل على أنه تعالى لم يقل في أصحاب اليمين: {جزآء بما كانوا يعملون} [الواقعة: ٢٤] كما قاله في السابقين؛ لأن أصحاب اليمين نجوا بالفضل العظيم لا بالعمل، بخلاف من كثرت حسناته يحسن إطلاق الجزاء في حقه.

واعلم أن المترف هو المنعم، وذلك لا يوجب ذما، وإنما حصل لهم الذم بقوله: {وكانوا يصرون على الحنث العظيم} ، فإن صدور المعاصي ممن كثرت النعم عليه [من] أقبح القبائح، فقال: {إنهم كانوا قبل ذلك مترفين} ، ولم يشكروا نعم الله، بل أصروا على الذنب العظيم.

وفي الآية مبالغة؛ لأن قوله: {وكانوا يصرون} يقتضي أن ذلك عادتهم، والإصرار على مداومة المعصية والحنث أبلغ من الذنب؛ لأن الذنب يطلق على الصغيرة، ويدل على ذلك قولهم: «بلغ الحنث» أي: بلغ مبلغا تلحقه فيه الكبيرة.

وأما الصغيرة فتلحق الصغير، فإن وليه يعاقبه على إساءة الأدب، وترك الصلاة، ولأن وصفه بالعظيم مبالغة.

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٣٩٥/١٨

قاله ابن الخطيب.

قوله تعالى: {وكانوا يقولون أإذا متنا} الآية.." (١)

"أحدهما: أنه معطوف على موضع «نجوى» لأنه مرفوع، و «من» مزيدة، فإن كان مصدرا كان على حذف مضاف كما تقدم، أي: من ذوي نجوى، وإن كان بمعنى متناجين، فلا حاجة إلى ذلك.

الثاني: «أدنى» مبتدأ، و {إلا هو معهم} خبره، فيكون «ولا أكثر» عطفا على المبتدأ، وحينئذ يكون «ولا أدنى» من باب عطف الجمل لا المفردات.

وقرأ الحسن ويعقوب أيضا ومجاهد والخليل: «ولا أكبر» بالباء الموحدة والرفع على ما تقدم.

وزيد بن علي: «ينبيهم» - بسكون النون - من أنبأ إلا أنه حذف الهمزة وكسر الهاء.

وقرىء كذلك إلا أنه بإثبات الهمزة وضم الهاء، والعامة بالتشديد من «نبأ» .

فصل في النجوى

«النجوى» : التناجي، وهو السرار وهو مصدر يوصف به، يقال: قوم نجوى، وذوو نجوى.

قال تعالى: {وإذ هم نجوى} [الإسراء: ٤٧] .

قال الزجاج: «النجوى» مشتقة من النجوة وهي ما ارتفع وتنجى، فالكلام المذكور سرا، لما خلا عن استماع الغير صار كالأرض المرتفعة، فإنها لارتفاعها خلت عن اتصال الغير، والسرار ما كان بين اثنين.

قوله: {إلا هو رابعهم} أي: يعلم، ويسمع نجواهم بدليل افتتاح الآية بالعلم.

فإن قلت: ما **الحكمة في** ذكره - سبحانه وتعالى - الثلاثة والخمسة، وأهمل الأربعة؟ .

فالجواب من وجوه:

الأول: أن ذلك إشارة إلى كمال الرحمة؛ لأن الثلاثة إذا اجتمعوا، فإذا تناجى اثنان." (٢)

"[مدنية] في قول الأكثرين. وذكر النحاس [عن ابن عباس] : أنها مكية، وهي أربع عشرة آية ومئتان وإحدى وعشرون كلمة وتسعمائة حرف. بسم الله الرحمن الرحيم قال ابن الخطيب: وجه تعلق هذه السورة بما قبلها، هو أن في السورة التي قبلها، بين الخروج إلى الجهاد في سبيل الله، وابتغاء مرضاته بقوله: {إن كنتم خرجتم جهادا في سبيلي وابتغآء مرضاتي} [الممتحنة: ١] ، وفي هذه السورة بين ما يحمل المؤمن،

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٤٠٨/١٨

(٢) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٥٣٤/١٨

ويحثه على الجهاد، فقال: {إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص} [الصف: ٣] .

فإن قيل: ما الحكمة في أنه – تعالى – قال في بعض السور: «سبح لله» بلفظ الماضي، وفي بعضها: «يسبح» بلفظ المضارع، وفي بعضها بلفظ الأمر؟ .

فالجواب: أن الحكم في ذلك تعليم العبد، أن تسبيح الله تعالى دائم لا ينقطع، كما أن الماضي يدل عليه في الماضي من الزمان، والمستقبل يدل عليه في المستقبل من الزمان والأمر يدل عليه في الحال.

و «العزيز» : هو الغالب على غيره أي شيء كان ذلك الغير، ولا يمكن أن [يحكم] عليه غيره، و «الحكيم» : هو الذي يحكم على غيره، أي شيء كان ذلك الغير.

فإن قيل: هلا قيل: سبح لله ما في السماوات وما في الأرض وما فيهما وهو أكثر مبالغة؟ فالجواب: إنما يكون كذلك، إذا كان المراد التسبيح بلسان الحال، أما إذا كان المراد من التسبيح المخصوص باللسان فالبعض بوصف معين، فلا يكون كذلك.." (١)

"قوله: {بئس مثل القوم} فيه أوجه:

أحدها: وهو المشهور أن «مثل القوم» فاعل «بئس» والمخصوص [بالذم الموصول بعده، وهذا مشكل؛ لأنه لا بد من تصادق فاعل «نعم وبئس» والمخصوص هنا: «المثل» ليس بالقوم المكذبين]

والجواب: أنه على حذف مضاف، أي: بئس مثل القوم مثل الذين كذبوا.

الثاني: أن «الذين» صفة للقوم فيكون مجرور المحل، والمخصوص بالذم محذوف لفهم المعنى، تقديره: بئس مثل القوم المكذبين مثل هؤلاء، وهو قريب من الأول.

الثالث: أن الفاعل محذوف، وأن «مثل القوم» هو المخصوص بالذم، وتقديره: بئس المثل مثل القوم، ويكون الموصول نعتا للقوم أيضا، وإليه ينحو كلام ابن عطية فإنه قال: والتقدير {بئس المثل مثل القوم} . وهذا فاسد: لأنه لا يحذف الفاعل عند البصريين إلا في مواضع ثلاثة ليس هذا منها، اللهم إلا أن يقول بقول الكوفيين.

الرابع: أن يكون التمييز محذوفا، والفاعل المفسر به مستتر، تقديره: «بئس مثلا مثل القوم» وإليه ينحو كلام الزمخشري فإنه قال: «بئس مثلا مثل القوم» .

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٤٣/١٩

فيكون الفاعل مستترا مفسرا ب «مثلا» ، و «مثل القوم» هو المخصوص بالذم، والموصول صفة له، وحذف التمييز، وهذا لا يجيزه سيبويه وأصحابه ألبتة.

نصوا على امتناع حذف التمييز، وكيف يحذف وهو مبين.

فصل

قال ابن الخطيب: فإن قيل: ما الحكمة في تعيين الحمار من دون سائر الحيوانات؟ .

فالجواب من وجوه:

أحدها: أنه تعالى خلق الخيل والبغال والحمير للركوب والزينة، كما قال تعالى: {والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة} [النحل: ٨٧] ، والزينة في الخيل أظهر وأكثر بالنسبة إلى الركوب والحمل عليه، وفي البغال دون الخيل، وفي الحمير دون البغال، فالحمار كالمتوسط في المعاني الثلاثة، وحينئذ يكون الحمار في معنى الحمل أظهر." (١)

"فصل في ختم الآية ب «لا يفقهون»

قال ابن الخطيب: فإن قيل: ما الحكمة في أنه تعالى ختم الآية الأولى بقوله: «لا يفقهون» وختم الثانية بقوله: «لا يعلمون» ؟ .

فالجواب: ليعلم بالأولى قلة كياستهم وفهمهم، وبالثانية حماقتهم وجهلهم، ولا يفقهون من فقه يفقه، كعلم يعلم، أو من فقه يفقه، كعظم يعظم، فالأول لحصول الفقه بالتكلف، والثاني لا بالتكلف، فالأول علاجي، والثاني مزاجي.

قوله

تعالى

: {يا

أيها

الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله} .

حذر المؤمنين أخلاق المنافقين، أي: لا تشتغلوا بأموالكم كما فعل المنافقون إذ قالوا – لأجل الشح بأموالهم –: {لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا} .

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٧٥/١٩

وقوله: {عن ذكر الله} .

أي: عن الحج والزكاة.

وقيل: عن قراءة القرآن.

وقيل: عن إدامة الذكر.

وقال الضحاك: عن الصلوات الخمس.

وقال الحسن: عن جميع الفرائض، كأنه قال: عن طاعة الله.

وقيل: هذا خطاب للمنافقين، أي: آمنتم بالقول فآمنوا بالقلب، {ومن يفعل ذلك} يشتغل بالمال والولد عن طاعة ربه {فأولئك هم الخاسرون} .

قوله: {وأنفقوا من ما رزقناكم} .

قال ابن عباس: يريد زكاة الأموال.." (١)

"فإن قيل: ما الحكمة في قوله تعالى: {وبئس المصير} بعد قوله: {خالدين فيهآ} وذلك بئس المصير؟ .

والجواب: أن ذلك وإن كان في معناه فلا بد من التصريح [بما] يؤكده.

فصل." (٢)

"الزوجات داخلة فيه بالإلحاق، لأن الزوج يحصي ليراجع، وينفق أو يقطع، وليسكن أو يخرج، وليلحق نسبه أو يقطع، وهذه أمور كلها مشتركة بينه وبين المرأة، وتنفرد المرأة دونه بغير ذلك وكذلك الحاكم يفتقر إلى إحصاء العدة للفتوى عليها، وفصل الخصومة عند المنازعة، وهذه فوائد الأمر بإحصاء العدة.

قوله: {واتقوا الله ربكم} . أي: لا تعصوه.

{لا تخرجوهن من بيوتهن} . أي: ليس للزوج أن يخرجها من مسكن النكاح ما دامت في العدة، ولا يجوز لها الخروج أيضا لحق الزوج إلا لضرورة ظاهرة، فإن خرجت أثمت، ولا تنقطع العدة.

فإن قيل: ما الحكمة في قوله تعالى: {واتقوا الله ربكم} ولم يقتصر على قوله {واتقوا الله} ؟ .

فالجواب: إن في هذا من المبالغة ما ليس في ذاك، فإن لفظ الرب يفهم منه التربية، وينبه على كثرة الإنعام

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ١١٧/١٩

(٢) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ١٣٣/١٩

بوجوه كثيرة، فيبالغون في التقوى حينئذ خوفا من فوت تلك التربية.

فصل في الرجعية والمبتوتة.

والرجعية والمبتوتة في هذا سواء، وذلك لصيانة ماء الرجل، وهذا معنى إضافة البيوت إليهن، كقوله تعالى: {واذكرن ما يتلى في بيوتكن} [الأحزاب: ٢٤] ، وقوله تعالى: {وقرن في بيوتكن} [الأحزاب: ٣٣] فهو إضافة إسكان لا إضافة تمليك، وقوله {لا تخرجوهن} يقتضي أن يكون حقا على الأزواج، وقوله: {ولا يخرجن} يقتضي أنه حق على الزوجات، فلا يجوز لها أن تخرج ما لم تنقض عدتها، فإن خرجت لغير ضرورة أو حاجة أثمت، فإن وقعت ضرورة أو خافت هدما أو غرقا، فلها أن تخرج إلى منزل آخر، وكذلك إن كانت لها حاجة من بيع غزل أو شراء قطن، فيجوز لها الخروج نهارا ولا يجوز ليلا؛ فإن رجالا استشهدوا ب «أحد» ، فقالت نساؤهم: نستوحش في بيوتنا فإذن لهن النبي صلى الله عليه وسلم أن يتحدثن عند إحداهن، فإذا كان وقت الليل تأوي كل امرأة إلى بيتها.

وأذن النبي صلى الله عليه وسلم لخالة جابر لما طلقها زوجها أن تخرج لجداد نخلها.

وإذا لزمتها العدة في السفر تعتد ذاهبة وجائية، والبدوية تنتوي حيث ينتوي أهلها في العدة، لأن الانتقال في حقهم كالإقامة في حق المقيم.." (١)

"فأدخل يده فيه، فلقد رأيت الماء يتفجر من بين أصابعه، ويقول: «حي على الطهور» .

قال الأعمش: حدثني سالم بن أبي الجعدن قال: قلت لجابر: كم كنتم يومئذ؟

قال: ألفا وخمسمائة. لفظ النسائي.

فصل في وجوه الإعجاز في انفجار الحجر

والحكمة في جعل الماء اثنتي عشرة عينا قطع التنازع والتشاجر بينهم، وهذا الانفجار يدل على الإعجاز من وجوه.

أحدها: أن نفس ظهور الماء معجزة.

وثانيها: خروج الماء العظيم من الحجر الصغير.

وثالثها: خروج الماء بقدر حاجتهم.

ورابعها: خروج الماء عند الضرب بالعصا.

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ١٩/١٥٠

وخامسها: خروج الماء بالضرب بعصا معينة.

وسادسها: انقطاع الماء عند الاستغناء عنه، فهذه الوجوه لا يمكن تحصيلها إلا بقدرة تامة في كل الممكنات، وعلم نافذ في جميع المعلومات.

قوله: {كلوا واشربوا} هاتان الجمليتان في محل نصب بقول مضمر تقديره: وقلنا لهم: كلوا واشربوا. وقد تقدم تصريف «كل» وما حذف منه.

قوله: {من رزق الله} هذه من باب الإعمال؛ لأن كل واحد من الفعلين يصح تسلطه عليه، وهو من باب إعمال الثاني للحذف من الأول. والتقدير: كلوا منه.

و «من» يجوز أن تكون لابتداء الغاية، وأن تكون للتبعيض، ويجوز أن يكون مفعول الأكل محذوفا، وكذلك مفعول الشرب؛ للدلالة [عليهما] ، والتقدير: كلوا المن والسلوى لتقدمهما في قوله: {وأنزلنا عليكم المن والسلوى} [البقرة: ٥٧] ، واشربوا ماء العيون المتفجرة. وعلى هذا فالجار والمجرور يحتمل تعلقه بالفعل قبله، ويحتمل أن يكون حالا من ذلك المفعول المحذوف، فيتعلق بمحذوفة.

وقيل: المراد بالرزق الماء وحدهن ونسب الأكل إليه لما كان سببا في نماء ما يؤكل وحياته، فهو رزق يؤكل منه ويشرب. والمراد بالزرق المرزوق، وهو يحتمل أن يكون من باب «ذبح ورعي» ، وأن يكون من باب «درهم ضرب الأمير» وقد تقدم بيانه.

فإن قيل: قوله: {من رزق الله} يفهم منه أن ثم رزقا ليس لله، وذلك باطل.." (١)

"أسباب الدنيا، أو في أمور الآخرة، فكأنه سبحانه وعدهم في الآخرة بالأجر، ثم بين صفة ذلك الأجر أن يكون خاليا من الخوف والحزن، وذلك يوجب أن يكون نعيمهم دائما؛ لأنهم لو جوزوا كونه منقطعا لاعتراهم الخوف العظيم.

فإن قيل: فما الحكمة في قوله تعالى هاهنا: «الصابئين» منصوبة، وفي «المائدة» : {والصابئون} [المائدة: ٦٩] مرفوعة. وقال في الحج: {والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا} [الحج: ١٧] فقدم «الصابئين» على «النصارى» في آية، وأخر «الصائبين» في الأخرى، فهل في ذلك حكمة ظاهرة.

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ١١١/٢

قال ابن الخطيب: إن أدركنا تلك الحكم فقد فزنا بالكمال، وإن عجزنا أحلنا القصور على أفهامنا لا على كلام الحكيم.." (١)

"وصنف انتهكوا الحرمة فلما أبوا قبول النصح قال الناهون: والله لا ننساكم فقسموا القرية بجدار، ومكثوا على ذلك سنين، فلعنهم داود عليه الصلاة والسلام وغضب الله عز وجل عليهم لإصرارهم على المعصية، فخرج الناهون ذات يوم من بابهم، والمجرمون لم يفتحوا بابهم، ولم يخرج منهم أحد فلما أبطئوا تسوروا عليهم الحائط، فإذا هم جميعا قدرة خاسئين.

فإن قيل: إذا كانوا قد نهوا عن الاصطياد يوم السبت، فما **الحكمة في** أن أكثر الحيتان يوم السبت دون سائر الأيام؟

فالجواب: أما على مذهب أهل السنة فإرادة الإضلال جائزة من لله تعالى.

وأما على مذهب المعتزلة، فالتشديد في التكاليف حسن لغرض ازياد الثواب.

و «قردة خاسئين» يجوز فيه أربعة أوجه:

أحدها: أن يكونا خبرين، قال الزمخشري: «أي: كونوا جامعين بين القردية والخسوء» .

وهذا التقدير منه بناء على أن الخبر لا يتعدد، فلذلك قدرهما بمعنى خبر واحد من باب: «هذا حلو حامض» وقد تقدم القول فيه.

والثاني: إن يكون «خاسئين» نعتا ل «قردة» قاله أبو البقاء. وفيه نظر من حيث إن القردة غير عقلاء، وهذا جمع العقلاء.

فإن قيل: المخاطبون عقلاء؟ فالجواب: أن ذلك لا يفيد؛ لأن التقدير عندكم حينئذ: كونوا مثل قدرة من صفتهم الخسوء، ولا تعلق للمخاطبين بذلك، إلا أنه يمكن أن يقال: إنهم مشبهون بالعقلاء كقوله: {لي ساجدين} [يوسف: ٤] و {أتينا طآئعين} [فصلت: ١١] .

والثالث: أن يكون حالا من اسم «كونوا» ، والعامل فيه «كونوا» ، وهذا عند من يجيز ل «كان» أن تعمل في الظروف [والأحوال] وفيه خلاف سيأتي تحقيقه إن شاء الله تعالى عند قوله: {أكان للناس عجبا} [يونس: ٢] .

الرابع: وهو الأجود أن يكون حالا من الضمير المستكن في «قردة» ؛ لأنه في معنى المشتق أي: كونوا

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ١٣٨/٢

ممسوخين في هذه الحال.

وجمع «فعل» على «فعلة» قليل لا ينقاس.

ومادة «القرد» تدل على اللصوق والسكون، تقول: قرد بمكان كذا: لصق به وسكن، ومنه: الصوف «القرد» أي: المتداخل، ومنه أيضا: «القراد» هذا الحيوان المعروف ويقال: «خسأته فخسا، فالمتعدي والقاصر سواء نحو: زاد وغاض وقيل: خسأته فخسىء وانسخا، والمصدر» الخسوء «و» الخسء «..." (١)

"وأجاز أبو القاء أن يكو بمعنى واحد، فتكون همزته بدلا من الواو.

فصل فيمن قال بأنهما ليسا من الملائكة

القائلون بأنهما ليسا من الملائكة احتجوا بأن الملائكة عليهم السلام لا يليق بهم تعليم السحر، وقالوا: كيف يجوز إنزال الملكين مع قوله: {ولو أنزلنا ملكا لقضي الأمر} [الأنعام: ٨] .

وأيضا لو أنزل الملكين، فإما أن يجعلهما فى صورة الرجلين، أو لا يجعلهما كذلك، فإن جعلهما في صورة الرجلين مع أنهما ليسا برجلين كان ذلك تجهيلا وتلبيسا على الناس وهو لا يجوز، ولو جاز ذلك فلم لا يجوز أن كل واحد من الناس الذي تشاهدهم أنه لا يكون الحقيقة إنسانا، بل يكون ملكا ن الملائكةن؟ وإن لم يجعلهما في صورة الرجلين قدح ذلك في قوله تعالى: {ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا} [الأنعام: ٩] .

وأجاب القائلون بأنهما من الملائكة عن الأول بأنا سنبين وجه الحكمة في إنزال [الملكين] لتعليم السحر وعن الثاني: بأن هذه الآية عامة، [وقراءة الملكين بفتح اللام متواتورة وتلك] خاصة والخاص مقدم على العام.

وعن الثالث: أن الله تعالى أنزلهما في صورة رجلين، كان الواجب على الملكين في زمان الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أن يقطعوا على من صروته صورة الإنسان بكونه إنسانا، كما أنه في زمان الرسول عليه الصلاة والسلام كانالواجب على من شاهد حية الكلبي ألا يقطع بكونه من البشر، بل الواجب التوقف فيه.

فصل في فساد رواية الزهرة

رووا قصة الزهرة وما جرى لها الملكين.

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ١٤٩/٢

ولهم في الزهرة قولان:
أحدهما: أنها الكوكب المعروف.
والثاني: أنها من بنات آدم ومسخت إلى هذا الكوكب.
وقيل: مسخت بها.
قال ابن الخطيب: وهذه الرواية فاسدة مردودة؛ لأنه ليس في كتاب الله تعالى مايدل عليها، بل فيه ما يبطلها من وجوه:
الأول: الدلائل الدالة على عصمة الملائكة عليهم السلام من كل المعاصي.
الثاني: أن قولهم: إنهما خيرا بين عذاب الدنيا، وبين عذاب الآخرة فاسد، بل كان." (١)
"قوله: {حتى يقولا إنما نحن فتنة} .
«حتى» : حرف غاية ونصب، وهي هنا بمعنى «إلى» ، والفعل بعدها منصوب بإضمار «أن» ولا يجوز إظهارها، وعلامة النصب حذف النوت، والتقدير: إلى أن يقولا وهي متعلقة بقوله: «وما يعلمان» ، والمعنى أنه ينتفي تعليمهما أو إعلامهما على ما مضى من الخلاف إلى هذه الغاية، وهي قولهم: {إنما نحن فتنة فلا تكفر} .
وأجاز أبو البقاء رحمه الله أن تكون «حتى» بمعنى «إلا» قال: والمعنى: وما يعلمان من أحد إلا أن يقولا وهذا الذي أجاز لا يعرف عن أكثر المتقدمين، وإنما قاله ابن مالك؛ وأنشد: [الكامل]
٧١٠ - ليس العطاء من الفضول سماحة ... حتى تجود وما لديك قليل
قال: تقديره: إلا أن تجود.
و «حتى» تكون حرف جر بمعنى «إلى» كهذه الآية، وكقوله: {حتى مطلع الفجر} [القدر: ٥] ، وتكون حرف عطف، وتكون حرف ابتداء فتقع بعدها الجمل؛ كقوله: [الطويل]
٧١١ - فما زالت القتلى تمج دماءها ... بدجلة حتى ماء دجلة أشكل
والغاية معنى لا يفارقها في هذه الأحوال الثلاثة، فلذلك لا يكون ما بعدها إلا غاية لما قبلها: إما في القوة، أو الضعف، أو غيرهما، ولها أحكام أخر ستأتي إن شاء الله تعالى.
و «إنما» مكفوفة ب «ما» الزائدة، فلذلك وقع بعدها الجملة، وقد تقدم أن بعضهم يجيز إعمالها، والجملة

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٣٤٤/٢

في محل نصب بالقول، وكذلك: «فلا تكفر» .

فصل في المراد بالفتننة

المراد هاهنا بالفتنة المحنة التي بها يتيمز المطيع عن العاصي، كقولهم: فتنت الذهب بالنار أذا عرض على النار ليتميز الخاص عن المشوب، وقد بينا **الحكمة في** بعثة الملكين لتعليم السحر.

فالمراد أنهما لا يعلمان أحدا السحر ولا يصفانه عن المشوب، وقد بينا **الحكمة في** بعثة الملكين لتلعيم السحر.

فالمراد أنهما لا يعلمان أحدا السحر ولا يصفانه لأحد، ولا يكشفان له وجوه." (١)

"أنواط، وهي شجرة كانوا يعبدونهان ويعلقون عليها المأكول والمشروب، كما سألوا موسى أن يجعل لهم إلها كما لهم آلهة.

القول الثاني: أنه خطاب لأهل «مكة» ، وهو قول ابن عباس ومجاهد رضي الله تعالى عنهم؛ لأنه يروى أن عبد الله بن أمية المخزومي أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم في رهط من قريش فقال: يا محمد والله ما أومن بك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا، أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء بأن تصعدن ولن نؤمن لرقيك بعد ذلك حتى تنزل علينا كتابا [من عند الله إلى عبد الله بن أمية أن محمدا رسول الله فأتبعوه. وقال له بقية الرهطك فإن لم تستطع ذلك فائتنا بكتاب من] عند الله جملة واحدة فيه الحلال والحرام والحدود والفرائض، كما جاء موسى إلى قومه بالألواح من عند الله فيها كل ذلك، فنؤمن لك عند ذلك.

فأنزل الله تعالى: {أم تريدون أن تسألوا رسولكم} محمدا أن يأتيكم بالآيات من عند الله كما سأل السبعون فقالوا: {نرى الله جهرة} [البقرة: ٥٥] . وعن مجاهد رحمه الله تعالى أن قريشا سألت محمدا عليه الصلاة والسلام أن يجعل لهم الصشفا ذهبا وفضة، فقال: نعم هو لكم كالمائدة لبني إسرائيل فأبوا ورجعوا.

القول الثالث: المراد بهم اليهود، [وهذا القول أصح، لأن هذه السورة من أول قوله] : {يابني إسرائيل اذكروا نعمتي} [البقرة: ٤٧] حكاية ومحاجة معهم؛ ولأن الآية مدنية، ولأنه جرى ذكر اليهود وما جرى ذكر غيرهم.

فصل في سؤالهم

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٣٤٦/٢

[قال ابن الخطيب رحمه الله تعالى: ليس في الآية أنهم أتوا بالسؤال فضلا عن كيفيته، وإنما المرجع فيه إلى الروايات المذكورة.

فإن قيل: إن كان ذلك السؤال طلبا للمعجزة فليس بكفر؛ لأن طلب الدليل على الشيء لا يكون كفرا، وإن كان طلبا لوجه الحكمة في نسخ الأحكام فهذا أيضا لا يكون كفراح لأن الملائكة عليهم السلام طلبوا الحكمة في خلق البشر، ولم يكن ذلك كفرا. والجواب أن يحملأ على أنهم طلبوا أن يجعل لهم إله كما لهم آلهة، أو طلبوا المعجزة على سبيل التعنت، أو اللحاج، فهذا كفر، والسبب هذا السؤال، والله أعلم] ".. (١)

"وقرأ ابن عباس وأبو الشعثاء وأبو حنيفة بالعكس. قالوا: وتأويلها دعا ربه، فسمى دعاءه ابتلاء مجازا؛ لأن في الدعاء طلب استكشاف لما تجري به المقادير.

والضمير المرفوع في «فأتمهن» فيه قولان:

أحدهما: أنه عائد على «ربه» أي: فأكملهن.

والثاني: أنه عائد على «إبراهيم» أي: عمل بهن، ووفى بهن.

وهو إبراهيم بن تارح بن ناحور مولده ب «الشوس» من أرض «الأهواز» .

وقيل: «بابل» ، وقيل: «كولى» وقيل «كسكر» وقيل: «حيران» .

ونقله أبوه إلى «بابل» أرض نمرود بن كنعان، كان له أربع بنين: إسماعيل وإسحاق ومدين ومدائن، ذكره السهيلي.

فصل فيما دلتش عليه السورة

اعلم أنه سبحانه وتعالى لما شرح وجوه نعمه على بني إسرائيل شرح قبائحهم في أديانهم وأعمالهم، وختم هذا الفصل بشرح النعم بقوله: {يابني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم} [البقرة: ١٢٢] بين نوعا آخر من البيان، وهو أن ذكر قصة إبراهيم عليه السلام والحكمة فيه أن إبراهيم عليه السلام معترف بفضله جميع الطوائف، والمشركون أيضا معترفون بفضله متشرفون بأنهم من أولاده، ومن ساكني حرمه، وخادمي بيته، فذكر فضيلته لهم؛ لأنها تدل على قبول محمد صلى الله عليه وسلم من وجوه:

أحدها: أنه تعالى لما أمر ببعض التكاليف، فلما وف لأى بها وخرج لا جرم نال النبوة والإمامة.

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٢/٣٨٩

وثانيها: أنه لما طلب الإمامة لذريته فقال تعالى: {لا ينال عهدي الظالمين} فدل ذلك على أن من أراد هذا المنصب وجب عليه ترك اللجاج والتعصب للباطل.

وثالثها: أن الحج من خصائص دين محمد صلى الله عليه وسلم فحكى الله تعالى ذلك عن." (١)

"فإن قيل: ما الحكمة في عدوله عن قوله:» والله عليم «إلى» وما الله بغافل «.

فالجواب: أن نفي النقائص وسلبها عن صفاتا لله تعالى أكمل من ذكر الصفات مجردة عن ذكر نفي نقيضها، فإن النقيض يستلزم إثبات النقيض وزيادة، والإثبات لا يستلزم نفي النقيض؛ لأن العليم قد يفضل عن النقيض، فلما قال الله تعالى:» وما الله بغافل «دل ذلك على أنه عالم، وعلى أنه غير غافل، وذلك أبلغ في الزجر المقصود من الآية.

فإن قيل: قد قال تعالى في موضع آخر: {والله عليم بما يعملون} [يوسف: ١٩] .

فالجواب: أن ذلك سيق لمجرد الإعلام بالقصة لا للزجر، بخلاف هذه الآية، فإن المقصود بها الزجر والتهديد.." (٢)

"وقال تعالى: {ومآ آتيتم من ربا ليربو في أموال الناس فلا يربو عند الله ومآ آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون} [الروم: ٣٩] ، ولا شك أن التماس الشكر من جنس المن والأذى، إذا عرفت ذلك فنقول: القوم لما قالوا: «إنما نطعمكم لوجه الله» بقي فيه احتمال، أنه أطعمه لوجه الله ولسائر الأغراض على سبيل التشريك، فلا جرم نفى هذا الاحتمال بقوله تعالى: {لا نريد منكم جزآء ولا شكورا} .

فصل في الشكر والكفور

الشكور والكفور: مصدران ك «الشكر والكفر» وهو على وزن «الدخول والخروج» هذا قول جمهور أهل اللغة.

وقال الأخفش: إن شئت جعلت الشكور، جماعة الشكر، وجعلت الكفور في قوله تعالى: {فأبى الظالمون إلا كفورا} مثل «برد وبرود» وإن شئت جعلته مصدرا واحدا في معنى جمع مثل: قعد قعودا، وخرج خروجا.

قوله: {إنا نخاف من ربنا} يحتمل وجهين:

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٤٤٦/٢

(٢) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٥٣٥/٢

أحدهما: إن إحساننا إليكم للخوف من شدة ذلك اليوم لإرادة مكافأتهم.

والثاني: لا نريد منكم المكافأة لخوف عقاب الله تعالى علل المكافأة بخوف عقاب الله على طلب المكافأة بالصدقة.

فإن قيل: إنه - تعالى - لما حكى عنهم الإيفاء بالنذر، علل ذلك بخوف القيامة فقط، ولما حكى عنهم الإطعام علل ذلك بأمرين: بطلب رضا الله تعالى، وبالخوف، فما الحكمة في ذلك؟ .

فالجواب: أن النذر هو الذي أوجبه على نفسه لأجل الله، فلما كان كذلك، لا جرم علله بخوف القيامة فقط، وإما الإطعام فالله - تعالى - هو الذي شرعه، فلا جرم ضم إليه خوف القيامة.

قوله: {يوما عبوسا قمطريرا} . القمطرير: الشديد، وأصله كما قال الزجاج: «مشتق من اقمطرت الناقة إذا رفعت ذنبها، وجمعت قطريها وزمت بأنفها» .

قال الزمخشري: اشتقاقه من القطر، وجعلت الميم زائدة؛ قال أسد بن ناعصة: [الخفيف]

٥٠٣٥ - واصطليت الحروب في كل يوم ... باسل الشر قمطرير الصباح." (١)

"وحكى الفراء: أن مثل هذا يأتي عن العرب، فيكون معنى ما بين الصلب: من الصلب.

والمعنى من صلب الرجل وترائب المرأة، ثم إنا نعلم أن النطفة من جميع أجزاء البدن، ولذلك يشبه الرجل والديه كثيرا، وهذه الحكمة في غسل جميع الجسد من خروج المني، وأيضا فالمكثر من الجماع يجد وجعا في صلبه وظهره، وليس ذلك إلا لخلو صلبه عما كان محتبسا من الماء.

قال المهدوي: من جعل المني يخرج من بين صلب الرجل وترائبه، فالضمير في «يخرج» للماء، ومن جعله من بين صلب الرجل وترائب المرأة، فالضمير للإنسان.

قوله: {إنه} . الضمير للخالق المدلول عليه بقوله تعالى: {خلق} ؛ لأنه معلوم أن لا خالق سواه سبحانه.

قوله: {على رجعه} ، في الهاء وجهان:

أحدهما: أنه ضمير الإنسان أي على بعثه بعد موته، وهو قول ابن عباس وقتادة والحسن وعكرمة، وهو اختيار الطبري، لقوله تعالى: {يوم تبلى السرآئر} .

والثاني: أنه ضمير الماء، أي: يرجع المني في الإحليل أو الصلب.

قاله الضحاك ومجاهد، والأول قول الضحاك أيضا وعكرمة.

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٢٠/٢٥

[وعن الضحاك أيضا أن المعنى أنه رد الإنسان من الكبر إلى الشباب، ومن الشباب إإلى الكبر. حكاه المهدوي.

وفي الماوردي والثعلبي: إلى الصبا ومن الصبا إلى النطفة.

وقال ابن زيد: إنه على حبس ذلك الماء حتى يخرج لقادر.

وقال الماوردي: يحتمل أنه على أن يعيده إلى الدنيا بعثه إلى الآخرة؛ لأن الكفار يسألون فيها الرجعة، والرجع مصدر رجعت الشيء أي: رددته] .." (١)

"فصل

دلت الآية على اللطف باليتيم وبره والإحسان إليه، قال قتادة: كن لليتيم كالأب الرحيم، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «أنا وكافل اليتيم كهاتين، وأشار بالسبابة والوسطى» .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من ضم يتيما فكان في نفقته وكفاه مؤنته، كان له حجابا من النار يوم القيامة» .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : «من مسح برأس يتيم كان له بكل شعرة حسنة» .

فصل

الحكمة في أن الله تعالى اختار لنبيه اليتم، أنه عرف حرارة اليتم، فيرفق باليتيم، وأيضا ليشاركه في الاسم، فيكرمه لأجل ذلك، لقوله – عليه الصلاة والسلام –: «إذا سميتم الولد محمدا فأكرموه ووسعوا له في المجلس» وأيضا ليعتمد من أول عمره على الله تعالى، فيشبه إبراهيم – عليه الصلاة والسلام – في قوله: «حسبي من سؤالي، علمه بحالي» .

وأيضا فالغالب أن اليتيم تظهر عيوبه فلما لم يجدوا فيه عيبا، لم يجدوا فيه مطعنا.

وأيضا جعله يتيما، ليعلم كل أحد فضيلته ابتداء من الله تعالى، لا من التعليم، لأن من له أب فإن أباه يعلمه، ويؤدبه.

وأيضا فاليتم والفقر نقص في العادة، فكونه صلى الله عليه وسلم مع هذين الوصفين من أكرم الخلق كان ذلك قلبا للعادة، فكان معجزة ظاهرة.

قوله تعالى: {وأما السآئل فلا تنهر} ، أي: فلا تزجره، يقال: نهره، وانتهره إذا زجره، وأغلظ له في القول،

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٢٠/٢٦٥

ولكن يرده ردا جميلا.

[قال إبراهيم بن أدهم: نعم القوم السؤال، يحملون زادنا إلى الآخرة. وقال إبراهيم النخعي: السائل يريد الآخرة يجيء إلى باب أحدكم فيقول: هل تبعثون إلى أهليكم بشيء.

وقيل: المراد بالسائل الذي يسأل عن الدين] .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «سألت ربي مسألة وددت أني لم أسألها، قلت: يا رب، اتخذت إبراهيم خليلا، وكلمت موسى تكليما، وسخرت مع داود الجبال يسبحن،." (١)

"وأعطيت فلانا كذا فقال عز وجل: ألم أجدك يتيما فأويتك؟ ألم أجدك ضالا فهديتك؟ ألم أجدك عائلا فأغنيتك؟ ألم أشرح لك صدرك؟ ألم أوتك ما لم أوت أحدا قبلك خواتيم سورة البقرة؟ ألم أتخذك خليلا كما اتخذت إبراهيم خليلا؟ قلت: بلى يا رب» .

قوله: {وأما بنعمة ربك فحدث} . الجار متعلق ب «حدث» والفاء غير مانعة من ذلك قال مجاهد: تلك النعمة هي القرآن والحديث.

وعنه أيضا: تلك النعمة هي النبوة، أي: بلغ ما أنزل إليك من ربك قيل: تلك النعمة هي أن وفقك الله تعالى، ورعيت حق اليتيم والسائل، فحدث بها؛ ليقتدي بك غيرك.

وعن الحسين علي – رضي الله عنهما – قال: إذا عملت خيرا فحدث به الثقة من إخوانك ليقتدوا بك.

إلا أن هذا لا يحسن إلا إذا لم يتضمن رياء، وظن أن غيره يقتدي به.

وروى مالك بن نضلة الجشمي، قال: «كنت جالسا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرآني رث الثياب فقال:» ألك مال «؟ .

قلت: نعم، يا رسول الله، من كل المال، قال:» إذا آتاك الله مالا فلير أثره عليك «.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :» إن الله تعالى جميل يحب الجمال، ويحب أن يرى أثر نعمته على عبده «.

فإن قيل: ما الحكمة في أن الله أخر نفسه على حق اليتيم والسائل؟ .

فالجواب: كأنه سبحانه وتعالى يقول: أنا غني، وهما محتاجان، وحق المحتاج أولى بالتقديم، واختار قوله:» فحدث «على قوله» فخبر «ليكون ذلك حديثا عنه وينساه، ويعيده مرة أخرى.

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٣٩٣/٢٠

فصل

يكبر القارىء في رواية البزي عن ابن كثير وقد رواه مجاهد عن ابن عباس وروي عن أبي بن كعب عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا بلغ آخر» الضحى «كبر بين كل سورة." (١)

"[قال مالك رضي الله عنه: يريد بالتاسعة ليلة إحدى وعشرين، وبالسابعة ليلة ثلاث وعشرين، وبالخامسة ليلة خمس وعشرين.

وقيل: سبع وعشرين وقد تقدم] .

وقيل: ليلة تسع وعشرين، لقول النبي صلى الله عليه وسلم : «ليلة القدر التاسعة والعشرون، والسابعة والعشرون» .

وقال الحسن – رضي الله عنه –: «ارتقبت الشمس ليلة أربع وعشرين عشرين سنة فرأيتها تطلع بيضاء لا شعاع لها، يعني من كثرة الأنوار في تلك الليلة» .

[وروي عن أبي بكر – رضي الله عنه – أنها في ليالي الأفراد من النصف الأخير من شهر رمضان مستقلة في ليالي الجمع، ونظمه محمد ابن الأثير فقال: [الطويل]

٥٢٦٣ – ثلاث شروط هن في ليلة القدر ... كذا قال شيخ العرب فيها أبو بكر

فأولها وتر وليلة جمعة ... وثالثها النصف الأخير من الشهر

وقيل: هي تنتقل في جميع السنة] .

قالوا: والحكمة في إخفائها ليجتهد الناس في إحياء جميع الليالي، كما أخفى رمضان في الطاعات، حتى يرغبوا في الكل، وأخفى ساعة الإجابة في الدعاء، ليبالغوا في كل الساعات، وأخفى الاسم الأعظم، ليعظموا كل الأسماء، وأخفى قبول التوبة، ليحافظوا على جميع أقسام التوبة، وأخفى وقت الموت، ليخاف الموت المكلف، وكذلك أخفى هذه الليلة، ليعظموا جميع ليالي رمضان.

فصل في أحكام تتعلق بليلة القدر

نقل القرطبي عن بعض العلماء: أن من علق طلاق امرأته، أو عتق عبده بليلة القدر لم يقع الطلاق والعتق إلى مضى سنة من يوم حلف، لأنه لا يجوز إيقاع الطلاق بالشك، ولم يثبت اختصاصها بوقت، فلا ينبغي وقوع الطلاق إلا لمضي حول.

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٢٠/٣٩٤

وفي هذا نظر؛ لأنه تقدم عن أبي حنيفة في أحد قوليه أنها رفعت، فعلى هذا لا ينبغي أن يقع شيء أصلا، لوجود الخلاف في بقائها.

وروى الثعلبي عن أبي – رضي الل◌◌ه عنه – قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من قرأ سورة القدر، كان كمن صام رمضان، وأحيا ليلة القدر» .." (١)

"والدين، كما نقله الرسول – عليه السلام – وكذلك القولان في «على» الأخيرة، بمعنى أن الشهادة لمعنى التزكية منه – عليه السلام – لهم.

وإنما قدم متعلق الشهادة آخرا، وقدم أولا لوجهين:

أحدهما: وهو ما ذكره الزمخشري أن الغرض في الأول إثبات شهادتهم على الأمم، وفي الآخر اختصاصهم بكون الرسول شهيدا عليهم.

والثاني: أن «شهيدا» أشبه بالفواصل والمقاطع من «عليكم» ، فكان قوله «شهيدا» تمام الجملة، ومقطعها دون «عليكم» ، وهذا الوجه قاله الشيخ مختارا له رادا على الزمخشري مذهبه من أن تقديم المعفول يشعر بالاختصاص، وقد تقدم ذلك.

فصل في الكلام على الشهادة.

اختلفوا في هذه الشهادة هل هي في الدنيا أو في الآخرة؟ فالقائل بأنها في الآخرة وهم الأكثرون لهم وجهان:

الأول: أن هذه الأمة تشهد للأنبياء على أممهم الذين يكذبونهم.

روي أن الأمم يجحدون تبليغ الأنبياء – عليهم الصلاة والسلام – فيطالب الله – تعالى – الأنبياء بالبينة على أنهم قد بلغوا وهو أعلم، فيؤتى بأمة محمد – صلى الله عليه وسلم – فيشهدون فتقول الأمم: من أين عرفتم فيقولون: علمنا ذلك بإخبار الله تعالى في كتابه الناطق على لسان نبيه الصادق، فيؤتى بمحمد – عليه الصلاة والسلام – فيسأل عن حال أمته، فيزكيهم ويشهد بعدالتهم، وذلك قوله: {فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا} [النساء: ٤١] وقد طعن القاضي رحمه الله تعالى في هذ الرواية من وجوه:

أحدها: أن مدار هذه الرواية على أن الأمم يكذبون أنبياءهم، وهذا بناء على أن أهل القيامة يكذبون.

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٤٣٢/٢٠

وهذا باطل عند القاضي، وسيأتي الكلام على هذه المسألة في سورة «الأنعام» عند قوله تعالى: {ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين انظر كيف كذبوا على أنفسهم} [الأنعام: ٢٣ - ٢٤] .

وثانيها: أن شهادة الأمة، وشهادة الرسول - عليه الصلاة والسلام - مستندة في الآخرة إلى شهادة الله - تعالى - على صدق الأنبياء، وإذا كان كذلك، فلم لم يشهد الله - تعالى - لهم بذلك ابتداء؟

والجوا: الحكمة في ذلك تمييز أمة محمد - عليه الصلاة والسلام - في الفضل عن سائر الأمم بالمبادرة إلى تصديق الله - تعالى - وتصديق جميع الأنبياء، والإيمان بهم جميعا، فهم بالنسبة إلى سائر الأمم كالعدل بالنسبة إلى الفاسق.

وثالثها: أن مثل هذه الأخبار لا تسمى شهادة، وهذا ضعيف لقوله عليه الصلاة." (١)

"قررت معناها هنا؛ لأنها كثيرة الدور في القرآن، فتحمل في كل موضع على ما يناسب من هذا الذي قررناه انتهى كلامه.

واعلم أ، ها إذا تقدمها عاطف جاز إعمالها وإهمالها، وهو الأكثر، وهي مركبة من «همزة وذال ونون» ، وقد شبهت العرب نونها بتنوين المنصوب قلبوها في الوقف ألفا، وكتبوها في الكتاب على ذلك، وهذا نهاية القول فيها.

وجاء في هذا المكان «من بعد ما جاءك» وقال قبل هذا: {بعد الذي جآءك} [البقرة: ١٢٠] وفي «الرعد» : {بعد ما جآءك} [الرعد: ٣٧] فلم يأت ب «من» الجارة إلا هنا، واختص موضعا ب «الذين» ، وموضعين ب «ما» ، فما الحكمة في ذلك؟

والجواب: ما ذكره بعضهم وهو أن «الذي» أخص و «ما» أشد إبهاما، فحيث أتي ب «الذي» أشير به إلى العلم بصحة الدين الذي هو الإسلام المانع من ملتي اليهود والنصارى، فكان اللفظ الأخص الأشهر أولى فيه؛ لأنه علم بكل أصول الدين، وحيث أتي بلفظ «ما» أشير به إلى العلم [بركنين] من أركان الدين، أحدهما: القبلة، والأخر: بعض الكتاب؛ لأنه أشار إلى قوله: {ومن الأحزاب من ينكر بعضه} [الرعد: ٣٦] .

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ١٧/٣

قال: وأما دخول «: من» ففائدته ظاهرة، وهي بيان أول الوقت الذي وجب عليه – عليه السلام – أن يخالف أهل الكتاب في قبلتهم، والذي يقال في هذا: إنه من باب التنوع من البلاغة.." (١)

"وثانيها: ما يحكم العقل [بقبحه] في أول الأمر، إلا أنه لما ورد الشرع به، وبين **الحكمة فيه**، [وهي] الابتلاء، والامتحان؛ على ما قال تعالى: {ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات} [البقرة: ١٥٥] ، فحينئذ يعتقد المسلم حسنه، وكونه حكمة وصوابا.

[وثالثها] : ما لا يهتدي العقل إلى حسنه، ولا إلى [قبحه] ، بل [يراها] كالعبث الخالي عن المنفعة والمضرة، وهو مثل أفعال الحج من السعي بين الصفا والمروة، فذكر الله تعالى هذا القسم عقيب القسمين الأولين؛ ليكون قد نبه على جميع أقسام التكاليف.

قوله [تعالى] : «إن الصفا والمروة» : [الصفا:] اسم «إن» ، و «مِن شعائر الله» خبرها.

قال أبوا البقاء – رحمه الله تعالى –: وفي الكلام حذف مضاف، تقديره «طواف الصفا، أو سعي الصفا» . وألف «الصفا» [منقلبة] عن واو؛ بدليل قلبها في التثنية واوا؛ قالوا: صفوان؛ والاشتقاق يدل عليه أيضا؛ لأنه من الصفو، وهو الخلوص، [والصفا: الحجر الأملس] .

وقال القرطبي: «والصفا مقصور» جمع صفاة، وهي الحجارة الملس.

وقيل: الصفا اسم مفرد؛ وجمعه «صفي» – بضم الصاد –[وأصفاء] ؛ على [وزن] أرجاء.

قال [الراجز] : [الرجز]

٨٥٠ –كأن متنيه من النفي ... مواقع الطير على الصفي

وقيل: من شروط الصفا: البياض والصلابة، واشتقاقه من: «صفا يصفو» ، أي: [أخلص من] التراب والطين،، والصفا: الحجر الأملس.

وفي كتاب الخليل: الصفا: الحجر الضخم الصلب الأملس، وإذا [نعتوا] الصخرة، قالوا: صفاة صفواء، وإذا ذكروا، قالوا: «صفا صفوان» ، فجعلوا الصفا [والصفاة] كأنهما في معنى واحد.

قال المبرد: «الصفا» : كل حجر أملس لا يخالطه غيره؛ من طين أو تراب،." (٢)

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٣/٥٠

(٢) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٣/٩١

"أنهما كانا آدميين زنيا في الكعبة، فمسخهما الله حجرين، فوضعهما على الصفا، والمروة؛ ليعتبر بهما؛ فلما طالبت المدة، عبدا من دون الله، والله - تعالى - أعلم.

فصل في معنى «الشعائر»

و «الشعائر» : جمه شعيرة، وهي العلامة، فكل شيء جعل علما من أعلام طاعة الله، فهو من شعائر الله تعالى. قال تبارك وتعالى: {والبدن جعلناها لكم من شعائر الله} [الحج: ٣٦] ، أي: علامة [للقربة، ومنه: إشعار السنام [وهو أن تعلم بالمدية] ومنه: الشعار في الحرب، [وهي العلامة التي يتبين بها إحدى الفئتين من الأخرى] ومنه قولهم: شعرت بكذا، أي: علمت به، وقيل: الشعائر جمع [شعيرة] ، والمراد بها في الآية الكريمة مناسك الحج، ونقل الجوهري أن الشعائر هي العبادات، والمشاعر أماكن العبادات، ففرق بين الشعائر والمشاعر.

وقال الهروي: الأجود: لا فرق بينهما، والأجود شعائر بالهمز؛ لزيادة حرف المد، وهو عكس «معايش» و «مصايب» .

فصل في الشعائر هل تحمل على العبادات أو على موضع العبادات

الشعائر: إما أن نحملها على العبادات، أو النسك، أو نحملها على موضع العبادات والنسك؟!

[فإن قلنا بالأول، حصل في الكلام حذف؛ لأن نفس الجبلين لا يصح وصفهما بأنهما دين ونسك؛ فالمراد به أن الطواف بينهما أو السعي من دين الله تعالى.

وإن قلنا بالثاني: استقام ظاهر الكلام؛ لأن هذين الجبلين يمكن أن يكونا موضعين للعبادة والنسك] .

وكيف كان؛ فالسعي بينهما من شعائر الله، ومن أعلام دينه، وقد شرعه الله [تعالى] لأمة محمد - عليه الصلاة والسلام -[لإبراهيم عليه الصلاة والسلام] ، قبل ذلك، وهو من المناسك التي علمها الله [تعالى] لإبراهيم - عليه الصلاة والسلام - إجابة لدعوته في [قوله تعالى] : {وأرنا مناسكنا} [البقرة: ١٢٨] . واعلم أن [السعي ليس] عبادة تامة في نفسه، بل إنما يصير عبادة إذا صار بعضها من أبعاض الحج والعمرة، فلهذا بين الله تبارك وتعالى الموضع الذي يصير فيه السعي عبادة، فقال [سبحانه] : {فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما} .

والحكمة في شرع هذا السعي: ما حكي أن هاجر حين ضاق بها الأمر في عطشها، وعطش ابنها إسماعيل، سعت في هذا المكان إلى أن صعدت الجبل، ودعت، فأنبع الله." (١)

"وليس هذا الخلاف مقصور على هذه الكلمة، بل إذا التقى ساكنان من كلمتين؛ وضم الثالث ضما لازما نحو: {ولقد استهزئ} [الأنعام: ١٠] {قل ادعوا} [الإسراء: ١١٠] ، {وقالت اخرج} [يوسف: ٣١] ، جرى الخلاف المذكور، إلا أن أبا عمرو خرج عن أصله في {أو} [المزمل: ٣] و {قل ادعوا} [الإسراء: ١١٠] فضمهما، وابن ذكوان خرج عن أصله، فكسر التنوين خاصة؛ نحو {محظورا انظر} [الإسراء: ٢٠ – ٢١] واختلف عنه في {برحمة ادخلوا} [الأعراف: ٤٩] {خبيثة اجتثت} [إبراهيم: ٢٦] فمن كسر، فعلى أصل التقاء الساكنين، ومن ضم، فلإتباع، وسيأتي بيان الحكمة في ذلك. عند٠ ذكره، إن شاء الله – تعالى – والله أعلم.

قوله: «غير باغ» : «غير» : نصب على الحال، واختلف في صاحبها:

فالظاهر: أنه الضمير المستتر [في «اضطر»] ، وجعله القاضي، وأبو بكر الرازي من فاعل فعل محذوف بعد قوله «اضطر» ؛ قالا: تقديره: «فمن اضطر فأكل غير باغ» ؛ كأنهما قصدا بذلك أن يجعلاه قيدا في الأكل لا في الاضطرار.

قال أبو حيان: ولا يتعين ما قالاه؛ إذ يحتمل أن يكون هذا المقدر بعد قوله {غير باغ ولا عاد} بل هو الظاهر والأولى؛ لأن في تقديره قبل «غير باغ» فضلا بين ما ظاهره الاتصال فيما بعده، وليس ذلك في تقديره بعد قوله: «غير باغ» .

و «عاد» : اسم فاعل من: عدا يعدو، إذا تجاوز حده، والأصل: «عادو» فقلب الواو ياء؛ لانكسار ما قبلها؛ كغاز من الغزو، وهذا هو الصحيح؛ وقيل: إنه مقلوب من، عاد يعود، فهو عائد، فقدمت اللام على العين، فصار اللفظ «عادو» فأعل بما تقدم، ووزنه «فالع» ؛ كقولهم: «شاك» في «شائك» من الشوكة، و «هار» ، والأصل «هائر» ، لأنه من: هار يهور.

قال أبو البقاء – رحمه الله تعالى -: «ولو جاء في غير القرآن الكريم منصوبا، عطفا على موضع» غير «جاز» ، يعني: فكان يقال: «ولا عاديا» .

قوله: «اضطر» أحوج وألجيء، فهو: «افتعل» من الضرورة، وأصله: من الضرر، وهو الضيق، وهذه الضرورة

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٩٣/٣

لها سببان:

أحدهما: الجوع الشديد، وألا يجد مأكولا حلالا يسد به الرمق، فيكون عند ذلك مضطرا.

والثاني: إذا أكره على تناوله.." (١)

"فإن قيل: إذا صح هذا التأويل، فما **الحكمة في** هذا الترتيب؟!

فالجواب من وجوه:

أحدها: أنه تبارك وتعالى قدم الأولى فالأولى؛ لأن الفقير القريب أولى بالصدقة من غيره، لأن يجمع فيه بين الصلة، والصدقة، ولأن القرابة من أوكد الوجوه ف صرف المال إليه، ولذلك يستحق بها الإرث، ويحجر على ذي المال بسببه في الوصية، حتى لا يتمكن من الوصية، إلا في الثلث، ولذلك كانت الوصية للأقارب من الواجبات؛ لقوله تعالى:

{كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيرا الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف} [البقرة: ١٨٠]

.

وإن كانت نسخت عند بعضهم؛ فلهذه الوجوه، قدم ذوي القربى، ثم أتبعه باليتامى؛ لأن الصغير الفقير الذي لا والد له، ولا كاسب، فهو منقطع الحيلة من كل الوجوه، ثم أتبعهم بالمساكين؛ لأن الحاجة قد تشتد بهم، ثم ذكر السائلين، وفي الرقاب؛ لأن حاجتهما دون حاجة من تقدم.

وثانيها: أن علم المرء بشدة حاجة قريبه أقوى، ثم بحاجة الأيتام، ثم بحاجة المساكين ثم على هذا السق.

وثالثها: أن ذا القربى مسكين، وله صفة زائدة تخصه؛ لأن شدة حاجته تغم صاحب المال، وتؤذيث قلبه، ودفع الضرر عن النفس مقدم على دفع الضرر عن الغير؛ فلذلك بدأ الله بذي القربى، ثم باليتامى؛ لأن الغم الحاصل بسبب عجز الصغار عن الطعام والشراب أشد من الغم الحاصل بسبب عجز الكبار عن تحصيلهما، ثم المساكين؛ لأن الغم الحاصل بسببهم أخف من الغم الحاصل بسبب الصغار.

وأما ابن السبيل، فقد يكون غنيا، وقد تشتد حاجته في الوقت، والسائل قد يكون غنيا، ويظهر شدة الحاجة، وأخر المكاتب؛ لأن إزالة الرق ليست في محل الحاجة الشديد.

القول الثاني: أن المراد بإيتاء المال: ما روي أنه - عليه الصلاة والسلام - عند ذكره الإبل، قال: «إن فيها حقا؛ وهو إطراق فحلها، وإعارة دلوها» ، وهذا بعيد؛ لأن الحاجة إلى إطراق الفحل أمر لا يختص به

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ١٧٨/٣

ابن السبيل، والسائل والمكاتب.

القول الثالث: أن إيتاء المال إلى هؤلاء كان واجبا، ثم نسخ بالزكاة، وهذا أيضا ضعيف، لأنه تبارك وتعالى جمع في هذه الآية الكريمة بين هذا الإيتاء، وبين الزكاة.

وقال بعضهم: المراد صدقة التطوع.

فصل في الوجوه الإعرابية لقوله «ذوي»

قوله «ذوي» فيه وجهان:." (١)

"ناسخا للتخيير مع اتصاله بالمنسوخ وذلك لا يصح.

والجواب: أن الاتصال في التلاوة لا يوجب الاتصال في النزول؛ وهذا كما قيل في عدة المتوفى عنها زوجها؛ أن المقدم في التلاوة هو الناسخ والمنسخ متأخر، وهذا عكس ما يجب أن يكون عليه حال الناسخ والمنسوخ، فقالوا: إن ذلك في التلاوة، أما في الإنزال، فكان الاعتداد بالحول هو المتقدم، والآية الدالة على أربعة أشهر وعشر هي المتأخرة، وكذلك في القرآن آيات كثيرة مكية متأخرة في التلاوة عن الآيات المدنية، والله أعلم.

فصل في أول ما نسخ بعد الهجرة

قال ابن عباس - رضي الله عنهما - أول ما نسخ بعد الهجرة أمر القبلة والصوم، ويقال نزل صوم شهر رمضان قبل بدر بشهر وأيام، وعن عائشة - رضي الله عنها - قالت: كان يوم عاشوراء تصومه قريش في الجاهلية، وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يصومه في الجاهلية فلما قدم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - المدينة، صامه، وأمر بصيامه، فلما فرض رمضان كان هو الفريضة، وترك يوم عاشوراء، فمن شاء صامه، ومن شاء تركه.

فصل في المراد بقوله «معدودات»

في قوله تعالى: «معدودات» وجهان:

أحدهما: أنها مقدرات بعدد معلوم.

والثاني: قلائل؛ كقوله تعالى: {دراهم معدودة} [يوسف: ٢٠] .

وقوله: {فمن كان منكم مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر} .

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٣/٢٠٧

فالمراد أن فرض الصوم في الأيام المعدودات، إنما يلزم الأصحاء المقيمين، فأما من كان مسافرا، أو مريضا، فله تأخير الصوم عن هذه الأيام إلى أيام أخر.

قال القفال رحمه الله: انظروا إلى عجيب ما نبه الله تعالى من سعة فضله ورحمته في هذا التكليف، وأنه تعالى بين في أول الآية أن لهذه الأمة في هذا التكليف أسوة بالأمم المتقدمة، والغرض منه ما ذكرناه من أن الأمر الشاق، إذ عم خف، ثم بين ثانيا وجه الحكمة في إيجاب الصوم، وهو أنه سبب لحصول التقوى، ثم بين ثالثا: أنه." (١)

"والإنجيل لثلاث عشرة، والقرآن لأربع وعشرين.

فإن قيل: إن القرآن نزل على محمد صلى الله عليه وسلم في مدة ثلاث وعشرين سنة منجما مبعضا، فما معنى تخصيص إنزاله برمضان؟

فالجواب من وجهين:

الأول: أن القرآن أنزل في ليلة القدر جملة إلى سماء الدنيا، ثم نزل إلى الأرض نجوما.

روى مقسم عن ابن عباس أنه سئل عن قوله عز وجل: {شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن} وقوله {إنا أنزلناه في ليلة القدر} [القدر: ١] ، وقوله {إنآ أنزلناه في ليلة مباركة} [الدخان: ٣] وقد نزل في سائر الشهور، وقال عز وجل: {وقرآنا فرقناه} [الإسراء: ١٠٦] فقال: أنزل القرآن جملة واحدة من اللوح المحفوظ في ليلة القدر من شهر رمضان إلى بيت العزة في السماء الدنيا، ثم نزل به جبريل - عليه السلام - على رسول الله صلى الله عليه وسلم نجوما في ثلاث وعشرين سنة، فذلك قوله: {فلا أقسم بمواقع النجوم} [الواقعة: ٧٥] وقال داود بن أبي هند: قلت للشعبي: {شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن} أما كان ينزل في سائر السنة؟ قال: بلى، ولكن جبريل كان يعارض محمدا صلى الله عليه وسلم في رمضان ما أنزل الله إليه فيحكم الله ما يشاء، ويثبت ما يشاء، وينسيه ما يشاء.

وروي عن أبي ذر، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «أنزلت صحف إبراهيم في ثلاث ليال مضين من شهر رمضان» ويروى: «في أول ليلة من رمضان» وأنزلت توراة موسى في ست ليال مضين من شهر رمضان، وأنزل إنجيل عيسى في ثلاث عشرة ليلة من رمضان، وأنزل زبور داود في ثمان عشرة ليلة مضت من رمضان، وأنزل الفرقان على محمد صلى الله عليه وسلم لأربع وعشرين خلت من رمضان، ولست بقين

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٢٥٧/٣

بعدها، وسنذكر الحكمة في إنزاله منجما مفرقا في سورة «الفرقان» عند قوله: {لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة} [الفرقان: ٣٢] .." (١)

"نقل عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: ما كان قوم أقل سؤالا من أمة محمد - صلوات الله وسلامه عليه - دائما وأبدا - سألوه عن أربعة عشر حرفا، فأجيبوا.

قال ابن الخطيب: ثمانية منها في سورة البقرة أولها: {وإذا سألك عبادي عني فإني قريب} [البقرة: ١٨٦] . وثانيها: هذه الآية، ثم الباقية بعد في سورة البقرة. فالمجموع ثمانية في هذه السورة، والتاسع: في المائدة، قوله تبارك وتعالى: {يسألونك ماذآ أحل لهم} [المائدة: ٤] والعاشر: {يسألونك عن الأنفال} [الأنفال: ١] والحادي عشر: في بني إسرائيل {ويسألونك عن الروح} [الإسراء: ٨٥] والثاني عشر في الكهف {ويسألونك عن ذي القرنين} [الكهف: ٨٣] والثالث عشر في طه {ويسألونك عن الجبال} [طه: ١٠٥] والرابع عشر في النازعات {يسألونك عن الساعة} [النازعات: ٤٢] .

ولهذه الأسئلة ترتيب عجيب: آيتان:

الأول: منها في شرح المبدأ، وهو قول تعالى: {وإذا سألك عبادي عني فإني قريب} وهذا سؤال عن الذات.

والثاني: {يسألونك عن الأهلة} وهذا سؤال عن حقيقة الخلاقية، والحكمة في جعل الهلال على هذا الوجه.

والآيتان الأخيرتان في شرح المعاد، وهو قوله {ويسألونك عن الجبال} [طه: ١٠٥] و {يسألونك عن الساعة} [النازعات: ٤٢] .." (٢)

"ونظير هذا أنه ورد في القرآن الكريم سورتان: أولهما «يا أيها الناس» فالأولى: هي السورة الرابعة من النصف الأول؛ فإن الأولى هي «الفاتحة» ثم «البقرة» ثم «آل عمران» ثم «النساء» وهي مشتملة على شرح المبدأ {أأيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة} [النساء: ١] والسورة الثانية: هي الرابعة أيضا من النصف الثاني: فإن أوله «مريم» ثم «طه» ثم «الأنبياء» ثم «الحج» وهذه مشتملة على شرح الميعاد {ياأيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم} [الحج: ١] فسبحان من له في هذا القرآن أسرار خفية، وحكم مطوية [لا يعرفها إلا الخواص من عبيده] .

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٣/٢٧٩

(٢) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٣/٣٣٠

فصل في اختلافهم في السائل عن الأهلة

روي عن معاذ بن جبل، وثعلبة بن غنم الأنصاريين قالا: يا رسول الله، ما بال الهلال يبدو دقيقا مثل الخيط، ثم يزيد؛ حتى يمتلىء ويستوي، ثم لا يزال ينقص حتى يعود كما بدأ، لا يكون على حالة واحدة؛ كالشمس، فنزلت هذه الآية.

وروي أن معاذ بن جبل قال: إن اليهود سألوه عن الأهلة.

واعلم أن قوله تعالى {يسألونك عن الأهلة} ليس فيه بيان أنهم عن أي شيء سألوا، إلا أن الجواب كالدال على موضع السؤال؛ لأنه قوله: {قل هي مواقيت للناس والحج} يدل على أن سؤالهم كان على وجه الفائدة **والحكمة في** تغير حال الأهلة في الزيادة والنقصان.

قوله تعالى: {عن الأهلة} : متعلق بالسؤال قبله، يقال: «سأل به وعنه» بمعنى، والضمير في «يسألونك» ضمير جماعة.

فإن كانت القصة كما روي عن معاذ: أن اليهود سألوه، فلا كلام، وإن كانت القصة أن السائل اثنان؛ كما روي أن معاذ بن جبل، وثعلبة بن غنم، سألوا، فيحتمل ذلك وجهين:

أحدهما: أن يقال: إن أقل الجمع اثنان.

والثاني: من نسبة الشيء إلى جمع، وإن لم يصدر إلا من واحد منهم أو اثنين، وهو كثير في كلامهم.

فصل

قال الزجاج - رحمه الله -: «هلال» يجمع في أقل العدد على «أفعلة» نحو: مثال." (١)

"فالجواب: أن الأهلة وأشهرها، إنما جعلت مواقيت للناس، دون الشمس وأشهرها؛ لأن الأشهر الهلالية يعرفها كل أحد من الخاص والعام برؤية الهلال ومحاقه؛ ولذلك علقت الأحكام الشرعية بالشهور العربية، كصوم رمضان، وأشهر الحج، وهي شوال، وذو القعدة وذو الحجة. والأشهر المنذورة، والكفارات، وحول الزكاة وأشهر الإجارات والمداينات والسل، وأشهر الإيلاء، وأشهر العدد، ومدة الرضاع وما تتحمله العاقلة في ثلاث سنين، وغير ذلك؛ بخلاف الشمس، وأشهرها؛ فإن الشمس لا يتغير شكلها بزيادة، ولا نقص، ولا يعرف أوله وآخره، ولا تختلف رؤيتها، وكذلك أشهرها لا يعرف أولها وآخرها، إلا الخواص من الحساب، وليس لها مواقيت غير الفصول الأربعة؛ وهي الصيف، والشتاء، والربيع، والخريف؛ ولذلك لا

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٣/٣٣١

يتعلق به حكم شرعي؛ فلذلك جعلت الأهلة وأشهرها مواقيت للناس، دون الشمس.

فصل

اعلم أن الله سبحانه ذكر وجه **الحكمة في** خلق الأهلة؛ فقال تعالى: {قل هي مواقيت للناس والحج} وذكر هذا المعنى في آية أخرى، وهي قوله تعالى: {وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب} [يونس: ٥] واعلم أن تقدير الزمان بالشهور فيه منافع دينية، ودنيوية.

فالدينية: كالصوم، والحج، وعدة المتوفى عنها زوجها، والنذور المتعلقة بالأوقات، وقضاء الصوم في أيام لا تعلم إلا بالأهلة.

والدنيوية: كالمداينات، والإجارات، والمواعيد، ولمدة الحمل والرضاع.

قوله: «والحج» عطف على «الناس» قوالوا: تقديره: ومواقيت الحج، فحذف الثاني؛ اكتفاء بالأول.

وقيل: فيه إضمار، تقديره: وللحج كقوله {وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم} [البقرة: ٢٣٣] أي: لأولادكم.

ولما كان الحج من أعظم ما تطلب مواقيته وأشهره بالأهلة، أفرد بالذكر.

قال تعالى: {الحج أشهر معلومات} [البقرة: ١٩٧] .

فإن قيل: الصوم أيضا يطلب هلاله؛ قال عليه الصلاة والسلام -: «صوموا لرؤيته، وأفطروا لرؤيته»." (١)

"وعظم: «إني أحمس» فقال الرجل: «إن كنت أحمسيا، فإني أحمسي، رضيت بهديك، وسمتك، ودينك» ، فأنزل الله تعالى هذه الآية الكريمة.

قال الزهري: كان ناس من الأنصار، فإذا أهلوا بالعمرة، لم يحل بينهم وبين السماء شيء، وكان الرجل يخرج مهلا بالعمرة، فتبدوا له الحاجة بعد ام يخرج من بيته؛ فيرجع، ولا يدخل من باب الحجرة من أجل سقف البيت أن يحول بينه وبين السماء، فيفتح الجدار من ورائه، ثم يقوم في حجرته فيأمر بحاجته؛ حتى بلغنا أن رسول الله صلى الله علنه وسلم، وشرف، وكرم، ومجد، وبجل، وعظم، أهل زمن الحديبية بالعمرة، فدخل حجرة، فدخل رجل على أثره من الأنصار من بني سلمة، فقال النبي صلى الله عليه وسلم وشرف، وكرم، ومجد، وبجلأ، وعظم: «لم فعلت ذلك؟» قال: «لأني رأيتك دخلت، فقال رسول اللہ صلى الله عليه وسلم ، وشرف، وكرم، ومجد، وبجل، وعظم:» إني أحمسي «فقال الأنصاري: وأنا أحمسي، وأنا على دينك، فأنزل الله تعالى الآية الكريمة.

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٣/٣٣٤

فصل في اخلافهم في تفسير الآية

ذكروا في تفسير الآية ثلاثة أوجه:

أحدها: – وهو قول أكثر المفسرين – وهو حمل الآية الكريمة على ما قدمناه في سبب النزول، ويصعب نظم الآية الكريمة عليه؛ فإن القوم سألوا عن الحكمة في تغيير لون القمر، فذكر الله تعالى الحكمة في ذلك، وهي قوله: {مواقيت للناس والحج} فأي تعلق بي بيان الحكمة في اختلاف نور القمر، وبين هذه القصة، فذكروا وجوها:

أحدها: أن الله – تبارك وتعالى – لما ذكر أن الحكمة في اختلاف أحوال الأهلة جعلها مواقيت للناس والحج، وكان هذا الأمر من الأشياء التي اعتبرها في الحج، لا جرم ذكرها الله تعالى.

وثانيها: أنه تعالى إنما وصل قوله: {وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها} بقوله: {يسألونك عن الأهلة} ؛ لأنه إنما اتفق وقوع القصتين في وقت واحد، فنزلت الآية الكريمة فيهما معا في وقت واحد، ووصل أحد الأمرين بالآخر.

وثالثها: كأنهم لما سألوا عن الحكمة في اختلاف حال الأهلة، فقيل لهم: اتركوا السؤال عن هذا الأمر الذي لا يعنيكم، وارجعوا إلى البحث، عما هو أهم لكم، فإنكم تظنون أن إتيان البيوت من ظهورها بر؛ وليس الأمر كذلك.

الوجه الثاني من تفسير الآية: أن قوله تعالى: {وليس البر بأن تأتوا البيوت من." (١)

"ظهورها} مثل ضربه الله تعالى، وليس المراد ظاهره وتفسير أن الطريق المستقيم هو الطريق المعلوم، وهو أن يستدل بالمعلوم على المظنون، ولا ينعكس.

وإذا عرف هذا، فنقول: ثبت بالدلائل أن للعالم صانعا، مختارا، حكيما، وثبت أن الحكيم لا يفعل إلا الصواب البريء عن البعث والسفه.

وإذا عرفنا ذلك، وعرفنا أن اختلاف أحوال القمر في النور من فعله علمنا أن فيه حكمة ومصلحة، لأنا علمنا أن الحكيم لا يفعل إلا الحكمة، واستدللنا بالمعلوم على المجهول، فأما أن يستدل بعدم علمنا بالحكمة فيه على أن فاعله ليس بحكيم، فهو استدلال باطل؛ لأنه استدلال بالمجهول على القدح في المعلوم، وإذا عرف هذا، فالمراد من قوله تعالى: {ليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها} يعني: أنكم لما لم تعلموا

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٣٣٨/٣

الحكمة في اختلاف نور القمر، صرتم شاكين في حكمة الخالق، وقدأتيتم الشيء من غير طريقه «إنما البر بأن تأتوا البيوت من أبوابها» وتستدلوا بالمعلوم المتيقن، لا تعلمونها، فجعل إتيان البيوت من ظهورها كناية عن العدول عن الطريق الصحيح؛ وإتيانها من أبوابها كناية عن التمسك بالطريق المستقيم، وهذا طريق مشهور في الكناية؛ فإن من أرشد غيره إلى الصواب، يقول له: ينبغي أن تأتي الأمر من بابه، وفي ضده قالوا: ذهبإل لاشيء من غير بابه، قال تعالى: {فنبذوه ورآء ظهورهم} [آل عمران: ١٨٧] وقال عز من قائل: {واتخذتموه ورآءكم ظهريا} [هود: ٩٢] وهذا تأويل المتكلمين.

قال ابن الخطيب: ولا يصح تفسير هذه الآية؛ لأن الوجه الأول يغير نسق الترتيب، وكلام الله تعالى منزه عن ذلك.

الوجه الثالث: قال أبو مسلم: إن المراد من هذه الآية ما كانوا يعملونه من النسيء؛ فإنهم كانوا يخرجون الحج عن وقته الذي عينه الله تعالى لهم، فيحرمون الحلال، ويحلون الحرام، فذكر إتيان البيوت من ظهورها مثلا لمخالفة الواجب في الحج وشهوره.." (١)

"ومنها: أنه تعالى لما أمر بصيام ثلاثة أيام فى الحج وسبعة بعد الرجوع، فليس فيه بيان أنه طاعة عظيمة كاملة، فلما قال بعده: {تلك عشرة كاملة} دل ذلك على أن هذه الطاعة فى غاية الكمال؛ وذلك لأن الصوم مضاف إلى الله تعالى بلام الاختصاص كما قال: «الصوم لي» ، والحج أيضا مضاف إلى الله تعالى بلام الاختصاص كما قال «الصوم لي» ، فكما دل النص على مزيد اختصاص هاتين العبادتين بالله - سبحانه وتعالى -، فالفعل دل أيضا على ذلك.

أما فى الصوم فلأنه عبادة لا يطلع العقل على وجه الحكمة فيها ألبتة، وهو مع ذلك شاق على النفس جدا، فلا جرم لا يؤتى به إلا لمحص مرضاة الله - تعالى - ثم إن صوم هذه تعني الانقياد له.

وكذا الحج عبادة لا يطلع العقل على وجه الحكمة في ألبتة، وهو مع ذلك شاق جدا؛ لأنه يوجب مفارقة الأهل، والولد والتباعد عن أكثر اللذات، فلا جرم لا يؤتى به إلا لمحض مرضاة الله تعالى، ثم إن صوم هذه الأيام العشرة بعضه واقع في زمن الحج، فيكون جمعا بين شيئين شاقين جدا، وبعضه واقع بعد الفراغ من الحج، وهو انتقال من شاق إلى شاق، ومعلوم أن ذلك سبب لكثرة الثواب، وعلو الدرجة، فلا جرم لما أوجب الله - تعالى - صيام هذه الأيام العشرة، شهد سبحانه على أنها عبادة كاملة فى غاية الكمال والعلو،

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٣/٣٣٩

فقال تعالى: {تلك عشرة كاملة} ، أي: وإنها كاملة.
قوله: «ذلك لمن» «ذلك» مبتدأ، والجار بعده الخبر. وفي اللام قولان:
أحدهما: أنها على بابها، أي: ذلك لازم لمن.
والثاني: أنها بمعنى على، كقوله: {أولئك لهم اللعنة} [الرعد: ٢٥] ، وقال عليه السلام: «اشترطي لهم الولاء» ، أي: عليهم، وقوله: {وإن أسأتم فلها} [الإسراء: ٧] أي: فعلهيا، وذلك إشارة إلى التمتع، والقران للغريب [ولا حاجة إلى هذا. و «من» يجوز أن تكون موصولة، وموصوفة. و «حاضري» خبر «يكن» ، وحذفت نونه للإضافة] .

فصل

قوله: «ذلك» إشارة إلى أمر تقدم، وأقرب الأمور المذكورة، ذكر ما يلزم المتمتع من الهدي وبدله.
وقال بعض العلماء: لزوم الهدي وبدله للمتمتع مشروط بألا يكون من حاضري المسجد الحرام، فإن كان من أهل الحرم، فلا يلزمه هدي المتمتع، وإنما لزم الآفاقي،." (١)

"الرفث فيه حسا، وخبر الله تعالى لا يجوز أن يقع بخلاف مخبره، وإنما يرجع النفي إلى وجوده مشروعا لا إلى وجوده محسوسا؛ كقوله تعالى: {والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قرواء} [البقرة: ٢٢٨] أي: مشروعا لا حسا، فإن نجد المطلقات لا يتربصن؛ فعاد النفي إلى الحكم الشرعي لا إلى الوجود الحسي؛ وهو كقوله تعالى: {لا يمسه إلا المطهرون} [الواقعة: ٧٩] إذا قلنا: إنه وارد فى الآدميين؛ وهو الصحيح، فإن معناه لا يمسه أحد منهم شرعا، فإن وجد المس، فعلى خلاف حكم الشرع، وهذه الدقيقة فاتت العلماء فقالوا: إن الخبر يكون بمعنى النهي، وما وجد ذلك قط، ولا يصح أن يوجد؛ فإنهما مختلفان حقيقة، ومتضادان وصفا.

فصل

قال ابن الخطيب - رحمه الله تعالى - فإن قيل أليس أن مع هذه الأشياء يصير الحج فاسدا ويجب على صاحبه المضي فيه، وإذا كان الحج باقيا معها، لم يصدق الخبر لأن هذه الأشياء لا توجد مع الحجة؟
قلنا المراد من الآية الكريمة حصول المضادة بين هذه الأشياء، وبين الحجة المأمور بها ابتداء، وتلك الحجة الصحيحة لا تبقى مع هذه الأشياء؛ بدليل أنه يجب قضاؤها، والحجة الفاسدة التي يجب عليه

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٣/٣٨٦

المضي فيها شيء آخر سوى تلك الحجة المأمور بها ابتداء، وأما الجدال الحاصل بسبب الشك في وجوب الحج، فظاهره أنه لا يبقى معه عمل الحج؛ لأن ذلك كفر وعمل الحج مشروط بالإسلام، فثبت أنا إذا حملنا اللفظ على الخبر، وجب حمل الرفث والفسوق والجدال على ما ذكرنا، وأما إذا حملناه على النهي، وهو في الحقيقة عدول عن الظاهر، فقد يصح أن يراد بالرفث الجماع ومقدماته، وقول الفحش، وأن يراد بالفسق جميع أنواعه، وبالجدال جميع أنواعه؛، لأن اللفظ مطلق ومتناول لكل هذه الأقسام، فيكون النهي عنها نهيا عن جميع أقسامها.

فإن قيل: ما **الحكمة في** أن الله تعالى ذكر هذه الألفاظ الثلاثة: وهي الرفث، والفسوق، والجدال في الحج، من غير زيادة ولا نقص؟

فالجواب: لأنه ثبت في العلوم العقلية أن للإنسان أربع قوى: قوة شهوانية بهيمية، وقوة غضبية سبعية، وقوة وهمية شيطانية، وقوة عقلية ملكية، والمقصود من جميع العبادات قهر القوى الثلاث، أعني: الشهوانية والغضبية والوهمية.

فقوله: «فلا رفث» إشارة إلى قهر الشهوانية.

وقوله: «ولا فسوق» إشارة إلى قهر القوة الغضبية التي توجب المعصية والتمرد.." (١)

"فانطلق سعد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وشكى إليه الأنصاري، فقال عمر: اللهم بين لنا في الخمر بيانا شافيا؛ فأنزل الله تعالى: {إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس} [المائدة: ٩٠] إلى قوله: {فهل أنتم منتهون} [المائدة: ٩١] وذلك بعد غزوة الأحزاب بأيام، فقال عمر: انتهينا يا رب.

قال ابن الخطيب: **والحكمة في** وقوع التحريم على هذا الترتيب أن الله تعالى علم أن القوم كانوا قد ألفوا شرب الخمر، وكان انتفاعهم بذلك كثيرا، فعلم أنه لو منعهم دفعة واحدة لشق ذلك عليهم، فلا جرم درجهم في التحريم رفقا بهم، ومن الناس من قال: إن الله حرم الخمر والميسر بهذه الآية، ثم نزل قوله:

{لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى} [النساء: ٤٣] فاقتضى ذلك تحريم شربها؛ لأن شارب الخمر لا يمكنه أن يصلي مع السكر، فكان المنع من ذلك منعا من الشرب ضمنا، ثم نزلت آية المائدة، فكانت في غاية القوة في التحريم. وعن الربيع بن أنس أن هذه الآية نزلت بعد تحريم الخمر.

فصل

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٣/٤٠٤

قال أنس: حرمت عليهم الخمر، ولم يكن يومئذ للعرب عيش أعجب منها، وما حرم عليهم شيء أشد من الخمر.

وقال أنس بن مالك: ما كان لنا خمر غير فضيخكم فإني لقائم أسقي أبا طلحة وفلانا، وفلانا، إذ جاء رجل فقال: حرمت الخمر. قالوا: أهرق هذه القلال يا أنس؛ قال: فما سألوا عنها، ولا راجعوها بعد خبر الرجل. واختلف الفقهاء في الخمر على ما تقدم؛ فقال قوم: هو عصير العنب والرطب الذي اشتد وغلا من غير عمل النار فيه، واتفقت الأمة على أن هذا الخمر نجس يحد شاربها، ويفسق، ويكفر مستحلها، وذهب سفيان الثوري، وأبو حنيفة، وجماعة إلى أن التحريم لا يتعدى هذا ولا يحرم ما يتخذ من غيرها، كالحنطة، والشعير، والذرة، والعسل، والفانيذ إلا أن يسكر منه فيحرم، وقال: إذا طبخ عصير العنب والرطب، حتى." (١)

"والأيمان: جمع يمين: وأصلها العضو، واستعملت في الحلف مجازا لما جرت عادة المتعاقدين بتصافح أيمانهم، واشتقاقها من اليمن، واليمين أيضا: اسم للجهة التي تكون من ناحية هذا العضو، فينتصب على الظرف، وكذلك اليسار، تقول: زيد يمين عمرو، وبكر يساره، وتجمع اليمين على «أيمن وأيمان» وهل المراد بالأيمان في الآية القسم نفسه، أو المقسم عليه؟ قولان، الأول أولى.

وقد تقدم تجويز الزمخشري أن يكون المراد به المحلوف عليه واستدلاله بالحديث والجواب عنه.

فصل

ذكر المفسرون في هذه الآية أقوالا كثيرة، وأجودها وجهان:

أحدهما: ما ذكره أبو مسلم الأصفهاني، وهو أن قوله: {ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم} نهي عن الجرأة على الله بكثرة الحلف به؛ وذلك لأنه من أكثر ذكر شيء في معنى من المعاني، فقد جعله عرضة له، فيقول الرجل: قد جعلتني عرضة للومك؛ قال الشاعر: [الطويل]

١٠٨٩ - ... ... ولا تجعلوني عرضة للوائم

وقد ذم الله تعالى من أكثر من الحلف بقوله: {ولا تطع كل حلاف مهين} [القلم: ١٠] ، وقال تعالى: {واحفظوا أيمانكم} [المائدة: ٨٩] والعرب كانوا يمدحون الإنسان بالإقلال من الحلف؛ كما قال كثير: [الطويل]

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٣٣/٤

١٠٩٠ – قليل الألايا حافظ ليمينه ... وإن سبقت منه الألية برت

والحكمة في الأمر بتقليل الأيمان؛ أن من حلف في كل قليل وكثير بالله، انطلق لسانه بذلك، ولا يبقى لليمين في قلبه وقع، فلا يؤمن إقدامه على الأيمان الكاذبة، فيختل ما هو الغرض من اليمين، وأيضا كلما كان الإنسان أكثر تعظيما لله – تعالى –، كان أكمل في العبودية، ومن كمال التعظيم أن يكون ذكر الله – تعالى – أجل وأعلى عنده، من أن يستشهد به في غرض من الأغراض الدنيوية.

فإن قيل: كيف يلزم من ترك الحلف حصول البر والتقوى، والإصلاح بين الناس؟

فالجواب: أن من ترك الحلف؛ لاعتقاده أن الله أعظم وأجل من أن يستشهد باسمه المعظم في طلب الدنيا، وخسائس مطالب الحلف، ولا شك أن هذا من أعظم أبواب البر.." (١)

"فالجواب من وجهين:

الأول: أنه – تعالى – لو ذكره بلفظ الأمر، لكان ذلك يوهم أنه لا يحصل المقصود، إلا إذا شرعت فيها بالقصد والاختيار، وعلى هذا التقدير: فلو مات الزوج، ولم تعلم المرأة حتى انقضت العدة، وجب ألا يكون ذلك كافيا في المقصود؛ لأنها إذا أمرت بذلك لم تخرج عن العهدة إلا إذا قصدت أداء التكليف، فلما ذكره بلفظ الخبر، زال ذلك الوهم، وعرف أنه متى انقضت هذه القروء، حصل المقصود سواء علمت بذلك أو لم تعلم، وسواء شرعت في العدة بالرضا أو بالغضب.

الثاني: قال الزمخشري: التعبير عن الأمر بصيغة الخبر يفيد تأكيد الأمر، والإشعار بأنه مما يجب أن يتعل بالمسارعة إلى امتثاله، فكأنهن امتثلن الأمر بالتربص، فهو يخبر عنه موجودا؛ ونظيره قولهم في الدعاء رحمك الله؛ أخرج في صورة الخبر ثقة بالإجابة، كأنها وجدت الرحمة فهو يخبر عنها.

فإن قيل: لو قال: «يتربص المطلقات» لكان ذلك جملة من فعل وفاعل، فما الحكمة من ترك ذلك، وعدوله عن الجملة الفعلية إلى الجملة الاسمية، وجعل المطلقات مبتدأ، ثم قوله: «يتربصن» إسناد للفعل إلى ضمير المطلقات، ثم جعل هذه الجملة خبرا عن ذلك المبتدأ.

قال الشيخ عبد القاهر الجرجاني في كتاب «دلائل الإعجاز» : إنك إذا قدمت الاسم، فقلت: زيد فعل، فهذا يفيد من التأكيد والقوة ما لا يفيد قولك: «فعل زيد» ؛ وذلك لأن قولك: «زيد فعل» قد يستعمل في أمرين:

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٤/٨٨

أحدهما: أن يكون لتخصيص ذلك الفعل بذلك الفاعل؛ كقولك: أنا أكتب في المهم الفلاني إلى السلطان، والمراد دعوى الإنسان الانفراد.

والثاني: ألا يكون المقصود الحصر، بل إن تقديم ذكر المحدث عنه بحديث كذا لإثبات ذلك الفعل له؛ كقولهم: «هو يعطي الجزيل» ولا يريد الحصر، بل أن يحقق عند السامع أن إعطاء الجزيل دأبه؛ وذلك مثل قوله تعالى: {والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئا وهم يخلقون} [النحل: ٢٠] ، وليس المراد تخصيص المخلوقية بهم، وقوله تعالى: {وإذا جآءوكم قالوا آمنا وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به} [المائدة: ٦١] ؛ وقول الشاعر: [الطويل]

١١٠٤ – هما يلبسان المجد أحسن لبسة ... شجيعان ما اسطاعا عليه كلاهما

والسبب في حصول هذا المعنى عند تقديم ذكر المبتدأ: أنك إذا قلت: «عبد الله» فقد أشعرت بأنك تريد الإخبار عنه، فيحصل في النفس شوق إلى معرفة ذلك، فإذا." (١)

"الثاني: أن التسريح بالإحسان: أن يترك مراجعتها حتى تبين بانقضاء العدة، وهو مروي عن الضحاك والسدي.

قال ابن الخطيب: وهو أقرب لوجوه:

أحدها: أن «الفاء» في قوله: «فإن طلقها» تقتضي وقوع هذه الطلقة متأخرة عن ذلك التسريح، فلو كان المراد بالتسريح هو الطلقة الثالثة، لكان قوله: فإن طلقها طلقة رابعة؛ وهو لا يجوز.

وثانيها: أنا إذا حملنا التسريح على ترك المراجعة، كانت الآية متناولة لجميع الأحوال؛ لأنه بعد الطلقة الثانية إما أن يراجعها وهو المراد بقوله: {فإمساك بمعروف} أو لا يراجعها، بل يتركها حتى تنقضي عدتها وتبين، وهو المراد بقوله: {أو تسريح بإحسان} أو يطلقها وهو المراد بقوله «فإن طلقها» ، فكانت الآية مشتملة على بيان كل الأقسام، وإذا جعلنا التسريح بالإحسان طلاقا آخر لزم ترك أحد الأقسام الثلاثة، ولزم التكرير في ذكر الطلاق، وهو غير جائز.

وثالثها: أن ظاهر التسريح هو الإرسال والإهمال، فحمله على ترك المراجعة أولى من حمله على التطليق.

ورابعها: أنه قال بعد ذلك التسريح: {ولا يحل لكم أن تأخذوا ممآ آتيتموهن شيئا} والمراد به الخلع، ومعلوم أنه لا يصح الخلع بعد التطليقة الثالثة، فهذه الوجوه ظاهرة، لو لم يثبت الخبر الذي رويناه، فإن صح

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ١١٢/٤

ذلك الخبر، فلا مزيد عليه.

فصل في الحكمة في الرجعة

والحكمة في إثبات حق الرجعة: أن الإنسان إذا كان مع صاحبه، لا يدري هل تشق عليه مفارقته أم لا؟ فإذا فارقه بعد ذلك يظهر، فلو جعل الله الطلقة الواحدة مانعة من الرجوع، لعظمت المشقة على الإنسان بتقدير أن تظهر المحبة بعد المفارقة مرتين، وعند ذلك تحصل التجربة، فإن كان الأصلح الإمساك، راجعها وأمسكها بالمعروف، وإن كان الأصلح التسريح، سرحها بإحسان.

فصل

واختلف العلماء إذا كان أحد الزوجين رقيقا:." (١)

"ابتداء الغاية، واللام للتبليغ، وحتى للتعليل، كذا قال أبو حيان، قال شهاب الدين: والظاهر أنها للغاية؛ لأن المعنى على ذلك، أي: يمتد عدم التحليل له إلى أن تنكح زوجا غيره، فإذا طلقها وانقضت عدتها منه حلت للأول المطلق ثلاثا، ويدل على هذا الحذف فحوى الكلام.

و «غيره» صفة ل «زوجا» ، وإن كان نكرة، لأن «غير» وأخواتها لا تتعرف بالإضافة؛ لكونها في قوة اسم الفاعل العامل.

و «زوجا» هل هو للتقييد أو للتوطئة؟ وينبني على ذلك فائدة، وهي أنه إن كان للتقييد: فلو كانت المرأة أمة، وطلقها زوجها، ووطئها سيدها، لم تحل للأول؛ لأنه ليس بزوج، وإن كانت للتوطئة حلت؛ لأن ذكر الزوج كالملغى، كأنه قيل: حتى تنكح غيره، وإنما أتى بلفظ «زوج» ؛ لأنه الغالب.

فإن قيل: ما الحكمة في إسناد النكاح إلى المرأة دون الرجل فقال {حتى تنكح زوجا} ؟

فالجواب: فيه فائدتان:

إحداهما: ليفيد أن المقصود من هذا النكاح الوطء، لا مجرد العقد؛ لأن المرأة لا تعقد عقد النكاح، بخلاف الرجل؛ فإنه يطلق عند العقد.

الثانية: لأنه أفصح، لكونه أوجز.

فإن قيل: فقد أسند النكاح إلى المرأة في قوله – عليه الصلاة والسلام –: «أيما امرأة نكحت نفسها بغير إذن وليها فنكاحها باطل» وإنما أراد العقد.

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٤/١٣٤

فالجواب: أن هذا يدل لنا؛ لأن جعل إسناد النكاح إلى المرأة، والمراد به العقد، يكون باطلا، وكلامنا في إسناد النكاح الصحيح.

قال أهل اللغة: النكاح في اللغة: هو الضم والجمع، يقال: تناكحت الأشجار، إذا انضم بعضها إلى بعض.

فصل

الذين قالوا: بأن التسريح بالإحسان هو الطلقة الثالثة، قالوا: إن قوله: {فإن طلقها} تفسير للتسريح بالإحسان.." (١)

"لأجل الرجل وعلى فراشه، وجب عليه رعاية مصالحه، [فنبه على أن سبب النسب، والالتحاق محدود بهذا القدر.

وثالثها: ذكر الوالد بلفظ «المولود [له] » تنبيها على أن نفقته عائدة إليه، فيلزمه رعاية مصالحه] كما قيل: كله لك، وكله عليك.

فإن قيل: فما الحكمة في قول موسى - عليه الصلاة والسلام - لأخيه: {قال يابنأم} [طه: ٩٤] ولم يذكر أباه.

فالجواب: أنه أراد بذكر الأم [أن] يذكر الشفقة فإن شفقة الأم أعظم من شفقة الأب.

فصل

اعلم أن الله تعالى كما وصى الأم برعاية جانب الطفل، في قوله: {والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين} - وصى برعاية جانب الأم، حتى تقوى على رعاية مصلحة الطفل، فأمره برزقها، وكسوتها بالمعروف، وهذا المعروف قد يكون محدودا بشرط وعقد، وقد يكون غير محدود إلا من جهة العرف لأنه إذا قام بما يكفيها من طعام وكسوتها، فقد استغنى عن تقدير الأجرة فإنه إن لم يقم بما يكفيها من ذلكن تضررت وضررها يتعدى إلى الود، ولما وصى الأم برعاية الطفل أولا ثم وصى الأب برعايته ثانيا، دل على أن احتياج الطفل إلى رعاية الأم أشد من احتياجه إلى رعاية الأب؛ لأنه ليس بين الطفل وبين رعاية الأم واسطة ألبتة؛ ورعاية الأب إنما تصل إلى الطفل بواسطة، فإنه يستأجر المرأة على رضاعته، وحضانته بالنفقة، والكسوة، وذلك يدل على أن حق الأم أكثر من حق الأب، والأخبار المطابقة لهذا المعنى كثيرة مشهورة.

قوله: {لا تكلف نفس} الجمهور على «تكلف» مبنيا للمفعول، «نفس» قائم مقام الفاعل، وهو الله

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ١٤٥/٤

تعالى، {وسعها} مفعول ثان، وهو استثناء مفرغ؛ لأن «كلف» يتعدى لاثنين. قال أبو البقاء: «ولو رفع الوسع هنا، لم يجز؛ لأنه ليس ببدل» .

وقرأ أبو جراء: «لا تكلف نفس» بفتح التاء، والأصل: «تتكلف» فحذفت إحدى التاءين؛ تخفيفا: إما الأولى، أو الثانية على خلاف في ذلك تقدم، فتكون «نفس» فاعلا، و «وسعها» مفعول به، استثناء مفرغا أيضا. وروى أبو الأشهب عن أبي رجاء أيضا: «لا يكلف نفسا» بإسناد الفعل إلى ضمير الله تعالى، فتكون «نفسا» و «وسعها» مفعولين.." (١)

"الفقير لا يملك شيئا، وكان في قلبه أنه لو قدر على الإنفاق لأنفق، وأعطى، فحينئذ تكون نيته قائمة مقام الإنفاق، فقد روي أنه عليه الصلاة والسلام قال: «من لم يكن عنده ما يتصدق به؛ فليلعن اليهود، فإنه له صدقة» .

فصل

قال القرطبي: وذكر القرض ها هنا إنما هو تأنيس، وتقريب للناس بما يفهمونه، والله هو الغني الحميد، لكنه تعالى شبه عطاء المؤمنين في الدنيا، بما يرجون به ثوابه في الآخرة بالقرض كما شبه إعطاء النفوس، والأموال في أخذ الجنة، بالبيع والشراء.

قوله تعالى: «حسنا» قال الواقدي: محتسب طيبة به نفسه.

وقال عمرو بن عثمان الصدفي: «لا يتبعه منا، ولا أذى» .

وقال سهل بن عبد الله: لا يعتقدث في قرضه عوضا.

واعلم: أن هذا الإقراض إذا قلنا: المراد به الإنفاق في سبيل الله، فهو يخالف القرض من وجوه:

الأول: أن القرض إنما يأخذه من يحتاج إليه لفقره، وذلك في حق الله تعالى محال.

الثاني: أن البدل في القرض المعتاد لا يكون إلا المثل، وفي هذا الإنفاق هو الضعف.

الثالث: أن المال الذي يأخذه المستقرض، لا يكون ملكا له، وها هنا المال المأخوذ ملك له، ومع هذه الفروق سماه الله تعالى قرضا، **والحكمة فيه** التنبيه على أن ذلك لا يضيع عند الله كما أن القرض يجب أداؤه، ولا يجوز الإخلال به، فكذا الثواب الواجب على هذا الإنفاق واصل إلى المكلف لا محالة.

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ١٧٥/٤

فصل

قال القرطبي: القرض: قد يكون بالمال، وقد بينا حكمه، كما قال عليه الصلاة." (١)

"والعام: مدة من الزمان معلومة، وعينه واو؛ لقولهم في التصغير: عويم، وفي التكسير: «أعوام» .

وقال النقاش: «هو في الأصل مصدر وسمي به الزمان؛ لأنه عومة من الشمس في الفلك، والعوم: هو السبح؛ وقال تعالى: {وكل في فلك يسبحون} [يس: ٤٠] فعلى هذا يكون العوم والعام كالقول والقال» .

فإن قيل: ما الحكمة في أن أماته الله مائة عام، مع أن الاستدلال بالإحياء بعد يوم، أو بعض يوم حاصل.

فالجواب: أن الإحياء بعد تراخي المدة أبعد في العقول من الإحياء بعد قرب المدة، وبعد تراخي المدة يشاهد منه، ويشاهد هو من غيره، ما هو عجب.

قوله: «ثم بعثه» ، أي: أحياه، ويوم القيامة يسمى يوم البعث؛ لأنهم يبعثون من قبورهم، وأصله: من بعثت الناقة، إذا أقمتها من مكانها.

فإن قيل: ما الحكمة في قوله - تبارك وتعالى - «ثم بعثه» ولم يقل: ثم أحياه؟

فالجواب: أن قوله: «بعثه» يدل على أنه عاد كما كان أولا: حيا، عاقلا، فاهما، مستعدا للنظر، والاستدلال، ولو قال: ثم أحياه، لم تحصل هذه الفوائد.

قوله: «كم» منصوب على الظرف، ومميزها محذوف تقديره: كم يوما، أو وقتا.

والناصب له «لبثت» ، والجملة في محل نصب بالقول، والظاهر أن «أو» في قوله: «يوما أو بعض يوم» بمعنى «بل» للإضراب، وهو قول ثابت، وقيل: هي للشك.

فصل

قال ابن الخطيب: من الخوارق ما يمكن في حالة، ومن الناس من يقول في قصة أهل الكهف، والعزير: إنه كذب على معنى وجود حقيقة الكذب فيه، ولكنه لا مؤاخذة به، وإلا فالكذب: الإخبار عن الشيء على خلاف ما هو عليه، وذلك لا يختلف بالعمل، والجهل؛ فعلى هذا يجوز أن يقال: إن الأنبياء لا يعصمون عن السهو والنسيان، والقول الأول أصح.

قوله: «قال بل لبثت» عطفت «بل» هذه الجملة على جملة محذوفة، تقديره: ما لبثت يوما أو بعض

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٤/٢٥٩

يوم، بل لبثت مئة عام. وقرأ نافع، وعاصم، وابن كثير: بإظهار الثاء في جميع القرآن الكريم، والباقون: بالإدغام.." (١)

"الوجوه عند السائل، والمسؤول؛ نحو قولك: كيف علم زيد؟ وكيف نسج الثوب؟ ونحو هذا: ومتى قلت: كيف ثوبك؟ وكيف زيد؟ فإنما للسؤال عن حال من أحواله، وقد تكون «كيف» خبرا عن شيء شأنه أن يستفهم عنه بكيف، نحو قولك: كيف شئت فكن، ونحو قول البخاري: «كيف كان بدء الوحي» ، و «كيف» في هذه الآية إنما هي استفهام عن هيئة الإحياء، والإحياء متقرر، ولكن لما وجدنا بعض المنكرين لوجود شيء، قد يعبرون عن إنكاره بالاستفهام عن حالة ذلك الشيء، يعلم أنها لا تصح؛ فيلزم من ذلك أن الشيء في نفسه لا يصح؛ مثاله أن يقول مدع أنا أرفع هذا الجبل، فيقول المكذب له: أرني كيف ترفعه فهذه طريقة مجاز في العبارة، ومعناها تسليم جدلي، كأنه يقول: افرض أنك ترفعه، فأرني كيف ترفعه فلما كان في عبارة الخليل – عليه الصلاة والسلام – هذا الاشتراك المجازي، خلص الله له ذلك، وحمله على أن بين له الحقيقة، فقال لله: «أو لم تؤمن؟ قال: بلى» فكمل الأمر، وتخلص من كل شك.

فإن قيل: ما الحكمة في أنه تعالى لم يسم عزيرا، بل قال: {أو كالذي مر على قرية} [البقرة: ٢٥٩] ، وها هنا سمى إبراهيم، مع أن المقصود في كلتا القصتين شيء واحد؟!

فالجواب: قال ابن الخطيب – رحمه الله –: والسبب فيه: أن عزيرا لم يحفظ الأدب، بل قال

{أنى

يحيي

هذه

الله بعد موتها} [البقرة: ٢٥٩] ولذلك جعل الإحياء، والإماتة في نفسه، وإبراهيم – عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام – حفظ الأدب، وراعاه؛ فقال أولا «رب» ثم دعا فقال: {أرني كيف تحيي الموتى} ولذلك جعل الإحياء، والإماتة في الطيور.

قوله: {قال أولم تؤمن} في هذه الواو وجهان:

أظهرهما: أنها للعطف قدمت عليها همزة الاستفهام، لأنها لها صدر الكلام والهمزة هنا للتقرير؛ لأن الاستفهام إذا دخل على النفي، قرره؛ كقول القائل: [الوافر]

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٤/٣٥٤

١٢١١ - ألستم خير من ركب المطايا ... وأندى العالمين بطون راح

و {ألم نشرح لك صدرك} [الشرح: ١] ، المعنى: أنتم خير، وقد شرحنا.

والثاني: أنها واو الحال، دخلت عليها ألف التقرير، قال ابن عطية؛ وفيه نظر من حيث إنها إذا كانت للحال، كانت الجملة بعدها في محل نصب، وإذا كانت كذلك، استدعت ناصبا، وليس ثم ناصب في اللفظ، فلا بد من تقديره؛ والتقدير «أسألت ولم تؤمن» ، فالهمزة في الحقيقة، إنما دخلت على العامل في الحال. وهذا ليس بظاهر، بل الظاهر الأول، ولذلك أجيبت ببلى، وعلى ما قال ابن عطية يعسر هذا المعنى.

وقوله: {بلى} جواب للجملة المنفية، وإن صار معناه الإثبات اعتبارا باللفظ لا." (١)

"فعنه جوابان:

أحدهما: أن ما سأله موسى لا يصح مع بقاء التكليف، وما سأله إبراهيم خاص يصح معه بقاء التكليف.

الثاني: أن الأحوال تختلف، فيكون الأصلح في بعض الأوقات الإجابة، وفي قوت آخر المنع، فيما لا يتقدم فيه إذن.

قال ابن عباس - رضي الله عنهما - أمر الله تعالى إبراهيم بهذا، قبل أن يولد، وقبل أن ينزل عليه الصحف.

فصل في الطير المأخوذة

قال مجاهد، وعطاء، وابن جريج: أخذ طاووسا، وديكا، وحمامة، وغرابا. ونقل عن ابن عباس: ونسرا بدل الحمامة. وقال عطاء الخراساني: بطة خضراء، وغرابا أسود، وحمامة بيضاء، وديكا أحمر «فصرهن» أي: قطعهن، ومزقهن، وقيل أملهن على ما تقدم.

فصل في **الحكمة في** نوع الطير وعدده

وها هنا سؤالات:

الأول: ما **الحكمة في** كونه أمره بأخذ أربعة من الطير، ولم يأمره بأكثر، ولا بأقل؟ {

الثاني: ما **الحكمة في** كونها من الطير، دون غيرها من الحيوان؟}

الثالث: هل كان من حيوان البحر، ثم الوحش، والطير وبهم الأنعام؟

الرابع: هل كان الأربعة كل واحد مخلوق من غالب عنصر من العناصر الأربعة، كالطير، مخلوق من غالب

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٤/٣٦٥

عنصر الهواء، والسمك مخلوق من غالب عنصر الماء، وحيوان البر مخلوق من غالب عنصر التراب، وسراج البحر، والدراج التي هي تطير بالليل كلها نار، والسمندل الذي يعيش في النار فإنهم مخلوقون من غالب عنصر النار.." (١)

"وقال مجاهد: هي القرآن، والعلم، والفقه، وروى ابن أبي نجيح عنه هي الإصابة في القول، والفعل.

وقال إبراهيم النخعي: هي معرفة معاني الأشياء، وفهمها.

وروي عن مقاتل، قال: تفسير الحكمة في القرآن على أربعة أوجه:

أحدها: مواعظ القرآن. قال: {ومآ أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به} [البقرة: ٢٣١] وفي النساء {وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة} [النساء: ١١٣] يعني المواعظ ومثلها في آل عمران.

وثانيها: الحكمة بمعنى: الفهم، والعلم قال {وآتيناه الحكم صبيا} [مريم: ١٢] وفي لقمان: {ولقد آتينا لقمان الحكمة} [لقمان: ١٢] يعني الفهم، والعلم، وفي الأنعام {أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة} [الأنعام: ٨٩] وفي «ص» {وآتيناه الحكمة} [ص: ٢٠] .

وثالثها: النبوة.

ورابعها: القرآن بما فيه من عجائب الأسرار، قال في النحل: {ادع إلى سبيل ربك بالحكمة} [النحل: ١٢٥] وفي هذه الآية {ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا} وعند التحقيق ترجع هذه الوجوه إلى العلم.

قال أبو مسلم: الحكمة: فعلة من الحكم، وهي كالنحلة: من النحل، ورجل حكيم إذا كان ذا حجى، ولب، وإصابة رأي وهو في هذا الموضع في معنى الفاعل، ويقال: أمر حكيم، أي: محكم.

قوله تعالى: {ومن يؤت الحكمة فقد أوتي} : الجمهور على «يؤتي» «ومن يؤت» بالياء فيهما، وقرأ الربيع بن خيثم: بالتاء على الخطاب فيهما. وهو خطاب للباري؛ على الالتفات.

وقرأ الجمهور: «ومن يؤت» مبنيا للمفعول، والقائم مقام الفاعل ضمير «من» الشرطية، وهو المفعول الأول فتكون في محل رفع، و «الحكمة» مفعول ثان.." (٢)

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٣٧٢/٤

(٢) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٤١٨/٤

"فأجابهم الله تعالى بقوله: {وأحل الله البيع وحرم الربا} ، وتوجيه هذا الجواب أن ما ذكرتم معارضة للنص بالقياس؛ وهو لا يجوز.

فصل في دفع شبهة لنفاة القياس

تمسك نفاة القياس بهذه الآية، فقالوا: لو كان الدين بالقياس، لكانت هذه الشبهة لازمة، فلما بطلت، علمنا أن الدين بالنص لا بالقياس.

وفرق القفال بينهما، فقال: من باع ثوبا يساوي عشرة بعشرين، فقد جعل ذات الثوب مقابلة بالعشرين، فلما حصل التراضي على هذا التقابل، صار كل واحد منهما مقابلا للآخر في المالية عندهما، فلم يكن أخذ من صاحبه شيئا بغير عوض. أما إذا باع العشرة بالعشرة، فقد أخذ العشرة الزائدة من غير عوض، ولا يمكن أن يقال: إن غرضه هو الإمهال في الأجل؛ لأن الإمهال ليس إلا مالا أو شيئا يشار إليه، حتى يجعله عوضا عن العشرة الزائدة؛ فافترقا.

فإن قيل: ما الحكمة في قلب هذه القضية؟ ومن حق القياس أن يشبه محل الخلاف بمحل الوفاق؛ لأن حل البيع متفق عليه، وهم أرادوا قياس الربا عليه؛ فكان نظم الكلام أن يقال: إنما الربا مثل البيع، فقلبه، وقال: {إنما البيع مثل الربا} ؟

فالجواب أنه لم يكن مقصود القوم أن يتمسكوا بنظم القياس، بل كان غرضهم أن البيع والربا متماثلان في جميع الوجوه المطلوبة، فكيف يجوز تخصيص أحد المثلين بالحل، والآخر بالحرمة، وعلى هذا التقدير: فأيهما قدم، أو أخر جاز.

قوله: {وأحل الله البيع} الظاهر أنه من كلام الله تعالى، أخبر بأنه أحل هذا، وحرم ذاك، وعلى هذا؛ فلا محل لهذه الجملة من الإعراب. وقال بعضهم: «هذه الجملة من تتمة قول الذين يأكلون الربا، فتكون في محل نصب بالقول؛ عطفا على المقول» وهو بعيد جدا، لأن القائل بأن هذا من كلام الكفار، لا يتم إلا بإضمار زيادة، إما بأن يحمل ذلك على الاستفهام؛ على سبيل الإنكار، أو يحمل ذلك على الرواية من قول المسلمين، والإضمار خلاف الأصل، وعلى الأول لا يحتاج إلى الإضمار، فكان أولى أيضا فإن المسلمين – أبدا – يتمسكون في جميع مسائل البيع بهذه الآية، ولو كان ذلك من كلام الكفار، لما جاز لهم الاستدلال به. وأيضا، فقوله بعده: {فمن جآءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف ... } إلى قوله:

{ ... خالدون} يقتضي أنهم لما تمسكوا بقولهم: {إنما البيع مثل الربا} فالله تعالى قد كشف عن فساد تلك الشبهة، وبين ضعفها، فلو لم." (١)

"وأيضا فإن الطيور لا تمر فوق الكعبة عند طيرانها في الهواء بل تنحرف عنه إذا وصلت إلى ما فوقه. وأيضا فالوحوش إذا اجتمعت عنده لا يؤذي بعضهم بعضا - كالكلاب والظباء - ولا يصطاد فيه الظباء الكلاب والوحوش، وتلك خاصية عظيمة، ومن سكن مكة أمن من النهب والغارة، بدعاء إبراهيم وقوله:

{رب

اجعل

هذا

البلد آمنا} [إبراهيم: ٣٥] ، وقال: {أولم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم} [العنكبوت: ٦٧] ، وقال: {رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف} [قريش: ٣ - ٤] .

وأيضا فالأشرم - صاحب الفيل - لما قاد الجيوش والفيل إلى الكعبة، وعجز قريش عن مقاومته، وفارقوا مكة وتركوا له الكعبة، فأرسل الله - تعالى - عليهم طيرا أبابيل، ترميهم بحجاة، والأبابيل: هم الجماعة من الطير بعد الجماعة، وكانت صغرا، تحمل أحجارا ترميهم بها، فهلك الملك والعسكر بتلك الأحجار - مع أنها كانت في غاية الصغر - وهذه آية باهرة دالة على شرف الكعبة.

فإن قيل: ما **الحكمة في** أن الله - تعالى - وضعها بواد غير ذي زرع؟

فالجواب من وجوه:

أحدها: أنه - تعالى - قطع بذلك رجاء أهل حرمه وسدنة بيته عمن سواه، حتى لا يتكلوا إلا على الله تعالى.

وثانيها: أنه لا يسكنها أحد من الجبابرة والأكاسرة، فإنهم يحبون طيبات الدنيا، فإذا لم يجدوها هناك تركوا ذلك الموضع، والمقصود تنزيه ذلك الموضع عن لوث وجود أهل الدنيا.

وثالثها: أنه فعل ذلك؛ لئلا يقصدها أحد للتجارة، بل يكون ذلك لمحض العبادة والزيارة.

ورابعها: أن الله - تعالى - أظهر بذلك شرف الفقر، حيث وضع أشرف البيوت، في أقل المواضع نصيبا من الدنيا، فكأنه قال: جعلت أهل الفقر في الدنيا أهل البلد الأمين، فكذلك أجعلهم في الآخرة أهل المقام

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٤/٤٥٢

الأمين، لهم في الدنيا بيت الأمن، وفي الآخرة دار الأمن.

فسل

للكعبة أسماء كثيرة:

أحدها: الكعبة، قال تعالى: {جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس} [المائدة: ٩٧] ، وهذا الاسم يدل على الإشراف والارتفاع، وسمي الكعب كعبا؛ لإشرافه على الرسغ، وسميت المرأة الناهدة الثديين كاعبا لارتفاع ثدييها، فلما كان هذا البيت أشرف." (١)

"قال الزمخشري: فإن قلت: كيف موقع قوله: {هم فيها خالدون} بعد قوله: {ففي رحمة الله} ؟ قلت: موقع الاستئناف، كأنه قيل: كيف يكونون فيها؟ فقيل: هم فيها خالدون، لا يظعنون عها، ولا يموتون.

فإن قيل: الكفار مخلدون في النار، كما أن المؤمنين مخلدون في الجنة، فما الحكمة في ذكر خلود المؤمنين ولم يذكر خلود الكافرين؟

فالجواب: أن ذلك يشعر بأن جانب الرحمة أغلب؛ لأنه ابتدأ بذكر أهل الرحمة، وختم بهم، لما ذكر العذاب لم يضفه إلى نفسه، بل قال: {فذوقوا العذاب} ، وأضاف ذكر الرحمة إلى نفسه، فقال: {ففي رحمة الله} ، ولما ذكر العذاب ما نص على الخلود، ونص عليه في جانب الرحمة، ولما ذكر العذاب علله بفعلهم، فقال: {فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون} ولما ذكر الثواب علله برحمته، فقال: {ففي رحمة الله} ثم قال - في آخر الآية -: {وما الله يريد ظلما للعالمين} [آل عمران: ١٠٨] ، وكل ذلك يشعر بأن جانب الرحمة مغلب.." (٢)

"فإن قيل: إنه عطف على حبل الله حبلا من الناس، وذلك يقتضي المغيرة.

فالجواب: قال بعضهم: حبل الله هو الإسلام، وحبل الناس هو العهد والذمة، وهذا بعيد؛ لأنه لو كان المراد ذلك، لكان ينبغي أن يقال: أو حبل من الناس.

وقال آخرون: المراد بكلا الحبلين: العهد والذمة والأمان، وإنما ذكر - تعالى - الحبلين؛ لأن الأمان المأخوذ من المؤمنين، هو الأمان المأخوذ بإذن الله تعالى.

قال ابن الخطيب: وهذا عندي - أيضا - شعيف، والذي عندي فيه أن الأمان للذمي قسمان:

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٤٠٢/٥

(٢) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٤٦٠/٥

أحدهما: الذي نص الله عليه، وهو أخذ الجزية.

الثاني: الذي فوض إلى رأي الإمام، فيزيد فيه تارة، وينقص بحسب الاجتهاد، فالأول: هو المسمى بحبل الله، والثاني: هو المسمى بحبل المؤمنين.

قوله: {وبآءوا بغضب من الله} تقدم أن معناه: مكثوا، ولبثوا، وداموا في غضب الله، مأخوذ من البوء – وهو المكان ومنه: تبوأ فلان منزل كذا – ومنه قوله تعالى: {والذين تبوءوا الدار} [الحشر: ٩] .

قوله: {وضربت عليهم المسكنة} .

قال الحسن، وأكثر المفسرين: المسكنة: الجزية؛ لأنه لم يستثنها، فدل ذلك على بقائها عليهم، والباقي عليهم ليس إلا الجزية.

وقال آخرون: المسكنة: هي أن اليهودي يظهر من نفسه الفقر، وإن كان موسرا.

وقال آخرون: هذا إخبار من الله بأنه جعل أموال اليهود رزقا للمسلمين، فيصيروا مساكين.

قوله: {ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبيآء بغير حق} بين العلة في إلصاق هذه الأمور المكروهة بهم، وتقدم الكلام على مثل ذلك في سورة البقرة.

فإن قيل: فما الحكمة في قوله: {ذلك بما عصوا} ، ولا يجوز أن يكون هذا التكرير للتأكيد؛ لأن التأكيد يجب أن يكون بشيء أقوى من المؤكد – والعصيان أقل حالا من الكفر – فلا يؤكد الكفر بالعصيان؟

فالجواب من وجهين:

الأول: أن علة الذلة، والغضب، والمسكنة، هي: الكفر، وقتل الأنبياء، وعلة الكفر وقتل الأنبياء هي: المعصية؛ لأنهم لما توغلوا في المعاصي والذنوب، وتزايدت." (١)

"فصل

في معنى الآية قولان:

الأول: ليس لك من مصالح عبادي شيء إلا ما أوحي إليك.

وثانيها: ليس لك في أن يتوب الله عليهم، ولا في أن يعذبهم شيء غلا إذا كان على وفق أمري، وهو كقوله: {ألا له الحكم} [الأنعام: ٦٢] ، واختلفوا في هذا المنع من اللعن، لأي معنى كان؟

فقيل: الحكمة فيه أنه – تعالى – ربما علم من حال بعض الكفار أنه يتوب، وأنه سيولد له ولد، يكون

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٥/٤٧٤

مسلما، برا، تقيا، فإذا حصل دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم عليهم بالهلاك، فإن قبلت دعوته فات هذا المقصود، وإن لم تقبل دعوته كان ذلك كالاستخفاف بالرسول صلى الله عليه وسلم ، فلأجل هذا المعنى منعه الله تعالى – من اللعن، وأمره بأن يفوض الكل إلى علم الله سبحانه وتعالى.

وقيل المقصود منه إظهار عجز العبودية وألا يخوض العبد في أسرار الله تعالى.

قوله: {أو يتوب} في نصبه أوجه:

أحدها: أنه معطوف على الأفعال المنصوبة قبله، تقديره: ليقطع، أو يتوب عليهم، أو يكبتهم، أو يعذبهم.

وعلى هذا فيكون قوله: {ليس لك من الأمر شيء} جملة معترضة بين المتعاطفين، والمعنى: إن الله تعالى هو المالك لأمرهم، فإن شاء قطع طرفا منهم، أو هزمهم، أو يتوب عليهم إن أسلموا ورجعوا، أو يعذبهم إن تمادوا على كفرهم، وإلى هذا التخريج ذهب جماعة من النحاة كالفراء، والزجاج.

الثاني: أن «أو» هنا بمعنى «إلا أن» كقولهم: لألزمنك أو تقضين حقي أي: إلا أن تقتضينه.

الثالث: «أو» بمعنى: «حتى» ، أي: ليس لك من الأمر شيء حتى يتوب وعلى هذين القولين فالكلام متصل بقوله: {ليس لك من الأمر شيء} ، والمعنى: ليس لك من الأمر شيء إلا أن يتوب عليهم بالإسلام، فيحصل لك سرور بهدايتهم إليه، أو يعذبهم بقتل، أو نار في الآخرة، فتشقى بهم، وممن ذهب إلى ذلك الفراء، وأبو بكر بن الأنباري، قال الفراء: ومثل هذا من الكلام: لألزمنك أو تعطيني، على معنى إلا أن تعطيني وحتى تعطيني وأنشدوا في ذلك قول امرئ القيس: [الطويل]

١٦١٣ – فقلت له: لا تبك عينك إنما ... تحاول ملكا، أو تموت، فنعذرا

أراد: حتى تموت، أو: إلا أن تموت.." (١)

"بالغيبة – إما على الرجوع على الكفار المتقدمين، وإما على الالتفات من خطاب المؤمنين.

فإن قيل: ههنا ثلاثة مواضع، تقدم الموت على القتل في الأول والأخير، وقدم القتل على الموت في المتوسط فما **الحكمة في** ذلك؟

فالجواب: ان الأول لمناسبة ما قبله، من قوله: {إذا ضربوا في الأرض أو كانوا غزى} فرجع الموت لمن ضرب في الأرض، والقتل لمن غزا، وأما الثاني فلأنه محل تحريض على الجهاد، فقدم الأهم الأشرف، وأما الأخير فلأن الموت أغلب.

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٥٣٠/٥

فإن قيل: كيف تكون المغفرة موصوفة بأنها خير مما يجمعون ولا خير فيما يجمعونه أصلا.

فالجواب: أن الذي يجمعونه في الدنيا قد يكون من الحلال الذي يعد خيرا، وأيضا هذا وارد على حسب قولهم ومعتقدهم أن تلك الأموال خيرات.

فقيل: المغفرة خير من هذه الأشياء التي تظنونها خيرات.

قوله: {ولئن متم أو قتلتم لإلى الله تحشرون} هذا الترتيب في غاية الحسن؛ فإنه قال في الآية الأولى: {لمغفرة من الله} وهذه إشارة إلى من عبده خوفا من عقابه، ثم قال: {ورحمة} وهو إشارة إلى من عبده لطلب ثوابه، ثم ختمها بقوله: {لإلى الله تحشرون} وهو إشارة إلى من عبده لمجرد لمجرد العبودية والربوبية، وهذا أعلى المقامات، يروى أن عيسى – عليه السلام – مر باقوام نحفت أبدانهم، واصفرت وجوههم، ورأى عليهم آثار العبادة، فقال: ماذا تطلبون؟ فقالوا: نخشى عذاب الله، فقال: هو أكرم من أن يمنعكم رحمته.

ثم مر بقوم، فرأى آثار العبودية عليهم أكثر، فسألهم: فقالوا: نعبده لأنه إلهنا، ونحن عبيده، لا لرغبة ولا لرهبة، فقال: أنتم العبيد المخلصون، والمتعبدون المحقون.

قوله: {لإلى الله} اللام جواب القسم، فهي داخلة على {تحشرون} و {وإلى الله} متعلق به، وإنما قدم للاختصاص، أي: إلى الله – لا إلى غيره – يكون حشركم، أو للاهتمام به، وحسنه كونه فاصلة، ولولا الفصل لوجب توكيد الفعل بالنون؛ لأن المضارع المثبت إذا كان مستقبلا وجب توكيده [بالنون] ، مع اللام، خلافا للكوفيين؛ حيث يجيزون التعاقب بينهما.

كقول الشاعر: [الكامل]." (١)

"واعلم أنه – تعالى – أجاب عن هذه الشبهة، فقال: {قد جآءكم رسل من قبلي بالبينات وبالذي قلتم فلم قتلتموهم إن كنتم صادقين} والمراد أسلافهم، فبين – بهذا الكلام – أنهم إنما يطلبون ذلك على سبيل التعنت، لا على وجه الاسترشاد، إذ لو لم يكن كذلك لما سعوا في قتلهم.

فإن قيل: لم قال: {قد جآءكم رسل} ولم يقل: جاءتكم رسل؟

فالجواب: أن فعل المؤنث يذكر إذا تقدمه جمع تكسير.

والمراد بقوله: {وبالذي قلتم} هو ما طلبوه منه، وهو القربان.

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ١٤/٦

فإن قيل: إن القوم إنما طالبوه بالقربان، فما الحكمة في أنه أجابهم بقوله: {قد جآءكم رسل من قبلي بالبينات} ثم أضاف إلى قوله: {وبالذي قلتم} وهو القربان؟

فالجواب: أن النبي صلى الله عليه وسلم لو قال لهم: إن الأنبياء المتقدمين أتوا بالقربان لم يلزم من ذلك وجوب الاعتراف بنبوتهم؛ لاحتمال أن الإتيان بهذا القربان شرط للنبوة، لا موجب لها، والشرط هو الذي يلزم من عدمه عدم المشروط لكن لا يلزم من وجوده وجود المشروط، فثبت أنه لو اكتفى بهذا القدر لما كان الإلزام واردا عليهم، فلما قال: {قد جآءكم رسل من قبلي بالبينات وبالذي قلتم} كان الإلزام واردا عليهم؛ لأنهم لما أتوا بالبينات فقد أتوا بالموجب للصدق، ولما أتوا بالقربان فقد أتوا بالشرط، فعند الإتيان بهما وجب الإقرار بالنبوة.

قال القرطبي: في معنى الآية -: «قل» يا محمد «قد جاءكم» يا معشر اليهود {رسل من قبلي بالبينات وبالذي قلتم} من القربان «فلم قتلتموهم» يعني زكريا ويحيى وشعيبا وسائر من قتلوا من الأنبياء - عليهم السلام - ولم يؤمنوا بهم.

أراد بذلك أسلافهم. وهذه الآية هي التي تلاها عامر الشعبي، واحتج بها على الذي حسن قتل عثمان - رضي الله عنه - وأن الله تعالى سمي اليهود - لرضاهم بفعل أسلافهم - وإن كان بينهم نحو من سبعمائة سنة.." (١)

"فإن قيل: حظ الأنثيين الثلثان فقوله {للذكر مثل حظ الأنثيين} يقتضي أن يكون حظ الذكر مطلقا هو الثلث، وذلك ينفي أن يأخذ المال كله.

فالجواب: أن المراد منه حال الاجتماع لا حال الانفراد؛ لأن قوله {يوصيكم الله في أولادكم} يقتضي حصول الأولاد، وقوله: {للذكر مثل حظ الأنثيين} يقتضي حصول الذكر والأنثى هناك، هذا كله إذا كان ابنا واحدا فقط، فلو كان أكثر من واحد تشاركوا في جهة الاستحقاق؛ ولا رجحان، فوجب قسم المال بينهم بالسوية، والله أعلم.

فإن قيل: إن المرأة أكثر عجزا من الرجل، وأقل اقتدارا من الرجل لعجزها عن الخروج والبروز، فإن زوجها وأقاربها يمنعونها من ذلك، ولنقصان عقلها وكثرة اختداعها واغترارها، وإذا ثبت أن عجزها أكمل، وجب أن يكون نصيبها من الميراث أكثر، فإن لم يكن أكثر فلا أقل من المساواة، فما الحكمة في أنه تعالى

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٦/٩٥

جعل نصيبها نصف نصيب الرجل؟ .

فالجواب: لأن خرج المرأة أقل، لأن زوجها ينفق عليها وخرج الرجل أكثر، لأنه هو المنفق على زوجته ومن كان خرجه أكثر فهو إلى المال أحوج؛ ولأن الرجل أكمل حالا من المرأة في الخلقة وفي العقل والمناصب الدينية، مثل صلاحية القضاء والإمامة، وأيضا شهادة المرأة نصف شهادة الرجل، ومن كان كذلك؛ وجب أن يكون الإنعام إليه أكثر؛ ولأن المرأة قليلة العقل كثيرة الشهوة، فإذا انضاف إليها المال الكثير عظم الفساد، ولهذا قال الشاعر: [الرجز]

١٧٦٤ - إن الفراغ والشباب والجده ... مفسدة للمرء أي مفسده

وروي أن جعفر الصادق سئل عن هذه الآية فقال: «إن حواء أخذت حفنة من الحنطة وأكلتها وأخذت حفنة أخرى وخبأتها ثم أخذت حفنة أخرى ودفعتها إلى آدم، فلما جعلت نصيبها ضعف نصيب الرجل أقلب اللہ الأمر عليها فجعل نصيب المرأة نصف نصيب الرجل» .

فإن قيل: لم لم يقل للأنثيين مثل حظ الذكر، أو للأنقى مثلا حظ الذكر؟

فالجواب أنه لما كان الذكر أفضل من الأنثى قدم ذكره على كر الأنثى كما جعل نصيبه ضعف نصيب الأنثى، ولأن قوله {للذكر مثل حظ الأنثيين} يدل على فضل الذكر بالمطابقة، وعلى نقص الأنثى بالالتزام، ولو قال كما ذكرتم لدل على نقص الأنثى بالمطابقة وفضل الذكر بالالتزام، فرجح الطرف الأول تنبيها على أن السعي." (١)

"وناقشه أبو حيان في جعله {لأبويه} الخبر دون قوله: {لكل واحد} قال: «لأنه ينبغي أن يكون البدل هو الخبر دون المبدل منه» يعني: أن البدل هو المعتمد عليه، والمبدل منه صار في حكم المطرح، ونظره بقولك: «إن زيدا عينه حسنة» فكما أن «حسنة» خبر عن «عينه» دون «زيد» في حكم المطرح فكذلك هذا، ونظره أيضا بقولك: [أبواك لكل واحد منهما يصنع كذا ف «يصنع» خبر عن كل واحد منهما.

ولو قلت: «أبواك كل واحد منهما يصنع كذا» لم يجز.

وفي هذه المناقشة نظر، لأنه إذا قيل لك: ما محل لأبويه من الإعراب؟ تضطر إلى أن تقول: في محل رفع خبرا مقدما، ولكنه نقل نسبة الخيرية إلى {لكل واحد منهما} دون {لأبويه} قال: وقال بعضهم:

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٢١٢/٦

{السدس} رفع بالابتداء، و {لكل واحد} الخبر و {لكل} بدل من الأبوين، و «منهما» نعت لواحد، وهذا البدل هو بدل بعض من كل، ولذلك أتى معه بالضمير، ولا يتوهم أنه بدل شيء من شيء وهما لعين واحدة لجواز أبواك يصنعان كذا وامتناع أبواك كل وتجد منهما يصنعان كذا، بل تقول: يصنع. انتهى.

والضمير في «لأبويه» عائد على ما عاد عليه الضمير في «ترك» ، وهو الميت المدلول عليه بقوة الكلام، والتثنية في «أبويه» من التغليب، والأصل: لأبيه وأمه وإنما غلب المذكر على المؤنث كقولهم: «القمران، والعمران» وهي تثنية لا تنقاس.

فصل

إذا كان مع الأبوين ولد أو أكثر كان لكل واحد منهما السدس وسوى الله بين الأب والأم في هذا الموضع؛ لأن الأب وإن كان يستوجب التفضيل لما كان ينفقه على الابن، وبنصرته له والذب عنه صغيرا، فالأم أيضا حملته كرها ووضعته كرها؛ وكان بطنها له وعاء، وثديها له سقاء، وحجرها له فناء فتكافأت الحجتان، فلذلك سوى بينهما، فإن كانت بنتا واحدة وبنت ابن فللبنت النصف وللأم السدس وللأب ما بقي، وهو الثلث [نصف بفرضه، وهو السدس] وباقيه بالتعصيب فإن قيل: حق الأبوين على الإنسان أعظم من حق ولده عليه، لأن الله تعالى قرن طاعته بطاعتهما فما الحكمة في جعل نصيب الأولاد أكبر؟ .

فالجواب: أن الوالدين ما بقي من عمرهما إلا القليل، فكان احتياجهما إلى المال قليلا، وأما الأولاد فهم في زمن الصبا، فكان احتياجهم إلى المال أكثر [فظهر الفرق] .." (١)

"وقال عليه الصلاة والسلام: «أرأيت لو كان على أبيك دين» وقال عليه السلام: «دين الله أحق أن يقضى» .

قوله: {وصية} في نصبها أربعة أوجه:

أحدها: أنه مصدر مؤكد، أي: يوصيكم الله [بذلك] وصية.

الثاني: أنها مصدر في موضع الحال، والعامل فيها {يوصيكم الله} قاله ابن عطية.

والثالث: أنها منصوبة على الخروج إما من قوله: {فلكل واحد منهما السدس} ، أو من قوله: {لك فهم شركآء في الثلث} ، وهذه عبارة تشبه عبارة الكوفيين.

والرابع: أنها منصوبة باسم الفاعل وهو {مضآر} والمضارة لا تقع بالوصية بل بالورثة، لكنه لما وصى الله

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٦/٢١٥

– تعالى – بالورثة جعل المضارة الواقعة بهم كأنها واقعة بنفس الوصية مبالغة في ذلك، ويؤيد هذا التخريج قراءة الحسن: {غير مضآر وصية من الله والله} بإضافة اسم الفاعل إليها على ما ذكرناه من المجاز، وصار نظير قولهم: «يا سارق الليلة» ، التقدير: غير مضار في وصية من الله، فاتسع في هذا إلى أن عدي بنفسه من غير واسطة، لما ذكرنا من قصد المبالغة، وهذا أحسن تخريجا من تخريج أبي البقاء فإنه ذكر في تخريج قراءة الحسن وجهين:

أحدهما: أنه على حذف «أهل» أو «ذي» أي: غير مضار أهل وصية، أو ذي وصية.

والثاني: على حذف وقت، أي: وقت وصية، قال وهو من إضافة الصفة إلى الزمان، ويقرب من ذلك قولهم: هو فارس حرب، أي: فارس في الحرب، وتقول: هو فارس زمانه، أي: فارس في زمانه، كذلك تقدير القراءة: غير مضار في وقت الوصية.

ومفعول {مضآر} محذوف إذا لم تجعل {وصية} مفعولة، أي: غير مضار ورثته بوصية.

فإن قيل: ما الحكمة في أنه ختم الآية الأولى بقوله: «فريضة من الله والله عليم حليم» وختم هذه الآية بقوله: «وصية من الله» ؟ فالجواب: أن لفظ الفرض أقوى وأؤكد من لفظ الوصية، فختم شرح ميراث الأولاد بذكر الفريضة، وختم شرح ميراث الكلالة بالوصية ليدل بذلك على أن الكل، وإن كان واجب الرعاية، إلا أن رعاية حال الأولاد." (١)

"قال أبو مسلم: يدل على صحة ما ذكرنا قوله صلى الله عليه وسلم : «إذا أتى الرجل الرجل فهما زانيان، وإذا أتت المرأة المرأة فهما زانيتان» . واحتجوا على إبطال كلام أبي مسلم بوجوه:

الأول: أن هذا قول لم يقله أحد من المفسرين المتقدمين.

الثاني: أنه روي في الحديث أنه عليه السلام قال: «قد جعل الله لهن سبيلا الثيب ترجم والبكر تجلد» وهذا يدل على أن هذه الآية نازلة في حق الزناة.

الثالث: أن الصحابة اختلفوا في حكم اللواط، ولم يتمسك أحد منهم بهذه الآية، فعدم تمسكهم بها مع شدة احتياجهم إلى نص يدل على هذا الحكم من أقوى الدلائل على أن هذه الآية ليست في اللواطة.

وأجاب أبو مسلم عن الأول بأن هذا الإجماع ممنوع، فلقد قاتل بهذا القول مجاهدق، وهو من أكابر المفسرين، وقد ثبت في أصول الفقه أن استنباط تأويل جديد في الآية لم يذكره المتقدمون جائز.

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٢٣١/٦

والجواب عن الثاني أن هذا يفضي إلى نسخ القرآن بخبر الواحد، وإنه غير جائز.
وعن الثالث أن مطلوب الصحابة أنه هل يقام الحد على اللوطي وليس في هذه الآية دلالة على نفي ولا إثبات فلهذا لم يرجعوا إليها.

فصل

المراد من قوله: {من نسآئكم} أي: زوجاتكم لقوله: {والذين يظاهرون من نسآئهم} [المجادلة: ٣] وقوله: {فإن لم تكونوا دخلتم بهن} [النساء: ٢٣] [من نسائكم] وقيل: أي: من الثيب. وقوله: «فأمسكوهن» أي احبسوهن في بيوتكم، **والحكمة فيه** أن المرأة إنما تقع في الزنا عند الخروج والبروز، فإذا حبست في البيت لم تقدر على الزنا، وتعتاد العفاف عن الزنا.

قل عبادة بن الصامت والحسن ومجاهد: كان هذا في ابتداء الإسلام حتى نسخ بالإذى الذي بعده، ثم نسخ ذلك بالرجم في الثيب.." (١)

"وأن التقدير: ومن لم يستطع منكم [طولا] أن ينكح المحصنات المؤمنات فلينكح بعضكم من بعض الفتيات، فبعضكم فاعل ذلك [الفعل] المقدر، فعلى هذا يكون قوله {والله أعلم بإيمانكم} معترضا بين ذلك الفعل المقدر وفاعله، ومثل هذا لا ينبغي أن يقال.

فصل

قال ابن عباس: يريد بقوله {فمن ما ملكت أيمانكم} أي: فليتزوج جارية أخيه، فإن الإنسان لا يجوز له أن يتزوج بجارية نفسه، والفتيات المملوكات جمع فتاة تقول العرب للأمة: فتاة، وللعبد: فتى، قال عليه السلام: «لا يقولن أحدكم عبدي، ولا أمتي، ولكن ليقل فتاي وفتاتي» ويقال للجارية الحديثة: فتاة، والغلام، فتى، والغلام، فتى، والأمة تسمى فتاة.

قوله: «والله أعلم بإيمانكم» جملة من مبتدأ وخبر جيء بها بعد قوله {من فتياتكم المؤمنات} لتفيد أن الإيمان الظاهر كاف في نكاح الأمة المؤمنة ظاهرا ولا يشترط في ذلك أن يعلم إيمانها يقينا، فإن ذلك لا يطلع عليه إلا الله تعالى، وفيه تأنيس أيضا بنكاح الإماء، فإنهم كانوا يفرون من ذلك.

قال الزجاج: «المعنى: احملوا فتياتكم على ظاهر الإيمان، والله أعلم بالسرائر» .

قوله تعالى: {بعضكم من بعض} مبتدأ وخبر أيضا، جيء بهذه الجملة أيضا تأنيسا بنكاح الأمة [كما

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٦/٢٤١

تقدم، والمعنى: أن بعضكم من جنس بعض في النسب والدين، فلا يدفع الحر عن نكاح الأمة، عند الحاجة إليه، وما أحسن قول أمير المؤمنين علي رضي الله عنه] : [البسيط]

١٧٨٦ - والناس من جهة التمثيل أكفاء ... أبوهم آدم والأم حواء

والحكمة في ذكر هذه الكلمة أن العرب كانوا يتفاخرون بالأنساب، فأخبر تعالى أن ذلك لا يلتفت إليه؛ لأن الإيمان أعظم الفضائل، وإذا حصل الاشتراك فيه فلا يلتفت إلى ما وراء ذلك.." (١)

"كثيرة] ، فلما لم يكن المراد إن تجتنبوا الكفر بأنواعه، يغفر لكم ما وراءه، وهذا احتمال ظاهر مطابق لقوله تعالى: {إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشآء} [النساء: ٤٨] ، سقط استدلالهم بذلك.

فصل

قال القرطبي: قال الأصوليون: لا يجب القطع بتكفير الصغائر باجتناب الكبائر، وإنما محمل ذلك على غلبة الظن، وقوة الرجاء، والمشيئة ثابتة، ودل على ذلك: أنا لو قطعنا لمجتنب الكبائر، وممتثل الفرائض، تكفير صغائره قطعا؛ لكانت له في حكم المباح الذي يقطع بأن أتباعه عليه، وذلك نقض لعرى الشريعة، ولا صغيرة عندنا.

قال القشيري: والصحيح أنها كبائر ولكن بعضها أعظم وقعا من بعض، **والحكمة في** عدم التمييز أن يجتنب العبد جميع المعاصي.

قال القرطبي: وأيضا من نظر إلى بعض المخالفة كما قال بعضهم: لا تنظر إلى صغر الذنب، ولكن انظر من عصيت [فإن كان الأمر كذلك] كانت الذنوب بهذه النسبة كلها كبائر، وعلى هذا النحو يخرج كلام القشيري، وأبي إسحاق الإسفراييني والقاضي أبي بكر بن الطيب قالوا: وإنما يقال لبعضها صغيرة بالإضافة إلى ما هو أكبر منها كما يقال: الزنا صغيرة بإضافته إلى الكفر، والقبلة المحرمة صغيرة بالنسبة إلى الزنا، ولا ذنب عندنا يغفر باجتناب ذنب آخر، بل كل ذنب كبيرة ومرتكبه في المشيئة، غير الكفر لقوله تعالى {إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشآء} [النساء: ٤٨] قالوا: هذه الآية يرد إليها جميع الآيات المطلقة، يزيد عليها قوله عليه السلام: «من اقتطع حق امرىء مسلم بيمينه فقد أوجب الله له النار وحرم عليه الجنة فقال رجل: يا رسول الله، وإن كان شيئا يسيرا فقال: وإن كان قضيبا من أراك»

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٣٢٢/٦

، فقد جاء الوعيد الشديد على اليسير، كما جاء على الكثير.
وقال عبد الله بن [مسعود: «ما نهى الله عنه في تلك السورة إلى قوله: {إن تجتنبوا كبآئر ما تنهون عنه} فهو كبيرة.
وقال [علي] بن] أبي طلحة: الكبيرة: كل ذنب ختمه الله بنار، أو غضب، أو." [1]
"١٩٦٦ - هما نفثا في في من فمويهما ... على النابح العاوي أشد رجام
بخلاف الإفراد فإنه ورد في فصيح الكلام، ومنه: «مسح أذنيه ظاهرهما وباطنهما» .
وقال بعضهم: الأحسن الجمع، ثم التثنية، ثم الإفراد كقوله: [الطويل]
١٩٦٧ - حمامة بطن الواديين ترنمي ... سقاك من الغر الغوادي مطيرها
وقال الزمخشري: أيديهما: يديهما، ونحوه: {فقد صغت قلوبكما} [التحريم: ٤] اكتفى بتثنية المضاف إليه عن تثنية المضاف، وأريد باليدين اليمنيان بدليل قراءة عبد الله: «والسارقون والسارقات فاقطعوا أيمانهم» ورد عليه أبو حيان بأنهما ليسا بشيئين، فإن النوع الأول مطرد فيه وضع الجمع موضع التثنية، بخلاف الثاني فإنه لا ين ْقاس، لأن المتبادر إلى الذهن من قولك: «قطعت آذان الزيدين» : «أربعة الآذان» وهذا الرد ليس بشيء؛ لأن الدليل دل على أن المراد اليمنيان.
فصل من أول من قطع في حد السرقة؟
قال القرطبي: أول من حكم بقطع [اليد] في الجاهلية ابن المغيرة، فأمر الله بقطعه في الإسلام، فكان أول سارق قطعه رسول الله - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - في الإسلام، من الرجال الخيار بنش عدي بن نوفل بن عبد مناف ومن النساء مرة بنت سفيان من بني مخزوم، وقطع أبو بكر - رضي الله عنه - يد الفتى الذي سرق العقد، وقطع عمر - رضي الله عنه - يد ابن سمرة أخي عبد الرحمن بن سمرة.
فصل لماذا بدأ الله بالسارق في الآية؟
قال القرطبي: بدأ الله بالسارق في هذه الآية قبل السارقة، وفي الزّ ِنا بدأ بالزانية، والحكمة في ذلك أن يقال: لما كان حب المال على الرجال أغلب، وشهوة الاستمتاع على النساء أغلب بدأ بهما في الموضعين.
قوله تعالى: «جزاء» فيه أربعة أوجه:
أحدها: أنه منصوب على المصدر بفعل مقدر، أي: جازوهما جزاء.

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٣٤٧/٦

الثاني: أنه مصدر [أيضا] لكنه منصوب على معنى نوع المصدر؛ لأن قوله: «فاقطعوا» في قوة: جازوهما بقطع الأيدي جزاء.." (١)

"في الترهب فقال: إن ترهب أمتي الجلوس في المساجد، وانتظار الصلاة» .

وعلى هذا ظهر وجه النظم بين هذه الآية، وبين ما قبلها، وذلك أنه تعالى مدح النصارى، بأن منهم قسيسين ورهبانا، وعادتهم الاحتراز عن طيبات الدنيا ولذاتها، فلما مدحهم أوهم ذلك المدح ترغيب المسلمين في مثل تلك الطريقة، فذكر تعالى عقيبه هذه الآية، إزالة لذلك الوهم؛ ليظهر للمسلمين أنهم ليسوا مأمورين بتلك الطريقة؛ والله أعلم.

فإن قيل: ما الحكمة في هذا النهي؟ ومن المعلوم أن حب الدنيا مستول على الطباع والقلوب، فإذا توسع الإنسان في اللذات والطيبات: اشتد ميله إليها وعظمت رغبته فيها، وكلما أكثر التنعيم ودام كان ذلك الميل أقوى وأعظم، وكلما ازداد الميل قوة ورغبة، ازداد حرصه في طلب الدنيا، واستغراقه في تحصيلها، وذلك يمنعه عن الاستغراق في معرفة الله – تعالى – وطاعته، ويمنعه عن طلب سعادات الآخرة، وأما إذا أعرض عن." (٢)

"لذات الدنيا وطيباتها، فكلما كان ذلك الإعراض أتم وأدوم، كان ذلك الميل أضعف، وحينئذ تتفرغ النفس لطلب معرفة الله تعالى، والاستغراق في خدمته، وإذا كان الأمر كذلك فما الحكمة في نهي الله تعالى عن الرهبانية؟ .

فالجواب من وجوه:

الأول: أن الرهبانية المفرطة، والاحتراز التام عن الطيبات واللذات، مما يوقع الضعف في الأعضاء الرئيسية – التي هي القلب والدماغ –، وإذا وقع الضعف فيهما اختلت الفكرة وتشوش العقل.

ولا شك أن أكمل السعادات وأعظم القربات، إنما هو معرفة الله سبحانه وتعالى، فإذا كانت الرهبانية الشديدة مما يوقع الخلل في ذلك، لا جرم وقع النهي عنه.

الثاني: سلمنا أن اشتغال النفس باللذات يمنعها عن الاشتغال بالسعادات العقلية، ولكن في حق النفوس الضعيفة أما النفوس المستعلية الكاملة، فإنه لا يكون اشتغالها في اللذات الحسية مانعا من الاشتغال

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٣٢٤/٧

(٢) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٤٩٠/٧

بالسعادات العقلية، فإنا نشاهد بعض النفوس قد تكون ضعيفة، بحيث متى اشتغلت بمهم امتنع عليها الاشتغال بمهم آخر، وكلما قويت النفس كانت هذه الحالة أكمل، وإذا كان كذلك، فالمراد الكمال في الوفاء بالجهتين.

الثالث: أن من استوفى اللذات الحسية، وإن غرضه بذلك الاستعانة على استيفاء اللذات العقلية، فإن مجاهدته أتم من مجاهدة من أعرض عن اللذات الحسية.

الرابع: أن الرهبانية مع المواظبة على المعرفة والمحبة والطاعة، فإنه عمارة الدنيا والآخرة، فكانت هذه الحال أكمل القول.

الثاني في تفسير هذه الآية ذكره القفال -[رحمه الله]- وهو أنه تعالى قال في أول السورة:

{أوفوا

بالعقود

} [المائدة: ١] فبين أنه لا يجوز استحلال المحرم، كذلك لا يجوز تحريم المحلل، وكانت العرب تحرم من الطيبات ما لم يحرمه الله تعالى، وهو: البحيرة، والسائبة، والوصيلة، والحام، وكانوا يحللون الميتة والدم وغيرهما، فأمر الله تعالى أن لا يحرموا ما أحله الله، ولا يحللوا ما حرمه الله، حتى تدخلوا تحت قوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود} [المائدة: ١] .

فقوله تعالى: {لا تحرموا طيبات مآ أحل الله لكم} يحتمل وجوها:

الأول: ألا تعتقدوا تحريم ما أحل الله لكم.

وثانيها: لا تظهروا باللسان تحريم ما أحل الله لكم.." (١)

"أحدهما: إن قلنا: إن الظلمات هي الكفر، والنور هو الإيمان فظاهر؛ لأن الحق واحد، والباطل كثير.

وإن قلنا: إن الظلمة الكيفية المحسوسة، فالنور [عبارة] عن تلك الكيفية الكاملة القوية وكذلك الظلمة الكاملة القوية، ثم إنها التناقض [قليلا] وتلك المراتب كثيرة، فلهذا عبر عن الظلمات بصيغة الجمع.

وثانيها: أن النور من جنس واحد، وهو النار، والظلمات كثيرة، فإن ما من جرم إلا وله ظل وظلمة.

وثالثها: أن الصلة التي قبلها تقدم فيها جمع ثم مفرد، فعطفت هذه عليها كذلك، وقد تقدم في «البقرة»

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٤٩١/٧

الحكمة في جمع السماوات، وإفراد الأرض.

فإن قيل: لم قدمت الظلمات [على النور] في الذكر؟ .

فالجواب: لأنه موافق في الموجود؛ إذا الظلمة قبل النور عند الجمهور.

فصل في المراد بالظلمات والنور

قال الواقدي: كل ما في القرآن من الظلمات والنور هو الكفر والإيمان، إلا في هذه الآية، فإنه يريد به الليل والنهار.

وقال الحسن: المراد الكفر والإيمان.

وقيل: المراد بالظلمات الجهلن وبالنور العلم.

وقال قتادة: يعني الجنة والنار.." (١)

"أما قول أبي حيان: «وإنما قلق عند ابن عطية؛ لأنه أراد بقاء» أن أقيموا «على معناها من موضوع الأمر» ، فليس القلق عنده لذلك فقط كما حصره الشيخ، بل لأمر آخر من جهة اللفظ، وهو أن السياق التركيبي يقتضي لعى ما قاله الزجاج أن يكون «لنسلم وأن نقيم» ، فتأتي في الفعل الثاني بضمير المتكلم، فلما لم يقل ذلك قلق عنده، ويدل على [ما ذكرته] قول ابن عطية: «بمعنى: ولنقم ثم خرجت بلفظ الأمر» إلى آخره.

والخامس: أنه محمول على المعنى؛ إذا المعنى قيل لنا: أسلموا وأن أقيموا.

وقال الزجاج: فإن قيل: كيف حسن عطف قوله: «وأن أقيموا الصلاة واتقوه» على قوله «وأمرنا لنسلم لرب العالمين» ؟

فالجواب من وجهين:

الأول: أن يكون التقدير: وأمرنا لنسلم لرب العالمين، ولأن نقيم الصلاة.

الثاني: أن يكون التقدير: وأمرنا فقيل لنا أسلموا لرب العالمين، وأقيموا الصلاة.

فإن قيل: هب أن المراد ما ذكرتم، لكن ما الحكمة في العدول عن هذا اللفظ الظاهر، والتركيب الموافق للعقل إلى ذلك اللفظ الذي لا يهتدي العقل إلى معناه، إلا بالتأويل؟! .

فالجواب: لأن الكافر ما دام [يبقى] على كفره كان كالغائب الأجنبي، فلا جرم خوطب بخطاب الغائبين،

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ١١/٨

فيقال له: «وأمرنا لنسلم لرب العالمين» فإذا أسلم [وآمن] ودخل في الإيمان صار كالقريب الحاضرن فلا جرم خوطب بخطاب الحاضرين، ويقال له «وأن أقيموا الصلاة وأتقو» فالمقصود من ذكر هذهين النوعين من الخطاب للتنبيه على الفرق بين حالتي الكفر والإيمان، وتقريره أن الكافر بعيد غائب، والمؤمن قريب حاضر.

فصل في أنه لا هدى إلا هدى الله

اعلم أن الله – تعالى – لما بين أولا أن الهدى النافع هو هدى اللهن أردف ذلك الكلام الكلي بذكر أشرف أقسامه على الترتيين وهو الإسلام، وهو رئيس الطاعات الروحانية، والصلاة التي هي رئيسة الطاعات الجسمانية، والتقوى التي هي رئيسة باب التروك والاحتراز عن كل ما لا ينبغي، ثم بين منافع هذه الأعمالن فقال: «وهو الذي إليه تحشرون» يعني أن منافع هذه الأعمال إنما تظهر في يوم الحشر.." (١)

"وذكر العنب عقيب النخل؛ لأن العنب أشرف أنواع الفواكه؛ لأنه أول ما يظهر يصير منتفعا به إلى آخر الحال، فأول ما يظهر على الشجر خيوط خضر رقيقة حامضة الطعم لذيذة، وقد يمكن اتخاد الصبائغ منه، ثم يظهر بعده الحصرم، وهو طعام شريف للأصحاء والمرضى، وقد يتخذون من الحصم أشربة لطيفة المذاق نافعة لأصحاب الصفراء، وقد يتخذ الطبيخ منه، لأنه ألذ الطبائخ الحامضة، ثم إذا تم العنب فهو ألذ الفواكه [وأشهاها فيمكن ادخار العنب المعلق سننة أو أكثر وهو ألذ الفواكه] المدخرة، ثم يخرج منه أربعة أنواع من المتناولات: وهي الزبيب والدبس والخمر والخل، ومنافع هذه الأربع لا تنحصر إلا من مجلدات والخمر فإن كان الشرع قد حرمها، ولكنه تبارك وتعالى قال في صفتها:

{ومنافع للناس} [البقرة: ٢١٩] ثم قال: {وإثمهمآ أكبر ِ من نفعهما} [البقرة: ٢١٩] والأطباء يتخذون من عجمه جوارشات عظيمة النفع للمعدة الضعيفة الرطبة، فتبين أن العنب كأنه سلطان الفواكه، وأما الزيتون فهو أيضا كثير النفع كثير البركة؛ لأنه يمكن تناوله كما هو، ونفصل عنه أيضا دهن كثير عظيم النفع في الأكل، وسائر وجوه الاستعمال وأما الرمان فحاله عجيب جدا؛ لأنه جسم مركب من أربعة أقسام: قشرة وشحمه وعجمه وماءه، فأما الأقسام الثلاثة وهي القشر والشحم والعجم، فهي باردة يابسة أرضية كثيفة قابضة عفصة قوية في هذه الصفات وأما ماء الرمان فبالضد من هذه الصفات، فإنه ألد الأشربة وألطفها، وأقربها إلى الاعتدال، وأشدها مناسبة للطبائع المعتدلة فيه تقوية للمزاج الضعيفن وهو غذاء من وجه، ودواء

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٢٢٢/٨

من وجه آخر، فإذا تأملت في الرمان وجدت الأقسام الثلاثة في غاية الكثافة التامة الأرضية، ووجدت القسم الرابع وهو ماء الرمان في غاية اللطافة والاعتدال، فكأنه تبارك وتعالى جمع فيه بين المتضادين المتغايرين، فكانت دلالة القدرة والحكمة فيه أكمل وأتم.

نبه تعالى بذكر هذه الأقسام الأربعة [التي هي أشرف أنواع النبات] على الباقي.

قوله: «مشتبها» حال؛ إما من «الرمان» لقربه، وحذفت الحال من الأول؛ تقديره: والرمان مشتبها، ومعنى التشابه أي في اللون، وعدم التشابه أي في الطعم.

وقيل: هي حال من الأول، وحذفت حال الثاني، وهذا كما تقدم في الخبر المحذوف، نحو: {والله ورسوله أحق أن يرضوه} [التوبة: ٦٢] وإلى هذا نحا الزمخشري، فإنه قال: تقديره: والزيتون مشتبها، وغير مشتبه، والرمان كذلك؛ كقول القائل في ذلك: [الطويل]." (١)

"الحسنة على صورة حسنة، وبالأعمال السيئة على صورة قبيحة، فتوضع في الميزان.

والحكمة في وزن الأعمال امتحان الله عباده بالإيمان به في الدنيا، وإقامة الحجة عليهم في العقبى.." (٢)

"أحدها: أن وجه دلالة هذه المحدثات على وجود الصانع هو حدوثها، أو إمكانها، أو مجموعها، فأما وقوع ذلك الحدوث في ستة أيام، أو في يوم واحد فلا أثر له في ذلك ألبتة.

الثاني: أن العقل يدل على أن الحدوث على جميع الأحوال جائز، وإذا كان كذلك فحينئذ لا يمكن الجزم بأن هذا الحدوث وقع في ستة أيام إلا بإخبار مخبر صادق، وذلك موقوف على العلم بوجود الإله الفاعل المختار، فلو جعلنا هذه المقدمة مقدمة، في إثبات الصانع لزم الدور.

الثالث: أن حدوث السموات والأرض دفعة واحدة أدل على كمال القدرة والعلم من حدوثها في ستة أيام.

وإذا ثبتت هذه الوجوه الثلاثة فنقول: ما الفائدة في ذكر أنه تعالى إنما خلقها في ستة أيام في إثبات ذكر ما يدل على وجود الصانع؟

الرابع: ما السبب في أنه اقتصر هاهنا على ذكر السموات والأرض، ولم يذكر خلق سائر الأشياء؟

الخامس: اليوم إنما يمتاز عن الليلة بطلوع الشمس وغروبها، فقبل خلق السموات والقمر كيف يعقل حصول الأيام؟

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٣٢٨/٨

(٢) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٢٤/٩

السادس: أنه تعالى قال: {ومآ أمرنآ إلا واحدة كلمح بالبصر} [القمر: ٥٠] ، وهو كالمناقض لقوله خلق السموات والأرض.

السابع: أنه تعالى خلق السموات والأرض في مدة متراخية فما **الحكمة في** تقييدها بالأيام الستة؟

والجواب على مذهب أهل السنة واضح؛ لأنه تعالى يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، ولا اعتراض عليه في أمر من الأمور، وكل شيء صنعه ولا علة لصنعه، ثم نقول:

أما الجواب عن الأول أنه تعالى ذكر في أول التوراة أنه خلق السموات والأرض في ستة أيام، والعرب كانوا يخالطون اليهود والظاهر أنهم سمعوا ذلك منهم، فكأنه سبحانه يقول: لا تشتغلوا بعبادة الأوثان والأصنام، فإن ربكم هو الذي سمعتم من عقلاء الناس أنه هو الذي خلق السموات والأرض على غاية عظمتها في ستة أيام.

وعن الثالث: أن المقصود منه أنه تعالى وإن كان قادرا على إيجاد جميع الأشياء دفعة واحدة لكنه جعل لكل شيء حدا محدودا، ووقتا مقدرا، فلا يدخله في الوجود إلا على ذلك الوجه، فهوا، وإن كان قادرا على إيصال الثواب للمطيعين في الحال، وعلى." (١)

"عند ذلك الدعاء صار مريدا له لزم وقوع التغير في ذات الله، وفي صفاته، وهو محال.

وعلى هذا التقدير يصير إقدام العبد على الدعاء علة لحدوث صفة في ذات الله - تعالى - فيكون العبد متصرفا في صفة الله - تعالى - بالتبديل والتغيير، وهو محال.

الثالث: أن المطلوب بالدعاء إن اقتضت الحكمة والمصلحة إعطاءه، فهو تعالى يعطيه من غير هذا الدعاء؛ لأنه منزه عن أن يكون بخيلا، وإن اقتضت **الحكمة منعه** فهو لا يطعيه سواء أقدم العبد على الدعاء، أو لم يقدم عليه.

الرابع: أن الدعاء غير الأمر، ولا تفاوت بين البابين إلا كون الداعي أقل رتبة، وكون الآمر أعلى رتبة، وإقدام العبد على أمر الله سوء أدب وإنه لا يجوز.

الخامس: الدعاء يشبه ما إذا أقدم العبد على إرشاد ربه وإلهه إلى فعل الأصلح والأصوب، وذلك سوء أدب، أو أنه ينبه الإله على شيء ما كان منتبها له، وذلك كفر، وأن الله عالى قصر في الإحسان والفضل، وذلك جهل.

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ١٤٢/٩

السادس: أن الإقدام على الدعاء يدل على كون العبد غير راض بالقضاء، إذ لو رضي بما قضاه الله عليه لترك تصرف نفسه، ولما طلب من الله شيئا على التعيين، وترك الرضا بالقضاء من المنكرات.

السابع: روي أنه عليه الصلاة والسلام قال حاكيا عن الله - تعالى - «من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين» وذلك يدل على أن الأولى ترك الدعاء.

الثامن: أن علم الله - تعالى - محيط بحاجة العبد، والعبد غذا علم أن مولاه عالم باحتياجه فسكت ولم يذكر تلك الحاجة، كان ذلك أدخل في الأدب، وفي تعظيم المولى، مما إذا أخذ يشرح كيفية تلك الحاجة، وإذا كان الحال على هذا الوجه في الشاهد؛ وجب اعتبار مثله في حق الله - تعالى -، وكذلك نقل أن الخليل - عليه الصلاة والسلام - لما وضع في المنجنيق للرمي إلى النار قال له جبريل - عليه السلام - «ادع ربك» ، فقال الخليل - عليه السلام -: «حسبي من سؤالي علمه بحالي» .

والجواب: أن الدعاء نوع من أنواع العبادة، والأسئلة المذكورة واردة في جميع أنواع العبادات، فإنه يقال: إن كان هذا الإنسان سعيدا في علم الله فلا حاجة إلى الطاعات والعبادات، وإن كان شقيا في علمه؛ فلا فائدة في تلك العبادات، ويجب أيضا ألا يقدم." (١)

"٢٥٣١ - بمستأسد القربان عاف نباته..... ... ...

وقول لبيد: [الوافر]

٢٥٣٢ - ولكنا نعض السيف منها ... بأسوق عافيات الشحم كوم

وتقدم تحقيق هذه المادة في البقرة.

فصل في المراد من الآية

ومعنى الآية أن الله - تعالى - أبدلهم مكان الباساء والضراء الحسنة، وهي النعءمة والسعة والخصب والصحة.

» حتى عفوا «كثروا وكثرت أموالهم وأولادهم، وقالوا من غرتهم وغفلتهم: {قد مس آباءنا الضرآء والسرآء} ، أي: هكذا كانت عادة الدهر قديما لنا ولآبائنا، ولم يكن ذلك عقوبة من الله، فكونوا على ما أنتم عليه كما كان آباؤكم، فإنهم لم يتركوا دينهم لما أصابهم من الضراء.

قوله: «فأخذناهم» .

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ١٥٨/٩

قال أبو البقاء: «هو عطف على» عفوا «. يريد: وما عطف عليه أيضا، أعني أن الأخذ ليس متسببا عن الفاء فقط، بل عليه وعلى قولهم تلك المقالة الجاهلية؛ لأن المعنى ليس أنه لمجرد كثرتهم، ونمو أموالهم أخذهم بغتة بل بمجموع الأمرين، بل الظاهر أنه بقولهم ذلك فقط.

و» بغتة «إما حالا أو مصدرا، والبغتة الفجاءة، {وهم لا يشعرون} حال أيضا وهي في قوة المؤكدة؛ لأن» بغتة «تفيد إفادتها، سواء أعربنا» بغتة «حالا أم مصدرا.

واعلم أن الحكمة في حكاية هذا المعنى ليعتبر من سمع هذه القصة.." (١)

"قوله تعالى: {هو الذي خلقكم من نفس واحدة} الآية.

اعلم أنه تعالى رجع هنا إلى تقرير التوحيد، وإبطال الشرك.

قال ابن عباس: المراد بالنفس الواحدة آدم - عليه الصلاة والسلام - {وخلق منها زوجها} [النساء: ١] أي حواء خلقها الله من ضلع آدم - عليه الصلاة والسلام - من غير أذى ليسكن إليها أي: ليأنس بها ويأوي إليها قالوا: والحكمة في كونها مخلوقة من نفس آدم: أن الجنس أميل إلى جنسه.

قال ابن الخطيب: وهذا مشكل؛ لأنه تعالى لما كان قادرا على خلق آدم ابتداء فما الذي يحملنا على أن نقول خلق حواء من جزء من أجزاء آدم؟ ولم لم نقل إنه تعالى خلق حواء أيضا ابتداء؟ وأيضا فالقادر على خلق الإنسان من عظم واحد لم لا يقدر على خلقه ابتداء؟ وأيضا فقولهم إن عدد أضلاع الجانب الأيسر من الذكر أنقص من عدد أضلاع الجانب الأيمن بشيء واحد، على خلاف الحسن والتشريح. وإذا عرف ذلك فنقول: المراد من كلمة من في قوله: {وجعل منها زوجها} أن الإشارة إلى شيء تكون تارة بحسب شخصه، وتارة بحسب نوعه.

قال عليه الصلاة والسلام «هذا وضوء لا يقبل الله الصلاة إلا به»

والمراد نوعه لا ذلك الفرد المعين، وقال - عليه الصلاة والسلام - «في يوم عاشوراء هذا هو اليوم الذي أظهر الله فيه موسى على فرعون» والمراد: نوعه.." (٢)

"يونس ذلك فيقول: «أنتم ضربتمه» بتسكين الميم وضمها، وقد يتقوى بما روي عن عثمان - رضي الله عنه -: «أراهمني الباطل شيطانا» وفي هذا الكلام شذوذ من وجه آخر، وهو تقديم الضمير غير الأخص

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٩/٢٣٤

(٢) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٩/٤١٦

على الأخص مع الاتصال.

فصل

قال مقاتل – رضي الله عنه – «إن النبي صلى الله عليه وسلم ، رأى في المنام أن العدد قليل قبل لقاء العدو، وأخبر أصحابه بما رأى، فلم التقوا ببدر قلل الله المشركين في أعين المؤمنين»

قال ابن مسعود: «لقد قللوا في أعيننا حتى قلت لرجل إلى جنبي: أتراهم سبعين؟ قال أراهم مائة، فأسرنا رجلا منهم فقلنا له: كم كنتم؟ قال: ألفا» .

«ويقللكم» يا معشر المؤمنين «في أعينهم» .

قال السدي: «قال ناس من المشركين إن العير قد انصرفت، فارجعوا، فقال أبو جهل: الآن إذ برز لكم محمد وأصحابه؟ فلا ترجعوا، حتى تستأصلوهم، إنما محمد وأصحابه أكلة جزور، فلا تقتلوهم واربطوهم بالحبال» ، **والحكمة في** تقليل عدد المشركين في أعين المؤمنين: تصديق رؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولتقوى قلوبهم، وتزداد جراءتهم على المشركين، **والحكمة في** تقليل عدد المؤمنين في أعين المشركين: لئلا يبالغوا في الاستعداد والتأهب والحذر، فيصير ذلك سببا لاستيلاء المؤمنين عليهم.

ثم قال: {ليقضي الله أمرا كان مفعولا} .

فإن قيل: ذكرث هذا يفهم من الآية المتقدمة، فكان ذكره – ههنا – محض التكرار.

فالجواب: أن المقصود من ذكره في الآية المتقدمة، هو أنه تعالى فعل تلك الأفعال ليحصل استيلاء المؤمنين على المشركين على وجه يكون معجزة دالة على صدق الرسول وههنا المقصود من ذكره، أنه إنما فعل ذلك، لئلا يبالغ الكفار في الاستعداد والحذر فيصير ذلك سببا لانكسارهم.

ثم قال {وإلى الله ترجع الأمور} والغرض منه التنبيه على أن أحوال الدنيا غير مقصودة لذاتها، بل المراد منها ما يصلح أن يكون زادا ليوم المعاد.." (١)

"من يعصيه، أو من عصيان من يستخلفه الله في أرضه وينعم عليه بذلك، وإما على طريق الاستعظام والإكبار للفصلين جميعا الاستخلاف، والعصيان.

١٤ أوقال أحمد بن يحيى/ ثعلب «١» وغيره: إنما كانت الملائكة قد رأت، وعلمت ما كان من إفساد الجن، وسفكهم الدماء في الأرض فجاء قولهم: أتجعل فيها ... «٢»

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٥٣٢/٩

الآية على جهة الاستفهام المحض، هل هذا الخليفة يا ربنا على طريقة من تقدم من الجن أم لا؟

وقال آخرون: كان الله تعالى قد أعلم الملائكة أنه يخلق في الأرض خلقا يفسدون، ويسفكون الدماء، فلما قال لهم سبحانه بعد ذلك: إني جاعل قالوا: ربنا، أتجعل فيها ... الآية على جهة الاسترشاد والاستعلام، هل هذا الخليفة هو الذي كان أعلمهم به سبحانه قبل، أو غيره؟ ونحو هذا في «مختصر الطبري» ، قال: وقولهم:

أتجعل فيها ليس بإنكار لفعله عز وجل وحكمه، بل استخبار، هل يكون الأمر هكذا، وقد وجهه بعضهم بأنهم استعظموا الإفساد وسفك الدماء فكأنهم سألوا عن وجه **الحكمة في** ذلك إذ علموا أنه عز وجل لا يفعل إلا حكمة. انتهى.

ت: والعقيدة أن الملائكة معصومون، فلا يقع منهم ما يوجب نقصانا من رتبتهم، وشريف منزلتهم- صلوات الله وسلامه على جميعهم- والسفك صب الدم، هذا عرفه، وقولهم: ونحن نسبح بحمدك.

قال بعض المتأولين: هو على جهة الاستفهام كأنهم أرادوا: ونحن نسبح بحمدك ... الآية، أم نتغير عن هذه الحال؟

قال ع «٣» : وهذا يحسن مع القول بالاستفهام المحض في قولهم: أتجعل.

وقال آخرون: معناه: التمدح ووصف حالهم، وذلك جائز لهم كما قال يوسف:

إني حفيظ عليم [يوسف: ٥٥] ، وهذا يحسن مع التعجب والاستعظام لأن يستخلف الله

---

(١) هو: أبو العباس أحمد بن يحيى بن يسار، وقيل: سيار الشيباني، المعروف بثعلب، إمام الكوفيين في النحو واللغة. صنف: «المصون في النحو» ، و «معاني القرآن» ، و «ما تلحن فيه العامة» ، و «الفصيح» وغيرها. توفي (٢٩١ هـ) .

ينظر ترجمته في: «وفيات الأعيان» (١/ ٣٠) ، و «بغية الوعاة» (١/ ٢٩٦) ، و «غاية النهاية» (١/ ١٤٨) .

(٢) ينظر: ابن عطية الأندلسي في «تفسيره» (١/ ١١٧) .

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (١/ ١١٨) .." (١)

---

(١) تفسير الثعالبي = الجواهر الحسان في تفسير القرآن الثعالبي، أبو زيد ٢٠٦/١

"ت: ونقل عياض في «مداركه» عن مالك أن الحكمة نور يقذفه الله في قلب العبد، وقال أيضا: يقع في قلبي أن الحكمة الفقه في دين الله، وأمر يدخله الله القلوب من رحمته وفضله، وقال أيضا: الحكمة التفكر في أمر الله، والاتباع له، والفقه في الدين، والعمل به. انتهى.

وقد أشار ع: إلى هذا عند قوله تعالى: يؤتي **الحكمة من** يشاء «١» [البقرة: ٢٦٩] .

ت: والظاهر أن المراد ب الحكمة هنا: ما قاله قتادة، فتأمله.

ويزكيهم: معناه يطهرهم، وينميهم بالخير، والعزيز: الذي يغلب، ويتم مراده، والحكيم: المصيب مواقع الفعل، المحكم لها.

[سورة البقرة (٢) : الآيات ١٣٠ الى ١٣٣]

ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الص‍الحين (١٣٠) إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين (١٣١) ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون (١٣٢) أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلها واحدا ونحن له مسلمون (١٣٣)

وقوله تعالى: ومن يرغب عن ملة إبراهيم ... الآية: «من» : استفهام، والمعنى:

ومن يزهد منها، ويربأ بنفسه عنها إلا من سفه نفسه، والملة: الشريعة والطريقة، وسفه من السفه الذي معناه الرقة والخفة، واصطفى من الصفوة، معناه: تخير الأصفى، ومعنى هذا الاصطفاء أنه نبأه، واتخذه خليلا.

وإنه في الآخرة لمن الصالحين: قيل: المعنى أنه في عمل الآخرة لمن الصالحين، فالكلام على حذف مضاف، إذ قال له ربه أسلم كان هذا القول من الله تعالى حين ابتلاه بالكوكب والقمر والشمس والإسلام هنا على أتم وجوهه، والضمير في «بها» عائد على كلمته التي هي أسلمت لرب العالمين، وقيل: على الملة، والأول أصوب لأنه أقرب مذكور.

ويعقوب: قيل: عطف على إبراهيم، وقيل: مقطوع منفرد بقوله: يا بني، والتقدير: ويعقوب قال: يا بني/. ٣٦ ب

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (١/ ٣٦٤) .." (١)

"[سورة البقرة (٢) : الآيات ٢٥٣ الى ٢٥٤]

تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البينات ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد (٢٥٣) يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة والكافرون هم الظالمون (٢٥٤)

قوله سبحانه: تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض ... الآية: «تلك» : رفع بالابتداء، والرسل: خبره، ويجوز أن يكون «الرسل» عطف بيان، و «فضلنا» : الخبر، و «تلك» : إشارة إلى جماعة، ونص الله سبحانه في هذه الآية على تفضيل بعض النبيين على بعض من غير تعيين.

وقوله تعالى: ورفع بعضهم درجات:

قال مجاهد وغيره: هي إشارة إلى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم لأنه بعث إلى الناس كافة، وأعطي الخمس التي لم يعطها أحد قبله، وهو أعظم الناس أمة، وختم الله به النبوات «١» إلى غير ذلك مما أعطاه من الخلق العظيم، ومن معجزاته، وباهر آياته، ويحتمل اللفظ أن يراد به نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وغيره ممن عظمت آياته، وبينات عيسى- عليه السلام- إحياء الموتى، وإبراء الأكمه، والأبرص، وخلق الطير من الطين، وروح القدس جبريل- عليه ٦٤ أالسلام- وقد تقدم/ ما قال العلماء فيه.

وقوله تعالى: ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم ... الآية: معنى الآية: ولو شاء الله ما اقتتل الناس بعد كل نبي، فمنهم من آمن، ومنهم من كفر بغيا وحسدا، وعلى حطام الدنيا، وذلك كله بقضاء، وقدر، وإرادة من الله سبحانه، ولو شاء الله خلاف ذلك، لكان، ولكنه المستأثر بسر الحكمة في ذلك، وهو الفعال لما يريد سبحانه.

ص: ولو شاء الله ما اقتتل، قيل: في الكلام حذف، أي: فاختلف أممهم، فاقتتلوا، ولو شاء الله، فمفعول «شاء» محذوف، أي: «ألا يقتتلوا» انتهى.

وقوله: ما اقتتلوا، أي: بأن قاتل المؤمنون الكافرين على مر الدهر، وذلك هو

(١) تفسير الثعالبي = الجواهر الحسان في تفسير القرآن الثعالبي، أبو زيد ١/٣٢١

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٣/ ٣) برقم (٥٧٥٧) بنحوه، وذكره ابن عطية (١/ ٣٣٨) ، والسيوطي في «الدر المنثور» (١/ ٥٧١) ، وعزاه لآدم بن أبي إياس، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والبيهقي في «الأسماء والصفات» . [.....]."[1]

"وقال أبو عبد الله اللخمي في «مختصره» لتفسير الطبري: وعن قتادة: هذا مثل «١» ، فاعقلوا عن الله أمثاله هذا رجل كبرت سنه، ورق عظمه، وكثر عياله، ثم احترقت جنته، أحوج ما يكون إليها، يقول: أيحب أحدكم أن يضل عنه عمله يوم القيامة أحوج ما يكون إليه. وعن الحسن نحوه. انتهى.

وخص الأعناب والنخيل بالذكر، لشرفهما، وفضلهما على سائر الشجر، والواو في قوله: وأصابه واو الحال وكذلك في قوله: وله، وضعفاء: جمع ضعيف، والأعصار: الريح الشديدة العاصفة التي فيها إحراق لكل ما مرت عليه يكون ذلك في شدة الحر، ويكون في شدة البرد، وكل ذلك من فيح جهنم.

ولعلكم: ترج في حق البشر، أي: إذا تأمل من بين له هذا البيان رجي له التفكر، وكان أهلا له، وقال ابن عباس: تتفكرون في زوال الدنيا، وفنائها، وإقبال الآخرة وبقائها «٢»

[سورة البقرة (٢) : الآيات ٢٦٧ الى ٢٦٩]

يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه واعلموا أن الله غني حميد (٢٦٧) الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا والله واسع عليم (٢٦٨) يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر إلا أولوا الألباب (٢٦٩)

قوله تعالى: يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ... الآية: هذا خطاب لجميع أمة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم/ وهذه صيغة أمر بالإنفاق، واختلف المتأولون، هل المراد بهذا ٦٩ ب الإنفاق الزكاة المفروضة، أو التطوع، والآية تعم الوجهين، لكن صاحب الزكاة يتلقاها على الوجوب، وصاحب التطوع يتلقاها على الندب، وجمهور المتأولين قالوا: معنى من طيبات: من جيد ومختار ما كسبتم، وجعلوا الخبيث بمعنى الرديء، وقال ابن زيد:

---

(١) تفسير الثعالبي = الجواهر الحسان في تفسير القرآن الثعالبي، أبو زيد ٤٩٨/١

معناه: من حلال ما كسبتم «٣» ، قال: وقوله: ولا تيمموا الخبيث، أي: الحرام «٤» .
ع «٥» : وقول ابن زيد ليس بالقوي من جهة نسق الآية، لا من معناه في نفسه.

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١/ ٧٧) برقم (٦٠٩٨) ، وذكره السيوطي في «تفسيره» (١/ ٦٠٤) ، وعزاه لعبد بن حميد، وابن أبي حاتم عن قتادة.
(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٣/ ٨٠) برقم (٦١١٨) ، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (١/ ٣٦١) .
(٣) ذكره ابن عطية في «تفسيره» (١/ ٣٦١) .
(٤) ينظر السابق.
(٥) ذكره ابن عطية (١/ ٣٦١) .." [1]

"وعن مالك مثله. انتهى.

وفهم ع «١» : الحديث على التعجب، ذكره عند قوله: ويوم حنين [التوبة: ٢٥] ، وما قاله ابن رشد هو الصواب. والله أعلم.
ومتحرفا لقتال يراد به الذي يرى: أن فعله ذلك أنكى للعدو، ونصبه على الحال، وكذلك نصب متحيزا، وأما الاستثناء، فهو من المولين الذين تضمنهم «من» .
والفئة هنا الجماعة الحاضرة للحرب، هذا قول الجمهور.

[سورة الأنفال (٨) : الآيات ١٧ الى ١٩]

فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى وليبلي المؤمنين منه بلاء حسنا إن الله سميع عليم (١٧) ذلكم وأن الله موهن كيد الكافرين (١٨) إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح وإن تنتهوا فهو خير لكم وإن تعودوا نعد ولن تغني عنكم فئتكم شيئا ولو كثرت وأن الله مع المؤمنين (١٩)
وقوله سبحانه: فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى هذه الألفاظ ترد على من يزعم أن أفعال العباد خلق لهم، ومذهب أهل السنة أنها خلق للرب سبحانه كسب للعبد روي أن النبي

---

(١) تفسير الثعالبي = الجواهر الحسان في تفسير القرآن الثعالبي، أبو زيد ٥٢٣/١

صلى الله عليه وسلم أخذ يومئذ ثلاث قبضات من حصى وتراب، فرمى بها في وجوه القوم، فانهزموا عند آخر رمية، ويروى أنه قال يوم بدر: «شاهت الوجوه» «٢» وهذه الفعلة أيضا كانت يوم «حنين» بلا خلاف.

وليبلي المؤمنين أي: ليصيبهم ببلاء حسن، وظاهر وصفه بالحسن يقتضي أنه أراد الغنيمة، والظفر، والعزة.

إن الله سميع لاستغاثتكم، عليم بوجوه الحكمة في جميع أفعاله لا إله إلا هو.

وقوله سبحانه: ذلكم إشارة إلى ما تقدم من قتل الله لهم، ورميه إياهم، وموضع ذلكم من الإعراب رفع.

---

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٢/ ٥١٠) .

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٣٠٣، ٣٦٨) ، والحاكم (٣/ ١٥٧) ، وابن حبان (٦٥٠٢) ، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٦/ ٢٤٠) من طريق ابن خثيم، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس به. وصححه الحاكم وابن حبان.

وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ٢٢٨) ، وقال: رواه أحمد بإسنادين، ورجال أحدهما: رجال الصحيح. [.....]."[١]

"بنفسها، يقع تحت تلك المبايعة كل موحد قاتل في سبيل الله، لتكون كلمة الله هي العليا، وإن لم يتصف بهذه الصفات التي في هذه الآية الثانية أو بأكثرها، وقالت فرقة: بل هذه الصفات جاءت على جهة الشرط، والآيتان مرتبطتان، فلا يدخل في المبايعة إلا المؤمنون الذين هم على هذه الأوصاف، وهذا تحريج وتضييق، والأول أصوب، والله أعلم.

والشهادة ماحية لكل ذنب إلا لمظالم العباد، وقد روي أن الله عز وجل يحمل على الشهيد مظالم العباد، ويجازيهم عنه، ختم الله لنا بالحسنى.

والسائحون: معناه: الصائمون، وروي عن عائشة، أنها قالت: سياحة هذه الأمة الصيام «١» أسنده الطبري «٢» ، وروي أنه من كلام النبي صلى الله عليه وسلم «٣» .

قال الفخر: ولما كان أصل السياحة الاستمرار على الذهاب في الأرض، سمي الصائم سائحا لاستمراره على فعل الطاعة وترك المنهي عنه من المفطرات.

---

(١) تفسير الثعالبي = الجواهر الحسان في تفسير القرآن الثعالبي، أبو زيد ٣/١٢٢

قال الفخر «٤» : عندي فيه وجه آخر، وهو أن الإنسان إذا امتنع من الأكل والشرب والوقاع، وسد على نفسه باب الشهوات، انفتحت له أبواب الحكمة وتجلت له أنوار عالم الجلال ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: «من أخلص لله أربعين صباحا، ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه «٥» فيصير من السائحين في عالم جلال الله المنتقلين من مقام إلى مقام، ومن

---

(١) أخرجه الطبري (٦/ ٤٨٦) برقم: (١٧٣٢٧) ، وذكره ابن عطية (٣/ ٨٩) .

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٦/ ٤٨٤) برقم: (١٧٣٠٠- ١٧٣٠١) .

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٦/ ٤٨٤) برقم: (١٧٣٠٠) عن عبيد بن عمير قال: سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن السائحين؟ فقال: هم الصائمون. وأخرجه برقم: (١٧٣٠١) عن أبي هارون قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: السائحون هم: الصائمون.

(٤) ينظر: «مفاتيح الغيب» (١٦/ ١٦١) .

(٥) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٥/ ١٨٩) من طريق محمد بن إسماعيل، ثنا أبو خالد يزيد الواسطي أنبأنا الحجاج عن مكحول عن أبي أيوب الأنصاري مرفوعا.

وقال أبو نعيم: كذا رواه يزيد الواسطي متصلا، ورواه أبو معاوية عن الحجاج فأرسله.

ومن طريق أبي نعيم أخرجه ابن الجوزي في «الموضوعات» (٣/ ١٤٤) .

وقال: هذا حديث لا يصح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ففيه يزيد الواسطي وهو يزيد بن عبد الرحمن. قال ابن حبان: كان كثير الخطأ، فاحش الوهم، خالف الثقات في الروايات لا يجوز الاحتجاج به، وحجاج مجروح، ومحمد بن إسماعيل مجهول، ولا يصح لقاء مكحول لأبي أيوب، وقد ذكر محمد بن سعد أن العلماء قدحوا في رواية مكحول وقالوا: هو ضعيف في الحديث اهـ.

والحديث قد روي عن مكحول مرسلا كما أشار إلى ذلك الحافظ أبو نعيم.." (١)

"درجة إلى درجة» . انتهى.

قال ع «١» : وقال بعض الناس، وهو في كتاب النقاش: السائحون: هم الجائلون بأفكارهم في قدرة الله وملكوته وهذا قول حسن، وهو من أفضل العبادات، والراكعون الساجدون: هم المصلون الصلوات كذا قال

---

(١) تفسير الثعالبي = الجواهر الحسان في تفسير القرآن الثعالبي، أبو زيد ٣/٢١٩

أهل العلم، ولكن لا يختلف في أن من يكثر النوافل هو أدخل في الاسم، وأعرق في الاتصاف.

وقوله: والحافظون لحدود الله لفظ عام تحته/ التزام الشريعة.

ت: قال البخاري: قال ابن عباس: الحدود: الطاعة «٢» .

قال ابن العربي «٣» في «أحكامه» ، وقوله: والحافظون لحدود الله خاتمة البيان، وعموم الاشتمال لكل أمر ونهي. انتهى.

والمرسل أخرجه هناد بن السري في «الزهد» برقم: (٦٧٨) ، وابن أبي شيبة (١٣/ ٢٣١) ، وأبو نعيم في «الحلية» (٥/ ١٨٩) من طريق الحجاج عن مكحول مرسلا.

وسنده ضعيف لضعف الحجاج مع إرساله. وللحديث شواهد من حديث أبي موسى وابن عباس.

حديث أبي موسى: أخرجه ابن عدي في «الكامل» (٥/ ١٩٤٥) ، ومن طريقه ابن الجوزي في «الموضوعات» (٣/ ١٤٤) من طريق عبد الملك بن مهران الرفاعي، حدثنا معن بن عبد الرحمن، عن الحسن، عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من زهد في الدنيا أربعين يوما وأخلص فيها لله أخرج الله على لسانه ينابيع الحكمة من قلبه» . وقال ابن عدي: هو منكر، وعبد الملك مجهول وأقره ابن الجوزي في «الموضوعات» .

حديث ابن عباس: أخرجه القضاعي في «مسند الشهاب» (٤٦٦) ، ومن طريقه ابن الجوزي في «الموضوعات» (٣/ ١٤٤- ١٤٥) من طريق سوار بن مصعب، عن ثابت، عن مقسم، عن ابن عباس مرفوعا بلفظ: «من أخلص لله تعالى أربعين صباحا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه» .

وقال ابن الجوزي: هذا حديث لا يصح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال أحمد ويحيى والنسائي: سوار بن مصعب متروك الحديث، وقال يحيى: ليس بثقة ولا يكتب حديثه. وقال أيضا: وقد عمل جماعة من المتصوفة، والمتزهدين على هذا الحديث الذي لا يثبت، وانفردوا في بيت الخلوة أربعين يوما، وامتنعوا عن أكل الخبز، وكان بعضهم يأكل الفواكه، ويتناول الأشياء التي تتضاعف قيمتها على قيمة الخبز، ثم يخرج بعد الأربعين فيهذي ويتخيل إليه أنه يتكلم بالحكمة، ولو كان الحديث صحيحا فإن الإخلاص يتعلق بقصد القلب لا بفعل البدن فلله در العلم اه.

(١) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ٨٩) .

(٢) أخرجه البخاري (٦/ ٥) كتاب «الجهاد والسير» باب: فضل الجهاد والسير عن ابن عباس موقوفا.
وقال الحافظ في «الفتح» (٦/ ٦) : وصله ابن أبي حاتم من طريق علي بن أبي طلحة عنه، قلت: وعلي بن أبي طلحة لم يدرك ابن عباس، وفي ذلك رد على من يجزم أن تعليقات البخاري المجزومة كلها صحيحة.
(٣) ينظر: «أحكام القرآن» (٢/ ١٠٢٠) .." [1]

"بالآية ومن هذه اللفظة قول حسان رضي الله عنه «١» : [الطويل]

لنا القدم العليا إليك وخلفنا ... لأولنا في طاعة الله تابع «٢»

ومن هذه اللفظة قوله صلى الله عليه وسلم: «حتى يضع الجبار فيها قدمه» «٣» أي ما قدم لها، هذا على أن الجبار اسم الله تعالى، و «الصدق» هنا بمعنى الصلاح، وقال البخاري: قال زيد بن أسلم: قدم صدق محمد صلى الله عليه وسلم «٤» . انتهى.

وقولهم: إن هذا لساحر مبين: إنما هو بسبب أنه فرق بذلك كلمتهم، وحال بين القريب وقريبه فأشبه ذلك ما يفعله الساحر في ظنهم القاصر فسموه ساحرا.

[سورة يونس (١٠) : الآيات ٣ الى ٤]

إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الأمر ما من شفيع إلا من بعد إذنه ذلكم الله ربكم فاعبدوه أفلا تذكرون (٣) إليه مرجعكم جميعا وعد الله حقا إنه يبدؤا الخلق ثم يعيده ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون (٤)

وقوله سبحانه: إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ...

الآية: هذا ابتداء دعاء إلى عبادة الله عز وجل وتوحيده، وذكر بعض الناس أن الحكمة في خلق الله تعالى هذه الأشياء في مدة محدودة ممتدة، وفي القدرة أن يقول لها: كن فتكون، إنما هي ليعلم عباده التؤدة والتماهل في الأمور، قال ع «٥» : وهذا مما لا يوصل إلى تعليله، وعلى هذا هي الأجنة في البطون، وخلق الثمار، وغير ذلك، والله عز وجل قد جعل لكل شيء قدرا، وهو أعلم بوجه الحكمة في ذلك.

---

(١) تفسير الثعالبي = الجواهر الحسان في تفسير القرآن الثعالبي، أبو زيد ٣/٢٢٠

(١) ذكره ابن عطية (٣/ ١٠٣) . [.....]

(٢) البيت في «ديوانه» (٢٤١) ، والطبري (١٣/ ٢٠٩) ، و «البحر» (٥/ ١٢٤) ، و «الدر المصون» (٣/ ٣٦٦) ، و «المحرر الوجيز» (٣/ ١٠٣) .

(٣) أخرجه البخاري (٨/ ٤٦٠) كتاب «التفسير» باب: وتقول: هل من مزيد، حديث (٤٨٤٨) ، ومسلم (٤/ ٢١٨٧) كتاب «الجنة» باب: النار يدخلها الجبارون، حديث (٣٧/ ٢٨٤٨) ، والترمذي (٥/ ٣٩٠) كتاب «التفسير» باب: ومن سورة ق، حديث (٣٢٧٢) ، وأحمد (٣/ ١٣٤، ١٤١، ٢٣٤) ، وأبو يعلى (٥/ ٤٣٨- ٤٣٩) ، رقم: (٣١٤٠) ، وابن حبان (٢٦٨) ، والبيهقي في «الأسماء والصفات» ص: (٣٤٩) من حديث أنس.

(٤) أخرجه البخاري (٨/ ١٩٦) كتاب «التفسير» باب: «سورة يونس» ، وذكر معلقا بصيغة الجزم، ووصله ابن جرير من طريق ابن عيينة، عنه بهذا الحديث. كما قال ابن حجر، والطبري (٦/ ٥٢٩) برقم: (١٧٥٥٧) ، وذكره ابن عطية (٣/ ١٠٣) بنحوه، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٥٣٦) .

(٥) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ١٠٤) .." [(١)]

"الفارسي، وهذا والأول في المعنى واحد.

وقوله: رب إني أعوذ بك أن أسئلك ما ليس لي به علم: إنابة منه عليه السلام، وتسليم لأمر ربه، والسؤال الذي وقع النهي عنه، إنما هو سؤال العزم الذي معه محاجة وطلبة ملحة فيما قد حجب وجه **الحكمة فيه**، وأما السؤال على جهة الاسترشاد والتعلم، فغير داخل في هذا، ثم قيل له: اهبط بسلام، وذلك عند نزوله من السفينة، والسلام هنا: السلامة والأمن، والبركات الخير والنمو في كل الجهات، وهذه العدة، تعم جميع المؤمنين إلى يوم القيامة، قاله محمد بن كعب القرظي، ثم قطع قوله:

وأمم على وجه الابتداء، وهؤلاء هم الكفار إلى يوم القيامة «١» .

[سورة هود (١١) : الآيات ٤٩ الى ٥١]

تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين (٤٩) وإلى عاد أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إن أنتم إلا مفترون (٥٠) يا قوم لا

---

(١) تفسير الثعالبي = الجواهر الحسان في تفسير القرآن الثعالبي، أبو زيد ٣/٢٣٤

أسئلكم عليه أجرا إن أجري إلا على الذي فطرني أفلا تعقلون (٥١)
وقوله سبحانه: تلك إشارة إلى القصة، وباقي الآية بين.
وقوله عز وجل: وإلى عاد أخاهم هودا ... الآية: عطف على قوله: ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه [هود: ٢٥]
.

[سورة هود (١١) : الآيات ٥٢ الى ٥٩]
ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدرارا ويزدكم قوة إلى قوتكم ولا تتولوا مجرمين (٥٢) قالوا يا هود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين (٥٣) إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء قال إني أشهد الله واشهدوا أني بريء مما تشركون (٥٤) من دونه فكيدوني جميعا ثم لا تنظرون (٥٥) إني توكلت على الله ربي وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم (٥٦)
فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم ويستخلف ربي قوما غيركم ولا تضرونه شيئا إن ربي على كل شيء حفيظ (٥٧) ولما جاء أمرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ (٥٨) وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جبار عنيد (٥٩)
وقوله: ويا قوم استغفروا ربكم ... الآية: الاستغفار: طلب المغفرة، فقد يكون ذلك باللسان، وقد يكون بإنابة القلب وطلب الاسترشاد.
وقوله: ثم توبوا إليه، أي: بالإيمان من كفركم، والتوبة: عقد في ترك متوب

---

(١) ذكره ابن عطية (٣/ ١٧٩) ، والبغوي في «تفسيره» (٢/ ٣٨٧) برقم: (٤٨) بلا نسبة.." [1]

"مجاهد «١» ، وفي الحديث الصحيح: «ثم انطلق، وانطلق معه/ فتاه يوشع بن نون، حتى أتيا الصخرة وضعا رؤوسهما، فناما، واضطرب الحوت في المكتل، فخرج منه فسقط في البحر، واتخذ سبيله في البحر سربا، أي: مسلكا في جوف الماء، وأمسك الله عن الحوت جرية الماء، فصار عليه مثل الطاق، فلما استيقظ، نسي صاحبه أن يخبره بالحوت، فانطلقا بقية يومهما، وليلتهما حتى إذا كان من الغد قال

---

(١) تفسير الثعالبي = الجواهر الحسان في تفسير القرآن الثعالبي، أبو زيد ٢٨٧/٣

موسى لفتاه: آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا ويعني ب «النصب» تعب الطريق، قال: ولم يجد موسى النصب حتى جاوز المكان الذي أمره الله به، قال له فتاه: أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت، يريد: ذكر ما جرى فيه، وما أنسانيه، أي أن أذكره إلا الشيطان، واتخذ سبيله في البحر عجبا قال: فكان للحوت سربا ولموسى وفتاه عجبا، فقال موسى: ذلك ما كنا نبغ فارتدا على آثارهما قصصا، قال: فرجعا يقصان آثارهما حتى انتهيا إلى الصخرة، فإذا رجل مسجى بثوب، فسلم عليه موسى، فقال الخضر: وأنى بأرضك السلام قال: أنا موسى، قال: موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم، أتيتك لتعلمني مما علمت رشدا، قال: إنك لن تستطيع معي صبرا يعني: لا تطيق أن تصبر على ما تراه من عملي لأن الظواهر التي هي علمك لا تعطيه، وكيف تصبر على ما تراه خطأ، ولم تخبر بوجه **الحكمة فيه**؟ يا موسى، إني على علم من علم الله، علمنيه لا تعلمه، يريد: علم الباطن، وأنت على علم من علم الله علمكه الله، لا أعلمه، يريد: علم الظاهر، فقال له موسى: ستجدني إن شاء الله صابرا ولا أعصي لك أمرا، فقال له الخضر: فإن اتبعتني فلا تسئلني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرا، أي: حتى أشرح لك ما ينبغي شرحه، فانطلقا يمشيان على ساحل البحر، فمرت بهم سفينة، فكلموهم أن يحملوهم، فعرفوا الخضر، فحملوهم بغير نول، يقول: بغير أجر، فلما ركبا في السفينة، لم يفجأ موسى إلا والخضر قد قلع لوحا من ألواح السفينة بالقدوم، فقال له موسى قوم حملونا بغير نول، عمدت إلى سفينتهم، فخرقتها لتغرق أهلها، لقد جئت شيئا إمرا، أي شنيعا من الأمور، وقال مجاهد: الإمر المنكر «٢» ، قال ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبرا قال لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسرا قال أبي بن كعب، قال النبي صلى الله عليه وسلم: فكانت الأولى من موسى نسيانا، قال: وجاء عصفور، فوقع على حرف السفينة، فنقر في البحر نقرة، فقال له الخضر: ما علمي وعلمك من علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر» ،

---

(١) أخرجه الطبري (٨/ ٢٤٧) برقم: (٢٣١٧٩) ، وذكره ابن عطية (٣/ ٥٢٨) .

(٢) أخرجه الطبري (٨/ ٢٥٧) برقم: (٢٣٢١٨) ، وذكره ابن عطية (٣/ ٥٣١) ، وابن كثير (٣/ ٩٧) ".. (١)

---

(١) تفسير الثعالبي = الجواهر الحسان في تفسير القرآن الثعالبي، أبو زيد ٣/٥٣٥

"ما جاؤوا إلا إثما وزورا، أي: ما قالوا إلا باطلا وبهتانا قال البخاري «١» : تملى عليه تقرأ عليه من أمليت وأمللت، انتهى. ثم أمر تعالى نبيه- عليه السلام- أن يقول: إن الذي أنزله هو الذي يعلم سر جميع الأشياء التي في السموات والأرض، وعبارة الشيخ العارف بالله، سيدي عبد الله بن أبي جمرة (رضي الله عنه) : ولما كان المراد منا بمقتضى الحكمة الربانية العبادة ودوامها ولذلك خلقنا كما ذكر مولانا سبحانه في الآية الكريمة، يعني:

وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون الآية [الذاريات: ٥٦] . وهو عزل وجل غني عن عبادتنا وعن كل شيء لكن الحكمة اقتضته لأمر لا يعلمه إلا هو كما قال الله عز وجل:

الذي يعلم السر في السماوات والأرض أي: الذي يعلم الحكمة في خلقها وكذلك في خلقنا وخلق جميع المخلوقات، انتهى.

[سورة الفرقان (٢٥) : الآيات ٧ الى ١٤]

وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا (٧) أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا (٨) انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا (٩) تبارك الذي إن شاء جعل لك خيرا من ذلك جنات تجري من تحتها الأنهار ويجعل لك قصورا (١٠) بل كذبوا بالساعة وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا (١١)

إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا (١٢) وإذا ألقوا منها مكانا ضيقا مقرنين دعوا هنالك ثبورا (١٣) لا تدعوا اليوم ثبورا واحدا وادعوا ثبورا كثيرا (١٤)

/ وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ... الآية: المعنى عندهم: أن من كان ٤٢ ب رسولا فهو مستغن عن الأكل والمشي في الأسواق، ومحاجتهم بهذا مذكورة في السير، ثم أخبر تعالى عن كفار قريش، وهم الظالمون المشار إليهم، أنهم قالوا: إن تتبعون إلا رجلا مسحورا أي: قد سحر، ثم نبه تعالى نبيه مسليا له عن مقالتهم فقال: انظر كيف ضربوا لك الأمثال ... الآية، والقصور التي في هذه الآية تأولها الثعلبي وغيره أنها في الدنيا، والقصور هي البيوت المبنية بالجدرات، لأنها قصرت عن الداخلين والمستأذنين، وباقي الآية بين، والضمير في رأتهم لجهنم.

[سورة الفرقان (٢٥) : الآيات ١٥ الى ١٨]

قل◦ أذلك خير أم جنة الخلد التي وعد المتقون كانت لهم جزاء ومصيرا (١٥) لهم فيها ما يشاؤن خالدين كان على ربك وعدا مسؤلا (١٦) ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء أم هم ضلوا السبيل (١٧) قالوا سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوما بورا (١٨)

---

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٨/ ٣٤٨) كتاب «التفسير» : باب سورة الفرقان.." (١)

"المعادلة بين الاجتراح وعمل الصالحات، ويكون الإيمان في الفريقين، ولهذا بكى الخائفون- رضي الله عنهم-.

ت: وروى ابن المبارك في «رقائقه» بسنده أن تميما الداري- رضي الله عنه- بات ليلة إلى الصباح، يركع ويسجد، ويردد هذه الآية: أم حسب الذين اجترحوا السيئات

الآية، ويبكي- رضي الله عنه-، انتهى.

وقوله: ساء ما يحكمون

: «ما» مصدرية، والتقدير: ساء الحكم حكمهم.

[سورة الجاثية (٤٥) : الآيات ٢٣ الى ٢٤]

أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون (٢٣) وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون (٢٤)

وقوله سبحانه: أفرأيت من اتخذ إلهه هواه ... الآية: تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم أي: لا تهتم بأمر الكفرة من أجل إعراضهم عن الإيمان، وقوله: إلهه هواه إشارة إلى الأصنام إذ كانوا يعبدون ما يهوون من الحجارة، وقال قتادة: المعنى: لا يهوى شيئا إلا ركبه، لا يخاف الله «١» فهذا كما يقال: الهوى إله معبود، وهذه الآية وإن كانت نزلت في هوى الكفر فهي متناولة جميع هوى النفس الأمارة قال النبي صلى الله عليه وسلم: «والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله» «٢» ، وقال سهل التستري: هواك داؤك فإن

---

(١) تفسير الثعالبي = الجواهر الحسان في تفسير القرآن الثعالبي، أبو زيد ٢٠٣/٤

خالفته فدواؤك،، وقال وهب: إذا عرض لك أمران، وشككت في خيرهما، فانظر أبعدهما من هـ◌واك فأته

ومن **الحكمة في** هذا قول القائل: [الطويل]

إذا أنت لم تعص الهوى قادك الهوى ... إلى كل ما فيه عليك مقال

قال الشيخ ابن أبي جمرة: قوله/ صلى الله عليه وسلم: «فيقال: من كان يعبد شيئا فليتبعه» «شيئا» يعم جميع الأشياء، مدركة كانت أو غير مدركة، فالمدرك: كالشمس والقمر، وغير المدرك، مثل: الملائكة والهوى لقوله عز وجل: أفرأيت من اتخذ إلهه هواه، وما أشبه ذلك، انتهى، قال القشيري في «رسالته» : وحكي عن أبي عمران الواسطي قال:

انكسرت بنا السفينة، فبقيت أنا وامرأتي على لوح، وقد ولدت في تلك الحال صبية، فصاحت بي، وقالت: يقتلني العطش، فقلت: هو ذا يرى حالنا، فرفعت رأسي، فإذا رجل في الهواء جالس في يده سلس◌لة من ذهب، وفيها كوز من ياقوت أحمر، فقال: هاك،

---

(١) ذكره البغوي في «تفسيره» (٤/ ١٥٩، ١٦٠) آية رقم: (٢١) .

(٢) تقدم.." (١)

"يا محمد ما أنزل إليك آية بينة فنتبعك، (وما يكفر بها إلا الفاسقون)، المتجاوزون عن الحد، (أو كلما عاهدوا عهدا)، عطف على محذوف والهمزة للإنكار، أي: أكفروا بالآيات، وكلما عاهدوا نزلت حين ذكرهم نبينا عليه الصلاة والسلام ما أخذ عليهم من الميثاق في شأنه قالوا: والله ما عهد إلينا ولا أخذ ميثاق في شأنك، (نبذه فريق منهم): نقضه وطرحه، (بل أكثرهم لا يؤمنون)، رد لما يتوهم أن الفريق هم الأقلون، فإنهم بين ناقض عهد أو جاحد معاند، والمؤمنون أقلون، (ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم)، كعيسى ومحمد عليهما السلام، (نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله)، أي: التوراة، فإنهم جحدوا ما فيها من صفة محمد عليه الصلاة والسلام، (وراء ظهورهم)، كشيء يرمى وراء الظهر غير ملتفت إليه، (كأنهم لا يعلمون): ما فيها مع أنهم عالمون، (واتبعوا ما تتلوا الشياطين)، عطف على نبذ، أي: تركوا كتاب الله واتبعوا كتب السحر التي تقرأها الشياطين وتحدثها، (على): عهد، (ملك سليمان)، أي: في زمانه وتعديته بعلى لتضمين الكذب فإن الشياطين كتبوا السحر ودفنوه تحت كرسيه ثم لما مات سليمان

---

(١) تفسير الثعالبي = الجواهر الحسان في تفسير القرآن الثعالبي، أبو زيد ٥/٢٠٨

أو نزع منه ملكه استخرجوه (١)، وقالوا: تسلطه في الأرض لهذا السحر، فتعلموه، وبعضهم نفوا نبوته وقالوا: ما هو إلا ساحر فبرأه الله مما قالوا فقال: (وما كفر سليمان): عبر عن السحر بالكفر لتغليظه، (ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر)، إشارة إلى ما كتبوا من السحر، (وما أنزل على الملكين)، عطف على السحر أو على ما تتلوا، أي: يعلمونهم ما ألهما، (ببابل)،

---

(١) هذا من الإسرائيليات المنكرة، وبعض كتب التفسير مشحونة بالأساطير في تفسير هذه الآية.
قال الإمام فخر الدين الرازي ما نصه:
أما قوله تعالى: وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت ففيه مسائل:
المسألة الأولى: «ما» في قوله: وما أنزل فيه وجهان. الأول: أنه بمعنى الذي ثم هؤلاء اختلفوا فيه على ثلاثة أقوال. الأول: أنه عطف على (السحر) أي يعلمون الناس السحر ويعلمونهم ما أنزل على الملكين أيضا. وثانيها: أنه عطف على قوله: ما تتلوا الشياطين أي واتبعوا ما تتلوا الشياطين افتراء على ملك سليمان وما أنزل على الملكين لأن السحر منه ما هو كفر وهو الذي تلته الشياطين، ومنه ما تأثيره في التفريق بين المرء وزوجه وهو الذي أنزل على الملكين فكأنه تعالى أخبر عن اليهود أنهم اتبعوا كلا الأمرين ولم يقتصروا على أحدهما، وثالثها: أن موضعه جر عطفا على (ملك سليمان) وتقديره ما تتلوا الشياطين افتراء على ملك سليمان وعلى ما أنزل على الملكين وهو اختيار أبي مسلم رحمه الله، وأنكر في الملكين أن يكون السحر نازلا عليهما واحتج عليه بوجوه. الأول: أن السحر لو كان نازلا عليهما لكان منزله هو الله تعالى، وذلك غير جائز لأن السحر كفر وعبث ولا يليق بالله إنزال ذلك، الثاني: أن قوله: ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر يدل على أن تعليم السحر كفر، فلو ثبت في الملائكة أنهم يعلمون السحر لزمهم الكفر، وذلك باطل. الثالث:
كما لا يجوز في الأنبياء أن يبعثوا لتعليم السحر فكذلك في الملائكة بطريق الأولى، الرابع: أن السحر لا ينضاف إلا إلى الكفرة والفسقة والشياطين المردة، وكيف يضاف إلى الله ما ينهى عنه ويتوعد عليه بالعقاب؟
وهل السحر إلا الباطل المموه وقد جرت عادة الله تعالى بإبطاله كما قال في قصة موسى عليه السلام: ما جئتم به السحر إن الله سيبطله [يونس: ٨١] ثم إنه رحمه الله سلك في تفسير الآية نهجا آخر يخالف

قول أكثر المفسرين، فقال: كما أن الشياطين نسبوا السحر إلى ملك سليمان مع أن ملك سليمان كان مبرأ/ عنه، فكذلك نسبوا ما أنزل على الملكين إلى السحر مع أن المنزل عليهما كان مبرأ عن السحر، وذلك لأن المنزل عليهما كان هو الشرع والدين والدعاء إلى الخير، وإنما كانا يعلمان الناس ذلك مع قولهما: إنما نحن فتنة فلا تكفر توكيدا لبعثهم على القبول والتمسك، وكانت طائفة تتمسك وأخرى تخالف وتعدل عن ذلك ويتعلمون منهما أي من الفتنة والكفر مقدار ما يفرقون به بين المرء وزوجه، فهذا تقرير مذهب أبي مسلم. الوجه الثاني: أن يكون «ما» بمعنى الجحد ويكون معطوفا على قوله تعالى: وما كفر سليمان كأنه قال: لم يكفر سليمان ولم ينزل على الملكين سحر لأن السحرة كانت تضيف السحر إلى سليمان وتزعم أنه مما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت، فرد الله عليهم في القولين قوله: وما يعلمان من أحد جحد أيضا أي لا يعلمان أحدا بل ينهيان عنه أشد النهي.

أما قوله تعالى: حتى يقولا إنما نحن فتنة أي ابتلاء وامتحان فلا تكفر وهو كقولك ما أمرت فلانا بكذا حتى قلت له إن فعلت كذا نالك كذا، أي ما أمرت به بل حذرته عنه.

واعلم أن هذه الأقوال وإن كانت حسنة إلا أن القول الأول أحسن منها، وذلك لأن عطف قوله: وما أنزل على ما يليه أولى من عطفه على ما بعد عنه إلا لدليل منفصل، أما قوله: لو نزل السحر عليهما لكان منزل ذلك السحر هو الله تعالى. قلنا: تعريف صفة الشيء قد يكون لأجل الترغيب في إدخاله في الوجود وقد يكون لأجل أن يقع الاحتراز عنه كما قال الشاعر:

عرفت الشر لا للشر لكن لتوقيه

قوله ثانيا: أن تعليم السحر كفر لقوله تعالى: ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر، فالجواب: أنا بينا أنه واقعة حال فيكفي في صدقها صورة واحدة وهي ما إذا اشتغل بتعليم سحر من يقول بإلهية الكواكب ويكون قصده من ذلك التعليم إثبات أن ذلك المذهب حق. قوله ثالثا: أنه لا يجوز بعثة الأنبياء عليهم السلام لتعليم السحر فكذا الملائكة. قلنا: لا نسلم أنه لا يجوز بعثة الأنبياء عليهم السلام لتعليمه بحيث يكون الغرض من ذلك التعليم التنبيه على إبطاله. قوله رابعا: إنما يضاف السحر إلى الكفرة والمردة فكيف يضاف إلى الله تعالى ما ينهى عنه؟ قلنا: فرق بين العمل وبين التعليم فلم لا يجوز أن يكون العمل منهيا عنه؟ وأما تعليمه لغرض التنبيه على فساده فإنه يكون مأمورا به.

المسألة الثانية: قرأ الحسن: (ملكين) بكسر اللام وهو مروي عن الضحاك وابن عباس ثم اختلفوا، فقال

الحسن: كانا علجين أقلفين ببابل يعلمان الناس السحر، وقيل: كانا رجلين صالحين من الملوك. والقراءة المشهورة بفتح اللام وهما كانا ملكين نزلا من السماء، وهاروت وماروت اسمان لهما، وقيل: هما جبريل وميكائيل عليهما السلام، وقيل غيرهما: أما الذين كسروا اللام فقد احتجوا بوجوه، أحدها: أنه لا يليق بالملائكة تعليم السحر، وثانيها: كيف يجوز إنزال/ الملكين مع قوله: ولو أنزلنا ملكا لقضي الأمر ثم لا ينظرون [الأنعام: ٨]، وثالثها: لو أنزل الملكين لكان إما أن يجعلهما في صورة الرجلين أو لا يجعلهما كذلك، فإن جعلهما في صورة الرجلين مع أنهما ليسا برجلين كان ذلك تجهيلا وتلبيسا على الناس وهو غير جائز، ولو جاز ذلك فلم لا يجوز أن كل واحد من الناس الذين نشاهدهم لا يكون في الحقيقة إنسانا، بل ملكا من الملائكة؟ وإن لم يجعلهما في صورة الرجلين قدح ذلك في قوله تعالى: ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا [الأنعام: ٩] والجواب عن الأول: أنا سنبين وجه الحكمة في إنزال الملائكة لتعليم السحر، وعن الثاني: أن هذه الآية عامة وقراءة الملكين بفتح اللام متواترة وخاصة والخاص مقدم على العام، وعن الثالث: أن الله تعالى أنزلهما في صورة رجلين وكان الواجب على المكلفين في زمان الأنبياء أن لا يقطعوا على من صورته صورة الإنسان بكونه إنسانا، كما أنه في زمان الرسول عليه الصلاة والسلام كان الواجب على من شاهد دحية الكلبي أن لا يقطع بكونه من البشر بل الواجب التوقف فيه.

المسألة الثالثة: إذا قلنا بأنهما كانا من الملائكة فقد اختلفوا في سبب نزولهما فروي عن ابن عباس أن الملائكة لما أعلمهم الله بآدم وقالوا: أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء فأجابهم الله تعالى بقوله: إني أعلم ما لا تعلمون [البقرة: ٣٠] ثم إن الله تعالى وكل عليهم جمعا من الملائكة وهم الكرام الكاتبون فكانوا يعرجون بأعمالهم الخبيثة فعجبت الملائكة منهم ومن تبقية الله لهم مع ما ظهر منهم من القبائح، ثم أضافوا إليهما عمل السحر فازداد تعجب الملائكة فأراد الله تعالى أن يبتلي الملائكة، فقال لهم: اختاروا ملكين من أعظم الملائكة علما وزهدا وديانة لأنزلهما إلى الأرض فأختبرهما، فاختاروا هاروت وماروت، وركب فيهما شهوة الإنس وأنزلهما ونهاهما عن الشرك والقتل والزنا والشرب، فنزلا فذهبت إليهما امرأة من أحسن النساء وهي الزهرة فراوداها عن نفسها فأبت أن تطيعهما إلا بعد أن يعبدا الصنم، وإلا بعد أن يشربا الخمر، فامتنعا أولا، ثم غلبت الشهوة عليهما فأطاعاها في كل ذلك، فعند إقدامهما على الشرب وعبادة الصنم دخل سائل عليهم فقالت: إن أظهر هذا السائل للناس ما رأى منا فسد أمرنا، فإن أردتما الوصول إلي فاقتلا هذا الرجل، فامتنعا منه ثم اشتغلا بقتله فلما فرغا من القتل وطلبا المرأة فلم يجداها، ثم

إن الملكين عند ذلك ندما وتحسرا وتضرعا إلى الله تعالى فخيرهما بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، فاختار عذاب الدنيا وهما يعذبان ببابل معلقان بين السماء والأرض يعلمان الناس السحر، ثم لهم في الزهرة قولان، أحدهما: أن الله تعالى لما ابتلى الملكين بشهوة بني آدم أمر الله الكوكب الذي يقال له الزهرة وفلكها أن اهبطا إلى الأرض إلى أن كان ما كان، فحينئذ ارتفعت الزهرة وفلكها إلى موضعهما من السماء موبخين لهما على ما شاهداه منهما. والقول الثاني: أن المرأة كانت فاجرة من أهل الأرض وواقعاها بعد شرب الخمر وقتل النفس وعبادة الصنم، ثم علماها الاسم الذي كانا به يعرجان إلى السماء فتكلمت به وعرجت إلى السماء وكان اسمها «بيدخت» فمسخها الله وجعلها هي الزهرة، واعلم أن هذه الرواية فاسدة مردودة/ غير مقبولة لأنه ليس في كتاب الله ما يدل على ذلك، بل فيه ما يبطلها من وجوه، الأول: ما تقدم من الدلائل الدالة على عصمة الملائكة عن كل المعاصي، وثانيها: أن قولهم إنهما خيرا بين عذاب الدنيا وبين عذاب الآخرة فاسد، بل كان الأولى أن يخيرا بين التوبة والعذاب لأن الله تعالى خير بينهما من أشرك به طول عمره، فكيف يبخل عليهما بذلك؟ وثالثها: أن من أعجب الأمور قولهم: إنهما يعلمان السحر في حال كونهما معذبين ويدعوان إليه وهما يعاقبان ولما ظهر فساد هذا القول فنقول: السبب في إنزالهما وجوه. أحدها: أن السحرة كثرت في ذلك الزمان واستنبطت أبوابا غريبة في السحر، وكانوا يدعون النبوة ويتحدون الناس بها، فبعث الله تعالى هذين الملكين لأجل أن يعلما الناس أبواب السحر حتى يتمكنوا من معارضة أولئك الذين كانوا يدعون النبوة كذبا، ولا شك أن هذا من أحسن الأغراض والمقاصد، وثانيها: أن العلم بكون المعجزة مخالفة للسحر متوقف على العلم بماهية المعجزة وبماهية السحر، والناس كانوا جاهلين بماهية السحر، فلا جرم هذا تعذرت عليهم معرفة حقيقة المعجزة، فبعث الله هذين الملكين لتعريف ماهية السحر لأجل هذا الغرض، وثالثها: لا يمتنع أن يقال: السحر الذي يوقع الفرقة بين أعداء الله والألفة بين أولياء الله كان مباحا عندهم أو مندوبا، فالله تعالى بعث الملكين لتعليم السحر لهذا الغرض، ثم إن القوم تعلموا ذلك منهما واستعملوه في الشر وإيقاع الفرقة بين أولياء الله والألفة بين أعداء الله، ورابعها: أن تحصيل العلم بكل شيء حسن ولما كان السحر منهيا عنه وجب أن يكون متصورا معلوما لأن الذي لا يكون متصورا امتنع النهي عنه، وخامسها: لعل الجن كان عندهم أنواع من السحر لم يقدر البشر على الإتيان بمثلها، فبعث الله الملائكة ليعلموا البشر أمورا يقدرون بها على معارضة الجن، وسادسها: يجوز أن يكون ذلك تشديدا في التكليف من حيث إنه إذا علمه ما أمكنه أن يتوصل به إلى

اللذات العاجلة ثم منعه من استعمالها كان ذلك في نهاية المشقة فيستوجب به الثواب الزائد كما ابتلي قوم طالوت بالنهر على ما قال: فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فإنه مني [البقرة: ٢٤٩] فثبت بهذه الوجوه أنه لا يبعد من الله تعالى إنزال الملكين لتعليم السحر والله أعلم.

اهـ (مفاتيح الغيب ٣/ ٦٢٩ - ٦٣١)." (١)

"فإنهم إذا ماتوا واحتاجوا غاية الاحتياج إلى أعمالهم، فقدوها بمرة، (كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون)، لكي تتفكروا فتعتبروا.

* * *

(يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه واعلموا أن الله غني حميد (٢٦٧) الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا والله واسع عليم (٢٦٨) يؤتي **الحكمة من** يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر إلا أولو الألباب (٢٦٩) وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فإن الله يعلمه وما للظالمين من أنصار (٢٧٠) إن تبدوا الصدقات فنعما هي وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ويكفر عنكم من سيئاتكم والله بما تعملون خبير (٢٧١) ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء وما تنفقوا من خير فلأنفسكم وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله وما تنفقوا من خير يوف إليكم وأنتم لا تظلمون (٢٧٢) للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضربا في الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافا وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم (٢٧3)." (٢)

"(قل إني نهيت): عن (أن أعبد الذين تدعون): تعبدون، (من دون الله قل لا أتبع أهواءكم) فيه إشارة إلى علة النهي، ومبدأ ضلالهم فإن طريقهم اتباع الهوى لا الهدى، (قد ضللت إذا) أي: إن فعلت ذلك فقد ضللت، (وما أنا من المهتدين) فيه تعريض بأنهم كذلك، (قل إني على بينة): حجة واضحة، (من ربي): غير متبع الهوى، وهو صفة لبينة، (وكذبتم به): بربي، حيث أشركتم أو الضمير للبينة فإنها بمعنى الدليل، (ما عندي ما تستعجلون به): من العذاب كما قالوا: " إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة " [الأنفال: ٣٢] (إن الحكم إلا لله): في تعجيل العذاب وتأخيره، (يقص الحق): يتبع الحق **والحكمة**

---

(١) تفسير الإيجي جامع البيان في تفسير القرآن الإيجي، محمد بن عبد الرحمن ٧٦/١

(٢) تفسير الإيجي جامع البيان في تفسير القرآن الإيجي، محمد بن عبد الرحمن ١٩٨/١

فيما حكم، ومن قرأ " يقضي الحق " أي: يحكم القضاء الحق فيكون صفة مصدر أو يصنع، الحق فيكون مفعولا به، (وهو خير الفاصلين): القاضين، (قل لو أن عندي ما تستعجلون به): من العذاب، (لقضي الأمر بيني وبينكم) أي: لعجلته حتى أتخلص منكم حين سألتم أنتم العذاب، (والله أعلم بالظالمين) أي: لكن هو أعلم بوقت العقوبة، (وعنده مفاتح الغيب): خزائنه جمع مفتح بالميم وهو." (١)

"الذي خلق آل قصي وهم قريش من نفس واحدة وهو قصي فجعل من جنسها زوجها عربية قرشية فلما آتاهما صالحا جعلا له شركاء حيث سميا أولادهما الأربعة بعبد المناف وعبد العزي وعبد قصي وعبد الدار وقيل تم الكلام عند قوله آتاهما ثم ذكر كفار مكة فقال: " فتعالى الله عما يشركون " (١) (أيشركون) ابتداء كلام وإنكار على المشركين (ما لا يخلق شيئا) كالأصنام (وهم يخلقون) مخلوقون لله جيء بضمير العاقلين بناء على اعتقادهم وتسميتهم إلها (ولا يستطعون لهم) لعبادهم (نصرا ولا أنفسهم ينصرون) لا يقدرون على دفع مكروه كمن أراد كسرهم (وإن تدعوهم) أي: الأصنام أو المشركين (إلى الهدى) إلى أن يهدوكم أو إلى الإسلام (لا يتبعوكم) إلى مرادكم ولا يجيبوكم (سواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون) أي: سواء إحداثكم دعاءهم واستمراركم على الصمت عن دعائهم فإن الكفار إذا نزل عليهم أمر دعوا الله تعالى دون الأصنام.

---

(١) قال الإمام فخر الدين الرازي ما نصه:

اعلم أنه تعالى رجع في هذه الآية إلى تقرير أمر التوحيد وإبطال الشرك وفيه مسائل:

المسألة الأولى: المروي عن ابن عباس هو الذي خلقكم من نفس واحدة وهي نفس آدم وخلق منها زوجها أي حواء خلقها الله من ضلع آدم عليه السلام من غير أذى فلما تغشاها آدم حملت حملا خفيفا ... فلما أثقلت أي ثقل الولد في بطنها أتاها إبليس في صورة رجل وقال: ما هذا يا حواء/ إني أخاف أن يكون كلبا أو بهيمة وما يدريك من أين يخرج؟ أمن دبرك فيقتلك أو ينشق بطنك؟ فخافت حواء، وذكرت ذلك لآدم عليه السلام، فلم يزالا في هم من ذلك، ثم أتاها وقال: إن سألت الله أن يجعله صالحا سويا مثلك ويسهل خروجه من بطنك تسميه عبد الحرث، وكان اسم إبليس في الملائكة الحرث فذلك قوله: فلما آتاهما صالحا جعلا له شركاء فيما آتاهما أي لما آتاهما الله ولدا سويا صالحا جعلا له شريكا أي جعل

---

(١) تفسير الإيجي جامع البيان في تفسير القرآن الإيجي، محمد بن عبد الرحمن ٥٤٠/١

آدم وحواء له شريكا، والمراد به الحرث هذا تمام القصة.
واعلم أن هذا التأويل فاسد ويدل عليه وجوه: الأول: أنه تعالى قال: فتعالى الله عما يشركون وذلك يدل على أن الذين أتوا بهذا الشرك جماعة. الثاني: أنه تعالى قال بعده: أيشركون ما لا يخلق شيئا وهم يخلقون [الأعراف: ١٩١] وهذا يدل على أن المقصود من هذه الآية الرد على من جعل الأصنام شركاء لله تعالى، وما جرى لإبليس اللعين في هذه الآية ذكر. الثالث: لو كان المراد إبليس لقال: أيشركون من لا يخلق شيئا، ولم يقل ما لا يخلق شيئا، لأن العاقل إنما يذكر بصيغة «من» لا بصيغة «ما» الرابع: أن آدم عليه السلام كان أشد الناس معرفة بإبليس، وكان عالما بجميع الأسماء كما قال تعالى: وعلم آدم الأسماء كلها فكان لا بد وأن يكون قد علم أن اسم إبليس هو الحرث فمع العداوة الشديدة التي بينه وبين آدم ومع علمه بأن اسمه هو الحرث كيف سمى ولد نفسه بعبد الحرث؟ وكيف ضاقت عليه الأسماء حتى إنه لم يجد سوى هذا الاسم؟
الخامس: أن الواحد منا لو حصل له ولد يرجو منه الخير والصلاح، فجاءه إنسان ودعاه إلى أن يسميه بمثل هذه الأسماء لزجره وأنكر عليه أشد الإنكار. فآدم عليه السلام مع نبوته وعلمه الكثير الذي حصل من قوله: وعلم آدم الأسماء كلها [البقرة: ٣١] وتجاربه الكثيرة التي حصلت له بسبب الزلة التي وقع فيها لأجل وسوسة إبليس، كيف لم يتنبه لهذا القدر وكيف لم يعرف أن ذلك من الأفعال المنكرة التي يجب على العاقل الاحتراز منها السادس: أن بتقدير أن آدم عليه السلام، سماه بعبد الحرث، فلا يخلو إما أن يقال إنه جعل هذا اللفظ اسم علم له، أو جعله صفة له، بمعنى أنه أخبر بهذا اللفظ أنه عبد الحرث ومخلوق من قبله. فإن كان الأول لم يكن هذا شركا بالله لأن أسماء الأعلام والألقاب لا تفيد في المسميات فائدة، فلم يلزم من التسمية بهذا اللفظ حصول الإشراك، وإن كان الثاني كان هذا قولا بأن آدم عليه السلام اعتقد أن لله شريكا في الخلق والإيجاد والتكوين وذلك يوجب الجزم بتكفير آدم، وذلك لا يقوله عاقل. فثبت بهذه الوجوه أن هذا القول فاسد ويجب على العاقل المسلم أن لا يلتفت إليه.
إذا عرفت هذا فنقول: في تأويل الآية وجوه صحيحة سليمة خالية عن هذه المفاسد.
التأويل الأول: ما ذكره القفال فقال: إنه تعالى ذكر هذه القصة على تمثيل ضرب المثل/ وبيان أن هذه الحالة صورة حالة هؤلاء المشركين في جهلهم، وقولهم بالشرك، وتقرير هذا الكلام كأنه تعالى يقول: هو الذي خلق كل واحد منكم من نفس واحدة وجعل من جنسها زوجها إنسانا يساويه في الإنسانية، فلما

تغشى الزوج زوجته وظهر الحمل، دعا الزوج والزوجة ربهما لئن آتيتنا ولدا صالحا سويا لنكونن من الشاكرين لآلائك ونعمائك. فلما آتاهما الله ولدا صالحا سويا، جعل الزوج والزوجة لله شركاء فيما آتاهما، لأنهم تارة ينسبون ذلك الولد إلى الطبائع كما هو قول الطبائعيين، وتارة إلى الكواكب كما هو قول المنجمين، وتارة إلى الأصنام والأوثان كما هو قول عبدة الأصنام.

ثم قال تعالى: فتعالى الله عما يشركون أي تنزه الله عن ذلك الشرك، وهذا جواب في غاية الصحة والسداد.

التأويل الثاني: بأن يكون الخطاب لقريش الذين كانوا في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهم آل قصي، والمراد من قوله: هو الذي خلقكم من نفس قصي وجعل من جنسها زوجها عربية قرشية ليسكن إليها، فلما آتاهما ما طلبا من الولد الصالح السوي جعلا له شركاء فيما آتاهما حيث سميا أولادهما الأربعة بعبد مناف، وعبد العزى، وعبد قصي، وعبد اللات، وجعل الضمير في يشركون لهما ولأعقابهما الذين اقتدوا بهما في الشرك.

التأويل الثالث: أن نسلم أن هذه الآية وردت في شرح قصة آدم عليه السلام وعلى هذا التقدير ففي دفع هذا الإشكال وجوه: الأول: أن المشركين كانوا يقولون إن آدم عليه السلام كان يعبد الأصنام، ويرجع في طلب الخير ودفع الشر إليها، فذكر تعالى قصة آدم وحواء عليهما السلام، وحكى عنهما أنهما قالا: لئن آتيتنا صالحا لنكونن من الشاكرين أي ذكرا أنه تعالى لو آتاهما ولدا سويا صالحا لاشتغلوا بشكر تلك النعمة، ثم قال:

فلما آتاهما صالحا جعلا له شركاء فقوله: جعلا له شركاء ورد بمعنى الاستفهام على سبيل الإنكار والتبعيد، والتقرير: فلما آتاهما صالحا أجعلا له شركاء فيما آتاهما؟ ثم قال: فتعالى الله عما يشركون أي تعالى الله عن شرك هؤلاء المشركين الذين يقولون بالشرك وينسبونه إلى آدم عليه السلام، ونظيره أن ينعم رجل على رجل بوجوه كثيرة من الإنعام، ثم يقال لذلك المنعم: إن ذلك المنعم عليه يقصد ذمك وإيصال الشر إليك، فيقول ذلك المنعم: فعلت في حق فلان كذا وأحسنت إليه بكذا وكذا وأحسنت إليه بكذا وكذا، ثم إنه يقابلني بالشر والإساءة والبغي؟ على التبعيد فكذا هاهنا.

الوجه الثاني: في الجواب أن نقول: إن هذه القصة من أولها إلى آخرها في حق آدم وحواء/ ولا إشكال في شيء من ألفاظها إلا قوله: فلما آتاهما صالحا جعلا له شركاء فيما آتاهما فنقول: التقدير، فلما آتاهما ولدا صالحا سويا جعلا له شركاء أي جعل أولادهما له شركاء على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه

مقامه، وكذا فيما آتاهما، أي فيما آتى أولادهما ونظيره قوله: وسئل القرية [يوسف: ٨٢] أي واسأل أهل القرية.
فإن قيل: فعلى هذا التأويل ما الفائدة في التثنية في قوله: جعلا له شركاء.
قلنا: لأن ولده قسمان ذكر وأنثى فقوله: جعلا المراد منه الذكر والأنثى مرة عبر عنهما بلفظ التثنية لكونهما صنفين ونوعين، ومرة عبر عنهما بلفظ الجمع، وهو قوله تعالى: فتعالى الله عما يشركون.
الوجه الثالث: في الجواب سلمنا أن الضمير في قوله: جعلا له شركاء فيما آتاهما عائد إلى آدم وحواء عليهما السلام، إلا أنه قيل: إنه تعالى لما آتاهما الولد الصالح عزما على أن يجعلاه وقفا على خدمة الله وطاعته وعبوديته على الإطلاق. ثم بدا لهم في ذلك، فتارة كانوا ينتفعون به في مصالح الدنيا ومنافعها، وتارة كانوا يأمرونه بخدمة الله وطاعته. وهذا العمل وإن كان منا قربة وطاعة، إلا أن حسنات الأبرار سيئات المقربين، فلهذا قال تعالى: فتعالى الله عما يشركون والمراد من هذه الآية ما
نقل عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال حاكيا عن الله سبحانه: «أنا أغنى الأغنياء عن الشرك، من عمل عملا أشرك فيه غيري تركته وشركه»
وعلى هذا التقدير: فالإشكال زائل.
الوجه الرابع: في التأويل أن نقول: سلمنا صحة تلك القصة المذكورة، إلا أنا نقول: إنهم سموا بعيد الحرث لأجل أنهم اعتقدوا أنه إنما سلم من الآفة والمرض بسبب دعاء ذلك الشخص المسمى بالحرث، وقد يسمى المنعم عليه عبدا للمنعم. يقال في المثل: أنا عبد من تعلمت منه حرفا، ورأيت بعض الأفاضل كتب على عنوان: كتابة عبد وده فلان. قال الشاعر:
وإني لعبد الضيف ما دام ثاويا ... ولا شيمة لي بعدها تشبه العبدا
فآدم وحواء عليهما السلام سميا ذلك الولد بعبد الحرث تنبيها على أنه إنما سلم من الآفات ببركة دعائه، وهذا لا يقدح في كونه عبد الله من جهة أنه مملوكه ومخلوقه، إلا أنا قد ذكرنا أن حسنات الأبرار سيئات المقربين فلما حصل الاشتراك في لفظ العبد لا جرم صار آدم عليه السلام معاتبا في هذا العمل بسبب الاشتراك الحاصل في مجرد لفظ العبد، فهذا جملة ما نقوله في تأويل هذه الآية.
المسألة الثانية: في تفسير ألفاظ الآية وفيها مباحث:
البحث الأول: قوله: هو الذي خلقكم من نفس واحدة المشهور أنها نفس آدم وقوله: / خلق منها زوجها

المراد حواء. قالوا ومعنى كونها مخلوقة من نفس آدم، أنه تعالى خلقها من ضلع من أضلاع آدم.

قالوا: **والحكمة فيه** أن الجنس إلى الجنس أميل، والجنسية علة الضم، وأقول هذا الكلام مشكل لأنه تعالى لما كان قادرا على أن يخلق آدم ابتداء فما الذي حملنا على أن نقول إنه تعالى خلق حواء من جزء أجزاء آدم؟ ولم لا نقول: إنه تعالى خلق حواء أيضا ابتداء؟ وأيضا الذي يقدر على خلق إنسان من عظم واحد فلم لا يقدر على خلقه ابتداء، وأيضا الذي يقال: إن عدد أضلاع الجانب الأيسر أنقص من عدد أضلاع الجانب الأيمن فيه مؤاخذة تنبي عن خلاف الحس والتشريح. بقي أن يقال: إذا لم نقل بذلك، فما المراد من كلمة (من) في قوله: وجعل منها زوجها فنقول: قد ذكرنا أن الإشارة إلى الشيء تارة تكون بحسب شخصه، وأخرى بحسب نوعه

قال عليه الصلاة والسلام: «هذا وضوء لا يقبل الله الصلاة إلا به»

وليس المراد ذلك الفرد المعين بل المراد ذلك النوع.

وقال عليه الصلاة والسلام: «في يوم عاشوراء هذا هو اليوم الذي أظهر الله فيه موسى على فرعون»

والمراد خلق من النوع الإنساني زوجة آدم، والمقصود التنبيه على أنه تعالى جعل زوج آدم إنسانا مثله قوله: فلما تغشاها أي جامعها، والغشيان إتيان الرجل المرأة وقد غشاها وتغشاها إذا علاها، وذلك لأنه إذا علاها فقد صار كالغاشية لها، ومثله يجللها، وهو يشبه التغطي واللبس. قال تعالى: هن لباس لكم وأنتم لباس لهن

وقوله: حملت حملا خفيفا قالوا يريد النطفة والمني والحمل بالفتح ما كان في البطن أو على رأس الشجر، والحمل بكسر الحاء ما حمل على ظهر أو على الدابة. وقوله: فمرت به أي استمرت بالماء والحمل على سبيل الخفة، والمراد أنها كانت تقوم وتقعد وتمشي من غير ثقل. قال صاحب «الكشاف»: وقرأ يحيى بن يعمر فمرت به بالتخفيف وقرأ غيره (فمارت به) من المرية. كقوله: أفتمارونه [النجم: ١٢] وفي قراءة أخرى أفتمرونه معناه وقع في نفسها ظن الحمل وارتابت فيه فلما أثقلت أي صارت إلى حال الثقل ودنت ولادتها دعوا الله ربهما يعني آدم وحواء لئن آتيتنا صالحا أي ولدا سويا مثلنا لنكونن من الشاكرين لآلائك ونعمائك فلما آتاهما الله صالحا جعلا له شركاء فيما آتاهما والكلام في تفسيره قد مر بالاستقصاء قرأ ابن كثير وابن عامر، وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي، وعاصم، في رواية حفص (عنه شركاء) بصيغة الجمع وقرأ نافع وعاصم في رواية أبي بكر (عنه شركا) بكسر الشين وتنوين الكاف ومعناه جعلا له نظراء ذوي شرك

وهم الشركاء، أو يقال معناه أحدثا لله إشراكا في الولد ومن قرأ شركاء فحجته قوله: أم جعلوا لله شركاء خلقوا [الرعد: ١٦] وأراد بالشركاء في هذه الآية إبليس لأن من أطاع إبليس فقد أطاع جميع الشياطين، هذا إذا حملنا هذه الآية على القصة المشهورة، أما إذا لم نقل به فلا حاجة إلى التأويل والله أعلم. اهـ (مفاتيح الغيب. ١٥/ ٤٢٧ - ٤٣٠).." [١]

"أظهرها، وقيل أخفيها فلا أقول هي آتية ولولا ما في الإخبار من اللطف لما أخبرت به (لتجزى) متعلق بـ آتية (كل نفس بما تسعى): تعمل (فلا يصدنك عنها): عن التصديق بالساعة (من لا يؤمن بها) يعني كن شديد الشكيمة حتى لا يؤثر فيك أقوال الكفرة واعتقاداتهم فنهى الكافر والمراد فيه أن ينصد عنها (واتبع هواه): خالف أمر الله (فتردى): فتهلك منصوب على جواب النهي.

(وما تلك)، الحكمة في السؤال تنبيهه وتيقظه ليرى ما فيه من العجائب (بيمينك) حال من معنى الإشارة، أو صلة لتلك، وهي اسم موصول. (يا موسى قال هي عصاي أتوكأ): أعتمد (عليها): عند المشي والإعياء (وأهش): أخبط الورق عن الشجر (بها على) رؤوس. (غنمي): تأكله، (ولي فيها مآرب): حاجات، (أخرى): كحمل الماء والزاد بها. قيل: لما أمره الله بخلع النعلين وتركهما تصور عند هذا السؤال إنكار التمسك بها، وأمره بالرفض فبسط الكلام، وقال: أنا محتاج إليها غاية الاحتياج، وعن وهب لما قال الله ألقها ظن موسى أنه يقول ارفضها. (قال ألقها يا موسى فألقاها فإذا هي حية تسعى قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى) أي: نردها عصى كما كانت، منصوب بنزع الخافض، أي: إلى سيرتها، أو." [٢]

"أسود آتاه الله تعالى الحكمة، وعن بعض: إن الله خيره بين النبوة، والحكمة، فاختار الحكمة فإن فيها السلامة، (أن اشكر)، أي: لأن أو مفسرة فإن إيتاء الحكمة في معنى القول، (لله ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه): نفعه لا يعود إلا إليه، (ومن كفر فإن الله غني): لا يحتاج إلى شيء، (حميد): حقيق بالحمد وإن لم يحمده أحد، (وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بني)، تصغير إشفاق، (لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم)، نقل أن ابنه وامرأته كانا كافرين فما زال بهما حتى أسلما، (ووصينا الإنسان بوالديه): برعايتهما، (حملته أمه وهنا على وهن): تضعف ضعفا فوق ضعف أو ذات وهن على وهن، (وفصاله): فطامه، (في عامين)، أي: في انقضائهما، وذلك أقصى مدة الرضاع عطف على الجملة الحالية التي هي

(١) تفسير الإيجي جامع البيان في تفسير القرآن الإيجي، محمد بن عبد الرحمن ٦٨٢/١

(٢) تفسير الإيجي جامع البيان في تفسير القرآن الإيجي، محمد بن عبد الرحمن ٥٠٤/٢

تهن وهنا على وهن لما وصى بالوالدين ذكر ما تكابده الأم من المتاعب في حمله، وفصاله إيجابا للتوصية بها خصوصا، (أن اشكر) تفسير لوصينا." (١)

"أقوالهم وأحوالهم {فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا} أوثر يقولون على لا يعلمون حسبما يقتضيه ظاهر قرينه دلالة على كمال غلوهم في الكفر وترامي أمرهم في العتو فإن مجرد عدم العلم بحقيته ليس بمثابة إنكارها والاستهزاء به صريحا وتمهيدا لتعداد ما نعي عليهم في تضاعيف الجواب من الضلال والفسق ونقض العهد وغير ذلك من شنائعهم المترتبة على قولهم المذكور على أن عدم العلم بحقيته لا يعم جميعهم فإن منهم من يعلم بها وإنما يقول ما يقول مكابرة وعنادا وحمله على عدم الإذعان والقبول الشامل للجهل والعناد تعسف ظاهر هذا وقد قيل كان من حقه وأما الذين كفروا فلا يعلمون ليطابق قرينه ويقابل قسيمه لكن لما كان قولهم هذا دليلا واضحا على جهلهم عدل إليه على سبيل الكناية ليكون كالبرهان عليه فتأمل وكن على الحق المبين وماذا إما مؤلفة من كلمة استفهام وقعت مبتدأ خبره ذا بمعنى الذي وصلته ما بعده والعائد محذوف فالأحسن أن يجيء جوابه مرفوعا وإما منزلة منزلة اسم واحد بمعنى أي شيء فالأحسن في جوابه النصب والإرادة نزوع النفس وميلها إلى الفعل بحيث يحملها إليه أو القوة التي هي مبدوؤة والأول مع الفعل والثاني قبله وكلاهما مما لا يتصور في حقه تعالى ولذلك اختلفوا في إرادته عز وجل فقيل إرادته تعالى لأفعاله كونه غير ساة فيه ولامكره ولأفعال غيره أمره بها فلا تكون المعاصي بإرادته تعالى وقيل هي علمه باشتمال الأمر على النظام الأكمل والوجه الأصلح فإنه يدعو القادر إلى تحصيله والحق أنها عبارة عن ترجيح أحد طرفي المقدور على الآخر وتخصيصه بوجه دون وجه أو معنى يوجبه وهي أعم من الاختيار فإنه ترجيح مع تفضيل وفي كلمة هذا تحقير للمشار إليه واستر ذال له ومثلا نصب على التمييز أو على الحال كما في قوله تعالى {ناقة الله لكم آية} وليس مرادهم بهذه العظيمة استفهام الحكمة في ضرب المثل ولا القدح في اشتماله على الفائدة مع اعترافهم بصدوره عنه جل وعلا بل غرضهم التنبيه بادعاء أنه من الدناءة والحقارة بحيث لا يليق بأن يتعلق به أمر من الأمور الداخلية تحت إرادته تعالى على استحالة أن يكون ضرب المثل به عنده سبحانه فقوله عز من قائل

{يضل به كثيرا ويهدي به كثيرا} جواب عن تلك المقالة الباطلة ورد لها ببيان أنه مشتمل على حكمة جليلة وغاية جميلة هي كونه ذريعة إلى هداية المستعدين للهداية وإضلال المنهمكين في الغواية فوضع الفعلان

---

(١) تفسير الإيجي جامع البيان في تفسير القرآن الإيجي، محمد بن عبد الرحمن ٣١٣/٣

موضع الفعل الواقع في الاستفهام مبالغة في الدلالة على تحقيقهما فإن إرادتهما دون وقوعهما بالفعل وتجافيا عن نظم الإضلال مع الهداية في سلك الإرادة لأبهامه تساويهما في تعلقهما وليس كذلك فإن المراد، بالذات من ضرب المثل هو التذكر والاهتداء كما ينبئ عنه قوله تعالى {وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون} ونظائره وأما الإضلال فهو أمر عارض مترتب على سوء اختيارهم وأوثر صيغة الاستقبال إيذانا بالتجدد والاستمرار وقيل وضع الفعلان موضع مصدريهما كأنه قيل أراد إضلال كثير وهداية كثير وقدم الإضلال على الهداية مع تقدم حال المهتدين على حال الضالين فيما قبله ليكون أول ما يقرع أسماعهم من الجواب أمرا فظيعا يسوءهم ويفت في أعضادهم وهو السر في تخصيص هذه الفائدة بالذكر وقيل هو بيان للجملتين المصدرتين بأما وتسجيل بأن العلم بكونه حقا هدى وأن الجهل بوجه إيراده والإنكار لحسن مورده ضلال وفسوق وكثرة كل فريق إنما هي بالنظر إلى أنفسهم لا بالقياس إلى مقابلهم فلا يقدح في." (١)

"{فقلنا اضربوه} عطف على فادار اتم وما بينهما اعتراض والالتفات لتربية المهابة والضمير للنفس والتذكير باعتبار أنها عبارة عن الرجل أو بتأويل الشخص أو القتيل

{ببعضها} أي ببعض البقرة أي بعض كان وقيل بأصغريها وقيل بلسانها وقيل بفخذها اليمنى وقيل بأذنها وقيل بعجبها وقيل بالعظم الذي يلي الغضروف وهذا أول القصة كما ينبئ عنه الضمير الراجع إلى البقرة كأنه قيل وإذ قتلتم نفسا فادار اتم فيها فقلنا اذبحوا بقرة فاضربوه ببعضها وإنما غير الترتيب عند الحكاية لتكرير التوبيخ وتثنية التقريع فإن كل واحد من قتل النفس المحرمة والاستهزاء برسول الله صلى الله عليه وسلم والافتيات على أمره وترك المسارعة إلى الامتثال به جناية عظيمة حقيقة بأن تنعى عليهم بحيالها ولو حكيت القصة على ترتيب الوقوع لما علم استقلال كل منها بما يخص بها من التوبيخ وإنما حكي الأمر بالذبح عن موسى عليه السلام مع انه من الله عز وجل كالأمر بالضرب لما أن جناياتهم كانت بمراجعتهم إليه عليه السلام والافتيات على رأيه

{كذلك يحيي الله الموتى} على إرادة قول معطوف على مقدر ينسحب عليه الكلام أي فضربوه فحيي وقلنا كذلك يحيي الخ فحذفت الفاء الفصيحة في فحيي مع ما عطف بها وما عطف هو عليه لدلالة كذلك على ذلك فالخطاب في كذلك حينئذ للحاضرين عند حياة القتيل ويجوز أن يكون ذلك للحاضرين عند

---

(١) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ٧٤/١

نزول الآية الكريمة فلا حاجة حينئذ إلى تقدير القول بل تنتهي الحكاية عند قوله تعالى ببعضها مع ما قدر بعده فالجملة معترضة أي مثل ذلك الإحياء العجيب يحيي الله الموتى يوم القيامه

{ويريكم آياته} ودلائله الدالة على أنه تعالى على كل شئ قدير ويجوز أن يراد بالآيات هذا الإحياء والتعبير عنه بالجمع لاشتماله على أمور بديعة من ترتب الحياة على عضو ميت وإخباره بقاتله وما يلابسه من الأمور الخارقة للعادة

{لعلكم تعقلون} أي لكي تكمل عقولكم وتعلموا أن من قدر على إحياء نفس قدر على إحياء الأنفس كلها أو تعلم على قضية عقولكم ولعل **الحكمة في** اشتراط ما اشترط في الإحياء مع ظهور كمال قدرته على إحيائه ابتداء بلا واسطة أصلا اشتماله على التقرب إلى الله تعالى وأداء الواجب ونفع اليتيم والتنبيه على بركة التوكل على الله تعالى والشفقة على الأولاد ونفع بر الوالدين وأن من حق الطالب أن يقدم قربة ومن حق المتقرب أن يتحرى الأحسن ويغالي بثمنه كما يروى عن عمر رضي الله عنه أنه ضحى بنجيبة اشتراها بثلثمائة دينار وأن المؤثر هو الله تعالى وإنما الأسباب أمارات لا تأثير لها وأن من رام أن يعرف أعدى عدوه الساعي في إماتته الموت الحقيقي فطريقه أن يذبح بقرة نفسه التي هي قوته الشهوية حين زال عنها شره الصبا ولم يلحقها ضعف الكبر وكانت معجبة رائقة المنظر غير مذللة في طلب الدنيا مسلمة عن دنسها لا سمة بها من قبائحها بحيث يتصل أثره إلى نفسه فيحيا بها حياة طيبة ويعرب عما به ينكشف الحال ويرتفع ما بين العقل والوهم من التدارؤ والجدال." (١)

"{والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون} جرت السنة الإلهية على شفع الوعد بالوعيد مراعاة لما تقتضيه **الحكمة في** إرشاد العباد من الترغيب تارة والترهيب أخرى والتبشير مرة والإنذار أخرى." (٢)

"البقرة (١٠٧)

حقيقة الوحي ورد كلام الكارهين له رأسا قيل نزلت حين قال المشركون أو اليهود ألا ترون إلى محمد يأمر أصحابه بأمر ثم ينهاهم عنه ويأمر بخلافه والنسخ في اللغة الإزالة والنقل يقال نسخت الريح الأثر أي أزالته ونسخت الكتاب أي نقلته ونسخ الآية بيان انتهاء التعبد بقراءتها أو بالحكم المستفاد منها أوبهما جميعا

---

(١) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ١/١١٤

(٢) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ١/١٢٢

وإنساؤها إذهابها من القلوب وما شرطية جازمة لننسخ منتصبة به على المفعولية وقرئ ننسخ من أنسخ أي نأمرك أو جبريل بنسخها أو نجدها منسوخة وننسأها من النسء أي نؤخرها وننسها بالتشديد وتنسها وتنسها على خطاب الرسول صلى الله عليه وسلم مبنيا للفاعل وللمفعول وقرئ ما ننسخ من آية أو ننسكها وقرئ ما ننسك من آية أو ننسخها والمعنى أن كل آية نذهب بها على ماتقتضيه الحكمة والمصلحة من إزالة لفظها أو حكمها أو كليهما معا إلى بدل أو إلى غير بدل

{نأت بخير منها} أي نوع آخر هو خير للعباد يحسب الحال في النفع والثواب من الذاهبة وقرئ بقلب الهمزة ألفا

{أو مثلها} أي فيما ذكر من النفع والثواب وهذا الحكم غير مختص بنسخ الآية التامة فما فوقها بل جار في مادونها أيضا وتخصيصها بالذكر باعتبار الغالب والنص كما ترى دال على جواز النسخ كيف لا وتنزيل الآيات التي عليها يدور فلك الأحكام الشرعية إنما هو بحسب ما يقتضيه من الحكم والمصالح وذلك يختلف باختلاف الأحوال ويتبدل حسب تبدل الأشخاص والأعصار كأحوال المعاش فرب حكم تقتضيه الحكمة في حال تقتضي في حال أخرى نقيضه فلو لم يجز النسخ لاختل ما بين الحكمة والأحكام من النظام

{ألم تعلم} الهمزة للتقرير كما في قوله سبحانه {أليس الله بكاف عبده} وقوله تعالى {ألم نشرح لك صدرك} والخطاب للنبي عليه الصلاة والسلام وقوله تعالى

{إن الله على كل شيء قدير} ساد مسد مفعولي تعلم عند الجمهور ومسد مفعوله الأول والثاني محذوف عند الأخفش والمراد بهذا التقرير الاستشهاد بعلمه بما ذكر على قدرته تعالى على النسخ وعلى الإيتان بما هو خير من المنسوخ وبما هو مثله لأن ذلك من جملة الأشياء المقهورة تحت قدرته سبحانه فمن علم شمول قدرته تعالى لجميع الأشياء علم قدرته على ذلك قطعا والالتفات بوضع الاسم الجليل موضع الضمير لتربية المهابة والإشعار بمناط الحكم فإن شمول القدرة لجميع الأشياء من الأحكام الألوهية وكذا الحال في قوله عز سلطانه." (١)

"{ومن يرغب عن ملة إبراهيم} إنكار واستبعاد لأن يكون في العقلاء من يرغب عن ملته التي هي الحق الصريح والدين الصحيح أي لا يرغب عن ملته الواضحة الغراء

---

(١) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ١/١٤٣

{إلا من سفه نفسه} أي أذلها واستمهنها واستخف بها وقيل خسر نفسه وقيل أوبق أو أهلك أو جهل نفسه قال المبرد وثعلب سفه بالكسر متعد وبالضم لازم ويشهد له ما ورد في الخبر الكبر أن تسفه الحق وتغمض الناس وقيل معناه ضل من قبل نفسه وقيل أصله سفه نفسه بالرفع فنصب على التمييز نحو غبن رأيه وألم رأسه ونحو قوله ... ونأخذ بعده بذناب عيش ... أجب الظهر ليس له سنام ...

وقوله ... وما قومي بثعلبة بن سعد ... ولا بفزارة الشعر الرقابا ...

ذلك لأنه إذا رغب عما لا يرغب عنه أحد من العقلاء فقد بالغ في إذلال نفسه وإذالتها وإهانتها حيث خالف بها كل نفس عاقلة روي أن عبد الله بن سلام دعا ابني أخيه سلمة ومهاجرا إلى الإسلام فقال لهما قد علمنا أن الله تعالى قال في التوراة إني باعث من ولد اسمعيل نبيا اسمه أحمد فمن آمن به فقد اهتدى ورشد ومن لم يؤمن به فهو ملعون فأسلم سلمة وأبي مهاجر فنزلت

{ولقد اصطفيناه في الدنيا} أي اخترناه بالنبوة والحكمة من بين سائر الخلق وأصله اتخاذ صفوة الشيء كما أن أصل الاختيار اتخاذ خيره واللام لجواب قسم محذوف والواو اعتراضية والجملة مقررة لمضمون ما قبلها أي وبالله لقد اصطفيناه وقوله تعالى

{وإنه فى الأخرة لمن الصالحين} أي من المشهود لهم بالثبات على الاستقامة والخير والصلاح معطوف عليها داخل في حيز القسم مؤكد لمضمونها مقرر لما تقرره ولا حاجة إلى جعله اعتراضا آخر أو حالا مقدرة فإن من كان صفوة للعباد في الدنيا مشهودا له بالصلاح في الآخرة كان حقيقا بالاتباع لا يرغب عن ملته إلا سفيه أو متسفه أذل نفسه بالجهل والإعراض عن النظر والتأمل وإيثار الاسمية لما أن انتظامه في زمرة صالحي أهل الآخرة أمر مستمر في الدارين لا أنه." (١)

"البقرة (١٣٠)

{رسولا منهم} أي من أنفسهم فإن البعث فيهم لا يستلزم البعث منهم ولم يبعث من ذريتهما غير النبي صلى الله عليه وسلم فهو الذي أجيب به دعوتهما عليهما السلام روي أنه قيل له قد استجيب لك وهو في آخر الزمان قال عليه السلام أنا دعوة أبي إبراهيم وبشرى عيسى ورؤيا أمي وتخصيص إبراهيم عليه السلام بالاستجابة له لما أنه الأصل في الدعاء وإسمعيل تبع له عليه السلام

---

(١) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ١/١٦٢

{يتلو عليهم آياتك} يقرأ عليهم ويبلغهم ما يوحى إليه من البينات

{ويعلمهم} بحسب قوتهم النظرية

{الكتاب} أي القرآن

{والحكمة} وما يكمل به نفوسهم من أحكام الشريعة والمعارف الحقة

{ويزكيهم} بحسب قوتهم العملية أي يطهرها عن دنس الشرك وفنون المعاصي

{إنك أنت العزيز} الذي لا يقهر ولا يغلب على ما يريد

{الحكيم} الذي لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة والمصلحة والجملة تعليل للدعاء وإجابة المسئول فإن وصف الحكمة مقتض لإفاضة ما تقتضيه الحكمة من الأمور التي من جملتها بعث الرسول ووصف العزة مستدع لامتناع وجود المانع بالمرة." (١)

"{أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم} روي أن المسلمين كانوا إذا أمسوا حل لهم الأكل والشرب والجماع إلى أن يصلوا العشاء الأخيرة أو يرقدوا ثم أن عمر رضي الله عنه باشر بعد العشاء فندم وأتى النبي صلى الله عليه وسلم واعتذر إليه فقام رجال فاعترفوا بما صنعوا بعد العشاء فنزلت وليلة الصيام الليلة التي يصبح منها صائما والرفث كناية عن الجماع لأنه لا يكاد يخلو من رفث وهو الإفصاح بما يجب أن يكنى عنه وعدي بإلى لتضمنه معنى الإفضاء والإنهاء وإيثاره ههنا لاستقباح ما ارتكبوه ولذلك سمي خيانة وقرئ الرفوث وتقديم الظرف على القائم مقام الفاعل لما مر مرارا من التشويق فإن ما حقه التقديم إذا أخر تبقى النفس مترقبة إليه فيتمكن عندها وقت وروده فضل تمكن

{هن لباس لكم وأنتم لباس لهن} استئناف مبين لسبب الإحلال وهو صعوبة الصبر عنهن مع شدة المخالطة وكثرة الملابسة بهن وجعل كل من الرجل والمرأة لباسا للآخر لاعتناقهما واشتمال كل منهما على الآخر بالليل قال ... إذا ما الضجيع ثنى عطفها ... تثنت فكانت عليه لباسا ...

أو لأن كلا منهما يستر حال صاحبه ويمنعه من الفجور

{علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم} استئناف آخر مبين لما ذكر من السبب والاختيان أبلغ من الخيانة كالاكتساب من الكسب ومعنى تختانون تظلمونها بتعريضها للعقاب وتنقيص حظها من الثواب

{فتاب عليكم} عطف على علم أي تاب عليكم لما تبتم مما اقترفتموه

---

(١) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ١٦٢/١

{وعفا عنكم} أي محا أثره عنكم

{فالآن} لما نسخ التحريم

{باشروهن} المباشرة إلزاق البشرة بالبشرة كني بها عن الجماع الذي يستلزمها وفيه دليل على جواز نسخ الكتاب للسنة

{وابتغوا ما كتب الله لكم} أي واطلبوا ما قدره الله لكم وقرره في اللوح من الولد وفيه أن المباشر ينبغي أن يكون غرضه الولد فإنه الحكمة في خلق الشهوة وشرع النكاح لا قضاء الشهوة وقيل فيه نهي عن العزل وقيل عن غير المأتي والتقدير وابتغوا المحل الذي كتب." (١)

"{يسألونك عن الأهلة} سأله معاذ بن جبل وثعلبة بن غنم فقالا ما بال الهلال يبدو رقيقا كالخيط ثم يزيد حتى يستوي ثم لا يزال ينقص حتى يعود كما بدأ

{قل هي مواقيت للناس والحج} كانوا قد سألوه عليه الصلاة والسلام عن الحكمة في اختلاف حال القمر وتبدل أمره فأمره الله العزيز الحكيم أن يجيبهم بأن الحكمة الظاهرة في ذلك أن تكون معالم للناس في عبادتهم لا سيما الحج فإن الوقت مراعى فيه أداء وقضاء وكذا في معاملاتهم على حسب ما يتفقون عليه والمواقيت جمع ميقات من الوقت والفرق بينه وبين المدة والزمان أن المدة المطلقة امتداد حركة الفلك من مبدئها إلى منتهاها والزمان مدة مقسومة إلى الماضي والحال والمستقبل والوقت الزمان المفروض لأمر

{وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها} كانت الأنصار إذا أحرموا لم يدخلوا دارا ولا فسطاطا من بابه وإنما يدخلون ويخرجون من نقب أو فرجة وراءها ويعدون ذلك برا فبين لهم أنه ليس ببر فقيل

{ولكن البر من اتقى} أي بر من اتقى المحارم والشهوات ووجه اتصاله بما قبله أنهم سألوا عن الأمرين أو أنه لما ذكر أنها مواقيت للحج ذكر عقيبة ماهو من أفعالهم في الحج استطرادا أو أنهم لما سألوا عما لا يعنيهم ولا يتعلق بعلم النبوة فإنه عليه الصلاة والسلام مبعوث لبيان الشرائع لا لبيان حقائق الأشياء وتركوا السؤال عما يعنيهم ويختص بعلم الرسالة عقب بذكره جواب ما سألوا عنه تنبيها على أن اللائق بهم أن يسألوا عن أمثال ذلك ويهتموا بالعلم بها أو أريد به التنبيه على تعكيسهم في السؤال وكونه من قبيل دخول البيت من ورائه والمعنى وليس البر بأن تعكسوا في مسائلكم ولكن البر من اتقى ذلك ولم يجترئ على مثله

{وأتوا البيوت من أبوابها} إذ ليس في العدول بر أو باشروا الأمور من وجوهها

---

(١) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ٢٠١/١

{واتقوا الله} في تغيير أحكامه أو في جميع أموركم أمر بذلك صريحا بعد بيان أن البر بر من اتقى إظهارا لزيادة الاعتناء بشأن التقوى وتمهيدا لقوله تعالى

{لعلكم تفلحون} أي لكي تظفروا بالبر والهدى." (١)

"{فإن زللتم} أي عن الدخول في السلم وقرئ بكسر اللام وهي لغة فيه

{من بعد ما جاءتكم} الآيات

{البينات} والحجج القطعية الدالة على حقيقته الموجبة للدخول فيه

{فاعلموا أن الله عزيز} غالب على أمره لا يعجزه الانتقام منكم

{حكيم} لايترك ما تقتضيه الحكمة من مؤاخذة المجرمين المستعصين على أوامره." (٢)

"{فإن طلقها} أي بعد الطلقتين

{فلا تحل} هي

{له من بعد} أي من بعد هذا الطلاق

{حتى تنكح زوجا غيره} أي تتزوج غيره فإن النكاح أيضا يسند إلى كل منهما وتعلق بظاهره من اقتصر على العقد والجمهور على اشتراط الإصابة لما روي أن امرأة رفاعة قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم إن رفاعة طلقني فبت طلاقي وإن عبد الرحمن بن الزبير تزوجني وإن ما معه مثل هدبة الثوب فقال صلى الله عليه وسلم أتريدين أن ترجعي إلى رفاعة قالت نعم قال صلى الله عليه وسلم لا إلا أن تذوقي عسيلته ويذوق عسيلتك وبمثله تجوز الزيادة على الكتاب وقيل النكاح بمعنى الوطء والعقد مستفاد من لفظ الزوج والحكمة من هذا التشريع الردع عن المسارعة إلى الطلاق والعود إلى المطلقة ثلاثا والرغبة فيها والنكاح بشرط التحليل مكروه عندنا ويروى عدم الكراهة فيما لم يكن الشرط مصرحا به وفاسد عند الأكثرين لقوله صلى الله عليه وسلم لعن الله المحلل والمحلل له

{فإن طلقها} أي الزوج الثاني {فلا جناح عليهما} أي على الزوج الأول والمرأة

{أن يتراجعا} أن يرجع كل منهما إلى الآخر بالعقد

{إن ظنا أن يقيما حدود الله} التي أوجب مراعاتها على الزوجين من الحقوق ولا وجه لتفسير الظن بالعلم

---

(١) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ٢٠٣/١

(٢) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ٢١٢/١

لما أن العواقب غير معلومة ولأن أن الناصية للتوقع المنافي للعلم ولذلك لا يكاد يقال علمت أن يقوم زيد

{وتلك} إشارة إلى الأحكام المذكورة إلى هنا

{حدود الله} أي أحكامه المعينة المحمية من التعرض لها بالتغير والمخالفة

{يبينها} بهذا البيان اللائق أو سيبينها فيما سيأتي بناء على أن بعضها يلحقه زيادة كشف وبيان بالكتاب والسنة والجملة خبر ثان عند من يجوز كونه جملة كما في قوله تعالى فإذا هى حية تسعى أو حال من حدود الله والعامل معنى الإشارة

{لقوم يعلمون} أي يفهمون وتخصيصهم بالذكر مع عموم الدعوة والتبليغ لما أنهم المنتفعون بالبيان أو لأن ما سيلحق بعض النصوص من البيان لا يقف عليه إلا الراسخون في العلم." (١)

"٢٣٥ - البقرة أي يتربصن بعدهم كما في قولهم السمن منوان بدرهم أي منوان منه وقرئ يتوفون بفتح الياء أي يستوفون آجالهم وتأنيث العشر باعتبار الليالي لأنها غرر الشهور والأيام ولذلك تراهم لا يكادون يستعملون التذكير في مثله أصلا حتى إنهم يقولون صمت عشرا ومن البين في ذلك قوله تعالى إن لبثتم إلا عشرا ثم ان لبثتم الايوما ولعل الحكمة في هذا التقدير أن الجنين إذا كان ذكرا يتحرك غالبا لثلاثة أشهر وإن كان أنثى يتحرك لأربعة فاعتبر أقصى الأجلين وزيد عليه العشر استظهارا إذ ربما تضعف الحركة فلا يحس بها وعموم اللفظ يقتضي تساوي المسلمة والكتابية والحرة والأمة في هذا الحكم ولكن القياس اقتضى التنصيف في الامة وقوله عز وجل وأولات الاحمال خص الحامل منه وعن علي وابن عباس رضي الله عنهم أنها تعتد بأبعد الأجلين احتياطا

{فإذا بلغن أجلهن} أي انقضت عدتهن

{فلا جناح عليكم} أيها الحكام والمسلمون جميعا

{فيما فعلن فى أنفسهن} من التزين والتعرض للخطاب وسائر ما حرم على المعتدة

{بالمعروف} بالوجه الذي لا ينكره الشرع وفيه إشارة إلى أنهن لو فعلن ما ينكره الشرع فعليهم أن يكفوهن عن ذلك وإلا فعليهم الجناح

{والله بما تعملون خبير} فلا تعملوا خلاف ما أمرتم به." (٢)

---

(١) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ٢٢٧/١

(٢) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ٢٣٢/١

"٢٣٧ - البقرة ما قبلها من الفعل المجزوم على معنى ما لم يكن منكم مسيس ولا فرض مهر

{ومتعوهن} عطف على مقدر ينسحب عليه الكلام أي فطلقوهن ومتعوهن والحكمة في إيجاب المتعة جبر إيحاش الطلاق وهي درع وملحفة وخمار على حسب الحال كما يفصح عنه قوله تعالى

{على الموسع قدره وعلى المقتر قدره} أي ما يليق بحال كل منهما وقرئ بسكون الدال وهي جملة مستأنفة لا محل لها من الإعراب مبينة لمقدار المتعة بالنظر إلى حال المطلق إيسارا وإقتارا أو حال من فاعل متعوهن بحذف الرابط أي على الموسع منكم الخ أو على جعل الألف واللام عوضا من المضاف إليه عند من يجوزه أي على موسعكم الخ وهذا إذا لم يكن مهر مثلها أقا من ذلك فإن كان أقل فلها الأقل من نصف مهر المثل ومن المتعة ولا ينقص عن خمسة دراهم

{متاعا} أي تمتيعا

{بالمعروف} أي بالوجه الذي ت‍ستحسنه الشريعة والمروءة

{حقا} صفة لمتاعا أو مصدر مؤكد أي حق ذلك حقا

{على المحسنين} أي الذين يحسنون إلى أنفسهم بالمسارعة إلى الامتثال أو إلى المطلقات بالتمتيع بالمعروف وإنما سموا محسنين اعتبارا للمشاركة وترغيبا وتحريضا." (١)

"{زين للناس} كلام مستأنف سيق لبيان حقارة شأن الحظوظ الدنيوية بأصنافها وتزهيد للناس فيها وتوجيه رغباتهم إلى ما عنده تعالى إثر بيان عدم نفعها للكفرة الذين كانوا يتعززون بها والمراد بالناس الجنس {حب الشهوات} الشهوة نزوع النفس إلى ما تريده والمراد ههنا المشتهيات عبر عنها بالشهوات مبالغة في كونها مشتهاة مرغوبا فيها كأنها نفس الشهوات أو أيذانا بانهما كهم في حبها بحيث أحبوا شهواتها كما في قوله تعالى {إني أحببت حب الخير} أو استرذالا لها فإن الشهوة مسترذلة مذمومة من صفات البهائم والمزين هو الباري سبحانه وتعالى إذ هو الخالق لجميع الأفعال والدواعي والحكمة في ذلك ابتلاؤهم قال تعالى إنا جعلنا ما على الارض زينة لها لنبلوهم الآية فإنها ذريعة لنيل سعادة الدارين عند كون تعاطيها على نهج الشريعة الشريفة وسي‍لة إلى بقاء النوع وإيثار صيغة المبني للمفعول للجري على سنن الكبرياء وقرئ على البناء للفاعل وقيل المزين هو الشيطان لما أن مساق الآية الكريمة على ذمها وفرق الجبائي بين المباحات فأسند تزيينها إليه تعالى وبين المحرمات فنسب تزيينها إلى الشيطان

---

(١) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ٢٣٤/١

{من النساء والبنين} في محل النصب على أنه حال من الشهوات وهي مفسرة لها في المعنى وقيل من لبيان الجنس وتقديم النساء على البنين لعراقتهن في معنى الشهوة فإنهن حبائل الشيطان وعدم التعرض للبنات لعدم الاطراد في حبهن

{والقناطير المقنطرة} جمع قنطار وهو المال الكثير وقيل مائة ألف دينار وقيل ملء مسك ثور وقيل." (١)

"١٨٠ - آل عمران

فيجعل ذلك عيارا على عقائدكم وشاهدا بضمائركم حتى يعلم بعضكم بما في قلب بعض بطريق الاستدلال لا من جهة الوقوف على ذات الصدور فإن ذلك مما استأثر الله تعالى به وأنت خبير بأن الاستدراك باجتباء الرسل المنبئ عن مزيد مزيتهم وفضل معرفتهم على الخلق إثر بيان قصور رتبتهم عن الوقوف على خفايا السرائر صريح في أن المراد إظهار تلك السرائر بطريق الوحي لا بطريق التكليف بما يؤدي إلى خروج أسرارهم عن رتبة الخفاء وأقرب من ذلك حمل الآية الكريمة على أن تكون مسوقة لبيان الحكمة في إملائه تعالى للكفرة إثر بيان شريته لهم فالمعنى ما كان الله ليذر المخلصين على الاختلاط أبدا كما تركهم كذلك إلى الآن لسر يقتضيه بل يفرز عنهم المنافقين ولذلك فعله يومئذ حيث خلى الكفرة وشأنهم فأبرز لهم صورة الغلبة فأظهر من في قلوبهم مرض ما فيها من الخبائث وافتضحوا على رءوس الأشهاد وقيل قال الكافرون إن كان محمد صادقا فليخبرنا من يؤمن منا ومن يكفر فنزلت

{وإن تؤمنوا} أي بما ذكر حق الإيمان

{وتتقوا} أي عدم مراعاة حقوقه أو النفاق

{فلكم} بمقابلة ذلك الإيمان والتقوى أجر عظيم لا يبلغ كنهه." (٢)

"أو حرف جر كما سبق في تفسير قوله تعالى {ولله على الناس حج البيت} وأيا ما كان فمعنى كون التوبة عليه سبحانه صدور القبول عنه تعالى وكلمة على للدلالة على التحقيق ألبتة بحكم جري العادة وبسق الوعد حتى كأنه من الواجبات عليه سبحانه وهذا مراد من قال كلمة على بمعنى من وقيل هي بمعنى عند وعن الحسن يعني التوبة التي يقبلها الله تعالى وقيل هي التوبة التي أوجب الله تعالى على نفسه بفضله قبولها وهذا يشير إلى أن قوله تعالى على الله صفة للتوبة بتقدير متعلقه معرفة على رأي من جوز حذف

---

(١) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ١٤/٢

(٢) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ١٢٠/٢

الموصول مع بعض صلته أي إنما التوبة الكائنة على الله والمراد بالسؤ المعصية صغيرة كانت أو كبيرة وقيل الخبر على الله وقوله تعالى للذين متعلق بما تعلق به الخبر أو بمحذوف وقع حالا من الضمير المستكن في متعلق الخبر وليس فيه ما في الوجه الأول من تقديم الحال على العامل المعنوي إلا أن الذي يقتضيه المقام ويستدعيه النظام هو الأول لما أن ما قبله من وصفه تعالى بكونه توابا رحيما إنما يقتضي بيان اختصاص قبول التوبة منه تعالى بالمذكورين وذلك إنما يكون بجعل قوله تعالى للذين الخ خبرا ألا يرى إلى قوله عز وجل {وليست التوبة للذين يعملون السيئات} الخ فإنه ناطق بما قلنا كأنه قيل إنما التوبة لهؤلاء لالهؤلاء

{بجهالة} متعلق بمحذوف وقع حالا من فاعل يعملون أي يعملون السوء ملتبسين بها أي جاهلين سفهاء أو بيعملون على أن الباء سببية أي بعملونه بسبب الجهالة لأن ارتكاب الذنب مما يدعو إليه الجهل وليس المراد به عدم العلم بكونه سوءا بل عدم التفكر في العاقبة كما يفعله الجاهل قال قتادة اجتمع أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم فرأوا أن كل شئ عصى به ربه فهو جهالة عمدا كان أو خطأ وعن مجاهد من عصى الله تعالى فهو جاهل حتى ينزع عن جهالته وقال الزجاج يعني بقوله بجهالة اختيارهم اللذة الفانية على اللذة الباقية

{ثم يتوبون من قريب} أي من زمان قريب وهو ما قبل حضور الموت كما ينبى عنه ما يسأتي من قوله تعالى حتى إذا حضر أحدهم الموت الخ فإنه صريح في أن وقت الاختصار هو الوقت الذي لا تقبل فيه التوبة فبقي ماوراءه في حيز القبول وعن ابن عباس رضي الله عنهما قبل أن ينزل به سلطان الموت وعن الضحاك كل توبة قبل الموت فهو قريب وعن إبراهيم النخعي مالم يؤخذ بكظمه وهو مجرى النفس وروى أبو أيوب عن النبي صلى الله عليه وسلم أن الله تعالى يقبل توبة العبد مالم يغرغر وعن عطاء ولو قبل موته بفواق ناقة وعن الحسن أن إبليس قال حين أهبط إلى الأرض وعزتك لا أفارق ابن آدم ما دام روحه في جسده فقال تعالى وعزتي لا أغلق عليه باب التوبة مالم يغرغر ومن تبعيضية أي يتوبون بعض زمان قريب كأنه سمى مابين وجود المعصية وبين حضور الموت زمانا قريبا ففي أي جزء تاب من أجزاء هذا الزمان فهو تائب

{فأولئك} إشارة إلى المذكورين من حيث اتصافهم بما ذكر وما فيه من معنى البعد باعتبار كونهم بانقضاء ذكرهم في حكم البعيد والخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم أو لكل أحد ممن يصلح للخطاب وهو

مبتدأ خبره قوله تعالى
{يتوب الله عليهم} وما فيه من تكرير الإسناد لتقوية الحكم وهذا وعد بقبول توبتهم إثر بيان أن التوبة لهم والفاء للدلالة على سببيتها للقبول
{وكان الله عليما حكيما} مبالغا في العلم **والحكمة فيبني** أحكامه وأفعاله على أساس الحكمة والمصلحة والجملة اعتراضية مقررة لمضمون ما قبلها وإظهار الاسم الجليل في موضع الإضمار للإشعار بعلة الحكم فإن الألوهية منشأ لاتصافه تعالى بصفات الكمال." (١)

"لما دل عليه صدر الآية أي فرض لهم الصدقات فريضة ونقل عن سيبويه أنه منصوب بفعله مقدرا أي فرض الله ذلك فريضة أو حال من الضمير المستكن في قوله للفقراء أي إنما الصدقات كائنة لهم حال كونها فريضة أي مفروضة
{والله عليم} بأحوال الناس ومراتب استحقاقهم
{حكيم} لا يفعل إلا ما تقتضيه **الحكمة من** الأمور الحسنة التي من جملتها سوق الحقوق إلى مستحقيها سورة براءة آية (٦١)." (٢)

"الأوقات المحسوبة وتحقيقه أن الحساب إحصاء ما له كمية انفصالية بتكرير أمثاله من حيث يتحصل بطائفة معينة منها حد معين له اسم خاص وحكم مستقل كالسنة المتحصلة من اثنى عشر شهرا قد تحصل كل من ذلك من ثلاثين يوما قد تحصل كل من ذلك من أربع وعشرين ساعة مثلا والعد مجرد إحصائه بتكرير أمثاله من غير اعتبار أن يتحصل بذلك شيء كذلك ولما لم يعتبر في السنين المعدودة تحصل حد معين له اسم خاص غير أسامي مراتب الأعداد وحكم مستقل أضيف إليها العدد وتحصل مراتب الأعداد من العشرات والمئات والألوف اعتباري لا يجدى فى تحصل المعدودة نفعا وحيث اعتبر في الأوقات المحسوبة تحصل ما ذكر من المراتب التي لها أسام خاصة وأحكام مستقلة علق بها الحساب المنبىء عن ذلك والسنة من حيث تحققها في نفسها مما يتعلق به الحساب وإنما الذي يتعلق به العد طائفة منه، وتعلقه في ضمن ذلك بكل واحدة من تلك الطائفة ليس من الحيثية المذكورة أعني حيثية تحصلها من عدة أشهر قد تحصل كل واحد منها من عدة أيام قد حصل كل منها بطائفة من الساعات فإن ذلك وظيفة الحساب

---

(١) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ١٥٦/٢
(٢) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ٧٧/٤

بل من حيث إنها فرد من تلك الطائفة المعدودة من غير أن يعتبر معها شيء غير ذلك وتقديم العدد على الحساب مع أن الترتيب بين متعلقيهما وجودا وعلما على العكس لأن العلم المتعلق بعدد السنين علم إجمالي بما تعلق به الحساب تفصيلا وإن لم تتحد الجهة أو لأن العدد من حيث إنه لم يعتبر فيه تحصل أمرا آخر حسبما حقق آنفا نازل من الحساب الذي اعتبر فيه ذلك منزلة البسيط من المركب

{ما خلق الله ذلك} أي ما ذكر من الشمس والقمر على ما حكي من الأحوال وفيه إيذان بأن معنى جعلهما على تلك الأحوال والهيئات ليس إلا خلقهما كذلك كما أشير إليه ولا يقدح في ذلك أن استفادة القمر النور من الشمس أمر حادث فإن المراد بجعله نورا إنما هو جعله بحيث يتصف بالنور عند وجود شرائط الاتصاف به بالفعل

{إلا بالحق} استثناء مفرغ من أعم أحوال الفاعل أو المفعول أي ما خلق ذلك ملتبسا بشيء من الأشياء إلا ملتبسا بالحق مراعيا لمقتضى الحكمة البالغة أو مراعى فيه ذلك وهو ما أشير إليه إجمالا من العلم بأحوال السنين والأوقات المنوط به أمور معاملاتهم وعباداتهم

{يفصل الآيات} أي الآيات التكوينية المذكورة أو جميع الآيات فيدخل فيها الآيات المذكورة دخولا أوليا أو يفصل الآيات التنزيلية المنبهة على ذلك وقرىء بنون العظمة

{لقوم يعلمون} الحكمة في إبداع الكائنات فيستدلون بذلك على شئون مبدعها جل وعلا أو يعلمون ما في تضاعيف الآيات المنزلة فيؤمنون بها وتخصيص التفصيل بهم لأنهم المنتفعون به

سورة يونس آية (٦(." (١)

"{وإما نرينك} أصله إن نرك وما مزيدة لتأكيد معنى الشرط ومن ثمة أكد الفعل بالنون أي بنصرتك بأن نظهر لك

{بعض الذى نعدهم} أي وعدناهم من العذاب ونعجله في حياتك فتراه والعدول إلى صيغة الاستقبال لاستحضار الصورة أو للدلالة على التجدد والاستمرار أي نعدهم وعدا متجددا حسبما تقتضيه الحكمة من إنذار غب إنذار وفي تخصيص البعض بالذكر رمزا إلى العدة بإراءة بعض الموعود وقد أراه يوم بدر

---

(١) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ٤/١٢١

{أو نتوفينك} قبل ذلك {فإلينا مرجعهم} أي كيفما دارات الحال أريناك بعض ما وعدناهم أولا فإلينا مرجعهم في الدنيا والآخرة فنتجز ما وعدناهم البتة." (١)

"{لفى شك} عظيم

{منه} أي من القرآن وإن لم يجر له ذكر فإن ذكر إيتاء كتاب موسى ووقوع الاختلاف فيه لا سيما بصدد التسلية ينادي به نداء غير خفي

{مريب} موقع في الريبة

{وإن كلا} التنوين عوض عن المضاف إليه أي وإن كل المختلفين فيه المؤمنين منهم والكافرين وقرأ ابن كثير ونافع وأبو بكر بالتخفيف مع الإعمال اعتبارا للأصل

{لما ليوفينهم ربك أعمالهم} أي أجزية أعمالهم واللام الأولى موطئة للقسم والثانية جواب للقسم المحذوف ولما مركبة من الجارة وما الموصولة أو الموصوفة وأصلها لمن فقلبت النون مميا للإدغام فاجتمع ثلاث ميمات فحذفت أولاهن والمعنى لمن الذي أو لمن خلق أو لمن فريق والله ليوفينهم ربك وقرىء لما بالتخفيف على أن ما مزيدة للفصل بين اللامين والمعنى وإن جميعهم والله ليوفينهم الآية وقرىء لما بالتنوين أي جميعا كقوله سبحانه أكلا لما وقرأ أبي وإن كل لما ليوفينهم على أن أن نافية ولما بمعنى إلا وقد قرىء به

{إنه بما يعملون} أي بما يعمله كل فرد من المختلفين من الخير والشر

{خبير} بحيث لا يخفى عليه شيء من جلائله ودقائقه وهو تعليل لما سبق من توفية أجزية أعمالهم فإن الإحاطة بتفاصيل أعمال الفريقين وما يستوجبه كل عمل بمقتضى **الحكمة من** الجزاء المخصوص توجب توفية كل ذي حق حقه إن خيرا فخير وإن شرا فشر." (٢)

"وجوب أن يترتب عليه نقيضه كما إذا قدر أتسمعون والمعنى أبعد أن علمتم أن ربهما هو الله جل جلاله اتخذتم من دونه أولياء عجزة والحال أن قضية العلم بذلك إنما هو الاقتصار على توليه فعكستم الأمر كما في قوله تعالى كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى ووصف الأولياء ههنا بعدم المالكية للنفع والضر في ترشيح الإنكار وتأكيده كنقييد الاتخاذ هناك بالجملة الحالية أعني قوله

---

(١) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ٤/١٥٠

(٢) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ٤/٢٤٤

تعالى {وهم لكم عدو} فإن كلا منهما مما ينفي الاتخاذ المذكور ويؤكد إنكاره {قل} تصويرا لآرائهم الركيكة بصورة المحسوس {هل يستوى الأعمى} الذي هو المشرك الجاهل بالعبادة ومستحقها {والبصير} الذي هو الموحد العالم بذلك أو الأول عبارة عن المعبود الغافل والثاني إشارة إلى المعبود العالم بكل شيء {أم هل تستوى الظلمات} التي هي عبارة عن الكفر والضلال {والنور} الذي هو عبارة عن التوحيد والإيمان وقرىء بالياء ولما دل النظم الكريم على أن الكفر فيما فعلوا من اتخاذ الأصنام أولياء من دون الله سبحانه في الضلال المحض والخطأ البحت بحيث لا يخفى بطلانه على أحد وأنهم في ذلك كالأعمى الذي لا يهتدى إلى شيء أصلا وليس لهم في ذلك شبهة تصلح أن تكون منشأ لغلطهم وخطئهم فضلا عن الحجة أكد ذلك فقيل {أم جعلوا لله} أي بل أجعلوا له {شركاء خلقوا كخلقه} سبحانه والهمزة لإنكار الوقوع لا لإنكار الواقع مع وقوعه وقوله خلقوا كخلقه هو الذي يتوجه إليه الإنكار وأما نفس الجعل فهو واقع لا يتعلق به الإنكار بهذا المعنى والمعنى أنهم لم يجعلوا لله تعالى شركاء خلقوا كخلقه {فتشابه الخلق عليهم} بسبب ذلك وقالوا هؤلاء خلقوا كخلقه تعالى فاستحقوا بذلك العبادة كما استحقها ليكون ذلك منشأ لخطئهم بل إنما جعلوا له شركاء ما هو بمعزل من ذلك بالمرة وفيه ما لا يخفى من التعريض بركاكة رأيهم والتهكم بهم {قل} تحقيقا للحق وإرشادا لهم إليه {الله خالق كل شيء} كافة لا خالق سواه فيشاركه في استحقاق العبادة {وهو الواحد} المتوحد بالألوهية المتفرد بالربوبية {القهار} لكل ما سواه فكيف يتوهم أن يكون له شريك وبعد مثل المشرك والشرك بالأعمى والظلمات والموحد والتوحيد بالبصير والنور مثل الحق الذي هو القرآن العظيم في فيضانه من جناب القدس على قلوب خالية عنه متفاوتة الاستعداد وفي جريانه عليها ملاحظة وحفظا وعلى الألسنة مذاكرة وتلاوة وفي ثباته فيهما مع كونه ممدا لحياتها الروحانية وما يتلوها من الملكات السنية والأعمال المرضية بالماء النازل من السماء السائل في أودية يابسة لم تجر عادتها بذلك سيلانا مقدرا بمقدار اقتضته الحكمة في إحياء الأرض وما عليها الباقي فيها حسبما يدور عليه منافع الناس وفي كونه حلية تتحلى به النفوس وتصل إلى البهجة الأبدية ومتاعا يتمتع به في المعاش والمعاد بالذهب والفضة وسائر الفلزات التي يتخذ منها أنواع الآلات والأدوات وتبقى منتفعا بها مدة طويلة ومثل الباطل الذي ابتلي به الكفرة لقصور نظرهم بما يظهر فيهما من غير مداخلة له فيهما وإخلال بصفائهما من الزبد الرابي فوقهما المضمحل سريعا فقيل." (١)

---

(١) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ١٣/٥

"{الله يبسط الرزق} أي يوسعه {لمن يشاء} من عباده {ويقدر} أي يضيقه على من يشاء حسبما تقتضيه **الحكمة من** غير أن يكون لأحد مدخل في ذلك ولا شعور بحكمته فربما يبسطه للكافر إملاء واستدراجا وربما يضيقه على المؤمن زيادة لأجره فلا يغتر ببسط الكافر كما لا يقنط بقدره المؤمن {وفرحوا} أي أهل مكة فرح أشر وبطر لا فرح سرور بفضل الله تعالى {بالحياة الدنيا} وما بسط لهم فيها من نعيمها {وما الحياة الدنيا} وما يتبعها من النعيم {فى الاخرة} أي في جنب نعيم الآخرة {إلا متاع} إلا شيء نزر يتمتع به كعجالة الراكب وزاد الراعي والمعنى أنهم رضوا بحظ الدنيا معرضين عن نعيم الآخرة والحال أن ما أشروا به في جنب ما أعرضوا عنه شيء قليل النفع سريع النفاد." (١)

"{ويقول الذين كفروا} أي أهل مكة وإيثار هذه الطريقة على الإضمار مع ظهور إرادتهم عقيب ذكر فرحهم بالحياة الدنيا لذمهم والتسجيل عليهم بالكفر فيما حكي عنهم من قولهم {لولا أنزل عليه آية من ربه} فإن ذلك في أقصى مراتب المكابرة والعناد كأن ما أنزل عليه السلام من الآيات العظام الباهرة ليس بآية حتى اقترحوا مالا تقتضيه **الحكمة من** الآيات المحسوسة التي لا يبقى لأحد بعد ذلك طاقة بعدم القبول ولذلك أمر في الجواب بقوله تعالى {قل إن الله يضل من يشاء} إضلالة مشيئته تابعة للحكمة الداعية إليها أي يخلق فيه الضلال لصرفه اختياره إلى تحصيله ويدعه منهمكا فيه لعلمه بأنه لا ينجع فيه اللطف ولا ينفعه الإرشاد كمن كان على صفتكم في المكابرة والعناد وشدة الشكيمة والغلو في الفساد فلا سبيل له إلى الاهتداء ولو جاءته كل آية {ويهدى إليه} أي إلى جنابه العلي الكبير هداية موصلة إليه لا دلالة مطلقة على ما يوصل إليه فإن ذلك غير مختص بالمهتدين وفيه من تشريفهم مالا يوصف {من أناب} أقبل." (٢)

"أحيي بقراءته عليها كما أحييت لعيسى عليه السلام لكان ذلك هذا القرآن لكونه الغاية القصوى في الانطواء على عجائب آثار قدرة الله تعالى وهيبته عز وجل كقوله تعالى لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله لا في الإعجاز إذ لا مدخل له في هذه الآثار ولا في التذكير والإنذار والتخويف لاختصاصها بالعقلاء مع أنه لا علاقة لها بتكليم الموتى واعتبار فيض العقول إليها مخل بالمبالغة المقصودة وتقديم المجرور في المواضع الثلاثة على المرفوع لما مر غير مرة من قصد الإبهام ثم التفسير

---

(١) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ١٩/٥

(٢) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ١٩/٥

لزيادة التقرير لأن بتقديم ما حقه التأخير تبقى النفس مستشرفة ومترقبة إلى المؤخر أنه ماذا فيتمكن عند وروده عليها فضل تمكن وكلمة أو في الموضعين لمنع الخلو لا لمنع الجمع واقتراحهم وإن كان متعلقا بمجرد ظهور مثل هذه الأفاعيل العجيبة على يده عليه السلام لا بظهورها بواسطة القرآن لكن ذلك حيث كان مبنيا على عدم اشتماله في زعمهم على الخوارق نيط ظهورها به مبالغة في بيان اشتماله عليها وأنه حقيق بأن يكون مصدرا لكل خارق وإبانة لركاكة رأيهم في شأنه الرفيع كأنه قيل لو أن ظهور أمثال ما اقترحوه من مقتضيات الحكمة لكان مظهرها هذا القرآن الذي لم يعدوه آية وفيه من تفخيم شأنه العزيز ووصفهم بركاكة العقل مالا يخفى (بل لله الأمر جميعا) أي له الأمر الذي عليه يدور فلك الأكوان وجودا وعدما يفعل ما يشاء وبحكم ما يريد لما يدعو إليه من الحكم البالغة وهو إضراب عما تضمنه الشرطية من معنى النفي لا بحسب منطوقه بل باعتبار موجبه ومؤداه أي لو أن قرآنا فعل به ما ذكر لكان ذلك هذا القرآن ولكن لم يفعل بل فعل ما عليه الشأن الآن لأن الأمر كله له وحده فالإضراب ليس بمتوجه إلى كون الأمر لله سبحانه بل إلى ما يؤدي إليه ذلك من كون الشأن على ما كان لما تقتضيه الحكمة من بناء التكليف على الاختبار {أفلم ييأس الذين آمنوا} أي أفلم يعلموا على لغة هوازن أو قوم من النخع أو على استعمال اليأس في معنى العلم لتضمنه له ويؤيده قراءة علي وابن عباس وجماعة من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم أفلم يتبين بطريق التفسير والفاء للعطف على مقدر أي أغفلوا عن كون الأمر جميعا لله تعالى فلم يعلموا {أن لو يشاء الله} على حذف ضمير الشأن وتخفيف أن {لهدى الناس جميعا} بإظهار أمثال تلك الآثار العظيمة فالإنكار متوجه إلى المعطوفين جميعا أو أعلموا كون الأمر جميعا لله فلم يعلموا ما يوجبه ذلك العلم مما ذكر فهو متوجه إلى ترتب المعطوف على المعطوف عليه أي تخلف العلم الثاني عن العلم الأول وعلى التقديرين فالإنكار إنكار الوقوع كما في قوله تعالى ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا إنكار الواقع كما في قولك ألم تخف الله حتى عصيته ثم إن مناط الإنكار ليس عدم علمهم بمضمون الشرطية فقط بل مع عدم علمهم بعدم تحقق مقدمها كأنه قيل ألم يعلموا أن الله تعالى لو شاء هدايتهم لهداهم وأنه لم يشأها وذلك لأنهم كانوا يودون أن يظهر ما اقترحوا من الآيات ليجتمعوا على الإيمان وعلى الثاني لو أن قرآنا فعل به ما فصل من التعاجيب لما آمنوا به كقوله تعالى ولو أننا أنزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى الآية فالإضراب حينئذ متوجه إلى ما سلف من اقتراحهم مع كونهم في العناد على ما شرح أي فليس لهم ذلك بل لله الأمر جميعا إن شاء أتى بما اقترحوا وإن شاء لم يأت به حسبما تستدعيه داعية الحكمة من

غير أن يكون لأحد عليه تحكم أو اقتراح واليأس بمعنى القنوط أي ألم يعلم الذين آمنوا حالهم هذه فلم يقنطوا من إيمانهم حتى أحبوا ظهور مقترحاتهم فالإنكار متوجه." (١)

"الرعد ٣٧ ٣٨ لكم إلى إنكاره لإطباق جميع الأنبياء والكتب على ذلك كقوله تعالى قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا فما لكم تشركون به عزير أو المسيح وقرىء ولا أشرك به بالرفع على الاستئناف أي وأنا لا أشرك به (إليه) إلى الله تعالى خاصة على النهج المذكور من التوحيد أو إلى ما أمرت به من التوحيد (أدعو) الناس لا إلى غيره أولا إلى شيء آخر مما لم يطبق عليه الكتب الإلهية والأنبياء عليهم الصلاة والسلام فما وجه إنكاركم (وإليه) إلى الله تعالى وحده (مآب) مرجعي للجزاء وحيث كانت هذه الحجة الباهرة لازمة لهم لا يجدون عنها محيصا أمر عليه الصلاة والسلام بأن يخاطبهم بذلك إلزاما وتبكيتا لهم ثم شرع في رد إنكارهم لفروع الشرائع الواردة ابتداء أو بدلا من الشرائع المنسوخة ببيان الحكمة في ذلك فقيل." (٢)

"(وإما نرينك) أصله إن نرك وما مزيدة لتأكيد معنى الشرط ومن ثمة ألحقت النون بالفعل (بعض الذى نعدهم) أي وعدناهم من إنزال العذاب عليهم والعدول إلى صيغة المضارع لحكاية الحال الماضية أو نعدهم وعدا متجددا حسبما تقتضيه الحكمة من إنذار غب إنذار وفي إيراد البعض رمزا إلى إرادة بعض الموعود (أو نتوفينك) قبل ذلك (فإنما عليك البلاغ) أي تبليغ أحكام الرسالة بتمامها لا تحقيق مضمون ما بلغته من الوعيد الذي هو من جملتها (وعلينا) لا عليك (الحساب) محاسبة أعمالهم السيئة والمؤاخذة بها أي كيفما دارت الحال أريناك بعض ما وعدناهم من العذاب الدنيوي أو لم تركه فعلينا ذلك وما عليك إلا تبليغ الرسالة فلا تهتم بما وراء ذلك فنحن نكفيكه ونتم ما وعدناك من الظفر ولا يضجرك تأخره فإن ذلك لما نعلم من المصالح الخفية ثم طيب نفسه عليه الصلاة والسلام بطلوع تباشيره فقال." (٣)

"الحجر ٩ أفراد كمل المؤمنين فكيف على أمثال أولئك الكفرة اللئام وإنما الذي يدخل في حقهم تحت الحكمة في الجملة هو التنزيل للتعذيب والاستئصال كما فعل بأضرابهم من الأمم السالفة ولو فعل ذلك لاستؤصلوا بالمرة (وما كانوا إذا منتظرين) جزاء الشرط مقدر وفيه إيذان بإنتاج مقدماتهم لنقيض

---

(١) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ٢٢/٥

(٢) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ٢٦/٥

(٣) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ٢٧/٥

مطلوبهم كما في قوله تعالى وأذن لا يلبثون خلافك إلا قليلا قال صاحب النظم لفظة إذن مركبة من إذ وهو اسم بمعنى الحين تقول أتيتك إذ جئتني أي حين جئتني ثم ضم إليه أن فصار إذ أن ثم استثقلوا الهمزة فحذفوها فمجيء لفظة أن دليل على إضمار فعل بعدها والتقدير وما كانوا إذ أن كان ما طلبوه منظرين والمعنى لو نزلناهم ما كانوا مؤخرين كدأب سائر الأمم المكذبة المستهزئة ومع استحقاقهم لذلك قد جرى قلم القضاء بتأخير عذابهم إلى يوم القيامة حسبما أجمل في قوله تعالى ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل الخ وحال حائل الحكمة بينهم وبين استئصالهم لتعلق العلم والإرادة بازديادهم عذابا وبإيمان بعض ذراريهم وأما نظم إيمان بعضهم في سمط الحكمة فيأباه مقام بيان تماديهم في الكفر والفساد ولجاجهم في المكابرة والعناد هذا هو الذي يستدعيه إعجاز التنزيل الجليل وأما ماقيل في تعليل عدم موافقة التنزيل للحكمة من أنهم حينئذ يكونون مصدقين عن اضطرار أو أنه لا حكمة في أن تأتيكم بصور تشاهدونها فإنه لا يزيدكم إلا لبسا أو أن إنزال الملائكة لا يكون إلا بالحق وحصول الفائدة بإنزالهم وقد علم الله تعالى من حال هؤلاء الكفار أنه لو أنزل إليهم الملائكة لبقوا مصرين على كفرهم فيصير إنزالهم عبثا باطلا ولا يكون حقا فمع إخلال كل من ذلك بقطيعة الباقي لا يلزم من فرض وقوع شيء من ذلك تعجيل العذاب الذي يفيده قوله تعالى وما كانوا إذا منظرين هذا على تقدير كون اقتراحهم لإتيان الملائكة لأجل الشهادة إما على تقدير كون ذلك لتعذيبهم فالمعنى إنا ما ننزل الملائكة للتعذيب غلا تنزيلا ملتبسا بالحق الذي تقتضيه الحكمة وتستدعيه المصلحة حتما بحيث لا محيد عنه ولو نزلناهم حسبما اقترحوا ما كان ذلك التنزيل ملتبسا بمقتضى الحكمة الموجبة لتأخير عذابهم إلى يوم القيامة لا رفقا بهم بل تشديدا عليهم كما مر من قبل وحيث كان في نسبة تنزيلهم للتعذيب إلى عدم موافقته الحكمة نوع إيهام لعدم استحقاقهم التعذيب عدل عما يقتضيه الظاهر إلى ما عليه النظم الكريم فكأنه قيل لو نزلناهم ما كانوا منظرين وذلك غير موافق للحكمة الموجبة لتأخير عذابهم لتشديد عقابهم وقيل المراد بالحق الوحي وقيل العذاب فتدبر." (١)

"{وإذآ أردنآ أن نهلك قرية} بيان لكيفية وقوع التعذيب بعد البعثة التي جعلت غاية لعدم صحته وليس المراد بالإرادة تحققها بالفعل إذ لا يتخلف عنها المراد ولا الإرادة الأزلية المتعلقة بوقوع المراد في وقته المقدر له إذ لا يقارنه الجزاء الآتي بل دنو وقتها كما في قوله تعالى أتى أمر الله أي وإذا دنا وقت تعلق إرادتنا بإهلاك قرية بأن نعذب أهلها بما ذكرنا من عذاب الاستئصال الذي بينا أنه لا يصح منا قبل

---

(١) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ٥/٦٨

البعثة أو بنوع مما ذكرنا شأنه من مطلق العذاب أعني عذاب الاستئصال لما لهم من الظلم والمعاصي دنوا تقتضيه **الحكمة من** غير أن يكون له حد معين {أمرنا} بواسطة الرسول المبعوث إلى أهلها {مترفيها} متنعميها وجباريها وملوكها خصهم بالذكر مع توجه الأمر." (١)

"الإسراء ٧٢ ٧٣ فعلنا بهم في الدنيا ما فعلنا من التكريم والتفضيل وهذا شروع في بيان تفاوت أحوالهم في الآخرة بحسب أحوالهم وأعمالهم في الدنيا (بإمامهم) أي بمن ائتموا به من نبي أو مقدم في الدين أو كتاب أو دين وقيل بكتاب أعمالهم التي قدموها فيقال يا أصحاب كتاب الخير يا أصحاب كتاب الشر أو يا أهل دين كذا يا أهل كتاب كذا وقيل الإمام جمع آم كخف وخفاف **والحكمة في** دعوتهم بأمهاتهم بإجلال عيسى عليه السلام وتشريف الحسنين رضي الله عنهما والستر على أولاد الزنا (فمن أوتى) يومئذ من أولئك المدعوين (كتابه) صحيفة أعماله (بيمينه) إبانة لخطر الكتاب المؤتى وتشريفا لصاحبه وتبشيرا له من أول الأمر بما في مطاويه (فأولئك) إشارة إلى من باعتبار معناه إيذانا بأنهم حزب مجتمعون على شأن جليل أو إشعار بأن قراءتهم لكتبهم تكون على وجه الاجتماع لا على وجه الانفراد كما في حال الإيتاء وما فيه من الدلالة على البعد للإشعار برفعة درجاتهم أي أولئك المختصون بتلك الكرامة التي يشعر بها الإيتاء المزبور (يقرءون كتابهم) الذي أوتوه على الوجه المبين تبجحا بما سطر فيه من الحسنات المستتبعة لفنون الكرامات (ولا يظلمون) أي لا ينقصون من أجور أعمالهم المرتسمة في كتبهم بل يؤتونها مضاعفة (فتيلا) أي قدر فتيل وهو القشرة التي في شق النواة أو أدنى شيء فإن الفتيل مثل في القلة والحقارة." (٢)

"(قل) لهم ثانيا من جهتك بعد ما قلت لهم من قبلنا ما قلت وبينت لهم ما تقتضيه **الحكمة في** البعثة ولم يرفعوا إليه رأسا ، كفى بالله) وحده (شهيدا) على أني أديت ما علي من مواجب الرسالة أكمل أداء وأنكم فعلتم ما فعلتم من التكذيب والعناد وتوجيه الشهادة إلى كونه صلى الله عليه وسلم رسولا بإظهار المعجزة على وفق دعواه كما اختير لا يساعده قوله تعالى (بين وبينكم) وما بعده من التعليل وإنما لم يقل بيننا تحقيقا للمفارقة وإبانة للمباينة وشهيدا إما حال أو تمييز (إنه كان بعباده) من الرسل والمرسل إليهم

---

(١) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ١٦٢/٥

(٢) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ١٨٧/٥

(خبيرا بصيرا) محيطا بظواهر أحوالهم وبواطنها فيجازيهم على ذلك وهو تعليل الكفاية وفيه تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتهديد للكفار." (١)

"{لو أردنا أن نتخذ لهوا} استئناف مقرر لما قبله من انتفاء اللعب واللهو أي لو أردنا أن نتخذ ما يتلهى به ويلعب {لاتخذناه من لدنا} أي من جهة قدرتنا أو من عندنا مما يليق بشأننا من المجردات لا من الأجسام المرفوعة والأجرام الموضوعة كديدن الجبابرة في رفع العروش وتحسينها وتسوية الفروش وتزيينها لكن يستحيل إرادتنا له لمنافاته **الحكمة فيستحيل** اتخاذنا له قطعا وقوله تعالى {إن كنا فاعلين} جرا به محذوف ثقة بدلالة ما قبله عليه أي إن كنا فاعلين لاتخذناه وقيل إن نافية أي ما كنا فاعلين أي لاتخاذ اللهو لعدم إرادتنا إياه فيكون بيانا." (٢)

"سورة الفرقان (٣٣) وبيان **الحكمة في** التنزيل التدريجي ومحل الكاف النصب على أنها صفة لمصدر مؤكد لمضمر معلل بما بعده وذلك إشارة إلى ما يفهم من كلامهم أي مثل ذلك التنزيل المفرق الذي قد حوا فيه واقترحوا خلافه ونزلناه لا تنزيل مغايرا له لنقوي بذلك التنزيل المفرق فؤادك فإن فيه تيسير الحفظ النظم وفهم المعاني وضبط الأحكام والوقوف على تفاصيل ما روعي فيها من الحكم والمصالح المبينة على المناسبة على أنها مونطة بأسبابها الداعية إلى شرعها ابتداء أو تبديلا بالنسخ من أحوال المكلفين وكذلك عامة ما ورد في القرآن المجيد من الأخبار وغيرها متعلقة بأمور حادثة من الأقاويل والأفاعيل ومن قضية تجددها تجدد ما يتعلق بها كالاقتراحات الواقعة من الكفرة الداعية إلى حكايتها وإبطالها وبيان ما يؤول إليه حالهم في الآخرة على أنهم في هذا الاقتراح كالباحث عن حتفه بظلفه حيث أمروا بالاتيان بمثل نوبة من نوب التنزيل فظهر عجزهم عن المعارضة وضاقت عليهم الأرض بما رحبت فكيف لو تحدوا بكلمة وقوله تعالى (رتلناه ترتيلا) عطف على ذلك المضمر وتنكير ترتيلا للتفخيم أي كذلك نزلناه ورتلناه ترتيلا بديعا لا يقادر قدره معنى ترتيله تفريقه آية بعد آية قاله النخعي والحسن وقتادة وقال ابن عباس رضي الله عنهما بيناه بيانا فيه ترتيل وتثبيت وقال السدي فصلناه تفصيلا وقال مجاهد جعلنا

---

(١) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ١٩٦/٥

(٢) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ٥٩/٦

بعضه في إثر بعض وقيل هو الأمر بترتيل قراءته بقوله تعالى ورتل القرآن ترتيلا وقيل قرأناه عليك بلسان جبريل عليه السلام شيئا فشئيا في عشرين أو ثلاث وعشرين سنة على تؤدة وتمهل." (١)

"{ولقد آتينا لقمان الحكمة} كلام مستأنف مسوق لبيان بطلان الشرك وهو لقمان بن باعوراء من اولاد آزر ابن أخت أيوب عليه السلام أو خالته وعاش حتى أدرك داود عليه السلام وأخذ عنه العلم وكان يفتي قبل مبعثه وقيل كان قاضيا في بني إسرائيل والجمهور على أنه كان حكيما ولم يكن نبيا **والحكمة في** عرف العلماء استكمال النفس الإنسانية باقتباس العلوم النظرية واكتساب الملكة التامة على الأفعال الفاضلة على قدر طاقتها ومن حكمته أنه صحب داود عليه السلام شهورا وكان يسرد الدرع فلم يسأله عنها فلما أتمها لبسها وقال نعم لبوس الحرب أنت فقال الصمت حكمة وقليل فاعله فقال له داود عليه السلام بحق ما سميت حكيما وان داود عليه السلام قال له يوما كيف أصبحت فقال أصبحت في يدي غيري فتفكر داود فيه فصعق صعقة وأنه أمره مولاه بأن يذبح شاة ويأتي بأطيب مضغتين منها فأتى باللسان والقلب ثم بعد أيام أمره بأن يأتي بأخبث مضغتين منها فأتى بهما أيضا فسأله عن ذلك فقال هما أطيب شئ إذا طابا وأخبث شيء إذا خبثا ومعنى {أن اشكر لله} أي اشكر له تعالى على أن أن مفسرة فإن إيتاء **الحكمة في** معنى القول وقوله تعالى {ومن يشكر} الخ استئناف مقرر لمضمون ما قبله موجب للامتثال بالأمر أي ومن يشكر له تعالى {فإنما يشكر لنفسه} لأن منفعته التي هي ارتباط العتيد واستجلاب المزيد مقصورة عليها {ومن كفر فإن الله غنى} عن كل شيء فلا يحتاج إلى الشكر ليتضرر بكفر من كفر {حميد} حقيق بالحمد وإن لم يحمده أحد أو محمود بالفعل ينطق بحمده جميع المخلوقات بلسان الحال وعدم التعرض لكونه تعالى مشكورا لما أن الحمد متضمن للشكر بل هو رأسه كما قال صلى الله عليه وسلم الحمد رأس الشكر لم يشكر الله عبد لم يحمده فإثباته له تعالى إثبات للشكر له قطعا." (٢)

"{يا أيها النبى اتق الله} في ندائه صلى الله عليه وسلم بعنوان النبوة تنويه بشأنه وتنبيه على سمو مكانه والمراد بالتقوى المأمور به الثبات عليه والازدياد منه فإن له بابا واسعا وعرضا عريضا لا ينال مداه {ولا تطع الكافرين} أي المجاهرين بالكفر {والمنافقين} المضمرين له أي فيما يعود بوهن في الدين وإعطاء دنية فيما بين المسلمين روي أن أبا سفيان بن حرب وعكرمة بن أبي جهل وأبا الأعور السلمي

---

(١) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ٢١٦/٦

(٢) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ٧١/٧

قدموا عليه صلى الله عليه وسلم في الموادعة التي كانت بينه صلى الله عليه وسلم وبينهم وقام معهم عبد الله بن أبي ومعتب بن قشير والجد بن قيس فقالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم أرفض ذكر آلهتنا وقل إنها تشفع وتنفع وندعك وربك فشق ذلك على النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين وهموا بقلتهم فنزلت أي اتق الله في نقض العهد ونبذ الموادعة ولا تساعد الكافرين من أهل مكة والمنافقين من أهل المدينة فيما طلبوا إليك {إن الله كان عليما} حكيما مبالغا في العلم والحكمة فيعلم جميع الأشياء من المصالح والمفاسد فلا يأمرك إلا بما فيه مصلحة ولا ينهاك إلا عما فيه مفسدة ولا يحكم إلا بما تقتضيه الحكمة البالغة فالجملة تعليل للأمر والنهي مؤكد لوجوب الامتثال بهما." (١)

"الزمر ٣٠ ٣١ لمثل من الأمثال القرآنية بعد بيان أن الحكمة في ضربها هو التذكر والاتعاظ بها وتحصيل التقوى والمراد بضرب المثل ههنا تطبيق حالة عجيبة بأخرى مثلها وجعلها مثلها كما مر في سورة يس ومثلا مفعول ثان لضرب ورجلا مفعوله الأول أخر عن الثاني للتشويق إليه وليتصل به ما هو من تتمته التي هي العمدة في التمثيل وفيه ليس بصلة لشركاء كما قيل بل هو خبر له وبيان أنه في الأصل كذلك مما لا حاجة إليه والجملة في حيز النصب على أنه وصف لرجلا أو الوصف هو الجار والمجرور وشركاء مرتفع به على الفاعلية لاعتماده على الموصوف فالمعنى جعل الله تعالى مثلا للمشرك حسبما يقود إليه مذهبه من ادعاء كل معبوديه عبوديته عبدا يتشارك فيه جماعة يتجاذبونه ويتعاورونه في مهماتهم المتباينة في تحيره وتوزع قلبه {ورجلا} أي وجعل للموحد مثلا رجلا {سلما} أي خالصا {لرجل} فرد ليس لغيره عليه سبيل اصلا وقرىء سلما بفتح السين وكسرها مع سكون اللام والكل مصادر من سلم له كذا أي خلص نعت بها مبالغة أو حذف منها ذو وقرىء سالما وسالم أي وهناك رجل سالم وتخصيص الرجل لأنه أفطن لما يجري عليه من الضر والنفع {هل يستويان مثلا} إنكار واستبعاد لاستوائهما ونفي له على أبلغ وجه وآكده وإيذان بأن ذلك من الجلاء والظهور بحيث لا يقدر أحد أن يتفوه باستوائهما أو يتلعثم في الحكم بتباينهما ضرورة أن أحدهما في أعلى عليين والآخر في أسفل سافلين وهو السر في إبهام الفاضل والمفضول وانتصاب مثلا على التمييز أي هل يستوي حالاهما وصفتاهما والاقتصار في التمييز على الواحد لبيان الجنس وقرىء مثلين كقوله تعالى اكثر اموالا واولادا باختلاف النوع أو لأن المراد هل يستويان في الوصفين على أن الضمير للمثلين لأن التقدير مثل رجل فيه الخ ومثل رجل الخ وقوله تعالى {الحمد لله} تقرير لما قبله من نفي

---

(١) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ٨٩/٧

الاستواء بطريق الاعتراض وتنبيه للموحدين على ان مالهم من المزية بتوفيق الله تعالى وأنها نعمة جليلة موجبة عليهم ان يداموا على حمده وعبادته أو على أن بيانه تعالى بضرب المثل أن لهم المثل الأعلى وللمشركين مثل السوء صنع جميل ولطف تام منه عز وجل مستوجب لحمده وعبادته وقوله تعالى {بل أكثرهم لا يعلمون} إضراب وانتقال من بيان عدم الاستواء على الوجه المذكور إلى بيان ان اكثر الناس هم المشركون لا يعلمون ذلك مع كمال ظهوره فيبقون في ورطة الشرك والضلال وقوله تعالى." (١)

"{سنريهم آياتنا} الدالة على حقيقته وكونه من عند الله {في الأفاق} هو ما أخبرهم به النبي صلى الله عليه وسلم من الحوادث الآتية وآثار النوازل الماضية ما يسر الله تعالى وله ولخلفائه من الفتوح والظهور على آفاق الدنيا والاستيلاء على بلاد المشارق والمغارب على وجة خارق للعادة {وفي أنفسهم} هو ما ظهر فيما بين أهل مكة وما حل بهم قال ابن عباس رضي الله عنهما في الآفاق أي منازل الأمم الخالية وآثارهم وفي أنفسهم يوم بدر وقال مجاهد والحسن والسدي في الآفاق ما يفتح الله من القرى عليه عليه الصلاة والسلام والمسلمين وفي أنفسهم فتح مكة وقيل في الآفاق أي في أقطار السموات والأرض من الشمس والقمر والنجوم وما يترتبت عليها من الليل والنهار والأضواء والظلال والظلمات ومن النبات والأشجار والأنهار وفي أنفسهم من لطيف الصنعة وبديع **الحكمة في** تكوين الأجنة في ظلمات الأرحام وحدوث الأعضاء العجيبة والتركيبات الغريبة كقوله تعالى {وفي أنفسكم أفلا تبصرون} واعتذر بأن معنى السين مع أن إراءة تلك الآيات قد حصلت قبل ذلك أنه تعالى سيطلعهم على تلك الآيات زمانا فزمانا ويزيدهم وقوفا على حقائقها يوما فيوما {حتى يتبين لهم} بذلك {أنه الحق} أي القرآن أو الإسلام والتوحيد {أولم يكف بربك} استئناف وارد لتوبيخهم على تردد في شأن القرآن وعنادهم المحوج إلى إراءة الآيات وعدم اكتفائهم بإخباره تعالى والهمزة للإنكار والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام أي ألم يغن ولم يكف ربك والباء مزيدة للتأكيد ولا تكاد تزاد إلا مع كفى وقوله تعالى {أنه على كل شيء شهيد} بدل منه أي ألم يغنهم عن إراء الآيات الموعودة المبينة لحقية القران ولم يكفهم في ذلك أنه تعالى شهيد على جميع الأشياء وقد أخبر بأنه من عنده وقيل معناه أن هذا الموعود من إظهار آيات الله في الآفاق وفي أنفسهم سيرونه." (٢)

---

(١) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ٢٥٣/٧

(٢) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ١٩/٨

} ٥ ٥٣"

أو لم تسمعوا ربكم يقول فتلت هذه الآية {إنه على} متعال عن صفات المخلوقين لا يتأتى جريان المفاوضة بينه تعالى وبينهم إلا بأحد الوجوه المذكورة {حكيم} يجري أفعاله على سنن **الحكمة فيكلم** تارة بواسطة وأخرى بدونها إما إلهاما وإما خطابا." (١)

"{ومغانم كثيرة يأخذونها} أي مغانم خيبر والالتفات إلى الخطاب على قراءة الأعمش وطلحة ونافع لتشريفهم في مقام الامتنان {وكان الله عزيزا} غالبا {حكيما} مراعيا لمقتضى **الحكمة في** أحكامه وقضاياه." (٢)

"{لقد صدق الله رسوله الرؤيا} رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل خروجه إلى الحديبية كأنه وأصحابه قد دخلوا مكة آمنين وقد حلقوا رؤسهم وقصروا فقص الرؤيا على أصحابه ففرحوا واستبشروا وحسبوا أنهم داخلوها في عامهم فلما تأخر ذلك قال عبد الله بن أبي وعبد الله بن نفيل ورفاعة بن الحرث والله ما حلقنا ولا قصرنا ولا رأينا المسجد الحرام فنزلت أي صدقه صلى الله عليه وسلم في رؤياه كما في قولهم صدقني سن بكره وتحقيقه أراه الرؤيا الصادقة وقوله تعالى {بالحق} إما صفة لمصدر مؤكد محذوف أي صدقا ملتبسا بالحق أى بالغرض الصحيح والحكمة البالغة اليت هي التمييز بين الراسخ في الإيمان والمتزلزل فيه أو حال من الرؤيا أي ملتبسة بالحق ليست من قبيل أضغاث الأحلام وقد جوز أن يكون قسما بالحق الذي هو من أسماء الله تعالى أو بنقيض الباطل وقوله تعالى {لتدخلن المسجد الحرام} جوابه وهو على الأولين جواب قسم محذوف أي والله لتدخلن إلخ وقوله تعالى {إن شاء الله} تعليق للعدة بالمشيئة لتعليم العباد أو للإشعار بأن بعضهم لا يدخلونه لموت أو غيبة أو غير ذلك أو هي حكاية لما قاله ملك الرؤيا لرسول الله صلى الله عليه وسلم أول لما قاله عليه الصلاة والسلام لأصحابه {آمنين} حال من فاعل لتدخلن والشرط معترض وكذا قوله تعالى {محلقين رؤوسكم ومقصرين} أي محلقا بعضكم ومقصرا آخرون وقيل محلقين حال من ضمير آمنين فتكون متداخلة {لا تخافون} حال مؤكدة من فاعل لتدخلن أو آمنن أو محلقين أو مقصرين أو استئناف أي لا تخافون بعد ذلك {فعلم ما لم تعلموا} عطف على صدق والمراد بعلمه تعالى العلم الفعلى المتعلق بأمر حادث بعد المعطوف عليه أي فعلم عقيب ما أراه الرؤيا الصادقة مالم

---

(١) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ٣٨/٨

(٢) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ١١٠/٨

تعلموا من الحكمة الداعية إلى تقديم ما يشهد بالصدق علما فعليا {فجعل} لأجله {من دون ذلك} أي من دون تحقق مصداق ما رآه من دخول المسجد الحرام إلخ {فتحا قريبا} وهو فتح خيبر والمراد بجعله وعده وإنجازه من غير تسويف ليستدل به على صدق الرؤيا حسبما قال ولتكون آية للمؤمنين وأما جعل ما في قوله تعالى ما لم تعلموا عبارة عن **الحكمة في** تأخير فتح مكة إلى العام القابل كما جنح إليه الجمهور فتأباه الفاء فإن علمه تعالى بذلك متقدم على إراءة الرؤيا قطعا." (١)

"وما تشاؤن إلا أن يشاء الله

تحقيق للحق ببيان أن مجرد مشيئتهم غير كافية في اتخاذ السبيل كما هو المفهوم من ظاهر الشرطية اي وما تشاؤن اتخاذ السبيل ولا تقدرون على تحصيله في وقت من الأوقات إلا وقت مشيئته تعالى تحصيله لكم إذ لا دخل لمشيئة العبد إلا في الكسب وإنما التأثير والخلق لمشيئة الله عز وجل وقرىء يشاؤن بالياء وقرىء إلا ما يشاء الله وقوله تعالى

إن الله كان عليما حكيما

بيان لكون مشيئته تعالى مبنية على أساس العلم والحكمة والمعنى أنه تعالى مبالغ في العلم **والحكمة فيعلم** ما يستأهله كل أحد فلا يشاء لهم إلا ما يستدعيه علمه وتقتضيه حكمته وقوله تعالى." (٢)

"عن الإحساس تر عبرا. «الكون كله ظلمة، وإنما أناره ظهور الحق فيه» . أو تقول: الكون كله ظلمة لأهل الحجاب، وأما عند أهل المعرفة فالكون عندهم كله نور، وإنما حجبه ظهور **الحكمة فيه**، «فمن رأى الكون ولم يشهد النور فيه، أو قبله، أو بعده، فقد أعوزه وجود الأنوار وحجبت عنه شموس المعارف بسحب الآثار» . والذين كفروا- وهم الذين سبق لهم الشقاء، وحكم عليهم بالبعد القدر والقضاء- أولياؤهم الطاغوت، وهم القواطع: من الهوى والشيطان والدنيا والناس، (يخرجونهم من النور إلى الظلمات) أي: يمنعونهم من شهود تلك الأنوار السابقة، إلى الوقوف مع تلك الظلمات المتقدمة، فهم متعاكسون مع من سبقت لهم العناية، فما خرج منه أهل العناية وقع فيه أهل الغواية. نسأل الله الحفظ والعافية فى الدنيا والآخرة.

ثم بين الحق تعالى حال من سبق له الشقاء، فقال:

---

(١) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ١١٣/٨

(٢) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ٧٦/٩

[سورة البقرة (٢) : آية ٢٥٨]

ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت قال أنا أحيي وأميت قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين (٢٥٨)

قلت: (أن آتاه) : على حذف لام العلة، و (إذ قال) : ظرف أ- (حاج) ، أو بدل من (آتاه الله) .

يقول الحق جل جلاله متعجبا من جهالة النمرود، والمراد تعجيب السامع: ألم تر يا محمد، إلى جهالة الذي حاج إبراهيم أي: خاصمه في ربه لأجل أن أعطاه الله الملك، أي: حمله على ذلك بطر الملك. وذلك أنه لما كسر إبراهيم الأصنام، سجنه أياما، وأخرجه من السجن، وقال له: من ربك الذي تعبد؟ قال له إبراهيم عليه السلام: ربي الذي يحيي ويميت، أي: يخلق الأرواح في الأجسام، ويخرجها عند انقضاء آجالها، (قال) نمرود: أنا أحيي وأميت، فدعا برجلين فقتل أحدهما، وعفا عن الآخر، فلما رأى إبراهيم عليه السلام غلطه وتشغيبه عدل له إلى حجة أخرى، لا مقدور للبشر على الإتيان بمثلها، فقال له: فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها أنت من المغرب لأنك تدعي الربوبية، ومن شأن الربوبية أن تقدر على كل شيء، ولا يعجزها شيء، فبهت الذي كفر أي: غلب وصار مبهوتا، والله لا يهدي القوم الظالمين إلى قبول الهداية، أو إلى طريق النجاة، أو إلى محجة الاحتجاج.." (١)

"ومن نتائج الزهد والانقطاع: ورود الحكمة على لسان العبد وقلبه، كما أشار إلى ذلك بقوله:

[سورة البقرة (٢) : آية ٢٦٩]

يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر إلا أولوا الألباب (٢٦٩)

قال البيضاوي: الحكمة: تحقيق العلم وإتقان العمل. هـ. وقيل: هي سرعة الجواب وإصابة الصواب، وقيل: كل فضل جزل من قول أو فعل.

يقول الحق جل جلاله، يؤتي الحق تعالى الحكمة من يشاء من عباده، وهي التفقه في الدين والتبصر في الأمور. قال صلى الله عليه وسلم: «من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين، ويلهمه رشده» ، وقيل: الحكمة:

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٢٩٠/١

الإصابة في الرأي. وقيل: الفهم في كتاب الله. وقيل: الفهم عن الله. ومن يؤت الحكمة أي: أعطيها، فقد أوتي خيرا كثيرا لأنه حاز خير الدارين، ولا شك أن م ن حقق العلم بالله وبأحكامه، وأتقن العمل بما أمره الله به، فقد صفا قلبه، وتطهر سره، فصار من أولي الألباب ولذلك قال عقبه: وما يذكر إلا أولوا الألباب.

الإشارة: الحكمة هي: شهود الذات مرتدية بأنوار الصفات، وهي حقيقة المعرفة، ومن عرف الله هابه، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام: «رأس الحكمة مخافة الله» . وقيل: هي تجريد السر لورود الإلهام، وقيل: هي النور المفرق بين الوسواس والإلهام، وقيل: شهود الحق تعالى في جميع الأحوال. والتحقيق: أن الحكمة هي إبداع الشيء وإتقانه حتى يأتي على غاية الكمال، ويجري ذلك في العلم والعمل والحال والمعرفة.

وقال القشيري: الحكمة: أن يحكم عليك خاطر الحق لا داعي الباطل، وأن تحكم قواهر الحق لا زواجر الشيطان.

ويقال: الحكمة: صواب الأمر، ويقال: هي ألا تغلب عليك رعونات البشرية، ومن لا حكم له على نفسه لا حكم له على غيره. ويقال: الحكمة: موافقة أمر الله، والسفه: مخالفة أمره، ويقال: الحكمة شهود الحق، والسفه: شهود الغير.

قاله المحشي.

واعلم أن الصوفية، في اصطلاحهم، يعبرون عن أسرار الذات بالقدرة، وعن أنوار الصفات- وهي ظهور آثارها- بالحكمة. فالوجود كله قائم بين الحكمة والقدرة، فالقدرة تبرز الأشياء، والحكمة تسترها. فربط الأشياء واقترانها بأسبابها تسمى عندهم الحكمة، وإنفاذ الأمر وإظهاره يسمى القدرة، فمن مع الحكمة حجب عن." (١)

"ولا ينفعهم ولهم عذاب مقيم لا خلاص لهم منه، وهذا كما ترى في الكفار، وأما عصاة المؤمنين فيخرجون منها بشفاعة نبيهم- عليه الصلاة والسلام- ولا حجة للمعتزلة في الآية، خلافا لجهالة الزمخشري.

الإشارة: كل من مات تحت قهر الحجاب، ونكبته المشيئة عن دخول الحضرة مع الأحباب، حصل له الندم يوم القيامة، فلو رام أن يفتدى منه بملء الأرض ذهبا ما تقبل منه، بل يبقى مقيما في غم الحجاب، معزولا عن رؤية الأحباب، يتسلى عنهم بالحور والولدان، وتفوته نظرة الشهود والعيان في كل حين وأوان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٣٠٣/١

ثم ذكر حكم السارق الذي تقدم ذكره فى قضية طعمة بن أبيرق لما تقدم أن هذه السورة مكملة لما قبلها، فقال:

[سورة المائدة (٥) : الآيات ٣٨ الى ٤٠]

والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم (٣٨) فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه إن الله غفور رحيم (٣٩) ألم تعلم أن الله له ملك السماوات والأرض يعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء والله على كل شيء قدير (٤٠)

قلت: (السارق) : مبتدأ والخبر محذوف عند سيبويه، وهو الجار والمجرور، أي: مما يتلى عليكم حكم السارق والسارقة، وقال المبرد: الخبر هو جملة: (فاقطعوا) ، ودخلت الفاء لمعنى الشرط لأن الموصول- وهو «أل» - فيه معنى الشرط، ومثله: الزانية والزاني فاجلدوا «١» ، قلت: وهو أظهر، فإن قلت: ما الحكمة في تقديم المذكر في هذه الآية، وفي أية الزنا قدم المؤنث، فقال: الزانية والزاني؟ فالجواب: أن السرقة في الرجال أكثر، والزنى في النساء أكثر، فقدم الأكثر وقوعا. وقدم العذاب هنا على المغفرة لأنه قابل بذلك تقدم السرقة على التوبة، أو لأن المراد به القطع، وهو مقدم فى الدنيا، و (جزاء) و (نكالا) : علة أو مصدر.

يقول الحق جل جلاله: والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما أي: أيمانهما من الرسغ، بشروط، منها: ألا يكون مضطرا بالجوع، على قول مالك، فيقدم السرقة على الميتة، إن علم تصديقه. ومنها: ألا يكون السارق أبا أو عبدا سرق مال ولده أو سيده. ومنها: أن يكون سرق من حرز، وأن يكون نصابا، وهو ربع دينار، أو ثلاثة دراهم، أو ما يساويهما عند مالك والشافعي، وقال أبو حنيفة: لا قطع في أقل من عشرة دراهم، وقال عثمان البتى: يقطع في درهم فما فوق. وفي السرقة أحكام مبسوطة في كتب الفقه.

---

(١) من الآية ٢ من سورة النور.." (١)

"وعلة القطع: الزجر، ولذلك قال: جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم. فإن قلت: ما الحكمة في قطعها في ربع دينار، مع أن ديتها أن قطعت، خمسمائة دينار؟ قلت: ذل الخيانة أسقطت

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٣٨/٢

حرمتها بعد عز الصيانة. فافهم حكمة الباري.

فمن تاب من بعد ظلمه أي: بعد سرقته، كقوله في سورة يوسف: كذلك نجزي الظالمين «١» أي: السارقين، وأصلح بأن رد ما سرق، وتخلص من التبعات ما استطاع، وعزم ألا يعود، فإن الله يتوب عليه إن الله غفور رحيم، فيتقبل توبته، فلا يعذبه في الآخرة، وأما القطع: فهل يسقط، وهو مذهب الشافعي لظاهر الآية، أو لا يسقط، وهو مذهب مالك، لأن الحدود لا تسقط عنده بالتوبة إلا عن المحارب؟ .. قاله ابن جزي، تبعا لابن عطية، وفيه نظر، فإن مشهور مذهب الشافعي موافق لمالك، ولعله تصحف عنده الشافعي بالشعبي، كما نقل الثعلبي عنه. والله أعلم.

ألم تعلم أن الله له ملك السماوات والأرض يتصرف فيهما كيف شاء، فالخطاب للرسول- عليه الصلاة السلام- أو لكل أحد، يعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء قال السدي: يعذب من مات على كفره، ويغفر لمن تاب من كفره. وقال الكلبي: يعذب من يشاء على الصغيرة إذا أقام عليها ويغفر لمن يشاء على الكبيرة إذا نزع منها، والله على كل شيء قدير لا يعجزه شيء.

الإشارة: كما أمر الحق- جل جلاله- بقطع سارق الأموال، أمر بقطع سارق القلوب، وهو الشيطان، وجنوده الخواطر الردية فإن القلب بيت كنز السر- أي: سر الربوبية- لأن القلب بيت الرب، والبصيرة حارسة له، فإذا طرقه الشيطان بجنوده، فإن وجد البصيرة متيقظة دفعته وأحرقته بأنوار ذكرها، وأن وجدها نائمة فإن كان نومها خفيفا اختلس منها وفطنت له، وإن كان نومها ثقيلا بتراكم الغفلات، خرب البيت ولم تفطن له، فيسكن فيه بجنوده الخواطر وهي نائمة. فالواجب على الإنسان حفظ قلبه، قبل أن يسكنه الشيطان، فيصعب دفعه، وحفظه بدوام ذكر الله القلبي، فإن لم يستطع فبدوام اللسان، فإن لم يستطع فبالنية الصالحة. وربنا المستعان.

ثم تكلم على ما يتعلق باللسان، وهو الأمر الخامس مما تضمنته السورة، فقال:

[سورة المائدة (٥) : آية ٤١]

يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ومن الذين هادوا سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك يحرفون الكلم من بعد مواضعه يقولون إن أوتيتم هذا فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم (٤١)

قلت: الباء في: (بأفواههم) – متعلقة بقالوا.

---

(١) من الآية ٧٥.." (١)

"يقول الحق جل جلاله: وهو الذي يتوفاكم أي: يقبض أرواحكم بالليل إذا نمتم، وفي ذلك اعتبار واستدلال على البعث الأخروي، ويعلم ما جرحتم أي: ما كسبتم من الأعمال بالنهار. وخص الليل بالنوم والنهار بالكسب جريا على المعتاد، ثم إذا توفاكم بالليل يبعثكم فيه أي: في النهار، ليقضى أجل مسمى أي: ليبلغ المتيقظ آخر أجله المسمى له في الدنيا، وهو أجل الموت، ثم إليه مرجعكم بالموت ثم ينبئكم بما كنتم تعملون فيعاتب المسيء ويكرم المحسن.

روي: أن العبد إذا قبض عرجت الملائكة بروحه إلى سدرة المنتهى، فيوقف به هناك، فيعاتبه الحق تعالى على ما فرط منه حتى يرفض عرقا، ثم يقول له: قد غفرت لك، اذهبوا به ليرى مقعده في الجنة، ثم يرد إلى السؤال.

وهو القاهر فوق عباده بالقهر والغلبة، وِيرسل عليكم حفظة ملائكة تحفظ أعمالكم، وهم الكرام الكاتبون، **والحكمة فيه**: أن العبد إذا علم أن أعماله تكتب عليه وتعرض على رؤوس الأشهاد، كان أزجر له عن المعاصي، ثم لا تزال الملائكة تكتب عليه أعماله حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا أي: ملك الموت وأعوانه، وهم لا يفرطون بالتواني والتأخير، ولا يجاوزون ما حد لهم بالتقديم والتأخير. ثم ردوا إلى الله أي: إلى حكمه وجزائه، أو مشاهدته وقربه، مولاهم الذي يتولى أمرهم، الحق أي: المتحقق وجوده، وما سواه باطل، ألا له الحكم يومئذ، لا حكم لغيره فيه، وهو أسرع الحاسبين يحاسب الخلائق في مقدار حلب شاة، لا يشغله حساب عن حساب، ولا شأن عن شأن، سبحانه لا إله إلا هو.

الإشارة: وهو الذي يتوفاكم، أي: يخلصكم بليل القبض، ويعلم ما كسبتم في نهار البسط، ثم يبعثكم من ليل القبض إلى نهار البسط، وهكذا ليقضى أجل مسمى للإقامة فيهما، ثم إليه مرجعكم بالخروج عنهما لتكونوا لله لا شيء دونه، وفي الحكم: «بسطك كي لا يبقيك مع القبض، وقبضك كي لا يتركك مع البسط، وأخرجك عنهما، كي لا تكون لشيء دونه» .

وقال فارس رضى الله عنه: القبض أولا ثم البسط، ثم لا قبض ولا بسط لأن القبض والبسط يقعان في

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٢/٣٩

الوجود أي:

في وجود النفس، وأما مع الفناء والبقاء فلا. هـ. أي: فلا قبض ولا بسط لأن العارف الواصل مقبوض في بسطه، مبسوط في قبضه، لا تؤثر فيه هواجم الأحوال لأنه مالك غير مملوك. والله تعالى أعلم.

ومن علم أن الله قاهر فوق عباده، انسلخ من حوله وقوته، وانعزل عن تدبيره واختياره لإحاطة القهرية به، ومن تحقق عموم قهاريته تعالى، علم أنه لا حجاب حسي بينه وبينه، إذ لو حجبه شيء لستره ما حجبه، ولو كان له ساتر لكان لوجوده حاصر، وكل حاصر لشيء فهو له قاهر، (وهو القاهر فوق عباده) ، وإنما المحجوب: العبد عن ربه بوجود وهمه وجهله، ومن تحقق أن الملائكة تحفظ أعماله استحيا من ارتكاب القبائح، لئلا تعرض على رؤوس الأشهاد.." (١)

"تنبيه: ذكر الفخر الرازي، في تفسيره، عن الشهرستاني أن إبليس جرت بينه وبين الملائكة مناظرة بعد الأمر بالسجود لآدم، فقال لهم: إني أسلم أن الله خالقي وموجدي، وهو موجد الخلق، ولكن لي على حكمته أسئلة: الأول:

ما الحكمة في إيجاد خلقه، لا سيما وكان عالما بأن الكافر لا يستوجب عند خلقه الآلام؟ الثاني: ما الفائدة في التكليف، مع أنه لا يعود عليه نفع ولا ضرر، وكل ما يعود إلى المكلفين فهو قادر على تحصيله لهم من غير واسطة التكليف؟ الثالث: هب أنه كلفني بطاعته ومعرفته، فلماذا كلفني بالسجود لآدم؟ الرابع: لما عصيته فلم لعنني وأوجب عقابي، مع أنه لا فائدة له ولا لغيره فيه، وفيه أعظم الضرر؟ الخامس: لما فعل ذلك فلم مكنني من الدخول إلى الجنة ووسوسة آدم؟ السادس: ثم لما فعل ذلك، فلم سلطني على أولاده، ومكنني من إغوائهم وإضلالهم؟ السابع: ثم لما استمهلته بالمدة الطويلة في ذلك فلم أمهلني، ومعلوم أن العالم لو كان خاليا من الشر لكان ذلك خيرا؟. هـ. قال شارح الأناجيل: فأوحى الله إليه من سرادقات الكبرياء: إنك ما عرفتني، ولو عرفتني لعلمت أنه لا اعتراض علي في شيء من أفعالي، فأنا الله لا إله إلا أنا لا أسأل عما أفعل.

قال الشهرستاني: اعلم أنه لو اجتمع الأولون والآخرون، وحكموا بتحسين العقل وتقبيحه لم يجدوا عن هذه الشبهات تخلصا، أما إذا أجبنا بما أجاب به الحق- سبحانه- زالت الشبهات واندفعت الاعتراضات. هـ. قلت: من تشمرت فكرته بنور المعرفة، وعرف أسرار الحكمة والقدرة، لم يصعب عليه مثل هذه الشبهات،

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ١٢٨/٢

وسأذكر الجواب عنها على سبيل الاختصار:
أما الحكمة فى إيجاد خلقه فخلقهم ليعرف بهم. وفي الحديث القدسي: «كنت كنزا لم أعرف، فأحببت أن أعرف، فخلقت خلقا لأعرف بهم، وليظهر بهم آثار قدرته وأسرار حكمته. وأما تعذيب الكافر بالآلام فليظهر فيه مقتضى اسمه المنتقم.
أما فائدة التكليف فلتقوم الحجة على العبيد، وليتميز من يستحق الإحسان ممن يستحق العذاب، فإذا عذبه لم يكن ظالما له ولا يظلم ربك أحدا «١» ، ولتظهر صورة العدل في الجملة. وأما تكليفه بالسجود لآدم فلأنه ادعى المحبة، ومقتضاها الطاعة للحبيب في كل ما يشير إليه، ولا تصعب إلا في الخضوع للجنس، أو من دونه، فأمره بالسجود لمن دونه في زعمه ليظهر كذبه في دعوى محبته، وأما لعنه وطرده فهو جزاء من كذب

---

(١) من الآية ٤٩ من سورة الكهف. [.....]."[١]
"ثم حذرهم من الشيطان، وأعلمهم بسابق عداوته، فقال:

[سورة الأعراف (٧) : آية ٢٧]
يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون (٢٧)
يقول الحق جل جلاله: يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان بأن يشغلكم عما يقربكم إلى الله، ويحملكم على ما يمنعكم من دخول جنته، كما أخرج أبويكم من الجنة بسبب غروره، والنهي، في اللفظ، للشيطان، والمراد: نهيهم عن اتباعه. حال كون أبويكم ينزع الشيطان عنهما لباسهما بسبب غروره لهما، وإسناد النزع إليه: مجاز للسببية ليريهما سوآتهما إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم، وهو تعليل للنهي، وتحذير من فتنته، وقبيله: جنوده. ورؤيتهم إيانا من حيث لا نراهم في الجملة لا يقتصي امتناع رؤيتهم وتمثلهم لنا، وقد جاءت في رؤيتهم أحاديث صحيحة فتحمل الآية على الأكثر والغالب. قال تعالى: إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون بما أوجدنا بينهم من التناسب، أو بإرسالهم عليهم، وتمكينهم من خذلانهم، وحملهم

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٢/٢٠٣

على ما سولوا لهم، والآية هي مقصود القصة وفذلكة الحكاية. قاله البيضاوي.

الإشارة: الحكمة في خلق الشيطان هي كونه منديلا تمسح فيه أوساخ الأقدار، وكونه يحوش أولياء الله إلى الله، كلما نخسهم بنزعه فزعوا إلى مولاهم، فلا يزال بهم كذلك حتى يوصلهم إلى حضرته، فحينئذ ينقاد إليهم، ويخدمهم بأولاده. وفي الحكم: «إذا علمت أن الشيطان لا يغفل عنك، فلا تغفل أنت عمن ناصيتك بيده» .

قال محمد بن واسع: تمثل لى الشيطان في طريق المسجد، فقال لي: يا ابن واسع، كلما أردتك وجدت بيني وبينك حجابا، فما ذاك؟ قال: أقرأ، كلما أصبحت: اللهم إنك سلطت علينا عدوا من أعدائنا، بصيرا بعيوبنا، مطلعا على عوراتنا، يرانا هو وقبيله من حيث لانراهم، اللهم آيسه منا كما آيسته من رحمتك، وقنطه منا كما قنطته من عفوك، وباعد بيننا وبينه كما باعدت بين المشرق والمغرب- وفي رواية: كما باعدت بينه وبين جنتك- إنك على كل شيء قدير. هـ.

ثم ذكر مساوئ أولياء الشيطان، فقال:." (١)

"ولما استقر بنو إسرائيل بالشام طلبوا من نبيهم نزول الكتاب وتقرير الشرائع، كما أشار إلى ذلك الحق تعالى بقوله:

[سورة الأعراف (٧) : آية ١٤٢]

وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليلة وقال موسى لأخيه هارون اخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين (١٤٢)

يقول الحق جل جلاله: وواعدنا موسى لإنزال الكتاب ثلاثين ليلة من ذي القعدة، وأتممناها بعشر من ذي الحجة، فتم ميقات ربه بالغا أربعين ليلة، روي أنه عليه السلام وعد بني إسرائيل، بمصر، أن يأتيهم بعد مهلك فرعون بكتاب من الله تعالى، فيه بيان ما يأتون وما يذرون، فلما هلك فرعون سأل ربه فأمره بصوم ثلاثين، فلما أتم أنكر خلوف فيه فتسوك، فقالت الملائكة: كنا نشم منك رائحة المسك فأفسدته بالسواك، فأمره الله تعالى أن يزيد عليها عشرا، ثم أنزل عليه التوراة.

وقال موسى لأخيه هارون، عند ذهابه إلى الطور للمناجاة: اخلفني في قومي أي: كن خليفتي فيهم وأصلح

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٢/٢٠٨

ما يجب أن يصلح من أمورهم، أو كن مصلحا، ولا تتبع سبيل المفسدين أي: لا تتبع سبيل من يسلك الإفساد، ولا تطع من دعاك إليه.

الإشارة: كل من انقطع إلى الله تعالى بكليته واعتزل عن الخلق، وأخلى قلبه عما سوى الحق، حصلت له المناجاة والمكالمة، كما وقعت للكليم عليه السلام، وكل ما منحه الله للأنبياء يكون منه نصيب للأولياء من هذه الأمة، والله تعالى أعلم. وفي الحديث: «من أخلص لله أربعين صباحا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه» «١» .

قال بعض الحكماء: والسر في ذلك أن الله تعالى أمر بطينة آدم فخمرت في الماء أربعين يوما، فتربى فيها أربعون حجابا، فلولا تلك الحجب ما استطاع المقام في الأرض، فمن أيده الله على زوالها تشبه بالملأ الأعلى، وخرقت له العوائد، وأشرق النور من قلبه. ولهذا المعنى بقي داود عليه السلام ساجدا أربعين يوما، فقبلت توبته، ومكث إبراهيم عليه السلام في نار النمرود أربعين يوما، فاتخذه الله خليلا، وكان بعد ذلك يقول: ما رأيت أحلى من تلك الأيام، فمن أخلص في عبادته وأزال تلك الحجب عن قلبه كان ربانيا. قال تعالى: ولكن كونوا ربانيين «٢» . انظر الشطيبى.

ويوخذ من الآية أن الشيخ إذا أراد أن يسافر من زاويته ينبغي له أن يخلف خليفة عنه ليقوم له بنظام الزاوية، إذ لا خير في قوم ليس فيهم من يعظهم في الله. وبالله التوفيق.

---

(١) أخرجه أبو نعيم فى الحلية، بسند ضعيف عن أبى أيوب. ورواه أحمد بنحوه عن مكحول مرسلا. راجع كشف الخفاء (٢/ ٢٢٤) .

(٢) من الآية ٧٩ من سورة آل عمران.." (١)

"يقول الحق جل جلاله: يسئلونك أي: قريش، عن الساعة أي: قيام الناس من قبورهم للحساب، أيان مرساها أي: متى إرساؤها، أي: ثبوتها ووقوعها؟ قل إنما علمها عند ربي استأثر بعلمها، لم يطلع عليها ملكا مقربا، ولا نبيا مرسلا، لا يجليها لوقتها أي: لا يظهرها عند وقت وقوعها، إلا هو، والمعنى إن إخفاءها يستمر إلى وقت وقوعها، ثقلت في السماوات والأرض عظمت على أهلها من الملائكة والثقلين لهولها، وكأنه إشارة إلى الحكمة في إخفائها. أو ثقلت على السموات والأرض أنفسهما لتبدلهما وتغير حالهما،

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٢/٢٥٥

لا تأتيكم إلا بغتة: فجأة على غفلة، كما قال صلى الله عليه وسلم: «إن الساعة تهيج بالناس، والرجل يصلح حوضه، والرجل يسقى ما شيته، والرجل يقوم سلعته في سوقه، والرجل يخفض ميزانه ويرفعه» . «١» . والمراد:

النفخ في الصور للصعق، لأن الساعة مرتبة عليه وقريبة منه.

يسئلونك كأنك حفي عنها أي: عالم بها، من حفى على الشيء: إذا سأل عنه، فإن من بالغ في السؤال عن الشيء، والبحث عنه، استحكم علمه فيه، أي: يسألونك عن وقت قيامها، كأنك بليغ في السؤال عنها فعلمتها، وليس كما يزعمون، وأما قوله: فيم أنت من ذكراها «٢» : فقيل: معناه: التعجب عن كثرة اهتمامه بالسؤال، أي: في أي شغل أنت من ذكراها والسؤال عنها؟ ولا يعارض ما هنا لأنه استغنى عن ذلك بتلك الآية، وبعدها نزلت هذه، والله أعلم.

وقيل: «عنها» : يتعلق ب (يسألونك) ، أي: يسألونك عنها كأنك حفي بهم، أي: شفيق بهم، قيل: إن قريشا قالوا:

إن بيننا وبينك قرابة، فقل لنا: متى الساعة؟ فقال له الحق تعالى: قل إنما علمها عند الله لا يعلمها غيره، وكره لتكرر «يسألونك» . ولكن أكثر الناس لا يعلمون أن علمها عند الله لم يؤته أحدا من خلقه.

الإشارة: إذا أشرق نور اليقين في القلب صارت الأمور المستقبلة حاصلة، والغائبة حاضرة، والآجلة عاجلة، فأهل اليقين الكبير قدموا ما كان آتيا، فحاسبوا أنفسهم قبل ان يحاسبوا، ووزنوا أعمالهم قبل أن توزن عليهم، وجازوا الصراط بسلوكهم المنهاج المستقيم، ودخلوا جنة المعارف قبل حصول جنة الزخارف، فالموت في حقهم إنما هو انتقال من حال إلى حال، ومن مقام إلى مقام، ومن دار الغرور إلى دار الهناء والسرور. وفي الحكم: «لو أشرق لك نور اليقين في قلبك، لرأيت الآخرة أقرب إليك من أن ترحل إليها، ولرأيت محاسن الدنيا قد ظهرت كسفة الفناء عليها» .

---

(١) أخرجه بهذا اللفظ ابن جرير فى التفسير، (٩/ ١٠٤) من حديث قتادة، وفي البخاري، عن أبي هريرة رفعه: «لتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه» . أخرجه البخاري فى

(الرقاق- باب ٤) وبنحوه مسلم فى (الفتن- باب قرب الساعة) .
(٢) الآية ٤٣ من سورة النازعات.." (١)

"ثم بين أن المعول على الله ونصرته، لا على السلاح والآلات بقوله: هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين، أي:
قواك بقوته الأزلية، ونصرك بنصرته الأبدية، ووفق المؤمنين بإعانتك على عدوك. ثم بين سبحانه أن نصرة المؤمنين لم تكن إلا بتأليفه بين قلوبهم، وجمعها على محبة الله ومحبة رسوله، بعد تباينها بتفرقة الهموم في أودية الامتحان، بقوله: وألف بين قلوبهم. وقال القشيري: الإشارة بقوله: ترهبون: إلى أنه لا يجاهد على رجاء غنيمة ينالها، أو إشفاء صدر عن قضية حقد، بل قصده أن تكون كلمة الله هي العليا. هـ.
ثم دل على الصلح لمصلحة، فقال:

[سورة الأنفال (٨) : الآيات ٦١ الى ٦٣]
وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم (٦١) وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين (٦٢) وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم (٦٣)
يقول الحق جل جلاله: وإن جنحوا للسلم أي: وإن مالوا للصلح فاجنح لها أي: فصالحهم، ومل إلى المعاهدة معهم، وتوكل على الله فلا تخف منهم أن يكونوا أبطنوا خداعا فإن الله يعصمك من مكرهم ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله «١» ، إنه هو السميع لأقوالهم، العليم بأحوالهم.
وإن يريدوا أن يخدعوك بعد الصلح فإن حسبك الله أي: فحسبك الله وكافيك شرهم، هو الذي أيدك أي: قواك ونصرك بنصره تحقيقا، وبالمؤمنين تشريفا، أو بنصره قدرة وبالمؤمنين حكمة، والقدرة والحكمة منه وإليه، فلا دليل عليه للمعتزلة حيث نسبوا الفعل للعبد، وقالوا: العطف يقتضي المغايرة.
وألف بين قلوبهم مع ما كان فيها فى زمن الجاهلية من المعصية والضغائن والتهالك على الانتقام، حتى لا يكاد يأتلف فيهم قلبان، ثم صاروا كنفس واحدة، وهذا من معجزاته صلى الله عليه وسلم. قال تعالى: لو أنفقت ما في الأرض جميعا، في إصلاح ما بينهم، ما ألفت بين قلوبهم لتناهى عدواتهم إلى حد لو أنفق

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٢/٢٩٠

(١) من الآية ٤٢ من سورة فاطر. [.....]."(١)

"يطلى به جلود أهل النار، حتى يكون طلاؤه لهم كالقميص، ليجتمع عليهم لذغ القطران ووحشة لونه ونتن ريحه، مع إسراع النار في جلودهم. على أن التفاوت بين القطرانين كالتفاوت بين النارين. هـ.

وتغشى وجوههم النار، أي: تكسوها وتأكلها لأنهم لم يتوجهوا بها إلى الحق، ولم يخضعوا بها إلى الخالق، كما تطلع على أفئدتهم لأنها فارغة من المعرفة والنور، مملوءة بالجهالات والظلمة. ونظيره قوله:

أفمن يتقي بوجهه سوء العذاب يوم القيامة «١» ، وقوله تعالى: يوم يسحبون في النار على وجوههم «٢»

.

فعل ذلك بهم ليجزي الله كل نفس ما كسبت من الإجرام، أو ما كسبت مطلقا لأنه إذا بين أن المجرمين معاقبون لأجرامهم علم أن المطيعين يثابون لطاعتهم. ويتعين ذلك إذا علق اللام ببرزوا. إن الله سريع الحساب، فيحاسب الناس في ساعة واحدة لأنه لا يشغله حساب عن حساب، فكل شخص يظهر له أنه واقف بين يديه، يحاسب في وقت حساب الآخر لأن ذلك وقت خرق العوائد.

هذا القرآن، أو ما فيه من الوعظ والتذكير، أو ما وصفه من قوله: ولا تحسبن الله غافلا ... «٣» إلخ، بلاغ للناس أي: كفاية لهم عن غيره في الوعظ وبيان الأحكام، يقال: أعطيته من المال ما فيه بلاغ له، أي: كفاية. أو بلاغ أي: تبليغ لهم، كقوله: إن عليك إلا البلاغ «٤» ، وما على الرسول إلا البلاغ»

، وقوله: ولينذروا به: عطف على محذوف، أي: لينصحوا به، ولينذروا به، أو متعلق بمحذوف، أي: ولينذروا به أنزلناه، وليعلموا أنما هو إله واحد بالنظر والتأمل فيما فيه من الآيات الدالة على وحدانيته تعالى، أو المنبهة على ما يدل عليه. وليذكر أي: ليتعظ به أولوا الألباب أي: القلوب الصافية بالتدبر في أسرار معانيه وعجائب علومه وحكمه، فيرتدعوا عما يرديهم، ويتذرعوا بما يحظيهم. واعلم أنه سبحانه ذكر لهذا البلاغ ثلاث فوائد، هي الغاية والحكمة في إنزال الكتاب: تكميل الرسل للناس، واستكمالهم القوة النظرية التي منتهى كمالها التوحيد، وإصلاح القوة العملية التي هي التدرع بكمال التقوى. جعلنا الله من الفائزين بغايتها. قال معناه البيضاوي.

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٢/٣٤٤

الإشارة: قد مكر أهل الغفلة بالأولياء، قديما وحديثا، واحتالوا على إطفاء نورهم، فأبى الله إلا نصرهم وعزهم (إن الله عزيز ذو انتقام) فينتقم لهم وينصرهم. ووقت نصرهم هو حين يتحقق فناؤهم عن الرسوم والأشكال، فتبدل الأرض عندهم غير الأرض والسماوات فتنقلب كلها نورا مجموعا ببحر الأنوار، وبمحيطات أفلاك الأسرار،

---

(١) من الآية ٢٤ من سورة الزمر.

(٢) من الآية ٤٨ من سورة القمر.

(٣) الآية ٤٢ من سورة إبراهيم. [.....]

(٤) من الآية 4٨ من سورة الشورى.

(٥) الآية ٥٤ من سورة النور.." (١)

"يقول الحق جل جلاله: ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم أي: بكفرهم ومعاصيهم الصادرة من بعضهم، ما ترك عليها أي: على الأرض من دابة: نسمة تدب عليها، بشؤم ظلمهم. وعن ابن مسعود: (كاد الجعل «١» يهلك في جحره بذنب ابن آدم) . وقيل: لو هلك الآباء بكفرهم لم يكن الأبناء، ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى سماه لأعمارهم، أو لعذابهم، فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون عنه ساعة ولا يستقدمون عليه، بل يهلكون، أو يعذبون حينئذ لا محالة، **فالحكمة في** إمهال أهل الكفر والمعاصي لئلا يعم العذاب، كقوله: واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة «٢» ، و (لعل الله تعالى يخرج من أصلابهم من يوحد الله) . والله تعالى أعلم.

الإشارة: إن الله يهم أن ينزل إلى أهل الأرض عذابا لما يرى فيهم من كثرة الظلم والفجور، فإذا رأى حلق الذكر ومجالس العلم رفع عنهم العذاب. وفي بعض الأخبار: «لولا شيوخ ركع، وصبيان رضع، وبهائم رتع، لصب عليكم العذاب صبا» . «٣» .

ثم ذكر وعيد الكفار، فقال:

[سورة النحل (١٦) : آية ٦٢]

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٣/٧٤

ويجعلون لله ما يكرهون وتصف ألسنتهم الكذب أن لهم الحسنى لا جرم أن لهم النار وأنهم مفرطون (٦٢)
قلت: (أن لهم الحسنى) : بدل من (الكذب) ، ومن قرأ (مفرطون) بالكسر، فاسم فاعل من الإفراط، وهو: تجاوز الحد، ومن قرأها بالفتح فاسم مفعول، من أفرط في طلب الماء، إذا قدمه. ومن قرأ بالتشديد فمن التفريط.

يقول الحق جل جلاله: ويجعلون لله ما يكرهون لأنفسهم من البنات، والشركاء في الرئاسة وأراذل الأموال، وتصف ألسنتهم الكذب مع ذلك، وهو أن لهم الحسنى عند الله، وهي الجنة. وهذا كقوله:
ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى «٤» . قال تعالى: لا جرم أن لهم النار أي: لا شك، أو حقا أن لهم النار، وأنهم مفرطون مقدمون إليها، أو متركون فيها، أو مفرطون في المعاصي والظلم، متجاوزون الحد في ذلك. أو مفرطون في الطاعة من التفريط.

---

(١) الجعل: حيوان كالخنفساء ... انظر: النهاية (جعل، ١/ ٢٧٧) .

(٢) من الآية ٢٥ من سورة الأنفال.

(٣) أخرجه البيهقي فى الكبرى (صلاة الاستسقاء، باب استحباب الخروج بالضعفاء والصبيان ٣/ ٣٤٥) والطبراني فى الأوسط (ح ٦٥٣٩) ، وابن عدى فى الكامل (٤/ ١٦٢٢) عن مالك بن عبيدة الديلي، عن أبيه، عن جده.

(٤) من الآية ٥٠ من سورة فصلت.." (١)

"قلت: (طينا) : منصوب على إسقاط الخافض، أو: حال من الراجع إلى الموصول، و (أرأيتك) : الكاف للخطاب، لا موضع لها. وتقدم الكلام عليه في سورة الأنعام «١» . و (هذا)
: مفعول «أرأيت» ، و (جزاء) : مصدر، والعامل فيه:
«جزاؤكم» ، فإن المصدر ينصب بمثله أو فعله أو وصفه، وقيل: حال موطئة لقوله: «موفورا» .

يقول الحق جل جلاله: واذكر إذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس امتنع، وقال أأسجد لمن خلقت طينا أي: من طين فهو أصله من الطين، وأنا أصلي من النار، فكيف أسجد له وأنا خير منه؟! ثم قال إبليس: أرأيتك هذا الذي كرمت علي أي: أخبرني عن هذا الذي كرمته علي بأمري بالسجود له، لم

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ١٣٩/٣

كرمته علي؟ لئن أخرتن أي: والله لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن لأستأصلن من احتنكت السنة أموالهم أي: استأصلتها. أي: لأهلكن ذريته بالإغواء والإضلال، إلا قليلا أو: لأميلنهم وأقودنهم، مأخوذ من تحنيك الدابة، وهو أن يشد على حنكها بحبل فتنقاد. أي:

لأقودنهم إلى عصيانك، إلا قليلا، فلا أقدر أن أقاوم شكيمتهم لما سبق لهم من العناية.

قال ابن عطية: وحكم إبليس على ذرية آدم بهذا الحكم من حيث رأى الخلقة مجوفة مختلفة الأجزاء، وما اقترن بها من الشهوات والعوارض كالغضب ونحوه، ثم استثنى القليل لعلمه أنه لا بد أن يكون في ذريته من يصلب في طاعة الله. هـ. قلت: إنما يحتاج إلى هذا: من وقف مع ظاهر الحكمة في عالم الحس، وأما من نفذ إلى شهود القدرة في عالم المعاني: فلا.

قال تعالى: اذهب امض لما قصدته، وهو: طرد وتخلية لما بينه وبين ما سولت له نفسه. فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم التفت إلى الخطاب، وكان الأصل أن يقال: جزاؤهم، بضمير الغيبة ليرجع إلى فمن تبعك، لكنه غلب المخاطب ليدخل إبليس معهم، فتجازون على ما فعلتم جزاء موفورا وافرا مكملا، لا نقص فيه. واستفزز استخفف، أو اخدع من استطعت منهم أن تستفز بصوتك بدعائك إلى الفساد، وأجلب عليهم أي: صح عليهم، من الجلبة، وهي: الصياح، بخيلك ورجلك أي: بأعوانك من راكب وراجل، قيل: هو مجاز، أي: افعل بهم جهدك. وقيل: إن له من الشياطين خيلا ورجالا. وقيل: المراد: بيان الراكبين في طلب المعاصي، والماشين إليها بأرجلهم. وشاركهم في الأموال بحملهم على كسبها وجمعها من الحرام، والتصرف فيها على ما لا ينبغي، كإنفاقها في المعاصي، والأولاد بالحث على التوصل إلى الولد بالسبب الحرام، كالزنى وشبهه من فساد الأنكحة، وكتسمية الولد عبد شمس وعبد الحارث وعبد العزى.

---

(١) راجع تفسير الآية ٤٠ من سورة الأنعام.." (١)

"وقال محمد بن كعب القرظي: بأسماء أمهاتهم، فيكون جمع «أم» ، كخف وخفاف، لكن في الحديث: «إنكم تدعون يوم القيامة بأسمائكم وأسماء آبائكم» «١» ، ولعل ما قاله القرظي مخصوص بأولاد الزنا. وفي البيضاوي:

قيل: بأمهاتهم، والحكمة في ذلك: إجلال عيسى وإظهار شرف الحسن والحسين، وألا يفتضح أولاد

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٢١٣/٣

الزنى. هـ.

وقال أبو الحسن الصغير: قيل لأبي عمران: هل يدعى الناس بأمهاتهم يوم القيامة أو بآبائهم؟ قال: قد جاء في ذلك شيء أنهم يدعون بأمهاتهم فلا يفتضحوا. وفي البخاري- باب يدعى الناس بآبائهم، وساق حديث ابن عمر:

«ينصب لكل غادر لواء يوم القيامة. يقال: هذه غدرة فلان ابن فلان» «٢» ، فظاهر الحديث أنهم يدعون بآبائهم، وهو الراجح، إلا فيمن لا أب له. والله تعالى أعلم.

ثم قال تعالى: فمن أوتي كتابه بيمينه أي: فمن أوتي صحيفة أعماله، يومئذ، من أولئك المدعوين بيمينه إظهارا لخطر الكتاب، وتشريفا لصاحبه، وتبشيرا له من أول الأمر، فأولئك يقرؤن كتابهم المؤتى لهم. والإشارة إلى «من» : باعتبار معناها لأنها واقعة على الجمع إيذانا بأنهم حزب مجتمعون على شأن جليل، وإشعارا بأن قراءتهم لكتبهم يكون على وجه الاجتماع، لا على وجه الانفراد كما في حال الدنيا. وأتى بإشارة البعيد إشعارا برفع درجاتهم، أي: أولئك المختصون بتلك الكرامة، التي يشعر بها الإيتاء المذكور، يقرأون كتابهم ولا يظلمون فتيلا ولا ينقصون من أجور أعمالهم المرسومة في صحيفتهم أدنى شيء، فإن الفتيل- وهو:

قشر النواة- مثل في القلة والحقارة.

ثم ذكر أهل الأخذ بالشمال فقال: ومن كان في هذه الدنيا، التي فعل بهم ما فعل من فنون التكريم والتفضيل، أعمى فاقد البصيرة، لا يهتدي إلى رشده، ولا يعرف ما أوليناه من نعمة التكرمة والتفضيل، فضلا عن شكرها والقيام بحقوقها، ولا يستعمل ما أودعنا فيه من العقل والقوى، فيما خلق له من العلوم والمعارف، فهو في الآخرة أعمى كذلك، لا يهتدي إلى ما ينجيه مما يرديه لأن النجاة من العذاب والتنعم بأنواع النعم الأخروية مرتب على العمل في الدنيا، ومعرفة الحق، ومن عمي عنه في الدنيا فهو في الآخرة أشد عمى عما ينجيه، وأضل سبيلا عنه لزوال الاستعداد الممكن لسلوك طريق النجاة. وهذا بعينه هو الذي أخذ كتابه

---

(١) أخرجه أحمد فى المسند (٥/ ١٩٤) ، وأبو داود فى (الأدب، باب فى تغيير الأسماء) عن أبى

الدرداء، وصححه الهيثمي فى المجمع (٣/ ٦٩) .

(٢) أخرجه البخاري فى (كتاب الأدب، باب يدعى الناس بآبائهم) .." [١]

"الإشارة: إذا علمت أيها المؤمن أن الحق جل جلاله يغضب هذا الغضب الكلي على من أشرك مع الله، أو اعتقد فيه ما ليس هو عليه من التنزيه وكمال الكمال، فينبغي لك أن تخلص مشرب توحيدك من الشرك الجلي والخفي، علما وعقدا وحالا وذوقا، حتى لا يبقى في قلبك محبة لشيء من الأشياء ولا خوف من شيء، ولا تعلق بشيء، ولا ركون لشيء، إلا لمولاك، وحينئذ يصفي مشرب توحيدك، وتكون عبدا لله خالصا حرا مما سواه، ومهما بقي فيك شيء من محبة الهوى نقص توحيدك بقدره، ولم تصل إليه مادمت تميل إلى شيء سواه. وفي ذلك يقول الششتري رضي الله عنه:

إن ترد وصلنا فموتك شرط ... لا ينال الوصال من فيه فضله

فكن عبدا لله حقيقة، وانخرط في سلك قوله: إن كل من في السماوات والأرض إلا آتي الرحمن عبدا. فحينئذ تكون حرا مما سواه، ويملك الوجود بأسره، يكون عند أمرك ونهيك. وفي ذلك يقول القائل:

دعوني لملكهم فلما أجبتهم ... قالوا دعوناك للملك لا للملك

وإذا فتحت عين القدرة وعين الحكمة وضعت كل شيء في محله، فتتنزه بعين القدرة في رياض الملكوت وبحار الجبروت، وتتنزه بعين الحكمة في بهجة الملك وأسرار الحكمة. فعين القدرة تقول: كل من في السموات والأرض نور من أنوار الرحمن، وسر من أسرار ذاته، وعين الحكمة تقول: كل من في السموات والأرض عبد مملوك تحت قهرية ذاته، فاعرف الضدين، وأنزل كل واحد في محله، تكن عارفا بالله، فإن أردت أن تعرفه بضد واحد بقيت جاهلا به.

فالحكمة تثبت العبودية صورة صونا لكنز الربوبية، والقدرة تغيبك عنها بشهود أسرار الربوبية، وفي الحكم: «سبحان من ستر سر الخصوصية بظهور وصف البشرية، وظهر بعظمة الربوبية في إظهار العبودية» .

فالعبودية لازمة من حيث العبد، والغيبة عنها واجبة من حيث الرب، فإثبات العبودية، حكمة، فرق، والغيبة عنها في شهود أنوار الربوبية: جمع، فالعارف مجموع في فرقه، مفروق فى جمعه.

ولما ذكر قبائح الكفرة أتبعه بذكر محاسن المؤمنين، فقال:

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٣/ ٢١٩

[سورة مريم (١٩) : آية ٩٦]

إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا (٩٦)

قلت: لما استحقر الكفرة أحوال المؤمنين حتى قالوا: أي الفريقين خير مقاما وأحسن نديا، أخبر الله تعالى المؤمنين وبشرهم أنهم سيعزهم ويلقى مودتهم في قلوب عباده.

يقول الحق جل جلاله: إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن في قلوب الناس مودة وعطفا، حتى يحبهم كل من سمع بهم، فيحبهم ويحببهم إلى عباده من أهل السموات والأرض، أي: سيحدث." (١)

"ثم قال: فأخذت تلك القبضة فنبذتها في فم تلك الصورة المذابة من الحلي، فصارت تخور، وكذلك سولت لي نفسي أي: زينت. والإشارة: نعت لمصدر محذوف، أي: سولت لي نفسي تسويلا كائنا مثل ذلك التسويل البديع.

وحاصل جوابه: أن ما فعله إنما صدر منه بمحض اتباع هوى النفس الأمارة وإغوائها، لا لشيء آخر من البرهان العقلي أو الإلهام الإلهي، فعند ذلك قال له موسى عليه السلام: فاذهب أي: اخرج من بين الناس، فإن لك في الحياة أي: في مدة حياتك، أن تقول لا مساس والمعنى: أن لك في مدة حياتك أن تفارقهم مفارقة كلية، لا بحسب الاختيار، بل بحسب الاضطرار الملجئ إليه، وذلك أنه تعالى رماه بداء عقام «١» ، لا يكاد يمسه أحد، أو يمس أحدا، إلا حم من ساعته حمى شديدة، فتحامى الناس وتحاموه، وكان يصيح بأقصى طوقه: لا مساس. وقيل: أن موسى عليه السلام نفاه من قومه، وأمر بني إسرائيل ألا يخالطوه ولا يقربوه. قال الحسن: (جعل الله عقوبة السامري ألا يماس الناس ولا يماسوه. جعل ذلك له ولمن كان منه إلى يوم القيامة) .

فكأن الله تعالى شدد عليه المحنة، وجعل ذلك عقوبة له في الدنيا. ويقال: ابتلي بالوسواس، وأصل الوسواس من ذلك الوقت. وقال قتادة: بقاياه اليوم يقولون ذلك: لا مساس. ويقال: إن موسى هم بقتل السامري، فقال الله تعالى له: لا تقتله فإنه سخي. ولعل الحكمة في عقابه بهذه العقوبة: أن مخالطته للناس نشأت من هذه الفتنة، فعوقب بالطرد والبعد عنهم.

ثم قال له الله: وإن لك موعدا أي: في الآخرة، لن تخلفه أي: لن يخلفك الله ذلك الوعد، بل ينجزه لك

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٣/٣٦٦

ألبتة، بعد ما عاقبك في الدنيا. أو لن تجاوزه ولن تخطئه، بل لا بد لك من ملاقاته. وانظر إلى إلهك العجل، الذي ظلت عليه عاكفا مقيما على عبادته، لنحرقنه أي: والله لنحرقنه بالنار، وقيل بالمبرد، مبالغة في الحرق، ويعضده قراءة: «لنحرقنه» ، ثم لننسفنه أي: لنذرينه بالريح في اليم في البحر، رمادا، أو مبرودا كأنه هباء، نسفا بحيث لا يبقى منه عين ولا أثر، وقد فعل عليه السلام ذلك كله حينئذ، كما يشهد بذلك الأمر بالنظر، وإنما لم يصرح به تنبيها على كمال ظهوره، واستحالة الخلف في وعده المؤكد باليمين.

ثم نبه على الحق فقال: إنما إلهكم الله أي: إنما معبودكم المستحق للعبادة هو الله. والجملة: استئنافية مسوقة لتحقيق الحق، إثر إبطال الباطل، بتلوين الخطاب وتوجيهه إلى الكل، ثم وصفه بقوله: الذي لا إله إلا هو وحده، من غير أن يشاركه في الألوهية شيء من الأشياء، وسع كل شيء علما أي: وسع علمه كل ما من شأنه أن يعلم. وجملة: (وسع) : بدل من الصلة، أي: إنما إلهكم: الذي وسع كل شيء علما لا غيره كائنا

---

(١) العقام: الداء الذي لا يبرأ منه.." (١)

"يأكلون الطعام، مفتقرون إليه في قيام بنيتهم، ويمشون في الأسواق في طلب حوائجهم، فليس ببدع أن تكون أنت كذلك، وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أي: محنة، وهو كالتعليل لما قبله، أي: إنما جعلت الرسل مفتقرين للمادة، وفقراء من المال، يمشون في الاسواق لطلب المعاش ابتلاء، وفتنة، واختبارا لمن تبعهم، من غير طمع، ولم يعرض عنهم لأجل فقرهم، فقد جعلت بعضكم لبعض فتنة. قال ابن عباس: أي: جعلت بعضكم بلاء لبعض لتصبروا على ما تسمعون منهم، وترون من خلافهم، وتتبعوا الهدى بغير أن أعطيكم عليه الدنيا، ولو شئت أن أجعل الدنيا مع رسلي، فلا يخالفون، لفعلت، ولكن قدرت أن أبتلي العباد بكم وأبتليكم بهم «١» . هـ.

فالحكمة في فقر الرسل من المال: تحقيق الإخلاص لمن تبعهم، وإظهار المزية لهم حيث تبعوهم بلا حرف.

قال النسفي: أو جعلناك فتنة لهم لأنك لو كنت صاحب كنوز وجنات لكانت طاعتهم لأجل الدنيا، أو ممزوجة بالدنيا، فإنما بعثناك فقيرا لتكون طاعة من يطيعك خالصة لنا. هـ.

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٤١٦/٣

قال في الحاشية: وقد قيل: إن الدنيا دار بلاء وامتحان، فأراد تعالى أن يجعل بعض العبيد فتنة لبعض، على العموم في جميع الناس: مؤمن وكافر، بمعنى: أن كل واحد مختبر بصاحبه، فالغنى ممتحن بالفقير، عليه أن يواسيه ولا يسخر منه. والفقير ممتحن بالغنى، عليه ألا يحسده، ولا يأخذ منه إلا ما أعطاه، وأن يصبر كل واحد منهما على الحق الذي عليه، وتوجه إليه من ذلك لأن الدار دار تكليف بموجبات الصبر، وقد جعل تعالى إمهال الكفار والتوسعة عليهم فتنة للمؤمنين، واختبارا لهم. ولما صبروا نزل فيهم: إني جزيتهم اليوم بما صبروا «٢» .

والحاصل: أن الله تعالى دبر خلقه، وخص كلا بما شاء، من غنى أو فقر، أو علم أو جهل، أو نبوة أو غيرها. وكذا سائر الخصوصيات ليظهر من يسلم له حكمه وقسمته، ومن ينازعه في ذلك، ومن يؤدي حق ما توجه عليه من ذلك فيكون شاكرا صابرا، ومن لا، وهو أعلم بحكمته في ذلك، ولذلك قال: وكان ربك بصيرا. هـ.

وقال مقاتل: نزلت في أبي جهل، والوليد بن عتبة، والعاص، حين رأوا أبا ذر وعمارا وصهيبا، وغيرهم من فقراء المسلمين، قالوا: أنسلم فنكون مثل هؤلاء؟ فنزلت الآية، تخاطب هؤلاء المؤمنين: أتصبرون على هذه الحالة من الشدة والفقر؟ هـ.

قال النسفي: أتصبرون على هذه الفتنة فتؤجروا، أم لا تصبرون فيزداد غمكم؟ حكي أن بعض الصالحين تبرم بضنك عيشه، فخرج ضجرا، فرأى [خصيا في] «٣» مواكب ومراكب، فخطر بباله شيء، فإذا بقارئ يقرأ هذه الآية، فقال: بل نصبر، ربنا. هـ.

---

(١) انظر تفسير البغوي ٦/ ٧٧.

(٢) من الآية ١١١ من سورة المؤمنون.

(٣) في الأصول المخطوطة [فى حصباء] ، والمثبت هو الذي فى تفسير النسفي. [.....]."[1]

"قال القشيري: هو استفهام بمعنى الأمر، فمن قارنه التوفيق صبر وشكر، ومن قارنه الخذلان أبى وكفر. هـ.

وقيل: هو الأمر بالإعراض عما جعل في نظره فتنة، كما قال: ولا تمدن عينيك «١» ، فينبغي ألا ينظر

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٤/٨٦

بعض إلى بعض، إلا لمن دونه، كما ورد في الخبر «٢» . هـ.

وكان ربك بصيرا عالما **بالحكمة فيما** يبتلي به، أو: بمن يصبر ويجزع. وقال أبو السعود: هو وعد كريم لرسول الله صلى الله عليه وسلم بالأجر الجزيل لصبره الجميل، مع مزيد تشريف له- عليه الصلاة والسلام- بالالتفات إلى إسم الرب مضافا إلى ضميره صلى الله عليه وسلم. هـ.

الإشارة: الطريق الجادة التي درج عليها الأنبياء والأولياء هي سلوك طريق الفقر والتخفيف من الدنيا، إلا قدر الحاجة، بعد التوقف والاضطرار، ابتداء وانتهاء، حتى تحققوا بالله. ومنهم من أتته الدنيا بعد التمكين فلم تضره. والحالة الشريفة: ما سلكها نبينا صلى الله عليه وسلم وهو التخفيف منها وإخراجها من اليد، حتى مات ودرعه مرهونة عند يهودي، في وسق من شعير. وعادته تعالى، فيمن سلك هذا المسلك، أن يديل الغنى في عقبه، فيكونون أغنياء في الغالب. والله تعالى أعلم.

وما وصف به الحق تعالى رسله من كونهم يأكلون الطعام، ويمشون في الأسواق، هو وصف للأولياء أيضا- رضى الله عنهم- فيمشون في الأسواق للعبرة والاستبصار في تجليات الواحد القهار، فحيث يحصل الزحام يعظم الشهود للملك العلام، وفي ذلك يقول الششتري رضي الله عنه: عين الزحام هو الوصول لحينا.

وكان شيخ أشياخنا- سيدي علي العمراني- يقول لأصحابه: من أراد أن يذوق فليمش إلى السوق. هـ.

فينبغي للمريد أن يربي فكرته في العزلة والخلطة والخلوة والجلوة، ولا يتقصر على تربيتها في العزلة فقط لئلا يتغير حاله في حال الخلطة فيبقى ضعيفا. فالعزلة تكون ابتداء، قبل دخول بلاد المعاني، فإذا دخل بلاد المعاني فليختر الخلطة على العزلة، حتى يستوي قلبه في الخلوة والجلوة، فالعزلة عن الناس عزلة الضعفاء والعزلة بين الناس عزلة الأقوياء. فالمشي في الأسواق والأكل فيها من سنة الفقراء، أهل الأحوال مجاهدة لنفوسهم، وترييضا لها على إسقاط مراقبة الخلق، والخوف منهم. وقد ورد أن الله تعالى أمر بذلك نبيه صلى الله عليه وسلم تشريفا لأهل الأحوال، كما ذكره صاحب اللباب عند قوله: مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ...

---

(١) من الآية ١٣١ من سورة طه.

(٢) قال صلى الله عليه وسلم: «إذا نظر أحدكم إلى من فضل عليه فى المال والخلق، فلينظر إلى من هو

أسفل منه ممن فضل عليه» . أخرجه البخاري فى (الرقاق، باب لينظر إلى من هو أسفل منه، ح ٤٦٩٠) ، ومسلم فى (الزهد والرقائق، ٤/ ٢٢٧٥، ح ٢٩٦٣) من حديث أبى هريرة رضي الله عنه.." (١)

"يقول الحق جل جلاله: وقال الذين كفروا يعني: قريشا، وهم القائلون: لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا «١» ، والتعبير عنهم بعنوان الكفر لذمهم، والإشعار بعلية الحكم، قالوا: لولا نزل عليه القرآن، نزل هنا بمعنى أنزل، وإلا كان متدافعا لأن التنزيل يقتضي التدرج بصيغته، وهم إنما اقترحوا الإنزال جملة، أي: هلا أنزل القرآن، حال كونه جملة واحدة أي: دفعة واحدة في وقت واحد، كما أنزلت الكتب الثلاثة، وماله أنزل مفرقا في سنين؟ وبطلان هذه المقالة الحمقاء مما لا يكاد يخفى على أحد فإن الكتب المتقدمة لم يكن شاهد صحتها، ودليل كونها من عند الله، إعجازها، وأما القرآن الكريم، فبينة صحته، ودليل كونه من عند الله، نظمه المعجز الباقي على مر الدهور، ولا ريب في أن ما يدور عليه فلك الإعجاز هو المطابقة لما تقتضيه الأحوال، ومن ضرورية تغيرها وتجددها تغير ما يطابقها حتما، على أن له فوائد أخرى، قد أشير إلى بعض منها بقوله: كذلك لنثبت به فؤادك فإنه استئناف وارد من جهته تعالى لرد مقالتهم الباطلة، وبيان **الحكمة في** التنزيل التدريجي. قاله أبو السعود.

أي: أنزلناه كذلك مفرقا في عشرين سنة، أو ثلاث وعشرين لنثبت به فؤادك، ونقوي به يقينك، فكلما نزل شيء من الوحي قوي القلب، وازداد اليقين، حتى يصير إلى عين اليقين وحق اليقين. قال القشيري: لأنه لو كان دفعة واحدة لم يتكرر نزول جبريل- عليه السلام- بالرسالة في كل وقت وحين. وكثرة نزوله كان أوجب لسكون قلبه، وكمال روحه، ودوام أنسه، ولأنه كان جبريل يأتيه في كل وقت بما يقتضيه ذلك الوقت من الكوائن والأمور الحادثة، فكان ذلك أبلغ في كونه معجزة، وكان أبعد من التهم من أن يكون من جهة غيره، وبالاستعانة بمن سواه حاصلا. هـ.

وقال القرطبي بعد كلام: وأيضا: لو أنزل جملة، بما فيه من الفرائض لثقل عليهم، وأيضا: في تفريقه تنبيه لهم، مرة بعد مرة، وهو أنفع لهم، وأيضا: فيه ناسخ ومنسوخ، ولو نزل ذلك جملة لنزل فيه الأمر بالشيء وبتركه، وهو لا يصح. هـ. وقال النسفي: لنقوي، بتفريقه، فؤادك حتى تعيه وتحفظه لأن المتلقي إنما يقوى قلبه على حفظ العلم شيئا بعد شيء، وجزءا عقب جزء، ولو ألقي عليه جملة واحدة لعجز عن حفظه. أو: لنثبت به فؤادك عن الضجر وذلك بتواتر الوصول وتتابع الرسول لأن قلب المحب يسكن بتواصل كتب

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٤/ ٨٧

المحبوب. هـ.

---

(١) الآية ٢١ من سورة الفرقان.." (١)

"يقول الحق جل جلاله: أمن جعل الأرض قرارا أي: قارة ثابتة، ليستقر عليها الإنسان والدواب، بإظهار بعضها من الماء، ودحوها وتسويتها، حسبما يدور عليه منافعهم. وجعل خلالها أواسطها أنهارا جارية ينتفعون بها، وجعل لها رواسي أي: جبالا ثوابت، تمنعها أن تميد بأهلها، ولتتكون فيها المعادن، وينبع من حضيضها المنابع. وجعل بين البحرين أي: العذب والمالح، أو: خليجي فارس والروم حاجزا برزخا مانعا من المعارجة والمخالطة، أإله مع الله في الوجود، أو: في إبداع هذه البدائع؟

بل أكثرهم لا يعلمون شيئا من الأشياء، ولذلك لا يفهمون بطلان ما هم عليه من الشرك مع كمال ظهوره.

الإشارة: أم من جعل أرض النفوس قرارا، لتستقر عليها أحكام العبودية، وتتصرف فيها أقدار الربوبية، وجعل خلالها أنهارا من علوم الشرائع، وما يتعلق بعالم **الحكمة من** الحكم والأحكام، وجعل لها جبالا من العقل لتعرف صانعها ومدبرها، وجعل بين بحر الحقيقة والشريعة حاجزا وبرزخا، وهو نور العقل؟ فما دام العقل صاحيا ميز بين الحقيقة والشريعة، فيلزمه التكليف، ويعطي كل ذي حق حقه. فإذا سكر وغاب نوره سقط التكليف. وقد تشرق على نور قمر العقل شمس العرفان، فتغطيه مع وجود صحوه، فيميز بين الحقائق والشرائع، وتكون عباداته أدبا وشكرا.

وبالله التوفيق.

ثم ذكر نوعا آخر، فقال:

[سورة النمل (٢٧) : آية ٦٢]

أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أإله مع الله قليلا ما تذكرون (٦٢)

قلت: الاضطرار: الافتعال من الضرورة، وهي الحاجة المحوجة إلى اللجأ، يقال: اضطره إلى كذا، واسم الفاعل والمفعول: مضطر، ويختلف التقدير.

يقول الحق جل جلاله: أمن يجيب المضطر إذا دعاه، وهو من نزلت به شدة من شدائد الزمان، ألجأته

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٩٧/٤

إلى الدعاء والتضرع، كمرض، أو فقر، أو نازلة من نوازل الدهر ونوائبه، أو: المذنب إذا استغفر مبتهلا، أو: المظلوم إذا دعا، أو: من رفع يديه، ولم ير لنفسه حسنة يرجو بها القبول غير التوحيد، وهو منه على خطر، فهذه أنواع المضطر. وإجابة دعوته مقيدة بالحديث: «الداعي على ثلاث مراتب، إما أن يعجل له ما طلب، وإما أن." (١)

"ثم قال تعالى: وأن ألق عصاك، أي: نودي: أن ألق عصاك، فألقاها، فقلبها الله ثعبانا، فلما رآها تهتز تتحرك كأنها جان حية رقيقة. فإن قيل: كيف قال في موضع: (كأنها جان) ، وفي أخرى: فإذا هي ثعبان مبين «١» ؟ قلت: هي في أول أمرها جان، وفي آخر أمرها ثعبان لأنها كانت تصير حية على قدر العصا، ثم لا تزال تنتفخ حتى تصير كالثعبان، أو: يريد في سرعة الجان وخفته، وفي قوة الثعبان. فلما رآها كذلك ولى مدبرا ولم يعقب ولم يرجع عقبه. فقيل له: يا موسى أقبل ولا تخف إنك من الآمنين، أي: أمنت من أن ينالك مكروه من الحية.

واسلك: أدخل يدك في جيبك جيب قميصك تخرج بيضاء لها شعاع كشعاع الشمس من غير سوء برص.

واضمم إليك جناحك من الرهب، أي: الخوف، فيه لغات: «الرهب» ، بفتحتين، وبالفتح والسكون، وبالضم معه، وبضمتين. والمعنى: واضمم يدك إلى صدرك يذهب ما لحقك من الخوف لأجل الحية، وعن ابن عباس رضي الله عنه: (كل خائف، إذا وضع يده على صدره، ذهب خوفه) «٢» . وقيل:

المراد بضم يده إلى جناحه تجلده، وضبطه نفسه عند انقلاب العصا حية، حتى لا يضطرب ولا يرهب، استعارة من فعل الطائر لأنه إذا خاف نشر جناحيه وأرخاهما.

فذانك أي: اليد والعصا، ومن شدد فإحدى النونين عوض من المحذوف، برهانان أي: حجتان نيرتان.

وسميت الحجة برهانا لإنارتها، من قولهم: بره الشيء: إذا ابيض، والمرأة برهاء وبرهرهة: أي: بيضاء.

من ربك إلى فرعون وملائه أي: أرسلناك إلى فرعون وقومه بهاتين الحجتين، إنهم كانوا قوما فاسقين: خارجين عن الحق، كافرين بالله ورسوله.

الإشارة: قد تقدم في سورة «طه» «٣» بعض إشارتها. ويؤخذ من الآية أن تزوج المريد، بعد كمال تربيته، كمال، وأما قبل كماله: فإن كان بإذن شيخه فلا يضره. وربما يتربى له اليقين أكثر من غيره. قوله تعالى: وسار بأهله قال الورتجبي: افهم أن مواقيت الأنبياء والأولياء وقت سير الأسرار من بدء الإرادة إلى عالم

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٢٠٨/٤

الأنوار. هـ.

وقوله تعالى: آنست نارا قال الورتجبي: الحكمة في ذلك: أن طبع الإنسانية يميل إلى الأشياء المعهودة، لذلك تجلى النور في النار لاستئناسه بلباس [الاستئناس] «٤» ، ولا تخلو النار من الاستئناس، خاصة في الشتاء، وكان شتاء، فتجلى الحق بالنور في لباس النار لأنه كان في طلب النار، فأخذ الحق مراده، وتجلى من حيث إرادته، وهو سنة الله تعالى. هـ.

---

(١) من الآية ١٤٣ من سورة الأعراف.

(٢) ذكره البغوي فى تفسيره (٦/ ٢٠٧) .

(٣) راجع المجلد الثالث، ص: ٣٨٢- ٣٨٣.

(٤) فى الورتجبي: «الالتباس» .." (١)

"قال البيضاوي: والحكمة، في عرف العلماء: استكمال النفس الإنسانية باقتباس العلوم النظرية، واكتساب الملكة التامة على الأفعال الفاضلة على قدر طاقتها. ومن حكمته أنه صحب داود شهورا، وكان يسرد الدرع، فلم يسأله عنها، فلما أتمها لبسها، فقال: نعم لبوس الحرب أنت، فقال: الصمت حكمة وقليل فاعله، وأن داود قال له يوما: كيف أصبحت؟ فقال: أصبحت في يدي غيري. وأنه أمر لقمان بأن يذبح شاة ويأتيه بأطيب مضغتين منها، فأتى باللسان والقلب، ثم بعد أيام أمر بأن يأتي بأخبث مضغتين منها، فأتى بهما أيضا، فسأله عن ذلك، فقال: هما أطيب شيء إذا طابا، وأخبث شيء إذا خبثا. والذي عند الثعلبي: أن الآمر له بإتيان المضغتين سيده، لا داود عليه السلام قيل له: بم نلت هذه الحكم، وقد كنت راعيا؟ فقال: بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وترك ما لا يعنيني «١» . هـ.

قال صلى الله عليه وسلم: «أول ما رؤى من حكمة لقمان: أن مولاه أطال الجلوس في المخرج، فناداه لقمان: إن الجلوس على الحاجة ينخلع منه الكبد، ويورث الباسور، ويصعد الحرارة إلى الرأس، فاجلس هوينا، وقم هوينا.» «٢» وروي أنه قدم من سفر، فقيل له: مات أبوك، فقال: الحمد لله، ملكت أمري، فقيل له: ماتت امرأتك، فقال: الحمد لله جدد فراشي، فقيل له: ماتت أختك، فقال: سترت عورتي، فقيل له: مات أخوك، فقال: انقطع ظهري. «٣» هـ.

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٤/٢٤٩

و «أن» – في قوله: أن اشكر: مفسرة لأن إيتاء الحكمة في معنى القول، أي: وقلنا له: اشكر لله على ما أعطاك من الحكمة، وفيه تنبيه على أن الحكمة الأصلية والعلم الحقيقي هو العمل بهما، وعبادة الله والشكر له، حيث فسر الحكمة بالحث على الشكر. وقيل: لا يكون الرجل حكيما حتى يكون حليما في قوله وفعله ومعاشرته وصحبته.

وقال الجنيد: الشكر: ألا يعصى الله بنعمه. وقال أيضا: ألا ترى مع الله شريكا في نعمه. وقيل: هو الإقرار بالعجز عن الشكر. والحاصل: أن شكر القلب: المعرفة، وشكر اللسان: الحمد، وشكر الأركان: الطاعة. ورؤية العجز في الكل دليل القبول. ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه لأن منفعته تعود عليه، لأنه بريد المزيد، ومن كفر فإن الله غني غير محتاج إلى شكر أحد، حميد حقيق بأن يحمد، وإن لم يحمده أحد. واذكر إذ قال لقمان لابنه، واسمه: أنعم، أو أشكم، أو ناران، وهو يعظه يا بني، تصغير ابن، لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم لأنه تسوية بين من لا نعمة إلا منه، ومن لا نعمة منه أصلا. وبالله التوفيق.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى الزهد (ص ٤٩) ، والطبري فى التفسير (٢١/ ٦٧) ، وابن أبى شيبة (١٣/ ٢١٤) .

(٢) عزاه السيوطي فى الدر (٥/ ٣١١) لابن المنذر، عن عكرمة، بدون رفع إلى النبي صلى الله عليه وسلم.

(٣) عزاه فى الدر (٥/ ٣١٧) لعبد الله فى زوائده، عن عبد الله بن دينار.." (١)

"وجعل العلم لله والدراية للعبد، لما في الدراية من معنى التكسب والحيلة، فهذه الأمور الخمسة قد اختص الله بعلمها. وأما المنجم الذي يخبر بوقت الغيث والموت فإنه يقول بالقياس والنظر في المطالع، وما يدرك بالدليل لا يكون غيبا، على أنه مجرد الظن، والظن غير العلم. وعن ابن عباس: من ادعى علم هذه الخمسة فقد كذب.

وجاءه يهودي منجم، فقال: إن شئت أنبأتك أنه يحم ابنك ويموت بعد عشرة أيام، وأنت لا تموت حتى تعمى، وأنا لا يحول علي الحول حتى أموت. قال له: أين موتك؟ قال: لا أدري، فقال ابن عباس: صدق الله: ما تدري نفس بأي أرض تموت. ورأى المنصور في منامه ملك الموت، وسأله عن مدة عمره، فأشار بأصابعه الخمس، فعبرها المعبرون بخمس سنين، وبخمسة أشهر، وبخمسة أيام. فقال أبو حنيفة رضي الله

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٣٦٧/٤

عنه: هو إشارة إلى هذه الآية، فإن هذه العلوم الخمسة لا يعلمها إلا الله. هـ.

وقال شيخ شيوخنا، سيدي عبد الرحمن الفاسي في حاشيته: قيل: أن الله تعالى يعلم الأشياء بالوسم والرسم، والرسم يتغير، والوسم لا يتغير، فقد أخفى الله تعالى الساعة، ولم يخف أمارتها، كما جاء عن صاحب الشرع. وكذا قد يطلع أولياءه على بعض غيبه، ولكن لا من كل وجوهه، فقد يعلم نزول المطر من غير تعين وقته واللحظة التي ينزل فيها ومقداره، وبالجملة فعلم ما يكون من الخواص، جملة لا تفصيلي، وجزئي لا كلي، ومقيد لا مطلق، وعرضي لا ذاتي، بخلاف علمه تعالى. هـ.

قال المحلي: روى البخاري عن ابن عمر حديث مفاتح الغيب خمس: إن الله عنده علم الساعة.. «١» إلى آخر السورة.. ونقل ابن حجر عن ابن أبي جمرة، بعد كلام، ما نصه: **والحكمة في** جعلها خمسة: الإشارة إلى حصر العوالم فيها، ففي قوله: ما تغيض الأرحام: الإشارة إلى ما يزيد في الإنسان وما ينقص. وخص الرحم بالذكر، لكون الأكثر يعرفونها بالعادة، ومع ذلك فنفى أن يعرفها أحد بحقيقتها، فغيرها بطريق الأولى. وفي قوله:

لا يعلم متى يأتي المطر: إشارة إلى أمور العالم العلوي، وخص المطر مع أن له أسبابا قد تدل بجرى العادة على وقوعه، لكنه من غير تحقيق. وفي قوله: «لا تدري نفس بأي أرض تموت» : إشارة إلى أمور العالم السفلي، مع أن عادة أكثر الناس أن يموت ببلده، ولكن ليس ذلك حقيقة، وإن مات ببلده لا يعلم بأي بقعة يدفن فيها، ولو كان هناك مقبرة لأسلافه، بل قبر أعده هو له.

وفي قوله: «ولا يعلم ما في غد إلا الله» : إشارة إلى أنواع الزمان، وما فيها من الحوادث، وعبر بلفظ (غد) لكون حقيقته أقرب الأزمنة إليه، وإذا كان مع قربه لا يعلم حقيقة ما يقع فيه، مع إمكان الأمارة والعلامة، فما بعد

---

(١) أخرج حديث مفاتيح الغيب، البخاري فى (الاستسقاء، باب لا يدرى متى يجىء المطر إلا الله ح ١٠٣٩).." (١)

"ألا إنهم من إفكهم ليقولون ولد الله، وإنهم لكاذبون في قولهم. أصطفى البنات على البنين، الهمزة للاستفهام الإنكاري، وحذفت همزة الوصل استغناء عنها بهمزة الاستفهام، والاصطفاء: أخذ صفوة الشيء،

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٣٨٣/٤

ما لكم كيف تحكمون هذا الحكم الفاسد، الذي لا يرتضيه عقل ولا نقل، أفلا تذكرون فتعرفوا أنه منزه عن ذلك أم لكم سلطان مبين حجة واضحة نزلت عليكم من السماء بأن الملائكة بنات الله؟ فأتوا بكتابكم الذي أنزل عليكم، إن كنتم صادقين

في دعواكم.

وجعلوا بينه بين الله وبين الجنة الملائكة- لاستتارهم، نسبا وهو زعمهم أنهم بنات الله.

أو: قالوا: إن الله صاهر الجن، تزوج سرواتهم فولدت له الملائكة «١» ، تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا. ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون أي: ولقد علمت الملائكة إن الذين قالوا هذا القول لمحضرون في النار. أو: لقد علمت الملائكة أنهم سيحضرون للحساب من جملة العباد، فكيف تكون بنات الله؟. سبحان الله عما يصفون، نزه نفسه عما يصفه الكفرة من الولد والصاحبة، إلا عباد الله المخلصين، استثناء منقطع من «المحضرين» ، أي: لكن المخلصون ناجون من النار. و «سبحان الله» : اعتراض بين الاستثناء وبين ما وقع منه، ويجوز أن يقع الاستثناء من واو «يصفون» ، أي: عما يصفه هؤلاء الكفرة لكن المخلصون برءاء من أن يصفوه بذلك.

الإشارة: الحق تعالى في عالم القدرة منزه عن الولد والصاحبة، وتصور الأثنينية، وإنما سر الازدواج والتولد خاص بعالم الحكمة في حضرة الأشباح، فليكن للعارف عينان عين تنظر لعالم القدرة في حضرة أسرار الذات، فتوحد الله، وتنزهه عن الاثنينية، وعين تنظر لعالم الحكمة، فتثبت سر الازدواج والتولد في حضرة الأشباح، والمظهر واحد، ولا يفهم هذا إلا الأفراد من البحرية، الذين خاضوا بحر أحدية الذات وتيار الصفات، فحط رأسك لهم، إن أردت أن تذوق هذه الأسرار. وإلا فسلم تسلم.

ثم بين أن الأمور كلها بيد الله، هداية وإضلالا، فقال:

[سورة الصافات (٣٧) : الآيات ١٦١ الى ١٦٣]

فإنكم وما تعبدون (١٦١) ما أنتم عليه بفاتنين (١٦٢) إلا من هو صال الجحيم (١٦٣)

---

(١) انظر تفسير الطبري (٢٣/ ١٠٨) . [.....]."(١)

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٤/٦٢٢

"منافعها، واستدفاع مضارها، ونصبنا لها للحق دلائل آفاقية، ونفسية، ومنحناها القدرة على الاستشهاد بها، ثم لم نقتصر على ذلك المقدار من الألطاف، بل أرسلنا إليها رسلا، وأنزلنا عليها كتبا، بينا فيها كيفية الأدب معنا، وهيئة السير إلى حضرة قدسنا، وقيضنا لها جهابذة، غاصوا على جواهر معانيها، فاستخرجوا منها كيفية المعاملة معنا، ظاهرا وباطنا، وأوعدنا فيها بالعقاب لمن أعرض عنها، ووعدنا بالثواب الجزيل لمن تمسك بها، ولم نخلق شيئا باطلا.

ذلك ظن الذين كفروا، الإشارة إلى خلق العبث، والظن بمعنى المظنون، أي: خلقها عبثا هو مظنون الذين كفروا، وإنما جعلوا ظانين أنه خلقها للعبث، وإن لم يصرحوا بذلك لأنه لما كان إنكارهم للبعث، والثواب، والحساب، والعقاب، التي عليها يدور فلك تكوين العالم، مؤديا إلى خلقها عبثا، جعلوا كأنهم يظنون ذلك ويقولون لأن الجزاء هو الذي سيقت إليه الحكمة في خلق العالم، فمن جحده فقد جحده الحكمة في خلق العالم.

فويل للذين كفروا من النار، الفاء سببية لإفادة ثبوت الويل لهم على ظنهم الباطل، وأظهر في موضع الإضمار للإشعار بأن الكفر علة ثبوت الويل لهم، و «من النار» : تعليلية، كما في قوله: فويل لهم مما كتبت أيديهم «١» أي: فويل لهم بسبب النار المترتبة على ظنهم وكفرهم.

أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض، «أم» : منقطعة، والاستفهام فيها للإنكار، والمراد أنه لو بطل الجزاء- كما تقول الكفرة- لا ستوت أحوال أتقياء المؤمنين وأشقياء الكفرة، ومن سوى بينهما كان سفيها، ولم يكن حكيما، أي: بل أنجعل المؤمنين المصلحين كالكفرة المفسدين في أقطار الأرض، كما يقتضيه عدم البعث وما يترتب عليه من الجزاء لاستواء الفريقين في التمتع فى الحياة الدنيا، بل الكفرة أوفر حظا فيها من المؤمنين، مع صبر المؤمنين، وتعبهم في مشاق الطاعات، لكن ذلك الجعل محال، فتعين البعث والجزاء لرفع الأولين إلى أعلى عليين، وخفض الآخرين إلى أسفل سافلين.

أم نجعل المتقين كالفجار إنكار للتسوية بين الفريقين المذكورين، وحمل الفجار على فجرة المؤمنين مما لا يساعده المقام، ويجوز أن يراد بهذين الفريقين عين الأولين، ويكون التكرير باعتبار وصفين آخرين، هما أدخل في إنكار التسوية من الوصفين الأولين. وقيل: قالت قريش للمؤمنين: إنا نعطى من الخير يوم القيامة مثل ما تعطون، فنزلت «٢» .

---

(١) من الآية ٧٩ من سورة البقرة.

(٢) ذكره البغوي فى تفسيره (٧/ ٨٧) .." (١)

"«لا» في المسيء لتأكيد النفي لطول الكلام بالصلة. قليلا ما تتذكرون «١» أي: تذكرا قليلا يتذكرون.

وقرىء بالغيبة، والخطاب، على الالتفات. إن الساعة لآتية لا ريب فيها لا شك في مجيئها لوضوح دلائلها، وإجماع الرسل على الوعد بوقوعها، ولكن أكثر الناس لا يؤمنون لا يصدقون بوقوعها لقصور نظرهم على ظواهر ما يحسون.

الإشارة: التفكر في العوالم العلوية والسفلية، يوجب في القلب عظمة الحق جل جلاله، وباهر قدرته وحكمته، وإتيان البعث لا محالة لنفوذ القدرة في الجميع. وكون خلق السموات والأرض أكبر من خلق الإنسان، إنما هو باعتبار الجرم الحسي، وأما باعتبار المعنى فالإنسان أعظم لاشتماله على العوالم كلها، كما قال في المباحث:

اعقل فانت نسخة الوجود ... لله ما أعلاك من موجود

أليس فيك العرش والكرسي ... والعالم العلوي والسفلي؟

ثم أمر بعبادته، أو دعائه، بعد بيان عظمة قدرته، ليكون الداعي موقنا بالإجابة، فقال:

[سورة غافر (٤٠) : آية ٦٠]

وقال ربكم ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين (٦٠)

يقول الحق جل جلاله: وقال ربكم ادعوني أي: اعبدوني أستجب لكم أي: أثبكم، ويدل على هذا قوله: إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين صاغرين أذلاء، أو: اسألوني أعطكم، على ما أريد، في الوقت الذي أريد. قال القشيري: والحكمة في أنه أمر بالسؤال قبل الإجابة، وبالاستغفار قبل المغفرة، أنه حكم في اللوح أن يعطيك ذلك الشيء الذي تسأله وإن لم تسأل، ولكن أمر بالسؤال، حتى إذا وجدته تظن أنك وجده بدعائك، فتفرح به. قلت: السؤال سبب، والأسباب غطى بها سر قدرته تعالى. ثم قال:

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٥/ ٢١

ويقال: إذا ثبت أن هذا الخطاب للمؤمنين فما من مؤمن يدعو الله، ويسأله شيئا، إلا أعطاه إياه، إما في الدنيا، وإما في الآخرة. حيث يقال له: هذا ما طلبته في الدنيا، وقد ادخرته لك إلى هذا اليوم، حتى يتمنى العبد أنه لم يعط شيئا في الدنيا. هـ.

---

(١) قرأ عاصم، وحمزة، والكسائي «تتذكرون» بتاءين من فوق، على الخطاب، وقرأ الباقون بالياء والتاء على الغيب.. انظر الإتحاف (٢/ ٤٣٩) .." (١)

"له مقاليد السماوات والأرض مفاتيح خزائنها، يبسط الرزق لمن يشاء أي: يوسعه ويقدر أي: يضيق على ما تقتضيه المناسبة المبنية على الحكم البالغة. إنه بكل شيء عليم لا يخفى عليه شيء، فيفعل كل ما يفعل على ما ينبغي أن يفعل، على ما تقتضيه مشيئته وحكمته البالغة.

قال ابن عرفة: تضمنت هذه الآية وصفه تعالى بجميع صفات الكمال، فالقدرة في قوله: فاطر السماوات والأرض والوحدانية في قوله: ليس كمثله شيء والإرادة في قوله: يبسط الرزق لمن يشاء لأن تخصيص البعض بالبسط إنما هو بالإرادة. والعلم في قوله: إنه بكل شيء عليم، والكلام في قوله: شرع لكم من الدين لأن المراد به الحكم الشرعي، وهو خطاب الله تعالى المعلق بأفعال المكلفين، وخطابه كلامه. هـ. زاد في الحاشية الفاسية:

يعني وكل وصف من هذه الأوصاف يستلزم الحياة، مع أنه قال: يحي الموتى والإحياء إنما يكون من الحي. هـ.

الإشارة: قوله تعالى: وما اختلفتم فيه من شيء قال القشيري: ويقال إذا لم تهتدوا إلى شيء وتعرضت منهم الخواطر فدعوا تدبيركم والتجئوا إلى ظل شهود تقديره، [وانتظروا] «١» ما الذي ينبغي لكم أن تفعلوا بحكم تيسيره. ويقال: إذا اشتغلت قلوبكم بحديث أنفسكم، فلا تدرون أبالسعادة جرى حكمكم، أو بالشقاوة جرى اسمكم، فكلوا الأمر فيه إلى الله، واشتغلوا في الوقت بأمر الله، دون التفكر فيما ليس له سبيل إلى علمه من عواقبكم. هـ.

وقوله: فاطر السماوات والأرض أي: شققهما من أسرار الغيب، ومتجل بهما وسائر الكائنات. جعل لكم في عالم **الحكمة من** أنفسكم أزواجا ليقع التناسل، بعضكم من بعض، ومن الأنعام أزواجا ليقع التناسل

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ١٤٥/٥

فيها وأما بحر الجبروت فليس كمثله شيء. وقال بعض العارفين: ليت شعري هل معه شيء حتى يشبهه أو لا يشبهه، كان الله ولا شيء معه، وهو الآن على ما عليه كان. فقوله تعالى: ليس كمثله شيء أي: ليس معه شيء حتى يشبهه.

وقال الورتجبي عن الواسطي: [أمور] «٢» التوحيد كلها خرجت من هذه الآية لأنه ما عبر عن الحقيقة بشيء إلا والعلة مصحوبة، والعبارة منقوضة لأن الحق لا ينعت على أقداره لأن كل ناعت مشرف على المنعوت، وجل أن يشرف عليه مخلوق. وقال الشبلي: كل ما ميزتموه بأوهامكم، وأدركتموه بعقولكم في أتم معانيكم، فهو مصروف إليكم، ومردود عليكم، محدث مصنوع مثلكم لأن حقيقته عالية عن أن تلحقها عبارة، أو يدركها وهم،

---

(١) ما بين المعقوفتين أثبته من القشيري.

(٢) فى عرائس البيان: (رموز) .." (١)

"أضغاث الأحلام، ويجوز أن يكون قسما، أي: أقسم بالحق لتدخلن المسجد الحرام، وعلى الأول: جواب القسم محذوف، أي: والله لتدخلن المسجد الحرام، والجملة القسمية: استئناف بياني، كأن قائلا قال: ففيم صدقه؟ فقال:

(لتدخلن المسجد إن شاء الله) . وهو تعليق للعدة بالمشيئة لتعليم العباد. قال ثعلب: استثنى الله فيما يعلم ليستثني الخلق فيما لا يعلمون. وقال في القوت: استثنى الله معلما لعباده ورادا لهم إلى مشيئته، وهو أصدق القائلين، وأعلم العالمين. هـ. أو: للإشعار بأن بعضهم لا يدخلونه، لموت، أو: غيبة، أو غير ذلك، أو: هو حكاية لما قاله ملك الرؤيا لرسول الله صلى الله عليه وسلم، أو لما قاله صلى الله عليه وسلم لأصحابه، حين قص عليهم، أي: والله لتدخلنها آمنين من غائلة العدو، فهو حال من فاعل «لتدخلن» والشرط معترض. محلقين رؤسكم ومقصرين أي: محلقا بعضكم، ومقصرا آخرون، لا تخافون بعد ذلك أبدا، فهو حال أيضا، أو استئناف، فعلم ما لم تعلموا من الحكمة في تأخير فتح مكة إلى العام القابل، فجعل من دون ذلك فتح مكة فتحا قريبا وهو فتح خيبر، لتستروح إليه قلوب المؤمنين، إلى أن يتيسر الفتح الموعود. والله تعالى أعلم.

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٥/٢٠٠

الإشارة: العارف الكامل لا يركن إلى شيء دون الله تعالى، فلا يطمئن إلى وعد، ولا يخاف من وعيد، بل هو عبد بين يدي سيده، ينظر ما يبرز من زمن عنصر قدرته، فإن بشر بشيء في النوم أو اليقظة، لا يركن إليه، ولا يقف معه لأن غيب المشيئة غامض، وإن خوف بشيء في النوم أو غيره، لا يفزع ولا يجزع لأن الغنى بالله والأنس به غيبه عن كل شيء، وفي الله خلف من كل تلف «ماذا فقد من وجدك؟ «١» » والله يتولى الصالحين، ومن يتق الله يجعل له مخرجا.. الآية «٢» .

قال في الإبريز «٣» : الرؤيا المحزنة إنما هي اختبار من الله للعبد، هل يبقى مع ربه أو ينقطع عنه، فإن كان العبد متعلقا به تعالى، ورأى الرؤيا المحزنة، لم يلتفت إليها، ولما يبال بها لعلمه بأنه منسوب إلى من بيده تصاريف الأمور، وأن ما اختاره تعالى سبقت به المشيئة، فلا يهوله أمر الرؤيا، ولا يلقي إليها بالا، وهذه لا تضره بإذن الله تعالى: وإذا كان العبد غير متعلق بربه، ورأى رؤيا محزنة، جعلها نصب عينيه، وعمر بها باطنه، وانقطع بها عن ربه، ويقدر أنها لا محالة نازلة به، فهذا هو الذي تضره لأن من خاف من شيء سلطه عليه. هـ.

---

(١) من مناجاة الشيخ ابن عطاء السكندرى. انظر تبويب الحكم للمتقى الهندي (ص ٤٢) .

(٢) الآية ٢ من سورة الطلاق.

(٣) لسيدى عبد العزيز الدباغ- رحمه الله تعالى.." (١)

"روي أن سلمان كان يخدم رجلين من الصحابة، ويصلح طعامهما، فنام عن شأنه يوما، فبعثاه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «ما عندي شيء» فأخبرهما سلمان، فقالا: لو بعثناه إلى بئر سميحة لغار ماؤها. فلما جاءا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لهما: «مالى أرى حمرة اللحم في أفواهكما؟» فقالا: ما تناولنا لحما، فقال: «إنكما قد اغتبتما، من اغتاب مسلما فقد أكل لحمه» ، ثم قرأ الآية «١» .

وقيل: غيبة الخلق إنما تكون بالغيبة عن الحق. هـ. قاله النسفي. قال بعضهم: والغيبة صاعقة الدين، فمن أراد أن يفرق حسناته يمينا وشمالا فليغتب الناس. وقيل: مثل صاحب الغيبة مثل من نصب منجنيقا فهو يرمي به حسناته يمينا وشمالا، شرقا وغربا. هـ. والأحاديث والحكايات في ذم الغيبة كثيرة، نجانا الله منها

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٤٠٦/٥

بحفظه ورعايته.

وهل هي من الكبائر أو من الصغائر؟ خلاف، رجح بعض أنها من الصغائر لعموم البلوى بها، قال بعضهم: هي فاكهة القراء، ومراتع النساء، وبساتين الملوك، ومزبلة المتقين، وإدام كلاب الناس. هـ «٢» .

الإشارة: من نظر الناس بعين الجمع عذرهم فيما يصدر منهم، وحسن الظن فيما لم يصدر منهم، وعظم الجميع، ومن نظرهم بعين الفرق طال خصمه معهم فيما فعلوا، وساء ظنه بهم فيما لم يفعلوا، وصغرهم حيث لم ير منهم ما لا يعجبه، فالسلامة: النظر إليهم بعين الجمع، وإقامة الحقوق عليهم في مقام الفرق، قياما بالحكمة في عين القدرة. وفي الحديث: «ثلاثة دبت لهذه الأمة الظن، والطيرة، والحسد» قيل: فما النجاة؟ قال:

«إذا ظننت فلا تحقق، وإذا تطيرت فامض، وإذا حسدت فلا تبغ» «٣» أو كما- قال عليه السلام. قال القشيري: النفس لا تصدق، والقلب لا يكذب، والتمييز بينهما مشكل، ومن بقيت عليه من حظوظه بقية- وإن قلت- فليس له أن يدعي بيان القلب- أي: استفتاءه- بل يتهم نفسه ما دام عليه شيء من نفسه، ويجب أن يتهم نفسه في كل ما يقع له من نقصان غيره، هذا أمير المؤمنين عمر قال وهو يخطب الناس: «كل الناس أفقه من عمر حتى النساء» «٤» . هـ.

---

(١) قال المناوى فى الفتح السماوي (٣/ ١٠٠٤) : «ذكره الثعلبي بغير إسناد، وروى معناه الأصبهانى فى الترغيب عن عبد الرحمن ابن أبى ليلى» .

(٢) على هامش النسخة الأم مايلى: غريب هذا الترجيح، وأغرب منه دليله، فالأحاديث الكثيرة الصحيحة تفيد أن الغيبة من الكبائر، بل من أكبرها، بل من أربى الربا، وأشد من ست وثلاثين زنية، والزنا والربا من الكبائر، وأيضا: هى من حقوق الخلق، التي لا تكفر إلا بالاستحلال، فكيف تكون من الصغائر أ. هـ.

(٣) ذكره ابن عبد البر فى التمهيد (٦/ ١٢٥) بلفظ (ثلاث لا يسلم منهن أحد..) الحديث، وعزاه لعبد الرزاق، عن إسماعيل بن أمية. وذكره الهيثمي فى المجمع (٨/ ٨١) وابن كثير فى التفسير (٤/ ١٣) بلفظ «ثلاث لازمات لأمتى..» الحديث، وفيه: «وإذا حسدت فاستغفر الله» وعزاه كل منهما للطبرانى عن حارثة بن النعمان. وقال الهيثمي: «وفيه إسماعيل بن قيس الأنصاري، وهو ضعيف» .

(٤) قاله رضي الله عنه بعد أن خطب ناهيا عن المغالاة فى مهور النساء، وأن لا يزدن عن أربعمائة درهم،

فقالت له امرأة من قريش: أما سمعت الله يقول: وآتيتم إحداهن قنطارا [النساء/ ٢٠] . ذكره فى كنز العمال (رقم ٤٥٧٩٨) وعزاه لسعيد بن منصور، وأبى يعلى فى مسنده، والمحاملي فى أماليه، عن مسروق. وانظر: الشذرة فى الأحاديث المشتهرة (رقم ٦٩٧) . [.....]."(١)

"{

ثم نظر} أي: في القرآن مرة بعد مرة، أو نظر بأي شيء يرد الحق، أو فيما قدر، {ثم عبس} ؛ قطب وجهه لما لم يجد فيه مطعنا، ولم يدر ماذا يقول، وقيل: نظر في وجوه الناس، ثم قطب وجه، {وبسر} ؛ زاد في العبوسة والكلوح، {ثم أدبر} عن الحق، أو عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، {واستكبر} عن اتباعه، و {ثم نظر} : عطف على (قدر) ، والدعاء اعتراض، وإيراد " ثم " في المعطوفات لبيان أن بين الأفعال والمعطوفة تراخيا أو تفاوتا، {فقال إن هذا إلا سحر يؤثر} أي: يروى ويتعلم، والفاء للدلالة على أن هذه الكلمة لما خطرت بباله تفوه بها من غير تلعثم ولا تلبث، وقوله: {إن هذا إلا قول البشر} تأكيد لما قبله، ولذلك أخلى عن العاطف. قال تعالى: {سأصليه} ؛ سأدخله {سقر} ، وهو بدل من {سأرهقه صعودا} وسقر: علم لجهنم، ولم ينصرف للتعريف والتأنيث، {وما أدراك ما سقر} ، تهويل لشأنها، {لا تبقي ولا تذر} ، بيان لحالها، أي: لا تبقي شيئا يلقى فيها إلا أهلكته، وإذا هلك لم تذره هالكا حتى يعاد، أو: لا تبقي لحما، ولا تذر عظما، أو: لا تبقي لحما إلا أكلته، ولا تدع أن تعود عليه أشد ما كانت، وقال الضحاك: إذا أخذت فيهم لم تبق منهم شيئا، وإذا أعيدوا لم تذرهم حتى تفنيهم، ولكل شيء فترة وملالة إلا جهنم. هـ.

{لوحاة للبشر} أي: مغيرة للجلود حتى تسودها، تقول العرب: لاحته الشمس ولوحته، أي: غيرته، قيل: تلفح الجلد لفحة، فتدعه أشد سوادا من الليل، وقال الحسن: تلوح لهم جهنم حتى يرونها عيانا، نظيره: {وبرزت الجحيم للغاوين} [الشعراء: ٩١] والبشر: اسم، جمع بشرة، وهي ظاهر جلد الإنسان، ويجمع أيضا على أبشار، {عليها تسعة عشر} أي: على أمرها تسعة عشر ملكا، خزنتها، وقيل: تسعة عشر صنفا من الملائكة، وقيل: صفا، وقيل: نقيبا. قيل: الحكمة في تخصيص هذا العدد لخزنة جهنم؛ أن ذكرهم الذي يتقوون به البسلمة، وذلك عدد حروفها. هـ. والله تعالى أعلم.

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٥/٤٣٣

الإشارة: هذه الآية تجر ذيلها على كل من آتاه الله المال والجاه البنين، ثم جعل ينتقد على أولياء الله، ويحتقر أهل النسبة، بل على كل من يطلق لسانه في أهل النسبة يناله ما نال الوليد؛ لأنه كان لآيات الله . وهم خاصة أوليائه . عنيدا جاحد القلب، وحاسدا، سأرهقه صعودا، أي: عذابا متعبا له، في الدنيا بالحرص والطمع، وفقر القلب، وكذا العيش في الآخرة بسدل الحجاب، والطرد عن ساحة المقربين، إنه فكر فيما يكيد به أولياءه، وقدر ذلك، فلعن كيف قدر، ثم نظر إليهم فعبس وبسر. قلت: وقد رأيت بعض المتفقهة المتجمدين، إذا رأوا أحدا من أهل التجريد، عبسوا وقطبوا وجوههم، ولووا رؤوسهم، لشدة حنقهم على هذه الطائفة، نعوذ بالله من الحرمان. وكل ما رمي به صلى الله عليه وسلم من السحر وغيره قد رمي به خلفاؤه، فيقال لمن رماهم وعابهم: سأصليه سقر، نار القطيعة والبعد، لا تبقي له رتبة، ولا تذر له مقاما ولا جاها عند الله، تزيل عنه سيما العارفين." (١)

"ألم نجعل أرض البشرية جامعة للقلوب والأرواح والأحياء بالعلم والمعرفة، حين غلبت الروح والعقل على البشرية والهوى، وللنفوس والقلوب الميتة، حين غلب الهوى. وجعلنا فيها رواسي من العقول الثابتة، لتميز بين النافع الضار، وأسقيانكم من ماء العلوم التي تحيا به القلوب والأرواح، ماء عذبا لمن وفقه الله لشربه على أيدي الرجال. ويل يومئذ للمكذبين بها، فإنه يعيش ظمآنا، ويموت عطشانا، والعياذ بالله.

يقول الحق جل جلاله للكفرة المكذبين: {انطلقوا} أي: سيروا {إلى ما كنتم به تكذبون} من النار المؤبدة عليكم، {انطلقوا إلى ظل} ؛ دخان جهنم {ذي ثلاث شعب} ، يتشعب لعظمه ثلاث شعب، كما هو شأن الدخال العظيم، تراه يتفرق ذوائب، وقيل: يخرج لسان من النار يحيط بالكفار كالسرداق، ويتشعب من دخانها ثلاث شعب، فتظلم حتى يفرغ من حسابهم، والمؤمنون في ظل العرش. قيل: الحكمة في خصوصية الثلاث: أن حجاب النفس عن أنوار القدس ثلاث، الحس والخيال والوهم، وقيل: إن المؤدي إلى هذا العذاب هو القوة الوهمية الشيطانية، الحالة في الدماغ، والقوة الغضبية التي عن يمين القلب، والقوة الشهوانية البهيمية التي عن يساره، ولذلك قيل: تقف شعبة فوق الكافر، وشعبة عن يمينه، وشعبة عن يساره. ثم وصف ذلك الظل بقوله: {لا ظليل} أي: لا مظل من حر ذلك اليوم أو من حر النار، {ولا يغني من اللهب} أي: وغير مغن عن حر اللهب شيئا لعدم البرودة فيه، وهذا كقوله: {وظل من يحموم لا بارد ولا كريم} [الواقعة: ٤٣، ٤٤] ، {إنها ترمي بشرر} وهو ما تطاير من النار {كالقصر} في العظم، أي: كل

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ١٧٧/٧

شررة كقصر من القصور في العظم. وقيل: هو الغليظ من الشجر، الواحدة: قصرة، كجمر وجمرة، {كأنه جمالات} جمع جمل. وقرأ أهل الكوفة، غير شعبة " جمالة " وهو أيض‌اً جمع جمل، وجمالات جمع الجمع. {صفر} فإن الشرار لما فيه من النار يكون أصفر، وقيل: سود؛ لأن سواد الإبل يضرب إلى الصفرة، والأول تشبيه لها في العظم، وهذا في اللون والكثرة والتتابع والاختلاط. وقيل: الضمير في " إنه " يعود إلى القصر، فيذهب به إلى تصوير عجيب وتطوير غريب. شبهت الشرارة حين تنقض من النار في العظم بالقصر، ثم شبه القصر." (١)

"اليوم الذي تفضح فيه السرائر، {فما له من قوة} في نفسه يمتنع بها {ولا ناصر} ينتصر به ويدفع عنه غير الله تعالى. ولما كان رفع المكان في الدنيا إما بقوة الأنسان، وإما بنصر غيره له، أخبر الله بنفيهما يوم القيامة.

الإشارة: أقسم تعالى بقلب العارف، لأنه سماء لشمس العرفان وقمر الإيمان ونجوم العلم، وبما يطرقه من الواردات الإلهية والنفحات القدسية، ثم نوه بذلك الطارق، فقال: {وما أدراك ما الطارق النجم الثاقب} أي: هو نجم العلم الثاقب لظلمة الجهل، إما جهل الشرائع أو جهل الحقائق. إن كل نفس لما عليها حافظ، وهو الله، فإنه رقيب على الظواهر والبواطن، ففيه حث على تدقيق المراقبة ظاهرا وباطنا. فلينظر الإنسان مم خلق في عالم الحكمة من جهة بشريته، خلق من ماء دافق، يخرج من محل البول ويقع في محل البول، فإذا نظر إلى أصل بشريته تواضع وانكسر، وفي ذلك عزه وشرفه، م‌ن تواضع رفعه الله. وفيه روح سماوية قدسية، إذا اعتنى بها وزكاها، نال عز الدارين وشرف المنزلين " من عرف نفسه عرف ربه " فالإنسان من جهة بشريته أرضي، ومن جهة روحانيته سماوي، والحكم للغالب منهما. إنه على رجعه: أي: رده إلى أصله، حين برز من عالم الغيب، بظهور روحه، لقادر، فيصير روحانيا سماويا، بعد أن كان بشريا أرضيا، وذلك يوم تبلى السرائر بإظهار ما فيها من المساوىء، ليقع الدواء عليها، فتذهب، فمن لم يفضح نفسه لم يظفر بها، فما لها من قوة على جهادها وإظهار مساوئها بين الأقران إلا بالله، ولا ناصر ينصره على الظفر بها إلا من الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

يقول الحق جل جلاله: {والسماء ذات الرجع} أي: المطر، لأنه يرجع حينا بعد حين، وسمته العرب بذلك تفاؤلا، {والأرض ذات الصدع} أي: الشق، لأنها تنصدع عن النبات والأشجار، لا بالعيون كما قي‌ل، فإن

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٧/٢١٠

وصف السماء بالرجع، والأرض بالشق، عند الإقسام بها على حقية القرآن الناطق بالبعث؛ للإيماء إلى أنهما في أنفسهما من شواهده، وهو السر في التعبير عنه بالرجع والصدع، لأن في تشقق الأرض بالنبات محاكاة للنشور، حسبما ذكر في مواضع من القرآن، لا في تشققها بالعيون. {إنه} أي: القرآن {لقول فصل} ؛ فاصل بين الحق والباطل، كما قيل له: فرقانا، وصفه بالمصدر، كأنه نفس الفعل، {وما هو بالهزل} أي: ليس في شيء منه شائبة هزل، بل كله جد محض، ومن حقه ـ حيث وصفه الله بذلك ـ أن يكون مهابا في الصدور، معظما في القلوب، يرتفع به قارئه وسامعه، ويهتدي به الغواة، وتخضع له رقاب العتاة.." (١)

"صافية من الشوائب على الإطلاق، وهذه فانية مشوبة بالمضار، وما أوتي صلى الله عليه وسلم من شرف النبوة، وإن كان مما لا يعادله شرف، ولا يدانيه فضل، لكنه لا يخلو في الدنيا عن بعض العوارض الشاقة على النفس.

ووجه اتصال الآية بما قبلها: أنه لما كان في ضمن نفي التوديع والقلي أن الله يواصلك بالوحي إليك، وأنك حبيب الله، ولا ترى كرامة أعظم من ذلك، أخبر أن ما له في الآخرة أعظم وأشرف، وذلك لتقدمه على الأنبياء في الشفاعة الكبرى، وشهادة أمته على الأمم، ورفع درجات المؤمنين، وإعلاء مراتبهم بشفاعته، وغير ذلك من الكرامات السنية التي لا تحيط بها العبارة.

وقوله تعالى: {ولسوف يعطيك ربك فترضى} وعد كريم شامل لما أعطاه الله تعالى في الدنيا، من كما اليقين، وعلوم الأولين والآخرين، وظهور أمره، وإعلاء دينه بالفتوح الواقعة في عصره صلى الله عليه وسلم، وفي أيام خلفائه الراشدين وغيرهم من الملوك الإسلامية، وفشو الدعوة، وإعلاء منار الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها، ولما ادخر له من الكرامات التي لا يعلمها إلا الله عز وجل، وقد أنبأ ابن عباس عن شيء منها، حيث قال: " أعطي في الجنة ألف قصر من لؤلؤ أبيض، ترابه المسك ". وفي الحديث: لما نزلت هذه الآية قال صلى الله عليه وسلم: " أنا لا أرضى وواحد من أمتي في النار " قال بعضهم: هذه أرجى آية في القرآن. ودخل صلى الله عليه وسلم على فاطمة، وعليها ثياب من صوف وشعر، وهي تطحن وترضع ولدها، فدمعت عيناه، وقال: " يا بنتاه تعجلي مرارة الدنيا لحلاوة الآخرة " ثم تلا: {ولسوف يعطيك ربك فترضى} . واللام للقسم، وإنما لم تدخل نون التوكيد لفصل السين بين القسم والفعل.

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٢٨٣/٧

الإشارة: قال القشيري: يشير إلى القسم بضحوة نهار قلب الرسول، عند انتشار شمس روحه على بشريته، وبليل بشريته عند أحكام الطبيعة وسلوك آثار البشريه لغلبة سلطان الحقيقة، ما ودعك ربك بقطع فيض النبوة والرسالة عن ظاهرك، وما قلى بقطع فيض الولاية عن قلبك، {وللآخرة خير لك من الأولى} يعني: أحوال نهايتك أفضل وأكمل من أحوال بدايتك، لأنه صلى الله عليه وسلم لا يزال يطير بجناحي الشريعة والطريقة في جو سماء الحقيقة، ويترقى في مقامات القرب والكرامة. هـ. ويمكن الخطاب بالسورة الكريمة لخليفته من العارفين، الدعاة إلى الله. والله تعالى أعلم.

يقول الحق جل جلاله: {ألم يجدك يتيما} من أبويك {فآوى} أي: ضمك إلى جدك، ثم إلى عمك أبي طالب. روي أن أباه مات وهو جنين، قد أتت عليه ستة أشهر، وماتت أمه وهو ابن ثمان سنين، فكلفه أولا جده عبد المطلب، فلما مات جده كفله عمه أبو طالب، فأحسن تربيته، وذلك إيواؤه، وقال القشيري: ويقال: بل آواه إلى ظل كنفه، ورباه بلطف رعايته. هـ.

والحكمة في يتمه صلى الله عليه وسلم: ألا يكون عليه منة لأحد سوى كفالة الحق تعالى. وقيل: هو من قول العرب: درة يتيمة إذا لم يكن لها مثل، أي: ألم يجدك وحيدا في شرفك وفضلك، لا نظير لك فآواك إلى حضرته.

{ووجدك ضالا} ؛ غافلا عن الشرائع التي لا تهتدي إليها العقول، {فهدى} ؛ فهداك إليها، كقوله: {ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان} [الشورى: ٥٢] . وقال القشيري: أي: ضالا عن تفصيل الشرائع فهديناك إليها، وعرفناك تفصيلها. هـ. أو: ضالا عما أنت عليه اليوم من معالم النبوة، ولم يقل أحد من المفسرين: ضالا عن الإيمان. قاله عياض: وقيل: ضل في صباه في بعض شعاب مكة، فرده أبو جهل إلى عبد المطلب، وقيل: ضل مرة أخرى، وطلبوه فلم يجدوه، فطاف عبد المطلب بالكعبة سبعا، وتضرع إلى الله، فسمعوا هاتفا ينادي من السماء: يا معشر الناس، لا تضجوا، فإن لمحمد ربا لا يخذله ولا يضيعه. وأن محمدا بوادي تهامة عند شجرة السمر، فسار عبد المطلب وورقة بن نوفل، فإذا النبي صلى الله عليه وسلم قائم تحت شجرة، يلعب بالإغصان والأوراق. وقيل: أضلته مرضعته حليمة عند باب الكعبة حين فطمته، وجاءت به لترده على عبد المطلب، وقيل: ضل في طريق الشام حين خرج به أبو طالب، يروى أن إبليس أخذ بزمام ناقته في ليل ظلماء، فعدل به عن الطريق، فجاء جبريل عليه السلام، فنفخ إبليس نفخة وقع منها إلى أرض الهند، ورده إلى القافلة. وقوله تعالى: {فهدى} أي: فهداك إلى منهاج الشرائع المنطوية

في تضاعيف ما يوحى إليك من الكتاب المبين، وعلمك ما لم تكن تعلم. {ووجدك عائلا} ؛ فقيرا من حس الدنيا، {فأغنى} ؛ فأغناك به عما سواه، وزوجك خديجة، فقامت بمؤونة العيش، أو بما أفاء عليك من الغنائم، قال صلى الله عليه وسلم:

" جعل رزقي تحت ظل رمحي ". {فأما اليتيم فلا تقهر} ، قال المفسرون: أي: لا تغلبه على ماله وحقه، لأجل ضعفه، وأذكر يتمك، ولا تقهره بالمنع من مصالحه، ووجوه القهر كثيرة، والنهي يعم جميعها، أي: دم على ما أنت عليه من عدم قهر اليتيم. وقد ورد في الوصية باليتيم." (١)

"رب الدار، وشبه ذلك، فبدأ به لاشتراك معناه، وأما الملك فلا يوصف به إلا آحاد من الناس، وهم الملوك، ولا شك أنهم أعلى من سائر الناس، فلذلك جيء به بعد الرب، وأما الإله فهوأعلى من الملك، ولذلك لا يدعي الملوك أنهم آلهة، وإنما الإله واحد لا شريك له ولا نظير قاله ابن جزي.

{من شر الوسواس} أي: الموسوس، فالوسواس مصدر، كالزلزال، بمعنى اسم الفاعل، أو سمي به الشيطان مبالغة، كأنه نفس الوسوسة، و {الخناس} الذي عادته أن يخنس، أي: يتأخر عند ذكر الإنسان ربه، {الذي يوسوس في صدور الناس} إذا غفلوا عن ذكر الله، ولم يقل: في قلوب الناس؛ لأن الشيطان محله الصدور، ويمد منقاره إلى القلب، وأما القلب فهو بيت الرب، وهو محل الإيمان، فلا يتمكن منه كل التمكن، وإنما يحوم في الصدر حول القلب، فلو تمكن منه لأفسد على الناس كلهم إيمانهم.

قال ابن جزي: وسوسة الشيطان بأنواع كثيرة، منها: فساد الإيمان والتشكيك في العقائد، فإن لم يقدر على ذلك ثبطه عن الطاعات، فإن لم يقدر على ذلك أدخل الرياء في الطاعات ليحبطها، فإن سلم من ذلك أدخل عليه العجب بنفسه، واستكثار عمله، ومن ذلك: أنه يوقد في القلب نار الحسد والحقد والغضب، حتى يقود الإنسان إلى سوء الأعمال وأقبح الأحوال. وعلاج وسوسته بثلاثة أشياء، وهي: الإكثار من ذكر الله، والإكثار من الاستعاذة منه، ومن أنفع شيء في ذلك: قراءة سورة الناس. هـ. قلت: لا يقلع الوسوسة من القلب بالكلية إلا صحبة العارفين، أهل التربية، حتى يدخلوه مقام الفناء، وإلا فالخواطر لا تنقطع عن العبد.

ثم بين الموسوس بقوله: {من الجنة} أي: الجن {والناس} ووسواس النار أعظم؛ لأن وسواس الجن يذهب

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٣١٨/٧

بالتعوذ، بخلاف وسوسة الناس، والمراد بوسوسة الناس: ما يدخلون عليك من الشبه في الدين، وخوض في الباطن، أو سوء اعتقاد في الناس، أو غير ذلك.

قال ابن جزي: فإن قلت: لم ختم القرآن بالمعوذتين، وما الحكمة في ذلك؟ فالجواب من ثلاثة أوجه، الأول: قال شيخنا الأستاذ أبو جعفر بن الزبير: لما كان القرأن من أعظم نعم الله على عباده، والنعمة مظنة الحسد، ختم بما يطفيء الحسد، من الاستعاذة بالله. الثاني: يظهر لي أن المعوذتين ختم بهما لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فيهما: " أنزلت علي آيات لم ير مثلهن قط "كما قال في فاتحة الكتاب: " لم ينزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الفرقان مثلها " فافتتح القرآن بسورة لم ينزل مثلها، واختتم بسورتين." (١)

"من قبله – صلى الله عليه وسلم – هو عوض المال إذ لا يملك الزوج من الفراق غير الطلاق. فالعوض مدفوع له عما يملكه كما يدل له الحديث المذكور دلالة واضحة.

وقال بعض العلماء: تعتد المختلعة بحيضة، ويروى هذا القول عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان، وعبد الله بن عمر، والربيع بنت معوذ، وعمها، وهو صحابي وأخرجه أصحاب السنن، والطبراني مرفوعا والظاهر أن بعض أسانيده أقل درجاتها القبول، وعلى تقدير صحة الحديث بذلك فلا كلام. ولو خالف أكثر أهل العلم وقد قدمنا عدم الملازمة بين كونه فسخا، وبين الاعتداد بحيضة فالاستدلال به عليه لا يخلو من نظر، وما وجهه به بعض أهل العلم من أن العدة إنما جعلت ثلاث حيض ليطول زمن الرجعة ويتروى الزوج ويتمكن من الرجعة في مدة العدة، فإذا لم تكن عليها رجعة فالمقصود مجرد براءة رحمها من الحمل. وذلك يكفي فيه حيضة كالاستبراء لا يخلو من نظر أيضا ؛ لأن حكمة جعل العدة ثلاثة قروء ليست محصورة في تطويل زمن الرجعة، بل الغرض الأعظم منها: الاحتياط لماء المطلق حتى يغلب على الظن بتكرر الحيض ثلاث مرات، أن الرحم لم يشتمل على حمل منه. ودلالة ثلاث حيض على ذلك أبلغ من دلالة حيضة واحدة، ويوضح ذلك أن الطلقة الثالثة لا رجعة بعدها إجماعا.

فلو كانت الحكمة ما ذكر لكانت العدة من الطلقة الثالثة حيضة واحدة، وما قاله بعض العلماء من أن باب الطلاق جعل حكمه واحدا فجوابه أنه لم يجعل واحدا إلا لأن الحكمة فيه واحدة، ومما يوضح ذلك أن المطلق قبل الدخول لا عدة له على مطلقته إجماعا، بنص قوله تعالى: يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٣٧٨/٧

المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن فما لكم عليهن من عدة تعتدونها [٣٣ \ ٤٩] ، مع أنه قد يندم على الطلاق كما يندم المطلق بعد الدخول، فلو كانت الحكمة في الاعتداد بالأقراء مجرد تمكين الزوج من الرجعة، لكانت العدة في الطلاق قبل الدخول.

ولما كانت الحكمة الكبرى في الاعتداد بالأقراء هي أن يغلب على الظن براءة الرحم من ماء المطلق ؛ صيانة للأنساب، كان الطلاق قبل الدخول لا عدة فيه أصلا ؛ لأن الرحم لم يعلق بها شيء من ماء المطلق حتى تطلب براءتها منه بالعدة، كما هو واضح. فإن قيل فما وجه اعتداد المختلعة بحيضة؟ قلنا: إن كان ثابتا عن النبي – صلى الله عليه وسلم – كما أخرجه عنه أصحاب السنن والطبراني فهو تفريق من الشارع بين الفراق المبذول فيه عوض، وبين غيره في قدر العدة، ولا إشكال في ذلك. كما فرق بين الموت قبل." (١)

"قوله تعالى: قالت رب أنى يكون لي ولد ولم يمسسني بشر، أشار في هذه الآية إلى قصة حملها بعيسى وبسطها مبينة في سورة «مريم» بقوله: واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا فاتخذت من دونهم حجابا الآية [١٦ \ ١٧] . إلى آخر القصة وبين النفخ فيها في سورة «التحريم» و «الأنبياء» ، معبرا في التحريم بالنفخ في فرجها، وفي «الأنبياء» بالنفخ فيها.

قوله تعالى: فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله الآية، لم يبين هنا الحكمة في ذكر قصة الحواريين مع عيسى، ولكنه بين في سورة «الصف» أن حكمة ذكر قصتهم هي أن تتأسى بهم أمة محمد – صلى الله عليه وسلم – في نصرة الله ودينه، وذلك في قوله تعالى: يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصاري إلى الله الآية [١٤] .

قوله تعالى: ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين، لم يبين هنا مكر اليهود بعيسى، ولا مكر الله باليهود، ولكنه بين في موضع آخر أن مكرهم به محاولتهم قتله، وذلك في قوله: وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله [٤ \ ١٥٧، ١٥٨] ، وبين أن مكره بهم إلقاؤه الشبه على غير عيسى وإنجاؤه عيسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، وذلك في قوله: وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم [٤ \ ١٥٧] ،

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن الشنقيطي، محمد الأمين ١٤٧/١

وقوله: وما قتلوه يقينا بل رفعه الله إليه الآية [١٥٧ \ ١٥٨] .

قوله تعالى: إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك الآية.

قال بعض العلماء: أي منجيك ورافعك إلي في تلك النومة ويستأنس لهذا التفسير بالآيات التي جاء فيها إطلاق الوفاة على النوم، كقوله: وهو الذي يتوفاكم بالليل الآية [٦ \ ٦٠] ، وقوله: الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها [٣٩ \ ٤٢] .

قوله تعالى: يا أهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم لم يبين هنا ما وجه محاجتهم في إبراهيم، ولكنه بين في موضع آخر أن محاجتهم في إبراهيم هي قول اليهود: إنه يهودي، والنصارى: إنه نصراني، وذلك في قوله: أم تقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هودا أو نصارى قل أأنتم أعلم أم الله [٢ \ ١٤٠] ،." (١)

"وقال بعض العلماء: عبر عنهن بـ (ما) إشارة إلى نقصانهن وشبههن بما لا يعقل حيث يؤخذ بالعوض، والله تعالى أعلم.

قوله تعالى: للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه أو كثر نصيبا مفروضا، لم يبين هنا قدر هذا النصيب الذي هو للرجال والنساء مما ترك الوالدان والأقربون، ولكنه بينه في آيات المواريث كقوله: يوصيكم الله في أولادكم الآيتين [٤ \ ١١] ، وقوله في خاتمة هذه السورة الكريمة: يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة الآية [٤ \ ١٧٦] .

قوله تعالى: يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين، لم يبين هنا حكمة تفضيل الذكر على الأنثى في الميراث مع أنهما سواء في القرابة، ولكنه أشار إلى ذلك في موضع آخر وهو قوله تعالى: الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم [٤] ؛ لأن القائم على غيره المنفق ماله عليه مترقب للنقص دائما، والمقوم عليه المنفق عليه المال مترقب للزيادة دائما، **والحكمة في**

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن الشنقيطي، محمد الأمين ٢٠١/١

إيثار مترقب النقص على مترقب الزيادة جبر لنقصة المترقبة ظاهرة جدا.

قوله تعالى: فإن كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك وإن كانت واحدة فلها النصف الآية، صرح تعالى في هذه الآية الكريمة بأن البنات إن كن ثلاثا فصاعدا، فلهن الثلثان وقوله: فوق اثنتين يوهم أن الاثنتين ليستا كذلك، وصرح بأن الواحدة لها النصف، ويفهم منه أن الاثنتين ليستا كذلك أيضا، وعليه ففي دلالة الآية على قدر ميراث البنتين إجمال.

وقد أشار تعالى في موضعين إلى أن هذا الظرف لا مفهوم مخالفة له، وأن للبنتين الثلثين أيضا:

الأول قوله تعالى: للذكر مثل حظ الأنثيين، إذ الذكر يرث مع الواحدة الثلثين بلا نزاع، فلا بد أن يكون للبنتين الثلثان في صورة، وإلا لم يكن للذكر مثل حظ الأنثيين ؛ لأن الثلثين ليسا بحظ لهما أصلا، لكن تلك الصورة ليست صورة الاجتماع، إذ ما من صورة يجتمع فيها الابنتان مع الذكر ويكون لهما الثلثان، فتعين أن تكون صورة انفرادهما عن الذكر. واعتراض بعضهم هذا الاستدلال بلزوم الدور قائلا: إن معرفة أن للذكر الثلثين في الصورة المذكورة تتوقف على معرفة حظ الأنثيين ؛ لأنه ما علم من." (١)

"معناه على كلتا القراءتين قراءته بالبناة للفاعل والمفعول، خلافا لما اختاره ابن جرير من أن معنى قراءة أحصن بفتح الهمزة والصاد مبنيا للفاعل أسلمن، وأن معنى أحصن بضم الهمزة وكسر الصاد مبنيا للمفعول زوجن، وعليه فيفهم من مفهوم الشرط في قوله: فإذا أحصن [٤ \ ٢٥] أن الأمة التي لم تتزوج لا حد عليها إذا زنت ؛ لأنه تعالى علق حدها في الآية بالإحصان، وتمسك بمفهوم هذه الآية ابن عباس، وطاوس، وعطاء، وابن جريج، وسعيد بن جبير، وأبو عبيد القاسم بن سلام، وداود بن علي في رواية فقالوا: لا حد على مملوكة حتى تتزوج، والجواب عن هذا – والله أعلم – أن مفهوم هذه الآية فيه إجمال وقد بينته السنة الصحيحة، وإيضاحه أن تعليق جلد الخمسين المذكور في الآية على إحصان الأمة، يفهم منه أن الأمة التي لم تحصن ليست كذلك فقط، فيحتمل أنها لا تجلد، ويحتمل أنها تجلد أكثر من ذلك أو أقل أو ترجم إلى غير ذلك من المحتملات، ولكن السنة الصحيحة دلت على أن غير المحصنة من الإماء كذلك، لا فرق بينها وبين المحصنة، **والحكمة في** التعبير بخصوص المحصنة دفع توهم أنها ترجم كالحرة، فقد أخرج الشيخان في «صحيحيهما» عن أبي هريرة، وزيد بن خالد الجهني – رضي الله عنهما – قالا: سئل النبي – صلى الله عليه وسلم – عن الأمة إذا زنت، ولم تحصن قال: «إن زنت فاجلدوها، ثم

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن الشنقيطي، محمد الأمين ٢٢٤/١

إن زنت فاجلدوها، ثم إن زنت فاجلدوها ثم بيعوها ولو بضفير» .
قال ابن شهاب: لا أدري أبعد الثالثة، أو الرابعة، وحمل الجلد في الحديث على التأديب غير ظاهر، لا سيما وفي بعض الروايات التصريح بالحد، فمفهوم هذه الآية هو بعينه الذي سئل عنه النبي – صلى الله عليه وسلم – وأجاب فيه بالأمر بالجلد في هذا الحديث المتفق عليه، والظاهر أن السائل ما سأله إلا لأنه أشكل عليه مفهوم هذه الآية فالحديث نص في محل النزاع، ولو كان جلد غير المحصنة أكثر أو أقل من جلد المحصنة لبينه صلى الله عليه وسلم.
وبهذا تعلم أن الأقوال المخالفة لهذا لا يعول عليها، كقول ابن عباس ومن وافقه المتقدم آنفا، وكالقول بأن غير المحصنة تجلد مائة، وهو المشهور عن داود بن علي الظاهري، ولا يخفى بعده وكالقول بأن الأمة المحصنة ترجم وغير المحصنة تجلد خمسين، وهو قول أبي ثور، ولا يخفى شدة بعده والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: واللاتي تخافون نشوزهن الآية، ذكر في هذه الآية الكريمة أن النشوز قد يحصل من النساء، ولم يبين هل يحصل من الرجال نشوز أو لا؟ ولكنه بين في موضع آخر." (١)
"واختاره ابن كثير، وهو قول الزركشي من أن الأمر بعد الحظر يدل على رجوع الحكم إلى ما كان عليه قبل التحريم، عرفت أن ذلك هو الحق، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا الآية، نهى الله المسلمين في هذه الآية الكريمة أن يحملهم بغض الكفار لأجل أن صدوهم عن المسجد الحرام في عمرة الحديبية أن يعتدوا على المشركين بما لا يحل لهم شرعا.
كما روى ابن أبي حاتم في سبب نزول هذه الآية عن زيد بن أسلم، قال: «كان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وأصحابه بالحديبية حين صدهم المشركون عن البيت، وقد اشتد ذلك عليهم، فمر بهم أناس من المشركين من أهل المشرق يريدون العمرة، فقال أصحاب النبي – صلى الله عليه وسلم –: نصد هؤلاء كما صدنا أصحابهم، فأنزل الله هذه الآية» ، اهـ. بلفظه من ابن كثير.

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن الشنقيطي، محمد الأمين ١/٢٤٠

ويدل لهذا قوله قبل هذا: ولا آمين البيت الحرام [٥ \ ٢] ، وصرح بمثل هذه الآية في قوله: ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا الآية [٥ \ ٨] ، وقد ذكر تعالى في هذه الآية أنهم صدوهم عن المسجد الحرام بالفعل على قراءة الجمهور: أن صدوكم، بفتح الهمزة ؛ لأن معناها: لأجل أن صدوكم، ولم يبين هنا حكمة هذا الصد، ولم يذكر أنهم صدوا معهم الهدي معكوفا أن يبلغ محله، وذكر في سورة الفتح أنهم صدوا معهم الهدي، وأن الحكمة في ذلك المحافظة على المؤمنين والمؤمنات، الذين لم يتميزوا عن الكفار في ذلك الوقت، بقوله: هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام والهدي معكوفا أن يبلغ محله ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطئوهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم ليدخل الله في رحمته من يشاء لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذابا أليما [٤٨ \ ٢٥] ؛ وفي هذه الآية دليل صريح على أن الإنسان عليه أن يعامل من عصى الله فيه، بأن يطيع الله فيه.

وفي الحديث: «أد الأمانة إلى من ائتمنك، ولا تخن من خانك» .

وهذا دليل واضح على كمال دين الإسلام، وحسن ما يدعو إليه من مكارم الأخلاق، مبين أنه دين سماوي لا شك فيه.." (١)

"نفسه بأنه ينبئ، ووصف المخلوق بذلك، وجمع المثالين في قوله تعالى: وإذ أسر النبي إلى بعض أزواجه حديثا فلما نبأت به وأظهره الله عليه عرف بعضه وأعرض عن بعض فلما نبأها به قالت من أنبأك هذا قال نبأني العليم الخبير [٦٦ \ ٣] ، ووصف نفسه بالإيتاء، فقال: ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك [٢ \ ٢٥٨] ، وقال: يؤتي الحكمة من يشاء [٢ \ ٢٦٩] ، وقال: ويؤت كل ذي فضل فضله [١١ \ ٣] ، وقال: ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء [٥٧ \ ٢١] .

وقال في وصف الحادث بذلك: وآتيتم إحداهن قنطارا [٤ \ ٢٠] ، وآتوا اليتامى أموالهم [٤ \ ٢] ، وآتوا النساء صدقاتهن نحلة [٤ \ ٤] ، وأمثال هذا كثيرة جدا في القرآن العظيم.

ومعلوم أن ما وصف به الله من هذه الأفعال فهو ثابت له حقيقة على الوجه اللائق بكماله وجلاله ؛ وما وصف به المخلوق منها فهو ثابت له أيضا، على الوجه المناسب لحاله، وبين وصف الخالق والمخلوق من المنافاة ما بين ذات الخالق والمخلوق.

وأما الصفات الجامعة، كالعظم والكبر والعلو، والملك والتكبر والجبروت، ونحو ذلك. فإنها أيضا يكثر

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن الشنقيطي، محمد الأمين ١/٣٢٨

جدا وصف الخالق والمخلوق بها في القرآن الكريم.
ومعلوم أن ما وصف به الخالق منها مناف لما وصف به المخلوق، كمنافاة ذات الخالق لذات المخلوق.
قال في وصف نفسه جل وعلا بالعلو والعظم والكبر: ولا يئوده حفظهما وهو العلي العظيم [٢ \ ٢٥٥] ، إن الله كان عليا كبيرا [٤ \ ٣٤] ، عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال [١٣ \ ٩] .
وقال في وصف الحادث بالعظم: فكان كل فرق كالطود العظيم [٢٦ \ ٦٣] ، إنكم لتقولون قولا عظيما [١٧ \ ٤٠] ، ولها عرش عظيم [٢٧ \ ٢٣] ، عليه توكلت وهو رب العرش العظيم [٩ \ ١٢٩] إلى غير ذلك من الآيات.
وقال في وصف الحادث بالكبر: لهم مغفرة وأجر كبير]٦٧ \ ١٢] ، وقال: إن قتلهم كان خطئا كبيرا [١٧ \ ٣١] ، وقال: إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير [٨ \ ٧٣] ، وقال: وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله [٢ \ ١٤٣] ، وقال: وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين [٢ \ ٤٥] .." (١)
"أنفسهم فأهلكته الآية [٣ \ ١١٧] ، وقوله: يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذي ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلدا لا يقدرون على شيء مما كسبوا والله لا يهدي القوم الكافرين [٢ \ ٢٦٤] ، وقوله: وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا [٢٥ \ ٢٣] ، إلى غير ذلك من الآيات.
وبين في موضع آخر أن الحكمة في ضربه للأمثال أن يتفكر الناس فيها فيفهموا الشيء بنظرة، وهو قوله: وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون [٥٩ \ ٢١] ، ونظيره قوله: ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون [١٤ \ ٢٥] ، وبين في موضع آخر أن الأمثال لا يعقلها إلا أهل العلم، وهو قوله تعالى: وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون [٢٩ \ ٤٣] ، وبين في موضع آخر أن المثل المضروب يجعله الله سبب هداية لقوم فهموه، وسبب ضلال لقوم لم يفهموا حكمته، وهو قوله: فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا يضل به كثيرا ويهدي به كثيرا وما يضل به إلا الفاسقين [٢ \ ٢٦] ، وبين في موضع آخر أنه تعالى لا يستحيي أن يضرب مثلا ما ولو كان المثل المضروب بعوضة فما فوقها، قيل: فما هو أصغر منها ؛ لأنه يفوقها في الصغر، وقيل: فما فوقها أي فما هو أكبر منها، وهو قوله: إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها [٢

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن الشنقيطي، محمد الأمين ٢٥/٢

\ ٢٦] ، ولذلك ضرب المثل بالعنكبوت في قوله: مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون [٢٩ \ ٤١] ، وضربه بالحمار في قوله: كمثل الحمار يحمل أسفارا الآية [٦٢ \ ٥] ، وضربه بالكلب في قوله: ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث [٧ \ ١٧٦] ، إلى غير ذلك، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: فقال الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء. هذه المحاجة التي ذكرها الله هنا عن الكفار بينها في مواضع أخر، كقوله: وإذ يتحاجون في النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا نصيبا من النار قال الذين استكبروا إنا كل فيها إن الله قد حكم بين العباد [٤٠ \ ٤٧، ٤٨] ، كما تقدم إيضاحه.." (١)

"بالبينات والزبر [١٦ \ ٤٤] ، قيل: تتعلق ب " ما أرسلنا " داخلا تحت حكم الاستثناء مع " رجالا "، أي: وما أرسلنا إلا رجالا بالبينات، كقولك: ما ضربت إلا زيدا بالسوط ؛ لأن أصله ضربت زيدا بالسوط. وقيل: تتعلق بقوله: " رجالا " صفة له، أي: رجالا متلبسين بالبينات. وقيل: تتعلق ب " أرسلنا " مضمرا دل عليه ما قبله. كأنه قيل: بم أرسلوا؟ قيل: بالبينات. وقيل: تتعلق ب " نوحي "، أي: نوحي إليهم بالبينات ؛ قاله صاحب الكشاف. والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون، المراد بالذكر في هذه الآية: القرآن ؛ كقوله: إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون [١٥ \ ٩] .
وقد ذكر - جل وعلا - في هذه الآية حكمتين من حكم إنزال القرآن على النبي - صلى الله عليه وسلم :-
إحداهما: أن يبين للناس ما نزل إليهم في هذا الكتاب من الأوامر والنواهي، والوعد والوعيد، ونحو ذلك. وقد بين هذه الحكمة في غير هذا الموضع أيضا ؛ كقوله: وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه [١٦ \ ٦٤] ، وقوله إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس الآية [٤ \ ١٠٥] .

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن الشنقيطي، محمد الأمين ٢/٢٤٦

الحكمة الثانية: هي التفكر في آياته والاتعاظ بها ؛ كما قال هنا: ولعلهم يتفكرون [١٦ \ ٤٤] ، وقد بين هذه الحكمة في غير هذا الموضع أيضا ؛ كقوله: كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب [٣٨ \ ٢٩] ، وقوله: أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا [٤ \ ٨٢] ، وقوله: أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها [٤٧ \ ٢٤] ، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: أفأمن الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون.

أنكر الله – جل وعلا – على الذين يعملون السيئات من الكفر والمعاصي، ومع ذلك يأمنون عذاب الله ولا يخافون أخذه الأليم، وبطشه الشديد، وهو قادر على أن يخسف بهم الأرض، ويهلكهم بأنواع العذاب. والخسف: بلع الأرض المخسوف به وقعودها به إلى أسفل ؛ كما فعل الله بقارون، قال الله تعالى فيه: فخسفنا به وبداره الأرض الآية [٢٨ \ ٨١] ، وبين هذا المعنى في مواضع كثيرة ؛ كقوله: أأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور أم أمنتم من في." (١)

"الآية [٨ \ ٦٦] ، وكنسخ قوله تعالى: وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله [٢ \ ٢٨٤] ، بقوله: لا يكلف الله نفسا إلا وسعها [٢ \ ٢٨٦] ، فإنه نسخ للأثقل بالأخف كما هو ظاهر. وكنسخ اعتداد المتوفى عنها بحول، المنصوص عليه في قوله: والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا وصية لأزواجهم متاعا إلى الحول الآية [٢ \ ٢٤٠] ، بأخف منه وهو الاعتداد بأربعة أشهر وعشر، المنصوص عليه في قوله: والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا [٢ \ ٢٣٤] .

تنبيه.

اعلم: أن في قوله – جل وعلا –: نأت بخير منها أو مثلها [٢ \ ١٠٦] إشكالا من جهتين:

الأولى: أن يقال: إما أن يكون الأثقل خيرا من الأخف ؛ لأنه أكثر أجرا، أو الأخف خيرا من الأثقل ؛ لأنه أسهل منه، وأقرب إلى القدرة على الامتثال. وكون الأثقل خيرا يقتضي منع نسخه بالأخف، كما أن كون الأخف خيرا يقتضي منع نسخه بالأثقل ؛ لأن الله صرح بأنه يأتي بما هو خير من المنسوخ أو مماثل له، لا ما هو دونه. وقد عرفت: أن الواقع جواز نسخ كل منهما بالآخر.

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن الشنقيطي، محمد الأمين 2/٣٨٠

الجهة الثانية: من جهتي الإشكال في قوله أو مثلها [٢ \ ١٠٦] ؛ رأنه يقال: ما الحكمة في نسخ المثل ليبدل منه مثله؟ وأي مزية للمثل على المثل حتى ينسخ ويبدل منه؟ .

والجواب عن الإشكال الأول: هو أن الخيرية تارة تكون في الأثقل لكثرة الأجر، وذلك فيما إذا كان الأجر كثيرا جدا والامتثال غير شديد الصعوبة، كنسخ التخيير بين الإطعام والصوم بإيجاب الصوم ؛ فإن في الصوم أجرا كثيرا كما في الحديث القدسي: " إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به "، والصائمون من خيار الصابرين ؛ لأنهم صبروا لله عن شهوة بطونهم وفروجهم ؛ والله يقول: إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب [٣٩ \ ١٠] ، ومشقة الصوم عادية ليس فيها صعوبة شديدة تكون مظنة لعدم القدرة على الامتثال، وإن عرض ما يقتضي ذلك كمرض أو سفر ؛ فالتسهيل برخصة الإفطار منصوص بقوله: " فمن كان منكم مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر [٢ \ ١٨٤] ، وتارة تكون الخيرية في الأخف، وذلك فيما إذا كان الأثقل المنسوخ شديد الصعوبة بحيث يعسر فيه الامتثال ؛ فإن الأخف يكون خيرا منه ؛ لأن مظنة عدم الامتثال تعرض المكلف للوقوع فيما." (١)

"اضطر غير باغ ولا عاد فإن ربك غفور رحيم [٦ \ ١٤٥] الآية.

يدل بدلالة المطابقة دلالة صريحة على إباحة لحوم الحمر الأهلية ؛ لصراحة الحصر بالنفي والإثبات في الآية في ذلك. فإذا صرح النبي – صلى الله عليه وسلم – بعد ذلك يوم خيبر في حديث صحيح: «بأن لحوم الحمر الأهلية غير مباحة» ، فلا معارضة البتة بين ذلك الحديث الصحيح وبين تلك الآية النازلة قبله بسنين ؛ لأن الحديث دل على تحريم جديد، والآية ما نفت تجدد شيء في المستقبل كما هو واضح. فالتحقيق – إن شاء الله – هو جواز نسخ المتواتر بالآحاد الصحيحة الثابت تأخرها عنه، وإن خالف فيه جمهور الأصوليين، ودرج على خلافه وفاقا للجمهور صاحب المراقي بقوله: والنسخ بالآحاد للكتاب ليس بواقع على الصواب.

ومن هنا تعلم: أنه لا دليل على بطلان قول من قال: إن الوصية للوالدين والأقربين منسوخة بحديث: «لا وصية لوارث» ، والعلم عند الله تعالى.

المسألة السابعة: اعلم أن التحقيق هو جواز النسخ قبل التمكن من الفعل، فإن قيل: ما الفائدة في تشريع

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن الشنقيطي، محمد الأمين ٤٤٩/٢

الحكم أولا إذا كان سينسخ قبل التمكن من فعله؟ .
فالجواب: أن الحكمة ابتلاء المكلفين بالعزم على الامتثال. ويوضح هذا: أن الله أمر إبراهيم أن يذبح ولده، وقد نسخ عنه هذا الحكم بفدائه بذبح عظيم قبل أن يتمكن من الفعل. وبين أن **الحكمة في** ذلك: الابتلاء بقوله: إن هذا لهو البلاء المبين وفديناه بذبح عظيم [٣٧ \ ١٠٦، ١٠٧] ، ومن أمثلة النسخ قبل التمكن من الفعل: نسخ خمس وأربعين صلاة ليلة الإسراء، بعد أن فرضت الصلاة خمسين صلاة، كما هو معروف. وقد أشار إلى هذه المسألة في مراقي السعود بقوله:
والنسخ من قبل وقوع الفعل ... جاء وقوعا في صحيح النقل

المسألة الثامنة: اعلم أن التحقيق: أنه ما كل زيادة على النص تكون نسخا، وإن خالف في ذلك الإمام أبو حنيفة – رحمه الله –، بل الزيادة على النص قسمان: قسم مخالف النص المذكور قبله، وهذه الزيادة تكون نسخا على التحقيق ؛ كزيادة تحريم الحمر الأهلية، وكل ذي ناب من السباع مثلا، على المحرمات الأربعة المذكورة في آية: قل لا أجد في ما أوحي إلي محرما على طاعم يطعمه الآية [٦ \ ١٤٥] ؛ لأن الحمر الأهلية ونحوها لم يسكت عن حكمه في الآية، بل مقتضى الحصر بالنفي والإثبات." (١)
"تحملت رذيلة السرقة وإطلاق اسم السرقة عليها في شيء حقير كثمن المجن والأترجة، كان من المناسب المعقول أن تؤخذ في ذلك الشيء القليل، الذي تحملت فيه هذه الرذيلة الكبرى.
وقال الفخر الرازي في تفسير هذه الآية الكريمة: ثم إنا أجبنا عن هذا الطعن، بأن الشرع إنما قطع يده بسبب أنه تحمل الدناءة والخساسة في سرقة ذلك القدر القليل. فلا يبعد أن يعاقبه الشرع بسبب تلك الدناءة هذه العقوبة العظيمة اه.
فانظر ما يدعو إليه القرآن من مكارم الأخلاق، والتنزه عما لا يليق، وقطع يد السارق في ربع دينار فصاعدا يدل على أن التشريع السماوي يضع درجة الخائن من خمسمائة درجة إلى ربع درجة، فانظر هذا الحط العظيم لدرجته بسبب ارتكاب الرذائل.
وقد استشكل بعض الناس قطع يد السارق في السرقة خاصة دون غيرها من الجنايات على الأموال، كالغصب، والانتهاب، ونحو ذلك.

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن الشنقيطي، محمد الأمين ٥٢٤/٢

قال المازري ومن تبعه: صان الله الأموال بإيجاب قطع سارقها، وخص السرقة لقلة ما عداها بالنسبة إليها، من الانتهاب والغصب، ولسهولة إقامة البينة على ما عدا السرقة بخلافها، وشدد العقوبة فيها ليكون أبلغ في الزجر، ولم يجعل دية الجناية على العضو المقطوع منها بقدر ما يقطع فيه حماية لليد، ثم لما خانت هانت، وفي ذلك إثارة إلى الشبهة التي نسبت إلى أبي العلاء المعري في قوله:

يد بخمس مئين عسجد وديت ... ما بالها قطعت في ربع دينار

فأجابه القاضي عبد الوهاب المالكي بقوله:

صيانة العضو أغلاها وأرخصها ... حماية المال فافهم حكمة الباري

وشرح ذلك: أن الدية لو كانت ربع دينار لكثرت الجنايات على الأيدي، ولو كان نصاب القطع خمسمائة دينار لكثرت الجنايات على الأموال، فظهرت الحكمة في الجانبين، وكان في ذلك صيانة من الطرفين. وقد عسر فهم المعنى المقدم ذكره في الفرق بين السرقة وبين النهب ونحوه على بعض منكري القياس، فقال: القطع في السرقة دون الغصب وغيره غير معقول المعنى ؛ فإن الغصب أكثر هتكا للحرمة من السرقة، فدل على عدم اعتبار القياس، لأنه إذا لم يعمل به في الأعلى فلا يعمل به في المساوي.." (١)

"إلى التخلي عن دين الإسلام، ورفض الرابطة السماوية رفضا باتا، على الله أن يعتاص من ذلك روابط عصبية قومية، مدارها على أن هذا من العرب، وهذا منهم أيضا مثلا. فالعروبة لا يمكن أن تكون خلفا من الإسلام، واستبدالها به صفقة خاسرة، فهي كما قال الراجز:

بدلت بالجمة رأسا أزعرا ... وبالثنايا الواضحات الدردرا

كما اشترى المسلم إذ تنصرا

وقد علم في التاريخ حال العرب قبل الإسلام وحالهم بعده كما لا يخفى.

وقد بين الله جل وعلا في محكم كتابه: أن الحكمة في جعله بني آدم شعوبا وقبائل هي التعارف فيما بينهم، وليست هي أن يتعصب كل شعب على غيره، وكل قبيلة على غيرها، قال جل وعلا: يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم [٤٩ \ ١٣] ، فاللام في قوله: لتعارفوا لام التعليل، والأصل لتتعارفوا، وقد حذفت إحدى التاءين ؛ فالتعارف هو العلة المشتملة على الحكمة لقوله: وجعلناكم شعوبا وقبائل [٤٩ \ ١٣] ، ونحن حين نصرح بمنع النداء

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن الشنقيطي، محمد الأمين ٣/٣٥

بالروابط العصبية والأواصر النسبية، ونقيم الأدلة على منع ذلك، لا ننكر أن المسلم ربما انتفع بروابط نسبية لا تمت إلى الإسلام بصلة، كما نفع الله نبيه صلى الله عليه وسلم بعمه أبي طالب، وقد بين الله جل وعلا أن عطف ذلك العم الكافر على نبيه صلى الله عليه وسلم من منن الله عليه، قال تعالى: ألم يجدك يتيما فآوى [٩٣ \ ٦] ، أي آواك بأن ضمك إلى عمك أبي طالب.

ومن آثار هذه العصبية النسبية قول أبي طالب فيه صلى الله عليه وسلم:

والله لن يصلوا إليك بجمعهم ... حتى أوسد في التراب دفينا

كما قدمنا في سورة هود.

وقد نفع الله بتلك العصبية النسبية شعيبا عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، كما قال تعالى عن قومه: قالوا ياشعيب ما نفقه كثيرا مما تقول وإنا لنراك فينا ضعيفا ولولا رهطك لرجمناك [١١ \ ٩١] .

وقد نفع الله بها نبيه صالحا أيضا عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ؛ كما أشار تعالى لذلك بقوله: قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون [٢٧ \ ٤٩] ، فقد دلت الآية على أنهم يخافون من أولياء صالح." (١)

"الليل والنهار يعلمون عدد الأيام والشهور والأعوام، ويعرفون بذلك يوم الجمعة ليصلوا فيه صلاة الجمعة، ويعرفون شهر الصوم، وأشهر الحج، ويعلمون مضي أشهر العدة لمن تعتد بالأشهر المشار إليها في قوله: واللائي يئسن من المحيض من نسائكم إن ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر واللائي لم يحضن [٦٥ \ ٤] ، وقوله: والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا [٢ \ ٢٣٤] . ويعرفون مضي الآجال المضروبة للديون والإجارات ونحو ذلك.

وبين جل وعلا هذه الحكمة في مواضع أخر، كقوله: هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون [١٠ \ ٥] . وقوله جل وعلا: يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج [٢ \ ١٨٩] ، إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله جل وعلا في هذه الآية الكريمة: فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة [١٧ \ ١٢] فيه وجهان من التفسير للعلماء:

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن الشنقيطي، محمد الأمين ٣/٤٥

أحدهما: أن الكلام على حذف مضاف، والتقدير: وجعلنا نيري الليل والنهار، أي الشمس والقمر آيتين. وعلى هذا القول، فآية الليل هي القمر، وآية النهار هي الشمس، والمحو: الطمس. وعلى هذا القول: فمحو آية الليل قيل معناه السواد الذي في القمر، وبهذا قال علي رضي الله عنه، ومجاهد، وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وقيل: معنى فمحونا آية الليل [١٧ \ ١٢] ، أي لم نجعل في القمر شعاعا كشعاع الشمس ترى به الأشياء رؤية بينة، فنقص نور القمر عن نور الشمس هو معنى الطمس على هذا القول.

وهذا أظهر عندي لمقابلته تعالى له بقوله: وجعلنا آية النهار مبصرة [١٧ \ ١٢] ، والقول بأن معنى محو آية الليل: السواد الذي في القمر ليس بظاهر عندي وإن قال به بعض الصحابة الكرام، وبعض أجلاء أهل العلم.

وقوله: وجعلنا آية النهار على التفسير المذكور ؛ أي الشمس مبصرة، أي: ذات شعاع يبصر في ضوئها كل شيء على حقيقته.

قال الكسائي: هو من قول العرب: أبصر النهار: إذا أضاء وصار بحالة يبصر." (١)

"النبات والأشجار. اهـ.

وهذا المعنى المشار إليه هنا جاء مبينا في مواضع أخر، كقوله: إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون [١٠ \ ٢٤] ، وكقوله تعالى: واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدرا [١٨ \ ٧] إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله في هذه الآية الكريمة: لنبلوهم أيهم أحسن عملا [١٨ \ ٤٥] أي لنختبرهم على ألسنة رسلنا.

وهذه الحكمة التي ذكرها هنا لجعل ما على الأرض زينة لها (وهي الابتلاء في إحسان العمل) بين في مواضع أخر أنها هي الحكمة في خلق الموت والحياة والسموات والأرض، قال تعالى: تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن الشنقيطي، محمد الأمين ٥٧/٣

[٦٧ \ ١ - ٢] ، وقال تعالى: وهو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملا [١١ \ ٧] .

وقد بين صلى الله عليه وسلم الإحسان بقوله: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك» كما تقدم.

وهذا الذي أوضحنا من أنه جل وعلا جعل ما على الأرض زينة لها ليبتلي خلقه، ثم يهلك ما عليها ويجعله صعيدا جرزا - فيه أكبر واعظ للناس، وأعظم زاجر عن اتباع الهوى، وإيثار الفاني على الباقي، ولذا قال صلى الله عليه وسلم: «إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها فناظر ماذا تعملون، فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء» .

قوله تعالى: أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا.

أم [١٨ \ ٩] ، في هذه الآية الكريمة هي المنقطعة عن التحقيق، ومعناها عند الجمهور «بل والهمزة» وعند بعض العلماء بمعنى «بل» فقط، فعلى القول الأول فالمعنى: بل." (١)

"في مهمه قلقت به هامتها ... قلق الفئوس إذا أردن نضولا

فقوله: إذا أردن نضولا، أي قاربنه. وقول الآخر:

يريد الرمح صدر أبي براء ... ويعدل عن دماء بني عقيل

أي: يميل إلى صدر أبي براء، وكقول راعي نمير:

إن دهرا يلف شملي بجمل ... لزمان يهم بالإحسان

فقوله " لزمان يهم بالإحسان فيه، وقد بينا في رسالتنا المسماة) منع جواز المجاز في المنزل للتعبد والإعجاز (أن جميع الآيات التي يزعمون أنها مجاز أن ذلك لا يتعين في شيء منها، وبينا أدلة ذلك، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا

، ظاهر هذه الآية الكريمة أن ذلك الملك يأخذ كل سفينة، صحيحة كانت أو معيبة، ولكنه يفهم من آية

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن الشنقيطي، محمد الأمين ٢٠٤/٣

أخرى أنه لا يأخذ المعيبة، وهي قوله: فأردت أن أعيبها [١٨ \ ٧٩] ، أي: لئلا يأخذها، وذلك هو الحكمة في خرقه لها المذكور في قوله: حتى إذا ركبا في السفينة خرقها [١٨ \ ٧١] ، ثم بين أن قصده بخرقها سلامتها لأهلها من أخذ ذلك الملك الغاصب ؛ لأن عيبها يزهده فيها ؛ ولأجل ما ذكرنا كانت هذه الآية الكريمة مثالا عند علماء العربية لحذف النعت، أي: وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة صحيحة غير معيبة بدليل ما ذكرنا.

وقد قدمنا الشواهد العربية على ذلك في سورة «بني إسرائيل» في الكلام على قوله تعالى: وإن من قرية إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة أو معذبوها عذابا شديدا الآية [١٧ \ ٥٨] ، واسم ذلك الملك: هدد بن بدر: وقوله «وراءهم» أي: أمامهم كما تقدم في سورة «إبراهيم» .

قوله تعالى: حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب في عين حمئة

، قرأه نافع وابن كثير وأبو عمرو وحفص عن عاصم «حمئة» بلا ألف بعد الحاء، وبهمزة مفتوحة بعد الميم المكسورة، وقرأه ابن عامر وحمزة والكسائي وشعبة عن عاصم «حامية» بألف بعد الحاء، وياء مفتوحة بعد الميم المكسورة على صيغة اسم الفاعل، فعلى القراءة الأولى فمعنى «حمئة» : ذات حمأة وهي الطين الأسود، ويدل لهذا التفسير قوله تعالى: ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمإ مسنون [١٥ \ ٢٦] ،." (١)

"[٢١ \ ٣٨] فهذا يدل على أن المراد بالعجل هو العجلة التي هي خلاف التأني، والتثبت. والعرب تقول: خلق من كذا. يعنون بذلك المبالغة في الإنصاف. كقولهم: خلق فلان من كرم، وخلقت فلانة من الجمال. ومن هذا المعنى قوله تعالى: الله الذي خلقكم من ضعف [٣٠ \ ٥٤] على الأظهر. ويوضح هذا المعنى قوله تعالى: ويدع الإنسان بالشر دعاءه بالخير وكان الإنسان عجولا [١٧ \ ١١] أي: ومن عجلته دعاؤه على نفسه أو ولده بالشر. قال بعض العلماء: كانوا يستعجلون عذاب الله وآياته الملجئة إلى العلم والإقرار، ويقولون: متى هذا الوعد. فنزل قوله: خلق الإنسان من عجل للزجر عن ذلك. كأنه يقول لهم: ليس ببدع منكم أن تستعجلوا، فإنكم مجبولون على ذلك، وهو طبعكم وسجيتكم. ثم وعدهم بأنه سيريهم آياته، ونهاهم أن يستعجلوا بقوله: سأريكم آياتي فلا تستعجلون [٢١ \ ٣٧] كما قال تعالى:

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن الشنقيطي، محمد الأمين ٣/٣٤٠

سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق [٤١ \ ٥٣] وقال بعض أهل العلم: المراد بالإنسان في قوله: خلق الإنسان من عجل آدم. وعن سعيد بن جبير، والسدي: لما دخل الروح في عيني آدم نظر في ثمار الجنة، فلما دخل جوفه اشتهى الطعام، فوثب من قبل أن تبلغ الروح رجليه؛ عجلان إلى ثمار الجنة، فذلك قوله: خلق الإنسان من عجل. وعن مجاهد، والكلبي، وغيرهما: خلق آدم يوم الجمعة في آخر النهار، فلما أحيا الله رأسه استعجل وطلب تتميم نفخ الروح فيه قبل غروب الشمس.

والظاهر أن هذه الأقوال ونحوها من الإسرائيليات. وأظهر الأقوال أن معنى الآية أن جنس الإنسان من طبعه العجل وعدم التأني كما بينا، والعلم عند الله تعالى.

وقال ابن كثير في تفسير هذه الآية الكريمة: **والحكمة في** ذكر عجلة الإنسان هاهنا أنه لما ذكر المستهزئين بالرسول - صلى الله عليه وسلم - وقع في النفوس سرعة الانتقام منهم، واستعجلت ذلك فقال الله تعالى: خلق الإنسان من عجل لأنه تعالى يملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته، يؤجل ثم يعجل، وينظر ثم لا يؤخر. ولهذا قال: سأريكم آياتي أي: نقمي وحكمي، واقتداري على من عصاني فلا تستعجلون. انتهى منه.

قوله تعالى: لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ولا هم ينصرون.

جواب «لو» في هذه الآية محذوف، وقد قدمنا أدلة ذلك وشواهده من العربية." (١)

"فأمرهم النبي صلى الله عليه وسلم أن يرملوا الأشواط الثلاثة، وأن يمشوا ما بين الركنين، ولم يمنعه أن يأمرهم أن يرملوا الأشواط كلها إلا الإبقاء عليهم. ثم قال البخاري رحمه الله: حدثنا أصبغ بن الفرج، أخبرني ابن وهب، عن يونس، عن ابن شهاب، عن سالم، عن أبيه رضي الله عنه قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم حين يقدم مكة إذا استلم الركن الأسود، أول ما يطوف يخب ثلاثة أطواف من السبع. ثم قال البخاري رحمه الله: حدثني محمد، حدثنا سريج بن النعمان، حدثنا فليح، عن نافع، عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: سعى النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثة أشواط، ومشى أربعة في الحج والعمرة، تابعه الليث. قال: حدثني كثير بن فرقد، عن نافع، عن ابن عمر رضي الله عنهما، عن النبي صلى الله عليه وسلم.

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن الشنقيطي، محمد الأمين ٤/١٥٠

حدثنا سعيد بن أبي مريم، أخبرنا محمد بن جعفر، قال: أخبرني زيد بن أسلم: أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال للركن: أما والله إني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت النبي صلى الله عليه وسلم استلمك ما استلمتك، فاستلمه، ثم قال: فما لنا وللرمل إنما كنا رأينا المشركين، وقد أهلكهم الله ثم قال شيء صنعه النبي صلى الله عليه وسلم، فلا نحب أن نتركه. انتهى منه، وفي حديث جابر الطويل في حجة النبي صلى الله عليه وسلم، عند مسلم: حتى إذا أتينا البيت معه استلم الركن، فرمل ثلاثا، ومشى أربعا، الحديث. وفي صحيح البخاري من حديث ابن عمر رضي الله عنهما بلفظ: " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا طاف بالبيت الطواف الأول، يخب ثلاثة أطواف، ويمشي أربعة، وأنه كان يسعى بطن المسيل، إذا طاف بين الصفا والمروة " وفي لفظ عند البخاري، ومسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما. كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا طاف الطواف الأول، خب ثلاثا ومشى أربعا، وكان يسعى بطن المسيل إذا طاف بين الصفا والمروة " زاد مسلم: وكان ابن عمر يفعل ذلك.

وبهذه النصوص الصحيحة يتبين أن الرمل في الأشواط الثلاثة في طواف العمرة وطواف القدوم مما سنه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعلى ذلك عامة أهل العلم إلا من شذ، وإن ترك الرمل في الأشواط الأول لم يقضه في الأشواط الأخيرة على الصواب. ولا يلزم بتركه دم على الأظهر لعدم الدليل، خلافا لمن أوجب فيه الدم.

تنبيهان

الأول: إن قيل ما الحكمة في الرمل بعد زوال علته التي شرع من أجلها، والغالب اطراد العلة وانعكاسها، بحيث يدور معها المعلل بها، وجودا وعدما؟." (١)

"فالجواب: أن بقاء حكم الرمل مع زوال علته، لا ينافي أن لبقائه علة أخرى، وهي أن يتذكر به المسلمون نعمة الله عليهم حيث كثرهم وقواهم بعد القلة والضعف، كما قال تعالى: واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس فآواكم وأيدكم بنصره الآية [٨ \ ٢٦] وقال تعالى عن نبيه شعيب: واذكروا إذ كنتم قليلا فكثركم الآية [٧ \ ٨٦] .

وصيغة الأمر في قوله: اذكروا في الآيتين المذكورتين تدل على تحتم ذكر النعمة بذلك، وإذا فلا مانع من كون الحكمة في بقاء حكم الرمل، هي تذكر نعمة الله بالقوة بعد الضعف. والكثرة بعد القلة، وقد أشار

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن الشنقيطي، محمد الأمين ٤/٣٩١

إلى هذا ابن حجر في الفتح، ومما يؤيده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رمل في حجة الوداع بعد زوال العلة المذكورة، فلم يمكن بعد ذلك تركه لزوالها، والعلم عند الله تعالى.

التنبيه الثاني: اعلم أن الروايات الثابتة في الصحيح في الرمل ظاهرها الاختلاف ؛ لأن في بعضها أن الرمل ليس في الشوط كله بل ما بين الركنين اليمانيين لا رمل فيه، وقد قدمنا في حديث ابن عباس عند البخاري ما لفظه: فأمرهم النبي صلى الله عليه وسلم أن يرملوا الأشواط الثلاثة، وأن يمشوا ما بين الركنين، ولم يمنعه أن يأمرهم أن يرملوا الأشواط كلها إلا الإبقاء عليهم. ولفظه عند مسلم، عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأصحابه مكة، وقد وهنتهم حمى يثرب. قال المشركون: إنه يقدم عليكم غدا قوم قد وهنتهم الحمى ولقوا منها شدة، فجلسوا مما يلي الحجر، وأمرهم النبي صلى الله عليه وسلم أن يرملوا ثلاثة أشواط، ويمشوا ما بين الركنين ليرى المشركون جلدهم، فقال المشركون: هؤلاء الذين زعمتم أن الحمى قد وهنتهم، هؤلاء أجلد من كذا وكذا.

قال ابن عباس: ولم يمنعه أن يأمرهم أن يرملوا الأشواط كلها إلا الإبقاء عليهم. فحديث ابن عباس هذا الذي أخرجه الشيخان: فيه التصريح بأنهم لم يرملوا فيما بين الركنين، وقد بين ابن عباس علة ذلك وهي قوله: فجلسوا مما يلي الحجر، يعني: أن المشركين جلسوا في جهة البيت الشمالية مما يلي الحجر بكسر الحاء، وإذا فالذي بين الركنين اليمانيين لا يرونه لأن الكعبة تحول بينهم وبينه، وإذا كانوا لا يرونهم مشوا فإذا ظهروا لهم عند ركن الحجر رملوا، مع أن في بعض الروايات الثابتة في الصحيح: أنه صلى الله عليه وسلم رمل الأشواط الثلاثة كلها، من الحجر إلى الحجر.

ففي صحيح مسلم من حديث ابن عمر رضي الله عنهما ما لفظه: قال: " رمل." (١)

"قوله: إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا [٣٥ \ ٦] وقوله منكرا على من والاه: أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو الآية [١٨ \ ٥٠] ، ومعلوم أن الرجم بالحجارة من أكبر مظاهر العداوة.

وقال النووي في شرح المهذب: فرع في الحكمة في الرمي، قال العلماء: أصل العبادة الطاعة، وكل عبادة فلها معنى قطعا ؛ لأن الشرع لا يأمر بالعبث، ثم معنى العبادة قد يفهمه المكلف، وقد لا يفهمه، فالحكمة في الصلاة: التواضع، والخضوع، وإظهار الافتقار إلى الله تعالى، والحكمة في الصوم كسر النفس وقمع الشهوات، والحكمة في الزكاة: مواساة المحتاج، وفي الحج: إقبال العبد أشعث أغبر من مسافة بعيدة إلى

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن الشنقيطي، محمد الأمين ٣٩٢/٤

بيت فضله الله كإقبال العبد إلى مولاه ذليلا.

ومن العبادات التي لا يفهم معناها: السعي والرمي، فكلف العبد بهما ليتم انقياده، فإن هذا النوع لا حظ للنفس فيه، ولا للعقل، ولا يحمل عليه إلا مجرد امتثال الأمر، وكمال الانقياد، فهذه إشارة مختصرة تعرف بها **الحكمة في** جميع العبادات، والله أعلم انتهى كلام النووي.

قال مقيده – عفا الله عنه وغفر له –: ما ذكره الشيخ النووي رحمه الله: من أن حكمة السعي والرمي غير معقولة المعنى غير صحيح فيما يظهر لي والله تعالى أعلم، بل حكمة الرمي، والسعي معقولة، وقد دل بعض النصوص على أنها معقولة، أما حكمة السعي: فقد جاء النص الصحيح ببيانها، وذلك هو ما رواه البخاري في صحيحه، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قصة ترك إبراهيم هاجر، وإسماعيل في مكة، وأنه وضع عندهما جرابا فيه تمر، وسقاء فيه ماء، وفي الحديث الصحيح المذكور: «وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل، وتشرب من ذلك الماء، حتى إذا نفد ما في السقاء عطشت، وعطش ابنها، وجعلت تنظر إليه يتلوى، أو قال: يتلبط فانطلقت كراهية أن تنظر إليه، فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها، فقامت عليه، ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحدا، فلم تر أحدا، فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادي رفعت طرف درعها، ثم سعت سعي الإنسان المجهود، حتى جاوزت الوادي، ثم أتت المروة فقامت عليها، ونظرت هل ترى أحدا، فلم تر أحدا، ففعلت ذلك سبع مرات» قال ابن عباس: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «فذلك سعي الناس بينهما» الحديث. وهذا الطرف الذي ذكرنا من هذا الحديث سقناه بلفظ البخاري رحمه الله في صحيحه، وقول النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث: «فذلك سعي." (١)

"إن علل الحكم بعلة غلب وجودها اكتفي بذا عن الطلب لها بكل صورة. . . . . . إلخ

وإيضاحه: أن الغالب كون الإنسان يجد ريح الطيب، فأنيط الحكم بالأغلب الذي هو وجوده ريح الطيب، فلو تخلفت **الحكمة في** الأخشم الذي لا يجد ريح الطيب لم يتخلف الحكم لإناطته بالمظنة، وقد أوضحنا هذه المسألة وأكثرنا من أمثلتها في غير هذا الموضع.

وقد تقرر في الأصول: أن وجود الحكم مع تخلف حكمته من أنواع القادح المسمى بالكسر، وقد أشار إلى ذلك صاحب المراقي بقوله في مبحث القوادح:

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن الشنقيطي، محمد الأمين ٤/٤٨٠

والكسر قادح ومنه ذكرا ... تخلف الحكمة عنه من درى

وهذا الذي قررنا في مسألة الأخشم مبني على القول، بأن الكسر بتخلف الحكمة عن حكمها، لا يقدح في المعلل بالمظان، كما أوضحنا، والعلم عند الله تعالى.

واعلم: أن الحكمة في اصطلاح أهل الأصول: هي الفائدة التي صار بسببها الوصف علة للحكم، فتحريم الخمر مثلا حكم والإسكار هو علة هذا الحكم، والمحافظة على العقل من الاختلال: هي الحكمة التي من أجلها صار الإسكار علة لتحريم الخمر، وقد عرف صاحب المراقي الحكمة بقوله:

وهي التي من أجلها الوصف جرى ... علة حكم عند كل من درى

وعلة الرخصة بقصر الصلاة والإفطار في رمضان: هي السفر، والحكمة التي صار السفر علة بسببها هي: تخفيف المشقة على المسافر مثلا، وهكذا.

واعلم: أن علماء الشافعية قالوا: إنه يشترط في الطيب الذي يحكم بتحريمه: أن يكون معظم الغرض منه التطيب، واتخاذ الطيب منه، أو يظهر فيه هذا الغرض. هذا ضابطه عندهم.

ثم فصلوه فقالوا: الأصل في الطيب: المسك، والعنبر، والكافور، والعود، والصندل، والذريرة، وهذا كله لا خلاف فيه عندهم قالوا: والكافور صنع شجر معروف.

وأما النبات الذي له رائحة فأنواع:." (١)

"واعلم أن التحقيق أن الهدي والإطعام يختص بهما فقراء الحرم المكي، وأن الصوم لا يختص به مكان دون مكان، مع اختلاف في الطعام، كما تقدم إيضاحه في سورة " المائدة ".

وأظهر قولي أهل العلم أنه يلزمه ذبح الهدي في الحرم، وتفريقه في الحرم أيضا، خلافا لمن زعم جواز الذبح في الحل، إن كان تفريق اللحم في الحرم، والتحقيق أن البدن يسن تقليدها، وإشعارها فيقلدها نعلين. ومعنى إشعارها: هو جرحها في صفحة سنامها، ويسلت الدم عنها. والجمهور على أن الإشعار في صفحة السنام اليمنى، كما ثبت في الصحيح من حديث ابن عباس خلافا لمالك القائل: إنه في الصفحة اليسرى. واعلم أن التحقيق أن الإشعار المذكور سنة لثبوته عنه - صلى الله عليه وسلم - خلافا لأبي حنيفة القائل: بالنهي عنه، معللا: بأنه مثلة وهي منهي عنها. وروي مثله عن النخعي ؛ لأن الأحاديث الصحيحة الواردة بالإشعار تخصص عموم النهي عن المثلة، ولأنه لا يسلم أنه مثلة، فهو جرح لمصلحة: كالفصد والختان،

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن الشنقيطي، محمد الأمين ٦٧/٥

والحجامة، والكي، والوسم.

واعلم أن الهدي من الغنم يسن تقليده عند عامة أهل العلم، وخالف مالك وأصحابه الجمهور، وقد ثبت في الصحيحين من حديث عائشة: " أنه – صلى الله عليه وسلم – أهدى غنما فقلدها " وقال بعض أهل العلم: لا تقلد بالنعال لضعفها، وإنما تقلد بنحو عرى القرب، ولا تشعر الغنم إجماعا، والظاهر أن مالكا لم يبلغه حديث تقليد الغنم، ولو بلغه لعمل به ؛ لأنه صحيح متفق عليه، وإشعار البقر إن كان له سنام لا نص فيه، وقاسه جماعة من أهل العلم على إشعار الإبل. والمقصود من الإشعار والتقليد وتلطيخ الهدي بالدم، هو أن يعلم كل من رآه أنه هدي ؛ لأنه قد يختلط بغيره، فإذا أشعر وقلد تميز عن غيره، وربما شرد فيعرف أنه هدي فيرد، وهذه العلة موجودة في البقر، فمقتضى القياس: إشعاره إن كان له سنام.

وقال بعض أهل العلم: الحكمة في تقليده النعلين أن المنتعل عندهم كالراكب لكون النعل تقي صاحبها الأذى من الحر والبرد والشوك، والقذر ونحو ذلك فكأن المهدي خرج لله عن مركوبه الحيواني، وغير الحيواني، وظاهر صنيع البخاري أنهم قلدوا البقر في حجة الوداع ؛ حيث قال: باب فتل القلائد للبدن والبقر، ثم ساق حديث حفصة المتقدم، وفيه قال: " إني لبدت رأسي وقلدت هديي ". الحديث، وحديث عائشة – رضي الله عنها – قالت: "كان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يهدي من المدينة، فأفتل قلائد هديه ". . . الحديث، فترى البخاري قال في الترجمة هذه: باب فتل القلائد للبدن والبقر.." (١)

"والحاصل: أن القرآن دل على بطلانها، ولم تثبت من جهة النقل، مع استحالة الإلقاء على لسانه – صلى الله عليه وسلم – لما ذكر شرعا، ومن أثبتها نسب التلفظ بذلك الكفر للشيطان. فتبين أن نطق النبي – صلى الله عليه وسلم – بذلك الكفر، ولو سهوا مستحيل شرعا، وقد دل القرآن على بطلانه، وهو باطل قطعا على كل حال، والغرانيق: الطير البيض المعروفة واحدها: غرنوق كزنبور وفردوس، وفيه لغات غير ذلك، يزعمون أن الأصنام ترتفع إلى الله كالطير البيض، فتشفع عنده لعابديها قبحهم الله ما أكفرهم! ونحن وإن ذكرنا أن قوله فينسخ الله ما يلقي الشيطان يستأنس به لقول من قال: إن مفعول الإلقاء المحذوف تقديره:

ألقى الشيطان في قراءته ما ليس منها ؛ لأن النسخ هنا هو النسخ اللغوي، ومعناه الإبطال والإزالة من قولهم: نسخت الشمس الظل، ونسخت الريح الأثر، وهذا كأنه يدل على أن الله ينسخ شيئا ألقاه الشيطان، ليس

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن الشنقيطي، محمد الأمين ٥/١٧٣

مما يقرؤه الرسول أو النبي، فالذي يظهر لنا أنه الصواب، وأن القرآن يدل عليه دلالة واضحة، وإن لم ينتبه له من تكلم على الآية من المفسرين: هو أن ما يلقيه الشيطان في قراءة النبي: الشكوك والوساوس المانعة من تصديقها وقبولها، كإلقائه عليهم أنها سحر أو شعر، أو أساطير الأولين، وأنها مفتراة على الله ليست منزلة من عنده.

والدليل على هذا المعنى: أن الله بين أن الحكمة في الإلقاء المذكور امتحان الخلق، لأنه قال ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض ٢ \ ٥٣] ثم قال وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم [٢٢ \ ٥٤] فقوله وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق الآية، يدل على أن الشيطان يلقي عليهم، أن الذي يقرؤه النبي ليس بحق فيصدقه الأشقياء، ويكون ذلك فتنة لهم، ويكذبه المؤمنون الذين أوتوا العلم، ويعلمون أنه الحق لا الكذب ؛ كما يزعم لهم الشيطان في إلقائه: فهذا الامتحان لا يناسب شيئا زاده الشيطان من نفسه في القراءة، والعلم عند الله تعالى.

وعلى هذا القول، فمعنى نسخ ما يلقي الشيطان: إزالته وإبطاله، وعدم تأثيره في المؤمنين الذين أوتوا العلم. ومعنى يحكم آياته: يتقنها بالإحكام، فيظهر أنها وحي منزل منه بحق، ولا يؤثر في ذلك محاولة الشيطان صد الناس عنها بإلقائه المذكور، وما ذكره هنا من أنه يسلط الشيطان فيلقى في قراءة الرسول والنبي، فتنة للناس ليظهر مؤمنهم من كافرهم.." (١)

"الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا [٦٧ \ ٢] .

فهذه الآيات قد أوضحت أن الحكمة في خلقه السماوات والأرض، وجميع ما على الأرض، والموت والحياة، هي أن يدعوهم على ألسنة رسله ويبتليهم، أي: أن يختبرهم أيهم أحسن عملا.

وهذه الآيات تبين معنى قوله تعالى: وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون [٥١ \ ٥٦] .

وفي هذه الآيات إيضاح لأن معنى قوله: لولا دعاؤكم، أي: دعاؤه إياكم على ألسنة رسله، وابتلاؤكم أيكم أحسن عملا، وعلى هذا فلا إشكال في قوله: فقد كذبتم، أي: (ما يعبأ بكم لولا) دعاؤه إياكم، أي: وقد دعاكم فكذبتم، وهذا القول هو وحده الذي لا إشكال فيه، فهو قوي بدلالة الآيات المذكورة عليه.

وأما القول بأن معنى: لولا دعاؤكم، أي: إخلاصكم الدعاء له أيها الكفار عند الشدائد والكروب، فقد دلت على معناه آيات كثيرة ؛ كقوله تعالى: فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين [٢٩ \ ٦٥] وقوله

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن الشنقيطي، محمد الأمين ٢٨٨/٥

تعالى: جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين [٢٠ \ ٢٢] .

وقد أوضحنا الآيات الدالة على هذا المعنى في سورة «بني إسرائيل» ، في الكلام على قوله تعالى: وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه الآية [١٧ \ ٦٧] وهذا القول وإن دلت عليه آيات كثيرة، فلا يظهر كونه هو معنى آية «الفرقان» هذه.

وأما على القول بأن المعنى: ما يصنع بعذابكم، لولا دعاؤكم معه آلهة أخرى ؛ فقد دل على معناه قوله تعالى: ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم الآية [٤ \ ١٤٧] .

والقول الأول الذي هو أشهر الأقوال وأكثرها قائلا، وهو أن المعنى: لولا دعاؤكم، أي: عبادتكم له وحده، قد دل عليه جميع الآيات الدالة على ما يعطيه الله لمن أطاعه، وما أعده لمن عصاه، وكثرتها معلومة لا خفاء بها.

واعلم أن لفظة (ما) ، في قوله: قل ما يعبأ بكم ربي، قال بعض أهل." (١)

"النص من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، إذا احتمل التأسيس والتأكيد معا وجب حمله على التأسيس، ولا يجوز حمله على التأكيد، إلا لدليل يجب الرجوع إليه.

ومعلوم في اللغة العربية، أن العطف يقتضي المغايرة، فآية «الصافات» هذه، دليل واضح للمنصف على أن الذبيح إسماعيل لا إسحاق، ويستأنس لهذا بأن المواضع التي ذكر فيها إسحاق يقينا عبر عنه في كلها بالعلم لا الحلم، وهذا الغلام الذبيح وصفه بالحلم لا العلم.

وأما الموضع الثاني الدال على ذلك الذي ذكرنا أنه في سورة «هود» ، فهو قوله تعالى: وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب [١١ \ ٧١] ؛ لأن رسل الله من الملائكة بشرتها بإسحاق، وأن إسحاق يلد يعقوب، فكيف يعقل أن يؤمر إبراهيم بذبحه، وهو صغير، وهو عنده علم يقين بأنه يعيش حتى يلد يعقوب.

فهذه الآية أيضا دليل واضح على ما ذكرنا، فلا ينبغي للمنصف الخلاف في ذلك بعد دلالة هذه الأدلة القرآنية على ذلك، والعلم عند الله تعالى.

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن الشنقيطي، محمد الأمين ٨٣/٦

تنبيه

اعلم أن قصة الذبيح هذه تؤيد أحد القولين المشهورين عند أهل الأصول في حكمة التكليف، هل هي للامتثال فقط، أو هي مترددة بين الامتثال والابتلاء؟ لأنه بين في هذه الآية الكريمة أن حكمة تكليفه لإبراهيم بذبحه ولده ليست هي امتثاله ذلك بالفعل، لأنه لم يرد ذبحه كونا وقدرا، وإنما حكمة تكليفه بذلك مجرد الابتلاء والاختبار، هل يصمم على امتثال ذلك أو لا؟ كما صرح بذلك في قوله تعالى: إن هذا لهو البلاء المبين وفديناه بذبح عظيم [٣٧ \ ١٠٦ - ١٠٧] ، فتبين بهذا أن التحقيق أن حكمة التكليف مترددة بين الامتثال والابتلاء. وإلى الخلاف المذكور أشار في «مراقي السعود» ، بقوله:

للامتثال كلف الرقيب ... فموجب تمكنا مصيب

أو بينه والابتلا ترددا ... شرط تمكن عليه انفقدا

وقد أشار بقوله: فموجب تمكنا مصيب، وقوله: شرط تمكن عليه انفقدا، إلى أن شرط التمكن من الفعل في التكليف، مبني على الخلاف المذكور، فمن قال: إن الحكمة في التكليف هي الامتثال فقط اشترط في التكليف التمكن من الفعل ؛ لأنه لا امتثال إلا مع." (١)

"والكفرة وأتباعهم يقولون: إن الذكر والأنثى سواء.

ولا شك عند كل عاقل في صدق هذه السالبة وكذب هذه الموجبة.

وقد أوضحنا في سورة بني إسرائيل في الكلام على قوله تعالى: إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم [١٧ \ ٩] وجه الحكمة في جعل الطلاق بيد الرجل وتفضيل الذكر على الأنثى في الميراث وتعدد الزوجات، وكون الولد ينسب إلى الرجل، وذكرنا طرفا من ذلك في سورة البقرة في الكلام على قوله تعالى: وللرجال عليهن درجة [٢ \ ٢٢٨] ، وبينا أن الفوارق الطبيعية بينهما كون الذكورة شرفا وكمالا وقوة طبيعية خلقية، وكون الأنوثة بعكس ذلك.

وبينا أن العقلاء جميعا مطبقون على الاعتراف بذلك، وأن من أوضح الأدلة التي بينها القرآن على ذلك اتفاق العقلاء على أن الأنثى من حين نشأتها تحلى بأنواع الزينة من حلي وحلل، وذلك لجبر النقص الجبلي الخلقي الذي هو الأنوثة كما قال الشاعر:

وما الحلي إلا زينة من نقيصة ... يتمم من حسن إذا الحسن قصرا

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن الشنقيطي، محمد الأمين ٦/٣١٨

وقد بينا أن الله تعالى أوضح هذا بقوله: أومن ينشأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين [٤٣ \ ١٨] ، فأنكر على الكفار أنهم مع ادعاء الولد له تعالى جعلوا له أنقص الولدين وأضعفهما خلقة وجبلة وهو الأنثى.

ولذلك نشأت في الحلية من صغرها، لتغطية النقص الذي هو الأنوثة وجبره بالزينة، فهو في الخصام غير مبين.

لأن الأنثى لضعفها الخلقي الطبيعي لا تقدر أن تبين في الخصام إبانة الفحول الذكور، إذا اهتضمت وظلمت لضعفها الطبيعي.

وإنكار الله تعالى على الكفار أنهم مع ادعائهم له الولد جعلوا له أنقص الولدين وأضعفهما - كثير في القرآن كقوله تعالى: أاصطفى البنات على البنين ما لكم كيف تحكمون [٣٧ \ ١٥٣ - ١٥٤] ، وقوله: أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثا إنكم لتقولون قولا عظيما [١٧ \ ٤٠] ، وقوله تعالى: لو أراد الله أن يتخذ ولدا لاصطفى مما يخلق ما يشاء [٣٩ \ ٤] ، والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة.." (١)

"أو كرها» ، لأن المؤمن يطيع باختياره والكافر مذعن منقاد لقضاء ربه جبرا عليه، وهذا القول رواه ابن جرير عن ابن عباس واختاره، ويدل له قوله تعالى: ولله يسجد من في السماوات والأرض طوعا وكرها [١٣ \ ١٥] ، والسجود والعبادة كلاهما خضوع وتذلل لله - جل وعلا - وقد دلت الآية على أن بعضهم يفعل ذلك طوعا وبعضهم يفعله كرها.

وعن مجاهد أنه قال: إلا ليعبدون: أي إلا ليعرفوني. واستدل بعضهم لهذا القول بقوله: ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله [٤٣ \ ٨٧] ، ونحو ذلك من الآيات وهو كثير في القرآن، وقد أوضحنا كثرته فيه في سورة بني إسرائيل في الكلام على قوله تعالى: إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم [١٧ \ ٩] .

وقال بعض أهل العلم: وهو مروي عن مجاهد أيضا معنى قوله: إلا ليعبدون: أي إلا لآمرهم بعبادتي فيعبدني من وفقته منهم لعبادتي دون غيره، وعلى هذا القول: فإرادة عبادتهم المدلول عليها باللام في قوله: ليعبدون - إرادة دينية شرعية وهي الملازمة للأمر، وهي عامة لجميع من أمرتهم الرسل لطاعة الله، لا إرادة كونية قدرية، لأنها لو كانت كذلك لعبده جميع الإنس والجن، والواقع خلاف ذلك بدليل قوله تعالى: قل يا

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن الشنقيطي، محمد الأمين ٤١٦/٧

أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد إلى آخر السورة.
قال مقيده عفا الله عنه وغفر له: التحقيق - إن شاء الله - في معنى هذه الآية الكريمة إلا ليعبدون، أي إلا لآمرهم بعبادتي وأبتليهم أي أختبرهم بالتكاليف، ثم أجازيهم على أعمالهم، إن خيرا فخير وإن شرا فشر، وإنما قلنا إن هذا هو التحقيق في معنى الآية، لأنه تدل عليه آيات محكمات من كتاب الله، فقد صرح تعالى في آيات من كتابه أنه خلقهم ليبتليهم أيهم أحسن عملا، وأنه خلقهم ليجزيهم بأعمالهم.
قال تعالى في أول سورة هود: وهو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء [١١ \ ٧] ، ثم بين **الحكمة في** ذلك فقال: ليبلوكم أيكم أحسن عملا ولئن قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين [١١ \ ٧] .." (١)
"[٤٩ \ ٤٨] .
وبين تعالى **الحكمة في** كونه - صلى الله عليه وسلم - أميا مع أنه يتلو عليهم آياته ويزكيهم بنفي الريب عنه كما كانوا يزعمون أن ما جاء به صلى الله عليه وسلم: أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه [٢٥ \ ٥] فقال: إذا لارتاب المبطلون [٢٩ \ ٤٨] .

قوله تعالى: وآخرين منهم لما يلحقوا بهم.
قال الشيخ - رحمة الله تعالى علينا وعليه - في المذكرة المشار إليها: هذا عطف على قوله: في الأميين، أي: بعث هذا النبي - صلى الله عليه وسلم - في الأميين، وفي آخرين منهم، وقيل: عطف على الضمير في قوله: يعلمهم، أي يعلمهم ويعلم آخرين منهم، والمراد بقوله: وآخرين كل من يأتي بعد الصحابة من أهل الإسلام إلى يوم القيامة بدليل قوله: وأوحي إلي هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ [٦ \ ١٩] .
وصح عن النبي - صلى الله عليه وسلم - ما يدل على أن قوله: وآخرين، نزلت في فارس قوم سلمان، وعلى كل حال فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. اهـ.
وسبق أن قدمنا الكلام على هذا المعنى عند الكلام على قوله تعالى: والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان [٥٩ \ ١٠] .
ولكن سبقنا كلام الشيخ - رحمة الله تعالى علينا وعليه - حين عثرنا عليه لزيادة الفائدة والاستئناس.

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن الشنقيطي، محمد الأمين ٧/٤٤٥

قوله تعالى: ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

اختلف في مرجع اسم الإشارة هنا وفي المراد بالمتفضل به عليهم، أهم الأمة الأمية تفضل الله عليها ببعثة نبي منهم فيهم؟ أم هو النبي – صلى الله عليه وسلم – الأمي تفضل الله تعالى عليه ببعثته معلما هاديا؟ أم هم الآخرون الذين لم يلحقوا زمن البعثة ووصلتهم دعوتها، وأدركوا فضلها؟

وقد اكتفى الشيخ – رحمة الله تعالى عليه وعلينا – في مذكرة الدراسة بقوله ذلك أي: المذكور من بعث هذا النبي الكريم في الأميين، فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم، ومن عظم فضله تفضله على هذه الأمة بهذا النبي الكريم. اهـ.." (١)

"بلال وابن أم مكتوم أيضا، ثم قال: إلا أن تدعو الحاجة إلى الزيادة عليهما فيجوز.

فقد روي عن عثمان – رضي الله عنه – أنه كان له أربعة مؤذنين، وإن دعت الحاجة إلى أكثر منهم كان مشروعا، وإذا كان أكثر من واحد وكان الواحد يسمع الناس، فالمستعجب أن يؤذن واحد بعد واحد ؛ لأن مؤذني النبي – صلى الله عليه وسلم – كان أحدهما يؤذن بعد الآخر، وإن كان الإعلام لا يحصل بواحد أذنوا على حسب ما يحتاج إليه، إما أن يؤذن كل واحد في منارة أو ناحية أو دفعة واحدة في موضع واحد. قال أحمد: إن أذن عدة في منارة فلا بأس، وإن خافوا من تأذين واحد بعد واحد فوات أول الوقت، أذنوا جميعا دفعة واحدة.

وعند الأحناف: جاء في فتح القدير شرح الهداية في سياق إجابة المؤذن وحكاية الأذان ما نصه: إذا كان في المسجد أكثر من مؤذن أذنوا واحدا بعد واحد، فالحرمة للأول إلى أن قال: فإذا فرض أن سمعوه من غير مسجده تحقق في حقه السبب، فيصير كتعددهم في المسجد الواحد، فإن سمعهم معا أجاب معتبرا كون جوابه لمؤذن مسجده.

هذه نصوص الأئمة – رحمهم الله – في جواز تعدد المؤذنين والأذان في المسجد الواحد للصلاة الواحدة متفرقين أو مجتمعين.

وقال ابن حزم: ولا يجوز أن يؤذن اثنان فصاعدا معا، فإن كان ذلك فالمؤذن هو المبتدئ إلى أن قال: وجائز أن يؤذن جماعة واحدا بعد واحد للمغرب وغيرها سواء في كل ذلك، فلم يمنع تعدد الأذان من عدة

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن الشنقيطي، محمد الأمين ١١٦/٨

مؤذنين في المسجد الواحد أحد من سلف الأمة.

الحكمة في الأذان

أما الحكمة في الأذان فإن أعظمها أن من خصائص هذه الأمة كما تقدم في أصل مشروعيته، وقد اشتمل على أصول عقائد التوحيد تعلن على الملأ، تملأ الأسماع حتى صار شعار المسلمين.

ونقل عن القاضي عياض رحمه الله قوله:." (١)

"ولا شك أن مثل تلك الكتابة لا تصدر إلا ممن لا يعي معنى الأذان.

هذا ما استوجب عرض الحكمة من الأذان، وإن كانت مجانبة لمنهج الكتاب، ولكن بمناسبة مباحث الأذان يغتفر ذلك، وبالله التوفيق.

محاكاة المؤذن

تعتبر محاكاة المؤذن ربطا لسامع الأذان، وتنبيها له لموضوعه، جاء الحديث: «إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول» رواه البخاري.

وفي رواية عنده عن معاوية – رضي الله عنه – أنه قال أي معاوية: وهو على المنبر مثل قول المؤذن إلى قوله: أشهد أن محمدا رسول الله، ولما قال المؤذن: حي على الصلاة، قال معاوية: لا حول ولا قوة إلا بالله، وكذلك: حي على الفلاح، ثم قال: هكذا سمعنا نبيكم صلى الله عليه وسلم.

وعند النسائي عن أبي هريرة رضي الله عنه: كنا مع النبي – صلى الله عليه وسلم – فقام بلال ينادي، فلما سكت قال صلى الله عليه وسلم: «من قال مثل هذا يقينا دخل الجنة» .

كيفية المحاكاة، في الحديث الأول: «فقولوا مثلما يقول» وهكذا يشعر بتتبعه جملة جملة، وفي الحديث الثاني: فلما سكت قال صلى الله عليه وسلم: «من قال مثل هذا» وبعد السكوت تنطبق المثلية بمجئ الأذان بعد فراغ المؤذن، فوقع الاحتمال.

وقد جاء عند مسلم وأبي داود ما يؤيد الأول، فعن عمر – رضي الله عنه – أنه – صلى الله عليه وسلم – قال: «إذا قال المؤذن: الله أكبر الله أكبر، فقال أحدكم: الله أكبر الله أكبر، ثم قال أشهد ألا إله إلا

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن الشنقيطي، محمد الأمين ٨/١٤٧

الله، قال: أشهد ألا إله إلا الله، ثم قال: أشهد أن محمدا رسول الله، قال: أشهد أن محمدا رسول الله، ثم قال: حي على الصلاة قال: لا حول ولا قوة إلا بالله، ثم قال: حي على الفلاح، قال: لا حول ولا قوة إلا بالله، ثم قال: الله أكبر الله أكبر، قال: الله أكبر الله أكبر، ثم قال: لا إله إلا الله من قلبه دخل الجنة» .

فهذا نص صريح في أن محاكي المؤذن يتابعه جملة جملة إلى آخره ما عدا الحيعلتين، فإنه يأتي بدلا منهما بالحوقلة، وقالوا: إن الحيعلتين نداء للإقبال على المنادي، وهذا يصدق في حق المؤذن، أما الذي يحكي الأذان فلم يرفع صوته ولا يصدق." (١)

"الآيات عند الكلام على قوله تعالى: وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون [٥١ \ ٥٦] ، وقبلها في سورة «هود» على قوله تعالى: ليبلوكم أيكم أحسن عملا [١١ \ ٧] .

وقال - رحمه الله - في إملائه: جعل للعالم موتتين وإحياءتين، وبينه بقوله تعالى: كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم الآية [٢ \ ٢٨] .

والآية تدل عن أن الموت أمر وجودي لا عدمي كما زعم الفلاسفة، لأنه لو كان عدميا لما تعلق به الخلق.

قوله تعالى: {الذي خلق سبع سماوات طباقا ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت} [الملك: 3] الآية.

ذكر خلق السماوات السبع الطباق على هذا النحو دون تفاوت أو فطور بعد ذكر أول السورة، يدل على أن خلق هذه السبع من كمال قدرته.

وقد بين الشيخ - رحمة الله تعالى علينا وعليه - **الحكمة في** خلق السماوات والأرض ضمن تنبيه عقده في أواخر سورة «الذاريات» .

وقد تقدم للشيخ - رحمة الله تعالى علينا وعليه - معنى الآية الكريمة، والآيات الموضحة لها عند الكلام على أول سورة «ق» عند قوله تعالى: أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج [٥٠ \ ٦] وقال في إملائه: إن قوله تعالى: في خلق الرحمن عام في جميع مخلوقاته، من معنى الاستواء والحكمة والدقة في الصنع، وتدخل السماوات في ذلك بدليل قوله تعالى: صنع الله الذي أتقن كل شيء [٢٧ \ ٨٨] . وإتقان كل شيء بحسبه، كما في قوله: قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن الشنقيطي، محمد الأمين ١٥٠/٨

[٢٠ \ ٥٠] .

وقوله: الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين [٣٢ \ ٧] . وهذا الحال للسماء في الدنيا فقط، وستنفطر يوم القيامة، كما في قوله تعالى: إذا السماء انفطرت [٨٢ \ ١] : إذا السماء انشقت [٨٤ \ ١] : ويوم تشقق السماء بالغمام [٢٥ \ ٢٥] ونحو ذلك من الآيات.

قوله تعالى: فارجع البصر هل ترى من فطور.

تقدم للشيخ - رحمة الله تعالى علينا وعليه - بيان ذلك عند قوله تعالى: وجعلنا السماء سقفا محفوظا." (١)

"ينجب قط.

والثانية: الإنعام بالإيمان، كما في قوله تعالى: إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء [٢٨ \ ٥٦] .

وقد جاء في الحديث: "كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه ". الحديث.

وكون المولود يولد بين أبوين مسلمين، لا كسب له في ذلك.

والثالثة: الإنعام بدخول الجنة كما في الحديث: " لن يدخل أحدكم الجنة بعمله ". قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا ؛ إلا أن يتغمدني الله برحمته ".

وقد ذكر تعالى نعمتين صراحة، وهما خلق الإنسان بعد العدم، وهدايته السبيل.

والث◌الثة: تأتي ضمنا في ذكر النتيجة: إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا [٧٦ \ ٥] ؛ لأن الأبرار هم الشاكرون بدليل التقسيم: شاكرا وإما كفورا إنا أعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالا وسعيرا إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا [٧٦ \ ٣ - ٥] .

وقوله تعالى: إنا هديناه السبيل [٧٦ \ ٣] تقدم أنها هداية بيان.

وتقدم للشيخ - رحمة الله تعالى علينا وعليه - بيان الهداية العامة والخاصة. والجمع بينهما في أكثر من موضع، وفي مستهل هذه السورة بيان لمبدأ الإنسان وموقفه من بعثة الرسل وهداي◌تهم، ونتائج أعمالهم من شكر أو كفر.

وقد جاءت السنة بقراءة هذه السورة في الركعة الثانية من فجر يوم الجمعة، مع قراءة سورة السجدة في

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن الشنقيطي، محمد الأمين ٢٢٨/٨

الركعة الأولى.

وقال ابن تيمية: إن قراءتهما معا في ذلك اليوم ؛ لمناسبة خلق آدم في يوم الجمعة، ليتذكر الإنسان في هذا اليوم – وهو يوم الجمعة – مبدأ خلق أبيه آدم، ومبدأ خلق عموم الإنسان، ويتذكر مصيره ومنتهاه ؛ ليرى ما هو عليه من دعوة الرسول – صلى الله عليه وسلم –، وهل هو شاكر أو كفور. اهـ ملخصا.

ومضمون ذلك كله أنه يرى أن الحكمة في قراءة السورتين في فجر الجمعة، أن يوم." (١)

"قوله تعالى: ويسقون فيها كأسا كان مزاجها زنجبيلا

وقبلها قال تعالى: كان مزاجها كافورا [٧٦ \ ٥] ، فقد قيل: هما معا، فهي في برد الكافور وطيب الزنجبيل.

قوله تعالى: وسقاهم ربهم شرابا طهورا

وهذا وصف شراب الجنة، والشراب هنا هو الخمر، وتقدم للشيخ – رحمة الله تعالى علينا وعليه – بيان هذا المفهوم من أن شراب خمر الدنيا ليس طهورا ؛ لأن أحوال الجنة لها أحكامها الخاصة، ويشهد لهذا ما تقدم في قوله تعالى: ويطاف عليهم بآنية من فضة [٧٦ \ ١٥] ، مع أن أواني الفضة محرمة في الدنيا ؛ لحديث: «الذي يشرب في آنية الذهب والفضة إنما يجرجر في بطنه نار جهنم» ، ومع ذلك فإن أهل الجنة ينعمون بها.

وكذلك ينعمون بخمر الجنة، وكل أوصافها في الجنة عكس أوصافها في الدنيا كما تقدم، لا يصدعون عنها ولا ينزفون، كما أوضحه الشيخ – رحمة الله تعالى علينا وعليه – عند قوله تعالى: لا يصدعون عنها ولا ينزفون [٥٦ \ ١٩] في سورة «الواقعة» .

قوله تعالى: إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا

«نزلنا» «تنزيلا» : يدل على التكرار بخلاف «أنزلنا» ، وقد بين تعالى أنه أنزل القرآن في ليلة القدر في سورة «القدر» : إنا أنزلناه في ليلة القدر [٩٧ \ ١] ، وهنا إثبات التنزيل.

وقد بين تعالى كيفية التنزيل في قوله تعالى: وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا [١٧

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن الشنقيطي، محمد الأمين ٣٨٠/٨

\ ١٠٦] .

وقد بين تعالى الحكمة في هذا التفريق على مكث في قوله تعالى: وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا [٢٥ \ ٣٢] ، وتقدم للشيخ - رحمة الله تعالى علينا وعليه - بيان هذه المسألة في سورة «الفرقان» ، والإحالة فيها على بيان سابق.

قوله تعالى: فاسجد له وسبحه ليلا طويلا

تقدم بيان مقدار المطلوب قيامه من الليل في أول سورة «المزمل» في قوله تعالى:." (١)

"وقوله: «فلا تنسى» : بحثه - رحمة الله تعالى علينا وعليه - في دفع إيهام الاضطراب مع ما ينسخ من الآيات فينساه.

وسيطبع - إن شاء الله تعالى - مع هذه التتمة، تتمة للفائدة.

قوله تعالى: فذكر إن نفعت الذكرى

هل: إن هنا بمعنى إذ أو أنها شرطية؟ وهل للشرط مفهوم مخالفة أم لا؟ كل ذلك بحثه الشيخ - رحمة الله تعالى علينا وعليه - بتوسع في دفع إيهام الاضطراب، ورجح أنها شرطية، وقسم المدعو إلى ثلاثة أقسام: مقطوع بنفعه، ومقطوع بعدم نفعه، ومحتمل، وقال: محل التذكير ما لم يكن مقطوعا بعدم نفعه، كمن بين له مرارا فأعرض، كأبي لهب، وقد أخبر الله عنه بمآله فلا نفع في تذكيره.

قوله تعالى: سيذكر من يخشى

تقدم للشيخ - رحمة الله تعالى علينا وعليه - بيان الحكمة من الذكرى.

ومنها تذكير المؤمنين، وذلك في الكلام على قوله تعالى: وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين [٥١ \ ٥٥] ، في سورة «الذاريات» .

قوله تعالى: ويتجنبها الأشقى الذي يصلى النار الكبرى

أي: بسبب شقائهم السابق أزلا، كما قال تعالى: فأما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق [١١ \

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن الشنقيطي، محمد الأمين ٣٩٧/٨

. [١٠٦

قوله تعالى: ثم لا يموت فيها ولا يحيا
نفى عنه الضدين ؛ لأن الإنسان بالذات إما حي وإما ميت، ولا واسطة بينهما، ولكن في يوم القيامة تتغير الموازين والمعايير، وهذا أبلغ في التعذيب، إذ لو مات لاستراح، ومع أنه يتلقى من العذاب ما لا حياة معه، كما في قوله تعالى: لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها وقوله (ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت) [٣٥ \ ٣٦] . وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيان معنى ذلك في سورة «طه» عند الكلام." (١)

"وفي أبي داود وغيره: «إذا تكلم الله بالوحي سمع أهل السماوات صلصلة كجر السلسلة على الصفوان» .

وعلى هذا يكون القرآن موجودا في اللوح المحفوظ حينما جرى القلم بما هو كائن وما سيكون، ثم جرى نقله إلى سماء الدنيا جملة في ليلة القدر، ثم نزل منجما في عشرين سنة. وكلما أراد الله إنزال شيء منه تكلم سبحانه بما أراد أن ينزله، فيسمعه جبريل عليه السلام عن الله تعالى. ولا منافاة بين تلك الحالات الثلاث. والله تعالى أعلم.

وقد قدمنا الكلام على صور كيفية نزول الوحي وتلقي الرسول صلى الله عليه وسلم للوحي.

وقيل: معنى أنزلناه في ليلة القدر أي: أنزلنا القرآن في شأن ليلة القدر تعظيما لها، فلم تكن ظرفا على هذا الوجه.

والواقع: أن هذا القول وإن كان من حيث الأسلوب ممكنا إلا أن ما بعده يغني عنه ؛ لأن إعظام ليلة القدر وبيان منزلتها قد نزل فيها قرآن فعلا، وهو ما بعدها مباشرة في قوله: وما أدراك ما ليلة القدر ليلة القدر خير من ألف شهر [٩٧ \ ٢ - ٣] ، إلى آخر السورة.

وعليه، فيكون أول السورة في شأن إنزال القرآن وبيان ظرف إنزاله، وآخر السورة في ليلة القدر وبيان منزلتها.

وقد ذكرت ليلة القدر مبهمة، ولكن جاء في القرآن ما بين الشهر التي هي فيه، وهو شهر رمضان لقوله

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن الشنقيطي، محمد الأمين ٨/٥٠٣

تعالى: شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن [٢ \ ١٨٥] .
وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في سورة الدخان بيان ذلك، وأنها الليلة التي فيها يبرم كل أمر حكيم، وليست ليلة النصف من شعبان كما يزعم بعض الناس.
وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه، بيان الحكمة من إنزاله مفرقا عند قوله تعالى: كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب [٣٨ \ ٢٩] .

قوله تعالى: ليلة القدر خير من ألف شهر.
القدر: الرفعة، والقدر: بمعنى المقدار.." (١)
"وقيل: صلاة العيد، والنحر: قيل فيه أقوال عديدة:
أولها: في نحر الهدي أو نحر الضحية: وهي مرتبطة بقول من حمل الصلاة على صلاة العيد، وأن النحر بعد الصلاة كما في حديث البراء بن عازب «لما ضحى قبل أن يصلي، وسمع النبي صلى الله عليه وسلم يحث على الضحية بعد الصلاة، فقال: إني علمت اليوم يوم لحم فعجلت بضحيتي، فقال له: شاتك شاة لحم؟ فقال: إن عندنا لعناقا أحب إلينا من شاة، أفتجزئ عني؟ قال: اذبحها، ولن تجزئ عن أحد غيرك» .
وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه مبحث الضحية وافيا عند قوله تعالى: فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير [٢٢ \ ٢٨] ، وقد ذكروا في معاني: وانحر: أي ضع يدك اليمنى على اليسرى على نحرك في الصلاة، وهذا مروي عن علي رضي الله عنه.
وأقوال أخرى ليس عليها نص.
والنحر: هو طعن الإبل في اللبة عند المنحر ملتقى الرقبة بالصدر.
وأصح الأقوال في الصلاة وفي النحر هو ما تقدم من عموم الصلاة وعموم النحر أو الذبح لما جاء في قوله تعالى: قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين [٦ \ ١٦٢] .
واتفق الفقهاء على أن النحر للإبل، والذبح للغنم، والبقر متردد فيه بين النحر والذبح، وأجمعوا على أن ذلك هو الأفضل، ولو عمم النحر في الجميع، أو عمم الذبح في الجميع لكان جائزا، ولكنه خلاف السنة.

---
(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن الشنقيطي، محمد الأمين ٣٣/٩

وقالوا: إن الحكمة في تخصيص الإبل بالنحر، هو طول العنق، إذ لو ذبحت لكان مجرى الدم من القلب إلى محل الذبح بعيدا فلا يساعد على إخراج جميع الدم بيسر، بخلاف النحر في المنحر، فإنه يقرب المسافة ويساعد القلب على دفع الدم كله، أما الغنم فالذبح مناسب لها، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: إن شانئك هو الأبتر [٣] . قال البخاري، عن ابن عباس رضي الله عنهما: «شانئك» : عدوك اهـ.." (١)

"محمدا – صلى الله عليه وسلم –، وأنزل (الم)؛ قالوا: قد كنا نعلم أن هذه الأمة مبعوثة، وكنا لا ندري كم مدتها، فإن كان محمد صادقا فهو نبي هذه الأمة، قد بين لنا كم مدة محمد – لأن (الم) في حساب جملهم (١) إحدى وسبعون سنة –، فما نصنع بدين إنما هو واحد وسبعون سنة؟! فلما نزلت (الر) – وكانت في حساب جملهم مائتي سنة وإحدى وثلاثين سنة –، فقالوا: هذه الآن مائتان وإحدى وثلاثون سنة، وواحدة وسبعون – قيل: ثم أنزل (المر) – فكان في حساب جملهم مائتي سنة وإحدى وسبعين سنة – في نحو هذا من صدور السور – فقالوا: قد التبس علينا أمره (٢) – (١,١٢٦)
(٢٨٥) – وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هي أسماء السور المفتتحة بها (٣) [٣٧] – (ز)

٣٧ رجح ابن جرير ((١) / (٢٢٣) – (٢٢٥)) أن الحروف المقطعة في فواتح السور تحوي سائر ما قاله مفسرو السلف؛ لأن الله – جل ثناؤه – لو أراد بذلك الدلالة على معنى واحد دون سائر المعاني غيره لأبان ذلك لهم رسول الله – صلى الله عليه وسلم –، وفي تركه – صلى الله عليه وسلم – إبانة ذلك أوضح الدليل على أنه مراد به جميع وجوهه التي هو لها محتمل، إذ لم يكن مستحيلا في العقل وجه منها أن يكون من تأويله ومعناه، كما كان غير مستحيل اجتماع المعاني الكثيرة للكلمة الواحدة باللفظ الواحد في كلام واحد – ونقل ابن عطية ((١) / (٩٩) – (١٠١)) اختلافا في التكلم في تفسير الحروف المقطعة، أو الامتناع عن تفسيرها، ثم قال: «والصواب ما قاله الجمهور: أن تفسر هذه الحروف، ويلتمس لها التأويل» – وعلق ابن كثير ((١) / (٢٥٥) – (٢٥٧))، فقال: «ولم يجمع العلماء فيها على شيء معين، وإنما اختلفوا، فمن ظهر له بعض الأقوال بدليل فعليه اتباعه، وإلا فالوقف حتى يتبين» – وفي بيان الحكمة من إيراد هذه

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن الشنقيطي، محمد الأمين ٩/١٣٠

الحروف في أوائل السور نقل ابن كثير ((١) / (٢٥٧)) قول من قال: «إنما ذكرت هذه الأحرف في أوائل السور التي ذكرت فيها بيانا لإعجاز القرآن، وأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله، هذا مع أنه تركب من هذه الحروف المقطعة التي يتخاطبون بها» - ثم رجح ذلك بقوله: «ولهذا كل سورة افتتحت بالحروف فلا بد أن يذكر فيها الانتصار للقرآن، وبيان إعجازه وعظمته، وهذا معلوم بالاستقراء، وهو الواقع في تسع ==

---

(١) حساب الجمل: طريقة لتسجيل الأعداد والتواريخ باستعمال الحروف الأبجدية؛ إذ يعطى كل حرف رقما معينا يدل عليه؛ فتكون من هذه الحروف جملة تدل على رقم أو تاريخ مقصود، وبالعكس تستخدم الأرقام للوصول إلى الجمل والنصوص - تنظر: الموسوعة العربية العالمية (حساب الجمل).

(٢) أخرجه ابن المنذر (١) / (١١١) - .

(٣) تفسير الثعلبي (١) / (١٣٦)، وتفسير البغوي (١) / (٥٩)." (١)

"فخلق التربة يوم السبت، والجبال يوم الأحد، والشجر يوم الاثنين، وكذا يوم الثلاثاء، والنور يوم الأربعاء، والدواب يوم الخميس، وآدم يوم الجمعة في آخر ساعة من النهار» أخرجه مسلم (٤) / (٢١٤٩) ((٢٧٨٩))، وابن جرير (٢٠) / (٣٨٣) - (٣٨٤) كلاهما بنحوه - وعزاه السيوطي إلى ابن مردويه - ذكر ابن كثير ((٦) / (٣١٩) بتصرف) هذا الحديث مخرجا في مسند الإمام أحمد، ثم قال معلقا: «وقد رواه مسلم بن الحجاج في صحيحه، والنسائي من غير وجه، عن حجاج - وهو ابن محمد الأعور - ، عن عبد الملك ابن جريج به - وفيه استيعاب الأيام السبعة، والله تعالى قد قال في ستة أيام؛ ولهذا تكلم البخاري وغير واحد من الحفاظ في هذا الحديث، وجعلوه من رواية أبي هريرة، عن كعب الأحبار، ليس مرفوعا» - .

(٢٧٨٨٦) - عن عبد الله بن عباس - من طريق الضحاك - في قوله: (خلق السماوات والأرض)، قال: كل يوم مقداره ألف سنة أخرجه ابن أبي حاتم (٥) / (١٤٩٦) - وعزاه السيوطي إلى أبي الشيخ، وابن مردويه - .

(٢٧٨٨٧) - عن زيد بن أرقم، قال: إن الله خلق السماوات والأرض في ستة أيام، لكل يوم منها اسم: أبو جاد، هواز، حطي، كلمون، سعفص، قرشات عزاه السيوطي إلى سمويه في فوائده - .

---

(١) موسوعة التفسير المأثور ٥٦/١

(٢٧٨٨٨) - عن كعب الأحبار - من طريق أبي صالح - قال: بدأ الله بخلق السماوات والأرض يوم الأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة، وجعل كل يوم ألف سنة أخرجه ابن أبي شيبة (١٤) / (١٢٦) - .

(٢٧٨٨٩) - قال سعيد بن جبير: قدر الله على خلق السماوات والأرض في لمحة ولحظة، وإنما خلقهن في ستة أيام تعليما لخلقه الرفق والتثبت في الأمور تفسير الثعلبي (٤) / (٢٣٨) - أبان قول سعيد بن جبير عن الحكمة من خلق السموات والأرض في ستة أيام على ما ذكر، وقد جعل اب ؚ عطية ((٣) / (٥٧٧)) حكمة هذا مما انفرد الله بعلمه، وبين أن كل ما قيل في هذا إنما هو من باب التخرص - .

(٢٧٨٩٠) - عن مجاهد بن جبر - من طريق أبي بشر - قال: بدء الخلق العرش والماء والهواء، وخلقت الأرض من الماء، وكان بدء الخلق يوم الأحد ويوم الاثنين

". (١)

"به؟ قال: يا موسى، إنما كلمتك بقوة عشرة آلاف لسان، ولي قوة الألسن كلها وأقوى من ذلك - فلما رجع موسى إلى بني إسرائيل قالوا: يا موسى، صف لنا كلام الرحمن - فقال: لا تستطيعونه، ألم تروا إلى أصوات الصواعق التي تقبل في أحلى حلاوة سمعتموه؟! فذاك قريب منه، وليس به» أخرجه أبو نعيم في الحلية (٦) / (٢١٠)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٢) / (٣١) - (٣٢) ((٦٠١))، وابن أبي حاتم (٤) / (١١١٩) ((٦٢٨٦))، (٥) / (١٥٥٧) - (١٥٥٨) ((٨٩٢٥))، (٩) / (٢٩٧٣) ((١٦٨٨٢)) - قال أبو نعيم: «هذه الأحاديث مما تفرد بها الفضل، عن محمد بن المنكدر، ولم يتابع عليه، وما رواه عنه أبو عاصم العباداني فمن مفاريده عن الفضل، واسمه عبد الله بن عبيد الله المري، بصري، سكن عبادان، وفيه وفي الفضل ضعف ولين» - وقال البيهقي: «حديث ضعيف؛ الفضل بن عيسى الرقاشي ضعيف الحديث، جرحه أحمد بن حنبل، ومحمد بن إسماعيل البخاري» - وقال ابن الجوزي في الموضوعات (١) / (١١٣): «وليس هذا حديث؛ ليس بصحيح» - وقال ابن كثير في تفسيره (٢) / (٤٧٥) معلقا على رواية ابن أبي حاتم وابن مردويه: «وهذا إسناد ضعيف؛ فإن الفضل هذا الرقاشي ضعيف بمرة» - وقال الهيثمي في المجمع (٨) / (٢٠٤) ((١٣٧٨٢)): «رواه البزار، وفيه الفضل بن عيسى الرقاشي، وهو ضعيف» - .

---

(١) موسوعة التفسير المأثور ١٥٤/١٥

(٢٨٧٧١) - عن أبي هريرة، رفعه: «لما خرج أخي موسى إلى مناجاة ربه كلمه ألف كلمة ومائتي كلمة، فأول ما كلمه بالبربرية أن قال: يا موسى، ونفسي معبرا - أي: أنا الله الأكبر - قال موسى: يا رب، أعطيت الدنيا لأعدائك، ومنعتها أولياءك، فما الحكمة في ذلك؟ فأوحى الله إليه: أعطيتها أعدائي ليتمرغوا، ومنعتها أوليائي ليتضرعوا» عزاه السيوطي إلى الديلمي - وهو في الفردوس ولكن من رواية ابن عباس (٣) / (٤٢٥) ((٥٣٠٤)) - .

(٢٧٢٨٧) - عن الضحاك - من طريق جويبر - عن ابن عباس، عن النبي - صلى الله عليه وسلم - : «إن الله - تبارك وتعالى - ناجى موسى بمائة ألف وأربعين ألف كلمة في ثلاثة أيام، فلما سمع موسى كلام الآدميين مقتهم؛ لما وقع في مسامعه من كلام الرب ، فكان فيما ناجاه أن قال: يا موسى، إنه لم يتصنع المتصنعون بمثل الزهد في الدنيا، ولم يتقرب إلي المتقربون بمثل الورع عما حرمت عليهم، ولم يتعبد المتعبدون بمثل البكاء من خشيتي - فقال موسى: يا رب، ويا إله البرية كلها، ويا مالك يوم الدين، ويا ذا الجلال والإكرام، ماذا أعددت لهم، وماذا جزيتهم؟ قال: أما الزاهدون في الدنيا فإني أبيحهم جنتي حتى يتبوءوا فيها حيث شاءوا، وأما الورعون عما حرمت عليهم فإذا كان يوم القيامة لم يبق عبد إلا ناقشته الحساب، وفتشت عما في يديه، إلا الورعون فإني أستحييهم، وأجلهم، وأكرمهم، وأدخلهم الجنة بغير حساب، وأما الباكون

(١) ".

"(٤٦٢٣٣) - قال مقاتل بن سليمان: (وآتيناه الحكم صبيا)، يعني: وأعطينا يحيى العلم والفهم، وهو ابن ثلاث سنين تفسير مقاتل بن سليمان (٢) / (٦٢٢) - .

(٤٦٢٣٤) - قال ابن وهب: وقال لي مالك [بن أنس]، وذكر قول الله في يحيى: (وآتيناه الحكم صبيا)، وقوله في عيسى: (قد جئتكم بالحكمة) [الزخرف: (٦٣)]، وقوله: (ويعلمه الكتاب والحكمة) [آل عمران: (٤٨)]، وقوله: (واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة) [الأحزاب: (٣٤)]، قال مالك: الحكمة في هذا كله: طاعة الله، والاتباع لها، والفقه في دين الله، والعمل به أخرجه ابن وهب في الجامع (٢) / (١٣٠) - (١٣١) ((٢٥٧)) بنحوه، وعنه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (١) / (٨٣) بزيادة - وهي في جامع ابن وهب بنحوها - : قال مالك: ومما يبين ذلك أنك تجد رجلا عاقلا في أمر

---

(١) موسوعة التفسير المأثور ٣١٩/١٥

الدنيا ذا نظر فيها وبصر بها ولا علم له بدينه - ، وتجد آخر ضعيفا في أمر دنياه، عالما بأمر دينه، بصيرا به، يؤتيه الله إياه ويحرمه هذا؛ فالحكمة: الفقه في دين الله - .

(٤٦٢٣٥) - عن معمر بن راشد - من طريق ابن المبارك - في قوله: (وآتيناه الحكم صبيا)، قال: بلغني: أن الصبيان قالوا ليحيى بن زكريا: اذهب بنا نلعب - قال: ما للعب خلقت - فهو قوله: (وآتيناه الحكم صبيا) أخرجه أحمد في الزهد ص (٧٦)، (٩٠)، وابن أبي الدنيا في كتاب الرقة والبكاء - موسوعة ابن أبي الدنيا (٣) / (٢٥١) ((٤٠٣)) من طريق ابن المبارك، وابن جرير (١٥) / (٤٧٤)، وابن عساكر (٦٤) / (١٨٣) - وعزاه السيوطي إلى ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والخرائطي - .

(٤٦٢٣٦) - قال يحيى بن سلام: وبلغنا: أنه كان في صغره يقول له الصبيان: يا يحيى، تعال نلعب - فيقول: ليس للعب خلقنا تفسير يحيى بن سلام (١) / (٢١٧) - .

آثار متعلقة بالآية

(٤٦٢٣٧) - عن ابن عباس، قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : «من قرأ القرآن قبل أن يحتلم فقد أوتي الحكم صبيا» أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٣) / (٣٤٣) ((١٧٩٨))، من طريق مسلم بن إبراهيم، قال: حدثنا الحسن بن أبي جعفر، حدثنا أبو الصهباء، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس به - إسناده ضعيف؛ فيه الحسن بن أبي جعفر، وهو الجفري البصري، قال عنه ابن حجر في التقريب ((١٢٢٢)): «ضعيف الحديث مع عبادته وفضله» - .

." (١)

"الأعظم؟ فقال أبو أمامة: هذه الآية في سورة النور: (فإن تولوا فإنما عليه ما حمل وعليكم ما حملتم) أخرجه عبد الله بن أحمد في زوائد المسند (٣٠) / (٣٩٠) - (٣٩٢) ((١٨٤٤٩)، (١٨٤٥٠))، (٣٢) / (٩٥) - (٩٦) ((١٩٣٥٠)، (١٩٣٥١)) واللفظ له، والثعلبي (١٠) / (٢٣١) - قال ابن كثير في تفسيره (٨) / (٤٢٧): «إسناد ضعيف» - وقال الهيثمي في المجمع (٥) / (٢١٧) - (٢١٨) ((٩٠٩٧)): «رواه عبد الله بن أحمد، والبزار، والطبراني، ورجالهما ثقات» - وقال السيوطي في الدرر المنتثرة ص (١٠١) ((١٧٧)): «سنده ضعيف» - وقال المناوي في التيسير (١) / (٤٨٩): «إسناد ضعيف» - وحسنه الألباني في الصحيحة (٢) / (٢٧٢) ((٦٦٧)) - .

---

(١) موسوعة التفسير المأثور ٣٧/٢٥

(٥٣٨٤١) - عن جابر بن عبد الله - من طريق أبي الزبير - أنه سئل: إن كان علي إمام فاجر، فلقيت معه أهل ضلالة، أقاتل أم لا؟ ليس بي حبه ولا مظاهرته - قال: قاتل أهل الضلالة أينما وجدتهم، وعلى الإمام ما حمل، وعليك ما حملت أخرجه ابن أبي حاتم (٨) / (٢٦٢٥) - (٢٦٢٦) - .

(٥٣٨٤٢) - عن وهب بن منبه، قال: إن الله أوحى إلى نبي من أنبياء بني إسرائيل - يقال له: أشعيا -: أن قم في قومك بني إسرائيل؛ فإني مطلق لسانك بوحي - فقال: يا سماء، اسمعي، ويا أرض، أنصتي، فإن الله يريد أن يقص شأن بني إسرائيل، إن قومك يسألون عن غيبي الكهان والأسرار، وإني أريد أن أحدث حدثا أنا منفذه، فليخبروني متى هو؟ وفي أي زمان يكون؟ أريد أن أحول الريف إلى الفلاة، والآجام في الغيطان، والأنهار في الصحاري، والنعمة في الفقراء، والملك في الرعاة، وأبعث أعمى من عميان أبعثه ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق، لو يمر إلى جنب السراج لم يطفئه من سكينته، ولو يمشي على القصب اليابس لم يسمع من تحت قدميه، أبعثه مبشرا ونذيرا، لا يقول الخنا، أفتح به أعينا كمها، وأذانا صما، وقلوبا غلفا، أسدده لكل أمر جميل، وأهب له كل خلق كريم، وأجعل السكينة لباسه، والبر شعاره، والتقوى ضميره، **والحكمة منطقه**، والصدق والوفاء طبيعته، والعفو والمعروف خلقه، والحق شريعته، والعدل سيرته، والهدى إمامه، والإسلام ملته، وأحمد اسمه، أهدي به بعد الضلالة، وأعلم به بعد الجهالة، وأرفع به بعد الخمالة، وأعرف به بعد النكرة، وأكثر به بعد القلة، وأغني به بعد العيلة العيلة: الفقر - النهاية (عيل).، وأجمع به بعد الفرقة، وأؤلف به بين أمم متفرقة، وقلوب مختلفة، وأهواء متشتتة، وأستنقذ به فئاما من الناس عظيما من الهلكة، وأجعل أمته خير أمة أخرجت

(١) ".

"سعوا في آياتنا معاجزين)، قال: جاهدين ليهبطوها أو يبطلوها - قال: وهم المشركون - وقرأ: (لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون) [فصلت: (٢٦)] أخرجه ابن جرير (١٩) / (٢١٣) - لم يذكر ابن جرير ((١٩) / (٢١٣)) غير قول ابن زيد، وقول قتادة - .

(أولئك لهم عذاب من رجز أليم (٥))

(٦٣٠٥٧) - عن قتادة بن دعامة - من طريق سعيد - في قوله: (أولئك لهم عذاب من رجز أليم)، قال: الرجز هو: سوء العذاب - والأليم: الموجع أخرجه ابن جرير (١٩) / (٢١٣) - وعزاه السيوطي إلى عبد

---

(١) موسوعة التفسير المأثور ١٨٣/٢٨

بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم بلفظ: الرجز: العذاب - .
(٦٣٠٥٨) - قال مقاتل بن سليمان: (أولئك لهم عذاب من رجز أليم) نظيرها في الجاثية تفسير مقاتل بن سليمان (٣) / (٥٢٤) - يشير إلى قوله تعالى: (هذا هدى والذين كفروا بآيات ربهم لهم عذاب من رجز أليم) [الجاثية: (١١)] - .
(٦٣٠٥٩) - قال يحيى بن سلام: (أولئك لهم عذاب من رجز) والرجز: العذاب (أليم) موجع، لهم عذاب من عذاب موجع تفسير يحيى بن سلام (٢) / (٧٤٥) - (٧٤٦) - .

(ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك من ربك هو الحق ويهدي إلى صراط العزيز الحميد (٦))
قراءات
(٦٣٠٦٠) - قراءة عبد الله بن مسعود: (ويعلم الذين أوتوا **الحكمة من** قبل) تفسير مقاتل بن سليمان (٣) / (٥٢٤) - وهي قراءة شاذة - .
تفسير الآية
(٦٣٠٦١) - عن الضحاك بن مزاحم، في قوله: (ويرى الذين أوتوا العلم)، قال: الذين ". (١)
"أوتوا الحكمة، يعني: المؤمنين من أهل الكتاب عزاه السيوطي إلى ابن أبي حاتم - .
(٦٣٠٦٢) - عن قتادة بن دعامة - من طريق سعيد - في قوله: (ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك من ربك هو الحق)، قال: أصحاب محمد أخرجه ابن جرير (١٩) / (٢١٤) - وعزاه السيوطي إلى عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم - .
(٦٣٠٦٣) - قال إسماعيل السدي: (ويرى الذين أوتوا العلم)، يعني: ويعلم الذين أوتوا العلم علقه يحيى بن سلام (٢) / (٧٤٦) - .
(٦٣٠٦٤) - قال مقاتل بن سليمان: (ويرى) ويعلم (الذين أوتوا العلم) بالله ، يعني: مؤمني أهل الكتاب، وهي قراءة ابن مسعود: (ويعلم الذين أوتوا **الحكمة من** قبل) (الذي أنزل إليك) يعني: النبي - صلى الله عليه وسلم - (من ربك هو الحق) يعني: القرآن، (ويهدي إلى صراط) ويدعو إلى دين (العزيز) في ملكه،

---

(١) موسوعة التفسير المأثور ١٦٨/٣٣

(الحميد) في خلقه تفسير مقاتل بن سليمان (٣) / (٥٢٤) - .
(٦٣٠٦٥) - قال يحيى بن سلام: (الذين أوتوا العلم) يعني: المؤمنين (الذي أنزل إليك من ربك) القرآن (هو الحق) يعلمون أنه هو الحق، (ويهدي) ويعلمون أن القرآن يهدي (إلى صراط) إلى طريق (العزيز) الذي ذل له كل شيء، (الحميد) المستحمد إلى خلقه، الذي استوجب عليهم أن يحمدوه، والطريق إلى الجنة تفسير يحيى بن سلام (٢) / (٧٤٦) - .
(وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفي خلق جديد (٧))
(٦٣٠٦٦) - عن قتادة بن دعامة - من طريق سعيد - في قوله: (وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم) قال: قال ذلك مشركو قريش (إذا مزقتم كل ممزق) يقول: إذا أكلتكم الأرض، وصرتم عظاما ورفاتا، وقطعتكم السباع والطير، (إنكم لفي خلق جديد) إنكم ستحيون وتبعثون - قالوا ذلك تكذيبا به أخرجه ابن جرير (١٩) / (٢١٥) - (٢١٦) - وعزاه السيوطي إلى عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم - كما أخرجه عبد الرزاق (٢) / (١٢٦) من طريق معمر مختصرا - .
(٦٣٠٦٧) - قال مقاتل بن سليمان: (وقال الذين كفروا) بالبعث، أبو سفيان قال لكفار مكة: (هل ندلكم على رجل) يعني: النبي - صلى الله عليه وسلم - (ينبئكم) يخبركم (إذا مزقتم كل
." (١)

"يقول: النهار إذا دخل في الليل أخرجه عبد الله بن وهب في الجامع - تفسير القرآن (٢) / (٧٧) ((١٤٨))، وابن جرير (٢٤) / (٧٤٦)، وفي رواية عنده من طريق رجل من أهل المدينة بلفظ: هو غروب الشمس إذا جاء الليل، إذا وجب - .
(٨٥٦٦٥) - عن قتادة بن دعامة - من طريق معمر - (غاسق إذا وقب)، قال: إذا ذهب أخرجه عبد الرزاق (٢) / (٤٠٨) بنحوه، وابن جرير (٢٤) / (٧٤٩) - علق ابن جرير ((٢٤) / (٧٤٩)) على قول قتادة بقوله: «ولست أعرف ما قال قتادة في ذلك في كلام العرب، بل المعروف من كلامها من معنى: (وقب): دخل» - .
(٨٥٦٦٦) - عن محمد بن شهاب الزهري - من طريق عقيل بن خالد - أنه قال: الغاسق إذا وقب: الشمس إذا غربت أخرجه عبد الله بن وهب في الجامع - تفسير القرآن (١) / (١٥) ((٢٧)) - وعزاه

(١) موسوعة التفسير المأثور ١٦٩/٣٣

السيوطي إلى ابن أبي حاتم - .

(٨٥٦٦٧) - قال إسماعيل السدي: (ومن شر غاسق إذا وقب)، يعني: الليل إذا أطبق الأفق بظلمته ذكره يحيى بن سلام - كما في تفسير ابن أبي زمنين (٥) / (١٧٤) - - .

(٨٥٦٦٨) - قال مقاتل بن سليمان: (ومن شر غاسق) يعني: ظلمة الليل (إذا وقب) يعني: إذا دخلت ظلمة الليل في ضوء النهار؛ إذا غابت الشمس فاختلط الظلام تفسير مقاتل بن سليمان (٤) / (٩٣٤) - .

(٨٥٦٦٩) - عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم - من طريق ابن وهب - في قوله: (ومن شر غاسق إذا وقب)، قال: كانت العرب تقول: الغاسق: سقوط الثريا - وكانت الأسقام والطواعين تكثر عند وقوعها، وترتفع عند طلوعها أخرجه ابن جرير (٢٤) / (٧٤٧) - (٧٤٨)، وأبو الشيخ ((٦٩٨)) - اختلف في معنى: «الغاسق إذا وقب» على أقوال: الأول: الليل إذا أظلم - الثاني: النهار إذا دخل في الليل - الثالث: الكوكب، وهو الثريا إذا سقطت، وكانت الأسقام والطواعين تكثر عند وقوعها، وترتفع عن طلوعها - الرابع: هو القمر - وعلق ابن تيمية ((٧) / (٣٩١)) على القول الثالث بقوله: «ويشبه - والله أعلم - أن يكون من الحكمة في ذلك: أن النور هو جنس الخير، والظلمة جنس الشر، وفي الليل يقع من الشرور النفسانية ما لا يقع في النهار، والقمر له تأثير في الأرض لا سيما حال كسوفه؛ فإن النبي قال: «إنهما آيتان يخوف الله بهما عباده» - والتخويف إنما يكون بانعقاد سبب الخوف، ولا يكون ذلك إلا عند سبب العذاب أو مظنته، فعلم أن الكسوف مظنة حدوث عذاب بأهل الأرض، ولهذا شرع عند الكسوف الصلاة الطويلة والصدقة والعتاقة والدعاء لدفع العذاب، وكذلك عند سائر الآيات التي هي إنشاء العذاب كالزلزلة، وظهور الكواكب وغير ذلك، وهو أقرب الكواكب التي لها تأثير في الأرض بالترطيب واليبس وغير ذلك» - ووجهه ابن القيم ((٣) / (٤٠٨)) بقوله: «إن أراد صاحب هذا القول اختصاص الغاسق بالنجم إذا غرب فباطل، وإن أراد: أن اسم الغاسق يتناول ذلك بوجه ما؛ فهذا يحتمل أن يدل اللفظ عليه بفحواه ومقصوده وتنبيهه، وأما أن يختص اللفظ به فباطل» - وعلق ابن كثير ((١٤) / (٥٢٤)) على القول الرابع بقوله: «وعمدة أصحاب هذا القول ما رواه الإمام أحمد - » - ثم ذكر حديث عائشة الوارد في أول تفسير الآية - ورجح ابن جرير ((٢٤) / (٧٤٩)) العموم، فقال: «وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب أن يقال: إن الله أمر نبيه أن يستعيذ من شر (غاسق) وهو الذي يظلم، يقال: قد غسق الليل يغسق غسوقا: إذا أظلم، (إذا وقب)

يعني: إذا دخل في ظلامه؛ والليل إذا دخل في ظلامه غاسق، والنجم إذا أفل غاسق، والقمر غاسق إذا وقب، ولم يخصص بعض ذلك بل عم الأمر بذلك، فكل غاسق فإنه كان يؤمر بالاستعاذة من شره إذا وقب» - ونقل ابن عطية ((٨) / (٧١٥)) عن القتبي وغيره أن «الغاسق إذا وقب»: «هو البدر إذا دخل في ساهوره فخسف» - واستدل أصحاب القول الثالث بحديث أبي هريرة الوارد في تفسير الآية وفيه: «النجم: الغاسق» - واستدل أصحاب القول الرابع بحديث عائشة الوارد في أول تفسير الآية - وعلق عليهما ابن تيمية ((٧) / (٣٨٨)) بقوله: «وهذا المرفوع قد ظن بعض الناس منافاته لمن فسره بالليل؛ فجعلوه قولا آخر، ثم فسروا وقوبه بسكونه - قال ابن قتيبة: ويقال الغاسق: القمر إذا كسف واسود - ومعنى وقب: دخل في الكسوف، وهذا ضعيف، فإن ما قال رسول الله لا يعارض بقول غيره، وهو لا يقول إلا الحق، وهو لم يأمر عائشة بالاستعاذة منه عند كسوفه، بل مع ظهوره، وقد قال الله تعالى: (وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة) [الإسراء: (١٢)] - فالقمر آية الليل، وكذلك النجوم إنما تطلع فترى بالليل، فأمره بالاستعاذة من ذلك أمر بـالاستعاذة من آية الليل ودليله وعلامته، والدليل مستلزم للمدلول، فإذا كان شر القمر موجودا فشر الليل موجود، وللقمر من التأثير ما ليس لغيره، فتكون الاستعاذة من الشر الحاصل عنه أقوى، ويكون هذا كقوله عن المسجد المؤسس على التقوى: «هو مسجدي هذا» - مع أن الآية تتناول مسجد قباء قطعا - وكذلك قوله عن أهل الكساء: «هؤلاء أهل بيتي» - مع أن القرآن يتناول نساءه، فالتخصيص لكون المخصوص أولى بالوصف، فالقمر أحق ما يكون بالليل بالاستعاذة» - ووافقه ابن القيم ((٣) / (٤٠٦)، (٤٠٧)) - وذكر ابن كثير ((١٤) / (٥٢٥)) نحو هذا مختصرا - .

(ومن شر النفاثات في العقد (٤))

(٨٥٦٧٠) - عن عبد الله بن عباس، (ومن شر النفاثات)، قال: الساحرات عزاه السيوطي إلى ابن المنذر - .

" (١).

"(٩٧٣٣) - عن ابن الزبير، قلت لعثمان بن عفان: (والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا) قد نسختها الآية الأخرى، فلم تكتبها؟ أو: تدعها؟ قال: يا ابن أخي، لا أغير شيئا منه من مكانه أخرجه البخاري (ت:

---

(١) موسوعة التفسير المأثور ٤٤/١٧٨

مصطفى البغا) كتاب التفسير - باب (والذين يتوفون منكم ويذرون -) (٤) / (١٦٤٦) ((٤٥٣٠))، وابن أبي حاتم (٢) / (٤٥٣) ((٢٣٩٨)) - علق ابن كثير ((٢) / (٤١٠)) على هذا الأثر، فقال: «ومعنى هذا الإشكال الذي قاله ابن الزبير لعثمان: إذا كان حكمها قد نسخ بالأربعة الأشهر، فما الحكمة في إبقاء رسمها مع زوال حكمها، وبقاء رسمها بعد التي نسختها يوهم بقاء حكمها؟ فأجابه أمير المؤمنين بأن هذا أمر توقيفي، وأنا وجدتها مثبتة في المصحف كذلك بعدها؛ فأثبتها حيث وجدتها» - .

(٩٧٣٤) - عن جابر بن عبد الله - من طريق أبي الزبير - قال: ليس للمتوفى عنها زوجها نفقة، حسبها الميراث أخرجه الشافعي (٢) / (١٠٠) ((١٧١) - شفاء العي)، وعبد الرزاق في مصنفه ((١٢٠٨٥)، (١٢٠٨٦)) - .

(وللمطلقات متاع بالمعروف حقا على المتقين)

نزول الآية

(٩٧٣٥) - عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم - من طريق ابن وهب - قال: لما نزل قوله: (متاعا بالمعروف حقا على المحسنين) [البقرة: (٢٣٦)] قال رجل: إن أحسنت فعلت، وإن لم أرد ذلك لم أفعل - فأنزل الله: (وللمطلقات متاع بالمعروف حقا على المتقين) أخرجه ابن جرير (٤) / (٤١١) - (٤١٢) - ذكر ابن جرير ((٤) / (٤١١)) أن أثر ابن زيد يفيد إيجاب المتعة، وعلق عليه ابن عطية ((١) / (٦٠٨)) بقوله: «وهذا من إيجاب الطبري، لا من لفظ ابن زيد» - .

تفسير الآية

(٩٧٣٦) - عن جابر بن عبد الله، قال: لما طلق حفص بن المغيرة امرأته فاطمة أتت النبي - صلى الله عليه وسلم -، فقال لزوجها: «متعها» - قال: لا أجد ما أمتعها - قال: «فإنه لا بد من المتاع، متعها ولو نصف صاع من تمر» أخرجه البيهقي في الكبرى (٧) / (٤٢٠) ((١٤٤٩٣)) واللفظ له، والخطيب في تاريخه (٤) / (١٢٢) ((١٣٠٢)) في ترجمة محمد بن علي بن سهيل العطار - .

(٩٧٣٧) - ". [1]

"لفحشائكم، (وفضلا) لفقركم أخرجه ابن جرير (٥) / (٦)، وابن أبي حاتم (٢) / (٥٣٠) - (٥٣١) - وعزاه السيوطي إلى عبد بن حميد - قال ابن جرير ((٥) / (٥)) مستندا إلى أقوال السلف في تأويل

---

(١) موسوعة التفسير المأثور ٥/٣٥٥

الآية: «يعني بذلك - تعالى ذكره - : الشيطان يعدكم أيها الناس بالصدقة وأدائكم الزكاة الواجبة عليكم في أموالكم أن تفتقروا، (ويأمركم بالفحشاء) يعني: ويأمركم بمعاصي الله ، وترك الصلاة وطاعته، (والله يعدكم مغفرة منه) يعني: أن الله يعدكم - أيها المؤمنون - أن يستر عليكم فحشاءكم بصفحه لكم عن عقوبتكم عليها، فيغفر لكم ذنوبكم بالصدقة التي تتصدقون، (وفضلا) يعني: ويعدكم أن يخلف عليكم من صدقاتكم، فيفضل عليكم من عطاياه، ويسبغ عليكم في أرزاقكم» - .

(١٠٩٦٠) - عن مقاتل بن حيان - من طريق بكير بن معروف - : قوله: (والله يعدكم مغفرة منه) لذنوبكم عند الصدقة، (وفضلا) يعني: أن يخلفكم نفقاتكم أخرجه ابن أبي حاتم (٢) / (٥٣١) - .

(١٠٩٦١) - قال مقاتل بن سليمان: (والله يعدكم) عند الصدقة (مغفرة منه) لذنوبكم، (و) يعدكم (فضلا) يعني: الخلف من صدقتكم، فيجعل لكم الخلف بالصدقة في الدنيا ويغفر لكم الذنوب في الآخرة، (والله واسع) لذلك الفضل، (عليم) بما تنفقون - وذلك قوله سبحانه في التغابن [(١٧)]: (إن تقرضوا الله قرضا حسنا) يعني به: الصدقة، محتسبا طيبة بها نفسه؛ (يضاعفه لكم) في الدنيا، (ويغفر لكم) بالصدقة في الآخرة تفسير مقاتل بن سليمان (١) / (٢٢٣) - .

آثار متعلقة بالآية

(١٠٩٦٢) - عن خالد الربعي، قال: عجبت لثلاث آيات ذكرهن الله في القرآن: (ادعوني أستجب لكم) [غافر: (٦٠)]، ليس بينهما حرف، وكانت إنما تكون لنبي، فأباحها الله لهذه الأمة - والثانية - قف عندها ولا تعجل - : (اذكروني أذكركم) [البقرة: (١٥٢)]، فلو استقر يقينها في قلبك ما جفت شفتاك، والثالثة: (الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا) عزاه السيوطي إلى ابن المنذر - .

(يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر إلا أولوا الألباب) (١) ".

"(١٠٩٦٣) - عن عبد الله بن عباس - من طريق جويبر، عن الضحاك - مرفوعا: (يؤت الحكمة)، قال: «القرآن»، يعني تفسيره.=

(١) موسوعة التفسير المأثور ٧١/٦

(١٠٩٦٤) - قال ابن عباس: فإنه قد قرأه البر والفاجر أخرجه ابن مردويه - كما في تفسير ابن كثير (١) / (٧٠٠) - وغيره، من طريق جويبر، عن الضحاك بن مزاحم مرسلا - إسناده ضعيف جدا؛ جويبر هو ابن سعيد، أبو القاسم الأزدي البلخي، قال الدارقطني وابن الجنيد والنسائي: «متروك» - وقال ابن معين: «ليس بشيء» - وقال ابن المديني: «أكثر على الضحاك، روى عنه أشياء مناكير» - وقال السيوطي في الإتقان (٢) / (٤٩٨): «رواية جويبر عن الضحاك أشد ضعفا؛ لأن جويبرا شديد الضعف متروك» - تنظر ترجمته في: تهذيب الكمال للمزي (٥) / (١٦٩) - .

(١٠٩٦٥) - عن أبي الدرداء - من طريق لقمان بن عامر - (يؤت الحكمة)، قال: قراءة القرآن، والفكرة فيه أخرجه ابن أبي حاتم (٢) / (٥٣٣) - .

(٦٦9١٠) - عن عبد اللہ بن عباس - من طريق علي بن أبي طلحة - في قوله: (يؤتي **الحكمة من** يشاء)، قال: المعرفة بالقرآن؛ ناسخه ومنسوخه، ومحكمه ومتشابهه، ومقدمه ومؤخره، وحلاله وحرامه، وأمثاله أخرجه ابن جرير (٥) / (٨)، (٩)، وابن أبي حاتم (٢) / (٥٣١)، والنحاس في ناسخه ص (٥٠) - وعزاه السيوطي إلى ابن المنذر - .

(١٠٩٦٧) - عن عبد الله بن عباس، (يؤت الحكمة)، قال: القرآن عزاه السيوطي إلى ابن الضريس - .

(١٠٩٦٨) - عن عبد الله بن عباس، (يؤتي **الحكمة من** يشاء)، قال: النبوة عزاه السيوطي إلى ابن المنذر - .

(١٠٩٦٩) - عن عبد الله بن عباس - من طريق ابن جريج - (يؤت الحكمة)، قال: الفقه في القرآن أخرجه ابن جرير (٥) / (١٠) - وعزاه السيوطي إلى ابن المنذر - .

(١٠٩٧٠) - عن أبي العالية - من طريق شعيب بن الحبحاب - (يؤت الحكمة)، قال: الكتاب، والفهم به أخرجه ابن جرير (٥) / (٩) - .

(١) ".

"(١٠٩٧١) - عن أبي العالية - من طريق الربيع - (يؤت الحكمة)، قال: الخشية؛ لأن خشية الله رأس كل حكمة - وقرأ: (إنما يخشى الله من عباده العلماء) [فاطر: (٢٨)] أخرجه ابن أبي حاتم (٢) / (٥٣١) - .

(١٠٩٧٢) - عن إبراهيم النخعي - من طريق أبي حمزة - (يؤتي الحكمة)، قال: الفهم بالقرآن أخرجه الدارمي في سننه (٣) / (٢١٠٠) ((٣٣٧٦))، وابن جرير (٥) / (١١)، وابن أبي حاتم (٢) / (٥٣٢) كلاهما مقتصرا على لفظ: الفهم - .

(١٠٩٧٣) - عن مجاهد بن جبر - من طريق ليث - (يؤتي الحكمة من يشاء)، قال: ليست بالنبوة، ولكنه القرآن، والعلم، والفقه أخرجه ابن جرير (٥) / (٩)، وابن أبي حاتم (٢) / (٥٣١) - وعزاه السيوطي إلى عبد بن حميد - .

(١٠٩٧٤) - عن مجاهد بن جبر - من طريق ورقاء، عن ابن أبي نجيح - (يؤتي الحكمة)، قال: الكتاب، يؤتي إصابته من يشاء تفسير مجاهد ص (٢٤٥) - وأخرجه الدارمي في سننه (٣) / (٢١٠٠) ((٣٣٧٧))، وابن جرير (٥) / (١٠) من طريق شبل عن ابن أبي نجيح - وعزاه السيوطي إلى عبد بن حميد - وعند ابن جرير (٥) / (١٠) من طريق عيسى عن ابن أبي نجيح نحوه، دون قوله: الكتاب - .

(١٠٩٧٥) - عن مجاهد بن جبر - من طريق سفيان، عن ابن أبي نجيح - (يؤتي الحكمة)، قال: الإصابة في القول أخرجه ابن أبي حاتم (٢) / (٥٣٢)، كما أخرجه ابن جرير (٥) / (١٠) بلفظ: الإصابة - وعزاه السيوطي إلى عبد بن حميد - .

(١٠٩٧٦) - عن الضحاك بن مزاحم: (يؤتي الحكمة)، قال: القرآن عزاه السيوطي إلى عبد بن حميد -

---

(١) موسوعة التفسير المأثور ٧٢/٦

.

(١٠٩٧٧) - وقال الضحاك بن مزاحم: القرآن، والفهم فيه - وقال: في القرآن مائة وتسع آيات ناسخة ومنسوخة، وألف آية حلال وحرام، لا يسع المؤمنين تركهن حتى يتعلموهن فيعلمونهن، ولا تكونوا كأهل نهروان، تأولوا آيات من القرآن في أهل القبلة، وإنما أنزلت في أهل الكتاب، جهلوا علمها؛ فسفكوا بها الدماء، وانتهبوا الأموال، وشهدوا علينا بالضلالة، فعليكم بعلم القرآن؛ فإنه من علم فيم أنزل الله لم يختلف في شيء منه تفسير الثعلبي (٢) / (٢٧١)، وتفسير البغوي (١) / (٣٣٤).، نفع وانتفع به.

(١٠٩٧٨) - ". [1]

"عن أبي مالك غزوان الغفاري - من طريق السدي - قوله: (الحكمة)، قال: السنة أخرجه ابن أبي حاتم (٢) / (٥٣٢) - .

(١٠٩٧٩) - عن الحسن البصري - من طريق الحسن بن دينار - (ومن يؤت الحكمة)، قال: الورع أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب الورع - موسوعة ابن أبي الدنيا (١) / (١٩٨) ((١٩)) ، والأصبهاني في الترغيب والترهيب (٢) / (٢٣٨) ((٢٥٠٠)) - وينظر: تفسير الثعلبي (٢) / (٢٧١)، وتفسير البغوي (١) / (٣٣٤) - .

(١٠٩٨٠) - قال: عطاء: المعرفة بالله تفسير الثعلبي (٢) / (٢٧١) - .

(١٠٩٨١) - عن قتادة بن دعامة - من طريق معمر - في قوله: (يؤتي **الحكمة من** يشاء)، قال: الحكمة: القرآن، والفقه في القرآن أخرجه عبد الرزاق (١) / (١٠٩)، وابن جرير (٥) / (٩) - .

(١٠٩٨٢) - عن قتادة بن دعامة - من طريق يزيد بن زريع، عن سعيد - (يؤت الحكمة)، قال: الفقه في القرآن أخرجه ابن جرير (5) / (٩) - وعزاه السيوطي إلى عبد بن حميد - .

---

(١) موسوعة التفسير المأثور ٧٣/٦

(١٠٩٨٣) - عن قتادة بن دعامة - من طريق عبد الوهاب، عن سعيد - في قوله: (ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا)، قال: قراءة القرآن ظاهرا - وفي رواية: القرآن أخرجه ابن أبي حاتم (٢) / (٥٣٣) - .

(١٠٩٨٤) - عن مكحول - من طريق كوثر بن حكيم - قال: إن القرآن جزء من اثنين وسبعين جزءا من النبوة، وهو الحكمة التي قال الله: (ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا) أخرجه ابن أبي حاتم (٢) / (٥٣٤) - .

(١٠٩٨٥) - عن إسماعيل السدي - من طريق أسباط - قوله: (يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة) الآية، قال: الحكمة هي النبوة أخرجه ابن جرير (٥) / (١٢)، وابن أبي حاتم (٢) / (٥٣٢) - .

(١٠٩٨٦) - عن مطر الوراق - من طريق جعفر بن سليمان الضبعي - في قوله: (ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا)، قال: بلغنا: أن الحكمة خشية الله، والعلم بالله أخرجه ابن أبي حاتم (٢) / (٥٣٣) - .

(١٠٩٨٧) - ." (١)

"عن مالك بن أنس - من طريق ابن وهب - قال: قال زيد بن أسلم: إن الحكمة العقل.=

(١٠٩٨٨) - قال مالك لم ترد عبارة: «قال مالك» في المطبوع من الدر المنثور، فصار موصولا من قول زيد بن أسلم! ولم يذكر السيوطي مصدرا سوى تفسير ابن أبي حاتم، وهي مثبتة في المطبوع منه، وكذا النسخة المحققة المرقومة بالآلة الكاتبة ص (١٠٩٨) - وهو أشبه بقول مالك الذي سيأتي، مما يدل على أنه من قوله، ويؤيده إخراج ابن وهب لكلام زيد بن أسلم من طريق ابنه عبد الرحمن دون ذكر قول مالك.: وإنه ليقع في قلبي أن الحكمة: الفقه في دين الله، وأمر يدخله الله القلوب من رحمته وفضله، ومما يبين

---

(١) موسوعة التفسير المأثور ٧٤/٦

ذلك أنك تجد الرجل عاقلا في أمر الدنيا إذا نظر فيها، وتجد آخر ضعيفا في أمر دنياه، عالما بأمر دينه، بصيرا به، يؤتيه الله إياه، ويحرمه هذا؛ فالحكمة: الفقه في دين الله أخرجه ابن أبي حاتم (٢) / (٥٣٢) - كما أخرج قول زيد بن أسلم ابن وهب في الجامع - تفسير القرآن (٢) / (١٦٠) ((٣٣٥)) من طريق عبد الرحمن بن زيد بن أسلم بلفظ: الحكمة: العقل في الدين - .

(١٠٩٨٩) - عن الربيع بن أنس - من طريق أبي جعفر - في قوله: (يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة) الآية، قال: الحكمة: الخشية؛ لأن رأس كل شيء خشية الله - وقرأ: (إنما يخشى الله من عباده العلماء) [فاطر: (٢٨)] أخرجه ابن جرير (٥) / (١٠) - .

(١٠٩٩٠) - عن مقاتل بن حيان - من طريق جعفر بن سلم السمرقندي - في قوله: (ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا)، قال: قراءة القرآن ظاهرا أخرجه ابن أبي حاتم (٢) / (٥٣٣) ((٢٨٣٢)) - .

(١٠٩٩١) - عن علي بن الحسن، قال: سمعت الحسين بن واقد: (ومن يؤت الحكمة)، قال: استظهار القرآن أخرجه ابن أبي حاتم (٢) / (٥٣٣) ((٢٨٣٥)) - .

(١٠٩٩٢) - عن أبي سنان [سعيد بن سنان البرجمي] - من طريق عبيد الله بن حمزة بن إسماعيل، عن أبيه - : في قوله: (ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا)، قال: النبوة أخرجه ابن أبي حاتم (٢) / (٥٣٤) ((٢٨٤٠)) - .

(١٠٩٩٣) - عن ابن وهب، قال: قلت لمالك: وما الحكمة؟ قال: المعرفة بالدين، والفقه فيه، والاتباع له أخرجه ابن جرير (٥) / (١٠) - .

(١٠٩٩٤) - عن مالك بن أنس - من طريق ابن وهب - قال: العلم: الحكمة، نور يهدي الله به من يشاء، وليس بكثرة المسائل أخرجه ابن أبي حاتم (٢) / (٥٣٤) ((٢٨٣٧)) - .

(١) ".

"(١٠٩٩٥) - قال مقاتل بن سليمان: (يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة) يقول: ومن يعط الحكمة وهي علم القرآن والفقه فيه (فقد أوتي خيرا كثيرا) يقول: فقد أعطي خيرا كثيرا، (وما يذكر) فيما يسمع (إلا أولوا الألباب) يعني: أهل اللب والعقل تفسير مقاتل بن سليمان (١) / (٢٢٣) - .

(١٠٩٩٦) - عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم - من طريق ابن وهب - قال: الحكمة: العقل في الدين - وقرأ: (ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا) أخرجه ابن جرير (٥) / (١٠) - وجه ابن جرير ((٥) / (١٢))، وابن عطية ((٢) / (٧٩)) الأقوال المتعددة في بيان الحكمة بأنها تفسير بجزء المعنى - فقال ابن جرير - بعد أن فسر الحكمة بالإصابة في القول والفعل - : «إذا كان ذلك كذلك معناه؛ كان جميع الأقوال - التي قالها القائلون الذين ذكرنا قولهم في ذلك - داخلا فيما قلنا من ذلك؛ لأن الإصابة في الأمور إنما تكون عن فهم بها وعلم ومعرفة، وإذا كان ذلك كذلك كان المصيب عن فهم منه بمواضع الصواب في أموره فهما خاشيا لله فقيها عالما، وكانت النبوة من أقسامه؛ لأن الأنبياء مسددون مفهمون، وموفقون لإصابة الصواب في بعض الأمور، والنبوة بعض معاني الحكمة» - وقال ابن عطية: «وهذه الأقوال كلها - ما عدا قول السدي - قريب بعضها من بعض؛ لأن الحكمة مصدر من الإحكام، وهو الإتقان في علم أو قول، وكتاب الله حكمة، وسنة نبيه حكمة، وكل ما ذكر فهو جزء من الحكمة التي هي الجنس» - وذهب ابن كثير ((٢) / (٤٧١) - (٤٧٢)) إلى قريب من ذلك، فقال: «والصحيح أن الحكمة - كما قال الجمهور - لا تختص بالنبوة، بل هي أعم منها، وأعلاها النبوة، والرسالة أخص، ولكن لأتباع الأنبياء حظ من الخير على سبيل التبع، كما جاء في بعض الأحاديث: «من حفظ القرآن فقد أدرجت النبوة بين كتفيه، غير أنه ل۱ يوحى إليه»» - .

آثار متعلقة بالآية

(١٠٩٩٧) - عن ابن مسعود، قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته أي: إهلاكه، أي: إنفاقه - فتح الباري (١٣) / (١٢٠) - في الحق،

---

(١) موسوعة التفسير المأثور ٧٥/٦

ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها» أخرجه البخاري (١) / (٢٥) ((٧٣))، (٢) / (١٠٨) ((١٤٠٩))، (٩) / (٦٢) ((٧١٤١))، (٩) / (١٠٢) ((٧٣١٦))، ومسلم (١) / (٥٥٩) ((٨١٦)) -

.

". (١)

"(١١٠٠٢) - عن مكحول، قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : «من أخلص لله أربعين يوما تفجرت ينابيع **الحكمة من** قلبه على لسانه» أخرجه هناد بن السري في الزهد (٢) / (٣٥٧) - قال الزركشي في التذكرة في الأحاديث المشتهرة ص (١٣٧): «هذا رواه أحمد وغيره عن مكحول عن النبي - صلى الله عليه وسلم - مرسلا، وروي مسندا من حديث يوسف بن عطية، عن ثابت، عن أنس، ويوسف ضعيف لا يحتج به» - وقال شيخ الاسلام ابن تيمية في أحاديث القصاص ص (٧٣): «هذا قد رواه الإمام أحمد وغيره عن مكحول عن النبي - صلى الله عليه وسلم - مرسلا، وروي مسندا من حديث يوسف بن عطية الصفار، عن ثابت، عن أنس - ويوسف ضعيف لا يجوز الاحتجاج بحديثه» - وقال العجلوني في كشف الخفاء (٢) / (٢٦٤) ((٢٣٦١)): «وروي مسندا من حديث ابن عطية، عن ثابت، عن أنس بسند فيه يوسف ضعيف، لا يحتج به» - .

(١١٠٠٣) - عن أبي أيوب الأنصاري - من طريق مكحول - ، نحوه مرفوعا أخرجه أبو نعيم في الحلية (٥) / (١٨٩) - قال السيوطي في الدر (٣) / (٢٩٥): «أخرجه أبو نعيم في الحلية موصولا» - وقال ابن الجوزي في الموضوعات (٣) / (١٤٤) - (١٤٥): «هذا حديث لا يصح عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - » - وقال السخاوي في المقاصد الحسنة ص (٦٢٠) ((١٠٥٤)): «سنده ضعيف» - وقال السيوطي في اللآلئ المصنوعة (٢) / (٢٧٦): «لا يصح» - وقال ابن عراق في تنزيه الشريعة (٢) / (٣٠٥) ((٧٢)): «ولا يصح فيه» - وقال المناوي في التيسير بشرح الجامع الصغير (٢) / (٣٩١): «إسناد ضعيف، بل قيل بوضعه» - وقال العجلوني في كشف الخفاء (٢) / (٢٦٤) ((٢٣٦١)): «بسند ضعيف» - وقال الألباني في الضعيفة (١) / (١١١) ((٣٨)): «ضعيف» - .

---

(١) موسوعة التفسير المأثور ٧٦/٦

(١١٠٠٤) - عن حميد بن عبد الله بن زيد المزي، قال: قضى علي بن أبي طالب بقضية على عهد رسول الله - صلى اللہ عليه وسلم - ، فبلغت النبي - صلى الله عليه وسلم - ، فأعجبته، فقال: «الحمد لله الذي جعل فينا الحكمة أهل البيت» أخرجه أحمد في فضائل الصحابة (٢) / (٦٥٤) ((١١١٣))، وابن أبي حاتم (٢) / (٥٣٢) - (٥٣٣) ((٢٨٣٠))، من طريق مالك بن سليمان، عن إسماعيل بن عياش، عن صفوان بن عمر، عن حميد بن عبد الله، عن علي به - في إسناده مالك بن سليمان، وهو أبو أنس الحمصي، ذكره ابن حبان في الثقات (٩) / (١٦٥)، وضعفه محمد بن عوف كما في تاريخ بغداد (١٥) / (٢٠٦)، وتاريخ الإسلام (١٧) / (٣٠٦)، وبقية رجاله موثقون - .

(١١٠٠٥) - عن سعيد بن جبير، قال: الخشية حكمة، من خشي الله فقد أصاب أفضل الحكمة عزاه السيوطي إلى ابن المنذر - .

(١١٠٠٦) - عن عروة بن الزبير، قال: كان يقال: الرفق رأس الحكمة عزاه السيوطي إلى ابن المنذر - .

(١١٠٠٧) - عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم - من طريق ابن وهب - قال: مںهم من يؤتى حكمته في لسانه ولا يؤتى حكمته في قلبه، ومنهم من يؤتى حكمته في قلبه ولا
". (١)

"يؤتى في لسانه، ليس في القلب منها شيء يعمل به، فالعمل لا يصدق ما ينطق به اللسان، والذي يؤتى الحكمة في قلبه ولا يؤتاها في لسانه يعمل بما جعل الله له في قلبه من الحكمة، وإذا لم يؤتاها بلسانه لم تبلغ عنه، فهذا ينفع نفسه ولا ينفع غيره، والثالث يعمل بما جعل الله في قلبه من الحكمة عمل الحكماء، وينطق بما جعل الله في لسانه من الحكمة منطق الحكماء، ينفع به نفسه وغيره، الذي ينطق به اللسان دليل على ما في القلب، والذي عمل به الذي في القلب من الحكمة مصدق للذي نطق به أخرجه ابن أبي حاتم (٢) / (٥٣٤) - .

---

(١) موسوعة التفسير المأثور ٧٨/٦

(١١٠٠٨) – عن خالد بن ثابت الربعي، قال: وجدت فاتحة زبور داود: إن رأس الحكمة خشية الرب أخرجه أحمد في الزهد ص (٧٣) – وقد أورد السيوطي (٣) / (٢٩١) – (٢٩٩) عقب تفسير هذه الآية أحاديث وآثارا عديدة في فضل قراءة القرآن، وتعلمه، والتغني به، والتفقه في الدين، وغير ذلك – .

(وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فإن الله يعلمه وما للظالمين من أنصار)

(١١٠٠٩) – عن مجاهد بن جبر – من طريق ابن أبي نجيح – في قوله: (وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فإن الله يعلمه)، قال: يحصيه أخرجه ابن جرير (٥) / (١٣)، وابن أبي حاتم (٢) / (٥٣٥) – وعزاه السيوطي إلى عبد بن حميد، وابن المنذر – قال ابن جرير ((٥) / (١٣)) في تأويل الآية: «يعني بذلك – جل ثناؤه – : وأي نفقة أنفقتم، يعني: أي صدقة تصدقتم، أو أي نذر نذرتم؛ يعني بالنذر: ما أوجبه المرء على نفسه تبررا في طاعة الله، وتقربا به إليه، من صدقة أو عمل خير، (فإن الله يعلمه) أي: أن جميع ذلك بعلم الله، لا يعزب عنه منه شيء، ولا يخفى عليه منه قليل ولا كثير، ولكنه يحصيه أيها الناس عليكم حتى يجازيكم جميعكم على جميع ذلك، فمن كانت نفقته منكم وصدقته ونذره ابتغاء مرضاة الله وتثبيتا من نفسه جازاه بالذي وعده من التضعيف، ومن كانت نفقته وصدقته رياء الناس ونذره للشيطان جازاه بالذي أوعده من العقاب وأليم العذاب» – مستندا إلى قول مجاهد، ولم يورد غيره – .

." (١)

"(١٣٥٢٠) – عن عطاء الخراساني – من طريق يونس بن يزيد – في قول الله : (كونوا ربانيين)، قال: كونوا فقهاء، علماء أخرجه أبو جعفر الرملي في جزئه ص (١٠١) — (تفسير عطاء الخراساني) – وعلقه ابن أبي حاتم (٢) / (٦٩٢) – .

(١٣٥٢١) – قال مقاتل بن سليمان: (ولكن) يقول لهم: (كونوا ربانيين)، يعني: متعبدين لله تفسير مقاتل بن سليمان (١) / (٢٨٦) – .

(١٣٥٢٢) – عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم – من طريق ابن وهب – قال: الربانيون: الذين يربون الناس، ولاة هذا الأمر، يربونهم: يلونهم – وقرأ: (لولا ينهاهم الربانيون والأحبار) [المائدة: (٦٣)]، قال: الربانيون: الولاة، والأحبار: العلماء أخرجه ابن جرير (٥) / (٥٢٩) – اختلف في نسبة رباني، هل هي إلى الرب، من حيث هو العامل بطاعته، المعلم للناس ما أمر به؟، أم أن الرباني منسوب إلى الربان، وهو معلم

(١) موسوعة التفسير المأثور ٧٩/٦

الناس، وعالمهم السائس لأمرهم، مأخوذ من رب يرب إذا أصلح وربى، ثم نسب إليه رباني؟، وهو ما رجحه ابن جرير ((٥) / (٥٢٩) - (٥٣٠)) مستندا إلى اللغة، فقال: "وأولى الأقوال عندي بالصواب في الربانيين: أنهم جمع رباني، وأن الرباني المنسوب إلى الربان - ، ومن ذلك قول علقمة بن عبدة: فكنت امرأ أفضت إليك ربابتي - وقبلك ربتني فضعت ربوب" - واختلف المفسرون في صفة من يستحق أن يقال له: رباني، وجمع ابن جرير ((٥) / (٥٣٠) - (٥٣١)) بين الأقوال الواردة باندراجها تحت عموم اللفظة؛ إذ العالم بالفقه والحكمة من المصلحين، وكذا التقي والحكيم، والوالي الذي يلي أمور الناس بما فيه الخير في دنياهم وأخراهم - وجمع ابن عطية ((٢) / (٢٦٩)) بين الأقوال الواردة في صفة الرباني، فقال: «وجملة ما يقال في الرباني: إنه العالم بالرب والشرع، المصيب في التقدير من الأقوال والأفعال التي يحاولها في الناس» -

.

(بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون)

(١٣٥٢٣) - عن أبي رزين [مسعود بن مالك الأسدي] - من طريق منصور بن المعتمر - في قوله: (وبما كنتم تدرسون)، قال: مذاكرة الفقه، كانوا يتذاكرون الفقه كما نتذاكره نحن أخرجه ابن أبي حاتم (٢) / (٦٩٢) - (٦٩٣) - .

". (١)

"(١٨٧٠٨) - عن أبي هريرة، أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: «لا يجتمع في جوف عبد الإيمان، والحسد» أخرجه النسائي (٦) / (١٢) ((٣١٠٩))، وابن حبان (١٠) / (٤٦٦) ((٤٦٠٦)) من طريق الليث، عن ابن عجلان، عن سهيل بن أبي صالح، عن أبيه، عن أبي هريرة به - إسناده حسن، وقد أخرجه الحاكم في المستدرك (٢) / (٨٢) بنفس الإسناد، بلفظ: «الإيمان والشح» - وقال: «صحيح على شرط مسلم» - .

(١٨٧٠٩) - عن عثمان بن أبي شيبة، قال: سمعت سفيان بن عيينة يقول: قال الله - تبارك وتعالى - : الحاسد عدو لنعمتي، متسخط لقضائي، غير راض لي بالقسم الذي قسمت له أخرجه ابن أبي حاتم (٣) / (٩٧٨) - .

(فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة)

---

(١) موسوعة التفسير المأثور ٧/٣٠١

(١٨٧١٠) - عن عبد الله بن عباس - من طريق عكرمة - في قوله: (الكتاب)، قال: الخط؛ القلم أخرجه ابن أبي حاتم (٣) / (٩٧٩(- .
(11١٨٧) - عن سعيد بن جبير - من طريق أبي بكر الهذلي - في قوله : (الكتاب والحكمة)، قال: الكتاب: القرآن - والحكمة: السنة أخرجه ابن المنذر (٢) / (٧٥٥) - .
(١٨٧١٢) - عن الحسن البصري - من طريق أبي بكر الهذلي - ، مثله أخرجه ابن المنذر (٢) / (٧٥٥)، وابن أبي حاتم (٣) / (٩٧٩) - ذكر ابن جرير ((٧) / (١٥٨)) أن المراد بالكتاب هنا: «كتاب الله الذي أوحاه إليهم، وذلك كصحف إبراهيم وموسى والزبور، وسائر ما آتاهم من الكتب - وأما الحكمة فما أوحى إليهم مما لم يكن كتابا مقروءا» - ولم يورد من آثار السلف إلا قول السدي في معنى الحكمة - بينما أعاد ابن المنذر وابن أبي حاتم ذكر ما تقدم من معنى الكتاب والحكمة في قوله تعالى: (ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة) [البقرة: (١٢٩)]، ونحوها من الآيات الواردة في نبينا محمد - صلى الله عليه وسلم - ، أو في قوله تعالى عن عيسى : (ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل) [آل عمران: (٤٨)] - وظاهر أن بعض تلك المعاني قد يشكل في سياق هذه الآية - .
(١٨٧١٣) - عن أبي مالك غزوان الغفاري، نحو ذلك علقه ابن أبي حاتم (٣) / (٩٧٩) - .
". (١)

"مجرد تفسير يشرح المفردات والجمل، وينقل ما جاء فيها من المأثور والأقوال، بل يعلم القارئ لكتاب الله كيف يتفكر، ويقف عند كل لفظ ويتدبر، ويستنبط من كل عبارة، باحثا فيها ومقارنا بين معانيها، ومنقرا - عند اتحاد الموضوع - عن سبب الاختلاف بين لفظ وآخر، أو بين جملة وقرينتها.

وبمعنى آخر هو تفسير يجعل القارئ لكتاب الله يقرأ بعيون الجيل الأول، ويفهم المعاني كما فهموها، ويتدبر الإشارات والدلالات كما تدبروها، ويتلمس عظمة هذا الكتاب كما تلمسوها، فيعيش في ظلاله كما عاشوا، ويغوص في أعماقه كما غاصوا، ويسترشد به كما استرشدوا، فيزداد به إيمانا، وبدينه يقينا، بعد أن رأى وفهم، ولمس وعلم، أعظم معجزة أوتيها نبي هذه الأمة.

---

(١) موسوعة التفسير المأثور ٤٦٧/٩

ومن الأساليب التي اتبعها المؤلف للوصول إلى هذا الغرض: التنبيه على الحكمة من استعمال لفظ دون آخر، أو تقديم لفظ على آخر، أو الاقتصار على لفظ دون غيره، وقد جمع كل ذلك في تفسير قوله تعالى: {ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب} [النساء: ٧٤] فمن منا لم يقرأ هذه الآية مئات المرات، ولم يفهم - إن كان قد فهم - من قوله تعالى: {فيقتل أو يغلب} أكثر من النصر أو الشهادة، لكن انظر ما ذكر المؤلف فيها، حيث قال: (لم يقل: فيغلب أو يغلب؛ إذ حينئذ يندرج في الأول الفار من الزحف ولا أجر له، ولم يقل: فيقتل أو يقتل؛ للتنبيه على أنه يستحق الأجر بالغلبة قتل أو لم يقتل، وعلى أن حقه أن لا يقصد بالذات إلى القتل، بل إلى إعلاء الحق وإعزاز الدين، وتقديم الأول للدلالة على أنه أولى وأحق بالأجر، والاقتصار

الجزء: المقدمة - الصفحة: ١٩

عليهما للتنبيه على أن حق المجاهد أن يثبت في المعركة ولا يفر حتى يعز نفسه بالشهادة أو الدين بالظفر والغلبة).." (١)

"وقريب من هذا تنبيهه على استعمال لفظ الرب دون غيره في قوله تعالى: {فمن جاءه موعظة من ربه} [البقرة: ٢٧٥] حيث قال: (وفي عبارة الرب إيماء إلى أنه تعالى يربي عبده بفضله بلا توقف على كسبه، كيف وقد رباه وهو جنين؟ فحقه أن لا يتجاوز في طلب المكسب عن حد الرخصة).

وعكسه: {فقالوا ربنا رب السماوات والأرض لن ندعو من دونه إلها} [الكهف: ١٤] قال: (لم يقل: (ربا) لأن جهة توحده تعالى ألوهية لا ربوبية).

ومن محاسن تنبيهاته تنبيهه على الحكمة من النداء بـ {يابني آدم} في قصة إبليس مع آدم، حيث قال: (لا يخفى على الفطن ما في هذا التعبير من الإشارة إلى أنهم مظنة الافتتان لكونهم ذرية من افتتن).

ومن ذلك قوله: (قال في صفة الحور: {كأنهن بيض مكنون} [الصافات: ٤٩] وفي صفة الولدان: {كأمثال

---

(١) تفسير ابن كمال باشا ٢٢/١

اللؤلؤ المكنون} [الواقعة: ٢٣]، وأشار بذلك إلى أن الحور للصحبة دون الولدان؛ لأن اللؤلؤ للنظر لا للذوق، والبيض لهما).

ومن أحسن الأمثلة على هذا المنهج قوله في تفسير قوله تعالى: {وما أنت علينا بعزيز: (وإيلاء الضمير حرف النفي لتقوية الحكم وتأكيده، كما في قوله تعالى: {وما هم بمؤمنين} [البقرة: ٨]، وتقديم: {علينا} لمحافظة الفاصلة، وزيادة الباء في {بعزيز} لتأكيد النفي، وتنكيره للتقليل؛ أي: ليس لك علينا شيء من جنس العزة).

الجزء: المقدمة - الصفحة: ٢٠

فكيف استنبط من عبارة مؤلفة من أربع كلمات أربع حكم وتعليلات، بكلام مقتضب واضح لا إخلال فيه ولا غموض، ولا شك أن ذلك نابع من اليقين بأن كتاب الله هو الكلام المعجز الذي ليس فيه حشو ولا تطويل.." (١)

"ولما كان قولهم: {لا علم لنا إلا ما علمتنا} من باب الشكر، أفادت الآية أن العبد ما ينبغي له أن يغفل عن نقصانه، وعن فضل الله وإحسانه.

* * *

(١) في "ح، و"ف" و"ك": (ما لا)، والمثبت من "د" و"م" وهو الصواب. (٢) في "م": (قلنا).

الجزء: ١ - الصفحة: ١٤٢

وفي وجه هذا الجواب من الحسن ما يبهر الألباب، حيث قدموا بين يديه تنزيه الله تعالي، ثم اعترفوا بالجهل، ثم نسبوا العلم لله تعالى، وأردفوا صفة العلم صفة الحكمة، إذ بان لهم وصف **الحكمة في** قوله: {إني

---

(١) تفسير ابن كمال باشا ٢٣/١

جاعل في الأرض خليفة}، وقدموا وصف العلم لأن الذي ظهرت به المزية لآدم هو العلم، ولأن الحكمة من آثاره.

{إنك أنت العليم الحكيم} سلب للعلم والحكمة عن أنفسهم بقصرهما عليه، وإنما قصروهما عليه بتوسيط الضمير، وإيراد اللام وصدروا الجملة بـ (إن) التوكيدي الرافع للشك والإنكار؛ لإيهام كلامهم بأن استخلاف آدم على خلاف مقتضى العلم والحكمة، ودعواهم العلم لأنفسهم، وشكهم في استحقاقه وإنكاره لمزيته (١) عليهم، فرجعوا عن ذلك وأقروا بأن ماهية العلم والحكمة مخصوصة به دون غيره، وأنه محقق عندهم.

و (الحكيم) فعيل بمعنى مفعل؛ أي: محكم لمبدعاته، وذلك لأنه لا يفعل إلا ما فيه حكمة بالغة.

(٣٣) - {قال ياآدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون}.

{قال ياآدم أنبئهم بأسمائهم} ناداه باسمه العلم، وكذا سائر الأنبياء ، وهو خطاب تعريف، ونادى محمدا : {يأيها النبي} [الأنفال: ٦٤] و: {يأيها الرسول} [المائدة: ٤١] وهو خطاب تشريف، فانظر تفاوت ما بين النداءين (٢)،

* * *." (١)

"كان السؤال عن السبب العادي لاختلاف القمر في زيادة النور ونقصانه، وأجيب على أسلوب الحكيم ببيان الحكمة في هذا الاختلاف؛ للتنبيه على أن المناسب لحال السائل أن يسأل عن ذلك لا عن السبب؛ لأنه ليس مما يطلع عليه بسهولة؛ لابتنائه على معرفة مسائل من دقائق علم الهيئة.

{وليس البر بأن تاتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى}؛ أي بر من اتقى،

---

(١) تفسير ابن كمال باشا ٢٧٣/١

* * *

(١) في هامش (ح) و (د) و (ف) و (م): "يعني لما كان السؤال عن الأحوال المختلفة لا عن الحالة المستمرة، وكان يطلق اسم الهلال عند كل حال من تلك الأحوال، جيء بلفظ الجمع تنبيها على أن السؤال كان عن الأحوال المختلفة له لا عن حالته المستمرة. منه". (٢) في النسخ عدا (د): (والغاية)، والمثبت من (د)، وهو الموافق لما في "تفسير الراغب" (١/ ٤٠١)، والكلام وما سيأتي بين معكوفتين منه. (٣) أي: معاملاتهم. انظر: "تفسير الراغب" (١/ ٤٠١)، و"البحر المحيط" (٣/ ٤١٩).

الجزء: ٢ - الصفحة: ٤٥

لما بين أنهم عكسوا الحال في السؤال عن حال الهلال، مثل حالهم في السؤال عما لا ينبغي بحالهم في الإحرام بالحج، وجريهم على خلاف ما يجب أن يكونوا عليه، وهو أن ناسا من الأنصار كانوا إذا أحرموا لم يدخلوا بيتا من البيوت من بابه، فإن كانوا من أهل المدر (١) نقبوا نقبا في ظهر بيتهم منه (٢) يدخلون ويخرجون، أو اتخذوا سلما يصعدون فيه وينزلون، وإن كانوا من أهل الوبر دخلوا وخرجوا (٣) من خلف الخباء، فقيل لهم: ليس البر بتحرجكم من دخول الباب، ولكن البر الاتقاء من محارم الله تعالى.." (١)

"قلت: بل تنتهي تلك الحرمة بالعقد، وتحدث حرمة أخرى هي أثره.

والجمهور على أنه لا بد من الإصابة؛ لحديث العسيلة (٣)؛ ويجوز به انتساخ حكم الغاية وإن كان ثبوته (٤) منطوقا لا مفهوما؛ لأنه حديث مشهور تلقته الأمة بالقبول.

ومنهم من دقق (٥) وقال: إن شرط الدخول ثابت بنص الكتاب؛ لأن المراد من التزوج الإصابة على أنها كناية عن حظها من الشرط المذكور (٦)، أو الكلام على

---

(١) تفسير ابن كمال باشا ١٢/٢

* * *

(١) في (ف): "كالزوج". (٢) انظر: "الإشراف" لابن المنذر (٥/ ٢٣٨)، وفيه: وأجمع عامة علماء الأمصار على القول بما ذكرناه (أي: أن المراد هنا بالنكاح الجماع)، إلا ما رويناه عن سعيد بن المسيب ... وكان سعيد بن المسيب من بين أهل العلم يقول: إذا تزوجها تزويجا صحيحا لا يريد به إحلالا، فلا بأس بأن يتزوجها الأول. ولا نعلم أحدا من أهل العلم قال بقول سعيد هذا إلا الخوارج، والسنة مستغنى بها عن كل قول. (٣) رواه البخاري (٢٦٣٩)، ومسلم (١٤٣٣)، من حديث عائشة . (٤) في (د): "ثبوتا". (٥) في (ك) و (م): "وفق". (٦) في هامش (ح) و (د) و (ف) و (م): "لا مجال لأن يراد بالتزوج الوطء؛ لأنه لا ينسب إلى المرأة نسبة الفعل إلى الفاعل، بخلاف الإصابة، ولا بد من المصير إلى الكناية حتى توجد الدلالة على الشرط المذكور. منه".

الجزء: ٢ - الصفحة: ١١٩

القلب؛ كقوله: أدخلت الخاتم في الإصبع، والمعنى: حتى ينكحها زوج آخر، ولا بد من المصير إلى أحد هذين الوجهين كيلا يضيع قوله: {زوجا}، **والحكمة في** هذا الحكم الردع عن التسرع إلى الطلاق.

{فإن طلقها}؛ أي: الزوج الثاني وانقضت العدة، وهذا القيد معلوم من موضع آخر، ولهذا لم يذكر، والفاء لتفريع صحة المراجعة بعد تطليقه إياها على ما تقدم من ثبوت التحليل بالتزويج به.." (١)

"ولما كان السابق إلى الفهم مما تقدم المؤاخذة بالعزائم على المناهي، دفعه بقوله:

{واعلموا أن الله غفور} لمن عزم ولم يفعل خشية من الله تعالى.

{حليم} لا يعاجل بالعقوبة، فلا تغتروا بعدم المؤاخذة بالعذاب عاجلا.

---

(١) تفسير ابن كمال باشا ٢/٨٠

* * *

* * *

(١) في (د): "العقدة". (٢) في (د): "عزيمة".

الجزء: ٢ - الصفحة: ١٣٤

(٢٣٦) - {لا جناح عليكم إن طلقتم النساء ما لم تمسوهن أو تفرضوا لهن فريضة ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعا بالمعروف حقا على المحسنين}.

{لا جناح عليكم} لا تبعة عليكم من إيجاب مهر ولزومه.

{إن طلقتم النساء ما لم تمسوهن} المس كناية عن الوطء؛ لأن حقيقة المس لا توجب المهر إذا لم توجد خلوة صحيحة.

{أو تفرضوا لهن فريضة} إما جزم عطف على {تمسوهن}؛ أي: أو لم تفرضوا لهن فريضة، أو نصب (١) بمعنى: إلا أن - أو: إلى أن - تفرضوا.

وفرض الفريضة: تعيين المهر، وهي بمعنى: المفروضة (٢) و {فريضة} نصب على المفعول به، فعيلة بمعنى مفعول، والتاء للنقل من الوصفية إلى الاسمية، ويحتمل المصدر (٣)، وإنما اعتبر القيدان المذكوران لأنه يجب مهر المثل في المس وإن لم يفرض لها شيء، ويجب نصف المسمى إذا طلقها وإن لم يمسها.

{ومتعوهن} عطف على مقدر، أي: فطلقوهن ومتعوهن؛ أي: ملكوهن ما يتمتعن به، ويسمى (٤) ذلك متعة، وأصل المتعة والمتاع: ما ينتفع به انتفاعا قليلا غير باق بل ينقضي عن قريب، وضمير النصب عائد على المطلقات قبل المسيس وقبل الفرض.

والحكمة في أمر المتعة: جبر إيحاش الطلاق، وتقديرها مفوض إلى رأي الحاكم، ويؤيده قوله:

* * *." (١)

"(١) الرجز لرؤبة، وهو في ديوانه (ص: ١٠٤). والبهق: بياض يعتري الجلد يخالف لونه، وليس من البرص، والبيت في وصف مفازة. (٢) في (ك) و (م) زيادة: "فيه". (٣) تنسب لقتادة. انظر: "الكشاف" (١/ ٣١٥). (٤) في النسخ: "وتوجدوا"، والمثبت من "تفسير البيضاوي" (١/ ١٦٠)، و"روح المعاني" (٣/ ٤٥٦). (٥) في (ح) و (د): "وشراب"، وفي (ف): "وشرابه". والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في "الكشاف" (١/ ٣١٥)، و"تفسير البيضاوي" (١/ ١٦٠).

الجزء: ٢ - الصفحة: ١٩٨

{الشيطان يعدكم الفقر} في الإنفاق، والوعد على الإطلاق يستعمل في الخير كالوعيد في الشر، ويستعمل في الشر أيضا إذا قيد بما به.

{ويامركم بالفحشاء} يغريكم على البخل ومنع الصدقات إغراء الآمر للمأمور، والفاحش عند العرب: البخيل.

{والله يعدكم} في الإنفاق {مغفرة} لذنوبكم، والضمير في {منه} لله تعالى.

{وفضلا} وأن يخلف عليكم أفضل مما أنفقتم في الدنيا، أو ثوابا في الآخرة.

{والله واسع} أي: واسع الفضل لمن أنفق {عليم} بإنفاقه.

* * *

---

(١) تفسير ابن كمال باشا ٢/٩٥

(٢٦٩) - {يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر إلا أولو الألباب}.

{يؤتي الحكمة} يوفق العلم والعمل به.

{من يشاء} مفعول أول أخر للاهتمام بالثاني.

{ومن يؤت الحكمة} بناه للمفعول لأنه المقصود، وقرئ بالكسر (١)؛ أي: ومن يؤته الله تعالى.

{فقد أوتي خيرا كثيرا} التنكير للتعظيم؛ كأنه قال: فقد أوتي (٢) أي خير كثير.

{وما يذكر}؛ أي: وما يتعظ بما ذكر من الآيات.

* * *". (١)

"{وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا}؛ أي: كما جعلنا لك عدوا جعلنا لكل نبي سبقك عدوا، والحكمة في ذلك الابتلاء والامتحان؛ ليظهر الثبات والصبر، وكثرة الثواب والأجر.

* * *

(١) في (ح) و (ف): "أوتوا"، والمثبت من (ك) و (م)، وهو الصواب لأن المراد الإتيان لا الإيتاء. (٢) "بالله": ليست في (ك). (٣) "على ما لا يشعرون" من (م) و (ك). (٤) في (ف): "العدة"، وفي (م): "الغيرة"، وفي (ك): "العرة"، والمثبت من (ح). (٥) في (م): "القسمية". (٦) جاءت العبارة في "لطائف الإشارات" (١/ ٤٩٥): "لأن الآيات وإن توالت، وشموس البرهان وإن تعالت، فمن قصمته العزة وكبسته القسمة لم يزده ذلك إلا حيرة وضلالا، ولم يستنجز إلا للشقوة حالا".

(١) تفسير ابن كمال باشا ٢/١٥٤

{شياطين الإنس والجن} متمردي الصنفين، بدل من {عدوا}، أو هما مفعولان و {عدوا} مفعوله الثاني (١)، و {لكل} متعلق به، أو حال منه.

{يوحي}: يلقي في خفية {وبعضهم إلى بعض}: شياطين الجن إلى شياطين الإنس، أو بعض أحد الصنفين إلى بعض آخر منه.

{زخرف القول}: مزينه ومموهه (٢) بالأباطيل.

{غرورا} حال؛ أي: غارين، أو: مغرورين، أو مفعول له للغرة (٣).

{ولو شاء ربك} حذف المفعول لدلالة: {ما فعلوه} عليه؛ أي: لو شاء ربك أن لا يفعلوا معاداة الأنبياء وإيحاء الزخارف - على أن الضمير لما ذكر (٤) - ما فعلوه، ولكن ما شاء مما (٥) اقتضته حكمته، ويجوز أن يكون الضمير للإيحاء.

وفي الآية دلالة على أن الشرور صدورها عنه تعالى بمشيئته.

{فذرهم وما يفترون}؛ أي: إذا عرفت أن ذلك بمشيئته تعالى، ومشيئته (٦) تابعة لحكمته، فاتركهم وكفرهم، وفيه تهديد ووعيد.

* * *." (١)

"{قد خسروا أنفسهم} في الدنيا بإبطال استعدادهم، فلا يجدي الرد على ما أفصح عنه في قوله: {ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه} [الأنعام: ٢٨] استئناف لبيان حالهم على وجه يتضمن الحكمة في عدم استجابتهم.

---

(١) تفسير ابن كمال باشا ٣/٢٣٥

{وضل}؛ أي: وغاب {عنهم} في الآخرة {ما كانوا يفترون}: ما كانوا يعبدون (٥) من آلهتهم.

* * *

* * *

(١) تنسب لابن أبي إسحاق. انظر: "المختصر في شواذ القراءات" (ص: ٤٤)، و "المحتسب" (١/ ٢٥١). (٢) "لنا" ليست في (ف). (٣) نسبت للحسن. انظر: "الكشاف" (٢/ ١٠٩). وعبارة: "وقرئ بنصب ونرد ورفع نعمل" ليست في (م). (٤) "بدون الرد أو للرد، وعلى ثانيهما تمني الشفيع للشفاعة" سقط من "ك". (٥) في (م): "يعبدونه".

الجزء: ٤ - الصفحة: ٦٥

(٥٤) - {إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يغشي الليل النهار يطلبه حثيثا والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين}.

{إن ربكم الله الذي}؛ أي: ليس ربكم وحافظكم ومدبركم ما عبدتموه من الأصنام والكواكب والملائكة والجن والإنس (١)، بل كل ذلك مربوب ومخلوق ومحتاج إلى مدبر وحافظ، بل ربكم وحافظكم الله (٢) الذي {خلق السماوات والأرض} وما بينهما على ما بينه في موضع آخر، جعل الخبر موصولا بناء على كون ذلك معهودا عند السامع، ومفروغا من تحقيق النسبة والعلم به.." (١)

"(٩٥) - {ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة حتى عفوا وقالوا قد مس آباءنا الضراء والسراء فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون}.

* * *

---

(١) تفسير ابن كمال باشا ٣٥١/٣

(١) في (ف): "إليهم". (٢) في (ف) و (م): "التي واللتيا".

الجزء: ٤ - الصفحة: ١٠٨

{ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة} لفظة {ثم} للدلالة على امتداد تلك الحالة، ويؤيده ما في عبارة المكان من الإشعار بالتمكن؛ أي: ثم أوردنا مكان الحالة السيئة الحالة الحسنة مبدلين إحداهما بالأخرى إكمالا لأمر الابتلاء، قال الله تعالى: {وبلوناهم بالحسنات والسيئات} [الأعراف: ١٦٨].

والحكمة فيه: أن النفوس الجافية الغليظة تنقهر وتنكسر بالبلاء والشدة، والنفوس اللطيفة تنقاد وتطيع بالسعة والنعمة.

{حتى عفوا}: كثروا عددا وعددا بالنمو في أنفسهم وأموالهم، من عفا النبات: إذا كثر، ومنه قوله : "وأعفوا اللحى" (١).

{وقالوا قد مس آباءنا الضراء والسراء} بطرا وأشرا بالنعمة، ونسيانا للنقمة، واعتقادا أن هذه عادة الدهر يضيق تارة ويوسع أخرى، ويتعاقب فيه المحنة والمنحة كما عليه حال آبائنا، فلم يروا ذلك ابتلاء من الله تعالى.

{فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون} لما لم يتنبهوا من غفلتهم بإحدى الحالتين فلم يبق إلا أن أخذناهم أشد الأخذ بالعذاب، وهو الأخذ فجأة من غير شعور لأنه أعظم حسرة.

* * *

(٩٦) - {ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون}.

{ولو أن أهل القرى} اللام للعهد والإشارة إلى القرى التي دل عليها {وما أرسلنا في قرية}.

* * *." (١)

"{والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقا} لما قسم المؤمنين ثلاثة أقسام بين أن القسمين الأولين المتواصلين هم الكاملون في الإيمان، الذين حققوا إيمانهم بتحصيل مقتضاه؛ من الهجرة والجهاد وبذل المال ونصرة الحق، وأثنى عليهم، ووعد لهم الموعد الكريم مخصوصا بهم وبمن لحقهم، حيث قال:

{لهم مغفرة ورزق كريم}؛ أي: مغفرة عظيمة ونوع من الرزق لا تبعة ولا منة فيه، والتخصيص مستفاد من تقديم الجار والمجرور.

والآية الأولى للأمر بالتواصل بينهم والموالاة، وهذه لبيان فضلهم، فلا تكرار.

* * *

* * *

(١) انظر: "المختصر في شواذ القراءات" (ص: ٥٠).

الجزء: ٤ - الصفحة: ٣٠٤

(٧٥) - {والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله إن الله بكل شيء عليم}.

---

(١) تفسير ابن كمال باشا ٣/٣٩٠

{والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم}: من جملتكم أيها المهاجرون والأنصار؛ أي: حكم اللاحقين بهم المتسمين بسمتهم حكم السابقين إلى الهجرة وكمال الإيمان والموعد؛ ترغيبا لهم وتكريما.

{وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض} في التوارث من الأجانب.

{في كتاب الله}: في حكمه، أو في اللوح المحفوظ، أو في القرآن، وهو آية المواريث، واستدل بها على توريث ذوي الأرحام.

{إن الله بكل شيء عليم} فيعلم الحكمة في التوريث بنسبة الإسلام والمظاهرة أولا، ثم بنسبة القرابة ثانيا.

* * *

الجزء: ٤ - الصفحة: ٣٠٥

سورة براءة (١) هي آخر ما نزل، ولها أسماء أخر منها سورة التوبة.." (١)

"وقرئ: (ولينذروا به) بفتح الياء (٢)، من نذر به: إذا علمه واستعد له.

{وليعلموا أنما هو إله واحد} بالنظر والتأمل فيما فيه من الآيات الدالة على التوحيد والمنبهة على ما يدل عليه.

{وليذكر أولو الألباب} فيرتدعوا عما يرديهم ويتدرعوا بما يحظيهم (٣).

* * *

---

(١) تفسير ابن كمال باشا ٥٩/٤

(١) "هذا"من (م). (٢) انظر: "المختصر في شواذ القراءات" (ص: ٧٠)، و"المحتسب" (١/ ٣٦٧).
(٣) في (م): "يحيطهم".

الجزء: ٥ - الصفحة: ٤٧٩

قيل: إن الفوائد الثلاث التي ذكرها لهذا البلاغ هي الغاية **والحكمة في** إنزال الكتب، وهي تكميل الرسل للناس، واستكمالهم القوة النظرية التي غايتها في إكمال (١) التوحيد، واستصلاح القوة العملية، الذي هو التدرع بلباس التقوى، جعلنا الله من الفائزين بها.

تم الكلام والحمد لله على التمام.

* * *

* * *

(1) في (ف) و (ك):" الكمال".

الجزء: ٥ - الصفحة: ٤٨٠

سورة الحجر

(١) - {الر تلك آيات الكتاب وقرآن مبين}.

{الر تلك آيات الكتاب وقرآن مبين} الإشارة إلى آيات السورة، والكتاب والقرآن: السورة. وهذا أبلغ على

ما قدمنا بيانه في تفسير (سورة يونس) (١).

واللام في {الكتاب} للماهية، والتنكير في (القرآن) للتفخيم؛ أي: {تلك آيات الكتاب} الكامل في كونه كتابا {وقرآن} أي قرآن {مبين} (٢) يبين الرشد من الغي بيانا عربيا، يعني: الجامع للكمال والغرابة في البيان والبلاغة.

ولما كان في التعريف نوع من الفخامة، وفي التنكير نوع آخر، وكان الغرض الجمع، عرف الكتاب ونكر القرآن هاهنا، وعكس في (سورة النمل)، وقدم المعرف في الموضعين لزيادة التنويه.

* * *

* * *." (١)

"{ولأجر الآخرة أكبر} مما يعجل لهم في الدنيا {لو كانوا يعلمون} الضمير للمهاجرين؛ أي: لو كانوا يعملون لزادوا في اجتهادهم وصبرهم، أو للكفار؛ أي: لو كانوا يعلمون أن الله تعالى يجمع لهؤلاء المهاجرين بخير الدارين لرغبوا في دينهم.

(٤٢) - {الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون}.

{الذين صبروا} على أذى الكفار ومفارقة الوطن، ومحله النصب أو الرفع على المدح.

{وعلى ربهم يتوكلون}: منقطعين إلى الله، ومفوضين إليه الأمر كله.

(٤٣) - {وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون}.

{وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم} رد لقول قريش: الله أعظم (١) من أن

---

(١) تفسير ابن كمال باشا ٥/١١١

* * *

(١) في (ف): "أعلى".

الجزء: ٦ - الصفحة: ٤٢

يكون رسوله بشرا؛ أي: جرت السنة الإلهية بأن لا يبعث للدعوة إلا بشرا يوحي إليه، والموحى لا يلزم أن يكون بواسطة الملك، فضلا عن أن يكون على لسانه، والحكمة في ذلك قد ذكرت في سورة الأنعام.

{فاسألوا أهل الذكر}: أهل الكتاب، أو علماء الأخبار ليعلموكم (١).

{إن كنتم لا تعلمون} جوابه محذوف دل عليه ما قبله، وفي الآية دليل على أنه تعالى لم يرسل ملكا ولا امرأة ولا صبيا للدعوة العامة، ولا ينافيه نبوة عيسى وهو في المهد؛ لأنها أخص من الرسالة (٢). وعلى وجوب المراجعة إلى العلماء فيما لا يعلم.

(٤٤) - {بالبينات والزبر وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون}.." [١]

"وقيل: بأمهاتهم، جمع أم، كخفاف في جمع خف، والحكمة في ذلك: إجلال عيسى ، وإظهار شرف الحسنين، وأن لا يفتضح [أولاد] الزنا (٢).

ويرده أيضا ما أشرنا إليه من كل أم ليست مما يشترك فيه (٣) جماعة من الإنس.

ثم إن ثالث ما ذكر من وجوه الحكمة مردود بما ذكر في الصحيحين من الحديث الدال على أن الناس يدعون في الآخرة بأسمائهم وأسماء آبائهم (٤).

---

(١) تفسير ابن كمال باشا ٥/١٨٨

* * *

(١) في (ف): "وأناس"، وسقطت من (ك). (٢) انظر: "الكشاف" (٢/ ٦٨٢)، و"تفسير البيضاوي" (٣/ ٢٦٢)، وما بين معكوفتين منهما. (٣) في (ك): "فيها"، وفي (م): "فيهما". (٤) يشير إلى ما رواه البخاري (٦١٧٧)، ومسلم (١٧٣٥)، من حديث ابن عمر ، ولفظ مسلم: "إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة يرفع لكل غادر لواء فيقال: هذه غدرة فلان بن فلان"، قال القرطبي: (فقوله: "هذه غدرة فلان ابن فلان" دليل على أن الناس يدعون في الآخرة بأسمائهم وأسماء آبائهم، وهذا يرد على من قال: إنما يدعون بأسماء أمهاتهم لأن في ذلك سترا على آبائهم). انظر: "تفسير القرطبي" (١٣/ ١٣١). قلت: وأوضح منه ما رواه الإمام أحمد في "المسند" (٢١٦٩٣)، وأبو داود (٤٩٤٨)، من حديث أبي الدرداء ، لكن إسناده ضعيف لانقطاعه، وقد تقدم في تفسير هذه السورة عند قوله تعالى: {يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده}.

الجزء: ٦ - الصفحة: ١٨٥

{فمن أوتي} من المدعوين {كتابه بيمينه}؛ أي: كتاب عمله.

{فأولئك} أورده جمعا على معنى (من)، وقد حمل على اللفظ أولا فأفرد في قوله: {كتابهم}، وفي قوله: {بيمينه}.." (١)

"فليقضها إذا ذكرها؛ فإن الله تعالى يقول: {وأقم الصلاة لذكري} " (١)، على حذف المضاف (٢)، أو على أن ذكر الصلاة ذكر الله تعالى (٣)، أو لأن الذكر والنسيان من الله تعالى في الحقيقة.

* * *

(١٥) - {إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى}.

---

(١) تفسير ابن كمال باشا ٥/٣٠٥

{إن الساعة آتية} يعني: إن القيامة كائنة (٤) لا محالة.

{أكاد أخفيها} قربه تعالى من إخفائها مجاز عما اقتضته **الحكمة من** الإخبار بوقوعها للإنذار وقطع الأعذار، مع كتمان وقتها ليكونوا على وجل في (٥) كل وقت، فإنه إظهار فيه نوع من الإخفاء.

ويجوز أن يكون من أخفاه: إذا أزال خفاه؛ أي: أكاد أظهرها، وقربه تعالى من إظهارها مجاز عن إظهار بعض أشراطها، كبعثة خاتم الأنبياء ، وانشقاق القمر، ويؤيده قراءة أبي الدرداء : (أخفيها) بالفتح (٦)، من خفاه: إذا أظهره.

* * *

(١) روى نحوه البخاري (٥٩٧)، ومسلم (٦٨٤)، من حديث أنس . (٢) في (م): "مضاف". (٣) في هامش (ف): "فيه رد لصاحب الكشاف حيث غفل عن تمام الحديث فلم يدر ما وجه أخذ التفسير المذكور فتمحل فيه. منه". (٤) في (ف) و (ك): "آتية". (٥) في (ف): "من". (٦) انظر: "المختصر في شواذ القراءات" (ص: ٨٧)، و"الكشاف" (٣/ ٥٦).

الجزء: ٦ - الصفحة: ٤٢٠

قيل: إنه من الأضداد، والحق ما روي عن أبي علي: أنه من باب السلب (١).

{لتجزى} متعلقة بـ {آتية}، وما بينهما اعتراض، أو بـ {أخفيها} على المعنى الأخير.

{كل نفس} يعني: من النفوس الساعية، بقرينة قوله: {بما تسعى} السعي كناية عن الكسب.

* * *

(١٦) - {فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى}.

{فلا يصدنك} الصد: الصرف○ عن الخير خاصة.." (١)

"قيل: الحكمة في هذا السؤال بسطه، فقد كانت الهيبة قبضته، ولو ترك على ما كان عليه لعله كان لا يبقى بل يتلاشى.

* * *

(١) في (س) (ك) و (م): "أو بعثه". (٢) بياض في (ف)، وسقط من (ك)، وفي (م): "بأن يحية"، والمثبت من (س).

الجزء: ٦ - الصفحة: ٤٢٢

ولما باسط الحق بسماع (١) كلامه، أخذته أريحية سماع الخطاب، فأجاب عما سئل، وسلك مسلك الإطناب.

{بيمينك} حال من {تلك}، والعامل فيها معنى الإشارة، كما في قوله: {وهذا بعلي شيخا} [هود: ٧٢]، وجاز أن يكون {تلك} اسما موصولا صلته {بيمينك}.

قيل: إنما لم يقل: (بيدك) لأنه كان في يساره خاتم، فلو أجمل بقي في الجواب الاشتباه (٢).

{ياموسى} تكرير لزيادة التنبيه والاستئناس.

* * *

---

(١) تفسير ابن كمال باشا ٤٩٤/٥

(١٨) - {قال هي عصاي أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي ولي فيها مآرب أ ُخرى}.

{قال هي عصاي} قرئ: (عصي) (٣)، على لغة هذيل.

{أتوكأ عليها}: أعتمد عليها إذا أعييت (٤) أو وقفت على رأس القطيع.

والتوكؤ على الشيء: التحامل عليه في المشي والعكوف، ومنه: الاتكاء، توكأت واتكأت بمعنى واحد.

* * *

(١) في (س): "سماع". (٢) في (س): "بيمين في الجواب للاشتباه"، وفي (م): "تعنى في الجواب للاشتباه". وانظر: "غرائب التفسير" للكرماني (٢/ ٧١٤)، وفيه: (لم يقل: بيدك، لاحتمال أن يكون في يساره خاتم أو شيء آخر، فكان يلتبس عليه الجواب). فقول المؤلف: "لأنه كان في يمينه خاتم" على الجزم بلا دليل من نقل، فيه نظر، فإن الاحتمال - كما في كلام الكرماني - هو الأنسب هنا. (٣) نسبت لابن أبي إسحاق. انظر: "المختصر في شواذ القراءات" (ص: ٨٧). (٤) في (ف) و (ك): "إذا عييت".

الجزء: ٦ - الصفحة: ٤٢٣." (١)

"{من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم}: صنف كثير المنفعة، استدل بما ذكر من الأشياء الدالة على كمال قدرته وحكمته على ألوهيته وتوحيده واستحقاقه للعبودية، ثم بكتهم (٢) بقوله:

(١١) - {هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه بل الظالمون في ضلال مبين}.

{هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه}؛ أي: ماذا خلقته آلهتكم حتى استوجبوا عندكم العبادة؟! فـ {ماذا} نصب بـ {خلق}، أو {ما} مرتفع بالابتداء، وخبره {ذا} بصلته، و {أروني} معلق عنه.

---

(١) تفسير ابن كمال باشا ٤٩٦/٥

ثم أضرب (٣) عن تبكيتهم والتهكم بهم إلى التسجيل عليهم بالظلم والتورط في ضلال ليس بعده ضلال فقال:

(١١) - {بل الظالمون في ضلال مبين}.

{بل الظالمون في ضلال مبين} ووضع الظاهر موضع الضمير للدلالة على أنهم ظالمون بإشراكهم.

* * *

(١) في (ك): "موضوع". (٢) في (ف): "ثم نكبهم". (٣) في (ك): "أعرض".

الجزء: ٨ - الصفحة: ١٦٦

(١٢) - {ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن الله غني حميد}.

{ولقد آتينا لقمان الحكمة} الجمهور على أنه كان حكيما ولم يكن نبيا.

والحكمة: هي الكمال العلمي مع العملي؛ أي: العلم بحقائق الأشياء على ما هي عليه، والملكة التامة على الأفعال الفاضلة.

{أن اشكر لله} {أن} هي المفسرة؛ لأن إيتاء **الحكمة في** معنى القول، وإنما فسر الله الحكمة بالشكر تنبيها على أن الحكمة المعتد بها هي المقتضية للعمل الصالح والشكر لله تعالى والعبادة.." (١)

---

(١) تفسير ابن كمال باشا ٧/٩٥